الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 101 - June 2007

مجلة شهرية . العدد المائة وواحد . السنة التاسعة . يونية ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

نيكولا ساركوزي.. مشاهد الحرب والحب



- **على ضفاف «نهر البارد»**
أيمن الصياد

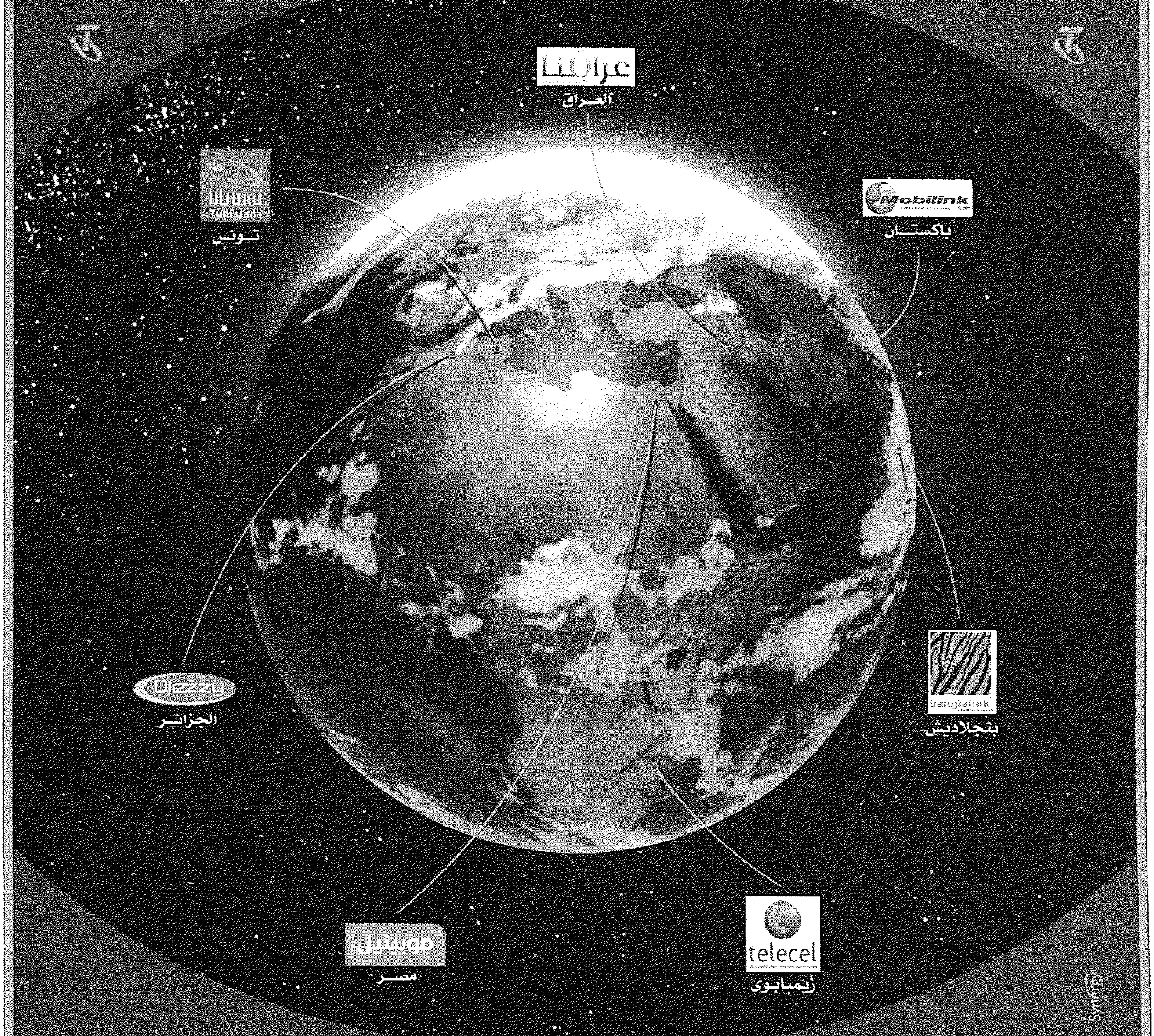
- **طارق رمضان.. هل هو «مارتن لوثر»؟!**
جوناثان لورانس

- **امرأة على الهامش**
شوقى عقل وخليل فاضل وسمر يزبك

- **الحالة المصرية**
تقرير الإيكونوميست و رشيد محمد رشيد

- **الإسلام .. مساءلة شعار**
جابر عصفور

- **المسافرخانة**
جمال الغيطانى



حول وجه الكرة الأرضية تختلف الوجوه والانطباعات والأحاسيس ونسعى جاهدين لنجعل جميع الأفراد في مختلف الدول متواصلين لأنهم يستحقون أن نسمعهم ويسمعوننا ويسمعون بعضهم البعض ويستحقون منا أن نجعل هذا التواصل متواجد دائما.

أوراسكوم تيلكوم تفكر .. تخطط .. وتعمل ليل نهار لتجعل هذا التواصل دائما موجود ومستمر. بناء شبكات الاتصالات هو ما تقدمه أوراسكوم تيلكوم في سبع دول : الجزائر (جازى) و مصر (موبينيل) و باكستان (موبيلينك) والعراق (عراقنا) وبنجلاديش (بنجلالينك) وتونس (تونيزيانا) وزيمبابوى (تليسيل زيمبابوى).

أوراسكوم تيلكوم دائما تبحث عن التطور المستمر في عمليات الـ GSM لتوفر أقصى مستويات الجودة في عالم الاتصالات وتقديم أحدث تكنولوجيا الاتصالات. خدمات أوراسكوم تيلكوم تغطي ٥٠ مليون مشترك وتجعلهم متواصلين مع بعضهم البعض وتجعلهم يتحدثون عن أمانيهم و مخاوفهم و طموحاتهم المختلفة ومن خلال الشركة الأم Weather Investments استطعنا أن نحقق التواصل بين أكثر من ١٥ مليون مشترك في إيطاليا فقط.

أوراسكوم تيلكوم يعمل بها أكثر من ٢٠ الف موظف يعملون يوميا ليتأكدوا أن العالم متواصل مع بعضهم البعض ويسمع كل منهم الأخر ونعدكم بأننا لن ندخر أي جهد ليحظى العالم أجمع بأفضل خدمات فى عالم الاتصالات.

نعطــــى العالـــــم صوتــــــا

أوراسكوم
تيلكوم

السنة التاسعة
العدد المائة وواحد
يونية ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أيمن الصياد .. صحفى.
- جابر عصفور.. أستاذ بجامعة القاهرة.
- جمال الغيطانى.. أديب مصرى.
- جوناثان لورانس.. أستاذ العلوم السياسية المساعد فى كلية بوسطن وباحث فى معهد بروكنجز.
- خليل فاضل.. باحث وكاتب . طبيب نفسى من مصر.
- داليا توفيق سعودى.. مدرس اللغويات الفرنسية والترجمة بكلية الألسن
- رشيد محمد رشيد.. وزير التجارة والصناعة.
- سحر صبحى عبدالحكيم.. أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة القاهرة.
- سمر يزبك.. أديبة سورية.
- شوقى عقل .. مهندس إنشائى.
- عبد الوهاب المسيرى.. أستاذ الأدب الإنجليزى غير المتفرغ بجامعة عين شمس.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- معتز بالله عبد الفتاح.. أستاذ العلوم السياسية المساعد بكلية الاقتصاد - جامعة القاهرة

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - Petar Pismestrovic

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهمًا - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

قراءة

على ضفاف

▪▪ أيا ماكانت الأصابعُ المختفية على شاطئ غزة، أو تلك المنغمسة في «نهر البارد».

وسواء كانت تستكملُ مسلسل زرع «ألغام الفتنة» تحت كل شبر في هذه المنطقة. أو تعكسُ مابات واقعا من خلط بين العقيدة «في شباتها» والسياسة «في تغيرها» والسلاح «في جموحه». أو كانت تبحث عن دور بدا أنه تاه تحت ركام الانفجارات، ووسط تعقيدات التحالفات.. والمتغيرات.

ومهما كان قصدُ المذكِّرين و«الملحين» بأن شرارة الحرب الأهلية ـ التي يقف لبنان دائما على أبوابها ـ تأتي بها الرياح عادة «إقليمية أو دولية» من أزقة «المخيمات» الفلسطينية المزدحمة بالقهر والفقر .. والسياسة.

وأيا ماكان الثمن الذي يدفعه هؤلاء أو أولئك «الجيران» الطيبون» الذين لا ناقة لهم ـ ربما ـ ولا جمل.

تبقى ـ وإن نسينا أو تجاهلنا ـ في خلفية المشهد دائما قصة «المخيمات» .. وساكنيها؛ الذين هم، مهما يكن أمر السياسة أو الحرب، «بشرٌ» من لحم ودم.. لهم آباء وأبناء، وأحلام وآمال.. وذكريات. وأن هذه المخيمات كانت بالتعريف «بديلا مؤقتا». إلا أن هذا «المؤقت» طال ليأكل من عمر «البشر» ستين عاما كاملة، لتبقى ـ وإن ازدحمت روزنامتها بواقعات الميلاد والموت ـ فراغات في الجغرافيا ولكنها ـ لولا الأمل ـ بلا أفق في التاريخ.

قبل أيام فقط من التهاب «نهر البارد» كنت أشاهد ـ على الهواء مباشرة ـ جلسة استماع «مطولة» خصصها الكونجرس الأمريكي لموضوع كان عنوانه على الشاشة لافتًا: «قضية اللاجئين اليهود والفلسطينيين».

في الأسبوع ذاته، وفي مدينة «البتراء» الأردنية، وأمام حشد من النوبليين الحالمين بالسلام، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي ايهود أولمرت يكرر دعوته إلى القادة العرب الاثنين والعشرين للحضور إلى القدس لعرض مبادرتهم على الإسرائيليين مذكِّرًا بالثوابت الإسرائيلية: «حل قضية اللاجئين الفلسطينيين لن يكون أبدا ـ بالعودة ـ إلى إسرائيل».

قد لايكون ثمة من رابط «اتفاقي» بين تصريح أولمرت «شرق الأردن» وبين جلسة الاستماع الأمريكية، ولكنها ـ أيضا ـ في أجواء مبادرة تمهدُ لرسم خريطة طريق حل «نهائي»، ليست أبدا «مصادفة التوقيت». فقضية اللاجئين المزمنة تبقى إحدى أهم القضايا ـ إن لم تكن أهمها على الإطلاق ـ التي تقف أمام المشروع الأمريكي/الإسرائيلي لإنهاء أزمة الشرق الأوسط «بالطريقة التي يريدون»، كما أنها بحكم عوامل ضاغطة مفهومة (حتى على أصحاب الحقوق أنفسهم) تبقى المسألة المؤهلة لجر الأقدام المتعَبة خطوة أولى على طريق تنازلات قد لاينتبه الكثيرون ـ غافلين أو عامدين ـ إلى مداه.

نعرف جميعا ـ وإن أنسانا تعبُ الأيام وطمعُ المصالح ـ كيف بدأت قصة «المخيمات» التراجيدية الطويلة. ورغم أن الدراسات الموثقة لنور مصالحة ووليد الخالدي وسلمان أبو سته قد يكون فيها الكفاية، إلا أنني قد أنصح البعض هنا ـ منعا لتشكيك أو اتهام بالتحيز ـ أن يرجعوا إلى كتابات مؤرخين إسرائيليين مثل Benny Morris و Tom Segev و Norman Finkelstein أو حتى Meron Benvenisti الذي عمل ـ فعليا ـ في جهاز الاحتلال الإسرائيلي وكان نائبا لرئيس بلدية القدس. وخاصة الكتاب الأخير لأستاذ التاريخ والعلوم السياسية بجامعة حيفا Ilan Pappe الذي حمل عنوانا واضحا The Ethnic Cleansing of Palestine وهو الكتاب الذي أثار عليه عاصفة دفعته قبل أيام فقط إلى قرار بمغادرة إسرائيل ليقيم في بريطانيا ليتمكن من مواصلة كتابة تاريخ بلاده في «مؤسسة أكاديمية أكثر انفتاحا ونزاهة» مشيرا إلى أن «المجتمع الإسرائيلي مجتمع عنصري وانعزالي وعاجز عن فهم تاريخه وعن الاعتراف بجرائمه..».

ذكرتني وقائع جلسة الاستماع الأمريكية، وكان أحد المتحدثين أمامها شبل تلحمي الأستاذ بجامعة ميريلاند، بتقرير ديموجرافي يفيد بأن عدد السكان الفلسطينيين في فلسطين التاريخية في نهاية عام ٢٠٠٣ بلغ أربعة ملايين و٦٠٠ ألف، منهم ٣.٧ مليون في الضفة والقطاع و٩٠٠ ألف داخل ما يسمى الخط الأخضر (فلسطينيو ٤٨) بينما عدد اليهود هو ٥ ملايين و١٠٠ ألف. وأن عدد الفلسطينيين في عام ٢٠٠٥ وصل إلى ٥.١ مليون فلسطيني مقابل ٥.٣ مليون يهودي، أما بحلول عام ٢٠١٠ فمن المتوقع أن يصبحَ الفلسطينيون أغلبية (٦.٢ مليون في مقابل ٥.٢ مليون يهودي) وهو المعدل الذي يعني استمراره أن يصل عدد الفلسطينيين في عام ٢٠٢٠ إلى ٨.٢ مليون مقابل ٦.٤ مليون يهودي.

ويحكي تاريخ اليهود القريب كم كان مسكونا دائما بالديموجرافيا. ويحكي كيف شغل هاجس «المسألة الفلسطينية» فكر الصهيونية منذ نشأت قبل قرن من الزمان، بالضبط كما شغلت «المسألة اليهودية» ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية. ومع التسليم باختلافات في السياق والدوافع، إلا أن المذابح والطرد والترحيل القسري ظلت الأساليب الأقرب، أو الأسهل، أو التي لامفر من اللجوء إليها (!)

«نريد فلسطيننا بدون عرب .. أرضا بلا شعب» هكذا كان مبدأ لجنة الترانسفير في الأربعينيات. وأيامها أوضح زئيف جابوتنسكي (في نوفمبر ١٩٣٩): «ليس هناك خيار.. يجب أن يخلي العربُ المكان لليهود..».

في عام ١٩٤٧ كما نعلم جميعاً صدر قرار التقسيم الشهير عن الأمم المتحدة. وبغض النظر عن تفاصيل كثيرة، بعضها للأسف نسيناه، كان معنى القرار «ديموجرافيا» أننا أمام دولتين: دولة يهودية على ٥٤٪ من مساحة فلسطين، لمن يملكون ٥٪ فقط منها، ونصف سكانها عرب، ودولة عربية على مساحة ٤٦٪ لمن يملكون ٩٥٪

ويحكي لنا المؤرخون الإسرائيليون (انظر القائمة أعلاه) كيف كان على قادة الدولة الناشئة تصحيح الخلل الديموجرافي. بالاعتماد الرسمي لسياسة «الترويع» التي كانت قد بدأت فعلاً في ظل صمت أو تواطؤ من سلطات الانتداب البريطانية. وعرفت القرى الفلسطينية «البسيطة» المذابح المنظمة المتوالية التي تولت مسؤوليتها في ذلك الوقت المنظمات العسكرية التي أنشأها وقادها مناحيم بيجين وإسحاق شامير.

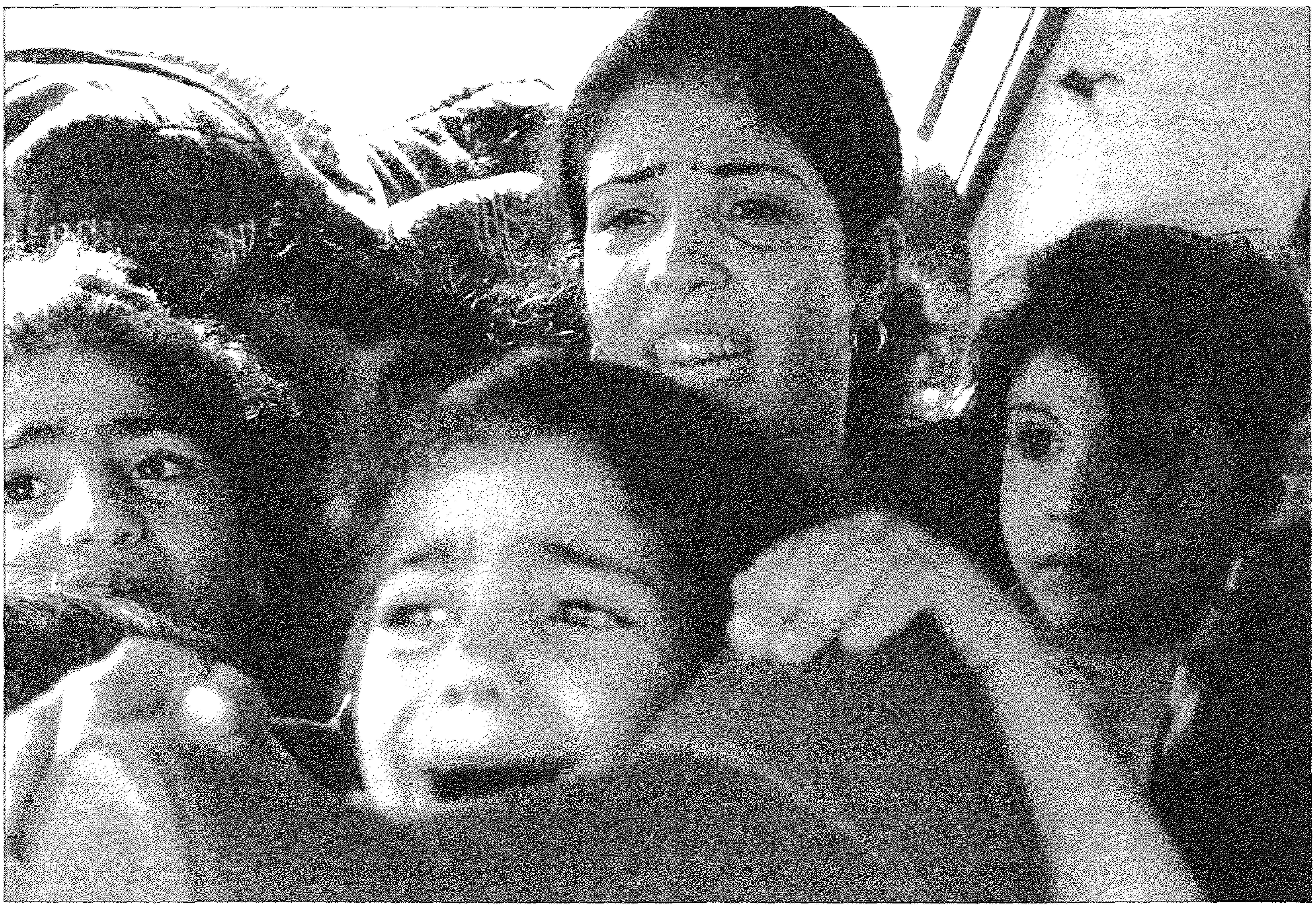
لم تكن حرب ١٩٤٨ قد بدأت بعد، وهي الحرب التي يُلقي الإسرائيليون عليها مسؤولية نشأة مشكلة اللاجئين، حين أخذت خطة «دالت» الصهيونية طريقها للتطبيق (نشرها وليد الخالدي، وفصلها بنفنيستي في كتابه The Buried History of the Holy Land) وتقضي الخطة التي وضعها بن جوريون بأن يقوم جيش من الصهاينة يصل عدده إلى ٦٥ ألفا من الجنود المدربين، بتدمير المجتمع العربي في فلسطين، بحيث تبقى لليهود «أرضا بلا شعب» مع الإبقاء على القوات في القرى المحتلة لمنع أية محاولات لعودة أهلها إليها.

وفي كتابه يحكي بنفنيستي (المؤرخ الإسرائيلي لا غيره) كيف جرت مذبحة دير ياسين على بعد خمسة كيلومترات فقط من مكتب المندوب السامي البريطاني. وكيف شهد بعينيه عندما عُرض الناجون من المذبحة بملابسهم الرثة وحالهم البائسة في شاحنات تطوف بشوارع القدس الغربية ليتفرج عليهم اليهود ويشتموهم ويحقروهم ويبصقوا عليهم، في مشهد من أفظع مشاهد بربرية العصور الوسطى. كما يصفه سلمان أبو سته الذي ناقش ماكتبه بنفنيستي تفصيلاً في «وجهات نظر» قبل سنوات آخذا عليه تجاهله لما فعله رابين في اللد والرملة بعد احتلالهما؛ حين أخرج سكانهما في قافلة من ستين ألفا في عز الصيف اللاهب (رمضان/يوليو ١٩٤٨) ومن يتوقف لشرب ماء يُطلق عليه الرصاص. ولكم أن تتصوروا «المشهد» الذي حُفر في التاريخ «فلسطينياً» بامتياز: تساقط المتاع على جانبي الطريق، ثم تساقط الأطفال ثم الشيوخ... كم مرة خرجت قوافل الفلسطينيين على مدى الستين عاما.. «لاجئين إلى المخيم.. ولاجئين من المخيم».

هل ابتعدت بنا رواياتُ التاريخ، وأتربة الوثائق والأوراق القديمة عن رائحة الدماء البريئة الطازجة (لبنانية أو فلسطينية) في «نهر البارد»..؟

«نهر البارد»

أيمن الصياد



فلسطينيات مع أطفالهن ضمن قافلة الهروب من مخيم: «نهر البارد» (رويترز)

قبل ستة أعوام كاملة كان محمد حسنين هيكل يكتب لهذه المجلة - على حلقات - قراءته المتعمقة للوثائق الإسرائيلية. ثم كان أن اندلعت انتفاضة الأقصى، وتداعت الأحداث متلاحقة ومتسارعة. وبدا - حسب وصفه - «أن أجواء المنطقة قد دهمها وهجُ حريق حاول بعضُهم إطفاءه بخراطيم دم. ثم جرب غيرهم إنقاذ عواقبه بمؤتمرات «إسعاف» هرولت على عجل. تجربُ طباً ينقصه العلم وتنقصهُ الوسائل، وفي بعض الأحيان تنقصهُ الإرادة»

وأذكر انني وقتها (أكتوبر ٢٠٠٠) كنت قد سألته إذا كان ينوي الكتابة عما يجري من صدام بين «الحقوق» و«الحقائق»..؟ وكان ضمن رده يومها، والذي سجله في ملاحظة على هامش مقاله: «إن قراءة الوثائق، وضمنها الوثائق الإسرائيلية تظل في تقديري - إذا توافرت لها الشروط - أكثر اتصالاً بالحقيقة مما يجري الآن على مسرح الحوادث. ومعظمه تداعيات لأسباب نسيناها أو آثرنا أن ننساها. وظني - والكلام مازال للأستاذ - أن قراءة الوثائق هذه اللحظة عودة إلى أصول الصراع أعتبرها الآن لازمة. فالفروع فيما أخشى ألهتنا عن الجذور، وخليط الأصوات والألوان وتضارب الصور أنسانا جميعاً أن هناك أسساً وقواعدَ محددة وحاكمة. وأن العودة إلى هذه الأسس والقواعد مطلوبة. والوعي بها حيوي، وإلا تواضع المعنى وتنازلت القيمة...».

أتذكر «ملاحظة الأستاذ» عن أهمية العودة إلى الأصول والأسباب، وأنا أشاهد صور قوافل الهاربين من «جحيم نهر البارد».. وطوابير المشيعين يوميا في غزة.

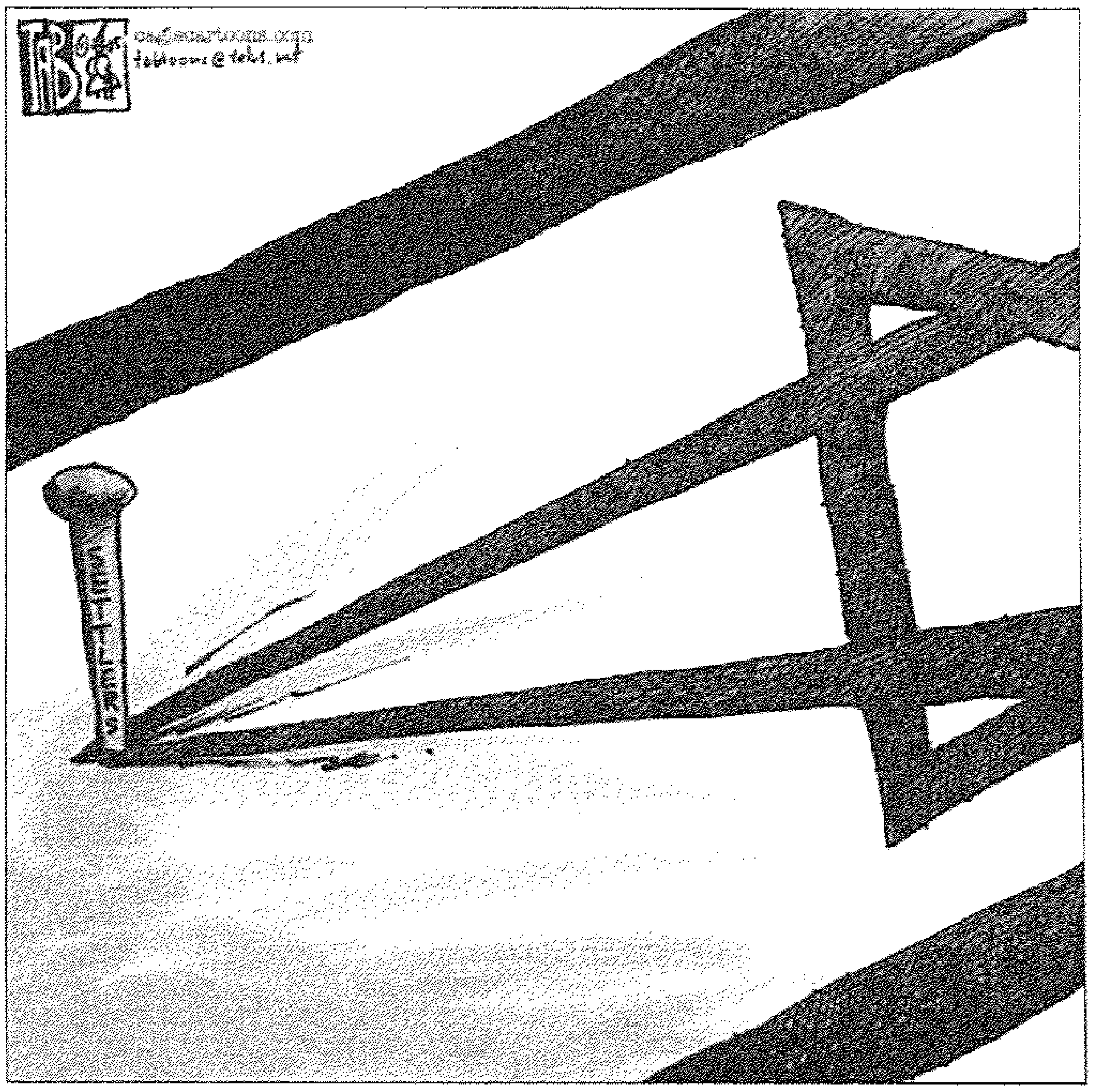
وأتذكر الحكايات القديمة الموجعة «المقبورة» تفاصيلها بين صفحات الكتب، والمدفونة ذكرياتها في صدور أجيال أتعبتها الأوهام والسنون، وضيعتها «خرائط الطرق». والتي - رغم أنها أصل كل ماجرى - بدا للأسف أنها بعيدة عن حسابات أولئك الساسة المنصتين باهتمام في جلسات الاستماع الأمريكية. ونرجو ألا تكون بعيدة أيضاً عن «عقلانية» أولئك المتأهبين للجلوس على طاولة مفاوضات؛ يراد لها أن تلتئم على عجل «لتقر» حلاً ينهي للأبد كل حق في المطالبة بحقٍ ثابت أو أرض ضاعت.

هل بعيدٌ كل ذلك عما كشف عنه أخيرا «أليستر كروك» رجل الاستخبارات البريطانية السابق المَعني بملف الشرق الأوسط من تفاصيل دقيقة لخطة «اليوت ابرامز» نائب مستشار الأمن القومي الأمريكي التي خصص لها ٨٦ مليون دولار أمريكي، وتفاهم فيها مع أطراف محلية. وهي الخطة التي تستهدف إقصاء حماس، التي أصبحت «بعد أن ذهب عرفات» العقبة الباقية على الطريق؟

رغم كل شيء، قد لا يستطيع أحدُنا أن يثبتَ بالدليل القاطع أو أن يعرفَ على وجه اليقين لونَ الأصابع المختفية في رمال غزة أو في نهر البارد. ولكن يبقى الثابت أن هناك بشراً يدفعون الثمن.

أرجوكم لا تهتموا فقط بقراءة مابين السطور. اقرأوا التاريخ.. وأيضا اقرأوا الصور. ■

مشروع "فاقد قداسة"



مازن النجار

■ مؤلف هذا الكتاب، لورينزو فيراتشيني، أكاديمي أسترالي، وباحث في مرحلة ما بعد الدكتوراة بجامعة كانبرا الوطنية. ويبدو من الاطلاع على أعماله الأخرى أن اهتماماته لا تقتصر على الاستيطان الصهيوني، بل تتعداه لتشمل مختلف تجارب الاستيطان الأوروبي في وطنه أستراليا، وغيرها من الأصقاع التي شهدت مشروعات استيطانية تراوحت بين الإخفاق والاستمرار.

تنطلق رؤية لورينزو فيراتشيني لطبيعة وبنية ومسار المشروع الاستيطاني الصهيوني من فكرة أساسية مؤداها أن الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين ليس فريدا أو متميزا بذاته، مهما كانت الانطباعات والتضمينات التي تجترحها وسائط الإعلام ومصادر الأخبار في الغرب. يجادل فيراتشيني بأن أفضل طريقة لفهم هذا الصراع هي في إطار وسياق الاستعمار والاستيطان الأوروبي خارج القارة الأوروبية.

وشأن كثير من المجتمعات الأوروبية خارج أوروبا، تظل إسرائيل مجتمعاً استيطانياً بامتياز. ولدى النظر برؤية تفصيلية متفحصة إلى نشوء وتطور المنظومات والمشروعات الاستيطانية الأخرى، كنظام الفصل العنصري بجنوب أفريقيا، والاستيطان الفرنسي بالجزائر، والاستيطان الأسترالي الراهن، يقدم فيراتشيني تفسيراً معمقاً لمختلف حركيات وآليات وسمات الاستيطان الاستعماري، ما يتيح إطارا تفسيريا واضحا يمكن من خلاله فهم وتفسير صراع الشرق الأوسط.

يتحدى فيراتشيني أسطورتين هامتين من الأساطير المؤسسة للكيان الصهيوني، ويرتكز عليهما المشروع الاستيطاني. أولاهما، إن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني هو حالة فريدة في العلاقات الدولية؛ تستعصى على المقاربات والمقارنات التي تفسر مختلف أشكال وحالات الصراع. ثانيهما، أن مرتكزات الصراع الأساسية هي القومية والدين، وبالتالي فهو صراع مختلف عن صراعات وحروب التحرر الوطني التقليدية الناجمة عن الاستعمار.

تطوير النموذج التفسيري

يقارب المؤلف هذا الصراع باستخدام الإطار أو النموذج التفسيري الكولونيالي إضافة إلى عدد من حالات «الاختبار» أو الضبط والمقارنة؛ وهي طريقة علمية شائعة الاستخدام ومعتمدة تماماً في العلوم الطبيعية والتطبيقية. وبشكل خاص، طور هذا النموذج مفهوماً حول أن الأحوال الراهنة في فلسطين وإسرائيل قد آلت إلى ما هي عليه بحكم أوضاع كولونيالية ونظام استعماري استيطاني قائم على علاقات مؤسسية وشخصية. يمكن تعريف الأوضاع الكولونيالية بشكل عريض بالجمع بين عنصرين تضمنهما التمييز التحليلي الكلاسيكي لديفيد فيلدهاوس بين «colonization» (إقامة المستعمرات أو المستوطنات وانزال المستوطنين بها) وبين «colonialism» (نزعة دولة إلى استعمار بلاد أخرى أو الاحتفاظ بالسيطرة عليها). وكان فيلدهاوس قد عرف «colonization» باعتباره إعادة إنتاج ناجحة للمجتمع الأوروبي في سياق استعماري/استيطاني، وهو حراك ذو ارتباط واضح بالمجاز الكامن في أصل وتاريخ وصيرورة المصطلح. أما تعبير «colonialism» فهو بدوره يُفهم باعتباره فرضاً ناجحاً للسيطرة السياسية والاقتصادية على إقليم مستعمَر.

وعلى خلاف ذلك، فإن تعريفاً للمجتمع الاستيطاني قابلاً للتطبيق، يمكن أن ينطلق من الوصف الجامع لأنتوني سميث (١٩٨٦) للدولة الاستيطانية والذي يركز على سردية تقدمية حول اقتلاع السكان الأصليين بعد تضمين أو صهر متعدد الثقافات. بيد أن كتاب «إسرائيل والمجتمع الاستيطاني» يجادل بأن الخبرة التاريخية لتطور المشروع الصهيوني في فلسطين تتطابق مع كلا التعريفين السابقين.

ينوه المؤلف أن هذا المفهوم الذي طوره لم يأت بجديد تماماً، وأن الطبيعة الكولونيالية للصهيونية كمشروع تاريخي قد وردت مراراً وتكراراً في الكتابات الإسرائيلية مثل كتاب باروخ كيمبرلنغ «الصهيونية والأرض»؛ وكتاب جيرشون شافير «الأرض والعمال وأصول الصراع الإسرائيلي الفلسطيني»، والذي يعتبر الصهيونية صورة من «التوسع الأوروبي عبر البحار في إقليم من التخوم»، وهو نموذج يتأصل ويتأطر

Israel and Settler Society
(إسرائيل والمجتمع الاستيطاني)
Lorenzo Veracini
London: Pluto Press, 2006

قراءة الحرب الفرنسية على الجزائر والطرق التى أثرت بها على عملية انتقال الدولة الفرنسية إلى الجمهورية الخامسة يمكن أن تلقى ضوءاً على المواجهات الراهنة فى الضفة الغربية وغزة، وعلى المآزق المؤسسية والمجادلات الراهنة فى إسرائيل

حوله الصراع، ويميل إلى التقليل من أهمية الأصل أو السلالة الكولونيالية وظاهرة المواجهة الراهنة بإبراز ملامحها الدينية والقومية. ونتيجة لذلك، لم تتم على الأغلب دراسة البعد الكولونيالى الراهن للصراع بالتفصيل اللازم.

بيد أن كثيراً من المساهمات البحثية قد أشارت إلى حقيقة أن الصهيونية التاريخية هى فى الأساس مشروع كولونيالى، لكنه ذو طبيعة فريدة. ومرة أخرى، لا يستطيع فيراتشينى كمؤرخ مقارن للكولونيالية أن يتذكر تأريخاً كولونيالياً لا يشدد على الفرادة العنيدة لتلك الخبرة الكولونيالية التاريخية. وكانت بعض المناظرات حول موجة التأريخ الإسرائيلية الجديدة فى التسعينيات الماضية قد تضمنت مناقشة للعناصر الكولونيالية فى الاستيطان الصهيونى. وكان كيمبرلنغ قد نادى بمنهج مقارن يتناول تحليلاً لعملية الاستيطان الأوروبى فى أمريكا الشمالية والجنوبية، وجنوب أفريقيا، والجزائر، وأستراليا، ونيوزيلندا من أجل «التعامل مع إرث إسرائيل الكولونيالى؛ وهو إلماع أو تلميح يمس فى حد ذاته بأحد المحرمات لدى المجتمع الإسرائيلى والتأريخ الإسرائيلى. كذلك، أقرت أنيتا شابيرا بأن «تعريف حركة باعتبارها استيطان أو كولونيالية قد يساعد جداً على توضيح العلاقات بين الأمة المستوطنة والأمة الأصلية. لكن هذه النداءات والاعترافات لم تتم متابعتها بشكل كاف.

وحتى عندما يتم البوح أو التصريح بالأصول الكولونيالية للصراع على فلسطين، لم يبادر أحد باستكشاف أو تأصيل الحركيات التى أدت إلى تحويل أو تصوير السياق الكولونيالى التقليدى للصراع إلى صراع لا حل له بين قوميتين متضادتين. وحتى إذا ما ذكر البعد الكولونيالى الراهن للصراع، فإنه نادراً ما تتم متابعته أو تأصيله بحثياً. والأمر ذاته يمكن أن يقال فيما يتعلق بالمنهج المقارن، فكثيراً ما تتم مقاربته، ولكنه نادراً ما يكون موضوعاً لأبحاث أكثر عمقاً.

مقارنة المشروعات الاستيطانية

يتكون الكتاب من خمسة أجزاء: مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. والكتاب مزود أيضاً بهوامش وببيبليوغرافية وافية وفهرست بالأعلام والموضوعات.

يقارن المؤلف فى المقدمة بين نمط الاستيطان والأوضاع الكولونيالية فى فلسطين وبين نظائرها فى ثلاثة أماكن أخرى شهدت تجارب تمدد استيطانى فى أستراليا وجنوب أفريقيا والجزائر، وذلك باعتبار ومعالجة عدد من الموضوعات أو المعايير هى: الفصل بين المستوطنين والسكان الأصليين، تقييد حراكهم، اعتماد التصنيف العنصرى، التأريخ، السرديات والخطابات حول المقاومة وقمعها.

ورغم أن الكتاب يركز بالأساس على إسرائيل كمجتمع استيطانى، وذلك بإبراز أوضاعها الكولونيالية، إلا أنه فى التحليل النهائى يقدم استجابته لما أصبح حاجة ملحة تتعلق بتفسير الموقف والفعل الفلسطينى. فهناك عجز وإخفاق متكرر ومتخندق فى ما يعتبر تحليلات كامنة وغنية معلوماتياً حول الصراع الإسرائيلى الفلسطينى لتقييم الدوافع والأسباب التى تشكل بعض اختيارات المقاومة الفلسطينية. يجادل فيراتشينى بأن التجاهل المتعمد والممنهج للسمات الكولونيالية المحضرة أو الكامنة وراء الكفاح الفلسطينى تساهم بوضوح فى إساءة تفسير هذا الكفاح. وإضافة إلى شكوك متعددة حول صحة فرضيات هذا التجاهل، يبدو أن الجانب الأكثر إدهاشاً فيه هو إخفاقه فى اكتشاف الدوافع العقلانية التى تشكل الأفعال الفلسطينية. وهنا يمكن للتفكير الكلاسيكى حول طبيعة الأوضاع الكولونيالية أن يساعد على فهم الموقف.

يلفت المؤلف إلى أن نظام الفصل العنصرى (أبارتهيد) قد أصبح مسألة يشار إليها بالبنان وباستمرار، ضمن سياقات متعددة بالسنوات الأخيرة، لدى تحليل تطورات الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. فالمؤتمر العالمى المناهض للعنصرية والمنعقد فى دربان بجنوب أفريقيا (٢٠٠١)، ومحكمة العدل الدولية بلاهاى (٢٠٠٤)، ساحتان هامتان لذلك ضمن عملية مراجعة شاملة. كذلك، طور قسم من الحركة الوطنية الفلسطينية استراتيجية تهدف إلى عزل إسرائيل دولياً على أساس نظامها العنصرى.

من ناحية أخرى، فإن وعياً ذا دلالة متنامية بهذه القضية، قد ورد مثلاً فى تقرير تداولته وزارة الخارجية الإسرائيلية فى أغسطس/آب ٢٠٠٤. وكانت هذه الوثيقة التى أعدها مركز الأبحاث السياسية قد حذرت من أن موقف الدولة الإسرائيلية قد يتدهور وينتهى إلى ما آل إليه وضع جنوب أفريقيا فى زمن نظام الفصل العنصرى. لقد دخل إذن مفهوم نظام الفصل العنصرى الضمير الجمعى الإسرائيلى، ووضع على الأجندة السياسية.

يناقش الفصل الثانى، «جغرافية الفصل الأحادى»، القمع الإسرائيلى للمقاومات الفلسطينية. ويقدم تقييما للإشارات المتواترة إلى نظام فصل عنصرى (أبارتهيد) يمثله الاستيطان الإسرائيلى فى فلسطين، وتقييما لممارسات الطرد والإقصاء (الإسرائيلى) من خلال المقارنة بسياسات جنوب أفريقيا فى عهد الفصل العنصرى. يتناول هذا الفصل أنظمة الفصل العنصرى الإسرائيلية، ويقارن بين مشروعات الاستيطان الاستعمارى، وعملية تحويل الفضاء الفلسطينى على نسق بانتوستان بجنوب أفريقيا، أى كانتونات معزولة، ويحلل تقييد حراك الفلسطينيين بناء على الانتماء العرقى.

كانت ١٩٤٨ سنة حاسمة بالنسبة للتاريخ الكولونيالى فى كل من فلسطين وجنوب أفريقيا. وبينما أظهر المشروع الكولونيالى الذى تأسس بعد الانتصار الإسرائيلى فى حرب «الاستقلال» أو النكبة الفلسطينية فروقاً هامة مقارنة بالأوضاع الكولونيالية التى تأسست بجنوب أفريقيا بعد الانتصار الانتخابى لحزب جنوب أفريقيا القومى (العنصرى) فى نفس السنة. فإن الأوضاع الكولونيالية فى كلتا التجربتين قد قامت على أساس فكرة اقتلاع السكان الأصليين والقيام بطردهم وإقصائهم وعزلهم بالفعل. وهنالك أوجه تشابه أخرى دالة: فقد أصبح كل من النظامين هو الحائز الوحيد للقوة النووية فى سياقه الإقليمى الذى يحيطه بالعداء الصريح والعزلة المتواصلة. كما تمتع كلاهما بالدعم الغربى فى سياق الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى، ودخل كلاهما فى إعادة تقييم عميقة لموقفيهما -دولياً وإقليمياً- بعد نهاية الحرب الباردة.

يعتبر مستوى العنف الذى مارسه الإسرائيليون ضد الفلسطينيين مؤشرا على اتساع مدى خطة الاستيطان الصهيونى باتجاه طرد العرب من بلادهم

وكان كل من نظام الأبارتهيد بجنوب أفريقيا وتحولات أوضاع إسرائيل باتجاه السيطرة الاستيطانية على فلسطين قد أبرز ذخيرة مشتركة من الموضوعات والمجازات واللازمات كأساس لكلا المشروعين الاستيطانيين. وكذلك تصوير السكان الأصليين كحالة رومانتيكية (نمطية غير عقلانية) وعنفية بشكل خاص وغير مبرر. وكغيرهما من المجتمعات الاستيطانية، انشغلت جنوب أفريقيا وإسرائيل بشكل خاص بالقضية السكانية. فرغم الأساطير المتوازية والمتواترة فى كلتا التجربتين حول استيطان أرض خالية من السكان (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، فقد أثيرت مسألة السكان الأصليين باستمرار وتم تمثلها بتعبيرات سكانية قلقة، كالحديث عن القنبلة الديمغرافية فى إسرائيل أو الخوف من تصاعد معدلات المواليد الأفارقة أو الفلسطينيين، مما يتناقض جذرياً مع مقولة الفضاء الاستيطانى غير المأهول. وبينما يعتبر ذلك توجهاً مشتركاً لدى معظم المجتمعات الاستيطانية، أدت حدة وكثافة التجمعات السكانية المحيطة بتخوم جنوب أفريقيا وإسرائيل نسبياً إلى تشكيل وجدان استيطانى مهووس

تجاهل هذا الخطاب الاعتذارى أن الأرض المقدسة لا تفتقر إلى مانديلا فحسب، بل تفتقر أيضا إلى فردريك دى كليرك، آخر رئيس لجنوب أفريقيا من الأقلية البيضاء قام بتفكيك نظام الفصل العنصرى

بالحاجة إلى التلاعب بالأوضاع السكانية لأجل ضمان توازن سكانى موات لجهود الاستيطان.

يقترح الفصل الثالث، «إشكاليات التحرير الوطنى»، منهجاً تحليلياً مقارناً بين حالتى الاستيطان: فرنسا/الجزائر وإسرائيل/فلسطين، حيث هناك مشروع استيطانى مدعوم من قوة استعمارية كبرى ترفض الإقلاع عن السيطرة على منطقة تعتبرها هامة استراتيجيا وأيديولوجيا، فى مواجهة حركة وطنية تكافح من أجل الاستقلال.

كذلك، يقارن المؤلف بين مختلف حروب التحرير الوطنى. فيحلل الاستجابات أو ردود الفعل الإسرائيلية على الانتفاضة الثانية مقارناً بين هذه الاستجابات وبين الاستراتيجيات القمعية لنظام الجمهورية الفرنسية الرابعة لدى تعاملها مع حرب التحرير الوطنى الجزائرية. فى هذا السياق، قراءة الحرب الفرنسية على الجزائر والطرق التى أثرت بها على عملية انتقال الدولة الفرنسية إلى الجمهورية الخامسة يمكن أن تلقى ضوءاً على المواجهات الراهنة فى الضفة الغربية وغزة، وعلى المآزق المؤسسية والمجادلات الراهنة فى إسرائيل. كما يستعرض الفصل تجارب وعوامل الانتصار فى حروب التحرير الوطنى، ثم يحلل مختلف سرديات حروب تفكيك الاستعمار.

يعالج الفصل الرابع، بعنوان «العنف المؤسس والمجتمعات الاستيطانية»، إعادة كتابة التاريخ فى إسرائيل وأستراليا، والتاريخ الإسرائيلى الجديد، والتاريخ الأسترالى وتاريخ شعوب أستراليا الأصلية، وكتابة التاريخ وانسداد أفق المصالحات. يتناول هذا الفصل تطور عملية كتابة التاريخ فى سياقين مختلفين تماما: إسرائيل واستراليا.

وهذا يبرز عدداً من الملامح المشتركة فى المعطيات السياسية المؤثرة على التاريخ وفى الخطاب العام. وهنا تظهر موضوعتان مركزيتان لدى كل محاولة تأريخ وتطورها: الاعتراف النهائى الكامل بسلب واقتلاع السكان الأصليين، والشرعية المجروحة لمؤسسات الدولة (الاستيطانية) حتى يتم الوصول لتسوية مع المسلوبين المقتلعين. وتتسم هاتان المسألتان بصعوبة واضحة من حيث القدرة على مواجهة تاريخ حافل بالعنف البالغ والإنكار، وإخفاق تام فى عمليات المصالحة.

نماذج استيطان متكررة

ورغم أن المراقبين الفلسطينيين وبعض الإسرائيليين قد أصروا منذ عقود على طبيعة الفصل العنصرى فى سيطرة إسرائيل على الحياة السياسية للفلسطينيين، فقد جاءت التطورات الأخيرة، بما فيها بناء الجدار الفاصل فى الضفة الغربية، لتزود المعلقين الفلسطينيين بسبب إضافى للمضى بمقولة نظام الفصل العنصرى قدماً. وبينما تتوالى الإحالات إلى نظام الأبارتهيد لدى تناول الصراع الإسرائيلى الفلسطينى، لم تُعقد بعد المقارنات التفصيلية بين العمليتين الكولونياليتين فى فلسطين وجنوب أفريقيا.

يبين فيراتشينى كيف أن المجتمع الإسرائيلى قد تم تنظيمه بشكل متواز مع الخطوط العامة لنظام الفصل العنصرى، وأن نظام الفصل العنصرى لم يكن فريداً من نوعه أو مقتصراً على جنوب أفريقيا، بل هو مظهر مشترك لكافة التجارب الاستعمارية. درس فيراتشينى حروب الشعوب ضد الاستعمار، والصراعات التى تم فيها اجتثاث أو تدمير شعوب أصلية بأسرها، كما كان الأمر فى أستراليا، والأمريكتين، وغيرها.

ولدى مقارنة هذه التجارب بجوانبها وخبراتها المختلفة بالتاريخ المعاصر لإسرائيل وفلسطين، يقدم فيراتشينى آفاقا ناقدة للخبرة الاستعمارية وما ترتب عليها من صراعات ونتائج على الأرض، ورؤى جديدة هامة لأنماط الامبريالية اليوم. وفى تشخيصه لطبيعة أيديولوجية الاستيطان، يورد فيراتشينى نصاً للكاتب الإسرائيلى ألبرت ممى مؤلف كتاب «المستعمِر والمستعمَر»، ١٩٥٧، حول كيفية طمس المستعمِرين لإنسانية المستعمَرين: «إنسانية المستعمَر، التى يرفضها المستعمِر، تصبح مطموسة. فمن العبث، كما يصر المستعمِر، أن تحاول التنبؤ بأفعال المستعمَرين (إذ لا يمكن التنبؤ بشىء عنهم! ومعهم لا يمكن التأكد من شىء أو معرفة شىء!). ويخيل للمستعمِر أن هناك نوازع غريبة ودوافع مقلقة تسيطر على المستعمَر. ولا بد أن الأخير هو بالفعل غريب جداً، خصوصاً إذا ما استمر غامضاً جداً بعد سنوات من العيش مع المُستعمِر». فالمستعمِر غالباً ما يخفق فى تقدير أو الاعتراف بإنسانية الشعوب الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية؛ وبالتالى يعتبر المستعمِرون هذه الشعوب حالة شاذة، ولا يمكن التنبؤ بسلوكها.

يعتبر فيراتشينى أن معظم الأفكار أو التصورات التى يقترحها الاستيطان الصهيونى فيما يتعلق بمستقبل الفلسطينيين -من حكم ذاتى أو شبه دولة منزوعة السيادة ومفتقرة إلى التماسك الجغرافى والقدرة على الحياة أو جدار الفصل العنصرى- ترمى إلى عزل التجمعات السكانية الفلسطينية فى إطار ما كان يعرف فى جنوب أفريقيا بـ «البانتوستان»، جزر منعزلة من السكان الأفارقة، تكرس فكرة الفصل العنصرى.

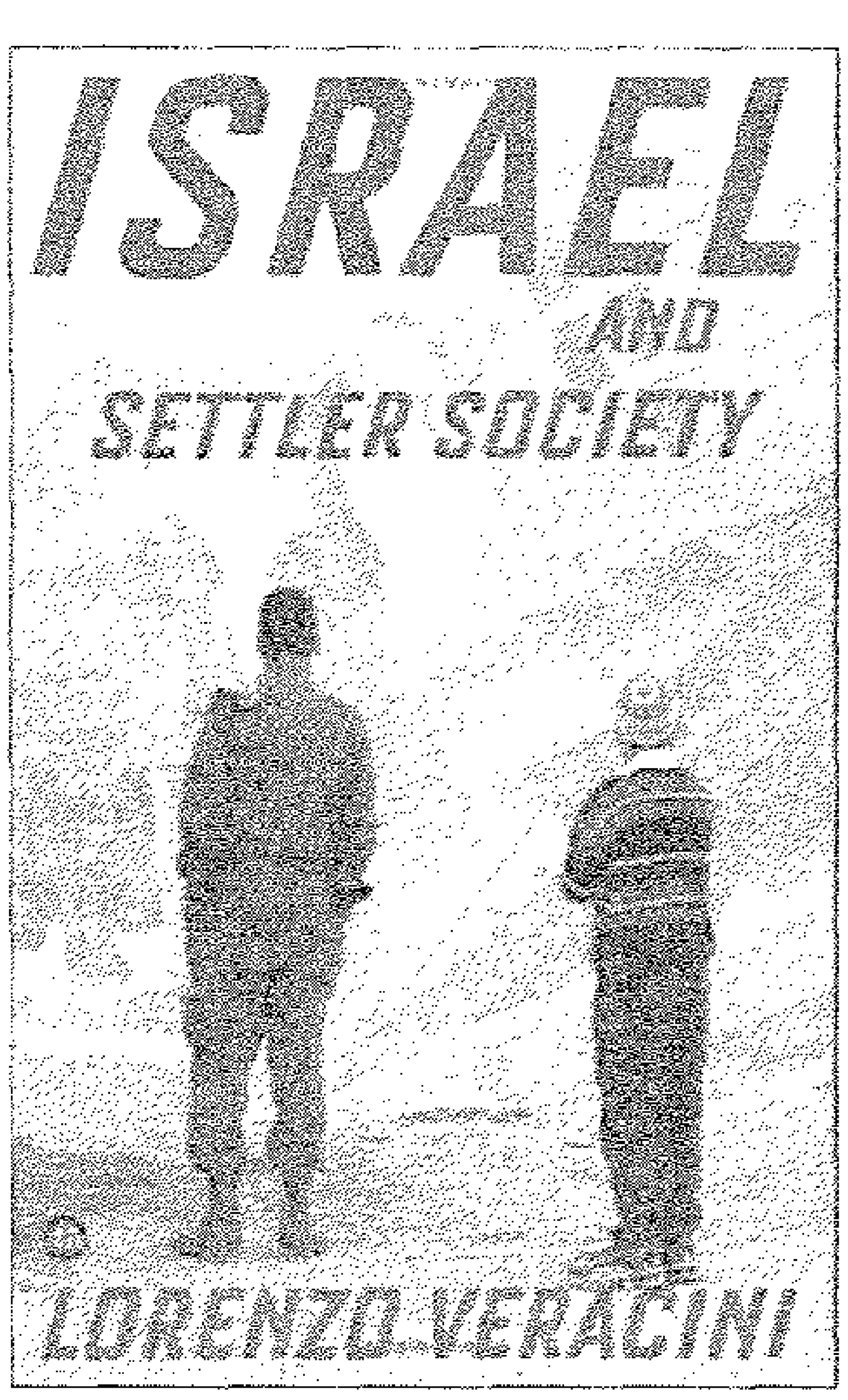
عداء وإنكار التاريخ

ويتعرض فيراتشينى للخطاب الاعتذارى الغربى الرافض للمقارنة بين الاستيطان الإسرائيلى ونظام الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا. فيرى مثلاً، أنه على عكس جنوب أفريقيا، يتمتع العرب فى إسرائيل بحقوق سياسية كاملة، كما أن الصراع الإسرائيلى الفلسطينى يبدو أقل قابلية للحل. وكانت الأرض أكثر وفرة فى جنوب أفريقيا، وليس بها أرض مقدسة. وقد كان البيض فى جنوب أفريقيا يخشون مصادرة ممتلكاتهم، أما الإسرائيليون فيخشون الإبادة، وليس فى الأرض المقدسة شخص مثل مانديلا. باختصار، إسرائيل ليست جنوب أفريقيا!

يفند فيراتشينى هذا الخطاب بأن الفلسطينيين فى إسرائيل لا يتمتعون بحقوق سياسية كاملة، وقد كان بعض السود فى جنوب أفريقيا يتمتعون ببعض الامتيازات خلال عهد الفصل العنصرى. كذلك، كان البيض بجنوب أفريقيا يخشون الإبادة بمقدار ما يخشى يهود إسرائيل المصادرة، وقد تم صياغة جزء كبير من القومية الأفريكانية (البيضاء) حول فكرة العهد أو الميثاق الخاص بين جماعات الاستيطان المبكر والرب. بيد أن الهدف الحقيقى من المقارنة الموضوعية بين إسرائيل وجنوب أفريقيا هو إبراز التطورات المتناظرة فى سياق ظروف واضحة الاختلاف. وقد تجاهل هذا الخطاب الاعتذارى أن الأرض المقدسة لا تفتقر إلى مانديلا فحسب، بل تفتقر أيضا إلى فردريك دى كليرك، آخر رئيس لجنوب أفريقيا من الأقلية البيضاء قام بتفكيك نظام الفصل العنصرى.

وفى سياق نزوع الأيديولوجية الاستيطانية نحو إنكار التاريخ الدموى الحقيقى للاستيطان وعدم الاعتراف بكوارث -تصل حد الإبادة- والتى أوقعها المشروع الاستيطانى بالشعوب الأصلية، والإصرار على الاحتفاظ بالرواية الاستيطانية التقليدية، يقارن فيراتشينى بين إسرائيل وأستراليا. فكلتا الدولتين قد شهدت رفضاً عاماً ملحوظاً

الصهيونية ليست مجرد تجسيد للامبريالية الغربية، وإنما هى حركة استيطانية إحلالية تمت فى كنف الامبريالية الغربية؛ وبدون ذلك، لم يكن ممكنا وضع المشروع الصهيونى موضع التنفيذ



إزاء القبول ببعض النتائج التى تقدمها دراسات المؤرخين الجدد (التصحيحيين) فى إسرائيل وأستراليا، خصوصا إذا تعلقت بتقييم العنف التأسيسى أو المؤسس للمشروع الاستيطانى. ويلاحظ أنه نادراً ما يتغير أى جزء من الرواية الرسمية لتاريخ الكيان الاستيطانى بدون معركة.

يعتبر فيراتشينى أن مستوى العنف الذى مارسه الإسرائيليون ضد الفلسطينيين مؤشر على اتساع مدى خطة الاستيطان الصهيونى باتجاه طرد العرب من بلادهم، بل ويعتبر مجزرة دير ياسين -وغيرها من المجازر- دليلا على وجود مخطط كبير للمشروع الاستيطانى باتجاه اقتلاع العرب من فلسطين. ويرى المؤلف فى مصير مشروع الاستيطان الفرنسى الذى تفكك وانهار فى النهاية، واضطرار المستوطنين الفرنسيين إلى الخروج من الجزائر والعودة إلى فرنسا، يرى فيه نذيرا ومصيرا محتملا لمستقبل مشروع الاستيطان الصهيونى.

يُذكر أن الكتاب لم يؤسس بحثه ونتائجه على استقراء الثقافات والمصادر المتضادة أو المتقابلة: فهو عمل اعتمد بشكل رئيس على المصادر الإسرائيلية، ولم يرجع إلى المصادر الفلسطينية إلا نادراً. ويشفع له فى ذلك، أن المادة الذاتية للمصادر الإسرائيلية هى إسرائيل كمجتمع استيطانى، والصهيونية كمشروع استيطانى. وبينما يدرك هذا العمل أن تحليلات الموقف الفلسطينى لا بد أن تكون واعية بالبعد الكولونيالى، إلا أنه يركز أساسا على إسرائيل، خاصة من حيث سبل تشكيل الاستيطان لأوضاعها الراهنة.

أهمية هذا الكتاب فى أنه نتاج جهد بحثى لأكاديمى غربى ملتزم بالمعايير العلمية الغربية، وهو إضافة جيدة للقليل الذى يصدر باللغة الإنكليزية متحدياً الأكاديمية الزائفة حول قضية فلسطين - بتعبير المفكر الراحل إدوارد سعيد- ومسقطاً بعض الأساطير المؤسسة للكيان الصهيونى ومشروعه الاستيطانى، والتى تسبغ عليه -ما ليس فيه- من قداسة وفرادة وعراقة تاريخية وعبقرية متجاوزة لقدرات البشر. وهو للحق مغامرة أكاديمية لا يجرؤ عليها إلا القليل، كما أنها مهمة علمية تقتضى شجاعة وكفاءة لا يملكها الكثيرون. فمنذ نشوء الكيان الصهيونى برعاية الامبراطوريات الأنجلوسكسونية، أحيط بحصانة لا سابق لها، وغدت الفكرة الصهيونية إحدى البقرات المقدسة فى الغرب، خاصة فى الولايات المتحدة. وأصبحت تهمة العداء للسامية جاهزة لمن يجرؤ على انتقاد الكيان الصهيونى من الأغيار، وتهمة كراهية الذات، لو كان المنتقد يهودياً.

رؤية مركبة متعددة الأبعاد

بيد أن للكتاب أهمية أخرى. فقد جاء المؤلف بجديد فى منهج وطريقة رصد وتحليل الظواهر والشواهد الدالة: لكن سبقه إلى هذه النتائج فى دراسة الظاهرة اليهودية والصهيونية الدكتور عبدالوهاب المسيرى الذى طور أطروحة تفسر الظاهرة: فقدم رؤية معرفية، ونماذج تفسيرية، ومراجعة نقدية للمقولات والنماذج التحليلية والمصطلحات السائدة، وانتقل من التفكيك إلى التأسيس.

تخلص هذه الرؤية إلى أن الفكرة الصهيونية ليست جزءا من العقيدة اليهودية، بل هى التجلى الامبريالى للعلمانية الشاملة. فالصهيونية تنزع القداسة عن كل شيء، وتلغى أى تاريخ لفلسطين وشعبها خارج سياق التاريخ اليهودى. كما تختزل خصوصيات وثقافات الجماعات اليهودية فى العالم من أجل اختلاق القومية اليهودية. والحقيقة أنه ليس هنالك أمة أو قومية يهودية، بل هنالك جماعات يهودية متعددة تنتمى بشكل أصيل وحقيقى إلى مجتمعاتها التى عاشت فيها مئات أو آلاف السنين. وافتراض الانفصال أو التمايز بينها وبين مجتمعاتها، انتظارا للهجرة أو العودة إلى أرض الميعاد، أسطورة كبرى يدحضها مخزون تاريخى وثقافى يؤكد انتماء هذه الجماعات لمجتمعاتها وأوطانها وثقافاتها. بل كان التمايز قائماً فعلاً بين المستوطنين اليهود القادمين من بلاد مختلفة.

بيد أن الصهيونية ليست مجرد تجسيد للامبريالية الغربية، وإنما هى حركة استيطانية إحلالية تمت فى كنف الامبريالية الغربية: وبدون ذلك، لم يكن ممكنا وضع المشروع الصهيونى موضع التنفيذ. فقد قامت الامبريالية بنقل كتلة بشرية من أوروبا إلى فلسطين لتحل محل سكانها الأصليين، كما فعلت فى مناطق الاستيطان الأخرى. وهكذا، لا تاريخ للظاهرة الصهيونية مستقلاً عن الاستعمار الغربى. وبالإمكان فهم الفكرة الصهيونية بشكل أفضل لدى رؤيتها جزءاً من التجربة الغربية.

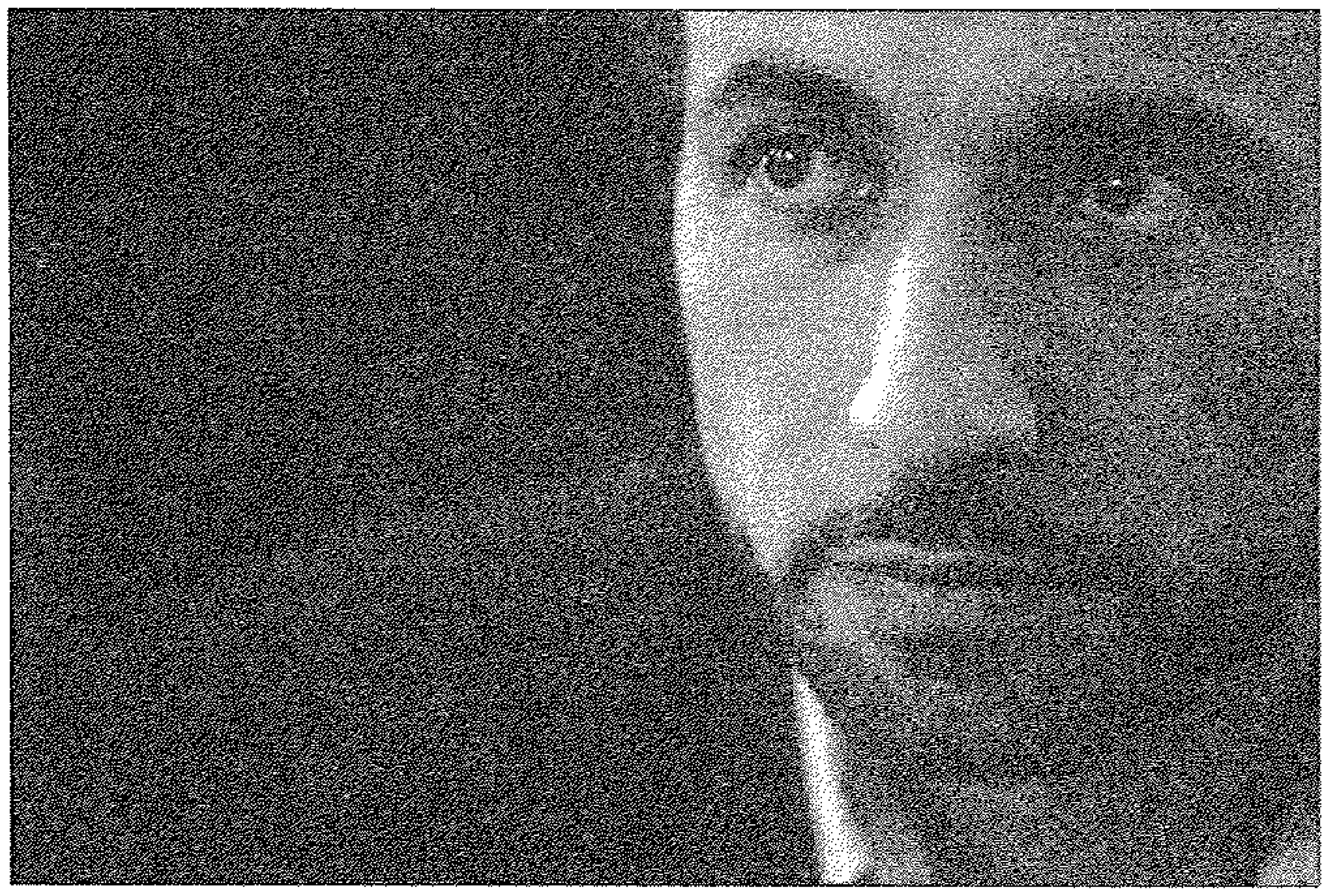
معظم الأفكار أو التصورات التى يقترحها الاستيطان الصهيونى فيما يتعلق بمستقبل الفلسطينيين ترمى إلى عزل التجمعات السكانية الفلسطينية فى إطار ما كان يعرف فى جنوب أفريقيا بـ «البانتوستان»

يبقى الكيان الصهيونى مشروعاً توسعياً، وعنصرياً بطبيعته لأنه يعطى كل الحقوق لأعضاء كتلة بشرية استيطانية، وينكرها على السكان الأصليين. وكشأن تجارب الاستيطان الإحلالى الأخرى، يصبح الاستيطان الصهيونى مشروعا للإبادة. بل إن الإطار المعرفى للصهيونية هو ذاته الإطار المعرفى الامبريالى الغربى من الداروينية، وعبء الرجل الأبيض، إلى تحويل العالم والبشر إلى مادة استعمالية.

لذلك، مهما اختلفت ديباجات الصهيونية عن غيرها من مشروعات الاستيطان الأخرى، لتسبغ على الاستيطان الصهيونى صبغة دينية أو قومية، فذلك لا يغير طبيعة المشروع «الاستعمارية» أساسا. فمعظم المستوطنين الذين اختاروا الهجرة إلى إسرائيل قد جاءوا بدوافع اقتصادية استهلاكية فى المقام الأول. وهذا ما أدى لهجرة نحو ربع مليون روسى وأوكرانى من غير اليهود إلى إسرائيل فى أوائل التسعينيات الماضية. بل وتطغى على معظم اليهود منهم العلمانية وعدم التقيد بالشرائع الموسوية. ولو كان لهؤلاء المهاجرين الخيار لاختاروا الهجرة لأمريكا الشمالية أو الاتحاد الأوروبى، وهو ما يحاولونه لاحقا بعد الهجرة إلى إسرائيل.

مع تواصل اجتياحات المدن الفلسطينية وأعمال القمع العسكرية الإسرائيلية فى الضفة وقطاع غزة ولبنان، وتصاعد وتيرة العنف والتدمير الاستيطانى الصهيونى، ربما نتذكر مدى العنف والمجازر وسفك الدماء الذى طالت عشرات آلاف الضحايا بمدينة القدس الشريف، وقبلها مدينة الله العظمى أنطاكية، على يد فرسان الفرنجة فى العصور الوسطى. تفككت وانهارت مشروعات الاستيطان الأوروبى فى الشرق العربى، والتى سماها الأوروبيون «حملات صليبية»، وسماها العرب «حروب الفرنجة»: فهى لم تكن أكثر من حروب همجية فى سبيل النهب والاستيطان، ولا علاقة لها بأى مقدس.

كان للأمير أسامة بن منقذ، أحد فرسان وقادة العرب آنذاك، علاقات ومشاهدات واسعة لأحوال وفرسان الفرنجة. وعندما سئل عن أحوالهم قال: «إنهم بهائم من الهمج ليس لهم من فضيلة إلا القتال والقتل!». ■



لــيــس

لدى معظم الغربيين فكرة واضحة إلى حد ما عما يتبادر إلى الذهن عندما يتخيل رسام كاريكاتير دنماركى النبى محمد (عليه الصلاة والسلام). ولديهم أيضا فكرة جيدة عما يتبادر إلى الذهن بشأن مقاتل من طالبان يقطن الكهوف أو أحد نشطاء تنظيم القاعدة. وعلى أية حال، فإن مشاعر «طارق رمضان» قد جرحت بسبب رسوم الكاريكاتير التى شكلت المفاهيم العامة حول الرجل الذى أنزل الله عليه القرآن عام ٦١٠ (ميلادى). وبناء على ذلك، فإن عالم الدين غزير الإنتاج الذى ولد فى سويسرا، والذى أصبح أحد نجوم الإعلام - وأيضا مثار جدل - أخذ على عاتقه مهمة تغيير نظرة المسلمين وغير المسلمين للإسلام.

إن كتاب «على خطى الرسول» هو الصورة المحببة لدى «رمضان» عن محمد (عليه الصلاة والسلام)، وهو أيضا سيرة ذاتية كتبت بموهبة خبير ذكى بالشئون العامة. وخلف المظهر الخارجى الفاتر إلى حد ما للكتاب - وهو فى الأساس سرد رائع لأقوال وأفعال الرسول (عليه الصلاة والسلام) طوال ٢٣ عاما من الوحى - يكمن جدول أعمال منتقى: إعادة تعريف وتقديم رسالة ونبى الإسلام للأقليات المسلمة والمجتمعات الغربية التى يعيشون فيها. ولم يكن لـ «محمد» (عليه الصلاة والسلام) أن يأمل فى نصير أكثر تعاطفا من «رمضان» للوقوف أمام كل وسائل الإعلام المسيئة.

يهدف «رمضان» لإضعاف الحد الفاصل بين العالم الإسلامى (دار الإسلام) وبقية العالم (دار الحرب). أى أنه يسعى إلى أن ينظر المسلمون فى الغرب إلى أنفسهم ليس باعتبارهم أقلية مضطهدة فى مناطق معادية، وإنما كأعضاء متساوين فى المجتمع الغربى بحقوق وواجبات كاملة. وكى نفهم الدور الذى يأمل «رمضان» أن يلعبه، فمن المفيد قراءة كتابه على مستويات ثلاثة. أولا، باعتباره ردا حصيفا على ناشرى الصحف و«المرتدين عن الإسلام» الذين يطلق عليهم «تيموثى جارتون اش Timothy Garton Ash» (كاتب بريطانى سياسى) «أصوليى التنوير» والذين يطعنون الإسلام من خلال كاريكاتير غير منصف. ثانيا، يعد الكتاب عملية إعادة ترتيب دينية تخاطب الحَرفيين أمثال محمد بن عبد الوهاب (مؤسس الحركة الوهابية السعودية) وأيمن الظواهرى (كبير مُنظرى تنظيم القاعدة). وأخيرا، فإن هذا الكتاب بيان حذر للمسلمين وغير المسلمين على السواء بأن الإسلام قابل للتفسير والتكيف مع الظروف الخاصة.

رغم تنشئته فى جنيف فى السبعينيات، فإن لـ «رمضان» نسبا إسلاميا متميزا: فجده لأمه هو «حسن البنا» مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، ووالده هو «سعيد رمضان» أحد مؤسسى رابطة العالم الإسلامى. وباعتباره مفسرا للتراث الإسلامى يعمل خارج وداخل الحدود، جعل «رمضان» من نفسه عنصرا أساسيا للإصلاح الدينى فى الإسلام والاندماج السياسى للمسلمين فى الغرب. لقد التقى «رمضان» «تونى بلير Tony Blair» رئيس الوزراء البريطانى و«رومانو برودى Romano Prodi» رئيس مفوضية الاتحاد الأوروبى ورئيس الوزراء الإيطالى حالياً، كما تقلد مناصب أكاديمية بجامعتى أوكسفورد البريطانية وايراسموس الهولندية. ومع ذلك، فإن أسلوب «رمضان» - المخالف للمألوف - فى العمل دفع فى الوقت نفسه بالمسئولين المتوترين - فى القاهرة والرياض وكذلك فى واشنطون (وباريس بصفة مؤقتة) - إلى منع دخوله أراضى تلك الدول. وقد ألغت إدارة الأمن الداخلى الأمريكية طلب تأشيرة دخول كان «رمضان» قد تقدم به قبل عامين، وكان سيمكنه من تولى منصب أكاديمى فى جامعة نوتردام الأمريكية، وذلك على أساس أنه كان قد تبرع بما يقارب التسعمائة دولار لمؤسسة خيرية فلسطينية ربط لاحقا بينها وبين حماس (لم تكن تلك المؤسسة وقت التبرع على قائمة واشنطون للمنظمات الإرهابية).

يصف التعليق على الغلاف الورقى الخارجى للكتاب «رمضان» بأنه «مارتن لوثر Martin Luther» مسلم. ولكن المقارنة ربما تكون أفضل مع «موسى ماندلسون Moses Mandelssohn» فيلسوف «التنوير» اليهودى الألمانى من القرن الثامن عشر الذى يعد مؤسس اليهودية الإصلاحية. إن «رمضان» ينشد الإصلاح: وهو يحث المسلمين فى الغرب على مغادرة مناطق الأقليات التى يتمركزون فيها، مع المحافظة على هويتهم الدينية. ومثلما فعل «ماندلسون»، ينشر «رمضان» رسالة إعتاق من الداخل لأتباع ما يؤمن بأنه دين سماوى. ومثل «ماندلسون» أيضا، فإن «رمضان» هو نتاج المجتمع الأوروبى. وهو يأمل أن لسانه - الذى يجيد الفرنسية والإنجليزية والعربية - قادر على طمأنة مجتمعات الأقلية والأغلبية على السواء أن الإيمان الكامل لا يتعارض مع المشاركة الاجتماعية والسياسية الكاملة.

افعلوا كما أفعل

يعد تأسيس فقه شرعى للأقليات المسلمة دون إضعاف الإيمان الإسلامى لدرجة تشوهه أو - على الأسوأ - تجعله غير إسلامى، يعد أحد التحديات الرئيسية التى تواجه العلماء المسلمين فى الغرب. وليس أمام المسلمين فى أوروبا والولايات المتحدة الذين يبحثون عن الإرشاد الدينى سوى خيارات محلية قليلة. أما أولئك الذين لا يقتنعون بالزعامات الدينية شبه الرسمية المستوردة من حكومات «الأوطان الأصلية» أو الحركات الإسلامية المُسَيَّسة التى ظهرت كمعارضة لتلك المؤسسات، فليس أمامهم من خيارات تذكر. وهناك مجلس للفتوى مقره بريطانيا يضم شيوخا يرتبطون مباشرة بجماعة الإخوان المسلمين (المجلس الأوروبى للفتوى والأبحاث the European Council for Fatwa and Research، أو ECFR)، كما يوجد «أئمة إنترنت» يتمركزون فى تركيا وشمال أفريقيا والخليج الفارسى وينشرون تعليماتهم بواسطة البريد الإلكترونى ولوحات الإعلانات. ويمكن أن يكون لفتاوى تلك المصادر تأثير عملى على تحسين الاندماج اليومى فى المجتمع الغربى، بالسماح مثلا للمسلمين باللجوء إلى الرهونات العقارية لشراء منازلهم الأولى (بدلا من تحريم القروض الربوية) أو بأداء الصلاة فى غير الأوقات الرسمية. ولكن تلك مجرد رخص من القواعد العالمية السارية غير القابلة للتغيير. ولا تضيف

رغم تنشئته فى جنيف فى السبعينيات، فإن لـ «رمضان» نسبا إسلاميا متميزا: فجده لأمه هو «حسن البنا» مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، ووالده هو «سعيد رمضان» أحد مؤسسى رابطة العالم الإسلامى

In the Footsteps of the Prophet: Lessons From the Life of Muhammad

(على خطى الرسول: دروس من حياة محمد)

Tariq Ramadan
Oxford University Press, 2007,
242 pp. $23.00.

Foreign Affairs
May/ June 2007
Vol 86, Number 3

ترجمة: عادل فتحى

ربما كان نظيرا لساركوزى.. لكنه:

مارتن لوثر!!

جوناثان لورانس

مشروعيتها المحدودة إلى الشريعة الإسلامية أو تحل محلها فى العالم الإسلامى. وعلى لسان أحد الشيوخ السعوديين الذى يترأس المجلس الأوروبى للفتوى والأبحاث (يرأس المجلس الشيخ يوسف القرضاوى، وهو مصرى حاصل على الجنسية القطرية وليس سعوديا، لذا لزم التنويه. المترجم)، فإن تلك الرخص هى «قرارات شرعية تبقى مجهولة وغير قابلة للتطبيق فى العالم العربى، ولكنها مع ذلك متكيفة مع العالم الغربى».

ولا يدع ذلك مجالا أمام العلماء سوى للتركيز على تطوير «فقه للأقلية» يكون عرضة للهجوم من قبل الصفائيين (الصفائية هى الحرص على صفاء اللغة والأسلوب. المترجم). وقد جاء فى خطاب من حزب التحرير الإسلامى إلى يوسف القرضاوى مؤسس المجلس الأوروبى للفتوى والأبحاث «إن مفهوم الفقه الأوروبى هو إحدى بدع القرن العشرين، لأن الإسلام ليس به سوى فقه واحد. وباعتبارنا مسلمين نعيش فى أنحاء العالم المختلفة، فإننا نخضع جميعا لنفس مصادر الشريعة، بصرف النظر عن المكان الذى نعيش فيه». بل إن معظم علماء «فقه الأقلية» غير معتادين على الحقائق اليومية للأجيال الأصغر سنا التى يستهدفونها، لأن القليل من أولئك العلماء ولدوا ونشأوا فى أوروبا كأبناء للمهاجرين.

يتمتع «رمضان» بالقدرة على الشروع فى جدول أعمال طموح يسعى لتوفيق الإسلام نفسه مع الأعراف الغربية. وهو لا يكتفى بمجرد إثبات صحة رأيه بأن المسلمين فى الغرب يحتاجون لأعراف جديدة تتكيف مع حقائق حياتهم الجديدة. وهو ينادى اليوم أيضا بـ«الإبداع الفكرى» بالتدليل على أنه كان ضروريا وقت ظهور الإسلام. وحين يؤكد «رمضان» على الإبداع فى التراث الإسلامى - وهو مفهوم يختلف عن «الابتداع» الذى يعد محرما - يكون بمقدوره التطرق إلى تفسير الإسلام. وهو يردد شكاوى عن الأمثلة التى وجد المسلمون الأوائل فى شبه الجزيرة العربية من خلالها أن الالتزام الحرفى كان مستحيلا. وكيف تعاملوا مع ذلك باللجوء إلى التفسير. وقد كتب «رمضان»: «إن أسس العقيدة والعبادات فى الإسلام لم تخضع للتغيير، وكذلك المبادئ الأساسية للأخلاق. ولكن تطبيق تلك المبادئ الأخلاقية والتفاعل مع المواقف الحديثة التى لم تكن المصادر النصية واضحة تماما بشأنها - أو لم تتطرق إليها - احتاج إلى إجابات تتلاءم مع ظروف خاصة». ببساطة، فإن كلمة الله مطلقة، ولكن لا يمكن دائما الالتزام بها حرفيا.

يشير «رمضان» إلى أن المسلمين يسيرون على سنة النبى (عليه الصلاة والسلام) وصحابته حتى عندما تتناقض تلك السنة مع النص المُنَزَّل للقرآن. وهو يقترح إيقاف العمل بأحكام معينة بالنسبة لكافة المسلمين، رافضا فكرة وجود نظام يتضمن مستويين من الفقه الإسلامى. وهو ينشد بذلك المحافظة على عالمية الإسلام مع إفساح المجال فى الوقت نفسه لخصوصيات الزمان والمكان.

وكان أفضل عرض معروف لهذا المنهج قد جاء فى مناظرة تليفزيونية عام ٢٠٠٣ بين «رمضان» و«نيكولاس ساركوزى Nicolas Sarkozy» وزير الداخلية الفرنسى آنذاك والمرشح الحالى للرئاسة (أعلن فوزه بالفعل رئيسا لفرنسا فى الأسبوع الأول من مايو ٢٠٠٧. المترجم) (إذا قمنا بعمل مقارنة تسبب - بالتأكيد - مضايقة لكليهما، فربما يكون «ساركوزى» فى الحقيقة هو أقرب نظير معاصر لـ «رمضان»: فكما يفعل «رمضان» مع الإسلام، يسعى «ساركوزى» للوصول إلى نظام إيمان شامل - مثل الديجولية - يناسب عصره، متسببا فى «انفجار هادئ» للرموز والمذاهب السلطوية التقليدية). وقد رفض «رمضان» أمام ستة ملايين مشاهد أن يدعو لإلغاء حد رجم الزناة، مناديا - بدلا من ذلك - بإيقاف الحد. ويكشف هذا الفرق الدلالى ظاهريا عن منطق «رمضان» الإصلاحى: فهو وسيلة لإيقاف العقوبات الرئيسية فورا، مع مجاراة مؤيديها - فى الوقت نفسه - طبقا لشروطهم. ولا ينكر «رمضان» أن الرجم ربما كان مؤيدا - جزئيا - من العالم الإسلامى ومن تعليمات كتب الشريعة. ولكنه يجادل بوجوب إيقاف مثل تلك العقوبة، مع إجراء حوار حول ظروف تطبيقها فى الواقع.

يعد هذا النوع من التبرير بالنسبة لبعض المنتقدين أمرا غامضا بصورة غير مقبولة: إن «رمضان» لن يشجب حد الرجم بصورة مطلقة! ولكنه - بدعوته إلى إيقافه - يتجنب ما يمكن اعتباره «حرمانا كنسيا» إسلاميا. ونتيجة لذلك، فمن المستبعد أن يكون لكتبه تأثير على فكر المسلمين الملتزمين أكثر من تأثير آراء «المرتدين عن الإسلام» المتوافرة فى مكتبات الغرب. وكما صرح «رمضان» لصحفى بريطانى فإن «السؤال هو هل تريد إسعاد الجمهور أم تعديل طريقة التفكير». وفى هذا الخصوص، ليست هناك قواسم مشتركة بين الكتاب وبين دعوة الخارجيين للإصلاح (مثل آيان هيرسى على Ayaan Hirsi Ali» (كاتبة سياسية هولندية من أصل صومالى ومخرجة سينمائية) و«إرشاد مانجى Irshad Manji» (مؤلفة وصحفية كندية من مولودة فى أوغندا من أب هندى وأم مصرية)، أو نواح الداخليين للعودة إلى العصور الذهبية الأولى للفكر الإسلامى (مثل محمد أركون (مفكر جزائرى) وعبد الوهاب مدب (كاتب تونسى)) ويسعى «رمضان» إلى شرعية النقد الداخلى فى السياق المحصور نسبيا للحوار الدينى، والذى يسمح له بالوقوف وجها لوجه مع جماعات مثل حزب التحرير.

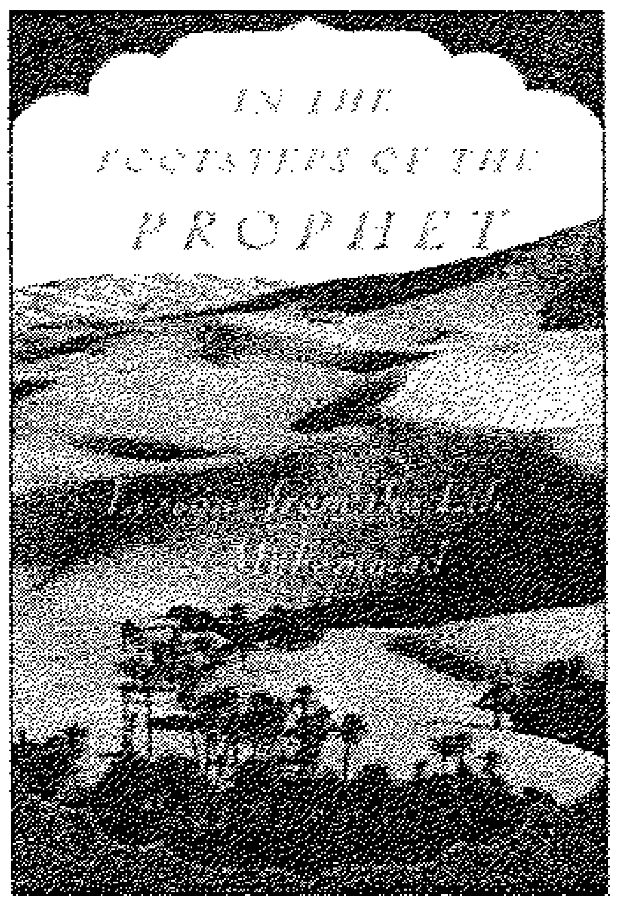
محمد (عليه الصلاة والسلام) الحقيقى

يرى «رمضان» النبى محمد (عليه الصلاة والسلام) كشخصية متواضعة رحيمة، وكنبع للعلم. وهو (عليه الصلاة والسلام) مخلص تماما لله ولكنه غير متعصب: لقد حذر (عليه الصلاة والسلام) أصحابه من التشدد وطالبهم بالاعتدال. وكان داعية حكيما يعلم أن للعسل تأثيرا أقوى من الخل. وقد استولى على قلوب أصحابه بمرونته: فليست هناك هداية بالإكراه. بل يمكن للمسلمين الرجوع عن الإيمان إذا لم يقتنعوا به. ويرحب النبى (عليه الصلاة والسلام) بإدماج الممارسات الثقافية المحلية باعتبارها «إثراء»، حتى لو كانت أغانى الزفاف (التى لا تسمح بها الشريعة). وفى موقف آخر، يقدم وجبة مجانية لرجل انتهك أحكام الصيام فى شهر رمضان، بل أنه فعل ذلك بابتسامة.

ورغم أن الكتاب لا يأتى على ذكر الشئون الجارية، إلا أننا نستشعر الحرج العميق لـ «رمضان» تجاه مزاعم «محمود أحمدى نجاد» و«أسامة بن لادن» باعتبارها اقتفاء لسنة النبى (عليه الصلاة والسلام). إن «رمضان» يسعى لاستعادة محمد (عليه الصلاة والسلام) الحقيقى. وهو يستغل نماذج من حياة النبى (عليه الصلاة والسلام) مستهدفا الأنظمة فى العالم الإسلامى التى لا تسمح بممارسة أديان أخرى أو المشاركة الكاملة للنساء فى المجتمع.

ينظر «رمضان» إلى محمد (عليه الصلاة والسلام) باعتباره نموذجا لرباطة الجأش التى تضمن «احترام المبادئ والثقة بها». داعيا إخوانه من المسلمين إلى «التسامح لكى يتعلموا ويستمعوا ويتعرفوا إلى الآخر». ويذكر «رمضان» قراءه بأنه حتى عندما «تدهورت العلاقات» مع اليهود فقد «قرر القرآن بأن آية كراهية تنتج مؤقتا بسبب الحرب فإنها لا تلغى المبادئ التى يجب أن يخلص لها المؤمنون». وفى سياق سرد «رمضان»، تأتى السيدة خديجة (رضى الله عنها) أولى زوجات محمد (عليه الصلاة والسلام) - أول المسلمين والشخصية النسائية التى وقفت دائما بجانب زوجها - كمثال رائع ضد التمييز بين الجنسين. وكان محمد (عليه الصلاة والسلام) دائما لا يقبل دعوة للعشاء دون التساؤل «ماذا عن خديجة؟».

إن المؤهلين لقراءة ما بين السطور سيجدون فى كتاب «رمضان» القليل مما يمكن استخدامه ضده (عارض معلق فرنسى استخدام «رمضان» لتعبير «الانتشار الإسلامى»)



لوصف الاستيلاء الإسلامى على شبه الجزيرة العربية بدلا من مصطلح «الغزو»، زاعما أنه يسعى للتهوين مما وقع من عنف). يركز «رمضان» فى أغلب الأحوال على استخلاص الكلمات التى أسىء استخدامها فى قاموس العامة - كلمات مثل «السلفية» التى أصبحت رمزا لـ «الإرهاب المحتمل» بين صفوف مسئولى الأمن. يحاول «رمضان» استعادة المعانى الأصلية لتلك التعبيرات من خلال إيضاح السياقات المحددة التى برزت منها فى الأصل. فالشهداء هم من يرفضون التخلى عن إيمانهم تحت الضغط، والجهاد هو الاستخدام الروحانى والفكرى للقرآن للدفاع عن النفس، أما التقية فهى اللجوء إلى الخداع لإنهاء التعذيب أو إنقاذ حياة المرء. وكما توصل الصحفى «إيان بوروما Ian Buruma» فى مقال حديث مختصر عن «رمضان»، فإن رسالته تبدو وكأنها تمثل «البديل للعنف».

من المؤكد أن أنشطة «رمضان» - أكثر من تأليفه للكتب الدينية - هى التى جذبت إليه انتباه مسئولى الاستخبارات الغربية. ومع ذلك، وعلى الرغم من سعيه لإصلاح كل من الدين والسياسة، فإنه لا يهدف فى الظاهر لقطع الصلة بينهما. وبصفته زعيما دينيا يشجع الشباب الأوروبى المسلم على الوصول إلى الإيمان، فإنه ينشر رسالة التوحيد ويحذر من الأخلاق المتدنية والوثنية الاستهلاكية للمجتمعات المعاصرة. ولا يتفق «رمضان» مع «جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau» - مواطنه من جنيف - الذى أعلن أن الإيمان الدينى يعرض الولاء السياسى للخطر. وهو - بدلا من ذلك - يتفق مع «جون لوك John Locke» (فيلسوف إنجليزى، ١٦٣٢ - ١٧٠٤) فى اعتقاده أن الإيمان الدينى الراسخ يتوافق تماما - بل ربما كان ضروريا - مع عقد المواطنة القومى.

يعارض «رمضان» فى أحاديثه العامة «أسلمة» المشاكل الاجتماعية، وينادى بصحوة مدنية وبمشاركة المواطن: «يجب أن نعاملهم كمواطنين وليس كمسلمين. ويجب على الشباب من سكان الضواحى الرخيصة أن يعبروا عن ثورتهم من خلال التصويت وليس بإضرام النار فى السيارات».

ولكن خلف تلك البلاغة الرائعة حول الحراك المدنى، فإن رسالة «رمضان» السياسية مخيبة للآمال بنفس قدر الاطمئنان فى لهجته. ليس الأمر أن هناك «خطاب مزدوج»، وهو اتهام شائع موجه للإسلاميين. ولكن خطاب «رمضان» الوحيد هو من النوع المراوغ (وكما يفسر هو ذلك، فإن الاستقبالين المختلفين اللذين يلقاهما من المسلمين وغير المسلمين «لا يعبرا عن مشكلة خطاب مزدوج وإنما ازدواج فى الاستماع»). فهو يرفض العنف فى العلن ويحض على التغيير من خلال العملية الديمقراطية، ولكنه حتى عندما يشجب الإرهاب فإنه يردد منطقه الأساسى. أما إدانته للهجمات المتعمدة على المدنيين فيقلل من قيمتها إشارته - التى تبدو غير ضارة - بأن تلك الهجمات سوف تتوقف عندما ترضخ السياسات الخارجية الأوروبية والأمريكية والإسرائيلية لمطالب الإرهابيين الأساسية. ويعتقد «رمضان» بوجود صلة بين ما يعتبره أساليب ضالة للسياسة الخارجية الأوروبية والأعمال الإرهابية التى يفترض أنها نتيجة لها. هل يمكن أن تفهم حشود الشباب المتحمس المنجذبة إلى محاضرات «رمضان» العامة المشوقة ذلك كاستحسان ضمنى لتلك الأعمال؟ و«بتبريره» تلك الهجمات، فإن «رمضان» يحجم عن شجبها باعتبارها غير مفهومة. وهو يترك الباب مفتوحا لتبرير العنف فى المستقبل ضد المدنيين على أساس دينى أو سياسى.

باختصار، فإن «رمضان» يتخلى عن جانب الزعماء المسالمين المنادين بعدم العنف على الإطلاق، ويشرد إلى منطقة رمادية تقترب من التبرير. ويجب أن نأخذ فى الاعتبار تلك التصريحات حول السياسات الأوروبية تجاه الشرق الأوسط: «إن خطط القرنين التاسع عشر والعشرين وعمليات الإبادة التى يقوم بها اليهود هى المصدر الأساسى للصراعات الحالية فى الشرق الأوسط حول القضايا الإقليمية. إن هذا العبء التاريخى يجب أن يخرس ويغل يد الاتحاد الأوروبى إلى الأبد. إن الصمت حيال المأساة اللبنانية - مثل الصمت تجاه مأساة الفلسطينيين - هو صمت مخادع. إنه نوع الصمت الذى يولد العنف فى النهاية، العنف الذى يمكن أن ينتقل ثانية إلى شوارع المدن الأوروبية». أو ذلك التصريح حول تفجيرات قطارات لندن: «لا يمكن قبول أن تكون لبعض الناس آراء مخالفة ثم يقومون بالقتل، يجب إدانة ذلك. ولكن لا يمكن فى المناقشات اللاحقة القول بأنه لا توجد صلة. إن ذلك خطأ على الصعيد الأخلاقى، ولكن على الصعيد السياسى هناك صلة».

إن إقرار «رمضان» بوقوع محرقة اليهود، واعترافه بدولة إسرائيل، وإدانته العامة للعنف، تعد آراء تقدمية فى النقاش الإسلامى الداخلى المعاصر. ولكن المستمع لا يكون واثقا إن كان «رمضان» يعتقد أن الإرهاب فى أوروبا والشرق الأوسط له ما يبرره أم لا. فهناك انفصام بين تفسيراته الوصفية وإداناته المعتادة. من الطبيعى أن يشارك علماء الاجتماع بتفسيراتهم، ولكن النتيجة تبدو مختلفة عندما يجمع «رمضان» بين تحليله ودورة كداعية وناشط سياسى. إن عزوفه عن الظهور فى صورة شديدة التحرر يسمح له بالبقاء كبديل واقعى للصفائيين، ولكن ذلك يؤدى به هنا إلى فخ بلاغى. إن انتقاداته الدينية قاطعة، ولكنه لا يقدم إجابات مباشرة على المسائل السياسية.

الإسلامية والفرنسية والأخوة

يختلف كتاب «رمضان» عن السير الأخرى لمحمد (عليه الصلاة والسلام) التى تم تأليفها أيضا مع أخذ الجمهور الأوروبى فى الاعتبار. فهو لا يدعو إلى دين جديد (مثل كتب «يوسف إسلام» (المطرب البريطانى الشهير السابق «كات ستيفنس Cat Stevens»)، وليس أكاديميا (مثل كتب «كارين آرمسترونج Karen Armstrong» (كاتبة إنجليزية متخصصة فى الكتابة عن الأديان)، و«ماكسيم رودينسون Maxime Rodinson» (مؤرخ ومستشرق فرنسى ماركسى، ١٩١٥ - ٢٠٠٤). ومثل معظم كتب «رمضان»، يستهدف هذا الكتاب جمهورا مختلطا مع توجيه رسالة شخصية لكل فرد. ويذكّر «رمضان» غير المسلمين بأن الغرب مدين فكريا للإسلام ليس فقط لأنه حافظ على بعض الأعمال الكلاسيكية الإغريقية أثناء العصور المظلمة فى أوروبا. وهو يذكّر المسلمين فى المقابل بأن الإسلام «ليس نظاما منغلقا» يجب أن يستبعد المبادئ الغربية، ولكنه يستند إلى الالتزام بـ «المبادئ التى تسمو فوق الولاءات المحدودة». ويدعو «رمضان» المسلمين لإظهار أن لديهم نفس القيم الجوهرية التى نشأت عليها أوروبا والغرب. ويأمل «رمضان» أن يؤدى إقراره بالتأثير المشترك إلى تعايش سلمى أو حتى نوع من توليفة جمهورية مثل تلك التى اقترحها للمرة الأولى العالم الفرنسى «جاك بيرك Jacques Berque» (كاتب فرنسى تخصص فى شئونه الإسلام والمغرب العربى، ١٩١٠ - ١٩٩٥): يجب أن تخلص فرنسا لإسلاميتها، ويجب على المسلمين الفرنسيين أن يخلصوا لفرنسيتهم.

لقد أصبح «رمضان» مغرما بالقول أن «المسلمين كشفوا أزمة الهوية الأوروبية». ربما كان ذلك صحيحا، ولكن أوروبا بدورها كشفت أزمة الهوية الإسلامية. إن «رمضان» يجسد تراثا مشتركا للإسلام والغرب، ويكشف فى الوقت نفسه عن بعض الاختلافات الجوهرية التى تثير الحفيظة بين من يعملون باسم الإسلام ومن يعملون باسم الغرب. وهو أحد الزعماء المسلمين القلائل فى أوروبا الذين لديهم من الشرعية ما يكفى لدفع كلا «الجانبين» نحو حوار صريح حول العناصر المتصارعة لتلك الهوية. وبغض النظر عن ماهية الحكم على «رمضان» نفسه، فبدون المزيد من المفكرين من أمثال «رمضان»، ستكون أمام المسلمين والغرب فترة عصيبة للوصول إلى وئام دائم. ■

إن «رمضان» ينشد الإصلاح: وهو يحث المسلمين فى الغرب على مغادرة مناطق الأقليات التى يتمركزون فيها، مع المحافظة على هويتهم الدينية

من إصدارات مدار

المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية

MADAR مدار

رام الله - فلسطين

الدراسات والأبحاث (14 عنواناً)







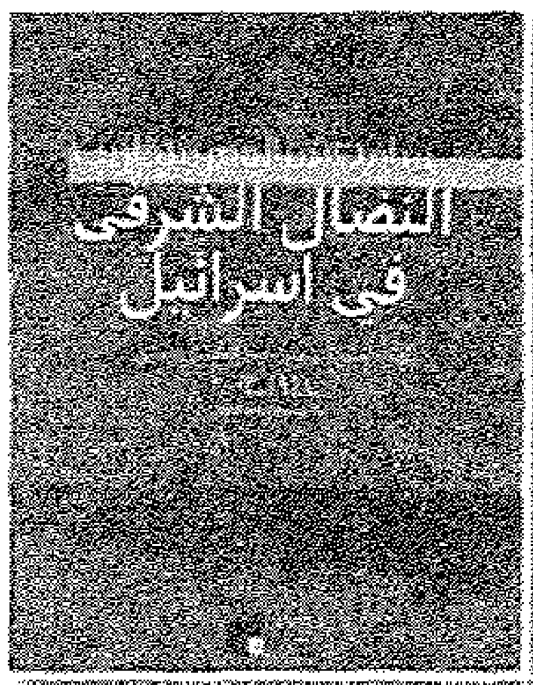


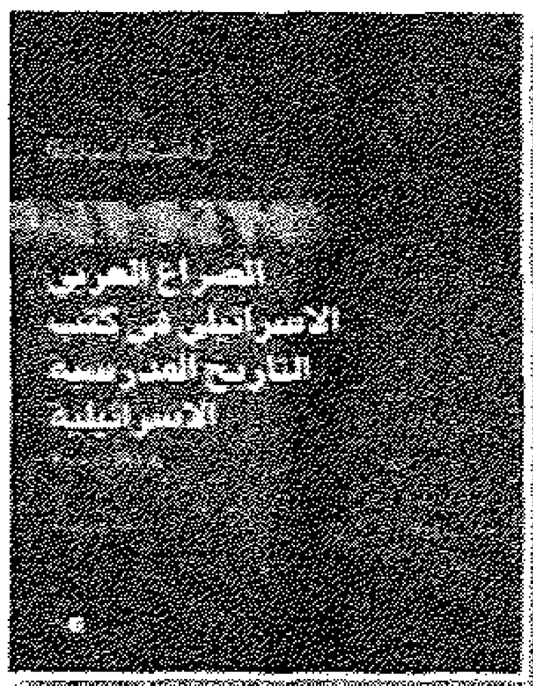

الترجمات (14 عنواناً)



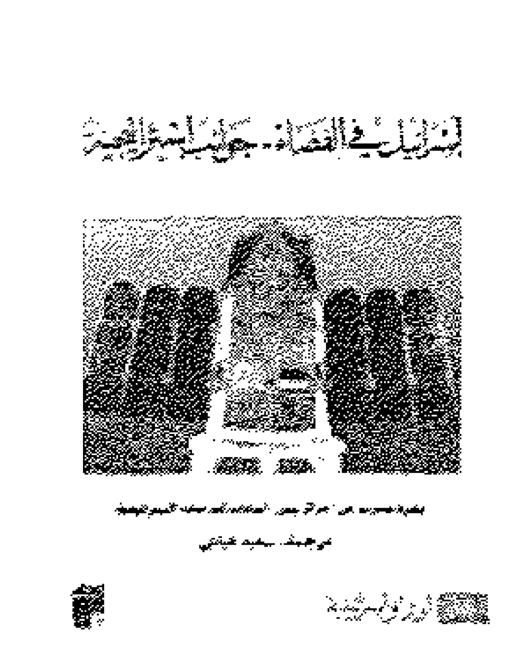
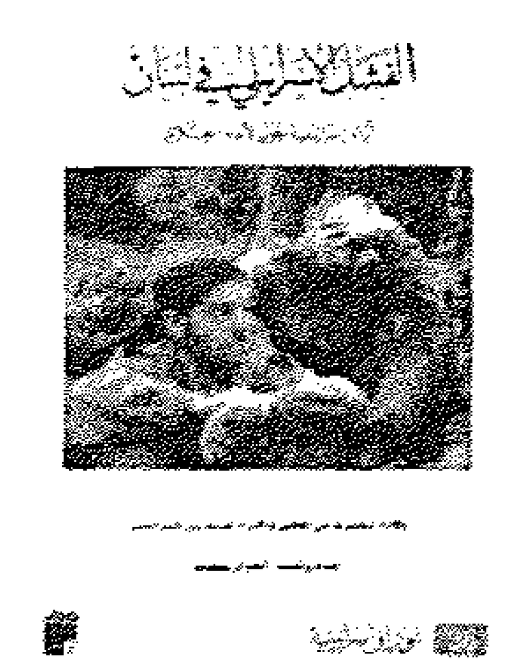








سلسلة "أوراق اسرائيلية" (40 عدداً)

فصلية "قضايا اسرائيلية" (26 عدداً)





التقرير الاستراتيجي



(3 أعداد)

للحصول على الاصدارات ولمزيد من المعلومات زوروا مواقع مدار

http://www.madarcenter.org

رام الله - فلسطين، ص.ب 1959، تلفون: 2966201 2 970 + ، فاكس: 2966205 2 970 +

Email: madar@madarcenter.org

مدار MADAR

الاسرائيلي المشهد

موقع متجدد وملحق صحافي نصف شهري

http://almash-had.madarcenter.org

بنك معلومات مدار MADAR DATA BANK

بنك معلومات مختص بالشؤون الاسرائيلية باللغة العربية

http://databank.madarcenter.org

نظرة شاملة

تشك وحدة الاستخبارات الاقتصادية فيما إذا كانت التعديلات الدستورية العديدة، التى طُرحت على الشعب المصرى للاستفتاء فى السادس والعشرين من مارس عام ٢٠٠٧، تمثل تقدمًا حقيقيًا فى عملية الإصلاح السياسية. فقد استمر إحكام السيطرة السياسية خلال عام ٢٠٠٦، الذى كان الدافع وراءه، إلى حد ما، الأداء القوى لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة فى الانتخابات البرلمانية التى أجريت فى عام ٢٠٠٥، حتى عام ٢٠٠٧ . ونحن قلقون من أن الكثير من التعديلات الجديدة سوف يؤدى إلى تقييد الحريات المدنية. غير أن الحكومة سوف تمضى فى برنامجها الخاص بالإصلاح الاقتصادى القائم على تقدير أن النمو الاقتصادى القوى والمستدام الذى سوف يرفع مستويات المعيشة هو أفضل طريقة للحد من جاذبية الإسلاميين. فمن المتوقع حدوث المزيد من عمليات الخصخصة والاستثمارات الكبيرة فى البنية التحتية للبلاد فى ٢٠٠٧-٢٠٠٨ . وفى عام ٢٠٠٦ كان متوسط التضخم ٧.٧٪، ونحن نتوقع أن يرتفع إلى ٨.٦٪ فى عام ٢٠٠٧، قبل أن يهبط إلى ٤.٥٪ فى عام ٢٠٠٨ مع تقييد السياسة النقدية.

الرؤية السياسية

السياسة الداخلية

ليس هناك الكثير من الدلائل التى تشير إلى أن الإصلاح السياسى سوف يحرز تقدمًا فى مصر فى أعقاب الاستفتاء الذى أجرى فى السادس والعشرين من مارس على العديد من التعديلات الدستورية التى اقترحها الرئيس حسنى مبارك. وتعتقد وحدة الاستخبارات الاقتصادية أنه من غير المرجح أن يخفف الإصلاح الدستورى من إحكام سيطرة الرئيس وحزبه الوطنى على العملية السياسية المصرية. ويبدو أن التعديلات الدستورية التى تمت الموافقة عليها بأغلبية قدرها ٧٥ بالمائة (ولكن بنسبة حضور بلغت ٢١-٢٣٪ حسب تقديرات الصحافة المحلية) كانت محاولة من النظام الحاكم لدعم مشروعيته ووضع إطار يبدو شفافًا لضمان خلافة المرشح الذى تتم الموافقة عليه عند وفاة الرئيس أو تقاعده. ومن المحتمل أن يكون ابنه الأصغر جمال مبارك، بالرغم من النفى الرسمى لذلك. ومن المرجح أن يقوم النظام الحاكم الجديد على تعزيز أحزاب المعارضة المشروعة المختارة كى تشارك بفاعلية أكبر فى العملية السياسية. ومع ذلك فإن مصداقية المعارضة المصرية المشروعة متدنية بعد سنوات من الفشل فى إضعاف قبضة النظام. وعلاوة على ذلك، سوف يؤدى الكثير من التعديلات فى الواقع إلى المزيد من القيود على الحريات المدنية. وهناك كذلك احتمال متزايد للتلاعب فى الانتخابات، حيث إن أحد التعديلات يلغى الإشراف القضائى على الانتخابات. وسوف تستمر الحكومة فى إحكام قبضتها على الجماعات المعارضة التى انتهزت فرصة الثغرات الأكثر تواضعاً فى الفضاء السياسى بمصر منذ عام ٢٠٠٥، بما فى ذلك القضاء المستقل، وصحافة المعارضة، والناشطون اليساريون المنتمون لحركة كفاية، والإخوان المسلمون، بشكل خاص.

سوف يعنى الاتجاه المتزايد المؤيد للحركة الإسلاموية داخل المجتمع المصرى أنه من المرجح أن تبدى الحكومة اهتماماً خاصاً بالخطر المحتمل الذى يمثله الإخوان المسلمون، الذين يظلون القوة المعارضة الوحيدة القادرة على تعبئة التأييد الشعبى الضخم. وقد نُظِر إلى الأداء القوى للمنتمين إلى الإخوان المسلمين فى الانتخابات البرلمانية التى أجريت فى نوفمبر وديسمبر من عام ٢٠٠٥، حين فازوا بثمانية وثمانين مقعداً من مقاعد مجلس الشعب وعددها ٤٥٤ مقعداً تمثل أكثر من نصف المقاعد التى تنافسوا عليها، على أنه ينذر بخطر محتمل فى المستقبل يهدد استقرار النظام الحاكم. ومنذ ذلك الحين أصبح الإخوان المسلمون على قدر كبير من الإصرار، حيث ينظمون الاحتجاجات العامة ومظاهرات الشوارع، وكذلك مواجهة الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم، الذى لا يزال يشغل ٧٠٪ من مقاعد البرلمان، على نحو أكثر وضوحاً وصراحةً تحت قبة مجلس الشعب. ومع أن قيادة الحركة مازالت تؤيد

الحالة المصرية



وحدة الاستخبارات الاقتصادية (الايكونوميست)

Egypt at a glance: 2007- 08
The Economist Intelligence Unit
April 2007

ترجمة: أحمد محمود

الإستراتيجية المتحفظة طويلة المدى. فمن المحتمل أن تسعى العناصر الشابة داخل حركة الإخوان المسلمين إلى الدخول في صدام مع النظام الحاكم في وقت أقرب. ولذلك فمن المرجح أن يستمر إحكام الحكومة لقبضتها على الحركة، مع إلقاء القبض من حين لآخر على القيادات الرئيسية. وفي الوقت نفسه سوف تُستخدم الإجراءات القانونية العديدة للحد من دور الجماعة في الحياة السياسية، بما في ذلك التعديل الدستوري الذي يعزز الحظر على استخدام الدين في السياسة؛ واستخدام القوائم الحزبية في الانتخابات البرلمانية، لمنع الأفراد من دخولها كمرشحين مستقلين؛ وتخفيف الإشراف القضائي على الانتخابات، الذي من المرجح أن يدعم نفوذ الحزب الوطني الديمقراطي على المستوى المحلي؛ وإضعاف الجمعيات التي كان فيها للإخوان المسلمين دور قيادي فيما مضى. وفي النهاية سوف تسعى الحكومة إلى تحسين صورتها، وخاصة في المناطق الأكثر حرمانًا من الناحية الاقتصادية في البلاد، مع مبادرات سياسية جديدة لمحاربة الفقر، وتشجيع الاستثمار، وتحسين الحصول على الخدمات الاجتماعية والصحية، في محاولة منها لاقتحام واحدة من نقاط قوة الإخوان المسلمين التقليدية، وهي توفير الخدمات الاجتماعية.

العلاقات الدولية

سوف تظل العلاقات قوية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية، وإن كانت تلك العلاقة سوف تتعرض لضغوط من حين لآخر، بسبب عوامل مثل الطلبات الأمريكية الخاصة بتحرير النظام السياسي المصري، والفزع المصري من الطابع الأيديولوجي للسياسات الأمريكية في ظل رئاسة جورج بوش. وبينما تسعى الولايات المتحدة للحصول على دعم مصر في تنفيذ سياساتها الأساسية في الشرق الأوسط، تعتمد مصر بشدة على المساعدات المالية الأمريكية وعلاقاتها التجارية مع الولايات المتحدة. وسوف يظل الاتحاد الأوروبي شريكًا مهمًا في كل من التجارة والدبلوماسية. غير أن مصر سوف تسعى كذلك لتعزيز علاقاتها مع حلفاء مثل روسيا والصين. كما أنها سوف تحافظ على العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، وإن كان من المرجح أن تتعرض تلك العلاقات لمزيد من التوتر إذا ما ظل الوضع في الأراضي الفلسطينية على ما هو عليه من تدهور، الأمر الذي سوف يذكي نار الغضب الشعبي المتنامي في مصر، ويضعف قدرة الحكومة على القيام بدورها التقليدي كوسيط إقليمي.

> «وحدة الاستخبارات الاقتصادية ناشر متخصص يخدم الشركات التي تنشئ وتدير عمليات عبر الحدود القومية. وكانت طوال ٦٠ عامًا مصدر معلومات عن التطورات التجارية، والاتجاهات الاقتصادية والسياسية، والقوانين الحكومية، وممارسات الشركات في أنحاء العالم.
> والشركة عضو في مجموعة «ذي إيكونوميست».»

توقعات السياسة الاقتصادية

الاتجاهات

تشمل خطة الحكومة الخمسية للفترة من العام المالي ٢٠٠٦/٢٠٠٧ (من أول يوليو إلى ٣٠ يونيو) إلى العام المالي ٢٠١٠/٢٠١١ هدفًا طموحًا، وهو أن يكون معدل النمو السنوي الحقيقي للناتج المحلي الإجمالي ٨٪. حيث تعترف بالحاجة إلى نمو اقتصادي سريع ومستدام لتقليل عبء الدين العام الكبير نسبيًا ولخفض معدل البطالة. وتدور هذه النسبة من الناحية الرسمية حول ١٠٪ من عدد السكان، وإن كان من المرجح أن يكون معدل البطالة الحقيقي قريبًا من ٢٠٪. وترتكز أهداف الحكومة على عملية الإصلاح والتحرير الجارية التي بدأت عندما تولى رئيس الوزراء أحمد نظيف وأعضاء مجلس وزارته ذوو الاتجاه الإصلاحي السلطة في يوليو من عام ٢٠٠٤. وشملت الإجراءات التي تمت حتى الآن تخفيضات حادة في معدلات ضرائب الدخل والرسوم الجمركية، والمزيد من التخفيضات المعتدلة في دعم الوقود. كما أحيا مجلس الوزراء عملية الخصخصة (وتشمل بيع الأصول المملوكة للدولة لمستثمرين أجانب)؛ وانتقل إلى دعم القطاع المصرفي الذي يعاني من المشاكل، لتحسين الحصول على التمويل للقطاع الخاص، وبدأ في مراجعة التشريعات التجارية.

ومن المتوقع أن تستمر الإصلاحات المقبلة على نحو متشابه، وإن كانت بسرعة منتظمة، حيث تدرك الحكومة احتمال حدوث التفكك الاجتماعي الناتج عن التحرر الأسرع من اللازم في حال عدم وصول فوائد الإصلاح إلى عموم السكان. وسوف تراعي الحكومة بشكل خاص المخاوف الشعبية بشأن عملية الخصخصة. المصالح الخاصة المعارضة للإصلاح داخل بيروقراطية الدولة المتخمة، وكذلك، وهو الأهم، الآثار التي ستقع على الفقراء نتيجة للإلغاء التدريجي المقترح للدعم الشامل على الوقود والسلع الغذائية الأساسية. ونتيجة لذلك سوف تخفض الحكومة فقط عجز الموازنة العامة للحكومة على نحو تدريجي. وسيظل من المحتمل أنه في حال تراخي الالتزام بالإصلاح ألا يظل النظام الاقتصادي قويًا بما يكفي. وقد لا تتسارع الخصخصة بما يكفي لتوليد الوظائف وعائدات الضرائب بالقدر الذي يقلل العجز في الحساب المالي.

السياسة المالية

تشير البيانات الصادرة عن وزارة المالية إلى أن عجز الحكومة المركزية انخفض إلى ٧٫٩٪ من الناتج المحلي الإجمالي في العام المالي ٢٠٠٥/٢٠٠٦ مقابل ٨٫٣٪ في العام المالي ٢٠٠٤/٢٠٠٥، بما في ذلك العائدات غير العادية نتيجة لبيع الأصول. وهي ممارسة محاسبية قياسية في مصر. ومن المرجح أن تظل زيادة الإنفاق قوية في فترة التوقعات. وهو ما يعود في جزء منه إلى التكاليف التي ترد مرة واحدة وتتصل بالإصلاحات الاقتصادية. وبالإضافة إلى ذلك، سوف يظل التضخم المتزايد وأسعار الطاقة المرتفعة تمنع الحكومة من ترشيد مدفوعاتها بشأن شبكة السلامة الاجتماعية (بشأن الدعم على نحو خاص)، وإن كان نشاط القطاع الخاص سوف يتحسن. وسوف تدعم التوسع الضخم في الإنفاق زيادات الأجور في القطاع العام التي تحركها التعهدات التي قُطعت أثناء حملات انتخابات الرئاسة في عام ٢٠٠٥. وسوف يزيد الإنفاق كذلك بسبب مدفوعات الفوائد المرتفعة على الدين المحلي التي كانت تقدر بـ ١٠١٪ من الناتج المحلي الإجمالي في نهاية يونيو من عام ٢٠٠٦. ومع ذلك فسوف تتحدد الزيادة الأقوى في عائدات ضرائب الدخل في أعقاب الانخفاض الحاد لضرائب الشركات والأفراد في العام المالي ٢٠٠٥/٢٠٠٦ مع التوسع في عائدات الجمارك، حتى بعد خفض التعريفة الجمركية في فبراير (بفضل زيادة حجم الواردات)، مما يعوض زيادة النفقات جزئيًا. ونتيجة لذلك فإننا نتوقع أن يقل عجز الميزانية إلى ٦٫٧٪ من الناتج المحلي الإجمالي في العام المالي ٢٠٠٦/٢٠٠٧ و٣٫٧٪ في العام المالي ٢٠٠٧/٢٠٠٨.

ويوحي حذر الحكومة القديم بشأن تقليص الدين الخارجي بأنها سوف تمول العجز بصورة كبيرة من خلال الاقتراض الداخلي. ومع ذلك فسوف تستمر الخصخصة. وسوف يُستخدم جزء من عائد بيع الأصول في تسديد الدين المحلي. ويعني هذا أن إجمالي الدين المحلي، الذي زاد زيادة حادة في السنوات الأخيرة، سوف يبدأ في الانخفاض من جديد باعتباره جزءًا من الناتج المحلي الإجمالي، ومن المتوقع أن ينخفض إلى ١٠٠٪ بحلول نهاية يونيو ٢٠٠٧ وحوالي ٩٩٪ بحلول نهاية يونيو ٢٠٠٨.

السياسة النقدية

كانت الإدارة النقدية للبنك المركزي المصري أكثر تماسكًا منذ تعيين فاروق العقدة محافظًا للبنك في عام ٢٠٠٣. وفي عهد العقدة

طرح البنك المركزى المصرى مجموعة من الأدوات للتأثير على الظروف النقدية وبدأ يتحرك صوب استهداف التضخم. ومع ذلك فإن الإجراءات تحتاج إلى بعض الوقت كى تعمل بالشكل الصحيح. وقد دفع الارتفاع الحاد فى التضخم فى النصف الثانى من السنة البنك المركزى المصرى إلى رفع سعر التدخل الأساسى الخاص به مرتين فى عام ٢٠٠٦. وفى الرابع عشر من شهر ديسمبر رُفِع سعر فائدة الودائع قصيرة الأجل بمقدار ٢٥ نقطة أساس ليصل إلى ٨,٧٥٪ و١٠,٧٥٪ على التوالى. وبما أنه من المرجح أن تظل الضغوط التضخمية قوية على المدى المتوسط، فإننا نتوقع أن يرفع البنك المركزى المصرى أسعار الفائدة مرة أخرى فى عام ٢٠٠٧ وعام ٢٠٠٨ .

النمو الاقتصـــــادى

رؤيتنا بالنسبة لتوقعات النمو فى مصر إيجابية بصورة عامة. فقد عزز أداء السياحة النشط وإصلاحات الحكومة الاقتصادية التوقعات الخاصة بالاستهلاك الخاص ونمو الاستثمارات. كما جرى تعزيز التوسع فى الطلب المحلى من خلال تخفيض معدلات ضرائب الدخل بالنسبة للأفراد والشركات فى العام المالى ٢٠٠٥/٢٠٠٦ . وبدعم من الطلب المحلى القوى، زاد الناتج المحلى الإجمالى بنسبة ٦,٨٪ فى العام المالى ٢٠٠٥/٢٠٠٦ . وتشير آخر البيانات إلى أن نمو الناتج المحلى الإجمالى الحقيقى هبط هبوطًا هامشيًا إلى ٦,٦٪ فى الربع الثانى من العام المالى ٢٠٠٦/٢٠٠٧ (أكتوبر - ديسمبر)، بعد بلوغه ٧٪ فى الربع الأول.

على امتداد العامين المقبلين، نتوقع أن يحصل الاستثمار على دعم من ثقة الأعمال المتزايدة، حيث تواصل الحكومة مساعيها التشريعية والإدارية لتحسين بيئة الأعمال، وحيث تزداد الخصخصة سرعة. كما أن عددًا من مشروعات البنية التحتية كبيرة الحجم سوف يدعم الاستثمار، حيث ستساعده فى ذلك السيولة القوية التى يحركها النفط فى الخليج. ومع ذلك فسوف تقيد التوسعَ إلى حد كبير زيادةُ الواردات المنتعشة التى يشجعها كل من طلب المستهلكين وطلب المستثمرين، حتى وإن بشرت مشتريات السلع الرأسمالية بقوة الاقتصاد فى المستقبل. وسوف يعوِّض الانخفاضَ الطفيفَ فى طلب المستهلكين مع زيادة أسعار الفائدة (تضاءلت القوة الشرائية بسبب زيادة التضخم فى عام ٢٠٠٧) طلبُ المستثمرين فى العام المالى ٢٠٠٦/٢٠٠٧ . ومع ذلك فإن الزيادة النشطة فى الواردات تعنى أنه من المرجح أن يتباطأ التوسع الاقتصادى الحقيقى تدريجيًا اعتبارًا من النصف الثانى من عام ٢٠٠٧ . وعلاوة على ذلك فإنه من المرجح أن يكون لفرض رسوم التصدير الأخيرة على الصلب والأسمنت أثر سلبى طفيف على زيادة الصادرات فى عام ٢٠٠٧. ولذلك فنحن نتوقع زيادة هامشية فى النمو الاقتصادى إلى ٦,٩٪ فى العام المالى ٢٠٠٦/٢٠٠٧، قبل حدوث هبوط طفيف إلى ٦,٦٪ فى العام المالى ٢٠٠٧/ ٢٠٠٨، حيث يحول دون زيادته التوسع الأبطأ فى التجارة العالمية وأسعار الفائدة المحلية المرتفعة. ومع ذلك فسوف تظل زيادة أسعار الفائدة ضعف ما كانت عليه تقريبًا من ارتفاع فى الجزء الأول من العقد.

التـــضـخـــم

ارتفع معدل التضخم بقوة فى النصف الثانى من عام ٢٠٠٦ ليصل متوسطه فى العام كله إلى ٧,٧٪. وبعد الثبات فى شهر يناير، ارتفع معدل التضخم مرة أخرى فى شهر فبراير ليصل إلى ١٢,٦٪ فى العام، ونتوقع أن يظل مؤشر أسعار المستهلك مرتفعًا فى النصف الأول من عام ٢٠٠٧، اعتمادًا على الطلب المحلى القوى وأسعار الأغذية الآخذة فى الارتفاع. واعتبارًا من النصف الثانى من عام ٢٠٠٧ وفى عام ٢٠٠٨ لابد أن يقيد زيادةَ الأسعار استقرارُ سعر صرف الجنيه مقابل الدولار الأمريكى (وغيره من العملات الرئيسية الأخرى) وكذلك هبوطُ متوسط أسعار السلع غير النفطية العالمية. وبالإضافة إلى ذلك، لابد أن يمكِّن التحسن فى الإطار النقدى من وجود سيطرة أكثر فاعلية على السيولة. ولابد أن تسمح تلك العوامل للسلطات بخفض متوسط معدل التضخم إلى حوالى ٥,٤٪ مقابل ٨,٦٪ فى عام ٢٠٠٧.

ملخص التوقعات: (٪ ما لم يُشر إلى غير ذلك)

	٢٠٠٥ أ	٢٠٠٦ أ	٢٠٠٧ ب	٢٠٠٨ ب
زيادة الناتج المحلى الإجمالى الحقيقى	٥,٤	٨,٦	٩,٦	٦,٦
زيادة الإنتاج الصناعى	٠,٥	٦,٦ج	٧,٧	٧,٥
الزيادة الإجمالية للإنتاج الزراعى	٣,٣	٢,٣	٥,٤	٢,٣
تضخم سعر المستهلك (متوسط)	٩,٤	٧,٧	٦,٨	٥,٤
سعر الإقراض ـ د	١,١٣	٦,١٢ج	٩,١٢	٣,١٣
الموازنة الحكومة (٪من الناتج المحلى الإجمالى)	٣,٨-	٩,٧-	٦,٧-	٣,٧-
صادرات السلع مسلَّمة على ظهر السفينة (مليار دولار أمريكى)	١,١٦	٠,٢١ج	١,٢٦	٦,٣٠
واردات السلع مسلَّمة على ظهر السفينة (مليار دولار أمريكى)	٢,٢٧	٠,٣٣ج	٤,٣٨	٨,٤٣
موازنة الحساب الجارى (مليار دولار أمريكى)	٢,٢	٧,٢ج	٥,٣	٠,٣
موازنة الحساب الجارى (٪من الناتج المحلى الإجمالى) هـ	٢,٢	٣,٢ج	٦,٢	١,٢
الدين الخارجى (السنة كلها: مليار دولار أمريكى)	١,٣٤	٥,٣١ج	٩,٣٠	٣,٣٠
سعر صرف الجنيه مقابل الدولار الأمريكى (متوسط)	٧٨,٥	٧٣,٥	٧,٥	٧٣,٥
سعر صرف الجنيه مقابل ١٠٠ ين (متوسط)	٢٥,٥	٩٤,٤	٨٧,٤	٥٤,٥
سعر صرف الجنيه مقابل اليورو (متوسط)	٢٠,٧	١٩,٧	٥٨,٧	٧٥,٧
سعر صرف الجنيه مقابل حق السحب الخاص (متوسط)	٥٤,٨	٤٣,٨	٦٦,٨	٨٧,٨

(أ) فعلى. (ب) توقعات وحدة الاستخبارات الاقتصادية. (ج) تقديرات وحدة الاستخبارات الاقتصادية. (د) المتوسط السنوى.
(هـ) نسبة قائمة على الناتج المحلى الإجمالى السنوى: تستخدم الحسابات القومية السنة المالية.

أسعار صرف العملات

نتيجة لتقوية تدفق العملات الأجنبية والتحسينات الكبيرة فى الإطار السياسى، زادت قيمة الجنيه معظم عام ٢٠٠٦، من متوسط يقدر بحوالى ٥,٧٨ جنيه للدولار الأمريكى فى عام ٢٠٠٥ إلى متوسط يقدر بحوالى ٥,٧٣ جنيه للدولار الأمريكى فى عام ٢٠٠٦. ومع ذلك فلم تُضار الصادرات المصرية بشكل كبير بفضل مدى الانخفاض الأوسع فى قيمة الجنيه منذ بداية عام ٢٠٠٠. وفى عام ٢٠٠٧، وبالثقة فى قوة العملة والتدفق المستمر لرأس المال الأجنبى، نتوقع زيادة صغيرة أخرى فى قيمة الجنيه ليصل فى المتوسط إلى ٥,٧٠ جنيه للدولار الأمريكى. ونتوقع أن تحاول الحكومة إحداث خفض بسيط فى قيمة العملة فى عام ٢٠٠٨ لمصلحة الصادرات غير النفطية، وهو ما ينبغى أن يؤدى إلى سعر صرف قدره ٥,٧٣ جنيه للدولار الأمريكى فى المتوسط.

القطاع الخارجى

سوف يتسع العجز التجارى فى العام المالى ٢٠٠٧/٢٠٠٨ ليصبح حوالى ١٢,٨ مليار دولار أمريكى فى المتوسط. وسوف يعوِّض إنفاقُ الاستيراد القوى، الذى تنعشه أسعار النفط التى لا تزال مرتفعة والنمو الاقتصادى السريع، الارتفاعَ فى أرباح صادرات الهيدروكربونات من الغاز، وكذلك الزيادة فى عائدات الصادرات غير النفطية. وسوف يتسع الفائض غير السلعى تدريجيًا، حيث تعوِّض الزيادة فى عائدات السياحة وتحويلات العاملين فى الخارج وعائدات قناة السويس إلى حد كبير الزيادة فى تعويض الأرباح الذى سوف يرتبط بقطاع الغاز. وسوف تعوِّض زيادةُ فائض السلع غير المنظورة زيادةَ العجز التجارى فى عام ٢٠٠٧، وبذلك سوف يزداد فائض الحساب الجارى فى عام ٢٠٠٧ ليصل إلى ٢,٦٪ من الناتج المحلى الإجمالى مقابل ٢,٣٪ (٢,٧ مليار دولار أمريكى) فى عام ٢٠٠٦ . وسوف يؤدى العجز التجارى الأكبر فى عام ٢٠٠٨، حيث تتباطأ الزيادة فى أرباح الصادرات، إلى تقليل فائض الحساب الجارى إلى ٣ مليارات دولار أمريكى (٢,١٪) من الناتج المحلى الإجمالى. ■

ما بعد "الخطوة الأولى"



رشيد محمد رشيد

أود بداية أن أعبر لكم عن تقديري وشكري لمؤسستكم الموقرة على دورها الإيجابي في العمل على تنمية ودعم التوجهات الإصلاحية في مصر فضلا عما تقوم به من دعم ومساندة للعلاقات الاقتصادية المصرية الأمريكية.

لقد سبق أن أتاحت الغرفة الأمريكية لى نفس الفرصة في ١٢ سبتمبر ٢٠٠٤ عندما وجهت لى الدعوة للقاء أعضائها وإلقاء كلمة حول: «رؤية وأهداف وزارة التجارة الخارجية والصناعة » في ذلك الوقت ـ التى أصبحت منذ ديسمبر ٢٠٠٥ وزارة التجارة والصناعة بعد ضم وزارة ثالثة إليها وهى وزارة التجارة الداخلية ـ وقد كان هذا اللقاء هو أول محفل عام عرضت من خلاله رؤية الوزارة وأهدافها. وقد امتد العرض ليشمل محاور عمل الوزارة وأولوياتها بغرض التعرف على وجهة نظر مجتمع الأعمال في التنمية الصناعية بوجه خاص والتنمية الاقتصادية بوجه أشمل.

وفى ذلك اللقاء عرضت عليكم رؤية الوزارة والمتمثلة في النهوض بقطاع الصناعة ليصبح القطاع المحرك للنمو الاقتصادي من خلال جذب الاستثمارات الصناعية وتوليد المزيد من فرص العمل والنهوض بالمستوى العلمى والتكنولوجى للدولة، كما اشتملت رؤية الوزارة على تحويل سياسة التجارة الخارجية من سياسة الإحلال محل الواردات التي قامت خلف أسوار عالية من الحماية الجمركية إلى سياسة تقوم على تشجيع الصادرات من خلال تحرير الاقتصاد القومى والانفتاح الإيجابي على المحيطين الإقليمي والدولي وتحقيق الاندماج الفعال في السوق العالمية، الأمر الذى يسمح بتنمية القدرة التنافسية للصناعة المصرية وزيادة قيمة الصادرات الإجمالية عامة والصناعية خاصة بالإضافة إلى فتح أسواق جديدة لها.

وقد تمثلت أهداف الوزارة في ذلك

محاضرة أمام الغرفة التجارية الأمريكية بالقاهرة
١٥ مايو ٢٠٠٧

التاريخ في زيادة معدل الاستثمار الصناعى إلى ٦٪ فضلا عن تحقيق ١٧٪ معدل زيادة في أرقام الصادرات السلعية.

اليوم أستطيع أن أعلن لكم أن ما حدث في العامين والنصف الماضية فاق كل توقعاتي الخاصة. كان معدل نمو الصادرات في العام الماضي ٤٦٪ ومعدل النمو الصناعي اليوم ٧٪ وتعرف أننا نستطيع أن نحقق ٨٪ قبل نهاية هذا العام.

استثماراتنا في الصناعة كانت ٥.٦ بليون جنيه مصري في عام ٢٠٠٤، وبعد سنة وصلت إلى ١٢.٧ بليون جنيه، وفي السنة التالية كانت ١٦.٤ بليون جنيه. وفي الشهور الستة الأولى لهذه السنة حققنا ١٨ بليون جنيه. إذن نأمل بأن نتمكن هذا العام من مضاعفة ما حققناه في العام الماضي، أي ستة أضعاف ما كان لدينا في ٢٠٠٣.

أقيم هنا، خلال الأشهر الاثنى عشر الماضية فقط، ٨٥٢ مصنعا باشر بالإنتاج. مائة وثمانية وستون منها تطابق معايير تعهد الرئيس في برنامجه الانتخابي بإقامة ألف مصنع ولدينا ١٤٠٠ مصنع في مصر اليوم تحت الإنشاء. لدينا مناطق صناعية أهلية لأول مرة في مصر ستظهر في أماكن متعددة من البلاد. لقد شهدنا تقدما ملحوظا في القطاع الخاص، ونحن في وزارة التجارة والصناعة نجحنا في العام الماضي في تطوير مهارات ٥٦ ألف عامل في السوق. ولدينا التزام هذا العام بتطوير مهارات نصف مليون. سوف يستفيد من هذا البرنامج خمسمائة ألف شاب وشابة في مصر. وتشعر الحكومة أن هذا سيكون مساهمة حيوية لتطوير العمالة وتطوير الصناعة.

اليوم نجني ثمار أفضل شبكات الاتفاقيات التجارية حول العالم. وأستطيع أن أقول لكم إنه حين أعرض هذا على زملائي، وزراء التجارة في العالم، أشعر بهم يحسدون ما نملك.. فلدينا اتفاقية التجارة الحرة مع أوروبا، والمناطق

الصناعية النوعية مع الولايات المتحدة. واتفاقية التجارة الحرة مع الدول العربية ولدينا اتفاقية التجارة الحرة مع أفريقيا. وبحلول عام ٢٠١٠ ستكون لدينا اتفاقيات تجارة حرة مع كل دول البحر المتوسط. والأهم من كل هذه الاتفاقيات التجارية، هو أن كل هذه الاتفاقيات سارية حاليا لأن بعضها قد وجد من قبل ولكنها لم تفعل في حينها. لدينا صندوق الصادرات الخاص بنا والذي تضاعف ثلاث مرات ويوجد فيه حاليا ٢ بليون جنيه مصري وكان في عام ٢٠٠٤ أقل من ٦٠٠ مليون. لدينا برنامج تحديث صناعي تم تطويره ويخدم اليوم ٨٠٠٠ وحدة في مصر.

الرقم الأكثر أهمية بالنسبة لي هو عدد المشاريع الصغيرة والمتوسطة. اليوم وبفضل قوانين التسجيل التجاري، شاهدنا نموا في إعداد الشركات الصغيرة والمتوسطة المسجلة في مصر، من معدل ٨٠٠ شركة في الأسبوع في عام ٢٠٠٤ إلى ٢٢٠٠ في الأسبوع عام ٢٠٠٧. أعرف أن هذا مجرد كم وليس نوعية، وهذا ليس نجاحا مضمونا، ولكنه يعكس روح المشاريع والاستثمار في مصر وقد تضاعفت ثلاث مرات في السنوات الثلاث الأخيرة.

لقد حدث الكثير منذ ٢٠٠٤، ولكننا - في الحكومة - نشعر بالقلق. أنا وزملائي نشعر بقلق شديد. لأننا نريد أن نحافظ على هذا التقدم. نريد أن نضمن أن ما بدأناه سوف ينمو ويستمر حتى بعد رحيلنا. قد لا نكون هنا في السنة القادمة ولكننا نريد للإصلاح أن يبقى. نريد أن تستمر البلاد في اتخاذ المزيد من الخطوات الإيجابية نحو ما نحلم به لمصر. وفيما يتعلق الأمر بي، لدي عدد من النقاط، تسبب لي الأرق في بعض الليالي. حين أفكر أننا إذا لم نحققها بصورة صحيحة فلن نستطيع أن نحافظ على هذه المنجزات. ولكني على يقين من أننا إذا استطعنا تنفيذها، وسوف نفعل ذلك، فسيساهم ذلك فعلا في الحفاظ على ما بدأناه. وإني أشارككم في أفكاري هذه لأني أومن بأن دور غرفة التجارة الأمريكية، مثل كل المنظمات التجارية، هو دور الشريك مع الحكومة من أجل



نريد أن نضمن أن ما بدأناه سوف ينمو ويستمر حتى بعد رحيلنا. قد لا نكون هنا في السنة القادمة ولكننا نريد للإصلاح أن يبقى

ضمان استمرارنا في خلق هذا الاستثمار الإيجابي وبيئة العمل الإيجابية.

سوف أسرد عليكم القائمة وأرجو أن تثير قلقكم كما تثير قلقي. وآمل أن تتمكنوا حقا من المشاركة في حل هذه القضايا وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل.

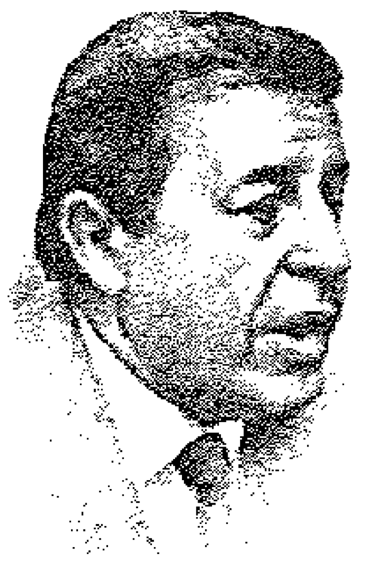
على رأس القائمة.. نحتاج إلى استمرار تطوير التعليم. نحتاج إلى إحداث فرق واضح في نظام التعليم لدينا. إننا نحاول ولكننا نحتاج إلى محاولات أكثر وأسرع. علينا ألا نخذل الجيل الجديد. لا نريد أن نسلم المزيد من أطفالنا وشبابنا إلى الضياع بسبب تعليم رديء. علينا أن نفعل ذلك اليوم قبل الغد. ونفس الشيء ينطبق على مرافق تطوير المهارات. الآن نواجه كل يوم الوضع المؤسف وهو أنه رغم وجود مئات الآلاف والملايين من الأيدي العاملة العاطلة، نستمر في الافتقار إلى الموارد والتعليم النوعي والمهارات النوعية التي تحتاجها كل أشكال الصناعات في هذه البلاد. علينا أن نردم تلك الهوة بسرعة. ينبغي أن يكون التركيز على تطوير المهارة، وهذا سهل على المدى القريب، ولكن التعليم يحتاج وقتا أطول وليس لدينا خيار: علينا أن نقوم بالاثنين معا في نفس الوقت.

القضية الثانية هي سياسات الطاقة. ما كان صالحا للأمس لم يعد صالحا للغد. لدينا قطاع طاقة ناجح جدا في مصر ولكن هذه ليست قضية خاصة بمصر. بل إنها قضية عالمية. فالطاقة أصبحت يوما بعد آخر مركز التنمية الاقتصادية في أي دولة. لم أزر أية دولة في أي مكان في العالم دون أن تكون الطاقة شاغلها الشاغل. وهذا ما يجب أن يشغلنا نحن أيضا في مصر وينبغي علينا فعلا معالجة هذا الأمر بأسلوب جاد ومهني. وأرجو أن نكون قادرين على الاستفادة من كل المحفزات والتسهيلات التي خلقتها الحكومة في الأشهر القليلة الماضية بضمنها مجلس الطاقة الذي أقامه رئيس الوزراء، وكل مبادرات الوزراء المختلفين لضمان أننا سوف نرسم سياسة طاقة تكون عونا لمصر بدلا من أن نجد أنفسنا في وضع خطير بعد خمس أو ست سنوات من اليوم.

القضية الثالثة هي التمويل. لقد حققنا الكثير فيما يتعلق بإعادة بناء البنوك في السنوات الثلاث الأخيرة. والنتائج مذهلة. لقد تم احتواء القروض غير المنجزة، وهذا من النجاحات الكبيرة التي لم تعلن لحد الآن بسبب طبيعة وحساسية الموضوع ولكني أستطيع أن أؤكد لكم أن هذا إنجاز كبير جدا تحقق في السنوات الثلاث الأخيرة ولكنه لا يكفي. نحتاج إلى ضمان تدفق الأموال إلى المجتمع. نحتاج لضمان زيادة مستوى تمويل البنوك للاقتصاد في مصر. نعلم أن هناك بعض الانحرافات في بعض الأماكن ولكننا نحتاج إلى التأكد من معالجة هذا.

القضية الرابعة هي البنى التحتية. وهي اليوم مشكلة في مصر. أرجو أن تكون البنى التحتية المستقبلية معيار المنافسة في مصر، ولا يمكننا أن نخسر ذلك الرهان. كلمة «جيدة» لم تعد صفة مناسبة للبنى التحتية. يجب استبدالها بكلمة «عظيمة». إن منافسينا في أنحاء العالم لا يملكون بنى تحتية «جيدة»، بل «عظيمة». سر نجاح الصين هو البنى التحتية. سر نجاح ماليزيا هو البنى التحتية. وكذلك في كل مكان من العالم اليوم. وأية دولة نامية تعلم اليوم أن البنى التحتية هي سر إخفاق أو نجاح اقتصادها. ويوما بعد يوم، مع نمو تجارتنا ونمو صناعتنا، يتزايد شعورنا بضغط البنى التحتية سواء في الموانئ أو السكك الحديدية وفي كل المرافق. ولدينا خطة رائعة لذلك. لدينا وزير مقتدر جدا. ونحتاج إلى مد يد العون إليه حكومة ومجتمعا، لأن البنى التحتية ستكون العامل الحقيقي الحاسم في المنافسة المستقبلية.

القضية الخامسة هي تنظيم السوق. وهنا أقترب أكثر من الوطن (مصر). لدينا مشكلة خطيرة في أسواقنا. في كثير من قطاعاتنا اليوم، هناك قطاع رسمي وآخر غير رسمي يصل إلى ٨٠٪. إننا لا نستطيع تنمية اقتصاد يعمل ٨٠٪ منه خارج النظام. لا نستطيع تنمية تجارتنا أو اقتصادنا أو ضرائبنا أو قواعدنا وقوانيننا في الوقت الذي يكون فيه معظم اللاعبين خارج النظام. حين اتخذت الحكومة خطوات، كان الجل الأعظم من نظام الضرائب الجديد قد ترسخ، وكانت خطوة إيجابية نحو تقليل فوضى



كيف يمكننا جذب المواهب إلى الحكومة في مصر. إن المشاكل التي تواجهها الحكومة في مصر هائلة وخطيرة ومعقدة جدا. ولن يحلها إلا أفضل العقول وأفضل المواهب في هذه البلاد

الاقتصاد. ولكن هذا ليس كافيا. علينا بذل المزيد. نحتاج إلى ضمان وجود انضباط في الأسواق. نحتاج إلى التأكيد من أن كل اللاعبين يفهمون قواعد وحقوق بعضهم البعض.

ومن أجل هذا الهدف، نضغط كثيرا على جهاز حماية المستهلك الذى أنشأناه. إن هذه ثقافة. وهي ليست شيئا أستطيع - وكنت أتمنى - أنا كوزير أن أصدر أمرا ينفذ في اليوم التالي. كنت أتمنى كوزير أن يكون لدي فريق تنفيذي يذهب إلى الأسواق ويشرف على تطبيق الأمر خلال أسبوع. لن يحدث شيء مثل ذلك.

نحتاج إلى مساعدة كل مجتمع الأعمال والمنظمات غير الحكومية وكل شعب مصر. علينا أن ندرك بأننا إذا أردنا جني ثمار التنمية الاقتصادية فإننا نحتاج إلى ضمان المزيد من انضباط أسواقنا.

قضيتي السادسة هي السيطرة على التضخم. وأدرك أن ضبط السوق سوف يؤثر على التضخم. هناك مشكلة تضخم. في عام ٢٠٠٤ كان نسبة التضخم رقما عشريا حوالي ١٧٪.

لقد استطعنا حقا إنقاصه إلى رقم فردي بما يقارب ٤٪ أو ٥٪. ولسوء الحظ واجهنا عددا من الظروف في الحكومة، سواء كانت أنفلونزا الطيور أو مصاريف أخرى غيرت الرقم، وإذ لا نستطيع تفادي حقيقة أن النمو الاقتصادي يقابله دائما رد فعل التضخم، ولكننا نعاني منه معاناة شديدة لا يمكن تجاهلها.

نعرف أن الملايين من شعب مصر لم يجنوا فوائد الإصلاح الاقتصادي ولكنهم أيضا لسوء الحظ لا يرون إلا الجانب المظلم ولا يمكننا التغاضي عن هذه الحقيقة أيضا. لا يمكننا أن نخفي رؤوسنا في الرمال وعلينا معالجة ذلك بطريقة جادة. سواء من خلال السياسات النقدية أو انضباط السوق، لئلا نترك فقراء مصر يدفعون وحدهم ثمن بدايات سنوات الإصلاح.

القضية السابعة خطيرة جدا. وهي كيف نكسر المعادلة. كيف يمكننا جذب المواهب إلى الحكومة في مصر.

إن المشاكل التي تواجهها الحكومة في مصر هائلة وخطيرة ومعقدة جدا. ولن يحلها إلا أفضل العقول وأفضل المواهب في هذه البلاد. وحتى يأتي الوقت الذي نتمكن فيه من خلق معادلة ونستطيع خلق بيئة تجتذب أفضل الشباب الماهر إلى الحكومة فإننا سوف نخفق في حل مشاكلنا بالسرعة والكفاءة التي نريدها.

كان من فضل الله ولحسن حظي أن يعمل معي أفضل الناس ولكن هذا أمر استثنائي وليس السائد في الحكومة، ولا أعلم إذا كان هذا يحدث عمدا، ولكننا نحتاج إلى كسر المعادلة. علينا أن نجد طريقة لإغراء أفضل الشابات والشبان للعمل في الحكومة المصرية. وعلينا أن نكون واقعيين، فلن نستطيع جذب الأفضل دون أن نقدم لهم الأفضل.

لا أتحدث عن الأجور فقط وإنما عن البيئة بكاملها والتي سوف تحفز هؤلاء الشباب على الالتحاق بالحكومة. ربما يكون الحافز ترقيات كبيرة في وظائفهم أو مكافآت من نوع ما.

لقد زرت كازاخستان الأسبوع الماضي والتقيت بوكيل وزارة التجارة وهو شاب نابه ألمعي في السابعة والعشرين من عمره. وما لم نحظ بظروف مشابهة في مصر، فكأننا لم نفعل شيئا.

يجب علينا ضمان أن يحظى الشباب في سن العشرينيات والثلاثينيات بفرص تسلم مسؤولية وزارات ليس لأنهم جيدون في المظهر وإنما لأنهم كذلك في الجوهر أيضا. وهكذا أظن أن علينا أن ندرس كيف يمكن خلق مثل هذه الظروف.

القضية الثامنة هي المسئولية الاجتماعية للقطاع الخاص. وهذه مسألة خطيرة جدا. لقد أوضحنا أننا نريد أن نقيم اقتصاد سوق. كما أوضحنا أن القطاع الخاص سوف يقود التنمية الاقتصادية في مصر. القطاع الخاص قائدا؟ حسنا. أليس من الأفضل أن يبدأ في اكتساب سلوك القادة؟

إذا أراد القطاع الخاص أن يقود عليه أن يتصرف مثل القادة. وأقول لكم إننا نحتاج إلى رؤية تطورات في هذا المجال. شخصيا أشعر بالفخر الشديد بوجود الكثير من الشركات المصرية المؤثرة في كل الميادين، ولكن كما قلت كان هذا خلال وقت كان القطاع الخاص فيه يناضل لإحراز مكانة. اليوم لديكم مكانتكم.

اليوم أنتم القادة. ونحتاج إلى رؤية أفعال القادة. قادة المجتمع وليس مجرد قادة في قطاع الأعمال. ليس قادة بمعنى كم تربح شركاتهم من مشاريعها ولكن بمعنى كم وكيف يساهمون في المجتمع وبأي قدر يساهمون في بناء مستقبل مصر.

وسوف أقتبس، وسأقول لكم لاحقا ممن؟

«لا يمكن بناء مستقبل مصر بدون منابر المجتمع المدني التي تخدم أغراضا محددة تعليمية وصحية واحتياجات اجتماعية أخرى. وفي نفس الوقت يقدمون قدوة في النهج الديمقراطي وأخلاقياته وقواعده. لن نستطيع أن نحوز ثقة الجماهير ومشاركتها بالإنتاج إلا بالعمل البناء الشفاف.

في الماضي حين أخفقنا وضعنا اللوم على الحكومات، فمن نلوم الآن إذا فشلنا؟»

هذا اقتباس من مقالة طاهر حلمي الرئيس الحالي لغرفة التجارة الأمريكية في مجلة بيزنس الشهرية. وأحسب أن الكلمات توضح ما أريد قوله. نحتاج أن يتصرف القطاع الخاص كقائد.

نريد قطاعا خاصا لا يتسامح ولن يسمح للشركات التي تغش في قضية الضرائب، ولن يتسامح ولن يسمح للشركات التي لا تحترم قوانين العمل ولن يتسامح أو يسمح للشركات التي لا تحترم قوانين المنافسة.

والأهم لن يتسامح أو يسمح للشركات التي لا تحترم المستهلكين ولا تبذل كل جهدها من أجل ضمان حقوقهم. نريد من المجتمع تبني هذه الأمور.

هذه ليست مهمة الحكومة وإنما مهمة مجتمع الأعمال. وأنا على يقين ومما أراه هنا، إننا يمكننا أن نقتدي بغرفة التجارة الأمريكية، وهي تستطيع أن تستمر في أداء دورها في المستقبل في خلق مثل هذه الظروف.

حسنا.. لقد أوضحت قضيتي. لم أقدم وعودا للمستقبل ولكن ما استعرضته هنا كان إنجازات العامين الأخيرين... أشكركم. ■

جمال الغيطاني

"المسافر خانة"

محاولة للبناء... من الذاكرة

مدخل

جرى ذلك عام ثمانية وتسعين من القرن الماضي، بالتحديد في أكتوبر..

كنت خارج الديار في رحلة عمل، عندما اتصل بي صاحب حميم، قرب نهاية المكالمة الهاتفية قال بأسى مازلت أذكر نبره:

«عندي لك خبر مؤسف .. لقد احترقت المسافر خانة»

نزل عليّ الصعق، أدركني خرس فلم أنطق، وهذا حال أعرفه عندي، أواجه به المصائب الفادحة، وشيئا فشيئا أعي، وربما تمت بعد ذلك، أو بكيت، أو صرخت، هكذا، أصابني كمد عميق، عميق، رغم أنني في حالة دائمة من التوقع لكل ما هو مزعج بالنسبة لآثارنا التي لم تعرف هوانا ولا إهمالا كما جرى خلال السنوات الأخيرة، ومازالت تعاني.

ولهذا تفصيل يطول شرحه، بالضبط كما يفقد الإنسان عزيزا غاليا، لا يصدق في البداية، ويظل الأمل الواهن في حدوث خطأ ما، يتبت معه بعد ذلك أن ما سمعته غير صحيح، وحتى الآن رغم مرور ثمانية أيام على اندلاع الحريق، يخالجني ذلك الإحساس الذي نعرفه بعد فقد الأحبة وذوي القربى، إننا سنمضي في الطريق ونفاجأ أمامنا بمن رحلوا، هكذا أتخيل في كل يوم أنني سأمضي إلى درب الطبلاوي، وأستمر إلى مدخلها الجميل، وأعبره إلى الفناء الداخلي، حيث الفن والتاريخ النادر واللحظات الأفلة بأصواتها النبيلة، لكن الواقع المرير كان فاجعا، وما جرى له دلالات أبعد وأعمق من حريق دمر أثرا نادرا لا يعوض، ولست مبالغا عندما أقول إن دمار المسافر خانة أخطر وأفدح من دمار الأوبرا عام واحد وسبعين.

لقد أصبح من قدرنا أن نصرخ محذرين، حتى إذا ضاعت حياتنا وحلت الكارثة نبدأ الرثاء، هكذا يتمزق العمر، بين تحذيرات لا سامع لها، ورثاءات لما نفقده ويضيع منا بلا رجعة بسبب الإهمال والفساد.

تطل المسافر خانة عليّ من أفق حياتي، من أقدم لحظاتي، إذ كنا نسكن الطابق الأخير من المنزل رقم واحد، عطفة باجنيد، حارة درب الطبلاوي، وكان سطح البيت مطلا على الكون، السماء من أعلى، والمآذن في الأفق الشرقي، والأهرام عند الغرب، وأسطح البيوت المحيطة بنا، كان بينها بناء لا مثيل له، هرمي الشكل من الخشب، وعندما بدأت أعي، عرفت أن هذا جزء من بناء قديم اسمه المسافر خانة، وعندما بدأت أسعى وأفهم، عرفت أن هذا الجزء اسمه (ملقف) وأن وظيفته جلب الهواء البارد إلى داخل الدار، بحيث تتم عملية تهوية طبيعية لجميع الغرف.

كان مبنى (المسافر خانة) في طفولتي مثيرا للغموض، للخشية، وللخيال، المكان مهجور، وفي الليل يكون خاويا إلا من حارس لا يزيد العمارة إلا غموضا، الذين دخلوا القصر قلة، والحكايات عديدة عن كنوز من الزمن مطمورة تحته، وممرات تحت الأرض، وأخشاب لا نظير لها، وكتابات سحرية فوق الجدران، كان البناء الفخم، الضخم، ذو الأسوار العالية، والمدخل الذي لا يكشف عما يحتويه الداخل بمثابة بؤرة بارزة في ذاكرة الوقت والمكان معا، وهذا ما يجعل لموضع معين طابع العتاقة والقدم.

كانت المسافر خانة في البداية موضعا لإثارة الخيال، والحنين، بؤرة للحفاظ على الماضي الذي يندثر ويولي أبدا، مع تقدمي في سنوات الطفولة سمعت من يقول إن ملكا وُلد في هذا القصر، ومع بدء المعرفة والاستيعاب علمت أنه الخديو إسماعيل.

يوميا منذ أن عرفت الضوء، والفرق بين الليل والنهار، والساعة والساعة كنت أطالع المسافر خانة.

يوميا منذ أن عرفت السعي، طفلا أو شابا أو كهلا الآن، كنت أتجه إلى المسافر خانة التي تقع في قلب القاهرة القديمة كجوهرة مغمورة، أصلها عبر طريقين، الأول اعتدت عليه من حارتنا درب الطبلاوي، والثاني من درب المسمط وكان ثقيلا على نفسي رغم أنه الرئيسي، وكلاهما الآن، لا يؤدي إلى المكان الذي كان، إلى القصر الذي يضارع الحمراء، وإيوان كسرى، وطوب قابي سراي، وصوله باشا، إلى ما لن نجده من الماضي أو الحاضر الذي التهمته النيران الآثمة.

كان فقد المبنى العتيق بالنسبة لي فقداً لمراحل من عمري الشخصي، وعند الفقد يلجأ الإنسان إلى الذاكرة، ومن خلال الذاكرة أحاول استعادة الجدران والأسقف والمشربيات والزمن اللا مرئي والمعنى الخفي.

الطريق إلى المسافر خانة

حارة درب الطبلاوي من مكونات المدينة القديمة التي تنتظم كبناء قصائد الشعر، مدخلها عند بداية شارع قصر الشوق، إلى يمين الداخل كان يقع دكان لبيع أدوات البياض من جير وألوان - زال الآن - وعمارة تنتمي إلى أواخر الأربعينيات، وإلى اليسار بيت فسيح ذو فناء عريض ويحمل سمات البيوت العتيقة، ملاصق تماما لمسجد سيدي مرزوق، أحد أجمل وأرق وأشجى المساجد التي رأيتها في حياتي، إنه منزل أسرة الشيخ شمس الدين، شيخ الطريقة الأحمدية المرزوقية، وكان بمهابته من علامات ذاكرتي، ما زال البيت في موقعه حتى الآن، وأذكر ليلة جاء إليه عدد من رجال الثورة، كان من بينهم حسين الشافعي وكمال الدين حسين، وقفوا في شرفة البيت الرئيسية بالطابق الأول، وخطبوا، وصفق المحتشدون، وزال هذا كله.


تتوالى المنازل متجاورة إلى نقطة تنقسم عندها الحارة إلى فرعين، الأول إلى اليمين، وأبرز ما فيه فرن الحاج نصيف. مغلقة الآن - ما بين الفرعين مساحة بها آثار بيت قديم، سمعت منذ طفولتي أنه شهد ميلاد الفنان عبد الوارث عسر.

يستمر الفرع الأيمن حتى ينعطف في النهاية إلى «عطفة باجنيد» وهنا نصل إلى نهاية الفرع، إذن حارة درب الطبلاوي تعتبر حارة سد، أي أنها لا تفضي إلى حارة أخرى، وكذلك الفرع الأيسر حيث مدخل قصر المسافر خانة، من هنا تميزت الحارة بالهدوء، وحميمية العلاقات بين الأسر التي تسكنها، كان الغريب يظهر بسرعة، وكان الباعة الذين يترددون عليها معروفين، لهم ترتيب، في الصباح باعة الخضار والبصل، واللبن، وفي الظهيرة باعة البطاطا والحلوى، وينتهي اليوم بقدوم عم مصطفى الذي كان يمسك بمقود جمل ضخم يحمل الذرة التي تم شيها في فرن الحاج نصيف بعد انتهاء الخبيز اليومي.

إلى الفرع الأيمن ينتمي عالمي الأمن، حيث اللعب، والدهشة الأولى، وميلاد المشاعر، وكان اجتياز الحارة إلى شارع قصر الشوق مغامرة، أما الوصول إلى الفرع الأيسر فأمر غير مرغوب بسبب المسافر خانة، ذلك القصر المهجور، والذي كان مادة خصبة، وموقعا يبث الخيال والطاقة.

الذين عرفوا المسافر خانة، كانوا يجيئون من الخارج إلى الداخل، لكنني عرفت الطريق إليها من الداخل إلى الداخل، كنت جارا للتاريخ، وللأسلاف الذين رحلوا، كنت أنظر في طفولتي إلى جدرانها الرمادية العالية، ومدخلها المواري، والذي لا يؤدي بالبصر إلى شيء محدد، ذلك أن تصميم البيوت القاهرية القديمة كان يعلي القيم الاجتماعية والنفسية والدينية، كان البيت كونا صغيرا، مكتفيا بذاته، سوف نجد هذه العناصر في بيوت الطبقة المتوسطة أو قصور الأمراء والأثرياء، أما أفراد الشعب العاديون فكان مأواهم الربع، أي البناء المربع الذي يضم عددا كبيرا من الغرف، أو المساكن التي يحتوي كل منها على أكثر من غرفة، أو الحوش، وهو للفئات الأشد فقرا، في القاهرة القديمة يتجاور القصر، والربع والحوش، في الحارة القاهرية نجد الأشد ثراء بجوار الفقير والدرويش وابن السبيل، وأزمنة ترث الأزمنة.

في الستينيات أتيح لي أن أدخل إلى المسافر خانة أول مرة، كانت مهملة تماما في ذلك الوقت، لا يعرف الطريق إليها سوى المتخصصين، ولكن حالتها العامة في ذلك الوقت، كانت أفضل مما رأيته قبل دمارها



الفناء كما يبدو من مدخل درب المسمط، ويبدو العمود وجزء من المشربية الكبرى

بأسبوع، خلال السنوات الأخيرة من الستينيات ألمت بتاريخها، وتعددت زياراتي لها.

في عام تسعة وستين نظم الدكتور ثروت عكاشة احتفالية كبرى بمناسبة مرور ألف عام على تأسيس القاهرة، وكان احتفالا من العلامات الثقافية الكبرى، كان ترميم الآثار في ذلك الوقت عملا علميا وليس من تخصص الشركات غير المعروفة في هذا المجال، أو قنطرة لأمور أخرى، تابعت عمليات ترميم البيت وتنظيفه، وفي أحد الأيام ظهر في المسافر خانة فنان وأديب من أخلص أبناء جيلنا، هو عز الدين نجيب، جاء كمشرف على القصر، وأصبح طريقي إلى المسافر خانة أساسيا في رحلتي اليومية، من الحارة إلى الحارة، من القلب إلى القلب.

ذاكرة الدرب

هكذا، عرفت قصر المسافر خانة بالمخيلة أولا عندما كنت طفلا صغيرا، حدود عالمي تتمثل في درب الطبلاوي ذي المدخل الواحد، المفتوح على شارع قصر الشوق وهذا الدرب الضيق كان على محدوديته ثريا، مفعما بالحياة،شريانا حيا من مئات مثله شكل تلك الشبكة المعقدة التي نعرفها باسم«القاهرة القديمة».

كيف يتحدد الفرق بين موضع وآخر؟

ما الفرق بين شارع المعز وشارع البطل أحمد عبد العزيز في مدينة المهندسين؟

معيار الفرق هنا العتاقة، والعتاقة هنا ناتجة عن تراكم جرى عبر أزمنة طويلة توالت ومرت وخلفت وراءها آثارا، بعضها منظور، ويتمثل في البناء، والتخطيط، والفنون التي تدركها الحواس، ومعظمها غير مرئي، لا يمكن تعيينه إلا بصعوبة، والحديث في ذلك يطول، لكن أهم ركائز العتاقة ثلاثة مكونات: المكان،الزمان، البشر.

في حارة درب الطبلاوي تتجاور المباني، بعضها حديث نسبيا، والآخر قديم، لماذا نقول: هذا حديث؟ وهذا قديم؟، الأمر يرجع إلى تلك المكونات، وبقدر توالي الجهد الإنساني وأنفاس البشر على موضع بعينه تكون القيمة والعتاقة، وبقدر ما يكون المكان عتيقا بقدر ما يعتبر مركزا من مراكز الذاكرة،من هنا كان«المسافر خانة» مركزا لذاكرة درب الطبلاوي، وأحد المراكز المكونة لعتاقة القاهرة الفاطمية.

لم نكن نعرف من «المسافر خانة» إلا أسوارها، أسوار مرتفعة، لون رمادي قاتم كسا الحجر الذي كان في الأصل أبيض منحوتا، وبالتالي كان الداخل كله محجوبا عن الأبصار، بل إن المدخل ذاته كان متواريا، إذ لا يفتح الباب على الطريق مباشرة، إنما ينتهي السور العالي بزاوية قصيرة نعرج معها فنجد أنفسنا في مواجهة البوابة التي تفضي إلى مدخل يعد فسيحا نسبيا، لكنه لا يؤدي بنا إلى مركز البناء، لا يسفر عما بداخله، هذا ملمح أساسي في تصميم جميع البيوت القاهرية القديمة، إذ يضع المصمم في اعتباره أن يحجب، فإذا كان البناء قصرا أو بيتا متوسطا ارتفعت الجدران، وتعامدت المداخل، وإذا كان البناء ربعا فقيرا، أو حوشا أفقر، فإن النوافذ تكون في أعلى الجدران قرب السقف حتى لا«يجرح» أحد البيت، ولنتأمل معا هذا التعبير القاهري بالغ الدلالة المستمد من الجرح، فالنظر يجرح، والجرح مؤلم.

لم يكن أحد يمكنه التطلع إلى المسافر خانة من الخارج وإدراك مكوناتها، لا بد من الدخول، لابد من ولوج، ولكي يتم هذا لابد أن تكون ثمة علاقة، ولأن البناء كان مهجورا، خاليا في هذا القرن، فلم يكن ممكنا للسكان في الدرب إلا إقامة علاقة مع الذكرى، مع الحيوات التي كانت واختفت، ولأن التفاصيل لم تكن معروفة، لذلك ينشط الخيال، وتتوالد التفاصيل، والحكايات، ويصبح المكان مصدرا لإثارة الخيال، وهذا شأن المباني القديمة في القاهرة كلها.

إن البشر إقامتهم مؤقتة، كلهم عابرون، وملامحهم تختفي مع الزمن، نحن نعرف أن محمود محرم شهبندر تجار القاهرة هو الذي شيد هذه الدار الجميلة، لكننا لا نعرف ملامحه، أو تفاصيل حياته، ما البال إذن بعشرات، بل مئات المجهولين الذين أقاموا في المسافر خانة عبر عصورها التي توالت عليه أو عبرها هذا البناء، من خدم وعمال وحراس وزوجات وأبناء في مراحل العمر المختلفة،ما مر بهم من ذكريات ومشاعر وما جرى بينهم من حوارات ومجادلات، وهؤلاء البناؤون الذين أقاموا تلك الجدران وشذبوا أحجارها، وتلك النقوش على الخشب،وهذه الخطوط.

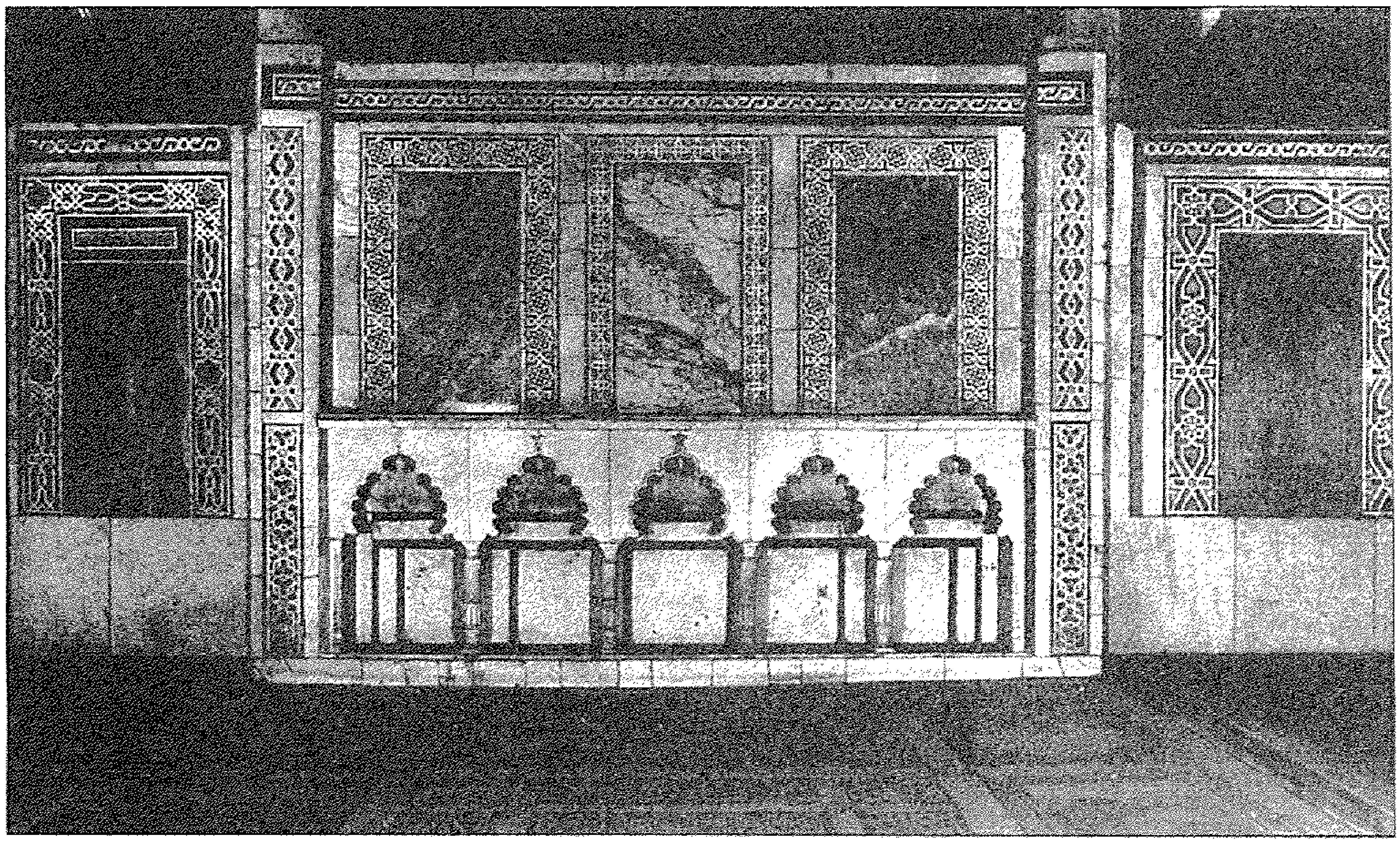
يشكل هذا كله ذاكرة المكان، ذاكرة الموضع، ويخطئ من يظن أن البشر الفانين، الراحلين يمضون فلا يتركون آثارا أو ما يشير إلى وجودهم.

صحيح أن هذه الآثار قد لا يمكن رصدها بالحواس، ولكن البشر المتعاقبين على موضع ما، يتركون ما يتراكم مع الزمن، ويشير إليهم ويدل، أو ما يندرك بالمخيلة، يصبحون جزءا من الذاكرة العميقة.

كانت «المسافر خانة» ركنا ركينا في درب الطبلاوي، وباختفاء القصر، فقد الدرب جزءا رئيسيا من ذاكرته، وفقدت القاهرة القديمة مركزا للاشعاع وبث الخصوصية، فهل نحن في مواجهة زمن يشهد مجموعة من الأحداث تستهدف تفريغ القاهرة من مضمونها الروحي، وإلغاء ذاكرتها خدمة وتنفيذا لدواعي العولمة، يتم هذا مرة باسم التطوير، ومرة بالحريق؟

تعدد المستويات

لم يكن قصر المسافر خانة مرجعا للفن المعماري العربي الإسلامي في مصر فقط، إنما كان ذاكرة للرؤية الفانية، لولا المعمار لاندثرت الأفكار والصياغات المؤدية إلى تجسيد النظرة التي كان يتطلع من خلالها القوم إلى الواقع اليومي، سوف نلاحظ في قاعة المجد أننا نقف أمام عدة مستويات للأرضية، لا



قاعة المجد، أكبر قاعات قصر المسافر خانة الذي أصبح ذكرى

تفاصيل السقف.. الدائرة رمز الكون وإشارة إليه

سقف القاعة الرئيسية، ومركزه الزخارف الرائعة التي التهمتها النيران

تمضى الأرضية فى مستوى واحد كما نجد فى العمارة الحديثة. إنما تتعدد.

الأرض سبع طباق.

السموات سبع.

الوجود كله من عدة مستويات، أيسرها للأفهام، ما نراه وما تدركه حواسنا. ولكن ثمة طبقات وآفاقا لا يمكن للحواس أن تدركها أو أن تجوس خلالها. كل استواء إلى انتهاء. لذلك عبر المعمارى المصرى بكل تراثه المتعدد أيضا عن الاختلاف.

فى قاعة المجد خمسة مستويات ظاهرة للبصر بمجرد عبور الباب، ثلاثة إيوانات متكاملة، شرقية وغربية وقبلية، تحدد مساحة كل منها أرضية من البلاط المربع الحجرى المصقول، نلاحظ خلو هذه الأرضية من الزخارف، ما يواجهنا لون الحجر فقط.

ينتهى المستوى الأول بما يشبه الدرج، هنا نرى إطارا مربعا من الرخام،وفيه تبدأ الزخارف، ذلك أننا أصبحنا أقرب إلى المركز، حيث مصدر المياه الذى ينتظم حوله التكوين.

مستطيل من الرخام الملون، أحمر قان، ياقوتى، زخارف يغلب عليها المثلث والمربع، يلى ذلك مستطيل أبيض رخامى المادة، يعبر البصر إلى وحدات مستطيلة، يتخلل بعضها دوائر متكاملة مزدوجة داخلها مثلثات صغيرة تنتظم متجاورة فى حركة دائرية، ثم نرى مستطيلا أكثر مساحة، مقسما إلى ثلاث وحدات متجاورة، اثنان باللون الرخامى الأبيض، والثالث ملون يميل إلى الخضرة ثم ينتهى الأمر إلى مربع بداخله دائرة، وتتكرر نفس الأشكال عند كل ضلع.

المربع يرمز إلى الجهات الأربع، والدائرة إلى شكل الكون، وما بين المستطيل والمربع وصلات من الأشكال النجمية المزخرفة، نلاحظ الفراغات الفاصلة، هنا فى المستوى الثانى يمتزج الأمران، الأبيض والملون، الفراغ والزخارف، ننزل بالبصر إلى المستوى الثالث،نزداد قربا من الماء، من قلب النافورة الزهرة.

الجوانب هنا مغطاة بزخارف من أقواس توحى بالبوابات، صغيرة، منمنمة، منفصلة، متصلة ببعضها، متساوية تماما كأسنان المشط، ألم يخلق البشر كذلك، ثم تتفرق بهم السبل بعد مجيئهم إلى الدنيا فرادى،ثم قطعهم للرحلة المقدرة قبل أن يأتوا فرادى:

«لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة»

عند المستوى الثالث تتصل الزخارف ببعضها، تتصاعد كثافتها، الفراغ مساحته أقل، لا نلمحه إلا فى الخطوط الفاصلة بين التجمعات الزخرفية التى تميل إلى شكل المثلث، لكنه مثلث غير عادى، ينتهى بقوس، كل قوس يجاور آخر، اثنا عشر قوسا، كل منها مفتوح إلى الداخل، مبطن بزخارف من قطع رخامية دقيقة، إنها مرحلة هامة، موحية بالمركز الذى سوف ننتهى إليه، يتحول المربع إلى دائرة، وهنا نلاحظ ذلك الانتقال الفعال، بالغ الدلالة، فى المربع يمكننا أن نحدد الأشكال. يمكن القول أن هذا شمال وهذا جنوب، هذا غرب وذاك شرق، لكن فى الدائرة تتشابه كل الجهات، أى نقطة هى مركز، وأذكر هنا بيتا من الشعر قاله مولانا جلال الدين الرومى فى المثنوى، مخاطبا الإنسان:

«لا تسأل عن مركز العالم، أنت المركز..»

أى نقطة فى الدائرة مركز، أى نقطة فى الدائرة بداية، وأى نقطة نهاية أيضا. المستوى الرابع متصل بالثالث، مصاطب جد صغيرة تحتضنها الأقواس، ومنها تنتهى إلى أرضية النافورة ناصعة البياض، كل هذا الفراغ الذى يعقب ذلك الامتلاء يؤدى إلى جذع الوردة الرخامية التى منها ينطلق الماء، مركز القاعة الأرضى الصاعد باتجاه النور العلوى النافذ عبر القبة الخشبية المثلى.

هذا بعض من المعنى الكامن، للأسف دمره الإهمال والفساد!

القرآن الكريم والمرجعية الأولى

كل بيت مصرى قديم كون مصغر، قائم بذاته، مفتوح على الداخل، لكن كل عناصر الخارج ماثلة، حاضرة فيه، ليست الظاهرة فقط، ولكن تلك العوامل الكامنة. والعناصر الكامنة المتصلة بالموروث أو العقيدة، ولكلٍ مرجعية، فلا ينشأ شىء من فراغ، ومرجعية البيت المصرى، العقيدة الدينية والطبيعة والمجتمع.

بداية نقول إن سائر الفنون الإسلامية من بناء وزخرف وخط لا يمكن فهمها بدون الوعى بعلاقتها بالقرآن الكريم، كيف؟

للفن الإسلامى خصوصية تجعله مميزا، يتعرف إليه الإنسان بمجرد النظر، وهذا ما يحقق التفرد أو الخصوصية، وما كنا نراه فى المسافر خانة من زخارف أو خط أو تكوينات معمارية إنما كان يمثل مجمعا صغيرا لهذه الرؤى، لنتوقف أمام المرجعية الأولى، المرجعية العظمى، أعنى القرآن الكريم.

يتكون القرآن الكريم من فاتحة، وسور، والسور تتكون من آيات، فى البداية ذكر الله العلى القدير.

بسم الله الرحمن الرحيم

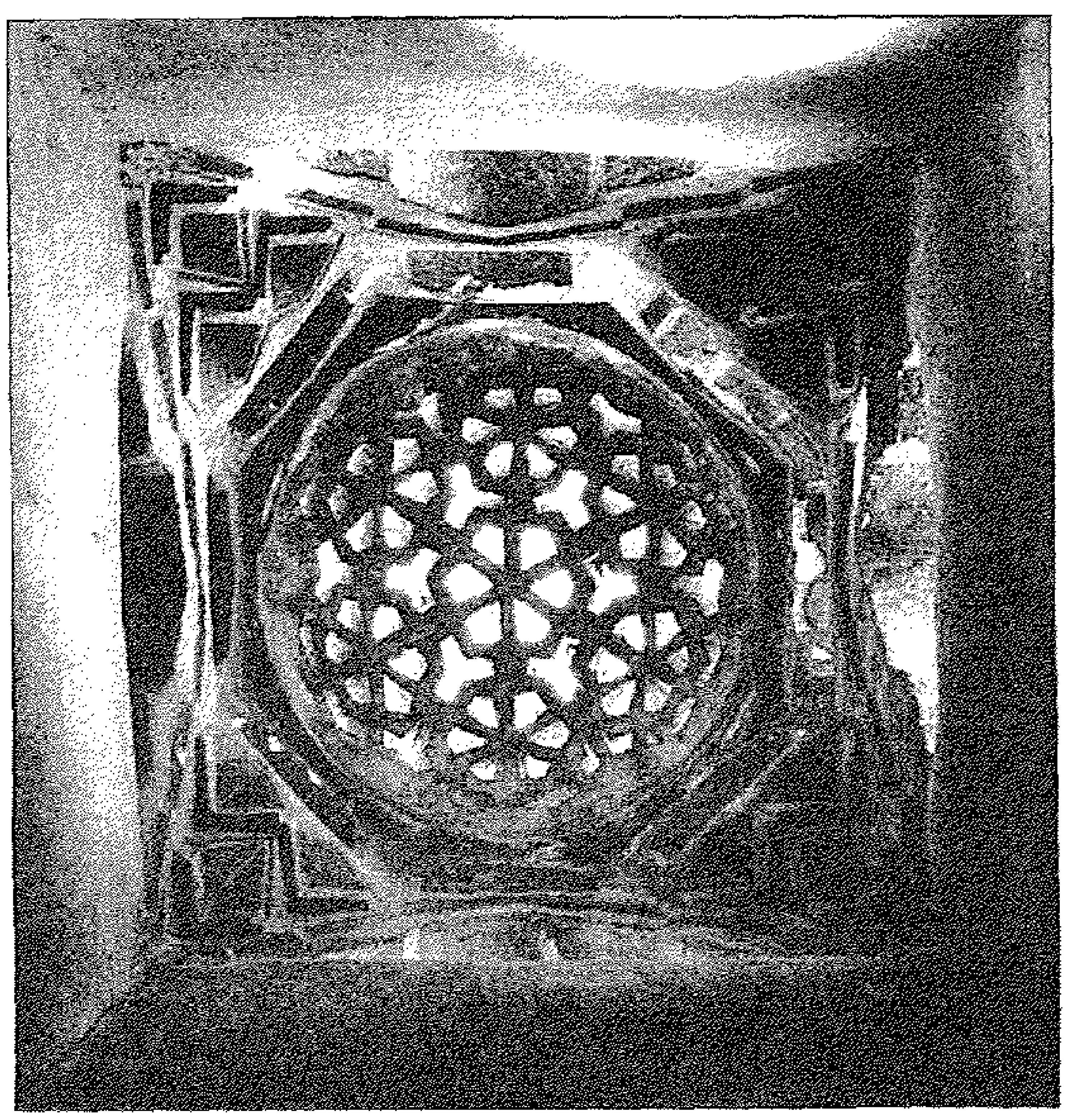
إنه التمهيد، المفتتح، ومن الأسماء التسعة والتسعين حوت البسملة صفتين، الرحمن والرحيم، إنهما المفتتح المؤدى دائما إلى سور القرآن الكريم، وهكذا جرى إبداع الفنان المسلم، فى البناء سوف نجد المدخل، البوابة، فى معظم البوابات سوف تطالعنا جملة من القرآن الكريم.

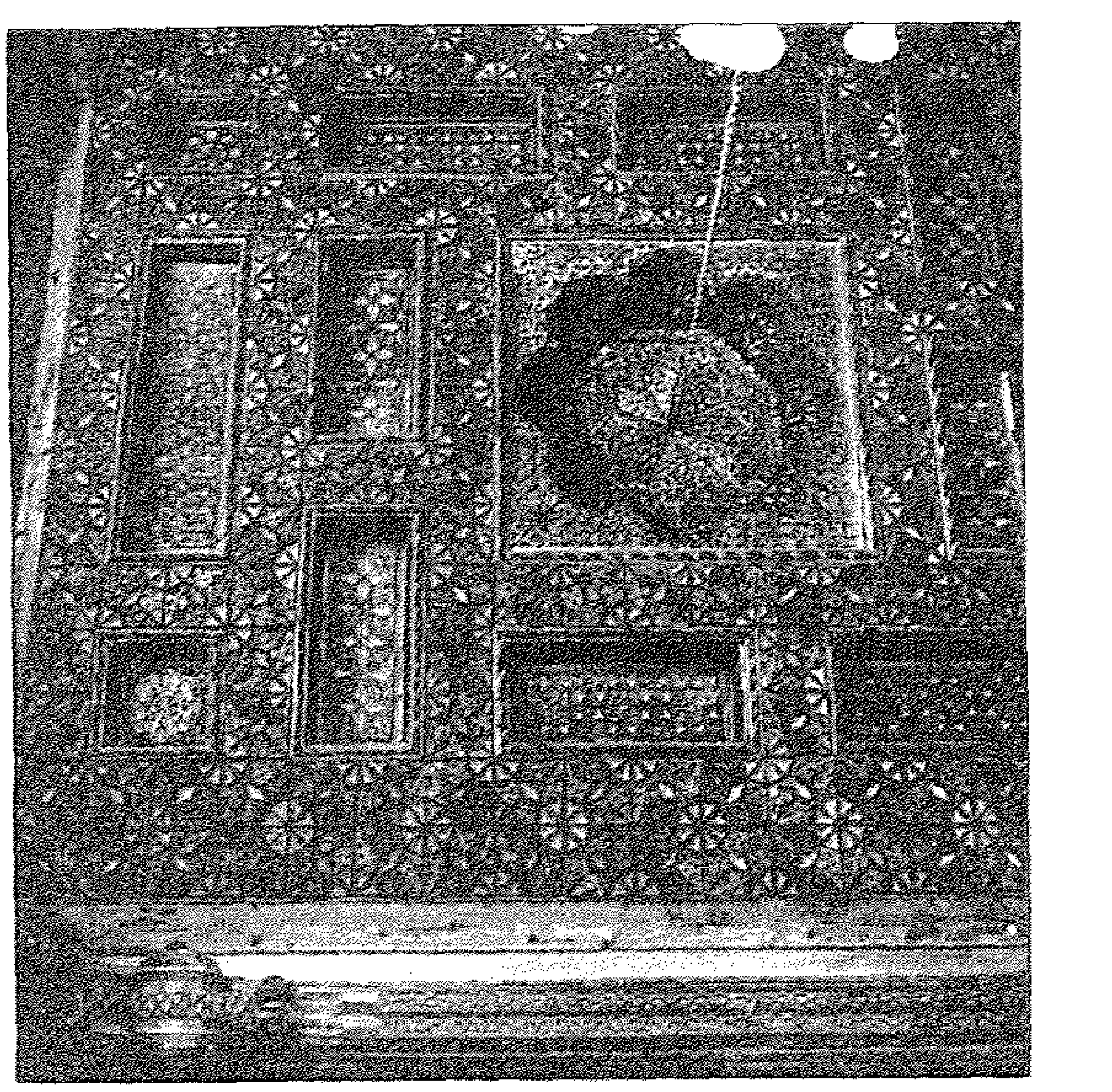
«ادخلوها بسلام آمنين»

أو دعاء:

«يا مفتح الأبواب افتح لنا خير باب»

أو أبيات شعر تحوى ترحيبا وطمأنة للقادم، الضيف، الغريب، إنها دعوة إنسانية فيها الرحمة والألفة، هذا ما يميز الأبواب العربية الإسلامية من أقصى المغرب إلى أواسط آسيا، إن الباب لا يصد، لكنه يدعو، وهذا بعكس الأبواب التى رأيتها فى أعرق المدن الأوروبية وأقدمها، حيث نجد المقابض قد صيغت على هيئة أفاع تنفث نارا، أو رأس التنين أو عبد أسود يطلق تهديدا، أو إبليس، هناك المدخل





ينفر، يبعد ولا يقرب. يهدد ويتوعد. يتوقع الشر قادما مع كل آت. لذلك يبالغ في إبراز معالم التحصين والصد.

في العمارة الإسلامية التي تتخذ من القرآن الكريم مثالا ومرجعية أولى، تعتبر المدخل موازيا، مقتديا بالبسملة التي تضفي سكينة وراحة على روح الإنسان. ثم نتطلع إلى مصراعي الباب نفسه، سنجد النقوش تغطيهما. نعم، إن الأبواب متينة في كل الأحوال، من خشب، وربما تغطيها رقائق النحاس، ولكن في الأصل للصد والمنع. لكن المصمم المسلم أبرز الوظيفة الأخرى وهي الدخول والترحيب، وطمأنة الغريب. كانت المداخل كلها مزدوجة، متعامدة. هكذا كان مدخل المسافر خانة الذي اعتدنا الدخول منه ناحية حارة درب الطبلاوي. باب رئيسي يجتازه الداخل ثم يتجه إلى اليسار حيث باب آخر يؤدي إلى فراغات القصر. هكذا الوضع في كل بيوت القاهرة القديمة وقصورها. إن الانتقال بين البابين يشبه تلك الوقفة الفاصلة ما بين قراءة البسملة، وبدء تلاوة الآيات البينات. كل باب عبور، كل باب مدخل، كل باب تمهيد لتلاوة الفن والحض على فهم المعاني، والجمال البين. لذلك كان الباب في المعمار الإسلامي من أجمل الأجزاء. إنه معروض للناظرين، للعابرين. ولذلك كان الجمال يبث للكافة. يعبق به الفراغ. أما الزخارف، سواء كانت حفرا على الخشب، أو رقائق نحاس تغطي مساحات الخشب، تبلغ الذروة في حالات كثيرة. ويحضرني الآن باب جميل. كان يفصل الجناح القبلي حيث قاعة المجد عن فناء المسافر خانة الرئيسي، باب مغطى بالخشب المنتظم في أشكال رائعة، متفرقة، متلاقية، متصلة منفصلة. وفي هذا اقتداء آخر بالقرآن الكريم، يقتضي تفصيلا وإمعانا.

من باب إلى باب

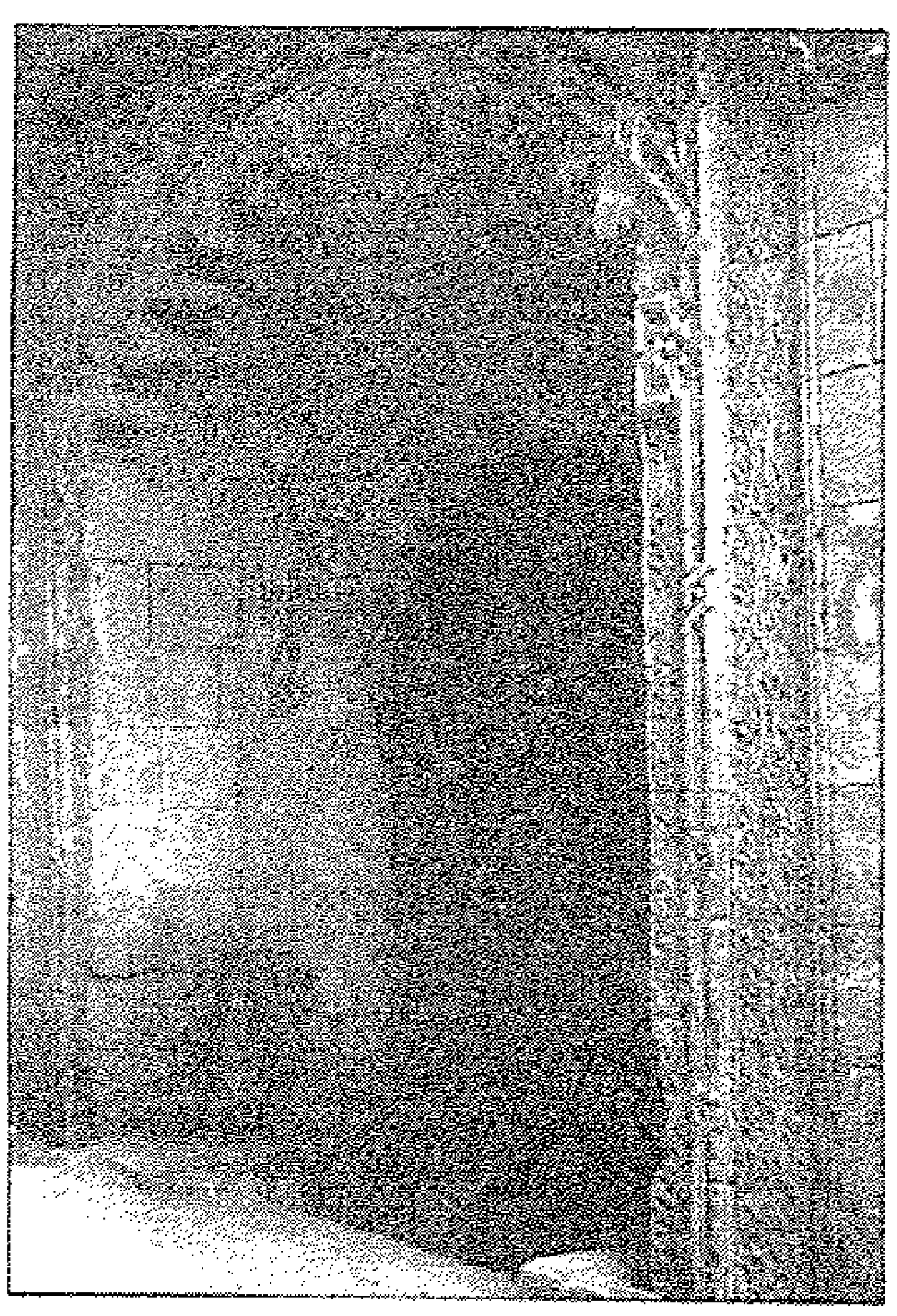
إذن، يستوحي المعماري المسلم موقع البسملة في القرآن الكريم في تصميمه للأبواب. هذا ما كنا نراه في المسافر خانة وسائر نماذج العمارة الإسلامية، سواء كانت بيتا لتاجر متوسط الحال، أو قصرا منيفا، أو منشأة عامة كالخان أو السبيل أو الحمام. وفي القاهرة القديمة العديد من تلك المنشآت التي لا تزال ماثلة، وبعضها يدخل حتى الآن في النسيج اليومي لحياة البشر، وأولها على الإطلاق تلك المساجد.

ولما كانت البسملة معبرة عن الرحمة (الرحمن الرحيم)، فإذن لا بد أن يكون المدخل داعيا وليس منفرا، مطمئنا وليس منفرا. اقتدى المعماري المسلم، المصمم، بتلك البداية الداعية إلى الرحمة التي تتكرر في بداية كل سورة. هذا مضمون الباب وشكله وسر صياغته مهما اختلفت الوظائف.

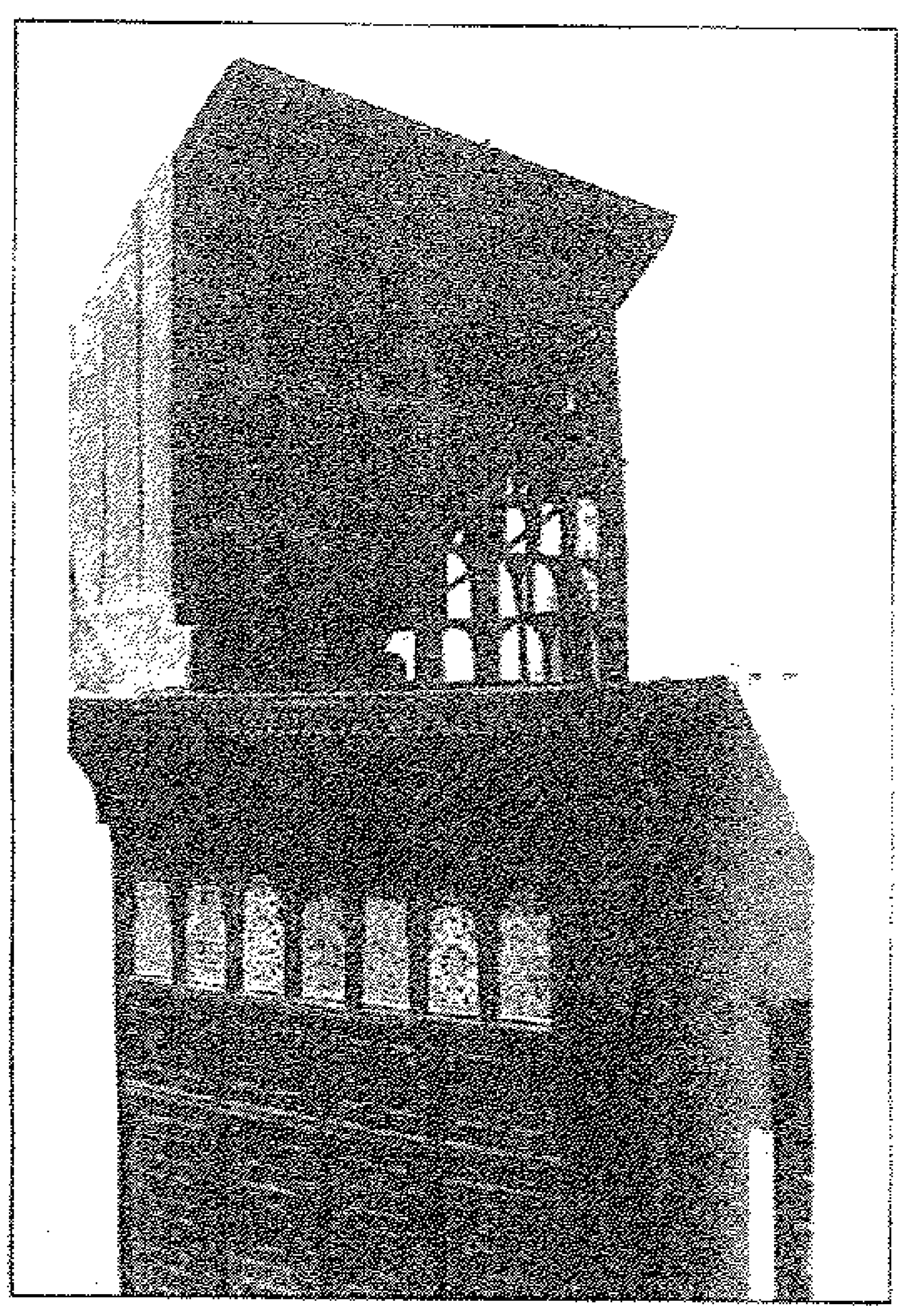
للأبواب معان عديدة، ووظائف شتى، وهذا ما حوته المسافر خانة بدءا من الباب الرئيسي في درب المسمط، أو درب الطبلاوي، باب ضخم يحمي ويحجب، لكنه بالآيات القرآنية «ادخلوها بسلام آمنين» يطمئن ويدعو ويعرض الجمال. حتى إذا اجتزنا الباب الرئيسي من ناحية درب المسمط سيؤدي بنا إلى قاعة توصل إلى صحن كبير، فناء مكشوف. يصل البناء بالسماء، ويقيم العلاقة بالشمس والفراغ واتجاهات الرياح. إن الصحن الكبير الذي يطالعنا يحفظ التوازن المعماري والتكويني للعمارة، لكنه ليس الجزء الأول الذي تتم من خلاله الصلة بالسماء، ثمة أجزاء أخرى في البناء تتصل مباشرة بالمدى اللانهائي، وكان الداخل من ناحية درب الطبلاوي وهو المبنى الأصلي للأثر، يمر بجزء مغطى قبل بلوغه قاعة المجد، لكن يتخلل السقف فراغ مربع، إذا رفعنا البصر سوف نرى زرقة السماء وأبديتها، نعم.. إنه منفذ للضوء، وتنظيم لمسارات الرياح الآتية من البعد القصي، لكنه يتضمن معنى أيضا وفلسفة. فثمة تذكير دائما بالصلة بين الأرض وبين السماء، بين السفل والعلو، بين الإنسان وخالقه، بين حضوره العابر، ومصيره اللا نهائي.

أما الأبواب، فتطالعنا بجمالها، وتنوعها، أحيانا ظاهرة، واضحة، سافرة، كأبواب المداخل الرئيسية، أو متوارية إلى حد ما مثل هذا الباب الجميل الذي كان مغطى بالحشوات الخشبية الهندسية المتعانقة، المتراصة. وأحيانا يطالعنا باب سري لا يعلن عن نفسه، وأذكر في القاعة الرئيسية الشرقية بابين صغيرين، لا بد عند فتحهما أن يجتازهما الإنسان منحنيا. كان كل منهما يبدو بزخارفه جزءا من التكوين العام للجدار، لكن أحدهما كان إذ يفتح يؤدي إلى سلم من الحجر يفضي إلى الفراغ الخلفي المؤدي إلى مكان الساقية التي كانت تمد أهل القصر بالمياه الجوفية، وعلى مقربة منها مأوى الحيوان المخصص لإدارتها، بغل كان أو جاموس. كانت المياه الجوفية نقية في ذلك الحين، ولم يكن يخلو بيت قاهري متوسط أو كبير من ساقية للمياه، ومطحنة للغلال، بقدر الإمكان يجري الحرص على قضاء الحاجات الضرورية داخل البيت. هكذا احتوت المسافر خانة على أماكن لتخزين الأرز والقمح والمواد الضرورية لأهل البيت.

هذا الباب الخفي، الظاهر في القاعة الشرقية، يذكرني بأبواب أخرى ذات حضور قديم في العمارة المصرية القديمة، أعني الباب الوهمي الذي يطالعنا في المقابر المصرية القديمة والتي وصلتنا سالمة أو شبه سالمة في سقارة وطيبة وسائر أنحاء مصر، أبواب محفورة في الجدران، مزخرفة، عليها كتابات مقدسة، ورسوم تتصل بالعقيدة وصاحب المقبرة. إنه الباب الفلسفي إذا جاز التعبير، الباب الرمزي، الباب الذي يقول كل شيء، ولا يفصح عن شيء. الباب الذي لا يمكننا اجتيازه إلا بالخيال فقط. استمر الباب الوهمي في العمارة المصرية بأشكال مختلفة، وانتقل إلى العمارة في حضارات أخرى، ولأن المعماري المصري كان يمرر دائما رسالة روحية من خلال العمارة، فقد حرص على ربطها باللا نهائي، وهكذا استوحى من القرآن الكريم موضع البسملة، ومغزاها، واقتدى بها في كل ما هو مدخل، سواء كان بابا لمبنى، أو مطلعا لقصيدة، أو صفحات أولى في كتاب، وإذ أسترجع أبواب المسافر خانة بالخيال القاصر مهما أوتي من قوة، فألوذ بالمعنى الكلي، بعد أن فقدنا التفاصيل وأسرار الجمال إلى الأبد.



مدخل المسافر خانه من ناحية درب المسمط



الملقف، كان يعلو السطح، فخامة تواجه الشمال حيث الرياح الطيبة تسرى من خلاله إلى البيت

نور على نور

﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم﴾ (سورة النور: ٣٥).

ما من مرة أدخل إلى فناء المسافر خانة الداخلى، أو إحدى قاعاتها، ما من مرة يحتوينى مبنى عتيق فى القاهرة أو أى موضع من الكوكب، إلا وأرتل الآية الكريمة مرة بالصمت، ومرة بالنطق، أتوقف عند هذا التعبير القرآنى الجميل، البليغ:

«نور على نور..»

النور وجود، والظلمة عدم، ومن النور يطلع الإنسان على تفاصيل الكون، بدءا من رؤية ما يحيطه، إلى رصد أعماق الكون السحيقة، فما نعرفه عن النجوم، عن الكواكب، عن تصادم المجرات وولادتها، عما يحدث في بوتقات الوجود البعيدة جدا، إنما نعرفه من خلال الضوء الذى نرصده عبر المناظير المقربة، عندئذ يحلله العلماء، ويخرجون من نتائجه بكل ما يحصله الإنسان ويحاول معرفته عن هذا الوجود الأعم، مصدر هذا كله النور، النور الذى يتخلل هذه المساحات المعتمة فيدل ويؤشر، يرشد ويفسر.

يحتاج الإنسان دائما إلى النور، إذا افتقده يستعيض بالبدائل المؤقتة، وإذا شمله الضوء القوى يتوارى منه، يحاول أن يخفف من آثاره، فللحواس مقدرتها على الاستيعاب، وفى مصر من جنوبها إلى شمالها، يفيض النور، كلها مشمولة بالنور، أو ليظل على علاقة قوية بالنور من خلال حجب مرشحات، وقد جلب فى موطنى شرقا وغربا، جنوبا وشمالا، ورأيت البناء المصرى فى مختلف طرزه وتجلياته عبر العصور، دائما ثمة منفذ ليكون الإنسان على صلة بالنور، سواء كان حيا أو راحلا عن الحياة الدنيا.

فى معابد دندرة، وإدفو، وأبيدوس، تأملت شعاع الشمس النافذ عبر الفتحات العلوية المعدة بدقة وإحكام لتكون دالة على المواقيت، أشعة نافذة ممتدة، ثاقبة، تصل الأبدى باللانهائى، وتقيم جسرا بين الأزل والأبد، أى ما فات وما هو آت عبر النور.

فى غرفة دفن الملك خوفو، ثمة تسمح لضوء كوكبة اوريبون بالنفاذ لتلامس رأس الملك المحنط، حتى تلامس أشعة النجوم النائية القصية، جثمانه وما تبقى منه.

فى لوحة شهيرة بتل العمارنة، رسم إخناتون، أول من دعا إلى التوحيد، إلى عبادة إله واحد، رسم أشعة الشمس منحدرة من القرص الدائرى، وينتهى كل منها بيد بشرية، أى إدراك مبكر لتلك الحقيقة التى يؤكدها العلم الحديث الآن، فليست أجسادنا تلك إلا من نفس العناصر التى توجد منها الكواكب والنجوم، والنور واصل، والنور حاصل، قائم.

عندما أتيح لى أن أدخل كنيسة قبطية منذ سنوات بعيدة فوجئت بفن الخرط الخشبى، ما يعرف بيننا الآن بالأرابيسك، داخل الكنائس تقوم المشربيات، إذن.. هذا فن مصرى قديم، له أصوله، وله قواعده، انتقل إلى المساجد، إلى البيوت العتيقة، وأصبح منمنما وأكثر دقة، الهدف السماح للنور بدخول القاعات، ولكن بعد ترشيحه، وتخفيف حدته فى بلاد تحيطها الصحراء من كل جانب، وقد كانت المسافر خانة متحفا للمشربيات، وكان فيها أضخم مشربية فى العالم الإسلامى على الإطلاق، تلك التى كانت قائمة الناحية القبلية، مستندة إلى عامود نادر، من رخام، ذى تاج رومانى السمة.

نور على نور، فى تلك القاعات التى أصبحت ذكرى أليمة الآن، كنت أتهدهد أثناء استعادتى للترتيل الكريم، كنت أستعيد ما درج عليه الأغالبة فى عمرانهم، ذروته فى قصر الحمراء بالأندلس، على الجدران تنقش آيات القرآن الكريم، ولكن فى أعلى مكان، حول القبة، تنقش هذه الآية الكريمة من سورة النور، وفى سائر الأماكن التى يبدو فيها التوق الإنسانى للبقاء على صلة مع النور، أتوق إليه أحن، وأصغى إلى سريانه: «نور على نور».

ظلال الذاكرة

فى القاهرة العتيقة، الفاطمية، المركز الروحى للعاصمة، توجد ذاكرة قوية عمادها البشر والذين يجمعون المكان والزمان معا، وفى المكان تطالعنا تلك المبانى العتيقة التى تشكل منظومة متكاملة تجسد التاريخ، بعضه معروف بدقة، اسم المنشىء، وتاريخ الظهور والاكتمال، هذه معلومات متاحة للمتخصصين، ولمن يهمه الأمر، وأحيانا نقرؤها على لافتات إيضاحية، وإلى جانب هذا الحضور العلمى، ثمة حضور آخر فى الذاكرة الشعبية، تتداخل فيه الأسطورة بالواقع، التاريخ والخيال، ثمة تاريخ آخر غير مدون، ينتقل من جيل إلى جيل ويضيف إليه الناس، سنجد ذلك حول مسجد الحاكم بأمر الله وملاعب شيحة، وقرافة باب النصر وباب المتولى(زويلة) والبيوت المهجورة، تلك التى خلت من سكانها، أو التى لا تزال أطلالها ماثلة وتسمى خرابات، أحيانا تعرف الخرابة باسم مالك قديم، أو آخر من أقام بها، غير أن ما حيرنى دائما تلك المبانى التى تمثل أمام الجميع، لكنها تظل غائبة عن ذاكرة القوم، تمثل المنطقة الرمادية غير واضحة المعالم.

من أبرز المبانى الدالة على ذلك الحال، قصر المسافر خانة قبل بدء ترميمه عام تسعة وستين بمناسبة ألفية القاهرة التى تمت فى عهد الدكتور ثروت عكاشة والمبنى الآخر الماثل حتى يومنا هذا، مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية، تستقر فى مبنى من طابقين، تطل نوافذه على الطريق، نموذج لمبانى نهاية القرن الماضى، حيث التحول من البيت المفتوح على الداخل، إلى البيت المتصل مباشرة بالطريق حيث الباب يؤدى إلى الفناء مباشرة، والنوافذ تفتح على الطريق، أو فى مواجهة المبانى الأخرى، إنه النموذج الذى ساد، وبالتالى جرى تحول فى علاقات الناس، ورؤاهم، وعلاقاتهم ببعضهم وبالمكان، هكذا توارى البيت القاهرى المستقل، المؤطر للعادات وللقيم، الذى يحاكى الكون كله، وتحول القوم إلى سكنى الشقق.

عرفت مدرسة عبد الرحمن كتخدا طفلا، أولى خطوات سعيى لتحصيل العلم، عندما صحبنى الوالد - رحمه الله - ليسلمنى إلى إبراهيم أفندى سكرتير المدرسة، وفى هذا المبنى أمضيت أربع سنوات، كانت الحجرات تبدو فسيحة، مرتفعة، كذلك الفناء، الأمر نسبى مع مراحل العمر فى الطفولة تبدو الأماكن فسيحة، حتى إذا انقطع المرء عنها زمنا وتقدم فى العمر، يفاجأ عند العودة أن الحارة التى كانت تبدو واسعة أصبحت أضيق بكثير.

لا أذكر السنة التى أغلقت فيها مدرسة عبد الرحمن كتخدا، لكننى إذ أمر بها، أتوقف متأملا الباب الخشبى الضخم، الموثوق بسلسلة غليظة، نوافذ خشبية بعضها موارب قليلا، بينما علامات التدهور السريع تلوح على الجدران، فللمكان علاقة وثيقة بالبشر الذين يعيشون فيه، بقدر ما يحتويهم، يضمونه أيضا، يتجدد بأنفاسهم، ويعمر بأصواتهم وسعيهم، هذا ما لا يفهمه أولئك الذين يخططون الآن لانتزاع القاهريين من سكان المركز الروحى للعاصمة فى إطار واحد من أخطر المشاريع التى سيتم تنفيذها فى القاهرة القديمة والذى سيتم فى إطاره خلع السكان الأصليين وبذلك يتم تدمير المكان إنسانيا وروحيا. بمجرد انتزاع الإنسان يشيخ البنيان ويبدأ تهدم الجدران، ربما يمثل إلى حين، قائما، يراه المارة يوميا، لكنه فى الحقيقة غير موجود، هذا حال مدرسة عبد الرحمن كتخدا، إلى أن يحين يوم تنتبه فيه الجهة المالكة، أو الورثة الغائبون، أو يتقدم بعض المغامرين لإثبات الملكية من خلال أوراق زائفة،أو يتحول البناء إلى خرابة تشير إلى ما كان قائما، وهذا حال المسافر خانة الآن، لكننى عرفت حالا جديدا على، لم أعرفه بالنسبة للمواضع والمبانى الأخرى، ذلك أننى مغرم بالواجهات، وتأمل البقايا، لكننى أدخل حارة درب الطبلاوى الآن، فأتحاشى النظر إلى حيث تلوح جدران المسافر خانة المتهدمة، أمر بسرعة إلى الطرف الآخر، طاويا أحزانى وحنقى على كل ما انتهت إليه الأحوال، وغلبة الفساد والإهمال، الذى قضى على هذا الكون من الجمال وأضاف إلى ذاكرة القاهرة منطقة معتمة، خرابة كانت تضج يوما بأصداء الضوء، وأشعة الابتهال.

يحتاج الإنسان دائما إلى النور، إذا افتقده يستعيض بالبدائل المؤقتة، وإذا شمله الضوء القوى يتوارى منه، يحاول أن يخفف من آثاره



امـــرأة عـلى الهـامـش

شـــوقــى عـــقـــل

■ شاء قدر المرأة العربية أن تكون محلا وموضعا لقيم الشرف والعار، فالشرف العربى المأسوف عليه، لم يرتبط بشىء قدر ارتباطه بشرف المرأة، على الرغم من أن المرأة ـ فى ذات الوقت ـ لم يكن لها قيمة فى حد ذاتها إلا كما تكون القيمة لقطعة من الذهب، إن قيمتها تكمن فيما تمثله وليس لذاتها، فمالكها حر فيما يفعله بها، أن يهبها لآخر أو حتى يلقيها فى الرغام، أو يحفظها نظيفة أنيقة لامعة فى خزانة حديدية صماء.

وشاء عالم اليوم وقطبه الأعظم أن تكون قضية حرية وحقوق المرأة من ضمن الهجمة التى يشنها على المنطقة العربية، بدءا بالثقافة والقيم والأعراف وتغيير المناهج، وانتهاء بالمجنزرات والطائرات. وسقطت المرأة وحقوقها بين طرفى منظومتين قيمتين، أصولية من جهة وسلعية حداثية من جهة أخرى، يمثلان ـ رغم تعارضهما الظاهرى ـ وجهان لعملة واحدة، فهذا وذاك يدوران حول جسد المرأة، الأول يرى فيه محلا للقيم والشرف والأعراف، والثانى يرى فيه محلا للمتاجرة والتسويق كما يفعل مع باقى قضاياه كالحرية والدين وحقوق الإنسان.

وأصبح على الإنسان العربى المثقل بقهر سياسى واجتماعى شديد الوطأة أن يختار بين أمرين لا ثالث لهما: أما قيم السوق أو قيم الأصولية بالمعنى العشائرى والريفى والقبلى، وهو اختيار محدود المدى كمحدودية الأفق السياسى العربى وفراغه وجموده منذ عقود مضت.

وكان الاختيار أصعب أمام دعاة الإصلاح والتغيير، سواء منهم المصلحون التقليديون أم الراديكاليون، إذ اصبح الاقتراب من تعابير وشعارات الحرية والتغيير وحقوق الإنسان وحقوق المرأة والأقليات المهمشة محملا بشبهة رفع لواء الوافد عبر الأطلسى بقيمه الزائفة وشعاراته اللامعة والتى لا تحمل فى طياتها سوى الموت والدمار والأطماع الاستعمارية التقليدية وهو تخوف غذته من ناحية الكره الطبيعى والمنطقى لجماهير المنطقة لهذا الوافد وما يمثله أو يدعو إليه ومن ناحية أخرى غذته النخب التقليدية المهيمنة والتى ـ رغم تبعيتها المطلقة للقطب الأوحد ـ خشيت من رياح التغيير حتى وان كانت رياحا عكسية تبشر بليل لا يعرف أحد نهاية له.

وكنتيجة طبيعية ومنطقية متسقة مع احتكار النخب السياسية العربية للسلطة والثروة والثقافة وكتكريس لهذا الاحتكار تم تغييب التاريخ الطويل لكفاح الشعوب ومنها كفاح الرواد الأوائل فى سبيل حرية المرأة، والذى بدأ منذ الربع الثانى من القرن التاسع عشر، أى بعد الثورة الأمريكية بعقود قليلة، وتم معه أيضا النكوص والعودة عن حقوق كثيرة اكتسبتها المرأة عبر تاريخ طويل من كفاح الرواد الأوائل: الإمام محمد عبده الذى أفتى بحق الحاكم بمنع تعدد الزوجات، وحق المرأة فى الطلاق إذا أرادت (لأنها من غيره لن تنال ما تستحقه من اعتبار) (المسألة النسائية ص ٤٩، ٥٥) رفاعة الطهطاوى وهدى شعراوى وقاسم أمين١٨٦٥ ـ ١٩٠٨ وملك حفنى ناصف من مصر ونظيرة سيف الدين من لبنان وبطرس البستانى فى سوريا ١٨١٩ ـ ١٨٨٣. وفى تونس قدم الطاهر حداد المناضل العمالى والوطنى رؤية اجتماعية وسياسية لقضية المرأة عبر فيها عن رؤى متقدمة لحقوق المرأة فى الزواج والميراث، والكثيرون غيرهم، وكان المد عاليا، وبعض ما طرح وقتها لتمكين المرأة من حقوقها أصبح من الصعب طرحه الآن رغم مشروعيته ومنطقيته، ففى عام ١٩٢٧ وافق مجلس الوزراء فى مصر على مشروع قانون للحد من تعدد الزوجات وحق الرجل فى الطلاق وهو قائم على فتاوى الإمام محمد عبده (المسألة النسائية ص ٦٦) ولكن الملك فؤاد رفض التصديق عليه.

وبدءا من الربع الثانى من القرن التاسع عشر ظهرت العديد من مدارس تعليم البنات العامة والمهنية، كمدرسة الطبيبات فى مصر ١٨٣٢، فى الوقت نفسه تقريبا أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات فى بيروت، وفى سنة ١٨٩٧ بلغ عدد النساء اللائى يعرفن القراءة والكتابة فى مصر ٣١٣٠٠.

وساد الوطن العربى، فى بدايات القرن العشرين نهضة ارتكزت فى أساسها على منهج علمى فى الفهم والتفسير والتحليل، وهو منهج عقلى أخضع العلوم والمواضعات جميعها ـ بما فى ذلك وضع المرأة المتدنى ـ إلى البحث والمراجعة.

وظهرت المجلات النسائية معبرة عن وجهة نظر النساء فى الكثير من القضايا، ولعلنا إذا قرأنا الآن هذه المجلات أو تصفحنا كتابى قاسم أمين تحرير المرأة ١٨٩٩ أو المرأة الجديدة ١٩٠٠ أو سمعنا آراء الطهطاوى ومحمد عبده والحداد عن تعليم المرأة وحقوقها، سنجد أن وضع المرأة الآن تجاوز بعيدا ما طالبوا به وحصلت على الكثير من حقوقها كالحق فى التعلم والعمل والسفر، وبعضها الآخر مازال محل جدل وصراع، وسنجد كتاباتهم تعد الآن من البديهيات، لكنهم فى تلك الأيام واجهوا هجوما عنيفا وضغوطا قوية اضطرتهم إلى التراجع فى بعض الأحيان، وكانت الكثير من المجلات النسائية تغلق وتكف عن الظهور تحت مثل هذه الضغوط.

وظهر إلى الوجود العديد من الجمعيات النسائية المطالبة بحقوق المرأة مواكبة للزخم الوطنى والاجتماعى ضد الاستعمار والنخب الحاكمة وقتها والذى انتهى إلى نيل الاستقلال عن دول الاستعمار التقليدى، وكانت تلك الجمعيات فى قسم كبير منها قد نشأت من خلال القوى اليسارية فى تونس والمغرب والجزائر ومصر ولبنان وبعضها من أحزاب أصولية كما حدث فى العراق. وأخيرا حصلت المرأة على الحق فى الانتخاب والترشح فى لبنان ١٩٥٢وفى مصر بنهاية الخمسينيات، وعينت أول وزيرة كانت فى مصر ١٩٥٦ والعراق ١٩٥٩ ثم تلتها الجزائر ١٩٦٢.

إنها نهضة حركة نسائية قامت مواكبة لتغيرات فى بنية المجتمع العربى فى ذلك الزمن، وكانت موازية أو بالأحرى جزءا من حركة وطنية أعم وأشمل تهدف لتحرير الوطن والمواطن العربى رجاله ونساءه، وتقديم تاريخ حركة تحرير المرأة العربية لا يستهدف الرد الساذج الذى يقوم به البعض على الهجمة المتصاعدة من قوى الاستعمار العالمى الذى حل بيننا بثقافته ومتقفيه ودباباته معا، وهو الرد الذى يقول بأننا قد سبقناكم وأن المرأة العربية بخير وأنها نالت حقوقها قبلكم إلى غير ذلك من الجمل التى تحمل عنادا ورد فعل أكثر مما تحمله من حقائق الواقع المعاش. ولكن عرض ذلك التاريخ يستهدف فى الدرجة الأولى بث الثقة فى نفوس دعاة الإصلاح فى وطننا الذين أصابهم الذعر والخشية من ممارسة دورهم الإصلاحى فى هذه الفترة من تاريخنا لئلا يحسبوا جزءا من الهجمة القادمة عبر البحار، وهى خشية كما أسلفت لها ما يبررها ولكن سرعان ما سيبدو الفارق واضحا بين الدعوة الآتية فى صندوق ملون زاه من عالم مالك، وبين النضال الحقيقى والطويل الذى يستهدف تحرير الوطن والمواطن رجلا كان أم امرأة، ويستهدف وضع الأمة على طريق التنمية والخلاص من ناهبيها: محليين وخارجيين على حد سواء.

تحت عنوان نهوض المرأة فى الوطن العربى، يستعرض تقرير التنمية البشرية العربية الأخير وضع المرأة العربية، ومن زوايا متعددة يلقى الضوء على تلك الأوضاع، بمجموعة كبيرة من الباحثين والمستشارين والدارسين، استطاعوا أن يقدموا جهدا كبيرا يمكن أن يعد مرجعا بحثيا ذا صبغة ميدانية عن وضع المرأة العربية، وذلك من زوايا مختلفة، ثقافية ومجتمعية وقانونية واقتصادية وسياسية وكذلك الرؤى الإبداعية فى السينما والرواية للمرأة العربية.

يشير التقرير فى جانبه الراصد إلى حال المرأة فى الوطن العربى، من حيث مستوى الدخل والصحة والتعليم والعمل والمشاركة فى الحياة السياسية العامة والتواجد فى مؤسسات صنع القرار السياسى، وهو بالطبع لا يسر. فإذا كان حال الرجل العربى لا يسر، وهو مطمح المرأة بطلب المساواة، فما بالك بالطامح. ويقدم التقرير كما وافرا من آراء الجمهور العربى فى أربعة من البلاد العربية هى المغرب ومصر ولبنان والأردن حول العديد من قضايا نهوض المرأة، تنتهى فيها آراء الجمهور عادة إلى مساندة قضايا

تقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٥
نحو نهوض المرأة فى الوطن العربى
صادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ديسمبر ٢٠٠٦

نهوض المرأة إذا ما تم توجيه الأسئلة موضوع الاستفتاء بشكل عام، وإلى مواقف وسطية ما بين المعارض والمؤيد إذا ما جاءت الأسئلة اكثر تحديدا. ففى السؤال عن الأهمية الملحة لقيام نهضة إنسانية فى الوطن العربى عن طريق نهوض المرأة، تكون الإجابة بالموافقة وتصل إلى ٨٨٪ من المشاركين ويأتى الجمهور المصرى فى الترتيب الثانى من حيث الموافقة. وفى نفس الاستفتاء وحين يأتى السؤال اكثر تحديدا حول حق المرأة فى الطلاق بإرادتها المستقلة، فإن نسبة التأييد تنخفض إلى ٦٨٪، ويأتى الجمهور المصرى فى الترتيب الأخير. وعند التساؤل عن الموقف من ارتداء الحجاب تنخفض النسبة إلى ٥٠٪ موافق أن هى قررت ذلك، و٣٦٪ يرى وجوب فرض الحجاب على المرأة. وترك المرأة لحرية الاختيار نوع من المكر طيب النية، هو فى العادة تركها لاتخاذ القرار الذى تم تلقينها إياه منذ صغرها، وأساسه إحساسها بدونيتها أمام الجنس الآخر، وشعورها بالذنب والعار كونها امرأة وكونها مرغوبة، وهو ما يدركه بشكل أو آخر الجمهور المستفتى، وهم فى الأغلب نفس الجمهور الذى أبدى تأييدا حماسيا يقترب من التسعين فى المائة لنهوض المرأة، وهو لا يلام، فتربيته السياسية مليئة بالوعود الفارغة، فما يمنع - ان أتته الفرصة - أن يمنح هو الآخر حلو الكلام، الذى لن يكلف شيئا.

ولعل من الطريف أن نرى نتائج استبيان آخر للرأى حول حق المرأة فى العمل السياسى. فحين سئل الجمهور عن حق المرأة فى ممارسة العمل السياسى كانت الموافقة بنسبة ٧٩٪، ثم عن حقها فى تبوؤ منصب وزير أصبحت النسبة ٧٦٪، وحين اصبح المنصب رئيس وزراء، نقصت النسبة إلى ٥٥٪، ولما ارتفع المنصب إلى رئيس الجمهورية أصبحت النسبة ٥١٪. فالجمهور يعرف، بخبرات سابقة وحالية، أن وجود وزيرة فى الحكومة جزء من الصورة، ضرورى لإكمالها، ولكن... الرئاسة!

يشير التقرير إلى المفارقة الحادة فى أن المرأة العربية قد نالت بعض حقوقها عن طريق مبادرة سيدات أو أفراد من النخب الحاكمة، كما حدث فى تصدى (سيدة أولى سابقة) لتطبيق قانون أحوال شخصية، يعطى المرأة بعض حقوقها الضائعة، فى نفس الوقت الذى كانت تلاحق فيه أجهزة الأمن المختلفة فى بلدها الناشطين السياسيين فى مجال حقوق الإنسان، وتمنع فعليا أية مشاركة شعبية فى اتخاذ القرارات السياسية.

وهى مفارقة لم يجد لها التقرير تفسيرا سوى رغبة النخب الحاكمة المستبدة شديدة الوطأة على شعوبها فى تحسين صورتها أمام الشريك الأجنبى وإعلامه الذى لا يرحم، وأرى فيها جزءا من طبيعة الأمور ومسارها. فمحمد على، الجندى الألبانى الفاتح الطامع فى تأسيس ملكه له ولأسرته من بعده، يعد مؤسس نهضة مصر الحديثة. وامبراطورة الصين الأم، رأس الرجعية الصينية، كونت قوة من المصارعين الصينيين لمقاتلة الغزاة، كانت بصلابتها وأعمالها البطولية ملهمة لكفاح الشعب الصينى، كما اقر ماوتسى تونج بعد انتصار ثورته. والقياس طبعا مع الفارق الكبير، فلا يمنع الأمر من وجود ضغوط مجتمعية دافعة لتحقيق مكاسب لبعض الفئات المهمشة اجتماعيا، وهو فى النهاية نصر لتاريخ من نضال المطالبين الرواد الأوائل والمعاصرين، وتأكيد لوضع وصل إليه المجتمع، فيأتى من يزيح الستار بضغطة زر، وهو فى نهاية الأمر، ليس بمنحة لا يملكها من أعطاها.

تقودنا معظم دراسات التقرير بموضوعاتها المختلفة إلى ما يشبه النتيجة الواحدة، إن الفقر والقبلية والعصبيات العشائرية والعائلية وسيادة أنماط الإنتاج الريفية الضعيفة، وضعف التنمية، وأنظمة الحاكم الفرد (يذكرها التقرير بلفظ الأنظمة الشمولية) والاحتلالات الأجنبية والنزاعات الداخلية تؤدى كلها إلى الانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان بشكل عام، وإلى الاعتداء على حقوق المرأة المعنوية والجسدية على الأخص. فبينما تؤدى أنماط العلاقات الاجتماعية المحلية المتخلفة إلى محاصرة المرأة بكم من الأعراف والتقاليد المؤدية لتهميش دورها ووضعها فى مرتبة اجتماعية واقتصادية وقانونية دون الرجل، فإن الاحتلال الأجنبى سواء كان فى فلسطين أو العراق ينتهك بالإضافة لما سبق من انتهاكات، حقوقها الجسدية بشكل إجرامى بالاغتصاب والقتل، وهو ما تقوم به أيضا النزاعات المسلحة. وأضيف أيضا ما لم يذكره التقرير: حالات الاعتداء الجسدى بالضرب أو القتل أو الاغتصاب، فى المجتمعات التى فقدت فيها السلطة المركزية قوتها ووجودها أو كادت، وانحصر دور الأمن فيها فى الحفاظ على أمن النخب الحاكمة، وهى جرائم أصبحت بتكرارها - رغم فظاعتها - لا تثير الخواطر والمشاعر.

فيما يلى بعض ما ذكره التقرير فى هذا الصدد:

- (إن انتشار فقر الدخل يؤدى عموما إلى إضعاف - وجود المرأة - فى مجال التمثيل البرلمانى، وشغل الأعمال المهنية والفنية، والسيطرة على الموارد الاقتصادية).

- (.. وهكذا فإن الإرث الذى خلفه النظام الأبوى كان تكريس السيطرة الذكورية على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية والسياسية).

- (بعيدا عن القانون... تحسم المنازعات الزوجية فى كثير من المجتمعات العربية إما فى الإطار العائلى أو فى إطار القضاء العشائرى غير الرسمى، وحيث إن هذه الآليات وليدة أطر ذكورية للثقافة والقيم، فان انحيازها للرجل مسألة لا تحتاج إلى دليل).

- (تلقى الثقافة العربية القبلية التى تكرس التمييز ضد النساء بظلالها على التفسيرات الفقهية التى تكرس دونية المرأة بالنسبة للرجل).

تحسم المنازعات الزوجية فى كثير من المجتمعات العربية إما فى الإطار العائلى أو فى إطار القضاء العشائرى غير الرسمى، وحيث إن هذه الآليات وليدة أطر ذكورية للثقافة والقيم، فإن انحيازها للرجل مسألة لا تحتاج إلى دليل

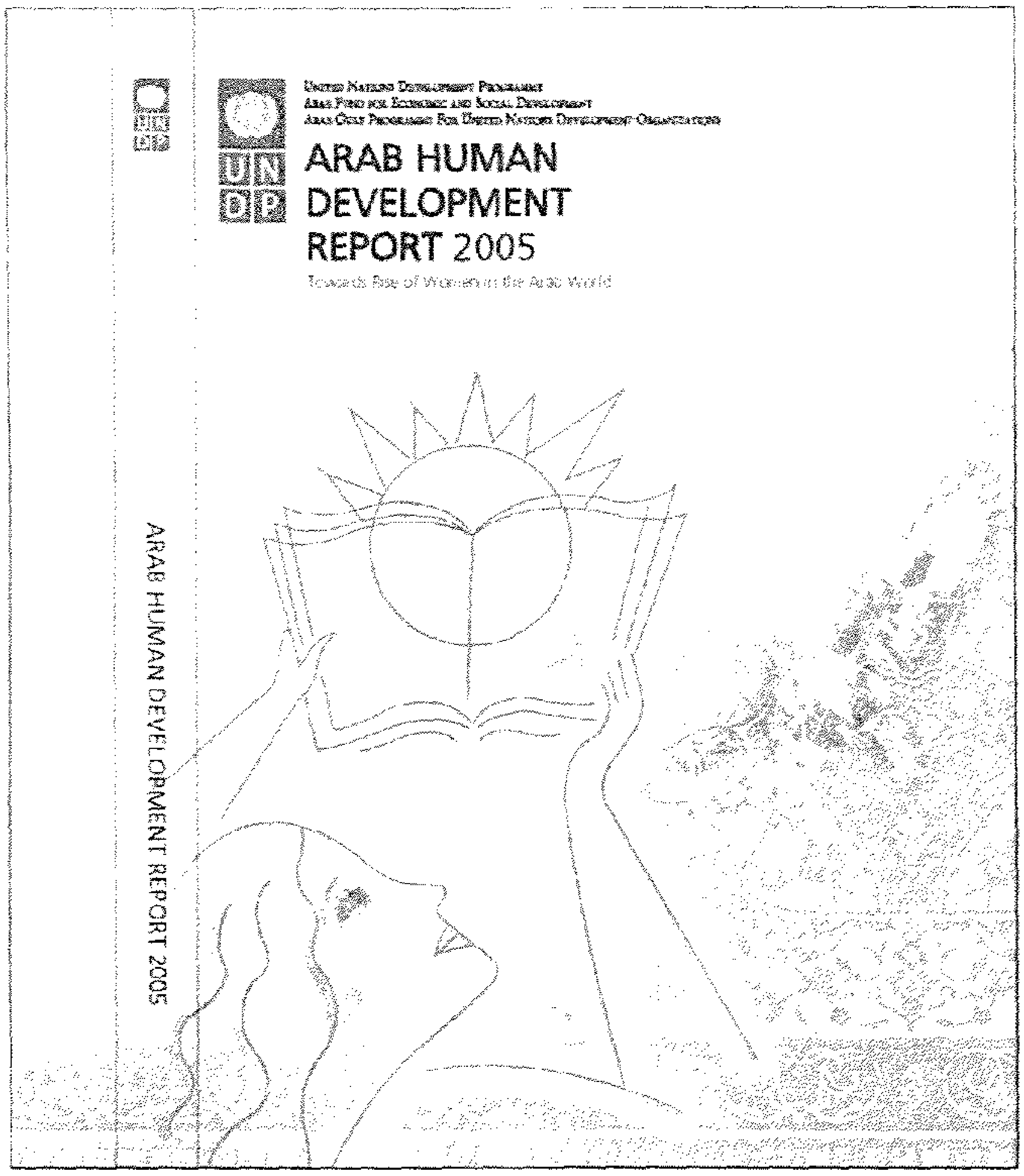
- (يؤثر الاقتصاد السياسى فى المنطقة تأثيرا كبيرا على درجة تمكين المرأة فى البلدان العربية. ويتميز نمط الإنتاج ومستوى الأداء الاقتصادى فى البلدان العربية بسيادة استهداف الريع وضعف النمو، ويترتب على تزاوج هاتين السمتين وهن البنى الإنتاجية وقلة وتأثر التوسع فى الاقتصادات العربية، مما يمهد لانتشار البطالة والفقر.. وتضاعف ظروف اجتماعية أخرى من نتائجه الأقسى على النساء).

- (وأثار مفهوم التمكين، كغيره من مفاهيم تنمية المرأة كثيرا من الجدل.. ورأى البعض أن مفهوم التمكين غير قادر على تحقيق التغيير المنشود، لأنه يركز فى الأساس على تمكين الأفراد منفردين، ويهمل الشق المتعلق بالتمكين الجماعى الذى يهدف إلى تغيير البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التى تولد الاضطهاد والتمييز، لا ضد النساء فحسب، بل ضد الغالبية من الفقراء والمهمشين أيضا).

- (ركز بعضها - بعض الجماعات الناشطة فى مجال حقوق المرأة - على المطالبة بمساواة المرأة فى الحقوق وإلغاء أشكال التمييز المختلفة التى تنطوى عليها القوانين العربية... وركز البعض الآخر على تقديم القروض والعمل على مشروعات مدرة للدخل وتقديم خدمات فى مجال الصحة أو التعليم... وعلى الرغم من أهمية هذه التدخلات فى مساعدة بعض النساء إلا أن تمكين النساء بالمفهوم الجماعى مازال بعيد المنال).

النصوص أعلاه بين قوسين منقولة حرفيا من التقرير، والنتيجة الواضحة التى يخلص إليها الكثير من باحثى التقرير، إن لم يكن جلهم، هى أن الفقر وضعف التنمية وسوء الأحوال الاقتصادية وسيادة المفاهيم الذكورية فى المجتمعات القبلية والريفية والمدنية الفقيرة، وهى المفاهيم التى تنص أول ما تنص على دونية المرأة وضعف عقلها وتحكم مشاعرها ورغباتها فيها؛ وعدم قدرتها على إدارة أموالها، أو عدم ملاءتها العقلية لتقلد مناصب الحكم بدرجاته المختلفة أو القضاء، كلها عوامل مناهضة لحقوق المرأة حتى الأولية منها. إن المؤشرات كلها تشير إلى أن هذه هى البيئة التى تفرخ العنف الاجتماعى والجسدى والإعاقة الذهنية والنفسية التى تجعل فى النهاية كثيراً من النساء يتخذن المواقف ذاتها التى يتخذها أشد مناهضى حقوق المرأة.

هذه البيئة ذات طبيعة اقتصادية



متدنية. فهى - قياسا على النمط العالمى للإنتاج - لا دور لها. وهى بيئة تعتمد على الريع فى اقتصادها ومعاشها، وما يعنيه ذلك من مضامين سلوكية متطرفة فى اتجاهين متضادين: إباحة لكل القيم أو منع تام لكل الحقوق البسيطة الأولية، وكان انعكاس ذلك على وضع المرأة هو المزيد من القيود والحفظ. وفى حالة مقابلة، تراجع وضع المرأة فى بعض الدول التى حدثت بها طفرة معيشية نتيجة استخراج البترول إلى الخلف عن وضعها قبل تلك الطفرة، حينما كانت المرأة تقوم مقام الرجل بالإضافة لدورها كأم وربة أسرة، حين يخرج الرجال فى رحلة تستغرق شهورا للبحث عن لقمة العيش الشحيحة بالغوص بحثا عن اللؤلؤ، أو فى تجارة تصل ما بين الهند وزنجبار.. وفى البادية، كانت تحمل العبء الأكبر إن لم يكن الكامل فى تقسيم العمل، فهى تغزل وتنصب الخيام وتحلب وتطبخ وتنظف وترعى الأطفال، وبالطبع كانت تقابل الأغراب بلا حرج. فيما بعد أتاحت الثروة إمكانية حفظ النساء خلف الجدران.

بعد ذلك العرض من باحثى التقرير عن أسباب تخلف المرأة أو ما اصطلحوا على تسميته (عدم تمكين المرأة) من الفقر وضعف التنمية وسيادة المفاهيم القبلية والعصبيات العشائرية والعائلية، والاقتصاد الريعى والضعيف، يرى واضعو التقرير أن الحل يكمن فى (..... إن الارتقاء الشامل بمكانة المرأة يستوجب الإسراع والتوسع فيما تحقق من منجزات خلال مشروع نهضوى جماعى: أى تحول تاريخى ينضوى تحت لوائه المجتمع العربى بأسره، ويستهدف ضمان حقوق المواطنة للعرب كافة، نساءً ورجالاً على حد سواء. ويأمل واضعو التقرير فى أن يتحقق التحول الذى يدعون إليه وفق البديل المستقبلى المفضل للتقرير، أى مسار الازدهار الإنسانى، القائم فى المجتمعات العربية على عملية تفاوض سلمية تستهدف إعادة توزيع القوة وبناء نسق حكم مؤسسى صالح تحترم فيه الحريات المفتاح للرأى والتعبير والتنظيم. وسيؤدى ذلك إلى قيام مجتمع مدنى حيوى وفعال وصالح يشكل طليعة عملية التفاوض السلمى، تفاديا لمسار الخراب الآتى، الذى يحذر التقرير من أن سحبه السوداء قد أخذت تتلبد فى أكثر من بلد عربى محورى).

إذا فإن هناك فقرا، وهناك فسادا، وهناك احتلالا، وهناك اقتصادا متخلفا يعتمد وسائل بدائية لا تستطيع الصمود لحظة واحدة أمام عجلة الإنتاج البضاعى الهائل القادم من الصين مثلا، وهناك مجتمعات قروية وعشائرية وقبلية وحكاما مستبدين، وأفكارا تعود بنا قرونا إلى الخلف، ثالوث من الطغاة والغزاة والغلاة. والحل كما يراه واضعو التقرير؟ عملية التفاوض السلمى لإعادة توزيع القوة منعا من الخراب الآتى! ألا يشبه ذلك كثيرا التصريحات الرسمية العربية المحذرة من تقسيم العراق، والتقسيم جار على قدم وساق وقد تم أو كاد، ولم يتبق سوى الإعلان الرسمى عنه. والخراب الذى يحذر التقرير من حضوره فى أكثر من بلد عربى محورى قد حل، ماذا نسمى إذًا ما حدث ويحدث بالعراق، أو السودان ؟

شخص التقرير أعراض المرض، والرؤية الثاقبة التى صاحبت الأبحاث تجاهلت - لسبب لا أعلمه - الدور المحورى للعلاقة بين المنطقة العربية موضوع البحث وأوضاع المرأة جزءا منه، والولايات المتحدة. يشير التقرير إلى الفظائع التى ارتكبت وترتكب فى العراق من قوات الاحتلال، ولكن فى حقيقة الأمر فإن الأثر المدمر للعلاقة بين قوى الاستعمار العالمى ودول الفقر الغنية بمواردها التى كانت وبالا عليها، لا يكمن فى القتل المباشر، والتدمير بالقنابل، تلك هى المرحلة الختامية لعلاقة مستمرة منذ ظهر الاستعمار بأشكاله مع دول شاء قدرها أن تقع ضمن حساباته بالاستيلاء والتدمير. إن الاستغلال الممنهج والإبقاء على حالة الضعف الاقتصادى والاجتماعى والسياسى هو ثمرة تلك العلاقة ونتيجة حتمية لها، وهو الأهم وهو الأشد فتكا من القنابل، والعمل به يستهدف شعوبا بأكملها ويبقيها تحت السيف. إن تلك العلاقة حتمت منع النشوء والنمو الطبيعى للمجتمع المدنى فى الدول التابعة، ومنعت نمو الإنتاج البضاعى الحرفى الصغير ليشكل إنتاجا بضاعيا كبيرا فى إطار ما عرف بالثورة الصناعية، كما حدث بالغرب واليابان، منعته فى بلادنا فمنعت كل أشكال التقدم والنمو الطبيعى عن مجتمعاتنا، واحتفظت بها رهينة علاقاتها المتخلفة، ذلك أفضل، فالتعامل مع شيخ قبيلة أو عشيرة أسهل من التعامل مع شعب موحد اجتماعيا وطبقيا ومليئا بالكره للغزاة، وهذا ما يخبرنا به تاريخنا القريب.

تلقى الثقافة العربية القبلية التى تكرس التمييز ضد النساء بظلالها على التفسيرات الفقهية التى تكرس دونية المرأة بالنسبة للرجل

حدث كثير من المفاهيم المجتمع المدنى ووضعته داخل إطار المنظمات الأهلية المهتمة بالشأن العام، يضر ذلك التعريف غير الصحيح بدور المجتمع المدنى، ويسهل لكل من وسائط اتصال الهجمة الثقافية الأمريكية والنخب الحاكمة ويتيح لهم القدرة على إدارة الحوار السياسى فى المجتمع وتسريب حركتها إلى حيث تتسرب فى الرمال.كما يتيح لهم جمع جهد النخب المثقفة الفاعلة فى المجتمعات صاحبة الشأن داخل إطار مغلق بعيدا عن التأثير فى بقية القوى الاجتماعية الواسعة. ومن ناحية أخرى فإن تمويل تلك المنظمات يخلق علاقة تبعية بالضرورة للجهة الممولة، حتى لو حسنت النيات. إن المجتمع المدنى يعرف بعكسه، فهو المجتمع الذى يضم الجميع باستبعاد أنواع وأشكال التميز العرقى والدينى والجنسى، وهو ليس بمجتمع عسكرى ولا قانونى ولا سياسى، إنه المجتمع المدينى إذا حذفنا منه الدولة بآلياتها وأدواتها، فى ذلك المجتمع - بالمفهوم الغربى والليبرالى - يمكن أن تنال القوى المهمشة (المرأة - الأقليات الدينية - الطوائف - الأقليات العرقية..إلخ) حقوقها. ذلك المجتمع هو نتاج الثورة الصناعية، هو نتاج اللحظة التى تحول فيها الإنتاج البضاعى الصغير إلى الإنتاج البضاعى الكبير، فنشأت المصانع ونشأت التجمعات السكانية الكبيرة - المدن. وفى المقابل، عند ظهور المجتمعات المدنية الأوروبية عقب الثورة الصناعية، اختفت طوائف أو نقابات الحرفيين كما يسميها هيجل، وكذلك العشائر التى كانت سائدة فى أوروبا كما هى سائدة فى المنطقة العربية الآن. منع الاستعمار نشوء المجتمع المدنى فى المناطق التابعة له، تم وأد الصناعة التى أنشأها محمد على فى مصر والتى نشأت معها بعض التجمعات السكانية، وكان لها أن تتطور لو ترك لها السبيل. وعاد الاستعمار فى القرن الواحد والعشرين وبدايات الألفية الثالثة ليدمر الكيانات السياسية ويفتتها إلى مكوناتها الأساسية، يعود بها إلى البدايات، القبائل والعشائر والأعراق والطوائف والقوميات الصغيرة، حدث ذلك فى

كتاب الزاوية

المرأة المصرية

بين قاسم أمين وطلعت حرب

واحدة من أهم المعارك الفكرية والاجتماعية التي مرت بها مصر خلال العصر الحديث كانت تتعلق بالمرأة والحجاب، وتفجرت تلك المعركة عندما أصدر الرائد الاجتماعي قاسم أمين في بدايات القرن العشرين كتابه الشهير «تحرير المرأة» والذي أكد فيه أن المرأة مساوية للرجل وحث على تربية المرأة وتعليمها مثل الرجل. وقال إن الغربيين تغالوا في إباحة التكشف للنساء ونحن تغالينا في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال، مؤكدًا أن بين هذين الطرفين وسطا هو الحجاب الشرعي الذي يدعو إليه.

واعتبر خصومه أن قاسم أمين يدعو إلى رفع الحجاب والاختلاط. ودارت معركة حامية حفظ لنا التاريخ كثيرًا من وثائقها ومازال صداها يتردد حتى اليوم دون حسم.

ومن بين الذين قاموا بالرد على قاسم أمين كان محمد طلعت حرب رائد الاقتصاد المصري فيما بعد، حيث خالف أمين على طول الخط، وذلك في كتاب بعنوان: «في الرد على كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين.. تربية المرأة والحجاب».

وقد أعادت مكتبة الآداب بالقاهرة عام ٢٠٠٣ طبع الكتابين «تحرير المرأة» لقاسم أمين، و«تربية المرأة والحجاب» لطلعت حرب في مجلد واحد واخترنا منهما مقتطفات تظهر الخلافات في الرؤى بينهما.

فى غياب المجتمع المدنى، فى ظل سيادة الفكر القبلى والعصبيات وسيادة المجتمع الأبوى، تسود روح القهر والإذلال والنظرة الدونية للمرأة، وبقية الفئات والأقليات المهمشة، هذا ما خلص إليه التقرير

يوغسلافيا وفى العراق وفى الاتحاد السوفيتى نفسه.

فى غياب المجتمع المدنى، فى ظل سيادة الفكر القبلى والعصبيات وسيادة المجتمع الأبوى، تسود روح القهر والإذلال والنظرة الدونية للمرأة، وبقية الفئات والأقليات المهمشة، هذا ما خلص إليه التقرير ولكنه لم يشر إلى السبب والمتسبب فى ذلك.

الفقر وضعف التنمية هما سبب آخر من أسباب عدم تمكين المرأة من حقوقها. يعرف التقرير الفقر بنوعيه، فقر الدخل، والفقر البشرى، ويعد الفقر البشرى من أبعاد مقاييس التنمية الثلاثة: الصحة والمعرفة والدخل. وكما أسلفت، يخلص التقرير من دراساته الميدانية إلى أن العنف والتمييز ضد المرأة وانتهاك حرياتها الجسدية والنفسية، منتشر فى الأوساط الفقيرة، وأن ضعف التنمية يؤدى بالضرورة إلى المزيد من الإفقار، حيث لا يقابل زيادة السكان زيادة مقابلة فى الدخل. تحتم التنمية الاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية والبشرية المتاحة من خلال مشاريع ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية من أجل زيادة الناتج القومى العام، زيادة تفوق معدلات زيادة السكان، هذا ما تفعله الصين الآن، ليحقق معدل النمو الاقتصادى لديها أضعاف معدل زيادة السكان السنوى، فيذهب جزء من الفارق إلى زيادة مستوى دخل الفرد، وجزء للمزيد من التنمية.

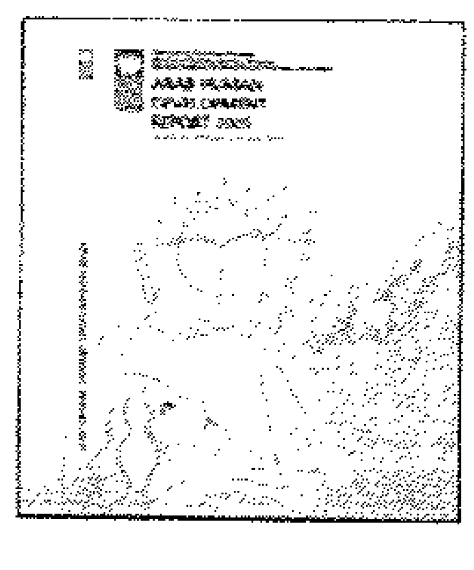
لا يمكن أن يحدث ذلك عندنا، يقف صندوق النقد الدولى لنا بالمرصاد. إن عمليتى التثبيت والهيكلة التى يفرضهما صندوق النقد على مصر مثلا، يمنعان الاتجاه للاستثمار فى المشاريع الكبيرة المؤدية لزيادة الدخل القومى، والاستثمار الحكومى الاجتماعى فى التنمية البشرية متقلص ومتوقف بسبب رفض الصندوق لأى شكل من أشكال هذا الاستثمار، ومنذ أنشئ الصندوق فى منتصف أربعينيات القرن المنصرم، فإن علاقته بالدول الفقيرة غنية الموارد، لم تؤد إلا إلى مزيد من الإفقار، والمزيد من الديون، وهى النتيجة المنطقية لوقف التنمية، وبالتالى، طبقا للتقرير، مزيد من القهر والإهانة وانتهاك الحقوق للمرأة. والولايات المتحدة هى الدولة المنشأة للصندوق، وهو الظل الأمين لتواجدها فى بلاد العالم الثالث.

ومن ناحية أخرى فإن استنزاف موارد الدول الفقيرة من المواد الخام بأسعار زهيدة والتحكم فى تلك الأسعار، ومنعها من تصنيعها بآليات السوق الكبيرة وحجب التقنيات المتقدمة عنها، أدى إلى منع توفر الرساميل اللازمة للتنمية وزيادة الناتج القومى العام، مما ادخل تلك الدول فى الدائرة الجهنمية. دائرة الديون وتسديدها مع فوائدها بلا نهاية.

ثانية، مرة أخرى، يحدد التقرير الفقر وضعف التنمية كسبب رئيسى من أسباب قهر المرأة وعدم تمكينها، ولا يحدد السبب أو المتسبب.

فى السياق نفسه تقسم إحدى الأوراق تاريخ كفاح المرأة إلى ثلاثة أقسام: حقبة الاستعمار، ثم حقبة بناء الدولة الوطنية، ثم الحقبة الحالية وعنوانها: حقبة بروز وعى نسائى جديد. أى أننا الآن، وبعد أن عبرنا مرحلة الاستعمار ومرحلة التحرر الوطنى، نعيش الآن الحقبة الزاهية، حقبة بروز الوعى النسائى الجديد! هذا بالطبع ينطبق على نساء العراق وفلسطين والسودان والصومال! وحين نرى فى المنطقة العربية انتشار المفاهيم الأصولية حول المرأة وانتشار ظاهرة الحجاب كاستجابة شعبية واسعة النطاق، هل يمكن أن يعتقد أى منا، حقا وصدقا، إننا نعيش الآن حقبة بروز وعى نسائى جديد، اللهم إلا إذا كنا نريد أن نحذو حذو جمهور الاستفتاء ونعطى لمر الواقع العربى الحالى فما حلوا لن يكلف شيئا. تساؤل آخر لا بد من طرحه، إذا كنا قد وصفنا حقبة سابقة بالاستعمارية، فهل يمكن أن نصف الحقبة الحالية بحقبة الوعى النسائى الجديد؟ ألا يكون السياق والحال هكذا متنافرا مختزلا مبتسرا؟ وأخيرا، هل عبرنا حقا حقبة الاستعمار وأصبحت خلفنا؟.

لم تحصل المرأة فى كثير من الدول



الأوروبية على حقوقها السياسية إلا بعد الحرب العالمية الثانية، ومنها على سبيل المثال سويسرا، التى حصلت فيها المرأة على حقوقها فى الترشح والانتخاب فى خمسينيات القرن الماضى، فى زمن مقارب للزمن الذى حصلت فيه مثيلتها المصرية واللبنانية على نفس الحقوق، وظلت فى كثير من الولايات الأمريكية محرومة من تلك الحقوق ولم تحصل عليها إلا بعد ذلك بسنوات. ومنذ ما يقارب مائتى عام أعلن (هيجل) أن مكان المرأة الطبيعى المناسب لعقلها هو المنزل، والأفكار المعادية لحقوق المرأة التى كانت سائدة فى أوروبا منذ بضع عشرات من السنين والتى كانت تروج لها الجماعات الأصولية والمحافظة هناك، لا تختلف عن تلك التى تطرحها الجماعات المحافظة والأصولية هنا، ذاك ينسبها إلى المسيحية وهذا ينسبها إلى الإسلام. حدث ما يشبه ذلك فى مصر حيث نجد أن ظاهرة ختان الإناث منتشرة عند الأقباط مثلما هى عند المسلمين! فالعبرة فى النهاية بالتقدم والتخلف المجتمعى.

ولكن الطفرة الاجتماعية والاقتصادية التى حدثت فى أوروبا والغرب، وظهور دول الرفاه الاجتماعى، وتمكن المفاهيم والحقوق الديمقراطية داخل المؤسسات السياسية والحقوقية، وتدخل الدولة بمظلة تأمين حقوق العمال والموظفين أمام سطوة رأس المال، والقوة الهائلة التى يتمتع بها المجتمع المدنى ككل إزاء سلطة ومؤسسات الدولة، كل ذلك أدى إلى نيل المرأة الأوروبية والغربية بشكل عام معظم حقوقها، ولم يتم ذلك بالنوايا الطيبة والآمال حسنة النية بإعادة (توزيع القوة) وإنما تم عبر تاريخ طويل من كفاح تلك الشعوب، امتد من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، لا بديل عنه لأى شعب يرغب فى نيل حقوقه.

وحين تحلق فوق رأس المواطن العربى، خاصة المنتمى إلى الطبقة الوسطى، دعوات التحرر القادمة من الغرب ومؤسساته الدولية، فإنه - وله كل الحق - يرقبها بريبة وشك كبيرين، فهو قد خبر مدى تلك الدعوات وصدقها، حين قدمت له وكالات الأنباء مثلا كيف استطاعت أساطيل الغرب وجيوشه أن تحرر النساء الأفغانيات وتتيح الفرصة لواحدة منهن كى تدخل مسابقة من مسابقات ملكات الجمال. ومن ناحية أخرى حين تؤكد له قوى المجتمع العربى الأصولية على طبيعة المرأة وضعفها البدنى والعقلى، وتكرس تكوينها البيولوجى لتضع عقلها وجسدها بعد ذلك فى رتاج محكم، فإنه ومن الجانب الآخر تأتيه بعض دعوات مفكرات جماعات تحرير المرأة فى الغرب، مؤكدة على الإنكار التام لبيولوجية المرأة والرجل، وعلى وحدة النوع، ويستبدلون كلمة النوع - الجنس بكلمة ملتبسة هى الجندر، تضم الرجل والمرأة والجنس الثالث بنوعيه، وصولا إلى هدف نهائى هو إنكار إن الزواج هو بين رجل وامرأة فقط، وأن الزواج لا يخضع للتكوين البيولوجى فقط، بل يمكن إن يكون بين مثليى الجنس، فماذا ستكون ردة فعله إذن؟ إنه خيار الصفر ذاته الدائم الحضور أمام المواطن العربى، وهو على كل حال سيلجأ - شأنه دائما - إلى ردة فعله الجاهزة دوما، وهو اللا شىء، أو يذهب، ويفعل كما فعل الكثيرون من قبله، فيطلق لحيته.

قدم التقرير جهدا كبيرا لإلقاء الضوء على الأوضاع المزرية للمرأة العربية، وبينت الدراسات والأوراق المقدمة من عديد من الباحثين فيه، الطريق المسدود والنفق المظلم الطويل الذى يسير فيه الإنسان العربى بشقيه المذكر والمؤنث.

ورغم التفاؤل والنيات الطيبة التى أبداها الملخص الإجمالى للتقرير حول إمكانية إعادة توزيع القوة وبناء نسق حكم مؤسسى صالح، يستهدف نهوض المرأة ونهوض الأمة، وهو تفاؤل تنفيه بشدة الآلام والجراح والموت والشقاء والاستبداد والقهر الذى يعانيه الملايين من أبناء أمتنا، إلا أن ذلك لا ينتقص من حجم الجهد المبذول. ونلتمس العذر لواضعى الملخص بقولنا عل ذلك التفاؤل وتغييب دور الفاعل الحقيقى المانع لنهوض الإنسان العربى رجلا كان أم امرأة، والعائد بالأمة والعالم إلى عهود الاستعمار التقليدى، قد أملته اعتبارات عمل المؤسسات الدولية. ولكن تظل القاعدة التى تقول بأنه على قدر الإدراك تكون المحاسبة، وعلى قدر الآلام يكون الحكم، تظل صحيحة ونحن نتعرض لعمل بهذا الحجم والأهمية. ■

كتاب الزاوية

المرأة تساوى الرجل

قاسم أمين

سبق الشرع الإسلامى كل شريعة سواه فى تقرير مساواة المرأة للرجل. فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع الأمم وخولها كل حقوق الإنسان، واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل فى جميع الأحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير أن يتوقف تصرفها على إذن أبيها أو زوجها. وهذه المزايا التى لم تصل إلى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات كلها تشهد على أن من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل. بل إن شريعتنا بالغت فى الرفق بالمرأة فوضعت عنها أحمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك فى نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافًا لبعض الشرائع الغربية التى سوت بين الرجل والمرأة فى الواجبات فقط وميزت الرجل فى الحقوق.

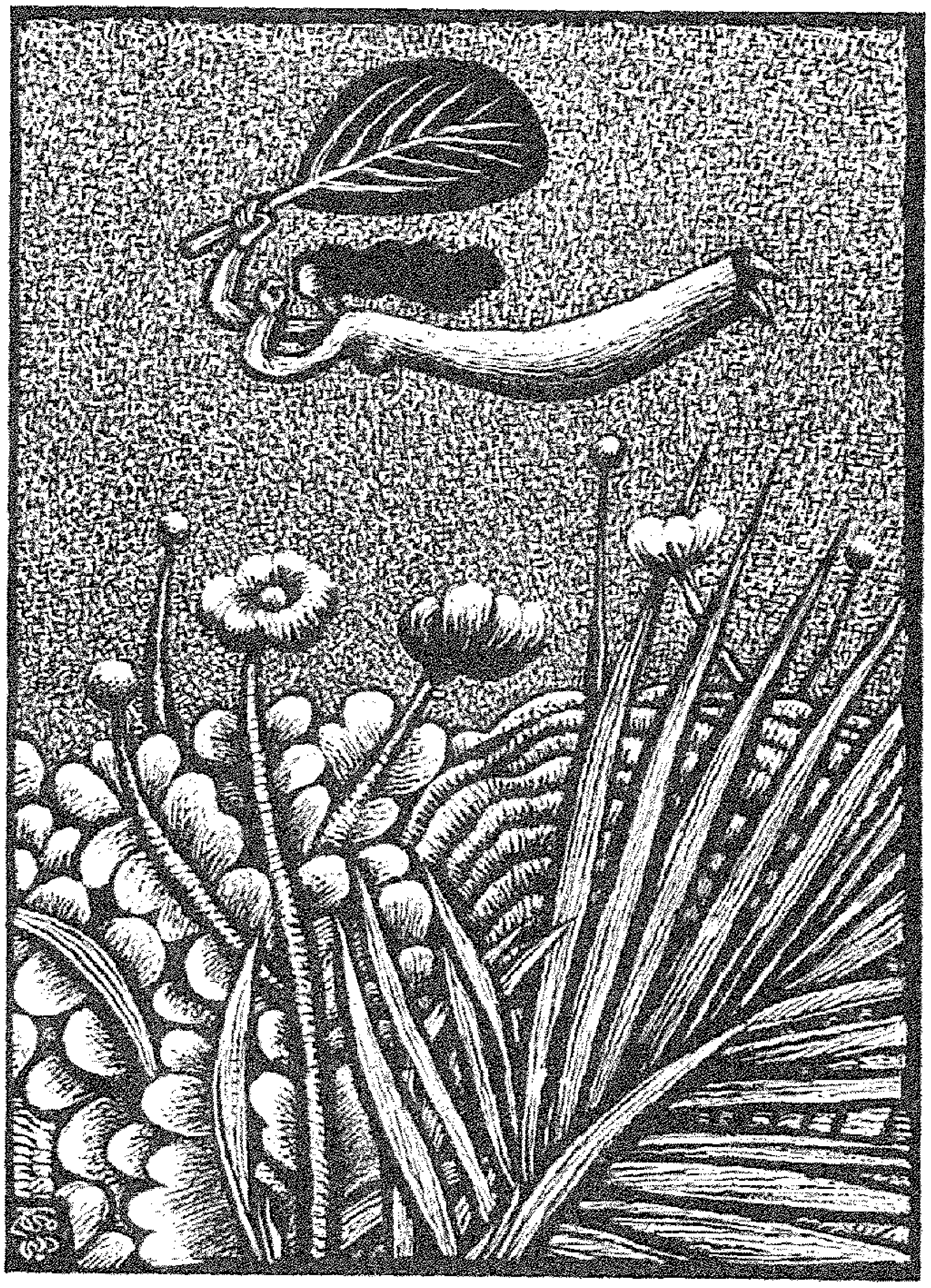
والميل إلى تسوية المرأة بالرجل فى الحقوق ظاهر فى الشريعة الإسلامية حتى فى مسألة التحلل من عقدة الزواج، فقد جعلت لها فى ذلك طرفًا جديرة بالاعتبار خلافًا لما يتوهمه الغربيون ويظنه بعض المسلمين.

ولم أر إلا مسألة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على النساء وهى تعدد الزوجات. والسبب فى ذلك واضح يتعلق بمسألة النسب التى لا يقوم للزواج حياة بدونها.

لكن وا أسفاه قد تغلبت على هذا الدين الجميل أخلاق سيئة ورثناها عن الأمم التى انتشر فيها الإسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من عادات وأوهام، ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الأمم حدًا يصل بالمرأة إلى المقام الذى أحلتها الشريعة فيه. وكان أكبر عامل فى استمرار هذه الأخلاق توالى الحكومات الاستبدادية علينا.

هوامش

خليل فاضل



لم المرأة العربية، لمَ لا يكون الرجل العربى، المرأة فى الكون كله لها خصوصياتها. فما بالك بتلك العربية الغاية فى الخصوصية، الغاية فى التعرض للقهر والتحرش، الإهمال والاستغلال فى مجتمع ذكورى صارخ الذكورة، إن تناول الأمر يجب أن يكون ثلاثى الأبعاد (سيكولوجى. اجتماعى. بيولوجى أو عضوى)، ولعل البعد الاجتماعى هو أهم تلك الأبعاد قاطبة لتأثيره القوى ولدخوله عميقاً فى صلب الأشياء، وأيضاً لتأثيره الشديد حتى على البعد الجسدى، العضوى، بمعنى أن تأثيرات وأحداث الحياة السلبية تسلب مرونة المخ وخلاياه العصبية وتتركه واهناً ضعيفاً هشاً مهترئاً، عرضة أكثر للصدمات، وتهيئه. بخلل واضح. لكى لا يقاوم، بل ليستسلم لاضطراب مسبق، فالاستعداد مثلا للإصابة بالتشنجات الجزئية المركبة، يؤثر بوضوح على نفسية المرأة تلك أو هؤلاء فيترك ندباً وجروحاً مفتوحة لها علاقات من أهمها الإحباط، التوتر، الصراع، الفشل، الجزع، الخوف، الغضب، مما يأخذ شكل الشرود الهيستيرى الانشقاقى، نوبات التشنجات التى ينفصل فيها الجسد عن النفس، وتنفصل فيها المرأة عن واقعها المُعاش المؤلم و المُعذِّب.

وما دمنا نتكلم عن المرأة دون الرجل فإن استعدادها الهرمونى ووضعها الاجتماعى فى مجتمع أبوى متسلط (بطرياركى) ذكورى متحيز، يجعلها أقل حركة وأكثر استسلاماً للمرض وتوابعه. بل وأكثر مقاومة لطرق العلاج المتبعة والمعروفة مما يجعل الأمر أكثر تعقيداً وعسراً.

يبتسم العرب فى أسى عند سماعهم تلك النكتة القوية التى شاعت فى أرجاء الوطن العربى صاحب الأمجاد (أمجاد يا عرب أمجاد حسب أغنية صوت العرب الشهيرة)، بعد احتلال صدام للكويت تقول النكتة أن ثمة رجلاً يُدعى (عَرَب) كان متزوجاً من امرأة قاصرة عقلياً تُدعى (طنبورة)، وكان (عَرَب) قد دَرَّب (طنبورة) على أنه إذا فَرَش لها الملاية نامت على ظهرها، فتحت رجليها واستعدت للقاء الجنسى، فما كان إلا أن أصاب أحد صواريخ صدّام بيتهما فاحترق، حاول (عرب) جمع ما غَلاَ ثمنه وخف وزنه، فرش الملاية ليضع متاعه عليها، فما كان من (طنبورة) إلا أن نامت على ظهرها وفتحت رجليها داعية (عَرَب) للقاء الجنسى، مما أثار بالطبع دهشة الناس المهرولين بعيداً عن آثار الدمار، مما حدا بهم إلى التعليق المباشر (ياااااه... شوف عرب وين، وطنبورة وين)؟؟ وهى إشارة خطيرة لمفهوم الخضوع والرضوخ السلبى، عدم القدرة على الفهم، الطاعة العمياء للذكر ومحاولة إرضائه رغماً عن النيران والصواريخ، تصب هذه النكتة القاسية للغاية فى صميم حكايات تحكيها النسوة العربيات فى إطار شكاواهن العضوية ذات المنشأ النفسى، ذلك المتكون من صراع الأضداد، فها هى تلك المرأة التى اعتقدت أن زوجها وأبو ابنها يحبها، لكنه فى الحقيقة كانت عينه على مالها، وبالطبع حسبها ونسبها، ولما كتب الكتاب عليها لم ينتظر ليلة الدخلة، وإنما فضّ بكارتها ووضعها أمام الأمر الواقع (شكل هذا لاحقاً شعوراً ساحقاً بالذنب نتيجة تطور الأحداث واختلاف نمط الحياة معه)، فلقد أهمل عواطفها ولم يعد يشارك معها فى أى من أمور الحياة، إلى أن لاحظت عليه تغيراً ما، فلقد دأب على العودة ليلاً (فى وش الصبح)، وغالباً ما كان يتعاطى (عقاقير منشطة أو مخدرة أو كل منهما)، كان يوقظها من النوم ويطلب منها أن تستحم وتتزين وتستعد لممارسة الجنس حتى يطلع الصباح بدون توقف. رأت فى وجهه وجه الذئب المفترس، ولم تحس بأدنى متعة لكنها أحست بألم فظيع، باغتصاب حقيقى، اغتصاب من زوجها الذى بفعل ما يتعاطاه أصبح كماكينة الجنس، غالباً أنه لم يحصل على أى متعة، ولم يكتسب أى لذة، لكنه كان يتسلَّى ويقلد أفلاماً إباحية أدمن على مشاهدتها مع رفاقه العزاب. أصيبت المرأة بالاكتئاب الشديد، بالقهر، بالمذلّة، كان وضعها كامرأة مؤمنة يضعها فى موقف المُطيع خشية غضب الله، لأنه لازم ولابد أن تستجيب لنداء زوجها فى الفراش مهما كان الوضع، وبعد الجهاد لإقناع أهلها بحتمية هذا الطلاق، انتهى الأمر بطلاقها فعلاً، لكن الأب بذكورته المعهودة وسمعته التى تملأ الآفاق، كان لا يهتم بأحاسيس ومشاعر ابنته، كان يتشدق بما يقوله آباء (بطرياركيون) كثيرون، (طبيب

لا يمكن التعميم، فالمصريات منهن سيدات المجتمع المخملى، ربيبات النوادى والبلاجات، ومنهن الجبارات اللاتى لا يسمحن لأبنائهن الذكور بخيانتهن (نفسياً) بالزواج من أخرى!

يا ابنتى استحملى هوَ أنا يعنى هاعمل ايه؟ الناس هتسألنى بنتك اتطلقت ليه؟!) وآخر أجبر ابنته على الزواج بمن لا تحبه، لأنه أعطى الناس كلمة (وشكله هيبقى وحش قوى قدامهم)، مايجراش حاجة، اتجوزيه وجيبى منه عيلين وأبقى اتطلقى، ثم انتهى الأمر بطلاق بعد ٢٠ سنة وثلاثة أولاد وقهر وحاله متطورة جداً من (الجسدنة) Somatisation شملت ضغط الدم العالى، الإغماءات المتكررة والتسوق الطبى، ثم إلى الزواج بمديرها الذى يكبرها بـ ٢٥ سنة وكان ذلك فى السر.

هذه بعض النماذج التى تمثل حالات القهر والعنف المعنوى، الظلم والمرارة والألم النفسى والجسدى.

إن الكثيرين يقرأون الفكر ما بعد الحداثى كانعكاس لما يحدث من تحولات اجتماعية واقتصادية ونفسية[1] مركزين على علاقات الاستغلال، وفقدان المساواة، سيطرة النخبة وهيمنة التغريب على مجتمعات العالم الثالث ولم يكن هناك مثل إكلينيكى قوى، واضح وشارح صراعات المرأة العربية المصرية (فيما بعد الحداثة)، أكثر من (مجيدة)... مجيدة امرأة فلاحة من إحدى قرى بنى سويف الواقعة جنوب القاهرة بحوالى ١٠٠ كيلو متر تبلغ من العمر ٢٦ عاماً، حلوة وعايقة على الرغم من امتلائها بعد ولادتها لولد وبنت، متزوجة من سيد الذى يعمل نجاراً (هذا ليس اسمه الحقيقى) ويكبرها بحوالى ست سنوات. فى الظاهر مجيدة راضية بعيشتها مع أهلها وزوجها، أولادها وتفرح باللمة والعزوة، لكنها فى عقلها الباطن (بينها وبين نفسها) غير راضية إطلاقاً بهذا الأمر الواقع، وترى فى سعاد حسنى فى فيلم (بئر الحرمان) خير مثال لحالتها، فـ (مجيدة) الأخرى هى هند أو سمارة أو هيفاء تلبس وتضع الماكياج الثقيل، تغمز للرجالة وتشرد، تهج بعيداً عن الفقر والسكون والملل والعيشة الفاقدة للمعنى والدهشة وللبهجة.

فى آخر مرة حضر زوج أختها بالتليفون المحمول (الموبايل) الحديث جداً، ومعه داخله ملف لإحدى النوبات التى وصلت إلى ٢٤ دقيقة، نقلها بتكنولوجيا العولمة أو ما بعد الحداثة إلى أسطوانة CD،تمكننى من مشاهدتها بوضوح، وكان واضحاً فيها (التصدع، الشرود، الألم النفسى والعضوى، التشوش Confusion ، الحيرة، البلبلة، الارتباك Bewilderment).

مجيدة أجرت فحوصاً كثيرة منها تخطيط الدماغ EEG ، ظهرت بها بؤرة صرعية)، غير أن الصورة الإكلينيكية كانت غير احادية، بمعنى أنها لا تُشخص على أساس أنها اضطراب واحد، لكن أكثر من واحد، أى فهمها على أنها حالة (زملة أعراض Syndrome)، فليس تخطيط الدماغ الدال على الصرع الصدغى أداة تشخيصية قوية، وبالتالى فهو ليس مفسراً لنوبات هيستيرية واضطراب واضح فى الشخصية، مع وضع اعتبار حدوث نوبة من الشلل الهيستيرى فى النصف الأسفل من الجسم عام ٢٠٠٤، انتهت بعملية تفريغ نفسى Abreaction ،خرجت مجيدة من العيادة على قدميها بعد ما دخلتها على كرسى متحرك تدفعه أربع من النسوة وطفلان ورجلان فيما يشبه الـ (زفة)، تؤكد نوبة الشلل الهيستيرى على المكسب الثانوى الذى تجنيه مجيدة، حيث كان المكسب الأولى هو إعفاؤها من مسئولياتها كزوجة (خاصة فى التعامل مع زوجها نفسياً وجنسياً وحياتياً)، كان هناك تصدع خفى فى العلاقة الزوجية بمعنى (التباعد النفسى)[2]، بمعنى تلك الحالة من الانطفاء فى علامة العاطفة. الجنس، أو خفوتها إلى درجة متقدمة، مع ما يضاف إليها من تراكم التناقضات فى التوقعات والسياسات والأولويات وما ترتبها من حاجات، وكأن الرباط الزوجى قد استنزف على صعيد العاطفة والشراكة، ومع هذا الاستنزاف يتزايد التباين وتتقلص منطقة التقاطع بين دائرة الرباط الزوجى (كل شخص يمثل دائرة)، وتتباعد هاتان الدائرتان ينشأ عنه عالمان مختلفان: كل من الزوجين يبدأ التحرك فى فلك خاص به، على مختلف الصعد والاهتمامات (فسيد لا يحمل أى وسامة كما أنه يهمل فى مظهره جداً، بخيل)، أو كما صرحت مجيدة تفصيلاً منذ حوالى عامين فى هذا الحوار التالى:

مجيدة: أنا عندى استعداد، كان عندى أعراض خفيفة من وأنا بنت. قبل ما أتجوز بسنة.

المعالج: بتحبى جوزك؟

مجيدة: ما هو أبو عيالى...هاقول إيه يعنى؟!

المعالج: إحكى لى عنه..

مجيدة: بيننا مشاكل جامدة قوى ع الفلوس، بيخبى منى الفلوس على طول، الكذب فى دمه دايماً، مابيفضحناش، بتاع مصلحته وبس.

ذكرت مجيدة فيما ذكرت من أعراض (القذف السريع)، لدى زوجها، رعشة فى الشفاه والفم، تصلب فى الساقين إغماءات متكررة، زيادة كبيرة فى الوزن.

فى المقابل مظهر زوج أختها، بهى الطلعة، مهندم الشكل والحديث لبق، واثق من نفسه، وكان واضحاً إعجاب مجيدة به وأسرت له بمعظم أعراضها ووكلته متحدثاً رسمياً باسمها مع المعالج، ورغم المشقة التى يتجشمها إلا أنه كان يحب ذلك الدور، فى حين فضل الزوج الانسحاب وترك الدور يلعبه آخرون بكفاءة بعيداً عن المواجهة والمشاكل.

مجيدة، تلبس، وتتزين،(تطفش)، تخرج على غير هدى، تعاكس الرجال، كان الأمر نوعاً من الشرود والتحول المحسوب Dissociative Fugue ، وهو حسب المصطلح العلمى، اضطراب يحدث بشكل مفاجئ، غير متوقع يصحبه ترحال من مكان الإقامة (البيت)، وغالباً ما لا يتذكر الشخص ماضيه إما كلية أو جزئياً. اضطراب يكثر فى هؤلاء الذين خاضوا الحروب أو عاصروا الكوارث والحوادث، وللأسف الشديد أنه لا توجد أية إحصائيات رسمية أو علمية فى العالم العربى المليء بالحروب والكوارث الطبيعية والتى من صنع الإنسان، إذن

النظرية القديمة فى الطب النفسى كانت تعتمد على أن هناك اكتئاباً تفاعلياً تتسبب فيه ظروف الحياة السلبية، واكتئابا مرضيا يحدث بلا سبب إطلاقا

ما هى يا ترى نسبة حدوث اضطرابات (التحوال الانشقاقى)، فى الشعوب العربية وتحديداً بين جموع المرأة العربية باختلاف أممها وشعوبها.

عودة إلى مجيدة وأعراضها قبل عام بالتمام والكمال منذ كتابة هذه الدراسة. قالت مجيدة:

. بأحس بقفشة فى صدرى (كتمه واختناق).

. حتى الكلام مفيش. زى ما يكون فيه صاروخ ضرب فى دماغى، ضرب بعد زنة كبيرة، كإن فيه دبور جامد دخل فى ودنى. ضيقة خلق باستمرار. لى صديقة تزوجت، اتصلت بزوجها وقلت له أنا معجبة بيك، وقلت وقلت وقلت، كلام كتير ما يتقالش، قلتله أنا رايدالك أنا جوزى سيد خدته غصب عنى.

كانت مجيدة تصر فى كل أقوالها وتفسير أعراضها (بأنها كما لو...) (كإن) As IF. تراوحت الأعراض وتأرجحت بين الشلل الهيستيرى والتحوال الانشقاقى إلى أعراض الجسدنة، والتحول الهيستيرى: اعوجاج الفم، حشر اللسان، نوبات من النرفزة والعصبية الشديدة. كما كان سماع القرآن الكريم يصيبها بحالة غريبة من التوتر والشدة والإغماء، مما دعا الناس إلى التصريح بأنه حرام أن (يغلقوا)، الكاسيت الذى يذيع القرآن، إلى رش الماء، إلى أخوها الذى يحضر شيخاً بل وشيوخاً يقرأون القرآن، فأحست بأن الجن قد جاء، نعم جاء إلى ولبسنى (لبس وليس مس)، فأمسكت مجيدة بالرجل الذى أمامها وضربته (نعم، ربما كان هو الجن بذاته). (يمكن)؟؟؟؟؟

ولنتأمل سوياً تلك الكلمات لمجيدة (أنا زهقانة على طول، عايزه أنام، بامشى وبامشى، مش عارفة رايحة على فين، زهقت خلاص، كإنى فى موقف ومكان كنت فيهم قبل كده، عايزة أتعلم السواقة، والنبى أمى زمان كانت وعدتنى تجيبلى عربية، حاسة بحاجة بتمشى فى جسمى. أمى هتجيبلى عربية (أوبل)، لكن الحالة المادية لا تسمح الآن، كإنى نايمة وكإنى صاحية، عدم تركيز شديد، خوف، أنام وأصحى. وأنا طالعة السلالم، أخاف حد هيطلع ع السلم، فجأة كإن كشاف نور ضرب فى عينيا، عايزة أقوم وأقطع حتة من لسانى وأشوف هاتكلم واللا لأ؟! وأشوف فيه حد تانى معايا والا لأ، حد جوايا بيطلب منى ألبس وأتدلع واحط ماكياج، أنا فجأة بقى اسمى خديجة، بأتوه توهان كامل، أبقى قاعدة باضحك عادى، وبعدين دماغى تتهز، واخواتى

واللى حواليا بيقولولى عندك ثلاث أشكال للعين (ضيقة، وواسعة ومبحلقة)، وساعات ضحكتى تبقى غريبة، وساعات تبقى عادية. كمان بأحس بكل القاعدين، وبرضه مش حاسة بيهم، كإن عليَّ عضريت وطلع. باشوف تخيلات ع الحيطة ساعات، عقارب وحمام وواحدة قاعدة فى البانيو شكلها وحش قوى، بأتاوب (أتثاءب)، وبعدين أحس بوش شديد قوى فى دماغى بأحس بدماغى مش طبيعية، أمسك بنت أختى أضربها ضرب مش معقول لا يمكن يحصل لطفلة، وكمان باضرب ابنى، لطشت وشه لغاية ما احمر من الضرب (وبعدين أقعد أعيط وأطبطب عليهم، وجوزى عامل زى خيال المآته، زى ما هو، مش طايقاه، بهدلنى وخلانى أسيب البلد (الأرياف)، وأجى أقعد فى مصر فى حتة مقطوعة. (كإن فيه حلل. أوعية طهى) بتخبط جوه دماغى.

يهمنا هنا التركيز على العوامل المؤثرة والمهيجة للحالة بالتحديد: الاضطرابات الانفعالية، الإجفال (الخضة)، الصدمة أو الدهشة، الصراعات والتوترات البينشخصية.

كل ذلك يزيد من حدة ودرجة تكرار النوبات التشنجية. ويختلف ذلك من شخص لآخر طبقاً لتركيبته ودرجة صلابته فى حالة مجيدة فهى حتى لو لم تكن مضغوطة، مظلومة، تحس بأنها ليست فى مكانها الأجدر بها أن تكون (هانم) تعيش فى بيت أنيق ليس ضرورياً أن يكون فخماً، أن يكون زوجها (رجلاً) يملأ العين و القلب و الخاطر، أن تسكن قلب العاصمة لا أطرافها العشوائية، لا أن تسكن الريف ولا أن تعيش مع أهلها الفلاحين؟!.....

(مجيدة) لم تقل أيا من كل هذا صراحة، لكنها عبرت عنه وألمحت إليه كثيرا.

ننتقل من تلك الحالة إلى ما يمكن الاصطلاح عليه باكتئاب المرأة المصرية، وهو إلى حد كبير ينطبق على المرأة العربية بشكل عام، لكننا خصصنا المرأة المصرية نظراً لكثافة حالاتها نسبة إلى تلك العربية فى مجال خبرتنا المحلية.

ولنا أن نتساءل هل يجوز أن نخصص اكتئاباً للمرأة المصرية؟[3] نعم، يجوز لأنها (حمالة أسية)، (قوية) أحياناً تصبر كالجمل، ثم بعد ما يهجر البيت الأولاد وينام الزوج وهو يقرأ الجريدة، تنطفئ الشموع وتبدأ عملية اجترار الذكريات، قد تقوم لتحضر له كوب الماء والدواء، وهو يتابع نشرات الأخبار كجبل الثلج، وقد تدمع عيناها بسبب وبدون، وقد تشتاق إلى حضنه، بل تشتاق إلى الفراش المهجور.

هنا لا يمكن التعميم، فالمصريات منهن سيدات المجتمع المخملى، ربيبات النوادى والبلاجات والسونا والحمام التركى والسيارات الفارهة، ومنهن الجبارات اللاتى لا يسمحن لأبنائهن الذكور بخيانتهن (نفسياً) بالزواج من أخرى، ويكن أفظع الحموات بالفعل.

عموماً. المرأة المصرية أكثر شجاعة وأكثر جرأة فى التقدم بشكواها أحياناً ما تكون شكاءة جداً، لكن معظم الحالات التى ترتاد العيادة النفسية تكون مظلومة مقهورة متعبة منهكة.(بالفعل إنهد حيلها)، كثيراً إن لم يكن غالباً. يخجل الرجل ويتوارى و(يتكسف) ولا يحضر مع امرأته إلى العيادة النفسية. (هذا إذا وافق أصلاً على ذهابها للعلاج النفسى). يغضب للغاية ويقلب الدنيا جحيماً إذا أشار أحد إلى أنه سبب اكتئاب امرأته، لكنه بانصرافه عنها، بالضغط عليها لكى تقف على حيلها دون كلل فى المطبخ من أجل المعازيم، بلومها على طول فى أى شأن يخص الأولاد، وأحياناً بضربها، أوبارهاقها فى الفراش فى مسلسل إدمان جنسى لا ينتهى (تسلية أو إثبات للفحولة)، أو العكس تماما، يهجرها فى الفراش ويعطيها ظهره، أو ينام فى غرفة ثانية إن وجدت، أو على كنبة فى الصالة.

وقد يظهر اكتئاب المرأة فى مصر[4] فى صورة نهم شديد إلى الطعام، حالة شره عصبى تساعد عليها البنية الجسدية للمرأة المصرية، فتبدأ الامتلاءات تظهر فى الأرداف والبطن وأحياناً كل الجسم وكأنها (بتحط همها) فى (حلة محشى) أو(صينية مكرونة فى الفرن).

كذلك فإن المرأة المصرية، هى مثل مثيلاتها فى الشرق يعبرن عن أحزانهن جسدياً، فنجدها تشكو من آلام أسفل ظهرها، من سقوط شعرها، من ألم فى الصدر (يفهم على أنه تعب فى القلب)، إلى آخر تلك القائمة، بجانب ازدياد نسبة توتر ما قبل الدورة الشهرية (حيث تزيد حدة المرأة وعصبيتها وغضبها فى العشرة أيام التى تسبق نزول الحيض).

النظرية القديمة فى الطب النفسى كانت تعتمد على أن هناك اكتئاباً تفاعلياً تتسبب فيه ظروف الحياة السلبية، واكتئابا مرضيا يحدث بلا سبب إطلاقاً، لكن الاتجاه العالمى الآن هو أن الاكتئاب: اكتئاب، لأنه فى كلتا الحالتين تتعكر كيمياء المخ العصبية، ويتطلب الأمر (فضفضة علاجية، مع علاج نفسى تدعيمى)، وأحياناً جرعات محددة من مطمئنات تحت إشراف الطبيب، أما بالنسبة للمرأة فمازالت هناك اتجاهات ترى ربط المسألة الهرمونية، الحيض، الحمل والولادة بالاكتئاب أو بالاضطرابات النفسية عموماً، لكن كثيراً من الأبحاث بدأ يعتنق نظرية ارتباط الاكتئاب بالولادة (بمعنى أن تلك المرأة أصلاً مهيأة للإصابة بالاكتئاب فجاءت الولادة كحدث سعيد بذلت فيه مجهوداً عصبياً وجسمانياً، أدى إلى إنهاكها بجانب أنها أصبحت أماً وأمام مسئولية ليست سهلة)، بالنسبة لما يشاع عنه خطأ بسن اليأس (أى فترة ما بعد انقطاع الطمث)، فإن المسألة فى مصر مربكة ولها دلالات اجتماعية، نظراً لأن المرأة المصرية إذا بلغت سن انقطاع الطمث أو استأصلت رحمها: فإنها فى غاية الحساسية لمسألة (فقدان أنوثتها)، أو(أنها تحس بأنها فقط تنتظر الموت)، بخلاف بعض النساء فى الغرب اللاتى تحديداً يبدأن حياة جديدة بدون أولاد، يمارسن هوايات متعددة، يلعبن الرياضة، ويذهبن إلى الأوبرا والدورات التدريبية والندوات لكن. مع تقديرنا البالغ لانشغالات المرأة المصرية. إلا أنها (بيوتية) (تحب قعدة البيت، وحواديت الجيران، والتليفون والتليفزيون كوسيلة تسلية؟!)... كما أن المرأة تمر بمرحلة تغيرات وتبدلات هرمونية كثيرة كل شهر، وعلى الرغم من أن البحث العلمى لم يثبت بعد أن التغيرات الهرمونية تلعب دورا فى الإصابة بالاكتئاب إلا أن الأمر يبدو كذلك للبعض. البنت وهى فى طريقها إلى مرحلة البلوغ معرضة للاكتئاب مرتين ضعف الولد، يعتقد علميا أن الأمر راجع إلى التغيرات الهرمونية المرتبطة ببدء الدورة الشهرية، والنظرية التى تعارض ذلك تؤكد على أن البنت فى تلك المرحلة تتعرض لضغوط وصراعات أكثر من الولد. تحديدا فى مجتمعاتنا الشرقية وكل ذلك يتسبب فى الاكتئاب.

الأنثى أكثر تعرضا من الرجل للاغتصاب والانتهاك الجسدى والتحرش الجنسى وكلها أسباب قوية وراء الإصابة بالاكتئاب،هنا فإن انخفاض الاعتبار الذاتى، والشعور باليأس، ولوم النفس تعد أعراضاً لقسوة الرجل الجنسية للمرأة واعتدائه النفسى والجسدى عليها[5].

وعلى الرغم من أن المرأة قد أصبحت وزيرة وعالمة وقاضية، وتبوأت مناصب شتى إلا أن النمط الاجتماعى الذى تعودنا عليه فى المجتمعات الذكورية، وكذلك فى بعض دول الغرب، يجعل المرأة تحس بأنها أقل من الرجل شأنا وأنها أحيانا بلا قيمة، وأن دورها قد انتهى، وأنها وعاء وخادمة ومهمشة، مسكينة ومغلوبة على أمرها، تربى الأولاد، تغسل، تكنس، تمسح، تطبخ، تعمل، تشترى، تبيع، (هذا باستثناء الهوانم، اللاتى تكلمنا عنهن سابقاً)، كل هذا يشكل ضغوطاً لا تنتهى على المرأة المصرية ويؤدى إلى اكتئابها.

نوبات الطلاق والفتور العاطفى والخصام الزوجى أصبحت شائعة جداً، أصبحت كالملح للطعام

أحياناً ما تعتبر المرأة (ست بيت راجل)......(كده)، وهو تعبير شاع جداً مع نزوح الرجال إلى العمل فى الخليج وشمال أفريقيا وأفريقيا وأوروبا (هناك قرى كاملة فى الشرقية متخصصة فى إيطاليا، وقرى كاملة متخصصة فى فرنسا، ما أن يبلغ الولد ١٤-١٥ سنة حتى يستقدمه أبوه، خاله، عمه للعمل معه فى إيطاليا أو

فرنسا غالباً فى مزارع العنب يقطفونه، لدرجة أن تلك القرية كادت تصبح مثل تلك التى فى فيلم (عرق البلح). هذه المرأة الراجل، غلط، والسيدات المصريات مكافحات وعظيمات ولهن الشرف والفخر والاعتزاز. ولكنهن ستات فى نهاية الأمر إناث! تقول «باتعة»[٦] «تعبت و اتهد حيلى»..... (الصبح بدرى تمسح سلالم العمارة كلها، وتغسل سيارات السكان كلها قبل نزولهم لأعمالهم، هى بوابة للعمارة، وكذلك فراشة بمدرسة تبدأ عملها هناك الساعة الثامنة صباحاً، ولدى عودتها فى الثانية ظهراً تشترى احتياجات السكان من السوق، وبعد الظهر تنادى عليها إحدى الهوانم لكى تغسل صحون الغداء أو لشراء طعام العشاء، حتى يوم الجمعة، تقوم بتنظيف شقق بعض السكان، كل جمعة شقة أو شقتين... ولما سألتها الصحفية التى وصفتها بأنها (نموذج من السيدات المكافحات بشرف من أجل كسب لقمة العيش)، وصف مثل وصف (المشروع القومى) أو مثل (البرنامج الانتخابى). ليست له فائدة أو مدلول ولا ينفذ إطلاقاً إلى العمق، لكن المهم هو رد باتعة (مفيش راحة إلاّ بالموت)، تمنى الموت هنا زهق وكره للحياة، وعدم قدرة إطلاقاً على الاستمتاع بها (وكيف يكون الاستمتاع ومتى وأين)؟!

قد يتخيل البعض هذه المرأة مستمتعة بعملها، غارقة فيه حتى أذنيها، (ولقد طرحت الأمر فى مناقشة خاصة لمجموعة من الناس[٧]؛ فقالوا أنها تعانى من القهر لا الاكتئاب، عندئذ رد البعض بأن القهر يؤدى إلى الاكتئاب، والاكتئاب فى مثل تلك الأحوال لا يظهر صراحة). باتعة تزوجت ابن عمتها وانتقلت معه إلى الإسكندرية، أما عن زوجها فهى تقول (ماهو التانى غلبان وحمله تقيل.. بيشتغل الصبح فراش فى شركة، وبعد الظهر فطاطرى فى أحد المحلات لكى يوفر مصاريفنا ومصاريف والدته المسنة وأخواته البنات اللى على سن جواز، تتصورى بيشتغل ١٨ ساعة فى اليوم.. والله.. بأقعد بالأيام مابا شوفه.... لا أنا ولا بناته)[٨].

وعلى الرغم من أن مفهوم المرأة المعيلة هو تلك المرأة التى تعول أسرتها بسبب فقد عائلها سواء بالوفاة أو الطلاق أو السجن أو العجز كلياً، أو زواج الزوج بأخرى. وعلى الرغم من أن هذا التعريف لا ينطبق كلية على المصريات المُعيلات، لأن كثيرات منهن قد (طفش) أزواجهن واختفوا أو سافروا ولم يعودوا وفقدنَ الاتصال بهن، أو أن الزوج يكون ذلك النطع الطماع الكسلان.

وعلى الرغم من عدم وجود إحصائيات دقيقة إلا أن بعض الدراسات تشير إلى أن نسبة النساء المعيلات لأسرهن تتراوح ما بين ١٦-٢٢ ٪ فى المائة أى نحو٣ ملايين امرأة[٩] فى المقابل هناك نساء كثيرات يعملن ساعات طويلة يتركن فيها بيوتهن (المفروض بيت العز والراحة)، يتمنين أن (يشتهيهن رجالهن: أى أن يتيحوا لهن الفرصة لكى يتفرغوا لشئون ست البيت، وأيضاً للدلع والمكياج والاستعداد للقاء الجنسى)، لكن الظواهر المجتمعية فى مصر تشير الآن. ريفاً وحضر. إلى أن ثمة انحسار نسبى فى الأنوثة. وأن النساء المحرومات عاطفياً أكثر اكتئاباً وأقل نضارة وجمالاً، فالزمن والعمل وصراعات الحياة وشعار اللهاث وراء لقمة العيش يخطف منهن لونهن الوردى، ويسحب منهن اهتمامهن بأنفسهن، إذن توارت الأنوثة مع الزَن والنكد، مع علو الصوت وسوء المعاملة، كثرة طلبات الأولاد واختفاء مفهوم عطلة نهاية الأسبوع (Week End) تعتقد بعض النسوة أن كيلو ماكياج يكفى لدفن الهموم، لكنه فى الحقيقة يزيد الأمر بشاعة.

إذا ناقشنا اكتئاب المرأة أو أنوثتها فلابد أن نتناول الأمور المتعلقة بأساسيات هذا الموضوع (فالمرأة فى مصر لا تُنصف اقتصادياً أو اجتماعياً بسبب عدم احتساب قيمة جهدها ووقتها المبذولين بشكل يومى والمحققين لعائد مالى)[١٠]، إذن فعدم الإنصاف اقتصادياً واجتماعياً هنا يؤدى بها إلى سلوكيات قد تُعد منحرفة مثل أن (تسرق)، أو أن (تأخذ) باقى حقها من جيب زوجها وهو نائم، أو أن (تخنصر) فى المصروفات تحسباً لوقت تحتاج فيه المال.

فى حين أن ازدياد معدلات الهجرة الداخلية من الريف إلى الحضَر قد زاد جداً فى التسعينيات مقارنة بالسبعينيات، والثمانينيات حيث ترك الرجال نساءهم وراءهم بلا (ظل راجل) أو(اشباع عاطفى وجنسى)، وبهموم الأولاد وإدارة الأعمال الصغيرة.

يذكر تقرير البنك الدولى[١١] أن القوى العاملة المصرية من ١٥ إلى ٦٤ سنة بلغت عام ١٩٩٩ عدد مليون عامل وعاملة، يشكل الذكور منها نسبة ٧٨.٦٪ والإناث ٢١.٤٪ وأن القطاع الخاص يضم نسبة ٥٦.٥٪ من مجمل عدد العاملات فى مصر، ولكن الخطورة. كما تشير د. أمينة شفيق. إلى أن ٦٢٪ من هذه النسبة فى القطاع الخاص غير الرسمى.

المكن.. و«التمكين»!

أين النخبة من «١٥٠ امرأة» عاملة معتصمة في شركة «المنصورة - إسبانيا» وقد دخل اعتصامهن يومه الخامس والعشرين بعد مسيرة ١٨ وأحيانًا ١٩ سنة من العمل على ماكينات الخياطة في عنبر تكاد ترى الهواء يهرب منه من كتر الخنقة؟ ١٨ سنة من العمل الذي يبدأ في الساعة السابعة والنصف صباحًا وحتى الثالثة مساء وأحيانًا حتى الثامنة مساء بما في ذلك أيام الجمع.. مقابل ١٥٠ جنيهًا مصريًا فقط لا غير.. بدون علاوات.. بدون حوافز.. بدون أي رعاية صحية.. ومع خصم ٢٠ جنيهًا لكل يوم جمعة تتخلف عنه العاملات..

«١٥٠ امرأة» بدون كلام كبير وبدون أن يعتبرن أنفسهن نخبة ولا قيادة، ولا ترغب واحدة منهن في ترشيح نفسها لا في الشوري ولا في مجلس الشعب، ولا تسعى أي منهن إلى التمكين السياسي.. فهن «يمكن» منحنيات على ماكينات الخياطة من صباح ربنا حتى مساه.. لجأن إلى الاعتصام، لكي ينتبه إليهن أحد.. لكي يتكرم عليهن أحد ويخبرهن بالحقيقة: هل تم بيع الشركة؟ وفي هذه الحالة فهن يطلبن تعويضًا عن سنوات العمر التي أهدرنها في هذه الشركة.. أم لم يتم بيعها وفي هذه الحالة فهن يطالبن بحقوقهن في الحوافز والعلاوات عن الفترات السابقة..

«١٥٠ امرأة» كسرن - دون أن يدرين - جميع الصور النمطية التي تتناقش بشأنها نخبة القاهرة عن النساء المصريات.. تركن أزواجهن وبيوتهن.. ومنهن من هدد أزواجهن بالطلاق، ومنهن من فسخت خطبتها لأنها تشارك في الاعتصام.. تركن أبناءهن وهم على أعتاب الامتحانات.. ليس دفاعًا عن الحق في المساواة، ولا عن تحرر المرأة ولا إثباتًا لحقهن في التعبير، وإنما دفاعًا عن حقهن في الحياة.. معتصمات في مقر الشركة.. يمضين الليل نائمات على ورق الكرتون على بلاط المصنع.. وفي الصباح يجلسن على نفس ماكينات الخياطة التي أكلت فقرات الظهور وزرعت مكانها الألم الذي لا علاج له سوى «الراحة» التي لا يقدرن على ثمنها.. ثم ينتظرن من بعد الثالثة عسى أن يأتي أحد يرغب في الاستماع ويتمكن من مساعدتهن في تحقيق المطالب.. نساء بعن أعمارهن ويطالبن الآن بالثمن المناسب.. فكم تساوي ثمانية عشر عامًا من حياة امرأة مصرية؟!

«١٥٠ امرأة» أمورهن واضحة.. ومطالبهن واضحة.. دون سفسطة ودون مرجعيات أيديولوجية.. اشتغلن حتى راح الشباب والصحة وراء ماكينات الخياطة، ويطلبن الآن مقابلاً عادلاً لهذا الشغل.. مواقفهن واضحة.. يصبرن من باب الأدب بعض الوقت حتى يأذن الأمن لزوارهن بالدخول.. لكن حين يتباطأ الأمن ويبدو لهن أن انتظار الزوار قد طال أكثر مما تسمح به آداب الاستقبال يخرجن من العنابر ويحطن بالزوار ويدخلونهم إلى العنابر ويوجهن الكلمات اللاذعة لرجال الأمن دون أن يدرين أنهن يكسرن هيبة أعلى سلطة في البلاد.

السيدة (الوزيرة) عائشة عبدالهادي - وقد فتح الحزب الحاكم لها فانتقلت من صفوف العمال إلى صفوف التنفيذيين (...) ترفض الاستماع إلى هؤلاء النساء، فقد يكون في الاستماع إليهن تذكرة غير مرغوب فيها بالأيام الخوالي.. واللجنة النقابية في الشركة لم يعد لديها ما تقدمه، وقد اجتمعوا مع «الجماعة في مصر» وعادوا وقد انضموا إلى جبهة الأعداء فأصبحوا يهددون المعتصمات بفض الاعتصام وإلا فالتهديد بمباحث أمن الدولة الجاهزة لاستدعائهن أو القبض عليهن أو استدعاء من تيسر من أفراد الأسرة.

في شركة «المنصورة - إسبانيا» نساء لسن من النخبة.. يعشن منذ ٢٥ يومًا «ماراثون» لا تقدر عليه سيدات الحكم والطبقة الراقية ممن تمشين لعدة ساعات وعدن فخورات بأنفسهن.

عايدة سيف الدولة

من مقال بصحيفة «الدستور» المصرية
السبت ١٩ مايو ٢٠٠٧

أى ذلك الذى خارج الإطار القانونى أو المؤسسى. فهو قطاع ينتشر فيه الاستغلال والتحرش النفسى والجنسى، ولا يقدم حقوقاً مكفولة مثل إجازات الوضع وساعات العمل وعضوية النقابات والتأمينات. ومن هنا نلحظ عبء كل ذلك على الحالة النفسية للمرأة المصرية.

لا يمكن. إطلاقاً. تناول صراعات المرأة العربية بعد أو قبل أو أثناء (الحداثة) إلا بمناقشة ما طرحه (فرويد) منذ أكثر من قرن من الزمان، بأن الجنس والمال (أو الزواج والإنفاق)، بما يحويه من عمل الرجل وولائه المادى والعاطفى الأكبر تجاه أهله (غالباً أمه وأخواته)، وتفضيلهن فى أحوال كثيرة على بيته (زوجته وأولاده)، ومع يقيننا بأن هذا الملف ليس لمناقشة الموضوع الجنسى إلا أننا نطرقه هنا من زاوية ارتباطه بالمرأة العربية و صراعاتها النفسية عموماً.

وكما ذكرنا سابقاً. فقد تُستغَل المرأة جسدياً دون أى احترام أو تقدير لمشاعرها، فتؤتى حينما يريدها الرجل. وفى أحوال كثيرة (تُرضيه) خشية تحقق مفهوم الخطاب الدينى (بأنها ستنام ملعونة وستغضب عليها الملائكة)، فى حين آخر متناقض تماماً. فإذا هى رغبت فى اللقاء الجنسى، فليس لها حق فى طلب ذلك وقتما تشاء، بل إن الأمر قد يصل إلى أبعاد مبالغ فيها للغاية حين (تُهجر فى الفراش)، وعلى الرغم من أن هذا (مُحرم) إلا أن الرجل الشرقى كعادته يرى الأمور مبتورة، يراها من وسطها، حسبما تهيئ له ذاكرته وإدراكه وفهمه، ففى حالات سفر الزوج للعمل خارج البيت لمدد طويلة، أو خارج الوطن تماماً، أو لانحسار رغبته فجأة وهو فى عز شبابه؟! تُحرم المرأة تماماً من الاشباع الجنسى والحميمية المطلوبة. ولقد صرحت نساء كثيرات بأن (الهجر) ممكن أن يطول إلى ٥ سنوات يكون فيها الرجل مريضاً بالاكتئاب، أو بميل جنسى جانح.

وتشكو المرأة العربية من إفراط الجنس غير المحبب، غير الرومانسى: فإنهن لم يشتكين من قلة ممارسة الحب، وتظهر عليهن أعراض ذلك الحرمان النفسى والجنسى من رجالهن، وفى دراسة لنا تحت عنوان (قلة ممارسة الحب وراء معظم الخلافات الزوجية)[١٢]، أثارت جدلاً عند نشرها أورد ما أكثر المشاكل الزوجية، ويمكن الآن أكثر من ذى قبل أن نتأمل ذلك المثل العامى القائل (ياما أبواب مقفلة على بلاوى متلتلة) لدى أول مشاجرة حقيقية أو معركة زوجية ساخنة، قد يستغل الزوج سلطته وعصمته ويرمى يمين الطلاق، وإذا كان مسيحيا يسعى إليه. والزوجة من ناحية أخرى قد تصرخ وهى تلكمه فى صدره بقوة وهو يقبض على كتفيها (طلقنى.. طلقنى.. طلقنى)، على طريقة الأفلام العربية. والمشهد المعروف أيضا هو أن يهجر الزوج زوجته فى الفراش، أو أن تمنع هى عنه (الواجب) أو تشرد إلى بيت أهلها، وقد ينفعل هو ويصرخ (علىّ اليمين لو طلعت بره باب الشقة لتكونى طالق بالتلاتة).

وهكذا سلسلة من الأحداث والآلام من المشاجرات والعنف المنزلى والزوجى، قد يجوز تسميتها المعارك الزوجية، ويكون التشاجر المزمن بين شركاء العمر مجرد واجهة لأمور أخرى، بمعنى أن ما وراء الأكمة ما وراءها. فقد يكون السبب أمراً آخر غير الأمور المادية وتدخلات الأهل، ضغط العمل، مذاكرة الأولاد، والدروس الخصوصية. هنا نجد أن السبب الأهم، بل ربما يكون السبب الوحيد هو الادعاء بأن العمل والبيت والأولاد لا يترك أى وقت لممارسة الجنس، ذلك الذى يدفئ عش الزوجية ويبعث فيه بالحيوية[١٣].

إن الزوجين اللذين يرهقان أنفسهما ولا يتمكنان من المعاشرة بانتظام لن يفكرا فى التخلص من هذا المأزق، وسيستمران فى الروتين، لكن إذا كسرا قاعدة ومأزق الدائرة المفرغة فسيجدان أن الجنس له فعل السحر وليس مجرد لحظات نشوة وتفريغ للطاقة، لكن سيستغرقان أكثر فى التعرف على جسد كل منهما، وسيمتلئان بالطاقة والانتعاش، وليس التعب على عكس ما يعتقد البعض، ولقد سألنا كثيرا من الأزواج متى احتضن رجل زوجته وقبلها قبلة رائعة، أو حتى عادية على الشفاه، أوفى العنق، أو حتى على الخد كالأخوات، ربما فى المطبخ وربما فى الصالة لدى عودتهما من زيارة، متى أمسك بيدها، إن النمط التقليدى للزوج الذى يعمل طوال اليوم، يعود للبيت منهكاً، تكون فيه الزوجة تعمل نصف أو ثلاثة أرباع يوم وقد تكون ست بيت، ولكنها تقضى الوقت فى ترتيب البيت وتنظيفه ثم تهيئ الوجبة الرئيسية، (فى كثير من البيوت المصرية الآن تكون وجبة العشاء المبكر، وبعدها يبدأ الرجل فى مراجعة أوراقه والتحضير لما سيقوم به فى الغد، كما تنشغل الزوجة تماما مع الأولاد فى المذاكرة، وقد يشترك معها الزوج وقد يلتزمان الصمت وإعلان حالة الطوارئ لوجود الأستاذ المدرس أو المدرسة فى البيت. وبعد أن يخرج المدرس ويذهب الأولاد إلى فراشهم، ينهار الزوجان على مقعديهما أمام التليفزيون، حتى يغلبهما النعاس ولا يحسان إلا بديك الصباح يوقظهما ليبدأ دورة الروتين من جديد).

قد يبدأ الزوجان حياتهما بشكل مختلف، ربما كانت الزوجة أكثر اهتماما بمظهرها، وربما كان هو أكثر تعاوناً وصدقاً، ربما وربما، لكن المؤكد أن كلا منهما كان أقل انشغالا وأقل هماً، ومن شبه المؤكد أنه فى كثير من الأحيان تقل (الرفقة) إن لم تكن قد انعدمت بفعل الظروف، وبفعل فاعل يكمن كاللص فى الذرة يتربص بهما وبالزمن، يتربص بالقدرة على الاستمتاع بالحياة، بالأكل، بالجنس، بالزواج.

إن نوبات الطلاق والفتور العاطفى والخصام الزوجى أصبحت شائعة جداً، أصبحت كالملح للطعام، بجانب كل هذا قد تطفو أمور أخرى على السطح، أمور أكثر حساسية، من ضمن تلك الأمور إحساس الزوج بأن زوجته تتظاهر بالوصول إلى قمة النشوة أو (الرعشة) والزوج الذى يدرك ذلك، لا يدرى لماذا تفعل زوجته ذلك؟ لماذا تزيف مشاعرها وتمثل وصولها إلى قمة اللذة، ما الذى يجبرها على ذلك؟! هناك تصور عام لدى الناس أن الزوجات يزورن إحساسهن الجنسى ويمثلن رعشة الجماع، رغبة منهن فى ألا يعرف أزواجهن أنهن لا يستمتعن بالممارسة الجنسية معهم، فى الحقيقة أن نساء كثيرات يلجأن إلى تلك الحيلة لنفس السبب، بمعنى أن الرجل يجد صعوبة فى إمتاع زوجته، ومن ثم تقرب الزوجة المسافة بالتظاهر المبكر حتى تريحه نفسيا وتزيح من على كاهله عبء المسؤولية[١٤].

يتحول الجنس الطبيعى بين الزوجين إلى (جنس عند الطلب)، لذلك يتحول الزوج والزوجة إلى ممثلين يؤدون أدواراً، ومن هنا تأتى الرعشة الزائفة. فى حين أن الرجل بطبيعته لا يتمكن من تزييف مشاعره لأنها تظهر لحظة القذف فكثير من النساء باستثناء هؤلاء (الهوانم) مرهقات، مشتتات الفكر، منهكات ومتعبات نفسيا، يختصرن الطريقة بتمثيل رعشة جنسية نظرا لأنهن أيضا. بجانب تعبهن. لم يتلقين الإثارة الجنسية الكافية، ومن هنا إذا أحس الرجل بأن زوجته تمثل الوصول إلى ذروة المتعة فعليه أن يجالسها ويكلمها ويلمسها دون أى ضغط للقاء جنسى، إلى أن تأتى اللحظة المناسبة والمهيأة التى يتم فيها اللقاء على مراحل تصل فيها المرأة إلى ذروة المتعة دون تمثيل.

من صراعات المرأة العربية الأشد وطأة ودهشة ووضوحاً هى تلك الممثلة فى الجهل الجنسى، فالصراع الأول ممثلاً فى طبيبة متزوجة لها ولدان، ناجحة جداً فى عملها لكنها لم تدرك إلا بعد سنوات أن زوجها يعانى من عجز جنسى (عضوى)، ولم تدرك معنى العلاقة الجنسية الصحيحة المكتملة ولم تعرف ضرورة الوصول الجنسى لذروة المتعة بشقيها السيكولوجى والفسيولوجى، وظهرت الأمور وبانت بعدما اختلفا على (المال) أوجه الإنفاق، وضعت همها فى (تحويشة العمر) خلعته بعد ١٥ سنة زواج، حاولت فيها أن تجمل الأمر وأن (تستحمل) كما يقول معظم الناس، لكن لما فاض الكيل، واختلف الزوجان على (شقة) تبينت هى أن لُبّ الأمر جنسى، ليس بمعنى الأداء والإشباع والتحقق جسدياً فقط ولكن بمعنى الاقتراب والحميمية والتوحد والمشاركة، المرأة الأخرى أيضاً متفوقة فى عملها، وانخرطت فى العمل العام، مثقفة لها حضورها ووجدانها النشيط، وصفت

يتحول الجنس الطبيعى بين الزوجين إلى (جنس عند الطلب)، لذلك يتحول الزوج والزوجة إلى ممثلين يؤدون أدواراً، ومن هنا تأتى الرعشة الزائفة. فى حين لا يتمكن الرجل من تزييف مشاعره

زوجها بأنه تقليدى (كلاسيكى)، نمطى بارد غير مبدع، وبعدئذ بدأت ببعض الخجل تحكى أنها وبعد حوالى ٥ سنوات أدركت أنها لا تحس إطلاقاً بعضوه التناسلى داخلها. لا حجم ولا طول ولا قوة انتصاب، فى الحالتين كان الرجل لطيفاً مداعباً (بيبوس كتير وعليها أن تحمد الله على ذلك). (بيداعب قبل الجنس المبتور الناقص المشوه، وإيه فايدته؟!). كل من النموذجين وغيرهن كثيرات (ناجحات عملياً، فاشلات عاطفياً)، ولا نعنى بالضرورة هنا فشل اختيار الزوج فحسب لكن فشل الحياة الانفعالية، توجهها إلى (المادة) مذاكرة،تفوق،طب،كسب مادى، سيارة فخمة، موبايل حديث ومتطور جداً.... الخ... ولكن حتى فى علاقاتهن الحقيقية أوالعابرة مع رجال آخرين، هن فاشلات لأن الإعاقة الحقيقية تعطل التواصل الوجدانى الحق، وتمنع تحقيق الذات مع الآخر، تستعيض بتحقيقها مع النفس فقط وكأنها بالفعل (العادة السرية. الاستمناء ذهنياً، جسدياً ومادياً وعاطفياً)، وبالفعل ذكرت إحدى تلك النماذج لرجل أحبته وارتبطت به أنها تختلف معه مادياً وسلوكياً وحياتياً، لكن لا مانع من الاستمرار فى تلك العلاقة لأنه (شاطر جنسياً). فانحسرت العلاقة واختزلت لديها، كما فى أمور العمل والمادة والعلم، فى (المصلحة)، والمصلحة هنا تعنى فقط الحصول على (الإشباع الجنسى)، نعم فقط دون أى التزامات أخرى، هنا صراعات ما بعد الحداثة ممثلة فى استخدام التكنولوجيا لتطوير عيادتها، فى السفر إلى الخارج بحثاً عن آخر أخبار العلم، فى الموضة التى تناسب أو لا تناسب العمر، فى التميز والتفوق، ولكن كل هذا التعويض فاشل لأمر إنسانى وغريزى بحت للعلاقة مع الرجل. على حساب حميميتها تطويرها وتجسيدها وتحقيقها للنضارة والراحة. السكينة لهذا وفى نماذج أخرى للمرأة العربية العاملة نجدها تترك عملها طواعية، وتطور علاقتها الحميمة مع زوجها، وتترك له بعض أو كل المفاتيح التى تركها لها وسافر، تجبره على العودة، تطلب منه أن تكون (سيدة البيت)، وترى نفسها فى ذلك (سيدة القصر)، كما هى ناجحة عملياً هى قادرة على رعاية نفسها وتدليلها، لكنها فى نفس الوقت إذا ما (بسرعة) حاول زوجها إرضاءها بمزيد من الجنس، نجدها (تَفْصِل) من القشرة الدماغية، من (فوق)، لا لشىء إلاَ لأنها. بالفعل. مشغولة جداً بتحقيق أهدافها (الراجل المسافر لازم يرجع... أوكى عاد، إذن لابد أن يمارس أبوته وسلطته، وأن يتولى مسئوليته، أن يربى أولاده ليس بمعنى الإنجاب والإنفاق، لكن بمعنى التوحد الحقيقى، أى أن يتسلم شئون الإدارة والحكم، أن يفتح المُجَمد من العواطف، أن يدرك أن امرأته متعلمة وماهرة، ولكن أمه أرادت له واحدة لا تفتح فمها، واحدة بيضاء (مربربة) سمينة ذات ثديين كبيرين تمكنه من مواصلة الرضاعة وتبعده عن شبح الفطام)، عليه أن يبلغ وأن ينضج وأن يعى أن امرأته كانت من خلال جلسات تحليل نفسى عميقة ومطولة لا بدَ أن تتعلم فن حلَ الصراعات، أن تدرك وتعى خطورة أن يتقدم بها العمر ورجلها يتوه فى صحراء أفريقيا يبنى محطات اتصالات عالمية، أن تعلمه أن تخزين الثروة وتكديسها من ٣٠ ألفاً إلى ٣ ملايين قد ينتظر الـ ٣ ملايين وقد يموت فجأة وحيداً فى هوتيل غير نظيف بعاصمة أفريقية ساخنة الطقس خشنة التعامل، أو أن يعود ليموت بعد عودته فيشب أولاده على قبره يتحسسون طريقه وقد (يعملون عملته) لأنه لم يعلمهم شىء. هذا نموذج خطير للمرأة العاملة التى تحولت واستفادت من تجاربها، من نضج وعيها، من عملها ومن إرشادها النفسى لتتوج كل هذا فى حلَ عملىَ قد يكون نموذجاً طيباً لاستعادة الثقة وحلّ الصراع. ■

هـــوامـــش

(١) رضوان جودت - المجتمع ما بعد الحداثى... سوسيولوجيا السوق والموضة www.balagh.com

(٢) د.مصطفى حجازى، الصحة النفسية، المركز الثقافى العربى. بيروت، الدار البيضاء. الطبعة الثانية ٢٠٠٤

(٣) فصل الأسرة المصرية. كتاب (وجع المصريين)، تحت الطبع. د. خليل فاضل. ٢٠٠٦. القاهرة.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) المرجع: مجلة (نصف الدنيا) العدد ٧٨٧- ٢٠٠٥/٣/١٣. غادة قنديل: خمس المصريات تعولهن امرأة.

(٧) صالون خليل فاضل الثقافى السابع. القاهرة ٢٠٠٥/٨/٢٦.

(٨) نفس المصدر السابق.

(٩) السيد محمد عيسى، رئيس مجلس أمناء شبكة مساندة المرأة المعيلة بالإسكندرية. نفس المصدر السابق.

(١٠) د. أمينة شفيق. الحوار المتمدن www. rezgar.com

(١١) نفس المصدر السابق.

(١٢) كتاب الاضطرابات الجنسى لدى الرجل و المرأة د. خليل فاضل. دار الهلال. مصر ٢٠٠٢).

(١٣) نفس المصدر السابق.

(١٤) نفس المصدر السابق.

كتاب الزاوية

المرأة أقل إدراكًا وحسًا

طلعت حرب

أجمعت كل الشرائع المنزلة على ما سلم به الطبع والعقل من أن المرأة أضعف من الرجل وأقل منه فى سائر الحيثيات جسمًا وإدراكًا وعلى أن الرجال قوامون على النساء دون العكس. لهم عليهن السيادة ولهن منهم حسن المعاملة والرفق والمحبة والاحترام، حيث إن الرجل لا يمكنه أن يعيش بدون المرأة ولا المرأة بدون الرجل لأنه يترتب على تآلفهما عمران الكون وتحسين النوع الإنسانى وتكثيره وسعادة العالم المؤلف من عائلات وأفراد بسعادتهم يسعد وبشقائهم يشقى.

فقد جاء فى التوراة فى سفر التكوين بالإصحاح الثالث عدد ١٦ أن الله تعالى قال للمرأة: «تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك». وجاء فيه أيضًا أنه تعالى قال للرجل معلقًا به الكد والشقاء: «بعرق جبينك تأكل خبزك».

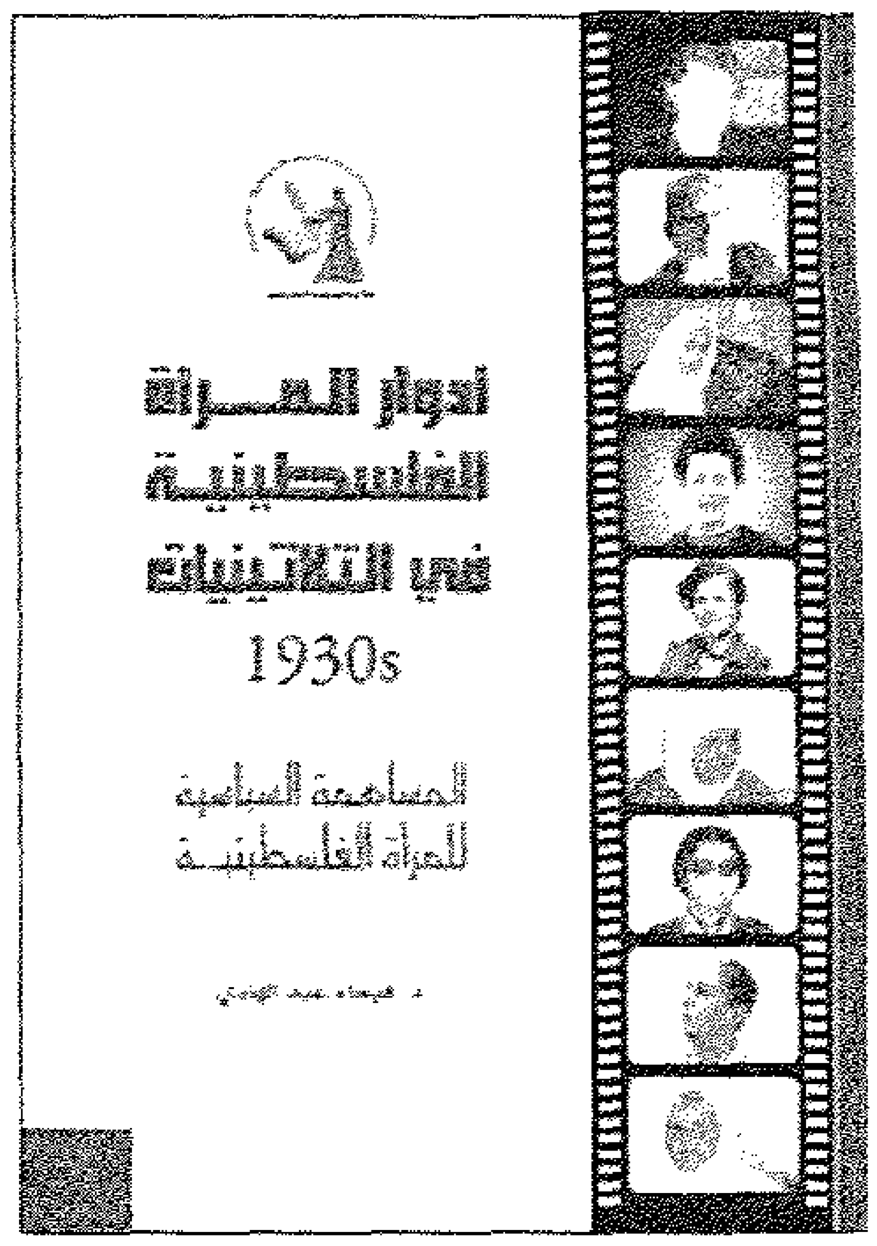
وجاء فى أعمال الرسل: ١ كورنثوس ص ١١ من ع ٢: «ولكن أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح. وأما رأس المرأة فهو الرجل. ورأس المسيح هو الله».

....

وقد قررت الديانة المسيحية ذلك التعليم الإلهى وأمرت المرأة أن تخضع لرجلها وأمرت الرجل أن يتعطف على امرأته وأن يخلص لها الحب. أما الشواهد من القرآن ومن السنة على كل ما تقدم فكثيرة جداً يعلمها حق العلم كل من اطلع عليها وكلها تثبت خضوع المرأة لسلطان الرجل وهو نظام اقتضته حكمته سبحانه وتعالى.

الفلسطينية
همـــوم أخـــرى

ســـمـــر يـــزبـــك





كانت الذاكرة الشفوية للشعوب العامل الأهم لفهم حركة التاريخ، وباندثار تلك الذاكرة الجمعية تم تغييب الكثير من الحقائق، والاهتمام بالتوثيق هو جزء من حركة فهم الواقع. فالتاريخ المدون تبع دوماً حركة المنتصرين وغاياتهم، ودخل فى باب التزوير، وقلب الحقائق لصالح الأقوياء فى مواجهة ضعفاء العالم.

من هنا تبدو أهمية الاهتمام بهكذا ذاكرة، لأنها لا تجلى الحقائق فحسب، بل تطوعها لخدمة مفاهيم إنسانية تعنى بجمال وعدالة العالم. ولعل خير مثال قد ندرجه للحديث عن تغييب ذاكرة الشعوب الشفوية هو ما حدث فى أمريكا «العالم الجديد» عندما قضى اليانكى على ثقافة قبائل الهنود الحمر وأباد شعوبها، وأحل ثقافة مختلفة ومغايرة، سرقت ثقافة الشعب الأصلى. وليس غريباً أن يقف أحد نشطاء هنود شعب سو سنة ١٩٩٦ ويقول:

«إن ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزومين. وياالله ما أغزر دموعهم فوق دماء ضحاياهم. وما أسهل أن يسرقوا وجودهم من ضمير الأرض! هذه واحدة من الإبادات الكثيرة التى واجهناها وسيواجهها الفلسطينيون».

هذا التشابه الذى أورده الزعيم الهندى بين قضية شعبه وقضية الشعب الفلسطينى ليس بحاجة إلى تأكيد، لكن المطلوب هو الاستفادة من محنة الإبادة الثقافية التى تعرض لها الهنود الحمر، بتوثيق الذاكرة الفلسطينية، والبحث الدائم عما أهمله التاريخ.

وضمن المحاولات المخلصة لتوثيق وإعادة كتابة التاريخ الفلسطينى، يأتى كتاب «أدوار المرأة الفلسطينية فى الثلاثينيات والأربعينيات» للباحثة الفلسطينية الدكتورة فيحاء عبد الهادى، والصادر عن مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق.

ينقسم الكتاب إلى مجلدين يقارب الواحد منهما الخمسمائة صفحة، خصص كل منهما لعقد من الزمان. يرصد الأول المساهمة السياسية للمرأة الفلسطينية فى الثلاثينيات، ويغطى الثانى عقد الأربعينيات. وينقسم كل مجلد إلى بابين يضم الأول القسم النظرى. بينما يحمل الثانى شهادات وروايات الرواة التى يعتمد عليها الجزء النظرى ويخضعها لمنطق التحليل.

فى الجزء الذى يحمل عنوان «أدوار المرأة الفلسطينية فى الثلاثينيات» يرصد المساهمة السياسية للمرأة الفلسطينية تلك الفترة ويتوزع على بابين، الباب الأول يضم القسم النظرى، والباب الثانى يضم شهادة الراويات والرواة، والقسم النظرى يستفيد ضمنياً من شهادة الراويات، ويخضعها لمنطق تحليلى واستنتاج ومقارنة من خلال بحث قامت بها عدة باحثات منهن «سمية الصفدى، لمياء شلالده، منى محاجنة، إيمان رضوان» فلسطين «سناء محرم، رقية العلمى» الأردن «بثينة عودة الكردى، مها التميمى» سوريا «خديجة عبد العال» لبنان «هالة منصور، صباح الخفش» مصر.

وقد ذكرت الباحثة فيحاء عبد الهادى أن هدف البحث الواسع الذى قام الكتاب على أساسه، هو الوصول إلى نتائج تاريخية مختلفة، وذلك لسد الفراغ والهوة التى تميز الأبحاث والدراسات عن تلك الفترة المبكرة من الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين، إضافة إلى تغيير الصورة النمطية والتقليدية المرسومة للمرأة الفلسطينية وخاصة الريفية، حيث تتسم أغلب المساهمات السياسية لنساء القرى الفلسطينية بالغياب التام عن التاريخ المدون، بعكس نمط الصورة المعروفة للمرأة المدينية، والتى أعطاها التاريخ المدون حقاً ومساحة أهم وأكثر بعداً، رغم أن الواقع يمكن أن يكون مختلفاً عن ذلك، وهو ما لاحظه المؤرخ سويدنبرغ فى دراسته عن ثورة ١٩٣٦ يقول:

«إن حقيقة قيام الثورة فى محيط الرجل، يعنى أن نشاطات النساء اللواتى شاركن فى المجالات الخاصة، لم تسجل فى الذاكرة الشعبية على الأغلب، أو حتى القصص التى تدور حول المرأة فى إخفاء المقاتلين أو الأسلحة عن الإنجليز، والعبء المزدوج الذى وقع على كاهل الزوجة أو الأخت أو الأم، فكان من الصعب تجميعها».

وهنا يبدو البحث الذى استمر لسنوات طويلة، نوعاً من تحدى تلك المقولات التى درج العديد من المؤرخين على الحديث عنها، فما قالته الذاكرة الشفوية كان مختلفاً عن الذاكرة المدونة، وإن بدا منوطاً بمنظومة قيود وعادات اجتماعية حكمت المجتمعات العربية، وزادت من الوضع السيئ للمرأة سوءاً فى ظل الاحتلال الإسرائيلى، ما قبله بسنوات، والسنوات التى تلته أيضاً.

والمنظور المعتمد فى هذا البحث هو من وجهة المنظور النسوى للتاريخ المتجه للمرأة أولاً، والمستمع إليها والسامع لها، فهو منهج بحثى بامتياز كما تؤكد الدكتورة عبد الهادى:

«إنه المنهج البحثى الذى يتيح حرية ومرونة للباحثات والراويات معاً، حيث المعرفة الأعمق بنفسية النساء، وحيث تفكيك القيم السائدة التى لا تعتبر تجارب النساء مكوناً أساساً فى صناعة التاريخ».

وقد اعتمدت الباحثات فى عملهن الصعب والمجهد على قراءة الصوت الخفى الذى نبشنه من ذاكرة النساء الفلسطينيات. ليس صوتها الذى تدربت عليه فقط، ولكنه الصوت الذى لا تجرؤ على التفكير به، حتى مع نفسها، واعتمدن ووصفن ودققن وسجلن ملاحظات مسهبة وعميقة، واعتمدن على قراءة لغة الجسد والانفعالات وتدوينها. تقول خزنة حسن الخطيب عن حملها السلاح إلى جانب عز الدين القسام:

«ـــ الشيخ عز الدين علمنى وعلم أولادى، مغطية وفردى، ضليت أحارب لطلعنا، بالمسدس معاى يا بنتى

ـــ وين خبيتيه

كان النســاء يشــاركن فى الصــدامات بين اليهــود والعــرب، ويتعرضن لما تعرض له الرجل من تنكيل وملاحقة وضرب، ويشتبكن مع الجنود الإنجليز، ويقمن بتهديد من يبيع أرضه لليهــود

أدوار المرأة الفلسطينية فى الثلاثينيات والأربعينيات (مجلدان)
فيحاء عبدالهادى
مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق

ـــ عزيـين (لهجة استنكار)! ها تعالى (...) ها (....) مخبيته؟ فيه يا بنتى قشاط اله».

وانتبهن إلى روح النساء فى أحاديثهن الخاصة وعلاقتهن بأنفسهن من خلال الحديث عن علاقة كل واحدة منهن بعالم السياسة ذاك. فهل نستطيع الإنكار أن كل فلسطينى بالضرورة هو إنسان مسيس بحكم طبيعة القضية الفلسطينية؟ فلماذا لم تكن النساء أيضاً مُسَيسات؟ سؤال تجيب عنه الكثيرات بأجوبة تقود من سؤال إلى سؤال. هذه الأسئلة تواجه أجوبة مهمة، لا تتعرض فقط لتأريخ وتوثيق دور المرأة الفلسطينية فى الثلاثينيات فقط، ولكنها توثق لتاريخ شعب بأكمله ولمرحلة مهمة لابد من الوقوف عندها طويلاً قبل الحديث عن الحاضر.

قبل العام ١٩٣٦ كانت مشاركة المرأة الفلسطينية فى العمل السياسى تقتصر على عدة أدوار لم تختلف كثيراً عن الأدوار السائدة والنمطية للمرأة العربية، فيما يتردد من حكايات عن إسعاف جرحى الحرب، وتأمين القوت اليومى، ومد الرجال بالحماس، وما إلى ذلك. هذا من جهة ومن جهة أخرى بدت نتائج البحث الذى قامت به الباحثات متضاربة قليلاً مع معلومات بعض الراويات والرواة، فلم يكن هناك إجماع دائم على صحة المعلومات. حيث تؤكد بعض المصادر التى أرخت لتشكيل رابطة النساء الفلسطينيات فى عام ١٩٢٩، عن جهود كبيرة للنساء تفوق ما ذكره التاريخ وبعض الرواة. ومصادر أخرى تذكر أن المرأة شاركت فى الانتفاضة الفلسطينية سنة ١٩٣٣ وهذه مشاركة مؤرخة بعكس مشاركة المرأة الريفية. ولكن هناك راويات ورواة أكدوا أن هناك مجموعة كانت تسمى «رفيقات القسام» وهن مجموعة من النساء شاركن عز الدين القسام ورفاقه فى ثورة ١٩٣٦ ولكن حتى هذه المجموعة تبدو الروايات حولها متضاربة، وإن كان هناك إجماع عليها شفويا، والتاريخ المكتوب أيضا لا يعلق أى أهمية على مشاركة المرأة السياسية فى ثورة ١٩٣٦ لكن التاريخ الشفوى الذى تؤكد عليه معظم الروايات، لا يقلل من أهمية مشاركة المرأة حينها، سواء ما يندرج منها تحت دور سياسى اجتماعى، مثل التموين والتحريض ونقل الأخبار والرسائل، وإخفاء الثوار والتمريض وتأسيس الاتحادات والجمعيات ومراقبة الطريق، وتخليص الرجال من الإنكليز، وتمثلت المشاركة السياسية المباشرة من مشاركة المرأة فى المؤتمرات السياسية العربية التى عقدت فى الثلاثينيات لنصرة القضية الفلسطينية.

تقول عصام الحسينى عن مظاهرة قادتها فتاة من غزة اسمها رباب الحسينى:

«دايما مظاهرات وثورات حتى أختى رباب اشتركت فى المظاهرة، ووالدتى خيطت لها العلم العربى حتى تحمله، وألقت خطابا فى الجامع الكبير فى غزة، وألقت كلمة حماسية وحمست الناس للقتال».

والحقيقة أن الباحثات وجدن صعوبة فى حث ذاكرة الراويات والرواة على استحضار وقائع المؤتمرات، عدا مؤتمر النساء الشرقيات الذى عقد فى القاهرة سنة ١٩٣٨ لنصرة قضية فلسطين، والصعوبة التى نجمت عن النظرة إلى المرأة العاملة فى الحقل السياسى نظرة غير جيدة. لأنها دخلت إلى عالم الرجال، وهذا ما كان يسىء إلى سمعتها، رغم أن أغلب النساء كن من الطبقات الميسورة، لكن ذلك لم يجعلهن بمنأى من الرقابة الاجتماعية المتشددة للمجتمع المحافظ، مع ذلك تجاوزت النساء تلك العثرات وناضلن على مستويين: مستوى مناهضة الاحتلال الإسرائيلى، ومستوى المناداة بحرية المرأة ومساواتها بالرجل فى مجتمع خاضع للتشدد الدينى والاجتماعى، ولكن بكافة الأحوال حتى فى تلك الأوقات، لم يكن المجتمع العربى خاضعا للمعادلة الدينية التى يخضع لها حاليا:

«رغم فرض الحجاب فى تلك الفترة التاريخية وتهديد المخالفات بمعاقبتهن بتشويه وجوههن، إلا أن هذا لم يثن المرأة عن الخروج فى مظاهرات نسائية، تنادى بحقوق المرأة، وتطالب بنزع الحجاب».



من صور النكبة ١٩٤٨

فى الجزء الثانى من الكتاب الذى توزع بطريقة مماثلة للكتاب الأول، ولكنه يتحدث عن فترة الأربعينيات والنكبة ١٩٤٨ وأثرها على المرأة، يتطرق البحث إلى الحديث عن انحسار دور المرأة الريفية فى العملية السياسية مع انحسار الثورة الفلسطينية المسلحة، وارتكز عمل المرأة السياسى على العمل الاجتماعى والثقافى المرتبط بالعمل السياسى، فاتجهت المرأة للعمل التربوى والتحريضى الثقافى من مسرح وغناء، ومقاطعة البضائع الإسرائيلية والمشاركة فى المظاهرات التى تعاظمت بعد ١٩٤٧تقول الراوية حلوة الجقمان التى أصيبت برصاصة أثناء الاصطدامات:

«هذى كنا نشارك مرات فيه، كنا نمسك الحجارة ونرجم على الهذا، وبالمظاهرات نوقف وهذا، ويصير اصطدامات بيننا وبينهم».

وكان النساء يشاركن فى الصدامات بين اليهود والعرب، ويتعرضن لما تعرض له الرجل من تنكيل وملاحقة وضرب، وكان النساء يشتبكن مع الجنود الإنكليز، ويقمن بتهديد من يبيع أرضه لليهود، وينقلن أخباره للجميع قبل ١٩٤٧ ويذكر رواة كثر أن الحديث عن دور هامشى للمرأة الريفية غير صحيحة، ولكن هذه روايات متناقضة. يقول الراوى أحمد العيساوى:

«فى هذه الفترة الحساسة جدا، كان للمرأة دور فعال وصعب جدا، لأن الجيوش كترت والمسألة صارت خطر، فكانوا يعتمدون على المواصلات وشغلات زى هدول على الحريم».

أما فى العمل السياسى المنظم فقد تركز نشاط المرأة فى تكوين جمعيات واتحادات نسائية، والغريب أنه فى تلك الفترة أغفل المؤرخون أسماء النساء المؤسسات للاتحاد النسائى الفلسطينى وأحالوا مرجعيتها لأزواجهن، وهذا جزء من تزييف الحقيقة - أسست الاتحاد النسائى الفلسطينى السيدة زليخة الشهابى- ومن الجمعيات التى تأسست «جمعية التضامن النسائى، جمعية التقدم النسائى، وشاركت النساء أيضا فى عصبة التحرر الوطنى. وكان لها جمعيات تعنى بالعمل السياسى العسكرى، مثل جمعية «زهرة الأقحوان» التى أسستها مهيبة خورشيد ولعبت هذه الجمعية دورا عسكرياً سياسياً قامت به عضواتها، وزاوجن بين العمل العسكرى والعمل السياسى، ووقف البحث عند آثار قرار التقسيم الذى ساهم فى وعى المرأة الفلسطينية لقضيتها، فتأسست جمعيات جديدة، رغم أن عام الهجرة أظهر من خلال الراويات أن المرأة كان لها الدور المميز والكبير فى صمود الأسرة الفلسطينية. تدل التغييرات الاجتماعية أن حضور المرأة صار أكثر بروزاً رغم حالة التزمت الاجتماعى، خاصة فى الفترة التى انتشر التعليم فيها، ودخلت المرأة الأعمال التى كانت حكراً على الرجل، مثل الكتابة فى الصحف وإعداد البرامج الإذاعية، وإلقاء المحاضرات العامة والخطب السياسية.

من خلال رواية النساء والرجال، ظهرت مسألة مهمة، وهى أن التاريخ الشفوى أضاف الكثير من أسماء النساء المناضلات إلى أسماء النساء القليلة. قياسا لنتائج البحث، وقياسا لما كتبه التاريخ المدون، والذى حول النساء المعترف بهن فى التاريخ المقروء إلى رموز فى ذاكرة الشعب الفلسطينى.

فى القسمين الخاصين بحديث الراويات النساء، والذى تتجاوز مساحته ثلثى حجم البحث، تبرز أسماء راويات مهمات «سميرة خورى، مهيبة خورشيد، عصام عبد الهادى، عصام الحسينى، ميمنة عز الدين القسام، وديعة قدور خرطبيل».

تتضح مسألة لا تقل أهمية عن البحث النظرى، فما قدمته النساء من شهادات، لا يعد وثيقة تاريخية فقط، لتدوين ذاكرة المرأة الفلسطينية، بل هو بمثابة توثيق جديد وكتابة مختلفة لتاريخ فلسطين فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين. فهو يجلو ويكثير من الدقة عن جوانب مختلفة لم يتم التطرق إليها مسبقاً فى أدبيات الذاكرة الفلسطينية، وباعتقادى أن أهمية هذا البحث لا تنبع فقط من إعادته لاكتشاف الحقائق وتثبيتها، وإلقاء الضوء على الدور الفاعل والثنائى الفاعلية للمرأة، بل كونه سيكون مرجعاً لمختلف أنواع الإبداع من مسرح وسينما ورواية ونقد أدبى، لأنه يشكل مادة حياتية وتفصيلية لخارطة لم تكتمل يوماً عن مأساة الشعب الفلسطينى، وتفاصيل غيبها التاريخ الرسمى وتجاهلها، وليس كما تقول كتب التاريخ الرسمى عن هجرة الفلسطينيين، وترحيلهم بتلك الطريقة الموشومة بالخوف والذعر، إنه التاريخ الشفوى غير المنحاز إلا لأرض الحقيقة، حيث خضع الشعب الفلسطينى لعملية إبادة منظمة ومدروسة، لم يقف على الحياد منها النساء والرجال معاً، لكن ذلك لم يمنع أن يحتاج التاريخ المدون إلى ذاكرة النساء الشفوية والمقاومة، لإعادة الاعتبار إليهن ولهم، على حد سواء مرة أخرى. ▪

Einstein
(إينشتين)

Walter Isaacson
Simon & Schuster, $32.00, 704PP., 2007



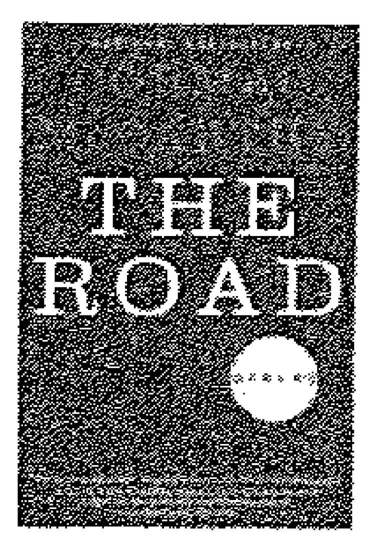
كيف يعمل عقله؟ وما الذى جعله عبقريا؟ فى تلك السيرة الذاتية للعالم الألمانى إينيشتين تأكيد على أن عبقرية أينشتين وخياله العلمى نابعان من طبيعة شخصيته المتمردة، ونتيجة للتلاقى الحادث بشخصيته بين الحرية والإبداع.

انطلاقا من تفحصه لرسائل أينشتين الشخصية المفرج عنها حديثا، الكاتب «والتر ايزاكسون» يوضح كيف أصبح الأب المكافح، الذى يواجه صعوبات مع زوجته ولا يستطيع إيجاد عمل، قارئا للكون ومفسرا له.

الكاتب يبدأ بسرد حياة أينشتين منذ طفولته ليستعرض مشاكله الدراسية المتعددة التى واجهته، منتقلا عبر السنين ليستعرض تأثير الأحداث العالمية المختلفة فى حياة أينشتين، فى كتاب يحكى عن حياة رجل من أهم رجال القرن العشرين.

The Road
(الطريق)

Cormac McCarthy
Vintage Books, $14.95, 304PP, 2007



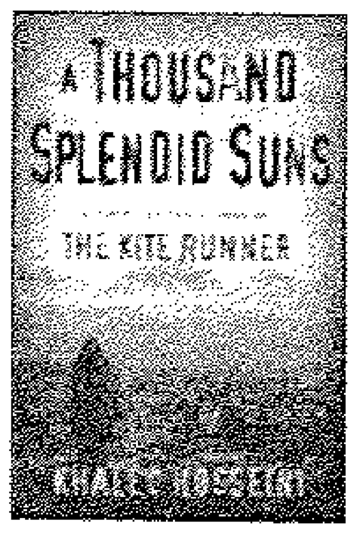
أب ابن يسيران وحيدين عبر الأراضى الأمريكية المحروقة، لا شىء يتحرك على الأرض المخربة سوى الرماد الذى تذروه الرياح، والجو بارد بما يكفى لسحق الأحجار، والثلوج تسقط رمادية بفعل الرماد المنتشر، والسماء من فوقهم سوداء. يستهدفان الوصول إلى الساحل، على الرغم من عدم معرفتهم بما ينتظرهم هناك، لا يحملان معهما سوى مسدس لحمايتهما من قطاع الطريق.

(الطريق) رواية مؤثرة إلى حد كبير، تصور مستقبلا بلا أمل، وخرابا ودمارا، وصراعا للبقاء.

الرواية صنفت كإحدى روايات العام بالعديد من القوائم المنشورة بكبرى الصحف والمجلات العالمية.

A Thousand Splendid Suns
(ألف شمس ساطعة)

Khaled Hosseini
Riverhead Hardcover, $25.95, 384PP., 2007



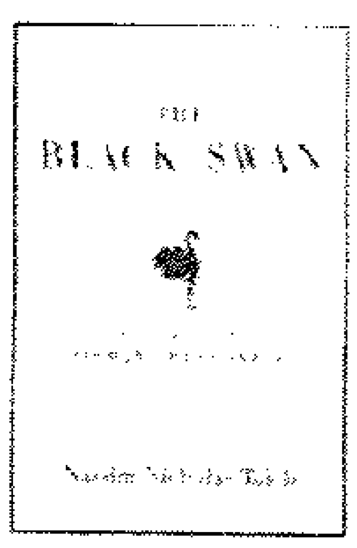
بعد روايته الأولى التى أثارت ضجة كبرى، (مطير الطائرات الورقية)، والتى تحولت الآن إلى فيلم سينمائى، يقدم خالد حسينى الأفغانى الأصل روايته الجديدة (ألف شمس ساطعة)، التى تصور ثلاثة عقود من الجهاد الإسلامى المسلح ضد الاتحاد السوفيتى.

فتاة صغيرة اسمها «مريم» فى الخامسة عشرة من عمرها، تزوج لرجل فى الأربعين من عمره، ولكن مع فشلها فى إنجاب طفل يحمل اسمه، يتحول إلى وحش كاسر ويتزوج للمرة الثانية بفتاة أخرى فى الرابعة عشرة تدعى «ليلى»، التى تفشل بدورها فى الإنجاب.

مع الحرب الدائرة، تدور حرب أخرى صغرى، تتحالف فيها مريم وليلى ضد زوجهما الطاغية.

The Black Swan
(البجعة السوداء)

Nassim Nicholas Taleb
Random House, $26.95, 400PP, 2007



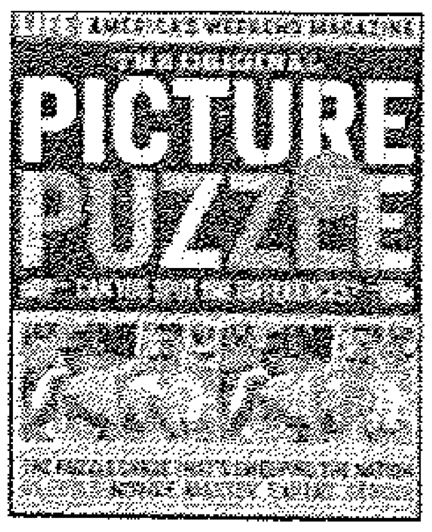
كل البجع أبيض، فما هى احتمالية وجود بجعة سوداء؟

فى هذا الكتاب يعارض «نسيم طالب» التنبؤات الإحصائية التى تؤكد الندرة التامة لاحتمالية وجود بجعة سوداء بين البجع الأبيض، وهو ما يدحضه طالب بالعديد من الأمثلة الاقتصادية والسياسية التى تؤكد إمكانية حدوث الأحداث غير المتوقعة، مثل أحداث الحادى عشر من سبتمبر أو مثل الصعود الرهيب لموقع جوجل، الذى أصبح فى سنوات قليلة الموقع الأول فى العالم.

رجال أعمال أصبحوا بليونيرات، وكتب حققت مبيعات ضخمة، وأفلام نجحت نجاحا مذهلا، كل ذلك، أمثلة مختلفة لإمكانية وجود بجعة سوداء.

Life: The Original Picture Puzzle
(الحياة: لغز الصورة الأصلى)

LIFE MAGAZINE EDITORS
Life, $10.99, 176PP, 2007

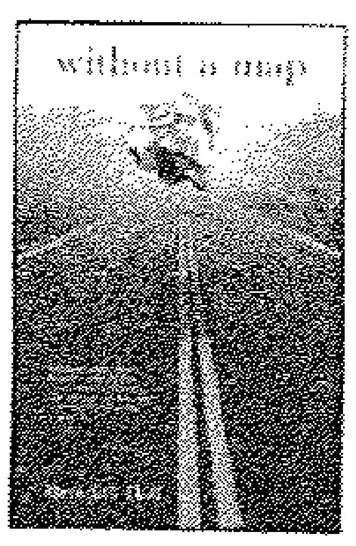


من أكثر ما يميز العدد الأسبوعى من مجلة «الحياة» الصفحة الأكثر شعبية بأمريكا، لغز الصورة، التى تكاد أن تكون نشاطا أساسيا فى حياة ١٣ مليون عائلة من قراء المجلة، وبناء على طلب المئات من القراء، أصدرت المجلة كتابا للغز الصورة فى أول تلك السنة، ولكن مع الطلب المتزايد يأتى الكتاب الثانى للغز الصورة.

الكتاب يحتوى على العديد من الصور التى احتلت مكانا من قبل بالمجلة مرفقة بخبر ما، أو تحكى قصة ما، كما يحتوى على ثلاثة مستويات مختلفة من الاختلافات بين الصور.

Without a Map
(بدون خريطة)

Meredith Hall
Beacon Press, $24.95, 248PP, 2007



مذكرات شخصية، وقصة مؤثرة لصاحبتها «ميردث هال»، فى ١٩٦٥ عندما كانت فى السادسة عشرة من عمرها، طردت من مدرستها الثانوية، بسبب اكتشاف إدارة المدرسة لحملها.

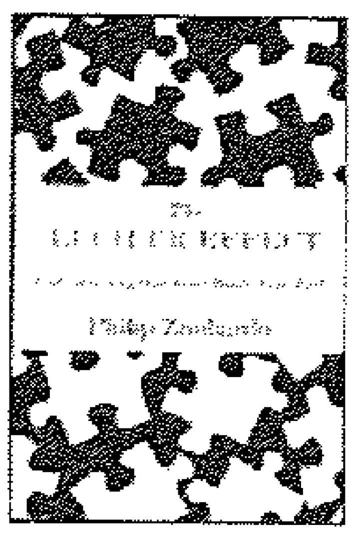
حملها كان سببه خطأها مع حبيبها الذى يكبرها بعدة أعوام، ولا يكترث لأمرها فى حقيقة الأمر، والذى تركها بعد ذلك وحيدة مع حملها، لتضطر إلى الهرب من بيت أمها، إلى بيت والدها المنفصل عن أمها والمتزوج بأخرى، لتعيش مع والدها وزوجته، وتمر فترة الحمل عليها لتضع طفلها أخيرا، الذى يؤخذ منها للتبنى وهى فى غيبوبتها.

تلتحق «هال» بإحدى المدارس الداخلية لاستكمال دراستها، ثم تتخرج وتسافر إلى أوروبا، لتمر عليها الأيام، ويستمر تجولها وحيدة بين البلاد حتى تصل إلى الشرق الأوسط، لتكتشف ضياع عمرها وحيدة متجولة، وهو ما يدفعها لتقرر العودة إلى بلادها ثانية.

تعود «هال» إلى بلدها لتتزوج وتنجب طفلين، قبل أن يظهر ابنها الأول فى الصورة ويتصل بها، ليندمل جرحها.

The Lucifer Effect
(تأثير الشيطان)

Philip Zimbardo
Random House, $27.95, 576PP, 2007

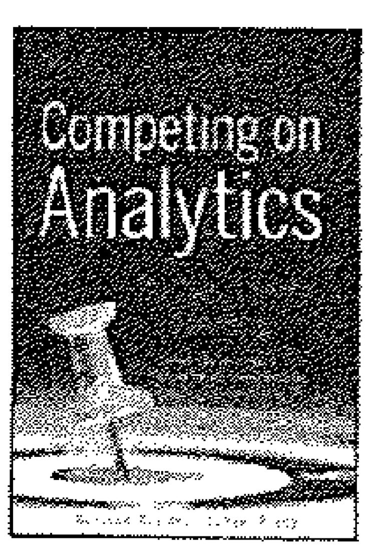


ما الذى يحول تصرفات بعض الناس فجأة من الخير إلى الشر، وكيف يتحول الفرد إلى النقيض فى تصرفاته؟ وما الخيط الرفيع الذى يفصل بين الخير والشر؟

الطبيب النفسى «فيليب زمبرادو» يوضح فى هذا الكتاب الأسباب التى لا تعد ولا تحصى لتغير شخصية الإنسان فى ثوان قليلة، وما هى المغريات التى يمكن أن نتعرض لها جميعا لنقع تحت تأثير الشيطان، ويستعرض القوى التى يمكن أن تحول إنسانا محترما إلى وحش، ويحاول أن يقدم طرقا وحلولا للإنسان ليحافظ على اتجاهه بعيدا عن قوى الشر.

Competing on Analytics
(التنافس على التحليل)

Thomas H. Davenport ,
Jeanne G. Harris
Harvard Business School Press, $29.75, 2402PP, 2007



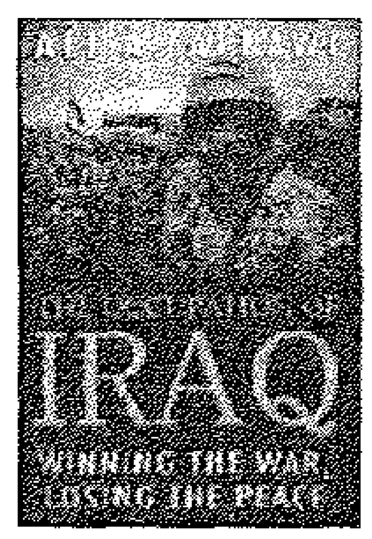
عندك الآن معلومات أكثر من أى وقت

مضى عن البيئة المحيطة بعمـــلك. ولكن هـل تستخدمها بفـاعلية لتتغلب علـى منافســيك؟ إذا كانت إجابتك بلا، فبالتأكيد أنت تخسر واحدة من أهم وسائل المنافسة فى مجال الأعمال.

فى كتابهما الجديد «توماس دافينبورت» و«جين هاريس»، يجادلان بأن طرق استخدام وتحليل البيانات قد شهدت تقدما كبيرا فى السنوات الأخيرة، كما شهد استخدام طرق التحليل المختلفة فى اتخاذ القرار تحولا دراميا، ويوضحان كيف أن العديد من المؤسسات الناجحة تبنى خططها التنافسية واستراتيجياتها على طرق التحليل المختلفة للبيانات والتى تعطى نتائج مبهرة.

الكتاب يتحدث عن تحليل البيانات وأنظمة التحليل الكمى والإحصائى والتنبؤى، وطرق استخدامها فى عالم الأعمال الحديث.

The Occupation of Iraq
(احتلال العراق)
Ali A. Allawi
Yale University Press, 2007,
5442PP, 28.00$

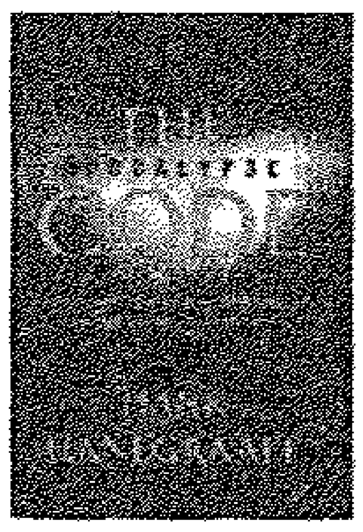


لثلاثين عاما كان متوغلا فى السياسة العراقية، إنه «على علاوى»، الذى أمضى فترة طويلة كأحد زعماء المعارضة العراقية ضد النظام البعثى، ثم أصبح فى سنوات ما بعد صدام حسين عضوا فى الحكومة العراقية، ليشارك فى اتخاذ القرارات والأحداث الوطنية الحاسمة والمهمة.

فى هذا الكتاب وزير الدفاع العراقى السابق «على علاوى»، يحكى عن تجربته الشخصية الفريدة، من خلال فهمه العميق لتاريخ مجتمعه وبلاده، وعلاقاته المتعددة مع جميع الأطراف العراقية، ويحاول الإجابة على أسئلة العراق المحيرة، وماذا فعلت الولايات المتحدة حقا باحتلالها العراق، ولماذا ساءت الأمور عما كان مخططا لها؟

يتعقب الكتاب أسباب السياسات المشوهة والمتناقضة فى العراق، وكيف بدأت الفرقة بين السنة والشيعة والأكراد، ويحاول علاوى من خلال هذا الكتاب تقديم منظور واضح للعراق وتأريخ لتاريخ العراق الحديث.

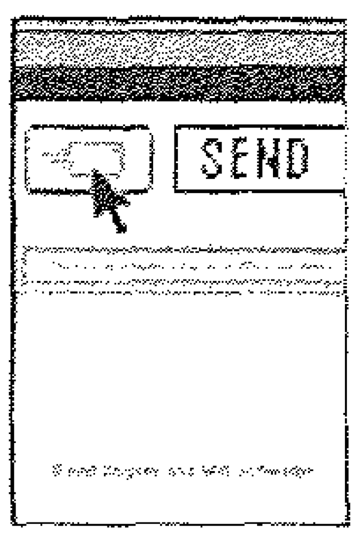
The Apocalypse Code
(أحداث النهاية)
Hank Hanegraaff
Thomas Nelson, 2007, 3362PP, 21.99$



«معظم ما سمعناه، أو قرأناه، أو قيل لنا عن أحداث نهاية العالم كلها اعتقادات غير صحيحة»، هذا ما يقوله «هانك هانيجراف» فى كتابه (أحداث النهاية)، الذى يؤكد فيه على أن هناك مجموعة واسعة من المعتقدات والتعاليم عن المستقبل، وعن المعركة النهائية بين الخير والشر، وعن شكل الأيام الأخيرة للعالم، وطريقة نهايته، وكل هذه التعاليم والمعتقدات بنيت على تفسير خاطئ لما يقوله الكتاب المقدس فعلا عن نهاية العالم.

الكتاب يقدم قراءة جديدة فى ما يقوله الكتاب المقدس عن نهاية العالم، ويقدم تفسيرا لأهمية معرفة مثل تلك المعلومات اليوم.

Send
(أرســـل)
David Shipley, Will Schwalbe
Knopf, $19.95, 256PP, 2007

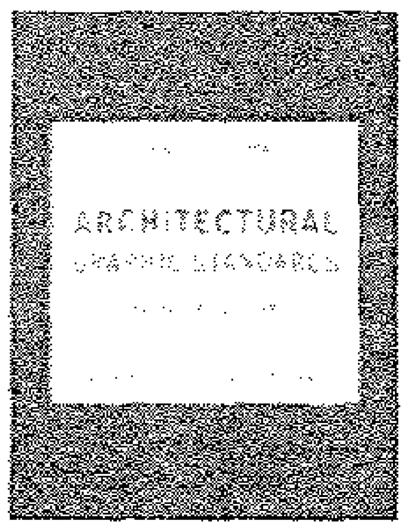


البريد الإلكترونى، إحدى أحدث وسائل الاتصال ونقل المعلومات الحديثة، والذى لا يزال استخدامه لا يخضع لأى قواعد أو آداب، وهذا الكتاب هو الأول من نوعه لتوضيح وشرح تلك القواعد.

بعد إعطاء نبذة عن تاريخ البريد الالكترونى، يتحدث المؤلفان عن كيفية إرسال البريد الالكترونى وكتابته، والأساليب الواجب إتباعها عند إرسال بريد الكترونى لأهداف محددة، الكتاب يساعدك على تلافى الأخطاء الشائع الوقوع بها عند كتابة محتوى البريد الالكترونى.

أيضا يتطرق الكتاب إلى فنون كتابة حقل «الموضوع»، وآداب إرسال نسخة من البريد الالكترونى إلى مستلم آخر، كما يحلل الكاتبان النواحى القانونية المتعلقة بالبريد الالكترونى.

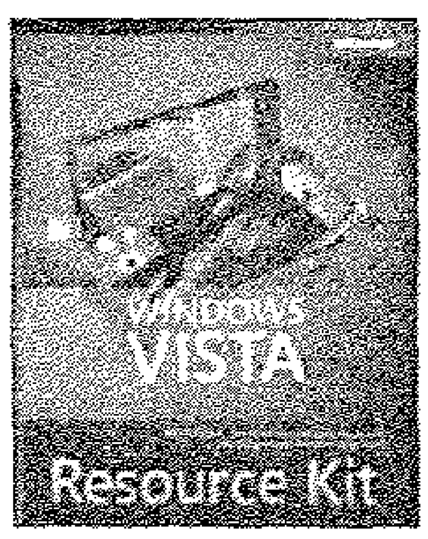
Architectural Graphic Standards
(معايير التصميم المعيارى)
The American Institute of Architects
Wiley, $250.00, 11202PP, 2007



منذ عام ١٩٣٢ والمعهد الأمريكى للعمارة يصدر هذا الكتاب، وقد أطلق على العشرة أجزاء التى صدرت منه من قبل «توراة المعماريين».

هذا الكتاب هو الأحدث فى المجموعة، به توضيح لمعايير كل شىء عن العمارة، بدءا من أعمال الحفر إلى أعمال تركيب الأسقف. الكتاب يأتى مزودا بأكثر من ٨٠٠٠ تخطيط مختلف متضمنة رسوما تخطيطية ورسوما إنشائية مفصلة، مما جعله المرجع الأول لكل معيارى يواجه تحديا تصميميا أو إنشائيا.

Windows Vista(TM) Resource Kit
(دليلك إلى وندوز فيستا)
The Windows Vista Team
Microsoft Press, $59.99, 15682PP, 2007

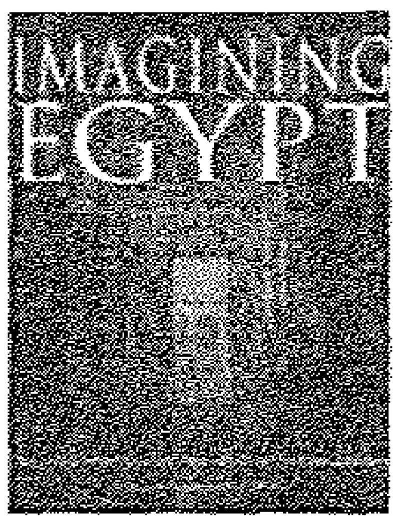


من فريق عمل نظام التشغيل الأحدث وندوز فيستا يأتى هذا الكتاب، الذى يحوى المعلومات الدقيقة حول نظام التشغيل الجديد، وخاصة تلك المعلومات التى يحتاجها أى مستخدم حول حلول المشاكل التى يمكن أن تواجهه، وحول عوامل الأمان وطرق تعزيزها.

أيضا يحتوى الكتاب على كيفية وضع قواعد إدارة النظام للمجموعات، بالإضافة إلى كيفية جعل النظام يدار أوتوماتيكيا، والعديد من التلميحات حول نظام التشغيل.

الكتاب يأتى مرفقا بأسطوانة مدمجة تحوى المزيد من المعلومات والتطبيقات ونسخة الكترونية من الكتاب لتسهيل البحث به.

Imagining Egypt
(تخيل مصر)
Mark Millmore
Black Dog & Leventhal Publishers, $24.95, 192PP, 2007

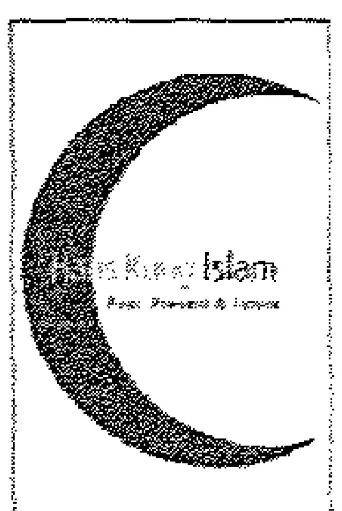


طريقة جديدة لتصفح تاريخ مصر والمصريين القدامى فى هذا الكتاب الموجه للكبار والصغار على السواء.

قدماء المصريين عاشوا فى ازدهار لأكثر من ثلاثة آلاف عام، وهم يعتبرون أكثر المجتمعات المتطورة والمبدعة التى عرفها العالم، فى هذا الكتاب يحاول «مارك ميلمور» الكشف عن طريقة بناء الأهرامات، ويقدم قراءة فى الحياة اليومية للمصريين القدامى ويعرض لأساطيرهم وخرافاتهم.


يقدم أيضا «مارك ميلمور» باستخدام تقنيات الكمبيوتر والتصميم تخيلا لشكل الحياة فى مصر القديمة، الأهرام والمعابد، وصور الحياة اليومية.

Islam: Past, Present and Future
(الإسلام: الماضى، الحاضر والمستقبل)
Hans Kung
Oneworld Publications, $39.95, 1024PP., 2007

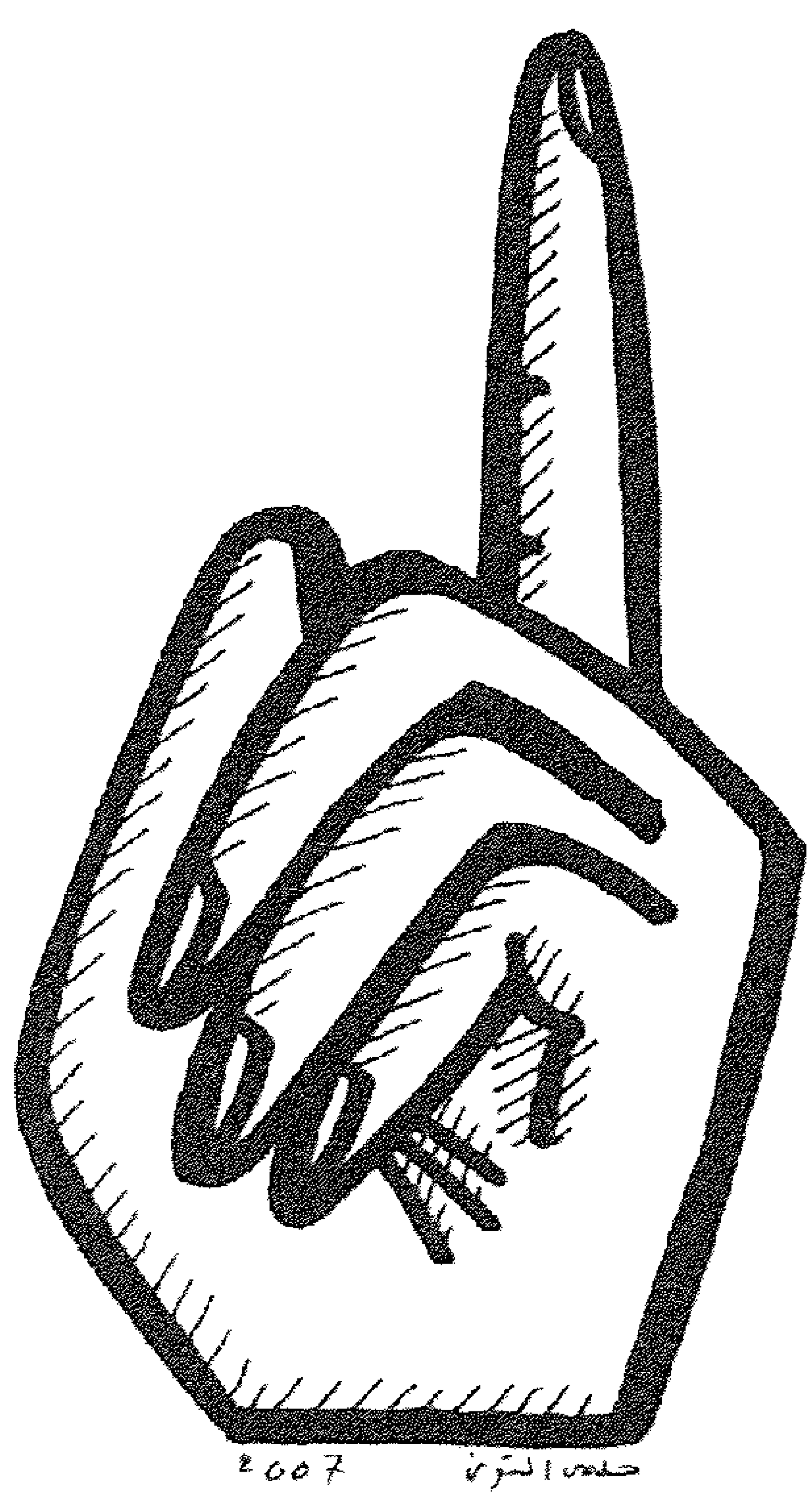


لأكثر من عقدين، احتلت الديانات فى العالم اهتمام الكاتب والمفكر «هانز كونج» فى كتبه التى ألهمت الملايين، التى يقدمها فى شكل مبتكر يقدم الحوار الجديد بين الثقافات المختلفة فى العالم.

فى هذا الكتاب يقدم «هانز كونج» نظرة عميقة فى الإسلام ثانى أكبر الديانات فى العالم بعد المسيحية، يعرض فيه تاريخ الألف وأربعمائة سنة التى غيرت العالم، ويصف سمات الفرق المختلفة فى الإسلام، كما يحاول رسم صورة حقيقية لخريطة الإسلام الحالية وتحليلا لواقعه، وفى النهاية يحاول توقع مستقبل الإسلام فى العالم.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
ادة صلى
www.maccarpet.com



«الإسلام دين ودولة» مساءلة شعار

جابر عصفور

مواقف الرسول ﷺ المدنية تصرفات جزئية، مرتبطة بتدبير الواقع وسياسة المجتمع، وأنها خاصة بزمانها ومكانها وظروفها، وأنها على سبيل الاجتهاد من الرسول ﷺ، ورأيه فيها يمكن أن يصيب وأن يخطئ

ما أكثر ما نسمع هذه الأيام شعار أن الإسلام «دين ودولة». وهو شعار متكرر فى الخطاب الدينى الذى تنتجه بعض أصوات المؤسسة الدينية الرسمية، والخطاب الدينى لمجموعات الإسلام السياسى الموازية التى تسعى إلى الانقلاب على الدولة المدنية وإقامة دولة دينية مقابلها، نموذجها فى ذلك بعض تجارب حدثت فى إيران التى تحولت إلى دولة دينية، يحكمها الملالى وآيات الله، بوصفهما المرجعية العليا التى لا يعلو عليها غيرها. وقس على ذلك نموذجًا مقابلاً، وجد قسرا فى أفغانستان - طالبان. وأضف إليه النماذج الموجودة فى الديانات الأخرى التى تجمع ما بين المسيحية (دولة الفاتيكان) واليهودية (إسرائيل الحاخامات) وديانات أخرى غير سماوية، تتجذر صفات الحكم الدينى لها حسب مذاهبها. وبما أن الإسلام آخر الديانات السماوية وختامها الذى جاء مصدّقا لها، فمن المنطقى، ظاهريا على الأقل، قياسه على غيره والحديث عنه بوصفه دينًا ودولة.

وأهم ما نلاحظه على هذا الشعار ثلاثة أمور: أولها أنه يتكرر تمييزا بين الإسلام وغيره، بما فى ذلك الدين المسيحى الذى أمر دعاته بأن يدعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، تأكيدا أن الإسلام دين شامل، كلىّ النظرة، لم يعرف السطوة الوحشية للكنيسة وكوارث الحكم الثيوقراطى المتحالف مع البابوية فى أوروبا التى شهدت محاكم التفتيش الدينية، وكانت منطلقا لغزوات استعمارية، تحت راية الصليب الذى هو برىء مما ارتكبه أتباعه من كوارث باسمه. وثانيها: البعد التأويلى لهذا الشعار الذى يرى فى كل ما ينتسب إلى الإسلام، خصوصا فى تأويلات نصوصه القرآنية، أو وقائع سنّته، ما يصلح لكل زمان ومكان، وما يصل بين الذر والذرى، أى كل شىء فى الحياة الدنيا وما بعدها، فلا يصيبه تغير الزمن المتحول، أو تجدد الحاجات الإنسانية المتغيرة التى تؤكد أننا أدرى بشؤون دنيانا، وأنه لابد من التمييز بين القواعد الكلية الثابتة، والقواعد الجزئية المتغيرة، عملا بالقاعدة التى صاغها ابن قيم الجوزية بقوله: «لا يُجعل كلام النبوة الجزئى الخاص كليا عاما، ولا الكلى العام جزئيا خاصا». وآخر الأمور التى نلاحظها أن هذا الشعار يغدو اللازمة المنطقية لجماعات ترى الشر استولى فى ملكوت الله، وتكاثرت المفاسد والشرور ما بين أنظمة الحكم وأخلاق الناس، وسادت طبائع الاستبداد ما بين المحكومين والحاكمين، وذلك بكل ما تقترن به من دوافع تحفز على التفكير فى إقامة نظام يملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت جورا (كما حدث فى الفكر الشيعى)، أو يعيد ميزان العدل إلى كون مختل، أفسدته الفرق الضالة المضلة، وذلك بالعودة إلى الدين الذى فيه صلاح كل شىء. ولا يختلف مبدأ «الحاكمية لله» عن مبدأ «الإسلام هو الحل» فى هذا

السياق، فكلاهما يستلزم ما تنوب فيه الفرقة الناجية عن الله الذى لا يحكم بنفسه، وإنما بالإنابة عنه، فى مدى احتكار سلطة الدين والدنيا. تحقيقا لما تراه الفرقة الناجية - لا غيرها - عدلا، وإعمالا لما تؤكده هى على أنه صحيح الإسلام الذى يجمع ما بين ثنائية الدنيا والدين، ولكن بما يرد الأولى (الدنيا) على الثانية (الدين)، ويحقق التطابق بينهما، جاعلا الأولى تطبيقا حرفيا أو صدى كاملا للثانية، حسب التفسير الذى انتهى إليه من يدعون أنهم الفرقة الناجية دون غيرهم من فرق الضلالة. والنتيجة التمييز بين بعض المسلمين وغيرهم من المسلمين المحسوبين على الفرق الضالة، وبين المسلمين جميعا وغيرهم الذين يصبحون أهل ذمة، أو يحكم عليهم بوضع أهل الذمة. وذلك بما يقضى على مبادئ المواطنة والمساواة فى الحقوق والواجبات وحق الاختلاف وحرية التعبير... إلخ.

ولا ينفصل عن هذه الأمور الثلاثة سعى بعض تيارات المؤسسة الدينية الرسمية التى تريد توسيع مدى نفوذها، وتأكيد سطوتها الدينية التى قد تكون شرطا لتحقيق مكاسب مادية، على نحو ما فعلت البابوية. ولذلك حرص العقلاء من المصلحين المسلمين المحدثين - كما فعل الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) - على تأكيد أن الإسلام هدم بناء السلطة الدينية ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم، وأن الإسلام لم يدع لأحد بعد الله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه، وأن الرسول ﷺ كان مبلغا ومذكرا لا مهيمنا ولا مسيطرا. وليس فى الإسلام الذى يتحدث عنه الإمام محمد عبده ما يسميه البعض «الإمام المعصوم» من الملالى أو آيات الله، ولا الرموز الدينية التى لا يقبل قولها المساءلة أو النقاش أو الاختلاف، أو عدم إظهار الاحترام المذعن الذى يسرف فى التبجيل والإجلال وفرض التصديق الذى يعود بنا إلى صفات بابوية، ويخلق سلطة جديدة لا وجود لها فى إسلام أمثال محمد عبده أو نصوص الدين والسنة الصحيحة التى تؤكد أن من حق كل مسلم أن يفهم عن كتاب الله، وعن رسوله من كلام رسوله، دون توسط من أحد من سلف أو خلف، ودون تصديق من عالم أزهرى، أو سلطة جماعة أو جماعات موازية تحتكر الفتوى، شريطة أن يكون هذا المسلم مجتهدا، جامعا شروط العلم وأدواته التى تعينه على الفهم. ولغيره من علماء الأزهر أن يبين صوابه أو خطأه فى الاجتهاد فى إطار المجادلة بالتى هى أحسن، والدعوة إلى سبيل ربنا - جل وعلا - بالحكمة والموعظة الحسنة. وإذا كان هذا الفهم ينفى وجود السلطة الدينية فى الإسلام، حيث لا هيمنة ولا ألقاب رنانة، فإنه ينفى صفة الدولة الدينية فى الوقت نفسه، ويؤكد أهمية الدولة المدنية من منظور أننا أدرى بشؤون دنيانا التى نحن مأمورون بإعمارها، وإعمال مبادئ العلم فى تطويرها، فالتفكير فريضة إسلامية، وإعمال مبادئ العقل والإفادة من كل منجزات العلوم الطبيعية والإنسانية فرض عين على كل مسلم مندوب لأن يطلب العلم فى كل مكان، وأن يفيد من الدين ما يصلح به دنياه، ويعينه على تحقيق غاياته الكبرى، وهى العدل والمساواة والتقدم المستمر الذى يؤكد سعادة الإنسان وخيريته التى لا يتمايز معها دين على دين، أو يعلو جنس على غيره، أو طائفة على أخرى، أو أقلية جشعة على غيرها من الأغلبية المحرومة من خيرات وطنها الذى لا تتوزع فيه الثروة بالعدل والقسطاس.

وتنتهى الملاحظات السابقة إلى نفى التطابق بين طرفى ثنائية الإسلام «دين ودولة»، فواو العطف - لغة - لا تقيم اتحادا بين طرفيها، كى يغدو كل منهما غيره، وإنما تفصل بين المعطوفين بما يؤكد تمايزهما، ومن ثم تمايز الإسلام من حيث هو دين عن الدولة التى يغدو الإسلام مصدرا من مصادرها التشريعية، دون أن يكون هو إياها بالضرورة، فالإسلام دين بالقطع، ولكنه ليس دولة إلا على سبيل الصفة التى قد تلحق بالدين أو لا تلحق به، بلا تطابق، أو تحويل لثنائية العطف اللغوى إلى اتحاد موهوم بين ما هو غير متحد أو متطابق. ولولا ذلك ما تعلمنا من ميراثنا الإسلامى ضرورة أن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدا، ولآخرتنا كأننا نموت غدا، وأننا أدرى بشؤون دنيانا، ولا تلقينا عن الفقهاء مبدأ أن التصرفات النبوية تنقسم على العموم إلى تصرفات تشريعية وأخرى غير تشريعية، وأن مواقف الرسول المدنية تصرفات جزئية، مرتبطة بتدبير الواقع وسياسة المجتمع، وأنها خاصة بزمانها ومكانها وظروفها، وأنها على سبيل الاجتهاد من الرسول، ورأيه فيها يمكن أن يصيب وأن يخطئ، وأنها قبلت التصويب من صحابته. وتقبل الرسول اجتهاداتهم التى رآها مفيدة، ذلك لأن هذا كله ليس واقعا فى دائرة الدين بمعناه المحدد الذى هو وحى، أو رأى معصوم فى مرتبة الوحى الثابت والقطعى الدلالة، وإنما واقع فى دائرة الدنيا المتغيرة التى تفرض الاجتهاد الذى لا يتميز بالثبات أو يتصف بالكلية. ولذلك ذهب بعض علماء الدين المعاصرين (من مثل الدكتور سعد الدين العثمانى الأمين العام لحزب العمال والتنمية فى المغرب) إلى أن الوعى بالتصرفات النبوية فى أمور «الإمامة» السياسية غير ملزمة، وأنه من الضرورى الاستعانة فى مجال نموذجنا فى التجربة الديموقراطية بتجارب الآخرين، خصوصا تلك التى أعطت الكثير لاستقرار شعوبها، وعقلنة إسهامها فى تسيير شؤونها. «والقراءة المتفحصة والمتفهمة للتجربة السياسية الغربية تمكننا من إبداع نموذج يحقق الانسجام بين الشرعى والوضعى، ويستجيب لحاجياتنا الخاصة، ويمكن من إنجاز التوافقات حولها. وهو وضع «يحتاج إلى إزالة القداسة عن الجوانب السياسية، المتعلقة بالمواقف السياسية الدنيوية من الدين». وإذا استثنينا المبادئ العامة والمقاصد الكبرى، فالباقى بشرى دنيوى، لا سبيل إلى حصره فى الصفة الدينية، أو توجيهه نحو مقصد دينى جزئى، يرتبط بمصلحة نفعية دنيوية لجماعة تسعى إلى الحكم المدنى واحتكاره باسم الدين.

والإفادة من كل ما هو موجود فى الدنيا الحديثة المتقدمة، فيما يتصل ببناء الدولة، واختيار أكثر أنظمتها تحقيقا لمصالح الجماهير، مقصد مهم من مقاصد الميراث الإسلامى. أكدته مواقف الرسول فى مواجهة القضايا الدنيوية التى واجهها بوصفه حاكما لدولة وليدة، فاستمع إلى أهل المعرفة الذين قدموا المشورة فيما لم يكن المسلمون يعرفونه معرفة كاملة أو شبه كاملة. وقد مضى على هذه القاعدة العديد من فلاسفة الإسلام، ابتداء من الكندى (فيلسوف البصرة) فى القرن الثالث للهجرة، مؤكدا أن «تتميم النوع الإنسانى» هو الغاية التى يسعى إليها عقلاء البشر، وأن هذه الغاية تشترك فيها الأمم جميعا، وتتداولها واحدة إثر الأخرى، فى سعى البشرية المتصل للتطور الذى لا نهاية له أو حد. وقال الكندى إن من أوجب الحق أن لا نذم من كان أحد أسباب منافعنا، وأن غيرنا أنسباء وشركاء لنا فيما نفيده من ثمار فكرهم، فلا شىء أولى بطالب الحق من الحق، ولا ينبغى لنا أن نستحى من استحسان الحق واقتنائه من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا. وهذا ما ينبغى أن نضعه فى اعتبارنا - بوصفنا مسلمين - حين نفكر فى صفات الدولة المدنية التى توفر لنا العدل والأمان والمساواة، فتضع الاستنارة موضع الإظلام، والعقل المنفتح على التجريب والاجتهاد محل النقل الجامد الذى يلغى الاجتهاد أو التجريب.

ولا يعتمد نظام الحكم العادل أو المتقدم - من هذا المنظور - على النصوص الدينية التى يؤدى احتكار المعرفة بها أو تأويلها إلى سلطة أو فرقة ناجية فى زعمها، مقابل فرق ضالة لابد من استئصالها، فهذا النوع من أنظمة الحكم أدى إلى كوارث متكررة عبر العصور. والسبيل الأسلم هو اختيار المواطنين - بلا تمييز - النظام الأمثل لإدارة حياتهم، وصيانة العدل بالدستور والقانون الذى يتوافقون عليه، تحقيقا لمصالحهم، وليس لمصالح حاكم مستبد، لا يكف عن الانفراد بالسلطة المطلقة التى يعمل على توريثها فى ملك عضود، لم تنتج عنه إلا كوارث الحكم الأموى والعباسى والأيوبى والمملوكى.. إلى آخر الأزمنة الحديثة. وضمان الحكم العادل هم الناس فى هذا السياق، الناس الذين إذا رأوا منكرا أو ظلما قاوموه بتنظيماتهم المدنية وأشكال احتجاجهم التى لا نهاية لها أو حصر، وإذا رأوا خيرا أو عدلا أعانوا عليه وازروه، استزادة منه، وإشاعة له فى حياتهم الدنيا المأمورين بإعمارها وتقدمها.

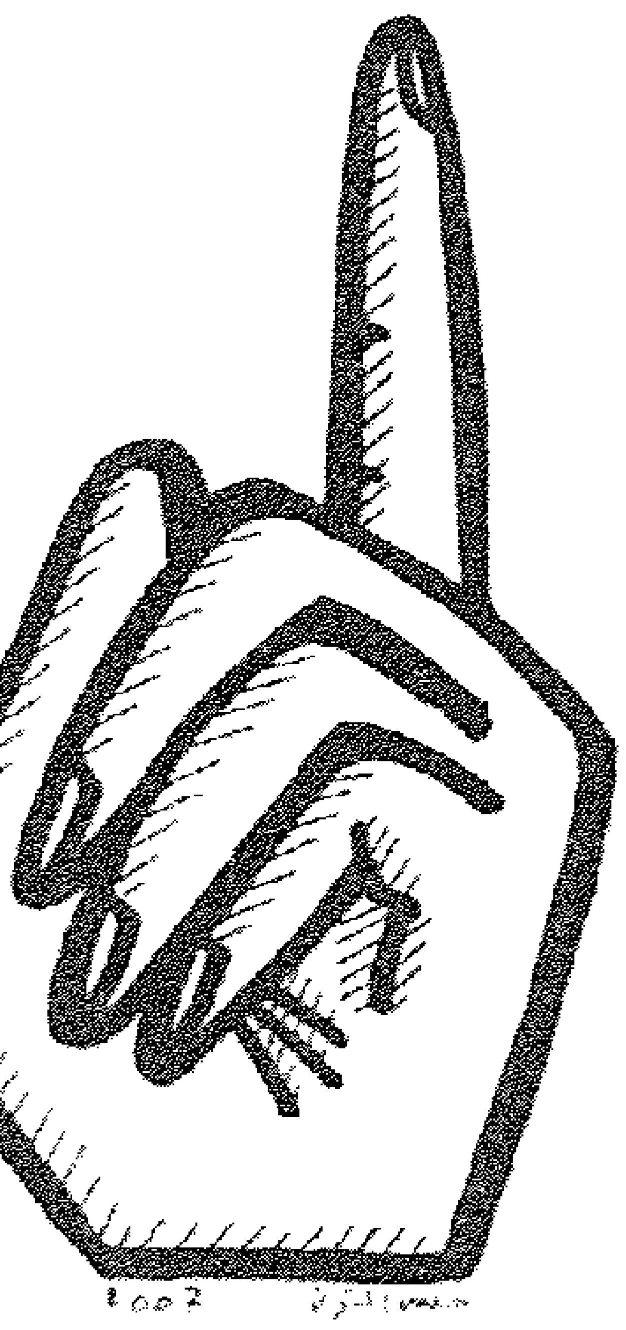
والدين الإسلامى كغيره من الأديان فى هذا السياق، كلها تقوم على الهدايات العامة والأحكام الكلية التى لا يمكن التفريط فيها، أو التنازل عنها، أو التهوين من شأنها، فهى بكل ما تقوم عليه، فى جواهرها الصافية، وعقائدها النقية، أو مقاصدها الكلية، لا تتناقض فيما بينها، بل تتآزر وتتداعم، فتغدو مصدرا لا غنى عن استلهامه فى التشريعات المدنية، ولا سبيل إلى تجاهل مقاصد الدين الكبرى فى صياغة القوانين والدساتير. لا تمييز فى ذلك بين دين وغيره، أو حصر لدين الأغلبية لتجاهل ديانة أو ديانات الأقلية، فالنصوص الدينية تنطوى، فى أصول أهدافها، على الهدايات التى ترتقى بالإنسان فى الأرض، وتعينه على أن يحقق التوازن بين دينه ودنياه. ولا فارق جذريا بين ما نقوله - نحن المسلمين - من أننا أدرى بشؤون دنيانا، وما يقوله إخواننا المسيحيون الذين يتركون ما لله لله دون أن يتركوا للقيصر الجديد أن ينفرد دونهم بالحكم، فالمواطنة القائمة على العدل وعدم التمييز أو الظلم هى الأصل فى كل ديانة تترك لمعتقديها حرية أن يجتهدوا فى صياغة الأنظمة السياسية الأصلح لدنياهم والأفضل لتحقيق مصالحهم، فالأديان لله والوطن للجميع. ولذلك رأى رجال الإصلاح من أئمة الإسلام الحديث أنه لا دولة دينية فى الإسلام. وهو رأى يأتى مصدقا ومؤكدا لما قبله من اجتهادات، تبدأ من الشيخ رفاعة الطهطاوى، ولا تتوقف عند النابهين من رجال الدين الثقاة فى هذا الزمان الردىء الضنين بهم.

لم تعرف ثقافتنا العربية معنى «الدولة» بوجه عام و«المدنية» بوجه خاص إلا حديثا، ونقلا عن أوروبا التى تعلمنا من تقدمها مفاهيم «المواطنة»، وكل ما يتصل بها من مبادئ «الديموقراطية» و«تداول السلطة» و«حرية تكوين الأحزاب» اللازمة للتعددية والديموقراطية، فضلا عن مبدأ «الفصل بين السلطات» الذى أكد ضرورة مراقبة «الدولة» بواسطة ممثلى شعبها، حيث السلطة التشريعية، والاستناد إلى مرجعية قانونية فى هذه المراقبة التى يؤازر فيها «الدستور» القانون، حيث «السلطة القضائية» باستقلالها المعروف والمطلوب فى آن.

وكان من الطبيعى أن يتطلع رواد الإصلاح إلى نموذج «الدولة المدنية» الأوروبى الذى رأوا فيه خلاصا من شرور كثيرة، وبديلا واعدا لدولة الخلافة التى انتهى بها الأمر إلى الانهيار فى تركيا سنة ١٩٢٤، وقيام كمال أتاتورك بتأسيس نظام جمهورى مدنى فى تركيا، وهو الأمر الذى هزّ العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه، وقسّمه بين مؤيدين للدولة المدنية البازغة، ومعارضين خائفين منها، ولذلك بكى أمير الشعراء أحمد شوقى سقوط دولة الخلافة فى قصيدة شهيرة فى ديوانه، وتنادى ورثة الثقافة التقليدية (الإسلامية خاصة) إلى إحياء دولة الخلافة، ودافع أمثال محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) صاحب مجلة «المنار» (والتلميذ السلفى لمحمد عبده المعتزلى) عن الخلافة.

وتطلع عدد من ملوك العالم الإسلامى إلى وراثة نظام الخلافة، ليس من قبيل الدفاع عن الدين، وإنما من قبيل البحث عن مدى أوسع للنفوذ، كما فعل الملك فؤاد (١٨٦٨-١٩٣٦) وغيره من ملوك المسلمين، على نحو ما نجد وثائقه بالتفصيل، ضمن سياقات الدعوة إلى خلافة جديدة ترث القديمة، على صفحات مجلة «المنار» فى عشرينيات القرن الماضى. ولكن أمثال على عبدالرازق، من مشايخ الاستنارة، نسفوا الدعوة إلى إحياء الخلافة بما حرره على عبدالرازق فى كتابه المدوى «الإسلام وأصول الحكم». وكانت النتيجة تخلى الملك فؤاد عن الدعوة إلى نفسه خليفة جديدا للمسلمين، ومضى فى إثره طامعون آخرون يمكن أن نحددهم من صفحات «المنار» فى تلك السنوات التى شهدت بداية تولّد ما أطلق عليه، اسم «الرابطة الإسلامية».

ولا شك أن قيام ثورة ١٩١٩ فى مصر، وما أسسه شعارها الأثير «الدين لله والوطن للجميع»، أسهم فى دعم ميراث ليبرالى تولى ترسيخ مفهوم «الدولة الوطنية» بفضل كتابات رواد التيار الليبرالى فى مصر، وعلى رأسهم أحمد لطفى السيد (١٨٧٠ - ١٩٦٣). وهو التيار الذى رفض تقبل فكرة «خلافة» جديدة، أو التحدث عن دولة تفصل بين عنصرى الأمة، وتضيع فى تحيزها الحتمى قيم «المواطنة» التى أصبحت مبدأ يرضى أغلب الأطراف، خصوصا بعد أن اعتمد «الوفد» الصاعد على شعار «الدين لله والوطن للجميع»، محققا مدى الوفاق الوطنى السليم، وقيمة «المواطنة» التى لا تمايز بين مواطنيها على أساس من جنس، أو دين، أو طائفة... إلخ. وأسهمت الليبراليات العربية بدور مواز بالغ الأهمية فى تطوير وتأصيل وتعميق قيم المواطنة من هذا المنظور. وكان ذلك فى السياق الذى رفع فيه «الوفد» شعار «الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة». وهو الشعار الذى رفعه سعد زغلول (١٨٥٧ ١٩٢٧) الأزهرى الأصل، والذى كان منطلقا لصياغة دستور ١٩٢٣ الذى يظل



«الإسلام دين ودولة»

لا دولة دينية فى الإسلام. وهو رأى يأتى مصدقا ومؤكدا لما قبله من اجتهادات، تبدأ من الطهطاوى، ولا تتوقف عند النابهين من رجال الدين الثقاة فى هذا الزمان الردىء الضنين بهم

أسهمت الليبراليات العربية بدور مواز بالغ الأهمية فى تطوير وتأصيل وتعميق قيم المواطنة من هذا المنظور. وكان ذلك فى السياق الذى رفع فيه «الوفد» شعار: «الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة»

رغم كل ما فيه - ورغم عدم مشاركة الوفد فى صياغته، واتهام سعد للجنته بأنها لجنة الأشقياء - نموذجا مضيئا لدستور الدولة المدنية التى لا تسمح بوجود ديكتاتوريات مطلقة، وتجعل الوطن ملكا للجميع بالفعل.

ولم يكن من الغريب على سعد زغلول أن يمضى بالليبرالية المصرية - فى إطار الدولة المدنية - إلى غايتها، وذلك فى سياق كانت له بوادره الدالة. وأولى هذه البوادر ما كتبه سعد فى مذكراته (الجزء السادس) تعقيبا على الكلمات التى قيلت فى حفل افتتاح الجامعة المصرية فى الحادى والعشرين من ديسمبر عام ١٩٠٨، وكانت لعبدالخالق ثروت وأحمد زكى وغيرهما، لكن الثانى أفاض فى مفاخر الماضى الإسلامى، وسبقه إلى فكرة الجامعات، فكتب سعد معلقا على كلمته بأنها «كانت أثقل الكلمات على السمع، وأبعدها عن الموضوع، وأفرغها من حسن الذوق، لأنه تكلم فيها عن الإسلام، ومجده بأمور متكلفة، ليس من اللياقة إلقاؤها فى افتتاح جامعة لا دين لها إلا العلم». وقد حرصت على نقل كلمات سعد بنصها لتأكيد منظوره المدنى الخالص إلى مؤسسات الدولة المدنية من ناحية، وبراح تفكيره الليبرالى الداعم لأصول هذه الدولة من ناحية موازية. وقد مضى الوفد فى مسار التقاليد التى صنعتها أمثال هذه الأفكار، فدافع عن حرية التعبير وحق الاختلاف، ولم يعرف تمييزا بين مسلم وقبطى، سواء فى لجانه العليا أو عضويته، أو حتى وزراء الحكومات التى قام بتشكيلها.

أما ثانى هذه المواقف الذى يُظهر تمسك الوفد بالصفة المدنية للدولة فقد جاء من مصطفى النحاس (١٨٧٦ - ١٩٦٥) الذى خلف سعد زغلول فى رئاسة الوفد. وكان رئيسا للوزراء عند وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ وتدشين ابنه فاروق (١٩٢٠ - ١٩٦٥) ملكا على مصر. واقترح بعض أمراء الأسرة العلوية أن يُقسم الملك الجديد يمين الولاء فى الأزهر الذى هو رمز الإسلام - دين الأغلبية. وواجه النحاس الاقتراح بالرفض الشديد، مهددا بالاستقالة لو حدث ذلك. وكان رفضه الحاسم قائما على أن نظام الحكم فى مصر نظام مدنى، وملكها الجديد - مثل ملكها المتوفى - مسؤول أمام البرلمان الذى كان التجسيد العملى لمعنى الشعار «الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة». وكانت النتيجة انتصار موقف النحاس، ولم يذهب الملك إلى الأزهر، بل إلى البرلمان، حيث أقسم يمين الولاء أمام ممثلى الأمة التى هى فوق الحكومة.

لم تمت فكرة «الدولة الدينية» أو «الخلافة الإسلامية» (حسب تسمية الشيخ رشيد رضا) بسقوط دولة الخلافة فى تركيا التى لم تعد عثمانية، ولم تعد

دولة دينية على السواء، فقد استمر الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ – ١٩٣٥) فى الدعوة إلى إحياء دولة «الخلافة الإسلامية»، أو «الإمامة العظمى». وهو المصطلح الذى اقترن بالدعوة نفسها، وذلك على نحو ما تبلور فى استمرار الدعوة إلى دولة دينية، مناقضة للدولة المدنية، باعثة لأمجاد الخلافة القديمة. وكان ذلك دون اعتبار للعصر ومتغيراته التى مضت بعيدا عن اتجاه «دولة الخلافة» أو الدولة الدينية، خصوصا أن إلغاء الخلافة العثمانية على يدى مصطفى كمال أتاتورك جاء بعد خمس سنوات فحسب من ثورة ١٩١٩ التى اتحد فيها رمزا الهلال والصليب، وتأسست وحدة الأمة فى معنى جديد، كان دعما لحضور الدولة المدنية، وترسيخا لجذورها، وإرساء لتقاليدها الليبرالية فى الحكم. ولذلك لم يتأثر زعماء الليبرالية الجدد ولا توجههم الصاعد بإلغاء الخلافة، خصوصا أنهم كانوا قد صاغوا دستور الدولة المدنية الليبرالية سنة ١٩٢٣ قبل سقوط الخلافة بعام واحد، وبعد تحول فكرة الخلافة نفسها إلى موروث أصبح التخلى عنه واجبا تفرضه متغيرات العالم التى لم تعد تسمح بإحياء هذا النوع من الحكم.

ولكن أفكار رشيد رضا ودعوته السلفية لم تضع أو تنمحى، فقد تلقفها منه وحمل رايتها عنه حسن البنا (١٩٠٦ – ١٩٤٩) مؤسس جماعة «الإخوان المسلمين» وداعيتها الأول. وسعى البنا إلى بعث أفكار أستاذه الذى تأثر به، ورأى نفسه امتدادا له، فاستهلّ تيارا قويا يناضل فى مواجهة الفصل بين الدين والدولة، ويدعو إلى الربط بينهما، والاتحاد بين طرفيهما، مؤكدا أن «الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة، وروحانية ومصحف وسيف».

وكان هذا التأكيد صدى قويا وشعارا ملزما لما قاله البنا فى رسائله، وذلك من قبيل: «إن الإخوان المسلمين يعتقدون أن الخلافة من الوحدة الإسلامية، ومظهر الارتباط بين أمم الإسلام، وأنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكير فى أمرها والاهتمام بشأنها. والخليفة مناط بكثير من الأحكام فى دين الله. والأحاديث الواردة فى وجوب نصب الإمام وبيان حكم الإمامة وتفصيل ما يتعلق بها، لا تدع مجالا للشك فى أن واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير فى أمر خلافتهم منذ حوّرت عن مناهجها ثم أُلغيت. والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها فى رأس مناهجهم. وهم مع هذا يعتقدون أن الأمر يحتاج إلى كثير من التمهيدات التى لابد منها، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لابد أن تسبقها خطوات، فلابد من تعاون عام ثقافى واجتماعى واقتصادى بين الشعوب الإسلامية كلها، يلى ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد، ثم يلى ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية، حتى إذا تم ذلك للمسلمين، نتج عنه الإجماع على الإمام الذى هو واسطة العقد».

ويشير نص مؤسس جماعة الإخوان، ضمنا أو صراحة، إلى عدة أمور لابد من مساءلتها، أولها: إن الدعوة إلى إقامة الخلافة هى دعوة لإقامة دولة دينية، من طراز عصرى لا يهم، ولكنها دعوة صريحة لإقامة دولة دينية. وثانيها: أن هذه الدعوة تجاوز القطر الواحد إلى غيره من الأقطار الإسلامية، سعيا إلى تأسيس رابطة دينية، تجاوز الأقطار الإسلامية وتضمها فى آن. وثالثها: اختفاء معنى المواطنة والولاء للوطن لإحلال رابطة الديانة والولاء للدين وليس للأمة أو الوطن. وفى ذلك ما يؤسس للفرقة بين عنصرى الأمة المسلم والمسيحى، ويحول بين وحدتها القائمة على المصالح المشتركة، وعلى المساواة فى حقوق المواطنة وواجباتها. ويلحق بذلك، بالقطع، أو يترتب عليه، إلغاء الروابط القومية، تلك التى لن يكون لها معنى بالقياس إلى رابطة الديانة، فيغدو المصرى أو العربى أقرب إلى الأفغانى منه إلى بنى وطنه أو قوميته. ويلزم عن ذلك، أخيرا، عالمية الدعوة أو عولمتها التى تجلّت فى أفعال الإرهاب الدينى المجاوزة للأقطار والقارات. وهى النتيجة الأخيرة فى المتصل الذى صاغه حسن البنا عندما ابتدأ بجعل الإسلام عقيدة وعبادة، صاعدا إلى أنه دين ودولة بلا تمييز بين ما هو دينى ودنيوى، خاتما المتصل بذروته التى تتحول إلى إمكان للعنف حين جعل الإسلام «روحانية ومصحف وسيف»، والأول يشير إلى الدعوة، والثانى إلى مرجعها، والثالث إلى الأداة القمعية للدعوة فى حال التأبى عليها بوصفها دعوى، ومن ثم عقاب المخالفين الذى يبدأ بالسيف ولا ينتهى بالصواريخ والمتفجرات.

وأتصور أن مفهوم حسن البنا عن «الخلافة الإسلامية» التى تكون بديلا عن «عصبة الأمم» العالمية، وفى مواجهتها من حيث هى «عصبة الأمم الإسلامية» وحدها، ظل باقيا ثابتا، من حيث هو دعوة، فى ميراث الإخوان المسلمين، لكنه ظل دعوة مؤجلة تكتيكيا. وإن كانت مسألة شرعية لا سبيل إلى إسقاط التكليف الدينى بأمرها. ولذلك لم تحدث مغايرة جذرية معلنة، فيما أعلم، بين مفهوم الإمام حسن البنا عن الخلافة ومفاهيم تلامذته، وأتباع تلامذته من الذين تغير وعيهم نتيجة متغيرات الدنيا، تلك التى فرضت إنشاء «منظمة المؤتمر الإسلامى» فى أواخر الستينيات، وكان السادات أول سكرتير عام لها، فى انعقاد لقائها التأسيسى فى الرباط عام ١٩٦٩. وقد ارتبطت متغيرات الدنيا بتحولات كمية فى فكر الأجيال التى جاءت بعد حسن البنا، خصوصا فكر الذين تولوا قيادة جماعة الإخوان والتنظير لها، فألحوا على تأكيد الفوارق بين مفهوم الدولة الإسلامية ومفهوم الدولة الدينية، فالثانية – الدولة الدينية – غريبة على تعاليم الإسلام وتجاربه السياسية. والأولى قريبة من تعاليم الإسلام اقتراب الصفة من الموصوف. وقد جرت مياه كثيرة فى مجرى هذا النوع من التفكير، وأضاف إليه من يتوزعون بين المتصل الذى يجمع ما بين مفكرين من طراز علال الفاسى المغربى ومالك بن نبى الجزائرى ويوسف القرضاوى المصرى. وقس على ذلك ممثلى تيارات جماعة الإخوان والتيارات المنبثقة عنها. وهى تيارات لا يزال يجمعها الإيمان بأن الإسلام دين ودولة، ولكن مع تنويعات، لا تخلو من رد دلالة الكلمة الأولى (دين) على الثانية (دولة). ولا يزال تعدد هذه التنويعات مستمرا فى جدارية فكرية، تمتد بامتداد الكرة الأرضية التى يتوزعون على أقطارها، ابتداء من مصر مركز الدعوة ومنطلقها.

ولا يمكن أن نغفل الفارق بين الاستراتيجية الثابتة والتكتيك المرحلى، إذا جاز استخدام هذين المصطلحين فى هذا السياق. فالاستراتيجية تتعلق بالهدف النهائى من عالمية الدعوة التى ترتبط بغاية إحياء الخلافة الإسلامية فى التحليل الأخير. ويرتبط التكتيك بالتمهيدات التى لابد منها، والخطوات المرحلية المتغيرة التى تسبق الخطوة النهائية، وتمهّد لها بمنطق أشبه بمنطق المتغيرات الكمية التى تؤدى إلى متغيرات كيفية. ولا بأس من التدرج فى هذا السياق، وتغيير الأقنعة أو الشعارات التى قد يدعو بعضها إلى دولة مدنية، مرجعيتها إسلامية، وذلك دون مراعاة جدية – فى الشعار بالطبع – لغير الإسلام من أديان أخرى، يمكن أن ترفع شعارات موازية. فالأمر كله أمر تكتيك وتدرج، تمهيداً للوصول إلى الهدف النهائى الذى لا يعلن عنه صراحة، ولكن يمكن استنتاجه من المواقف وعلامات الخطاب المباشرة أو غير المباشرة.

وأعتقد أن هذه المراحل التكتيكية قطعت شوطا بالغ الدلالة، خصوصا بعد أن استقوت مجموعات الإسلام السياسى وتعولمت، وانتشر نفوذها وتأثيرها فى أقطار عربية وإسلامية عديدة. ولا شك أن لهذا الانتشار أسبابه العديدة الداخلية والخارجية. وهى أسباب تقودنى إلى الملاحظة الأخيرة فى هذه المساءلة. وهى ملاحظة قائمة على علاقة الاطراد القائمة بين صعود الدعوة إلى الدولة الدينية (مهما كانت مسمياتها وصفاتها)، وتجذر الفساد السياسى والتصلب الاجتماعى والتأزم الاقتصادى على السواء.

ولم يكن من الغريب، والأمر كذلك، أن ينمو نفوذ جماعة الإخوان المسلمين، قبل ثورة يوليو، مع صعود حكومات الأقلية، وتراجع مشروع التقدم الوطنى. وليس مصادفة أن يتم التنكيل بعلى عبدالرازق عندما هاجم إحياء الخلافة، نافيا عن الإسلام تحديد نظام بعينه للحكم، مؤكدا أن الإسلام ترك للمسلمين حرية الاجتهاد فى اختيار النظام الأصلح لحياتهم. فقامت مجلة «المنار» للشيخ محمد رشيد رضا بتهييج وتأليب الرأى العام ضد الشيخ المستنير وكتابه التى أظهرت الأيام سلامة نظرته. ولم تكتف المنار بإدانة على عبدالرازق وحده، بل شملت باتهاماتها الطليعة المحدثة من أقرانه المستعدين للدفاع عنه فى الجامعة المصرية التى أصبحت مرعى للكفر فى رأى المنار. وكانت النتيجة متوافقة مع غضبة الملك فؤاد ومتسقة مع طبائع استبداده، فقام الأزهر بسحب شهادة العالمية من الشيخ الجليل الذى طرد من منصبه فى القضاء، أثناء حكومة زيور باشا الذى كان على رأس ديوان الملك فؤاد فى استبداده وتسلطية حكمه. وذلك من خلال – «حزب الاتحاد» الذى أسسه لدعم مليكه المكروه. فظل الحزب منبوذا من الجماهير التى لم تقبل توليفة حزب ملكى الهوى.

ولم يتكرر الأمر مع طه حسين عندما أصدر بعد حوالى عام واحد كتابه القنبلة «فى الشعر الجاهلى» فى شهر مارس سنة ١٩٢٦، فأحيا أزمة «الإسلام وأصول الحكم». وواصلت المنار ما سبق أن قامت به فى محنة على عبدالرازق. لكن طه حسين خرج سالما، لأن حكومة الأقلية كانت قد سقطت وقامت حكومة الائتلاف الوطنى ما بين الوفد والأحرار الدستوريين، فأصبح سعد زغلول رئيس البرلمان وعدلى يكن رئيس الحكومة، فتقلص نفوذ الخطاب الدينى الرجعى، وانحسر عن معدلاته الخطرة التى ظلت تؤدى دورها السلبى مع كل حكومة أقلية استبدادية.

لقد تكررت المواقف المماثلة للتوافق بين اطراد صعود الجماعات الدينية وصعود الاستبداد السياسى مع بداية تولى الملك فاروق الحكم، ونصحه بعض الناصحين – ربما من الذين اقترحوا أن يؤدى قسم الولاء فى الأزهر – إلى أن يدعى له بوصفه «الملك الصالح». وقد تولى الإخوان المسلمون مهمة الترويج لهذه الدعوة إلى أن كشف نظام الملك الجديد عن بذور فساده وجنوحه إلى الاستبداد فى الوقت نفسه، فتحالفت معه الجماعة بزعامة حسن البنا، وذلك لمساعدته فى ضرب الوفد ممثل الحركة الشعبية، وتقبّل الملك العون شاكرا لزعيم الجماعة الذى دعا للملك الشاب الذى رأى فيه «صلاح الأمة».

وقد تجدد هذا التحالف مع حكومة إسماعيل صدقى التى عادت الحركة الشعبية بأسرها، وذلك فى سياق وصل إلى ذروته سنة ١٩٤٦. ووقف الإخوان مرة أخرى فى صف الحكومة الاستبدادية لإسماعيل صدقى ضد الدوائر المنضمة إلى – أو المتعاطفة مع – «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال». وتحركت المظاهرات الإخوانية فى الجامعة بزعامة الطالب – فى ذلك الوقت – مصطفى مؤمن، وهتفت لإسماعيل صدقى صاحب القبضة الحديدية، مستشهدة بالآية القرآنية

كتـاب الـزاويـة



التعليم يرفع المرأة

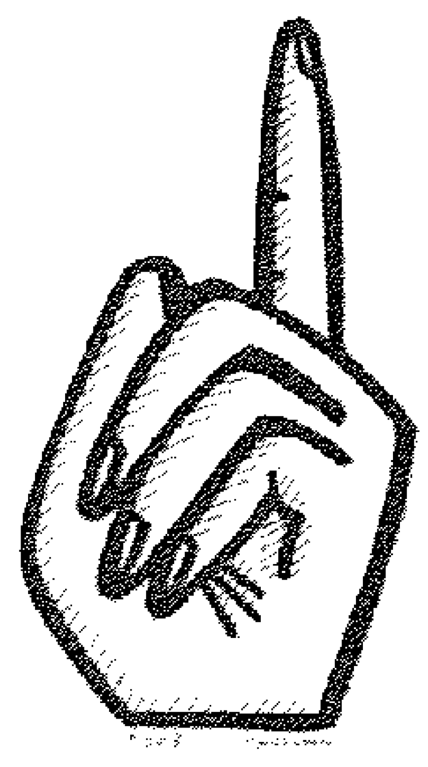
قاسم أمين

أما أن المرأة الآن ناقصة العقل شديدة الحيلة، فهذا مما لا يختلف فيه اثنان. وقد بينا أن هذه الحالة هى أثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما أجيالاً طويلة. وأنه متى زال السبب فلا شك أن المسبب يتبعه.

وأما كون التعليم يفسد أخلاقها فهذا ننكره ونشدد النكير عليه. فإن التعليم ـ خصوصًا إذا كان مصحوبًا بتهذيب الأخلاق ـ يرفع المرأة ويرد إليها مرتبتها واعتبارها ويكمل عقلها ويسمح لها أن تفكر وتتألم وتتبصر فى أعمالها. وإن وقع أن امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية، فقد وقع أن ألوفًا من النساء الجاهلات دنسن عروضهن وكان الرسول بينهن وبين رفيقهن خادمًا أو خادمة، أو دلالة أو جارة عجوزا.

والحقيقة أن طهارة القلب فى الغرائز والطبائع. فإن كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحًا وتقوى. وإن كانت فاجرة لم يزدها العلم فجورًا. وهكذا الحال فى الرجال. وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لا يمنع من تعاطيه. فقد قال الله فى شأن كتابه: «يضل به كثيرًا ويهدى به كثيرًا وما يضل به إلا الفاسقين».

فأثر التعليم لا يمكن أن يكون ضررًا محضًا. ولا يمكن أن يكون منشأ حقيقيًا لضرر. والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الأمور أكثر مما تخشاها الجاهلة ولا تقدم بسهولة على ما يضر بحسن سمعتها، بخلاف الجاهلة فإن من أخلاقها الطيش والخفة.



"الإسلام دين ودولة"

«واذكر فى الكتاب إسماعيل، إنه كان صادق الوعد، وكان رسولا نبيا» (مريم/٥٤).

وقد ظل الإخوان على ما هم عليه، محافظين على إيقاع صعودهم وانتشارهم مع صعود إيقاع حكومات الاستبداد التى كانت حكومة إسماعيل صدقى نموذجها الفاقع الذى أدى إلى قمع الحركة الوطنية وإغلاق منافذ التعبير أمام تياراتها الشعبية والتقدمية، فتكرر إلقاء المخالفين فى السجون، وإلغاء تراخيص إصدار الصحف.

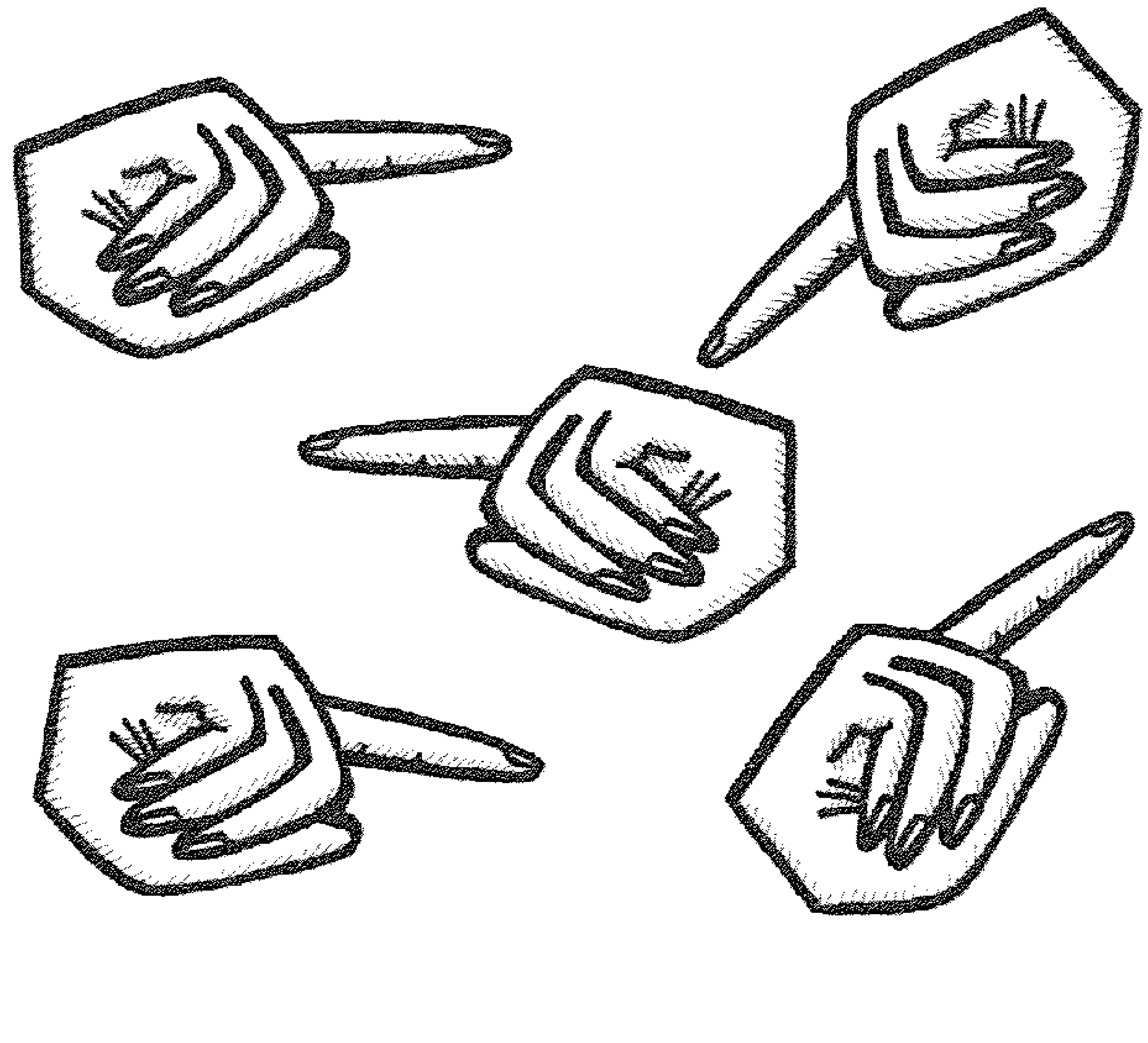
وحافظ الإخوان على السياسة نفسها فى علاقتهم بثورة يوليو ١٩٥٢ التى آزروها، وظلوا مؤيدين لها، وقبضوا ثمن التأييد فى سياقات أزمة مارس ١٩٥٤ التى بطشت فيها حكومة الثورة (العسكرية) بالأحزاب المدنية، فيما عدا الإخوان المتحالفين معها، لكن الذين سرعان ما انقلبوا عليها كما انقلبت عليهم الثورة، فى سياق كانت ذروته الأولى حادثة المنشية الشهيرة فى الإسكندرية فى يوليو ١٩٥٤. وهى الحادثة التى زعم الإخوان أنها كانت مدبرة لحل الجماعة وتحريم نشاطها، وكانت بداية الذرى المتصاعدة من العداء المتصل الذى لم ينته بإعدام سيد قطب سنة ١٩٦٦، قبل عام واحد من هزيمة ١٩٦٧ التى قلبت كل الموازين رأسا على عقب، وأدت - على نحو غير مباشر - إلى انتهاء حياة عبد الناصر نفسها فى سبتمبر ١٩٧٠ وإعلان أنور السادات خلفا له.

وعندما اصطدم السادات بمراكز القوة، وبالمتعاطفين معها من الناصريين واليساريين لم يجد له حليفا، فى اتجاهه نحو الانفراد بالسلطة المطلقة، سوى الإخوان المسلمين الذين أخرجهم من السجون والمعتقلات الناصرية، ومنحهم حق إصدار مجلاتهم وجرائدهم القديمة التى سرعان ما تبنت الهجوم على كل التيارات الليبرالية واليسارية، استجابة إلى قواعد الحلف غير المعلن مع السادات، وبدأت حركة المد الدينى فى توجهها الذى أدى إلى إشاعة التطرف والمبالغة فى عمليات التديين التى اقترنت بحشر الدين فى كل شىء. وكان ذلك فى السياق الذى أدى إلى الاصطدام بالسادات نفسه فى متواليات العنف التى بدأت سنة ١٩٧٤ فى حادثة الكلية الفنية العسكرية. وازدادت الأمور تعقدا، والصراع بين الحليفين حدة وعداء، وسقط التحالف الذى دعم الديموقراطية التى جعل لها السادات أنيابا ومخالب، فانقلب إلى عداء ما بين «الرئيس المؤمن» الذى سعى إلى إنشاء دولة «العلم والإيمان» التى دعمت الإيمان الشكلى على حساب العلم، فى التوازى مع أخلاق القرية المعادية لما أسماه السادات «رذالة الأفنديات»، ولما سعى إلى الخروج من الطريق المسدود الذى قاده إليه التحالف مع الإخوان، متوهما الحل فى شعار «لا سياسة فى الدين، ولا دين فى السياسة». كان الوقت قد تأخر، والفرصة ضاعت، فانتهى الأمر بمصرعه على أيدى حلفائه الذين أصبحوا أعداءه، فى التتابع المتصاعد للعنف الذى انتهى بحادثة المنصة واغتيال السادات فى أكتوبر - ذكرى انتصاره - سنة ١٩٨١. وكان أغلب خصوم السادات، ومنهم الحلفاء الجدد، فى السجون الساداتية هذه المرة. وقام الرئيس مبارك بتدارك الأمر، وعقد مصالحة وطنية، صحبت إخراج الرموز الوطنية من السجون الساداتية.

وقد وجد عنف الجماعات الدينية المتطرفة أرضا ممهدة من ثقافة تقليدية جامدة، وذلك فى سياق شهد نتائج المحاولات العملية لتديين الدولة، إرضاء لجماعات الإسلام السياسى التى واصلت انتشارها، نتيجة عوامل كثيرة أهمها الفساد السياسى الذى أنتج أزمات طاحنة، لا تزال تلقى بالفقراء المطحونين فى أحضان الدعوة الصاعدة إلى دولة دينية، شعارها «الحاكمية لله» الذى بسطه سيد قطب (١٩٠٣ - ١٩٦٦) تلميذ حسن البنا. وهدفها الوصول إلى الحكم تحت شعار «الإسلام هو الحل» الذى هو تأويل لازم عن الشعار: «الإسلام دين ودولة». وهو تأويل دينى لا يخلو من نفعية سياسية، فتحت الباب أمام محاولات أسلمة مواد الدستور، والقوانين الوضعية، متجاهلة بقية الديانات التى هى كالإسلام - فى نهاية الأمر وبلا تمييز - هدايات عامة متمثلة فى مبادئ وقواعد كلية، ترمى إلى إقامة العدل وتحقيق المصلحة، فحيث تكون المصلحة فثمّ شرع الله الذى يأمر بالعدل وينهى عن الظلم بكل أنواعه ومفاسده فى كل دين. ■

حول الموضوع ذاته «الإسلام دين ودولة» يكتب فى العدد القادم الدكتور محمد سليم العوا

معتز بالله عبد الفتاح



لا للعلمانية .. نعم لليبرالية!

■ ترصد هذه المقالة جوانب الانتظام فى الجدل الفكرى بين الرؤى التى يقدمها الفاعلون السياسيون وقادة الرأى فى المنطقة العربية، مع اهتمام خاص بمصر، بشأن كيفية إعادة هيكلة العلاقة بين الإسلام والدولة والمجتمع.

وتنطلق هذه المقالة من افتراض أساسى مضمونه أن هناك عملية انتقائية نصوصية تقوم عليها هذه المواقف السياسية التى تسعى إلى إعادة صياغة علاقة الإسلام بالدولة والمجتمع، لاسيما مع بروز القوى الإسلامية على الساحة السياسية.

وتوضح هذه الورقة أن هذه الانتقائية النصوصية تتم على أساس أيديولوجى بين تيارات ثلاثة: إسلاميين سلفيين تقليديين سواء تبنوا العنف أو رفضوه، وإسلاميين معاصرين تحديثيين، وعلمانيين سواء كانوا ليبراليين تعدديين أو أتوقراطيين استبداديين.

والمقلق فى هذه الانتقائية أنها لم تكن دافعا لحوار حقيقى بين قادة الرأى الممثلين لكل تيار قدر ما أدت إلى ما يسميه المستشار طارق البشرى بحرب أهلية ثقافية تسيطر على الساحة الفكرية فى مصر بين أنصار الدولة «الإسلامية» والدولة «العلمانية»، وهو جدل يأخذنا بعيدا عن كيفية مواجهة أصل المشكلة وهو الاستبداد.

وهو إجمال سيأتى تفصيله فيما يلى:

أولا: تيارات الفكر المعاصر على الساحة الفكرية

سعيا نحو البحث عن جوانب الانتظام فى الظاهرة محل الدراسة، فإن المحلل يضطر إلى اللجوء إلى شىء من التعميم الذى يرتبط دائما بوجود هامش للخطأ. وهو ما يتطلب ممن يطالعون هذا التصنيف أن يعوا أنه ليس جامدا وليس معبرا عن كافة الحالات المحتملة على أرض الواقع وإنما هو إطار نظرى أو أنماط مثالية (ideal types) لتوضيح نقاط الاختلاف والاتفاق بين المنتمين لكل فريق. ويمكن تقسيم زعامات التيارات الفكرية المعاصرة على الساحة السياسية العربية إلى تيارات ثلاثة تنقسم إلى خمسة حينما يتعلق الأمر بالمسائل السياسية. وهو ما يمكن توضيحه فى الجدول التالى حيث تنقسم هذه التيارات الأساسية إلى تيار إسلامى تقليدى سلفى، ينقسم بدوره لاحقا إلى تيار فرعى يتبنى العنف وآخر مسالم، وتيار إسلامى تحديثى أو معاصر، وتيار علمانى ينقسم بدوره إلى تيار فرعى ليبرالى وآخر أتوقراطى استبدادى. وسيتم مناقشة تفاصيل الجدول أفقيا.

١) فيما يتعلق بتحديد ما هو «إسلامى» أو مقبول شرعا. يقرر السلفيون أنه قاصر على ما أتى فى القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ص) وحقق إجماعا من العلماء وأصبح جزءا من الشريعة. وعلى هذا فإن مظاهر التحديث التى لا أصل لها فى الشرع تعتبر عندهم بدعة ابتداء. وبما أن «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار» فإن التحديث فى أمور لم ينص عليها الشرع أو لم يفعلها الرسول أو أى من صحابته فهى من البدع التى ينبغى الوقوف ضدها بحذر وعليه يكون رفض القيم المرتبطة بالديمقراطية أو الاشتراكية أو الرأسمالية من باب سد الذرائع إن لم تكن من قبيل حرمة الابتداع.

ويذهب التيار الإسلامى التحديثى المعاصر إلى اعتبار أن وصف «إسلامى» يمكن أن يطلق ليس فقط على ما ورد نصا فى القرآن والسنة (كما يقول السلفيون التقليديون) ولكن أيضا على كل ما لا يتعارض مع هذه الشريعة. وهى بالطبع دائرة أوسع من سابقتها فمثلا استخدام الرسول المنجنيق (وهى أداة رومانية مستحدثة لم يبتدعها المسلمون) فى إحدى الغزوات لم يعتبر بدعة وضلالة لأنه لا يخالف الشريعة. وهذا التعريف الواسع لما هو مقبول شرعا هو ما تبناه ابن عقيل الحنبلى حينما رد على محدثه الذى ادعى أن «لا سياسة إلا ما وافق الشرع». وكان رد ابن عقيل بأن هذا الكلام يحمل على محملين: ضيق وواسع. فإذا كان المتحدث يقصد أن لا سياسة إلا ما نطق به الشرع، وهو موقف السلفيين التقليديين السابق بيانه، فهو غلط وتغليط للصحابة لأن من الصحابة من أتى بمستحدثات من الأمور لم يكن قد فعلها الرسول (ص) أو أقرها فى حياته. مثل ما فعله أبو بكر من محاربة مانعى الزكاة، أو نفى عمر بن الخطاب لنصر بن حجاج وإلغاء سهم المؤلفة قلوبهم، أو من جمع عثمان الناس على مصحف واحد وإضافة أذان آخر لصلاة الجمعة مع اتساع المدينة. وتحريق على بن أبى طالب للزنادقة فى الأخاديد. ويعلق ابن القيم على قول ابن عقيل بأن قضية قبول الإسلام لما لم يرد فيه نص بالتحريم أو ثبت ضرره القطعى هو من المسائل التى تعتبر: «مذلة أقدام ومضلة أفهام ومعترك صعب فى مقام ضنك، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجعلوا الشريعة قاصرة لا تنهض بمصالح العباد محتاجة لغيرها». فعند الإسلاميين التحديثيين، الأصل أن الشئ حلال ما لم يحرمه نص. وأن الشريعة تتسع لكل مفيد ونافع مادام لم يتعارض مع نص ثابت أو إجماع لا لبس فيه.

ويعترض السلفيون التقليديون على موقف الإسلاميين التحديثيين حيث إن قبول ما ليس من الشريعة يفضى إلى تباينات واختلافات بين المسلمين على نحو يظهر الفتن ويفرق الأمة ويشغل الناس عن أصول دينهم.

ويجد العلمانيون فى الخلاف بين الإسلاميين السلفيين والتحديثيين دليلا على عدم انعقاد تعريف محدد لما يدخل فى الشريعة مقارنة بما هو خارجها. فعند العلمانيين هناك تفاوت واضح فى التفسيرات على نحو يجعل الشريعة ليست واضحة بذاتها وإنما العقل البشرى هو الذى يتحدث باسمها. ومن هنا تحدث بعض العلماء المسلمين عن الديمقراطية فى الإسلام وتحدث آخرون عن الديمقراطية باعتبارها خروجا عن الإسلام. كما ذهب البعض للحديث عن

يذهب التيار الإسلامى التحديثى المعاصر إلى اعتبار أن وصف «إسلامى» يمكن أن يطلق ليس فقط على ما ورد نصا فى القرآن والسنة (كما يقول السلفيون التقليديون) ولكن أيضا على كل ما لا يتعارض مع هذه الشريعة

الاشتراكية فى الإسلام ونعت الرسول بأنه إمام الاشتراكيين وذهب آخرون إلى ظلم الاشتراكية الذى يتناقض مع عدل الإسلام وحرمة الملكية الخاصة (وهى جوهر نظام السوق) فيه: وهؤلاء وأولئك دعموا وجهات نظرهم بالعودة إلى نصوص القرآن وأحاديث الرسول (ص) وأقوال العلماء والتابعين. ويرى العلمانيون أنه باسم الإسلام يمكن تفسير الشىء ونقيضه. واستشهدوا بالشيخ المراغى، شيخ الأزهر السابق، الذى قال: «قل لى ما هو فيه خير المجتمع وأنا أجد لك ما يؤيده من القرآن والسنة». فالعلمانيون يعتقدون أنه لا يوجد معنى محدد بذاته لنصوص القرآن والسنة حتى يفرض عليهما العقل البشرى هذا المعنى. فمجرد المحاولة أن تصنف هذا إسلامى وهذا غير إسلامى غير مقبولة فالتناقض بين العلماء فى تفسير آيات القرآن المحورية مثل «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» فى مقابل آية أخرى مثل قوله تعالى: «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» يوضح تاريخية هذه نصوص بمعنى أنها نزلت لوقتها ولمعالجة وقائع بذاتها ولا يمكن تعميمها. كما أنه من المستحيل معرفة متى تطبيق آية دون أخرى فى حالة بذاتها. وليس أدل على ذلك الجدل الذى دار بين اثنين من كبار علماء المسلمين الشيخ ابن باز، مفتى المملكة العربية السعودية الذى أفتى بحق الحاكم المسلم فى أن يوقع صلحا مع إسرائيل فى مواجهة الفتوى التى تبناها، ولا يزال، الشيخ يوسف القرضاوى بحرمة مثل هذا الصلح مادامت الأرض المسلمة محتلة. ولكل منهما أدلة من القرآن والسنة.

٢) فيما يتعلق بمسألة صمت الشريعة الإسلامية عن إصدار حكم فى مسألة ما، يؤكد السلفيون على استحالة صمت الشريعة الإسلامية عن أى مسألة وذلك لسببين: نص القرآن الكريم الذى يؤكد أن الله أنزل الكتاب تبيانا لكل شىء؛ وثانيا بسبب وجود القياس الذى يعنى عندهم تطبيق حكم على أمر أو نازلة لم يرد فيها نص قياسا على حكم أو نازلة ورد فيها نص لاشتراكهما فى العلة. وعلى هذا فأى حدث معاصر يمكن أن يقاس على حدث فى الماضى لاستخلاص الحكم فيه. ومن هنا تحريم قيادة المرأة للسيارة لأنه كخروجها من المنزل بدون محرم، وتحريم الأحزاب السياسية قياسا على تحريم الفرقة والاختلاف من ناحية وتحريم التكالب على المناصب السياسية من ناحية أخرى وهو ما لا يليق، عندهم، بكون «المؤمنين أخوة». وتحريم فوائد البنوك على أنها الربا المحرم شرعا. وعلى هذا فمجال إعمال العقل البشرى محكوم ومحدود بنصوص الشريعة الإسلامية.

يرى الإسلاميون التحديثيون أن الشريعة يمكن أن تصمت كفرصة لاجتهاد البشر ولملء هذا الفراغ التشريعى وكدليل على أن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان. ومن هنا قول الرسول الكريم (ص): «ما وجدتم فى الكتاب من حلال فهو حلال و ما وجدتم فى الكتاب من حرام فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا عافيته، فما كان الله لينسى شيئا». ثم تلى قول الله تعالى: «وما كان ربك نسيا». وعلى هذا يرى الإسلاميون التحديثيون أن القياس مصدر من مصادر الشريعة لكنه لا يستخدم بإطلاقه. فنوازل ومخترعات الوقت الحالى لا تشترك فى العلة بالضرورة مع ما كان عليه الحال فى أيام الصحابة مثلا. فقياس الأحزاب السياسية على أنه الفرقة والاختلاف المذمومان شرعا ليس من الصحة فى شىء. فالأحزاب المعاصرة ليست وسيلة لإحداث الفرقة وإنما أداة لمأسسة وتنظيم التنافس على المناصب السياسية. كما أن الإسلاميين التحديثيين يقفون موقف الناقد من مساواة فوائد البنوك بالربا على أساس أن فوائد البنوك المترتبة على الودائع البنكية معاملة مستحدثة لم يرد فيها نص بالاعتبار أو بالإلغاء. وعلى هذا فهى تدخل فى باب المصالح المرسلة التى يترك فيها الأمر لولى الأمر بما يحقق الصالح العام للمجتمع.

أما العلمانيون فلهم فى صمت الشريعة دليل على أن الأحكام الشرعية الواردة فى القرآن والسنة نزلت لعلاج القضايا التى كانت مطروحة فى ذلك الوقت دون غيرها وبالتالى محاولة الإسلاميين تصوير أن نصوص الشريعة المتناهية يمكن أن تحكم الحوادث غير المتناهية (أى التى لا يمكن التنبؤ بها) تتناقض مع أصل الأشياء. فالرسول قبل وفاته حثنا على استخدام السواك قبل الصلاة ومع ذلك لم يوضح لنا كيفية اختيار الخليفة من بعده: وهى مسألة أجل وأهم. وهذا لا يمكن أن يكون عفوا أو مصادفة. فهناك آيات تعالج قضايا بذاتها على نحو تفصيلى لا لبس فيه مثل آيات كتابة الدين وصلاة الخوف وغيرها ومع ذلك هناك سكوت عن مسائل سياسية كثيرة كانت أولى بالاهتمام والتفصيل مثل التعامل مع المعارضة السياسية والحريات السياسية والعامة وقواعد تداول السلطة. وعلى هذا فالعودة إلى نصوص الشريعة الإسلامية للبحث عن علاج للمشاكل المعاصرة ليس من الحكمة فى شىء.

٣) أما بشأن المساحة من الشريعة والفقه التى لا يسمح فيها للعقل البشرى بالنقد والتشكك فهى مساحة شديدة التباين بين المدارس الثلاث. فمن وجهة نظر السلفيين التقليديين، فإن العوام، أى غير أهل العلماء الثقات وفقا لمعايير محددة يتبنونها، لا يحق لهم أن يعملوا عقولهم فيما ليس لهم اختصاص به. فمذهبهم هو مذهب من يفتيهم والأولى لهم ألا يرجحوا بين المذاهب والاجتهادات فى قضية بذاتها لأن الرأى، فى هذا المقام، هوى. وبالتالى لا يمكن للعقل البشرى غير المتخصص أن يصوب سهام النقد أو التشكك إلى نصوص الشريعة أو حتى إلى ما ترتب عليها من أحكام فقهية استنبطها العلماء الثقات من الأمة وكما قال أحدهم نسبة إلى ابن عساكر: «إن لحوم العلماء مسمومة» بما يعنى أن توجيه النقد لهم ليس من المباح أو المقبول فى شىء. فالذى يوجه النقد للعلماء الثقات من العوام يستند فى رأيه إلى «رأى» والرأى عند السلفيين «هوى» يجب اجتنابه. وتجدر الإشارة إلى أن عوام المسلمين عند السلفيين قد يكونون علماء فى العلوم غير الشرعية. فعلماء التاريخ، والاجتماع، والاقتصاد، والطب، والقانون، والسياسة وغيرهم عوام بالمعنى الشرعى وعليهم ألا يجترئوا على النقد أو التشكك لأنهم لا يملكون الأدوات الشرعية التى تعينهم على فهم النصوص الدينية.

ويضيق الإسلاميون التحديثيون من المساحة أو المناطق المحصنة ضد النقد والتشكك لتنحصر فيما هو قطعى الثبوت وقطعى الدلالة. وهذه المساحة تشمل القرآن حيث إنه كله قطعى الثبوت ولا يستطيع أحد أن يشكك فى وجوده أو ثبوته بيد أن بعض آياته محكمة وبعضها متشابه بنص القرآن ذاته. كما أن القرآن ذاته طالب المؤمن أن يسأل أهل الذكر فى حالة جهله. أما ما ينسب للرسول الكريم من أحاديث فهو ليس قطعى الثبوت حيث إن الوضاعين أضافوا للحديث الشريف ما ليس منه وهو ما يتطلب من أهل الاختصاص وغيرهم التدقيق والتشكك فى إطار الهدف الأسمى وهو الحفاظ على شرع الله مما هو غريب عليه وضار به.

واتساقا مع مواقف العلمانيين السابقة فإنه لا توجد منطقة محصنة

تيارات الفكر الأساسية بشأن علاقة الإسلام بالدولة والمجتمع

	الإسلاميون التقليديون	الإسلاميون التحديثيون	العلمانيون
١) ليوصف الشىء بأنه إسلامى، يجب أن يكون	له أصل تدل عليه الشريعة صراحة	لا يناقض الشريعة وإن لم يكن له أصل	فى صالح المجتمع بصرف النظر عن النص الدينى
٢) صمت الشريعة	مستحيل	فرصة للاجتهاد	علامة لعدم قطعية الشريعة
٣) الأصول المحمية من الشك والنقد	الشريعة والفقه	الشريعة	لا يوجد
٤) الاختلاف بين العلماء فى القضايا الكبرى	يعنى القضاء على وحدة وتميز الأمة	خطر ولكن محتمل	ضرورى لتحرير العقل من الآراء النمطية
٥) التبادل الثقافى مع غير المسلمين	يعنى تقليدا أعمى وبدعة	يعنى البحث عن الحكمة	أفضل من التقليد الأعمى للسابقين
٦) الولاية السياسية للمرأة	لا تجوز وفقا للشريعة	مشروطة بحدود الشريعة	ليست خاضعة للشريعة: فهى مسألة ملائمة
٧) الديمقراطية هى	ضد الإسلام	إسلامية/ قابلة للأسلمة	غير عملية ضرورية
٨) تقسيم فرعى	مسالمون يتبنون العنف	إسلاميون تعدديون	أتوقراطيون ليبراليون

من النقد أو التشكك لأن القرآن والسنة قد وجدا فى إطارهما التاريخى وكانا يخاطبان الناس بلغتهم ولو كان نزل على قوم آخرين لكان نزل بلغتهم فى إطار آخر. وعلى هذا فالنقد والتشكك ضروريان لاستيعاب مقتضيات النص والقضايا التى يثيرها.

٤) وبشأن الاختلاف بين العلماء فى اجتهاداتهم الفقهية فهو خطر من وجهة نظر السلفيين لأنه يهدد وحدة الأمة وتميزها عن غيرها من الأمم كما أنه يخرج عن صريح توجيه القرآن للمسلمين بألا يختلفوا حتى لا يذهب ريحهم وتضيع قوتهم فى مواجهة أعدائهم. ويذهب السلفيون إلى أن حدوث الاختلاف بين العلماء عادة ما يرجع لخطأ فى استدلال أحدهم أو لغلبة الهوى عليه فى أمر ما. وعلى هذا فهم يفرقون بين العلماء الثقات والعلماء الدخلاء أو علماء السلطان الذى يضلون ويفسدون من حيث لا يشعرون. وعلى هذا فالتحوط منهم ضرورى.

ويشارك الإسلاميون التحديثيون الإسلاميين السلفيين التقليديين مخاوفهم من الاختلاف بشأن القضايا الكلية للأمة باعتباره خطرا داهما ولكنهم أوسع صدرا وأكثر رحابة فى التعامل معه من باب أن المسلمين، علماءهم وعامتهم، لا بد أن يتعاونوا فيما اتفقوا عليه ويعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه. فلا يمكن حمل الأمة على رأى واحد أو توجه واحد إلا بقمع شديد له مخاطر تفوق مخاطر الاختلاف.

ويرى العلمانيون أن الاختلاف بين العلماء فى القضايا الكبرى يعنى أن النص الدينى متجدد ومتنوع على نحو يجعل العقل البشرى هو الفيصل فيه وليس تغليب نص على نص أو الادعاء بنسخ نص لنص. فالعلماء يختلفون ويستدلون بنصوص متنوعة، وأحيانا متضاربة، على نحو يجعل من غير المنطقى الادعاء بأن الآراء النمطية التى يكررها الإسلاميون هى فقط ما يمكن استدلاله من النصوص الدينية وأكبر دليل على ذلك المقاومة التى يبديها الإسلاميون لأى رأى أو اجتهاد محدث بغض النظر عن وجاهته العلمية والمنطقية مادام يتناقض مع تفسير ثابت عن أحد الفقهاء.

٥) أما عن التبادل الثقافى بين المسلمين وغير المسلمين والتعلم منهم، يعتقد السلفيون أنه خطأ وجريمة بسبب تعارضه مع عقيدة الولاء والبراء التى تعنى النيل من غير المسلمين والتضييق عليهم وعدم ذكرهم بخير. بل يصلون فى ذلك إلى حد تحريم أن يهنئ مسلم مسيحيا بأعياد الميلاد لما يعنيه ذلك من إقرار له على عقيدته. ومن باب أولى فلا يجوز للمسلم الحق أن يقف من غير المسلم موقف التلميذ بالذات إذا كان التعلم يعنى ضمنا أو صراحة الاعتراف بتقدم وسبق غير المسلم. ويعترض السلفيون التقليديون على حجة الإسلاميين التحديثيين والعلمانيين بأن منفعة المسلمين تتحقق بالاستيراد أو التعلم من الغرب. ويرى السلفيون أن منفعة المسلمين الحقيقية مرتبطة باعتزازهم بدينهم وتمسكهم به ويقينهم بقوله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا».

أما عن التبادل الثقافى بين المسلمين وغير المسلمين والتعلم منهم، فالإسلاميون التحديثيون يعتقدون أن ضرورات الحياة العصرية تقتضى أن يتفاعل المسلم مع غيره ولسان حالهم الحديثان الموضوعان «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أولى بها» أو «اطلبوا العلم ولو فى الصين». والمحظور الوحيد على التبادل الثقافى مع غير المسلمين هو ألا يكون نتاج هذا التبادل ما يتعارض مع أصل من أصول العقيدة أو خلق كريم حض عليه الإسلام.

أما عن التبادل الثقافى بين المسلمين وغير المسلمين والتعلم منهم عند العلمانيين فهى مسألة خارج إطار الشريعة والدين، فالمسلم إنسان قبل أى اعتبار آخر. وتفاعله الإنسانى مع غير المسلمين من مقتضيات الحاجات البشرية والتفاعل الحضارى بين كافة الحضارات. كما أن أهم مؤشرات تكلس أى حضارة ومن ثم تراجعها هو توقفها عن التفاعل مع غيرها. فلا حرج من التعلم من غير المسلمين. وعند العلمانيين فإن تعلم أى شىء وكل شىء من غير المسلمين أفضل من الرجوع للوراء مئات السنين فى ظروف حياة مخالفة تماما للوقت الحاضر. فعند العلمانيين، من المنطقى والأفضل أن يتعلم المسلمون من فلاسفة وعلماء أمثال امرسون، جون لوك، فولتير، روسو وغيرهم من هم بدراية بمشاكل العصر الحاضر عن الرجوع إلى اجتهادات ابن تيمية وابن القيم والغزالى. فمشاكل العصر تقتضى التعلم من الغرب والشرق وليس العودة إلى السلف.

يرى العلمانيون أن الاختلاف بين العلماء فى القضايا الكبرى يعنى أن النص الدينى متجدد ومتنوع على نحو يجعل العقل البشرى هو الفيصل فيه وليس تغليب نص على نص أو الادعاء بنسخ نص لنص

٦) فى وضع المرأة من العمل العام كالخروج للتعليم والعمل فى مختلف الميادين يضع عليه التقليديون قيودا كثيرة تقرب إلى التحريم مستشهدين بآيات مثل «وقرن فى بيوتكن....» و«ليس الذكر كالأنثى» وما شابهها. ويقف الإسلاميون التحديثيون موقف المعارض لما انتهى إليه السلفيون بشأن وضع المرأة من العمل العام حيث يرى التحديثيون أن آيات القرآن الملزمة للمرأة بالجلوس فى البيت إنما كانت موجهة إلى نساء الرسول فقط وهى ليست ملزمة لباقى النساء، كما أن الاستدلال بأن « ليس الذكر كالأنثى» مردود لأنه قول منسوب إلى امرأة عمران وليس لله. كما أن آيات القوامة لم تنف عن المرأة دورها الاجتماعى بل والسياسى الذى تمثل فى أخذ البيعة ومشاركتهن فى المعارك. وقد ذكر ذلك البخارى فى فصل بعنوان: «فصل فى قتال النساء وقتالهن».

أما بشأن رؤية العلمانيين لحق المرأة فى العمل العام فقد قرر العلمانيون، اتساقا مع مواقفهم السابقة، النزعة نحو تنحية النصوص الدينية عن المسألة على أساس أن إعطاء المرأة حقها الكامل مسألة تخضع لتطور كل مجتمع السياسى والاقتصادى والاجتماعى وليس مسألة تقررها النصوص التى نزلت لعلاج مشكلات اجتماعية تاريخية لم تعد بالضرورة ذات اتصال بالواقع المعاش. كما أن المرأة أثبتت نجاحا ملحوظا فى مجالات عديدة تستحق منا الإشادة والتشجيع.

٧- وفيما يتعلق بقضية الديمقراطية، يرى السلفيون التقليديون فيها خروجا على صحيح الدين وعلى الممارسات الشرعية التى فعلها الرسول (ص) وصحابته. فالديمقراطية استبدال لإرادة الله بإرادة البشر مناقضة مبدأ الحاكمية لله، وهى تقوم على مبدأ الأغلبية وهو ما يتناقض مع نصوص القرآن من وجهة نظر السلفيين التقليديين حيث يقول الحق سبحانه: «وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله». ولا ننسى أن واحدة من أهم حجج أيمن الظواهرى ضد الإخوان المسلمين أنهم قبلوا دخول الانتخابات وعضوية البرلمانات التى لا تحكم بشرع الله. ولاشك أن تطورا كبيرا حدث فى الفكر الإسلامى على نحو جعل الإسلاميين التحديثيين يميزون أنفسهم عن السلفيين التقليديين، وعلى رأسهم الشيخ يوسف القرضاوى فى كتابه الشهير من «من فقه الدولة الإسلامية» والتى أعطى فيه للديمقراطية صك الغفران كى تكون التطبيق المعاصر لمبادئ الشورى والبيعة والرقابة على الحاكم. وقد كان الفكر الإسلامى سابقا على الفقه فى هذا المقام فكانت كتابات الإسلاميين التحديثيين مثل محمد سليم العوا، طارق البشرى، كمال أبو المجد، فهمى هويدى مؤشرا على أن تطورا يحدث فى فكر هؤلاء. وهو ما حدا بهم أن يعلنوا أن الديمقراطية مقدمة على تطبيق الشريعة ليس تقديم تفضيل وإنما تقديم ترتيب. ويبدو أن حزب الوسط الجديد يحاول أن يكون التطبيق الحركى لهذه المقولات.

وينقسم العلمانيون وفقا لموقفهم تجاه الديمقراطية والتعددية السياسية فى المجتمع إلى ليبراليين وأتوقراطيين. فالفريق الأول من العلمانيين يقبلون بالوجود الرسمى والشعبى لكافة التيارات السياسية والثقافية حتى تلك التى تختلف معهم فى التوجهات والمنطلقات مادام الجميع يقبل بالتعايش السلمى وشعارهم فى هذا أن الليبرالية الحقة تقبل كل فكر وتتعايش مع كل وجهة وتحترم حق الاختلاف. بيد أن فريقا آخر من العلمانيين له رؤية مختلفة تؤكد على الاستقرار والوحدة وتعلى من الانسجام وترفض التباينات والاختلافات الأيديولوجية والسياسية. وهذا الفريق الأخير يرى فى الاختلاف فرقة وفى التنوع خللا وفى التعدد خطرا. ومن هنا فهم يتبنون فكرة أن قمع الاختلاف ووجهات النظر

المعارضة له ما يبرره من أجل أهداف أسمى مثل تحقيق التنمية الاقتصادية أو قتال عدو خارجي أو تحقيق الاستقلال الوطني. وتتبنى كثير من النخب الحاكمة في بلدان الجنوب مثل هذا الموقف الفكري والسياسي. وينقسم السلفيون التقليديون أيضا إلى فريقين بحكم مدى استعدادهم لاستخدام العنف ضد المجتمع أو للخروج على الحاكم إلى فريقين. فهناك فريق يسير على نهج سيد قطب في كتابه الأشهر معالم في الطريق، وأبرز الأمثلة جماعات الجهاد والقاعدة، وأخرى لا تزال ترفض الديمقراطية وآلياتها باعتبارها بدعا، مثل جماعة أنصار السنة المحمدية التي لم تزل على كثير من مواقفها التي تبناها مؤسساها الشيخ محمد الفقي في عام ١٩٢٦ من تحريم المظاهرات والانتخابات والأحزاب باعتبارها بدعا، رغما عن أن بعض المحللين أشاروا إلى دعم من أنصارها لمرشحي الحزب الوطني كنوع من درء غضب ولي الأمر وليس دعما له لأن هدفها الأصلي ليس السياسة والحكم وإنما بناء المجتمع المسلم على حد تعبير بعض أنصارها.

ورغما عن أن التقسيم النظري السابق يبدو وكأنه يكشف أن «إصلاح الإسلام» يبدو مسألة فقهية وفكرية، فإن إدخال تعقيدات الواقع السياسي في مجتمع ما يكشف عن حقيقة أن الصورة أكثر تعقيدا وهو ما يمكن رصده في الجزء الثاني من هذه المقالة بالتطبيق على الحالة المصرية.

ثانيا: الانتقائية النصوصية وحرب المواقع في مصر:

استخدم الفيلسوف الماركسي جرامشي مصطلح حرب المواقع ليشير إلى النضال طويل الأمد من أجل الفوز بالعقول والقلوب من خلال آليات الكر والفر واعتبر أن هذه هي الأداة الأمثل كي تتمكن الاشتراكية من تحقيق إنجازات حقيقية في ظل بيئة معادية لها في المجتمعات الرأسمالية. وبالتطبيق على الحالة في المجتمعات المسلمة، فإن صاحب كل تيار فكري يحاول عندما يطرح خطابه بشأن «إصلاح» الإسلام أن يبني تحالفا وأن يحشد أتباعه، بين ترهيب وترغيب، من أجل الحصول على مواقع متقدمة في هذه الحرب. ويمكن رصد خطابات ستة تتصارع من أجل إعادة رسم الأدوار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية للإسلام في الحالة المصرية، وهو ما أعتقد صعوبة تعميمه إلا بحذر شديد على المجتمعات الأخرى ذات الأغلبية المسلمة الأخرى. والأصل في هذه الأدوار التي يلعبها الإسلام أنها نتيجة تفاعل النص الديني مع العقل البشري لتنتج ممارسات تتباين وفقا لاختيار العقل البشري للنص الديني الحاكم. وعلى هذا فإنه ليس من المستبعد أن تقوم دعاوى «الإصلاح» على مساحة من التفاعل بين الانتقائية النصوصية وفقا للمواءمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

فهناك أولا خطاب إسلامي شعائري. وهو خطاب يحصر الإسلام في الجوانب الشخصية دون أن يكون له دور في التقنين والفعل السياسي وهو نموذج الإسلام المحبوس في مساجد للعبادة ويكون دوره مقصورا على قضايا العقيدة والأخلاق وهو ما تمثله الحالة التونسية نموذجا. ويتبنى هذا الخطاب عادة العلمانيون اليساريون وكثير من الأقباط الذين يرون أن اكتمال علمانية الدولة وتمام الانسجام بين مكونات الجماعة الوطنية المصرية يقتضي إلغاء المادة الثانية من الدستور المصري: فانحسار الدور العام والسياسي للإسلام هو مقدمة بناء دولة علمانية حديثة على النمط الغربي.

وهناك ثانيا خطاب إسلامي شكلي يطرح الإسلام كنصوص رمزية ينص عليها في الدساتير وفي بعض القوانين من أجل إعطاء واجهة شكلية لنظام الحكم وهنا تسعى النخبة الحاكمة للاستفادة من الشرعية المرتبطة بالإسلام دون الالتزام بقيوده. وقد أعلن عبد الناصر عن احترامه للأزهر في حين أنه أطاح ببعض علمائه بل وباستقلاليته بحجة أنه يغلب عليه الفكر الرجعي لرفض قياداته تأميم الشركات الوطنية. وكذا نص الرئيس السادات في المادة الثانية من الدستور المصري على جعل الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع مع يقيننا جميعا أنه ما كان ليطبق الشريعة. ولم يزل يتبنى الحزب الحاكم في مصر هذا الاتجاه كوضع وسط بين مطالب العلمانيين والمسيحيين بإلغاء النص وحصر الإسلام في الجانب الشعائري ومطالب الإسلاميين بتفعيله.

وهذان الخطابان السابقان يعبران عن أهم خطابات التيار العلماني وفي مقابلهما توجد أربعة خطابات تعبر عن حتمية إدماج الإسلام في الحياة العامة بصورة أكبر.

فهناك ثالثا خطاب إسلامي ضاغط تتبناه جماعات منظمة أو حركات عفوية من أجل تحقيق مصالح قصيرة المدى مثل الخروج في مظاهرات من أجل منع تداول رواية أو كتاب أو للاحتجاج على قرار سياسي معين ويبدو هذا الخطاب الضاغط الأداة المثلى للطلاب في الجامعات حتى وإن لم يكن مقصورا عليهم فقد تلتقي رؤية المؤسسة الإسلامية الرسمية مثل الأزهر مع رؤية الجماعات الإسلامية من أجل تبني مثل هذا الخطاب ضاغطة في اتجاه بذاته. وهذا الدور الضاغط ليس الوضع الأمثل من وجهة نظر أي طرف. فهو الحد الأدنى من وجهة نظر الإسلاميين وهو معيب من وجهة نظر العلمانيين لأنه يحرك شبح «الدولة الدينية» كما أنه معيب من وجهة نظر الدولة لأنه يعني ضغوطا تمارس عليها وعليها أن تستجيب قمعا أو حوارا.

وهناك رابعا خطاب إسلامي تأسيسي دستوري يجعل من الإسلام إطارا مرجعيا فوق الصراعات السياسية مثلما تمثل الليبرالية إطارا تأسيسيا للحياة السياسية في النظم الغربية. وتكون نصوص الإسلام القطعية إطارا مرجعيا مثل إعلان الاستقلال الأمريكي أو الماجنا كارتا البريطانية والتي تشكل قواعد آمرة لا يجوز الاتفاق على مخالفتها. وهذا الخطاب يعني بالتبعية إنتاج أطر قانونية من قبيل المحكمة الدستورية العليا في الولايات المتحدة من أجل الرقابة على «إسلامية القوانين». ويقدم مثل هذا الطرح بعض المفكرين الإسلاميين مثل المستشار طارق البشري والدكتور محمد سليم العوا.

> **هناك خطاب إسلامي شكلي يطرح الإسلام كنصوص رمزية ينص عليها في الدساتير وفي بعض القوانين من أجل إعطاء واجهة شكلية لنظام الحكم**

وهناك خامسا خطاب إسلامي حزبي يقدم الطرح الإسلامي باعتباره بديلا من البدائل المتاحة أمام الناخبين بهدف تكوين الأغلبية في البرلمانات. ويكون جزءا من هذا الخطاب هو صياغة برنامج حزبي له جوانب اقتصادية واجتماعية وثقافية باعتبارهم يمثلون حلا أفضل من الحلول التي تطرحها الأحزاب القائمة. ويمثل حزب الوسط نسخة ليبرالية تعبر عن هذا الاتجاه كما تعبر عن حالة الإخوان المسلمين كما لو كانوا يتمتعون بثراء الخيال والتفكير غير النمطي والقدرة على قراءة المستقبل.

وهناك سادسا خطاب إسلامي ثوري انقلابي يهدف إلى نقض الوضع الراهن باعتباره خارجا على الإسلام كما فهمه السلف والقضاء على أي خطاب آخر باعتبار أن الإسلام ليس بديلا موضع اختيار (مثلما يقول الإسلام الحزبي) بين الناخبين أو موقفا فكريا يتبناه مثقفون. وهو الخطاب الذي تتبناه جماعة الجهاد ومعظم رموز الجماعة الإسلامية قبل المراجعات الأخيرة.

بيد أن الصورة السابقة ليست جامدة: فخطاب الإخوان المصنف في هذا المقال باعتباره حزبيا متنافسا يتحول إلى خطاب إسلامي ضاغط بالتحالف مع قوى محافظة أخرى في المجتمع من أجل تحقيق مكاسب جزئية طالما أنها غير قادرة على أن تصل إلى السلطة باعتبارها حزبا ذا مرجعية دينية. والأمر كذلك بالنسبة للعلمانيين والكثير من الأقباط الذين يتبنون من حيث الأصل الخطاب الشعائري الذي ينفي عن الإسلام أي دور سياسي ولكن لأنهم غير قادرين على حشد الطاقات السياسية من أجل تحقيق هذه النتيجة، فإنهم يقبلون بأقل الأضرار بدعم الخطاب الرسمي السائد والذي يتبنى خطابا إسلاميا شكليا.

إذن الحديث عن الإصلاح الديني ودور الإسلام في الحياة العامة ليس مسألة قيمية نصوصية فقط يقوم به فقهاء ومثقفون بمعزل عن صراعات المجتمع، وإنما هو موقف استراتيجي يتخذه كل فاعل سياسي وفقا لحساباته

الذاتية ومن ثم الفيصل فى القضية ليس صحة أو خطأ قراءة معينة وإنما هى مسألة تغليب قراءة على أخرى وفقا لتوازن القوى فى المجتمع. ولكن توازن القوى فى المجتمع هى التى تدفع لصعود خطاب على حساب آخر.

بيد أن هذه الخطابات الستة تبدو وكأنها جزء من صراع إسلامى علمانى مستمر منذ انهيار الخلافة العثمانية على نحو يجعلنا أمام مباراة صفرية لا ينتج عنها تطور إلى الأمام، عكس ما يذهب إليه الديالكتيك الهيجلى. فلا بد من تجاوز هذا الاستقطاب الإسلامى العلمانى لمواجهة أصل المشكلة. وأصل المشكلة أن مصر ليست فى حاجة إلى نظام علمانى استبدادى أو إسلامى سلفى تقليدى قدر ما هى بحاجة إلى نظام ليبرالى يحترم الإسلام وكافة الأديان ويصوب سهامه إلى أصل الاستبداد وجوهره دينيا كان أو علمانيا. ومن هنا يكون الإصلاح الحقيقى هو فى وجود إسلام ليبرالى.

هل من إسلام ليبرالى؟

إن بنية العلاقة بين الدولة والمجتمع فى مصر، مع تعميم مقبول على معظم المجتمعات العربية، تقوم على منطق «مستبد... لكن»، والمقصود بهذه العبارة أن السلطة الحاكمة فى مصر طوال تاريخها، مع استثناءات قليلة مثل فترة ما بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢، كانت تخلق شرعية وجودها ليس على أساس شرعية الانتخاب وإنما على أساس شرعية الضرورة. فالحاكم مستبد، نعم، لكنه بطل الثورة، و/أو بطل الاستقلال و/أو بطل القومية العربية و/أو نصير الفقراء و/أو بطل الحرب والسلام وكلها كما يبدو حجج «علمانية» لا يتدخل فيها الدين، ولنا فى هتلر وصدام حسين وعشرات المستبدين العلمانيين أمثلة من الواقع تؤكد أن العلمانية لم تكن كافية لدحض الاستبداد. كما يمكن أن يساهم الاتجار بالدين فى صيانة الاستبداد، فتاريخنا يحمل الكثير من المقولات والفتاوى والمواقف الفكرية التى تعتبر أن الاستبداد، وإن كان خطأ، لكنه ليس خطيئة، أى ليس من الكبائر وإنما من اللمم. بل وجدنا بين الفقهاء والعلماء من يقول: «حكم غشوم أفضل من فتنة تدوم»، و«ستون سنة فى ظل حاكم ظالم خير من ليلة بلا حاكم»، بل هناك من بالغ فى الاستدلال من بعض الحديث التى رفضت الخروج على الحاكم «ما أقام الصلاة فيكم». وقد ألتمس العذر لمنطق أصحاب مثل هذه المقولات حين قالوها لكنه من السفه أن نظل نحكم حتى اليوم بمثل هذا المنطق الذى يدعم الاستقرار المصحوب بالاستبداد وكأننا أمام بديلين إما الفوضى الشاملة أو استبداد مفضى إلى استقرار. إن هذا المنطق، سواء اتشح برداء الإسلام أو بعباءة اللاهوت الكنسى فى القرون الوسطى أو باعتبارات علمانية بعيدة عن الدين، يشكل طريقة من التفكير لا بد أن تنتهى. ومن هنا فقد قلت فى أكثر من موضع أن الإسلام شدد النقض على الاستبداد وجعله قرين الفساد لكن المسلمين عجزوا عن أن يطوروا نظريات ثلاث: نظرية فى المعارضة السلمية، ونظرية فى المشاركة السياسية، ونظرية فى التداول السلمى للسلطة، ونظرية فى تعدد مراكز صنع القرار السياسى (أى تفعيل الشورى ومؤسساتها).

فجوهر التحدى هو مقاومة الاستبداد. فلا بد أن يكون الحاكم «صاحب رأى» وليس «صاحب الرأى» كما أوضح الدكتور زكى نجيب محمود. وهو ما يقتضى أن نطرح هذه التساؤل: هل العلمانية شرط ضرورى وكاف لليبرالية؟

الإجابة عندى لا. وقبل أن أخوض فى الأسباب أوضح ابتداء معنى المصطلحين. فالعلمانية تعنى الفصل المؤسسى بين دور العبادة ورجالها وبين مراكز صنع القرار والقائمين عليها والتأكيد على الفصل المؤسسى له ما يبرره. فيمكن أن يكون صانع القرار فى البرلمان أو فى قمة السلطة التنفيذية متدينا لكن هذا لا يعنى أنه يملك الحق فى اتخاذ قرارات أو سن تشريعات على أسس دينية بغض النظر عن القواعد المؤسسية المدنية والدستورية المتعارف عليها فى الدول الديمقراطية.

الحديث عن الإصلاح الدينى ودور الإسلام فى الحياة العامة ليس مسألة قيمية نصوصية فقط، وإنما هو موقف استراتيجى يتخذه كل فاعل سياسى وفقا لحساباته الذاتية

أما الليبرالية فهى نظرية للمجتمع والدولة تعلى من شأن حقوق الأفراد وحرياتهم على قدم المساواة مع وضع التنظيم القانونى والسياسى الذى يضمن مثل هذه الحقوق. وتشير التجارب المختلفة فى العالم إلى أن أفضل نظام حكم يوفر الإطار التنظيمى لليبرالية هو الديمقراطية. ومن هنا أصبح تعبير «الديمقراطية الليبرالية» شائعا لدرجة أن ظن البعض أنهما قرينان بحكم النشأة وهو ما لا يتفق مع الواقع. فالديمقراطية، منذ نشأتها فى أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد، نظام حكم يقوم على المشاركة الشعبية وفقا لقواعد الأغلبية والتوازن بين السلطات وتداول السلطة بيد أن بعض النظم الديمقراطية كانت غير ليبرالية بحكم استبعادها لفئات من المجتمع على أساس النوع مثل استبعاد النساء من الحياة السياسية فى الولايات المتحدة حتى عام ١٩٢٠ وفى سويسرا حتى عام ١٩٧١ رغما عن الالتزام بالإجراءات الشكلية لصنع القرار الديمقراطى. كما حدث أن تم استبعاد فئات من المشاركة السياسية على أساس العرق مثل استبعاد السود فى جنوب إفريقيا تحت الحكم العنصرى وكذلك استبعاد الأقليات من المشاركة فى الحياة السياسية فى الولايات المتحدة حتى منتصف الستينيات من العقد الماضى. أما الليبرالية فهى أحدث كثيرا من الديمقراطية بصفتها تلك. ويمكن أن تنسب إلى منتصف القرن التاسع عشر حين ألف جون ستيوارت ميل كتابه الشهير (On Liberty) والذى أعطى فيه الحق لكل الأفراد، رجالا ونساء، أحرارا وعبيدا، أغنياء وفقراء، الحق فى الاعتقاد وفى التعبير وفى المشاركة السياسية. كما أن كتابه عن مبادئ الاقتصاد السياسى هى التى أوحت للدولة بأن تتدخل فى عملية توزيع عوائد الإنتاج بما يضمن عدالته وبما يضمن عدم إساءة استغلال العمال وذلك من خلال فرض حد أقصى من ساعات العمل وحد أدنى من الأجر، وإعانات البطالة والضرائب المتصاعدة واضعا بذلك أساس ما يسمى بدولة الرفاه فى الغرب. ومن هنا فإن فضل الليبرالية على الديمقراطية أن جعلت عوائد الديمقراطية أشمل. وفضل الليبرالية على الرأسمالية أن ألحقت بها دولة الرفاه حتى يستفيد الجميع من منجزات المشروع الخاص والإبداع الشخصى. ومن هنا فإن قضية العدالة الاجتماعية، أصبحت، بفضل الليبرالية، واحدة من القيم الغربية الأساسية.

وللمسلمين أن يفخروا أن دينهم كان سباقا فى الأخذ بمعظم هذه القيم التى وصلت إليها الليبرالية فى منتصف القرن التاسع عشر. فإن كان جوهر الليبرالية هو الارتقاء بشأن الإنسان من حيث كونه إنسانا فقد نص القرآن صراحة على تكريم الله لبنى آدم، بغض النظر عن الدين والعرق والنوع. وكان هناك من ممارسات المسلمين الأوائل، عملا بهدى الرسول الكريم (ص) ما يؤكد أن فى الإسلام من الأصول ما يجعله غير بعيد عن الليبرالية كما فهمها وطبقها الغرب المعاصر. بيد أن المشكلة التى واجهت المجتمع المسلم أن الإطار التنظيمى اللازم لحماية هذا التكريم قد أصابه الكثير من العوار الذى لم نزل نشهده حتى الآن. فكانت الممارسة مضطربة فى احترام هذه القيم لغياب الأطر التنظيمية والمؤسسية الملزمة للحاكم والمراقبة لسلوكه.

إن جوهر الاستبداد، بالذات فى صيغته المستندة إلى الدين، أن الله أعطى الحاكم حقوقا وأوجب طاعته على الناس، وعليه أن يرضى الله فى الحكم. ولو خرج الناس عليه فإنها الفتنة. وهى صيغة غير ليبرالية بكل وضوح لأن الصيغة الليبرالية تقوم على العكس: فالله قد أعطى الحقوق للإنسان بحكم كونه إنسانا ومن ضمن هذه الحقوق حقه فى أن يختار حاكمه وأن يقيله. فالحاكم ليس قدرا وليس قضاء وإنما هو بديل ضمن بدائل واختيار ضمن اختيارات.

ومن أسف، فقد تعامل معظم حكام العرب مع رعيتهم وكأنهم أرباب مع عبيدهم. ويحضرنى قول الحق سبحانه: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض، ولكن ينزل بقدر ما يشاء، إنه بعباده خبير بصير» حينما أرى الممانعة التى يتصرف بها الكثير من الحكام العرب حينما يتبنون منطق: «ولو بسط الحاكم الحقوق لرعيته لبغوا فى الأرض». فيوم أن رفض مجلس قيادة الثورة حقوق العمال المتظاهرين فى كفر الدوار لدرجة القتل والإعدام ثم إعطائهم كل هذه الحقوق وأكثر فى القوانين والدساتير

كتاب الزاوية

من يستفيد من علم المرأة؟

طلعت حرب

إن عالمات العالم المتمدن يعددن جانيات فى نظر علماء العمران لابتعادهن عن الوظيفة الحيوية التى خلقهن لها الخالق عز وجل. فقد ثبت بالإحصاء أن المرأة العالمة لا تتزوج قبل أن تبلغ سنها الخامسة والأربعين كما روته مجلة المجلات الفرنسية. فقل لى بأبيك ماذا ينتظر منها من النسل بعد هذه السن وهل يستفيد الوطن من أبحاثها فى علم الطبيعة أو السياسة أو التشريع مثلاً بقدر ما يخسره من حرمانها إياه من ذريتها التى ربما نبغ فيها فيلسوف مثل جول سيمون أو طبيعى مثل هكسلى أو عمرانى مثل سبنسر ممن يفيدون الإنسانية فوائد حقيقية؟

هذه الحالة يشكو منها الغربيون أنفسهم ويعدونها تداخلاً من المرأة فى غير شأنها واشتغالاً بغير ما هو مطلوب منها، مما يبعد بها عن لوازم جنسها وقد لاحظ ذلك الفيلسوف جول سيمون فقال ما معناه إنى لا أسر إذا كانت امرأتى دكتورة، فإنى أود أن تكون المرأة امرأة، وما ذلك إلا لعلمه أنها بدكتوريتها فى التشريع مثلاً لا تستطيع أن تجمع بين دقائق القوانين ودقائق علم التربية الذى يطلب منها ويعتمد فيه عليها.

يظهر لنا من كل ما تقدم وليس بعد الحس دليل أن المرأة أضعف من الرجل جسمًا وإدراكًا. أما جسمًا فلكونها عرضة للوازم الأنوثة وهى كما أثبتنا أمراض تهد القوى وتضعف البنية بشهادة الأطباء. وأما إدراكًا فلكونها بحكم وظيفتها من تدبير المنزل وتربية أطفالها والتحفظ عليهم غير معرضة مثل الرجل لمناشئ تنمية القوة الإدراكية فتكون النتيجة اللازمة لكل هذه المقومات أن المرأة لا تساوى الرجل فى كل حيثية.

اللاحقة، كان يقول للعمال وللجميع: «أنا الحاكم، أنا أعطيكم ما أراه من حقوقكم حتى لا تبغوا فى الأرض». وهو نفس منطق «الجرعة جرعة» و«عدم الاستجابة للى الذراع» التى قال بها آخرون. وهو منطق غير ليبرالى، بل وأقول، غير إنسانى على الإطلاق.

إن الإسلام كما الليبرالية كما الديمقراطية يقفون ضد الاستبداد ويعلون من شأن الإنسان، حقوقه وحرياته. وقد تجسد موقف الإسلام التحديثى حينما وجه الشيخ محمد الغزالى أسهم النقد الشديد للدستور الذى وضعه تقى الدين النبهانى، مؤسس حزب التحرير والذى يدعو إلى استعادة الخلافة على أسس أقرب إلى نمط الحكم القائم على البيعة وأهل الحل والعقد والشورى المعلمة وليست الملزمة..إلخ. ومدح الشيخ محمد الغزالى دستور ١٩٢٣ المأخوذ عن الدستور البلجيكى على حد تعبيره رغما عن أنه لم يكن مليئا بالآيات والأحاديث مثلما كان الحال فى دستور النبهانى. وكان تعليق الشيخ الغزالى أن الدستور البلجيكى أقرب إلى روح الإسلام وجوهره من مقاومة الحاكم المستبد ورقابته من الدستور الذى يبدو، شكلا، إسلاميا؛ لكنه فى جوهره يتناقض مع روح الإسلام. وأقول يتناقض مع روح الديمقراطية والليبرالية أيضا.

إننا بحاجة إلى إعادة طرح المسألة وأن نتخلص من عقلية «مستبد ... لكن» سواء كانت المبررات دينية أو علمانية. ولكن هل يعنى ذلك أن العلمانية مقدمة ضرورية لليبرالية؟ الإجابة عندى بالنفى. وفى الأمر تفصيل.

فهناك ثلاثة مجالات تتصل بشكل مباشر بعلاقة الدين بالفرد والمجتمع والدولة، أى علاقة الدين بالمجال الخاص والمجال العام والمجال التشريعى على الترتيب. فهناك أولا المجال الخاص الذى يمارس فيه الإنسان حريته فى التفكير والاعتقاد والعبادة. وأى قراءة عاقلة للدين، أى دين بما فى ذلك الإسلام، تحفظ لهذا المجال قدسيته بحيث لا تتدخل فيه مؤسسات وعلماء الدين إلا بالتوجيه العام ومن هنا ذهب بعض علماء المسلمين مثل إبراهيم النخعى وسفيان الثورى إلى أن المرتد عن الإسلام، طالما أنه لا يبتغى بارتداده إثارة فتنة أو بلبلة الآخرين، يستتاب أبدا: أى يظل جزءا من المجتمع مع نصحه بأن يتوب وأن يعود إلى أصل دينه دون أن يخضع مباشرة للحديث الشائع: «من بدل دينه فاقتلوه». ومن هنا فإن الإسلام فى هذا المجال الخاص لا يبدو متناقضا مع الليبرالية أو حتى العلمانية التى تدعم حق الإنسان التام فى السيطرة على مجاله الخاص.

أما المجال العام، ثانيا، فهو أكثر التباسا حيث إنه تتنازعه عدة قراءات. فهناك قراءة علمانية ترى أن الأصل فى المجال العام أنه مدنى أى لا ينبغى أن يعكس ديانة دون أخرى فلا ينبغى أن يضطر المسلم أن يرى صليبا مثلا فى أحد الميادين العامة أو أن يضطر لأن يقسم قسما لا يتفق مع عقيدته. والأمر بالنسبة للتراث الإسلامى شديد الالتباس. فهناك من يعود إلى تاريخ المسلمين الأوائل فى بعض ممارساتهم التى لا تتفق مع احترام «مدنية» المجال العام بحكم أن غير المسلم كان عليه أن يرتدى ملابس تميزه وأن عليه أن يوسع للمسلمين فى الطرقات وألا يرفعوا أصوات كنائسهم بما يؤذى المسلمين كما جاء فى العهدة العمرية الشهيرة. بيد أن هذه القراءة تتناقض مع نصوص وممارسات أخرى فعلها المسلمون الأوائل على أساس احترام «مدنية» المجال العام واحترام حق كل ذى ديانة فى أن يدير شئونه الشخصية على النحو الذى يتفق مع عقيدته مثل قواعد وطقوس الزواج والطلاق والميراث. وفى الحالة المصرية فى مرحلة ما بعد ثورة ١٩١٩ تحديدا حتى ما قبل السبعينيات كان المجال العام المصرى محايدا بما حمى الوحدة الوطنية بل وعظم من دورها. فالمصريون، بغض النظر عن الدين، كانوا يلتزمون بنفس المعايير الأخلاقية العامة فى الحكم على الأشياء؛ فالحلال والحرام كانا متسقين بغض النظر عن الديانة لأن المجال العام كان يستوعب الجميع بغض النظر عن العقيدة. أما الاختلافات اللاهوتية فكانت جزءا من المجال الخاص لكل شخص.

والخطر الحقيقى يبدأ عندما تزعم أى طائفة حقا لها فى أن تشرع لكل المجتمع باسم الدين، وهو المجال الثالث المشار إليه، وفى حدود تفسيرها الضيق لبعض نصوصه غير عابئة بحقوق الأفراد من الديانات الأخرى أو من داخل نفس الدين فى أن يكون لهم مجالهم الخاص ومجالهم العام المدنى الذى يتحركون فيه. وهنا يكون الدين قد تحول إلى أداة قمع لا تحكم فقط المجالين الخاص والعام ولكن السياسة والحكم والتشريع أيضا. ومن هنا تأتى أهمية

الليبرالية، وليس العلمانية. حيث إنها تضع قيودا على الاستبداد باسم الدين والاتجار به، كما ترفض أن يكون البديل عن الاستبداد باسم الدين، استبدادا بغيره. فالليبرالية متصالحة مع الدين تحترمه وتضعه فى مكانه اللائق به سواء على المستوى الفردى أو كإطار عام لحياة الناس فى مجتمعهم دون أن يسمح للسلطة بالتعسف فى استخدامه. أما العلمانية فقد شهدت صيغا ثلاث لم تكن كلها ليبرالية، وإن كانت كلها تجعل الدين ومؤسساته ورجاله محور اهتمامها.

فهناك علمانية «الحرية ضد الدين» (freedom against religion) وهى الصيغة السوفيتية ومعها التركية الكمالية حيث ترى النخبة القابضة على الدولة أن الدين فى ذاته خطر وأن التدين مؤشر تخلف. وهى صيغة متراجعة تاريخيا لأنها بذاتها تتناقض مع حق الأفراد فى أن يكون لهم مجالهم الخاص والعام الذى لا تتدخل فيه الدولة. فالدولة استغلت اختصاصها التشريعى واحتكارها للعنف كى تقبض على هذين المجالين. فالفرد بهذا ما مارس حقه الطبيعى فى الاعتقاد والتدين وما كانت الدولة حامية لمثل هذا الحق باعتبارها المنتهكة الأولى له.

وهناك، ثانيا، علمانية «الحرية من الدين» (freedom from religion) وهى صيغة علمانية تخشى من أن الدين لا يمكن أن يظل بعيدا عن المجال العام وبالتالى لا بد أن تتدخل الدولة من آن لآخر كى تضمن أن يلازم الدين مجاله الخاص. وعادة ما يكون هدف مثل هذه السياسات هو دمج الجميع فى بوتقة العلمانية. ومصطلح الدمج فى هذا المقام مصطلح تقنى له سياساته فى مجالات التعليم والإعلام والثقافة العامة. ومن هنا كان القانون الفرنسى بمنع ارتداء الفتيات والطلاب للرموز الدينية داخل المدارس العامة وكذا حكم المحكمة الألمانية العليا بعدم دستورية أن ترتدى المدرسة أى زى دينى مثل الحجاب فى المدارس العامة وكذا قرارات مماثلة فى تركيا الحالية. وبطبيعة الحال، علمانية «الحرية من الدين» أقل استعدادا لانتهاك المجال الخاص للأفراد من علمانية «الحرية ضد الدين». فعلمانية «الحرية من الدين» لا تزال ملتزمة بالسياق الليبرالى العام لكنها ترى أن الليبرالية مهددة بخروج الدين عن سياقه الأصيل وهو تنظيم العلاقة الإنسانية الربانية بين الفرد وخالقه.

وهناك، ثالثا، علمانية «حرية الدين» (freedom of religion) وهى النموذج الليبرالى الأصيل كما هو فى الصيغة البريطانية والأمريكية والكندية والأسترالية حيث تحترم الدولة المجالين الخاص والعام تماما بضابطين اثنين وهما ألا تحابى الدولة دينا على حساب دين آخر ولا تسمح الدولة بأن يكره المجال العام شخصا على الشعور بالحرج من التعبير عن رموزه الدينية أو تبنى دين دون آخر. فالدولة تتدخل بالتشريع لحماية حقوق الأفراد ولا ترى أن عليها مسئولية فى دمج أبناء الديانات فى المجتمع بإجبارهم على التخلى عن رموزهم ومعتقداتهم ولكنها تهدف إلى التعايش بينهم.

وهنا يكون السؤال المطروح على المجتمعات العربية، هل من الممكن أن نصل إلى الصيغة الثالثة، علمانية حرية الدين، دون أن نمر بصيغة العلمانية المفروضة قسرا من أعلى على النمطين التركى والتونسى أو أن تكون لنا خبرة المجتمعات الغربية فى حروب دينية يتعلم منها الجميع أنه كلما خرج الدين من الإطار الخاص إلى العام ثم إلى التشريعى فإنه يخلق تحديات أكثر مما يوفر فرصا. وكلا الطريقين دموى؟ أعتقد أن فرصة التعديلات الدستورية الحالية تتيح لنا إمكانية النقاش حول كيفية تحقيق هذه الصيغة الليبرالية التى تحترم الإسلام وتأخذ من العلمانية أفضل صيغة لها. ■

جوهر التحدى هو مقاومة الاستبداد، فلا بد أن يكون الحاكم «صاحب رأى» وليس «صاحب الرأى» وهو ما يقتضى أن نطرح هذا التساؤل: هل العلمانية شرط ضرورى وكاف لليبرالية؟

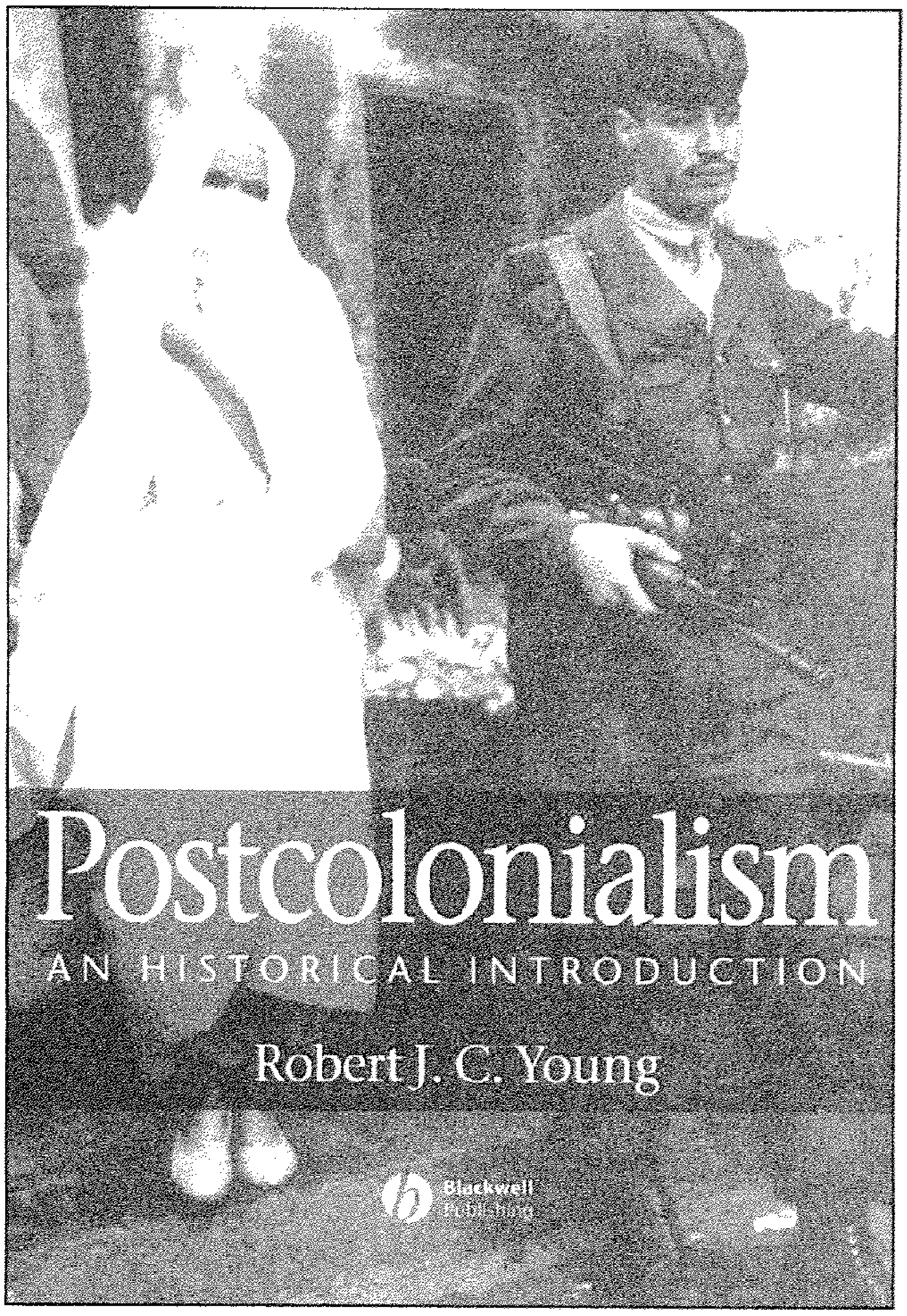
كتاب الزاوية

المرأة تصلح لوظائف الرجال

قاسم أمين

دلت التربية الجديدة التى منحها نساء أوروبا من نحو قرن على أن المرأة ليست تلك الآلة البسيطة التى وقفها أولئك الأسلاف الغافلون على التناسل، فبمجرد ما حل العقل محل القوة وحلت الحرية محل الاستبداد، رأى العالم أن فى المرأة أسرارًا لم تعرفها الجاهلية الأولى، وأنها تصلح لوظائف سامية مثل التى يصلح لها الرجال، وأن انحطاطها كان عارضًا لا طبيعيًا، فلما استيقظت من نومها واستنار عقلها واستقامت ملكاتها، وتحلت نفسها بالفكر والعلم، ومرنت قواها على العمل، صعدت من العقل إلى درجة، وذهبت فى رقة الشعور إلى غاية لم تكن تخطر فى خيال أحد من أهل تلك العصور الخالية، وهى إلى الآن كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها.

كل مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن، لا يشك فى أنهن يأتين من الأعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه، لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة، ولا علم من العلوم، ولا فن من الفنون إلا والمرأة عاملة فيه مع الرجل كتفًا لكتف، ولا يوجد عمل خيرى إلا وهى فى أول العاملين فيه، ولا تقع حادثة سياسية إلا وللمرأة نصيب فيها، وليس بين الجنسين فرق إلا أن المرأة لم تنل الحقوق السياسية، فإذا منحتها كما هو المنتظر فى بلاد أوروبا تمت المساواة بينهما.



رغبات إمبراطورية

نقف الآن على مفترق فكرى تاريخى مهم يذكرنى، وإن كان بصورة عكسية، بزمن إنشاء المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى والذى كان أيضا زمن الحركات التحررية

سحر صبحى عبدالحكيم

■■ سأتناول فى هذا المقال كتابات اثنين من الكتاب الإنجليز المعنيين بالتنظير للعلاقات الثقافية الدولية واللذين يمثلان تيارين مختلفين، بل ومتضادان، برغم انتمائهما إلى ثقافة واحدة. يرصد المقال الأطروحات المقدمة لإعادة تشكيل العالم فى السنوات الفاتحة لهذا القرن والتغيرات التى طرأت عليها فى السنوات القلائل التى تلتها وهذا بغية متابعة بعض التحركات المنهجية فى مجال دراسات ما بعد الاستعمار.

المملكة المتحدة، ٢٠٠١

• فى عام ٢٠٠١ ظهرت فى بريطانيا دراسة عن النظريات التحررية التى ابتدعت فى العالم الثالث حيث شكلت هذه النظريات والتوجهات موضوع كتاب ما بعد الاستعمار: مقدمة تاريخية للبريطانى المعاصر روبرت يانج. يتناول الكتاب تاريخ مقاومة الاستعمار الأوروبى والتى وصلت أوجها فى أواسط القرن العشرين وأدت إلى استقلال الأغلبية الساحقة من بلاد العالم وانحسار ظاهرة الاستعمار الأوروبى، كما يؤرخ للعمل الحالى ضد الإمبريالية. ومختصر طرحه هو أن التاريخ النظرى للمقاومة مستقى من مصدر واحد ولكنه بارتحاله ونزوله على ثقافات مختلفة فى الجنوب، وبسبب تدخل عشرات الأقلام والكُتاب فى صياغته، تغير وتشكل وفقاً للرؤى الشخصية والظروف الثقافية والسياسية والاجتماعية فى البقاع التى زارها وبذلك تعددت مناحيه وأطروحاته. أى أن الكاتب يصوغ المقاومة كنظرية واحدة متعددة، كما أنه يربط بين المقاومة ودراسات ما بعد الاستعمار: فالأخيرة هى المقاومة بعد انتقالها إلى زمن جديد، ما يفسر عنوان الكتاب. بذلك يضيف يانج أعماقاً زمنية إلى تاريخ ما بعد الاستعمار كما يرده إلى مصدر نظرى مختلف عن نظريات إدوارد سعيد وميشيل فوكو وجياترى سبيفاك وغيرهم وإن كان يضمنهم هذا التاريخ أيضاً.

فى قراءة يانج لتاريخ ما بعد الاستعمار أو المقاومة، تلعب النظرية الماركسية دور الملهم الأساسى لكل الحركات التحررية التى عرفها العالم الحديث. فهو يؤكد وجود صلة تاريخية وثيقة بين الاثنين. ولكن ماركسية يانج تختلف عن «الماركسية الكلاسيكية» رغم ارتباطهما. فالماركسية فى انتقالها فقدت بعض مفاهيمها وأضيفت إليها مفاهيم أخرى لتلائم الظروف التاريخية والجغرافية التى حارب منها المقاومون وتمشياً مع السياسات التى قاموا ضدها. يانج إذن ينظر لوجود تعدد داخل إطار النظرية الماركسية ذاتها وهو يعيد كتابتها من صيغة المفرد إلى الجمع: ماركسيات. كما أن فى ذلك ضما لكل صور المقاومة حتى نهاية القرن العشرين أى بما فى ذلك إسهامات نظرية الاستشراق وما بعد الاستعمار، تحت عباءة الماركسية أو الماركسيات. ويرى يانج أن الأساس الذى يجمع الماركسية والفكر المقاوم هو اشتراك الهدف؛ فالمسعى فى كل الأحوال هو تحقيق العدالة الإنسانية.

بخروجه من الانحصار الجغرافى للماركسية فى أوروبا يحقق يانج أكثر من هدف. فهو، أولاً، يعود بنا إلى عالمية الدعوة كما نظر لها ماركس وإنجلز. وثانياً، يحل إشكالية التمثيل بخلع حق الغرب فى تمثيل الشرقيين نظراً لصلاحيتهم وأهليتهم للصوت والتى تظهر فى الميراث النظرى الذى أبدعوه. وثالثاً، يحل ديالكتيك الشرق ـ الغرب بالخروج بهما معاً إلى مساحة جامعة، ماحياً الحدود الفاصلة بينهما من حيث مساهمتهما النظرية ووحدة الهم والهدف. أما إسهامه الرابع فى مجال التعامل مع الإشكاليات النظرية فيتمثل فى الخروج من تمركز دراسات ما بعد الاستعمار الزمنى حول فترة الاستعمار الأوروبى والتى قلما يتم تجاوزها للتعامل مع الأوضاع الراهنة والناتجة عن التجربة الاستعمارية، أو التحول من الاستعمار كاحتلال أرضى إلى الهيمنة الاقتصادية من قوة جديدة. فبهذا الخروج والانفتاح على الماضى يضيف يانج حلولاً نظرية ورؤى ابتدعت فى ظروف زمنية ومكانية وتاريخية مختلفة تمثل نهلاً يمكن الرجوع إليه والنقل عنه. فمده لتاريخ دراسات ما بعد الاستعمار يضفى غزارة ومرونة على نظريات المقاومة.

Postcolonialism
An Historical Introduction
(ما بعد الكولينيالية.. مقدمة تاريخية)
Robert j. young
Blackwell Pubishing, 498pp., 2003

Empire: The Rise and Demise of the British world order and the lessons for global power
(الإمبراطورية.. صعود وأفول النظام العالمي البريطاني ودروس للقوة العالمية)
Niall Ferguson
BlackBooks, 351pp., 2002

يرى الماركسيون أن ما بعد الاستعماريين تحولوا إلى مساندين وداعمين للإمبريالية العالمية بسبب خروجهم على مفهوم ماركس للمادية التاريخية وابتعادهم عن التحليل الاقتصادي للتاريخ

النص يمثل محاولة ما بعد بنيوية لحل العلاقة الديالكتيكية بين الماركسية وما بعد الاستعمار. فقد اشتد السجال بين ما بعد الاستعماريين والماركسيين وأخذت كل مجموعة تهاجم الأخرى منتصرة لنظرياتها. فيرى الماركسيون مثلاً أن ما بعد الاستعماريين تحولوا إلى مساندين وداعمين للإمبريالية العالمية بسبب خروجهم على مفهوم ماركس للمادية التاريخية وابتعادهم عن التحليل الاقتصادى للتاريخ وركونهم إلى تحليل النصوص فى قراءات تغلب فيها الثقافة على الاقتصاد، وإعادة صياغتهم الرؤية للزمن من الخطية الحديثة إلى الكتلة بما لا يسمح بالتنظير المستقبلى، وفتح مسارات ارتقائية. كما يتهمونهم بتفنيد الحلول دون طرح بدائل وبالتالى الإبقاء على الأوضاع كما هى مع خلق انطباع زائف بالتحرك لا يتعدى كونه لغواً. وفى المقابل، يتهم ما بعد الاستعماريين الماركسيين بالمركزية الأوروبية وشمولية الفكر واعتماد السرديات الكبرى بما يعوق التعامل مع مشاكلهم والتى لا تقتصر على الاستغلال المادى بل تقترن بها سياسات تميزية أخرى.

وطرح يانج لا يقتصر على تنشيط الماركسية فحسب، أو إضفاء الشرعية على دراسات ما بعد الاستعمار فى الدوائر اليسارية، أو الزج بتاريخ ما بعد الاستعمار (موضوع كتابه) إلى أعماق زمنية أبعد وبالتالى توفير مادة نظرية أغزر يمكن الرجوع إليها وإعادة تطويعها، وإنما يهدف أيضاً إلى توسيع المجال الجغرافى للمقاومة وتأكيد تكاتف وتفاعل حركات التحرر فى كل أرجاء العالم خاصة فى فترة مناهضة الاستعمار وبالتالى التنظير للمقاومة بوصفها طرحا عالميا. والنص يتناول همّ الكاتب الأكبر والذى يمكن اعتباره مشروع حياته وهو مشروع لامركزة الغرب. ولكن إصرار الكاتب على رد كل هذه الحركات إلى أصل نظرى واحد، خلق شيئاً من التخلخل الجغرافى للنظرية الماركسية ذاتها فى النص؛ فهى تارة شرقية وتارة أخرى غربية ما يُظهر بعض الفجوات فى النسيج النصى وينبه إلى المكبوت الجغرافى.

فى عودته إلى ماركس، يقرر ما بعد البنيوى روبرت يانج أن المقاومة قائمة على ديالكتيك الطبقة، متغافلاً فى ذلك عن التعريفات المختلفة لطرفى العلاقة الديالكتيكية كما وردت فى كتابات الماركسيين والتحرريين. فمن المعلوم مثلاً، أن لينين عرفها على أنها علاقة بين أمم قاهرة/ مقهورة، بينما اتجه مناهضو الاستعمار مثل ألبرت ممى وفرانز فانون وغيرهم إلى التنظير للمستعمِر/ المستعمَر. ويانج لا يعيدنا إلى «اتحاد عمال العالم» نصرة للماركسية فحسب وإنما بذلك يرمى إلى التنظير لحركة عالمية تتمحور حول الاقتصاد كما تتخطى القسمة الجغرافية للعالم إلى شرق وغرب. ويقول الكاتب أن هذه القسمة الطبقية «كثيراً ما أُهملت بسبب افتراض تبسيطى بأن «الغرب» وكل من يعيش فيه (بما فى ذلك مهاجرون أصبحوا نقاداً فى حركة ما بعد الاستعمار) أعوان للرأسمالية، بينما كل ما يقع ومن يعيش خارج الغرب (بما فى ذلك النخبة الغنية المرتبطة بالاستعمار الجديد) ليسوا كذلك». أى أن يانج يبرر عودته إلى ديالكتيك الطبقة برغبته الخروج من ديالكتيك الجغرافيا المبسط. ويدعم رأيه هذا بنفى المسئولية عن الاستعمار عن فقراء أوروبا وأقلياتها ويبرره بقوله أن أوروبا غير ديموقراطية. فهو يقول بأن النظم الأوروبية السالفة والحالية ليست نظماً ديمقراطية حيث لم تتمتع الأقليات فيها بحق الانتخاب فى السابق كما أن بعض مقاعد مجلس اللوردات البريطانى مازالت تتوارث حتى اليوم.

وهو فى ذلك يستثنى الولايات المتحدة حيث يصفها أنها «الحكومة الديموقراطية الوحيدة التى شاركت فى التوسع الاستعمارى». وإذا تركنا الحقائق التاريخية جانباً وقرأنا هذا الطرح من منظور نظرى بحت، نرى أن استثناء فقراء الولايات المتحدة من تعريف «العمال» يزج بهم إلى تعريف «رأسماليين» فى القسمة الجامدة وفى هذا خروج واضح على منهج ماركس كما أنه غير منصف ولا مجدٍ. فبذلك الطرح يحرك يانج الحدود بين الشرق والغرب ليعيد رسمها حول الولايات المتحدة قاسماً بينها وبين بقية العالم وبذلك نبقى فى «الجغرافيا المتخيلة». ولا أدرى كيف غاب عن الناقد ما بعد الاستعمارى أن أغلب نقاد ما بعد الاستعمار الذين يشير إليهم ليظهر التداخل بين ثقافات وجنسيات العالم، لا يعيشون فى أوروبا وإنما فى الولايات المتحدة. فإلى أى مدى تقع عليهم مسئولية الاستعمار الجديد؟ كذلك، كيف يمكن التغافل عن أن معظم التحررين كانوا من الطبقة الميسورة فى بلادهم؟

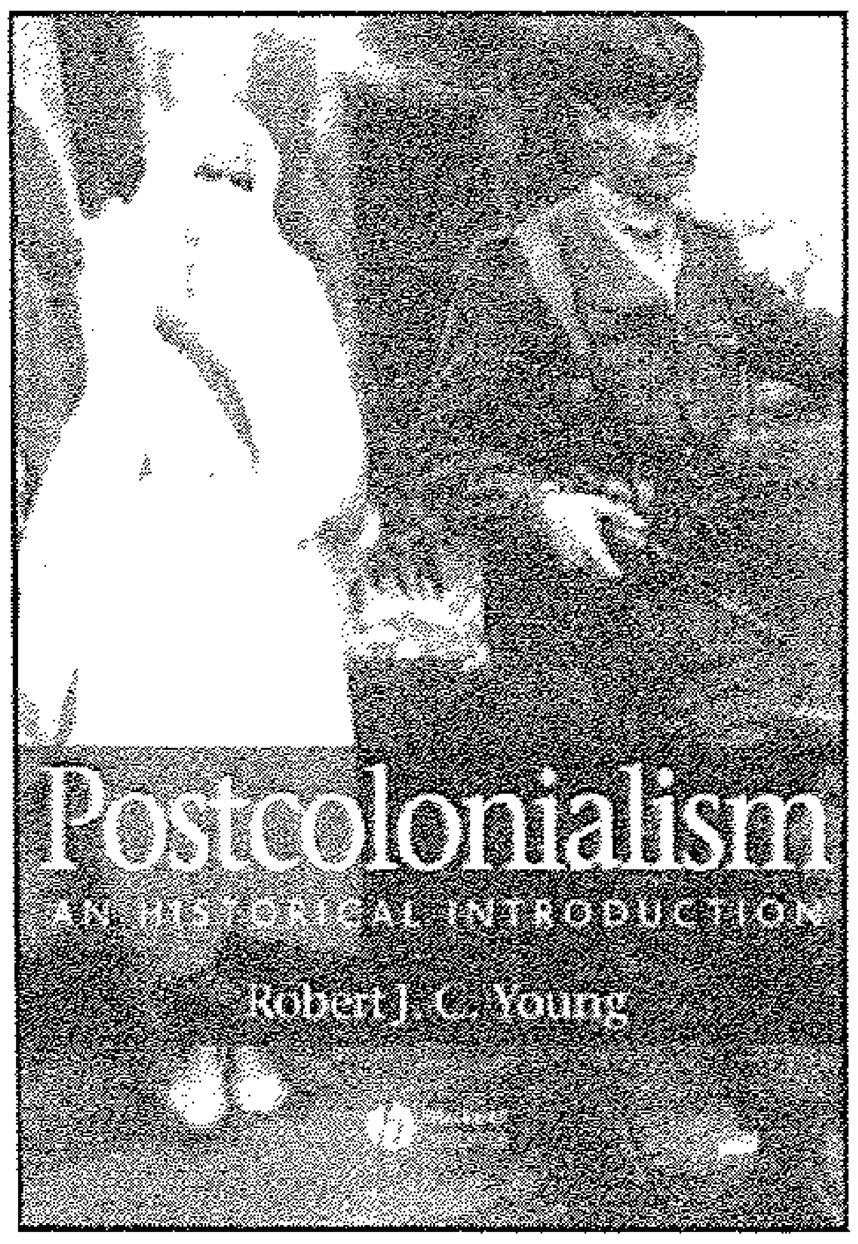
كذلك فإن يانج هنا يركن إلى حذف عنصر الثقافة الذى قامت حركات التحرر بإضافته إلى العنصر الاقتصادى فى قراءاتها لماركس. إن افتراضه أن كل فقراء أوروبا وأقلياتها تشارك سكان المستعمرات السابقة الرؤى وأنهم لو استُفتوا أو حق لهم التصويت لناصروهم، عار من الصحة التاريخية. ولنأخذ النساء مثلاً. فوفقاً ليانج أن نساء فرنسا حصلن على حق التصويت سنة ١٩٤٥، أى بعد قيام الإمبراطورية الفرنسية وهذه حقيقة تاريخية. ولكن السؤال هو لو أن نساء أوروبا أدلين بأصواتهن فى إنشاء الإمبراطوريات فى زمن سادت فيه ثقافة الوطنية وتسيدت النظرة العنصرية هل كن يرفضن التوسع بسبب التماهى البيولوجى أو التعاطف الوجدانى بينهن وبين نصف سكان المستعمرات، أى نساءها؟ إلى أى مدى اتفقت رؤى نساء العالم فى القرن التاسع عشر؟ وما أسباب اجتماعهن اليوم؟ كيف يمكن تجاهل كتابات النسويات ما بعد الاستعماريات فى هذا المجال واللاتى أثبتن انصياع معظم الأوروبيات خلف مفهوم الإمبراطورية وخلقهن تراتبية بين الوطنية والتواصل النسائى احتلت الأولى الموقع التفضيلى فيها. ورغم ما يقودنا إليه هذا الطرح من إيجابية إعادة إحياء مفهوم المسئولية التاريخية، إلا أن تحديد هذه المسئولية يحتاج إلى أدوات وآليات أخرى وبحث تاريخى أدق. كما أن هذا التبسيط يعمينا عن كيفية إنشاء التحالفات تاريخياً وكيفية عملها اليوم. صحيح أن الأقليات الأوروبية لم تنتفع بالإمبراطورية بنفس قدر انتفاع الطبقة الحاكمة بها ولكنها أيضاً لم تُستغل استغلال فقراء المستعمرات بسبب خوف السادة الأوروبيين المتوترين من الجموع كما أثبتت بعض دراسات ما بعد الاستعمار التى تناولت هذا الموضوع بل كما أوضح يانج نفسه فى كتابه الرغبة الاستعمارية.

غير أن حماس يانج الماركسى هذا لا يلبث أن يفتر فى النص ويخبو مفسحاً المجال للمنظور مابعدالبنيوى. ففى الصفحة التالية لهذا الإعلان يقدم الكاتب ما يمكن اعتباره «مانيفستو» نظريات ما بعد الاستعمار، من وجهة نظره:

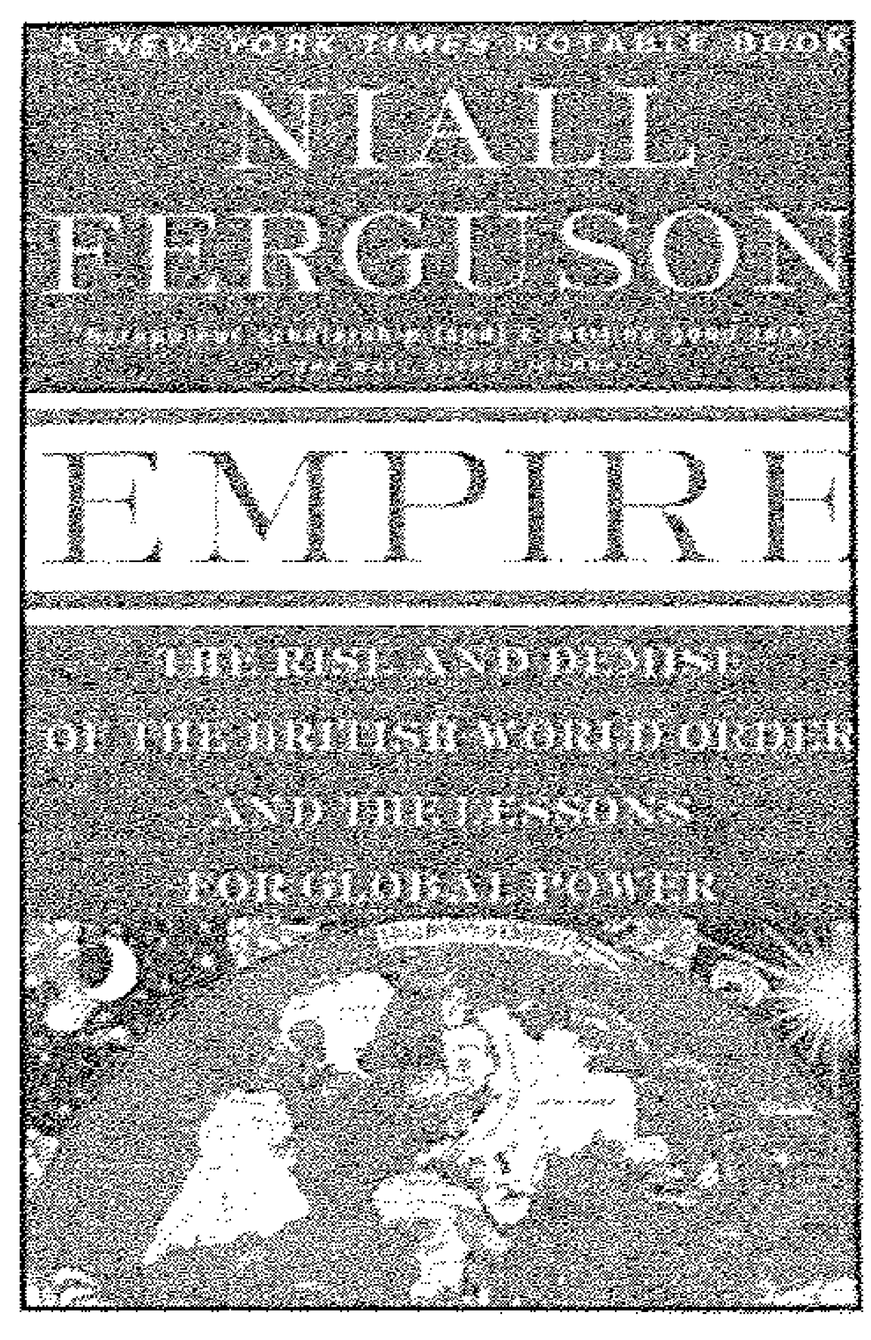
إن الالتزام الفكرى لنظريات ما بعد الاستعمار سيسعى دائماً لخلق أشكال جديدة من الأعمال النظرية الجادة التى تسهم فى إحداث تحولات أيديولوجية واجتماعية نشطة. والهدف منها، كما يعرفه كابرال (١٩٦٩)، هو السعى من أجل التحرر بعد تحقيق الاستقلال السياسى. إنها تشكل نتاجاً فكرياً مباشراً يسعى إلى التعبير عن نفسه بصور مختلفة من السياسات التحررية وإلى التوفيق بين أنواع مختلفة من العمل لتحقيق أهداف مشتركة تتضمن خلق تكافؤ فى الانتفاع بالموارد المادية والطبيعية والاجتماعية والتكنولوجية، والتصدى لأشكال السيادة سواء كانت اقتصادية أو ثقافية أو دينية أو عرقية أو مبنية على التصنيف النوعى، وكذلك التعبير عن أشكال جماعية من الهوية السياسية والثقافية وتأكيدها.

ويستوقفنا هنا أن نصرة «العمال» تحولت إلى نصرة كل الأقليات وأن المناهضة الاقتصادية اتسعت لتضم مناهضة التمييز الثقافى والدينى والعرقى والجنسى. أى أن ما بعد الاستعمار يخطو على الدروب والمسارات الماركسية فحسب من ناحية، ومن ناحية أخرى هو موكل بالتصدى لكل أنواع التمييز على الأرض. وإن كان فى هذا الإعلان مسحة أخلاقية تستحق التقدير، إلا أنه أيضاً يثير الكثير من الإشكاليات. فالديالكتيك الماركسى المعلن سالفاً تم تفكيكه فتعددت فيه المواقع. لقد نقل يانج العلامة الفاصلة الرابطة بين نصفى الثنائية إلى محاور متعددة منها الاقتصاد والثقافة والعنصر والنوع، وبذلك عاد بنا على طريقة ما بعد البنيويين إلى تعدد يفكك الثنائية الطبقية. لقد وسع تعريفه اتساع لا محدودية أو لا حدودية الأفق على النهج ما بعد البنيوى وبذلك صهر الحدود الفاصلة بين الضدين فى هذه العلاقة.

كذلك فإن توسيع أفق ومجال دراسات ما بعد الاستعمار عن طريق ضم ماركسية العالم الثالث ومن ثم الماركسية عموماً لها يواجهه مشكلة تكييف بعض التيارات النظرية التى سلكت مسالك غير ماركسية أو ما يمكن أن يطلق عليه فائض الجمع النظرى الذى يصعب ضمه تحت مظلة الماركسية مهما اتسعت أو تعددت بسبب تحديد تعريفها والتزامها ببعض الثوابت بالإضافة إلى «الهدف». وهنا يمكن أن نتوقف عند تيارين بالتحديد: المقاومة السلبية والقومية. أما المقاومة السلبية والتى ارتبطت بفكر غاندى، فمن الصعب اعتبارها إحدى تداعيات النظريات الماركسية حيث تضيق جداً الأرضية المشتركة بينهما. فالمفهوم الماركسى للفاعل التاريخى ووصفه بالمسئول الأوحد عن التغيير يتنافى تماماً ومفهوم السلبية عند غاندى. كذلك يختلفان حول دور الآلة وبالتالى فكرة التاريخ التقدمى، ناهيك عن اختلافهما حول قضية الديالكتيك والعلاقة بالآخر. وتتكرر المشكلة فى كتابات أتباع غاندى من ما بعد الاستعماريين مثل أشيس ناندى الذى يرفض الماركسية صراحة وجهاراً ويركن إلى مشروع غاندى فى تعاطيه مع المشاكل النفسية للاستعمار. ولكن فى مقابل هذا، نجد يانج



نصرة «العمال» تحولت إلى نصرة كل الأقليات وأن المناهضة الاقتصادية اتسعت لتضم مناهضـــة التمـــييز الثقافى والدينى والعـــرقى والجنــسى



يضمنهم تاريخ ما بعد الاستعمار الماركسى. وفى هذه الحالة تتضح بعض الشقوق الفاصلة بين حركة مقاومة الاستعمار والماركسية تنبه إلى أن التطابق بينهما ليس بالإحكام الذى يصفه يانج ويحتاج إلى إعادة صياغة للعلاقة بينهما بما يسمح باستقلالية كل منهما وتعاونهما.

أما فكرة القومية nationalism فيرفضها يانج جملة وموضوعاً برغم تكرارها فى كتابات بعض حركات التحرر وما بعد الاستعمار، بل وبرغم ظهورها فى كتابات ماركس نفسه والذى يعتبر موقفه من هذا التوجه موقفاً ملتبساً. فبرغم أنه رفضها باعتبارها عائقاً أمام تحقيق الاتحاد العمالى العالمى الذى سعى اليه، إلا أنه نادى بها فى حالة أيرلندا. ويظهر نفس التوتر فى العلاقة بين النظريتين فى كتابات الكثير من مقاومى الاستعمار الماركسيين من أمثال فانون وبنيتا بارى وإعجاز أحمد وحتى لينين. ولعل أحد أسباب إصرار يانج على رفض مفهوم القومية ينبع من اهتمامه بالنظرى فقط. فهو يرفضها بدعوى أنها لا تشكل نظرية وإنما هى «شكل» فقط.

أما ما يسميه بالقومية الإسلامية «Islamic nationalism» فهى «تعمل بنفس طريقة القوميات الأخرى ولكنها تعمل بطريقة أفضل لأن الإسلام موجود اجتماعياً وثقافياً». وهذا الاقتباس ينوه إلى إشكاليتين فى النص. أولاً، إشكالية استخدام مصطلحnationalism المرفوض من الكاتب فى مقابل استخدام السابقة pan- للإشارة إلى بعض الحركات التكتيلية مثل pan- Africanism والمحتفى بهم فى نص يانج بدعوى أنها مشاريع تكتيلية غير حدودية متسقة مع الفكر الماركسى وما بعد البنيوى فى آن. والحركة الإسلامية يشار إليها فى النص بـIslamic nationalism فى بعض الأحيان كما فى الاقتباس السابق وأحيان أخرى هى pan-Islamism وبين هذا اللفظ وذلك يتحدد قبولها أو رفضها. (وهذا ينطبق أيضاً على استخدامه لمصطلحى Arab Nationalism و pan-Arabism). فهل الحركة الاسلامية مشروع تكتيلى لا محدود أم انه مشروع محدود بالخطوط المرسومة على الخرائط السياسية،شأنه فى ذلك شأن القومية؟ المشكلة تقع فى أنها حركة تقع ما بين هذين التعريفين. فهى تمثل تكتلاً منتشراً جغرافياً ولكنه مغلق بحدود وحدة العقيدة ومن ثم فهى حركة منتشرة عالمياً ولكنها أيضاً إقصائية.

أما الإشكالية الثانية فتكمن فى وصف الكاتب للإسلام بالوجود، ما ينفى صفة الوجود عن اشتراك مجموعة من الناس تسكن رقعة جغرافية محددة تفرض عليها الاشتراك فى تاريخ. ونفى صفة الوجود عن «القوم» مبرر، إذا أخذنا فى الاعتبار توجه الكاتب والسياق الحالى والدعوة إلى محو الحدود السياسية التى رسمها الاستعمار تنفيذاً لمشروعه التقسيمى. ولكن الوضع فى حالة يانج اعمق من ذلك. مشكلة يانج أنه يقسم «القومية» إلى شطرين لينفذ بينهما غافلاً عن أن هذه المصطلحات قد ترجمت نفسها نظريا واصطلاحياً. فهناك فروق بين النظريات القومية الأوروبية المتخيلة وترجمتها إلى المقاومة بسبب اشتراك مجموعات بشرية تسكن رقعة جغرافية بعينها فى تجربة القهر الاستعمارى. القومية فى هذه الحالة نابعة من اشتراك فى التاريخ والجغرافية معاً وبالتالى يمكن وصفها بالوجود الاجتماعى والثقافى، شأنها فى هذا شأن الإسلام. كما أنها فى بعض حالاتها، طورت آلياتها وبدأت تعمل بطريقة عبر حدودية ولنا فى القضية الفلسطينية المبنية على حق الفلسطنيين فى استرداد الأرض وإقامة دولة قومية، مثلاً.

وبرغم اعتماد النص وحدة الهدف كأساس للتوفيق بين الثورية الماركسية والتفكيك ما بعد البنيوى إلا أن هذا الهدف يبقى مبهماً فى النص. فباستثناء إعلان الكاتب ثورته ضد كل أشكال التمييز والظلم فهو لا يوضح على من تصب هذه الثورة اليوم: هل على الاستعماريين فى مواجهة المناهضين، على الأبويين انتصاراً للنسويات، على الرأسماليين دعماً للعمال، على الشمال الصناعى لنصرة الجنوب المستغَل أم أنه على الكل وضد الكل لإبقاء الصراع كهدف فى حد ذاته؟

المملكة والولايات المتحدتان: ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣

وفى السنة التالية لنشر كتاب يانج، أى سنة ٢٠٠٢ ظهر فى المملكة المتحدة كتاب للمؤرخ الاقتصادى ذائع الصيت نيل فيرجسون هو «إمبراطورية: كيف صنعت بريطانيا العالم الحديث». وفى السنة التى تلتها ظهرت الطبعة الأمريكية من نفس الكتاب بعنوان: «إمبراطورية: ظهور وانحسار النظام العالمى البريطانى والدروس التى يقدمها للقوة العولمية. والكاتب، مثل كتابه، انتقل من العمل فى المملكة المتحدة إلى الولايات المتحدة. والكتاب صدر أيضاً فى صيغة حلقات تليفزيونية ولاقى رواجاً كبيراً.

وازدواجية العنوان والارتباط الجغرافى لهذا الكتاب وأحادية النص يعكسان مضمونه وأطروحاته، فالنص يعمل على خلق تشابك جغرافى عولمى كطرح مستقبلى لإعادة تشكيل العالم وهو بذلك يقترب من نص روبرت يانج من حيث توجهه النظرى. كما يتفق الكاتبان فى دمجهما التاريخ والنظرية ومحاولتهما التقريب بين التاريخ الثقافى والاقتصادى. كذلك فإنه فى الحالتين نحن بصدد نصوص عبر إقليمية، عبر تخصصية. ولكن، بينما يعمل يانج على خلق مساحات مشتركة بين بريطانيا (ما بعد الاستعمارية) والعالم الثالث، يعمل فيرجسون على خلق ترابط بين بريطانيا (الإمبراطورية) والولايات المتحدة؛ وبينما يكتب يانج تاريخ المقاومة، يكتب فيرجسون تاريخ الإمبراطورية؛ وبينما هم أولهما هو النظرية الماركسية وتداعياتها، فإن هم ثانيهما النظام الرأسمالى وممارساته وإن كان كل منهما يقدم تاريخه وكأنه تاريخ العالم. وهناك بالفعل شىء من الصحة فى هذا التصور، فكل من الإمبراطورية ومقاومتها انتشرا جغرافياً وامتدا امتداد العالم. ولكن ما يغيب بالطبع عن هذين الطرحين مجتمعين هو تواجدهما معاً فى هذا العالم وهى رؤية يصعب استخلاصها عند قراءة كل نص على حدة: فتاريخ المقاومة يقدمها وكأنها كانت تعمل بآلية ذاتية ووجود أحادى حيث لا يتطرق النص لعلاقة المقاومة بالإمبراطورية بينما تاريخ الإمبراطورية لا يعترف بأى وجود غير وجودها ومن ثم فكلاهما يطرح تصوراً لعالم متشابك يعمل فى خواء. تتفق السياسة النصية والرؤية النظرية فى الحالتين برغم تباين استخلاصهما، فكلاهما ينادى بإقامة تشابكات عولمية تتخطى الجيوبوليتيكية، كما يتفقان فى صمت كل منهما عن توضيح علاقة العالم الذى يرسمه بالعالم الآخر. أما من حيث التوجه النظرى لكل من النصين، فيانج يجمع ما بين الماركسية وما بعد البنيوية، خاصة التفكيك وفيرجسون مؤمن بنظرية «الحتمية» والتى يعيد إحياءها مستخدماً التفكيكية أيضاً. وبينما ملهم يانج هو ماركس والماركسيون عموماً، فإن ملهم فيرجسون هو آدم سميث والداروينيون سواء الاجتماعيون منهم أو الطبيعيون أو الاقتصاديون.

من هذه الأرضية النظرية يجادل فيرجسون بأن أمريكا إمبراطورية وهى امتداد للإمبراطورية البريطانية، بل وأحياناً يقدمها على أنها الإمبراطورية البريطانية بعينها. ويقدم الكاتب كتابه على أنه تاريخ العولمة «التى أسست لها بريطانيا ومستعمراتها». فهو يرى أن العالم قد دخل عصر «العولمة» منذ التمدد

الاستعمارى البريطانى واتصال جميع بقاع الأرض عن طريق التطور التكنولوجى الذى تجلى فى تحسن أحوال السفن ومد خطوط القطارات واختراع التلغراف والتى استخدمت جميعاً فى مد النفوذ البريطانى على سطح المعمورة. واللافت هنا هو إصراره على استخدام لفظة «عولمة» والتى ترجع فى استخداماتها الدارجة إلى فترة لاحقة للإمبراطورية البريطانية. ولكن سرعان ما تتم ترجمة كلمة «العولمة» (globalization) فى النص إلى كلمة أنجلوعولمة (Anglobalization) فتضمحل مساحة هذه العولمة وتظهر لها حدود مرسومة حول اللغة والعنصر، فينكمش عالم العولمة ويتمركز على ضفتى الأطلنطى.

وهذا الربط يسمح للكاتب بإعادة تعريف الإمبراطورية (البريطانية) على أنها مفهوم وممارسة تتخطى الجغرافيا وهى نقطة داعمة للوضع البريطانى الحالى ولا شك. ففى سياق عرضه لاضمحلال الإمبراطورية بعد الحرب العالمية الثانية ومراهنة تشرشل على مساعدة أمريكا له، يعلق الكاتب «انتهت أوروبا ولكن الإمبراطورية بقيت» وبهذا يخرج الإمبراطورية من الحصار الجغرافى فى جزيرة نضبت منابعها الاقتصادية أو كادت، إلى أرض الرخاء الجديدة. كذلك يشير إلى قناعة سيسل رودز بأنه فى النهاية «سيتم استرجاع الولايات المتحدة كجزء لا يتجزأ من الإمبراطورية البريطانية».

ولكن الإشكالية الأساسية التى تواجه فيرجسون هى فك العلاقة السجالية بين بريطانيا ومستعمرتها الأمريكية السابقة. فالحواجز السيادية التى تظهر فى علاقة الإمبراطورية البريطانية بمستعمراتها ضمت الحالة الأمريكية. فصورة الإمبراطورية البريطانية فى أمريكا فى فترات بعينها ارتبطت بمفاهيم الاستبداد والطغيان، ويشهد على ذلك بيان الاستقلال الأمريكى والذى يتهم بريطانيا بارتكاب الكثير من الاغتصابات والإساءات ضد المهاجرين البريطانيين إلى القارة الجديدة الذين هاجروا فراراً من بطش المجتمع البريطانى السيادى وسعياً للحرية، حسب الرؤية التاريخية الأمريكية. والجزء المكمل لهذه الصورة فى الذهنية الأمريكية هى أن الأمريكيين شعب أحرار. ولفك التشابك الجدلى بين أمريكا وبريطانيا، يسلط فيرجسون الضوء على ازدواجية المواقف الأمريكية من قضية الحرية والتحرر حيث حارب الأمريكان من أجل الحصول على حريتهم بينما استعبدوا الملونين فكانوا فى ذلك كإخوانهم البريطانيين. أى أن فيرجسون يعيد كتابة هذه العلاقة الملتبسة فينقلها من صيغة التناقض إلى صيغة التماهى، وبوعى كامل بأهمية هذه النقطة فى مشروع ضم الإمبراطوريتين. يقول فيرجسون مثلاً: «منذ البداية كانت العلاقة التى يطلق عليها «العلاقة الخاصة» بين بريطانيا والولايات المتحدة، علاقة غامضة. ومركز هذا الغموض هو اختلاف التصور الأمريكى للإمبراطورية. فهؤلاء الأمريكيون الذين تربوا على خرافة حربهم التحررية ضد القمع البريطانى لم يكونوا ليستسيغوا حكم الشعوب الأخرى الذى يتطلب اشتباكات خارجية حذرهم الآباء المؤسسون من الخوض فيها. فهم يؤمنون بأنه إن عاجلاً أو آجلاً على الجميع أن يتعلم الديمقراطية والحكم الذاتى، حتى وإن تم هذا تحت تهديد السلاح». وهو هنا يتبع الأسلوب التفكيكى الذى يطوعه فى النص عامة. فيبدأ بقبول الموقف المضاد لرأيه ثم يضم له عكسه ويخرج بهما معاً إلى مساحة جامعة تتسع للضدين الأنجلو.

والأمثلة التى يسوقها فيرجسون للتدليل على التواصل التاريخى بين الإمبراطورية الأنجلو تدور حول محورين رئيسيين؛ فهى من ناحية علاقة تبادل ومن ناحية أخرى تنم عن استقلالية وتكافؤ متكررين فى كلتا الإمبراطوريتين. وصياغة العلاقة بينهما على أنها تبادلية تاريخياً تظهر فى تذكيره قراءه مثلاً بأن الإمبراطورية بُنيت ببندقية «المكسم» والتى اخترعها أمريكى وسوقها فى بريطانيا. وهو يدعم العلاقة التبادلية هذه بتكافؤ الإمبراطوريتين واختلافهما عن كل ماعداهما من غير الأنجلو. ففى سياق نقاشه للقوة الناعمة يستوقفنا فيرجسون عند لعبة كرة القدم والتى انتشرت بين الجميع عبر الأمم والطبقات فلعبها حتى المرتابون منهم من الطبقة العاملة كما لعبها الألمان، لعبها الجميع ماعدا الأمريكيين والذين ابتدعوا كرة القدم الأمريكية عن طريق تهجين السوكر والرجبى الإنجليزيتين وبذلك كان الإبداع على مستوى العالم للإنجليز والأمريكيين فقط بينما تحول باقى سكان العالم إلى مستهلكين لهذا الاختراع الموكل له إعادة صياغة العلاقات بين الأفراد وتشكيل المجتمعات.

وتفكيك العلاقة الثنائية بين الإمبراطوريتين البريطانية/ الأمريكية وضمهما معاً فى مساحة واحدة هى «الأنجلوعولمة» يمشى سوياً والمراجعة المستمرة لمفهوم العولمة. فيحدثنا فيرجسون عن العولمة، ثم يضيف إليها صفة «أنجلو» فيصبغها بها ويحددها، ثم يطرح عنها هذه الصفة سامحاً لمفهوم العولمة أن يستعيد تمدده المساحى بعد أن يكون قد صُبغ بالهوية الأنجلو. وعلى مستوى الطرح، يدافع النص عن الإمبراطورية (البريطانية) بتقديمها على أنها كانت خيراً. ويدعم فيرجسون طرحه هذا بثلاثة أسباب: اقتصادية وأخلاقية ومبدئية.

يرى فيرجسون أن الإمبراطورية أدرت خيراً كثيراً من الناحية الاقتصادية وأنها كانت - فى النهاية - مشروعاً استثمارياً تديره الشركات ويهدف إلى تحقيق عائد نقدى. ويقدم فيرجسون العديد من الأمثلة التاريخية لوقف أى أعمال فى المستعمرات لا تدر دخلاً على الخزينة الإمبريالية. فبرغم استخدام الإمبراطورية للإرساليات مثلاً، إلا أن شيخ المبشرين فى أفريقيا، ليفنجستون، انتهى به الأمر مستكشفاً بدلاً منه مبشراً. ومشروع مد الخط الحديدى من كيب تاون إلى القاهرة والذى تبناه سيسل رودز، تم وقفه لعدم جدواه الاقتصادية برغم اهميته من حيث نشر الحضارة وبسط النفوذ. وكان لورد ساليسبرى هو الذى أوقفه وقال معلقاً: «لو أن أجدادنا اهتموا بحقوق الآخرين لما بُنيت الإمبراطورية».

يحلل فيرجسون حالة اقتصاد الهند فى فترة الاستعمار ويرمى إلى أنها كانت حالة نجاح مبهرة من وجهة النظر الإمبريالية حيث حققت بريطانيا بين عامى ١٧٥٧ و ١٩٤٧، أى فترة استعمارها للهند، ارتفاعاً بنسبة ٣٤٧ ٪ فى إجمالى الدخل القومى بينما حققت الهند ١٤ ٪ ومن ثم، فمن وجهة نظر التنمية عموماً، كانت الإمبراطورية عملاً خيراً. أى أن فيرجسون يركز فى معياره على زيادة الدخل دون توزيعه.

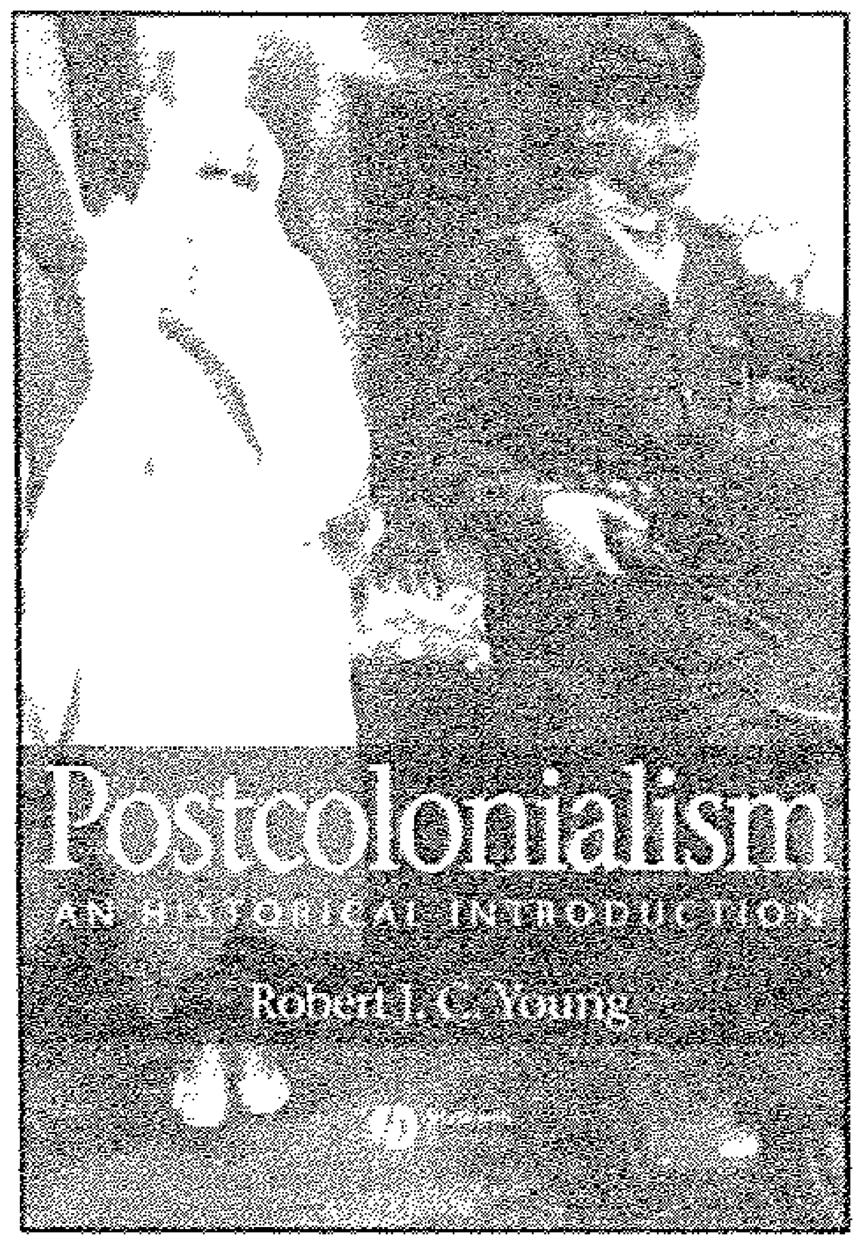
أما السبب الثانى الذى يسوقه لتبرئة الإمبراطورية فهو أخلاقى، حيث يرى أن الإمبراطورية البريطانية كانت ذات مبادئ أخلاقية سامية؛ فقد آمنت بالإنسانية ولم تقمع الشعوب التى احتلتها، وكانت لذلك الخيار الأفضل من ضمن الإمبراطوريات التى رشحت نفسها لقيادة العالم كالألمانية واليابانية. وفى تعرضه للمواجهة بين الهنود والبريطانيين فى البنجاب عام ١٩١٩ والتى تحولت فيها المقاومة الهندية من السلبية إلى العنف، حيث هاجم المتظاهرون تبشيرية إنجليزية فأوقعوها من على دراجتها وضربوها، ورد الإنجليز بمهاجمة مجموعة من المتظاهرين فقتلوا ٣٧٩ وجرحوا ١٥٠٠ منهم فى عشر دقائق، يلقى فيرجسون باللوم على قرار ركس داير الذى أوكلت له مهمة التعامل مع المتظاهرين وبالتالى يتعامل معه كخطأ فردى. ويستخلص الكاتب أن الإمبراطورية البريطانية كانت الخيار الأفضل للعالم وأنها أول من ابتدع «العولمة».

يرى فيرجسون أن اختيار بريطانيا دخول الحرب ضد ألمانيا، مضحية فى ذلك بنفسها فى مقابل نصرة المبدأ هو موقف أخلاقى. فالسبب الأوحد - من وجهة نظره - لانهيار الإمبراطورية البريطانية، هو اختيارها محاربة الإمبراطورية الألمانية «الشريرة» وهى بذلك أدت واجبها والتزمت بمبدأ الانتصار للخير ضد الشر فكانت تضحيتها بنفسها من أجل العالم، أو العولمة. فالبريطانيون اختاروا دمارهم كأمة وشعب لإنقاذ «الإمبراطورية» من سوء الأوضاع فى أوروبا فزجوا بها غرباً إلى مستعمراتهم السابقة على الشاطئ الغربى للأطلنطى.

لا تقتصر رؤية فيرجسون هذه على محو الشعوب المستعمرة من التاريخ وإنما يتسق معه طرداً لهم أيضاً من الجغرافيا. هذه الرؤية تفسر ترادف استخدامه للفظتى العولمة والأنجلوعولمة. فالعولمة فى عُرفه هى سيادة الأنجلو على سطح الكرة الأرضية والتى بخروج سكانها من التاريخ والجغرافيا أصبحت خواء، مساحة فضاء يعترف بوجودها فقط كمجال تمدد من المركز الأنجلو. ويرمى فيرجسون من هذا القول إلى تشجيع الإمبراطورية الأنجلو الجديدة القديمة «المترددة» بسبب إصابتها «بسندروم فيتنام» والذى يشكل فى رأيه مشكلة حقيقية لإمبراطورية المستقبل.

والنقطة الثانية التى تستوقفنا فى قراءة فيرجسون للأسباب المباشرة لانهيار الإمبراطورية هى قوله أن التهديد الذى واجهته الإمبراطورية البريطانية «كان تهديداً من قبل الشعب الوحيد الذى اعتبره سيسل رودز وجوزيف شامبرلين (ناهيك عن كارل بيرسون) شعباً متساوياً مع الجنس الناطق بالإنجليزية، أى الألمان». ويستخلص فيرجسون من هذا أن فشل مشروع التوفيق بين الأنجلو والساكسون وإجهاز الأنجلو على الجنس الوحيد الذى كان يجمعهم به التكافؤ قد خرج بالعالم إلى وضع جديد. فمع خروج الساكسون من الساحة خلى العالم للأنجلو وحدهم. لقد تخطى العالم هذه المرحلة الصراعية وبالتالى زالت أسباب انهيار الإمبراطوريات دون عودة. ففى ظل نظام عولمى أحادى تنتفى إمكانية قيام صراعات مشابهة.

ومجمل تفسير فيرجسون لانهيار الخير فى عالم المفترض أنه يسير فى اتجاه خطى صاعد نحو الأفضل، طبقاً للنظرية الحتمية هو «التكلفة العالية الناتجة عن محاربة منافسين إمبرياليين». إذا كانت بريطانيا - من وجهة نظر فيرجسون - قد ضحت بنفسها لنصرة التطور

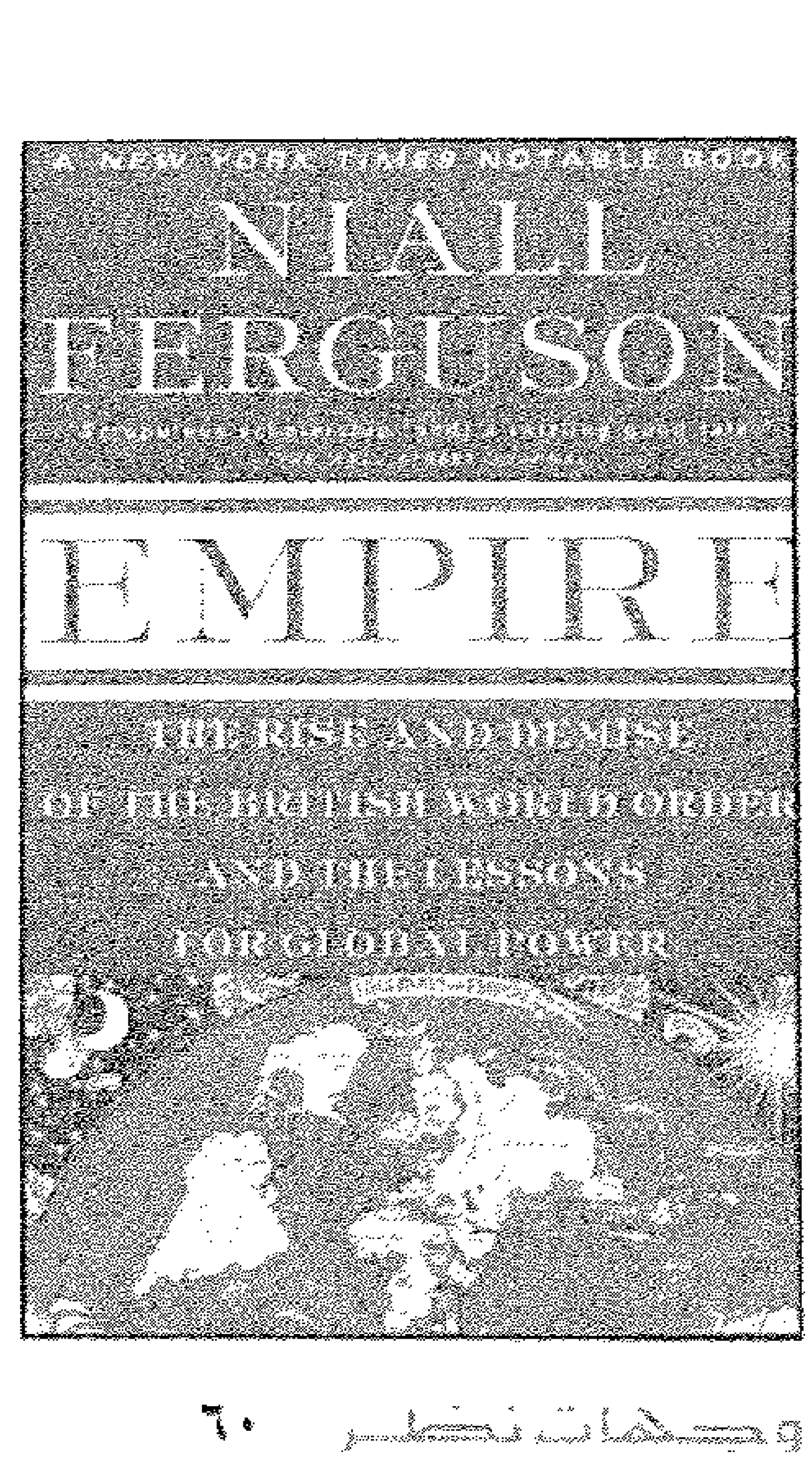


يجادل فيرجسون بأن أمريكا إمبراطورية وهى امتداد للإمبراطورية البريطانية، بل وأحيانا يقدمها على أنها الإمبراطورية البريطانية بعينها

التاريخى فتردد أمريكا فى حمل شعلة التطور يهدد هذا المبدأ الخير. ولكن يبقى أن الإمبراطورية، طبقا لرؤيته وبعيداً عن النظرات المقننة المخفية للدوافع، هى مشروع اقتصادى. وأن الإمبراطورية البريطانية كمشروع اقتصادى قد فشلت بشهادته: «الإمبراطورية تأسست على أسس اقتصادية وهذه الأسس، ببساطة، استنزفت بسبب تكلفة الحرب».

من الناحية النظرية يقوم النص على تفكيك العلاقة الجدلية بين الإمبراطوريتين البريطانية والأمريكية والخروج بهما معاً إلى مساحة أوسع تسمح بتشابكهما فى صيغة تدعى الجمع على مستوى العالم أو العولمة. وهو فى ذلك يطبق نفس النظرية التى يستخدمها روبرت يانج وإن كان كل منهما يرتحل بها إلى لحظة زمنية ومجال جغرافى وموقف شخصى مغاير. فى الحالتين يستخدم الكاتب التفكيك لحل العلاقة الجدلية بين ضدين قائمين تاريخياً بغية الخروج بهما معاً إلى موقع جامع آخر يصوره وكأنه العالم، وفى الحالتين يعرف الكاتب موقفه بإقصاء. فكل منهما يقدم طرحاً عالمى الاتساع ولكنه أيضاً يخط حدوداً حول تعريفه لهذا العالم. فالتفكيك والتشبيك فى الحالتين كان جمعاً وإقصاء، إضافة إلى صمت مراوغ. قدم كل منهما شقاً من تاريخ جدلى طرح وكأنه عالمى جامع بسبب صمته عن التاريخ الآخر فبدا وكأن كلاً منهما يرسم عالماً بذاته، إما استعمارى أو ما بعد استعمارى. عمل هذا المنظور بالتوازى مع إقصاء داخلى آخر: أقصى يانج فكرة القومية لتضخيم المقاومة والماركسية، وأقصى فيرجسون الإمبراطورية الفرنسية لتضخيم الإمبريالية والأنجلو. بإقصائهما الحلفاء-المنافسين القدامى (أساليب المقاومة غير الماركسية فى حالة يانج والإمبراطوريات الأوروبية غير الإنجليزية فى حالة فيرجسون) عادوا بنا إلى ثنائية القرنين التاسع عشر والعشرين: رأسمالية/ماركسية. وبرغم اختلاف الكاتبين اختلافا بيناً فى مواقفهما إلا أنهما اقتربا منهجياً.

يتفق النصان على تصور وجود فاعل تاريخى واع يعمل بأحادية وطرحه كصيغة مستقبلية، وهى ذات الرؤية التى تؤدى بهما إلى الاختلاف حول كيفية بناء الإمبراطورية البريطانية كنموذج للتشييد السيادى. يرى يانج أن البريطانيين بنوا إمبراطوريتهم فى غفلة ودون وعى أو إرادة منهم مفسراً حدوثها بخلفية الفردية والليبرالية على الثقافة البريطانية، وهو طرح متكرر فى كتابات المعتذرين عن الاستعمار. ويرى فيرجسون أن الإمبراطورية عمل مدروس ومنظم وضع خطته الساسة البريطانيون وتعاقدوا على تنفيذه مع أفراد فوفروا لهم الدعم المادى والمؤسسى الذى ساعدهم على مد الإمبراطورية خارج المركز. وبينما يرى يانج أنه عمل من تداعيات اللاوعى، يرى فيرجسون أنه فعل واع. أى أن يانج يقصى مفهوم الفاعل التاريخى عن الإمبراطورية وفيرجسون يؤكده. يتفق الكاتبان على أهمية هذه التركيبة ولكن كلا منهما يردها إلى الموقف الذى يحابيه، إما سيادة أو مقاومة، وينفيها عن الطرف الآخر فيصور ساحة التاريخ الحديث كتواجد أحادى ويغيب الآخر.



المملكة المتحدة
والولايات المتحدة، ٢٠٠٤

تُظهر هذه القراءة المختصرة لنصين من أهم ما نُشر بالإنجليزية فى السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين، الاهتمام بالتنظير لعلاقات أفقية تجمع «العالم» وتعمل على محو معظم الحدود السياسية السجالية المتعارف عليها منذ الحداثة وصولاً إلى مواقف توفيقية جامعة وأرحب مساحياً محاولة بذلك تخطى المواجهة الديالكتيكية. المؤيدون والمناهضون للهيمنة العولمية، فى هذه الحال وعلى حد سواء، مهتمون بخلق تشابكات ثقافية سياسية ودعمها بإيجاد جذور تاريخية لها.

ويمكن رد هذا التوجه إلى «هيمنة» النظرية التفكيكية على ساحة الدراسات الإنسانية وانتشار النظرية الدلوزية التى احلت نسق التشابكات الجذرية محل نسق الشجرة الهرمية. وبينما الظاهر فى هذه اللحظة أن هناك ابتعادا ملحوظاً عن المنهج الديالكتيكى الذى حرك العالم فى القرن العشرين حيث انتهجته حركات التحرر ومن قبلها الاستعمار الأوروبى، بينما استعاض ما بعد الحداثيين بالموارية عن المواجهة والمراوغة عن الإفصاح، إلا أن النصوص ذاتها تحمل بذور انقسامات وتبشر بتحول أو تحمل إمكانية تحول. فهى نظرياً توظف آليات الجمع وتخطى الحدود، بينما ترسم حواجز إقصائية جديدة تعزل خلفها ما أسميته فائض الجمع. فقد كانت منذ البداية تجميعية حبلى بالإقصاء. وقد بدأت بعض الشقوق تظهر فى هذا الخطاب «العولمى» بالفعل، على اختلاف مناحية. بمتابعة الكتابات التى صدرت سنتى ٢٠٠٣-٢٠٠٤ لنفس الكُتاب الذين تناولت ما نُشر لهم سنتى ٢٠٠١-٢٠٠٢ تظهر بعض الشقوق فى تلك الشبكات التى نسجوها بعناية حيث ينحى كل منهما جانباً، مفصحاً عما كان مضمراً فى كتاباته السابقة.

ففى مقدمة جديدة استهل بها روبرت يانج الطبعة الجديدة لكتابه الأول والأشهر «أساطير بيضاء»، يراجع يانج موقفه السابق ويعلن تغيره. يقول يانج: «لمدة طويلة بدا أن وجود استراتيجية كونية مناهضة للاستراتيجية الإمبريالية العالمية شىء عفى عليه الزمن. لكن اليوم تبدو هذه الرؤية معاصرة بشكل غريب». فقد سجلت دراسات مابعدالاستعمار منذ تشكلها كمجال بحثى تحت هذا الاسم، لحظة وئام ما بين الإمبراطوريات السابقة وسكان مستعمراتها السابقة. وكانت هذه اللحظة منطلق بعض المنظرين ما بعد الاستعماريين المهمين مثل هومى بابا الذى ارتبط اسمه بنظرية «التهجين» الجامع ما بين المستعمر والمستعمَر، ناهيك عن آلاف النصوص التطبيقية التى انتهجت هذا النهج. ولا يخفى بالطبع أن مشروع يانج ذاته كان قائماً على ضم الأصوات المهمشة من قِبل الماركسيين الأوروبيين لصالح الطرفين. ولكن «اليوم» أصبح ما كان قد «عفى عليه الزمن» «معاصراً». والمقدمة تخلص إلى دعوة إلى اعتماد نظريتى «فوكيسمو» كما وردت فى كتابات جفارا ودبرى، و«بوكو» التى انتقلت بها جنوب أفريقيا من المقاومة الغاندية السلمية إلى العنف، والآتى تناديان بالمقاومة المسلحة، وإضافتهما إلى الأطروحات والنظريات النصية التى كانت توجه دراسات ما بعد الاستعمار بشكل شبه منفرد حتى وقت قريب، فتضيف بذلك «جناحاً عسكرياً سياسياً إلى ما بعد الاستعمار» يعمل جنباً إلى جنب مع أساليب المقاومة السلمية والإصلاح الاجتماعى الأخرى» فتكون «مجموعة متجانسة من أنواع شتى من الأنشطة المناهضة للاستعمار». أى أن الكاتب يعود إلى المواجهة الديالكتيكية من خلال خلق «هجين» نظرى يمكن من التعامل مع الظرف الراهن دون الإنتقاص من التراكم النظرى الذى اتت به مابعدالبنيوية. وهو بذلك يعيدنا إلى الرؤية الديالكتيكية دون أن يعود بنا إلى نفس النقطة التى انطلقت منها حركات التحرر الدولية. كما يعلن تخليه عن العبارة التى طاما رددها فاشتهر بها: «لسنا بحاجة إلى القسمات السجالية».

أما فيرجسون فيفصح عما كان مضمراً فى نصه الأكاديمى التاريخى فى مجموعة من المقالات والمقابلات الصحفية التى نشرت بين عامى ٢٠٠٣ و٢٠٠٤. يحتل

موضوع الحروب مساحة واسعة من حديثه وهو يصفها بأنها «أبو كل شيء» ويرى فيها المغيّر الأقوى والأسرع للأوضاع والباعث على بناء الأمم والمؤسسات. يقول في إحدى مقابلاته: «لقد قلت صراحة أن على الولايات المتحدة أن تستخدم مواردها المادية الهائلة وثراءها الواسع لرفع قدراتها العسكرية للتخلص من الأنظمة المارقة بما في ذلك النظام العراقي، وقد ذكرته بالتحديد». ولتحقيق هذا، ينصح فيرجسون الأمريكيين بأن يكفوا عن «إنكار حقيقة أنهم إمبراطورية» وأن يهموا بإكمال المشروع «الأنجلوعولمي» عن طريق المحرك الأقوى والأسرع للتاريخ ليصبح العالم مكاناً أفضل. وحتى في عام ٢٠٠٤، أي بعد إعلان الولايات المتحدة حربين على أفغانستان والعراق، استمر في لومه إياها على ترددها في شن الحروب.

هذا عن رأيه ونصيحته وبالطبع له حق كل إنسان عاقل في التعبير عن قناعته. ولكنه في سياق حديثه عن الحروب يفرّق بين ما تأتي به الحروب من خيرات اقتصادية ومؤسسية وبين الدوافع على شن الحروب. فمن منظوره: «الحرب تأتي بكل شيء ولكن لا أحد يعلم ما الذي يأتي بالحروب». وهو يقول بعدم قناعته بأن المصلحة الاقتصادية هي الدافع على شن الحروب (وإن كانت نتيجة لها)، ولا يعجبه أي تفسير عقلاني منطقي لها وإنما يميل إلى تفسيرها بأنها نتيجة لوجود «الدافع الإنساني»: «كل يوم يغلّب الناس دوافعهم المختلفة على مصالحهم الاقتصادية الذاتية: الدافع إلى اللعب، إلى الكسل، إلى التزاوج، إلى التحطيم». يناقض هذا الرأي كل ما ورد في إمبراطورية حيث يقدم فيرجسون التاريخ الإمبراطوري كتحرك مربوط بالسببية في قراءة تركن إلى المنطقية وتبعد كل البعد عن تحليل الدوافع الغرائزية. برد الدافع إلى شن الحروب وبناء الإمبراطوريات إلى النزعة الإنسانية للقتال كمعطى سيكولوجي مرتبط بالطبيعة الإنسانية، يأخذنا فيرجسون إلى حتمية جديدة، «الحتمية السيكولوجية» وبهذا يخرج بنا إلى مساحة خارج الاقتصاد والثقافة والتاريخ، بل والحضارة ذاتها. وإن كانت قراءة الإستعمار من منظور سيكولوجي ليست بجديدة، إلا أنه في جميع هذه القراءات يتم التعامل معها كعرض (أو مرض) نفسي وليس كأبي الحرب، أو جد كل شيء، أو معطى مطلق.

في مقال آخر عن «نهاية القوة» يحيد فيرجسون عن ادعائه بأن العالم يمثل كياناً واحداً منوطاً به نشر «قوى الخير» وهي الرؤية التي قدمها في إمبراطورية. ففي هذا المقال يصرح بأن القوة «تمقت الخواء» ويعيدنا ثانية إلى تاريخ أوروبا الحديث للتدليل على حتمية الصراعات ورؤية التاريخ كديالكتيك صراعي مفتوح: «يشكل تاريخ أوروبا صراعاً مستمراً من أجل السيادة والوصول إلى توازنات قوى لم يتم إلا من خلال تكرر الصراع». كما يرى أن حالة احادية القوة التي خلّفها الانهيار السوفيتي لا يمكن أن تستمر، «إن عاجلاً أو آجلاً سيظهر متحدون وسنضطر إلى العودة إلى عالم متعدد القوى». ويؤكد أن «أهم شيء هو أن ندرك جميعاً أن العالم ليس احادياً ولن يصبح هكذا أبداً».

يظهر بوضوح صدع المواجهة بين الحاضر والمُغيَّب، بين المركز الأنجلو إمبراطوري وحوافه أو هوامشه في كتابات فيرجسون الأخيرة. كما أن تحوله هذا يذكرنا بالتحولات التي طرأت على الساحة السياسية ما بين فوكوياما وهانتينجتون، غير أن فيرجسون يقدم نظريتيهما مجتمعتين. وكما هو الحال في طرح هانتينجتون يأتي الاعتراف بوجود «خارج الذات» لحاجة الذات له، حاجتها إلى التصادم مع كيان خارجي يؤمِّن لها تماسكها فيدعمها في لحظة توترها هذه. إن خطاب فيرجسون هذا لا ينم فقط عن ذوبان بعض خيوط شبكته العولمية بتفضيله المواجهة العنيفة على التواصل، وإنما يعيدنا إلى المواجهة العسكرية بالتحديد بدعوى تحسين أوضاع الكون.

لكن الديالكتيك الجديد (عند كلٍ من اليساري واليميني) يتحرك على خريطة علاقاتية تأثرت بالنظريات والكتابات التفكيكية-التشبيكية. ففي العقود القليلة الماضية أسهمت الدراسات الثقافية في خروج العالم من القسمة الجيوثقافية بين الشرق والغرب عن طريق تنظيرها لعالم متعدد الثقافات متشابك ولكنها بذلك أيضاً احالت القسمة إلى الممارسات الاقتصادية وتوزيع الثروات ما يهدد بعودة القسمة الجغرافية من المدخل الاقتصادي نظراً لتركز الثروة في الشمال. وها هي الثقافة تتبع السياسة الاقتصادية مرة أخرى.

إننا نقف الآن على مفترق فكري تاريخي مهم يذكرني، وإن كان بصورة عكسية، بزمن إنشاء المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي والذي كان أيضاً زمن الحركات التحررية. لقد عمل هذان التياران في اتجاه واحد وصولاً لأهداف مشتركة لفترة ما، ولكنهما افترقا فرحل كل منهما إلى ذاتية نرجسية تدعمها قوانين القوة. ■

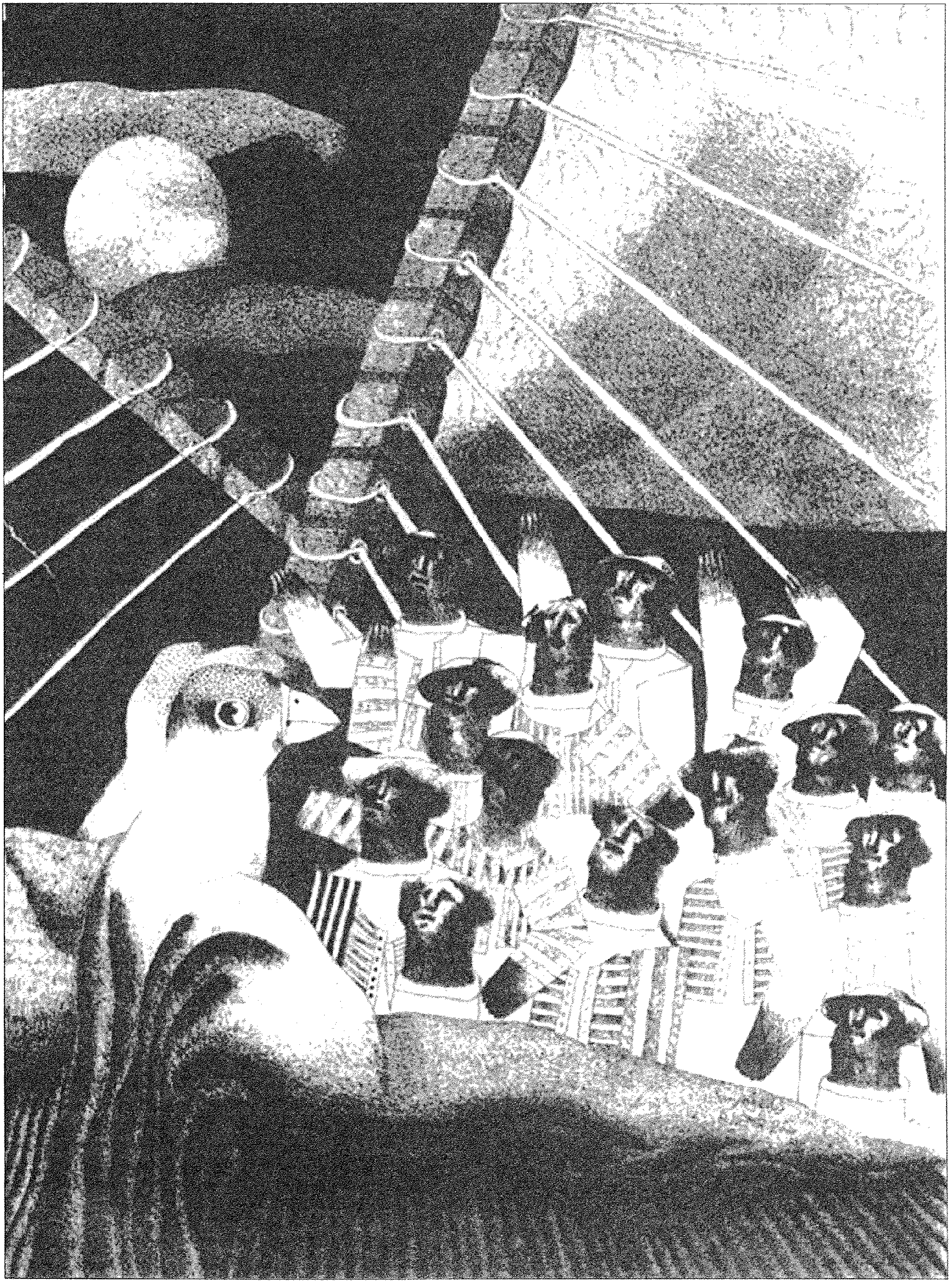
كتاب الزاوية

هل تشتغل المرأة بأشغال الرجال؟

طلعت حرب

إذا علم أن المرأة أضعف من الرجل وأن الرجل راعيها وأن لها عملاً مخصوصًا محدودًا لا يصح أن تتعداه، فكيف يطلب منا أن نسوى بين من لم يسو الله بينهما ونخالف حكمته؟ أليس الله هو الذى جعل حظ الرجل مثل حظ الأنثيين؟ أليس هو كذلك الذى جعل شهادة الرجل الواحد تعدل شهادة امرأتين؟ وليت شعرى ماذا يقول الشرقى المسلم بعد أن يتدبر أقوال علماء العمران سالفى الذكر: أيصح أن يصر على فكره الأول من ضرورة احتذاء المرأة الشرقية شاكلة المرأة الغربية أم يلزمه أن يتخذ هذه الأقوال عبرة ويجعلها وأمثالها نصب عينيه. لنتمكن من وضع قاعدة حكيمة لتربية نسائنا على موجبها كى ينتجن النتيجة التى ينتظرها منهن كل محب لبلاده وجامعته الملية. ودِيننا فيه والحمد لله الكفاية للحصول على ذلك. وإذا كنا نريد بالنساء المسلمات خيرًا حقيقة ورفقًا فما علينا إلا أن نتبع ما جاء فى كتاب الله العزيز وفى أحاديث نبيه الهادى إلى الطريق المستقيم فإنهما مع هذا الفرق بين الرجل والمرأة فى التركيب الطبيعى وفى الطبائع والحقوق ومع تقسيم العمل والوظائف بينهما قد حثا على حسن معاملة النساء والرفق بهن والاستيصاء بهن خيرًا بآيات وأحاديث مسطورة فى كتب السنة المعتمدة. وكما جعل الله سبحانه وتعالى حقوقًا للرجل على المرأة طالب الرجل بما لا يقل عن تلك الحقوق بالنسبة لامرأته.

على أن من أنصف سلم بأن المرأة عند أغلب المسلمين الآن وقبل الآن هى صاحبة الأمر والنهى فى بيت زوجها والقول قولها.



الملاح القديم

عبدالوهاب المسيري

رسوم: رباب نمر

الملاح القديم إنسان طبيعي/ مادي، يعيش في الطبيعة، ويتصور أن عقله المادي قادر على التحكم في الطبيعة وتسخيرها وإخضاعها لإرادته، ولكنه في واقع الأمر جزء لا يتجزأ من الطبيعة

قراءة قصيدة الملاح القديم التي كتبها الشاعر الإنجليزي صمويل تيلور كوليردج تجربة روحية وجمالية فريدة ومثيرة؛ فهي قصيدة ذات مستويات متعددة، يكمل الواحد فيها الآخر، ولا يلغيه. ولهذا يجب ألا نبحث عن معنى واحد محدد نهائي للقصيدة، كما يجب أن نراها باعتبارها قصة شعرية ذات مغزى إنساني عميق ولكنها في الوقت ذاته قصة مثيرة ومسلية. وهذا المغزى لا يوجد في هذا البيت أو هذين البيتين، وإنما في القصيدة ككل، وفي صميم بنيتها.

ولد صمويل تيلور كوليردج في ٢١ أكتوبر ١٧٧٢ في أسرة متدينة، وكان عزوفًا عن اللعب، ميالاً إلى الانطواء على نفسه، محبًا للتأمل والتفكير والأحلام، ولكنه كان يحب القراءة حبًا جمًا. التحق بجامعة كمبردج لدراسة اللاهوت، وعُرف عنه ولعه بالنقاش والجدل مع زملائه، فكانت غرفته بالكلية ملتقى أصدقائه المحبين للجدل مثله. وإبان إقامته في كمبردج ظهر اهتمامه بالسياسة وبالتطورات والأفكار السياسية في عصره. وتعرّف في تلك الآونة على كثير من الأفكار الثورية ذات النزعة الآلية والمادية، فقرأ كتاب العدالة السياسية للفيلسوف الإنجليزي وليام جدوين، كما اهتم بكتابات فلاسفة عصر التنوير في فرنسا الذين طرحوا رؤية اختزالية للإنسان، تراه في بعده المادي أو الطبيعي/ المادي وحسب، وترى أن أصل الشر في العالم عوامل خارجة عن إرادة الإنسان مثل البيئة الاجتماعية، وأنه يمكن بالتالي إزالة أسباب الشر والوصول بالإنسان إلى الكمال.

ويتبدى النمط نفسه في مفهوم الفيلسوف الإنجليزي جون لوك للعقل باعتباره صفحة بيضاء تنطبع عليها المعطيات الحسية والمادية، وتترابط بشكل آلي لتصبح بالتدريج أكثر تركيبًا، إلى أن يصل إلى الأفكار المركبة المجردة. وقد أدت هذه الرؤية المادية للإنسان إلى ظهور ما يسمى «علم النفس الترابطي» (الذي أسسه ديفيد هارتلي، والذي أعجب به كوليردج إلى درجة أنه سمى ابنه باسم مؤسس هذا العلم)، والذي يذهب إلى أن ثمة قوانين ترابط آلية laws of association تربط بين الأفكار (مثل علاقات التشابه والتجاور والمقابلة) وأنه يمكن إصلاح الإنسان من خلال التحكم في قوانين الترابط هذه. وبطبيعة الحال استوعب كوليردج آراء هيوم وبنتام وتشرب مبادئ الفلسفة النفعية، فقد كانت أكثر الأفكار الفلسفية شيوعًا في أواخر القرن الثامن عشر في إنجلترا. وقد وجدت هذه الفلسفات دعمًا «علميًا» لها في نظريات نيوتن الذي شبه العالم بالساعة التي صنعها الإله وأدارها ثم تركها وشأنها تدور حسب قوانينها الكامنة فيها. إلى جانب هذا، تأثر كوليردج بفلسفة جيوردانو برونو وباروخ إسبينوزا بنزوعهم الحلولي المتطرف، إذ كانوا يرون أن الكون هو الإله وأن الإله هو الكون، ولا فارق بينهما، مما يعني أنه لا فارق بين الروح والمادة أو بين المادة والروح، وأن الواحد هو الآخر ثمة شيء جوهري مشترك يجمع بين كل الأفكار والرؤى الفلسفية وشبه الدينية السابقة، والتي قد تبدو وكأنها مختلفة بل ومتناقضة، فكلها رؤى واحدية ترى أن العالم مكون من جوهر واحد، وبذا فهي تنكر أي ثنائية سواء كانت ثنائية الخالق والمخلوق والطبيعة والإنسان والروح والجسد هذا يعني في واقع الأمر أن ثمة قانونًا واحدًا يحكم الكون بأسره، يسري على الإنسان سريانه على الأشياء، الأمر الذي يعني إنكار مقدرة الإنسان على تجاوز حدوده المادية الطبيعية، ورفض رؤية العقل باعتباره عقلاً تركيبيًا توليديًا.

وفي هذا العالم الواحدي لا يوجد أي مجال للخصوصية، سواء خصوصية الأفراد من بني البشر أو الكائنات الطبيعية. وقد وقع كوليردج في أسر هذه الأفكار البسيطة ذات البعد الواحد أثناء بحثه عن حل للمشكلات الاجتماعية والفلسفية في عصره الذي شهد تحولات بنيوية كبرى على جميع المستويات. فقد شهدت هذه الفترة من تاريخ أوربا حركات سياسية ثورية مثل الثورة الصناعية والانتقال من الاقتصاد الزراعي والقرية إلى الاقتصاد الصناعي والمدينة، والثورة الأمريكية، والثورة الفرنسية، وحركة تحرير العبيد. وقد تعرف كوليردج في كمبردج على روبرت سذي (والذي أصبح فيما بعد من شعراء الحركة الرومانسية) وقرر الاثنان إقامة مجتمع مثالي جديد قائم على فكرة المساواة التامة وإنكار الملكية الفردية، ولكن المشروع كان مصيره الإخفاق.

ومع انحدار الثورة الفرنسية إلى عصر الإرهاب وعبادة العقل المادي، ظهر فكر جديد يرفض الرؤية الثورية المادية الآلية بكل ما جلبته من إرهاب وحروب. وقد عبر الشاعر الإنجليزي الرومانسي وليام بليك، وهو معاصر لكوليردج، عن احتجاجه على الرؤية الآلية في قصيدة من سطرين: «ليحفظنا الله من الرؤية الواحدية/ ومن نوم نيوتن». وكان لهذا أثره العميق على كوليردج الذي بدأ يمارس تحولا فكريًا عميقًا نتيجة لهذا التحول في المناخ الثقافي العام. وقد عمق هذا الاتجاه نحو الرؤية الآلية المادية، تجارب كوليردج الخاصة وقراءاته المختلفة، بما في ذلك قراءاته في الفلسفة الألمانية (خاصة أعمال كانط وشلنج بتأكيدهما على مقدرات العقل التوليدية ودور الإرادة الإنسانية). وبالتدريج لم يعد كوليردج يقتنع بالفلسفات التجريبية المادية والآلية.

كما أدرك كوليردج خطورة الرؤية الحلولية وأنها في واقع الأمر رؤية اختزالية مادية واحدية، رغم المصطلح الروحي الذي تستخدمه. ولذا بدأ يبحث عن فهم أكثر عمقًا وتركيبية للحياة لا يهمل الجانب الروحي غير المادي. (هذا النمط نعرفه تمامًا في العالم الإسلامي والعالم الثالث، فكثير من مثقفي العالم الثالث عادة يبدأون تطورهم الثقافي بتبني رؤية فلسفية مادية تؤكد العام على حساب الخاص، ولكنهم تدريجيًا يتحولون عن هذه الرؤية ويتبنون رؤية للإنسان والمجتمع أكثر تركيبية وإنسانية، ويبدأون في اكتشاف خصوصية التشكيلات الحضارية والاجتماعية التي نشأوا فيها ويرفضون قوانين المادة العامة التي لا تفرق



قصيدة الملاح القديم (في سبعة أقسام)
صمويل تايلور كوليردج
ترجمة وتعليق: عبدالوهاب المسيري
رسوم: رباب نمر

The Rime of the Ancient Mariner
(in seven Parts)
Samuel Taylor Coleridge
Translation and Commentary by
Abdelwahab Elmessiri
Drawings by Rabab Nimr

القاهرة: دار الشروق: طبعة باللغتين العربية والإنجليزية

بين مجتمع وآخر، أو بين الإنسان والطبيعة. وقد ازداد هذا النمط تبلورا مع فشل الحداثة فى تحقيق كثير من وعودها).

وقصيدة الملاح القديم هى تعبير عن هذا التحول، وفى هذا الإطار تطرح عدة أسئلة هامة:

هل يمكن للإنسان أن يولّد منظومةً أخلاقية من قوانين الطبيعة والمادة ومن العلم الطبيعى المنفصل عن القيمة، بمعنى: هل يمكن للمعرفة العلمية أن تزودنا بمعايير أخلاقية تمكننا من التمييز بين الخير والشر، والعدل والظلم؟ هل تصلح النسبية المطلقة أن تكون الأساسَ المعرفى للمجتمع، والنفعية المادية الأساس الأخلاقى له؟ وحينما تنطبع التفاصيل والمعطيات المادية الحسية المتناثرة على دماغ الإنسان.. هل يمكن أن تترابط بشكل آلى من تلقاء نفسها، وتتحول إلى مدركات عقلية كلية ومفاهيم مجردة (مثل الأمانة والوجود والشكل والمضمون) دون تدخل العقل الإنسانى؟

مثل هذه الأسئلة لم تواجه كوليردج وحده، وإنما واجهت كثيراً من مفكرى وأدباء القرن التاسع عشر فى الغرب، تماماً كما تواجهنا نحن الآن فى العالم الثالث وفى عالمنا الإسلامى مع تصاعد معدلات التصنيع والتحديث والعلمنة. وتجيب قصيدة الملاح القديم على هذه الأسئلة بالنفى، من خلال قصة يظهر من خلال صورها وبنيتها الاحتجاج الرومانسى الإنسانى على الحداثة النفعية المادية المنفصلة عن القيمة، (والتى سنسميها «الحداثة الداروينية»).وتطرح بديلا لهذه الرؤية.

والقصيدة التى بين أيدينا تصور الملاح القديم فى بداية أمره باعتباره إنساناً يعيش فى عالم الحواس الخمس، عقله صفحة مادية بيضاء، مجرد مرآة تعكس سطح ما حولها بدون حذف أو إضافة. ينطبق عليه ما قاله أحد فلاسفة عصر الاستنارة: «لا يوجد فى العقل ما لم يكن موجوداً من قبل فى الواقع المادى». فالملاح القديم من ثَم هو رمز العقل المادى/ الطبيعى، الذى يعكس الواقع المادى بطريقة فوتوغرافية متلقية دون أن يلعب الوجدان أو الخيال أو الحس الخلقى أى دور فى عملية الإدراك. ولذا يخفق هذا العقل فى إدراك المعنى العميق للكون بكل ما فيه من قداسة وتركيبية وإبهام، والتى يرمز لها طائر القطرس الأبيض. وهذه الرؤية المادية للواقع عادة ما تتسم بالثنائية الحادة وتتأرجح بين قطبين متنافرين:

فالملاح القديم هذا إنسان طبيعى/ مادى، يعيش فى الطبيعة، ويتصور أن عقله المادى قادر على التحكم فى الطبيعة وتسخيرها وإخضاعها لإرادته، ولكنه فى واقع الأمر جزء لا يتجزأ من الطبيعة ولذا فهو خاضع لقوانينها وحتمياتها. غير قادر على الانفصال عنها أو التأمل فيها أو تجاوزها، ومن هنا يأتى تأرجحه بين عالم تهيمن عليه الإرادة الذاتية التى لا تحدها حدود من ناحية، وعالم يذعن فيه الإنسان للقوانين المادية الموضوعية أو تجرفه سيولة المادة، من ناحية أخرى: عالم صلب مغلق، قوانينه المادية حتمية من جهة، وعالم سائل أجزاؤه متناثرة، تبدو وكأنها لا تحكمها إلا الصدفة العبثية من جهة أخرى، وفى كلتا الحالتين لا يملك الإنسان من أمره شيئاً.

وإذا أردنا التعبير عن هذه الفكرة بمصطلح نفسى، فيمكن القول إنه لا توجد مسافة بين المثير والاستجابة فى حالة الملاح القديم؛ فهو بوصفه إنساناً طبيعياً/مادياً، منكفئ تماماً على ذاته، يستجيب بشكل مباشر للواقع المادى من خلال عقله السلبى المتلقى، دون وساطة أى خرائط إدراكية أو رموز أو مثاليات، وخارج أى سياق تاريخى أو أخلاقى لا تحد استجابته المباشرة أو إرادته المطلقة أيةُ حدود أو سدود أو قيود ولا يلتزم بأية معايير. ولكنه فى الوقت ذاته -ولأنه لا توجد مسافة بينه وبين واقعه المادى- يخضع خضوعاً تاماً للواقع المادى الخارجى الذى لا يمكنه إعادة تشكيله أو صياغته؛ إذ يتحكم فيه جهازه العصبى أو غرائزه أو بيئته أو حدوده (الطبيعية المادية) تحكماً كاملاً.

ومن الناحية الأخلاقية يمكن القول إن هذا الإنسان الطبيعى إنسان أنانى لا يرى أبعد من مصلحته المادية الضيقة، ويحاول قدر طاقته تحقيقها. ولكنه فى الوقت نفسه لا ذات له، فهو خاضع للحتميات المادية. وهو قد يعرف ثمن كل شىء، ولكنه لا يعرف قيمة أى شىء، فالثمن كَمٌ وسطح وظاهر، جزء من عالم المادة بقوانينها الصارمة، أما القيمة، فكيف وعمق وباطن، جزء من عالم الإنسان الحر.

ولأن الملاح القديم لا يدرك إلا الثمن ولا يعرف القيمة، فهو لا يستطيع التمييز بين الخير والشر، أو بين الجمال والقبح، أو حتى بين الباطن والظاهر، أو بين الجوهرى والعَرَضى، أو بين العام والخاص ولا يرى أية قداسة فى الإنسان أو الطبيعة فهو حبيس حدوده المادية الضيقة، ولذا حين ينظر إلى العالم فإنه لا يدرك مغزى ما حوله. وقد اختار كوليردج شيئاً متواضعاً. طائر القطرس الأبيض، وجعله رمز المقدس والجوهرى والجميل والخاص، فقد حياه البحارة باسم الإله وكونوا معه جماعة تراحمية، كما جعل جريمة الملاح هى قتل هذا الطائر، وبالتالى فإن جريمة الملاح القديم هى جريمة ضد البراءة والمودة والمحبة والخصوصية والتراحم، بل وضد الإنسان ذاته. وهى أيضاً جريمة ضد الإله الذى يتبدى فى تلك القيم المتجاوزة للمادة. فالله وظاهرة الإنسان مرتبطان تمام الارتباط، فالله قد خلق الإنسان على صورته، وجاء فى الذكر الحكيم (نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) (سورة الحشر: ١٩)، لأن من ينسى الله ينسى ذاته الإنسانية، وإذا غاب الله يطبق السقف المادى على الإنسان فيصبح كائناً طبيعياً مادياً، مجموعةً من الأعصاب والغدد والإنزيمات، ليس فيه ما يميزه عن الحيوان الأعجم. وبهذا المعنى يمكن القول إن الملاح القديم لم يكن كافراً بالله وحسب، وإنما كان كافراً بالإنسان والطبيعة أيضاً، فهو لا يرى أى شىء إلا باعتباره مادة استعمالية.

وعبقرية كوليردج كما تتبدى فى هذه القصيدة هى عبقرية استيعابية، وليست استبعادية؛ بمعنى أن خياله كان قادراً على استيعاب عناصر عديدة متنوعة، بل

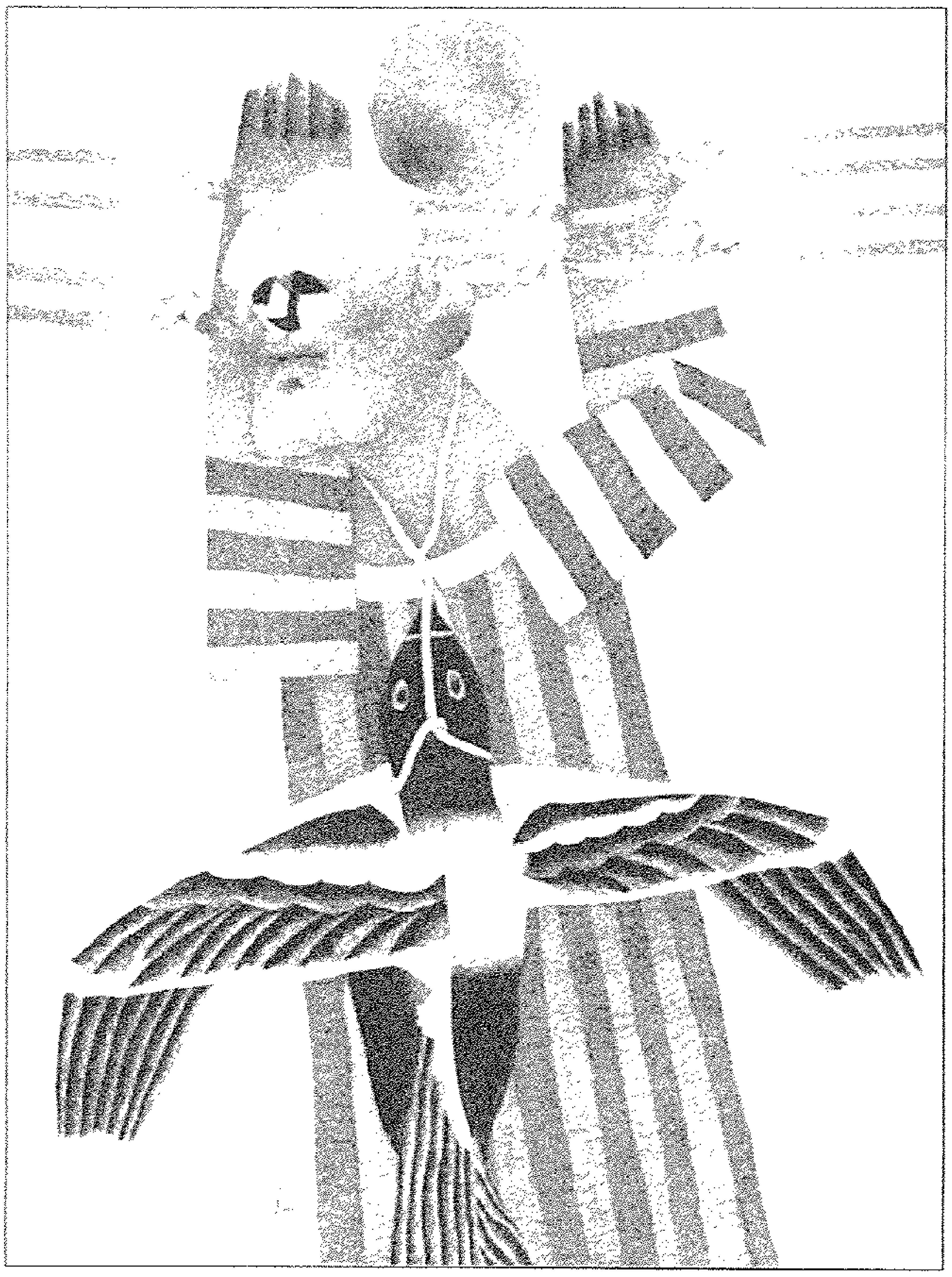
> «إنه ملاَّح قديم
> يستوقف واحداً من ثلاثة
> لم تستوقفنى الآن
> بحق لحيتك الرمادية الكثَّة،
> وعينك البراقة؟»

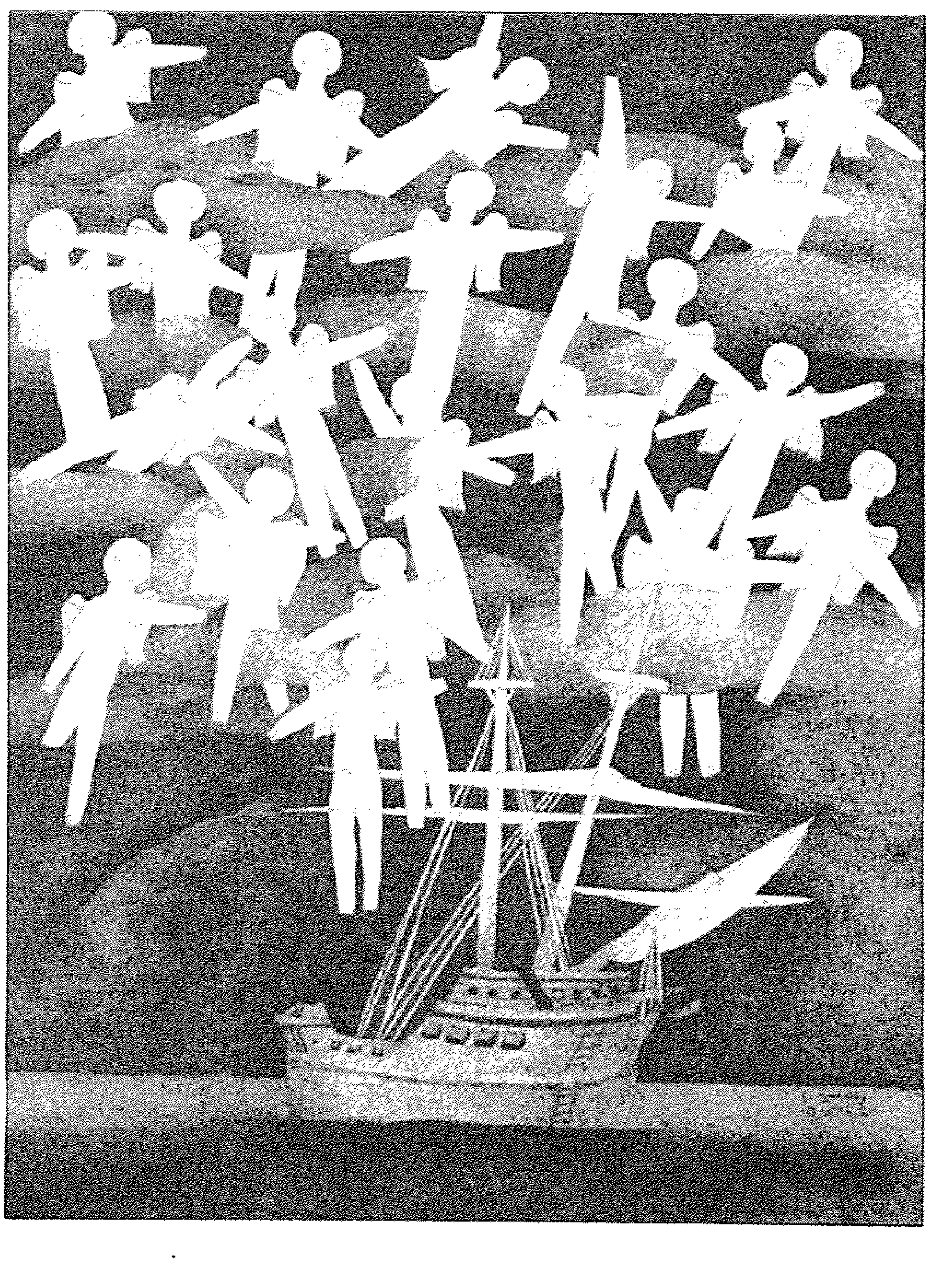
وأحياناً متنافرة، ولكنه كان يتلقاها بخياله ثم يمزجها ويحولها إلى مادة خام يعيد خياله تشكيلها. فعلى سبيل المثال، كان كوليردج يخطط لكتابة أربع قصائد عن عناصر الطبيعة الأربعة (الماء، والنار، والتراب، والهواء) وقصيدتين عن الشمس والقمر، وسابعة عن أصل الشر. ومع أنه لم ينْهِ أياً من هذه القصائد إلا أنه استخدم المواد الخام المرتبطة بموضوعات هذه القصائد فى قصيدة الملاح القديم.

وقد وظف كوليردج المصادر الأخرى للقصيدة بالطريقة نفسها، فقد كان شغوفاً بقراءة أدب الرحلات، القديم والحديث، فكان يلتهمه التهاماً. ومن المعروف أن كوليردج قرأ ألف ليلة وليلة واسترعى انتباهه قصة سندباد ورحلاته العديدة. وقصيدة الملاح القديم فيها أصداء كثيرة من ألف ليلة وليلة: فالملاح القديم نفسه ينتمى إلى نمط سندباد، أى البطل الذى يقوم برحلة بحرية يرتاد من خلالها عالماً مجهولاً. كما أن عنصر الخرافة والعناصر الخارقة للطبيعة تلعب دوراً أساسياً فى العملين وتطورهما. ولكن الأهم من ذلك أن ثمة تشابهاً بين العملين فى البنية، فألف ليلة وليلة هى قصة داخل قصة، فشهر زاد تحكى للملك شهريار قصة كل ليلة، تماماً كما يحكى الملاح القديم قصته لضيف الزفاف. وإذا كانت شهرزاد تستخدم فن القص لتنقذ حياتها، فإن الملاح القديم يحكى قصته ليتخلص من آلامه وليطهر روحه.

وكان كوليردج يقرأ القرآن الكريم فى ذلك الوقت، ووجد الآية الكريمة القائلة: (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ...) (الإسراء:١٣)، ويبدو أنها تركت أثراً عميقاً عليه فاستوعبها وظهرت فى القصيدة حين علق البحارة طائر القطرس الأبيض فى عنق الملاح.

وفى محاولتهم الابتعاد عن عالم العقلانية والنفعية المادية، عالم الصناعة والتجارة والعرض والطلب، أبدى الشعراء الرومانسيون اهتماماً غير عادى بالأساطير، سواء كانت أساطير اليونان والرومان، أم الأساطير الشعبية الغربية، أم أساطير الشعوب الأخرى. والأسطورة هى قصة خرافية يتداولها أفراد شعب ما، تحمل دلالة عميقة بالنسبة لهم. والأساطير فى معظمها تتبع نمطاً متكرراً فى كل الحضارات، مما يشير إلى أنها تنبع من بنية العقل البشرى ذاته. خذ، على سبيل المثال، قصة سندباد، وهو بحار يبحر إلى عالم مجهول، عالم الظلمات والغرائب والعجائب، ثم يعود مرة أخرى إلى عالمنا، ولكنه لا يعود إلا





بعد أن يكون قد توصل إلى معرفة جديدة واستفاد حكمةً عميقة. وقصة سندباد لا تختلف كثيراً عن قصة يوليسيس، فى ملحمة هومر الأوديسة، فهو أيضا يقرر أن يعود إلى موطنه إيثاكا ولكنه يقابل الأهوال أثناء رحلته، وحينما يصل إلى وطنه يكون قد أصبح أكثر حكمة.

وثمة نقاط تشابه بين كل هذه الأساطير من جهة، والقصيدة التى بين أيدينا من جهة أخرى: فالملاح القديم ينتمى لنمط البطل الذى يهبط فى عالم الظلمات ثم يعود بقدر من الحكمة. ولكن ثمة نمطاً آخر أكثر اتساعاً، فالملاح القديم يهبط فى عالم الظلمات حين يرتكب جريمته الشنعاء، ولكنه يشعر بجرمه فيتوب وينوب ويعود: فالنمط هنا هو نمط الجريمة والعقاب والخطيئة والتوبة، وهو ينتمى بدوره إلى نمط أوسع يتمثل فى الانتقال من البراءة الساذجة إلى الخبرة ومنها إلى البراءة المركبة.. تلك البراءة التى ذاق صاحبها مرارة الخبرة، ولكنه استوعبها وتجاوزها. وهذه الأنماط موجودة فى كل الحضارات، بل وفى حياة معظم البشر، بحيث يصعب القول إن هذا التشكيل الحضارى قد تأثر فيها بذلك التشكيل، أو أن هذه الحضارة قد سبقت تلك: فالنمط الأساسى كامن فى لا وعى الإنسان الجمعى.

وقد حاول كوليردج شأنه شأن الشعراء الرومانسيين فى عصره التوصل إلى مفهوم للإدراك يتجاوز السقف المادى والحواس الخمس. وهذه القضية على علاقة وثيقة بمفهوم العقل، فالعقل - حسب التصور الرومانسى- ليس مجرد صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، وإنما له مقدرة توليدية إبداعية. فالإدراك الإنسانى للواقع من منظور رومانسى ليس مجرد رؤية فوتوغرافية تعكس الواقع بحذافيره وبكل تفاصيله، بل هو ثمرة تفاعل عقل الإنسان بكل مقدراته التوليدية ومن خلال عواطفه ومثالياته وذكرياته وأوهامه وأساطيره، مع ما حوله من ظواهر ومع ما يقع له وأمامه من أحداث. ومن هنا يأتى اهتمام الشعراء الرومانسيين بالأحلام؛ فالحلم غير مقيد بالعالم المادى؛ إذ يمكن للإنسان فى حلمه أن يُعمل خياله وأن يتجاوز السطح والحدود المادية ليصل إلى الأعماق. وثمة إشارات عديدة للأحلام فى قصيدة الملاح القديم، فبعض الملاحين يتيقنون فى أحلامهم من وجود الروح التى اجتاحتهم، وتوصف «الحياة فى الموت» بأنها كابوس. وفى لحظة الخلاص يحلم الملاح القديم بأن الدِّلاء الفارغة على سطح السفينة امتلأت بالندى، وحينما يستيقظ يهطل المطر،

ويتداخل الحلم بالواقع، فهو يشرب فى أحلامه ويستمر جسده فى الشرب فى الواقع. وهو فى إغماءته يسمع صوتين (صوت العدل وصوت الرحمة)، أى أنه يدرك ماذا سيحدث له وهو فى حالة أقرب إلى الحلم. وحينما تغرق سفينة الملاح القديم فإنه يجد نفسه «بسرعة كسرعة الأحلام/ فى قارب القبطان». بل يمكن القول إن القصيدة ذاتها تشبه الحلم، فالملاح القديم بلحيته الطويلة ويده المعروقة وعينيه البراقتين ينتمى إلى عالم الأحلام. وكثير من الشخصيات التى تظهر فى القصيدة تشبه الشخصيات التى تظهر فى الأحلام، فهى بسيطة تشبه رسوم الأطفال أحادية البعد، وهى تظهر لتؤدى دورها ثم تختفى دون أن نكتشف أبعادها. ويلاحظ أن العنصر المرئى وتعدد الألوان غالب فى القصيدة، تماماً كما هى الحال فى كثير من الأحلام، ونحن نعرف أيضاً أن فكرة القصيدة ككل بدأت بحلم رآه أحد أصدقاء كوليردج، حيث رأى فيما يرى النائم سفينة أشباح. بل إن كوليردج نفسه يخبرنا أنه أدرك القصيدة فى البداية كما ندرك الحلم، لا كفكرة أو إشكالية وإنما كمجموعة من الصور، ظهرت له كأشكال مجسمة، فحفظها فى ذاكرته ثم ولّد منها قصته الشعرية.

ورغم أن القصيدة تشبه الحلم، فقد نجح كوليردج فى أن يجعلنا نتقبلها على أنها «واقعية» و«حقيقة». فوجود عناصر الطبيعة المألوفة مثل الشمس والقمر والنجوم والرياح أضفى على عالم القصيدة قدرا كبيراً من «المصداقية»، خاصة أن كوليردج يصفها (ويصف كل تفاصيل الحلم) بدقة بالغة. والقصيدة/ الحلم رغم غرابتها تتسم بتماسكها وأن لها منطقها الداخلى مما يجعلها متسقة مع نفسها. ولكن الأمر لا يقف عند حد التناسق الداخلى، إذ أن الحقائق النفسية وكما تصورها القصيدة هى حقائق إنسانية عامة، وبالتالى فهذا الحلم إن لم يتفق والواقع المادى الملموس، فهو يتفق وواقعنا النفسى الإنسانى. لكل هذا نحن نقبل القصيدة تماما كما نقبل الحلم، حيث لا نسأل عما إذا كان حقيقياً أم لا، وإنما نبحث عن معناه وتفسيره ودلالات صوره ورموزه وأحداثه.

كان الملاح القديم فى البداية محصوراً فى عالم الظاهر والطبيعة/المادة، لم يرفضه ولم يعطه ظهره، بل تجاوزه ليصل إلى أعماقه

ومعناه ومغزاه، وأخذ ينتقل بين أرجاء الأرض لينقل حكمته للبشر فى كل زمان ومكان. إن العالم المادى قد يخبئ الروح، ولكنه أيضاً مجال حياة الإنسان، وبالتالى يمكن أن يكون مصدر الرموز والصور التى تشير إلى عالم الروح، عالم الماوراء، فثنائية المادة والروح والسطح والأعماق يتم تجاوزها من خلال الصور الشعرية.

وتنقسم الصور فى هذه القصيدة إلى صور حرفية وأخرى مجازية. أما الصور الحرفية فهى التفاصيل العديدة التى ترد فى القصيدة (مثل الألوان والأضواء والأصوات والسكون والحركة)، وهى تفاصيل توحى لنا بمعان تتجاوز الدلالة المباشرة للتفاصيل المادية. فشكل الملاح القديم ليس مجرد شكل رجل عجوز غريب، وإنما هو يوحى لنا برجل يحمل على كتفه عبء السنين وحكمة الأجيال، وهو مثقل بها. أما الصور المجازية فهى الصور التى تحتوى على عنصرين (كذا مثل كذا): فطائر القطرس يهوى فى البحر كالرصاص. والجليد يزأر ويعوى مثل أصوات تتردد فى غيبوبة. وتختلط هذه الصور وتتماوج لتنقل لنا رؤية الشاعر فى كل تركيبيتها وثرائها، وفى إدراكها للثنائيات والاستقطاب وضرورة تجاوزهما، أو التخفيف من حدتهما.

وتتبدى الثنائية فى مجموعتين متقابلتين من الصور الشعرية. ولكن يتم تجاوزها حين ندرك أن أياً منهما بمفرده لا يشكل الرؤية الكلية فى القصيدة، فما يشكل هذه الرؤية هو جماع هاتين المجموعتين. وتضم المجموعة الأولى منهما صور المطاردة والصيد («كرجل يطارده الصياح والضربات» - «كنت كمن يسير... ولا يدير رأسه... لأنه يدرك أن شيطاناً مخيفاً/ يجد فى أثره، وإنه منه لجد قريب» - «وكأنه يهرب من أحد أشباح البحر» - «وتصرخ البومة على الذئب،/ وتلتهم صغار الذئبة أسفل الشجرة»). وهناك بطبيعة الحال أهم أحداث القصيدة، حينما يقوم الملاح القديم بإطلاق قوسه على طائر القطرس الأبيض فيرديه قتيلاً، فهذه هى قمة المطاردة والصيد.

وترتبط بصور المطاردة والافتراس مجموعة أخرى من الصور، فهناك صور الضياع والوحدة وعدم التواصل والعطش («وما تكلمنا/ إلا لنقطع سكون البحر» - «كنا ساكنين كصورة سفينة» - «مياه.. مياه فى كل مكان/ وما من قطرة واحدة نشربها» - «جف كل لسان عند جذره/ فلم نقو على الكلام» - «لم نستطع ضحكاً أو عويلاً/ فالجفاف ردنا بُكماً» - «وحيداً وحيداً.. وحيداً تماماً/ وحيداً وسط بحر شاسع ممتد»).

ولكن مقابل تلك المجموعة من الصور توجد صور المأوى والملجأ والجماعة والتواصل والارتواء. ولكن الصور رغم تعارضها تتداخل، والقصيدة تبدأ بعرس، وهو اللحظة الكونية التى تؤكد فيه أية جماعة إنسانية نفسها، فعن طريق الزواج والإنجاب يعيد المجتمع إنتاج نفسه. وبعد ذلك يظهر مجتمع البحارة بكل ما فيه من دفء وتماسك («فى مرح أبحرنا/ إلى ما تحت الكنيسة، إلى ما تحت التل»). وهى جماعة تزداد تماسكاً بوصول طائر القطرس الأبيض. ويتبع ذلك رحلة العذاب والتكفير، ولكن تظهر فى الوقت ذاته إشارات لإمكانية عودة البراءة، فحينما تصل السفينة الشبح، يتحول الملاح القديم إلى طفل ويبتهل إلى «أمنا التى فى السماء».

ويظهر تجاوز الثنائيات فى استخدام الألوان فى القصيدة، والتى يوظفها الشاعر توظيفاً متميزاً، فهى ليست مجرد زخرفة وإنما مكون أساسى من نسيج القصيدة، يمنحها قدراً عالياً من «التنوع داخل الوحدة، والوحدة داخل التنوع» (عبارة كوليردج).

ومن أهم الألوان فى القصيدة اللون الأحمر: فالعروس حمراء كالوردة، وبعد ارتكاب الجريمة تظهر الشمس الدامية (بلون الدم الأحمر القانى)، وسط سماء نحاسية ساخنة، وشفتى «الحياة فى الموت» حمراوان، والماء المسحور كان يحترق بلون أحمر ساكن رهيب، وهناك إشارة إلى الأشباح القرمزية. كل هذا يعنى أن اللون الأحمر يظهر فى عدة سياقات متناقضة، أى أنها دعوة لنا ألا نقنع بالثنائيات الاختزالية، فثمة بون شاسع بين العروس (العذراء) من جهة، وبين «الحياة فى الموت» (البغى /الكابوس التى تخثر بالبرودة دم الإنسان) من جهة أخرى، وبين الشمس الدامية التى تظهر حينما يبدأ الملاح فى التكفير عن ذنبه من جهة، والماء المسحور المشتعل والأشباح القرمزية التى تظهر فى لحظة الخلاص من جهة أخرى.

والنمط نفسه نجده فى استخدام الألوان الأخرى، فطائر القطرس أبيض، والثلج أبيض، ونور القمر يلمع أبيض، وجلد الحياة فى الموت أبيض مثل الجذام، ولحية الملاح القديم الرمادية ابيضت بالهرم، وصفحة الخليج ابيضت قبل أن تنبعث منها أشباح قرمزية. كما أن اللون الأخضر يتواتر هو الآخر فى القصيدة فى سياقات مختلفة، فأعماق البحر، بعد ارتكاب الجريمة، أثخنها العفن، ولا يرى الملاح القديم سوى بحر آسن، ويشتعل الماء بلهيب أخضر (وأبيض وأزرق)، وحينما تنزاح اللعنة يرى المحيط الأخضر. وثمة إشارة إلى شهر يونية المورق (الأخضر) وإلى أن وسادة الراهب الطيب من الحطب (الأخضر).

وتلعب الألوان دوراً أساسياً فى لحظة التحول الإدراكى، فالملاح القديم كان يرى ثعابين الماء مجرد أجسام لزجة على قيد الحياة، فى بحر آسن، ولكن حين ينبجس ينبوع الحب فى قلبه فإنه يرى أرديتها الثرية الملونة «من أزرقٍ وأخضر براق وأسود لامع... وفى مسار كل منها بريق من النار الذهبية». إن الثراء اللونى الرمادى الذى يحل محل العالم الرمادى الباهت اللون، هو تعبير عن أن الملاح بدأ يدرك العالم بطريقة مركبة بدلاً من طريقته الاختزالية الأولى، فبدلاً من عالم المنفعة المادية، يظهر عالم المحبة والتراحم والعطاء متعدد الألوان.

وتتواتر فى هذه القصيدة الصور المتعلقة بالصوت (والصمت) أو الصور الصوتية (بالإنجليزية: أوديتورى auditory). فنحن فى بداية القصيدة نسمع الضجيج المرح وأناشيد المنشدين وصوت المزمار، فهى موسيقى عادية وأناشيد عادية فى حفل زفاف عادى. ولكن حين ندخل عالم الملاح القديم تتخذ الأصوات شكلاً مختلفاً تماماً، إذ تهب العاصفة وتتفجر طغياناً وقوة، ونسمع الرعد، والجليد «يزأر ويعوى/ مثل أصوات تتردد فى غيبوبة». ثم يقتل الملاح القديم طائر القطرس، فيحل السكون أو نسمع أصواتاً هى أقرب إلى الصمت منها إلى الصوت: («سكن النسيم ثم سكنت الأشرعة» - «وكنا ساكنين كصورة سفينة طافية/ على مياه البحر»). ويسقط البحارة واحد، إثر الآخر «بهدة ثقيلة» ولكن «دون آهة أو أنة». وحينما تطير أرواحهم تُحدث صوتاً مثل «أزة» قوس الملاح القديم، وهو صوت يذكره بلا شك بجريمته. وحينما يحاول الدعاء يصدر عنه «همس خبيث»، وهى كلها تفاصيل تدل على انسحاب الحياة. ومما يعمق إحساسنا بانسحاب الحياة، أن نيراناً فسفورية تنذر بالموت كانت تتراقص حول صارى السفينة.

ولكن حينما يكمل الملاح القديم التكفير عن ذنبه، يحل محل السكون الملعون الذى يعبر عن الغياب سكون مبارك يعبر عن زوال اللعنة وتبدأ الحياة تدب فى الكون: إذ يصعد القمر فى هدوء ويهطل المطر، وتسبح ثعابين البحر، ولكنه لا يجد كلمات تعبر عن سعادته بسعادتها، فلا ينطق بحرف، وإنما يباركها فى صمت فى قلبه، ولكنه صمت أبلغ من الكلمات، فهو من صمت المحبين، والمحب الحقيقى هو من يعرف أن امتلاءه بالحب تعجز الكلمات عن الإفصاح عنه. عندئذ يسقط طائر القطرس فى البحر كالرصاص (وهذا الصوت يذكرنا «بالهدة الثقيلة» و«بأزة القوس»، ولكن الدلالة هنا مختلفة تماماً).

ومن أهم الصور فى القصيدة صور النور والظلام، فعين الملاح القديم دائماً براقة من البداية حتى النهاية، وعيون البحارة، بعد موتهم، تبرق فى ضوء القمر، وعين المحيط التى تتطلع للقمر هى الأخرى براقة، وهو أمر ملائم تماماً فى قصيدة عن الإدراك، فالعين عضو أساسى فى هذه العملية. ثم تتواتر صور النور المختلفة، فالشمس تلمع متألقة، والشقوق الثلجية ترسل بريقاً مقبضاً، ونور القمر يلمع. وعندما يقتل الملاح طائر القطرس تصعد الشمس باهتة فهى «لم تكن غائمة ولا حمراء». وحينما يبدأ التكفير عن الذنب يتعالى اللهب من الموجة الغربية ويغطى الشمس قضبان، ويظهر العالم المستقطب بوضوح، فحافة الشمس تغوص، وتندفع النجوم بازغة، ويصبح الليل ظلمات بعضها فوق بعض. ولكن مع انتهاء مرحلة التكفير عن الذنب يظهر القمر إلى جواره نجم أو اثنان، ويرى الملاح ثعابين البحر تسعى فى مسارب لامعة

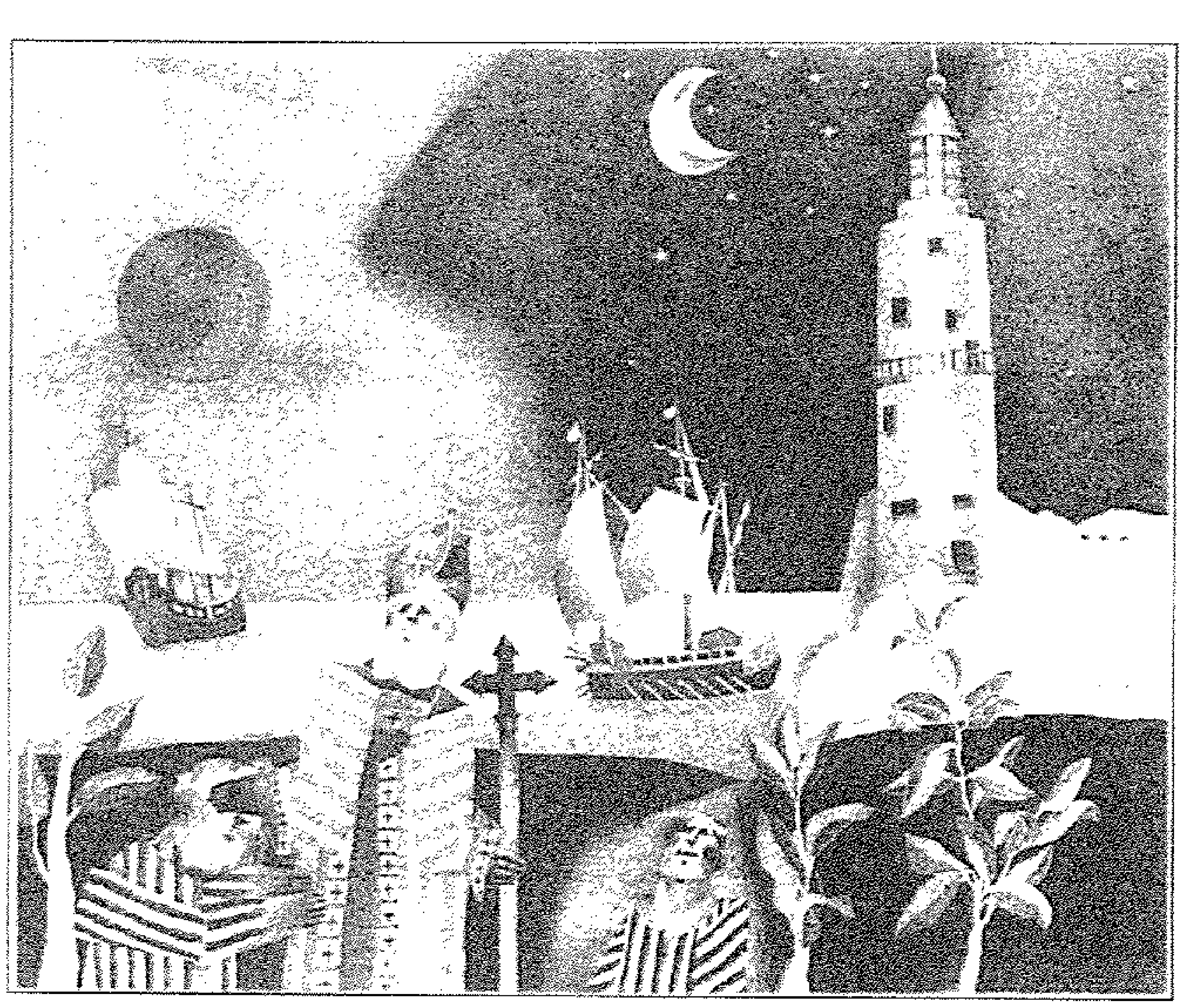
> «الجليد هنا.. الجليد هناك، الجليد كان حولنا فى كل مكان، يتصدع ويهدر.. يزأر ويعوى مثل أصوات تتردد فى غيبوبة»

البياض، والضوء الراقص يتساقط عنها مثل رقائق الثلج. وبعد عدة صور أخرى مستمدة من عالم النور نصل إلى نهاية القصيدة.

ثم تتداخل صور الصوت والسكون والنور والألوان، فضوء القمر انبسط فوق الخليج الذى ابيضت صفحته بنور صامت، وغمر بالسكون مؤشر الريح الساكن، «وكانت الصخرة تتألق وضاءة، وكانت الكنيسة التى تعلوها / هى الأخرى تشع نوراً». وفوق جثث البحارة يرى الملاح القديم رجالاً ملائكيين، من نور خالص، كلٍ منهم نور بديع؛ لا يصدرون صوتاً؛ فالصمت شمل كل شىء. هذا التداخل بين هذه الصور والعناصر هو ذروة عالم غير المألوف، ولكننا بعد أن نصل إلى هذه الذروة نعود إلى عالمنا العادى، الذى نسير فيه ونحيا بعد أن تكون حواسنا قد هذبت وبعد أن يكون الناقد اتسع ورؤيتنا تعمقت.

وأهم صورتين مجازيتين فى القصيدة هما الشمس والقمر، وكل صورة منهما مرتبطة بمجموعة من الأفكار والمشاعر. فالشمس مرتبطة بالعقاب والعدل والإله الذى يحاسبنا على أفعالنا، وهى أيضا مرتبطة بالعقل (فكل شىء واضح فى أشعة الشمس). أما القمر فمرتبط بالتوبة والإله الغفور، كما يرتبط أيضاً بالخيال (فكل شىء فى أشعة القمر مبهم). ومع هذا فلابد من أن نشير إلى أنه لا يوجد ترادف كامل بين الصورة ومجموعة الأفكار والمشاعر التى أشرنا إليها، فمثل هذا الترادف يعنى قبول الثنائية الصارمة التى ترفضها القصيدة. ولهذا، تتخذ الشمس أحياناً مدلولات تتجاوز فكرة العدل، ويتخذ القمر هو الآخر مدلولات تتجاوز فكرة الرحمة. ومعنى الصور غير محدد، فهى تشع المعنى وتوحى به ولا تقرره أو تحدده. كما يلاحظ أن الحقل الدلالى للصور يتسع بالتدريج ويصبح أكثر تركيبية من خلال تطور الحبكة، ولكن الحبكة ذاتها تتطور من خلال الصور.

وترد فى القصيدة بعض الصور الكونية الأساسية مثل صورة الريح التى تهب فتعصف بالقديم وتحمل بذور الجديد، وصورة المطر الذى يسقط فيكتسح فى طريقه العديد من الأشجار (والتقاليد البالية) ويأتى بالحياة الجديدة، وصورة النار المشتعلة التى تبعث الدفء فى أوصال الإنسان ولكنها يمكن أن تأتى على الأخضر واليابس.



هذه الصور الكونية، كامنة فى اللاوعى الجمعى، لصيقة بالوجدان الإنسانى حتى يمكن القول إنها تشبه فى بنيتها بنية العقل الإنسانى. وقد عبر الشاعر الإنجليزى الرومانسى جون كيتس عن هذه الحقيقة بقوله: «نحن كلنا لنا قلب إنسانى واحد». ولعل هذا هو السبب فى أن استخدام الصور الكونية الأساسية أعطى القصيدة قوة غير عادية وحيوية خارقة، فهى تخترق وجدان القارئ بشكل مباشر، بحيث يجد نفسه يمر بالتجربة قبل أن يبدأ عملية التأمل والتفسير والتحليل والتركيب.

كل هذه الآليات مهمة لتجاوز الثنائيات على مستوى الشكل وعلى مستوى المضمون، ولكن أهم آليات التجاوز هى الحب والتراحم، فالملاح القديم يدرك جمال ثعابين البحر ومدى عمق سعادتها فيحبها ويباركها، وهو يفعل ذلك بلا وعى. وبعد أن كانت مجرد أشياء عامة لا خصوصية لها (ألف ألف مخلوق لزج)، توحى باللزاجة والموت، تصبح مخلوقات لها خصوصيتها: ثعابين البحر الملونة التى توحى بالحياة (وهذا عكس ما حدث لطائر القطرس، إذ تحول من طائر فرد فريد يشاركهم طعامهم ولعبهم إلى طائر «من هذه الطيور»). فواقعة مباركة ثعابين البحر هى لحظة التحول الإدراكى والأخلاقى والجمالى الذى طرأ على الملاح، فقد أخفق من قبل فى إدراك جمال طائر القطرس الأبيض حين كان يقبع داخل رؤيته المادية الضيقة، ولكنه نفضها عن نفسه وبدأ يدرك التناسق فى الكون والجمال فى مخلوقات الإله وقيمتها المطلقة. ومما لا شك فيه أن التناسق والجمال والقيمة المطلقة لا علاقة لها بالرؤية النفعية المادية، فهى تقف منها على النقيض. وهكذا اتسعت رؤية الملاح، وتعمق إدراكه، وتهذبت حواسه، وأدرك أن العالم مفعم بالمعنى، وأن مبدأ الحياة يسرى فى كل الكائنات، وأنه ليس وحيداً فى هذا العالم، إذ يشاركه الآخرون فيه. ولذا فهو ينشد فى آخر القصيدة قائلا: «خير من يصلى هو خير من يحب/ كل الأشياء، جليلَها وحقيرها،/ لأن الإله العزيز الذى يحبنا/ خلق الكل وأحبهم». وينتهى به الأمر إلى أن يعود إلى مجتمع الإنسان والتراحم، بعد أن ذاق مرارة الوحدة والتعاقد والقوانين المادية الصارمة.

فى عالم المادة، تغيب القيم والقداسة. ولكن الاختلاف سمة من سمات الوجود الإنسانى، وفى العالم المادى المنفصل عن القيمة، حيث لا توجد نقطة مرجعية نهائية ولا يوجد أى أساس لإصدار أحكام أخلاقية أو جمالية، أو أية مقدسات أو مطلقات، تظهر القوة كآلية وحيدة لحسم كل أشكال الاختلاف أو الصراع، ويصبح من المنطقى أن يقوم القوى بتوظيف العالم لحسابه وحوسلته (أى تحويله إلى وسيلة). وتغيب الغاية، أو تصبح الغاية هى تحقيق الذات دون أى احتكام لأية قيمة خارجة عن إرادة هذه الذات. ويظهر قانون واحد: «القوة هى الحق». هذا هو عالم هوبز وماكيافللى وداروين وهتلر، العالم الذى يردى البراءة والخير وطائرَ القطرس الأبيض صرعى، والذى يحول العالم إلى مادة استعمالية.

من هذا المنظور يمكن القول إن الملاح القديم هو أيضا الإنسان الإمبريالى المتمركز حول ذاته والذى تسيطر عليه عقلية الغزو والذى لا تعرف شهوته أية حدود. ولذا فلابد له من أن يتمدد ويتوسع، ولابد من أن يلتهم الأرض وما عليها ولابد من أن يستعبد الآخرين ويسترقهم. هذه هى رؤية الإمبرياليين وهذا هو خطابهم: الإدراك يؤدى إلى المعرفة، والمعرفة المنفصلة عن القيمة لا تؤدى إلى الحكمة والمحبة وإنما تؤدى إلى القوة وإلى المزيد من التحكم فى العالم وفى الآخرين.

ولكن حين نفض الملاح القديم عن نفسه الرؤية المادية الواحدية فإنه نفض عن نفسه أيضاً الرؤية الإمبريالية وشهوة الغزو والسيطرة، وتظهر رؤية أخرى، ولنسمها رؤية المحبين. والمعرفة -حسب هذه الرؤية- تقرب بين البشر وتجعلهم يدركون إنسانيتهم المشتركة، وبدلا من أن يحاول المرء الهيمنة على الآخرين فإنه يبذل أقصى ما فى وسعه لإسعادهم. وإذا كانت المعرفة الإمبريالية تسعى إلى تشديد قبضة الإنسان على أخيه الإنسان وإلى تسخير الطبيعة لصالحه، فإن معرفة المحبين تؤدى إلى العكس تماماً، فهى معرفة تؤدى إلى ارتخاء قبضة الإنسان، إلى أن تتراخى القبضة تماما. ويجد الإنسان سعادته لا فى غزو الآخرين والهيمنة عليهم واستغلالهم، وإنما فى التوازن مع الذات وفى إسعاد الآخرين. هذا ما حدث للملاح القديم؛ إذ انبثق ينبوع الحب فى قلبه، وبدلا من إحساسه بالحسد تجاه ثعابين البحر أدرك جمالها وسعادتها فباركها دون أن يدرى. وعندها أمكنه الصلاة وانحلت جثة طائر القطرس الأبيض من رقبته. ومباركة ثعابين البحر دون وعى لا تعنى أن الملاح القديم غير مسئول عما فعل، فكما أن الشر جزء من فطرة الإنسان، فكذا الخير، وكما أن الكره جزء من طبيعة الإنسان، فكذا الحب. فتلقائية الفعل لا تعنى بالضرورة عدم مسئولية الفاعل، وإنما تعنى أنه بدأ يدرك العالم لا بحواسه أو بعقله المادى وحسب وإنما بكيانه المركب، حيث يدرك الإنسان الواقع بعقله وقلبه وحواسه وضميره بطريقة تتجاوز الحسابات المرشدة الواعية الضيقة، ويتحول العالم من كونه تفاصيلَ مبعثرةً ميتة، تتحكم فيه الصدفة العمياء أو القوانين المادية الحتمية الصارمة، إلى عالم مترابطة أجزاؤه، مفعم بالمعنى.

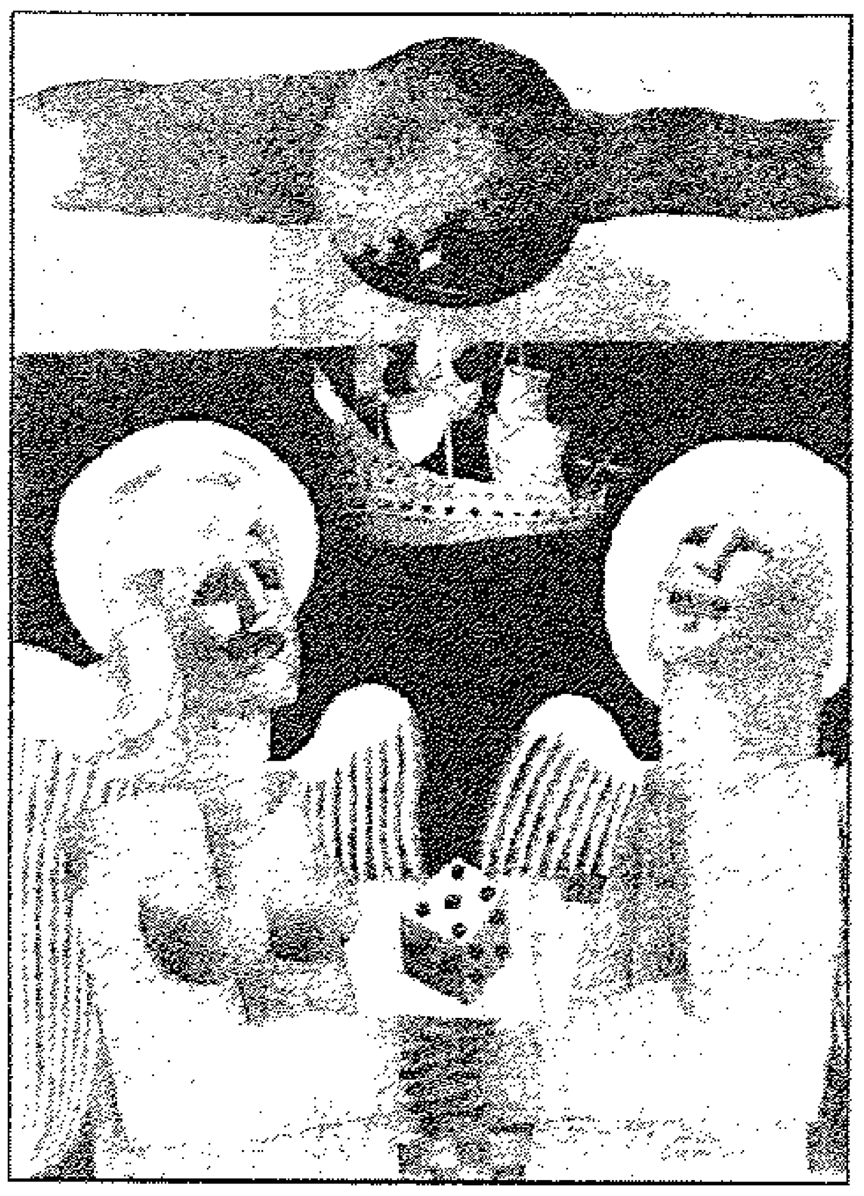
وقصيدة الملاح القديم ذات أبعاد إنسانية عميقة، ولكن مما لا شك فيه أن لها مذاقاً مسيحياً واضحاً. فأحداثها تدور فى العصور الوسطى الكاثوليكية. وهناك إشارات للرموز المسيحية أهمها بطبيعة الحال الصليب (بالإنجليزية:

كروس cross)، والذى يرتبط بطائر القطرس الأبيض (بالإنجليزية: الباتروس albatross). ولعل تشابه المقطعين الأخيرين فى كلتا الكلمتين يؤكد هذه العلاقة. ولكن الرموز المسيحية لا تقف عند هذا الحد فهى توجد على مستوى أعمق. فحينما يصرع الملاح القديم طائر القطرس فإنه يشبه آدم حينما أكل من شجرة المعرفة. ولكن الغريب أن كوليردج جعل ملاحه هو أيضا المسيح حينما يعلق الملاحون جثة الطائر فى عنقه (فكأن الملاح القديم يقف فى النقطتين اللتين يتقاطع فيهما الزمان مع الأزلية، والنسبى مع المطلق، والعقاب مع التوبة. أليس هذا أيضاً محاولة لتجاوز أى ثنائيات صلبة؟). ولكن ما هو أكثر غرابة أن الملاح هو أيضا اليهودى التائه الذى عليه أن يرحل من بلد لآخر عبر الزمان وحتى آخر الأيام تكفيراً عن خطيئته. وهذه الشخصيات الثلاث متناقضة وترمز لأشياء مختلفة: فآدم عكس المسيح، حسب التصور المسيحى، إذ إن اللاهوت المسيحى يذهب إلى «أننا نموت فى آدم ونولد فى المسيح». والمسيح هو عكس اليهودى التائه، فالأول رمز المحبة والعطاء، والآخر رمز الأنانية والحقد. ومع هذا جمع كوليردج بين هذه الشخصيات الثلاث فى شخصية الملاح القديم، وكأنه يود أن يؤكد أن الرؤية الدينية فى عصر الرومانسية والفردية مختلفة عما كانت عليه فى العصور الوسطى. فالفرد هنا هو كل شىء، يرتكب الخطيئة ويعانى ويتوب بمفرده بدون وساطة أى مؤسسة دينية، فقد قتل طائر القطرس فجأة، وبارك ثعابين البحر بالطريقة نفسها: وهو الذى أنكر مبدأ الحياة الذى يسرى فى الكون بأسره وهو الذى أعاد اكتشافه.

ومغزى القصيدة قد يكون مبهماً بسبب تركيبها، ولكنه ليس غامضاً. فثمة أمور واضحة تماماً، وهو أن ثمة جريمة جَهنمية شنعاء قد ارتكبت ضد المقدس، مما يضع مرتكبها خارج حدود ما هو إنسانى، وأن من ارتكب الجريمة قد تم عقابه فشعر بالذنب والعجز، فينفض عن نفسه رؤيته المادية، فتاب وعاد إلى عالم الإنسان. والمغزى الأخلاقى للقصيدة أمر يصر عليه الشاعر، حتى إن البعض يرى أن نهاية القصيدة أخلاقية بشكل فَجّ (بالإنجليزية: دايداكتيك didactic). ولكن من الصعب قبول هذا الموقف، فأحداث القصة نفسها تؤدى بشكل عضوى ومنطقى إلى هذه النهاية الأخلاقية، فهى ليست مفتعلة ولا متعسفة. كما أن القصيدة كما أشرنا من نوع البالاد (أغنية شعبية راقصة)، وهذا النوع الأدبى الشعبى عادة ما ينتهى بموعظة أخلاقية واضحة تتفق والمزاج الشعبى، أى أن خاتمة قصيدة الملاح القديم هى تحقيق لقواعد النوع الأدبى الذى اختاره الشاعر ليعبر من خلاله عن رؤيته.

ومهما كان الأمر فإن المغزى الأخلاقى للقصيدة مغزى إنسانى عام، ويمكننا القول أنه يوجد وراء الخطاب المسيحى الغربى نمط عام يشمل الإنسانية بأسرها، ولذا فهو يجمع بين الرؤيتين الإسلامية والمسيحية. ففى محاضرة مشتركة ألقيتها أنا وصديقى البروفسور ديفيد كارول عن الملاح الذى كان يعيش فى الفردوس (مثل آدم) ثم قتل طائر القطرس، (مثلما أكل آدم من الشجرة) وهذان الفعلان أديا إلى سقوطهما، ولكن كليهما يدرك خطيئته فيكفر عنها، ويتوب ويعود إلى البراءة الأولى مرة أخرى. وهذا لا يختلف كثيراً عن النمط الإسلامى حيث يولد الإنسان على الفطرة ولكنه ينسى الله فيسقط، وحينما يتوب وينوب ويتذكر الله، يقبل الله توبته ويغفر له. والإسلام والمسيحية يدافعان عن كثير من القيم الأخلاقية التى تدعو لها القصيدة (تناقض الرؤية المادية مع ظاهرة الإنسان - رؤية الإنسان بوصفه مركز الكون ولكنه لا يملكه لأنه استخلف فيه من قبل خالقه - أهمية مؤسسة الأسرة - أسبقية الجماعة الإنسانية على الفرد - قيمة العدل الممزوج بالرحمة - قيمة التراحم).

واحتجاج كوليردج فى قصيدته على الاتجاه الحديث نحو نزع القداسة عن العالم لا يختلف عن احتجاج بعض المثقفين والأدباء فى الشرق والغرب، فجميعهم يحتج على تلك الحداثة التى تدور فى إطار مادى والتى حولت العالم



إلى «أرض خراب» يتحرك فيها «الرجال الجُوف» (الشاعر الإنجليزى ت. س. إليوت)، أو إلى سجن حديدى (عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر)، والتى شيَّئت الإنسان (الناقد الماركسى المجرى جورج لوكاش)، ونزعت عن الفن صبغته الإنسانية (المفكر الأسبانى أورتيجا يى جاست)، زمانها هو «زمان الحق الضائع/ لا يعرف فيه مقتول من قاتله، ولماذا قتله» (الشاعر المصرى صلاح عبد الصبور).

ويشير المؤلف المسرحى (رئيس جمهورية التشيك) فاكيلاف هافل إلى ما سماه «إسكاتولوجيا اللاشخصى»، وهو اتجاه نحو ظهور القوى اللاشخصية التى لا وجه لها والتى تفلت من التحكم الإنسانى وتشكل تهديداً كبيراً لعالمنا الحديث. وحينما سُئل هافل عن الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع أجاب قائلا: «هذا الوضع له علاقة ما بأننا نعيش فى أول حضارة ملحدة فى التاريخ البشرى. فلم يعد الناس يحترمون ما يدعى القيم الميتافيزيقية العليا، والتى تمثل شيئاً أعلى مرتبة منهم، شيئاً مفعماً بالأسرار. وأنا لا أتحدث هنا بالضرورة عن إله شخصى، إذ إننى أشير إلى أى شىء مطلق ومتجاوز. هذه الاعتبارات الأساسية كانت تمثل دعامة للناس، وأفقاً لهم، ولكنها فُقدت الآن. وتكمن المفارقة، فى أننا بفقداننا إياها نفقد سيطرتنا على المدنية، التى أصبحت تسير بدون تحكم من جانبنا. فحينما أعلنت الإنسانية أنها حاكم العالم الأعلى، فى هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بُعده الإنسانى».

إن الذى سيطر على العالم هو الحداثة الداروينية التى ينظر دعاتها إلى العالم باعتباره مادة محضة منفصلة عن القيمة وعن الغاية، عالم تسيطر عليه النسبية المطلقة والقوة العمياء. هذه الحداثة هى التى أفرزت العنصرية والإمبريالية والسُعار الاستهلاكى، وأنتجت عالماً تحاول كل جماعة إنسانية فيه الهيمنة على الجماعات الأخرى، ويحاول كل فرد فيه أن يهزم الآخرين، فهى حداثة لا تهدد الطبيعة وحسب، بل تهدد ظاهرة الإنسان نفسها.

إن النقد الإسلامى للحداثة المادية الداروينية، شأنه شأن نقد كوليردج، يتسم بالتفاؤل، لأنه رغم إدراكه لطبيعة الشر المتأصلة فى النفس البشرية، يطرح بديلا إنسانياً لعالم الحداثة المادية. هذا على عكس كثير من نقاد الحداثة فى الغرب فى الوقت الحاضر الذين يسجلون احتجاجهم ولكنهم لا يجدون بديلاً، فينتهى بهم الأمر إما إلى الانسحاب من العالم، أو السقوط فى التشاؤم والعدمية (كما هو الحال فى أدب كافكا وكامو على سبيل المثال).

إن كوليردج، شأنه شأن كثير من مثقفى العالم الثالث (بما فى ذلك العالم الإسلامى) فى الوقت الحاضر، يطرح رؤية لحداثة إنسانية غير منفصلة عن القيمة، ترى أن الهدف من الوجود ليس التقدم المادى اللانهائى أو زيادة معدلات الاستهلاك أو غزو الطبيعة والآخرين، وإنما التوازن مع الذات ومع الطبيعة، وأن العالم ميراث لكل البشر وكل الأجيال، ولذا لابد من إعماره لصالح الجميع، وليس لصالح بلد واحد أو شعب واحد.

هذه الحداثة الإنسانية لها جذورها فى كلٍ من الرؤية الإسلامية والمسيحية (وفى تقاليد دينية أخرى). فرغم اختلاف الرؤيتين فى كثير من النواحى العقائدية، فإن ثمة قاعدة أخلاقية إنسانية مشتركة، تضم كل البشر، وتصلح لأن تشكل أساساً لعَقد اجتماعى جديد، ندير على أساسه مجتمعاتنا الإنسانية فى عصرنا الحديث، فتنقذنا من الفوضى الأخلاقية والمعرفية التى نعيش فيها.

والله أعلم ■

> «مضى كرجل فقد صوابه، ذاهلاً عما حوله، وذهبت عنه حواسه. وفى الصباح، فى اليوم التالى، صحا أكثر حزناً.. وأكثر حكمة.»

نيكولا ساركوزي

مشاهد الحرب والحب!

داليا توفيق سعودي

حين اشتد عوده، واستحال الزغب الذي يغطي جسمه الصغير فراء كثيفا استدار ساركوزي ليواجه أستاذه وزعيمه جاك شيراك

ديسمبر ١٩٤٨. في ليلة ظلماء من شتاء قارس البرودة، أمام بوابة محطة المترو بساحة «ليتوال»، في عاصمة فرنسية مصت دماءها الحرب وتدفقت إليها أسراب المهاجرين من أوروبا الشرقية، وقف فتى عشريني طويل القامة، لافت الوسامة، قد بدت عليه مخايل الذلة بعد العز. ورغم ثيابه الخفيفة الرثة، ورأسه الحليق كالأيتام، ووحدته بلا عدة أو مأوى أو ظهير، بدا الفتى مستبشراً كالقادم لتوه من الأعراف إلى الجنة. فلو لم يكن قد فر من المجر لربما كان الآن مجنداً في صفوف الجيش الأحمر، أو محتجزاً في جولاج كئيب في أقاصي سيبيريا. لكن ها هي فرنسا تستقبله، ولا يهم بعد برودة الاستقبال أو وحشة اللقاء. فالعبرة بقابل الأيام، وهو على يقين من إصابة النجاح، كل النجاح. فقط لو كان بوسعه الإفلات من هذا الصقيع! ففي ذلك اليوم البعيد، كان بال ساركوزي نجيبوكساي يقف حافي القدمين... وحول بنصره، التمع خاتم ذهبي يحمل شعار النبلاء المنحدرين من أسرة ساركوزي المجرية العريقة، ذلك الشعار الذي يحمل صورة ذئب يقف منتصب القامة كأنه إنسان، شاهراً سيفاً في يده اليمنى بينما خرج لسانه الطويل من بين أسنان حداد.

مايو ٢٠٠٧. ترى هل جالت تلك الذكرى البعيدة بخاطر الأب وهو يحتفل بوصول ابنه نيكولا ساركوزي إلى قصر الاليزيه؟ يتشابه الأب والابن في كثير من الصفات: نفس الجبهة العريضة، والطموح الجامح، واحتداد الحواس. لكن نيكولا كان، من بين إخوته، الأكثر رفضا للأب الغائب، والأكثر عنفا في تأريته، والأقل موهبة في التحصيل الدراسي.

تنتمي أسرة الأب إلى سهول المجر، ويمتد تاريخها في الماضي إلى القرن السابع عشر. وهم في الأصل من أهل الريف البروتستانت، وقد ترقوا إلى مكانة النبلاء بعد أن أنعم بها الملك فرديناند الثاني على الجد الأكبر للأسرة «ميهالي ساركوزي» لاستبساله في قتال الأتراك على مشارف فيينا في ١٦٢٨. (فليس من المستغرب إذن اليوم أن يستقتل الحفيد نيكولا في رفض انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي).

وكثيرا ما يحكي بال ساركوزي عن حياته في قصر والده جيورجي، والأراضي الشاسعة التي كانوا يمتلكونها، وجيش الخدم الذي كان يعمل على راحتهم، وعازفي الكمان الذين كانوا يحيون أوقاتهم وهم جالسون إلى مائدة الطعام. لكن تلك الذكريات البعيدة تبدو وكأنها مكتوبة بمداد الخيال على أوراق الريح. والثابت في سجلات العائلة أن جيورجي ساركوزي الذي تقلد منصب عمدة «سزولنوك»، وهو في الثلاثين من عمره، قد أثبت كفاءة عالية في النهوض بالمدينة، وفي تحديث مرافقها. لكن الثابت أيضا أنه قد أدين في قضية «قروض سبيير» التي شكلت فضيحة محلية شهيرة في نهاية الثلاثينيات، وتضمنت تفاصيلها انتهاكات واختلاسات وفسادا ورشاوى. وبعد إقالته من منصبه، عمل جيورجي مدير إدارة في مصنع للنسيج على أطراف بودابست.

ومع تصاعد طموحات الرايخ الثالث بألمانيا الهتلرية، قرر ديكتاتور المجر ميكلوس أورتي التعاون مع النظام النازي، بإرسال قوات عسكرية في الحرب على الاتحاد السوفيتي. ومن أسرة ساركوزي، كان بال، هو الوحيد الذي لم يتم تجنيده، فلقد كان لم يبلغ بعد السن القانونية، أما أخواه (أعمام نيكولا) فلقد حاربا في سلاح الخيالة، جنبا إلى جنب مع الجنود الألمان، تحت اللواء الأحمر ذي الصليب المعقوف.

وبعد اجتياح الجيش السوفيتي لبودابست في فبراير ١٩٤٥، واستيلاء الشيوعيين على الحكم، وتأميم الأراضي والممتلكات، يتوفى جيورجي ساركوزي، ويتم تهريب الابن، بال، إلى النمسا، ومنها يتجه إلى فرنسا، في رحلة عذاب مضنية، ليصل إلى باريس في تلك الليلة الباردة من ديسمبر ١٩٤٨. لا يملك إلا خاتم نسبه الأرستقراطي، الذي يحمل شعار الذئب، بعد أن باع في الطريق كل شيء، كل شيء، حتى حذاءه...

وفي باريس، راح المهاجرون المجريون يتكاتفون. فما إن يصل لاجئ جديد حتى يقدموا له المأكل والملبس، ويساعدوه في التحصل على عمل. وبعد أن مل بال عمله الأول في توصيل البضائع، عمل رساما للبورتريهات، فلقد كان يجيد الرسم. وكان الشاب يتمتع بجرأة كبيرة، وسحر يتحدث عنه كل كتبة سيرة نيكولا ساركوزي بإسهاب ممل. وكانت له تطلعات وآمال لا حدود لها، في عوالم المال والشهرة والنساء.

وبعد عام واحد من وصوله إلى باريس، تزوج بال ساركوزي من فتاة صغيرة، حلوة، كان مقدراً لها أن تفتح باب بيتهم حين أتى طالبا وساطة أختها لكي يحصل على وظيفة مدرس رسم. وكانت أندريه. العروس. ابنة الطبيب الفرنسي ذى الأصول الإسبانية اليهودية، الدكتور بندكت مالاه، تحلم بدراسة القانون وممارسة المحاماة. لكن العريس الشاب رفض الفكرة وفرض شرط بقاء العروس بالبيت. ويوم الزفاف كانت هديته لها ثلاثمائة عام من تاريخ أسرة ساركوزي العريقة، وخاتم نسبه الأرستقراطي، الذي يحمل شعار الذئب.

ولقد أسفرت الزيجة عن ثلاثة صبية هم جيوم (٨سنوات)، ونيكولا (٥ سنوات)، وفرانسوا (رضيع). تلك كانت أعمارهم يوم صفق أبوهم باب البيت وراءه وتركهم بعد أن اتفق مع أمهم على الطلاق عام ١٩٦٠، لكي يتزوج

Un pouvoir nommé désir
(سلطة اسمها الرغبة)
Catherine NAY
Paris, Grasset, 2007

Les Sarkozy ,une famille française
(آل ساركوزي، عائلة فرنسية)
Pascale NIVELLE, Elise Karlin
Paris, Calmann Levy,2006

la Saga Sarkozy
(ملحمة ساركوزي)
Christophe Barbier
L'Express,2007

La vraie nature de Nicolas
(الطبيعة الحقيقية لنيكولا ساركوزي)
Michael DARMON
Sarkozy,Seuil,2007.



«سيرة في كتاب»

ساركوزي

من ابنة السفير المجري. وعلى الفور، تعود أندريه إلى دراستها، وتحصل على شهادة كلية الحقوق. وفي الوقت نفسه، راحت تجتهد في تربية الأولاد، تحت حمى الجد الدكتور بندكت مالاه.

من بين الأبناء الثلاثة، نيكولا هو الأكثر شعورا بالوحدة، والأكثر تأثرا من جراء هجران الأب، وهو أيضا الأكثر عنفا وشراسة. كان كثير العراك مع أخيه الأكبر، وبالرغم من أن نيكولا كان الأقصر، فهو أقصر بكثير من جيوم أخيه الأكبر، فإنه كان الأكثر ضراوة وتوحشا. يصف سيرج دانلو، صديق نيكولا، معارك الطفولة بين الأخوين، قائلا: «من بين الاثنين، كان نيكولا هو الأشد خطرا. فلم يكن يتردد في الوثوب على ظهر أخيه، ليمسك بخناقه، ويظل يضغط بساعده على رقبة جيوم، حتى يحمر وجهه، ويطوح بقبضتيه في الهواء حتى يتخلص من نيكولا». (Nivelle et Karlin, p 134).

ولقد استخدم نيكولا ذراعه بطريقة أخرى في موضع آخر. كان ذلك أمام محكمة الأسرة، بعد أن ادعى والده، الذي كان قد حقق ثروة طائلة في عالم الدعاية والإعلان، أنه لا يسعه تقديم أية نفقة لمطلقته وأولاده. فلما رفضت المحكمة الدعوى، جن جنون الصغير وانقض على أبيه فأمسك بذراعه ولواها بعنف خلف ظهره. فما كان من الأب إلا أن استدار ليواجه الابن، ويلقي في وجهه بالجملة التي ظلت تطن في أذنه إلى الأبد: «أنت وإخوتك، ليس لكم عندي من معروف!».

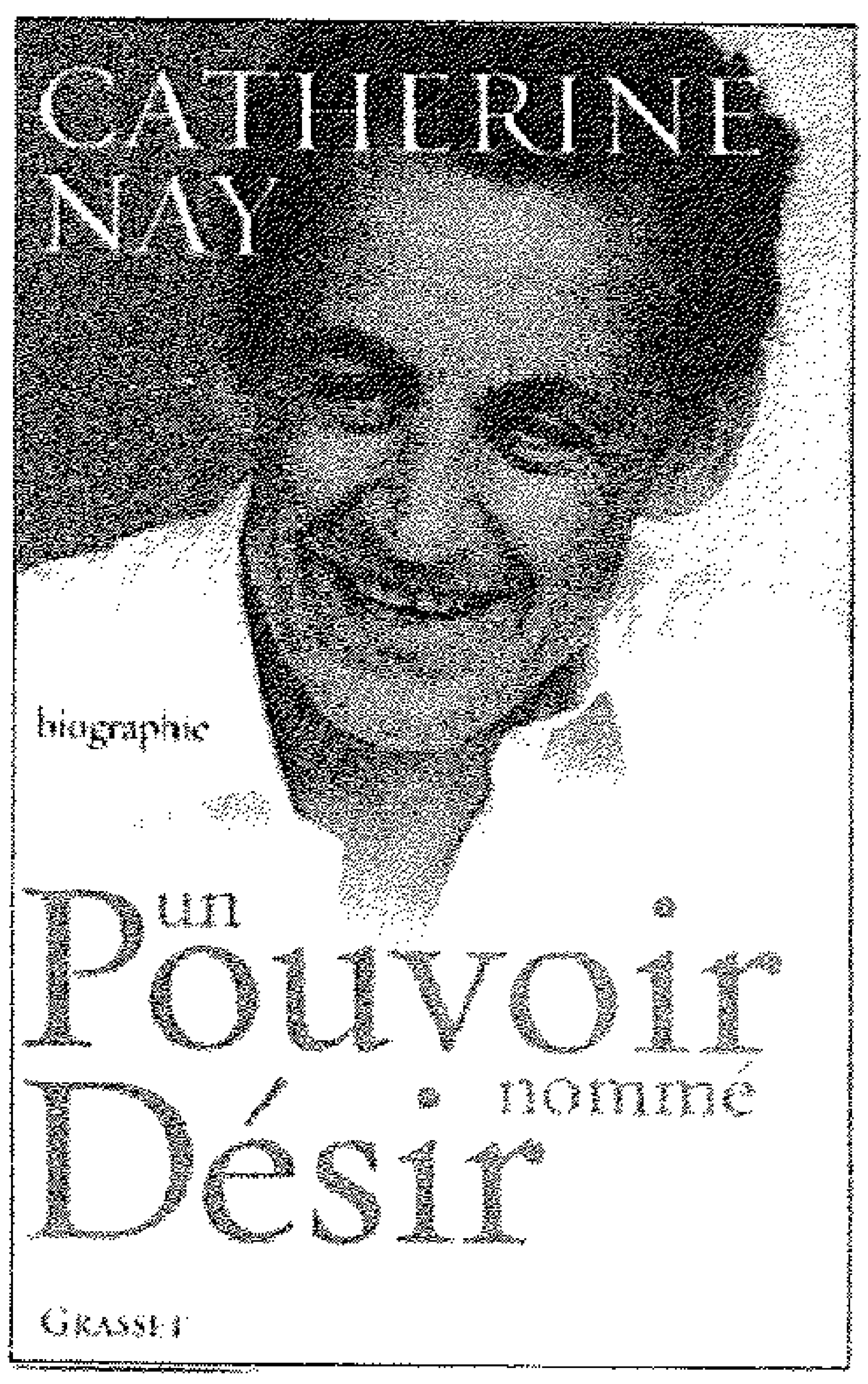
كان نيكولا بشهادة أمه طفلا ممتلئا بالحزن، قليل الكلام، قليل الاندماج مع من حوله، دائم التشاحن مع أخيه الأكبر، لا يخاف أحدا. كان إذا رأى أخاه بادره قائلا: «أنت لن تخيفني». ومن المعروف أن علماء النفس المنتمين إلى المدرسة الفرويدية، الذين اهتموا بتحليل طبيعة الصراع بين الإخوة، يؤكدون أنه في معظم الأحيان حين يتعرض الأخ الأصغر لضغوط الأخ الأكبر فإنه يطمح إلى تخطيه بل إلى التفوق عليه. ويذكر ألفريد أدلر، تلميذ فرويد، إن الأشخاص الذين يشبون وفي دواخلهم شعور بالانسحاق أمام إخوتهم الأكبر سنا، يلازمهم فيما بعد إحساس بالنقص والدونية. أما أولئك الذين يدخلون في منافسة مع الكبار فهم ممن تزداد احتمالات نجاحهم.

ولقد ظل نيكولا رافضا للقاء أبيه طوال أعوام صباه. لكنه وجد العوض الحقيقي في جده الذي كان يحنو عليه، ويجلسه إلى جواره للاستماع إلى خطب الجنرال ديجول. وفي أيام الأعياد الوطنية، كان الجد يحمل حفيده الثائر الشرس المتنمر، ويرفعه فوق الرؤوس، ليتمكن الصغير من رؤية قائد التحرير وبطل فرنسا العظيم، وهو مقبل في موكبه على أنغام موسيقى الحماس العسكرية.

بدايات

١٩٧٥ كان عام المولد الحقيقي لنيكولا ساركوزي. في صباح أحد الأيام من ربيع ذلك العام، كان روبير جروسمان، المكلف من قبل شيراك بتكوين تنظيم شبابي ديجولي تابع لحزب «الاتحاد من أجل الدفاع عن الجمهورية» (UDR)، جالساً في مكتبه حين سمع صوتاً شاباً عالي النبرات آتيا من وراء الباب. في أول الردهة، لمح جروسمان فتى ذا هيئة صبيانية يحمل باقة ضخمة من الورود. شيء ما في ذلك الولد كان يسترعي الانتباه، فبالرغم من قصر قامته كان يتمتع بطريقة فريدة في التعبير عن نفسه وفي استغلال الحيز الفراغي من حوله. بادر الفتى قائلاً إن اسمه نيكولا ساركوزي، وإن عمره تسعة عشر عاما، وإنه يدرس القانون، وإنه ناشط ديجولي من بلدية «نويي سور سين». أما الورود فهو مكلف بتسليمها إلى عنوان بالجوار، إذ إنه يعمل في محل لبيع الزهور للإسهام في تغطية تكاليف دراسته. بدا الفتى ذكيا واثقاً ومفعما بحماس غير مألوف. وعلى الفور ألحقه جروسمان بركبه، وسرعان ما فرضه على اللجنة المركزية للمكتب التنفيذي للحزب، ليصبح ساركوزي المتحدث باسم شباب حزب الـ UDR.

وقبيل أسابيع قليلة من المؤتمر الحزبي الوطني، كان هو الذي وقع عليه اختيار جروسمان للمشاركة في مناظرة تليفزيونية يعبر فيها الفتى عن مطامح الشباب الديجولي الجديد. وقبيل البث بأيام جلس جروسمان يدرب ساركوزي على فن الإلقاء السليم وعلى أسرار المحاججة وتكتيكاتها ومراوغاتها. وحينما كان المعلم يسرف في النقد والتصحيح كان التلميذ يستشيط غضباً، فيداعبه معلمه قائلا: «صبراً، أنت قطعة من الألماس الحر، وعليّ أنا أن أهذبها..». وفي يوم المناظرة، لمع الفتى كما يلمع البرلنت. فقد تجلت مواهبه الفطرية في الكر والفر، والمحاورة والمداورة، وإطلاق السهام وقطع الرقاب، حتى أن شيراك الجالس مع أعوانه أمام التلفاز قد سأل: «ما اسم هذا الصغير؟» فأجابه أحدهم: «نيكولا ساركوزي». فقال شيراك: «لتكن له كلمة يلقيها يوم المؤتمر»... فقد أراد شيراك، رئيس الحكومة آنذاك، أن يكون المؤتمر الوطني بمثابة استعراض لقوى الديجوليين في وجه جيسكار ديستان، استعراض يشرف على إخراجه ومسرحته شيراك بنفسه، كي يجعل منه تذكرة لرئيس بدأ ينسى من كان مهندس نجاحه وقاطرة وصوله إلى الاليزيه.



في حياة كل إنسان، ثمة لحظة يُفتح فيها باب تدخل منه الفرصة وهي تتأبط ذراع المستقبل. وبالنسبة لنيكولا ساركوزي حانت تلك اللحظة يوم المؤتمر الحزبي الوطني بمدينة نيس في ١٥ يونيو عام ١٩٧٥. وقد عرف هو كيف يفيد منها، فيزيد القطاف ويعجل الآجل. فبعد أن ألقى ميشيل دبريه رئيس الوزراء الأسبق كلمة طويلة جدا أنهكت الحضور وجعلتهم يهمون بالخروج من القاعة لالتقاط الأنفاس، صعد نيكولا ساركوزي إلى المنصة بهمة بونابارتية ليلقي كلمة ما إن ابتدأها حتى انتبه الجمع وعاد الوقوف إلى مقاعدهم. لم تكن قوة الخطيب الصغير في آرائه بقدر ما كانت أساسا في حنجرته وفي لسانه، في حاسة الشم الحادة التي يلتقط بها أجواء القاعة، في الطريقة التي ينقض بها على أذن سامعه ليتسرب منها إلى عقله، في أسلوبه الخاص جداً في ضبط حساسية اللفظ مع انتقاء نبرة الصوت وتخير الإيماءات والإشارات والتحكم في تعابير الوجه وإيقاع العبارات. ترشده في كل ذلك سليقة مدربة، وتدبير ممنهج، يقيس المسافة بين المنطلق والغاية بحسابات محكمة، لا تفسح مجالا لبدعة ارتجال، أو تترك حيزا للعبة مصادفة.

وبالرغم من امتلاء القاعة يومئذ بجمهرة من بارونات السياسة الفرنسية الأشداء، لم يلحظ أحد كم كان خطاب الفتى زاخرا ببذور الديماجوجية الكامنة. لكن تلك البذور لم يكن لها ذلك اللون الذي ميز مفهوم الديماجوجية عند الإغريق، حين كانت الصفوة الحاكمة تلصق تلك الصفة بالسفسطائيين الذين كانوا يستخدمون خطابهم كوسيلة للتربح وكسب العيش. وبالمثل، كان خطاب الفتى نائيا عن مفهوم الديماجوجية الرائج اثر اشتعال أوار الثورة الفرنسية، حين كان الاصطلاح يشير إلى الخطيب الذي يسعى لتحريك أرذل ما في الشعب من مشاعر، مثل الغضب والحسد والحقد والخبث، وغيرها من بقية الانفعالات التي سماها سبينوزا في كتاب «الأخلاق» بالـ«انفعالات الحزينة». كانت كلمات ساركوزي في ذلك اليوم تجسد المدلول الحداثي أو ما بعد الحداثي للديماجوجية. ذلك الذي يصفه مسار طالبي السلطان، ويعكسه التجاؤهم لتملق الجماهير، طمعا في تحقيق السلطة والاحتفاظ بها، أيا كانت الوسيلة، ومهما بلغ الثمن، فيما يساير

تنتمي أسرة الأب إلى المجر، وقد ترقوا إلى مكانة النبلاء بعد أن أنعم بها فرديناند الثاني على الجد الأكبر لاستبساله في قتال الأتراك. فليس من المستغرب أن يستقتل الحفيد رافضا انضمام تركيا إلى أوروبا



النهج الذي وصفته دروس مكيافيللي القديمة في كتاب «الأمير».

في ذلك اليوم، كان الزمن المقرر لكلمة ساركوزي دقيقتين اثنتين، فإذا بخطابه يستطيل ليشغل نصف ساعة، تخللتها عدة وقفات، ضجت فيها القاعة بالتصفيق الحار، وراح الكل يتساءل عمن يكون ذلك الفتى الأعجوبة. في ذلك اليوم المشهود، حين انفتح الباب، ولاح المستقبل باسماً أنيقاً، لم يكن يصطحب معه فرصة واحدة فحسب، بل تعلقت في ذراعيه فرصتان يانعتان، تتنافسان في الصبا والجمال. فأفراح ساركوزي، كما هي أحزانه - لا تأتي فرادى عادة. فلقد تلقى دعوة حفية من قبل عمدة بلديته المخضرم أشيل بيريتي الذي سيصبح له دور أساسي في تقريبه من دوائر منصب العمودية. وفي الوقت نفسه، تحدد لنيكولا موعد غداء مع شيراك، تقرر فيه أن يلتحق الفتى النجيب بكتيبة الجوارح السياسية التي أعدها رئيس الحكومة لتكسير عظام فاليري جيسكار ديستان.

في مدرسة الحرب

كان جاك شيراك المدرسة الأولى التي تعلم فيها نيكولا ساركوزي فنون الحرب السياسية. فلقد رأى التلميذ كيف ناصر شيراك الديجولي عدوا لدودا للجنرال ديجول، وهو المرشح جيسكار ديستان، في انتخابات ١٩٧٤، ليمكنه من الفوز على جاك شابان دولما، مرشح الحزب الديجولي (UDR). ثم راقب ساركوزي شيراك الأستاذ وهو يستقر على كرسي رئيس الوزراء في قصر ماتينيون وهو بعد في الحادية والأربعين من عمره. وقتها، سمع الفتى هتافات الغاضبين ضد «شيراك الخائن» تتعالى في صفوف الديجوليين الذين كانوا لا يزالون يمثلون الأغلبية البرلمانية. ثم رأى كيف ينفق رئيس الوزراء الشاب كل وسعه لاسترضاء عشيرته الأولى، إن بالقول المعسول، أو بالود الموصول، أو بالعطاء المبذول. تعلم الفتى أن مثيلة تلك الإجراءات تنشر بلسماً ملطفاً فوق الجروح، وتهيئ عمل المضادات الحيوية العميق، في التعجيل بالشفاء واستعادة الولاء.

رأى الفتى كيف انقض جاك شيراك على زعامة حزب الديجوليين (UDR)، في ديسمبر ١٩٧٤، فيما يشبه السطو المسلح السياسي، حين كان ديستان في رحلة خارج البلاد، فلم يظهر أي من بارونات الحزب الرفض أو الممانعة بعد أن تم حقنهم بمخدر موضعي اسمه «شيراك هو الحل». وكان الفتى في جوار معلمه حين حل هذا الأخير الحزب الديجولي (UDR) وأسس بدلا منه حزبا شيراكيا صرفا يفرغ الديجولية من محتواها، سماه حزب «التجمع من أجل الجمهورية» (RPR). لتتحول الأعوام السبعة لحكم ديستان إلى ساحة تصفية حسابات على طريقة أفلام رعاة البقر، بين قاطن الاليزيه وسيد ماتينيون، الذي استقال ليصبح من ثم عمدة لباريس.

طوال تلك السنوات الأولى، كان الفتى نيكولا ساركوزي يسمع ويرى ويدرس. فيرى معلمه الذي يدعي أنه الوريث الشرعي للجنرال ديجول، قد انتهك كل القواعد التي فرضتها الديجولية. رآه، في تعامله مع الأنداد، يضرب هذا بذاك، ويستعمل هذا على ذاك، لا ينصت إلا لنداء المنفعة، ولا يبطئ في طلب الغاية، مهما كانت الوسيلة. رآه يقتل حينما يكون الضرب كافيا. وقبل مشهد القتل، رأى مشاهد صبره على التخفي وسط الحقول، ترصداً لغفلة الهدف، وتحينا للحظة الانقضاض. والحق أن الفتى قد انبهر بهذا الوحش السياسي الضاري. وفي كل النجاحات التي حققها الأستاذ، كان التلميذ يجري في موكبه، ويذب الطير عن أجوائه، ويمتص كالإسفنج عصير التجربة ورحيق الأيام. ويتعلم قبل كل شيء أن المبادئ والقيم لا بجدر احترامها إلا في حالة نفعها، فإن تحولت إلى عبء مضن فالأولى التحرر منها أو تجاهل وجودها لاسيما في أزمنة المعارك.

في الأعوام الثلاثين التي اقتضاها الصعود السياسي لنيكولا ساركوزي حتى دخل قصر الاليزيه، لم يكن طريقه مفروشا بالورود، ولا ظل هو ذلك الصبي الصغير المكلف بتوصيل الورود. فلقد تعلم مبكراً أن السلطة إنما تؤخذ عنوة، وتخطف من بين فكي الأسد خطفا، لاسيما وأن أهل اليمين في بلاده لا يعرفون إلا لغة التصفية والاغتصاب. فكل المغانم التي حازها ساركوزي في معاركه، ما كان له احتيازها لو لم يكن انتزعها انتزاعا بأسنانه وبمخالبه. كان هو من فرض نفسه في الترشح لوظائفه الأولى، وهو من أسقط أستاذه شارل باسكوا من على صهوة جواده لينطلق هو إلى منصب عمدة نويي، وهو الذي حاز سلطاته داخل حزب الشيراكيين، «التجمع من أجل الجمهورية» (RPR) بقفز الأسوار واختراق الحواجز. وهو الذي انتزع زعامة حزب التجمع من أجل الحركة الشعبية (UMP) بعد ألان جوبيه، حين خبر أسرار فن المساومة واستعان بها على تعنت شيراك. حتى حقائبه الوزارية في الميزانية، وفي الاقتصاد، وفي الداخلية، حازها بالاجتراء، وبالتدافع، وبجذب البسط



من بين الأبناء الثلاثة، نيكولا هو الأكثر شعورا بالوحدة، والأكثر تأثرا من جراء هجران الأب، وهو أيضا الأكثر عنفا وشراسة. وبالرغم من أنه كان الأقصر فإنه كان الأكثر ضراوة وتوحشا

من تحت الأقدام، وبمقارعة الأشداء ومصارعة الثيران، ثم بفرض قواه التي لا يستهان بها في لعبة الموازين والحسابات والكراسي الموسيقية المتبدلة. ولكن أو ليست هذه بعينها هي شروط لعبة السياسة؟

يقول باتريك دوفيدجيان، صديق نيكولا ساركوزي، الذي عمل معه عام ١٩٧٧، في أمانة الحزب (UDR) بمقاطعة «أو دو سين»، بتكليف من رجل شيراك القوي شارل باسكوا، (الذي أزاحه ساركوزي فيما بعد كما أسلفنا): «ما لفتني في نيكولا هو جرأته التي قد تصل إلى حد الوقاحة، وكذلك خياله الجامح. كان لديه تعبير طريف يقول فيه: حينما أكون من غير المدعوين على عشاء، فأنا أطرق الباب، وآتي معي بالطعام. ومن النادر جدا عندئذ ألا يطلب مني رب البيت البقاء حتى يحين موعد العشاء».

والترجمة: «حينما تكون هناك مشكلة قائمة ولا يطلب فيها رأيي، فأنا أبادر بتقديم الحل ثم أفرض وجودي بمنتهى القوة».

ثعلب في الصحراء

وحين اشتد عوده واستوى، واستحال الزغب الذي يغطي جسمه الصغير فراء كثيفا خليقا بأن يقيه البرد القارس فوق الذرى، استدار ساركوزي ليواجه جاك شيراك. فعندما اندفع وزير الخزانة الشاب إلى تأييد ادوار بالادور ضد شيراك في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٩٥، كان يحلم بالقفز إلى قصر ماتينيون، ولكنه لم يكن يعلم أن إخفاقه سيلصق به لفترة طويلة لقب «يهوذا»، الحبر الخائن، وأنه سيتيح له معرفة كم تبدو أنياب معلمه مخيفة من قريب.

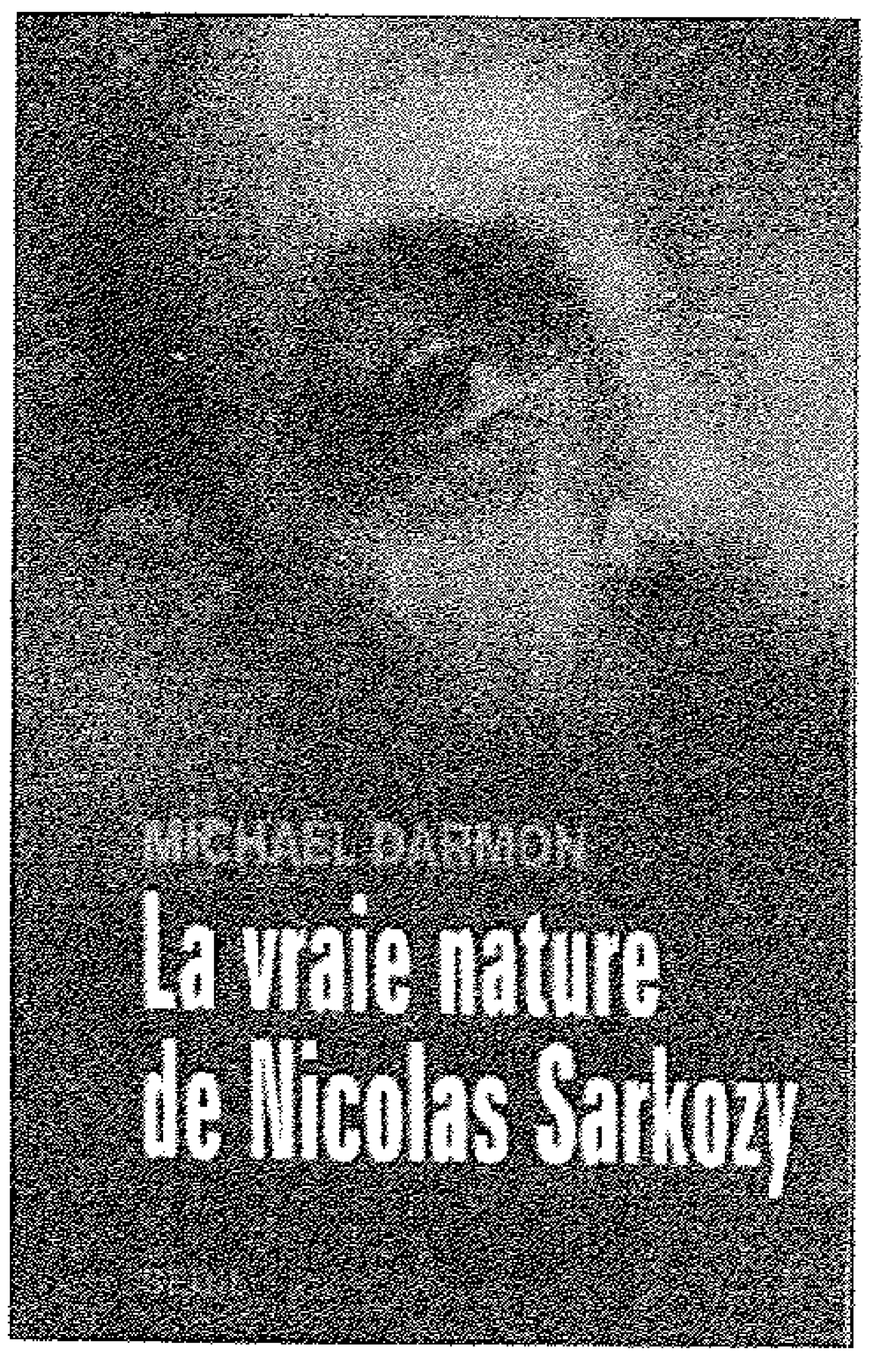
وبعد سقوط قائمته في الانتخابات الأوروبية عام ١٩٩٩، وجد ساركوزي نفسه وحيدا يجتاز صحراء يكاد التعطش إلى استعادة السلطة يرديه فيها. بعد أن فقد الثقة، والحزب، ولقب «فتى اليمين الفرنسي الواعد». لكنه قرر أن يستغل تلك الفترة في شحذ أدواته، وفي ترتيب أوراقه. فكانت ساعة فشله تلك هي بحق اللحظة التي بدأ منها انطلاقته نحو سدة الحكم. إذ راح يعمل وينشط بضراوة الكواسر الجريحة، فيوطد علاقاته بوسائل الإعلام والنقابات والمؤسسات الصناعية الكبرى. فكان منذئذ رجل السياسة المفضل لدى أرباب العمل. راح يزور السجون والمستشفيات وثكنات رجال الشرطة والإطفاء. يسافر كثيرا ويدعو إلى مكتبه في

بلدية «نويي» أهم الشخصيات العامة من كافة الاتجاهات والأطياف. بالطبع في وجود عشرات الصحفيين راح يحاول أن يبني لنفسه ثقافة في التاريخ والحضارة مثل شيراك، ويجتهد في القراءة قدر ما يسعه وقته وعقله، ويشارك في كتابة سيناريو فيلم عن الحرب الفرنسية في الهند الصينية، ويؤلف كتابا سماه «حر» (Libre)، يؤسس فيه لرؤيته الخاصة ليمين ما بعد الشيراكية. وفي كل مكان يذهب إليه، يؤكد رغبته في أن يكون حيثما لا يتوقعه أحد. وفي أن يكون الأمثل والأقدر والأكثر قدرة على الإقناع والتأثير، مؤملا نفسه بأن الفرنسيين يعشقون قصص النجاح والانتصار، وإن كانوا يفضلونها مليئة بالعوائق والانتكاسات والانبعاث كما العنقاء من تحت الرماد، ودليل ذلك أنهم لا يزالون يمجدون أبطالا مثل سيزيف وفينكس وبونابرت. وإن كان انبعاث نيكولا ساركوزي من تحت الرماد يتخذ على لسانه صورة كاريكاتورية، حينما يصف حيرة خصومه وهم لا يزالون يتابعون تكرار صعوده وهبوطه، إذ يقول: «سأكسر رقابهم لكثرة ما يرونني أقفز في وجوههم فور وقوعي على الترامبولين».

ومع قفزته إلى وزارة الداخلية في وزارة جان بيار رافاران ٢٠٠٢، اكتسب ساركوزي صلاحيات مكنته من وضع يده على أجهزة الاستخبارات، وتنظيم الانتخابات. أما في قفزته إلى وزارة الاقتصاد فكانت خطته أن يصنع يوميا حدثا إعلاميا. وإلى جانب الوزارة، انتزع ساركوزي رئاسة الحزب (UMP)، وحوله من آلة حرب شيراكية إلى كتيبة دفاع ساركوزية، وتضخم عدد أعضاء الحزب. وصار كل عضو فيه يعتبر نفسه الحارس الشخصي للسيد الجديد القافز من تحت الرماد، القادم من صحراء السخط والإبعاد، المتجه بسرعة فائقة إلى الاليزيه. وحين عرض رافاران على الرئيس أن يتيح له مشاركة ساركوزي في رئاسة الحزب، أجابه شيراك بقوله المعروف: «اسكت، ففي غضون شهر واحد سيلبسك طبق الشوربة فوق رأسك»...

وإثر رفض الفرنسيين التصديق على الدستور الأوروبي، قدم إلى قصر ماتينيون دومينيك دو فيلبان، الذي يستثير كراهية ساركوزي بوسامته اللافتة، وطول قامته، وقربه من شيراك، وشعبيته التي اكتسبها يوم وقف في مجلس الأمن عام ٢٠٠٣ وعبر عن رفض فرنسا للغزو الأمريكي للعراق. ولما أحس ساركوزي من شيراك الرفض النهائي لاختياره على رأس الوزارة، فرض عودته إلى وزارة الداخلية، وهو المكان الأمثل لأي مرشح أثناء الانتخابات. وبالطبع، احتفظ ساركوزي برئاسة الحزب الذي راح يتضخم إلى جانب الوزارة التي فتحت له الأبواب المغلقة. وحين كان يسأله المقربون: «كيف لك أن تجسد فكرة القطيعة مع حكومة أنت جزء منها؟»، كان يجيب: «سيوفر لي الـ ٥٠٠٠٠٠ شرطي حماية أفضل في مقر الحزب من تلك التي يمكن أن يوفرها لي الـ ٢٠٠٠٠٠ عضو الذين يضمهم الحزب».

وبدا لفترة أن نيكولا ساركوزي يعيش أزهى أيام مجده، وأنه يخطر على طريق معبد موصول في نهايته بقصر الرجوات والصبوات، حين حلت به كارثة يشبه أثرها لدغة عقرب. كان ذلك أثر القصة التي أسهبت في نقلها الصحف بشأن هجر سيسيليا ساركوزي زوجها في صيف ٢٠٠٥، وسفرها إلى نيويورك مع منظم الاحتفالية التي شهدت تتويجه زعيما للحزب. وكانت تلك فرصة عظيمة لكي يسلقه خصومه بألسنة حداد، لكن أحدا لم يفكر في مدى التشابه بين هذه الواقعة وواقعة قديمة، كان ساركوزي فيها الجاني، قبل أن يصبح المجني عليه. وكأن ربات القصاص أرادت أن تسقي الفتى، وهو مشرف على يوم مجده، رشفة من كأس كان قد مدها بيده إلى آخرين...



.. معركة الحب

١٩٨٤. في البداية، بدا الأمر لنيكولا ساركوزي وكأنه بصدد يوم آخر من أيامه المعتادة. فمن صميم مهامه كعمدة لبلدية «نويي» أن يباشر إتمام مراسم الزواج المدني بنفسه، لاسيما حين يتعلق الأمر بزواج المشاهير، حيث تومض عدسات التصوير المتهافتة، ويتزاحم داخل القاعة بياض أهل الفن والسياسة. لذا، ما كان للعمدة الشاب أن يتخلف عن إتمام زواج النجم القدير جاك مارتان. كان هذا الممثل الكبير في بداياته من أهم تلامذة المخرج المسرحي شارل دولان. وكان مارتان قد قفز من نجاح إلى نجاح في المسرح والسينما، كما قدم عدة برامج تليفزيونية مميزة. وفي كل من أوبرا ليون وأوبرا باريس، أدى هذا الباريتون الشهير أدوارا لا تنسى، لاسيما دور الملك مينيلاس، الزوج المخدوع، في أوبريت «هيلينا الجميلة» للمؤلف الموسيقي أوفينباخ، والذي يحكي قصة هروب هيلينا الطروادية مع عشيقها الشاب الأمير جاريس...

هكذا، في صباح أحد أيام الصيف الساخنة، كان عمدة «نويي» الشاب (٢٩ سنة) قد عاد لتوه من أجازة قصيرة قضاها في جزيرة كورسيكا. موطن زوجته . ليجد على مكتبه طلب عقد زواج مدني يوم العاشر من أغسطس ١٩٨٤، مقدم من قبل جاك مارتان (٥٢ سنة) والآنسة سيسيليا سيجاني ألبينيس (٢٦ سنة)... ولكن . أولا . من تكون هذه الحسناء الشابة المولودة بين نساء برج العقرب؟

الأب أندريه سيجاني مهاجر روماني حصل على الجنسية الفرنسية عام ١٩٥٥. يعرفه المجتمع الباريسي الراقي كأفضل مورد للفراء الطبيعي المميز بكل أنواعه. لاسيما فراء الثعالب الناعم النادر. متجره الرئيسي في جادة «بوفو» الأنيقة حيث تقع، على بعد خطوتين من المتجر، وزارة الداخلية. زوجته، تيريسيتا، المعروفة تحت اسم «ديان»، إسبانية الأصل، وتصغره بخمس وثلاثين سنة. جدها هو المؤلف الموسيقي الشهير اسحق ألبينيس، تلميذ دوبوسي الموهوب، ووالدها سفير بعصبة الأمم بجنيف في فترة ما بين الحربين العالميتين. أما هي، تيريسيتا أو ديان، فكانت تمتلك جمالا راقيا وجاذبية نادرة، أورثتهما كاملين لابنتها الوحيدة سيسيليا، التي أجريت لها في طفولتها عملية قلب مفتوح، فشبت وسط أجواء الدلال والتنعيم الزائد في بيت كللته أمارات الثراء والترف وأضاءت ثرياته ليالي الأنس والسمر...

تلقت سيسيليا أفضل تعليم في مدرسة راهبات سانت ماري دو لوبيك الثانوية، ثم التحقت بكلية الحقوق لدراسة القانون، لكنها لم تكمل دراستها الجامعية بعد أن اختطفها عالم الأضواء، واحترفت عرض الأزياء لدى كبريات بيوت الموضة العالمية. وبالطبع كان أول التصاميم التي عرضتها هو إبداعات والدها من قطع الفراء الثعلبي الخلاب...

ولقد خفق قلب الصبية عدة مرات، إذ يبدو أن جراح القلب الذي أجرى لها العملية في صغرها كانت له أصابع سحرية! لكن، في كل مرة، سرعان ما كانت جذوة العلاقة تنطفئ. علاقة واحدة . تلك التي كانت الأقرب إلى الجد منها إلى الهزل . خلفت في قلبها غصة، وأشاعت في داخلها شعورا بالمهانة، وحركت في نفسها رغبة عارمة «ملحة» في الثأر. كانت تلك علاقتها مع واحد من أشهر مصوري مجلة «فوج»، الذي صورها أول مرة وهي تعرض قطع الموسم الجديد من فراء أبيها. وبالرغم من أنه كان يكبرها بعشرين عاما، فقد شغفها حبا وامتلكها تماما، حتى أنها كرست كل جهدها وعلاقاتها لمساعدته ولإدارة شئون عمله وبيته، ثم طافت معه في رحلة بهيجة حول العالم، قبل أن يهجرها قبل أيام من الموعد المقرر للزفاف...

يذكر ساركوزي أن أستاذه وسلفه في عمودية نويي، كان يقول له إن الشيء الوحيد الذي يسليه في هذه المناسبات هو عندما يرنو إلى العروس ويسأل نفسه إن كان يتمنى لو استبدل بحاله حال العريس



كانت جالسة تصف حسرتها لصديقتها في مطعم «بيت الكافيار» قريبا من شارع الشانزيليزيه، حينما تقدم جاك مارتان لتحية الصديقة. وفي أثناء تبادل عبارات المجاملة، لم تبتعد نظرات النجم عن صديقة الصديقة. وفي اليوم التالي، دعا مارتان الصديقتين الشابتين إلى العشاء في منزله. كان يعيش وحيدا بعد أن هجرته زوجته الأولى. وكانت قد أصابته كآبة وأهمه إحباط اثر رحيلها. لكن مع وصول الفتاتين في تلك الليلة، كان الممثل الاستعراضي قد استعاد طلاقته اللسانية ولباقته الفكاهية...

ولقد وجدت سيسيليا في جاك مارتان رجلا مسليا متعدد المواهب. فلقد كان يضحكها في وقت كان فيه قلبها الجريح يحاول التعافي، وكان يطبخ لها أشهى الأطباق بمهارة لا تبارى، ويحدثها في الأدب والتاريخ والأساطير الساحرة، بسعة وعلم لم تشهدهما في محيطها، ويغني لها بصوته القوي الحنون أغاني العشق والهوى، ولا ينسى، قبل النوم، أن يهمس في أذنها بأبيات من الشعر الرقيق الغزل...

كان يدللها كطفلة، ويداويها كأنثى، وكانت هي له عارفة ممتنة، تتقبل قرابين محبته بمنتهى الحفاوة، ولا تألو في المقابل بجهدها لمساعدته ولتدبير شئون عمله وبيته. ولقد شهد لها أصدقاء مارتان، في معظم الكتب التي تناولت تلك الفترة، بمبلغ تفانيها في إسعاده وفي تخليصه من اكتئابه القديم. وبالطبع، لم يفت سيسيليا أن تتصل بصديقها المصور، لكي تقول له بهدوء وثقة: «أنا الآن أعيش مع أشهر رجل في فرنسا»...

ولقد حان موعد الزفاف بعد عامين، في احتفال اقتصر على عدد محدود جدا من المقربين من الأهل والأصدقاء. فلقد كانت سيسيليا تنتظر حدثا سعيدا يتوقع تحققه خلال أيام. ولما كان العريس يقطن بلدية نويي الأنيقة فلقد طلب إلى عمدتها تشريفهم بعقد مراسم الزواج.

ويذكر نيكولا ساركوزي أن أستاذه وسلفه في عمودية نويي، الراحل المبجل أشيل بيريتي، الذي كان يأسف على وقته الضائع في عقد الزيجات، كان يقول له إن الشيء الوحيد الذي يسليه في هذه المناسبات هو عندما يرنو إلى العروس ويسأل نفسه إن كان يتمنى لو استبدل بحاله حال العريس...

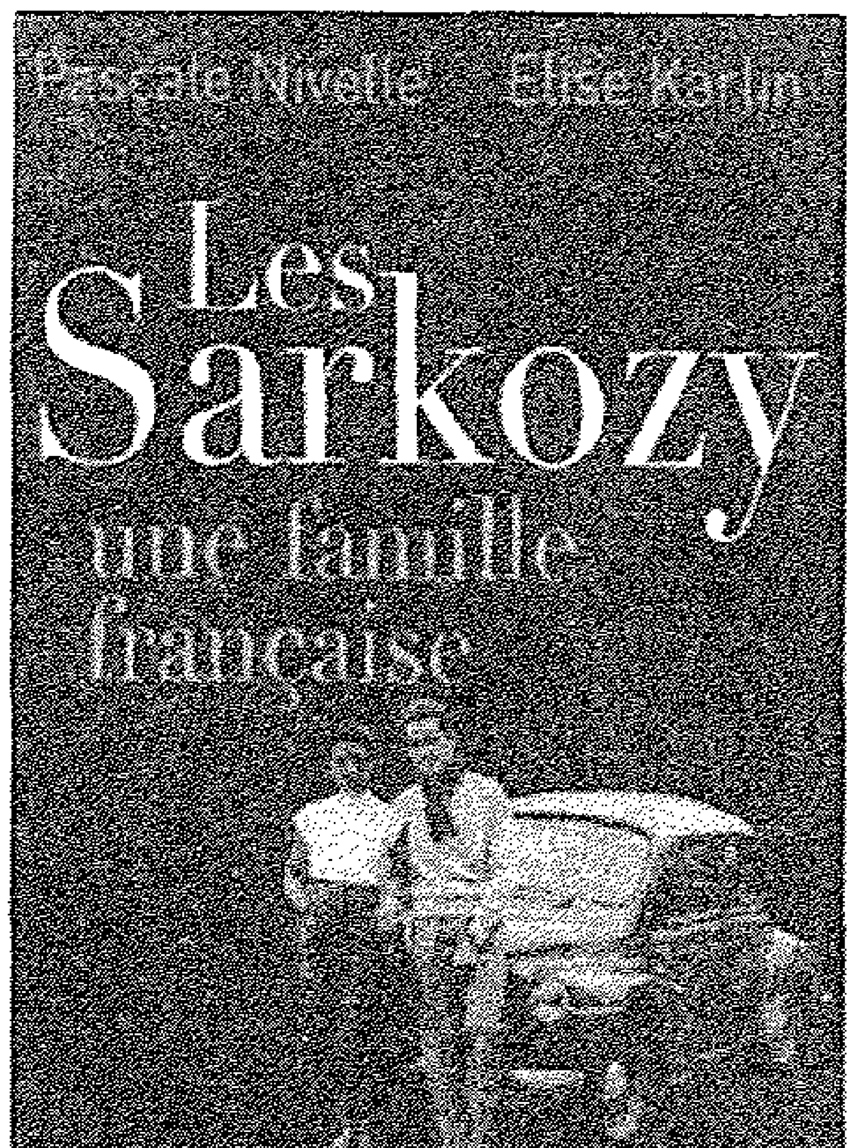
لكن في ذلك اليوم الذي وافق ١٠ أغسطس ١٩٨٤، حين رنا العمدة الشاب إلى العروس، لم يسعفه الوقت كي يسأل نفسه ذلك السؤال. فلقد كانت للصبية نظرة أودت بقلبه، واستقر سهمها فيه فأدماه. وجد نفسه أعزل بلا سلاح ولا مدد ولا عسكر، وهو الذي طالت فتوحاته كل الآفاق. ولكن.. لنعهد بوصف وقائع تلك المعركة الفاصلة إلى كاترين ني، موثقة السيرة الشخصية الرسمية لنيكولا ساركوزي. تقول ني:

«ها هو قد أصابه اضطراب لم يعرفه قط حتى اللحظة. ثمة لهيب يجتاح داخله، لا تفي بتفسيره حرارة الصيف، فهو أشبه بذلك التوهج الذي تحدثه صاعقة الحب من النظرة الأولى. قد سحره حضور الفتاة الذي يحاكي حضور السنيورات مهابة وطغيانا، وعيناها اللتان ترسلان إليه نظرة متنائية كعيني قطة فرعونية، وهيئتها التي تذكره بهيئة جاكي كنيدي. إن فيها كل المواصفات المرجوة في سيدة أولى لهذا البلد. ولعله كان يحدث نفسه في تلك اللحظة قائلا: «ماذا أصنع هنا؟ ما الذي يحملني على تزويج هذه المرأة لرجل آخر وأنا أريدها لنفسي؟ إنها لي.. لي أنا». ولقد وصل به الافتتان إلى الحد الذي لم يلحظ معه أي تكور غير عادي في بطن العروس. وراح يتلعثم وتضيع منه الكلمات، وكاد أن ينسى الخطاب البديع الذي كان قد أعده لتحية النجم، العريس. لكنه تشبث بالورقة رغم ذلك وراح يقرأ. ولكي يداري اضطراب حاله، راح يمطر الزوج بآيات الثناء والمديح، وقد توجه بكامل اهتمامه إليه فلم ينظر إلى سواه. و بعد أن رسم بكلماته تاريخ الفنان ومآثر الرجل، اختتم سيمفونيته الرنانة بحركة موسيقية أخيرة، قال فيها: «يا... جاك، لكم كنت أود اليوم أن أقدم لك هدية لن تكلفني كثيرا من المال وإن كانت لا تقدر عندي بثمن.. لكن للأسف، ليس بوسعي أنا أن أقدمها لك ولا بوسعك أنت أن تقبلها مني، لأنها ليست لها استعمال عندك.. وددت لو قدمت لك هذا الوشاح.. وشاح العمدة الذي أرتديه.»... ولقد كان ذلك إشهارا لمودة غير معتادة، أدهشت الحضور، فلقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يتحدث فيها العمدة بهذه الصورة. أما المحتفى به، الذي أصابه ذهول هو الآخر، فلقد تلقى كلمات الخطيب بتأثر أطفر الدمع من عينيه. ذاك العمدة! ياله من رجل عظيم المروءة! ولكن ما الذي يعنيه بالضبط؟ كان يريد أن يقول ببساطة إنه كان يتمنى لو أن جاك مارتان كان العمدة، وكان هو - نيكولا ساركوزي - العريس...» (Catherine Nay, p144).

بالطبع كانت ثمة رسالة وراء الرسالة، ومعان تتزاحم من وراء عتبة الشعور، فلقد كان نيكولا يريد في حقيقة الأمر أن يوجه خطابه إلى سيسيليا لكي يقول لها: لكم أود أن أقدم لك اليوم ما لا أملكه وما هو ليس بملكك أنت أن تقبليه مني اليوم: الزواج.

وبالطبع أيضا، ما كان بوسع الرجل أن يتزوج من فتاته، لأنه كان متزوجا بالفعل من ماري كوليولي، «درة النساء»، كما كان يلقبها في ذلك الزمان، حين كان الزواج بالنسبة له بوابة الاستقرار، ووسيلته لبناء أسرة سعيدة متحابة، يوفر لها كل ما حرمه منه أبوه حين صفق الباب وراءه وتركه وأمه وإخوته ومضى. ولقد أحب نيكولا أم ولديه بيار وجان كثيرا. وإن لم يمنعه ذلك من تجربة آثار سحره على كل من يلتقيهن على طريق صعوده الدائم من الناشطات الفاتنات، والنجمات الحسناوات، إلى أن كان ذلك اليوم الساخن الذي ضربته فيه صاعقة الحب وأقضت مضجعه: ١٠ أغسطس ١٩٨٤.

في ذلك اليوم، أسرف نيكولا ساركوزي في الإكرام والمجاملة إلى الحد الذي صار معه المقدم على كل أصدقاء العروسين السعيدين. وحين رزق آل مارتان بابنتهم الأولى بعد الفرح بثلاثة عشر يوماً، كان عرابها، الذي تم ترشيحه بإجماع الأصوات، هو بالطبع عمدة نويي الحبيب. أما الطفلة الثانية فكانت عرابتها هي ماري، «درة النساء»...



أضحت الأسرتان لا تفترقان: في المطاعم، وفي المتنزهات، وفي الأسفار، والتزاور بينهما لا ينقطع، وسيسيليا وماري متلازمتان، تنزهان أطفالهما معا، وتشتريان أغراضهما سويا، وإن أرادت ماري تقديم سيسيليا إلى معارفها، فهي تعرفها بوصفها أحب صديقاتها إلى قلبها وأقربهن إلى نفسها. وساركوزي يحضر تسجيل برنامج مارتان الجماهيري الضخم المقام في مسرح «لامبير»، ويجلس في الصف الأول ليحيي النجم في أول كل حلقة ويصفق له الحضور. وفي المقابل كان مارتان وزوجته مدعوين دائمين في جميع حفلات البلدية، وكان نيكولا يزمع أن يجعل جاك عضوا في مجلس البلدية و«تسهيل» اختياره في انتخابات ١٩٨٩.

لكن تلك الصداقة الجميلة ما كان لها أن تدوم. فلقد كان نيكولا عاشقا. وكانت المرأة التي يعشقها هي زوجة صديقه. وهو يقول في روايته لهذه الواقعة إنه قد حاول أن يقاوم. لكن محاولاته باءت بالفشل. وعليه، ففي صباح أحد الأيام قرر السياسي الشاب أن يطبق في الحب مبادئه في الحرب. ولقد أبلى المحب بلاء حسنا في الهجوم، بما عرف عنه من ثبات في البأس، واستذباب في

كان نيكولا عاشقا. وكانت المرأة التي يعشقها هي زوجة صديقه. وهو يقول في روايته لهذه الواقعة إنه قد حاول أن يقاوم. لكن محاولاته باءت بالفشل. وعليه، قرر أن يطبق في الحب مبادئه في الحرب

القتال، ومهارة في الاقتحام. وبإحكام الحصار، واستخدام مدفعية القول المعسول، والود الموصول، والعطاء المبذول. تحقق النصر. واستسلم الحصن من دون مقاومة تذكر. وهجرت سيسيليا ممثل المسرح لتتزوج من ممثل الشعب...

«سيرة في كتاب»

ساركوزي

المشهد الرئيسي

وعودة إلى ذلك اليوم المؤجل من صيف ٢٠٠٥، حين رحلت الزوجة والحبيبة مع رجل آخر، وأقبلت ربات القصاص بكأس المر ليرشف منها الزوج رشفة. فاجأ نيكولا ساركوزي الجميع، فنظر بتحد وثبات في أعين جنيات الثأر الثلاث - وكانت أعينهن جد مخيفة- ثم تناول الكأس من أيديهن وصعد بها على مسرح الحياة العامة ،حيث أدار كل كشافات الإضاءة الإعلامية،التي يملك في جيبه كل مفاتيحها، وإذا به يجرع شراب العذاب جرعا على أعين الناخبين المتعجبين، منشدا مونولوج الملك مينيلاس، المطعون في شرفه، مرددا في ألم و كبرياء فصول مأساته. ها هو الحزن النبيل يغسل سريرته، ها هي الآلام تحمل إليه التطهر، ها هو العذاب يأتي له بالخلاص ، ها هي صحائفه تعود أكثر بياضا من صحائف الأطفال. ها هي المعاناة تصنع منه رجلا جديدا. ها هو الآن قد تأهل تماما لأن يصبح رئيسا لكل الفرنسيين!

و بمثل ما أبدع ساركوزي في استخدام عدة الحرب على جبهة الحب، راح يبدع في توظيف أتراح الحب في إذكاء نار الحرب، و كأن حيزي الحب والحرب يربطهما عنده باب دوار، يدفعه أنى شاء ليدلف من أحدهما إلى الآخر بأقل جهد .وعلى طريقة المسلسلات الأمريكية المطولة، راحت الجماهير تتابع فصول حرب الانتخابات الرئاسية، وقد خالطتها مؤثرات خاصة ، ضخمت الصورة، وحولت المسألة إلى مأساة رجل همام طعنته امرأة غادرة وهو يواجه بفروسية امرأة أخرى متنمرة، هي سيجولان رويايال. فيالكيد النساء ويالشدة مكرهن!

وفي الوقت ذاته ، راح مستشارو الرئيس يصنعون له حلة جديدة تظهر التغيير الذي اعترى الرجل وترسم له بين الناخبين إطلالة جديدة : فالرجل الذي ظل يسهم طوال ثلاثين عاما في تطبيق السياسة الليبرالية التي جلبت على فرنسا الفقر والبطالة والبؤس يتحدث الآن بعبارات زعماء الاشتراكية الكبار مثل جان جوريس وليون بلوم، وصديق حيتان وسائل الإعلام الذي قام بإقالة رئيس تحرير مجلة «باري ماتش» بعد أن صدرت غلافها بصورة الزوجة وعشيقها في نيو يورك يدافع اليوم عن حرية الرأي وهو يساند جريدة «شارلي ابدو» في قضية مفتعلة حول تصدي الإسلام لحرية التعبير، والرجل الذي أبدى فيما مضى استعدادات بليرية صريحة في التعاون المثمر مع إدارة جورج بوش هو اليوم حفيد الجنرال ديجول ونصير المقاومة الفرنسية، أما شرطي فرنسا الأول الذي كان يعتبر شباب الضواحي من «الحثالة» وأنه الذي سيفلح في «تنظيف» فرنسا منهم، هو الذي راح يستضيف في احتفالياته الانتخابية الفرنسيين الأفارقة والمغاربة، ووزير الداخلية الذي عارض مطالب النقابات وطالب بإلغاء حق الإضراب ، ونادى بخفض سن المعاش، ها هو اليوم يحيي ذكرى زعماء الشيوعية الفرنسية: باختصار ها هو محترف التلون والخديعة ، القوي على الضعفاء، الضعيف لدى الأقوياء ؛ يتحدث بتأثر بالغ عن الشرف والفضائل والأخلاق الحميدة. فيالسرعة تقلب عجلة الأيام، ويالحمق القابضين على مبادئهم الثابتين على كلمتهم!

المشهد الختامي

على كل الأحوال، يندرج العهد الجديد تحت شعار القطيعة مع الماضي. ففي يوم احتفال نيكولا ساركوزي بنصره الكبير، حين عزفت فرقة الموسيقى العسكرية مقطوعات «اسحق ألبينيس»، جد سيسيليا، أمام بوابة الاليزيه، انتشرت في الأجواء حالة من التسامح النبيل. فبدا أن العداوات السالفة لم تكن، وأن ذكريات الهجر والخيانة كانت محض سراب، وأن الطعنات الغائرة الغابرة لم تسل دما... لكن الحق هو أن الطقس المشمس في باريس يومئذ قد دعا كل فرد في أسرة الوطن المتحابة إلى ترك فرائه الثقيل في الخزانة.. بدا الرئيس الجديد حفيا بالرئيس المغادر، وبدا الأستاذ فخورا بتلميذه، بدا ساكنا الاليزيه الجديدان وكأنهما عروسان في مستهل العمر، ووقف بال العجوز في كامل بهائه إلى جوار أندريه ساركوزي، وكأنه لم يهجرها يوما. لكن ذلك لم يمنعه بالطبع من مجاملة السيدة بيرناديت شيراك بما عرف عنه من ظرف أبدي لا ينطفئ... ■

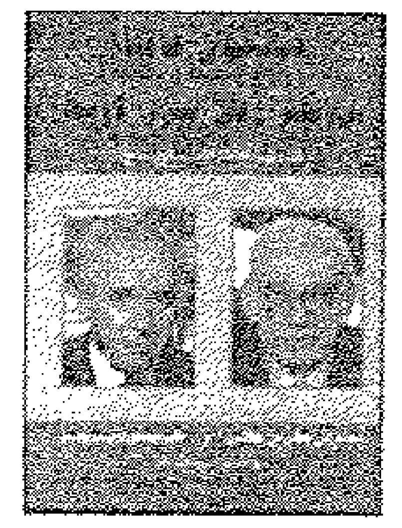


تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

ستون عامًا من الصراع فى الشرق الأوسط

أندريه فيرساى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٤٢٤صفحة



يتضمن الكتاب شهادتين للتاريخ يدلى بهما اثنان من المخضرمين فى سياسة منطقة الشرق الأوسط، ولاعبان أساسيان فى كثير من الأحداث التى مرت بالمنطقة.

بطرس بطرس غالى سكرتير عام الأمم المتحدة السابق، ووزير الدولة للشئون الخارجية فى عهد الرئيس أنور السادات، الذى رافقه فى زيارته الشهيرة للقدس فى عام ١٩٧٧. كما كان أحد المفاوضين الرئيسيين فى اتفاقية السلام العربية الإسرائيلية التى تم توقيعها عام ١٩٧٩م.

وشيمون بيريز رئيس وزراء إسرائيل الأسبق الذى خاض كل معاركها منذ عهد بن جوريون والذى لعب دورًا مهمًا فيما بعد فى التمهيد عبر لقاءات سرية مع مسئولين فى منظمة فتح لتوقيع اتفاقيات أوسلو.

يبدأ المحاور معهما منذ البدايات التى دفعت بكل منهما إلى أتون العمل السياسى، ثم يتوقف معهما عند الأحداث الكبرى التى حددت تاريخ منطقة الشرق الأوسط: ١٩٤٧ خطة تقسيم فلسطين، ١٩٤٨ نشأة دولة إسرائيل، ١٩٥٢ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، ١٩٥٦ أزمة السويس، ١٩٦٧ حرب الأيام الستة (هزيمة يونيو)، ١٩٧٣ حرب السادس من أكتوبر، ١٩٧٧ زيارة السادات للقدس، ١٩٧٨ اتفاقية كامب ديفيد، ١٩٨١ اغتيال الرئيس السادات، ١٩٨٢ حرب لبنان، ١٩٨٧ اشتعال الانتفاضة، ١٩٩٣ اتفاقية أوسلو، ١٩٩٤ اغتيال رابين، ٢٠٠٤ وفاة ياسر عرفات.

ولأنه من الصعب أن نوجز الآراء التى أبداها كل من غالى وبيريز حول هذه الموضوعات المهمة، وهى بالطبع لا يمكن وصفها بالحيادية، إذ إن كلاً منهما يعبر عن وجهة نظر خاصة تجاه هذا الصراع الطويل والممتد، فإننا نشير إلى الخلاصة التى يقدمها كلاهما لهذه المسيرة العسيرة من الصراع العربى الإسرائيلى.

برأى بيريز فإن الدرس الوحيد الذى يمكن استخلاصه، هو ألا نحاول استخلاص دروس من الماضى، وأن نحاول أن نتأمل المستقبل بفكر جديد، إن ما يمكننا أن نطلبه من أجيال المستقبل هو أن يعملوا من أجل أبنائهم، أى من أجل السلام، ألا يحاولوا أن يكسبوا كثيرًا لا سياسيًا ولا عسكريًا، لا تتمسكوا بالمكسب، اكتفوا بالتعايش فى احترام مع الآخرين.

أما بطرس غالى، فقد آثر أن ينقل عن إفراهام بورج الكاتب والمؤرخ الإسرائيلى قوله: مادامت هناك يهودية عنصرية تستند على استعمار عنيف وتحتمى وراء مفهوم أمنى مضلل تسيطر على المخيلة الإسرائيلية، لن تستطيع إحراز أى تقدم.

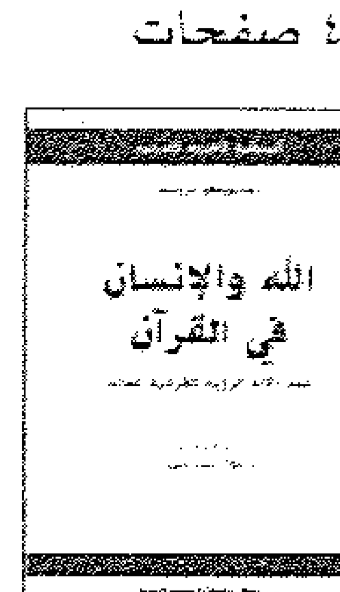
وهو يشير كذلك إلى التطرف على الجانب الآخر، العربى الإسلامى، ويرى أن هاتين النزعتين المتطرفتين مازالتا تسكنان مخيلة الشعبين العربى والإسرائيلى، أما أنصار الحوار والسلام الحقيقيون فهم قليلون جدًا فى المعسكرين، وهو ما يجعل السلام حلمًا بعيد المنال، على الأقل لن تراه الأجيال الحالية.

الله والإنسان فى القرآن

توشيهيكو إيزوتسو

ترجمة: هلال محمد الجهاد

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧، ٤٠٦ صفحات



فى الكتاب رؤية واسعة ومقاربة جديدة لبنية التعاليم القرآنية التى تحدد العلاقة بين الله والإنسان، ومما يدفع القارئ العربى إلى اكتشاف مضمونه أن واضعه عالم يابانى: من ثقافة لا يكاد يعرف العربى عن نظرتها إلى الإسلام شيئًا.

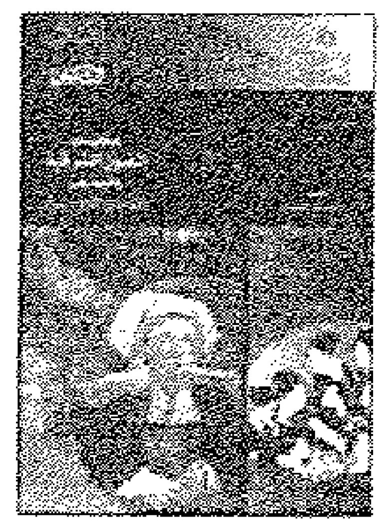
هناك جمع وثيق الربط بين عمق الرؤية الفلسفية ودقة استخدام علم الدلالة أتاح للمؤلف استخراج ما تستبطنه رؤى ومفاهيم أساسية فى القرآن الكريم، كما أتاح له تتبع مساراتها عند العرب، قبل الإسلام وبعد ظهوره، وهو، فى ذلك، وافر المراجع، كثير الشواهد، حريص على توثيق ما يذهب إليه.

قد لا يتقبل القارئ بعض ما جاء فى الكتاب من رأى واستنتاج، هنا أو هنالك، ولكن الأسئلة الكبرى والمثيرة تبقى فى ذهنه، تدفعه نحو مسارات جديدة.

جماليات الفنون الشرقية وأثرها على الفنون الغربية

أمل نصر

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧، ١٩٣صفحة



عبر التجارة، ثم عبر فيض من رحلات الاستشراق التى بدأت منذ القرن الخامس عشر واستمرت حتى القرن التاسع عشر، وكذلك عبر الغزوات الصليبية والاستعمارية، نشأت علاقات متبادلة بين الشرق والغرب، ظهرت تأثيراتها فى الفنون بشكل أساسى، وربما كان «إدوارد لين» أكثر الرحالة الغربيين الذين جاءوا إلى مصر تعبيرًا عن هذا التأثر، فقد عاش بين المصريين كواحد منهم، يأكل ويشرب ويتردد على المساجد بالكيفية ذاتها التى يعيش بها بسطاء الناس فى مصر، حتى إنه أسلم وامتنع عن كثير من العادات التى كان يمارسها بعدما عاد إلى إنجلترا، وقد ترك لنا ثمانية مجلدات منها خمسة عبارة عن رسومات تفصيلية لكل الأماكن التى زارها وكل المناظر التى شاهدتها فى القاهرة وريف مصر وصعيدها، إضافة إلى ثلاثة مجلدات تتضمن وصفًا تفصيليًا لعادات المصريين وسلوكهم، وللشوارع والميادين والحارات، تمامًا كما رآها آنذاك.

ويحفظ لنا تاريخ الفنون كثيرا من اللوحات التى ظهر فيها بوضوح تأثر الفنانين الغربيين بالفنون الشرقية، ولوحة نساء فى الجزائر للفنان ديلاكروا وعديد من لوحات إنجر، تؤكد تأثرهما بالأجواء الشرقية وحياة الناس فى شمال أفريقيا وكذلك بول جوجان وكلود مونيه، أما تأثر فان جوخ بالفن اليابانى فواضح فى كثير من أعماله، كما أن تشريح لوحة بيكاسو يكشف بوضوح عن تأثره بالفنون الشرقية وكذلك الفرعونية والسومرية.

يتضمن الكتاب ٦ فصول يبحث الأول منها فى البعد التاريخى فى علاقة الشرق بالغرب، وتشير المؤلفة بالذات إلى طرق التجارة القديمة والفتوحات الإسلامية، خصوصًا فى بلاد الأندلس وصقلية، ثم الحروب الصليبية التى امتدت لعدة قرون، ويتابع الفصل الثانى ظهور التأثيرات الشرقية فى التصوير الغربى فى عصور النهضة، ثم الاستشراق وعصر الرومانسية، ثم تركيز بشكل خاص على ديلاكروا.

الفصل الثالث يتناول الرؤية الغربية للفنون الشرقية ويناقش ثلاث محطات رئيسية: الوجود الشرقى فى الفكر الغربى، النظرة الغربية المركزية وأثرها فى تقييم الفنون الشرقية، الوعى الأوروبى الجديد بحضارات وفنون الشرق.

ويبحث الفصل الرابع فى الطبيعة كمدخل لفهم جماليات الفنون الشرقية، والأبعاد الروحية والفلسفية لجماليات الفنون.

ويخصص الفصل الخامس للبنية الجمالية للفنون الشرقية، أما فى الفصل الأخير فيتناول جماليات الفن اليابانى وأثرها فى الفن الغربى الحديث، وهو لا يكتفى بتأصيل نظرى للموضوع وإنما يعرض نماذج تطبيقية لهذا التأثر.

ثقافة الفقراء

مجموعة باحثين

(مركز دراسات قناة النيل للثقافة)

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ٢٥٤صفحة



تنبه مؤشرات عديدة إلى تنامى الفقر عالميًا، حتى إن ٨٠٪ من سكان الكرة الأرضية يهددهم الفقر، بما يعنى أن هؤلاء سيصبحون عالة على النظام العالمى، فهم ليسوا قوة منتجة بطبيعة الحال، فضلاً عن كونهم - لفقرهم - لا يمثلون أى قوة شرائية ذات بال، ووفقًا لتقارير الأمم المتحدة فإن نحو ٥٠٠ شخص فى العالم لديهم دخل يفوق دخل ٥٠٠ مليون نسمة فى العالم، وتزداد نسبة الفقراء باطراد، كما أن حاجات الناس تزداد باطراد كذلك ومعها معدلات التضخم، فمازال ٢,٥ مليار إنسان يعيش الواحد منهم بأقل من دولارين فى اليوم، ويعيش أكثر من مليار إنسان محرومين من مياه شرب نقية.

على المستوى المحلى فإن الشعب المصرى هو من أكثر شعوب العالم مكابدة للفقر، والفقراء فى مصر متميزون بحكم تجربتهم الإنسانية والحضارية الطويلة، التى مكنتهم من التعايش مع الفقر، بل التغلب عليه بثقافة خاصة، هى محور هذه الدراسات التى تسعى إلى الكشف عن جذور ثقافة البسطاء والمؤثرات المختلفة فيها ومكوناتها، ثم تجليات هذه الثقافة فى العمارة والأمثال الشعبية والفنون والعادات والتقاليد والسلوك والملابس والمأكولات واللغة، ويلاحظ العالم التربوى

الدكتور حامد عمار مثلاً، أن ثقافة الفقر هي نتاج مؤشرات عولمية على الطبقات الدنيا التي تتشكل منها ثقافة الفقراء، لما تفرضه من تزييف وعي الطبقتين الوسطى والعليا، وهو ما يؤدي إلى تخلخل مقومات التمسك الاجتماعي، وظهور ثقافة العوز المادي والنفسي والاجتماعي، وتفسخ القيم المكتسبة من الريف كقوة دافعة للنهوض بالمجتمع.

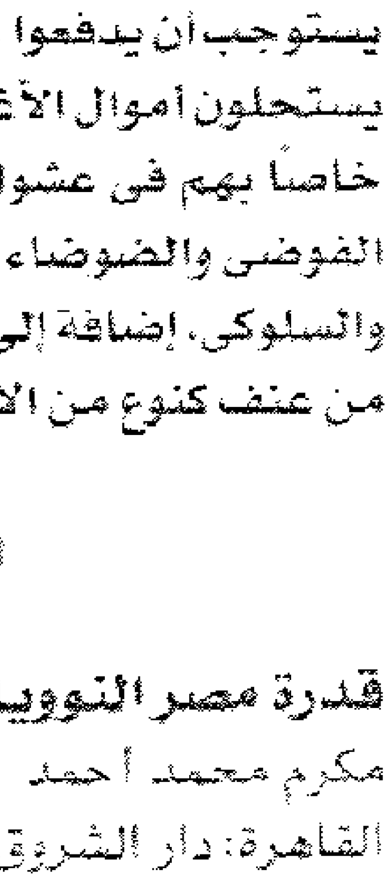
والكتاب يضم عدة أقسام يبدأ أولها بالبحث في جذور ثقافة البسطاء، والمفهوم اللغوي للعامة، والتراث الفرعوني في وعي البسطاء، والتأثير الذي تركته الحقبة اليونانية والرومانية لمفهوم ثقافة البسطاء، ثم يبدأ بالبحث في مكونات ثقافة الفقراء بادئاً بالمكون الديني.

ويلاحظ أحد الباحثين أن كلمة الفقر كمكون اقتصادي لا تعبر عن مستوى واحد من مستويات المعيشة، فهي مفهوم يختلف من عصر إلى عصر، وهي لغوياً كلمة تعني العوز والاحتياج، والفقراء ليسوا نسيجاً واحداً أو ثقافة واحدة، وليسوا كتلة بشرية مصمتة، وكثيراً ما كان لهؤلاء الفقراء من يدافع عن مصالحهم، فقد عرف العصر العثماني طائفة الشحاتين، وكان لهم شيخ للطائفة ليدافع عن مصالحهم، وبشكل عام، فقد أبدع الفقراء أمثلة شعبية تحثهم على تحمل مخاطر الفقر والتعايش معه ماداموا غير قادرين على تغيير واقعهم التعس، ففي أمثالهم الشعبية أن «لقمة هنية تكفي مية»، و«بصلة المحب خروف»، و«جحر الديب يساع ميت حبيب»، لكننا سنلاحظ أن ثمة جوانب سلبية لثقافة الفقراء منها امتناعهم عن دفع الضرائب أو تهربهم منها، وهذا منطقي لأنهم لا يكسبون ما يستوجب أن يدفعوا عنه ضرائب، كما أنهم يستحلون أموال الأغنياء، ويخلقون واقعاً خاصاً بهم في عشوائيات سكنوها، عماده الفوضى والضوضاء والانحراف الأخلاقي والسلوكي، إضافة إلى ما يمكن أن يمارسوه من عنف كنوع من الاحتجاج الاجتماعي.

قدرة مصر النووية

مكرم محمد أحمد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٤٦ صفحة



في عام ١٩٥٥ أعلن جمال عبدالناصر الذي كان رئيساً للوزراء آنذاك تشكيل لجنة الطاقة النووية، وعهد بها إلى الدكتور إبراهيم حلمي عبدالرحمن، وكان خبيراً في التخطيط، وبحراً زاخراً بالمعرفة في مجالات الفيزياء والفلك والكيمياء، وقد خطط الرجل لتنفيذ برنامجه بالتوازي مع عودة عدد من المبعوثين من ثلاثة أجيال متتابعة كان أرسلها إلى الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا لدراسة الكيمياء والفيزياء والإشعاع النووي، ووصل أول مفاعل نووي تجريبي إلى مصر، ليقود هذا الفريق من الباحثين إنشاء مفاعل نووي في أنشاص.

هذا الفريق كان هو النواة الأولى لقوة عمل علمية يزيد قوامها الآن على ألفي عامل وفني ومتخصص، قامت على أكتافهم ٤ مؤسسات نووية مصرية، وقد هاجر منهم كثيرون الآن بعد أن تحول حلم بناء محطة كهرباء نووية إلى سراب في أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧، ثم صحا الحلم من جديد في أعقاب نصر أكتوبر ١٩٧٣، متجسداً في برنامج نووي ضخم يقوم على إنشاء ٨ محطات نووية قدرة كل منها ألف ميجاوات، تعوض مصر عن نقص احتياطاتها من الغاز والبترول التي لا تكفيها لأكثر من ثلاثين عاماً، لكن هذا الحلم أيضاً سرعان ما خبا، بعدما فرضت أمريكا على مصر التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية في الوقت الذي رفضت إسرائيل فيه التوقيع على المعاهدة، إضافة إلى ما أثاره حادث تفجير مفاعل تشيرنوبيل في أوكرانيا عام ١٩٨٦ من مخاوف، ومرة أخرى علقت مصر برنامجها النووي الذي لم يكن قد بدأ بعد إلى أجل غير مسمى.

ومرة ثالثة صحا الحلم، بإعلان الرئيس مبارك عزم مصر على إعادة النظر في تعليق برنامجها النووي، ويكاد الحلم الآن أن يتحول إلى سراب بدواعي البحث عن مكان بديل لموقع الضبعة الذي يصلح - بحسب أصحاب هذا الادعاء - لإقامة مشروع سياحي بدلاً من المحطات النووية، رغم دراسات عديدة أكدت أن موقع الضبعة هو الأكثر ملاءمة لإنشاء محطتين نوويتين في برنامج مصر النووي، خصوصاً أن البحث عن موقع بديل وإعداده قد يستغرق من ٥ إلى ١٠ سنوات، وهو ما يؤدي - ربما - إلى ضياع الحلم للأبد.

المؤلف يطرح سؤالاً مهماً مفاده أن مصر بدأت برنامجها كمشروع في الوقت الذي بدأت فيه الهند مشروعها النووي في إطار علاقة وثيقة جمعت بين الرئيس عبدالناصر ونهرو، فلماذا أخفقت مصر ونجحت الهند التي صارت قادرة الآن على تصنيع محطة نووية كاملة دون الاستعانة بخبرة الخارج، فضلاً عن امتلاكها ٣٠ قنبلة نووية أو أكثر.

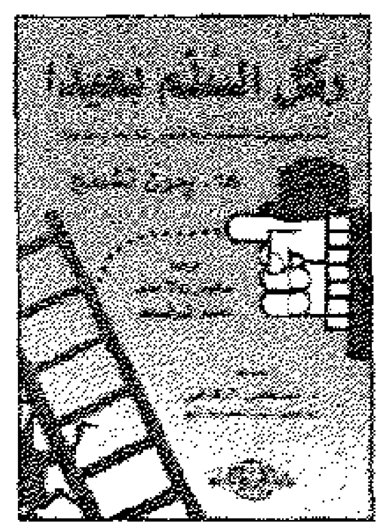
الكتاب يسلط الضوء على أسباب هذا الإخفاق، ويؤكد على ضرورة أن تتمسك مصر بالحلم النووي، ليس من أجل بناء قنبلة نووية، وإنما من أجل مواجهة مشكلة الطاقة التي ستواجه الأجيال المقبلة بصورة أكثر حدة وقسوة.

ركل السلم بعيداً

هارجون تشانج

ترجمة: سجيني دولارماني - عمر الرفاعي

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧، ٢٣٩ صفحة



يكشف هذا الكتاب عن سياسات الدول الصناعية تجاه الدول النامية، والتي تستهدف زيادة الفجوة التكنولوجية والمعرفية، لتستمد الدول النامية برغم حصولها على الاستقلال اسمياً إلى دول تابعة، وفي أحسن الأحوال مجرد سوق لتصريف منتجات الدول الرأسمالية.

من ناحيتها، كان على حكومات الدول النامية التابعة أو العميلة للغرب، أن تبرر لشعوبها أسباب اختيارها لحرية التنمية الرأسمالية على الطريقة الغربية، واعتمد خطابها الإعلامي على شعارات من نوع الحداثة والاندماج في الاقتصاد العالمي والكوكبية وغيرها من المقولات.

ففي الوقت الذي يطالبنا فيه الغرب بفتح أسواقنا لمنتجاتهم وإلغاء الرسوم الجمركية، استحدثوا لديهم قيوداً على صادراتنا، وفي وقت يطالبوننا فيه بإلغاء الدعم على الصناعة والزراعة بدعوى حرية المنافسة، تقوم حكوماتهم بدعم المزارعين، وفيما يطالبوننا باحترام حقوق الإنسان يمارسون أبشع صور التعذيب والتعصب الديني وانتهاك حقوق الإنسان في عديد من العواصم العربية والإسلامية.

ويشير المؤلف إلى السياسات التي اتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية في أعقاب الحرب الباردة والتي دفعت جميعها في اتجاه السوق المفتوحة وتشجيع الاستثمار، في وقت فرضت فيه سياسات حمائية على منتجاتها والمنتجات المصدرة إليها من دول العالم، وهو نفس الأسلوب الذي اتبعته بريطانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى لتحقيق نهضتها الصناعية، وقد خلقت أمريكا مؤسسات لتنفيذ هذه السياسات في دول العالم، وفرضت المؤسسات المالية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي شروطاً واحدة لتحقيق التنمية في دول العالم الثالث، جميعها تدعو إلى الاندماج في السوق العالمية واعتماد التجارة الحرة وسيلة وحيدة لتحقيقها.

ويشير المؤلف إلى أن هذه السياسات التي تطالب الدول الصناعية الدول النامية بتطبيقها، طبقت هي عكسها تماماً في مرحلة انطلاقها الصناعي والتنموي، لكنها ما أن حققت هدفها وانطلقت إلى طور أبعد في التنمية الرأسمالية فإنها سعت إلى «ركل السلم بعيداً»، أي إزاحة الدول النامية عن طريقها، ودعوتها إلى تطبيق سياسات تكرس تبعيتها في حقيقة الأمر ولا تحقق لها تنمية من أي نوع.

وهذا ما يؤكد عليه المؤلف تفصيلاً، بالأرقام والإحصاءات والتحليل التاريخي.

عماد مغنية الثعلب الشيعي

مجدي كامل

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٧، ١٥٤ صفحة



يوجد اسم عماد مغنية على جميع قوائم الإرهاب الأمريكية والأوروبية، أكثر من ٤٢ دولة حول العالم تتعقبه وتتطلع إلى اعتقاله، وهو الوحيد الذي يساوي أسامة بن لادن من حيث قيمة المكافأة المرصودة للقبض عليه، إذ يساوي كل منهما ٢٥ مليون دولار، ولا توجد عملية إرهابية واحدة وقعت في العالم منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١، إلا وفيها اسمه كأبرز المتهمين بتدبيرها.

الإيرانيون يسمونه الثعلب، والأمريكيون يسمونه الحاج القاتل، والإسرائيليون يلقبونه بـ«بن لادن الشيعي».

وهو يعد الرجل الأول في حزب الله، وينسب إليه أنه العقل المدبر لحرب الصيف الماضي بين المقاومة اللبنانية وإسرائيل، ويشار إليه كذلك باعتباره قائد الجناح العسكري لحزب الله، وكذلك بوصفه المستشار الأمني والاستخباراتي للرئيس الإيراني أحمدي نجاد، كما كان قائد الفرقة ١٧ لحركة فتح والمسئول الأول عن حماية الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، وبين أكثر ما يبرع فيه عماد مغنية هو قدرته الكبيرة على التخفي والتنكر التي جعلته بالنسبة لمتعقبيه ليس سوى شبح يستحيل اصطياده، ويقال إنه أجرى عمليات تغيير لملامح الوجه مرتين على الأقل في إيران، كانت آخرهما عام ١٩٩٧، ويقول الأمريكيون إنه أكثر شخص على وجه الأرض قتل أمريكيين قبل هجمات سبتمبر، وقد جرت محاولات عديدة لاغتياله، إلا أنها جميعاً باءت بالفشل، كانت أشهرها تلك العملية التي انطلقت على أثرها مجموعة من السفن الحربية الأمريكية على متنها ٤٠٠٠ من مشاة البحرية الأمريكية في عام ١٩٩٦، في مهمة تستهدف عماد مغنية الذي وصفته وسائل الإعلام الأمريكية بأنه الأخطر على وجه كوكب الأرض.

كان الهدف هو محاصرة السفينة ابن طفيل التي توقعت أجهزة المخابرات الأمريكية أن يكون بين ركابها عماد مغنية، الذي نسبت إليه أمريكا قبل ذلك بنحو شهر

واحد قتل ١٩ أمريكياً فى هجوم بالمتفجرات على ثكنات أمريكية بمدينة الخبر بالمملكة العربية السعودية، ووضعت على متن السفن الأمريكية أربعة فرق قناصة مستعدة لاصطياده حال ظهوره، واقتربت ساعة الصفر، وصارت قوات مشاة البحرية الأمريكية قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفها، وفى اللحظة الأخيرة صدرت الأوامر بإلغاء العملية، إذ تمكن الهدف من الاختفاء تماماً من على ظهر السفينة ابن طفيل. ولكن كيف؟ لا أحد يعلم.

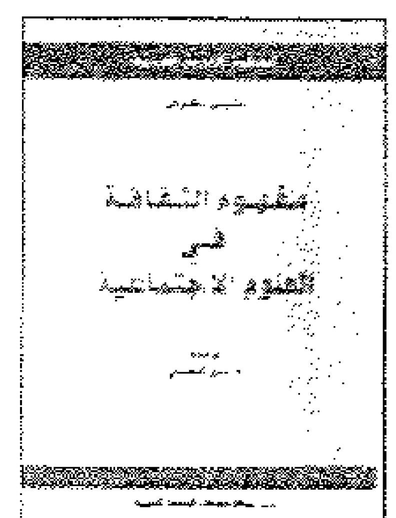
▩

مفهوم الثقافة فى العلوم الاجتماعية

دونيس كوشى

ترجمة: منير السعيدانى

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧، ٢٣٥ صفحة



عرض مختصر، واضح ودقيق، لمسارات مفهوم الثقافة واستعمالاته فى العلوم الاجتماعية. وهو لا يتوجه إلى الطلاب وإلى شباب الباحثين فحسب، وإنما إلى كل المهتمين بأسئلة الثقافة، كما طرحتها العلوم الاجتماعية المختلفة، وإذا اعتبرنا ما عليه مفهوم الثقافة من تسيب فى التعريف والاستعمال، عربياً، تبينت الحاجة إليه أكثر.

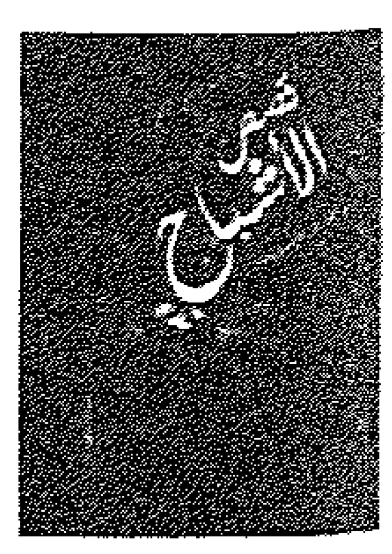
هذا الكتاب يعرض حصيلة نقدية وكاملة للموضوع. إنه يقوم بتحاليل كثيرة الدقة ويقدم أجوبة متينة تدل على تمكن قوى فى مجاله المعرفى. كل ذلك بإيقاع لا يختل. إنه يمثل وسيلة عمل بالنسبة لعالم الاجتماع وللمؤرخ وللفيلسوف ولعالم النفس.

▩

قصص الأشباح

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٧، ٢٢٣صفحة



منذ بدايات فن الرواية فى القرن الثامن عشر، ظهرت إبداعات روائية نسائية، وكما كان معظم الروائيين من أبناء الطبقة الوسطى، كذلك كانت الروائيات. وفى هذه المجموعة، قصص كتبت فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، إضافة إلى عدد من القصص الحديثة المعاصرة. وهذه القصص فى تسلسلها التاريخى تكشف عن مراحل تطور الحياة الغربية، وعن دور المرأة ومكانتها فى هذا المجتمع، والعلاقات بين الشرائح الاجتماعية المختلفة، كما تظهر بعض الاختراعات التى كانت حديثة فى ذلك الوقت مثل السيارة ويتم توظيفها لإحداث قدر أكبر من الإثارة، كما أن القصص البريطانية فى مراحل زمنية بعينها، تجعل الخطيئة والعواطف الجامحة والتصرفات المريبة أو المنحلة مرتبطة بالأجانب، وبذوى البشرة السوداء، وبالكاثوليك، وليس بذوى البشرة البيضاء والبروتستانت من أبناء الطبقة الوسطى.

أكثر من عشرين قصة لكاتبات ينتمين إلى القرون الثلاثة الفائتة، الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، بعضها من روائع الأدب العالمى، وهى فى مجملها تحكى عن تطور المجتمع الغربى اجتماعياً على وجه الخصوص، وتحمل ذائقة أدبية مغايرة لا تتوقف عند حدود الإثارة والتشويق.

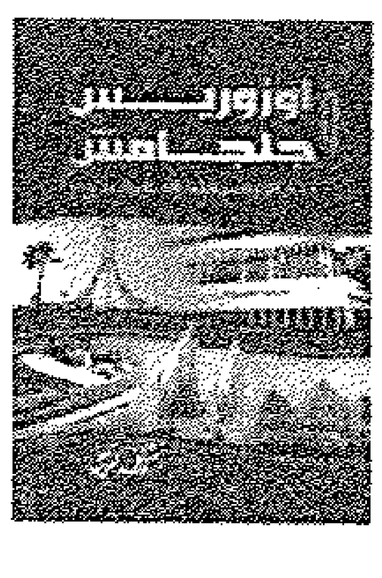
▩

أوزوريس وجلجامش

لقاء التراث والثقافة والعلوم

للدكتور شريف قنديل

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٤٣صفحة



يمثل الكتاب سجلاً لذكريات طيبة أمضاها المؤلف فى مملكة البحرين حيث عمل لمدة ثلاث سنوات عميداً لكلية الدراسات العليا بجامعة الخليج العربى، وهى ذكريات يمتزج فيها الشخص العام، كما أنها تتوقف عند محطات كثيرة على صعيد التنمية فى دول الخليج العربى، خصوصاً أن المؤلف إلى جانب عمله الرسمى أنيطت له مهام علمية وإدارية أخرى وارتبط ببرامج النهضة الصناعية للبحرين ودول الخليج العربى، ولذا فإننا نرى فى فصول الكتاب تأريخاً لعملية الصعود التنموى فى تلك الدولة الشقيقة. ومن المعروف أن البحرين هى أولى دول مجلس التعاون الخليجى التى اكتشف فيها النفط، وهى الآن واحدة من أهم مراكز جذب العمالة والتجارة فى المنطقة.

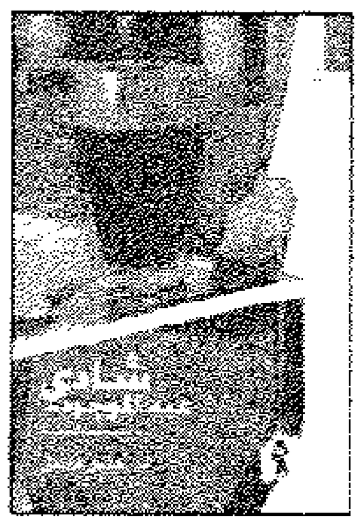
وعلى الرغم من التخصص العلمى الدقيق للمؤلف فإن لغته التى تحرص على الدقة العلمية لا تفتقد إلى الشاعرية والبساطة والخيال الأدبى إضافة إلى هدفه الأصيل الذى لا يغيب أبداً عن صفحات الكتاب، وهو تحقيق مزيد من التواصل بين مصر «أوزوريس» والبحرين «جلجامش».

▩

شادى عبد الموجود (مجموعة قصصية)

خليل فاضل

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٧، ١٥٣صفحة



شادى عبدالموجود نموذج لإحباط جيل وربما أجيال من الشباب الذين تفتح وعيهم وانتعشت آمالهم وطموحاتهم فى النصف الثانى من ثمانينيات القرن الماضى، لكنها سرعان ما خبت وانتكست كما انتكست أشياء كثيرة.

تخرج فى الجامعة، لكنه بقى عاطلاً، وفشل فى أن يحقق نجاحاً على أى مستوى، ترك بلدته وجاء ليعيش فى حى شعبى بالقاهرة، عزل نفسه عن الناس، وقرر ألا يتحمل أى مسئولية، يقنع بأى طعام، ويلبس كل الهدوم: الداخلية والخارجية، الصيفية والشتوية، فوق بعضها بلا أى نظام أو ترتيب، كى يبدو أكثر ضخامة وفخامة مما هو عليه فى الواقع، وفوق ذلك كله، يلبس لبس شرطى، كى لا يدفع أجرة الأتوبيس.

لكن شيئاً ما فى هيئته كان يثير الريبة والغمز واللمز بين أهل حتته وحتى بين ركاب الأتوبيس والسائق والكمسارى، وكان يزعجه جداً هذا البون الشاسع بين ما تبدو عليه حالته، وواقعه الأليم، فقد تحول كما قالت له إحدى زميلاته مرة إلى «مجرد حلة محشى»، شخص بليد فاقد للوعى وللقدرة على الفهم والتحليل، كان يسأل نفسه بين الفينة والأخرى، هل كان حقده على الآخرين أكثر مما تصور، هل هُزم وأصبح معقداً لا يتحقق إلا من خلال المقت والقنوط وبعض أحلام اليقظة، وفجأة يقع المحظور حين يقرر الكمسارى أن يطلب منه الكارنيه الذى يدل على انتمائه إلى هيئة الشرطة، وحين يكتشف أنه رجل بوليس مزور، ينهال عليه الركاب دفعاً وركلاً حتى يتم إلقاؤه خارج الأتوبيس ويتدحرج حتى يستقر إلى جوار حاوية قمامة، كانت هى ذاتها من فرط الإهمال والعشوائية السائدتين فى البلد، ملقاة هى الأخرى على جانبها، ليحل شادى عبدالموجود وصندوق القمامة معاً فى المعنى ذاته.

هذه القصة التى تحمل المجموعة اسمها التى تضم نحو ٢٥ قصة قصيرة، ربما تلخص العالم الذى تدور فيه بقية القصص، والتى تقترب بحنكة من العوالم النفسية لأبطالها، وهو مجال تخصص المؤلف واحترافه (طبيب نفسى). هذا ما نراه فى أحلام ناهد، كائنات خيالية من الضوء، المرأة التى تمشط شعرها، سيد ونفيسة، حوار مع البحر، جشطالت، الخواء، زينب وغيرها.

▩

الإصلاحيون الجدد

جهاد عودة

القاهرة: دار الحرية، ٢٠٠٧، ٣٧٦صفحة



يعبر هذا الكتاب عن علاقة الدين بالمجتمع فى عصر الرئيس مبارك، وبحسب المؤلف فإن نظام حكم الرئيس مبارك هو فى حقيقته نظام لتهدئة الأزمات، إذ إنه ورث عن النظامين السابقين عليه سياسات متناقضة، ففيما كان نظام عبدالناصر يؤكد على ريادة المشروع العام ويؤثر التنظيم السياسى الوحيد، منح نظام السادات مساحة أوسع للمشروع الخاص والمبادرة الضرورية على الصعيد الاقتصادى، وفتح الباب واسعاً للاستثمار الخارجى وشجعه بقوانين متتالية، وسياسياً فتح نوافذ جديدة لتعبير القوى السياسية عن نفسها فى منابر ثم فى أحزاب سياسية رئيسية فيما بعد، وإزاء هذا الإرث المتناقض، كان على نظام مبارك أن يدير الدولة بطريقة توافقية، وأن يبحث عن شرعيته الخاصة بديلاً عن الشرعية الثورية التى استمد منها سابقاه شرعيتهما، إذ إنه لم يكن من الضباط الأحرار، ولم يكن له سابق ارتباط بأى شكل من أشكال التنظيمات السياسية.

ويشير المؤلف إلى أن نظام تهدئة الأزمات تكون مهمته الأولى والأساسية هى العمل على الحفاظ على حدود النظام وتماسكه بتحقيق الاستقرار بين التفاعلات داخل المجموعات المكونة لهذا النظام، وعدم الميل إلى استخدام العنف إلا فى الحالات التى يكون النظام ذاته فيها مهدداً من جماعات خارجية، ويكتسب النظام شرعيته هنا من رضاء الأطراف المشاركة فيه على أسلوبه فى إدارة اللعبة السياسية، ويقاس إنجازه بقدرته على وقف التدهور فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى.

وبحسب المؤلف أيضاً فإن نظام تهدئة الأزمات قد سقط برغم إدراكه للأسباب التى قادت إلى سقوط نظام السادات والنظام الملكى من قبله. ويبحث القائد عن شعبه ليساعده فلا يجده. فالشعب لم يعد قادراً سوى على التذمر والشكوى، بعدما رأى أن فئة محظوظة اجتماعياً صارت هى التى تحتكر الحق فى الحياة، وأن الصعود السياسى يجىء

مفاجئًا ودون ضوابط. وانتشر الوعى الزائف والدجل، وعزلت النخبة السياسية نفسها وابتعدت عن الناس، وصرنا مهددين بقطيعة معرفية ثالثة باسم العصرية والعولمة.

ولا أمل - بحسب المؤلف أيضًا - إلا فى خلق روح جديدة لهذه النخبة، وإن كان يوجه انتقادات أساسية لهذه النخبة ويراها فاقدة للوعى الاجتماعى، ولا تشغلها سوى رغبة حارة فى الثراء والسيطرة.

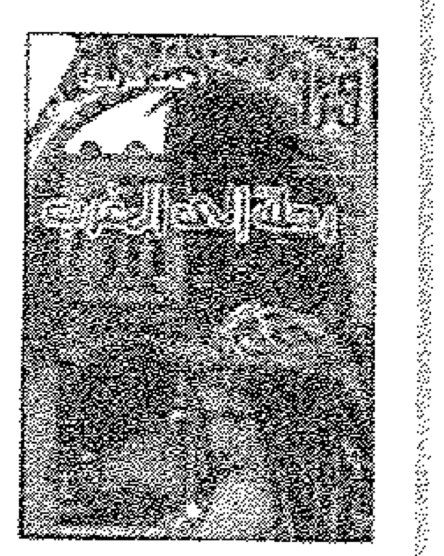
لكن المؤلف يرى إمكانية لنهوض مصر إذا ما تم تنفيذ الوعود التى قطعها الرئيس مبارك فى حملته الرئاسية، فقد آن للقائد المنتخب شرعيًا أن يطور مفهوم المصلحة العامة ليصل إلى حدود الأمل، بالقول إن النظام الديمقراطى الجديد سوف يستمد شرعيته السياسية من الدفاع ضد التوحش البيروقراطى والرأسمالى الذى يفتك بالمواطن البسيط.

وربما يكون هذا هو الهدف الأسمى للإصلاحيين الجدد كما يسميهم المؤلف.

رحلة إلى المغرب

أحمد هريدى

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٧، ١٢٠صفحة



هذا كتاب فى أدب الرحلات، وهو نوع من الأدب على جدته وطرافته وسخاء ما يمنحه من متعة ومعرفة بطبائع البشر وغرائب البلدان، فإن قليلاً من الأدباء من يلتفت إليه، وأكثرهم يؤثر أن يحشد خبرات رحلاته ضمن أعمال روائية أو تجارب شعرية.

للمؤلف ثلاثة أعمال فى أدب الرحلة: أمريكا سرى جداً، وردة الشمال: أيام فى استكهولم، هبة الجبل: رحلة إلى لبنان، إضافة إلى كتاب عن تونس تحت الطبع.

وكما فى كتاباته السابقة، يبدو هذا الكتاب استمراراً للنهج ذاته، لا يحكى فحسب تفاصيل الرحلة، وإنما يتجاوزها إلى ما تختزنه ذاكرة المؤلف من ذكريات عن المغرب، وما اجتهد وجد فى تحصيله عنها عبر كتابات فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والفلكلور، ولذا كثيرا ما يحضر ابن بطوطة الرحالة المغربى الأشهر الذى وجد فى الترحال غذاء روحه وعقله ووجدانه، فقضى مرتحلاً بين البلدان فى مشارق الأرض ومغاربها، كما يستحضر تاريخ المغرب وعلاقة هذا البلد الذى لا تفصله عن أوروبا سوى عدة كيلو مترات بالحضارة العربية الإسلامية، وكيف حافظ على طابعه العربى الإسلامى برغم كل المحاولات التى جرت لطمس هذا الطابع.

يستحضر أيضا أسماء لأدباء وفنانين أوروبيين هاموا بالمغرب وطبيعته وعاداته، وعاش بعضهم فيه سنوات طوالا مثل بول بولز وتنيسى ويليامز وديلاكروا وهنرى ماتيس وجان جينيه وغيرهم، وحفروا ذكرياتهم عن تلك السنوات التى عاشوها فى ربوع طنجة وأغادير والرباط وفاس وسواها من المدن المغربية فى أعمال أدبية ولوحات فنية خالدة.

يحلق المؤلف فى فضاءات المدن الغربية ويطلق عليها تسميات كما تنعكس تلك المدن فى مرآة روحه، فمراكش هى المرأة الوردة، وأغادير امرأة البحر، والدار البيضاء بلد المحبوب، وحين نقرأ ما يكتبه المؤلف عن المدينة تشعر وكأنه يخاطب فتاة أحبها من كل قلبه، وسلبت بجمالها عقله فأردته قتيلاً فى عشقها وسحرها اللانهائى. نقرأ: عندما حان موعد مغادرتى «أغادير» مدينة البحر المحيط، سمعت بداخلى صوتًا يبدى احتجاجًا خشيت أن تسمعه المرأة الوردة «مراكش» التى أحببتها وعلىّ أن أعود لألقاها فى الموعد الذى خصتنى به، لم أطع هوى القلب، وغادرت أغادير التى لم تغادرنى، فوجدتنى أتعثر فى خجلى وأنا ألوح بيدى مودعًا امرأة البحر ذات العينين السماويتين التى لم تنس قبل رحيلى عنها أن تهدينى برتقالات من بساتينها وزجاجة من زيت شجر الأركان.

حوار الحفاة والعقارب

نصرى الصايغ

بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ١٩٨صفحة



يمجد هذا الكتاب المقاومة اللبنانية، ممثلة فى حزب الله والشيخ حسن نصر الله، الذى نجح فى هزيمة إسرائيل هزيمة قاسية فى حرب الأربعة والثلاثين يوماً خلال الصيف المنقضى، وهى هزيمة لم تتجرع إسرائيل مثلها فى أى حرب نظامية خاضتها ضد الجيوش العربية، وقد كان منطقيا أن تطرح هذه الحرب عدة أسئلة مهمة، ما هو مستقبل المقاومة وما الدور الذى ستؤديه، هل ستكون عنصراً أساسياً فى استراتيجيات الدول المستضعفة، وما هو بالتالى مستقبل الجيوش النظامية بعد هذا النجاح الذى حققته المقاومة اللبنانية.

يؤكد المؤلف على أن العالم تغير كثيراً، تغيرت أساليب السياسة وتبدلت طبيعة الدولة وصارت إلى درجة أكبر من الضعف والهوان، وبات منطق القوة هو المنطق الغالب، وصار علينا كدول وشعوب ضعيفة أو مستضعفة أن نبحث عن صياغة جديدة لعلاقتنا بالعالم، هل نتبع النظام العالمى الجديد ونسير فى ركابه ونكف بالتالى عن المقاومة تحقيقًا لمآربنا، أم نمانع ونقاوم ونتحدى؟

المؤلف يطرح استراتيجية مكونة من عدة نقاط للتعامل مع النظام العالمى الجديد، تبدأ باعتماد الديمقراطية الحقيقية التى تطلق مقاومة الشعب السياسية، وأن تصاب هذه الديمقراطية بمزيد من الحرية وليس بالخوف منها، وأن يتم إعلاء شأن الحقوق الوطنية والقومية واعتبارها جزءا لا يتجزأ من قيم حقوق الإنسان الأساسية، واعتبار المقاومة المسلحة الذراع الشرعية لحماية الدولة بديمقراطيتها ومصالحها وحقوقها، وإقامة منظومة تحالفية بين الدول الممانعة، والمرتكزة على الديمقراطية وحقوق الإنسان، والمناوئة للاستبداد الأمريكى وعولمتها الشرسة.

وبدائل هذا الاختيار هى أن تتحول الدولة إلى تابع يبحث عن وظيفة إقليمية تحفظ بقاء نظامها السياسى فى الداخل، وتفقدها سيادتها وقرارها.

الصين والاشتراكية

مارتن هارت وبول بيريت

ترجمة: عادل غنيم

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٧، ١٣٥صفحة



يعد هذا الكتاب إسهاماً مهماً فى الأدبيات الماركسية حول تحولات الصين المعاصرة، وتجربة التحول إلى السوق الاشتراكية، لبناء ما يسمونه هناك اشتراكية ذات خصائص صينية، وهى عملية تاريخية ممتدة، وهدفها تحديث الزراعة والصناعة والعلوم والقوات المسلحة. ويتناول الكتاب فى فصوله الخمسة هذه التجربة الصينية المميزة، حيث يتناول الفصل الأول مغزى صعود الصين إلى مرتبة النموذج التنموى من وجهة نظر خبراء اقتصاديين، ويقدم فى الفصل الثانى تحليلاً لعملية إصلاحات السوق الاشتراكية، مبينًا كيف أن كل خطوة فى انتقال الصين من التخطيط إلى السوق ومن الإنتاج المحلى إلى الإنتاج للتصدير، ومن سيطرة الدولة إلى السيطرة الخاصة والأجنبية، قد أبعدت النظام أكثر فأكثر عن أى تقدم نحو الاشتراكية، ويسلط الفصل الثالث الضوء على تناقضات عملية الإصلاح فى الصين، ويبين فى الفصل الرابع كيف أنه لا يمكن فهم تجربة الصين الاقتصادية فهمًا كاملاً بمعزل عن الرأسمالية الكوكبية، وخاصة النمو غير المتكافئ والإفراط فى الإنتاج.

إن ما يؤكد عليه المؤلفان عبر صفحات الكتاب يمكن تلخيصه فى عدة نقاط، أولها أن النظر إلى الصين باعتبارها قصة نجاح يصرف الأنظار عن التطور المركب وغير المتكافئ للرأسمالية، ويوحى للبلدان المتخلفة أن بوسعها أن تحقق نجاحات كتلك التى حققتها الصين وهو قياس خاطئ لأن ما حققته الصين تم فى ظروف تاريخية خاصة، سمحت لها بجذب استثمارات أجنبية وفيرة، وهو أمر قد لا يتوفر لبلدان أخرى، وثانيها أن ما جرى فى الصيف كان مدفوعاً بمجموعة من الضغوط الداخلية، وتكشف التجربة الصينية أن اشتراكية السوق هى تكوين غير مستقر، يميل منطقه الداخلى إلى تهميش الاشتراكية لصالح السوق ولصالح العودة الكاملة للرأسمالية.

وثالثها أن قادة الحكومة الصينية يتلاعبون بشكل انتهازى بالماركسية حين يشيدون بتوجه الصين التصديرى العالى التنافسية وبالاستثمار الأجنبى المباشر.

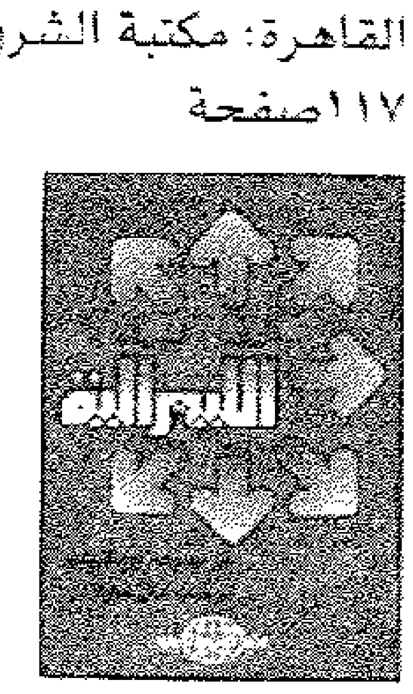
ورابعها أن التصدى للتجربة الصينية يقع فى خطأ فادح حين يسقط النتائج المختلفة اجتماعيا للسياسة الاقتصادية الصينية المالية، فقد زادت معدلات البطالة، وزاد الظلم الاجتماعى، وانخفضت بشدة المخصصات للرعاية الصحية والتعليم، وزاد اضطهاد النساء والأزمات البيئية وتم تهميش الزراعة واضطهاد النساء لصالح تحقيق ربحية أعلى.

ويؤكد المؤلفان على الفارق الكبير بين تنمية قائمة على المشاركة والتكامل، وبين أنشطة وعلاقات تجارية واقتصادية هدفها الأساسى هو التصدير.

ألف باء الليبرالية

ترجمة: آمال كيلانى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧، ١١٧صفحة



يتغنى كثيرون بالليبرالية باعتبارها موضة العصر، دعوة للتحرر من قيد ما، لكن أحداً لم يفكر فى كنه هذا القيد، هل هو قيد السلطة المستبدة أم الكنيسة أم الحزب؟

آخرون يعتبرون أن الليبرالية فى صيغتها الأمريكية الحديثة تقود العالم

إلى كارثة، هى ليبرالية متوحشة بحسب تعبيرات مناهضيها.

هذا الكتاب يبحث فى نشأة الليبرالية وتطورها ونوعياتها المختلفة، الليبرالية الاقتصادية والكلاسيكية والاجتماعية والثقافية، ويصحح مفاهيم كثيرة متعلقة بالليبرالية ودلالاتها، ويؤكد على أن الليبرالية الجديدة والتى تسمى كذلك الليبرالية الاشتراكية ليست هى الليبرالية الحديثة، والأخيرة تعارض الحمائية والتدخلات البيئية، وترفض الحركات التى تنادى بحقوق العمال والعدالة الاجتماعية ورقابة الدولة، هى فى شكلها الأقصى أيديولوجية اقتصادية تركز على قيم السوق والتجارة الحرة التى لا تخضع لقيود من أى نوع، وتؤكد على أن الأسواق الحرة والتجارة الحرة والتدفق غير المقيد لرأس المال سيؤدى حتماً إلى مزايا اجتماعية وسياسية واقتصادية، وقد وصلت هذه الموجة من الليبرالية الحديثة إلى ذروتها مع وصول رونالد ريجان إلى الحكم فى الولايات المتحدة، ومارجريت تاتشر فى بريطانيا.

مفاهيم عديدة عن الليبرالية وتاريخها يجمعها هذا الكتاب المترجم عن موسوعة ويكيبديا.

شهرزاد علي بحيرة جنيف

جميل عطية إبراهيم

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٦، ١٨٠صفحة



بين حكايات الجد في نجع البطوطة وحكايات كريستينا رفيقة الراوي الاسكتلندية في جنيف مسافة واسعة، زمن هائل من الذكريات والوقائع، والسؤال المؤرق هو: هل يخشي الإنسان النسيان أم التذكر؟

يقفز الجني من حكايات الجد ومن حكايات شهرزاد إلي الراوي وسط جنيف، يسأل عن حقوق الجن، وهو المقيم علي مقربة من مبني الصليب الأحمر في المدينة السويسرية الوادعة، يتساءل أن شهرزاد روت لنا مكائد الجن، لكنها تجاهلت حقوقهم، لكن سؤال المختصين في الصليب الأحمر والقانون الدولي من حقوق الجن جنون مطبق، لكن استحضار شهر زاد كسائحة عربية تود الإقامة في جنيف يحسم الأمر، فهاهي تتجول علي طريقة بحيرة جنيف وخلفها الجني والسياف إلي جوارها.

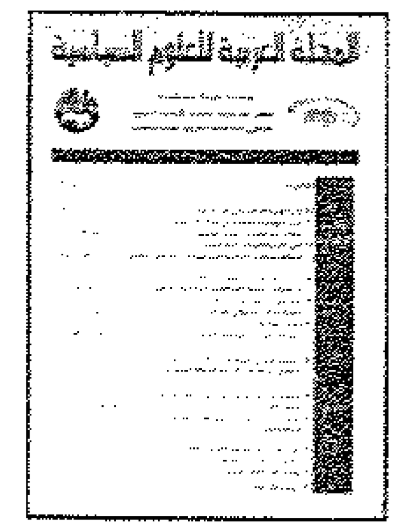
بهذا الحضور المتخيل ترتسم حكايات الرواية المتناثرة، تحضر شهرزاد في الوجع العربي وفساد وقلة حيلة العرب حكاماً ومحكومين، وتحضر في تحولات العالم الأخيرة وسيطرة أمريكا علي مقدراته، وتحضر في يوميات الراوي وتفاصيل عمله الدقيقة، ومشاغباته في شوارع سويسرا وسجالاته التي لا تنتهي مع أصدقائه، وبالضرورة تحضر حاشيتها ورفاقها وأمراء يتم استدعاؤهم من عالم خيالي تعبث به الجن والعفاريت إلي عالم آني لا حيلة للجن فيه، بكل قدراتهم الخارقة.

واقعية سحرية عربية يرسيها الأديب الستيني صاحب «البحر ليس بملآن» وثلاثية يوليو ١٩٥٢ وثلاثية العولمة (خزانة الكلام، نخلة علي الحافة، المسألة الهمجية) وغيرها من الروايات والمجموعات القصصية، يسعي عبرها المؤلف إلي إسقاط الحواجز الزمنية، وكشف السياسات الرامية إلي طمس الهوية ودفع العالم إلي التبعية الكاملة للقطب الأوحد.

دوريات

المجلة العربية للعلوم السياسية

بيروت: الجمعية العربية للعلوم السياسية



افتتاحية العدد بعنوان: «الديمقراطية.. الاقتصاد.. والسوق» كتبها رئيس التحرير علي الدين هلال.

وثلاثة مقالات حول الهوية الوطنية: أزمة الهوية العراقية في ظل الاحتلال، لرشيد عمارة ياس الزيدي، وصراع الهويات ومستقبل السلام في السودان منظور سوسيولوجي لمسألة الجنوب لعبده مختار موسي، والصراعات الكامنة في الشرق الأوسط الحكم المركزي: الديمقراطية النخبوية أم ديمقراطية الجماهير؟ لحافظ أبوسعدة.

كما تضمن العدد ثلاث دراسات، الأولى لناديا سعد الدين بعنوان: «المقاومة ومعادلة الصراع العربي. الإسرائيلى: أثر المقاومة اللبنانية والفلسطينية علي الكيان الصهيوني».

والثانية لجاسم يونس الحريري بعنوان: «مستقبل العلاقات العراقية .الأسبانية بعد الاحتلال الأمريكي للعراق».

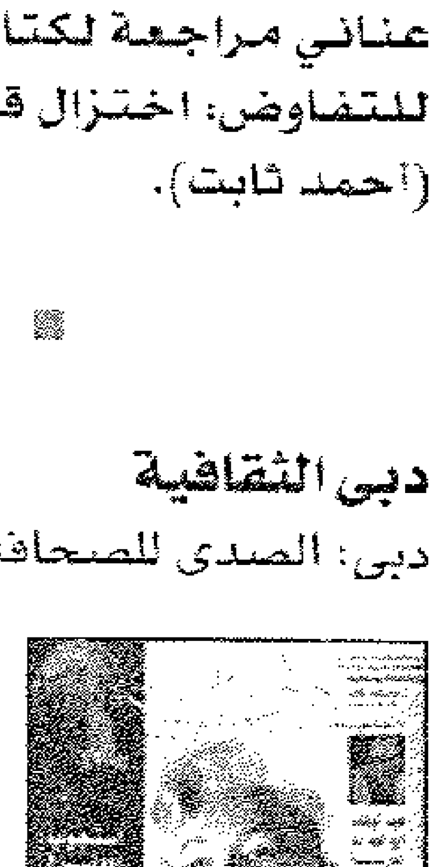
والثالثة لمحمد الأخضر كرام بعنوان: «الدبلوماسية الوقائية بين نصوص الميثاق وأجندة السلام».

وفي باب آراء كتب محمد أتركين حول «التوظيف السياسي لقضية الصحراء الغربية وأسئلة المسلسل الديمقراطي: الشرعية، والوثيقة الدستورية».

وفي مراجعات الكتب أعد سمير عبدالرسول العبيدي مراجعة لكتاب «مذكراتي: الصراع من أجل الديمقراطية في العراق» (محمد حديد). وخليل عناني مراجعة لكتاب: «الحصاد المر للتفاوض: اختزال قضية فلسطين» (احمد ثابت).

دبى الثقافية

دبى: الصدى للصحافة والنشر والتوزيع



قصائد مارلين مونرو هي انفراد هذا العدد، وهي قصائد تعكس محطات كثيرة في حياة فنانة الإغراء الأكثر شهرة ومأساوية في العالم.

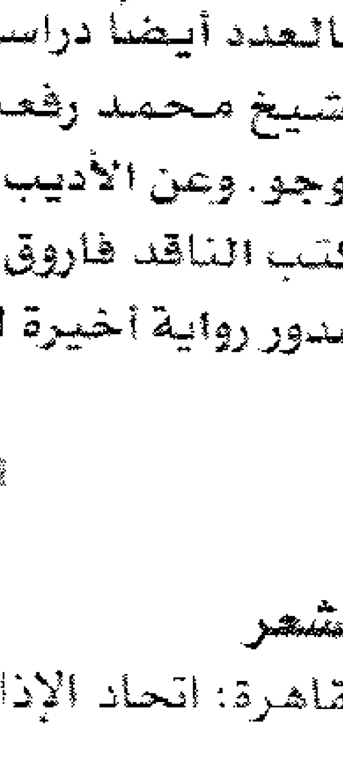
بالعدد أيضاً حوار مع أدونيس يتم استجوابه فيه في عديد من الموضوعات، ويكتب رجاء النقاش عن اليوم الأخير في حياة أمير الشعراء أحمد شوقي.

بالعدد أيضاً تحقيق عن الأندية الأدبية السعودية، وحوار مع مخرج الدراما التليفزيونية المصري إسماعيل عبدالحافظ، يقر فيه أن الدراما المصرية مأزومة. وحوار فني آخر مع الفنان اللبناني سمير شمص، وفي الإبداع التشكيلي يكتب علي حامد عن النحات المصري محمود موسى، كما يكتب محمد كمال عن الفنانة زينب السجيني.

ويكتب الشاعر حلمي سالم عن الفيلسوف الشامل عبدالرحمن بدوي، وبالعدد أيضاً دراسة عن شيخ المقرئين الشيخ محمد رفعت، وآخر عن فيكتور هوجو. وعن الأديب النوبي حجاج أدول، يكتب الناقد فاروق عبدالقادر بمناسبة صدور رواية أخيرة له.

الشعر

القاهرة: اتحاد الإذاعة والتليفزيون



يتضمن العدد الجديد حوارات مع ثلاثة شعراء يمثلون أجيالاً شعرية مختلفة وتجارب شعرية متمايزة، الشاعر المصري محمد سليمان يقول إن شعراء النثر يهربون من أعباء الوزن، ويؤكد شاعر العامية المشرف علي الصفحة الأدبية بجريدة الأهرام بهاء جاهين أن ٧٠٪ من الشعراء الجدد دون المستوي، ويقول الشاعر اللبناني والتشكيلي شربل داغر إن الشاعر الرديء يجعل من الحرية فوضي.

يتضمن العدد أيضاً دراسات نقدية مهمة، يكتب محمد عبدالمطلب عن ديوان بدر توفيق جراح الاغتراب، ويكتب د. حامد أبو أحمد عن مشروعية قصيدة النثر، إضافة إلي دراسات أخرى. وملف عن المشهد الشعري في أسوان، وإبداعات شعرية لعدد كبير من الشعراء من أجيال مختلفة: قصائد لفاروق شوشة ومحمد إبراهيم أبو سنة وعزت الطيرى ودرويش الأسيوطى واسماعيل عقاب ويوسف نوفل وسعد عبدالرحمن وكريم عبدالسلام ومحمد سعد شحاته وهدى حسين وزهرة يسرى ومنى حلمى.

وقصيدة للشاعر اليمنى الراحل محمد حسين هيثم.

ويكتب الدكتور أمين تعيلب دراسة مهمة تحت عنوان «الشعرية الجديدة وفوضى المصطلح النقدى ويكتب الدكتور بهاء حسب الله عن شعراء مصريين مجهولين.

ويقدم الدكتور عبداللطيف عبدالحليم ثلاث قصائد للشاعر الأسبانى خواكين لوكاس

كتاب الزاوية

الاختلاط لا يفسد

قاسم أمين

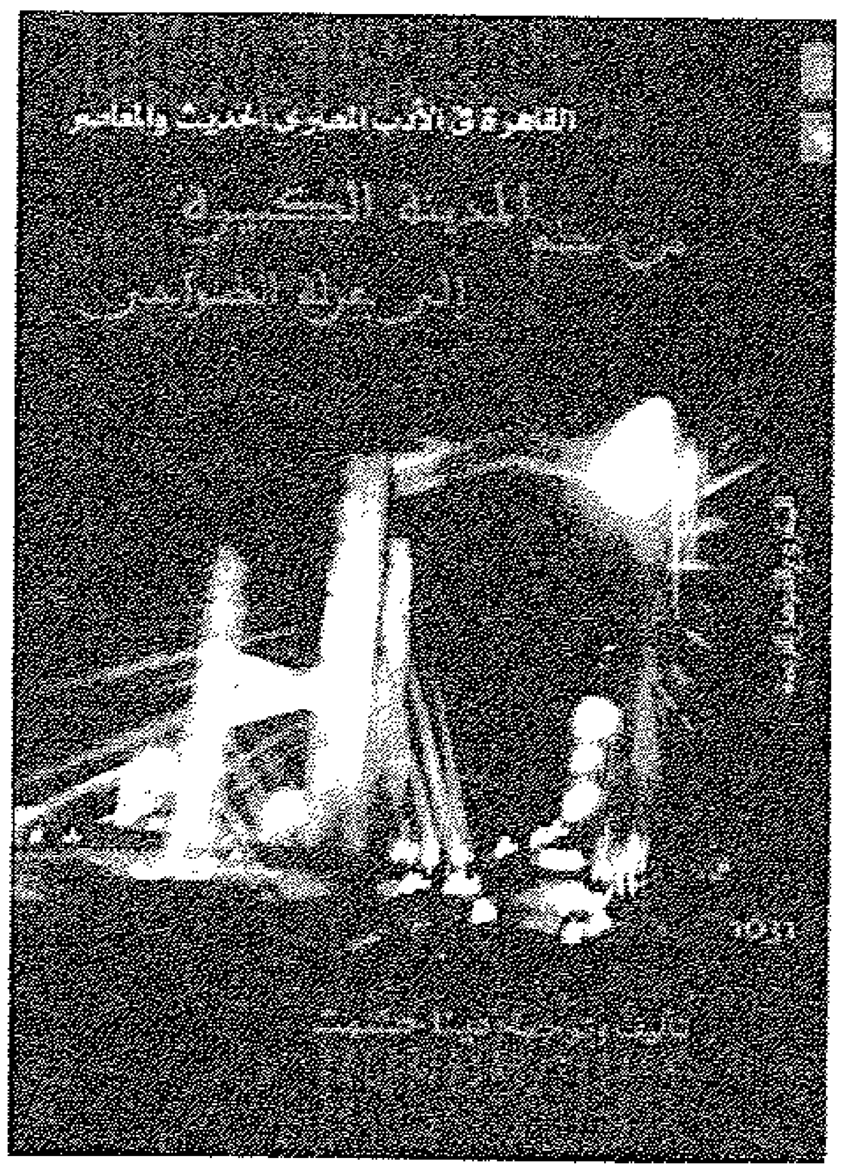
من المشاهد التى لا نزاع فيها، أن نساء العرب ونساء القرى المصرية، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط فى أوروبا تقريباً، أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن اللائى لم يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد.

وهذا مما يحمل على الاعتقاد أن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة. والسبب فى ذلك أن الأولى اعتادت رؤية الرجال وسماع كلامهم، فإذا رأت رجلاً أيًا كان، لم يحرك منظره فيها شيئًا من الشهوة. بل لو طرأ عليها شىء من هذا فإنما يكون بعد مصاحبة طويلة، وقضاء أوقات فى خلوات كثيرة، يحدث فيها ما قد يشعر كل واحد منهما بانجذاب نحو الآخر: وهذا هو ما منعته الشريعة. وبينا امتناعه فيما سبق. أما الثانية، فمجرد وقوع نظرها على رجل، يحدث فى نفسها خاطر اختلاف الجنس، من غير شعور ولا تعمد ولا سوء نية. وإنما هو أثر منظر الرجل الأجنبى، لأنه قد وقر فى نفسها أن لا تراه ولا يراها فمجرد النظر إليه كاف لإثارة هذا الخاطر فى نفسها.

وقد شاهدت مراراً، كما شاهد غيرى، هذا الأثر عينه من الرجال فرأيت أن الرجل الذى لم يعتد الاختلاط بالنساء، إن لم يغلبه سلطان التهذيب القوى، لا يملك نفسه إذا جلس بينهن.

ذات الألف وجه

القاهرة فى الأدب المصرى الحديث والمعاصر
من حلم المدينة الكبيرة إلى عزلة الضواحى
تأليف وترجمة: دينا حشمت
القاهرة: المشروع القومى للترجمة، ٢٠٠٦



القاهرة هى تلك العاصمة الضخمة المخيفة غير واضحة المعالم ذات الوجوه الألف، التى يصعب الوقوف أمامها دون اتخاذ موقف منها. مدينة تدعو العابرين وسكانها - لا سيما الفنانين - إلى الاندماج أو البقاء خارج ممراتها وأسرارها الدفينة.

نجد عنف ذلك الوجود فى الأدب المصرى الحديث والمعاصر، فالعديد من الروايات والقصص القصيرة والقصائد الشعرية تأثرت بإشكالية المدينة.

هذا الكتاب انطلق من تساؤل حول طبيعة الوسيط بين تطور المدينة وصورتها فى الأدب، ثم انتقل إلى قراءة انعكاس تطورات مدينة القاهرة فى خمس روايات وقصة طويلة، بدءاً من «زقاق المدق» لنجيب محفوظ إلى أعمال كتاب التسعينيات (حمدى أبو جليل ومى التلمسانى وياسر عبداللطيف)، مروراً بأعمال يوسف إدريس وإبراهيم أصلان.

تصور أعمال محفوظ وإدريس التصادم العنيف بين عالمين لا تصالح ممكنا بينهما، عالمى الريف والحضر، أو المدينة القديمة والمدينة الحديثة، من خلال بطلتين حلمتا بالمدينة حتى ذابتا فيها.

أحياناً أخرى يصبح هذا التصادم تعايشاً فى إطار ترييف ضواحى المدينة، يترجم نفسه أيضاً فى شكل النصوص الجديدة، إلا أن المدينة الضخمة على حالها اليوم لم تترك حيزاً كبيراً للحلم، أو لهذا الحلم تحديداً، حيث إن النصوص الحديثة أصبحت تصور فضاء مشتتاً ومفتتاً حل محل مدينة الحلم - تلك التى أنتجت فى زمنها بطلات شكلن مركز نصوص مبينة بكاملها حول التعطش إلى مزيد من الحداثة، والرغبة التى قد تكون قاتلة فى الذوبان فى تلك المدينة.

هذا الكتاب هو ترجمة للرسالة التى تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة السوربون الجديدة، «باريس ٣» فى فبراير ٢٠٠٤م.

وقد أجريت بعض الاختصارات والتعديلات الطفيفة على النص الأصلى لتخفيف طابعه الأكاديمى، وكنت قد نشرت قبل ذلك عدة مقالات تطرح أفكاراً أولية حول عدد من الأعمال الأدبية التى تم تحليلها فى إطار هذه الرسالة، ومن ضمنها مقال نشر فى مجلة «أمكنة» الصادرة فى الإسكندرية (الكتاب الرابع).

كما نُشرت فى المجلة نفسها ترجمة لرسالة الماجستير التى تتناول رواية «مالك الحزين» للكاتب المصرى إبراهيم أصلان (الكتاب الثالث). لعب هذا النشر والتفاعل حول الأفكار المنشورة فى المقالات واهتمام علاء خالد، محرر المجلة، دوراً مهماً فى تشجيعى على الاستمرار.

وقد قام آنذاك ياسر عبداللطيف بالمراجعة اللغوية لترجمتى للبحث الأصلى المكتوب بالفرنسية.

وهو الأمر الذى فعله بالنسبة إلى الكتاب الذى بين أيديكم الآن، مما أعطى للمراجعة مساحة إيجابية من الاستمرارية.

كما أكسب الأسلوب اللغوى والتحليل تطوراً ملموساً، خصوصاً حول روايته التى قمت بتحليلها فى إطار الرسالة.

من المقدمة

الكتب وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 102 - July 2007

مجلة شهرية - العدد المائة واثنين - السنة التاسعة - يوليه ٢٠٠٧ - الثمن عشرة جنيهات

أسمهان .. الأيقونة



هل انتهت حرب الأيام الستة ؟! اليوم السابع !

ديفيد ريمنك

مساءلة مقال .. العوّا يرد على عصفور !

محمد سليم العوّا

نساء القصر المستبدّات !

محمد عبد الرحمن يونس


لأننا دائماً نهتم بالإحتياجات الحقيقية
لعملائنا وصلنا بثقتكم لأكثر من
مشــــترك
موبينيل
اتكلم من القلب

السنة التاسعة
العدد المائة واثنان
يولية ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أمية جوزيف سماحة.. دارسة لعلم النفس.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- جوناثان رابان.. كاتب بريطانى مقيم فى مدينة سياتل الأمريكية.
- حسين عبد الله.. خبير اقتصاديات البترول والطاقة.
- ديفيد ريمنك.. صحفى أمريكى.
- ديمتريوس ثاناسولاس.. محاضر فى الأدب واللغة الإنجليزية فى جامعة أثينا ـ اليونان.
- دينا حشمت.. صحفية ومترجمة
- شريفة زهور.. أستاذة الدراسات الإسلامية والإقليمية بمعهد الدراسات الاستراتيجية بواشنطن.
- صالح محمد النعامى.. صحفى من فلسطين.
- عزت إبراهيم.. صحفى.
- عمار على حسن.. مدير مركز الدراسات بوكالة أنباء الشرق الأوسط.
- فاروق شوشة.. أمين عام مجمع اللغة العربية.
- كريس فلويد.. صحفى أمريكى.
- ليلى عنان.. أستاذة الحضارة الفرنسية ـ جامعة القاهرة.
- محمد سليم العوا.. رئيس جمعية مصر للثقافة والحوار.
- محمد عبد الرحمن يونس.. كاتب وباحث.
- محمد فؤاد الذاكرى.. باحث فى التراث العربى، سوريا ـ حلب.
- محمود درويش.. شاعر.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى ـ سعد الدين شحاته

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٢٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

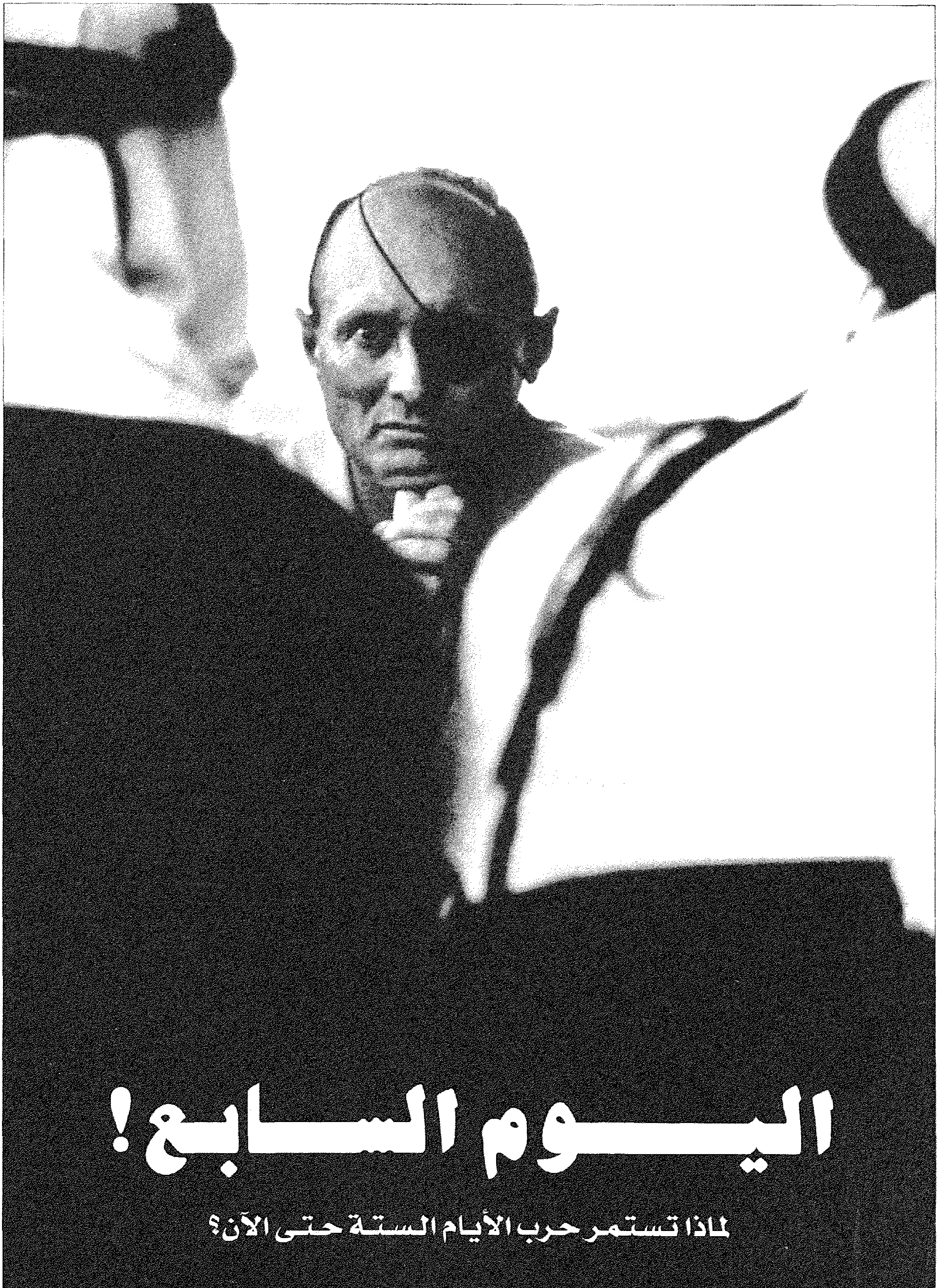
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص ـ ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ، فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



اليوم السابع!

لماذا تستمر حرب الأيام الستة حتى الآن؟

في يونيو ٢٠٠٣، في محاولة لتشويه سمعة كل من يجرؤ على التشكيك في تقديراته الاستخباراتية الملتوية حول العراق، أطلق الرئيس بوش على منتقديه ما اعتبره أسوأ صفة استطاع التفكير فيها: «أحب أن أسميهم منقحي التاريخ». وكان يقصد بها إهانة أشد من السخرية السائدة في ساحات المدارس أو نوعا من الإشارة إلى بعض الباحثين الزائفين الذين ينكرون، في عاصفة من الهوامش، وجود المذبحة التركية للأرمن. وفي المضمون السياسي للحظة الراهنة، تبدو مثل تحذير لجميع من يشكك في نسخة رواية الحقيقة من وجهة نظر الملك.

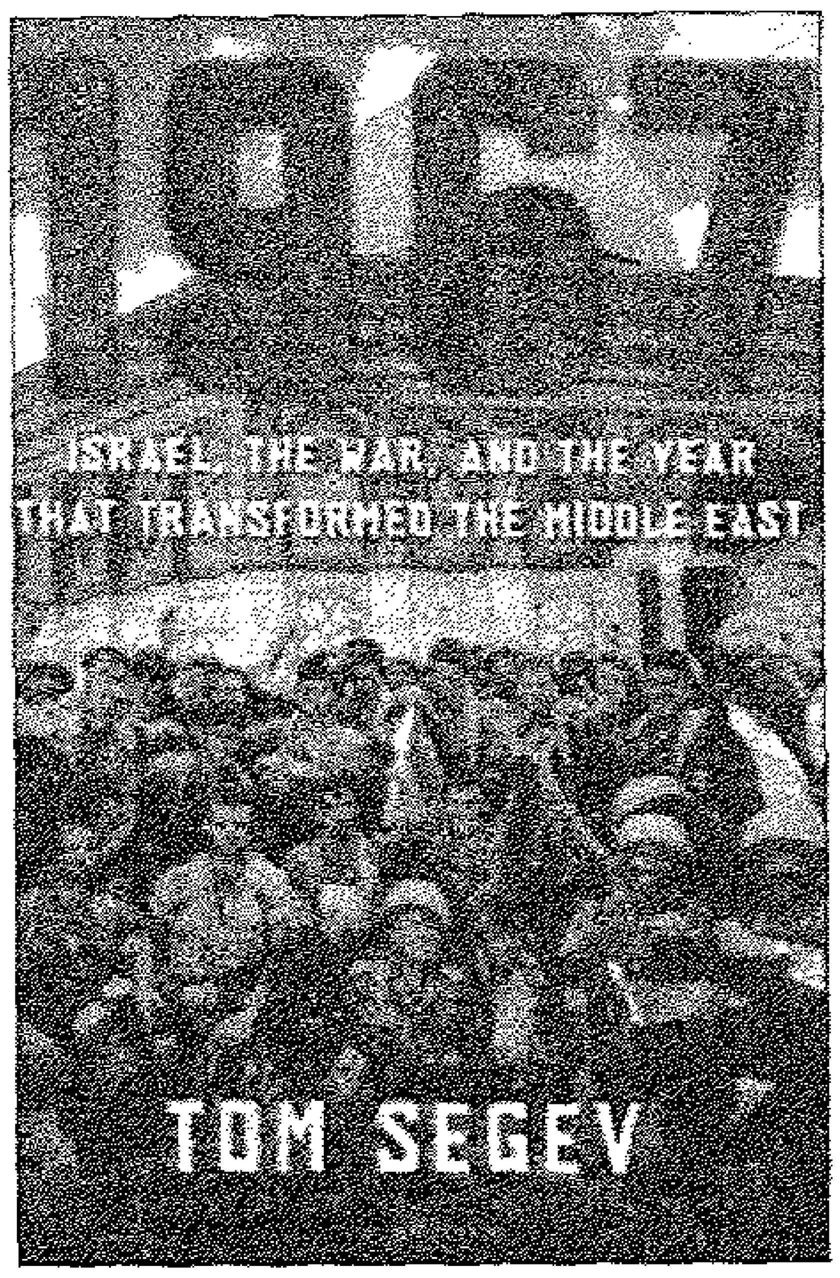
التنقيح الدقيق، بطبيعة الحال، هو جوهر الممارسة التاريخية، وإعلانه في وجه خطاب الدولة التقليدي يتطلب قدرا كبيرا من الشجاعة والمهارة أيضا. ليس هناك دولة تتقبل بسهولة شخصية مثل تشارلس بيرد والذي أبلغ الأمريكيين - بصفته رب المدرسة التقدمية للمؤرخين - أن الآباء المؤسسين كانوا مجرد ملاك أراض أثرياء استخدموا مزخرفات أيديولوجية لتأطير مصالحهم الخاصة. ولكن ماذا يكون لدينا بدون التنقيح؟ بدون مارسيل أوفولس الذي قدم نسخته من التاريخ المنقح في فيلم «الحزن والشفقة»، كان من الأسهل كثيرا على الفرنسيين أن يستمروا في تجاهل تواطئهم في ترحيل اليهود إلى معسكرات الموت. العدوان على الهنود الأمريكيين، الاستعمار الأوروبي الوحشي لأفريقيا، عملية صنع القرار التي أدت إلى هيروشيما. إعادة تقييم معايير السمعة الرئاسية - كل هذه، وغيرها بلا نهاية، وقود للمتقحين الذين يستمرون في التشكيك بالحقائق المقبولة ويجادلون في رواية الماضي.

ولكن لم يلعب التاريخ المنقح دورا مهما في الضمير السياسي والأخلاقي لشعب من الشعوب كما فعل في (إسرائيل). لقد أقيمت الدولة عام ١٩٤٨ وعلى الفور تقريبا، أصبح تاريخها السابق - بدايات الأيديولوجية الصهيونية وسلوك البريطانيين خلال فترة الانتداب وأهم من ذلك العلاقة مع الآخر.. العرب الفلسطينيين - مادة للمناهج الدراسية والصحافة والمبادئ العسكرية والبحوث والخطاب العام. إن الجيل المؤسس الذي أتى إلى فلسطين وحارب ما أسماه حرب الاستقلال ضد مصر وسوريا والعراق وبقية الدول المجاورة المعادية، أصبح الآن مسئولا عن رواية قصته. والمنتصر يكتب التاريخ. وكما في أي دولة ناشئة، يسرد التاريخ بأكثر الكلمات فخامة - التاريخ كما كتبه المتحدث بالعبرية بارسون ويمز. ولوهلة ما، بدا كما لو أن التمنيات يمكن أن تمحو الحقائق الأساسية من الوجود. يمكن إخفاء مجموعة بشرية كاملة. «ليس هناك شيء اسمه فلسطينيون» هذا ما قالته جولدا مائير في ١٩٦٩ .

وظل الحال على هذا المنوال، حتى الثمانينيات من القرن العشرين بعد الكشف عن العديد من وثائق أرشيف الدولة وحين بلغ الرشد جيل أكثر وعيا وأقل تمسكا بالأساطير القديمة من المؤسسين، وحين بدأ باحثون إسرائيليون في مواجهة بعض الحقائق المحرجة. أهم المؤرخين الإسرائيليين الجدد هو بيني موريس وكان يساريا (في ذلك الوقت) وقد اشترك في حرب لبنان الكارثية جنديا ومراسلا، ثم فضل السجن على أن يستمر في خدمته العسكرية في الضفة الغربية خلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى. في عام ١٩٨٧ حين اندلعت الانتفاضة، نشر موريس كتاب «ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧- ١٩٤٨» الذي قضى فيه على الفكرة الإسرائيلية الراسخة: إن ثلاثة أرباع المليون فلسطيني عربي الذين هربوا من القرى خلال وبعد الحرب فعلوا ذلك بإرادتهم وبتشجيع قادتهم الذين وعدوهم بإعادتهم بعد وقت قصير.

على العكس من ذلك، أوضح موريس أن عددا كبيرا من الفلسطينيين طردوا من قراهم على أيدي القادة العسكريين الإسرائيليين (بضمنهم الشاب يتسحاق رابين)، وآخرون كثيرون هربوا من الخوف بعد سماع أنباء المذابح وتدمير البيوت في القرى القريبة.

كتب معظم المؤرخين الجدد أبحاثهم في الخارج مما منحهم فرصة لمساءلة التاريخ الذي نشأوا على معرفته. ورغم أنهم لم يكونوا مدرسة متماسكة على مستوى الأفراد أو الأيديولوجيا، لكن عملهم كان تيارا



يشكك في الكتابة التقليدية للتاريخ الإسرائيلي. بعد موريس جاء كتاب ايلان بابي «بريطانيا والصراع العربي الإسرائيلي»، وكتاب آفي شليم «اصطدام عبر الأردن» وأعمال عالم الاجتماع براوخ كمرلينج الذي وصف الأيديولوجية الصهيونية بمفردات استعمارية. وقد اتهم النقاد المؤرخين الجدد بقراءة الوثائق بميول سياسية، وتلطيخ سمعة شعب بالكاد أنقذ من الانقراض، وفي محاولة التقليل من شأن تأسيس الدولة. وفي صحيفة هاآرتس الليبرالية اليومية، تساءل الروائي اهارون ميجيد «ما الذي يحرك باحثين إسرائيليين لتشويه وتقبيح الحركة اليهودية القومية التحررية، والتي لا تروم إلا تحقيق أمل عمره ألفان من السنين للعودة إلى جبل صهيون ؟».

ولكن مع الوقت، أثرت أفضل الأبحاث التنقيحية على التفكير الإسرائيلي السياسي حتى بين المسئولين العموميين. وقد كتب شلومو بن عامي الذي خدم وزيرا للأمن العام ثم وزيرا للخارجية في حكومة إيهود باراك، في مذكراته التاريخية «ندوب الحرب، قروح السلام» الذي نشر في العام الماضي بأن طرد الفلسطينيين عام ١٩٤٧ و ١٩٤٨ كان بسبب «نزوع أيديولوجي وحالة عقلية، وبيئة ثقافية داعمة» سمحت بحدوث مثل هذه الوحشية. من الصعب تصديق أنه بدون المؤرخين الجدد، كان يمكن لمسئول إسرائيلي أن يصل إلى هذه الاستنتاجات النقدية للذات.

توم سيجيف الذي نشر بالإنجليزية بحثا حول أهم الأحداث العربية الإسرائيلية «١٩٦٧: إسرائيل والحرب والعام الذي غير الشرق الأوسط» (نشر دار ميتروبوليتان ٣٥ دولارا)، هو صاحب الأسلوب الأقرب إلى الصحافة من كل المؤرخين

1967: Israel, the War, and the Year that Transformed the Middle East
(١٩٦٧: إسرائيل، الحرب، والسنة التي حولت الشرق الأوسط)
Tom Segev
Metropolitan Books: 688PP., 2007

بترتيب مع مجلة:
New Yorker الأمريكية
ترجمة: بثينة الناصري

الصورة: © Micha Bar Am - Magnum

كيف حدث كل ذلك؟ لماذا شنت الحرب أصلا؟ سيجيف ليس أول مؤرخ يجادل بأن حرب ١٩٦٧ لا تشبه قصة ديفيد وجولياث كما روجتها الأبواق الرومانسية، بل مسيرة كارثية متعددة الجوانب إلى الحماقة

ديفيد ريمنك

الجدد. ولكن أسلوب كتابه كان أكثر جفافا وأكثر تعقيدا من الأسلوب الأيديولوجي المباشر لبعض رفاقه. وعلى مدى سنوات كان عموده المعنون: «مراسل خارجي» في هاآرتس يركز على الشأن الداخلي. هرب والدا سيجيف من ألمانيا إلى فلسطين في ١٩٣٥ وقتل والده في حرب ١٩٤٨ . وسيجيف الذي حصل على الدكتوراه من جامعة بوسطن كان صوتا ثابتا في اليسار الإسرائيلي ولكن آراءه أكثر اعتدالا من يسارية «بابي» المناهض للصهيونية وسياسات «بن موريس» الفريدة، وبعد قمة كامب ديفيد الفاشلة في ٢٠٠٠ بدأ يؤمن - يائسا - بأنه كان على ديفيد بن جوريون أن يطرد المزيد من الفلسطينيين «حين كانت لديه الفرصة» من أجل ضمان أغلبية يهودية وأمن إسرائيلي.

سيجيف الذي يبلغ من العمر الثانية والستين كتب عددا من الكتب حول الدولة الناشئة (١٩٤٩: الإسرائيليون الأوائل) وحول اليهود والعرب تحت الانتداب البريطاني (فلسطين وحدة كاملة) وحول أمركة المجتمع الإسرائيلي فيما بعد الصهيونية (ألفيس بريسلي في القدس). في «١٩٤٩» ساعد على تحويل الفكرة عن الإسرائيليين الأوائل كمجموعة رائدة واضحة التجانس، مقدما شواهد على أنه منذ البداية كانت هناك اختلافات مقلقة بين العرب واليهود، وبين اليهود المتدينين والعلمانيين وبين الأوروبيين ويهود شمال أفريقيا. وأكثر كتبه إثارة للجدل «المليون السابع» الذي تناول فيه عجز الحركة الصهيونية عن مساعدة يهود أوروبا أثناء ذبحهم وحياة ما بعد الهولوكوست كقضية مشحونة بالعاطفة في المجتمع الإسرائيلي. وهذا الكتاب الذي استقبل بنفس الاحتقار الذي قوبل به كتاب حنا اريندت «ايخمان في القدس»، وصف حرج رواد الصهيونية بسبب عدم انخراط يهود أوروبا في تمرد واسع ضد النازيين، وكشف أن استقبال بعض الناجين في إسرائيل لم يكن دائما بارتياح وإنما أيضا في بعض الأحيان بالشك والبرود البيروقراطي. وقد كسب سيجيف بعض الأصدقاء من أوساط المؤسسة الإسرائيلية حين اقتبس من بن جوريون قوله في ١٩٣٨ «لو كنت أعرف أنه كان من الممكن إنقاذ كل الأطفال في ألمانيا بنقلهم إلى إنجلترا، أو لنقل نصفهم فقط بنقلهم إلى فلسطين، لاخترت الحل الثاني - لأننا لا نتحمل مسئولية هؤلاء الأطفال فحسب ولكن المسئولية التاريخية للشعب اليهودي».

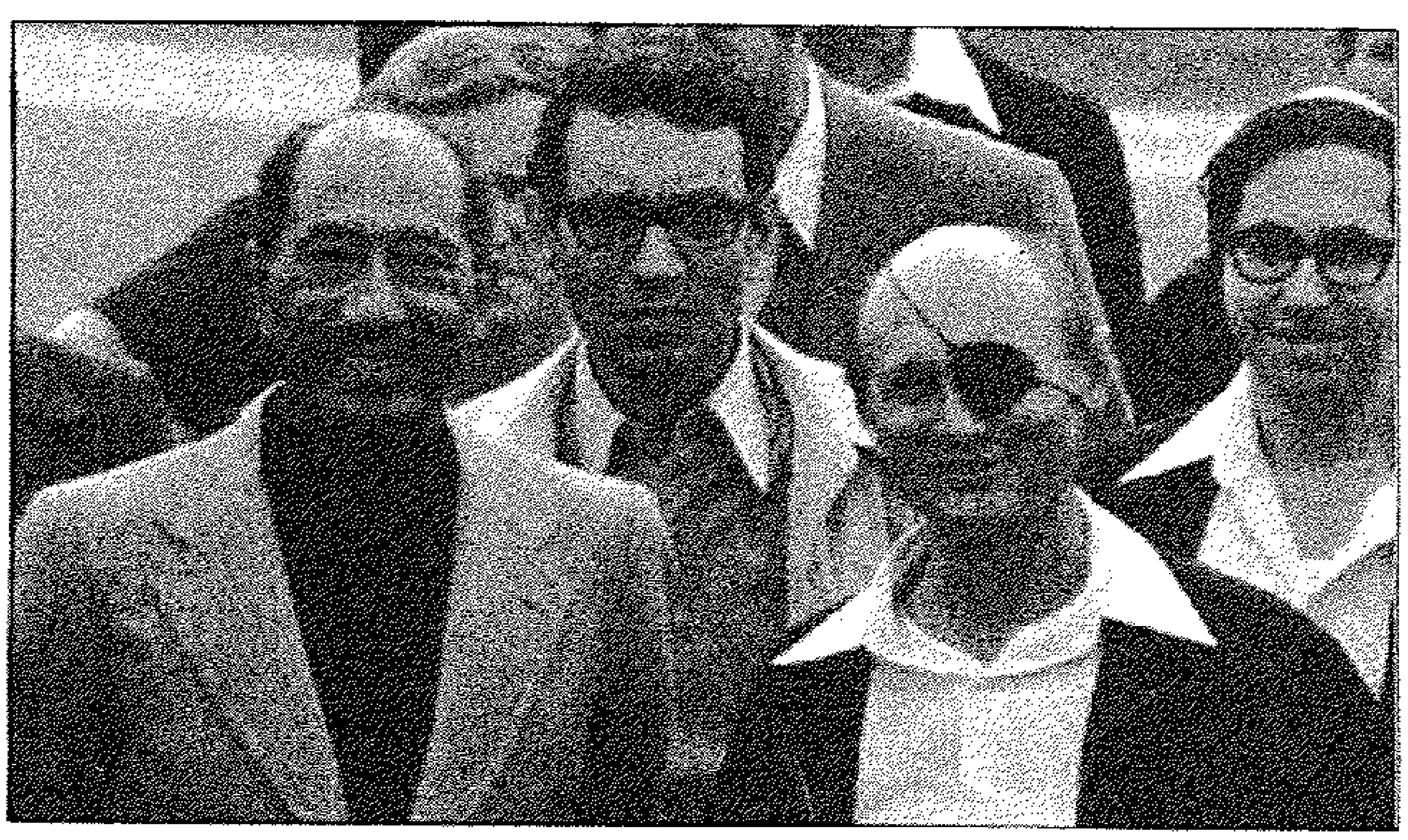
بالنسبة للإسرائيليين، كانت حرب ١٩٦٧ نصرا تحقق بسرعة معجزة ونتائج مذهلة في التوسع بالأراضي حتى أن قائده العسكري موشي دايان، أسرع بابتكار تسمية الحرب «حرب الأيام الستة» وهو إيحاء مقصود لأيام الخلق الستة في سفر التكوين (في العالم العربي كانت الهزيمة مهينة حتى إذا ذكرت سميت بالنكسة، في مقابل النكبة في ١٩٤٨).

وقد غير النصر الإسرائيلي البلاد من كل النواحي. كان رد الفعل سواء داخليا أو لدى اليهود في الخارج يتراوح من الفرح إلى النشوة الدينية مما أدى إلى احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء ومرتفعات الجولان وإنشاء مستوطنة بعد أخرى. كانت حربا اعتبرها الإسرائيليون حرب وجود في أهميتها، كانت الهزيمة تعني نهاية الدولة بعد أقل من عشرين عاما - ولكن مع ذلك كانت للنصر نتائج باهظة الثمن. فمنها جاءت أربعون سنة من الاحتلال، وانتشار المستوطنات غير الشرعية وتكثيف المشاعر الوطنية الفلسطينية وزيادة (الإرهاب) والهجمات المضادة ونقاط التفتيش والمفاوضات الفاشلة والانتفاضات وانعدام الثقة المتزايد. يا لسخرية التاريخ: حرب لابد من النصر فيها، ونصر ينتج عن بؤس شديد وعدم استقرار.

كيف حدث كل ذلك؟ لماذا شنت الحرب أصلا؟ سيجيف ليس أول مؤرخ يجادل بأن حرب ١٩٦٧ لا تشبه قصة ديفيد وجوليات كما روجتها الأبواق الرومانسية، بل مسيرة كارثية متعددة الجوانب إلى الحماقة. حتى مايكل اورين وهو مؤرخ يقف سياسيا على يمين سيجيف، لم يتردد في كتابه المهم «ستة أيام من الحرب: يونيو ١٩٦٧ وصناعة الشرق الأوسط الحديث» في أن يعدد الأخطاء وسوء المشورات والأحداث العشوائية والعنجهيات المهلكة من الجانبين.

في منتصف الستينيات من القرن العشرين، كان المجتمع الإسرائيلي في حالة ركود. والاقتصاد يعاني من الكساد، وكان الاشكينازيون وهم الإسرائيليون المولودون في أوروبا والأرستقراطيون الرواد في الدولة، يرون أنفسهم قلة ديموجرافية أمام المزراحيم وهم المهاجرون من شمال أفريقيا ودول إسلامية أخرى وهم عموما الأقل ثقافة والأكثر تدينا. بدأت الأخلاقيات الاشتراكية للرواد في التلاشي مع سكان الكيبوتزات. أيضا لم تعد البلاد بين يدي بن جوريون أول قائد كاريزمي للبلاد. وكان خليفته ليفي اشكول مملا ومتكبرا، تنحصر خبرته في المال وإدارة الموارد وليس في العسكرية.

ورغم أن إسرائيل حاربت بنجاح في أزمة السويس الموحلة عام ١٩٥٦، ولكنها في منتصف الستينيات كانت تواجه سلسلة من مشاكل الأمن: كانت المشاعر القومية العربية المعادية للاستعمار على أوجها. وقد اكتسب الزعيم المصري جمال عبد الناصر جماهير عريضة في أرجاء الوطن العربي بخطبه النارية حول «تحرير» الأراضي الفلسطينية والقضاء على الدولة الإسرائيلية (الغريبة). وكانت جماعات المقاومة الفلسطينية الناشئة خاصة فتح، تنفذ هجمات على الأراضي الإسرائيلية من قواعد على الحدود السورية وإلى حد أقل من الأردن. وفي الأشهر الثمانية عشر التي سبقت حرب ١٩٦٧، كانت هناك مائة وعشرون محاولة (تخريب) قام بها الفلسطينيون - قصفوا مضخات الماء وزرعوا ألغاما وقادوا اشتباكات على الطرق السريعة. قتل من الإسرائيليين في تلك الأحداث أحد عشر فقط، وهو عدد صغير في معايير اليوم، ولكن كما يقول سيجيف «تأثيرها النفسي مثل تأثير الكساد كان أكثر عمقا من الضرر الكبير الملموس».



فى عام ١٩٦٦ وبعد مقتل ثلاثة عسكريين إسرائيليين بلغم أرضى مزروع قرب مدينة أراد فى النقب، أمر اشكول بتنفيذ عملية شريدر، وهى ضربة ثأرية على منطقة قروية فى غرب الأردن. فى قرية السموع، فجرت قوات الدفاع الإسرائيلية عيادة طبية ومدرسة ومكتب بريد ومكتبة ومقهى وأكثر من مائة منزل. وقد تجاوزت العملية أوامر مجلس الوزراء بحيث أدت إلى معركة جوية بين القوتين الجويتين وقتلت أربعة عشر أردنيا. لم يكن سوء التقدير هو استخدام قوة مفرطة فحسب وإنما كان القرار لمهاجمة الأردن التى كان ملكها حسين أكثر الزعماء العرب مهادنة. أما سوريا التى منحت ملاذا آمنا للمقاومة الفلسطينية وكان لديها خطط لتحويل مجرى نهر الأردن من إسرائيل، فقد كانت مشكلة أكثر جلاء. فقد لعب الإسرائيليون لعبة القط والفأر الخطرة مع السوريين فى مرتفعات الجولان ولكن لم يهاجموا كما فعلوا فى السموع. قال اشكول عن ذلك فيما بعد «كان قصدنا قرص الحماة. ولكن بدلا من ذلك ضربنا العروس».

بحلول ربيع ١٩٦٧ بدأت التوترات تتصاعد. ابلغ دبلوماسيون سوفييت سوريا ومصر، خطأ، بأن إسرائيل على وشك أن تشن غزوا واسع النطاق على سوريا، مما زاد من اضرام النار فى قلب عبد الناصر. وطبقا لكتاب «خفافيش فوق ديمونا Foxbats over Dimona» (نشر ييل ٢٦ دولارا) وهو كتاب جديد للمؤلفين الإسرائيليين ازابيلا جينور وجدعون ريميتز، كان الاتحاد السوفيتى يشعر بالقلق من القدرات النووية الإسرائيلية حتى انه كان مستعدا لفعل أى شىء للحض على إشعال حرب. فى نفس الوقت، لم يكن الأمريكيون، الذين تلبستهم كارثة حرب فيتنام، على استعداد لتقديم أى عون. ابلغ ليندون جونسون ابا ايبان وزير خارجية إسرائيل بذلك، أما شارل ديجول، الذى سبق أن زود إسرائيل بالميراج ومقاتلات ميستير وهما جوهر القوة الجوية الإسرائيلية، فقد رفض تقديم الدعم الآن، محذرا اشكول ضد القيام بهجوم استباقى. وهكذا شعرت إسرائيل بالعزلة، فى حين تشجعت مصر. وأكد المسئول العسكرى المصرى الأعلى عبد الحكيم عامر لعبد الناصر استكمال استعداد الجيش، إذا تطلب الأمر، لمهاجمة إسرائيل وتحقيق النصر.

فى منتصف مايو، قام عبد الناصر بحركة مستفزة تلو أخرى. ورغم علمه من ضباط الاستخبارات المصريين بعدم تحشد الجنود الإسرائيليين على الحدود السورية، ولكنه استمر فى الضغط. فى ١٦ مايو طلب من الأمم المتحدة نقل قواتها من سيناء وكانت قد حافظت على السلام منذ أزمة السويس. ولما لم يستطع يو ثانت الأمين العام للأمم المتحدة حينذاك إقناع عبدالناصر لإبقاء القوات، اضطر للرضوخ وبدون استشارة مجلس الأمن. وحالما غادرت القوات الدولية أرسل عبد الناصر فرقه المسلحة مباشرة للتمركز على الحدود الإسرائيلية. فى ٢٢ مايو، اغلق عبدالناصر مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية مما منع وصول إسرائيل إلى البحر الأحمر. ومنذ ١٩٥٧ قال الإسرائيليون بأن مثل هذا الإجراء سوف يعتبر بمثابة إعلان حرب، ولكن حين ناشد دبلوماسيون إسرائيليون الأمم المتحدة وبريطانيا العظمى لمد يد العون، فضلت الدولتان التزام الحياد. فى الثلاثين، وقع عبدالناصر معاهدة دفاع مع الملك حسين بعد أن أعلن «هدفنا الأساسى تدمير إسرائيل» وقال إن مصر والأردن وسوريا ولبنان «متحشدة على حدود إسرائيل» وسوف تساندها العراق والجزائر والكويت والسودان، «وكل الأمة العربية. سوف نذهل العالم.. لقد حانت الساعة». كان ذلك النوع من الخطاب يأتى بعد أقل من عقدين على الهولوكوست والذى جعل مناحيم بيجن يسمى عبد الناصر «هتلر العرب». وكانت القيادات السورية والعراقية والفلسطينية جميعها تطلق تصريحات مماثلة حول محو إسرائيل من الخارطة.

على أية حال، حتى أواخر مايو، وأوائل يونيو، استمرت القيادة الإسرائيلية فى مناقشة أهداف عبد الناصر القصوى. وكان الجيش فى معظمه تقريبا يفضل ضربة استباقية ضد العرب، ولكن آخرين بضمنهم اشكول وابا ايبان والمتقاعد بن جوريون يحذرون من المبالغة فى رد الفعل. حين تحدث عبد الناصر إلى السوفييت، نصحوه بعدم البدء فى شن الحرب. كتب ايبان فيما بعد يقول «عبد الناصر لم يكن يريد الحرب. أراد النصر بدون حرب». بعد الحرب، اعترف حتى بعض السياسيين اليمينيين بضمنهم مناحم بيجن بأن الإسرائيليين لم يكونوا على يقين من أن عبد الناصر كان يريد الحرب. قال بيجن فى خطاب أمام كلية الدفاع القومى الإسرائيلى «أن تمركز الجيش المصرى فى سيناء لا يثبت بأن عبد الناصر على وشك الهجوم علينا. يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا. لقد قررنا نحن أن نهاجمه».

وصف كل من سيجيف واورين بتفصيل مزعج حالة القلق والاضطراب التى سادت أوساط القيادة الإسرائيلية. خلال الأزمة، كان يتسحاق رابين رئيس هيئة أركان القوات المسلحة الإسرائيلية يعانى من انهيار عصبى، أرجعه فيما بعد إلى «تسمم بالنيكوتين». كان هناك خوف من أن تقصف مصر مفاعل ديمونا النووى. كان هناك خوف من هجمات مفاجئة على جبهتين أو ثلاث، ومن الغاز الكيماوى ومن الأسلحة الإشعاعية. وكانت القيادة العسكرية وحتى وسائل إعلام ليبرالية مثل هاآرتس ترى فى اشكول زعيما ضعيفا غير قادر على قيادة البلاد فى وقت ازمة - وهو انطباع ترسخ فى ٢٨ مايو حين بدا متلعثما ومشوشا أثناء إلقائه خطابا إذاعيا. وفى واقع الأمر أن اشكول لم ينم فى الليلة السابقة كما أنه كان يحاول أن يقرأ نصا بعد عملية إزالة مياه بيضاء أجريت فى عينيه، ولكن النتيجة كانت بث الذعر فى الشعب بدلا من طمأنته.

فى هذه الأثناء، كان الحاخامات يهيئون المتنزهات لتكون مقابر وقد حفروا آلاف القبور. وفى الأوساط الصحفية وداخل مجلس الوزراء كانت هناك مطالبات باستقالة اشكول من رئاسة الوزارة ووزارة الدفاع. كان بن جوريون فى شدة القلق حول احتمال وقوع انقلاب عسكرى حتى أنه أصدر تحذيرا عاما من الكيبوتز الذى يقيم فيه بالنقب. قبل أربعة أيام من الحرب أجبر اشكول على إعطاء حقيبة الدفاع إلى أكثر شخصية محيرة فى البلاد وهو موشى دايان.

كتب ايبان فيما بعد يقول: «عبد الناصر لم يكن يريد الحرب. أراد النصر بدون حرب». بعد الحرب، اعترف حتى بعض السياسيين اليمينيين بضمنهم مناحم بيجن بأن الإسرائيليين لم يكونوا على يقين من أن عبد الناصر كان يريد الحرب

ظل اشكول لا يعرف ماذا يفعل على وجه اليقين. كان يسأل جنرالاته: «هل علينا أن نعيش بالسيف إلى الأبد؟». كان يقول إن الحكومة أعطت الجيش كل ما يطلبه ولكن «لا نحصل على ما يمكننا أن نستيقظ يوما لنقول، الآن يمكننا أن ندمر الجيش المصرى.. إذن دعونا نفعل ذلك».

مايكل اورين الذى قضى وقتا فى دراسة مذكرات ووثائق عربية أكثر من سيجيف، يضع أهمية اكبر فى كتابه على مقاصد عبد الناصر العدائية مجادلا بأنه وضع فعلا خطة غزو شاملة أطلق عليها اسم (عملية الفجر) ولكنها ألغيت فى اللحظة الأخيرة. ويقتبس هذه المعلومات من صلاح هويدى رئيس القضاة فى المحاكمات التى أجرتها مصر للضباط الذين اتهموا بالتسبب بالهزيمة. «أستطيع أن أقرر أن القيادة السياسية المصرية دعت إسرائيل للحرب. لقد استفزت إسرائيل بشكل واضح وأجبرتها على المواجهة». كان سيجيف أقل تعاطفا مع قرار إسرائيل لبدء الهجوم. يقول سيجيف إنه بينما كان اشكول يصمد أمام ضغوط جنرالاته، فقد برز باعتباره «رجل دولة بأعصاب من حديد». ولكن على عكس بن جوريون، لم يكن لديه القدرة على المقاومة. ويستنتج سيجيف «لقد أكله ضعفه. لقد أراد أن يتذكره الشعب كرجل وطنى وفى هذه المرحلة كان الناس يقرنون الوطنية بالحرب».

وفى آخر المطاف، بررت القيادة الإسرائيلية الهجوم الوقائى باعتباره الطريقة الوحيدة لإنهاء تهديد لا يطاق وإنه إذا كان لابد من شن حرب فلا بد من المبادرة بها لتقليل الخسائر. وبدأ اشكول، الذى قاوم مناشدات جنرالاته لعدة أسابيع، يسأل «هل يجب أن نسمح لأنفسنا بأن نستنزف ونقتل قطعة قطعة. إذا لم ندمر بحرب مستقبلية شاملة كما ينذرنا عبد الناصر؟ هل علينا أن ننتظر حتا ارتدت لتكتب مقالات حول فشلنا فى المقاومة؟».

فى ٥ يونيو، الساعة ١٠,٧ صباحا شنت المقاتلات الإسرائيلية هجوما على القواعد الجوية المصرية. فدمرت القوة الجوية لعبد الناصر وهى رابضة على الأرض وخلال بضع ساعات كان مصير الحرب قد حسم. فى السادس والسابع، دمرت إسرائيل، بتفوقها الجوى القوات البرية المصرية.

كانت أيام القتال الستة بين إسرائيل والقوات المشتركة لمصر والأردن وسوريا هى الجانب الأكثر وضوحا فى هذه الدراما. فى مائة وثلاثين ساعة فقط، احتلت إسرائيل سيناء وغزة من مصر والضفة الغربية والقدس الشرقية بضمنها المواقع المقدسة فى المدينة القديمة، من الأردن، ومرتفعات الجولان من سوريا - ستة وعشرون ألف ميل مربع من الأراضى الإضافية. وفى البدء طمأن راديو القاهرة المستمعين بأن المصريين ينتصرون فى معارك عظيمة ضد الإسرائيليين. وقام أنور السادات نائب عبد الناصر وخليفته، والذى كان يعرف الحقيقة، بالتمشى فى الشوارع المجاورة لسكنه «مصدوما ومحطم القلب» كما كتب فى مذكراته ورأى الناس يرقصون فى الشوارع احتفالا بالنصر. ولكن حلم عبدالناصر بوحدة عربية وبالقضاء على إسرائيل كان قد انتهى. قال عبد الناصر: «لو كنت اعرف أن الجيش لم يكن مستعدا، لم آكن لأذهب إلى الحرب. أنا لاعب شطرنج» (وقد توفى كل من عبد الناصر واشكول خلال السنوات القليلة التالية) فقدت مصر اكثر من خمسة عشر رجلا فى الحرب وفقدت إسرائيل حوالى ثمانمائة.

وعلى الجانب الآخر، كانت النشوة القومية الإسرائيلية فى الأيام والأسابيع التى تلت الحرب من القوة والعمق بحيث كان مستحيلا لمعظم الإسرائيليين أن يفكروا بوضوح حول النتائج بعيدة المدى للاحتفاظ بأراض محتلة. بعد أن قيل لهم إن الدولة فى حالة خطر مميت، أصبحت إسرائيل الآن مهيمنة على إسرائيل التوراتية - الحائط الغربى والهيكل وكل القدس وضريح البطاركة فى الخليل وكثير من مثل هذه المواقع المتناثرة فى أرجاء الضفة الغربية. وما أن تم تأمين المدينة القديمة فى اليوم الثالث للحرب، طار دايان، وهو أكثر القادة الإسرائيليين حبا للاستعراض، بالمروحية إلى القدس وقدم عرضا بأسلوب الجنرال اللنبى، القائد البريطانى الذى انتزع القدس من الأتراك فى ١٩١٧. أعلن دايان «لقد عدنا إلى أكثر أماكننا قدسية. عدنا ولن نغادرها ثانية».

ونفخ الجنرال شلومو جورين كبير الحاخامات فى الجيش الإسرائيلى، الشوفار (بوق من قرن الكبش يستخدم فى رأس السنة اليهودية وبعض المناسبات الدينية الأخرى) عند الحائط الغربى ونصح قائده اوزى ناركيس بأن اللحظة كانت مناسبة لتفجير قبة الصخرة التى تقع على جبل الهيكل قائلا «افعل هذا الآن وسيخلد اسمك فى التاريخ. غدا يكون الأوان قد فات».

رفض ناركيس هذا الاقتراح المجنون بل إنه هدد الحاخام بالاعتقال. ولكن على أية حال كان الشاعر القومى ناتان الترمان دقيقا فى تصريحه «الشعب سكران بالفرحة» ونشرت صورة جندى إسرائيلى يبكى عند الحائط الغربى فى كل أنحاء العالم وبدت وكأنها تعبر - فى عيون الإسرائيليين - عن المضمون المركب الجديد للدولة والمقدس، للعسكرية والتوراتية. وقد حلت أغنية «أورشليم الذهبية» لفترة من الزمن، النشيد الوطنى «هاتيكفاه». فى صحيفة معاريف اليومية وصف الصحفى جابريل تزيفرونى «تحرير» العاصمة بلغة نادرا ما تستعمل فى التقارير الصحفية:

«جاء المسيح المخلص إلى أورشليم أمس - كان متعبا وشائبا وكان يركب على دبابة».

وحين اندلع القتال كتب بن جوريون فى مذكراته «لم يكن هناك حاجة لهذا. أعتقد أنه خطأ كبير». ولكن بن جوريون يقترح الآن بعد الحرب أن تهدم حوائط المدينة القديمة. حتى اشكول، وهو يناقش مسألة كيف يمكن لإسرائيل أن تحكم مليون عربى، راودته لبعض الوقت خطة ترحيل مئات الألوف من الفلسطينيين إلى العراق أو غيره من الدول العربية.

منذ ١٩٤٩، كان الحديث يجرى حول «استعادة» المواقع المقدسة فى الضفة الغربية والقدس. وكان لا يزال الكثير من الجنرالات الإسرائيليين يعتبرون ١٩٤٨ مهمة لم تستكمل- كما كان خصومهم العرب يعتقدون ذلك أيضا - ولكن الهيمنة الدائمة لم تكن، من الوجهة السياسية، هدف الحرب. كان المفروض أن يكون الاحتلال مؤقتا ولكن هذا لم يحدث. تحت قيادة

فى الأيام الأولى لانتشاء ما بعد الحرب، كان هناك بعض الإسرائيليين البارزين الذين جرأوا على التحذير من الانحدار الأخلاقى والسياسى اللذين يصاحبان الاحتلال عادة

موشى دايان العجيبة والفظة فى أحيان كثيرة - والذى يصفه المؤرخ المعروف والصحفى عاموس ايلون «سيكلوب السياسة الإسرائيلية الغامض» (السيكلوب: فى الأساطير الإغريقية مخلوق عملاق ذو عين واحدة فى وسط رأسه - المترجمة)، اعتبر الإسرائيليون أنفسهم «محتلين متنورين» ولكنهم مع الوقت لجأوا إلى الأساليب التى اتبعها الكولونياليون البريطانيون خلال فترة الانتداب: عقاب جماعى وتعذيب خلال الاستجوابات وتهديم بيوت العرب. كما طردت إسرائيل مجتمعات عربية كاملة ودمرت قرى وهرب حوالى مائتى ألف من العرب إلى الضفة الغربية إلى الأردن. ودمرت القوات الإسرائيلية قرى بيت مرسيم وبيت (عوفا؟ Awa) فى جنوب الضفة الغربية وتقريبا ثلث مدينة قلقيلية سويت مع الأرض قبل أن تطالب الأمم المتحدة والولايات المتحدة بأن يتوقف دايان ويعيد البناء. فى أثناء ذلك تحول القادة الصهاينة المتدينون مثل تسفى يهودا كوك ومركاز هاراف يشيفا فى القدس وموشى ليفنجر مؤسس حركة غوش امونيم ومستوطنة فى الخليل، من مجرد حالمين هامشيين إلى أنبياء وسياسيين مسلحين.

لم تكن القيادة الإسرائيلية ترى نفسها أقل من دولة حميدة صالحة، بل كانت على قناعة تامة بأن السكان العرب المقهورين سوف ينظرون بعين التقدير لحكامهم الجدد. وقد قال دايان للشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان هذه الكلمات التى يقشعر لها البدن: «الحالة بيننا تشبه العلاقة المعقدة بين بدوى وصبية اغتصبها عنوة بدون إرادتها. ولكن حين يولد أطفالهما سيرون فى الرجل أباهم والمرأة أمهم. ولن يعنى لهم الفعل الأصلى أى شىء. أنتم الفلسطينيون كشعب لا تريدوننا اليوم ولكننا سوف نغير رأيكم بفرض وجودنا عليكم».

من أكثر الكتب التى تناولت ما بعد الحرب (أى اليوم السابع)، شمولا وجاذبية وكآبة، كتاب الصحفى غيرشوم غورنبرغ «إمبراطورية الصدفة» الذى يصف كيف كانت حكومات حزب العمل التى ترأسها ليفى اشكول وجولدا مائير ويتسحاق رابين - فى العقد الذى تلى الحرب - إما تغمض العين عن المستوطنات المتكاثرة أو تشجع بصراحة على بنائها. ونتيجة لذلك، ساعدت هذه الحكومات فى شرعنة أيديولوجية الاستيطان لخلفائهم اليمينيين مناحيم بيجن وبينيامين نتانياهو واريل شارون. يوضح غورنبرغ أنه على الرغم من أن التصور التمهيدى للمستوطنات الأولى كان على أنها «محطات عسكرية مؤقتة» من أجل تجنب انتهاك معاهدة جنيف الرابعة.

«لقد كان غرض الاستيطان - منذ ذلك اليوم فى يوليو ١٩٦٧ حين قفز أول مستوطن إسرائيلى من سيارة الجيب فى مرتفعات الجولان - خلق وقائع تقرر الوضع النهائى على الأرض، ومن أجل نحت الواقع السياسى قبل بدء المفاوضات». لم يكن تنقيح التاريخ هنا موضوعيا أو حميدا. إن خلق «حقائق على الأرض» كان محاولة سياسية لإعادة رسم - بالطابوق والأسمنت - حدود شعب على حساب شعب آخر.

فى الأيام الأولى لانتشاء ما بعد الحرب، كان هناك بعض الإسرائيليين البارزين الذين جرأوا على التحذير من الانحدار الأخلاقى والسياسى اللذين يصاحبان الاحتلال عادة. فقد كتب الروائى عاموس أوز نبوءته فى صحيفة دافار:

«لمدة شهر، أو سنة أو جيل كامل، سيكون علينا أن نكون فى موضع محتلين لأماكن يمس تاريخها قلوبنا. ويجب أن نتذكر أننا محتلون لأنه ليس هناك بديل آخر - وأن يكون الاحتلال تكتيكيا ضاغطا من أجل الإسراع بالسلام - ولسنا مخلصين أو محررين. لا يمكن للمرء أن يتحدث عن تحرير أرض تعانى تحت نير الأجنبى إلا فى الأساطير. إن الأرض لا تستعبد ولهذا ليس هناك شىء اسمه تحرير الأراضى. هناك شعب يستعبد وكلمة (تحرير) تنطبق على البشر فقط. لم نحرر الخليل أو رام الله أو العريش، ولم نخلص سكانها. لقد انتصرنا عليهم وسوف نحكمهم لغاية ضمان سلامنا».

ولكن من كان يسمع؟ كان اوز، فى ذلك الوقت، يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما. كان يمكن لوزير أو مفكر معزول أن يتحدث عن «الأرض مقابل السلام»، ولكن المد العاطفى للبلاد كان ضد ذلك. لقد حل نوع جديد من الصهاينة الذين يمزجون الإيمان بالوطنية، محل الرواد القدماء «الكيبوتزيين». ومع مرور الوقت أصبحت المستوطنات حقائق كونكريتية، وتحولت المحطات العسكرية المهلهلة إلى مجتمعات «غرف نوم» الضواحى التى تشتمل على فروع من المصالح الحكومية ومواصلات سريعة إلى تل أبيب والقدس.

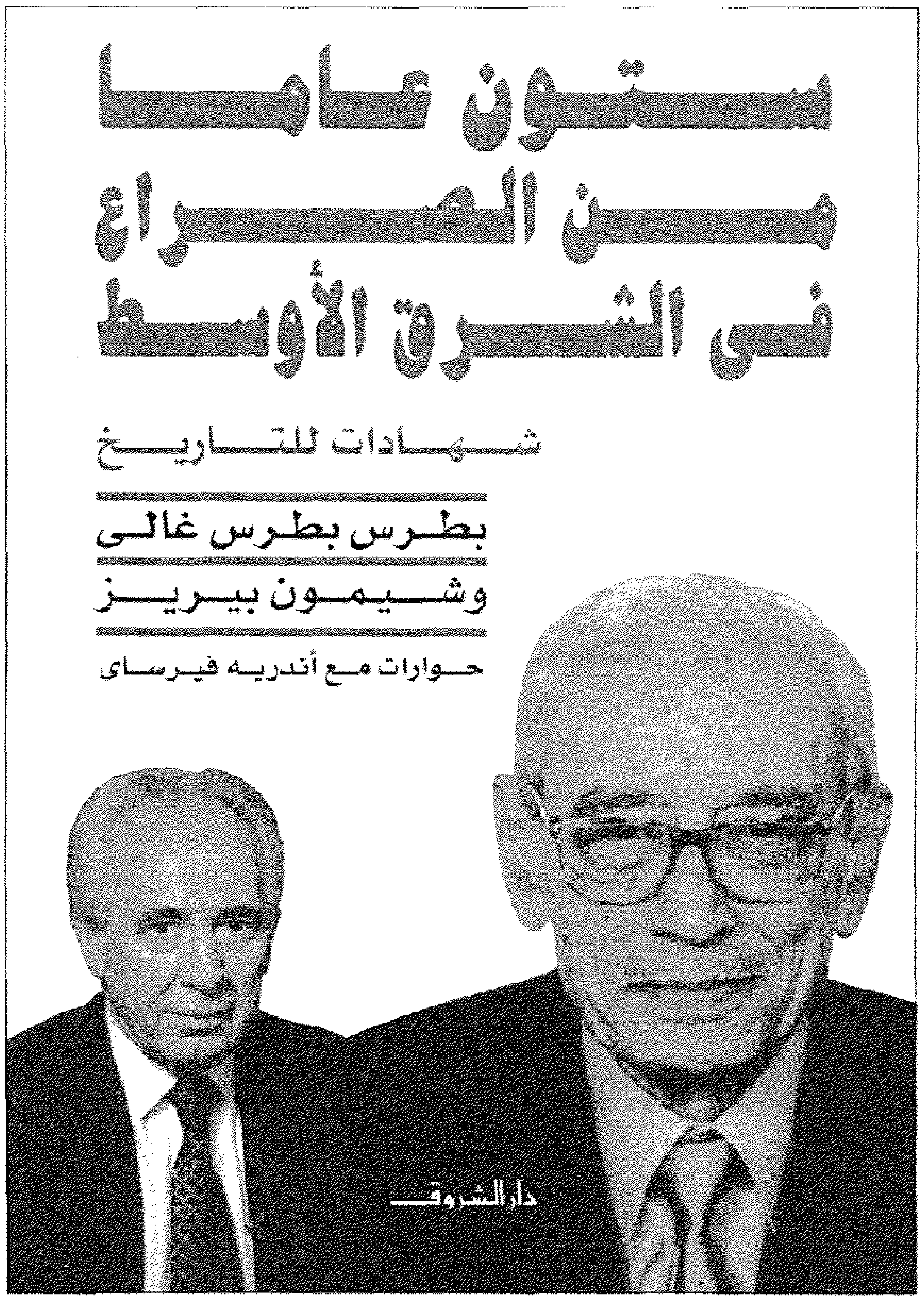
بعد أربعين سنة، يعيش ربع مليون إسرائيلى فى مائة وعشرين مستوطنة معترف بها رسميا، ومائة وثمانون ألفا يعيشون فى مناطق ملحقة من القدس الشرقية وستون ألفا فى الجولان. فى السنوات التى سبقت قيام إسرائيل، كان المستوطنون يجادلون بأن ضمان الأمن يكون بشراء المزيد من الأراضى أو الاستيلاء عليها. ورفض مستوطنو «إسرائيل الكبرى» ومؤيدوهم الذين يعتبرون الحدود القديمة مثل «حدود اوشفتز» أن يروا خطر سياستهم. وقد كان أسوأ نتائج الاحتلال بطبيعة الحال هو الحرمان الفظيع و العزل الجسدى والتشويه النفسانى الذى فرض على الفلسطينيين. ويقول جورنبرج إن الاحتلال كان للإسرائيليين خطرا أمنيا عاليا ومنبعا للفساد الأخلاقى.

إن عملية تقييم الشعب لماضيه من أجل رسم مستقبله ليست تطبيقا أكاديميا. لقد لعب تنقيح التاريخ دورا ولكن الحماقة السياسية على الجانبين غطت على أهميته. إن الإصرار على بناء المزيد من المستوطنات، وفشل القيادة الفلسطينية فى الاستجابة للعروض الإسرائيلية خلال عملية التفاوض فى كامب ديفيد وطابا، وازدياد العمليات (الانتحارية) وتقديس الشهادة، والأيديولوجية الإسلامية والعنف المميت، والقرارات الخاطئة لحكومة أولمرت - كل ذلك عمق من الإحساس باليأس. فى هذه اللحظة، يتضاءل الدعم الفلسطينى للحل المنادى بقيام دولتين، وحركة الاستيطان أصبحت مرة أخرى أقوى جماعة ضغط فى البلاد. مازالت حرب ١٩٦٧ تلقى بظلالها. وكما قال دوق ولنجتون: لا شىء أسوأ من نصر كبير إلا هزيمة كبيرة. ▪

كان أسوأ نتائج الاحتلال بطبيعة الحال هو الحرمان الفظيع والعزل الجسدى والتشويه النفسانى الذى فرض على الفلسطينيين. ويقول جورنبرج إن الاحتلال كان للإسرائيليين خطرا أمنيا عاليا ومنبعا للفساد الأخلاقى

شهادات

أندريه فيرساى



صدرت كتب كثيرة عن الصراع العربى الإسرائيلى، ولكن هذا الكتاب يعتبر سابقة تاريخية: فلم يحدث من قبل أن قرر رجلان من رجال السياسة الكبار، ما زالا يتوليان مناصب مهمة، وخصمان فى صراع هما فيه طرفان، أن يلتقيا من أجل القيام معا بزيارة جديدة للتاريخ الذى اشتركا فى صنعه.

بطرس بطرس غالى، المدافع عن العالم الثالث، سكرتير عام الأمم المتحدة السابق، تولى منصب وزير الخارجية المصرية فى عهد الرئيس أنور السادات. وفى عام ١٩٧٧م رافق الرئيس المصرى فى زيارته إلى القدس التى كانت أساس التغيير الجذرى الذى حدث فى معطيات الشرق الأوسط. ثم كان فى وقت لاحق، وفى مواجهة موشيه دايان، أحد المفاوضين الأساسيين فى اتفاقية السلام العربية الإسرائيلية التى وقعت عام ١٩٧٩م.

شيمون بيريز، «الرئيس الحالى لإسرائيل» رئيس وزراء أسبق، والرجل الذى خاض كل معارك إسرائيل: فقد كان هو الذى كلفه بن جوريون فى الخمسينيات، بالبحث عن أسلحة فى الوقت الذى كانت فيه المنطقة تقع تحت الحظر؛ كما كان هو الذى حصل على تعاون فرنسا من أجل بناء المفاعل النووى فى ديمونة. وأخيرا كان هو الذى أصبح فى عام ١٩٩٣م، مهندس المفاوضات السرية فى أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية (فتح)، والتى تعتبر التمهيد لأول اتفاق يعقد لمنح الفلسطينيين الحكم الذاتى. وبسبب دوره هذا حصل على جائزة نوبل للسلام مع كل من إسحاق رابين وياسر عرفات.

هذان اللاعبان الأساسيان فى الصراع العربى الإسرائيلى اللذان ينتميان إلى جيل واحد، (وهى مسألة ليست بلا أهمية) وافقا، ليس على أن يتحدث كل فى جانب، ولكن على أن يخوضا معا حوارا، تتقاطع فيه ذكرياتهما وتتواجه فيه شهادتهما حول الأحداث الكبرى التى شاركا فيها، والتى حدثت من الحرب الأولى بين إسرائيل والعرب وحتى يومنا هذا، شكل أقدم صراع معاصر.

هذا الصراع اعتبر دائما، من جانب ومن الآخر، مأساة بل ميلودراما، حيث يتصادم طغاة ضد مظلومين؛ همج ضد متحضرين؛ مستعمرون ضد استعماريين، مدمرون دمويون ضد بناة دول. وكل طرف يعتبر أنه هو الذى يقف فى جانب الحق المطلق، ولا يتردد فى نفى الشرعية عن عدوه، بل ونفى «الحقيقة» التى يؤمن بها الآخر.

ولكن كل هذا لا يدعو إلى الدهشة. فهل هناك مكان لشرعية «الآخر» حينما يكرس المرء نفسه بالكامل فى «ملحمة» تحريره؟ هل يستطيع المجتمع اليهودى فى فلسطين، الذى شعر بضرورة بناء دولته بسرعة، بنفس السرعة التى كان شعبه يتعرض بها فى أوروبا للاضطهاد على يد النازية، أن يأخذ فى اعتباره وضع العرب؟ والفلسطينيون، الذين جاشوا بالرغبة الشرعية فى إجلاء المستعمر، هل يستطيعون فهم مشاعر الارتباط التى يكنها اليهود القادمون من دول استعمارية، لنفس هذه الأرض؟

فى نظر كل جانب، ولعشرات السنوات، أو على الأقل إلى يومنا هذا، سيظل حقه واضحا إلى حد أن التشكيك فيه سيبدو بمثابة فضيحة. سيحل السخط مكان التحليل، ويتقلص العالم، كما فى الروايات المأساوية، ليتحول إلى مجرد حرب بين قوتين لديهما شعور عميق بالعداء؛ وإلى صدام يختزل فى معاناة فرضها الآخر؛ وإلى مجابهة تقتصر على مبدأين فقط. إما هم وإما نحن. ومن أجل سلب العدو نفوذه والحط من شأنه واستبعاده، يهاجمه الآخر فى «أخلاقياته». ولكن الرؤية ستكون «موعظة» أكثر مما هى «أخلاق»، أما الوضع فسيكون صراعا أبديا بين الخير والشر. وفى استناد على هاجس مزدوج من الذاكرة (هذا الهاجس انفعالى ومعد لا يستطيع أحد قياس حجم الخسائر التى يجلبها على ذويه)، يكون من الصعب تجنب إغراء «الشمولية». لن يكون فى الإمكان تحقيق أى حل وسط: فالإنسان لا

ستون عاما
من الصراع فى الشرق الأوسط
بطرس بطرس غالى وشيمون بيريز
حوارات مع أندريه فيرساى
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٧

بعد الانتهاء من قراءة الكتاب، أياً كان اتجاه تعاطفنا، فبالتأكيد لن نرى الصراع بنفس الصورة مرة أخرى

يتصالح مع الشر، ولا يتناقش معه. والمرء لا يتنازل أبداً.

ولكن هذا الصراع ليس ميلودراما. بل إن أردنا الاستمرار فى استخدام الاستعارة المسرحية، يمكن القول إنها تراجيديا، بمعنى أنها قصة غامضة حيث إن لكل شخصية من الشخصيات التى تتصارع نصيبها من الشرعية ونصيبها من النور، كما أن لكل منها جانبها من الظلال، ولكل منها نصيبها من الجرائم كما لها نصيبها من النبل.

واليوم، نحن ننظر إلى هذا الصراع بوصفه صراعاً إسرائيلياً فلسطينياً بالأساس. وننسى أن المجتمع الدولى كان يعتبره، وحتى عام ١٩٦٧م على الأقل، فى مجمله صراع إسرائيلى - عربى. لذلك كان اهتمامنا أن نضع فى المواجهة شخص مصرى وآخر إسرائيلى، وألا نقصر الصراع على المسألة الفلسطينية فحسب، حتى وإن كانت تلك المسألة تظل بكل تأكيد، هى أكثر من أى وقت مضى، فى قلب الصراع.

لقد اخترنا أن نبدأ النقاش من الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية. فى ذلك الوقت لم تكن الصهيونية قد حصلت بعد على انضمام الغالبية العظمى من الشعب اليهودى؛ ومن الناحية الأخرى، كان العرب الذين لم يدخلوا بعد إلى الحداثة، يطمحون إلى الاستقلال. مع الحرب، انقلب العالم رأساً على عقب. فقد تم إلقاء اليهود فى أتون برنامج إبادة، بينما وجد العرب فى الحرب إمكانية لتحريرهم من قبضة الاستعمار البريطانى. كانت هذه السنوات حاسمة بالنسبة لشيمون بيريز ولبطرس بطرس غالى: ماذا يعنى للوعى السياسى أن يكون المرء صهيونى فى الأربعينيات؛ وما هو العربى المعادى للاستعمار فى عالم سوف يرى قريبا صعود العالم الثالث؟

تلك الحوارات المتقاطعة تدور حول الأحداث الكبرى التى حددت تاريخ الشرق الأوسط: ١٩٤٧م خطة تقسيم فلسطين، ١٩٤٨، ١٩٤٩م نشأة دولة إسرائيل وإجهاض الدولة الفلسطينية، ١٩٥٢م ثورة الضباط الأحرار فى مصر، ١٩٥٦م أزمة السويس، ١٩٦٧م حرب الأيام الستة، ١٩٧٠م يقظة الشعور الوطنى الفلسطينى، ١٩٧٣م حرب أكتوبر، ١٩٧٧م زيارة السادات للقدس، ١٩٧٨م اتفاقية كامب ديفيد، ١٩٨١م اغتيال السادات، ١٩٨٢م حرب لبنان، ١٩٨٧م اشتعال الانتفاضة، ١٩٩٣م اتفاقية أوسلو، ١٩٩٤م اغتيال رابين، ٢٠٠٤م وفاة ياسر عرفات... إلخ.

رغم ذلك، فإن الكتاب الحالى ليس كتابا تاريخيا بالمعنى التقليدى: فاللاعبان لا يزعمان «الموضوعية». ولكن ما يقولاه يعتبر مصدراً أساسياً من حيث إنه يسمح لنا بالحصول مباشرة على معلومات من الأشخاص المعنيين، وفى نفس الوقت الحصول على رؤى وإستراتيجيات سياسية يصعب قراءتها من الخارج. هذا الكتاب يعطينا ما لا يمكن الحصول عليه من كتب التاريخ التقليدية: تعايش الرؤيتان العربية والإسرائيلية من الداخل، وتطور كل منهما عبر السنوات. لأنه إذا كانت الأحداث معروفة لدينا، فإن تفسيرهما لها مسألة تتعلق بحالتهما الذهنية، وعقليتهما وما عايشاه. وما نحن بصدده فى الكتاب هو المواجهة بين هذه الحالة الذهنية لكل منهما.

إن التاريخ الذى سوف نقرؤه ليس أكاديمياً، وليس أملس. والمتحاوران يكنان احتراما كبيرا الواحد للآخر، ولكن لن يجامل أحد منهما الآخر. بل سوف يتواجهان، كلٌ مدفوع برغبة للتعبير عن وجهة نظره التى عايشها، وفى نفس الوقت للاستماع إلى وجهة نظر الآخر مهما كان صعباً عليه الاستماع إليها. والمواقف كانت متعارضة بكل وضوح ولم يجر تهذيب أى خشونة فى الحديث: النقاش كان سياسياً وليس دبلوماسياً. ولكن هذه الصراحة أعطت الحوار قوة ملحوظة. ورغم ذلك لم يكن المتحدثان ملتزمين رسمياً؛ فقد وافقا على الحديث باسمهما هما. تلك هى الميزة التى يعطيها لهما السن، وأيضا التقدير الدولى الذى يتمتعان به، وفى حرية تعبير جريئة للغاية، سمح كل منهما لنفسه أن يوجه انتقادات لاذعة لمعسكره هو. وفى تبادل أسلحة قوى وتطورات سياسية وتحاليل رؤى، قدم كل من بطرس بطرس غالى وشيمون بيريز درساً رائعاً فى الجيوسياسة لا يدير الظهر لتاريخ الذهنيات.

بعد الانتهاء من قراءة الكتاب، أياً كان اتجاه تعاطفنا، فبالتأكيد لن نرى الصراع بنفس الصورة مرة أخرى. ■

كتاب الزاوية

مذكرات اللورد كِيلرن

وأطول يوم فى تاريخ مصر

اللورد كِيلرن، الذى عرف فى مصر باسم (السير) مايلز لامبسون، هو أشهر ممثلى بريطانيا فى مصر منذ احتلال البلاد عام ١٨٨٢ وحتى الجلاء عام ١٩٥٥ . ويقف اسمه على مستوى متكافئ تقريبًا مع أسماء الاستعماريين الإنجليز الكبار من أمثال اللورد كرومر واللورد كتشنر واللورد لويد.

وقد ارتبط اسم لامبسون بما عرف فى التاريخ المصرى بحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى أقدم فيه على التدخل فى شئون مصر الداخلية غير عابئ بنصوص معاهدة التحالف بين البلدين الموقعة عام ١٩٣٦. إذ وضع الملك فاروق أمام خيارين، إما أن يستدعى النحاس باشا ويكلفه بتشكيل حكومة تتولى شئون البلاد حالاً ودون تسويف، وإما أن يوقع وثيقة التنازل عن العرش ويغادر البلاد إلى غير رجعة. وكانت الدبابات البريطانية تحيط بقصر عابدين خلال تقديم لامبسون الإنذار للملك.

ونظرًا لأهمية وخطورة هذا الحادث، فإن لامبسون أفرد له مساحات مهمة فى مذكراته (الجزء الثانى) والتى ترجمها إلى العربية الدكتور عبدالرءوف أحمد عمرو. وصدرت عن سلسلة تاريخ المصريين التى تنشرها الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٥ . وقد اختارت «وجهات نظر» مقتطفات من مذكرات لامبسون عن هذا اليوم «الطويل» فى تاريخ مصر.

بدون المعلومات التى يقدمها العملاء لم يكن بوسع الجيش الإسرائيلى تنفيذ أى من عمليات الاغتيال والتصفية بحق قادة وعناصر حركات المقاومة، فضلاً عن تنفيذ عمليات الاختطاف والاعتقال

من أهم الاستنتاجات التى خلصت إليها لجان التحقيق العسكرية الكثيرة التى شكلها الجيش الإسرائيلى للتعرف على أسباب إخفاقه فى تحقيق الأهداف التى حددتها حكومة إيهود أولمرت للحملة العسكرية على حزب الله فى أعقاب اختطاف اثنين من جنوده، كانت بلا شك الحاجة إلى زيادة الاستثمار فى مجال جمع المعلومات الاستخبارية.

فقد كان واضحاً لهذه اللجان أن هذه الحرب أبرزت العديد من مظاهر القصور فى مجال جمع المعلومات الاستخبارية، أدت فى النهاية إلى عجز إسرائيل عن حسم المعركة لصالحها، رغم تفوقها بشكل هائل على حزب الله.

فالاستخبارات الإسرائيلية فشلت فى التنبؤ بإمكانية أن يقوم حزب الله بأسر الجنديين. كما أنه عندما أعلنت تل أبيب الحرب، تبين أنه لم يكن لدى هذه الاستخبارات معلومات دقيقة عن أماكن تخزين ونصب صواريخ حزب الله. الأمر الذى أتاح للحزب مواصلة إطلاق الصواريخ حتى آخر يوم فى الحرب، الأمر الذى أدى لأول مرة إلى نزوح عشرات الآلاف من الإسرائيليين عن مستوطنات الشمال، مما ترك آثاراً مدمرة على المزاج العام للجمهور الإسرائيلى.

وفى ظل الحديث عن نتائج الحرب، شدد العديد من كبار قادة الاستخبارات والمفكرين الإستراتيجيين فى إسرائيل على أن المعلومة الاستخبارية تمثل فى الحقيقة جزءاً أساسياً من النظرية الأمنية الإسرائيلية.

ويقول رئيس شعبة الاستخبارات الإسرائيلى الأسبق شلومو جازيت إن توفر المعلومات الاستخبارية الدقيقة منحت الجيش الإسرائيلى دائماً القدرة على توجيه ضربات قاصمة وخاطفة للجيوش العربية وحركات المقاومة الفلسطينية، وهذا ما أدى إلى تقليص فترات الحروب مع الدول العربية، الأمر الذى سمح بعودة الحياة الطبيعية إلى مسارها فى إسرائيل بسرعة كبيرة. من ناحيته يقول الخبير الأمنى الإسرائيلى أمير أورن إن قدرة إسرائيل على الحصول على استخبارات «ممتازة» مكنها من الاحتفاظ بجيش نظامى صغير، بحيث إنه لا يتم استدعاء قوات الاحتياط إلا فى حالة شن حرب هجومية على الدولة.

ويؤكد أورن أن حقيقة اعتماد الجيش الإسرائيلى على ٧٠٪ من قواه البشرية على قوات الاحتياط، يعنى أن قدرة العرب على إطالة أمد أى حرب سيؤدى إلى نتائج كارثية على إسرائيل؛ من هنا كانت هناك دوماً هناك حاجة ماسة إلى معلومات استخبارية دقيقة عن «العدو العربى».

ويعتبر الجنرال جادى ايزنكوف، قائد المنطقة الشمالية فى جيش الاحتلال أنه من البدهيات، أن غياب معلومات استخبارية نوعية، يعنى أنه لا قيمة تذكر للتفوق النوعى الإسرائيلى فى المجال العسكرى. ويضيف إن سلاح الجو الذى يمثل الذراع الاستراتيجية لإسرائيل فى الحرب مع الدول العربية لن يكون لديه ما يفعله إن لم يكن لديه معلومات حول المكان الدقيق للهدف المزمع مهاجمته، كما أن الوحدات المختارة لن يكون بإمكانها التدليل على قوتها ونخبويتها فى حال لم تتزود بمعلومات دقيقة حول الأهداف التى تنوى مهاجمتها.

لكن تبدو مساهمة العملاء والمعلومات الاستخبارية واضحة بشكل أكثر وضوحاً فى مواجهة حركات المقاومة الفلسطينية. فتؤكد العشرات من الأحكام التى أصدرتها المحاكم الفلسطينية بحق العشرات من العملاء خلال الانتفاضة الحالية أنه بدون المعلومات التى يقدمها العملاء لم يكن بوسع الجيش الإسرائيلى تنفيذ أى من عمليات الاغتيال والتصفية بحق قادة وعناصر حركات المقاومة، فضلاً عن تنفيذ عمليات الاختطاف والاعتقال التى يتعرض لها المقاومون.

وهذا ما أكده جميع قادة جهاز المخابرات الإسرائيلية الداخلية «الشاباك» (الذى يتولى بشكل أساسى مهمة تجنيد وتوظيف العملاء من الفلسطينيين)، الذين تباهوا بقدرتهم على توظيف العملاء فى مجال محاربة المقاومة.

ويزخر كتاب «القادم لقتلك»، الذى ألفه يعكوف بيرى، الرئيس الأسبق لجهاز «الشاباك»، والذى صدر قبل عدة أعوام - بالمعلومات التى تعكس حجم المساهمة الهائل للعملاء فى تسهيل عمليات جيش ومخابرات الاحتلال.

اللافت للنظر أنه حسب التحقيقات التى أجرتها الأجهزة الأمنية والفصائل الفلسطينية مع العملاء تبين أن بعضهم قاموا شخصيا بتنفيذ عمليات اغتيال أو محاولات لتنفيذ اغتيال ضد نشطاء المقاومة.

بعض العملاء اعترف بدور مباشر فى المجهود الحربى لقوات الاحتلال. ففى مؤتمر صحافى عقده جهاز الأمن الوقائى الفلسطينى فى قطاع غزة قبل عام ونصف اعترف أحد العملاء الذين زرعهم جهاز «الشاباك» فى صفوف الجناح العسكرى لإحدى الفصائل الفلسطينية، أنه كان يقوم بإبطال مفعول العبوات الناسفة التى كانت حركات المقاومة تقوم بزرعها فى الشوارع التى تفترض أن قوات الاحتلال ستسلكها لدى اقتحام مدينة «رفح»، جنوب قطاع غزة التى كان يعيش فيها هذا العميل.

بلورة الأهداف الاستخبارية

تواصلت حرب لبنان الثانية فى ظل تعبير إسرائيل عن قلقها من اثنين من مظاهر الخطر التى تهدد أمنها الإستراتيجى، وهما المشروع النووى الإيرانى، والحركات الجهادية فى العالم.

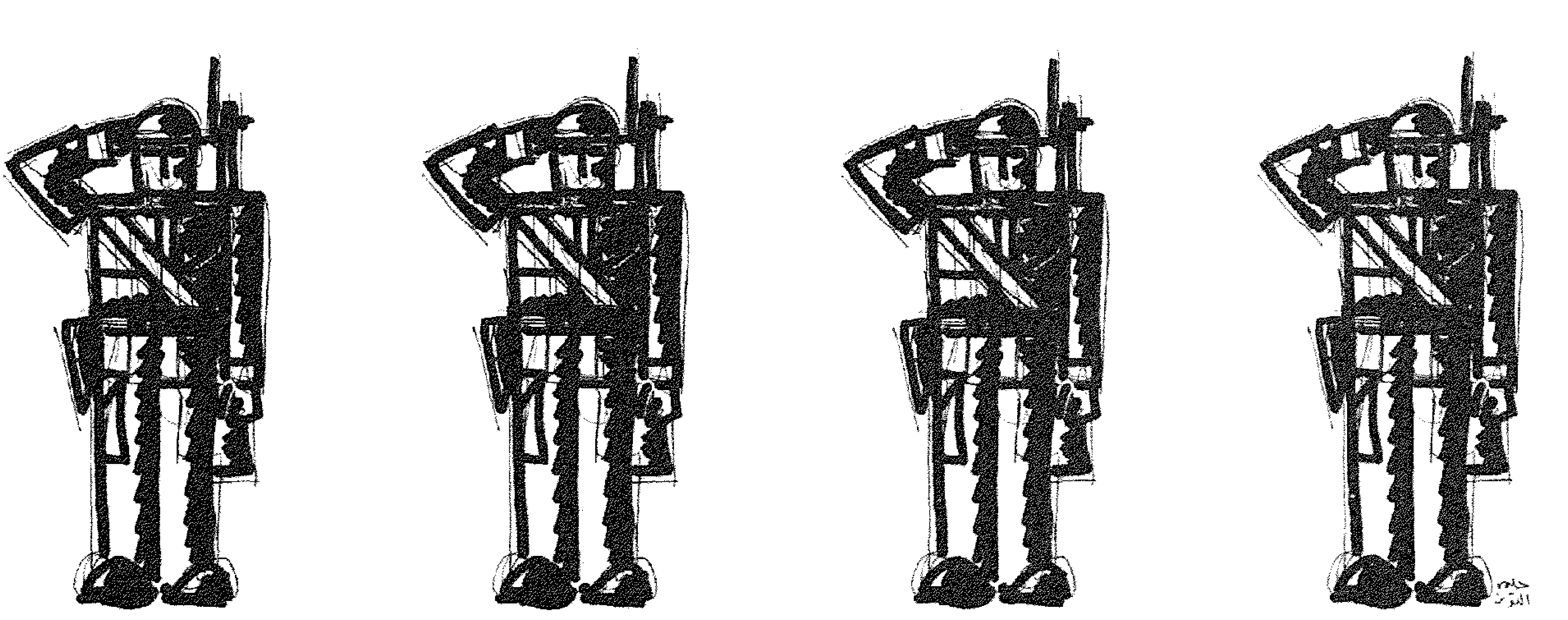
فى نفس الوقت، فإن إسرائيل لا يمكنها إغفال الاهتمام بالدول العربية ذات التأثير الهام فى العالم العربى وتحديداً مصر وسوريا. كما أن الساحة الفلسطينية تشكل تحدياً كبيراً لإسرائيل فى أعقاب فوز حركة حماس، وتواصل حركات المقاومة، والحديث المتزايد عن إمكانية شن حملة برية لإعادة احتلال معظم مناطق قطاع غزة. وكل هذه التحديات تمت ترجمتها إلى أهداف استخبارية على النحو الآتى:

أولاً: قرر رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولمرت مؤخراً بوصفه المسئول المباشر عن الأجهزة الاستخبارية تفويض جهاز الاستخبارات للمهام الخارجية «الموساد» مواجهة الخطر الذى تمثله الحركات الجهادية فى جميع أرجاء العالم على إسرائيل، إلى جانب تسليمه ملف البرنامج النووى الإيرانى. وكلف الموساد بجمع المعلومات الاستخبارية عن الحركات الجهادية والبرنامج النووى الإيرانى والتعاون فى ذلك مع وكالة الاستخبارات الأمريكية «السى آى إيه».

ثانياً: تكثيف عمليات جمع المعلومات الاستخبارية عن الدول العربية، وتحديداً عن سوريا ومصر. وإن كان من المفهوم أن تبرر إسرائيل جمع المعلومات الاستخبارية عن سوريا التى هى فى حالة حرب معها، فإنه يكون من المثير الاستماع إلى تبريرات الإسرائيليين لجمع المعلومات الاستخبارية عن مصر الذى تربطها بها معاهدة سلام.

فقد اعتبر الجنرال يوسى كابروفسير، الذى كان يشغل منصب رئيس قسم الأبحاث فى شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية المعروف بـ«أمان» أن مصر تمثل «هدفاً استخبارياً من الطراز الأول».

وفى مقابلة أجرتها معه القناة العاشرة فى التليفزيون الإسرائيلى بتاريخ ٢-٣-٢٠٠٦، بعد تركه منصبه وانتقاله للحياة المدنية، قال كابروفيسير إن التوقيع على معاهدة «كامب ديفيد»، لم يغير كثيراً من الاهتمام الإسرائيلى بمتابعة كل ما يجرى فى مصر، على اعتبار أنه لا يوجد ثمة ثقة أن تواصل مصر الالتزام بتلك المعاهدة.



صالح محمد النعامي

العملاء!

لكن هناك من كبار المسئولين الإسرائيليين من هم أقل حذراً في تصريحاتهم إزاء مصر، والحاجة لمعرفة كل معلومة حولها. فنائب رئيس الوزراء، والمكلف بالشئون الاستراتيجية في الحكومة أفيجدور ليبرمان قال في جلسة لنواب حزب «إسرائيل بيتنا» في الكنيست بتاريخ ١٢-١-٢٠٠٧ «يتوجب علينا ألا نغفو أثناء الحراسة، معاهدة السلام مع مصر ليست بوليصة تأمين. يتوجب علينا أن نأخذ أقصى درجات الحذر، يجب أن نحرص على أن تبقى مصر بعيدة عن منظومات الأسلحة التي يمكن أن تشكل تهديداً استراتيجياً لنا».

أقوال كابروفسير وليبرمان هذه تصلح لفهم جهود الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية، وتحديداً جهاز «الموساد» لزرع عملاء في مصر لجمع المعلومات الاستخبارية، والتي كان آخرها إلقاء القبض على المهندس الذي يعمل في هيئة الطاقة الذرية المصرية، بتهمة الارتباط بالأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية.

وعلى الرغم من أن إسرائيل الرسمية نفت أي علاقة لها بهذا المهندس، إلا أن إيتان هابر رئيس ديوان رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إسحاق رابين، وكبير المعلقين في صحيفة «يديعوت أحرونوت» أوسع الصحف الإسرائيلية انتشاراً، والذي ألف عدة كتب عن الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية، علق على هذا النبأ بالقول في مقابلة بثتها القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي ١٨-٤-٢٠٠٧ أن الأجهزة الاستخبارية تنطلق من افتراض مفاده أنه يتوجب محاولة زرع عملاء لها في كل المؤسسات الهامة في العالم العربي، من أجل الحصول على المعلومات التي يمكن على أساسها اتخاذ القرارات السياسية والعسكرية المناسبة.

ويتقاسم المسئولية عن جمع المعلومات الاستخبارية عن الدول العربية كل من جهازي «الموساد» و«أمان».

ثالثاً: مواصلة العمل ضد حركات المقاومة الفلسطينية، باعتبارها هدفا استخباريا بالغ الأهمية، وذلك لقربها من العمق الإسرائيلي. ويتولى عملية جمع المعلومات الاستخبارية جهاز المخابرات الداخلية المعروف بـ«الشاباك»، وهو يشارك الجيش بشكل عملي في عمليات مطاردة المقاومين الفلسطينيين.

بين المصادر البشرية والإلكترونية

لا خلاف بين قادة الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية على أفضلية المعلومات الاستخبارية التي يمكن الحصول عليها حول العالم العربي من مصادر بشرية، أي عن طريق زرع عملاء عرب في الدول العربية المستهدفة.

ويقول آفي ديختر وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي والذي شغل في الماضي منصب رئيس جهاز «الشاباك» إن المعلومات التي يحصل عليها من المصادر البشرية تكون في الغالب موثوقا بها أكثر من المعلومات التي يمكن الحصول عليها بالوسائل الإلكترونية، مثل التنصت ومتابعة الأقمار الصناعية، التي في كثير من الأحيان يصعب تفسيرها، على حد قوله.

ويجزم أن بعض المعلومات الحيوية لا يمكن الحصول عليها إلا عبر المصادر البشرية. من هنا فإنه بالنسبة لديختر وجميع قادة الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية، فإن إسرائيل مطالبة بمضاعفة الاستثمار في مجال تجنيد المزيد من المصادر البشرية داخل الأراضي الفلسطينية وفي الدول العربية للحصول على المعلومات الحيوية.

ويسخر داني ياتوم، الرئيس الأسبق لجهاز «الموساد» من آليات عمل وكالة الاستخبارات الأمريكية التي تعتمد بشكل أكبر على الوسائل الإلكترونية في الحصول على المعلومات الاستخبارية، ويعتبر أن هذا هو أحد الأسباب التي جعلت مهمة الولايات المتحدة بالغة الصعوبة في كل من العراق وأفغانستان.

يقول يحكوف بيري في كتابه «الآتي لقتلك»، إن عملية تجنيد العملاء، تعتمد بشكل أساسي على القدرات «الإبداعية» التي يتمتع بها القائمون على مهمة تجنيد العملاء، وقدرتهم على تطوير أدائهم بما يتناسب مع ثقل المسئولية الملقاة على عاتقهم.

ويصف عملية تجنيد العملاء بأنها «حرب عقول» مفتوحة. لكن من خلال ما كتبه بيري، ويهودا جيل، الذي يعتبر من أكثر ضباط الموساد الذين نجحوا في تجنيد عملاء عرب، وابراهام حزان، من قادة «الشاباك»، وغيرهم من أولئك الذين شغلوا مناصب مرموقة في الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية، فإن عملية تجنيد العملاء، تقوم على الظروف الآتية:

١- المنتصر يخترق المهزوم: في حال نشوب صراع بين كيانين، فإن أي كيان بإمكانه أن ويؤكد حزان أن هذه مسلمة تاريخية، وتاريخ الصراعات دلل على ذلك.

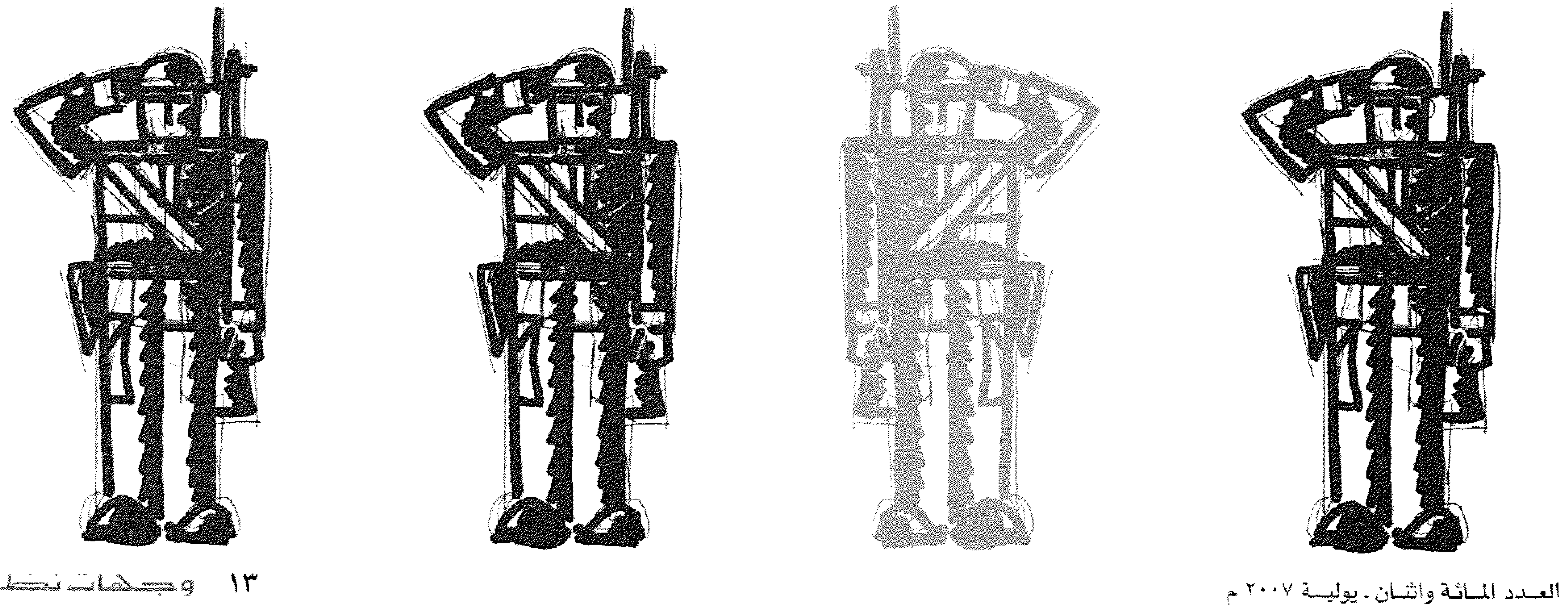
ويرى رافي إيتان، الذي رأس في السابق قسم تجنيد العملاء في الموساد، أنه في حال حقق أحد طرفي صراع انتصاراً على الطرف الآخر، فأن مواطني الطرف المهزوم، يبدون استعدادا للتعاون مع الطرف المنتصر.

وإذا أسفر الصراع عن نجاح طرف في احتلال أرض الطرف الآخر، فإن هذا يمثل «الظروف المثالية لتجنيد العملاء»، كما يقول بيري. ويقول الكاتب والمحقق الإسرائيلي يغآل سيرنا إن وزير الحرب الإسرائيلي موشيه ديان، بعد انتهاء حرب الأيام الستة قد شدد على أن استعداد الفلسطينيين للتعاون مع المخابرات الإسرائيلية، هو الشرط الذي يمكنهم من العيش بـ«راحة» بعد الاحتلال.

وينقل سيرنا عن ديان قوله «الآن يوجد للفلسطينيين ما يخسرونه، فكل فلسطيني يريد الحصول على تصريح لإقامة مشروع اقتصادي، أو تصريح للعمل أو العلاج في إسرائيل، أو يرغب في السفر للخارج، عليه أن يكون مستعداً للتعاون معنا».

٢- الحاجات المادية والاقتصادية والعاطفية: وكما يقول جيل، فإن هذه الحاجات تشكل نقاط ضعف تستطيع الأجهزة الاستخبارية استغلالها لتجنيد العملاء.

٣- ضعف الشعور بالانتماء الوطني: يربط



شفطاى شفيت، رئيس جهاز الموساد السابق بين استعداد قطاعات فى العالم العربى للتعاون مع إسرائيل وبين وجود الأنظمة الشمولية القمعية فى العالم العربى. ويضيف فى مقابلة مع التليفزيون الإسرائيلى بتاريخ ٢٢-٥-٢٠٠٤ أن حكم الأنظمة الشمولية فى العالم العربى هو عامل مهم فى تقليص الشعور بالانتماء الوطنى بسبب قمعها، الأمر الذى يجعل بعض مواطنى الدول العربية مستعدين للتعاون مع إسرائيل احتجاجاً على حكوماتهم وأنظمتهم.

٤- ضعف المستوى التعليمى وانعدام الثقة بالذات: على الرغم من نجاح الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية فى تجنيد أشخاص من مختلف المستويات، إلا أنه لا خلاف بين قادتها على أنه كلما ارتفع المستوى التعليمى للفرد كلما كانت عملية تجنيده أكثر صعوبة. ولا خلاف أيضاً على أن الثقة بالذات تمثل عنصراً مهماً فى قبول أو رفض التعاون مع دولة الاحتلال.

وتنقل الإذاعة العبرية بتاريخ ١٤-٤-٢٠٠٣ عن أحد ضباط جهاز «الشاباك» قوله إنه فى أحد الأيام استدعى أحد الشباب الفلسطينى فى أحد مخيمات اللاجئين فى الضفة الغربية. وبعد أن تحدث معه حول أموره الشخصية، عرض عليه التعاون مع المخابرات الإسرائيلية. فرفض الشاب. فما كان من هذا الضابط إلا أن أخرج عدة صور لهذا الشاب وهو يمارس الجنس مع إحدى النساء. وتوجه للشاب قائلاً «حسناً، ماذا تقول الآن، بإمكانى أن أوصل هذه الصور لعائلة الفتاة وعندها سيقتلونك».

ويضيف الضابط «لهول مفاجآتى، فإذا بهذا الشاب يبتسم ابتسامة خبيثة ويقول لى: حسنا، لا عليك، أنا سأريحك، فإذا سحبت لى مزيداً من هذه الصور، سأقوم بتعليقها فى شوارع المعسكر».

ويقول الضابط «لقد جن جنونى بعد أن تبين لى أن مناورتى التى نجحت مع العشرات من الشباب الفلسطينى فشلت مع هذا الخنزير، لأنه علم أننى لست معنياً فى الحقيقة بنشر الصور، فطردته من المكتب، وأنا أكن له كل احترام وتقدير». ولا يفوته أن يشير إلى أن هذا الشاب أصبح متديناً وتحول للعمل المقاوم عندما اندلعت الانتفاضة الأولى، حيث قضى نحبه فى إحدى العمليات.

٥- ضعف أو قوة الوازع الدينى: لا خلاف لدى ديختر، على أن الوازع الدينى لدى العرب والفلسطينيين يمثل درعاً واقياً يقلص استعدادهم للتعامل مع المخابرات الإسرائيلية.

ويورد ديختر حادثة ذات دلالة. ويقول أنه عندما كان مسئولا عن تجنيد العملاء فى منطقة شمال قطاع غزة، استدعى شاباً فلسطينياً لمحاولة تجنيده، وبعد أخذ ورد، كما يقول ظهر لدى هذا الشاب استعداد للتجاوب، وفجأة، فإذا بالمساجد فى المنطقة تصدع بأذان الظهر، فما كان من هذا الشاب، إلا أن ارتعد وزمجر وصرخ فى وجهى «لن أخون الله ووطنى أيها الحقير».

الموساد وآلية «شفط العملاء»

جهاز «الموساد»، الذى يعنى بشكل مباشر بالتجسس على الدول العربية، لا يملك القدرة على الاحتكاك بمواطنى الدول العربية بسهولة، كما هو متاح لجهاز «الشاباك»، المسئول عن تجنيد العملاء من بين الفلسطينيين.. ولعدم قدرة «الموساد» على العمل بشكل مباشر فى العالم العربى، فإن المسئولين عن تجنيد العملاء فى هذا الجهاز يسعون إلى استدراج المرشحين للإسقاط إلى خارج العالم العربى لكى تتاح ممارسة أساليب التأثير التى يحاول الموساد من خلالها تجنيد هؤلاء لصالحه، وهو ما يطلق عليه شفتاى شفيط، آلية «شفط العملاء». وتتم هذه الآلية بأشكال مختلفة، حسب الظروف:

١- هناك مواطنون عرب يتوجهون من تلقاء أنفسهم، وبسبب ضائقة مالية أو مشاكل اجتماعية، أو بدافع الانتقام من أوطانهم، إلى السفارات الإسرائيلية لعرض خدماتهم فى مجال التجسس على طاقم السفارة.

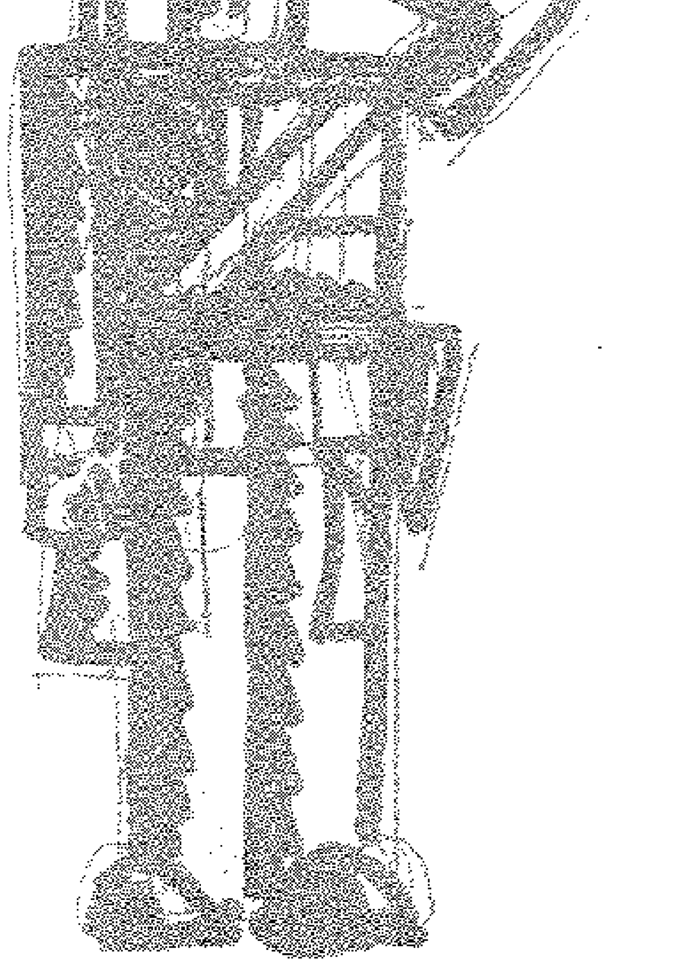
وتدلل اعترافات بعض العملاء الذين ألقى القبض عليهم فى الدول العربية، وتحديداً فى مصر أن هؤلاء بادروا إلى عرض خدماتهم على الموساد. وتكمن أهمية هذا النوع من العملاء، أن بعضهم يبادر إلى ذلك وهو يعلم أن لديه ما يمكن أن يقدمه. وبالطبع هذه الطريقة الأيسر فى تجنيد العملاء.

٢- محاولة تجنيد المواطنين العرب الذين يتوجهون للخارج سواء للدراسة أو العمل، واستغلال مشاكلهم لعرض حلول لها، وينتهى الأمر بالسقوط فى براثن الموساد. كما حدث مع عدنان ياسين الموظف فى مكتب حكم بعلاوى عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح» عندما كانت قيادة منظمة التحرير فى تونس، وكان بعلاوى مسئولاً عن الأمن فى مقر المنظمة.

فعندما توجه ياسين للعلاج فى مطلع الثمانينيات من القرن الماضى للعلاج فى فرنسا، وكان يواجه مشاكل مالية جمة، عرض عليه عناصر الموساد تقديم الدعم المالى له مقابل موافقته على التعامل معهم، فوافق على ذلك.

فما كان منه إلا أن قدم أخطر المعلومات الاستخبارية عن قيادة منظمة التحرير. وهى المعلومات التى سمحت لحكومة رابين قبيل الخوض فى مسار «أوسلو» بالتأكد من أن هذه القيادة أصبحت جاهزة لأى حل يعرض عليها.

يعترف الجنرال يوسى كابروفسير، الذى كان يشغل منصب رئيس قسم الأبحاث فى شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية المعروف بـ«أمان» أن مصر تمثل «هدفاً استخبارياً من الطراز الأول»



فبناء على تعليمات الموساد قام ياسين بإهداء أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى ذلك الوقت محمود عباس، الرئيس الفلسطينى الحالى، مصباحاً مكتبياً غالى الثمن لوضعه على مكتبه الخاص فى مقر المنظمة فى تونس، وكان «الموساد» قد زرع فى هذا المصباح جهاز تنصت، استطاعت إسرائيل من خلاله أن تطلع أولاً بأول على ما يجرى من مداولات فى مكتب أبو مازن، قبل وأثناء المفاوضات السرية على اتفاقية «أوسلو».

وقال عوزى عراد الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب مدير قسم الأبحاث فى جهاز «الموساد» إن المعلومات التى نقلها ياسين كان لها بالغ الأثر فى بلورة قناعة لدى دائرة صنع القرار فى إسرائيل أن قيادة منظمة التحرير فى أقصى درجات تهافتها على البحث عن تسوية تضمن لها بقاء دورها فى قيادة منظمة التحرير، بعد أن اتضح لها أنها توشك على فقدان زمام المبادرة.

٣- تحديد هوية أشخاص فى العالم العربى ومحاولة إسقاطهم بشكل مباشر، بسبب مواقعهم الحساسة، مثل عملهم فى المؤسسات الأمنية أو السياسية، أو المنشآت الاستراتيجية. حيث يقوم «الموساد» بإرسال من يقوم بالاحتكاك المباشر مع هؤلاء فى الدول العربية ذاتها، لاستدراجهم.

وفى الأغلب يكون العنصر النسائى هو العنصر الأساسى فى عمليات الاستدراج. وتعتبر قصة الطيار فى الجيش العراقى منير دفة مطلع السبعينيات من القرن الماضى مثالاً حياً على هذه الوسيلة.

فقد كان «الموساد» معنيا بالحصول على معلومات عن سلاح الجو العراقى، وتحديداً طائرة «الميج تسعة وعشرين»، التى كانت أحدث ما أنتجته الصناعات الحربية السوفيتية. وكانت إسرائيل معنية بتزويد هذه الطائرة للولايات المتحدة من اجل التعرف على التقنيات التى قامت عليها، من أجل تعزيز مكانة تل أبيب لدى الإدارة الأمريكية.

فقام الموساد بإرسال إحدى عميلاته الحسناوات التى انتحلت صفة سائحة غنية، وحرصت على الاحتكاك بدفة فى إحدى الحفلات ذات المستوى العالى، وقد شغف دفة بها وعرض عليها الاتصال الجنسى على الرغم من أنه متزوج، فوافقت على العرض مقابل أن يتم فى الخارج، فسافر معها إلى باريس وهناك تم تصويره وهو يمارس الرذيلة، ومن ثم موافقته على التعاون مع الموساد، ومن فرنسا توجه دفة إلى تل أبيب، حيث تم الاتفاق معه على أن يتم وضع دفعة من المال فى حسابه فى أحد البنوك السويسرية، وأن يتم ترحيل عائلته من العراق بمساعدة العملاء الإسرائيليين، ومن ثم نقلهم إلى إسرائيل، ومقابل ذلك هرب بطائرته الميج إلى إسرائيل حيث استقبله

أصبح «الموساد» يوظف بشكل كبير الإمكانيات التى توفرها شبكة الإنترنت عن طريق استدراج الشباب العرب.

رئيس الموساد آنذاك مائير عميت، حيث تم منحه وأفراد عائلته هويات إسرائيلية.

وقد وردت تفاصيل هذه القصة فى كتاب «أمراء الموساد»، لمؤلفيه الإسرائيليين يوسى ميلمان ورفيف دان. وعلى الرغم من قلة الشواهد على هذه الآلية، فإنها قد تكون أكثر الوسائل جدوى، إذ أنها تتيح للموساد محاولة استدراج أهداف محددة، يرى أنها قد تكون مصادر استخبارية ثمينة.

٤- نشر إعلانات فى الصحف أو على مواقع على شبكة الإنترنت تحت اسم شركات وهمية تعرض فرص عمل لباحثين أو خبراء فى مجالات محددة، وعادة يكون مقر هذه الشركات الوهمى فى عواصم الدول التى يتاح للموساد فيها العمل بحرية، مثل دول جنوب شرق آسيا، وقبرص. ويتم تصميم الإعلان بحيث يهدف إلى استدراج فئات محددة يرى «الموساد» أنها يمكن أن تصل إلى مواقع حساسة فى الدولة المستهدفة بعمله الاستخبارى. وتعتبر قصة إسقاط الخبير فى هيئة الطاقة الذرية المصرية مثالاً على استخدام هذا النوع من الأساليب.

٥- استغلال شبكة الإنترنت: أصبح «الموساد» يوظف بشكل كبير الإمكانيات التى توفرها شبكة الإنترنت عن طريق استدراج الشباب العرب، فيكشف الباحث وخبير الأمن الفلسطينى الدكتور خضر عباس فى كتابه «العملاء فى ظل الاحتلال الإسرائيلى»، أن «الموساد» دشن العديد من صفحات التعارف على شبكة الإنترنت، حيث يتم عرض صور لفتيات يعرضن التعارف على الشباب العرب. وعندما يتصفح شاب عربى هذه الصفحات تظهر صورة فتاة حسناء تعرض على الشاب العربى اللقاء فى أى مكان فى العالم، وتعرض هذه الفتاة على هذا الشاب دفع تكاليف الرحلة شرط أن تكون «فحولة» هذا الشاب مكتملة. فيهب بعض هؤلاء لاصطياد أولئك الفتيات، ليجد نفسه مرتبطاً بجهاز الموساد.

ويحرص عملاء الموساد على الحصول على أكبر عدد من عناوين البريد الإلكترونى للشباب العربى، ويقومون بالتسجيل لديهم على برامج «الماسنجر» بغية الدردشة بهدف الاستدراج، وينتحل رجال الموساد فى أغلب الأحيان شخصية فتاة، للإيقاع بالفريسة.

إلى جانب مشاركة رجال الموساد فى غرف الدردشة والمنتديات الشبابية بهدف الاستدراج. وأهمية شبكة الإنترنت، تكمن فى أنها تساهم فى وضع رجال الموساد فى احتكاك مع شباب عرب من مختلف أرجاء العالم العربى. وما ينطبق على الدول العربية، ينطبق على الدول التى تعتبر أهدافاً استخبارية من الطراز الأول للموساد، وتحديداً إيران.

«الشاباك» وآليات

التجنيد التقليدية

منذ أن احتلت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة فى العام ١٩٦٧، أصبحت تتحكم فى كل مناحى الحياة للفلسطينيين، فحصول الفلسطينى على تصريح للعمل، أو العلاج، أو إذن بالسفر للخارج من أجل الزيارة أو مواصلة التعليم كان مرهوناً فقط بموافقة سلطات الاحتلال. فى نفس الوقت كانت هذه السلطات منذ العام سبعة وستين وحتى تشكيل السلطة الفلسطينية فى العام أربعة وتسعين، هى الجهة المسئولة عن استيعاب عشرات الآلاف من الفلسطينيين فى سلك التعليم والصحة وقطاع الخدمات. إسرائيل لم تتوان للحظة فى استغلال ما تتمتع به من نفوذ من أجل مساومة الكثير من الفلسطينيين وابتزازهم من أجل دفعهم إلى التعاون مع مخابراتها، ممثلة بجهاز «الشاباك». صحيح أن المخابرات الإسرائيلية فشلت فى ابتزاز معظم الذين حاولت مساومتهم على أن يصبحوا عملاء لها، إلا أن احتكارها للقوة والنفوذ دفع الكثير من ضعاف النفوس للسقوط فى براثن العمالة، وأصبحوا أدوات رخيصة وطيعة فى أيدى عدوهم. انحطاط المعايير الأخلاقية للمحتل جعله يستخدم وسائل قذرة فى تجنيد العملاء من بين الفلسطينيين، وكما بات معروفاً الآن، فقد عمد «الشاباك» إلى استدراج الشباب الفلسطينى إلى ممارسات غير أخلاقية، حيث يتم تصويرهم فى أوضاع مشينة، وبعد ذلك يقوم عناصر «الشاباك» بتخييرهم بين العمالة، أو فضح أمرهم. وقد دلت التحقيقات التى أجرتها الأجهزة الأمنية الفلسطينية، فضلاً عن التحقيقات التى أجرتها فصائل المقاومة الفلسطينية مع مئات العملاء عن أن هذه الطريقة هى الأكثر شيوعاً فى تجنيد العملاء. ويجمع كل الذين تعاملوا مع ملف العملاء على أن الحصول على سقطات أخلاقية، وبالذات جنسية على الشباب الفلسطينى توظف من قبل ضباط المخابرات الإسرائيلية فى دفع الشباب الفلسطينى. فعلى سبيل المثال تقدم قصة «ن. ج» هو أحد عناصر الأمن الوطنى الفلسطينى، من عائلة تسكن فى المنطقة الوسطى من قطاع غزة، ومعتقل فى سجون السلطة فى غزة بعد اعترافه بالتعامل مع المخابرات الإسرائيلية. التقى به كاتب هذه السطور فى السجن ليتحدث عن طريقة إسقاطه. يقول «ن. ج» إنه فى العام ٢٠٠٠ انضم للأمن الوطنى الفلسطينى، فقررت قيادة الأمن الوطنى إرساله إلى العمل فى منطقة «بيت لحم» فى الضفة الغربية. فكان عليه، كما هو الحال مع جميع عناصر الأمن الوطنى الذين سينتقلون للعمل فى الضفة أن يحصلوا على تصريح للسفر للضفة. ويضيف «ن. ج» أنه توجه إلى مكتب الارتباط العسكرى الإسرائيلى فى حاجز «ايرز» الذى يصل شمال القطاع بإسرائيل، ليحصل على التصريح. هناك قام الجنود بإدخاله إلى مكتب كبير، حيث كان شاب يلبس الزى المدنى ينتظره، وبعد أن قام بتعريفه على نفسه بأنه «الكابتن جمى» من جهاز المخابرات الإسرائيلية، عرض عليه أن يتعاون معه من أجل «الحفاظ على السلام من الحركات المتطرفة فى الجانبين». لم يتلق «الكابتن جمى» من «ن. ج» إجابة بسرعة، ولم يحاول استثمار جهده فى إقناعه، فخرج من المكتب، وبعد خمس دقائق دخلت مجندة حيث قامت ببعض المداعبات الجنسية لـ «ن. ج»، وبعد ذلك خرجت. وعلى أثرها دخل «الكابتن جمى»، وهو يقهقه، وكان يحمل بعض الصور التى كانت تظهر «ن. ج» وهو يتلقى المداعبات الجنسية من المجندة. كان «جمى» صارماً فى حديثه لـ «ن. ج» : إما أن توافق على التعاون معنا، وإما نقوم بنشر هذه الصور فى .. (أحد معسكرات اللاجئين يقطن فيه ن. ج). يقول «ن. ج» إنه وافق بدون تردد على عرض «جمى». وهكذا شرع هذا الشاب البائس الذى لم يحصل حتى على الشهادة الابتدائية فى طريق قاده إلى إحدى الزنازين المظلمة فى سجن «السرايا». واعترف أنه جمع المعلومات الاستخبارية وفق تعليمات «جمى» وبعد ذلك «الكابتن مئير»، وتدرج فى تنفيذ المهام الاستخبارية لدرجة أنهم قاموا بإرساله لتصفية أحد المقاومين الفلسطينيين فى إحدى بلدات جنوب الضفة الغربية، ولم ينجح لحدوث طارئ حال دون وجود الهدف فى المكان الذى كان من المقرر أن تتم فيه عملية الاغتيال. وتحدث كاتب هذه السطور مع عدد من الذين اعترفوا بالتعاون مع «الشاباك»، وكلهم أكدوا أنه تم جرهم للعمالة بطريقة الابتزاز الجنسى.

مهام متعددة

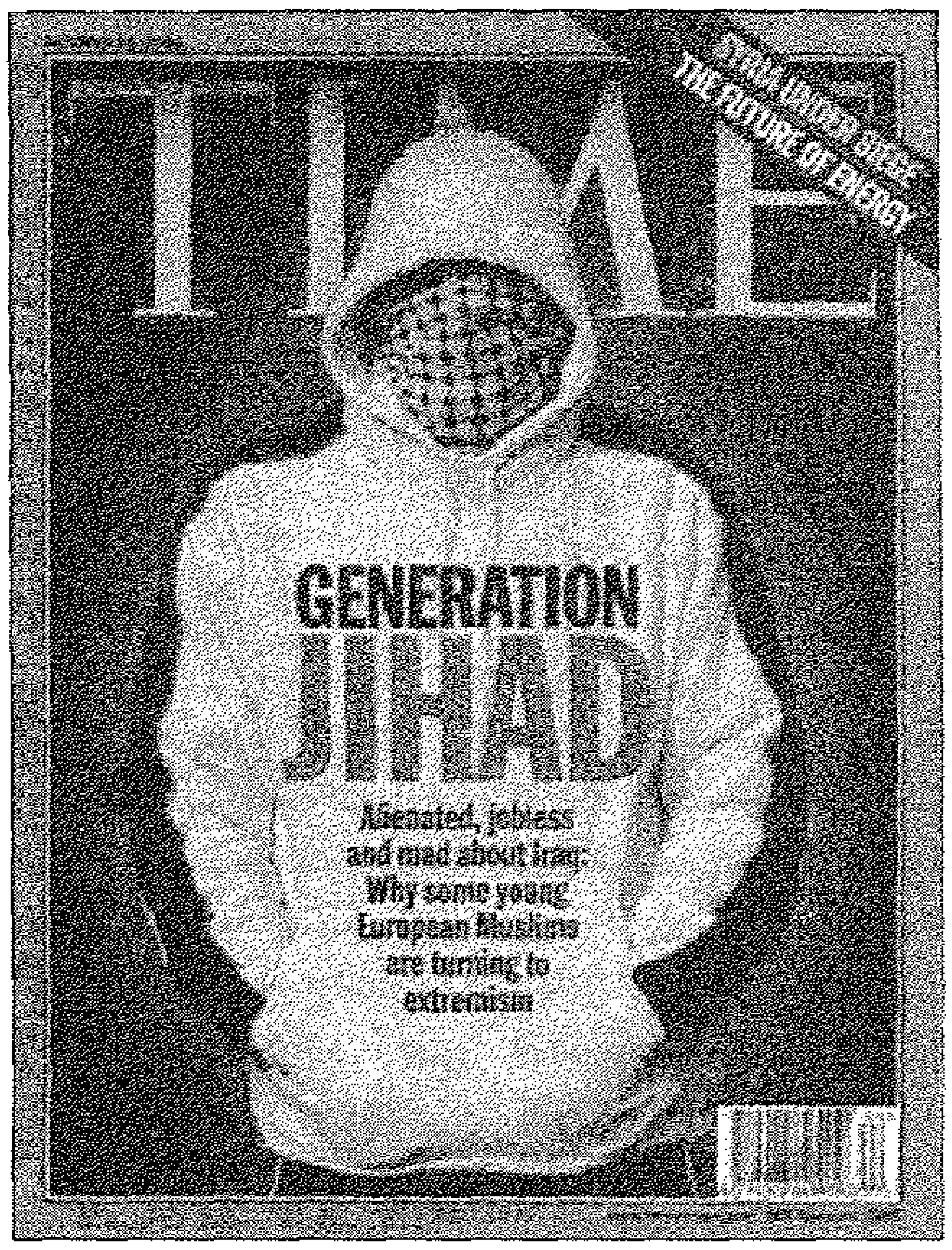
إلى جانب رصد المقاومين والوشاية بهم، ومحاولة اختراق حركات المقاومة الفلسطينية، بغرض إحباط عملياتها، فإن العملاء يواصلون رصد المقاومين حتى بعد أن يتم إيداعهم السجن. فمنذ أوائل السبعينيات عرفت الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة فى سجون الاحتلال ظاهرة «العصافير»، وهم عملاء تقوم المخابرات الإسرائيلية باعتقالهم لكى يقوموا باستدراج المقاومين الذين يتم اعتقالهم للإدلاء باعترافات وذلك فى فترة التحقيق مع هؤلاء الأسرى. وحسب ما أفاد به عدد كبير من الأسرى تحدثت إليهم «الشرق الأوسط»، فإن «العصافير» هم الذى يقومون بالدور الحاسم فى استدراج الأسرى للاعتراف بما تنسبه إليهم المخابرات الإسرائيلية.

لكن إلى جانب كل ذلك فإن العملاء لعبوا دورا هاما فى دفع المشاريع الاستيطانية فى الضفة الغربية والتهويدية فى القدس المحتلة. جهاز المخابرات العامة الفلسطينية شن فى الفترة بين العامين ستة وتسعين وألفين حملة شاملة على العشرات من سماسرة الأراضى من الفلسطينيين الذين كانوا يقومون بتزييف وثائق أراض تعود لفلسطينيين غائبين أو متوفين، وبعد ذلك يقومون ببيعها لجمعيات يهودية وتهويدية. وقد كان القاسم المشترك لهؤلاء السماسرة هو أنهم جميعاً عملاء مرتبطون بجهاز «الشاباك». ولعل أحدث قضية تكشف عن دور العملاء فى دفع المشاريع الاستيطانية، ما كشف عنه العميل محمد مرقة من بلدة «سلوان» الذى أجرت معه صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية مقابلة مطولة كشف النقاب فيها عن دوره فى تزويد جمعية «عطيرات كوهنيم» اليهودية التى تنشط فى مجال تهويد مدينة القدس ومحيطها، بمستندات ووثائق خاصة بمنازل وعقارات فلسطينية فى بلدة «سلوان»، والقدس الشرقية. لكن هناك أهدافا أخرى سعت إسرائيل لتحقيقها من خلال تجنيد العملاء:

١- زعزعة ثقة الفلسطينيين بقضيتهم: كما يقول جدعون عيزرا، النائب السابق لرئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية الداخلية «الشاباك»، فإن مجرد اكتشاف الفلسطينيين لقدرة «الشاباك» على تجنيد عملاء فى صفوفهم كفيل، بزعزعة ثقتهم بالقضية والمقاومة الفلسطينية. فى حين يقول حاييم بن عامى، الرئيس السابق لقسم التحقيقات فى «الشاباك»، «نجاحنا فى اختراق التنظيمات الفلسطينية عبر تجنيد عملاء لنا من بين عناصرها، له بالغ الأثر فى سيادة أجواء عدم الثقة فى أوساط عناصر المقاومة، بشكل يجعلها أقل كفاءة.

٢- محاولة التأثير على أجندة المجتمع الفلسطينى، بما يتوافق مع المصلحة الإسرائيلية. حيث كان للعملاء دوماً أثر فى إثارة الفتن الداخلية بين الفلسطينيين. فضلاً عن تداول الشائعات التى هى جزء من الحرب النفسية التى تخوضها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى.

٣- تجنيد أكبر عدد من العملاء جاء لتحييد أوسع قطاعات من الشباب الفلسطينى، وإبعادهم عن صفوف المقاومة. ■



.. في نهاية النفق!

جوناثان رابان

هل يفهمنا هؤلاء الغربيون حقًا. هذه الرواية Terrorist لكاتبها الأمريكي الشهير تأخذنا إلى موضوع قتله البحاثة الغربيون بحثًا: «لماذا يتحول بعض الشباب المسلم إلى إرهابيين؟» حسب لغتهم وتوصيفاتهم. هل هي كراهية المجتمع الليبرالي وثقافته المنفتحة، أم هو مجرد التزام بالتعاليم الدينية التي تحض على ذلك، أم أن الأمر كله لا يخرج عن عملية غسيل مخ تقوم بها جماعات منظمة للمراهقين من الشباب.

السؤال الذي بات بندًا ثابتًا على أجندة المراكز البحثية الغربية، تعالجه الرواية معالجة يبدو أن فيها من السذاجة ما قد تفرضه طبيعتها الدرامية. وإن كان يحسب لها على أية حال اقترابها «المجرد» من قضية الهاجس الإيماني في المجتمع المادي لما بعد الحداثة. وربما يحسب لها أنها «في نهاية النفق» تقودنا إلى الحقيقة المطلقة: «الإيمان لا يقتل».

إن كل ما نعرفه عن حياة الإرهابيين الإسلاميين الجدد يؤكد أن منابع الجهاد ضد الغرب لا تقع في الشرق الأوسط وإنما في ضواحي المهاجرين الحقيرة في مدن الغرب الكبرى، مثل ضاحية «هاربورج Harburg» على الضفة الأخرى من النهر القادم من هامبورج، حيث جرى هناك في مسجد متواضع تكليف «محمد عطا» ورفاقه بمهمتهم السماوية كشهداء، أو ضاحية «بيستون Beeston» في ليدز بإنجلترا، حيث جمع «صديق خان» عصابته من مفجري لندن، أو ضاحية «لافابيس Lavapies» في مدريد، حيث كان يقطن «جمال زوقام» المتهم بتفجيرات قطارات مدريد. وعندما وصل خاطفو طائرات الحادي عشر من سبتمبر إلى الولايات المتحدة، تمركزوا في «باترسون Paterson» في نيوجيرسي. وقد وجد المتآمرون في تلك الضاحية المنزوية متعددة الجنسيات منخفضة الإيجارات ذات العمارة المتداعية والاقتصاد البائس، وجدوا ضالتهم لإخفاء هويتهم عن ملاحقيهم والوقوف شاهدا على انحطاط الرأسمالية الغربية التي كانوا يتوقون لتدميرها.

في روايته «إرهابي»، أبدع «جون أبدايك» في تصوير مشهد لمدينة بائسة يقطن فيها مجاهدوه التخيليون. فمدينة «نيو بروسبكت New Prospect» في روايته وهي ضاحية تخيلية ليس لها وجود في الواقع، ومن المفارقة أن اسمها يعني «الأمل الجديد»، والتي تقع بنيوجيرسي، لها تقريبا نفس الإحداثيات الجغرافية لـ «باترسون»، وكانت في أوج عظمتها في القرن التاسع عشر كمدينة صناعية. ومنذ ذلك الوقت، تدهور بها الحال إلى درجة شديدة من الانحلال والتداعي، فأصبحت أحياؤها السكنية خليطا قبيحا من العشوائيات والبنايات المجددة بلا ذوق، أما المنطقة التجارية فلم تكن بأفضل حال. وفي شوارعها القذرة، يتدافع المهاجرون الجدد من الكاريبي والهند وكوريا والشرق الأوسط مع البائسين المتحدرين من عمال المصانع الأصليين والأمريكيين الأفارقة الآتين من المناطق السكنية المتعددة بالمدينة. وتوفر «نيو بروسبكت»، التي لم يغادرها «الكساد العظيم» على الإطلاق، لـ «أبدايك» معملا مثاليا يزرع فيه جرثومة الجهاد الإسلامي.

يعد «أحمد مولوي» في الرواية نتاجا نموذجيا لبوتقة «نيو بروسبكت». ولد أحمد لأب مصري تخلى عن الأسرة عندما كان أحمد في الثالثة من عمره، فقامت على تربيته والدته الأمريكية من أصل أيرلندي والمرتدة عن الكاثوليكية، التي تعمل ممرضة وتدخن السجائر، والتي قامت برسم الصور التجريدية المبهرجة التي تزين الجدران الواهية لشقتهم الحقيرة المستأجرة. اكتشف أحمد في سن الحادية عشرة المسجد الذي كان في السابق صالة للرقص والواقع بالطابق الثاني في البناية رقم ٢/٢٧٨١ في الشارع الرئيسي الغربي التي يقع مدخلها الحقير بين صالون تجميل للأظافر ومكتب صرافة. وعلى يد إمام يمني ماكر متهكم يدعى الشيخ راشد، كرس أحمد نفسه للصراط المستقيم للإسلام كمنزلة عالية يحاول أن ينظر منها بنظرة المؤمن الصادق إلى الفوضى والتجاوزات في أمريكا الملحدة متعددة الثقافات. ونظرا لعزلته المؤلمة عن زملاء الدراسة، يتجه أحمد - بحثا عن الصداقة والحياة الاجتماعية - إلى الأمة الإسلامية (أو التجمع العالمي للمؤمنين المسلمين)، والذي نما في الواقع نموا عظيما منذ انتشار الإنترنت.

يبدأ ظهور أحمد في الرواية في سن الثامنة عشرة بينما هو على وشك التخرج من مدرسته الثانوية. يبدو أحمد كمراهق نموذجي، مهذب لأقصى درجة، خجول، ذكي، شديد الملاحظة، شخص لا يكاد يستطيع أن يعبر الطريق أو ينظر إلى إنسان آخر دون أن يراجع كل مفاهيمه بمنتهى الدقة. وكذلك تبدو مفاهيمه الدينية متميزة، فإله أحمد هو معبود شخصي بدرجة مدهشة، يتصوره أحمد كتوأمه السيامي أو والده الغائب أو الأخ الأكبر الذي لم يكن لديه قط، وكذلك كوجود حي قريب جدا منه كالوريد النابض في عنقه.

منذ الجملة الأولى في الرواية، ينظر أحمد إلى عقيدته باعتبارها مهددة، كنبتة غضة ضعيفة يحميها من المخاطر

Terrorist
(إرهابي)
John Updike
$24.95. 310pp..Knopf

بترتيب مع: مجلة
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحي

إنه نموذج الجندي المطيع الذي لا يسأل أبداً والمستعد دائماً لأن يقتل عندما يصدر له الأمر بذلك.. بالضبط مثل جنودنا العاملين في العراق

بقوة إرادته. وهو يشك بأن معلمه - الشيخ راشد - قد فقد إيمانه، ويحثه هذا الشك على التشبث بالله بقوة باعتباره أقرب وأغلى صلة لديه. ربما بدت تلك الأفكار عن الله كرفيق حميم وعن الإيمان كعلاج نفسي جماعي، ربما بدت مسيحية - بروتستانتية بالتحديد - أكثر من الإسلام التقليدي؛ ولكن أحمد حديث عهد بالإسلام، وربما تعكس عقيدته الغريبة الهجينة ما يمكن أن يحدث للإسلام عندما تصبح له جذور في التربة الأمريكية المسيحية. المهم هنا هو أن «أبدايك» يجعلنا نؤمن بما يؤمن هو به.

من عنوان الكتاب يتضح مستقبل أحمد. وفي الفصل الأول يخبر أحمد «جاك ليفي» اليهودي غير الملتزم والعضو في المجلس الاستشاري للمدرسة الثانوية بأن الشيخ راشد نصحه بعدم الذهاب للجامعة وأن يجلس إلى «المقود» حتى يتدرب ليكون سائق شاحنة. وحتى لا نغفل أيا من إيحاءات تلك المهنة فإن «ليفي» يسردها هنا:

«تقود شاحنة؟ أي نوع من الشاحنات؟ هناك العديد من أنواع الشاحنات. إنك في الثامنة عشرة. أنا واثق أنك لا تستطيع الحصول على رخصة لقيادة جرار نقل أو صهريج نقل أو حتى حافلة مدرسية قبل ثلاث سنوات. إن اختبار الحصول على رخصة سائق تجاري صعب. وإلى أن تصبح في الحادية والعشرين لن يمكنك القيادة خارج الولاية أو نقل مواد خطرة».

قبل ذلك ببضع صفحات، وبينما كان «ليفي» عابسا تجاه المشهد الكئيب لمدينته في الفجر، أدلى بملاحظة لزوجته: «إن هذا الحي بكامله يمكن أن ينصلح حاله بقنبلة جيدة». وحتى قبل أن يعرف أحمد مصيره بفترة طويلة، فإن القارئ يدرك بأنه في نهاية الكتاب سيكون جالسا إلى مقود شاحنة مفخخة. وهذا مجال غير مألوف لـ«أبدايك» الذي كانت أعماله حتى اليوم احتفالا مسهبا للإرادة الحرة في أمريكا المعاصرة. إن تلك الحرية ليست متاحة لأحمد. فمصيره مقدر منذ عنوان الكتاب وحتى نهايته المحتومة: منعطف في نفق لنكولن مع شاحنة محملة بأربعة أطنان من نترات الأمونيوم وسبابة أحمد مترقبة فوق زر تفجير أحمر.

إن حبكة زر التفجير تجعل «إرهابي» أكثر رواية تقنية كتبها «أبدايك» حتى الآن، وكثير من القراء سيبقون يقظين طوال السويعات التي سيقلبون فيها صفحاتها. فمع وجود بطل جديد ومشهد واقعي جدا للمدينة ووتيرة سردية مثيرة مثل قصص الرعب، توفر رواية «إرهابي» الكثير من المتعة للقراء تجعلهم يغضون البصر عن كل ما هو غير قابل للتصديق فيها.

نشر «أبدايك» منذ عشرين عاما رواية «نسخة روجر Roger's Version» والتي تقدم من عدة أوجه وبصورة مخيفة لرواية «إرهابي». ويتبادر إلى الذهن فصل محدد منها. وهو الذي يدخل فيه اليهودي المتعصب «ديل كولر Dale Kohler» في جدل مع اللاهوتي القنوع الساخر «روجر لامبرت Roger Lambert». يبدأ «كولر» بالحديث:



«الشيطان هو الشك. إنه من يجعلنا نرفض عطايا الرب لنا ويجعلنا نحتقر الحياة التي منحها لنا».

«عجبا. كان من الممكن أن أقول العكس، بالنظر إلى ما يمتلئ به حاضرنا من آيات الله «يقصد أمثال الخميني» والزعماء المستبدين. إن الشيطان هو غياب الشك. إنه من يدفع الناس إلى تفجير أنفسهم وإقامة معسكرات الإبادة. إن الشك هو ما يجعل لعشائك مذاقا غريبا، ولكن الإيمان هو الذي يذهب ليقتل».

يصلح تعبير «الإيمان يقتل» عنوانا لرواية «إرهابي». إن خضوع «أحمد مولوي» لتعاليم الصراط المستقيم وإمامه الغامض قاده - في رواية «أبدايك» المثقلة بالهموم - إلى طريق سريع يؤدي لنفق لنكولن، كما لو كان الإيمان وحده كافيا لتحويل هذا الشاب الطيع المهذب الودود إلى قاتل جماعي متطوع.

منذ بداية الرواية، يردد أحمد أقاويل إسلامية عامة جاهزة مثل: «العاصمة واشنطون يديرها اليهود الماكرون»، «الكفار الذين يحيطون بالمدرسة هم شياطين أنجاس يعبدون الصور»، «المسيحيون يعبدون إلها ميتا»، «أمريكا ترتكب الفظائع في الشرق الأوسط». ولكن المرء لا يشعر بعاطفة حقيقية وراء تلك الملاحظات الطقوسية المجردة، والتي تتناقض تماما كلما نظر أحمد من عليائه إلى العالم. فهو هنا على سبيل المثال يمتدح «جوريلين جرانت» السمراء زميلة فصله الدراسي والتي سيزور كنيستها لاحقا ليسمع غناءها:

«هناك شعور محبب في الطريقة التي تملأ بها استدارات جسدها البني ملابسها المؤلفة من جينز مرقع مزين بالترتر وباهت من الخلف، وقميص أحمر قصير يظهر أكثر مما يخفي. وهناك مشابك بلاستيكية تشد إلى الخلف شعرها المتلألئ الطويل، وتحمل شحمة أذنها اليمنى صفا من الأقراط الفضية الصغيرة. وهي تغني مع المجموعة أغاني عن عيسى «عليه السلام» وعن الإيحاءات الجنسية. وكلاهما من الموضوعات البغيضة بالنسبة لأحمد. ومع ذلك كان سعيدا أنها لاحظته وأنها تراود خياله بين الحين والآخر مثل اللسان عندما يداعب أحد أسنان الفم».

لا يوجد كاتب على قيد الحياة يتناول المظاهر الخارجية الأمريكية بمثل هذا التعاطف مثل «أبدايك» الذي يداعب أسلوبه النثري كل شيء يصادفه. في هذا العمل فإن الشخصيات التي تحصل على درجات سيئة في الأخلاق، مثل «رابيت أنجستروم» تتطهر دائما بمشاركة الخالق قوى خارقة في ملاحظة الخير. ولذلك فإن أحمد مولوي المراهق الذي يحمل سجادة الصلاة لا يستطيع أن يمتنع عن حب أمريكا التي عليه أن يصبح عدوا لها.

في إحدى المرات يسأله الشيخ راشد: «ألم تكتشف أن الجزء الأمريكي من العالم له رائحة نتنة من الفساد والجشع والفسق والعبث واليأس والفتور بسبب الجهل بالحكمة الملهمة للنبي «صلى الله عليه وسلم»؟». يجيبه أحمد: «أعتقد أن هذا الجزء من العالم ليس الأكثر وهما رغم أن له نصيبا من الخاسرين، ولكني فعلا استمتعت بالوجود هنا. فالناس ودودون للغاية غالبا». وبعد ذلك بلحظات يوافق أحمد على قيادة الشاحنة الانتحارية. «سوف أموت إذا كانت تلك هي إرادة الله».

وبمعنى آخر، فإن «أبدايك» يصر على أن أحمد لم يكن مدفوعا من قبل عقيدة مهتاجة وإنما من قبل البراءة والالتزام بالصراط المستقيم والفطرة السليمة الطبيعية والتعود على طاعة معلمه. إنه نموذج للجندي المطيع الذي لا يسأل أبدا والمستعد دائما لأن يقتل عندما يصدر له الأمر بذلك. إنه لا يبحث عن إجابة أو سبب، بل ينفذ ما يقال له ويموت. إذا كان ذلك كافيا لجنود «لواء تنيسون الخفيف» «العامل في العراق» والذي كان وقودا سيئ الحظ للمعارك، فلماذا لا يصلح لمتطوع متواضع من المجاهدين الأمريكيين العرب؟

ينكر «أبدايك» بقوة أن أحمد كانت لديه معرفة كاملة بالإسلام الأصولي، ذلك الخليط القابل للانفجار من التعصب السلفي والعنف والمعاداة الشديدة للاستعمار والرؤية الإنجيلية لانهيار الغرب، والذي يدين بالكثير لمؤلفين أوروبيين مثل «توينبي Toynbee» و«شبنجلر Spengler». والغريب في رواية «إرهابي» أنه لا يبدو أن هناك شخصية واحدة في الكتاب تأخذ القضية الإسلامية على محمل الجد. ورغم أن الشيخ راشد لا يتوقف عن الكلام عن الانحلال الغربي، إلا أنه أكثر اهتماما باستخلاص ما هو غامض وساخر من سور القرآن بعقلية محرر عتيق الطراز في مجلة «نيو كريتيك New Critic». أما رئيس أحمد المباشر في العمل بشركة «الأثاث المتميز»، وهو أمريكي لبناني مرح يدعى «شارلي شهاب»، والذي خطط لمكيدة القنبلة، فإنه يشبه أسامة بن لادن بـ«جورج واشنطون» ويقارن المجاهدين بثوار عام ١٧٧٦ الأمريكيين. ولكن ملاحظاته تمر مرورا عابرا باعتبارها لا تزيد عن كونها مداعبات شفهية. ولم يتعرض أحمد أو القارئ في أي موقع من الكتاب لنوع الغضب السياسي العارم الذي أدى بالفعل لوقوع الهجمات الإرهابية في عالم الواقع. فالمتآمرون في الرواية يمارسون أدوارهم بلا عاطفة كما لو كانوا يخططون للسطو على بنك. ولكن عمليات السطو على البنوك لها حافز واضح، بينما يبدو أن الحافز وراء القنبلة في نفق لنكولن لا يزيد على استياء غامض من طريقة الحياة الأمريكية و- في حالة أحمد - الاستعداد لمخالفة فطرته

كى يسعد معلمه ويرضى إلهه الذى لا يؤمن به إيمانا واثقا.

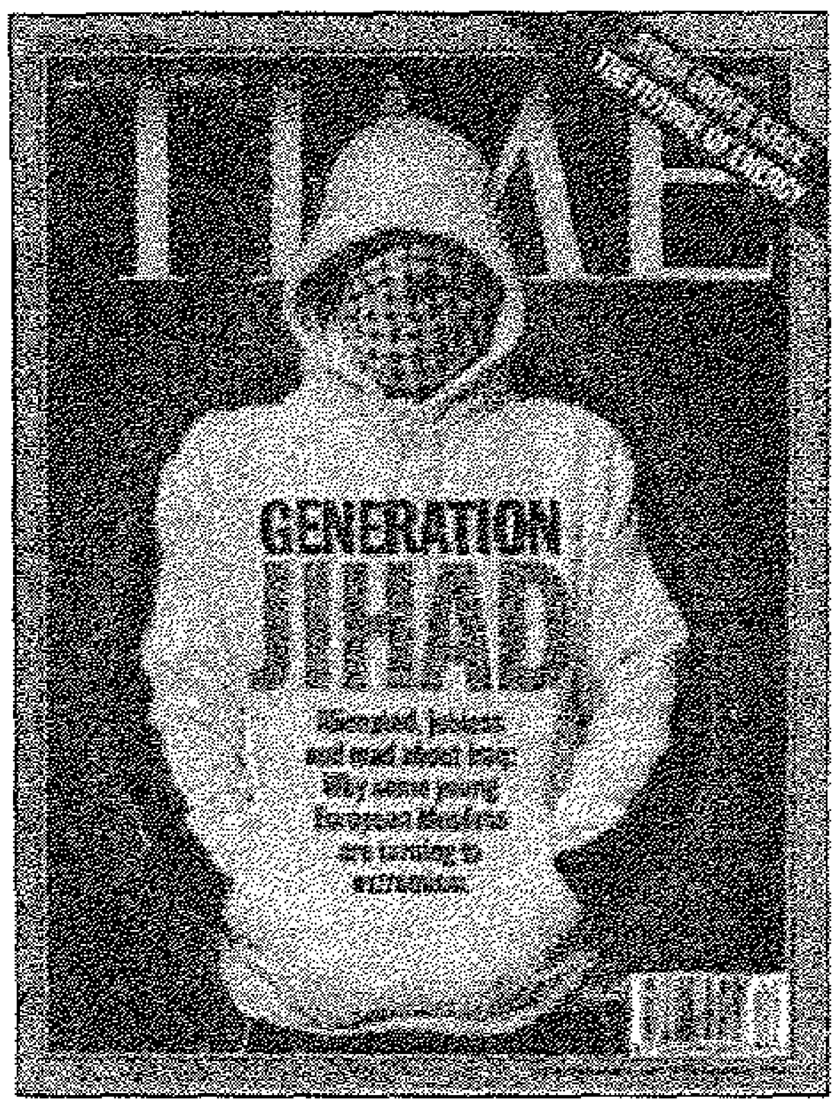
من الصعب التأكد ما إذا كان الغياب الكامل للعاطفة الدينية فى الرواية عفويا أم مقصودا. ربما كانت سياسات العنف خارج اهتمامات «أبدايك» وكان عازفا عن التورط فيها. أو ربما قصد من وراء منح أحمد الحد الأدنى من الدوافع أن يوحى بأن التقوى العادية يمكن تحويلها بمنتهى السهولة إلى حرب دينية حاقدة. ومهما كانت نوايا «أبدايك»، فإن رواية «إرهابى» تولد لدى القارئ انطباعاً بأن الإسلام هو دين خطير بدرجة غير مسبوقة، على عكس المسيحية التى يتم الاحتفاء بها بحرارة فى فصل مطول رائع عندما يزور أحمد كنيسة «جوريلين»، وأن من المحتمل جدا لأى شاب قليل الخبرة ويسهل التأثير عليه وبمجرد أن يضع قدمه فى مسجد، أن ينتهى به الأمر إلى ارتكاب مثل هذه الفظائع.

فى مشهد الكنيسة كانت الخطبة الحماسية الرائعة للقس عن موسى (عليه السلام) «الذى قاد الشعب المختار بعيدا عن العبودية ومع ذلك أصبح هو نفسه محروما من الدخول إلى الأرض الموعودة».

يعلن الكاهن بصوت خطابى أجش: «الإيمان، لم يكن لديهم إيمان. لذلك فإنهم كانوا جمعا شريرا. ولذلك فقد أصيب الإسرائيليون بالطاعون ولحق بهم الخزى والهزيمة فى المعركة».

إن الكاهن على خطأ بالتأكيد. فأحمد لديه إيمان. ونحن نعلم منذ بداية الكتاب إلى أى شر سيقوده هذا الإيمان. إن مشكلته تكمن فى أنه انطلاقا من ولائه تجاه أبيه الهارب فإنه - وبسبب غفلته - اختار الإله الخطأ. كل شخص يمكن أن يحدث له ذلك.

وإذا كان طريق أحمد المحتوم إلى نفق لنكولن هو المحور الأساسى للرواية، فإن العديد من الشخصيات الإنسانية ترد فى المشاهد التى تذكر باللقاءات بين «ديل كولر» و«روجر لامبرت» فى «نسخة روجر»، والتى تحرض أحمد - شديد السذاجة - ضد مذهب الشك الذى يمثله «جاك ليفى» مستشاره فى المدرسة الثانوية. لقد دونت تلك المقابلات بأسلوب غريب، فهى تشبه الحوارات السقراطية الرسمية أكثر من اللغة الواقعية لرواية تقليدية. ففى تلك المقابلات يتحدث «الإيمان» إلى «الشك»، و«الشك» إلى «الإيمان»، وربما كان التكلف ضروريا هنا، كما لو كان «أبدايك» يستدعى لغة «تقدم الحجيج Pilgrim's Progress»، «رواية لـ «جون بونيان John Bunyan، نشرت عام ١٦٧٨» أو مسرحية أخلاقية من القرون الوسطى.



أما «ليفى» المتزوج من امرأة بدينة تجسد تجاوزات وفساد وجشع الحياة الأمريكية (كما يراها الشيخ راشد شديد النحافة)، فيصبح وهو فى الثالثة والستين غير مبال بدنو أجله:

المهمة الوحيدة الباقية لـ «جاك ليفى» هى أن يموت ويساهم بذلك فى توفير مساحة صغيرة ومجال بسيط للتنفس فوق هذا الكوكب المزدحم فوق طاقته. وتبقى تلك المهمة معلقة فى الهواء فوق ذلك الوجه المؤرق مثل نسيج عنكبوت يقبع فى مركزه عنكبوت بلا حراك.

وبذلك فإن «ليفى» يواجه غفلة الملحد، بينما يواجه أحمد الفردوس الحسى للشهيد المسلم. ومع ذلك ينحاز «ليفى» المعلم المهذب بشدة إلى جانب الحياة، حياة تلاميذه على الأقل إن لم تكن حياته هو. ويتوحد مصيره مع أحمد وأيضا - لأنها رواية لـ «أبدايك» - مع «تيرى» والدة أحمد ذات «التضاريس الجسدية المثالية الرائعة» والتى تخطت الأربعين من عمرها، كان قدر «ليفى» أن يشترك فى رحلة النفق كى تجرى مواجهة كلامية مطولة بين مشورة مدرسية فظة وإيمان دينى صبيانى مضلل.

وقد احتاج الأمر لكم هائل من الجهد الروائى الشاق لجمع الاثنين معا فى الشاحنة فى طريقها إلى الانفجار العظيم الذى سيفتح النفق إلى نهر «هدسون Hudson». لم يكن مطلوبا من أحمد أن يكون فقط طيعا مثل العجينة الرخوة فى يد إمامه ورئيسه فى العمل، ولكن كان على «أبدايك» أن يلوى الحقائق الظاهرية لتمييع الأمور كى يصل إلى النهاية المطلوبة. فتتوالى المصادفات غير المحتملة بلا منطق. ومن أجل حبكة الرواية، يتصادف أن شقيقة زوجة «ليفى» هى المساعد الشخصى لوزير الأمن الداخلى، وهو شبيه ضخم الجسم لـ «توم ريدج Tom Ridge» «الحاكم السابق لبنسلفانيا وأول وزير للأمن الداخلى». ويتصادف أنه عندما يعثر «شارلى شهاب» على عاهرة لأحمد كى يفقد عذريته قبل أن يغادر هذا العالم، تكون العاهرة هى «جوريلين» محبوبته القديمة من المدرسة. ويتصادف أن مدينة كبيرة مثل «نيو بروسبكت» ليس لها سوى مدخل منحدر وحيد إلى الطريق السريع بين الولايات رقم ٨٠، بحيث يتمكن «جاك ليفى» من اعتراض الشاحنة المفخخة عند توقفها - الملائم - عند إشارة حمراء، و- للغرابة - يقوم أحمد - المؤدب دوما - بفتح باب الشاحنة ويسمح له بالركوب. ومرة بعد مرة ندرك أن المؤلف يجبر الشخصيات والعالم الذى يحيط بها أن تتواءم مع إرادته. ومن المثير للأعصاب فى رواية تفيض بالخوف من الاستبداد الدينى أن نجد «أبدايك» نفسه يلعب دور الإله المستبد.

وفيما بين «نيو بروسبكت» والنفق تسير حركة المرور ببطء شديد فى وقت الذروة، بما يسمح لأحمد و«ليفى» بمحاورة أخيرة غير متعجلة. ورغم وجود الزر الأحمر بين كرسيهما واقتراب الدقائق من نهايتها، فإنهما يتحدثان كما لو كانا فى محاضرة مملة للعلوم الاجتماعية:

يقول «ليفى»: «لا أستطيع أن أصدق أنك تنوى فعلا قتل مئات الناس الأبرياء».

«من الذى يقول أن الكفر برىء؟ الكفار هم من يقول ذلك. يقول الله فى القرآن: أشداء على الكفار «سورة الفتح، الآية ٢٩». أحرقوهم واسحقوهم، لأنهم نسوا الله. إنهم سعداء بما هم فيه ويحبون الحياة الحالية أكثر من القادمة».

«ولذلك نقتلهم الآن؟ يبدو ذلك قاسيا للغاية».

«بالنسبة لك طبعا. أنت يهودى غير ملتزم على ما أظن. لا تؤمن بشىء. يقول القرآن: «إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين» «سورة آل عمران، الآية ٩١».

يتنهد «ليفى». ويستطيع أحمد أن يسمع قطرات صغيرة من الخوف تحشرج فى أنفاسه. ثم يقول: «نعم، حسنا، هناك الكثير من السخافات الكريهة فى التوراة أيضا. إن الكهنة يحاولون أن يتحكموا فى الناس عن طريق الخوف».

وفى مكان آخر من الرواية، يقحم «أبدايك» مثل هذا الحديث الوهمى غير المألوف ضمن مجموعة من التفاصيل المشروطة الدقيقة. لقد تم تصوير حركة المرور البطيئة والمناظر الطبيعية التى يمران بها والقرميد المبطن للنفق بإبداع يغوى عين القارئ بينما تتمرد أذناه. وتتمكن موهبة «أبدايك» الواقعية الفنية الرائعة (مثل وصفه لطائرة بأنها «وميض فضى صليبى الشكل يفر من مطار نيو آرك الدولى») من التعويض - إلى حد كبير - عن عدم المصداقية المتأصل فى كثير من أحداث الرواية.

عميقا تحت نهر «هدسون»، قبيل المنحنى الذى يخطط أحمد لتفجير قنبلته فيه، تصل المحادثة إلى أعلى درجات عدم المصداقية:

يستدير أحمد ليسأل «جاك ليفى»: هل قرأت قبل ذلك فى دراساتك للشاعر والمفكر السياسى المصرى سيد قطب؟ لقد جاء للولايات المتحدة منذ خمسين عاما وشعر بالصدمة تجاه التمييز العنصرى والخلاعة المطلقة بين الجنسين. وقد انتهى إلى أن الأمريكيين هم أكثر الناس بعدا عن الله وعن التقوى. ولكن مفهوم الجاهلية الذى يعنى حالة الجهل الموجودة قبل محمد «صلى الله عليه وسلم» يمتد أيضا ليشمل المسلمين الدنيويين ويجعل منهم أهدافا مشروعة للاغتيال.

يبدو ذلك منطقيا. لو قدر لى أن أعيش فسوف أجعل من سيد قطب مادة اختيارية للقراءة. لقد ارتبطت بتدريس دورة فى العلوم المدنية فى الفصل الدراسى القادم. لقد مللت الجلوس طوال اليوم فى دولاب المعدات القديم هذا

محاولا إقناع هؤلاء المختلين بعدم ترك الدراسة. ستكون فلسفتي الجديدة «دعهم يذهبون».

«سيدي، يؤسفني أن أقول أنك لن تعيش. سوف أرى وجه الله بعد دقائق قليلة. إن قلبي يفيض باللهفة».

هنا يختزل كتاب سيد قطب «معالم في الطريق»، أهم مصادر الجهاد المعاصر، إلى مجرد مادة اختيارية للقراءة. لا أكاد أصدق على الإطلاق أن مفجراً انتحارياً يستطيع أن يتحدث عن سيد قطب بتلك العبارات المعتدلة الموضوعية. يجرد «أبدايك» بذلك أحمد من أي أثر باق لإيمانه الإسلامي ويجعل من وجوده داخل الشاحنة ضربا من الجنون. يجب بالطبع ألا نحكم على الأدب بمنطق الصحافة وعلم الاجتماع، ولكن قصص حياة المفجرين الانتحاريين الحقيقيين توضح بجلاء أنه كانت تتملكهم فكرة مغيبة متطرفة - كان سيد قطب أول من صاغها - دفعتهم إلى مهاجمة الغرب بإخلاص وضراوة شديدين. أما أحمد فلم تكن تتملكه تلك الفكرة، بل كانت - من وجهة نظره الخاصة المشوشة - مجرد ملاحظة غير ضارة تعد ضربا من الوهم.

بينما تزحف الشاحنة داخل النفق يظهر من الشباك الخلفي للسيارة الفولفو الإستيشن البرونزية التي تسير أمامه طفلان صغيران من السود - صبي وفتاة - يحاولان جذب انتباه أحمد. لو نجح في مهمته فسوف يفجر هذين الطفلين إلى أشلاء. ومع اقتراب المنعطف - الجزء الأضعف في بنية النفق - يغوص أحمد - وإصبعه على الزر - في أحد أحلام اليقظة الدينية:

يتحدث الله في سورة الواقعة عن اللحظة التي تصل فيها روح المحتضر إلى حلقه. تلك هي اللحظة الحالية. ومع ذلك، ففي نفس السورة يسأل الله: «نحن خلقناكم فلولا تصدقون. أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون» «الآيات ٥٧-٥٩». إن الله لا يريد أن يدمر، إنه خالق هذا العالم.

كان نمط قرميد جدار النفق وقرميد السقف المائل للسواد بسبب عادم السيارات - تكرار متلاحق لا يحصى من المربعات مثل ورق رسم عملاق يدور في بعد ثالث - يتفجر في عقل أحمد الذي كان يفكر في حكمة الخلق، موجات مركزية متلاحقة تدفع كل منها الأخرى بعيدا من نقطة الفراغ، كانت إرادة الله أن يتحول العدم إلى وجود. تلك كانت إرادة الرحمن، الرحيم، الحي، الحليم، الكريم، الكامل، النور، الهادي. إنه لا يريدنا أن ننتهك قدسية خلقه بالسعي للموت. إنه يريد الحياة.

يرفع أحمد يده اليمنى عن الزر ويعيدها إلى عجلة القيادة.

إن ما يميز هذه الرواية المعقدة أن وقائعها مقنعة في بلاغتها السلسة (الاستعارة البديعة في النفق، دوران ورق الرسم، حكمة الخلق) و- في الوقت نفسه - التجلي الزائف المبتذل. إن كل عبارة تقريبا كتبها «أبدايك» من وجهة نظر أحمد تؤكد لنا أنه يعشق الحياة كثيرا وكذلك مستقبله فيها بما يناقض تطوعه كمفجر انتحاري، أما كون إلهه إلهاً للحب وليس الكراهية فهو ما كان بالفعل معروفا لأحمد - ولنا أيضا - منذ البداية. أما نقمة وكراهية الفكر الجهادي تجاه أمريكا وكل ما تقترفه فهو إحساس ليس من الصعب أن يتخلى عنه أحمد حيث لم يكن يشعر به حقا في أي وقت.

تحفل رواية «إرهابي» بأشياء رائعة كثيرة، فهي غنية بالمشاهد أو - على الأقل - اللقطات المتألقة البارعة، كما أنها تجذب القارئ إلى قصة مثيرة شائقة، حتى أنه قد يبدو من الصعب أن ننتقد نقطة الضعف الوحيدة فيها، ألا وهي التناول الخيالي لجذور وشخصية الجهاد الإسلامي ضد الغرب. وحيث إن «أبدايك» قد تقاعس عن توفير أي مصداقية حقيقية لـ «العقيدة» التي توجه حبكة الرواية (بكل ما تتضمنه تلك الكلمة من معنى)، فقد أصبح الكتاب فاتنا بصورة مؤقتة ولكنه في النهاية قصة فارغة طويلة سخيفة الأحداث. ولو كان المؤلف قد خصص مزيدا من الوقت كي يعيش في عالم الريبة والغضب الذي عاشه سيد قطب وأتباعه، ومنح أحمد رصيدا فكريا وعاطفيا كافيا كي يبرر سلوكه الطريق المنحرف للعنف الصالح، فربما أصبحت «إرهابي» عندئذ ضمن أفضل أعمال «أبدايك». أما والحالة هكذا، فإنها لا تزيد عن كونها معالجة نشطة مسلية ولكن - للأسف - مبتورة لموضوع على تلك الدرجة من الأهمية. ■

كتاب الزاوية

صباح ٤ فبراير

مذكرات اللورد كيلرن

في الصباح الباكر، بينما كنت أحاول أن أفتح عينيَّ المنتفختين سمعت هنري هوبكنسون Henary Hopkinson قد وصل ويلح في طلب مقابلتي على وجه السرعة، وصعد إلى غرفة نومي ليخبرني بأن حسنين (رئيس الديوان الملكي) طلبه تليفونيًا، وطلب مني ضرورة مقابلتك على وجه السرعة ليناقش معي الخطة التي سوف أنتهجها لمواجهة هذه الأزمة.

وقد أخبرني هنري بأنني غير موافق على مقابلته لحسنين تحت أي ظرف أو على أقل تقدير لست مستعدًا للإذعان في مقابلة حسنين لأوليفر ليتليتون خاصة بعد أن وصلنا إلى اتفاق تام.

ركبنا السيارة لتنطلق بنا إلى مقر اجتماع مجلس دفاع الشرق الأوسط (C.W.E.M) والمقرر عقده في تمام الساعة ١٠ صباحًا، وفي طريقنا إلى مقر المجلس قلت لهنري إن هناك وسيلتين لمواجهة مثل هذه الأزمة:

الأولى: أن نكون حازمين إلى أبعد حد، وهذا ما فعلته، وأن نحبط أي محاولة للتملص أو المناورة معنا بأي صورة.

الأخرى: أن يلتزم هو، وجميع المسئولين البريطانيين المعنيين بحيث نتوخى جميعًا أعلى درجات الوضوح والصراحة، ولست مستعدًا في الاستمرار في المساومة أو التسويف، وأني مصمم على خلعه من العرش، لدرجة أن هنري هوبكنسون انزعج حين سماعه هذا القرار، ولكن أعتقد أن هذا أمر مطلوب.

بترول العراق

ليس السبب وراء إصرار جورج دبليو بوش على إمكانية تحقيق «النصر» فى العراق هو أنه واهم أو منعزل أو جاهل أو منفصل عن الواقع أو يتلقى مشورة غير سليمة. كلا، بل يرجع ذلك إلى أن تعريفه لـ «النصر» يختلف عما يردده الآخرون فى ساحات الحوار المطبوعة وعلى الإنترنت. بالنسبة لبوش فإن النصر بيده فعلا. ومن الممكن أن يتحقق فى أى لحظة الآن، وربما كان قد تحقق فعلا عند قراءة هذا المقال. أما القوة الدافعة وراء هذا «الزج» بالقوات الأمريكية فهو الحاجة للحفاظ على ثمار النصر التى تنضج الآن فى يده.

هناك مشروع قانون للنفط فى العراق صاغته - بالتأكيد - إدارة الرئيس بوش وتابعه البريطانى. وسيؤدى مشروع القانون الجديد إلى «إعادة تشكيل جوهرية لصناعة النفط العراقية وفتح الباب على مصراعيه إلى ثالث أكبر احتياطى نفطى فى العالم. وسيسمح لشركات النفط الأجنبية بالعمل هناك على نطاق واسع لأول مرة منذ تأميم الصناعة عام ١٩٧٢».

وسوف يقدم القانون فرصا سخية للغاية وغير مسبوقة لشركات «إكسون موبيل Exxon Mobil» و«بى بى BP»



.. الجائزة الكبرى!

كريس فلويد

وشل Shell» وغيرها من أصدقاء البيت الأبيض العاملين فى مجال الطاقة، مما يسمح لها بضخ أرباح هائلة طوال عقود قادمة من حقول البترول العراقية المملوكة - صوريا - للدولة. وقد بدأ العمل على إعداد هذا القانون منذ بداية الغزو، بل - فى الواقع - قبل أشهر من بداية الغزو، عندما استدعت إدارة الرئيس بوش «فيليب كارول Phillip Carroll» كبير المسئولين التنفيذيين السابق لشركتى «شل» و«فلور Fluor» وهى مؤسسة الخدمات البترولية ذات الصلات السياسية، لوضع «خطط طوارئ» لاقتسام النفط العراقى بعد الغزو. وكما ذكر «جوشوا هولاند Joshua Holland» من «Alternet.com» فى مقالين رائعين عن المناورات الخفية حول النفط العراقى بعنوان «كتلة بوش النفطية تستحوذ تقريبا على نفط العراق Bush's Petro-Cartel Almost Has Iraq's Oil» و«الاستيلاء الأمريكى على النفط العراقى The US Takeover of Iraq's Oil»، فبمجرد انتهائه من وضع المرسوم، تم تعيين «كارول» رئيسا لـ «اللجنة الاستشارية» الأمريكية المشرفة على صناعة النفط بالعراق المحتل.

منذ تلك الأيام الأولى وحتى الآن، وخلال كل المناورات والدم والفوضى الناتجة عن الاحتلال، كانت عين إدارة بوش دائما على الجائزة. ويوفر القانون الجديد لقراصنة النفط فى الغرب مجموعة رابحة من اتفاقيات المشاركة فى الإنتاج، والتى ستحافظ على ورقة التوت للملكية العراقية الصورية لصناعة النفط الوطنية، بينما تسمح لرفاق بوش من أقطاب البترول بنهب ما يصل إلى ٧٥٪ من كل أرباح النفط لفترة غير محددة سلفا إلى أن يقرروا هم أن «استثماراتهم فى البنية التحتية» قد تم استردادها. وحتى فى ذلك الوقت، فإن الاتفاقيات تمنح كبار شركات النفط الغربية نسبة غير مسبوقة تبلغ ٢٠٪ من أرباح النفط العراقى، وهى تبلغ - كما ذكرت «الإندبندنت» - أكثر من ضعفى متوسط النسبة السائدة فى الاتفاقيات المماثلة.

من المؤكد أن «الوضع الأمنى» الراهن، أى الجحيم الحالى للموت والمعاناة والذى جلبته حرب بوش «المختارة» فى العراق، يمنع بارونات النفط من ترسيخ أعمالهم فى حقول النفط السليبة. ومن هنا كانت الرغبة العارمة لبوش للزج بمزيد من القوات رغم المعارضة العنيفة لخططه من قبل الكونجرس والبنتاجون وبعض أعضاء حزبه. ويؤمن بوش وأعضاء دائرته المقربة، بمن فيهم مستشاره الرئيسى رجل النفط القديم «ديك تشينى»، أن جرعة أكبر من الدماء والحديد فى العراق ستحقق درجة كافية من الاستقرار تسمح لشركات النفط الكبرى بتحصيل أرباح اتفاقيات المشاركة فى الإنتاج والتى اشتراها بأرواحهم أكثر من ثلاثة آلاف جندى أمريكى.

وكما نشرت جريدة «الواشنطون بوست the Washington Post»، فسوف يتم دمج «الاندفاع» الأمريكى ضمن الجهود الصارمة التى أعلن عنها رئيس الوزراء العراقى نورى المالكى: حرب شاملة تشنها «قوات الأمن» الحكومية - التى تشكل معظمها ميليشيات الشيعة - على مناطق السنة فى بغداد. وسوف «تدعم» القوات الأمريكية جهود التهدئة لما يطلق عليه المالكى «اكتساح مناطق السنة من منزل إلى منزل». وهناك بالطبع تعبير آخر لهذا النوع من العمليات: «التطهير العرقى».

سوف يتم الدفع بتلك القوات - وهى فى الغالب وحدات خدمت لوقت طويل وأصيبت بالإجهاد - إلى أتون تلك الدوامة العنيفة للحرب الأهلية والاغتيال العرقى، مع الانحياز مؤقتا إلى أحد أطراف الحرب الأهلية العراقية متعددة الرؤوس. وبينما يستمر الصراع - وسوف يستمر طويلا - ستواصل إدارة بوش مساندة أى جانب يتعهد بتأييد «قانون النفط» والاتفاقيات المربحة للمشاركة فى الإنتاج. ولو أن تنظيم القاعدة فى العراق تعهد بفتح صنابير النفط العراقى لشركات «إكسون» و«فلور» و«هاليبرتون»، فسوف يجد نفسه فجأة وقد انتقل من خانة «الإرهابيين» إلى «المعتدلين». كما حدث فعلا مع المالكى وحزبه الطائفى العنيف (الدعوة) الذين قاموا فى الماضى بقتل أمريكيين فى أعمال إرهابية، ولكنهم يقابلون الآن بالترحاب باعتبارهم أبطالا للحرية.

ولذلك فسوف يجارى بوش الآن المالكى وتطهيره العرقى. ولو أدت تلك الجهود إلى انهيار كارثى يزيد الأمور سوءا - وهو أمر مؤكد تقريبا - فسوف يعتلى بوش - ببساطة - ظهر جواد آخر. إن ما ينشده بوش فى العراق ليس الحرية والديمقراطية وإنما «الاستقرار» وحكومة من أى شكل ولون تؤمن ما هو مطلوب. وكما علقت صحيفة «الإندبندنت» بسخرية، فإن «ديك تشينى» نفسه كان قد كشف عام ١٩٩٩ عن الهدف الحقيقى للحرب، فى خطاب كان قد ألقاه عندما كان لا يزال المسئول التنفيذى الأول فى «هاليبرتون»، عندما تساءل «من أين سيأتى النفط لإرواء العطش المتزايد دائما للعالم؟». وكان «الشرق الأوسط بما يمتلكه من ثلثى نفط العالم وبأرخص التكاليف هو المكان الذى تقبع فيه الجائزة فى النهاية» هو إجابته عن السؤال.

وفى هذا الخصوص يكمن هنا جانب خفى آخر للحرب. فالعراق لا يمتلك فقط ثانى أكبر احتياطى نفطى فى العالم، بل إن نفطه هو الأيسر استخراجا. وكما علقت «الإندبندنت» بإيجاز، فإن «كلفة استخراج برميل النفط فى العراق هى من بين الأدنى فى العالم، نظرا لقرب الاحتياطيات من السطح نسبيا». ويتعارض ذلك بشدة مع الأعماق المكلفة والمغامرة التى يتوجب على صناعة النفط أن تغوص إليها للبحث عن احتياطيات جديدة فى أماكن أخرى. ويمكن معاينة ذلك فى عمليات الحفر البحرية العميقة جدا والأساليب عالية الكلفة اللازمة لاستخراج النفط من رمال القطران فى كندا.

هذا بالضبط ما كان يلمح إليه «تشينى» فى حديثه عام ١٩٩٩ أمام «معهد البترول Institute of Petroleum». وفى عالم تتناقص فيه موارد النفط، فإن من يسيطرون على احتياطيات ضخمة رخيصة الكلفة سوف يحصدون أرباحا تفوق التصور، وسوف يحتلون قمم الاقتصاد العالمى. والأمر بالطبع لا يتعلق فقط بالأرباح، فالسيطرة على تلك الموارد ستوفر امتيازات إستراتيجية هائلة لكل من يسعى نحو «الهيمنة الكاملة على كافة المستويات» على شئون العالم، وهو ما كانت عصبة بوش-تشينى وأتباعهم من المحافظين الجدد والمتعصبين للعظمة الوطنية يسعون إليه علنا منذ سنوات. وبمحركيها المزدوجين من الجشع الاقتصادى والإمبراطورية العسكرية، تعتبر الحرب فى العراق زواجا تم عقده فى قاعات استقبال الأبطال الشهداء.

سيناريو الفوز للجميع

وهذا الاتحاد غير المقدس هو ما يقصده بوش حقا عندما يتحدث عن «النصر». وهو السبب وراء معظم انحراف واضطراب وفوضى وعجز الاحتلال فى العراق. فبوش وجماعته لا يأبهون فعلا لما يحدث على الأرض هناك، وإنما ينصب اهتمامهم على ما يستخرج من الأرض. والغاية - الربح والهيمنة - تبرر أية وسيلة. وما يحدث للبشر المحصورين فى الحرب لا يمثل أهمية قصوى، والأمر يستحق أى قدر من التضحيات.

فى واقع الأمر، فإن زمرة بوش-تشينى - ومصالح الصفوة التى يمثلانها - قد فازت فعلا بالحرب فى العراق.

ببساطة، فإن عائلة بوش وحلفاءها ورفاقها يمثلون محصلة ثلاثة عناصر راسخة للسلطة لدى الصفوة الأمريكية: النفط والسلاح والاستثمارات، وتوازن تلك

ما ينشده بوش فى العراق ليس الحرية والديمقراطية وإنما «الاستقرار» وحكومة من أى شكل ولون تؤمن ما هو مطلوب

نشر هذا المقال على موقع:
www.truthout.org

ترجمة: عادل فتحى السيد

الجماعات بين مصالحها الخاصة وثرواتها وامتيازاتها مع مصالح الأمة - بل والعالم كله - إجمالا. وهم يحافظون على تلك المصالح بكل سلاح فى متناول يدهم، بما فى ذلك الحرب والتعذيب والخداع والفساد. إن الديمقراطية لا تعنى لهم شيئا - حتى فى وطنهم كما رأينا فى انتخابات عام ٢٠٠٠ . وليست القوانين سوى سياط للحفاظ على القطيع فى الصف، وهى لا تطبق على الصفوة، حيث أكد محامو بوش وأتباعه علانية فى المذكرات والبيانات الموقعة وقضايا المحاكم والمراسيم الرئاسية التى تخول «المسئول الأوحد» السلطة اللازمة لدهس أى قانون يرغب فى تجاوزه.

لقد كانت حرب العراق مربحة جدا لجماعات النفوذ المرتبطة ببوش (ولصناعاتها الفرعية مثل الإنشاءات)، وقد تدفقت إلى خزائنهم بالفعل مليارات الدولارات من الأموال العامة. وانطلقت «هاليبرتون» من حافة الإفلاس إلى ذرى الأرباح المضمونة غير المحدودة وبلا منافس. كما تلتهم «مجموعة كارليل Carlyle Group» عقود الحرب. ويسلك أفراد من عائلة بوش مسلك اللصوص فيما يتعلق بالاستثمارات المتصلة بالحرب، بينما حصد العشرات من أتباع بوش - مثل «ريتشارد بيرل Richard Perle» و«جيمس وولسى James Woolsey» و«جو آلباو Joe Allbaugh» - نصيبهم من الأرباح من الأموال الملطخة بالدماء.

وتنبئ عواقب الحرب بثروات مماثلة، إن لم تكن أكبر. فحتى لو حافظت الحكومة العراقية الجديدة على سيطرة صورية للدولة على صناعة النفط، فلا تزال هناك مليارات لا تحصى تجنى من اتفاقيات المشاركة فى الإنتاج الخاصة بالحفر والتكرير والتوزيع وخدمة حقول وأنابيب النفط وتأمينها. وبالمثل، فإن قوات الجيش والشرطة العراقية الجديدة سوف تحتاج لمليارات أخرى من السلاح والمعدات والتدريب، والتى يتم شراؤها من صناعة السلاح الأمريكية ومن صناعة «الأمن الخاص» سريعة الانتشار وقوات المرتزقة ذات الصلات السياسية والتى تمثل أحدث استحواذ مربح للصفوة المسيطرة. وكما هو الحال بالنسبة للمملكة العربية السعودية، فإن أموال نفط العراق الجديد سوف تضخ مليارات لا تحصى إلى البنوك ومؤسسات الاستثمار الأمريكية.

ولكن ذلك ليس كل شىء. فحتى على أسوأ الاحتمالات، لو اضطر الأمريكيون للانسحاب غدا تاركين خلفهم كل شىء - قواعدهم وعقودهم وعملاءهم - فستكون جماعات نفوذ بوش فى المقدمة أيضا. ليس فقط لأن ثرواتهم السابقة التى لا تحصى قد تضاعفت كثيرا (مع تعويض أى خسائر محتملة من أموال دافعى الضرائب الأمريكيين)، ولكن لأن هيمنتهم المحصنة الراسخة على المجتمع الأمريكى قد تضاعفت أيضا بصورة هائلة. وليس من المهم أن يسيطر على الحكومة أى من الحزبين، فإن عملية عسكرة الولايات المتحدة قد مضت بعيدا حتى أصبح من المستحيل تصور أى

قانون

حسين عبدالله

حجم ما يتم نهبه من النفط العراقى يتراوح بين ١٠٠ و٣٠٠ ألف برميل بترول يوميا. وتتراوح قيمة النهب والسرقات بين ٥ و١٥ مليون دولار يوميا

لا بد لفهم تلك الملاحظات والتوصيات من تقديم خلفية موجزة حول النفط العراقى الذى تم تأميمه عام ١٩٧٢ وانتفع بما تحقق فى ظل حرب أكتوبر ١٩٧٣ من رفع السعر من ٣ دولارات إلى نحو ١٢ دولارا، ومن ثم تراكمت لدى العراق وباقى دول الخليج فوائض نفطية كبيرة كان من الممكن استثمارها اقتصاديا للتحرر من السيطرة الغربية الأمريكية. غير أن الغرب أفلح فى إفشال المشروع العربى إذ اقتنصت مصارفه تلك الفوائض، وقامت بتجميد بعضها أو تآكلت قيمتها بالتضخم، كما نجح الغرب فى حصار أوبك من نواح عدة أفقدها الكثير من قوتها التفاوضية. فمن ناحية استدرجت الدول المصدرة للنفط لإنتاج فائض قامت الدول الغربية بالاحتفاظ به فى صورة مخزون استراتيجى لمواجهة أى انقطاع فى الإمدادات ولاستخدامه فى الضغط على الأسعار. ومن ناحية أخرى قام الغرب بترشيد استخدام النفط بحيث أمكن خفض الاستهلاك العالمى بنحو ٦ مليون ب/ى كما قامت شركاته بتكثيف البحث عن النفط فى دول خارج أوبك بحيث ارتفع إنتاجها بنحو ٨ مليون ب/ى. وكانت المحصلة تقليص نفط أوبك من ٣١ مليون ب/ى عام ١٩٧٩ إلى النصف وانهيار السعر فى ١٩٨٦ من ٢٨ دولارا للبرميل إلى ١٣ دولارا مع استمرار تآكله خلال الفترة ١٩٨٦-٢٠٠٣ بحيث لم يتجاوز السعر ٥ خمسة دولارات مقوما بدولار ١٩٧٣ الذى صححت فيه الأسعار من ٣ إلى ١٢ دولارا.



من ناحية أخرى، ولكى تتبخر مدخرات الدول العربية التى تساندها فيما لو اضطرت لخفض إنتاجها من النفط مساندة للأسعار، قامت الولايات المتحدة - التى تستهلك ربع إنتاج العالم وتستورد ربع وارداته - ببث الوقيعة التى أدت إلى اشتعال الحرب بين العراق وإيران على امتداد الفترة ١٩٨٠-١٩٨٨ وتحولت خلالها الدولتان من دول فوائض إلى دول مثقلة بديون باهظة. وبذلك فقدت قدرتها على تحمل انقطاع الإنتاج. ثم جاءت الطامة الكبرى بالتحريض الأمريكى لصدام حسين كى يحتل الكويت، وتتابعت الأحداث التى جرت المنطقة العربية إلى ما تعانيه اليوم من انكسار.

وتقدر الاحتياطيات المؤكدة للنفط العراقى بنحو ١١٢ مليار برميل، وهو ما يعادل ١٠٪ من الاحتياطيات العالمية، بالإضافة لنحو ١٠٠ مليار برميل كاحتياطيات محتملة. ويتميز النفط العراقى بضآلة مخاطر التنقيب نتيجة لاكتشاف عدد كبير من حقوله مما يجعله جاهزا للإنتاج وبنفقات ضئيلة.

وقد بلغ ما تم اكتشافه للآن نحو ٧٨ حقلا سوف تلحق بياناتها كملاحق بالقانون، وهى:

الملحق (١): ويضم ٢٧ حقلا منتجا حاليا وتتبع شركة النفط الوطنية العراقية INOC.

الملحق (٢): ويضم ٢٥ حقلا تم اكتشافها قرب التسهيلات الإنتاجية ولم تطور وتتبع شركة INOC.

الملحق (٣): ويضم ٢٦ حقلا تم

تراجع رئيسى لآلة الحرب الأمريكية الجهنمية - ٧٢٥ قاعدة عسكرية فى ١٣٢ دولة، وميزانيات عسكرية سنوية تبلغ ٥٠٠ مليار دولار، بالإضافة لمبلغ تريليون دولار جرى اعتمادها بالفعل لأنظمة تسليح جديدة. وبالفعل، فإن «المعارضة» الديمقراطية تعهدت بزيادة الإنفاق على الجيش.

كما أنه ليس من المحتمل أن يتحدى أى من الحزبين سطوة عمالقة الطاقة، أو يقف فى وجه مطالب الشعب الأمريكى من البنزين الرخيص والسيارات الكبيرة والاستهلاك غير المحدود لنسبة هائلة من نفط العالم. وفيما يتعلق بـ «وول ستريت Wall Street» (شارع المال فى أمريكا) فإن كلا من الحزبين كانا دوما قبلة الصفوة الاستثمارية، وطالما أرسلا الجيوش إلى جميع أنحاء العالم لحماية مصالحهم المالية. وسوف تستمر جماعات النفوذ التى تزايدت سطوتها كثيرا نتيجة لحرب بوش فى السيطرة على الأمور بغض النظر عن نتائج الانتخابات.

بالمناسبة، فإن الاعتقاد بأن كل ذلك قد حدث نتيجة لقيام عصبة صغيرة من المؤيدين المتطرفين - المحافظين الجدد - بالسيطرة على السياسة الخارجية الأمريكية لتحقيق أحلامهم الكبرى لـ «تحرير» الشرق الأوسط بالقوة وتدمير أعداء إسرائيل، هو محض هراء. إن جماعات نفوذ بوش كانت قد عقدت العزم بالفعل على انتهاج سياسة خارجية هجومية، وقد استغلوا المحافظين الجدد وحقيبة ألاعيبهم - بلاغتهم القوية وإخلاصهم التآمرى وصلاتهم المريبة فى الشرق الأوسط وإيمانهم بالقوة الغاشمة فى سبيل القضايا «الأسمى» - كأدوات وغطاء لمساعدتهم فى شن حرب طويلة الأمد لا علاقة لها بالديمقراطية أو الأمن أو أى عقيدة أخرى ذات صلة سوى سعى لا يرحم نحو الثروة والسلطة والرغبة العمياء للوصول لقمة السلطة.

وهكذا فإن بوش وجماعته قد فازوا حتى لو فشلت حملتهم وانزلق العراق إلى فوضى دائمة، أو تحول إلى دولة دينية متطرفة. وهم قد حققوا النصر بالفعل حتى لو اشتعلت المنطقة بأسرها ووصل الإرهاب إلى مستويات غير مسبوقة، لأن كل ذلك لن يمثل لهم سوى مزيد من التربح من الحرب والخوف. وهم فازوا بالفعل حتى لو خسروا أغلبيتهم فى مجلس النواب أو حتى فقدوا منصب الرئاسة عام ٢٠٠٨، لأن الحرب والخوف سيواصلان ملء خزائنهم وتوفير النفوذ والسلطة لهم أثناء تمضية الوقت فى ظل فترة من حكم «معتدل» للحزب الديمقراطى الذى لن يتمكن - فى أفضل الظروف - سوى من الاقتيات على أطراف الدولة العسكرية، إلى أن يعودوا للسلطة مرة ثانية. إن السبيل الوحيد لخسارتهم الحرب هى أن يتم القبض عليهم فعلا ويلقون فى السجون جراء جرائمهم فى الحرب. ونحن جميعا نعلم أن ذلك لن يحدث.

ولذلك فإن خيلاء بوش الواثقة وبياناته الرسمية المتواصلة غير الحاسمة حول الحرب وابتساماته المصطنعة اللطيفة ولا مبالاته غير الرحيمة تجاه الأهوال التى لا توصف والتى أطلقها من عقالها فى العراق، كل ذلك ليس من سمات خداع النفس أو الجهل المقصود أو الانفصال عن الواقع. فهو وشركاؤه فى الجريمة يدركون الواقع تماما ويحبونه. ■

المحتـــــل!

اكتشافها بعيدا عن التسهيلات الإنتاجية ولم تطور ولا تتبع INOC.

كما يضم الملحق الرابع المناطق الاستكشافية القابلة للتنقيب ويبلغ عددها ٦٥ قطاعا ولكن لم يتم بعد اكتشاف ما تحتويه من النفط.

وفى ظل الخطة الخمسية الأولى ١٩٧٦-١٩٨٠ ارتفعت القدرة الإنتاجية إلى ٣.٨ مليون ب/ى عام ١٩٧٩، كما كانت الخطة الثانية تستهدف بلوغ الإنتاج ٥,٥ مليون ب/ى بحلول ١٩٨٣ إلا أن نشوب الحرب العراقية الإيرانية عطل تنفيذها. مع ذلك حافظ الإنتاج على مستوى ٣.٥ مليون ب/ى عام ١٩٩٠ كما حافظت صادراته النفطية على ٣ ملايين ب/ى خلال الربع الأول من العام المذكور، إلى أن تلقى الضربة المدمرة بنشوب حرب ١٩٩١ التى فرضت الحصار الدولى على العراق واقتصر إنتاجه على ما يفى باحتياجاته.

وبصدور قرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ عام ١٩٩٥ بالموافقة على برنامج النفط مقابل الغذاء عاد النفط العراقى يتدفق إلى الأسواق العالمية من ١٩٩٧، محققا نحو ٢.٣٤ مليون ب/ى سنويا خلال ١٩٩٨-٢٠٠٢، وإن كانت تلك الفترة قد لطخت بفساد طال عائداته كما طال الهيئات الدولية التى أشرفت على البرنامج.

وفى ٢٠٠١ بدأت محاولة لتحديث صناعة النفط العراقية التى تهالكت بعد أن حرمت لأكثر من عشر سنوات من قطع الغيار والأجهزة اللازمة لاستحداثها. وكان من أولويات تلك الخطة الحفاظ على قدرة إنتاجية فى حدود ٣.٥-٤ مليون ب/ى بالجهود الذاتية، مع الاستعانة بشركات عالمية لإضافة قدرة إنتاجية جديدة.

ومرة ثالثة تدمر الطاقة الإنتاجية للنفط العراقى بالغزو الأمريكى فى مارس ٢٠٠٣ وما تلاه من تخريب بحيث انخفض إلى نحو ١.٣٤ مليون ب/ى، كما عجز عن الوفاء باحتياجات المصافى المحلية مما اقتضى استيراد كميات متزايدة من المنتجات النفطية. وتطول قصة الفساد الذى أحاط بالمشروعات الأمريكية لإعادة تأهيل النفط العراقى من فساد على يد الشركات الأمريكية بقيادة Halliburton التى كان يرأسها تشينى نائب الرئيس الأمريكى، والذى انكشفت بعض أبعاده بالكتب التى أرسلها هنرى واكسمان عضو مجلس النواب الأمريكى الى جوشوا بولتن مدير الموازنة الأمريكية.

أما الآن، وبعد أن مضى على الاحتلال الأمريكى أربع سنوات، فان النفط العراقى ما زال يعانى من الكثير من المآسى وفقا للتقرير الذى أعدته جهة رقابية أمريكيةUS Government Accountability Office وأذيع جانب من محتوياته خلال شهر مايو ٢٠٠٧. ولعل أخطر تلك المآسى أن حجم ما يتم نهبه من النفط العراقى يتراوح بين ١٠٠ و٣٠٠ ألف ب/ى من جملة إنتاجه الذى يتعثر فى حدود مليونى ب/ى. وتتراوح قيمة النهب والسرقات بين ٥ و١٥ مليون دولار يوميا على امتداد السنوات الأربع الماضية، أى بإجمالى قد يصل إلى ٢٤ مليار دولار كما أكده المفتش العام العراقى على لسان السيد/ عاصم جهاد المتحدث باسم وزارة النفط العراقية خلال برنامج «حديث الساعة» الذى بثته الإذاعة البريطانية BBC يوم السبت ٢٠٠٧/٥/٥ وشارك فيه السيد/ عاصم مع كاتب هذه الملاحظات.

وتعتبر تلك السرقات المنظمة أخطر ما يصيب النفط العراقى. فالتخريب الذى يلحق بالمعدات والأنابيب على أيدى المقاومة العراقية لا تتجاوز خسائره كميات محدودة إذ يتوقف ضخ النفط فور انكسار الخط ويتم إصلاحه خلال فترة وجيزة، أما النهب المنظم فيتجاوز تلك الكميات بمراحل، فضلا عن اختلاف الهدف فى الحالتين، بين هدف نبيل وبين آخر يتسم بالخسة.

وتتسم تلك الخسة فى ضوء اعتماد العراق شبه المطلق على عوائده النفطية لتمويل احتياجاته وبخاصة الكهرباء والوقود والمياه التى حرم منها المواطن العراقى. ففى عام ٢٠٠٦ بلغت موازنة الدولة نحو ٤٠ مليار دولار مولت عوائد النفط نحو ٩٠٪ منها ويتوقع أن يتكرر الموقف عام ٢٠٠٧ . يأتى هذا على خلفية الوعود الوهمية التى تلقاها العراق فى مؤتمر مدريد أكتوبر ٢٠٠٣ وتعهدت فيه الولايات المتحدة بتقديم منحة ١٩ مليار دولار كما بلغت جملة التعهدات ٣٣ مليار وذلك لإعادة تأهيل قطاع النفط الذى قدرت نفقاته بنحو ٥٦ مليار دولار. فأين تلك المنح والتعهدات، وعلى أية صورة تم ما أنفق منها، وكيف يمكن للمواطن العراقى مواجهة تضخم يبلغ ٦٠٪ سنويا ودينار عراقى تهاوت قيمته إلى ١٢٦٠ لكل دولار، بينما كان يعادل ٣ دولارات قبل أن يقع فى الفخاخ الأمريكية؟

فى ضوء ما تقدم يمكن إبداء الملاحظات التالية حول مشروع القانون الذى أودع مجلس النواب بعد أن وافق عليه مجلس الوزراء ويتوقع أن يثور حوله الكثير من الخلاف السياسى والاقتصادى:

أولا - تأجيل اعتماد القانون إلى أن يتم إعداد منظومة نفطية متكاملة

بداية نرى إرجاء التصديق على القانون فى الوقت الحاضر وذلك للأسباب التالية:

(١) يحيل القانون فى مواضع مختلفة إلى قوانين مكملة تصدر مستقبلا، ومن أمثلتها قانون شركة النفط الوطنية العراقية، وقانون وزارة النفط الذى سيتم بمقتضاه إعادة هيكلة وارتباط الشركات والوحدات التنظيمية بالوزارة (المادة ٧ ب)، ثم ملاحق للقانون تتضمن نماذج للعقود التى يتم التعاقد على أساسها مع الشركات«، سواء كانت عقود خدمة، أم عقود تطوير وإنتاج، أم عقود اقتسام الإنتاج PSA (المادة ٨ ت). ولما كانت تلك القوانين تعتبر أجزاء من منظومة نفطية متكاملة، فإنه يحسن إرجاء إصدار القانون الحالى إلى أن تعد القوانين المرتبطة به وتصدر جميعها فى منظومة

متكاملة وذلك تفاديا لوقوع تناقضات بين أجزاء المنظومة تعيد من جديد مناقشة القانون الأساسى وتعديله.

(٢) يعانى قطاع النفط العراقى فى الوقت الحاضر من فساد مستفحل على نحو ما ذكرنا. ومن المعروف أن الفساد المحلى لا ينتعش إلا إذا التقى بفساد دولى، إذ يصعب تسويق ما ينهب من النفط داخل الدولة المنتجة وإنما يلزم تصريفه فى أسواق خارجية بمعرفة أفراد أو شركات أجنبية. ومن هنا فان التوسع فى إنتاج النفط العراقى - وهو ما يستهدفه القانون المعروض - فى ظل الاحتلال الجاثم على صدر العراق من شأنه التشجيع على اتساع حلقة الفساد الحالى ولا يترك مجالا لمن يرغب فى محاربته، إذ تتكاتف حلقات الفساد الداخلية مع نظيرتها الأجنبية لنهب المزيد من الثروات النفطية.

(٣) ولعل مما يساند فكرة التأجيل ما جاء بتقرير US Government Accountability Office السابق الإشارة إليه مؤكدا لعدم وجود أجهزة لقياس النفط المنتج فى الحقول وفى أرصفة الشحن والتحميل (وهى الأجهزة المشار إليها فى المادة الرابعة الفقرات ٣٠ و٣٢ و٣٣ من مشروع القانون). ومؤكدا أيضا أن ما يوجد من تلك الأجهزة لا يعمل بالكفاءة المطلوبة. ولذلك نوصى بعدم التعاقد مع شركات أجنبية - حتى لو صدر هذا القانون الآن - قبل أن يتم إصلاح تلك الأجهزة والتأكد من أنها تعمل بالكفاءة المطلوبة.

(٤) وإذ تقضى أحكام القانون الدولى بعدم شرعية ما يبرم من اتفاقيات تتعلق بالثروات الطبيعية للدولة الخاضعة لاحتلال أجنبى، فإن ذلك من شأنه تثبيط رغبة الشركات العالمية ذات السمعة الطيبة فى الإقدام على إبرام اتفاقيات نفطية مع العراق فى ظل قانون يصدر أثناء خضوعه لاحتلال أجنبى. خاصة بعد أن صدق مجلس الأمن على وصف الولايات المتحدة كدولة احتلال. ولن يجدى فى ذلك ما نصت عليه المادة (٨ ث) من ضرورة بذل الجهود الحثيثة من أجل ضمان التطوير العاجل والفعال للحقول المكتشفة غير المطورة كليا او جزئيا عند تاريخ صدور هذا القانون بالتعاون مع شركات نفط ذات سمعة محمودة.

(٥) هذا، وتتفق توصيتنا بتأجيل القانون - مع اختلاف الأسباب - مع توصية تقدم بها للبرلمان العراقى بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٥ ووقعها نحو ٦٠ من خبراء النفط العراقيين المقيمين بالخارج. فقد طلب هؤلاء الخبراء بموجب خطاب مفتوح عقب المناقشات التى دارت فى اجتماع عقد بالأردن يوم ٢٠٠٧/٢/١٧ إرجاء النظر فى القانون إلى أن يمكنهم وغيرهم من المواطنين العراقيين مناقشة مشروع القانون ومعالجة أوجه النقص التى تشوبه، وذلك فى إطار من الشفافية والحرص على الصالح العام.

ثانيا - ملاحظات شكلية

(أ) إن لغة القانون تسهب فى الوصف باستخدام ألفاظ غير محددة المعنى فنيا مما يفسح المجال لالتقاط ما يحمل منها معانى مختلفة ويطلق الخلاف حول تفسيرها، وذلك على خلاف اللغة القانونية المستخدمة فى قوانين النفط فى مختلف الدول والتى تتسم بالدقة واستخدام لغة فنية ذات تعريفات محددة ومعان متفق عليها مما لا يسمح بالاختلاف حول تفسيرها.

(ب) إن الموضوع الواحد جرت معالجته بالتجزئة فى أكثر من مادة واستخدمت فى كل موضع لغة قد تفتح المجال للاختلاف حول تفسيرها. ومن أمثلة ذلك تناول وزارة النفط تحت المادة (٥ ت) ثم تفصيلا تحت المادة (٧). كذلك توزعت معالجة شركة النفط الوطنية العراقية بين المادة (٥ ج) والمادة (٦).

ثالثا - ملاحظات موضوعية

(١) أهم النقاط السلبية عدم النص على سلطة مجلس النواب فى التصديق على الاتفاقيات التى تبرم مع الشركات الأجنبية للتنقيب عن النفط وتطويره وإنتاجه، وذلك خلافا للقاعدة العامة المستخدمة تقريبا فى جميع الدول النفطية وهى ضرورة صدور كل اتفاقية بقانون - سواء كانت اتفاقية اتحادية أم اتفاقية إقليمية - وذلك لضمان موافقة ممثلى الشعب على الاستثمار الأمثل لثروة الشعب الأساسية والتى تمثل عائداتها أكثر من ٩٠٪ من موارد الدولة. ولا يكفى فى ذلك أن يعهد بهذه المسئولية إلى «المجلس الاتحادى للنفط والغاز» كما تقضى بذلك المادة (٥ ت)؛ إذ لا يعدو هذا المجلس أن يكون جزءا من السلطة التنفيذية، والتى تخضع لرقابة الهيئة التشريعية وفقا للمبادئ الدستورية الثابتة.

(٢) أما النص فى المادة (٥ أولا) على مصادقة مجلس النواب على الاتفاقيات النفطية الدولية التى تعقد مع الدول فإنه لا يشمل العقود التى تبرم مع الشركات للتنقيب عن النفط والتى ينبغى صدورها بقانون.

(٣) أوصى من واقع الخبرة الشخصية فى التفاوض على إبرام العقود النفطية أن ينص فى كل قانون يصدر باعتماد العقود التى تبرم مع الشركات على ما يلى:

إذا حدث بعد تاريخ السريان تغيير فى التشريعات أو اللوائح القائمة والمطبقة فى الدولة مما يكون له تأثير هام على المصالح الاقتصادية فى غير صالح الشريك الأجنبى، حينئذ يتفاوض الطرفان لتعديل الاتفاقية بما يعيد التوازن الاقتصادى الذى كان موجودا فى تاريخ السريان. ولا يجوز بأى حال من الأحوال أن تؤدى هذه التعديلات إلى انتقاص أو زيادة فى حقوق والتزامات الشريك الأجنبى عما تم الاتفاق عليه عند تاريخ السريان.

(٤) تقضى المادة الثانية من مشروع القانون على أن يستثنى من الخضوع له تكرير البترول وتصنيع الغاز واستخداماتهما الصناعية وكذلك خزن ونقل وتوزيع المنتجات النفطية. ونحن لا نرى مبررا لاستثناء هذه الأنشطة من الخضوع للقانون. وإذا كان لابد من معالجتها بطرق تتفق مع طبيعتها فلا مانع من استصدار قانون خاص بها يلحق بالمنظومة النفطية المتكاملة التى أشرنا إليها فيما سبق.

(٥) يلاحظ أن مسئوليات ووظائف وزارة النفط قد تم تحجيمها فى نطاق أقل مما يمنح عادة فى دول نفطية مماثلة، كما سلخ من إشراف الوزارة شركة النفط الوطنية التى صارت تتبع المجلس الاتحادى للنفط والغاز. وهذه نقطة ايجابية ورؤية سليمة بعدم إخضاع الشركات التنفيذية للوزارة وقصر مسئوليات الوزارة على تمثيل سلطة الدولة ومن ثم تضييق الفرص المتاحة لنمو الفساد.

(٦) كذلك يدخل فى نطاق الإيجابيات فصل نشاط شركة النفط الوطنية العراقية INOC واقتصاره على عمليات التنقيب والإنتاج دون تسويق هذا الإنتاج. فكما تقضى المادة (٥ ج أولا) تلتزم تلك الشركة ببيع حصتها من النفط الخام إلى شركة تسويق النفط SOMO بسعر التسليم الذى يغطى الكلفة بالإضافة إلى ربح معقول يمكن الشركة من التطور بصورة حيوية فى مجالى التنقيب والإنتاج. ذلك لأن توزيع العمل بين شركتين تتخصص كل منهما فى مجالها من شأنه رفع الكفاءة الإنتاجية ووضع الخبرات البشرية المتخصصة حيثما ينبغى أن تكون تحت إدارة مستقلة، بينما يؤدى دمج النشاطين تحت إدارة واحدة إلى انخفاض الكفاءة وتهيئة الفرص لانتشار الفساد كما يحدث فى الدول التى اختارت دمج النشاطين، على تفصيل لا يتسع المجال لمعالجته.

(٧) يجب أن تتضمن المادة (٦ ثالثا)

الفساد المحلى لا ينتعش إلا إذا التقى بفساد دولى، إذ يصعب تسويق ما ينهب من النفط داخل الدولة المنتجة وإنما يلزم تصريفه فى أسواق خارجية بمعرفة أفراد أو شركات أجنبية

نصا يتيح إعطاء الأولوية للشركة الوطنية فى الحصول على ترخيص للتنقيب والإنتاج فى مناطق جديدة خارج المناطق الخاضعة لعملياتها متى تعادلت شروطها مع شروط الشركات الأجنبية المنافسة.

(٨) يبقى أهم شرط لضمان الحرص على الصالح العام فى قطاع النفط، وهو نزاهة واستقلالية القائم بالتفاوض على العقود التى تبرم مع الشركات للتنقيب عن النفط وتنميته وإنتاجه. ذلك لأن نموذج العقد المعتمد بالقانون يترك فراغات لا تملأ إلا بالتفاوض. ومن ذلك كمثال حجم ما يحصل عليه الشريك الأجنبى سدادا للنفقات التى يقوم بإنفاقها على التنقيب والإنتاج، ومدة استرداد تلك النفقات، وحجم ما يحصل عليه الشريك الأجنبى كحصة فى الإنتاج مقابل أرباحه، وأسعار الغاز الذى تحصل عليه الدولة من نصيبه لأغراض الاستهلاك المحلى، وحجم ما تلتزم به الشركة المنتجة كإتاوة Royalty تحصل عليها الدولة بمجرد استخراج النفط مقابل نضوبه وباعتبارها ثمنا للخام مستقلا عن التكاليف وذلك بصرف النظر عما يلحق بالنفط من ربح أو خسارة. كذلك يقضى مشروع القانون بتصفية الشركات المؤهلة للتعاقد على التنقيب والتطوير فى صورة قائمة مختصرة Short list (المادة ٩ ب سابعا).

(٩) وفى اعتقادنا أنه سيكون صعبا، إن لم يكن مستحيلا، أن يحتفظ المفاوض العراقى باستقلال قراره أثناء التفاوض مع الشركات فى ظل احتلال أمريكى سيحاول دون شك إسناد أهم أنشطة النفط العراقى للشركات الأمريكية وبشروط سخية تخدم الاقتصاد الأمريكى أكثر مما تخدم الاقتصاد العراقى.

(١٠) تتضمن المادة ١٠ (آليات التفاوض والتعاقد) مددا قصيرة للتفاوض وتقييم العقود تلزم بها الأجهزة المشاركة فى تلك العمليات. وتشمل تلك الأجهزة شركة النفط الوطنية، والهيئة الإقليمية، والوزارة، والمجلس الاتحادى، ومكتب المستشارين المستقلين الذى يتبع المجلس. ويقضى النص باعتبار الاتفاقية موافقا عليها تلقائيا إذا انقضت المدد المقررة دون إجابة. وفى رأينا أن تلك المدد تحد من كفاءة عمليات التقييم، وخاصة عندما تزدحم الاتفاقيات فى وقت واحد نتيجة لطرح عدد كبير من القطاعات فى المناقصات العامة. ولذلك نوصى بعدم تحديد مدد لهذه الأنشطة وتركها لتقدير الجهات القائمة بها والتى يفترض أنها تتمتع بجانب كبير من الخبرة والمسئولية، مما يجعلها أكثر دراية بالمصلحة العامة.

(١١) أخيرا، يتردد فى وسائل الإعلام أن حكومة إقليم كوردستان KRG تعترض على القانون وتحاول الانفراد بالسيطرة على الحقول الواقعة فى نطاق الإقليم بدءا بإبرام الاتفاقيات مع الشركات الأجنبية وانتهاء بالعوائد النفطية، وأن تلك الحكومة تهدد باستئناف التفاوض مع الشركات وإبرام التعاقد معها إذا لم يصدر القانون محققا لمطالبها. وفى هذا المجال نرى أن السيطرة على قطاع النفط يجب أن تكون مركزية وأن تجزئته بين سلطات مختلفة داخل الدولة الواحدة يؤدى إلى نتائج سلبية خطيرة لا يتسع المجال لسردها. ومن التجارب التى تؤكد رؤيتنا ما قام به شافيز رئيس فنزويلا من إصلاحات فى قطاع النفط الذى استقطبته الشركات الأمريكية على امتداد عشرين عاما وحرمت الدولة من ثمار ثروتها الطبيعية الأساسية. حتى وهى فى أشد الحاجة إليها. وكان من أهم تلك الإصلاحات استعادة مركزية السلطة المشرفة على قطاع النفط. وقد قمنا بشرح أبعاد تلك التجربة بالتفصيل فى دراستنا المنشورة بعنوان «فنزويلا .. الدولة الرائدة بين مصدرى النفط، فى التقرير السنوى «الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية»، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بدار الأهرام المصرية، يناير ٢٠٠٧ .

(١٢) أما باقى مواد القانون فإنها تنظم الأمور الفنية، والتى تتضمنها عادة أغلب قوانين النفط فى الدول المنتجة للنفط، وهى مواد نمطية ومقبولة ولا تحتاج منا لملاحظات. ■

كتاب الزاوية

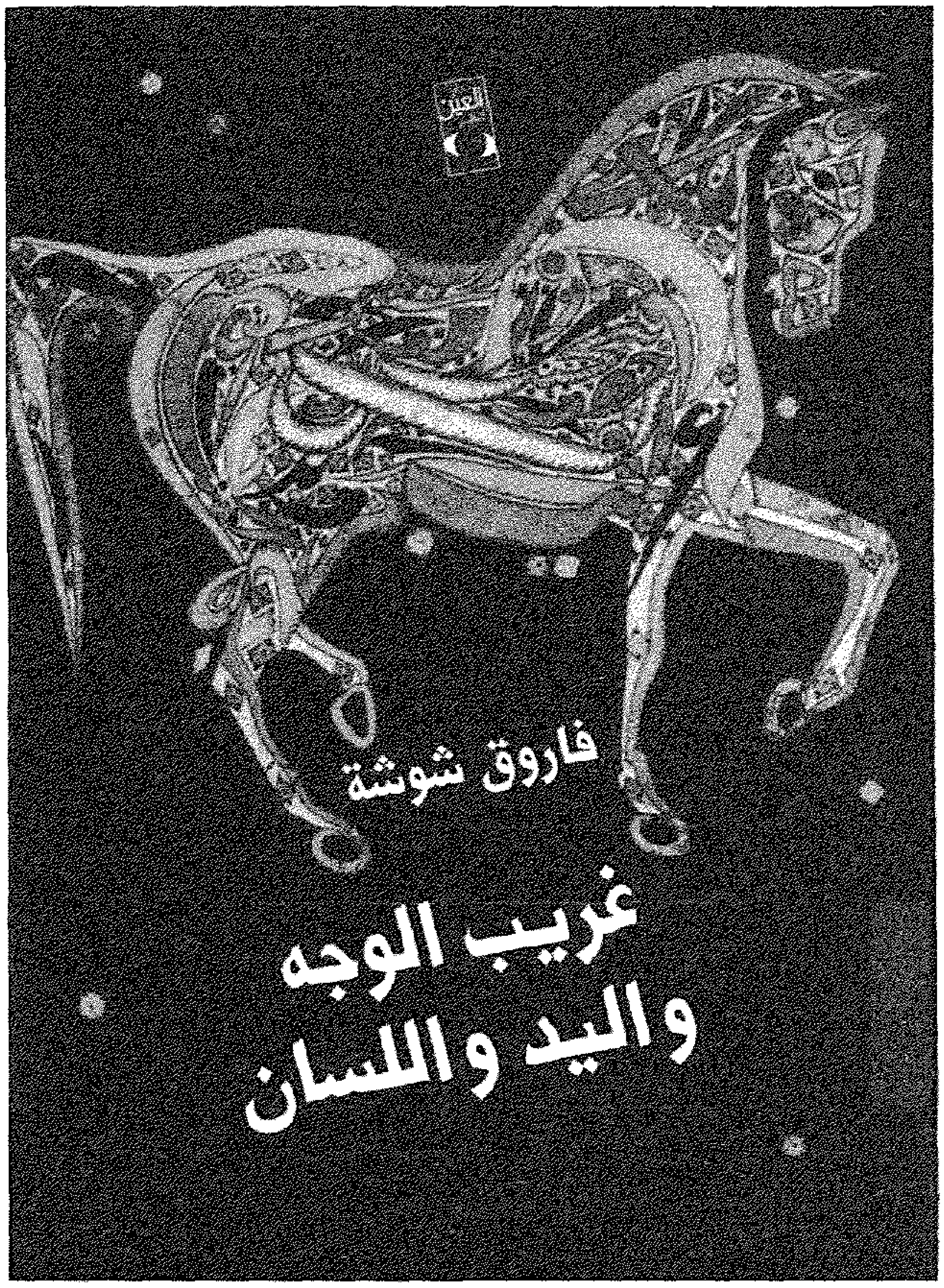
اجتماع شارع الطلمبات

مذكرات اللورد كيلرن

وحينما وصلنا إلى ١٠ شارع الطلمبات اجتمع مجلس دفاع الشرق الأوسط للنظر فى جدول الأعمال. وعندما تعرضنا لموضوع الشئون الخارجية، شرحت إلى المجلس تطور الأحداث الجارية، وكنت أرغب فى استطلاع وجهات نظرهم فى حالة إعطاء فرصة أخرى للنحاس ليقابل الملك. ولقد كانت المناقشة مفيدة للغاية، ووافق الجميع على أن أقابل حسنين فورًا (وقد حددت موعدًا لذلك بالتليفون) وأبلغته بهذه الرسالة الشفوية وهى: «ما لم أسمع قبل الساعة ٦ مساء اليوم بأنه تم تكليف النحاس بتشكيل الحكومة. فإن جلالة الملك فاروق عليه أن يتحمل تبعات ذلك».

ثم ناقشنا بعد ذلك بعض التفصيلات الأخرى، وقد وافق المجتمعون بأن جلالته ما لم يذعن وينفذ هذا الإنذار قبل الساعة ٦ مساء فإن القوات البريطانية ستتحرك لاتخاذ مواقعها المحددة، وعند هذا الحد من النقاش كلف الجنرال ستون Ston بالتعليمات اللازمة ولكى نعطى له فسحة كافية من الوقت، فقد حددنا الساعة ٨ مساء لكى أنزل أنا وستون وبعض المرافقين، متجهين إلى القصر، وعندئذ نخبر الملك بأنه يجب أن يقدم تنازله عن العرش.

ومن أجل أن نمنع حدوث أى اضطرابات أخرى تعوق تنفيذ مهمتنا فإن بعض الحراس سوف يرافقوننا إلى داخل القصر، وقد ناقشنا كل الاحتمالات والحيل التالية والمتوقع حدوثها، وكانت خطتنا واضحة، بأننا سوف نأخذ الملك معنا بعيداً، سواء تنازل عن العرش أو لم يتنازل، مع ملاحظة أن وثيقة التنازل عن العرش جاهزة فى جيبى.



لغة للمرأة ولغة للرجل !!!

فاروق شوشة

لماذا يجعلنا الموت المباغت نعود إلى كتابات من رحلوا من الأصدقاء والأحباء، نقرؤها فى ظل إحساس عارم بالفقد، ونرى فيها ما لم نكن نراه فى حياتهم، حين كنا نكتفى بالنظرة العابرة أو التصفح السريع، ولا نعطى لما يكتبونه أو يبدونه ما يستحقه من نظر واهتمام؟ ها نحن أولاء أبناء جيل تمرس بالكتابة طويلاً، زمناً يتراوح بين عقود أربعة أو خمسة، نعيش جميعاً هذه الحال من الأسف والندم ولوم النفس، حين نكتشف - بعد فوات الأوان - أن الذين أهدونا كتبهم وإبداعاتهم - فى مناسبات شتى - كان من حقهم علينا أن يظفروا بكلمة تعبر عن اهتمامنا بما كتبوا، وانشغالنا بما أنجزوا وأضافوا، بدلاً من الصمت المطبق، نلوذ به ونعتصم، ربما لأننا لم نجد الفرصة المواتية - فى زحام الشواغل والهموم والضغوط اليومية - للقراءة الهادئة المتأنية، أو حتى القراءة العابرة. وربما قرأنا وأمسكنا عن الكلام بخلاً أو تجاهلاً أو نسياناً، دون أن نحس بما يحدثه هذا التجاهل أو البخل أو التناسى من أسى موار عند من كان ينتظر كلمة تشير، أو لفتة تضىء، أو تعليقاً يوحى بالإقبال والاهتمام، ولكن دون جدوى.

هذه حالى مع الصديق العزيز العالم اللغوى: فقيد مجمع اللغة العربية والدراسات اللغوية، الدكتور أحمد مختار عمر، عندما اضطرنى رحيله المفاجئ وتكليف المجمع لى بتأبينه، إلى إعادة قراءته من جديد، وقراءة ما كنت قد عبرته -حين أهدانى إياه- فى قراءة سريعة، مؤملاً أن أعود إليه فى يوم من الأيام. ومن بين هذا الجديد كانت كتبه ومؤلفاته: لغة القرآن، ومعاجم الأبنية فى اللغة العربية، ومعجم القراءات القرآنية، واللغة واختلاف الجنسين.

هأنذا أعود إلى كتابه «اللغة واختلاف الجنسين» متأملاً فى البداية المنهج الذى صممه لكتابه، من خلال ثلاثة أبواب يتناول أولها بعض المباحث التمهيدية فى فصلين اثنين هما: أثر العوامل الاجتماعية فى اختلافات الجنس اللغوية ودور الحركات النسائية ومظاهر اهتمامها بلغة المرأة. أما ثانيها فيتناول نظرة اللغة إلى الجنس وكيفية تعاملها مع ظاهرة التذكير والتأنيث فى فصول ثلاثة هى: تصنيفات الجنس، واللغة بين الحياد والتحيز للذكورة، واللغة العربية بين الجنس النحوى والجنس الطبيعى. أما ثالث هذه الأبواب فيعرض الجانب الثانى من القضية، وهو تعامل الجنس مع اللغة، والخصائص التى تميز طريقة كل جنس فى هذا التعامل. وقد ضم هذا الباب مستويات التحليل اللغوى الثلاثة: الصوتية واللفظية والتركيبية مضيفاً إليها فصلاً رابعاً ضم جملة من الخصائص اللغوية الأخرى التى ترددت فى كلام الدارسين، وهى اختلاف الموضوع والمضمون، واتصاف المرأة بالثرثرة، والتدخل فى حديث الآخرين ومقاطعتهم، وميلها إلى الابتداع والخروج عن المألوف. ثم هو يتبع هذا الفصل بفصلين آخرين لم تتناولهما التحليلات السابقة وهما: الاختلاف بين الرجل والمرأة فى استخدام وسائل التفاهم غير اللفظية، واختلاف لغة الطفل باختلاف جنسه.

أحمد مختار عمر يدرك منذ احتشاده لموضوع كتابه، الذى هو أول كتاب بالعربية فى موضوعه، أنه يخوض فى مجال ليس وقفاً على علماء اللغة والاجتماع والأنثروبولوجيا، فقد دخل الميدان علماء النفس والتربية والأسلوبية والنقد الأدبى، فضلاً عن مشاركة الحركات النسائية، ودعوات المساواة بين الجنسين وتحرير المرأة - بكل ثقلها - منذ الستينيات. كما يدرك أن هذه الدراسة الجديدة - التى لم تلق اهتماماً من الباحثين العرب حتى الآن - سوف تلقى الضوء على جانب من علم اللغة الاجتماعى، وأنه لابد له من الإجابة عن تساؤل غائب هو: هل هناك لغة نسائية؟ فى مقابل التساؤل المطروح دائماً: هل هناك أدب نسائى أو نسوى؟

من الناحية التاريخية يشير الدكتور أحمد مختار عمر إلى كتاب «روبين لاكوف» الذى صدر فى عام ١٩٧٣ بعنوان: اللغة العربية ومركز المرأة، باعتباره بذرة لدراسات تالية؛ وإلى أهم كتاب صدر فى الثمانينيات عام ١٩٨٦ من تأليف جنيفر كوتس بعنوان «النساء والرجال واللغة»، وكانت المؤلفة تشغل درجة محاضر أول فى اللغة الإنجليزية وعلم اللغة فى أحد معاهد لندن، بعد أن نشرت بحثاً فى الموضوع نفسه عام ١٩٨٤ بعنوان: «اللغة والتحيز الجنسى». تقول فى كتابها: «إن

غريب الوجه
واليد واللسان
فاروق شوشة
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧

اللغة واختلاف الجنسين
أحمد مختار عمر
القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٦

فيما يتصل بالثرثرة وكثرة الكلام تعرض الدراسات لعبارات شاعت فى عدد من اللغات مثل: حين توجد امرأة لا يوجد صمت، الثعالب ذيل فقط والنساء لسان فقط، اللسان هو سيف المرأة وهى لا تتركه مطلقاً حتى يصدأ. يمشى الرجل ميلاً بعد العشاء أما المرأة فتفضل أن تتكلم ساعة

الاختلافات اللغوية مجرد انعكاس للاختلافات الاجتماعية، وما دام المجتمع يقدم كلا من المرأة والرجل على أنهما جنسان مختلفان، وغير متساويين، فستبقى الاختلافات اللغوية بين الاثنين».

عن اللغة بين الحياد والتحيز للذكورة يقول أحمد مختار عمر: لما كانت معظم المجتمعات تفضل الذكر على الأنثى، وتتعامل مع الرجل على أنه أكثر قيمة من المرأة، فقد ظهرت هذه النظرة الدونية للمرأة فى التصنيفات اللغوية، ومن بينها التصنيف على أساس الجنس، فمعظم اللغات التى تفرق بين المذكر والمؤنث بلاحقة إضافية تتخذ من صيغة المذكر أصلاً ومن صيغة المؤنث فرعاً، ويندر العكس. ومعظم الثنائيات المعطوفة تبدأ بالمذكر، فيقال: شمشون ودليلة، روميو وجولييت، قيس وليلى، أنطونيو وكليوباترة، حسن ونعيمة، عنتر وعبلة، ياسين وبهية، الصفا والمروة، ويقل العكس مثل ليلى والمجنون، ناعسة وأيوب، عزيزة ويونس، شفيقة ومتولى. وقد اطرد الاستعمال القرآنى على تقديم الذكر على الأنثى فى كل الآيات التى اجتمعا فيها مثل: ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى. يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى. «كما اطرد فى الآيات التى يجتمع فيها ما يدل على الذكور وما يدل على الإناث مثل: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، إن الصفا والمروة من شعائر الله، والذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ولم يخرج القرآن عن هذا النمط إلا لحكمة».

وحين يجتمع الذكر والأنثى ويراد الجمع بينهما فعادة ما يغلب الذكر على الأنثى، كإطلاق العرب الأبوين على الأب والأم، والقمرين على الشمس والقمر، والموصلين على الجزيرة والموصل، والأذانين على الأذان والإقامة، والعصرين على الغداة والعصر، والفراتين على نهرى دجلة والفرات..

وتقضى قواعد اللغة العربية بأنه إذا اجتمع المذكر والمؤنث وأريد الإخبار عنهما غُلِّب المذكر، فمثلاً تقول: الرجل والمرأة قاما، قالوا: لأن المذكر هو الأصل والمؤنث مزيد عليه.

وتقول: محمد وفاطمة ابنا علىّ فعلا كذا وكذا، فتغلب المذكر على المؤنث فى النعت كذلك.

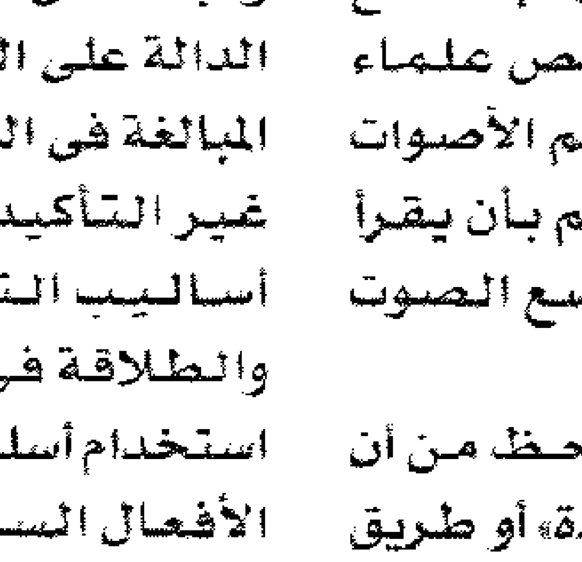
ويشير الدكتور أحمد مختار عمر إلى اتفاق معظم علماء الأصوات على وجود مكونات صوتية تميز صوت المرأة عن صوت الرجل يمكن أن تسمى البصمة الصوتية للجنس. وحدد العلماء عدداً من هذه المكونات أو الخصائص الصوتية التى تميز نطق كل جنس. من بينها حدة صوت المرأة بالنسبة لصوت الرجل نتيجة قصر الوترين الصوتيين عندها وقلة ضخامتهما بالنسبة لوترى الرجل، الأمر الذى يؤدى إلى زيادة سرعتهما وزيادة عدد ذبذباتهما فى الثانية، وهذا بدوره يؤدى إلى حدة الصوت. ولا يمكن التمييز بين أصوات الجنسين فى مرحلة الطفولة المبكرة حتى إن الأم لا تستطيع أن تميز بين صراخ البنت وصراخ الولد حتى سن السادسة. وتعد السنة الحاسمة لتمييز صوت الذكر عن الأنثى هى الثانية عشرة للبنات وأكبر من هذا قليلاً للأولاد.

من بينها أيضاً تليين بعض الأصوات وبخاصة المفخم منها، ونطقها بطريقة تنحو بها نحو نظيراتها المرققة، كما يحدث فى كلمات مثل: القرآن، والقاهرة، والطيور، والضعيف، والصراخ. ولعل هذا هو الذى عناه القرآن الكريم حين نهى نساء النبى عن إخضاع القول فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض فقد فسر القرطبى الإخضاع بترخيم الصوت وتليينه. ونص علماء التجويد على ضرورة تفخيم الأصوات عند القراءة. وفسر التفخيم بأن يقرأ على قراءة الرجال، ولا يخضع الصوت فيه ككلام النساء.

من بينها أيضاً ما لوحظ من أن النساء أكثر ميلاً لاتباع «المودة» أو طريق النطق الحديث، ولذا عد بعضهم دور المرأة فى التطوير الصوتى أكثر خطراً من دور الرجال. وفسر ذلك بأن النساء لا يعشن جيلهن فحسب، بل يشاطرن الأجيال الناشئة حياتها كذلك، فهن أكثر من الرجال صلة بالأطفال والفتيان. ومعنى هذا أن البيئة اللغوية للمرأة هى بيئة الجيل الجديد، بينما البيئة اللغوية للرجل هى بيئة الشباب والكهول والشيوخ. كما أثبتت التجارب أن المرأة تملك القدرة على إحداث تنوعات فى درجة صوتها، وفى نماذجها التنغيمية، بما يسمح لها أن تستعمل تنغيمات معينة لا يستعملها الرجال عادة مثل نموذج الدهشة الذى يبدأ مرتفعاً ثم ينخفض.

كما أنها تميل إلى استخدام التنغيمات الدالة على التساؤل وطلب المساعدة، وهى نماذج تحب المرأة أن تستعملها.

ويشير المؤلف إلى أن الغالبية العظمى من الدارسين تذهب إلى وجود عدد من الخصائص التركيبية والأسلوبية تميز لغة المرأة من لغة الرجل مثل: استخدام نغمة الاستفهام مع الجمل الخبرية وما يمكن أن يسمى الكلام المائل. واستخدام الأسئلة التذييلية والأسئلة المركبة، واستخدام الصفات الحشوية الضعيفة، والصفات الفارغة، والكلمات العديمة المعنى، والمبالغة فى الكلام، والاستعانة بالكلمات الدالة على التقوية. واستخدام الصيغ المبالغة فى التأدب، والميل نحو الأساليب غير التأكيدية، واستخدام عدد من أساليب التعجب بصورة متكررة، والطلاقة فى التعبير والإقلال من استخدام أسلوب الأمر المباشر، واستعمال الأفعال السكونية، وكثرة استعمال الأفعال المبنية للمجهول، والميل نحو العبارات الاسمية لا الفعلية، وتفضيل صيغة التصغير، واستخدام الجمل الناقصة، وعدم ربط الجمل وترتيب بعضها على بعض.



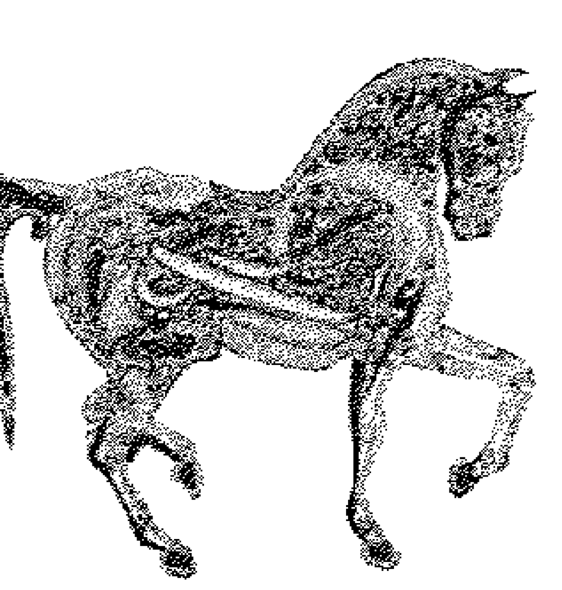
معظم اللغات التى تفرق بين المذكر والمؤنث بلاحقة إضافية تتخذ من صيغة المذكر أصلاً ومن صيغة المؤنث فرعاً، ويندر العكس

من الخصائص الأخرى التى تميز لغة المرأة من لغة الرجل، ما كشف عنه تحليل الموضوع والمضمون. والثرثرة وكثرة الكلام والتدخل والمقاطعة والسيطرة على الحديث، والميل إلى الابتداع والخروج على المألوف.

تقول نتائج الدراسات التحليلية لمضمون الأحاديث التى يمارسها كل من الرجال والنساء إن الرجل يهتم أكثر بموضوعات العمل والسياسة والدين والقانون والضرائب ومصاريف المنزل والأجهزة الإلكترونية وأنواع الرياضة والصحة والعلاقات الإنسانية والسيارات والتنافس والعدوانية الجسمية والتفوق والمال والوقت والفضاء والمدركات الحسية والترفيه. بينما تهتم المرأة أكثر بموضوعات الحياة الاجتماعية والكتب والشراب والطعام ومتاعب الحياة والعناية بالزوج والبيت والأسرة والسن والمشاعر الخاصة والغسل والحياكة وأعمال المطبخ والملابس والديكور والنساء الأخريات.

وفيما يتصل بالثرثرة وكثرة الكلام تعرض الدراسات لعبارات شاعت فى عدد من اللغات مثل: حين توجد امرأة لا يوجد صمت، الثعالب ذيل فقط والنساء لسان فقط، اللسان هو سيف المرأة وهى لا تتركه مطلقاً حتى يصدأ. يمشى الرجل ميلاً بعد العشاء أما المرأة فتفضل أن تتكلم ساعة. بُح بسرك لامرأة تبح به للعالم كله. قوة المرأة فى لسانها، لا يوجد شىء أغرب من رجل ثرثار وامرأة نزرة الكلام!

وعلى الرغم من شيوع هذه المقولات فقد ثبت من التحليل لأحاديث كثير من الرجال والنساء عكس ذلك تماماً. فقد توصل نيكولاس إملر خبير علم النفس البريطانى فى دراسة نشرتها الصحف عام ١٩٧٧ إلى أن الرجل أكثر ميلاً إلى الثرثرة وكثرة الكلام من المرأة. وإن كان يغلف حبه للكلام بادعاء إلمامه بالسياسة! وفى بعض المؤتمرات المتخصصة تبين أن الوقت العادى لمن تُعلِّق من النساء كان أقل من نصف الوقت الذى استعمله الرجال. وفى أبحاث أجريت فى أعوام ١٩٥٧، ١٩٦٦، ١٩٦٨، ١٩٧٥ لقياس مدار الكلام، تبين أن الرجال قد تكلموا أكثر.. وفى دراسة تحليلية قام بها «أوتو سوندر» لعدد من المناقشات التى ضمت مجموعة من الرجال والنساء تبين أن عدد



الكلمات التى نطقها الرجال كانت أكثر من تلك التى نطقتها النساء.

وهى نتائج يثبتها الدكتور أحمد مختار عمر فى كتابه «اللغة واختلاف الجنسين» لينصف المرأة، ويفند كثيراً من المقولات الشائعة التى تتهمها بالحق وبالباطل.

هل المرأة متفوقة لغوياً

أ - ما زلنا مع العالم اللغوى الراحل الدكتور أحمد مختار عمر فى دراسته الرائدة «اللغة واختلاف الجنسين»، وكتابه الذى يُعد أول كتاب عربى يتناول قضية العلاقة بين اللغة والجنس من جانبين متكاملين هما: نظرة اللغة إلى الجنس وكيفية تعاملها مع ظاهرة التذكير والتأنيث من ناحية، وتعامل الجنس مع اللغة، والخصائص التى تميز طريقة كل جنس فى هذا التعامل من ناحية أخرى. ويحاول الكتاب الإجابة عن التساؤل الغائب: هل هناك لغة نسائية؟ فى مقابل التساؤل المطروح دائماً: هل هناك أدب نسائى أو نسوى؟

يضيف المؤلف إلى ما لاحظه العلماء من وجود اختلافات بين الرجل والمرأة فى اللغة اللفظية - والمقصود باللغة غير اللفظية الإشارات التى تجمع تعبيرات الوجه (بإمكان الجهاز العضلى الوجهى أن يصدر نحو مائتى ألف تعبير وجهى مختلف) التحديق، والملامسة، وحركة الجسم، ووضعه وغير ذلك مما يدخل تحت علم «الحركيات»، وكذلك الإشارات النطقية - غير اللفظية - التى تتمثل فى استخدام الصفات المميزة للصوت، والتى يمكن أن تحمل معنى، وتعطى إشارات صوتية منطوقة ذات خصائص معينة، ويشمل ذلك: ارتفاع الصوت، ورنينه، ومعدل سرعته ومجال درجة الصوت، ونوعية الصوت، واستمراريته، وغير ذلك مما يدخل تحت تنغيمات الصوت ومحدداته من ناحية: الشدة - الدرجة - العلو، وكيفياته من ناحية أخرى: السرعة - الرنين - مجال درجة الصوت. كما يشمل أيضاً عدداً من الصفات المميزة، مثل الوشوشة (التى تدل على أن المتكلم ينقل معلومات خاصة) وعكسها الصياح (الذى يدل على أن المتكلم يوسع من مجال نظامه الاتصالى) كذلك مما يدل على عدم الطلاقة أو أن المتكلم واقع تحت ضغوط ما مثل السكتات والأصوات الحشوية أو الطفيلية التى تتمثل فى التكرار والتهتهة أو اللعثمة وعثرات اللسان، وإدخال أصوات مثل آآآ أو آه أو حَسَن، والتنهد أو التثاؤب والنفخ لطرد الهواء وإحداث صوت باللسان علامة عدم الرضا وغير ذلك.

ويعرض المؤلف لما خرجت به الدراسات العديدة من نتائج تؤكد جوانب لاختلافات الجنس فى تعبيرات الوجه تشمل حجم الاستخدامات لهذه التعبيرات، من أمثلة ذلك ما ثبت من استخدام المرأة للتبسم والضحك أكثر من الرجل، واستخدامها للتحديق أو النظر بصورة أكثر كذلك، كما تشمل استخدام المرأة لحركات وجهها بصورة أكثر تعبيرية للدلالة على الحرارة أو الصداقة أو البهجة أو بث الهدوء فى نفس السامع، أو إحراز موافقته، كما ثبت أن المرأة تنتج نماذج أكثر من التقطيب والعبوس وغيرهما، الأمر الذى يدخل تحت التعبير الوجهى السلبى.

وأن المرأة تستخدم التحديق أو إدامة النظر - سواء أثناء الاستماع أو أثناء الكلام - بصورة تزيد على الرجل فى حالة الصداقة والتواصل المريح، أو حالة قرب المسافة بينها وبين جليسها.. وأن المرأة تفضل إطالة النظر على تكراره بعكس الرجل الذى يفضل تكرار النظر على إطالته. كما توجد جوانب لاختلافات الجنس كذلك بالنسبة لحركة الجسم ووضعه، فالنساء يملن إلى الاحتفاظ بأرجلهن متلاصقة على عكس الرجال، والنساء يملن إلى حمل كتبهن أمام صدورهن، فى حين يفضل الرجال حملها بجانبهم، ويقال دائماً إن النساء يتحركن بطريقة أنثوية، ودون إفراط فى حركاتهن الجسمية، فى حين أن الرجال يتجنبون الحركات الناعمة، ويملكون حرية أكثر فى حركاتهم الجسمية مثل الاتكاء والميل إلى الوراء وتحريك الجزء الأسفل من الجسم والاسترخاء والجلوس، ووضع الذراعين بين الرجلين، وتشبيك الأصابع ومسح الأنف.

وفى مجال السلوك الحوارى أو التدخل فى كلام الآخرين ومقاطعتهم أو أخذ الدور خلال الحوار أو قطع الصمت (حين يوجد صمت) بأخذ المبادرة فى الكلام، أثبتت الدراسات أن الرجال يستخدمون المقاطعة أكثر من النساء، بالإضافة إلى إكثارهم من التعليقات المتداخلة. أما النساء فيكثرن من التدخل حين تكون تدخلاتهن استفهامية أكثر. كما يختلف معدل التشابك والتداخل فى الثنائيات المتحدة الجنس (أى عندما يكونان رجلين أو امرأتين) عنه فى الثنائيات المختلفة. ففى دراسة تحليلية أجراها العالمان: وست وزيمرمان شملت عشرين ثنائياً من الجنس نفسه وأحد عشر ثنائياً مختلطاً كان عدد التداخلات فى الأول ٧ فقط، ووصل إلى ٤٨ فى الثانى، خصَّ الرجال منها ٤٦ تداخلاً والنساء تداخلان اثنان فقط.

وفيما يتصل بالطلاقة المنطقية أو المقدرة التواصلية أثبتت الدراسات أن الرجال يميلون إلى كثرة الكلام عن النساء، وأن تفوق المرأة فى استخدام التعبيرات العاطفية غير اللغوية وفهمها جاء نتيجة عوامل بيئية واجتماعية بالإضافة إلى بدء كل من الجنسين حياته بقدرات مختلفة تتعلق بالاكتشاف والاستجابة لإشارات الآخرين. وأن حساسية المرأة للإشارات غير اللفظية نبعت من حاجتها إلى الفهم الدقيق لأنواع السلوك سواء كان لفظياً أو غير لفظى، مثل أية مجموعة مسلوبة النفوذ لابد أن تعرف كل السلاسل التى تربطها والقيود التى تتحكم فيها، ولأنهن يندمجن - عادة - مع مراكز القوة كزوجات أو سكرتيرات، ولحاجتهن إلى معرفة كل ما يؤثر فى حياتهن والاستفادة من هذه المعرفة فى صراعهن من أجل التحرير. فضلاً عن أن الإشارات - غير اللفظية - تُمد المرأة بمرونة فى التعبير عن نفسها أكثر مما تمدها به الإشارات اللفظية، نتيجة لإحساسها بقيود عليها فى تراكيب اللغة - التى هى من وضع الرجال غالباً - فيصرفها ذلك إلى التعبير غير اللغوى تعويضاً عن نقص الجانب اللفظى فى التعبير.

كذلك فإن تفوق المرأة فى إرسال الإشارات غير اللفظية واستقبالها ظهر نتيجة حاجتها إلى فك شفرة الإشارات غير اللفظية التى يصدرها الطفل للتعبير عن العاطفة أو القصد أو الحاجة. وقد ساعدتها المهارات التى تكونت نتيجة رعايتها للطفل، على الحساسية فى التعامل مع الآخرين.

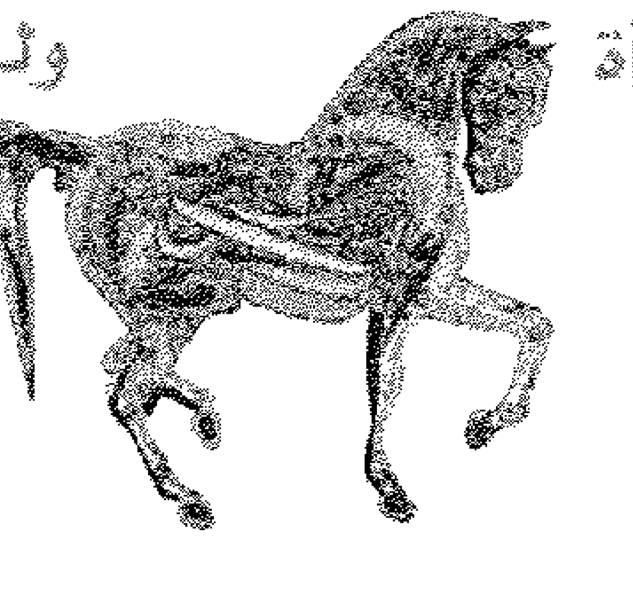
وخلاصة هذه الأبحاث - كما يوردها مؤلف الكتاب - أن الإناث أفضل من الذكور فى حل الشفرة غير اللفظية، وفى التعرف على الوجوه، وفى التعبير عن الانفعالات من خلال التعبير غير اللفظى. وأنهن يملكن كذلك وجوهاً أكثر تعبيراً ويبتسمن أكثر ويستخدمن حركة الجسم وأوضاعه التى تدل على التعلق أو الصراحة بصورة أقل من الرجل، وتلك التى تدل على الانهماك أو التوضيح أو الإحساس بالذات بصورة أكثر من الرجل. وأخيراً فهن يقعن فى أخطاء نطقية أقل، ويستخدمن كلمات حشوية لملء الفراغ بصورة أقل.

من أطرف فصول الكتاب ما يتعرض لاختلاف الجنس والتفوق اللغوى، مشيراً إلى أن كثيراً من الدارسين يميلون إلى إثبات تفوق البنت على الولد لغوياً، فالبنات الصغار - بوجه عام - يتكلمن قبل الأولاد وأسرع منهن، وأنهن يتفوقن عليهم فى الصحة اللغوية، وأن نطقهن لا يتأثر بالعادات السيئة أو اللامبالاة التى تميز عادة نطق الأولاد.

كما أيدت الدراسات وجود اختلاف فى صالح البنات بالنسبة لوجود جوانب اللغة تقريباً: (النطق - طول الجملة - المفردات - الطلاقة اللفظية - تركيب الجمل - التزام القواعد النحوية - الهجاء). وذكرت بعضها أن مرحلة النضج اللغوى تتأخر عند الولد بنحو ستة أشهر



تقضى قواعد اللغة العربية بأنه إذا اجتمع المذكر والمؤنث وأريد الإخبار عنهما غُلِّب المذكر، فمثلاً تقول: الرجل والمرأة قاما، قالوا: لأن المذكر هو الأصل والمؤنث مزيد عليه



عن البنت العادية، كما يبدو الولد أبطأ فى ممارسة القراءة.

ولا تقف الجدارة اللغوية للبنت عند قدرتها الكلامية، بل تتجاوز ذلك لتشمل تعلمها متى تتكلم، ومتى تصمت، وكيف تتكلم عن الشىء فى ظروف مختلفة، وكيف تتجاوب مع الآخرين. بعد أن ثبت أن معرفة النمو والصوتيات ومعجم المفردات ليست كافية لتحقيق الجدارة، بل لابد كذلك من السيطرة على القواعد الخاصة بالاستعمال الصحيح للغة، وعلى المعايير الثقافية للتواصل الكلامى.

غير أن التزام المؤلف: العالم اللغوى الراحل الدكتور أحمد مختار، بالمنهج العلمى - فى أمانة ودقة - يدفعه إلى إيراد ما يراه بعض العلماء من أن الشواهد على وجود اختلافات مطردة للجنس بالنسبة للنمو اللغوى تعد شواهد ضعيفة، وتحمل تناقضاً بين بعضها والبعض الآخر. الأمر الذى يجعل من الصعب قبول القول بتفوق أحد الجنسين على الآخر لغوياً.

ومن أن منحنيات الأداء اللغوى لكلا الجنسين تبدو متشابهة جداً، وكل جنس يملك أفراداً فى داخله يمثلون كل درجات المدى للقدرات الإنسانية.

كما أن بعض العلماء يردون ما قد نجده من اختلافات لغوية عند الأطفال لا إلى الجنس، وإنما إلى جملة تفاعلات بين الطفل ومواهبه المعينة من ناحية، ووالديه من ناحية أخرى، بما يشمل طرق الكلام الخاصة إليه وصور الحساسية نحوه.

من أطرف التجارب التى أُجريت لتحديد الصفات التى تلحق بكلام كل جنس، التجربة التى عُرضت فيها نماذج كلامية لأطفال من كلا الجنسين، وطلب من كلِّ مُحكَم بعد أن يسمع الصوت أن يضع علامة على طاقم متدرج من الصفات، فقد ترددت الصفات الآتية فى أحكام خمسة عشر مُحكماً بالنسبة لوصف أصوات ستة أطفال، فبالنسبة للذكور: خائف، مُمل، مرح، مشوش، قانع، هش، عميق، متصف بالأنفية، سريع، برئ، معوق، متردد، عالٍ، ذكر، متوسط الدرجة، رتيب، حزين، واعٍ بقيمته، خجول، غليظ، مشدود، متعب، غير عاطفى، غير واضح، غير ممتع، غير متأكد، منتحب. وبالنسبة لأصوات الإناث: ملائكى، رسمى، رائع، جرسى، لامع، بيِّن، بارد، جسور، تمثيلى، موضح، مؤنث، بنت، حسن، سعيد، ذكى، صغير، محبوب، تنغيمى، عادى، مسعد، متوازن، صافٍ، واثق، جنسى، ناعم، ثابت، واضح، موشوش.

فى ختام كتاب «اللغة واختلاف الجنسين» يورد المؤلف ملحقاً بعنوان: «النساء والرجال واللغة» وهو عنوان لبحث لغوى اجتماعى للفروق الجنسية فى اللغة للباحثة جنيفر كوتس نشرته عام ١٩٨٦ دار لونجمان (لندن / نيويورك) ونشر فى المجلة العربية للعلوم الإنسانية (العدد الحادى والثلاثون - المجلد الخامس- صيف ١٩٨٨) جامعة الكويت. ولأهميته، فقد جعله الدكتور أحمد مختار ملحقاً لكتابه. من أهم نتائج الدراسة التى أوردتها الباحثة أن دور المرأة اللغوى دور ابتداعى تغييرى وبخاصة أثناء ممارستها دورها كأم، وأن التغيير اللغوى مرتبط بالاختلافات اللغوية بين الجنسين أكثر من ارتباطه بجنس معين. وما قاله علماء اللهجات عن أهمية الدور الذى تؤديه المرأة فى التغيير اللغوى أن ما تختاره المرأة ينتقل إلى الأجيال القادمة عن طريق الأبناء. كذلك فهى تؤكد أن جزءاً من اختلافات الجنس اللغوية - وإن كان يعود مباشرة إلى أسلوب القهر الذى تتعرض له الأنثى منذ الصغر - فإن معظمها يعود إلى اختلاف الثقافة الفرعية لكل جنس.

كما أشارت إلى أنه - حتى عهد قريب - كانت دراسات اختلاف الجنس منوطة بالرجال، وهذا يعنى أن الراوى اللغوى الذكر كان يتحدث مع باحث ميدانى ذكر مثله، فى حين أن الراوية اللغوية الأنثى كانت تتحدث مع باحث ميدانى ذكر.

فهل ما سجله الباحثون الميدانيون عن «تأدب» المرأة مرتبط بجنسها حقاً، أو هو نتيجة اختلاف جنس الباحث والراوى اللغوى؟

إن كتاب «اللغة واختلاف الجنسين» لفقيد الدراسات اللغوية والمجامع اللغوية الدكتور أحمد مختار عمر، يجعلنا نُطل على جانب واحد من الجوانب العديدة والمهمة فى التراث العلمى لفقيدنا الراحل، وعلى ارتياده لمجالات فى البحث اللغوى، لم تكن متاحة لنا من قبله، ما أجدرها بأن نعود إليها بالقراءة والتأمل والاهتمام، واكتشاف حجم الدور الذى قام به عالماً وباحثاً، ورائداً فى ميدانه. ■

لغة متمردة!

ديمتريوس ثاناسولاس

■ تبقى العلاقة الوثيقة بين اللغة وجنس المتكلم من القضايا الرئيسية والمعقدة فى علم اللغة الاجتماعى. وبتحديد أكبر، «لماذا يختلف كلام المرأة عن كلام الرجل؟». سوف نناقش بعض العناصر التى تحفز المرأة على استخدام لغة مختلفة تبدو أكثر تهذيباً فى التعبير. سنركز على اختلافات اللغة حسب الجنس فى المجتمعات الغربية، حيث إن الوضع فى الدول غير الغربية يختلف اختلافاً بيناً حيث يتحدث الرجال والنساء لغات مختلفة تماما داخل نفس الجماعة (ربما يشير إلى اللغة اليابانية وقد درس الاختلافات فيها بعض الباحثين - المترجمة).

من أجل محاولة الإجابة عن سؤالنا، يجب أن نعامل اللغة باعتبارها ممارسة اجتماعية مثقلة بالقيم تعكس شبكة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية والعمرية داخل المجتمع. مثلا فى مجتمع حيث يكون الرجال فى مرتبة أعلى اجتماعيا من النساء، تكون الاختلافات اللغوية بين الرجال والنساء مثالاً واحداً على اختلافات أخرى أعمق لها علاقة بهيكلة المجتمع نفسه. لا يمكن إنكار أن السلوك اللغوى لا يمكن فصله عن المجتمع وقيمه. أى اختلاف فى اللغة بين الجنسين يكشف أن النساء فى ذلك المجتمع لسن على قدم المساواة مع الرجل. فى هذه المقالة سنحاول أن نلقى بعض الضوء على هذه القضية التى طالما أثارت الجدل.

بعض اللغويين يرون أن النساء يعلمن بتدنى وضعهن فى المجتمع ونتيجة لذلك يستخدمن أشكالا قياسية من الكلام فى محاولة لادعاء النوعية أو بلوغ وضع اجتماعى أرقى.. بمعنى أنهن يتصدين لمجتمع الرجل. «سيبدو إذن أن النساء لم يقبلن عموما بوضعهن فى مراتب أقل وأنهن إدراكا بذلك يتمردن - لغويا - بطريقة مقبولة اجتماعيا ولا تعرضهن للعقاب». وأكثر من ذلك وكما يقترح ترودجيل:

«النساء اكثر انغماسا بتربية الأطفال وبتغير الثقافة ولهذا هن أكثر إدراكا - لصالح أطفالهن - بأهمية حيازة سلوك مهيب (برستيج). اعتادت مجتمعاتنا أن تقيِّم الرجال بمهنهم وبقوتهم فى كسب المال وربما بقدراتهم - بتعبير آخر - بما يفعلونه. وربما لهذا، تقيِّم النساء وإلى حد أكبر من الرجال، حسب الصورة التى يظهرن بها.

قد توحى هذه الطريقة من التفكير أن المرأة فى وظيفة مدفوعة الأجر يجب أن يكون لديها الميل لاستخدام أشكال لغة قياسية أقل من المرأة التى لا تعمل طالما أن السابقة قد حققت، إلى حد أكبر أو أقل، نوعا من الوضع الاجتماعى. ولكن على أية حال، هذا ليس هو الوضع، فى الواقع إنه العكس تماما. كشفت دراسة أمريكية أن النساء فى الوظائف مدفوعة الأجر يستخدمن أشكالا من اللغة القياسية أكثر من اللواتى يعملن فى منازلهن. ولهذا سبب معقول. حيث إن المجموعة الأولى يقضين معظم وقتهن يتحدثن إلى أناس غرباء عنهن فى حين أن المجموعة الثانية يتعاملن مع أفراد من نفس العائلة. من الواضح أن هذا الدليل يلقى بعض الشك على مفهوم أن المرأة تتصرف برسمية أكثر وتستخدم لغة سليمة للوصول إلى وضع اجتماعى أعلى أو للظهور بمظهر الذكية أو المهذبة.

تفسير معقول آخر لحقيقة أن النساء يستعملن لغة سليمة أكثر من الرجل يتعلق بالطرق التى يعاملهن بها المجتمع. مثلا، الناس عادة أكثر صبرا وتسامحا مع سلوك الصبيان فى حين أن سوء تصرف الفتاة يعرضها إلى العبوس فى

ترجمة: بثينة الناصرى

بعض اللغويين يرون أن النساء يعلمن بتدنى وضعهن فى المجتمع ونتيجة لذلك يستخدمن أشكالا قياسية من الكلام فى محاولة لادعاء النوعية أو بلوغ وضع اجتماعى أرقى

وجهها أو العقاب فورا. وطبقا لجانيت هولمز (١٩٩٢ /١٧٣) فإن الدور المرسوم للنساء هو «تقديم نموذج التصرف الصحيح فى المجتمع» وفى ضوء هذا يتوقع من النساء التحدث بلغة سليمة. وعلى أية حال هذا ليس صحيحا دائما. نحن ندرك تماما أن تبادل الحديث بين الأم وطفلها أو بين الزوج وزوجته عادة يكون غير رسمى وحافلا بالتعبيرات السوقية أو أشكال دارجة من اللغة.

وأكثر من هذا، لا يقبل من المرأة استخدام التعبيرات القوية الدالة على الاستهجان أو الدهشة أو الاستنكار مثل (اللعنة damn) أو (هراء shit) فى الواقع أن كلمة shit والتى تستخدم كثيرا بين ثنايا الحديث من قبل الرجال والنساء أيضا ولكن بشكل أقل، أقوى من هراء كما يعلم كل من له معرفة بسيطة باللغة الإنجليزية أو يتابع الأفلام الأجنبية ولكنى لم أستطع ترجمتها حرفيا - المترجمة)، يمكنها أن تقول بدلا من ذلك «أوه يا ربى» أو «هراء fudge » (تصوروا بالمقارنة بالكلمة الرجالية السابقة كلمة فودج تعنى نوعا من الحلوى - المترجمة). وتعتقد روبين لاكوف أن تركيبة لغوية تستخدمها النساء أكثر من الرجال هى السؤال الذيلى tag question كما فى «لن تفعل ذلك، أليس كذلك؟» ويعلق فاسولد (١٩٩٠ :١٠٤) «لجوء النساء إلى استخدام هذا النوع من تراكيب الجمل يعنى أنها تقدم نفسها على أنها غير متأكدة من أفكارها، وبالتالى كأنها لا تملك أفكارا ذات قيمة».

تفسير ثالث هو أنه باستخدام أشكال مهذبة من الكلام، تحاول المرأة أن تحفظ ماء وجهها، وهو تعبير يستخدم غالبا فى علم اللغة الاجتماعى للتعبير عن حاجات ورغبات الشخص فى علاقته مع الآخرين - لتفاصيل أكثر اقرأ براون وليفنسون ١٩٧٨ . بكلمات أخرى تحاول المرأة الوصول إلى مرتبة اجتماعية أكبر، واستخدامها لغة سليمة مهذبة لا يلبى فقط حاجاتها لحفظ ماء الوجه ولكن أيضا للناس الذين تتعامل معهم وبهذا تتفادى الاختلافات وتسعى إلى الحصول على الموافقات والاتفاقات.

فى مقالتها المعنونة «اللغة ومكانة المرأة» (a: 46, cited in Fasold, 1990: 1973 107) لاحظت لاكوف ببصيرة ثاقبة: «سنجد كما أعتقد أن المرأة تمر بتجربة الاضطهاد اللغوى بطريقتين: فى الطريقة التى تعلمت أن تستخدم اللغة وفى الطريقة التى تواجه بها استخدام اللغة ضدها». ومن الواضح أنها تشير إلى الكلمات التى تشير إلى الجنسين باستخدام معنى ذكورى. دعونا نقرأ بعض الأمثلة:

الاسم man بالإشارة إلى الإنسان

الفعل manned فى إشارة إلى ركاب أو جمهرة

الاسم mankind النوع البشرى

وإلى جانب مشكلة التعبيرات الموحية بالذكورة كما فى الأمثلة السابقة، هناك الكلمات المختلفة حسب الجنس والتى تحمل معنى واحدا ولكنها توحى بصورة سلبية عن المرأة فى حين أنها تحمل صورة إيجابية عن الرجل.. والمثال الذى تتكرر الإشارة إليه هو كلمتا (أعزب - عزباء) ففى حين ينظر للأعزب على أنه رجل حر سعيد «ينطلق على هواه» توحى كلمة عزباء بصورة امرأة قبيحة فاتها قطار الزواج وتملؤها المرارة لجلوسها على الرف! إضافة إلى أن استخدام اللغة يبدو وكأنه يوحى بقدر من الانحلال الجنسى لدى النساء. مثلا كلمة (مدام) التى تخاطب بها المرأة تعبيرا عن الاحترام، هى نفسها الصفة التى تطلق على مديرة بيت الدعارة. فى حين إذا كان مدير مثل هذا البيت رجلا فلا يمكن تصور إطلاق كلمة (سير) التى تقابل كلمة مدام فى التخاطب المهذب عليه.

ختاما، يمكن القول إن فحص استخدام اللغة قد يقودنا إلى «اكتشافات» مهمة تتعلق بتركيبة المجتمع أو جماعة محددة وقيمها - والتوقعات الملازمة - التى تحدد الطرق التى ينظر فيها للأفراد ويعاملون بها. من المثير للاهتمام أن اللغة دائما توحى أكثر مما تعنيه حرفيا. كل ما فعلناه هو الإشارة إلى بعض العناصر المسئولة عن الاختلافات فى سلوك المرأة اللغوى. ولم نقل كلمة عن سلوك الرجال اللغوى، رغم أننا يجب أن نقر بأننا انجرفنا مع الميل السائد للنظر إلى سلوك الرجل بشكل عام وسلوكه اللغوى بشكل خاص كمعيار على أساسه يتم تقييم تصرفات المرأة. إن المقالة الراهنة بعيدة كل البعد عن أن تكون شاملة. فى الواقع لقد قشطنا سطح الموضوع. ولكن رغم قصورها ورغم نواقصها نأمل ألا تكون المقالة قد فشلت فى تحقيق هدفها الرئيسى وهو دفع الناس للتفكير كما يقول برتولد بريخت. ■

BIBLIOGRAPHY

* Fasold, R. W. (1990) The Sociolinguistics of Language. Oxford: Blackwell.
* Holmes, J. (1992) An Introduction to Sociolinguistics. London: Longman

للسومريات.. فقط



فى كتاب «المرأة المبدعة فى حضارات العراق القديم» الصادر عن دار عشتار القاهرة - ١٩٩٩، تقول الكاتبة العراقية لطفية الدليمى:

«وجدت قبل نحو خمسة آلاف سنة فى بلاد سومر جنوب العراق لغة خاصة للنساء تحدثت بها النساء فى المجالس وصيغت بها أحاديث وحوارات النساء وأقوالهن فى النصوص الأدبية والملاحم، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت لغة النساء فى سومر (لغة الأدب) التى يتداولها الشعراء والأدباء فى المدن السومرية ثم ما لبثت هذه اللغة الخاصة بالنساء أن امتزجت باللغة العامة مكونة اللغة السومرية التى كتبت بها المدونات الدينية والأدبية فى العصر البابلى القديم. يذكر أستاذ اللغة السومرية د. فوزى رشيد فى كتابه قواعد اللغة السومرية حول لغة النساء ما يلى:

(من الأساليب التى اكتسبت مكانة خاصة ضمن الأساليب السومرية الأدبية أسلوب لغة (emesal) الذى يعنى لغة النساء ويلفظ باللغة الأكدية على هذا النحو Lisani saliti أى اللسان السليط أو لغة الشجار والعراك).

وهذا يعنى أن نساء سومر امتلكن خطاب أدب خاصًا بهن قبل خمسة آلاف سنة من ظهور دعوات الناقدات النسويات لإيجاد خطاب أنوثة فى الأدب. لقد امتلكت السومريات خطابا خاصا أفرد لأدبهن مكانة وحيزا كان يحول دون ذوبان وجودها فى الخطاب العام الذى يهيمن عليه الذكور من الكتاب.

ولابد أن لهذه اللغة التى كانت تستخدمها النساء سماتها الخاصة التى تنفرد بها عن الأساليب واللهجات السومرية الأخرى التى يذكر منها د. فوزى رشيد: اللغة الكبيرة واللغة العالية واللغة المنتخبة واللغة الشاذة.

ظهرت لغة النساء (emesal) فى عصر احتدام حضارى جليل هو العصر البابلى القديم المبكر، وبدأت تخترق لغة النصوص المدونة من سومرية وأكدية واستخدمت اللغة كما يذكر د. رشيد فى تدوين أحاديث النساء فى النصوص الأدبية أما فى المدونات الأخرى فإن أحاديث النساء تكتب باللغة العادية.

ويبدو أن قدرة هذه اللغة الخاصة بالنساء على التعبير بشكل حر وساخن وحيوى دفعت بالأدباء السومريين إلى استخدامها لكتابة النصوص الأدبية لأنها تعبر عن سعة الاطلاع ودقة الوصف وصدق المعانى ومثلما يحدث فى كل الأزمنة ومع معظم اللغات حيث تسود لغة الأقوى والأوسع تداولا بين الكتاب والمدونين، فقد فرضت لغة النساء (emesal) حضورها وصارت أسلوبا للتعبير الإبداعى وبمرور الوقت وانتشار فن الكتابة تمازجت اللغة الاعتيادية مع أسلوب (emesal) التى تلفظ كثيرا من المفردات السومرية على نحو مختلف عن لفظها باللغة الاعتيادية.

كما نعرف، اللغة هى تعبير عن نمط التفكير، وعلى هذا فإن فكر المرأة السومرية كان مستقلا ومفردا ولها نزوعات محددة اتسمت بها ووسمت الأوضاع النسوية بخاصة فى مجال الأدب ولكن هذه اللغة تراجعت واندمجت بالخطاب العام، الخطاب الباحث عن اكتماله فى وجهيه المذكر والمؤنث داخل وعاء اللغة العامة».

المترجمة

قوانين القصر.. ونساؤه

محمد عبد الرحمن يونس

■■ ما دفعني إلى كتابة هذا الكتاب، وبالدرجة الأولى - إعجابي بكتاب ألف ليلة وليلة، وقدرته على استجلاء مظاهر المدن، سواء أكانت متخيلة أم واقعية، على المستويين: الاجتماعي والسياسي، وإعجابي بعنصر السرد الأخاذ الذي اعتمده رواة ألف ليلة وليلة، وقدرته العجيبة على إضفاء وشاح من السحر والخرافة على واقع المدن الإسلامية وغير الإسلامية، ومن ثم لإدانة المدن نفسها، بسلطاتها، وعاداتها وقيمها، وطبقاتها الاجتماعية، والسياسية، وعلاقاتها الجنسية المنتهكة أحيانا، والمشروعة أحيانا أخرى، مع فسادها في الوقت نفسه.

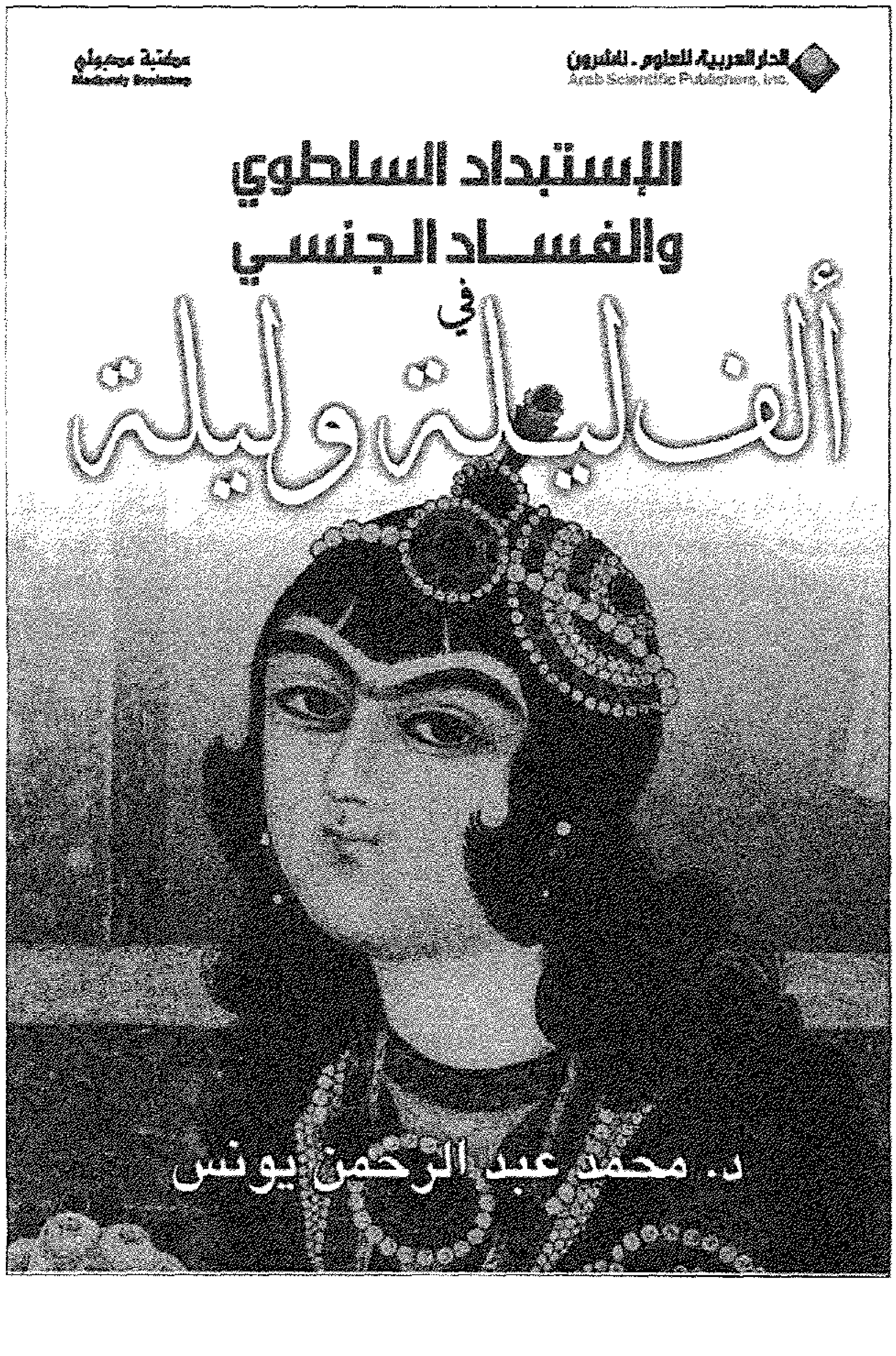
ويرجع سبب اقتران الاستبداد السلطوي بالفساد الجنسي في كتابي هذا إلى أن وجود الجماعات السياسية التي تحكم مدن ألف ليلة وليلة وتدير شؤونها، تقوم على رأسها سلطات فاسدة باطشة متجبرة تحركها شهواتها الجنسية وتتحكم في قراراتها، وتبطل إعمال العقل، إذا حضر الجسد الشهواني المكتنز إثارة وجمالا جنسيين، وعلى الرغم من كل ذلك، نجد أن سكان مدن ألف ليلة يعتقدون أن ملوكهم أو خلفاءهم هم ظل الله على الأرض، والأوصياء على شريعته. ونظرا لأن سلطات هذه المدن سلطات استبدادية فإنه يلاحظ أن قوانين هذه المدن وأعرافها وتقاليدها تتشكل بالدرجة الأولى تأسيسا على قوانين سلطة القصر ورغباتها، قبل أن تستمد من رغبات الشعب وآماله وتطلعاته.

وإذا كان حكام ألف ليلة وليلة خلفاء أو ملوكا يستشيرون وزراءهم أو قادة جيوشهم العسكرية، أو خاصة المقربين منهم في بعض الأحيان، فإن هؤلاء الحكام يظلون في نهاية المطاف أنانيين وفرديين وطغاة يتعاركون لأجل النساء، ويبددون أموال دولهم للحصول على هاته النساء اغتصابا أو امتلاكا.. ومن هنا بدا لي أن دراسة ملامح حكام ألف ليلة وليلة يجب أن تكون متزامنة مع دراسة ملامح الجانب الجنسي الشبقي لدى هؤلاء الحكام.

كنت أشعر حين قراءتي لنصوص ألف ليلة وليلة بمتعة عارمة تستوطن ذاكرتي، فقد كانت قادرة على إيقاظ جميع أحلامي الجامحة الملغاة، المتوثبة أبداً صوب مدن نائية مسكونة بالدهشة والغرابة. وهذه المتعة التي كنت أعايشها كانت أكبر من جميع المتع التي كنت أجدها في الخطابات الأدبية الأخرى، من شعر قديم وحديث وقصة ورواية ومسرح وتراث أدبي وتاريخي. مسكوناً بالدهشة والأحلام الجامحة التي لم تتحقق طوال حياتي، رحت أقرأ هذه النصوص بشغف العاشق المنبهر بجمالها، وسحرها وصدقها وكذبها في آن. ولعل هذه الدهشة هي السبب الرئيس الذي دفعني لكتابة كتابي هذا ونتيجة لإعجابي بهذا العمل: عكفت منذ سنوات على قراءته قراءة المستمتع، ثم حاولت دراسته وفهم نصوصه، وبعد ذلك أنجزت فيه عدة أبحاث طويلة نشرت في المجلات العربية(١).

وقد لاحظت، من خلال كثير من الدراسات حول ألف ليلة وليلة، والتي استطعت الاطلاع عليها، سواء أكانت مترجمة إلى اللغة العربية أم مكتوبة بها، أن هذه الدراسات لم تدرس موضوع الفساد السلطوي دراسة مستقلة ومستفيضة، ولا موضوع الفساد الجنسي، ولذا كان كتابي محتفيا بهذا الموضوع..

ومن هنا، فإن الآراء التي تطالب بالتوقف عن البحث في حكايات ألف ليلة وليلة، بدعوى أن هذه الحكايات قد استوفت حقها من الدراسة والتحليل(٢)، ليست صائبة تماماً، لأن نصوص الليالي قابلة لمزيد من الدرس والتحليل، ومن زوايا نظر متعددة، بتعدد الباحثين وقدراتهم ومواهبهم، وطرائقهم المختلفة في التحليل والدراسة. فالأبحاث في ألف ليلة وليلة لا يمكن أن تكون نهائية: لأن هذه النصوص تنفتح على تاريخ الأمم والحضارات، وميثولوجياتها، وعاداتها وقيمها وثقافتها، وحروبها وانتصاراتها وهزائمها، وعلى ما هو جميل وقبيح، وخير وشرير فيها. وبالتالي فإن البحث في هذه النصوص يظل قائماً ومشروعاً، لأن نصوص ألف ليلة وليلة تظل نصوصاً خالدة على مر العصور، وقادرة على أن



الاستبداد السلطوى والفساد الجنسى فى ألف ليلة وليلة
محمد عبدالرحمن يونس
بيروت - الدار العربية للعلوم - ناشرون - ٢٠٠٧

يرجع سبب اقتران الاستبداد السلطوي بالفساد الجنسي إلى أنّ وجود الجماعات السياسية التي تحكم مدن ألف ليلة وليلة وتدير شؤونها، تقوم على رأسها سلطات فاسدة باطشة متجبرة تحركها شهواتها الجنسية وتتحكم في قراراتها، وتبطل إعمال العقل

تكون منبعاً ثراً لكثير من النصوص الإبداعية الحديثة، سواء في الشعر، أو في القصة، أو في الرواية، أو في المسرح، أو في السينما.

ومن هنا بدا لي أنّ المنهج الذي يمكن أن يساعدني على فهم نصوص حكايات ألف ليلة وليلة وتحليلها، وعلى دراسة نقاط التلاقي بين ما جاء في هذه الحكايات وبين ما هو قائم في المجتمعات العربية والإسلامية، هو منهج الدراسات الاجتماعية، ولذا فقد اعتمدت بعض معطياته في دراسة نصوص الليالي وقارنت بين ما جاء في هذه النصوص وبين ما هو قائم أساساً على أرض الواقع، ففي نصوص ألف ليلة وليلة لا يمكن الفصل بين النصوص الحكائية وبين الواقع الاجتماعي الذي فرز هذه النصوص، لأنّ هذه النصوص هي مرآة للحضارة العربية والإسلامية بوجهيها السلبي والإيجابي.

وقد أفدت أيضاً من معطيات المنهج التاريخي في إلقاء الضوء على ما ورد في الليالي، وقد ساعدني هذا المنهج على فهم حركات الأبطال والجماعات الإنسانية في مجتمعات ألف ليلة وليلة ومواقفهم، لأنّ النصوص التاريخية التي استطعت الاطلاع عليها شكّلت خلفية مرجعية مهمّة ساعدتني على فهم نصوص الليالي، وكانت وسيلة من وسائل كشف ما خفي في هذه النصوص، وبالتالي كان لها الدور الكبير في تعليل الأحكام واستنتاجها. وعلى الرغم من أنّ قسماً من حكايات الليالي يوغل بعيداً في عمق الزمن التخيلي، فإنّ قسماً من هذه الحكايات يستمد مقومات أحداثه من أحداث التاريخ، بل نجد أحياناً أنّ غير حكاية من حكايات الليالي ترد بالأحداث نفسها في المصادر التاريخية، فعلى سبيل المثال نجد أنّ حكاية: «الحجاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان» ترد بالأحداث نفسها وأسماء شخوصها عند الأبشيهي في كتابه: «المستطرف في كل فن مستظرف»، وترد عند الأصفهاني في كتابه: «الأغاني»، وعند ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه: «العقد الفريد». ونجد أنّ إحدى الحكايات المتشعبة من حكاية «الأحدب وملك الصين»، وهي حكاية «التاجر البغدادي مع إحدى جواري السيدة زبيدة»، تتناص بشكل واضح مع إحدى حكايات التنوخي في كتابه: «الفرج بعد الشدة»، والتي يسميها التنوخي بـ: «أقسم أن يغسل يديه أربعين مرة إذا أكل زيرباجة». ونجد أنّ حكاية: «المأمون ورغبته في هدم أهرامات مصر» ترد بالأحداث نفسها، وباختلاف جد طفيف في أسماء شخوصها، عند المسعودي في كتابه: «أخبار الزمان»، بالإضافة إلى عدد غير قليل من الحكايات الأخرى التي ترد في مصادر تاريخية متعددة.

أمّا مصادري ومراجعي في هذا الكتاب فهي كثيرة، بحيث يبدو الحديث عنها طويلاً، ولذا فقد اكتفيت بالإشارة إليها بكلّ أمانة في هوامش الكتاب، بالإضافة إلى فهرس المصادر والمراجع والدوريّات في آخر الكتاب.

ويبقى أهمّ مصدر رئيس اعتمده هذا البحث في دراسة الموضوعات الرئيسة والفرعية، هو: ألف ليلة وليلة (بأجزائه الأربعة، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت). غير أنّ هذه الطبعة ليست الوحيدة التي اطّلعت عليها، فقد اطّلعت على الطبعات الآتية من ألف ليلة وليلة: (طبعة المكتبة الشعبيّة، بيروت، د.ت، بأجزائها الأربعة)، و(طبعة دار مكتبة التربية، بيروت، بأجزائها الأربعة الطبعة السادسة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، والطبعة المهذّبة التي أعدّها رشدي صالح (دار الشروق، القاهرة، جزءان)، وهي طبعة ناقصة، وبالتالي كان طبيعياً أن لا يعتمدها هذا الكتاب.

أمّا سبب اعتمادي طبعة دار مكتبة الحياة فيعود إلى أنه بعد مقارنتي بين الطبعات الثلاث الأولى (مكتبة الحياة - المكتبة الشعبيّة - مكتبة التربية)، وجدت أنّ الفروق بين هذه الطبعات طفيفة جداً، وأنّ هذه الطبعات تكاد تكون متطابقة تماماً في الحكايات، والأحداث، والمدن الواقعية والمتخيّلة، وابطل من الملوك والخلفاء والنساء والتجّار. من هنا بدا طبيعياً أن أكتفي بنسخة واحدة أعتمدها من أول الكتاب إلى آخره، وهي طبعة دار مكتبة الحياة. ولعلّ السبب الرئيس في اختيار هذه الطبعة هو ببساطة: أنّ الخط الطباعي الذي طُبعت به هذه الطبعة أوضح من خلال كثافته اللونيّة، مقارنة بخط الطبعتين السابقتين. وهذا الخط، كما أرى، مريح للعينين، ويجعل من القراءة فعلاً ممتعاً وجذاباً، أكثر مما لو كان الخط الطباعي غير واضح.

بدأت كتابي بمدخل تحدّثت فيه عن فعل السلطة عبر التاريخ، ودورها في استعباد الناس وإذلالهم، وتشويه العلاقات الاجتماعية والإنسانية في ما بينهم، حتى تتمكن من قيادتهم، وأثبت بعض تعريفات السلطة من خلال المراجع، وذكرت بعض الشروط التي يجب أن تتوافر في الحاكم أو الخليفة، حتى يعيش رعاياه في أمان من بطشه، تأسيساً على آراء الفلاسفة والفقهاء الإسلاميين، ثم حاولت أنّ أدرس بعض ملامح سلطة الحكّام المهمّين في ألف ليلة وليلة، كما أبرزتها.

نصوص ألف ليلة وليلة تظلّ نصوصاً خالدة على مرّ العصور، وقادرة على أن تكون منبعاً ثراً لكثير من النصوص الإبداعية الحديثة، سواء في الشعر، أو في القصة، أو في الرواية، أو في المسرح، أو في السينما

ونظراً لأنّ حكّام مدن الليالي كثيرون جداً، فقد اكتفيت بإبراز أهم الملامح السلطوية لبعض الخلفاء، والحكّام، وركّزت على الحكّام المعروفين تاريخياً. ومن هؤلاء الحكّام: الخليفة العباسي هارون الرشيد، وابنه الخليفة عبد الله المأمون، والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، والحجّاج بن يوسف الثقفي والي الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق. وعرّجت على بعض الملامح الاستبدادية للملك غير معروف تاريخياً وهو الملك عمر النعمان.

ويأتي تركيزي على هؤلاء الحكّام، لأنّهم أهم الحكّام الذين يأخذون مساحات واسعة من السرد الحكائي، إذ تحتفي حكايات ألف ليلة وليلة بهم احتفاءً واضحاً يفوق احتفاءها بغيرهم من الحكّام، ولأنّ الحديث عنهم في الليالي كان متعدداً ومتشعّباً فقد ساعدني هذا التعدد على أن أدرس ملامحهم المتعددة والواضحة في الحكايات التي ذكرتهم، فالخليفة هارون الرشيد يكاد يكون محوراً رئيساً تدور حوله كثير من حكايات ألف ليلة وليلة، وهو حاكم متعدد المواهب والملامح، ويجمع كثيراً من التناقضات في آن، ويبدو حضوره قوياً طاغياً على كل من حوله. بينما تبدو شخصية ابنه الخليفة عبد الله المأمون شخصية رئيسة نامية، متعددة الملامح والوجوه، فهي شخصية حكيمة وعاقلة وخبيرة بفنّ السياسة، ومتسامحة وقادرة على أن تعفو عن المعارضين السياسيين لحكمها، وفي مواضع أخرى تبدو شخصية عابثة لاهية عاشقة للفنّ والموسيقى، ومرة أخرى تبدو قوية وحازمة تفرض هيبتها على جميع من حولها، وبالتالي فإنّ هذه الشخصية تجمع ملامح مشتركة لعدة حكّام من حكّام الليالي.

أمّا الخليفة عمر بن عبد العزيز فإنّه يُمثّل نموذج الحاكم الأكثر عدلاً من بين حكّام الليالي، فصورته العادلة تُمثل في النهاية آمال الطبقات الفقيرة المسحوقة، وتطلّعاتها صوب الحق والخير والعدل. أمّا شخصيتا الملك عمر النعمان والحجّاج بن يوسف الثقفي، فإنّهما تمثّلان أهم الرموز



الاستبدادية السلطوية في حكايات ألف ليلة وليلة، الرموز التي تطمح الطبقات الشعبية إلى الانتقام منها، وإسقاط نظام حكمها، والسخرية بها. ومن هنا فإن دراسة ملامح هاتين الشخصيتين يمكن أن تشكل محاور بديلة من دراسة ملامح كثير من حكام الليالي، الذين يلتقون معهما في ملامح الظلم والاستبداد والجبروت والاعتداء على حريات مواطنيهم.

إن دراسة ملامح هؤلاء الحكام يمكن أن تقدم صورة واضحة عن جميع خلفاء مدن ألف ليلة وليلة وحكامها، سواء كانوا واقعيين أم من نسيج الخيال، وبالتالي كان التركيز عليهم من دون غيرهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد اكتفيت بدراسة ملامحهم منعاً للتكرار والإطالة، لأن دراسة ملامح الحكام الآخرين لن تضيف جديداً إلى هذا الكتاب.

وحاولت إبراز الوجه الاستبدادي لبعض نساء السلطة في ألف ليلة وليلة. ومن هؤلاء النساء: السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد، وجارية مستبدة من جواريها، وملكة أسطورية من ملكات ألف ليلة وليلة، وهي الملكة منار السنا، وأميرة أخرى غير معروفة تاريخياً، وهي الأميرة دنيا بنت الملك شهرمان. وهذه النساء يمكن أن تكون أهم الرموز الاستبدادية من بين نساء ألف ليلة وليلة جميعها، ولذا فقد اكتفيت بدراسة ملامحهن من دون غيرهن من النساء السلطويات الأخريات.

وعرجت على أهم ملامح بعض النساء السلطويات الفاسدات الزواني، وبعض ملامح الإيديولوجيا الرجولية المعادية لهن. ولم أدرس ملامح المرأة السلطوية العادلة الورعة، الأم والأخت، والزوجة الوفية المستقيمة في أخلاقها وسلوكها، لأن حكايات ألف ليلة وليلة تكاد تخلو من هذا النموذج. وحاولت أن أبين إلى أي مدى تمارس النساء الجميلات من سلطة قوية على رجال السلطة، ثم أنهيت الفصل بدراسة تحت عنوان: سلطة الحكاية وسلطة القتل في ألف ليلة وليلة، درست فيها مدى تأثير سلطة الحكاية العجائبية على رجال السلطة، ودورها في إنقاذ الشخوص الرواة من بطش رجال السلطة المروي لهم.

الخاتمة

تقوم ألف ليلة وليلة في بنية حكاياتها على مبدأ الثنائيات الضدية: الخير والشر، الفقر والغنى، العدل والظلم، الواقعي والتخيلي، الأمان والطمأنينة والخوف وفقدان الأمان، والأفراح الكبيرة والأحزان الكبيرة... الخ. وتتوزع هذه الثنائيات في معظم الفضاءات التي يرتحل السرد منها وإليها. وقد أسهمت هذه الثنائيات في جعل نصوص ألف ليلة وليلة تنفتح على مزيد من التناقضات والاحتمالات، وتستوعب أنماطاً عديدة من الشخوص المتلاقية المتحاورة تارة، والمتصارعة المتنافرة تارة أخرى، إذ تتحرك هذه الشخوص في فضاءات مكانية تحمل أيضاً مزيداً من التناقضات. فعلى سبيل المثال يلاحظ أن مدن ألف ليلة وليلة آمنة وغير آمنة في الوقت نفسه، والملك أو الخليفة أو الحاكم فيها عادل حكيم تارة، سفيه أحمق ظالم مغرور تارة أخرى، إلا أنه في غالب الأحيان ظالم باطش، نزق سريع الغضب. ويلاحظ أن قسماً من سكان المدينة متدينون ورعون يخافون الله، وأن القسم الآخر من سكان هذه المدينة شهوانيون وفاجرون ولصوص ومحتالون، لا هم لهم إلا ارتكاب كل ما هو محرم ومنكر. ويبدو أن هذا التناقض طبيعي جداً، طالما أن النفس الإنسانية لا تستقر على حال واحدة في مسيرتها وعلاقاتها وقيمها، فهي متحركة ضمن مجموعة من القيم والمفاهيم والسلوكيات المنسجمة والمتناقضة في آن.

إن هذه الثنائيات ستسهم في أن تكون الأحكام والنتائج التي يفرزها هذا الكتاب قابلة لمزيد من التغاير والتناقض، وبالتالي ليست نهائية. وقد تكون في موضع من المواضع تؤكد مقولة ما، لكنها في موضع آخر تنفي هذه المقولة، ليس رغبة في النفي أو التناقض، بل لأن نصوص ألف ليلة وليلة تفرز هذا التناقض، نظراً لمفاهيمها ومقولاتها المتناقضة المتغايرة من حكاية إلى أخرى، فما يصح قوله في تحليل إحدى الحكايات قد لا يصح في تحليل حكاية أخرى.

إن الباحثين في ألف ليلة وليلة لا يخرجون بنتائج نهائية، وقلما تأتي دراسة أحدهم مشابهة لدراسة آخر، بل تحمل معظم دراساتهم مزيداً من الاحتمالات. وهنا حاول هذا الكتاب، ومن خلال قراءة نصوص ألف ليلة وليلة كاملة ولأربع مرات، أن ينطلق من بنية نصوص الليالي نفسها، وأن يعتمد بعض المراجع والمصادر التاريخية التي تحدثت عن المدينة العربية الإسلامية، وأن يقيم تحليلاته ونتائجه من داخل هذا التناقض الذي تفرزه نصوص ألف ليلة وليلة بمدنها وسلطاتها، وعلاقاتها وقيمها، واستقامة سكانها وشذوذهم وانحرافهم في آن. وإن ظهر في هذا الكتاب بعض الآراء المتناقضة أو النتائج المتغايرة من حكاية إلى أخرى، فإن ذلك يعود، بالدرجة الأولى إلى بنية النصوص الحكائية وتشعبها، وتباين رؤاها الإيديولوجية التي يبثها مجموعة من الرواة المتباينين في مشاربهم الثقافية، وبنياتهم الذهنية، وقناعاتهم الإيديولوجية.

إن نصوص ألف ليلة وليلة بتناميها وتشابكها، وجرأتها وخروجها عما هو سائد ومألوف من نصوص خجولة متزمتة اعتادها القارئ المتزمت، تمثل نسقاً معرفياً حكائياً واقعياً، وأسطورياً غرائبياً قل نظيره في الأدب العربي القديم والحديث، وربما في الأدب العالمي. فهذه النصوص بتناقض شخوصها، وصراحتهم وجرأتهم وجنونهم وتمردهم، واستكانتهم واستسلامهم المطلق للغيب والسلطة أحياناً، وقدراتهم الخارقة للعادة والمألوف أحياناً أخرى، هي نصوص خصبة منفتحة على الأزمنة والأمكنة المتباعدة، والحضارات الأخرى بثقافاتها وآدابها وفنونها. ومن هنا فإن خصوبتها قادرة على أن تشكل خلفية معرفية مرجعية لكثير من الأعمال الإبداعية المعاصرة، من شعر وقصة ورواية ومسرح. فقارئ ألف ليلة وليلة يجد نفسه أمام حقل ثقافي متعدد المشارب، يتوغل إلى أبعد الحضارات، يتثاقف ويتأثر، ثم يتلاقى ويتحاور، لينسكب هادئاً عذباً على المدن والحضارات العربية والإسلامية.

إن نصوص ألف ليلة وليلة نصوص مثيرة جريئة. إنها تخدش أعماق الإنسان في حاضره وماضيه، وما توسوس به نفسه الأمارة بجميع المعاصي، ولا تخشى أحداً. تعلن مشروعها الإيديولوجي لتدين النساء والرجال، والمدن وقيمها، والملوك واستبدادهم، والأسواق وعلاقاتها الاجتماعية والتجارية: إنها شمولية في إدانتها وفي امتدادها إلى أبعد الحضارات وأقربها، فعلى سبيل المثال نجد أن المرأة في ألف ليلة وليلة هي كل نساء الحضارات الأخرى، وخطابها الكيدي والاحتيالي هو خطاب المكيدة أنى كان - في أي زمان وأي مكان - فلم تترك نصوص ألف ليلة وليلة امرأة من نسائها

الخليفة هارون الرشيد يكاد يكون محوراً رئيساً تدور حوله كثير من حكايات ألف ليلة وليلة، وهو حاكم متعدد المواهب والملامح، ويجمع كثيراً من التناقضات في آن، ويبدو حضوره قوياً طاغياً على كل من حوله

تسود في مدن ألف ليلة وليلة كل المحرمات، فهناك الخمارات، وقتل النفس التي حرم الله قتلها، والزنى والشذوذ الجنسي، والاستبداد في أوجه، وهناك الملوك والخلفاء المسلمون الذين يكرعون الخمرة أرطالا

المنتميات إلى حضارات ومذاهب عديدة إلا وكشفت عن أهم الجوانب الدفينة في أعماقها، ولم تترك سلطاناً أو حاكماً من حكامها إلا وتوغلت إلى أبعد دهاليز قصوره ومقصوراتها الخاصة، وعرت نساءه وجواريه الحظايا، وطقوس فرحه وحزنه وجسده، وخطاباته الفكرية والسياسية، وعلاقاته مع أفراد شعبه، وسلطت الضوء على طعامه الفاخر، وخموره المعتقة، فشعت متلألئة شهية على وقع الصاجات والدفوف، وقامات الجواري المليئات جمالاً اللواتي تهتز مغناجة مثيرة. فهذه النصوص تتمرد ثائرة على معظم الخطابات التاريخية، والقصصية، والحكائية التي سبقتها والتي عاصرتها، غير أن هذا التمرد يبقى مغلفاً بشال من الحرير المعطر سحراً وأساطير. إن لها القدرة السحرية على التوغل إلى أعماق الذات لتعري خطاباتها الفكرية، وتناقضاتها، وأدق خفاياها، وسكينتها واستسلامها المطلق لقدرها الغيبي، ولسلطات مدنها الغاشمة. ومن ثم لتنقلها إلى مدن جديدة سحرية على أجنحة خيال أسطوري حالم تارة، متوثب جامح تارة أخرى. فتحلق هذه الذات حالمة بالنساء الشهيات، والثراء الفاحش، مع الجن والأحصنة الطائرة المسحورة، والمصابيح السحرية، وخواتم شبيك لبيك (المال والقصور وجواري الأرض بين يديك، اطلب تطع. إن أنت دعكت هذا الخاتم السحري: أنا المارد خادم هذا الخاتم القادر على فعل العجائب: سأكون حالاً بين يديك)، وتحلق صوب المدن الفاضلة التي لا خوف فيها ولا بطش ولا استبداد: عندها تسكن الروح عميقاً، وتستسلم لحالة من الطمأنينة والرضى، والأحلام الشفيفة التي لن يتحقق منها شيء، لأن واقع مدن ألف ليلة وليلة واقع مهان محكوم بحفنة من الحكام الظلمة، الذين لا يعملون إلا على تحقيق مصالحهم الخاصة، وإشباع نزواتهم المتأججة دائماً.

إن معظم رواة ألف ليلة وليلة مؤدلجون إسلامياً، فهم يتعاطفون مع الدين الإسلامي، ويفضلونه على بقية الأديان الأخرى، ويؤكدون أنه لا نجاة من الحياة الدنيوية المليئة بالشرور والآثام، ولا انتقال إلى عالم الملكوت الأعلى إلا باعتناق الدين الإسلامي الذي هو خاتمة الأديان وخيرها، ويطمحون إلى سيادة الإسلام فوق بقاع المدن كلها: الواقعية والتخيلية الأسطورية، ولذا فهم يبثون مفاهيم الإسلام وقيمه وأخلاقياته من خلال السرد الحكائي، إلا أنه من المستغرب أن هؤلاء الرواة المتعصبين للإسلام لا يدينون مدنهم الإسلامية الغارقة بالمعاصي المنافية لأخلاق الإسلام، إذ تسود في مدن ألف ليلة وليلة كل المحرمات، فهناك الخمارات، وقتل النفس التي حرم الله قتلها، والزنى والشذوذ الجنسي، والاستبداد في أوجه، وهناك الملوك والخلفاء المسلمون الذين يكرعون الخمرة أرطالاً، وينكلون بأفراد شعوبهم، ويقضون معظم أوقاتهم بين أحضان جواريهم وسراريهم. ولا يتوانون في الزواج بأية امرأة جميلة، إما بالرضى وإما بالاغتصاب أو الاحتيال، وهم مستعدون للزواج بكل امرأة جميلة، حتى ولو كانت عاهرة. وعلى الرغم من كل ذلك نجد أن بعض هؤلاء الرواة يتغاضون عن سلوك هؤلاء الحكام، ويتجاوزون عن أخطائهم، وكأن شيئاً لم يكن، في حين أن هؤلاء الرواة يسارعون في الطعن بأخلاق الحكام غير المسلمين، ويقللون من شأنهم، ويدينون أخطاءهم، ومهما كانت بسيطة.

وليست حكايات ألف ليلة وليلة ترفاً لفظياً، أو رحلة وصفية في الزمان والمكان، بل إن لها غايات وظيفية، فالسرد الحكائي لا ينمو ولا يدخل فضاءات مدن ألف ليلة وليلة إلا ليعبر عن أطروحات فكرية وسياسية وغايات أخلاقية في كثير من الأحيان. ومعظم رواة الليالي يحملون السرد الحكائي كثيراً من المقولات الفكرية والإيديولوجية التي يؤمنون بها، وبالتالي ينفون مقولات أخرى يستهجنونها، ويدينونها.

إن رواة ألف ليلة وليلة، من خلال الوصف وقطع السرد ووصله، ومن خلال تداخل الحكايات فيما بينها، ومن مواقف الأبطال وطبيعة تفكيرهم، يكرسون كل معارفهم، وما يؤمنون به، ليبثوا خطاباتهم الإيديولوجية المعادية لخطابات أخرى.

هذا ويقدم رواة ألف ليلة وليلة نساء مدنهم السلطويات وغير السلطويات على شكل نماذج مثيرة طاغية الجمال، بحيث تبدو هذه النساء أجمل من حوريات الجنة. فالقمر يخجل من جمالهن، والشمس تحسدهن على وضاءة وجوههن، أما أكفالهن الثقيلة فإنها تبدو وكأنها كثبان من الرمال، وتبدو نهودهن أكثر تماسكاً وتكوراً من كل رمان مدن ألف ليلة وليلة، وكل واحدة منهن ذات خد أسيل وقد مليح. وهذا التقديم في بنيته العميقة يدل على نزعة هؤلاء الرواة الشبقية التي تشير إلى أن هؤلاء الرواة، الذين هم ممثلو القطاع الذكوري المهان في ألف ليلة وليلة، قد عانوا عبر تاريخهم الطويل من حرمان جنسي مزمن، وقهر تاريخي وضعهم في طبقة متدنية محرومة، وحرمهم من هاته النسوة المثيرات اللواتي اعتبروهن أعظم وأغلى السلع التي يطمح هؤلاء الرجال إلى امتلاكها، في حين أن أي ملك أو أمير كان باستطاعته أن يحصل على ما يشاء من هاته النسوة المثيرات، طالما يملك المال والسلطة. غير أن هؤلاء الرواة لم يقفوا عند هذه الملامح الجمالية لهاته النسوة الطاغيات إثارة وتكورات لحمية فحسب، بل رأوا أن معظم هاته النسوة المثيرات فاسدات وعاهرات، ومنقادات لرغباتهن الشهوانية المسعورة، ويتقن فنون المكايد والاحتيال بامتياز - وبطبيعة الحال هناك استثناءات طفيفة -. أما ملامح نساء السلطة، بالإضافة إلى الملامح السابقة، فهي ملامح استبدادية باطشة، إذ لا تتوانى هاته النساء في البطش بأقرب المقربين منهن، فبعضهن يفوق الرجال السلطويين بطشاً وظلماً، على أن استبداد هاته النسوة، في المحصلة الأخيرة، هو نتيجة لاستبداد الرجال، ومستمد منه، لأن المرأة السلطوية تستمد قدرتها على البطش: بمن في قصرها من العبيد والجواري وبمن في مدينتها من المواطنين، من سلطة زوجها المطلقة، بوصفه الرأس الأعلى، وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة في دولته. وأمام استبداد نساء السلطة في ألف ليلة وليلة يلاحظ أن الرواة يجترئون عليهن، ويصفون بعضهن بالزواني والخبيثات.

أمام استبداد نساء السلطة في ألف ليلة وليلة يلاحظ أن الرواة يجترئون عليهن، ويصفون بعضهن بالزواني والخبيثات

ونلاحظ في حكايات ألف ليلة وليلة أن ثمة قطيعة إنسانية تعمل السلطة على تكريسها في علاقاتها بالطبقات الأدنى منها، وتتمثل هذه القطيعة بالاحتقار والاضطهاد والجلد والتهديد بالقتل، والقتل، والإكثار من مظاهر الأبهة والثراء، والإكثار من اتخاذ الحراس والحجاب الذين يحيطون بالسلطة كظلها،

بحيث يبدو رجال السلطة آلهة متوجين بالأبهة والعظمة، مما يجعل الطبقات الأخرى في حالة خوف دائم، وقناعة مطلقة باستحالة قدراتها على تغيير نظام السلطة أو الثورة عليها. فمعظم سلطات مدن ألف ليلة وليلة الإسلامية وغير الإسلامية لا تقرب إلا الأذلاء الخانعين لها خنوعاً مطلقاً، والأعوان الباطشين المستبدين في آن، والمهرجين والندماء المتملقين، والأبواق المرددين إيديولوجيتها وعظمتها وحقها الإلهي في وراثة الحكم،



والشعراء المنافقين المادحين مدحاً تكسبياً كاذباً.

إن للحكاية في ألف ليلة وليلة سلطة على الشخوص السلطويين المروي لهم، إذ تأسرهم هذه الحكاية بفتنة سردها، ونسائه الجميلات المثيرات، ومدنه، وحوادثه العجائبية التي تنشلهم من هموم السياسة والحكم، وتقذفهم صوب البلاد السحرية العجيبة. وسلطتها هذه تعمل على إنقاذ الرواة وأبطالهم من القتل، فالراوي أو البطل المحكوم عليه بالقتل - سواء أكان الحكم من قبل السلطة، أم من قبل شخص مستبد أقوى منه - يسارع إلى فداء نفسه بقص حكاية غرائبية مثيرة، وبعيدة في التخيل، شرط أن تكون هذه الحكاية جديدة لم يسمع بها الشخص السلطوي المروي له. وعندما يسمع المروي له هذه الحكاية الجديدة المثيرة فإن أزمته الاجتماعية أو النفسية تنفرج أمام السرد العذب، ويتصالح مع الراوي، ويعفو عنه، وأحياناً يجعله من ندمائه الخاصين.

إن هذه الموضوعات التي تطرق إليها هذا الكتاب ليست هي وحدها الموضوعات المهمة في ألف ليلة وليلة، بل ثمة مواضيع أخرى كثيرة - لم تبحث بعد باستفاضة - وجديرة بالاهتمام والدراسة من قبل الباحثين، ويمكن أن تشكل محاور رئيسة وفرعية لعدد غير قليل من الكتب والدراسات، ويبدو أن البحث في هذه الموضوعات ممتع وشيق. وقد يكون من هذه الموضوعات ما يلي:

١. التناص بين حكايات ألف ليلة وليلة وبين المصادر الأدبية والتاريخية التي ذكرت كثيراً من حكايات ألف ليلة وليلة، وبتحويرات جد طفيفة. ومن هذه المصادر: الفرج بعد الشدة لأبي علي المحسن بن علي التنوخي، والمستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، وأخبار النساء لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعي (ابن قيم الجوزية)، والروض العاطر في نزهة الخاطر لمحمد بن أبي بكر بن علي النفزاوي، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ومصارع العشاق لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج، وتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) لمحمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي (ابن بطوطة).

٢. ملامح إيديولوجيا الرواة الإسلاميين، ومعاداتهم للمسيحيين واليهود والمجوس.

٣. ظاهرة اللهو والمجون في فضاءات قصور ألف ليلة وليلة.

٤. المقاييس الجمالية المرغوبة في نساء ألف ليلة وليلة كما تحددها أذواق الرجال الرواة.

٥. نشاط الحركة التجارية في ألف ليلة وليلة، وعلاقة التجار بطبقة السلطة، وملامح إيديولوجيا الرواة المعادية للتجار والتجارة من جهة، والمساندة لهم من جهة أخرى.

٦. تأثير ألف ليلة وليلة في الرواية العربية المعاصرة، وبخاصة في روايات نجيب محفوظ وهاني الراهب وجمال الغيطاني ويوسف القعيد.

٧. تأثير ألف ليلة وليلة في المسرح العربي الحديث والمعاصر، وبخاصة في مسرحيات توفيق الحكيم وعلي أحمد باكثير وألفريد فرج وسعد الله ونوس ومحمد الشرفي ونعمان عاشور.

٨. دور المال في مدن الليالي وعلاقات سكانها، وتقديس بعض الشخوص له.

٩. الجريمة والقتل في ألف ليلة وليلة، وبخاصة جريمة بتر الأطراف.

١٠. ظاهرة الشذوذ الجنسي في ألف ليلة وليلة: مظاهرها، ودوافعها.

١١. التكرار في ألف ليلة وليلة، وذلك في وصف أشكال النساء، وطرائق احتيالهن، ووصف القصور، والتكرار في حركة الأبطال وفي أحداث بعض الحكايات.

١٢. طبيعة العلاقة بين السياسي السلطوي والمعرفي: الزهدي والفقهي والديني، وانضواء المعرفي تحت جناح السلطوي من جهة، ورفض المعرفي للسياسي وإدانته، والابتعاد عنه من جهة أخرى.

وأمام ألف ليلة وليلة، هذا العمل الحكائي المتميز، لا عجب أن يقف المستشرق الدانماركي ج. أوستروب(٣) مأخوذاً بالإعجاب والتقدير، ثم يقول: «فيما عدا الكتاب المقدس لا توجد سوى كتب قليلة حققت انتشاراً واسعاً وطافت العالم بأرجائه مثل مجموعة الحكايات العربية الشهيرة، والتي عرفت تحت اسم «ألف ليلة وليلة»، فمن جهة أولى اكتسبت أهمية مباشرة، لأنه يكاد لا يوجد في معظم البلدان المتحضرة من لم يقرأ هذا الكتاب بسرور واهتمام مرة واحدة على الأقل في حياته ويستوح منه عدداً كبيراً من الصور البراقة الرائعة والتي ظلت على الدوام عالقة في ذاكرته، ومن جهة ثانية اكتسبت أهمية غير مباشرة لأن أجيالاً متعاقبة من الأدباء كانت تنهل مادتها من هذا النبع الذي لا ينضب».

الراوي أو البطل المحكوم عليه بالقتل - سواء أكان الحكم من قبل السلطة، أم من قبل شخص مستبد أقوى منه - يسارع إلى فداء نفسه بقص حكاية غرائبية مثيرة، وبعيدة في التخيل

هوامش

(١) هذه الأبحاث هي:

أ - المرأة وخطاب الجنس في ألف ليلة وليلة، مجلة المعرفة السورية، وزارة الثقافة، دمشق، العددان ٣١٦/ ٣١٧ أكتوبر، نوفمبر، ١٩٨٩م.

ب - مدخل إلى دراسة المرأة في ألف ليلة وليلة، مجلة الحياة الثقافية، وزارة الثقافة، تونس، العدد السابع والخمسون، العام ١٩٩٠م.

ج - خطاب الحب والجنس والسياسة وعلاقته بمكونات البنية الحكائية في ألف ليلة وليلة، مجلة دراسات عربية، دار الطليعة، بيروت، العددان ١٠/١١، أغسطس، سبتمبر، ١٩٩٠م.

د - مجتمعات ما تحت المجتمع - ألف ليلة وليلة، فضاء السرد، الجسد، المكان، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، العدد الثالث عشر، ١٩٩٢م.

هـ - ألف ليلة وليلة - جدل الجنس والسلطة، مجلة الناقد، دار رياض الريس، لندن، العدد الثاني والخمسون، أكتوبر ١٩٩٢م.

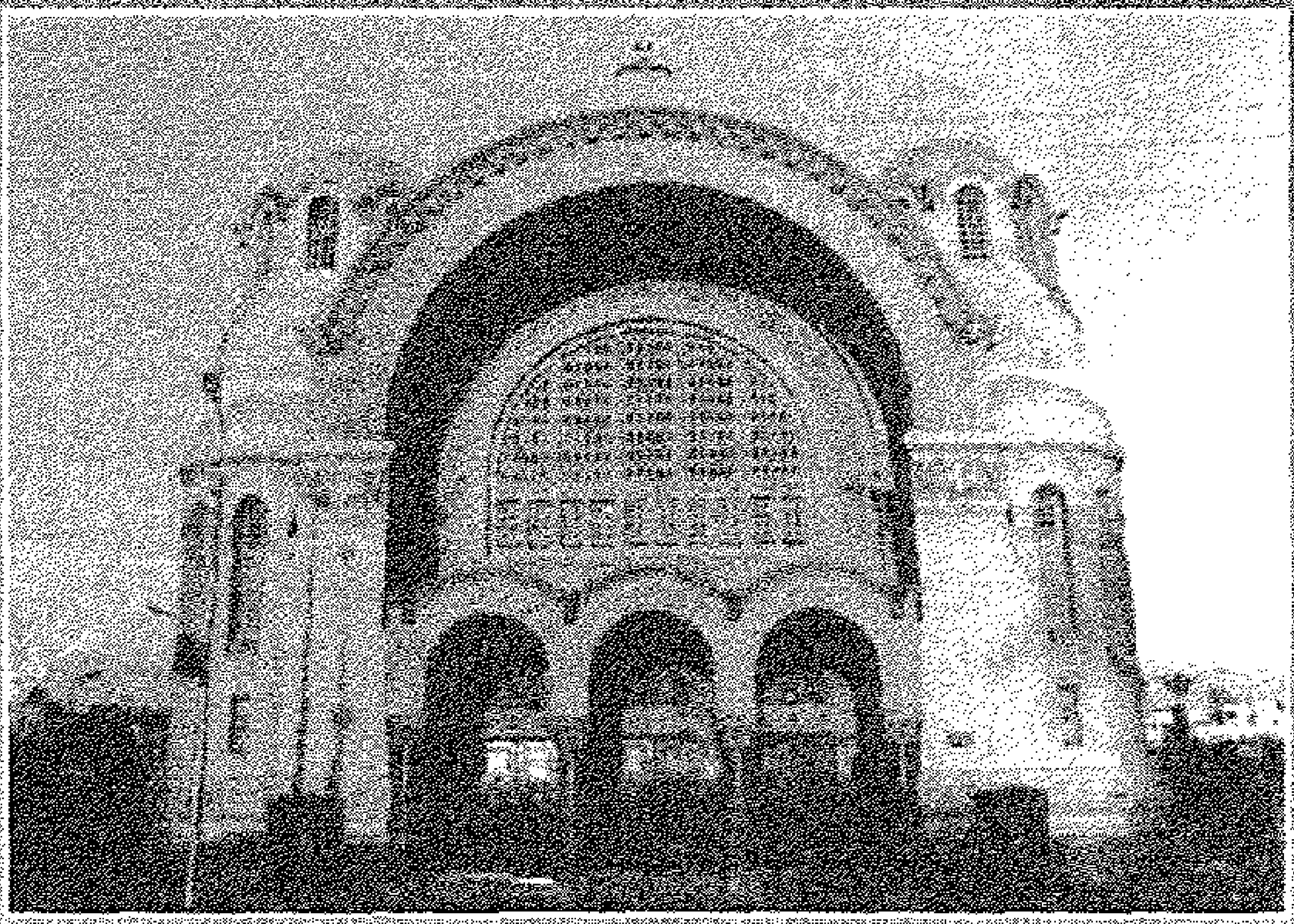
و- نقد خطاب الحب والسلطة في «تاريخنا الليلي»، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد الثاني والسبعون، ابريل، يونيو، ١٩٩٣م.

ز - بنائية الأمثلة الوظائفية في الحكاية الشعبية، حكاية علاء الدين أبي الشامات/انموذجاً/، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد الثالث والثمانون، صيف ١٩٩٥م.

(٢) في خبر صحافي وتعليق على أهمية «ألف ليلة وليلة» والأبحاث حولها، وتحت عنوان «مذاق ألف ليلة وليلة» - دون ذكر لاسم معد الخبر - قام معد الخبر بنقل رأي الباحثة المصرية أماني أبو الفضل، التي أعدت رسالة ماجستير حول ألف ليلة وليلة، والذي يقول: «إن «ألف ليلة وليلة» استوفت حقها تماماً (من البحث) وآن الأوان لإعطاء الأعمال العربية الأخرى حقها من الدراسة».

- ينظر: مجلة الشاهد، شركة الشاهد للنشر المحدودة، نيقوسيا/ قبرص، العدد الخامس والسبعون، السنة السابعة، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١م، ص ٩٧.

(٣) عن/مومسن، كاترينا: غوته وألف ليلة وليلة، ترجمة د. أحمد الحمو، منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٠م، ص ٤. ولم تذكر اسم المرجع الذي اقتبست منه.





مصر الجديدة في «هليوبوليس» تخوض الراوية في هويتها نفسها وفي علاقتها بفضائها الأصلي، فضاء طفولتها التي تحاول استرجاعها: البازيليك التي كنا نطلق عليها «الكنيسة التخينة» (من التلمساني «هليوبوليس»).



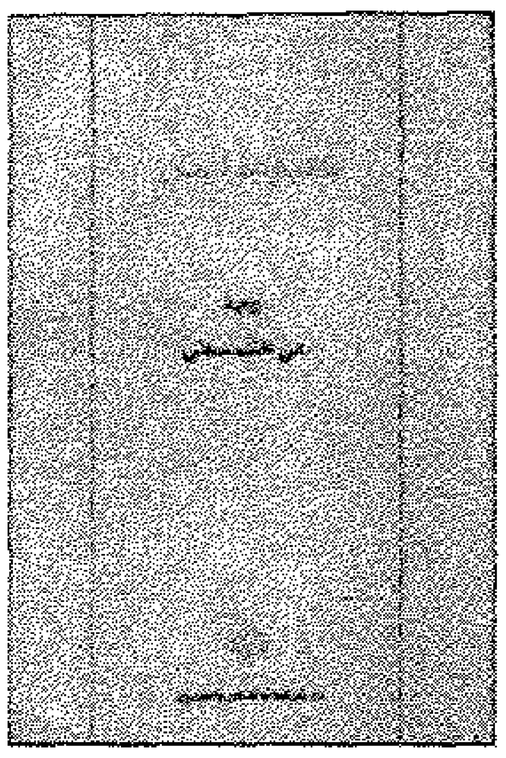




دينا حشمت







من حلم المدينة الكبيرة إلى عزلة الضواحي

قاهرة الرواية العربية

■■ القاهرة هى تلك المدينة الضخمة المخيفة غير واضحة المعالم ذات الوجوه الألف التى يصعب الوقوف أمامها دون اتخاذ موقف منها؛ مدينة تدعو العابرين وسكانها - لاسيما الفنانين منهم- إلى الاندماج فيها، أو البقاء خارج ممراتها وأسرارها الدفينة. كما نجد تمثيلاً لذلك العنف فى الأدب المصرى الحديث والمعاصر، فالعديد من الروايات والقصص القصيرة والقصائد الشعرية تأثرت بإشكالية المدينة. هكذا تنطلق هذه الدراسة من تحليل ستة نصوص أدبية: «زقاق المدق» لنجيب محفوظ[1]، «النداهة» ليوسف إدريس[2]، «عصافير النيل» لإبراهيم أصلان[3]، «لصوص متقاعدون» لحمدى أبو جليل[4]، «هليوبوليس» لمى التلمسانى[5]، و«قانون الوراثة» لياسر عبد اللطيف[6]. لم يكن الهدف هنا هو تعميم صورة المدينة فى هذه النصوص على مجمل الأدب المصرى، بل تفكيك التصور الذى يقدمه كل كاتب عن المدينة نفسها فى أوقات مختلفة من تاريخها، وتقديم تفسير عن هذه التصورات المختلفة. وبالطبع، فإن إحدى تفسيرات تطور تصور القاهرة فى روايات نشرت بين ١٩٤٧ و٢٠٠٢ هو تطور المدينة نفسها.

عرفت مدينة القاهرة عملية تطور مستمر منذ أن أسسها الفاطميون واكتسبت المعالم التى نراها عليها اليوم منذ فترة الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩). فتحت تأثير أعمال التطوير التى أدخلها هوسمان على العاصمة الفرنسية، قام الخديو ببناء مدينة حديثة شوارعها واسعة وفسيحة وآثارها ملائمة لمتطلبات العصر، ومثال على ذلك دار الأوبرا المصرية. جاءت معالم هذا التحديث بجوار المدينة القديمة، فلم تؤد هذه العملية إلى تحديث فضاء المدينة كما كان فى ذلك الوقت، بل أدت إلى تقسيمه إلى فضائين شبه منفصلين، أحدهما حديث والآخر قديم. ولم يغير استيلاء الضباط الأحرار على السلطة سنة ١٩٥٢ «التنظيم الاجتماعى لفضاء القاهرة»، ولم يحطم الحواجز القائمة بالرغم من الإجراءات التى اتخذت فى مصلحة السكن العمالى. بدأت ملامح المدينة تتغير بشكل عنيف بدءا من السبعينيات، فى ظل الزيادة السكانية وسياسة الانفتاح الاقتصادى. فى هذه الفترة تفاقمت بشكل غير مسبوق ظاهرة بناء ما سمى بعد ذلك بال«عشوائيات»، وما سماه أبو زيد راجح «المدينة الثالثة». وهى مدينة من إبداع المواطنين أنفسهم، الذين لم يجدوا حلا اخر لمواجهة مشكلة السكن. وأصبحت القاهرة مدينة ضخمة ظهرت على أطرافها عشوائيات ينقصها العديد من مرافق الحياة الحضرية الحديثة، مثل الماء والكهرباء. وظهرت حديثا أحياء جديدة للأغنياء فى المناطق الصحراوية المحيطة للعاصمة مزودة بحمامات السباحة وملاعب الجولف، تحت مسميات مثل «دريم لاند» أو «بافيرلى هيلز». وأدى هذا التطور إلى تجاوز التناقض القديم بين المدينة الحديثة والمدينة القديمة، اللتين تغيرت أدوارهما، فلم تعد المدينة الحديثة تلك فضاء للنخبة، ولم تعد المدينة القديمة بمثابة هامش للمدينة، مع انخفاض نسبة الكثافة السكانية فيها وتحويلها إلى مركز تجارى وسياحى. من ناحية أخرى، فإن ظهور «المدينة الثالثة» قد جعل حياة أغلبية سكان المدينة غير مستقرة فى الوقت الذى جعل مستقبل هذا الفضاء الحضرى ككل غير مستقرا أيضا وقد لاحقته التغييرات فى الحركة وسرعة التنقلات بينما كانت الحدود والحواجز تعيد بناء نفسها فى مكان آخر.

وكان لا بد من هذه المقدمة لتطور فضاء المدينة كى تشكل خلفية لتحليل النصوص الأدبية الست. تبين لنا من خلال هذا التحليل أن نصى«زقاق المدق» و«النداهة» يتميزان بما سميناه «شاعرية التناقضات». فيعتمد هذان النصان على هيكل درامى قائم على مواجهة بين عالمين لا إمكانية للتصالح بينهما: عالم الريف أو المدينة القديمة فى مواجهة المدينة الحديثة التى تصبح موضوعاً للرغبة، حيث تشتاق الشخصيات المركزية إليها وتتعطش إلى حداثتها الباهرة. وفى الحالتين نجد أن الشخصية المركزية امرأة تبحث عن الخروج بأى ثمن من «وسطها الطبيعى» الذى نشأت فيه - وهو الزقاق بالنسبة لحميدة، بطلة نجيب محفوظ، ذلك الذى تراه «قذراً ونتن»، والذى تشعر بازدراء شديد تجاهه؛ وهو الريف فى حالة فتحية، بطلة ادريس، الذى تراه مرتبطا بالفقر. ولا تشكل المدينة الحديثة بالنسبة إليهما إلا فضاء طالما حلما به، فضاء الحلم والرغبات. يصف النصان بأدق التفاصيل لحظات مواجهتهما الأولى مع هذه المدينة التى تحدث لهما انبهارا حسياً موصوف بدقة فى النص. الحقل المعنوى المهيمن هو حقل الضوء

المقالة تلخيص لرسالة حصلت بها الباحثة على درجة الدكتوراة بعنوان:
L'évolution des représentations de la ville du Caire dans la littérature égyptienne moderne et contemporaine
(تطور تمثيل مدينة القاهرة فى الأدب المصرى الحديث والمعاصر)
تحت إشراف: د. هايدى تولو
لجنة المناقشة: د. لوك ديهوفيلس، د. بطرس الحلاق، د. أمينة رشيد، د. هايدى تولو
جامعة باريس ٣ - السوربون الجديدة - فبراير ٢٠٠٤

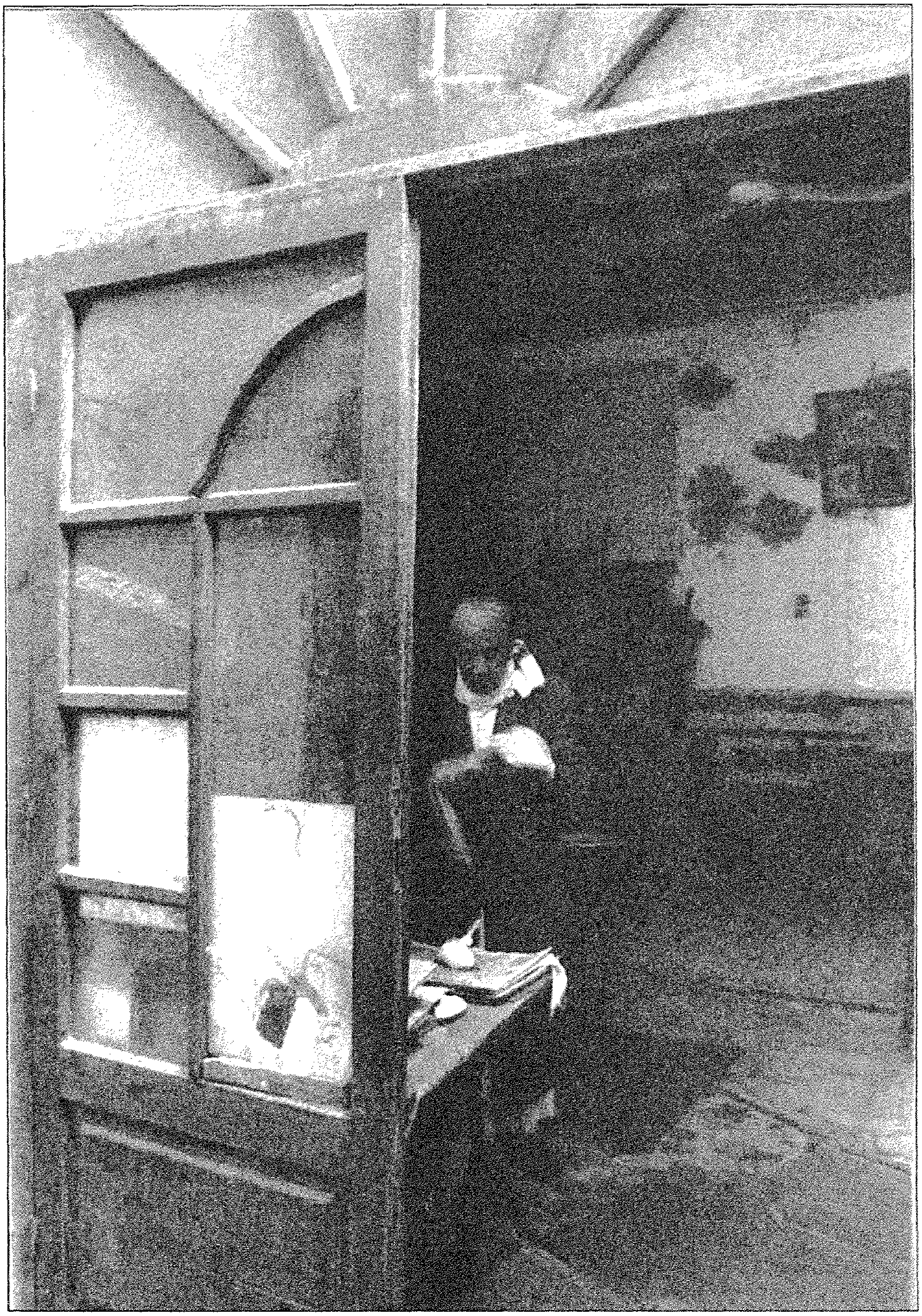




«يوجد شارع ضيق، أليق به أن يكون حارة، لكنه سمى شارعا لأن بداخله عطفة صغيرة تحمل اسمه تحت تصنيف حارة. والشارع الحارة، والحارة العطفة هو شارع البلاسقة. وبذلك الشارع يوجد ضريح لمتصوف مجهول يدعى «الشيخ حمزة»».

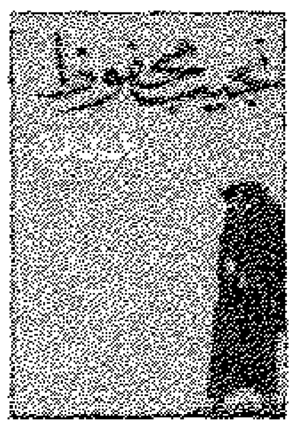
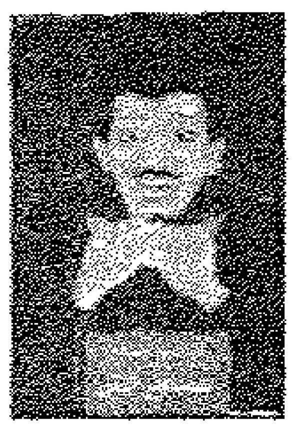
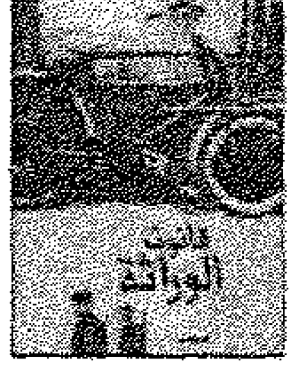
• • •

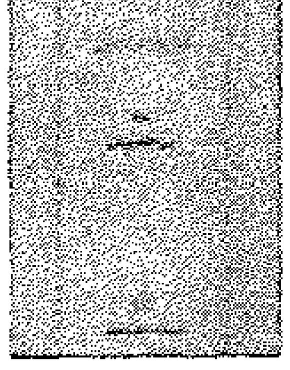
«كان الشارع غارقا في ظلامه، والفوانيس الكابية تزيده غموضا وقد امتد أمامنا صامتا يحيطه جلال الدير ومعهد اللاهوت اللذان يؤطران جانبيه بأسوارهما المنيفة وصفى أشجار السرو والكافور اللذين يوازيان الأسوار». (ياسر عبد اللطيف، «قانون الوراثة»).



والسعادة: فعندما تذهب حميدة لأول مرة إلى المدينة الحديثة، «قلقت عيناها بين الأنوار التى تتخطفهما، فلاحت لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة»[٧]. وتماما مثل حميدة، تنبهر فتحية بالمدينة، «حيث الشوارع الواسعة الحلوة النظيفة»، و«النور الكثير البراق»، الذى يحول الليل إلى نهار ساطع. فالقاهرة هى مدينة «الطعام الكثير والروائح الحلوة واللوكاندات وبحر النيل الأعظم حيث يبدأ النيل وينبع». وعندما تنظر إلى الشارع ترى «النور.. النور ذا الألوان السبعة»، وتسمع «الهيصة والدوشة والمولد»[٨]. ويختلط هذا الانبهار فى الحالتين بالانجذاب نحو «إنسان الحضر» homo urbanus، رجل يمثل بشكل من الأشكال «روح المدينة». فرج إبراهيم فى «زقاق المدق» والأفندى الذى لا اسم له فى «النداهة». وهما شخصيتان أنيقتان وغنيتان وأهم ما يميزهما هو أنهما من المستغلين. فيضعان استراتيجية للاقتراب تعتمد على فهم دقيق لطبيعة فريستيهما، اللتين ينتهى بهما المطاف إلى السقوط، بعد مقاومة مستميتة فى حالة فتحية، ودون أى شعور بالندم بالنسبة إلى حميدة. ولكن النتيجة لا تختلف كثيرا، فمن أجل الوصول إلى ما يرغبان فيه، من أجل الولوج فى العالم الحضرى، تخلت هاتان المرأتان عن هويتهما الأولى. ففى نهاية الرواية، تركت حميدة الزقاق وأصبحت عاهرة أنيقة، وهكذا دخلت فى «الوجود الحضرى»، هكذا اكتسبت المعرفة التى تحتاجها المرأة كى تبرز جمالها، وتعلمت التعقيد الذى يعتبر إحدى خاصيات الحضرية. أما مصير فتحية الأكثر تعقيدا فهو مرتبط بالاغتصاب الذى تعرضت له والذى يجعلها للمرة الأولى تحقق رغبتها فى المدينة. فتترك القرية وعالمها التقليدى كله. وقرارها بالفرار فى المدينة هو فى الحقيقة نتيجة لفعل جنسى، وفضلا عن ذلك فإنه يلغى تقريبا هوية فتحية كأم، والتى لا نعرف عنها ما إن كانت ستلقى نفس مصير حميدة. فى كل الأحوال، فإن الدخول فى عالم المدينة وفى عالم التحرر (اكتساب القدرة على اتخاذ قرار يخص مستقبلها)، يتم من خلال وبعد فعل اتصال جنسى، مثلما

مقهى «زقاق المدق» لم يتغير تقريبا منذ ١٩٠٤



يحدث فى «زقاق المدق»، وبالتالى يتخذ هذا الفعل هنا موقع التدشين المعرفى الضرورى لاكتساب ملكة الفعل savoir faire ، أى القدرة على الذوبان فى عالم المدينة، وتقرير المصير كإنسان. فإن التطور الدرامى لهاتين الشخصيتين من أجل تحقيق رغبتهما يعبر عن عدم إمكانية التصالح بين المدينتين.

كتب نصا نجيب محفوظ ويوسف إدريس فى فترة كان فضاء القاهرة فيها يقسمه تناقض بين مدينة قديمة وأخرى حديثة. ويعبر هذان النصان بشكل واضح عن هذا الواقع. فى الحقيقة فإن الوضع الاجتماعى لهذين الكاتبين وموقعهما فى الحقل الأدبى هو الذى يسمح لهما بأفضل تعبير عن هذا الواقع. ينتمى محفوظ وإدريس إلى أوساط برجوازية صغيرة، ويتحركان بكل سلاسة بين عالمين، فيتردد محفوظ فى نفس الوقت على المدينة القديمة التى نشأ فيها وعلى المدينة الجديدة حيث يعمل كموظف وحيث كان قد بدأ فى تكوين موقع لنفسه فى الحقل الأدبى فى الفترة التى كتب فيها رواية «زقاق المدق».

أما إدريس فقد ولد فى الريف وهو يعرف هذا العالم جيدا، ولكن بسبب أصوله الاجتماعية وعمله كطبيب وأهميته كمثقف وكاتب فإنه موجود أيضا فى الحقل الأدبى القاهرى. إن مرور هذين الكاتبين من مدينة إلى أخرى (بالنسبة إلى إدريس فى نفس الوقت من المدينة إلى الريف ومن مدينة إلى أخرى) ومن عالم إلى آخر، هو الذى يجعلهما «شاهدين من الخارج»، فهما يميزان جيداً بين العالمين ويعرفان أن قدرتهما على التنقل بينهما لا يمتلكها إلا قلة من المحظوظين. وهما فى نفس الوقت يعيشان فى فترة تشكل فيها إشكالية الحداثة الموضوع الأهم. فالمدينة القديمة كانت قد صارت متخلفة فى حين أن المدينة الحديثة تمثل وعداً بالتقدم، إنه الأفق الضاحك للشوارع الواسعة وعقلانية المدينة، أى أمل التطور الذى قد يطال المدينة كلها.

إن هذا التمثيل الثنائى الذى يصاحبه صورة امرأة تحركها رغبة لامنطقية نحو قاع المدينة، ينتمى الآن إلى التاريخ. فلا يوجد فى روايتى إبراهيم أصلان وحمدى أبو جليل، «عصافير النيل» و«لصوص متقاعدون»، اللتين تتميزان بإبراز إشكالية «ترييف المدينة»، ما أسميناه برغبة المدينة، شاعرية التناقضات التى تميز «زقاق المدق» و«النداهة».

فلا نجد فى «عصافير النيل» مكانة مركزية لإشكاليات المواجهة بين الريفى والحضرى أو بين أجزاء مختلفة من المدينة. تدور هذه الرواية فى حى إمبابة بنفس شاعريته الخاصة التى صبغت رواية إبراهيم أصلان الأولى، «مالك الحزين»، بصبغة الحنين القوية تلك، المبنية على العلاقة مع النهر. وكما فى أحياء شعبية أخرى فى الضواحى، نجد فى حى إمبابة كل خواص ترييف فضاء المدينة، التى يصفها النص عبر أنماط السكن والملبس والعادات الغذائية. وتعطى «عصافير النيل» فى نفس الوقت مكانة مهمة للفضاء الريفى وللعلاقات بين الشخصيات والبلد الأصل.

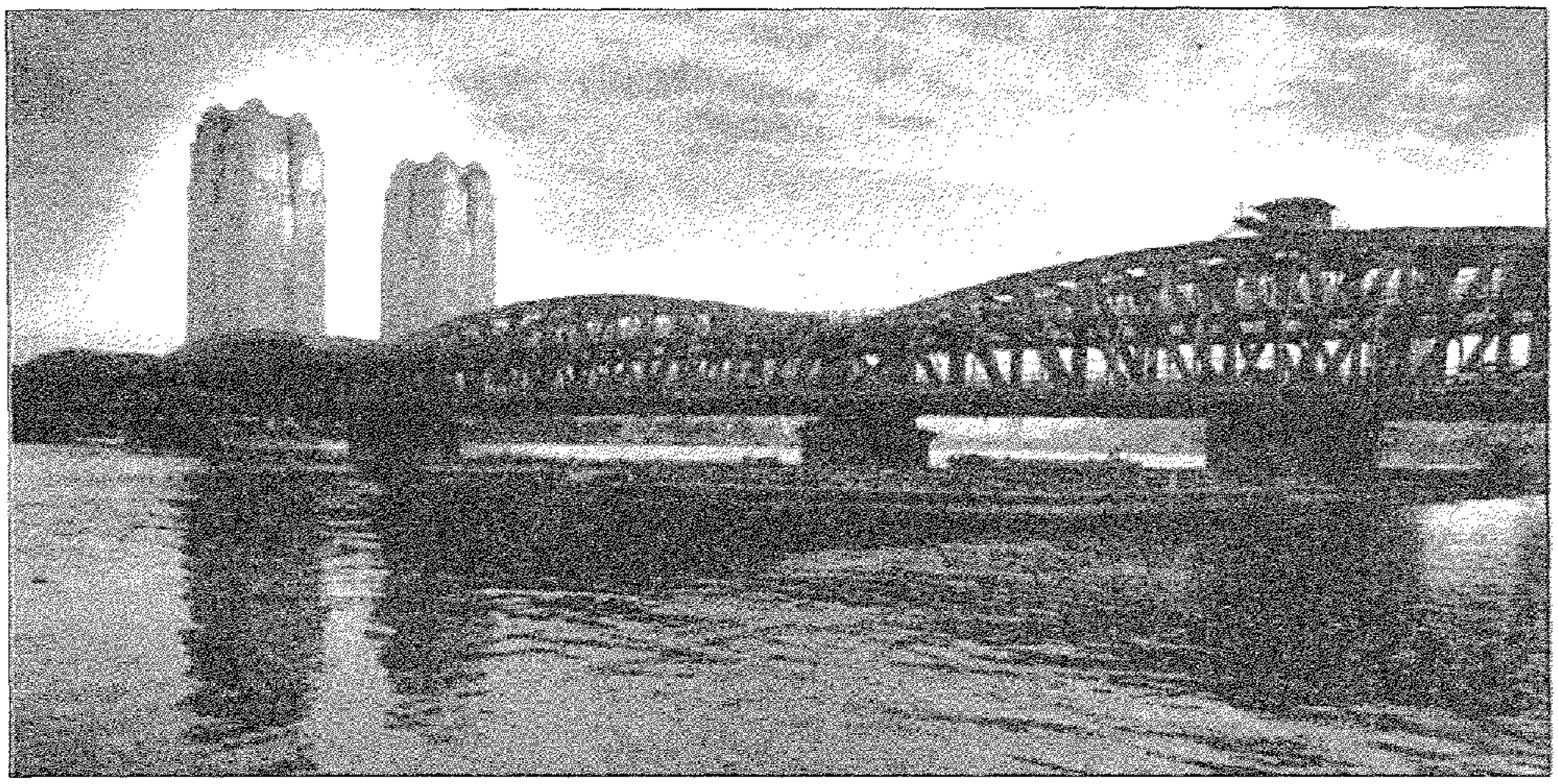
ومع أن هذه العلاقات تراجعت مع الزمن فإنها لا زالت مستمرة من خلال الزيارات للقرية وخاصة خلال الإشارة إلى الأرض التى ما زالت تملكها الأسرة فى القرية التى يشار إليها فى النص بتعبير «البلد»، دون ذكر أى اسم محدد لها. إن عدم تسمية «البلد»، وأهمية الجدة، تلك الشخصية التى ما زالت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقرية، يؤدى إلى تقديس هذا الفضاء الريفى. ومن ناحية أخرى، من خلال التأكيد على دورة الحياة والموت التى تقع فى مركزها المرأة/الجدة، الحامل الرئيسى لسلسلة الحياة والمفتاح الذى يفضى إلى جنات الذاكرة الجماعية، حتى وإن كانت هى شخصيا قد فقدت الذاكرة، تخفف رواية «عصافير النيل» من حدة المواجهة بين الريف والمدينة. فهى رواية تنتمى إلى تلك النصوص التى «تلح على آخرية عالم القرية لا على تخلفه» (سامية محرز). وفى الحقيقة فإن إشكالية التصالح مع الجذور تلك هى التى تمنعنا من التوصل إلى النتيجة بأن «عصافير النيل» هى تصوير لجيتو حضرى. فهنا على العكس يذوب الفضاء الريفى والحضرى معاً ليشكلا ما سميناه «شاعرية مزدوجة للفضاء».

وتقع رواية «لصوص متقاعدون» فى منشية ناصر، وهو الحى الذى أنشئ لإيواء عمال مصانع حلوان القريبة. وهذا الفضاء، الذى يصفه النص على أنه حى جيتو عشوائى، له هويته الفضائية الخاصة، بنظام قيمه الخاص المشترك بين أغلب الشخصيات التى تنحدر فى معظمها من جذور ريفية أو بدوية وممزقة بين هويات مختلفة. وإذا كان النص يعبر عن هذا التمزق فى العلاقة بالفضاء مستخدما المسافة والسخرية، فإن هذه السخرية تشكل أيضا تعبيرا مريرا عن اضطهاد يعاش فى داخل حيز المدينة. فالسخرية هى رد فعل استهزائى أمام هذا الاضطهاد. وتعبر المسافة الناتجة عن لعبة السرد (إدخال الراوى كشخصية فى النص)، عن إمكانية فعل كل شىء على الورق، إمكانية كسر الحدود بين الواقع والخيال، إمكانية التحرر من الحدود التى تؤطر فضاء المدينة بعنف، خاصة بالنسبة للذين أتوا من فضاء لا حدود للأفق فيه. فلا شاعرية للمدينة فى منشية ناصر، كما وجدناها فى «عصافير النيل». فسكان منشية ناصر لا يمتلكون حتى جزءا صغيرا من النيل، فيصير اضطهاد المدينة أكثر قسوة. ولكن هناك فى المقابل عدة عناصر مشتركة بينها وبين «عصافير النيل»، فلا تتناول الرواية لحظة الانبهار الأولى أو صدمة الوصول إلى المدينة، ولا يشكل هذا الحدث بؤرة الهيكل السردى. والعنصر المشترك الثانى، هو أن هناك نوع من التأكيد على انتماء الراوى للثقافة البدوية (الريفية فى «عصافير النيل»)، من خلال الإشارة إلى النجع الأصلى الذى لا اسم له (تماما مثل «البلد» فى «عصافير النيل»)، وإن لم تسلم هذه الثقافة من سخريته اللاذعة والمريرة.

إن روايتى إبراهيم أصلان وحمدى أبو جليل نشرتا سنة ١٩٩٩ و٢٠٠٢، بعد «زقاق المدق» و«النداهة» بسنوات، وبعد نشأة المدينة الثالثة بحوالى ٣٠ سنة. وتهتم هاتان الروايتان بضواحى المدينة التى يسكنها فى الأغلب مهاجرون ريفيون. والكاتبان كلاهما ينتمى إلى طبقة شعبية وقد أقاما فى وقت أو آخر فى هذه الأطراف وهما ليسا من أبناء العاصمة. كيف نفسر إذا الفرق بين صورة المدينة فى «عصافير النيل» وفى «لصوص متقاعدون»؟ ففى حين أن أصلان يؤكد على الانتماء الثنائى، إلى فضاء القرية الأصل وفضاء الحى الشعبى فى آن واحد، يقدم لنا أبو جليل حى منشية ناصر كجيتو سكانه منفصلون عن الفضاءات التى أتوا منها وهم أيضاً غير مندمجين بشكل طبيعى فى فضاء القاهرة. ويمكن تفسير هذا الفارق بالفارق بين موقع أصلان وموقع أبو جليل فى الحقل الأدبى فى الوقت الذى كتبا فيه هاتين الروايتين. ففى حين أن أصلان، الذى كان فى البداية عامل بريد ثقف نفسه بنفسه، فأصبح كاتبا مرموقا فى الحقل وأصبح له دخل ثابت من خلال عمله فى جريدة «الحياة» ومسئولياته المتعددة فى مؤسسات تابعة لوزارة الثقافة. لا يزال أبو جليل غير معروف نسبيا ويمارس عمله كصحفى شاب فى جريدة «الاتحاد» التى تصدر فى الإمارات، حتى وإن كان يشغل منذ عدة سنوات نفس نوعية الوظائف التى تركها أصلان. ويختلفان أيضا من حيث علاقتهما بالفضاء الحضرى. وفى الوقت الذى استقر فيه أصلان فى القاهرة منذ طفولته، لم يستقر أبو جليل فى المدينة إلا فى سن كبيرة نسبياً، ساكنا فى عدة ضواحى مختلفة فى وضع يتسم بعدم الاستقرار. بالنسبة إليه -القادم الجديد- لم تكن الأشياء مكتسبة فى حين أن أصلان كان له موقع اجتماعى ومصداقية ككاتب.

أما الروايتان الأخيرتان، رواية مى التلمسانى «هليوبوليس» ورواية «قانون الوراثة» لياسر عبد اللطيف فهما يتميزان بإشكالية الانطواء على الضاحية. فى الرواية الأولى يقدم حى هليوبوليس على أنه فضاء مثالى مرتبط بالماضى أكثر مما هو مرتبط بباقى المدينة، فتصفه الراوية من خلال دمجها فى متن السرد نفسه عناصر حول تاريخ هذا الفضاء، سواء كان من التاريخ الفرعونى أو من التاريخ الأحدث، تقتبسها أحيانا من الكتب التاريخية. وتؤكد ما بين أشياء أخرى على أن نشأة حى مصر الجديدة ترجع لاستثمار البارون إمبان فى هذا الحى فتطرح هكذا بشكل غير مباشر تساؤلا حول هوية هذا الفضاء: نشأة هذه «المدينة الجديدة» الموجودة إلى جوار





إمبابة. الكوبرى القديم فوق النيل ووراءه البرجان اللذان بنيا منذ عدة سنوات. ديسمبر ٢٠٠٣م.

موقع فرعونى قديم، قام بها شخص وشركات كانت مرتبطة بالنظام الاستعمارى فى هذه الفترة. تأثرت ولادة هذا الفضاء إذن بكل التناقضات الخاصة بالقرن العشرين فى مصر. وهذه التناقضات هى نفسها التى تؤثر على الراوية التى تتحدث لغتين وتنتقل بين ثقافتين. إن ميكى الدمية/محركة الدمى، الراوية وفى نفس الوقت الشخصية المركزية، عاشت فى هذا الحى طفولتها ومراهقتها مع «نساء العائلة» فى فضاءات داخلية تهتم بها الرواية اهتماما خاصا: غرف الطعام، غرف النوم، المطابخ، كما تشير أيضا إلى سلسلة من الأشياء، مثل «المروحة الإيديال» و«الثلاجة الإيديال»، و«البوتاجاز الإيديال»، و«ماكينة الخياطة السينجر»، و«البيك آب»، إلخ. تلك الأشياء التى تقوم بدور الحفاظ على ذاكرة حقبة زمنية بكاملها. ومن خلال إعادة بناء هذا الفضاء فى النص، مستعينة فى الوقت نفسه باقتباسات عن تاريخ حى مصر الجديدة، تخلط الراوية بشكل عميق بين «أنا» السرد، والفضاء الذى تصفه. فتقوم الراوية/محركة الدمى هكذا بتحريك شخصياتها/الدمى، بما فى ذلك ميكى نفسها، وتعيد ترتيبها فى الفضاءات التى تبدو لها مناسبة لإعادة خلق فضاء طفولتها التى تحاول استرجاعها[1]، ففى «هليوبوليس» تخوض الراوية فى هويتها نفسها وفى علاقتها بفضائها الأصلى وليس للرواية أى ادعاءات أخرى، مما يفسر تصوير الفضاء مكتفياً بحى واحد وعدم تناول المدينة كلها.

ففى حين أن هيكل السرد فى «زقاق المدق» مبنى حول المواجهة بين المدينة القديمة والمدينة الحديثة، تضع «هليوبوليس» بكل بساطة باقى مدينة القاهرة خارج السرد، مما يشكل انطواء على الفضاء الأكثر ألفة. فلا دخل لشخصيات «هليوبوليس» فى تناقضات المدينة المتفجرة.

أحداث «قانون الوراثة»، فتقع فى عدة فضاءات وفى أزمنة مختلفة: زمن الراوى فى قاهرة التسعينيات، بين ما يسميه «قلب المدينة» وضاحية المعادى، وزمن جدوده، المهاجرين النوبيين إلى العاصمة، ما بين الموطن الأصلى فى النوبة البعيدة وقاهرة بداية القرن العشرين. وإذا كان النص لا يصف صدمة الوصول الأولى إلى المدينة، فإن قاهرة بداية القرن العشرين هى مدينة عنيفة ليس من السهل الاندماج فيها بالنسبة إلى هؤلاء الذين نزحوا من الجنوب، وهى المدينة المقسمة اجتماعيا وثقافيا بشكل صارم. إلى جانب وصف الراوى الذى يندد بشكل واضح بهذا العنف، إلى جانب الإشارة الدائمة للجيتو النوبى التى تذكر القارئ باستمرار بتقسيم المدينة بين عدة فضاءات اجتماعية أو جاليات، إلى جانب كل هذا، فإن مسيرة الشخصيات هى التى تدلنا فعليا على طبيعة المدينة غير المتسامحة، وعلى صعوبة الاندماج بالنسبة للغريب. فإذا كانت استراتيجيات اندماج الرجال الثلاثة -جد الراوى، وفتحى ابن أخ الجد، وشاكر قريبه- فى فضاء القاهرة الحضرى تتشابه فى اختيارها الخروج من الجيتو النوبى، فالوحيد الذى نجح فى اندماجه الاجتماعى هو الجد. فمغامرة فتحى الالتحامية مع «قاع» المدينة هى مؤقتة؛ ولا يجد شاكر فى الطريقة الصوفية التى التحق بها سند كى يمتلك مفاتيح الحياة المهنية والاجتماعية فى القاهرة؛ وبالتالى الجد هو الوحيد الذى فقد أحفاده المستقرون فى العاصمة الرابط مع الأراضى النوبية الأصلية. فالراوى يعيش بين ما يسميه «قلب المدينة» وهو فضاء طفولته وأيضا فضاء اللقاء بالمثقفين، وهناك أيضاً جامعة القاهرة ومظاهرات ١٩٩١، وضاحية المعادى حيث يتسكع مع أصدقائه ويتعاطى المخدرات. وتشكل المخدرات فى «قانون الوراثة» انطواء على الذات وأيضا على «شلة» الأصدقاء وعلى الحى. إنه انطواء الأطراف الذى يعبر عن المقاومة السلبية فى مواجهة المدينة الكبيرة. إن شباب الضواحى الذين يتمايزون «بالفردية المقموعة» يتماثلون مع فضاء حياتهم ويشعرون بوزن المركز العنيف وبدكتاتورية المدينة. وبهذا المعنى يمكننا أن نتحدث عن «ثقافة الأطراف» كما يتحدث عنها المؤلف نفسه. يضع النص هذه «الأطراف» فى مواجهة مركز المدينة دون أن يفصلها عنه، فالمرور من فضاء إلى آخر يشكل جزءا لا يتجزأ من هوية الراوى. فتعدد الفضاءات، وبالتالى تعدد التناقضات فيما بينها، هو ما يميز هذه الرواية. فالتناقض بين النوبة والقاهرة يخففه غياب صدمة الوصول الأولى إلى المدينة، كما يخففه الوجود الهامشى لفضاء النوبة فى النص، إلى جانب أن هذا الفضاء نفسه تمزقه عدة تناقضات أهمها التناقض بين النوبة القديمة، وهو فضاء يحن إليه الناس ويحلمون به أكثر مما يعرفونه فعليا، و«أماكن الهجرة الجديدة». هناك أيضا التناقض بين الجيتو النوبى وباقى المدينة، ما بين الضاحية والمركز. إن تعدد الانتماءات والتناقضات يخفف من حدتها. هنا أيضا يتضح الفرق مع تصوير «زقاق المدق» أو «النداهة» شديد الثنائية، الذى يجعل من التناقض بين الفضاء الريفى والحضرى المحور الرئيسى.

وهاتان الروايتان هما أيضا نصان حديثان مكتوبان على خلفية مدينة هى المدينة الثالثة، وكاتباهما ينتميان، كما ينتمى حمدى أبو جليل إلى جيل التسعينيات. وتحتل الضاحية مكانة مركزية كما لدى أبو جليل (الفضاء الوحيد لدى التلمسانى، ولكن ليس لدى عبد اللطيف) وكما نجد الحال عند أبو

إنه الأفق الضاحك للشوارع الواسعة وعقلانية المدينة: «قلقت عيناها بين الأنوار التى تتخطفهما، فلاحت لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة». (نجيب محفوظ، «زقاق المدق»).

جليل، فإن الكتابة دون أن تسمى نفسها كتابة سيرة ذاتية نراها تقترب منها كثيرا. فبناء السرد ليس بناءا كلاسيكيا وكل النصوص تدمج الراوى فى النص. وتؤكد هذه النقاط الثلاث تحليل صبرى حافظ بأن شكل النصوص الأدبية فى التسعينيات متأثر بشكل واضح بتطور الفضاء الحضرى.

«فإذا كانت روايات نجيب محفوظ مثلا هى التعبير الأدبى - من حيث بنائها ولغتها وعالمها - عن العلاقة بين المدينتين، فإن روايات التسعينيات هى بنت المدينة الثالثة تعبيريا وتصويريا على السواء»[10].

يشرح حافظ أن «ضيق التنفس الاجتماعى فى المدينة قد أدى إلى قصر النفس الروائى فى النص» فهناك «هذه الرغبة الملحة فى التناول التفصيلى للمكان» و«تقديم المكان (...) يتعمد تغريبه عن القارىء» و«كتابة الجسد»[11].

ووجدنا هذه الصفات الثلاث من خلال تحليلنا للنصوص الثلاثة المكتوبة فى التسعينيات.

ولقد أدى بنا تحليلنا لنصى التلمسانى وعبد اللطيف إلى الاستنتاج بأنهما يقدمان صفات مختلفة عن نص أبو جليل. ف «لصوص متقاعدون» هو أكثر هذه النصوص قتامة وسخرية: فيقتل الراوى/الشخصية المركزية أحد جيرانه لأسباب تافهة فى مشهد عبثى تماما. فى حين أن رواية «هليوبوليس» تعطى لنا إمكانية تفسير كتابة الماريونيت ومحركة الماريونيت/ الراوية كمحاولة للتحرر من خلال الكتابة لتجاوز آثار التربية البرجوازية الصارمة للبنات. فى نص ياسر عبد اللطيف يشكل التنقل بين عالمين مختلفين (الضاحية ووسط البلد) وهويات متعددة (قاهرية ونوبية) انفتاحا ممكنا وومضة أمل. وينتمى هذان الكاتبان إلى الطبقة الوسطى ولا يسكنان فى هذه المدينة الثالثة - وهو ما يفرقهما عن أبو جليل. فإذا كانت الخلفية الحضرية تؤثر على صورة المدينة، فإن وضع الكاتب الاجتماعى ووضعه فى الحقل الأدبى يؤثر عليها أيضا، ويجعلها أكثر تعقيدا فى نفس الوقت. نريد من خلال هذه الملاحظة أن نخفف من كلام صبرى حافظ الذى يؤكد أن كتاب التسعينيات حتى من هم «ليسوا من أبنائها (من أبناء المدينة الثالثة) عضويا نجد أنهم أبناء تصورها وزمنها وإيقاعها»[12]. فإن نص أبو جليل هو الوحيد الذى يعبر بهذا الوضوح عن الأفق المغلق وغياب الأمل الذى يعيشه الشباب فى ضواحى القاهرة الجديدة.

إن مفهوم «الحقل الأدبى» الذى أطلقه بورديو وطبقه ريشار جاكمون[13] على الواقع الاجتماعى والأدبى فى مصر كان مفيدا هنا لإلقاء الضوء على وسيط للتأثير، أى لتفسير كيف ولماذا نستنتج أن الواقع الاجتماعى والأدبى قد يؤثر على صورة المدينة فى هذه النصوص الأدبية. فيسمح مفهوم الحقل الأدبى بعدم الربط المباشر بين تطور الفضاء الحضرى وأشكال السرد فى كل عمل أدبى كما «يسمح مفهوم الحقل بألا نربط مباشرة بين باريس هوسمان وأشكال لوحات إدوار مانيه». وإذا رافقناه بعامل مثل الخلفية الحضرية قد يسمح هذا المفهوم بإعطاء تفسير لصورة المدينة فى هذا العمل الأدبى أو ذاك، تلك المدينة المنقسمة إلى فضاءين لا إمكانية للمصالحة بينهما أو ذلك الفضاء الحضرى المشتت التائه فى مدينة أصبحت أشبه بشبكة العنكبوت الضخمة. ■

هـــوامـــش:

(١) نجيب محفوظ، «زقاق المدق»، دار القلم، بيروت، ١٩٧٢، (الطبعة الأولى ١٩٤٧).

(٢) يوسف إدريس، «النداهة»، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٩ .

(٣) إبراهيم أصلان، عصافير النيل، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٩ .

(٤) حمدى أبو جليل، لصوص متقاعدون، ميريت، القاهرة، ٢٠٠٢ .

(٥) مى التلمسانى، هليوبوليس، دار شرقيات، القاهرة، ٢٠٠٠ .

(٦) ياسر عبد اللطيف، قانون الوراثة، ميريت، القاهرة، ٢٠٠٢ .

(٧) نجيب محفوظ، «زقاق المدق»، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ١٥٦ .

(٨) يوسف إدريس، «النداهة»، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٤-١٦ .

(٩) نفين النصيرى، «مكانيات التاريخ فى السرد، القاهرة أو البحث عن المكان المفقود، دراسة مقارنة بين قطعة من أوروبا» لرضوى عاشور، «خرائط للموج» لسهام بيومى و«هليوبوليس» لمى التلمسانى، ورقة تم تقديمها يوم ١٩ أكتوبر ٢٠٠٣ فى مؤتمر الرواية والمدينة المنعقد فى القاهرة من ١٨ إلى ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٣ .

(١٠) صبرى حافظ، «جماليات الرواية الجديدة: القطيعة المعرفية والنزعة المضادة للغنائية»، ألف ٢١، ٢٠٠١، ص١٩٥ .

(١١) نفس المصدر.

(١٢) نفس المصدر.

(١٣) ريشار جاكمون: «الحقل الأدبى المصرى منذ ١٩٦٧»، رسالة دكتوراة، جامعة أكس - مارسيليا ١، ١٩٩٩ .

كتاب الزاوية

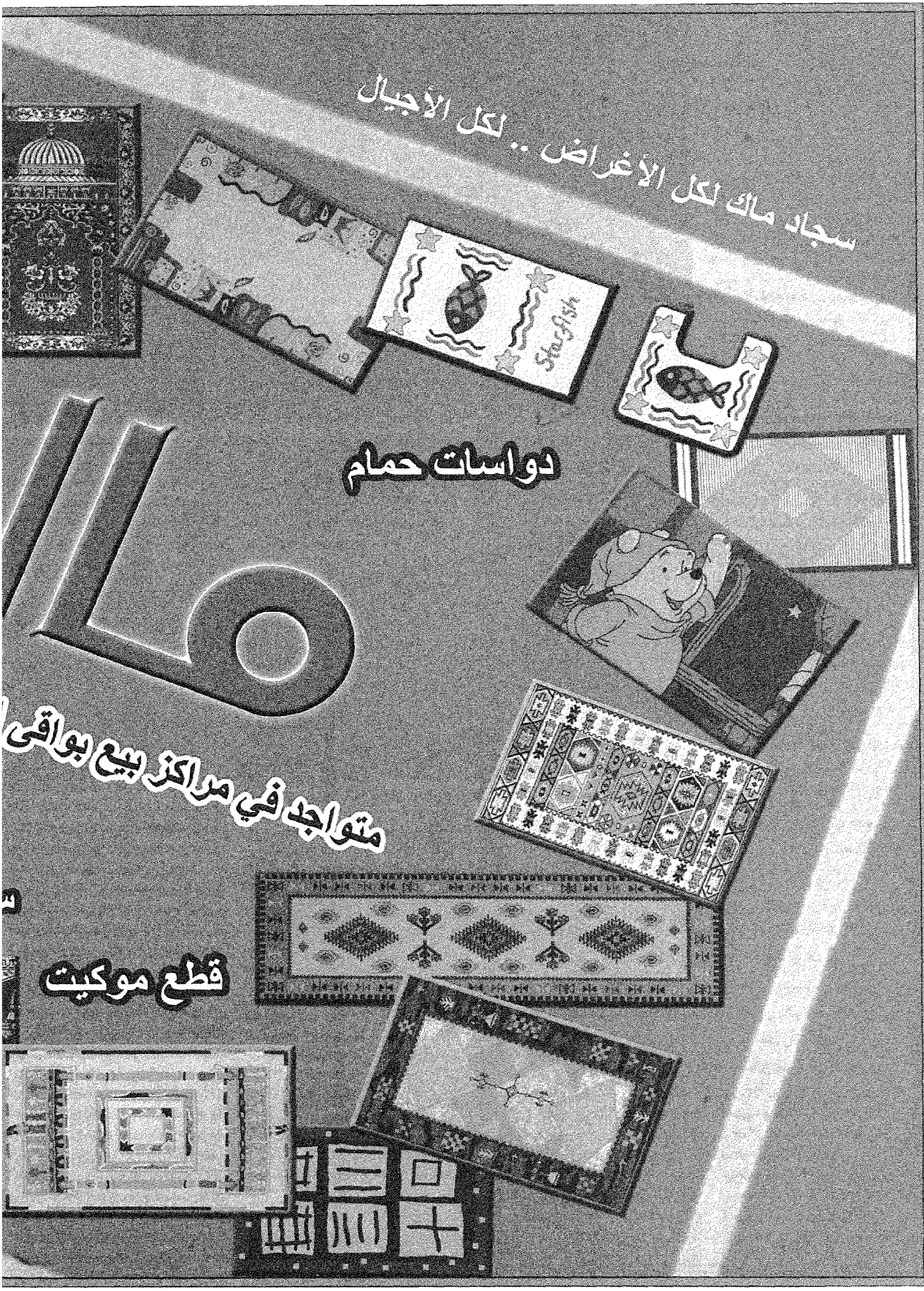
استدعاء حسنين باشا

مذكرات اللورد كيلرن

عدنا إلى السفارة، حيث استدعيت حسنين فى الساعة ١٢,٣٠ بعد الظهر، وكانت المقابلة لفترة قصيرة جداً، وقرأت على مسامعه بيانى الذى سجل منه نسخة له.

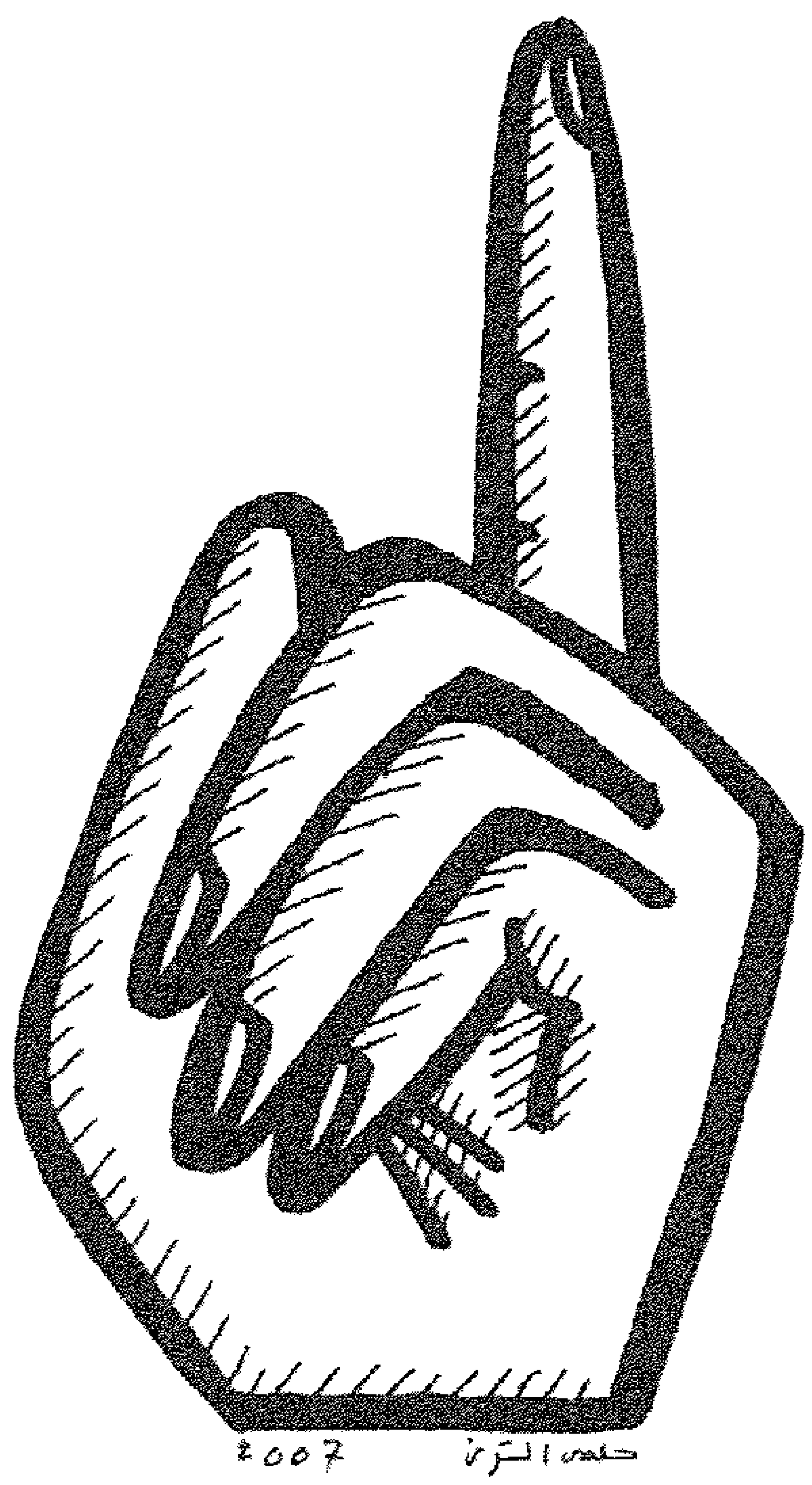
وقلت له: إنه ليس لدى الكثير لأضيفه ما عدا أننى كنت آمل أن يمارس ضغطه على الملك فاروق فنحن هذه المرة نظهر الضوء الأحمر بكل جدية، وبكل التأكيد على طلبى هذا، ورجوته أن يحذر الملك فاروق بأنى أتوقع رداً منه يتضمن معلومات، بأنه قد استدعى النحاس قبل الساعة ٦ مساء، وإلا ستحدث أشياء ليست فى الحسبان. والخطوة الثانية التالية كان يجب علينا أن نتأكد تماماً بأن النحاس الذى يصعب دائماً معرفة خط سيره، يكون جاهزاً بعد ظهر هذا اليوم للاستدعاء إلى القصر. وفى هذا الوقت كان من الصعب على عادة أن أعثر على أمين عثمان، ولكن أخيراً تمكنت من لقائه بدار السفارة فى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر، وقد أخبرته بما قلته لحسنين، وقلت له: إن من الأمور السياسية أن يكون النحاس جاهزاً. وطلبت منه أن يبلغ النحاس نص الكلمات التى قلتها لحسنين وآمل ألا يلجأ النحاس لأى طلبات ملتوية يتنصل بها من الموقف.

وقال أمين عثمان: لن يحدث شىء من هذا القبيل. بل إن النحاس يطلب ألا يحدث أى تراجع أو مراوغة فى موقفنا نحن، وقد أكد أمين للنحاس بأننا على أهبة الاستعداد لهذا الموقف. وأضاف أمين بقوله: إن مكرم استدعى إلى القصر، وقلت له بأنى آمل بألا يلجأ مكرم إلى اتخاذ أى موقف ملتو لا نرضاه نحن قبل لحظة الصفر بالنسبة لنا وهى الساعة ٦ مساء، وألا يحدث أى لبس فى هذا الميعاد المحدد.



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت


سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com



«الإسلام دين ودولة»

مساءلة مقال

محمد سليم العوا

حمدت الله أننى لم أستطع نشر مقالى هذا فى العدد السابق مع مقال الدكتور جابر عصفور، فلم أكن راغباً أن يشوش أحدنا على الآخر، كالذين يشاركون فى بعض البرامج التليفزيونية ليتناقضوا، فلا يستفيد المشاهد شيئاً

[١]

■■ عندما طلب منى المسؤول عن تحرير هذه المجلة «وجهات نظر» أن أكتب مقالا حول شعار (الإسلام دين ودولة) لينشر فى عدد شهر يونيو الماضى، وعدته بالاستجابة لطلبه. وكنت صادق العزم على ذلك، راغباً فى صنعه مقبلاً عليه. ثم حالت حوائل متكاثرة بينى وبين الوفاء بوعدى. فطلبت منه راجيا أن نرجئ المقال إلى عدد شهر يوليو، ولم يكن أمامه إلا القبول لأن عدد يونيو كان، كما أخبرنى، قد دُفع به إلى المطبعة فعلا عندما أبلغته اعتذارى!

فلما صدر عدد يونيو اكتشفت أن المشاغل التى حالت بينى وبين إنجاز المقال المطلوب فى وقته كانت من النعم الخفية. فقد كان القائم على هذه المجلة، سعيا لخير مطبوعته، يريد أن يضعنى فى «مواجهة فكرية» مع الصديق الأستاذ الدكتور جابر عصفور، يستعيد بها المتابعون من جيلنا لحياتنا الثقافية تلك المواجهات الفكرية الهادئة الرصينة التى طالما أثرت حياتنا الثقافية فى سنوات القرن العشرين، ومنها ماجرى فى غضون شهرى مايو ويونيو سنة ٢٠٠٠، بمناسبة صدور طبعة مصرية حكومية من رواية (وليمة لأعشاب البحر)(١) ذلك أن الدكتور جابر عصفور قد أتحف عدد يونيو ٢٠٠٧ من «وجهات نظر» بمقاله المعنون (الإسلام دين ودولة.. مساءلة شعار). ولو كنت قد أنجزت مقالتى فى الموضوع نفسه، ونشرت مع مقالته لكنا كمتحدثين يشوش أحدهما على الآخر، أو كالذين يشاركون فى بعض البرامج التلفزيونية ليتناقضوا لمجرد التناقض. فلا يستفيد المشاهد شيئًا ذا بال، أو لا يستفيد شيئًا على الإطلاق. وأنا أربأ بنفسى، وقبلها بالدكتور جابر عصفور، أن نقع فى هذه الخطيئة! لذلك حمدت الله أننى لم أستطع إنجاز مقالى فى الوقت الذى حدده أيمن الصياد، لأننى بذلك نجوت، ونجوت أخى الدكتور جابر عصفور، من مواجهة بلا فائدة.

إن إمساك الدكتور جابر عصفور بقلمه لابد أن تكون وراءه فكرة صالحة للمناقشة، أو قضية تستحق أن تثار، أو رأى تقبله أو لا تقبله، لكنك فى جميع الأحوال تعطى صاحبه حقه من الإنصاف والتقدير. والمناقشة، والموافقة أو المخالفة لا يؤتيان أكلهما، ولا يفعلان فى الحياة الثقافية فعلهما، إلا إذا تركت لكل رأى المساحة الزمنية الكافية لينظر فيه ذوو الرأى، ويتأمله أولو النهى، ويدرك صوابه أو عكسه الموافقون والمخالفون. لذلك حمدت الله مرة ثانية أن أتيحت لى، رغماً عنى وبلا سعى منى!، فرصة قراءة مقال الدكتور جابر عصفور قبل أن أشرع فى كتابة مقالى.

[٢]

تحرير محل النزاع تعبير من التعابير الشائعة فى العلوم العربية

والإسلامية. يريد به قائله إن تحديد مواضع الاتفاق ومواضع الاختلاف يجعل الوصول إلى كلمة سواء فى المسألة التى يجرى بحثها، أو يدور الخلاف حولها، أمراً ممكناً بلا صعوبة، أو بصعوبة يحتملها البحث العلمى ولا يضيق بأعبائها أهله المؤهلون له.

ومحل النزاع فى مسألة الدين والدولة فى الإسلام، التى يعبر عنها شعار (الإسلام دين ودولة)، ليست لغوية ولا لفظية، وإنما هى مسألة موضوعية متعلقة بمنزلة الأحكام التى تنظم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وسائر أنواع العلاقات الإنسانية الفردية والجماعية. من الإسلام. وهذه المسألة نفسها هى المسألة التى يعبر عنها شعار آخر، لم يعترض عليه حتى الآن أحد، يقول: (الإسلام عقيدة وشريعة)،

الإسلام عقيدة أى الإسلام دين.

والإسلام شريعة أى الإسلام دولة.

فإذا كان أحد لا يمكنه أن يمارى فى كون الإسلام عقيدة بقدر ما هو شريعة؛ فإن أحداً لا يجوز له أن يمارى فى كون الإسلام ديناً بقدر ما هو دولة.

والعقيدة (= الدين) هى الأحكام الإسلامية المتعلقة بالإيمان وما اتصل به؛ والشريعة (= الدولة) هى الأحكام الإسلامية المتعلقة بما يجب أن يفعله المؤمنون بالإسلام، وما يجب أن يمتنعوا عن فعله، وما يجوز لهم فيه أن يفعلوا أو لا يفعلوا. فالأول هو الواجب؛ والثانى هو المحظور أو المحرم؛ والثالث هو المباح.

ومن الشريعة أحكام العبادات، والمعاملات، ومن العقيدة الأحكام المتعلقة بالألوهية والنبوة والغيب بما فيه البعث والحساب والجنة والنار.

والقارئ للقرآن الكريم، والمطلع على دواوين السنة، لا يجد مناصاً من التسليم بأن القرآن وصحيح السنة يحتويان على القسمين من الأحكام جميعاً: ما تعلق بالعقيدة وما تعلق بالشريعة، أو ما تعلق بالدين وما تعلق بالدولة.

وليس مراد القائلين بأن (الإسلام دين ودولة) إلا أن المسلم كما تجب عليه الطاعة والانقياد فى شأن العقيدة وما يتصل بها، تجب عليه الطاعة نفسها والانقياد نفسه فى شأن الشريعة وما يتصل بها. ولذلك قال الشافعى فى رسالته الأصولية «ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها». وقال. أيضاً. «وقد فرض الله فى كتابه طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والانتهاء إلى حكمه، فمن قَبِلَ عن رسول الله فبفرض الله قَبِل»[٢].

والأحكام المتعلقة بالشريعة (= الدولة) فى القرآن الكريم والسنة النبوية محدودة العدد. والغالب من شؤون الحياة متروك ليقوم الخلق بتدبيره بحسب ما يحقق المصالح ويدفع المفاسد. بل إن من الفقهاء من يقول: «الشريعة كلها إما مصالح تجلب أو مفاسد تدرأ»[٣] وقد جعلوا من قواعدهم أن «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة»[٤].

ولكن القدر القليل من الأفعال المنصوص فى القرآن أو السنة على وجوبه أو تحريمه يجب، كلما عَرَضَ لمسلم، أن يمتثل فيه للأمر أو النهى، أى أن يلتزم بفعله أو بعدم فعله.

فإذا تبين هذا، ولا إخاله إلا بيناً، فإن المذهب الذى يريد أن يُخرج شؤون الحياة مما يجوز أن يعنى به الدين لا يكون مذهبا سديدا فى النظر الإسلامى.

وحاصل هذا أن التسليم والقبول بحقيقة أن (الإسلام عقيدة وشريعة) أو (دين ودولة) يعنى أن المرجعية العامة فى المجتمع هى للقرآن والسنة. فالحلول التى يضعها الفقه الإسلامى (=فهم القرآن والسنة) والقانون الوضعى للمسائل الجزئية متقاربة، والخلاف فيها ليس بذى بال، والفكر الفقهى يتسع لأكثر ما يتسع له الفكر القانونى الوضعى، بل ربما كان الفكر الفقهى أكثر رحابة من الفقه القانونى. لكن المشكلة هى أين توجد المرجعية؟ عندما نقول، ونؤمن، ونعمل بمقتضى القول والإيمان، إن الإسلام دين ودولة، أو عقيدة وشريعة، فإن مرجعيتنا ستكون هى القرآن والسنة. نلتمس فيهما الحكم للمسألة التى نواجهها، أو نهتدى بقواعدهما فى الاجتهاد المحقق للمصالح المانع للمفاسد. وعندما ننكر حقيقة الجمع الإسلامى بين العقيدة والشريعة، أو بين الدين والدولة سنولى وجوهنا شطر مرجعيات شتى ليس الإسلام من بينها[٥]، وهذه نتيجة يأباها تكويننا الثقافى، وهويتنا المتجذرة، وخصائص شعبنا الظاهرة والباطنة.

وللذى أسلفت بيانه كان رأى سعد زغلول فى كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، الذى أكثر من الإشادة به الدكتور جابر عصفور، هو ما سجله سكرتيره محمد إبراهيم الجزيرى وهو يحكى جواب سعد زغلول عن سؤال وجهه إليه نصه: «وما رأيكم فى كتاب (الإسلام وأصول الحكم)؟».

قال محمد إبراهيم الجزيرى:

«فاستعد دولته كما يستعد المحاضر لإلقاء محاضرة، أو الخطيب لإلقاء خطبة، ثم قال: لقد قرأته بإمعان، لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب، فعجبت أولا كيف يكتب عالم دينى بهذا الأسلوب فى هذا الموضوع؟!

وقد قرأت كثيرا للمستشرقين ولسواهم، فما وجدت ممن طعن منهم فى الإسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير، على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق.. لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنيا، ولا هو بنظام يصلح للحكم؟؟ فأية ناحية مدنية من نواحى الحياة لم ينص عليها الإسلام؟ هل البيع أو الإجارة أو الهبة، أو أى نوع آخر من المعاملات؟ ألم يدرس شيئاً من هذا فى الأزهر؟ أو لم يقرأ أن أمماً كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهوداً طويلة كانت أنضر العصور؟ وأن أمماً لا تزال تحكم بهذه القواعد. وهى آمنة مطمئنة؟ فكيف لا يكون الإسلام مدنياً ودين حكم؟؟..

وأعجب من هذا ما ذكره فى كتابه عن الزكاة؟! فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية؟..

....

«والذى يؤلمنى حقاً أن كثيراً من الشبان الذين لم تَقْو مداركهم فى العلم القومى، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد، سيتحيزون لمثل هذه الأفكار، خطأ كانت أو صواباً، دون تمحيص ولا درس، ويجدون تشجيعاً على هذا التحيز فيما تكتبه جريدة (السياسة) وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ على عبد الرازق، ومن تسميتها له بالعالم المدقق، والمصلح الإسلامى، والأستاذ الكبير... إلخ...

وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأى وبين قواعد الإسلام الراسخة التى تصدى كتابه لهدمها...»[٦].

والحاصل أن هذه الشهادة، التى يقدمها سكرتير سعد زغلول نفسه، تثبت أن سعدا لم يكن ليبراليا علمانيا، كما تُوهم مقالة الدكتور جابر عصفور، بل كان ليبراليا مسلما، حريصا على إسلامه، خبيرا به، لا يقبل التفريط فيه. وكلماته فى انتقاد الزج باسم الإسلام فى حفل افتتاح الجامعة المصرية صحيحة. لكن هذه الكلمات الصحيحة كانت اعتراضا على «التكلف» غير اللائق، يأتى فى غير مناسبته، ولم تكن اعتراضاً. بأية حال. على الإسلام نفسه.

[٣]

كيف نشأت مشكلة الدين والدولة أو العقيدة والشريعة؟ هذا سؤال إذا لم يكن جوابه واضحا ومستحضرا لا يمكن الوصول إلى قول فصل فى شأن المشكلة نفسها.

يذهب الدكتور جابر عصفور إلى أن أصل المسألة بدأ مع كتابات محمد رشيد رضا عن الخلافة الإسلامية (التى يعتبرها الدكتور عصفور مرادفاً للدولة الدينية)، ثم تأكد العمل لها والدعوة إليها فى كتابات حسن البنا الذى تحدث عن عالمية الدعوة التى أفضت فى النهاية. حسبما يرى الدكتور عصفور. إلى «أفعال الإرهاب الدينى المجاوزة للأقطار والقارات».

وهذا التصوير يغفل عن حقيقة مهمة هى أن الدعوة إلى فكرة «شمول الإسلام» لجوانب الحياة كافة لم تظهر فى بلادنا إلا رد فعل لمحاولات ترسيخ الدعوة العلمانية، فكرا وممارسة، فى مواجهة الأصل الإسلامى القائم بنظمه الاجتماعية، وأنساقه الثقافية، وقيمه الإنسانية، ومسلَّماته الفكرية فى السياسة والاقتصاد، التى مهما حادت عنها بعض الحكومات، فإنها بقيت هى الأمر الوحيد المقبول لدى الأمة وتنظيماتها المدنية ومؤسساتها الدينية.

لقد ظهرت الحركة الإسلامية الداعية إلى استعادة حقيقة (الدين والدولة = العقيدة والشريعة) تأكيدا لفكرة «شمول الإسلام» التى هى «خاصة أصيلة فيه. وهى خاصة ملاصقة له لا تبارحه، ولا يعود الإسلام مكتملا بغيرها. هذه الصفة تمارس فى الأحوال العادية. إذا وجدت مجالاً للإعمال. فإذا تصدى لها من ينكرها ويحاول تجريد الإسلام منها، ظهرت كمطلب يؤكد عليه المسلمون، وكشعار ترفعه الحركات السياسية. وشبيه بذلك وصف الاستقلال الوطنى، وهو وصف يلازم الجماعة وتمارسه، فإذا قام من ينكره، تحول إلى مطلب، وارتفع كشعار سياسى». فالحركة الإسلامية ظهرت بسبب أن «نظماً قامت بين المسلمين، وفدت من الخارج، وعملت على إقصاء الإسلام كمصدر للشرعية والاحتكام فى المجتمع. وأدى ذلك إلى إقصاء (بعض) الإسلام من العقول. فظهرت الحركات الإسلامية... الداعية إلى مطلق الإسلام كنظام للحياة»[٧] «والتأكيد على هذا المعنى الشامل (للإسلام) هو ما تمثلت به استجابة الحركة الإسلامية لما حدث فى الواقع السياسى والاجتماعى، عندما اتجهت حركة المجتمع إلى إضمار الإسلام وحصره فى نطاق العلاقة الباطنة بين الفرد وربه. وفى تقييد الإسلام فى حدود العبادات فقط وإقصائه عن أن يكون حاكما لنظام المجتمع ولعلاقاته... إن أى كيان حى عندما يلقى تحدياً لأى من جوانب عناصره وخصائصه الرئيسية إنما يُبرز لهذا الجانب من التحدى كل طاقاته، ويحشد قوة أجزائه جميعاً فى هذه الزاوية أو هذا الجانب الذى وقع فيه الخلل»[٨] فليس صحيحاً. وفق هذا التحليل الصحيح، ما يذهب إليه الدكتور عصفور من أن شعار (الإسلام دين ودولة) هو شعار «الخطاب الدينى الذى تنتجه بعض أصوات المؤسسة الدينية الرسمية، والخطاب الدينى لمجموعات الإسلام السياسى الموازية (لم أستطع معرفة أى شىء توازيه مجموعات الإسلام السياسى!) التى تسعى إلى الانقلاب على الدولة المدنية وإقامة دولة دينية مقابلها، نموذجها فى ذلك بعض تجارب حدثت فى إيران... و(دولة الفاتيكان) و(إسرائيل الحاخامات)». بل الصحيح أن الأصل الإسلامى المعهود، منذ نزل القرآن وآمن به الناس، هو أن الإسلام نظام يشمل بأحكامه النصية أو الاجتهادية جوانب حياة الناس كافة.

وليس صحيحاً. بالقدر نفسه أو أكثر. قول الدكتور عصفور إن شعار (الإسلام دين ودولة) يتضمن بعده التأويلى «أن كل ما ينتسب إلى الإسلام، خصوصاً فى تأويلات نصوصه القرآنية، أو وقائع سنته، ما يصلح لكل زمان ومكان، وما يصل بين الذر والذرى»... إلخ ما جاء فى صدر مقالته. ليس هذا الفهم صحيحاً لأن الذى يقوله العلماء بالإسلام، ويدعون إليه، ويعلمونه طلابهم، ويعظون به عوام المسلمين

وخواصهم، أن التشريع الإسلامي على ثلاثة أوجه:

وجه تضمنته نصوص لا نزاع في صحة نسبتها إلى الله ـ سبحانه ـ أو إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا نزاع في المقصود بها:

فعندما يقول القرآن الكريم (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً) (النساء:٧) فإن أحداً لا يستطيع أن يقول، وهو مستظل بظل من الإسلام واق، إن النساء لا يرثن، أو لا يرثن من كل مال يتركه المورث. لأن مثل هذا القول يناقض نصاً قرآنياً صحيح الورود قاطع الدلالة بلا مراء.

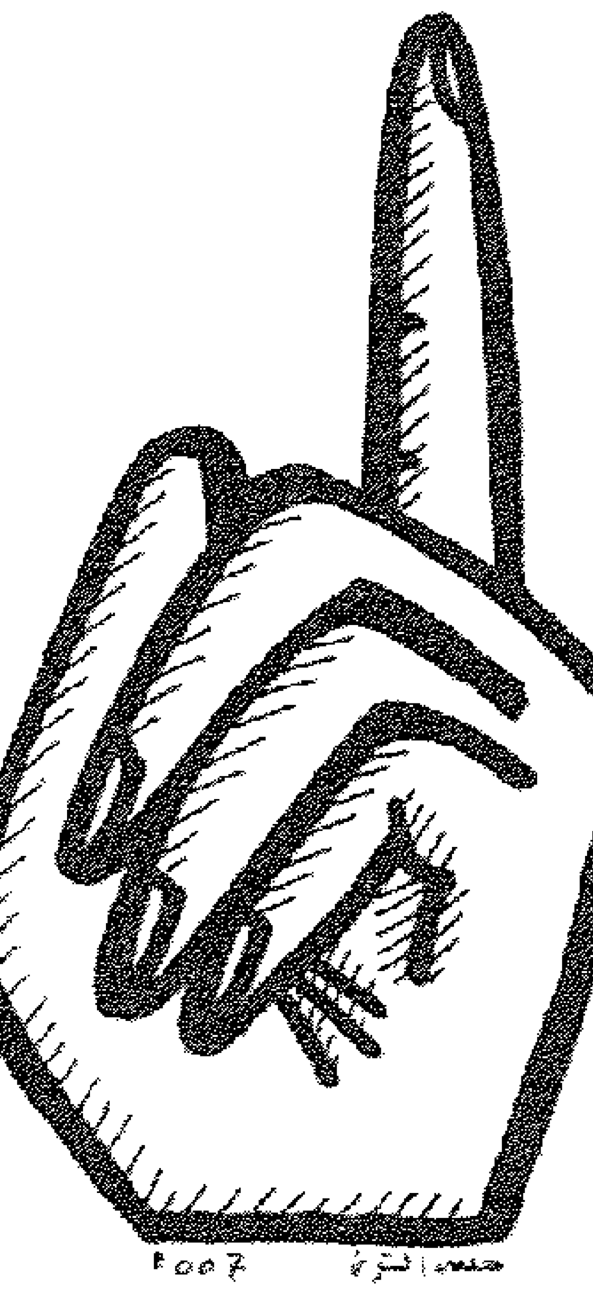
وعندما يأمر القرآن الكريم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يشاور المسلمين فيقول له: (وشاورهم في الأمر) (آل عمران:١٥٩) فإنه لا يجوز لأحد أن يقول، وهو مستظل بظل من الإسلام واق، إن الشورى غير واجبة على أصحاب القرار من الحكام والرؤساء وزعماء الجماعة والجمعيات وسائر التجمعات البشرية. لأن وجوبها على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني ضرورة وجوبها على كل قائد أو زعيم أو رئيس أو حاكم ـ ومن إليهم ـ بعده.

والأمثلة على هذا الوجه لا يجوز إحصاؤها في هذا المقام، وقد أحصاها العلماء وفصلوا في شأنها وأجملوا، في كتب أصول الفقه وآيات الأحكام، فليراجعها من شاء.

والقول في الأوامر والنواهي الثابتة بالسنة الصحيحة، مما لا يحتمل لفظه تأويلاً تسيغه اللغة، كالقول في النصوص القرآنية سواء بسواء. ولقد نقلت من قبل قول الشافعي ـ رحمه الله ـ «فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل».

ووجه تضمنته نصوص لا نزاع في صحة نسبتها إلى الله تبارك وتعالى، لورودها في القرآن الكريم؛ أو لا نزاع في صحة نسبتها إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما حققه علماء الحديث، ولكن ألفاظ هذه النصوص تحتمل التأويل الذي يجوز معه الاختلاف في مراد الله، أو مراد رسوله، منها. وهو أحد أسباب الاختلاف بين الفقهاء في الأحكام التفصيلية أو الجزئية:

فعندما يقول القرآن الكريم (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) (البقرة:٢٢٨)، وكلمة (القرء وجمعها قروء) تعني في اللغة التي نزل بها القرآن: الطهر أو الحيض، فيختلف الفقهاء هل المراد أن تبقى المرأة معتدة حتى تنقضي بعد طلاقها ثلاثة أطهار أم حتى تنقضي بعد الطلاق ثلاث حيضات؟ فإن هذا الاختلاف ـ الذي تسنده اللغة ـ لا بأس به، ولا يجوز النعي على صاحب أي من الرأيين بسببه. والتأويلان ـ وأمثالهما ـ قسائم متساوية لا جناح على من اختار أي تأويل منها فرآه صواباً وعمل به، ولا جناح على من



"الإسلام دين ودولة"

فإذا كان أحد لا يمكنه أن يماري في كون الإسلام عقيدة بقدر ما هو شريعة؛ فإن أحداً لا يجوز له أن يماري في كون الإسلام ديناً بقدر ما هو دولة

التسليم والقبول بحقيقة أن (الإسلام عقيدة وشريعة) أو (دين ودولة) يعني أن المرجعية العامة في المجتمع هي للقرآن والسنة

رأى الصواب في غيره فاتبعه وأفتى الناس به.

وعبارة الآية نفسها (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) تأولها بعض الفقهاء على أن المخلوق في الرحم هو الجنين، وتأولها بعضهم على أن المخلوق في الرحم ما يصيب النساء عند الأقراء. ولكل من التأويلين وجه صحيح تحتمله اللغة. والقول فيهما كالقول في سابقيهما.

وقل مثل ذلك في الأمر بكتابة الدين: (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه...) (البقرة:٢٨٢). فقد اختلف في مقتضى الأمر بالكتابة أهو للندب والإرشاد والاستحباب أم هو للوجوب؟ فذهب إلى الأول بعض الفقهاء، وإلى الثاني آخرون، ولكل رأي سنده من العرف المقارن للنص واللاحق عليه مستمراً بعده. ولا جناح على من ذهب إلى أي من الرأيين ولا إثم ولا تثريب.

وفي الحديث النبوي من هذا النوع من أنواع التشريع ـ أو الوجه من وجوهه ـ كثير يعرفه أهل العلم معرفة تجعلني في غير حاجة إلى التمثيل له. لكن الفارق، في هذا المقام، بين القرآن والحديث أن القرآن كله قطعي الورود؛ والحديث منه ما هو كذلك ومنه ـ بل أكثره ـ ظني الورود، روي بسند صحيح لكن رواته لا يبلغون حد التواتر الذي يفيد القطع بصحة نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصحة الرواية بمعايير علماء الحديث لا تمنع من الاختلاف ـ بالجملة ـ في قبوله أو رده. والعبارة المحتملة معاني عدة لا يجوز منع العلماء من الأخذ بأحدها أو بغيره. وإذا كان النص القرآني المحتمل لعدة دلالات يسمى (ظني الدلالة) فإن الحديث الذي لم يرو بالتواتر إذا احتملت عبارته معاني عدة يسمى (ظني الورود ظني الدلالة). وليس في القرآن ظني الورود أصلا. وهذا هو الفارق الأساسي بين نصوص القرآن ونصوص السنة النبوية.

ووجه ثالث من وجوه التشريع الإسلامي ترك تماماً للاجتهاد البشري الذي أرشد القرآن الكريم إلى طرقه، وأكدت السنة النبوية كيفية سلوك هذه الطرق. وغاية هذا الاجتهاد ومقصده هو تحقيق المصالح ودرء المفاسد. وهي نفسها غاية التشريع النصي.

لقد اكتفى التشريع النصي بالأمر والنهي فيما لا يتغير فيه وجه النظر إلى المصلحة والمفسدة، ودلنا على وجوب تحقيق المصلحة ودرء المفسدة فيما وراء ذلك مما يتغير الرأي فيه بتغير الزمان والمكان وظروف الإنسان.

وهذا النوع ـ أو الوجه ـ هو الأغلب الأعم فيما يعرفه الناس بالتشريع الإسلامي، وتعدد الاجتهادات فيه، وقاعدة تغيرها بتغير المصالح، وتغيرها بتغير الأعراف، ووجوب مراعاة ظروف المكان والزمان والإنسان تدل ـ كلها ـ على أن ما يقوله الدكتور جابر عصفور من أن تأويل شعار (الإسلام دين ودولة) يعني

ثبات الأحكام الإسلامية بحيث تغطى تفاصيل هذه الأحكام كل شىء: «فى الحياة الدنيا وما بعدها، فلا يصيبه تغير الزمن المتحول، أو تجدد الحاجات الإنسانية المتغيرة التى تؤكد أننا أدرى بشؤون دنيانا» هو عكس الذى يقوله علماء الإسلام، والدعاة إلى أن يستعيد مكانته التشريعية فى بلادنا الإسلامية.

والذين يقومون بهذا الدور التجديدى فى شأن التشريع الإسلامى هم الذين اشترط الدكتور عصفور فى الواحد منهم أن يكون: «مجتهداً، جامعاً شروط العلم وأدواته التى تعينه على الفهم، ولغيره من علماء الأزهر أن يبين صوابه أو خطأه فى الاجتهاد فى إطار المجادلة بالتى هى أحسن والدعوة إلى سبيل ربنا . جل وعلا . بالحكمة والموعظة الحسنة».

وهذا الكلام فى مجمله صحيح. فإنه لا يصح أن يكون الكلام فى التشريع، وهو صناعة دقيقة، ولا فى الإسلام، وهو عشرات العلوم المتداخلة، مباحاً لكل من هبَّ ودبَّ. بل يجب أن يقتصر ذلك. كما يقتصر الكلام فى كل تخصص. على أصحابه المؤهلين له.

ولكن قصر الدكتور عصفور حق الاختلاف على (علماء الأزهر) فيه تضييق لواسع لا يملك تضييقه أحد. وهو ينقل عن الإمام محمد عبده. نقلا صحيحاً. أن الإسلام ليس فيه سلطة دينية، إنما السلطة فيه لمن جمع أدوات العلم وآلاته، وهى سلطة إبداء الرأى الذى يحتمل أن يكون صواباً بقدر ما يحتمل أن يكون خطأ. لذلك يبقى حق الاختلاف والمناقشة والمحاورة مكفولا لكل عالم، أزهرياً كان أو غير أزهرى، وإلا لم يكن جائزا للدكتور عصفور نفسه أن يدلى بدلوه فى موضوع هذا الحوار، ولا أن يعتنى به المعتنون ويوافقه الموافقون أو يخالفه المخالفون. وهى نتيجة لا أرضاها، وأوقن أنه لم يقصدها.

[٤]

متى عرفت الأدبيات الدستورية والقانونية فى مصر، ومن بعدها فى العالم العربى، وصف الدولة بأنها ذات دين؟

إن الدكتور جابر عصفور يصف دستور (١٩٢٣) بأن منطلقه كان الشعار الذى رفعه سعد زغلول: (الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة). ويقول عن هذا الدستور إنه كان: «نموذجاً مضيئاً لدستور الدولة المدنية التى لا تسمح بوجود ديكتاتوريات مطلقة، وتجعل الوطن ملكاً للجميع بالفعل».

هذا الدستور نفسه هو أول وثيقة تأسيسية فى مصر تذكر أن للدولة ديناً. وأن هذا الدين هو الإسلام. ففى الجلسة السابعة عشرة، من جلسات لجنة وضع المبادئ العامة للدستور، المنعقدة يوم الجمعة ١٩٢٢/٥/١٩ اقترح فضيلة الشيخ محمد بخيت (مفتى الديار المصرية فيما بعد) أن ينص فى الدستور على أن «الدين الرسمى للدولة المصرية هو الإسلام». فوفق على هذا الاقتراح بالإجماع»، ثم عرض النص بصيغة: «الإسلام هو الدين الرسمى للدولة» فى اجتماع اللجنة العامة لوضع الدستور فى جلستها الثامنة عشرة، المنعقدة يوم الاثنين ١٤/ ١٩٢٢/٨ فوافق عليه بالإجماع». ثم عرض مرة ثانية فى اجتماعها المنعقد يوم الثلاثاء ١٩٢٢/١٠/٣ بصيغة جمعت بين الدين واللغة: «الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية» ووافقت اللجنة العامة عليه بالإجماع[١١].

واللجنة التى قررت هذا النص، وغيره من النصوص التى سيأتى ذكرها، لم يكن فيها أحد ممن يمكن أن يقال إنه ممثل (لمجموعات الإسلام السياسى الموازية)! بل إن ما يسمى (التيار الإسلامى) لم يكن قد عرف فى الحياة السياسية أو الثقافية أصلاً، فهو لم يوجد إلا مع اتساع نطاق نشاط الإخوان المسلمين منذ سنة ١٩٣٦[١٢].

وكانت لجنة المبادئ العامة للدستور مكونة من ثمانية عشر عضواً خمسة منهم من الأقباط، وواحد يهودى، وواحد من علماء المسلمين هو الشيخ محمد بخيت المطيعى، وكان سائر أعضائها من ذوى الثقافة الغربية الخالصة، أو تكاد! وكان فيها من ذوى الثقافة الإسلامية شيخ الطرق الصوفية ونقيب الأشراف السيد عبد الحميد البكرى، والشيخ محمد خيرت راضى، وإن لم يكن لوجودهما أثر يذكر فى أعمال اللجنة. ولم يعترض أحد من أعضاء اللجنة، مسلمين أو غير مسلمين على اقتراح النص على أن (الإسلام دين الدولة).

ومن الطريف أن الاقتراح الذى اعترض عليه فى تلك اللجنة، ونوقش مناقشات مستفيضة أدت إلى سقوطه ورفضه بالإجماع، كان اقتراح تمثيل الأقلية الدينية بنسبة خاصة فى البرلمان بل إن الأقباط من خارج اللجنة، وخارج التجمعات السياسية، أرسل بعضهم إلى اللجنة يقول: «الأقباط قبل المسلمين يعارضون تخصيص مراكز برلمانية للأقباط.... وكل تخصيص من هذا النوع هدم للقومية المصرية... ولن يخرج قبطى على الأمة بتقدمه للانتخابات لتمثيل الأقلية»[١٣].

ولم يكن نص المادة (١٤٩) من دستور (١٩٢٣) هو وحده الذى يشير إلى الدين. بل وردت الإشارة إليه فى المادة (١٢) «حرية الاعتقاد مطلقة». وفى المادة (١٣) «تحمى الدولة حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد طبقاً للعادات المرعية فى الديار المصرية، على ألا يخل ذلك بالنظام العام ولا ينافى الآداب».

وأشارت المادة (١٥٣) إلى سلطة الملك وكيفية مباشرتها فيما يختص «بالمعاهد الدينية، وبتعيين الرؤساء الدينيين، وبالأوقاف التى تديرها وزارة الأوقاف وعلى عموم المسائل الخاصة بالأديان المسموح بها فى البلاد...».

فالملك لم يكن رئيساً لدولة علمانية لا شأن لها بالدين، بل كان رئيساً لدولة دينها الإسلام، ودستورها يخوله سلطات على عموم المعاهد الدينية، والرؤساء الدينيين، والأوقاف، وعموم المسائل الخاصة بالأديان المسموح بها فى البلاد!!

هذا هو الدستور «الليبرالى» «العلمانى» الأول فى تاريخ الدولة المصرية الحديثة[١٤].

وتوالت الدساتير المصرية (١٩٣٠) الذى عمل به لمدة خمس سنوات عاد بعدها العمل بدستور (١٩٢٣) إلى أن قامت (الحركة المباركة) فى يوليو (١٩٥٢). ثم مشروع دستور (١٩٥٤) الذى لم يصدر، ثم دستور (١٩٥٦)، ثم دستور (١٩٦٤)، ثم الدستور الدائم (١٩٧١) الذى هو دستورنا الحالى (المعدل ثلاث مرات حتى الآن)! ولم يخل دستور من هذه الدساتير من النص على دين الدولة ولغتها، ولا من نصوص أخرى تدل على إسلاميتها، واحترامها الأديان السماوية كافة[١٥].

وفى التعقيب على ظهور نص (دين الدولة) فى دستور (١٩٢٣)، وما تلاه من الدساتير، يقول المستشار الجليل طارق البشرى: «أقر بذلك معه (أى مع الشيخ محمد بخيت المطيعى) أهل جيله كله من الفقهاء بأن يكون للهيئة دين، وأن الدين ليس من خصائص الإنسان فقط، إنما يمكن أن يكون للهيئات التى تنظم أمور البشر وتدير شؤونهم وتتكون منهم»[١٦].

فالنظام السياسى فى مصر، إذن، لم يكن أبداً فى تناقض مع الدين، ولم يكن فى حال عداء مع علمائه أو دعاته. ولم يحدث مثل هذا التناقض، ولم ينشأ مثل هذا العداء، إلا بعد وقوع الخلاف بين ثورة يوليو وجماعة الإخوان المسلمين. وهو خلاف سياسى بحت لا شأن للدين ولا للتدين، ولا بموقف الدولة منهما، بأسبابه وملابساته ونتائجه[١٧].

والنص على أن (الإسلام دين الدولة) شأنه شأن النص على أن (اللغة العربية لغتها الرسمية) كلاهما نص كاشف وليس نصاً منشئاً. معنى النص الكاشف أنه نص يصف حالا كانت قائمة قبله، مستقرة فى ضمير الجماعة، معروفة من شأنها دون حاجة إلى البحث عن سند لها فى النصوص التى تنظم اجتماعها. ومعنى النص المنشئ أنه نص يقرر حكماً جديداً جاء به المشرع الدستورى لأول مرة ليفرض وصفاً غير مألوف ولا معروف من قبل، ويدخل ما يترتب عليه من آثار ونتائج فى جملة موجهات التشريع، أو موجهات العلاقات الاجتماعية، فى الجماعة السياسية التى ينظمها ويحكم علاقاتها هذا الدستور.

ولأضرب مثلاً بما فى نصوصنا الدستورية الحالية من نصوص لأبين المعنيين اللذين ذكرتهما.

إن نص المادة الأولى من الدستور، قبل تعديله فى الاستفتاء الذى أعلنت نتيجته يوم ٢٠٠٧/٣/٢٧، كان يقرر أن مصر «جمهورية اشتراكية ديمقراطية تقوم على تحالف قوى الشعب العاملة». ويقرر أيضاً أن «الشعب المصرى جزء من الأمة العربية....إلخ».

فكون مصر جمهورية اشتراكية... إلخ معنى أنشأته النصوص الدستورية التى قررت الاشتراكية مذهباً اقتصادياً لمصر وهو معنى بدأ تقريره فى دستور (١٩٦٤) ولم يكن موجوداً قبل ذلك؛ وعدل دستور (١٩٧١) صيغته وإن لم ينل من محتواه. ثم جاء تعديل هذا النص سنة ٢٠٠٧ ليلغى ذكر الاشتراكية وذكر تحالف قوى الشعب العاملة. وكان السبب الداعى إلى هذه التعديلات، وبعض التعديلات الأخرى هو، بحسب ما طلبه الرئيس من مجلسى الشعب والشورى: «تحقيق التلاؤم مع الأوضاع الاقتصادية والسياسية المعاصرة وعدم فرض نظام اقتصادى معين على المجتمع لا يمكن العدول عنه إلا بتعديل النص وتجنب العبارات التى تفيد الانتماء لنظام اقتصادى بذاته يمكن أن يتجاوزه الزمن بما يفرزه من تطورات ومستجدات».

واستجابة لهذا الطلب الرئاسى عُدِل نص المادة الأولى من الدستور فحذفت منه الإشارة إلى النظام الاشتراكى، والإشارة إلى تحالف قوى الشعب العاملة. وجاء النص الجديد (الذى تقرر بالاستفتاء المعلنة نتيجته فى ٢٠٠٧/٣/٢٧) مضيفاً معنىً قائماً فى ضمير الجماعة مستقراً فى وجدانها هو أن نظام الحكم «يقوم على أساس المواطنة» وبذلك أصبح نص المادة الأولى . بعد تعديل فقرتها الأولى . خالياً من أى نص منشئ لحكم جديد، إذ المواطنة معنى مستقر فى الضمير السياسى المصرى بغير نص، تدل على ذلك المناقشات التى جرت فى لجنة إعداد دستور (١٩٢٣) حول فكرة تمثيل الأقلية. فلم يأت النص فى المادة الأولى من الدستور الحالى. بعد تعديله باستفتاء ٢٠٠٧ . بجديد فى شأنها.

وقد ألغيت المادة (٥٩) من الدستور. بموجب الاستفتاء المذكور. فيما كانت تتضمنه من أن «حماية المكاسب الاشتراكية واجب وطنى...إلخ». وهو نص كان منشئاً لحكم جديد أتى به المشرع الدستورى من خارج المعانى المستقرة فى تاريخ الجماعة ووجدانها السياسى. وحل محل «حماية المكاسب الاشتراكية»، بعد استفتاء ٢٠٠٧/٣/٢٧. نص يقول «حماية البيئة واجب وطنى...إلخ». وسوف يختلف التفسير حول هذا النص: أهو كاشف أم منشئ، وهو اختلاف لا حاجة بنا إلى الإدلاء فيه برأى فى هذا المقال!

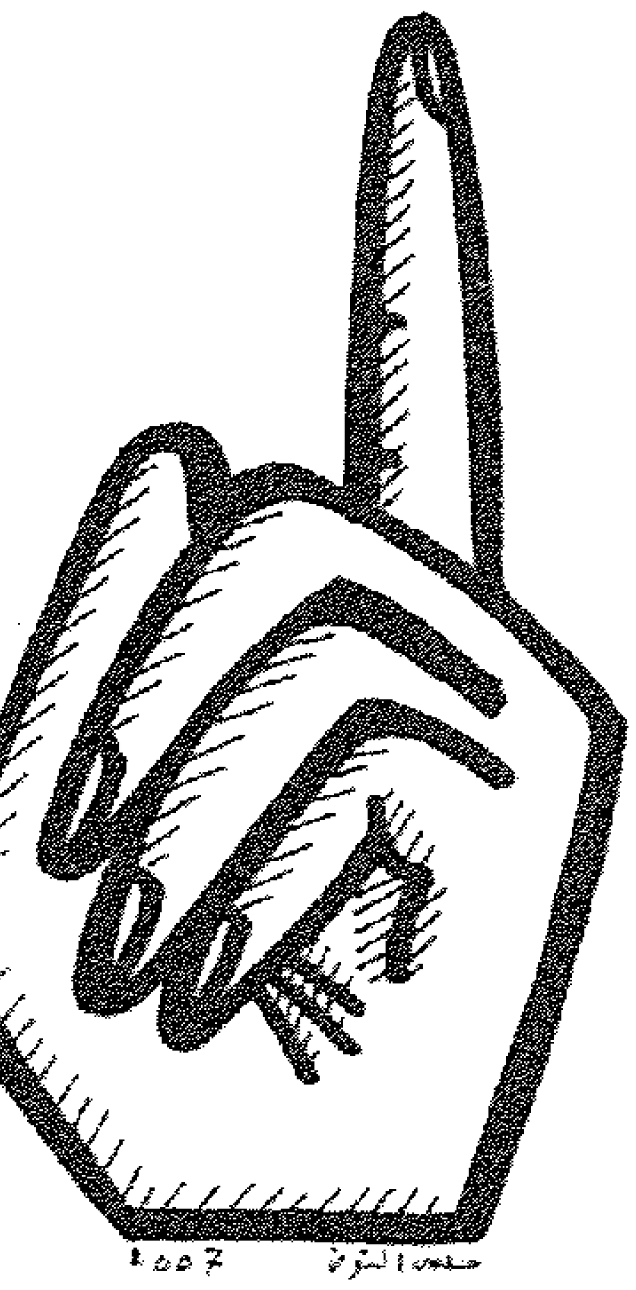
والنص على أن «الشعب المصرى جزء من الأمة العربية...إلخ» نص يعبر عن حال قائمة فى الجماعة، مستقرة بها، لا توصف الجماعة بغيرها. فهو يصف هذه الحال القائمة دون أن يوجدها من العدم، ويعترف بقيامها دون أن يقحمها إقحاماً على التنظيم السياسى أو حقائق الاجتماع الإنسانى المصرى. ولذلك لم تتناولها يد التعديل فى استفتاء (٢٠٠٧). ولو أنه عدل لما أثر هذا التعديل على الحقيقة الواقعية. فمصر شعبها جزء من الأمة العربية بنص وبغير نص!

والنص فى المادة الخامسة من الدستور على أن يقوم النظام السياسى المصرى «على أساس تعدد الأحزاب» نص منشئ فلم يكن فى مصر، منذ إلغاء الأحزاب السياسية بقرار من مجلس قيادة الثورة سنة (١٩٥٣)، أحزاب يقوم عليها النظام السياسى. واستمر النظام السياسى فى ظل دستور (١٩٧١) قائماً على تحالف قوى الشعب العاملة من خلال الاتحاد الاشتراكى العربى إلى أن عدّل نص المادة الخامسة بموجب إعلان نتيجة الاستفتاء الذى أجرى فى ٢٢/٥/ ١٩٨٠. وليست فكرة الأحزاب من مقومات الجماعة السياسية أو الدولة فكلتاهما قائمة بوجود الأحزاب وقائمة دون وجودها.

والتعديل الذى أصاب هذا النص بمقتضى استفتاء ٢٠٠٧/٣/٢٧ أضاف إليه حكماً جديداً يمنع «مباشرة أى نشاط سياسى أو قيام أحزاب سياسية على أية مرجعية دينية أو أساس دينى، أو بناء على التفرقة بسبب الجنس أو الأصل». وهذه الفقرة تجمع بين حكمين أحدهما مفروض على الجماعة من خارجها، لا يقره وجدانها الجمعى، ولا تقبله تجاربها المستمرة على امتداد الدولة الحديثة فى مصر، وهو حكم منشئ لا كاشف، أعنى بذلك منع «مباشرة أى نشاط سياسى... على أساس مرجعية دينية أو أساس دينى». لذلك كانت المعارضة لاقتراح هذا النص. قبل إقراره. عالية النبرة، متسعة النطاق، ولا يزال الرضا به محدود المدى إذا قورن بالاعتراض على وجوده. والحكم الثانى فى هذه الفقرة نفسها يتضمنه نص كاشف لا منشئ. وأعنى به الحكم الذى منع قيام النشاط أو الحزب السياسى على «التفرقة بسبب الجنس أو الأصل». فهذه التفرقة لم تعرفها الجماعة السياسية المصرية فى تاريخها كله، وهى ممقوتة فى مستوى المشاعر لدى المصريين كافة، مرفوضة فى الممارسة منهم جميعاً بنص أو بغير نص. والجمع بين النص المنشئ والنص الكاشف فى سياق واحد يُعد من بدائع الصياغة القانونية أو. إن شئت قلت من بدعها. لكن الأبدع منه عدم ذكر «التفرقة بسبب الدين» وهى المعنى المخُوف أصلا، والسلوك المراد التحوط له بالنص الدستورى المضاف!!

والنص فى المادة التاسعة من الدستور الحالى على أن: «الأسرة أساس المجتمع، قوامها الدين والأخلاق والوطنية»: وهو نص عرفته الدساتير المصرية منذ وضع مشروع دستور (١٩٥٤) واستمر مكرراً فى الدساتير بعده إلى دستورنا الحالى: هذا النص كاشف وليس منشئاً.

فالزواج فى مصر عقد يحكمه الدين (الإسلامى أو المسيحى أو اليهودى) الذى ينتمى إليه الزوجان. أو أحدهما عند اختلاف الدين، فى الزواج الجائز شرعاً وقانوناً بين المختلفين ديناً. والأسرة، منذ كانت فى مصر، أسرة تقوم على الدين والتدين وحفظ الأخلاق ومراعاتها



«مساءلة مقال»

هذه الشهادة، التى يقدمها سكرتير سعد زغلول نفسه، تثبت أن سعداً لم يكن ليبرالياً علمانياً، كما توهم مقالة الدكتور جابر عصفور، بل كان ليبرالياً مسلماً، حريصاً على إسلامه، خبيراً به

ظهرت الحركة الإسلامية الداعية إلى استعادة حقيقة (الدين والدولة - العقيدة والشريعة) تأكيداً لفكرة «شمول الإسلام» التى هى «خاصة أصيلة فيه، وهى خاصة ملاصقة له لا تبارحه، ولا يعود الإسلام مكتملا بغيرها

وتلقينها للأجيال جيلاً بعد جيل، والوطنية معنى مستقر فى ضمير الجماعة لا يحترم المجتمع من لا يقيم له وزناً بحيث يحكمه فى آرائه وتصرفاته وعلاقاته.

وهكذا لا يأتى هذا النص بجديد لم يكن، ولا يُوجد من العدم حكماً يفرضه على رقاب العباد فرضاً، إنما هو يكشف عن المعانى التى كانت. ولا تزال. ضاربة بجذورها فى تكوين الجماعة المصرية، مسيطرة عليها، منظمة لتجمعها فى شكل اجتماعى خاص هو شكل الأسرة.

والنصوص الكاشفة نصوص لا ينشئ المشرع الدستورى أحكامها بل يبين. بالنص عليها. وجود هذه الأحكام وجوداً راسخاً فى ضمير الجماعة. ولذلك يكثر فى القضاء الدستورى التعبير عن مثل هذه الأحكام بأنها «مقررة ولو بغير نص» أو «قائمة ولو لم ينص الدستور عليها» ونحو ذلك من العبارات.

ولا يؤثر خلو دستور، يعمل به فى مرحلة من مراحل التطور السياسى للوطن، من بعض النصوص الكاشفة عن بعض المعانى المستقرة فى ضمير الجماعة على وجود هذه المعانى ولا على الالتزام بها. إن هذا «الخلو» يعيب المشرع الدستورى الذى صاغ النصوص، ويعيب النصوص الدستورية نفسها بعيب النقص والقصور عن التعبير عما يكون الجماعة ويشكل توجهها فى جانب من الجوانب. لكنه لا يؤثر بأى معيار على وجود الحكم وإلزامه.

ذكرت ذلك كله، واستطردت فى بعض أجزائه، لأقرر أن هوية الدولة، وكونها إسلامية، أمر مقرر فى الوجدان المصرى سواء أنص عليه الدستور أم لم ينص. وأن ما صنعه واضعو دستور (١٩٢٣) فى هذا الشأن لم يكن أكثر من الكشف عن هذا المعنى المقرر وبيانه وذكره فى وثيقة الدستور. دون أن يعنى ذلك. بأية حال. أنهم أوجدوه من العدم، أو أتوا به من خارج الوجدان الجمعى المصرى ليفرضوه عليه فرضاً. ويحملوا الناس على الإقرار به حملاً.

ثم إن استمرار النص على المرجعية الإسلامية للدولة. وهو تقرير لأمر واقع. فى الدساتير المصرية المتوالية له «دلالة جد مهمة، لأن مقارنة هذه الدساتير بعضها ببعض، تكشف عن أنه لم يكن ثمة نظام دائم لمصر على هذا المدى (الزمنى) فيما عدا الإقرار بعدد من المسلمات منها أن دين الدولة الرسمى الإسلام. كانت هذه الدساتير تتراوح بين النظام الملكى والنظام الجمهورى، وتتراوح بين الملكية المستبدة (١٩٣٠) والملكية البرلمانية (١٩٢٣) وتتراوح فى النظام الجمهورى بين النظام الرئاسى والنظام القريب من البرلمانى، وتتراوح بين نظام الحزب الواحد ونظام تعدد الأحزاب، وتتراوح بين النظام الاشتراكى القائم على تقييد الملكية العامة وبين النظام الرأسمالى الذى يطلق حرية الملكية الخاصة، وبين.... وبين إلخ ولكن بقيت اللغة عربية والدين إسلامياً. وهذا يكشف وجه

ثبات لا يوجده الدستور ولكنه لا يملك إلا أن يعترف به، ويكشف عن أنه نص حاكم لغيره وليس محكوماً بغيره، والمعنى هنا يستفاد بالاستقراء العلمي للتجربة التاريخية للأمة ودولتها»[18].

ومما لا خلاف فيه، بين أهل الاختصاص، أن إسلامية الدولة لا تنافي مدنيتها، بل هي مقررة في شريعة الإسلام وفقهه على نحو تكفي فيه الإحالة إلى بعض المصادر القريبة من يد كل باحث دون الاستفاضة في حديث متخصص يضيق بتفاصيله ما نحن بصدده من شرح شعار ومساءلة مقال![19].

[٥]

ردّد الدكتور جابر عصفور، في مواضع من مقاله، فكرة شائعة تقول إن الملك فؤاد الأول، ملك مصر، كان متطلعاً إلى تولي خلافة المسلمين «من قبيل البحث عن مدى أوسع للنفوذ». وأحال الدكتور عصفور قراءه إلى أعداد مجلة المنار في عشرينيات القرن الماضي لتأكيد ما يقول.

وهذه الفكرة الشائعة يتداولها كثيرون ممن يكتبون عن مسألة الخلافة، وعن الفكر السياسي الإسلامي، ويذكرونها كأنها مسألة مسلمة لا تحتاج إلى دليل. وأمثل من تناول هذه الفكرة طريقة كان المستشار الجليل طارق البشري الذي لم يزد على القول بأن «الخلافة تحولت من رابطة انتماء تاريخي، ومن تشخيص للجماعة ووثاق بين عقيدة وسياسة، تحولت من ذلك إلى مجرد شعار سياسي دارج، يلعب به حكام صغار، مثلما استعمله الملك فؤاد في مصر ضد معارضيه السياسيين»[20].

وقد اهتممت منذ زمن بهذه المسألة، أعني مسألة طمع الملك فؤاد في أن يصبح خليفة للمسلمين، وإعلانه طموحه إلى ذلك، وأن كتاب الشيخ علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) كان، في حقيقة أمره، تصدياً لمحاولة الملك فؤاد إسناد منصب الخلافة الإسلامية إليه بعد أن ألغاها الكماليون في تركيا في ٣ مارس سنة ١٩٢٤. وانتهيت من بحث أصل هذه المسألة إلى أنها لا أصل لها، أو ليس لها أصل ثابت صحيح. إنما هي مقولة قيلت، ثم سرت في الناس مسرى الحقائق التي لا تحتاج إلى تمحيص ولا توثيق حتى قبلها الثقات العدول من الكتاب والمؤرخين في جملتهم.

وعندما عدت إلى أعداد المنار، بمناسبة مقال الدكتور عصفور، لم أجد في أعدادها التي تناولت مسألة الخلافة، وهي الأعداد الصادرة في سنوات ١٩٢٣ و١٩٢٤ و١٩٢٥ أي ذكر لخلافة يتولاها الملك فؤاد. بل وجدت فيها تصريحاً على لسان الشيخ محمد رشيد رضا بأن مصر لا تصلح لأن تقوم فيها الخلافة الإسلامية التي كان محمد رشيد رضا يدعو إليها.

كان الشيخ رشيد يدعو إلى خلافة في الحجاز، أو في تركيا، أو في منطقة وسطى من البلاد التي يكثر فيها العرب والترك. واقترح لذلك أن تقام الخلافة في مدينة الموصل (المتنازع عليها آنئذ بين العراق وتركيا وسوريا). أما مصر فقال الشيخ رشيد رضا عنها: «ومكانة مصر تلي مكانة جزيرة العرب في هذا الأمر (أمر استحقاق قيام الخلافة فيها) لو كانت مستقلة وأرادت إقامة الخلافة الشرعية الصحيحة ولكن المتفرنجين فيها كالمتفرنجين في الترك يأبى أكثرهم ذلك ويجهل قيمته. والدولة البريطانية عدوة الخلافة والعرب تعارض هذا وذلك بكل قواها»[21].

والدعوة إلى الخلافة التي كان يبثها الشيخ رشيد رضا، ورأى فيها الدكتور عصفور دعوة إلى الحكومة الدينية «تلقفها منه وحمل رايتها عنه حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩) مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وداعيتها الأول»، هذه الدعوة لم تكن أبداً دعوة إلى حكومة دينية بالمعنى الذي دندن حوله الدكتور عصفور في مقاله كله. إن محمد رشيد رضا، في مقالته عن مؤتمر الخلافة، يقول إن «المطلوب الأول منه وضع نظام للإمامة العظمى يدخل في بابين (أحدهما) قواعد حكومة إسلامية مدنية... (وثانيهما) قواعد للتربية والتعليم الجامعين بين هداية الدين ومصالح الدنيا... ويدخل في هذا.... الحث على الاشتراك مع جميع الشعوب في خدمة الإنسانية العامة، وترقية الآداب والحضارة في جميع الأمم...»[22].

فالمنار لم تتحدث عن طموح فؤاد ملك مصر لتولي الخلافة، ولم تؤيده. ولم تتحدث عن حكومة دينية، إنما تحدثت عن حكومة إسلامية مدنية تتعاون مع الشعوب في خدمة الإنسانية العامة، وتراعي حقوق جميع أصناف سكان البلاد الخاضعة لسلطانها، مراعاة قال فيها رشيد رضا: «وصدر الشرع الواسع لا يضيق بشيء من ذلك»[23].

أما طموح الملك فؤاد للخلافة فإن البحث التاريخي فيه ينطق بحقيقتين: الأولى أن ترشيح الملك فؤاد للخلافة لم يكن مطلباً له، ولا مطلباً مصرياً، وإنما هو اقتراح صحفي فرنسي (!)

يقول الدكتور يونان لبيب رزق «رأى عديدون (لا يذكر منهم أحداً) أن أكثر الشخصيات لياقة لتولي مكان الخليفة الشاغر الملك فؤاد الأول، مما عبرت عنه نفس الجريدة الفرنسية، الليبرتيه، ونقلته عنها الأهرام يوم ٢٣ يونيو (١٩٢٥) وجاء فيه أن الحل الأمثل ترشيح جلالة الملك فؤاد الأول للخلافة، فهو يجمع حول عرشه أكبر أمة إسلامية، وقد قامت الأدلة الكثيرة على ما اتصف به جلالته من سمو الأخلاق والذكاء والحكمة وحسن السياسة، تضاف إلى ذلك مكانة تاريخية مجيدة تستخلص من تقاليد أسرة محمد علي العظيمة»[24].

الحقيقة الثانية هي ما ذكره أحمد شفيق باشا، في كتابه حوليات مصر السياسية، من أن «الأمير عمر طوسون. بعد أن تواردت عليه الرسائل العديدة من طبقات مختلفة، بخصوص عقد مؤتمر عام للنظر في مسألة الخلافة. كتب إلى رئيس الوزراء دولة سعد زغلول باشا خطاباً في ١٥ مارس (١٩٢٥) يسأله فيه رأي الحكومة في عقد هذا المؤتمر في مصر. وأن سعد زغلول أجاب بكتاب مؤرخ ١٨ من الشهر نفسه يقول فيه للأمير عمر طوسون إنه عرض خطابه على جلالة الملك لاختصاصه بمسألة الخلافة التي لها علاقة بشخصه الكريم، وسأبلغ سموكم بما أتلقاه من جلالته في هذا الشأن» ثم يقول أحمد شفيق باشا إن سعد زغلول قابل جلالة الملك وعرض عليه مذكرة الخلافة، فرفضها جلالته قائلاً: «كيف أقوم بالواجب نحو جميع المسلمين مع أن حملي ثقيل بالنسبة لمصر وحدها؟»[25].

وهاتان الحقيقتان تؤكدان أن الملك فؤاد الأول لم يكن طامحاً بوجه من الوجوه إلى خلافة المسلمين. وأن الذين تناولوا هذا الأمر بالبحث والاقتراح إما أجانب، كصحيفة الليبرتيه الفرنسية، وإما محبون للملك، حريصون على موافقته على أي إجراء يتم في شأن الخلافة، ولو كان مؤتمراً للعلماء. مثل الأمير عمر طوسون. أما الملك نفسه فقد رفض الأمر كله عندما عرضه عليه رئيس وزرائه سعد زغلول.

ولعل أهم ما يؤكد أن كتاب الشيخ علي عبد الرازق لا شأن له بمسألة تولي الملك فؤاد الخلافة أن الكتاب، كما يقول كاتبه نفسه، كُتب عندما كان الخليفة العثماني محمد الخامس هو خليفة المسلمين. ومحمد الخامس تولى الخلافة سنة (١٩٠٩) وبقي فيها إلى عام (١٩١٨). والملك فؤاد تولى عرش مصر تحت اسم السلطان فؤاد الأول في ١٠/٩/١٩١٧ ولم يصبح ملكاً إلا في سنة (١٩٢٢)[26]. فكيف يهاجم الكتاب ملكاً لم تكن له هذه الصفة عند تأليفه؟!

أظن أن الدكتور جابر عصفور يوافقني، بعد هذه الإشارة التاريخية المعبرة، على أن موضوع الملك فؤاد والخلافة، ومجلة المنار والخلافة، يحتاجان إلى مراجعة أوفى لتحقيق الرأي في هذا الأمر.

[٦]

في مقال الدكتور جابر عصفور محاولة متكررة، ثلاث مرات على الأقل، لإقناع القارئ بعدم التمايز بين الأديان. وفي مقام البحث في مسألة الدين والدولة، وتقرير المرجعية القانونية العامة لسنا بصدد مفاضلة بين الأديان، إذ محل ذلك دروس العقيدة والمناقشات في كليات اللاهوت، ولكننا بصدد تحديد الهوية المميزة للأمة. وإن شئت قلت الشعب أو الدولة. وهي هوية لا تستقى إلا من عقيدة الأغلبية. لكن هذه العقيدة لا تحول الدولة إلى دولة دينية، ولا تؤدي في أية لحظة من لحظات استلهامها إلى حرمان الأقلية من خيرات وطنها، ولا تقود إلى القول بتفضيل دين على دين من الناحية القانونية أو السياسية، أعني من ناحية الحقوق والواجبات والمساواة الواجبة فيهما بين المواطنين كافة.

والاحتجاج بأن المقاصد الكبرى، أو الكلية في الأديان لا تتناقض فيما بينها لا يغني عن الدكتور جابر عصفور شيئاً فيما يدعو إليه من التسوية بين الأديان في الرجوع إليها لصياغة القوانين والدساتير. فالمرجعية لا تقف عند استلهام المقاصد العامة فحسب، ولكنها تشمل، في يقين المؤمنين بها، إعمال النصوص الجزئية والأحكام التفصيلية للنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية. ثم تجعل البحث عن حلول لما لا تشمله النصوص محكوماً بالمقاصد الكلية التي يتغياها التشريع ويرمي إلى تحقيقها الاجتهاد فيه. وليس لأهل دين آخر في مصر مثل هذا الوضع من شريعة حاكمة، ولو كان فإن التشريع الذي لا يجوز أن يظلم الأقلية لا يجوز، من باب أولى، أن يتجاهل حقوق الأغلبية. وعلى وجه الإجمال أقول إن كلام الدكتور عصفور في هذا الباب كلام يعرف أهل الصنعة القانونية أنه غير صحيح. ولا أريد أن أزيد.

[٧]

يذهب الدكتور جابر عصفور إلى أن شعار (الدين والدولة) تلزم منه أشياء من بينها: «عالمية الدعوة أو عولمتها التي تجلت في أفعال الإرهاب الديني المجاوزة للأقطار والقارات وهي النتيجة الأخيرة في المتصل الذي صاغه حسن البنا عندما ابتدأ بجعل الإسلام عقيدة وعبادة، صاعداً إلى أنه دين ودولة بلا تمييز بين ما هو ديني ودنيوي، خاتماً المتصل بذروته التي تتحول إلى إمكان للعنف حين جعل الإسلام روحانية ومصحفاً وسيفاً».

والواجب ابتداء أن نتفق على القاعدة الفكرية/الحوارية المسلمة عند المسلمين من أن (لازم المذهب ليس بمذهب) أي إن أحداً لا يستطيع أن يلزم أحداً بما يترتب على كلام قاله، في ظن السامع أو القارئ. لكن الملزم هو نص الكلام. وكل كلام له سياق إذا اقتطع منه كان المقتطع محرفاً أو مدلساً بحسب الأحوال.

ولست هنا بصدد الدفاع عن أفكار حسن البنا، ولا عن أفكار الإخوان المسلمين، فكلاهما غنيٌ بأنصاره وأتباعه والمتحمسين له عن دفاع أمثالي. ولكن الذي يعنيني، ويثير قلقي هو أن تغيب عن الدكتور جابر عصفور فكرة عالمية الدعوة الإسلامية التي يؤكدها بعث الرسول صلى الله عليه وسلم للناس كافة، وإرساله للعالمين نذيراً، وأن ترتبط هذه الفكرة الثابتة بنصوص القرآن الكريم عنده بأفعال الإرهاب الديني المجاوزة للأقطار والقارات.

أما أن الإسلام مصحف

كتاب الزاوية

الملك ورؤساء الأحزاب

مذكرات اللورد كيلرن

وفى تمام الساعة ٦ مساء دق جرس التليفون ليبلغنى تيمور بك بأن حسنين سوف يكون فى السفارة الساعة ٦.١٥ مساء، وقد وصل على الفور حاملاً إلىّ هذه الرسالة.. عند استلام الإنذار البريطانى، فإن الملك استدعى الأشخاص المذكورين فى القائمة المرفقة (وهى تشمل كل رؤساء الأحزاب بما فى ذلك النحاس شخصيًا) ذلك لمقابلته، وبعد مناقشة مضمون الإنذار البريطانى جاء القرار التالى: «إنهم يرون أن الإنذار يعد خرقًا للمعاهدة البريطانية ـ المصرية، كما يعد انتهاكًا لاستقلال البلاد، ولهذا السبب، وبناء على رأيهم فإن جلالته لا يستطيع أن يوافق على عمل من شأنه أن يؤدى إلى خرق للمعاهدة الإنجليزية ـ المصرية ولسيادة البلاد».

ولقد أخبرت حسنين أن هذا يعتبر أمرًا غاية فى الخطورة وأنه ينبغى على أن أصل إلى القصر فى الساعة ٩ مساء لمقابلة الملك ما لم أبلغه حتى ذلك الوقت بالعدول عن موقفى. ولقد صعق حسنين حين سماعه هذا الحديث، وقبل أن يغادر القاعة قال: أليس فى إمكانى، وإمكانك ياسير مايلز أن نجد حلاً ما؟

وأضاف إلى قوله: ومن أجل إنقاذ مهابة رؤساء الأحزاب جميعًا وتقديرهم، فإنه مستعد حالاً ـ وعلى مضض ـ أن يتولى بنفسه شئون حكومة انتقالية مؤقتة، مع ضمانه له، بأنه سوف يرتب إجراءات تولى حزب الوفد شئون الحكم خلال شهرين.

ولكنى أجبته: لقد فاض بى.. من خلال تعاملى معه (يقصد الملك) ولهذا فإنى أرفض اقتراحه، ولن أقبله.

وسيف فهو كلام صحيح في حدود ما استقر عليه الفقه الإسلامي المعاصر من التزام الأمة بجهاد الدفع دون جهاد الطلب؛ بعد أن أصبحت الدعوة إلى العقائد كافة متاحة مباحة. بفضل وسائل الإعلام والاتصال الحديثة. في الدنيا كلها.

إن الشيخ محمد رشيد رضا، الذي أقام الدكتور جابر عصفور جزءًا كبيرًا من بنيان مقاله على انتقاد دفاعه عن الخلافة يقول: «وحرية الاعتقاد في أكثر حكومات هذا العصر تغني خليفة المسلمين عن القتال لحماية الدعوة وحرية الدين كما كان عليه خلفاء العرب من الأولين»[٢٧]، فإذا كان جهاد الطلب قد سقط عن عاتق حكام المسلمين وجيوشهم ودولهم بقيام حرية الاعتقاد فإن التعبير عن القوة التي تحمي الإسلام (بالسيف) لا يكون له معنى إلا في جهاد الدفع الذي يعني مقاومة الغازي والمحتل والمستعمر والمعتدي على الوطن وأهله. وأنا موقن أن الدكتور عصفور لا يمنع هذا النوع من الجهاد، ولا يعترض عليه، ولا يأباه، لأنني أوقن من ولائه لوطنه ووفائه له.

وليس لهذا كله شأن بأن تكون عالمية الدعوى مؤدية إلى الإرهاب الديني المتجاوز للأقطار!!

والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

(١) في ٢٠٠٠/٥/١٤ شاركت الأستاذ الدكتور جابر عصفور، والصديق الأستاذ الدكتور صلاح فضل في حلقة من برنامج (على الهواء) مع الإعلامي اللامع الأستاذ عماد الدين أديب حول تلك الرواية. وكنت قد ناقشتها معه وحدي مساء ٥/١٣/ ٢٠٠٠. وفي عدد يونيو من مجلة (الكتب وجهات نظر) نشرت دراسة حول الرواية بعنوان (أعشاب وطحالب في حياتنا الثقافية).

(٢) الإمام الشافعي، الرسالة، ط الشيخ أحمد محمد شاكر، القاهرة ص ٢٠ و٢٢ .

(٣) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ط ٢، مؤسسة الريان للطباعة والنشر بيروت ١٩٩٨ ص ١١ .

(٤) السيوطي، الأشباه والنظائر، ط دار السلام القاهرة ١٩٩٨، تحقيق محمد تامر وحافظ عاشور، ج ١ ص ٢١٧ .

(٥) طارق البشري، الوضع القانوني بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، دار الشروق، ط الثانية ٢٠٠٥ ص ١٣٧ .

(٦) محمد عمارة، معركة الإسلام وأصول الحكم، دار الشروق ١٩٨٩، ص ١٤٩، وهو ينقل من كتاب: محمد إبراهيم الجزيري، سعد زغلول. ذكريات تاريخية طريفة، ط كتاب اليوم، ص ٩١ -٩٣.

(٧) طارق البشري، الحوار الإسلامي العلماني، دار الشروق، ط الثانية ٢٠٠٥ ص ٢٧ .

(٨) طارق البشري، السابق، ص ٢٦ .

(٩) محاضر اجتماعات لجنة المبادئ العامة (لدستور ١٩٢٣)، المطبعة الأميرية، ١٩٢٧ ص ٥٠-٥١ .

(١٠) محاضر اجتماعات اللجنة العامة (لدستور ١٩٢٣) المطبعة الأميرية، ١٩٢٤ ص ٦٩-٧٠ .

(١١) المصدر السابق، ص ١٤٥.

(١٢) طارق البشري، الحوار الإسلامي العلماني، السابق ذكره، ص ٢٦ .

(١٣) محمد سليم العوا، الدين والدولة، التجربة المصرية، دار سفير الدولية ٢٠٠٧ ص ٧-٨ . وقد وقع خطأ مادي في ذكر عدد أعضاء اللجنة من الأقباط فذكرت هناك أنهم كانوا ثمانية، وهو سبق قلم، والصحيح أن عددهم كان خمسة منهم النائب البطريركي، البطرك فيما بعد . الأنبا يؤانس.

(١٤) محمد سليم العوا، السابق، ص ٨-٩.

(١٥) تفصيل ذلك في المصدر السابق، ص ٩-١٣..

(١٦) طارق البشري، حول المادة الثانية من الدستور، الأهرام، السنة ١٣١، العدد ٤٣٩١٣، الأربعاء ١٠ من صفر ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧/٢/٢٨.

(١٧) محمد سليم العوا، ثورة يوليو والإسلام، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦ ص ١٧-٢٠ .

(١٨) طارق البشري، حول المادة الثانية من الدستور، سابق ذكره.

(١٩) راجع على سبيل المثال فقط: محمد عمارة، المصدر السابق ص ١٥٦ وما بعدها؛ ومحمد عمارة، الإسلام والسلطة الدينية، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٩ ص ٨٩؛ ومحمد عمارة الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، دار الشروق ١٩٨٨ ص ٥٣ وما بعدها وص ٢٠٨ وما بعدها؛ وعبد الحميد متولي، مبادئ نظام الحكم في الإسلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٢ وبوجه خاص الباب الثاني منه، ص ٩٢ وما بعدها؛ وصلاح سلطان (محرر) الحكومة المستقبلية بين الإسلام والعلمانية: مناظرة مصر بين الدولة المدنية والدولة الإسلامية (نادي المهندسين بالإسكندرية: ٢٢ رجب ١٤١٢هـ = ١٩٩٢/١/٢٧) وهي مناظرة شارك فيها الدكتور محمد عمارة والدكتور فرج فودة والدكتور فؤاد زكريا والدكتور محمد سليم العوا، وأدارها الدكتور الشافعي بشير)؛ ومحمد ضياء الدين الريس، الإسلام والخلافة في العصر الحديث، مكتبة دار التراث بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٧.

(٢٠) طارق البشري، الحوار الإسلامي العلماني، السابق، ص ٢٥.

(٢١) مجلة المنار، الجزء الثاني، المجلد ٢٤، الصادر في ٣٠ من جمادى الآخرة ١٣٤١ = ١٩٢٣/٢/١٦، ص ١٠٢ وص ١٠٨-١٠٩.

(٢٢) مجلة المنار، الجزء السابع، المجلد ٢٥، ربيع الأول ١٣٤٣ = أكتوبر ١٩٢٤، ص ٥٣٣.

(٢٣) المصدر السابق.

(٢٤) يونان لبيب رزق، ديوان الحياة المعاصرة، الكتاب الحادي عشر، الأهرام ٢٠٠٤ ص ٦٢ . ويلاحظ أنه لا يذكر اسم أحد من مؤيدي هذا الترشيح في مصر، كما يقول إن اللجنة التي شكلها علماء الأزهر لتنظيم مؤتمر الخلافة كان واضحًا أنها تتمتع بتأييد قصر عابدين الذي صدر عن اقتناع الملك فؤاد بأنه الأكثر أهلية بين المرشحين للمنصب الشاغر. لكنه لا يقدم أي دليل على هذا التأييد (!)

(٢٥) محمد ضياء الدين الريس، المصدر السابق، ص ٦٧-٦٨، وهو ينقل عن حوليات مصر السياسية لأحمد شفيق باشا. والكلام عن هذا الموضوع في الحولية الثانية الخاصة بسنة ١٩٢٥ .

(٢٦) علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، ط الدكتور ممدوح حقي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٦، ص ٧٠؛ محمد ضياء الدين الريس، الإسلام والخلافة، سابق ذكره، ص ١١٣.

(٢٧) مجلة المنار، ج ٢ مجلد ٢٤، السالف ذكره، ص ١٠٤.

La Boutique
Oriental Weavers

the essence of Inspiration

لابوتيك
النساجون الشرقيون
فقط لعشاق التميز

الآن وفى لابوتيك تستطيع أن تبتكر تصميم سجادتك بنفسك محققاً الشعور بالتفرد والتميز.

فقط إعطنا قطعة من قماش التنجيد أو الستائر أو ورق الحائط

لعمل سجادة تتناغم مع المكان وتعبر عن رؤيتك من خلال زخرفة أو رمز تفضله.

8 EL SHAHEED ZAKARIA KHALIL STREET
HELIOPOLIS, CAIRO TEL:02686690

30 STREET GAMET DAWAL
MOHANDESEEN : 3459661

35 ABU ELFEDA STREET EL ZAMALAK
Tel:7374411

Comfortably Sleek



الدين والسياسة فى مصر من تأليه

عمار علي حسن

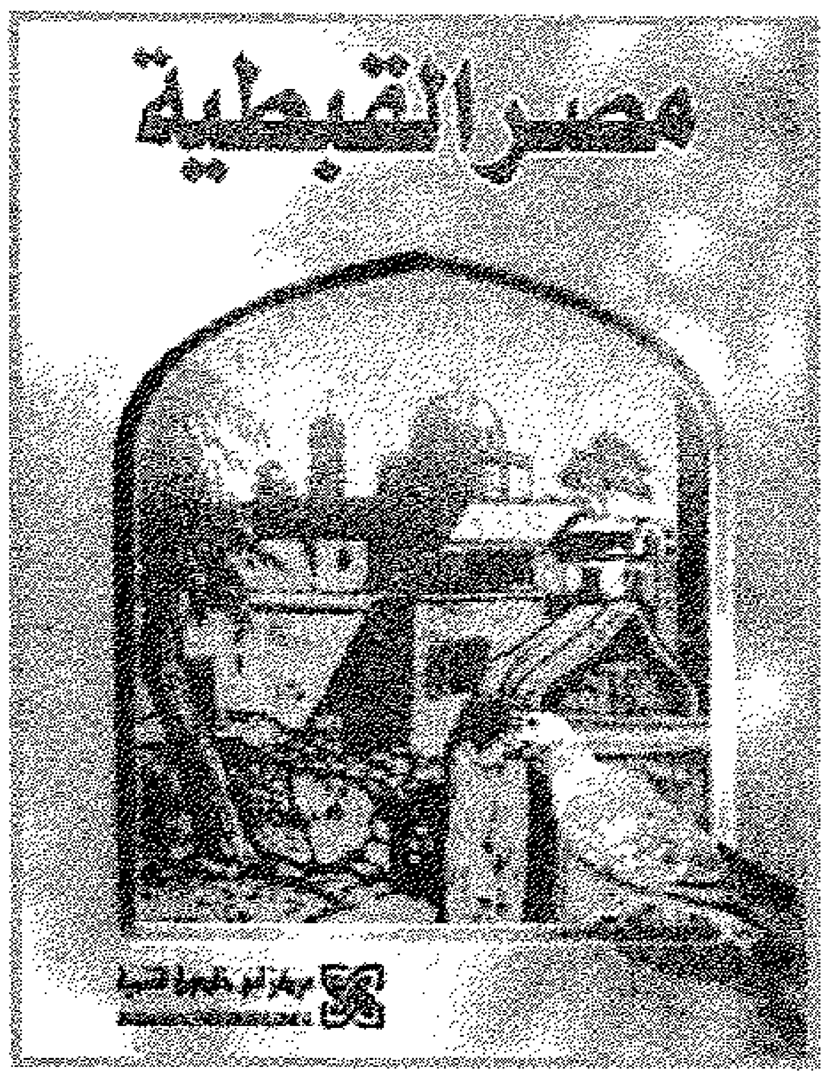
إذا كانت مصر «الجغرافية» هبة النيل، فمصر «التاريخية» تعد فى أغلبها هبة الدين، فالأخير شكل برقائقه المتتابعة فى معابد الفراعنة وكنائس المسيحيين ومساجد المسلمين، مكونا رئيسيا للشخصية المصرية، فبدت مصر وثيقة من جلد رقيق، الإنجيل فيها مكتوب على ما خطه هيرودت، وفوقهما القرآن، وتحت الجميع لا تزال الكتابة القديمة تقرأ بوضوح وجلاء.

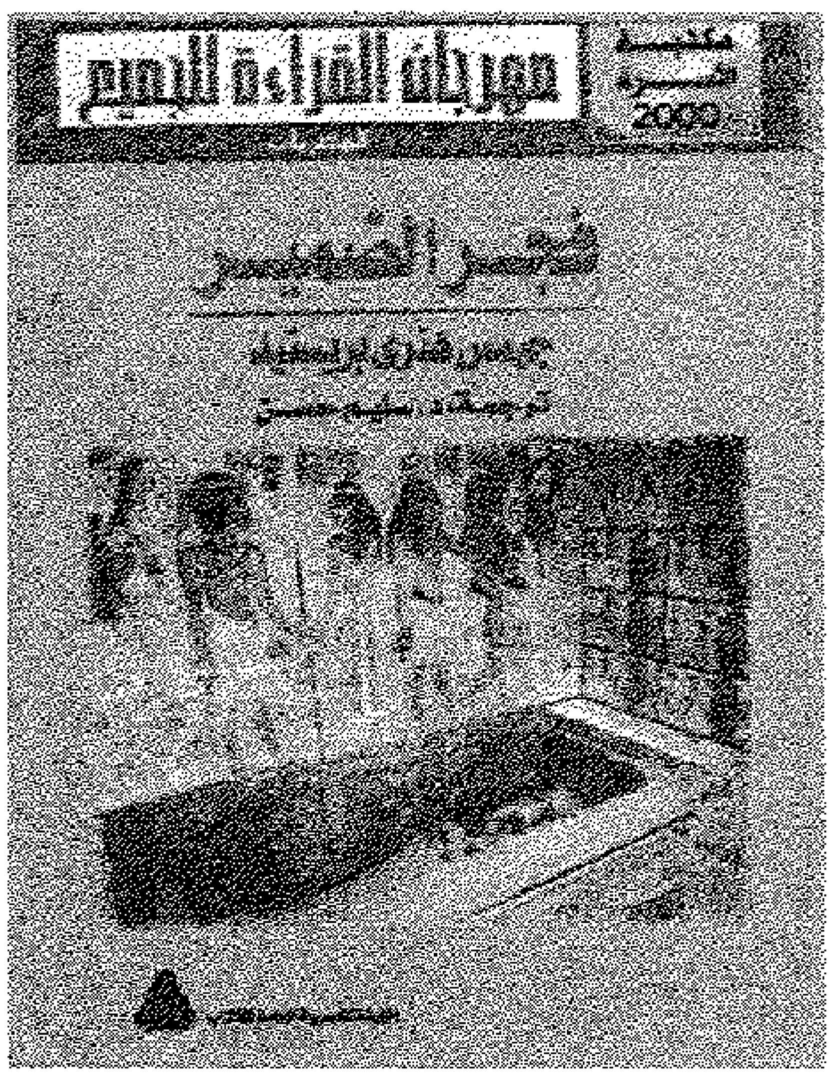
والدين كان دافع الفراعنة إلى التفوق العلمى، فى بحثهم عن الخلود بعد الموت، وهو الذى مثل جوهر الصراع بين الرومان والمسيحيين الشرقيين، والإسلام منح مصر هويتها العربية، منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنا، والدفاع عنه، فى مواجهة الصليبيين والتتار، شكل الملمح الرئيسى لتاريخ مصر فى العصر الوسيط. وهذا التراكم متعدد الأبعاد جعل الشخصية المصرية متدينة بطبعها، ولذا لا عجب من أن عدد الجمعيات الخيرية بمصر هو الأكبر فى العالم أجمع.

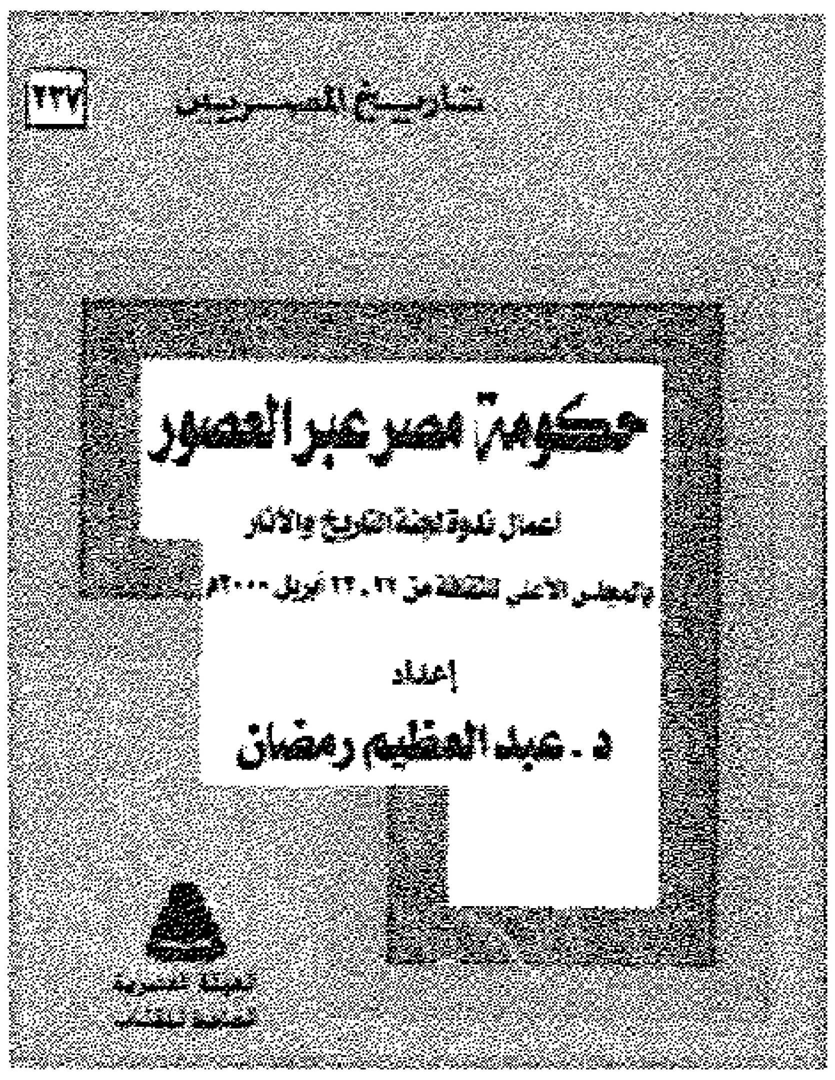
هنا يصبح الحديث عن بعد دينى للثقافة السياسية المصرية مبررا، ربما أكثر من أى مكان على سطح الأرض، خاصة مع ظاهرة «الإحيائية الإسلامية»، التى نقلت التصور الدينى من رؤية إصلاحية نظرية لدى محمد عبده ورشيد رضا إلى حركة سياسية فى الواقع المعيش على يد حسن البنا، لتفرض مع موجة العنف التى لطمت الحياة السياسية المصرية فى أواخر القرن المنصرم تساؤلا حول إمكانية تفنيد المقولات التى سادت لعقود فى الأدبيات المصرية حول دور الدين فى نشر «السلبية السياسية»، أو «الخنوع»، إلى جانب ما تردد حول «الفرعونية السياسية» و«سمات المجتمع النهرى».

وتدل كثير من الكتب أن تناول الدين كمكون للثقافة السياسية المصرية استوجب فى نظر الباحثين السعى أولا إلى تحديد العلاقة بين الظاهرتين الدينية والسياسية، على المستوى النظرى، ثم فى الحقل الميدانى المصرى، واحتاج ثانيا إلى تجلية «الوزن النسبى» للدين بين العناصر الأخرى التى تشكل القيم والاتجاهات وقبلهما المعارف السياسية للمصريين.

تأسيسا على ما تقدم تعاقبت مسائل عدة بحيز اختبار الكثير من الأدبيات السياسية والاجتماعية لدور الدين فى







تشكيل الثقافة السياسية المصرية، وتوزعت على روافد أساسية أربعة على النحو التالى:

١. موقع الدين فى تاريخية الثقافة السياسية المصرية، ودوره فى تحديد الهوية.

٢. ما ينتجه الهيكل التنظيمى للمؤسسات الدينية المصرية من قيم سياسية.

٣. ما تنتجه الأفكار الدينية المصرية من قيم ومعارف سياسية.

٤. مستقبل العقل السياسى المصرى بين «التمدين» و«التدين»، خاصة فى ضوء التداعيات والضغوط التى ترتبت على حدث ١١ سبتمبر، وحض الداخل المصرى حيال الإصلاح والتحديث.

ومن خلال مطالعة عشرات الكتب التى تناولت جوهرا أو عرضا الدين فى مصر استقرت فى يقينى عناصر عدة يمكن دراستها على نحو متعمق فى أبحاث لاحقة لدور الدين فى تشكيل الثقافة السياسية للمصريين، يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

أ. استخدام الحكام للدين فى كسب الشرعية، وتبرير الأوضاع القائمة.

ب. دور الدين فى تحديد الهوية المصرية عبر تاريخ البلاد الطويل.

ج. ما لعبه الدين فى إيجاد هذا الفاصل التاريخى بمصر بين المجتمع والسلطة.

د. ما خلفه الدين فى العقلية المصرية من غلبة «الرفض السياسى» على «النقد السياسى».

هـ. دور الدين فى بناء الثقافة المؤسسية لدى المصريين، نظرا لأنه توسل بالمؤسسة طيلة تاريخه (المعبد. الكنيسة. المسجد).

وما إذا كان الدين قد ساعد المصريين على بناء تصورات فى مقاومة السلطة، أو على النقيض، ما تركه، عبر بعض التأويلات والتفسيرات، من سلوكيات سلبية حيال السلطان.

ودراسة هذه العناصر كافة لا يمكن لها أن تنجز على وجه أكمل من دون تلمس الخطين الأساسيين اللذين سارت فيهما الرؤى والدراسات التى تناولت تاريخ مصر، منذ المنشأ المعروف وحتى اللحظة الراهنة، وهما إما أن تاريخ مصر يتسم بالاستمرارية التى تصل عند البعض إلى حد الزعم بأن مصر الحديثة لا تزال فرعونية الجوهر، أو تلك التى تميل إلى أن تاريخ مصر متنوع، ويتكون من طبقات ورقائق حضارية بعضها فوق بعض، وتصل إلى حد الزعم بأن مصر التى ولدت مع دخول الإسلام إليها منبتة الصلة بما قبلها.

لكن أيًا من هذه الأدبيات لم يتابع الخيط الممتد فى الزمن لقيام الدين بتشكيل علاقة المصريين بحكامهم، رغم أن أيًا من العناصر السابقة، فى ظنى، لم يكن له قوة تأثير وأهمية ما رسبه الدين من تصورات لعلاقة المحكومين بالحاكم فى مصر طيلة تاريخها القديم والأوسط والحديث والمعاصر. أو أن هذه الجزئية لم تحظ بالقدر الكافى من الدراسة، مع أنها تشكل عصب هذا الموضوع فى بلد قيل أن ما يبدو فيه للوهلة الأولى هو ظاهرة «السيد المطاع والعبد المطيع»، أو أنه البلد الذى علم العالم بأسره «الحكم الإلهى»، كما يذهب محمد سعيد العشماوى فى كتابه الشهير «الإسلام السياسى»، إذ يرى أن فكرة «حاكمية الله» التى رفعتها الجماعات والتنظيمات السياسية ذات الإسناد الإسلامى أصلها مصر القديمة، التى جعلت من الحكام آلهة.

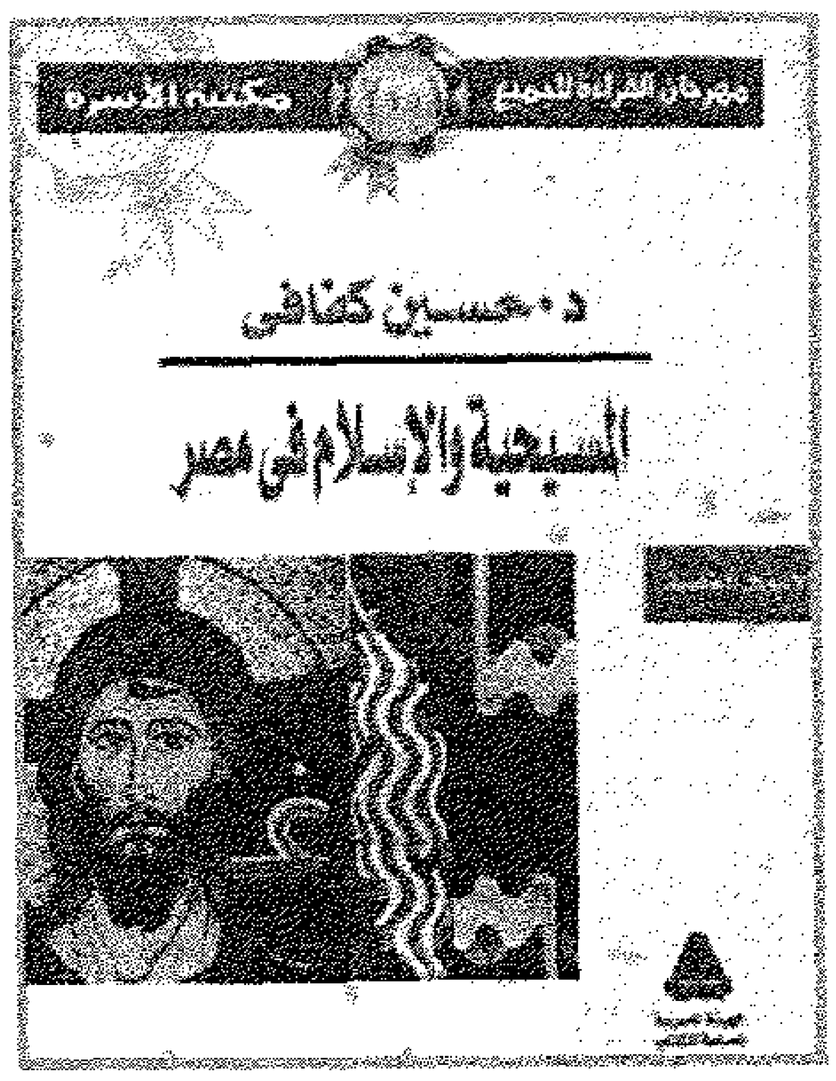
موقع الدين فى السياسة المصرية

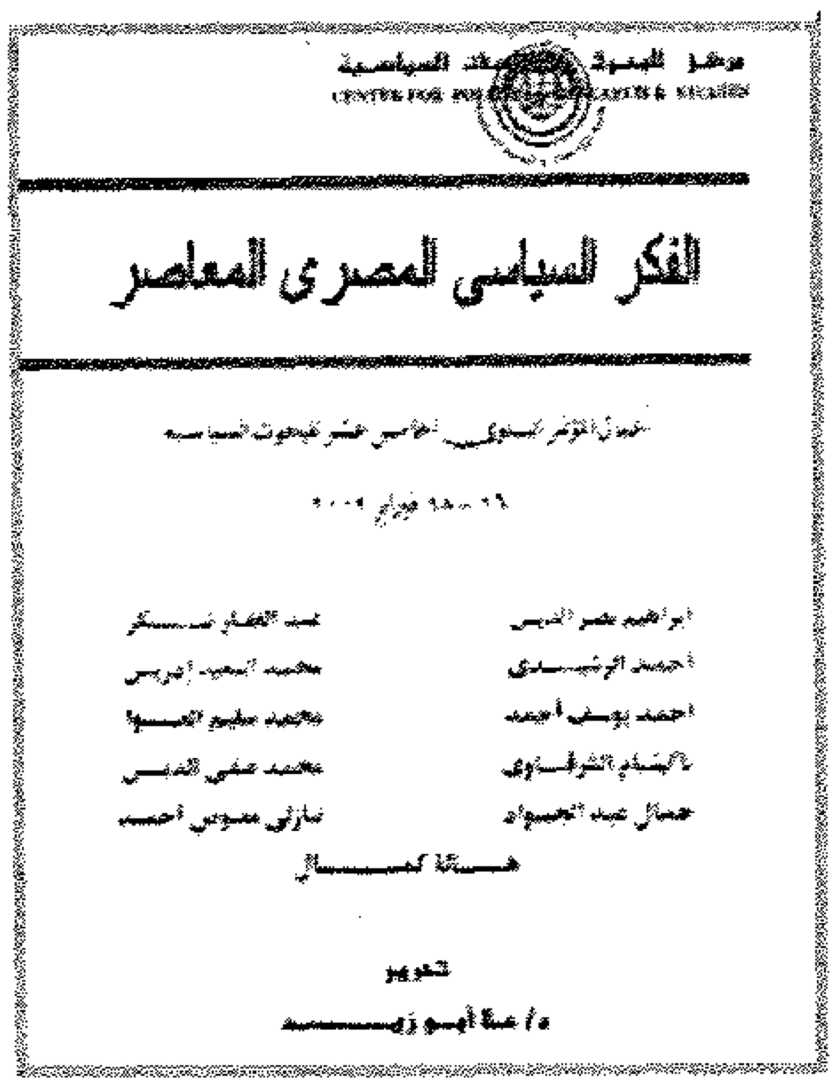
زاول الدين فى تاريخ المجتمعات السياسية دورا لا يدانيه فيه أى عامل آخر، بدءا من المجتمعات الطوطمية حتى حلول عصر الإيمان وبعث الرسالات السماوية، مرورا بالمجتمعات القبلية والعشائرية. وكانت اللحظة الفارقة فى تاريخه هى تلك التى تمرد فيها الأوروبيون على سلطة الكنيسة، وبزغ نجم «العلمانية» التى يقوم جزء كبير منها على فصل الدين عن الدولة، لتخترق حدود القارة العجوز، وتهز ما كانت تعتقده مجتمعات أخرى «ثوابت» أو «مقدسات»، مع أن السياسة فى إجراءاتها وتفصيلاتها «صناعة بشرية»، أراد الحكام فى العالم الإسلامى وأوروبا على مدار القرون التى خلت أن يضفوا عليها ثوبا مقدسا، وقال بعضهم صراحة أنه يحكم باسم الله، كما تقدم.

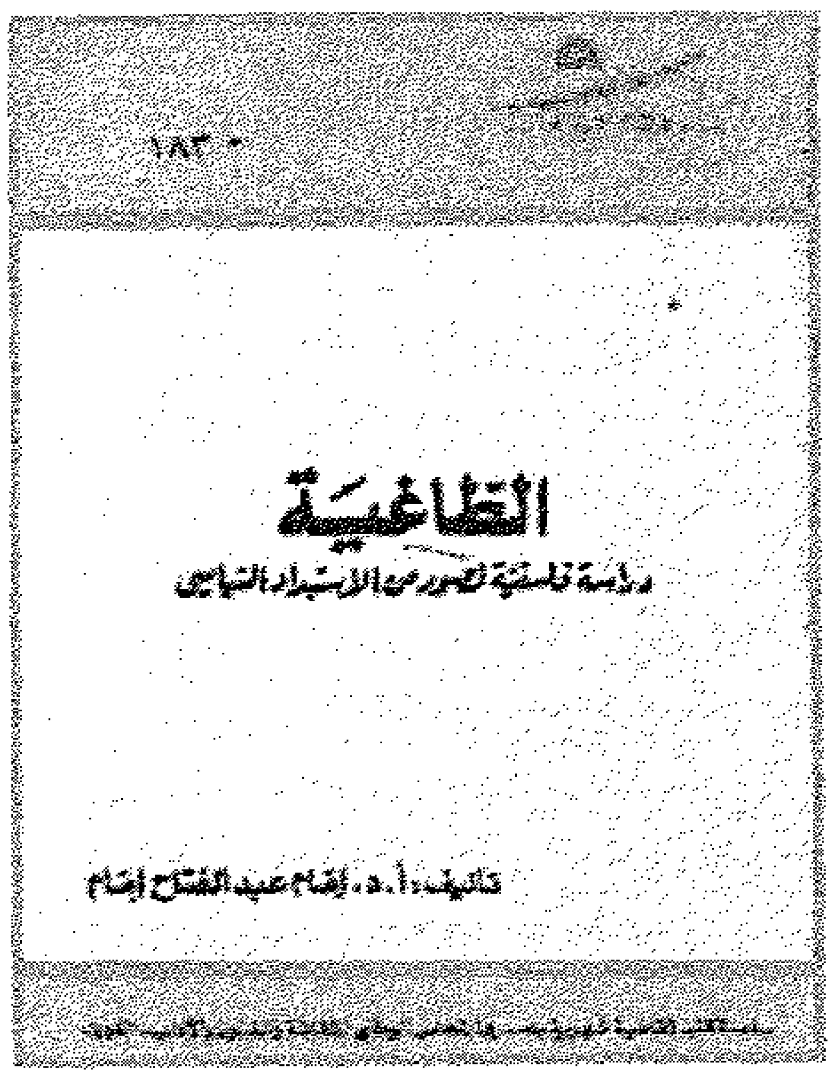
ويرصد لنا كتاب «الدين فى المجتمع العربى» الذى ألفته مجموعة من الباحثين والصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت تراجعا لدور الدين فى الحياة العامة للعرب المحدثين. ففى النشاط الاقتصادى، باتت الكلمة العليا للربح والدعاية والتنافس من دون الارتكان، فى الغالب الأعم، إلى

الحـــكام إلــى تكفيــرهم!

يقول الدكتور زكى نجيب محمود: «من طول المدة التى أشرب فيها المصرى بوجدانه الدينى، أصبح ذلك الوجدان يلازمه ملازمة اللون الأسمر لجلده»









الأخلاقيات الدينية. وفى مجال الحركة السكانية، حسم النزاع بين التصور الأخلاقى الإسلامى ومقتضيات الحياة الاجتماعية، حيث الضغوط الاقتصادية على الأسر العربية، لصالح الأخيرة، ممثلا فى تنامى الاتجاه إلى «تنظيم النسل». وفى مجال بناء المجتمع، تراجع دور المؤسسات الدينية فى الضبط الاجتماعى والانضباط السلوكى، علاوة على التحدى الذى يواجه الدين من قبل المتابعين لحركة الصراع الاجتماعى، متهمين القائمين عليه بأنهم لم يناصروا، إلا فى حالات استثنائية وعبر فترات زمنية متقطعة وأمكنة متباعدة، المضطهدين والمهمشين. كما يرصد هؤلاء تراجع الدور العلمى للدين، وكذلك دوره فى حركة المعمار والتشييد، على العكس مما كان سائدا فى القرون التى رحلت.

لكن على النقيض من التصور السابق تستمر علاقة المصريين بالدين قوية، لاسيما أنها تسمح فى كل وقت ومكان له بأن يضع بصمته على الحياة الخاصة والعامة. فالشعور الدينى هو من أهم الخصائص التى جعلت المصرى مصريا؛ فمصر، كما يقول الدكتور زكى نجيب محمود: «هى أقدم بلد فى الدنيا بأسرها امتلاء بذلك الشعور الدينى، ومن طول المدة التى أشرب فيها المصرى بوجدانه الدينى، أصبح ذلك الوجدان جزءا من كيانه، يلازمه ملازمة اللون الأسمر لجلده».

وما أورثه الدين فى أنفس المصريين وعقولهم أغزر وأعمق من أن تحيط به دراسات ميدانية عديدة، تتوزع على حقول معرفية شتى، ويزداد الأمر تعقيدا حال الولوج إلى الظاهرة السياسية، بتعقيداتها وحمولاتها المتنوعة، خاصة إن كان التناول منصبا على الثقافة السياسية.

علاقة الحاكم والمحكوم فى مصر

لأن مصر هى أول دولة على سطح البسيطة، فعلاقة المحكوم بالحاكم فيها، هى الأقدم والأعمق فى الوقت نفسه. قدم بحكم الشوط البعيد الذى قطعته قافلة الزمن المصرية، وعمق بحجم ضخامة وقوة لحظة انطلاق الدولة والمجتمع، التى دعت أحد علماء الآثار إلى أن يظن أن مصر القديمة ولدت كاملة.

وقد مرت هذه العلاقة بمحطات ثلاث، بدأت بالتأليه وانتهت بالتكفير ومرت بالتبجيل، من دون أن تفارق فى كل مرحلة تنتقل إليها بعض خصائص المرحلة التى تسبقها، فى تواصل واستمرارية ميزت جوانب عديدة من تاريخ المجتمع المصرى.

١ ـ مرحلة تأليه الحكام

نشأت الدولة المصرية القديمة فى رحاب الدين، وكانت شعائر الملكية ورسومها ذات سمت دينى، وكان الملك يؤله فى حياته، وبعد مماته، ليصبح الدين هو قوام الدولة، فالملك يقيم عبادة الآلهة، ويرعاها ويحرس البلاد، ويكفل رخاء أهلها. وكما يخبرنا كل من جيمس هنرى بريستيد فى كتابه الأثير «فجر الضمير» و أدولف إرمان فى كتابه الموسوم بـ «ديانة مصر القديمة» و د. بهاء الدين إبراهيم محمود فى كتابه عن «المعبد فى الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية... تنظيمه ودوره السياسى» فإن الملك كان فى نظر المصريين الأقدمين الضمان الأكيد لاستقرار نظام الكون واستمرار الحياة، ولذلك شارك الناس، عن اقتناع تام، فى بناء قصوره ومعابده، ومقره الأبدى على شاكلة تعبر عن مدى إيمانهم بعظيم منزلته. من ثم كانت الأهرامات تعبيرا ماديا واضحا لمدى قدسية نظام الحكم الملكى فى مصر القديمة، وكانت اللغة آنذاك مشبعة بما يعبر عن «ألوهية الحاكم» فحين يتوج أو يظهر فى مناسبة عامة يقال «أشرق الملك»، أو «أطل من عليائه»، وعند مماته يقال صعد الملك إلى السماء لينضم إلى موكب إله الشمس. وبات كل ما يتصل بالملك مقدسا مهما كانت قيمته، فتيجانه وصولجانه وكل شاراته مقدسة. بل وصل الأمر إلى حد اعتقاد المصرى القديم فى أن «العالم الآخر» بالنسبة للملوك يختلف عن عامة الناس، فالملوك إن ماتوا صعدت أرواحهم إلى السماوات العلى، أما العوام فإن قضوا فمثواهم باطن الأرض.

وقد خصصت «متون الأهرام»، التى ليس لها مثيل من كتابات عن العالم القديم، لتشرح سعادة الملك فى الدار الآخرة، وكيف تصور المصرى القديم أن الملوك سيحتفظون بعد موتهم بالسلطان نفسه الذى يتمتعون به فى الدنيا. فها هى تقول «الملك تيتى لم يمت موتا بل جاء معظما فى الأفق».. «هيا أيها الملك، إنك لم تسافر ميتا، بل سافرت حيا».. ثم تمضى لتوضح حجم الحزن على رحيل الملك: «السماء تبكى من أجلك، والأرض تزلزل من أجلك»، فإذا استقر الملك فى السماء «يشاهد فى قاعة قصره وهو جالس على عرشه العجيب وصولجانه المدهش فى قبضته، ثم يرفع يده نحو أولاده ليقفوا أمام هذا الملك، ثم ينزل يده مشيرا نحوهم فيجلسون ثانية».

ووصل الأمر إلى حد تطويع الدين فى خدمة السياسة، حيث نجد أن الأحداث السياسية التى مرت بها مصر وانتهت بوحدتها نهائيا عام ٣٢٠٠ ق. م أفضت إلى سيادة معبود رئيسى، هو معبود الإقليم المنتصر، غير أن الكهنة، أتباع الآلهة المحلية، وآلهة الأقاليم المهزومة، لجأوا إلى حيلة تحول دون اندثار معتقداتهم بانزواء آلهتهم، بإعلان أن آلهتهم مجرد أقانيم للإله الرئيسى، لا تختلف معه فى الجوهر، أو تلعب هذه الآلهة دور الزوجة أو الابن لهذا الإله.

وحتى يضمن الملوك استمرار هذا الاعتقاد وترسخه، جعلوا المعابد تحت سلطانهم. فكان الملك يعين كبار الكهنة فى المعابد الكبرى، وهو الذى يشرف، من خلال جهازه الإدارى الخاص، على أعمال المبانى والإنشاءات الخاصة بالمعابد، ويدير ممتلكاتها من الأراضى والقطعان، وله الحق فى التفتيش على خزائنها.

لكن ينبغى ألا نعتقد أن الملك كان إلها لدى المصريين القدماء مثل بقية الآلهة، تشيد له المعابد، وتقدم له القرابين، فلم يصل تأليه الملوك إلى هذا الحد، ولم تعد مناداته بـ «الإله الطيب» أو «حوريس» أو «ابن رع» أو «الشمس الحية» أو «لسان آتوم» سوى طريقة مهذبة فى التعبير عن الخضوع التام له،

وسلطانه، حتى إذا شاع الاستعمال اللفظى لتلك الألقاب، بدأت مع مرور الزمن تفقد الإحالة إلى معانيها الأصلية، أو تنفصل عن الأسس والجذور اللغوية والاعتقادية التى نبتت منها.

٢ - من التأليه إلى التبجيل

ومع دخول المسيحية إلى مصر فى سنة ٦٠ ميلادية، بدأت مرحلة جديدة، نزعت فيها الألوهية عن الحكام، لدى الأغلبية، وإن ظل الوثنيون على تصوراتهم القديمة، لكن بدرجة أقل. وكان التحول الأكبر حين اعترف الإمبراطور الرومانى ثيودوسيوس بالمسيحية سنة ٣٧٩ م دينا رسميا للدولة، فقويت شوكة مسيحيى مصر فى مواجهة الوثنيين، حتى تم القضاء عليهم نهائيا، بإغلاق جامعة أثينا الوثنية فى عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) لتبدأ صفحة جديدة من كفاح مسيحيى مصر ضد الرومان المختلفين معهم مذهبيا، والذين اضطهدوهم ليحملوهم قسرا على اعتناق فكرة الطبيعة المزدوجة (الإلهية والبشرية) للسيد المسيح.

وحسب ما أورده كل من محمود مدحت فى كتابه «مصر القبطية» و د. سليمان نسيم فى كتابه «مصر القبطية» فإن مسيحيى مصر لم يبجلوا حكام الرومان كما كان عليه الحال من قبل، بل قاوموهم وقدموا فى سبيل اعتقادهم عددا من الشهداء خلال أربعة قرون كاملة، لا يقل إن لم يزد، على أعداد الشهداء الذين قدمتهم كل البلاد المعروفة فى أنحاء العالم الرومانى فى تلك الحقبة. وغلب على مقاومة المصريين آنذاك طابع «العصيان المدنى»، حيث كان الفلاحون يتركون أرضهم حين تثقل السلطات الرومانية كاهلهم بالضرائب. وكان الفنانون يغطون الرسوم الدينية الرومانية، ويعيدون رسم الأيقونات القبطية عليها، وكان الموسيقيون يعزفون فى الصلوات الكنسية ألحانا مصرية كهنوتية قديمة، وليست الألحان الرومانية.

وانتقل التبجيل إلى رجال الدين أنفسهم، الذين كان يقول الواحد منهم عند توليه البابوية: «افتحوا لى أبواب البر»، وزادت درجة هذا التبجيل بعد أن حمل البطريرك فى القرن الثالث الميلادى لقب بابا، يعاونه عشرون أسقفا فى خدمة الكرازة. أما العلاقة بالحكام فقد حكمها المبدأ المسيحى الذى يقول «ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

ولما فتح المسلمون مصر أحدثوا تحولا أكبر عن الماضى فيما يتعلق بتقديس الحكام. فعلى مستوى النص يمنع الإسلام اتخاذ الحكام أربابا من دون الله، وهو إن كان يأمر بطاعة أولى الأمر، فإنه يجعل ذلك مشروطا بعدلهم وتقواهم وعملهم للخير والحق، كما أنه لا يحصر أولى الأمر فى أهل الحكم.

أما على مستوى الممارسة فتضاءل تقديس الحكام فى مصر إلى تبجيلهم، لكن فى صورة تختلف كثيرا عن «الفرعونية السياسية» التى كانت سائدة فى مصر القديمة. فالرابطة السياسية الإيمانية التى أوجدها الإسلام، تشكل إطارا مناقضا للفرعونية السياسية التى تقوم على أن فرعون طاغية وأعوانه ظلمة وهمج رعاع.

ومنذ السنوات الأولى لدخول الإسلام إلى البلاد رأى المصريون كيف عوقب حاكمهم حين اعتقد أنه متميز عنهم، وذلك حين اقتص خليفة المسلمين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه من حاكم مصر عمرو بن العاص، جراء قيام ابن الأخير بضرب صبى مسيحى فاز عليه فى سباق الخيل، وتقاعس ابن العاص عن أن يأخذ للمسيحى حقه، ما دفعه إلى أن يشكو إلى ابن الخطاب، الذى جعل المسيحى يضرب نجل عمرو.

لكن انتهاء مرحلة تأليه الحاكم لم يتبعها تحرر نفسى كامل من الشعور بالضعة حيال الحاكم، أو كف عن النظر إليه على أنه شخص غير عادى، أو أنه بيده النفع والضرر، أو الثواب والعقاب، وأن قدرته على فعل أشياء كثيرة لا حدود لها.

ولقد عبر المؤرخ المرموق شفيق غربال عن هذا الأمر قائلا فى كتابه الصغير الأثير «تكوين مصر عبر العصور»: «لقد تحرر المصرى بفضل المسيحية والإسلام من ربقة الخرافة والعبودية لغير الخالق، وتحرر الشعب من رق المقدونيين والرومان. ومع ذلك فإن هذا الفرد المتحرر لم ينل الحرية التى تتيح له فرص اكتمال شخصيته، فقد بقى التمييز والتفرقة ما بين الحاكم والمحكوم قائما، وحال ذلك دون تمتع الفرد بنصيبه الكامل من الجزاء والمسئولية».

ويرصد كتاب «حكومة مصر عبر العصور» الذى ألفه مجموعة باحثين أن علاقة المحكومين بالحاكم فى مصر قد استمرت على وتيرة واحدة منذ الفتح الإسلامى حتى دخول الفاطميين، فاستعاد إضفاء طابع دينى على الحاكم جزءا من ميراثه التاريخى القديم، فالدولة الفاطمية قامت على أساس تشابكت فيه السياسة مع الدين إلى حد أن كل تنظيم سياسى فى هذه الدولة كان انعكاسا لروح التصور المذهبى الفاطمى (الإسماعيلى) نفسه، حتى صارت أصدق مثال للدولة الدينية العقائدية (الثيوقراطية) فى الإسلام، استنادا إلى المكانة المقدسة التى أضفيت على الإمام، وهو الحاكم، وعلى «داعى الدعاة»، المنوط به الإشراف على نشر المذهب الشيعى الإسماعيلى.

فقد حرص الحكام على تلقيب أنفسهم بالأئمة أو أمراء المؤمنين، وليس «الخلفاء»، حرصا منهم على إظهار صفتهم الروحية وسلطتهم الدينية. فالإمام الفاطمى هو متواجد فى منصبه بموجب الحق الإلهى، ويختار ليكون وصيا للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، وتنتقل الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر، شرط وصية الإمام السابق بذلك. وقد وصل الأمر بأحد هؤلاء الأئمة وهو الحاكم بأمر الله أن ذهب فى عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م إلى حد اعتبار نفسه تجسيدا لله على الأرض، أو أنه «الملك الإله»، بما يشبه إلى حد بعيد ما كان سائدا فى مصر القديمة.

ومن دون شطحات الحاكم بأمر الله، فإن الحاكم الفاطمى (الإمام) كان ينظر إليه على أنه «خليفة الله فى الأرض»، والمفسر الأول للشرع، ومصدر كل العلم، وولى الله الذى بإمكانه أن يشفع لمن يريد من أتباعه.

لكن المصريين لم يكفوا عن ممارسة عادتهم التاريخية فى إضفاء هالة على الحاكم، حتى إن لم يكن يرغب، فلقبوا صلاح الدين بالسلطان، تعظيما له وتكريما لشخصه، ليأتى خلفاؤه، من الأتراك وغيرهم، أيوبيين ومماليك، ليتمسكوا بهذا اللقب.

ورغم أن المماليك كانوا عبيدا إلا أن توسلهم بالدين إلى جانب تحصنهم بالقوة، منح حكمهم شرعية، فانتقل الناس من رفضهم الصريح، الذى وصل إلى حد أن نادى الشيخ الجليل العز بن عبد السلام بأن حكم الرق قائم عليهم، إلى تقبلهم، ثم تبجيلهم. فقد استعان حكام المماليك الأوائل بالنفوذ الروحى والتاريخى والشرعية السياسية للخلفاء العباسيين، بعد سقوط بغداد تحت سنابك خيل المغول فى ١٢٥٨م، فاستقدموهم إلى القاهرة، وأعطوهم وجودا رمزيا وشكليا، فبدوا بذلك فى منزلة المحافظين على الخلافة، المدافعين عن ديار الإسلام، لاسيما بعد أن تمكنوا فى أول اختبار لهم من كسر الاجتياح التترى، ثم توالت انتصاراتهم المظفرة على التتار والصليبيين من بعد. علاوة على ذلك اهتم سلاطين المماليك ببناء المساجد والمدارس الدينية، وقربوا إليهم العلماء والفقهاء.

ومع الزمن، نسى المصريون حكاية الرقيق، و«مملكة العبيد» كما يقول المؤرخون الغربيون، وراحوا يضعون حكام المماليك فى منزلة مرموقة، فاتخذوا لهم أعيادا، وأقاموا لهم الاحتفالات، إما لعودتهم منتصرين فى المعارك، أو لشفائهم من مرض ألم بهم، أو بعد وفاتهم. فعندما عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون منتصرا على التتار سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م، زينت القاهرة من باب النصر إلى القلعة، وجاءت فرق الغناء من كل مكان، وغالى الناس فى وضع الزينات. كما زينت القاهرة للسلطان نفسه، عندما شفى من إصابة ألمت به أثناء خروجه للصيد. وعند وفاة السلاطين كان يمد سماط عظيم من الطعام، يحضره الأمراء والمقدمون والعسكر، ثم يقبلون الأرض ويد السلطان، وتضرب البشائر بالقلعة إعلانا بتولية السلطان الجديد، وكالعادة تزين القاهرة بجميع الزينات قبل دفن السلطان الراحل.

وحكم العثمانيون مصر باسم الدين، فزعموا أمام الشعب المصرى أنهم حماة الدين، وأن دولتهم هى امتداد لـ«الخلافة الإسلامية»، التى أسقطها المغول عام ١٢٥٨، فكان للسلطان العثمانى هيبة وجلالة فى نفوس المصريين، بعضها لأسباب دينية. لكن هذه الهيبة لم تجد على الدوام من ينفخ فى أوصالها من رجال الدين، فالبعض لم يقتنع بها، وانتهى الأمر بالإمام محمد عبده، الذى رأى أن الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم، فلا عليه نزل الوحى، ولا من حقه الاستئثار بتأويل النص القرآنى والسنة النبوية.

ولما سقطت الخلافة عام ١٩٢٤، أراد الملك فؤاد فى مصر إحياءها، فتصدى له الشيخ على عبد الرازق بكتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم»، ليؤكد أن «الخلافة» لم ينزل بها نص، ولم ينعقد لها إجماع، وليس لها دليل فى السنة، إنما هى اجتهاد بشرى لصحابة الرسول صلى

وصل الأمر إلى حد تطويع الدين فى خدمة السياسة، حيث نجد أن الأحداث السياسية التى مرت بها مصر وانتهت بوحدتها نهائيا عام ٣٢٠٠ ق. م أفضت إلى سيادة معبود رئيسى، هو معبود الإقليم المنتصر

الله عليه وسلم، فى تصورهم للحكومة، وأن الإسلام ليس دينا ودولة، إنما هو دعوة دينية خالصة لا تشوبها نزعة ملك أو حكم. ورأى عبد الرازق أن ضياع الخلافة لم يؤثر سلبا إلى أركان الإسلام ولا مصلحة الأمة، وأنهى كلامه قائلا: «الدين الإسلامى برئ من تلك الخلافة التى يتعارفها المسلمون، وبرىء من كل ما هيئوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عزة وقوة. الخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية، كلا، ولا القضاء، ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة».

٣ - من التبجيل إلى التكفير

قرون طويلة عاش فيها حكام مصر مقدسين أو مبجلين، يحيطهم الجلال وتكللهم الهيبة، من دون أن يدرى من ذهبوا فى القرون الغابرة أنه سيأتى يوم، وينقلب فيه الدين إلى غير صالح السلطان، فبعد أن كان التدين يعبد أمامه طريقا وسيعا بات يتيح لفئة تناوئه فرصة تكفيره، استنادا إلى تأويل ذاتى وضيق لنصوص القرآن الكريم.

ونعنى بهذه الفئة الجماعات والتنظيمات السياسية ذات الإسناد الإسلامى، التى دبجت بياناتها وتأويلاتها ابتداء من ستينيات القرن المنصرم، لتكفر رئيس الجمهورية، ومن حوله، بل ومؤسسات الدولة، مهما كانت صغيرة أو مقصية عن بؤرة صنع القرار، أو مركز الهيمنة والتحكم فى جسد الدولة المصرية الفارع.

وبدأت هذه المسيرة، المقطوعة من تاريخ مصر، بما رآه سيد قطب فى كتابه «معالم فى الطريق»، الذى اعتبر فيه أن المجتمع الراهن جاهلى، ونادى بـ«الحاكمية»، أى «الحكم بما أنزل الله»، ولذا رفض أى نظام سياسى لا يمتثل لهذا التصور، فها هو يقول: «... ليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه هذا شرع الله، إلا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنة، وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه وتعالى لا الشعب ولا الحزب ولا أى من البشر»، ومن ثم يصبح الحاكم الذى لا ينتهج هذا النهج فى نظر قطب خارجا عن ملة الإسلام، أو جاهليا، تجب مقاومته، واستبداله بـ«جماعة مؤمنة» تطبق «شرع الله».

وتلقفت الجماعات والتنظيمات التى تشظت، بشكل لافت، هذه الفكرة، وراحت تعمق فكرة تكفير الحاكم. ففى كتابه الموسوم بـ«رسالة الإيمان» يقول صالح سرية أمير ما عرف بتنظيم «الفنية العسكرية»، الذى قاد محاولة فاشلة لاغتيال الرئيس السادات عام ١٩٧٤: «إن الحكم القائم فى جميع بلاد الإسلام هو حكم كافر، ولا شك فى ذلك»، مستندا فى ذلك إلى غياب «الحكم بما أنزل الله»، ويرى أن كل من والى الحكومات والأحزاب والجماعات الكافرة فهو كافر، وأن تحية العَلَم شرك والسلام الجمهورى شرك وتحية قبر الجندى المجهول شرك. وتبنت «جماعة المسلمين» المعروفة أمنيا وإعلاميا باسم «التكفير والهجرة» الموقف نفسه، إذ حكم أميرها شكرى مصطفى على مؤسسات الدولة جميعا بالكفر، وطالب باعتزال الأجهزة الحكومية ومؤسساتها والامتناع عن أداء الخدمة العسكرية أو قبول الوظائف العامة. وفصل محمد عبد السلام فرج مؤسس «تنظيم الجهاد» فى كتيبه الشهير «الفريضة الغائبة» هذه النقطة كثيرا، متخذا موقفا مشابها، إذ رأى أن الحاكم مرتد، وأن أبواب الكفر التى أخرجته من ملة الإسلام عديدة، ولذا وجب قتاله. وفى رسالة لعبود الزمر، أمير جماعة الجهاد الذى لا يزال يقضى فترة عقوبة لاشتراكه فى اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات، يقول: «شرف الله الجماعة بقتل السادات على أيدى بعض رجالها»، ويطالب بـ«الخروج على الحكام الكفرة وقتالهم وخلعهم، وتنصيب إمام مسلم واجب بإجماع علماء المسلمين على كل مكلف».

وتتفق جماعتا «الجهاد» و«الجماعة الإسلامية». قبل أن تراجع الأخيرة موقفها. على الحكم بكفر رئيس الجمهورية كفر عين، فهو خارج عن ملة الإسلام، لأنه لا يطبق «شرع الله»، ويستبدله بقوانين بشرية وضعية، ويستهزئ بالشريعة الإسلامية، ويستحل ما حرم الله، ويجعل نفسه ربا من دون الله فيحل ما حرمه، ويتخذ من صفة الألوهية، وهى حق التشريع المطلق، الذى لا يكون إلا لله تعالى. وكان طارق الزمر يرى أن «قتال الحاكم واجب على جميع المسلمين كل بحسب قدرته، ولا يسقط عنهم إثم ترك هذا الواجب إلا أن يهبوا ويخلعوا الحاكم، الجاهلى العميل. وعزز أمير الجماعة الإسلامية، المسجون فى الولايات المتحدة حاليا، عمر عبد الرحمن هذا التصور فقال ذات يوم إن المفسرين أجمعوا على عدم طاعة أولى الأمر فى المعصية، وأجمعوا على وجوب الخروج عليهم لكفرهم».

٤ - القديم لا يموت كله

قد يعتقد متعجل أن تكفير الحكام على أيدى بعض التنظيمات والجماعات السياسية ذات الإسناد الإسلامى يمثل قطيعة تامة مع النظرة الدينية للحاكم فى مصر القديمة. وهذا التعجل مرده ثلاثة أمور، الأول يتصور أن التكفير يعنى التحرر من عبودية الأفراد مهما كان سلطانهم، حسب ما ذهب إليه سيد قطب، استنادا على أنه لا «كهنوت» ولا «إكليروس» فى الإسلام، وأن الله سبحانه وتعالى هو «الحاكم الأوحد» لهذا الكون، وهو «الخالق» وبيده وحده أجل الناس وأرزاقهم، ولا شريك له فى الملك، ولذا فلا خضوع إلا له ولا خوف إلا منه. والثانى يتوهم أن فكر التكفير مصرى الأصل، والثالث يعتقد فى أن مسألة الحكم باسم الدين تصور سياسى إسلامى.

فى حقيقة الأمر فإن هذه الجماعات والتنظيمات حين كفرت الحاكم لم تكن تريد إصلاحا سياسيا بل رمت إلى استبدال الحاكم «الكافر من وجهة نظرها» بآخر «مؤمن» حسب مقاييسها، وطرحت تصورا لشكل الحكم الذى تريده، لن يقود فى خاتمة المطاف إلا إلى «ثيوقراطية» أخرى، تحت لافتات جديدة، قائمة على فهم مغلوط للنص القرآنى، هى «الحكم بما أنزل الله» و«تطبيق الشرع» و«حكم الجماعة المؤمنة» و«الخلافة الإسلامية». وهذه الشعارات قد لا تقود فى حد ذاتها إلى شكل من أشكال «الحكم الإلهى» لو تم تأويلها وفق الجوهر الصافى والمقاصد الأساسية للدين الإسلامى، لكن حسب طرح هذه الجماعات والتنظيمات، فإنها تبدو إطارا أيديولوجيا لهذا النوع من الحكم، الأمر الذى يعنى إعادة إنتاج صورة الحاكم التى كانت سائدة فى مصر القديمة حسب بنية معرفية جديدة.

كما أن وجود مؤسسة تحكم باسم الدين يعد خروجا على القيم الدينية الإسلامية، لأنه نوع من التجسيد البشرى للدين، الأمر الذى يتناقض مع المكانة المطلقة له. فتحول سلطان الدين إلى مؤسسة حاكمة، يعنى أن هذه المؤسسة ملكت ما للدين من سلطان. والحاكمية الدينية فى الإسلام هى من خلال إعلاء القيم والقواعد الدينية المتفق عليها أو التى تختارها الأمة جمعاء، وليست لشخص، ولا لجماعة، مهما علت مكانتها واتسع نفوذها.

علاوة على ذلك فإن فكر التكفير ليس مصرى الجذور، بل صنيعة التأثر بتيار فكرى نشأ فى شبه القارة الهندية، الأمر الذى تكشفه المقابلة بين أفكار سيد قطب وما جاء فى كتابات أبو الأعلى المودودى، خاصة كتابه «الحكومة الإسلامية». وهنا يقول المستشار محمد سعيد العشماوى: «على النقيض من مصر فإن شبه جزيرة الهند منطقة المتناقضات الشديدة والمتعارضات العنيفة. ونتيجة ظروف تاريخية معقدة، فقد نشأ فيها تيار إسلامى تفاعلت فيه مركبات النقص ومشاعر الاضطهاد وأحاسيس الأقليات وكراهية الاستعمار وعجمة الإسلام، فأدى إلى رد فعل. مع من لا يدرك طبائع الأمور ولا يتعقل منطق الواقع ولا يتفهم حركة التاريخ ولا يتبع أسلوب العلم ولا يتشرب روح الدين. تردى فى المبالغة العنيفة والتعصب البالغ والتعالى الشديد، وبهذا انحدر إلى تصور منغلق على نفسه فقط، متقوقع على ذاته وحدها، منعطف على خيالاته وأوهامه، فبه جمود وجدة. هى أقرب إلى صلابة التحجر منها إلى شدة الحق».

من هنا نجد أن علاقة المصرى بالحاكم تندرج إلى حد كبير فى إطار السمة الغالبة على المجتمع المصرى وهى الاستمرار، أى استمرار الكثير من سمات عناصره الثقافية، وبخاصة فيما يتعلق بعاداته وتقاليده والألفاظ التى يتحدث بها المصريون وغير ذلك، كما يؤكد د. سيد عويس، فى كتابه: «نظرات باحث علمى اجتماعى مصرى». فالمصريون إن كانوا لم يعودوا يؤلهون الحاكم، بل إن قطاعا من النخبة السياسية والثقافية والاجتماعية فى مصر المعاصرة تسخر من بعض سلوك وأداء الحكام وتنتقدهم إلى حد الجلد، فى حين يطلق العوام النكات التى تنال من هيبة الحاكم، فإن ما فى البطانة من قدرة على إفساد الحاكم بتدليله وتبجيله وإضفاء عليه من عظيم الصفات ما ليس فيه إطلاقا، وكذلك فى الهوامش من بعض استكانة، هو تجلى لخاصية الاستمرارية هذه، أو أنه بعض رواسب «الحاكم الإله» فى مصر القديمة.

فكر التكفير ليس مصرى الجذور، بل صنيعة التأثر بتيار فكرى نشأ فى شبه القارة الهندية، الأمر الذى تكشفه المقابلة بين أفكار سيد قطب وما جاء فى كتابات أبو الأعلى المودودى

الحفر فى المقدس!!!

ليلى عنان

أثبتت الحفريات الجديدة، فى الثلاثين عامًا الماضية فى أرض فلسطين، أن ما يقال فى العهد القديم عن دولة كبيرة موحدة، لبنى إسرائيل، أنشأها الملك داود، لم يكن لها فى واقع الأمر، أى وجود

توصل علماء ألمان بروتستانت فى القرن التاسع عشر، وهم المتخصصون فى اللغويات ودراسة الكتاب المقدس، توصلوا إلى أن كتاب العهد القديم ليس تاريخًا لليهود كما يدعون، وإنما مجموعة أساطير تداولها بنو إسرائيل على مر القرون، حسب ظروف تاريخهم الموثق. وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى، استأنف يهود أوروبا فى عام ١٩٢٠، مشروعهم للاستيلاء على فلسطين، وبدأت الحفريات المكثفة، كان أهم ما يستندون عليه، ما كتب فى العهد القديم من الكتاب المقدس عن غزو يشوع لأرض الميعاد، أى كنعان. وكان لابد من إيجاد آثار تعتبر السند المادى الذى لا يناقش، لما قيل عن إنشاء دولة داود المترامية الأطراف، فيحق لهم استرجاع ما يعتبرونه إرثهم الشرعى، باسم التاريخ والدين. ولا ننسى أن العهد القديم هو الجزء الأول للكتاب المقدس للمسيحيين، فكان كل مسيحيى أوروبا، وأمريكا، شمالها وجنوبها، يساندونهم فى هذا الطلب، الذى وعدهم به الرب فى العهد القديم.

وعندما أعلن قيام دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨، استؤنفت الحفريات منذ ١٩٥٠، واهتم بها بن جوريون بالذات، بصفة خاصة، لأن العهد القديم قال إن يشوع قاد حربًا خاطفة واستولى على كل الأرض، وأباد سكانها واستعمرها جيش الرب بقيادته. وبن جوريون، الاشتراكى، الملحد، الذى يقود حركة «قومية يهودية»، أراد أن تؤكد الحفريات وجود أجداده فى هذا البلد، ليقود هو أيضًا، مثلهم، حربًا خاطفة دامية، تجعله يسيطر على أرض فلسطين، أرض كنعان سابقًا، ووجد من الآثار ما سمح له بأن يقود حربه باسم الميراث الدينى لشعب اليهود، العائد إلى موطنه الأصلى. وكان من أهم ما وجد، آثار دمار مدينة أريحا، التى وهبها الرب لجيش يشوع، بعد أن أسقطت أبواق الكهنة، أسوار المدينة وتحصيناتها.

كانت هذه المعجزة من أشهر صفحات تاريخ حرب يشوع، فى العالم الغربى، لذا، سنهتم بها بصفة خاصة، بعد أن أثبتت الحفريات الجديدة، فى الثلاثين عامًا الماضية فى أرض فلسطين، أن ما يقال فى العهد القديم عن دولة كبيرة موحدة، لبنى إسرائيل، أنشأها الملك داود، لم يكن لها فى واقع الأمر، أى وجود.

يثبت ذلك كتاب لعالمين يهوديين، نشر عام ٢٠٠١، عنوانه «حفر الكتاب المقدس: علم الآثار والنظرة الجديدة لتاريخ إسرائيل القديمة، وأصل نصوصها المقدسة»، وهو يقع فى ٣٨٥ صفحة من القطع الكبير.

ولنفهم ما سنقرأ عنه، ويقوله العالمان وأحدهما إسرائيلى، علينا أن نبدأ بما أمر به الرب، وهو يمد النبى موسى بما سمى بأرض الميعاد: «كلم بنى إسرائيل وقال لهم «إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون سكان الأرض من أمامكم (٥٠ . ٥٣)(...) وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التى أنتم ساكنون فيها. فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم» (٥٥ . ٥٦) (العدد - الإصحاح الثالث والثلاثون).

الرب يأمر إذا جيش بنى إسرائيل بتطهير عرقى للمنطقة، فبعد موت موسى النبى، الذى حرم عليه دخول أرض الميعاد، يختار الرب يشوع ليغزو أرض كنعان، ويكون النصر حليفه وبسرعة فائقة، فى حرب خاطفة لا تترك إلا الدمار وراءها، كما نقرأ فى العهد القديم، فالمجازر والحرائق كلها بأمر الرب (التثنية . الإصحاح الثانى ٣١ . ٣٧) و(يشوع . الإصحاح العاشر).

ولكن الانتصارات ليست دائمًا نتيجة المعارك والمجازر، فالرب مع الجيش بمعجزات عديدة ورائعة، عندما ينصلح حال بنى إسرائيل. فإذا انهزم الجيش فى معركة ما، فهذا لأن بنى إسرائيل أغضبوا الرب بعبادة آلهة محلية أخرى. ولكن سرعان ما يعودون تائبين إلى عبادته هو وحده، متناسين عباداتهم المؤقتة لآلهة البلاد التى استعمروها. حينذاك، يصفح الرب عن هذه الخيانات العابرة، ويعود إلى مساندتهم بمعجزات شتى، فتكون الانتصارات والمذابح مرة أخرى.. أو مرات أخرى.

وأهم وأشهر هذه المعجزات، سقوط أسوار أريحا أمام يشوع.

ونقرأ فى العهد القديم: «فقال الرب ليشوع: انظر، دفعت بيدك أريحا وملكها جبابرة البأس، تدورون دائرة المدينة جميع رجال الحرب، حول المدينة مرة واحدة، هكذا تفعلون ستة أيام وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف السبعة أمام التابوت. وفى اليوم السابع تدورون دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق. ويكون عند امتداد صوت قرن الهتاف عند أسماعكم صوت البوق أن جميع الشعب يهتف هتافًا عظيمًا فيسقط سور المدينة فى مكانه ويصعد كل رجل مع وجهه». (٦ . ١). وينفذ يشوع أمر الرب، ثم يقول لجيشه: «اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة، فتكون المدينة وكل ما فيها محرمًا للرب» (١٦ . ١٧) وتسقط الأسوار والتحصينات، وتبدأ المجزرة والسلب والنهب (يشوع - الإصحاح السادس - (١٩ . ٣١). إنها أشهر معجزة، وأكبر نصر.

ولكن الحفريات لم تحل لغز الكثير من التناقضات التى وجدت فى العهد القديم، فى موقع أريحا السابق، لذا، أعيد التنقيب مرة ثالثة، كما يشرح لنا مؤلفا الكتاب الذى نقرأه معًا. وعلم الآثار، مثله مثل باقى العلوم، يتقدم، ويكتشف تقنيات جديدة أكثر دقة ومصداقية.

يقول الباحثان: إن إبادة أريحا وسكانها، حدثت فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بين سنتى ١٢٢٠ و١٢٣٠، حسب توقيت الأحداث التى يسردها العهد القديم، ولكن التاريخ الموثق يقول غير ذلك، إنه يكذب كل قصص العهد القديم، بما تركه من وثائق يعرفها كل مهتم بهذه الحقبة من ماضى المنطقة.

أولاً: توجد رسائل تل العمارنة التى وجد منها ٤٠٠ فى مصر، وهى مدونة بين القرنين السادس عشر والثانى عشر قبل الميلاد تعطينا هذه الرسائل، وبدون أدنى شك، حقيقة الموقف السياسى لمنطقة الشرق الأوسط فى هذه الحقبة من الزمان، إنها الخطابات الخاصة، والإدارية والدبلوماسية، المتبادلة بين فراعنة مصر وملوك آسيويين تحت إمرتهم، أو مع كبار الملوك حينذاك، إنها تثبت أن كل هذه المنطقة كانت تحت سيطرة مصر، حيث نقاط التفتيش والحراسة تغطى كل البلد، فالإمبراطورية المصرية كانت فى أوج قوتها فى القرن الثالث عشر. وفى ذلك العصر، لم يكن يوجد لا مدن ولا تحصينات للممالك الصغيرة، التى قيل فى العهد القديم، أن يشوع سحق جيوشها وشنق ملوكها وأباد سكانها ماداموا من أهل البلد الأصليين، وحرق مدنهم ليحل محلهم بنو إسرائيل وجيشهم الجبار. ورسائل تل العمارنة تؤكد ضعف المدن الكنعانية ووهن ملوكها، ولم تكن عواصمهم إلا مراكز صغيرة يعيش فيها الملك وحاشيته. فما يدفعه الملوك من جزية لفرعون مصر، لا يسمح لهم بإقامة أى تحصينات، أو تطوير بلادهم. هذه هى الحقيقة التاريخية الموثقة التى تلغى كل ما قيل فى العهد القديم عن حرب يشوع الخاطفة ضد ممالك وجيوش جبارة.

أما عن الآثار الكنعانية المدفونة تحت الأرض، ففى عام ١٩٢٠، تم اكتشاف ما يثبت الوجود المكثف للجيش المصرى، من أيام سيتى الأول فى القرن الثالث عشر، إلى أيام رمسيس السادس، الذى حكم فى نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد.. أى بعد الاكتساح المفترض لجيش بنى إسرائيل للمنطقة بقرن من الزمان.

فهل كان هذا الوجود الطاغى لقوات الإمبراطورية المصرية فى منطقة تابعة

The Bible unearthed
Archaeology's New Vision of ancient
Israel and the origin of its sacred texts

(حفر الكتاب المقدس.. علم الآثار والنظرة الجديدة لتاريخ إسرائيل)

Israel Finkelstein and Neil Asher Silberman
A Touchstone Book - New York 2001
Charles Enderlin
les annees perdues, 2006

لها، ليسمح لجيش من مهاجرين هاربين من مصر، بتدمير كل هذه الممالك والمدن؟ من المؤكد أن الإمبراطورية المصرية لن تترك جيشاً متمرداً على سلطانها يصول ويجول ويقتل ويحرق ويستعمر دون رادع، علاوة على أنه ما من حدث في هذه الملحمة الدموية ذكر، لا في البرديات ولا في الآثار المصرية، التي تدون تاريخ المعارك وأهم الأحداث بدقة فائقة. والمعروف أن اسم «إسرائيل» نفسه، لم يذكر إلا مرة واحدة على «لوح مرنبتاح»، اسم يذكر عرضا لأن مجموعة اسمها «إسرائيل» هزمت بطريقة نكراء.

هذا ما تؤكده مرة أخرى، الآثار الموجودة فوق الأرض ويعرفها الجميع. لذا، فالبحث عن آثار تحت الأرض كان جارياً، منذ بداية القرن العشرين، في محاولة لاكتشاف ما يؤكد صحة قصص العهد القديم، عن تقدم يشوع الخاطف: فكل المدن والممالك التي اكتسحها يشوع وذكرت في العهد القديم، كان لها بالفعل وجود تاريخي معروف، وهي تذكر في العهد القديم، حسب تسلسل جغرافي صحيح، فملحمة يشوع المنتصر بعون الرب صادقة إذاً، ولا شك في صحتها.

بعد عام ١٩٥٠، استؤنفت الحفريات بصورة مكثفة، وأثبتت أن المدن المزدهرة في هذه المنطقة، والممالك الثرية، كانت في أوج عظمتها: هوجمت وحرقت دون أي مقدمات مسبقة، أو أي إشارة تدل على انحدار ما في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وبالتالي، فالعهد القديم تاريخه صحيح في تلاوته لاجتياح يشوع لأرض كنعان وإبادته لأهلها.

ولكن علم الآثار، بتقنياته الحديثة المتطورة، جاء ليفند كل ما كان مؤكداً من قبل، بفضل حفريات ما بعد ١٩٥٠. وإليكم تفاصيل ما وجده مؤلفا كتابنا من اكتشافات وحفريات، بعد إعادة دراسة الحفريات السابقة، بالأساليب الجديدة، وذلك في الثلاثين عاماً الماضية.

بادئ ذي بدء، من حقنا أن نسأل لم إعادة الحفريات السابقة ودراستها مجدداً. السبب أن ما قيل لتأكيد الغزو الكاسح لجيش يشوع، كانت به متناقضات لم تجد فيما سبق من حفريات، إجابة شافية لها. وأهم هذه المتناقضات، وضع أريحا بالذات، ومعجزة سقوط أسوارها، فالآثار المحلية تؤكد أن أريحا لم يكن لها تحصينات في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولم توجد أي آثار من هذا التاريخ لأسوار هدمت، أو حتى لمدينة سقطت بعد عدوان غاشم عليها. بالتالي، فقصة الأبواق التي تسببت في سقوط التحصينات، لم تعد، في نظر الباحثين، أكثر من «سراب ووهم رومانتيكي» حسب قولهما.

الحفريات كانت مكثفة ودقيقة، ولم يتعلق الأمر بأريحا وحدها، لأن عالمينا لم يقفا عند أريحا وحدها، وإنما استهدفت حفرياتهما كل المناطق التي قيل إن يشوع استعمرها بالقوة الغاشمة، وبمساعدة معجزات حققها الرب لنصرته. فلم يجد المنقبان أي أثر لما قيل في العهد القديم، عن ممالك أبادها يشوع بأكملها، مما يؤكد أن





كل المدن، مثلها مثل أريحا، لم تكن موجودة بالأصل، عندما اجتاح يشوع أرض كنعان.

أثارت هذه الاكتشافات طبعاً الكثير من اللغط بين العلماء الإسرائيليين، لأن القضية كانت سياسية قبل أي أمر آخر. ويذكرنا الأستاذ إسرائيل في برنامج تليفزيوني، أن بن جوريون زار المنطقة، وأكد أحقية إسرائيل في استعمارها، بل وقتل أهلها، مادام أجداده من بني إسرائيل اكتسحوها سابقاً بأمر الرب، في حرب خاطفة مدمرة، مثل الحرب التي ينوي الإسرائيليون الجدد شنها. ولكن، وبعد الكثير من التمحيص، وخاصة في حفريات هذه المنطقة، أجبر علماء الكتاب المقدس أخيراً، على الاعتراف بما توصلت إليه الحفريات الحديثة، التي أبعدت يشوع وجيشه من مسرح الأحداث. وتأكد بالتالي أمر آخر، أن من أباد كل هذه المدن كانت عوامل أخرى في وقت لاحق، ولا علاقة لها ببني إسرائيل وتاريخهم.

يقول الباحثان إن هذا الأمر منطقي، إذا نظرنا إلى تاريخ كل منطقة الشرق الأوسط، وليس إلى أرض كنعان وحدها، ومصير بني إسرائيل وحدهم، لأن المنطقة كلها عرفت في هذا العصر تحولاً جذرياً عندما كانت الامبراطورية المصرية وقواتها الهائلة، تنافس الامبراطورية الحيثية الشمالية الكبرى، تنافس انتهى بمعركة قادش، وتصالح العملاقان إلى أن ظهر بعد ذلك ما أسمته كتابات مصر الفرعونية «شعوب البحر»: هي التي حطمت كل التوازنات المعاصرة، من قوى اقتصادية إلى أنظمة اجتماعية، بانهيار الطبقات الثرية في هذه البلاد، فانهارت الممالك وأبيدت المدن. كانت رسومات معبد مدينة هابو في مصر، تصور «شعوب البحر» هؤلاء، بخوذات بقرنين، أو عليها ريش غريب، وهو لباس يختلف عن كل رسومات أعداء مصر في هذا العصر، وخاصة من كان من الآسيويين. ولم يتفق العلماء حتى الآن على مصدر هؤلاء القوم، الذين يعيشون على المراكب، والذين أغاروا مراراً على المنطقة. وتسببوا حسب قول مؤرخينا في تحطيم كل التوازنات الاقتصادية لكل ممالك ومدن كنعان المزدهرة، وذلك في نهايات القرن الثالث عشر قبل الميلاد. استمر هذا الموج الكاسح المدمر لفترة طويلة، كما يثبت ذلك ما وجد في الحفريات من آثار. هذه الآثار تدل أيضاً على أن كل هذا حدث بصورة بطيئة، على مدى قرن من الزمن تقريباً: دمار ليس من فعل جيش واحد في فترة زمنية وجيزة، كما كان يفترض لو أن جيش يشوع كان الفاعل في حملة سريعة كاسحة: هذا ما تنفيه بشدة آثار هذه المنطقة، لهذا العصر، التي لا يوجد فيها أي أثر لجيش ينتمي إلى بني إسرائيل، على العكس، وجد ما يثبت

رسائل تل العمارنة تؤكد ضعف المدن الكنعانية ووهن ملوكها، ولم تكن عواصمهم إلا مراكز صغيرة يعيش فيها الملك وحاشيته

التواجد العسكري المصري المكثف السابق حتى انهيار هذه المدن، وحرقها، دون أن يعرف السبب اليقيني لهذا الانهيار، ومن تسبب في هذه الحرائق المدمرة. والحق أن الكتاب لم يعط إجابة شافية لهذا الأمر، إلا أنه حازم في نفي أي وجود يهودي، لعدم وجود أي دليل مادي، كبيراً كان أم صغيراً، لهذا الوجود، على عكس ما تبقى من الوجود المصري.

والكتاب يشرح أيضاً أن المثقفين اليهود، عندما بدأوا تجميع أساطيرهم في القرن السابع قبل الميلاد، كانت ذكريات مذابح وحرائق قام بها قوم غير اليهود، لاتزال متداولة، وآثارها لاتزال مرئية، آثار هجوم «شعوب البحر» المستمر عليها. وعند تجميع أساطير الأولين، بدأت أسماء المدن المعاصرة تلعب دوراً مهماً في الأساطير، مثل مدينة أريحا مثلاً، حيث كانت آثار عدوان سابق لاتزال واضحة، وقد تاه من الذاكرة، أصحاب هذا الدمار، فنسبت لغزو يشوع في قديم الزمان.

الآثار التي وجدت، والتي لم توجد، فيما كانت أرض الميعاد، أثبتت أن ما من غزو مفاجئ بلا مقدمات، جعل مهاجرين من مصر، يستوطنون بقوة السلاح هذا البلد الآمن، في يوم ما. فالمؤكد أن كل الآثار تدل على أن موجات متتالية من المهاجرين، جاءت على مدى مائتي عام، لتعيش في هذه المنطقة في سلام مع أهلها الأصليين، ولم يحدث بين السابقين واللاحقين أي احتكاك مسلح، يبرر خلق ملحمة بني إسرائيل وقائدهم الأسطوري يشوع.

وبعد ملحمة يشوع، نقرأ في العهد القديم ملحمة داود، أول ملوك اليهود أجمعين، قبل أن يتسبب ابنه الملك سليمان في انشطار المملكة إلى دولتين، دولة يهوذا في الجنوب، ودولة إسرائيل في الشمال، ويسرد علينا عالمانا تاريخ العلاقة العاصفة بين الدولتين، وحرب الأعداء بين الإخوة اليهود، حتى يأتي ملك الآشوريين ويستعمر أرض إسرائيل الشمالية، لتنتهي كدولة، ويرحل سكانها. أخيراً، أصبحت الفرصة موانية لملك يهوذا، لينصب نفسه ملكاً على كل اليهود، بل ويفرض عليهم ما يراه أصول الدين اليهودي الحق. ولا ننسى أن أورشليم تقع على أرضه، أرض يهوذا في الجنوب، أورشليم التي اختارها الرب ليبني فيها الملك سليمان معبده الفاخر، حيث يقطن الرب ورموزه وكنوزه.

ولكن دولة يهوذا معرضة هي الأخرى لأطماع الأشوريين التوسعية، فكان ضرورياً أن يجتمع بنو إسرائيل كلهم تحت إمرة يشوع في هذه الأساطير، كرمز وقدوة تأتي من قصص الأولين، لتؤكد حتمية توحيد الدولتين تحت لواء وحكم ملك واحد في العصر الحديث، ملك يهوذا المتبقي في مملكة يهوذا، حيث الحركة الفكرية والفلسفية نشطة جداً منذ القرن السابع.

ثم حدثت في القرن الخامس، المعجزة التي تشرح لنا كيف تحولت أساطير الأولين إلى كتاب اليهود المقدس، كتابهم المقدس حتى يومنا هذا، وهو العهد القديم.

نقرأ في العهد القديم، أن «سفر الشريعة» وجد في معبد سليمان في عهد الملك يوشيا، ملك يهوذا، فأمر هذا الملك أن يضاف إليه تاريخ بني إسرائيل وقوانينهم، حتى يصبح «الكتاب المقدس» الوحيد لكل اليهود، ويصبح معبد أورشليم المكان الوحيد الذي تقدم فيه الأضحية للرب. وهكذا تتضح لنا الصورة السياسية لهذه المعجزة.

يشرح لنا تاريخ دولتي يهوذا وإسرائيل ضرورة خلق بطل أسطوري مثل النبي موسى، الذي أخرج بني إسرائيل من مصر، ووجدت تشريعاته في المعبد، وكأنها تنتظر هذه اللحظة من قديم الزمان لتظهر في هذه اللحظة على الملأ. «كتاب مقدس» جديد، يعد بعصر ذهبي جديد، لو أن اليهود المعاصرين اتبعوه، مثل بني إسرائيل المتحدين تحت إمرة النبي موسى، ثم لواء يشوع من بعده، يشوع الذي قتل وحرق دون رادع، بأمر الرب ومعجزاته. فكانت قوة دولة بني إسرائيل في قديم الزمان، دولة داود وسليمان العظيمة.

يقول عالمانا إن طفرة خلاقة لا مثيل لها، كانت قد اجتاحت مثقفي بني إسرائيل وأنبياءهم في القرنين السابقين لعهد الملك يوشيا، فكان «الكتاب المقدس» الجديد الذي كتب بأمره، تتويجاً لهذه الطفرة في القرن الخامس، وقد حفزهم لكتابته اكتشاف «سفر الشريعة» في المعبد القديم.

هذه هي خلاصة جزء مما يقدمه لنا الأستاذان اليهوديان (وأحدهما إسرائيلي)، لدراستهما لجزء من العهد القديم، الذي أصبح فيما بعد الجزء الأول من الكتاب المقدس للمسيحيين. وقد فقد باحثانا أسطورة أريحا كما فقدنا الكثير من الأحداث التي يرويها العهد القديم على أنها تاريخ بني إسرائيل، وهو التاريخ الذي يبدأ بقصة النبي إبراهيم وعائلته. وإن كانت ملحمة يشوع تهمنا للدور الذي لعبته في نشأة دولة إسرائيل، فقارئ العهد القديم لا يسعه إلا الجزع للعنف الذي تتسم به، والدماء تكاد أن تسيل من الصفحات التي تروي الانتصارات المتلاحقة والاستعمار الدموي العنيف.. وإذ بعالمينا يثبتان بالتاريخ الموثق والآثار، أن هذه الملحمة ومعجزة أريحا، لم تكن إلا خيال شعب مهزوم، يبحث في ماضيه عن أمجاد يود أن يحاكيها، وتكون المفاجأة، وهي موقف العالمين من هذا الإرث الدموي.

إنهما عالمان معروفان في مجاليهما ولاسميهما احترام كبير: إسرائيل فنكلشتاين، مدير معهد الآثار بجامعة تل أبيب، ونيل آشر زلبرمان، مدير التفسير التاريخي لمركز إينام للآثار العامة وتقديم الميراث في بلجيكا، وعضو عامل في مجلة «الآثار».

لقد أثبتنا أن حرب يشوع الاستعمارية العنصرية لا أساس لها من الصحة، وأن كل ما كتب عنها لا يعدو أحلاماً رومانتيكية، لأمة تلجأ إلى أساطير دموية

لتشحذ همم اليهود فى عصر وهنهم، لتثير صحوة جديدة واسترجاع مجد سابق (وإن كان كاذباً)، مجد مبنى على المجازر وحرق الأبرياء، مما يجعلنا نتساءل عن «كنه هذه الأمة العظيمة» كما يؤكد عالمانا .إنهما يفتخران وباعتزاز شديد لانتمائهما لهذه الأمة، صاحبة هذا التاريخ الكاذب الدامى!

هذا بالضبط ما فعله بن جوريون ومن تبعه من قواعد إسرائيل، وما يستمر فى تطبيقه الجيش الإسرائيلى منذ خمسين عاماً .. وأكثر، وما خفى كان أعظم. هذا ما يفضحه كتاب نشر مؤخراً لصحفى فرنسى اسمه شارل أندرلان، قضى خمسة وعشرين عاماً فى إسرائيل، وكان على اتصال دائم بكل قوادها. إنه يؤكد السيطرة الكاملة للجيش على سياسة «الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط»، كما يقال فى إسرائيل. إن الجيش هناك يزدرى السياسيين، ويفند كل ما يتخذونه من قرارات وخطط، ويجهض أى تحرك من أجل حل القضية الفلسطينية، بناء على أكاذيب ملفقة. السلطة الفعلية فى الواقع هى سلطة الجيش، فهو المسيطر على الساحة الميدانية: إنه القوة التنفيذية المستقلة عن الحكومة والتى تتصرف بكل حرية على أرض الواقع دون الرجوع إلى الحكومة الديمقراطية.. اسماً. وما العجب، وتاريخهم، مثل حاضرهم، يتصف بـ «العنصرية العرقية النازية»، كما تؤكد الفيلسوفة اليهودية الألمانية حنا آرندت.

لا ننسى أن العهد القديم يحكى أن يهود المنفى، عندما عادوا من أسر دام سبعين عاماً فى بابل، قرروا أن من أسس أسرة فى هذا المنفى، عليه أن يتخلى عن زوجته وأولاده إن أراد العودة إلى وطنه الأصلى، لأن دماء أولاده اختلطت بدماء الأغراب، كما كان على كبار القوم منهم أن يثبتوا أن أجدادهم كانوا من يهود أورشليم قبل المنفى، ليعترف بهم، ويقبلوا فى أوطانهم التى رحلوا منها سابقاً. كل من كان غير ذلك مرفوض، بل ملعون، ومحرم عليه البقاء وسط بنى جلدته.

نعجب بعد ذلك، عندما نقرأ أن عالمينا، يفتخران بانتمائهما لأمة أنتجت فى العهد القديم، «هذا الفكر الرائع»، كما يقولان «فكر لا يزال يحكم البشرية بأسرها حتى الآن. فالمسيحية والإسلام ما هما إلا امتداد لهذا الفكر اليهودى»، هذا قولهما.

والقارئ الناقد، يعجب لأنهما من التيار العلمانى، الذى يكفر بالدين اليهودى، بل ويرفضه، والمفروض أن علمه منزه، وفوق أى اعتبار، غير إظهار الحقائق العلمية، كما فعلا فى كتابهما.

ولنذكر عالمينا . وإن كنت تدرى فتلك مصيبة، وإن كنت لا تدرى فالمصيبة أعظم. نذكرهما أن العلم المجرد الذى يطبقانه، يعرف أن نصف البشرية، وخاصة فى آسيا، لم تخرج من عباءة النبى إبراهيم، مثلما فعل أهل الكتاب، والإسلام، أتباع الفكر اليهودى حسب قولهما . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهما ينسيان كلية ما غيرد السيد المسيح من جوهر فى العقيدة اليهودية، ثم ما أضافه أو حذفه الإسلام بعد ذلك. وإن عدنا إلى الديانة اليهودية نفسها فى كتابها المقدس، فعالمانا يتجاهلان كل ما كتب على مستوى عال من الدراسة، عن تأثير الديانات المعاصرة الأخرى على يهودية القرن الخامس قبل الميلاد، فكان للدين الإغريقى والفارسى والفينيقى والمصرى الفرعونى والهندى، أكثر من بصمة لن ينكرها إلا جاهل بهذه الديانات، المصاحبة للصحوة الخلاقة لمثقفى اليهود فى القرن السابع والسادس قبل الميلاد. ولتأكيد هذه التأثيرات ما يقال فى العهد القديم نفسه عن المحاربة المستمرة لأنبياء بنى إسرائيل. وأولهم النبى موسى - محاربة الرب لما كان يقوم به بنو إسرائيل من شعائر وعبادات للآلهة التى كانوا يقابلونها فى جولاتهم وحروبهم، فيثار غضب الرب، وتكون الهزائم العسكرية نتيجة هذه الخيانات. ولن تؤكد وحدانية الرب نفسه إلا فى القرن الخامس عندما دون الكتاب المقدس الجديد لليهود.

وعلى الرغم من أساطير «كنه» الأمة اليهودية الدموية، وهى حلم أمة لا ترى وسيلة أخرى لتثبت تعاطف الرب معها، وعلى الرغم من العنصرية العرقية القاتلة لكل من لم يكن يهوديا، وعلى الرغم من علمانية باحثينا المشهورين، إلا أنهما يفخران بانتمائهما لأمة أنتجت هذا الفكر العدوانى لكل ما يختلف عنه. فالصلف الصهيونى أثبت مرة أخرى أنه أقوى من أى علم حتى إن كان هذا الصلف مبنيا على تهويمات ماض سحيق وكاذب باعتراف عالمينا وبإثباتهما لهذه الحقيقة العلمية، بالآثار التى لا تكذب. ■

صورة عائلية:

كان جوزيف...

أمية جوزيف سماحة

في ٢٥ فبراير الماضي، لقي الكاتب والمحلل السياسي اللبناني رئيس تحرير صحيفة الأخبار اللبنانية ربه فجأة، بينما كان في لندن يشد من أزر صديقه حازم صاغية في وفاة زوجته الكاتبة والفنانة مي غصوب. جوزيف صاحب تجربة مهنية عريقة امتدت من بيروت وباريس ولندن وقد رأس تحرير صحيفة السفير اللبنانية (٢٠٠١ - ٢٠٠٥) وكان قبل ذلك رئيسًا لتحرير صحيفة الوطن ومديرًا لمكتب صحيفة الحياة في بيروت ومديرا لتحرير صحيفة اليوم السابع. وله كتابان «سلام عابر» و«قضاء لا قدر». وعرف بقلمه الجريء ورفضه المساومة على مواقفه المبدئية ذات التوجه اليساري. وهذا المقال عن جوزيف الإنسان كتبته لـ «وجهات نظر» ابنته أمية بالفرنسية.

■■ أتحدث عن جوزيف بلا قيد أو حد سواء في الحاوي أو المحتوى.

أرى في قصة الإنسان الذي بدأ حياته من الصفر ما يثير الرغبة في معرفة العوامل التي شكلته حتى تمكن مبكرا من شق ذلك الطريق الذي أوصله إلى تلك القامة. بالنسبة لي، كان أكثر ما يهمني بين تلك العوامل هو مقدرتك على تنحية وضعك جانبا عند الحاجة، لكي تعود مجددا ذلك الإنسان البسيط المتواضع. فقلمك لا يهمني بنفس القدر الذي يهمني به ذلك الإنسان الذي كنت قبل أن تصير صحفيا.

ما زلت أذكر طريقتك في الرحيل من دون إلقاء كلمة وداع. إذ يبدو أن القطع ليس له عندك أهمية تذكر. لا. فالوصل هو الجدير عندك بالحسبان والتذكر. بعد مضيك، وبرغم الحزن القائم، لم يخلُ الوصل من باعث على التجلد والتجاسر، من شيء ما عظيم القيمة، قد حصلتَه بالتواصل مع الناس. فلقد طلبوا إليَّ أن أكتب، وأن أعبر، وأن أحكي قصة علاقتي الشخصية والفريدة بك، وأن أكشف عما ترتكز عليه من دعائم لا يعرفها سوانا، أنا وأنت.

ولكن، أنى لي الحديث عن شخص لم يكن يحب الحديث عن نفسه مطلقا؟

ها أنا أعود إلى الطريق الذي يصل المطار بالكنيسة، يوم عدتَ أنت من لندن مع زياد. هؤلاء البشر على جانبي الطريق، هؤلاء الذين لا أعرف أسماءهم أو صفاتهم، الذين لا يعرفون كم أحدثوا في نفسي من تأثر، هؤلاء هم أول من أسدى لك التكريم. لقد كنتَ واحداً ممن يمنحون صوتا لمن لا صوت لهم، صوتاً لملح الأرض من الفقراء والمعدمين. وإن حياة كاملة من العمل الجاد في خدمة هذه القضية لجديرة بالإكبار والاحترام. هو ذاك ما استشعره إخواني- الذين لا أعرفهم- من البشر الواقفين على جانبي الطريق.

لقد بذلتَ الكثير في عملك. بذلت نزاهة قلب وطهارة يد مازلتُ أجلهما فيك. ولعلهما صفتان ورثتُهما فيما ورثته عنك. فأنا مثلك لا أطيق القيام بعملي كيفما اتفق. فعندما يتعلق الأمر بمهنة قوامها الحبر على الورق، يصبح تحري الالتزام الصارم مسئوليةً يجدر استيعاب جسامتها والنهوض بتبعاتها. ومنذ أن خبرتُ بدوري تلك المسئولية، صرتُ قادرةً على فهمك بصورة أفضل.

لقد قصصتَ عليَّ أحداث حياتك ووقائع طفولتك، التي صارت عندي اليوم أغلى من أي وقت مضى. أولا لكونها صادرة عنك، ثم لأنها أتت ممتزجةً بما فجرته من انفعالات في داخلتك.

لم تكن حياتك باليسيرة. فعندما تلوح الفروق الاجتماعية والاقتصادية فيما بين الأطفال، قد لا يتوانى الطفل الأقل فقرا عن رشق الطفل الأكثر فقرا بنظرات مثقلة. وكنت أنت ترتدي ملابس

ترجمة: داليا توفيق سعودي



ممزقة، وفى أحيان أخرى كانت أسمالك منحة بر وإحسان يقدمها لك أطفال آخرون. لكن يبدو أن للبر والإحسان مفارقاتهما. فسرعان ما كانت الأصابع تشير إليك فور تعرف الصبية على ملابسهم. كنت تتستر بملابس الآخرين. ولكنك ما كنت لتطيق النظرات التى كانت تمتد إليك لتعريك. إذ أن أحدا لم يشرح لأولئك الفتية أن الصدقة عمل ممتاز، وإن كان لا يكتمل إلا إذا استتبع رؤية أبعد، تدعو إلى التفكر، وإلى التحلى بنبذ المن والأذى. إذ يجدر ألا يصبح فعل البر والإحسان مسمما. كم كانت لتلك النظرات أثرها العميق فى تشكيل علاقاتك بقرنائك! وكم تركت فى نفسك من دفين العواقب، عواقب ضاعفها إعراضك الدائم عن الرد على أكثر الملاحظات جرحا وإحراجا.. هكذا كنت تحكى ببساطة متناهية، بل بشىء من الخضوع الى أحكام البداهة، أنك أعرضت دوما عن دفع الإساءة بالإساءة. وفى قرارة نفسى الثائرة، عبثا حاولت أن أتفهم كيف تأتى لك احتمال تلك النظرات الغاشمة، المتعالية، أو لماذا كنت تمسك عن الإفصاح عما تريد، تاركا نفسك أمام الآخر وكأن قدرك أن تكون ضحية له. أنى لنا الحكم على أسلوبك فى رد الفعل؟ هل لنا أن نرى فيه أمارة ضعف أم برهان قوة؟ منذ صباك الأول تمترست خلف صمتك، ولكن ذلك لم يمنعك من الرصد والملاحظة. كنت تحكى أنك كنت تسمع حديث زملائك فى السياسة، وأنك كنت تلقى نظرة على تحليلاتهم. كنت تقول لى إنك كنت تستشعر فى نفسك قدرة على التفكير بصورة أفضل منهم.

إن طفولتك لتذخر بالأحداث، وهى لتذخر أكثر بالانفعالات، التى حرصت أنت على إخفائها فى مكنون نفسك. فكل ما عايشته احتفظت به لنفسك، ظنا منك أن ذلك أكثر توافقا مع روح الفروسية وإملاءات التأدب والكياسة. أو لربما كان الجرح قد صار من العمق بحيث انتفى معه أى معنى للرد، فرحت تخطط لشىء ما فى قابل الأيام. وأنت كنت بعدُ ذلك الإنسان النابه الرهيف.

أنى للفتى أن ينظف ليلاً المدرسة التى يدرس فيها، أو كيف له أن يدرس صباحا فى المدرسة التى سينظفها فيما بعد؟ المشهد معقد وثقيل بالفعل ولكنه بعد غير مكتمل. كان أبوك قد رحل، فقرر أهلك اختيار تلك المدرسة لشهرتها. وكان أصحابك يمرون بك فيرون معك المكنسة. يقال إن المرء يقسو تحت وطأة الجراح، ولكننى أرى أنك كنت أكثر رقة من أن تفكر وفقا لهذا النسق. لا يهم متى كان تاريخ ميلاد أول جراحك... فبالنسبة لإنسان جريح، كنت تعرف كيف تأسو الجراح. كانت آراؤك متماسكة وموزونة، كانت تمنحنى رؤية بانورامية للموضوع المطروح. فلقد كنت تتمتع بتلك القدرة على تسكين خاطرى فى لحظات الشك المقلقة.

كنتُ جالسة مع أصدقائى فى يوم من الأيام، وكنتُ بعد فى السادسة والعشرين. فبث التلفزيون تقريرا مروعا يظهر جنديا إسرائيليا وقد أُلقى به من النافذة، وراحت أقدام غفيرة غاضبة تدوسه وتركله. ولقد كان ذلك المشهد جزءا من مجموعة صور أذهلتنى. ما كان القتيل فى نظرى إسرائيليا بل تراءى لعينى كإنسان، وكجندى (والله وحده أعلم بما يتجشمه الجنود من عناء...) فما كان منى إلا أن عبرت عن رد فعلى بتلقائية تامة أمام أصحابى، فما زادتنى كلماتى إلا وحدة واغترابا بينهم. إذ وجدت نفسى وقد زُجرت وعُنفت من قبل شباب فى مثل عمرى أبوا جميعا أن ينصتوا إلى. بل إنهم لم يتركوا أدنى فرصة للنقاش. ولقد وجدتُ فى ذلك نذيرا بالخطر. لكننى اصطنعت التسليم والانقياد. وبعد فترة، جلسنا سويا: أنا وأنت، وفاتحتك فى الأمر. وعندما قلتُ أنه بالرغم من جراحك الملتهبة بوسعك المداواة والتطبيب، كنت أعنى ما أقوله حقا.

«أنا لا أسمح لأى أحد أن يكسر إنسانيتى أو أن يتحكم بها»، هكذا جاءنى جوابك. عندئذ، لم أعثر على ضالتى فى قولك فحسب، وإنما وجدت أيضا فى كلماتك تفسيرا أضاء لى بواعث موقفى. ورغم ما واجهته فى تلك اللحظة من عداء المحيطين بى، فقد بقيتُ قابضةً على موقفى. إذ أعَنْتَنى على الثبات، ورفعتَ من مستوى ثقتى فى ذاتى. ولقد طالبتنى بتعزيز تلك الحساسية. فمثيلة تلك المواقف يهلك من يبقى دون إدراك ما بها من سداد وإحكام، ويفقد شيئا ثمينا. وافتقار من هذا النوع وبهذا الحجم لا بد أن تنجم عنه يوما ما عواقب وخيمة. إن مواقفك فى التصدى للصهيونية مشهود لها. ومع ذلك استطعت تفهم الآخر متمثلا فى ذلك الجندى الإسرائيلى الذى سقط، كان ذلك هو سلاحك الذى طالما شهرته، ليكون نضالك نضال القلم عوضا عن العنف.. أعتقد أن قلبى كان يحدثنى بكل ذلك وإلا ما كان لى أن أفاتحك فى الأمر. فإن كان الأكبر سنا يملك ناصية القول الحكيم، ففى بعض الأحيان أيضا، لا يخلو كلام الأصغر سنا من فائدة.

فى الفترة التى عملتُ خلالها فى صحيفة «السفير»، كنتُ أصاحبك من المنزل إلى العمل. لم تكن تدرى حينها أنك عندما كنتَ تسير أمامى كنتُ أنا أظل ناظرة إليك. كنت أشعر فى حضرتك بفرحة شديدة الخصوصية.

لم أتمكن من إخبارك بكل ما أردتُ قبل أن ترحل. ولقد وجدت نفسى محرومة من البوح، تحت وطأة القسوة المفاجئة، وهو أمر قد جربتَه أنت الى حد ما، عندما حُرِمتَ من بلوغ أقاصى الطريق قبل عامين فيما يتعلق بسمير قصير[1]. وبقلم جريح، يقطر أخوة ومودة، نعيته كاتبا: «لقد تركنا سمير بقلوب كسيرة، لا عزاء لها ولا سلوان، إذ كيف يمكن إبلاغه الآن بأن ما كان يفرقنا أصغر بكثير مما كان يجمعنا...؟».

قد وشمنى رحيلك



بصدمة، وبحسرة لا أظن أن لي منها فكاك عن قريب. فلقد ثبتت لك عندي مودة لم يُرودني الوقت أن أبوح لك بها. لم يُرودني الوقت أن أهديك بعض الأشياء، كأن أبتاع لك بيت أحلامك في بلدة «بعينو» موطن أمك، أو أن أعد لك طبقا من أطباقي التي وعدتك بها يومَ أخبرك زياد أنني أجيد الطبخ.. خلاصة القول أني صرت أحيا من خلال أحلامك، التي يساورني ندمٌ على إخفاقي في تحقيقها لك إذ كنتَ حيا. لقد كان موتك هزة عنيفة حركت بداخلي أشياء ما كان بمَلكي أن أحركها بالاتكاء على قدراتي وحدها، وإن كانت قدراتي حاضرة...

ثمة جانب كامل منك ما زلتُ أجهله، لعل ذلك هو ما حملني على تكوين رؤية مغايرة لك، تستند بالأساس الى خيال قد اشتط في جموحه. هكذا كنتُ أصنع في بعض الأحيان بغية سد أحد الفراغات، أو الخلاص من علامة استفهام. كثيرا ما غضبت منك بمثل ما كنت تغضب أنت مني. فبرغم جيشان مشاعرنا بقينا محصورين في دوائر سوء الفهم والخلاف. ولكم وددتُ قبل أن ترحل عني أن أحل ما بيننا من عقد كي تستفيد من ذلك أنت أيضا.

أعتقد أنني أحمل لك صورة مختلفة عن تلك التي يحملها لك معظم الناس. ولما كنت لا أخالطك بدرجة كافية، فلقد رسمت الصورة اعتمادا على عناصر خيالية. ولما كان الخيال أرضاً حرة، وكان عدد التحولات الممكنة لانهائيا، فلقد صنعت لك صورة توافق هواي.

في فترة من الفترات، كنا نغتنم عطلة الأحد لكي نتلاقى على الغداء. كانت تلك جلسات قصيرة، ولكن ما أشد أهميتها لها أنا استجدي الذاكرة التماسا لمثل تلك اللحظات. وفي بعض تلك اللقاءات، كنت تستسلم لضغط الإلحاح فتحكي لي عن نفسي. هكذا حكيت لي عن اليوم الذي جئتُ فيه الى الدنيا.. كان من الصعب عليك الحكي بمثل ما كانت تعوزني شجاعة السؤال.

كنت ترى أشياء لا يدركها بصري. وعندما التحقتُ بسكن الجامعة في فرنسا، كي أبدأ حياة مستقلة للمرة الأولى في الثانية والعشرين من عمري، حرصت على أن أدعوك الى زيارة غرفتي، أو لنقل عالمي الجديد. كنت أدرس الأدب الانجليزي، فألمحت إليّ أنه لا يوجد أي كتاب باللغة الانجليزية على طاولتي. ويبدو أنني لم أكن حينذاك قد أوغلتُ في دروس الآداب والحضارة الانجليزية بالقدر الذي تستغرقني به اليوم دراستي لعلم النفس.

لقد شجعتني كثيرا على القراءة. كنت تصورها لي على أنها ولوج إلى عالم من الوجوه (الشخوص الأدبية) والخيالات. وبعد أعوام، دفعتَ بي الى مياه أعمق إذ شجعتني على الكتابة وعرضت أن تنشر لي كتاباتي. لن أنسى أبدا لحظة سلمتك مقالي الأول. أقر صادقةً بأن قلمي لم يكن استثنائيا. ولا أشك في أن الأمر ما كان يسيرا عليك أنت أيضا، وأنت الذي كنت تجفل عن جرح الآخرين وإن كنت تحسن إسداء النصح والتوجيه. وبالعودة الى الماضي، بوسعي أن أذكر كم تعايشتَ بلا عقد مع فكرة غيابي عن مجالك، وافتقاري إلى عبقريتك، بل أكثر من ذلك، فقد ارتأيتَ وجوب النظر إليّ على أنني أنتمي إلى ثقافة أخرى، نظرا لكوني قد عشت في أوروبا ما يربو على خمسة عشر عاما.

كانت آخر أحداث عصيبة عايشتها معك هي حرب الأيام الثلاثة والثلاثين. في ظل انقطاع الكهرباء، وتحت وطأة الرعب الناجم إثر دوي كل قنبلة، كنت أتصل بك للاطمئنان. عشتُ خلال فترة الحرب شعورا بالوحدة، كان كهمزة وصل بذكريات الطفولة. أحمل ذكريات عزيزة في «صنايغ». صحيح، أنك كنت غائبا في بعض الأحيان عني في تلك الفترة، لكنني أعمد إلى ربط كل ذكرياتي بك.

في صورة عائلية، كان عمري ثلاثة أعوام، وكنت أجلس على ركبتيك وأقبلك من صميم الفؤاد. أمام تلك الصورة، يتملكني شعور عظيم يثير في نفسي شيئا من التأثر. وفيما بعد، لفت انتباهي أحد الأصدقاء إلى ما في الصورة من قوة عاطفة. كان عمرك وقتها زهاء الثلاثين، وكنت أنت «بابا»، وكنا نعيش في «صنايغ». تعكس تلك الصورة علاقتنا الفعلية، وتنطق بما كان بيننا من تماثل.

حين كنتُ في الرابعة عشرة، حلمتُ بممارسة التزلج الاستعراضي على الجليد. ويومَ أتممتُ عامي الخامس عشر، أهديتني زي الرقص وحذاء تزلج أبيض جديد. وكنتُ من قبل قد اعتدتُ أن أستأجر حذاء تزلج رماديا مستعملا، كلما ذهبت الى ساحة التزحلق يوم الأحد من كل أسبوع. لذا بوسعك أن تتخيل مبلغ فرحتي بهديتك.

كنتُ في الثامنة من العمر حين ذهبنا لأول مرة نحن الأربعة، أنا وأنت وسهيلة وزياد،إلى السينما لمشاهدة فيلم «إي تي» (E.T). وكان ذلك الفيلم قد أثار اهتماما واسعا، وأذكر حماسك أنت وسهيلة في الحديث عنه أمامنا بصورة أخافتنا أنا وزياد، لاسيما حين تحدثتما عن مشهد لقاء الطفل بالكائن الفضائي «إي تي»، حتى أننا أحجمنا، أنا وأخي، عن الذهاب. وفي عرض الطريق، رحتما أنت وسهيلة تجذباننا إلى الأمام، بينما رحنا، أنا وزياد، نشدكما الى الوراء. وإنه لمثير للضحك أن نتأمل ما يمكن أن يصنعه الخوف من تجربة الخوف في مسلك البشر.

في أحد أعياد ميلاد زياد، السادس أو السابع على ما أذكر، كان عليك أن تنزله من أعلى الخزانة. فالأطفال على استعداد دائم للذهاب بعيداً لاعتلاء موقع القيادة. فما أكثر أحلامهم وما أشد رغبتهم في تحقيقها. هكذا اعتلى زياد قمة الدولاب وراح يوزع أوامره على أصحابه. فما كان مني - أنا الصغيرة المزعجة آنذاك- إلا أن وشيت به عندك، وما زلت أحتفظ بصور لك وأنت تحاول إنزاله من فوق خزانته. ولقد كان عليك بعدها أن تلاعبه قليلا تعويضا له عن خسارته لموقع القيادة.

لقد حرصتَ دوما على إرسالنا الى أماكن خلابة لقضاء الأجازات. ولقد استدعى رحيلك أن أذهب إلى دبي والجميرة. قد ذهبتَ عني مخلفا لي من ورائك الفردوس. ولا قبل لي برواية ما عشتُه هنالك من أحاسيس.فهل عرفت يوما معنى أن تتجدد حياتك كاملة؟

يسعدني استرجاع جلسات لهونا، أنت وأنا وزياد، كان المرح يسودها بقوة تفقدنا السيطرة على أنفسنا. وعندما كنت تلميذة في المدرسة، حين كنتُ تباشر معي حل الواجبات، كنت تولي الأمر اهتماما يفوق ما أوليه أنا له. ومن أجل تسوية مسألة حسابية بسيطة، يقتضي حلها استخدام الآلة الحاسبة،كنت تنفق قرابة ساعة كاملة قبل أن تستيئس منها، معلنا أن العيب ليس فيك وإنما هو في المسألة نفسها أو في الآلة الحاسبة.. وفي مرة من المرات، كان عليّ إنجاز ملف عن حقوق الإنسان، فبادرت أنت باختيار المقالات المناسبة من الصحف. وحزتُ لذلك أبلغَ الإشادة أمام كل زملائي في الفصل. وكنتَ بعدُ تحب أن ألبس أجمل الثياب. ومن أجل ذلك كنتَ دوما على استعداد لبذل العزيز. ثم كان عليك بعد ذلك أن تطالع المشاهد المؤسفة لانكماش تلك الملابس الغالية في الغسيل واهترائها، نظرا لجهلي الواضح فيما يختص باستخدام الغسالة.

«لقد تركنا سمير[1] بقلوب كسيرة، لا عزاء لها ولا سلوان، إذ كيف يمكن إبلاغه الآن بأن ما كان يفرقنا أصغر بكثير مما كان يجمعنا...؟».

أعتقد أنك قد وضعت إصبعك على

كـــان جـــوزيـــف...

أنى للفتى أن ينظف ليلا
المدرسة التي يدرس فيها ،أو كيف
له أن يدرس صباحا في المدرسة التي سينظفها
فيما بعد؟ المشهد معقد وثقيل بالفعل
ولكنه بعد غير مكتمل

موطن الداء اللبناني. فقد اشتد اختلال توازن ذلك الجهد الذاتي الرامي الى معرفة ما يقربني من جاري بدلا من التركيز على ما يباعدني عنه. وبعد أن فرقت بينكما مشاحنة، كانت كلمتك الأخيرة له كلمة سلام وأخوة صادقة. فحتى في أكثر اللحظات إيلاما، كنتُ أشعر أنك كنت في أعماقك مثالاً للالتزام، الالتزام بتذكر الآخر، وبالتفكر في وسيلة لإنزاله منزلته وإعطائه مكانته.

ولقد التزمتَ بقضايا إنسانية عميقة وإن جاء ذلك على حساب صحتك. وقد أسمح لنفسي الى الآن بالغضب، ولكنني صرت أعرف أن الأولى أن أتحلى ببعد النظر الذي تحليت أنت به. أو على الأقل الأولى بي أن أحاول. كيف يمكن تكريم إنسان أعطى التزامه الأولوية على ذاته. حين أفكر فيك يصبح لي جناحان، وتستهويني المشاركة. وتتعلق في أذيال أملي رغبةٌ في التحرك والعمل. أحيانا كنت أصل الى قاع اليأس، ويغلبني البكاء. لكن لسبب لا أعلمه، وكأنك ملاك يعبر خاطري، كنتُ أجافي اليأس واستدفعه بذكراك.

ولسوف أذكرك في صورة راقص دبكة جذاب. كنت أرقبك في رقصك فأغار منك أو أغار عليك. فضلا عن خطوات الرقص التي كنت تجيدها، كان لك سحر وإغراء، وكنت ترقص بشغف. كل ما فيك كان ينطق بذلك: تعابير وجهك، وأسلوبك الحركي. كانت تلك لحظة بين لحظات نادرة كنت أراك فيها مستسلما للاسترخاء التام، وأنا التي كنت قد تعودت منك على مشهد جلوسك الدائم على مقعدك للكتابة.

أحيانا كنتَ تكتب بالفرنسية، فكنتُ أتناول عنك القلم لأكتب ما تمليه علي. عندئذ، كنتُ أجد نفسي في قلب فكرك وأنا التي لم أكن أقرأ ما تكتبه.

وبعد وفاة أخيك وليد، شعرتُ بمدى أهمية الرباط الذي يشدك الى أبنائه، أولاد عمي، ندى وسامر ووليام. وكنتَ قد اعتزلت عالم الأحياء بعد وفاته بمثل ما اعتزلتُ أنا الناس بعد رحيلك. ولكن شتان ما بين الحداد في باريس والحداد في بيروت. ففي العاصمة الفرنسية تبقى العملية ممكنة، بينما هي عسيرة الى حد كبير في بيروت. ففي باريس بوسعك على الأقل الحفاظ على الحيز الخاص بك. أما في بيروت فالأفضل أن يتناسى المرء خسارته للفقيد، فتلك هي الأجواء البيروتية، أجواء اجتماعية تضامنية، تتسرب من بين يدي كل فرد. وكان حزنك على أخيك قد حملك على الانسحاب من المجتمع، ولكن ما أسرع ما تمكنت من استعادة نفسك! وها أنت تعود مرحا، ومفعما بالحياة ومتأهبا للبدء من جديد. كنت تحدثني عن حازم[2] صديق طفولتك، وعرابي الذي رحلت لكي تشد من أزره، فكنت تصفه لي كأنه نسر لا يهاب إبداء آرائه. ولقد عُرف عنكما أنكما صديقان قديمان، ترافقتما حتى النهاية، وتخطيتما السياسة، وخلافات السياسة، والخطر الناتج غالبا عن السياسة.

وكلما عدتُ أدراج الذكريات، أقر بمعاناتي من جراء لحظات فراقنا، لأنني ما كنت أبدا أرضى حينما كنت ترحل عني. وغالبا ما كان موعد رحيلك يحين في لحظة تجعله غير مفهوم. فلماذا يجدر التسليم برحيل إنسان تشتد الرغبة في الاحتفاظ به؟ ومازالت في النفس حاجة للتواصل معه والحديث إليه؟ كنت تحمل قصتي بداخلك ولكنك كنت تحجم عن الثرثرة. فكان لذلك القصور أثره في تحويل رحيلك الى فكرة يصعب احتمالها، وإن كان من الواجب تقبلها، وإدراجها في الحياة اليومية. كانت لحظة الفراق تأتي معاكسة لإرادتي. وهكذا ما كنت أنا لأصرح بمشاعري وما كنت أنت تدري وقت انصرافك بما يعتمل في نفسي. ولقد تبدى هذا القلق في حياتي بنسبة ٢٪. ولا يمكن أن أتوجه بعتاب بمثل هذه القوة إلا نحو إنسان أكن له حبا عظيما، حبا لو أردت وصف مبلغه لتوردت وجنتاي حياءً. وهكذا مضت بنا الأعوام. كلانا كان بحاجة الى تعلم التعبير عن مشاعره بصورة أكبر. وهو ما فعلناه في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كنت تطلب إليَّ ترك الأمور لتنضج من تلقاء نفسها، كنت تريدني أن أترك وقتا للوقت...

أحيانا كان يسود دارنا جو رائع في عصر يوم السبت حين كنا نجتمع للنقاش كلنا معا. وأحيانا ما كنا نلعب لعبة جماعية، فكنت أراك وقد شبت بك حماسة أثناء اللعب رغم اعتيادية سير الأحداث. وكانت حماستك تظهر بصورة خاصة في مناقشاتك مع زياد.

في مطعم «ريجوليتو»، أذكر أحاديثك الأخوية التلقائية مع من كانوا يأتون للقائك هناك من العمال أو الموظفين ممن تبدو عليهم أمارات رقة الحال. ومازالت في حافظتي ذكريات طيبة عن طريقتك الحفية في استقبالهم وطريقتهم هم في توقيرك. كنت تراهم بعين إنسانية صميمة وكنت تصورهم لي بعدسة شديدة الحساسية، تعكس طيبة قلبك وتفسر ثقتهم بك.

وحين كنت تحدثني عن حزب الله، كان كلامك يتضوع فخرا واستحياء. الفخر مبعثه احترامك العميق للحركة، أما الاستحياء فراجع لتمسكك بهذا الموقف من حزب الله رغم مشاعر العداء الذي يثيرها في كثير من النفوس.

أواجه اليوم صعوبة في إيجاد الشخص الذي يسعه أن يحدثني عنك. فكلا التعتيم أو الإعجاب لا يضيف لي جديداً. إذ يعوزني من يحدثني عنك بجلاء بصيرة ..

ماذا عساي أن أصنع اليوم بتلك الخانات الفارغة؟ فمن يعرفونك جيدا على الصعيد المهني أو الإنساني، لا يعرفون عنك شيئا البتة حين يتعلق الأمر بشخصك على الصعيد الأسري. أما أنا فأعرف منك الجانب الأسري ولكنني أكاد أجهل ما دون ذلك. فماذا أصنع؟ هل أستمر في الاعتماد على الخيال؟ ووفقا لما عهدته فيك، أرى أن الطريقة المثلى لتوديعك هي تلك التي كنت استقبلك بها، حين كان التلاقي يتم في هدوء.

حينما نفقد عزيزا بينما نحن منشغلون بتفقد أرجاء أنفسنا منذ زمن طويل يطرأ نوع من الخلط بين الحلم والحقيقة، تنتج عنه سلسلة من المشاعر الغريبة التي لم أجريها من قبل قط. ومما يزيد من آثار ذلك الخلط المربكة، هو ما عرف عن تسبب الفقد في إحساس الفاقد بأنه قد كبر فجأة. فها أنا بعد وفاتك بيومين اثنين يزداد عمري فعليا مقدار سنة كاملة. فلقد رحلتَ أنت في اليوم الذي جئتُ أنا فيه إلى الدنيا. وهي ضربة قاسية، لكنني لم أدعها تقضي علي.

ولقد حدثني الناس عنك باستفاضة. فلقد كنت إنسانا بمعنى الكلمة حتى أن الناس قد أبدوا إزاء فقدك أعمق المشاعر الإنسانية الطيبة. بدوا ذاهلين متألمين. فلقد قمت بعملك بينهم متحليا بنزاهة وطهر استحققت بفضلهما أسمى قمم العرفان والاحترام. ولكن: اليوم، أود إعادة استكشافك بنفسي.

بوسعي أن أذكر مارون بغدادي[3] وقد حكيت لي يوما كيف كان مارون يسعى للفت انتباهك الى ابنته بأن سألك إن كنت تجد بينها وبيني شيئا من التشابه. فلقد كانت طريقة مارون في اجتذاب عاطفتك نحو ابنته هي تشبيهها بي أمام عينيك.



كتاب الزاوية

وثيقة تنازل الملك

مذكرات اللورد كيلرن

وافقت على إعداد مسودتين، وأعتقد أن الوثيقتين هامتان من الناحية التاريخية، وجاء نص الأولى: «إنه منذ زمن طويل كان واضحًا أن جلالتك قد تأثر بمجموعة المستشارين المحيطين بك، والذين لم يكونوا مخلصين فقط بالنسبة للتحالف مع بريطانيا بل أكثر من هذا إنهم يعملون ضد هذا التحالف، ومن ثم فإنهم يساعدون العدو، والموقف العام.. وكذلك مدى تعاون وتشجيع جلالتك لهم مما يناقض المادة الخامسة من معاهدة التحالف، والتى بمقتضاها تتعهد كل الأحزاب المتعاهدة بألا يتخذوا موقفًا معاديًا بالنسبة للبلاد الأجنبية، ويكون متعارضًا مع الحلف. وبالإضافة إلى ذلك فإن جلالتك قد أحدثت أزمة خطيرة بطريقة عشوائية وغير ضرورية كرد فعل القرار الذى اتخذته الحكومة المصرية السابقة استجابة للطلب الذى تقدم به الحليف (إنجلترا) والذى نصت عليه المادة الخامسة من المعاهدة. وفى النهاية فإن كل المحاولات التى جرت لتشكيل حكومة ائتلافية قد باءت بالفشل، إذ رفضتم أن تعهدوا بأمر تشكيل الحكومة إلى زعيم الأغلبية فى البلاد (النحاس) على الرغم من أنه يتمتع بمكانة خاصة تجعله قادرًا على ضمان استمرار تطبيق المعاهدة بروح الصداقة كما يجب. ومثل هذا التهور والطيش، وعدم تقدير المسئولية يعرض أمن وأمان مصر للخطر وكذلك القوات الحليفة الموجودة بالعاصمة. ويؤكد الجميع بأن جلالتك لم تعد جديرًا باستمرارك على العرش».

وكان نص خطاب التنازل: «نحن فاروق ملك مصر، تقديرًا منا دومًا لمصالح دولتنا، فإني بموجب هذا أتخلى وأتنازل بالنيابة عن أنفسنا وورثتى عن عرش مملكة مصر، وعن جميع حقوق السيادة والامتيازات والصلاحيات فى المملكة المذكورة وبشأن رعاياها، وأننا نعفى رعايانا من ولائهم لشخصنا».

صدر فى قصر عابدين الرابع من فبراير ١٩٤٢

اعتاد الناس عامة أن يروك فى صورة عظيمة يكللها الإعجاب. لكن رؤيتى لك تختلف عن مثيلتها عند بقية الناس. فرؤيتى أكثر تعقدا ولا تهبنى الرضا بنفس تلك السهولة. فهى قد أسفرت عن ألم مازلت أحاول مقاومته، وحسرات مازلت أحاول محوها. ورغم التحلى بنفاذ البصيرة، مازلت حبيسة أسرار العاطفة، وما تحمله من جنون خارج عن كل سيطرة. ولكننى هاهنا أشعر بأننى محظوظة أيضا.

وعلى أثر لوعة الأسى، يشتط البعض فى التعبير، فيحكون كم كانوا مقربين إليك، وأفاجأ بهم وقد أشاروا بإصبع الاتهام نحو العائلة. وبرغم دهشتى، حين أسمعهم، أقول فى نفسى لعلها شدة التأثر هى التى أفقدتهم السيطرة على كلماتهم. لكن نفس الآراء تتكرر على سمعى، فمن قائل «لقد كنا نحن أسرته الحقيقية».. إلى متطفل متسائل: «ما الذى يفعله فلان هنا، لقد كنا نحن أسرته...» ولقد كاد يصل الأمر إلى تقديم الأسرة مبررات لتواجد أفرادها لتلقى العزاء. فالإحساس بالقرب من جوزيف لا يمكن أن يكون ذريعة للمساس بعائلته. فأنا ابنته، لكننى أجتهد فى السيطرة على مشاعرى وأحرص على مراقبة أقوالى. فمن المؤسف حقا رؤية أناس أذكياء وصحفيين نبهاء وقد تفوهوا بكلمات تطفر منها الرعونة. ويبدو أن هؤلاء الأشخاص لا يعرفون جيدا حدودهم بمثل ما يجهل الأطفال كل حد أو قيد. فهم يبدون وكأنهم لا يرون أفراد الأسرة المتواجدين من حولهم والمتأذين من جراء ما يسمعونه من آراء. وبوسعى الإجابة على تلك الكلمات التى تنكأ جرحى المثخن بأن أقول إن التقرب لجوزيف عن طريق ازدراء أسرته ما هو إلا دليل على التخبط. فأحب الناس إلى نفسى هم أولئك القادرون على التمييز والاحترام فى تعاملهم مع الأسرة فى وقت تحتاج فيه إلى الدعم والمساندة.

«العلاقة الحقيقية هى تلك التى تربطنا بمن نشتاق إليه حتى فى حضرته». فى البداية كنت أجهل مغزى مقولة ابن عربى تلك، وما كنت تعنيه أنت من خلالها. لكنها اليوم تحمل الفكرة التى تصلح لوصف طريقتك فى توديعنا. ولقد استنتجت أنك قد وجدت فى ابن عربى ما كنت تبثه فى علاقتك بالآخر، وكل ما كنت مستعدا لتقديمه أو متحسبا لتلقيه. ذلك كان تصورك الخاص للعلاقة. قد فهمت سبب اختيارك لقول ابن عربى المأثور. ففى رأيى- وأعتقد أنك ستوافقنى فى الرأى- إن نوعية العلاقة القيمة التى تربطنا بالآخر تعتمد بالأساس على الشىء الذى نقدمه إليه ويعود أثره علينا مرة أخرى. وهو أمر تشاركنا فيه نحن الاثنين معا. قد قلت لى منذ سنوات أنك تحب الأشخاص الذين يتمتعون بكثافة إنسانية، وجوهر أصيل، وعمق نفسى، وهى صفات يبدو لك الشخص الذى لا يتحلى بها فارغا، وأجوف، وغير جدير بالاهتمام. وشرحت لى أن الشخص الفارغ هو ذلك الذى لم يذرف فى حياته دمعة واحدة.

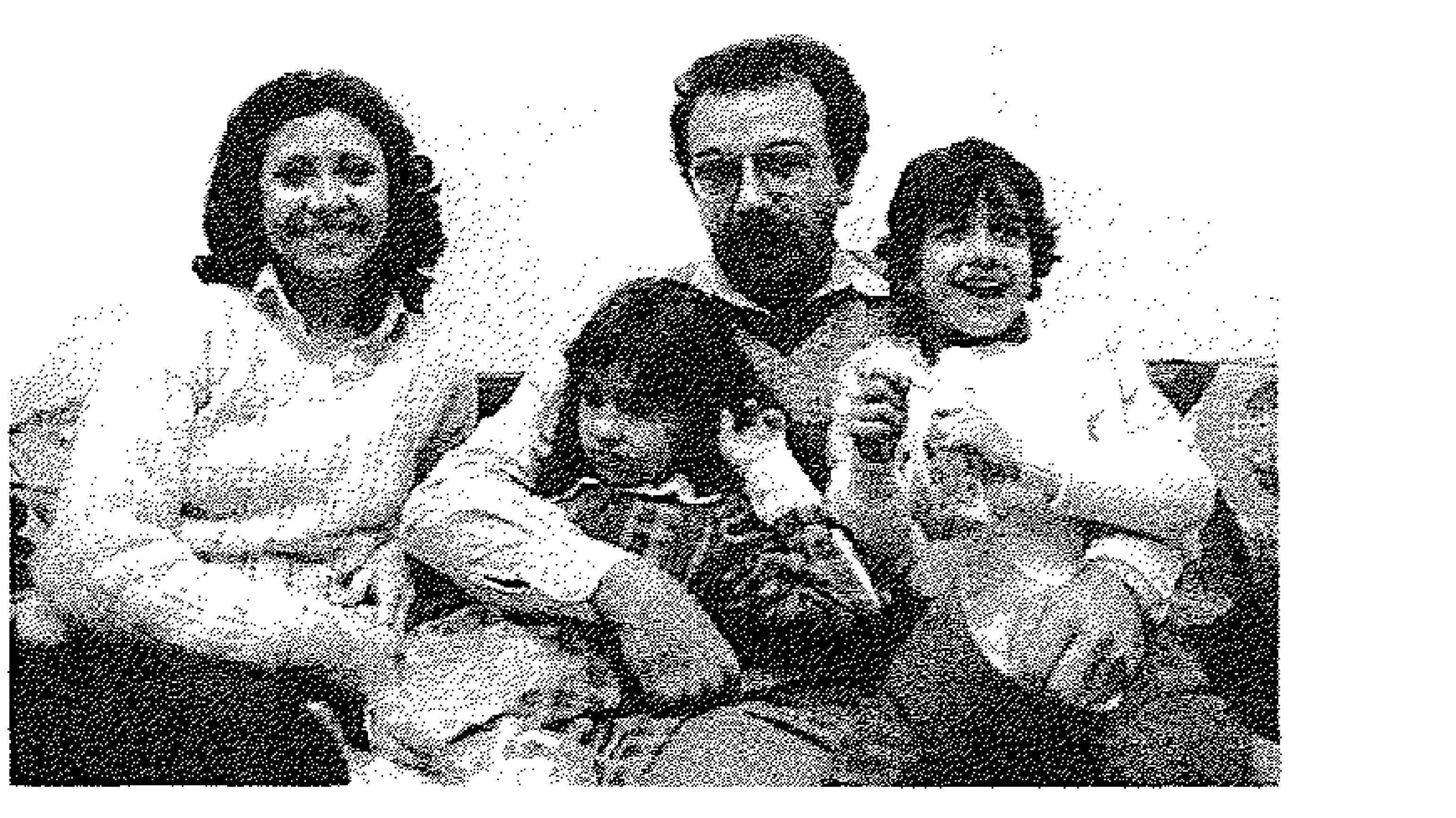
كنتَ شخصا يحب اللهو. وأظن أنك تريد أن تراني أتسرى بما أفعل. بصداقاتى.... وبحماقاتى....، وبقصص حبى.... أتسرى وأسرى عن الآخرين همومهم بما أكتبه لهم عنك. ولا فائدة بعدُ من أن أقول لك كم أنت حاضرٌ فى خاطرى...

هوامش:

(١) سمير قصير.. كاتب وصحفى لبنانى أغتيل فى ٢ يونيو ٢٠٠٦.

(٢) حازم صاغيه: كاتب لبنانى.

(٣) مارون بغدادى: مخرج سينمائى لبنانى.



"كوميديا" العرب

محمد فؤاد الذاكرى

■ أقدم الإشارات العربية عن خيال الظل (المصرى) تعود إلى أواخر العصر الفاطمى، فقد ذكر بأن صلاح الدين الأيوبى حضر عرضاً لخيال الظل بصحبة وزيره القاضى الفاضل، وذلك عام (٥٧٦هـ/١١٧١م)، وحدثت تلك المشاهدة عقب توليه سلطنة مصر وانتهاء حكم الدولة الفاطمية، ومن الواضح بأنه كانت هناك فرق خاصة لخيال الظل يقتصر نشاطها على قصور الفاطميين لتسلية الأمراء والأميرات وضيوفهم والمقربين إليهم.

وتدل الدلائل على أن الدعوة الفاطمية استغلت عروض خيال الظل التى وصلت إلى مرحلة جيدة من التطور على صعيد النصوص التمثيلية للترويج لمبادئها وأهدافها، ولم تقتصر على عرض المضحكات اللاهية بل وظفت الموضوعات الدينية والقصص التاريخية الوعظية للتأثير فى نفوس المشاهدين، مثل أجهزة الدعاية الأخرى.

ويعتبر ابن دانيال الموصلى هو الظاهرة الفريدة والرائعة في خيال الظل واسمه بالكامل هو شمس الدين أبو عبد الله بن دانيال بن يوسف الخزاعى الموصلى المعروف بابن دانيال، حكيم، كحال، أديب، شاعر، مؤرخ. ولد بأم الربيعين من أعمال الموصل أواخر الخلافة العباسية عام (٦٤٦هـ/١٢٣٨م)، حفظ القرآن الكريم وبعض الحديث والتفسير، وما كاد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى دهمت مدينته الموصل جحافل الغزاة التتر، وساقوا إليها الدمار والخراب.

ويتضح من الإشارات الواردة فى مصادر ترجمته أنه كان يمارس صنعة كحل العيون بهدف مداواة أمراضها فى مدينة الموصل، بعد دراسته فى بيمارستان (مشفى)الموصل المطل على نهر دجلة الذى أنشأه بظاهر المدينة (قايماز التركى (ت٥٨٤هـ)، ولم تكن البيمارستانات مقصورة على معالجة المرضى بل كانت أيضاً معاهد لتدريس مهنة الطب وتخريج الأطباء المجازين.

شب (ابن دانيال) ليجد الخلافة العباسية وقد ضعفت، والبلدان والأقطار تنفصل وتستقل عن دولة الخلافة، وشهد الفتى الكارثة الكبرى التى دهمت الموصل سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م)؛ إذ أحكم قائد جيوش هولاكو (سنداغو) الحصار على المدينة حتى فنى الطعام وتعذرت الأقوات، وبعد تسعة أشهر من الحصار استسلم الملك الصالح إسماعيل بدر الدين لؤلؤ (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) للقائد المغولى مظهراً الندم وفاتحاً المدينة للغزاة الذين استباحوا الموصل لمدة ثمانية أيام فسبوا ونهبوا وقتلوا حتى كادت المدينة تخلو من سكانها، وقضى (ابن دانيال) خمس سنوات فى مدينته الموصل يرقب الخراب والدمار والأوبئة، ويشهد الفتن والاضطرابات والمنازعات بين الأجراء والسلاطين.

وقد أجاد الباحث (إبراهيم حمادة) فى وصف الجو النفسى العام للسكان إذ كانت (تنتابهم نوبات عشوائية من الحرص الغريزى على الحياة فلا يدرون بأى مثاليات يعيشون حتى لو كانت تخالف عقائدهم ومعتقدات إيمانهم الخلقى، فالعراق كان عصرئذ يموج بشتى المذاهب الإسلامية والأجناس المختلفة، وأديانها من يهود ومسيحيين وعرب وفرس وأتراك.... الخ وكان لابد أن تتمشى فيه تيارات خفية وعلنية تشكل فى قيم المجتمع وأوضاعه بشتى مكوناتها السياسية والدينية، وأن تسود منازع منحلة لا تحتمل الجد ولا المواقف المؤسسة على قيم تقليدية عاقلة، وكان لابد من أن يعقب هذا التلاطم الهائل انهيار نفسى يورث هشاشة العاطفة وسقم التفكير واللامبالاة).

وقد أصبحت القاهرة عقب الطوفان الهولاكى ملاذاً لكثير من العلماء والأدباء الذين ارتحلوا من مختلف الأقطار ليتخذوها مأمناً وموطناً، ومنهم (ابن دانيال) الذى هاجر إليها سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) أثناء حكم الظاهر بيبرس المملوكى، والذى اتسم بسمة الوقار والبعد عن اللهو، واتخذ دكاناً لكحل العيون داخل باب الفتوح بالقاهرة، وبدأت محاولاته مع الشعر والنظم والأدب.

أصبحت القاهرة عقب الطوفان الهولاكى ملاذاً لكثير من العلماء والأدباء الذين ارتحلوا من مختلف الأقطار ليتخذوها مأمناً وموطناً، ومنهم (ابن دانيال) الذى هاجر إليها سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)



بدأ عمل (ابن دانيال) فى مجال (الكحالة) ولمع اسمه كخبير بتركيب الأكحال ومزج العقاقير، وأصبح دكانه مقصداً لمعالجة أمراض العيون، وقد عانى ممن يوصفون بكحالى الطرقات وهم الذين يدورون فى الأزقة والحوارى، ويصفون المعالجات لمن يشكو مرضاً فى عينيه، وقد حذر منهم ومن جهلهم وأذاهم ابن الأخوة (ت٧٢٩هـ/١٣٢٩م) فقال عنهم: (وأما كحالو الطرقات فلا يوثق بأكثرهم، إذ لا دين لهم ليصدهم عن التهجم على أعين الناس بالبضع والكحل بغير علم ومخبرة بالأمراض والعلل الحادثة. ولا ينبغى لأحد أن يوكل إليهم فى معالجة عينيه ولا يثق بأكحالهم وأشيافهم).

ولا يستبعد أن يحوز بعضهم على غنى وثروة كما وصفهم (ابن دانيال) ساخراً:

يقولون الطبيب أبو فلان
حوى كرماً وجوداً فى اليدين
فقلت علمت بذلك وهو سمح
يضيع كل يوم ألف عين

لم يهتم (ابن دانيال) بمهنته الطبية طويلاً، ولم تكن تستغرق وقته أو تشغل تفكيره، فمال إلى مهنة المخايلة وقرض الشعر وغشيان مجالات اللهو والضحك والمجون يغرق فيها أشجان روحه وإحساسه الخفى بالضياع، فبدأ يعرض بمهنته الطبية بلهجة لا تخلو من سخرية ولمحة مؤلمة تبين كسبه الضئيل، فيقال:

يا سائلى عن حرفتى فى الورى
وا ضيعتى فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم إنفاقه
يأخذه من أعين الناس؟

احترف بعدها صنعة خيال الظل فهى تمس مجريات الحياة اليومية وتقوم على الإضحاك والمفارقات الإباحية والشهوانية، فيها الأفراح والأحزان والطموحات والمداعبات، تظهر قبائح العادات والسلوك المنحرف بعبارات شهوانية وحركات فاضحة، ثم فيها غمز سياسى ونقد اجتماعى مرير تعقبها نصائح وعظات، فكانت سوقه رائجة وبضاعته نافقة، ففتحت له الأبواب على مصراعيها، فصحب بعض الأمراء المماليك ونادمهم وله معهم نوادر وممازحات.

لكنه كان دائماً معرضاً للخسارة والأزمات المادية النفسية، عبر عنها بقوة انفعال ومهارة وقدرة على الصياغة، فقال يندب حظه:

ما عانيت عيناى فى عطلتى
أدبـر مـن حظـى وبختى
وقد بعت عبدى وحمارى وقد
أصبحت لا فوقى ولا تحتى

تفـوّق (ابن دانيال) فى فن خيال الظل فكان يضع القصة وينظم الأصوات ويلحنّها ويعيّن الأزياء، بالإضافة إلى نظم الشعر الذى يجمع بين الهزل والفكاهة، واستطاع كمبدع أن يرصد أحداث عصره وبيئته وما يتعلق بالطبقة الحاكمة، وبعقلية ناقدة ارتبطت بالواقع الاجتماعى حاول النفاذ إلى المتناقضات الأسرية والاجتماعية، وحاول تفسير عجز الإنسان الشعبى عن تجاوز ظروف الحياة القاسية المحيطة، وسلك أساليب شتى أبرزها الضحك والسخرية، مكشوفة حيناً ومستورة حيناً آخر فى نقد طبقة بعينها من طبقات المجتمع، إما لإظهار عيوبها أو لحث ذوى السلطان على إصلاحها، أو لذمّ طائفة من الأخلاق الخاصة: البخل، التطفّل، التنطّع، التزمت، ويعتمد فى ذلك على المفارقات العجيبة، ومع ذلك لم يخل من مجون وخلاعة، وأصبح هذا الفن حرفة وأصبح فى استطاعة الخيال أن يعبّر عن الأحداث التاريخية فى صورة هزلية.

لقد استغل (ابن دانيال) قرار الظاهر بيبرس فى حينه بإبطال تعاطى المسكرات والمخدّرات، وإحراقها وتخريب بيوتها وحاناتها. فأذاع القرار بصورة هازلة هدفها تسلية الناس وإقناعهم، وتدور مسرحيته (طيف الخيال) حول الأمير وصال ويصفه بأنه جندى بشربوش (غطاء للرأس مثلث الأضلاع) وسباله (شاربه) منفوش، والذى اعتزم الزواج بعد أن ترك مسالك الخلاعة ونوى التوبة المخلصة، فاضطر للاستعانة بخدمات الخاطبة (أم رشيد)، وتتوالى المشاهد ويفاجأ بعروسه الشمطاء (ضبّة بنت مفتاح) والتى لم يرها قبل الزواج مما يوقعه فى نوبة غضب شديدة يقرر بعدها العدول عن الزواج والسفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

تمر بنا خلال العرض نماذج وشخوص اجتماعية ونقد مبطّن مثل: شخصية زوج أم رشيد الذى يظهر عليه الضعف والهرم فينصحونه بالطبيب (المعين بن سديد) فيرفضه قائلاً: كلا انه قضى على زوجتى أم رشيد.

لم يترك (ابن دانيال) شارة من هيئات الشخوص ولا ثيابهم ولاسيما دوافعهم وعواطفهم دون أن يكشفها كشفاً تاماً.



وليس هناك اصطدام بين أي شخص وأقواله بل تجري الحوادث في منطق العرض بسلاسة، وصورت البيئة التي عاش فيها الشخوص تصويراً بارعاً حتى أحداثها السياسية، فابن دانيال يدخل بعينه في كل ما حوله، ويعبر عن علاقات الرجال والنساء في عصره، وعلاقات الحكام والمحكومين.

مسرحية عجيب وغريب:

تمثل سوقاً شعبية تدخلها شخصيات تكسب رزقها وقوت يومها من خلال براعتها في الكلام الفصيح، أو في بيع أشياء يعتقد الناس في جدواها الصحي والنفسي، أو في عرض لعب وحركات يقومون بها بأنفسهم أو تقوم بها حيواناتهم المدربة. ويمثل (ابن دانيال) على لسان كل منهم ما يناسبها من الحوار وينتقي لها خصائصها من القول والفعل والمصطلح.

(فغريب) يتحدث بلغة خاصة بأهله وقومه وبطرق عيشهم، ويقدم مونولوجا غريبا جداً، إذ ينشد قصيدة يسرد فيها حياته(ولعلها حياة ابن دانيال نفسه) فيعبر عن اهتمامه بالشراب والمجون، ثم أصبح بعدها طبيبا وشاعراً إلى أن يقول:

وطببت الأنام فكم من أناس
قتلتهم بقبض إسهال
وداويت العيون فكم جفون
بكحلي لم تنم مدى الليالي
وفي الأعشاب والأسلوب علمي
له البيطار يصفع بالنعال

و(حويس) الحاوي الذي يربي الثعابين ويستخرج منها الأدوية ويعالج الملسوع فيعرض أفاعيه ويندد بسمومها وخطرها الداهم يبدأ حويس الحاوي فيغني بضعة أبيات من الشعر تدل على صنعته، ولعل ابن دانيال استقاها من الباعة الذين كانوا يتغنون بها في الأسواق لجلب الناس إليهم فيتحلقون حولهم، ثم يبيع بعد العرض الترياق الشافي من لدغات الأفاعي والثعابين، وقد تهيأ جمهور الحاضرين نفسياً للشراء فيصفه قائلاً: (هذا المخلص من النهوش والكسور والعضاض. الشافي بعون الله تعالى من جميع الأعلال والأمراض) ويسهب في وصف طويل عن كيفية تحضيره و مكوناته، وقد استعان ابن دانيال بخبرته الطبية في هذا المجال فهو يدلي بمعلومات طبية صحيحة، ويذكر أسماء مشاهير الأطباء من يونان وعرب أمثال ابن البيطار وديسقوريدس.

أما (عسيلة المعاجيني) وقد اشتق اسمه من العسل الذي كان يستخدم في تحضير المراهم الجلدية والعينية أيضاً. أما اسم المعاجيني فلأنه اختصاصي في تحضير المعاجين المختلفة التي كانت تستعمل مضغاً وبلعاً على شكل أقراص، أو تطبق على العضو المريض فوق الجلد، أو كمرهم للآفات الجلدية. فيرص أمامه أطباق الأدوية وزجاجاتها ثم يشرح مفعولها في شفاء أمراض عديدة منتشرة مثل: الحموضة في المعدة والحصاة في الكلية، والقولنج (المغص المعوي)، الإسهال وغيره.

يليه (نباته العشاب) فهو خليفة ديسقوريدس اليوناني وسبط ابن البيطار العارف بالأصول والفروع والأوراق والأزهار فيذكر رحلاته التعشيبية في سبيل جمع الأعشاب الطبية من مظانها، ويقول: (إن ما في الأرض من حشيشة نابتة، إلا ولها في جسد الإنسان علة ثابتة، فمنها ما ينفع بحمد الله ويضر، ويحبس ويدر، ويسهر وينوم، ويفش ويورم....) كما يوجد عنده أدوية للمحبة والعشق، وتقي من غضب السلطان أيضاً.

يظهر بعده (مقدام الأسي) صاحب المباضع والمواسي، وهو مطبب جراح يداوي الجروح ويستأصل الدمامل، ويمارس كل ما يتعلق بالجراحة مثل:الختان والكي والفصد، وغيره.

أما (حسون الموزون) فهو بهلوان خفيف الحركة يتثنى ويتقلب ويمشي مشي العقرب ثم (يدك الطاسات ويمشي بالهامات، ويصعد على قطع الخشب المصفوف، ويقف بقدمه على حد السيوف ويتقوس من لينه، ويأخذ الخاتم بجفونه).

أما (شمعون الشعوذ) الذي يقوم بألعاب سحرية، قوامها طبل وجرذان وعصافير وحيات ....الخ فيخرج الحبل من فمه على أنغام الطبل. وهلال المنجم يذكر بعض تنبؤاته عن العام الجديد، ويحض الناس على وجوب معرفتهم لطوالعهم والكشف عما سيقع لهم في غدهم، فيبشر بالسعد من يبتدئ أول اسمه بحرف القاف، ويحذر صاحب السين والكاف.

ويظهر بشكل متتابع شبل السباع ومبارك الفيال وزغبر الكلبي وأبو العجب وأبو القطط وأبو الوحش وميمون القراد فيعرضون على المتفرجين حيواناتهم المستأنسة المدربة على اللعب الاستعراضي.

والعرض الأخير بعنوان المتيم والضائع اليتيم فيشرح حيل العشاق والمحبين، ويعرض صوراً طريفة عن عراك الديكة ونطاح الكباش حيث كان الهواة يتنافسون في اقتناء هذه الحيوانات المدربة ويبذلون النقود في سبيل اللعب والرهان عليها.

لا تبدو أهمية ابن دانيال في مقدرته الشعرية ودقة التعبير وسلاسة اللفظ واختيار الكلمات فحسب، بل في لسانه الناقدة واللاذعة أحياناً خارج حدود المألوف لكل ما هو حوله ابتداء بكيانه العائلي وانتهاء بالحياة من حوله، فهو يعتدي على الوضع الصحيح ويتندر من البدهيات، ويخرج على المألوف المنطقي وكأنه مقياس شاذ، فيقول:

أنا لو رمت للعلاج طبيبا
ماتعديت دكة العطار
بعدما كنت من ذكائي أدري
أن بابي من صنعة النجار
أحزر البيض قبل أن يكسروه
أن فيه البياض قبل الصفار
وبعيني نظرت كوز نحاس
كان عندي أقوى من الفخار

إن المرارة والسخرية التي يلمحها القارئ في شعر ابن دانيال، يكاد يرى من خلالها أزمة المثقف أمام تمزق سياسي بفعل الغزو والاحتلال المغولي وما يترتب عليه في أرجاء البلاد، ثم أمام ضغط اجتماعي توزع فيه الثروات ضمن سياقات لم يستطع أن يتعامل معها إلا في إطار سموه الشعري في مثل قوله:

قد عقلنا، والعقل أي وثاق
وصبرنا، والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلاً، كان مثلي
فاضلاً عند قسمة الأرزاق

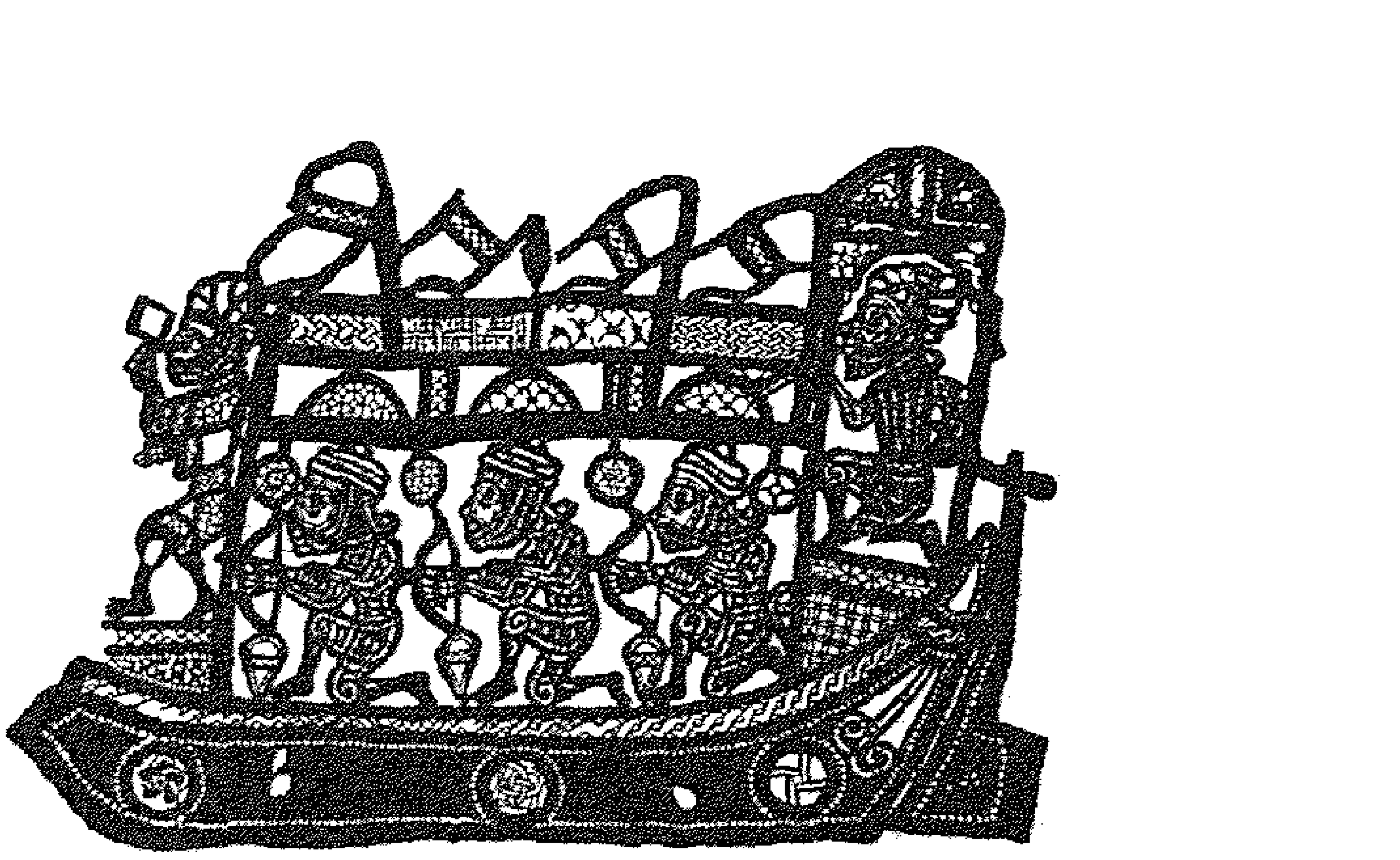
ولكن الكتابة الساخرة لا تعتبر رفضاً. فلو تفحصنا حياته بدقة لاتضح لنا أن العامل الأساسي في سلوكه هو إرادة القوة العنيفة التي يشعر بالإثم بسببها.

ولعل دافعه النهائي هو احتقاره للآخرين ورفضه إطلاقاً أن يكون شخصاً عادياً، لقد صار مشهوراً لأنه سخر وكشف جميع المقاييس السائدة وحين كان المجتمع يحاول أن يتقبله ويطبعه كان هو يعرقل ذلك بالخداع والسخرية مؤكداً مرة أخرى على انعزاليته كما يعبر عن ذلك:

فإني ومجدي وشأني وفني
غريب غريب غريب غريب

المصادر والمراجع:

موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين بإشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- بيروت- ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.



أسمهان

« سيرة في كتاب »

تطالعني صورة لحفيدة أسمهان من ورقة جريدة مصفرة قليلا. شعرها مشدود إلى الخلف بأناقة. شابة صغيرة ترتدي فستانًا شديد القصر وترقص في حفلة. تلك التي كانت تتعافى من جراحها عام ١٩٩٣ . إنها تبعث برسائل محددة عبر الصورة الملتقطة. شبابها، مرحها وبالنسبة لي الرابطة التي تجمعها بجدتها. إنها سهى، حفيدة أسمهان. أقاربها السوريون من آل الأطرش شرحوا لي أن حسن زوج أسمهان كان يفرض حماية شديدة على ابنته كاميليا بعد وفاة والدتها. أخبرني منير وهو شقيق أسمهان الأصغر، أنها كانت تملك شامة صغيرة مثل أسمهان ولكن على الجانب المقابل من الوجه. تزوجت كاميليا من أحد أفراد عائلة جنبلاط المعروفة في لبنان وأنجبت أربعة أبناء. يبدو أن ابنتها ترقص وهي متحررة من قيود الماضي. هل لهذه الصورة أي صلة بقصتنا؟ أم أنها مجرد حدوتة؟ هل تعكس الحياة الاجتماعية للصفوة اللبنانية أم ترفض الحقائق الاجتماعية والثقافية للزمن الماضي؟

إن صور أسمهان نفسها تترك آثارا نهتدي بها خلال بحثنا. الفتاة الصغيرة تحتضن أمها الجالسة في العشرينيات من القرن الماضي وفي عمر أكبر قليلا تجلس منتبهة للكاميرا بجوار أخواتها، الشابة ثابتة في كامل زينتها في الثلاثينيات من نفس القرن وفيما بعد تركب حصانا. إن صورة الفارسة في نادي الجزيرة تذكرنا بصور أسمهان وهي تركب الحصان بحرية في الجبل. في سنوات الحرب الأولى تبهر الناظرين بفساتين السهرة ومعاطف الفراء في تألق رومانسي، تماما مثلما كان يتم تصوير أكثر نجوم السينما. إن تجسيد نجوم بهذا الشكل كانت طريقة لشغل الناس عن التوتر السائد في ذلك الوقت كما كانت الأفلام تؤدي نفس الغرض. أحد الصور التي أعيد طبعها حديثا تصورها في فستان سهرة طويل من الساتان وتظهرها صورة أخرى مع ضيوف أحد الحفلات وهي ترتدي فراء أبيض وفستان سهرة. كان المجتمع يتصور أن هذه هي الأجواء التي تفضلها ولكن أسمهان الحقيقية كانت تخجل من صحبة من لا تعرفهم.

صورة أخرى تلتقط لحظة من لحظاتها الأضعف. تجلس في سرير خلال فترة مرض وبعد فترة قليلة من انفصالها عن أفراد عائلتها في القاهرة. كان ذلك تقريبا في نفس الوقت الذي صودر فيه آثاثها لتسديد ديونها وعندما لم يكن بإمكانها دفع فواتير الطبيب أو الصيدلي. من الممكن أيضا أن نرى أخاها فريد في صور تبينه في هيئة ملك الحب من طرف واحد.

تحداني الزملاء أن أفكر في السؤال التالي «ماذا لو كانت أسمهان هي فريد؟ ماذا لو كان هو هي؟» لقد ناقشت هذه الفرضية باستفاضة في مكان آخر، أخذاً في الاعتبار أن الفارق الرئيسي بين هذين الشقيقين بالذات يمكن إرجاعه لوفاتها المبكرة لأن الاختلافات الناتجة عن اختلاف الجنس كانت قد تم تجاوزها بسبب كونهما فنانين.

ولكن من الحقيقي أيضا أن أسمهان كانت تتعرض للانتقادات على تصرفات تعتبر أمورا مقبولة بالنسبة لشقيقها لأنه رجل. إن تصرفاتها كانت تثير اهتمام العامة أكثر، وكان جمالها مثار تعليقات بشكل أكبر بكثير مما كان مظهر أخيها يثير التعليقات. بالإضافة إلى ذلك فقد أتيح لفريد أن يؤلف موسيقى وأن يعزف كموسيقي وهي تجارب كان من الممكن أن تغني تجربة أسمهان ولكنها لم تكن مطلوبة من نجمة.

لقد تم التقاط صور لها بصحبة أخيها أكثر بكثير من الصور التي التقطت لها بصحبة زوجها حسن. وكانت أسمهان تخطف الأبصار بعيدا عن حسن الأشقر ضئيل الجسم بضحكتها المشرقة وألوانها اللافتة للنظر. ولكنها كانت تبدو نحيفة في تنورة طويلة وبشعر غير مصفف يحيط بها حسن وأخوها فؤاد وكل منهما يحمل مسدسه. يرتدي حسن ثوبًا فاتح اللون وجاكيت كما هي عادة أهل الجبل. إن حسن شخصية محورية في الصور التي تؤرخ لأحداث عديدة في الجبل مثل المفاوضات حول معاهدة ١٩٣٦ التي وقعت مع حكومة ليون بلوم الفرنسية وأحداث أخرى خلال الحرب في الجبل. كما أنه يمكن رؤيته في الصور التي التقطت أثناء زيارة فريد للجبل خلال الحرب. إن أسمهان غائبة عن كل تلك الصور لأن ذلك كان غير لائق حسب تقاليد الدروز. ومع ذلك فقد تم تصويرها من زوايا مختلفة مع الجنرال ديجول قائد المقاومة الفرنسية ورئيس فرنسا فيما بعد.

إن تلك هي صور «النجمة» بالمقارنة بصور أسمهان مع صديقتها أمينة البارودي وهما يتحدثان على طاولة في الهواء الطلق ثم يقفان بفخر أمام السيارة التي اشترتها أسمهان من أمينة. هنالك أيضا الصور المثيرة لأسمهان وهي تتنزه على الشاطئ مع محمد التابعي وسليمان نجيب في زي البحر. إن الغرض من هذه الصور هو الدعاية ولكنها تنقل بأمانة صورة أسمهان خارج خشبة المسرح، كسيدة تقدر صداقاتها وأسلوب حياتها. تم تصويرها أيضا وهي تتناول طعام العشاء مع التابعي وترقص وهي ترتدي فيونكة كبيرة مائلة على رأسها وفي لقطة مقربة نرى وجهها الجذاب محاطا بيدها اليمنى وعليها خاتم بالغ الضخامة. لقد زودني الكثير من الكتاب وأفراد العائلة بمعلومات عن الأماكن وبصور ذهنية ولحظات لا تستطيع الكاميرا استعادتها. رأيت المربع السكني الذي عاشت فيه العائلة في فترات فقرها في القاهرة كما رأيت الحوائط التي غطاها الغبار الآن في جاردن سيتي بشرفاتها المبنية على طراز الآرت ديكو الذي ذاع وانتشر في الثلث الثاني من القرن العشرين. أستطيع أن أرى أسمهان وهي تبكي في غروب جميل كما يتذكر التابعي بجوار النيل أو رؤيتها وهي تخرج مصحفها الصغير من حقيبتها. لم يكن من الصعب تخيل أسمهان وهي تنصت بتركيز للموسيقى أو تمشي إلى بار فندق الكونتيننتال أو تجلس على كرسي من البامبو في شرفة فندق شبرد القديم (احترق في حريق القاهرة قبل ثورة ١٩٥٢ بفترة قصيرة).

وعلى بعد أميال في جنوب سوريا، صورت المنزل الأصفر الذي بناه حسن لأسمهان في السويداء بشجر أرزه. ومع أنه يتبع الجيش السوري في الوقت الحالي إلا أنني حاولت أن أتخيل القوات الخاصة بزيهم الرسمي وهم يحيطون بأسمهان أمام المبنى. وجدت «القلعة» التي بناها والد زوجها إسماعيل الأطرش فوق قرية العرة والتي تقع أمامها ساحة للتجمعات العامة. رأيت غرفتها داخل السياج الحجري وفوق الباحة القديمة والمضيفة القديمة بتكاياتها. الشعارات المكتوبة على الجدران الحجرية القديمة، كما رأيت بيت ومضيفة فرع آل الأطرش في السويداء. حملقت طويلا في جانب الجبل والطرق الصخرية حيث كانت تعدو بلا خوف على حصانها وشوارع سوق الحميدية الشهير في دمشق حيث كانت تشترى الحرير والتسجيلات. حاولت أن أدخل الفندق الدمشقي الذي كانت تفضله (حيث يقال إنها أعطت نفسها جرعات زائدة من دوائها) أورينت بالاس Orient Palacer فاستجوبني المسئولون السوريون والإيرانيون الذين يديرونه لخدمة السواح الإيرانيين ثم تبعتها مرة أخرى إلى مصر. تعقبت مسارها إلى القدس وعبرت ما كان يعرف بمملكة شرق الأردن حتى مكان موعدها مع أخيها غير الشقيق طلال على الحدود السورية.

كان صالون أخيها فؤاد الفاخر الذي يطل على النيل يمتلئ عن آخره بصور أسمهان وأخيها. يحتفظ أخوها الآخر (غير الشقيق) بصورة واحدة يعتز بها كثيرا. إنها في رأيي أكثر صور أسمهان جاذبية حيث تغطي رأسها بغطاء أخضر وترتدي علامة فرنسا الحرة، صليب لورين، كدبوس على ياقة جاكيتتها. عيناها تحدقان بكسل إلى الكاميرا، ملامحها أفضل مما كانت في حالة أخيها فريد وفكه الطويل. إن هذه الصورة تنتمي لصور «نسائنا في الحرب» اللائي كن يظهرن من خلالها أنشطتهن

فصل من كتاب:

Asmahan's Secrets : Woman, War, and Song

(أسرار أسمهان: المرأة والحرب والغناء)

Sherifa Zuhur

Center for Middle Eastern Studies, The University of Texas at Austin

240pp, $15.95, 2001

ترجمة: نرمين نزار

أسمهان كانت تتعرض للانتقادات على تصرفات تعتبر أموراً مقبولة بالنسبة لشقيقها لأنه رجل

شـــــــريفة زهـــــــور



من صوروا حياتها كانوا رجالاً وأدخلوا تفسيراتهم لأفعالها من خلال انحيازاتهم ومفاهيمهم عنها. كأخت أو فنانة أو «جاسوسة»

في خدمة المجهود الحربي. يوجد عدد محدود نسبيا من الصور لأسمهان في شبابها المبكر. هل كان ظهور موهبتها في سن مبكرة جزءا من أسطورتها كنجمة غناء أم أن ذلك جزء من مجهود يهدف إلى إظهارها في عمر أصغر من الحقيقة (كما يرى التابعي)؟ إن العديد من السير الذاتية للمغنيات والمغنين يظهر مواهبهم المبكرة التي لم يستطع أفراد عائلاتهم منعها من الظهور. وكان من ضمن من عاصرتهن أسمهان، أم كلثوم التي احترفت الغناء في طفولتها. ويقال إن ليلى مراد أيضا ظهرت على المسرح لأول مرة في الثانية عشرة من عمرها عام ١٩٣٠ وغنت عام ١٩٣٤ في الإذاعة. نجاة علي (اسمها الحقيقي نجاة علي صيام) أيضا بدأت الغناء في الثلاثينيات من القرن الماضي ومن المفترض أنها كانت في السادسة عشرة في ذلك الوقت. نجاة الصغيرة التي كان يفرق اسمها الفني بينها وبين نجاة علي لفتت نظر الجمهور لأول مرة حين كتبت مجلة المصور عن أدائها لأغاني أم كلثوم في عمر السابعة (عام ١٩٤٠). كما قيل إن فايزة أحمد وهي سورية أخرى (وإن كانت قد ولدت في لبنان) أدت أغاني أسمهان وأم كلثوم في عمر السادسة. فقد بدأت مشوارها الغنائي في الإذاعة بتشجيع من والدتها ثم انتقلت إلى القاهرة، حيث أصبح لها صيت على مستوى المنطقة بأكملها.

لا توجد صور لأسمهان في منتصف العمر. هل كانت ستتقدم في العمر لتصبح بدينة ومحترمة المظهر مثل أم كلثوم أم بالمرح والمرض اللذين صاحبا إلا فيتزجيرلد Ella Fiztgerald؟ هل كانت ستحافظ على جاذبيتها للجنس الآخر بالريجيم والملابس الجذابة والعمليات التجميلية مثل إيرثا كيت Eartha Kitt أو صباح أو شير Cher؟ إن الشرق الأوسط أكثر تسامحا مع النجمات المتقدمات في السن عن الغرب ولكن وفاتها المبكرة حافظت على حضورها وجاذبيتها الجنسية ضمن الوسط الفني كما لم يكن ممكنا بأي طريقة أخرى. ولهذا السبب فإن أسمهان كرمز ظلت بشكل ثابت تمثل المرأة «الأخرى» في الثقافة العربية، الفتنة كما أشارت لها فاطمة مرنيسي. لم تنتقل أسمهان إلى المرحلة الأكبر والأكثر أمانا والخالية من المدلولات الجنسية. إنها تستمر في كونها رمز الحب الرومانسي بالنسبة للنساء (الذين يقدرون على التماهي معها) وللرجال (الذين يشتهونها).

تشرح فاطمة المرنيسي رمزية أسمهان وأهميتها بالنسبة للنساء في المرحلة الانتقالية - النساء اللواتي يتماهين مع جوانب معينة من حياة مغنية كما تنقلها لهم الإذاعة والسينما. في منزل المرنيسي في فاس، على بعد آلاف الأميال من القاهرة ودمشق، تعد ابنة عمها شامة تمثيليات درامية عن حياة أسمهان. إن كانت أحلام النساء في تلك الفترة تعكس قدرات أسمهان كنجمة تخطت حدود الأدوار المرسومة للنساء فإن أهميتها الرمزية تتخطى مساهماتها السينمائية أو الموسيقية. كتبت المرنيسي أنه بينما كانت أم كلثوم تبدو نبيلة ومحترمة فإن النساء اللاتي عرفتهن في الحريم كن يحببن أسمهان.

كانت تظن أن من الممكن للمرأة أن تنال الحب والمستقبل المهني معا وأصرت على أن تحيا حياة زوجية كاملة بينما تبحث في موهبتها وتستعرضها.

لقد أثارت أسمهان خيال الرجال والنساء معا بفكرة أن الفشل أو النجاح لا يهمان في حياة المغامرة وأن ذلك النوع من الحياة أكثر جلبا للمتعة من حياة تقضيها نائمة وراء أبواب تحميها.

لقد ألهمت أسمهان شامة ابنة عم المرنيسي المبتكرة في العديد من المغامرات «في بحث حسي عن الرومانسية». لقد أثرت في المرنيسي ودفعتها عبر شمال أفريقيا لتأليف أبيات عن استعادة أسمهان. حتى والدة المرنيسي التي علقت في مرحلة انتقالية بالنسبة للنساء رأت طلاق أسمهان كمغامرة. وهي بدون شك مصدر إلهام لهؤلاء النساء اللاتي صبغن حياتها بالرومانسية ورأين أن المقامرة من أجل سيطرة المرء على مصيره تستحق الثمن الذي يدفعه وهو الشك.

أحد أسرار أسمهان كان العملية التي تم بها استبدال سجلها الشخصي عن الأفكار التي كانت تحملها عن تجربتها الحياتية بصورتها وصوتها الغنائي الرائع. رغم أنها أنجزت فيلمين فقط إلا أنهما قدما أسمهان/ نادية أو أسمهان/ سهير في خلط قوي بين موهبتها الصوتية المؤثرة وبين الرسالة السينمائية. إن الحب هو مركز وجود المرأة. كما كان الحال مع أسمهان فإن الشخصيتين السينمائيتين اللتين قدمتهما كانتا تعملان بالفن وتوصلان رسالتها حول الأمل والإصرار والفقد والخيانة والانتقام والحب بشكل أكثر وضوحا مما كانت التسجيلات تستطيعه.

كانت المشاهدات قادرات بالكاد على تخيل أفكارها وكان لكتابات مسئولي الدعاية والنقاد بعض التأثير على الأقل في تصوير الجانب «الجريء» من شخصيتها كما أشار التابعي؟ لقد بلور جمالها وموهبتها ذكراها عند الجماهير العربية التي حرمتهم حكايات الآخرين من سماع قصة أسمهان منها هي شخصيا. لقد ركزت قصص حياتها بشدة حول تحديها للأنماط والسلوك عند الجنسين وحول معاملاتها المزعومة في السياسة والجاسوسية.

التابعي الذي أطلق على كتابه اسم «أسمهان تروي قصتها» ليغري القراء برواية شخصية لحياتها وهي ظاهرة حديثة تسميها مارجو بدران ترجمة حياة أو سيرة ذاتية. ولقد أحبطت عندما قرأت كتاب التابعي ومقارنته بكتابات الآخرين، إنه لم يكن بأي حال من الأحوال سيرة ذاتية لأسمهان وإنما رؤيته هو لكل معلومة صغيرة استطاع جمعها عنها خلال عامين ومع ذلك أصبحت «السيرة الذاتية المصطنعة» تراثا في النثر والروايات (كما في أعمال نوال السعداوي) وفي الأفلام في مصر. لا توجد طريقة أكثر إغراء لتقديم حياة شخص ما للعامة من الإيحاء بأن ما سيقدم تصريحات شخصية بغض النظر عن كون مصدرها الشخص المعني بنفسه.

الحقيقة أن من صوروا حياتها كتابة كانوا رجالا وقد أدخلوا تفسيراتهم لأفعالها من خلال انحيازاتهم الاجتماعية ومفاهيمهم عن أسمهان- كأخت أو فنانة أو «جاسوسة». إن هذه الانحيازات هي على أوضح ما يكون في المواد المكتوبة ولكنها تظهر أيضا في المناقشات الشفوية - الذكريات المستعادة - لمن عرفها بعمق أو بشكل عابر. إن المفاهيم الجامدة عن السلوك المناسب لكل جنس تظهر على السطح بالذات عند مناقشة العمل بالفن في مقابل الشرف العائلي وفي مناقشة ما تحبه أسمهان وما لا تحبه ونواقص شخصيتها. في النهاية فقد صورها كتاب سيرتها العرب على أنها ضحية الظروف، أما المراقبون عن بعد مثل المرنيسي فقد صوروها على أنها مشارك نشط في مصيرها.

إن حياة أسمهان هي تكشيف للمفاهيم الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تبلورت عبر القرن العشرين. إن التناقضات في تجربتها مثيرة للاهتمام في سياق سنوات الحرب لأن التوتر الثقافي بين الغرب والشرق انعكس على التغيرات السياسية في تلك المرحلة وتعقد بسببها. إن الحروب حول الثقافة والسياسة لم تحسم وقد أعيد إحياؤها عبر الحركات الإسلامية وردود أفعال الحكومات تجاهها. إن اغلب أعضاء تلك الحركات ينظرون إلى أنواع معينة من الفن بشكل سلبي. كما كانت بعض الحركات الاشتراكية الشعبوية تسخر من أنواع من الفنون انتشرت في تيارات ثقافية معينة في الثلاثينيات والأربعينيات لأنها كانت ذات شعبية ضمن الصفوة في تلك المناطق. إن الخوف من الهجوم قد أثر في العاملين بالفن أكثر مما أثرت فيهم الرقابة، بل إنه عبر التسعينيات اعتزل عدد من الراقصات (وبعض المغنيات) في مصر المهنة وارتدين الحجاب. وفي مساجد أوروبا وأمريكا، بعيدا عن المعركة بين العلمانيين والإسلاميين، يدعو الخطاب المحافظ إلى تجنب الفن الحديث والموسيقى والمسرح والرقص.

إن جزءا من الدعوة الإسلامية الحديثة والهادفة إلى الارتقاء بالروحانية الفردية والأخلاقيات الجماعية قد أهملت تقاليد جمعية أخرى من الماضي للأسف. تقاليد يتم نفيها ورفضها لارتباطها التاريخي بالرذيلة وأيضا لضيق أفق القادة والمسئولين الدينيين الحديثين وطريقة تدريبهم.

إن عملية التطهر في الشرق الأوسط لم تتضمن الثقافة العربية فقط ولم تكن مظهرا عربيا على وجه الخصوص للتطور الثقافي. وبينما يتم إهمال أو نسيان احتفالات فولكلورية قديمة تتضمن موسيقى إلا أن الموسيقى والفن والرقص بالتحديد يتعرضون للهجوم. إن الفنانين

حياة أسمهان هي تكشيف للمفاهيم الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تبلورت عبر القرن العشرين

الفولكلوريين المحبوبين فى تركيا من الأشيكلار (شعراء النقد السياسى والاجتماعى) إلى مطربين مثل زكى مورن Zaki Muren عانوا من المنع والاتهامات الأخلاقية وحتى النفى. إن ممارسى الفن بأكملهم تقريبا قد هاجروا من إيران بعد الثورة مما أدى إلى نتيجة مؤلمة على مستوى معين وهى أن على المنفيين اختيار إما الاستمتاع بالعروض الثقافية وبالتالى اعتبارهم معادين للدين وإما العكس.

فى بعض الحالات توجد أسباب طبقية لتفادى الموسيقى والرقص والسينما الشائعين. وتمثل السن عاملا أيضا. إن الشباب هم المستهلكون المتوقعون لأنواع معينة من الفنون. إن أشرطة موسيقى الراب rap العربية مقبولة تماما فى أسواق المشرق العربى ويغنيها الأطفال فى طريقهم من وإلى المدرسة فى جميع أنحاء سوريا والأردن ولكنها لا تدار فى حضور الكبار المتدينين أو فى الجلسات العائلية المختلطة. إن حيوية بعض أنواع الفن تنسب إلى التأثيرات «الغربية» مع أنها أحيانا كثيرة، تنبع بشكل مباشر من الثقافات المحلية. إن الإسلاميين فى الجزائر لا يشعرون بالراحة عند مناقشة الأشكال المحلية من موسيقى الراى التى تحولت إلى صناعة كاملة هناك وفى أوروبا يسيطر على المناقشة أفكار حول الحوافز المادية و«التلوث الغربى والإغراءات المصاحبة له». إن تلك التحفظات لا تفسر استمرارية الاستمتاع بالموسيقى والرقص، وفى القرن الحالى، السينما على المستوى الشعبى وعلى اتساع المنطقة. فهى تبدو نشاطات إنسانية أساسية تتجاوز المنع والرقابة والحظر.

إن الموسيقى والسينما التى تتضمن مواضيع غير دينية تحظى باعتراض الكثير من المحافظين دينيا (وليس الإسلاميين وحدهم) ولكن العديد من هؤلاء المنتقدين أنفسهم يحرصون على مشاريع حفظ ونشر جوانب أخرى من الثقافة أو التراث العربى الإسلامى. هل هذا التوتر بين الفن والدين هو السبب فى حيرتنا عندما نفكر فى فنانين مثل اسمهان؟ أم أن تعامل أسمهان مع السياسة هو سبب تلك الوصمة. وهو نشاط أشترك فيه العديد من الرجال وغير الفنانين بدون آثار دائما مماثلة على سمعتهم. أم أن السبب ببساطة أن أسمهان كانت امرأة ولدت فى عائلة محافظة لكن القدر قذف بها فى ظروف أدت بها إلى مجال مربح ماديا وإن كان أدنى فى القبول الاجتماعى وهو الفن.

إن الحدود بين الطبقات لا تتم مراعاتها بنفس الدرجة بين الجنسين. فإن أخاها فريد بفضل نجاحه وطول الفترة التى دامت خلالها نجوميته نظر إليه أقرباؤه الدروز باعتباره ممثلهم الثقافى. إنه يستحق عملاً كاملاً بالإنجليزية عن سيرته الذاتية ولا يتسع المجال لهذا الآن. ولكن إذا نظرنا لتطوره من موسيقى شاب إلى مغنٍ/ موسيقى ثم إلى مؤلف موسيقى/ مغنٍ/ ممثل، فإننا نلاحظ أن كونه رجلاً كان عاملا مساعدا فى مساره المهنى وليس نقيضه. إن الطريقة التى استفاد بها مسارد المهنى من ظهوره على الشاشة مع أخته ومن غنائها لألحانه تدعونا لتأمل التشابك بين مساريهما الفنيين. إن تلك الفترة أعقبتها فترة أخرى من التطور المنفصل ثم - عندما فرقه الموت عن شريكته فى الموسيقى - صعود فريد وحده وحياته الفنية غزيرة الإنتاج.

فى المقابل بقيت أسمهان ذكرى جميلة وإن كانت «مخجلة» ليس بالنسبة لزملائها من الفنانين ولكن عامة فى السياق العربى والدرزى، وكان هذا تحديدا لأن، كما قال روبرت بتس «إن عرض المرأة هو الشىء الأهم فى حياة العائلة الدرزية وتلويثه هو أكبر إهانة يمكن أن تصيبها».

إن إنجازات أسمهان الفنية ووجودها السينمائى القصير والباقى فى الذاكرة يضعانها بما لا شك فيه ضمن التراث الحديث وبالذات ضمن فترة من التجريب فى الموسيقى تستحق أن تبقى فى الذاكرة فى عصرنا بخليطه الموسيقى الإلكترونى و«إيقاعات العالم». إن التأمل الجاد فى أداء أسمهان والمؤلفات التى اشتهرت بها يؤيد التصور حول كونها حقا مغنية موهوبة فى الغناء العربى الكلاسيكى والحديث. إن المحاولات الحديثة للبحث عن أكثر المؤلفات مصرية أو عربية ليست ذات معنى عند تطبيقها على المرحلة التى ظهرت فيها. (هذا الأمر أقل صحة بالنظر إلى مسار فريد الفنى فيما بعد حيث كان عبد الحليم حافظ قد أصبح الطفل المدلل لجمهوره من الضباط وأصبح قبول فريد أوسع فى العالم العربى وأقل فى مصر بأغانيه ذات الكلام المنتمى للقومية العربية مثل «من الموسكى لسوق الحميدية» و«بساط الريح» بالإضافة إلى قدرته على غناء المواويل باللهجة الشامية). كما أن هذا البحث عن النقاء الثقافى غير مجدٍ عند تطبيقه على العقود المبكرة فى مصر عندما كانت الموسيقى والنصوص متأثرة بشكل كبير بالتراث العثمانى.

إن المؤلفين والملحنين والموسيقيين فى عهد أسمهان اشتركوا بوعى وبدون وعى أحيانا فى النقاش المتزايد حول الحداثة فى الترفيه. إن هذه الحداثة كما كان الحال فى أوجه أخرى من الترفيه (مثل السينما) لم تعن بالضرورة التقليد الحرفى للغرب. إن التقنيات الغربية فى حركة الكاميرا وأساليب الإخراج وطرق الإضاءة والإخراج الأفضل للصوت قد دعمت تطور السينما دون شك. وبالمثل فإن إدخال العديد من الآلات والإيقاعات الغربية والأنماط الموسيقية مثل الدويتو والأوبريت والتجريب عبر التقنيات الموسيقية والصوتية الغربية قد أغنى تطور الموسيقى العربية فى القرن الواحد والعشرين. وفى نفس الوقت فإن تطور الخطوط الدرامية والميلودراما أقرب للتراث العربى بما يتضمنه من سير وقصائد وقصص حب عنه إلى طبيعة تطور السيناريو فى السينما الغربية. إن مقاطع الجواب والرد فى الموسيقى الفولكلورية العربية وفى موسيقى البلاط العثمانية ساعدت الملحنين فى بحثهم عن توزيعات موسيقية جديدة.

كما أن المستمعين كانوا جزءاً مهماً من هذا التحديث. إن الجماهير فى الشرق الأوسط قد تم تدريبهم كمستمعين من وقت التقدير الشعبى للحكاواتى (سارد القصص التقليدى وهو فن مفقود تقريبا الآن) إلى زمن الراديو عندما كان الناس يجتمعون لسماع الفنانين على الطبيعة أو عبر الإذاعة وكانت المناسبات الاجتماعية والجمالية تخلق من جراء الاهتمام الخاص للأهمية الفنية للمؤدى. يحب أن يتذكر العديد من الكبار من المغرب إلى لبنان ومن مصر إلى إسرائيل ممن يبلغون سنًا معينة لقاءات كانت تجمعهم حول الراديو مساء الخميس ليستمعوا لبث حفلة أم كلثوم. وعلى نفس المنوال لن ينسى العديدون أول مرة شاهدوا فيها فيلما لأسمهان، وتعلو بكل تلك المتع قصص حول حياة الفنانين.

إن المتخصصين فى علم موسيقى الشعوب يبلغوننا أن الموسيقى تحمل قيمة رمزية فى كل الثقافات. إن الموسيقى فن رمزى وليست فن نقل، ولذلك فإن من الممكن ربطه بنقاشات عامة حول طبيعة التراث الثقافى كما هو الحال فى الشرق الأوسط. كما أن الموسيقى حسية وقد كانت تلك الحسية هى ما دفع إلى الاعتراض على دور الموسيقى فى المجتمع والتعليم فى العالم العربى وبشكل ثانوى كان هنالك تخوف من اقتراب الموسيقى من تصرفات محرمة أخرى مثل شرب الخمور والجنس خارج نطاق الزواج والإسراف وفى الوقت الحالى المخدرات. ولكن حسية الموسيقى شىء مركب وتمتد حتى إلى ترتيل القرآن الذى يمتع المستمع ويتطلب انتباها سمعيا. وبالمثل فإن القصائد الجادة التى تتحدث عن مواضيع تاريخية ورومانسية والتى غنتها أسمهان كانت تثير المستمعين.

إن أى مناقشة حول الوضع الإشكالى للمغنية المرأة فى بداية العصر الحديث أو فى العصر الحديث تتصل بالتساؤلات القديمة حول الوضع المشكوك فيه لمن يبدعون فى المهن الترفيهية من النساء والرجال على السواء كما يتصل بالمحذورات الأحدث بالنسبة لتبرج النساء علنا. وكجزء من هذا الوضع المشكوك فيه فإن قدرة المؤدية الموهوبة على استخراج المشاعر من الجمهور لصيقة باعتمادها على المريدين والمعجبين. إن قصة أسمهان تؤكد استنتاجات الباحثين الذين لاحظوا أن ثمة مكانة خاصة تمنح للمؤدين فى الثقافات المختلفة ولكنها ليست بالضرورة مكانة مرتفعة. وبشكل تاريخى فإن هذه الحقيقة تأتى من الأدوار المتعددة للموسيقى فى الماضى البعيد ومن ضمنها الطقوس العلاجية وأبدال الهوية الجنسية أو بعض من افتراض ارتباط المغنى بالرغبة. إن المكانة الخاصة للمغنى فى الشرق الأوسط نبتت من ضرورة وجود راع للإبداع الموسيقى ومن ثم جاء ارتباط الموسيقيين بالبلاط والعشيقات. ومع أن الكل يرى أن القرن العشرين كان عصرا جديدا إلا أن الأفكار القديمة تموت بصعوبة وببطء وقد تم التغلب عليها أساسا عبر التغيرات الاقتصادية الضخمة التى أثرت فى المجتمع واضعة المؤدين فى طبقة الأثرياء الجدد. ■

بقيت أسمهان ذكرى جميلة وإن كانت «مخجلة» ليس بالنسبة لزملائها من الفنانين ولكن فى السياق العربى والدرزى.

عـرابـى..

عــــــزت إبراهيــم

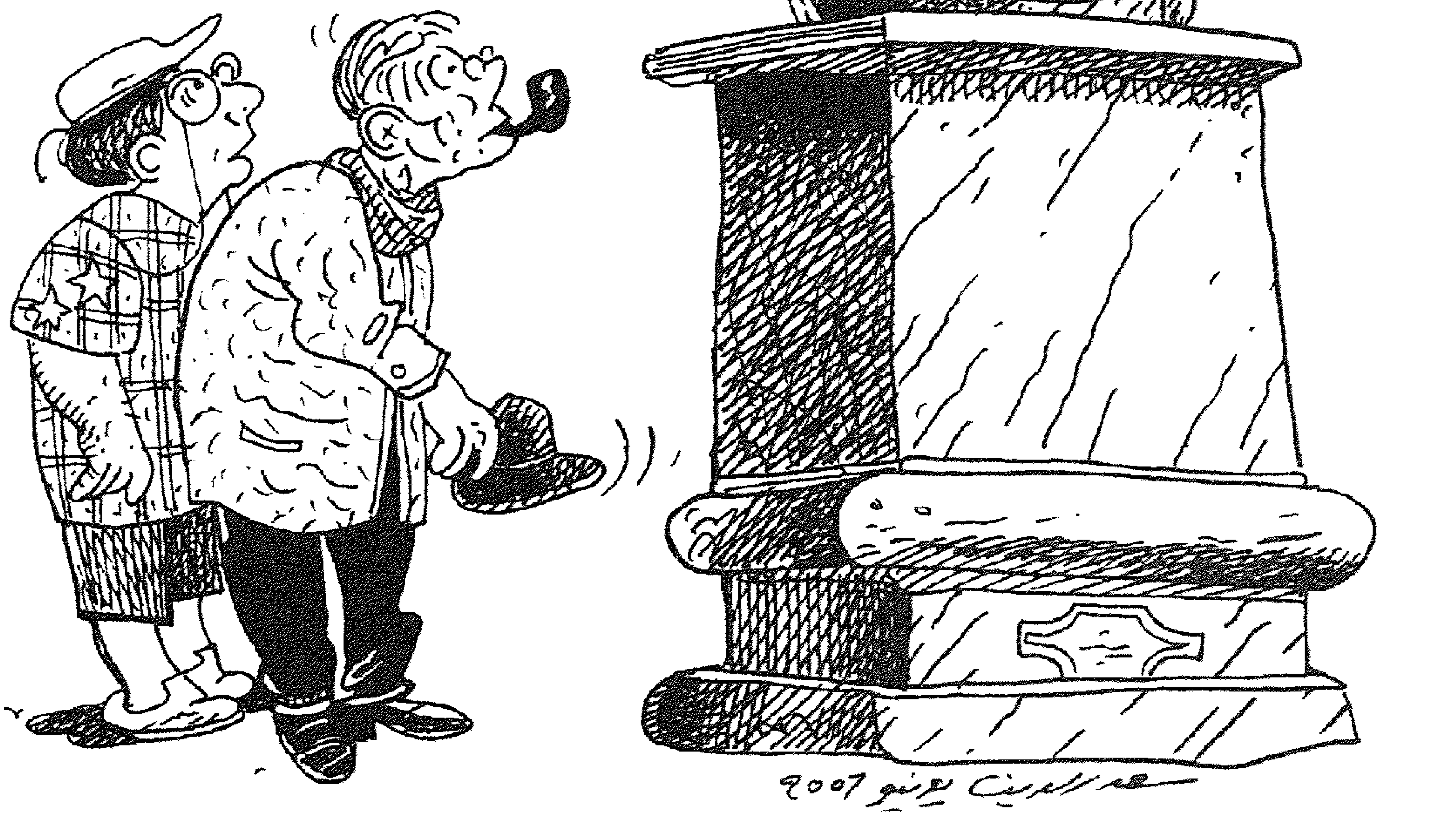
شغلت الثورة العربية حيزا مهما فى العقل السياسى الغربى لفترة من الوقت سواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة نتيجة الصدمة من وقفة التيار الوطنى وحملت مراجع تاريخية تفاصيل عن تلك الحقبة منها كتابات لرجال من العسكرية الأمريكية تواجدوا فى مصر أثناء الثورة.. لكن الشأن المصرى فى الصحافة الأمريكية القديمة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يحمل من التفاصيل الكثير والكثير.. كنز من المعارف والأسرار يضيف إلى وجهات نظرنا معلومات مهمة.. وفى مناسبة الذكرى الـ ١٢٥ للثورة العرابية نقدم قراءة لما تناولته الصحف الكبرى والمحلية عن الزعيم الوطنى «أحمد عرابى» قائد الجيش المصرى خاصة محاضرة مجهولة للقنصل العام الأمريكى ـ السفير فعليا ـ فى مصر فى ذلك الوقت سيمون وولف، والتى ألقاها فى نيويورك فى ٧ يوليو عام ١٨٨٢، يطلب فيها عدم التسرع فى الحكم على حركة الجيش المصرى وفهم الأسباب التى تدفع الزعيم عرابى إلى مواجهة الدولة العثمانية وحلفائها الأوروبيين من أجل تحقيق الاستقلال الوطنى وليس من باب العداء للغرب أو المصالح الغربية.. ويروى القنصل تفاصيل عن حواراته مع الزعيم عرابى قبل تصاعد المواجهات بينه وبين الباب العالى فى اسطنبول ـ الذى واصل التحريض على تحطيم الثورة العرابية ـ من أجل منع تيار «الحزب الوطنى» الذى اتضحت معالمه تحت قيادة عرابى من الاستقلال بمصر وتعريض مصالح حملة أسهم قناة السويس للخطر!

هل كان يمكن أن يتغير مـســار الـتـاريـخ؟

إن تتبع تاريخ الفترة الفاصلة فى تاريخ مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تكشف عن حجم التلاعب بالرأى العام فى البدايات الأولى للصحافة العالمية لمصلحة قوى الاستعمار التى راحت تصوغ صورة سلبية عن الشعوب الأخرى والتى نعانى اليوم من كثير من آثارها.. وبينما راحت الدول الاستعمارية تتنافس على احتلال الدول فى هذه الفترة كان البعض من الزعماء الوطنيين يتطلعون إلى مساندة من الولايات المتحدة- القوة الصاعدة فى ذلك الوقت- لمنع الأوروبيين من مواصلة التوسع إلا أن الخطاب الأمريكى الرسمى المؤيد لتحرير الشعوب لم يصمد أمام المصالح الغربية ربما لعدم رغبة واشنطن فى التدخل فى مناطق نفوذ الاستعمار القديم.. والمعروف أن الولايات المتحدة لم تبدأ الالتفات بجدية إلى كثير من مناطق النفوذ التقليدى للقوى القديمة إلا بعد تدخلها فى الحرب العالمية الأولى وإعلان الرئيس وودرو ولسن مبادئه الشهيرة عن حق تقرير الشعوب لمصائرها..

يقول القنصل وولف: عرابى باشا رجل





ذكى وصادق وقد تلقى تعليما رفيعا. وهو يعرف قدر المنصب الذى يعتليه فى بلده ويعلم حجم المسئولية الملقاة على عاتقه.. ويضيف القنصل: عرابى يعرف كل شىء عن الولايات المتحدة، تاريخها وصراعاتها، وقد أخبرنى أكثر من مرة أنه يرغب فى إصلاح يفضى إلى ظهور حكومة دستورية فى مصر.

ويكشف وولف عن جوانب أخرى لقائد الجيش المصرى فيقول إنه قدم له نسخة من السيرة الذاتية للجنرال جارفيلد (الرئيس الأمريكى الذى توفى متأثرا بجراحه عقب الاعتداء عليه فى عام ١٨٨١) باللغة الفرنسية وهو ما رد عليه عرابى بالقول أنه سيطلب ترجمتها إلى اللغة العربية لينتفع بها الشباب فى بر مصر، وأنه بناء على اقتراح من القنصل طلب عرابى باشا من الجيش المصرى القيام بترجمة الدستور الأمريكى.

وينفى القنصل وولف عن الزعيم عرابى الادعاء بأنه كان «متعصبا» ويقول إنه شخصية وطنية وهو ما يجعله فى حالة عدم اتفاق فى كثير من آرائه مع ما يراه الأجانب الذين لا يبدون تعاطفا معه أو مع مصالح بلاده.. إن خطر وقوع مذابح ضد اليهود أو المسيحيين فى بلاد العرب لن يحدث على خلفية القول إن العرب يتسمون بالتعصب ولكن العنف سيأتى من وراء الرغبة الجامحة أو ما يسمى دبلوماسية القوى الكبرى.. فى المقابل فإن الخديو توفيق، الذى صنعته فرنسا وبريطانيا، رجل هادئ الطباع واقع تحت تأثير الدولتين ويفتقد الإصرار مما يجعل القيادات الوطنية غير متعاطفة معه.. ولو كان الخديو توفيق فى المعية جده محمد على أو حصافة والده إسماعيل لكان قد اتخذ قراره بأخذ صف أبناء شعبه من المصريين بأخذهم إلى طريق الاستقلال الوطنى الذى يستحقه المصريون.. لكن الأمور تسير فى الطريق المعاكس وها هو الرجل الذى ينحدر من سلالة نابليون المصرى (يقصد محمد على الكبير) يسعى إلى الحماية من الغزاة بدلا من السعى إلى طردهم..

وعن الشعب المصرى قال القنصل الأمريكى إنه يعتبر أمريكا صديقة له مؤكدا أن المصريين يستحقون تعاطف الولايات المتحدة معهم فى صراعهم من أجل الدفاع عن أرضهم وحماية ديارهم.. إن ما يحتاجه المصريون فعليا- يقول وولف- هو «الحياد الذى تضمنه جميع القوى، الاستقلال عن تركيا، اقتصاد أفضل من أجل الخدمات العامة، إلغاء الجيش فيما عدا مهام الشرطة وأخيرا وليس آخراً مدارس نظامية يتعلم فيها صغار المصريين اللغات المعاصرة».

وانتقد وولف حالة النفاق التى تتمتع بها الامبراطورية البريطانية فى ذلك الوقت وقال إن هذه الحالة تتبدى بوضوح على جنبات نهر النيل مثلما هو الحال فى كل بقعة أخرى من العالم.. حيث تقوم بممارسة الاستقواء على مصر مستغلة ضعفها.. فماذا سيحدث لو أننا امتنعنا عن مستحقات السندات أو لم نسدد الفوائد هل ستجرؤ انجلترا أن ترسل أسطولا مسلحا إلى نيويورك؟

وقد حملت المحاضرة التى نشرتها صحيفة «نيويورك تايمز» إلى جانب صحف أخرى فى الولايات المتحدة (٩ يوليو ١٨٨٢) عنوان: «مطلب مخلص من أجل المصريين» وعنوان فرعى «كلمات طيبة فى حق عرابى باشا».. وقد اتضح من صحافة تلك الفترة أن الأمريكيين تعاطفوا مع الثورة العرابية ولم تشهد فترة من تاريخ مصر والشرق الأدنى مثل هذا الاهتمام الذى نالته حركة عرابى فى الصحافة الأمريكية فى القرن التاسع عشر لكن مصالح الدول الأوروبية انتصرت على رغبة البعض فى استخدام الولايات المتحدة لنفوذها لوقف مطامع الدول الكبرى وشروع الدول الاستعمارية فى عملية الدعاية المضادة ضد القوى الوطنية لتبدأ مرحلة جديدة من الاستعمار الحديث.. وتراوحت المقالات والتقارير ما بين المطالبة بإيجاد تسوية تخلص المصريين من الدولة العثمانية وأخرى تدعو إلى سحق تمرد الجيش لأن عرابى يريد إقامة دولة دينية كبرى انطلاقا من مصر!

وربما من المفيد التعرف على مصر فى عهد الثورة العرابية من الوصف الذى قدمه القنصل الأمريكى العام حيث يقول: يتألف الحزب الوطنى- هكذا فى نص المحاضرة أى قبل أكثر من ٢٠ عاما من تأسيس مصطفى كامل للحزب- من طبقة متعلمة من المصريين المسلمين والأقباط تخرجوا من الأزهر ومدارس أخرى، بالإضافة إلى أصحاب متاجر التجزئة وأصحاب متاجر الأخشاب وشيوخ القرى وممثلى الشعب فى البرلمان ورجال الجيش باستثناء الضباط الشراكسة والعرب البدو فى الدلتا.

ويضيف القنصل شارحا لحالة الطبقة العاملة المصرية: إن العمالة المصرية فى مجموعها لا تختلف تقريبا عن مثيلاتها فى القارة الأوروبية من حيث تعاملهم مع السياسة.. ولكننى عندما غادرت مصر كانت هناك فكرة متنامية بأن عرابى سيقوم. بطريقة ما. بتخليصهم من عبء الديون ومن الطغيان الذى يلقونه على أيدى المديرين.. وجميعهم يمقتون الأتراك ويتعاملون مع الأوروبيين وفقا للأشخاص والطبقة التى يحتكون بها..

ويقول: إن الحزب الوطنى يواجه أسرة محمد على والتابعين لهم من الشركس (١٥ ألفا) واليونانيين من الصيارفة والمقرضين (٣٠ ألفا) والسوريين والأوروبيين الذين ينقسمون إلى ١٤ ألف إيطالى و١٤ ألف فرنسى و٣٥٠٠ نمساوى وألمانى و٨٥٠٠ إنجليزى و١٥٠٠ من جنسيات أخرى ليصل المجموع إلى ٣٦ ألفا و٥٠٠ أجنبى يتحدثون جميعا بحدة عن الحزب الوطنى ويشكو الفرنسيون وجميعهم من المضاربين فى البورصة من تأثير الثورة وتعرضهم للخسارة.. بينما الإنجليز يشعرون بالإحباط من الحركة التى تؤجل من سعيهم للاستحواذ على مصر وهو ما يخططون له منذ قرابة ٧ سنوات.. أما الجالية الإيطالية فهى منقسمة ما بين التأييد للثوريين نكاية فى الإنجليز والفرنسيين أو حبا فى الحرية.. كما أن فقراء الإيطاليين من المالطيين قد تعلم معظمهم اللغة العربية ويبدون تعاطفا مع المصريين.. فى المقابل يؤيد الأمريكيون والبلجيك والسويسريون وجود الحركة باعتبارها شيئا أصيلا.. والإنجليز اليوم هم أكثر الجاليات الأجنبية إثارة للقلق فى الوقت الراهن ويشكلون خطرا حقيقيا على مصر نتيجة التعويل الكبير من جانبهم على الضباط الشراكسة الذين يحيون معهم دون سائر المصريين بعلاقة مودة شديدة..

هكذا.. انتهت شهادة القنصل العام وولف عقب مغادرته مصر فى أبريل عام ١٨٨٢ فى الوقت الذى كانت القوات البريطانية تزحف قادمة من الدلتا صوب القاهرة لتحتلها فى سبتمبر من العام نفسه..

فى اليوم ذاته «٩ يوليو ١٨٨٢» قالت صحيفة «بوسطن ديلى جلوب» فى صدر الصفحة الأولى «عرابى بك يأمل فى دعم معنوى من أمريكا».. وقال تقرير الجريدة - التى توقفت عن الصدور- إن أخبارا من الإسكندرية تتحدث عن توقع عرابى دعما معنويا من الولايات المتحدة للضغط على إنجلترا من أجل التفاوض مع الوطنيين المصريين..

ومن أغرب ما أثارته الصحافة الأمريكية فى مرحلة الثورة العرابية الاستخدام المفرط لتعبيرات الحرب المقدسة.. ففى بريد القراء لصحيفة واشنطن بوست عدد ١٥ أغسطس ١٨٨٢ وتحت عنوان: ما هو الجهاد؟ بعث قارئ يسأل عن الجهاد وهى الكلمة التى وردت فى الأخبار الوافدة من مصر قبل يومين وقال القارئ: منذ أيام أوردت الأخبار التلغرافية تهديد عرابى باشا بإعلان الجهاد فى جميع أنحاء الأرض فرجاء توضيح معنى الكلمة التى لم أعثر على ذكرها فى الموسوعة ولم أجد كذلك من يوضح لى المعنى. انتهت الرسالة!

ملحوظة: عثرت على رسالة مماثلة فى بريد قراء «نيويورك تايمز» عام ١٩٨٩ أى بعد ١٠٧ أعوام من الرسالة الأولى.

شهادة عامل سنترال

ومن أطرف الشهادات التى عثرت عليها فى الأرشيف القديم لكبرى الصحف الأمريكية شهادة المسئول عن تركيب معدات السنترال الخاص بالخديو توفيق- فى وقت كان التليفون حدثا جديدا وأراد الخديو الاستقلال باتصالاته بعيدا عن الحاشية- والذى راعه ما قرأه عن قائد الثورة العرابية، فقرر إرسال خطاب إلى صحيفة «نيويورك تايمز» يشكو فيها من الصورة المغلوطة لعرابى فيقول: إن الرجل كثيرا ما تحدث إليه بشأن احترامه للثقافة الغربية وأنه يقتنى فى منزله لوحات لفنانين غربيين..

تحت عنوان «عرابى والتليفون وغاريبالدى» قالت نيويورك تايمز فى ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ أن السيد روسى عامل الهاتف أرسل لصحيفة يومية فى باريس يصف مقابلته لعرابى باشا فى العام الماضى ١٨٨١.. ويقول: إنها المرة الأولى التى يحدث عرابى وجها لوجه وهو الذى عرف عنه الخلق الطيب والمحب لكل ما هو جميل ونافع.. ويمضى الرجل قائلا: إن ما عرف عن عرابى هو الولع بدخول الكهرباء وأنه حصل قدرا من العلوم.. لذلك بادرنى بأسئلة عن أنظمة الكهرباء وهو ما أثار دهشة المترفين الإنجليزيين فى قصر الخديو.. ولما علم عرابى أن عامل الهاتف إيطالى الجنسية تحدث إليه عن الزعيم الإيطالى غاريبالدى وقال روسى: إنه تناول سيرة الرجل كما لو كان إيطاليا وبكل اعتزاز وإعجاب.. وقال عرابى: «عندما تأتى إلى منزلى سوف ترى لوحة لغاريبالدى فهى تشغل مكانة محترمة وهى اثمن ما لدى من لوحات»..

فيكتور هوجو يدافع عن عرابى

نشرت «نيويورك تايمز» رسالة لمراسلها فى باريس فى ٣٠ أكتوبر ١٨٨٢. نقلا عن

فى الصحافة الأمريكية!

كتــــاب الــزاويـــة

المواجهـــــة

مذكرات اللورد كيلرن

فى تمام الساعة ٩ مساء وصلت إلى القصر وبصحبتى الجنرال ستون Ston بالإضافة إلى مجموعة خاصة منتقاة من الضباط الأقوياء العسكريين المسلحين تسليحاً كاملاً.

وبدون مقدمات دخلت فى الموضوع الذى من أجله حضرت الآن قائلاً: «لقد حددت الساعة ٦ مساء بالإجابة بنعم أو لا على رسالتى التى وصلت إليك فى هذا الصباح وبدلاً من ذلك فإن حسنين باشا قد أبلغنى بأنه أحضر لى الساعة ٦.١٥ مساء معلومات لم أوافق عليها بطبيعة الحال.

وإنى أريد إجابة الآن. وهنا وبدون مراوغة أكثر من هذا، عما إذا كان الرد بالنفى غير أن الملك فاروق يسعى إلى المجادلة فى أمور لفظية (وردت فى نص الإنذار). ومن ثم لم أترك له فرصة الحديث قائلاً بأنه يجب عليه أن يوقع هذا فوراً وإلا سأضطر لاتخاذ إجراءات أخرى غير سارة أواجهك بها.

تردد الملك فاروق للحظة من الوقت، وهم أن يوقع خطاب التنازل عن العرش لولا أن اعترض حسنين متداخلاً (باللغة العربية)، وبعد لحظة مشوبة بالتوتر انتبه الملك فاروق الذى روعه التهديد تماماً، وطلب منى بنبرة حزن وتخلو من تبجحه السابق، أليس بإمكانى إعطائه فرصة أخرى؟ وقد أجبته، يجب أن أعرف بشكل قاطع ماذا تقترح رداً على ما سبق، أن كررته مرات عديدة وبشكل قاطع؟ وقد أجابنى بأنه سوف يستدعى النحاس فى الحال، وفى حضورى إذا أردت، وأكلفه بتشكيل الوزارة، وقد أكدت عليه بوضوح بأنه يقصد حكومة النحاس وباختياره هو شخصياً.

جريدة فرانس ابيل. يقول فيها إن الكاتب والمفكر الفرنسى فيكتور هوجو (صاحب رواية «البؤساء» الشهيرة، وكان شاعرا وروائيا ورساما، ولد عام ١٨٠٢ وتوفى عام ١٨٨٥) بعث عبر الجريدة برسالة احتجاج ضد محاكمة عرابى وما يحدث له.

وقال هوجو: «عرابى يحكم عليه.. فمن هو عرابى ؟ هل هو متمرد؟ نعم.. هكذا يقول الخديو.. لا.. ليس كذلك هكذا يهمس السلطان. هل هو محرر ؟ محرر لمن؟ إن الشعب المصرى سيكون مؤهلا وسيكون عظيما فى القرن العشرين.. إن ذلك لم يأت بعد.. هل هو معتد؟ هذا ينطبق على الحرب ولم تكن هنالك حرب. كانت هناك عمليات غير نظامية تحتاج إلى تفسير من إنجلترا. لكن لم تكن هناك حرب. إنجلترا لم تكن فى حرب ضد مصر. ولم تكن فى حرب ضد تركيا. فمن هو عرابى إذا..؟ هو سجين اليوم. نحن، العابرون العاديون غير المعروفين، نحن موجودون ونحن نحيا، والحكومات تعمل بالقرب منا. وما يفعلونه أنهم يختبئون منا ؟ ونحن نعلم أنهم لا يمكنهم ذلك. وهم يعلمون أيضا، على الأرجح، أنه لا يمكنهم الاختباء.. لكننا نرى ما لا يرون.. نرى ما وراء ذلك.. ما وراء الأفق.. ما الذى يفعله المستقبل.. نحن نرى تيار الأسلمة يتفتت فى الشرق والكاثوليكية تغرق فى الغرب.. وهذا واضح أمام ناظرينا. الحكومات تخفى ما تفعله عنا.. بينما نحن نرى ما تفعله الحضارة.. نحن على قناعة أن الحكم بالموت يلخص ويمثل جميع الأنظمة الإجرامية فى الماضى.. هو ملاك الشرائع القديمة.. واليوم هو مدان ومستهجن..».

.. ويمضى هوجو فى سرد تاريخ التخلص من عقوبة الموت وصولا إلى «لم يعد ملاكا بل شبحا.. إن الحكم بالموت اليوم صار أقوى من ذى قبل.. عرابى سوف يعاقب بالرمى بالرصاص.. تلك لغة تفاجئنا.. لكنها تشعر بعدم الارتياح.. كلا الحضارة ليست هى البربرية.. كلا الوحشية ليست هى عدالتها الراهنة.. الحضارة لا تقتل رجلا مثلما كانت المجتمعات القديمة تفعل دون أن تعرف لماذا..».

حوارات مع عرابى فى منفاه

تتبعت الصحافة الأمريكية والدولية الزعيم فى منفاه بجزيرة سيلان وحتى المحطات التى توقف فيها حرصت الصحف على نقل تفاصيلها من فوق ظهر السفينة «ماريوتا» التى أقلت عرابى إلى المنفى. قالت صحيفة «نيويورك تايمز» فى عدد ٥ مارس ١٨٥٧ أن سفينة عرابى وصلت إلى بومباى فى ١٦ يناير ١٨٨٣ بعد أن أبحر من السويس فى ٢٧ ديسمبر ١٨٨٢ فى طريقه إلى كولومبو. وعادت الصحيفة فى ٢٠ نوفمبر لتحذر من تصاعد شعبية عرابى باشا منذ وصوله إلى سيلان حيث زاره الآلاف من الهنود المسلمين منذ أن وطئت قدماه المنفى لدرجة أن الصحيفة قالت إن مقر الباشا صار يمثل «نصف الطريق إلى مكة». وفى مطلع عام ١٨٨٤ قالت الصحيفة (عدد ٧ يناير) إن عرابى باشا يجلس فى فراندة المنزل الذى يسكنه يقطع شوطا مشهودا فى تعلم اللغة الإنجليزية ولا توجد لديه رغبة فى العودة إلى مصر قبل أن يحصل بلده على حريته بينما يحمل بشدة على حكم توفيق المتردى وطاعته العمياء للاحتلال. واستمرارا للاهتمام نشرت الصحيفة فى ٢٤ فبراير حوارا بقلم السيد مونكيور دى كونوى الذى لقب عرابى بزعيم الفلاحين فى العناوين حيث قال عرابى لضيفه إنه يتلقى كلمات تأييد لطيفة من الولايات المتحدة وبريطانيا. وبعد أن تطرق عرابى باشا إلى الوضع فى مصر وثقته فى نيلها الحرية فى نهاية المطاف تحدث عن الولايات المتحدة مؤكدا إعجابه بالحرب التى أسفرت عن تحرير أربعة ملايين من السود من العبودية.

ونقل الكاتب عن عرابى «لكن هناك الملايين ممن لايزالون عبيدا ولدينا فى مصر ١٢ مليونا تحت إمرة رجل واحد فقط - يقصد توفيق- ولكن الأمر لا يمكن أن يستمر. إننى أجلس هنا فى تلك الشرفة أسبوعا يمر تلو الآخر بينما أتعلم الإنجليزية يوميا. ترى ما الذى سينتفعه المصريون من تعلمى الإنجليزية؟ هذا سؤال للعالم كله».. توقفت كلمات عرابى لكن الكاتب يقول: تركت عرابى باشا باعتقاد راسخ فى وطنية الرجل وأنه الممثل الحقيقى لشعبه وأن حماسته اللينية، وليس تعصبه، ربما كانت وراء تمرده بما يفوق ما ذهب إليه المتعاطفون معه من الإنجليز. ■

هـــــامـــــش

مقتطفات من كتاب سيصدر فى الولايات المتحدة لكاتب المقال فى مطلع ٢٠٠٩ تحت عنوان:

AMERICA, MOHAMMEDANS, AND JEHAD: WHAT DID NEWSPAPERS TELL YOUR GRANDFATHERS?"

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

اعترافات كيسنجر

خالد داود

القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٧، ٢٥١صفحة



يحتوى الكتاب على مئات المكالمات الهاتفية التى أجراها كيسنجر منذ اندلاع حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وحتى نهايتها، ويتناولها المؤلف بالتحليل والنقد.

وكيسنجر الذى يمكن اعتباره أشهر وزير خارجية أمريكى، ينظر إليه البعض باعتباره نموذجا يحتذى به، فيما يراه آخرون مجرم حرب، ويحملونه مسئولية - أو على الأقل المشاركة فى مسئولية - أسوأ المذابح التى شهدتها دول جنوب شرق آسيا: فيتنام وكمبوديا ولاوس وبنجلاديش وتيمور الشرقية، كما أنه وقف وراء عديد من أعمال العنف والانقلابات التى شهدتها أمريكا اللاتينية، والتى كان أشهرها الإطاحة بالرئيس التشيلى المنتخب سلفادور الليندى.

أما فى حرب أكتوبر، فقد عبر كيسنجر عن انحياز كامل لإسرائيل منذ الساعات الأولى للحرب التى تكشف فيها الوضع، وكان هو صاحب الجسر الجوى الأمريكى لإسرائيل، الذى بموجبه كانت تهبط طائرة أمريكية كل ١٥ دقيقة، ويشير المؤلف إلى أهمية هذا الجسر بما قاله كيسنجر نفسه.. «لو لم نكن قد قمنا بالجسر الجوى لكانت إسرائيل قد ماتت بحلول الوقت الحالى». هذا ما قاله كيسنجر فى السابع عشر من أكتوبر أى بعد ثلاثة أيام بالضبط من البدء فى هذا الجسر الجوى الذى كان أمراً غير مسبوق فى تاريخ المساعدات الأمريكية لأى دولة فى العالم، وبرغم معارضته كثيرين من السياسيين والعسكريين الأمريكية آنذاك لهذا الجسر، فإن إرادة كيسنجر هى التى انتصرت فى النهاية، وفضلا عن ذلك فقد أصر على جسر بحرى يحمل آلاف الأطنان من المعدات الثقيلة، بعد أن اتفق مع الرئيس السوفيتى السابق ليونيد بريجينيف على قرار مشترك فى مجلس الأمن يدعو إلى وقف إطلاق النار.

فلم يكن كيسنجر يريد فقط تعويض إسرائيل عما لحق بها من خسائر، وإنما أيضاً تزويدها بمخزون ضخم من الأسلحة يضمن تفوقها وعدم تعرضها للهزيمة فى حالة تجدد القتال، بل وعمل على أن يستمر القتال - رغم الاتفاق على قرارات وقف إطلاق النار - حتى يضمن انتصار إسرائيل الساحق مع تدفق المساعدات العسكرية الأمريكية، وكان هو الذى أعطى الضوء الأخضر لإسرائيل لتواصل هجومها على الجيش الثالث وتوسع الثغرة التى نجحوا فى فتحها على الضفة الشرقية للقناة برغم صدور قرار رسمى بوقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر.

هذا الكتاب لا يقدم ترجمة نصية لكتاب «الأزمة» الذى كتبه كيسنجر عن حرب أكتوبر ١٩٧٣، لكنه يمثل قراءة نقدية لهذا الكتاب الذى ينحاز بشكل كامل ومطلق لإسرائيل.

※

ظهرها إلى الحائط (شعر)

على عطا

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٧، ٨٥صفحة



ديوان من الشعر الحديث هو الثانى لمؤلفه بعد ديوان «على سبيل التمويه» الذى صدر فى عام ٢٠٠٢م.

ويضم الديوان الجديد ١٢ قصيدة، أكثرها مما يتعاطى مع العادى والمألوف واليومى، لكنه قادر على النفاذ إلى عمقه بصورة مدهشة، فيحيله إلى صور وتراكيب لغوية حداثية، فضلاً عن اكتشافه للأبعاد الإنسانية الكامنة خلف ما يبدو عادياً ومألوفاً. وفى كثير من الأحيان يعمد الشاعر إلى المفارقة التى تكتسى أحياناً بحالة من السخرية المريرة.

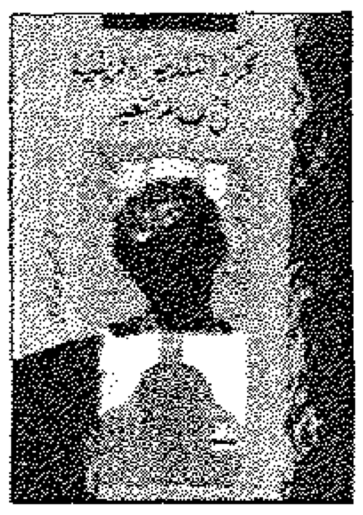
البنت التى أسندت ظهرها/ إلى الحائط/ فيما كان زوجها/ يقضى عقوبة الهروب/ من الخدمة العسكرية/ كانت صادقة فى صدمتها/ حين دسست فى يدها/ بضعة جنيهات/ وقلت: أنا مثل أخيك/ لكن لا أعرف/ إن كانت قد قالت/ لأحد غيرى/ أن أخاها الذى يكبرها/ ببضعة أعوام/ خلع براءته/ على باب طفولتها/ كان ظهرها إلى الحائط/ حين انشق صدره وانساب دمع/ كنت أشهق مذهولاً/ وكأنى أفلت فى لحظة/ من الموت/ وأنهته مثلما فعلت/ يوم دفنوا أبى - قبل أن أسلم عليه -/ فى قبر/ لا ناقة لنا فيه ولا جمل.

※

الحركة النقابية الأفريقية فى عالم متغير

أحمد يوسف القرعى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ٣١٩ صفحة



لعبت الحركة النقابية الأفريقية دوراً مهماً فى دعم حركة التحرر الوطنى الأفريقى من أجل الاستقلال، كما برزت زعامات نقابية أفريقية لعبت أدواراً سياسية بارزة فى تحرير القارة السوداء من أمثال سيكوتورى ولومومبا وأخيراً فريدريك تشيلوبا رين مؤتمر نقابات العمال فى زامبيا.

ويتابع المؤلف الدور المهم للحركة النقابية الأفريقية فى إطار الحركة النقابية الدولية. ويطالب بتطوير لجنة العمل الأفريقية إلى منظمة عمل، بما يلقى بمسئوليات محددة على منظمة الوحدة النقابية الأفريقية بوصفها عضواً فاعلاً فى المنظمة الجديدة. ويؤكد على أن أفريقيا لم تكن بعيدة أبداً عن رياح التغيير التى عصفت بالنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا الشرقية، وهو ما ولد قناعة لدى عديد من هذه الدول بحتمية التعددية السياسية، خصوصاً مع بروز الوعى الديمقراطى لدى نخبتها المثقفة. كما أن كثيراً من الدول المانحة للمساعدات الإنمائية للدول الأفريقية ربطت هذه المساعدات بتحقيق تطور ملموس على الصعيد الديمقراطى، وقد اتخذت المجموعة الأوروبية وأمريكا قراراً بعدم تقديم معونة إلا للدول التى تخدم قوانين حقوق الإنسان الأساسية لشعوبها، وهكذا شهدت أفريقيا خلال التسعينيات موجات متتالية من التحول إلى النظام السياسى التعددى. وكانت الحركات النقابية فى طليعة القوى الاجتماعية التى أسهمت فى تسيير عملية الإصلاح السياسى التى قادت بدورها إلى نظام تعدد الأحزاب السياسية، وهو ما أتاح لها مزيداً من الاستقلالية عن النظام السياسى الحاكم، وبادرت كثير من الاتحادات النقابية بالانفصال رسمياً عن الأحزاب الحاكمة وانشغلت أكثر بصياغة النظام السياسى الجديد.

والخطر الذى تواجهه الحركة النقابية الأفريقية كما يشير المؤلف هو فى رؤية معظم السياسيين فى القارة السمراء لها. حيث يرون فى وحدة هذه الحركة تهديداً للسلطة السياسية، ولهذا سعى عدد من هؤلاء السياسيين إلى تفتيت الحركة النقابية فى أفريقيا، الأمر الذى واجهه قادتها برفض قاطع وإصرار على التضامن والوحدة، لكن المؤلف يشير إلى أن هذه الوحدة بقيت دوماً معرضة لعديد من التحديات إقليمياً ودولياً.

※

حزب الله.. وسقط القناع

أحمد فهمى

الرياض: كتاب البيان، ٢٠٠٧، ٤٠٣صفحات



الفرضية الأساسية التى يسعى هذا الكتاب لكشفها هى أن حزب الله ليس حزباً، كما أنه ليس مقاومة وطنية ضد الاحتلال الصهيونى كما يحاول أن يصور نفسه، إنما هو «إيران» الصغرى داخل لبنان وداخل المحيط العربى، ويشير المؤلف إلى تناقضات عديدة فى أقوال قادة الحزب منذ انطلاقه فى ١٩٨٢، كما يشير إلى أن عدد القتلى من اللبنانيين فى صراعات الحزب مع حركة أمل الشيعية، يتجاوز عدد القتلى الإسرائيليين الذين سقطوا برصاص حزب الله على مدى ربع قرن.

يتكون الكتاب من أربعة فصول: خصص الأول لدراسة إيران، وخصوصاً الأفكار الدينية الشيعية التى تم استخدامها سياسياً، وخصوصاً فكرة ولاية الفقيه والإمام المعصوم، وصولاً إلى تفتيت المجتمع الشيعى عبر هذه الأفكار ثم تأسيس حزب الله ليكون نواة لنشرها فى المنطقة العربية بدءاً من لبنان، التى

يرى المؤلف أن اختيارها جاء للثأر من السنة على خلفية قضية اختفاء الإمام موسى الصدر، ويحلل المؤلف في هذا الباب العلاقة التاريخية بين إيران وحزب الله.

وفي الباب الثاني يعطي تركيزاً أكبر على «ثقافة التقضية»، والتي يجوز بمقتضاها لمن يؤمنون بالمذهب الشيعي أن يظهروا عكس ما يبطنون حتى يتمكنوا من تحقيق غاياتهم، ويعرض لعشرات الأمثلة التي تكشف هذه التناقضات في مسيرة قادة الحزب وتحولاتهم وخطاباتهم، وكيفية استثمارهم للقضية الفلسطينية لتحقيق أهدافهم، وتمثلهم لعديد من الشعارات ذات الطبيعة اليسارية التي كانت رائجة في ذلك الزمن، وكيفية انخراط الحزب في السياسة بعد أن ظل لسنوات طويلة يؤكد أنه مجرد حركة مقاومة.

وفي الباب الذي حمل عنوان «حزب الله» تفصيل لسيرة زعيم الحزب ومسيرته وخطابه الديني والسياسي، ثم تفصيل آخر للحزب ذاته كونه جيشاً شبه نظامي، بما يستلزمه ذلك من تسليح وتجهيزات وتدريب وأقسام للمخابرات والأمن.

وتحت عنوان «حزب الله من الداخل» يكشف المؤلف عن التناقضات الخطيرة داخل حزب الله، وخصوصاً حروب الزعامة والتي كان أطرافها حسين الطفيلي وحسين فضل الله حتى انتهى الأمر بزعامة حسن نصر الله، كما يكشف المؤلف عن موقع حزب الله في المشروع الشيعي العالمي ودوره في تصدير الثورة الإيرانية إلى أماكن عديدة من العالم.

ويحلل الكيفية التي تمكن بها - أو سعى إليها - حزب الله لاختراق الشارع السني والأدوات التي استخدمها في هذا السبيل ومنها قناته الفضائية «المنار».

العرب ومحرقة اليهود

رمسيس عوض

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٧، ١٨١ صفحة



صدر هذا الكتاب لأول مرة في أمريكا عام ٢٠٠٦، وهو يطرح سؤالاً مهماً وخطيراً في آن معاً: هل فعل العرب شيئاً لإنقاذ اليهود من المحرقة التي أعدها النازيون لهم؟ ومؤلف الكتاب مؤرخ يهودي له باع طويل في تاريخ الشرق الأوسط الحديث الذي درسه في جامعات أكسفورد وهارفارد وغيرها، وقد خالط العرب وعاش بينهم سنوات طوالا، وبرأيه فإن الثقافة العربية في الحقيقة ليست واحدة وإنما هي عدة ثقافات، كما أن الشعب العربي هو عدة شعوب متمايزة اثنياً وعرقياً ودينياً وقومياً، ومن خلال هذا التمايز يمكن اختراق هذه الشعوب.

ويدعو المؤلف العرب إلى الاعتراف بالمحرقة، لأنهم لعبوا دوراً كبيراً في إنقاذ عدد كبير من اليهود في شمال أفريقيا منها، ويقول إن حفنة قليلة من عرب فلسطين أنقذوا عشرات المهاجرين اليهود إليها من القتل على أيدي بني جلدتهم في قرية الخليل سنة ١٩٢٩م.

ويستعين المؤلف لتأكيد وجهة نظره تلك بعدد من المؤرخين منهم مارتن جلبرت ووالتر رايخ المدير السابق لمتحف ذكرى الهولوكوست في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرهم، لكن الإجابات التي جاءته من هؤلاء المؤرخين كانت مخيبة لآماله، فقد ردوا على رسائله بقولهم: من الناحية الرسمية ليست هناك بعد ستين عاماً على أحداث الهولوكوست أدلة على وجود عربي واحد طاعن في السن يمكنه أن يقدم البينة على أن بعض العرب أنقذوا يهوداً من الإبادة النازية. وبعد شهرين من أحداث سبتمبر ٢٠٠١، يقرر المؤلف السفر مع زوجته الموظفة في البنك الدولي إلى الرباط عاصمة المغرب، حيث عاش هناك لمدة عامين كاملين، عكف فيهما على دراسة السجلات والوثائق الخاصة باليهود، وقابل عشرات المتخصصين في شئون الهولوكوست، وبرغم أن أبحاثه امتدت إلى نحو ١٢ بلداً، فإنها باءت بالفشل الذريع.

وهكذا وجد من الإحباطات ما كان كافياً بأن يصرفه فوراً عن تحقيق فكرته، كما أن بحثه تشعب بدرجة أثبتت له أنه يحتاج إلى عشرات الباحثين معه ينتشرون في بلدان عديدة، يفحصون الوثائق في أكثر من مائة معسكر أقامها النازيون الألمان والفاشيون الطليان في عدة دول عربية.

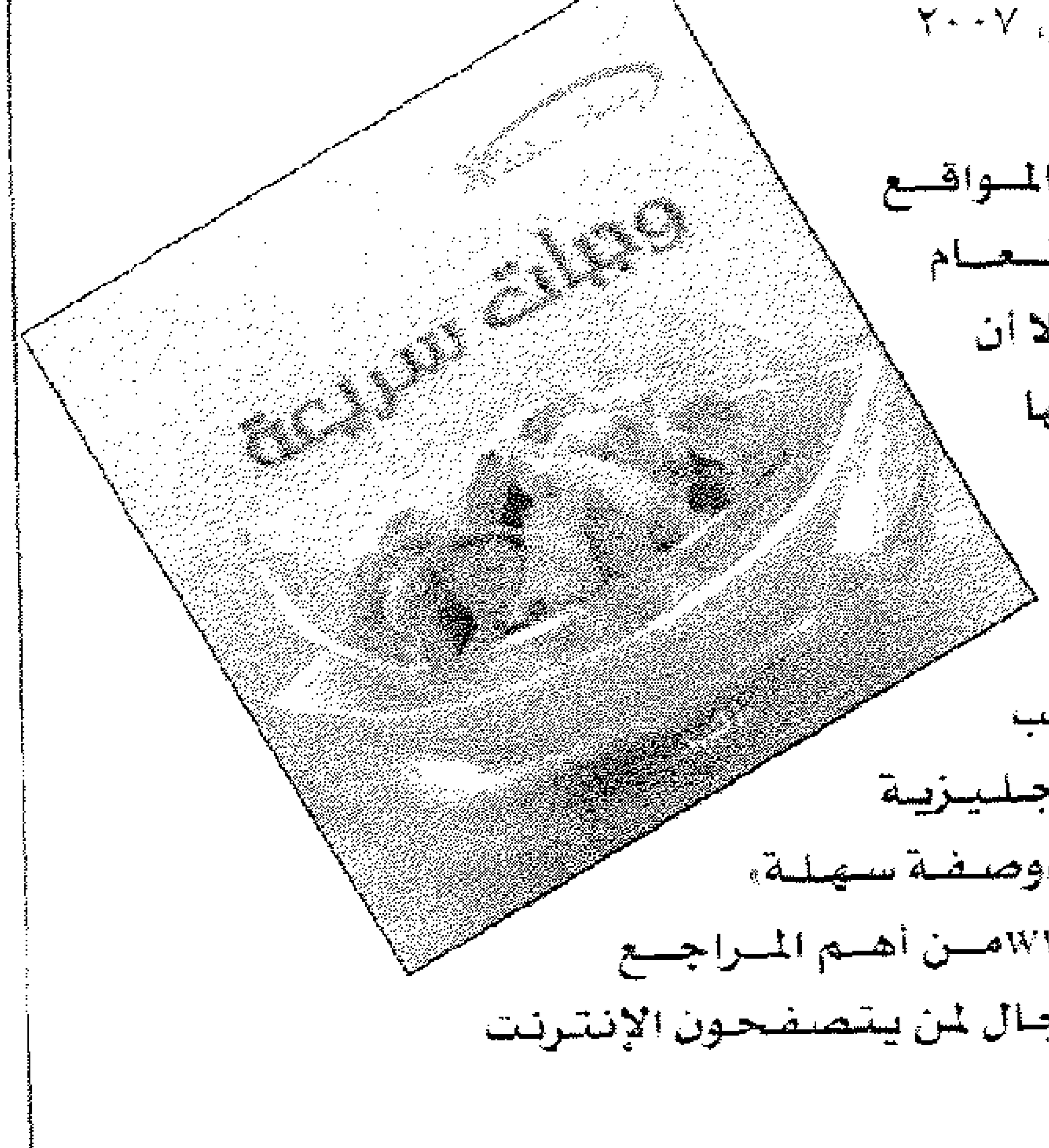
ولدت تحريات المؤلف على وجود قصص ضائعة ليهود وأبناء جاليات وديانات أخرى تعرضوا للاعتقال والتعذيب، كما أنه عثر على قصص بطولية لعرب أنقذوا سجناء يهوداً من معسكرات النازي، وجمعتهم علاقات طيبة باليهود، وهؤلاء يسميهم العرب الأتقياء.

لكن المترجم يكشف تعارض الهدف المعلن للمؤلف وهو إبراز صورة العرب الأتقياء، وتحقيق التواصل بين العرب والإسرائيليين وكسر الحواجز النفسية

ماذا ستأكل اليوم؟

وجبات سريعة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧



برغم توافر المواقع المخصصة للطعام والوصفات المختلفة إلا أن الأغلبية العظمى منها بالإنجليزية بل إن حتى المواقع المخصصة للطعام الشرقي في الأغلب تستخدم اللغة الإنجليزية لذلك أصبح موقع «وصفة سهلة» www.wasfasahla.com من أهم المراجع الأساسية في هذا المجال لمن يتصفحون الإنترنت بالعربية.

فبالإضافة لميزة اللغة تتسم وصفاته بالسرعة والسهولة وتوافر المقادير المطلوبة لها في الأسواق. وقد قامت دار الشروق مؤخرا بطباعة كتاب يتضمن بعض الوصفات التي اشتهر بها الموقع الذي توسع مؤخرا ليضم معلومات مختلفة مهمة للمرأة والحياة المنزلية والصحة العامة. وتشير مقدمة الكتاب إلى أن الموقع يتضمن الآن سبعة أقسام هي الصحة والرشاقة والجمال والأطفال والحمل وأنت والآخرون وهو القسم الذي يهتم بعلاقات المرأة بعائلتها وبزملائها في العمل وبأصدقائها. ويشير الكتاب الذي يحمل اسم الموقع في شعاره إلى أنه الأول في سلسلة ستنشر وصفات مختلفة من التي نشرها الموقع قبل ذلك.

وتلخص مقدمة الكتاب أهمية البدء بهذا الباب تحديدا أي باب الوصفات السريعة عندما تقول: سؤال تطرحه الزوجة كل يوم «تأكلوا إيه النهاردة؟» والإجابة تأتي غالبا «أي حاجة». وفي وقت الغداء تبدأ الانتقادات: هذا لا نحبه! كلنا كده من يومين! خلاص ما لناش نفس نأكل! وتبدأ المشاحنات. للتغلب على هذه المشكلة اليومية للأكل الذي يجب أن يكون سهلا وسريع التحضير وفي نفس الوقت شهيا ومتنوعا «وصفة سهلة» فكرت أن تقدم لك أول كتبها «وجبات سريعة» متنوعة من الأطباق الشهية التي تستخدم فيها أنواع مختلفة من الأعشاب والبهارات تضيف نكهات جديدة لطبيخك تشعر أولادك وزوجك بالتغيير وفي نفس الوقت لن تأخذ من وقتك إلا اقل القليل.

ينقسم الكتاب إلى الأقسام المعتادة في كتب الطهي فيبدأ بالمقبلات ثم السلطات واللحوم والدجاج والمأكولات البحرية والمعكرونات والخضروات ثم ينتهي بالحلويات. وتصاحب كل وصفة صورة بالألوان تبين شكل الأكلة. وتتميز الصور بأن جودتها أعلى بكثير مما اعتدنا عليه في كتب الطهي العربية كما أن تصويرها قد تم خصيصا للكتاب ولم تتم الاستعانة بصور من كتب أجنبية كما يحدث كثيرا والنتيجة أن الصورة أتت مطابقة للوصفة.

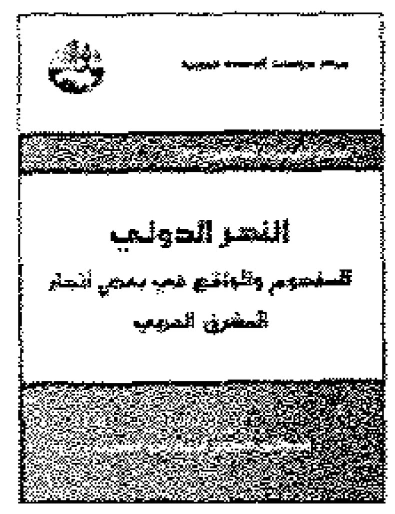
من أهم ما ضمه الكتاب أيضا وقت التحضير ووقت الطهي. ولا يتجاوز وقت تحضير أي طبق مما وردت في الكتاب أكثر من ٢٠ دقيقة وتكفي جميع الوصفات لعدد أربعة أفراد مما يسهل مضاعفتها.

التي تحول دون اندماجهم، مع ما يعلنه المؤلف نفسه في أكثر من موضع حين يصف العرب بأنهم أشرار وخونة وغدارون.

النهر الدولي: المفهوم والواقع في بعض أنهار المشرق العربي

صبحي أحمد زهير

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ٤٨٧ صفحة



تنطلق أهمية هذا الكتاب من أن موضوع المياه سوف يظل الشغل الشاغل للباحثين وصناع القرار في الوطن العربي وفي العديد من دول العالم، خصوصاً في المناطق الجافة وشبه الجافة، خلال العقود القادمة، والأسباب كثيرة ومتعددة، منها ما هو متعلق بندرة هذا المورد المهم، ومع ازدياد الندرة يزداد التزاحم وتكثر المشكلات، ومنها ما هو متعلق بدور المياه في التنمية الشاملة، ومع ازدياد السكان وارتفاع مستوى حياتهم يزداد طلبهم على المياه بزيادة حاجتهم لها. لكن هناك أيضاً أسباباً سياسية واستراتيجية تتعلق بكون المياه قد تتحول إلى عنصر من عناصر قوة الدول وازدهارها، وهي أحد مصادر التوتر في منطقتنا، وقد تكون الحروب القادمة في العالم بأجمعه هي حروب لأجل المياه، وهنا لا ينكر دور الأنهار الدولية في هذا المجال.

وثائق الحركة الشيوعية المصرية ١٩٢٤ ـ ١٩٥٢

تحرير: سعيد الطويل ـ عاصم الدسوقي ـ حنان رمضان

القاهرة: مركز البحوث العربية والأفريقية، ٢٠٠٧، ٥٠٤ صفحات



بدأت لجنة توثيق الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥ عمله في عام ١٩٩٥، بإصدار الشهادات التي تقدم بها الشيوعيون في أجزاء تحت عنوان موحد: شهادات ورؤى ابتداء من ١٩٩٨، وفي أثناء تجميع الشهادات وإعداد ورش التوثيق، كانت اللجنة ترتب لكيفية تجميع وتوثيق الحركة من مختلف المصادر، والمعروف أن وثائق الحركة الشيوعية المصرية ليس لها مكان في الأرشيف الرسمي للدولة، والمحفوظ في هذا الأرشيف ليس سوى ما تم ضبطه من نشرات ومنشورات وتقارير البوليس السري والقلم السياسي الذي كانت مهمته متابعة عناصر الحركة لاعتقالها، وكذلك مضابط المحاكمات، وكما يشير الدكتور عاصم الدسوقي في مقدمته، فإن الاعتماد على هذه الوثائق فحسب يؤدي إلى الوقوع في خطورة أحادية المصدر، وبالتالي «خروج الباحث بفكرة سلبية عن نضال أولئك الذين نذروا أنفسهم لخدمة قضية استقلال الوطن وتحقيق العدالة الاجتماعية بين أبنائه».

ومن ثم بدأت هذه اللجنة في تجميع الوثائق عن طريق الاتصالات الشخصية بالمقيمين في مصر وخارجها من الشيوعيين الذين لديهم وثائق عن مشاركاتهم تلك، وهكذا تجمع لدى اللجنة كماً هائلاً من الوثائق عن الفترة من ١٩٤٤ وحتى ١٩٦٥، وبدأت نشرها في خمسة أجزاء هذا هو الجزء الأول منها، ويختص بالفترة من ١٩٤٤ وحتى يونيه ١٩٥٢، وأغلب وثائقه من مجموعة روما، وهم الشيوعيون المصريون من أصل أجنبي ويقيمون في باريس، وعددها ٥٦ وثيقة صادرة عن اثنتي عشرة منظمة ولجنة وجماعة شيوعية كانت نشطة خلال هذه الفترة وهي: الطليعة الشعبية للتحرر، والحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو)، والمنظمة الشيوعية المصرية، واللجنة الانتخابية العامة، وجمعية رباب البيوت، واللجنة التحضيرية للجنة الوطنية، واللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني العام لعمال النسيج، نواة الحزب الشيوعي المصري، اللجنة الوطنية لأنصار السلام، نقابة عمال المطاعم والفنادق، اتحاد نقابات عمال النقل المشترك لمدينة القاهرة، جماعة رجال القانون الديمقراطيين بمصر. وموضوع وثائق تلك المنظمات عبارة عن برامج، ولوائح وتقارير سياسية ودراسات وبرامج انتخابية لمرشحين عمال، وبيانات ونداءات إلى الشعب المصري، وقرارات ورسائل.

الخطر الكامن.. الفساد في مصر

إعداد وتحرير: سعيد عبدالحافظ

القاهرة: ملتقى الحوار للتنمية وحقوق الإنسان، ٢٠٠٧، ٢٠٥ صفحات



يرصد هذا الكتاب أشكالاً عديدة من صور الفساد في قطاعات: الصحة والمحليات والتعليم والتليفزيون، استناداً إلى حيثيات أحكام ضد المفسرين أعلنتها المحاكم وكذلك إلى مقابلات مع عدد من العاملين في هذه القطاعات وما تنشره الصحف عن أشكال الفساد المتعددة فيها. وتتمثل حالات الفساد ليس فقط في تقاضي رشاوي مقابل تسهيل أعمال مخالفة للقانون، أو استغلال النفوذ للحصول على امتيازات معينة بغير وجه حق، وإنما أيضاً في الإهمال الجسيم في أداء العمل وهو ما يعد شكلاً من أشكال الفساد الذي قد يودي بحياة مواطنيه، وهو الأمر الأكثر شيوعاً في قطاع الصحة، فيما تتضح الأشكال الأخرى من عمولات واستغلال نفوذ وابتزاز في قطاعات التعليم والتليفزيون والمحليات.

وبعد استعراض العديد من أوجه الفساد تلك يطرح الكتاب عدداً من التوصيات العامة لمكافحة الفساد بشكل عام منها: إزالة القيود التشريعية والإدارية عن عمل منظمات المجتمع المدني كي تتمكن من ممارسة دورها في كشف الفساد، إطلاق حرية تداول المعلومات، وإطلاق مبادرات إبلاغ المواطنين عن قضايا الفساد مع توفير الحماية القانونية لهم لتشجيعهم على ممارسة هذا الدور، ومساهمة وسائل الإعلام في كشف الفساد وفضح مرتكبي الجرائم.

كما ينتهي الكتاب إلى توصيات خاصة بمكافحة الفساد في كل قطاع من هذه القطاعات، ففي قطاع التعليم يطالب بسرعة إقرار قانون الكادر الخاص بالمعلمين بما يساهم في تحسين أوضاعهم، وإنشاء هيئة مستقلة مهمتها مكافحة الفساد في قطاع التعليم، وإعطاء المزيد من الحريات للجمعيات والمؤسسات غير الحكومية للمساهمة في النهوض بالعملية التعليمية، وفي قطاع المحليات يطالب التقرير بدعم اللامركزية في المحافظات، وإجراء تحديات مكثفة حول شاغلي الوظائف ذات الصلة بمصالح المواطنين، ورفع المستوى المعيشي لصغار الموظفين للقضاء على فساد الكبار. وفي مجال التليفزيون يطالب التقرير بإلغاء إشراف وزير الإعلام على اتحاد الإذاعة والتليفزيون لضمان استقلاليته وحياده، والسماح للأفراد بامتلاك قنوات أرضية، وتحديد مخصصات رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون ومدة رئاسته، وإجراء تحقيقات موسعة في قضايا الفساد التي تم الكشف عنها مؤخراً داخل الاتحاد، بحيث لا تقتصر على المتهمين المباشرين، بل تتوسع لتشمل كل من ساهم في تلك الوقائع، وإحالتهم إلى المحاكمة الجنائية، وضرورة إعادة النظر في السياسات التسويقية والإعلانية المتبعة بالاتحاد، للحد من إهدار المال العام.

الشيخ وحشي (رواية)

ماهر مقلد

القاهرة: المكتب المصري للمطبوعات، ٢٠٠٧، ١٦٦ صفحة



تشخص الرواية حياة الناس في قرية نائية من صعيد مصر، لكنها شيئاً فشيئاً تتسلل إلى القاهرة، لتتحدث عما جرى في مصر في أعقاب نكسة يونيه ١٩٦٧، والتأثيرات الدرامية الكبرى التي عصفت بالناس وبالبلاد بسببها.

يجري ذلك من خلال قصة شيخ ذي كرامات توفي قبل مئات السنين، ويبقى ضريحه جزءاً من حياة الناس الذين يعيشون في هذه القرية النائية، قابعاً في وجدانهم بقدرته الفذة على الإتيان بأفعال يعجز عنها البشر، ومن خلال تلك العلاقة ودلالاتها العميقة نتعرف على قبيصي الجندي المصري الذي خاض حروباً عديدة ضد العدو الإسرائيلي، ومبروكة التي تتبدى لنا نموذجاً للعفة والطهارة التي تحمل الحيرة هي مصر في تمثال نهضة مصر الشهير، كما عبر عنها الفنان محمود مختار، كما تصادفنا شخصية ناجح الشاب الطموح الذي يمكن اعتباره حارس الفضيلة والقيم الإيجابية التي يجسدها أو يسعى لتمثيلها أهل القرية، وكذلك الأستاذ عبدالله، المتعلم وسط آلاف الأميين من أبناء القرية.

ويبدو في الرواية صراع أبناء القرية جميعاً للفوز بمبروكة التي يخطط

إصدارات جديدة

أبوها لتزويجها من ابن عمها المقيم فى القاهرة حتى لا تتوزع ثروة العائلة.

وكما تجذب النداهة البعض فى الأسطورة الشهيرة، فإن النداهة تجذب مبروكة إلى مصر المحروسة، ويتماهى الاثنان ـ مصر ومبروكة ـ حتى يصيرا شيئاً واحداً، ومثالاً على الطهارة والعفة والجمال والصمود فى وجه الطامعين المستعمرين فى حالة مصر، والراغبين فى الاستمتاع بهذا الجمال الأنثوى الصارخ فى حالة مبروكة.

وفى سياق مواز، تظهر مأساة الجندى قبيصى الذى خدم فى الجيش الثالث الميدانى بسيناء. وحين صدرت له الأوامر بالانسحاب، كان عليه أن يهرع هو ووحدته فى اتجاه العودة، وظلوا ١٢ يوماً حفاة عراة فى سيناء، لاقوا أهوالاً لا يمكن تخيلها، ظلت عالقة بأذهانهم أمداً طويلاً.

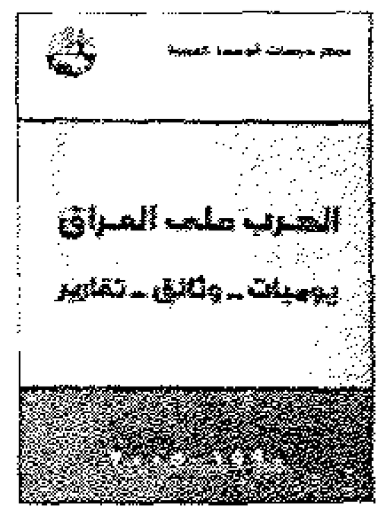
الرواية بشكل ما، إدانة لحكم العسكر ومحاكمة فنية لفترة سياسية مهمة مرت بها البلاد، وكانت هزيمة يونية ١٩٦٧، أسوأ ما جرى فيها.

الحرب على العراق

يوميات ـ وثائق ـ تقارير

١٩٩٠ ـ ٢٠٠٥

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ١٦١٦ صفحة



يرصد هذا الكتاب التوثيقى أبرز الأحداث والتطورات التى شهدها العراق بدءاً من الاجتياح العراقى للكويت عام ١٩٩٠ وقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لتحالف من أكثر من ثلاثين دولة لشن الحرب على العراق وإخراجه من الكويت عام ١٩٩١، مروراً بشروط وقف إطلاق النار التى تضمنها قرار مجلس الأمن الدولى رقم ٦٨٧ وما رافقها من أحداث لاحتواء وإسقاط النظام وفرض حصار على الشعب العراقى امتد لأكثر من ١٣ عاماً، وحظر جوى على شمال العراق وجنوبه وصولاً إلى احتلال العراق عام ٢٠٠٣، وتدمير مؤسساته، وإغراقه فى الفوضى الدامية. ومحاولات إعادة هيكلته وبنائه من خلال مجالس طائفية وترتيبات تفكيكية، من مجلس الحكم الانتقالى إلى قانون إدارة الدولة العراقية وإقرار صيغة قلقة للدستور. وفى المقابل فقد تصاعدت مقاومة عراقية سوف يتوقف على نشاطها مستقبل العراق والمنطقة.

لقد اختار محافظو الولايات المتحدة الجدد نموذجاً للتعميم فى المنطقة فى ظل هيمنة أمريكية واضحة على نظام دولى أحادى القطب ونظام إقليمى عربى غارق فى سبات عميق، فاصطدموا بمقاومة لم تكن متوقعة بهذا الحجم، وباتت المعادلة أمام إدارة الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش إما الإصرار على الهروب إلى الأمام وإغراق العراق والمنطقة فى مزيد من الفوضى والتورط الأمريكى المكلف أو الانسحاب من العراق والاعتراف بالفشل. هنا تكمن أهمية رصد ومتابعة ما يجرى فى العراق وما له من تداعيات.

دوريات

دبى الثقافية

دبى: دار الصدى للنشر والتوزيع



بانوراما العدد عن سوق دبى الكبيرة التى تأسست منذ ١٧٠ عاماً، والتى ينظر إليها باعتبارها تحفة معمارية باذخة، كما يكتب حسين طلبى من الجزائر عن مدينة «عنابة» الجزائرية التى يصفها بأنها فاتنة الجغرافيا ودرة التاريخ، وتكتب صوفية الهمامى عن متحف دار شريط، الذى تطالع فيه تاريخ بايات تونس.

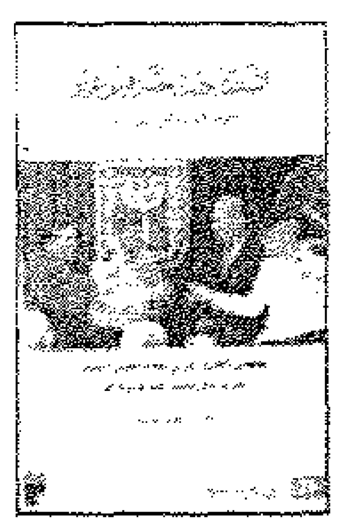
ومن اليمن تحقيق كتبه أحمد الأغبرى يستقصى فيه آراء مبدعى اليمن حول الشهرة، يتحدث فيه مبدعون مشهورون وآخرون مغمورون. ويكتب رجاء النقاش عن التجديد فى الأدب العربى: عبر قراءة الآراء مفكرين وبحاثة نظر إليهم دوماً باعتبارهم من حراس التقاليد فى الأدب العربى القديم وخصوصاً الشعر العربى.

وفى الحوارات، حوار مع الأديبة السعودية زينب حفنى صاحبة الكتابات الجريئة التى وصفت بأنها كتابة فضائحية، تتحدث فيه عن تجربتها وآرائها فى الأدب السعودى المعاصر. وحوار آخر مع الناقد والمترجم العراقى فاضل ثامر بمناسبة صدور كتاب المقموع والمسكوت عنه فى السرد العربى. وحوار آخر مع الدكتورة ريم هلال ابنة مدينة اللاذقية الكفيفة التى حصلت على الدكتوراة.

وفى السينما يكتب هلال هويدى من موسكو عن تاريخ السينما الروسية. وفى الفن التشكيلى حوار مع الفنان المصرى عادل السيوى يقول فيه إن التشكيليين فى العالم العربى كله يعيشون فى عزلة، وسياحة فى عالم التشكيلية الإماراتية وفاء خازندار، إضافة إلى مقالات أدونيس وفخرى صالح ود. عبدالعزيز المقالح وصلاح فضل وصلاح الدين بوجاه وإبراهيم الكونى وفيصل دراج وكمال أبوديب.

أوراق إسرائيلية

رام الله: المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية «مدار»



يحتوى العدد الجديد على ملخص التقرير الجزئى الذى أصدرته قبل أسبوعين لجنة تقصى مجريات الحرب على لبنان (لجنة فينوغراد).

وقد كتب هذا الملخص أنطوان شلحت، تحت عنوان «استنتاجات لجنة فينوغراد: تشخيص الفشل الإسرائيلى فى لبنان».

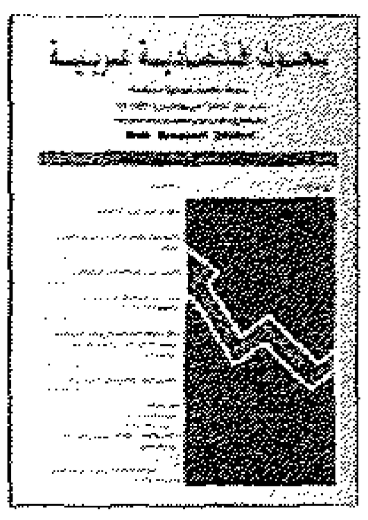
وكانت لجنة فينوغراد قد قدمت تقريرها الجزئى إلى كل من رئيس الحكومة الإسرائيلية إيهود أولمرت ووزير الدفاع الإسرائيلى، عمير بيرتس. ويتطرق التقرير إلى الفترة الزمنية التى بدأت بانسحاب الجيش الإسرائيلى من لبنان عام ٢٠٠٠ وحتى اختطاف الجنديين الإسرائيليين يوم ١٢ يوليو ٢٠٠٦، ويتناول كذلك الفترة الزمنية ما بين ١٢ يوليو وحتى ١٧ يوليو ٢٠٠٦، أى منذ أن تم اتخاذ القرار بخوض الحرب وحتى خطاب رئيس الحكومة أمام الكنيست.

وأعلنت اللجنة أن تقريرها النهائى، الذى سيصدر فى صيف ٢٠٠٧، سيتناول عدة مسائل: تحليل جوانب القتال، ومبادئ الجيش الإسرائيلى ومدى استعداد الجيش وتدريبه وقادته، القرارات التى اتخذتها المؤسسة السياسية عند تطور الحرب، ومنها القرارات بشأن شروط وقف إطلاق النار فى اليومين اللذين أعقبا تبنى مجلس الأمن الدولى لقرار وقف إطلاق النار، العلاقات بين المستويين السياسى والعسكرى فى إسرائيل وآرائهما حول استخدام القوة العسكرية كجزء من تصورهما الإستراتيجى بشأن أهداف إسرائيل.

وإلى جانب ملخص التقرير تضم الورقة ثلاثة ملاحق: الأول أسماء الشهود الذين أدلوا بإفاداتهم أمام اللجنة، والثانى خلفية عن لجان التحقيق فى إسرائيل، والثالث حول لجان التحقيق فى حرب لبنان الثانية.

بحوث اقتصادية عربية

بيروت: الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية ـ مركز دراسات الوحدة العربية



يتضمن العدد الجديد من مجلة «بحوث اقتصادية عربية» افتتاحية كتبها رئيس التحرير د. محمد سمير مصطفى، ودراسات سبع هى: الفقر فى البلدان العربية وآليات إنتاجه لسالم توفيق النجفى، النمط الحالى للصادرات الصناعية ذات القدرة التنافسية فى مصر لإيمان محمد أحمد، أثر ظهور اليورو على الاقتصاديات الدولية والعربية لشريط عابد، دروس وعبر من فورة أسواق رأس المال العربية وتراجعها لهشام البساط، الفقر وشبكات الأمن الاجتماعى فى الدول العربية لعلى عبدالقادر على، الفقر فى العراق: مقاربة من منظور التنمية البشرية لحسن لطيف كاظم الزبيدى.

وفى العدد أيضاً مراجعات لكتب ثلاثة هى: «الاقتصاد المصرى فى ثلاثين عاماً» لإبراهيم العيسوى، الاقتصاد المصرى بين فرص النمو وتحديات الواقع، اقتصاد يغدق فقراً لهورست أفهيلد. إضافة إلى ملف إحصائى أعده ربيع كسروان، ويوميات اقتصادية مختارة.

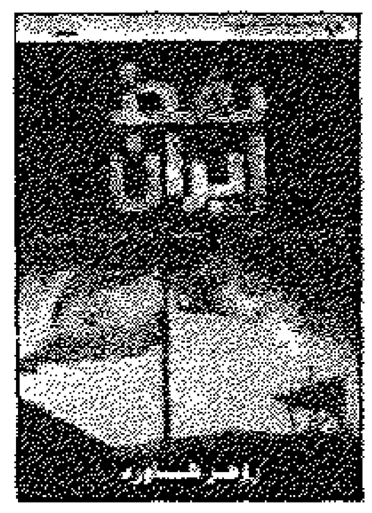
الولايات المتحدة.. إيران.. ولعبة النفط

نفط إيران.. ودوره فى تحدى نفوذ الولايات المتحدة

روجـر هـاورد

ترجمـة / مروان سعد الدين

بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧م، ٢٤٦ صفحة



مثل فرد يعانى من سوء الطالع، فجاءة وبشكل غير متوقع، يمكن أن تنهار القوى العظمى، وتسقط بسرعة كبيرة وربما مثيرة. ورغم أن نفوذ وتأثير الكثير من الإمبراطوريات الكبيرة تراجع تدريجيا وبشكل غير محسوس على مدى عقود طويلة، أو حتى قرون من الزمن، كما هو حال الإمبراطورية البريطانية أو ما يدعوه، إدوارد غيبون «الانحطاط البطيء» للإمبراطورية الرومانية، إلا أن الكثير من المعاصرين والمؤرخين يؤكدون أن النهاية المفاجئة لقوى أخرى يمكن أن تحدث.

ويظهر مثل هذا التحول المذهل بشكل واضح بعد تلقى هزيمة عسكرية، مثل تلك التى أحاقت بالإمبراطورية الفارسية القديمة، أو نتيجة اضطراب وثورة سياسية شبيهة بمداها بتلك التى أنهت روسيا القيصرية.

فى الزمن المعاصر، يبدو من المحتمل أن تعانى الولايات المتحدة من فقدان نفوذها العالمى بسرعة مشابهة. ونفس البلد الذى ظهر عشية غزو العراق فى آذار من العام ٢٠٠٣م عملاقاً، طليقا من القيود، وواثقا من قدرته على إيجاد موطئ قدم له بسهولة فى الشرق الأوسط وأى مكان آخر، والذى أثار الإعجاب بين أصدقائه وحلفائه، والعداء والازدراء بين منافسيه وأعدائه، ربما يبدو موقفه فى السنوات القليلة القادمة دفاعياً ويسهل اختراقه، مع انقلاب ولاء حلفائه وابتعادهم عنه، وتزايد جرأة أعدائه على مواجهته.

بهذه المقدمة، بدأ الصحفى المستقل، روجر هاورد، المتخصص بشئون الدفاع والطاقة فى الشرق الأوسط. ويكتب لكل من مجلتى نيو - ستيتسمان وسبكتيتر، وميدل - أيست - أنترناشونال وجانيت - إنتليجنس - ريفيو، هذا الكتاب بعنوان «نفط إيران ودوره فى تحدى نفوذ الولايات المتحدة».

ينظر الفصل الافتتاحى بشكل مفصل فى خلفية التحدى الإيرانى الذى يحتل نقطة التقاء بين عاملين استثنائيين، إن لم يكونا فريدين. أحدهما، يتعلق بامتلاك موارد طبيعية مذهلة تزداد قيمتها بالنسبة للعالم الخارجى بأطراد - ويتعلق الآخر بوجود درجة مهمة من العداء بين نظام طهران والبلد الذى يحظى بأكبر نفوذ وقوة سياسية بين الآخرين ألا وهو الولايات المتحدة. السبب الأهم دون شك الذى يجعل من موارد إيران الطبيعية الآن تشكل تحديا لقوة أمريكا العالمية هو تعقيد برنامج طهران النووى. رغم اعتبار أن إيران لا تزال حتى الآن بعيدة عدة سنوات عن تطوير السلاح النووى إلا أن برنامجها النووى أكثر تطورا مما كان عليه عند تطبيق العقوبات الاقتصادية الأمريكية ضدها. السبب الرئيسى الآخر - إلى جانب برنامجها النووى - والذى يجعل إيران قضية مثيرة للخلاف فى السياسات الأمريكية المعاصرة.

يبحث الفصل الثانى بعنوان «فض تحالفات الولايات المتحدة» والذى يكشف من خلاله روجر هاورد، عن تمزق ولاء بعض حلفاء الولايات المتحدة الرئيسيين فى أجزاء مختلفة فى العالم اليوم أكثر من أى وقت مضى بسبب إغراء وفتنة موارد إيران الطبيعية. وفى نفس الوقت الذى تصعد فيه واشنطن من ضغوطها على حلفائها لوقف التجارة غير الضرورية والاستثمار مع إيران، تجد فيه تلك الحكومات أن مثل هذه العلاقات أكثر نفعا وأن ضرورتها تزداد باطراد.

إن الفصل الثالث ينظر فى التأثير السياسى لتلك الموارد عليهم، يرى روجر هاورد، إذا كانت موارد إيران الطبيعية تسبب صدعا بين واشنطن وحلفائها فكيف تؤثر على علاقة أمريكا مع منافسيها، أو مع تلك البلاد التى تسمى عادة دول عدم الانحياز؟. الجواب مهم لأن هناك حاليا ثلاث دول تستورد النفط والغاز الإيرانى بكميات كبيرة، ولديها علاقات تجارية، وسياسية، وعسكرية مع طهران وهى مرشحة للنمو باطراد فى المستقبل القريب - اثنتان من تلك الدول هما روسيا والصين، واللتان تعتبران على نطاق واسع منافستين للولايات المتحدة، أما الأخرى فهى الهند العضو فى حركة عدم الانحياز منذ زمن طويل والتى غالبا ما كانت علاقاتها باردة وحتى عدائية مع واشنطن منذ تأسيسها عام ١٩٤٧م.

هناك ثلاث طرق مختلفة تعمل بها علاقة تلك الدول مع إيران على الحد من نفوذ أمريكا العالمى - من ناحية، يمكن لإمداداتها من النفط والغاز أن تلعب دورا مهما أو حتى محوريا فى تغذية النمو الاقتصادى لبلد يستطيع أن يشكل تحديا استراتيجيا للولايات المتحدة فى الواقع. تأتى الصين اولا بين هذه الدول الثلاث التى يركز عليها الفصل الثالث والتى يساند دورها المتوقع كقوة إقليمية أو حتى عالمية قيامها باستيراد كميات هائلة من النفط والغاز. ورغم أن هذه المستوردات من مناطق مختلفة فى العالم، إلا أن إمداداتها من إيران تلعب حاليا دورا هاما للغاية. ومع بداية العام ٢٠٠٦م، كانت إيران المزود الرئيسى للصين بالنفط. وتمدها بحوالى ١٤٪ من وارداتها النفطية أى ٤٤٧.٣٠٠ برميل يوميا.

يناقش الفصل الرابع والأخير بعنوان: «دعم النظام الإيرانى» فيطرح روجر هاورد تأثير موارد إيران الطبيعية على نظام طهران نفسه ودور مبيعات النفط والغاز الإيرانى على قبضة الملالى على السلطة. يقول المؤلف: هناك طرق عديدة ساعدت بها عائدات النفط فى إحكام قبضة النظام على السلطة - وإحدى تلك الطرق هى إنفاق الأموال على مشروعات معينة أوقفت انهيار الاقتصاد الذى يعانى من مشاكل كبيرة بطريقة توقع الكثير من الناس أنها ستحدث منذ وقت طويل فى إيران.

ويتساءل روجر هاورد، كيف وصلت هذه العائدات الى الاقتصاد الإيرانى الواسع؟ لقد تم توجيه بعض تلك العائدات إلى استثمارات طويلة الأجل، فيما تم توزيع البقية على مشاريع أكثر ألحاحا. وعملت إدارة خاتمى، بعد العام ١٩٩٧م، على إنشاء صندوق توازن يسمح للميزانية الحكومية بالاستفادة من أسعار النفط المحددة سلفا. والتى قد تختلف عمليا بشكل كبير عن سعر السوق.

إحدى الطرق التى ساعدت بها عائدات النفط فى المحافظة على السلطة السياسية تتمثل بتمويل الإنفاق الحكومى الكبير الذى يهدف فى جزء منه إلى الحد من البطالة. وتبدو فكرة قيام الدولة، وليس الأشخاص، بتقديم فرص عمل غريبة جدا اليوم لكثير من الناس فى بريطانيا، وأمريكا، وبلاد أخرى تقلص بها حجم القطاع الحكومى بشكل كبير فى العقدين الأخيرين أو نحو ذلك، أو بحيث لا توجد أصلا نشاطات اقتصادية تديرها الدولة. لكن الدولة لعبت فى إيران، بأى حال، دورا مركزيا فى الاقتصاد خلال نصف القرن الماضى، وحول دستور الثورة الجديد بعد العام ١٩٧٩م ملكية بعض نشاطات الاقتصاد الرئيسية إلى القطاع الحكومى، والذى لم يشهد لاحقا سوى تراجع فى الأداء.

لقد سمحت عائدات النفط الهائلة التى توافرت للنظام فى طهران بتوفير فرص عمل للناس أكثر مما يحتاجونه فعلا. وتشكل مرافق الدولة البيروقراطية التى توظف مئات الألوف من الموظفين المدنيين أحد أهم أشكال الإنفاق الحكومى. وفيما كان لدى إيران ٥٦٠.٠٠٠ موظف حكومى عام ١٩٧٧م، ارتفع هذا العدد كثيرا فى السنوات التى تلت الثورة. وتزايد بنسبة ٢٣٪ بين عامى ١٩٨٦م و١٩٩٦م ليصل الى ٣.٢ مليون شخص، واستقر عام ٢٠٠٥م، وفقا لأرقام رسمية صادرة عن منظمة الإدارة والتخطيط فى طهران عند ٢.٣ مليون.

من المثير أيضا أن برنامج الفضاء الإيرانى انطلق بقوة عندما توافرت نقود كافية لتلك المشروعات المكلفة من عائدات النفط. وتم إطلاق نتاج التعاون الإيرانى - الروسى، والمتمثل فى قمر الأبحاث الصناعى المسمى «سينا - ١» وبكلفة بلغت ١٥ مليون دولار، للمرة الأولى فى تشرين الأول من العام ٢٠٠٥م، ويتم استخدامه حاليا لالتقاط صور لإيران ومراقبة الكوارث الطبيعية والحصول على معلومات حول حالة المحاصيل الزراعية والمصادر الطبيعية للبلاد.

وفى خاتمة كتابه، يقول روجر هاورد «هناك تعبير التصق بقوة بإيران، والذى ينبغى إزالته إذا تمت إدارة النقاش حول الشرق الأوسط بشكل عادل هو «خرق حقوق الإنسان». ولا يستطيع أحد أن ينكر جديا بأن نظام طهران ملطخ بالدم وأن أعداداً كبيرة من الإيرانيين العاديين والأبرياء عانوا كثيرا على أيدى أجهزتها الأمنية.

وكلما تمت إثارة هذا الموضوع فى النقاش المتعلق بالسياسة الخارجية، يكون التأثير نفسه مع إلصاق تهمة الإرهاب بإيران، والذى يشوه ويضلل النقاش لأنه من الصعب جدا الوقوف بجانب أى شخص أو نظام موسوم بسجل مشئوم فى مجال حقوق الإنسان.

هناك عبارات ينبغى عدم استخدامها إذا كان يجب إدارة النقاش المتعلق بإيران بشكل عادل. ودون وجود مثل هذا النقاش العادل، لن تلقى عروض التراجع أو فرض العقوبات الأساسية أو الثانوية سوى آذان صماء، وسوف تفشل فى منع الولايات المتحدة من كتابة جزء من أوراق نعيها.

محمد صلاح غازى

الأصدارات المختارة في هذا العدد من قائمة مجلة Time لأهم مائة رواية صدرت بالأنجليزية منذ العام ١٩٢٣
أعدها الناقدان ليف جروسمان Lev Grossman و ريتشارد لاكايو Richard Lacayo

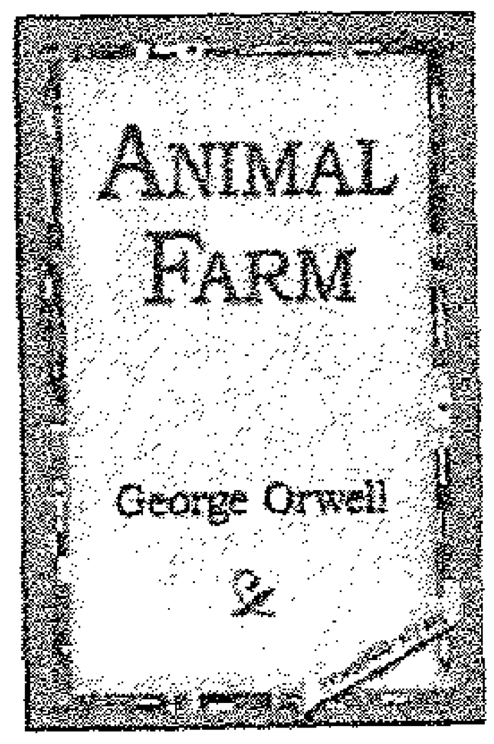


Lolita

(لوليتـــا)

Vladimir Nobakov
Penguin: 1998, 320pp., $10.05

هاجر فلديمير نوبوكوف من فرنسا الى الولايات المتحدة فى بدايات الحرب العالمية الثانية وقد كانت تلك هجرته الثانية بعد هجرته من الاتحاد السوفيتي. وكان بحوزته جزء من النص الذى سيصبح من أشهر روايات القرن العشرين بل وسيستخدم عنوانه للإشارة لاحد الانحرافات الشعورية. كان النص هو رواية لوليتا التى مزقها بعد كتابة نصف صفحاتها فقط. لقد تخوف نوباكوف من رد فعل الجمهور على روايته الصادمة لدرجة انه كتب مقدمة لها باسم مستعار وشخصية مستعارة لأكاديمي يقدمها على أنها رسالة تحذيرية للآباء والمربين. ومع ذلك لم يوافق على نشر طبعتها الأولى سوى ناشر روايات اباحية فرنسى مع أن المقاطع الحسية التى تضمنتها الرواية لا تتعدى ما يوجد اليوم فى أى رواية شعبية عادية. اليوم يتم النظر للرواية من زاوية مغايرة تماما اذ تعتبر من كلاسيكيات الأدب العالمى. وهى تدور حول رجل يقع فى غرام فتاة صغيرة ويتزوج من والدتها ليتمكن من البقاء بجوارها ولكن الأم تموت فى حادث بعد ان تعرف حقيقة نوايا زوجها. وعندما يذهب الزوج لاصطحاب الابنة من مدرستها تبدأ رحلتهما المشتركة والتى يتخفيان فيها فى صورة اب وابنته. ولكن الابنة تضجر من الزوج بعد قليل وبعد أن تصبح مسيطرة عليه إلى حد كبير تهرب منه ليرتكب هو جريمة قتل فى فورة غضبه.

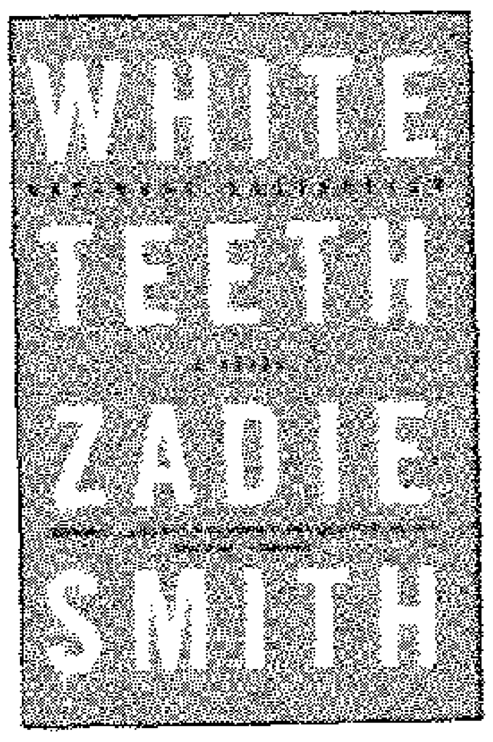


Animal Farm

(مزرعة الحيوانات)

George Orwell
Plume, 2003, 128pp, $13.00 (reprint)

كتب جورج اورويل روايتين من اهم الروايات التى وضعت تصورا خياليا لشكل المجتمعات الشمولية وللفساد الذى تحدثه السلطة. أولها كانت مزرعة الحيوانات التى نشرت للمرة الأولى عام ١٩٤٦ والتى كانت بشكل واضح انتقاداً محدداً ضد الاتحاد السوفيتى لدرجة انه من المعروف مثلا أن الخنزير سنوبول يرمز الى ليون تروتسكى كما ترمز العديد من الحيوانات الأخرى، وهى أبطال العمل، الى شخصيات مختلفة فى السلطة التى صنعت الثورة الروسية والاتحاد السوفيتى فيما بعد. ومع ان ابطال رواية أورويل من الحيوانات الا انها بكل وضوح ليست رواية تصلح للأطفال. فالرمزية فيها واضحة إلى حد ان القائد الذى ينبه الحيوانات لوضعهم كمضطهدين يؤلف كتاباً باسم البيان الحيوانى فى إشارة واضحة جدا الى البيان الشيوعى من تأليف كارل ماركس والذى يحوله ثلاثة من الخنازير الى نظرية متكاملة تدعى الحيوانية. وقد عرف أورويل نفسه كيسارى وكان من المساهمين الدائمين فى جريدة التريبيون اليسارية كما انه حارب وأصيب فى الحرب الأهلية الأسبانية على جانب قوى شيوعية شديدة الانتقاد للاتحاد السوفيتى. وردا على التساؤلات حول حقيقة توجهه السياسى بعد روايتيه الأشهر مزرعة الحيوانات و١٩٨٤ قال أورويل انه يسارى التوجه وان كان قد فقد الثقة تماما فى العمل الحزبى وينصح الكاتب بتحرر من الانتماء السياسى المنظم.

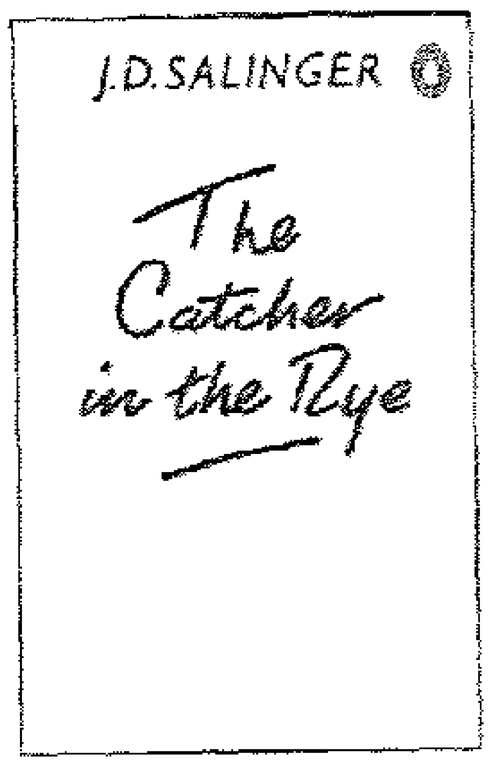


White Teeth

(أسنان بيضاء)

Zadie Smith
Vintage: 2001, 464pp., $14.95

بدأ جيل من المهاجرين الجدد او أبناء المهاجرين فى تشكيل ادب بريطانى مغاير يعكس الأنماط والعلاقات الجديدة فى المجتمع البريطانى. زادى سميث احدى ابرز كاتبات هذه الموجة الجديدة فهى من أم من جامايكا وأب انجليزى أبيض. وقد نالت عقدا بقيمة ٤٠٠ ألف جنيه أسترلينى من دار نشر فينتادج مقابل كتابين من تأليفها. ولم تتلق سميث العرض مقابل مخطوطة رواية كاملة وانما مقابل مائة صفحة فقط كتبتها وهى تستعد لأمتحانات السنة النهائية فى جامعة كامبريدج. ولكن سميث لم تكتف بأن تكتب عما تعرفه بشكل مباشر وانما كتبت رواية عن رجلين أحدهما بريطانى والآخر مهاجر بنغالى يتعارفان خلال الحرب العالمية الثانية وتستمر صداقتهما لترصد سميث مصائر أبنائهما الذين لا يسعون للاندماج كما كان الحال مع آبائهم وأنما للارتباط بهويتهم الأصلية. نشرت الرواية عندما كانت سميث تبلغ من العمر ٢٤ عاما وأصبحت بفضلها من أشهر كتاب الأدب الانجليزى المعاصر. وتستمر فى عرض الصورة الجديدة للمجتمع البريطانى حيث تأتى روايتها الثانية رجل الأتوغراف The Autograph Man ببطل نصف صينى ونصف يهودى.

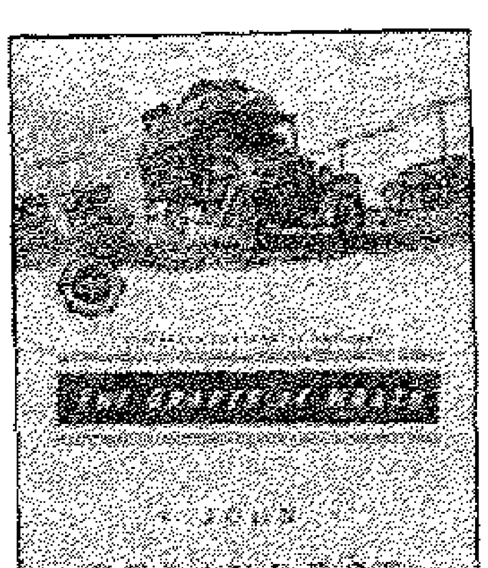


Catcher in the Rye

(الحارس فى حقل الشعير)

J.D Salinger
Back Bay Books: 2001, 228pp, $13.99

جى دى سالينجر كاتب غريب الأطوار أنتج رواية كانت فى وقت صدورها أيضا من غرائب الأدب وان أصبحت اليوم من أكثر الأعمال الأدبية المكتوبة بالانجليزية شعبية. فمنذ عام ١٩٦٥ لم يظهر سالينجر فى العلن مطلقا كما إنه لم يقم بأى مقابلات صحفية منذ العام ١٩٨٠ . وقد بلغ تفادى سالينجر للعلنية الحد الذى دفعه فى أوائل التسعينيات للانسحاب من صفقة لاصدار كتاب له بسبب الاحتفاء الجماهيرى الذى قوبل به الخبر. وقد كانت بدايات تلك النزعة الأنعزالية واضحة على سالينجر منذ البداية حيث انه كان يرفض اى رسوم على أغلفة كتبه حتى لا يتم دفع القارئ الى تصور مسبق حول شكل شخصيات الرواية. عرضت مجلة النيويوركر ذائعة الصيت على سالينجر ان تكون صاحبة الحق الأول للاطلاع على أعماله القصيرة ونشرها ولكنه زاد فى الابتعاد عن المجتمعات والانعزال كلما زاد نجاحه. تضمنت قصص سالينجر بشكل متكرر شخصيات من عائلة كولفيلد وركز فى البداية على الأبن الأكبر للعائلة فينس، ثم انتقل تركيزه على الابن الأصغر هولدن الذى كتب عنه اهم أعماله، الحارس فى حقل الشعير. منع الكتاب فى مدارس العديد من الولايات الأمريكية الا انه يعتبر أصدق تعبير أدبى عن مرحلة المراهقة ووداع الطفولة.



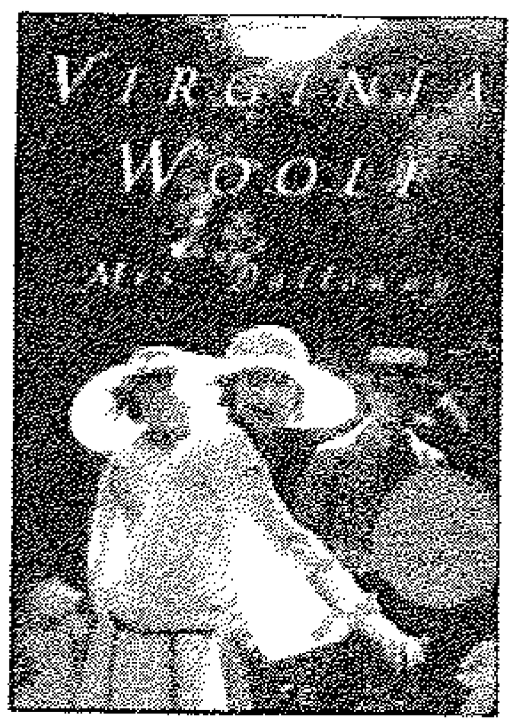
Grapes of Wrath

(عناقيد الغضب)

John Steinbeck
Penguin: 2002, 464pp., $16.00

تنتشر الروايات الأمريكية الشعبية وتحصل على الشهرة الكبيرة حول العالم وتحقق اسماء مثل ستيفن كينج ودانييل ستيل من كتاب الروايات البوليسية والخفيفة مبيعات بالملايين إلى الحد الذى يدفع الكثير إلى نسيان ان هناك أصواتاً ادبية رفيعة فى الولايات المتحدة سواء فى الماضى او فى الوقت الحالى. لعل أشهر هؤلاء الكتاب الذين عبروا عن الواقع المحلى بعيدا عن عالم المدن وصورة الولايات المتحدة كما نراها على شاشات السينما والتلفزيون هو جون شتاينبك الذى خلد الجنوب الشرقى الأمريكى بكل قسوته وقت الأزمة الاقتصادية بالذات. تحكى اغلب رواياته عن عالم الريف الأمريكى والعمال الزراعيين المهاجرين وأتهم بسبب ذلك بالشيوعية وقد كان بالفعل عضوا بنادى كتاب تابع للحزب الشيوعى الأمريكى و صديقا لهنرى ميلر الذى كان أكثر اتساقا فى مواقفه السياسية وتعرض بسبب ذلك لملاحقات امنية. اما شتاينبك فلم يتم أستدعاؤه من قبل لجنة مكارثى كما انه عمل مراسلا حربيا فى فيتنام وكان من مؤيدى حرب فيتنام وممن يرون فيها حملة وطنية امريكية وقد نال وساماً من الرئيس جونسون لدوره فى الحرب.

Mrs. Dalloway



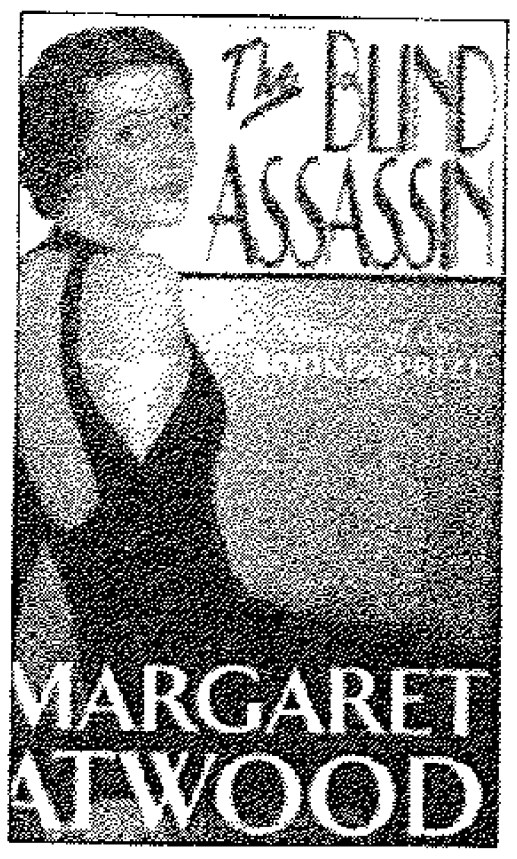
(مسز دالاوى)

Virginia Woolf

Harcourt: 2002, 216pp., $18.00

لم تكن فيرجينيا وولف أولى الكاتبات النساء المهمات إلا أنها ربما كانت صاحبة الشهرة الأعلى والإنجاز الأكثر خصوصية منذ بداية القرن العشرين. كما انها كانت عضوة مؤسسة فى جماعة بلومبرى وهى أهم جماعة ادبية بريطانية ويرى الكثير ان كتاب فيريجينا وولف «غرفة تخص المرء وحده» بمثابة بيان مهم عن تحرر المرأة، وهو عبارة عن محاضرتين ادلت بهما أمام طالبات جامعيات مفادهما ان المرأة، أن ارادت ان تكتب الأدب فعليها أولا ان تمتلك دخلاً مادياً وغرفة خاصة بها. ولكن كتابها الاشهر هذا ليس رواية ولذلك لم يحظ بمكان فى قائمة التايم وحل مكانه روايتان للكاتبة هما مسز دالاوى وإلى الفنار. ومسز دالاوى بالذات عادت الى الشهرة بسبب رواية مايكل كانينجهام الساعات والفيلم المأخوذ عنها بنفس الاسم. والتى تصور بعضا من حياة فرجينيا وولف بالتقاطع مع حياة سيدتين تعيشان فى زمنين مختلفين وكل منهما تستعد كما كانت مسز دالاوى فى الرواية لإقامة حفل عشاء. تدور احداث الرواية الأصلية خلال يوم الدعوة فقط حيث يتجدد حب قديم لمسز دالاوى وتستعيد ذكرياتها مع صديقة ايام الطفولة التى كادت تجمعهم علاقة مثلية واجتهادها للتوصل الى ما هو ثابت وحقيقى ومهم فى حياتها. ويعتقد الكثير من النقاد ان هذه الرواية هى مقابل ادبى لرواية عوليس لجيمس جويس التى رفضت وولف وزوجها نشرها عبر دار هوجارتز التى كانا يديرانها.

The Blind Assassin



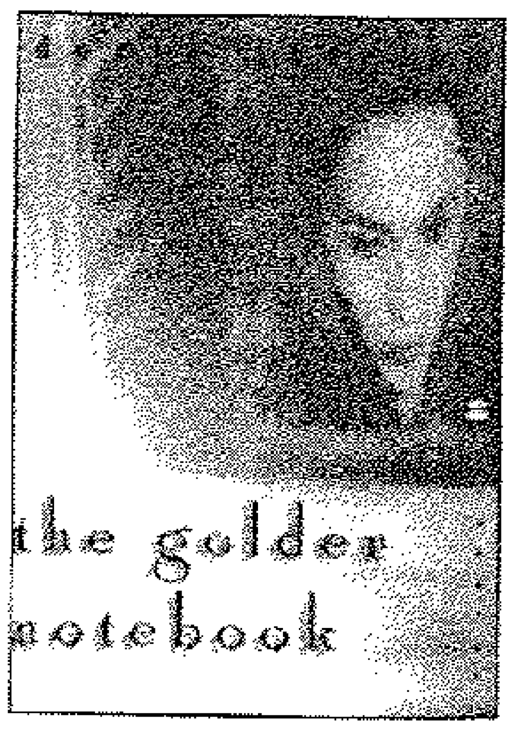
(القاتل الأعمى)

Margaret Atwood

Virago Press: 2001, 641pp., $4.00

عام ٢٠٠٠ حازت الكاتبة الكندية مارجريت اتوود على جائزة بوكر عن روايتها القاتل الأعمى. والرواية تتداخل فيها قصتان. الأولى عن الأختين لورا وأيريس تشيس اللتين تنتميان الى عائلة ثرية افلست مع الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينيات فتزوجت الأولى من رجل صناعة قاس وانتحرت الثانية بقيادة سيارتها من فوق الجبل ولكنها تركت وراءها مخطوطة لرواية من نوع الخيال العلمى تحكى عن كوكب يشتهر بصناعة السجاد اليدوى الدقيق ويثمن السجاد الذى يصنعه أطفال بعدد من فقدوا البصر خلال حياكته. ويتحول هؤلاء الأطفال بسبب مهارتهم اليدوية وحساسيتهم الشديدة الى قتلة محترفين. تتضمن المخطوطة التى تركتها الأخت رموزا تكشف سر انتحارها وعلى الشقيقة التى حصلت على المخطوط ان تفك تلك الرموز. لا يمكن الحكم على أعمال مارجريت أتوود من خلال رواية واحدة بسبب تنوع الأشكال الأدبية التى تستعين بها فهى كتبت الرواية التاريخية البوليسية وكتبت الخيال العلمى كما انها تكتب القصة القصيرة والشعر والمقال وترأست فرع منظم القلم بكندا كما ان روايتها الأخيرة والكثير من مقالاتها تحارب تجارب الهندسة الوراثية.

The Golden Notebook



(المفكرة الذهبية)

Doris Lessing

ولدت دوريس ليسينج فى أيران لعائلة بريطانية انتقلت الى ما يعرف اليوم بزيمبابوى فى محاولة للحياة كمزارعين مستعمرين او كما قالت والدة دوريس «الحياة على الطريقة الفيكتورية فى أرض بدائية». ولكن المزرعة لم تدر عليهم دخلاً يذكر وتركت دوريس المدرسة فى عمر الخامسة عشرة. مع هذه الخلفية الا أن دوريس ليسينج وقفت موقفا شديد العداء للعنصرية وتركت افريقيا فى العام ١٩٤٦ لهذا السبب.

تضمنت قائمة التايم روايتها المفكرة الذهبية وهى رواية عن امرأة تكتب يوميات حياتها فى عدة مفكرات، لكل واحدة منهما لون مختلف وموضوع مختلف ثم تعيد نسج التفاصيل لتكون صورة أشمل عن حياتها فى مفكرة ذهبية.

كتاب الزاوية

حققتُ ما أردت

مذكرات اللورد كِيلرن

عدت ثانية إلى دار السفارة وطلبنى تليفونيًا حسنين سائلاً ما إذا كان فى إمكان القوات المسلحة أن تنسحب من مواقعها حول القصر حتى لا تعوق حضور النحاس باشا إلى القصر، وقد وعدت أن أنظر فى هذا الشأن.

وبعد نصف ساعة حضر إلى دار السفارة النحاس بعد أن كان قد ذهب إلى القصر لمقابلة الملك فاروق الذى نفذ كل ما وعدنى به. والملك فاروق كان حقيقة قد كلف النحاس لمقابلتى ويعرفنى بكل ما تم.

وقد أعربت عن رغبتى أن أبقى قدر الإمكان وراء الكواليس وأن أدعه (يقصد النحاس باشا) ينفذ بنفسه التدابير الضرورية.

وحقيقة نظرًا لتطوير الأحداث فى المساء فإنى كنت غاية فى السعادة والرضى، وقد وضعتنى تلك الأحداث فى موقف لا خيار فيه أمام إصرارى على خلع الملك عن العرش، ولكن دواعى الحكمة جعلتنى أميل إلى اعطائه فرصة أخرى فى استدعائه للنحاس، فلو كان قد وافق على موعد الساعة ٦ مساء، فقد كنا قبلنا هذا الحل. ولكن الحقيقة أن موافقته جاءت متأخرة ثلاث ساعات، فإن هذا كان بالكاد يبرر العقاب الرادع بطرده من عرشه، وبرغم هذا فإن ما حدث جعل موقفنا قويًا أمام الرأى العام فى مصر والخارج.

...

لقد حققنا نصرًا تامًا، ولقد كان قرا را صعبًا ولكنى أعتقد فى نهاية الأمر أنها خطوة موفقة.

قـــراءة

الجِـــرَار الفارغـــة..!

أضاعت «أوسلو» الفلسطينيين في «طرق بلا خرائط».. فحوصروا على التقاطعات يتشاجرون على «الجرار الفارغة» منشغلين بمظاهر بلا مضمون: «حكومة طوارئ».. «شرعية دستورية».. إلخ. فيما انشغل الإسرائيليون. محتمين بديموقراطيتهم. بحقائق الأرض: تهويد القدس.. وبناء الجدار.

....

أيا ما كان ما جرى في غزة، وأيا ما كانت حسابات الفرقاء والشركاء.. والجيران. وأيا ما كانت غبطة الذين خططوا لما جرى، ثم جلسوا إلى «الطاولة» يقتسمون التهاني والسيناريوهات.. والغنائم. تبقى حقيقة أن الخاسر الأول. تذكروا الجزائر ٩٣. هو الديموقراطية، وثقافة «الصناديق الزجاجية»... والحلم الفلسطيني.

ورغم أن الشعر. بطبيعته. لا يعرف حسابات ولا منطق، يبقى الشاعر.. وجدان شعبه.

اسمحوا لي أن أترك هذه المساحة لمحمود درويش...

أ. الصيـــــاد



هل كان علينا أن نسقط من عُلُوٍّ شاهق، ونرى دمنا على أيدينا... لنُدْرِك أننا لسنا ملائكة.. كما كنا نظن؟
وهل كان علينا أيضاً أن نكشف عن عوراتنا أمام الملأ، كي لا تبقى حقيقتنا عذراء؟
كم كذبنا حين قلنا : نحن استثناء !
أن تصدِّق نفسك أسوأ من أن تكذب على غيرك!
أن نكون ودودين مع من يكرهوننا، وقساة مع من يحبوننا - تلك هي دُونية المُتعالي، أو غطرسة الوضيع
أيها الماضي ! لا تغيِّرنا... كلما ابتعدنا عنك!
أيها المستقبل : لا تسألنا : من أنتم؟
وماذا تريدون مني؟ فنحن أيضاً لا نعرف.
أيها الحاضر ! تحمَّلنا قليلاً، فلسنا سوى عابري سبيل ثقلاء الظل
الهوية هي : ما نورث لا ما نرث. ما نخترع لا ما نتذكر. الهوية هي فساد المرآة
التي يجب أن نكسرها كُلَّما أعجبتنا الصورة!
تقنَّع وتشجَّع، وقتل أمه.. لأنها هي ما تيسر له من الطرائد.. ولأنَّ جندية
أوقفته وكشفت له عن نهديها قائلة: هل لأمك، مثلهما؟

....

أعجبنا حزيران في ذكراه الأربعين : إن لم نجد من يهزمنا ثانيةً هزمنا
أنفسنا بأيدينا لئلا! ننسى
مهما نظرت في عيني.. فلن تجد نظرتي هناك. خطفتها فضيحة!
قلبي ليس لي... ولا لأحد. لقد استقل عني، دون أن يصبح حجرا

....

أخفى السجين، الطامح إلى وراثة السجن، ابتسامة النصر عن الكاميرا.
لكنه لم يفلح في كبح السعادة السائلة من عينيه
ربما لأن النص المتعجل كان أقوى من المُمثل.

....

«أنا والغريب على ابن عمي. وأنا وابن عمي على أخي. وأنا وشيخي عليَّ»
هذا هو الدرس الأول في التربية الوطنية الجديدة، في أقبية الظلام
من يدخل الجنة أولا؟ من مات برصاص العدو، أم من مات برصاص الأخ؟

....

سألني: هل يدافع حارس جائع عن دار سافر صاحبها، لقضاء إجازته الصيفية
في الريفيرا الفرنسية أو الإيطالية.. لا فرق؟
قلت : لا يدافع!
وسألني : هل أنا + أنا = اثنين؟
قلت : أنت وأنت أقل من واحد!
لا أخجل من هويتي، فهي ما زالت قيد التأليف. ولكني أخجل من بعض ما جاء في مقدمة ابن خلدون.
أنت، منذ الآن، غيرك.

محمود درويش
١٦ يونيو ٢٠٠٧

توفيق الحكيم

الأعمال الكاملة



دار الشروق

القاهرة : ١ ميدان طلعت حرب - وسط البلد ت: ٢٩٣٠٦٤٣ - ٣٩١٢٤٨٠
مدينة نصر: ٨ سيبويه المصرى - رابعة العدوية ت: ٤٠٢٣٣٩٩
الجيزة: مبنى فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة أمام حديقة الحيوان ت: ٥٧٣٥٠٣٥ - ٥٦٨٥١٨٧
الإسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ - ٠١٠/١٦٣٣٦٨٥
www.shorouk.com e-mail: bookstores@shorouk.com

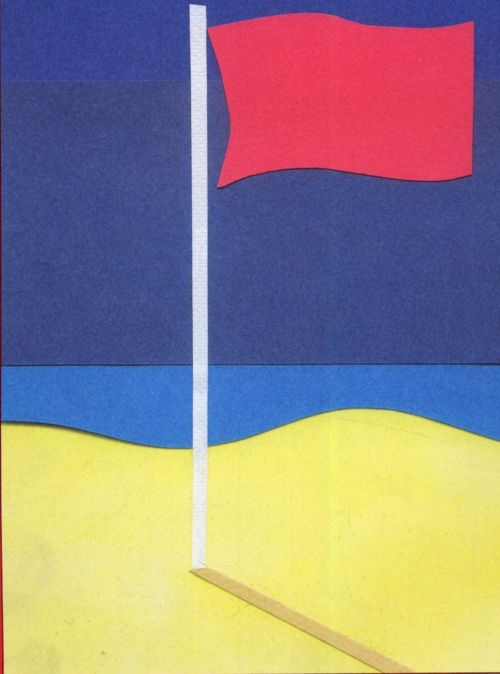
الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد المائة وثلاثة . السنة التاسعة . أغسطس ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 103 - August 2007



القاهرة: ٢٠٥٠ دعوة للحوار.. مدينة «المدن المغلقة»

فى ذكراه الأولى: هل كان محفوظ حقاً «بلزاك العرب»

حماس.. هل تعلم الغرب الدرس؟

أمريكا والإسلاميون: القيم مقابل المصالح

مزالى وبورقيبة: دسائس القصر

نازك الملائكة: أوراق لم تنشر

حرية المعلومات: الفريضة الغائبة

حلمى التونى 2007



أحدث إصدارات
دار الشروق
علاء الأسواني
شيكاجو
محمد سلماوي
نجيب محفوظ
المحطة الأخيرة
نجيب محفوظ
أولاد حارتنا
جلال أمين
ماذا علمتني الحياة؟
سيرة ذاتية
بهاء طاهر
واحة الغروب
رواية
محاضرات
أحمد زويل
الزمن
تاريخ الاستشراق وسياساته
الصراع على تفسير الشرق الأوسط
زكاري لوكمان
خالد الخميسي
تاكسي
حواديت المشاوير
TAXI
مكرم محمد أحمد
قدرة مصر النووية
أسباب الإخفاق وتحديات المستقبل
جمال الغيطاني
استعادة المسافر خانه
محاولة للبناء من الذاكرة
سفر
متتالية قصصية
محمد المخزنجي
في النظام السياسي للدولة الإسلامية
د. محمد سليم العوا
أوزوريس جلجامش
شريف فؤاد
محمد حسنين هيكل
مدافع آية الله
قصة إيران والثورة
ستون عاماً من الصراع في الشرق الأوسط
شهادات للتاريخ
بطرس بطرس غالي و شيمون بيريز
الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الزيادي
الكبد
الدليل المتكامل للكبد
الأمراض - التشخيص - العلاج
القاهرة: ١ ميدان طلعت حرب - وسط البلد ت: ٣٩٣٠٦٤٣ - ٣٩١٢٤٨٠
مدينة نصر: ٨ سيبويه المصري - رابعة العدوية ت: ٤٠٢٣٣٩٩
الجيزة: مبنى فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة أمام حديقة الحيوان ت: ٥٧٣٥٠٣٥ - ٥٦٨٥١٨٧
الإسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ ٠١٠/١٦٣٣٦٨٥
www.shorouk.com e-mail: bookstores@shorouk.com



عراقنا
العراق
تونسيانا
Tunisiana
تونس
Mobilink
باكستان
Djezzy
الجزائر
banglalink
بنجلاديش
موبينيل
مصر
telecel
زيمبابوى
Synergy
حول وجه الكرة الأرضية تختلف الوجوه والانطباعات والأحاسيس ونسعى جاهدين لنجعل جميع الأفراد في مختلف الدول متواصلين لأنهم يستحقون أن نسمعهم ويسمعوننا ويسمعون بعضهم البعض ويستحقون منا أن نجعل هذا التواصل متواجد دائما.
أوراسكوم تيلكوم تفكر .. تخطط .. وتعمل ليل نهار لجعل هذا التواصل دائما موجود ومستمر. بناء شبكات الاتصالات هو ما تقدمه أوراسكوم تيلكوم في سبع دول : الجزائر (جازى) و مصر (موبينيل) و باكستان (موبيلينك) والعراق (عراقنا) وبنجلاديش (بنجلالينك) وتونس (تونيزيانا) وزيمبابوى (تليسيل زيمبابوى).
أوراسكوم تيلكوم دائما تبحث عن التطور المستمر في عمليات الـ GSM لتوفر أقصى مستويات الجودة في عالم الاتصالات وتقديم أحدث تكنولوجيا الاتصالات. خدمات أوراسكوم تيلكوم تغطي ٥٠ مليون مشترك وتجعلهم متواصلين مع بعضهم البعض وتجعلهم يتحدثون عن أمانيهم و مخاوفهم و طموحاتهم المختلفة ومن خلال الشركة الأم Weather Investments استطعنا أن نحقق التواصل بين أكثر من ١٥ مليون مشترك في إيطاليا فقط.
أوراسكوم تيلكوم يعمل بها أكثر من ٢٠ الف موظف يعملون يوميا ليتأكدوا أن العالم متواصل مع بعضهم البعض ويسمع كل منهم الأخر ونعدكم بأننا لن ندخر أي جهد ليحظى العالم أجمع بأفضل خدمات فى عالم الاتصالات.
اوراسكوم
تيلكوم
نعطى العالم صوتا

السنة التاسعة
العدد المائة وثلاثة
أغسطس ٢٠٠٧

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إيريك دينيس.. باحث جغرافى فى المركز الوطنى للبحث العلمى فى باريس. له مؤلفات حول الحياة الاجتماعية لسكان القاهرة والتطور العقارى فيها.
- أليستر كروك.. ضابط مخابرات بريطانى سابق ومستشار خافيير سولانا المنسق الأعلى الأوروبى حول الشرق الأوسط.
- جمال محمد غيطاس.. صحفى.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- داليا توفيق سعودى.. مدرس اللغويات الفرنسية والترجمة بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- رافيل بالنسيا.. باحث فى جامعة سابيا الاسبانية .
- عاطف أبو سيف.. باحث فلسطينى متخصص فى العلوم السياسية والاجتماعية.
- محمد الغالى.. أستاذ العلوم السياسية - جامعة القاضى عياض، كلية الحقوق مراكش.
- محمد المهدى... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- محمد مزالى.. الوزير الأول للجمهورية التونسية الأسبق.
- محمود الذوادى.. أستاذ علم الاجتماع - جامعة تونس.
- محمود عبدالوهاب.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - سعد الدين شحاته

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

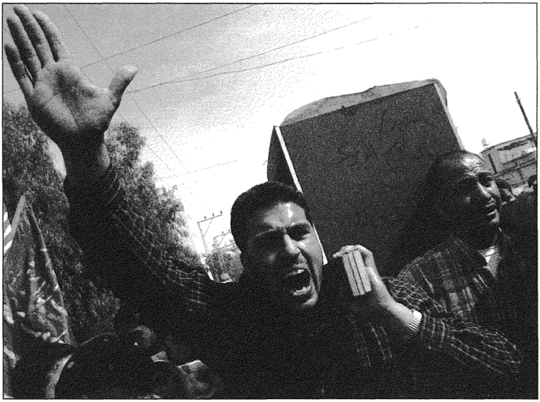
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى . ص . ب : ٢٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO ٦ - United Kingdom £ ٣ - USA $ ٥.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



كمنسق خاص للأمم المتحدة لعملية السلام فى الشرق الأوسط، كتب الفارو دى سوتو يقول من الواضح أن الولايات المتحدة دفعت باتجاه مواجهة بين فتح وحماس

لم نتعلم الدرس!

أليستر كروك

■■ «الوضع فى غزة خطر، والخطر هو أن تستولى حماس على غزة وتحولها إلى (حماستان) أى مملكة لقطاع

Hamas: Unwritten Chapters
(حماس: صفحات لم تكتب بعد)
Azzam Tamimi
Hurst, 344pp., £14.95

Where Now for Palestine: The Demise of the Two-State Solution
(فلسطين إلى أين: انتهاء حل إقامة الدولتين)
Jamil Hilal
Zed, 260PP., £17.99

Failing Peace: Gaza and the Palestinian-Israeli Conflict
(السلام الفاشل.. غزة والصراع الفلسطينى - الإسرائيلى)
Sara Roy
Pluto, 379PP., £16.99

بترتيب مع:
London Review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى

الطرق والقتلة والإرهابيين والفقر واليأس». هذا كان رد فعل افرايم سنيح نائب وزير الدفاع الإسرائيلى على سيطرة حماس على عدد من المؤسسات الأمنية المهمة فى غزة فى الأيام السابقة على ١٤ يونيو حين حل محمود عباس رئيس السلطة الفلسطينية وقائد فتح، حكومة الوحدة الوطنية. ولكن رغم كل ما قالته وسائل الإعلام، فإن هذه ليست «حربا أهلية»، وحماس لا تتكون من (عصابات خارجة عن سيطرة قادتها). لقد كان إجراء حماس يهدف إلى إزالة تأثير أحد أجهزة الأمن التابعة لفتح، وهى الميليشيا ألتى يقودها محمد دحلان، مستشار الأمن القومى لعباس. لقد أصرت حماس أن هذا ليس صراعا شاملا مع فتح وكان من الملاحظ أن العنف الأخير لم يستهدف قوات الأمن الفلسطينية - أى «الجيش» الفلسطينى - ولا الشرطة فى غزة.

يكمن أساس تصرف حماس فى غزة، فى رد فعل المجتمع الدولى وفتح لنصر حماس الكاسح فى الانتخابات البرلمانية فى يناير ٢٠٠٦ . فقد كانت فتح، وهى منظمة ياسر عرفات، ترى نفسها المؤسس للسلطة الفلسطينية. هى تعتقد أنها الحزب الطبيعى للحكومة وقد ناضلت طويلا مع الجيران العرب لترسخ نفسها كمرادف لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولذلك، فهى «الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى». ولم يستطع البعض من داخل فتح الإقرار بفقدانهم السلطة أو التسليم بالزعم، على أساس نتائج الانتخابات، إن الشعب الفلسطينى اختار حزبا إسلاميا ليمثله. وفى هذه المرحلة الحرجة، تدخلت الرباعية الدولية: ضغطوا على الرئيس عباس ليتمسك بالسلطة وألا يخضع لحماس، واعدين بدعمه إذا تمكن من ذلك.

ولم يكن على عباس أن يمتنع عن تسليم السيطرة الأمنية للحكومة (حكومة حماس) ووزير داخليتها كما يتطلب الدستور، فقط، ولكن الرباعية الدولية طالبته أيضا أن ينتزع السلطات من الحكومة الجديدة ويضمها إلى صلاحيات الرئاسة: فالمسئوليات المالية تنتزع من وزارة المالية، ومرتبات مسئولى الحكومة ستدفع من مكتب الرئيس. وكل القرارات الأمنية الرئيسية سوف تحدد بقرار رئاسى. كان يجب ترك الحكومة بلا قوة أو سلطة. وكما يكتب عزام التميمى فى (حماس: صفحات لم تكتب) «لم تعد تحت إمرة حكومة حماس قوة شرطة، ولم يكن لديها سلطة على عبور الحدود».

فى نفس الوقت فرض الغرب عقوبات مالية وعزلة سياسية على الحكومة مصرين على التعامل التجارى وتحويل التمويل حصريا من خلال عباس. باختصار، بدلا من مساعدة فتح خلال الانتقال وتدعيم الوحدة الفلسطينية - والاستفادة من التغيير الحقيقى لاحتواء حماس وهى منظمة إسلامية معتدلة - تبنى المجتمع الدولى سياسة عدوانية للتقسيم الداخلى حيث رسخوا ظروفا تمهد للعنف الأخير فى غزة. ربما يعتصر الأوربيون الآن أياديهم لما يرونه على شاشات التليفزيون ولكن السياسة الأوروبية، بالتنسيق مع الولايات

لم يكن على عباس أن يمتنع عن تسليم السيطرة الأمنية للحكومة (حكومة حماس) ووزير داخليتها كما يتطلب الدستور، فقط، ولكن الرباعية الدولية طالبته أيضا أن ينتزع السلطات من الحكومة الجديدة ويضمها إلى صلاحيات الرئاسة

المتحدة، تتحمل عبء جزء كبير من مسئولية ما حدث.

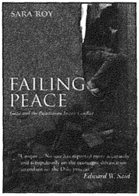
كما اختارت الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية منها بريطانيا، تمويل وتدريب وتسليح جهاز أمن يقوده محمد دحلان، الذى يشك الكثير من الفلسطينيين، بحق، أنه يُهيأ ليكون (الرجل القوى) الذى سوف يصل إلى الرئاسة ويعيد فتح إلى السلطة. كان الهدف الأقصى من بناء ميليشيا فتح بقيادة دحلان هو مواجهة حماس عسكريا والفوز. وكان المسئولون الأمريكان يأملون فى هذه الأثناء تمكين فتح من الإطاحة بحماس من السلطة. بكلمات أخرى، تشجيع انقلاب سلس ضد الحكومة. وقد جاء فى وثيقة استراتيجية أعدتها إحدى الدول العربية المعتدلة فى التحالف الأمريكى وقد وزعت على الفلسطينيين فى مارس ٢٠٠٧، إن هدف الولايات المتحدة هو أن يحل عباس حكومة حماس فى أغسطس. وكانت الرباعية الدولية قد صادقت على هذه الخطط مبدئيا. إن الدعم الذى يقدمه الأمريكان والأوروبيون لفتح كبير ويصل إليها بعدة طرق: من خلال المنظمات غير الحكومية ووكالات التنمية، ومن خلال مبادرات الإصلاح التى تعلنها فتح، ومن خلال برامج تطوير الشباب. ومن خلال مشاريع الإعلام والأهم من ذلك من خلال برنامج واسع يهدف إلى تجنيد وتدريب وتسليح وتمويل الكوادر الأمنية لفتح. ويتصدر جهاز دحلان هذه الكوادر. بالإضافة إلى أن كل عقد مع منظمة غير حكومية كان يتضمن مادة أضافتها الوكالة الأمريكية للتنمية (usaid) تتطلب من المنظمة أن تتعهد بعدم «المشاركة فى أنشطة مع جماعات تعتبر إرهابية».

فى تقريره النقدى القاسى الذى كتبه قبل استقالته فى مايو كمنسق خاص للأمم المتحدة لعملية السلام فى الشرق الأوسط، كتب الفارو دى سوتو يقول «من الواضح أن الولايات المتحدة دفعت باتجاه مواجهة بين فتح وحماس، إلى حد، أنه قبل أسبوع من اتفاق مكة - حيث التقى الفصيلان فى فبراير وتحت رعاية الملك عبد الله واتفقا على حكومة وحدة - عبر الموفد الأمريكى مرتين فى اجتماع الموفدين فى واشنطن عن «حبه لهذا العنف»، مشيرا إلى نذر تفجر حرب أهلية فى غزة سوف يقتل ويصاب فيها مدنيون، وكان مبرره هو «أنها تعنى رفض الفلسطينيين الآخرين لحماس»، هذا الوضع هو الذى دفع حماس إلى إجراء وقائى. ومع رفض فتح المفاوضة على سلطة الحكومة على الأجهزة الأمنية بموجب الدستور، ومع بناء ميليشيا دحلان، تحركت الذراع العسكرية لحماس للاستيلاء على كل المواقع المهمة المرتبطة بدحلان ورفاقه فى غزة. وبعد الهيمنة الكاملة، أصبحت الحكومة المنتخبة الآن فى وضع يتيح لها توفير الأمن فى غزة.

هناك ثمن لا بد من دفعه بطبيعة الحال، ولكن لا علاقة له بالأضرار بما يسمى (توقعات السلام) إذ لم يكن هناك عملية سلمية. وفى رأى معظم الفلسطينيين، هناك أمل ضئيل فى السلام. على العكس من ذلك، تتهيأ قيادة حماس - مثل رفاقهم فى حزب الله - لصيف طويل ساخن من صراع إقليمى محتوم. إن الثمن الحقيقى لمبادرة حماس العسكرية ضد ميليشيا دحلان هى إضعاف فصيل مهم من فصائل فتح، كان لبعض الوقت، لا يشعر بالراحة من انحياز دحلان وفتح للمصالح الأمريكية والإسرائيلية وكان - حتى الآن - يدعو إلى تعاون حقيقى بين فتح وحماس. ولكن الآن بعد أن تعرضت فتح للإذلال، فإن أصحاب هذا الفصيل لن يكونوا بمزاج يساعدهم على دعم من يتحدث عن شراكة فاعلة مع حماس. فأن ينظر إليك إخوانك الفلسطينيون على أنك عميل غربى شىء سيئ، ولكن أن تعتبر عميلا غربيا فاشلا فهو شىء أسوأ.

من المبكر جدا الحكم، ولكن من الممكن أن يعتبر المسلمون خارج فلسطين تصرف حماس حدثا مهما بأهمية نتيجة حرب إسرائيل - حزب الله فى يوليو الماضى. وقد نرى فى الأسابيع القليلة القادمة بدايات جهود للوساطة من قبل دول عربية أخرى، فى محاولة لتشكيل حكومة وطنية جديدة فى فلسطين. إذا حدث هذا، فإن قضية الأمن قد تقررت فعلا: لقد أرست حماس الحقائق على الأرض. ولكن يمكن توقع استمرار مقاومة الأمريكان والأوروبيين لأى تحول فى التدبير السياسى الذى يخططون له. ما يريدونه، ويظلون متمسكين به، هو العودة إلى الوضع القائم قبل أوسلو، رغم أنه لم يعد موضع قبول الآن. ولكن فى محاولة لضمان بقاء فتح فى السلطة، يخاطرون بأحداث الفتنة والعنف المتجدد وتفتيت الوحدة السياسية الفلسطينية لسنوات قادمة.

إن السلام مع إسرائيل، إذا قدر له أن يكون، لا يمكن أن يبنى على تفتيت الوحدة الفلسطينية والصراع الداخلى. وقد ساهمت أفعال المندوبين الأمريكيين السابقين مثل الجنرال زينى وجورج تينيت - فى تفاقم الفرقة. لم يتعلموا الدرس. إن ما فعله الرئيس عباس من حل للحكومة فى ١٤ يونيو وإعلانه حكومة طوارئ - وهما قراران مشكوك فى شرعيتهما - قد قضى على ما تبقى من الوحدة الفلسطينية. وقد فعل ذلك فى لحظة كانت حماس، مثل الحركات الإسلامية المعتدلة فى المنطقة، تحاول التعامل مع من يحاول دفعها إلى التطرف مع انتشار الجدل حول قيمة المشاركة فى الانتخابات.



لم يكن ممكنا للغرب أن يختار وقتا أسوأ من هذا لإظهار فتح على أنها عميل يعتمد على التمويل الغربى والتواطؤ الإسرائيلى للتعويض عن الدعم الشعبى الذى تفتقده. كتبت أوسع صحيفة عبرية وهى يديعوت أحرونوت فى ١٤ يونيو بأنه «فى نابلس وجنين والخليل ورام الله تسيطر ألوية فتح الأقصى بفضل أجهزة الأمن الإسرائيلية التى كانت تعتقل كل من تشم فيه رائحة حماس ولو من بعيد».

وبالحكم من خلال تصريحاتهم العلنية، يتجاهل صانعو السياسة الأوروبيون التوتر المتصاعد فى المنطقة. إن عدم الاستقرار يولد عدم الاستقرار وقد كان من شأن تجميد الأمريكان والأوروبيين لتحويلات البنوك حرمان الحكومة الفلسطينية من الوصول إلى أموالها - بضمنها ما يأتيها من الدول المسلمة - ومن شأن هذا أن يفجر قلاقل واضطرابات جديدة خطيرة فى المنطقة.

مازال المعلقون الغربيون - بدافع من الموالين لفتح - يميلون إلى رؤية نتيجة انتخابات ٢٠٠٦ على أنها ليست سوى لطمة قوية على وجه فتح التى كانت حتى ذلك الحين المهيمنة على السلطة، وجهها الناخبون الغاضبون من الفساد وسوء الإدارة. منذ ١٩٩٣ كان الفلسطينيون يعيشون تحت نظام الحزب الواحد: الرعاية والوظائف والحكومة كانت كلها عطايا فتح وقد وزعت المزايا على أعضائها. ولكن مع ذلك فلم تكن نتيجة الانتخابات أساسا بسبب فساد فتح مع أهمية هذا العنصر. أتذكر قول قائد فى معسكر لاجئين فى لبنان: «سوف ترى.. نصر حماس هذا يمثل الانكسار الأخير لإيمان الفلسطينيين بالمجتمع الدولى. لم نعد نصدق بأنه يمكن الاعتماد على الأمريكيين أو الأوروبيين لعمل ما فيه صالحنا. علينا أن نعتمد على أنفسنا الآن».

لقد لاحظت حماس لبعض الوقت بأن الناخب الفلسطينى الذى منح فتح احتكار السلطة والقوات المسلحة فى ١٩٩٣ بعد اتفاقيات أوسلو لم يعد هو نفسه الآن. فبالكاد تجد اليوم فلسطينيا يؤمن بأن (السلوك الجيد) للفلسطينيين - كما وعدت فتح إسرائيل - سوف يحض الولايات المتحدة على تجاهل اللوبى الإسرائيلى لديها وممارسة ضغط على إسرائيل للانسحاب من الأراضى المحتلة فى ١٩٦٧ . ويقول التميمى فى كتابه: «كان توقع حماس دائما هو أن إسرائيل «لن تلتزم بالصفقة»، وأنها تستخدم عملية السلام من أجل الاستيلاء على المزيد من الأراضى».

لقد راقب الفلسطينيون دولتهم الناشئة فى الضفة الغربية وهى تقطع شرائح مثل البسطرمة بالمزيد من المستوطنات وثكنات الجيش والمناطق العسكرية والحواجز والطرق التى يحظر على الفلسطينيين السير فيها وهى تقطع أشلاء المنطقة التى تحتجز مليونين ونصف المليون من الفلسطينيين محدودى الحركة. وقد نشر مكتب



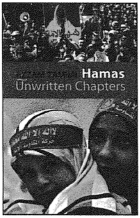
هناك ثمن لا بد من دفعه بطبيعة الحال، ولكن لا علاقة له بالأضرار بما يسمى (توقعات السلام) إذ لم تكن هناك عملية سلمية. وفي رأى معظم الفلسطينيين، هناك أمل ضئيل فى السلام

الأمم المتحدة لتنسيق الشئون الإنسانية مؤخرا خارطة للضفة الغربية يتضح فيها أن نظام المستوطنات الإسرائيلية والبنى التحتية المحمية تسببت فى حظر ٤٠ بالمائة من الضفة الغربية على الفلسطينيين. وقد رأى الفلسطينيون امتناع الولايات الأمريكية وأوروبا عن فعل أى شيء بهذا الخصوص. ويدفع الأمريكان والأوروبيون بان السبب هو العنف الفلسطيني، ولكن الفلسطينيين يقولون إن الأوقات الهادئة هى التى يستولى فيها الإسرائيليون على المزيد من أراضيهم. ومع ذلك يظل المجتمع الدولى صامتا. وبحلول ٢٠٠٦ حين صوت الفلسطينيون لحماس، كان قد تلاشى أى أمل ضئيل من أوسلو. لم يعد هناك «معسكر سلام» يؤمن بالتقدم التدريجى نحو إقامة دولة فلسطينية.

على خلفية هذا الإحباط، فإن المشاركين فى كتاب جميل هلال (فلسطين إلى أين الآن؟ موت حل إقامة دولتين) يشيرون إما إلى دولة واحدة لشعبين فى إسرائيل/فلسطين أو إلى فصل آخر من المقاومة المسلحة أو الاثنين معا. يجادل زياد أبو عمرو بأن «السلطة الفلسطينية أصبحت واجهة تخفى الاحتلال الإسرائيلى الحقيقى وأداة لمساعدة الإسرائيليين لتنظيم سياساتهم الاحتلالية» ويقول جميل هلال «بلغت سياسة إسرائيل إلى حد الإلغاء المنظم للظروف الأساسية الضرورية لإقامة دولة فلسطينية فاعلة وذات سيادة» وينظر ايلان باب إلى جذور السياسة الإسرائيلية فيستنتج بأن «الاحتلال ينطلق من نفس البنى التحتية الأيديولوجية التى اعتمد عليها التطهير العرقى فى ١٩٤٨» ولكنك لن تجد من بين هؤلاء الكتاب من لا يزال يعتقد بتوفر الظروف النفسية والسياسية لمقترح إقامة دولتين. إن تبنى المطالبة بدستور إسرائيلى جديد من قبل منظمة «عدالة» فى إسرائيل، هو مؤشر آخر على عملية التطرف الجارية. وقد أثارت وثيقة «الدستور الديمقراطى» المطروحة للمناقشة اهتماما واسعا بين المواطنين الفلسطينيين فى إسرائيل، وغضبا عارما فى بعض الصحافة الإسرائيلية - والوثيقة تدعو لكتابة دستور يلتزم بالمبادئ الديمقراطية وأن يكون ثنائى اللغة ومتعدد الثقافات وفوق كل شيء يتضمن المساواة الكاملة لكل المواطنين والمقيمين، وبهذا لن تكون إسرائيل دولة يهودية حصريا أو حتى دولة تستطيع منح امتيازات خاصة لمواطنيها اليهود.

أحد أسباب هزيمة فتح فى الانتخابات كان فشلها فى الإقرار بأن إدارة بوش تختلف عن إدارة كلينتون. أصرت فتح على افتراض أن إدارة بوش، فى جوهرها، تشارك فى الرؤية القائلة بإقامة دولة فلسطينية تعتمد على انسحاب إسرائيلى من الأراضى المحتلة فى ١٩٦٧. استمرت القيادة فى افتراض بأنها إذا استطاعت إرضاء الولايات المتحدة فإنها سوف تكافأ فى النهاية بالضغط على إسرائيل لقبول دولة فلسطينية فاعلة. وقد أصبح واضحا لمعظم الفلسطينيين منذ زمن بعيد، بضمنهم الكثير فى فتح، بأن رؤية بوش لا تتفق مع رؤية فتح وإنما مع تل أبيب، والتى ترى بقاء إسرائيل فى الضفة الغربية إلى الأبد.

قام خليل شقاقى من المركز الفلسطينى للسياسة وبحوث المسح وهى مؤسسة تمولها حكومات أجنبية لتنفيذ مسوحات للرأى فى فلسطين، بإجراء ثلاثة استفتاءات مهمة أثرت على رؤية واشنطن فى بداية يونيو وسبتمبر وديسمبر ٢٠٠٥. وقد بينت كلها بأن فتح تتقدم على حماس بنسبة مريحة. فى يونيو أوضح شقاقى بأن فتح تتقدم بنسبة ٤٤٪ إلى ٣٣٪ لحماس، فى سبتمبر صعد رصيد فتح إلى ٤٧٪ ضد ٣٠٪ لحماس، فى ديسمبر قبل شهر واحد من الانتخابات، أعطى فتح ٥٠٪ وحماس ٣٢٪. فى الانتخابات فازت حماس بعدد ٧٤ مقعدا برلمانيا وفتح بعدد ٤٥ مقعداً فى برلمان يتكون من ١٣٢ عضواً. وكانت حماس تتوقع فى نوفمبر ٢٠٠٥ الفوز بـ ٧٠-٨٠ مقعداً.



من الصعب معرفة إذا كان الرفض الأوروبى والأمريكى للاعتراف بتغير المزاج الفلسطينى كما ظهر من نتيجة الانتخابات، هو الذى أثر على أفعال بعض قادة فتح بعد الانتخابات، أو ما إذا كان أصدقاء أوروبا فى فتح مثل دحلان، الذى يدعى قدرته على التعامل مع حماس، هو الذى أقنع الأوروبيين لإغماض عيونهم عن ثورة التغيير الفلسطينية. وتقول صحيفة الأهرام ويكلى مؤخرا بأن دحلان «يعترف بلباقة بأنه وراء الكثير من حالة انعدام القانون والفوضى فى غزة». أنا أستخدم سيارتين نوع جيب فقط، وقد يقول الناس إن غزة تشتعل.. حماس هى أضعف الفصائل الفلسطينية. إنهم يشتكون ويتذمرون. حسنا، عليهم أن يعانوا المزيد من اللعنات حتى جدهم السابع».

مهما يكون السبب، فإن الأوروبيين قد ارتكبوا واحدة من أكبر غلطاتهم السياسية فى المنطقة - لا يسبقها إلا دعمهم لغزو العراق - بإصرارهم الحثيث لعزل حماس ومحاولة إرجاع فتح إلى السلطة.

لقد جادلت حماس خلال الحملة الانتخابية بأن فتح لن تجنى من وعدها لإسرائيل بإنهاء العنف، سوى الاحتقار الإسرائيلى لما سيعتبرونه (ضعفا) فلسطينيا. وحسب رؤية حماس، لن يأتى الحل العادل إلا بعد أن تحترم إسرائيل أعداءها. فى هذه الأثناء فإن توسل فتح لأن تكون شريك إسرائيل فى السلام سوف يساهم بشكل مباشر فى تضخم طموحات الهيمنة الإسرائيلية. ولهذا تطالب حماس بالمقاومة المستمرة وبالعمل عكس مبدأ عرفات القائل بعدم بناء المؤسسات الفلسطينية حتى تقام دولة. حيث تؤمن حماس بأن الإدارة الجيدة الآن مع تحقيق الوحدة الوطنية نشدها هما الطريق لإقامة دولة فلسطينية. وبسجلها المؤثر والنظيف خلال إدارتها المحلية، كانت حماس تتطلع لتطبيق هذا النهج على المستوى القومى والآن يمكن أن تكون هذه فرصتها فى غزة.

المشكلة بالنسبة لحماس هى أن عموم ناخبيها والحركة الإسلامية الأوسع يعيشون مرحلة مراجعة. ما هو الظاهر - ويمكن تأكيد هذا من عدد من المواقع الإسلامية على الإنترنت - هو أن الاستراتيجية الإسلامية السائدة للانخراط فى الطريق الانتخابى للإصلاح أصبحت موضع شك. وسوف يكون لهذا تأثير أبعد من فلسطين. خاصة فى مصر والأردن. وقد شحذت ثلاثة أحداث هذا التوجس: العقوبات التى فرضت على حكومة حماس، الحرب المدعومة أمريكيا على حزب الله فى لبنان فى الصيف الفائت، واضطهاد الإخوان المسلمين فى مصر، وكل هذه لم تثر أى احتجاج من قبل الأوروبيين. إن استمرار العداء الغربى لكل الإسلاميين حتى المعتدلين منهم، قد دفعت تنامى الإحساس بالمرارة لدى الجماهير الإسلامية فى كل مكان.

فى مؤتمر عقد فى بيروت فى أبريل، انتقد فتحى يكن زعيم الجماعة الإسلامية فى لبنان، ممثل حماس الرسمى الحاضر أسامة حمدان بسبب المشاركة فى الانتخابات أصلا. وأشار يكن إلى الإخفاق - الذى جربه الإسلاميون



بدون استثناء - الذى مُنى به الذين ساهموا فى برلماناتهم الوطنية.

ليس هناك برلمانى أو ممثل للشعب من إسلام أباد إلى القاهرة أو ما بينهما، نجح فى إحداث أى تغيير مهم فى مجتمعه. وفى نفس الوقت كان الشباب المصريون فى الإخوان المسلمين يجادلون فى ما إذا كانت حركتهم التى تبلغ من العمر ثمانين سنة قد فقدت بوصلتها. فى رأيهم أن مما يقلل من مصداقيتهم ويدعو للسخرية هو جلوس ممثلى الحركة فى البرلمان فى حين أن زعماءهم يعتقلون وقاعدتهم الاقتصادية تخرب والتشريعات تسن بهدف إقصاء الحركات ذات التوجهات الدينية من الانتخابات. ويقولون إن الحركة مترهلة وجامدة وخرقاء وتحتاج إلى إعادة النظر وربما التفكيك.

إحدى القضايا مثار الجدل هى قدرة الجماعات الإسلامية المعتدلة مثل حماس وحزب الله على الاحتفاظ باعتدالها مع انتشار تيارات التطرف.. ما إذا سوف يظلون كتلة سياسية موحدة ومنظمة. فالحركات الإسلامية السنية تشعر بقلق متزايد من انتشار جماعات سلفية صغيرة تميل إلى العدمية فى احتقارها للأيديولوجية السياسية وفى إيمانهم بأن إشعال النار فى بقايا السلطة الكولونيالية هو بحد ذاته كاف لانطلاق الوعى الثورى الذى يأملونه. وقد بدأت الجماعات السلفية تشق طريقها إلى غزة. وهى متواجدة فعلا فى العراق ولبنان وشمال أفريقيا.

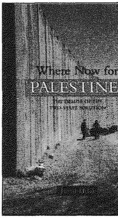
ليس من الواضح ما سوف يحدث. تبدو العودة إلى طلائع الحركات العسكرية العنيفة التى سادت فى الستينيات والسبعينيات، والبعيدة عن الشرعية الشعبية المساندة، غير محتملة الآن. ولكن الأكثر احتمالا هو أن حركات معتدلة مثل حماس وحزب الله سوف تشجع مقاومة شعبية فى الوقت الذى تناضل فيه للحفاظ على وجودها السياسى. إن مقاومة حماس المسلحة فى غزة والموجهة إلى ما تراه حملة غربية للقضاء عليها، هى مثال على الطريقة التى يمكن لحركة إسلامية أن ترضى جمهورها الانتخابى الذى يزداد تطرفا وغضبا بسبب التدخل الأمريكى فى مجتمعاتهم من أجل مصالح ما يسميه حسن نصر الله «المشروع الغربى».

يستمر العراق فى إشعاع عدم الاستقرار وإثارة الفتنة بين الشيعة والسنة فى كل مكان. وتدفع السياسة الأمريكية والأوروبية فى فلسطين ولبنان إلى التوترات الداخلية والاستقطاب

أحد المؤشرات على ما يريده الناخبون الآن يمكن فهمه من خطابات نصر الله. قال فى بيروت فى شهر مارس «فى منطقتنا، نشهد التهديد الخطير.. الذى تقدمه الإدارة الأمريكية لتحقيق خطتها للسيطرة على مواردنا ودولنا وقراراتنا ومصيرنا. اليوم لا نسمع كلاما حول الانتخابات والديمقراطية. لقد اكتشفوا بأنه لو أقيمت انتخابات حرة ونزيهة فى العالم الإسلامى، فإن الوطنيين الذين يعادون السياسة الأمريكية ويرفضون الخضوع للهيمنة الأمريكية سوف يفوزون فى كل بلد، سواء كانوا إسلاميين أم غيرهم، بسبب المزاج العام فى العالم الإسلامى» بتعبير آخر، ستكون أية انتخابات مثل هذه اختبارا لرغبة الشعوب فى الخضوع للسياسة الأمريكية أو رفض الانصياع لها.

أساس الأزمة الحالية هى أفعال الولايات المتحدة. يستمر العراق فى إشعاع عدم الاستقرار وإثارة الفتنة بين الشيعة والسنة فى كل مكان. وتدفع السياسة الأمريكية والأوروبية فى فلسطين ولبنان إلى التوترات الداخلية والاستقطاب. واحتمال خطر أن يمتد الصراع إلى إيران وربما سوريا يلقى بظلاله على كل شىء آخر فى المنطقة.

بشكل عام، الأمريكان والأوروبيون متورطون فى ستة صراعات داخلية فى المجتمعات الإسلامية - فى الصومال والسودان وأفغانستان والعراق ولبنان وفلسطين - وفى كل حالة يقدمون المال والأسلحة لفصيل ليقاتل فصيلا آخر. وبينما أكتب هذا، يستعد حزب الله لاحتمال تجدد القتال مع إسرائيل، وقد وصلت سوريا وإيران إلى استنتاج أن الخطر حقيقى ووشيك وهما تستعدان له.



حين تبدأ كل الأطراف فى رؤية حتمية الصراع، يتحقق حينئذ (المحتوم). إن الأمريكان مولعون بمقارنة الوضع فى المنطقة بسنوات الثلاثينيات وصعود الشمولية: وقد تكون أوروبا عام ١٩١٤ تشبيهًا جيداً، حيث بلغت الأوضاع الآن مبلغا بحيث يمكن لأى واقعة مفاجئة أن تشعل سلسلة من الأحداث قد تكون السيطرة عليها خارج قدرات حتى القوى العظمى فى المنطقة.. فى الماضى تسببت حادثة سيارة فى انطلاق الانتفاضة الأولى وحريق فى سينما فى إطلاق الثورة الإيرانية وهى نتائج لم يكن يتوقعها أحد.

إسرائيل أيضا غائبة عن الوضع فهى تعتقد أن الصراع الفلسطينى سوف يستمر وأنها سوف تستمر كذلك فى التمتع باقتصاد مزدهر وتجارة سياحة رائجة.

وقد سلم الإسرائيليون بطريقة العيش فى ظروفهم الحالية: الحياة مستمرة، كما يفترضون بتفاؤل. فى كتاب (فشل تحقيق السلام) الذى يشرح التكلفة الإنسانية والسيكولوجية للاحتلال والعنف طويل المدى. تحذر سارة روى قائلة:

قبل أوسلو كان هناك اعتقاد بين الإسرائيليين أن السلام والاحتلال يتناقضان ولكن هذا قد تغير.

فى السنوات الأخيرة بدأ المزيد من الإسرائيليين يستفيدون من الاحتلال. حياتهم على سبيل المثال، صارت ايسر بواسطة شبكة الطرق الواسعة التى تربط بين مستوطنات الضفة الغربية وبالاقتصاد المطور..

هكذا فقد خف شعور الإسرائيليين بعدم الارتياح من الاحتلال فى الوقت الذى أصبح فيه الاحتلال أكثر قمعا واضطهادا. إن هذا التناقض خطر وغير مقبول.

تحذير روى يأتى فى الوقت المناسب. من الممكن توقع أن يزداد تطرف أعداد كبيرة من المواطنين الفلسطينيين فى إسرائيل إضافة إلى بقية الشعب الفلسطينى.

وقد يختفى أصدقاء إسرائيل (المعتدلون) بين قادة العرب. وقد تجابه إسلاميين أيضا ليس فقط فى الحكومة الفلسطينية ولكن على الحدود الأردنية والمصرية أيضا:

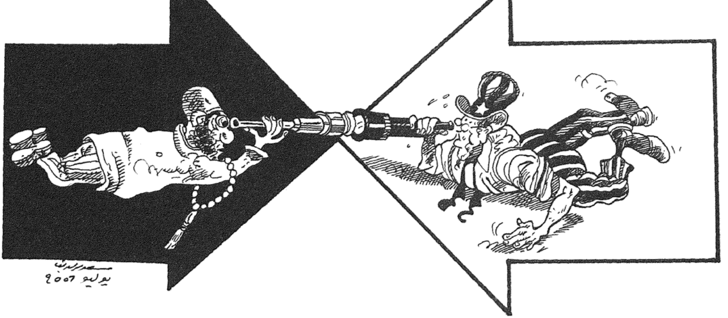
وإذا وقع القتال مع إيران، فهو قد ينتهى بكسح الكثير من إنجازات المنطقة.

إن هذا التوقع قد لا يقلق نوم الأوروبيين الذين لا يأخذونه بجدية، حتى لو كان سجلهم فى قراءة الأحداث فى المنطقة أقل مما توحى به الأمور. ولكن هذه هى السيناريوهات التى يأخذها الإسلاميون فى المنطقة فى الاعتبار.

علينا أن نأمل - وهذا قد يكون كل ما نقدر عليه - أن تتمكن الحركات الإسلامية المعتدلة من الإبحار فى هذه الأوقات المضطربة، رغم محاولات أوروبا لمنع الإسلام السياسى وهو التيار الإقليمى المهيمن الآن، من إعادة تشكيل المجتمعات الشرق أوسطية.

وهذه المحاولات تفتح المجال، ليس للعلمانيين المعتدلين الموالين للغرب الذين يسعى الأوروبيون لتمكينهم، ولكن أيضا لأولئك الذين يؤمنون بأنك إذا أردت بناء مجتمع جديد، عليك أن تنسف القديم. ■

أمريكا والإسلاميون



القيم مقابل المصالح!

■■ تعد مشاركة الأحزاب الإسلامية فى العملية الديمقراطية فى الدول العربية إحدى القضايا المحورية للديمقراطية ومناقشات إحلالها التى تدور الآن داخل دائرة مروجى الديمقراطية فى المنطقة، وكذلك فى العواصم والساحات الأكاديمية العربية. لعدة عقود، كان يجرى إقصاء الإسلاميين عن المشاركة فى مؤسسات الدولة، أو أنهم كانوا يختارون ذلك بمحض إرادتهم. ولم تحبذ كل من القوى الدولية ومروجى الديمقراطية إدماج الإسلاميين، ولم يفعلوا شيئا للتشجيع على مشاركتهم. وقد عارضت الولايات المتحدة عموما - بما لها من تاريخ طويل من التدخل فى المنطقة وعلاقات صداقة مع العديد من الأنظمة العربية وكذلك مصالح حيوية على المحك - عارضت مشاركة الإسلاميين فى العملية الديمقراطية خوفا من سيطرتهم على حكوماتهم.

وللمفارقة، فإن هجمات الحادى عشر من سبتمبر الإرهابية فتحت عيون مروجى الديمقراطية - بمن فيهم أولئك الموجودون فى الولايات المتحدة - على المخاطر التى تشكلها الأنظمة المستبدة على الأمن الدولى. وقد توصل العديد من صناع السياسة والمراقبين الأجانب إلى الاعتقاد بأن السياسات الرديئة والاقتصاديات الفقيرة والتخلف والأنظمة السياسية المغلقة تشكل أفضل الظروف لتجنيد الإرهابيين من الشباب. وعلى ضوء ذلك، نظر إلى غياب الديمقراطية باعتباره تهديدا للأمن الأمريكى والمصالح الأمريكية.

ومن ناحية أخرى، ازداد اهتمام الإسلاميين بالمشاركة فى الانتخابات السياسية. وهم يدركون أن كل الظروف قد اتحدت ضد الحركات الإسلامية فى فترة ما بعد الحادى عشر من سبتمبر. إن أفضل وسيلة لتجنب الغضب العالمى هى تحقيق الشرعية من خلال الانتخابات. وقد فعلوا ذلك فى العديد من الدول. ومع ذلك، تبقى حقيقة أن الإسلاميين يمثلون القوة المعارضة الحيوية الوحيدة فى الأنظمة غير الديمقراطية. وفى النهاية، فإن هناك إدراكاً متزايداً أن إحلال الديمقراطية الحقيقية فى الدول العربية لا يمكن أن يتم دون ضم الأحزاب السياسية الإسلامية.

ومع ذلك، فإن هذا الإدراك لم يترجم إلى سياسات. فعلى سبيل المثال، مازالت الولايات المتحدة تعارض ضم الإسلاميين فى العملية الديمقراطية. وما زال عدد كبير من المنظمات الإسلامية مدرجا على لائحة وزارة الخارجية الأمريكية للجماعات «الإرهابية». والغلطة الكبرى لصناع السياسة الأمريكيين هى «الافتراض بأن أى وكل جماعة إسلامية تؤمن بالعنف بالضرورة أو تأخذ منحى القاعدة».

إن الرفض الأمريكى للإسلاميين يضيف إلى النظرة السلبية لسياسات الولايات المتحدة فى المجتمعات العربية وغيرها، ويضعف أى إمكانية لتحقيق عملية ديمقراطية حقيقية فى منطقة عانت كثيرا من الاستبداد وغياب الحريات الأساسية. إن الحديث عن عدم توافق الإسلام مع متطلبات الحداثة، واستغلال الإسلاميين للديمقراطية كوسيلة، ووقوف الحكومات الإسلامية فى وجه الأعراف الدولية، يضيف إلى الصورة المتدهورة للديمقراطية فى المنطقة. وينظر المجتمع العربى إلى الولايات المتحدة باعتبارها أسوأ مروج للديمقراطية.

ينظر التحليل التالى إلى رفض الولايات المتحدة للجماعات الإسلامية فى ثلاث دول محددة باعتباره انعكاسا لصورة عامة للسياسة الأمريكية فى المنطقة. ولذلك ستكون لبنان ومصر وفلسطين هي بؤرة المناقشة. وبالإضافة لسوريا والأردن، فإن تلك الدول الثلاث تشكل وحدة جغرافية تقع تماما فى قلب الصراع العربى-الإسرائيلى. ومع ذلك فقد تم استبعاد سوريا والأردن من التحليل فى هذا المقال لعدد من الأسباب الرئيسية. أولا: إن عملية صنع السياسة الخارجية فى الأردن لا تتم بتكليف من الحكومة وإنما من قبل ملكية دستورية قوية للغاية، ولن يؤدى أى تغيير فى الحكومة إلى تحول جذرى فى سياسات الأردن تجاه العالم أو المنطقة. ثانيا: إن مشاركة الإسلاميين فى الانتخابات السورية ليست أمرا مطروحا لأن الديمقراطية والانتخابات هناك غير واردتين. وعلى العكس من ذلك، فقد شارك الإسلاميون، فى الدول الثلاث المذكورة، فى الانتخابات وتمكنوا من تحقيق بعض النجاح فيها. ففى إحدى تلك الدول شاركوا فى الحكومة (لبنان)، وفى دولة أخرى شكلوا وحدهم أول مجلس وزراء إسلامى خالص فى العالم العربى (فلسطين)، وفى الدولة الثالثة احتلوا ربع مقاعد البرلمان ومن المحتمل أن يزيدوا من تواجدهم فى الانتخابات القادمة (مصر). والأهم من ذلك، أن من المتوقع أن تؤدى مشاركة الإسلاميين فى الدول الثلاث المذكورة إلى تغيير - ولو طفيف - فى السياسة الخارجية. وربما تكون تلك التغييرات جوهرية فى إحدى تلك الدول على الأقل.

إن النظر إلى السياسة الأمريكية لإحلال الديمقراطية فى الشرق الأوسط

عاطف أبو سيف

بترتيب خاص مع:
Arab Insight

ترجمة: عادل فتحى

الرفض الأمريكي للإسلاميين كحزب الله وحماس والإخوان المسلمين يضيف إلى النظرة السلبية لسياسات الولايات المتحدة في المجتمعات العربية وغيرها، ويضعف أي إمكانية لتحقيق عملية ديمقراطية حقيقية في المنطقة

باعتبارها رفضا أمريكيا عاما للإسلاميين في العملية السياسية العربية ليس بالأمر الدقيق. وبدلا من ذلك، أرى هنا أنه من الممكن فهم السياسات الأمريكية بصورة أفضل من خلال دراسة سياق كل حالة بمفردها. ويجب أن تتجاوز المناقشة الجدل الدائر في كل مكان بأن هناك رفضا ثقافيا للإسلام، أو أن الإسلام «يتصارع» مع الأنظمة التحررية أو القيم أو الحضارة الغربية. سوف أقصر هذه المناقشة على الموقف الأمريكي تجاه حزب الله في لبنان والإخوان المسلمين في مصر وحماس في فلسطين. وتلك الجماعات الثلاث هي الأحزاب والحركات الإسلامية الأكثر بروزا في دولهم. بل إن كلاً منها لديها بعض الخبرة في المشاركة في انتخابات حديثة (لم تشارك جماعة الجهاد الإسلامي - على سبيل المثال - في الانتخابات العامة في فلسطين. وكذلك لم تفعل ذلك بعض الحركات الجهادية في مصر).

حزب الله: تاريخ من الرفض

إن الولايات المتحدة لا ترفض حزب الله فقط كقوة سياسية في النظام اللبناني، ولكنها تنظر إليه أيضا كهدف محتمل لهجوم أمريكي. إن علاقة حزب الله بالولايات المتحدة ترجع لتاريخ من الاستفزاز المتكرر. ففي عام ١٩٨٣ قتل في بيروت ٢٤١ من مشاة البحرية الأمريكية - كانوا يشاركون في قوة سلام متعددة الجنسيات - بواسطة مفجر انتحاري. كما وقعت انفجارات بالسفارة الأمريكية في بيروت عامي ١٩٨٣ و١٩٨٤ (ذلك بخلاف بعض الأعمال التي اتهم حزب الله بالترتيب لها مثل اختطاف طائرة تي دبليو إيه TWA رقم ٨٤٧ ومقتل سائق البحرية الأمريكي عام ١٩٨٥). وكان مشتبها في قيام حزب الله بدور في تلك الأحداث. وكما علق «دانيال بايمان Daniel Byman» قبل ١١ سبتمبر بوقت طويل، فإن «حزب الله استحق أن يفخر بأن يكون على رأس مخاوف المسئولين عن مكافحة الإرهاب في الولايات المتحدة» (أعلن بوش - على سبيل المثال - أن أي حرب ضد الإرهاب يجب أن تتضمن حزب الله. بل إن بعض المسئولين الأمريكيين صنفوا حزب الله كالفريق (أ) من الإرهابيين بينما القاعدة كالفريق (ب)). وليس من الممكن - بعد هذا القول - الفصل بين موقف الولايات المتحدة من حزب الله والإستراتيجية الأمريكية الشاملة في لبنان والشرق الأوسط.

أولا: إن حزب الله قوة ناشطة في السياسات اللبنانية. وهو يمثل شريحة كبرى من سكان البلاد الشيعة. وعلى الرغم من أن الشيعة غير ممثلين في البرلمان كما يجب، مقارنة بالطائفتين الكبيرتين الأخريين - المسيحيين والسنة - حيث يحتل الحزب ٢٧ مقعدا في البرلمان مقارنة بـ ٦٤ مقعداً للمسيحيين و٢٧ مقعداً للسنة، إلا أن مشاركتهم تعد حيوية للحياة السياسية في البلاد (يمثل الشيعة حوالي ٣٤٪ من السكان، بينما يمثل السنة حوالي ٢٠٪. ويمثل تعداد المسيحيين ٣٦٪ والدروز ٨٪ والطوائف الصغيرة الباقية الأخرى حوالي ٢٪. لقد ساهم الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان في زيادة سطوة دور الطائفة، بالنظر إلى أن الجنوب هو معقل الشيعة. وقد وفر الانسحاب الإسرائيلي من لبنان قوة دفع للطموحات السياسية الداخلية لحزب الله، حيث إنه كان يقود المقاومة العسكرية. وبعد مرور أقل من خمس سنوات بعد الانسحاب الإسرائيلي، وقع بالبلاد حادث سياسي آخر أثر على سياستها لعدة سنوات قادمة. فقد تم اغتيال «رفيق الحريري» رئيس الوزراء اللبناني السابق في ١٤ فبراير ٢٠٠٥، مما أدى إلى تقسيم البلاد إلى معسكرين سياسيين كبيرين: تحالف الرابع عشر من مارس ومعارضة الثامن من مارس. ويقود حزب الله المعسكر الثاني. ولم يكن الاضطراب الذي وقع في النظام السياسي اللبناني بمنأى عن عيون الولايات المتحدة.

من الواضح أن الولايات المتحدة لا تحبذ حدوث أي تغيير في النظام السياسي الطائفي في لبنان. فمثل تلك التغييرات - إن وقعت - ستعني زيادة مشاركة حزب الله في صناعة وصياغة السياسات اللبنانية. وبينما تتعامل الحكومة اللبنانية بحرص مع الصراعات الداخلية خوفا من اندلاع حرب أهلية مثل التي عانوا منها في الماضي، فمن المرجح أن يجلب مثل هذا الصراع تحولات جوهرية فيما يتعلق بتوزيع السلطة داخل المؤسسات اللبنانية. إن ما تخشاه الولايات المتحدة هو التغيير، وهي حريصة للغاية على التدخل في أي تغييرات تحدث. ولو فشل حزب الله في تحقيق مطالبه ونجحت حكومة «فؤاد السنيورة» في الاختبار، فسوف يؤثر ذلك بالسلب على موقف الحزب. ومن الواضح أن الولايات المتحدة تساند مطالب الحكومة بضرورة دمج ميليشيات حزب الله ضمن الجيش الوطني وألا يصادر أي حزب المستقبل السياسي للبلاد. ويعني ذلك عدم السماح للحزب بشن حرب ضد إسرائيل وقتما يحلو له.

ليس مستغربا أن الإدارة الأمريكية تؤيد تحالف الرابع عشر من مارس، بينما تساند سوريا مطالب معارضة الثامن من مارس. وقد صنفت الولايات المتحدة حزب الله منذ اللحظة الأولى كجزء من محور الشر الذي يضم سوريا وإيران. ويعتقد أن هذين البلدين هما المزود الرئيسي للحزب بالسلاح والمال، وهما - بالتالي - أقوى المصادر نفوذا في صناعة سياسته. وبالتالي فإن الحرب الأمريكية ضد النظامين الإيراني والسوري تعد حربا ضد حزب الله.

تفضل الولايات المتحدة ألا يتحكم حلفاء حزب الله في الحكومة اللبنانية، وذلك للعديد من الأسباب. فهناك قلق متزايد في العالم العربي السني فيما يتعلق بتنامي دور الشيعة في السياسات العربية. ولا تفضل الولايات المتحدة أو دول مثل مصر والأردن والسعودية ودول الخليج الأخرى مثل هذا السيناريو. فمن منظور العرب السنة، كانت الولايات المتحدة على خطأ حين مكنت للشيعة العراقيين وقلمت أظافر إخوانهم من السنة. من الواضح أن إقامة حزام شيعي يتكون من إيران والعراق والأجزاء الشمالية من السعودية والكويت وقطر وكذلك جنوب لبنان لن يحقق تطورا إيجابيا في سياسات المنطقة. وحلفاء أمريكا من العرب السنة واعون وحساسون تماما تجاه تلك المسألة. ولذلك فإن استقرار النظام اللبناني هو أحد المصالح الإقليمية والاهتمامات الأمريكية أيضا.

من المهم أيضا بالنسبة للولايات المتحدة أن حزب الله هو جزء لا يتجزأ ليس فقط من الحياة السياسية اللبنانية وإنما أيضا من الصراع في الشرق الأوسط. لقد حقق دور الحزب في مواجهة إسرائيل خلال العقود الثلاثة الماضية شعبية كبيرة له خارج لبنان. لقد كان توزيع صور السيد «حسن نصر الله» الأمين العام لحزب الله اللبناني في المظاهرات بشوارع القاهرة وعمان وغزة علامة احتجاج ضد السياسات الأمريكية في المنطقة.

والأكثر من ذلك أن حزب الله اعتبر الإخفاق الإسرائيلي في الحرب ضده عام ٢٠٠٦ هزيمة أيضا للنفوذ الأمريكي (اعتبرت الولايات المتحدة الحرب الإسرائيلية جزءا من «حربها العالمية على الإرهاب»). وبتعبير أكثر خشونة، فإن أمريكا وإسرائيل وجهان لعملة واحدة. فعلى سبيل المثال، يعتقد أحد زعماء الحزب أن أمريكا «تريد تحويل لبنان إلى مستعمرة وقاعدة سياسية وأمنية وعسكرية» (أمل سعد غريب، نفس المصدر السابق، صفحة ٨).

وفي النهاية، وكما يوضح التحليل السابق، فإن الرفض الأمريكي لحزب الله مرتبط بالسياسات الإقليمية والعالمية الأكثر شمولا. والتي تعتبر العلاقات والمواقف فيها مع الدول المجاورة أكثر العناصر حساسية على الإطلاق. وعلى ذلك، فالسؤال التالي يستحق اهتماما خاصا: هل سيحافظ الأمريكيون على نظرتهم إلى حزب الله باعتباره منظمة إرهابية لو أنه أبرم صفقة سلام مع إسرائيل؟ رغم أن الولايات المتحدة قد تفرض شروطا أخرى كثيرة، إلا أن المفكرين والمواطنين العرب يعتقدون أن صفقة سلام ستكون كافية لنقل حزب الله من معسكر الأعداء إلى معسكر الأصدقاء.

الإخوان المسلمون: رفض هادئ

تعد جماعة «الإخوان المسلمون» من بين إحدى أقدم جماعات المعارضة السياسية في مصر. وقد تمكنت الحركة التي تأسست عام ١٩٢٨ من النجاة من تقلبات العلاقة مع الأنظمة المصرية لما يقرب من ثمانية عقود. ورغم ثبوت تورط الحركة في بعض أعمال العنف في السابق، إلا أنها لا تسعى حاليا للوصول للحكم بالقوة. وقد نجحت الجماعة - المحظورة قانونا - أثناء الانتخابات البرلمانية لعام ٢٠٠٥ في الفوز بـ ٨٨ مقعدا من بين مقاعد البرلمان البالغ عددها ٤٥٤ مقعدا. لم تكن هناك أبدا علاقة ودية بين الجماعة والولايات المتحدة، على الرغم من بعض الأقاويل حول عقد مشاورات أو مباحثات بين دبلوماسيين أمريكيين في القاهرة مع زعماء للحركة. وهناك ثلاث مصالح تعزز الرفض الأمريكي للحركة: هي العلاقات المستقرة بين الولايات المتحدة ونظام مبارك، والمرور الآمن للنفط والمؤن من خلال قناة السويس والممرات التجارية الأخرى، وكذلك الحاجة لاستقرار شامل في المنطقة وعلاقات سلام مع إسرائيل.

إن مصر هي أكبر متلق عربي للمساعدات الأمريكية. وتبلغ المساعدة الأمريكية

لمصر حوالى ٢ مليار دولار سنويا. وقد وصلت تلك المساعدة إلى ١.٩ مليار دولار عام ٢٠٠٢. و٢.٢ مليار دولار عام ٢٠٠٣، و١.٨٧ مليار دولار عام ٢٠٠٤ . ومن تلك المساعدات، فإن الدعم العسكرى السنوى ثابت عند ١.٣ مليار دولار. ومن المعتقد أن الإدارة الأمريكية فضلت - عبر سنوات طويلة - أن تساند أنظمة صديقة فى مصر بدلا من المقامرة على انتخابات حقيقية ونزيهة يمكن أن تأتى بزعماء جدد يعارضون المصالح الأمريكية فى المنطقة. ولذلك فإن الجهود الأمريكية لتحقيق تحول ديمقراطى فى مصر لم تلق قبولا على الإطلاق سواء من المعارضة الإسلامية أو النظام. ففى حين أن المعارضة الإسلامية تعى أنها لن تنال دعم الأمريكيين حتى لو فازت بالانتخابات، فإن النظام المصرى يدرك أن جهود إحلال الديمقراطية هى ببساطة مجرد وسيلة لممارسة ضغط على الحكومة للتنازل فيما يخص قضايا إقليمية معينة. وقد كتب المرشد العام للإخوان المسلمين أن الحركة تنظر إلى الولايات المتحدة باعتبارها الوريث للاستعمار الغربى، متهما واشنطون بعدم الجدية فى جهودها لإحلال الديمقراطية.

إن نظاماً صديقاً غير ديمقراطى هو أفضل من نظام ديمقراطى مزعج. وفى هذا الخصوص فإن سجل الولايات المتحدة فى مساندة أنظمة بعيدة عن الديمقراطية هو معبر تماما: وتتراوح الحالات من أمريكا اللاتينية إلى الشرق الأوسط. ولذلك، فحتى عندما تظهر الولايات المتحدة وغيرها من مروجى الديمقراطية الخارجيين الآخرين اهتماما، فإنهم يقصرون تدخلهم - فى مصر - على إصلاح الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم، دون اعتبار للأحزاب السياسية الأخرى الموجودة.

ومع ذلك، فيجب ألا ننسى فى خضم هذا التحليل أن مصر ربما كان لها وضع فريد. فواشنطون لا تستطيع ولا ترغب فى الإسراع بإحلال ديمقراطية حقيقية فى أكبر دولة عربية والإطاحة بنظام يعد من حلفائها فى المنطقة. إن جزءا كبيرا من تأمين إمدادات النفط يعتمد على مصر. إن استقرار النظام السياسى المصرى يعنى تأمين إمدادات النفط عبر قناة السويس. وربما لا تستطيع الولايات المتحدة قبول نظام قد يبتز المجتمع الدولى من خلال معاملة تمييزية فيما يتعلق بمرور المؤن من خل الناة.

والأكثر من ذلك أن مصر هى أكثر الدول العربية تأثيرا فى خضم الصراع العربى-الإسرائيلى. وقد عارض الإخوان المسلمون اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل. كما أنهم يعارضون تطبيع العلاقات بين الدولتين. وربما تدعو الحركة - إذا ما هيمنت على السلطة التشريعية أو حتى مؤسسة الرئاسة - إلى تعليق المعاهدة. وليس ذلك ببعيد تماما عن تفكير البيت الأبيض أو وزارة الخارجية.

رغم ذلك، لم يلجأ الإخوان المسلمون أبدا لاستغلال وضعهم هذا لإثارة الإضطرابات والشغب فى المدن. وبدلا من ذلك، ركزت الحركة خلال العقد الأخير على القضايا الداخلية مثل الإصلاح السياسى والحقوق المدنية والحريات العامة والخدمات الاجتماعية. ورغم أن الحركة تعارض السياسات الأمريكية فى المنطقة وتشارك غالبية العرب الاعتقاد بأن الولايات المتحدة ليست وسيطا نزيها فى الشرق الأوسط (وإنما تنحاز لإسرائيل)، فإنها لا تعتبر واشنطون عدوا. ومبدئيا، فإن الحركة لن ترفض دعوة من واشنطون للمحادثات أو المشاورات.

وهناك أيضا قلق متزايد فى الدوائر الأمريكية حول ضرورة التصالح مع الإسلاميين فى مصر. فاحتمال أن يصبحوا جزءا من النظام يبدو حقيقة واضحة. ومن جهة أخرى، فإن تشجيع النظام على قمعهم سوف يضر بصورة البيت الأبيض - المتصدعة بالفعل - كمروج للديمقراطية. إن مشاركة الولايات المتحدة ستكون ضرورية لتشجيع الاندماج السلمى للحركة فى الحياة السياسية. وستؤدى مشاركة الحركة إلى انتهاجها خطا أكثر عقلانية. وفى المقابل، قد يؤدى ذلك إلى جعل الحركة أكثر عصرية ومرونة فى معالجتها للقضايا العالمية والداخلية. ويعد حزب العدالة والتنمية التركى نموذجا للخط المفضل للحركة.

إن الإدارة الأمريكية لا تستبعد احتمال صعود الإخوان المسلمين للهيمنة على الحياة السياسية المصرية، وليس من الحكمة أن يستبعدوا ذلك. ورغم أن الإدارة لا ترحب بذلك، فإنها ستكون جاهزة للتعامل مع الحقائق الجديدة حال وقوعها. والحركة - بلا شك - هى أكبر معارضة سياسية مصرية والأعمق جذورا. ولذلك فلن يكون من المستغرب أن تقرر الولايات المتحدة - فى مرحلة ما - الدخول فى حوار مفتوح مع الحركة حول مستقبل البلاد. وبكل تأكيد، سوف تطفو على السطح قضايا رئيسية مثل العلاقات مع إسرائيل والموقف من اتفاقيات كامب ديفيد ووجهات النظر حول حل دائم للصراع العربى-الإسرائيلى. وسوف يواجه الإخوان المسلمون المصريون نفس الأسئلة التى واجهتها حماس، الجناح الفلسطينى للإخوان المسلمين. يجادل البعض أن القضايا السياسية والعلاقات مع إسرائيل لن تشكل أهمية كبرى للإخوان المسلمين وأن الحفاظ على نظامهم سيكون الأكثر أهمية بالنسبة لهم.

حماس: الشروط أولا

لم تواجه أى حركات إسلامية فى الدول العربية نفس القدر من الضغط الذى واجهته حماس. لقد شكلت حماس أول حكومة إسلامية خالصة فى العالم العربى، بعد سيطرتها على المجلس التشريعى الفلسطينى عقب انتخابات يناير ٢٠٠٦، وقد حققت الحركة - التى ظهرت عام ١٩٨٧ - شعبية متزايدة فى الشارع الفلسطينى من خلال مشاركتها فى الصراع الوطنى ضد الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين. وعارضت حماس منذ اللحظة الأولى معاهدة السلام بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل وأنكرت شرعية السلطة الوطنية الفلسطينية لأنها نشأت نتيجة للمعاهدة مع إسرائيل.

على الرغم من أن واشنطون صنفت الحركة باعتبارها «إرهابية»، وأن المحادثات والحوار الرسمى مع الحركة محرم قانونا، فقد سمحت الإدارة الأمريكية لبعض عملاء وكالة الاستخبارات المركزية والدبلوماسيين السابقين بلقاء ممثلين عن حماس. وقد تمت لقاءات على مستوى منخفض مع حماس عام ١٩٩٣، وفى عام ٢٠٠٤، التقى مبعوث أمريكى سرا مع زعماء حماس فى غزة. وتمت لقاءات بين الجانبين فى بيروت عام ٢٠٠٥، من الواضح أن واشنطون كانت تستكشف السبل لترويض الحركة. وهذا هو ما يشير إليه تهكما أحد الكتاب العرب عندما كتب عن «احتواء وترويض حماس عن طريق إشراكها فى السياسات اليومية».

إن القوة الرئيسية وراء رفض الولايات المتحدة لحماس تستند إلى لجوء الأخيرة للعنف ضد إسرائيل، من خلال مهاجمة المدنيين بواسطة التفجيرات الانتحارية وقصف القرى الإسرائيلية على طول حدود قطاع غزة بالصواريخ صغيرة الحجم. ولم تصدر حماس عملياتها على الإطلاق خارج حدود فلسطين تحت الانتداب. كما أنها أكدت دائما أن عدوها الوحيد هو إسرائيل وأن هدفها الرئيسى هو تحرير الوطن وإقامة الدولة، وليس أكثر من ذلك. ومع ذلك، لا تستخدم الحركة لهجة ودية عند الإشارة إلى الولايات المتحدة، على الرغم من أنها لم تعتبرها أبدا عدوا لها. وكان ينظر دائما إلى موقف الولايات المتحدة ورفضها لحماس من قبل الدائرة الداخلية للحركة والمجتمعات العربية الأكبر باعتبارها إحدى إستراتيجيات الإدارة الأمريكية لمساندة إسرائيل والدفاع عنها. وقد صنفت وزارة الخارجية الأمريكية معظم حركات المقاومة الفلسطينية - بما فيها الجناح العسكرى لمنظمة «فتح» التى يترأسها «عباس» والمسماة بـ «كتائب الأقصى» - باعتبارها «إرهابية». وكما نشر فى نشرة أخرى يصدرها نفس مركز الأبحاث التابع لحماس المذكور آنفا، فإن الرفض الأمريكى لحماس هو تعبير آخر عن الرفض الأمريكى للحقوق الفلسطينية. عندما أعلنت حماس فجأة - وإن كان ذلك متوقعا - عن نيتها المشاركة فى الانتخابات الوطنية فى يناير ٢٠٠٣، عارضت الولايات المتحدة تلك الخطوة وعبرت عن مخاوفها من مشاركة ما تعتبره «جماعة إرهابية» فى عملية ديمقراطية. وقد اشترطت على الحركة نبذ العنف كى تشارك فى الانتخابات. وبعد تدخل الرئيس محمود عباس سمح لحماس بتقديم مرشحيها للانتخابات. ولم يتوقع أحد فى ذلك الوقت - بما فى ذلك زعماء حماس أنفسهم - أن تهيمن الحركة على أغلبية المجلس التشريعى. ولكن هذا ما حدث. وكان المأزق بالنسبة للولايات المتحدة أن حماس وصلت للحكم من خلال انتخابات راقبها المجتمع الدولى. وبذلك فإن الحكومة الحالية تقودها جماعة تصنفها الولايات المتحدة كإرهابية.

كان السبيل أمام واشنطون للخروج من المأزق هو الترتيب لفرض عقوبات دولية ضد حكومة حماس، بداية بقطع المساعدات الأجنبية الدولية ووقف الاتصالات الدبلوماسية على كافة المستويات، والأهم من ذلك فرض مجموعة من الشروط يجب على الحركة الوفاء بها قبل رفع العقوبات. وقدمت اللجنة الرباعية للشرق الأوسط، المكونة من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى وروسيا والأمم المتحدة، إلى حماس ثلاثة شروط. أولا: يجب أن تعترف الحركة بدولة إسرائيل. ثانيا: يجب أن تتخلى عن العنف كوسيلة للعمل السياسى. ثالثا: يجب أن تقر معاهدات السلام المبرمة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. كان من المعتقد أن تؤدى المصاعب الاقتصادية الناتجة عن العقوبات إلى اضطرابات اجتماعية تدفع الحكومة إلى تغيير موقفها. وخلال الشهور الأحد عشر لحكومة حماس، لم تقبل الحركة بأى من تلك الشروط

(استقالت الحكومة فى ١٥ فبراير ٢٠٠٧).

كان متوقعا ألا تستسلم حماس بسهولة وتلتزم بالشروط الدولية. ووجهة النظر الأمريكية فى هذا السيناريو أن حماس، وإن كانت قد فازت فعلا فى الانتخابات، فإنها لن تتمكن من الحكم. وبمعنى آخر، فإن حماس لم تطرد من الحكومة بسبب رغبة الولايات المتحدة فى ذلك، وإنما لأن الحركة الإسلامية لم تحقق نجاحا فى الحكم. عندما يتوقف انسياب النقود من الخارج وتجعل الصعوبات الاقتصادية حياة الشعب غير محتملة، فيجب أن تتوفر للحكومة عندئذ المهارات السياسية لتأمين حياة أفضل لشعبها. ومن هذا المنظور، فقد حقق أول اختبار لحكومة عربية إسلامية فشلا ذريعا. بل إنه لن يتيسر للأحزاب الإسلامية الأخرى أن تدعى قدرتها على تحقيق ما هو أفضل. إن تلك المفاهيم سوف تؤثر على خيارات الناخبين. لقد كتبت مطبوعة استشهدنا بها آنفا عن حماس تقول إن الولايات المتحدة ليست مهتمة بنجاح التجربة «الديمقراطية» الفلسطينية والتى تعنى «نجاح دولة إسلامية أصولية». وكما تستطرد المطبوعة، فإن ذلك يعد ضد المصالح الأمريكية فى المنطقة.

ومن جهة أخرى، لو قبلت حماس الشروط الدولية، فإن النتائج كان ستكون لصالح الأمريكيين. فالقبول سيؤدى إلى كثير من التحولات فى المواقف السياسية للحركة. وستكون التجربة الأمريكية لترويض حماس سابقة لترويض أحزاب إسلامية أخرى. وبمعنى آخر، لو قبلت حماس شروط الاعتراف بإسرائيل والانضمام لعملية السلام ونبذ العنف، فلم يكن الصراع فى الشرق الأوسط وما يتعلق به من قضايا ليبقى عقبة فى طريق العلاقات مع الأحزاب الإسلامية الأخرى فى الدول العربية المجاورة. بل إن دولا إسلامية أخرى غير عربية - إيران بالتحديد - لن تتوفر لها الذريعة للتدخل فى المنطقة. فرغم كل شىء، لا يمكن أن يكون المرء كاثوليكيا أكثر من البابا.

رغم رفض حماس الظاهر لأخذ المطالب الدولية فى الاعتبار، فقد تحولت الحركة تدريجيا نحو قصر الهدف من كفاحها على مجرد إقامة دولة فى الضفة الغربية وقطاع غزة. وقد تم توثيق هذا التحول فى المبادرة الوطنية التى تقدم بها الأسرى وصدقت عليها الحركة. وكما ذكر «خالد حروب» (٢٠٠٦، حماس جديدة من خلال وثائقها الأخيرة A New Hamas through Its New Documents، مجلة الدراسات الفلسطينية Journal of Palestine Studies, ١٤٠ (٤)، ٦-٢٧) بعد قراءة ثلاث وثائق حديثة هامة للحركة. كان ذلك تراجعا جوهريا عن موقفها الأصلى. ورغم أن حماس لم تف بالشروط المطلوبة، إلا أنها توصلت إلى نقطة تتحقق فيها المصالح وراء تلك الشروط: وهى القبول أساسا بحل يتضمن دولتين. وقد وافقت حماس ضمنيا فى اتفاق مكة بشأن حكومة الوحدة الوطنية المبرم فى الثامن من فبراير ٢٠٠٧ على إقامة دولة فى الضفة الغربية وقطاع غزة متاخمة لدولة إسرائيل.

القيم مقابل المصالح

إن رفض الولايات المتحدة للأحزاب السياسية الإسلامية فى الدول الثلاث المذكورة يعكس نمطا شائعا. فقضية الأمن والاستقرار السياسى تحتل فى كل من تلك الدول الثلاث الأولوية القصوى بالنسبة للإدارة الأمريكية. ويرتبط الانحياز للإسلاميين أيضا بقضايا الأمن فى المنطقة بما فيها الصراع فى الشرق الأوسط (حماس وحزب الله و، بقدر أقل، الإخوان المسلمون) وإمدادات النفط (الإخوان المسلمون)، مما يفسر جزئيا تردد الإدارة فى قبول مشاركة الإسلاميين فى العملية الديمقراطية. ومن المفارقة أن تلك هى نفس الأسباب وراء عدم ثقة الإسلاميين فى السياسات الأمريكية فى المنطقة.

خلاصة الأمر أن الولايات المتحدة أبدت فى مناسبات بعينها استعدادا للتعاون مع الأحزاب الإسلامية عندما كان ذلك يحقق مصالحها. وقد ساندت الإدارة الأمريكية «إبراهيم الجعفرى» رئيس الوزراء العراقى الأسبق والذى ينتمى إلى حزب الدعوة الإسلامى. وفى الوقت نفسه كانت واشنطون تختبر طرقا لترويض الإسلاميين. وقد شاركت حماس وحزب الله - بالإضافة لأحزاب إسلامية أخرى - فى محادثات مع عملاء سابقين لوكالة الاستخبارات المركزية ودبلوماسيين بريطانيين سابقين، وذلك فى مارس عام ٢٠٠٥ (الحزبان الإسلاميان الآخران اللذان شاركا هما الجماعة الإسلامية اللبنانية (سنية) والجماعة الإسلامية الباكستانية).

إذا كانت الديمقراطية فى المنطقة حيوية للأمن القومى الأمريكى - كما تعلمنا فى ١١ سبتمبر - فيجب إذن تشجيع الأحزاب الإسلامية على الانضمام للعملية السياسية. ولا يمكن أن تكتمل عملية إحلال لديمقراطية حقيقية فى العالم العربى بدون مشاركة فعلية للأحزاب الإسلامية. لقد أدت سنوات طويلة من القمع والاعتقال إلى نمو شبكة إسلامية قوية زودت جماعات العنف بالمؤيدين. ولمواجهة ذلك التاريخ، يجب انضمام الإسلاميين للعملية السياسية ويجب أن تكون لهم الحرية الكاملة للمشاركة فى مؤسسات الدولة.

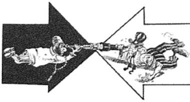
إن مشكلة واشنطون الحقيقية هى الجمع بين مصلحتين تبدوان متناقضتين: أمنها القومى واشتراك الإسلاميين فى سياسات المنطقة. فبعد مرور حوالى عام فى السلطة تقدم تجربة حماس درسا مفيدا يمكن أن تتعلم منه الولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال، سوف تتعلم الأحزاب الإسلامية - إذا ما وصلت للسلطة - أن تتصرف وفقا لأعراف معينة تضمن استمرار نظمها فى النظام الدولى. وبعبارة أخرى، إذا كان الدعم الداخلى ضروريا للفوز فى الانتخابات، فإن العوامل الخارجية - ومن بينها العلاقات مع القوى الإقليمية والدولية - ستكون أكثر أهمية بعد ضمان الوصول للسلطة. كان ذلك واضحا فى الدروس التى تعلمتها حماس. ومع ذلك، فمن الملاحظ أنه - بخلاف التجربة الفلسطينية - لا تعتمد كل الدول العربية على المساعدات الخارجية، والتى لم تتمكن حكومة حماس من تأمينها من مصادر أخرى. ومع ذلك، فعندما أصبح الضغط الاقتصادى غير محتمل، لم تختر حماس التخلى عن رئاسة الوزارة وتفويض مستقلين أو خبراء محترفين للحكم، واختارت - عوضا عن ذلك - أن تساوم بمواقفها التى كانت - لوقت طويل - مقدسة ولا مراء فيها. وتمس تلك المواقف قضايا اعتبرتها الحركة منذ وقت طويل قيما مقدسة، مثل الأرض والدولة والعلاقة مع إسرائيل. وقد تلقت حماس النصح من كثير من المفكرين والمحللين العرب بالانسحاب من الحكومة إذا كانت تلك المواقف غير قابلة للتفاوض.

وعلى أية حال، فإن موقف الولايات المتحدة من الصراع العربى ـ الإسرائيلى، والدعم غير المحدود الذى تتمتع به إسرائيل من قبل واشنطون، لا يسبب القلق للإسلاميين فقط، وإنما أيضا للعرب التحرريين. فعلى سبيل المثال، شنت واشنطون مؤخرا حربا ضخمة وقامت بغزو دولة عربية (العراق) وتبدو مستعدة لضرب دولة مسلمة أخرى بسبب محاولتها الحصول على قدرات نووية (إيران). وبالإضافة لذلك، فإنها أيضا تساند إسرائيل ماليا وعسكريا ودبلوماسيا، على الرغم من رفضها الانصياع للكثير من قرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة واحتلالها أراضي تابعة لثلاث دول عربية وحيازتها لقدرات نووية. وقد توصلت «مارينا أوتاواى» فى ملخص لوجهة نظر فى الصحافة العربية إلى أنه لا يمكن النظر بجدية إلى الجهود التى تبذلها واشنطون، ما لم تجدد مساعيها لاستئناف عملية السلام فى الشرق الأوسط.

وعلى نفس المنوال، فإن وجود القوات الأمريكية فى العراق وتقسيم ذلك البلد يضر بالصورة الأمريكية، بما فى ذلك مصداقيتها كشريك سياسى ومروج للديمقراطية. وخلاصة القول أن على واشنطون أن تظهر مزيدا من المراعاة للقضايا الحساسة التى تهم الأحزاب الإسلامية والعرب على وجه العموم.

وفى النهاية، فإن موقف واشنطون من مشاركة الإسلاميين فى الحياة الديمقراطية فى الدول الثلاث يجب دراسته بعناية. فبقدر ما هناك بعد خارجى لعملية إحلال الديمقراطية، إلا أنها - إذا تمت بشكل سليم - عملية داخلية. إن تدخل واشنطون فى تفاصيل العملية الديمقراطية، وخصوصا دعمها لأحد الأحزاب مع مهاجمة الآخرين (الإسلاميين)، يضر بالعملية نفسها. ومن جهة أخرى، يجب أن يشعر الإسلاميون والتحرريون على السواء أن الولايات المتحدة مخلصة فى مساندتها لعملية إحلال الديمقراطية، وأن ذلك ليس استغلالا لإحدى وسائل السياسة الخارجية للدفع بأصدقاء أمريكا إلى الحكم.

فى هذا الخصوص، يجب أن تأخذ الولايات المتحدة فى الاعتبار أن نزع سلاح حزب الله هو مسألة لبنانية داخلية، وأن تحقيق نزع السلاح يرتبط بالتوصل إلى اتفاقيات سلام بين إسرائيل وسوريا ولبنان وبالمثل، فيجب ألا تتدخل واشنطون فى تفاصيل السياسات الفلسطينية. فالتوازن الداخلى بين حماس وفتح سيقرب بين موقفيهما، كما كان واضحا أثناء المفاوضات فى مكة. إن الولايات المتحدة تستحق الثناء لرغبتها فى إحلال الديمقراطية فى المنطقة عن طريق استعراض الإرادة السياسية. وبالمثل، فإن اندماج الإخوان المسلمين فى النظام المصرى يجب أن ينظر إليه بإيجابية. إن ذلك سيساعد فى تغيير مواقف الحركة تجاه القضايا العالمية والإقليمية. إن الجماعات الإسلامية لا تنكر عالمية القيم التحررية. ومع ذلك، فإنهم - مثل معظم إخوانهم العرب - يشعرون بعدم الراحة فى قبول عالمية المصالح الأمريكية. إن القيم يمكن أن تحقق مصالح مشتركة ولكن العكس ليس صحيحا. ■



المشهد على الجبهة المغربية!

محمد الغالى

■ شكل خروج العالم مع بداية عقد التسعينيات من مرحلة الحرب الباردة، التى تميزت بسيادة قطبين رأسمالى وشيوعى، بداية ظهور نمط جديد من العلاقات بين الدول ينبنى على منطق العلاقات التعاونية فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بدلا من العلاقات التنازعية والصراعية التى هيمن عليها منطق السباق نحو التسلح وسياسة تشكيل الأقطاب المعادية؛ فى المقابل تفجرت مجموعة من الحروب الأهلية التى كادت أن تتحول إلى حروب إقليمية كما حصل فى أفريقيا وكذلك أسيا وأوروبا. وقد ساعد هذا الوضع الدولى على بزوغ مجموعة من الحركات الاحتجاجية أو تقوية أخرى، خصوصا داخل الدول التى عرفت مشاكل على صعيد تدبير الحقوق السياسية والمدنية لمواطنيها، وتندرج ضمنها الدول العربية الإسلامية سواء فى المشرق أو المغرب.

أدى بزوغ الحركات الاحتجاجية وخاصة حركات الاحتجاج الدينى، التى اتخذت من الإسلام أساسا لبناء مشروعية (la légitimité) خطابها، إلى وضع مشروعية الحكام فى المحك، فقد اتهمت النظم الحاكمة على المستوى الداخلى بالفساد وعدم القدرة على مجاراة حاجيات ومتطلبات المواطنين، واتهمت على المستوى الخارجى بالتفريط فى دور الريادة الذى كانت تلعبه الحضارة العربية الإسلامية على المستوى الدولى مما قاد، من وجهة نظر تلك الحركات، إلى التفريط فى فلسطين وسقوط العراق تحت الاحتلال.

وقد قاد اختلال الوضع الداخلى لأغلب الدول العربية بسبب الصعود المتزايد لحركات الاحتجاج الدينى إلى تقوية مركزها، مما ساعدها على امتلاك قدرة التهديد المباشر لمصالح الدول الغربية المتهمة من قبلها بدعم قوى الاستكبار الداخلى، وانتقال تلك الحركات من مرحلة التهديد إلى مرحلة الدخول فى مواجهات مباشرة، سواء من خلال تنفيذ عمليات مسلحة مباشرة ضد المصالح الغربية، أو من خلال المشاركة المباشرة فى تجنيد متطوعين للقتال فى الحروب التى تقودها هذه الدول سواء فى أفغانستان أو فى العراق أو فى الصومال أو فى الشيشان.

ونجم عن هذا الوضع تفجر خطاب الاستئصال التام والاستئصال المضاد بين تلك الحركات التى تتبنى مرجعية فكرية دينية بالأساس من جهة، وبين الدول الغربية من جهة ثانية، وهو خطاب وصل ذروته فى ظل إدارة الرئيس جورج بوش الابن[1] إذ كمنت نتيجته الأساسية فى سيادة خطاب «اللا أمن» للجميع مما طرح سؤالاً: ما السبيل وما تكلفة الخروج من هذا الوضع اللا مستقر؟. وطُرح فى هذا السياق أن الحل يكمن فى ضرورة فتح خط أخضر بين الغرب وبين الحركات الإسلامية المعتدلة، مما ترتب عليه ظهور موقف إيجابى للولايات المتحدة من بعض الإسلاميين المعتدلين مثل «حزب العدالة والتنمية» فى المغرب، و«جبهة العمل الإسلامى» فى الأردن.

ويركز هذا المقال على تناول حالات القبول والرفض الأمريكى للحركات الإسلامية فى منطقة المغرب العربى، من خلال محاولة الإجابة على التساؤلات الثلاثة التالية:

١. ما هى دوافع قبول الولايات المتحدة للحركات الإسلامية فى بعض الدول العربية دون غيرها؟ وما هى التكلفة السياسية لهذا القبول؟

٢ ـ ما هى الحدود الاستراتيجية للموقف الإيجابى الأمريكى من صعود بعض الحركات الإسلامية، أخذا بعين الاعتبار المرجعية الفكرية لهذه الحركات؟

٣ ـ إلى أى مدى ستتجاوب هذه الحركات مع الموقف الأمريكى الايجابى؟

وسيركز المقال على دراسة نموذجى «حزب العدالة والتنمية»، و«جماعة العدل والإحسان» فى المغرب، ونموذج «حركة النهضة الإسلامية» فى تونس، ونموذج «الجبهة الإسلامية للانقاذ» فى الجزائر.

أولا: الولايات المتحدة فى الخطاب المرجعى للإسلاميين

إن البحث فى مسألة القبول الأمريكى للحركات الإسلامية من عدمه يجب أن يسبقه البحث فى سؤال رئيسى هو: إلى أى حد تجد مبادرة القبول الأمريكى، فى حالة وجودها، تجاوبا وصدى فى الخطاب المرجعى للحركات الإسلامية؟

تستلهم الحركات الإسلامية فى دول المغرب العربى، وعلى غرار نظيرتها فى المشرق العربى، مرجعيتها الفكرية من مصادر الشريعة الإسلامية التقليدية المعروفة وهى القرآن والسنة النبوية والإجماع والقياس. ويكمن الخلاف الرئيسى بين تلك الحركات فى مناهج الاستلهام، وكيفية وحدود ترجمة هذه المصادر واقعا، وهو ما أدى بدوره إلى تصنيف تلك الحركات من زاوية هذا الاستلهام إلى تيارات سلفية وأخرى حركية، ومن زاوية ثانية إلى حركات راديكالية وأخرى معتدلة أو مهادنة.

فالأصول أو المرجعية الإسلامية لهذا الخطاب تدفع للوهلة الأولى إلى النظر لتلك الحركات وكأنها فى سلة واحدة، لكن أهمية التمييز تجد قيمتها فى توظيفات الخطاب: بمعنى هل يقوم الخطاب بتوظيف هذه الأصول بهدف البحث عن تناغمات بينها وبين الواقع المعاش؟ (الخطاب التوفيقى)؟ أم أنه يوظف هذه الأصول بصيغ ووصفات تجعل الواقع هو المُلزم بالتكيف والمسايرة مع المرجعية الخلفية الدينية (الخطاب السلفى المحافظ)؟ مما يسقط الخطاب فى وضع الأزمة، وهذا هو المعيار الأساسى للتمييز والكفيل بمساعدتنا على فهم مدى استعداد الحركات الإسلامية للتعاطى الإيجابى مع مبادرات القبول الأمريكية لهذه الحركات. ويمكن التمييز هنا بين نمطين من الخطاب الإسلامى داخل الحركات الإسلامية.

١. الخطاب الإسلامى السلفى المحافظ

ويمكن أن نطلق عليه أيضا «نظرية الرفض المطلق»، وينصب هذا الخطاب أساسا على التشبث الصلب بالتفسير الدقيق للنصوص الدينية، وبالتالى عدم القبول بالتفسيرات الواسعة أو الأكثر مرونة للنصوص، وعليه فإن كل الأشياء الخارجة عن التفسير الدقيق تعتبر أمورا ضالة وتسقط فى حكم البدعة، التى هى بحسب الحديث النبوى: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار». فالواقع يؤطره سلوك الفرد فى جماعة المؤمنين الذى يجب بدوره أن يخضع وجوبا لحكم النص الشرعى.

يتصور هذا الاتجاه أن البلاء والمصائب التى حلت بالأمة الإسلامية سببها هو زيغها بشكل أساسى عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وذلك بفعل الانكسارات التاريخية التى وقعت نتيجة تعرض الدول العربية الإسلامية

بترتيب مع:
Arab Insight



أدى تفجر الوضع إلى تطور اعتقاد لدى مجموعة من قياديى الجبهة فى الجزائر بأن الانتخابات، بالنظر إلى كونها صيغة توفيقية، لا تشكل بمفردها المدخل الأمين للتغيير

للاستعمار والتى يتحمل فيها الغرب عموما المسئولية المادية والأخلاقية. وعليه فإن الصراع مع الغرب من منظور هذا الاتجاه لا يمكن اختزاله فى نظرية مادية أو تقنية، بل هو مبنى على الصراع بين حضارة مسلمة وأخرى كافرة، ومادام الغرب يحتل أراضى المسلمين ومقدراتهم وخيراتهم الطبيعية والبشرية فإن جهاده بالكلمة والسلاح يعتبر فرض عين لا كفاية. ومن أبرز رواد هذا الاتجاه تنظيم القاعدة بزعامة أسامة بن لادن فى المشرق العربى، و«الجماعة السلفية للدعوة والقتال» فى الجزائر، والتى أعلنت فى ٢٦ يناير ٢٠٠٧ عن انضمامها إلى تنظيم القاعدة لتحمل اسم «تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامى»(٢).

وبهذا المعنى، فإن تبنى هذا الاتجاه نظرية استئصال الغرب من كل البلاد الإسلامية. عبر قتاله (جهاده) أو ضرب مصالحه الاقتصادية، أو نقل المعركة إلى أرضه بصفة مباشرة عبر عمليات جهادية من منظوره، وإرهابية من منظور الغرب، يجعل مبادرات القبول الأمريكية مخالفة للشرع ويجب رفضها وعدم التفاعل معها، بل يذهب هذا الاتجاه السلفى المحافظ إلى حد وصف المتجاوبين مع المبادرات الأمريكية بالمتواطئين والخاسئين(٣).

٢. الخطاب الإسلامى التوفيقى

يوصف الخطاب الإسلامى التوفيقى بالخطاب المعتدل أو بالخطاب الإسلامى الذى يتنازل عن العنف، مقابل الحوار والموعظة كسبيل لنشر أفكاره. ومن داخل هذا الخطاب، الذى يبحث عن الحلول التوفيقية فى شرعنة مبرر الوجود، يمكن التمييز فى دول المغرب العربى بين مستويين رئيسيين فى هذا الخطاب:

المستوى الأول: يمثله خطاب القبول بالآخر، أى القبول بقواعد اللعب التى يقوم عليها النظام السياسى القائم، عبر العمل جنبا إلى جنب معه فى المؤسسات السياسية القائمة، سواء فى صف الموالاة أو المعارضة كما هو الشأن فى المملكة المغربية بالنسبة لحزب العدالة والتنمية الذى حظى بالتمثيل داخل مجلس النواب خلال الولاية البرلمانية السادسة (١٩٩٧-٢٠٠٢). إذ لعب الحزب فى مرحلة أولى من تلك الولاية دور المعارضة النصوحة، بينما لعب فى مرحلة تالية من الولاية ذاتها دور المعارضة النقدية. ولعب الأدوار ذاتها خلال الولاية البرلمانية السابعة (٢٠٠٢-٢٠٠٧). ويحاول هذا الحزب من خلال خطابه وممارسته تكريس الانطباع بأنه حزب مدنى وليس دينيًا، رغم كونه يستلهم خلفيته من المرجعية الإسلامية، وأن هدفه هو المساهمة فى النهوض بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمواطنين(٤).

وفى صورة أخرى من نفس المستوى تبرز حركة النهضة التونسية التى تتبنى بدورها خطابا توفيقيا يعبر عن رغبتها الأكيدة فى الاشتغال من داخل المؤسسات السياسية القائمة، لكن رغبتها تصطدم بخيارات النظام السياسى القائم الذى يرفض رفضا مطلقا دمج الحركات الإسلامية فى الحياة السياسية الرسمية أو التمييز فيما بينها على أساس موقفها من استخدام العنف، حيث يتمسك بوضعها جميعا فى سلة واحدة. يتبنى خطاب هذه الحركة نمطين للاحتجاج يقومان على النزعة التوفيقية: يتمثل الأول فى معارضة النظام السياسى، بدعوى عدم انسجام توجهاته مع المعايير الأخلاقية الإسلامية (وهو النمط الدينى السلمى للاحتجاج)؛ ويتمثل الثانى فى معارضة النظام السياسى، بدعوى عدم التزامه بتطبيق مشاريعه التى يستلهمها من المشروع الحداثى فى بناء الدولة ورعاية المواطنين أى أنه يعارضه وينتقده من داخل مشروعه الحداثى (وهو النمط السياسى فى الاحتجاج).

وهكذا، يوصف الخطاب الإسلامى التوفيقى من خلال حزب العدالة والتنمية وحركة النهضة بالاتجاه «البراجماتى» داخل الحركات والتوجهات التى تشكل المرجعية الإسلامية منطلقا لها.

المستوى الثانى: تكمن أهمية توفيقيته فى نبذه للعنف وعدم تبنيه بشكل علنى كوسيلة للتغيير، فخطاب هذا المستوى لا يسلم بقواعد اللعب القائمة، مما يجعله لا يسلم بشرعية المؤسسات القائمة بشكل صريح، ويلجأ بدلا عنها إلى نقدها عبر أسلوب تقديم النصيحة لها (جهاد الكلمة)، كما هو الشأن بالنسبة لجماعة العدل والإحسان فى المملكة المغربية من خلال مرشدها العام السيد عبد السلام ياسين الذى قدم ثلاث رسائل نصحية إلى النظام: جاءت الرسالة الأولى فى سنة ١٩٧٤ تحت عنوان «الإسلام أو الطوفان»، وتضمنت دعوة صريحة إلى ضرورة رجوع النظام إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وإلا فستحل به الكارثة. وجاءت الرسالة الثانية بعنوان «رسالة القرن» (الهجرى) فى ١٩٨١، وأخيرا جاءت الرسالة الثالثة تحت عنوان «مذكرة إلى من يهمه الأمر»، وجهت نسخة منها إلى الديوان الملكى، ملخصها هو الدعوة إلى التوبة، وإعادة مال الأمة للأمة، وإقامة البيعة بناء على تعاقد بين الحاكم والمحكوم، وتطهير الإدارة من براثن الفساد لإعادة الثقة إلى الشعب، وإنقاذ البلاد من ثقل المديونية والانطلاق المشترك فى بناء مغرب الغد الذى يستجيب لتحديات المستقبل وتحديات المرحلة. وتظل هذه الجماعة كحركة سياسية اجتماعية احتجاجية معارضة لا تحظى بالاعتراف الصريح من طرف السلطة القائمة الأمر الذى يحول دون عملها المباشر من داخل المؤسسات الرسمية للدولة(٥).

يختلف فى هذا السياق وضع الجبهة الإسلامية للإنقاذ (S.I.F) عن الحركات السابقة فهى حزب سياسى جزائرى أنشئ فى شهر مارس من سنة ١٩٨٩ بعد التعديل الدستورى لسنة ١٩٨٨ الذى أدخل التعددية الحزبية. وتنتمى الجبهة تاريخيا إلى الحركة الإسلامية الجزائرية والحركة الوطنية التى عملت على تحرير الجزائر من وطأة الاستعمار وإقامة دولة مستقلة على أسس الإسلام، تسعى إلى إقامة نظام حكم مدنى تعددى يرتكز على مبدأ الحاكمية لله والسلطة للشعب. وقد خاضت الجبهة أول انتخابات محلية حرة عرفتها الجزائر فى سنة ١٩٩٠، حيث فازت فيها بـ ٨٥٣ بلدية من بين ١٥٣٩ بلدية أى بنسبة ٤٢,٥٥٪ و٣٢ ولاية من بين ٤٨ ولاية أى بنسبة ٦٦,٦٦٪. كما خاضت الانتخابات التشريعية الحرة التى أجريت فى الجزائر فى ٢٦ ديسمبر ١٩٩١، حصلت جبهة الإنقاذ فى الجولة الأولى منها على ١٨٨ مقعدا فى حين حصل حزب جبهة التحرير الحاكم على ١٥ مقعدا فقط، وحصل حزب جبهة القوى الاشتراكية على ٢٥ مقعدا. وتذهب بعض التقديرات إلى أنه كان بإمكان الجبهة فى حالة إجراء الجولة الثانية من الانتخابات الحصول على ٢٥٠ مقعدا من بين ٤٣٠ مقعدا، ولكن الجيش تدخل فى ١١ يناير ١٩٩٢، وتوقف المسلسل الانتخابى ليتم حل الجبهة فى مارس ١٩٩٢، وهو ما أدى إلى دخول الجزائر فى دوامة العنف والعنف المضاد، إذ أسست الجبهة جيشا خاصا بها وهو «الجيش الإسلامى للإنقاذ». وقد أدت تلك التطورات إلى ظهور حركات وجماعات أخرى أمنت بالعنف كسبيل وحيد للوصول إلى السلطة وتطبيق الشريعة الإسلامية كما هو الشأن بالنسبة للجماعة السلفية للدعوة والقتال.

وقد أدى تفجر الوضع إلى تطور اعتقاد لدى مجموعة من قياديى الجبهة بأن الانتخابات، بالنظر إلى كونها صيغة توفيقية، لا تشكل بمفردها المدخل الأمين للتغيير.

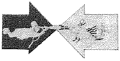
وهكذا، يتضح، استنادا إلى التصنيف السابق للحركات الإسلامية، أن الخطاب الإسلامى السلفى المحافظ يسير فى اتجاه تقوية ودعم مناعة الرفض تجاه مبادرات القبول الأمريكية، والتى لا تعدو من وجهة نظر هذا التيار مجرد تكتيكات لزرع الشبهة والفرقة بين أعضاء الأمة الإسلامية الواحدة. أما الخطاب الإسلامى التوفيقى، وبالنظر إلى أسلوبه البراجماتى الانتقائى، لا يرفض من الناحية العملية التعاطى الإيجابى مع مبادرات القبول الأمريكية، باعتبارها وسيلة للانفتاح على الآخر وتحقيق الفهم المتبادل والتواصل الذى يمكن أن يساعده على تبديد الشكوك والمخاوف التى ألصقت كأحكام قيمية على الحركة الإسلامية.

ثانيا: دوافع القبول الأمريكى لبعض الإسلاميين

تأتى مبادرة القبول الأمريكية لبعض الإسلاميين فى إطار سياق دولى، يمر بمخاض حقيقى، نتج عن تضارب المصالح حتى داخل الأيديولوجية الواحدة (الأيديولوجية الليبرالية). وفى هذا السياق، يمكن أن نعزو قبول الولايات المتحدة لبعض الإسلاميين إلى دوافع ذاتية وأخرى موضوعية.

١. الدوافع الذاتية للتقارب

تتعلق تلك الدوافع بالتصور الذى تنتجه الإدارة الأمريكية حول أهدافها ومصالحها القومية، وينبنى هذا التصور أساسا على قاعدة المبدأ الأمريكى: «ليس هناك صديق ليس هناك عدو بل هناك مصلحة دائمة». فالولايات المتحدة، وتحت تأثير الحفاظ على مصالحها الوطنية، أصبحت فاعلا رئيسيا فى قلب الإطار الجغرافى للدول العربية الإسلامية. ومن ثم فإن إيجاد صيغة للتعايش مع



مختلف القوى الفاعلة داخل هذه الدول تصبح مسألة تفرضها اعتبارات الحفاظ على مصالحها الوطنية. وفي ضوء الدور المتقدم والمتصاعد للحركات الإسلامية في المشهد السياسي العربي، خاصة على صعيد النتائج التي حققتها بعض تلك الحركات في الانتخابات (حالات اليمن، الكويت، الأردن، فلسطين، مصر، الجزائر والمغرب) يصبح تطوير سياسة أمريكية محددة إزاء تلك الحركات باعتبارها واحدا من الفاعلين السياسيين الذين لا يمكن تجاهلهم، مسألة مهمة.

ويكشف الواقع أن القوى الإسلامية أضحت رقماً لا يمكن تجاوزه أو إقصاؤه تأسيسا على نظرية العداء، بل إن العنصر «البراجماتي» الذي يشكل لب الفلسفة السياسية الأمريكية يفرض البحث عن صيغ وحلول توفيقية تتأسس على التفاهم حول المصالح المشتركة. ويقدم نموذج حزب العدالة والتنمية في تركيا للولايات المتحدة نموذجا مهما لإمكانية إعادة إنتاجه في دول عربية، كنموذج لحزب يستند إلى مرجعية إسلامية، ويعمل من داخل نظام سياسي يرفع شعار العلمانية كشرط أساسي للتناوب على السلطة. تكشف هذه التجربة عن قدرة عالية لحزب ذي مرجعية إسلامية على التفاهم والتعايش مع الآخر بعيدا عن نظرية الرفض المطلق، بل وإمكانية الالتزام بشروط أساسية تتمثل في الحفاظ على التزامات الدولة التركية تجاه حلف شمال الأطلسي، والحفاظ على علاقات متوازنة مع إسرائيل والتي تعتبرها باقي الحركات الإسلامية عدوا حضاريا وسبب البلاء الذي تعاني منه الأمة العربية الإسلامية وتعتبر الإدارة الأمريكية الراعي الأمين لها.

وبشكل ما يمكن القول أن هذه التجربة تمثل دافعا ذاتيا نحو أخذ المثال التركي كنموذج لإطلاق مبادرات تساعد على بناء إطار للتعامل المباشر مع هذه الحركات في بعض الدول العربية الإسلامية. ويثير ذلك سؤالا حول المعيار الحاكم لقبول الإدارة الأمريكية التعامل مع حركات أو أحزاب إسلامية دون أخرى، وهو ما ينقلنا بدوره إلى الدوافع الموضوعية.

٢. الدوافع الموضوعية

تكمن هذه الدوافع بالأساس في مقاربة سلوك الحركات أو الأحزاب الإسلامية، وحدود التزام خطاب وممارسات تلك الحركات بالحد الأدنى من منظومة القيم الديمقراطية الغربية التي تشكل في المتن الأمريكي الضمانة الأساسية لبناء الثقة.

ويقودنا التفسير الموضوعي لهذه الدوافع إلى تناول كل حالة على حدة.

الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر

فازت الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الانتخابات التشريعية التي أجريت في الجزائر في ٢٦ ديسمبر ١٩٩١، والتي تم إلغاؤها من خلال انقلاب عسكري في ١١ يناير، ثم حل الجبهة في مارس ١٩٩٢ . وقد نظر الكثيرون إلى الانقلاب ثم حل الجبهة على أنه خرق للشرعية (la légalité) الدستورية، وأنه تم في إطار تواطؤ أمريكي، وانصياع للأطروحات التي ترى أن الإسلاميين يتعاملون مع الانتخابات باعتبارها أداة للتمكين وليس كأداة ديمقراطية للانتقال السلمي للسلطة. ويستند هؤلاء إلى غياب أي تحرك أمريكي مواز لإعادة الشرعية الدستورية على نحو ما حدث في حالة انقلابات أخرى وقعت في دول مثل باناما أو نيجيريا.

وبالنظر إلى خطاب، وممارسة الجبهة الإسلامية للإنقاذ آنذاك يمكن تصنيفها ضمن اتجاهات التيار الإسلامي الراديكالي الذي لا تشكل الانتخابات بالنسبة له سوى تقنية إجرائية للوصول إلى السلطة. ويمكن القول إن الجبهة الإسلامية للإنقاذ لم تشكل نموذجا يمكن الاعتماد عليه من جانب الولايات المتحدة والغرب، ولم تمتلك المقومات أو الشروط التي تدفع الولايات المتحدة والغرب بالانفتاح عليها. ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى موقف الرئيس الفرنسي الراحل «فرنسوا ميتران» عندما قرر الرئيس الجزائري الأسبق «الشاذلي بن جديد» تحرير النظام السياسي والسماح بتأسيس الأحزاب السياسية، إذ أرسل إليه ميتران يقول له: «إنني أدعوك إلى مراجعة موقفك هذا، أي الترخيص للأحزاب كلها، وخصوصا الإسلامية، وإنني مستعد أن أتحمل عنك ديون الجزائر كلها»[٦] وهكذا، تظل الجبهة الإسلامية للإنقاذ الجزائرية منذ قرار حلها في سنة ١٩٩٢ خارج إطار النظام السياسي الرسمي.

وعلى الرغم من وجود قوى إسلامية أخرى تتمتع بالوجود الرسمي داخل المؤسسات السياسية، أهمها حركة النهضة التي انشقت عنها «حركة الإصلاح» في سنة ١٩٩٩، وحركة مجتمع السلم «حماس»[٧]، إلا أنه بالنظر إلى الوضع السياسي غير المستقر في الجزائر، فإن الحديث عن قبول الولايات المتحدة لأي من تلك الحركات يظل سابقا لأوانه أمام ضبابية صورة المشهد الجزائري والتي تكرسها أزمة لا غالب ولا مغلوب بين السلطة والجماعات المناهضة لها[٨].

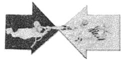
العدالة والتنمية في المغرب

يتجاذب أصل حزب العدالة والتنمية عنصران أساسيان بحسب وجهة النظر، فلتكريس الخط العلماني يقال بأنه يجد أصله في حزب الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية[٩] ولتكريس الخط الديني يقال بأنه يجد أصله في الجماعة الإسلامية التي غيرت في عام ١٩٩٢ اسمها لتصبح حركة الإصلاح والتجديد وأعلن زعيمها عبد الإله بنكيران إن حركته سلمية وتقبل الحكم الملكي.

وكان قد تعذر في سنة ١٩٩٢ على «حركة الإصلاح والتجديد» تأسيس حزب التجديد الوطني الذي رأت السلطة المختصة تعارض أهدافه مع الأطر التشريعية والقانونية القائمة، مما دفع قيادات الحركة إلى الاتصال بالدكتور عبد الكريم الخطيب، حيث عرضوا عليه إعادة إحياء «حزب الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية»، فوافق الخطيب بشروط ثلاثة، هي: الإسلام، والاعتراف بالملكية الدستورية، ونبذ العنف. وبالفعل عقد الحزب مؤتمرا استثنائيا في سنة ١٩٩٦ لتمكين القيادات الإسلامية من العضوية في أمانته العامة، ومنذ ذلك الحين بدأ ينظر إلى الحزب باعتباره حزبا إسلاميا[١٠].

شارك الحزب في الانتخابات التشريعية لانتخاب مجلس النواب سنة ١٩٩٧ بشكل جزئي متجنبا الاندفاع ومتفاديا تقديم نفسه كحزب بديل وحيد، مستفيدا في ذلك من الدرس الجزائري وتجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ، حيث شارك في ٢٤ دائرة انتخابية من أصل ٣٢٥، حصل فيها على ٩ مقاعد أغلبها في العاصمة الاقتصادية (الدار البيضاء). وعند إعادة انتخاب بعض الدوائر حصل على ٣ مقاعد إضافية، والتحق عضوان من أعضاء المجلس بكتلته البرلمانية ليصل العدد الإجمالي إلى ١٤ مقعدا في مجلس النواب. وعندما تم تكليف السيد عبد الرحمان اليوسفي، عن حزب الاتحاد الاشتراكي، بتشكيل الحكومة في ٤ فبراير ١٩٩٨ أراد إشراك الحزب من خلال إسناد إحدى الحقائب الوزارية إليه، لكن أمينه العام السيد عبد الكريم الخطيب فضل أن يكون حزبه داعما للحكومة لا مشاركا فيها على أساس مبدأ «المساندة النقدية»، لكن الحزب تحول من مساند منتقد إلى معارض يقدم النصيحة للحكومة، محاولا ترسيخ تقاليد سياسة جديدة في سلوك تعامل الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية، ومقدما نموذجا مثاليا (Idéal type) لعله يكون قادرا على ترسيخ الثقة والاعتقاد لدى الآخرين بكون هدف الحزب هو التكامل من أجل التعاون وقبول الرأي والرأي الآخر.

أيضا شارك حزب الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية في الانتخابات التشريعية التي أجريت في ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٢ تحت اسم جديد قرره مجلسه الوطني المنعقد في ١٩٩٨ وهو «حزب العدالة والتنمية»، وذلك تحت شعار «نحو مغرب أفضل: أصالة، سيادة، ديمقراطية، عدالة، تنمية، من أجل نهضة شاملة». واعتمد مشروعه السياسي سلوك التدرج وعدم الاندفاع في البحث عن موقع متميز داخل المشهد السياسي للمملكة المغربية. ومن أصل ٩١ دائرة انتخابية لم يتقدم مرشحوه سوى في ٥٧ دائرة فقط، حصل فيها على ٤٢ مقعدا، احتل على أثرها المرتبة الثالثة بعد حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية (٥٠ مقعدا)، وحزب الاستقلال (٤٨ مقعدا). وأصبح بالتالي الحزب المعارض الأول. حاول الحزب خلال مختلف مراحل الولاية التشريعية (٢٠٠٢-٢٠٠٧) الظهور بمظهر الحزب المتزن من خلال محاولة تكريسه لمجموعة من التقاليد والسلوكات التي تتمثل في ممارسة خطاب سياسي



حزب العدالة والتنمية المغربى يحاول تكريس خطاب توفيقى يمزج فيه بين القيم المرجعية التى يؤمن بها والقيم الديمقراطية الغربية

ينسجم والإطار الدستورى للدولة عبر المبادرة بمراقبة الحكومة من خلال الأسئلة، والتقدم باقتراحات تشريعية. وبمعنى آخر، عمل الحزب على البحث عن التوافقات والحلول فى صراعه مع الأطراف الأخرى من داخل الشرعية الدستورية وليس كما يشاع من خلال خطاب التخليق المستمد من المرجعية الدينية[11].

يستنتج من سلوك وممارسة حزب العدالة والتنمية أنه يحاول تكريس خطاب توفيقى يمزج فيه بين القيم المرجعية التى يؤمن بها والقيم الديمقراطية الغربية، بما يفيد أنه يحترم القيم الإنسانية المثلى مهما كانت مرجعيتها باعتبارها قيما واحدة فى النهاية. ويشكل هذا المعطى المدخل الأساسى لإمكانية انفتاح الولايات المتحدة على هذا الحزب، أى أن هذا الخط الأخضر يبقى محتفظا بحرارته حتى يثبت العكس.

حركة النهضة فى تونس

يساعد الاعتماد على قياس مؤشر مشاركة الحركات الإسلامية فى الحياة السياسية على فهم حدود ومدى إمكانية التقارب بين هذه الحركات والإدارة الأمريكية، وكذا أبعاده؟. ففى تونس شكلت سنة ١٩٨١ نقطة انعطاف أساسية، حيث أصبحت المواجهة مباشرة بين الإسلاميين والسلطة الرسمية، فهذه الأخيرة اعتبرت أن الإسلاميين . من خلال حركة الاتجاه الإسلامى[12]. يريدون تفكيكها عبر التسلل إلى الأجهزة الأمنية والسيطرة على الشأن الدينى من خلال إقدامهم على تنصيب الأئمة بالقوة فى المساجد[13]. ورغم مرحلة الانفراج خلال الفترة (١٩٨٤-١٩٨٥) اثر حصول التقارب بلقاء رسمى بين الحكومة (فى شخص مزالى) والإسلاميين (راشد الغنوشى وعبد الفتاح مورو) لكن التوتر يظهر من جديد وعادت المواجهة مع نهاية عهد بورقيبة (١٩٨٦-١٩٨٧). ثم خفت درجة الاحتقان السياسى بعد الانقلاب الأبيض للرئيس بن على وتقلده مسئولية رئاسة الدولة التونسية بعد بيان السابع من نوفمبر ١٩٨٧، حيث أكد على معاودة الارتباط بالمجال الدلالى التقليدى بطريقة ترضى الإسلام السياسى، وإدخال تعديلات دستورية تركز على سيادة القانون وإقرار تعدد الأحزاب ومشروعيتها، وإطلاق سراح حوالى ٦٠٠ سجين من أعضاء الحركة الإسلامية، ثم إصدار ميثاق وطنى يقضى بإشراك مختلف الفاعلين، وينص على دعم الديمقراطية والهوية العربية والإسلامية لتونس، باعتبار أن التعريب يشكل من وجهة نظره مطلبا حضاريا، ويلزم الدولة باحترام القيم الإسلامية. وفى إطار التكيف مع المناخ الجديد ومع الشروط القانونية الجديدة (قانون الأحزاب الصادر فى ٣ مايو ١٩٨٨) التى تمنع قيام الأحزاب على أساس دينى أقدمت «حركة الاتجاه الإسلامى» على تغيير اسمها لتحمل اسم «حركة النهضة»[14] وتمكنت الحركة من دخول المجلس الأعلى للميثاق فى نهاية سنة ١٩٨٨، وشاركت فى الانتخابات التشريعية لسنة ١٩٨٩ بمرشحين مستقلين بسبب رفض السلطة الاعتراف بهم كحزب سياسى بحجة أن زعماءها مازالوا تحت طائلة الأحكام التى أصدرتها فى حقهم محكمة أمن الدولة فى عام ١٩٨٧، وخلو مشروعهم من أى توضيح بخصوص بعض المسائل الحضرية ومبدأ المساواة بين المواطنين[15]. وقد أظهرت نتائج الانتخابات أن الحركة هى القوة الثانية بعد الحزب الحاكم (الحزب المهيمن) حزب الرئيس، وكانت هذه النتائج بمثابة إيذان بنهاية التوافق بين الحركة والسلطة لتبدأ مرحلة المواجهة (١٩٩٠-٢٠٠٦).

يشير هذا التحليل إلى المسار المتقلب فى العلاقة بين النظام والحركة الإسلامية على نحو لم يساعد عن الإفصاح عن النوايا بشكل صريح، وهو ما لم يساعد بدوره على بناء الثقة المتجسدة فى مبدأ القبول بالأخر كمنافس أو شريك، فغياب الانفتاح السياسى لم يساعد على ضمان شروط الحد الأدنى من التوافق الذى يمكن أن يساعد على تقريب الرؤى وتجاوز سلوك الصدام، وذلك على العكس من التجربة السياسية فى المملكة المغربية التى يغلب أطراف معادلتها السياسية سواء من الموالاة للنظام أو المعارضة الإسلامية أو اليسارية منطق التوافق والتفاهم فى حل الإشكالات السياسية خصوصا بعد سنة ١٩٩٠ . وهذا النوع من العلاقات المتوازنة هو ما ساعد على وضع لبنات ثقة تعتبر ثقافة الاعتدال أولى على ثقافة التشنج والتعصب، وهذا ما شكل بدوره مدخلا أساسيا لتغليب منطق القبول لدى الإدارة الأمريكية تجاه حزب العدالة والتنمية المغربى أخذا بعين الاعتبار كون هذا الحزب يعمل داخل نظام سياسى يعتبر من الأصدقاء والحلفاء المعول عليهم فى إطار المشروع الأمريكى الجديد لمحاربة ما يسميه «إرهابا». ومع الوضع فى التقدير أيضا ما يمكن أن يثيره هذا القبول من حساسيات لدى الحليف المفضل (إسرائيل). وتظل تلك المعطيات بعيدة فى حالة حركة النهضة. ■

هوامش:

(١) يشار فى هذا السياق إلى خطب الرئيس حول حالة الاتحاد

(٢) بيان الجماعة السلفية للدعوة والقتال الجزائرية يوم الجمعة ٢٦ يناير ٢٠٠٧.

(٣) خطب شيوخ تنظيم القاعدة: أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى التى تنشر على الموقع الالكترونى للتنظيم

(٤) يشار فى هذا السياق إلى أن قانون الأحزاب للمملكة المغربية تحت رقم ٠٤/٣٦ فى مادته الرابعة لا يجيز تأسيس الأحزاب على أساس دينى أو عرقى.

(٥) يعتبر عبد السلام ياسين المرشد العام للجماعة من خلال مجموعة من المؤلفات التى تحدد أرضيتها السياسية أهمها:
- الشورى والديمقراطية، ١٩٩٦
- حوار الماضى والمستقبل، ١٩٩٧
- حوار مع صديق أمازيغى، ١٩٩٧
- Islamiser la modernité ، ١٩٩٨

(٦) عبد الالاه بن كيران: الحركة الإسلامية واشكالية المنهج، سلسلة اخترت لكم (٢)، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩، (ص: ٩)

(٧) يراجع، عروس الزبير: الحركة الإسلامية المشاركة فى المؤسسات السياسية، حالة الجزائر، دراسات وبحوث الندوة الفكرية التى نظمها مركز الدراسات الدستورية والسياسية، كلية الحقوق مراكش، تحت عنوان: الإسلاميون والحكم فى البلاد العربية وتركيا، مراكش: ١٦-١٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦ (ص:١٢٣-١٤٧).

(٨) لوحظ فى الأيام الأخيرة أن الجماعة السلفية للدعوة والقتال خفضت من هدفها الأصلى وهو الإطاحة بالحكومة لصالح استهداف الغربيين والترويج لعملياتها من خلال استخدام مهارات متزايدة فى الانترنت.

(٩) أسسه الدكتور عبد الكريم الخطيب سنة ١٩٦٧ بعد انشقاقه عن حزب الحركة الشعبية الذى كان يقوده «المجحوب أحرضان» المعروف بميوله الأمازيغية. فرئيس البرلمان المغربى الدكتور عبد الكريم الخطيب يوم امتنع عن موافقة ملك البلاد لإعلانه حالة الاستثناء وهو الأمر الذى لم يرق للقصر فقام بالتضييق على الخطيب وبالتالى حصول الانشقاق وبعدها سيعرف الحزب مسارا مسدودا بحيث مورست حوله مجموعة من العراقيل دفعته للانسحاب من الساحة السياسية.

(١٠) وفى هذه الفترة كانت الحركة الإسلامية تدبر مشروعا اندماجيا بين فصيلين هما حركة الإصلاح والتجديد (كانت تصدر جريدة «الإصلاح» ثم «الراية») ورابطة المستقبل الإسلامى (كانت تصدر جريدة «الصحوة»). وقد توجت هذه الجهود بالإعلان عن تنظيم جديد يضم الفصيلين هو: «حركة التوحيد والإصلاح» بقيادة الدكتور أحمد الريسونى.

(١١) عبد السلام طويل: قراءة فى المسار السياسى لـ «حزب العدالة والتنمية المغربى» دراسة فى المفاهيم الحاكمة للمشاركة السياسية، دراسات وبحوث الندوة الفكرية التى نظمها مركز الدراسات الدستورية والسياسية، كلية الحقوق مراكش، تحت عنوان: الإسلاميون والحكم فى البلاد العربية وتركيا، مراكش: ١٦-١٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦ (ص:٩-٨٧).

(١٢) يراجع البيان التأسيسى لحركة الاتجاه الإسلامى فى ٦ يونيو ١٩٨١: راشد الغنوشى: الحريات العامة فى الدولة الاسلامية، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ملحق.

(١٣) د. أعلية علانى: الإسلاميون بتونس بين المواجهة و المشاركة ١٩٨٠-٢٠٠٦، دراسات وبحوث الندوة الفكرية التى نظمها مركز الدراسات الدستورية والسياسية، كلية الحقوق مراكش، تحت عنوان: الإسلاميون والحكم فى البلاد العربية وتركيا، مراكش: ١٦-١٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦ (ص:١٥٨- ١٦٠).

(١٤) يراجع القانون الأساسى لحركة النهضة، راشد الغنوشى: الحريات العامة فى الدولة الإسلامية، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥، ملحق.

(١٥) يعتبر راشد الغنوشى المنظر الرئيسى لحركة النهضة، ومن بين الكتب المرجعية التى حدد فيها الإطار السياسى لحركته نذكر:
- المواطنة، حقوق غير المسلم فى الدولة الإسلامية، تونس، دار الصحوة، ١٩٨٨ .
- الحركة الإسلامية فى تونس، بحوث فى معالم الحركة مع نقد ذاتى ٣ ، الخرطوم دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٩١ .
- من الفكر الإسلامى فى تونس، الخرطوم دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٩٢ .
- الحريات العامة فى الدولة الإسلامية، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥ .
- الحركة الإسلامية والتغيير، لندن، المركز المغاربى للبحوث والترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

فى العدد القادم
- العلاقة بين الشيعة والأمريكان
- رؤية الأخوان لأمريكا

دسائس القصر !!!

محمد مزالى

■ أُعلن عن إقالتى، يوم الثلاثاء ٨ جويلية ١٩٨٦، وكانت فى بعض جوانبها تكريسا مأساويا ومضحكا فى آن للمثل الرومانى القديم الذى يؤكد أن صخرة «تاربى» التى منها يُقذف بالمحكوم عليهم بالإعدام نحو الهاوية، لم تكن بعيدة من الكابيتول، رمز ممارسة السلطة.

فى ذاك اليوم، بعد رجوعى من العمل، كنت جالسا أمام التلفاز، كعادتى، لمشاهدة شريط أنباء الساعة الثامنة مساء، إذ أن زوجتى وأولادى ذهبوا إلى بيت صهرى فريد المختار، رحمه الله، للمشاركة فى إحياء أربعينية وفاته فى حادث مرور.

بدأ شريط الأنباء بتلاوة بيان ألقته المذيعة، بصوت لا يخلو من رتابة، وبدون أى تأثر، قالت: «قرر الرئيس الحبيب بورقيبة إقالة السيد محمد مزالى من مهامه كوزير أول وتسمية السيد رشيد صفر فى منصب وزير أول». بدون تذييله بأى تعليق!

وبالطبع اندهشت لأن الحبيب بورقيبة لم ير من اللياقة دعوتى ليعلمنى بقراره قبل الإذن ببثه فى وسائل الإعلام. ولكن كان لى من التواضع والواقعية ما سما بى عن القول بما قال الشاعر:

«أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر»

وبقطع النظر عن الطريقة الفظة المتوخاة، فلم يكن الأمر، والحق يقال، ليعد مفاجأة بأتم معنى الكلمة. ذلك أن عدة علامات كانت تنذر بهذا التحول إزائى، وتنبئ بهذا التنكر لتكون صيغة هذا القرار محل استغراب كبير منى.

إن الروح الرياضية وإدراكى لقانون اللعبة الذى اكتسبته طوال ممارستى الطويلة للرياضة، دفعانى إلى أن أهتف بدون انتظار ولا تردد لرشيد صفر لأقدم إليه تهانى وأتمنى له النجاح فى مهمته الجديدة، وكذلك للاتفاق معه على موعد تسليمه مقاليد الأمور. وحددنا موعد المراسم ليوم الغد الأربعاء على الساعة العاشرة صباحا.

وفى صباح الأربعاء، عندما هممت بمغادرة بيتى، فوجئت باختفاء الأعوان المكلفين بحراسة مسكن الوزير الأول فى الغسق. وهذا التنكر للتقاليد المعمول بها كان فاتحة لسلسلة من السخافات الشائنة التى لم يتردد القوم فى تكرارها تجاهى بحكم صغر النفوس.

وظهر رشيد صفر الذى كان فى العادة يلقانى بحرارة وبشاشة، يوم كان وزيرا للاقتصاد فى الحكومة التى كنت وزيرها الأول، أشبه ما يكون بجلمود من جليد، بل كاد أن يكون عدوانيا، حتى أنه سألنى عن الكتب ورسائل بريدى الخاص التى كنت أتهيأ لأخذها معى هل هى حقا لى أم للدولة!! فاضطررت إلى إبراز كلمات الإهداء الموشحة بها بعض الكتب، وبيان مصدر بعض الرسائل: كاللجنة الدولية الأولمبية، واتحاد الكتاب التونسيين، الخ... وأحسب أنى وفقت فى إقناع هذا العسّاس اليقظ بملكيتى لتلك الوثائق.



> **إذا ابتسم المظلوم فقد الظالم لذة النصر، لقد علمتنى تجارب الحياة أن الناس يرضيهم النقص الذى فيك لأنه يكبرهم فى رأى أنفسهم ولكنهم يسخطون على مزاياك لأنها تصغرهم أو تغطى على مزاياهم...**
>
> عباس محمود العقاد

ولما لم يأتنى أى خبر من بورقيبة، ورغبة منى فى توديع من كنت من مريديه المقربين، ورفيق دربه وابنه الروحى الوفى طيلة أكثر من أربعين عاما، طلبت مقابلته. فحددت لى ليوم الجمعة ١١ جويلية بالمنستير. وفى غضون ذلك، اجتمع أول مجلس للوزراء بعدى، يوم الخميس ١١ جويلية، واتخذ قرارا يقضى بإدراج اللغة الفرنسية فى السنة الثالثة من التعليم الابتدائى عوضا عن الرابعة. وكان أول قرار اتخذته الحكومة الجديدة على عجل، من دون دراسة بيداغوجية مسبقة، ولا استشارة النقابيين، ولا تشاور مع المربين المعنيين بالأمر.

وفى يوم الجمعة ١١ جويلية ١٩٨٦ قصدت القصر الرئاسى بالمنستير حيث استقبلنى الرئيس بورقيبة استقبالا لطيفا وديا للغاية.

ولما دخلت القاعة حيث كان جالسا، مسكنى من يدى فأخذت بيده كالعادة، فاتكأ عليها حتى نهض، وحرص على الوقوف أمامى لتحيتى بحرارة. ولكن النشرة التى بثتها التلفزة، تصويرا للمقابلة، نالها مقص الرقابة فى الجزء الذى ظهر فيه بورقيبة معتمدا على لتحيتى واقفا. ولا يخفى أن هذا «البتر» غرضه إيهام المشاهدين التونسيين والأجانب بأن الرئيس كان غاضبا منى.

وليس إلحاحى على هذا الذى قد يظهر جزئية لا أهمية لها إلا لأن مثل هذه الممارسات الصبيانية كان لها صدى تجاوز الحدود التونسية. فقد كتب مثلا ميشال دورى، مراسل جريدة لوموند آنذاك، وربما عن حسن نية، معتمدا على البث التلفزى المبتور، أن بورقيبة لم يقف لاستقبال وزيره الأول، مما قد يوحى بأننى نحيت بسبب دوافع جدية تبرر «غضب» بورقيبة المفترض!

أقبلت على بورقيبة بوجهى قائلا: «سيدى الرئيس، هى خمسون سنة تقريبا مرت وأنا أخدم بلادى بقيادتكم من دون أن أخل، ولو لحظة واحدة،

نصيبى من الحقيقة
وزير أول فى رئاسة بورقيبة يشهد
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧



بالتزامي. لقد ساهمت في الكفاح من أجل استقلال بلادي، وانخرطت جاهدا في العمل النقابي، وقدمت أفضل ما عندي من أجل بناء الدولة التونسية عند اضطلاعي بعدة مسؤوليات حكومية كان لكم فضل إسنادها إليّ».

ثم ختمت كلامي باستعارة قرآنية وقلت:

«كلي أمل في أن ترجح كفة حسناتي على كفة سيئاتي، فأكون ممن ثقلت موازينهم!».

كانت تلك طريقة لطيفة لجرّه إلى إعلامي بالدافع الذي جعله يتخذ «قرار» إنهاء مهمتي، بعد ثلاثة أسابيع فقط من تعيينه لي رسميا خليفة له، أمام الشعب التونسي قاطبة، وأمام جميع ممثلي المجموعة الدولية المعتمدين بتونس، أثناء مؤتمر الحزب الاشتراكي الدستوري المنعقد من ١٩ إلى ٢١ جوان من السنة نفسها.

لقد جمدني جوابه عن سؤالي في مكاني، وأصابتني الدهشة وحتى الارتياب أكثر من إقالتي في حد ذاتها، وأكثر من الطريقة غير اللائقة التي اكتنفت هذه الإقالة، إذ قال بورقيبة بلهجة فيها كثير من اللطف، وشيء من التأسف:

«يا سي محمد عربت ياسر (يعني كثيرا) التعليم؟ قلت لك لا تعرب».

ذاك كل ما قال. ولم يزد شيئا. هل سمعت؟ وكذبت سمعي. وهكذا يكون هذا التغير المفاجئ بهذا الوجه، وهذا التنكر نفسه لقرار اتخذ، يوم ١٩ جوان أمام الملأ، بصورة رسمية ولم يجبره أحد على اتخاذه، وهذه الركلة المبالغة للأعراف المؤسساتية المتفق عليها، كل هذا كان سببه إصلاح بيداغوجي يعود، في الواقع، إلى عشر سنوات مضت، وأمضيت في سبيل تطبيقه أربع سنوات بصفتي وزيرا للتربية، بإشراف الهادي نويرة الوزير الأول في تلك الفترة، ويقينا بالموافقة الصريحة من بورقيبة نفسه.

وإذا كان للرئيس، في وقت من الأوقات، أن يغير رأيه في هذا الإصلاح فلا شيء كان يمنعه من إيقاف العمل به، ولو بعد عشر سنوات، من دون اللجوء إلى هذا الزلزال المؤسساتي.

لقد حيرني، شيئا ما، توضيحه لـ«سبب» عزلي. كنت أنتظر أن تكون أسباب القرار الرئاسي أكثر جدية وربما أخطر.

إنه مشهد سريالي، ولكنه واقعي شرح فيه، وجها لوجه، رئيس دولة، لوزيره الأول الذي كان عينه خليفة له قبل شهر من ذلك، أنه مجبر على عزله... من أجل تقديم تعليم اللغة الفرنسية بفصل (من السنة الرابعة ابتدائي إلى الثالثة)، هذا الرئيس الذي كان بالأمس محل إعجاب الجميع لما عرف به من رشاقة في تحاليله، وحكمة في مبادراته، وشجاعة في مواقفه، وقدرة استشرافه للمستقبل!

قلت له متسلحا برباطة جأشي، وساعيا إلى قطع حبل الصمت:

«سيدي الرئيس، البارحة قررتم إدراج اللغة الفرنسية في السنة الثالثة، عوضا عن الرابعة. كل أملي أن تجدوا العدد الكافي من المعلمين الأكفاء، من ذوي اللسان الفرنسي، لا فقط في المدن الكبرى بل كذلك في القرى والأرياف».

وسكت بورقيبة. ولم يجب عن هذه الملاحظة. ومد إلي يده وقال لي بلهجة ودية:

«شكرا سي محمد على كل شيء وتحياتي إلى فتحية» زوجتي.

شكرته بدوري واستأذنت منه للانصراف. وكانت تلك آخر مقابلة لي، على انفراد، مع هذا الرجل الذي لعب دورا كبيرا في حياتي.

وغادرت القصر الرئاسي تحدوني مشاعر غريبة. كنت حزينا من أجل نهاية علاقة أجهضت، وكانت من قبل على غاية من المتانة والثراء. وكنت أيضا متأثرا شديد التأثر من جراء غرق رجل فذ في بحران الشيخوخة حتى أصبح لعبة تتقاذفه دسائس أنذل جلسائه. وتذكرت بيتا قاله أبو العلاء المعري:

«وكيف يصول في الأيام ليث
إذا وهنت المخالب والنيوب»

ولكنني كنت، في الآن نفسه، مرتاحا لأنني لم أعد مسؤولا في دفة مركب في مهب الرياح شأنه شأن «المركب السكران» الذي وصفه الشاعر الفرنسي رامبو. وشعرت بأنني خفيف كالريشة بعد انعتاقي من أسر المسؤولية الجسيمة. فكأنني نزعت عن كتفي ثقلا فرضت على نفسي حمله دهرا طويلا: كنت أشبه بسيزيف، وقد تخلص من صخرته! ومضى بي الإحساس إلى الشعور بأنني، مهما كان أمر العكسيات التي يتلقاها الإنسان في الحياة السياسية في ظل نظام سلطوي، قد حاولت، على كل حال، أن أوفي ما على القيام به من مسؤوليات تجاه وطني بأحسن مما كان في استطاعتي. وفي الوقت الحاضر يمكن لي أن أوطن نفسي على نوع من الانتحاء أكثر ذاتية. متمثلا في صرف وقتي كله لمجلة الفكر التي دامت أكثر من ثلاثين سنة، وإلى اللجنة الدولية الأولمبية، وإلى الكتابة.

والحقيقة أنني لم أعدم الفرصة للانشغال بالقضايا الفكرية، حتى عندما كنت أرزح تحت مسؤوليات الوزارة الأولى. لقد كان ذلك حاجة في أعمق أعماق طبيعتي الأولى ومطلبا أساسيا في حياتي.

لقد قمت بأعمال صادفت شيئا من النجاح في الخارج، ولكنها جلبت لي على الصعيد الداخلي بعض العداوات المكينة ضمن حاشية بورقيبة المقربة.

ورغم السحب التي تلبدت فوق رأسي من جراء هذه المبادرات، فإنني غير نادم على القيام بها لأنها ساهمت، إن قليلا أو كثيرا، في تلميع صورة تونس عالميا.

إن هذه النجاحات العالمية شحذت غيرة عدد من حاشية بورقيبة، فهاج بهم داء الحسد وهو أقدم الأدواء، وأثارت كوامن خشيتهم من أن أحوز القامة التي تخول لي أن أكون الخليفة، بلا منازع، لرئيس أصبح تحت كلكلهم، مستغلين وهن شيخوخته. ولم أفطن آنذاك أنني كنت بمثابة «الدلفين» في بحيرة تعج بالتماسيح!

ورغم كل شيء، واصلت حرصي على تلميع صورة تونس دوليا، وتصحيح ما كان ينال البلاد من انتقاص نتيجة نزوات رئيس أوهنته الشيخوخة، وضعفت يداه عن الاستمساك بصولجان الحكم، فتلاعبت به المناورات.

وكان من الهين على نسبيا، والحال هذه، أن أملأ الفراغ الذي أحدثته إقالتي فأفكر بسرعة في القيام بأعمال أخرى تمت بسبب إلى عالم الأفكار والإبداع، وتصورت إحالتي على المعاش المفروضة على مجالا يسمح لي بصرف همتي إلى أنشطة ثقافية من شأنها أن تشبع هوايتي الثانية، وأن تتيح لي الفرصة لمواصلة العمل في سبيل خدمة الثقافة التونسية، وتنميتها داخليا، وإشعاعها خارجيا.

ولكن، يا للأسف، أثبتت لي الأيام أن هذا التوق السلمي والشرعي لم يكن إلا أضغاث أحلام ومطلبا بعيد المنال. فقد كان ذلك من دون أن أقرأ حسابا للتهور الشرس الذي ستلاحقني به بطانة بائسة، وحساد سادرون في غيهم، وأصحاب طموح صغار. هؤلاء الدائرون في فلك رئيس بلغ به العجز أقصى حدوده، لم يغفروا لي أبدا يوم ١٩ جوان ١٩٨٦، ذاك اليوم الذي عينني فيه بورقيبة رسميا خليفة له، وجعلتهم، من دون قصد مني وسابق إضمار، غارقين في عرق الغلبة.

فمنذ سنة ١٩٧٥ فرض بورقيبة تنقيحا دستوريا، يجعل من الوزير الأول خلفا له بصورة آلية في حالة الشغور، وذلك حتى آخر المدة النيابية الجارية. كان ذلك بمقتضى الفصل ٥٧ من الدستور الذي ينص على ما يلي: «عند شغور منصب رئاسة الجمهورية بسبب الوفاة أو الاستقالة أو العجز التام يتولى فورا الوزير الأول مهام رئاسة الدولة لما بقي من المدة النيابية الجارية لمجلس الأمة...». ولم يكتف بورقيبة بالتنصيص على الشرعية الدستورية بل ذهب به الأمر إلى تشخيص السلطة فذكر بالاسم الوزير الأول المتولي تسيير المرحلة الانتقالية من الحكم في حالة الشغور.



لقد قال ذلك علنا لجسكار دستان رئيس جمهوريّة فرنسا آنذاك، فى خطاب توجّه به إليه، عند استقباله والتّرحيب به سنة ١٩٧٣، وعنى الهادى نويرة فى ذلك الوقت. وكرّر الأمر نفسه يوم عيّننى وزيرا أوّل، وبعد ذلك فى العديد من المناسبات، وخصوصا فى خطابه الّذى افتتح به مؤتمر الحزب الاشتراكى الدّستورى يوم ١٩ جوان ١٩٨٦ وقبل ذلك. وخلال مأدبة غداء رسميّة أقامها الرّئيس بورقيبة على شرف جاك شيراك رئيس الحكومة الفرنسيّة يوم ٢٤ ماى ١٩٨٦، قال هذا الأخير متوجّها بقوله إلى بورقيبة: «إنّ فرنسا تكنّ تقديرا كبيرا للسّيّد مزالى. وأعتقد أنّكم أحسنتم الاختيار». وردّ عليه بورقيبة قائلا: «اطمئنّوا. فسيكون خليفتى». وقيل كلام الرّجلين على مرأى ومسمع كثير من الحاضرين. وكان شيراك قال الكلام نفسه فى أبريل ١٩٨٦ عندما استقبلنى بباريس بحضور سفير تونس بفرنسا.

وأكثر من ذلك. فلقد سمّى بورقيبة خليفة الخليفة، إذ أوصانى أكثر من مرّة بأن أعيّن رشيد صفر وزيرا أوّل فى الوقت المناسب. وقال يوم ٢٢ جويلية ١٩٨٥ فى خطاب توجّه به إلى الكتّاب العامّين للجان التّنسيق مؤكّدا تسليمه رئاسة الدّولة بعد غيابه إلى محمّد مزالى الوزير الأوّل الّذى هو خليفته بمقتضى الدّستور: «أوصيه بأن يتّخذ رشيد صفر وزيرا أوّل». وأذكر أنّ زوجته الثّانية وسيلة قالت له بحضورى: «أنت ساذج. لأنّ محمّد مزالى له مرشّحه من الآن، وهو المازرى شقير. أجابها بورقيبة على الفور: «واللّه إن لم ينفّذ وصيّتى أخرج له من قبرى محتجّا!».

وهكذا لم تكن المسألة بالنّسبة إلى بورقيبة تتعلّق برئيس مؤقّت عليه مواجهة التّصويت العام كبقيّة المرشّحين، بل بخليفة معيّن مسبقا ليتولّى أعلى مسؤوليّة فى الدّولة.

لقد كان الإجراء الدّستورى المذكور والتّركيز على شخص بعينه، بمثابة «لعنة» نزلت على كلّ من تولّى الوزارة الأولى، من الهادى نويرة، إلىّ شخصيّا. لقد جعل بورقيبة من الوزير الأوّل الخليفة الآلى، والمؤقّت فى الحقيقة، خصما، بل عدوّا لدودا لكلّ من آنس فى نفسه التّطلّع إلى الخلافة. وكثيرا ما يحدث، فى هذه الحال، أن تجتمع عصابة، لا يكون بين أفرادها أىّ تجانس أو تعاطف، وإنّما الّذى يوحّد بينهم هو حقد مكين للخليفة «المؤهّل دستوريّا». لذا تفاقم، بالنّسبة إلىّ، الوضع سوءا عندما تدهورت صحّة بورقيبة. وهو ما أذكى من حولى النّيران فزادت استشراء، وشجّع المناورين الّذين أعمى بصيرتهم قرب الموعد الحاسم. وكما قال الشّاعر:

«قوم إذا الشّرّ أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدانا»

أو كما قال البحترى:

«إيّاك أن تطمع فى حاسد
فى كلّ ما يبديه من ودّ
فإنّه ينقض فى سرعة
جميع ما يبرم من عقد»

لقد كنت فى قصر الحكومة بالقصبة أعمل بظهر مكشوف، لا أقدر على اتّقاء سهام اللّيل المصوّبة نحوى من الحاشية، غير قادر دائما على الاحتراس من مخالب بعض «الزّملاء» فلحقنى ما لحق أسلافى فى الوزارة الأولى من أذى وعنت، فى خضمّ أجواء غذّتها المكائد والمؤامرات. وكان على رأس القائمة امرأتان، لا يجمع بينهما إلاّ حقد دفين متبادل. لكنّهما اجتمعتا فى هذه المرّة على أمر واحد هو العمل على تنحيتى. لم أكن بالطّبع تحت جناح الأولى، الملقّبة بالماجدة، ولا تحت حماية الثّانية المعروفة ببنت الأخت. ولعلّ الحماقة هى السّبب فى كثير من الشّرّ أكثر من الخبث.

وانضاف إلى هاتين المرأتين آخرون سعوا ما استطاعوا إلى عرقلة مهمّتى، وإثنائى عن المضىّ قدما فى أداء رسالتى. منهم سفير تونس فى فرنسا، آنذاك، الهادى المبروك. لقد تميّز عن الآخرين بحماسه الكبير، المنقطع النّظير فى مساعيه الرّامية إلى إقامة العقبات فى طريقى، من ذلك مثلا أنّ شيراك عندما تولّى رئاسة الحكومة الفرنسيّة فى مرحلة «التّعايش» الأولى، عبّر عن رغبته فى زيارة تونس وساحل العاج للقاء «حكيمى إفريقيا»، الرّئيسين بورقيبة وهفوات بوانيى. وأعلمنى الهادى المبروك بهذه الرّغبة، واقترحت موعدا قبله شيراك.

أعلمت الرّئيس بورقيبة بالأمر فرحّب بذلك. ولكن قبل يومين من موعد الزّيارة، هتف لى الهادى المبروك، وأعلمنى أنّ جاك شيراك مضطرّ إلى تأجيل الموعد لأسباب قاهرة متّصلة برزنامته. فاقترحت تاريخا آخر لاقى القبول والاستحسان من الضّيف. وقبل حلول هذا الموعد الجديد بيومين، هتف لى المبروك وكرّر لى الأعذار نفسها، وبالعبارات ذاتها، أجبته حريصا على أن يقول لشيراك: «لا مجال للقلق، فمتى أردت جئت أهلا ونزلت سهلا. ويكفى إعلامى بموعد الزّيارة قبل مدّة قليلة. وسأرتّب الأمر مع الرّئيس بورقيبة». هكذا تمّ الاتّفاق وانهمكت فى مشاغلى العادية.

ولشدّ ما كانت دهشتى كبيرة عندما اكتشفت حقيقة أمر التّأجيل المتكرّر لزيارة شيراك. ذلك أنّنى استقبلت عبد الحميد بن عبد اللّه بطلب منه، وهو دكتور فى الحقوق وصديق لعائلة شيرا. كنت عرفته يوم ٣١ ماى ١٩٨٥ فى فندق كريون بمناسبة حلولى بباريس لتقديم أحد مؤلّفاتى للصّحافة الأجنبيّة، ولبعض الشّخصيّات الفرنسيّة، بدعوة من البشير بن يحمد، مدير مؤسّسة «جون أفريك» الّتى نشرت كتابى «الحركة الأولمبيّة اليوم». قال لى بن عبد اللّه فيما قال: «إنّ شيراك متأسّف، بل هو حزين، أن أجّل صديقه محمّد مزالى مرّتين موعده لزيارة بورقيبة».

ويمكن لأىّ كان أن يتصوّر مدى استغرابى للأمر. وشرحت لابن عبد اللّه جليّة ما وقع. وهتفت لشيراك، مؤكّدا له استعدادى لاستقباله متى شاء، ضامنا له موعدا مع الرّئيس. وشعرت أنّ شيراك كان يشاطرنى مدى استغرابى من تصرّفات السّفير وغموض وخطورة الدّور الّذى يقوم به، المخالف للأعراف الدّيبلوماسيّة، والمتنافى مع التّقاليد الإداريّة المعهودة بين بلدينا، والمضرّة خاصّة بمصلحة تونس العليا.

وتمّت زيارة شيراك يوم السّبت ٢٤ ماى ١٩٨٦ فى أحسن الظّروف. حتّى أنّ بورقيبة حرص على استقباله شخصيّا بالمطار خلافا للمراسم العاديّة. ثمّ امتطى الضّيف سيّارتى. وتبادلنا الحديث حول كلّ ما عكّر جوّ الزّيارة الّتى كادت أن تبطل. وفجأة قال لى: «ما هى علاقاتك مع السّيّد المبروك؟». أجبته: «إنّها عادية، بل هى طيّبة إلى أشهر قليلة. غير أنّه منذ بداية السّنة خيّمت عليها بعض الغيوم لأسباب لا أفهمها». أجابنى شيراك: «نعم! بعد مكالمتنا الهاتفيّة اتّصلت به وقلت له: "يا هادى. كفى! (كذا!). كن مخلصا لوزيرك الأوّل!"». وقد جمعت بينهما صداقة حميمة، تجاوزت المودّة العادية بين كبار المسئولين بما سمح لشيراك بتهديم «حرف الآجر» معه!...

وكان خطئى الفادح أن أعرضت عن إخبار بورقيبة بتصرّفات السّفير غير المقبولة والمضرّة بمصلحة تونس العليا. وليس من شكّ فى أنّ ردّ فعله كان يكون حالاّ وضع حدّ لمهمّته بالدّيار الفرنسيّة، ولكنت عند ذلك أرحت نفسى من واحد من بين المتآمرين الكبار. إلاّ أنّى أشفقت أن يكون لذلك انعكاس سيّئ على جوّ الوئام والصّفاء بين البلدين. ولكن هل الحذر فى إمكانه أن يدفع المقدور؟

لا أدرى كم بذلت من جهد، وكم أنفقت من وابل النّصح والإقناع، ولا أدرى كم سعيت بإصرار منقطع النّظير من أجل تدارك خطإ سياسىّ فادح ارتكب منذ ١٩٧٨، لإنقاذ نقابىّ - مثل الحبيب عاشور - من الإقامة الجبريّة، بعد أن قرّر بورقيبة، مرّة أخرى، تحت تأثير نزوات تسلّطيّة حادّة، رميه فى غياهب السّجون. وكذلك كم فعلت من أجل حماية العديد من رجال السّياسة، مثل أحمد المستيرى، من نقمة بورقيبة الّذى كان يكنّ له حقدا دفينا، لا لشىء، إلاّ لأنّه، وهو القيادى المرموق فى الحزب الاشتراكى الدّستورى،

عندما هممت بمغادرة بيتى، فوجئت باختفاء الأعوان المكلّفين بحراسة مسكن الوزير الأوّل. وهذا التّنكّر كان فاتحة لسلسلة من السّخافات الشّائنة الّتى لم يتردّد القوم فى تكرارها



خرج عن صفه، بل، في اعتباره، خانه، يوم أن تنصل من حزبه، وقدم استقالته وأنشأ حركة الديمقراطيين الاشتراكيين التي أصبحت بمر الأيام المحرك الفعال للمعارضة بأجمعها حتى سنة ١٩٨٦ .

وفي هذا الموضوع، كتب دي لافريفيار في صحيفة لوموند بتاريخ ١٩/٧/١٩٨٧: «في حقيقة الأمر، لم يعد الوزير الأول، منذ أشهر طويلة يتحكم في اللعبة السياسية، وحتى في الشؤون التي هي من مشمولاته. فالمجاهد الأكبر هو الذي قرر الحسم في شأن الحبيب عاشور وسجنه، وهو الذي جد في الإساءة إلى أحمد المستيري، وزيره الأسبق، منكرا عليه استقالته من الحكومة».

وإذا كان بورقيبة رأى في مسعى أحمد المستيري خيانة، فإني كنت أعتبر مواقفه عملا من صميم حريته وشعوره بالمسؤولية. وهو أمر يرفع من شأنه في عيني، ويزيده احتراما على الاحترام الذي كنت أكنه له. وقد برهنت على ذلك يوم توصلت، بشق الأنفس، إلى الحصول على موافقة بورقيبة على إطلاق سراحه، وهو مريض، بحيث تمكن من إجراء عملية جراحية في مصحة خاصة، لا في المستشفى العسكري. وقد اتهمني ظلما فيما بعد بعض معارضي الصالونات بالتهاون في حق هذا الرجل المحترم. وكم كنت سعيدا يوم أكد لي عمر المستيري، ابن أخيه، قائلا: «يا سي محمد، اطمئن، فأنا عارف بالقضية في تفاصيلها. وقد كنت بجانب والدي، عندما هتفت له، ورجوته أن يذهب لتوه إلى المستشفى العسكري لإخراج أخيه منه وعلاجه حيث تريد العائلة».

وجاء بجريدة لوموند، في افتتاحية لها بتاريخ ٩ جويلية ١٩٨٦، على إثر عزلي، مع صورة كاريكاتورية بإمضاء «بلانتو» ظهر فيها قيصر وهو يطعن بخنجر ظهر ابنه بروتوس، ما يلي: «إن عزل السيد مزالي في هذه الظروف له معنى رمزي. ذلك أن رجل الانفتاح والديمقراطية رسم صورة لنفسه اعتبرها بورقيبة اليوم غير صالحة. إذ أن خصوم الوزير الأول أخذوه على ما اعتبروه تهاونا. لأن الديمقراطية عند بعض الدكتاتوريين تعد تهاونا. ذلك أن ساعة أصحاب القبضة الحديدية قد دقت، ولا شك أن السيد مزالي قد دفع ثمن اضطرابات الخبز التي وقعت في جانفي ١٩٨٤، ويبدو أن هذا الوزير الأول ذا السجية الطيبة، والمتفتح، والحريص على أن تكون علاقاته مع الجميع على أحسن حال قد انتهى به الأمر في آخر المطاف إلى استعداء الكثيرين... فأخذته المعارضة في النقابات والأحزاب السياسية على قرارات فوقية نفذها رغم أنفه».

ومن المفيد أن نذكر هنا تعليق فولد سميث مراسل وكالة أسوسايت براس بتونس، قال: «إن تونس، البلد الأكثر تأثرا بالغرب في العالم العربي، توشك أن تدخل مرحلة طويلة وخطيرة من الحيرة، بعد القرار المفاجئ الذي اتخذه الحبيب بورقيبة، الرئيس مدى الحياة، والقاضي بعزل محمد مزالي الوزير الأول وخليفته، وهو في الواحد والستين من العمر. لقد استطاع الوزير الأول مزالي، فيما بين ١٩٨٠ و١٩٨٦ أن يبعد أخطار الفوضى والتخريب التي كان يدبرها الجار الليبي معمر القذافي. واستطاع أن يقود تونس في جو من الكساد الاقتصادي خطير، وتحت تأثير «ثورة» الخبز الدموية، وفي ظل التحدي الذي فرضه الإسلاميون الأصوليون، ومنذ يوم الثلاثاء لم تقل أية صحيفة يومية وطنية كلمة استحسان تصف بها الجهد الذي بذله مزالي منذ سنة ١٩٨٠ . والإشارة الوحيدة التي تعلقت بالوزير الأول الأسبق كانت في البلاغ الحكومي المقتضب الذي أعلن بدون أبسط شرح عن تعيين السيد بورقيبة لرشيد صفر وزير الاقتصاد، عوضا عن محمد مزالي في منصب الوزير الأول، وخليفة بورقيبة، والأمين العام للحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم.

«ولقد أطنبت وسائل الإعلام التونسية من صحف، وتلفزة، وإذاعة، في كيل المدح لرشيد صفر البالغ من العمر ٥٣ عاما، وفي التنويه بأمانته، وفعاليته، غير أنها أمسكت عن نقد أو شكر سلفه، وكأنه لم يوجد أبدا.

«ويدل هذا التغيير الحكومي الهام، إن كان هناك حاجة للبرهان، على أن شعبا يعد ٧ ملايين نسمة انقاد انقيادا أعمى لإحدى نزوات رئيسه، البالغ من العمر ٨٢ عاما، والمصاب بداء تصلب الشرايين، والذي لا يقدر على الكلام والحركة إلا بالمساعدة.

إن السيدة سعيدة ساسي، وعمرها ستون سنة، تسكن القصر الرئاسي بضاحية قرطاج بصورة مستمرة. وعلى الرغم من كونها تبدو غير مطلعة على الشؤون السياسية، فإن العديد من الدبلوماسيين يعتقدون أن لها تأثيرا على بورقيبة في خصوص تكييف الحكومة وسياستها حسب مشيئتها. وفي شهر جانفي الماضي، حدث شجار بينها وبين وسيلة زوجة الرئيس، وانتهى بخروج وسيلة من القصر، وإعلان بورقيبة عن عزمه على طلاقها».

وطرأ حادث ثالث جاء ليؤكد مسعى المتآمرين الحثيث للمضي قدما في مكائدهم. لقد أقنعوا بورقيبة بتجاوز صلاحياته القانونية، وعدم الاقتصار على تعيين أعضاء الديوان السياسي، كما كان يفعل ذلك منذ الاستقلال، وحثوه على أن يعين أيضا التسعين عضوا المكونين للجنة المركزية. وكان المفروض، حسب النظام الداخلي للحزب، انتخابهم من المؤتمر نفسه. وكانت النتيجة طبعا أن اختفى من هذه القائمة أسماء العديد من أصدقائي.

وعندما أعلمني بورقيبة بأنه سيقوم بنفسه بإعداد قائمة أعضاء اللجنة المركزية اضطربت. وفكرت حتى في القيام بعمل مشهود والإعلان عن استقالتي أمام كافة المؤتمرين. ولئن لم أفعل ذلك فلأنني كنت متوقعا أن بورقيبة قادر على تدارك الأمر، ومراجعة أخطائه كما فعل ذلك أكثر من مرة في الماضي. غير أني أخطأت في تقديري للموقف. وما زلت إلى حد اليوم نادما على تفريطي في فرصة ثمينة كنت أتمكن بها من الخروج من لعبة مغشوشة، مرفوع الرأس، موفور الكرامة، بقطع النظر عن الإجراءات الانتقامية التي كان من المتوقع أن تنالني. وتنال أفراد عائلتي.

كنت أعلم أن شرعيتي متأتية من بورقيبة، ومن بورقيبة وحده. وكنت أحدث نفسي بأنه إذا أراد إعفائي من مسؤولياتي، لسبب من الأسباب، فلا شك أنه سيفاتحني في ذلك، ولربما يكون من الأفضل أن تجري الأمور على هذا النسق. فأتفرغ عند ذلك لعائلتي، ومجلتي، واللجنة الدولية الأولمبية كما سبق أن قلت. ذلك أنه بالنسبة إلي، أن أكون وزيرا أو وزيرا أول، فإنما هي فرصة تتاح لي لخدمة بلادي. وكنت أقول فيما بيني وبين نفسي إنه ما دامت تونس، من خلال بورقيبة الذي يجسمها آنذاك، في حاجة إلي، فإني لن أتأخر عن الاستجابة لندائها، غير متردد مهما كانت التضحيات. طالما أن خدمة بلادي هي عندي أكثر من واجب، هي ضرب من التعبد.

ولكن عندما تنتهي رسالتي، فسأمضي وشأني. لا ألوي على شيء، منشرح الصدر، مرتاح الضمير. غير أن المشكلة تكمن - كما كان الأمر، ولا شك، بالنسبة إلى من سبقني - في أن عزلي هو نتيجة دسائس دنيئة قامت بها حاشية بائسة، لا نتيجة معقولة لمهمة حان وقت انتهائها، أو بداية وجهة سياسة جديدة من الحتمي تطبيقها. بينما تم عزلي بعد ثلاثة أسابيع من تثبيتي في مسؤوليتي على مشهد من الجميع. وتبين من ذلك مدى ما وصل إليه نظام الحكم آنذاك من خضوع لمناورات الحاشية، ولنزوات شيخ تلاعبت به الأهواء، ولطموحات رهط من الطفيليين بلعموه بلعمة. ومهما كان الأمر، ورغم ما كنت أشعر به من حزن أمام انهيار رجل كان بالنسبة إلي معلما فإن الإحساس الذي تملكني حينذاك هو الارتياح.

وبعد أيام من لقائي الرئيس صدر بلاغ من

النجاحات العالمية شحذت غيرة عدد من حاشية بورقيبة، فهاج بهم داء الحسد وهو أقدم الأدواء، وأثارت كوامن خشيتهم من أن أحوز القامة التي تخول لي أن أكون الخليفة

الرئاسة يعلن ما يلى: «أعفى السيد محمد مزالى من كل نشاط داخل الحزب».

كنت أمينا عاما للحزب؛ ووددت لو بقيت عضوا باللجنة المركزية، أو مجرد مناضل بسيط فى إحدى الخلايا القاعدية، ولكن قرارا من الرئيس حرمنى، تعسفا، حتى من ذلك، والحال أننى بدأت النضال فى صفوفه وسنى ١٣ أو ١٤ عاما.

لم يشفع هذا القرار بأى تعليل وتبرير، ولا كان أيضا تنفيذا لتوصية صدرت عن أية هيئة حزبية راجعة إلى هيكله، بينما كان يقتضى الأمر أن تقرر ذلك، حسب النظام الداخلى للحزب، هيئة تأديبية تسمى لجنة النظام.

وفى مناسبة أخرى قال بورقيبة متعجبا، وقد ضاع رشده: «لقد دقت الساعة التاسعة صباحا، ومحمد مزالى لم يأت كعادته، ماذا جرى له؟». وأحيانا يحاول القوم تأليبه على، مؤكدين أننى أسأت التصرف، ولكنه كان يقول مشمئزا: «محمد لا يفعل ما تقولون، إنه نزيه ومستقيم». وهذا نقله لى أكثر من شاهد.

وفى يوم من الأيام، صاح بذلك القول، أمام تربته بالمنستير، فى وجه سعيدة بصوت عال سمعه حتى السواق وأعوان الأمن.

ولما رأى المتآمرون أن ألوان الانتقام التى سلطت على ابنى لم تأت أكلها، سرعان ما انتقلوا إلى السيناريو الثانى المبرمج. فألقوا القبض على صهرى، الدكتور رفعت الدالى، فى أوت، بينما كان ابنى قابعا فى السجن، وسيبقى هناك سنة ونصفا. وتعرض رفعت إلى الاستنطاق العنيف فى مقر وزارة الداخلية. والتهمة الموجهة إليه هى أننى اشتركت معه، ومع أربعة من أساتذة الطب، فى إعداد خطة لتنحية بورقيبة من الحكم، بحجة أنه لم يعد قادرا على الاضطلاع بمهامه. وكأن ذلك كان تنبؤا بما سيتم ثمانية عشر شهرا بعد ذلك!

ونال صهرى من التعنيف أشده حتى يعترف بأنه حاك مؤامرة ضد بورقيبة، وهو أمر يدعو إلى الغرابة! ونجح هذا السيناريو أكثر من سابقه. ذلك أن بورقيبة الذى كان يظهر شيئا من التسامح فى العديد من المواقف، لا يرحم من ينال، أو يريد النيل، من سلطته. لذا دعا الوكيل العام للجمهورية، سى الذكر الهاشمى الزمال وقال له ما معناه، حسبما أعلمت به فيما بعد: «مزالى أراد تنحيتى. يجب إيقافه، والحكم عليه بالإعدام، ثم التنفيذ عليه شنقا قبل ٣١ ديسمبر ١٩٨٦».

وأردف: «أعلم أن عددا من البلدان العربية والأوروبية ستتدخل، ولكننى سأثبت على موقفى، ويجب شنق محمد مزالى كما وقع لعلى بوتو فى الباكستان».

إن هذه المعلومة دفعتنى إلى التفكير فى الهروب من تونس. وهذا القرار ليست له أية صلة بالشعور بالذنب. ولكن، بما أنى رأيت بعينى رأسى كيف عامل بورقيبة بشدة كل من حاولوا النيل من سلطته، فإننى لم أكن لآمل أن أحاكم محاكمة عادلة، ولا رحيمة. فلا يحق لى، إذن، أن أسمح لنفسى بأن أقاد إلى المشنقة، مكتفيا بإعلان براءتى. ولو فعلت ذلك لكانت المأساة لشخصى ولعائلتى، ولكان ذلك انتصارا للماكرين والأفاكين، وهزيمة للاستقامة والتضحية.

وهكذا قررت أن أترك الجلاد ينتظر وهو يمسك بالحبل الذى أعد لشنقى.

ولم يكن فى مقدورى أن أتحمل المصير نفسه الذى تحمله قبلى الوزراء الأول، فألحق بقائمة المنبوذين، والملعونين الطويلة. فقررت، إذن، أن أغادر بلادى، خلسة، فى أقرب فرصة تتاح لى.

وتذكرت بيت أبى العلاء:

«من لى أن أقيم فى بلد
أذكر فيه بغير ما يجب»

وقد عبر عدد من الأصدقاء والملاحظين عن شكهم فى هذه الرواية، وربما لا يزال بعضهم يعتقدون أن بورقيبة لم يأمر أبدا بالحكم على بالإعدام. ويرون أننى كنت ضحية مناورة، وتضليل، حتى أغادر التراب التونسى. ولكنى لست على يقين بصحة هذا الرأى! أولا لأن مصدر الخبر الذى تلقيته موثوق



به، ثم لأن الزمال أكد عمليا هذا السيناريو عندما امتنع مرتين عن تكذيب الأمر.

ففى شهر مارس ١٩٨٨، استقبلت بباريس رئيس تحرير جريدة تونسية مرموقة، وسألنى عن أسباب هروبى من البلاد. فأكدت له أنى فعلت ذلك لإنقاذ حياتى، والدفاع عن أبنائى الذين زج بهم فى غياهب السجون... وبعد ذلك بأسابيع قليلة، زارنى بدوره مساعد رئيس تحرير الجريدة نفسها، وأعلمنى أنه، حرصا منه على مواصلة التحقيق، بعث صحفيا شابا، نسيت اسمه، إلى الزمال يستجليه الأمر. سأله:

«إنك قرأت تصريحات مزالى بخصوص أسباب هربه؟ ما رأيك؟

- كنا أربعة مسؤولين حول الرئيس، لماذا اخترتنى أنا بالذات لأجيبك؟...»

وجاء فى عنوان بصحيفة «تونس هبدو» فى عددها الصادر يوم ١٧ أفريل ١٩٨٨، وبالصفحة الأولى ما يلى: هل خطط بورقيبة لشنق مزالى؟ وشرحت الجريدة، ودائما بالصفحة الأولى، قائلة: «إن مزالى كشف عن واقعة تقول بأن بورقيبة استدعى مساء الهاشمى الزمال، الوكيل العام للجمهورية (وهى خطة حذفتها سنة ١٩٨٠ حال تعيينى وزيرا أول، ورجع العمل بها فى جويلية ١٩٨٦ بعد عزلى، ثم حذفت من جديد، بعد السابع من نوفمبر ١٩٨٧)، وليبين له أنه عليه إلقاء القبض على مزالى، فى آخر أكتوبر، مع نهاية المدة النيابية، وإحالته على المحكمة هو وصهره و«المتآمرين» الآخرين، والحكم عليه بالإعدام». وواصلت الأسبوعية قائلة: «وكان السبب الذى قدمه بورقيبة ليسلط على «عضده الأيمن» عقوبة الإعدام هو أن مزالى كون ملفا طبيا يظهر بالحجة أن بورقيبة لم يعد قادرا على حكم البلاد. وأردف مزالى أن بورقيبة طلب من الهاشمى الزمال ما يلى: «أريد أن يغلق الملف قبل ٣١ ديسمبر. وأعرف أنه ستقع تدخلات لفائدته. ولكننى سأثبت على موقفى. وسيشنق مزالى كما شنق على بوتو بالباكستان». وتواصل تونس هبدو قائلة: «ورغبة منا فى إطلاع الرأى العام على هذه الاتهامات التى تكتسى خطورة كبيرة هتفت تونس هبدو للزمال، وهو لا يزال إلى اليوم ينتمى إلى سلك القضاء، لكن كمحام!، واستجوبته حول الموضوع. فالتزم الصمت. وخير الهاشمى الزمال الإمساك عن التبسط فى الموضوع. وبما أنه ملتزم بالحفاظ على سر الدولة، فقد رجانا تفهم وضعه...». ولو كانت هذه التصريحات لا أساس لها من الصحة، لكان من السهل على الهاشمى الزمال تكذيبها!

وهناك حجة أخرى وجدتها فى كتاب الدكتور أحمد القديدى «ذكرياتى من السلطة إلى المنفى». فقد جاء فى الصفحة ٣٩ قوله: «كنت مؤجرا منزلى بالمنزه الخامس لأحد أصدقاء الهاشمى الزمال الوكيل العام للجمهورية آنذاك. وقد أسر هذا الأخير فى إحدى جلساته مع صديقه بأن الرئيس أمره أن يحاكم مزالى وأن يصدر عليه حكما بالإعدام! ....»

أريد هنا، رجوعا شيئا ما إلى الماضى، أن أذكر ببعض القرارات المؤسفة التى اتخذها بورقيبة قبل أشهر من زوال حظوتى عنده. ففى ٢٠ ديسمبر ١٩٨٥ صرح فى اختتام اجتماع اللجنة المركزية: «أريد أن أقول لكم أننى سأخصص بقية حياتى لردع الفساد... لقد لاحظتم أننى أمرت بإلقاء القبض على شخص ارتكب جريمة اختلاس لأموال الدولة. ولكن هناك أمر أحزننى عند القيام بهذه الإيقافات، هو أنه تمت تدخلات من طرف أشخاص لم أكن أعتقد أنهم سيرضون

كنت أمينا عاما للحزب؛ ووددت لو بقيت عضوا باللجنة المركزية، أو مجرد مناضل بسيط فى إحدى الخلايا القاعدية، ولكن قرارا من الرئيس حرمنى، تعسفا، حتى من ذلك

بترك أناس غير نزهاء ينهبون خزينة الدولة».

ذلك أنّه نكاية فى زوجة الرئيس سعت سعيدة ساسى بالرئيس والمدير العامّ لتونس الجويّة السيّد محمّد بلحاج الّذى جرى اعتقاله يوم ٧ جانفى، بدون سبق استشارة، بإلباسه تهمة الفساد المالى فى إدارة الشركة، إذ أوغرت «بنت الأخت» صدر الرئيس ضدّها، وعبأته على خلفيّة وجود علاقة مشبوهة بينها وبين السيّد بلحاج. وفى هذا الجوّ المشحون رأى السيّد وزير العدل رضا بن على بوصفه رجل قانون إحالة الملفّ إلى لجنة من سامى القضاة تتركّب من السادة عبد السّلام المحجوب الرئيس الأوّل لدى محكمة التّعقيب، والبشير عرفة وكيل الدّولة العامّ بها، ورؤساء محكمة الاستئناف بتونس، والهاشمى زمّال وكيل الدّولة العامّ لدى تلك المحكمة. كما ضمّت اللّجنة ثلّة من سامى القضاة الملحقين بوزارة العدل. وجرى نقاش فى ضوء الوثائق المتاحة. وبعد الدّراسة المعمّقة للملفّ وتداوله أجمع الحاضرون على أنّ الاتّهامات الموجّهة إلى المشتبه به باطلة، لا أساس لها، وعارية عن الصّحّة، وأوصوا بحفظ التّتبّعات الجارية ضدّ المعنىّ بالأمر، وحرّروا تقريرا فى ذلك، أمهروه بالتّوقيع عليه بيدهم. على أنّه فى خضمّ هذا التّحرّك المحموم، قام أحد أعضاء اللّجنة القضائيّة، وهو الهاشمى زمّال، أحد موقّعى التّقرير، لما له من علاقة وطيدة بسعيدة ساسى، ولحاجة فى نفسه، قام بتسريب محتوى التّقرير إليها، فسارعت بإبلاغ الأمر إلى الرئيس بزعم أنّ السيّد رضا بن على وزير العدل قام بهذا العمل التّبريرىّ دفاعا عن محمّد بلحاج. فما كان من الرئيس من ردّ إلاّ أن اتّخذ قراره المتسارع فى لحظة انفعاليّة بإقالته من منصبه الوزارىّ يوم ١٢ فيفرى ١٩٨٦، وتعيين السيّد محمّد الصّالح العيّارى مكانه، رغم محاولاتى الفاشلة لإثنائه عن قراره، أو على الأقلّ حمله على التّريّث، فى انتظار ما سيستجدّ فى هذا الباب من أحداث، بما يجعله عندئذ فى حلّ لاتّخاذ الإجراء الّذى يتراءى له. ذلك ما جرى حبكه وتخطيطه وتنفيذه فى تلك الحقبة المتأزّمة، والمؤلمة من تاريخ تونس، والّتى كانت مثقلة بالنّذر الفاصلة، والمنهية لنظامه.

أمّا عن التّدخّل الّذى أشار إليه بورقيبة، فهو يتعلّق بنجله بورقيبة الابن نفسه. إذ صدر، بعد ذلك بأيّام قليلة، بلاغ من الرّئاسة «فى أسلوب جافّ كجفاء الصّحراء» حسب عبارة برنار كوهين، يعلن عن إنهاء مهامّ الحبيب الابن كمستشار خاصّ لرئيس الجمهوريّة.

وفى ٢٤ جويلية ١٩٨٥ دعانى بورقيبة على السّاعة الخامسة إلى قصر سقانص بالمنستير. وما أن دخلت مكتبه حتّى رأيته يستجوب علاّلة العويتى، فحضرت بذلك مشهدا مؤلما.

قال له بورقيبة: «قيل لى إنّك تستعمل سيّارتين؟»

أجاب العويتى: «نعم، سيّدى الرّئيس.

- لماذا؟

- سيّارة لى وسيّارة أخرى تستعملها زوجتى فى قضاء شؤونها».

وطفق بورقيبة يصيح فى وجه الرّجل بكلّ ما أعطاه الله من حبال صوتيّة، ويثقل كاهله بكلّ العيوب، ثمّ أمره بتسليم كلّ الوثائق الرّسميّة الّتى فى حوزته إلى محمود بلحسين، وأصدر بلاغا بمقتضاه «يفسخ العقد الّذى انتدب بموجبه علاّلة العويتى بصفته مكلّفا بمهمّة لدى رئيس الجمهوريّة».

وللتّذكير فإنّ المعنىّ بالأمر بقى منذ الثّلاثينات يباشر مهمّة كاتب خاصّ للرّئيس. لقد كان موضع ثقته، وحافظ أسراره، ومدبّر شؤونه اليوميّة، والممرّض، والمتلقّى لسورات غضبه، ومثال الوفاء له.

وتعليقا على هذه التّصرّفات العبثيّة كتبت فرانسواز شيبو فى صحيفة «لوموند» ما يلى: «إنّ جميع الأنظار تحوّلت إلى منصور السّخيرى الّذى شكّل مع سعيدة ساسى مجموعة الحرس الجديد المقرّب إلى الرّئيس التّونسىّ، البالغ من العمر خمسة وثمانين عاما...» وختمت تعليقها قائلة: «بين رئيس دائم الحضور لكنّه خاضع بازدياد إلى تأثيرات دائرته المحيطة به، ووزير أوّل مضطرّ إلى عدم الحركة، لأنّه فى أغلب الحالات مكبّل بأواصر قرطاج السّلطويّة، وبرغبة الانتقام الّتى تؤجّج صدور البعض، وتفتح شاهية الآخرين السّياسيّة... أصبح التّونسيّون أكثر إحباطا...».

وكلمة مكبّل هى أقلّ ما يمكن أن يقال فى هذا الصّدد!

وهكذا نجحت العصابة المكوّنة، بالخصوص، من منصور السّخيرى وسعيدة ساسى فى إبعاد بورقيبة الابن، وعلاّلة العويتى، ووسيلة. وأصبح بورقيبة شيئا فشيئا فى عزلة. ثمّ جاء دورى فى ٨ جويلية ١٩٨٦. ■

كتاب الزاوية

العرب والفكر الأوروبى

عبدالرحمن بدوى

ليس هناك من يستطيع أن يتحدث بثقة وتمكن واقتدار عن دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى أكثر من الفيلسوف والمفكر عبدالرحمن بدوى (توفى فى ٢٥ يوليو ٢٠٠٢).

فقد تعمق الراحل الكبير فى ثقافة وفكر وفلسفة الغرب بقدر ما تعمق ودرس الفلسفة والفكر والثقافة العربية الإسلامية.

د. بدوى هو أحد أبرز المفكرين والفلاسفة المصريين والعرب فى القرن العشرين، بل هو أول فيلسوف وجودى مصرى. وقد حصل على دكتوراة الفلسفة عن أطروحة الزمان الوجودى عام ١٩٤٣ وهو فى سن السادسة والعشرين. وأشرف على المناقشة الدكتور طه حسين الذى علق قائلاً: لأول مرة لدينا فيلسوف مصرى. وقد أشاد عملاق الاستشراق ماسينون بعبدالرحمن بدوى وامتدحه أيضًا الفيلسوف الفرنسى الكبير أندريه لا لاند الذى كان أستاذًا له.

وألف بدوى عشرات الكتب ومئات المقالات العلمية بحيث أصبح صاحب مشروع فلسفى وفكرى حقيقى استفاد منه كل المهتمين من الناطقين بالعربية.

وفى سنواته الأخيرة وضع بدوى العديد من المؤلفات التى تظهر الوجه المشرف للحضارة العربية والإسلامية وتدافع عن القرآن والنبى محمد «صلى الله عليه وسلم» ضد منتقديه. وقد أعادت مكتبة الأسرة فى مصر نشر كتابه «دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى» عام ٢٠٠٤ ومجلة «وجهات نظر» تنشر مقتطفات من هذا الكتاب المهم.

نازك الملائكة
أوراق لم تنشر

حلمى محمد القاعود

لاحظت فى سلوك «نازك» ظاهرتين مهمتين، الأولى: الأمومة، والأخرى: وضوح الرأى وصراحته. وقد يقول قائل: إن الأمومة أمر طبيعى فى المرأة، ولكن أمومة نازك كانت شيئًا مختلفًا فيما أرى

[١]

■■ ذات مساء فى شارع قصر العينى عقب هزيمة ١٩٦٧، وفى دار الأدباء عرفت «نازك الملائكة»، عرفنى بها أخى وصديقى الشاعر والناقد الكبير «عبده بدوى». كانت ندوات جمعية دار الأدباء أيامئذ تموج بالحركة والنشاط، ويشارك فيها الأدباء العرب، فضلاً عن المصريين، من كل حدب وصوب، وكانت المناقشات جادة وقوية وعميقة، والتواصل بين الكبار والشباب ممتداً فى حنو واحترام وتوقير. وكان أصحاب التيارات الفكرية المتناقضة، يقدمون التوافق الإنسانى، والصداقة الحميمة فيما بينهم على أية خلافات ثقافية أو فلسفية أو أيديولوجية..

امتدت معرفتى بنازك وزوجها الدكتور عبدالهادى محبوبة - رحمهما الله - إلى بداية مرضها، حيث أصيبت بجلطة استمرت طويلاً، جعلت من عزلتها أمراً محتوماً، حتى الهاتف كانت لا تستطيع استخدامه إلا لضرورة، وكان خروجها من الكويت فى أواخر الثمانينيات متوافقاً مع بداية مرضها المزمن، وآثرت أن تكون مصر التى أحبتها منذ صباها، مستقراً لها، واختارت حى الحدائق (حدائق القبة)، لتكون فى معزل عن مواطن الحركة لرجال الصحافة والإعلام والفكر بصفة عامة، وكان ابنها «البراق» - وهو وحيدها - يتولى كثيراً من الشئون الخاصة بالثقافة التى تتعلق بها. وكان قد استقر فترة طويلة فى أمريكا، حيث حصل على درجة الدكتوراة فى «علم الاجتماع».

كان زوجها «عبدالهادى محبوبة» أستاذاً جامعياً، عمل فى جامعة الكويت لفترة طويلة، وهى معه، وكان يتسم بدماثة الخلق والرقة، وكانت معظم أحاديثه واهتماماته تدور حول العلم وقضاياه فى تخصصه الدقيق، وهى الدراسة الأدبية، وقد توفى منذ سنوات بالقاهرة، واهتم بأمره حينها الأديب الراحل المعروف «الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى»، حتى واراه الثرى مع عدد محدود من الناس، ونشرت بعد رحيله قصيدة حزينة فى «الأهرام»، كانت رثاء يعبر عن عمق الارتباط الروحى والنفسى بينهما.

تعلم عبدالهادى فى القاهرة، وكان زميلاً للدكتورة «سهير القلماوى» - رحمها الله - وغالباً ما كانت تزورهما - هو وزوجه - عندما يأتيان لقضاء الصيف كل عام فى القاهرة، وكنت أرى عمق المودة التى تربط بين الثلاثة، رحمهم الله جميعاً.

لاحظت فى سلوك «نازك» ظاهرتين مهمتين، الأولى: الأمومة، والأخرى: وضوح الرأى وصراحته. وقد يقول قائل: إن الأمومة أمر طبيعى فى المرأة، ولكن أمومة نازك كانت شيئاً مختلفاً فيما أرى، فقد كان حديثها عن «البراق» يعنى أن كيانها كله يموج بالحركة ويشتعل عند ذكر اسمه، وكانت فخورة به وهو صبى، وتذكر لى أنه يقرأ كثيراً، لدرجة أنه كان لا يترك الكتاب وهو يدخل المطبخ لإحضار كوب من الماء. كان «البراق» - ولعلها اختارت اسمه من البيت الشهير: «ألا ليت للبراق عيناً فترى...» - ذكياً، وقليل الكلام، وهو ما أهله لإحراز درجات عالية فى سنوات الدراسة وتأهله للحصول على الدكتوراه، كما سبقت الإشارة.

هل كان اشتعال الأمومة عند «نازك» لكونها لم تنجب غير «ولد واحد»؟ أظن أنه أكبر من ذلك بكثير، فقد كانت تملك مواصفات المرأة الرقيقة الرحيمة الحانية القادرة على العطاء، وهو ما يشى به كثير من شعرها.

أما بالنسبة لصراحتها فى آرائها، فقد كانت ناقدة إلى جانب كونها شاعرة، وقد يكفى أن أذكر موقفين، قد يفرضان المجاملة أحيانًا، ولكنها لم تجامل، وأعلنت رأيها بصراحة قاطعة. فقد كنت أناقش معها بعض القضايا، ومر بنا الحديث على شعر صديقنا المشترك الراحل «عبده بدوى»، فقالت لى: إن شعره التفعيلى أقوى من شعره المنظوم على الطريقة الموروثة «الذى يسمى خطأ بالعمودى»، وأعُد ديوانه «كلمات غضبى» من أفضل دواوين الشعر الحديث عامة.

وحين كتب عنها «ماجد أحمد السامرائى» رسالة ماجستير قدمها إلى جامعة الأزهر حول شعرها ثم نشرها فى كتاب بعنوان: «نازك الملائكة: الموجة القلقة»، لم تسكت عما فيه من أخطاء منهجية وعلمية، وأرسلت إلىّ نسخة من هذا الكتاب الذى يفترض أن تفرح به وتسعد، كما يفرح الأدباء والشعراء ويسعدون عندما يكتب عنهم النقاد والدارسون، ويخصصون لهم كتبًا كاملة، يطالعونها فى حياتهم وقبل الممات.

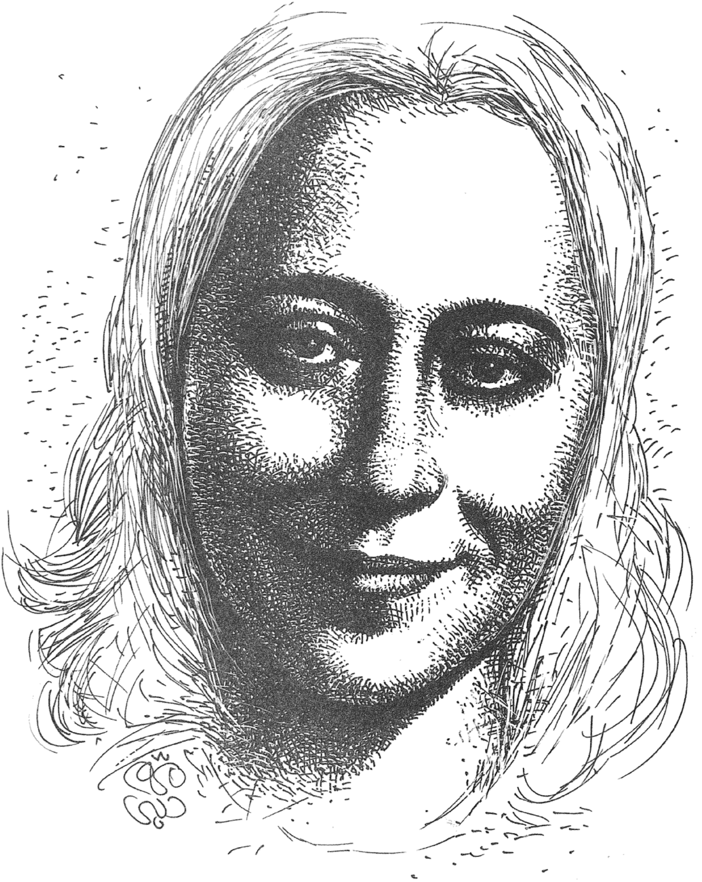
لقد كتبت آراءها فى القضايا الجزئية على جزازات بخط يدها أمام السطور التى رأت فيها مخالفة للمنهج أو المعلومات، ثم سجلت ملاحظاتها العامة فى عدة صفحات يراها القارئ بعد قليل إن شاء الله فى نهاية الموضوع. وأظن هذا الموقف يكشف لنا عن طبيعتها التى لا تحب المداهنة أو لا تسكت عن الخطأ.

لقد أحزننى أن يودعها نفر قليل فى عاصمة الثقافة العربية، وأن تكتفى الصحيفة التى ذكرت نبأ رحيلها بأربعة سطور فى ذيل الصفحة، مع أنها كبيرة الشعراء - وليس الشاعرات - فى عصرنا المنكوب بالويلات والاضطرابات، وكانت لها - على كل حال - مواقفها التى كانت فيها صوت الإنسان العربى فى آلامه - وما أكثرها - وأفراحه - وما أقلها - ولم تلجأ إلى المداهنة أو التملق أو النفاق أو إمساك العصا من الوسط، فعاشت كريمة على نفسها، حتى فى عز محنتها، وهى ترقد فى مستشفى «سنابل» بحدائق القبة، تنتظر الوصول إلى الشاطئ الذى تستقر عليه إلى يوم الدين.

وإذا كان الصديق «جمال بدوى» - الكاتب المعروف - قد نعى على مؤتمر الشعر العربى، الذى انعقد بالقاهرة فى شهر فبراير ٢٠٠٧م، عدم منحه جائزة الشعر لها، وهى فى أوج مرضها، فأنا لا أشاركه هذا الرأى، لأن «نازك الملائكة» اختارت الانحياز للهوية العربية وثقافة الأمة، وهى قبل ذلك وبعده كانت شاعرة كبيرة بكل المقاييس، سيقرأ الناس شعرها على امتداد الزمان والمكان، كما قرأوا ويقرأون شعر المتنبى وأبى العلاء وشوقى وغيرهم.

[٢]

فى بغداد، عاصمة الرشيد، ولدت «نازك صادق الملائكة» فى الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٣ لأسرة تهتم بالأدب والثقافة والفكر. وكانت الأسرة كلها تكتب الشعر كما أخبرتنى، على تفاوت، وكانت أمها تنشر أشعارها فى المجلات الأدبية والصحف العراقية باسم «أم نزار الملائكة»، وطبعت ديوانها «أنشودة المجد» عام ١٩٦٨م. وكان والدها «صادق الملائكة» أستاذاً للغة العربية وتخرج على يديه خيرة الأدباء فى العراق، وتعلمت «نازك» على يديه النحو وتفوقت فيه وترك موسوعة من عشرين مجلداً بعنوان «دائرة معارف». وقد حصلت «نازك» على الثانوية عام ١٩٣٩م، ودرست بدار



لم تصبر على ما فعله الانقلابيون بعدئذ من اضطهاد واستبداد فتركت العراق، وعاشت فى لبنان عامى ١٩٥٩، ١٩٦٠م



المعلمين العليا - قسم اللغة العربية - ونالت درجة الليسانس عام ١٩٤٤م بمرتبة ممتاز.. وفى هذه المرحلة «الجامعية» بدأت بنشر أولى قصائدها فى الصحف العراقية، وإلقائها فى احتفالات الكلية وكانت فى عام ١٩٤٢ قد التحقت بمعهد الفنون الجميلة لدراسة العزف على العود لشدة حبها للموسيقى منذ طفولتها، وظلت تدرس الموسيقى فى المعهد ست سنوات وكانت تعزف لنفسها مصاحبة لإنشاد قصائدها الشعرية، ولم تعزف أمام الجمهور إلا فى الولايات المتحدة من خلال حفل أقامته جامعة «وسكونس» التى درست فيها عام ١٩٥٥م.

كانت نازك مولعة بدراسة اللغات الأجنبية، فالتمست من عميد دار المعلمين العليا أن تدرس اللاتينية - ولم تكن مطلوبة منها - فى صف غير صفها، وأكملت دراستها فى جامعة «برنستون» عندما سافرت إلى الولايات المتحدة، وقرأت الشاعر اللاتينى «كاتولوس» الذى أعجبت بشعره وحفظت منه الكثير.

كما بدأت دراسة الفرنسية عام ١٩٤٩، ودخلت المعهد العراقى عام ١٩٥٣ لتقرأ موباسان وموليير والفونس دوديه، وكونت مكتبة خاصة بها تضم الشعر الفرنسى وكتب النقد والقصص والفلسفة للعلماء والأدباء الفرنسيين.

واهتمت بالأدب الإنجليزى وهى طالبة فى دار المعلمين العليا، وقرأت شكسبير، وترجمت إلى العربية بعض مسرحياته وهى لاتزال طالبة، كما قرأت شعر «بايرون وشيلى»، وأتقنت الإنجليزية من خلال دورة بالمعهد البريطانى فى بغداد.

وقد أوفدتها مؤسسة روكفلر الأمريكية إلى جامعة برنستون بالولايات المتحدة، وهى جامعة رجالية، أو كانت كذلك، ولذا كان منظر الطالبة الوحيدة «نازك الملائكة» مثيراً للدهشة وسط الرجال، وقد درست النقد الأدبى على يد نقاد معروفين فى الولايات المتحدة من أساتذة الجامعة، من أمثال «ريتشارد بلاكمور» وألن داونسر، وديلور شوارتز، وهو ما جعلها بعد عودتها إلى العراق عام ١٩٥١ تتجه إلى الكتابة النقدية فى الصحف والمجلات العراقية، وإن لم تتخل عن نظم الشعر، ونشره فى مجلتى «الآداب» و«الأديب» البيروتيتين.

لقد ألقت محاضرة فى نادى الاتحاد النسائى عام ١٩٥٢ بعنوان «المرأة بين الطرفين: السلبية والأخلاق»، أثارت حينئذ ضجة كبيرة، وبدأت تتحقق لها شهرة كبيرة فى الأوساط الأدبية والثقافية.

بعد وفاة أمها عام ١٩٥٣، اهتز كيان نازك الملائكة، وكان من حسن حظها أن رشحت لبعثة لدراسة الأدب المقارن فى جامعة «وسكونس»، فابتعدت عن الجو الحزين المتوتر بعد وفاة الأم، وأفرغت همها فى الدراسة والبحث والاطلاع، واستطاعت أن تظفر بالماجستير من خلال مجموعة من الأبحاث فى موضوعات مختلفة.

كانت شهرتها قد انتشرت فى أرجاء العالم العربى، وخاصة من خلال محاولتها التجديدية فى الشعر، وعرفها الأدباء العرب فى المؤتمرات والندوات، فضلاً عن الصحف، وتفاعلت مع انقلاب ١٩٥٨ فى العراق الذى نادى بالقومية العربية، ولكنها لم تصبر على ما فعله الانقلابيون بعدئذ من اضطهاد واستبداد فتركت العراق، وعاشت فى لبنان عامى ١٩٥٩ - ١٩٦٠م.

عادت إلى بغداد عام ١٩٦٢، وتابعت عملها فى دار المعلمين العليا (التى صارت كلية التربية)، وكانت قد عينت فيها عقب تخرجها بامتياز، وتزوجت الدكتور عبدالهادى محبوبة زميلها فى قسم اللغة العربية، ثم انتقلت معه عام ١٩٦٤ للعمل فى جامعة البصرة التى شاركا فى تأسيسها، وصار زوجها رئيساً لها.

فى عام ١٩٦٥، ألقت بمعهد الدراسات والبحوث العربية بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية مجموعة من المحاضرات جمعتها فى كتاب بعنوان «شعر على محمود طه».. ثم ذهبت مع زوجها للتدريس فى جامعة الكويت حتى أحست بوادر المرض، فاستقالت، وجاءت إلى القاهرة، لتقضى مع زوجها بقية حياتهما، ويدفنا فى ثراها الطيب.. ويودعها الشعر والجمهور فى يوم الأربعاء ٢٠ من يونية ٢٠٠٧م.

وفى أثناء فترة مرضها بالقاهرة.. قام المجلس الأعلى للثقافة بمبادرة من بعض الأدباء فى إيجابية تحسب له، بنشر أعمالها النثرية والشعرية فى مجلدين كبيرين، كتب مقدمتهما الراحل «عبده بدوى» - يرحمه الله - وإن كان المجلس قد ضن عليه - كما حكى لى - بنسخة من هذين المجلدين، ليقرأ فيهما مقدمته أو دراسته على الأقل!

ومن مجموعة كتبها النثرية، وقد كتبت عن بعضها إبان صدوره:

- شعر على محمود طه، عام ١٩٦٥م.
- قضايا الشعر الحديث، عام ١٩٦٢م.
- التجزيئية فى المجتمع العربى، عام ١٩٧٤م.
- سيكولوجية الشعر، عام ١٩٩٢م.
- الشمس وراء القمة (مجموعة قصصية)، عام ١٩٩٧م.

أما مجموعتها الشعرية، فمنها:

- عاشقة الليل، ١٩٤٧م.
- شظايا ورماد، ١٩٥٧م.
- قرارة الموجه، ١٩٥٧م.
- شجرة القمر، ١٩٦٥م.
- يغير ألوانه البحر، ١٩٧٧م.
- للصلاة والثورة، ١٩٧٨م.

- أما «مأساة الحياة»، و«أغنية للإنسان»، فهى مطولة نشرت ١٩٤٩ وتكرر نشرها فيما بعد، ويبدو أنها حاولت إعادة صياغتها، ولم تقتنع بالصياغة الجديدة، وإن كانت قد دافعت عنها لأسباب سترد فيما بعد.

وقد أحسنت جائزة البابطين إذ منحتها جائزتها عام ١٩٩٦، وهى فى معتزلها ومعركتها مع المرض، فرفعت بعض الحرج عن المؤسسات الثقافية الرسمية فى العواصم العربية (ولا أقول القاهرة وبغداد وحدهما)، لأنها كانت تستحق العديد من الجوائز التى تكافئ دورها، ولكن يبدو أن هناك من أراد أن يعاقبها على جهدها، الذى أثبتت فيه أن الوزن العربى الموروث أكثر كفاءة من وزن التفعيلة الذى كانت من أوائل المبشرين به!

[٣]

سوف أسجل فى هذه الفقرة ملاحظات «نازك الملائكة» على بعض ما ورد فى كتاب «ماجد أحمد السامرائى» الصادر عن وزارة الإعلام فى بغداد عام ١٩٧٥، وقد كتبته بخط يدها، ولم يطلع عليه الناس، ومع أنها أرسلت إلىّ الكتاب حال صدوره، فقد لاحظت أنها لم تكتب إلىّ إهداء كعادتها عندما كانت تهدينى كتبها أو دواوينها، سواء فى طبعتها الأولى أو الطبعة الجديدة، مما يعنى أنها لم تكن مستريحة إلى الكتاب بصفة عامة.

وسوف أبدأ بالملاحظات الجزئية، مع الإشارة إلى ما كتبه المؤلف، ليكون تعليقها مفهوماً للقارئ وتنبع أهمية هذه التعليقات فى أنها تزيل الأحكام العامة أو المغلوطة التى تناقلها بعض الكتاب أو الصحفيين عن مسيرة الشاعرة والشعر.

١ - تعلق على ما كتبه المؤلف فى (ص١٧) إحصاء لقصائد ديوانها «عاشقة الليل»، حيث يضم - حسب قوله - ٣٩ قصيدة منها ٢٩ على الطريقة القديمة، و٨ على الطريقة الحديثة، واثنتان مترجمتان. ويضم «شظايا ورماد» ٣٢ قصيدة منها ٦ على الطريقة القديمة و٢٦ على الطريقة الحديثة.

فتقول نازك: «ماذا تراه يقصد بالطريقة القديمة والحديثة. أما إذا كانت «الحديثة» تعنى الشعر الحر، فليس فى عاشقة الليل أى شعر حر على الإطلاق. وحكمه على «شظايا ورماد» غالط أيضاً.

أرجو الرجوع إلى مجموعاتى الشعرية وتصحيح هذه الأخطاء».

٢ - ينسب إليها المؤلف فى ص ١٩:

«يا حزن لم تستعد أناشيد شجيه
من لسان فجيع
لتهبها فى أمسية شاحبة إلى البلبل الغرير
وتسمعها ممزوجة بالندى الرطيب»

فتعلق قائلة:

«ليس هذا الكلام لى، وهو نثر وليس شعراً. نازك».

٣ - يقرر المؤلف أن الواقع الاجتماعى

كنت منذ صغرى شديدة الحساسية فى شأن كل ما يتعلق بالمرأة، وبقيت طيلة حياتى مجادلة عنيفة حول مختلف قضايا المرأة.. نازك الملائكة



لنازك يمنع عليها التصدى المباشر لظاهر المجتمع، لأنها لا تستطيع أن تعيش الانهزامية الاجتماعية والتشرد، فهذا يؤدى بسمعة أسرتها، كما أنها لا تريد التخلى عن أحاسيسها ومشاعرها ومطامحها.. لهذا أصبحت عندها حالة من التأزم أثرت بشكل بارز على عواطفها وأحاسيسها وعلى شعرها أيضاً..» ص ٢٥.

تعلق نازك على ذلك وما ورد مشابهاً له بقولها:

«وقع المؤلف فى وهم غالط عندما ظن أن فى حياتى «هزيمة عاطفية»، وأنا أدرى أنه ليس فى حياتى أية هزيمة عاطفية. ولو رجع المؤلف إلى نصوص شعرى نفسها وقرأها قراءة تمحيص، وبحث ووقف عند كل نص متأملاً لوجد الكثير مما يدحض نظريته هذه. وعندما أعلن أننى لم أعرف ما سماه بالهزيمة العاطفية، فإن ذلك يفرض على الناقد أن يبحث عن أسباب أخرى لأحزانى الواردة فى شعرى. إن من السهل أن يصوغ الدارس نظرية، أما الصعب فهو تأييدها وإسنادها بالشواهد، وإقناع القارئ المطلع على شعرى اطلاعاً كافياً».

٤ - يشير المؤلف أن الشاعرة قد تناولت مسألة «حفار القبور» وما يعنيه هذا الشخص من تصور للصراع الحاد بين الحياة والموت، أنها جمعت شخصين فى هذه المهنة، وأطلقت لهما العنان وهما منهمكان فى الكسب من أجل الحياة، فتقول:

«طالما حفرا فى التراب
حفرا فى الضباب
ربما حفر فى شحوب الخريف
أو عبوس الشتاء المخيف
طالما شوهدا يحفران
يحفران.. يظلان فى لهفة يحفران
وهما الآن فوق الثرى ميتان» ص ٤٢.

وتقرر نازك تعليقاً على هذا الحكم أن المؤلف وقع «فى خطأ وهو يحاول تفسير قصيدتى «يحكى أن حفارين» - فقد ظن أن الحفارين كانا يحفران القبور - ولو قرأ القصيدة قراءة واحدة متعمقة لعرف أن الحفارين كانا هما الشاعرة وحبيبها، وأنهما لم يكونا يحفران قبراً.. على العكس كانا يحفران ليستخرجا إنساناً دفيناً فى التراب لأنه حى وليس ميتاً، لقد دفن حياً، والشاعرة وصديقها يحفران ليل نهار فى ذلة وحزن ليخرجا هذا «الميت الحى». وهذا كله واضح فى نص القصيدة، ولكن هذا المؤلف مستعجل ويكتب أى شىء يخطر له دون أن يكلف نفسه بقراءة النصوص».

٥ - يقول المؤلف: «ويبدو أن نازك الملائكة قد تناولت بعض المسائل الاجتماعية فى شعرها، وخاصة نظرة المجتمع إلى المرأة، إلا أن ذلك قد جاء بشكل سطحى والسبب هو عدم اكتراث نازك بقضايا الآخرين بقدر اهتمامها بذاتها وتأملاتها..» ص ٧٩.

وتعلق نازك:

«خطأ فادح، فقد كنت منذ صغرى شديدة الحساسية فى شأن كل ما يتعلق بالمرأة، وبقيت طيلة حياتى مجادلة عنيفة حول مختلف قضايا المرأة، ولو سمع ماجد - تقصد المؤلف - آرائى حول هذه الأمور لعرف أنه ما من امرأة فى العالم كله أشد منى ثورية وجرأة فى مناقشة قضايا المرأة. وتثبت هذا أبحاثى (المرأة بين الطرفين: السلبية والأخلاق) و(مآخذ اجتماعية على حياة المرأة العربية) و(التجزيئية فى المجتمع العربى).

ثم إن أحد أسباب حزنى فى المرحلة الأولى من حياتى يرجع إلى ازدراء المجتمع العربى للمرأة وحجبه لها وإساءته الظن بها».

٦ - يتعرض المؤلف لما كتبته الشاعرة فى مأساة الحياة وأغنية الإنسان فيرى أنها اهتمت بالشكل دون الاهتمام بالمضمون الداخلى للموضوع.. ص ٨٧.

وتقول نازك تعليقاً على ذلك:

«لم يتحدث عن الفصل الطويل عن الحرب العالمية الثانية، والدعوة إلى السلام، وتصوير القتلى وعيونهم المفتوحة، وهو شديد الأهمية بالنسبة لما يقول».

٧ - وفى سياق تناول المؤلف لمأساة الحياة، يشير إلى أنها فى عام ١٩٦٥ قامت بنظم القصيدة مجدداً، لم تحاول أن تقدم شيئاً جديداً لبكر ولادتها (مأساة الحياة عام ١٩٤٥) فأتت بكامل قصيدتها الأولى سوى بعض التحويرات البسيطة وغير الخفية من بعض أبياتها، وثبتت لها عنوان: «أغنية للإنسان» حتى إن عدد أبياتها هو (٥٨ بيتاً) وهو نفس عدد أبيات قصيدة المرحلة الأولى.. ص ٨٩.

ويلاحظ أن نازك وضعت خطوطاً تحت كلام المؤلف، وأكثر من علامة X، فضلاً عن علامتى الاستفهام والتعجب، وجملة «خطأ فادح».

أما التعليق فتضع له عنواناً: «حول مأساة الحياة وأغنية للإنسان».

ثم تقول:

«لم يلاحظ المؤلف تطور الأسلوب والصور، واللغة، وكان هذا هو الذى جعلنى أعيد نظم القصيدة، لأننى لم أعد راضية عن مستواها الفنى.

والصورة الثانية منظومة سنة ١٩٥٠، وكنت إذ ذاك ملحدة تماماً.

أما الصورة الثالثة فى المطولة فقد تغير فيها الفكر تغييراً ملحوظاً لأننى أصبحت متفائلة بسبب إيمانى بالله، واتساع ثقافتى ونضجى، وبسبب انتصارات القومية العربية، وإعجابى بشخصية جمال عبدالناصر وأشياء أخرى.

ويبدو هذا التطور الفكرى واضحاً لو دقق ماجد.. لو دقق فقط!

ويبدو من تعليق الكاتب أنه لم يقرأ الصورة الثالثة، وإنما حكم عليها دون أن ينظر فيها. لقد لاح له أننى لم أغير فيها إلا قليلاً لمجرد أنه قرأ أولها ووقف هناك. ولو رجع إلى مقدمتى لعرف لماذا لم أغير أولها».

ويلاحظ أن الشاعرة تملك جرأة غير عادية حيث تعلن عن تحولاتها الاعتقادية، دون خوف أو وجل، فهى تشير إلى أنها كتبت الصورة الثانية لمأساة الحياة وهى «ملحدة تماماً».. ثم كتبت الصورة الثالثة، وقد تغيرت وأصبحت متفائلة بسبب إيمانها بالله وعوامل أخرى.. وهو ما يدل على صدقها مع نفسها وإخلاصها فى البحث عن الحقيقة.

٨ - وحول مأساة الحياة يشير المؤلف إلى ضعف قيمتها، مما ألجأ الشاعرة إلى التكرار، وأضعف التجربة وأبردها، وأبهت لون اللوحة التى أرادت الشاعرة رسمها.

وتعلق نازك:

«يجب أن يميز الناقد الخلفية الزمنية للقصائد الثلاث. وما يراه من عناصر عدم الاكتمال اللغوى والفكرى لدى شاعرة عمرها اثنان وعشرون عاماً مبرر، وكان ينبغى له أن ينص عليه. فإن (مأساة الحياة) منظومة قبل مجموعتى الأولى (عاشقة الليل)، ولذلك ثرت عليها، ولم أنشرها، ثم حاولت إعادة صياغتها مرتين. ولم أتم أية صورة لها بعد ذلك، وسرعان ما هجرتها نهائياً، كل هذا ينبغى ملاحظة ما وراءه من معان تثير التأمل لو أتيح لها ناقد يتأمل».

٩ - يتعرض المؤلف لتناول الشاعرة حياة الفقراء والأغنياء، ويرى أنها تنطق بلسان الكادحين وهى الإنسانة الأرستقراطية، تعبر عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وترى كيف تأتى الأموال إلى جيوب الأغنياء من كدح الفلاح وتعبه.. ص ٩٦.

وترد نازك على هذا الحكم بقولها:

«يزعم أننى أنتمى إلى أسرة أرستقراطية، مع أننا - ونحن سبعة أبناء وأبوان وعمة - لم نكن نملك من حطام الدنيا سوى راتب أبى، الذى كان يبلغ أيام صباى خمسة وعشرين ديناراً شهرياً، ولم يكن لنا أى مورد على الإطلاق سوى راتب أبى هذا، فهل هذا هو معنى الأرستقراطية؟ وقد مات أبى عام ١٩٦٩ وكان راتبه يبلغ آنذاك اثنين وستين ديناراً.

وفى عام ١٩٤٤ أكملت ليسانس اللغة العربية وعينت مدرسة براتب قدره ثمانية عشر ديناراً فأصبحت أعين أبى فى نفقات المعيشة».

١٠ - يتناول المؤلف نظرية نازك العروضية بالنسبة للشعر الحر، ويأخذ عليها مآخذ كثيرة ص ١٠٦، وترد الشاعرة على ذلك بالقول:

«اقتصر المؤلف على إحصاء مآخذه على نظريتى العروضية دون إحصاء ما يوافقنى عليه منها، وهو كثير، مع أن المصطلحات التى وضعتها أصبحت كلها على ألسنة الأدباء والنقاد، وكثير من القواعد التى قررتها قد شاعت وقبلها الشعراء كلهم. وهذا موقف غير مقبول من الناقد الذى

عندما يخطئ الناقد



وقعت في هذا الكتاب أخطاء في المنهج، وكل خطأ في المنهج لابد أن يؤدى إلى غلط في النتائج التي يصل إليها الباحث وسأدرج هذه الأخطاء فيما يلي:

١ ـ لم يتقيد المؤلف بتواريخ قصائدى وهو يدرسها. ومن عادتي أن أسجل التواريخ في آخر كل قصيدة، مساعدة للقراء والدارسين على فهم الظروف والمراحل، والوصول إلى تفسيرات تنسجم مع الواقع. لذلك نجد المؤلف يخلط بين قصائد وردت في «عاشقة الليل» الصادر سنة ١٩٤٧ وأخرى وردت في «شظايا ورماد» الصادر سنة ١٩٤٩، و«قرارة الموجة» الصادر سنة ١٩٥٧. وعبر هذه السنوات حدثت تغييرات ساحقة في حياتي وأفكاري وثقافتي وظروفي وظروف المجتمع. وكأن المؤلف يفترض أن الشاعر يبقى ثابتًا على آرائه وعواطفه لا يتغير طوال حياته. وهذا تفكير غير سليم. هناك مثلاً ظاهرة في «عاشقة الليل» ورحلتي الرومانسية، يحاول المؤلف أن يستشهد لها بأبيات من «قرارة الموجة» رحلتي الرمزية الفلسفية. وقد أدى به هذا إلى أخطاء بالغة أحيانًا.

٢ ـ صاغ المؤلف، حول حياتي العاطفية. نظرية متحمسة مندفعة بناها على قراءة سريعة غير متأملة ولا فاحصة، ولا دقيقة لقصائد الحب في مجموعاتي الشعرية الخمس. وقد انتهى حكمه إلى أن في حياتي هزيمة عاطفية هدمت نفسيتي وسببت لي الأحزان والرجات الروحية وقد جعله هذا يقع في خطأين خطيرين.

(أ) أنه خالف وقائع حياتي. فأنا لم أعرف شيئًا اسمه هزيمة عاطفية يومًا. وهذه الحقيقة لو خطرت على بال المؤلف، لغيرت تفسيراته النقدية لقصائدي تغييرًا كبيرًا. لأن تبدل الفرض ينتهي حتمًا إلى تبدل النتائج.

(ب) إنه ـ عندما أوقع نفسه في خطأ الإيمان المطلق بفرضية الهزيمة العاطفية ـ أغلق على نفسه باب النظر في النصوص الكثيرة التي تدحض نظريته تلك، وهي مثبتة في مجموعاتي الشعرية. ولذلك مرت تلك النصوص أمامه دون أن يلخصها أو يقف عندها. كان ذهنه مندفعًا جامحًا ـ خلافًا لما ينبغي للناقد ـ فسد ذلك عليه أبواب التعليل الرصين وأوقعه في متاهات أحكام غالطة غلطًا مؤسفًا.

ولم يسئ المؤلف إليّ في شيء بهذه النظرية وإنما أساء إلى القيمة النقدية الموضوعية لكتابه.

٣ ـ لم يحاول المؤلف أن يقرأ شعري قراءة تعمق واتساع ومثل هذا الموقف لا ينتج دراسة نقدية مطلقًا. لذلك يمكن الرد على آراء «ماجد أحمد السامرائي» بنصوص كثيرة في شعري نفسه تدحض نظريته دحضًا كاملاً. والنقد الجيد لأية قصيدة يقتضي أن يقرأها الناقد قراءات متعددة ويلاحظ كل لفظ فيها وكل صورة وكل رمز. حتى إذا صاغ حولها فرضًا. أو وضع حكمًا كان ذلك مسندًا بكل شطر فيها. وإذا ما ورد شطر واحد يتعارض مع ذلك الفرض فإنه لا يعود كافيًا لتفسير القصيدة. أما قراءة الشعر مرة واحدة، أو مطالعة حزازات عابرة في بعض القصائد ثم دفع الشاعر بنظرية كاملة، فهو ليس من الدراسة الجادة في شيء. وإنما هو ارتجال وبعد عن المنهج الموضوعي. لو رجع المؤلف إلى دراستي للشاعر علي محمود طه وتعقب منهجي لرآني وأنا أكتب قد وقفت عند كل كلمة في شعر الشاعر. فأنا لم أكتب إلا بعد أن عرفت شعره ظاهرًا وباطنًا. لا بل حفظت أكثره غيبًا. فكنت أجد الشاهد فور حاجتي إليه. ومع هذا كله رفضت أن أستنتج وقائع حياته من شعره واحترزت وتحفظت وأبلغت القارئ أن استنتاجي قد يكون معارضًا لحياة الشاعر. وليس من حقي ـ باعتباري دارسة وناقدة ـ أن أستنتج وقائع حياة من مجرد نصوص شعرية وإنما اضطررت إلى القليل القليل في الفروض لأنني عجزت عن الحصول على سيرة مفصلة للشاعر. وبذلك كله تركت للقارئ فرصة كاملة لرفض استنتاجاتي. وهو الموقف السليم الذي يرعى حقوق شاعر لا معرفة لي بحياته وليس من حقي أن أخوض في سيرته.

٤ ـ لم يحاول المؤلف أن يلاحظ أبرز ظاهرة في شعري وهي الجانب الفكري. فإن ثلاثة أرباع كآبتي وحزني كانت نتيجة لتطلعات فلسفية. وضيق بالجانب الحيواني في الإنسان (بسبب مثاليتي المشار إليها سابقًا) وثورة على الأحوال الاجتماعية والتخلف في الوطن العربي، كما أن ظروف الاستعمار البريطاني في العراق، وفشل الثورات القومية المتعاقبة كان أحد أسباب أحزاني. ويبدو الاتجاه الفكري حتى في شعري الأول (مطولة مأساة الحياة) و(عاشقة الليل) مع أن عمري عند نظم هذين الأثرين كان بين الثانية والعشرين والخامسة والعشرين، وهي سن طرية ينصرف فيها الشبان عادة إلى العواطف المضطرمة. أما أنا فقد بقيت أتساءل في وله وحرارة عن أسرار الموت والحياة ومصير البشرية، وإمكانيات السعادة والشقاء، ومضامين الحق والباطل، والخير والشر، وحرية الإرادة، وسوى ذلك مما هو مبثوث في شعر تلك المرحلة. فكيف عجز المؤلف عن ملاحظة هذا؟

٥ ـ لم يستطع المؤلف أن يلحظ ظاهرة من أبرز ظواهر شعري وهي الثورة والتمرد والرفض. ومن ذلك (الإلحاد) الذي سيطر على تفكيري ما بين ١٩٤٧ و١٩٥٦، عندما كنت كافرة بوجود الله كفرًا كاملاً، أنادي بأن القرآن من إنشاء محمد الذي لم يكن نبيًا وإنما كان مثقفًا عربيًا يملك قدرات قيادية غير عادية. وهذا الإلحاد كان له أثر عميق في نفسيتي لأنه سبب لي ضياعًا فكريًا بلا حدود وأعطاني الحزن واليأس. وكل دراسة لا تميز هذا الإلحاد، دراسة ناقصة.

٦ ـ افترض المؤلف أنني نكصت متراجعة عن الشعر الحر. وهو بهذا ينساق مع الزعم السطحي الشائع، دون أن يرجع إلى شعري المنشور ليتأكد من صحة الشائعة. كما أنه ـ لو كان يريد الإنصاف ـ لقرأ في كتابي (قضايا الشعر المعاصر) الصادر سنة ١٩٦٢ حرصي على الشعر الحر وهو يتجلى في عنايتي الشاقة بوضع عروض مفصل له. فضلاً عن أني انتقدت شعر الشطرين الخليلي (الشكل القديم) انتقادًا شديدًا وبينت عيوبه ومساوئه ـ بالنسبة لنظرة هذا العصر ـ في فصل طويل عنوانه (الجذور الاجتماعية لحركة الشعر الحر)، فإذا كنت متراجعة ـ كما يزعم ـ فكيف أكتب هذا الفصل؟ ولماذا أتعب نفسي بوضع عروض كاملة لشعر تراجعت عنه ولم أعد أؤمن به كما يزعم؟

٧ ـ فات المؤلف أن يلاحظ ملاحظة مهمة هي أن الشعر يستعمل الرموز والصور الضبابية، والتهويمات، وترد فيه استعارات وإيماءات موسيقية بحيث يغيب المعنى وراء غلالات وحجب كثيفة أحيانًا، وكثيرًا ما تعطي القصيدة إيماء بفكرة ظاهرية مخالفة لقصد الشاعر، فالشاعر يحلم ويهوم ويبالغ مبالغات عاطفية شديدة، ويغرق في الخيالات، وكل هذا يجعل من عدم الموضوعية أن نستنتج حياته من شعره. وإنما نحتاج إلى أن تكون بين أيدينا وثائق ورسائل ووقائع ثابتة مؤرخة، أما من كان مثل المؤلف، لا يملك أية معلومات صلدة عن حياتي، فليس من مصلحته ـ كناقد ـ أن يصوغ نظريات وفرضيات عن حياتي ويعطيها للقارئ على أنها وقائع كما في الفصل المعنون «العاطفة المهزومة أو خيبة الأمل».

نازك الملائكة

نازك الملائكة
الموجة القلقة
ماجد أحمد السامرائي
بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٧٥

يجب أن ينص على المزايا والمآخذ معًا مع الموضوعية والدقة والإنصاف».

١١ ـ يشير المؤلف وهو يعرض لنظرية نازك العروضية إلى بعض القيود التي تفرض على حرية الشاعر في زيادة التفاعيل.. ص ١١١ .

وتقول نازك:

«لم يطلع المؤلف على مقدمة الطبعة الرابعة من (قضايا الشعر المعاصر)، وفيها أوضحت تطور سمعي منذ عام ١٩٦٢، ولذلك أضفت هوامش عروضية شديدة الأهمية على القواعد التي كنت أقبلها من قبل».

١٢ ـ يرى المؤلف أن البيت المثالي عند نازك هو الذي تطابق كلماته اللغوية وتفاعيله العروضية تطابقًا تامًا.. معتمدًا على تحليل للدكتور محمد النويهي لما طرحته نازك.. ص ١١٦ .

وتجيب على ذلك قائلة:

«لو رجع المؤلف إلى كتابي «قضايا الشعر المعاصر» الذي ناقشه د. النويهي، لوجد أنني لم أقل هذا المنسوب إليّ. فضلاً عن أن شعري المنشور يخرج عليه بكل تفعيلة فيه.

والمؤسف أن «محمد النويهي» لم يكن موضوعيًا في طائفة من مناقشاته، وإنما انساق مع عواطفه وهذا لا يصح للناقد. وقد وصف ناقد مصري رصين هو د. عبده بدوي مناقشة النويهي بأنها كانت «خناقة زاعقة» وذلك في مجلة الثقافة بالقاهرة. وكل موضوعية تتعارض مع «الخناقة» ومع «الزعيق».

١٣ ـ اعترض المؤلف على رؤية الشاعرة نازك الملائكة من قضية «التدوير» ويراه خطرًا في التجربة الشعرية وقعت فيه الشاعرة نفسها في قصيدتها «الأفعوان» التي نظمتها سنة ١٩٤٧ في الموضعين التاليين:

١ ـ اسمع الصوت
سيرى فهذا طريق عميق
٢ ـ لن يجئ
واسمع قهقهة حاقدة.. ص ١١٨ ـ ١١٩.

ونازك الملائكة تنفي أولاً أن يكون في هذا النص أي تدوير، فكل منهما شطر واحد. ثم تقول:

«لم يفهم المؤلف حكمي في قضية التدوير مطلقًا، ويلوح لي أنه يخلط بين «التضمين» الذي هو استقلال البيت الواحد عما يليه نحويًا، وبين «التدوير».

ويبدو أن الكاتب لا يميز بين البيت والشطر (ص ١١٩). وقد زعم أنني

استعملت التدوير فى قصيدتى الحرة (الأفعوان)، وهو زعم باطل فما أورده مثالاً لم يكن فيه تدوير ما لم يرد التدوير فى أى موضع من شعرى الحر طيلة حياتى.. فلا يتعب ماجد نفسه.

١٤ - يتهم المؤلف الشاعرة مع تمردها على رتابة العروض القديم، فإنها تدخل فى رتابة جديدة هى نفس الأولى ولكن بشكل جديد.. ص ١٢٢ .

وترد نازك على ذلك بالقول:

«يقول إن القواعد التى وضعتها تدخل الرتابة على الشعر الحر. مع أننى قد استعملتها كلها، وليس فى شعرى رتابة باتفاق النقاد والدارسين. والواضح أن المؤلف يتحدث فى قضايا لم يدرسها وليست من اختصاصه».

١٥ - يرى المؤلف أن نازك أصبحت فى عام ١٩٦٨، لا تملك الحماسة وأصبحت تنظر إلى مسائل الشعر الحر ببصيرة وتعقل الناقد الهادئ بعيداً عن عواطفها كشاعرة. ويورد قولها الذى تعلن فيه عن أسفها أنها فى شعرها الحر لم تعلن عن عناية أكبر بالقافية، فكانت تغير القافية سريعاً وتتناول غيرها.. ص ١٢٧ .

وتعد نازك ما يراه السامرائى فرية: لا أكون منفعلة وعاطفية عندما أمارس قرض الشعر وأكون متعقلة وهادئة وموضوعية حين أكتب النقد. وهل يريد منى المؤلف أن أكتب نقداً عاطفياً كله تهويمات وغيبويات؟

مازلت أستعمل القافية المنوعة فى شعرى كله، ولست من أنصار القافية الموحدة، ولكننى أدعو إلى إبراز موسيقية الشعر الحر بقواف أكثر، خاصة أن كثيراً من الشعراء الشبان (فى ذلك الوقت طبعاً)، قد نبذوا القافية نبذاً تاماً، وذلك عندما ينقص من موسيقية الشعر الحر ويبعثره».

١٦ - يتهم المؤلف الشاعرة بأنها استسلمت للواقع وأصبحت تجربتها تسير نحو النهاية، ورحلت عنها الثورة والتمرد مع ذهاب شبابها، وأصبحت تشتاق إلى الوزن الواحد.. ص ١٢٨ .

وتتساءل نازك:

ما معنى قوله: «أصبحت نازك تشتاق إلى الوزن الواحد»؟.

يقول إن الثورة والتمرد رحلت عنى برحيل شبابى، وأقول: ذهب شبابى وجاء نضجى الروحى والعاطفى والفكرى وشباب ذهنى. وقد استمر برنارد شو يبدع حتى الثالثة والتسعين. وبين يدى الآن للطبع ثلاث مجموعات شعرية جديدة نظمتها بين ١٩٧٣ - ١٩٧٥ . وهذه المجموعات ليست مجرد «كم». إن فيها تجديداً وإبداعاً، وهل من الموضوعية الحكم على شاعرة حية بأنها انتهت؟

أما الإنسانية فلنتركها جانباً.

كل هذا ليس من النقد فى شىء، ومن ألف كتاباً عن شاعر، فينبغى له أن يحبه أولاً، لكى تنفتح له أبواب المعانى، وما أسهل الهجوم والسباب على من لا يحاسب نفسه على ما يقول».

....

هكذا تنتهى الملاحظات الجزئية التى سجلتها فى جزازات؛ وأرسلتها إلىّ قبل ربع قرن أو يزيد، ولحسن الحظ أنى احتفظت بها، لتكشف عن منهجية نقدية واضحة كانت نتاجاً لدراسة النقد الأدبى فى الولايات المتحدة مع التخصص فى الأدب المقارن. وما سجلته هنا ليس قضايا شخصية، بقدر ما يمثل قضايا علمية أساسية فى مجال البحث والدرس النقدى.

[٤]

وهى لم تكتف بالملاحظات الجزئية التى توقفت عند بعض الآراء والأحكام والمعلومات، ولكنها كتبت ما يمكن أن نطلق عليه دراسة قصيرة لكتاب «ماجد أحمد السامرائى»، طرحت من خلاله قضايا عامة كشفت قصور الباحث المنهجى مما أوقعه فى أخطاء لم تتوقف عند الجزئيات، وإنما انسحبت على النتائج التى توصل إليها فى بحثه بصفة عامة، فقد أهمل تواريخ قصائدها، وأصدر أحكاماً دون دليل على حياتها الخاصة، وكان عَجِلاً فى قراءته فلم يتعمق مطالعة النصوص بحيث تكشف له عن طبيعتها، ولم يلاحظ الجانب المهم فى شعر نازك، وهو الجانب الفكرى وتحولاته، كما لم يلاحظ الجانب المهم الآخر، وهو الثورة والتمرد والرفض، وتصور أنها نكصت عن الشعر الحر وتراجعت، ولم يلتفت إلى الجانب المجازى فى البناء الشعرى، وكل ذلك أوقعه فى استنتاجات غالطة وغير علمية.

وأترك للقارئ أن يطالع ما كتبته الشاعرة بخط يدها، وأعتقد أن أحداً غيرى لم يطلع عليه، اللهم إلا نفر من خاصة خاصتها.. وفيه بلا شك، ما يغير كثيراً من الأحكام والتصورات التى أصدرها البعض أو رآها حول شعر الشاعرة.. فمعرفة ما كتبته يؤسس لنظرة جديدة ورؤية مغايرة، فضلاً عن دلالاته الأخرى التى تحتاج إلى بحث مستفيض. ■

كتاب الزاوية

العرب والشعر الأوروبى

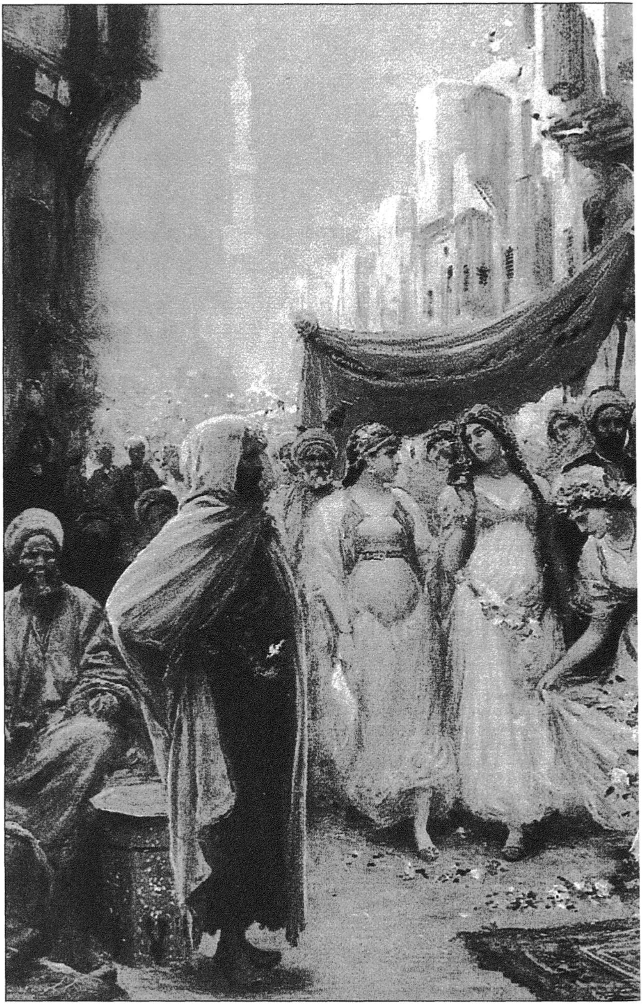
عبدالرحمن بدوى

مسألة تأثير الشعر الأندلسى فى نشأة الشعر الأوروبى الحديث فى إسبانيا وجنوبى فرنسا من المسائل التى تشغل كثيراً بال الباحثين المعاصرين. خصوصاً ومواد عديدة جديدة تضاف كل يوم لتؤكد هذا التأثير، بل ولتثبت أن الشعر العربى الأندلسى فى الموشحات والزجل قد انطوى على المرحلة الأولى لنشأة الشعر الإسبانى نفسه. وذلك فى الخرجة التى تكتب عادة بلغة أجنبية، وكانت فى الزجل الأندلسى تكتب باللغة الإسبانية الدارجة الرومانسية. فإذا جعلنا من الخرجة أبياتاً إسبانية كانت بمثابة النموذج الأول للشعر الإسبانى، وبهذا يكسب الشعر الإسبانى أكثر من قرنين من الزمان.

هذان النوعان من النظم «الموشح والزجل» اللذان ابتكرهما أهل الأندلس، هما اللذان أثرا فى نشأة الشعر الأوروبى. وأول من قال بهذه النظرية هو «خليان ريبيرا» المستشرق الإسبانى الكبير الذى عكف على دراسة موسيقى الأغانى الإسبانية ودواوين الشعراء «التروبادور» و«التروفير» وهم الشعراء الجوالة فى العصر الوسيط فى أوروبا والمنيسنجر Minnesanger وهم شعراء الغرام. فانتهى من دراساته المستفيضة هذه إلى أن الموشح والزجل هما «المفتاح العجيب الذى يكشف لنا عن سر تكوين القوالب التى صبت فيها الطرز الشعرية التى ظهرت فى العالم المتحضر إبان العصر الوسيط» وأثبت انتقال بحور الشعر الأندلسى فضلاً عن الموسيقى العربية، إلى أوروبا «عن نفس الطريق الذى انتقل به الكثير من علوم القدماء وفنونهم - لا يدرى كيف - من بلاد الإغريق إلى روما، ومن روما إلى بيزنطة، ومن هذه إلى فارس وبغداد والأندلس، ومن ثم إلى بقية أوروبا».



عالم «كلوت بك»



مـحـمـد المـهـدى

كلوت بك يلبس العمامة والملابس المصرية حتى تتيح له أن يخرج من حى الأرستقراطية «الأزبكية آنذاك» ويدخل الحوارى والبيوت والقرى والكفور، ويحكى عن كل شىء فى مصر



قبض شيخ البلد على عجوز فى قرية الزقازيق، وأصر على حلق لحيته المهيبة، حتى يبدو صغيرًا فيقدمه للجندية. الحيلة انكشفت فانتحى العجوز بالمأمور جانبًا وشكا له سوء تصرف شيخ البلد الذى أودى بلحيته مصدر هيبته فى بلده وأمام ناسه. تحول المأمور بنظره للقاضى وكان حاضرًا وسامعًا وسأله الرأى. بدت من هزات القاضى واصطناعه الوقار ملامح تواطؤ صامت مع شيخ البلد فالتفت قائلاً: لم يأت فى القرآن الكريم أن اللحية باللحية.. وأحس المأمور بملامح التآمر متبادلة مع شيخ البلد والقاضى فقال: أما والأمر كذلك فمن حقى أن أحلق ذقن القاضى دون عقاب.. وهم بالتنفيذ.

تراجع القاضى ممسكًا بذقنه وتراجعت أيضًا الأحكام على لسانه، وأعلن أن شيخ البلد مذنب.. وانتهت الأزمة كما يرويها كلوت بك فى ذكرياته عام ١٨٣٤ بأن قبل العجوز ستين قرشًا تعويضًا عن لحيته. إلا أنه أصر على عدم العودة لقريته إلا بعد أن تعود لحيته مهيبة.

يروى انطوان كلوت (بك) Antoine Bertelemy Klot هذا الحادث معجبًا بتمسك المصريين بمظاهر الشرف عندهم من ذقون وأشناب. ولكن هذا الإعجاب لم يمنعه من بيع ذقنه لمحمد على بثمن كان المقدم منه تعيينه عام ١٨٢٥ رئيسًا للجراحين فى الجيش المصرى. ظل سلطانه يرتفع فى مصر لمدة خمسة عشر عامًا، بهرته مظاهر العظمة التى حصل عليها فضاع حينما قرر الكتابة عن مصر، وجاءت أحكامه سريعة ومتضاربة فى كتابه (لمحة عامة عن مصر).

العين الزجاجية

لم يفعل كلوت بك كما فعل الفلاح المصرى الذى أصر على إخفاء ذقنه عن أهل بلده إلى أن تنبت من جديد، فقد كشف الطبيب الفرنسى أنطوان كلوت عن ذقنه حليقة الكرامة من البداية. يقول فى مقدمة ما كتبه عن مصر إنه يعتذر بخضوع شديد للأمير الخطير محمد على لأنه لم يأخذ منه إذنًا بالكتابة، فإنه إن فعل فقد يفسر بأنه تكليف من السيد العظيم، وأيضًا يعفى سيده من لوم الناقدين لكتابه القاصر لأن سيده لم يعرف القصور. وفى النهاية يرجو العفو عن «أصدق الخدام ولاءً واحترامًا لكم.. كلوت بك».

كلوت بك يلبس العمامة والملابس المصرية حتى تتيح له أن يخرج من حى الأرستقراطية «الأزبكية آنذاك» ويدخل الحوارى والبيوت والقرى والكفور، ويحكى عن كل شىء فى مصر.. النباتات والحيوانات والطيور والأسماك والزراعة والتجارة والصناعة والمواصلات والسكان من عربان ومسلمين وأقباط ويهود ويونان وأهل الشام وأحباش وأوروبيين. يصف المنازل من الداخل والخارج والرجل والمرأة والأطفال والرقيق والملابس والأثاث والعادات والموسيقى والرقص والضرائب والجيش والبحرية والتجنيد والتعليم والأمراض ثم ينتهى بالآثار.. ولا يفوته طبعًا أن يتأمل الأحوال السياسية من وجهة نظر سيده وولى نعمته.

كل هذا الكم الهائل من موضوعات الدراسة تشعر أنه يتناولها بالبحث من خلال حوض زجاجى لا حس فيه. يظل يصف ويصف فى تفاصيل لا حصر لها ولكن فى برودة تسجيلية، وحينما يتجرأ فيصدر حكمًا على ظاهرة اجتماعية لا يكلف نفسه مد يده داخل الحوض ليتبين ملمس الأجسام، أو يمد بصره ليدرك فروق الألوان. تأمل مثلاً برودة تسجيله ظاهرة مسخ الآدمى فى القرن قبل الماضى بخصيه. حيث كانت كل من مدينتى أسيوط وجرجا مصدر توريد الخصيان «ولا يقتصر القائمون بها على بتر عضو التذكير وحده، بل يبترون بالموسى جميع الأجزاء البارزة المرتبطة به، ثم يصبون فى الحال على مكان البتر شيئًا من الزيت المغلى، ويركبون أنبوبة فى الجزء الباقى من مجرى البول، وبعد إلقاء الزيت يذرون على مكان الجرح مسحوق الحناء، ثم يدفنون الفتى فى الأرض إلى ما فوق البطن، وبعد أن يتركوه فى هذه الحالة أربعًا وعشرين ساعة يستخرجونه من التراب ويدهنون مكان الجرح منه بعجينة من الطين والزيت».

ثم يبدأ فى سرد العلامات المميزة للخصيان، ومكانتهم الاجتماعية وكيفية صعودهم فى الحياة الاجتماعية رغم ما أصابهم من تشويه. وينتهى بأن يلقى درسًا فاترًا عن بشاعة هذه الظاهرة. وحينما يعدل كلوت بك عمامته وينوى الدخول إلى البيت المصرى ذى الطراز العربى لا يرفع عن عينيه الحاجز الزجاجى. يجمع التفاصيل عن مدخل البيت، يصف



الباب والنوافذ والسطوح وصحن الدار والحريم.. ولفرط استغراقه فى جمع التفاصيل تصيبه النظرة الممزقة فلا يعرف قيمة معمارية لهندسة البيت العربى فى القرن قبل الماضى. فالمظهر الخارجى للبيت يراه عديم التناسق، بل وقبيحاً، ومن الداخل غير منسق فيه اتساعات وارتفاعات وانخفاضات بلا معنى. أما الزخارف العربية المنتشرة فى أنحاء البيت فلا تعدو أن تكون أشياء ظريفة.

البيت والمرأة

وإذا قارنت هذه النظرة السطحية بنظرة المستشرق «بريس دافين» الفرنسى، الذى عاش طويلاً فى مصر. رسم وسجل العديد من الآثار العربية بها وطبعت فى كتابه «الفن العربى».. تجد دافين يتأمل ويسجل بحسه الفنى البيت فى نفس الفترة من خلال وعيه بقيمة العمارة الإسلامية والفن الإسلامى، يرى التناغم بين مدخل البيت ومكوناته الداخلية متوافراً. يرى التكوينات التجريدية الإسلامية التى أبدع الفنان المجهول توزيعها على مكان عبادته تحيط به أيضاً فى مكان إقامته.

ولكنك تستطيع أن تعثر لكلوت بك فى حجرة الحريم على تأملات طريفة. فرغم حرصه على تذكيرنا دائماً بتمسكه بالفضائل وتجنب وصف التفاصيل المخلة، إلا أن عينه تلتقط نهود المصريات بهذا الوصف «وأثداؤهن جيدة التكوين، حسنة الوضع، وافية فى صلابة تحت الصدور عريضة لا قبل لها بالحيل الضارة التى تلجأ إليها السيدات الأوروبيات». أو قوله عن حديث السيدات المصريات: «فإنهن إذا وجهن الخطاب إلى أحد دعونه بقولهن «يا عينى» «يا روحى»، «يا قلبى». ثم لا يتحرج من الدخول معهن الحمام فيصف عملية الختان، أو إزالة الشعر والتدليك والضحك والرقص وخلافه لعروس فى اليوم السابق للدخلة،



ويتتبعها وهى ترتدى ملابسها الداخلية ويصعد معها إلى الحريم، ثم ينزل ليصعد مع العريس ويشرح عادة فض البكارة باليد وإعلان النتيجة على منديل أبيض. ولا تتوقف تجارب كلوت بك عند هذا الحد فيقول عن النساء المصريات بعد الزواج «فلهن ميل شديد إلى المضاجعة لأنهن تربين فى ظل الدعة وعادة السكون والبطالة».. ولو خبر كلوت نساء الريف وهن الغالبية فى مصر لتعلم درساً فى العمل الشاق موصولاً على مدار العام.

كلوت بك يبدأ فى التضارب والتناقض أو السطحية، حينما يشرع فى التحليل وإصدار الأحكام.. فالمرأة المصرية فى صفحة راضية تماماً عن وضعها، بل وترثى للمرأة الأوروبية.. وفى الصفحة التى تليها يعرض سخط المرأة المصرية حينما قدمت بعض النسوة احتجاجاً لنابليون يطلبن المساواة بزوجة «مينو» المصرية التى يعاملها معاملة متحضرة. أما كأحكام عامة، فهو يرى صواب رأى «مونتيسكيو» فى أسباب تعدد الزوجات فى الشرق. ويرى مونتيسكيو أن نضج المرأة الشرقية، بأسرع من المرأة الغربية أدى إلى زواجها صغيرة أو فى فترة لا تتوفر لديها سوى ميزة الجمال دون العقل، وإذا تزوجها الرجل كبيرة فلن تتوفر لديها سوى ميزة العقل دون الجمال، ويدعوه هذا إلى أن يعدد زيجاته!! أو نرى كلوت يقول أيضاً إن تعدد الزوجات هو الذى جر على مصر الانحطاط والتعرض للغزو الخارجى واستعمار أوروبا لأرضها. أو أن اللواط منتشر فى الشرق نتيجة لقلة النساء بالنسبة للرجال بسبب امتلاك بعض الرجال لأكثر من امرأة، أو أن الرقص الشرقى امتداد للرقص المصرى القديم (الرقص الشرقى أصله رقصة المخاض أو البطن ومن وسط آسيا).

صورة نادرة

على أنه يذكر لكلوت رأيه فى الرق الشرقى فهو بالمقارنة بالرق الذى عرفه الغرب، أو عرفته أمريكا شىء يستحق الإعجاب، الرق فى الشرق نوع من التبنى، يصير الصبى أو الصبية بعد الشراء كفرد من الأسرة، ويقوم السيد بتعليمه القراءة والكتابة. وقد يصير (شبكجيا) أى يعد الشبك (الأرجيلة) أو قهوجياً أو فراشاً، وربما صار خازنداراً أو كاتباً أو سلحداراً أو كيخيا، وربما

كلوت بك يبدأ فى والتناقض أو السطحية، حينما يشرع فى التحليل وإصدار الأحكام

تزوج فى النهاية من إحدى بنات سيده.

أما الصورة النادرة التى يسجلها ولا نمتلك الآن سوى تخيلها، صورة آداب تقديم القهوة أو إعداد الشبك للتدخين. والشبك تختلف صورته آنذاك عما نعرفه الآن، فقد كان يتكون من فم وأنبوبة ثم الجوزة أو الحجر، أو ما يشبه الغليون الآن ولكن بأنبوبة طويلة تمتد من فم المدخن وتنتهى مرتكزة على الأرض. وهناك خادم خاص لتقديمه بعد إعداده. وتقتضى التقاليد أن يمسك الخادم الشبك من الأنبوبة ويتقدم من الضيف ويركز حجر الشبك على الأرض فى مسافة أمامه، بحيث يصل فم الشبك فم الضيف باستدارة بسيطة. وعلى الضيف الأقل مقامًا من المضيف أن يراعى إبعاد الدخان عنه، وأن يظل يسند شبكه على ركبته بين كل نفس وآخر.

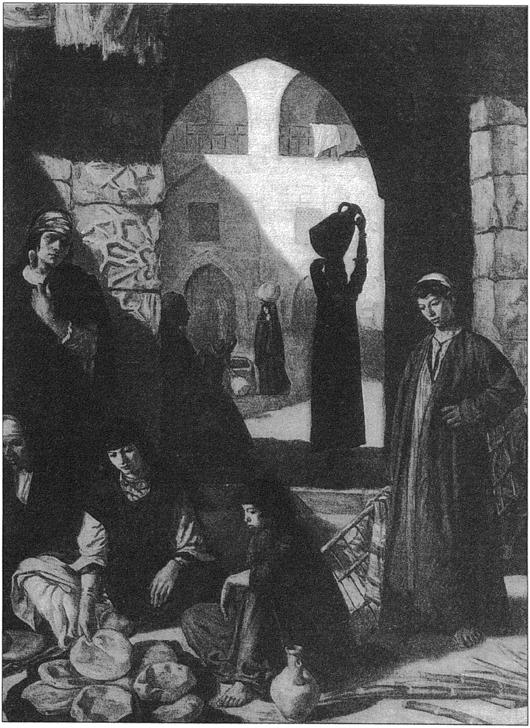
وكذلك صورة الحمام العمومى بما فيه من أدوار التدليك، والتكبيس، وفرقعة الأطراف، وحك الكعبين وباطن القدمين. وصورة الحلاق، حيث تتدلى فوق رأس الزبون آنية معدنية مملوءة بالماء ومعلقة فى السقف يصب منها عند الحاجة فى طشت أسفل ذقنه، ثم يأخذ الحلاق رأس الزبون على ركبته اليمنى ويبدأ عمله، ولا يمنع ذلك من توقف العمل بين الحين والآخر، لأخذ نفس من الشبك أو رشفة قهوة أو دردشة أو دخول زبون جديد يستوجب الترحيب. وصورة مواصلات ذاك الزمان من جمال وبغال وحمير. الجمال للأعراب، والبغال للعلماء، أما الحمير فغالبًا للنساء، ببردعة خاصة عالية، بحيث تركب السيدة من جانب واحد، ويسندها من الجانب الآخر شيخ كبير أو خصى.

ويقول كلوت إن المصريين فى جلسة المزاج يفضلون الحشيش لأنه يعطيهم حدة فى التصور لشعب يجيد النكتة، بينما يفضل التركى الأفيون لأنه يعطيه رخاوة وسكونا يوافق مزاجه.

صور كثيرة يسجلها كلوت بك فى قليل منها سخونة، وفى كثير منها أكثر من برودة.. أما آراؤه السياسية فقد أبعدته عن إدراك الحقائق، قلة معلوماته عن التاريخ المصرى وبرود حسه، وضيق أفقه فى تحليل الظواهر الاجتماعية، ثم ارتباطه بالسلطة بما كان يفرض عليه نوعًا من الكذب أو التلفيق. فالمصريون عنده «مقضى عليهم باستمرار التبعية والخضوع لغيرهم». والسبب أنهم لم يندمجوا بغزاتهم كالشعوب الأوروبية. وقد تناول الدكتور حسين فوزى فى كتابه «سندباد مصرى» هذه النقطة بالشرح والتحليل والإحصاء وانتهى إلى الآتى: «فإنك واصل معى إلى أن مصر التى يقدر تاريخها بحوالى خمسة آلاف سنة تمتعت باستقلال كامل مدى ٣٥٠٠ سنة، حوالى ٢٥٠٠ سنة حكمتها أسر مصرية، ونحو ألف سنة حكمتها أسر أجنبية، أمة تحيا خمسة آلاف عام تستقل فيها ٣٥٠٠ سنة، أى ما يعادل سبعين بالمائة من تاريخها، أليست هذه حقيقة يجب أن ندقها بالقدوم والمسامير فى رؤوس الشباب؟».

.. ما وراء العمامة

ويسجل كلوت بك هذه اللمحة عن طبيعة العناد عند المصرى تجاه السلطة فيقول: «التعنت من أخص النقائص اللاصقة بالمصريين. فإنك ترى فيهم من



يقول كلوت إن المصريين يفضلون الحشيش لأنه يعطيهم حدة فى التصور لشعب يجيد النكتة

يؤثرون الجلد بمائة أو مائتى جلدة على تسديد المستحق عليهم من الضرائب الزهيدة».

وواضح من تأمل كلوت لهذه الظاهرة أن ظل السلطة يخيم على عقله، فهو يعتبر التعنت هذا نقيضه، والأسوأ اعتباره «الضرائب الزهيدة» حقًا من حقوق السلطة، رغم اعترافه فى كثير من المواضيع بما عاناه الشعب المصرى من تعنت السلطة نفسها، وحجب عنه الكابوس الجاثم على عقله إدراك معنى قبول الفلاح الجلد مائتى جلدة على الخضوع لأوامر سلطة ظالمة. وإذا كان المصرى لا يليق بمزاج كلوت فى احتجاجه السلبى بقبول الجلد، فهو أيضًا لا يعجبه فى ثوراته العنيفة، فالعلماء حينما قادوا الثورة ضد الحملة الفرنسية كان كل ما فعلوه هو جمع «شتات بعض الألوف من الفلاحين أيام الحملة الفرنسية لإغرائهم بجيوشنا وتحريضهم على النكاية برجالها». وطبيعى بعد ذلك أن يؤيد سيده محمد على فى استيلائه على أموال العلماء وكسر شوكتهم، وطبيعى أيضًا أن تكون من صفات المصريين الجشع والحسد والكسل والتعصب وصلابة الرأس والميل إلى المجون. ومن صفات العثمانيين قلة الذكاء ومحدودية الأفق والكبرياء والصلف بدون مبرر والتعصب. ومن صفات المماليك قلة الذكاء والحكمة والتصلب والعناد والغدر، ومن صفات الأرناؤوط العناد والشغب والجشع.. أما محمد على «فقد ربأ بنفسه عن الانغماس فى هذه الأوهام الفاسدة».

قد يذكر لكلوت بك أنه أنشأ مدرسة الطب بمصر عام ١٨٢٧ فى منطقة «أبوزعبل» لخدمة الجيش وانتهت إلى قصر العينى ومستشفى آخر بالأزبكية. ولكن لم يكن هذا مبررًا ليخوض فى حياة المصريين طولاً وعرضًا، تسجيلاً من السرير إلى الصراع الدولى، وتحليلاً ضعيفًا يفسر الظاهرة من خلال طبقة أو زمان أو مكان، ثم يجد نقيضها فى طبقة أو زمان أو مكان آخر. فتأتى تفسيراته متضاربة، وتشعر من محاولته تحديد المعالم أن لا معالم لمصر ولا للمصريين. وليست هناك معالم واضحة يحرص على تسجيلها دائمًا سوى معالم ذلك الرجل القصير ذي العينين الكستنائيتين والأيدى الصغيرة المفتولة الأصابع والعمامة المنحرفة إلى اليسار.. محمد على. وحينما جاء الكاتب الفرنسى «جيراردى نرفال» إلى مصر عام ١٨٤٣ ذهب لمقابلة القنصل الفرنسى، ووجد عنده الحديث يدور ساخنًا حول محاولة إنقاذ فرنسى وزوجته يودان اعتناق الإسلام ويفكر القنصل فى اختطافهما ويعلق نرفال:

ـ ولكن لو فرض أن لديهما عقيدة دينية راسخة.

❖ القنصل: أتعتقد ذلك؟ هل يتحول الفرنسى إلى تركى؟

ـ جيرار: أمامك هنا بعض الأوروبيين الذين ارتدوا العمامة.

❖ القنصل: لا شك أنهم من كبار موظفى الباشا، ولم يكونوا ليصلوا إلى الدرجة التى حصلوا عليها، أو ليلزموا المسلمين بطاعتهم لولا هذه الطريقة.

ـ جيرار: يسودى أن أعتقد أن تغييرًا حقًا قد طرأ على أكثريتهم. وإلا لما رأيت فى الأمر إلا مبررات مادية.

وكان كلوت بك واحدًا من هؤلاء، الذين قال رائدهم عاكسًا قول بن جلا فصار: «إذا وضعت العمامة فلن تعرفونى». ■



محمود عبدالوهاب

كل هذا الطرب!



■■ من بين كل أنواع الفنون ليس هناك ما هو أكثر تحريكًا للقلب وإثارة للشجن وارتقاء بالوجدان ودفعاً لغلالة دمع للعيون من الغناء وتجليات الطرب. والغناء منطقة إبداع شديدة الحساسية والتأثر بما يدور في العصر الذي ينشأ فيه ازدهاراً أو هبوطًا وتراجعاً.

وفي وقتنا المعاصر لم يعد هناك من يقدم هذا الغناء الذي يتفجر طربًا سوى فريدة محمد مطربة المقام العراقي وصباح فخري وكلاهما فضلاً عما يقدمه من إبداع في الأداء، فإنهما يمثلان حالة حماية وحفاظ ونشر لتراث من الإبداع الغنائي العربي المعاصر، فضلاً عن السيدة فيروز التي آثرت الاحتجاب الإرادي.

المثلث السحري

لم يتفق جمهور الذين كتبوا في الغناء على تعريف للطرب ولكن ثمة أوصافًا لحالة الطرب، فهو نشوة تحرك الوجدان وتبعث في المتلقي مشاعر من الرقة والتسامح مع العالم وشجن عميق يحرك الروح ويسمو بها.

نشوة رائعة لا يصنعها فن آخر ولا أي من المحسوسات المادية، والغناء الذي يطرب لابد أن تكتمل فيه وتتناسق الكلمة واللحن والصوت، أو ما أسميه المثلث السحري، فكل ما فيه جميل ومؤثر الكلمة واللحن والصوت واكتمالها معًا يصنع حالة الطرب.

ويحفل كتاب الأغاني - السجل الوافي لتاريخ الغناء - بوقائع كثيرة عن هذا المزج، خاصة في مجالس الخلفاء، أو الأثرياء إذ ينشد أحدهم شعراً من نظمه أو سمعه، أو يعزف أحد الموسيقيين لحناً فيتنادى الجالسون في من يضع للحن نظماً، ثم يتنافس المغنون والقيان في من يحظى بالأداء.

ولمع نجوم مثل إبراهيم وإسحاق الموصلي وزرياب ومعبد وابن جامع ونصيب وابن سريج وابن محرز ولبيد وسلافة ولبابة وحكم الوادي وغيرهم كثير. وهؤلاء وغيرهم هم الذين أشاعوا حالة الطرب وكان عبدالله بن جعفر وهو من هو يقول عندما يهزه الطرب: «لو لقيت لأبليت ولو سئلت لأعطيت ولو حكمت لعفوت». ولا يختلف أحد في أن ظهور واستقرار الدولة العربية الإسلامية أسهم في تطور وازدهار الغناء وظهور حالة التسابق على اكتشاف المواهب أصواتًا وملحنين وشعراء، فالغناء فن مديني يزدهر

في المدن ومع الاستقرار، فقد عرف العرب مثلاً الغناء قبل التاريخ المكتوب، ولكنه اقتصر على شكلين الحداء والتعديد، الأول يمارسه حادى القوافل طيلة الطريق لجمع الابل وعدم شرودها والإبل يزداد نشاطها وقوتها بالحداء وللتسرية على المسافرين. تجاراً أو مرتحلين. في الوقت نفسه. والتعديد هو البكاء على الموتى قتلى غزوات أو موت القضاء، وكان غناء مؤثراً يسهم فى المواساة وتخفيف المصاب. والواقعة المتفق عليها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد.. والمدينة كلها تعيش لحظات حزن وتنعى شهداءها.. فقال الرسول الأكرم بأسى «إلا حمزة لا بواكى له» قاصداً عمه حمزة بن عبدالمطلب الذى قتل فى غزوة أحد بتريص من العبد «وحشى» وبتحريض من هند بنت عتبة، فقام نفر من الأنصار وأتوا بنسائهن ووقفن بباب المسجد يندبن حمزة سيد الشهداء حتى قال الرسول الأكرم: «غفر الله لكم ولهن مروهن فليعدن إلى دورهن».

ولم يتطور الغناء وتتعدد وظائفه إلا مع تطور المجتمع وتحوله إلى مجتمع مدينى مستقر. وتعددت وتنوعت وظائف الغناء والموسيقى، وأسهمت الفتوحات فى انتقال وتداخل الثقافات المختلفة من البلدان الجديدة التى من الله بها على العرب فاطلعوا على غنائهم وموسيقاهم وإيقاعاتهم وتأثروا، تماماً كما تأثر العرب الذين فتحوا الأندلس بموسيقى الأندلس وإنشاد المنشدين فظهر نمط من الموسيقى هو الأندلسيات الذى يختلف عن غناء أهل المشرق، واختلف العرب حول الغناء فأجازه عامة أهل الحجاز، مشترطين ألا يلهى عن ذكر الله أو ألا يكون فيه أمر محرم ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة، ويدللون على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستنكر استقبال أهل المدينة له بالغناء، ولم ينكر على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها استماعها لدف الحبش بل وأسبل عليها رداءه الشريف.

وتميزت مرحلة الاستقرار التى ازدهر فيها الغناء بشعراء فحول أو مجيدين أمثال جرير والفرزدق وأبوالعتاهية والبحترى وفى الغزليات عمر بن أبى ربيعة الذى كانت تهديه النساء الهدايا كى يذكرهن فى شعره فتعم شهرتهن ويبقى ذكرهن، وقيس بن الملوح، وقيس لبنى وكثير عزة وعديد من الشعراء الذين بقيت لهم قصيدتان أو ثلاث وكلهم تحول شعرهم أو بعضه إلى غناء، وفى الأندلس لمع ابن زيدون ولسان الدين الخطيب وابن عبادة وولادة بنت المستكفى وكثيرون.

عناء الاختيار

قلائل الذين حافظوا على هذا التراث الجميل من الغناء والطرب، ولم يكن سهلاً أبداً ولا ميسراً اختيار الكلمة وهى ركن أساسى فى المثلث السحرى، وإذا كان الموسيقار محمد عبدالوهاب قد ساعده وجود أمير الشعراء أحمد شوقى بجواره والذى أسهم فى تثقيفه وهداه إلى عيون الشعر العربى واختار معه من الدواوين المطبوعة لـ «مهيار الديلمى» قصيدة «أعجبت بى» ومن ديوان صفى الدين الحلى قصيدة «قالت» فإن المهمة. الرسالة. كانت أصعب عند صباح فخرى والأخوين الرحبانى وأكثر عناء وجهداً. وحتى شهر مضى كان صباح فخرى. متعه الله بالصحة ومد فى عمره. يغنى كموال افتتاحى هذه الأبيات:

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهمو
وحملوها وسارت بالدمى الإبل
وقلبت بخلال السجف ناظرها
يرنو إلىّ ودمع العين ينهمل
وودعت ببنان زانه علم
ناديت لا حملت رجلاك يا جمل
يا حادى العيس عرج كى أودعهم
يا حادى العيس فى ترحالك الأجل
إنى على العهد لم أنقض مودتهم
يا ليت شعرى لطول البعد ما فعلوا

ويقال إن هذه الأبيات من الشعر القديم. وهذا صحيح. ولكن لا أحد يعرف الشاعر ولا الديوان، ليس عن تقصير، ولكن لأن الشاعر، رجل مجنون أو به لوثة. إن شئنا الدقة. وذكرت الأبيات فى موضعين فقط هما الأغانى (ج ١)، والثانى هو «المستطرف فى كل فن مستظرف» لشهاب الدين بن أحمد بن أبى الفتح الأبشيهى الذى طبع أكثر من خمس عشرة طبعة، وروى الأبشيهى قصة الأبيات فى صدر حديثه عن الاغتراب والفراق يقول الأبشيهى: «حكى بعضهم قال دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون فى شباك ينشد شعراً فقلنا له أحسنت فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به وأقسم علينا أن نسمعه وأنشدنا.. (الأبيات) أما صاحب الأغانى فأورد ثلاثة أبيات منها فقط فى ذكره لمجالس هارون الرشيد.

وقصة الأبيات تؤكد فضل صباح فخرى سواء كان قد سمع لأحد تغنى بها. وهو أمر غير مؤكد. وهو هنا له فضل حارس الطرب والتراث، أو عثر عليها هو فى بحثه وتنقيبه وهو فضل لا يقل عن فضل الحارس فمثل هذه الأبيات والكلمات لا يطرق الأبواب بها مؤلف معاصر.

أما الأخوان الرحبانى فقد بذلا جهداً مضنياً فى البحث عن الكلمة ولم يكتفيا بأن غنيا لابن الخطيب «جادك الغيث» ولابن الملوح «أحب من الأسماء» و«لى فؤاد» ولا الثنائية البديعة من غناء زرياب فى مرحلته الأندلسية أداها مع السيدة فيروز «كارم محمود» بل وصلا حتى شاعر أموى من الفحول، ولكنه لا يحظى بشهرة معاصريه ومن بعدهم.

وانتقى الأخوان الرحبانى مقاطع من قصيدة له كى تغنيها السيدة فيروز فى ثنائية جميلة مع نصرى شمس الدين، أما الشاعر فهو الصمة بن عبدالله القشيرى وهو شاعر بدوى من العصر الأموى وأحد أصحاب قصص الحب العذرى، فقد أحب «ريا» ابنة عمه إلا أن أباها رفض تزويجها له واشترط عليه فى المهر وزوجها لغيره. فتعذب كثيراً، ثم ترك مرابع الأهل وسافر إلى طبرستان حيث مات قهراً وغربة وشوقاً. وقال هناك هذه القصيدة التى أتقن وتفنن الرحبانية فى اختيار ما يصلح منها للغناء، ومن أبياتها:

بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربى
وما أحسن المصطاف والمتربعا
واذكر أيام الحمى ثم انثنى
على كبدى من خشية أن تصدعا
فليست عشيات الحمى برواجع
عليك ولكن خل عينيك تدمعا
كأنا خلقنا للنوى وكأنما
حرام على الأيام أن نتجمعا

ما تبقى لنا

لا خلاف على أن حفظ تراث الغناء القديم والموشحات بأشعارها الرائعة كان وراءه جهد لا ينكر لناظم الغزالى وصباح فخرى، دون إنكار لإسهامات من كامل الخلعى ومحمد عثمان وسيد درويش، ولكنه إسهام المقل. فسيد درويش قدم موشح «صحت وجداً يا ندامى» و«يا شادى الألحان» الذى اختلط على البعض ونسبوه لأبى خليل القبانى، وقدم موشح «العذارى المائسات» وكذلك «عذيب المرشف» و«منيتى عز اصطبارى»، ومحمد عثمان قدم «ملا الكاسات» و«اسقنى من الراح» و«فتنا مطرب الحى»، والشيخ زكريا أحمد قدم موشح «بنت كرم»، وصفر على موشح «محيى غرام المشتاق». الشاهد أن هناك جهوداً ولكنها جهود المقل. كما أسلفنا. وحتى أمير الشعراء أحمد شوقى أدلى بدلوه فكتب موشحين أحدهما هو الذى عارض فيه موشحاً أندلسياً قديماً وهو «مضناك جفاه مرقده» والذى غناه محمد عبدالوهاب.

وأهمية إنجاز ناظم الغزالى وصباح فخرى هو تدوينهما لأكبر عدد من الموشحات على النوتة بدلاً من أن تظل سماعيا وتتعرض للسقوط من الذاكرة، فضلاً عن الأداء الغنائى لهذه الموشحات، فظلت حية فى الذاكرة والوجدان.

وابتكر ناظم الغزالى ونهج على نهجه صباح فخرى نمطاً فى الغناء، بحيث يبدآن بالمفتتح بموال من الغناء القديم، ثم يقدمون غناء يقارب روح العصر لكنه لم يصل أبداً إلى الإسفاف أو الرخص. فقدم ناظم الغزالى مثلاً (سمراء من قوم عيسى) و(عيرتنى

كان العصر العباسى هو العصر الذهبى للغناء، وظهر موسيقيون عظام مثل إبراهيم الموصلى واسحق الموصلى ومعبد وزرياب وشاع ذكر المغنين والمغنيات مثل سكينة ولبابة وغيرهن كثيرات

بالمتيب) و(طالعة من بيت أبوها) و(على جسر المسيب)، ومن التراث العراقى (يا عمى يا بياع الورد)، و(تلفان بيها شامة ودقة على الحنك مين يشتريها) ، و... و.....

وتميز غناء ناظم الغزالى بمساحة من الحزن والشجن وهو موروث الثقافة المتراكمة فى العراق، ولظروفه الخاصة، فهو ولد فى ذروة ثورة العشرين وذاق اليتم مبكراً وشاهد موت الأقارب والجيران فى الثورة، وموروث الثقافة الشعبية، فأهل العراق عانوا من افتقاد العدل وتمايز شديد بين الأغنياء والفقراء، وتوارثو جيلاً عن جيل أن آل البيت لقوا مصرعهم بين ظهرانيهم وأنهم خذلوهم من الإمام على إلى الإمام الحسين.

أما صباح فخرى فقد طور فى نمط أداء ناظم الغزالى واجتهد كثيراً وبحث ونقب للوصول إلى الشعر القديم الذى كان يغنى فى الموشحات ليغنى منه مواويل افتتاح أغانيه، فغنى «حبيبى على الدنيا إذا غبت وحشة» و«لما أناخوا العيس وحملوها وسارت بها الإبل» ومن شعر عمر بن الفارض فى العشق الإلهى غنى:

لو صادف نوح دمع عينى غرقا
أو جرب لوعتى الخليل احترقا
أو حملت الجبال ما أحمله
صارت دكا وخر موسى صعقا

ومع هذه المواويل المنتقاة من الشعر القديم العباسى والأندلسى والصوفى غنى صباح فخرى «خمرة الحب» «مالك يا حلوة مالك» «الفل والياسمين والورد» «اسقى العطاش» «قدك المياس» «فوق النخل» «قل للمليحة» «يا مال الشام» «ابعت لى جواب» و«صيد العصارى».

وغنى قصائد كاملة من الشعر الأندلسى مثل قصيدة «لسان الدين» لأبى عبدالله بن الخطيب، والتى غنتها فيروز أيضاً:

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلماً
فى الكرى أو خلسة المختلس
فى ليال كتمت سر الهوى
بالدجى لولا شموس الغرر

وغنى لابن الملوح وفيروز أيضاً:

أحب من الأسماء ما وافق اسمها
وأشبهه أو كان منه مدانيا



تميز غناء ناظم الغزالى بمساحة من الحزن والشجن وهو موروث الثقافة المتراكمة فى العراق، ولظروفه الخاصة

النبع والغصون

منذ أن جهر «طويس» بالغناء فى المدينة المنورة كما يقول صاحب الأغانى تسارع تطور الغناء وانتشاره فى أرجاء الدولة الإسلامية خاصة مع تطورها وازدهارها، وتنافس الخلفاء والولاة والأثرياء فى اجتذاب المغنين والمغنيات إلى بلاطهم والسعى لإغراء الموسيقيين وشراء الجوارى والقيان وتعليمهن الغناء. وكان العصر العباسى هو العصر الذهبى للغناء، وظهر موسيقيون عظام مثل إبراهيم الموصلى واسحق الموصلى ومعبد وزرياب وشاع ذكر المغنين والمغنيات مثل سكينة ولبابة وغيرهن كثيرات. ومع اتساع الدولة العباسية دخل فى الإسلام كثير من أبناء الأمم والشعوب الأخرى وتداخلت الثقافات وحاول أبناء هذه الأمم الاندماج فى الدولة الجديدة، ولأن الغناء لا يمكن أن يتم دون نص شعرى، فقد توسع المغنون فى البحث عن نصوص شعرية تصلح للغناء، ووجد بعضهم بغيتهم فى الشعراء من أبناء هذه الأمم، لأنهم نظموا الشعر بلغة عربية ومعان أعجمية ومن أشهر من تغنى لهم المغنون «صفى الدين الحلى» والذى يغنى له محمد عبدالوهاب قصيدة (قالت)، و«مهيار الديلمى» الذى يغنى له أيضاً محمد عبدالوهاب قصيدة «أعجبت بى».

أما التطور النوعى فى الغناء العربى وظهور ما عرف بالغناء الأندلسى والموشحات وهى التى بقيت ووصلت إلينا من الغناء العربى القديم، فقد حدث مع تمكن آخر أمراء بنى أمية عبدالرحمن بن معاوية والمعروف بـ «عبدالرحمن الداخل، صقر قريش» من الاستقرار فى الأندلس واتخذ من مدينة «قرطبة» عاصمة لملكه وبنى بها القصور وحولها الحدائق وأخذ يجلب كل ما كان فى بلاد الشرق «دمشق» من ترف، ويقلد ما كان فيها، وبدأ يستدعى المغنين والقيان، وانتقل كثير منهم بإرادته إلى الدولة الوليدة.

ومن أشهر من انتقل من بغداد إلى الأندلس «زرياب» والذى أسس مدرسة له يعلم فيها الموسيقى والغناء، وساهم الاستقرار الذى استمر طيلة حكم عبدالرحمن الداخل وخلفائه من بعده، وحتى عصر ملوك الطوائف فى تطور الغناء الشرقى ليظهر غناء خاص بالأندلس هو الموشحات التى لا يوجد اتفاق علمى على نشأتها وهل هى غناء أندلسى أم هى تأثير الغناء الأندلسى على الغناء العربى، أم هى نتاج تأثير إنشاد كنسى على الغناء العربى، أم هى نتاج التبادل الموسيقى بين الموسيقى الأندلسية وموسيقى الشرق والتى كانت متأثرة بموسيقى وألحان الأمم الأخرى. وارتبط بالموسيقى الشعراء الذين كانوا يكتبون لها وأشهرهم ابن سناء الملك وابن الخطيب وعبادة القزاز.

ونظم الشعر للموشحات يختلف كثيراً عن نظم الشعر العادى من حيث تكرار أبيات وترتيبها. ويعد الآباء المؤسسون للموشحات عبادة القزاز، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد كما يقول ابن خلدون وشاعت الموشحات لجدة ألحانها والتطريب فى موسيقاها ورقة المعانى وإحكام صورها ودقتها.

أين نحن الآن؟

رغم كل هذا التراث الرائع والجميل، إلا أنه لم يؤسس لحالة غنائية مستمرة رغم أن بدايات القرن الماضى وحتى الأربعينيات شهدت محاولات من مطربين وملحنين خاصة فى «الأدوار» التى ذاعت وانتشرت مثل «يا حليوة يا مسلينى» و«من الشباك» و«قمر له ليالى» و«على خده يا ناس». ومحاولات محمد عبدالوهاب وزكى ناصيف ورياض السنباطى والأخوان الرحبانى والإخوة سحاب (فيكتور وإلياس وسليم)، وتوفيق الباشا وفيلمون وهبى، إلا أن أقصى ما تحقق هو تخليص الغناء من التأثير العثمانى فى الأمان واللالى والتكرار، وإنشاء فرق لإنشاد الموسيقى العربية هنا وهناك، تقدم حفلاتها بمواسم. وأصاب الوجدان جفاف وغاب الشجن وماتت الأحاسيس والقلوب وأصبح الناس ضحايا لضجيج وعبث. ■

منحة سنوية
عشرة آلاف جنيه مصرى
١٠,٠٠٠ جنيه

جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين
جمعية ثقافية مسجلة بوزارة الشئون الاجتماعية ومشهرة برقم ٩٦/٤٢٨٥

جائزة سنوية
عشرة آلاف جنيه مصرى
١٠,٠٠٠ جنيه

جائزة أحمد بهاء الدين السنوية العاشرة (٢٠٠٧)

جائزة الشباب العربى فى كل الوطن العربى

للشباب فى مختلف أنحاء العالم العربى دور رئيسى وهام فى صنع التغيير وفى التفاعل مع الأحداث الجسيمة التى يشهدها الوطن العربى. وموضوع مسابقة جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين هذا العام هو: **مشاركة الشباب العربى فى العمل السياسى والاجتماعى..**

كيف يمكن تقييمه؟ وكيف يمكن تطويره؟ وما هى العوامل التى تعيق تقديمه وزيادته؟

لقد اختارت جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين موضوعها **حول مشاركة الشباب** ليكون محور أنشطتها الثقافية للموسم الثقافى (٢٠٠٧ - ٢٠٠٨).

وفى هذا الإطار تعلن الجمعية عن مسابقتها السنوية العاشرة لتأليف كتاب باللغة العربية يتناول هذا الموضوع، برؤية تفصيلية شاملة وبحرية كاملة.

شروط التقدم للمسابقة



١ - الانتماء إلى بلد عربى.
٢ - عدم تجاوز سن الأربعين عند إقفال باب الاشتراك (٣٠ أكتوبر ٢٠٠٧).
٣ - تقديم ما يلى من أصل مطبوع وصورة واحدة.
- السيرة الذاتية.
- خطة البحث فى حدود صفحتين.
- فصل من الكتاب أو جزء منه لا يزيد عن خمسة آلاف كلمة.

٤ - أن يكون العمل جديدا ولم يسبق تقديمه لأية جهة أخرى.

إجراءات المسابقة ومنح الجائزة



المرحلة الأولى

١) يقوم المشترك بتسليم أو إرسال الأوراق المطلوبة فى موعد غايته ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٧ على عنوان الجمعية برقم ٩٣ شارع قصر العينى، شقة ٣٣، القاهرة، أو ص.ب ١٨٦ الدواوين (أو الاتصال ٢٧٩٢٤٠٣٢ / ٠١٠٤٩٧٣٦٣٧).

٢) يتم عرض المشاريع المقدمة على لجنة تحكيم تختار من بينها ما يستحق الحصول على منحة بحثية قدرها عشرة آلاف جنيه مصرى لمتابعة الكتابة. وللجنة أن تطلب من مقدمى المشاريع الحضور لمقابلة أعضائها.

٣) تنظم الجمعية أمسية ثقافية يدعى إليها الفائزون بالمنح البحثية وأعضاء الجمعية ونخبة من الكتاب والناشرين والمفكرين، ويقوم كل من الفائزين بعرض موضوعه.

المرحلة الثانية





خلال العام التالى للفوز بالمنح البحثية يقدم كل من الفائزين بهذه المنح مسودة كاملة لكتابه فى موعد تحدده الجمعية.

وتختار لجنة التحكيم أفضل عمل كامل ليفوز صاحبه بجائزة أحمد بهاء الدين السنوية وقدرها عشرة آلاف جنيه مصرى بجانب قيام الجمعية بالمساهمة فى نشر كتابه.

المركز الرئيسى ٩٣ شارع قصر العينى، الطابق الخامس، شقة ٣٣، القاهرة
بريد: جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين ص.ب ١٨٦، الدواوين، القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٧٩٢٤٠٣٢ موبايل ٠١٠٤٩٧٣٦٣٧

Email : fabdsociety@hotmail.com
info@ahmedbahaaeldin.com
www.ahmedbahaaeldin.com



حوار مع تيمورلنك

بين الكلمة والسيف!

رافيل بالنسيا

كان العصر الذى عاش وعمل وفكر خلاله ابن خلدون - القرن الرابع عشر - واحدا من أكثر القرون فى حياة البشرية تحولاً وانتقالاً. تحول وانتقال نحو التفكك والاضمحلال فى العالم العربى.. وتحول وازدهار نحو النهوض والانبعاث فى العالم الغربى، أى تحول وانتقال بين ضفتى البحر المتوسط، المكان والمجال الذى تنقل من خلاله ابن خلدون ما بين تونس والمغرب والأندلس ومصر.

حول عصر ابن خلدون وبمناسبة مرور ستمائة عام على رحيله، وفى إطار احتفالية رعاها الملك خوان كارلوس، كتب مجموعة من البحاثة «الخلدونيين»، عدداً من المقالات والدراسات، وصفاً وتحليلاً لعصر الفيلسوف العربى/ العالمى. تنشر ترجمتها العربية قريبًا فى كتاب يصدر عن مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع عدد من الهيئات الثقافية من بينها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمجلس الوطنى للثقافة والفنون والتراث فى قطر ومؤسسة التراث الأندلسى فى إسبانيا.

وتبدأ «وجهات نظر» فى هذا العدد نشر بعض من تلك المقالات، مدركين حقيقة أن الاهتمام الفكرى العالمى بالرجل لم يكن إلا نتيجة طبيعية لما احتوته مقدمته من مقولات ونظريات يصلح جانب كبير منها لأن يطبق على الواقع الإنسانى فى عموميته وشموله. ■

المحرر

■ كان اللقاء الأول بين عبدالرحمن ابن خلدون وتيمورلنك سلطان المغول على أطراف دمشق فى ١٠ يناير سنة ١٤٠١، وحدثت هذه المقابلة قبل موتهما مباشرة، وتشير عدة مصادر من هذه الفترة، بالإضافة إلى السيرة الذاتية لابن خلدون، إلى أن المقابلة الأولى والمقابلات التالية لها اختتمت فى ٢٦ فبراير.

استقر المؤرخ ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) فى القاهرة، وعاش سنواته الخمس الأخيرة فى الشرق، وقام بأداء الحج فى سنة ١٣٨٧، وعاد للعاصمة المصرية فى العام التالى، وفى القاهرة قضى أكثر من عقد، عمل خلالها بالتدريس فقط حتى ٢٢ مايو سنة ١٣٩٩، حيث تم تعيينه قاضياً فى هذا التاريخ، ثم طرد من هذا المنصب فى سبتمبر سنة ١٤٠٠، وبعد شهرين استدعاه السلطان المملوكى الناصر فرج (١٣٩٩ - ١٤٠٥ و١٤٠٥ - ١٤١٢) لينضم لحملته المتوجهة إلى سوريا، ولقد قادته الظروف المختلفة ليصاحب نفس السلطان صاحب المقام الرفيع فى رحلة ثمانية أشهر قبل ذلك إلى دمشق، والقدس، وبيت لحم، والخليل، وكان الهدف فى هذه المرة تحديداً مساعدة العاصمة السورية ضد هجمات تيمورلنك الذى احتل حلب، قبل ذلك.

ترجمة: أحمد نبيل

وكانت قد اكتملت أغلب كتابات ابن خلدون فى هذه الفترة، وحقق ابن خلدون فهماً عميقاً فى الطبيعة الإنسانية، بالإضافة للسياسة فى عصره، وانعكست هذه الحقيقة فى الأوضاع التى افترضها والآراء التى عبر عنها فى المقابلة محل البحث.

أما عن القائد المغولى تيمورلنك (١٣٣٩ - ١٤٠٥) فهو ينتمى للشعب الشاغاتاى، وهو فرع من الشعوب التى عاشت فى السهول الصينية، وتمت تسميته على اسم أحد أبناء جنكيزخان (١١٦٧ - ١٢٢٧)، وأقام تيمورلنك - سلالة التيموريين - فى المشرق العربى السلالة التى قضت على حكم الأليخانيين، الأسرة التى أسسها هولاكو خان، الذى غزا بغداد



السلطان العثمانى بايـــزيد مقتادا كأسير أمام تيمور لنك بعد معركة أنقرة فى سنة ١٤٠٢، المكتبة البريطانية - لندن

العباسية فى سنة ١٢٥٨، وكان تحول المغول الشاغاتاى للإسلام بعد العقد الثالث من القرن الرابع عشر، ولكنه سرعان ما توغل فى نزاع داخلى انتهى بسيادة تيمورلنك، وبسط سيطرته على مساحة واسعة ممتدة من الصين إلى سوريا، ومن أذربيجان للهند، وقد تناقضت الأسطورة الشائعة عنه كحاكم بلا رحمة مع إنشائه العديد من المساجد والمبانى الأخرى فى سمرقند وأصفهان.

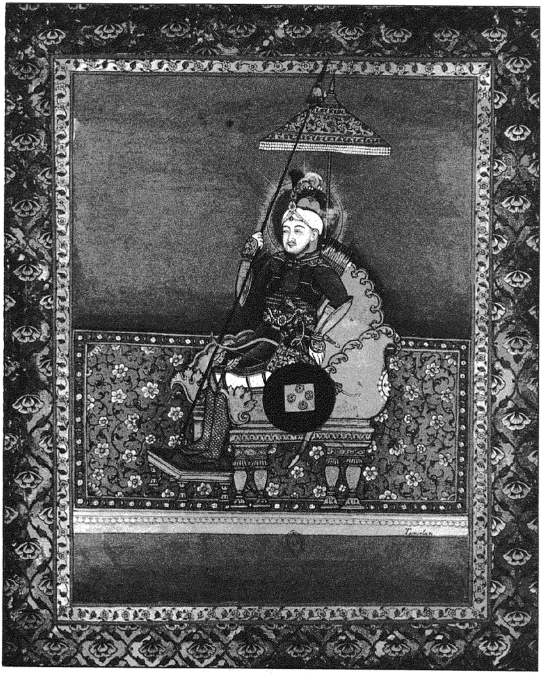
وفى ٢٨ نوفمبر سنة ١٤٠٠، بدأ ابن خلدون الإقامة فى المدرسة العادلية عند وصوله إلى دمشق، وقد كانت المدينة تحت تهديد حصار قوات المغول، وفى بداية يناير بعد عدة معارك غير ناجحة مع تيمورلنك، وتصديق شائعات عن بروز مؤامرات فى غياب السلطان المملوكى، عاد الأخير إلى القاهرة، وانسحبت معظم القوات المملوكية، وزار برهان الدين والقاضى الحنبلى فى دمشق معسكر تيمورلنك فى ٧ يناير ليتفاوضوا على استسلام يحفظ ماء الوجه فى مواجهة هزيمة حتمية، وحدث كل ذلك فى ظل اندهاش أهل دمشق، وعاد برهان الدين فى اليوم التالى مصحوباً هذه المرة بنبلاء من دمشق لمعسكر التتار، وانضم ابن خلدون لهذه المجموعة فى ١٠ يناير.

وكانت قد جرت المحادثات بين الشخصين. ابن خلدون وتيمورلنك. على مدار أيام متتالية، وبدأت المحادثات يخرج من حساباتها موقف المدينة كمدينة تحت الحصار بعد ١٤ يناير، يحاول قادتها التفاوض على الاستسلام، وكان تاريخ الاستسلام الرسمى ٤ فبراير، على الرغم من أن قوات تيمورلنك لم تدخل قلعة دمشق حتى الخامس والعشرين، وشهد اليوم التالى المقابلات الأخيرة بين تيمورلنك وابن خلدون، وكان المؤرخ ابن خلدون قد غادر منطقة دمشق فى ٢٧ فبراير، مما مكنه من أن يشهد طرد قوات المغول من دمشق، وعلى الرغم من الثمن الباهظ - مليون دينار طبقاً لبعض المصادر - الذى سلمته السلطات المحلية لتأمين احتلال مسالم دون عنف، إلا أنه عندما وصل ابن خلدون إلى القاهرة فى ١٧ مارس كانت العاصمة السورية مشتعلة حتى سقف المسجد الأموى.

على الرغم من أن المقابلات بين ابن خلدون وتيمورلنك تكشف معلومات عن مميزاتهما، افترض القائد المغولى بوضوح أنه فى موقع المسيطر على الشخص البارز المشهور بنزعته كدبلوماسى ابن خلدون الذى تم تعيينه ليستخلص شروط استسلام إيجابية لدمشق، وأجريت المقابلة الأولى فى مبادرة سواء كانت من ابن خلدون أو شاه ملك القائد الشاغاتاى المسئول عن احتلال المدينة، وكان هدف تيمورلنك الاستمرار فى غزواته فى شمال أفريقيا ويبدو ذلك جلياً من النقاش الذى دار بينه وبين ابن خلدون، كما أكد الأخير ذلك فى سيرته الذاتية:

«فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام، وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إلىَّ فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت. ثم استدعى من بطانته الفقيه عبدالجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم ما بيننا، وسألنى من أين جئت من المغرب، ولم جئت؟، فقلت: جئت من بلادى لقضاء الفرض، ركبت إليها البحر، ووافيت مرسى الإسكندرية يوم الفطر سنة أربع وثمانين من المائة الثامنة، والمفرحات بأسوارها لجلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددها. فقال لى: وما فعل معك؟، قلت كل خير، بر مقدمى، وأرغد قراى، وزودنى للحج، ولما رجعت وفر جرايتى، وأقمت فى ظله ونعمته، رحمه الله وجزاه. فقال: وكيف كانت توليته إياك القضاء؟ فقلت: مات قاضى المالكية قبل موته بشهر، وكان يظن بى المقام المحمود فى القيام بالوظيفة، وتحرى العدل والحق، والإعراض عن الجاه، فولانى مكانه، ومات لشهر بعدها، فلم يرض أهل الدولة بمكانى، فأدالونى

يتحدث تيمور لنك على عرشه، منمنمة من القرن الثامن عشر، المكتبة الوطنية - باريس



منها بغيرى جزاهم الله. فقال لى: وأين ولدك؟ فقلت بالمغرب الجوانى كاتب للملك الأعظم هنالك. فقال وما معنى الجوانى فى وصف المغرب؟ فقلت هى فى عرف خطابهم معناه الداخلى، أى الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشمالى من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقة، وأفريقية، والمغرب الأوسط. تلمسان وبلاد زناتة. والأقصى. فاس ومراكش. وهو معنى الجوانى. فقال لى: وأين مكان طنجة من ذلك المغرب؟ فقلت: فى الزاوية التى بين البحر والمحيط، والخليج المسمى بالزقاق، وهو خليج البحر الشامى، فقال: وسبتة؟ فقلت: على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق، ومنها التعدية إلى الأندلس، لقرب مسافته، لأنها هناك نحو عشرين ميلاً. فقال وفاس؟ فقلت: ليست على البحر، وهى فى وسط التلول. وكرسى ملوك المغرب من بنى مرين. فقال: وسجلماسة؟ قلت: فى الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب. فقال: لا يقنعنى هذا، وأحب أن تكتب لى بلاد المغرب كلها، قاصيها ودانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره، حتى كأنى أشاهده. فقلت: يحصل ذلك بسعادتك».

وتشير العديد من الكتابات لهذه الأحداث التى حدثت فى المفاوضات وتركها لنا ابن خلدون، نظراً لمعرفته بالمغول أو التتر. كما فضل أن يسميهم فى كتاباته. فعلى سبيل المثال ساعد ابن خلدون وخبراء آخرون تيمورلنك باستمرار ليدحض الاعتراف بسليل خليفة بغداد، ذلك الاعتراف الذى حصل عليه الأخير من المملوك بيبرس، وفى فقرة أخرى من سيرته الذاتية فى رسالة خاطب فيها سلطان المرينيين، كتب ملخصًا حول معرفته عن تيمورلنك والمغول، بينما كان يعرض وصفًا مختصراً لتجاربه فى إقامته المؤقتة فى دمشق أثناء الشهر الذى قضاه مع تيمورلنك قبل أن يسمح له بالعودة لمصر، ويشهد العديد من الكتاب على معرفة ابن خلدون الموسوعية الكبيرة للمغول، وكانت الإشارات للمغول والتتار متكررة أكثر فى سيرته الذاتية من المقدمة، حيث أعطى ابن خلدون للتتار أهمية أقل فى الأخيرة: فتكلم عنهم من حيث دورهم فى إسقاط القوة العباسية وقوة السلاجقة فى بغداد، كذلك عن أن هناك جيلاً واحداً فقط يفصل بين هجرتهم من السهول الصينية وظهورهم فى بلاد ما بين النهرين، أو إنشاؤهم لقاعدة راسخة للحكم وضعت نهاية للنزاعات بين الحنابلة والشيعة فى العراق، وهذه الإشارة الأخيرة هى موضوع واحدة من أكثر الإشارات تميزًا فى السيرة الذاتية:

«فوقع فى نفسى لأجل الوجل الذى كنت فيه أن أفاوضه فى شىء من ذلك يستريح إليه، ويأنس به منى، ففاتحته وقلت: أيدك الله! لى اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك. فقال لى الترجمان عبدالجبار: وما سبب ذلك؟ فقلت: أمران، الأول أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست ممن يقول فى الأمور بالجزاف، فإنى من أهل العلم، وأبين ذلك فأقول: إن الملك إنما يكون بالعصبية، وكثرتها يكون قدر الملك، واتفق أهل العلم من قبل ومن بعد أن أكثر أمم البشر فرقتان: العرب والترك، وأنتم تعلمون ملك العرب كيف كان لما اجتمعوا فى دينهم على نبيهم، وأما الترك ففى مزاحمتهم لملوك الفرس وانتزاع ملكهم أفراسياب خراسان من أيديهم شاهد بنصابهم من الملك. ولا يساويهم فى عصبيتهم أحد من ملوك الأرض من كسرى، أو قيصر، أو الإسكندر، أو بختنصر، أما كسرى فكبير الفرس ومليكهم، وأين الفرس من الترك؟ وأما قيصر والإسكندر فملوك الروم، وأين الروم من الترك؟، وأما بختنصر فكبير أهل بابل، والنبط، وأين هؤلاء من الترك، وهذا برهان ظاهر على ما ادعيته فى هذا الملك».

بدا فى هذه المرحلة من حياة ابن خلدون عندما قابل تيمورلنك تحديداً رؤية هذا المؤرخ التونسى الأندلسى الأصل عن المغول وقائدهم كرموز لقوة وسلطة الدولة القادرة على دعم القوة السياسية للمجتمع، لقد لاحظ ابن خلدون على مدار حياته هشاشة الهياكل السياسية فى العالم العربى لهذه الفترة، من الأندلس وشمال أفريقيا إلى الشرق، حيث كانت هذه الهياكل هشة مقارنة بالفترات السابقة، وترجع هذه الهشاشة إلى انقسام القوى السياسية، وعبر عن ذلك ابن خلدون فى عدم القدرة على تجديد العصبية أو شعور الجماعة بضرورة خلق دولة فعالة، فقد تمت إقامة دولة الإسلام بعد العرب بواسطة جماعة اجتماعية غير عربية، ويمكن القول إن الأتراك العثمانيين أيضاً سيأخذون هذا الطريق بعد ذلك كما هو مفهوم من سياق التحليل التاريخى لابن خلدون. ■

كتاب الزاوية

العرب وعلوم أوروبا

عبدالرحمن بدوى

أبرز دور للعرب فى تكوين الفكر الأوروبى هو فى العلم بمختلف فروعه: الطب، والطبيعة، والكيمياء، والفلك، والرياضيات، والتاريخ الطبيعى، والفلاحة.

أما فى الرياضيات فقد كان للعرب الفضل الأكبر لأنهم هم الذين أدخلوا النظام العشرى فى العدد، إذ كان اليونانيون إنما يستعملون فى العدد حروف الأبجدية للعد من ١ إلى ٩٩٩، ثم يستعملون الشرطة والشولة والنقطة للعد فيما بعد ذلك حتى آلاف الآلاف، وكان الرومان يستعملون سبعة أحرف من الأبجدية هى I - V - X - L - C - D - M وتدل على التوالى على ١ . ٥ . ١٠ . ٥٠ . ١٠٠ . ٥٠٠ . ١٠٠٠ ثم يضعون فوقها شرطة أفقية تدل على أن العدد مضروب فى ١٠٠٠ . وجاء الهنود فاخترعوا نظام العد العشرى وفيه تتوقف قيمة العدد على موضعه، فالعدد ٥ على يمين الواحد غيره على شماله وهكذا.

واستعملوا الصفر للدلالة على الخلو من الوحدة. وجاء العرب فاخترعوا طريقة لكتابة الأعداد هى طريقة «الغبار»، وهى التى انتشرت فى المغرب ومنه انتقلت إلى أوروبا ولا تزال تستعمل اليوم فيما نسميه نحن الأرقام الأفرنجية، وما يسميه الأوروبيون بالأرقام العربية، وهى فى الحقيقة عربية وليست أفرنجية، بينما ظل المشارقة من العرب يستعملون الطريقة الهندوستانية وهى التى لا نزال نكتب بها الأرقام فى المشرق العربى حتى اليوم.

وقد دخلت الرياضيات العربية أوروبا على يد «ليواردودى بيزا» Leonardo de Pisa فى القرن الثالث عشر.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com

القاهرة ٢٠٥٠

دعــــوة للحـــوار

منذ إنشائها قبل أكثر من ألف عام، أصبحت القاهرة مركز الثقل التاريخى والسياسى والثقافى والاقتصادى والعمرانى لمصر. وعبر التاريخ أدى تركز السلطة وكافة الخدمات والمرافق الكبرى فيها إلى تضخمها بصورة كبيرة.

وتتمثل التحديات الحالية التى تواجهها القاهرة نتيجة الزيادة السكانية وغياب التخطيط فى كيفية التعامل مع التضخم الكبير الذى تم بصورة غير مخططة فى مساحة الإقليم وتخفيف الضغط الشديد على مرافقه وسرعة تحسين الوضع البيئى المتدهور وتحسين الحركة المرورية ومواجهة التأثيرات السلبية الواضحة على التنمية الاقتصادية.

كما أن هناك حقيقة تؤكد أن القاهرة كإقليم لا تمثل وحدة إدارية واحدة، لكنها مقسمة على ٣ محافظات و٩ وزارات و٤ هيئات اقتصادية، الأمر الذى له خصوصيته، كما أن له إشكالياته:

أيًا ما كان الأمر يبقى أن التخطيط لقاهرة المستقبل، ومع التسليم بأنه لا يصح بأن يكون حكرًا على جهة بعينها يطرح أمامنا (جميعًا) تحديات وأسئلة كثيرة.. ربما من أهمها:

١ ـ ما هو الحجم الذى ينبغى أن يتوقف عنده الإقليم؟

٢ ـ ما هى اتجاهات النمو التى ينبغى السماح بها؟

٣ ـ هل يتم التحكم فى نمو الكتلة العمرانية القائمة وعدم السماح بنموها أم يتم السماح بنموها حتى تلتحم بالمدن الجديدة؟

٤ ـ كيف تتم خلخلة الكتلة القائمة؟

٥ ـ هل من الأفضل التوسع فى المدن الجديدة وتنميتها؟

٦ ـ هل تتم إدارة الإقليم الكبير ككيان إدارى واحد؟

٧ ـ هل يتم إنشاء جهاز تنفيذى يضم مجلس إدارته المحافظين الثلاثة، أم يتم تقسيمه إلى عدد أكبر من المحافظات؟

٨ ـ ما هو الأسلوب الأمثل لتخصيص الأراضى داخل الإقليم ومراحل التنمية التى ينبغى الالتزام بها ونوعيات وبرامج الإسكان المراد توفيرها فى المناطق الجديدة، والإستراتيجية التى سيتم اتباعها للتعامل مع المناطق العشوائية القائمة؟

٩ ـ كيف يتم التعامل مع الواجهة النيلية ووضع الجزر النيلية؟ هل يتم الإبقاء عليها كما هى؟ أم يتم تحديد استعمالات أخرى لها (ترفيهية ـ مناطق مفتوحة ـ تنمية...)؟

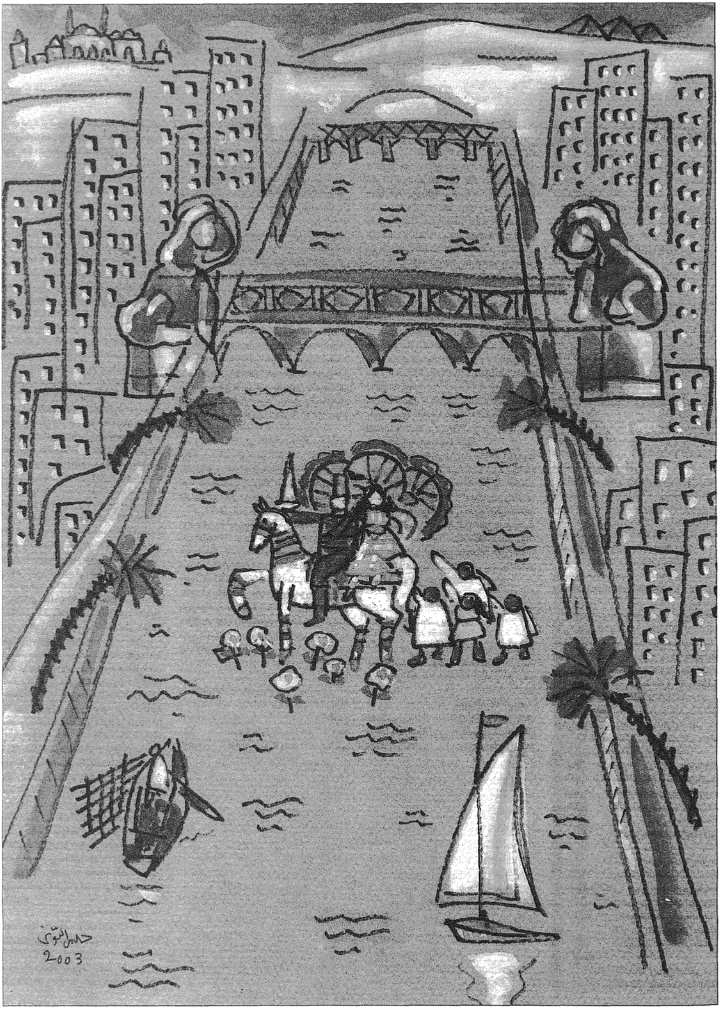
١٠ ـ كيف يتم التعامل مع المقابر الموجودة فى قلب الكتلة العمرانية؟

١١ ـ ما هى الوظيفة الاقتصادية التى ينبغى أن يكون عليها الإقليم لزيادة قدرته التنافسية على مستوى الشرق الأوسط والعالم؟

١٢ ـ وبعد كل ذلك كيف تضمن الحلول المقترحة للحفاظ على التراث الحضارى والتاريخى للقاهرة؟

وإذ نتفق جميعًا على أن الأرقام والمعلومات يمكن أن تشكل بداية جادة لحوار معمق وهادئ حول هذه القضية التى لا يمكن أن تستأثر حكومة بعينها بصلاحية وضع حلول نهائية لها، تدعو «وجهات نظر» المهتمين والمتخصصين فى هذا المجال إلى الكتابة إليها إثراءً للحوار.

المحــــرر


2003

كـــــل الخيـــــارات مفتوحــــة

أحمـــــد المغـــــربى

■■ سوف يقول البعض «لماذا ٢٠٥٠؟»، أحد الآراء الطريفة التى سمعتها هو أن وزير الإسكان يحاول ضمان بقائه فى منصبه حتى عام ٢٠٥٠ . وحقيقة الأمر هى أننى أتطلع فقط إلى عام ٢٠٤٠، مما يؤكد عدم صحة هذا الرأى!

كانت القاهرة عاصمتنا طوال الألف سنة الماضية. وكل أنشطتنا ـ الاقتصادية والسياسية وسائر الأنشطة جميعاً ـ تتركز فى منطقة القاهرة الكبرى، وهو ما أدى إلى هذا النمو الضخم للقاهرة بمعدلات أعلى من معدلات زيادة عدد السكان لدينا. وفى عام ٢٠٠٤، أدركنا أن هناك مشكلة كبيرة فى تدهور بيئتنا العمرانية. وأحد أسباب ذلك قانون تجريم البناء على الأراضى الزراعية، وهو القانون الذى بدا عند تقديمه وكأنه شىء نشترك فيه جميعاً، وهو عدم السماح بمزيد من التنمية العمرانية على أرضنا الخضراء، أى أرضنا الزراعية. واليوم يمكننى أن أقول لكم إننا إذا قمنا بتحليل ـ ليس الأثر الأولى للقانون فحسب ـ بل كذلك الأثر اللاحق له، فسوف نجد أن القانون لم يكن جيداً بالقدر الذى بدا عليه فى أول الأمر. ويمكن أن نضيف ذلك إلى قانون آخر كان المجتمع سعيداً عندما جرى تقديمه لأول مرة، وهو القانون الذى حدد الإيجارات التى يمكن بها التعامل فى الشقق والبيوت فى السوق وثبّت تلك المعدلات. ومرة أخرى أصبح لدينا عجز فى الإسكان نتيجة لهذا القانون. فى أوائل الستينيات. سعدنا جداً لرؤية الإيجارات وهى تنخفض، ولكن إذا نظرنا إلى ما يحدث اليوم فأعتقد أننا جميعاً نتفق على أنه فى وقت ما فى مستقبل هذا البلد لا بد من محاكمة هذين القانونين ونسيان أن المجتمع وافق عليهما فى يوم من الأيام.

كما قلت من قبل، لا بد أولاً أن تكون لدينا رؤية ويجب أن نضع هذه الرؤية معاً. ولكن قبل أن ندخل فى الطريقة التى يتم بها وضع هذه الرؤية، سوف أتطرق إلى بعض الإستراتيجيات التى نتبعها الآن. لا أريد أن يكون لديكم إحساس بأننا ما دمنا نتحدث عن عام ٢٠٥٠ فمعنى هذا أننا سنوقف كل شىء وننتظر حتى عام ٢٠٥٠ قبل أن نبدأ فى معالجة الوضع. بل الواقع هو أننا نعمل الآن على مسارين. المسار الأول هو تحسين نوعية مناطقنا العمرانية فى الوقت الحالى. ونحن نضع لأول مرة خطط تطوير شاملة لمحافظات مصر ومناطقها المختلفة. ويجرى الشىء نفسه بالنسبة لكل مدن مصر. ولدينا حوالى ٢٢٢ مدينة. وكذلك بالنسبة للقرى، وهى المرة الأولى فى تاريخ البلاد التى يكون فيها أى نوع من المخططات العمرانية للقرى. إن لدينا ٤٦١٧ قرية ولأول مرة سوف يكون لدينا خطط لها. لم يسبق أن جرى تخطيط قطاعنا الريفى من قبل. ولا يمكن أن يصدق أحد على الإطلاق أنه فى عام ٢٠٠٠ لم يكن قد جرى أى تخطيط للمناطق الريفية. لقد خططه المواطنون تخطيطاً أهلياً ولم يكن هناك تخطيط علمى لهذا القطاع. هذا كله يتغير الآن. فنحن الآن فى منتصف الطريق تقريباً نحو الانتهاء من وضع خطة تنمية حضرية لكل قرانا. وقد تأخرنا فى ذلك حوالى ٥٠ أو ١٠٠ عام، غير أننا قد بدأنا على أقل تقدير.

المسار الثانى هو التعامل مع المناطق العشوائية القائمة بالفعل. حيث لدينا خطط لتحديث مجتمعاتنا الرسمية. ولا أريد أن أخلق تفاؤلاً هنا بأن أية حكومة، بما فى ذلك هذه الحكومة، سيكون باستطاعتها إحداث أى أثر كبير على إعادة تنمية تلك المناطق العمرانية المتدهورة.

والتجارب التى لدينا اليوم فيما يتعلق بإعادة بناء تلك المناطق تعد إستراتيجية باهظة التكلفة لا يمكن لهذا البلد فى ظل أية ظروف أن يتحملها. وتجربتنا فى الوقت الراهن هى أن ذلك سوف يكلف حوالى ١٠٠ ألف جنيه مصرى لكل وحدة فى تلك المناطق المطورة. وعندما ترون بعض الصور التى تدل على أن معظم التطوير الذى جرى فى الخمسين سنة الماضية قد تم فى مناطق غير مخططة، سوف ترون أنه لا يمكن بحال من الأحوال المضى فى هذه الإستراتيجية. نحن نغير الإستراتيجية، ولدينا إستراتيجية تتوافق مع مواردنا الاقتصادية ولكنها سوف تستغرق زمناً طويلاً. وهدم المبنى أسهل بكثير من إقامة مبنى، وما نحاول عمله أن نبنى مبنى كبيراً.

كما أننا نقوم بإنشاء محاور جديدة مثل الطريق الجديد الذى يربط صعيد مصر بالبحر الأحمر. وهذه ليست مجرد طرق، بل إنها مناطق جديدة للتنمية وتجرى دراستها على هذا الأساس. ونأمل أن نتمكن من نقل السكان أو قدر كبير من الزيادة فى السكانية إلى تلك المناطق الجديدة. كما بدأنا برنامجاً لإقامة قرى جديدة بالقرب من القرى القديمة لوقف زحف المبانى على الأراضى الزراعية.

وبينما أتحدث إليكم، لدينا بالفعل ٢١ قرية كل منها قادرة على استيعاب ١٠ آلاف شخص على مر السنين، ونحن نستهدف بناء حوالى ٤٠٠ من تلك القرى لتستوعب حوالى ٤ ملايين شخص فى السنوات المقبلة حتى العام المستهدف وهو ٢٠٢٢. كما أننا نزيد المعدل الذى تنمو به المدن العمرانية الجديدة أو المجتمعات الجديدة كى نشجع الاستيطان هناك بمعدلات أسرع لتخفيف الضغط بشكل فعلى عن القاهرة.

فيما يتعلق بتطور القاهرة على مدى التاريخ نجد أن مساحة القاهرة فى عام ١٩٠٠ اثنين وأربعين كيلومتراً مربعاً فقط وكانت تؤوى ١.٥ مليون نسمة.

وبعد خمسين عاماً كانت ١٢٠ كيلومتراً مربعاً وتؤوى ٥ ملايين نسمة. وفى عام ٢٠٠٠ كنا نشغل مساحة مقدارها ٥٢٥ كيلومتراً مربعاً وكان لدينا ١٣.٥ مليون نسمة. وفى الوقت الحالى تؤوى القاهرة ٢٢٪ من إجمالى عدد السكان و٤٣٪ من عدد سكان المناطق العمرانية. ومن بين ٢٢٢ مدينة فى مصر، تؤوى مدينة واحدة ٣٣٪ من سكان المناطق الحضرية. وهذه أرقام مفزعة. ونحن نبحث أسباب ذلك. نجد أن ٥٥٪ من الأماكن بالجامعات موجودة فى القاهرة، و٤٦٪ من أسرة المستشفيات موجود فى القاهرة الكبرى، و٤٠٪ من الصيدليات موجود فى القاهرة الكبرى، و٤٣٪ من إجمالى الوظائف العامة والخاصة متوفر فى القاهرة الكبرى. وهذا رقم شديد الخطورة فى الوقت الراهن. وليس مستغرباً أن القاهرة الكبرى كانت ولا تزال منطقة جذب كبيرة بالنسبة لكل هؤلاء

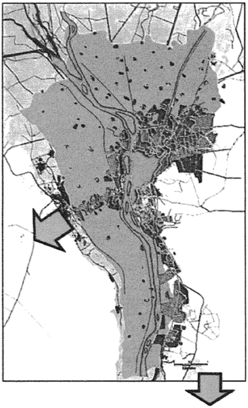


الوزير أحمـــد المغـــربى

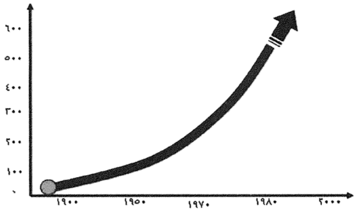
محاضرة ألقاها وزير الإسكان المصرى باللغة الإنجليزية أمام غرفة التجارة الأمريكية بالقاهرة الشهر الماضى

ترجمة: أحمد محمود

تطور الكتلة العمرانية لإقليم القاهرة الكبرى



- الكتلة العمرانية ١٩٠٠ ٤٢ كم٢ عدد السكان ١,٥ مليون
- الكتلة العمرانية ١٩٥٠ ١٢٠ كم٢ عدد السكان ٥ مليون
- الكتلة العمرانية ٢٠٠٠ ٥٢٥ كم٢ عدد السكان ١٣,٥ مليون



تضاعفت الكتلة العمرانية للإقليم خلال العقود الثلاثة الاخيرة بنسبة ٢٧٠٪

المواطنين من كافة أنحاء البلاد. كل هذا التكدس يؤثر بالضرورة على البيئة العمرانية لعاصمة البلاد.

إذا تركنا الوضع على ما هو عليه، فمن المحتمل أن نعيش فى عام ٢٠٢٢ فى مدينة تضم ٢٨ مليون نسمة. أنتم تشكون اليوم، ولكن انتظروا حتى عام ٢٠٢٢ وسوف ترون كيف سيكون الحال. لا بد أن نفعل شيئًا، فهذا ليس خيارًا وليس شيئًا يمكن أن نصبر عليه، إذ لا بد أن نتحرك الآن لأننا سوف نواجه مشاكل شديدة الخطورة إن لم نفعل شيئًا. ومع ذلك فإن أهدافنا وخططنا متواضعة.

وأنا لا أقول إنه ينبغى علينا التحرك الآن لإبقاء عدد السكان عند معدل ١٦ مليونًا. بل إنى آمل فقط أن نتمكن من احتواء الزيادة فى عدد سكان القاهرة الكبرى ليصبح ٢٤ مليونًا بدلاً من ٢٨ مليونًا. وهذا رقم ضخم، ولكنه هدف جيد، وهدف يمكن التعامل معه ويمكن التخطيط لبلوغه.

فماذا عن النمو السرطانى للمناطق غير المخططة؟ هناك ضغط مبالغ فيه على البنية التحتية فى المناطق غير المخططة بما فى ذلك المرافق. وعندما يصل الناس إلى هناك نضطر إلى تزويدهم بخدمات مياه الشرب، والصرف الصحى، والطرق، وباقى الخدمات. وبالمناسبة، يدفع هذا المجتمع أربعة أضعاف تكلفة تلك الخدمات فى المناطق غير المخططة مقارنة بالمناطق المخططة. ولو كان تخطيطنا قد سبق البناء، لكانت تكلفة البنية التحتية التى يتحملها المجتمع لا تزيد على ٣٣٪ مما يتكلفه المجتمع الآن لتوفير البنية التحتية الضرورية فى تلك المناطق العشوائية.

والحكومة لا تدفع، بل أنتم من تدفعون. وأنتم الآن تدفعون ثلاثة أضعاف ما كان يمكن أن تكون عليه التكلفة لو أننا قمنا بالتخطيط قبل البناء. ولكن هذا لم يحدث للأسف. وبالنسبة للتدهور البيئى، فإننا جميعًا لدينا قصص مرعبة يمكن أن نحكيها. وبالنسبة للمرور وحده، أظن أننى سمعت ما يكفى من القصص المرعبة اليوم فقط بحيث إذا سمحنا لهذه القاعة بالحديث عن المرور فسوف نظل هنا حتى عام ٢٠٥٠ ولن نحرز أى تقدم بشأن هذه الخطة.

لقد صُدِمنا جميعًا عند سماعنا عن الشركة الأمريكية الكبيرة التى قررت نقل مقرها الرئيسى من الولايات المتحدة إلى دبى. أنا شخصيًا صُدِمت بعض الشىء. فقد كان يجب أن تكون مصر هى المكان الطبيعى لتلك التوسعات فى المنطقة. إننا بكل تأكيد نفقد موقعنا التنافسى. وهذه مسألة تتعلق بمستقبلنا المالى كمجتمع. فليس من الترف الحديث عن القاهرة الكبرى فى عام ٢٠٥٠. ذلك أنه لم يعد بإمكاننا الانتظار حتى نرى الوضع التنافسى لمركز نشاطنا التنموى الرئيسى يتدهور إقليميًا ودوليًا. لا بد لنا من تصحيح هذا الوضع. إن لدينا أكبر الموارد البشرية فى هذه المنطقة، وربما مورد من أكبر الموارد البشرية على المستوى العالمى.

ولا بد لنا فى الواقع من الحصول على رأس المال لنستفيد من هذا المورد شديد الأهمية. ولا يقتصر الأمر على المال، بل يشمل كذلك مستويات المعيشة. وأظن أننا جميعًا لنا الحق فى الحياة فى مدينة نظيفة، ومدينة يتحرك فيها المرور بسرعة معقولة، ومدينة لا يوجد بها مستويات خطيرة من التلوث. هذا هو حق كل واحد منا. ومن واجبنا كذلك أن نفكر معًا فى طريقة لجعل الخطة تنجح.

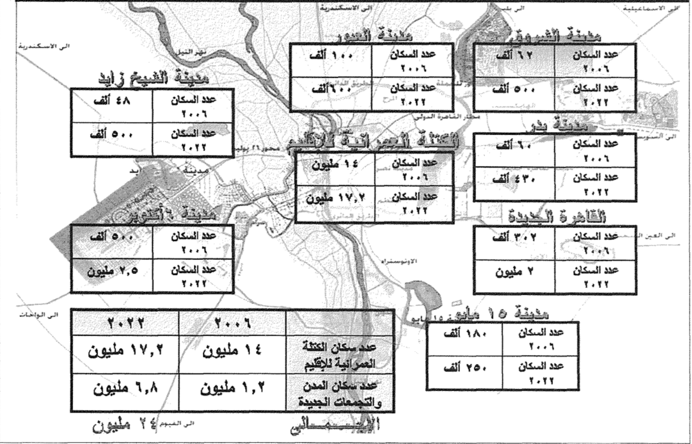
عندما نتحدث عن عام ٢٠٥٠ هناك دائمًا احتمال، كما قلت من قبل، أن الحكومة قدمت هذه الخطة حتى إذا ما ذهبت لتتحدث معها عن المشكلة سوف تقول لك تعال وتحدث معى فى عام ٢٠٥٠ لأن لدى خطة طويلة الأمد. ولكن الأمر ليس كذلك. فأنا سوف أضع أمامكم عينة من بعض المشروعات التى يجرى تنفيذها فى القاهرة الكبرى الآن كى أعطيكم الثقة فى أن هذه ليست طريقة ذكية من الحكومة للهروب من مواجهة المشاكل الموجودة حاليًا والتى يجب علينا مواجهتها دون انتظار.

سمعتم جميعًا عن نقل الوزارات إلى خارج القاهرة. أخيرًا لدينا الموقع، وهو مقابل للقاهرة الجديدة. وهناك لجنة تعمل على تخطيط الموقع ومن المنتظر أن ينتهى بنا الحال بمدينة حكومية من الطراز الأول تتصل مباشرة بالقاهرة الجديدة. وسمعتم جميعًا مؤخرًا عن تطوير كامل لمنطقة شمال الجيزة. وتبين لكم الخرائط الفرق بين المناطق المخططة تخطيطًا سليمًا وتلك المخططة تخطيطًا أهليًا، فمنطقة المهندسين بالكامل كانت مخططة فى الخمسينيات بواسطة وزارة الأوقاف. وترون بعد خمسين عامًا أنها لا تزال تبدو منطقةً مناسبة إلى حد ما. والآن انظروا ماذا جرى للمنطقة المجاورة لها. منطقة شمال الجيزة أو منطقة إمبابة وما حولها.

وهذا أمر مخيف. ليس أمامنا طريق لدخول سيارات المطافئ إلى هؤلاء الناس، وليس أمامنا طريق لتوصيل خدمات الإنقاذ إليهم، وليس هناك طريق لإيصال وسائل المواصلات المناسبة. وليست هذه هى البيئة التى سوف يقبل مصريو القرن الحادى والعشرين أن يعيشوا فيها. ولا بد أن نعمل الآن لأن هذا ليس بالأمر الذى يظل هادئًا إلى الأبد.

لقد درسنا تجارب الدول الأخرى لتحديد إستراتيجيتنا لتنمية وتخطيط المناطق المتدهورة عمرانيًا، واكتشفنا أن الطريقة التى تناسب قدرتنا المالية هى دخول تلك المناطق الرئيسية وبعض تلك المناطق.

الوضع الراهن والمتوقع لسكان إقليم القاهرة الكبرى طبقا للمخطط المعتمد



	٢٠٠٦	٢٠٢٢
عدد سكان الكتلة العمرانية للإقليم	١٤ مليون	١٧,٢ مليون
عدد سكان المدن والتجمعات الجديدة	١,٢ مليون	٦,٨ مليون
الإجمالي		٢٤ مليون

الوضع الراهن لإقليم القاهرة الكبرى عام ٢٠٠٦

عدد سكان الكتلة العمرانية للإقليم حاليا ١٤ مليون بالاضافة الى ١,٢ بالمدن الجديدة المحيطة

يضم الاقليم ٢٢ % من اجمالى سكان مصر

يضم الاقليم ٤٣ % من اجمالى سكان الحضر

يتمركز بالإقليم:

- ☐ ٥٥ % من أماكن التعليم الجامعى
- ☐ ٤٦ % من اجمالى أسرة المستشفيات
- ☐ ٤٠ % من الصيدليات
- ☐ ٤٣ % من فرص العمل بالقطاع العام
- ☐ ٤٠ % من فرص العمل بالقطاع الخاص

الرئيسية من بين أكبر المناطق فى العالم. فمنطقة شمال الجيزة وحدها تؤوى حوالى ٨٠٠ ألف نسمة على مساحة ٣ آلاف فدان. وتقوم الإستراتيجية الجديدة على فتح طرق فى تلك المناطق وترك الأمر للمجتمعات المحلية نفسها كى تعيد تطوير تلك العقارات التى تزداد قيمتها مع إدخالنا الخدمات.

أما بالنسبة لميدان الجيزة: ففيه مشاكل كبيرة ولذلك بدأنا العمل فيه. وقد أنجزنا جزءاً من العمل ونقوم حاليًا بتنفيذ الجزء الآخر من مداخل القاهرة من المدخل الغربى. ولدينا مشروع يجرى تنفيذه الآن لإغلاق الجزء المتبقى من الطريق الدائرى حول القاهرة بحيث يكون لدينا بالفعل طريق دائرى حول القاهرة. وقد بدأ المشروع وتتذكرون أن اليونيسكو رفض أن يمر الجزء الجنوبى من هذا الطريق الرئيسى بجوار الأهرام. وليس لدى أى اعتراض على قرارهم. فهذه منطقة محمية دوليًا، وهكذا، نقلنا إكمال الطريق إلى فوق ترعة المريوطية. وقد بدأ البناء ونأمل أن يكون لدينا طريق دائرى خلال الأربعة والعشرين شهراً المقبلة.

هناك أيضاً محور السادس والعشرين من يوليو. فهذا الطريق لم يُشق ليتحمل المرور الموجود عليه الآن، ولم يكن مخططًا للتعامل مع السرعات التى تجرى هناك، وهو بالتأكيد لم يكن مخططًا لكى يتعامل مع سلوكيات القيادة التى تُمارَس على الطريق. فمن بين ١٠٠ ألف مركبة تمر هناك كل يوم، هناك ١٥ ألفًا أو أكثر من الميكروباصات. الناس منزعجة من عدد الحوادث. وبأمانة شديدة أنا مندهش من قلة عدد الحوادث. فأنتم تعرفون أن لدينا ظاهرة على الطرق نمارسها لم يسمع عنها أحد فى أنحاء العالم. فأنا لم أر فى أى مكان من العالم محطة أتوبيس على طريق سريع. نحن فى مصر أدخلنا محطات الأتوبيس على الطرق الرئيسية. وبذلك لا يقع اللوم على جودة الطريق وحدها.

بعد أن قلنا هذا كله، فإننا نعمل بكل طاقتنا كما وعدنا. قلنا إننا بدأنا فى تحديث هذا الطريق الشهير وإذا مررتم من هناك اليوم ستجدون أننا أوفينا بالوعد حرفياً وفى الموعد المحدد. والآن سوف تبدأون بالشكوى للحكومة لأننا نغلق الطريق، ولذلك فنحن نُهاجَم إذا أغلقنا الطريق، أو إذا لم نغلق الطريق، ولكننا مستعدون لذلك وهو لا يزعجنا.

نعود إلى الخطة المتكاملة لإقليم القاهرة الكبرى. كيف نتوصل إلى خطة عمرانية لهذا الإقليم؟ أهم شىء بالنسبة لهذه الخطة هو أن نبدأ، وأن تكون لدينا رؤية. ولا ينبغى أن تكون الرؤية خاصة بالحكومة أو أى قطاع من قطاعات المجتمع، بل يجب أن تكون خطة نابعة منا جميعاً. وهذا هو السبب فى أنه من المهم جداً أن نفكر جميعاً فيما نريده من القاهرة فى عام ٢٠٥٠. هل نريد فقط مدينة تكون عاصمة عالمية للثقافة؟ هل نريد مدينة تكون العاصمة المالية للمنطقة؟

هل نريد مدينة تكون مدينة صناعية كبيرة فى المنطقة؟ ما الذى نريده؟ سوف يتطلب كل اختيار من تلك الاختيارات خطة تنمية مختلفة. وما إن نشرع فى تنفيذ تلك الخطة حتى يكون قد فات الأوان بالنسبة لتغيير رأينا. ولذلك يجب أن نفكر الآن ونتخذ القرارات قبل أن نضع الخطة موضع التنفيذ الفعلى. فهذه مسائل شديدة الصعوبة وسوف أعرض عليكم بعضاً من النماذج الأكثر تفصيلاً.

ما إن تكون لدينا الرؤية حتى يصبح ما بعد ذلك سهلاً. وما بعد ذلك هو الأمور الفنية وسوف نستفيد من أفضل الخبرات المتاحة فى العالم للمساعدة فى تنفيذ الخطة. بحيث يكون لدينا خطة تتناسب مع مكانة عاصمة مصر. ونظن أنه يمكننا عمل ذلك كله خلال ٢٤ شهراً، ولكن الأكثر أهمية هو أن نتوصل سويًا إلى رؤية مشتركة. لا تتركوا هذه الرؤية لأى وزير أو وزارة أو حكومة. فهذه ينبغى أن تكون رؤية هذا المجتمع ولا تتخلوا عن هذا الحق لأى إنسان آخر. أريد من كل إنسان قادر على المشاركة فى تشكيل هذه الرؤية أن يتقدم برأيه بالفعل وأن يكون واضحاً بشأن ما يريد أن يراه. أعلنوه الآن، ذلك أنه ما إن تبدأوا السير فى الطريق حتى يصبح من الصعب جداً والمكلف جداً أن نغير الاتجاه. سوف نستفيد بشكل واضح من مساعدة الكثير من المنظمات الدولية وسوف نستفيد من أفضل ما هو متاح.

ولكن ما هى القضايا التى تؤثر على هذه الرؤية؟ هناك تلك المجموعة من القضايا المتصلة بالاتجاهات الاقتصادية. وأنا أطرح عليكم تلك الأسئلة كى تبدأوا فى رؤية نمط المسائل التى ينبغى أن يناقشها المجتمع الآن كى يصل إلى نتيجة ما. ماذا ينبغى أن يكون الحجم الأمثل؟ هل ينبغى أن نجعل حده الأقصى ١٦ مليونًا أم ٢٤ مليونًا أم ٣٠ مليونًا؟ هل ينبغى أن نتركه يزيد بالسرعة التى يريدها ويمضى إلى حيثما يرغب؟ هذه هى الأسئلة التى لا بد أن نجيب عليها.

إلى أين نسمح للتطوير أن يمضى وفى أى اتجاه؟ هل ينبغى تقييد تطوير المنطقة المبنية بالفعل أم توسعتها لتلتحم بالمدن الجديدة؟ نحن الآن نرى توسعاً فى اتجاه المدن الجديدة. هل ينبغى أن نترك ذلك يستمر وهل ينبغى أن نسمح للمدن الجديدة بأن تتصل مباشرةً بالقاهرة؟ كل هذه النوعيات من الأسئلة تقليدية ولا بد لنا من الإجابة عنها.

نحن محظوظون أن لدينا جزرا فى وسط القاهرة. إن أعظم أصول مدينة نيويورك هى جزيرة مانهاتن الصغيرة. فهل ينبغى أن تكون لدينا مانهاتن فى القاهرة؟ نعم، فالجزر محمية، ولكننا كمجتمع لنا حق تقرير ما إذا كان ينبغى أن تظل جزرنا مناطق محمية أم ينبغى أن تكون لدينا مانهاتن على واحدة من تلك الجزر. من حقنا أن نحلم بأنه يمكننا أن تكون لدينا مانهاتن على واحدة من تلك الجزر. فليس هناك ما يمنعنا من أن نحلم وأن نحقق تلك الأحلام فى الحقيقة. إن جزءاً كبيراً من القاهرة تشغله مقابر أجدادنا.

فهل ينبغى أن يستمر هذا الوضع؟ نحن كمجتمع علينا أن نقرر ما إذا كان من الأفضل أن تكون لدينا مقابر فى وسط القاهرة ونبقى عليها فى أماكنها، أم أنه سيكون من الأفضل نقلها لإقامة منتزه كبير بدلاً من هذه المقابر كلها. ونقل المقابر ليس موضوعاً عادياً، ولكن ليس هناك موضوع مغلق تماماً فى المجتمع. فالقانون يسمح لنا باتخاذ هذا القرار ولا بد للمجتمع من مواجهة تلك القضايا واتخاذ بعض هذه القرارات. وأنا لا أقترح أى اتجاه من الاتجاهات أو أية إجابة من الإجابات لتلك الأسئلة. إنى أطرحها عليكم فحسب كمثال، وقضايا الإسكان والأراضى متصلة بالموضوع.

هناك أناس كثيرون يعدون جزءاً من القاهرة الكبرى. وهناك ثلاث محافظات، والعديد من الوزارات، وأربع هيئات لها أراضٍ فى القاهرة الكبرى على نحو مباشر وغير مباشر. فما هى أنسب استفادة من الأراضى التى لا تزال متاحة؟ وماذا عن برامج الإسكان؟ وبالمناسبة، تتصل برامج الإسكان بنوعية المدينة التى سنقوم فيها بالتنمية. فإذا كانت رؤيتنا تتعلق بمدينة صناعية، فنحن بحاجة إلى نمط معين من الإسكان. وإذا كان ما نهدف إليه مركزاً ماليًا، فلا بد أن نتخيل للمدينة نمطًا مختلفاً من الإسكان. وتلك أسئلة لا بد لنا من أن نجيب عنها.

فيما يتعلق بالنقل والبنية التحتية، هل ينبغى أن يكون هناك مطار دولى غرب القاهرة؟ لقد سمعتم جميعاً ما يقال عن ذلك. فهل ينبغى أن يكون هناك مطار آخر، وهل ينبغى أن يكون هذا المطار فى مكان المطار العسكرى الموجود حاليًا؟ أم أنه مع التطوير والتحسين الكبيرين اللذين يجريان فى شبكة طرقنا ينبغى نقل المطار إلى شمال القاهرة فى وسط الدلتا لتخفيف حركة المرور أكثر؟ أم أنه بما أن متحفنا سوف يُنقل قريباً من تلك المنطقة فإن نقل المطار إلى منطقة أبعد قليلاً سيكون كذلك أحد الخيارات التى ينبغى أن ندرسها؟

خياراتنا كلها مفتوحة وينبغى علينا القيام بتلك الخيارات الآن. ينبغى أن نطرح الأسئلة الآن ونأمل فى الوصول إلى نتيجة ما. كيف سندير القاهرة الكبرى؟ هل ينبغى استمرار وجود ثلاث محافظات تضم القاهرة الكبرى؟ هل ينبغى أن تكون هناك إدارة منفصلة للمدن الجديدة؟ هل ينبغى أن تكون هناك محافظة واحدة، أم ينبغى إنشاء المزيد من المحافظات؟ هناك أجزاء معينة من القاهرة مؤهلة لأن تكون بالفعل محافظة جديدة. لنأخذ حلوان على سبيل المثال: فإن حجم السكان وحجم الأرض يسمح بأن تكون محافظة جديدة. هل ينبغى إقامة محافظة جديدة هناك؟ كيف سندير المدينة على المدى البعيد؟

هناك أسئلة لا بد أن يجيب المجتمع عنها الآن لاستكمال صياغة هذه الرؤية. وهذه الرؤية ليست الخطة العمرانية، بل إنها الأساس الذى سوف نتمكن من أن نضع عليه خطة عمرانية تعكس رؤيتكم. فنحن لا نريد أن نضع خطة عمرانية تعكس رؤية الحكومة فحسب، لأن تلك الخطة هى التى سوف يأمل شعب مصر فى عام ٢٠٥٠ أن تكون لديه. شكراً لكم على حسن استماعكم ونتطلع بالفعل إلى مشاركتكم فى صياغة رؤيتنا كى يبقى وزير الإسكان فى منصبه حتى عام ٢٠٥٠. ■

عاصمة جديدة؟

خطرت على بال مصر فكرة بناء عاصمة جديدة وأظن أن مدينة السادات كانت آخر ما خطر على بال مصر فيما يتعلق ببناء مدينة جديدة تماماً. وهذا اقتراح مكلف جداً. ونحن لا يمكننا تحمل تكاليفه. وما يمكننا تحمله هو نقل جزء من الوزارات التى تحدث اختناقًا وسط القاهرة. وليس كافيًا أن نحلم. بل يجب أن تكون أحلامنا قابلة للتحقيق، وبناء عاصمة جديدة تماماً ليس خياراً أمام المجتمع الآن. الخيار هو ما نقوم به من نقل عدد كبير من تلك الوزارات إلى خارج القاهرة ونقلها على مسافة قريبة كى يكون الاستثمار محدوداً جداً بالفعل. ونحن نأمل أن نتمكن من تحقيق ذلك النقل بدون التعدى على ميزانية الاستثمار الخاصة بمصر، وسوف نتمكن من خلال المشروعات العقارية الذكية من بناء تلك الوزارات بدون التأثير على ميزانية الاستثمار فى مصر.

أ. م

مدينة المدن المغلقة!

إيريك دينيس

■ لن يعطل المرور أحمد أشرف المنصورى كثيراً هذا المساء. فسائقه لا نظير له فى تخليصه من اضطراب وسط المدينة من خلال الطرق الملتوية. فبعد أن يطلق السائق العنان لسيارته ويغمز للشرطى، يصعد المطلع ويدخل فى الطريق الدائرى العلوى الجديد، يتجه بسرعة غرباً نحو المدينة الجديدة ذات البوابات فى مستوطنة السادس من أكتوبر التى كانت ثورية فى يوم من الأيام. وبدون إلقاء ولو حتى نظرة خاطفة، يمر السيد المنصورى فوق ذلك العالم غير المعروف الذى تجمع الفلاحون فى كون معقد للغاية من الطوب الأحمر والنفايات والمساكن التى بنوها بأنفسهم ومشروعات الإسكان القديمة التى أقامتها الدولة. وعندما يخطر بباله أن يدير رأسه، فإن ذلك يكون لتأكيد أنه قام بالاختيار الصحيح فى الانتقال بعيداً عما يظنه عالمًا متخلفًا مازال عبئًا على مصر، ذلك العالم الذى يحط من قدر صورة القاهرة ويلوثها. فهو يعرف أنه التحق مرة أخرى بمستقبل مصر. ويظن أن هذا الجمع قد يتحول فى أية لحظة إلى حشد مثير للشغب يدفعه من يعرف ما الذى يجعل خطبة الشيخ الرنانة تحرك الناس.

لم تكن حرارة الجو أو ضجيج الشوارع شديدة الزحام يخترق سيارته مكيفة الهواء. ويفكر أحمد أشرف المنصورى فى جولة جولف، تتبعها مناقشة فى المبنى الاجتماعى بالنادى مع صديقه ياسين الذى يعمل بوزارة المالية، ثم تمشية قصيرة إلى البيت. ها هو ضغط يومه العصبى يخف بالفعل.

منذ الثامنة صباحاً بدأت الخيالات تنتاب أحمد وهو ينظر من خلال نوافذ الطابق الحادى عشر فى مركز التجارة العالمى المشرف على وزارة الخارجية ويطل على الكورنيش المحاذى لنهر النيل. إنه يمر بضائقة فى معاملاته التجارية. فهو لم يُمنح ذلك الاحتكار المهم للآيس كريم، وضاعت منه فرصة شراء إحدى العمارات السكنية. وتظل كلمة السر الخاصة به هى «المُخاطِر». ربما كان الأمر بسبب ذلك الانخفاض فى قيمة العملة الذى لا يعرف أحد منه مخرجاً، أو من جراء اختفاء العملة الصعبة. ومن حسن الحظ أنه حصل على عقد توزيع محترم مع سلسلة فنادق دولية لشراء كرتونات الحليب التى يعبئها فى مصنعه الصغير. وسوف يكون عليه الذهاب إلى هناك غداً لتسريع الإنتاج قبل الذهاب إلى المكتب. يكاد لا يكون لديه الوقت الكافى للاتصال بابنه الذى يدرس بالسنة الثالثة بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن. ولكن داخل سيارته تلاشى القلق وهو يبتعد عن وسط مدينة القاهرة ماراً بالأهرام إلى داخل الصحراء. ويصل السيد المنصورى بعد ذلك إلى بيته، حيث يعبر بوابات مجتمعه السكنى الجديد دريم لاند.

هناك يمر على أبى محمود، حامل أدواته المعتاد عند لعب الجولف؛ فقد أنهى يوم عمله وينتظر الميكروباص الذى يأخذه إلى شقته الصغيرة ذات الأربعين متراً مربعاً التى يشاركه فيها حوالى عشرة آخرين من الجرسونات والعمال الذين يقيمون فى أقدم أحياء مدينة السادس من أكتوبر، بعيداً جهة الغرب على هضبة صحراوية. وقد بقيت زوجته وأولاده الذين لم يهاجروا إلى العاصمة فى قريتهم بالقرب من المنصورة بالدلتا.

لم تذهب زوجة أحمد المنصورى إلى القاهرة منذ أكثر من أسبوعين. إنها تأتى فقط لزيارة ابنة عمها فى «يوتوبيا»، ذلك المجتمع القريب ذو البوابات. إنها تأتى متأخرة لأخذ أطفالها بعد الغارة التى تشنها على مركز التسوق. وها هم قد عادوا من قضاء فترة بعد الظهر فى مدينة الملاهى بصحبة ماريا الخادمة الحبشية. يلعب الأطفال الآن فى حمام السباحة فى حراسة محمود فرد الأمن. وتعرف ماريا، الخادمة الحبشية، أنها سوف تعود إلى غرفتها. وهى غرفة صغيرة بلا نوافذ خلف المطبخ. ولكن فى وقت لاحق من ذلك المساء. وها هم الضيوف؛ سوف يكون عليها المساعدة فى الطهى بعد وضع الأطفال فى أسرَّتهم.

بهذا السرد الروائى نصل إلى الهضاب الصحراوية المحيطة بالمدينة وضواحى القاهرة. فناحية الشرق وناحية الغرب، ومنذ اثنتى عشرة سنة أو يزيد، أدى الترويج لإنشاء المبانى السكنية الخاصة إلى تملك مساحات شاسعة من الفضاء العام، بحيث باتت فى أيدى مقاولى التنمية العقارية. والواقع أن أكثر من مائة كيلومتر مربع تحت الإنشاء، أى أن مسطحاً مساوياً لما يزيد على ثلث المدينة والضواحى الحالية التى جرى تشكيلها وإعادة تشكيلها على امتداد ألف سنة. نشأت عشرات المجتمعات الفاخرة ذات البوابات التى تصاحبها ملاعب الجولف ومدن الملاهى والعيادات والجامعات الخاصة على الطريق الدائرى مثل أخواتها مراكز التسوق (المولات). على خلفية المنطقة الحضرية «العضوية» المدمجة بشدة، وضع ذلك النموذج للمدينة «الآسيوية» غير النمطية الكثيفة التى حللها الجغرافيون الشرقيون، جنبًا إلى جنب أفق مدينة جديدة أشبه بلوس أنجلوس، تُقاس من الآن فصاعد طبقًا لسرعة السيارة. ويتميز هذا البعد الجديد للقاهرة بهروب النخب الحضرية الأمر الذى جعل تخفيف اكتظاظ المركز الحضرى أكثر وضوحاً. ويتناغم إعادة التشكيل الجذرى هذا لمنظر العاصمة، الذى يدعونا من يروجون له إلى النظر إليه على أنه نهضة عمرانية، تناغماً تاماً مع مؤشرات التحرر الاقتصادى والتكيف الهيكلى الذى يحركه صندوق النقد الدولى.

ولكى تُباع المجتمعات ذات البوابات، فإنها تحيى الخرافة الشائعة الخاصة بالمدينة الكبيرة التى يمكن أن ينسى المرء فيها نفسه فى الهناء المنزلى المخصخص وتحقق تلك الخرافة. ويستغل المروجون أكثر وأكثر وصمة «الشارع» التى تنشرها وسائل الإعلام على مستوى عالمى، وأخيراً العاصمة العربية باعتبارها مصنعاً للمخاطر الإرهابية التى هى بالضرورة «إسلامية». وبالإضافة إلى كون الخطر الإسلاموى مرفوضاً، فالسلطات المصرية تستغله لنقض التحرر السياسى، بينما تشجع شكلاً بعينه من أشكال إعادة الهيكلة الاقتصادية. فالنظام الحالى يعيد توجيه إلحاح القانون ومصالح النخب المصرية المباشرة وينقلها من خلال تأكيد أنساق السوق والأنساق الأمنية، التى تعد المجتمعات ذات البوابات ملمحاً من ملامحها.

فى إطار هذا المنظور لابد أن تبدو المجتمعات ذات الأبواب نافذة مميزة على واقع التحرر فى مصر. ويسمح تحليل هذه المستوطنات بفهم الطريقة التى تفرض بها آليات التحكم فى المخاطر الاستبعاد الاجتماعى (الجانب العكسى للعولمة النخبوية) وكيفية تحديدها للمخاطر نفسها. فالبيئة الحضرية

من كتاب:

Cairo Cosmopolitan
Politics, Culture, and Urban Space in the New Globalized Middle East
(القاهرة الكوزموبوليتانية)
Edited by: Diane Singerman and Paul Amar
AUC Press, Cairo- New York

ترجمة: أحمد محمود

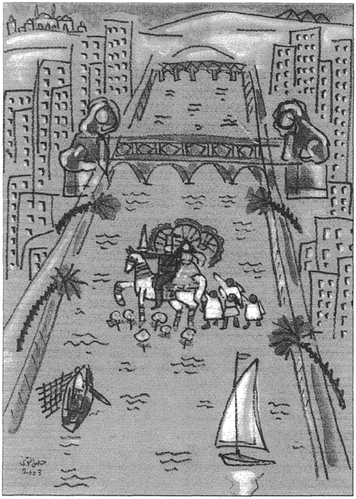
تجد العاصمة المصرية المعولمة نفسها الآن عند نقطة عدم استقرار، حيث تتأرجح بين المجتمع الذى تؤدى فيه النزعة القدرية واللعْن دورًا مهمًا فى إدارة الأزمات والكوارث، و«مجتمع المخاطرة» الذى يتميز بعدم اليقين

وأولويات الأمن تُعكَس لمصلحة مستعمرات الضواحى الصحراوية: فهى مواقع دفاعية حصينة فى مواجهة العاصمة الضائعة. وفى وسط هذا الانعكاس تتولى الشركات العقارية العالمية/المحلية والهيئات التابعة للدولة نقل السلطة إلى رجال الأعمال المرتبطين ببناء هجين جديد من أسلوب الحياة الأمريكى المتوسطى المعولَم.

فى وسط أسلوب الحياة الجديد هذا توجد النخب المصرية، وهى نفسها تربط أرخبيل مجتمعات المدن الصغرى التى يديرونها وكأنها إنجازات تجريبية كثيرة للديمقراطية الخاصة المقبلة. وتسمح المجتمعات ذات البوابات، شأنها شأن المخطط الفسيح، للنخب التى تعيش فيها بمواصلة المسيرة القسرية نحو التحرر الاقتصادى الاحتكارى، دون إعادة توزيع للثروة، بينما تحمى نفسها من كل آثاره الضارة ومخاطره. وبالطريقة نفسها، تنضم تلك النخب من جديد إلى النادى المتعدى للعواصم الخاص بالأرخبيل العالمى من الملاذات المسورة (كالديرا ٢٠٠٠). وحينئذ ينشأ القلق المحتمل المتسم بالشعور بالذنب ويرتبط بمعاناة سكان المدينة العاديين مختفيًا تحت الرفض العالمى للمدينة، طبقًا لخطاب مضاد للنزعة الحضرية يدمج التلوث ويُطبّعه، حيث يربطه بالفقر والجريمة والاحتجاجات العنيفة ضد النظام. وفى هذا المنظور النخبوى، أصبحت القاهرة مجمعاً لمصادر الإزعاج لم يعد هناك ما يمكن عمله حياله سوى الهروب أو حماية المرء لنفسه بنفسه. كما أنه يعاد ترتيب المخاطرة الحضرية، ويعاد للسبب نفسه ترتيب البيئة الحضرية، بشكل جذرى.

سوف أتعقب فى بقية المقال التطور المادى للمجتمعات ذات البوابات، والترويج لها، وتملكها. وبعد ذلك سوف أعرِّف خطابات المخاطرة التى تخلق أساسًا لإدارة المسافات الاجتماعية المتجددة وتمكين شرعنتها. غير أنه من المناسب أولاً أن أحدد ما نعنيه بالخوف والمخاطرة والخرافة والبيئة الحضرية.

يتعدى مجرد المصادفة فى أنه ظهرت فى مصر على وجه الدقة كلمة «عشوائيات»، المشتقة من الكلمة العربية «عشوائى»، وهو ما يدل على المصادفة، فى بداية التسعينيات من القرن العشرين لوصف الأحياء الفقيرة المزدحمة بالمساكن المتواضعة، ومدن الصفيح، ومدن الفقراء التابعة التى قامت بالجهد الذاتى، أى تلك الأحياء غير القانونية وغير المشروعة. وبحلول نهاية التسعينيات باتت هذه التسمية لا تصف الفضاءات فحسب، بل وسكان تلك الفضاءات كذلك، حيث يشمل ذلك ما يقارب أغلبية المدينة باعتبارهم أشخاصًا تحفهم المخاطر، و«خطرين»، وضالين. وصورة الشخص الضال هى أكثر ما يخيف هذا المجتمع الحضرى. فقد كان الفلاح، الذى يُنظر إليه على أنه الصورة مبهمة الملامح لذلك المهاجر القادم من الريف الذى كان بلا شك عاملاً زراعيًا، ولا يزال يخيف المجتمع الحضرى.



ويحيى هذا التحديد كذلك التعارض الإسلامى التقليدى بين الفلاح والحضرى، وبين المجتمعات المستقرة والمجتمعات البادية.

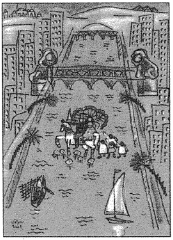
تجد العاصمة المصرية المعولمة نفسها الآن عند نقطة عدم استقرار، حيث تتأرجح بين المجتمع الذى تؤدى فيه النزعة القدرية واللعْن دورًا مهمًا فى إدارة الأزمات والكوارث، و«مجتمع المخاطرة» الذى يتميز بعدم اليقين، ويصبح من المستحيل فيه أن يُعزَى الشك إلى أسباب خارجية أو لا يمكن التحكم فيها. والواقع أن مستوى المخاطرة يتوقف على القرارات والاختيارات السياسية. فهى تُنتَج على نحو صناعى وعلى نحو اقتصادى، ولذلك تصبح انعكاسية من الناحية السياسية. غير أن مصر من منظور أورليك بك التحليلى تذكرنا بأن حلول التحديث لا يمكن الدفاع عنها، لأن التشدد الدينى والممارسات المستبدة تتزايد، ولكنها تُعزَى باستمرار إلى التآمر الأجنبى، مع إنكار ظهور جمهور وطنى انعكاسى، ويصور المناقشات الداخلية (١٩٩٢). وفى هذا السياق تظل المخاطرة هدفًا متناقضًا ينتج معايير استبعادية. بينما يُستحوَذ من جديد على خرافات الأسلاف ومعتقداتهم وتُعاد صناعتها من أجل السيطرة على الأشكال الحالية من الاحتكار السياسى واستقراره.

المجتمعات ذات البوابات أحد أكثر منتجات هذه البيئة الجديدة من المخاطرة واحتكار السياسة لفتًا للانتباه وكشفًا عن بواطن الأمور. فهى تكشف عمليات الإخلال بنظام أنماط المعيشة والمعاشرة فى المدينة، أى ديناميكيات إضفاء الطابع المكانى على «النظام الأخلاقى» الليبرالى الجديد وتبريره من خلال خطاب المخاطرة (بارك ١٩٢٦).

وقد أشعل تقديم الدولة لأسلوب حياة استبعادى جديد فتيل الانفجار. فمنذ عام ١٩٩٤، عندما بدأت وزارة الإسكان بيع قطع أراضٍ على نطاق واسع فى الصحراء المتاخمة للقاهرة، تجاوز عدد وحدات مشروعات الإسكان الفاخر قدرة السوق الاستيعابية بسرعة كبيرة. وتضم منطقة القاهرة الكبرى عددًا محدودًا من أسر الطبقة المتوسطة: ففى الوقت الراهن لا يتجاوز عدد الأسر التى تتجاوز نفقاتها ألفى جنيه (٣٣٠ دولارًا بأسعار ٢٠٠٥) شهريًا ٣١٥ ألف أسرة. وتبلغ نسبة هؤلاء ٩.٥ بالمائة من السكان الأكثر ثراء. ومع ذلك فإنه فى هذه السوق المحدودة، تملكت ٣٢٠ شركة الأراضى وأعلنت عن مشروعات يبلغ إجمالى عدد سكانها المحتملين ستمائة ألف ساكن. وفى السنوات التالية للانتعاش الاقتصادى أقيم أكثر من ثمانين مشروع مدينة ذات بوابات، حيث بيعت قطاعات كثيرة قبل إنشائها، واستقرت أوائل الأسر. وفى عام ٢٠٠٣ وحده طرحت تلك الشركات حوالى ستين ألف وحدة سكنية من الفيلات والشقق فى السوق. فمن أين ستأتى هذه الأسر الغنية كلها؟

يوتوبيا، مرتفعات القطامية، بيفرلى هيلز، بالم هيلز، بل فيل، مينا جاردن سيتى، دريم لاند: هذه بعض المجتمعات ذات البوابات

مدينة المدن المغلقة!



التى يجرى إنشاؤها. ويجرى تسويق هذه المشروعات العقارية باعتبارها الموقع الأفضل لأسلوب الحياة ما بعد العاصمية، حيث اختُرعت لتكون فى منطقة وسطى بين مدن «فورترس أميركا» الأخطبوطية ومدن أبارتهيد المخاطرة الجديدة فى جوهانسبرج (بلاكلى وسنايدر ١٩٩٧). ومع ذلك فإنه إذا كانت مجموعات الفيلات تستجيب استجابةً تامة للمفهوم الكونى الخاص بالمدينة المحمية، التى يحيط بها سور وتضمن الاستقلال الكامل، فليس هذا مجرد استجلاب لنمط عالمى. إذ يتضح كذلك تأثير ذوق مَلَكيات نفط دول الخليج الخاص بالمعيشة الفخمة. فأذواق الخليج ممثلة فى زخارف الباروك الفخمة من تذهيب وشرفات بارزة وأعمدة كلاسيكية جديدة. والأنماط المعمارية وأشكال التملك بواسطة المقيمين «مهجنة»، حيث تجمع بين التأثيرات المحلية والعربية، كما تتفق مع قيم من المدن العالمية (السعيد ٢٠٠١). وفكرة البحر المتوسط كذلك إطار دلالى أساسى بالنسبة لمصر باعتبارها بلداً يقع على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط، مما يثير فى الذهن موتيفات القرى اليونانية التى تضفى عليها صفة الكمال، والأسقف المنحدرة، وحدائق الصنوبر التوسكانية، أو ألوان منتجعات الريفييرا المتلألئة. لقد أبرز النموذج المتوسطى بالفعل خلال تجربة إنشاء الريفييرا المصرية على الساحل الواقع غرب الإسكندرية. وهذا النموذج الساحلى تبناه منذ ذلك الحين المشترون القاهريون المحتملون باعتباره امتداداً لمجتمع فى إجازة دائمة تحت الشمس. وهذه الصورة المتوسطية الإيجابية وأساليب الخليج العربى، التى تتسم بالبذخ، واضحة على أقل تقدير وضوح التأثيرات الأمريكية الغربية، حيث تعيد مصر التفاوض على هويتها الدولية، وتعيد صياغة هويتها الشرق أوسطية العربية الأساسية من خلال إضفاء الطابع التجارى سياحياً وسكنياً.

الاستبعاد كنهضة عمرانية

قبل أن نطمح فى اليوم الذى يصبح فيه المقطم (الهضبة القريبة من القاهرة) متنزهاً تتناثر فيه الفيلات ويربطه الترام بالقاهرة، كما طالب توسان كانيرى فى عام ١٩٠٥، هل يمكن أن نتمنى، على أقل تقدير، موقفاً أقل أنانيةً بين الطبقات الحاكمة؟ فإن ذلك من مصلحتها، إن لم تكن لديها الرغبة فى إعداد مجال اختيار أمام تجارب الغد الاجتماعية. كليرجيه ١٩٣٤؛ كانيرى ١٩٠٥

أدرك كليرجيه، وهو أول عالم جغرافيا حضرية فرنسى انتقد بعض المشروعات العقارية شرقية الطابع والسياسة الخديوية فى عصره، تلك التوترات والمخاطر الناشئة عن عمليات الإعمار الفاخر الحرة. فقد كان يخشى من أن يؤدى البناء خارج هوامش القاهرة إلى تمزق نسيج الفضاء الحضرى وإن كان هو نفسه بنى بعض المشروعات فى المناطق الجديدة. واليوم تشيع نظرة تتسم بالحنين إلى «العصر الليبرالى» فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الذى اختفى. وتدعونا هذه النظرة إلى رؤية الصلة بين عصر التحرر فى مصر الحديثة، وكذلك نتائج التطور الحضرى الخاصة بهما. وكانت أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين فترة إفراط عقارى ميزت تركيبة العاصمة حتى يومنا هذا (أرنو ١٩٩٨).

ويحب مروجو المجتمعات ذات البوابات العودة إلى الماضى فيما يتصل باستثمار مشروعاتهم بواسطة الصورة الإيجابية للعصر الليبرالى فى الزمن الجميل، أى عصر الخديو إسماعيل، وعصر الاحتلال البريطانى، وعصر الدَّين الثقيل، والاستثمار الأجنبى والسيطرة الأجنبية، وكذلك المضاربة التى لا حد لها، والتشييد الفاخر العام والخاص. وتلك الحقبة الاستعمارية (المعروفة كذلك بالخديوية) يطلق عليها البعض «العصر الليبرالى المصرى» لأنها اتسمت كذلك بظهور بعض المؤسسات السياسية والثقافية الليبرالية ذات التوجه النخبوى التى يقيدها الاستعمار، ويتذكرها الناس لأنها شهدت مولد النزعة القومية الديمقراطية ذات الاتجاه الغربى فى عهد سعد زغلول.

اليوم لا يتردد الكثير من أصحاب شركات التنمية العقارية المصريين، مثل الراحل طلعت مصطفى، فى تقديم أنفسهم باعتبارهم ورثة البارون إمبان (كمال ١٩٩٨)، وهو وافد ومستثمر عاش فى مصر أسس فى عام ١٩٠٥ واحة هليوبوليس العمرانية الفاخرة، وكانت وقتها فى وسط الصحراء الواقعة شرق القاهرة، وربطها بوسط المدينة بخط ترام كان يمتلكه وحقق من ورائه الأرباح (البرت ١٩٨١؛ جاريه ٢٠٠١). ولقرب طلعت مصطفى من أسرة الرئيس أنور السادات، فقد كوَّن ثروته ابتداءً من سبعينيات القرن العشرين. وقد أقام مدينة كاملة هى الرحاب شرق القاهرة.

وبالمثل، فقد كان يُروِّج لمشروع «بل فيل»، وهو مجتمع كبير يتباهى بأنه يطل على أهرام الجيزة الواقعة غرب القاهرة. فى الصحافة اليومية والمجلات بصور فوتوغرافية تعقد مقارنات بين المكانة المعمارية التى لا يمكن استعادتها لوسط المدينة الإسماعيلى، الذى جرى تقسيمه منذ عام ١٨٧٠، وظهور المستقبل بناءً على صورة هذه الصفحة الجديدة من النزعة الحضرية الخاصة. وعُرضت «مينا جاردن» على التليفزيون فى أحد الإعلانات الذى جعل فيلات جاردن سيتى القديمة، وهى منطقة سكنية بوهيمية وأجنبية ظهرت فى أوائل القرن العشرين، تطير بعيداً تحملها الغرانيق القوية. وقد بُنيت جاردن سيتى القديمة فى بداية القرن العشرين على ضفاف نهر النيل على أطراف وسط المدينة الإسماعيلية، واعدةً سكانها بهدوء يشبه هدوء الواحة. والآن تزدهر جاردن سيتى المستقبل، بالمعنى الحرفى للكلمة، فى الصحراء النائية، بينما تغزو جاردن سيتى الإسماعيلية الأبراج شاهقة الارتفاع ونقاط التفتيش العسكرية التى تحمى بضعة سكان أجانب وسفارات لا يزالون مقيمين هناك. وفى أماكن أخرى، تتخذ الفيلات أسماء حكام مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين. فاروق وإسماعيل، الخ. بل إن حفيد البارون إمبان الأصلى نفسه أسهم فى الترويج لمشروع هليوبوبيس الجديدة.

إذا كانت إعادة كتابة الماضى هذه ممكنة من الآن فصاعدا، بل ويُستعان بها، فحينئذ يكون من الضرورى أن تسمح، شأنها فى ذلك شأن رد الاعتبار لأفراد الأسرة الملكية، بإضفاء المشروعية على المستثمرين الذى يقسِّمون الأراضى العامة فى الصحراء ويستولون عليها. وحينئذ تصبح تلك المشروعات ضرورية لخلق إرث قومى نخبوى جديد من ذلك النوع الذى ظهر فى بداية القرن العشرين. إنهم يسهمون فى خلق مظهر يوحى بالقدم، وهو ذلك المظهر المرتبط بالحنين للماضى القائم على الاستيلاء على إطار قديم، حيث يعطى المجتمعات ذات الأبواب سمة الإرث والتاريخية. ويعزز هذا المظهر الإحساس بالأصالة والحنين إلى الماضى (ماكاركين ١٩٨٨؛ أپادوارى ٢٠٠١). ولا تبدو الحياة المعاصرة وقد أُضفى عليها طابع تاريخى فحسب، بل كذلك كشىء ضاع بالفعل. وكما هو حال الموضة، التى هى ناتج تشابك العوالم وحكاية التداول المتسارع على النطاق العالمى، فإن المظهر الموحى بالقدَم يولِّد سرعة الزوال. فهذا المحو للحاضر من أجل غايات الترويج والاستهلاك التجارية شبيه بتخيل الخطر، من حيث إن كليهما يخلق عدم الاستقرار. كما يدعو كلاهما إلى حماية الذات، مما يؤدى إلى المطالبة بالحماية فى مواجهة عدم الأمان المتزايد، وإلى زعزعة الروتين والعلاقات.

عندما افتتح الرئيس حسنى مبارك، فى بث حى مباشر على التليفزيون فى مايو ١٩٩٧، ملعب الجولف وقال إنه رأى فيه رئة خضراء لأهل القاهرة، أعطى بذلك المشروعية لمشروع لا يمكن بأى حال من الأحوال اعتباره مشروعاً قومياً. وقد أقر استيلاء النخبة على الصحراء المملوكة لعامة الشعب، وإغلاقها لها وخصخصتها (والاستيلاء على الماء اللازم لريها) بينما أُسبغت عليها روح المشروعات العامة المفتوحة العظيمة التى تحققت من أجل المصلحة القومية (المشروع الجماعى).

وفى عملية مشابهة، تفرض الدولة رقابة مشددة على كل أشكال تمثيل الأحزاب السياسية للمواطنين.

وتزدهر المؤسسات التجارية واتحادات رجال الأعمال كتلك التى تعيد تجميع رجال أعمال من المناطق الصناعية بالمدن الجديدة. والتزاماً بـ«ميثاق الشرف» الوطنى الجديد الخاص بالليبرالية الجديدة والتكيف الهيكلى الذى يحظر التدخل المباشر من الدولة فى مجال التشييد، أُعيد تعريف التحالف بين المستثمرين وهؤلاء الموجودين فى خدمة الدولة: هؤلاء المقاولون العامون الذين

يوتوبيا، مرتفعات القطامية، بيفرلى هيلز، پالم هيلز، بِل ڤيل، مينا جاردن سيتى، دريم لاند: هذه بعض المجتمعات ذات البوابات التى يجرى إنشاؤها. ويجرى تسويق هذه المشروعات العقارية باعتبارها الموقع الأفضل لأسلوب الحياة ما بعد العاصمية.

كانوا يتولون من قبل تشييد الإسكان الشعبى، ككتلة واحدة، يعملون الآن كمقاولين شبه خاصين، حيث يبنون المنازل الفخمة بينما يستفيدون من القروض المقدمة من البنوك العامة، وهو ما يُقاس على أساس القيمة المتوقعة والمُبَالَغ فيها للأراضى المشتراة بسعر رخيص جداً، حيث تخفض الدولة السعر لشركات التنمية العقارية.

وفى الوقت نفسه، يصبح البر والإحسان من جديد قيمة بورجوازية حضرية وطريقة لعرض الذات لابد منها لصورة المواطن الصالح والمسلم الصالح. وبشكل خاص، نجد أن مطاعم الفقراء الشعبية التى لم يكن لها وجود منذ عام ١٩٥٢، قد جرى إحياؤها، بينما خُفِّضت قائمة المنتجات المدعمة إلى أربعة أصناف (الزيت والسكر والدقيق والخبز)، ويتناقص مخزونها باستمرار (كريِّم ٢٠٠١). وتعد موائد البر (موائد الرحمن) التى تتسم بالتظاهر والتباهى فى شهر رمضان، التى بدأت فى أواخر الثمانينيات، نتاجًا لإحياء التراث الإسلامى، وتزداد وضوحًا أكثر فأكثر. وهى تشكل الآن صورة رمزية للاتصال بين البورجوازية وأهل الحضر. كما أنها تجسد الاستعراض المشروع للثروة الذى يجرى من خلال الاهتمام بإقامة أكبر مائدة، وهى تلك التى توفر الطعام لمعظم الأماكن. كما أن هذه الموائد مَسْرَحَةٌ لهبة الفتات. فالممارسة الرسمية والدينية هنا، مثلها مثل إعادة كتابة التاريخ الوطنى للعصر الملكى الاستعمارى، تعطى الشرعية لكون التغير الليبرالى الجديد مناسبًا لمقتضى الحال وتعكس «أفضل أوقات» الإصلاح الاجتماعى ومنظماته الخيرية. ويمكن كذلك قراءة مشهد الظلم الاجتماعى والصدقات هذا من ناحية المخاطرة، أى مخاطرة الارتقاء المشددة. فالعمل الخيرى مفروض باعتباره العلاقة الوحيدة مع الفقراء ووسيلتهم الوحيدة للنهوض الاجتماعى، بينما الشرطة هى المتراس الأخير. وليست هناك وسائل أخرى مسموح بها لإعادة توزيع ثمار التحرر.

يمحو هذا العمل المتسم بالتبعية للعالم الحضرى الجديد، المرتبط بالعصر الليبرالى ما قبل ١٩٥٢، فترة البناء الوطنى للتخطيط العام «الاشتراكى»، الحداثى، التكاملى. فمنذ ذلك الحين بات عصر الخمسينيات الثورى، القومى العربى، الذى شهد تضامن العالم الثالث، حين حصلت مصر على استقلالها. حتى السبعينيات يمثل فترة مظلمة تتميز بافتقارها الواضح إلى الأناقة، وركود عمارتها وبنيتها التحتية، وليس بمنجزاتها الاشتراكية. وتشير التشابهات مع المضاربات العقارية فى الزمن الجميل إلى أن المستثمرين الخاصين هم وحدهم، وليس الدول الثورية، القادرون على خلق المدينة وتمييزها على نحو دائم. غير أنه يجب القول بأن هذا التشابه لا يضفى الطابع الرومانسى على روح المشروع الحر الليبرالى الجديد أو بعض القيم الأخلاقية وأساليب الحياة النخبوية فحسب، بل إنه يعيد كذلك تشكيل أنماط الإنتاج. فالواقع أنه فى كلا العصرين النخبويين، فى ذلك الحين والآن، تقدم الحكومة إرثها العام. فهى تفتح مساحات شاسعة من الأراضى لتقسيمها بين حفنة من شركات التنمية العقارية الخاصة، بينما تشجع تدفق رأس المال من خلال بيع الأراضى.

إذن فالتشابه الحالى لا يتعلق بالأسلوب أو الواجهة أو نسق الصور الرمزية فحسب. فهو يشير إلى التحرر من الوهم فيما يتعلق بالتنمية العامة والحكومية والقومية، وكذلك مشروع التحديث السائد منذ عام ١٩٥٢.

هناك كذلك إحساس بتغير الأولويات فى الجو بصورة عامة. وهو يتطابق فى الأثر مع روح «الحوكمة الحضرية والشركاتية الصالحة» التى يروج لها البنك الدولى. فهل أمام الدولة المكيفة هيكليًا فى مصر بديل بالفعل؟ هل يجب عليها إعادة بناء تحالفها مع مستثمرى النخبة الكوزموبوليتانيين كى تظل قائمة؟

نقض التحرر السياسى

تمثل المجتمعات ذات البوابات النتيجة الاجتماعية السياسية للتحرر الاقتصادى الجديد. ففى هذه المجتمعات تتحقق الديمقراطية الخاصة. وبينما يقدَّر أن المؤسسات العامة لا يمكنها ضمان رفاهية الجماعة العامة والدفاع عنها، تتولى جماعة رصينة من الأشخاص ذوى العقليات المتشابهة بنفسها مسئولية إدارة حماية أسلوب حياتها. فجماعة سكان مدينة مينا جاردن ذات البوابات، على سبيل المثال، تدير الفضاءات المشتركة والإضاءة والطرق بأموال الصناديق المشتركة التى تضعها فى بورصة القاهرة.

يزدهر هذا النوع من الديمقراطية الخاصة فى مصر فى الوقت الذى نجد فيه أن الاستبعاد السياسى والقمع قد تكثف على المستوى الاجتماعى القومى.

يهدف تمسك النخب بالنموذج السياسى للمجتمع ذى الأسوار، وهو شكل من الانفصال الطوعى والتنظيم الذاتى الاستبعادى الذى يسرته الدولة والبورصة، إلى تشكيل وحدات مستقلة يمكن فيها العيش فى ديمقراطية تشاركية على نحو مباشر دون انتظار الديمقراطية الأساسية للبلد ككل، أو أثناء منع وصول تلك الديمقراطية. وتجيز مجتمعات النخب ذات الأبواب بناء الديمقراطيات الخاص حينما يكون التحرر الاقتصادى فى كل الأنحاء خارجها مصحوبًا بنقض التحرر. وتمتد خصخصة الإصلاح إلى خصخصة السياسة، مما يسرع إلى دوامة الاستبعاد، والحرمان من التصويت، والفقر، وهو الأمر الذى يؤدى إلى تجريد القوة العاملة، التى هى أحد الموارد الأساسية التى تملكها مصر فى السوق العالمية للسلع والخدمات، من حقوقها وقدرتها.

ومع أنه من الواضح أن حركة العيش فى الصحراء يحركها تصاعد المخاطرة الحضرية، فليس من الممكن فهم تلك الحركة على أنها مجرد تجنب للمخاطرة. فظاهرة المجتمعات ذات البوابات شكل ذو قيمة ثابتة يستثمر المكاسب غير المشتركة المتدفقة مباشرةً من عملية التحرر والخصخصة، ثم يثبتها فى تراتب كونى/محلى جديد. وهذه التوجيهات مكتوبة بالحجر والعقارات، نتيجة للثروة المستخرجة من الإرث العام ومن الأراضى العامة فى سياق التضخم، الذى انخفض مقارنة بثمانينيات القرن العشرين، ولكنه يتميز بانخفاض شديد فى قيمة العملة. ويتيح كبار أصحاب المصلحة العامين للفاعلين من القطاع الخاص الحصول على الأراضى والأملاك بينما يتحاشون تنافس السوق. ويشمل هؤلاء الفاعلون العامون وزارة الدفاع، والسكك الحديدية المصرية، ووزارة الإسكان والمجتمعات العمرانية، ووزارة الزراعة واستصلاح الأراضى، ووزارة الأوقاف، وشركات التأمين العام... إلخ.

ولكى نفهم هذه العملية بشكل أفضل، نتجه إلى مجال الجغرافيا البنائية ونظرية الاستيلاء، (théorie du rachat) التى صاغها ريبور (٢٠٠٠) اعتمادًا على كتاب ديماريه وريتشو (٢٠٠٠، ١٢١):

كثيرًا ما كان يُستعان بالأعراض الاكتئابية وتعكر المزاج الاكتئابى والقلق المثار الناتجة عن المناطق الحضرية المتسمة بالتركيز الصناعى (الظروف غير الصحية، والاضطراب الاجتماعى...) لتفسير رحيل السكان البورجوازيين، المشتركين فى مواقع التجمع المتجاور، إلى فيلات الضواحى أو إلى أملاكهم فى الريف. إلا أن تلك المبانى البعيدة الفخمة تدل على شىء آخر غير الهروب. فهى تميز اتساع الرقعة الحضرية، وتكسر تجانسها، وتكتسب قيمًا جديدة بفعل ديناميكيات الاستيلاء (rachat) التى تغذى النظام الاقتصادى.

يتم الاستيلاء على القيم الاجتماعية للعاصمة ويعاد تثبيتها، وبالتالى عكسها.

التفاوض على المظاهر

لا يعبر العيش فى الصحراء عن نفسه. كما ترمز الصحراء إلى كونها أرض الموتى. فهى تظل مرتبطة بالإزاحات المتعاقبة للجبانات وزيارة الموتى. وحينئذ فإن جعل الصحراء جذابة يفترض، من ناحية، أن هناك نفورًا شديدًا من العاصمة المكتظة بالسكان وأن تغيرًا مميزًا إلى حد كبير جدًا قد طرأ على تربة الصحراء. ويجرى إعادة التكوين الإيكولوجى فى توتر بين الرفض والجاذبية، وبين وصم الجماهير بالعار والمبالغة فى تقدير النخبة. والصحراء التى يجرى الترويج لها منذ أكثر من عشرين عامًا على أنها فضاء لإبعاد الصناعات الملوِّثة، والطبقة العاملة مع ظهور المدن الجديدة، ليست جنة عَدْن، كما أنها ليست المواقع المثالية لخلق اليوتوبيات الحديثة (مع أن إحدى المدن الجديدة ذات البوابات فى السادس من أكتوبر تسمى يوتوبيا). إن تغيير الإدراك يجرى تشكيله على نحو اجتماعى من خلال الخطاب الليبرالى الجديد الذى عرَّف الصحراء بأنها المنطقة البِكْر لإعادة تأسيس المجتمع المصرى.

بعد الاستقلال

مدينة المدن المغلقة!؟

أصبحت الصحراء ذلك الفضاء الذى يجرى غزوه وإعماره، ليس لأسباب تتعلق بتخفيف الكثافة والحفاظ على الأراضى الزراعية فحسب، بل كذلك، وقبل كل شىء، من أجل إنتاج عامل زراعى جديد وساكن حضرى جديد، أى رائداً حقيقياً للمجتمع الجديد (فانشيت ١٩٩٥). وتغييراً لهذه النظرة الثورية، تُقدَّم المجتمعات ذات البوابات على أنها وريثة المشروع القومى لغزو الصحراء. فالمستثمرون الخاصون، الذين حلوا محل الدولة، يعيدون بناء الأمة وفقًا لـلأساليب الليبرالية الجديدة. وبالإضافة إلى المروجين، الذين تعاملهم وسائل الإعلام على أنهم من المشاهير بسبب جهودهم لإعمار الصحراء وتخضيرها، قد يرى مشترو الفيلات فى المجتمعات المسورة أنفسهم رواداً يعملون من أجل توسيع الفضاء القابل للسكن، وبالتالى يعملون من أجل تقييم المصلحة العامة المتجسدة فى الأرض المصرية. ومن بين أوائل سكان المجتمعات ذات البوابات، هناك عدد لا بأس به من السادة-المزارعين الذين لديهم خبرة مباشرة فى تحسين الأراضى، مما سمح لهم بـ«ترويض الصحراء». وتسمح صورة الرائد الصناعى. البطل، الساكن على التخوم، المجدِّد. للمشترين والمروجين بتحويل الانتباه عن التملك الخاص، وشديد الاستبعاد فى أى الأحوال، للأراضى العامة، وبالتالى عن اختفاء الفضاء والموارد المحيطة بالعاصمة. وبذلك تتحول الرغبة فى التعبير عن الفرق الفردى، وعرض المرء لرأسماله، والمضاربة بدون القلق بشأن المجتمع أو النهوض القومى العام، إلى أرض الشجاعة الرائدة، ونوع من التجديد التنموى العقارى، وتظاهر بالشجاعة من جانب المستثمرين.

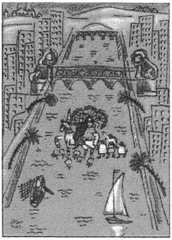
اعتباراً من تلك اللحظة، لم يعد يُنظر إلى العيش فى الصحراء على أنه رحيل إلى الهامش، بل باعتباره نقلاً لمركز المدينة وتركيزاً جديداً على أماكن الإبداع. ويعد هذا بمثابة عرض واضح لإعادة تركيز فضاءات القوة التى تصاحب إلى حد ما توسع المجتمعات ذات الأبواب.

يصاحب هجرة الفضاءات التجريبية هذه الخاصة بالمجتمع النموذجى وبـ«التحسينات الزراعية» إلى ضواحى الجديدة للقاهرة انتقال رمزى للقدرة على الإبداع من موظفى الدولة المدنيين إلى النخب والمستثمرين، ومن المجال العام إلى المجال الخاص، وهو ما يوضحه الاستبعاد المميز للنموذج.

تؤدى هذه الطريقة لرؤية التنمية العقارية على أنها ريادة إلى وضوح قصص النجاح الشخصى. وهى القصص التى كانت محجوبة فى قلب العاصمة وفى مفاهيم العام والقومى والاجتماعى. ففى المدينة تمحو هذا النجاحَ متطلباتُ الكثافة والقرب واللياقة التى يفرضها التعايش والتنوع الاجتماعى والتفاوت. وفى المدينة الشعبية، يجعل نقصُ الفضاءِ العرضَ المتباهى لـ«الإبداع» أو التميز الفردى مستحيلاً بدون مخاطرة الاحتكاك. وفى العاصمة القديمة، لابد من قصر مشاهد الفردية على الفضاءات الداخلية الخاصة وشبه الخاصة، كالفنادق السياحية الكبيرة ذات الخمس نجوم، من أجل التماشى مع معايير الحكمة المرتبطة بالفضاء العام الحديث فى قاهرة القرن العشرين.

وفى المقابل، تقدم الصحراء البُعد والمنظور. فالرقعة المتسعة من الأرض تدعم اتساع مجال الرؤية، وطقوس المدخل والممرات التى تجسد عظمة المساكن الجديدة: وبذلك تقام عتبات متعاقبة بين الخروج من التكتل والوصول إلى أبهاء أعمدة الفيلات وسلالمها. أولاً: هناك الانقطاع فى منظر الصحراء، الذى يعقبه المدخل الضخم للمدينة الجديدة، وأخيراً المرور خلال الأبواب المحروسة للمجتمع ذى البوابات.

تدعم أقلمة الصحراء عرض نجاح الفرد بعظمة وتباه. فعمارة الفيلات تعبر عن ذلك بوضوح من خلال النكوص إلى استعراض العلامات الكوزموبوليتانية متعددة الثقافات: حمام السباحة، والميدان، والأعمدة الكلاسيكية الجديدة، والمرج، وأشجار الصنوبر، والجراج. ويشير الجراج بدوره إلى امتلاك السيارة، التى ظلت زمناً طويلاً بمثابة نقل للفضاء الخاص إلى داخل الفضاء الحضرى المزدحم،



والموجِّه الوحيد الذى يعبر عن مكانة المرء ونجاحه بين الحشد الشعبى. فالمرسيدس فى القاهرة لها اسم شعبى شائع هو «الشبح»، وهو أمر مفهوم تماماً من مجموع الهيئة الاجتماعية. فهذا الاسم يعكس رؤية النخب على أنها بعيدة وتهدد بالخطر وزائلة. كما يطلق على المرسيدس اسم «عيون» أو «البودرة»، ويوحى الاسم الأخير بأن تجار الهيروين وحدهم القادرون على شرائها.

يمكِن نقل مشهد التميز النخبوى من شارع المدينة إلى المدينة الصحراوية ذات البوابات المغلقة والمشهد بالطريقة نفسها التى يمكن بها الهجرة إلى المنتجعات الصيفية على ساحل البحر المتوسط، أو قيادة المرسيدس ذات الزجاج الفيميه فى زحام المرور وسط المدينة. فمن خلال الاتصال المزدوج، يجب على المرء فهم تمسك النخب ببرنامج المجتمعات ذات البوابات؛ فهى تصل إلى هذا الفضاء لأن لديها تلك السيارات، وفى المقابل، تسمح لها المسافة بالتمتع بسلطة تلك السيارات. وقد أصبح العيش فى الصحراء البعيدة ترفاً، بينما كان يُنظر من قبل إلى المدن الجديدة على أنها عبء، حيث كان العمال الفقراء والمواطنون العاديون يقومون برحلات طويلة بالأتوبيس للوصول إلى وظائفهم بالمصانع.

يقودنا التباهى إلى ازدواجية نموذج المجتمعات ذات البوابات، التى من الواضح أنها تُباع بناءً على فكرة الحماية والأمن. ورغم ذلك، فإنه على خلاف العمارة المحصنة لفيلات جنوب إفريقيا أو مجمعات أمريكا اللاتينية، نجد أن الدفاعات هنا ذات شكل خارجى له دلالته. فمن المؤكد أن المستوطنات مغلقة، ولكن أسوارها تبدو هشة إلى أقصى حد، ومنخفضة بعض الشىء، ومفتوحة على نحو كبير، وذات سياج حديدى يسمح برؤية فخامة الفيلات من الخارج. ويشترى المشترى مسكناً محمياً ذا مخطط يخلق إحساساً بالبعد، وبالترشيح والتصفية؛ ولكنه يرغب فى الوقت نفسه بأن يُرى. ولأن شكل الأمن المرتبط بترويج المجتمعات ذات البوابات مكشوف على هذا النحو، فهو يعبر عن هشاشتها. ويؤكد الإغلاق الطابع المتشدد للانقطاع الاجتماعى ويشير بوضوح إلى رغبة المروجين، شأنهم فى ذلك شأن المشترين، فى فصل أنفسهم طواعيةً عن الجماهير الباقية خلفهم فى مناطق المدينة كثيفة السكان. ولكن النموذج يبدو معرضاً للخطر إلى أقصى حد. فهو يستجيب لمطالب التميز والإظهار، ولكنه يؤكد فى الوقت ذاته عدم الأمان بدلاً من أن يحمى منه. وهو ينتج المخاطرة فى مدينة تظل شديدة الثقة بنفسها إلى أقصى حد.

تقاطعات المخاطر

الليبرالية الجديدة

تتشكل ظاهرة المجتمع ذى البوابات عند تقاطع نوعين من المقولات المبررة أو المشرعنة. فالجغرافيا الاستبعادية الجديدة للقاهرة الليبرالية الجديدة تمثل من ناحية واجهة عالمية لنوع بعينه من التحرر، وهو ذلك النوع الذى يثير المديح والتأييد من خارج مصر، مثلما باركت صحيفة «وول ستريت جورنال» فى عام ١٩٩٧ المشروعات الجديدة تحت عنوان «إلى أى مدى وصلت مصر» («وول ستريت جورنال»، ١٤ أبريل، ١٩٩٧). ومن ناحية أخرى، تفرض جغرافيا المدينة ذات البوابات إعادة تعريف المخاطر. فما تسمى بالنهضة العمرانية تبرر وتشهد على أداتية سياسة التحرر وعلى التفويض الجديد للقدرات الذى سوف يعيد تشكيل مصر من أجل رجال الأعمال المتعددين للقوميات. بل إنه لابد من تبرير هذه التطورات من خلال تأويل المخاطر المقابلة للمبادئ العامة التى ترتبط بأسلوب الحياة الخاص بعيش الإنسان على نحو منفصل بين طبقته وعشائره، داخل تجمعات صغيرة محمية ومدعمة وتدار إدارةً ذاتيةً «بشكل ديمقراطى». ويبلور هذا النمط الناشئ للتقسيم المنطق الحقيقى للإصلاحات الليبرالية الحالية، التى تزيد باستمرار من صلابة المشهد الاجتماعى فى مواجهة العديد من التأثيرات المضادة والبدائل والمقاومات.

اعتبارًا من تلك اللحظة، لم يعد يُنظر إلى العيش فى الصحراء على أنه رحيل إلى الهامش، بل باعتباره نقلاً لمركز المدينة وتركيزًا جديدًا على أماكن الإبداع. ويعد هذا بمثابة عرض واضح لإعادة تركيز فضاءات القوة التى تصاحب إلى حد ما توسع المجتمعات ذات الأبواب

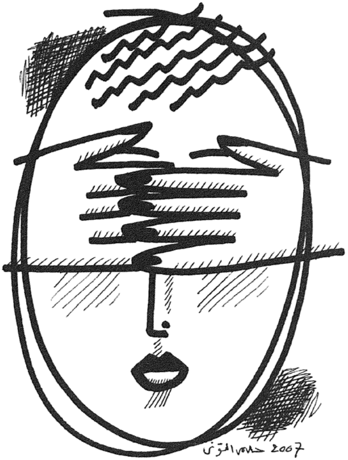
اللحظات والنماذج والكلية

من منظور الدراسات الحضرية، هل من المقبول فى هذا السياق تعريف مدينة اليوم، تلك المدينة المعولمة الكبيرة جدًا بصفة خاصة، بأنها توليفة من العناصر المختلطة، ومن التنوع، ومن الكثافة المؤيدة للنزعة الكوزموبوليتانية والإبداع؟

لابد لنا من توفيق هذا التعريف مع الحقائق الجديدة، التى لا تقل كلية، التى تقول إن موضوع السياسات الحضرية الجديدة هو الكفاح ضد توليفات العناصر غير المتوافقة، والقضاء على التنوع، وتجريم الكثافة والاختلاط والقرب. وهذه السياسات تفصل وتنشئ تراتبًا يتجاوز كثيرًا ذلك التراتب الذى يتطلبه المنظور الوظيفى البسيط. ونموذج المدينة الكونية الكوزموبوليتانية الأوروبية. وهو بلا شك خرافى ونخبوى ومركزى النزعة فى حد ذاته. فهو ليس «نموذجًا مثاليًا» مفيدًا فى الوقت الراهن، كما أنه ليس نقطة مفيدة للمقارنة. وربما كانت مدن المستوطنين الاستعمارية الأمريكية والديستوبيات ما بعد الصناعية نقاط مقارنة أكثر لفتًا للانتباه. أو ربما كانت القاهرة مدينة «تعرض» الموضات الليبرالية الجديدة بطريقة «مثالية» بالمعنى العالمى على نحو يتسم بالتناقض والإزعاج.

تُعَرِّض المجتمعات المصرية ذات الأبواب باعتبارها الشكل المطلق للمخاطرة. ومع ذلك فهى تولِّد بوجودها نفسه الكثير من أشكال المخاطرة الاجتماعية، والهشاشة، وقابلية التعرض للخطر التى يمكن أن تَحول دونها كل المتاريس المادية والخطابية الخاصة بالجغرافيا الليبرالية الجديدة والإسكان الفاخر. والواقع أن المجتمعات المسورة تدرك الهشاشة القومية وتنتج المخاطرة الاجتماعية المعممة التى تدعى ضمانها.

إذا حدث أن المجتمعات ذات الأبواب قدمت صورة عن مصر فى الفترة من ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٠، فليس مستغربًا إذن أنها تكمن فى قلب الأزمة المالية التى أعقبت عام ٢٠٠٠ فى مصر. فمن الواضح أن الرسملة الضخمة التى كانت لازمة للإنشاء المدعَّم الاستبعادى لتلك المناطق الصحراوية كانت أحد الأسباب الرئيسية لأزمة السيولة وانفجار فقاعة البناء التى أدت إلى انهيار أسعار العقارات وانهيار الاقتصاد القومى بصورة عامة. وظهر نموذج التنمية العقارية النخبوى فى وسط الأزمة القومية. وربما بات معادلاً للمخاطرة ذاتها. وينعكس انخفاض قيمة استثمارات المضاربة فى المجتمعات ذات البوابات، التى يدعمها بصورة كبيرة الكثير من البنوك الخاصة والعامة. ومن المؤكد، كما يبين تيموثى ميتشل، أنه من المهم رؤية الرأسمالية وهى تعمل، باعتبارها تحويلاً للأرباح والقروض ناحية أكثر الرغبات غير منطقية، التى اتخذت فى سنوات الانتعاش شكلاً عبارة عن أرض وحجر، محولة الصحراء إلى مكان قابل للسكنى (٢٠٠٢). وانفجرت الفقاعة. وانهار الاقتصاد المصرى بعد عام ٢٠٠٠ (قبل أن يبدأ فى التحسن من عام ٢٠٠٤). ولكن المدينة الكولونيالية الجديدة الليبرالية الجديدة، التى تعد تجسيدًا للمخاطرة والنزعة الاستبعادية، اتخذت بالفعل شكلاً لتشغل العالم الاجتماعى وتقيده وتعيد تشكيله. لقد تغيرت القاهرة تغيرًا جذريًا. ■



حرية المعلومات الفريضة الغائبة

جمال محمد غيطاس

■■ فى ليلة رمضانية عام ٢٠٠١ دعيت لحضور لقاء يضم حشدا من رؤساء شركات تكنولوجيا المعلومات والبرمجيات والاتصالات سيتحدث فيه الدكتور أحمد نظيف وزير الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات . فى ذلك الوقت . حول الخطط والمشروعات الحالية والمستقبلية فى مجال تكنولوجيا المعلومات بالبلاد، حضرت اللقاء واستمعت لحديث الوزير، وحينما فتح الباب للمناقشة وقف أحد الحاضرين طالبا من الوزير أن تبذل الوزارة جهدا فى إلغاء بعض الضرائب المفروضة على صناعة البرمجيات ومعاملتها معاملة الإنتاج الذهنى المطبق على مؤلفى الكتب والأغانى الذى يمنح تسهيلات كبيرة، فرد الوزير إنه أعد مذكرة بهذا الشأن لوزير المالية ومصلحة الضرائب، لكن أحد رؤساء الشركات ذكر أنه حصل فعليا ومنذ فترة على فتويين من مصلحة الجمارك بأن البرمجيات إنتاج ذهنى معفى من بعض الضرائب.

توقفت كثيرا أمام إجابة الوزير ورد رئيس الشركة .. فهذا الحوار القصير أشار بوضوح إلى أن حركة تبادل المعلومات بين الأطراف الثلاثة . مصلحة الضرائب ووزارة الاتصالات والشركة التى حصلت على الفتويين . لم تسمح بوصول المعلومة إلى ثلاثتهم بشكل صحيح وفى الوقت المناسب، فالضرائب أصدرت الفتوى ونسيت، والشركة حصلت عليها ولم تبلغ وزارة الاتصالات وأخواتها من الشركات، ووزارة الاتصالات لم تتابع، بدليل أنها لا تزال فى بداية مشوار إلغاء الضريبة.

والسؤال: ماذا كان سيحدث لو أن معلومة الفتويين انتقلت منذ صدورها للوزارة وللشركات التى لا تكف عن طلب العون؟

أضعف الإيمان أن الوزير كان قد استثمر الجهد السابق فى تحقيق خطوة للأمام فى هذا الموضوع بدلا من أن يبدأ من الصفر.

وفى اللقاء نفسه طلب أحد مسئولى اتحاد الصناعات المصرية أن تتبنى الوزارة قضية المعلومات فى قطاع الصناعة، لأنه لا توجد معلومات يعتمد عليها حول هذا القطاع، وكان رد الوزير أنه ليس وزيرا للمعلومات ولكن وزيرا للاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، ومن ثم فليس وحده المسئول عن المعلومات.

تقودنا هاتان الواقعتان السريعتان إلى واحدة من أخطر القضايا المتعلقة بالتنمية المعلوماتية والتى تعتبر (فريضة غائبة) ألا وهى (حرية المعلومات) أو حرية الوصول إلى المعلومات وتداولها، والصعوبة البالغة والقيود والعقبات المتعددة التى تقف فى وجه تداولها وتدفق المعلومات وانسيابها ما بين الأطراف المعنية بها داخل المجتمع.

ولكى أقترب قليلا من هذه النقطة، ناقشتها مرارا مع الدكتور أحمد الحفناوى .الأستاذ بهندسة القاهرة وخبير تكنولوجيا المعلومات، وفى ضوء هذه المناقشات يمكننى القول إن العلاقة بين القيود أو العوائق التى تعترض انسياب وتدفق المعلومات من ناحية، وبين مشروع النهوض بتكنولوجيا المعلومات من ناحية أخرى، تعود إلى أن تكنولوجيا المعلومات هى الأدوات أو الأوعية التى يمكن من خلالها جمع وتخزين ومعالجة وتحليل وإدارة المعلومات وتنظيمها وتدويرها بين الجهات التى تطلبها، أما المعلومات فهى المحتوى الذى تملأ به هذه الأدوات والأوعية، ومسئوليتها تتقاسمها الجهات المنتجة والمستهلكة للمعلومات، ما بين هيئات سيادية ووزارات وهيئات عامة وخاصة وغيرها.

بعبارة أخرى.. تشبه تكنولوجيا المعلومات السلاح الذى يطلق الرصاص بسرعة صوب هدف محدد، أما المعلومات فهى الرصاصة أو الذخيرة نفسها، التى لابد أن يملأ بها السلاح كى يعمل ويستفاد منه.

بل يمكننا تناول القضية بشكل آخر فمثلا: ما الذى يمكن أن نجنيه من وراء انشاء طرقة سريعة عالية الكفاءة لا يمر عليها أحد؟ أو مخازن ضخمة لا تدخلها بضائع؟ أو أراض مستصلحة لا يزرع فيها شىء؟

هكذا الحال فى قطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فنحن لن نجنى شيئا من إنشاء شبكات معلومات بينما لا توجد معلومات تدور بداخلها، ولن نحقق الكثير لو نشرنا الإنترنت فى كل مكان، ثم لا نوفر للمواطنين معلومات ذات قيمة على الشبكة تحقق لهم فوائد ومصالح مباشرة، ولن نحدث توظيفا فعالا لتكنولوجيا المعلومات فى خدمة قضايا المجتمع المختلفة ما لم تكن قطاعات ووحدات المجتمع المختلفة منفتحة على بعضها البعض، وتقبل بأن تتبادل فيما بينها المعلومات الضرورية بحرية وسلاسة وشفافية ووضوح.

ولذلك فإنه حينما لا تتوافر البيئة المجتمعية والقانونية والاقتصادية التى تسمح بالتدفق السريع والسهل للمعلومات، ولا يتوافر الوعى الكافى بأهمية المعلومات وكيفية التعامل معها وإدارتها، ستصاب جميع مشروعات تكنولوجيا المعلومات بالضمور والهزال فى النتائج، وتتحول مع الوقت إلى بنادق فارغة من الطلقات، حتى لو كانت محتوية

حينما لا تتوافر البيئة المجتمعية والقانونية والاقتصادية التى تسمح بالتدفق السريع والسهل للمعلومات، ولا يتوافر الوعى الكافى بأهمية المعلومات وكيفية التعامل معها وإدارتها، ستصاب جميع مشروعات تكنولوجيا المعلومات بالضمور والهزال فى النتائج.

على قواعد بيانات عملاقة، وشبكات معلومات مترامية الأطراف، وبرمجيات (آخر موضة)، ولو وجدت هذه البيئة المواتية، ستظهر فوائد المشروعات المختلفة القائمة على تكنولوجيا المعلومات، بما يشيع جوا من الثقة فى هذه التكنولوجيا لدى المجتمع وصانع القرار، فتحصل الصناعات المتعلقة بالمعلوماتية . من برمجيات ونظم وشبكات وغيرها . على مكانة أعلى، وتتعزز أهميتها النسبية لدى المجتمع بمختلف طبقاته وأجياله، فتحدث زيادة فى الطلب على منتجاتها وخدماتها، وتتحرك الأمور للأمام.

اهـتـمـام دولـى

وعلى المستوى الدولى تحظى قضية حرية الوصول للمعلومات وتداولها باهتمام بالغ، وقد تجلى ذلك بصورة واضحة خلال فعاليات القمة العالمية لمجتمع المعلومات بدورتيها (جنيف ٢٠٠٣ وتونس ٢٠٠٥)، حيث أكدت وثائق القمة وقراراتها وفعالياتها على أن معادلة (الخبز والحرية) التى يطلب من جميع الدول دائما الاجتهاد فى توفيرهما معا لمواطنيها قد تغيرت الآن، إذ أصبح على الجميع مراعاة أن الأمر بات معادلة ثلاثية وليس ثنائية الأطراف، ففى مجتمع المعلومات العصرى لم يعد مطلوبا من الدول أن توفر لمواطنيها الخبز والحرية فقط، بل لابد أن يكون معهما المعلومة والبيان والحاسب وشبكة المعلومات، لأنه بدون هذا الطرف الثالث الجديد سيكون من الصعب . وربما من المستحيل . توفير الخبز أو الحرية.

وقد كان من السهل أن نلمس هذه الرسالة فى إعلان المبادئ الصادر عن دورة جنيف ومقررات قمة تونس، فمبدأ حرية الوصول للمعلومات والحصول عليها وتداولها ظهر كروح عامة تسرى فى القسم الأكبر من بنود الإعلان، فمنذ السطور الأولى تعبر بنود الإعلان عن هذا المبدأ بصيغ وكلمات متنوعة، فتارة تعبر عن حرية الحصول على المعلومات (بالنفاذ الى المعلومات) وتارة أخرى تتحدث مباشرة عن حرية الحصول على المعلومات ونشرها، وفى مواضع ثالثة تربط بين حرية المعلومات والحريات العامة والديمقراطية وأساليب الحكم، ثم تعود فى مواقع رابعة وتقرن حرية الحصول على المعلومات وتداولها بقضايا المحتوى المحلى والتنوع الثقافى وحماية حقوق الفئات المهمشة وغيرها.

فالبند الأول من إعلان المبادئ يتحدث عن الرؤية المشتركة عالميا لمجتمع المعلومات قائلا: (مجتمع المعلومات يرتكز على الناس ويستطيع كل فرد فيه أن يخلق المعلومات والمعارف وأن ينفذ إليها وأن يستخدمها ويتقاسمها)، والمعنى هنا أن ركيزة مجتمع المعلومات هى أن يكون الفرد حرا فى أن يولد ويستخدم ويتقاسم المعلومات، ثم يأتى البند الثانى من الإعلان مؤكدا المعنى نفسه مرة أخرى قائلا: (يقوم مجتمع المعلومات الذى ننشده على المبادئ المنصوص عليها فى ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وأن يكون قادراً على تحقيق النفاذ الشامل إلى المعلومات واستخدامها فى خلق المعارف وتجميعها ونشرها) وهنا يستخدم كلمة (النفاذ الشامل) بمعنى حرية الوصول للمعلومات والحصول عليها.

وفى البند الرابع من الإعلان ترتفع درجة وضوح هذه الروح بشكل كبير لتجعله من أكثر البنود صراحة فى الربط بين حرية الحصول على المعلومات وتداولها وبين إنشاء مجتمع المعلومات نفسه، حيث يعتبر أن مبدأ الحرية والحق فى الحصول على المعلومات هو الفرضية المنطقية الضرورية التى يقوم عليها مجتمع المعلومات، ويقول نص هذا البند (إن حرية التعبير وحرية الرأى، والحق فى استقاء المعلومات والأفكار وتلقيها ونشرها بغض النظر عن الحدود الجغرافية على النحو المكرس فى المادة ١٩ والمادة ٢٩ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان هى الفرضية المنطقية الضرورية التى يقوم عليها مجتمع المعلومات).

ويخصص الإعلان أكثر من بند للحديث عما يمكن تسميته بنطاق أو ميدان المعلومات العام، والذى يتعين توافره فى كل مجتمع على حدة وما بين المجتمعات وبعضها البعض، كأساس جوهرى من أسس مجتمع المعلومات، ونطاق المعلومات العام يقصد به المعلومات المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والتجارية والعلمية والتعليمية فى أى دولة، والتى يجد المواطن نفسه محتاجا إليها لا محالة، وهو يبيع ويشترى ويتعلم ويستثمر .. الخ، ويستهدف نطاق المعلومات العام تحرير البيئة القانونية والإدارية الحاكمة لتداول المعلومات، لتسمح بتدفق حر وسريع لهذه المعلومات فى الاتجاهات المختلفة، ويتعامل الإعلان مع نطاق المعلومات العام باعتباره شيئا حيويا بالنسبة للبحث والتعليم والابتكار وللتنمية الوطنية، وللحفاظ على التنوع الثقافى.

ويتناول البندان ٢٠ و٢١ قضية ميدان المعلومات العام المتاح، فيذكر البند ٢٠ أنه (يمكن تعزيز تقاسم المعارف العالمية لأغراض التنمية وتدعيمها بواسطة إزالة الحواجز التى تعترض النفاذ المنصف إلى المعلومات لأغراض الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والتعليمية والعلمية ومن خلال تيسير النفاذ إلى معلومات الميدان العام) بينما يذكر البند ٢١ إن وجود نطاق معلومات عام يتسم بالثراء يعد من العناصر الجوهرية لنمو مجتمع المعلومات وتحقيق منافع متعددة مثل الجمهور المتعلم، وفرص العمل الجديدة، والابتكار وفرص التجارة وتقدم العلوم. وينبغى أن تتسم المعلومات الموجودة فى الميدان العام بسهولة النفاذ إليها لدعم مجتمع المعلومات، وينبغى تدعيم المؤسسات العامة مثل المكتبات والمحفوظات والمتاحف والمجموعات الثقافية وغيرها من نقاط النفاذ القائمة على المجتمعات المحلية، للنهوض بصيانة السجلات الوثائقية والنفاذ الحر والمنصف إلى المعلومات.

ويطالب البند ٢٣ بتشجيع الوصول بحرية للبحوث والمعارف العلمية ونتائجها، ونشرها على نطاق واسع دون قيود وبإنصاف، ويرى أن مؤلفى المحتوى وناشريه ومنتجين وكذلك المدرسون والمدربون وأمناء المحفوظات وأمناء المكتبات والدارسون بدور نشط فى تعزيز مجتمع المعلومات، ولاسيما فى أقل البلدان نمواً، من خلال إتاحة الوصول بحرية لهذا المحتوى.

وتناول الإعلان بعض القضايا الخلافية مثل استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى الأغراض التى لا تتسق مع الأهداف المتعلقة بصون الاستقرار والأمن الدوليين، وقد تؤثر بشكل معاكس على تكامل البنية التحتية داخل الدول، لكن البند الذى تناول هذه القضية كان واضحا فى التأكيد على أن إجراءات منع استعمال موارد المعلومات والتكنولوجيات فى أغراض إجرامية وإرهابية يجب أن تتم بشكل يتسق مع الحاجة إلى المحافظة على حرية تدفق المعلومات ووفقاً للنظام القانونى لكل بلد.

وفى البند ٤٦ يعاود الإعلان التركيز من جديد وبشدة على مبدأ حرية الوصول للمعلومات والحصول عليها، قائلا: (لا بد لأى مفهوم لمجتمع المعلومات من وجود وسائط مستقلة وتعددية وحرة وفق النظام القانونى لكل بلد على أساس الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وخاصة منه المادتين ١٩ و٢٩، وينبغى أن يتاح للأفراد ووسائط الإعلام النفاذ إلى المعلومات المتاحة، فمن المبادئ المهمة لمجتمع المعلومات حرية النفاذ إلى المعلومات واستعمالها، من أجل إقامة المعرفة وتراكمها ونشرها، وينبغى تشجيع تعددية وسائط الإعلام وتنوع ملكيتها).

وفى بداية عام ٢٠٠٢ أصدرت منظمة اليونسكو تقريرا حول خدمات تطبيقات الإنترنت فى الدول النامية، وأشارت فيه إلى ما يسمى بنطاق المعلومات العام، ويقصد به تلك المعلومات المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والتجارية والعلمية والتعليمية فى أى دولة، والتى يجد المواطن نفسه محتاجا إليها لا محالة، وهو يبيع ويشترى ويتعلم ويستثمر .. الخ، ويستهدف نطاق المعلومات العام تحرير البيئة القانونية والإدارية الحاكمة لتداول المعلومات، لتسمح بتدفق حر وسريع للمعلومات فى الاتجاهات المختلفة، ورأى التقرير أن نطاق المعلومات العام حيوى بالنسبة للبحث والتعليم والابتكار وللتنمية الوطنية، وللحفاظ على التنوع الثقافى، وهو أيضا مكون حيوى لمجتمع معلومات عالمى قائم على المشاركة، وحيوى للغاية أيضا عند تطوير خدمات وتطبيقات الإنترنت التى تخدم التنمية فى المجتمعات المحلية، لكون هذه المعلومات هى العماد الأساسى لأى خدمة تحقق مصالح مباشرة وحيوية للمواطن فى تعاملاته اليومية.

ويقول التقرير إن السلطات العامة على كل المستويات تعتبر أكبر المصادر المهمة لمعلومات النطاق العام، ولذلك يقع على عاتقها مسئوليات تجاه المواطنين تتمثل فى: تحديد المصادر القائمة لنطاق المعلومات العام، والحفاظ عليها وتوسيع وتحسين مستوى مصادر المعرفة والمعلومات المتاحة للجماهير، من خلال تشجيع تحولها إلى العصر الرقمى، والترويج والعمل على تكوين وصول عادل ومنصف لهذه المعلومات من قبل الجميع، وبشكل خاص من خلال الإنترنت.

وركز التقرير على أن وجود نطاق المعلومات العام يعد مهما للغاية لكى تقوم شركات الإنترنت والعاملون فى هذا المجال من المتخصصين ببناء محتوى محلى من المعلومات على الشبكة، يرتبط ارتباطا وثيقا بالمستخدمين، وقال التقرير إن تهيئة المحتوى والتطبيقات للاستجابة للاحتياجات المحلية بواسطة المؤسسات أو الكيانات المحلية تعتبر مقياسا حيويا فى نجاح توظيف الإنترنت فى عملية التنمية، وأنه فى العديد

من الدول النامية تحتل الجهود الخاصة بتوليد محتوى محلى على الشبكة مرتبة ثانية أو ثالثة فيما يتعلق بصناعة الاتصالات والمعلومات عموما، فى حين أن ذلك واحد من أهم المبادئ فى عملية تنمية مجتمع معلوماتى منصف وعادل، يشمل كل اللغات والخصوصيات الثقافية.

المستوى المحلى

الحاصل فعليا أن هناك قيودا قوية تعوق تدفق المعلومات بحرية فيما بين وحدات المجتمع المختلفة، ومنها مثلا المادة العاشرة من القرار الجمهورى رقم ٢٩١٥ لسنة ١٩٦٤ التى تنص على أنه (لا يجوز لأية وزارة أو هيئة أو جهة أو فرد أو أفراد بالحكومة والقطاع العام أو الخاص، أن ينشر بأى وسيلة من وسائل النشر أو الإعلام أى مطبوعات أو نتائج أو بيانات أو معلومات إلا من واقع إحصاءات الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، والإحصاءات غير المقررة ضمن برامج الجهاز لا يجوز نشرها إلا بموافقة الجهاز).

وعمليا تشكل هذه المادة قيدا كبيرا على جمع ومعالجة وإعادة تدوير المعلومات ضمن الوحدات المختلفة المكونة للاقتصاد المصرى، وبسببها أصبح لزاما على الشركات التى تريد معلومات حقيقية عن أوضاع السوق المصرية أن تحصل على سلسلة من الموافقات قبل بدء إجراء دراسات السوق، ثم نشر الموافقة بالجريدة الرسمية، مما يستغرق أسابيع وربما شهورا، والمدهش ان تجد فى الجريدة الرسمية المصرية قرارات رسمية تستغرق صفحات من الجريدة وهى تتحدث عن موافقة صدرت لإحدى الشركات بدراسة سوق حفاظات الأطفال بمصر.

ولا شك أن سير الأمور على هذا النحو يتناقض كلية مع متطلبات النهوض بصناعة تكنولوجيا المعلومات، التى تقوم بالأساس على نقل المعلومات، إذ كيف نتحدث عن بناء قواعد بيانات، وإنشاء شركات تعمل فى مجال خدمات المعلومات، بينما قيود من هذا النوع مفروضة على حركة وتدفق المعلومات؟

إن الواقع العملى يمدنا بالكثير من الأمثلة والمواقف الدالة على عمق هذا البعد فى التنمية المعلوماتية، ومنه الواقعة التالية التى قالها لى الدكتور الحفناوى:

فى يوم من أيام عام ٩٦ . أى قبل ١١ سنة من الآن . وصلت مجموعة من المصريين إلى مطار هونج كونج، وأثناء فحص الجوازات طلب الضابط المسئول من المسافرين الذين وصلوا توا ملء استمارة بيانات تحوى بندا خاصا بالغرض من الزيارة، و بسرعة شديدة كتبت مجموعة المسافرين أن الغرض استطلاع سوق مكونات الحاسبات والتعرف على شركات أو موردين يمكن التعامل معهم، وبعد حوالى ساعة كانوا أمام موظف الاستقبال فى الفندق الذى قرروا الإقامة به، وكانت المفاجأة أن بانتظارهم قائمة بأسماء وعناوين جميع الشركات والموردين العاملين داخل البلاد فى مجال مكونات الحاسبات، الأكثر من ذلك أن ما يزيد على ٢٠ شخصا من هذه الشركات اتصل بالفندق بالفعل طالبا تحديد موعد مع المجموعة لعرض ما لديه من منتجات والتفاوض حول تصديرها .



فى مجتمع المعلومات العصرى لم يعد مطلوبا من الدول أن توفر لمواطنيها الخبز والحرية فقط، بل لابد أن يكون معهما المعلومة والبيان والحاسب وشبكة المعلومات

هذه الواقعة تجعلنا نتساءل: كيف طارت معلومة وصول المجموعة ومقر إقامتها وهدفها من الزيارة من المطار، ثم مرت بالعديد من الجهات، ثم جرى التعامل معها واستثمارها بهذه السرعة الرهيبة وتحويلها إلى إجابات عن أسئلة لم يبدأ أصحابها طرحها بعد، ثم تقديمها فى مكانها وتوقيتها الصحيح؟

الأمر ببساطة أن هناك نظاما مستقرا وعالى الكفاءة لتدوير المعلومات داخل هونج كونج، يجعلها تتدفق فى اتجاهاتها المناسبة فى الأوقات المناسبة، لتحقيق أقصى قدر من الكفاءة والسهولة والسرعة فى العمل، ويعتبر النظام حجر الزاوية فى التقدم والتميز الذى حققته هونج كونج، ويرتكز على سلسلة من قواعد البيانات وشبكات المعلومات والاتصالات المرتبطة ببعضها البعض، والمفتوحة على بعضها البعض، أى يقع سره بالكامل فى قلب قطاع الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات هناك.

فالمتصور فى هذه الواقعة أن المعلومة انتقلت من الورقة إلى قاعدة بيانات الجوازات فى المطار، ونقلت على الفور إلى قاعدة بيانات أخرى تتابع اتجاهات ورغبات الواصلين إلى البلاد، وتعاملت معها آليا، وقامت بتوزيعها قاعدة بيانات أو شبكة معلومات أخرى خاصة بالقطاع المعنى بالزيارة، وبدورها قامت شبكة القطاع بتوزيع المعلومة على كل العاملين به، ليبادروا بالاتصال بالمجموعة، وفى الوقت نفسه أرسلت قائمة المعلومات إلى الفندق ليختاروا منها .

هذا النظام ليس أجهزة وبرامج وآلات، ولكنه قبل كل شىء بيئة مفتوحة تتداول فيها المعلومات بحرية وشفافية، وتديرها عقول لديها مفاهيم وتصورات وأفكار وأساليب تحمل قدرا عاليا وعصريا من الوعى بأهمية المعلومات وكيفية التعامل معها، وضرورة توفيرها وإتاحتها لمن يحتاج إليها فى الوقت المناسب بدقة عالية .

وهذا المثال يكشف لنا كيف أمكن لهذه المدينة أن توفر خدمات فعالة وعصرية لمواطنيها وزوارها، وتوفر أيضا فرصا واسعة للنمو والتطوير والبحث والإضافة أمام شركات تكنولوجيا المعلومات، وذلك كله بالاعتماد على نظام معلومات عملاق، يستمد قوته الحقيقية من البيئة المفتوحة لتداول المعلومات، والمشاركة الفعالة من قبل سلسلة من شركات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، سواء التى عملت فى تطوير البرامج والتطبيقات أو التى أسهمت فى إقامة قواعد البيانات، أو بناء شبكات الاتصالات والمعلومات.

وأهم ما فى هذا المثال أنه أوجد إحساسا حقيقيا وملموسا بأهمية وجدوى صناعة تكنولوجيا المعلومات للمجتمع ككل، وهكذا ينظر الآخرون إلى هذا القطاع ويدخلونه ملعب التنمية، ليخدم خطط التطوير والتحديث فى المجتمع.

ترى لو سارت الأمور بالعكس وجاء وفد من هونج كونج بغرض استيراد شحنة من البطاطس المصرية.. ما الذى كان سيحدث له كى يصل إلى الجهة المسئولة عن الإنتاج أو التصدير؟

أغلب الظن أنه كان سينفق نصف اليوم كى يصل إلى الفندق الذى سينزل به، ثم يبدأ رحلة كعب داير قبل أن يعرف اسم منتج أو مصدر واحد، بينما صناعة تكنولوجيا المعلومات فى واد آخر .. لماذا؟

لأن التعامل مع المعلومات من هذا النوع وسرعة دورانها فى مصر أقل كثيرا مما تتطلبه ظروف وتحديات العصر، وما تقتضيه حركة الأحداث والتفاعل اليومى بالمجالات المختلفة.

لنا أن نتصور حجم فرص العمل، والتطبيقات والبرامج المطلوبة لتنفيذ مشروع ضخم يصمم لميكنة وفهرسة جميع اتفاقيات التبادل التجارى بين مصر ودول العالم منذ الخمسينيات وحتى الآن فى قاعدة بيانات حكومية أو تجارية خاصة مثلا، وكم من الخبرات يمكن بناؤها حول هذا المشروع، وكم من الخدمات يمكن أن يقدمها للمستثمرين ورجال الأعمال، ولصانعى القرار فى الحكومة، إذا ما قام هذا المشروع ب:

. إتاحة المعلومة .. بمعنى توفيرها فى توقيت يتناسب مع الاحتياج الزمنى لها، فمعلومة تتعلق مثلا بطبيعة سوق الزيوت فى مصر تصبح غير مفيدة لشخص يطلبها فيحصل عليها بعد عدة شهور تكون خريطة السوق قد تغيرت خلالها، ومن ثم يصبح من الخطأ الاعتماد على مثل هذه المعلومة فى اتخاذ اى قرار .

. دقة المعلومة .. أى تكون المعلومات والبيانات التى تقدمها هذه الجهات على درجة عالية من الدقة وتخاطب الاحتياجات الحقيقية، فمثلا النظام المتبع حاليا فى الجمارك المصرية يستخدم ما يطلق عليه الكود المتجانس، وبالتالى تأتى المعلومات التى توفرها الجمارك عن حركة البضائع بالأسواق دون المستوى الذى تتيحه نظم التكويد الموحدة و المطبقة فى دول أخرى، والتى تساعد أكثر فى متابعة حركة أى بضائع سواء على مستوى الشركات أو المستوى القومى .

. شمولية المعلومة .. بمعنى أن تغطى المعلومة جميع أوجه النشاط الذى تتعلق به قدر الإمكان، فمثلا القرارات الخاصة بمنتج معين تتطلب معرفة حجم الأسواق للاحتياجات المختلفة من هذا المنتج سواء منزليا أو تجاريا أو تصنيعيا، ويتطلب ذلك مطابقة البيانات من مصادر مختلفة سواء من جهة المصنع أو المستورد أو مقدم الخدمة أو الموزعين أو المستهلك.

. وسيلة توفير المعلومة وسعرها، حيث يجب أن تستخدم وسائل متطورة تساعد على توفير المعلومة المناسبة فقط، وبسعر معقول لطالبها .

هذا المثال المتعلق باتفاقيات التبادل التجارى يمكن تكراره بشكل أو بآخر فى العديد من القطاعات الأخرى التى يمكن تصنيفها ضمن نطاق المعلومات العام، مثل:

. معلومات الجمارك: وهى مصدر للحركة التجارية على مستوى الدولة، وبياناتها حاليا متأخرة سنة على الأقل، وقيمة المعلومة الجمركية فى توافرها اللحظى وفى نوعيتها، فهى لا تطلب للدراسة الاقتصادية والتأريخ، ولذلك يجب توفير هذا البيان يوميا بل وفى نفس اليوم.

. المعلومات المالية: بناء قاعدة بيانات تشمل القدرات المالية للشركات وتعاملاتها، وهو ما يتوفر لدى البنك المركزى.

. معلومات البناء والإسكان والمحليات: تعتبر البيانات الحديثة الخاصة بحركة تراخيص البناء والإسكان: من أهم المؤشرات التى تتيح معرفة حركة البناء العمرانى، ومن ثم خدمة الشركات العاملة فى قطاع المقاولات بأفرعه المختلفة، وهى أحد المؤشرات الاقتصادية المهمة التى يستخدمها العالم المتحضر.

. معلومات السجل التجارى ومصلحة الشركات وهيئة الاستثمار: يوجد فى مصر حوالى ٢ مليون سجل تجارى، ومن شبه المستحيل الحصول على بياناتها على الرغم من أهميتها القصوى للمستثمرين القدامى والجدد على السواء، إما بسبب التعقيدات الإدارية والروتينية، وإما لأنها غير محدثة وغير مجهزة للتعامل الفورى.

. المعلومات التجارية لدى وزارتى الخارجية والتعاون الدولى : مثل المعلومات الكاملة عن الاتفاقيات التجارية بين مصر ودول العالم، واتفاقيات المنح والقروض والمساعدات، فهذه المعلومات تكاد تكون غير معروفة بشكل متكامل للغالبية العظمى من أصحاب الشركات، ويصعب الحصول عليها بشكل فعال، وذلك على الرغم من أن هذه المعلومات تعتبر أساسا لحركة التصدير.

. المعلومات التجارية بالمصالح الحكومية والوزارات وشركات قطاع الأعمال العام: مثل المعلومات الخاصة بالمناقصات والأعمال التجارية التى تعد بالآلاف شهريا وربما يوميا، فهذه البيانات عادة ما تجرح بشكل جزئى، علاوة على أنها لا تتوافر فى مصدر أو قاعدة بيانات واحدة، ولذلك يجب أن تطرح هذه البيانات وتتم ترسيتها فى ظل قاعدة بيانات متكاملة.

. معلومات المرور: مثل البيانات التى تتيح تتبع بيانات حركة السيارات وتداولها، والتى يمكن استثمارها فى الخروج بمؤشرات مهمة عن الاقتصاد المصرى ككل.

إن غياب معلومات من هذا النوع كان من أسباب ضعف صناعة المحتوى المحلى سواء على الإنترنت أو لدى الشركات التى تقدم خدمات المعلومات والمحتوى خارج الإنترنت، وكان عاملا من العوامل التى أضعفت الطلب المحلى على تكنولوجيا المعلومات، وبروز ما يعرف بظاهرة الطلب الكامن على تكنولوجيا المعلومات، والتى تعنى وجود احتياجات حقيقية لدى أطراف كثيرة بالمجتمع للتحول نحو تكنولوجيا المعلومات، لكن أحدا لا يعى هذه الاحتياجات جيدا، فيحولها إلى طلب ظاهرى ويبادر إلى تحقيقها.



النظام ليس أجهزة وبرامج وآلات، ولكنه بيئة مفتوحة تتداول فيها المعلومات بحرية وشفافية، وتديرها عقول تدرك أهمية المعلومات وكيفية التعامل معها

ومن أخطر النتائج التى ترتبت على هذه النقطة أن الشركات المحلية الطامحة للتصدير حرمت إلى حد كبير من فرصة الاستفادة بالسوق المحلية كحلبة اختبار وتميز لقدراتها قبل الخروج للأسواق الخارجية، فنتيجة لاعتقال مثل هذه المعلومات، وعدم القدرة على تحريرها وغياب الإحساس بأهمية تدويرها فى أشكال مناسبة من قوالب تكنولوجيا المعلومات المختلفة، لم تتوافر لهذه الشركات الفرصة لتصميم واختبار وتشغيل نظم معلومات مصرية قوية يعتمد عليها فى مجال المرور أو الجمارك أو الضرائب أو غيرها، يمكن الخروج بها للأسواق الخارجية كسابقة أعمال يستند إليها.

وأهمية ذلك تتمثل فى أن أى شركة تريد الترويج لمنتج أو برنامج فى الأسواق الخارجية للخارج تواجه عادة بأسئلة تمثل مفتاح الدخول إلى عالم التصدير، وهى : هل جرى استخدام وتشغيل هذا البرنامج عمليا فى بيئة العمل الطبيعية؟ وماذا حقق من نتائج عند استخدامه؟ هل أحدث توفيرا فى الوقت؟ ما مدى التحسين الذى أحدثه فى كفاءة أداء الأعمال؟ هل هو برنامج يعتمد عليه فعلا؟ بعبارة أخرى : ما هى سابقة أعمال هذا البرنامج؟

فى هذه الحالة .. إذا لم يكن لدى الشركة المنتجة للبرنامج سابقة أعمال فعلية، فعليها الرحيل من السوق التى تحاول دخولها، أو مواجهة مصاعب فى التسويق لا قبل لها بها، سواء من حيث التكلفة أو الوقت، لأن السوق الخارجية لم تعد مكانا سهلا أو مفتوحا، فالفرص تضيق بسرعة والمنافسون يتزايدون، وانتهى . تقريبا . زمن اختبار البرامج الجديدة لأول مرة فى أسواق التصدير العالمية، خاصة إذا كانت هذه البرامج من إنتاج شركات تنتمى لبلد من بلدان العالم الثالث كمصر، ومن ثم لم يعد هناك مجال تنشىء فيه شركات تكنولوجيا المعلومات المصرية سابقة أعمالها وسجل نجاح تطبيقاتها ونظمها سوى السوق المحلية، والتفوق فيها حتى على المنافسين العالميين الموجودين محليا، والمشكلة أن القيود المفروضة على تدفق المعلومات تعد من الأسباب التى تعوق هذا الاتجاه.

ولذلك فإن هذه الأمثلة السابقة من المعلومات، وغيرها الكثير، يجب أن تتوافر يوميا بالجودة المناسبة وبالشكل المترابط أمام من يطلبها ويحتاجها من المستثمرين وأصحاب الشركات والقائمين على صنع القرار الاقتصادى، سواء فى الجهاز الحكومى أو القطاع الخاص، وقبل كل شىء أمام صناعة تكنولوجيا المعلومات، ومن الطبيعى أن يتم توفير هذه المعلومات على مراحل فى ظل إطار متكامل ينشط صناعة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، ليس بهدف خدمة الحكومة ولكن بهدف خدمة الدولة، والدولة تتكون من الحكومة والقطاع الخاص معا، وتحويل المعلومات إلى إنتاجية، وهى مهمة القطاع الخاص مما يتطلب أن تتحول هذه البحور من المعلومات إلى نظم متكاملة، تهدف أولا إلى خدمة القطاع الخاص، والذى سيتيح تمويلا للخزينة العامة للدولة عندما ترتفع إنتاجيته، وقد اتبعت الدول المتقدمة الأسلوب التالى لكى تضمن وصول هذه المعلومات إلى مستخدميها وذلك من خلال:

. بناء قواعد البيانات الأساسية (البيانات الخام) فى الجهات الحكومية.

. إعطاء تراخيص استخدام لشركات قطاع خاص متخصصة ذات خبرة، لكى تتصل بهذه القواعد الأساسية، وتحصل منها على بيانات خام.

. تقوم هذه الشركات المتخصصة بمعالجة البيانات الخام، وتحويلها إلى معلومات ذات قيمة اقتصادية حقيقية، وتوفرها للشركات التى تطلبها بمقابل زهيد، سواء بالاتصال المباشر أو فى شكل تقارير دورية وما شابه.

. بناء على رد فعل واحتياجات السوق من معلومات يتم تعديل وتحديث قواعد البيانات الأساسية.

هذه الأساليب كانت الأساس فى بناء بيئة معلومات حرة سهلة التداول وتتسم بالشفافية، وهذه البيئة قدمت لصناعة تكنولوجيا المعلومات فائدتين، الأولى: أنها شكلت لها مصدرا للاستثمار والعمل والنمو والتطوير وفتح آفاق جديدة للعمل أمام الشركات والمؤسسات العاملة فى قطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. والثانية: أنها مهدت الطريق أمام هذا القطاع لكى يكتسب كل يوم أرضية جديدة وأهمية أعلى داخل منظومة المجتمع الإدارية والاجتماعية والحياتية.

ولو نظرنا إلى الولايات المتحدة مثلا، سنجد أن بيئة

المعلومات المفتوحة حرة التداول، وفرت فرص عمل لما يقرب من عشرة ملايين شخص، حسب تقدير الدكتور الحفناوى. يعملون يوميا فى جمع وتحليل ونشر هذه النوعية من المعلومات، التى تمثل عين وأذن هذا الاقتصاد، ويحكم هذه العلاقة تشريعيا مجموعة من القوانين أهمها قانون حرية المعلومات أو Freedom Of Information Act (FOIA)، وهذا القانون تتبعه جميع الدول المتحضرة، ومصر فى أمس الحاجة لقانون مماثل، حيث إن ٩٠٪ من المعلومات تملكها الدولة.

قراءات معلوماتية

أغلب الأحاديث التى تدور بمصر حاليا حول أوضاع الصحافة والإعلام والنشر، تنصب فى غالبيتها الساحقة على الأبعاد الأخلاقية وميثاق الشرف الصحفى وحدود النقد و الأبعاد القانونية كالحبس فى قضايا النشر وحرية الصحافة والقيود المفروضة على النشر وإصدار الصحف والأبعاد الاقتصادية والمالية للصحف، ووسط الصخب لم يحظ هذا (الهم الوطنى) (بالقراءة المعلوماتية) التى يستحقها والاهتمام بما يكفى بقضية حرية تداول المعلومات وتأثيرها على ما يجرى بالصحافة، والمفارقة أن هذه القراءة غابت على الرغم من أن الصحيفة أو المجلة هى فى التحليل الأخير قناة لتوصيل وجبة (معلومات) إلى الناس لكى يستخدموها فى تكوين رأى أو اتخاذ موقف، ومن هنا يصبح من الخطأ أن نناقش قضايا الصحافة والنشر ونهمل معاناة الصحافة من (الشح المعلوماتى) الذى يجعل ما تقدمه من معلومات دقيقة وكاملة وحديثة فى توقيتها المناسب ضئيلا جدا أمام ما تضخه من معالجات قشرية وسطحية واستنتاجات وشائعات وتخمينات شخصية لعشرات من القضايا والهموم الوطنية فائقة الأهمية، وهو وضع غير مقبول لأنه يفقد بعض الأطراف القدرة على شن هجمات سليمة تحظى بالاحترام، ويفقد أطرافا أخرى القدرة على الرد بدفاع إيجابى فعال.

وحينما ننظر (بعين معلوماتية) إلى الكثير مما يكتب أو ينشر حول القضايا الساخنة الجارية سنكتشف على الفور الحضور القوى لظاهرة الغياب القوى لحرية تداول المعلومات، وخذ مثلا ما ينشر حول المقابلات والمباحثات بين كبار المسئولين وضيوفهم وستجدها تتحدث عن بحث العلاقات الثنائية وتطابق وجهات النظر بين البلدين، ولا أحد يعرف ما هى القضايا التى بحثت فى العلاقات الثنائية هل هى تجارية أم صناعية أم سياسية، وما الذى تم بحثه وما هى وجهات النظر التى تطابقت .. لا معلومة!!

وفى صفقة عمر افندى تعرض المجتمع لحالة استقطاب حادة بين من شنوا الهجوم الصارخ على الصفقة ومن دافعوا عنها باستماتة، وبسبب غياب المعلومات الأولية والبيانات الصحيحة تقاتل الطرفان ولا يزالان دون أن يتمكن أى منهما من حسم موقف الرأى العام لصالحه، فالمدافعون وأصحاب القضية بدوا كما لو أنهم لا يملكون معلومات حاسمة متكاملة عن الصفقة، وهناك عشرات الأدلة على ذلك لعل أبسطها وأكثرها وضوحا ما تكشف من معلومات فجأة عن أن نسبة من محلات عمر افندى مملوكة للأوقاف وأن هذا يشكل عائقا قانونيا واجرائيا امام الصفقة، وظهر المدافعون عن الصفقة فى موقف (رد الفعل) حال نشر هذه المعلومات على الناس، مما يدل على أنهم (فوجئوا بها)، أما المعترضون فلم يتمكنوا من توفير بيانات ومعلومات تقنع النيابة العامة بإيقافها أو بدحض موقف أنصار الصفقة، وقد انعكس الفقر المعلوماتى حول الصفقة على الصحافة، فحرمت هى الأخرى مما تستحقه من معلومات عن الصفقة، وفى ظل هذا الحرمان تعرضت للاستقطاب من الفريقين وبدت غير قادرة على قيادة الرأى العام صوب موقف محدد.



لنا أن نتصور حجم فرص العمل، والبرامج المطلوبة لتنفيذ مشروع ميكنة وفهرسة جميع اتفاقيات التبادل التجارى بين مصر والعالم منذ الخمسينيات وحتى الآن

ولو عدنا بالذاكرة للوراء قليلا سنجد أن هناك العديد من القضايا المماثلة التى إذا ما قرأناها معلوماتيا سنصطدم بحالة (فقر المعلومات) التى تعيشها الصحافة، ففى قضية المبيدات الزراعية لم تكن هناك آلية تكفل للصحافة الوصول إلى الوثائق الحقيقية المتعلقة بالقضية من داخل وزارة الزراعة وأجهزة الدولة الأخرى، فلم ينشر مثلا نص قرار إلغاء لجنة المبيدات ولا حيثيات صدوره لأنها ببساطة كانت معلومة محجوبة عن النشر، ولم تتح للصحافة معرفة الأعداد الدقيقة والحقيقية للمبيدات التى دخلت البلاد بصورة مخالفة ومتى، وأسماء من وقعوا على أمر استيرادها، ولم تظهر وثائق أو معلومات ترسم خريطة واضحة لمسار هذه المبيدات منذ لحظة خروجها من الموانئ وحتى رشها فى الأرض، و من الذين تداولوها وما المحاصيل التى استخدمت فيها ومتى، والمواقع الجغرافية التى وصلتها ونسب الاستخدام فى كل منطقة وكم شخصا تعامل معها، ونسب بقاياها فى التربة والمحاصيل والخضروات والفاكهة، ولو كانت هناك آليات تضمن حق الصحافة فى الحصول على هذه المعلومات فى التوقيت المناسب لاستطاعت الصحف أن تقوم بدورها فى بداية الأزمة وليس بعد مرور حوالى ست سنوات على ارتكاب هذا الخطأ .

ولم تكن قضية خطف واغتيال السفير المصرى ببغداد أحسن حالا من قضية المبيدات، وفى اعتقادى أن جزءا كبيرا من المأزق الذى واجهته وزارة الخارجية فى علاقتها مع الرأى العام آنذاك كان يعود إلى أن الخارجية لم توفر منذ البداية معلومات كاملة للناس عن السفير ومهمته عند اتخاذ قرار بإيفاده إلى العراق، فقد ذهب السفير للعراق والناس لا تعرف توقيت سفره ولا المستوى الذى يمثله ولم تتمكن الصحافة من الحصول على هذه المعلومات ونشرها على الناس فى موعدها، ولذلك وقعت الخارجية فى مرمى العديد من السهام الجارحة، فغياب معلومة مستوى التمثيل جعل الجميع يرجع الاغتيال إلى رفع الخارجية لمستوى التمثيل إلى درجة السفير، فاضطرت الخارجية للإفراج عن وثائق نشرتها صحيفة الأخبار بعد اغتياله بعدة أيام، أكدت إنه ذهب رئيسا لبعثة وليس سفيرا، وغياب المعلومة الخاصة بتوقيت وصوله لبغداد سلط على رقبة الخارجية اتهاما آخر بأنها دفعت بالسفير إلى هناك بناء على تعليمات من وزيرة الخارجية الأمريكية خلال زيارتها القصيرة للقاهرة فى وقت سابق على الاغتيال، فى حين أن الرجل كان يعمل ببغداد قبل مجىء السفيرة بأسابيع، وهكذا دفعت الخارجية. ومصر كلها. ثمن عدم توافر المعلومات فى توقيتها المناسب.

ولو دققنا النظر فى الغالبية الساحقة من القضايا الملتهبة التى أثارت جدلا أو قادت بعض الزملاء للوقوف أمام المحاكم سنجد أن حالة (شح المعلومات) المتداولة مجتمعيا وصحفيا ضالعة فى ذلك، لأن شح المعلومات هيأ الظروف لشيوع الاستنتاجات والانطباعات والنميمة والمحتوى السماعى غير الموثق داخل الصحافة بما فيه من تجاوزات وتهور بدلا من المنطق المستند إلى معلومات ترسم حقائق الواقع بصدق وجرأة واحترام، وأزعم أن مثل هذا المناخ افرز حالة من الضبابية وعدم الوضوح لا تفيد أحدا، فهو من ناحية يحرم الصحافة من ممارسة النقد والهجوم على الأوضاع الخاطئة بالطريقة الصحيحة الواجبة المحترمة، ومن ناحية أخرى يحرم من تعرض للنقد من أن يدافع عن نفسه بطريقة صحيحة، بعبارة أخرى يلحق الضرر بالطرفين فلا يكون الهجوم إيجابيا ولا الدفاع ناجعا.

وهنا قد يثور تساؤل: ما سبب حالة الفقر المعلوماتى التى تعيشها الصحافة؟

هناك عشرات الاسباب التى يمكن أن نسوقها فى هذا الصدد، منها على سبيل المثال أن لدينا إرثا بيروقراطيا وقانونيا رسخ بالمجتمع ثقافة مضادة لحرية تداول المعلومات، ليس فقط صحفيا وإعلاميا ولكن بين الإدارات المختلفة داخل الوزارة الواحدة وربما بين الأشخاص داخل الإدارة الواحدة، فمثلا هناك المادة العاشرة من القرار الجمهورى رقم ٢٩١٥ لسنة ١٩٦٤ التى تنص على انه لا يجوز لأية وزارة أو هيئة أو جهة أو

فرد أو أفراد بالحكومة والقطاع العام أو الخاص أن ينشر بأى وسيلة من وسائل النشر أو الإعلام أى مطبوعات أو نتائج أو بيانات أو معلومات إلا من واقع إحصاءات الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، والإحصاءات غير المقررة ضمن برامج الجهاز لا يجوز نشرها إلا بموافقة الجهاز، وعلى الرغم من أن هذه المادة تعتبر شبه ميتة الآن إلا أنها واحد من الأسباب التى لعبت خلال العقود الماضية دورا فى ترسيخ الثقافة المضادة لحرية تداول المعلومات.

من هذه الأسباب أيضا أنه ليس لدينا حتى الآن تحديد واضح للمعلومات المسموح بنشرها والإطلاع عليها والمعلومات المطلوب الحفاظ على سريتها، والحاصل أنه باسم الدواعى الأمنية والمصلحة العامة تعتقل جميع المعلومات ويحرم الصحفيون . ومعهم الناس . من حقهم الأصيل فى الحصول عليها .

يمكننا أن نضيف إلى ذلك أن القدر الاكبر من المعلومات المهمة والحيوية للصحافة لا يزال بأيدى فئة من الموظفين والمسئولين المنتشرين فى شتى المؤسسات والهيئات العامة والخاصة، يتعاملون مع المعلومات بمنطق الاعتقال، لأنهم نشأوا ومارسوا حياتهم الوظيفية وفق قاعدة الحجب التلقائى للمعلومات فى أكوام الورق والمستندات وأرتال الملفات، ولم يسمعوا بعد بالتغييرات الهائلة فى مجال الحريات السياسية وحقوق الإنسان عالميا ومحليا، وان سمعوا لا يتقبلون وان تقبلوا فعلى مضض وبروح متربصة بالجديد وتواقة للقديم، ولم يعد هناك مفر سوى التعامل معهم بقوة القانون.

وخلاصة القراءة (المعلوماتية) لهذه القضية أنه إذا ظلت المعلومات معتقلة ومحجوبة فلن تكون هناك صحافة حرة مسئولة تمارس دورها برشد وفعالية، وسيظل المجتمع بأسره عرضة من وقت لآخر لموجات من الاحتقان والاستقطاب الحاد صحفيا وإعلاميا.

الحل .. قانون لحرية المعلومات

إذن نحن واقعيا إزاء حالة حجب للبيانات والمعلومات أو عدم الاكتراث بها داخل المجتمع ككل، بما فى ذلك مجتمع تكنولوجيا المعلومات نفسه، ويبدو أن ثقافتنا الحالية . كما يقول الدكتور الحفناوى . تمنع نشر المعلومات لسببين:

الأول: الخوف من أن تستخدم المعلومات التى يتم توفيرها من قبل الضرائب، وعليه فيجب أن يصدر قانون ينص صراحة على أنه لا يجوز لمصلحة الضرائب أن تستفيد من المعلومات الموجودة بقواعد البيانات، دون أن تقوم بالحصول عليها بنفسها بشكل مباشر.

والثانى: أن معظم الموظفين فى جميع الدرجات يعمدون إلى إخفاء المعلومات اعتقادا منهم أنها مصدر القوة، وإنهم إذا ما أعطوا المعلومة فقدوا سر قوتهم، ولذلك يجب أن يحدث تغيير تشريعى يجرم من يخفى المعلومة غير السرية، أو غير المحمية لأسباب أمنية، أسوة بما هو معمول به فى الخارج، كما يجب العمل على تغيير هذه النظرة، حتى يقتنع الجميع أن قوة المعلومة فى توافرها وليس فى حجبها داخل الأدراج.

والوضع السابق يجعلنا نطالب بضرورة إصدار قانون يضمن حرية تداول وتبادل المعلومات، بين مراكز وأطراف ووحدات الجهاز الإدارى والاقتصادى والخدمى للدولة سواء حكومة أو قطاعا خاصا، بما يوفر للمواطن والمستثمر وصاحب القرار دعما قويا، من خلال المعلومة الصحيحة فى الوقت المناسب، ويضفى على الاقتصاد المصرى قدرا من الشفافية والوضوح، وينفض عنه غبار سنين طويلة من نقص المعلومات وعدم دقتها، ويؤهله للتعامل بكفاءة مع التغييرات الاقتصادية العميقة التى يمر بها الاقتصاد العالمى حاليا، والذى يتحول بسرعة إلى اقتصاد المعلومات أو الاقتصاد الشبكى، وبما يهىء بيئة مناسبة تساعد فى دفع مشروع النهوض بتكنولوجيا المعلومات للأمام، من خلال فتح فرص للاستثمار، وتقوية أوضاع هذه الصناعة داخل المجتمع والدولة.

ولابد أن تمتد قوة هذا القانون فى تحرير المعلومات لتشمل المعلومات الموجودة لدى الحكومة وما يتبعها من هيئات وشركات ووزارات وخلافه، ولا يكون مقصورا فقط على القطاع الخاص والاستثمارى، لأن الجهات الحكومية هى المالكة للغالبية الساحقة من المعلومات والبيانات المتوافرة فى البلاد، وفى المقابل على القانون أن يضمن الحماية الكاملة للمعلومات التى لا يصح تداولها، فتحرير المعلومات لا يعنى ترك المعلومات بجميع أشكالها متاحة لأى شخص من أى جهة، فالمعلومات المتعلقة بالأمن والأمور العسكرية وغيرها من المجالات ذات الحساسية، لابد أن تظل محمية تماما ولا يتم تداولها إلا بمعرفة الجهات المختصة فقط، فليس بمقدور أحد ولا من حقه أن يطالب بحرية تداول المعلومات التى ترى الأجهزة المختصة بالدولة أنها تتعلق بالأمن القومى أو تدخل فى عداد أسرار الدولة .. لكن نحن نطالب بتحرير المعلومات التى تدخل فى (نطاق المعلومات العام) وبات ينظر إليها كحق من حقوق الإنسان. ■

كتاب الزاوية

العرب والفلسفة الأوروبية

عبدالرحمن بدوى

دور العرب فى تكوين الفلسفة الأوروبية فى العصور الوسطى دور مزدوج: دور الرسول الحامل لهم رسالة اليونان فى الفلسفة، ودور الفاعل المؤثر بما ابتكر وأنتج. فعن طريق العرب عرفت أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر مؤلفات أرسطو وقطعًا من فلسفة أفلوطين وأبرقلس، ومعالم من فلاسفة أفلاطون. إذ قام المترجمون فى طليطلة وفى صقلية، وهم الذين تحدثنا عن نشاطهم فى مستهل هذا البحث، بترجمة كتاب «البرهان» من منطق أرسطو أعنى «التحليلات الثانية»، و«السماء والعالم»، و«الكون والفساد» و«السماع الطبيعى» و«الآثار العلوية»، كما ترجموا كتاب «الخير المحض» المنسوب إلى أرسطو، وهو فى الحقيقة فصول منتزعة من «إلهيات» أبرقلس.

وعن هذا الطريق عرفت أوروبا أرسطو وأبرقلس، فكان لهما أثر هائل فى إخصاب الفكر الأوروبى الذى سرعان ما خضع لفلسفة أرسطو خضوعًا تامًا.

وأعمق من هذا أثرًا بكثير، أثر الفلاسفة العرب أنفسهم فى أوروبا لما أن ترجمت بعض مؤلفاتهم إلى اللاتينية، وبعض اللغات الأوروبية الحديثة الناشئة. وترجم يوحنا الإسبانى «منطق» ابن سينا، وترجم جنديسالفى (غنصالبه) بمساعدة يوحنا الإسبانى قسم «الطبيعيات» من كتاب «الشفاء» وقسم «النفس» و«الإلهيات» من «الشفاء» لابن سينا أيضًا، كما ترجموا «مقاصد الفلاسفة» للغزالى. ومن ناحية أخرى ترجم جيرردو الكريمونى جملة رسائل للكندى، فيلسوف العرب، منها رسالة فى العقل ورسالة الجواهر الخمسة، كما ترجم . فيما يبدو . رسالة «فى العقل» للفارابى.



عرب الرموز!

وصف الإنسان بأنه حيوان ناطق، مشروع جدا لأنه أكثر ما يميز الجنس البشرى عن بقية الأجناس الأخرى ويعطيه السيادة عليها بواسطة منظومة الرموز البشرية

محمود الذوادى

تقول نظرية الرموز البشرية عندنا إن الإنسان كائن رموزى بشرى بالطبع قبل أن يكون اجتماعيا بالطبع. أى أن جوهر الإنسان المميز له عن بقية الكائنات يتمثل فى مجموعة من الرموز البشرية (اللغة المنطوقة والمكتوبة والفكر والدين والمعرفة/ العلم والقوانين والأساطير والقيم والمعايير الثقافية...) أى أن منظومة الرموز البشرية تحتل المركزية الأولى فى هوية الإنسان. ومن ثم أكدنا على أن أى تحليل لمفهوم الطبيعة البشرية يجب أن تحتل فيه الرموز البشرية مكان الصدارة. أو ليس الإنسان كائنا رموزيا بشريا بالطبع؟ (الذوادى ٢٠٠٥ أ: ٥٥. ٦٦).

تستند مقولتنا هذه على ملاحظات رئيسية حول خمسة معالم ينفرد بها الجنس البشرى عن غيره من الأجناس الحية الأخرى:

١. يتصف النمو الجسمى (البيولوجى الفيزيولوجى) لأفراد الجنس البشرى ببطء شديد مقارنة بسرعة النمو الجسدى الذى نجده عند بقية الكائنات.

٢. يتمتع أفراد الجنس البشرى بأمد حياة (سن) أطول من عمر معظم أفراد الأجناس الأخرى.

٣. ينفرد الجنس البشرى بلعب دور السيادة/ الخلافة فى هذا العالم/ الكون بدون منافسة حقيقية له من طرف باقى الأجناس الأخرى.

٤. يتميَّز الجنس البشرى بطريقة فاصلة وحاسمة عن الأجناس الأخرى بمنظومة ما أطلقنا عليه سابقا فى السطور الأولى أعلاه مصطلح الرموز البشرية: اللغة المنطوقة والمكتوبة والفكر والدين والمعرفة/ العلم والقوانين والأساطير والقيم والمعايير الثقافية...

٥. يختص أفراد الجنس البشرى بهوية مزدوجة تتكوَّن من الجانب الجسدى/ البيولوجى الفيزيولوجى، من ناحية، والجانب الرموزى البشرى (المشار إليه أعلاه فى ٤)، من ناحية ثانية.

والسؤال البحثى المشروع بهذا الصدد هو: هل من علاقة بين تلك المعالم الخمسة التى يتميَّز بها الإنسان؟

هناك علاقة مباشرة بين المعلمين ١ و ٢. إذ إن النمو الجسمى البطىء عند أفراد الجنس البشرى يؤدى بالضرورة إلى حاجتهم إلى معدل سن أطول يمكنهم من تحقيق مراحل النمو والنضج المختلفة والمتعددة المستويات.

أما الهوية المزدوجة التى يتصف بها الإنسان فإنها أيضا ذات علاقة مباشرة بالعنصر الجسدى (المعلم١) للإنسان، من جهة، والعنصر الرموزى البشرى (المعلم ٤)، من جهة أخرى.

القول بأن الغزو اللغوى الثقافى هو أخطر أنواع الغزو جميعا ليس بالقول الأيديولوجى بل هو قول ذو مصداقية علمية عالية من وجهة نظريتنا للرموز البشرية التى تؤكد على مركزية الرموز البشرية فى هوية الإنسان

أما سيادة الجنس البشرى فهى ذات علاقة قوية ومباشرة بالمعلمين ٤ و ٥: الهوية المزدوجة والرموز البشرية. والعنصر المشترك بين هذين المعلمين هو منظومة الرموز البشرية.

وهكذا يتجلى الدور المركزى والحاسم لمنظومة الرموز البشرية فى تمكين الإنسان وحده من السيادة / الخلافة فى هذا العالم/ الكون .

ومن ناحية أخرى، فقد كاتبنا المجلة الأمريكية Scientific American سائلين عن تفسير علمى لسبب بطء النمو الجسدى عند بنى البشر. لاذ المسئولون فى المجلة بالصمت لما يقرب من السنة. وعندما أتانا الرد فى ١٩ أكتوبر ٢٠٠٥ كان خاليا من الإجابة على سؤالنا.

إذ اكتفت مراسلتهم الإلكترونية بالنصيحة التالية: الرجاء تصفح المواقع الإلكترونية لعلم الأنثروبولوجيا لعلك تعثر على إجابة لسؤالكم. وفى غياب معلومات علمية حول الموضوع من هذه المجلة الأمريكية المشهورة رأينا طرح فرضيتنا للتفسير:

إن الرموز البشرية تسمح بتفسير المعلمين ١ و ٢ فالنمو الجسمى البطىء عند الإنسان يمكن إرجاعه إلى كون أن عملية النمو عنده تشمل جبهتين: الجبهة الجسمية والجبهة الرموزية البشرية. وهذا خلافا للنمو الجسدى السريع عند الكائنات الأخرى بسبب فقدانها لمنظومة الرموز البشرية بمعناها البشرى الواسع والمعقد. وهذا يعنى أن نمو الكائن البشرى على مستويين يؤدى إلى بطء عملية النمو ككل عنده: أى على الجبهتين.

وهناك مشروعية لوصف هذا الإطار التحليلى للرموز البشرية بأنه عبارة عن نظرية لأن النظرية هى ذلك الإطار الفكرى الذى يفسر عددا من الظواهر المختلفة، وهذا ما تقوم به نظرية الرموز البشرية عندنا . فالمعالم ١، ٢، ٣ و ٥ المميزة للإنسان فى الرسم هى حصيلة لمركزية الرموز البشرية فى هوية الإنسان.

ومن هنا تأتى مصداقية استعمال الرموز البشرية لبناء نظرية لفهم وتفسير طبيعة الإنسان وسلوكات الناس وشئون مجتمعاتهم كما سوف نرى فى تفسير عدة ظواهر اجتماعية ومجتمعية وحضارية مثل ظاهرة الأمة العربية وحوار الحضارات ومسألة العلاقة المتوترة بين كندا وكيباك، من ناحية، وبين قسمى المجتمع البلجيكى: المنطقة الفلونية Wallonie الناطقة بالفرنسية ونظيرتها الفلندرية الناطقة باللغة الفلمندية، من ناحية أخرى (International 2006 Courrier).

إن مركزية الرموز البشرية فى هوية الإنسان كما تتجلى فى الرسم أدت عندنا إلى بروز مفهوم جديد نسميه البيولوجيا الرموزية Symbolicbiology أى أن الرموز البشرية تؤثر فى هندسة جسد الإنسان من حيث بطء نموه وطول أمد حياته . إنه مفهوم معاكس لمفهوم السوسيوبيولوجيا Sociobiology الذى يرى أنه يمكن تفسير الكثير من السلوكات الاجتماعية والثقافية البشرية انطلاقا من معطيات بيولوجيا الإنسان (Wilson ١٩٧٥).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المدارس الفكرية والنظريات المعاصرة فى العلوم الاجتماعية لا تبنى، كما نفعل نحن، الرموز البشرية كمركز ثقل أول فى تشكيل هوية الإنسان وسلوكاته وحركة المجتمعات والحضارات الإنسانية. ينطبق هذا على الماركسية والبنوية والتحليل النفسى والسلوكيةBehaviorism وغيرها من نظريات ومدارس العلوم الاجتماعية.

الجوانب المتعالية للرموز البشرية وثورة الاتصالات

وبالتعمق فى محاولة فهم طبيعة الرموز البشرية تتجلى عدة معالم إضافية أخرى حولها:

أ . ليس للرموز البشرية وزن أو حجم بالمعنى المادى للأشياء. أى أن هذه الرموز البشرية ليست ذات طبيعة مادية بل طبيعة غير مادية/ روحية/ متعالية transcendental. وبعبارة أخرى، يتمثل جوهر الإنسان وأعز ما يملكه فى هذا النوع من الرموز البشرية المتعالية (الذوادى ٢٠٠٥ ب: ١٢.٨). ويتفق هذا كثيرا مع رؤى الديانات والحكماء والفلاسفة على مر العصور. فالقرآن مثلا يؤكد فى آياته المتعددة على أهمية أولوية تبنى الإنسان للرموز البشرية من تعلم القراءة والغوص فى العلم وكسب رهان التفكير الدائم والاتصاف بالقيم النبيلة مثل العدل والخلق الفاضل (وإنك لعلى خلق عظيم)... إذ الرموز البشرية فى المنظور القرآنى وفى الرؤية الموضوعية التحليلية. كما رأينا فى الرسم. هى بيت القصيد فى هوية الإنسان. فبها وحدها جاء تشريف الجنس البشرى بالقيادة والسيادة والخلافة فى هذا العالم/ الكون.

ب . أما على مستوى توظيف مفهوم خلو الرموز البشرية من عاملى الوزن والحجم فى فهم سرعة ثورة الاتصالات فى عصر العولمة، فنكتفى بذكر بعض الأمثلة: فلماذا تصل الرسائل والوثائق المرسلة بالفاكس وبالإنترنت بسرعة كبيرة مقارنة بالقيام بنفس المراسلة بالبريد العادى أو حتى السريع؟ يمكن تفسير ذلك بكل بساطة فى أن المراسلة بالفاكس والإنترنت تلغى عاملى الوزن والحجم للشىء المرسل. وهذا يعنى أن هذا النوع من المراسلة يحرر الشىء المرسل من معطياته المادية (الوزن والحجم) فيعيده إلى طبيعته الأولى والمتمثلة فى أن ليس للرموز البشرية وزن وحجم. وبالغياب المطلق أصلا لهذين العنصرين فى كل مكونات منظومة الرموز البشرية تتأهل هذه الأخيرة بكل مشروعية للتنقل بسرعة فائقة وعجيبة تشبه ما يروى عن السرعة المدهشة لتنقل الكائنات الروحية والميتافيزيقية. وهذا ما يفسر أيضا مدى شدة سرعة تنقل الكلمة عبر الصوت. فأصبحت مضربا للأمثال. فتطير طائرة الكونكورد بسرعة كبيرة تقترب من سرعة الصوت. وترجع هذه السرعة الخاطفة لكون أن الكلمة المنقولة عبر الصوت فى النداء البسيط على مسافة قريبة بين الأفراد أو أثناء تهاتفهم على مسافات بعيدة بالهواتف الجوالة/ المحمولة أو القارة/ المنزلية هى كلمة ليس لها فى الأصل لا وزن ولا حجم. وبالتالى فهى طليقة سريعة بطبيعتها لا يعرقل تنقلها السريع الوزن والحجم، هذان العنصران الماديان.

اللغة ونشأة الثقافة

عند التساؤل عن أهم عنصر فى منظومة الرموز البشرية/ الثقافة يقف وراء ميلاد هذه المنظومة المميزة للجنس البشرى، فإن اللغة البشرية المكتوبة والمنطوقة تكون هى وحدها المؤهلة لبروز ظاهرة الرموز البشرية/ الثقافة. فلا يمكن تخيل وجود بقية عناصر الرموز البشرية كالدين والعلم والفكر بدون حضور اللغة البشرية المنطوقة والمكتوبة. ومن ثم جاءت مشروعية اعتبارنا أن اللغة هى أم الرموز البشرية جميعا . ونظرا لمركزية اللغة المنطوقة والمكتوبة فى نشأة منظومة الرموز البشرية أو الثقافة بتعبير علمى الأنثروبولجيا والاجتماع على الخصوص، فإن وصف الإنسان بأنه حيوان ناطق وصف مشروع جدا لأن أكثر ما يميز الجنس البشرى عن بقية الأجناس الأخرى ويعطيه السيادة عليها بواسطة منظومة الرموز البشرية/ الثقافة هى اللغة المنطوقة والمكتوبة.

ورغم مركزية اللغة فى هوية الإنسان وبالتالى فى بروز ظاهرة الرموز البشرية/ الثقافة فى المجموعات والمجتمعات البشرية. فإن أشهر تعريف لمفهوم الثقافة فى العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة لا يذكر اللغة كعنصر مركزى وأساسى للثقافة. فقد عرف عالم الأنثروبولوجيا البريطانى إدوارد برنارد تيلر (١٨٧١) الثقافة Culture بأنها ذلك الكل المعقد الذى يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والتقليد وأى مقدرات وعادات يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع. يتمثل قصور هذا التعريف الكلاسيكى للثقافة فى كونه لا يشير إلى اللغة ولا يعطيها الصدارة فى مكونات منظومة الثقافة أو الرموز البشرية والحال أن اللغة هى منشئة ظاهرة الثقافة نفسها كما بينا . أى أن العلاقة علاقة عضوية جدا بين اللغة وثقافتها . ومن ثم يتضح قصور تعريف مفهوم الثقافة الذى لا يتضمن بكل وضوح صدارة اللغة فى تعريف مفهوم الثقافة البشرية (١٩٧٣ White).

يتبين مما سبق أن نظريتنا للثقافة/ الرموز البشرية ترتكز على أن الثقافة هى ذلك الجانب غير البيولوجى الفيزيولوجى لهوية الإنسان المزدوجة (الرموز البشرية والجسم) كما يبين الرسم فى هذه المقالة. وأن جانب الرموز البشرية/ الثقافة هو بيت القصيد فى هوية الكائن البشرى. أى أن تفوق هذا الأخير على بقية الكائنات الحية الأخرى وسيادته عليها يأتى من الجانب غير المادى فى هويته المزدوجة. أى من الرموز البشرية/ الثقافة. وأن اللغة المنطوقة والمكتوبة هى مصدر تميز الجنس البشرى عن سواه بمنظومة الثقافة. ومن ثم، فالإنسان ليس حيوانا ناطقا فحسب كما قال قدماء الفلاسفة بل هو أيضا كائن رموزى/ ثقافى بالطبع. وبعبارة أخرى، فتميز الكائن البشرى عن سواه من الكائنات الأخرى بالقدرة على استعمال اللغة فى شكليها المنطوق والمكتوب أهله بطريقة لا خيار له فيها لكى يكون وحده مخلوقا رموزيا/ ثقافيا بالطبع. وبمصطلح العلوم الاجتماعية الحديثة، يسهل القول بأن علاقة الارتباط correlationقوية جدا بين اللغة المنطوقة والمكتوبة عند بنى البشر، من جهة، وحضور ظاهرة الثقافة فى المجتمعات الإنسانية، من جهة ثانية.

ونظرا لمركزية منظومة الثقافة/ الرموز البشرية فى صلب هويات الأفراد والجماعات



عـرب الـرمـوز!

اللغة المنطوقة والمكتوبة هى مصدر تميز الجنس البشرى عن سواه. ومن ثم، فالإنسان ليس حيوانا ناطقا فحسب بل هو كائن رموزى/ ثقافى بالطبع

والمجتمعات الإنسانية، فإنه من المناسب استعمال نظرية الرموز البشرية فى فهم وتحليل العديد من الظواهر والقضايا فى أو بين المجتمعات والأمم والشعوب والحضارات البشرية. نقتصر هنا على تحليل أربعة أمثلة ميدانية نبرز فيها مساهمة نظرية الرموز البشرية فى الفهم والتفسير لها. نود هنا إلقاء الضوء، من ناحية، على ظاهرة الأمة العربية وأزمتى كندا وبلجيكا. ومن ناحية ثانية، نتطرق إلى قضيتين مرتبطتين أكثر بعصر العولمة الذى نعيش فيه. تتمثل القضيتان فى حوار الحضارات وخاصة بين الغرب والإسلام ثم خطر الغزو اللغوى الثقافى الغربى (والأمريكى على الخصوص) على بقية شعوب العالم.

ظاهرة الأمة العربية:

لقد كتب الكثير عن العالم العربى كمجموعة من الأقطار المستقلة عن بعضها البعض فى العصر الحديث. فهى، من ناحية، مختلفة على أكثر من صعيد. فعلى مستوى تعرضها للهيمنة الاستعمارية الغربية، فمعظم المجتمعات العربية بالمشرق العربى وقع احتلالها من طرف الاستعمار البريطانى بينما استعمرت فرنسا بلدان المغرب العربى: الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا. أما اختلاف الأقطار العربية على مستوى نظام الحكم فحدث ولا حرج. فهناك أنظمة الحكم الملوكية والأميرية والسلطانية والجمهورية العسكرية. وينقسم الوطن العربى إلى مجتمعات غنية بسبب الثروة النفطية وأخرى فقيرة أو متوسطة الدخل.

ومن ناحية أخرى، فالمجتمعات العربية متجانسة على مستوى المنظومة الثقافية/ الرموز البشرية. فاللغة العربية هى اللغة الرسمية لكل هاته المجتمعات وهى أيضا المصدر الرئيسى للهجات العربية العامية بحيث تجعل التواصل بين مواطنى الشعوب العربية أمرا سهلا. أما دين أغلبية سكان العالم العربى فهو الإسلام. يرى المختصون فى العلوم الاجتماعية الحديثة أن عاملى اللغة والدين هما أكثر العوامل الرموزية البشرية/ الثقافية (Cultural Markers) المحددة للهوية الثقافية للشعوب (Kivisto 2002 : ١٤). وبالتالى فثقافة الوطن العربى هى ثقافة إسلامية عربية توحد بين الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط. أى أن الرموز البشرية التى تشترك فيها المجتمعات العربية تؤسس بينها تلقائيا وحدة ثقافية قوية سابقة للوحدة السياسية الهشة التى طالما نادى وينادى بها العرب الوحدويون فى العصر الحديث. فالوطن العربى له بهذا الاعتبار أهم العوامل التى تؤهله ليكون أمة بأتم معنى الكلمة. فاشتراك مجتمعات عديدة فى لغة واحدة عامل حاسم فى تكوين أمة منها فى رأى الباحثين فى شئون الأمم والشعوب (بركات ٢٠٠٠ : ٦٥-٩٦). ويأتى اشتراك أغلبية سكان الأقطار العربية فى الدين الإسلامى ليعزز، من جهة، حقيقة وجود أمة عربية إسلامية فى الفضاء الجغرافى بين الخليج والمحيط. ومن جهة أخرى، يزيد الاشتراك فى اللغة العربية بين الشعوب العربية فى قوة التضامن بين المجتمعات العربية المكونة لهذه الأمة. فالملاحظات المتكررة تفيد أن الأغلبية الساحقة من المواطنين العرب المسلمين يظهرون بطريقة عفوية اللاشعورية تعاطفا أكبر مع الشعب الفلسطينى المكافح مقارنة بتعاطفهم مع الشعوب المسلمة المكافحة فى البوسنة والهرسك وفى الشيشان وفى الفلبين.

فالتحليل السوسيولوجى لهذه الظاهرة يشير إلى مدى أهمية دور اشتراك الناس فى لغة واحدة فى زيادة درجة التعاطف بينهم. وبالتعبير الخلدونى، فعاملا اللغة والدين هما أقوى عناصر منظومة الرموز البشرية فى تشكيل صلابة العصبية/ التضامن بين بنى البشر. فالأمة العربية هى، من جهة، نتيجة لاشتراك معظم مواطنيها فى اللغة العربية والعقيدة الإسلامية. ومن جهة ثانية، فإن مصدر تضامنها على مر العصور يأتى فى المقام الأول من اشتراك شعوبها فى منظومة رموز بشرية واحدة تتصدرها اللغة العربية والدين الإسلامى.

ومن هذا المنظور، فالأمة العربية هى أمة منظومة ثقافية أو رموز بشرية مشتركة. والرموز البشرية بطبيعتها، كما بينا، ليست عناصر مادية ذات وزن وحجم. فتأثيرها فى التعاطف والتضامن بين الناس لا يأبه كثيرا بالعراقيل المادية التى قد توجد بين هؤلاء مثل الحدود الجغرافية والسياسية بين الأقطار. إن الرموز البشرية قادرة على تجاوز عوائق المعطيات المادية الفاصلة بين الشعوب وتمكين هذه الأخيرة من التواصل والتضامن كأن شيئا لم يكن من العراقيل المادية.

ولا بد من التذكير المشروع بهذا الصدد أن الرموز البشرية تتصف بمدى بقاء/ حياة طويلة قد تصل إلى الخلود. فانتشار اللغة العربية والعقيدة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا فيما يسمى اليوم بالعالم العربى مثالان على تأهل الرموز البشرية للبقاء الطويل الذى يقاس بالقرون وآلاف السنين. ومن ثم فالتضامن العربى ثقافيا تضامن طويل النفس عبر العصور قد يصل إلى أبد الآبدين باعتبار صعوبة تخيل زوال اللغة العربية لغة القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدس داخل العالم العربى وخارجه (الباقورى ١٩٨٧). ومن ثم فإن هذا التضامن الرموزى البشرى/ الثقافى بين الشعوب العربية مؤهل للاستمرار إلى ما لا نهاية. فهو تضامن يختلف عن تحالفات الشعوب اقتصاديا وسياسيا وعسكريا التى طالما تكون تحالفات ظرفية قصيرة العمر.

رموز كيباك وبلجيكا

تمثل كيباك إحدى المقاطعات العشر التى تكون كندا، هذا البلد المترامى الأطراف فى شمال القارة الأمريكية. إن نظام الحكم السياسى الفيدرالى هو الذى يربط المقاطعات العشر ويجعلها تنتمى رسميا إلى وطن واحد هو كندا. لكن كيباك وبقية المقاطعات الكندية لا تكادان تكونان أمة لأنهما لا تتكلمان لغة واحدة ولا تدينان بدين واحد. إذ اللغة الفرنسية هى لغة أغلبية سكان مقاطعة كيباك، بينما اللغة الإنجليزية هى لغة معظم سكان المقاطعات الكندية التسع الأخرى. ومن ناحية أخرى، فأغلبية مواطنى كيباك يدينون بالديانة المسيحية الكاثوليكية، بينما تعتنق أغلبية سكان بقية المقاطعات الديانة المسيحية البروتستانتية. ومن ثم، فمن الصعب اعتبار كندا أمة، لفقدان توفر الاشتراك فى لغة واحدة على الخصوص بين كل سكان المجتمع الكندى.

إن هذا الاختلاف فى أهم عنصرين للرموز البشرية (اللغة والدين) بين كيباك وبقية المقاطعات الكندية الإنجليزية يفسر حالة التوتر السائدة بين كيباك والسلطة الفيدرالية منذ عقود أدت بالحزب الانفصالى بكيباك Le parti québécois للقيام بأكثر من استفتاء قصد الحصول على انفصال كيباك عن كندا أو تمتع كيباك فى الفيدرالية الكندية بصفة المجتمع الخاص Une société distincte داخل المجتمع الكندى الكبير.

وعلى مستوى آخر، اهتم الباحثون الاجتماعيون بدراسة ظاهرة العزلتين Les deux solitudes فى مقاطعة كيباك وخاصة فى مدينة مونتريال التى يسكنها ثمانون فى المائة من أهل كيباك الناطقين بالفرنسية وعشرون فى المائة من الكنديين الناطقين بالإنجليزية. فالمجموعتان لا تقرآن نفس الصحف ولا تستمعان إلى نفس الإذاعات المحلية والوطنية ولا تشاهدان نفس المحطات التليفزيونية ولا تذهبان عموما إلى نفس المطاعم. وبعبارة أخرى، فتكلم كل مجموعة للغتها جعلهما فى حالة عزلة عن بعضهما البعض رغم تواجدهما فى نفس الحى أو حتى فى نفس العمارة. وذلك هو المعنى السوسيولوجى لمفهوم العزلتين فى المجتمع الكيباكى الحديث (Porter 1967 , Rocher 1990).

ويتشابه الوضع فى بلجيكا مع نظيره فى كندا بسبب وجود لغتين رئيسيتين فى المجتمع البلجيكى الذى يتكون من مجموعتين رئيسيتين هما الفلمنديون Les Flamands والفلونيون Les Wallons... يتجاوز سكان منطقة فلندريا أكثر من ٦ ملايين بينما لا يبلغ عدد سكان منطقة فالونيا ٤ ملايين. تتحدث المجموعة الأولى اللغة الفلمندية وتتكلم الثانية اللغة الفرنسية. أدى ويؤدى هذا الاختلاف فى اللغة على

الخصوص إلى توتر بين الطرفين قد يضع حدا لبلجيكا كما نعرفها اليوم فتقيم كل مجموعة دولة خاصة بها. فالانتخابات البلدية فى أكتوبر ٢٠٠٦ والتشريعية فى ربيع ٢٠٠٧ ينتظر منها أن تزيد فى درجة التوتر بين الطرفين. فالأمر أكثر صخبا فى فلندريا التى ينادى فيها أكثر فأكثر حزب اليمين المتطرف بالحصول على الحكم الذاتى أو حتى على الاستقلال الذى يهدد وحدة المملكة البلجيكية التى كانت دائما وحدة هشة (Courrier International , No ٨٢٩ , ٢٠٠٦ . ٥٤). وكما رأينا فى تحليلنا لعدم تأهل كيباك كندا لصفة الأمة بسبب فقدان عامل اللغة المشتركة بينهما، فإنه لا يجوز أيضا إطلاق كلمة/ مصطلح الأمة على المملكة البلجيكية.

العولمة اللغوية

فى بداية القرن الحادى والعشرين كثرت البرامج الإذاعية والتليفزيونية والمقالات الصحفية والمؤلفات المتنوعة حول مخاطر العولمة والعولمة اللغوية الثقافية على الخصوص. فنظرية الرموز البشرية لا تتفق فقط مع مقولة أخطار العولمة اللغوية الثقافية بل هى تقول إن هذا النوع من العولمة هو أخطر أصناف العولمة جميعا.

لماذا؟ لأن العولمة اللغوية الثقافية تمس منظومة الرموز البشرية للشعوب والمجتمعات. والرموز البشرية، كما رأينا، هى بيت القصيد فى تشكيل هويات الأفراد والمجتمعات. أى أن انتشار لغات أجنبية ومنظوماتها الرموزية البشرية فى مجتمعات أخرى بدرجة تسمح لها بمنافسة أو إقصاء اللغات والمنظومات الرموزية البشرية لتلك المجتمعات يمثل تهديداً لأهم وأعز الموارد والعناصر (الرموز البشرية) التى تكون هويات الأفراد والمجتمعات وشخصياتها القاعدية. ومن ثم، فالقول بأن الغزو اللغوى الثقافى هو أخطر أنواع الغزو جميعا ليس بالقول الأيديولوجى بل هو قول ذو مصداقية علمية عالية من وجهة نظريتنا للرموز البشرية التى تؤكد على مركزية الرموز البشرية فى هوية الإنسان، كما يبين الرسم أعلاه. فرياح العولمة الكاسحة فى مطلع القرن الحادى والعشرين فتحت بالتأكيد الباب على مصراعيه لصراع اللغات والثقافات ليس بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات النامية فحسب بل بين المجتمعات المتقدمة نفسها متمثلا ذلك فى صدارة هيمنة العولمة اللغوية الثقافية الأمريكية اليوم على شعوب العالم فى الجنوب والشمال (Calvet ١٩٨٧).

حوار الحضارات

تساعد نظرية الرموز البشرية على فهم موضوع حوار الحضارات الذى تكتب حوله منذ نهاية القرن الماضى مقالات وكتب كثيرة ويقام عديد من الندوات فى أماكن مختلفة من العالم. يصعب الحديث عن نجاح مشروع حوار الحضارات بدون حوار ثقافات المتحاورين. إذ الثقافة/ الرموز البشرية تمثل مركزية هوية الإنسان والمجتمعات البشرية، كما رأينا فى الرسم السالف الذكر. وبما أن اللغات هى المصدر الأول لنشأة الرموز البشرية/ المنظومة الثقافية لدى بنى البشر، فإن تعلم الراغبين فى الحوار لغات بعضهم البعض يعتبر تأشيرة عملية وفعلية لتسهيل الدخول فى الحوار مع الآخرين. فمجتمعات الشمال والجنوب غير متساوية على مستوى انتشار لغات الطرف الآخر. فمن ناحية، تعرف بعض الفئات على الأقل من مجتمعات الجنوب معرفة معقولة لغات المجتمعات الغربية الاستعمارية والإمبريالية وفى طليعتها اللغة الإنجليزية والفرنسية. ومن ناحية أخرى ليس هناك حتى معرفة بسيطة منتشرة بين الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الغربية المتقدمة للغات مجتمعات العالم الثالث.

يصدق هذا التحليل على قضية حوار العالم الغربى مع العالم العربى الإسلامى.

فالدعوة على قدم وساق لصالح مثل ذلك الحوار خاصة منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على الخصوص. فالغرب، من وجهة نظريتنا للرموز البشرية، أقل تأهلا وجدية وحسن نية للدخول فى حوار مع العالم العربى الإسلامى. فلا تعرف كل الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الغربية أى لغة من اللغات الرئيسية للعالم العربى الإسلامى وهى العربية والفارسية والتركية والأردية. ويساعد ذلك بالتأكيد على تفشى جهل عام بثقافات مجتمعات العالم العربى الإسلامى الأمر الذى لا يسمح بالتفاؤل إزاء النجاح الفعلى للمناداة بشعار حوار الحضارات. ولابد من التذكير بهذا الصدد أن المجتمع الأمريكى هو أكثر المجتمعات المتقدمة جهلا باللغات الأجنبية. ولعل ذلك يفسر مشروعية ميلاد مفهوم صراع الحضارات فى الثقافة الأمريكية دون غيرها من الثقافات الغربية.

وفى المقابل فليس هناك جهل كبير لدى المجتمعات العربية الإسلامية بثقافات المجتمعات الغربية المتقدمة التى استعمرت العالم العربى الإسلامى أو لها أيضا علاقة قوية به بعد الاستقلال. لأن معرفة واستعمال اللغتين الإنجليزية والفرنسية يلقيان حضورا كبيرا بين النخب وبين الطبقات العليا والمتوسطة على الخصوص.

وهكذا، فنظرية الرموز البشرية تشير بكثير من الوضوح بأن هناك علاقة غير متكافئة بالنسبة للرغبة فى حوار الحضارات بين العالم الغربى، من ناحية، والعالم العربى الإسلامى، من ناحية أخرى. فالرصيد المعرفى المهم لدى العالم العربى الإسلامى فى لغات وثقافات العالم الغربى يؤهله أكثر من هذا الأخير للترحيب والدخول الفعلى والمتحمس فى مشروع حوار الحضارات (الذوادى ٢٠٠٥ ج: ١٥٠٨). ■

الهوامش والمراجع

• نستعمل فى هذه المقالة مصطلح الرموز البشرية بدلا عن استعمالنا لمصطلح الرموز الثقافية فى كتاباتنا السابقة. إذ يلغى الأول الغموض الذى قد نجده فى الثانى فى النعت (الثقافية) فى مصطلح الرموز الثقافية. أى لماذا استعمال كلمة ثقافة دون غيرها؟

ومن ثم، رأينا ضرورة تبسيط المصطلح وإعطائه أكثر شفافية بتعويض النعت (الثقافية) بنعت (البشرية) ليصبح اسم المصطلح الجديد (الرموز البشرية). ويعنى النعت (البشرية) بكل بساطة تلك الرموز التى يتميز بها الإنسان عن سواه من الكائنات. وهذه الرموز المميزة للجنس البشرى هى باختصار: اللغة المنطوقة والمكتوبة والفكر والمعرفة/ العلم والدين والأساطير والقوانين والقيم والمعايير الثقافية ...

المراجع العربية

.الباقورى، أحمد حسن (١٩٨٧) أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية، القاهرة، دار المعارف.

.بركات، حليم (٢٠٠٠) المجتمع العربى فى القرن العشرين: بحث فى تغير الأحوال والعلاقات، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

.الذوادى، محمود (٢٠٠٥ ج) «مصاعب الغرب فى التأهل للحوار مع العالم الإسلامى» حوار العرب، مايو/ أيار.

الذوادى، محمود (٢٠٠٥ أ) مقاربة عربية فى مفهوم الطبيعة البشرية، الثقافة النفسية المتخصصة، العدد ٦٢، أبريل.

.الذوادى، محمود (٢٠٠٥ ب) فى أبجدية الرموز الثقافية: من أجل فهم أدق للقضايا الهامة، الآداب، السنة ٥٣، حزيران/ يوليو.

المراجع الأجنبية

Calvet , L- J (1987) La guerre des langues et les politiques linguistiques , Paris , Payot

- Courrier International (2006) : Dossier : Belgique : La fiévre flamande , No 829 , 21- 27 septembre , p.54-59 .

Kivisto , P (2002) Multiculturalism in a Global Society , Oxford , Blackwell Publishing

- Turner , J.H (2001) Handbook of Sociological Theory , New York ,Kluwer Academic / Plenum Publishers , pp.1-17.

White , L (1973) The Concept of Culture , Edina , MN , Alpha Editions

.Porter , J (1967) ' Canadian Character in the Twentieth Century in the, Annals , March , p.49.

Rocher , G. (1990) ' Les deux solitudes chez les sociologies canadiens

محاضرة ألقيت فى الذكرى الخامسة والعشرين لعلمى الاجتماع والأنثروبولوجيا.

Wilson , E (1975) Sociobiology : The New Synthesis , Cambridge , MA , Harvard University Press .



عرب الرموز!

الأمة العربية هى أمة منظومة ثقافية أو رموز بشرية مشتركة. والرموز البشرية بطبيعتها، كما بينا، ليست عناصر مادية ذات وزن وحجم



© Chris Steele-Perkins (Magnum)

بلزاك العرب؟!

داليا توفيق سعودى

حين نعت الأقلام العربية أباها نجيب محفوظ، تواتر فى غمار الحزن تعبير يصف الفقيد العظيم بأنه كان «بلزاك مصر والعرب». ويبدو أن بعض النعاة، حين أدركتهم لوعة الفقد واستحثتهم فضيلة العرفان، قد استعصت عليهم الكلمات التى من شأنها أن تشى بمبلغ الخسارة وتفى بملامح الجدارة. فما كان منهم إلا أن أعادوا تدوير ذلك اللقب الذى كان قد صكه نقاد غربيون عام ١٩٨٨، وهم يعرِّفون قرّاءَهم آنذاك بذلك الكاتب الوافد من بلاد الفراعنة والمآذن، الذى كان قد حصل لتوه على جائزة نوبل للآداب. فكان اللقب ذو الجرس الرنان: «بلزاك مصر» أو «Balzac of Egypt»[1]، وكأننا بصدد فيلم آخر من تلك الأفلام الهوليوودية باهظة التكاليف كثيرة الأغلاط.. وقتها كان مفهوماً - وإن لم يكن بالضرورة مقبولاً - أن تبحث الصحافة العالمية فى دعاياتها عن اسم ألفته آذان قرائها، لتصنع منه قريناً أدبياً، تقرب به صورة كاتب لم تكن أعماله قد حظيت بعد بالتفاتة كافية من قبل دور النشر الأجنبية. فلما تراءى «النوبلى» المصرى عملاقاً مؤصلاً لفن الرواية العربية، وبدا منجزه الأدبى مترامى الحدود متحد الممالك، والتمع سطح أعماله تحت ضياء واقعى يبرز حنايا مصر التاريخ والإنسان، هتفت أقلام من الغرب: «ذاك حتماً أنوريه دو بلزاك، أبو الرواية الفرنسية الحديثة، وصاحب«الملهاة الإنسانية» الخالدة(La comédie humaine)»[2]، قد بُعث بعد قرن من الزمان،فى إهاب مصرى بسمرة النيل». وباطن القول الذى لم ندركه أن«هذه بضاعتنا ردت إلينا..». وفرحنا، نحن العرب، بتلك الشهادة «العالمية»، فوضعناها فى إطار أنيق وعلقناها فى صدارة المنزل. وحين رحل أديبنا الكبير، عدنا فاستعرضناها مجدداً ضمن شهادات «عالمية» أخرى، دون أن نمعن فيها النظر لنمحصها ونتساءل: أحقاً كان نجيب محفوظ بلزاك الرواية العربية؟ ومع افتراض حسن نوايا قد لا يتأتى بسهولة فى هذه الأيام، لنتساءل: هل يكرر تاريخ الأدب نفسه؟ هل من مساحات تداخل بين العبقريتين، أم أن تنافر السيرة والنهج والتوجه هو السمة التى تميز المقاربة والمقارنة إذا ما دُعى الرجلان للركوب معاً فى زورق واحد للعبور لشاطئ الخالدين؟

على لوحة الشرف الرخامية البيضاء الموجودة حتماً فى مكان ما من مملكة الأدب ستجد اسميهما وقد نقشا بمداد من نور: أونوريه دو بلزاك (١٧٩٩- ١٨٥٠) ونجيب محفوظ (١٩١١- ٢٠٠٦). كلاهما جاء فى أوانه من دون إبطاء. كلاهما مضى وحيداً فشق طريقاً واستعمر أرضاً كانت من قبله على مشارف الخلاء. كلاهما صنع سفينة وسط الصحراء، وقد أبصرا - كلٌ فى زمانه - أن الطوفان لا ريب آت، وأنه سيغرق الغافلين عن حركة الزمان، وأنه سيفرض على فلول الكلاسيكيين والرومانسيين الأخيرة انزواءً فاحتضاراً، وأنه سيأكل منسأة الشعر حتى يخر من فوق عرشه، وأنه سيجعل من غنائيات البراءة والبطولة هباءً منثوراً تذروه الرياح، وأنه سيفرض - بعد إقلاع السماء ومغيض الماء - صيغة تعبيرية جديدة تقول بما فى الأزمنة الحديثة من عامية وابتذالية ومادية وتعقد والتباس. فحيثما غاب الشعر، ساد النثر. ومن ضلع النثر خرجت الرواية.

لكن، دعونا لا نحمّل الرواية خطيئة الطبيعة النثرية. فالرواية، المرتبطة أساساً بولادة الحياة اليومية، والتى لا تنى تمزج فى غير اكتراث القبيح بالجميل، والدنىء بالنبيل، تلك المدعوة الرواية تتمتع بنوع خاص من الجمال لم يلتفت إليه القدماء، ألا وهو جمال تحليل المشاعر إلى مركباتها البسيطة وتجزئة الأحلام الإنسانية إلى دقائقها المتواضعة، وهو ما جعل منها الصيغة الأدبية الأقدر على التعبير عن «زخم المصالح وتعقدها، وتعددية المواقف والشخصيات والعلاقات فى الحياة، ورسم الخلفية الرحبة للعالم بأسره»، على حد ما كتبه هيجل فى «فلسفة الجمال».

لعله ذلك النوع من الحُسن الذى أغرى بلزاك بترك دراسة القانون، وحدا بمحفوظ إلى هجر دروب الفلسفة، استجابة لنداء غامض بالاستسلام والمهادنة لسطوة فن لم تكن ملامحه قد تخلقت بعد، وبالتالى ما كان ليحظى فى بواكيره بالاحترام الكامل. صحيح أن تجربة بلزاك الروائية قد سبقتها تجارب متفاوتة القيمة والأثر، وأن فن «القصة» ما قبل محفوظ قد شهد إسهامات كالشذرات. لكن صفة المؤسس قد ألصقت ببلزاك ومحفوظ، كلٍ فى سياقه وزمانه، لكون أعمالهما قد حققت السبق فى التبشير بالقيم الفنية الروائية الحديثة التى استندت إليها أجيال من الكتاب بعدهما، ولكونهما قد أوتيا من الشجاعة والتجرد ما جعلهما يبذلان حياتهما طواعية داخل محراب صاحبة الجمال الواحد: الرواية.

ومثلما بدأ بلزاك رحلته بالرواية التاريخية مع رواية «الثوار الملكيين» عام ١٨٢٩ («LesChouans»)، جاءت بداية محفوظ الأدبية مع ثلاث روايات تَبسط أحداثها فى أجواء الحضارة الفرعونية. كان لكل منهما مشروع لكتابة تاريخ بلاده كاملا فى سلسلة من الروايات. لكن بمثل ما كان الالتجاء إلى الإطار التاريخى فى الحالتين نتاجاً للرغبة فى تلمس أثر الزمن على وجه الوطن، اهتدى بلزاك ومحفوظ، عبر نفسِ الاستدلال المنطقى وذات الحس الفنى، إلى أن مادة الرواية الحقيقية الطازجة موجودة فى الواقع الاجتماعى المعاصر. فراح كل منهما يراقب العالم المحيط من مقهاه، وراح وجه الرواية البديع يلوح ويقترب كالبدر من وراء غيوم.

> **إن نظـــرة عابرة على مستوى عنوان الرواية عند كل من بلزاك ومحفوظ لكفيلة بإظهار البون الشاسع بين المدرستين**

وبعد أن كانت قصص الأولين محض سرد بديع اللفظ رشيق العبارة، يسوق الأحداث الماضية كما تساق الملخصات المعنة فى التبسيط أو الذكريات المجردة من أية سماكة مادية، تحول قراء«الملهاة الإنسانية» و«الثلاثية» و«بداية ونهاية» و«زقاق المدق» و«القاهرة الجديدة» و«خان الخليلى» إلى جمهرة من المشاهدين تتخايل أمام أعينهم صور متحركة تكشف أحداث الحياة فى الزمن الحاضر، وتتقافز فيها شخوص منحوتة القسمات، قد اكتمل وصف أزيائها وأهوائها، وتم غرسها فى أمكنتها الصحيحة، بعناية فنية تفسح المجال لكتلة الحسى من التفاصيل، لتكشف ما فى باطنها من معان نفسية كامنة. صار بالإمكان أن تشم رائحة بنسيون مدام «فوكيه» العطنة وأنت تقرأ الفصول الأولى من رواية «الأب جوريو» لبلزاك، فتدرك ما يخفيه المكان من نفوس آسنة، أو أن تأتيك رائحة الكيروسين النفاذة من شعر حميدة فى «زقاق المدق» لتستشعر أن القمل الذى تحاول الشابة أن تطرده من شعرها الطويل الفاحم لن يلبث أن يتحول إلى وساوس تتزاحم على عقلها الذى يكاد يعصف به الطموح الساخط.

وبالطبع، تستتبع مثيلة تلك الطفرة الفنية ثورة كاملة فى علم الأسلوب، ثورة فجرها بلزاك فى عصره غير عابئ بوابل الحجارة التى انهالت على أم رأسه من كل حدب وصوب، وهى عينها الثورة التى أدارها محفوظ، بعد قرن من الزمان، بحكمته السمحة وابتسامته الأزلية. فكان أن أعيد بمقتضاها تعريف مفهوم الأسلوب، لتتميز وفقا له جماليات الكتابة الروائية عن زخارف النظم الشعرى، وليصبح الأسلوب الروائى مرادفاً لبناء العمل ككل، وما يتألف منه هذا البناء من طرائق سردية وأدوات تعبيرية تتغير من عمل لآخر، لتشكل فى انتظامها معاً فى كل مرة هيكلاً فنياً جديداً. بتعبير مجازى، صار لزاماً على الأسلوب الروائى أن يأخذ بتلابيب الحقيقة المتباعدة مثلما يقبض الشرطى على اللص الهارب تحت نباح الكلاب...

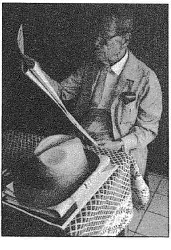
ولقد كتب محفوظ الرواية الواقعية فى وقت كان يُسمع فيه نعى المذهب الواقعى، وتستخدم فيه الرواية البلزاكية كفزاعة تمثل النموذج البالى للكتابة الإبداعية فى أعين أرباب تيار الرواية الجديدة. ففى الوقت الذى كان محفوظ ينجز فيه «الثلاثية»، كان على اطلاع بما راح يكتبه آلان روب جرييه منذ بداية الخمسينيات، وجمعه بعد ذلك فى مانيفستو «من أجل رواية جديدة» (Pour un nouveau

roman) ،مهاجما ذلك الراوى الذى يفرضه بلزاك على قرائه، و«الذى يعرف كل شىء عن أى شىء، وموجود فى كل مكان فى ذات الزمان، ويبادر بتقديم الأجوبة بدلا من طرح الأسئلة»، وينخرط عبر وصلات وصفية لا تنتهى فى تقديم «نسخة طبق الأصل من الحياة». لكن محفوظ كان على إدراك باحتياج الرواية العربية إلى انطلاقة واقعية، وباحتياج القاهرة إلى ثلاثيتها.

والأهم هو أن محفوظ، على خلاف مُنظِّرى الرواية الفرنسية الجديدة، كان يملك رؤية جلية لمفهوم تاريخ الفن. فلقد أدرك مبكراً أن فكرة الارتقاء والتطور التى قد تميز تاريخ العلوم لا تنطبق بنفس الصورة على تاريخ الأدب. فقد يأتى عالم بدواء ناجع لعلاج مرض ما، فيجىء بعده بعقود عالم آخر بدواء مطور ينتفى معه استخدام الدواء القديم. أما فى الفن، فإن مفهوم التاريخ لا علاقة له بالتطوير والتحسين والارتقاء، فطموح الروائى لا ينصب فى العمل على تجويد ما أنجزه أسلافه، وإنما مناطه بالأساس هو المضى فى مغامرة استكشافية، ليضيف المستكشف موقعا جديدا إلى خارطة طريق لاتنتفى منها المواقع المكتشفة سابقا، وليضىء فوق الرؤوس نجمٌ جديدٌ لا تنطفئ لبزوغه النجوم الأخريات. وحين تكون أول الواصلين إلى جزيرة مهجورة، حيث لا طريق ولا خارطة ولا نجوم هاديات، يصبح أول اهتماماتك إقامة حوائط واقعك المادى المحيط.

وذلك ما ارتآه محفوظ فى منظومة أعماله الواقعية التى لم تكن محض نقل حَرفى للطبيعة، وإنما تمثلت فى الالتفات إلى كافة عناصر الحضارة المادية مع توظيفها روائيا بصورة تربط المادى بالروحى، والجسدى بالنفسى، والاجتماعى بالشخصى، والعام بالخاص، فيما يكوِّن صيغة إبداعية تقدم للقارئ وهم الحقيقة وسرابها الأدبى .فبقدر ما قدمت الواقعية البلزاكية تفسيرا أرض- أرض للمجتمع الإنسانى، اتسمت الرؤية المحفوظية - حتى فى أكثر حالاتها اقترابا من الأرض- بكونها معراجا فكريا وروحيا لأديب اعتاد فى طفولته الجلوس على سطح منزله لساعات، ليرقب مئذنة مسجد الحسين السامقة الشامخة وسط سماء قاهرة العشرينيات الجليلة، المتطلعة بنفاد صبر إلى الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

فالطفل الصغير الذى كان يصحب أمه لزيارة الأهرامات والآثار الفرعونية، وانبهرت أنفاسه لحظة رأى مومياء الملك



المتغضنة فى نعشها الزجاجى، فأدرك حقيقة توأمة الخلود والموت على أرض مصر، ذلك الفتى الذى رأى حمرة النيل فى فيضانه، واخضرار ضفتيه فى زمن التحاريق، فعرف أن الحياة مواسم وأطوار، أقول ذلك الصبى الذى عشق أناشيد التكايا وأدارت رأسه القاهرة الفاطمية، قد أوتى من البصيرة والخيال ما أهله لتجاوز الواقع المادى، ولطرح أسئلة الوجود الكبرى منذ البداية، ولتلمس الإجابات فى ما يتيحه التجريب الفنى من تحولات تعبيرية.

وبمزيد من الوعى بملامح القلم النجيب، كتب ادوارد سعيد تحت عنوان«نجيب محفوظ وقسوة الذاكرة» فى دورية New York Review of Books November، ٢٠٠٠) ما ترجمته[٣]: «.. يمتلك محفوظ صوتا مميزا، صوتا يعكس تمكنا لغويا لافتا للنظر وإن كان يأبى أن يعلن عن وجوده. (..) و إضافة إلى ذلك، يملك محفوظ من الأسباب الفكرية والأدبية ما يمكنه من توصيل رؤاه بطريقة فريدة تخصه وحده، تجمع بين القوة والمباشرة وحدة الذهن. فعلى غرار شخوصه الذين يرد وصفهم ما إن يظهروا، حتى يهجم عليك محفوظ بلا روية ليغمرك فى فيض نهر سردى كثيف، ثم يتركك لتسبح فيه وحدك، ولكنه لا ينقطع طوال الوقت عن التحكم فيما حولك من تيارات ودوامات وأمواج تظهر لك مصائر أبطاله، وتاريخ مصر(..)، وعشرات التفاصيل المتعلقة بالأحزاب السياسية، وبأخبار العائلات، وهو يقوم بكل ذلك ببراعة متناهية. هل كان بذلك مصغيا لإملاءات الواقعية؟ نعم، هى الواقعية ولكنه أضاف إليها بعداً آخر: ألا وهو تصور يطمح لتقديم رؤية كونية شاملة ليست بعيدة الشبه عن تجربة دانتى فى الجمع ما بين الواقع الإنسانى والمطلق، لكن من دون الصبغ المسيحى الذى اعتمده شاعر فلورنسا».

ولكن.. أوَ ليس دانتى اليجييرى بالتحديد هو المصدر الذى استلهمه بلزاك، واستوحى من ملهاته الإلهية عنوانها وتقسيمها الثلاثى، وأظهره كشخصية بين أبطال رواية من رواياته[٤]؟

ذاك تلاقى الباحثين عن المدينة الفاضلة، وتلك مساحات تحاور التقت حولها خواطر نبيلة، شغلتها صفة الريادة، واستغرقتها هموم التأسيس، واستلهمت أصفى عيون تراث الأدب، فكان تلاقيها كتلاقى أولئك الملوك الثلاثة الذين اهتدوا قديما إلى أرض المهد باتباع نفس النجم رغم أن كلا منهم قد سلك طريقه الخاص.

لكنهم ما التقوا إلا لكى يفترقوا.

وما أشد ما تباعدت بهم طرائقهم...

عن الفن والأصل والصورة

فى دراسته النقدية الأخيرة «الستار»، (Le Rideau, Gallimard 2005)يحكى الروائى التشيكى ميلان كونديرا تجربة شخصية لا تخلو من الدلالات المفيد عرضها فى هذا المقام، لاسيما أن الحديث فيها لا ينأى عن بلزاك وعن مدى مقبولية فكرة إعادة تجربته الأدبية.

ففى أثناء زيارته الأولى لوطنه بعد انهيار النظام الشيوعى فيه عام ١٩٨٩، التقى كونديرا بصديق له بقى طوال الوقت فى العاصمة «براج» فكان شاهدا على كل ما مر بالبلاد من أحداث. قال الصديق: «لكم نحن اليوم فى حاجة إلى بلزاك جديد. فما تراه هنا اليوم هو وضع شبيه بذلك الذى وصفه صاحب «الملهاة الإنسانية»، من إعادة لإحياء مجتمع رأسمالى بكل ما يعتمل فيه من قسوة ومن غباء، وبكل ما يموج به من سوقية وتدنٍ مبعثهما تكاثر الأفاقين والنصابين ومحدثى النعمة. مجتمع حل فيه العبث الاقتصادى محل العبث الأيديولوچى. ونتجت عن تجاور التجربتين الشيوعية والرأسمالية فيه قصص تعيد إلى الأذهان أحداث روايات بلزاك بحذافيرها». وراح الصديق يحكى قصة مأساوية عما يكابده رجل شيوعى من جحود ابنتيه المتزوجتين من رجلين من أولى الطَول فى مجتمع المال الجديد، بما يحاكى أحداث رواية «الأب جوريو» المثيرة للشجن. وبدلا من أن يعترى الصديقين شىء من التأثر لسماع أصداء تلك القصة الحزينة، راحا يضحكان طويلا...

ثم كان أن أخضع كونديرا ذلك الضحك إلى مصفاة عقله الناقد المتشكك أبدا.

فبدا له أن التاريخ يعيد نفسه. والإعادة تعنى بالضرورة افتقارا إلى الذكاء وانتفاء للأصالة وانعداما للذوق السليم. فكان ضحكه هو وصديقه تندرا بافتقار التاريخ لسلامة الذوق. وعاد كونديرا إلى أمنية صاحبه بأن تجد بلادهما بلزاكها الجديد. وخلص إلى أنه من المثير للسخرية أن يعيد أحدهم كتابة الملهاة الإنسانية. لأنه إذا كان بإمكان التاريخ البشرى أن يرتكب حماقة إعادة نفسه، فإن تاريخ الفن لا يتحمل آفة التكرار. فالفن لم يخلق لكى يسجل، كما المرآة العملاقة، كافة عوارض التاريخ وتقلباته وتفاصيل اجتراره لذاته. الفن، على حد تعبير كونديرا، « ليس جوقة موسيقية تصحب التاريخ فى ترحاله. إنما خلق الفن لكى يصنع تاريخه الخاص».

إن تكرار التجربة الفنية هو ذروة الافتعال وعلامة على غياب الصدق. والتكرار لا يغتفر إلا فى الفنون الهزلية الباعثة على الضحك مثل الكاريكاتير والتقليد الساخر (la parodie) والمحاكاة (le pastiche). ولا يذكر أحد أن اللجنة التى اختارت محفوظ لنيل جائزة نوبل قد ذكرت فى حيثياتها تمكن أديب مصر من فنون التقليد والهزل والفكاهة، أو ارتداء شخوص رواياته لأسمال المهرجين الزاهية الزاعقة الزائطة .

إن نظرة عابرة على مستوى عنوان الرواية عند كل من بلزاك ومحفوظ لكفيلة بإظهار البون الشاسع بين المدرستين. فعند بلزاك، ثمة دأب ملحوظ على انتقاء العناوين التى تدعى بعدا فلسفيا رمزيا، والتى تتضمن وعودا بأن تكون قراءة الرواية بمثابة تحليق فى أجواء تنبسط فيها أجنحة ذلك العنوان وتتنقل فيها عين الطائر فوق أراض شاسعة من المعانى الرحبة. غير أن عنوان الرواية البلزاكية لا يفى عادة بوعوده، وتحت اختبار القراءة، سرعان ما تتكسر أجنحة الطائر ليسقط من حالق فوق صخرة التفاصيل المادية الصرفة. فعلى سبيل المثال، تفضى قراءة روايات مثل «البحث عن المطلق» La recherché de l'absolu و«الأوهام الضائعة» (Les illusions perdues) و«بهاء وتعاسة الغانيات» Splendeurs et misères des)

كان بلزاك ضخما ومبالغا وهرقليا فى كل شىء. كان مفرط العبقرية، جامح الخيال، جاسر الطموح، متقد الموهبة، منهمر العطاء. إذ أنجز فى فترة لم تتعد تسعة عشر عاما إحدى وتسعين رواية

courtisanes) – على جودة محتواها الفنى – إلى تفسير يحصر تلك العناوين الكبيرة داخل إطار مادى ضيق، يقوم على تشيىء المعانى والأفكار، ولا أثر فيه من قريب أو بعيد لأية دلالة ترقى بالنص إلى شاعرية العنوان.

وعلى العكس يختار محفوظ عنوان روايته بشىء من التواضع الحكيم والسهولة الممتنعة. فهو فى مجموعة أعماله الواقعية يميل إلى اختيار اسم حى شهير أو مكان معروف، حتى أن القارئ الغرير ليمر عليه فيحسبه عنوانا بريئا. فما إن يشرع فى القراءة حتى تنقشع عن العنوان صفته المألوفة، وتنجلى بمعان جديدة بعيدة مثلما ينجلى الليل بالإصباح. فعنوان مثل «بين القصرين»، الذى كان الاسم الأصلى للثلاثية فى التحامها قبل تقسيمها لأغراض تجارية، يفقد مع القراءة صفته كمدلول عن منطقة شعبية معروفة، ويتحول شيئا فشيئا إلى دالتين منفصلتين متصلتين: «بين» و«القصرين». لتكتشف مع نهاية الكتاب أن «بين القصرين» هى قصة مصر ما «بين الحربين العالميتين»، التى تحكى الصراع بين نزعتين (النزعة الأبوية المتسلطة الأفلة والنزعة الفردية المتحررة المتنامية)؛ وهى القصة التى تبسط ميدان البحث عن الحقيقة مابين قيمتين شامختين (العلم والإيمان). هكذا تسلمك الثنائية المكانية إلى ثنائية زمنية ومنها إلى ثنائية فى القوى فإلى ثنائية قيمية، فى تخفف واضح من المادى الذى يلوح به العنوان. وبانتهاء عملية القراءة، لو أطبقت جفنيك، واتبعت صوت محفوظ الهامس، سيتبدى لك القصران الحقيقيان. وصدقنى، لو أنك ارتقيت إلى أعلى شرفة فيهما، وألقيت بنفسك من عل، فلن تسقط صريعا من حالق، لأنك ستكتشف – ويا للعجب – أن قراءة النص المحفوظى قد أنبتت لك جناحين قويين، يأخذانك بخفة إلى «مملكة النور والعجائب».

خلاصة القول: الشاعرية فى روايات بلزاك تستمسك بجناحى إيكاروس، بينما الشاعرية المحفوظية طائر عنقاء ينبعث ناشرا جناحين عملاقين من تحت الرماد.

فلمَ الإصرار على إطلاق لقب «بلزاك العرب» على محفوظ؟

البعض يدرج الأمر فى إطار نزعة النرجسية العرقية التى قام عليها سلوك الغرب، الذى رأى فى ثقافته مرجعا سلطويا مقدسا، لا تملك إزاءه الشعوب النامية سوى المحاكاة الببغاوية والتقليد الأعمى. وهنا أيضا يحضرنا رأى الراحل ادوارد سعيد فى مقال مبكر له نشرت ترجمته عام ١٩٧٢ مجلة «مواقف» اللبنانية تحت عنوان «التمنع والتجنب والتعرف»، وفيه نواة لأهم الأفكار التى تناولها باستفاضة فى كتبه صاحب «الاستشراق» و«الثقافة والامبريالية». فى ذلك المقال، أوضح البروفسور سعيد استشراق الغرب للشرق، من خلال طبيعة عقل الرجل الأبيض الممحص الذى يحول كل ما هو غريب عن الغرب إلى صورة مستنسخة عن ذاته الغربية، صورة يتم التعامل معها سياسيا كمراهق تابع للوجود الأبوى الأقوى، وينظر إليها ثقافيا وسيكولوجيا كشريك أدنى لا يصح أن ينتج عنه إلا كل ما هو منقول وسطحى وغير أصيل. وهى فكرة نجد جذورها عند فلاسفة التاريخ فى القرن الثامن عشر مثل الايطالى چيانباتيستا فيكو والألمانى جوهان جوتفريد هيردير، اللذين ناديا بوصاية الثقافة الأوروبية على الشعوب البدائية لحين بلوغ تلك الشعوب سن الرشد، واستيفائها للشروط التى تؤهلها للحاق بركب الحضارة الذى كانت تقوده فى زمن ما أوروبا الاستعمارية وتمثله كنموذج عيارى.

فى ذلك السياق المنادى بأحادية الهوية، هناك إذن من يريد أن يكون بلزاك هو «الأصل» ومحفوظ «الصورة»، لأن هناك من يصر على تعميق فكرة التمييز الهيراركى بين «نحن» و«هم»، ثقافة أم وأطفال تحت التنشئة.

على كل حال، فلنتأمل معا كيف كان «الأصل» المزعوم...

تفكيك بلزاك

على الرغم مما قد يبدو فى هذا العنوان من تعد وتعسف، فلقد رأيناه الأنسب لبحث نتعهد بالحفاظ على الموضوعية فى تناوله. ذلك أننا لسنا بصدد المفاضلة بين «محفوظنا» و«بلزاكهم»، فنحن قد تعهدنا ألا يدفعنا درء الهجوم الخفى إلى التردى فى أخطاء منهجية. إنما نسعى لاقتفاء مسيرة بلزاك من قريب، لنرى هل سيطل علينا محفوظ فى الطريق. ولقد رأينا إن فكرة التفكيك هى الأنسب لطبيعة متأصلة فى شخصية «نابليون الأدب الفرنسى»، تلك الشخصية المركبة، حمالة الأوجه، متعددة الإطلالات.

ففى بلزاك وجه للروائى المبدع، وآخر للكاتب المتعامل مع اللغة، وثالث للإنسان، ورابع للأسطورة. فتلك طبيعة تكوين تكرسها معظم الدراسات البيوجرافية المخصصة لبلزاك، وعززها هو نفسه فى كثير من المواضع، منها ما كتبه فى مقدمة نظرية الأقصوصة (Théorie du conte) واصفا «ذواته» قائلا: «بالأمس، ما إن عدت إلى دارى حتى رأيت عددا لا حصر له من الصور المستنسخة عن ذاتى، وقد تزاحمت فيما بينها كأنها أسماك رنجة مكدسة فى قاع برميل...»!

لكنه فى مواضع أخرى، يبين لنا أن تلك الصور المنعكسة عن ذاته ليست مكررة بل هى متنافرة متضادة فيما بينها. ففى خطاب أرسله لصديقته مدام دابرانتس كتب قائلا: «أحمل بين أضلعى كل ما يمكن أن تسعه النفس من تنافر وتناقض...».

بلزاك المبدع قوة من قوى الطبيعة الخارقة. فهو الأديب الذى رسم وجه الرواية الحديثة وقدم للمكتبة العالمية أضخم انجاز أدبى عرفته البشرية على الإطلاق. وهو واحد من أربعة أدباء فرنسيين اشتُق من أسمائهم نعت محدد المعنى جرى تداوله لغويا بين الناس: فصفة «بلزاكى» تطلق على «كل ما يُظهر نوعا من القوة العارمة، أو إسرافا فى بذل الطاقة، أو سلوكا يحكمه الإفراط والمبالغة»، بحسب تعريف الناقدة الفرنسية إيزابيل تورنييه فى مقدمتها للنسخة الالكترونية للأعمال الكاملة لبلزاك.

وبالفعل كان بلزاك ضخما ومبالغا وهرقليا فى كل شىء. كان مفرط العبقرية، جامح الخيال، جاسر الطموح، متقد الموهبة، منهمر العطاء. إذ أنجز فى فترة لم تتعد تسعة عشر عاما إحدى وتسعين رواية، معظمها من شوامخ الأدب العالمى، تكوّن فى مجملها فصول «الملهاة الإنسانية»، التى يظهر فيها ٢٥٠٤ شخصيات، من بينهم ٥٧٣ يعاودون الظهور فى أكثر من رواية، وفق مبادرة فنية غير مسبوقة، تجعل الشخوص يتجولون بين أروقة هذه الجدارية القصصية المدهشة كما يتجول الناس على مسرح الحياة الكبير.

فى «الملهاة الإنسانية» يقدم بلزاك بانوراما اجتماعية وسياسية وتاريخية وفلسفية للحياة فى فرنسا النصف الأول من القرن التاسع عشر، بانوراما قرر مبدعها ألا يغفل فيها عن «موقف من مواقف الحياة، ولا عن رسم شكلى أو نفسى لرجل أو امرأة، ولا عن أسلوب حياة ولا عن مهنة من المهن ولا عن وسط من أوساط المجتمع، ولا عن بقعة من أرض فرنسا، ولا عن مرحلة من حياة الإنسان سواء كانت الطفولة أو الشباب أو الشيخوخة، ولا عن ملمح فى السياسة أو القضاء». فيما وصف بأنه موسوعة أدبية تقدم شهادة على عصر ميلاد الرأسمالية وصعود الطبقة البرجوازية فى بلد انتهبته المصالح المادية، واندثرت فيه مشاعر الوطنية، وانعدم فيه الضمير، واتجهت فيه السلطة السياسية الى إعلاء شأن الانحطاط والمنحطين، وعادت فيه عبادة عجل الذهب، حتى علا خوار المال فيه على ما عداه من الأصوات، والتهمت فيه النزعة الفردية كل ما وجدته فى طريقها بما فى ذلك معنى الوطن. ذاك وجه بلزاك المبدع الذى اتخذت أعماله – إلى قيمتها الفنية والفكرية – قيمة توثيقية عميقة، تَنبه إلى أهميتها فيمن تنبه كارل ماركس وفريديريك إنجلز.

ولقد سقط بلزاك ميتا إثر تضخم فى القلب نجم عن إفراط فى السهر، وإفراط فى العمل، وإفراط فى السفر، وإفراط فى طول الأمل. كان يعمل ست عشرة ساعة فى اليوم، راجيا من هدأة الليل إلهاما، ومن أقداح القهوة السوداء يقظة جبرية، أنقصت عمره أعواما وأعواما. وعلى فراش الموت راح بلزاك يصرخ: «أحضروا لى بيانشون، لن يقدر على مداواتى إلا الدكتور بيانشون»، وبيانشون هذا شخصية طبيب ابتدعها بلزاك فى رواياته، وأظهرها تحقق المعجزات الطبية فى أكثر من موضع من ملهاته. هكذا، سيطرت على المبدع هواجسُ الإبداع حتى أسلمته إلى هلاوس الموت.

وعلى القبر الواقع فى مدافن الأب لاشيز بباريس، وقف فيكتور هوجو فى ٢١ أغسطس ١٨٥٠ يتلو كلمة الوداع، فقال: «كانت كل كتبه فى واقع الأمر كتابا واحدا، كتابا مترعا بالحياة، فائضا بالنور، بالغا فى العمق، ترى فيه حضارتنا المعاصرة فى اكتمال ملامحها. فى رواحها وغدوها، تمشى هنا وهناك، وقد اعتراها فزع ورهبة، امتزجا بكل مظاهر الواقع. كان كتابا مذهلا، سمّاه صاحبه «ملهاة» وكان بوسعه أن يسميه «تاريخا»؛ وقد جرّب فيه كل الأشكال الفنية وكل الأساليب...».

رحل بلزاك فى الحادية والخمسين من عمره، وقد شارف على تحقيق حلم قديم راوده، وأخبر به معشوقته الأوكرانية مدام «أنسكا» فى خطاب وصلها فى بلادها المثلجة البعيدة، حلم لا يجد غضاضة فى استلهام

كنوز الشرق، إذ يقول صاحبه للحبيبة بنبرته الدائمة التفاخر فى حضرة النساء: «رواياتى ستكون ليالى ألف ليلة وليلة الغرب...».

هكذا يطل وجه الشرق القديم من وراء حجاب أبيض شفيف ليلعب من بعيد، فى خلفية اللاوعى المعتمة، دور ملهمة من ملهمات بلزاك، الذى سجل مرارا إعجابه بترجمة المستشرق أنطوان جالان لكتاب «ألف ليلة وليلة». فهل يصح أن ندعى أن حكايات شهرزاد كانت الأصل و«الملهاة الإنسانية» الصورة؟

أما بلــزاك الكاتب فلقــد واجه أسلوبه التعبيرى نقدا عنيفا لم يواجهه قلم قبله ولا بعده. كتب ماريو روك (Mario Roques) فى الذكرى المئوية لوفاة بلزاك آسفا: «كانت إدانة اللغة والأسلوب اللذين استخدمهما بلزاك من الأطروحات الأثيرة عند أقطاب الحركة النقدية فى عصره، ولقد لاحقته تلك الإدانة فى قبره، وراحت تنتقل من كتاب الى كتاب، حتى تحولت- رغم اعتراض أصوات عاقلة- إلى عقيدة راسخة فى تاريخنا الأدبى».

هنا كان الإفراط غلطة لا تغتفر. سواء تجلى ذلك الإفراط فى التعدى على قواعد اللغة الصارمة أو فى غزارة الإنتاج بوجه عام. فنظرا لأن بلزاك كان ينشر خمس أو ست روايات فى العام الواحد، فقد كان من الطبيعى أن يوصم إنتاجه بنقيصة الإهمال الأسلوبى. ولقد لاحقه الناقدُ الكبيرُ فى زمنه المسرف فى مقته «سانت بوف»، فأدرج رواياته فى إطار ما أســـمـاه بـ «الأدب الصنــاعى» (La littérature industrielle)، ذلــك الأدب الاستهلاكى السهل الذى يظهر فى صورة روايات مسلسلة فى الصحف، ليقدم كماً بلا كيف، وإثارة بلا عمق، ولغة بلا جمال.

ولا يتسع المجال هنا لذكر كورال المقالات التى رددت أصداء تلك الفكرة الجائرة وتفننت فى تقديم تنويعات أكثر سخونة منها وأشد حدة، فلقد كان للرجل أعداء كثر. لكن المثير للتساؤل أن يعود نفس الاتهام بعد سنوات من رحيل بلزاك بأقلام عُرفت عنها الرصانة ورجاحة الرأى. من ذلك ما كتبه جوستاف فلوبير فى خطاب لصديقته لويز كوليه جاء فيه: «أى رجل كان سيصبح بلزاك لو أنه كان يعرف كيف يكتب! فهو لم يكن ينقصه إلا هذا! ولكن على كل حال، ما كان ليتأتى لكاتب متقن انجاز مثل ذلك الكم، ولا لعاله أن يبلغ مثل ذاك الاتساع». وهى ذات الجدلية التى أثارها فنان كبير بحجم أندريه جيد على صفحة من صفحات مذكراته حين كتب مستنكرا: «كيف يأبى البعض أن يفهم



إن عيوب بلزاك كانت هى الأخرى سببا من أسباب عظمته، فلو أنه كان أكثر كمالا، لما صار ذلك العملاق...». أما الباحث الأبدى عن الزمن الضائع، مارسيل پروست، فلقد كتب فى دراسته النقدية المعنونة «ضد سانت بوف» (Contre Sainte-Beuve)، حكما لا مرد له، يقول فيه: «فى أدب بلزاك، لا مجال للحديث عن شىء اسمه الأسلوب...».

كان قدرا محتوما على مؤسس الرواية الحديثة أن يرميه كل من جاء بعده بحجر، لأنه ببساطة كان أكبر من اللازم، فكانت أخطاؤه فوق الاحتمال؛ وكانت خطيئته الكبرى افتراش ظله للمدى، وملاحقة شبحه لكل الخطى. ولما كان هدمه مستحيلا والالتفاف حوله متعذرا، فلقد اتُفق على اعتباره حكّاءً عظيما استعصى عليه فن الكتابة.

أما بلزاك الإنسان فلعله كان السبب وراء مأساة بلزاك المبدع والكاتب معا.

فالطفل الصغير الذى كان يقف فى حضرة أمه «كما العصفور المشلول أمام الأفعى»، والذى ظل، منذ كان طفلا رضيعا، منفيا نفيا تاما ما بين الحضانات والمدارس الداخلية إلى أن أصابه اعتلال الجسد وانهزام الروح، ذلك الصبى الذى ظل يكابد تضييق أبيه عليه فى النفقة وإمعان أقرانه فى إيذائه والسخرية منه، والذى أدرك قبل الأوان الأسباب المريبة لتفضيل أمه لأخيه الأصغر هنرى، أقول ذلك الصغير الغض قد شب فى عالم شديد القسوة، يموج بأخلاقيات التزاحم والتنافس والتكالب، وهو ككل الشخصيات الموغلة فى

طموحها الوحشى، التى رسمها فى رواياته، قد أقسم على بلوغ المجد أيا كانت الوسيلة.

هنا، كان وراء الإفراط فى الطموح حرمان، وما اجتمع الحرمان والطموح إلا وكان ثالثهما التهافت. وهو هنا تهافت مسرف فى ماديته، شره فى أطماعه، عقيم فى ذات الوقت بفعل من الأقدار وتركيبة الظروف الاجتماعية المحيطة. وهو ذات التهافت الذى بثه بلزاك لاحقا فى الغالبية العظمى من شخوصه، حتى الشرفاء منهم وأصحاب الغايات المفترض أنها نبيلة، فبدت لوحته فى مجملها كأنها تموج بقطيع من الغيلان الهائجة الهادرة، التى خرجت وراء طرائدها البائسة، فى زمن انقراض الجنس البشرى.

«الوصول! الوصول بأى ثمن!» عبارة يطالعها الناظر إلى جبين «راستينياك»، البطل الذى منحه بلزاك صفاته النفسية، وأظهره فى خمسة وعشرين موضعا من روايات «الملهاة»، راصدا تحوله البطىء من شاب ريفى طاهر القلب نقى الطموح إلى وزير داهية ورجل ملوث. ولا عجب فى ذلك فأول دروس يتلقاها «راستينياك» جاءته على يد «فوتران»، المجرم الهارب من العدالة، الذى ينطق بكامل الأفكار البلزاكية ويلخص وفقا لها قواعد لعبة النجاح الاجتماعى. ففى رواية الأب جوريو، يقول فوتران (بلزاك الناضج) الى راستينياك (بلزاك الغر): «أتدرى كيف يشق الناس سبيلهم فى هذه الدنيا؟ يشقونه ببريق العبقرية، أو بالمهارة فى الخسة. يجب أن تسقط فى صفوف البشر كقنبلة، أو أن تتسلل بينها كوباء، أما الشرف فلا فائدة فيه.(..) يجب أن تلوث يديك إذا أردت أن تثرى، ولكن يجب أن تعرف كيف «تشطفها» بعد ذلك، ففى هذا جماع الأخلاق فى عصرنا.(..) إذا كانت لى نصيحة أهديها إليك- أيها الملك- فهى ألا تثبت عند آرائك أكثر من ثباتك على أقوالك، وعندما يسألك أحد عن رأى بعه له. والرجل الذى يفتخر بعدم تغيير رأيه مثله مثل من يأخذ نفسه بالسير دائما فى طريق مستقيم، هو أبله يعتقد انه معصوم من الخطأ. ليست هناك مبادئ وإنما هناك أحداث، ليست هناك قوانين وإنما هناك ظروف والرجل الممتاز هو من يحتضن الأحداث والظروف لكى يسيِّرها».(٥)

كان بلزاك داروينياً قبل الداروينية، ميكيافيلليا إلى أبعد الحدود. وهو لم يكن يشير الى أدواء المجتمع الرأسمالى الجديد بترفع الحكيم العارف أو بتحصن المحلل الحذر الواعى، بل كان يركض مع

الراكضين، ويتهافت مع المتهافتين، يرصد الصراع ويخوضه، ويحذر من لهيب الطمع وأصابعه به تحترق.

وفى هذا الإطار تبدى الأدب لصاحب «الملهاة الإنسانية» كمادة استعمالية. إذ لم يكن بلزاك ينتمى إلى تلك الفصيلة النادرة من الأدباء الذين ينظرون إلى الفن نظرة تقديسية مجردة من الأطماع والشهوات، فيهتمون بالعمل من دون الاهتمام بالثمرة، ويرون فى الكتابة معنى لوجودهم، ويجدون فيها إشباعا روحيا وتفتحا وجدانيا تهون معهما كل التضحيات(٦). كان بلزاك يضع على قدم المساواة النجاحات الدنيوية الشخصية والإبداعات الأدبية. فقبل عام واحد من وفاته، وهو مشرف على تحقيق حلمه الكبير بالزواج من مدام «أنسكا» التى يحبها منذ ستة عشر عاما، كتب بلزاك عنها لأخته تلك الكلمات: «انه لمدعاة للتفاخر فى باريس أن يفتح المرء صالون بيته ليجمع فيه صفوة المجتمع، فيجدون فيه امرأة لها مهابة الملكات، ذات أصل عريق، ومنسبة لأكبر العائلات، وهى إلى ذلك لبقة ومثقفة وحلوة. ولو أحسن المرء استغلال ذلك الوضع ففى وسعه أن يضمن وسيلة كبرى لتحقيق السيادة والهيمنة. (..) فبغض النظر عن ثروتها الطائلة، تجلب لى هذه الإنسانة معها أعظم المزايا الاجتماعية.(..) فإن لم أصبح عظيما بفضل «الملهاة الإنسانية»، فستجعلنى هذه الزيجة عظيما».

فكان الزواج بعد طول ممانعة من جانب العروس، لكن العريس لم يحقق ما كان يصبو إليه من سيادة اجتماعية، فقد رحل بعد ثلاثة أشهر من إتمام الزفاف.

فالتهافت أيضا يستمسك بأجنحة إيكاروس...

لم يكن بلزاك ينظر إلى الأدب كغاية وإنما كوسيلة، وسيلة بين الوسائل الممكنة لكسب المال وتحقيق نوع من النجاح الاجتماعى. لذلك لم يتردد فى طرق كل الوسائل الأخرى: فمن اشتغال بالصحافة إلى إنشاء مطبعة إلى شراء صحف إلى أطماع فى السياسة إلى تجارة وأعمال واستثمار (فلقد طمح أديبنا- عفوا أديبهم- أن يحقق أرباحا طائلة تارة بشراء مناجم فضة فى سردينيا، وتارة أخرى بزراعة مساحات ضخمة من الأناناس داخل صوبات فى منزله!). ولما كانت كل تلك المشاريع تبوء بالفشل الذريع، مخلفة وراءها ديونا جسيمة، فلقد كانت سببا مباشرا وراء انكفاء بلزاك الدائم على الكتابة، ليفى بمواعيد الطباعة وليقدم لناشره الرواية

لم يكن بلزاك ينتمى إلى تلك الفصيلة النادرة من الأدباء الذين ينظرون إلى الفن نظرة تقديسية مجردة من الأطماع والشهوات، فيهتمون بالعمل من دون الاهتمام بالثمرة، ويرون فى الكتابة معنى لوجودهم

الجديدة، التى عادة ما يكون قد قبض ثمنها مقدما وأنفقه كاملا قبل أن يبدأ الكتابة.

وفى كل ليلة، راح بلزاك الإنسان يقدم لبلزاك المبدع أقداح القهوة السوداء القاتلة، وسط أجواء فاوستية غائمة تجلجل فى خلفيتها ضحكات شيطان الأدب...

هل بدأت تستشعر فداحة أن يقرن اسم محفوظ ببلزاك؟ ليس بعد؟ فضلا تابع القراءة.

البرقوق والنبوت

يقول جوستاف فلوبير: «ينبغى على الأديب أن يقنع قارئيه بأنه لم يعش قط». وهى عبارة تشير، على اقتضابها، إلى مبلغ الضرر الذى يقع على النص الأدبى حين تتسرب إلى أسماع القارئ أخبار الحياة الخاصة للكاتب. فتأمل معى ما يصيب تخيلك للشخصيات النسائية فى «البحث عن الزمن الضائع» حين تعرف أن بروست كان مثلياً، أو ما تؤول إليه آراء سانت بوف الوعظية حين تعلم أنه قد خان صديق عمره فيكتور هوجو واتخذ من مدام هوجو عشيقة. ثمة حاجة ملحة لأن تبقى تفاصيل حياة المبدع فى طى الكتمان، وأن يحتفظ القارئ إزاءها بشىء من الجهل الآمن، لكون الحقيقة تقتل الخيال.

لكن بلزاك، رغم تفرغه الدائم لمشروعه الأدبى الطموح، قد أقنع قارئيه بأنه قد عاش وعاش وعاش! ففى أويقات الراحة التى كان يخرج فيها إلى العالم، كان ينقض على الدنيا انقضاضا، تاركا مشاهد شطحاته نهبا لأعين المترصدين. فكان يأكل كما لا يأكل بشر، ويضحك بصبيانية وصخب، يستجدى الأنظار ويستخفه الإطراء، يثير الجلبة والجدل، وينخرط فى معارك هنا وصراعات هناك. وكان قد كون مع أصدقاء له فى ميدان الصحافة ما يشبه العصبة السرية، يرفعون بأقلامهم من يروق له فى السياسة والأدب وينحرون من يناوئه. فبعد وفاة بلزاك، أكد الأديب تيوفيل جوتييه والناقد ليون جوزلان-صديقا بلزاك المقربان- أنهما اشتركا مع بلزاك فى رابطة سرية أطلق عليها صاحب الملهاة اسم رابطة «الحصان الأحمر»، التى ضمت أكثر من خمسة عشر كاتبا وصحفيا، اتفقوا فيما بينهم على تكوين ما يشبه مجموعة ضغط، شعارها يشبه شعار الفرسان الثلاثة: «الجميع للواحد والواحد للجميع». وبحسب شهادة الصديقين، كان بلزاك هو أكثر من استفاد من دعم أفراد هذه الرابطة، إن فى الدفاع عن أعماله أو فى محاولة تقريبه من المناصب التى كان يطمح فى الوصول إليها، مثل مقعد الأكاديمية الفرنسية، ومنصب نائب فى البرلمان. وإن فشلت محاولاته فى تحقيق مآربه... فأى بون هائل يفصل بين حرافيش محفوظ وحرافيش بلزاك!

ولقد دأب بلزاك على أن يحدث الغرباء عن عظمته وعبقريته وألمعيته، مسرا للجميع بتفاصيل روايته القادمة، مفاخرا بالملايين التى ستدرها عليه مشاريعه الدون كيشوتية التى لا تنتهى، فى الوقت الذى كان يختبئ فيه لأسابيع تحت اسم مستعار لعجزه عن سداد إحدى الفواتير. أما أزياؤه الزاهية ذات الأزرار الذهبية، فكان يصنعها له أحد أشهر الخياطين فى مقابل أن يذكره صاحب «الملهاة» فى رواياته الواسعة الانتشار. وفى وقت كان بلزاك يعجز فيه عن تدبير ثمن القهوة والسكر، كان يقترض المال ليكسو حوائط بيته بالدانتيلا والحرير الفاخر، أو ليشبع ولعه الدائم بجمع التحف والقطع الأثرية التى ظهر فيما بعد أنها كانت- فى معظمها- زائفة مقلدة، لتكتمل بها سخرية القدر.

ومثل كرة الثلج التى تكبر وئيدا، رسم الخيال الجمعى الفرنسى لبلزاك وجها أسطوريا كبر مع الأيام. وجه قد تراه فى عجائب المقتنيات التى يزدحم بها متحفه، أو فى سيل الكتابات التى تناولت حياة الرجل بعد مماته، فحولته بشىء من الخيال الكاريكاتورى إلى مسخ فولكلورى، فيه من العبقرية ما فيه من غرابة الأطوار.

و فى متحفه الكائن فى ٤٧ شارع رينوار بباريس، سيطلعك المرشد على السرداب السحرى الذى كان بلزاك يستخدمه للهروب من المحضرين ومحصلى الديون. وسيخبرك أمين المتحف بابتسامة مستخفة بأن زوار بلزاك كان عليهم أن يقولوا كلمة السر المتفق عليها لكى يطمأن لهم ويسمح لهم بالدخول، فما إن كان الخادم يفتح الباب، كان على الزائر أن يقول متهلل الأسارير: «حان موسم البرقوق!».

وفى المتحف سترى أيضا عصا بلزاك ذات الرأس المصنوع من الذهب الخالص، والمرصع بحبات الفيروز الحر، التى كان يخبئ بداخلها صورة لمدام أنسكا وقصاصات شعر مهداة من المعجبات، تلك العصا السحرية التى كتبت عنها قصص وألهمت للبعض حكايات[7]، والتى تشبه لضخامتها وغلظتها نبوت أحد الحرافيش العتاة، نبوت يعكس سطوة الفتونة الأدبية، ويردد عبر الزمان أسطورة التهافت والفناء.

و أمام اتساع ابتسامة الدليل المستخفة ستفهم أخيرا مغزى رأى بروست فى بلزاك حين قال عنه: «سيظل حبنا له ممزوجا بشىء من السخرية..». وهى سخرية تسرى فى النص الروائى الضخم سريان النار فى الهشيم، تطعن فى مصداقيته، وتنتشر بين سطوره المحكمة كالخلايا السرطانية المتكاثرة، وتحول ذواته المتضاربة إلى «أسماك رنجة متزاحمة ومتكدسة فى قاع برميل تعس. أسماك ما امتلأت بالحياة إلا لكى تتدافع وتتقاتل، ليبقى منها الأصلح وليزيدك مرآها أسفا على أسف».

نعم، سيبقى أدب بلزاك مفخرة الفرنسيين، وستبقى ملهاته الإنسانية أثرا خالدا يقف أمامه القارئ بكثير من الاحترام، وسيشهد قلمه المضىء عبر الزمان على مبلغ الظلم الذى وقع عليه من قبل كثير من النقاد، لكن هنا وهناك، فى طيات الصفحات، ومن بين الكلمات المصفوفة، ستجد دائما ذلك الطفل الكبير الصاخب يخرج لك من حيث لا تدرى، بثيابه الزاهية، وعصاه الذهبية، ونوادره وخوارقه وأطماعه الصغيرة البالية، ليشتت انتباهك ويفسد عليك شيئا من متعة القراءة.

ذلك مصير الأديب حين يدرك قراؤه أنه قد عاش.

ذاك مآله حين يخرج بطموحاته عن النص.

جلس نجيب محفوظ إلى مكتبه ليدوّن سيرته الذاتية. لكنه أطرق قليلا وأغضى بصره. ثم ترك القلم وبقيت الصفحة بيضاء...

وفى يوم آخر، عاد فأمسك بالقلم، وكتب هذه المرة فى «أصداء السيرة الذاتية»: «هنيئا لمن عاش ومات فى بوتقة الهجران».

■ ■ ■

طوبى لمن عاش ليحكى..
لمن تواضع وترفع..
لمن عشق وتعفف..
لمن عرف واستغنى..
لمن ملك الحياة واختار الإرادة..
لمن شُغل بالوجد عن المجد..
وأتاه المجد فاستعذب الزهد..
لمن صان معنى «الخلافة»..
لمن لا يتجزأ..
لمن فهم «اقرأ»..
لمن بقيت صفحته بيضاء..
و خاض الحياة «ببراءة الأطفال وطموح الملائكة»..
لمن كانت كلمته نورا للإنسان..
لمن كانت كلمته نورا فى الميزان..
لمن عاش ومات فى بوتقة الهجران..

■ ■ ■

«البوابة تناديه. تهمس فى قلبه أن اطرق، استأذن، ادخل، فز بالنعيم والهدوء والطرب...» (الحرافيش، ص٢٠) ■

الهوامش

(١) ظهر لقب «بلزاك مصر»، أو Balzac of Egypt، أول ما ظهر فى مقال نشره الكاتب ويليام هونان William H.Honan، بصحيفة «ذا نيويورك تايمز» فى عدد الرابع عشر من أكتوبر ١٩٨٨ تحت عنوان Balzac of Egypt, Energy and Nuance، «بلزاك مصر، القوة والتفرد».

(٢) La comédie humaine, édition publiée sous la direction de P.G. Castex, Paris , Gallimard, NRF, coll."Bibliothèque de la Pléiade",1976-1981, 12 volumes.
كان أونوريه دو بلزاك قد اهتدى الى فكرة لم يسبقه إليها غيره من الأدباء، حين جمع رواياته عام ١٨٤٣ تحت عنوان واحد هو «الملهاة الإنسانية»، التى كان من المزمع أن تضم ١٣٧ رواية ومجموعة قصصية. أتم منها ٩١رواية، انتظمت جميعها داخل ذلك البناء الضخم وفقا لثلاثة أقسام كبرى هى:
- دراسات اجتماعية.
- دراسات فلسفية.
- دراسات تحليلية.

(٣) الاقتباسات من ترجمة الكاتبة، إلا أن يشار الى غير ذلك.

(٤) ظهر دانتى كواحد من شخصيات رواية «المبعدين» لبلزاك، Les proscrits)، (التى تدور أحداثها فى باريس عام ١٣٠٨ .

(٥) ترجمة هذه الفقرة للدكتور محمد مندور- «نماذج بشرية»، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٩٧، ص ١١٥-١١٦ .

(٦) كتب فلوبير الى صديقته لويز كولى بعد أن قرأ مراسلات بلزاك التى نشرت عام ١٨٧٦، معلنا عن أسفه العميق لما لمسه فى شخصية صاحب «الملهاة الإنسانية» من نواقص، ومن اهتمام مبتذل بالمال فكتب لها قائلا: «كم كان قليل الاكتراث بالفن(..) كم كان ضيق الأفق(..)يحلم بمقعد فى البرلمان(..) و هو الى ذلك جاهل وريفى حتى النخاع، يبهره الترف...».

(٧) فى ١٨٣٦، كتبت دولفين دو جيراردان رواية بعنوان «عصا بلزاك»، تصورت فيها قدرات غير عادية لعصا أديبها المفضل، فهى عصا تتيح لحاملها القدرة على الاختفاء، والتسلل بخفة داخل العقول والقلوب.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشـكـر الناشـرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

تاريخ الاستشراق وسياساته

زكارى لوكمان

ترجمة: شريف يونس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٤٢٦صفحة



يقدم المؤلف هنا رؤية لتاريخ الاستشراق وسياساته. ويمكن القول إنها فى مواجهة رؤى ذات طبيعة استعمارية استعلائية قام به مستشرقون عبر مئات السنين، يمكن اعتبارها رؤية منصفة إلى حد كبير.

وكى يصل المؤلف إلى استنتاجاته الأساسية فى هذا الكتاب، فإنه يعود إلى المنابع الأصلية التى استقى منها هذا الفكر الاستشراقى الاستعمارى مادته الخام، بدءاً من الثقافة اليونانية القديمة التى اعتبرت الأب الروحى للفكر الغربى فى صيغته المعاصرة، وصولاً إلى عصر النهضة، ومروراً بثقافة العصور الوسطى الأوروبية.

وهو هنا يميز بين رؤيتين: رؤية أصولية تنظر إلى الإسلام باعتباره إسلامًا وحيدًا، وهى فى هذا الإطار تتعامل مع النص فى صيغته الجامدة، دون أن تطالع تطبيقاته على مر العصور، ودون أن تحاول أن تستكشف ما ينطوى عليه من رحابة، سمحت للمؤمنين أن يجتهدوا بوصفهم أعلم بشئون دنياهم.

واستناداً إلى هذه الفكرة، فقد اعتبر المسلمون هم أنفسهم فى كل زمان ومكان، وأنه لا اختلاف يذكر بينهم، وهى صورة أضرت كثيراً بالتعامل مع الإسلام والمسلمين، لأنها اقتصرت على عملية تحليل لغوى دون أن تتجاوزها إلى تحليل واقع المسلمين المعاش عبر العصور.

ويشير المؤلف إلى أن اليونانيين القدماء لم يعتبروا أنفسهم أوروبيين غربيين أو مؤسسين لما بات يعرف بعد ذلك بالحضارة الغربية، لكنهم اعتبروا ذاتهم جماعة مميزة ثقافيًا وحضاريًا وسط مجموعات من البرابرة.

وقد بلور الإغريق القدماء صورة متطورة للشخصية الاجتماعية والسياسية لدول وشعوب آسيا.

وهى صورة وظفها الأوروبيون الغربيون بعد ذلك بزمن طويل لتدعيم التقسيم الحاد بين الشرق والغرب، والذى طبق بعد ذلك على الإسلام وحده، بعد استبعاد أصحاب الحضارات القديمة فى الصين والهند، وهى الصورة التى باتت شديدة الوضوح بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، وفيما يبدو فإن هذه الصورة كانت إلى حد كبير تراثًا نابعًا من صراع الإغريق الطويل مع الفرس، وقد أقام الأخيرون دولة قوية فى إيران، قدر لها أن تهدد الدولة الإغريقية وأن تزحف على مدنها فى سعيها للتوسع وتأكيد قوتها النامية.

هذه الصورة التى صاغها الإغريق عن أنفسهم هى التى أصّلت لفكرة الاستقطاب الحاد بين الغرب والشرق، والتى لخصتها عبارة «كبلنج»: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا، وهى أيضًا التى أعطت الأساس النظرى لفكرة الاستبداد الشرقى، إذ صار الشرق كله كتلة واحدة تحكم من خلال حاكم مطلق، والناس عبيد مستذلون، وهى بدورها فكرة غير صحيحة تمامًا، إذ كان الغرب نفسه فى عصوره الوسطى استبداديًا يحكمه طغاة ربما أكثر عنفًا وأشد بطشًا من الطغاة الذين عرفتهم المجتمعات الشرقية.

المؤلف من ناحية أخرى، يعيد الاعتبار للثقافة الشرقية والإسلامية على وجه الخصوص، فالغربيون وإن كانوا يؤكدون على مرجعية الثقافة اليونانية، فإنهم لا بد أن يعترفوا كذلك أن هذه الثقافة ذاتها مدينة للعلماء المسلمين فى الفلك والطب والهندسة والجبر بما أسسوا عليه علومهم فيما بعد.

وحين جاءت المسيحية فإنها عمقت هذه الفجوة، خصوصاً بالاعتماد على التقسيمات التوراتية للعالم، والتى يأتى فيها الأفارقة فى ذيل القائمة، والذين كتب عليهم أن يكونوا خدماً «لليافث»، أى المسيحيين الغربيين، وللأغيار من اليهود على السواء، وحين ظهر الإسلام، ظل المسيحيون الغربيون يتعاملون مع أتباعه بوصفهم وثنيين همجًا وليسوا أصحاب رسالة، وحتى حين أرادوا أن يتعرفوا عليهم، فإنهم لم يسعوا إلى تفهمهم وإنما دراستهم على طريقة «اعرف عدوك».

فى مرحلة تالية ستزداد توجهات المستشرقين إلى الشرق لأسباب مختلفة، وسيسهم هؤلاء فى إضافات بالسلب أو بالإيجاب للفكرة التقليدية عن الشرق، وسيتابع المفكر الفلسطينى إدوارد سعيد هذه الجهود فى دراسته المهمة عن الاستشراق فى أواخر السبعينيات، لكن العداء سيبقى، وستكون على الإمبراطورية الأمريكية فى صيغتها الاستعمارية الجديدة أن تؤججه وتؤكده، كى تسيطر على منطقة الشرق الأوسط وتبتلع خيراتها الاقتصادية والنفطية على وجه الخصوص.

ركن العشاق (قصص)

عبدالرشيد صادق محمودى

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧، ١٨٢ صفحة



تضم المجموعة ست قصص: ركن العشاق، البجعة الأم، أنا فتحى، عشاء على شاطئ البحيرة، يوم تفر المدن، سوكسى. وهى فى مجملها تسعى إلى الغوص فى النفس البشرية واكتشاف دوافع سلوكها، كما أن بعضها يعبر عن صدام الأنا والآخر، وما يبدو من تفاعل أو انسحاق فى هذه العلاقة المعقدة.

المؤلف مثلاً فى قصته الأولى «ركن العشاق»، يحملنا معه إلى علاقات حب عجيبة ومتداخلة إلى درجة فانتازية، تبدأ بـ«أشرف» محرر باب ركن العشاق فى إحدى المجلات والذى يحلم بكتاب يسميه «الكتاب المطلق» الذى يستطيع أن يروى فيه كل شىء، لكن هذا الصحفى الذى لم يعرف الحب والذى يعيش مع أمه العجوز، توكل إليه مهمة أن يحل مشاكل العشاق ويهدئ خواطرهم، وحين يقع هو نفسه فى الحب، يفاجأ بأن من أحب لها خطيب وعشيق وآخر تبقيه بوصفه «الأبقى لها»، وهى تمارس معهم جميعًا درجات مختلفة من العشق دون أن تجد فيما تفعل تناقضًا من أى نوع، وفى أجواء العشق المتداخلة والمرتبكة تلك، تبزغ أحوال البلد التى هى «زفت» كما يخبره «سيد» الموظف الصغير لدى «رأفت» عشيق سوسن والذى ينتظر دوره كى يصبح هو رجلها الأوحد.. «كان يسير ببطء لكيلا تزل قدمه فى الوحل الزلج ويسقط بحمله، ولكنه كان يريد سيارة تقله إلى بيته بأقصى سرعة، لولا حمله لعدوه، كان عواء المرأة تلذذاً يطارده».

هى المرأة نفسها التى التقاها دون ترتيب والتى قالت له بدلال آسر: لا بد أنك اكتويت بالحب عشرات المرات، ويسائل نفسه: أليس من العجيب أن يستشار فى أمور الحب هو الذى لا زوجة له ولا حبيبة؟ ويا طالما قالت أمه: إنك لن تتزوج الشجر.

كما نرى، فإن القصة التى عرضنا لها باختصار مخل بالضرورة، تنطوى على دلالات إيحاءات رمزية كثيفة، سياسية ونفسية وإنسانية، وهو الأمر نفسه الذى يصادفنا فى باقى قصص المجموعة، والتى تفتح مستويات مختلفة للنظر والتأويل فى جماليات النص ومقاصده.

المسرح الإسرائيلى

شمعون ليفى

إعداد وتقديم: سلمان ناطور

رام الله: «مدار» ـ المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية ٢٠٠٦، ١٤٨ صفحة



يعتبر المسرح العبرى فى إسرائيل من أرقى وأهم الفنون، وتقبل عليه كافة الأجيال والشرائح والطوائف باستثناء المتدينين المتزمتين، لأن الديانة اليهودية لا تشجع الفن المسرحى بل تحرمه، وهو ما يثير تساؤلاً حول هوية هذا المسرح، هل هو نتاج إسرائيلى مدنى، أم أنه تحول طرأ على الفكر الدينى اليهودى دفعه إلى قبول المسرح وعدم تحريمه، أم أن الصهيونية حللت المحرمات لأنها تضع نفسها فوق الديانة، باعتبار أن الصهيونية ذاتها عقيدة سياسية.

والكتاب الذى ألفه واحد من أهم الباحثين فى المسرح الإسرائيلى وهو رئيس قسم المسرح فى جامعة تل أبيب، وهو أيضًا ممن ينتمون إلى تيار تقدمى مناهض للاحتلال والعنصرية والتمييز القومى، ومن الباحثين العالميين فى مسرح صموئيل بيكيت والمسرح الألمانى المعاصر، يجيب عن تساؤل: إلى أى حد نجح المسرح العبرى فى التعبير بصدق وحساسية عن هذا المجتمع وتناقضاته ومشاكله الجوهرية.

من ناحية ثانية سنلاحظ فى الدراسات التى يقدمها الكتاب أن النصوص التوراتية حاضرة بقوة فى المسرح العبرى، برغم أن اليهودية تحرم فن المسرح، بل إن هذه النصوص تم توظيفها منذ وقت مبكر فى خدمة تثبيت أركان الدولة الجديدة، أى أن مقتطفات هذا المسرح منذ البداية كانت قوية منسجمة مع المشروع الصهيونى منذ بدايات القرن العشرين، مع ملاحظة أن المسرح العبرى المعاصر بدأ فى أوروبا وليس فى فلسطين.

وربما كانت أبرز سمات هذا المسرح فى السنوات الثلاثين الأخيرة هى تحرره من الالتزام بقضايا الأمة، وتحوله من مسرح ترويجى قومى إلى مسرح نقدى لاذع، فى السياسة والاقتصاد والمجتمع، ولأن هذا المسرح تأسس أساسًا خارج إسرائيل، فقد أحضر معه كل منجزات المسرح الغربى، ولذا فإن لهذا المسرح حضورًا عالميًا كبيرًا لم يحققه المسرح العربى.

فضلاً عن أنه لا رقابة مطلقاً على المسرح فى إسرائيل، وهو ما شجعه على الغوص فى كافة القضايا بلا محاذير من أى نوع.

الزويل

جمال الغيطانى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٣٩صفحة



تحكى الرواية عن قبيلة الزويل التى تعيش على الطريق الواصل بين مصر والسودان والذى يمر ببلدة حلايب، وهم - بحسب المؤلف - يتجنبون لقاء بعثات المناجم أو البترول، إلا أن بعضاً من رجالهم عمل بالفعل كحمالين فى مناجم الفوسفات، وهو ما تثبته سجلات شركة مصر للتعدين، كما أن كثيرين منهم عبروا الطريق الواصل بين البحر الأحمر ومدينة قنا فى صعيد مصر، وفى الصعيد مارسوا أعمالاً شتى: عملوا فى جمع البلح وبناء البيوت والملاحة فى المراكب النهرية وبيع الفاكهة وتشحيم القطارات وبيع أشياء صغيرة فى عربات الدرجة الثالثة بالقطارات، ولديهم تقاليد راسخة ولا يسمحون للغرباء باقتحامهم إلا وفق شروط واضحة ومحددة، لهذه الأسباب جميعها رويت عنهم أساطير وحكايات كثيرة تختلط فيها الحقائق بالأوهام.

ويرى البشارية والعبابدة، وهما قبيلتان كبيرتان فى الصعيد عن الزويلية أنهم ليس لديهم مصادر مقدسة مكتوبة، أو نصوص مخطوطة، إنما انتقلت معتقداتهم المقدسة تلك شفاهة عبر الأجيال، وقد اختفى زويل الكبير منذ عدة مئات من السنين، لا يعرف متى على وجه الدقة، وحل بدلاً عنه الشيخ الملثم، وهو تجسيد حى للزويل المختص حتى يعود من غربته واختفائه، لكن لماذا اختفى الزويل الكبير؟

تقول الروايات إنه ضاق بالعالم وما فيه، وكادت روحه الطاهرة النقية كالندى تختنق فى آثامه وشروره فارتفع إلى السماء بعد عذابات رائعة وآلام مخيفة، عانى منها أجيالاً طوالاً وتوارى فى الغمام، ولهذا السبب ما أن يرى الزويلى غمامة فى السماء حتى يطرق خاشعاً، حتى لو سمع الرعد ورأى البرق، فالرعد هو صوت الزويل المختفى، والبرق هو سوطه.

فى هذه الأجواء الأسطورية تدور أحداث الرواية، فى زمن سحرى مدهش.

الديمقراطية وحوار الثقافات

السيد يسين

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٧، ٣٢٩ صفحة



يضم الكتاب أقساماً أربعة، يمكن اعتبارها مجتمعة تعبيراً عن أصداء كل من أزمة الديمقراطية العربية والصراع حول حوار الثقافات، وهو يشتمل على مقالات نشرها المؤلف على مدى عام كامل تقريباً (من ديسمبر ٢٠٠٥ وحتى أكتوبر ٢٠٠٦) فى صحف مصرية وعربية.

وهو يبدأ بمقالات موسعة عن الديمقراطية فى العالم العربى، يؤكد فيها على العلاقة الوثيقة بين طبيعة النظم السياسية وإفرازاتها الثقافية، وإن كان يعترف بالفجوة بين النظرية والتطبيق، خصوصاً أن ثمة تأثيرات داخلية وخارجية متفاوتة فى هذا الإطار. ويشير المؤلف إلى اعتياد النظم العربية فى مجملها تزييف إرادة الناخبين سواء كانت فى انتخابات رئاسية تقوم على التنافس على مقعد رئيس الجمهورية أو الاستفتاء، أو الانتخابات البرلمانية التى يتم بموجبها اختيار أعضاء المجالس النيابية المناط بهم وضع التشريعات، وهذا يعنى أن مسألة الأغلبية التى تتشدق بها بعض النظم وتراها مطيتها لتنفيذ ما تريد هى مسألة محل شك كبير، كما يلاحظ المؤلف أن مبدأ المساواة أمام القانون لا يطبق باتساق فى المجتمعات العربية، لأنه فى الدولة السلطوية، يستطيع أعضاء النخب السياسية الحاكمة الإفلات بذرائع شتى من تطبيق القانون، ويشدد على أن إتمام عملية التحول الديمقراطى فى العالم العربى لابد أن تشهد بالضرورة إعمالاً لمبدأ المساواة أمام القانون، والتى تقتضى بالضرورة سيادة القانون، وهذا أيضاً غير متحقق، إذ توجد دول عربية عديدة ليس فيها فصل واضح بين السلطات التنفيذية والقضائية والتشريعية، كما أن مسألة احترام حقوق الإنسان وسيادة قيم التسامح وضمان حقوق الأقليات فى الوطن العربى محل شك كبير.

ثمة أفكار عديدة أخرى تتضمنها الدراسات بين دفتى الكتاب، والذى ينهيه المؤلف بصياغة عناصر استراتيجية ثقافية عربية تتضمن: رسم خرائط معرفية للاتجاهات الأيديولوجية فى العالم العربى، تحيط بكل ألوان الطيف الثقافى والسياسى فى هذا الواقع العربى، وتقييم الوزن النسبى لكل تيار واتجاه، حتى يمكن تقديم صورة موضوعية للتفاعلات السياسية بين أنصار الأيديولوجيات العربية المختلفة.

وتبنى موقف رشيد من ثلاثية الماضى والحاضر والمستقبل، يقوم على منهج علمى ونقدى واع للواقع العربى، منهج تكاملى لا يفصل بين السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، ويستشير فى المستقبل العربى، ويتعامل مع العولمة بغير شطط أو خنوع.

وتتضمن الاستراتيجية الثقافية العربية أيضاً حصر مشكلات التواصل الثقافى مع الغرب، ومنها العلاقة بين الإسلام والغرب، والتطرف والإرهاب والهجرات العربية إلى أوروبا، إضافة إلى الدعوة للإسهام العربى فى مناقشة المشكلات الإنسانية العالمية، ولعب دور فاعل فى حوار الحضارات.

البحث العلمى فى المجالات الإنسانية

مصطفى عبدالسميع محمد

فيليب اسكاروس

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ٢٧٢ صفحة



تضم فصول الكتاب الستة، خلاصة الخبرة النظرية والتطبيقية فى مجال مناهج البحث العلمى، ويعالج المؤلفان فى الفصل الأول مدخلاً نظرياً يتضمن تعريفاً للبحث العلمى ووظائفه واستراتيجياته الأربع: الاستقرائية والاستنتاجية والارتدادية والافتتاحية، ويرصد القواعد العامة للسلوك الأخلاقى للباحث قبل أن يعرض الإجراءات العلمية التطبيقية لإعداد بحث علمى رصين فى المجالات الإنسانية.

ويعرض الفصل الثانى للطريقة الوصفية فى البحث وتقنياتها الثمانى، وهى: البحث التاريخى الوثائقى والمعالجة الفلسفية وتحليل النظم والمعايشة وحل المشكلات والمعالجة والمقارنة وتحليل النظم وتقنية زوم.

ويتضمن الفصل الثالث شرحاً للطريقة التجريبية فى البحث العلمى فى المجالات الإنسانية وتقنياتها الإحصائية.

ويقدم الفصل الرابع أدوات البحث العلمى فى المجالات الإنسانية وهى ست: المخطوطات والوثائق والمصادر الإلكترونية واللاإلكترونية، والملاحظة والمقابلة الشخصية وصحف الاستبانة والاستقصاء واستمارة البحث، ومقياس أنماط التفاعل الاجتماعى والاختبار التحصيلى.

وفى الفصل الخامس سبع صيغ لبحث الوضع الراهن فى المجالات الإنسانية وهى: الكمية والكيفية والنقدية والتقويمية وبحوث الأداء وبحوث الرأى العام وبحوث الفريق.

ويخصص الفصل السادس لعرض صيغ بحوث المستقبل.

رحلات بنت قطقوطة

عزة بدر

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٧، ١٢٣صفحة



فصول من أدب الرحلات، ترسم المؤلفة فيها انطباعات تمزج بين رؤية سائح وعين أديب، فاللغة الأدبية حاضرة كون المؤلفة شاعرة وكاتبة قصة، أما الرحلات فتبدؤها من اليونان ثم إلى إحدى المدن الإيطالية «سيراكوزا»، ومنها إلى المغرب ثم الحجاز.

فى ثيسالونيكى باليونان، تصادف المؤلفة مدينة كوزموبوليتانية ذات تاريخ عريق وسحر خاص، وتحضر كرنفالاً يحتضن ثقافات الشعوب جميعها، تقول: كانت الرغبة فى الحوار العميق والتفاعل مع ثقافات متعددة تخاطب المشاعر والقلوب فى أرق تجلياتها، بلغات مختلفة سمعنا الشعر والأغانى، وبأساليب تعبير متنوعة وغنية عبرت الشعوب عن داخلها الحميم بعروض مسرحية وأفلام تسجيلية ورقصات شعبية وأغنيات أعراس وعروض باليه، وعبرت النساء المبدعات عن بلدهن، عن هذا التنوع والفن والخصوصية التى جعلت لهذا البلد مذاقاً خاصاً.

وفى سيراكوزا كانت المؤلفة مدعوة بصفتها صحفية للمشاركة فى مؤتمر عن حقوق الإنسان فى وسائل الإعلام المصرية والعربية، وهى إلى جانب ما سجلته من ملاحظات وما نقلته من متابعات عما دار فى المؤتمر عن رؤية الآخرين لحقوق الإنسان عندنا، ورؤيتنا نحن لحقوقنا فى المعرفة والاتصال، فإنها لا تفوت الفرصة لتحدثنا عن الناس والمكان والأشياء، والعلاقات المتداخلة بين الجميع فى هذه المدينة الإيطالية الجميلة.

وفى المغرب تنقل لنا ما دار فى مهرجان الرباط الحادى عشر، ذلك المهرجان الذى تمتزج فيه الثقافات ذات الخصوصية بالمغرب، موشحات أندلسية وأغنيات حديثة أيضاً، لكنها إلى ذلك تحدثنا عن الرباط المدينة، حاراتها وشوارعها وسماتها المعمارية المميزة، تدخل بنا إلى زنقة السويقة وزنقة الملاح وشارع محمد الخامس، رائحة العطارة والشاى والصندل والقرنفل والمسك ونقوش الحناء، قبل أن تنتقل بنا إلى مدينة فاس بسماتها شديدة التميز.

أما فى الحجاز فرحلة الشوق الأبدى لجوار الكعبة ومسجد سيدنا النبى عليه الصلاة والسلام، ملابس الإحرام البيضاء والحمام الأمن يرفرف يحمى الحمى، وأبواب الجنة مشرعة للتوابين الصادقين العابدين، ارتواء الروح الأبدى وظمأها الأبدى فى آن معًا.

■

أنا وطفلى والطبيب

د. إبراهيم شكرى
القاهرة: دار الشروق



أنا وطفلى والطبيب حوار بين اثنين فى أمر ثالث يهمهما شأنه، هو الحوار أو الحديث عبارة عن بعض المعلومات والتوجيهات، وإجابة عن تساؤلات تخص حياة الطفل اليومية ورعايته وأمراضه الشائعة. ويشتمل هذا الكتاب على أربعة أبواب:

١. العام الأول من العمر بدءاً من أول يوم بعد الولادة.
٢ ـ من العام الثانى حتى سن دخول المدرسة.
٣. أعراض وأمراض شائعة فى فترة الطفولة.
٤. تشخيص وروشتة.

أنا وطفلى والطبيب كتاب ألفه أهم أطباء الأطفال فى مصر والعالم العربى الدكتور إبراهيم شكرى، أستاذ طب الأطفال بكلية الطب بجامعة القاهرة. هو نتاج سنين من الخبرة العملية كتبه المؤلف خصيصًا للأم المصرية والعربية ليكون بمثابة مرجع لهما فى كثير من الأمور التى تتعلق بحياة طفلهما والعناية به، وتنشئته وتربيته السليمة، وكيفية التصرف أثناء حالاته المرضية.

■

نوعية الحياة فى منطقة عشوائية

إشراف: محمود الكردى
القاهرة: المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ٢٠٠٧، ٢٨٩ صفحة



تهدف هذه الدراسة إلى رصد وتحليل واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان عشش منطقة الشرابية بالقاهرة، بوصفها نموذجًا لمنطقة عشوائية، وسكنى العشش تعبير مأساوى عن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التى تجرى فى العمران البشرى، وهى تمثل من ناحية ثانية أدنى الأنماط السكانية. وقد استخدم مصطلح مدن وأحياء الصفيح فى العديد من دول العالم للإشارة إلى هذا النمط المتدنى من السكن فى المناطق العشوائية.

وقد بدأت ظاهرة سكنى العشش فى مصر، فى إطار ما سمى بإسكان الإيواء المؤقت الرسمى فى بدايات الستينيات، عندما تولت وزارة الإسكان بناء مشروع ناصر للإيواء العاجل فى عدة محافظات، وتم بناء ٣٠٠٠ وحدة منها فى القاهرة وحدها على هيئة أكشاك، وكانت خدماتها الخاصة بالصرف الصحى والمياه مجمعة فى كل موقع للاستعمال المشترك، وتركزت على وجه الخصوص فى إمبابة والأميرية وحلوان، والأراضى المحيطة بالسكة الحديد، وعادة ما يلجأ سكان العشش إلى إقامتها بالقرب من مواقع خدمات أساسية كالصرف الصحى ومياه الشرب، ويمثلون بتواجدهم هذا ضغطًا على تلك المرافق، مما يعجل بانهيارها ويسبب مشاكل بيئية كثيرة.

وفى نطاق القاهرة الكبرى على سبيل المثال، فإن العشش تقام متاخمة لأراضى الإيواء المؤقت التى تقيمها المحليات لاستيعاب سكان المساكن القديمة التى تهدمت، كى يستفيدوا من دورات المياه المشتركة المخصصة لهم، كما أنهم يستفيدون من الوصلات الكهربائية لساكنى العشش القدامى، أو يسرقون التيار الكهربى، وكذلك فى الأراضى الواقعة بطول محاور السكك الحديدية، والمناطق الخالية الواقعة على ضفاف نهر النيل، والأراضى الفضاء بجوار المناطق الصناعية، والأراضى المتاخمة للمناطق الأثرية وأراضى الوقف.

وفيما يتعلق بمنطقة الشرابية التى هى موضع الدراسة، تفاوتت الآراء بشأن بداياتها الأولى، لكن ثمة اتفاقًا على أنها بدأت بعدد محدود من العشش لا يتجاوز ١٥ أسرة استقرت بالمنطقة، ثم بدأت الأسر فى التوافد تباعًا، حتى اتسع نطاق العشش بالصورة التى وصل إليها الآن.

ومن أبرز المشكلات التى تعانيها العشش، الافتقار إلى أدنى درجات الخصوصية وانعدام الخدمات الأساسية، ولا يلتفت المسئولون إليها إلا فى حالات الكوارث، وتتنوع بها أشكال الجرائم والبلطجة على النحو الذى يمكن أن نجده فى عشوائيات مماثلة، وفى إطار البحث الميدانى، أبدى سكان العشش استعدادهم لتركها على الفور إذا توافرت لهم أماكن إقامة بديلة وفرص عمل قريبة منها.

الدراسة ترصد أحوال سكان عشش الشرابية صحيًا وإنسانيًا وتعليميًا وأمنيًا، خصوصًا أن سكان العشوائيات فى مصر

رواية من الواقع العربى



البساطير
هاشم رزق المصرى
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ١٨٣ صفحة

دكتور هاشم إسماعيل رزق المصرى طبيب فلسطينى يعمل بالطب والأدب والسياسة وهى ثلاثية تكررت كثيرا فى الأدب والثقافة العربية. ولد الدكتور المصرى فى مدينة نابلس الفلسطينية أيام الاحتلال الإسرائيلى وقد اعتقل وأبعد من قبل السلطات الأردنية عام ١٩٨٥ بسبب مواقفه السياسية. وقد تم إبعاده للمرة الثانية من المملكة العربية السعودية أيضا بسبب نشاطه السياسى وهو يعمل ويقيم حاليا فى اسطنبول.

البسطار هى أحدث رواياته:

من وادى التفاح، من شارع عبدالناصر، تحركت الجماهير، تحمل النعش، نعش الشهيد، تدفقت للشارع، ماجت والنعش على الأكف، فى وسط الجماهير الغاضبة علا النعش، جلل بالعلم ذى الألوان الأربعة، هانى بينهم، يحمل النعش، يداه طريتان، أصابعه غضة، صاحوا به:

اتركه، دعه لا تقدر على حمله.

لم يهتم لم يسمع، الأصابع الغضة والحقد والتصميم والشعيرات الصغيرة فوق الشفة العليا ترتعش.

ستقع، اترك هذا لمن هم أكبر منك. عادوا وصاحوا به.

بالأمس خرجوا كانوا سويًا، جمال معهم بجانبهم فى مقدمتهم، هاجموا دورية للعدو، جمال رماها بحارقة، احترقت السيارة وثلاثة جنود، صرعته رصاصات العسكر، اخترقت صدره وفارق الحياة.

الأصوات تعلو من حوله، يصيحون أن يبتعد أن يترك النعش، أن يترك جمالاً، ظل ماسكًا بالنعش لن يتركه، سار معه إلى مقبرة الشهداء، شهداء الجيش العراقى، شهداء عام ١٩٤٨.

لم يبك، لم تنزل له دمعة، صديقه، رفيقه، من كان بالأمس معه، فعاهده ألا يبكى، فالدمع يغسل الحقد يوهن الإرادة، وعاد إلى بيت جده. دخل الحمام قضى حاجته وغسل وجهه، عندما فتح الباب كان أبوه فى انتظاره، لم يسأل، بمجرد أن رآه لطمه على وجهه.

اترك الزعران، صاح به، إننا لسنا لهذا الأمر نريد أن نعيش.

غادر البيت رأسًا بدون أية كلمة مع جدى أو جدتى، جدتى أخذتنى من يدى غسلت لى وجهى وأجلستنى على الكنبة بجانبها.

لا تأبه له، لا يعرف كيف يتصرف، والدتك ستحضر بعد عدة أيام.

«لو كانت هنا لفهمتنى» قلت لنفسى، دموعى سالت على خدى، جدتى أخذت رأسى إلى صدرها وضمتنى، تذكرت صديقى، مسحت عينى وخدى بطرف قميصى.

فى الصباح حملت الأزهار، ذهبت للضريح، بعض الأصدقاء قد سبقنى، وبدأت انتظر أمى.

فى أول يوم أخذت الطفلة فى حضنى، لم أحدث أمى بما كان بينى وبين أبى، تناولنا العشاء سويًا، فى اليوم الثانى عندما عدت من المدرسة، أمى على الباب تنتظر، تنظر فى وجهى ويملأ عينيها القلق والحيرة، مسحة حزن وتفكير تملأ وجهها، فى بادئ الأمر لم تقل شيئًا، أخذتنى من يدى، أحضرت لى الطعام، بعد أن أنهيت طعامى، رفعت وجهها سألتنى:

ما هو الموضوع؟ أبوك رمى بعض الكلمات وخرج، وكعادته يكمل جملته فى الطريق.

نظرت إليها لم أقل شيئًا.

أنت الوحيد الذى خرجت به من هذه الدنيا، انظر لأختك. قالت بحزن وغابت عنى، دمعت عيناها، الألم يعتصرها، تعود للأيام الماضية، تتذكرها وتخاف علىّ، لابد أن أتحدث أن أتكلم، هى بالذات لا أستطيع أن أهرب منها، تلاحقنى بنظراتها وألف سؤال وسؤال نظرتها.

أبى لم أهتم كثيرًا له، لم أشعر بأنى ملزم بأن أفسر له، كنت أجابهه بالصمت منذ سنوات لم أره إلا قليلاً.

أبى تكلم عن جنازة جمال، لقد كنت فى الجنازة، ماذا فى ذلك؟ قبل أن أكمل كلامى قاطعتنى:

ليس الجنازة فقط.

هكذا إذن، حدثها عما كان يردده دائماً: الزعران والحجارة ولم نقبض شيئًا.

الأن، يمثلون ما يقرب من ثلث عدد السكان، أي ٢٥ مليون نسمة، وهو رقم ليس بالهين.

■

الصحوة النوبية

حجاج أدول

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٧، ١٣٦ صفحة



من واشنطن بالذات، أطلق الأديب النوبي حجاج حسن أدول صيحته المطالبة بحقوق النوبيين، وطالب العالم بحمايتهم بوصفهم أقلية مضطهدة، وقطاعاً من المصريين يعاني ظلماً تاريخياً منذ بدايات بداية الخزان ثم التعليات المتتالية التي بدأت في ١٩٠٢ وانتهت مع بناء السد العالي في ١٩٦٤.

يشبه أدول ما يسميه بالقضية النوبية بالقضية الفلسطينية، فالفلسطينيون طردوا من أراضيهم بواسطة الصهاينة في عملية ترانسفير بالغة القسوة، وهو الأمر الذي عاناه النوبيون أيضاً، حيث طردوا من أراضيهم وأزيحوا إلى خارجها، وتم توطينهم في بيئة صحراوية مغايرة تماماً لتلك التي اعتادوها، وهو ما أثر تماماً على حياتهم وأباد تمايزهم الثقافي وجرح صفاتهم الإنسانية التي منحتها إياهم الطبيعة النيلية والزراعية التي عاشوا فيها عمرهم كله، ولم يعوضوا بشكل مناسب حتى اليوم، كما أنه يرى في عملية إبادتهم تشابهاً كبيراً مع عملية إبادة الهنود الحمر التي جرت على أيدي الأوروبيين المغامرين، الذين قتلوا مئات الألوف من سكان البلاد الأصليين ليقيموا بدلاً منهم وينشئوا الولايات المتحدة الأمريكية.

وبسبب هذا «الظلم» الذي يراه أدول، فإنه يقترح عدداً من المطالب كي يرد الاعتبار لأبناء النوبة، أولها أن تمنح الحكومة المصرية الأراضي التي تزمع استصلاحها في منطقة توشكى لأبناء النوبة قبل أي مواطنين مصريين آخرين، وأن يضم التشكيل الحكومي وزيراً نوبياً يتولى إدارة شئون أبناء النوبة وتحقيق مطالبهم العادلة إلى أن يتم حل المسألة النوبية تماماً فيتم إلغاء هذه الوزارة، وإعادة فتح ملف التعويضات للنوبيين ومنحهم تعويضات مناسبة للتضحيات التي قدموها بديلاً عن التعويضات البخسة التي حصلوا عليها من قبل، ونظراً للتضحيات التي قدمها النوبيون، فإن على الحكومة أن تضعهم في موضع المواطنين الأولى بالرعاية، وأن تخصص لهم نصيباً من الوظائف في الدرجات العليا، وأن تخصص نسبة من المعونات الأجنبية لتوطينهم، وأن يتم تدريس التاريخ النوبي في المدارس، وأن تتم محاكمة جميع المسئولين الذين تسببوا في المأساة النوبية.

هذه هي باختصار «أجندة» حجاج أدول التي أطلقها في واشنطن، والتي يرى فيها كثيرون من أبناء النوبة في أحسن الفروض شططاً ومغالاة، وفي أسوئها عمالة لجهة أجنبية، حتى إن بعضهم يربط بين ما يقوله حجاج أدول والمخطط الإسرائيلي لتفتيت مصر إلى دويلات ثلاث: سنية وقبطية ونوبية.

هذه هي «صحوة» أدول التي أظن أنها «إغفاءة» سرعان ما سيفيق منها.

■

آفاق جديدة.. التناغم بين الثقافة والدبلوماسية والسياسة

أنطونيو باديني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٢٧صفحة



مؤلف هذا الكتاب هو سفير إيطاليا السابق في القاهرة، والذي أنهى عمله بها قبل عدة أسابيع فقط، وهو إلى جانب نشاطه الدبلوماسي متخصص في منطقة المتوسط وشرق المتوسط، وقد عمل منسقاً قومياً للشراكة الأورومتوسطية.

والفكرة الأساسية هي النقيض تماماً لفكرة صراع الحضارات التي قام بها صمويل هنتنجتون، هي فكرة حوار الثقافات خصوصاً بين دول حوض المتوسط، ولذا يدعو المؤلف إلى استعادة مسارات الثقافة والفن والعلوم السياسية لبناء هوية متوسطية تقوم على مجموعة من القيم والمصالح المشتركة، وبحسب ما يقول المؤلف فإن الحكومات والمجتمع المدني عليهم العمل معاً لإعادة السياسة إلى محور الأحداث، لكن ثمة شروطاً لهذه العودة، أولها وضع حد فاصل بين التضامن بين الشعوب والتدخل في الشئون الداخلية للدول، وثانيها المطالبة بالعدالة في الميدان الدولي، ووقف الصراعات والعنف والحروب باسم الإله.

كما يشير المؤلف إلى ضرورة التخلي عن الإفراط في الأيديولوجية، التي يعتبرها سبباً في إقصاء السياسة عن ميادين عملها الرئيسية.

ويعلق أهمية كبيرة على التعددية في الغرب، التي يمكنها بمرور الوقت أن تقوم بدور الجسر لدعم علاقات الثقة بين ضفتي البحر المتوسط، ومحاربة ثقافة الرفض التي تفرض شروطها على الحوار بين الشرق والغرب، وتصدر أحكاماً مسبقة عن عدم توافق الديمقراطية مع الإسلام. وفي هذا الإطار فإن العلاقة الوطنية بين الدول الواقعة جنوب المتوسط وشماله يمكن أن تتسع لتضم بلاد البحر الأسود والخليج، أي البحر المتوسط بالمعنى الواسع للكلمة، وهي المنطقة التي كانت مهداً للحضارات الإنسانية الأولى التي أضاءت العالم آلاف السنين، في وقت كانت أوروبا ترزح تحت ضغوط الجهل والظلامية، كما أن إنسان البحر المتوسط لا يختلف عن نظيره في أي مكان في العالم المتقدم، لكنه توارى بفعل ظروف قاسية لم يكن له يد فيها، منها الحروب العرقية والدينية، وهو ما يؤكد على أهمية أن تقوم السياسة والقانون والثقافة بتحديد مجالات عملها داخل تحالف حقيقي أو في إطار ائتلاف للقيم المشتركة، وأن تتشارك الحكومات والمجتمع المدني في وضع رؤية للأمن والاستقرار في البحر المتوسط الكبير.

ويعطي المؤلف المجال الثقافي أهمية كبيرة في هذا المجال، بل يجعل الثقافة في قلب المشهد، وخصوصاً الكتاب.. «فالمقالات والأشعار والروايات هي التي تجعلنا نعرف مدى تماثل وتشابك الأحداث الإنسانية بصرف النظر عن العقيدة والجنس»، ولذا فإن استعادة الدبلوماسية لأدوات الثقافة يمكن أن يكون وسيلة ناجحة لتجنب التوترات وسوء التفاهم، قبل أن تتحول إلى أزمات وحروب.

■

الإنسان هو الحل

حازم خيري

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٧، ١٤٢صفحة



البشرية لوحة فسيفساء تضم ملايين الألوان والاختلافات والتباينات، وهذه هي حكمة الخالق سبحانه وتعالى، أن يكون الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا، دون أن يدعي فريق أنه يمتلك ناصية الحكمة، وأنهم هم الفرقة الناجية دون سواهم، ولا شيء يمكنه أن يكدر صفو الحياة، أكثر من ادعاء مثل هذا، خصوصاً إذا سعى الطرف الذي يدعي أنه يمتلك الحقيقة المطلقة إلى فرض تصوراته على الآخرين.

ويورد المؤلف مقولة للشاعر المارتينيكي «إيمي سيزير» هي «في موعد النصر متسع للجميع»، ولعلنا نضيف إليها ما قاله الشاعر الإنجليزي شللي «الأرض إنها تتسع للجميع»، «الأنسنة» أي المشاركة في الإنسانية إذن، هي الفكرة الأساسية التي يدرسها الكتاب، وهو لا يكتفي بالتركيز على ما تمثله في واقعنا المعاصر، وإنما يستقي أدلتها بالإبحار في مدى زمني وثقافي أبعد في العصرين القديم والوسيط، وهو يقدم في الفصل الأول من الكتاب تعريفات فلسفية مختلفة لفكرة الأنسنة وخصوصاً عند السوفسطائيين اليونان، الذين يدرس تطور فكرة الروحانية لديهم، ثم يدرس الفكر العربي الإسلامي في العصر الوسيط وموقع الأنسنة فيه، من خلال دراسات لكارل هنيرشي بكر وعبدالرحمن بدوي وجورج مقدسي ومحمد أركون، ويقدم في الفصل الثالث نماذج تطبيقية لمفكرين آمنوا بفكرة الأنسنة وعملوا عليها نظرياً وعملياً، باعتبار أن الأنسنة ليست نهجاً نظرياً مجرداً، وإنما هي بحسب تعبيره النهج الأقرب للفطرة الإنسانية السليمة والأجدر بالتطبيق على أرض الواقع، ومن ثم فهو يقدم هذه الشخصيات باعتبارها معالم على الطريق في هذا الإطار، لذا فإنه يعتبر المفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد والمفكر الباكستاني إمبال أحمد، والمناضل في صفوف ثورة التحرير الجزائرية فرانز فانون، ويشير إلى صداقات جمعت الأقطاب الثلاثة، وإلى قواسم مشتركة ميزت فكرهم، ويخصص الفصل الأخير في البحث عن كيفية بناء الشخصية الأنسنية.

■

أوهام مشروع الشرق الأوسط الكبير

محمد أحمد النابلسي

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٧، ٢٣٨ صفحة



مشروع الشرق الأوسط الكبير ليس وليد اللحظة، ليس واحداً من الأفكار النزقة للرئيس الأمريكي بوش الذي أعلن في مارس ٢٠٠٤ عن مبادرته للشرق الأوسط الكبير، وهو كبير كونه يتاخم كل الأعداء المحتملين للولايات المتحدة الأمريكية: أوروبا في الغرب، والصين في الشرق وروسيا شمالاً.

نقول إن هذا المشروع هو أب شرعي للفكر الاستعماري منذ نهايات القرن التاسع عشر، أما سبب إعادته إلى الحياة من جديد في هذا التوقيت بالذات، فيعود إلى رغبة اليمين الأمريكي الجديد تثبيت الواقع العالمي الذي انتهى بانتصار أمريكي كاسح، وغياب شبه تام للمعسكر المناهض.

هذا الكتاب يفند مقولات الشرق الأوسط الكبير ويعدها أوهاماً، لافتاً إلى الطابع البرجماتي للمشاريع الأمريكية التي ينزع عنها صفة الأيديولوجيا، ويجعلها عرضة لتقلبات الواقع والمصالح والسياسات التي تتبدل يوماً بعد آخر.

ويطرح المؤلف تساؤلاً مع هذه الفكرة تساؤلاً بالغ الأهمية: هل تتمسك الولايات المتحدة بهذا المشروع لو تعارض مع مصالحها، والجواب هو بالنفى، لأن أى مشروع يمكن الانقلاب عليه مادام لا يلبى المصلحة الأمريكية، وهكذا يرى المؤلف أن الولايات المتحدة بدأت بالفعل خطواتها فى الانقلاب على هذا المشروع، عبر قراءة تحليلية مستقبلية سياسية.

يقدم المؤلف استنتاجاته تلك عبر ثمانية فصول ومقدمة: الشرق الأوسط الكبرى ويقدم فيه لمحة تاريخية عن المشروع ونصوصه ويعلق عليها، المنطلقات الجيوسياسية لأمركة الشرق الأوسط متضمناً الإشارة إلى الفشل الأمريكى فى العراق، أزمات الاقتصاد الأمريكى فى إطار أزمة الرأسمالية العالمية، أبعاد جديدة للسياسة الأمريكية، رؤية مستقبلية لمشروع الشرق الأوسط الكبير، عولمة النفط متضمناً الدول النفطية، فرضيات التوقع العربى فى الفضاءات العالمية، وأخيراً التداعيات المستقبلية لاحتلال العراق.

■

تاريخ نهاية العالم

جوناثان كيرش
ترجمة: عبدالوهاب علوب
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧، ٢٧٣ صفحة



تمثل رؤيا يوحنا، أو سفر يوحنا، وهو آخر أسفار العهد الجديد من الكتاب المقدس، ركيزة أساسية فى الفكر السياسى الاستعمارى الأمريكى الآن، ويتبناها الرئيس بوش ورجال إدارته من اليمينيين الجدد ودعاة ايفانجليكيون ومسئولون حكوميون كبار، وهى الرؤيا التى تشير إلى معركة هرمجدون التى يموت فيها ملايين البشر فى مواجهة دامية تصل فيها الدماء إلى أذقان الخيل، قبل أن يقود المسيح ألفاً من أنصاره لبناء عالم جديد.

هذه الرؤيا تغلغلت فى ضمائر المسيحيين فى أوروبا الغربية منذ القرون المسيحية، وبدت واضحة فى الحروب الصليبية.

الكتاب يتحدث عن مشاهير من الأوروبيين تعلقوا بهذه الرؤيا وسعوا إلى العمل بها، منهم الملك لويس الرابع عشر، واسحق نيوتن والشاعر الإنجليزى وليام بليك، وفى مرحلة تالية انتشرت هذه الرؤيا فى أمريكا وحازت شهرة واسعة، وصارت مثار اهتمام الشعب الأمريكى كله، وتأثرت سياسات الرئيس ريجان الداخلية والخارجية بهذا السفر، وفى تسعينيات القرن الماضى، كتب القس تيم لاهاى سلسلة عن نهاية الزمان والمجىء الثانى للمسيح وحرب هرمجدون، بيع منها ٦٠ مليون نسخة.

وبداية النهاية وفقاً لسفر الرؤيا تصاحبها علامات غامضة: شمس داكنة وقمر بلون الدم، نجوم تسقط على الأرض، جبابرة وادعياء نبوة، وباء وطاعون ومجاعة، ثم يظهر الشيطان الذى هو عدو المسيح، وتصبح له سطوة مطلقة على الأرض، وبعد سنوات سبع من ظلم المسيح وقهره، ينزل يسوع المسيح من السماء متخفياً فى هيئة محارب ليقود جيشاً سماوياً من قديسين وشهداء يبعثون، وينتصر على حشود الشيطان فى معركة أرمجدون، ثم يسلسل الشيطان ويحبسه فى حفرة لا قرار لها، ويقيم مملكة أرضية يحكمها لألف سنة، وفى نهاية الألفية يتحرر الشيطان من أغلاله، فيضطر المسيح لخوض معركة أخيرة، بعدها يبعث الموتى ويحاسب الأحياء والموتى على السواء.

المؤلف يتابع هذا السفر الأكثر إثارة فى الكتاب المقدس، ويشير إلى تجلياته فى السياسة الأمريكية المعاصرة، كما فى الأدب والقصائد الشعرية، ويقدم المؤلف فى الختام النص الكامل لسفر الرؤيا بتقسيماته المعروفة إلى إصحاحات وفقرات.

■

صفحات من تاريخ المرأة المصرية

عبدالمنعم الجميعى
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٧، ١٩٥ صفحة



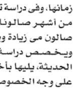
يضم الكتاب عدداً من الدراسات التى تتناول صورة المرأة المصرية فى العصر الحديث. تتناول الدراسة الأولى قضية تعليم المرأة وعملها خصوصاً فى عهد محمد على وما بعده، إذ كانت المرأة قبل ذلك قعيدة البيت، فريسة للخرافة والجهل، حتى دعا رفاعة الطهطاوى إلى النهوض بأوضاعها أسوة بما رآه من أحوال النساء فى باريس، ثم جاءت دعوة قاسم أمين الشهيرة لتحرير المرأة بعده بنصف قرن تقريباً، وسبقتها دعوات على مبارك والأفغانى ومحمد عبده وعبدالله النديم، إضافة إلى نبوية موسى وملك حفنى ناصف ولبيبة قاسم وهدى شعراوى وغيرهن.

وتتناول الدراسة الثانية أوضاع المرأة المصرية فى عصر المؤرخ عبدالرحمن الجبرتى، وقد عاصر الفترة الأخيرة من عصر المماليك ثم قدوم الحملة الفرنسية وأخيراً عصر محمد على، وهى فترات كانت حبلى بتحولات اجتماعية كبيرة، أثرت كثيراً على أحوال المرأة، ثم يستعرض فى الدراسة الثالثة المرأة فى عصر محمد على، ويركز فى الفصل الرابع على صالون الأميرة نازلى فاضل وما كان يدور فيه من جدل ونقاش، خصوصاً على صعيد حرية المرأة، وكان من رواد هذا الصالون الزعيم سعد زغلول والإمام محمد عبده والشيخ على يوسف وقاسم أمين ومحمد فريد وأحمد لطفى السيد وغيرهم من رموز النهضة فى تلك المرحلة، ويخصص الدراسة الخامسة لتعليم المرأة الجامعى، والسادسة للسيدة فاطمة اليوسف التى يمكن اعتبارها نموذجاً لإبداع المرأة المصرية والعربية فى الفن والصحافة، فيما يفرد الدراسة السابعة والثامنة لشخصيتين لعبتا دوراً مهماً فى مسيرة الغناء العربى، هما منيرة المهدية وأم كلثوم مستعرضاً كفاح كل منهما فى الحياة حتى وصلتا إلى هذه المكانة المرموقة، خصوصاً أم كلثوم التى تربعت على عرش الغناء العربى ما يزيد على نصف قرن، ولعبت دور البطولة فى عدة أفلام سينمائية، وغنت لكبار الشعراء والموسيقيين فى زمانها، وفى دراسة تالية يعرض لصالونين من أشهر صالونات هذه المرحلة هما صالون مى زيادة وصالون هدى شعراوى، ويخصص دراسة للأفراح فى مصر الحديثة، يليها بأخرى عن أفراح الأنجال على وجه الخصوص، ولا يفوته أن يتناول حكاية ريا وسكينة السفاحتين الشهيرتين، اللتين تعد قضيتهما من أشهر حكايات الجرائم فى مصر، حيث اتهمتا بقتل نحو سبع عشرة امرأة فى الفترة من نوفمبر ١٩١٩ وحتى نوفمبر ١٩٢٠، وينهى بفصل أخير عن دور المرأة فى حياة زعماء مصر ورجالاتها البارزين من أمثال مصطفى كامل والشيخ على يوسف وسعد زغلول وإسماعيل صدقى ومصطفى النحاس والملك فاروق وجمال عبدالناصر وأنور السادات.

■

مها رداميس وروشتة تخسيس

تقديم: مفيد فوزى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧



«الطعام بأنواعه يؤثر على أجسادنا وعقولنا وطريقة تفكيرنا وتصرفاتنا... هكذا تقول الدكتورة مها رداميس فى كتابها اللافت الصادر حديثاً فى القاهرة عن الدار المصرية اللبنانية تحت عنوان: «مها رداميس وروشتة تخسيس» بتقديم للكاتب المعروف مفيد فوزى.

والكتاب الذى يقع فى مائتين وخمس عشرة صفحة من القطع فوق المتوسط تشير مؤلفته إلى أن هناك «عديداً من العادات السيئة التى نتبعها فى غذائنا، سواء فى نوعيته أو فى طريقة تناوله، كما أنه يهدف إلى الاحتفاظ بالصحة والشباب لأكبر فترة فى حياتنا. حيث إن الطعام ليس فقط «بنزين» الجسد، بل هو مصدر الإمداد بالطاقة، وبالتالى يحافظ على نضارة الوجه والجلد».

وتقول الدكتورة رداميس، التى يعرفها الجميع من خلال ظهورها فى البرنامج التليفزيونى المصرى «البيت بيتك»، أن هناك فرقاً بين إنقاص الوزن وعلاج السمنة، إذ إن إنقاص الوزن السريع يعود فى وقت سريع، فى أقل من سنة، فى حين أن العلاج الصحيح يسعى إلى معرفة سبب السمنة وعليه يؤدى إلى إنقاص الوزن وعلاج الخلل.

وتؤكد مها رداميس أن علاج السمنة يحتاج إلى طريقة خاصة ومختلفة عن بقية الأمراض.. فحينما يذهب المريض إلى طبيب أمراض الباطنة، سيدرك هذا الطبيب أن مريضه سيشفى بواسطة علاج معين، أما حينما يتبع نظاماً خاصاً فى الطعام لكى يصلح ترهلات جسده، ويشد من عضلاته، ويغير من ملامح وجهه الذابلة إلى ملامح تمتلئ بالصحة والعافية. فالأمر فى هذه الحالة يتعدى تناول جرعة من الدواء للوصول إلى الشفاء، وإنما يحتاج إلى جهد من المريض وقدرة وإرادة للتخلص من وزنه الزائد.

مها رداميس تنصح بأن يشرب الإنسان كمية كبيرة جداً من الماء، وأن يأكل على الأقل ثلاث وجبات أساسية، خصوصاً اللحوم أو الدجاج أو الأسماك أو أى بروتينات أخرى، على أن يبدأ بها لكى تعطيه الإحساس بالشبع، كما يجب أن تكون وجباته محتوية على الدهون فى المقليات التى يحتاجها الجسم: وهى الدهون الغنية بمضادات الأكسدة، لأن تناول الدهون فى المقليات سيسرع من ظهور التجاعيد على الجسم والوجه.

ترى الطبيبة الدكتورة مها رداميس، استشارية التغذية، أن «الريجيم نظام حياة، ويحتاج إلى إرادة»، كما تحدد أسباب زيادة الوزن، مجيبة عن سؤال مهم: هل تلعب الجينات الوراثية دوراً فى السمنة؟ مشيرة إلى أن الأكل يلعب دوراً مهماً فى التغذية السليمة، ولكن ما يفعله المرء تجاه الأكل وما يفعله الأكل تجاه المرء هو الإجابة الأخيرة: مؤكدة أنه يجب على كل شخص ألا يستسلم لشهيته ويتناول طعاماً وهو يشعر بالشبع، ويجب ألا يأكل لمجرد الأكل، لأن تناول الطعام يجب أن يحدث حينما تشعر بالجوع.

وتحذر مها رداميس من الوجبات السريعة عالية السعرات والخالية من الفيتامينات.. فنظام الطعام يعالج أمراضاً كثيرة كأمراض السمنة والسكر

والكوليسترول وأمراض الكلى، ويعالج الطعام الذى يحتوى على كالسيوم هشاشة العظام.

وتؤكد أن السرطان يرتبط بزيادة الأكل وخصوصاً تناول السكر والدقيق والدهون والبروتينات العالية. وقد بدأ الانتشار الكثيف لمرض السرطان مع ظهور الوجبات السريعة.

الملك الذهبى

زاهى حواس

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ١٦٥ صفحة



زار الملايين الملك توت عنخ آمون فى مكانه بـ «المتحف المصرى»، كما رآه ملايين -رين منذ عام ١٩٦١، حيث تاريخ أول -ولة له خارجاً من مصر، طائفاً بلدان -عالم وعلى مدى خمسة عشر عاماً، وهو الذى حكم مصر عشر سنوات ويرجح البعض أنه ابن لاخناتون.

ويتضمن الكتاب ستة من مقتنيات مقبرة توت عنخ آمون، حيث إنها كانت مخبأة فى بدروم المتحف المصرى بالقاهرة، بعد أن خرجت من مقبرة الملك، وقد سجلت تلك القطع على يد مكتشفها هيوارد كارتر، ونشرها فى مجلد علمى يعرفه علماء المصريات، وهنا تظهر تلك القطع للمرة الأولى من خلال صور أحد المصورين.

ولا شك أن حياة الملك الصغير الذى مات، دون أن يبلغ مرحلة الشباب، كانت لغزاً راوغ العلماء وعلى رأسهم مكتشفه هيوارد كارتر.

وبمناسبة الحديث عن الملك توت عنخ آمون، الذى كان يركب عجلته الحربية الذهبية ويقوم بالتصويب، يشير المؤلف إلى أن الهكسوس هم أول من أدخل العربات التى تجرها الخيول إلى مصر فى القرن السابع عشر قبل الميلاد، لأغراض الحرب والصيد والمواكب الملكية، وكان أول النصوص المصرية القديمة الذى ذكر عربة هو لوحة الملك كامس أحد ملوك طيبة المحاربين، الذين حاربوا الهكسوس وغالباً ما كان فراعنة مصر يصورون فى مناظر معارك، على صروح المعابد، مشرفين على ساحة الحرب من خلال عرباتهم.

ويذكر المؤلف أن كنوز توت عنخ آمون التى عادت إلى مصر عام ١٩٨١ من رحلتها التى ابتدأت عام ١٩٦١ أى على مدى عشرين عاماً لم تعد تسافر ثانية بعدما سقط تمثال «سلكت، الإلهة الخشبية المذهبة - فى ألمانيا - والذى كان يحمى المقصورة التى يرقد فيها الملك توت عنخ آمون، فتدمر الكتف والرأس وانكسرت الحية الملكية التى تزين رأسها.

وكتب الصحفيون المصريون مقالات معترضين على إرسال القطع خارج مصر، واقتنع البرلمان المصرى وتم إقرار عدم سفر قطع توت عنخ آمون. لكن. حسبما جاء فى كتاب زاهى حواس. استطاعت سويسرا أن تقنع مصر ثانية بعد عشرين عاماً من توقف الملك عن السفر، وسافرت قطع توت عنخ آمون إلى العالم مرة أخرى.

يذكر حواس أن بعض ملوك الدولة الحديثة مازالوا مفقودين، ويمكن الكشف عنهم فى أى وقت والعثور على خبيئة ملكية تكشف لغز الملوك.

ويرى حواس أنه لا يوجد شىء اسمه لعنة الفراعنة، مشيراً إلى أن القدماء المصريين عندما نقشوا لعنات على مقابرهم أملوا فقط أن هذه الكلمات تحمى موتاهم ومعظم الناس الذين ارتبط موتهم بلعنة كانوا غرباء، وليس لهم أية علاقة بتنقيب المقابر، وشخص واحد فقط هو الذى ارتبط بالكشف ومات فى ذلك الوقت، وكان هو اللورد كارنارفون. وبعد خمسة وسبعين عاماً ظلت عبارة «لعنة الفراعنة» تبهر العامة ومنتجى هوليوود والحقيقة «أنه لا توجد أى لعنات».

ويتضمن الكتاب قصص حب. وقصص سرقة.. سرقة بعض قطع من مجموعة كنوز توت عنخ آمون بيعت بالملايين فى العشرينيات من القرن الماضى، وهى موجودة الآن فى أكثر من مكان باعتها عائلة هيوارد كارتر، مكتشف مقبرة الملك الذهبى.

إن قصة توت عنخ آمون شائقة وشائكة كحياته التى لم تدم طويلاً.. قصة تداول عليها عدد من رؤساء وزراء مصر ووزرائها ومسئوليها الكبار بهدف حماية حق مصر من المستعمرين الآثاريين الذين كانوا يريدون سرقة كل ما اكتشفوه أو على الأقل تقسيمه مناصفة بينهم وبين الدولة المصرية.

ويذكر حواس أن مكتشفات مقبرة توت عنخ آمون زادت على خمسة آلاف قطعة فنية(!!) وقد استغرق تنظيف المقبرة حوالى عشر سنوات(!!) وهى تتكون من أربع حجرات فقط.

دوريات

مدى أخر

العدد الثالث، ربيع ٢٠٠٧

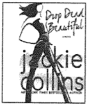


كان وجود أدباء وفنانين فلسطينيين خلف أسوار الدولة الإسرائيلية حاجزا منع الجمهور العربى من التعرف عليهم لسنوات قبل أن يكتب عنهم رجاء النقاش وغالى شكرى بعد عام ١٩٦٧ . ومع أن القارئ العربى انتبه لهؤلاء الأدباء فى أول الأمر كأدباء مقاومة إلا أنه سرعان ما انتبه إلى الموهبة الاستثنائية للكثير منهم بعيدا عن المضمون السياسى لنتاجهم الأدبى. أصبحت أسماء مثل محمود درويش وإميل حبيبى من أعلام الشعر والأدب العربى لقيمة إنتاجهم الأدبى. وكما كنا نحتاج إلى من يعرفنا بهؤلاء الأدباء كان من الصعب أحيانا على الأدباء والشعراء وبالأكثر النقاد من داخل فلسطين الإلمام بالتيارات الحديثة فى الآداب والفنون العربية. ومع الفضل الكبير بلا شك لجهود نقاد مثل النقاش وشكرى إلا أن الجهود الفردية لا تكفى لدعم الحركة الأدبية والنقدية الفلسطينية كما أن الاطلاع على النتاج الأدبى العربى والمشاركة فى تشكيل التيارات الفنية والأدبية الحديثة.

لهذا كان لصدور مجلة مدى الكرمل أهمية كبيرة حيث تصدر عن المركز العربى للدراسات الاجتماعية والتطبيقية فى مدينة حيفا. ويقول التعريف المنشور فى غلاف المجلة الداخلى إن المركز «معهد بحثى مستقل وغير ربحى تأسس عام ٢٠٠٠ فى مدينة حيفا» وأنه تأسس «استنادا إلى قناعة راسخة بضرورة وجود مركز أبحاث يديره فلسطينيون لغرض تشجيع مسالك جديدة فى التفكير حول السياسة الاجتماعية والمعضلات السياسية، والإسهام فى تغيير وضع الفلسطينيين من أقلية مقموعة ومضطهدة إلى مجموعة قومية تحظى بمساواة فردية وجماعية مع الأكثرية اليهودية فى الدولة. يهدف المركز كذلك إلى تشجيع الفكر والعمل الهادفين إلى التمكين الذاتى فى مجتمع غالبا ما يكون مجزا وغير فعال فى تأمين احتياجاته وفى إسماع صوته».

يتضمن هذا العدد مقالات فى مجالات ثقافية وفنية وسياسية متعددة ويبدأ بمقالة لعبد الرحيم الشيخ أستاذ الدراسات الثقافية فى جامعة بيرزيت يناقش فيه رد الفعل الفلسطينى على تدهور صحة شارون الذى قد يوحى للبعض أنه عقاب إلهى على جرائم شارون ضد الشعب الفلسطينى. وبينما يناقش الكاتب حياة شارون السياسية وأفعاله يناقش فى نفس الوقت رد الفعل الفلسطينى اتجاه تدهور حالته من ناحية ثقافية وسوسيولجية. ويتضمن العدد أيضا مقالا لجميل خضر الأستاذ المشارك فى اللغة الإنجليزية بجامعة ستيتسون ديلان بفلوريدا يقارن فيه بين مرحلة ما بعد الطنطورة وما بعد أوشفيتس انطلاقا من الفيلم الوثائقى «الفردوس المفقود» الذى يتابع حياة امرأة فلسطينية شابة من إسرائيل ووضعها فى المجتمع وكذلك وضعها كمواطنة من الدرجة الثانية فى إسرائيل. وتفرد الدورية مساحة كبيرة لأحد الفنون التى لا تلقى اهتماما كبيرا فى العادة فى المجتمعات العربية وهو فن النحت. تركز المقالة على أعمال المثال الفلسطينى جواد إبراهيم. ويتضمن العدد ملفا من ثلاثة مقالات عن فكر الإمام الغزالى كتبها عبد الكريم البرغوثى و أحمد محمود إغبارية وعبد الكريم البرغوثى على مقالة اغبارية إلى كانت بدورها تعلق على مقالة البرغوثى الأولى. يدل هذا الملف على اهتمام القائمين على تحرير مدى بإحياء حوار بين كتابها وبين إنعاش الجدل حول القضايا المختلفة.

Drop Dead Beautiful
(موتى يا جميلة)
Jackie Collins
St. Martin's Press: $24.95, 512pp., 2007



بنت جاكى كولينز شهرتها الواسعة ومبيعاتها التى تحطم أرقاما قياسية على الرغبة الإنسانية القديمة فى معرفة أسرار الآخرين. وهى نفسها التى تصنع الصحافة الشعبية وتجعل من السير الذاتية صنفًا ناجحًا من الأدب. ولا تنكر جاكى كولينز أنها تستوحى أبطال أعمالها من عالم هوليوود الذى تتواجد فيه كممثلة مسلسلات شهيرة مع شقيقتها جوان كولينز. وتترك كولينز شخصياتها مبهمة عمدا، فدفع القارئ للتكهن بالاسم الحقيقى لكل شخصية يزيد من جاذبية الرواية وبالتالى من مبيعاتها. وبعد توقف طويل تعود كولينز إلى قوائم أكثر الكتب مبيعا بروايـــة Drop Dead Beautiful وشخصياتها التى ظهرت فى روايات سابقة للكاتبة. فالشخصية الأساسية فى الرواية هى لكى سانتانجلو ابنة زعيم المافيا الجميلة والناجحة فى مهنتها كمنتجة سينمائية وكمستثمرة فى مجال العقارات. وتقوم لكى التى قدمتها كولينز فى رواية تحمل اسمها ببناء منتجع كبير فى لوس فايجس كما أنها تخطط لاحتفال كبير بعيد ميلاد أبيها الخامس والتسعين دون أن تدرك أن عدو عائلتها أنطونى بونار يخطط للانتقام منهم. ولا يدرك انطونى أن زوجته تخونه مع البستانى المكسيكى ومع عميل فدرالى يعمل فى مجال المخدرات. وتأتى أغلب الإثارة فى الرواية من قصة ماكس ابنة لكى وهى فى السادسة عشرة من عمرها وتخبر أهلها أنها ذاهبة للقاء أصدقائها وما لا يعلمه والداها أنها فى الحقيقة فى طريقها إلى مقابلة رجل تعرفت عليه عبر الإنترنت. وتظهر بعض الشخصيات والخيوط الدرامية الممتدة من روايات كولينز السابقة فى أدوار ثانوية فى هذه الرواية مثل العلاقة المتقطعة بين ألكس، شريك لكى فى العمل وصديقته الغيورة وعلاقة صديقة لكى المقربة فينوس وصديقها النجم السينمائى. إن جاكى كولينز لا تكتفى باستلهام عالم هوليوود فى شخصيات رواياتها ولكن يبدو أنها تستوحى أيضا فكرة الأجزاء فى العمل الفنى الأهم أنها تستوحى المعادلة الإنتاجية الهوليوودية المعروفة. بعض الإثارة، بعض الجنس، بعض من مظاهر الثراء والقوة ونهايات سعيدة

■

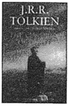
The Diana Chronicles
(يوميات ديانا)
Tina Brown
Harper Collins: $27.50, 784pp., 2007



مرت ذكرى وفاة الأميرة ديانا العاشرة هذا العام ولا تزال الصحف تحب التحدث عنها ولا يزال الجمهور يسعى لشراء أى منتجات تحمل اسمها أو صورتها. كما أن الكتب التى تتحدث عن حياتها ووفاتها لا تزال تتصدر قوائم أكثر الكتب مبيعا مثل هذا الكتاب الذى كتبته رئيسة التحرير السابقة لمجلتى فانتى فير Vanity Fair والنيويوركر. ولا تسعى الكاتبة هنا لكشف أى معلومات جديدة عن علاقات ديانا المتعددة أو أسرار خاصة بمصرعها ولكنها تخصص الكتاب للنظر فى علاقة ديانا بالعائلة المالكة البريطانية. وتقول الكاتبة إن وجود ديانا فى حد ذاته كان أفضل ما حدث للملكية البريطانية منذ إعادة تشارلز الثانى إلى العرش. وقد قامت ديانا بدورها فى رأى الكاتب باستغلال وضعها فى العائلة المالكة واستخدام اهتمام الصحافة بها لمصلحتها. وتقول الكاتبة إن ديانا كانت «خطرة عندما تحس بأنها جرحت» حتى فى طفولتها. وقد وقفت عائلة زوجها عاجزة عن التصرف وهى تراها تراوغ وسائل الاعلام وتستغلها بمجرد أن تنظر إلى الأسفل قليلا وتحرك رموشها فى اللقطات التى عرفت ب «ديانا الخجولة». ولكن حقيقة الأمر فى رأى الكاتبة كانت أن ديانا كانت معجبة بنفسها للدرجة التى عجزت معها عن فهم كيف يمكن لصديقها طبيب القلب الشهير أن يهتم بعمله فى المستشفى أكثر منها. قامت الكاتبة بإجراء مقابلات مع ٢٥٠ شخصًا عرفوا ديانا بشكل شخصى منهم إحدى صديقات والدتها التى قالت إن والدة ديانا لم تكن راضية عن زواجها المتعجل. وتصف الكاتبة مشهدا من الليلة التى تسبق زفاف ديانا وتشارلز الأسطورى لتقول إن ديانا التى كانت مقيمة فى كلارنس هاوس تلك الليلة تناولت وجبة ضخمة جدا ثم تقيأتها بالكامل حتى يظل مقاس فستان الزفاف مناسبًا لها ثم نزلت فيما بعد إلى الطابق الأسفل حيث ركبت دراجة مملوكة لأحد العاملين بالقصر الملكى وقادتها فى دوائر وهى تهتف «غدا سأتزوج أمير ويلز». وترى الكاتبة أن هذا التصرف مطابق لشخصية ديانا التى ارتبطت بخدم منزل والدها أكثر بكثير من ارتباطها بأفراد عائلتها. كما أنها لم تتلق تعليما منتظما مما بدا واضحا فى نطقها السوقى لبعض الحروف وتعلقها الشديد بالروايات الرومانسية الرخيصة. ويظل تساؤل حول غرض الكاتبة من تأليف هذا الكتاب بما هو معروف عنها من سعيها للتقرب للعائلة المالكة.

■

The Children of Hurin
(أبناء هورين)
Toiken .R.R.J
Houghton Mifflin: 313pp., $25.99, 2007



نجح تولكين فى خلق عالم مواز متكامل فى مجموعته الأشهر Lord of the Rings ورواية The Hobbit التى كانت بمثابة تقدمه لهذه المجموعة. كان عالم تولكين غنيا بالخيال لدرجة استحال معها مقارنة العمل بزمان أو مكان معينين فى الواقع وهو الأمر الذى دفع الكثير من القراء للاعتقاد أن تولكين كاتب من عصور سابقة. الحقيقة أن تولكين معاصر إلى حد ما، فقد ولد عام ١٨٩٢ وتوفى عامى ١٩٧٣ ولا زال حفيده آدم توليكين وهو أيضا مترجم أعماله للفرنسية، ينجح فى أن يكشف لنا عن روايات وكتب غير منشورة من تأليف جده. فبعد مرور ثلاثين عامًا على صدور كتابه الأخير The Silmarillion عام ١٩٧٧ يصدر The Children of Hurin الذى يصفه آدم تولكين فى مقال يقدم به للكتاب على أنه الجزء الثالث من كتابات جده حول «الأرض الوسطى» ويحكى أن والده كريستوفر تولكين قد قام بجمع مقاطع تلك الرواية باعتناء بالغ ويقول إنها ستمثل خطوة للوراء بالنسبة لقراء The Hobbits وLord of the Rings حيث تمكنهم من تأمل عالم متكامل من الأبطال والمتشردين، عالم من الشهامة والمخاطرة والأمل والمآسى. وتولى الرسام الان لى رسم شخصيات هذا العمل كما كان قد قام من قبل بجميع الرسوم التى تخللت كتب تولكين السابقة كما أنه فاز بجائزة الأوسكار لمسئوليته عن التصور المرئى لثلاثية Lord of the Rings عند تحويلها إلى فيلم. والصور التى رسمها لى تؤكد أن الشخصيات لن تبدو غريبة بالنسبة لمن تابع أعمال تولكين السابقة ومع ذلك فلا تفقد الروايات المتعاقبة إبهارها.

■

Einstein: His Life and Universe
(أينشتاين: حياته وكونه)
Walter Isaacson
Simon and Schuster: $32.00, 704pp., 2007



لم ينل أى عالم الشهرة والشعبية التى نالها اينشتاين. فالجمهور العادى يذكر اسمه كرمز للذكاء دون أن يكون على دراية بإنجازاته العلمية بل إن عامة الناس يتندرون بقلة عدد من يستوعب نظريات أينشتاين. ومع ذلك فإن صورة اينشتاين الإنسان كانت أكثر غموضا بكثير من صورته كعالم، فما قيل عنه كأب أو زوج أو صديق ليس إلا مقتطفات بسيطة وهى المقتطفات التى جمعها والتر أيزاكسون فى كتابه الجديد عن اينشتاين ليرسم لنا أكثر صور اينشتاين وضوحا حتى اليوم. وأهمية الكتاب الحقيقية هى أنه أول عمل عن حياة اينشتاين يفحص عن قرب الكم الضخم من المراسلات الشخصية التى تركها والتى كانت غير متاحة للجمهور طوال السنوات الماضية. استطاع الكاتب بمهارته الشخصية وبفضل هذه المراسلات أن يرسم صورة أكثر عدلا لحياة اينشتاين التى تمت مهاجمتها مرارا. فعلى سبيل المثال نال عمل أينشتاين كموظف فى مكتب براءات الاختراع السويسرى سخرية أغلب الكتاب ولكن أيزاكسون يرى أن تلك الوظيفة والتى بدأ فى نشر نظرياته خلال عمله بها مكنته من الاستقلال عن المتطلبات والضغوط التى

كان سيقع تحتها من قبل المشرفين على عمله في حالة ما إذا كان عالمًا ضمن مؤسسة أكاديمية. ويرى الكاتب أن أكثر المعلومات المغلوطة انتشارا عن اينشتاين كانت أنه لم يكن ينجح في الرياضيات خلال سنوات دراسته وينفي الكاتب هذه الشائعة الشهيرة مؤكدا على أن قدرة اينشتاين على تخيل المعادلات والمفاهيم الرياضية ساعدته على فهم أكثر مفاهيم الرياضيات تعقيدا بالرغم من كراهيته للسلطة بما في ذلك التعليم النظامي وسلطة المعلمين.

■

Animal, Vegtable, Miracle: A Year of Food Life

(حيوان، نبات، معجزة: عام في حياة الطعام)

Barbara Kingslover, Camille Kingslover, Steven L. Hopp
HarperCollins: $26.95, 384pp., 2007



نادرا ما نجد كتابًا عن الحالة التي وصلت إليها صناعة الطعام والزراعة في هذا العصر يهتم بتقديم البدائل بقدر اهتمامه بأن يبين لنا ضرر الأساليب الحديثة. هذا الكتاب مختلف من هذه الناحية. كما أنه مختلف لأنه مؤلفته راوية وشاعرة وليس عالمة نباتات فهي بالتالي تقدم لنا تجربة حياتية في المقام الأول وإن كانت مدعمة بمعلومات وأسس علمية. إن تجربة المؤلفة يمكن اختصارها في أنها قد قررت أن تجرب لمدة سنة واحدة القاعدة التي طالما دعا لها أنصار الغذاء الطبيعي وهي أن ما نأكله يجب أن يأتي من محيطنا المباشر وفي موسمه الطبيعي. فلمدة عام عاشت الكاتبة وعائلتها التي اشتركت معها في تأليف الكتاب على المنتجات الزراعية التي زرعوها في حديقتهم بالأساس ثم على المنتجات المحلية الموسمية بما في ذلك اللحوم التي اختاروها من أسواق المزارعين. كما أن العائلة التي ألفت الكتاب عملت على حفظ الفائض من منتجاتهم الزراعية بدءًا من شهر أبريل بأشكال تقليدية أيضا فجمدوا وجففوا الخضروات وصنعوا مربات وسجق ومخللات عاشوا عليها في شهور الشتاء حتى مايو التالي حين انتهت التجربة ولم يكن قد بقى من كل ما صنعوه غير القليل من صلصة المعكرونة وبعض خضروات مجمدة والديك الرومي الأخير. وبقدر المتعة والاستفادة التي نالتها العائلة إلا أن هناك شكًا أن تستطيع عائلة تحيا في المدينة تكرار التجربة بسهولة. ولا تكتفي المؤلفة بسرد التجربة بشكل روائي بل إنها تناقش العديد من القضايا الجادة في سياق الكتاب مثل الإفراط في استهلاك الطاقة الملازم للتصنيع الحديث للأغذية و دور المواصفات التي تحددها المتاجر الكبرى للأغذية في التغير المناخي وفي القضاء على التنوع الطبيعي في المنتجات الزراعية. يشترك مع المؤلفة الأساسية زوجها وهو عالم أحياء ويقدم المعلومات العلمية في الكتاب بينما تتولى ابنتها كاميل التي تدرس علم الأحياء أيضا في الجامعة كتابة مقال لكل شهر في التجربة مصحوب بوصفات بسيطة.

■

The Reagan Diaries

(مذكرات ريجان)

Ronald Reagan
HarperCollins: $35.0, 784pp., 2007



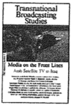
لم يتعاف العالم حتى الآن من تأثير عصر ريجان. فالرئيس الذي تؤرخ ولايته (هو ومارجريت تاتشر في بريطانيا) لعهد جديد من سيطرة المحافظين على المجتمعات الغربية. وقد كتب كثيرون من مختلف الاتجاهات حول نتائج هذا العهد ودهاليزه ولكن المثير والجديد في هذا الكتاب أنه تجميع لمذكرات ريجان حول الاجتماعات المختلفة التي عقدها مع سياسيين وشخصيات أخرى مختلفة خلال فترة حكمه للولايات المتحدة ومع أن المذكرات سياسية وجافة بشكل مباشر إلا أن هموم ريجان ومخاوفه تظهر فيها بشكل واضح خاصة مخاوفه من تسرب أخبار معينة إلى الصحافة. وتظهر في تلك المذكرات الآراء الحقيقية التي كان يحملها لبعض الشخصيات العامة من ضمنها القس ديزموند توتو الذي يصفه بالساذج ويرى ريجان أن أسلوبه في محاربة النظام العنصري في جنوب أفريقيا وهو «الدبلوماسية الهادئة» وليس المقاطعة الاقتصادية. كما يبدو عدم ارتياحه للمعارضة في تعليقه على خطاب تلقاه من طالب يدعوه فيه إلى وقف التقدم النووي. على الجانب الشخصي يظهر في مذكراته حبه وتقديره الشديد لزوجته نانسي ريجان وتدينه فيكتب في الفترة التالية مباشرة لمحاولة اغتياله أنه لن يستطيع اللجوء إلى الله في محنته دون أن يصلي للقاتل الذي يصفه بالنعجة الضالة. وفي إشارة شديدة المباشرة لنوع الأداء الذي ينتقد عليه ريجان عادة يعترف في مذكراته بأنه اقنع أعضاء اجتماع ما عقده في العام ١٩٨٣ بعمل ما يجب عمله وليس ما يصح سياسيا. وقد تكون من مميزات الكتاب أن التعليق على الأحداث قليل مما يجعل النص اكثر سلاسة ولكن ذلك من الممكن أن يجعل القارئ الذي لم يعاصر تلك الأحداث يعجز عن فهم سياق بعض النقاط المهمة.

■

Transnational Broadcasting Studies
Media on the Frontlines: Arab Satellite TV in Iraq

(الاعلام على الجبهة: الفضائيات العربية)

Vol. 2 No1, $19.95, 250pp



صدر مؤخرا العدد الثاني من دورية Transnational Broadcasting Studies والتي تصدر عن الجامعة الأمريكية في القاهرة وتعنى بشئون الصحافة المصورة. ومن المعروف أن الجامعة الأمريكية بالقاهرة تملك قسما مهما لدراسات الصحافة المصورة باسم كمال أدهم. ويناقش هذا العدد أحدث تيارات وأساليب التغطية الصحفية في القنوات الفضائية العربية والإسلامية. وتناولت الأعداد السابقة من هذه الدورية مواضيع جدلية مثل الحروب الثقافية التي تتمركز حول الموسيقى العربية المصورة وتأثير تلفزيون الواقع العربي على الديموقراطية في المنطقة. موضوع الغلاف في العدد الحالي هو تأثير القنوات الفضائية على المجتمع العراقي ويناقش فيها عددا من علماء السياسة والاجتماع والإعلام تأثير انتشار البث الفضائي الإخباري والترفيهي على المواطن العراقي. كما يتضمن العدد لقاءات مع العديد من الشخصيات الإعلامية ومقالات مهمة في مجالات إعلامية مختلفة. وقد مدحت فاطمة المرنيسي الدورية التي تصدر بالاشتراك مع كلية سانت انطوني في جامعة أوكسفورد وقالت إنها من أكثر مصادر الأخبار الإعلامية تجددا في العالم العربي.

■

Mariam's Maze

(متاهة مريم)

Mansoura Ez Eldin
AUC Press: $17.95, 112pp., 2007



صدر عن الجامعة الأمريكية في القاهرة مؤخرا الترجمة الإنجليزية لرواية متاهة مريم للروائية والصحفية منصورة عز الدين. والرواية التي صدرت بالعربية منذ سنوات تختلف بشكل كبير عن أغلب روايات جيلها التي عادة ما تتسم بالواقعية والذاتية الشديدتين. تتتبع متاهة مريم حيرة الفتاة مريم التي تدرس في الجامعة وتعيش بعيدا عن بيت أهلها. تبدأ الرواية حين تستيقظ مريم مشوشة التفكير بخصوص الأحداث التي مرت بها ومدى قربها أو بعدها وتبدأ في رحلة بحث تحاول التأكد فيها من هويتها ومن الزمن الذي استيقظت فيه. تبدا البطلة تدريجيا في استرجاع أحداث حياتها وعلاقاتها وتحاول الوصول الى من تعرف من الأصدقاء والأهل في مشوار طويل يشبه المتاهة ولكنها لا تنجح في التأكد من أي شيء. وتستعرض الرواية حياة أسرة التاجي التي تنتمي لها مريم بشخصياتها المتعددة غير النمطية وعلاقات مريم بهذه العائلة وذكرياتها معهم عبر استخدام غير معلن لمفهوم القرين. لا تقدم الرواية أجوبة سهلة جاهزة ولا تغرق في الواقعية التقريرية كما أنها لا تتمادى في الفنتازية لتترك القارئ في حيرة حول حقيقة مريم ومصيرها. نفس الحيرة التي تستولي على البطلة، تنجح الكاتبة ببراعة أن تنقلها للقارئ. والكاتبة صحفية في جريدة أخبار الأدب ولها قصص قصيرة نشرت قبل متاهة مريم ولم تترجم للإنجليزية.

■

أخطاء الترجمة وأخلاقيات البحث الأنثروبولوجي

اليزابيث سميث(*)

■■ فوجئت عند وصولى للقاهرة فى شهر يونيو بمعرفة أن مجلة «وجهات نظر» قد قامت فى عدد مايو ٢٠٠٧، بترجمة ونشر مقال ضمن كتاب أصدرته دار النشر التابعة للجامعة الأمريكية بالقاهرة[1]. وحين قرأت الترجمة، انزعجت بشدة بسبب كم وطبيعة الأخطاء التى تضمنتها. لم يستشرنى أحد فيما يخص دقة الترجمة، ولم تتح لى فرصة مراجعتها قبل نشرها. وقد أدت هذه الأخطاء إلى:

١ ـ تشويه مقولاتى الأصلية بشدة، ٢- نشر مقالى على نحو انطوى على أخطاء عديدة فى المصطلحات، والتاريخ، والحقائق الأساسية، ٣- تهديد مكانتى ومصداقيتى بشكل شخصى وكباحثة أكاديمية بين من أكتب عنهم. والأهم من ذلك، فقد أدى غياب وعى المترجمة بمناهج البحث الأنثروبولوجى إلى الكشف عن هويات المشاركين فى البحث الذين غيرت أسماءهم قصداً.

هدفى فى هذا التعليق ليس سرد وتصحيح كل أخطاء الترجمة، ذلك أنها أكثر من أن تعد، لكن توضيح كيف تم تشويه آرائى، وكيف تم انتهاك أخلاقيات البحث الأنثروبولوجى.

يعتمد الفصل المنشور فى كتاب «القاهرة الكوزموبوليتانية» على بحث بدأته فى عام ١٩٩٧ حول كيفية تمثيل النوبيين فى الحياة العامة، وذلك فى مجالات السياحة، والمتاحف، ووسائل الإعلام، وفى أنشطة الجمعيات النوبية. فى ذلك الفصل، أناقش أربعة مواقف حياتية متكررة قابلتها فى بحثى الميدانى، وفيها يتم الجدل بشأن مفاهيم العرق، واللون، والهوية.

> تعكس هذه الرسالة (والتي حرصت «وجهات نظر» على نشرها كاملة) مشكلة دقة الترجمة وحرِفيتها في عالمنا العربى عمومًا، وربما في مصر خصوصًا. وكانت «وجهات نظر» قد ناقشت هذه المشكلة في أكثر من مقال (سبتمبر ٢٠٠٤، نوفمبر ٢٠٠٦ ـ ديسمبر ٢٠٠٦).
>
> وأيًا ما كان الأمر، فالمسألة تقتضى اعتذارًا ـ أو بالأحرى ـ اعتذارين لقارئ هذه المجلة التي لا يتوقع منها غير الدقة. ولكاتبة المقال الأصلي التي ـ احترامًا منها لعلمها وقلمها ولهذه المجلة ـ حرصت على تدقيق كل لفظ وحرف.
>
> **المحرر**

المثالان الأولان يتناولان رد فعل النوبيين فى القاهرة على تمثيل النوبيين فى الجرائد والتليفزيون. أتناول بالبحث مثالاً تم فيه استخدام كلمة «البرابرة» فى مقال صحفى، ومثالاً آخر تم فيه استخدام موسيقى نوبية فى دراما تليفزيونية تاريخية فى مجال تناول شخصية عبده. فى المثالين الآخرين، أصف رد فعل النساء النوبيات فى أسوان على تمثيلهن فى التليفزيون، وفى متحف النوبة، وفى مناقشاتهن مع نظرائهن من بقية المصريين والمصريات. التيمات المشتركة بين هذه الأمثلة هى أن النوبيين يشعرون بحب عميق نحو مصر، وانتمائهم الوطنى لها، لكن فى نفس الوقت يتم غالباً ربطهم جغرافياً بأفريقيا جنوب الصحراء، وبحالة بدائية، ويعتبر الكثيرون لون بشرتهم الداكن خاصية جسدية سلبية. وقد أوضحت أن ردود أفعالهم على هذه التصورات تختلف باختلاف خلفياتهم، وطبقاتهم، وجنسهم من ذكر وأنثى، وأماكن إقامتهم. وهدفى من ذلك المقال كان، كما الحال فى بقية عملى، محاولة وضع تلك الأمثلة فى السياق الأوسع لدور النوبيين فى المجتمع المصرى اعتماداً على الخلفية التاريخية والبحث الاثنوجرافى.

تشمل أخطاء الترجمة استخدام مفردات غير صحيحة (تمت ترجمة التعبير vis-à-vis بـ «تأشيرة»!)، والترجمة غير الصحيحة للتواريخ (تمت ترجمة «الستينيات» بـ «١٩٦٠» فى المقال بأكمله)، واختلاق أجزاء من جمل كاملة حين لا تفهم المترجمة المقصود بالنص الإنجليزى. غير أن أكثر الأخطاء إثارة للقلق هى ثلاثة أمثلة لجمل فى صيغة النفى بالأصل الإنجليزى، وقد قامت المترجمة إما باستبعاد أداة النفى فى الترجمة العربية، أو شوهت الجملة لإعطاء معنى عكس ما تحمله الجملة الإنجليزية. سوف أعطى مثالين لتوضيح مدى جدية هذه النوعية من الأخطاء:

فى صفحة ٤٠١ من أصل المقال المنشور بالإنجليزية، أناقش كيفية تمثيل النوبيين فى الخطابات العامة. أقول: «تؤكد الخطابات المهيمنة فيما يخص الوحدة الوطنية، والتى تظهر يوميا فى الصحف شبه الحكومية، على أن مصر لا يوجد بها عنصرية، أو اثنيات، أو أقليات»، وثمة محاولات تُبذَل «للتفريق بين مصر وبين الأمم التى لديها، على سبيل المثال، تاريخ لعنصرية مؤسساتية (الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا)، أو التى تواجه خطر حركات انفصالية متمركزة حول الاثنية (المقاومة الكردية فى أمم متعددة)، أو التى تواجه حرباً أهلية فعلية (السودان)». وبكلمات أخرى، ما أقوله هو أن مصر لا تتشابه مع جنوب أفريقيا أو أى مثال آخر من الأمثلة المذكورة فيما يخص التفرقة العنصرية أو مشاكل الأقليات الاثنية. ومع ذلك، فهذا هو النحو الذى جاءت عليه ترجمة الجملة الأخيرة:

«فى مثل تلك المناقشات تبرز مصر من بين الأمم - على سبيل المثال - مجسدة تاريخ التمييز العنصرى الحقيقى (كالولايات المتحدة وجنوب أفريقيا)، وخطر العرقية، والحركات الانفصالية (مثل المقاومة الكردية فى الولايات المتعددة) أو الفعلية مثل الحرب الأهلية فى السودان».

الفرق بين الأصل والترجمة واضح: بينما أقول إن تلك النقاشات تقارن مصر بتلك الحالات الأخرى كى توضح كيف أن مصر مختلفة، تعطى الترجمة انطباعاً خاطئاً بأننى أعتقد أن موقف النوبيين بمصر يشابه جنوب أفريقيا العنصرية، أو تاريخ الفصل العنصرى فى الولايات المتحدة، أو الحركة الوطنية الكردية، أو الحرب الأهلية فى السودان. هذه المقولات تثير السخرية، ولا تعبر لا عن الحقيقة ولا عن رأيى كباحثة. ففى الفقرة التالية بصفحة ٤٠١ من الأصل الإنجليزى، أؤكد، على نحو مباشر: «بوضوح تام، لا يمثل اللون فى مصر أساساً لهويات جمعية من قبيل

(*) د. اليزابيث سميث أستاذة مساعدة للأنثروبولوجيا فى جامعة فيرمونت، وحصلت على شهادة الدكتوراه فى الأنثروبولوجيا الثقافية من جامعة نيويورك فى عام ٢٠٠٦، وقد عملت ودرست فى مصر لما يقارب الستة أعوام منذ ١٩٩٢، ودرست اللغة العربية لأكثر من ٧ سنوات.

وجهات نظر إلى المحرر

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة تحريرها

«أسود» أو «أبيض» أو أي لون آخر. الأكثر أهمية هو الطبقة، والإقليم، والدين، والعائلة».

ذلك أنه من الواضح لي، من خلال سنوات من البحث والإقامة في مصر، وبالاتفاق مع نتاج دراسات باحثين آخرين، أن المكانة والهوية الاجتماعية في مصر لا يتم تقييمهما لا قانونياً ولا اجتماعياً على أساس لون البشرة أو الانتماء لجماعة عرقية مفترضة فقط. فالهوية الاجتماعية تتأثر أكثر بالعوامل الاقتصادية، والجغرافية، ولأي دين أو عائلة ينتمي الفرد، ولا توجد جماعات تحدد هويتها بوضوح على أنها «أناس سود» أو «بيض» في مصر.

وعلاوة على ذلك، فإنني أوضح في بقية المقال كيف يفكر الناس فعلاً ويتكلمون عن لون البشرة معطية عدة أمثلة، ومقدمة تحليلي القائم على هذه الأمثلة، وعلى السياق التاريخي. ورغم ذلك، فإن العبارات المحورية السابقة قد تمت ترجمتها على نحو خاطئ: «للمزيد من التوضيح، لون البشرة المصرية يمثل أساس الكشف عن الهوية الشخصية الجماعية مثل «الأسود» ـ«الأبيض» أو أي لون آخر. والأكثر أهمية الطبقة الاجتماعية، الإقليم، الدين ثم الأصول العائلية العريقة. (ص ٣٤) لاحظ هنا كيف تزعم المترجمة أن لون البشرة هو أهم العوامل، وهو عكس ما أقوله تماماً في الأصل الإنجليزي.

بعض مشكلات الترجمة الأخرى نتاج ظاهرة أوسع وأوثق لها في المقال: وهي أن معظم المصريين ليس لديهم أبسط المعلومات عن تاريخ منطقة النوبة، وثقافتها، وخصوصاً اللغة النوبية. فبسبب عدم معرفة المترجمة، تمت ترجمة الجزء المتعلق باللغة النوبية على نحو خاطئ. في صفحة ٣٦، تقول الترجمة: «ولأنهم يتكلمون لغتي الكنوز والفدكا لذلك فاللغتان لا قيمة لهما من حيث التداول القواعدي والتاريخي بين النوبيين وغير النوبيين».



في الأصل الإنجليزي، أشير إلى حقيقة أنه بالرغم من أن اللغة النوبية لها كل خصائص اللغات الإنسانية من قبيل الأجرومية والقدرة على التفكير المجرد، يتم اعتبارها، عن خطأ، في مكانة أدنى من قبل متحدثيها والآخرين لأنها لغة شفهية لا تكتب منذ دخول النوبة في الإسلام، وليس لمجرد وجود لهجتين، كما تقول الترجمة. واللغة النوبية لم تعد لغة مكتوبة منذ القرن الـ١٣ أو القرن الـ١٥ الميلاديين، حين أخذت الأحرف العربية مكان نظيرتها النوبية بعد دخول النوبة في الإسلام. وقد وقع ذلك منذ العام ٦٠٠ أو العام ٨٠٠ على وجه التقريب، وليس عام ١٩٨٠ كما تقول الترجمة. والنوبيون في القاهرة الذين كانوا يحضرون دروساً لتعلم قراءة وكتابة الأحرف النوبية في العام ٢٠٠١ لم يكونوا «يعرفون اللغتين النوبيتين (الكنوز/ الفدكا) قراءة وكتابة» كما تقول المترجمة.

في الواقع، القليل من المتحدثين بالنوبية يعرفون اللهجتين، بل إنهم يتحدثون إحداهما. ورغم أن إحدى اللهجتين كانت اللغة الأم لمن كانوا يترددون على دروس تعليم اللغة النوبية. فلم يكن أي منهم يستطيع الكتابة بالأحرف النوبية القديمة، لأن نظام الكتابة ذلك لم يتم استخدامه على مدى ما لا يقل عن ٦٠٠ عام، كما أوضحت قبلاً. كان ينبغي أن يكون ذلك أمراً بديهياً بما أنهم كانوا يتلقون دروساً في تعلم الأحرف النوبية (لم تكن «حفلات» كما ترجمت المترجمة كلمة «دروس»).

تعطي الترجمة انطباعاً خاطئاً بأنني أعتقد أن موقف النوبيين بمصر يشابه جنوب أفريقيا العنصرية، أو تاريخ الفصل العنصري في الولايات المتحدة

تشويه آرائي الشخصية كان أمراً مثيراً للانزعاج، وله تبعاته على بصفة شخصية وأكاديمية، كما أن نشر معلومات غير صحيحة ـ باسمي ـ عن النوبة والنوبيين في مصر أمر آخر يبعث على الانزعاج. ومع ذلك، فإن سوء فهم البحث الأنثروبولوجي له تبعات أشمل وأكثر جدية.

يعطي هامش المترجمة رقم ٤ تعريفاً غير صحيح للمنهج الرئيسي الذي تعتمده الأنثروبولوجيا الثقافية، وهو «الاثنوجرافيا». ومن أجل التوضيح، فالاثنوجرافيا هي، طبقاً لموقع «الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية»:

«دراسة الباحث للسلوك الإنساني في المجال الطبيعي الذي يعيش فيه الناس. وعلى وجه التحديد، تشير الاثنوجرافيا إلى وصف الأنظمة الثقافية أو جانب من جوانب الثقافة بناء على البحث الميداني الذي ينغمس فيه الباحث في نشاطات الحياة اليومية الدائرة في الجماعة البشرية المحددة لغرض وصف السياق الاجتماعي، والعلاقات، والعمليات ذات الصلة بالموضوع تحت الدراسة»(٢).

فالأنثروبولوجيا اليوم لم تعد، كما تقول المترجمة، «واحداً من العلوم الإنسانية الذي يميل ـ حصريا ـ إلى دراسة المجتمعات البدائية».

في مسعاها لتحديد معنى الاثنوجرافيا، عادت المترجمة لتعريف قاموسي يصف البحث الانثروبولوجي في فرنسا فيما قبل الحرب العالمية الثانية، خلال عصر

الاستعمار الأوروبى حين سادت النزعة العلمية لفهم ما تم اعتباره، فى الدول المستعمَرة، ثقافات بدائية. خلال الخمسين أو الستين عاماً التى أعقبت ذلك، وفى أعقاب الحركات الوطنية الثورية وتفكيك الاستعمار، تغير علم الانثروبولوجيا ذاته. ذلك أن البحث الاثنوجرافى يتم إجراؤه، فى الوقت الحاضر، فى المجتمعات المعاصرة حول العالم، ليس فقط فى مصر والبلاد النامية، لكن أيضاً فى الولايات المتحدة وأوروبا، فى أماكن حضرية وريفية، فى المدن الكبيرة والقرى الصغيرة. خطأ المترجمة هنا فى اعتماد هذا التعريف القديم يعطى انطباعاً خاطئاً بأن دراستى مؤسسة على اعتبار النوبيين، أو حتى مصر بشكل عام، «مجتمعًا بدائيًا»، ذلك فى الوقت الذى ترفض فيه الانثروبولوجيا الحديثة مصطلح «بدائى» لأنه مصطلح استعمارى، لا مكان له أو لتطبيقاته فى مصر المعاصرة أو فى أى مكان آخر اليوم.

الانغماس فى الحياة اليومية للناس وللمؤسسات، وهو ما فعلت فى بحثى الاثنوجرافى فى القاهرة وأسوان، يتطلب بناء علاقات اجتماعية تقوم على الثقة فىَّ كباحثة وكإنسانة. وإحدى المسئوليات الأخلاقية التى تقع على عاتق علماء الأنثروبولوجيا هى فعل أقصى ما فى وسعهم لحماية الأشخاص موضع الدراسة من أى تأثيرات سلبية قد تترتب على البحث، أو بعبارة أخرى: «التأكد من أن بحثهم لا يعرض سلامة، أو كرامة، أو خصوصية الأشخاص الذين يعملون، أو يجرون أبحاثهم، أو يجرون أى أنشطة مهنية معهم»[٣] وإحدى الوسائل الشائعة لفعل ذلك هى حماية هويات المشاركين فى الدراسات المنشورة عن طريق استخدام أسماء مستعارة، وتغيير بعض الخصائص أو التفاصيل الاجتماعية المتصلة بحياتهم، كى يصبح من الصعب تحديد هوياتهم. وعلى سبيل المثال، فقد وصفت زينة (وهذا ليس اسمها الحقيقى) فى الأصل الإنجليزى بأنها «طالبة فى جامعة بالعاصمة الإقليمية أسيوط»، لأنه لم يكن من الضرورى تحديد الجامعة التى تدرس بها. لكن، لسبب ما، ترجمت المترجمة ذلك الجزء كما يلى: «تدرس زينة فى جامعة جنوب الوادى» (٣٨) والسبب الذى من أجله «لم يذكرها النص صراحة»، كما أشارت المترجمة فى هامش ١٣ فى ص ٤١، هو أننى كنت مهتمة بحماية هوية زينة الحقيقية، ولذلك لم أود التصريح باسم الجامعة التى تدرس بها.

كون المترجمة قد حاولت تخمين، وتضمين الترجمة، ما اعتقدت أنها التفاصيل «الحقيقية» لنصى، (وهو ما فعلته فى هوامشها التى أتت غالباً إما غير دقيقة أو غير ذات صلة) هو أمر يدعو للاستياء، لكن الأكثر إثارة للاستياء هو أننى أورد صراحة فى النص الأصلى السبب الذى يجعلنى أستخدم الأسماء المستعارة، ومع ذلك، وهو الأمر المدهش والمسىء حقاً، فقد أوردت المترجمة الأسماء الحقيقية للعديد من المشاركين فى البحث. فى هوامشها، قالت المترجمة أن شخصاً آخر أخبرها بالهويات الحقيقية للأشخاص الذين غيرت أنا أسماءهم، وأوردت تلك الأسماء لأسباب غير مفهومة تماماً بالنسبة لى.

لماذا يورد الباحثون الأنثروبولوجيون الأسماء الحقيقية للأشخاص المشاركين فى البحث أحياناً، ثم يستخدمون، فى أحيان أخرى، أسماء مستعارة لحماية هوياتهم الحقيقية؟ بعض المشاركين يطلبون منى استخدام أسمائهم الحقيقية، البعض الآخر شخصيات عامة ومعروفة جيداً وكتاباتهم منشورة ومتاحة. خلاف هذه الحالات، فإن ما أتبعه هو استخدام أسماء مستعارة. وقد أوضحت ذلك فى هامش بالنص الأصلى من الكتاب المطبوع:

«أستخدم فى هذا الفصل مزيجاً من الأسماء الحقيقية والأسماء المستعارة. أستخدم الأسماء الحقيقية للشخصيات العامة ومؤلفى الأعمال المطبوعة التى أستشهد بها، لكننى أستخدم أسماء مستعارة حين أناقش نشاط نفس هؤلاء الأشخاص فى أنشطة الجمعيات النوبية، أو حين أورد مقتطفات من مقابلات شخصية أجريتها معهم. الأشخاص الذين اختاروا استخدام أسمائهم الحقيقية، سواء هنا أو فى مطبوعات سابقة من تأليفى أو تأليف آخرين، يتم تعريفهم بناء على ذلك» (٤١٣) .

لقد قامت المترجمة بترجمة ذلك الهامش، وهو أمر عرفته لأن النص المترجم تم نشره أيضاً فى منتدى من منتديات الإنترنت، لكن لسبب ما اختارت المجلة عدم نشره. وقامت المجلة بدلاً من ذلك بنشر هوامش المترجمة التى قامت فيها بالكشف عن أسماء الأشخاص التى قمت أنا بتغييرها أو حذفها احتراماً لخصوصيتهم. الأمر الذى يظل محيراً لى هو إن كانت المترجمة قد ترجمت تلك الفقرة عن الأسماء المستعارة، من المؤكد أنها فهمت أن بعض الأسماء حقيقية وبعضها مستعار. ولو أن طرفاً ثالثاً قد أخبرها بالاسم الحقيقى لأى شخص فى النص، لم يكن هناك حاجة للتصريح بتلك الأسماء فى النص المترجم، ولم يكن من الملائم أن تقوم المجلة بنشر ذلك.

ذلك الخرق للخصوصية ولأخلاقيات البحث الأنثروبولوجى من قبل المترجمة، والطرف الثالث، والمجلة له تداعيات خطيرة. ذلك أن هذا النص هو نتاج عشر سنوات من البحث فى نفس الموضوع، ذلك البحث القائم على بناء علاقات تعود لعام ١٩٩٢، وكباحثة، أعتمد على حسن نوايا الأشخاص الذين قبلوا أن أدخل حياتهم، ومؤسساتهم، وبيوتهم معتمدين على أننى، على الأقل، سأمثلهم تمثيلاً دقيقاً. ومع أن الكثيرين منهم قد يختلفون مع آرائى أو تحليلاتى، فإن من حقهم توقع أن أقوم بكل ما فى وسعى لحماية خصوصياتهم وصونها من أى ضرر قد ينتج عن نشر آرائهم ومقولاتهم الخاصة.

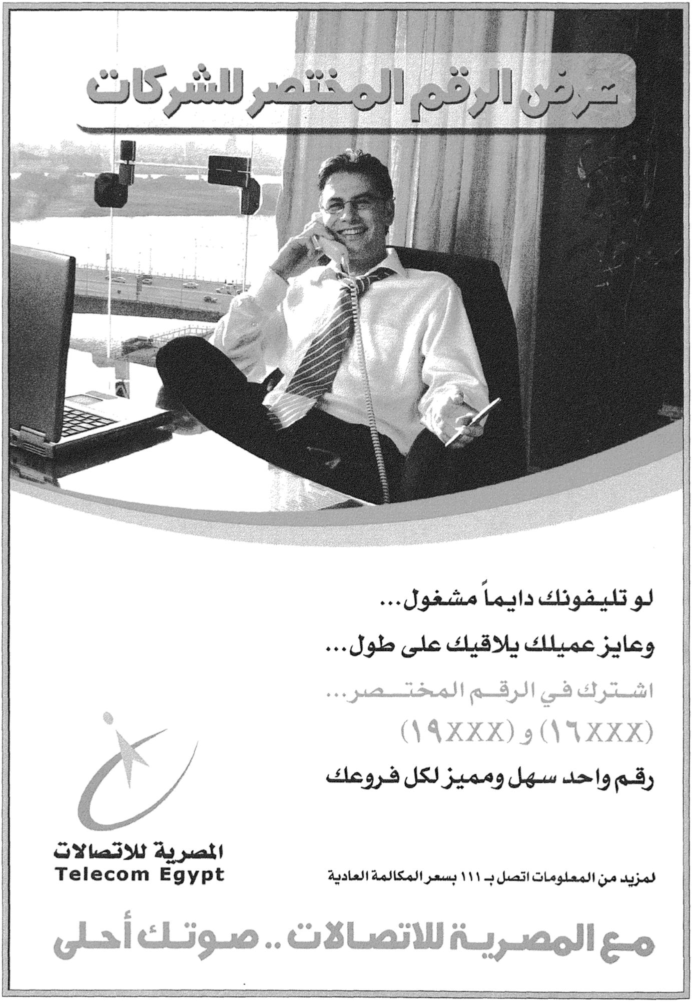
إنها لمفارقة جديرة بالملاحظة أن المقال المترجم يتناول كيف أن الأمور ذات الصلة بالنوبة يتم المبالغة فيها أو تشويهها أو إساءة فهمها فى وسائل الإعلام المصرية. وتشويه نصى عبر تلك الترجمة هو نتاج نفس تلك الظاهرة الشائعة: الجهل بما يخص النوبيين، تصويرهم على نحو نمطى، وغياب الدقة فى التحضير المتعجل لتمثيلات النوبيين فى المجال العام. وهذا هو بالضبط ما عانت منه ترجمة نصى المتعجلة، وغير الدقيقة. ■

---

(١) نُشر المقال الأصلى بعنوان: «المكان، والطبقة، والعرق فى مقهى «البرابرة»: الفضاءات المدينية النوبية وهويات الإعلام».
Place, Class and Race in the Barabra Café: Nubian Urban Spaces and Media Identities.
كفصل فى كتاب:
Cairo Cosmopolitan: Politics, Culture, and Urban Space in the New Middle East, eds. Paul Amar and Diane Singerman. Cairo: American University in Cairo Press, 2006.
أما الترجمة فقد نُشرت بعنوان: «ماس-كاجنا... لعلك بخير- أحزان نوبية!!» مجلة «وجهات نظر»، العدد المائة، مايو ٢٠٠٧

(٢) موقع «الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية»
http://www.aaanet.org/stmts/irb.htm

(٣) موقع «الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية»
http://www.aaanet.org/committees/ethics/ethcode.htm


عرض الرقم المختصر للشركات
لو تليفونك دايماً مشغول...
وعايز عميلك يلاقيك على طول...
اشترك في الرقم المختصر...
(١٦XXX) و (١٩XXX)
رقم واحد سهل ومميز لكل فروعك
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١ بسعر المكالمة العادية
مع المصرية للاتصالات .. صوتك أحلى

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 104 - September 2007

مجلة شهرية . العدد المائة وأربعة . السنة التاسعة . سبتمبر ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات



◆ الطريق إلى الحكومة الصالحة ◆ نزع قداسة الهولوكوست ◆ ديمقراطية الأثرياء ◆ إيرانية فى الفضاء ◆ العرب بين ايدولوجيتين

السنة التاسعة
العدد المائة وأربعة
سبتمبر ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- إبراهيم سعيد البيضانى.. مدير مركز الدراسات الاستراتيجية ببغداد.
- أنوشة الأنصارى.. سيدة أعمال أمريكية من أصل إيرانى وتعد أول سائحة فضاء امرأة
- حجاج أبوجبر.. باحث فى معهد الأعراق البشرية الأوروبى بجامعة هامبولدت الألمانية.
- خليل العنانى.. باحث مصرى متخصص فى شئون الإسلام السياسى.
- رافايل ج. بينادو سانتايا.. جامعة غرناطة
- رشدى سعيد.. أستاذ جيولوجيا مصرى مقيم فى الولايات المتحدة.
- شريف دلاور.. خبير اقتصادى مصرى.
- شيرين أبوالنجا.. أستاذ مساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
- صلاح الدين إبراهيم.. استشارى الطب النفسى.
- طاهر حمدى كنعان.. نائب رئيس وزراء أردنى سابق وعضو منتدى الفكر العربى
- عبد الوهاب المسيرى.. أستاذ الأدب الإنجليزى غير المتفرغ بجامعة عين شمس.
- محمد سليم العوا.. رئيس جمعية مصر للثقافة والحوار.
- محمد عمارة.. كاتب ومفكر إسلامى.
- محمد يوسف عدس.. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- محمود الوردانى.. صحفى وروائى مصرى.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - سعد الدين شحاته

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٢٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

الطريق إلى الحكومة الصالحة

رشدي سعيد

الديمقراطية نظام للحكم يختلف الناس فى طريقة تطبيقه اختلافاً كبيراً. ويقصد به فى المجتمعات الغربية الحديثة حق الناس فى أن يحكموا على أداء الحكومة على فترات تتراوح بين ثلاث وسبع سنوات فيثبتونها فى مكانها أو يغيرونها. وفى هذا النظام يكون لكل مواطن صوت واحد يدلى به لا يجوز منعه من استخدامه بالقوة أو التزوير أو بغير ذلك من الطرق، وتتولى الحكومة التى اختارها المواطنون الحكم وتقوم بتنفيذ برامجها دون أن تضطر إلى استخدام العنف كما أنها تلتزم بألا تفسد أو تعطّل بأى شكل العملية الديمقراطية التى جاءت إلى السلطة عن طريقها.

ويحمل هذا التعريف البسيط، الذى لا أتصور أن أحداً يمكن أن يختلف عليه، شروطاً عدة لنجاح هذا النظام لعل أولها وأهمها هو أن يكون المجتمع قابلاً لنظام التعدد ومتيحاً الحرية الكاملة لأفراده للتجمع فى أحزاب أو هيئات دون قيد أو شرط تكون لها حرية التجمع والدعوة إلى أفكارها فى مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية دون حائل. ولا يكتمل النظام الديمقراطى إلا إذا كانت هذه التجمعات طوعية يدخلها الفرد باختياره وليس بسبب انتماءاته الأسرية أو القبلية أو الطائفية - أو العرقية أو الدينية - وهذا أمر لا يتيسر إلا فى الدول ذات التقاليد العريقة فى تنظيم الأحزاب السياسية والنقابات المهنية والتعاونيات والجمعيات الحرفية وغير ذلك من منظمات المجتمع المدنى. وفى مثل هذه التجمعات ينتمى الفرد بناءً على معرفة عقلانية إلى حزب أو نقابة أو جمعية يرى أن أفرادها قد يكونون أقرب إليه من أفراد أسرته أو قريته أو قبيلته أو طائفته أو مذهبه الدينى.

ولا تتهيأ الظروف التى تفرز مثل هذه التجمعات إلا فى دول معينة تنتمى فى أغلبها إلى عالم الدول الصناعية وفى أقلها إلى بعض دول العالم النامى مثل مصر والهند اللتين أتيحت لهما قيادة متقدمة فى بداية القرن العشرين مع نشوء حزب المؤتمر فى الهند وحزب الوفد فى مصر والعديد من الأحزاب الأخرى والتى انضمّ تحت لوائها جموع الناس بكامل إرادتهم ليكونوا من أوائل التنظيمات المدنية التى أدخلت هذين البلدين فى العالم الحديث. وقبل ظهور هذه الأحزاب وعلى طول العصور لم يكن بالهند أو بمصر تنظيم طوعى يمكن أن ينضمّ الناس إليه باختيارهم، فقد كانت انتماءاتهم تعود إلى البلدة أو القبيلة أو الدين الذى ولدوا فيه والذى لم يكن لهم فيه اختيار. وكان الناس فى هذا النظام القديم يولون ولاءهم لبلدياتهم أو عصبياتهم أو لإخوانهم فى الدين وينظرون إلى الآخر بعين الريبة. وعندما جاء تنظيم الأحزاب انفتح الباب أمام كل الناس وبغضّ النظر عن انتماءاتهم للدخول فيها بكامل إرادتهم، والتأمت تحت لوائها هذه التجمعات المتفرقة لكى يتكوّن المجتمع المدنى الحديث الذى أعطى لمفهوم الوطن أو المواطنة بعداً جديداً، فقد أصبح الهنود والمصريون بفضل هذه الأحزاب مواطنين متساوين يجمعهم لواء الوطن بعد أن كانوا رعايا شيخ القبيلة أو حاكم البلاد أو أتباعاً لرجل الدين.

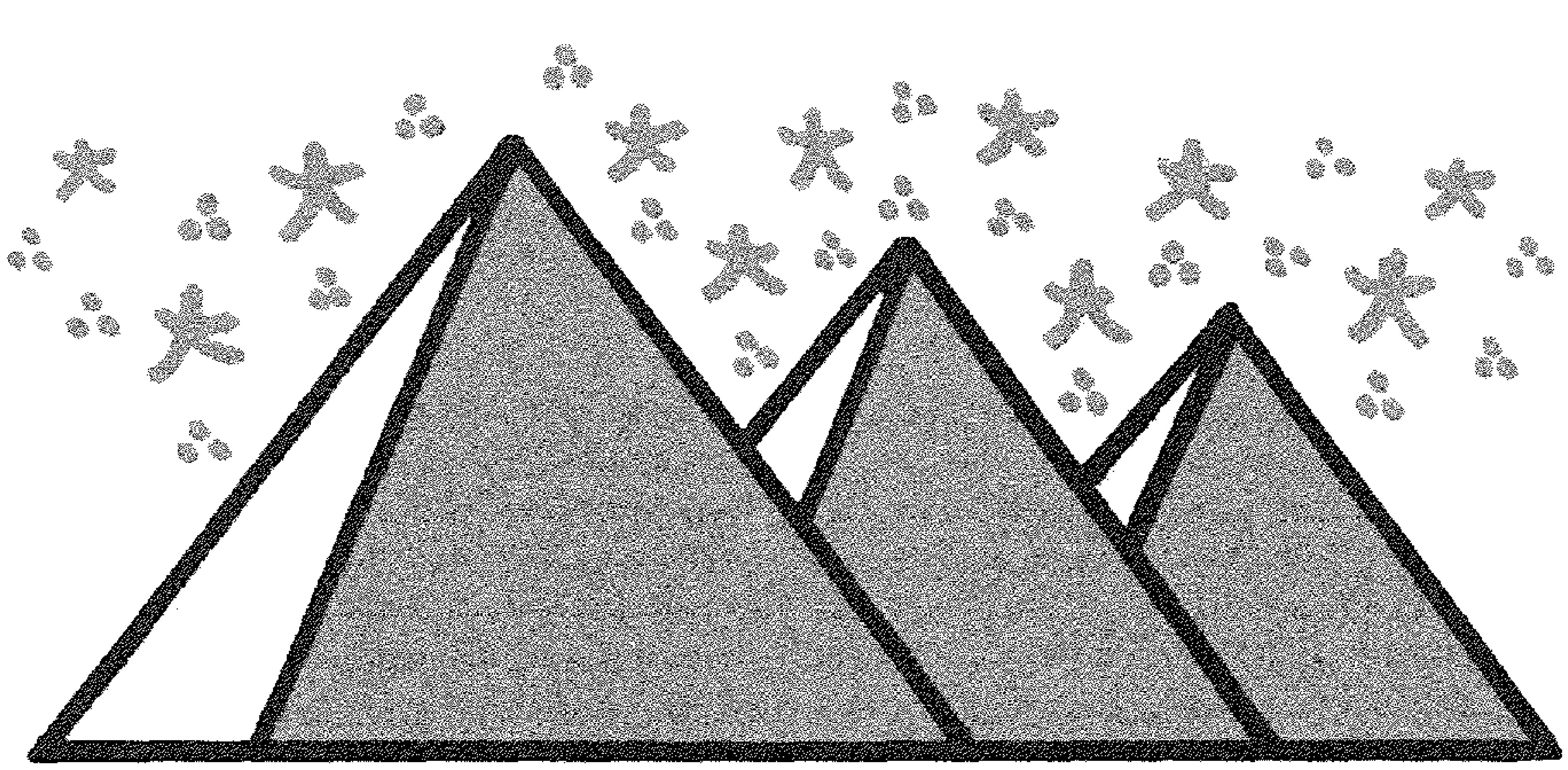
ولعلّ عملية الانسلاخ من قبضة رجال الدين هى من أصعب عمليات بناء الديمقراطية التى هى فى حقيقتها أحد مظاهر المجتمع المدنى الذى يسود فيه القانون الوضعى. أمّا فى تلك المجتمعات التى يسود فيها القانون العرفى أو الإلهى والتى يزعم حكامها أنهم يستمدّون سلطتهم من موقعهم القبلى أو من مصدر إلهى فهؤلاء الحكام لا يمكن أن يقبلوا أن يصبح أداؤهم محل حكم جموع البشر. وليس من الغريب أن جاء ظهور المؤسسات الديمقراطية فى أوروبا بعد أن لفظت أوروبا الحق الإلهى لملوكها وبعد أن قرّرت شعوبها ألا تكون المرجعية فى قوانينها إلى كتاب مقدس بعينه بل إلى حاجاتها الدنيوية. وقد صاحب هذا التحوّل فى أوروبا فصل المؤسسات الدينية عن الدولة تماماً أو تقليصها إلى موقع رمزى فى الوقت نفسه الذى أعطى فيه الحق للجميع من مواطنى الدولة لممارسة شعائرهم الدينية فى حرية تامة.

ويمكن الجزم بأن الحكومة المدنية الديمقراطية هى أكثر الحكومات احتراماً للدين بل لعلها الوحيدة من بين جميع الحكومات التى عرفها الإنسان التى تسمح لجميع مواطنيها بممارسة شعائرهم الدينية بحرية ودون تمييز ودون خوف من اضطهاد، كما أنها الوحيدة التى تسمح للناس بالاجتهاد فى تفسير دياناتهم دون أن يتهمهم أحد بالارتداد أو يصيبهم غضب المؤسسة الدينية.

ومن العوامل الأساسية التى تؤدى إلى ازدهار الديمقراطية وجود طبقة متوسطة كبيرة العدد متماسكة وواثقة من نفسها ومؤثرة فى الحياة السياسية لمجتمعاتها. وفى الحقيقة فإن ظهور الديمقراطية فى أوروبا جاء مع ظهور الطبقة المتوسطة، فقد رأت هذه الطبقة الجديدة أن النظام الديمقراطى هو خير طريق يكفل لها المشاركة فى الحكم الذى كانت تحتكره طبقة الإقطاعيين بمساندة المؤسسات الدينية. وقد جاءت هذه المشاركة سلمياً ودون إراقة دماء فى بعض البلاد وبالثورة والعنف فى بلاد أخرى. وفى كلتا الحالتين تمّ تغيير نظام وفلسفة الدولة فصفّيت أعمدة النظام القديم وفصلت المؤسسة الدينية عن الدولة وتأسّست حكومات نيابية مسؤولة أمام الناس.

وقد تطوّر النظام الديمقراطى منذ ذلك الوقت فأصبح نظاماً يقوم بالتوفيق بين المصالح المختلفة للطبقة الوسطى. ومن الوجهة التاريخية فإن هذا النظام كان فى أوج نجاحه عندما كان المجتمع مستقراً، ففى هذه الحالة يتفق أغلب الناخبين على مبادئ عامة تتخذها الأحزاب السياسية أساساً لبرامجها المختلفة، ويتفاوت المدى الذى تختلف فيه هذه البرامج من مجتمع إلى آخر؛ فهو كبير عندما يكون المجتمع مستقراً تماماً وآمناً، وضيقاً عندما يكون المجتمع أقل استقراراً ومشوباً

والديمقراطية.. والانتماء



جميع الدول العربية لا تتبع نظام التعدد ولا تسمح بقيام الأحزاب السياسية أو تسمح بها فى حدود ضيقة

بالقلق. وتشجع معظم بلاد أوروبا الغربية الحديثة تمثيل جميع الأحزاب، بما فيها تلك التى تقف على هامش الفكر السياسى فى العملية الديمقراطية.

ولا يوجد فى النظام الديمقراطى من الوجهة النظرية على الأقل ما يمنع الناخبين من اختيار حكومة تدعو إلى تغيير جذرى فى النظام الاقتصادى أو الاجتماعى للدولة ولا تنتمى إلى أى من التيارات السياسية الأساسية فى البلاد. إلا أن هذا الأمر لم يحدث أبداً من الوجهة العملية حتى فى أعرق البلاد الديمقراطية. ففى الحالات التى رفض فيها الناخبون نظام الدولة الأساسى واختاروا نظاماً مغايراً، ألغيت نتائج الانتخابات وأوقفت الحياة الديمقراطية. ويمتلئ تاريخ أوروبا القرن العشرين بأمثلة كثيرة ليس آخرها ما حدث فى روسيا فى شهر أكتوبر سنة ١٩٩٣. وكثيراً ما صرف النظر عن نتيجة الانتخاب عندما اختار الناخبون حكومة شيوعية فى أوروبا الغربية أو حكومة رأسمالية فى أوروبا الشرقية خلال سنى الحرب الباردة. ففى كلتا الحالتين ألغيت الانتخابات التى رأتها النخبة الحاكمة ضارة على البلاد أو على النظام الديمقراطى ذاته. ويعود ظهور الفاشية والنظم القمعية الأخرى فى أوروبا القرن العشرين إلى عدم قبول النخب الحاكمة لنتائج الانتخابات. ويمكن القول لذلك أن الديمقراطية هى نظام لا يزدهر إلا عندما تكون المجتمعات مستقرة وعندما يسود جو من الثقة بين الناخبين ويؤمنون بأن المبادئ الأساسية التى تنبنى عليها برامج الأحزاب هى مبادئ تصلح أساساً لتقدمهم ورفاهيتهم وأنها قادرة على إصلاح مسار أى خطأ قد ينجم عن تطبيقها.

الديمقراطية فى العالم العربى

والآن، وبعد هذه المقدمة الطويلة عن نشأة الديمقراطية ومقوماتها، ماذا عن العالم العربى وأحوال النظم الديمقراطية التى تدعى كل دولة (باستثناء المملكة العربية السعودية) أنها تسير على نهجها وتحكم بآلياتها. أول ما نلاحظه على هذا النهج الديمقراطى فى مختلف صوره المتبعة فى الدول العربية هو أنه لا يستوفى الشرط الأساسى الذى جاء فى تعريفنا للنظام الديمقراطى فى أول هذه المداخلة وهو ضرورة القبول بمبدأ التعدد. وإذا استثنينا الحالة الخاصة للبنان، فإن جميع الدول العربية وبلا استثناء لا تتبع نظام التعدد ولا تسمح بقيام الأحزاب السياسية على وجه الإطلاق أو تسمح بها فى حدود ضيقة وخانقة تمنعها من التجمع أو إيصال رسالتها عبر وسائل الإعلام المرئية على وجه الخصوص كما هو الحال فى كل من مصر وسوريا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الكثير من المجتمعات العربية لم تنمُ بعد لتعبر جسر العلاقات الأسرية أو القبلية او الدينية ولم يتم إدماج طوائفها ومللها المختلفة فى بوتقة المجتمع المتناسق. ولعل أبرز مثال على تلك الحالة هو حال لبنان التى تتكون من موزاييك فريد استطاعت مكوناته وطوائفه أن تتعايش بعد الاستقلال عن طريق قبولها بمعادلة التمثيل النسبى لكل طائفة. وكان من المنتظر أن تكون هذه المعادلة مؤقتة لحين إيجاد معادلة أخرى يتم فيها الاندماج الكامل لكل الطوائف فى نسيج واحد. ولكن هذا الاندماج لم يحدث بل وعلى العكس من ذلك فقد أصبح الانقسام الطائفى أكثر وضوحاً عن ذى قبل.

أما فى مصر التى كانت من أوائل الدول العربية التى اندمجت طوائفها لتكون المجتمع المتماسك والحديث، فقد تراجعت عمليات الاندماج فى الخمسين سنة الأخيرة من القرن العشرين عندما ألغيت الأحزاب ثم أعيدت بعد سنوات طوال بقيود وتحت إشراف سلطوى، ومنعت من حرية الاجتماع العام والوصول الحر للرأى العام. وفى هذه السنوات تم تقييد الحركة النقابية حتى كاد الكثير منها أن ينقلب إلى مؤسسات حكومية. وفيها ظهر قانون ينظم تكوين الجمعيات الأهلية يكاد أن يضع كل أمورها تحت رقابة الحكومة.

وفى هذه السنوات تم تكديس توريث المهن فأصبح من الشائع أن يرث الابن عن أبيه مهنته وأصبحت وظائف أساتذة الجامعات والقضاء والجيش والبوليس والسلك الدبلوماسى حكراً على الأبناء.

ولم يعد من المثير للدهشة أن نرى جميع أعضاء السلك الدبلوماسى فى إحدى السفارات بدءاً من السفير ونهاية بأصغر ملحق فيها من أبناء السفراء السابقين. كما لم يعد مثيراً للغضب أن يكثر الكلام فى الصحف عن البلديات والعصبيات، بل إن رئيساً سابقاً لمصر كان كثير الكلام عن القرية التى نشأ فيها والتى كان يختار أقرب معاونيه من بين أبنائها. كما أصبحت انتخابات مجلس الشعب تدور حول العصبيات والانتماءات القبلية والدينية. وهكذا تشرذمت مصر وتفرق أهلها ولم يعد من الممكن على سبيل المثال أن ينجح قبطى فى الانتخابات العامة بعد أن كان الكثير منهم ينجحون فى دوائر لم يكن بها وجود قبطى يذكر. كما لم يعد الدخول فى مختلف المهن مفتوحاً كما كان بل عاد الناس إلى أحوال العصر الوسيط يرثون مهن آبائهم حتى وإن لم يكونوا مهيئين لها.

وإذا أردنا أن نعرف ماذا يمكن أن يأتى به تآكل المجتمع المدنى فما، علينا إلا أن نرى ما أتى القضاء عليه وتكريس نظام الطوائف من كوارث نراها فى العراق والسودان والصومال التى تفتتت وعادت إلى النظم القديمة فى الحكم والتى كان الولاء فيها إلى القبيلة التى نشأ الفرد فيها أو الدين الذى ولد عليه. ويبدو أن الكثير من الدول العربية تسير فى الطريق نفسه فما لم تسارع بلاد مثل اليمن والسعودية ودول الخليج العربى والجزائر وسوريا فى بناء المجتمع المدنى وكسر نظام الطوائف ومعالجة مشاكل أقلياتها

التى بدأت تتململ من طول الحكم السلطوى للأكثرية الغالبة فلن يكون المستقبل مأموناً.

ويسير نظام الطوائف يداً بيد مع تصاعد دور الدين فى الحياة العامة فى كافة البلاد العربية، فقد أصبح رافداً هاماً فى حياتها السياسية وزادت المطالبة بجعله نظاماً للحكم يسترد قوانينه من شرائعه. وفى مثل هذا الجو الذى يتحكم فيه المطلق والقانون الإلهى فمن غير المتصور أن تزدهر العملية الديمقراطية كما بيّنا فى بداية هذه المداخلة. ومن الملاحظ أن كل البلاد العربية وبلا استثناء واحد وبما فى ذلك البلاد التى تحرم خلط الدين مع السياسة مثل مصر قد تصاعد فيها هذا الفكر الذى وجدت الحكومات أن فى تشجيعه فائدة لها كفزاعة لتحصل على تأييد نخبها والحكومات الغربية التى تسعى هذه النخبة للحصول على صداقتها وتأييدها.

ولعل أكبر معوق لبناء الحكم الديمقراطى فى البلاد العربية هو فى غياب الحكومة الصالحة التى تسودها الشفافية والاستقامة فهى الوحيدة التى يمكن أن ينمو فى ظلها المجتمع المهيأ للعيش فى نظام ديمقراطى، كما أنها الوحيدة التى يمكن أن تجرى الانتخابات فى نزاهة كاملة وحياد تام لتتيح لمجتمع التعدد بأحزابه وهيئاته حرية الاجتماع والفرص المتساوية لعرض برامجها فى وسائل الإعلام على اختلافها وإدارة عملية الانتخاب فى شفافية ودون تزوير. ومثل هذه الحكومات الصالحة هى الأساس الحقيقى لقيام نظام ديمقراطى فعال ودون وجودها يكون الحديث عن الديمقراطية هو العبث بعينه. فقد أثبتت التجربة عدم جدوى المجالس النيابية التى أفرزتها الحكومات الرديئة التى تحكم العالم العربى اليوم حتى ليمكن القول بأن هذه المجالس تشكل فى الوقت الحاضر عبئاً على البلاد، فهى بحكم تركيبها ونوعية أعضائها غير صالحة بأى شكل من الأشكال للقيام بأعمال التشريع أو الرقابة حتى ليمكن القول بأنه لو أقفلت كل هذه المجالس أبوابها لما حدث هنالك أى شىء يمكن أن يؤثر على البلاد.

وفى نظرى فإن القضية الأولى التى يجب أن تشغل الرأى العام فى الوقت الحاضر والتى ينبغى أن تجند لها كل قوى التقدم فى البلاد العربية هى الدعوة إلى إيجاد هذه الحكومات الصالحة التى يمكن أن تمهد الأرض لبناء المقومات الأساسية لبناء المجتمع الديمقراطى. وهنا قد يقول قائل بأن الطريق إلى الحكومة الصالحة هو فى تطبيق النظام الديمقراطى الذى ينبغى أن ندعو إليه. وهنا أذكر القائل بأن التجربة العملية أثبتت خطل هذا الرأى فها نحن نرى نتيجة ما تقوم به الحكومات الرديئة القائمة من هدم لكل المقومات اللازمة لبناء النظام الديمقراطى.

وعلينا أن نتذكر أن قيام الحكومة الصالحة هو رهن بقيام المجتمع المدنى الذى يعتمد اقتصاده فى المقام الأول على الإنتاج لأن مثل هذا المجتمع هو الكفيل بإخراج قيادات لها مصلحة حقيقية فى بناء أجهزة ومؤسسات الدولة التى تعمل فى كفاءة وشفافية ونزاهة خالصة. فالمنتج هو صاحب العمل الذى يهمه أن يكون ببلاده مؤسسات ذات كفاءة وعلى درجة كبيرة من الاستقامة يرى أن لها فائدة كبرى تيسر له العمل وتفتح أمامه النجاح. المنتج هو الذى يريد أن يرى ببلاده مؤسسات عالية الكفاءة للقضاء والأمن والجمارك والضرائب والتعليم وغيرها لأن فى نجاحها واستقامتها مصلحة مؤكدة. ومن الملاحظ أن كافة الدول العربية أصبحت دولاً غير منتجة فكلها وباستثناءات قليلة تعتمد فى اقتصادها على تصدير الخامات الأولية وتقديم التسهيلات التجارية والخدمات السياحية والاتجار فى الأموال والأراضى والعقارات والكثير منها يعيش على المعونات الأجنبية التى تأتيه من كل صوب. ومثل هذا النشاط الاقتصادى يولد الفساد فهو فى حقيقته نشاط اقتصادى مبنى فى الأساس على عمليات غسيل الأموال.

وفى ختام هذه المداخلة، فإنى أتوجه بالنداء إلى كافة القوى الوطنية فى العالم العربى لبدء حملة مكثفة للدعوة لمحاربة الفساد وبناء الحكومة الصالحة والمجتمعات المنتجة، فمثل هذه الدعوة ستكون البدء الحقيقى لبناء الديمقراطية فى ظل الأحوال الحاضرة فى العالم العربى. ▪

ثقافة

▪▪ التغيير سُنَّة من سنن الحياة، فليس هناك شىء يبقى على حاله بصورة دائمة، ولذلك صحت العبارة العربية التى تذهب مذهب المثل على ألسنة الخاصة والعامة «سبحان من يُغَيِّرُ ولا يَتَغيَّر» يَعْنُونَ بها أن الثبات المطلق فى الصفات والقدرات هو لله تعالى وحده، وأن كل ما سواه يلحقه التغيير.

وعندما نقرأ فى الأدبيات الإسلامية والعربية المعاصرة عبارات مثل «الثوابت» و«المتغيرات» ومثل «الأصول» و«الفروع» فإننا لا نفهم منها إلا أن هناك أفكاراً أو ضوابط أو قواعد يُرْجَعُ إليها بصورة متكررة، وتُسْتَدْعَى لبناء التصورات المتباينة فى العصور المتوالية، وليس هذا، فى حقيقته، إلا تغييراً لفهمنا لهذه «الثوابت» وتلك «الأصول» على الرغم من هاتين التسميتين اللتين توحيان بعدم قبولهما للتغيير.

وفى مسيرة الفكر الإسلامى لم يكن التغيير مترتباً على تغير العصور والأحوال فقط، بل كان التغاير (وهو اختلاف يؤدى إلى تغيير الحكم على أمر أو شىء أو تصرف ما) فى فهم النصوص القرآنية والنبوية، نفسها، قائماً بين العلماء والفقهاء والمحدثين واللغويين والمتكلمين والصوفية جميعاً فى المجتمع الواحد وفى الزمان الواحد. وهذا التغاير هو الذى أنتج ظاهرة التعدد المذهبى الفقهى والكلامى، والتعدد المدرسى اللغوى، والتعدد الطرقى الصوفى، وهى ظاهرة دلت، ولا تزال تدل، على ثراء الفكر العربى الإسلامى وتعدد تجلياته تبعاً لتعدد المصادر التى استقى منها المعبرون عنه والمشاركون فيه.

ولم يضق المجتمع العربى الإسلامى بهذا التعدد فى المجالات الفكرية والثقافية والدينية كافة بل اعتبره ظاهرة طبيعية؛ واستعملت فى تسويغه والتدليل على قبوله عبارات نبوية أو قرآنية مثل «كلٌ ميسرٌ لما خلق له» و«كل يعمل على شاكلته» فى إشارة لا يخطئها العقل إلى أن هذه التعددية الفكرية من معالم الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وتَبِعَ هذه التعددية توالى التغيير فى مختلف أمصار الإسلام وأقطار العروبة فلم يبق الناس فى أى مصر أو قطر على فهم واحد أو فكرة واحدة وإنما تغيرت المذاهب المتبوعة والأفكار السائدة من وقت إلى وقت آخر بحسب قدرة المعبرين عنها على الإقناع وكسب الأتباع.

وهذا الواقع كان يستند إلى موروث ثقافى لا ينكره أحد مؤداه أن الإسلام نفسه لم يكن سوى حركة تغييرية كبرى فى العقائد السائدة والعادات والتقاليد المتبعة والأعراف المهيمنة على حياة الناس وقت البعثة النبوية.

فالدعوة الإسلامية إلى توحيد الله بالعبودية كان هدفها القضاء على الوثنيات التى سادت جزيرة العرب عند بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وتصحيح التصورات الخاطئة التى تسربت إلى الدينين السماويين السابقين على الإسلام: اليهودية والمسيحية.

والتشريعات الإسلامية فى العبادة كان هدفها تغيير العبادة الفاسدة، التى وصفها القرآن الكريم بقوله: (وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) (الأنفال:٣٥)، إلى العبادة الصحيحة التى يستحقها الله تعالى وحده، ولا يقبلها إلا كما شرعها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

والتشريع الإسلامى فى مجال المعاملات كان يرمى إلى تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد التى كانت غالبة على تعاملاتهم قبل الإسلام، ولذلك لم يلغ الإسلام كل ما كان معروفاً من صور العقود والتعامل قبله وإنما ألغى بعضها وأبقى بعضها. ألغى ما فيه ضرر محض، وأكل للمال بالباطل، وظلم يقع من القوى على الضعيف، ونحو ذلك من المنكرات وأبقى ما ليس كذلك من معاملاتهم.

وأقر التشريع الإسلامى الأعراف الصالحة، مع حملته القوية على الأعراف الفاسدة. فأبقى للقبيلة كيانها وتعاونها ورايتها التى تقاتل تحتها، ونصت الوثيقة النبوية المعروفة بـ«دستور المدينة» بعد ذكر القبائل المختلفة فى المدينة المنورة على أنهم «على ربعتهم يتعاقلون بينهم» و«يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف» (رَبْعتهم هى حالهم التى كانوا عليها قبل الإسلام؛ والمعاقل هى الديات؛ ومعاقلهم الأولى أى المقادير المتعارفة بينهم لكل اعتداء؛ والعانى هو الأسير؛ والمعروف هو العرف)[1].

وهكذا لا يستطيع أحد أن ينكر على الإسلام نفسه أنه كان حركة تغييرية إنسانية كبرى، وجَّه الوحى خطوها نحو تحقيق مصلحة الناس؛ وسار الأئمة من أهل الفقه والفكر والنظر على هَدْى هذه

التغيير.. وجهة نظر إسلامية

محمد سليم العوا

السنة الإسلامية فى التغيير والتصويب فى كل أرض دخلها الإسلام وفى كل جيل من أجياله. وليس جيلنا، ولا أقطارنا الإسلامية والعربية المعاصرة بدعاً من الأجيال والأعصار. فنحن نحتاج إلى التغيير فى كثير من نواحى حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية أيضاً، وهو تغيير تفرضه حالنا التى لم تعد ترضى أحداً، وعلاقتنا بالعالم من حولنا الذى أصبح يهيمن على حياتنا بصناعته وتقنيته وثقافته دون أن تكون لنا فى ذلك كله مساهمة تذكر.

القرآن الكريم وقضية التغيير:

يتناول القرآن الكريم قضية تغيير حال الناس فى عدد من الآيات الكريمة يرد فيها لفظان هما: «التغيير» و«التبديل».

فأما التغيير فقد جاء فى آيتين اثنتين فى قول الله تعالى: (بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال:٥٣)؛ وفى قوله تعالى: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) (الرعد:١١).

وأما لفظ التبديل فقد جاء فى عدد من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (البقرة: ٥٩)؛ وقوله تعالى: (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (البقرة: ٢١١).

وقوله سبحانه: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) (إبراهيم: ٢٨). وأهل العلم بالقرآن يقولون إن التبديل والتغيير بمعنى واحد[2].

ويرد اللفظان للانتقال من حال حسن إلى حال سيئ، أو من حال سيئ إلى حال حسن. فقوله تعالى: (بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) صريح فى أن التغيير هنا من حال حسنة إلى حال سيئة بينما قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) يحتمل التغيير من الحسن إلى السيئ والتغيير من السيئ إلى الحسن.[3]

ونستطيع أن نقول مثل ذلك فى قوله تعالى: (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (الأعراف:٩٥)، فهذه الآية تدل على التبديل من السيئ إلى الحسن ثم من الحسن إلى السيئ، بينما قول الله تبارك وتعالى: (وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (البقرة: ٢١١)؛ وقوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) يدلان على التبديل من الحال الحسنة إلى الحال السيئة. وقول الله تعالى: (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) (الفرقان: ٧٠)؛ وقوله: (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً) (النور:٥٥) يدلان على تبديل الأحوال السيئة بأحوال حسنة.

والتغيير والتبديل فى الآيات كلها نتيجة مترتبة على فعل الناس بأنفسهم «فقد قضت مشيئة الله وجرت سنته أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم. والنص... دليل التكريم لهذا المخلوق الذى اقتضت مشيئة الله أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه»[4].

وإرادة الإنسان وحركته فى التصور الإسلامى عامل مهم فى حركة تاريخه وفى تفسير هذا التاريخ. والقرآن الكريم عندما يعرض لمثل قضية التغيير لا يروى حادثة بعينها إنما يكشف عن سنة كونية مستمرة مؤداها أن ما يقع بالناس من خير أو شر مرده ومآله إلى ما يصنعه الناس أنفسهم بسلوكهم ومواقفهم[5].

وورود هذه السنة فى القرآن الكريم، مكررة فى المواضع كلها التى يتناول القرآن فيها مسألة التغيير أو التبديل، تقرير لعدل «الله فى معاملة العباد: فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه، للابتلاء والاختبار من نعمة لم يقدروها ولم يشكروها. ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجرى عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله»[6] والنص القرآنى بذلك يلقى تبعة على الإنسان الذى يملك تغيير مصيره بما يصنعه بنفسه فى حياته: فهو العنصر الإيجابى فى صياغة هذا المصير لا سواه. وهذا الفهم قديم عند أهل النظر فى القرآن الكريم فقد نص عليه الطبرى فى تفسير قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[7]؛ والقرطبى فى تفسير الآية نفسها[8]؛ وابن عطية فى تفسير قول الله تعالى:: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[9].



والحاصل أن القرآن الكريم يجعل تغيير أحوال الناس، إصلاحاً وإفساداً، منوطاً بعملهم هم، لا يقع خبط عشواء، ولا يتم بإرادة سواهم من خلق الله.

فالذين ينظرون اليوم إلى الأحوال الموجبة للتغيير فى أوطان العرب والمسلمين كافة، ويتطلعون إلى تغييرها طلباً للإصلاح، وحرصاً على مستقبل الأمة، وأملاً فى استعادة ما كان لها فى غابر الزمن من مكانة بين الأمم، عليهم أن يسألوا أنفسهم ماذا صنعوا؟ وماذا قدموا لكى يقع التغيير الذى يطلبونه؟ وهم من ناحية أخرى لا يجوز لهم أن ينتظروا قيام فئة أو طبقة أو ملك أو زعيم بإجراء التغيير من تلقاء نفسه. فإن مصالح هؤلاء - فى زعمهم - إنما تتحقق ببقاء الحال على ما هو عليه، استدامة للسلطان والنفوذ، باحتكار الثروات، وإهمال حقوق الإنسان، إن لم أقل العدوان عليها. ومصادرة حق الأمة فى المشاركة فى صنع حاضرها ومستقبلها تحت دعاوى الاستقرار والمحافظة عليه. أو انتظار حل مشكلاتنا الكبرى مثل مشكلة العدوان الصهيونى على فلسطين والعدوان الأمريكى البريطانى على العراق «كما لو أن تحرير فلسطين والعراق يتطلب استمرار الفساد والتعذيب والاستبداد وتعطيل الديمقراطية وسيادة القانون وحقوق الإنسان فى العالم العربى»[10].

ومنهج القرآن فى التغيير كما يجعله موقوفاً على صنع الناس يجعله متوقفاً على إرادة الله تبارك وتعالى. ويجعل الأمرين مقترنين، بل يجعل وقوع التغيير القدرى مبنياً أصلاً على وقوع التغيير البشرى. فالركون إلى الأقدار وانتظار تحركها لتحقق ذلك الإصلاح، الذى لم يسع الناس إلى تحقيقه بأنفسهم، فساد فى التصور وجهل بالسنن الربانية التى تدل عليها النصوص القرآنية. وهو جهل شائع بدرجة كبيرة. للأسف الشديد. بما يسوغ التنبيه إليه والتحذير من الوقوع فيه، وضرورة مواجهة الذين يشترون بنشره فى الناس سكوتهم على المظالم، ورضاهم بالفساد، وقعودهم عن العمل، لمصلحة القوى المهيمنة فى هذا القطر أو ذاك.

أولويات التغيير الضرورى:

قد يختلف الناس اختلافاً واسعاً حول أولويات التغيير، ولا يسع أحداً أن ينكر حق الباحثين والمفكرين والزعماء السياسيين - أيضاً - فى تصور ترتيب الأولويات، وفى وضع خطط تنفيذ الإصلاحات التى يجب إجراؤها فى عالمنا العربى. وليس فى وسع باحث إلا أن يقرر لنفسه ما يراه فى شأن الأولويات ووسائل الإصلاح، وأن يعرض ذلك على المعنيين بالشأن الإصلاحى، فإن قبلوا منه فذلك ما كان يبغى، وإن أبوا عليه فهم إما أن يدلوه على خير من رأيه أو يزيدوه إدراكاً لصوابه وفى الحالين، يكون عملهم، مضافاً إلى عمله،

ليس لأحد حجة فى إبعاد النساء عن العمل العام بسبب أنهن نساء، ولا فى حرمان الأمة من جهد المرأة لأنها امرأة

نوعاً من أنواع التعاون على البر والتواصى بالمعروف وهما واجبان شرعاً وعقلاً!

الإصلاح السياسى أولاً:

والرأى عندى أن الإصلاح الضرورى يبدأ، أول ما يبدأ، بالإصلاح السياسى. فمشكلتنا الرئيسية فى العالم الإسلامى كله هى فساد نظم الحكم المترتب على خلودها وأبديتها! والخلود والأبدية جعلا لحكامنا سلطة مطلقة لا تعلوها سلطة، ولا تنال منها مساءلة، ولا يُتَصَوَّرُ عليها قيد ولا حد.

وقد ورثنا هذه الخصيصة . أعنى خصيصة الخلود الأبدية . من تراثنا الثقافى الإسلامى الذى يقرر ويكرر أن الحاكم، سواء أكان مختاراً من الأمة (منتخباً) أم كان متغلباً عليها، يبقى فى منصبه إلى أن يأتيه أجل الله، أو يقوم متغلبٌ آخر يقدر عليه فيستولى منه على سلطان حكمه؛ ونضيف، بعد ما حدث مؤخراً فى أفغانستان والعراق، احتمالاً ثالثاً لزوال سلطان الحكام هو أن يقع غزو أجنبى لبلدٍ ما فيسقط نظامه وتحل محله فوضى عارمة أو نظامٌ يعمل لحساب المستعمر ويأتمر بأمره (!)

وفكرة تأبيد سلطة الحكام جاءت من التقليد الذى كانت تسير عليه الدول كلها فى العصر الذى نشأت فيه الدولة الإسلامية الأولى، فلم يكن آنذاك ثمة تداول للسلطة ولا تأقيت لمدة الحاكم فى أى مكان فى العالم. وجاءت كذلك نتيجة خوف الفقهاء والمفكرين السياسيين الإسلاميين من حلول الفوضى ووقوع المظالم. ففى مروياتهم التى تكاد أن تكون مسلمة بينهم أن: «ظلم سنة خير من فتنة ساعة». فمدار هذا الرأى كله وأساسه الذى ليس له سواه أن «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة». وهذه القاعدة صحيحة، كما أن العبارة الخاصة بتفضيل الجور لمدى طويل على الفتنة التى يهلك فيها البُرءاء وتُستَحَلُّ فيها الدماء المعصومة، عبارة صحيحة أيضاً. لكن الإشكال ينشأ . وإن شئت قلت نشأ واستمر . من تحويل الحكم الفقهى المؤقت (منع الفتنة) و(درء المفسدة) إلى حكم دائم يجعل الاستيلاء على السلطة بالقوة (حكومة المتغلب) مشروعاً، والظلم المستمر جائزاً، ومصادرة الحقوق، واحتكار الثروات، والتفرد بالسلطان كله، عن غير شورى من المسلمين، أموراً مباحة.

وبغير التخلص من هذا الفكر، وما ترتب عليه فى حياتنا السياسية من جمود وفساد فإن أى إصلاح آخر، فى أى مجال كان، لا جدوى منه ولن يكون له أثر.

وإذا كان اجتهاد الفقهاء الأقدمين مبنياً على قاعدة درء المفاسد وتقديمه على جلب المصالح، وعلى قاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات، باعتبار المحظور هو الاستيلاء على الحكم بالقوة والبقاء فيه إلى الأبد، والضرورة التى أباحته هى خشية الفتنة والهَرَج[11].

والضرورة فى صحيح الفقه الإسلامى، وفى صريح العقل أيضاً، تقدر بقدرها، ولا يجوز التوسع فى تفسيرها، ولا تحويلها من حال عارضة طارئة مؤقتة إلى حال دائمة لا تزول ولا تنتهى بل تتجدد مع تولية كل حاكم جديد، وتتسع فتشمل الأقطار كلها على اختلاف ظروفها وأحوالها. والبقاء على القول القديم الذى بَيَّنْتُ أساسه وسنده يؤدى بالأمة إلى أن تبقى فى حال التخلف والقعود الذى هى فيه.

مضمون الإصلاح السياسى:

والبدء بالإصلاح السياسى يعنى تمكين الأمة من اختيار حكامها. وتحديد مدة ولايتهم. وتحديد سلطاتهم وصلاحياتهم. وصنع المؤسسات التى تراقب عملهم. ووضع الأساليب والوسائل التى تتخذها هذه المؤسسات فى أداء واجب الرقابة.

وتحديد مدة الولاية يترتب عليه تقرير أن الحق فى تجديد الاختيار، أو القيام باختيار جديد، حقٌ للأمة لا يجوز عند ممارسته أن تزيف إرادتها أو تزور الأصوات التى يدلى الناخبون بها.

وأنا أستعمل كلمات (الأصوات) و(الإرادة) و(الناخبين) عامداً غير مخطئ، لأننى أدعو إلى اتخاذ الوسيلة المعروفة فى العالم الحديث باسم الديمقراطية وسيلة وحيدة لتنظيم العلاقة بين الحاكمين والمحكومين. فليس فيما أدركته البشرية وسيلة أفضل من الديمقراطية، باعتبارها سبيلاً لاختيار الحكام وعزلهم وتقرير مسؤوليتهم. وهذه الديمقراطية يمارسها العالم بصور متفاوتة من حيث التنظيم ولكنها متفقة من حيث النتيجة التى تؤدى إليها، أعنى من حيث تمكينها الناس من إدارة شؤونهم بأنفسهم؛ باختيار من يديرونها نيابة عنهم؛ وعزلهم، ومحاسبتهم عما قدموا فى أثناء توليهم مناصبهم.

وإذا كانت الشورى قد تقررت فى القرآن الكريم بآيتين اثنتين هما قول الله تبارك وتعالى: (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (الشورى:٣٨)؛ وقوله سبحانه: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران: ١٥٩).

فإن هاتين الآيتين تقرران مبدأ الشورى دون أن تتعرض أيهما لتفاصيله ولا لكيفية ممارسته، وهو منهج إسلامى أصيل يقوم على تفصيل ما لا يتغير بتغير الزمان من الأحكام وإجمال ما يتغير. ولأن الشأن السياسى كله ليس مما يثبت على حال فقد أجمل فيه القرآن الكريم هذا الإجمال الشديد ليترك للأمة الإسلامية تنظيم حياتها السياسية بما يحقق مصالحها فى الأزمنة المتوالية والأمكنة المتعددة[12].

والأصل فى الشورى، على الأصح من أقوال العلماء، أنها واجبةٌ ابتداءً ملزِمةٌ انتهاءً حتى قال بعض العلماء: «إن من تركها من الحكام فعزله واجب بلا خلاف»[13].

وليس المقصود بالشورى فى المفهوم الإسلامى حل صراع مفترض بين الحاكمين والمحكومين، فهم، فى التصور الإسلامى للدولة والمجتمع، أسرة واحدة لا فضل فيها لأحد على أحد إلا بالتقوى. وصاحب الولاية العامة ليس إلا واحداً من الناس جعله الله أثقلهم حملاً. والرقابة الشعبية التى تقيمها نظم الحكم الديمقراطية المعاصرة هدفها منع الاستبداد ومقاومة الظلم: والاستبداد والظلم محرمان شرعاً، ومنعهما واجب على الأمة كلها لأن هذا المنع داخل فى واجب النهى عن المنكر.

ولا يجوز الاستغناء عن الرقابة الشعبية التى توفرها النظم الديمقراطية، فى عصرنا هذا، بالركون إلى مفهوم أهل الحل والعقد الذى يروج له أهل التقليد من الكتاب المعاصرين فى الشأن السياسى الإسلامى. فإن مفهوم أهل الحل والعقد مفهوم تاريخى نشأ فى صدر الإسلام نتيجة ظروف الهجرة النبوية وتأسيس الدولة الإسلامية، وحركة الفتح الإسلامى التى صبغت بصبغتها أكثر الآراء السياسية فى عصر الاجتهاد والتدوين. وهذه الظروف تغيرت فى العصور الإسلامية المتوالية، وهى . يقيناً . غير قائمة فى العصر الإسلامى الذى نعيش فيه. فماذا نفعل فى هذا المفهوم، وما رتبه الفقه عليه من نتائج وآثار؟ إن الواجب أن يكون فى الدولة الإسلامية قادرون أكفاء يقومون بما كان يقوم به أهل الحل والعقد فى الزمان الأول، وهم اليوم . عندى . أعضاء المجالس النيابية المنتخبون انتخاباً حراً ليمثلوا الأمة تمثيلاً صحيحاً. ولا يجوز أن يدين هؤلاء بطاعة أو ولاء إلا للأمة كلها، ويجب أن تنظم علاقتهم بها على نحو يضمن قيامهم بحراسة مصالح الأمة والذود عنها دون أن يستميلهم أو ينحرف بهم ترغيب أو ترهيب[14] وهؤلاء إن أحسنوا كسبوا ثقة الناس، فى مقبل الأيام، وإن أساءوا وجدوا جزاء الإساءة القانونى والمعنوى على السواء!

التعددية السياسية حق للناس:

ولا يتصور إصلاح سياسى فى مجتمعنا العربى المعاصر دون التسليم بالحق فى التعددية السياسية الذى هو نتيجة طبيعية للاختلاف الفطرى الذى جعله الله تبارك وتعالى لازماً من لوازم الوجود الإنسانى كما قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (هود: ١١٨-١١٩)، قال العلماء أى وللاختلاف خلقهم[15] ووهبهم حرية الاختيار، وحملهم تبعاته[16] والتسليم بالتعددية السياسية تبعاً لحق الاختلاف وحرية الاختيار أمر لا يحتمل المراء ولا الشك[17].

ولم تعرف البشرية ظلماً أشد ولا

لم تعرف البشرية ظلماً أشد من الظلم المستند إلى نظرة دينية يساء فيها استخدام نصوص الدين الصحيحة

طغياناً أقسى من الظلم والطغيان اللذين استندا إلى نظرة دينية يساء فيها استخدام نصوص الدين الصحيحة بتأويلها على وفق أهواء الظالمين، أو يدس فيها ما ليس منه تحقيقاً لنزواتهم أو تمكيناً لها من القضاء على خصومهم، ولذلك فإن الدعوة إلى التعددية السياسية وضمانها باعتبار حق الاختلاف حقاً إنسانياً أصيلاً تعد اليوم من ضرورات الإصلاح السياسي في الوطن العربي والإسلامي كله. وإذا كان فقه القواعد الأصولية الإسلامية يقوم، من بين ما يقوم عليه، على قاعدة «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» فإن النظام السياسي الضامن لحقوق الناس لا يمكن أن يقوم وحق الناس في التعبير عن رأيهم منكور عليهم بدعوى أن وحدة الأمة واجب ديني[18].

إصلاح أوضاع المرأة:

ويلي الإصلاح السياسي في ضرورته لمجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة الاعتراف بحق المرأة في العمل العام.

وهذا الحق مستمد مباشرة من القرآن الكريم الذي يقرر صراحة المساواة بين الرجال والنساء في الأصل الذي يقوم عليه كل عمل عام وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة:٧١).

ومع هذا النص القرآني الصريح فلا مجال للمماحكة والمجادلة في حق المرأة في ممارسة العمل العام وأنه كحق الرجل سواء بسواء.

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك في قوله: «إنما النساء شقائق الرجال»[19]. وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة» قلنا لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[20]. فالسنة والقرآن إذن متفقان على المساواة بين الرجال والنساء في الشأن العام الذي لا يخرج عن أن يكون «نصيحة» سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدين»! ومن جميل فهم العلماء لحديث النبي صلى الله عليه وسلم «إنما النساء شقائق الرجال» أن معناه أنهما نظيران، كأن النساء شققن من الرجال، أو العكس «فما ثبت للرجال من الأحكام يثبت للنساء إلا ما قام عليه دليل الخصوصية»[21].

وليس لأحد حجة في إبعاد النساء عن العمل العام بسبب أنهن نساء، ولا في حرمان الأمة من جهد المرأة لأنها امرأة. وهذا هو ما تؤكده السوابق الإسلامية الثابتة منذ عهد النبوة لمشاركة المرأة في العمل السياسي والعسكري بصوره كافة[22].

التغيير واجب والتدخل الخارجي مرفوض:

إن الأمراض التي تعاني منها شعوبنا ودولنا كافة ليست حصيلة عهود قريبة وإنما هي آثار قهر سياسي واجتماعي طال مداه حتى أنتج ركام المشكلات التي نعاني منها في أقطارنا كلها، ولم تزل الإرادة السياسية متخلفة عن الإرادة الشعبية في العمل لتحقيق الإصلاح ووضع خططه موضع التنفيذ حتى ظهرت في الأفق الدعاوى الغربية. وبوجه خاص الأمريكية. لإصلاح أوضاع الدول العربية والإسلامية فيما عرف بمشروع الشرق الأوسط الكبير أو الشرق الأوسط الواسع، أو الجديد، أو مبادرة إرساء الاستقرار في الشرق الأوسط.

وفي كل هذه المبادرات اختلط السم بالدسم، وتحقيق الخير في بعض الجوانب لأمتنا وشعوبنا مع تحقيق المصلحة الخالصة في الجوانب كلها لأصحاب هذه المشروعات على تعددها وتباينها.

وكثير ممن يتناولون موضوع الإصلاح في صحفنا ووسائل إعلامنا يؤيدون هذه الخطط الأجنبية، إما يأساً من إمكان تنفيذ إصلاح داخلي ذاتي وإما طمعاً في حظوة عند أصحاب المشروعات الأجنبية تمكنهم على أيديهم مما لم يتمكنوا منه في ظل الأوضاع الحالية لأوطانهم وبلدانهم.

والإصلاح مطلب شعبي شامل للأقطار الإسلامية والعربية كافة، ومن أبرز أمثلته نشوء الحركة المصرية من أجل التغيير، والدعوات الإصلاحية النظيرة لها، في كل قطر عربي آخر. وأصحاب هذه الدعوات يؤمنون بضرورة الإصلاح وضرورة البدء فيه فوراً، ويحددون مناهجهم، ويتحدثون عن أولوياته وخطواته، ويختلفون في ذلك كله دون أن يخطِّئ بعضهم بعضا، أو يلوم أحد منهم أحداً. لكنهم يُجمِعُون بلا خلاف بينهم على رفض خطط الإصلاح الأجنبية لما تؤدي إليه من استمرار الاستتباع والهيمنة لقوى الخارج على قوى الداخل. والنظرة الوطنية التي تقبلها جماهير أمتنا هي التي تدعو إلى استقلال قرارنا السياسي والاقتصادي الذي لا يكون إلا بإصلاح يلبي الآمال والمطامح المشروعة ويصون للأوطان استقلالها ويحفظ لها كرامتها ويحول بينها وبين أن تُرتَهَن من جديد للقوة الواحدة المهيمنة اليوم، أو تُقتَسَم غداً بين قوى تتنازع الهيمنة على العالم والسيطرة على دوله وشعوبه.

وشعار هؤلاء الإصلاحيين الوطنيين هو قول الله تبارك وتعالى: (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود:٨٨).

والحمد الله رب العالمين.

هوامش:

١ . العلامة الشيخ محمد مصطفى شلبي، الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية، الإسكندرية، ١٩٦٠ ص ٦٨-٧٢؛ وأبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، القاهرة، ١٩٦٩، ج٢ ص ٢٩٦؛ والسهيلي، الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، ج٢ ص١٧؛ ومحمد حميد الله الحيدر آبادي، الوثائق السياسية ص ٣٩-٤٧.

٢ . الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم والدار الشامية، ط الثانية ٢٠٠٢، بتحقيق صفوان داوودي، ص١١١ و٦١٩؛ الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز، وزارة الأوقاف المصرية، ط الثانية ١٩٨٦، بتحقيق محمد علي النجار، ج٢ ص٢١٦.

٣ . سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧١، ج١٣ ص ٧٨.

٤ . سيد قطب، المصدر السابق.

٥ . سيد قطب، المصدر السابق، ج٩ ص٥٨٣.

٦ . سيد قطب، المصدر السابق، ج١٠ ص ٣٦-٣٧.

٧ . محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ط بولاق ١٣٢٨هـ، ج١٣ ص ٨١.

٨ . القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (مصورة عن ط دار الكتب) ١٩٦٧، ج٩ ص٢٩٤.

٩ . ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط وزارة الأوقاف المغربية ١٩٨١، ج٨ ص٩٣.

١٠ . بيان صادر من ٣٤ منظمة غير حكومية في ١٤ دولة عربية بتاريخ ٢٦/٥/٢٠٠٤ بعنوان «القمة العربية تصوت لصالح الإصلاح من الخارج!» وزعه في مصر مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

١١ . الهرْج كثرة القتل، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرْج» قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: «القتل القتل». وهو في البخاري، ط دار السلام، الرياض ١٩٩٧، برقم (٦٠٣٧) وفي مسلم، ط بيت الأفكار الدولية، الرياض ١٩٩٨، برقم ٢٨٨٨.

١٢ . محمد سليم العوا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ط الثامنة، دار الشروق ٢٠٠٦، ص ١٧٧ وما بعدها.

١٣ . تفسير القرطبي، المصدر السابق، ج٤ ص٢٤٩-٢٥١؛ والفخر الرازي، مفاتيح الغيب، القاهرة (د.ت)، ج٣ ص ١٢٠-١٢٢؛ محمد سليم العوا، الفقه الإسلامي في طريق التجديد، ط الثالثة، سفير الدولية للنشر ٢٠٠٧، ص ١٢١و١٢٦.

١٤ . في تفصيل هذا المعنى وتأصيله انظر: محمد سليم العوا، المصدر السابق، ص ١٢٦-١٢٨.

١٥ . القرطبي، المصدر السابق، ج٩ ص١١٥

١٦ . سيد قطب، المصدر السابق، ج١٢ ص٦٣٢.

١٧ . برهان غليون ومحمد سليم العوا، النظام السياسي في الإسلام، دار الفكر بدمشق ٢٠٠٤، ص ١٠٩.

١٨ . برهان غليون ومحمد سليم العوا، المصدر السابق.

١٩ . رواه أبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها، وهو في صحيح سنن أبي داود للألباني برقم ٢٣٦؛ وفي صحيح الترمذي برقم ١١٣، وقال الإمام الخطابي في شرحه إن «فيه من الفقه إلحاق حكم النظير بالنظير».

٢٠ . الحديث متفق عليه واللفظ هنا لمسلم، ج٧ ص ٣٧، من الطبعة المصرية بشرح النووي.

٢١ . العلامة محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود بشرح سنن أبي داوود، دار الكتب العلمية ببيروت ١٩٩٠، ج١ ص ٢٧٥؛ والعلامة الشيخ محمود خطاب السبكي، المنهل العذب المورود، ط الأولى ١٣٥١هـ، القاهرة، ج٢ ص ٢٣٦.

٢٢ . محمد سليم العوا، الإسلاميون والمرأة، دار الوفاء ٢٠٠٠، فصل المرأة وممارسة العمل السياسي وفصل المشاركة في العمل العام، ص ٢٦-٤٣. وراجع الجزءين الثاني والثالث من كتاب الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله: تحرير المرأة في عصر الرسالة، دار القلم بالقاهرة، ط الرابعة، ١٩٩٥. واقرأ بوجه خاص كتاب الدكتور محمد هيثم الخياط: المرأة المسلمة وقضايا العصر، دار سفير الدولية للنشر ٢٠٠٧ فصل: التمييز ضد المرأة، وفصل: دائرة العمل العام.



عبد الناصر



ميشيل عفلق

العرب.. بين أيد

■ مثلى مثل كثرة من القراء الذين تجاوزوا سناً معينة شهود حضروا النكبتين الأولى (١٩٤٨) والثانية (١٩٦٧)، ومنذ ذلك الحين عاصرنا ردود الفعل فى تفسير كل من النكبتين والصدمات التى أحدثتها كل منهما. وهى تفسيرات متشابهة لكلتا النكبتين. فبعد النكبة الأولى فى ١٩٤٨، صدر كتاب المرحوم قدرى طوقان «بعد النكبة»، وصدر لقسطنطين زريق كتاب «معنى النكبة»، وصل به بعد نكبة ١٩٦٧ كتابه «بعد النكبة مجدداً». وفى ١٩٦٧ صدر كتاب لوليد قمحاوى بعنوان «النكبة والبناء». وخلاصة تفسير النكبتين أو النكبة الأولى على الأقل فى تلك الأدبيات تركز على غياب الحداثة وعلى الفجوة العلمية والثقافية والتكنولوجية بين العرب وإسرائيل، وعلى التفرق العربى - فقد قيل فى النكبة الأولى أن السبع دول عربية هزمت لأنها سبع دول عربية فلو كانت دولة واحدة لما كانت انهزمت.

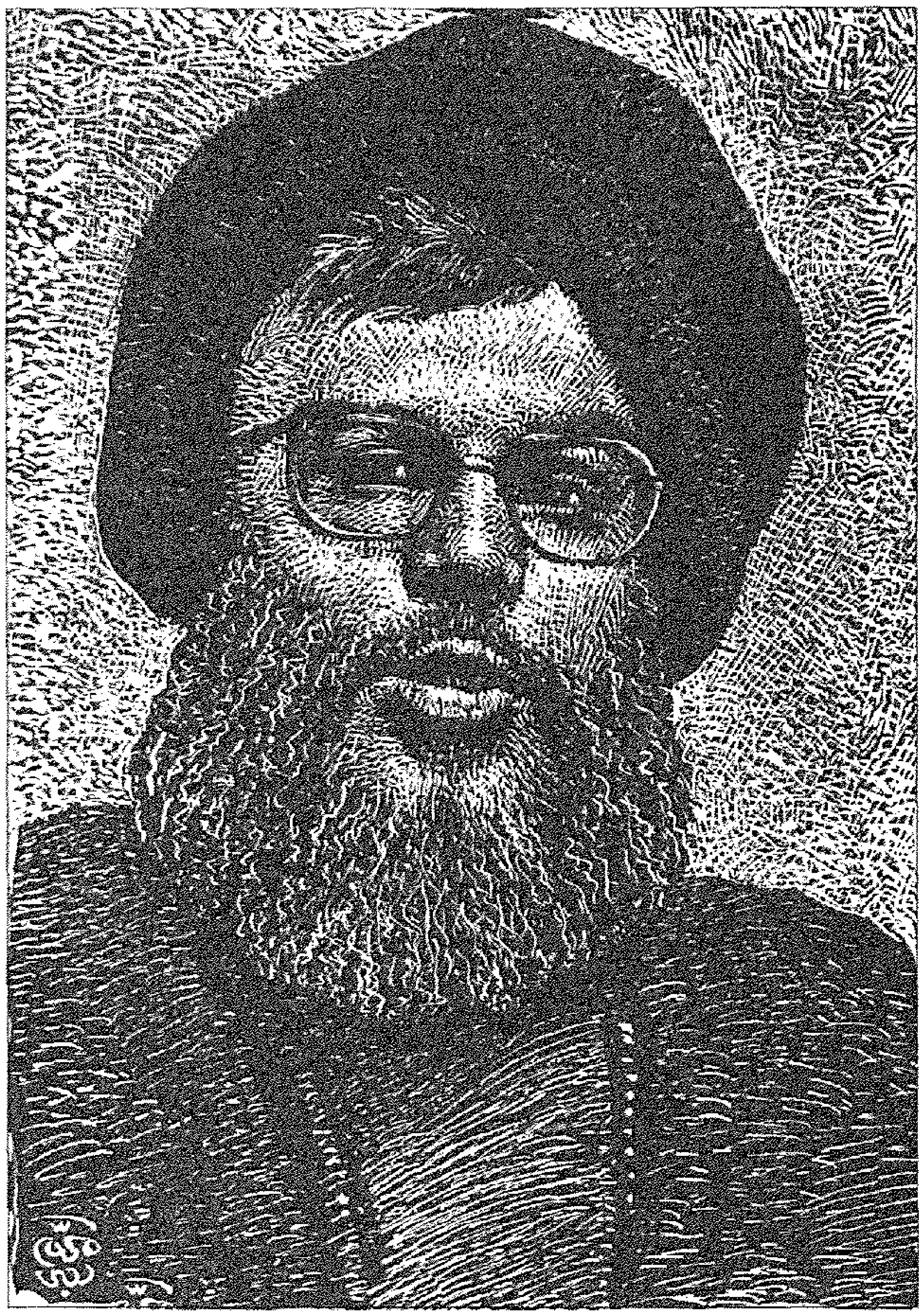
وفى ١٩٦٧ بقيت هذه التفسيرات صحيحة بل ازدادت إسهابا وأضيف إليها بُعد التحليل الاجتماعى، فخرجت كتابات أذكر منها «نقد الفكر الدينى» للدكتور صادق جلال العظم الذى تضمن نقداً اجتماعياً لظواهر الاعتقاد والخرافات ولعيوب أخلاقية مسلكية اعتمد فى وصفها على دراسات عالم الاجتماع المصرى حامد عمار، التى تناولت بالتحليل مثلاً ظاهرة «الفهلوة»، وذلك حين يحاول الشخص تحقيق نتائج والحصول على عوائد أو مكافآت دون بذل الجهد اللازم لتحقيقها. واستمر هذا المنحى النقدى للبُعد الاجتماعى إلى أن اتصل بتأملات هشام شرابى فى المجتمع العربى وتحليله ظاهرة الأبوية أو الأبوية الحديثة. من إسهامات هشام شرابى أيضًا تناوله «لعيوب التربية الأسرية» خصوصا لمرحلة ما قبل المدرسة الطفولة المبكرة، فكان أول من لفت النظر إلى ضرورة الاهتمام بها لخطورة أثرها على تكوين شخصية المواطن أو المواطنة وبالتالى على بناء المجتمع والأمة.

واستمر أيضاً إلقاء اللوم على التفرق والتبعثر العربى الذى ثابر على منحاه المتدنى بل الممعن فى الانحدار إلى أسفل بعد فشل الوحدة المصرية السورية، والتى تم إثرها تجيير الفشل فى ١٩٦٧ إلى إدانة فكرة القومية العربية والاهتمام ببناء الدولة القطرية.

من جهة المفاهيم المتعلقة بالقومية العربية، نميل بعد التجربة الطويلة إلى الظن بأن نظرة الدول العربية المحافظة فى هذا الموضوع، لولا الشك فى إخلاصها، كانت أكثر صوابا من نظرة الحركات التقدمية والدول التقدمية، إذ أن مفاهيمها ركزت على بناء الدولة القطرية والنظر للبعد العربى من منطلق التعاضد والتعاون وليس التوحد، على الأقل مرحلياً. لكن أنظمة الدولة القطرية بحكم غياب الديمقراطية فيها تصدت للفكرة القومية لأن هذه الأنظمة لم تنبثق عن إرادة الجماهير المعبرة عن مصالحها المصيرية القومية بطبيعتها.

من جهة أخرى، فإن نصيباً من اللوم فى غياب الديمقراطية يقع على الأحزاب والحركات السياسية الداعية للفكرة القومية ذاتها. فبرامج تلك الأحزاب والحركات وتنظيرها للفكرة القومية شملت أبعاداً عديدة وحرصت على شعارات شتى، ولكن ليس منها الحرص على المكوّن والمركب الديمقراطى، لا فيما يتعلق بالمجتمع ولا حتى فيما يتعلق بالأنظمة الداخلية لتلك الأحزاب والحركات.

فى المناخ المذكور بقيت الأنظمة القطرية تجد مصالحها فى العلاقات العمودية مع دول المركز الصناعى فى أوروبا وأمريكا والتى تعود فى نشأتها إلى عهد التبعية الكولونيالية. هكذا كان تكوين الدولة القطرية. ولقد شهد جيلنا نشأة الحركات القومية التى تصدت للدولة القطرية، لكن هذه الحركات القومية، افتقرت إلى النضج والحكمة فى عملها السياسى، فكان كل ما فعلته هو



حسن نصر الله



حسن البنا

أنها شككت وطعنت فى شرعية الأنظمة القطرية دون أن يكون لها القدرة على تغيير هذه الأنظمة ودون أن تخطط لبناء هذه القدرة، فكان كل ما نجحت فيه هو بعث الحساسية الأمنية لدى الأنظمة ضد حركات التغيير. تأسست هذه النظرة غير الناضجة مع تبنى مصر الناصرية للحركة القومية العربية وسعيها إلى نصرة هذه الفكرة والسعى إلى الوحدة العربية عن طريق التصدى للدول القطرية بأساليب المجابهة والصدام وتشجيع الانقلابات بدلاً من انتهاج طرق الإقناع والعمل الدبلوماسى المستند إلى وزن مصر المعنوى القائم ليس فقط على موقع مصر الجغرافى المركزى من الوطن العربى، وليس فقط على مساحتها وحجمها السكانى، بل أساساً على مكانتها الحضارية الإنسانية والعربية ونفوذها التربوى والثقافى والفنى والإعلامى..إلخ - فبدلاً من أن تبنى سياساتها الخارجية وتعاملها الدبلوماسى مع الأقطار العربية على هذه المكانة وعلى ذلك الوزن المعنوى اختارت أن تقيمها على أساليب الهيمنة. ولم يكن ذلك بغريب لأن تلك الأساليب فى سياساتها الخارجية كانت من جنس الأساليب القمعية التى سادت ممارساتها الداخلية وهى ذاتها التى نخرت فى مناعتها ضد عدوان ١٩٦٧.

لم تقتصر أسباب فشل الفكر والحركات القومية العربية على غياب الحذق والاحتراف فى عملها السياسى بل شملت ضعف أو غياب المكوّن الديمقراطى فى مفاهيمها وممارستها. هذا المكوّن كان مستبعداً فى الدولة القطرية ومستبعداً من الفكرة القومية العربية على حدٍ سواء. وترسخ ذلك من خلال انخراط العسكر فى السياسة والحكم. وكان من أسباب الفشل أيضا ضعف المكوّن الأخلاقى والمناقبى الذى تميزت به حركات سياسية أخرى منافسة للحركات القومية العربية وإن لم تكن متناقضة معها، وهى بعض الحركات الإسلامية من جهة وحركة القوميين الاجتماعيين من جهة أخرى. فقد تميزت الحركات الإسلامية أو معظمها، وكذلك الحزب القومى السورى أو القومى الاجتماعى بالاهتمام بالأخلاق الشخصية والمناقب لمنتسبيها بقدر اهتمامها بقدرة هؤلاء المنتسبين على ترديد الشعارات وتقديم الخدمات اللوجستية.

فى المقابل، شهد المحيط العربى على المستوى الاقتصادى والاجتماعى تراكماً كمياً هائلا فى مجالات الصحة والتعليم ومخرجاتها مما يهيئ مواد خام كثيرة للتحديث الحقيقى والفعل السياسى الحقيقى لولا أن ذلك التراكم الكمى لم يقابله أى جهد من أى جهة ولا من أى طرف قطرى أو قومى أو حركات سياسية من أجل البناء الحقيقى للأمة، بما فى ذلك بناء التماسك الاجتماعى والمواطنة.

فى رواية شهيرة، هى رواية هربرت ج ويلز «آلة الزمان H. G. Wells (1866-1946), Time Machine حين يرتحل البطل إلى المستقبل راكباً آلة الزمان يجد أن البشرية قسمت إلى قسمين بعد حرب كارثية أصابت الكوكب الأرضى، قسم من البشر اتقى الحرب بالاختباء تحت الأرض وتنظيم حياته فى ظلمات الأنفاق كمجتمع صناعى متقدم، واستمر هذا حالهم لأجيال عديدة فقدوا خلالها القدرة على احتمال ضوء النهار فلا يخرجون من الأنفاق إلا فى الليل، وتحولوا إلى كائنات متوحشة ضمن مجتمع مستغل وظالم يعمل على استغلال البشر الذين بقوا فوق الأرض، وهم عبارة عن بشر فى هيئاتهم الخارجية ولكنهم قطيع من الغنم فى سلوكهم الاجتماعى سوى أنهم قادرون على النطق والكلام أثناء انصرافهم إلى حياة الدعة من أكل أو شرب أو مرح أو مجرد ممارسة الكسل فى الحدائق الغناء التى أينعت بعد تلاشى آثار الحرب الكونية، إلى أن يدعوهم فى المساء نفير فى مراكز تجمع يمشون إليه كالمنومين حيث يفترسهم سكان الأنفاق

يولوجيتين!

طاهر حمدى كنعان

للموضوع المطروح جانبان: جانب قراءة الماضي، وجانب قراءة المستقبل. قد يكون المفتاح لهذه الكلمة هو حديث بعد حرب العبور جرى بين محمد حسنين هيكل وكيسنجر وكانا بصدد نقاش الوضع السياسي بمحاذاة حرب ١٩٦٧. فقال كيسنجر لهيكل: اسمع، تريد أن نتوصل إلى كلام منتج؟ إذن لا تحدثني عن الماضي ولا تقول البارحة أو في تلك السنة ١٩١٩ وتلك السنة ١٩٤٨. حدثني ما يتعلق بالآن وغداً ، كذلك لا تحدثني عن بلد أو جهة غير مصر! هذه المبادلة الكلامية تلخص زبدة النظرة الإسرائيلية للقضية الفلسطينية.

للغذاء وربما للكساء أيضاً! وفي أحد مشاهد الرواية يحدث أن بطل الرواية المرتحل من الزمان الماضي يشاهد إحدى الفتيات من بشر «فوق الأرض» تزل قدمها فتسقط في النهر. ولدهشته البالغة يرى أن رفاقها، من كانت معهم تركض وتمرح منذ قليل، ينظرون إلى سقوطها وإشرافها على الغرق بكل عدم الاكتراث المتصوَر، وكأن شيئاً لم يحدث! وسرعان ما أدرك البطل أنه لا يوجد بين أفراد هذا «القطيع» من البشر أي رابط، فعندهم أشكال البشر دون أن تكون بينهم أي وشائج اجتماعية أو عاطفية تربط أي فرد منهم بأي فرد آخر، وبالتالي فهم مستفردون ليكونوا صيداً سهلاً جداً للسكان الموجودين تحت الأرض الذين يخرجون في الليل ويصيدونهم ويذبحونهم مثل الغنم ويأكلونهم. على مثال ذلك في عصرنا الحاضر وظروفنا الراهنة نرى أن الرابط الاجتماعي أو التعاطف الإنساني الذي يجعل الفرد يضحي من أجل المجموع هو الغائب الأكبر في المجتمع الاستهلاكي الكومبرادوري الذي تبشر به عقيدة التخاصية الرائجة حاليا.

الواحات القليلة أو النادرة في صحراء الانحلال الخلقي الذي يعم معظم العالم العربي تكاد تقتصر على بعض الحركات الإسلامية ومنتسبيها، الذين بالإضافة إلى تميزهم عموماً بأخلاق كريمة ومناقب جيدة مستعدون للتضحية حتى بالحياة ذاتها في سبيل مثلهم العليا. وأهلهم هذا للانخراط في التيار المقاوم للاحتلال الإسرائيلي والهيمنة الأمريكية ولأن يصبحوا جزءاً حاسماً من الجماهير الشعبية لهذا التيار. فيما عدا هذه المزايا فإن هذه الحركات، باستثناء واحدة سنذكرها بعد قليل، تكاد تكون بمعزل ناء عن العصر الحديث ومقتضياته وأساليبه في العمل السياسي والنضالي المثقف الناضج. لكنني أسارع إلى القول أن اللوم ليس عليهم! اللوم على كل النخبة المثقفة التي اتصلت بالغرب واستحضرت أيديولوجيات الغرب المتنوعة من ماركسية وشيوعية ووجودية... إلخ، وهذه الأيديولوجيات صارت هي التي تحرك الثقافات السياسية لمعظم الحركات السياسية بحيث يعرف منتسبوها عن ماركس وهيجل أكثر مما يعرفون عن الفروق بين ابن خلدون وابن تيمية أو بين ابن رشد وابن عربي أو أي من الرموز البارزة في التاريخ الإسلامي. تصرفت الحركات والأحزاب القومية واليسارية والتقدمية بعامة، وهي الممثلة للنخبة الناشطة سياسياً، دون اكتراث بالحركات الإسلامية إلا في نطاق اعتبارات المنافسة السياسية الضيقة، وكأنه لا يوجد ٢٠٠ مليون عربي لهم دين وتصلي الكثرة منهم خمس مرات في اليوم، ويؤمون المساجد، ويدينون بعقيدة اسمها الدين الإسلامي، وكأن ليس هناك قضية اسمها تصالح الدين مع العصر والحداثة مطلوب منهم التعامل معها. فبقوا في معزل وكأن هذا لا يعنيهم، فهذه النخبة التي اشتغلت بالسياسة لا يعنيها أن معظم الناس في هذا الوطن مسلمون.

الاستثناء في هذا الظلام الدامس هو حزب الله في لبنان، فعندما نتكلم عن حركات تحرر وطني نقول فيتنام وما فعلته فيها أمريكا، وما فعلت هي في أمريكا. ولكن هذا المثال مثال أجنبي غير قابل للتقليد عندنا. حركة تحرير فيتنام وحركات التحرير في أمريكا اللاتينية، رغم إعجابنا الشديد بها، لم تحدث أثراً يذكر على مسلكيات النخبة في أي قطر عربي كونها غريبة عنا وظروفها مختلفة عن ظروفنا.

ولكن فجأة، ينبثق في وطننا العربي، بل في جزء صغير، في لبنان ،هذا الجزء الصغير، وكما ينبلج الفجر وينفلق الإصباح، يأتي حزب الله. وهو من الخامة الشعبية ذاتها في كل قطر عربي، يأتي ليضرب المثال الهائل في كيفية التعامل مع العدو الإسرائيلي وردعه وصد عدوانه. وأستبق بعض من صادفتهم يبخسون هذا المثال بقولهم: صحيح، عمل حزب الله عملاً عظيماً ولكن بأي ثمن وبأية كلفة؟ هنا أعترف بذهولي الشديد حين أجابه بهذا السؤال. ما معنى السؤال عن «الثمن» يوجه لمن يضحون بحيواتهم ذاتها؟ إن من تؤرقه الكلفة ويسأل عن الثمن هو من لم يناضل ومن لم يساند المناضلين! من دفع الثمن ليس صاحب هذا السؤال، بل هو المقاوم الذي استشهد وترملت زوجته وتيتم من لم تقتله القنابل العنقودية من أبنائه، هو من انهدم بيته تحت القصف وتشردت عائلته. مواطن مقهور يضحي بحياته ولا يبالي بالثمن، وآخر يحسب أحجار الجسور المهدمة والنقود ويقول: ما فعلته المقاومة عظيم، ولكن كم كانت الكلفة؟ عقلية البازار هذه والمتصلة بنفسية الهزيمة هي التي جعلتنا، حين فوجئنا بهذا الاستثناء المتمرد على الهزيمة والخنوع، يصيبنا الهلع فنبادر إلى وضع هذا الاستثناء في «كرانتين» أو «عزل صحي» نقيم حوله ستاراً كثيفاً من التشويه والتجريح، ونحيطه بالحرب السنية الشيعية والمذهبية وجند الشام وفتح الإسلام وقصص لا تدري من أين جاءت ولا من أتى بها!

ولكن لماذا أصر على تسمية أداء حزب الله بالاستثناء؟ ذلك ببساطة بسبب ميزاته التالية:

- لأنه ظاهرة تتفوق بكل مقياس على كل ما شهده تاريخنا الحديث من تصدٍ لواقع التخلف والهزيمة والانحلال الخلقي.
- لأنه أحدث في المجتمع المحلي في جنوب لبنان تماسكاً اجتماعياً على النقيض المطلق من قطيع إتش. ج. ويلز في آلة الزمان. وعزز الحزب هذا التماسك الاجتماعي بالتنظيم المؤسسي المتفوق للخدمات الاجتماعية من صحة وتعليم وإسكان، فمستشفى الرسول الأعظم في ضاحية بيروت الجنوبية يضاهي في مستوى خدماته، بل يتفوق في بعض الاستعدادات التقنية، على مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت.
- لأنه ضرب الأمثال في التضحية بمداها الأقصى ومعناها الأنبل وهو الاستشهاد في القتال مع نخبة الجيش الإسرائيلي، لواء جولاني، وليس بالانتحار المجاني وسط المدنيين. ويشارك في التضحية بمستوياتها المختلفة جميع الشعب المجند في مجتمع الجنوب، لمجابهة الشعب المجند عند العدو الإسرائيلي!
- لأنه أبدع في التخطيط للاستعداد والاستخبار وإدارة الحرب واستيعاب السلاح والتكنولوجيا حتى حدودها القصوى القاطعة. وفعل كل ذلك مع إثبات المتانة الخلقية والمناعة العصبية على اختراقات العدو الاستخباراتية وجواسيسه وطابوره الخامس.
- لأنه فعل كل ذلك، بنفس طويل هادئ وراسٍ كالجبال، وتحلّى «بالحلم مع الاقتدار» (ما سيأتي بيانه بعد قليل). والتزم أعضاؤه بالتقوى والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، مصداقاً للذكر الحكيم: «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

هذه الظاهرة الاستثنائية، ظاهرة المقاومة الرادعة من خلال تجنيد الشعب، لا يمكن أن تكون مقبولة للأعداء من قوى عالمية وقوة إسرائيل الإقليمية. لذلك ما فتئ هؤلاء الأعداء يبذلون كل الجهود لفرض الحصار الفكري والإعلامي والمذهبي والعاطفي لمنع انتشار هذا المضاد الحيوي والقضاء عليه قبل أن ينتشر في سائر أوصال الجسم العربي وأوعيته الدموية فينتعش هذا الجسم ويستفيق من غيبوبة طال أمدها.

هذا عن تجربة الماضي! أما عن رؤية المستقبل فقد رسمها لنا أحد عباقرة الإستراتيجية في تاريخ الفكر الاستراتيجي الحديث منذ عام ١٩٤٧ يقول:

«إن الشخصية السياسية للقوة الإسرائيلية كما عرفناها حتى الآن هي نتاج العقيدة الصهيونية من جهة والظروف التاريخية من جهة أخرى. العقيدة ورثها قادة إسرائيل الحاليون في ٤٧ من الحركة التي تعود إليها أصولهم السياسية، والظروف هي ظروف القوة التي ما برحوا يمارسونها طيلة العقود الماضية، ومن العقيدة الأصلية نجد أنه

إن نصيباً من اللوم في غياب الديمقراطية يقع على الأحزاب. فبرامج تلك الأحزاب شملت أبعاداً عديدة وحرصت على شعارات شتى، ولكن ليس منها الحرص على المكوّن والمركب الديمقراطي



العرب بين أيديولوجيتين!

ما من شيء قد تم نبذه. العقيدة ما زالت هى ذاتها بأن أرض فلسطين يهودية وأن التخلص من الفلسطينيين الطارئين على هذه الأرض أمر حتمي والتأكيد على عدد من المفاهيم التى تتعلق تحديدا بإسرائيل نفسها على اعتبارها الملجأ الأمن الوحيد لليهود فى عالم يبغض اليهود وبعلاقات القوى داخل إسرائيل. الأول من بين هذه المفاهيم هو التناقض المتأصل بين العقيدة الصهيونية من جهة والحقوق الفلسطينية والقومية العربية من الجهة الأخرى، ولهذا المفهوم مضامين عميقة فيما يتعلق بسلوك إسرائيل على الصعيد الدولى وهو يعنى استحالة أن تفترض تل أبيب جديا وجود أهداف مشتركة بينها وبين الدول العربية التى تعتبرها إسرائيل قومية التوجه.....».

هذا الموقف الإسرائيلى فى رأى هذا المفكر الاستراتيجى «سوف يتواصل طيلة المستقبل المنظور. وقد تظهر بعض التباينات فى تجليات هذا الموقف لاسيما حين يريد الإسرائيليون أن يحصلوا على تنازلات معينة من العرب يمكنهم أن ينحوا جانبا ولفترة مؤقتة بعضا من مظاهر سياساتهم مخفين مؤقتا نواياهم العدوانية الحقيقية، وحين يحدث ذلك نجد هناك دائما فلسطينيين وعربا يقفزون إلى الواجهة معلنين بنواجذ فرحة أن الإسرائيليين قد تغيروا بل إن بعضهم سيحاول ادعاء الفضل فى أنهم هم الذين أحدثوا مثل هذا التغيير ولكننا يجب ألا نسمح لهذه المناورات التكتيكية لتضليلنا فهذه الخصائص التى تسم السياسة الإسرائيلية مثلها مثل المعطيات التى تنبثق منها هى من صلب الطبيعة الداخلية للسياسة الإسرائيلية وستبقى مستمرة معنا سواء كانت فى الخلفية أو المقدمة إلى أن تتغير الطبيعة الداخلية للصهيونية والقوة الإسرائيلية».

هنا يصل العالم الاستراتيجى إلى المفهوم الثانى من المفاهيم المهمة فى النظرة الإسرائيلية المعاصرة ألا وهو «شعب الله المختار، المعصوم عن الخطأ»، «فالمفهوم الإسرائيلى للقوة الذى لا يسمح بوجود بؤرة تنظيمية خارج الحركة الصهيونية ذاتها يتطلب أن تظل القيادة الصهيونية المستودع الوحيد للحقيقة. على قاعدة مبدأ «المعصومية» هذا ينهض الانضباط الحديدى لتجمعات اليهود ضمن الحركة الصهيونية وهكذا ليس ثمة ما يجبر القيادة الإسرائيلية على التراجع فى وجه قوة أعظم».

يسترسل هذا المفكر الاستراتيجى بالقول «من الواضح أنه لا يمكن للفلسطينيين أو العرب أن يدخلوا فى المستقبل القريب فى علاقة سياسية حميمة مع إسرائيل بل يجب عليهم أن يظلوا على نظرتهم إليها أنها مزاحم وليس شريكًا فى الساحة السياسية بحال من الأحوال.... إن هذه الاعتبارات تجعل التعامل مع السياسة الإسرائيلية أصعب من التعامل مع قادة عدوانيين أفراد من طراز نابليون وهتلر. وفى هذه الظروف من الواضح أن العنصر الرئيسى فى أى سياسة فلسطينية عربية تجاه إسرائيل يجب أن تكون قائمة على أساس احتواء الميول التوسعية الإسرائيلية احتواء بعيد المدى صبورا ولكنه أيضا حازم ومثابر».

«إن الضغوط الإسرائيلية على المؤسسات الحرة فى العالم الغربى هى أمر ممكن احتواؤه من خلال إدخال قوة مضادة بصورة دءوبة ونشيطة على كل موقع يحتله النفوذ الصهيونى فى ساحات العالم الجيوسياسية وبما يوائم التغيرات ويحبط المناورات فى السياسة الإسرائيلية، ومن الممكن مواجهة إسرائيل بصورة ناجعة لا من خلال أعمال متفرقة تجسد الأهواء المؤقتة لهذه الدولة العربية أو تلك، بل فقط من خلال سياسات ذكية طويلة الأمد يقوم بها الفلسطينيون والعرب وجميع المناهضين للسياسات العنصرية الإسرائيلية، سياسات ينبغى ألا تقل حذقا عن سياسات إسرائيل من حيث الثبات على الهدف ومن حيث غنى وثراء وسائل التطبيق».

الذى نصح الفلسطينيين والعرب بهذه الاستراتيجية هو جورج كينان George Kennan حين كتب فى المجلة الشهيرة «فورن أفيرز Foreign Affairs» فى عام ١٩٤٧ فى مقالة مغفلة التوقيع عرفت فيما بعد بالمقالة «س» «Article X» إلى أن أعلن عن اسم كاتبها فى وقت لاحق. فى هذه المقالة ما على القارئ إلا أن يستبدل عبارة «إسرائيل» بعبارة «الاتحاد السوفيتى»، وعبارة «الصهيونية» بعبارة «الشيوعية» من جهة، وأن يستبدل، من جهة أخرى، عبارة «الفلسطينيون والعرب» بعبارة «أمريكا والغرب» حيثما وردت تلك العبارات فى المقالة، حتى يجد تطابقاً مذهلاً بين الاستراتيجية الصالحة فى رأينا للفلسطينيين والعرب فى مواجهة إسرائيل والصهيونية، للأسباب ذاتها التى بموجبها قام جورج كينان بصياغة استراتيجية «الاحتواء» الصالحة فى رأيه لكى تنجح أمريكا والغرب فى المواجهة القائمة حينذاك تجاه الاتحاد السوفيتى، عندما كان الغرب، بوجود القوة النووية السوفيتية، غير قادر على محاربة الاتحاد السوفيتى بالحرب الساخنة، وحيث التفوق العسكرى عند أى من الطرفين غير مجد بوجود القوة الرادعة، ولو لم تكن متفوقة، عند الطرف الآخر. فنتج عن ذلك أن تبنى الغرب استراتيجية «الاحتواء» طيلة الحقبة التى امتدت منذ أعلن تشرتشل بعد الحرب العالمية الثانية أن «ستاراً حديدياً» يتعين إسداله على الاتحاد السوفيتى ومعسكره، إلى أن نجح الاحتواء وإطاره من «الحرب الباردة» فى إحداث «الانفجار الداخلى» implosion فى ذلك المعسكر وقاد إلى انهياره.

ولقد شرع العرب غريزياً بعد هزيمة ١٩٦٧ بتبنى استراتيجية «الاحتواء» من خلال لاءات الخرطوم (لا اعتراف بإسرائيل ولا مفاوضات ولا صلح). وإلى الدرجة التى كانوا فيها جديين فى هذه السياسة حققوا نجاحات فى إقامة عزل عالمى أو ستار حديدى على إسرائيل شمل معظم دول العالم الثالث وتكلل بتصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة بغالبية أعضائها على مساواة الصهيونية بالعنصرية. لكن تلك السياسة الناجعة والتى كانت ستنتهى حتماً بتآكل المشروع الصهيونى وانهياره لولا أن الوهن أصاب العزيمة العربية ونخر فى التضامن العربى بعد حرب ١٩٧٣ ففقدت الأنظمة العربية الجدية فى المثابرة على سياسة الاحتواء، واستسلمت للإرادات الخارجية التى منحتها ضمانات للاستمرار والبقاء فى السلطة ولو على حساب مصير الوطن والأمة، إلى أن وجدت أن الأفضل من استراتيجية الاحتواء هو سياسة السلام الذى اعتبرته «خيارها الاستراتيجى» الذى أصبح أساس «المبادرة العربية». وبهذه المناسبة اكتشفت أن أبو الطيب المتنبى له رأى بالمبادرة العربية جاء به فى قصيدته التى مطلعها:

لا افتخار إلا لمن لا يضام ، مدرك أو محارب لا ينام

وكان قد نمى إليه خبر أن الفارس الفلانى شج رأس الفارس العلانى فلم يرد عليه هذا الأخير ولم يكل له الصاع صاعين، بل أخبر الجميع أنه سوف لا يفعل أى شىء من هذا القبيل بحجة أنه ملتزم بالصبر والحلم وبأن السلام خياره الاستراتيجى! فقال المتنبى:

كل حلم أتى بغير اقتدار، حجة لاجئ إليها اللئام

من يهن يسهل الهوان عليه، ما لجرح بميت إيلام

وقد حدث أن صديقاً لى استشهد بهذين البيتين فى مقالة له فى إحدى الصحف الواقعة ضمن نفوذ إحدى الدول الرائدة للخيار الاستراتيجى فى السلام، فحذف البيت الأول بحجة أنه لا يجوز وصف أصحاب المبادرة العربية باللئام! ورغم أنى لا أدرى لماذا اختار هؤلاء الاعتراف بأن حلمهم وخيارهم الاستراتيجى فى السلام هو «حلم أتى بغير اقتدار»، لكن من باب التقدير لفضيلة الاعتراف بالذنب قمنا بتحوير بيت المتنبى ليقرأ: كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لا يدعيها الكرام! ■

الواحات القليلة فى صحراء الانحلال الخلقى تكاد تقتصر على بعض الحركات الإسلامية ومنتسبيها، فهم بالإضافة إلى تميزهم بأخلاق كريمة مستعدون للتضحية حتى بالحياة ذاتها فى سبيل مثلهم العليا

إيرانية في الفضاء يوميات

أنوشة أنصاري

آهمية هذه اليوميات أن كاتبتها امرأة من هذا الشرق، كانت تحلم طوال حياتها بالطيران حتى تحقق الحلم. أنوشة أنصارى هى أول سائحة إيرانية أمريكية فى الفضاء. كيف رأت كوكب الأرض من بعيد وكيف كان شكل السماء والنجوم؟ وماذا يعنى انعدام الوزن؟ وماذا كانت مشاعرها وهى تقوم بهذه المغامرة؟

كتبت هذه المرأة الجريئة مذكراتها وهى فى الفضاء وكانت ترسلها أولاً بأول للنشر فى مدونة أسمتها (مدونة الفضاء spaceblog). هذه لبضعة أيام فقط من أيام عديدة قضتها بعيدا عن الأرض تتفرج من نافذتها على العالم وهو يمر بها.

الطريق الى بيكونور
٢٠٠٦/٩/٩

هذه أول يوميات أكتبها فى حياتى فأنا فى العادة شخص منطو على نفسه ولكن بسبب ما حدث فى حياتى أشعر بالتزام أن أشارك هذه التجربة مع كل الناس.

كما قد تعرفون أنا الآن فى حالة تسمى (space lingo) أى (ما قبل الفضاء وقد بقى لى ٩ أيام على الانطلاق) وأنا الآن فى منطقة الحجر فى مدينة بيكونور فى كازاخستان منذ ٢٠٠٦/٢/١١.

أرسل لكم صورة لتشاركونى الإحساس فى المكان الذى أعيش فيه الآن وهو نفس المكان الذى انطلق منه أول رجل فضاء الروسى يورى غاغارين قبل ٤٥ سنة. أيضا نفس المكان الذى انطلقت منه أول رائدة فضاء فالينتينا تريشكوفا فى عام ١٩٦٣ .

منذ تلك الأيام الأولى للانطلاق إلى الفضاء ترسخ تقليد أن كل رائد فضاء يزرع شجرة حين يعود. وأتمنى أن ازرع شجرة أيضا حين أعود. وفى الصورة تجدون الاشجار التى زرعها رواد الفضاء منذ ذلك التاريخ فى المدينة الصحراوية بيكونور.

والآن أنتم تعرفون أين أنا، ويبقى أن أقول لكم لماذا أنا هنا.

منذ زمن قديم قديم، فى بلاد بعيدة.. كان هناك فتاة صغيرة تحدق فى النجوم اللامعة فى سماء ليل طهران. حينذاك لم يكن الهواء ملوثا كما هو الآن وكنت تستطيع أن ترى النجوم بوضوح. فى أيام الصيف حين كانوا ينصبون الأسرة فى الشرفة كانت تستلقى فى سريرها وتحدق فى عمق ظلام الكون الغامض وتفكر: ماذا هناك؟ هل هناك بنت مثلها هناك تحدق فيها فى هذا الليل؟ هل سوف يلتقيان.. هل تراها. هل يمكن أن تطير إلى هناك وتسبح فى الفضاء الرائع الحر بلا حدود؟

حسنا، لقد حقق القدر لها أمنيتها.

لو كنتم قد سألتم تلك الفتاة الصغيرة: هل تريدين أن تطيرى إلى الفضاء لقالت بحماسة نعم! ولو سألتموها: هل تعتقدين انك سوف تطيرين؟ لقالت بكل أمل نعم! والآن اقتربت تلك اللحظة.

ولدت فى إيران وعشت حتى بلغت سن السادسة عشرة ثم هاجرت مع عائلتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية ودرست الهندسة الكهربائية، وكنت محظوظة فى تحقيق حلمى.

لا تفهمونى خطأ.. فالطريق الى بيكونور لم يكن سهلا وانما كان حافلا بالعراقيل، ولكن المهم أنى عقدت العزم على تحقيق الحلم ولم أضيع طريقى. أتمنى أن تلهم رحلتى كلا منكم لتحقيق أحلامكم مهما كانت مستحيلة. وآمل كذلك أن أريكم الكون /الفضاء من خلال عينى وأساعدكم لتروا أهمية استكشاف الفضاء للجنس البشرى. نحتاج إلى عقول شابة قادرة على الخيال للتحديق فى السماء ومساعدتنا فى بناء مستقبل غير مقيد بحدود الأرض.

الساعات الأخيرة قبل الانطلاق
٢٠٠٦/٩/١٧

من الصعب أن اصدق أنى هنا. كل شىء يبدو مثل ضباب.

من الصعب توضيح مشاعرى.. خليط غريب من الإثارة والقلق. ومن الغريب أن قلقى يدور حول الذين سوف ينتظروننى هنا على الأرض. عائلتى.. اعرف كيف أن الأمر صعب عليهم. ويجب أن اعترف أنى لا اشعر بالمتعة فى هذه المرحلة أبدا. أريد أن تنتهى عملية الإطلاق بسرعة وابدأ بالطواف فى الفضاء العظيم.

أتصور أنى حين ابدأ بالسباحة فى الفضاء سوف اشعر بالحرية من كل المخاوف والقلق والتوقعات.. سوف أكون أنا فقط.. حرة من كل شىء.

فى انتظار هذه اللحظة الرائعة لانعدام الوزن، اشعر بكل شىء هنا ثقيلا.. اشعر بضغط الهواء الذى أتنفسه على صدرى وهو يزداد ثقلا. مثل الشعور وأنت فى عيادة الطبيب تنتظر نتيجة التحاليل.

الكل اخبرنى بأن جريج اولسون كان هادئا بشكل لا يصدق يوم انطلاقه. وقد سألت جريج كيف حافظ على هدوئه فقال انه حين كان جالسا هناك داخل المركبة سويوز، كان على يقين من انه سوف يطير ولن يستطيع أحد أن يمنعه. لا مزيد من أطباء أو اختبارات أو مراسيم.. إنى على أحر من الجمر لبلوغ تلك اللحظة.

توقفت عن الكتابة وذهبت لزيارة عائلتى. كانوا كلهم هنا. وحالما رأينا بعضنا الآخر من خلف الزجاج انهمرت دموعنا. كان الموقف صعبا على الجميع. أختى اتوسة كانت تحاول جهدها لتبدو قوية وتقاوم دموعها ولكن بلا فائدة. وحين انتهينا من البكاء، استمررنا فى الحديث وإلقاء النكات وشعرت بالارتياح يعم الجميع، وبضمنهم أنا فقد زال قلقى الذى لازمنى منذ الصباح.

اعرف أنى سوف أعود سريعا وأنى سوف احتضنهم جميعا وأقص عليهم حكايات رحلتى. كان زوج أختى أمير منهمكا فى تصوير وتسجيل كل الحدث أما زوجى حامد فقد تصرف وكأنه منسق المجموعة من أجل أن يبعد فكره عن الرحلة. نظرت فى عينيه ورأيت مزيجا من الحب والإعجاب والقلق.

ودعنا بعضنا حيث لن أستطيع أن أراهم إلا بشكل خاطف وأنا فى طريقى إلى الصاروخ. الساعة الآن السابعة مساء حسب توقيت بيكونور وكان من المفترض أن أنام قبل ساعة. سوف يأتون لإيقاظنا فى الساعة الواحدة فجرا للاستعداد وللانطلاق.

أشعر بالهدوء والرضا.. كل شىء سيكون على ما يرام.

أتمنى لكم حياة رغيدة مديدة يا أصدقائى.

هنا أخيرا..
٢٠٠٦/٩/٢١

الرحلة كانت طويلة ولكنها تستحق. دعونى ابدأ من البداية. لقد بدأ يومنا مبكرا فى بيكونور. استيقظنا فى الساعة الواحدة فجرا حسب توقيت المدينة وتناولنا إفطارا خفيفا ثم أعطينا بنطلونات بيضاء طويلة نرتديها تحت زى الفضاء إيذانا بالذهاب إلى مكان الإطلاق.

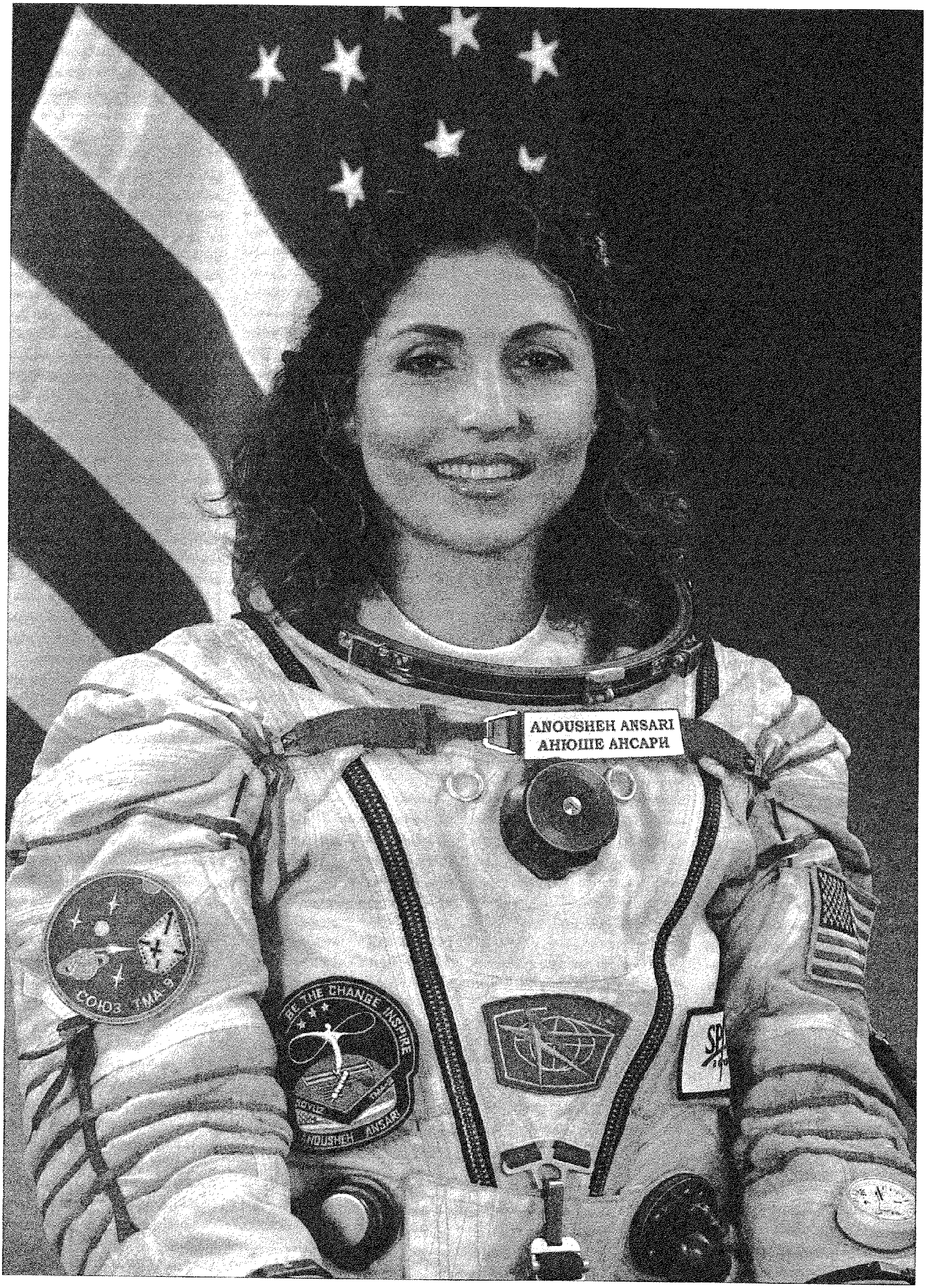
كانت هناك فترة قصيرة للصلاة والدعاء، ونحن نغادر غرفنا وقعنا بإمضاءاتنا على أبواب الغرف. هذا تقليد بدأ من أيام يورى غاغارين، وهكذا فإن توقيعى موجود الآن إلى جانب توقيع جريج اولسون ثالث مستكشف فضاء وماركوس بونتس أول رائد فضاء برازيلى.

تحدثت مع جدتى بالهاتف حيث إنها لم تستطع أن تأتى إلى بيكونور وتمنت لى حظا سعيدا وعودا حميدا.

ثم سرنا إلى الحافلة التى ستذهب بنا إلى مكان الإطلاق. من فندق كوزمونوت إلى الحافلة مسافة قصيرة ولكن على جانبى الممر كانت العائلات والأصدقاء والصحفيون يلتقطون الصور الفوتوغرافية والأفلام. وفى التماع أضواء الكاميرات البراقة، استطعت أن أتبين كل أفراد عائلتى. كانوا قد جاءوا منذ أول طلوع الفجر لتوديعى إلى مغامرتى العظيمة. كانت

اليوميات كاملة على موقع:
http://spaceblog.xprize.org/by-anousheh

ترجمة: بثينة الناصرى


ANOUSHEH ANSARI
АНЮШЕ АНСАРИ
BE THE CHANGE INSPIRE
ANOUSHEH ANSARI

أمي تبكي والجميع يحاولون حبس دموعهم.

صعدنا في الحافلة التي اتجهت إلى مكان الإطلاق. خلال كل هذا الوقت كنت هادئة بشكل يدعو للدهشة. كنت أتوقع أن تنهار أعصابي في صباح الإطلاق، ولكن لدهشتي لم أحس بأي خوف أو قلق.

بعد وصولنا إلى المكان ذهبنا إلى غرفة لارتداء ملابس الإطلاق. واحدا اثر آخر دخلنا الغرفة: أولا ميشا تيورين ثم مايكل ثم انا.

بعد انتهاء ارتدائنا الزي ذهبنا إلى غرفة أحد جدرانها من زجاج ليتم فحصنا نهائيا من قبل المسؤولين وللتأكد من عدم وجود تسريب في الزي. على الجهة الأخرى من الجدار الزجاجي كانت أمي وأختي اتوسة وزوجي حامد يجلسون في الصف الأمامي وأيضا كانت عائلتا ميشا ومايكل. وكانت الغرفة مليئة بالصحفيين. جلسنا لفترة نلوح بأيدينا ونحاول استخدام لغة الإشارة مع عائلاتنا حيث كانوا يدخلون الغرفة ثم يتركونها لفسح المجال لمجموعة جديدة من الناس.

انتهى فحص متانة الزي وخلوه من التسريب وكنا جاهزين رسميا للانطلاق. أخذونا مرة أخرى إلى الحافلة حيث لوحنا للمرة الأخيرة للجمهور والصحفيين وكان التقليد التالي هو أن تتوقف الحافلة للرجال للتبول، وكان هذا تقليدا بدأ أيضا مع غاغارين ولكني لحسن الحظ أعفيت منه ولو أني شاركت فيه بخيالي.

توقفنا عند قاعدة الصاروخ وخرجنا وصعدنا السلم الذي يؤدي إلى مصعد صغير بالكاد يسع ثلاثتنا. ورفعنا المصعد إلى الكبسولة. مررنا داخل خيمة ثم إلى الداخل.

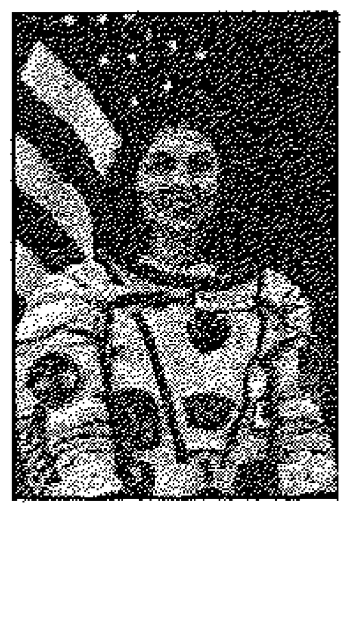
كنت أول من دخل، كنت ما أزال هادئة.. أشعر بالإثارة ولكن هادئة. ولا اعتقد أن نبضات قلبي قد ازدادت وكانت هناك ابتسامة دائمة على وجهي. وأجلست في مكاني وقيدت في المقعد.

بعدي جاء مايكل وجلس في مكانه الصغير ثم أخيرا ميشا تيورين. مازال أمامنا ساعتان قبل الانطلاق وهناك سلسلة من الإجراءات على مايكل وميشو أن يتبعاها. كنت مسئولة عن ثلاث مهام بسيطة.

أن أدير صمام التكثيف واجعله بين وحدة قياس قمرة السكن ووحدة قياس الهبوط، وأن أفتح وأغلق صمام الأوكسجين كما يتطلب الأمر، وأن أسلم الملاحين الآخرين ملفات بيانات الطيران الموضوعة قربي. ولحسن الحظ هي مهام غير معقدة وكنت قادرة على إتمامها.

اتبعت ما يفعلانه خطوة خطوة من خلال ملفات بيانات الطيران ووضعت بعض الملاحظات الشخصية على هامش كتابي كلما أتيح لي ذلك. أخيرا جاءت اللحظة وبدأ العد التنازلي. وضعنا أنا ومايكل وميشا أيادينا معا وقلنا

إيرانية في الفضاء



«مستعدون.. إننا ننطلق» وحمدت الله لتحقيق حلمي ولكل النعم التي منحني إياها، ودعوته أن يملأ قلوب كل مخلوقاته بالمحبة وان يغمر السلام هذا الخلق الجميل الذي نسميه الأرض.

٥ ٤ ٣ سأنطلق فعلا.. ٢ أحبك يا حميد.. ١.. ثم ارتفعنا بسلاسة.

حين كنت أراقب انطلاق سويوز تي ام اي ٨، لم يخطر ببالي أبدا أن الأمر سيكون بهذه النعومة والسلاسة داخل الكبسولة. إنه مثل ارتفاع طائرة في الجو، ثم بدأت المطبات وكانت أيضا ضعيفة.. اعتقد أننا واجهنا اثنين أو اكثر قليلا.. ثم الانفصال وانقذاف المقدمة (الانف). أيضا في منتهى النعومة. ملأ شعاع من الضياء الكبسولة وادخل الدفء إلى قلبي. اعتقد أني كنت أضحك بصوت عال. كان الفرح الذي يملأ قلبي لا يمكن وصفه.

انفصال المرحلة الأخيرة كان أكثر شيء أحسست به ثم انعدام الوزن. ذلك الإحساس بالحرية الذي يدفع الابتسامة إلى كل وجه. ببطء رفعت مقعدي واستمررت بالضحك. لم أكن أصدق ما يحدث. وحتى أكون صادقة معكم، مازال الأمر كله كأنه حلم. كنت مقيدة إلى المقعد بقوة حتى أني لم أستطع النظر إلى الخارج. أخيرا حين كنا في المدار بأمان، فتحنا قناع الرأس وفتحنا الأحزمة.

نزع مايكل قفازاته وبدأ يطوف في القمرة. لم أستطع أن أتوقف عن الضحك طوال الوقت. أخيرا استطعت أن أنظر إلى الخارج ورأيت الأرض لأول مرة. بدأت الدموع تهطل من عيني. لم أستطع أن أمسك أنفاسي. حتى التفكير في ذلك الآن يدفع بالدموع إلى عيني. كانت الأرض - هذا الكوكب الجميل- تدور بعظمة حول نفسها تحت أشعة الشمس الدافئة.. كانت تبدو في منتهى السلام والحيوية.. لا أثر لحروب ولا أثر لحدود ولا أثر لمشاكل.. فقط جمال نقي.

كم تمنيت لو استطاع كل إنسان أن يجرب هذا الشعور في قلبه خاصة أولئك الذين يحكمون العالم. ربما كانت هذه التجربة ستمنحهم رؤية جديدة وتساعدهم على تحقيق السلام في العالم.

سأكتفي بهذا القدر الآن. وسوف أكتب لكم عن بقية الرحلة. أشعر بالجوع لبعض طعام الفضاء وسوف نتواصل في المدار القادم. الآن نحن نطير فوق المحيط الهادي ونقترب من المكسيك.

شيء لا يصدق
٢٠٠٦/٩/٢٢

طلب مني مايكل أن أراقب المكوك اطلانتس وهو يهبط على الأرض. ياله من مشهد.. الرحلة صارت أجمل وأجمل. كان المشهد رائعا. أولا مثل نقطة وامضة من ضوء برتقالي ثم نقطة ثابتة من الضياء.. وفي نهاية المراحل الأخيرة كان يبدو مثل نيزك جميل يتحرك حركة بطيئة. نقطة برتقالية لامعة تجر وراءها ذيلا طويلا أبيض.

شيء لا يصدق. وأنا أشاهد المكوك يهبط دعوت الله أن يكون الهبوط سالما. وقد اختفى المشهد من نواظرنا حين بدأ ضوء النهار يغشى أبصارنا.. ولكننا سمعنا فيما بعد أن الهبوط كان سالما.

الحمد لله على عودتك يا اطلانتس.

الماء يسبح في الفضاء
٢٠٠٧/٩/٢٥

الجميع يريد أن يعرف كيف أستحم في الفضاء؟ وكيف أفرش أسناني؟ وكيف أغسل شعري؟

حسنا أيها الأصدقاء، على أن أعترف أن الحفاظ على الصحة العامة في الفضاء ليست مهمة سهلة. فليس هناك حمام أو دش أو حوض وماء جار. الماء لا يتدفق هنا وإنما (يطفو). مما يجعل تنظيف نفسك عملية صعبة، إذن ماذا يفعل الناس هنا خاصة إذا بقي المرء أكثر من ستة أشهر؟ إنهم يبتكرون.

هناك مناشف مبللة، وقطن مبلل ومناشف جافة لتنظيف نفسك. تقريبا كل شخص يحصل في اليوم على منشفة مبللة واثنتين جافتين. وكل شخص لديه حقيبة نظافة كاملة حيث يحفظ فيها فرشاة الأسنان وأدوات الحلاقة والكريمات.. إلخ. وقد حصلت على حقيبة مخصصة للرجال وهكذا كان فيها ماكينة حلاقة والكثير من كريم الحلاقة ولكن لم يكن ثمة أثر لأدوات الماكياج.

تنظيف أسنانك في الفضاء متعة أخرى فأنت لا تستطيع أن تغسل فمك بالماء الذي تلفظه بعد استخدام الفرشاة وهكذا فأنت تغسل وتبلع. ويطلق رواد الفضاء على هذه العملية (تأثير النعناع الطازج).

ومن أمتع التجارب - أو يجب أن أسميه التجريب - هو غسل شعرك. والآن أعرف لماذا يحتفظ رواد الفضاء بشعر قصير. العملية هي أن تأخذ كيس ماء وتضع على رأسك فقاعة ماء كبيرة ثم بلطف شديد تستخدم شامبو جافا وتغسل شعرك. وعند أقل حركة فجائية تبدأ فقاعات الماء تطير حولك. وقد صورت ذلك بالفيديو وسوف أعرضه حين أعود.

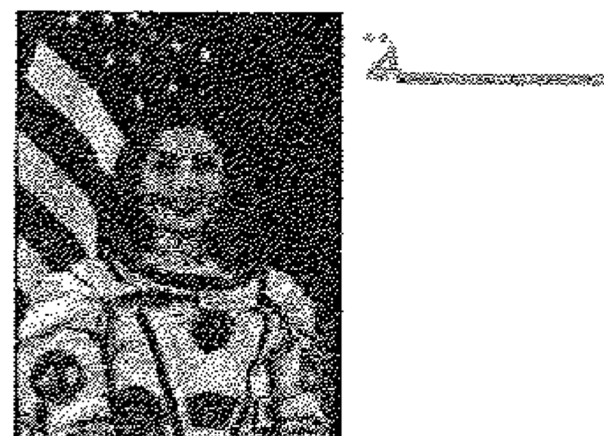
بالطبع الماء هنا عنصر مهم ويعاد تدويره ولهذا لا نرمي أي شيء مبلل وبدلا من ذلك يترك ليجف في الهواء. وهناك جهاز يجمع الرطوبة من الهواء ويعيد تدويرها وتنقيتها. هذا يشمل ملابسي التي أتعرق فيها بعد التمارين الرياضية. أحد الرواد قال لي مرة «نحن مقربون جدا من بعضنا البعض. إننا مثل إخوة وأخوات. وهذا شيء مميز لأننا نشرب عرق بعضنا البعض» والآن أعرف تماما ماذا يقصد.

لدينا معدات تمارين رياضية هنا مثل دراجة في القسم الروسي تطل على أجمل منظر في العالم، وبعض معدات تدريبات المقاومة، وهناك دراجة في القسم الأمريكي أيضا.

يتدرب الرواد وسواح الفضاء كل يوم وأحيانا مرتين في اليوم من أجل تقليل آثار انعدام الوزن على العضلات والعظام. فحين يكون الناس في حالة انعدام وزن لفترة طويلة ترتخي عضلاتهم وتضعف وتضمر بسبب عدم الاستخدام. لا توجد جاذبية هنا للعمل ضدها ولهذا فكل ما تفعله يكون بدون بذل مجهود. كذلك تبدأ في فقدان الكالسيوم في عظامك فيحصل لديك نقص في كثافة العظام.

إنهم يقولون دائما إنك لا تستطيع أن تأخذ كعكتك وتأكلها أيضا.. ولهذا أعتقد أن عليك أن تدفع ثمنا للحصول

ولدت في إيران وعشت
حتى بلغت سن السادسة عشرة
ثم هاجرت مع عائلتي إلى الولايات المتحدة
الأمريكية ودرست الهندسة الكهربائية،
وكنت محظوظة في تحقيق حلمي



على الجمال والإثارة فى الفضاء. طبعا أنا على يقين انه سيظهر بينكم من يكون عالم بيولوجى أو طبيبا وسوف يتوصل فى المستقبل إلى كيفية منع كل هذه التأثيرات وهكذا نستطيع أن نقوم برحلات طويلة إلى المريخ وكواكب النظام الشمسى الأخرى والأقمار ونستمر فى الاستكشاف فيما وراء نظامنا الشمسى.

أفضل من يصلح لحكم العالم هم رواد الفضاء
٢٠٠٦/٩/٢٥

يبدأ النهار هنا فى الساعة ٤ بتوقيت جرينتش وينتهى حوالى السابعة والنصف حيث يفترض أن الضوء قد تلاشى. ولكنه الوقت الذى يستطيع أى شخص أن يرتاح قليلا ولا يفعل شيئا سوى الدردشة، أو يهاتف عائلته أو يتفرج من النافذة على المناظر المدهشة.

إنه شعور لطيف دافئ. وكما تعرفون فإن المحطة تلف المدار كل ٩٠ دقيقة، وهكذا حين أتحدث عن الليل لا تفكروا بأنه مثل ليل الأرض حين يعم الظلام. هنا الشمس تشرق وتغرب مع كل مدار ويمكنك أن تراقب ٣٢ شروقا وغروبا خلال اليوم.

خلال النهار كل واحد منا مشغول بمهام معينة موكلة إليه من قبل إدارة الرحلة فى موسكو وهوستون. والجدول مربوط بالمحطة بتعليمات محددة للأنشطة المطلوبة. هناك نداء فى الصباح للاجتماع ليكون الجميع على بينة مما سيعملونه ونداء لاجتماع آخر فى نهاية اليوم لنرى مدى التقدم الذى أحرز فى تنفيذ المهام ولتحديد مهام اليوم التالى. حتى إجازات نهايات الأسبوع لا تشبه تلك التى على الأرض. ربما يكون العمل فيها أقل ولكن لا تزال هناك مهام يجب القيام بها وأنظمة يجب إصلاحها وبرامج تعليمية يجب إتمامها.

فى حوالى السادسة والنصف مساء يجتمع الجميع على مائدة العشاء فى القسم الروسى ونسخن بعض العلب ونذيب بعض الطعام المجفف (حساء، بيوريه بطاطس وخضروات) ونتبادل النكات والحكايات الفضائية.

إن طول المدة التى يتواجد فيها ركاب الفضاء يدفعهم للابتكار بما متوفر لديهم. بعد ستة أشهر من تناول نفس الأطعمة الخمسة عشر الأساسية، قد يسبب ذلك الملل ومن أجل إضافة البهارات (مجازيا) يقومون بخلط وجبات مختلفة مع بعضها البعض لإنتاج وصفات أخرى. وبين حين وآخر يتلقون هدية فى حاويات الشحن ترسل إليهم مع المكوك أو سفينة الشحن الروسية (بروغريس progress). وهذه الرزمة الهدية تحوى طعاما طازجا يجب أن يؤكل فى يوم وصوله. تستطيعون تصور ما هو تأثير تفاحة طازجة بعد عدة أشهر من الطعام المعلب.

إن التجول فى الفضاء لمدة قصيرة شىء والبقاء نصف عام شىء آخر. فأنت بعيد عن عائلتك وأصدقائك وفيما عدا رسائل البريد الإلكترونى والنداءات الهاتفية القصيرة، فليس لديك من تكلمه سوى زملائك فى الرحلة. وحاليا تشمل الرحلات الطويلة ثلاثة رواد فضاء ولكن يجرى التفكير فى زيادة العدد إلى ستة.

أعتقد أن طلاب الجامعة والأقسام الداخلية يشعرون بما أقوله. ولكن هناك فرقا كبيرا. إنك إذا مللت من رفيقك فى الغرفة، يمكنك أن تخرج للتنزه أو لمقابلة شخص أو أشخاص آخرين أو حتى تنام فى مكان آخر. هنا إذا لم يعجبك رفاقك فى السكن فليس هناك مكان آخر تذهب إليه. فأقرب توصيلة إلى بيتك ستكون بعد ستة أشهر والأفضل لك أن تحسن علاقاتك مع رفاقك.

ولكن يجب أن أقول أنى دهشت لروعة رواد الفضاء ولا أدرى كيف يختارونهم ولكنهم جميعا أذكياء ومسالمون وذوو شخصيات دافئة. ويمكن أن أصف من التقيت به فى ستار سيتى (فى كازاخستان) أو هنا بأنهم بشر متفوقون (سوبر) وبصدق أعتقد أن علينا أن نختار رؤساءنا من رواد الفضاء. إنهم قادة عظماء ولهم رؤية فريدة للعالم.

وهكذا، رغم أن هؤلاء الرجال والنساء يعيشون فى مكان مغلق لمدة ستة أشهر أو ربما اكثر، فهم يتعايشون بسهولة ويصبحون أصدقاء العمر. هنا حياتهم تعتمد على التعاون والتواصل وحين تحقق ذلك فإنك لا تستطيع أن تقطع كل ذلك حين توعد إلى الأرض.

وهذا مثل ما يحدث على الأرض نوعا ما. إذا فكرت فى الموضوع، حيث تربطنا كلنا عروة وثقى هى العيش على الكوكب الوحيد الصالح للحياة فى النظام الشمسى. وليس لدينا مكان آخر نذهب إليه، على الأقل لهذه الفترة، ولهذا، إذا لم نتعايش جيدا وإذا دمرنا كل شىء وخلقنا فوضى، خمنوا ما يحدث؟ علينا أن نعيش فى هذا الخراب.

كانت تمر بنا أيام صعبة لا يستطيع رواد الفضاء أن يتحملوا الآخرين معهم ولكن كل واحد منهم يحاول جهده لئلا يظهر مشاعره السلبية تجاه رفاقه، والآخرون أيضا يقدرون حالته الذهنية ويتيحون له مزيدا من الخصوصية.

إذن، رغم أن المساحة هنا هى حوالى ١٥٠٠ قدم مربع (بما يوازى حجم منزل بثلاث غرف نوم) ولكنها تمتلئ بأطنان من المعدات وليس لدينا (نحن ستة أشخاص) أى مكان للتحرك، ولكننا نقضى وقتا طيبا نستمتع به.. أو على الأقل هذا ما أشعر به.

حتى الغد.. أترككم بعناية الله.

العالم يمر من أمامى
٢٠٠٦/٩/٢٦

ربما سمعتم من قبل تعبير «أتفرج على العالم يمر من أمامى» وأعتقد أنها تعنى أن تقضى وقتك مسترخيا لا تفعل شيئا. فقط الفرجة.. والكسل ولكن التعبير يتخذ معنى آخر لدى رواد الفضاء.

سمعته لأول مرة من بيغى وتسون ثم من زميلى هنا جيفرى وليامز ومايكل ال اى. بالنسبة لهما الجملة تعنى حرفيا الفرجة على العالم وهو يمر أمامهما. حين تحدق من النافذة هنا فى الأعالى ترى الأرض تدور ببطء فى الاتجاه المعاكس. اعتقد أنك يمكن أن ترى ذلك بطريقتين.. يراها البعض وكأن محطة الفضاء ثابتة والأرض تدور كما أراها أنا، والبعض قد يراها وكأن الأرض ثابتة والمحطة تدور.

الحقيقة أن الاثنتين تدوران فى نفس الاتجاه ولكن محطة الفضاء تدور ٢٠ مرة أسرع من الأرض ولهذا تخلق الشعور بأن الأرض تدور فى الاتجاه المعاكس. حسنا دعونا من هذا.. أعتقد أن رؤوسكم بدأت تدور الآن.

من النوافذ الجانبية فى القمرات الصغيرة وقمرة الالتحام حيث أنام يمكن أن ترى التقوس الكامل للأرض على خلفية ظلام الكون. وهذا المنظر هو المفضل لدى لأنى أرى (الكل) وليس (أجزاء). وأنا أحب أن أرى الصورة الكاملة أمامى قبل أن أفكر بالأجزاء. أتمنى لو كان قادة الدول المختلفة يفعلون نفس الشىء وتكون لهم رؤية كاملة للعالم قبل أن تكون لهم رؤية محددة لبلادهم.

أين وصلنا فى حديثنا؟ كنت أتحدث عن رؤية العالم يمر بى.. حين سمعت التعبير لأول مرة أحببته وجربته هنا خاصة فى الليل من كيس النوم. خلال الشروق (النهار) يمكنك أن ترى مئات الظلال الزرقاء فى المحيطات اعتمادا على عمق المحيط وطريقة انعكاس الشمس على السطح. يمكنك أن ترى كتل الأرض، معظمها بدون نباتات ومثل أوردة تجرى عبرها بأشكال مختلفة. هذه هى الأنهار أو آثار مجارى المياه وهى تتجه إلى المحيطات.

أما المدن فيمكن التعرف عليها لأنها تبدو من هذه المسافة مثل نبش تراب بمذراة. لكن الأراضى الزراعية لها أشكال هندسية بألوان مختلفة حسب المحاصيل ونوع التربة. أما الحدود فلا تراها.. لا تستطيع أن تميز أين تنتهى هذه الدولة وتبدأ الأخرى. الحد الوحيد الذى تراه هو بين الأرض والمياه.

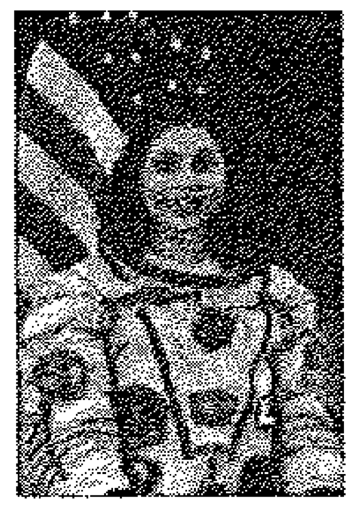
معظم الأرض مغطاة بالسحب. وقد كانت الفكرة الأولى التى طرأت لدى «ما هذا! إنى لا أستطيع أن أرى شيئا أو ألتقط صورة!» ثم أخذت السحب عقلى. فلها أشكال وتشكيلات مختلفة.. أحيانا تبدو مثل بطانية مزغبة وأحيانا مثل كرات قطن متناثرة.

وللجمهور الإيرانى، أقول إنها تذكرنى بطفولتى فى إيران حين كان لدينا «النداف» الذى كان يأتى بين حين وآخر ويأخذ «الألحفة» ويخرج قطنها القديم ويعيد ندفه بآلة قديمة مثل قوس كبير. فى بعض المناطق كانت السحب تشبه خطوطا وكأن رساما أمسك بفرشاة ورسم خطوطا فى كل الاتجاهات.

كان التفرج على السحب يذكرنى بزوجى حميد. فمن أحب الأشياء إلينا حين نكون فى إجازة هو النوم فى الخارج ومراقبة السحب ومحاولة تخمين الأشكال التى نراها فيها. أستطيع أن أرى هنا أشكالا كثيرة. مثلا اليوم كان هناك مجموعة من الغيوم تشبه الطيور أو الطائرات. كان هناك أيضا الغيوم التى تشبه سحابة القنبلة الذرية. وقد أشار باشا (بافيل فينوغرادوف) إلى سحابة كبيرة مدورة الشكل وقال لى إنها إعصار.

فى الفضاء ليس هناك
حمام أو دش أو حوض وماء جار.
الماء لا يتدفق وإنما (يطفو). إذن ماذا يفعل الناس
هنا خاصة إذا بقى المرء أكثر من ستة
أشهر؟ إنهم يبتكرون

إيرانيــــــة في الفضـــــاء



يمكنك قضاء ساعات تتفرج على الخارج ولكن بعد حوالى ٤٥ دقيقة تبدأ الظلمة حيث تغرب الشمس خلف الأرض وتخلق هذا اللون المدهش: مزيج من البرتقالي مع أروع أزرق.. ثم يأتي الليل. لا تستطيع رؤية الأرض جيدا إلا إذا مررت على مدن. عند ذلك فقط سترى بقعا برتقالية تنتشر فوقها. المدن الكبيرة طبعا هي التي يمكن رؤيتها بشكل أفضل.

معظم الليالي التي أنظر فيها إلى الخارج، أرى عواصف تحتنا. أعرف أنها لن تكون تجربة سارة للناس التي يتعرضون لها على الأرض، ولكن هنا في الأعالي تبدو مثل استعراض ضياء رائع. فهناك ومضات من الضوء تتفجر عشوائيا في مناطق مختلفة. وفي إحدى الليالي وأنا أتفرج على ذلك كنت أستمع إلى موسيقى (canon) للموسيقار يوهان باشلبيل وخيل إلى أن ومضات الضياء كانت تتوافق مع الموسيقى. أعتقد أننا كنا قرب سواحل أستراليا على المحيط الهادي.

ولكن هذا ليس أجمل المشاهد. لأن أجملها وأكثرها قربا من نفسي هو منظر الكون في الليل. منظر النجوم هنا لا يصدق. تبدو مثل نثار الماس على غطاء من قطيفة سوداء. ويمكن رؤية المجرة milky way بوضوح. مثل قوس قزح من النجوم يلف الأرض كلها. لا أستطيع إغماض عيني عنها وأنا أضع رأسي على النافذة وأبقى بهذا الوضع حتى تسبب برودة الزجاج صداعا لي، فأرجع رأسي إلى الخلف قليلا ولكني أظل أحدق في الكون.

وفي هذه اللحظات أحمد الله مرارا لأنه ساعدني على خوض هذه التجربة. وكنت أحمده على منحي وضوح الرؤية لمعرفة طريقي في الحياة والقوة على السير فيه. هذه أكثر اللحظات هدوءا في حياتي وأشعر بطاقة إيجابية عظيمة. وقد عانيت من قلة النوم لأني أجبر عيني على البقاء مفتوحتين لأرى هذا الجمال مدة أطول.

تصبحون على خير. نافذتي تنتظرني لأتفرج على العالم يمر بي وأشعر في هذه اللحظة بكل دموعكم وضحكاتكم تصل إلى من الأرض.

أتمنى لكم نهارا أو ليلا سعيدا أينما تكونون.

اصطياد فقاعات الحساء بالملعقة
٢٠٠٦/٩/٢٧

تستطيعون رفع كتلة من ٥٠٠ رطل بيد واحدة وتحركونها في كل الاتجاهات بإصبع واحدة. تستطيعون الطيران في فضاء الغرفة بدلا من السير. يمكنكم - في أي سن - القيام بالشقلبة رأسا على عقب.. يمكنكم اللعب مع طعامكم.

وكما قلت سابقا كل شيء يتم بدون بذل أي مجهود. إذا أردتم التحرك إلى الأمام يمكنكم لمس أي حائط أو أي جسم صلب لمسا خفيفا بإصبع وتبدأون في التحرك بالاتجاه المعاكس للقوة المبذولة. إذا كان هناك أشخاص يسدون طريقك في الممر، لا تقلق.. ترتفع نحو السقف ومثل الرجل العنكبوت (spiderman) تزحف على السقف فوق رؤوسهم باستخدام مقابض على الجدران.

نسيت كتابك في قمرة أخرى؟ ليست مشكلة. اطلب من زميلك القريب منه أن يبعثه إليك. أي أن يأخذه ويدفعه بخفة نحوك وها هو.. الكتاب يطير إليك طوال الطريق من القمرة الأخرى. صديقك يأكل حلوى وتريد أن تتذوقها، يرمى نحوك قطعة صغيرة تطير حتى تستقر في فمك المفتوح. (أنصح الأطفال بألا يجربوا هذه مع جاذبية الأرض).

في الفضاء، لا بأس أن تلعب بطعامك. كل رواد وسواح الفضاء يفعلون ذلك. كرات الجبنة مثلا لا تضعها في فمك باليد وإنما تقذف من العلبة وتطير إلى فمك. حين تفتح علبة فيها طعام سائل مثل اللبن الرائب أو الحساء، إذا لم تكن حريصا وحذرا، فإن فقاعات اللبن الرائب أو الحساء تطير حولك وعليك أن تصطادها بالملعقة. ولكن إذا حاولت الإمساك بها بدون روية فإن الفقاعة التي تصطدم بالملعقة تتفتت إلى عشرات من الفقاعات الصغيرة وعليك الآن أن تصطادها كلها.

أنا فعلا أستمتع بانعدام الوزن. إنه يمنحك الشعور بالحرية. أتذكر حين كنت صغيرة، كان هذا الحلم يراودني باستمرار، أرى فيه، مع دهشة عائلتي، إني أطير من غرفة إلى أخرى وأنا سعيدة بقدرتي على الطيران. طبعا في حلمي كنت خبيرة بذلك وكنت أستطيع أن أحوم في الفضاء بقوة إرادتي وليس بلمس الأشياء حولي.

في الواقع هنا، أنا خرقاء. أطير وأنا أصطدم بالجدران وأزحزح الأشياء من أماكنها. في الأيام القليلة الأولى كنت أدفع نفسي على حائط بشدة وتكون النتيجة أني أطير بسرعة إلى الحائط المقابل، وبدون أن أستطيع التوقف... طاخ! اصطدم بالجدار الآخر الذي يقذفني بسرعة إلى الجدار الأول. مؤخرا أثنى على زملائي لحرفية طيراني. كان هذا من دواعي فخري.

أعتقد أن أقرب مثال على التحرك في حالة انعدام الوزن، هو الطفو على الماء. ولكن هناك اختلافا كبيرا. في الماء حين تحرك ذراعيك وساقيك، تبدأ في الحركة والتقدم. هنا تستطيع أن تحرك أطرافك كما تشاء ولكنك لا تتحرك إلى أي مكان. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحركك هو نسمة هواء من المروحة.

أراد الشباب هنا أن يشرحوا لي كيف تعمل هذه النظرية فوضعوني في وسط أحد الأقسام الأمريكية في المحطة. لم أستطع الوصول إلى أي جسم جامد لأدفع نفسي، وهكذا كنت أطفو في وسط القمرة ومهما حركت أطرافي فإني لم أستطع التحرك. كان الجميع يضحكون مني وأخيرا دفعتني نسمة صغيرة من المروحة حتى استطعت الوصول إلى مقبض في السقف ومنه استطعت أن أحرر نفسي من وضع اللاحراك.

وهكذا، تخيل وأنت تعمل الآن أنه ليس هنالك جاذبية وأنك تطفو في الفضاء فكل شيء حولك يطفو كذلك. هل تستطيع تخيل هذا؟ أنت تجلس على جهاز الكمبيوتر لتكتب.. حسنا.. لا تستطيع الجلوس لأنه لا شيء يربطك بالمقعد، إلا إذا ربطت نفسك بمقعد هو الآخر مسمر على الأرضية. ولهذا، طالما أنك لا تستطيع الجلوس فأنت تقف.. حسنا، لا تستطيع الوقوف أيضا لأن كل مفتاح تضربه على الكيبورد سوف يدفعك إلى اتجاه آخر من الغرفة.

إذن ماذا يفعل الناس في الفضاء حين يريدون الجلوس في مكان واحد لعمل شيء ما؟ إنهم يستخدمون أقدامهم لتأمين أنفسهم. يحشرون أقدامهم تحت هذه القضبان الموجودة في كل مكان أو يجدون شيئا لحشر أقدامهم فيه. وهذا هو السبب في أني حين وصلت إلى المحطة أعطاني باشا أحذية الإسكيمو الناعمة هذه المصنوعة من جلد الحمل. لم أعرف السبب ولهذا لم أستخدمها. ثم في الليل حين ذهبت للنوم لاحظت أن أصابع قدمي مقرحة وتؤلمني قليلا. في الفضاء تتعلم أن تستخدم إبهامي القدمين جيدا. لا أظن أني كنت أهتم بإبهامي قدمي وأنا على الأرض. ولكن هنا.. إبهامك هو أداة قوية تربطك في المكان.

إذن دعونا نستمر في العمل. تريد أن تقرأ شيئا من كتاب وهكذا تضع الكتاب على المنضدة ولكنه لا يبقى هنالك. تريد أن تضع زجاجة الصودا على الكتاب لتحفظه في مكانه ولكن الآن لديك الكتاب يطير وكذلك زجاجة الصودا، وهكذا عليك الآن أن تلحق بالكتاب لتمسكه في يد والزجاجة في يد أخرى ثم يرن الهاتف. تضع الكتاب على المنضدة وتلتقط السماعة ولكن حالما تفعل ذلك يبدأ الكتاب في الطيران مرة أخرى وحين تحاول أن تسيطر على السماعة تراها تطير هي الأخرى.

الآن لديك الصورة.. ولهذا خلق الله الفيلكرو (Velcro) الفيلكرو هو الأربطة التي تلتصق ببعضها مثلما نجده في الملابس وفي الأحذية والحقائب - المترجمة) لهذا السبب. من أجل حفظ الأشياء في أماكنها في حالات انعدام الوزن. كل شيء هنا فيه رباط فيلكرو. حتى اصغر ملابسك الداخلية. كنت أظن أني أستطيع مسك الأشياء إذا وضعتها في جيوبي وأغلقت السحاب. حسنا.. إنها مؤمنة هناك حتى تفتح السحاب وتخرجها وعندها تبدأ أشياؤك الصغيرة في الطيران حولك. وقد فقدت الكثير من مقتنياتي ومنها ملمع الشفاه.

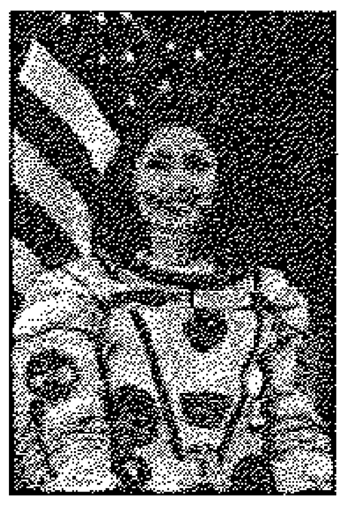
إذن مبدئيا، كل ما لديك يجب أن يكون متصلا برباط فيلكرو. هنالك أكياس لها أربطة فيلكرو وهي من كل الأشكال والأحجام والألوان تستخدم هنا بكثرة. عليك أن تتذكر دائما أنك إذا تركت أي شيء من قبضة يدك لن يبقى في مكانه مما يجعل أداء المهام هنا أكثر صعوبة.

باختصار، أن الطيران شعور جميل وكان أكبر تحد بالنسبة لي قبل أن أغادر هو كم من الوقت أستطيع أن أبقى مطوفة في مكان واحد بدون أن أصطدم بشيء. عليك أن تقف (مجازيا) ساكنا ولا تقوم بأي جهد أو أي شيء. وجدت أني أستطيع البقاء ساكنة لمدة ٢٥ ثانية قبل أن يجرفني الهواء أو شيء آخر.

في الفضاء أنت بعيد
عن عائلتك وأصدقائك وفيما عدا
رسائل البريد الإلكتروني والنداءات الهاتفية
القصيرة، فليس لديك من تكلمه
سوى زملائك في الرحلة

يومي الأخير في المحطة
٢٠٠٦/٩/٣٠

في يوم ٢٨ سبتمبر، غيرنا جدولنا في محطة الفضاء. كان موعد استيقاظنا الاعتيادي هو الساعة الرابعة صباحا ولكن في يوم ٢٨ أصبح التاسعة



صباحا. وبمعرفتى أن هذا هو يومى الأخير على المحطة، لم أرغب فى أن أقضى الوقت المتبقى لى بالنوم ولكن التعب نال منى واضطرنى إلى الإغفاء أربع ساعات.

صحوت فى الساعة الخامسة صباحا وتجهزت لإنهاء آخر فقرة فى قائمتى وهى فيديو التجربة التعليمية. وقد كرست بقية اليوم لمشاهدة العالم يمر من أمامى والطيران فى فضاء المحطة مستمتعة بانعدام وزنى.

كان يوما صعبا بالنسبة لى ومن اللحظة التى فتحت عينى كنت أحس بانقباض فى معدتى. لم أعرف السبب.. لم اكن خائفة من الهبوط، إذن ما الذى يتسبب فى هذا القلق الحاد؟ لم يكن شعورا ممتعا. إنه نفس الشعور الذى يحصل لديك حين تعزم على رحلة طويلة تترك فيها أحباءك وراءك دون أن تعرف إن كنت سوف تراهم مرة أخرى. نفس الإحساس الذى انتابنى وأنا أطير مغادرة إيران.

كان قلبى فى بلعومى ولم أكن أستطيع أن أركن للهدوء. وأنا من النوع الذى يأكل فى وقت القلق وقبل أن يستيقظ الآخرون كنت أفتش فى حاويات الوجبات الخفيفة أبحث عن شىء آكله. كانت الساعة حوالى الخامسة والنصف وكان ميشا قد عرض على أن يساعدنى فى تصوير المراسيم فى الساعة السابعة. مازال أمامى ساعة ونصف أقتل فيها الوقت. استمررت فى الأكل.. فطائر.. فواكه مجففة.. قهوة.. لوز.. شيكولاتة. ثم فكرت أنى إذا استمررت فى الأكل بهذه الطريقة سأجد صعوبة فى الجلوس فى الكبسولة لمدة ٨ ساعات.

كان الجميع لا يزال نائما ولهذا ذهبت إلى النافذة وحدقت فى الأرض وهى تدور ببطء تحتى.

كانت الأرض تبدو حية، تسمرنى وتسحرنى بجمالها، حتى إنى لا آسف على ترك الفضاء والنزول إليها. شعرت بطاقة إيجابية لا تصدق ربما كانت الطاقة التى تبعثونها جميعا إلى.

شعرت بالراحة التامة وبحرارة تنبعث من وهج الغلاف الجوى ذى اللونين الأزرق والأبيض تدفئ قلبى. وتذكرت تقليدا إيرانيا قديما.

فى الأربعاء الأخيرة من السنة يحتفل الإيرانيون بقدوم السنة الجديدة. أحد الأشياء التى يفعلونها فى هذا اليوم هو القفز على نيران صغيرة يشعلونها. أعرف أنه ليس شيئا آمنا ولكنه تقليد ظل حيا عبر الأزمنة القديمة وحتى يومنا هذا.

وأثناء أداء هذا الطقس ينشدون مايمكن ترجمته حرفيا بهذه الكلمات «خذى لونى الأصفر واعطنى لونك الأحمر» وبهذا يسألون النار أن تأخذ ضعفهم وأمراضهم وتعطيهم الحرارة والصحة والقوة. شعرت بالرغبة فى إنشاد نفس الكلمات ولكنى حورتها لأسأل الأرض وأنا أطير حولها أن تعطينى الحرارة والطاقة الإيجابية، وتطرد كل مشاعرى السلبية. وشيئا وشيئا وأنا أراقب بحر السحب الجميل يمر بى، شعرت بالتحسن واختفاء انقباضى.

استيقظ زملائى واحدا إثر آخر وشارك ميشا وجيف وتوماس فى فيديو التجارب الطبيعية مما زاد من قيمته.

كان من المفروض أن نذهب إلى كبسولتنا ونبدأ بإجراءات الانفصال فى الساعة ١٨.٣٠ توقيت جرينتش وكان على أيضا أن أقوم بإجراءات لتذويب نفسى حتى لا يغمى على بتأثير قوة (ج). وقد اجتمع الجميع لتناول الوجبة الأخيرة من الطعام معا.

ربما كانت هذه آخر رحلة لبافيل فينوغرادوف وجيف وليامز ورغم أنهما كانا مستعدين للعودة إلى المنزل والتئام شمل العائلة ولكن جزءا منهما كان مازال متعلقا بالأجواء الساحرة التى سيتركانها خلفهما ولهذا كانا فى حالة حنين.

بينما كنا نقف حول المائدة أخبرتهم بأن أحد أهدافى الرئيسية هو أن أسهل على المزيد من الناس الطيران فى الفضاء وأفضل طيران هو ذلك الذى يدور حول الأرض كما أنى قلت لهم وأنا أروج لمشروعى أفضل طيارين لرحلاتنا الفضائية القادمة سيكونون رواد فضاء سابقين مثلكم أيها الشباب ولذا حين تفكرون بالتقاعد كلمونى. ابتسموا وقالوا «يبدو اقتراحا جيدا».

مر اليوم سريعا جدا وحان الوقت للذهاب إلى سويوز. سأعود إلى الأرض فى كبسولة مختلفة. وهى نفس الكبسولة التى طار بها بافيل وجيف وماركوس بونتس إلى محطة الفضاء. وقد نقلت معداتى وزيى الفضائى إلى هذه المركبة الجديدة فقد كان بافل قد حزم أغراضى فى الليلة السابقة. كما امتلأت قمرة السكن بأكياس المخلفات والقمامة. فى المراحل الأخيرة من الرحلة. حين نتجه إلى الأرض سوف تنفصل قمرة السكن وتحترق مع كل ما فيها فى الجو.

بعد وداع سريع أمام الكاميرا ووداع دامع خارجها، صعدنا جميعا إلى القمرة مع ميشا ومايكل وأغلق توماس باب المحطة خلفنا. كما أغلقنا بوابة سويوز من ناحيتنا وحالما أغلقت لاحظنا صورة ركاب الرحلة ١٤ ملصقة على البوابة من الداخل لنراها. كانت صورة ثلاثتهم يلوحون بأيديهم مودعين. ضحكنا جميعا وبدأنا رحلة الهبوط بمزاج رائق.

الخطوة التالية كانت فحص أى تسرب فى البوابة وكان فحصا مطولا للتأكد من عدم تسرب ضغط فى البوابات بين الكبسولة والمحطة. وفى هذه الأثناء بدأنا فى ارتداء أزيائنا والاستعداد للدخول إلى قمرة الهبوط. بعد فحص التسرب حان الوقت لإغلاق البوابة بين قمرة الهبوط وقمرة السكن وأداء فحص آخر للتسرب للتأكد بأنه بعد قذف قمرة السكن إلى الفضاء، نستطيع نحن أن نهبط على الأرض فى الوقت المناسب.

فى السابق كان على الملاحين البقاء يوما زائدا فى المدار فى قمرة الهبوط بعد قذف قمرة السكن. لهذا من المهم التأكد من أن البيئة صالحة للبقاء إذا ما حدث خطأ ما.

فى الأيام القليلة الأخيرة من الرحلة، كان كل فرد من الملاحين يروى قصصه وتجاربه فى الهبوط. وكانت أوصافهم ونصائحهم للهبوط تتوافق مع ما قيل لى على الأرض من قبل رواد الفضاء الآخرين مثل بيغى ويورى. «سيكون هبوطا قاسيا. سيكون هناك الكثير من المطبات أثناء انفتاح الباراشوت وصدمة كبيرة عند الارتطام بالأرض» وكانوا قد نصحونى بكيفية الاستعداد عند كل مرحلة.. كنت قد راجعت كل الإجراءات وكنت مستعدة.

كانت الأرض تبدو حية،
تسمرنى وتسحرنى بجمالها، حتى إنى
لا آسف على ترك الفضاء والنزول إليها. شعرت
بطاقة إيجابية لا تصدق ربما كانت الطاقة
التى تبعثونها جميعا إلىَّ

بعد التأكد من جهوزية كل نظام وبعد فحص تسرب ضغط الزى الفضائى، وبعد إكمال فحص تسرب ضغط قمرة الهبوط، استلمنا أوامر تنفيذ الهبوط وبدأنا فى الانفصال عن المحطة.

كانت فحوصات الاستعداد والتسرب قد أخذت وقتا طويلا وجهدا كبيرا منى حتى شعرت بالإعياء التام وبدأت أغفو بين حين وآخر. وقد أقلق منظر عينى المغلقتين بافل وأخذ يطمئن على بين حين وآخر للتأكد من أنى على ما يرام. قلت له «لا أعرف لماذا لا أستطيع إبقاء عينى مفتوحتين. أنا آسفة».

جيف شرح الوضع على أفضل نحو«انك تخرجين من ١٠ أيام من ارتفاع الأدرينالين. جسدك يخبرك بحاجته إلى الراحة» ربما كان على حق. كنت فى ذروة التوتر طوال الرحلة وأنا الآن فى طريقى إلى الهبوط. شعرت بهزة ضعيفة عند بدء الانفصال وعرفت أنى عائدة إلى البيت. لا وسيلة للرجوع الآن..

كانت المرحلة الأولى من الهبوط هى الانفصال البطىء من حالة الالتحام بالمحطة مما أعطانى منظرا جميلا لبيتنا الكونى. ثم بدأنا ندخل فى المدار المناسب للهبوط.

حين بدأنا فى الوصول إلى نهاية مرحلة الخروج من المدار، أبلغنى جيف بأن على الاستعداد لما يشبه ركوب القطار الأفعوانى فى مدينة الملاهى. ذكرنى بأن أضيق شد أحزمتى، حين تبدأ القوة (ج) (المقصود بها جاذبية الأرض) تتصاعد وأن أتأكد من أنى التصقت بمقعدى مع شد كل عضلات بطنى وفخذى من أجل إبطاء تدفق الدم من رأسى إلى أطرافى. وأكد لى أنه سوف يعلن بدء كل مرحلة ليهيئنى لما ينتظرنى. وقد فعل ذلك. كان بافل يعلن كل رحلة بالروسية وجيف يعيد إعلانها بالإنجليزية مع تذكير سريع بما على أن أفعله.

أول شىء مهم يحدث خلال عملية الخروج من المدار هو انقذاف قمرة السكن. ذكرنى جيف بأن أنظر من النافذة لرؤية الوهج البرتقالى ونحن ندخل الغلاف الجوى وقبل أن يسود الظلام كل شىء مرة أخرى.

الذكرى الأخرى الحية التى أحتفظ بها هى عند دخولنا الغلاف الجوى. كان هناك وهج برتقالى وكما تقدمنا داخل الغلاف الجوى بدأت دروع الحرارة تحترق وكنا نراها تلتمع وهى تمرق خارج النافذة. شعرت مثل ركوب نيزك يحترق. فيما بعد سمعت نفس الشىء من الناس الذين كانوا يراقبوننا من الأرض. وصفوا دخولنا الغلاف الجوى مثل شهاب محترق.

ثم بدأت القوى (ج) تتصاعد. كان جيف يذكرنى بشد أحزمتى واستمر يعلن تصاعد ضغوط (ج). «١.٥ (ج) أنوشة هل ربطت الأحزمة؟ ٢ (ج) اعتقد أننا ماضون إلى ٤ (ج)...».

بدأت أشعر بثقل (ج)

كتاب الزاوية

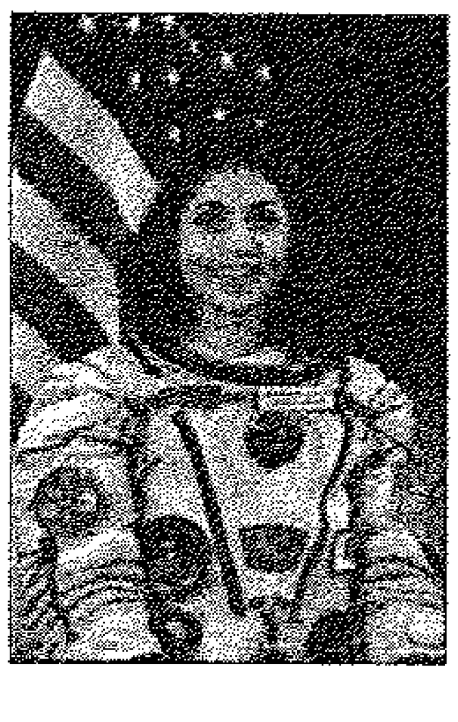
الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية

عادل حسين

إن تقويم الفترات التاريخية المختلفة لا يكون بعدد السنوات، ولكن بكثافة ما تحمله الفترة المعنية من أحداث مؤثرة، ومن تغيرات. وبهذا المعيار، فإن الفترة التى يتناولها الكتاب (١٩٧٥-١٩٧٩) كانت فترة غير عادية، أحداثها متلاحقة ونتيجتها كارثية، على مصر والوطن العربى. وأية محاولة لتجاوز ما صرنا إليه تتطلب وقفة تأمل عميق، تتطلب شرح ماذا حدث فى مصر؟ وكيف حدث؟ وأزعم أننا لا نعلم إلا القليل فى ذلك، وينبغى بالتالى أن نبذل جهداً كبيراً فى البحث، وبعض الجهد والوقت فى قراءة ما يبحث.

هكذا بدأ عادل حسين مقدمة كتابه الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية. ثم مضى يمزج بين ما هو سياسى وما هو اقتصادى فى سلسلة الأحداث المتلاحقة، ليصل إلى تصور دقيق لأسباب تخلى مصر عن دورها القيادى فى المنطقة، مع توقيعها لاتفاقية السلام بشكلها الذى آلت إليه، ومع موافقتها بالتوازى على تبنى نمط التنمية الاقتصادية الذى تروج له الولايات المتحدة.

وبعد حوالى ثلاثين عاما، قد يكون من المفيد أن ينفض الغبار عن كتاب عادل حسين الأوفر شهرة. خاصة إذا لاحظنا التشابه بين الفترة التى يتناولها والفترة الحالية. فهناك الكثير من المؤشرات التى تدل على أن الفترة الحالية، وخاصة منذ تولى أحمد نظيف رئاسة مجلس الوزراء منذ عام ٢٠٠٤ -على قصرها- إنما تحمل خصائص سياسات اقتصادية وسياسية مشابهة لتلك الفترة التى تعرض لها عادل حسين.



الآن. يشبه الشعور وأنا فى مركز التدريب ولكن ٢ (ج) فى مركز التدريب كانت أقل بكثير مما ٢ (ج) ونحن فى الهبوط الفعلى. كنت قد شددت أحزمتى بقوة حتى كنت أشعر بأن عظام كتفى على وشك التفتت.

فى كل مرة يعلن بافل أثقال (ج) يعيد جيف إعلانها «٢,٢، ٢,٥، ٢,٧، ٢,٨.. ٣(ج)..» آه! وجهى يتمدد فى كل الاتجاهات.. لابد أن شكلى صار مضحكا. شددت عضلات معدتى ووترت كل جسدى كما كنت افعل فى التدريب. وكنت فى مركز التدريب أصل إلى ٨ (ج) بدون مشكلة ولكن هنا مرحلة ٣ (ج) تبدو مثل ٨ (ج) وكنت أتساءل ما إذا كان جسدى سيتحمل آية زيادة أخرى.

أحسست مثل فيل يجلس على صدرى.. كان الضغط يتصاعد ودعوت الله أن يمنحنى القوة لئلا أقع فى غيبوبة. (٣,٢، ٣,٥، ٣,٧، ٣,٨، ٤٠) حسنا العد يبدأ تنازليا «٣,٥، ٣,٢، ٣,٠.. ٢,٨» الحمد لله! ٢,١، ٥,١.. نعود إلى الوضع الطبيعى.. على الأقل فى هذه المرحلة.

هبطنا بهدوء لعدة دقائق. تأكد بافل وجيف من أنى على ما يرام. قلت لهم بالروسية (فيزيو خراشو) أى كل شىء على ما يرام. حذرنى جيف أن أمامى خمس دقائق قبل أن تبدأ عملية انفتاح الباراشوت. ثم حين اقتربنا من ذلك قال «دقيقة واحدة.. استعدوا».

كانت هذه ربما أعنف مرحلة فى الهبوط لا يفوقها إلا الارتطام بالأرض. هناك ثلاث مراحل للباراشوت. أول وآخر مرحلة هما الأعنف.

أول مرحلة قذفتنا إلى الأعلى ودارت بنا فى تطويف مجنون حول المكان. أغمضت عينى لئلا أصاب بالغثيان وأنا أرقب اللوحة أمامى تتحرك حولى وحين بدأت حركة التأرجح فى الثبات، انفتح الباراشوت الكبير وبدأنا فى التأرجح مرة أخرى ثم ثبتت الحركة. كان حالنا يشبه ركوب الطبق أو القمرة الدوارة فى مدينة الملاهى. فأنت تدور حول المكان.

ثم ارتفعت مقاعدنا للاستعداد للمرحلة الأخيرة وهى الهبوط على الأرض. وهذا قلل من حجم ما لدينا من مساحة صغيرة أصلا. وأعلن جيف وبافل هبوطنا من ٣٠٠٠ متر إلى ٢٠٠ متر ثم الصدمة الكبيرة.

ارتطمنا بالأرض بقوة شعرت معها بأننا دفنا فى التراب ولكن بعد ذلك شعرت بقفزة وتدحرجنا على الجنب. حين ارتطمنا بالأرض شعرت وكأن ملايين الإبر رشقت فى ظهرى وشعرت بألم حاد. ظل الألم لفترة حتى تدحرجنا وانفصل ظهرى عن المقعد حينذاك بدأ الألم يزول.

فحصنا بافل للتأكد من أننا جميعا بخير. قلت له إن كل شىء رائع وشكرته للهبوط العظيم. وفعل جيف نفس الشىء وبينما كنا معلقين رأسا على عقب فى مقاعدنا مددنا أذرعنا وتماسكنا بالأيدى احتفالا بالهبوط الآمن.

انتشرت رائحة مثل أسلاك محروقة فى القمرة بسبب الاحتراق فى الغلاف الجوى. كانت الكبسولة مازالت ساخنة وكان فريق البحث والإنقاذ فى طريقه إلينا.

كانت كبسولتنا قد حطت فى منطقة صحراوية فى كازاخستان تسمى (اركاليك). مددت رأسى لأنظر من النافذة.

كان الصباح على وشك الانبلاج وكنت أرى الشمس ترتفع بطيئا فى الأفق. أعلن بافل أن درجة الحرارة فى الخارج هى ٥ درجات مئوية. وضحكت وأنا أقول «٥! أريد أن أرجع إلى حيث كنت».

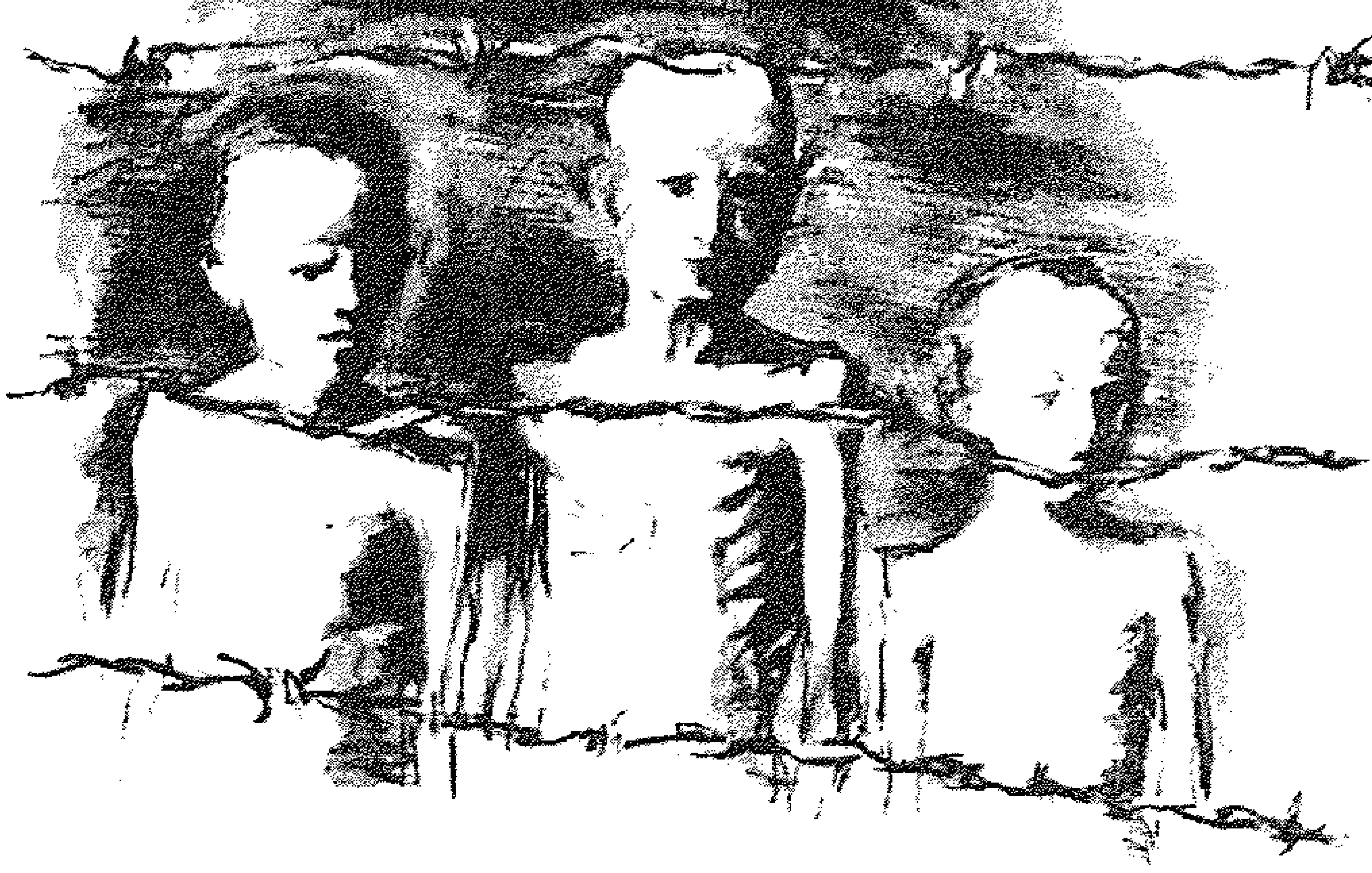
ضحك رفيقاى وقال بافل «٥ درجات طقس جميل» وقال جيف «ربما سيكون يوما لطيفا».

بعد عدة دقائق سمعت دقات على نافذتى. وصل فريق البحث والإنقاذ وبدأوا فى فتح البوابة. ذكرنى جيف بأن أكون هادئة وألا أقوم بأى حركة فجائية وأن أحتفظ برأسى فى وضع أمامى لتقليل أى شعور بدوار الحركة.

فتحت البوابة أخيرا وغمرتنا رائحة هواء الصباح النقى الذى غطى على رائحة الأسلاك المحروقة. حين بدأت فى التنفس وشم رائحة الأرض، شعرت بالتحسن.

من الرائع أن أعود إلى البيت وبعد ساعات قليلة سوف أتمكن من رؤية حامد وأتحدث إلى عائلتى. كان قلبى مفعما بالسعادة.

على أن أتوقف عن الكتابة الآن وسوف أكمل لكم ما تبقى من حديث فى اليومية القادمة. ■



حضارة الإبادة!!

عبد الوهاب المسيرى

لاحظت أثناء دراستى للظاهرة النازية تكرار كلمة «مسلم»، فتعقبت الأمر إلى أن اكتشفت أنهم كانوا يشيرون إلى أى يهودى يتقرر حرقه فى أفران الغاز. بأنه «ميزلمان Muselmann» أى «مسلم» بالألمانية

فى أى حوار بخصوص الهولوكوست (سواء فى العالم الإسلامى أو العالم الغربى) يجب أن نؤكد أننا لسنا طرفا فى قضية الهولوكوست، فهذا حدث تم داخل التشكيل الحضارى الغربى، وهو جزء من التاريخ الغربى وعلى الحضارة الغربية أن تدفع الثمن وحدها وليس نحن، ونحن نتعاطف مع ضحايا الإبادة النازية ليهود أوروبا وغيرهم من ضحايا جرائم الإبادة التى قام بها النازيون ضد الغجر والبولنديين، والتى قام بها الاستعمار الغربى عبر تاريخه، ولكننا لسنا على استعداد أن ندفع ثمن جرائم الغير.

لسنا طرفاً فى الحوار

ويجب أن نضيف أننا وجدنا أنفسنا طرفا فى الحوار لسببين:

١- قيام الغرب بتوظيف الهولوكوست فى محاولة تبرير الاحتلال الصهيونى وحماية مغتصبى الأراضى الفلسطينية. فقد ادعوا أن أفواجا بشرية يهودية فرت من ألمانيا النازية هربا من الهولوكوست، وأنه بعد الحرب كان هنالك العديد من اليهود ليس لهم مأوى آخر، وأن فلسطين كانت هى المأوى الوحيد وأنها خصصت لليهود وضحايا المحرقة النازية تعويضا لهم عما حدث فى ألمانيا. وهذه كلها أكاذيب وتلفيقات، فالمشروع الصهيونى لاحتلال فلسطين وطرد سكانها وتوطين كتلة بشرية غربية فيها هو مشروع استعمارى غربى، ظهرت ملامحه الفكرية فى أواخر القرن السادس عشر وتبلور تماما فى منتصف القرن التاسع عشر فى إنجلترا على يد لورد شافتسبرى وسير لورانس أوليفانت، وكلاهما كان وثيق الصلة بالدوائر الاستعمارية البريطانية، وكلاهما غير يهودى، بل كاره لليهود. وقد تحولت هذه الأفكار الصهيونية إلى أجندة سياسية حين قرر الغرب تقسيم الدولة العثمانية والتخلص من الفائض البشرى اليهودى عن طريق تصديره خارج أوروبا. وقد عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى ١٨٧٩، ثم صدر وعد بالفور عام ١٩١٧ الذى وضع حجر الأساس للمشروع الصهيونى، ثم وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطانى عام ١٩٢٣، ثم أسست الوكالة اليهودية وهى الذراع التنفيذية للحركة الصهيونية بعد ذلك مباشرة. كل هذه الظواهر والقرارات السياسية اتخذت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قبل ظهور النازية بعشرات السنين، وقبل أن يكون هناك أى حديث عن إبادة أو مذابح.

٢- أقحم الغرب الجريمة النازية داخل التاريخ العربى حتى يبرر غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية فى وسط الوطن العربى، زاعماً أنه فعل ذلك تعويضاً لليهود عما لحق بهم من أذى داخل التشكيل الحضارى الغربى. وهذه أكذوبة واضحة، فلو كان الدافع وراء المشروع الصهيونى هو بالفعل الإحساس بالذنب، لاستقطع العالم الغربى منطقة من أجود المناطق من ألمانيا وأسسوا لليهود دولة فيها، كما اقترح الملك آل سعود للرئيس روزفلت، أو لأرسل قوات دولية لتتأكد من أن يهود أوروبا سيحصلون على حقوقهم الدينية والمدنية والسياسية. فالتكفير عن جريمة ما لا يتم عن طريق ارتكاب جريمة أخرى، أى احتلال فلسطين وطرد شعبها، ولا يمكن محو أثر معسكرات الاعتقال والمجازر النازية عن طريق مخيمات اللاجئين الفلسطينيين والمستوطنات الاستعمارية فى الضفة الغربية والمجازر فى دير ياسين وكفر قاسم وجنين، وعن طريق دعم الكيان الصهيونى العنصرى من خلال التعويضات! إن الاهتمام بالهولوكوست ليس نابعاً من الإحساس بالذنب كما يدّعون، فالغرب، كما أسلفت، لا يريد أن يدفع ثمن خطاياه، ولذا فى مؤتمر دربان فى جنوب أفريقيا، رفض الوفد الأمريكى اقتراحا بأن تقوم الولايات المتحدة بتعويض الأمريكيين السود عما حاق بهم من إبادة وتنكيل.

ويلاحظ أن الدعاية الصهيونية تحاول جاهدة أن تصوِّر المقاومة العربية للغزو الصهيونى لفلسطين وكأنها كانت دعماً مباشراً أو غير مباشر للإبادة النازية، لأنها حالت فى بعض الأحيان دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين. ومثل هذه الحجة هى الأخرى لا أساس لها من الصحة، فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى وإنما كانت ضد مستوطنين جاءوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها، تحت رعاية العالم الغربى، وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية، فالغرب نفسه أوصد أبوابه دون المهاجرين اليهود.

كما تحاول الدعاية الصهيونية أن تبين أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفاً مع النظام النازى. وهذه أكذوبة أخرى، فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء (فمعظم بلدان العالم العربى على أية حال كانت واقعة تحت شكل من أشكال الهيمنة الغربية)، كما أن النظرية النازية العرْقية كانت تضع العرب والمسلمين فى مصاف اليهود. وهؤلاء الساسة العرب (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين فعلوا ذلك لا كُرهاً فى اليهود أو حباً فى النازيين، وإنما تعبيراً عن عدائهم للاستعمار الإنجليزى والاستيطان الصهيونى.

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغير شيئاً من الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية، الدينية والإنسانية، فالإبادة النازية لا تُشكِّل جزءاً من التاريخ العربى

وتُعد العقيدة البيوريتانية (أو التطهرية)، عقيدة المستوطنين البيض فى أمريكا الشمالية، هى أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التى كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة. فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة» أو «الأرض العذراء» فهى «أرض بلا شعب»

أو تواريخ المسلمين. وهذه المحاولات الإعلامية التى تلوى عنق الحقيقة تُبيِّن فى نهاية الأمر مدى اتساق الغرب مع نفسه، الذى يُكفر عن جريمة إبادية ارتكبها فى ألمانيا بأخرى لا تقل عنها بشاعة فى وطننا العربى. إن الموقف العربى الحقيقى من الهولوكوست ينطلق من الإيمان بالقيم الأخلاقية الإسلامية التى لا تسمح بقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق. وقد جاء فى الذكر الحكيم (مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) (المائدة ٣٢).

وقد يكون من المفيد أثناء الحوار ذكر معلومة أقل ما توصف به أنها رهيبة. فقد لاحظت أثناء دراستى للظاهرة النازية تكرار كلمة «مسلم»، فتعقبت الأمر إلى أن اكتشفت أنهم كانوا يشيرون إلى أى يهودى يتقرر حرقه فى أفران الغاز، بأنه «ميزلمان Muselmann» أى «مسلم» بالألمانية. وقد ورد ما يلى فى مدخل مستقل فى الموسوعة اليهودية Enyclopedia Judaica (جزء ١٢ ص ٥٣٧، ٥٣٨) عنوانه «مسلم»، «ميزلمان» أى مسلم بالألمانية، هى إحدى المفردات الدارجة فى معسكرات (الاعتقال) والتى كانت تُستخدم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت، أى الذين بدأت تظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلى والوهن الجسدى».

هذه هى المعلومة، ولا بد من تفسيرها ووضعها داخل إطار ونمط. ويمكن القول إن العقل الغربى حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر، والآخر بالنسبة للغرب هو المسلم. والتجربة النازية هى الوريث الحقيقى لهذا الإدراك الغربى للآخر، والنازيون فى هذا لا يختلفون كثيراً عن الغزاة الأسبان للعالم الجديد الذين كانوا يبيدون سكانه الأصليين وكانوا يسمونهم «الترك» أى «المسلمين»، وهم لا يختلفون عن المستوطنين البيض الأنجلوساكسونيين الذين كانوا يسمون أنفسهم عبرانيين عليهم إبادة الهنود الحمر باعتبارهم كنعانيين! إن نطاق الحقل الدلالى لكلمة «مسلم» تم توسيعه لتشير «للآخر» على وجه العموم.

ويطرح السؤال نفسه: لم اختفت هذه المعلومة من الخطاب الغربى بخصوص الهولوكوست؟ هل ذكرها سيبين طبيعة العنصرية الغربية ضد الإسلام وسيعوق عملية توظيف الهولوكوست فى دعم إسرائيل والاستعمار الاستيطانى الصهيونى؟ أعتقد أنه من واجب الإعلام العربى والإسلامى نشر هذه المعلومة وتفسيرها على أوسع نطاق حتى يدرك العالم مدى عنصرية العالم الغربى.

أيقنة الهولوكوست

والآن مامعنى كلمة «هولوكوست»؟ «هولوكوست» كلمة يونانية تشير إلى إحدى الشعائر التى كانت تمارس فى الهيكل إبان المرحلة التى أسميها العبادة القربانية الإسرائيلية، والتى انتهت بهدم الهيكل عام ٨٠ ميلادية؛ فاليهودية الأرثوذكسية لم تكن قد ظهرت بعد. فالعبرانيون/ اليهود القدامى كانوا يقدمون القرابين فى الهيكل فكان الكهنة يحرقون جزءاً منها، ويأخذون ما يتبقى لأنفسهم ليأكلوه. أما قربان الهولوكوست فكان يحرق حرقا كاملا غير منقوص على المذبح، ولا ينال الكهنة منه شيئا. وقد كان هذا الطقس من أكثر الطقوس قداسة، وعادة ما كان يقدم تكفيرا عن خطيئة الكبرياء. وقد اعترتنى الدهشة حين عرفت كل هذه التفاصيل ولهذه التسمية، فهل هذا يعنى أن النازيين حرقوا اليهود حرقا غير منقوص؟

أعتقد أن الهدف من استخدام هذه الكلمة اليونانية، التى دخلت كل اللغات الأوروبية حسب علمى، هو إضفاء مسحة من القداسة على الواقعة التاريخية، ومن ثم يتم عزلها عن سياقها التاريخى والاجتماعى والإنسانى. أما بخصوص العبرية فتستخدم الكلمة أحيانا، وأحيانا أخرى تستخدم كلمة «شواء» والتى تعنى «المحرقة». وهنا نسأل لِمَ لم تستخدم كلمات مماثلة فى اللغات الأوروبية مثل extermination؟ أعتقد أن الهدف هو، كما أسلفت إحاطة الظاهرة التاريخية بهالة من القداسة، وأنا أفضل استخدام مصطلح «الإبادة النازية ليهود أوروبا».

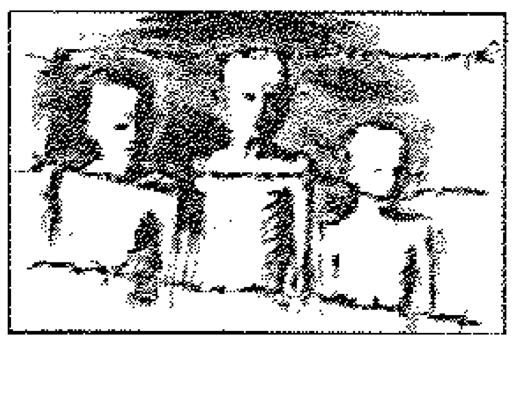
لقد قام الغرب «بأيقنة الهولوكوست» بتأثير الأدبيات الصهيونية والغربية، والأيقنة هى تجريد الظاهرة الإنسانية من طبيعتها التاريخية والزمنية وتحويلها إلى شىء فريد، لا يمكن فهمه أو تفسيره من خارجه، فهو مرجعية ذاته. وبهذه الطريقة يتم التحول من الزمنى والتاريخى والإنسانى إلى اللا زمنى والكونى وغير الإنسانى، وتصبح الظاهرة الإنسانية محل تأليه غير قابل للنقاش. فالأيقونة صورة نتعبد أمامها ولا نتساءل عنها. والعرب يتورطون فى الأيقنة المضادة، أى الكفر المضاد بها من دون تثبت تاريخى. فإنكار الهولوكوست دون دراسة تاريخية ليس أمرا إنسانيا أو علميا. يجب أن تكون استراتيجيتنا هى أنسنة الهولوكوست أى استرجاع البعد التاريخى والإنسانى لكل الظواهر الإنسانية والتاريخية، بما فى ذلك الهولوكوست.

وقد حول الصهاينة والعالم الغربى الهولوكوست إلى أيقونة بأن نزعوها من سياقها التاريخى بحيث ننظر لها من الداخل فقط، من منظور غربى وصهيونى حتى يمكنهم توظيفها. ولذا فالطريقة العلمية الإنسانية الوحيدة أن ننظر لهذه الظاهرة من كل من الداخل ومن الخارج فى نفس الوقت، إن ما أدعو إليه هو نزع الأيقنة والقداسة عن الهولوكوست حتى تصبح ظاهرة تاريخية إنسانية، وذلك عن طريق وضعها فى السياق الفكرى والتاريخى للحضارة الغربية الحديثة. بل ويمكن أن توضع فى سياق أقل عمومية وهو السياق الألمانى (تدهور الاقتصاد بعد معاهدة فرساى التى قامت بتحويل ألمانيا إلى ما يشبه المستعمرة- الاتجاه العام للثقافة الألمانية فى ذات الوقت). بل يمكن أن يزداد خصوصية ونضع الإبادة النازية ليهود أوروبا فى سياق ألمانى يهودى (رفض اليهود الاندماجيين للنازية -ترحيب الصهاينة بوصول النازيين للحكم- التعاون بين الصهاينة والنازيين). فهذا يعمق من رؤيتنا لها ويعطيها بعدا تاريخيا وحضاريا يتجاوز الأحداث المباشرة، ويحررها من التفاصيل والمناسبة المباشرة، كما يجعلنا نراها داخل نمط عام (نموذج) بحيث تتحول من الإبادة النازية لليهود، أى جريمة ارتكبها النازيون، والنازيون وحدهم، ضد اليهود، واليهود وحدهم، إلى الإبادة النازية بحسبانها تبديا لنمط عام فى الحضارة الغربية الحديثة.

السياق التاريخى والفكرى والحضارى للإبادة

وهذا لن يتأتى إلا بأن نضع الهولوكوست فى سياقها التاريخى والفكرى والحضارى الغربى. ويجب أن نبيِّن أن ثمة علاقة بين الحداثة الداروينية (المنفصلة عن القيمة value free) والنزعة الإبادية فى الحضارة الغربية الحديثة. ولعل أول الأسباب أن العلمانية الشاملة، أى نزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية. قد أمسكت بتلابيب العالم وبرؤية الإنسان الغربى له، فانحسرت القيم الأخلاقية والدينية وحل محلها الرؤية المادية. ومن ثم لم يعد من الممكن تصنيف البشر على أساس دينى أو أخلاقى أو إنسانى (متجاوز للقوانين الطبيعية/المادية)، ولذا لم يكن هناك مفر من تصنيفهم على أساس مادى موضوعى طبيعى كامن (حالّ) فيهم، وليس مفارقاً لهم. ولهذا، طُرح الأساس البيولوجى العرقى أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيفهم. وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلمية ونظرية شبه علمية أخرى وهى الداروينية الاجتماعية، وكانت الثمرة هى النظرية الغربية فى التفاوت بين الأعراق والتى تقسم الجنس البشرى بأسره إلى أعراق لكل منها سماته التى يمكن تحديدها علمياً. ومن ثم يمكن تصنيف البشر إلى أعراق راقية عليا: الآريون وبخاصة النورديون، وأعراق دنيا: الزنوج والعرب واليهود. وتفوق العنصر الآرى الأبيض على كل الشعوب الأخرى يعطيه حقوقاً مطلقة كثيرة تتجاوز أية منظومات قيمية وأى حديث عن المساواة.

ثم تزايد الإيمان بأن التراكم المعرفى العلمى



والتقدم التكنولوجي والتنظيم التكنوقراطي الدقيق (المنفصل عن القيمة) سيجعل الإنسان قادراً على التحكم في ذاته وفي واقعه تماماً، وعلى التوصل إلى الحلول النهائية لمشاكله كافة (الاقتصادية والسياسية والفلسفية والنفسية)، وإلى فرض هذه الحلول النهائية المجردة العلمية الدقيقة (المستمدة من عالم الطبيعة/المادة البسيطة) على الواقع الاجتماعي والإنساني، فيتخلص الإنسان من مشاكله (دفعة واحدة أو تدريجياً) ويستأصل كل ما يقع خارج حدود الحل النهائي أو يعوقه عن التحقق أو يعوق ظهور الإنسان الجديد الكامل (الذي يختلف عن الإنسان كما نعرفه). ومن هنا ظهر الاهتمام بعلوم جديدة مثل تحسين النسل والهندسة الوراثية التي صبت في النظرية العرقية.

وقد صاحب كل ذلك تزايد معدلات النسبية المعرفية، فعالم الطبيعة/المادة هو عالم حركي لا ثبات فيه ولا حدود، بحيث أصبح الإنسان يشك في وجود أية حقيقة يقينية، أو في أي معايير أخلاقية. كما تزايد معدل انفصال الحقائق والعلم الطبيعي عن القيمة، والتجريب عن العقل، بحيث أصبح التجريب، المنفصل عن أية غائيات إنسانية أو أخلاقية، هدفاً في حد ذاته. وترجم هذا نفسه إلى ما يُسمى العلم المحايد، المتجرد تماماً من القيمة.

وأعتقد أن تزايد معدلات التجريد في المجتمع، أي نزع الصفات الخاصة عن الشيء والتركيز على الصفات العامة فيه والتي تجمع بينه وبين الأشياء الأخرى حتى يتسنى استيعابه داخل الآلة الاجتماعية، بحيث يتحول الأفراد إلى كم يمكن قياسه، أدى هذا الاتجاه إلى تحول الواقع إلى كم لا خصوصية ولا قداسة له، وإلى وحدات كمية متراصة ليست بالضرورة مترابطة.

ويجب أن نؤكد أن المنطق النسبي الذي ينكر القيم الأخلاقية والإنسانية المشتركة والتاريخ ولا يعلي إلا من شأن الصيرورة والإجراءات المنفصلة عن القيمة، يؤدي بالضرورة إلى معسكرات الاعتقال وإلى أفران الغاز. فالدولة النازية قد طرحت رؤية أسطورية للتاريخ الألماني والإنسان الألماني شبيهة من بعض النواحي بالأسطورة الصهيونية. ولكن،من منظور الصيرورة البرجماتية، لا يحق لنا أن نتساءل عن مدى صدق أو كذب هذه الأسطورة ولا عن مدى تكلفتها الإنسانية، فأخلاق الصيرورة البرجماتية لا تحكم على شيء خارج صيرورته أو حدوده، وإنما تنطلق من الأمر الواقع. وانطلاقا من هذا الأمر الواقع المتجرد من كل أوهام أو أعباء أخلاقية بدأت النازية في تشييد دولتها القوية، وبدأت أفران الغاز.

ومن المعروف أن أفران الغاز هذه لم تشيد في بداية الأمر من أجل اليهود وإنما من أجل العجزة وضعاف العقول وغيرهم من الناس عديمي الجدوى وعديمي الفائدة الذين كان يطلق عليهم اصطلاح «أفواه تأكل ولا تنتج» «useless eaters» ولا يمكن الاعتراض، من منظور مادي إجرائي، على أفران الغاز فهي لن تقضي على شيء نافع من منظور مادي، وإنما ستقضي على شيء لا نفع من ورائه بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة، أي دراسات الجدوى العلمية المادية المحايدة المنفصلة عن القيمة. ثم استخدمت أفران الغاز بعد ذلك للقضاء على الجنود الألمان الذين كانوا يسقطون جرحى في المعارك، لأن عملية تمريضهم وإطعامهم كانت تمثل عبئا على الاقتصاد الوطني.

ثم طبق هذا المنطق العلمي المادي بعد ذلك على اليهود باعتبارهم أقلية عديمة الفائدة. فيهود شرق أوروبا، الذين تدفقوا على ألمانيا، كانوا يمثلون -حسب الرؤية النازية- عبئا على الاقتصاد الوطني الألماني، فأعداد كبيرة منهم كانت لا تمتلك المهارات التي يتطلبها الاقتصاد الألماني. كما أنهم كان بينهم نسبة كبيرة من المشتغلين بالمهن الهامشية مثل الدعارة وتهريب المخدرات. ولكن هذا كله لا يهم، فمربط الفرس هو الرؤية النازية التي ذهبت إلى أن اليهود لا يصلحون أن يكونوا جزءا من المشروع النازي لإعادة بناء ألمانيا. وقد ساند موقفهم هذا ودعمه مجموعة من البحوث «العلمية» التي أنجزها مجموعة هائلة من العلماء النازيين «العباقرة». وقد حاول النظام النازي جاهدا، في بداية الأمر، التخلص من يهود شرق أوروبا (خاصة بولندا) بإرسالهم إلى بلادهم بولندا في قطارات مكدسة باليهود، لكنها أوصدت أبوابها دونهم، مثلما فعلت الولايات المتحدة من قبل ومن بعد.

بعد دراسة الجدوى وبعد محاولة التخلص منهم بالوسائل العادية أصبح من الضروري اتخاذ إجراءات أخرى ضد اليهود وغيرهم من العناصر التي لا تتسم بالكفاءة مثل الغجر وأبطال المقاومة في فرنسا. (لم يكن اليهود هم الضحية الوحيدة أو الرئيسية للكفاءة النازية، ولكنني كنت أركز عليهم وحدهم لأن جمهوري هناك كان يتصور ذلك، ولم أكن أريد الدخول في مناقشة جانبية). كانت معسكرات الاعتقال النازية قمة (أو هوة) من قمم انتصار الكفاءة والإجراءات المنفصلين عن القيمة. فالمعسكرات كانت تقع على مقربة من بعض المدن وليس داخلها، ربما لتحاشي تعطيل المرور وحتى يتم نقل المعتقلين بسهولة ويسر. ولعل العناصر الأمنية لعبت هي الأخرى دورها. وحينما كان يصل المعتقلون هناك كانت الإجراءات في غاية الدقة والرشد. إذ كان يقسم اليهود إلى أطفال وعجائز ونساء وغير قادرين على العمل، ثم رجال ونساء قادرين على العمل. وكان كل معتقل يعطى رقما حتى يسهل تصنيفه والاستفادة منه على أكمل وجه. وكان المعتقلون يقضون صفوفا في الصباح حتى تتم عملية فرزهم لتفرير الصالح من الطالح والنافع من عديم الجدوى، بل وكان يفرض عليهم القيام ببعض التمرينات الرياضية حتى يحتفظوا بمستوى عال من اللياقة البدنية.

وكان مدير المعسكر يحاول أن يعظم الربح بكل الوسائل الممكنة مثل أعمال السخرة بالنسبة للقادرين على العمل. أما العناصر عديمة الفائدة، فكان يتم تصفيتها، ولكن ما تبقى منها، أي الجسد الإنساني، فإنه كان يتم توظيفه بطرق مختلفة: حشو الأسنان الذهبي يرسل للخزانة الألمانية ليساعد على ازدهار الاقتصاد الوطني، أما الشعر البشري فيصنع منه فرش أحذية من أجود الأصناف، ويقال أن الشحم البشري كان يستخدم في صناعة بعض أنواع الصابون.

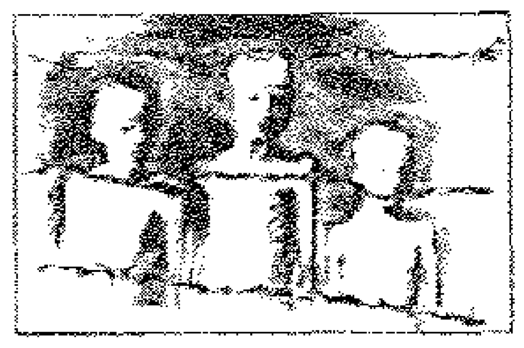
إن الإبادة النازية لليهود لم تكن نتيجة تعصب عنصري غبي أعمى، وإنما هي تبدي نماذجي متبلور للمنفعة المادية والعقلانية المادية ولمجموعة من الحسابات الرشيدة في الإطار المادي، حيث يقوم المرء بنزع القداسة عن كل شيء، ثم يحكم على الواقع بمقاييس مادية متحررة عن القيمة. لقد بلغت عقلانية النازيين المادية أبعاداً متطرفة، فحينما كان أحد الجنود النازيين يضرب الضحايا المتجهين إلى أفران الغاز، كان يعاقب أشد العقاب، لأنه حين يضرب أحد الضحايا، فإنه قد دخل معه في علاقة إنسانية. علاقة سلبية نعم، ولكنها يمكن أن تصبح علاقة إيجابية في يوم آخر، مما يعني أن سلوكه ليس منفصلاً عن القيمة.

ولعل ما حدث في جزيرة القرم يبين مدى التزام النازيين بالمنفعة المادية وبالحسابات الرشيدة في الإطار المادي، وعدم انحرافهم عنها. فحينما وصلت الجيوش النازية إلى هناك بدأوا في تجميع اليهود، فأخبرهم رئيس اليهود القرائيين (وهي طائفة يهودية تأثرت بالفكر المعتزلي الإسلامي) أنهم ليسوا مثل اليهود الحاخاميين، وأنهم منتجون وليسوا طفيليين. فبعقلانية بالغة أرسل القائد النازي بأحد ضباطه إلى برلين والحرب مشتعلة، حيث أجرى بحثاً في الموضوع، ووجد أن ما قاله رئيس اليهود القرائيين صحيح. فتم فصلهم عن اليهود الحاخاميين ثم قاموا بتجنيدهم في القوات النازية.

هذه هي الحيادية العلمية الباردة المنفصلة عن القيمة. ولذا لم يستثن أحد من المقصلة العلمية الإجرائية الباردة - لا العجائز ولا الأطفال ولا حتى الجنود الجرحى طالما أنهم useless eaters مجرد أفواه تأكل ولا تنتج. ويا لها من حيادية علمية تستحق الإعجاب والتقدير، تماما مثل إعجاب الغرب بالدولة الصهيونية التي تستند صيرورتها إلى مقصلة علمية كفء صنعت في الولايات المتحدة!

الإبادة والتشكيل الاستعماري الغربي

وقد تحققت هذه الرؤية المادية (التي قامت بتفكيك الإنسان وتحويله إلى مادة استعمالية) أول ما تحققت بشكل جزئي وتدريجي في التجربة الاستعمارية الغربية بشقيها الاستيطاني والإمبريالي. فقد خرجت جيوش الدول الغربية الإمبريالية تحمل أسلحة الدمار والفتك والإبادة، وحوّل الإنسان الغربي نفسه إلى سوبرمان له حقوق مطلقة تتجاوز الخير والشر، ومن أهمها حق الاستيلاء على العالم وتحويله إلى مجال حيوي لحركته ونشاطه وتحويل العالم بأسره إلى مادة خام، طبيعية أو بشرية. فاعتُبرت شعوب آسيا وأفريقيا (الصفراء والسوداء المتخلفة) مجرد سبمن sub men، مادة بشرية تُوظّف في خدمته، كما اعتُبر العالم مجرد مادة طبيعية تُوظّف في خدمة دول أوروبا وشعوبها البيضاء المتقدمة، واعتُبرت الكرة الأرضية مجرد مجال حيوي له يصدر له مشاكله. بل لم تفرق الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة في نهاية الأمر بين شعوب آسيا وأفريقيا وشعوب العالم الغربي، فالجميع مادة استعمالية، نافعة أو غير نافعة، ضرورية أو فائضة. فكان العمال يُنظر لهم باعتبارهم مادة استعمالية نافعة، ومصدراً لفائض القيمة، أما المتعطلون فهم مادة استعمالية فائضة. وصُنّف المجرمون (وفي مرحلة أخرى، المعوقون والمسنون) على أنهم مادة استعمالية غير نافعة، وهذه المادة يجب أن «تُعالج»، وكانت الوسيلة الأساسية للمعالجة هي تصدير المادة الاستعمالية



الفائضة إلى مكان آخر لتحويلها إلى مادة نافعة إن أمكن (مع عدم استبعاد «الحلول الأخرى» إن استلزم الأمر).

ولنركز على التجربة الاستيطانية الغربية فى جميع أنحاء العالم، خصوصاً فى أمريكا الشمالية، وهى تجربة كانت تفترض ضرورة إبادة تلك العناصر البشرية الثابتة التى كانت تقف عقبة كأداء فى طريق الإنسان الغربى وتحقيق مشروعه الإمبريالى. وقد قبلت الجماهير الأوروبية عملية الإبادة الإمبريالية وساهمت فيها بحماس شديد، لأن هذه العملية كانت تخدم مصالحها، كما أوهمتها الدول الإمبريالية ذات القبضة الحديدية فى الداخل والخارج.

وتعد العقيدة البيوريتانية (أو التطهرية)، عقيدة المستوطنين البيض فى أمريكا الشمالية، هى أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التى كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة. فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة» أو «الأرض العذراء» فهى «أرض بلا شعب». وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم «عبرانيين»، وللسكان الأصليين باعتبارهم «كنعانيين» أو «عماليق» (وكلها مصطلحات توراتية إبادية، استخدمها معظم المستوطنين البيض فيما بعد فى كل أرجاء العالم متجاهلين تماماً القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء).

وكان كل هذا يعنى فى واقع الأمر إبادة السكان الأصليين حتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار فى الأرض الخالية الجديدة! وقد تم إنجاز هذا من خلال القتل المباشر، أو الحرب الجرثومية (كأن تُترك أغطية مصابة بالجدرى كى يأخذها الهنود فينتشر الوباء بينهم ويتم إبادتهم تماماً).

وترتبط بالتجربة الاستيطانية فى أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة. وقد تم نقل عشرة ملايين تقريباً، ومع هذا يجب أن نتذكر أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حتفهم، إما من خلال أسباب «طبيعية» بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية أو من خلال إلقائهم فى البحر لإصابتهم بالمرض.

وقد تحققت الإمكانية الإبادية الكامنة فى الحضارة الغربية الحديثة بشكل غير متبلور وجزئى فى التجربة الإمبريالية والاستيطانية الغربية، ثم تحققت بشكل نماذجى كامل فى الإبادة النازية أو فى «اللحظة النازية النماذجية» فى الحضارة الغربية، أى اللحظة التى تبلور فيها النموذج وأفصح عن نفسه بشكل متبلور فاضح، دون زخارف أو ديباجات (ولذا أذهلت الجميع، وضمنهم المدافعون عن النموذج فى صوره الأقل تبلوراً وأكثر اعتدالاً). لقد أدرك النازيون تمام الإدراك أن نظامهم النازى وممارساته الإبادية هما ثمرة طبيعية للتشكيل الحضارى الإمبريالى الغربى الحديث. وقد بيّن كاتبو سيرة حياة هتلر أن أولى تجارب الإنسان الغربى الاستعمارية الاستيطانية، أى تجربته فى أمريكا الشمالية، كانت تجربة مثالية أوحت له بكثير من أفكاره التى وضعها موضع التنفيذ فيما بعد. وكما يقول المؤرخ جون تولاند إن هتلر، فى أحاديثه الخاصة، مع أعضاء الحلقة المقربة إليه، كثيراً ما كان يعبّر عن إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين وطريقة «معالجتهم» لقضية الهنود الحمر. فقد قاموا بمحاولة ترويضهم عن طريق الأسر، أما هؤلاء الذين رفضوا الرضوخ فكانت تتم إبادتهم من خلال «التجويع أو القتال غير المتكافئ». ويقول يواقيم فست إن حروب هتلر القارية المستمرة كانت محاكاة للنموذج الاستعمارى الغربى فى أمريكا الشمالية. وبالفعل صرح هتلر فى إحدى خطبه بأنه حين قام كورتيز وبيزارو (وهما من أوائل القواد الاستعماريين الإسبان) بغزو أمريكا الوسطى والولايات الشمالية من أمريكا الجنوبية، فهم لم يفعلوا ذلك انطلاقاً من أى سند قانونى وإنما من الإحساس الداخلى المطلق بالتفوق. فاستيطان الإنسان الأبيض لأمريكا الشمالية، كما أكد هتلر، لم يكن له أى سند ديموقراطى أو دولى، وإنما كان ينبع من الإيمان بتفوق الجنس الأبيض. ولذا فى مجال تبريره للحرب الشرسة التى شنها على شرق أوربا قال هتلر: «إن هناك واجباً واحداً: أن نؤلمن هذه البلاد من خلال هجرة الألمان الاستيطانية وأن ننظر إلى السكان الأصليين باعتبارهم هنوداً حمراء». وأكد هتلر أن الحرب التى تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة فى شرق أوربا لا تختلف كثيراً عن كفاح البيض فى أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر. ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها «أرضاً عذراء» و«صحراء مهجورة» («أرض بلا شعب» فى المصطلح الصهيونى). ومن أهم عمليات الإبادة ما تم على يد البلجيكيين فى الكونغو. فى رواية خيالية كتبها عالم اللغة البريطانى اليهودى جورج ستاينر يقول هتلر دفاعا عن نفسه: «أنا لم أخلق القبح، ولم أكن أسوأ القبحاء. بل إن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك. كم عدد التعساء الصغار الذين قتلهم أصدقاؤكم (المستعمرون) البلجيك فى الغابات - إما بشكل مباشر أو بتركهم يموتون جوعا أو من مرض الزهرى حينما اغتصبوا الكونغو؟ أجيبوا علىّ يا سادة. أم يجب على أن أذكركم؟ عشرون مليونا. هذه النزهة الخلوية كانت قد بدأت وأنا بعد فى المهد صبيا؟ فى لعبة الأرقام السوداء لست أسوأ اللاعبين». ثم يؤكد هتلر أن ستالين ارتكب هو الآخر جرائم تفوق جرائمه هو كيفا وعددا.

حول الصهاينة والعالم الغربى الهولوكوست إلى أيقونة بأن نزعوها من سياقها التاريخى بحيث ننظر لها من الداخل فقط، من منظور غربى وصهيونى حتى يمكنهم توظيفها

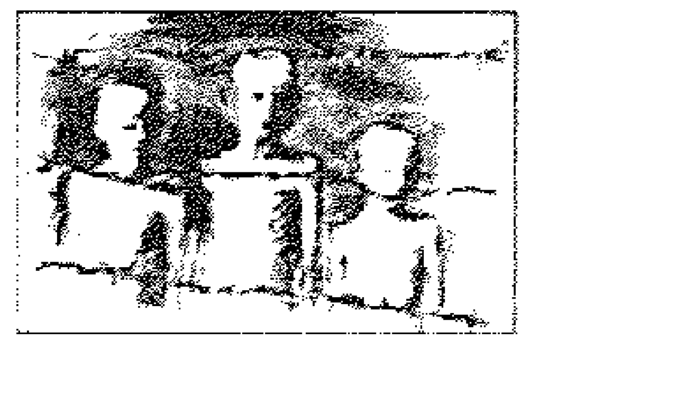
وقد بيّن ألفريد روزنبرج، أثناء محاكمته فى نورمبرج، هذه العلاقة العضوية بين العنصرية النازية والمشروع الغربى الإمبريالى. فأشار مثلاً إلى أنه تعرّف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) فى كتاب عن الاستعمارى الإنجليزى كتشنر، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكى الأنثروبولوجى ماديسون جرانت والعالم الفرنسى لابوج، وأن رؤيته العرقية هى نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية. فالنازية - كما أكد روزنبرج لمحاكميه - جزء من الحضارة الغربية.

الإبادة الغربية للألمان

إن الإبادة نمط متكرر، يضرب بجذوره فى الحضارة الغربية الحديثة، فهى لم تكن مقصورة على النازيين وإنما تشكل مرجعية فكرية للعالم الغربى الحديث. بل يمكن القول إن هذه الرؤية استمرت حتى الوقت الحاضر. انظر على سبيل المثال إلى سلوك الحلفاء، أعداء النازيين الذين قاموا بمحاكمتهم بعد الحرب! إرنست همنجواى، الكاتب الأمريكى، كان يطالب بتعقيم الألمان بشكل جماعى للقضاء على العنصر الألمانى. وفى عام ١٩٤٠ قال تشرشل إنه ينوى تجويع ألمانيا وتدمير المدن الألمانية وحرقها وحرق غاباتها.

وكان هناك حديث متواتر عن ضرورة «هدم ألمانيا»، وعن «تحويل ألمانيا إلى بلد رعوية» (بالإنجليزية: باستوراليزيشن patsoralization)، أى هدم كل صناعاتها ومؤسساتها الحديثة (كما حدث لمحمد على وكما حدث فى العراق فيما بعد). ونجحت غارات الحلفاء على المدن الألمانية فى إبادة مئات الألوف من المدنيين (من الرجال والأطفال والنساء والعجائز) وتحطيم كل أشكال الحضارة والحياة. وقد بلغ عدد ضحايا الغارات على مدينة درسدن الألمانية وحدها ٢٠٠ ألف قتيل. كما استمرت النزعة الإبادية بعد الحرب، فقامت قوات الحلفاء بوضع مئات الألوف من الجنود الألمان فى معسكرات اعتقال وتم إهمالهم عن عمد. فتم تصنيفهم على أساس أنهم DEFS وهى اختصار عبارة «ديس أرميد إنيمى فورسيز disarmed enemy forces» أى «قوات معادية تم نزع سلاحها» بدلاً من تصنيفهم «أسرى حرب». وإعادة التصنيف هذه كانت تعنى فى واقع الأمر حرمانهم من المعاملة الإنسانية التى تنص عليها اتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب. وبالفعل قضى ٧٩٣٬٢٣٩ جندى ألمانى نحبهم فى معسكرات الاعتقال الأمريكية عام ١٩٤٥، كما قضى ١٦٧ ألفا نحبهم فى معسكرات الاعتقال الفرنسية نتيجة للجوع والمرض والأحوال الصحية السيئة (حسبما جاء فى دراسة لجيمس باك James Bacque). وفى الوقت ذاته كان يوجد ١٣٫٥ مليون طرد طعام فى مخازن الصليب الأحمر، تعمدت سلطات الحلفاء عدم توزيعها عليهم. (هل هذا يختلف كثيرا عما يحدث فى فلسطين؟). وهذا ما يحدث فى جوانتانامو وفى عشرات السجون السرية التى أنشأتها فى بلدان غربية وشرقية مختلفة.

ولم تقتصر الإبادة على



نــــزع

حضــــارة الإبــــادة

التصفية الجسدية بل كانت هناك إبادة ثقافية، فقد قام الحلفاء بما سُمّى «عملية نزع الصبغة النازية عن ألمانيا» (بالإنجليزية: دى نازيفيكيشن denazification) للقضاء على النازيين فى الحياة العامة. (قد حاولوا فى العراق ما سموه debaathification أى استئصال البعثيين تماماً، ليكتشفوا أن الموقف مختلف تماماً. فاضطروا لإسقاط مشروعهم الخائب). فأُقيمت ٥٤٥ محكمة دائمة على الأقل يتبعها طاقم من الفنيين والسكرتارية عددهم اثنان وعشرون ألفاً. وقام الأمريكيون بتغطية ثلاثة عشر مليون حالة (أى معظم الذكور الألمان البالغين)، وتم توجيه الاتهام إلى ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف، أجريت لهم محاكمات عاجلة. وأدين تسعمائة وثلاثون ألفاً منهم، وصدرت أحكام بشأنهم من بينها ١٦٩.٢٨٢ حكماً بتهمة ارتكاب جرائم نازية لا مجرد التعاون مع النظام النازى. وأصدر البريطانيون ٢٢.٢٩٦ حكماً والفرنسيون ١٧.٣٥٣ حكماً، والروس ثمانية عشر ألف حكم. وبحلول عام ١٩٤٥، كان قد تم طرد ١٤١ ألف ألمانى من وظائفهم، من بينهم معظم المدرسين فى منطقة الاحتلال الأمريكية، وزُج بعدد أكبر من هؤلاء فى السجن. (ألم يحدث شىء مثل هذا فى العراق؟)

وتظهر نفس النزعة الإبادية فى استجابة الحلفاء لليابان، فقبل اكتشاف القنبلة الذرية، كان الجنرال الأمريكى كورتيس لى ماى يقوم بتحطيم مدن اليابان الواحدة تلو الأخرى بشكل منهجى لم يسبق له مثيل فى التاريخ.

وكانت عملية الإبادة من الشمول لدرجة أن الجنرال جروفز المسئول عن مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية كان «يخشى» ألا يجد أى هدف سليم يمكن أن يُلقى عليه بقنابله ويدمره. ورغم أن الولايات المتحدة كانت تعرف أن اليابانيين كانوا قد بدأوا يفكرون بشكل جاد فى إنهاء الحرب، فقد رأى الجنرال جروفز ضرورة استخدام القنبلة مهما كان الأمر (بعد أن تم إنفاق ٢ بليون دولار فى تطويرها وهو ما يُعادل ٢٦ بليون دولار بحسابات اليوم).

كما يجب أن نتذكر عمليات الإبادة التى قام بها النظام الستالينى ضد الشعوب الإسلامية فى الخانات التركية (التى أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية). وكان عدد شعب التتار وحده يساوى عدد سكان روسيا فى القرن التاسع عشر، أما الآن فهو لا يكون سوى نسبة مئوية ضئيلة. ومصيره بهذا لا يختلف كثيراً عن مصير السكان الأصليين فى أستراليا وأمريكا الشمالية. وقد استمر النظام الستالينى فى عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة لأعدائه الطبقيين مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية، بل تم إبادة كثير من أعضاء الحزب الشيوعى ممن عارضوا الديكتاتور. وكانت الإبادة تأخذ أشكالاً مختلفة مثل الإعدام والعمل فى معسكرات السخرة. وقد بلغ عدد الضحايا ٢٠ مليونا مات منهم ١٢ مليونا على الأقل فى معسكرات الجولاج: هذا حسب التقديرات المحافظة، أما أعداء النظام الستالينى فيقولون إن عدد الضحايا بلغ ٥٠ مليوناً! وبعد حوالى نصف قرن استمرت عمليات الإبادة والتطهير العرقى فى البوسنة والهرسك والشيشان. وهناك الاستعمار الفرنسى فى الجزائر بلد المليون شهيد. انظر على سبيل المثال مذبحة ستنيف وجويلمار فى بلدة قسطنطينة ضد المستوطنين الفرنسيين (الذين يدعون «الأقدام السوداء») الذين كانوا يحتفلون بيوم النصر فى الحرب العالمية الثانية. وقد تحولت المسيرة إلى المطالبة بالاستقلال. وكان رد القوات الفرنسية سريعا وانتقاميا بشكل كريه. إذ استخدمت القوات الفرنسية المدافع والطائرات ضد السكان المحليين بشكل مستمر ولمدة ساعتين. وقد قدرت القوات الفرنسية الضحايا بحوالى ١٥٠٠ قتيل، أما المؤرخون الفرنسيون فقد عدلوا الرقم إلى ما بين ١٥-٢٠ ألفا. ولكن الحكومة الجزائرية قدرت العدد بعد الاستقلال بـ ٤٥ ألفا، وهذا ما دعاه رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقه بداية الإبادة التى قامت بها القوات الفرنسية ضد الشعب الجزائرى. وكان للقوات الاستعمارية الانجليزية نصيبها فى محاولة إخماد ثورة الكيكو (الماو الماو) فى كينيا فى الخمسينيات وفى تجويع ملايين الهنود أو حرب الأفيون ضد الصين..إلخ. ولا تزال الدولة الصهيونية تحاصر الشعب الفلسطينى وتجوعه وتذبحه، بينما تراقب الدول الغربية هذه الجريمة بحياد يبعث على الغثيان. هذا هو السياق التاريخى والسياسى والحضارى للإبادة النازية ليهود أوروبا. فهى ليست حدثاً فريداً أو نادراً، وإنما ظاهرة لصيقة تماماً بالحضارة الغربية الحديثة، خاصة فى تشكيلها الاستعمارى.

والله أعلم. ■

■■ بعد أكثر من ثلاث ساعات قضيتها فى زيارة المتحف اليهودى فى برلين حتى فقدت الإحساس بالاتجاهات الأصلية بسبب التصميم المعمارى الذى أصبح النموذج الأمثل لفكرة المتاهة وقدرتها على تشتيت انتباه الزائر وإفقاده القدرة على تحديد الاتجاه حتى ينمو الإيحاء والإحساس بقدسية المكان وربما استحالة التفسير والفهم، قادنى القدر إلى مكتبة المتحف، وهناك وجدت هذا الكتاب الذى يتناول الهولوكوست من منظور إسرائيلى. يقع الكتاب تحت عنوان «مراجعة الهولوكوست» (٢٠٠٢)، وهو أحد مؤلفات المؤرخ الإسرائيلى يهودا باور الذى درس فى بريطانيا وشارك فى عدد من الحروب الإسرائيلية ضد العرب، ولاسيما ما يسمى فى الخطاب الإسرائيلى بحرب الاستقلال (نكبة ١٩٤٨). يقع هذا الكتاب فى ثلاثمائة وخمس وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، ويحتوى على مقدمة وأحد عشر فصلا، إضافة إلى ملحق وقائمة بالمراجع وفهرس للأعلام والموضوعات.

يتناول باور فى هذا الكتاب أطروحات عدد كبير من المؤرخين وعلماء الاجتماع أمثال زيجمونت باومان، لاسيما مؤلفه الحداثة والهولوكوست، وكذلك جيفرى هيرف، ولاسيما مؤلفه الحداثة الرجعية. ولا يخفى على القارئ أن هؤلاء المؤرخين قد رفضوا تفسير الهولوكوست بوصفها مجرد مأساة يهودية أو مشكلة ألمانية وحسب. بيد أن باور، قبل أن يقوم برفض هذه الأطروحات، قرر أن يعلن للقارئ عن تحيزاته السياسية والمعرفية والإدراكية والمنهجية. فهو يعى تماما أنه يتناول الموضوع من وجهة نظر إسرائيلية وبوصفه مؤرخا إسرائيليا يحيا بين الإسرائيليين فى دولة صهيونية، وأن الساسة الإسرائيليين يقومون باستغلال الهولوكوست وتوظيفها لخدمة أغراض سياسية، لاسيما الدعاية الإسرائيلية لإضفاء الشرعية على الدولة الصهيونية وتشجيع الجماعات اليهودية على الهجرة إلى إسرائيل، حتى وإن كان ذلك يعنى اللجوء إلى مقارنة العرب والفلسطينيين بالنازيين الألمان الذين يسفكون دماء اليهود الأبرياء ليل نهار. إن باور يدرك أيضا أنه لا يستطيع أن يفصل بين ذاتيته وبين موضوع البحث الذى يتناوله لأن الإنسان وليد الزمان والمكان بكل ما يحملانه من معتقدات وأفكار وأساطير. إن هذا التحيز السياسى والإدراكى يوازيه أيضا تحيز منهجى، ويظهر هذا التحيز فى تأكيد باور على أن الباحث يتناول الحقائق بصورة انتقائية نظرا لاستحالة الوصول إلى حقائق موضوعية مطلقة. ورغم وجاهة هذا الطرح من الناحية المنهجية، فإن باور يقوم بتوظيفه، بخلاف مؤرخين آخرين أمثال راول هيلبرج، فى تبرير الاستعانة بما لدى الناجين من المحرقة النازية من شهادات شفهية ومذكرات وخطابات فى محاولة للوصول إلى نموذج أكثر تفسيرية للهولوكوست، رغم أنه يدرك تماما أن هذه الوثائق عادة ما تحتوى على معلومات مضللة أو روايات غير صحيحة ومبالغ فيها.

rethinking the holocaust

(مراجعة الهولوكوست)

Yahuda Bauer

New York: Morris Dickstein

وانطلاقا من تحيزاته السياسية والمعرفية والمنهجية، يؤكد باور على أهمية الهولوكوست بوصفها مأساة حدثت لواحدة من أبرز الجماعات التى لعبت دورا كبيرا فى المحيط الإسلامى المسيحى، بل هى كارثة لم يحدث لها مثيل من قبل فى تاريخ البشرية. إن باور، رغم ما يضفيه من قدسية على الهولوكوست، يرفض التعامل معها بوصفها سرا ميتافيزيقيا يستعصى علينا فهمه وسبر غوره. فالهولوكوست، من وجهة نظره، عبارة عن حادثة بشرية اقترفها بشر يعيشون على كوكب الأرض فى سياق تاريخى وملابسات اجتماعية وثقافية ليس من الصعب تتبعها ومحاولة تفسيرها من خلال المعالجة التاريخية والتحليل العقلانى.

وتقوم أطروحة باور على تفرقة أساسية بين مفهوم الإبادة المنصوص عليه فى ميثاق الأمم المتحدة ومفهوم الهولوكوست الذى لا يمكن أن يستخدم، من وجهة نظره، إلا فى حالة الجماعات اليهودية فى أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية. فالإبادة، من منظور باور، تهدف إلى التدمير الجزئى لجماعة قومية أو عرقية أو اثنية. أما الهولوكوست فهى أيضا إبادة، لكنها مع ذلك إبادة راديكالية شاملة كانت تستهدف القضاء على الجماعات اليهودية بأكملها فردا فردا دون استثناء. بل إن باور لا يخفى إعجابه بضرورة التمييز بين الإبادة genocide وقتل النفس democide، ومن ثم لا غرابة

قداســـة "الهولوكوس

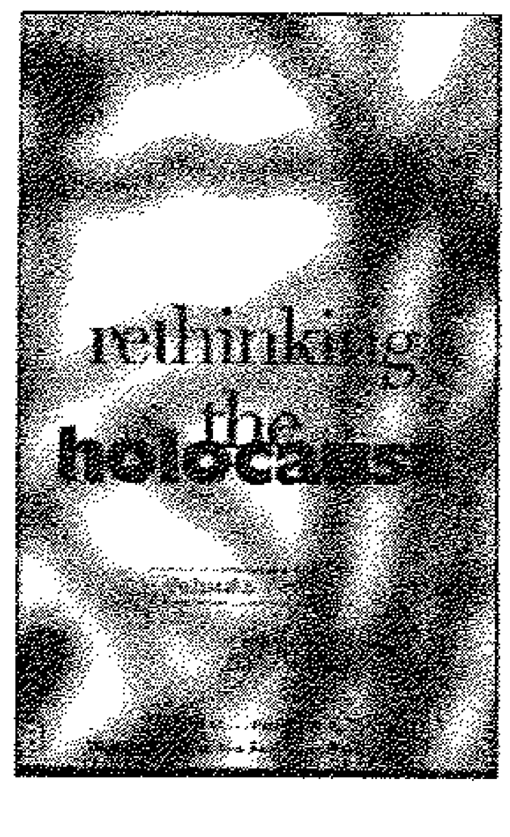
حجـــــاج أبو جبـــــر

أن يؤمن باور بأن قتل ١٧٠ مليونا من المدنيين على يد الأنظمة الديكتاتورية بين عامى ١٩٠٠ و١٩٨٧ لا يرقى إلى مستوى الهولوكوست ولا مستوى الإبادة، حتى وإن كان أعداد الضحايا من البشر لا يفوق ضحايا الهولوكوست وحسب وإنما يفوق أيضا التعداد العام للجماعات اليهودية فى جميع أنحاء العالم بعشرات المرات. إن باور، رغم ذلك، يدرك تماما ما اقترفه الغرب بحق الجماعات والحضارات غير اليهودية على مر التاريخ، فهو يدرك أن جيوش أوروبا قد خرجت إلى جميع أنحاء العالم وهى تحمل أسلحة الفتك والبطش، وأنها لم تتعامل مع شعوب آسيا وأفريقيا باعتبارها شعوبا لها تاريخ إنسانى وحضارى وثقافى، ولكن باعتبارها مخلوقات دون البشر. بل إن باور يعلم جيدا أن الجيوش الغربية قامت بنقل سكان أفريقيا وآسيا إلى الأمريكتين لاستعبادهم أو تحويلهم إلى جنود مرتزقة. بل إن باور يعدد الأمثلة الصارخة على الإبادة، لكنه لا يلبث أن يضعها فى مرتبة أدنى من الهولوكوست وإن كانت أكثر فظاعة وبشاعة. هذا المنهج ينطبق على إبادة الألمان لشعب الهيريرو (ناميبيا حاليا)، وإبادة الحكومة الصينية والغزاة اليابانيين للشعب الصينى، وكذلك إبادة الألمان للغجر، ناهيك عن جرائم الجولاج، فكلها جرائم لا ترقى إلى مستوى الهولوكوست، تلك الأيقونة المقدسة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها كما يصفها المفكر العربى المعاصر عبد الوهاب المسيرى.

ويحاول باور أن يقدم نموذجا تفسيريا يتجاوز أطروحات كل من المدرسة القصدية، التى ينصب اهتمامها على نوايا هتلر بوصفها الركيزة الأساسية لتفسير الهولوكوست، والمدرسة الوظيفية، التى تركز على دور العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى مرت بها ألمانيا بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية العالمية الأولى ورضوخها لمعاهدة فرساى التى أذلتها وأضاعت هيبتها. ويشمل هذا النموذج ثلاثة محاور أساسية تعبر عن الطابع الخاص للهولوكوست دون أشكال الإبادة الأخرى على مر التاريخ:

(١) الأيديولوجية العرقية المعادية للسامية، (٢) النطاق الجغرافى الواسع للإبادة النازية و(٣) الطابع الشمولى للإبادة. وهذه المحاور الثلاثة كفيلة، من وجهة نظر باول، بأن تثبت خصوصية الهولوكوست وتفردها. فعلى المستوى الأيديولوجى، كانت الهولوكوست نتاجا لوجود أيديولوجية معادية لليهود قامت بتسخير كافة الأفكار المجردة والأساطير الوهمية التى تصور الجماعات اليهودية على أنها جماعات من الطفيليات الضارة والفيروسات القاتلة التى لابد من القضاء عليها حفاظا على الصحة العامة للمجتمع الانسانى. وقد قامت النخب النازية بترويج هذه الأفكار المجردة بين المفكرين والطلاب وأساتذة الجامعات، مما أدى إلى انتشار نظرية المؤامرة اليهودية الكبرى فى الأوساط الفكرية، وأصبح الاعتقاد السائد هو أن العدو الأول لألمانيا واليوتوبيا الألمانية ليس الاتحاد السوفيتى أو فرنسا أو الولايات المتحدة أو بريطانيا وإنما الجماعات اليهودية التى تتحكم فى سياسات هذه الدول. وقد ساعدت هذه الأيديولوجية على طرد الجماعات اليهودية خارج النطاق الأخلاقى بوصفها عرقا غير إنسانى وشرا مطلقا يهدد بقاء البشر. أما على المستوى الجغرافى، فإن باور يؤكد أن كافة أشكال الإبادة الأخرى كانت تتم فى إطار جغرافى محدود، أما الهولوكوست فلم تكن تستهدف الجماعات اليهودية فى ألمانيا أو أوروبا وحسب وإنما أيضا فى كافة أنحاء العالم وفقا للرؤية النازية. أما المحور الثالث فيتمثل فى الاشارة إلى شمولية الهولوكوست ونزعتها الراديكالية فى توظيف الأطر البيروقراطية والوسائل التكنولوجية المعقدة فى استئصال شأفة الجماعات اليهودية واجتثاثها من فوق الأرض.

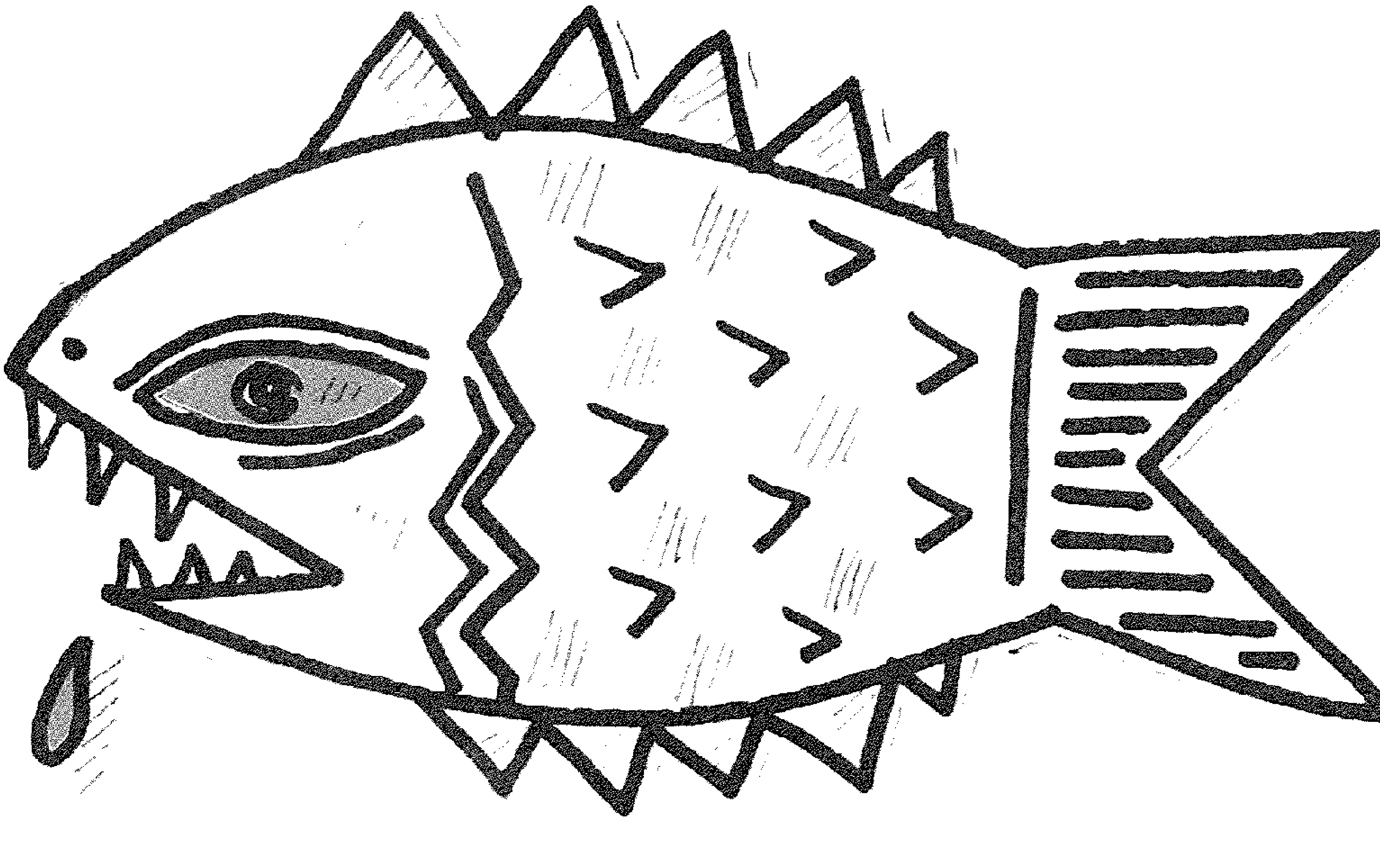
إن هذا الدفاع المستميت عن قدسية الهولوكوست لا يتسق فقط والبحث التاريخى وإنما أيضا وأطروحات كثير من المؤرخين اليهود - أمثال سيبيل ميلتون وهنلرى فريدلاندر - الذين يرون أن الهولوكوست تشير، ضمن ما تشير، إلى الجرائم التى ارتكبها النازيون ليس فقط بحق الجماعات اليهودية وحسب وإنما أيضا بحق الغجر والمعاقين والمرضى الذين كان ينظر إليهم بوصفهم كائنات غير اجتماعية يجرى الإجرام فى جسدها مجرى الدم. ويكفى هنا أن نشير إلى حقيقة تاريخية واحدة، وهى أن ٢٢ ألفا من الغجر قد أبيدوا بعد ترحيلهم إلى معسكر أوسفيتش وأن ١٠٠ ألف من المعاقين قد تم التخلص منهم فى إطار القتل الرحيم والحفاظ على الصحة العرقية. وهذا ما دفع كثيرا من علماء الاجتماع اليهود إلى التأكيد على أن الهولوكوست ليست مجرد مأساة يهودية أو مشكلة ألمانية وأن فكرة العداء لليهود ليست كافية لتفسير الهولوكوست. ذلك لأن العداء لليهود لم يكن حكرا على ألمانيا. بل إن حدة معاداة اليهود فى ألمانيا كانت أقل وطأة من غيرها فى الدول الأوروبية الأخرى. ويوجز عالم الاجتماع البولندى اليهودى زيجمونت باومان تلك الرؤية فى قوله بأن الهولوكوست ليست ملكية خاصة للجماعات اليهودية وأن معاداة اليهود ليست بيت القصيد وإن كانت قد لعبت دورا فى عملية الإبادة والتعبئة الأيديولوجية ضد الجماعات اليهودية. وبعبارة أخرى، المشكلة كامنة فى الحداثة الغربية وسعيها إلى تحقيق الفردوس الأرضى من خلال ثقافة تكنولوجية بيروقراطية لا تعتد بفكرة الوازع الأخلاقى أو الضمير الإنسانى.



إن إبادة الجماعات اليهودية فى أوروبا لم يكن معدا لها سلفا ولم تكن ضدهم بالذات. فقد كان ترحيل الجماعات اليهودية، كما يرى المفكر على جوتس، جزءا من الخطط الديموغرافية التى كان يطمح النازيون إلى تنفيذها. حيث كانت ترمى تلك الخطط إلى إعادة رسم خريطة شرق أوروبا بحيث يتم تجميع العرق الألمانى فى نطاق جغرافى متلامس ومتماسك وبعدها يتم ترحيل الجماعات اليهودية وغيرها خارج المجال الحيوى الألمانى. بيد أن الحرب لم تنته بالسرعة التى كانت تتوقعها ألمانيا وأصبحت الجماعات اليهودية وكذلك الغجر والسلاف والمرضى والمجرمون فائضا سكانيا لابد من التخلص منه. إن باور يرفض هذه الأطروحة ويؤيد، فى المقابل، رؤية دانيال جولدهيجن الذى يرى أن معاداة اليهود الإقصائية هى السبب الرئيس للإبادة النازية. ورغم أن هذه رؤية اختزالية واحدية لأنها تستبعد العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى مرت بها ألمانيا إثر الحرب العالمية الأولى، فإن باور لا يخفى إعجابه الشديد بها.

إن حرص باور على أيقنة الهولوكوست، كما يقول المفكر العربى عبد الوهاب المسيرى، جعله يخصص فصلين كاملين فى هذا الكتاب عن المقاومة اليهودية للجرائم النازية، رغم أنه يدرك أن المؤرخين من مختلف الجماعات اليهودية يشككون فى فكرة وجود مقاومة يهودية، بل إنهم يؤكدون على السلبية اليهودية وتواطؤ المجالس اليهودية مع الحركة النازية والحركة الصهيونية مما أدى إلى إبادة الآلاف من الأطفال والنساء وكبار السن. وهنا ينصح باور القارئ بأن يأخذ فى الحسبان نوايا رؤساء المجالس اليهودية، فما كان بوسعهم أن يفعلوا أفضل من ذلك لأنهم كانوا يضحون بالقليل من الضحايا من أجل إنقاذ الكثيرين من أعضاء الجماعات اليهودية، ولاسيما الشباب لأنهم رمز المستقبل فى غد أفضل! إن أطروحة باور تتعارض مع رؤية هيلبرج الذى يرى أن الجماعات اليهودية قد تخلت منذ الأزل عن فكرة الجهاد الجماعى أو الاستشهاد، ولذا لا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه مقاومة يهودية أصلا. لكن باور لا يرضى بذلك التفسير ونجده يوحد بين اليهودية ويقرنها بالصهيونية ويدعو القارئ إلى النظر إلى القوة العسكرية الإسرائيلية ليرى أن الجهاد اليهودى حقيقة واقعة وليس مجرد خيال!

والغريب فى الأمر أن باور يؤكد مرارا وتكرارا أن إسرائيل ليست بحاجة إلى الهولوكوست، بل إنه يدعى أن الهولوكوست قد تسببت فى تأخر إعلان قيام دولة إسرائيل رغم جهود الجماعات السرية المسلحة (الهجانة) ضد الوجود البريطانى. إن باور الذى يشيد بدور الهجانة يشير أيضا إلى تعاونها مع البريطانيين وإلى تورطها فى عمليات الهجرة غير الشرعية إلى فلسطين، لكنه يرفض رؤية مؤرخى ما بعد الصهيونية الذين يؤكدون على أمرين: أولهما، صعوبة تجاهل الصراع العربى الصهيونى عند مناقشة الهولوكوست، وثانيهما، ضرورة الاعتراف بأن الصهيونية حركة استعمارية حاولت اغتصاب حقوق السكان العرب وطردهم من أرضهم وأنها قامت بتوظيف الهولوكوست من أجل السيطرة على فلسطين أو المناطق الاستراتيجية بها على الأقل. أما العناصر السرية المسلحة فلم تكن سوى أذرع عسكرية لحركة قومية عضوية عنصرية كانت تعيش على استغلال الناجين البؤساء من أجل تحقيق أطماعها السياسية فى فلسطين. ■



الثـــورة الثـالثـــة..

[١]

دأب أنصار العولمة والحداثة الإشارة إلى الثورات الثلاث التى توالت على المجتمعات البشرية الواحدة تلو الأخرى: أولها: الثورة الزراعية.. وكيف أنها وطنت الناس فى مجتمعات صغيرة وأقامت قواعد الحضارات. ثم الثانية: الثورة الصناعية، وكيف أنها قامت بتغيير هائل فى «طرق الإنتاج» و«تنوع التخصصات» وعلاقة الناس «بالمنتج». ثم جاءت بعدها «الثورة الكونية الثالثة»، التى يعيشها العالم الآن!!

ومع الثورة الكونية الثالثة - نتفق جميعا - يمر عالمنا الآن بتحولٍ هائل عميق، من الصعب استيعاب أبعاده، وبالكاد يمكن تفهم قواه الدافعة، وتصور التبعات الضخمة لزخم حركته - تحولٍ يغذى الخوف بقدر ما يغذى الخيال ويثيره.. حيث عالم جديد لم يسبقه ما هو أكثر منه أملاً ولا أشد خطراً!!

ورغم أن الكثيرين يتفقون مع نظرية «الثورة الكونية الثالثة».. وأنا واحد من هؤلاء.. إلا أن هناك أبعادا «جوهرية» قد تكون محل اختلاف فى التقييم، وبالتالى محل خلاف فى الرأى. وفى تقديرى أن أهمها وأولاها هى التى تدور حول «نوعية التغيير» الذى شمل العالم كله، والذى يصفه أولئك عادة بأنه «التحول الهائل العميق». معتبرين أن هذا «التغيير» أسهم فى رخاء البشرية من خلال الإنجازات الضخمة و التطورات العلمية الحديثة.

والحقيقة أن هذه الثورة الثالثة، وإن كانت قد أثمرت رؤوس أموال عملاقة وغنى فاحشاً «للأقلية» أثمرت- وفى نفس الوقت- إفقاراً كبيراً «للأكثرية».

ثم هناك «البعد الثقافى» لهذه الثورة. ومن اليسير أن نلاحظ كيف أن ماترتب عليه من «تغلغل ثقافى» أحدث «زلازل ثقافية» و«انشقاقات» داخل المجتمعات، خصوصاً أن هذا التغلغل الثقافى لم يستأذن أحداً فى الدخول إلى أعماق هذه المجتمعات، كما حدث فعلاً لدى الغالبية من «الدول التابعة» بدون مشاركة منها.

دعونا نضرب مثلا بدرة العقد لدى المتحمسين «للثورة الثالثة» والذين يذكروننا كل حين كيف أن: «اللغة الرقمية (من أصفار وآحاد)- تدفعها حاسبات أكثر قوة ونظم اتصالات أسرع من أى وقت من ذى قبل- تتيح لنا أن ندمج آفاق الكلمات والموسيقى والصور والمعلومات كما لم يحدث من قبل.. إنها تخلق صناعات جديدة تتلاشى بجوارها الصناعات القديمة».

وإنى أتساءل: لماذا تسعى لأن تتلاشى أمامها الصناعات القديمة.. لماذا هذه «القوة» التى غلفت هذا «الجديد»، ثم تداخلت واخترقت حدود الدول من خلال «قوانين العولمة» فتعملقت أكثر وأكثر؟ لماذا تفرض هذه «الثورة التقنية» نفسها على البلاد البعيدة عنها، وتفرض على الصناعات القديمة أن تتوقف..لماذا هذا الجبروت؟!وأين موقعه من «مفهوم العلم وقيمه ومعانيه»؟ وأين هو من «لحظة الإبداع» لدى المبدع؟ وما الهدف مما يبدعه ووظيفته؟!

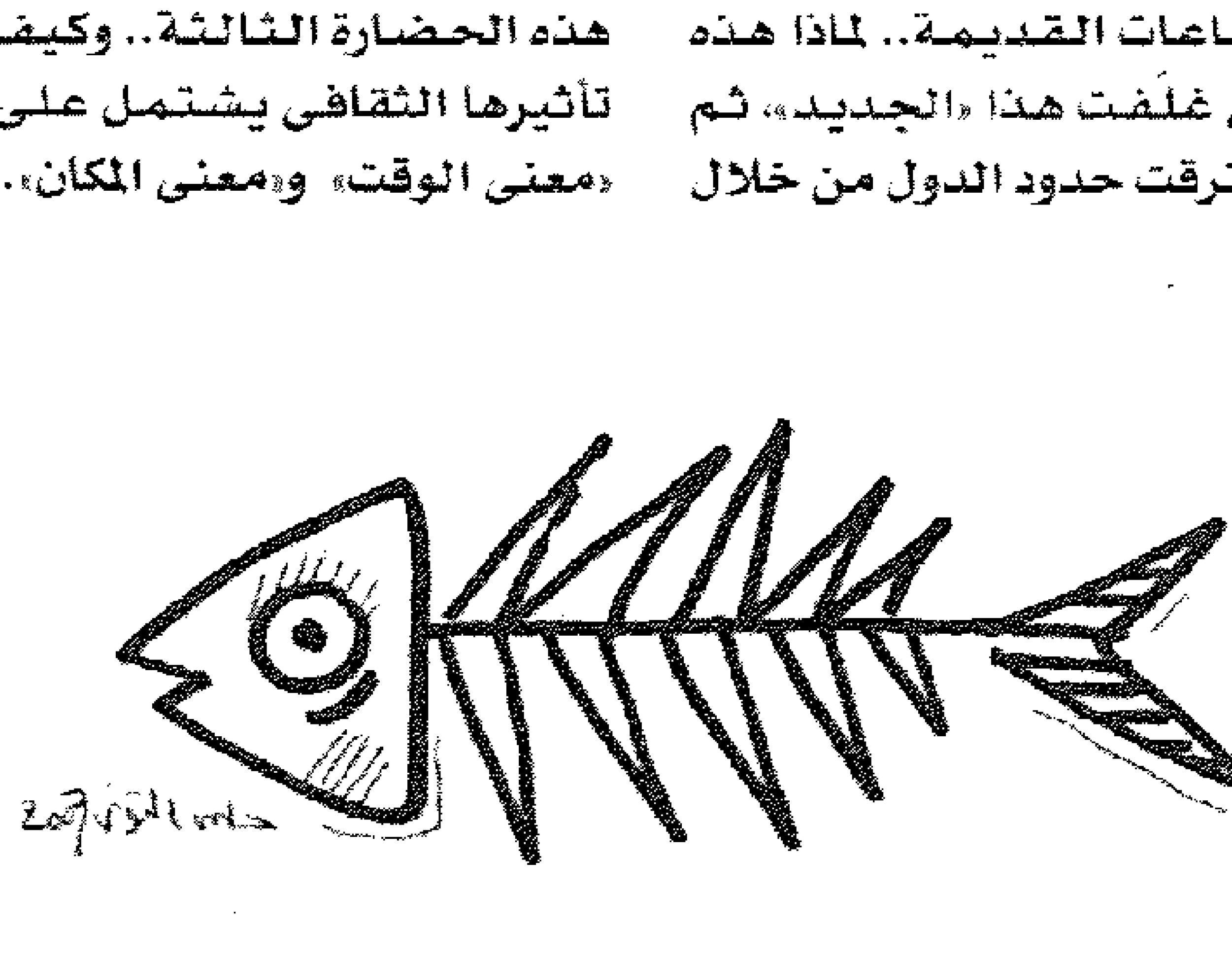
لماذا لا نترك الناس يتلقون ما يشاءون عندما يشاءون. لماذا نفرض «الحديث» على هذا الجيل الحالى الذى تعوّد القديم وأتقنه؟.لماذا لا تسمح «بالسرعة الطبيعية» لتطور الإنسان وهى عادة بطيئة، وهذا البطء يحقق الإتقان المطلوب؟! ألا يكفى أنك تستطيع أن تقطع المسافات فى ثوان، وتخترق حوائط الحجرات، وتصل إلى سمع الإنسان وبصره أينما يوجد؟! وأكثر من هذا وبكل وسائل «الإغراء».. تطرق مراكز جميع الغرائز لديه؟ ألم يكن هذا كله كافياً..

يشير أنصار الحداثة إلى عدد من التأثيرات «النوعية الكبيرة» الناتجة عن هذه الحضارة الثالثة.. وكيف أن عمق تأثيرها الثقافى يشتمل على ثورة فى «معنى الوقت» و«معنى المكان». و أتساءل هنا: طالما أن «الأثر» يصل لهذا العمق.. وهذه حقيقة.. ألا يصبح علينا جميعاً أن ننتبه ونبحث عن الأثر الناتج عن ذلك داخل «النفس البشرية»، وبالتالى «المجتمعات البشرية»؟!!

عندما تتغير مفاهيم أساسية وهامة مثل مفهوم «الزمن» ومفهوم «المكان».. ألا يستحق هذا لحظة توقف ومراجعة؟! هل ستكون هذه قوى تجانس أم قوى تنوع؟ هل ستستخدم لسحق الضعيف أم لمنحه فرصاً جديدة؟!

إنه تساؤل فى منتهى الصدق والعمق.. وإنى لأستقرئ بعض الإجابات من مفعولها الواقعى والحاصل حتى الآن: أنها تقوم بسحق الضعيف.. إنها لا تسمح «بالزمن» الضرورى لتغيير البشر.. فمع السرعة الحاصلة لا يستطيع الإنسان أن يتمثل «الجديد» ويستوعبه ويتقنه، وبالتالى لا يستطيع أن ينافسه!! إن هذه الحركة داخل الموازين بين البشر لم تحدث فقط بين «الدول» بل حدثت أيضاً داخل «مجتمعات» الدول الرائدة لهذه الحضارة؛ لأن داخل هذه المجتمعات توجد «مواجهة» أخرى بين «القوى والضعيف»؛ ولأن «ديناميكيات» التفاعل بين البشر واحدة فالنتيجة أيضاً تكون هى نفس النتيجة: غنًى فاحش للقلة، وإفقار شديد للأكثرية داخل مجتمعات كل الدول سواء الرائدة أو الناقلة عنها!!

وحتى «القوانين» التى أثمرتها هذه الحضارة، والتى بها رفعت الحدود بين الدول ومعها فرضت قوانين التنافس فرضاً.. بين المنتج والمنتج المماثل له.. ثم تسعى الآن لأن تفرض قوانين «حقوق الملكية الفكرية» المشكوك فى نواياها.. هذه القوانين، فى خلفيتها النظرية وأهدافها



صلاح الدين إبراهيم

بدأت تظهر داخل مجتمعاتنا فئات من الناس هم أساسا من الشباب الصاعد الذى يتفتح فيرى.. فإذا به لا يجد بين يديه شيئا.. أى شىء.. لا مال.. ولا فرص عمل.. والمطلوب منه أن يعيش ويستكمل طريق الحياة

إلى أين نحن ذاهبون؟!

الاستراتيجية، انما تسعى لحماية «القوى» أمام «الضعيف»، وبالتالى تحقيق «قوة مضافة» للقوى، و«خصم قوة» على حساب الضعيف!

وفى المقابل.. نجد أن الثورة الثانية الصناعية هى التى خلقت قوى استحدثت الكثير من القوانين التى اطمأن فى ظلها العمال على حقوقهم فى مواجهة أصحاب رؤوس الأموال: ابتداء من التأمين الصحى ومعاشات العمال وأسرهم، وقننت تعويضات إصابات العمل.. نستطيع أن نقول: إن الثورة الثانية أضافت إلى الأولى السابقة عليها ولم تنتقص منها، وكانت النتيجة المحصلة هى إحداث تحسينات كبيرة لحياة الكثيرين من البشر.

وشىء آخر.. يبدو أن الثورة الثالثة فى الطريق إلى «ارتكابه».. أن تضع لنفسها أهدافاً جديدة وتسعى لتحقيقها على أرض الواقع.. فقد أهدرت كل العلوم السابقة عليها، ما عدا العلوم الطبيعية، وتناغمت بتميزها عن كل ما سبق عليها من فكر ورؤى.. وإذا بها تفتح آفاقاً لم تخطر على بال أحد من البشر، وترسم لنفسها «عالماً مختلفاً» تسعى لتحقيقه فعلا.. وهى تطالبنا.. ومن الآن.. أن نستعد لأن نتعايش مع نوع من أنواع «الوجود» هو أقرب إلى «الفنتازيا» التى نراها على المسرح أكثر منه «للواقعية» التى نعرفها ونتعايشها.. وعلينا نحن أن ندرك اختلاف المقاييس والأحاسيس داخل كل منهما والناتجة عن المسافة الكبيرة الواقعة بينهما.. وعلينا نحن أن نتغير من الآن لأن نستوعبها ونتعايش معها.. عجبى!!

هل تستطيع «طاقات البشر» المتناثرين على سطح الكرة الأرضية أن تتمثل هذه الحضارة الثالثة، وتستفيد منها لصالحها كما هى لصالح صانعيها وصالح مستثمريها.. كيف وهى تصل خلال وسائل اتصالاتها بعيدة المدى إلى كل مكان، وتخترق الحوائط والأبواب وتفرض على الجميع محتوى ثقافتها وعقائدها.. وقد تفننت ضمن ما تفننت فى تحقيق «تأثيرية عالية» على الأجيال الصاعدة فانفلت زمام السيطرة التربوى من أيدى الآباء والأمهات. وهكذا تنقاد لهم الأجيال القادمة إلى حيث يريدون!!

مع هذا «الاختلاف النوعى العظيم» بين استراتيجية وأساليب وأهداف الثورتين الكونيتين الأولى والثانية معاً.. وبين الثورة الثالثة التى نتعايش معها الآن.. ألا يحق لنا أن نتساءل: إلى أين نحن ذاهبون؟!

فى تقديرى.. أن هذا «العالم» الذى تدعو له الثورة الكونية الثالثة، وتطمح إلى أن يمتد وجوده إلى «فضاء الفكر وتخيلاته».. هذا «العالم الجديد» الذى تسعى لتحقيقه لن يشتمل إلا على نسبة ضئيلة فى الجنس البشرى الموجود فعلا على وجه الأرض، وتكون النتيجة الطبيعية أن «تسير» الناس الموجودة وتسود العالم وتفرض عليه رؤياها.

إنه «الفارق النوعى الضخم» بين توجهات وحال الشمال عن توجهات وحال الجنوب، والناتج عن هذه الحضارة.. هذا الفارق يتعاظم مع كل جديد، ونحن على مسار هذه الحضارة الكونية الثالثة.. وخلال هذا التعاظم تتضح عكسية الاتجاه بينهما.. «الشمال» من ناحية، و«الجنوب» من ناحية أخرى!!

فى تقديرى.. إن هذه الحال تتضمن «مخاطر».

دعونا نتساءل عن «طبيعة ونوعية» هذه الثورة الكونية الثالثة، وكيف أن «التغيير الشامل» الذى طرأ وظهر على العالم هو تغيير يتوازى مع، نوعيتها.. بل هو جزء من صلبها.. فى لحمها ودمها.. و«السرعة» و«قوة الدفع» التى تميزت بهما لم تكن تسمح لها بأن تتباطأ لتراعى بعض «الإنسانيات»، وذلك لسبب بسيط هو أن «مفهوم الإنسانية» لديها هى التى صنعته، وقد اختلف تماماً عن المفهوم الذى كان سائداً خلال الثورتين الكونيتين السابقتين عليها، والذى ما زال سائداً بين الناس عامة.. فهى عندما تشير إلى «الإنسانية» فإنها تعنى شيئاً آخر.. لذلك وجب الحذر!!

يقولون «إننا نعيش فى عالم الوفرة.. عالم الاكتشافات العلمية المبهرة..». ويؤكدون أنه: «قد تم إنجاز الكثير لجعل العالم مكاناً أفضل.. حيث تحررت المستعمرات، وحصلت الكثيرات من النساء على حقوقهن، وتم الاعتراف بالحقوق السياسية والمدنية لكثير من الأقليات العنصرية والعرقية والدينية.. وحتى المنشقون أو الخارجون عن السياق العام.. وذلك انطلاقاً من إنسانيتنا المشتركة»..

وأقول: يا ليت هذا صحيح..

إنها إنسانية للأسف «لم تعد مشتركة».. فعلى الرغم من إنتاجاتها الهائلة، والمنافع التى لا تنكر والناتجة عن العولمة، وعن التجارة.. إلى جانب الإنجازات الهائلة التى تستجيب لها المؤشرات الاجتماعية لأغلب سكان الأرض.. على الرغم من كل هذا فهناك ارتفاع مثير للقلق من عدم المساواة بين الدول وداخلها.. وهذه التباينات فى ازدياد مستمر!!..

والحقائق الرقمية تقول الكثير:

إن ٢٠٪ من سكان العالم الأعلى دخلا.. يستهلكون ٨٥٪ من ثروات العالم!!

والباقون، أى ٨٠٪ من سكان العالم، يعيشون على ١٥٪ من ثروات العالم!!

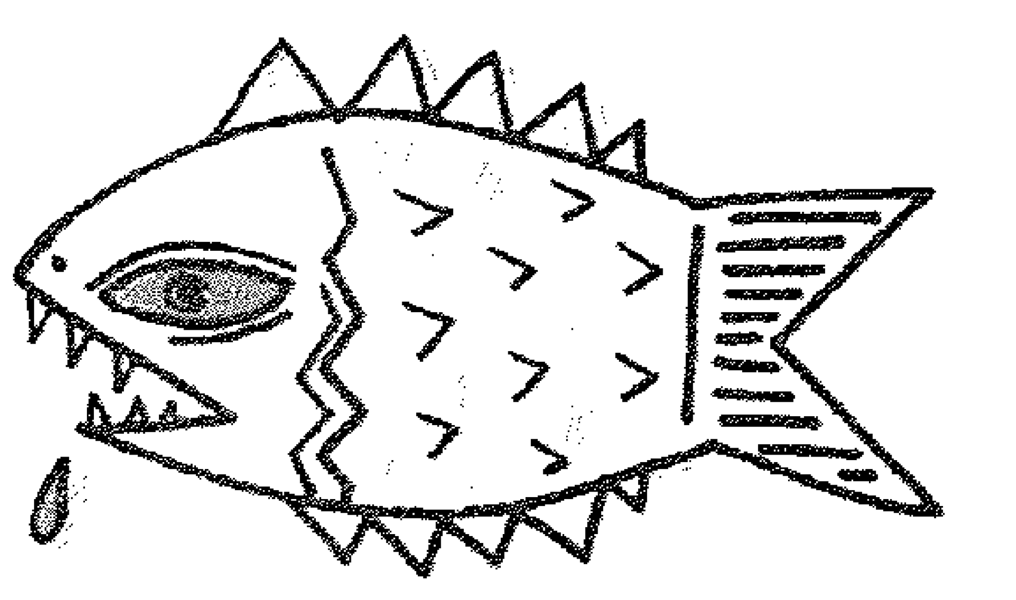
و«سدس» البشرية يحيا حياة هامشية!!

و١٠٪ من سكان العالم يعيشون على أقل من ٠.٥٪ من دخل العالم!!

٤٠ ألفاً من البشر يموتون يومياً لأسباب تتعلق بالجوع!!

علينا أن نعترف أن هذا «التناقض الظاهر» هو نتيجة لتناقض موجود داخل هذه الحضارة الثالثة، ويجب أن نتعرف عليه أولا، ونتعرف عليه من «المنظور الكونى»، وليس من منظور يركز فقط على «العالم الثالث» ويراه من الخارج. إن هذا «العالم الثالث» لم يكن منفصلا على مدى هذه العقود الخمسة الأخيرة- وهى عمر الثورة الكونية الثالثة- لا.. بل كان على اتصال بها، بل أكثر من مجرد اتصال أو تواصل، بل كان على حالة «تفاعل معها».. لقد تم رفع وإزالة الحواجز بين «المجتمعات» على سطح الكرة الأرضية بحيث أصبح علينا أن نفكر بلغة «الكونية».. عندئذ سنرى ونستطيع أن نستقرئ ما هو حاصل، وعندئذ نستطيع أن نتفهم هذا «التناقض الظاهر».

من زاوية هذه الرؤية الكونية الشاملة علينا أن نجيب على الأسئلة المحورية: هل نتقبل مثل هذا التدهور الإنسانى باعتباره أمراً لا يمكن تجنبه، أم أننا سنكافح لمساعدة من هم أقل



حقا؟ «هل ننظر لأنفسنا أننا غير مسئولين عن أجيال المستقبل أم أننا سنعمل بوصفنا مستخلفين فى الأرض ومكلفين بعمارتها؟».

الإجابة البسيطة والمباشرة: نعم.. نحن سنستمر دائماً مسئولين عن أجيال المستقبل، ونحن لا نستطيع غير أن نعمل بوصفنا مستخلفين فى الأرض ومكلفين بعمارتها؟!هذا هو الإنسان أينما كان، وحيثما يكون..

أين المشكلة اذن؟

إنها «العلمية المادية» داخل «الفكر الشمالى الغربى» المعاصر.. الآن.. إننا وبدون إدراكنا لهذا «المنهج» ونوعيته لن نستطيع أن نستوعب ما هو حاصل «داخلهم».

خلال هذه «العلمية المادية المطلقة» لديهم.. نستطيع أن نستقرئ «المطب الفكرى» الخطر الذى انزلق إليه «الفكر الغربى الشمالى».. الفكر المادى التقنى.. النفعى.. الفكر الذى تغاضى عن معانى الوجود.. إن مرور الزمن على هذه الحضارة ومع هذا «التوجه» قد كشف كيف أن «الحرية» التى دعت إليها وقدستها ورفعت عنها كل القيود والحدود، وفى كل المجالات، قد أفرزت الرغبة والشهوة واللذة بكل أنواعها، وبدون أى نوع من أنواع «الكوابح».. لا الداخلية، أى «داخل النفس»، ولا «الخارجية» داخل «المجتمع»!!

والآن.. بدأ يظهر فى أفق الفكر والواقع كيف أن هذه الرؤية القاصرة للإنسان تفتقد للمستقبل.. كيف يكون تحت تأثيراتها.. كيف يكون حال الإنسان: المرأة.. الرجل.. الطفل.. الأسرة.. كيف يكون حال المجتمع الإنسانى فى المستقبل القريب!!؟

لقد ضللهم كثيرا إحساسهم بالتميز والرقى عن باقى البشر.. وقد اتضح تدريجيا كيف أن «الكونية» التى دعت إليها هى تتضمن «غرضية» بالغة الخطورة. لقد اتضح ظاهراً أن هذه «الكونية» تتضمن شرطاً غريباً أن يرتبط بفكر يعتبر نفسه فكراً حراً. هذا الشرط: أن يتمسكوا هم فى الشمال «بالسيطرة» التى أصبحت من منظور «قانون القوة» حقا!! لأن «قانون القوة» هذا يعطى لأمريكا «حق السيطرة» داخل المجتمعات الشمالية نفسها طالما أنها هى الأقوى. وقد أعلنت أنها ستسعى جاهدة أن تحتفظ «بموقع» السيطرة هذا. ولنتخيل معاً، ومع مرور عدة عقود أخرى، عندما يترسب هذا المفهوم إلى داخل مجتمع أمريكا نفسها، ثم داخل المجتمعات الشمالية جميعها، وبدون كوابح، وبدون قواعد، وهى تضيع الحدود بين قوانين القوى وقوانين الحقوق.. علينا أن نتخيل مجتمعاتهم هذه الموجودة الآن والغلبة فيها للذة والشهوة، ثم يضاف إليها «غلبة القوة».. أى مجتمع سيكون؟! وأى رؤية يستقرئون خلالها «الآخرين»؟!! وأى أسلوب يتعاملون به مع هؤلاء الآخرين؟!!

كل هذه الأبعاد معاً.. وبالضرورة.. لها دور كبير فى تداعيات هذه التغييرات الكبيرة الحادثة على امتداد سطح الكرة الأرضية كلها.. داخل هذه «المنطقة» من البحث والتفكير، تتكشف لنا «الحقائق الواقعة» فعلا، وبالتالى تكون «مدخلا» لحل هذه المشاكل الناتجة عن هذه «الثورة العارمة»..

داخل هذه المنطقة من البحث.. منطقة «سلوكيات البشر» ودورها فى تقدمهم أو تأخرهم.. سنجد أن التفسير الظاهر على السطح والذى يردده الكثيرون، سواء داخل الدول المتقدمة أو الدول المتخلفة.. الدول التى تعتبر الآن «عبئاً» على هذه الحضارة المتنامية- هذا التفسير السائد يقول: إنه بالرغم من المساعدات الاقتصادية والعلمية التى قدمتها الدول المتقدمة للدول المتخلفة فإنهم فى الأخيرة تمسكوا «بنظم الحكم الدكتاتورية» لديهم، والتى نتج عنها «تكميم الأفواه» وبالتالى «كبت الإبداع» لدى مواطنيهم، وإن القلة النادرة منهم هم الذين استطاعوا أن يلحقوا بطابور العلمية التقنية.. وهؤلاء لم توفر لهم دولهم فرص العمل والمستوى الاقتصادى والأدبى الذى يستحقونه، لذلك هاجروا بعيداً إلى حيث يثمرون فى «بيئة علمية» لا تتوفر سوى خارج بلادهم، وليحققوا مكانة أدبية واقتصادية تتناسب معهم، وبالنسبة لدولهم كانت النتيجة دائماً خسائر مضافة!!

هذا هو التفسير المحبب للغالبية، وفى ضوء هذه الرؤية، ومن زاوية هذا المنظور يصبح «العلاج» هو: «نشر العلمية فى التفكير»، ومعها إشارة واضحة إلى ضرورة «نشر الديمقراطية»، كما تتضمن هذه الرؤية ضرورة تغيير نظم الحكم السائدة فى العالم الثالث.. الآن..

وقد تحصل هذا «الخط العلاجى» على أعلى الأصوات كما لو كان يتضمن «الحقيقة الكاملة». ولكن هذا المنظور وهذه الرؤية تغاضت كثيراً وتعامت عن حقائق أخرى يجب إبرازها والاعتراف بها.. وهى أنه- وللأسف الشديد- وخلال نفس هذه الفترة الزمنية كانت دول الحضارة فى الشمال هى التى تدعم نظم «الحكم» فى دول «الجنوب»، وبدون دعمها المتواصل لها لم تكن لتستطيع أن يطول عمرها.. وحتى الآن.

لقد كان «للحكومات» فى الجنوب دور كبير فى استمرارية تخلف دوله، بل أيضا فى استمرارية تخلف أسلوب التفكير فى دول الجنوب، وبعده عن «العلمية»، بل كان لهم دور كبير فى «تغلغل دول الشمال» داخل هذه الدول ودعم تعثرها وبعدها عن اللحاق بمسيرة المعارف والمعرفة المتسارعة على مستوى العالم وعلى كل المحاور، فابتعدت «جموع الناس» داخل هذه المجتمعات الجنوبية عن طريق «العلمية» أكثر وأكثر.. وبالتالى بقى «الحال» على ما هو عليه حتى داخل الدول التى سبق أن كان لها باع طويل على مسار الحضارة الإنسانية.

وكان «للوسائط الإعلامية».. العالمية والمحلية فى هذه الدول.. دور كبير فى استمرارية هذا الحال طوال هذه العقود.. كانت التغطية وكان التضليل عاليين.. كما كان لها طابع ونوعية غريبة.. كانت تساعد على التوقف والتدهور.. وبالرغم من كل هذا استمر «عالم الشمال» يبدو بريئا من كل هذه «العوامل الفاعلة التحتية»!!

كان «للحكومات» فى الجنوب دور كبير فى استمرارية تخلف دوله، وبعده عن «العلمية»

والآن.. وقد استنفدت هذه «المرحلة» طاقاتها ومعطياتها، ولم يعد حالنا فى الجنوب قابلا للاستمرار أصلا، وهناك علامات كثيرة تشير إلى إقدامنا على «مشاكل من الحجم الكبير».. ويكفينا خلال هذا السياق المركز والسريع الإشارة إلى «البطالة» داخل مجتمعات الشباب.. فمع مرور الزمن بدأت تظهر على السطح قطاعات فى «الشباب» بدون «مال».. وبدون «آمال».. فكيف يواصلون حياتهم؟؟ أصبحوا كالقنابل الزمنية لا ندرى متى تنفجر.. لقد وجب الحذر.

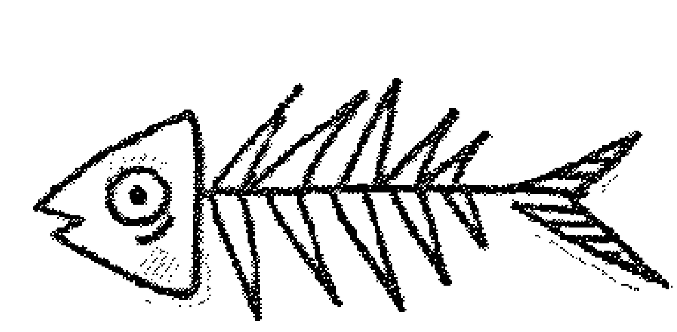
[٢]

يقول (برونوفسكى) إن «العلم» هو: «تنظيم لمعارفنا بالطريقة التى تمكن من الإلمام والتحكم بقدر أكبر فى الطاقة الكامنة فى الطبيعة والقدرة التى تتضمنها. إن «العلم» يذهب أبعد كثيراً من التطبيق «النفعى» للمعرفة، إنه يصوغ منظوراً شاملا للعالم ابتداء من فلسفة الكون اتصالا يجعلنا بشراً. هنا تقع «قيم العلم»، وهى ليست قواعد وإنما هى الإشراقات الأعمق والتى يتحدد على ضوئها العدل والظلم، والخير والشر، والوسائل والغايات، ضمن إطار من الوضوح الثاقب».

هكذا يتضمن التعريف «العلم الطبيعى» مع توجهات إنسانية.. معاً.. وهكذا يجب على أى «تطبيق نفعى» أن يتوازى مع «الإنسانية» ليصبح هو «التوجه الآمن» للتطبيقات العلمية.. هكذا يتعين على «العلم» أن يذهب كثيراً أبعد من مجرد التطبيق النفعى للمعرفة: فهو يتضمن منظوراً متطوراً شاملاً للعالم، ابتداء من رؤية فلسفية للكون، كما يتضمن اتصالاً يجعلنا بشرا. وهكذا يحسم الكثير من القضايا حول «أنا والآخر» التى تتضمنها«الإنسانية الحقيقية» والتى معها يصبح «المنهج إنسانياً» كما يجب أن يكون.

إذن.. «المعرفة والعلم».. قلت أو كثرت.. هما المجال الذى نتعايش خلاله ونتواصل.. فيتحقق وجودنا.. و«الوضوح الثاقب» هنا هو «اليقين».. والإشراقات الأعمق» تترابط داخلها «الوسائل والغايات».. وخلال هذا الترابط يتباين الخير من الشر، والعدل من الظلم، فيتحقق كل شىء واضحاً ثاقباً.. هنا نصبح «بشراً» كما هى حقيقة البشر.. ويتحقق «الوجود الإنسانى الحق».

إذن.. «المعرفة والعلم» هما «المجال» الذى يتحقق معه الوجود الإنسانى الحق



خلال تواصل الناس مع بعضهم البعض، بل أكثر من هذا: كلما زادت المعارف والعلوم كلما تعالت «الإنسانية».

ولكن.. وللأسف.. إن «تواصل الناس» الحاصل الآن وهو «الظاهر لنا» وخلاله نستطيع أن تستقر أحوالنا، ونستطيع أن نتعرف عليها ونقيمها، فنتعرف على دواخلها.. وما تحتويه.. إن هذا التواصل هو حقيقة.. عكس التوجه العلمى الذى يتضمنه تعريف برونوفسكى..

إن الإنسان منا يجب أن تكون لديه دائما رغبة فى تغيير الحال الذى هو عليه ويطوره إلى ما هو أفضل، وعليه أن يسعى لهذا التغيير والتطور تحت «مظلة العلم». ولكى يستطيع أن يحقق هذا عليه أن يتبع المنهج العلمى فى التفكير: فيكون تفكيره موضوعياً وعقلانياً يتناول ما تدركه حواسه فى أشياء لها واقع مجسد أمامه، يسعى خلاله أن يتعرف على الحقيقة كما يراها.. وكما يجدها. هكذا يستطيع أن يبدع الجديد، ويستطيع أن يطور واقعه، وخلال هذا السعى، على الإنسان منا أن يتجرد من «القديم» ويسعى إلى بناء «الجديد». وخلال هذا.. عليه أن يتمسك بقواعد السلوك.. هكذا يستمر إنساناً.. كما يجب أن يكون..

ولأن برونوفسكى عالم فيزيائى وبيولوجى ومفكر.. أى أنه شخص عرف الحياة، وعرف الفكر، وعرف المادة، أى أنه «متفقه فى علمه»، فقد جاء كلامه شاملاً لأبعاد كثيرة.. حيث خرج من «ملموسات الطبيعة» إلى «الإشراقات الأعمق» التى تضىء الطريق، فيبين العدل من الظلم، والخير من الشر، ويمكن التمييز بين الوسيلة والغاية. إن هذه الإشراقات هى التى تعرفنا «القيم» التى تعطى «العلم» بعدا أعمق كثيراً من مجرد التطبيق النفعى للمعرفة، بل خلالها يصبح من الممكن صياغة «منظور شامل» للعلم ابتداء من «فلسفة الكون»، اتصالا يجعلنا بشرا. وهكذا تصبح المعارف وما تتضمنه.. قدوة للإنسان.. عليه أن يتبع أسلوبها ونمطها، فمن خلالها يستطيع أن يستقرئ الصح والصحيح.. فالمعارف تتضمن «الإشراقات الأعمق» التى يتحدد على ضوئها العدل والظلم، الخير والشر، واضحاً ثاقباً.

ونتفق على أن «الممارسة الفعالة» للعلم تحتاج إلى «الحماية الفعالة» للاستقلالية التى تسمح بحرية التساؤل، وأن هذا هو الذى يؤدى إلى بحث علمى حقيقى، إذن.. من متطلبات العلم أيضاً: القدرة على تحدى الإجراءات والتنظيمات القائمة.. وحق الإنسان فى أن يعبر.. حتى لو اتسمت آراؤه بالغرابة، من حقه أن يسمع ويصغى إليه.. فالذى يحدد الصح والخطأ هنا هو الرضوخ للاختبار العلمى الصارم، على أن تكون «الأدلة» وحدها هى معايير التقييم عند الاختلاف.. أى أن «العلمى» هو الذى يحكم.

هكذا يتبين واضحاً أن العلم يهدف إلى البحث عن الحقيقة بالتفكير العقلانى المبدع الذى يتضمن ويكتسب «المعرفة الجديدة».. وهو يبدأ من حقوق الإنسان.. وينتهى بها.. يبدأ بالحرية فى التساؤل والتعبير، وينتهى بالتمسك بقواعد السلوك المغلفة بالتسامح.

إن «حرية التساؤل» هذه هى امتداد لحقوقه كإنسان.. والتى بدونها لن يكون هناك بحث علمى حقيقى!!

ولكن هل يمثل هذا كله علامة من «علامات التقدم» داخل الحضارة المعاصرة..

للأسف لا. لأن هذه الأبعاد السامية والتوجهات الراقية تخلو منها الحضارة السائدة الآن، فهى.. وهى تواجه «الرأى الآخر» تراه «متخلفا».. ولا تتعامل معه بأى نوع من أنواع التسامح، بل رفعت «العصا» عالية، ورفع «الآخر» العصا فى المقابل، وأصبح الدائر على ساحة الأحداث «عراكاً لا معنى له.. اتسم بالعنف.. بدا هذا واضحاً فى التعامل اليومى مع الأحداث، وفرض نفسه على الجميع!!

إن الاستدلالات كثيرة على أن الحضارة المعاصرة التى يقودها الشمال والغرب- علماؤه ومفكروه وساسته- لم تتبع تشخيص (برونوفسكى) للعلم وقيمه.

ولأن السلوكيات الظاهرة هى التى تعبر عن «القيم السائدة» داخل الحضارات فإن ملاحظة السلوكيات السائدة الآن توضح أنها قد جرفت أمامها أبسط معانى الإنسانية، فالتركيز العالى السائد هو على «العلمية المادية التقنية التطبيقية»، وهو تركيز يعلن عن التوجه الذى يفضح أحادية النظرة العلمية لديهم.

إن أحداث ١١ سبتمبر فى الولايات المتحدة الأمريكية وما تلاها على المسرح العالمى كله يمكن اعتبارها اختبارا قاسيا وكاشفا للحضارة المعاصرة كلها. لقد كشفت النقاب عن هذه الحضارة فظهرت على حقيقتها، وتبدى جوهرها: إن «الأقوى هو الذى يجب أن يكسب».. وأمامه وفى مواجهته يلغى عن «الآخر» أى معنى معروف للإنسانية.

إن «القوة» التى تغلف الحضارة الشمالية هى نتيجة بحوثه العلمية المعملية المادية وتطبيقاتها.. هذه القوة وممارساتها تخلو من كل «القيم الإنسانية للعلم» التى أشار إليها (برونوفسكى) خلال كلمات بليغة واضحة!!

إنها «الرؤية الأحادية» للكون.. والتى هى «رؤية الأقوى».. هى التى نعيش فى ظلها الآن، والتى شملت العالم كله.. وهو الآن يتذوق مرارة تطبيقاتها.. تهديداتها ومخاطرها.. أمسك بها «جماعة» من البشر وأعلنوها «سلاحا» يمكنهم من فرض «إرادتهم» على «الأصدقاء» مثل ما هى على «الأعداء»..

فلننتبه إلى «الهدف» و«المعنى» الذى تتضمنه الأحداث من حولنا!!

يقولون أن العلم يشكل فى حد ذاته ثقافة كونية الأبعاد، وسيتلاقى الجميع خلال «إنسانيتهم المشتركة».. لكننى أستقرىء «المسافة» بينهما بعيدة!! ويقولون أنه حتى يحقق «العلم» وعده كاملا ويصبح هو «القوة الأولى» للتغيير فى العالم فإنه يحتاج من «العلماء» أن يعملوا على «توظيف البحث العلمى» فى القضايا الملحة لعالمنا اليوم:

إزالة الجوع.. وتقليل الفقر..

والترويج للمنظور العلمى وقيم العلم..

وإقامة علاقات مشاركة حقيقية بين علماء الشمال وعلماء الجنوب..

«كل هذا يحتاج إلى التزامنا المشترك لنعمل من أجل مصلحة العائلة الإنسانية بأكملها».

كل هذا جميل لو أن العلم الذى نقصده.. هو «العلم» - الذى عرفه (برونوفسكى) - الذى «تغلفه القيم»..أما العلم السائد فى العالم «الآن» والذى يوجه كل شىء.. ليس هو هذا العلم الراقى.. الإنسانى.. الذى نتكلم عنه.. بل هو «علم» آخر.. من «نوعية» أخرى.. بدأت منذ تم إرساء القوانين التى ترفع الحواجز بين الدول، ولقد بدأت فعلا المنافسات داخل «سوق عالمية حرة»، كما أنه قد تم بناء الجزء الأكبر من «الميديا سريعة التوصيل» بين أنحاء المعمورة. وبدأت تظهر نتائج هذا الاندماج الثقافى لعوالم البشر وتجمعاتهم على سطح الكرة الأرضية، بالرغم من اختلافاتهم النوعية.

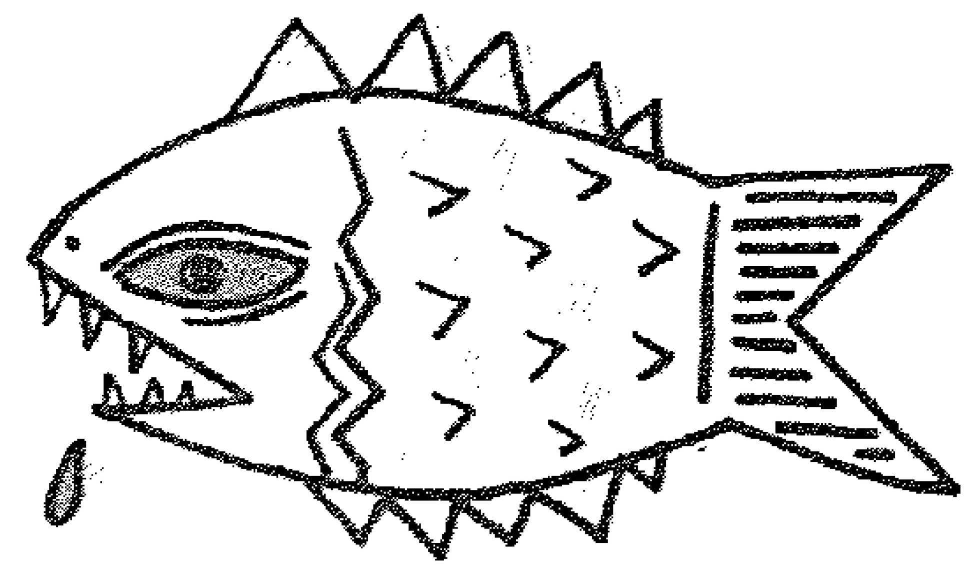
أحداث ١١ سبتمبر
يمكن اعتبارها اختبارا قاسيا وكاشفا للحضارة
المعاصرة كلها

[٣]

إن منطقة «الإنسانية المشتركة» هى «موقع» المراجعة المطلوب.. يجب أن نراجع أنفسنا مرات ومرات فى أسلوب التعامل البشرى السائد الآن بين الناس.. «الإنسانية المشتركة» ستكون هى ما نبحث عنه لتصبح «النظرة الكونية الشاملة» هى «المنظور» الذى علينا أن نستقرئه، وقد أصبح البشر على سطح الكرة الأرضية مجتمعا واحدا فعلا، ولو على غير اختيار حر من البعض منهم، ولكنه أصبح أمرا واقعا.

يجب أن نعود إلى «قيم العلم» الذى أشار إليها (برونوفسكى)، ونبحث عنها داخل «منهج» التفكير العلمى المعاصر.. سنكتشف أن «الثورة الكونية الثالثة» قد أخرجت «القيم» من المنهج العلمى الذى تتبعه، فقد استدرج «العلم المعملى التجريبى» وبحكم «طبيعة المادة»- استدرج «العلوم الإنسانية» إلى منطقة المادية، فترك «معانى» الوجود والجمال والحياء.. تركها خارج حدوده، وانطلق العلم المعملى يبحث فى «الخلية»، ويستحدث الآلات والأجهزة، وجرف أمامه كل ما يخص الطفولة.. والمراهقة.. والسعادة.. والآمال.. بدأ هكذا، واستمر على هذا المنوال وهذا المنهج!!

ثم.. عندما انبهر الجميع بإنجازاته «التكنولوجية»، وتطوراتها.. زادت قوى الدفع لدى «المنهج المعملى» دون قواعد، ودون كوابح



إنسانية، فطور هذا المنهج آلاته أكثر وأكثر، واستمر خلال هذه الأدوات يلعب على أوتار غرائز الإنسان.. ابتداء من أبسطها: الاستسهال والاستعجال.. إلى أقواها: التملك والسيطرة والجنس، فوسع دوائرها جميعها، وأضاف إليها قوة دفع أكبر وأكبر.

وتدريجيا تضاعفت «جاذبية» كل هذه المجالات ودفعت الجميع إلى تطوير «المنتج» وإغراء «المستهلك»، وكانت النتيجة الخطأ أن اختلط التفكير بالخيال وتداخل الخير مع الشر، وذابت الأخلاقيات، فتعالت «الذاتية لدى الناس» فتسطحت الإنسانية، وتخدرت الضمائر، وتحجرت المشاعر.. حدث كل هذا وتوالت حلقاته دون أن ينتبه أحد إلى النتائج التى أصبحت على شاكلة «مضاعفات» داخل العلاقة الإنسانية السائدة الآن.

وخلال استحداث الجديد وراء الجديد، وما نتج عنه من «حالة من الانبهار» استمرت فى التصاعد التدريجى الذى لا يتوقف، والذى يجذب أعدادا جديدة من البشر يتزايد باستمرار.. مع كل هذا.. حدث تغيير نوعى فى «أسلوب حياة» الناس، فشمل فكرهم ومشاعرهم.

إن «التغييرات» الكبيرة لم تحدث فى الأفراد والمجتمعات من وراء ظهر الثورة الكونية الثالثة- روادها ومؤيدوها المشاركون فيه- بل حدثت تحت أبصارهم واضحة كالشمس.. فمثلا: أحد البنوك أو المصانع- أو أى «موقع إنتاجى» لأى حلقة من حلقات التحديث- عندما يطور عمله فى نظام الموارد البشرية ويستغنى عن ٧٥٪ من الأفراد العاملين لديه.. علينا أن نتخيل حال هؤلاء الفئة من البشر- وهم أكفاء نشيطون بدليل عملهم فى هذه المواقع الإنتاجية- وحتى لو وجد بعضهم حلا لمشكلاتهم فماذا يفعل الباقون؟!

إن شيئا مثل هذا يحدث فى كل موقع «تقدمى» على طريق «التطور» الذى ترسمه له «الثورة الكونية الثالثة»، ولو تخيلنا أن سرعة التغيير والتحديث تزداد ولا تتوقف عن إفراز الجديد.. علينا أن نتخيل أن كل مجال تقدم تقنى علمى يجرف أمامه فئة من البشر، قلت أو كثرت!!

وهناك مجالات هامة أخرى وجب مراجعتها للتأكد منها.. فقد بدأ يظهر فى نتائج «الأدوات التكنولوجية الحديثة» على تنوعها.. بدأت تظهر نتائجها على «الأطفال» ابتداء من بطء نمو أجهزتهم العصبية إلى تعثر ملكة الإبداع لديهم.. إلى شروخ فى «العلاقات الاجتماعية» داخل الأسر، وبين الناس عامة.

ثم.. ونحن على هذا الحال وبينما كان «العالم الشمالى» يخطط للبدء فى مرحلة جديدة من مراحل الثورة الكونية الثالثة.. مرحلة تختلط فيها «الثقافات» أكثر وأكثر، وتتحقق فيها الأغراض أسهل وأسهل.. إذا بأحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١ وآثارها «الصادمة» على قيادات أمريكا والمجتمع الأمريكى، تدفع المخططين لسياسة أمريكا إلى اتخاذ القرار الأمريكى الحاسم بالسيطرة على العالم أجمع.. وعلى ظن منهم بأن هذا يحقق لأمريكا ومواطنيها «الأمن والأمان» اللازمين.

إن هذا الذى حدث فى سبتمبر وما نتج عنه من «صراعات» دائرة الآن على اتساع العالم كله، لهو «الاختبار» الحقيقى لهذه الحضارة المعاصرة.. لقد وجب بذل الجهد حتى نستطيع نحن سكان العالم أجمع- أن نتجنب الكثير والكثير!! لقد وجب العودة إلى «التفكير» وتحرى المنهج الصحيح.. ووجب أن تكون نقطة بدايتنا هى: «واقع الحال».

إن «التناقضات الظاهرة» هى نتاج لسلبيات كبيرة واقعة داخل هذه الحضارة.. إن هذه «السلبيات» هى التى تقول لنا إن هناك «خطأ» كبيرا فى عميق أحوالنا.. خطأ عظيما فى توجهاتها الرئيسية والأساسية.. وهذا يضيف إلى كل «المخاوف الهائمة» مخاوف أخرى تظهر فى الأفق واحدة تلو الأخرى!!

هذا التوجه الحاصل يفتقد للجزء الهام فى تعريف (برونوفسكى) للعلم، وبالتالى يفتقد «للعلمية المتكاملة» التى تتضمن «المعلومة والمعنى».. وفى نفس الوقت!!

هذا هو أحد الأخطاء العظيمة التى وقعت فيها هذه الحضارة: أن تغاضت عن «المعانى» التى يتضمنها «الجديد» الذى يستحدث.. ومن هنا أثمرت تناقضاتها الموجودة داخلها، لأنها ركزت فى بحوثها على كيفية عمل «آلة الإنسان»، أما عمل «الإنسان» داخل مجتمعه وتفاعلاته مع «إنسان آخر حوله» فقد تركته خلفها.. خارج «معملها العلمى»!!

وكانت النتيجة أن عرف الكثير عن «آلة الإنسان»، بل واستحدثت أهداف جديدة لدراسة جسد الإنسان على مستوى جيناته، وامتد تفكيره فى اتجاه تحسينها وتطويرها!! ولا أدرى قياسا على ماذا؟!.. فهى تتولى هذا التوجه دون معرفة كافية عن «الإنسان فى مجتمعه»، وبالتالى دون حسابات كافية كيف سيكون «تفاعلاته» بعد «تطويره» المزعوم!!

إن «أحادية الرؤية» فى دراسة الإنسان والسعى لتغييره وتطويره لهو «مطب علمى خطير»، وهو يفتقد إلى العلمية المتكاملة المتسامية التى شملتها تعريف (برونوفسكى) الحكيم والعميق.

لقد أثبتت «أحوال العالم الآن» الحاجة الشديدة لمراجعة كل شىء.. إنه «المطب العلمى» الذى وقع فيه قادة «الثورة الكونية الثالثة».. مطب «الأحادية أحادية التوجه العلمى».. إن هذه «العلمية» هى التى مكنتها من أن تنجح فى تفتيت الذرة ولم تنتبه إلى أنه اعتداء على «الطبيعة».. وعندما نتجت عنها طاقة هائلة لم تفكر فى أن تتراجع.. لا، بل سعت داخل معملها إلى أن تسيطر على هذه الطاقة ونجحت فى ذلك، وبعد أن حققت هذه السيطرة تُوجه فكرها أن تصنع منها «قنبلة» لها من القوة ملايين أضعاف قنبلة البارود، ولسعة الدائرة التى يحدثها الأذى الذرى على البشر اهتمت بالبحث فى إطالة المدى الذى ترسل إليه هذه القنبلة مع إتقان دقة إصابة الهدف.. وكان أن أصبح فى يد «بعض» البشر قنبلة ذرية!!

وخلال هذا المشوار العلمى تعرف العلماء على «الأليكترون».. ثم على تطبيقاته التقنية والتى ظهرت بعدها هذه التنفيذات العلمية الممتدة «للفكر العلمى» و«التجربة العلمية».. هكذا كان «مفترق الطرق» الذى خلاله انبثقت «الثورة الكونية الثالثة» وقدراتها العالية والمستمرة فى العلو.

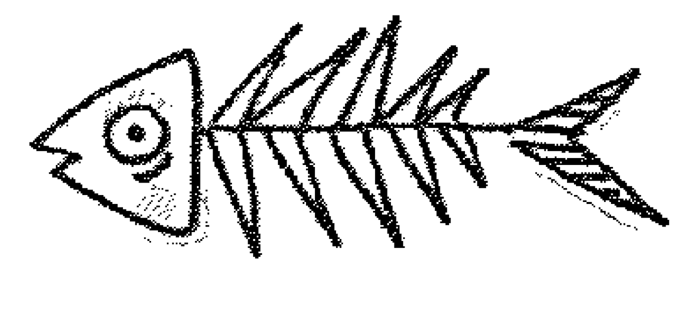
لقد كان «المجال العلمى» الجديد ثريا بالمعطيات والإمكانيات والتطبيقات، وتدريجيا أصبح «العلماء» هم «الثروة الفعالة» داخل الدول.. يدعمونها وتدعمهم.. وتدريجيا توجه هذا «التفكير العلمى المادى» إلى ابتداع أسلوب «الاستثمار الحديث» خلال الطاقة السياسية الكامنة فى الاقتصاد وتأثيراتها على «الحكومات».. ثم جاء «فكر العولمة» من ضمن الإبداعات الجديدة داخل «فكر الإنسان الأقوى». لقد أصبح «السلاح الذرى» غطاء لهذه «الحرب الاقتصادية».. وفى باطنها تحتضن الحرب العلمية بين العلماء.. وبدون «إنسانية»!! وهكذا - سيدى - تغيرت «نوعية» العالم.. العالم الذى صنعه الإنسان بيده وفكره، وكان «العلم» هو أداته، بدأ بها.. ثم أحكم سيطرته على «الآخر» بها أيضا!!

ربما كان هذا هو التوجه العلمى للنصف الأول من تعريف (برونوفسكى) للعلم. أما النصف الثانى.. الجزء الإنسانى الحالم الجميل لتعريف العلم فلن تجد له أثرا على أرض الواقع..

إن العنصر البشرى هو دائما العنصر «الفاعل»، من ناحية، كما أنه هو أيضا العنصر «المتلقى»، من الناحية الأخرى.. إنه «الفاعل والمفعول به» فى نفس الوقت.. وكلاهما يجب أن نبحث عنه.. فبسبب التقنيات الحديثة فقد الكثيرون وظائفهم، ففقدوا الغطاء الاجتماعى والصحى الذى كانت الدولة تكفله لهم فى مقابل مشاركتهم فيما يقومون من عمل وإنتاج.. ثم سلمت حكوماتهم هذه المسئوليات للمجتمع المدنى ليقوم برعايتهم بديلا عنها.. وظنت أن هكذا لم تعد هناك مشكلة!!

إنه «التفكير» الذى تميز به الإنسان عن غيره فى الكائنات.. لقد وجب أن نراجعه فنتحصل على «المنهج» المطلوب اتباعه. إن ضلال مساراتنا يعبر دائما عن ضلال تفكيرنا.. هناك خطأ ما حادث

إن المشكلة الأولى أمامنا فى الجنوب هى أن نتحصل على «رؤية نقدية» لأحوالنا.. هناك خطأ ما حاصل داخلنا



سواء داخل العالم «الشمالى» كما هو حادث داخل «العالم الجنوبى».. وجب علينا البحث عنه والتعرف عليه أولا.

هذه هى الخطوة الأولى التى يجب أن نراجع أنفسنا فى ضوئها.. عندئذ سنجد أن الذى حدث فعلا داخل «شعوب الشمال الغربى».. فى الشمال الغربى، هم الذين يقودون الحضارة السائدة الآن.. وبعد أن تمكنوا من الإحكام على زمام أمورها استضعفوا شعوب الجنوب، الشرق أوسطية والأفريقية وبعض الآسيوية والأمريكية.. وبدأوا يفرضون عليها «سياسات» نتاج فكرهم هم فى الشمال الغربى.. والمشكلة الكبرى أنهم ظنوا خطأ أنهم قادرون على أن يحققوا عليهم سيطرة كاملة!!..

هكذا يكونون قد ضلوا طريق «الفكر العلمى الصحيح».. ابتداء من «إنسانية ناقصة» إلى استحالة تحقيق أهداف «همجية النوعية» داخل عالم تواصل مع بعضه البعض.. داخل قرية كونية واحدة!! إنه «الفكر» أحادى التوجه.. تغلغلت داخله «علمية جرداء» بدون أى قدر من «الإنسانية» فبدا وظهر واضحا كم هو قبيح وعاجز!!

[٤]

أما نحن فى الجنوب.. فبجانب الخطر الزاحف من الشمال بدأ يظهر فى الأفق خطر آخر قادم من «داخلنا».. فمع مرور الوقت ونحن على ما نحن عليه من «حال توقف» وبدون أى علامات «نمو حقيقى».. بدأت تظهر داخل مجتمعاتنا فئات من الناس هم أساسا من الشباب الصاعد الذى يتفتح فيرى.. فإذا به لا يجد بين يديه شيئا.. أى شىء.. لا مال.. ولا فرص عمل.. والمطلوب منه أن يعيش ويستكمل طريق الحياة.. كيف؟!كيف بدون أى إمكانيات.. بدون أى أمل.. هل هذا ممكن؟ وإلى متى؟

من هنا وجب أن تتحرك «العقول» لتفكر.. عقول الذين يملكون والذين لا يملكون.. وبدون حركة هذا الفكر سيحدث تصادم يجب أن نتجنبه!!

ومع هذا «الحال النفسى- الاجتماعى» تعامينا عن معانى الإيمان بالله والتزاماتها.. التزاماتها التى تبدأ بالسلوكيات الشخصية كأفراد.. ثم السلوكيات الجماعية كمجتمع.. وحقق كل منا لنفسه أسلوبا خاصا لعلاقته بربه، رب العالمين، تضمن اكتفاءً ذاتيا بالرضا عن النفس.. وسكت الجميع.. لا أحد ينتقد «آخر» ولا يصححه.. وبدونا كما لو كان الجميع على حق.. فتمادينا فى التعامى أكثر وأكثر.. فتعمق تخديرنا أكثر وأكثر.. نحن نعى كل شىء ظاهر على السطح.. وفى نفس الوقت نفتقد مستوى «الوعى الأعمق» الذى تترابط داخله الأشياء، تترابط معا فى كلية واحدة.. فيتم الوعى بها.. هذه الخطوة الأخيرة لا تتحقق داخلنا دون أن ندرى.

إن المشكلة الأولى أمامنا فى الجنوب هى أن نتحصل على «رؤية نقدية» لأحوالنا.. هنالك خطأ ما حاصل داخلنا.. والدليل القوى على ذلك هو «نتائج تفكيرنا» الظاهرة الواضحة.. هى نتائج ضئيلة ضحلة.. «عملية التفكير» نفسها متوقفة لدى البعض منا.. ومع من يبدأ «التفكير» يتوقف فى منتصف الطريق.. والنتيجة: لا ثمرة!!

ولأننا فى النهاية مع كل الموضوعات نضحك، أو على الأقل نبتسم!! ثم بهدوء نستطيع أن ننام.. كما لو كانت «مشاعرنا» قد انفصمت عن نفوسنا، ونتج عن كل هذا أن أصبح ما يدور داخلنا لا يرضى أحدا.. فكتمناه.. وتوقفنا عن أن نراجع أنفسنا.. ثم توازى حالنا هذا مع تربيتنا لأولادنا وبناتنا، وأصبحنا ونحن نربيهم لا ندربهم على الاهتمام بالأمور العامة لدينا.. فقط «الخاص» هو المهم بل الأهم.. وأصبحنا هكذا نوجه أولادنا وبناتنا وننصحهم بالابتعاد عن «العام» والتركيز على «الخاص».

ويتضح مفعول هذه «المصيبة التربوية الكبرى» عندما يذهب أولادنا إلى «الجامعة»، التى تضم «الصفوة».. أى الذين سيقودون الدولة فى كل مجالاتها.. وفى المستقبل، إذا بهم يجدون تعليمات واضحة «بتجريم التعبير» عن العام أو حتى «التفكير» فى العام.. بتعليمات «أعلى سلطة بالبلاد».. وبقبول غريب من «القطاع التربوى» المسئول عن تفكير الأجيال!! فهكذا يتحقق وجودنا «كأفراد» على حساب ذوبان وجودنا «كمجتمع».

أبَعد كل هذا نبحث عن المسئول عن الأحوال المتدهورة لدينا.. أحوالنا التى يتسارع انزلاقها على منحدر التدهور أكثر وأكثر؟.. أليست هذه «الأحوال» أكبر دليل على أننا فقدنا قيمة ومعنى التفكير الذى يتميز به الإنسان عن سائر الكائنات؟..

وفى يقينى أن الخطأ قد تركز لدينا فى النهاية فى منطقة الأحاسيس والمشاعر.. فتسطحت.. هكذا وكفى!! أحاسيسنا تقول أن «ليست هناك مشكلة» فتجرف كل ما تقوله عقولنا.. فتعطلت لدينا «صفارة الإنذار» التى تعودت أن تعمل أوقات «الطوارئ».. فلم تعد هناك طوارئ.. فحالنا كله أصبح هو نفسه طوارئ.. طوارئ مستمرة.. مع تسطح فى المشاعر!!.. والآن ألا يتطلب هذا «الحال الأسوأ» الذى نتوجه إليه أن تتحرك العقول لتفكر؟!

إن القيم- كما أشار (برونوفسكى)- ليست مجرد قواعد.. بل هى الإشراقات الأعمق التى يتحدد على ضوئها العدل والظلم والخير والشر.. كل هذا ضمن إطار من الوضوح الثاقب.. أى اليقين بصحة كل هذا.. وبالتالى يصبح هذا «الفكر» وما حواه من «توجهات» هو الذى يوجه «سلوك» من يتمثله، وسيكون واضحا للجميع أن هذا السلوك يهدف إلى تحقيق الخير والعدل، وتجنب الشر والظلم.. هى ثنائية العلم التى تسمح بالتقدم الطبيعى والتقنى.. ويتوازن معها- وفى نفس الوقت- التقدم داخل مجالات الإنسانية، بكل أوجهها وفروعها، ولصالح أكبر عدد ممكن من البشر.

ومن هذا المنظور.. ليست المساعدة العينية هى المطلوبة.. لا.. بل الضرورى أن تصبح «المساعدة» فى مجال التنوير للآخرين وكيف تتحسن أحوال معيشتهم من خلال إمكانياتهم هم؟.. مساعدة تترافق مع مكافحة «الاستغلال» و«الاحتكار»، لا مساعدة تكرس «الإفقار» وتؤبد الحاجة الى المعونة!!

عندما يذهب أولادنا إلى «الجامعة»، يجدون تعليمات واضحة «بتجريم التعبير» عن العام أو حتى «التفكير» فى العام

إن غياب الوعى لهذه الدرجة- لدينا ولديهم- يؤدى إلى التواء منهج «التفكير» لدرجة تجعل الشخص، بالرغم من إيمانه الحقيقى والصادق، مستعداً لقبول المتناقضات، وسهلاً.. يصبح سكوته عليها ممكنا!!

وهكذا تتوالى «التأثيرات المضافة» وتتناقلها الأجيال المتلاحقة بسهولة، فتتحقق الازدواجية داخل نفوس عدد كبير من «المؤمنين المعاصرين»، فتتعدد أوجه «الابتعاد» عن أصول الإيمان الحق، وتبرر «سلوكيات» داخل الفرد المؤمن، وداخل الجماعة المؤمنة؛ فيتعاظم الخوف من المسئولين بديلا عن الخوف من الله، وتتسع مجالات الطاعة لآخرين غير الله.

هكذا تتضمن «شخصية المؤمن المعاصر» سلوكيات متعددة الاتجاهات، فتصبح شخصيته مشوهة.. يحدث هذا دون أن يدرى أو يعى. ويفقد «المرآة الاجتماعية» التى يرى فيها نفسه ويوجهها على أساسها.. فالغالبية أصبحت هكذا، والنتيجة المحصلة هى «تفكك المجتمع المؤمن». ففقد الصلابة الصحيحة التى عادة يتميز بها!!

وبلغة «الدنيا»: يفقد المجتمع المؤمن المعاصر فرصته فى أن يصحح نفسه؛ لأنه فقد الكثير: النظام.. النظافة.. الإنتاج.. الإتقان.. الميسرة.. أصبح «حاله كالعدم»؛ ضعيفا غير قادر على أن يقاوم ريحا عاتية قادمة عليه، وبالتالى يتعرض للإهانة والمهانة والاعتداء والهزيمة، دون ما إحساس عميق بالألم.

إن تعريف برونوفسكى للعلم أوضح ما يكون.. إنه يتضمن «الالتزام السلوكى» المتناغم مع ما تحصل عليه العلم من معارف.. ومعارف الإنسان المؤمن باتت تلزمه بسلوكيات تصبح هى «الحل»، الذى يصبح معه من الممكن أن يتحقق «حال مجتمعى» تتضاءل معه معاناة الإنسان الفرد داخل المجتمع الإنسانى الواسع.. كيف؟ كيف يتحقق هذا داخل المجتمعات المؤمنة بوجود «إله» هو خالق الكون.. «باعث» للناس لحياة أخرى.. يكون معها «الحساب»؟!.. ومع وضع هذا الحساب فى الاعتبار فهو يسعى فى دنياه الآن أن يكثر «الخير» داخل سلوكياته.. استعدادا لهذا الحساب..

هكذا..



كبح السلطة

ديمقـــراطيـــة الأثريـــاء

رافـايـل ج. پيـنـادو سـانـتـايـا

كان العصر الذى عاش وعمل وفكر خلاله ابن خلدون ـ القرن الرابع عشر ـ واحدا من أكثر القرون فى حياة البشرية تحولاً وانتقالاً. تحول وانتقال نحو التفكك والاضمحلال فى العالم العربى.. وتحول وازدهار نحو النهوض والانبعاث فى العالم الغربى، أى تحول وانتقال بين ضفتى البحر المتوسط، المكان والمجال الذى تنقل من خلاله ابن خلدون ما بين تونس والمغرب والأندلس ومصر.

حول عصر ابن خلدون وبمناسبة مرور ستمائة عام على رحيله، وفى إطار احتفالية رعاها الملك خوان كارلوس، كتب مجموعة من البحاثة «الخلدونيين»، عدداً من المقالات والدراسات، وصفًا وتحليلاً لعصر الفيلسوف العربى/ العالمى. تنشر ترجمتها العربية قريبًا فى كتاب يصدر عن مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع عدد من الهيئات الثقافية من بينها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمجلس الوطنى للثقافة والفنون والتراث فى قطر ومؤسسة التراث الأندلسى فى إسبانيا.

وتنشر «وجهات نظر» فى هذا العدد مقالا ثانيا من هذه المقالات، مدركين حقيقة أن الاهتمام الفكرى العالمى بالرجل لم يكن إلا نتيجة طبيعية لما احتوته مقدمته من مقولات ونظريات يصلح جانب كبير منها لأن يطبق على الواقع الإنسانى فى عموميته وشموله.

المحـــرر

إن النظرة الخاطفة على المسرح السياسى فى القرن الرابع عشر تؤدى إلى الخروج بانطباعات سلبية. ولقد لخص الكاتب روبرت فوسييه هذا المعنى فى عنوان لأحد أعماله هو «كبح السلطة»، وأيضًا فى فقرة بليغة فى قوله: «يا لها من صورة كئيبة تلك التى كانت تمثلها الدولة آنذاك! هنا بابوات يتمسكون بأهداف الكرامة المشكوك فيها، ثم يتبدد هذا البريق، وينتهى أمرهم إلى حال من الحقارة، وهناك أباطرة أصحاب آمال كبار، ولكن أسماءهم مضت إلى طى النسيان، أما ملكيات الغرب الأوروبى فإنها فى حال من الفوضى الضارية: فالبعض منهم طاعن فى العمر، أو أطفال قصر، أو أفراد مختلو العقل، أو أشخاص على وشك الخلل، ثم هنالك أيضًا مشاكل من عمد المدن، وأمراء وقادة عسكريون، الذين انصبت همومهم على تفوق عابر وعلى الهيمنة الآيلة إلى السقوط. ورغم كل ذلك، ففى وسط هذا الزخم المشوش المتهوس، أرسيت بعض معالم الدولة العصرية».

ترجمة: إسحاق عبيد

من الإقطاع إلى السلطة المطلقة

انصبت النظرية السياسية فى القرن الرابع عشر على تأكيد حق السيادة للملوك، وفى نفس الوقت سخرت من السلطان البابوى، مُعلية من قدر الإمبراطورية. والواقع أن المفكرين الذين دافعوا عن الإمبراطورية تبنوا مبدأ سمو السلطة الزمنية. وحوالى سنة ١٣١٢ كتب الشاعر دانتى فى كتابه عن الملكية De Monarchia أن «السلطة تحل على الملك مباشرة من المنبع الكونى للسلطان، دون وساطة». وبعد ذلك ببضع سنين نادى راهب فرنسيسكانى

قالب لختم مجلس مدينة وادى الحجارة، الواجهة، مؤسسة لازارو جلديانو - مدريد



منمنمة تتويج الملك إدوارد الثالث فى إنجلترا، والمكتبة الوطنية - باريس

إنجليزي هو وليم آل أوكهام في كتابه «حوار قصير عن الحكومة الزمنية» حول القضايا الإلهية والإنسانية، وبصفة خاصة حول الإمبراطورية ورعاياها، والتي اغتصبها بعض كبار رجال الدين أو البابوات، نادى الشعوب وكل أمم الأرض لكي تهب للدفاع عن حقوقها، وأن تتحرر من ظلم وجبروت الجالس على عرش القديس بطرس - البابا - ويؤكد نفس الكاتب بأنه يتوجب على خبراء القانون المدني، وليس أهل اللاهوت، أن يفحصوا طبيعة السلطة البابوية، كما عبر عن قناعته أنه من الصواب، بل ومن المناسب أن نحكم على أعمال البابوات وتصرفاتهم، لئلا تكون على ضلال.

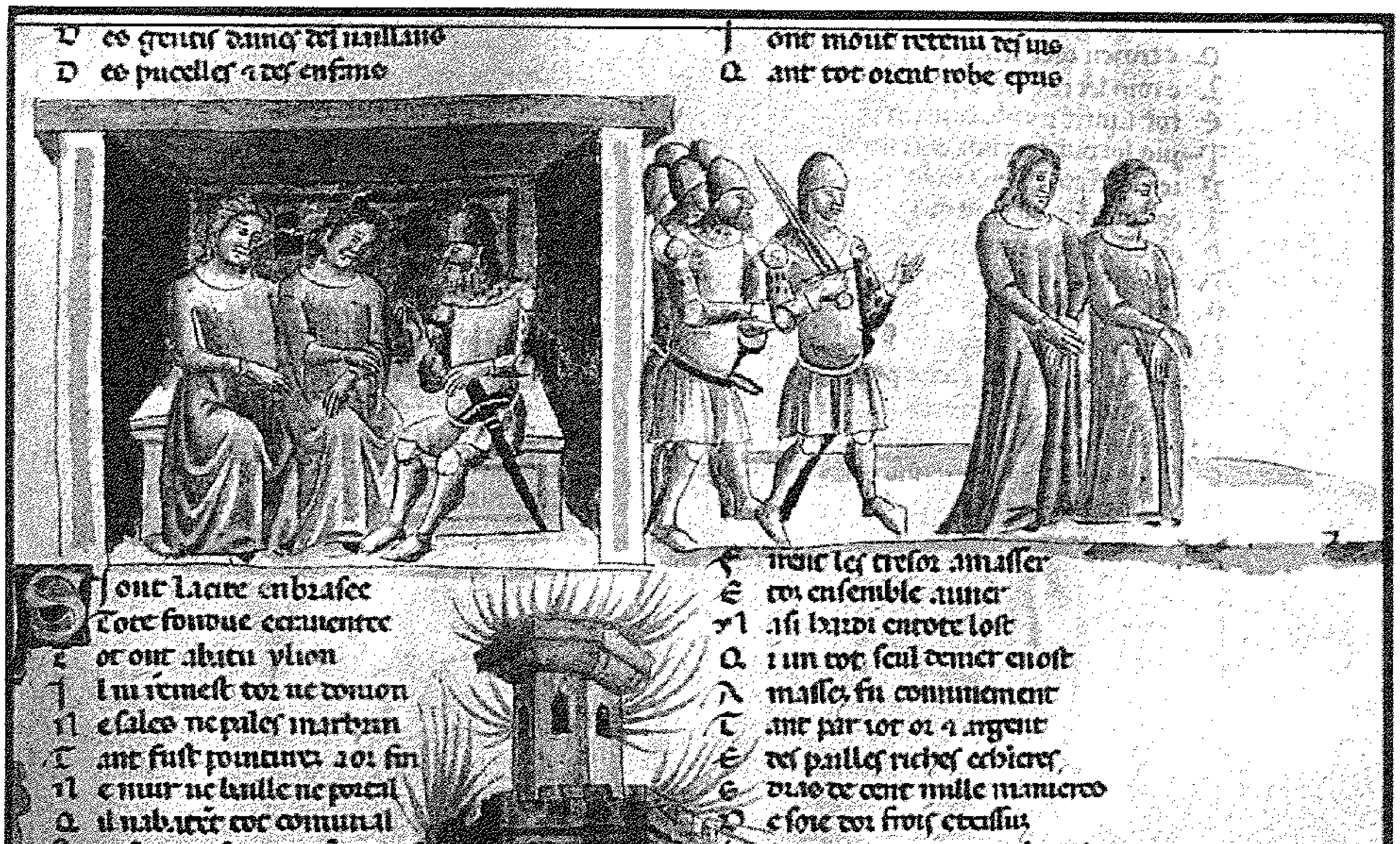
وفي سنة ١٣٢٤، أي في وقت فاصل بين هذين العملين، أخرج مارسيليوس آل پادو مؤلفه بعنوان «المدافع عن السلام» Defensor Pacis ، وفيه وصف خطاباً أو قراراً أصدره البابا بونيفاس الثامن على أنه من بدايته إلى نهايته زيف واضح، وتعد صارخ ضد العلمانيين.

ويشير مارسيليوس هنا إلى القرار البابوي بعنوان: «كنيسة واحدة مقدسة» Unam Sanctam الذي أصدره البابا بونيفاس الثامن في ١٨ نوفمبر سنة ١٣٠٢، رداً على هجوم الملك الفرنسي فيليب الرابع الوسيم على السلطة البابوية. وفي هذا القرار يستشهد بالسلطة التي كانت في يدي القديس بطرس الرسول، والتي آلت إليه، قائلاً: «إن صاحب السلطة الروحية هو الذي يقضي بحكمه في كل الأمور، ولكنه هو نفسه لا يدان من قبل أحد من بني البشر»، ثم يختتم بعبارة شديدة اللهجة: «وعليه فإننا نعلن، ونقر ونؤكد ونهتف بأنه من الضروري لكل مخلوق فرد لكي ينال الخلاص أن يخضع نفسه لسلطان الكاهن الأكبر في روما». ومع ذلك، ورغم قوة وحدة هذا البيان البابوي الفريد في نوعه، إلا أنه في نفس الوقت كان يمثل الأغلبية الجنائزية للبابوية، فلقد قربت النهاية! إن المستقبل لم يكن لصالح الخندق البابوي ولا لمصلحة الإمبراطور الخصم العنيد للبابوية، وإنما كان من نصيب الملوك، أو الأمراء - أولئك الذين كانوا يحتلون الصف الأول في الهايرياركية الكهنوتية السياسية، لأنه في القرن الرابع عشر كان هذا الصف يضم أيضاً وجهاء الدولة الذين تقاسموا السلطة فيما بينهم في الدوائر السياسية المبعثرة في كل من ايطاليا وألمانيا، لقد جاء تدهور السلطان البابوي وكذا السلطة الإمبراطورية، ليعلي من شأن الممالك الأوروبية الغربية، وهذا هو الوجه الآخر للقضية، والتي وصفها المؤرخون بالقصور الذاتي للسلطة العالمية.

ويعني الحق المطلق أولاً وقبل كل شيء أن صاحب هذا الحق ليس مسئولاً أمام أحد إلا الله وحده، ومن ثم يصبح الجميع مسئولين أمامه، لقد تنحى المفهوم الإقطاعي الوسيط «سيد الأسياد» ليحل محله مفهوم الحكم صاحب السلطة والنفوذ على الجميع، هذا المفهوم قد تطور أول الأمر في أطر القانون الروماني والقانون الكنسي لصالح السلطة الدنيوية أو الزمنية، وعبرت فكرة «الملك هو الإمبراطور في مملكته» عن هذا التحول، الذي بدأ ينتشر في أواخر القرن الثالث عشر فصاعداً، واستخدم أول الأمر ضد الإمبراطورية الألمانية، ثم بعد ذلك ضد البابوية.

جاء مولد الدولة الحديثة متواكباً مع مولد العلمانية وأفول شأن المسيحية الغربية. ولابد من فهم مضمون كل من هذين العنصرين: فالأول كان ببساطة اضمحلال احتكار الثقافة في أيدي الكنيسة، أما الثاني فقد ظهرت بوادره في تأسيس كنائس

نهب إحدى المدن في مخطوط مزخرف يرجع إلى القرن الرابع عشر، مكتبة مرزيانا، البندقية



قومية - بعيداً عن الهيمنة الرومانية - ومع ذلك، فإن الحكومات الملكية لم تتوان في حث رعاياها على احترام الناموس الإلهي، كما أن الملوك ظلوا يتمسكون بمسحة روحانية، تعززت من خلال طقوس تنصيبهم وتكريسهم على أيدي السلطة الدينية، ليصبح الملك بذلك العلماني الوحيد المكرس. ومع أن هذا التكريس لم يكن يطبق في كل بلدان أوروبا - كان تكريس ألفونسو الحادي عشر في قشتالة قد تم في دير لاس هيلجاس في برغش سنة ١٣٣٢ يمثل حدثاً فريداً، إلا أن هذا التقليد قد وصل أوجه في أوائل القرن الرابع عشر في عدة تكريسات - فرنسا سنة ١٣٠٠، الإمبراطورية سنة ١٣٠٧، إنجلترا سنة ١٣٠٨.

ومع أن هذه التكريسات كانت متوافقة مع التقاليد، ومكتملة ومحددة، إلا أنها كانت أقرب إلى مهرجانات الأبهة منها إلى الطقوس الدينية. ومع بدايات النصف الثاني للقرن الرابع عشر، كان ظهور الملك بين أفراد الشعب قد أسبغ عليه شعبية أكثر، من خلال موكب الحاشية الطويل عند زيارة الملك لإحدى المدن، وهذا ما حدث على سبيل المثال سنة ١٣٨٩، عندما قام الملك الفرنسي شارل السادس بامتطاء جواده ملتحفاً بملابس العبادة، التي تشبه قطعة القماش التي تحتوي «خبز التناول» في المواكب الكنسية. وكانت هذه السمة الدينية واحدة من سبل الدعاية لشخص الملك وجذب الجماهير وضمان ولائهم، سواء في حال تدشين القصور والكاتدرائيات أو لتكليف أشخاص بعينهم بمهام سياسية. وهذا ما فعله كل من فيليب الرابع الوسيم، وفيليب السادس آل فالوا، عندما شنا الحرب ضد فلاندز وإنجلترا. وهذا البعد الديني الذي حرص عليه الملوك هو الذي دعا واحداً مثل خوان جيرسون (١٣٦٣ - ١٤٢٩) أن يقول: «إن الملك شبيه بالكاهن».

كان نمو الحكومات يعني زيادة في الإنفاق العام، وفي هذا الخصوص من الصواب أن نقول، كما قال جي بوا Bois شيئاً عن موقف الفئات التي تتمتع بالامتيازات في مواجهة الأعباء الجديدة، ذلك أنه مع بداية السباق للحصول على الرواتب، والمناصب، والمعاشات جعل كل من يحتل موقعاً في الحكم ينظر إلى الدولة كملاذ يملك الكثير يتوجب عليها أن تدفع له. وفي ظل الأحوال، عندما اشتعلت الحروب في القارة الأوروبية، زاد عبء الإنفاق الحكومي. ولقد شهد القرن الرابع عشر العديد من الحروب، التي كانت أشبه ما تكون بالوباء العام. ومع اقتراب نهاية القرن، قال كاهن من جنوب فرنسا للمندوب البابوي إنه «قد شاهد حروباً في ناحيته وفي أبروشية كاهور طيلة حياته، وأنه لم ير السلم أبداً على هذه الرقعة من الأرض».

وجاءت حرب المائة عام لتحول فرنسا إلى ساحة مستعرة من القتال المستمر، كما أن ممالك أخرى دخلت الحلبة في هذا الصراع الإنجليزي - الفرنسي. فلقد انضمت اسكتلندا إلى جانب فرنسا، وتدخل الفرنسيون والإنجليز في الحرب الأهلية في قشتالة والنزاع بين هنري تراستامارا وبيدرو القاسي، وسرعان ما دب القتال بين ملوك أراغون وقشتالة في حرب خاصة بالطرفين، وفي كل من ألمانيا وإيطاليا اشتعلت الحروب أيضاً. ولقد كانت إيطاليا في القرن الثالث عشر في حال من الفوضى الضاربة - على حد تعبير مارسيل باكو Pacaut -، وهو ما انعكس في الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي في بيت شعر ورد في المطهر Purgatorio: «أي إيطاليا! إنها الأرض الخانعة، موطن الأسى، كالسفينة الضالة بلا مقارن وقد ابتليت بعاصفة هوجاء.. لست سيدة للولايات والأقاليم، وإنما قد صرت سيدة لبيت دعارة». هذا في حين أن مارسيليوس آل بادو وصف المملكة الإيطالية بأنها «نموذج للشقاء المعادي للسلام».

تطلبت الجيوش المرتزقة والأسلحة الجديدة المزيد من الإنفاق، بحيث لم يعد الأمير أو الحاكم قادراً على هذا الإنفاق المتزايد من ثروته الخاصة، من أملاك، وخليط من الضرائب على الأرض، والطواحين، والغابات، والبحيرات، والإقطاعيات، والغرامات، والعملة، والمناجم، والتي كان يجريها الأمير دون اعتبار لمصدرها. وهذه الجبايات غير واردة في القوانين لصعوبة تحديد منابعها وأشكالها. وكان أشد ما يتهدد هذه الجبايات إسراف الملوك وتبذيرهم، إلى جانب الإدارة السيئة، رغم أنها العماد الأهم بالنسبة للملوك في مختلف مشاريعهم. وأمام هذا الموقف لجأت الدول الغربية إلى البحث عن مصادر جديدة للدخل. وفي هذا يقول روبرت فوسييه Fossier «من الملامح المهمة في تاريخ القرن الرابع عشر المفهوم الجديد الذي طرأ على قضية الضرائب، وانعكاسات ذلك على الشعوب بطريقة مؤسفة في الغرب الأوروبي، مضيفاً أنه على الرغم من أن الكنائس كانت أول المتضررين - تدهور أحوال ضريبة العشور ومصادرات الأملاك - إلا أن العبء الحقيقي في هذا التوجه الجديد لم يقع على عواتق أصحاب المال والسلطة، وإنما على الفلاحين وسكان المدن.

وبدأ التوجه الضرائبي الجديد من بداية القرن الثالث عشر في مدينة جنوة وأيضاً في إنجلترا، من خلال ضرائب الجمارك، واحتكار الحكام لتجارة الملح، والضرائب المفروضة على السلع التجارية، من قبيل ضريبة القبالة alcabala في مملكة قشتالة، والتي جرى إقرارها سنة ١٣٤٢ وافق كورتيز دي برغش cortes de Burgos، وهو مرسوم أصدره الملك ألفونسو الحادي عشر وينص على جباية كم محدد من المال - ٥٪ - في سائر أنحاء المملكة على كل ما يمكن شراؤه. وهذا النوع من الضريبة المباشرة، رغم أنه مصدر يعتمد عليه وواسع النطاق، إلا أنه قد خلق مشاكل كثيرة. وكان بعض هذه المشاكل سياسياً، فبعد أن كان في عصر الإقطاع في شكل حقوق للسيادة على أفصالهم، أصبح الآن واجباً على الأفصال وسائر أفراد الرعية. من المشاكل الأخرى ما كان ذا طبيعة تقنية - من قبيل كيفية تحديد القواعد الضريبية وكذا الحصول على إحصاء يعتمد عليه في فرض الضريبة. وكلما كانت المساحة والسكان كبيرة، كلما ازدادت المسألة تعقيداً، ولهذا ليس غريباً أن الضريبة المباشرة قد بدأ تطبيقها في المدن الإيطالية صغيرة الحجم والسكان، بدءاً من أواخر القرن الثاني عشر فصاعداً. ويقول برنارد جيني أيضاً إن تاريخ الضريبة المباشرة يمثل قصة «مولد ثم طفولة ثم تكيف وفق الظروف الجديدة عن طريق المراوغة»، إنما باللجوء إلى التزييف أو التحايل للحصول على إعفاء من تأدية الضريبة، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى تقليص دخول خزانة الدولة.

وفي أحيان كثيرة كانت الضريبة المباشرة عرضة للغش والتحايل. ولما كان سك العملة يعود بالفائدة على من يقوم بالسك، فإن الملوك من خلال تطور الدولة وازدهار النشاط التجاري، سيطروا على دور سك العملة، وصار هذا رمزاً للسلطة ووسيلة للتفاعل. وما إن سيطر الملوك على زمام دور سك العملة حتى أصيبوا بخيبة أمل تمثلت في ضعف عام أصاب العملات الأوروبية بعد سنة ١٣٠٠، الأمر الذي أدى إلى تخفيض قيمتها - بيتر سيفورد - ومع أن هذا كان يرجع إلى تقلبات في أسعار المعادن النفيسة، إلا أن بعض المؤرخين يرجعون ذلك إلى إسراف الملوك المتزايد في الإنفاق. فعلى سبيل المثال، كان ٦٠٪ من موارد الملك فيليب الرابع الفرنسي في سنة ١٢٩٨ - ١٢٩٩ تتأتى من دور السك الخاصة به، وكان مستشاروه ينصحونه بأن تخفيض سعر العملة هو السبيل

أن الأمراء أو الملوك قد حرصوا على حصر هذه الاجتماعات والمداولات في شخوصهم والصفوة الموسرة في المجتمع، للإعلاء والدعاية لصاحب التاج

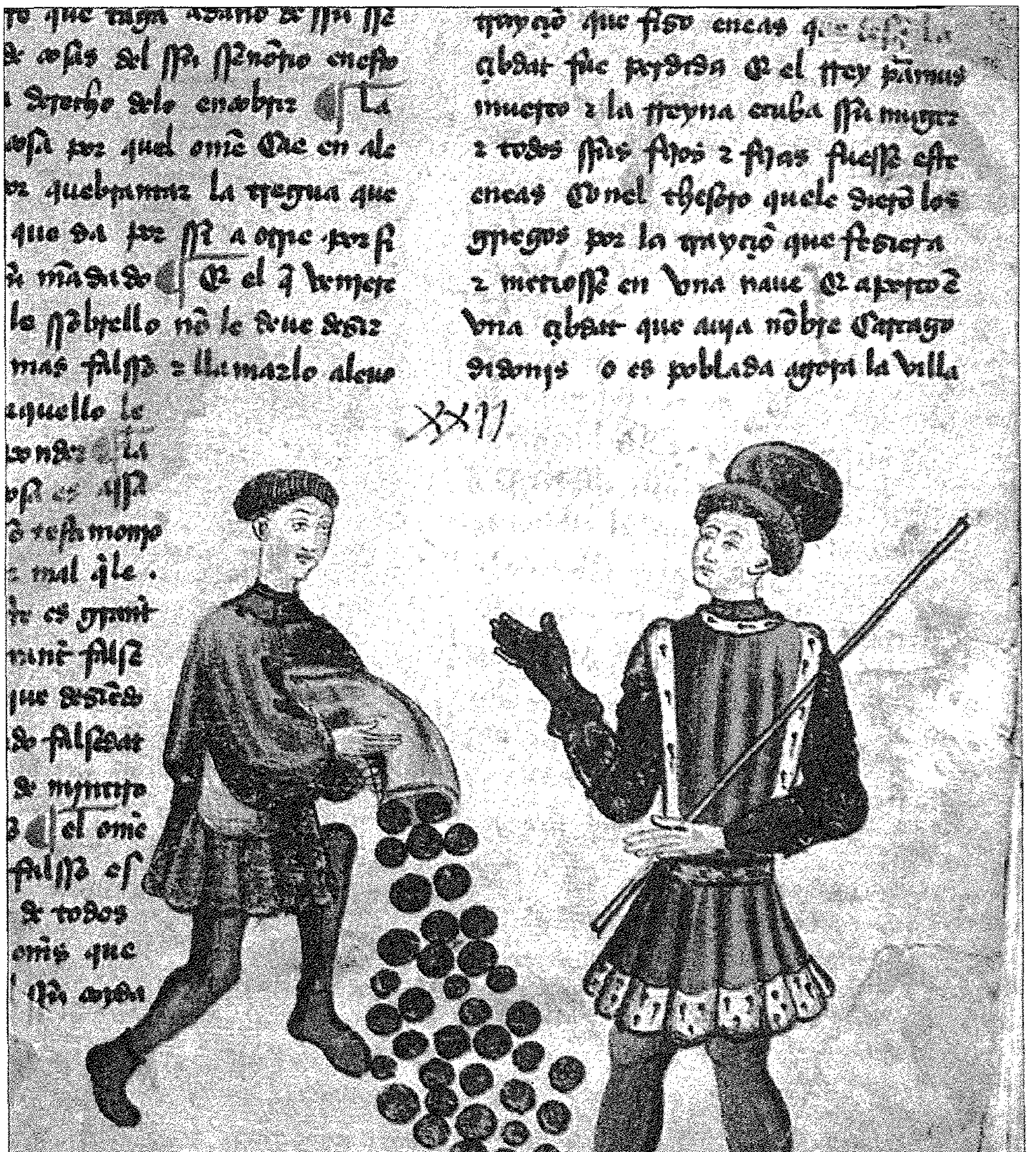
الأوحد لإصلاح المسار الاقتصادي، وأن هذا التخفيض من حق الملك وحده. وفي مملكة أراغون، في العقود الثلاثة الأولى من القرن الرابع عشر، كان سك العملة يحقق ربع حصيلة الخزانة الملكية. ومن أجل هذا نجد الأسقف النورماندي نيكولاس آل أوريزم في أطروحته عن المال التي كتبت ما بين سنتي ١٣٥٥ و١٣٦٠، يقرر أن «من أول وأهم الأسباب التي تدفع الأمير إلى الغش في سك العملة، طمعه وجشعه المتزايد.. وأن هذا المسلك لا يليق بملك وإنما بالطغاة». ويمضي نفس الكاتب ليقول: «إن مثل هذه الخطوة لا تكتسب مشروعية إلا في وقت الطوارئ القصوى، كهجوم معاد مباغت للدولة، وذلك بعد موافقة الرعية». وفي واقع الأمر كانت موافقة الرعية تعني ببساطة الاختيار الأصوب بدلاً من قيام الحكام بالغش في العملات. وبمعنى آخر كان سك العملة الجيدة مرهونًا بحجم المساعدات التي يتلقاها الأمير من رعاياه، والتي كان الجميع يتذمرون منها بطبيعة الحال، لأنها لا تقل سوءاً عن أذى سك عملة رديئة.

على أن أهم مصدر لجأ إليه الملوك لزيادة حجم خزائنهم الملكية قد تمثل في الديون العامة، والتي رحب بها الموسرون في الدولة بدلاً من عبء الضريبة المباشرة. ومن هنا أبدى هؤلاء الموسرون استعدادهم لإقراض الحكام المبالغ التي يريدونها وقت الشدة. وبصفة عامة كان الأمراء يقترضون قروضاً قصيرة الأجل بربح تراوح بين ٢٠ - ٢٥٪. ففي ألمانيا على سبيل المثال كان كبار ملاك الأرض واليهود على رأس قائمة المقرضين، وفي كل من فرنسا وإنجلترا قام التجار بهذا الدور مع بعض البنوك الإيطالية التي أصيبت بنكسة مهولة سنة ١٣٤٦، عندما أجهز الملك إدوارد الثالث على كل أرصدة مصرف باردي Bardi تقريباً. أما في المدن الإيطالية، فقد اتخذت الديون العامة مساراً مخالفاً محفوفاً بالخطر، فقد كان يتم الإقراض قبل تسديد اقتراضات سابقة. وكان ذلك عند ظهور البنوك الكبرى. ولقد لجأت مصارف البندقية في القرن الثالث عشر، ومصارف جنوة في سنة ١٣٢٤، ومصارف فلورنسا فيما بين سنتي ١٣٤٣ و١٣٤٤ إلى رفع أسعار الفائدة على القروض التي يقترضها كبار القوم من هذه المصارف إلى تخفيض أسعار فوائد هذه القروض.

ديمقراطية الموسرين

أمام أعباء الضرائب على كهولهم، شعر الفلاحون المقهورون أنهم في ظل دولة طفيلية بحق. ولقد قدر الأستاذ روبرت فوسييه أنه في إنجلترا وشمالي فرنسا، كان أكثر من نصف دخول الفلاحين تنهب منهم، فعلى كل عشرة مكاييل من الحصاد، كان يتوجب عليه أن يدفع منها مكيالا لعشور الكنيسة، ومكيالا ونصف المكيال ضريبة للدولة، ومكيالين ثمنًا للبذور، وقرابة مكيال آخر كضريبة لإحصاء السكان. إن هذه الأعباء الضريبية، سواء للملك، أو للسادة المحليين، أو للكنيسة عندما ثار فلاحو إنجلترا - لولارد Lollards سنة ١٤٠٠، أصدروا بيانًا ثوريًا ساخراً يقول: «إن ضريبة العشور الكنسية يجب أن تتوقف عن الوصول إلى جيوب الكهنة، ومن يفعل غير ذلك يقع تحت طائلة الإثم والعار». وعليه هبت الثورات في الريف والحضر أثناء القرن الرابع عشر بسبب عبء الضرائب من ناحية، ولأسباب أخرى عديدة، وفي كل الأرجاء

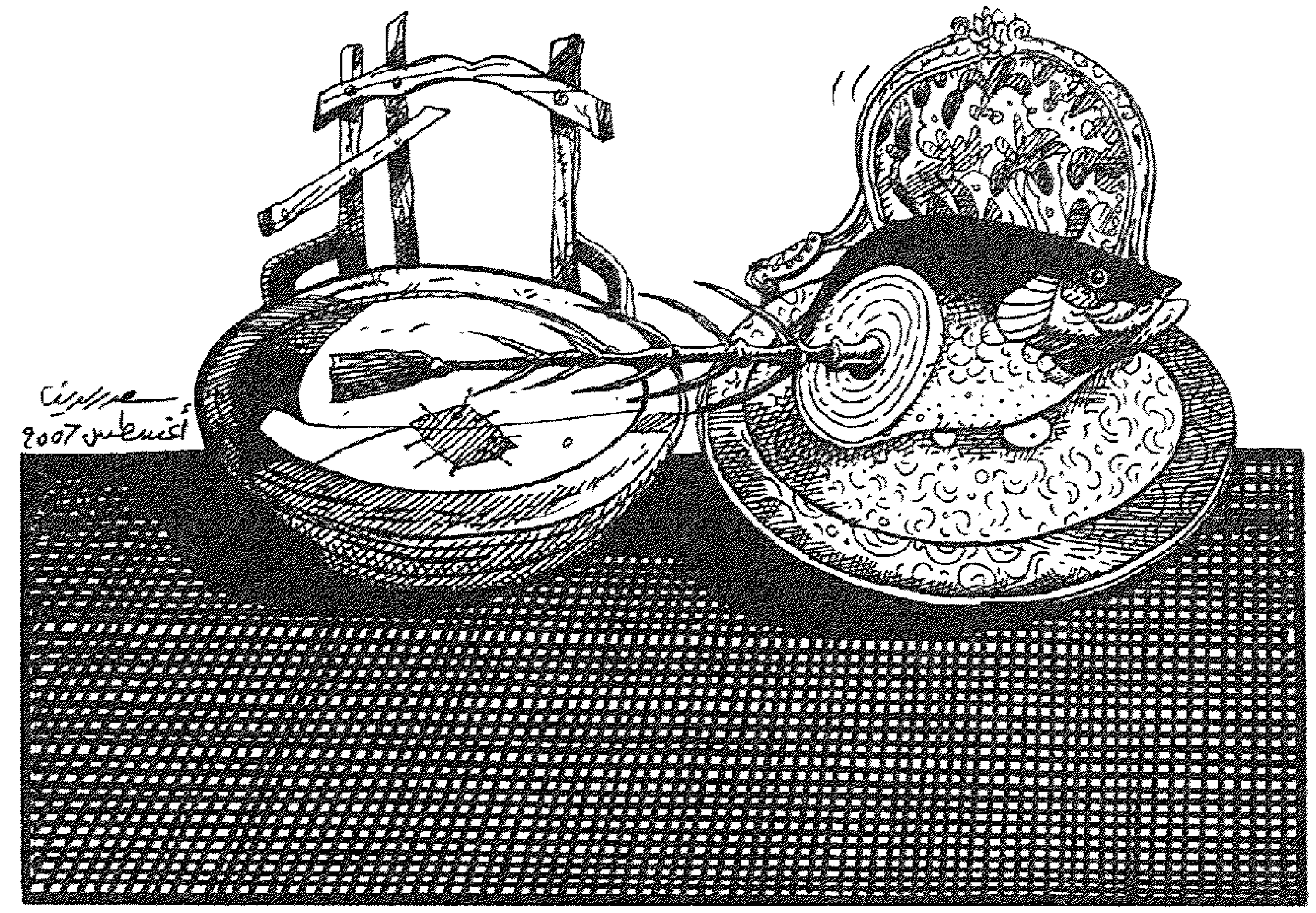
دفع الإتاوات إلى الملك. منمنمة من مخطوطة قرارات ووثائق، الصادرة عن دون سانشو الرابع، المكتبة الوطنية - مدريد



كانت الضريبة الكريهة سببًا رئيسيًا فى هذا الاحتقان الشعبى. فلقد ثار الفلاحون فى فلاندرز سنة ١٣٢٣، ورفضوا دفع الضرائب المفروضة عليهم، كما أن فلاحى فرنسا - جاكرى Jacquerie - دمروا مناطق بوفيه Beauvais (شمالى باريس) سنة ١٣٤٨، بسبب وطأة الضرائب على كواهلهم، فى أعقاب هزيمة الملك الفرنسى أمام الإنجليز فى موقعة پواتييه. وفى نفس الوقت هب تجار الأقمشة فى باريس بالثورة بقيادة إتيين مارسيل Etienne Marcel. ثورة مالوتان Mailotins فى باريس سنة ١٣٨٢ بسبب ثقل الضرائب أيضًا. وأخيرًا هبت ثورة الفلاحين الكبرى فى إنجلترا سنة ١٣٨١ بسبب ضريبة جديدة أقرها البرلمان الإنجليزى لمواجهة نفقات الحرب ضد فرنسا.

وعلينا أن نتأمل فى دلالة قيام ثورة بسبب قرار برلمانى، إذ نحن حاولنا تفهم الهيئات البرلمانية التى قامت فى الأقطار الأوروبية فى القرن الرابع عشر. وأصول هذا البرلمان ترجع إلى العهود الإقطاعية ومجالس السادة الإقطاعيين مع أفصالهم، وهى تسير وفق الواجبات الإقطاعية على الأتباع أو الأفصال حسبما أوردها فلوبير دى شارتر مع بدايات القرن الحادى عشر، فيما أسماه المجلس الإقطاعى Consilium. كما أن جذور هذه الهيئات البرلمانية ترجع أيضًا إلى محاكاة للمجامع الكنسية ومجالسها، وأيضًا ما ورد من نصوص فى القانون الرومانى. وهذه الجذور الرومانية تتصل بالقانون العام المحدد السابق لعصر الإمبراطور جستنيان - القرن السادس - الذى ظهر من جديد على يد مشرعى القرن السادس اللاحقين فى الإمبراطورية البيزنطية. وتنص هذه المواد القانونية على الآتى: «إن كل ما يهم الجماعة، ينبغى أن تقره كل الجماعة»، وكان هذا القانون يطبق داخل الكنائس بدءًا من القرن الثانى عشر فصاعدًا، بما فى ذلك الضرائب على أملاك الكهنة، الأمر الذى جعل القسيسين يصرخون بسبب فرض الضرائب على أملاكهم. وكان الإمبراطور فردريك الثانى الألمانى أول من فرض هذه الضريبة على الكهنة فى مجلس فيرونا سنة ١٢٤٤، وبالمثل فعل إدوارد الأول فى إنجلترا فى أول اجتماع للبرلمان الإنجليزى سنة ١٢٩٥. ومن التطورات المهمة ظهور شخصية المدعى العام، إلى جانب الكنيسة، وطبقة النبلاء، لتكتمل بذلك صورة الهيكلة البرلمانية للدولة الحديثة.

ولكن ينبغى التنويه إلى أن الأمراء أو الملوك قد حرصوا على حصر هذه الاجتماعات والمداولات فى شخوصهم والصفوة الموسرة فى المجتمع، للإعلاء والدعاية لصاحب التاج، وأيضًا كهيئات استشارية فى القضايا العسكرية والمشاكل المالية، والضرائب وغيرها. وواقع الأمر أن اللوردات الذين كانوا من الناحية النظرية يمثلون فى هذه الهيئات أتباعهم، والأساقفة الذين يفترض أنهم يمثلون جماعة المؤمنين من الشعب، والأعضاء المختارين من المدن على أنهم يمثلون إخوانهم من أهل الحضر، إلا أنه فى الحقيقة لا هؤلاء ولا أولاء وضعوا أى اعتبار يذكر للغالبية العظمى من أبناء الشعب، من الفقراء والكادحين، بمعنى أن هؤلاء الملايين قد استبعدوا تمامًا من الحياة السياسية، ولم يترك أمامهم خيار إلا أن يفوروا ويثوروا ويدمروا كل شىء من حولهم. على أن المفكرين الليبراليين من أهل القرن التاسع عشر قد أعطوا هذه المجالس سالفة الذكر أكثر مما تستحق، بل إنهم يتحدثون عنها كخطوات على درب الدستورية والديمقراطية. وهذه فى واقع الأمر واحدة من المفارقات التاريخية التى تؤخذ على هؤلاء المؤرخين والكتاب. كما قال الأستاذ برارد جينى، والذى نختم مقالنا هذا بعبارة شهيرة له تقول: «يتسم القرنان الرابع عشر والخامس عشر بظهور الطبقة البيروقراطية، وبتدهور أحوال الملكية، وباحتكار الديمقراطية لقلة من الموسرين». ■



الاقتصاد المصرى.. إلى أين؟

شــــــــريــــــــف دلاور

اعتمدت سياساتنا الاقتصادية - إلى حد كبير. على المفاهيم التى سادت العالم فى أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضى من حيث إصدار التشريعات لتحسين مناخ الأعمال وتحرير التجارة فى المنتجات والخدمات وحرية انتقال الأموال والخصخصة وجذب الاستثمار الأجنبى بهدف ربط الاقتصاد المصرى بالأسواق العالمية وزيادة إنتاجيته.

ولقد تميز تطبيق هذه السياسات بالتأنى والحذر نظراً لإشكالية التفوق بين تحرير الأسواق من جانب ومتطلبات الفئات العريضة من محدودى الدخل من جانب آخر، وهى الإشكالية المتمثلة فى إحداث التوازن بين اقتصاد السوق والعدالة الاجتماعية، إلا أنه ونتيجة لتأثيرات عوامل خارجية ومحلية لم نبلغ الأهداف المرجوة فى كفاءة أداء الأسواق (المنافسة والإنتاجية) وفى فعالية قواعد العدل الاجتماعى (الخدمات العامة والفجوة بين الدخول)، وفى نفس الوقت، فلقد غيرت تجارب دول العالم النامى والأزمات الطاحنة التى مرت بها قاعدة المفاهيم التى سيطرت على الفكر الاقتصادى فى حقبة التسعينيات والتى أثبتت فشلها، بل خطورتها على مسار التنمية، ويتطلب ذلك بالتالى مراجعة شاملة لاستراتيجيتنا وسياستنا الاقتصادية. فالسياسات الاقتصادية ليست هى مجموعة من الثوابت التى يتم تطبيقها فى كل الأحوال، بل هى تتحرك ديناميكياً بناء على طرق للتفكير تتيح لنا تشكيل أجوبة جديدة لمشاكل عالم متغير بإيقاع سريع.

وكما أنه لا توجد قوالب أو نماذج جاهزة لسياسات التنمية، فلا يمكن مثلاً اتباع نموذج دول شرق آسيا فى استراتيجيتها الأولية ذات التوجه التصديرى لأنها تمت فى ظل أشكال للتبادل التجارى العالمى فى الستينيات مختلفة تماماً أو اتباع نموذجى الصين والهند حالياً اللتين تختلفان عن مصر فى خصائصهما الاجتماعية والسكانية والثقافية، ولا تعنى هذه المراجعة أيضاً العودة إلى سياسات الانغلاق، فلا يجدى لنا أن نعزل أنفسنا عن الاقتصاد العالمى وعلينا أن نواجه التحدى المتمثل فى إحداث التوازن الدقيق والذكى بين متطلبات تقوية الداخل والاندماج مع الخارج، والاحتفاظ بقدرتنا على التحكم فى السياسة الماكرواقتصادية (وأدواتها مثل أسعار الصرف والفائدة ونسب البطالة..) أى متطلبات السياسة الوطنية لتحقيق التنمية والديمقراطية الاقتصادية.

وتتشكل المراجعة من مجموعة من العناصر الاقتصادية الرئيسية تكون فى مجموعها إطاراً يتدارس سياسات التنمية ومدى ملاءمتها للأوضاع العالمية فى القرن الحادى والعشرين ومدى تحقيقها لأهداف التقدم التى نسعى إليها، وتتمثل هذه العناصر فى:

١ - لا يمكن أن نعيش على الدوام بأكثر من إمكاناتنا أى لا يمكن أن نستمر فى الاستهلاك بأكثر مما ننتج، والعامل الرئيسى لموقع أى دولة بين الأمم فى الاقتصاد العالمى هو تراكم الموارد (المادية والبشرية والمعرفية) التى تؤدى إلى زيادة الإنتاجية، والنمو الاقتصادى فى مصر لم يقابله نمو مماثل فى الإنتاجية الكلية، وزيادة نسب النمو دون زيادة فى معدل الإنتاجية تعنى بالضرورة مشاكل اقتصادية فى المستقبل لأنها تقوم على حشد الموارد ولكن دون كفاءة فى استخدام تلك الموارد، فالإنتاجية هى المحدد الأول لمستويات المعيشة والدخل والبطالة، ومحاولة تعريف التنمية على أساس تحقيق فائض فى الميزان التجارى مثلاً هو أمر غير موفق، فزيادة الصادرات نتيجة انخفاض الأجور أو العملة أو كليهما فى الوقت الذى نستورد فيه سلعاً معقدة يصعب على منشآتنا إنتاجها قد يؤدى إلى توازن أو زيادة الميزان التجارى، ولكنه بالقطع سيخفض من مستوى المعيشة، وتعتمد أساليب زيادة الإنتاجية على الإدارة الفعالة للاقتصاد الكلى وعلى الارتقاء بمستوى العناصر البشرية والتقنية والتنظيمية والمعلوماتية داخل منظمات الأعمال المصرية العامة والخاصة، والسيطرة على الفاقد فى الاقتصاد القومى (فى الزراعة والنقل والكهرباء والمياه) والذى يضعف بشكل كبير الإنتاجية الجزئية والكلية (اليابان تطبق برنامجاً قومياً للتعامل مع الفاقد mude elimination).

٢ - إن التنمية لا تعنى كم الوظائف فقط ولكن نوعية هذه الوظائف، فالعبرة ليست فى تشغيل المواطنين فى أعمال متدنية وبأجور منخفضة، هذه هى نقطة أساسية ترتكز عليها «جودة التنمية» والتى قد تغيب عن أعيننا إذا اقتصرت اهتماماتنا على الأرقام الجافة للدخل القومى دون تفحص مكونات وتوزيع هذا الدخل وتقليل الفجوة بين الأغنياء والفقراء ونبذ مظاهر البذخ والترف، والاستراتيجية الاقتصادية مطالبة بوضع برنامج للهندسة الاجتماعية لمحاربة الفقر وعدم المساواة فى مجالات

لا يمكن مثلاً اتباع نموذج دول شرق آسيا فى استراتيجيتها الأولية ذات التوجه التصديرى لأنها تمت فى ظل أشكال للتبادل التجارى العالمى فى الستينيات مختلفة تماماً أو اتباع نموذجى الصين والهند حالياً اللتين تختلفان عن مصر فى خصائصهما الاجتماعية والسكانية والثقافية

فرص العمل والحصول على الثروة، وبإعادة صياغة علاقة الثروة بالعمل، فتشجع الثروة التى تؤدى إلى الإبداع فى العمل وتشجب الثروة التى تعوض عن العمل (إلا فى حالات خاصة مثل الشيخوخة والعجز)، ومن الأمور المهمة ما أثاره الخبير الاقتصادى العالمى «هرناندو دى سوتو» من كون الفقراء فى الدول النامية يملكون أصولاً عبارة عن «رأس مال ميت dead capital» غير مستغل اقتصادياً لصعوبة إعطائه شكلاً قانونياً، وبالتالى فإن تسجيل تلك الأصول الرأسمالية سيساعد على مواجهة الفقر ومساندة الإصلاحات الاقتصادية وتحويل جزء من الاقتصاد التحتى واقتصاد المقايضة إلى الاقتصاد الرسمى، وبالنسبة لمصر أشار «دى سوتو» فى دراسته إلى أن نحو ٩٢٪ من الملكية العقارية فى القطاع الحضرى و٨٧٪ فى القطاع الريفى غير مسجلة، وإلى أن ٧٠٪ منها مملوك للفقراء.

٣ ـ تحرير التجارة والأسواق والاستثمار الأجنبى المباشر قد يرفعان من إنتاجية الأمة وقد يهددانها، ذلك يعتمد على السياسات الانتقائية التى نطبقها، فتحرير التجارة سواء فى المنتجات أو الخدمات وفتح الباب أمام المنافسة العالمية لا يجب أن يكون فى هذه المرحلة على حساب إغلاق الصناعات الوطنية وبالذات المتوسطة والصغيرة (مثلما حدث فى عدد من الدول النامية فى التسعينيات)، وكما لا يمكن السماح لنفوذ الاحتكارات العالمية بالتغلغل فى السوق المصرية ويلزم الأمر أيضاً وضع ضوابط على حركات الاندماج والاستحواذ لحماية المنافسة العادلة وشراء الأجانب للمؤسسات المصرية، وفى المقابل تشجيع الاستثمار الأجنبى الذى يفتح أسواقاً خارجية أو يضيف فى الإدارة والتكنولوجيا لا الاستثمار الأجنبى الذى يتوجه للاستهلاك المحلى (يسيطر حالياً عدد محدود من الشركات العالمية على بعض قطاعات السوق الاستهلاكية فى مصر مما يصعب معه ضبط الأسعار لفئات عريضة من المستهلكين محدودى الدخل)، وحتى فى الحالات التى تؤدى فيها حرية التجارة والاستثمارات الأجنبية إلى زيادة معدلات النمو والإنتاجية فإنه يجب الحرص من سيطرة الشركات متعددة الجنسيات على الاقتصاد، حيث سيكون حينئذ عرضة للتأثر الشديد بالمشاكل الاقتصادية والمالية العالمية، وعليه فإن الاستثمار الأجنبى ليس شراً وليس خيراً، حيث إن تأثيره على مستويات المعيشة سيعتمد بشكل أساسى على الأطر والسياسات التى تضعها الدولة المضيفة والمتعلقة بالعرض المحلى وطبيعة المنافسة وبالقواعد العامة التى تحكم هذا الاستثمار، وقد ثبت أن نفس المستوى من الاستثمار الأجنبى قد يؤدى إلى نتائج مختلفة على الاقتصاد، خاصة على الأجور ومستويات البطالة وتوزيع الدخول وذلك نتيجة اختلاف الأطر والقواعد الحاكمة فى كل دولة.

٤ ـ على السياسة العامة أن تأخذ فى الاعتبار الحقيقة الاقتصادية المعروفة وهى أنه لا يمكن تحقيق الجمع بين ثلاثة عوامل فى نفس الوقت أى سعر صرف ثابت وسياسة نقدية مستقلة وحرية حركة رؤوس الأموال، ولا تتشكل مخاطر أسعار الصرف بين يوم وليلة، ولكنها تتراكم على مدار سنوات لكى تنفجر بشكل مفاجئ، ونظراً لتوافر قدر عال من التدفقات الرأسمالية الداخلية والاحتياطى النقدى فإن البنك المركزى يستمر فى تثبيت سعر الصرف والذى يشكل محور سياسته فى التحكم فى معدل التضخم (قانون البنك المركزى ذاته ينص على ذلك)، ومما لا شك فيه فإن هذه استراتيجية فعالة ولكنها قد تفشل على المدى الطويل فى حالة استمرار ضعف هياكل قطاعى الأعمال العام والخاص وعدم القدرة على زيادة الإنتاجية مقارنة بالدول الأخرى، وكما ثبت أن السياسة النقدية وحدها ليست ضماناً لاستقرار الاقتصاد الكلى ما لم يواكبها سياسة مالية موائمة (أى التوافق بين السياسات المالية والنقدية) غير أن قدرة الحكومة على اتباع سياسة مالية مرنة ومستقلة محدودة نظراً لزيادة فوائد الدين العام فى الموازنة العامة ولأن نسبة عالية من الإنفاق فى الموازنة توجه للأجور، ولاعتماد الخزانة العامة فى موارد النقد الأجنبى على قطاعات خارج تحكم الاقتصاد القومى (تحويلات المصريين بالخارج ـ البترول ـ قناة السويس ـ السياحة)، واستقرار سعر الصرف حيوى بالنسبة لمصر نتيجة وارداتنا من الطعام (فاتورة الغذاء). ولا ننسى أن جهود مصر لتخفيض ديونها الخارجية إلى النصف بعد حرب الخليج ١٩٩١ قد تآكلت نتيجة تدهور سعر الصرف فى أواخر التسعينيات لأنه إذا كانت دولة مدينة للخارج بقدر «ص» على سبيل المثال وانخفض سعر الصرف إلى النصف، فإن الدين مقوماً بالعملة المحلية يصبح «٢ص» ونفس القدر ينطبق على فوائد الدين الخارجى.

٥ ـ مما سبق لم تتضح أيضاً أهمية وضع ضوابط على التدفقات المالية الداخلة والخارجة (باستثناء أرباح الاستثمار الأجنبى المباشر)، ومن بين تلك الضوابط فرض ضريبة Tobin Tax على التعاملات قصيرة الأجل فى البورصة، مما يشجع على شراء الأسهم بهدف الاستثمار متوسط وطويل الأجل، ويؤدى إلى استقرار البورصة حول أسعار للأسهم تعبر عن المراكز والأوضاع الحقيقية للشركات ويقلل بشكل جذرى من الشراء والبيع بهدف المضاربة، ولقد طبقت كثير من الدول الرأسمالية هذه السياسة لعقود بعد الحرب العالمية الثانية وازدهرت اقتصاداتها ثم فتحت بعد ذلك أسواقها لحرية انتقال رؤوس الأموال، وكما أن هنالك قاعدة اقتصادية وهى أنه لا يمكن تواجد بورصة مفتوحة تدخل وتخرج منها الأموال بكل حرية وفى نفس الوقت الحفاظ على استقرار أسعار الصرف لأن هذه الأموال ستؤدى إلى ضغوط مستمرة على العرض والطلب للعملة المحلية بشكل لا يمكن البنك المركزى من التحكم فى السياسة النقدية وفى استقرار سعر الصرف.

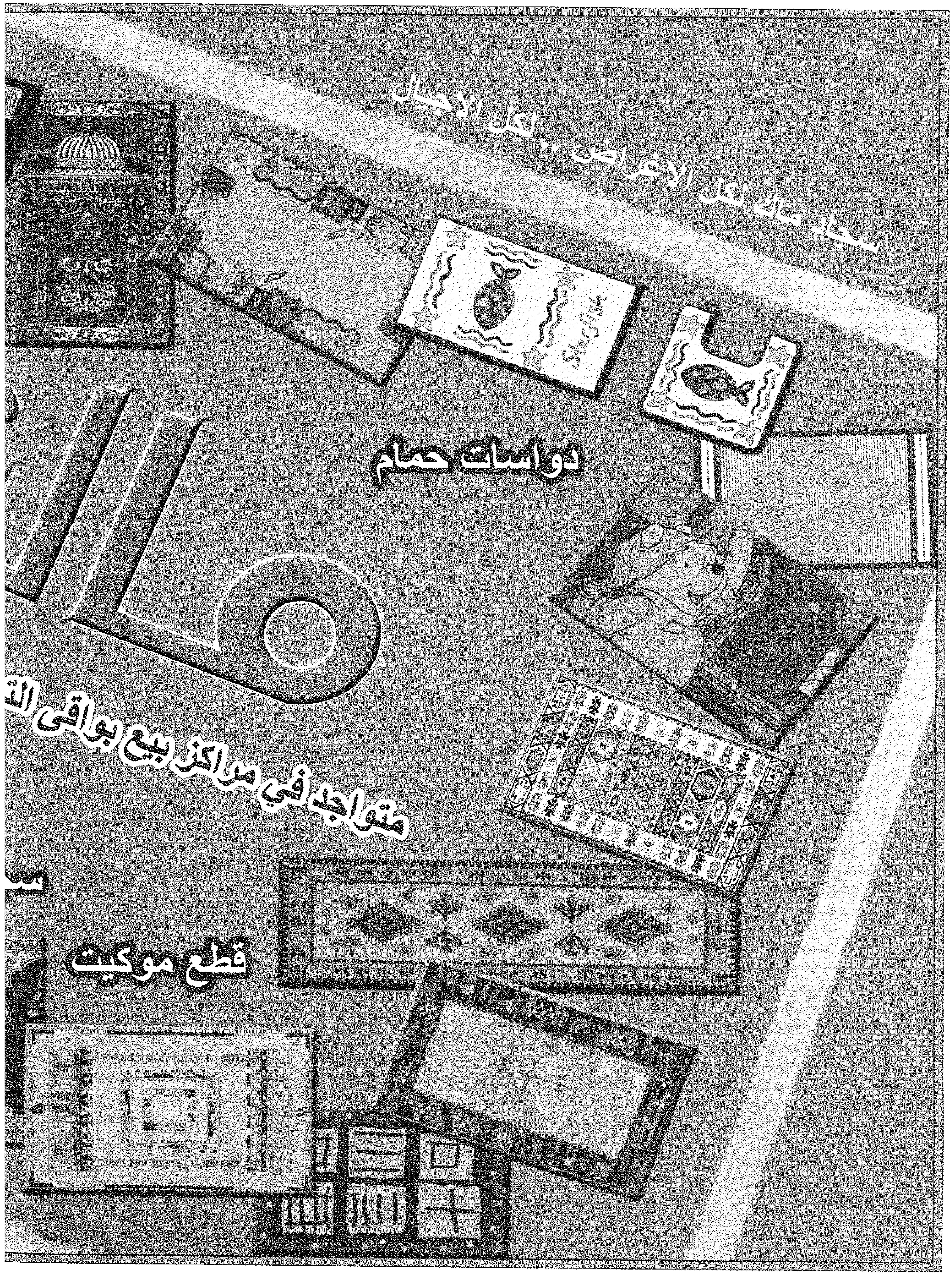
٦ ـ التعامل الفعال مع معطيات العولمة من خلال دور قيادى لمصر فى مجال الاقتصاد الدولى بمشاركة دول نامية مثل الهند والبرازيل وفنزويلا وبمساندة المجتمع المدنى العالمى وذلك للمطالبة بإصلاح وتطوير المؤسسات الدولية وسد العجز الديمقراطى بها فى اتخاذ القرارات، ولمحاولة التوصل مع شركائنا من الدول الصناعية المتقدمة إلى توازن جديد للعلاقات الاقتصادية الدولية يرسى قواعد عادلة للتجارة العالمية ويوجد مدخلاً جديداً للملكية الفكرية وبالذات فى صناعة الدواء، ويعوض عن تدهور البيئة والتغير المناخى ويصلح المعمار المالى الدولى وينظم الاحتكارات الدولية.

٧ ـ ومن الضرورى إدراج العناصر السابق ذكرها ضمن إطار أوسع من الأهداف التنموية تتبلور من خلال عدة محاور لعل أهمها: (١) التزام قاطع نحو الاستثمار الوطنى والادخار الوطنى وتهيئة الرأى العام بموضوعية حول نقاط القوة والضعف فى اقتصاد السوق. (٢) انضباط مالى ونقدى صارم وقيام القيادات بإعطاء المثل فى التقشف وبساطة الحياة. (٣) الارتقاء بمناخ المنافسة والأسواق والشفافية ومحاربة الفساد والمشاركة المجتمعية الواسعة فى الرقابة على هذه المجالات. (٤) ترشيد استخدام المياه والحفاظ على جودة المياه الجوفية فى غرب الوادى. (٥) ترشيد استخدام الطاقة والحد من نمو الصناعات والخدمات كثيفة الاستهلاك للطاقة، وتطوير مصادر الطاقة البديلة والمتجددة وبالذات الطاقة الشمسية وغاز الميثان (biomass) المتولد من مخلفات الزراعة والإنسان والحيوان، والطاقة النووية بشرط عدم الاعتماد على الخارج فى توفير الوقود (اليورانيوم ٢٣٥) وضمان دفن النفايات بشكل آمن. (٦) المضى فى الإصلاح الإدارى لأجهزة الدولة باختيار قيادات جديدة لها من خارج المنظومة الحكومية وإعادة هيكلة الحكومة التى لم تتغير وزاراتها تقريباً منذ عشرات السنوات، بحيث يتواءم مع المتطلبات الجديدة للتنمية.

٨ ـ وهكذا يتحدد مسارنا للتنمية من خلال مدخل «النمو مع العدل الاجتماعى Growth with equity approach» المعتمد على الركائز الآتية:

- التشغيل ومحاربة البطالة.
- تصحيح تشوهات السوق.
- إشباع الحاجات الأساسية للمواطن وجودة الخدمات المقدمة إليه.
- عدم خضوع التعليم والصحة والثقافة لقوى السوق وحدها.
- تطوير الزراعة والمناطق الريفية وصعيد مصر ودفع الاستثمارات الرأسمالية إليها.
- صياغة عقد اجتماعى جديد بين الدولة ومنشآت الأعمال والقوى العاملة.
- السعى والمشاركة فى وضع نظام اقتصادى عالمى وعادل. ▩

إن التنمية لا تعنى كم الوظائف فقط ولكن نوعية هذه الوظائف، فالعبرة ليست فى تشغيل المواطنين فى أعمال متدنية وبأجور منخفضة

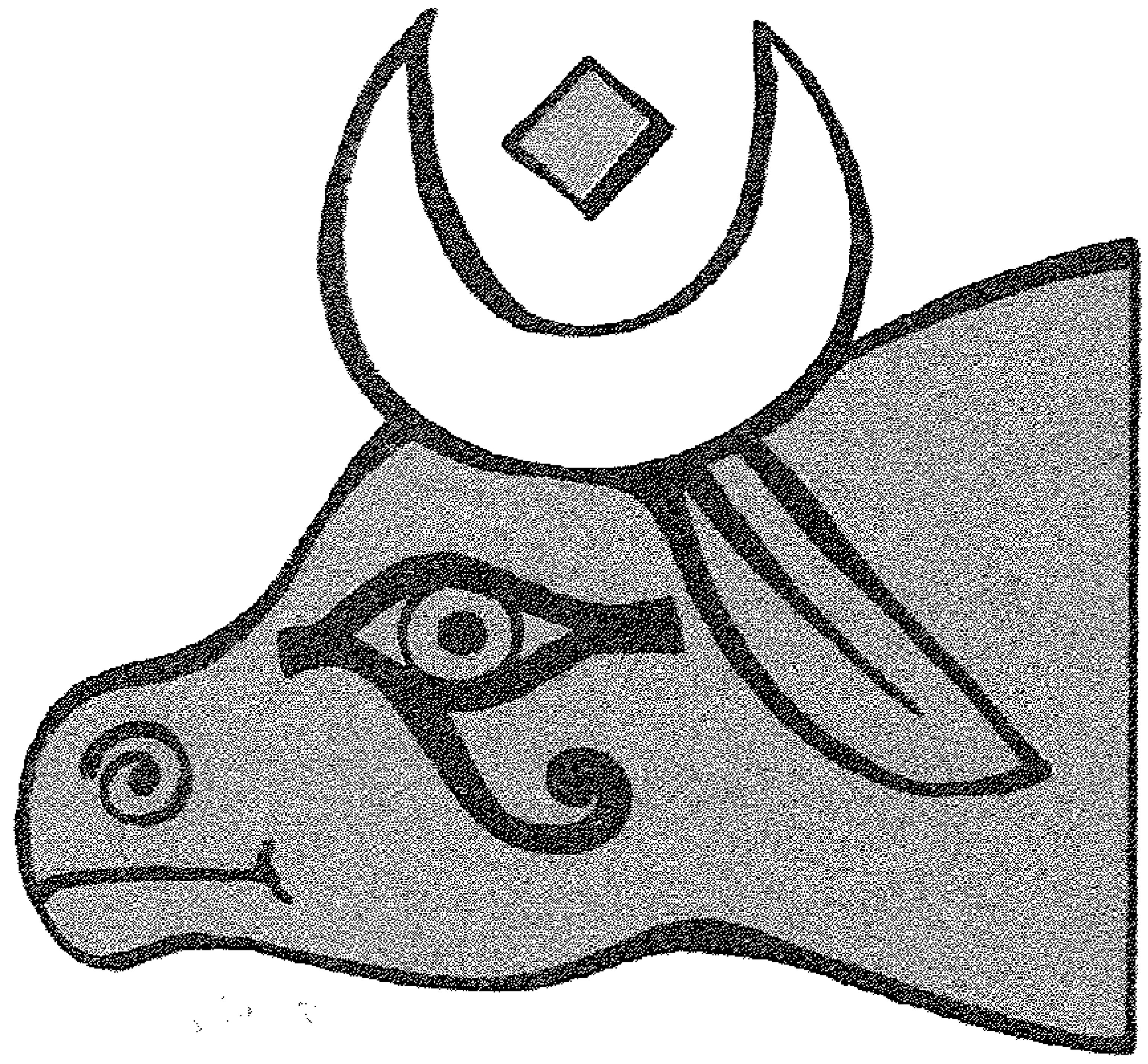

سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الاجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com

أسطورة

تؤكد معظم أساطير الخلق والتكوين على ظهور النشأة الأولى من لجة الظلمة الأزلية. ففى أسطورة التكوين البابلية، كانت تعامة هى الرحم المائى المظلم الذى نشأ عنه الكون والآلهة. وفى الأسطورة المصرية نجد «نون» العماء البدئى المظلم والرحم المائى الذى أنجب أول الآلهة «رع». وعند الكنعانيين نجد أنه فى البدء لم يكن هناك سوى ريح عاصفة وخواء مظلم. وفى التكوين التوراتى نجد أنه فى البدء خلق الرب السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية... وفى الأسطورة السومرية، تنبثق الأجرام السماوية من ظلمة العالم الأسفل عندما يهبط الإله انليل سيد مجمع آلهة سومر إلى العالم الأسفل..[١].

نون هى أسطورة النشأة لدى المصريين القدماء، نون هى عتمة ورحم فى الوقت ذاته، والظلام فى الوعى العقلى الجمعى هو الرحم الذى يلد النور (كل ليل وله آخر)، بهذا المعنى فإن النون هى الرحم الذى يخرج منه



الجديد. النون بذلك تشبه الإله الرومانى يانوس- الذى اشتق من اسمه شهر يناير - January فهو ينظر فى اتجاهين، إلى الخلف (العام المنصرم) وإلى الأمام (العام المقبل). فى رواية «نون» للكاتبة المصرية سحر الموجى والصادرة حديثا عن دار الهلال لا تتشبث النون بموقعها كبداية أولى أولية، بل هى نون مزدوجة، «نون» رواية عن البدايات المنبثقة من نهايات وهمية، وهو الازدواج الذى يتوازى دلاليا مع صوت الآلهة حتحور، الراوية واللاعبة فى النص والتى اختارت أن تبدأ الحكاية «من نقطة مضيئة» (ص٩). والنقطة المضيئة كما تراها حتحور هى أن «يفتح ستار الحكاية على حالة حب...نقطة البراءة...الصفحة البيضاء التى لم يخط عليها الألم بعد حروفا للحكمة أو ربما للموت» (ص٢٦). هى نون أسطورية تتخفى فى صوت حتحور وتتسرب إلى النص لتعيد بناء الأسطورة وترتحل بها فى الزمان والمكان وعوالم الشخصيات.

لماذا تروى حتحور الحكاية، ولماذا تتدخل فى حياة الشخصيات بل أحيانا ما تتمثل لهم فيعيدون ممارسة طقوسها فى القرن الحادى والعشرين، لماذا تتفضل عليهم حتحور بفتح باب الحكمة الذى تأخذ الذات من متاهات الخارج وتدفعها إلى الغوص فى الداخل حتى يبدو ذلك وكأنه الخيار الوحيد لإنشاء بداية جديدة؟ لماذا تحولت حتحور فى الرواية إلى الحافز الذى يدفع بالشخصيات إلى تتبع درب سقراط «اعرف نفسك»؟ ألم يكن ممكنا لكل الشخصيات أن تعيش كل تلك الجوانية دون إطار أسطورى؟

تعد محاولات- أو بالأحرى محاولة- الإجابة عن تلك التساؤلات هى الرؤية التحليلية التى يسعى هذا المقال لتقديمها. وعليه لابد من التأمل قليلا فى معنى الأسطورة. يذهب التفسير التقليدى للأسطورة كما يوضح دون كابت Don Cupitt [٢] إلى أنها قصة مقدسة مؤلفها غير معروف وغالبا ما تصاحبها طقوس معينة، وأحيانا ما تدور حول شخصيات خارقة أو آلهة أو أنصاف آلهة أو أشباح أو أرواح، وهى غير مرتبطة بالزمن التاريخى بل بالزمن المطلق فى عالم الظواهر الخارقة، وهى بالتالى لا تسير وفق المنطق العقلى المألوف. فإذا ما تحققت تلك الشروط أو بعض منها فى السردية تحولت إلى أسطورة تكون وظيفتها من وجهة نظر كابت أنها «تشرح وترشد إلى الفعل أو تضفى شرعية ما» (ص٢٩). وبهذا تكون الأسطورة نسقا يشكل الإطار الأنطولوجى والاجتماعى للإنسان الذى يحاول أن يموضع حياته ليضفى عليها معنى.

تظهر خطورة مفهوم الأسطورة فى إمكانية انغلاق التأويل كونها قصة تنحو إلى الكلية المطلقة وهى بالتحديد ما حذر منه الناقد الأدبى كينيث برك عام ١٩٦٦ فى كتابه «اللغة كفعل رمزى»[٣] على أساس أن الكلية تعنى الإطلاق والجمود، لكنه لم يتحفظ على إمكانية التعامل مع الأسطورة بوصفها تقدم البحث عن الاكتمال perfectionism. وهنا تتضح أهمية التأويل الرمزى الذى حاول بول ريكور التجذير له. فالأسطورة بالنسبة له ليست مجرد أقاويل خاطئة كما نادت الحداثة وكما رسخت نظرة دونية لكل الأساطير بوصفها أوهاما لابد للعقل من التخلص منها. يرى ريكور أنه لابد من تجاوز ذلك التعريف وصولا إلى أهمية الأسطورة فى الكشف عن الكثير من الغموض عبر التركيز على رمزيتها المكثفة. ريكور إذن يعتبر الأسطورة أحد أبعاد الفكر الحديث بوصفها تساهم فى تقديم «كشف عن عوالم غير مسبوقة، وتقديم لعوالم أخرى ممكنة تتجاوز حدود عالمنا الحقيقى»[٤]. الأسطورة تفتح شكلا آخر ممكنا للوجود وهو ما يحولها إلى أداة تحررية بامتياز.

انطلاقا من هذا التأويل يمكن النظر إلى توظيف الأسطورة فى رواية «نون» بوصفها إطارا عاما يلتحم بمسار حياة الشخصيات ليفتح لها إمكانيات أخرى فى الحياة- سواء كانت تلك الإمكانيات معرفية أم نفسية. تتكشف هذه الإمكانيات الجديدة تدريجيا للشخصيات عبر مسار التعلم فتكون نهاية الدرب هى الإدراك الجلى أن كل نهاية ليست سوى بداية تفضى بدورها إلى نهاية، وهكذا تتأكد لا نهائية توالى الدوال والمدلولات وكأن النص يحفر استدارة حرف النون للتأكيد على استمرارية الحياة التى تستمد عنفوانها من مواجهة الخوف. تعلن حتحور ذلك صراحة للقارئ:.

مثل كل الحكايا ذات البدايات السعيدة لابد أن تأتى ما اعتدتم أن تسموه نقطة النهايات وهى فى الأغلب حزينة. لكن هل فكرتم يوما أن نقطة النهايات تلك قد تكون هى نفس نقطة البدايات. هى أولى الخطوات نحو عتمة الداخل بعيدا عن أضواء الخارج الباهرة التى تغشى أعينكم فتفوتكم الحقيقة الراقدة فى القاع فى هدوء منذ خلقتم أنتم البشر ونفخ فيكم الواحد الخفى من روحه. راقدة هى فى عمق الظلمة. بعيدا جدا. إلا على هؤلاء الذين يخطون تجاهها يقاومون خوفهم من تنين ذى رؤوس سبع قد ينفث نارا فى وجوههم. ولن أدعى كى أبسط المسائل عليكم أن التنين خرافة من صنع خوفكم. هو موجود بالفعل كما الأفعى ربة الحكمة وحاميتها من أيدى العابثين (٩٤-٩٥).

تدخل سارة تلك المنطقة المعتمة من الذات عبر وجعها الشديد من هجران نديم المباغت غير المفهوم، وهو الوجع الذى يتكثف باستعادة ذكريات العلاقة تفصيليا حتى يصل الأمر بها إلى إقامة جنازة رمزية لنديم فى نهر النيل (وهو ما يذكرنا بطقوس الكهانة). أما دنيا فقد سلكت درب المعرفة عبر التمرد على نمطية «علب السردين» (ص٧٩) التى حرصت والدتها سميحة على عدم انفراطها بل رسخت تلاصق الأرواح المتراصة التى تخشى الاختلاف وتهرب من نور المعرفة. سلكت دنيا درب «اعرف نفسك» عندما قررت أن تبدأ ذاتها من جديد وتنفض كل ما سبق من رضوخ لأرواح علب السردين. فى حين بدأت سارة طريق المعرفة من نهر النيل سلكت دنيا الطريق من كينج مريوط حين تلقت تدريبا على التأمل باليوجا مع

نــون
(روايــة)
سحر الموجى
القاهرة: تصدر الطبعة الثانية قريبــا
من دار الشروق

الهندى الذى جاء لزيارة مصر. أما حسام فقد بدأ رحلته من الواحات وبالتحديد عندما جلس فوق التل وأدرك جهله بذاته لغيابه الدائم عنها، كما أدرك أن المشكلة تكمن داخله وهو مناقض لما كان يفعله من إلقاء الهموم على السياق الخارجى المهزوم أيضا.

من اللافت للنظر أن سارة وحسام ودنيا قد عثروا على نقطة البداية فى أماكن رحبة (نهر النيل- الواحات- كينج مريوط) وهو ما لم تفعله نورا بالتحديد. فقد كانت أماكنها ضيقة مما انعكس على روحها فظهر الوجه السلبى لحتحور وتجلت سخمت التى تنهل من غضب نورا وتدفعها إلى نفث المزيد منه. لم تتواجد نورا سوى فى محل عملها الذى يموج بالإحباط وسيارتها التى غالبا ما تصدمها وفى جلستها مع حسام وسارة ودنيا حين تنهمك فى «لف» السجائر المخدرة وتبدأ فى إلقاء التهكمات على الجميع، وتصم أذنيها قائلة «حلوة النظريات قوى.. سهلة ومريحة» (ص٢٥٣). لم تسمح نورا لحتحور بالاقتراب منها كثيرا وهو ما تعيه حتحور جيدا ولا يمكنها فعل شىء حياله: «ولأن سخمت تجول داخلك فى الظلام بلا منافس من السهل على شبح الوحدة أن يتمكن منك لكن تلك هى معركتك يا نورا. لم أكن لأختار أبدا أن أرفع سيفى أن تحاول النظر إلى الداخل. هى إذن نفس اليد الآدمية لكنها تهب القمح مع حتحور وتسن السلاح مع سخمت. يقول فراس السواح أن سخمت هو أحد ألقاب حتحور «الذى يعنى الجبارة. وقد تحول هذا اللقب إلى إلهة مستقلة تحمل اسم سخمت وتحت هذا الاسم تبدو الأم المصرية الكبرى فى أقسى أشكالها كإلهة للحروب والمذابح الجماعية»(٦).

يتركز جوهر الرواية على مفهوم العبور الذى يتخذ شكلا طقسيا. ويتحقق هذا الطقس عبر الغوص فى الذات واستكشاف مخاوفها ورغباتها وهواجسها وكسر أوهامها. تضفر الكاتبة هذا الطقس مع بنية النص فتكتسب بعض العناصر معانى ذات دلالة مكثفة مما يحولها إلى جزء أصيل من البنية. يتحول هذا الثراء الدلالى إلى خطوات تفضى رويدا رويدا إلى طقس العبور الكامل. فى ذروة مواجهة سارة لخيانة نديم تشرح حتحور الطقس: «طقس العبور يا ابنتى ليس واحدا. كلما مرقت من باب انفتح آخر. وكلما خرجت من سرداب دخلت التالى. شبح هنا وقصة منسية هناك. لكن الرحلة مع الوقت- ورغم الأسى- تصير ممتعة وعيناك قد اعتادتا العتمة فانتبه قلبك. وأذناك وقد اعتادتا الصمت بإمكانك الآن أن تنصتى إلى أصوات الآلهة» (ص١٧٠).



فاطر١٣، يونس ٦، الروم ٢٣، السجدة ٢٩، يس ٣٧). أما الظلمات فهى غير محمودة بل هى بمثابة عقاب إلهى (النور ٤٠). وكل ذلك يفسر عتبة النص المقتبسة من فؤاد حداد والتى تسبق اجتماع سارة ودنيا وحسام ونورا:

يا فطرة سمحة ونفوس رقيقة
أنا لما جيت أخدم الطريقة
شيخنا اللى عارف سر الحقيقة
بسط يمينه وقال يا مريدى
عينك فى عينى وايدك فى ايدى
كل الخلايق اخوات شقيقة
أحلف بنون والمؤمنون
قلب الليلة دى أخضر حنون

(ص٢٤٩).

وهذا يدخلنا فى ثانى الدلالات الطقسية التى تضفر البنية مع المعنى وهى الاقتباسات التى تسبق كل جزء - الرواية أربعة فصول وكل فصل يضم عدة أجزاء فيكون المجموع ثمانية وعشرين جزءا. تتميز هذه الاقتباسات بالثراء الدلالى والتنوع الشديد- مما استدعى ثبت المصادر فى الهوامش- ما بين الصلوات فى المعابد وشعر محمد الماغوط وفؤاد حداد ومرورا بالشعر الغربى المأخوذ من تيد هيوز وريلكه واميلى ديكنسون. وكلها اقتباسات تفتح وتمهد عتبات بوابات الولوج إلى الداخل فيأتى ما بعد هذه العتبة- أى الأحداث فى المتن- إما

مرتحلة!

شيرين أبو النجا

وأحارب مكان أحدكم. ربما عندما أراه قد أعد العدة وحشد الحشود وأسانده بكل طاقتى. حتى ذلك الحين سأقف متيبسة فى عجزى» (ص٢٩٦). تشبثت نورا بظلمة سخمت فى حين تحررت الشخصيات الأخرى عبر عتمة حتحور. ارتضت نورا عدم التحليق فى سماء المعرفة وأغلقت كل دروب التعلم فانطبق عليها قول أمل دنقل عن الطيور:

والطيور التى أقعدتها مخالطة الناس
مرت طمأنينة العيش فوق مناسرها..
فانتخت،
وبأعينها.. فارتخت،
وارتضت أن تقاقىء حول الطعام المتاح
ما الذى يتبقى لها.. غير سكينة الذبح،
غير انتظار النهاية.

إن اليد الآدمية.. واهبة القمح
تعرف كيف تسن السلاح!(٥)

فى ظل هذه القصيدة تبدو روح سارة ودنيا وحسام ومن قبلهم كاتى خالة سارة وبهاء والدها وكأنها انفتحت جميعا على دروب «اليد الآدمية.. واهبة القمح» وهى يد حتحور، وفى مقابل ذلك لم تعرف روح نورا سوى «كيف تسن السلاح» مما جعلها تلقى باللوم على كل ما هو خارجها دون

أولى هذه الدلالات الطقسية هو «العتمة»، أى التخلص من أضواء الخارج المبهرة والنجاح فى مواجهة سراديب العتمة الداخلية المتراكمة فى الذات منتظرة أمل رفع الصدأ عنها بيد الساعى وراء النور. هى عتمة الرحم الأزلى لنون الذى اختبأ فيه رع حفاظا على بريقه ومن ثم اختبأ فى برعم زهرة اللوتس حتى تمكن أن يكون ذاته(٧). العتمة إذن هى أعلى درجة من النور الذى يساعد على ترعرع شجرة المعرفة. وهو ما يحدث للكهنة والكاهنات على بداية الدرب «أيام وأسابيع فى الظلام الحالك ستلغى اعتمادهم على أعينهم، وتعيد إليهم باقى الحواس»، ومن ثم تتجلى حالة الانتباه الكامل التى «ستمكن هؤلاء الكهنة والكاهنات من الولوج من ذاك الباب السحرى بين عالمين. فيستمع إ ما لا يسمعه الآخرون ويرون ما لا يراه آخر» (ص٢٨٧). يحتل هذا الاقتباس عتبة ذروة إخفاق نورا إذ كانت رحلتها مفارقة تماما للمعنى المأمول. فقد فضلت أن تبقى فى ظلمة الأضواء الباهرة دون الاقتراب من عتمة الداخل، وهو ما يستدعى إلى الذهن معنى الليل والظلمة فى القرآن الكريم. فالليل مفضل على النهار ويتقدمه دائما حيث هو الأصل الذى ينبثق منه النور (انظر على سبيل المثال: النمل ٨٦، فصلت ٣٧، القصص ٧٣،

يمكن النظر إلى توظيف الأسطورة فى رواية «نون» بوصفها إطارا عاما يلتحم بمسار حياة الشخصيات ليفتح لها إمكانيات أخرى فى الحياة- سواء كانت تلك الإمكانيات معرفية أم نفسية

متممة للاقتباس أو مفارقة له مما يكسب الاقتباس معنى جديدا ويضع المتن فى سياق ثقافى أوسع. أما وظيفة الاقتباسات فى الرواية فهى مزدوجة. فيمكن قراءتها أفقيا وكأنها نص مواز ينهل من لغة روحية (الصلوات) ولغة شعرية. ويمكن قراءتها رأسيا فتظهر بجلاء عدم القطيعة مع الماضى فيتجلى المتن وكأنه تنويعات على النجاح أو الإخفاق فى طقوس الكهانة المستلهمة من الماضى.

تتكشف أكثر هذه التنويعات فى العناصر التى تبلورها الكاتبة فيما يخص عوالم الشخصيات. تتيح شخصية سارة مثلا الأكاديمية بقسم علم النفس بجامعة القاهرة فكرة إنجاز بحث عن ساحرات العصور الوسطى، يتوازى البناء المعرفى لهذا البحث مع الأحداث ومع التوغل فى الرحلة إلى الداخل يتطور البحث فكأنه يفسر ما يحدث ويلقى مزيدا من الضوء عليه. تقول سارة فى جلستها الحميمة مع صوفى خالتها: «البحث ده آخدنى من منطقة ساحرات العصور الوسطى والقهر فى أوروبا وقتها لمصر فى السنين الأخيرة وبعدين رجع بى لمنطقة الكاهنات فى الحضارات القديمة. شىء مذهل ازاى البشر قلبوا صورة الكاهنة- اللى كانت بتعتبر تجسيد بشرى

كتاب الزاوية

تقويض الاستقلال الاقتصادى

عادل حسين

فى الحالة المصرية، خططت الولايات المتحدة، مباشرة ومن خلال الهيئات الدولية (صندوق النقد الدولى والبنك الدولى للإنشاء والتعمير)، لكى تعيد الدولة المصرية (وسياساتها الاقتصادية) إلى وضع التبعية، وقد نجح مخططها، وأصبح الاقتصاد المصرى خاضعاً بالفعل لإدارة أجنبية، ولكن نجحت السرية فى إخفاء معالم ما تحقق وكيف تحقق. (...).

إننا بصدد معركة معاصرة وما زالت مستمرة، وبالتالى ينبغى أن نتسلح بالحجج اللازمة لدحر الأعداء فى هذه المعركة، وخاصة أن الحالة المصرية ليست حالة استثنائية، إنها مجرد مثال بارز لما يسمى «سياسة الانفتاح».(...) ولكن بوسعنا أن نؤكد أن الاتجاه العام للانفتاح – بما يتضمنه من تبعية وتعليمات خارجية – منتشر فى أغلب الأقطار العربية بدرجة أو أخرى.

الهجوم المخطط لتقويض الاستقلال الاقتصادى:

كان طبيعيًا أن يطلب من الجانب العربى، ومن مصر بشكل خاص، إثبات حسن النية بعد تاريخ «أسود» من الكفاح ضد الإمبريالية. كان لا بد أن تساعد مصر فى إعادة ترتيب الأوضاع داخل المنطقة على نحو يكفل اطمئنان الولايات المتحدة على مصالحها(...).

ولكنها (الولايات المتحدة) لم تغفل لحظة عن تعميق التناقضات العربية، ولم تغفل أبدًا عن إحكام سيطرتها على مواقعها النفطية فى الخليج، ولم تغفل أبدًا عن إحداث ثورة مضادة متكاملة فى مصر وغيرها، ولم تنشغل طبعًا أو تقصر فى تسلح إسرائيل.

لآلهات العالم القديم وطبعا لكل القيم الأنثوية الأمومية المانحة والحافظة للحياة- للصورة الضد. الساحرة الشريرة» (ص١٣٥). يرمز هذا التطور الفكرى لسارة إلى رحلة العبور بشكل عام. فساحرات العصور الوسطى فى أوروبا كان يتم حرقهن لقدرتهن على الاختلاف عن السائد ولتجاوزهن الحدود المرسومة للعوالم التى تشبه علب السردين فى العصر الحديث. ومن ثم تكون المواجهة مع الذات والتصالح معها بمثابة إعادة احياء للكهانة القديمة وهو ما أنجزته سارة ودنيا وحسام، ومن قبلهم صوفى خالة سارة وبهاء والدها وايزابيلا جدتها. بذلك يتماهى التطور الدائرى للبحث مع البنية الدائرية للنص (تشبث بعوالم ضيقة- تأمل فى البدائل- عودة إلى الذات)، ويعكس أيضا رحلة العبور التى تعبر بالشخصيات إلى منطقة جديدة دون أن تهجر الماضى. فايزابيلا جدة سارة الإنجليزية قد غرست بذور الكهانة فى سارة الصغيرة وكبرت سارة ولم تنس أبدا الدرس. يؤكد هذا التواصل على النسب الأمومى بكل قيمه ويجعل رحلة العبور ممكنة فى كل الأزمنة (زمن الجدة وزمن سارة) وفى كل الأماكن (إنجلترا ومصر). ولذلك لا تموت الجدة إلا عندما تكون سارة قد عبرت تماما داخل ذاتها، وعندها فقط تتخلى حتحور (الموازية للجدة) عن لعبة الحكى. فى أثناء تطور البحث- أو بالأحرى عندما أوشك على الاكتمال- تدرك سارة هذه الحقيقة: «كنت فاكرة مثلا إن الكهانة القديمة انتهت. لقيت لأ. كنت فاكراها لا تورث. وهى كده بمعنى ما. لكن برضه لأ. البذرة بتبقى جوانا والمسألة بتتلخص فى إذا كنا قادرين ناخد بالنا منها ونسقيها من مية قلوبنا ولا حنسيبها تموت» (ص١٣٥).

لم تأت إذن عناوين الفصول بشكل عشوائى، بل هى مضفورة مع رحلة العبور تماما وتعمل كمؤشر لقياس مدى التوغل فى الداخل. «فى البدء كان الأبيض» يطرح غواية الحكاية، براءة الألم الأول، وجع التورط فى علاقات ميتة. هو الأبيض الذى يعلن البداية الأولى فى الهزائم والتى تبدو فى ظاهرها النهاية. «الجمر الأحمر» يصور محاولات سخمت فى السيطرة بحنقها على النفوس المتورطة المهزومة المختنقة داخل علب السردين (دنيا) والمتراجعة عن تحقيق فرديتها خوفا من مجتمع قاس لا يرحم. هى الأرواح التى تحيا فى شخص فتتوقف الحياة لأنه غادر (نديم وسارة) والتى تحاول جاهدة استعادة البدايات الأولى (حسام وليلى)، وهى الأرواح الحانقة الغاضبة أبدا (نورا) والملقية بهزائمها على كل ما هو خارجها (صفر المونديال واعتقال صدام). من هنا تبدأ «سراديب الأسود» فى محاولة لاستكشاف بدائل مدفونة داخل العتمة، وهى البدائل التى يتحول بعضها إلى نور كما فى حالة سارة التى نجحت فى اقتلاع نديم من داخلها، أو دنيا التى تحاول العثور على السرداب الداخلى عبر الأحلام، وقد يتحول بعض هذه البدائل إلى ظلمة مطبقة كما فى حالة نورا. لكل الذين نجحوا فى الولوج إلى الداخل تكون «تجليات الذهب» فى انتظارهم. تماما كما فى الأسطورة حين اختبأ رع فى رحم نون ثم خرج إلى العالم ليكون الشمس الذهبية.

فى الفصل الأخير «تجليات الذهب» تتواصل الأزمنة والأمكنة، الماضى والحاضر ليكتمل الطرف الثانى من حرف النون على مستوى الدلالة الشكلية. تولد البدايات من رحم النهايات الوهمية، بدايات تصنعها الذات بإرادتها وتنساب بخفة تماما كأمواج المحيط، كالنون فى استدارتها التى كان يكتبها نعمان لسارة حفيدته عندما تطلب منه أن يكتب اسمها بالهيروغليفية. فى «تجليات الذهب» يتأكد الجميع- ما عدا نورا- أن «قلب الليلة دى أخضر حنون»، وأن كل النهايات لابد أن تبقى مفتوحة لتولد بدايات جديدة لا نهائية فى استمراريتها تماما كالنون. حتى حتحور التى بدأت النص لاعبة أدركت أنه:

هكذا لن تنتهى الحكايا. ذلك لأن الحكايا دوائر وفى داخلها دوائر أخرى ومن حولها دوائر أوسع. وليست كل الدوائر واضحة. أحيانا، بل كثيرا، ما تتداخل. وهنا يبزغ التساؤل، أين نقطة النون، أين بدايات الحدث، وإلى أين تذهب انحناءاته. أم نحن الذين ستذهب بها. عندئذ يمكننا أن نبدأ دوما بـ «اخترت أن أبدأ الحكاية من نقطة..هكذا يجب أن تبدأ الـ...» (ص٣٦٥). ■

هوامش:

١- فراس السواح، لغز عشتار. الالوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة. دمشق: دار علاء الدين، ط ٥، ١٩٩٣، ص ٧٨.

٢ - Don Cupitt, The World to Come. London: SCM Press, ١٩٨٣.

3- Kenneth Burke, "Doing and Saying: Thoughts on Myth, Cult and Archetype", Salmagundi 7: 100-119, 1971.

4- M.J. Valdes (ed.). A Ricoeur Reader: Reflections and Imagination. New York and London: Harvester/Wheatsheaf, 1991, p.490.

٥ . أمل دنقل، الأعمال الشعرية. القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٩٥، ص ٤٥٧ .

٦ . فراس السواح، لغز عشتار، ص ٢٢٠ .

٧ . المصدر السابق، ص ١٢٦.

زنبقة النهار!!!

محمد يوسف عدس



الصدفة القدرية هى التى جمعت الشخصين ليواجها مؤامرة واحدة ومصيراً واحداً، فقد كان دكتور ماكنكولز بدوره مستهدفًا من داخل الجامعة وخارجها بسبب أبحاثه التى كشف فيها عن حقيقة أن المحاربين القدامى العائدين من حرب الخليج الأولى فى عهد الرئيس بوش الأب ليسوا مصابين بأمراض عصابية نفسية وإنما هى أمراض عضوية

المشهد الذى نستعرضه فى صدر هذا المقال - رغم أنه درامى فى حواره ولغته - إلا أنه ليس جزءاً من مسرحية ولا رواية أدبية، وإنما هو تصوير لواقعة حقيقية جرت بين اثنين من العلماء، كل واحد منهما يمثل عالمًا مختلفاً كل الاختلاف عن الآخر، سواء ذلك فى التفكير أو المبادئ التى يعتنقها كل واحد منهما ونظرته إلى الكون والحياة.

وأهمية هذا المشهد ترجع إلى أنه كان نقطة البداية لصدام محورى رهيب، أو بالأحرى حملة كاسحة استخدم فيها الطرف الأقوى كل أساليب المكر والسلطة والنفوذ لسحق ضحية خالية الذهن، لم تكن تدرك فى بادئ الأمر سر هذه الحملة، بل غير واعية أصلاً بأن هناك مؤامرة لاستئصالها والقضاء عليها.

زمن هذا المشهد فى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، والمكان هو مكتب الدكتور «فريجيل روك» رئيس قسم البيولوجيا فى إحدى كليات الطب بالولايات المتحدة، الذى دعا أصغر وأحدث عضو التحق بهيئة التدريس والبحث بالكلية وهى الدكتورة «مارى لوبين».. كان الهدف المعلن من الدعوة هو مناقشة السياسة الأكاديمية وشرح التوجهات البحثية، والاستفسار عما أعدته الباحثة لمؤتمر عالمى دُعيت إليه وكان مقر عقده فى دولة من دول الشرق الأوسط. أما الهدف الحقيقى من استدعاء رئيس القسم للدكتورة «مارى لوبين»، فكان شيئاً آخر تماماً، شيئًا لم يَدُر بخلدها ولا ذُكر أمامها من قبل منذ لحظة تقدمها لهذه الوظيفة.. مروراً بإجراءات ومناقشات المقابلة الوظيفية حتى يوم صدور قرار بقبولها وتعيينها بالكلية!

لفت نظر الدكتورة «مارى لوبين» عند دخولها مكتب رئيس القسم أن جدران الغرفة مزينة بعدد كبير من الصور التى تستعرض نشاطاته الواسعة: صورة مع جورج بوش الأب، وصور أخرى لزياراته إلى دول العالم الثالث ومنها مصر، وصور له فى زياراته لسجون تكساس، حيث كان يجرى أبحاثه على نزلائها بزعم مساعدتهم فى تشخيص وعلاج أمراضهم، مما أفاضت فيه الصحف الأمريكية ووصفته بالعالم الخير المحب للضعفاء والمقهورين.

كانت دكتورة مارى فى الثلاثينيات من عمرها، طويلة القامة معتدلة القوام تمشى شامخة الرأس بثقة فى النفس واضحة، وتبدو على وجهها سيماء النبل والجمال، مما لا يتوفر عادة فى كثير من النساء المشتغلات بالعلم والأبحاث.

أجلسها دكتور بروك فى مقعد أمامه وهو ينظر إليها نظرة فاحصة ثم سألها: «مارى.. سوف أتحدث إليك مباشرة عن نقطة مهمة هى سبب دعوتك للحضور هنا.. أريد أن أستوضح منك: ما هو رأيك فى الحرب البيولوجية؟

سؤال لم تتوقع سماعه فى مثل هذا المناخ الأكاديمى بالذات.. ناهيك عن أن يصدر من دكتور بروك! لقد كان آخر شىء يمكن أن تتصوره من هذا العالم المشهور فى الإعلام بروحه الإنسانية وسعيه فى إنقاذ حياة المرضى بسجون تكساس.. تمالكت دكتورة مارى نفسها وردت بإجابة حاسمة.. وربما صادمة أيضاً حيث قالت:

«سيدى.. إن الحرب البيولوجية عمل لا أخلاقى تماماً.. ولعلى أضيف أيضاً بأنه عمل غبى إلى أقصى حدود الغباء.. فنحن لا نستطيع أن نسيطر على الكائنات الحية الدقيقة إذا أطلقناها من عقالها».

ابتسم دكتور روك ابتسامة صفراء وهو بادى الامتعاض.. ثم تابع أسئلته فى نفس الموضوع وكأنه لم يسمع إجابته: «هل يمكن أن تشاركى فى أبحاث من هذا القبيل؟».. فهزت دكتورة مارى رأسها بالنفى القاطع وأردفت قائلة: «لا.. على الإطلاق» ثم تابعت:

«هل من المفيد أن أذكرك يا دكتور روك بأنك خبير فى علم البكتيريا والفيروسات.. فأجاب بشىء من السخرية لم يحاول إخفاءها.. قال: أعرف أننى خبير الفيروسات والبكتيريا.. فماذا تقصدين؟».

قالت مارى: «مع احترامى الشديد لك ولمكانتك العلمية.. ولكنك لا تعرف جوانب من سلوك بعض أنواع من البكتيريا التى أُجرى عليها تجاربى، وهى فى صميم تخصصى وخبرتى!».

حك دكتور روك رأسه وقد بدا عليه مزيد من الاستياء والإحباط، ثم تابع أسئلته دون أن يعلق على ما قالته بشىء: «إذا سمعت عن أبحاث عن الحرب البيولوجية تجرى قريباً منك أو فى محيطك فهل تلتزمين الصمت بإزائها؟».

ترددت دكتورة مارى هنيهة وهى تفكر فى هذا الكلام العجيب ثم أجابت بلهجة تأكيد لا تدع مجالاً للشك: «لا.. لا أعتقد أننى يمكن أن أصمت!».

كان دكتور روك قد أفرغ اخر ما فى جعبته فى سبر أغوارها حيث بلغ قمة شعوره بالإحباط والكآبة ثم قال: «حسنًا يا مارى.. إنك لا تصلحين كلاعب فى فريق.. وأنت على كل حال أدرى بمصلحتك الخاصة.. ولكنى أؤكد لك أن أفكارك لا تسير على نفس الخط من التفكير السائد هنا.. وموقفك غير ملائم برمته من الناحية السياسية فى هذا المناخ.. هل تفهمين ما أقول..؟.

لقد تبين لمارى واضحاً فى تعبيرات وجه دكتور روك غضب عارم وروح عداء سافرة وكأنه يتمنى لو ينشب أظافره فى عنقها..

من عرف دكتورة مارى يعلم أنها تتمتع بقدر كبير من الذكاء والتفوق فى مجال تخصصها، ولها إنجازات علمية لا تُنكر، ولكن هذا لا يتنافى مع أن تكون فى الناحية السياسية ساذجة.. فهى كغيرها من العلماء المنكبين على أبحاثهم المستغرقين فى نشاطاتهم التخصصية، وليس لديهم أى فكرة ولا حتى فائض من الوقت يسمح لهم بالتدقيق فى فهم البيئة التى يعملون فى إطارها.. إنهم على قدر من السذاجة - فى هذا الجانب - يجعلهم عاجزين أو منصرفين عن فهم ما يدور حولهم..

اهتز عالم دكتورة مارى من أقطاره كلها فجأة، وأصيبت بصدمة فى هذه الشخصية التى تمثل عندها نموذجاً للعالم الإنسان المخلص فى مساعدة البائسين والمقهورين من نزلاء السجون.. لقد انكشف لها فجأة الجانب المظلم لهذه الشخصية اللامعة.. وشعرت بتصادم هائل بين أهداف هذا الرجل وبين أحلامها الشابة ومثاليتها!

حاولت أن تدافع عن نفسها دون مزيد من التصادم مع رئيسها فى العمل فقالت: «سيدى أعرف أننى مختلفة.. ولكننى أحاول فهم مواقف الآخرين وآرائهم.. ولا أعتقد أننى مخطئة فى موقفى السياسى، وإنما لدى مقترحات مختلفة لمعالجة المشكلات التى تواجهنا».

كانت غاية الرجل من كل أسئلته أن يسبر أغوار دكتورة مارى ليعلم مدى استعدادها لأن تضع التزامها الأخلاقى جانبًا، وأن تفعل شيئًا مخالفًا لهذا الالتزام لكى تحافظ على وظيفتها الجديدة. ولكنها رسبت فى هذا الاختبار ووقعت الواقعة، فلم يعد لكلام مارى الأخير أى تأثير أو معنى جدير بالالتفات إليه.. ولم تدرك أنها قد وصلت إلى باب مسدود بالنسبة لمصيرها الأكاديمى فى قسم دكتور روك إن لم يكن فى الجامعة كلها..

نظر الرجل نحو النافذة ثم قال: «بالمناسبة يا مارى.. هل تحبين الناس؟.. إننى أعتقد أنك عاطفية من الأعماق؟».. ومرة أخرى تحس مارى برشقة جديدة فى صميم مشاعرها مع استمرار مسلسل الأسئلة الغريبة التى يسددها إليها دكتور روك.. ووجدت مارى نفسها تنطلق فى الكلام فتقول: «دكتور روك لقد قررت أن أكون واحدة من العالمات عندما حددت هدفى فى الحياة وهو مساعدة أولئك الذين يعانون الأمراض.. لقد كرست حياتى لهذه الغاية خلال تجاربى فى البحث العلمى». تحول روك بكليته نحو مارى قائلاً بحدة: «من أين جئت بهذه الأفكار الغبية؟!».. ثم أضاف دون أن يدع لها فرصة للرد: «لا يهم الآن..» ثم تحول عن الموضوع وأضاف بسخرية واضحة: «لا شك يا مارى أن رحلتك إلى الخارج ستكون مثيرة لك.. ولكن قبل أن أنسى.. عليك أن تأخذى بعض التطعيمات الضرورية قبل السفر، فليس هناك أتعس من أن يقع المرء فريسة للمرض وهو بعيد عن وطنه.. ولكى أريحك فقد أعددت لك كل الطعوم اللازمة بنفسى.. ويمكنك أن تعودى إلى مكتبى مرة ثانية فى آخر النهار للحصول عليها.. كما أرجو أن تُعدى ملخصاً وافياً للمؤتمر..».

خفف دكتور روك من لهجته الحادة، فأصبح أكثر ليونة ولُطفاً عندما قال: «مارى.. إنه تشريف كبير لمن كان مثلك فى مُبتدأ حياته الوظيفية هنا أن يُدعى إلى هذا النوع من المؤتمرات العالمية ذات المستوى الرفيع.. فأرجو ألا تُفسدى هذه المناسبة.. هل تفهمين ما أعنيه؟!». لم تجد مارى ما ترد به عليه سوى أن هزت رأسها بالإيجاب.. ولكنها لم تفهم كيف تحول الرجل من حدته فجأة إلى إنسان لطيف رقيق!

وقد انفتحت أبواب

Project Day Lily: An American Biological Warfare Tragedy

(مشروع داى ليلى: مأساة الحرب البيولوجية الأمريكية)

Garth Nicholson

Xlibris Corporation: 568pp, $26.99, 2005

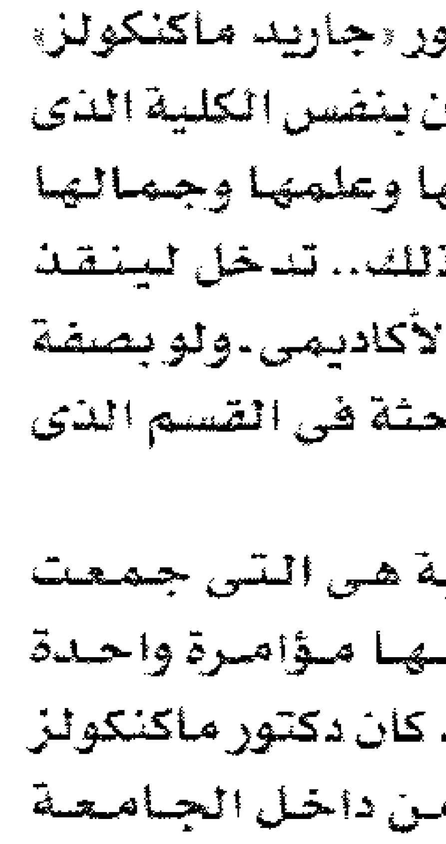
الجحيم على دكتورة مارى وبدأت الحرب الخفية تلاحقها فى كل مكان بكلية «بلفورد»: شائعات لا يُعرف مصدرها عن الوافدة الجديدة، وقبل أن تتعرف إلى الناس أو يتعرفوا عليها تشكلت ضدها مواقف معادية من جانب زملائها الأكاديميين الذين قاطعوها، ومن موظفى الإدارة الذين عاملوها بازدراء، ومن طلاب الكلية الذين أمطروها بملاحظاتهم البذيئة.. وقاطعوها فى محاضراتها، حتى إنها لم تستطع أن تكمل فكرة واحدة طرحتها فى محاضراتها.. لقد بلغ انحطاط الشائعات أن نسبت إليها اتهامات فى شرفها..

سافرت مارى إلى المؤتمر ولكنها بعد عودتها بدأت تشعر بأعراض مرضية غريبة، فقد بدأت الطعوم التى حصلت عليها قبل السفر تفعل فعلها الآن.. إنها لم تدرك هذه الحقيقة إلا متأخراً..

استقبلها رئيس القسم بتجاهل وإعراض شديدين وأخبرها صراحة أنها لم تعد تصلح للعمل فى قسمه وعليها أن تبحث لها عن مكان آخر.

هنا يتدخل دكتور «جاريد ماكنكولز» رئيس قسم السرطان بنفس الكلية الذى كان معجباً بأخلاقها وعلمها وجمالها وأصبح زوجها بعد ذلك.. تدخل لينقذ حياتها ومستقبلها الأكاديمى.. ولو بصفة مؤقتة. فألحقها باحثة فى القسم الذى يرأسه.

الصدفة القدرية هى التى جمعت الشخصين ليواجها مؤامرة واحدة ومصيراً واحداً، فقد كان دكتور ماكنكولز بدوره مستهدفاً من داخل الجامعة وخارجها بسبب أبحاثه التى كشف فيها عن حقيقة أن المحاربين القدامى العائدين من حرب الخليج الأولى فى عهد الرئيس بوش الأب ليسوا مصابين بأمراض عصابية نفسية وإنما هى أمراض عضوية يمكن علاجها بالأدوية وأنها أمراض ناتجة من تعرض هؤلاء الناس لملوثات بكتيرية وكيميائية.. وبهذا تحدى الموقف الرسمى الذى أعلنه



البنتاجون وأصر عليه وروج له إعلامياً، بهدف القضاء على الشكوك التى بدأت تساور الأمريكيين حول سر هذه الأمراض وأسبابها الخفية، حتى لا تتطرق إلى الرأى العام أى فكرة عن وجود أسلحة بيولوجية سرية، تطورها الولايات المتحدة، فتفقد بذلك فاعليتها، وكان البنتاجون يفضل التضحية بمرضى حرب الخليج مع علمه أن المصابين منهم ومن أسرهم قد بلغ عددهم مائة ألف أو يزيدون على أن يفشى هذه الأسرار العسكرية، واعتبر أن من يتصدى لإفشائها خائن لبلاده.

أما بالنسبة للدكتور ماكنكولز، فإنه ترك ما يزيد على مائة ألف من الأمريكيين يعانون أمراضا مجهولة العلاج حتى الموت هو جريمة وطنية لا أخلاقية ولا إنسانية، وبسبب هذا الموقف استحق دكتور ماكنكولز هو الآخر العقاب.

وسوف نكتشف ونحن نتابع مأساة دكتور ماكنكولز وزوجته مارى أن هناك سبباً إضافياً آخر لرغبة السلطات داخل الجامعة وخارجها فى استئصالهما معاً: إن مارى هى الوريث الشرعى الوحيد لثروة طائلة تقدر بمليارات الدولارات، أوصى بها أبوها الذى توفى فى ظروف غامضة وهى لاتزال طفلة، حيث تولت أسرة أخرى تربيتها وأخفى عنها تماماً نسبها الحقيقى وميراثها.. تعرف مارى هذه الحقيقة متأخراً، وتبدأ البحث عن ميراثها والمطالبة به، بل تعرف أكثر من هذا أن هناك مجلساً من الأوصياء الأشرار يديرون هذا الإرث وينهبون منه الملايين لخدمة مصالحهم الخاصة، بل الأدهى من ذلك أن الجزء الأكبر من هذا الإرث يمول مراكز أبحاث الأسلحة البيولوجية فى البنتاجون وفى عشرات من الجامعات الأمريكية من بينها الجامعة التى تعمل هى فيها.. ومن هذا نفهم سر عداء إدارة الجامعة لها وعلى رأسهم مدير الجامعة، فهم جميعاً متعاونون مع مجلس الأوصياء ومع شخصيات ذات نفوذ فى الإدارة الأمريكية للإبقاء على هذه الثروة تحت أيديهم حتى لو اقتضى الأمر تحطيم صاحبة الإرث الشرعية نفسياً وأكاديمياً ثم التخلص منها هى وزوجها نهائياً.

وقد جرت محاولات عديدة لوضع السم فى طعامها وفى طعام زوجها وأصيبت بأمراض قاتلة لولا وجود زوجها بجانبها فى الوقت المناسب لإنقاذ حياتها وعلاجها.. ولم يقتصر الأمر عند ذلك فقط، بل افتعلت لهما حوادث تصادم بسيارات نقل استهدفت سيارتهم الصغيرة لولا تداركتهما العناية الإلهية فى كل مرة.. كما تم تحطيم سقف منزلهما واقتحامه والاستيلاء على أوراقهما وأجهزة الكمبيوتر التى يستخدمانها، بقصد الوصول إلى أى دليل لإدانتهما والتشهير بهما. وأخيراً لم يجد الدكتور نيكولز وزوجته بداً من الفرار بحياتهما بعيداً عن الجامعة وعن ولاية تكساس كلها لينشئا فى كاليفورنيا مركزاً خاصاً للأبحاث ويواصلا مساعدة مرضاهم من رجال البحرية الأمريكية، واستطاع بعض الضباط الكبار من الذين نجح دكتور ماكنكولز فى علاجهم أن يكونوا عوناً له فى إنشاء هذا المركز ومساندة نشاطه وأعماله فى مجال البحث والعلاج.

«التجربة فى كتاب منشور»

قرر الزوج وزوجته أن يسجلا هذه التجربة الرهيبة فى كتاب مفصل يفضح فريقاً من العلماء الأشرار المتآمرين على حياة البشرية مع مجموعة من المتنفذين فى الإدارات الحكومية والبنتاجون بصفة خاصة فى تطوير وصناعة أسلحة بيولوجية سرية يمكن أن تهدد حياة البشر على هذه الكرة الأرضية بالفناء التام، جاء العنوان الفرعى للكتاب: «تراجيديا الحرب البيولوجية الأمريكية»، أما العنوان الرئيسى فهو: «مشروع داى ليلى» Profect Day Lily، و«داى ليلى» نوع من الزهور الجميلة هى زهرة السوسن أطلقه علماء الأسلحة البيولوجية وصفاً لميكروب جديد تخلّق فى معاملهم تحت إشراف البنتاجون هو ميكروب «مايكوبلازما فرمنتانس».. وهو ميكروب بالغ الخطورة يتسبب فى أمراض كثيرة.. ومن خطورته أنه لا يظهر فى أى تحليلات معملية للدم وبالتالى يستحيل علاجه.. وبقاؤه سراً على هذا النحو ضرورى لاستمرار فاعليته وتأثيره كسلاح سرى فى الحرب البيولوجية التى تشنها أمريكا على العالم..

ويغلب عندى الظن أن فيروس أنفلونزا الطيور سوف يكون أحد الأسلحة الأمريكية الجديدة، خصوصاً بعد أن أوشكت «المايكوبلازما» أن يُكشف عنها الغطاء وتُعرف وسائل علاجها.

الاسم الحقيقى للمؤلفين هو: دكتور جارث نيكولسون ونانسى نيكولسون، وقد انتحلا فى قصة الكتاب اسمين مستعارين هما: جاريد ماكنكولز ومارى لوبين، علماً بأن كل الأسماء الأخرى الواردة فى الكتاب منتحلة وليست حقيقية أيضاً، وقد نبه المؤلفان القارئ إلى هذه الحقيقة فى مقدمة الكتاب، وأوضحا السبب فى ذلك وهو: أن ذكر الأسماء الحقيقية للشخصيات من شأنه أن يعرضهما لمساءلات قانونية لا قبل لهما بها، ورغم أن الأسماء مستعارة إلا أن الأحداث الواردة فى الكتاب كلها حقيقية، وكذا الحوارات التى دارت فيه تم بناؤها من واقع خبرتهما الشخصية وذكرياتهما ومن شهود عيان تطوعوا بنقلها إليهما. أما الحقائق العلمية التى نوقشت فى الكتاب فهى حقيقية أيضاً، وقد تم توثيقها فى دراسات وأبحاث منشورة، وفى تقارير وشهادة رسمية أمام لجان تحقيق رئاسية وفى الكونجرس الأمريكى.

إنها تجربة بالغة الغرابة أودعها المؤلفان فى كتاب من ٥٦٨ صفحة مشتملة على الوثائق والتقارير الرسمية فى ملاحق الكتاب.

يصور المؤلفان شخصيات الكتاب تصويراً دقيقاً يرقى إلى مستوى الأدب الرفيع، وذلك من خلال حركاتها وسلوكها والحوارات التى دارت بينها.. وقد صيغ كل هذا صياغة أدبية محكمة تجعلنا نشعر أنها تعبر تعبيراً صادقاً عن السمات الفريدة المتميزة لكل شخصية على حدة. ومن خلال حواراتهم وسلوكهم يتبين لنا أن أكثر هؤلاء العلماء منخرط فى هذا النشاط اللاأخلاقى بل الإجرامى - وأقصد به إنتاج أسلحة بيولوجية قاتلة - (عن اقتناع) وكأن الواحد منهم يحقق أيديولوجيته الخاصة ورؤيته للعالم والبشر.

ولكننا سنصادف أيضاً علماء آخرين - على قلتهم - قد انخرطوا مرغمين فى هذا النشاط ولم يدركوا حقيقة ما تورطوا فيه إلا متأخراً، وتبين لهم أنه لا فكاك لهم، لأن حياتهم وبقاءهم مرهونان بالكتمان والاستمرار فى العمل وعدم البوح بأسراره. وأمامهم أمثلة بارزة على ذلك حيث فقد خمسة من العلماء حياتهم فى ظروف غامضة لأنهم أبدوا اعتراضهم على الأسلحة البيولوجية وأرادوا الانسحاب من هذه المهمة الإجرامية. بل إن جنرالاً فى البحرية الأمريكية فقد حياته بنفس الأسلوب لمجرد أنه تجرأ وحاول التحقق والبحث عن طبيعة «ظاهرة مرضى حرب الخليج» حيث بدأ يتشكك فى الرواية الرسمية للبنتاجون والحكومة.. تلك الرواية التى تزعم: أنه مرض نفسى أصيب به الضباط والجنود بسبب ضراوة الحرب وأنه لا صلة له بالأمراض العضوية أو التعرض لمواد ملوثة بالبكتيريا أو غيرها من أسلحة الدمار الشامل.

إن ترك ما يزيد على مائة ألف من الأمريكيين يعانون من أمراض مجهولة العلاج حتى الموت هو جريمة وطنية لا أخلاقية ولا إنسانية، وبسبب هذا الموقف استحق دكتور ماكنكولز هو الآخر العقاب

ومن الشخصيات المغلوبة على أمرها نصادف الدكتور «منج لون» وهو عالم صينى عبقرى من علماء الأحياء الدقيقة، فر من الصين ولجأ إلى الولايات المتحدة، حيث سقط فى شباك عصابة الأسلحة البيولوجية. يقول عنه الكتاب: إنه عالم فذ ذو نزعة إنسانية ولكنه غير قادر على مقاومة أوامر رؤسائه حتى عندما تبين له أنها ضد الإنسانية وضد الأخلاق، ويعزو الكتاب ذلك العجز جزئياً إلى أنه قد اعتاد على طاعة رؤسائه السابقين فى النظام الشيوعى الاستبدادى دون مناقشة.

يعتقد دكتور منج لون أن فيروس الإيدز (Hiv) وحده لا يقتل الإنسان وإن كان أحد أسباب هدم جهاز المناعة عند الإنسان، فقد لوحظ من الحالات التى فحصها لمرضى الإيدز وجود بكتيريا مصاحبة من نوع خطير من «المايكوبلازما»، واستطاع أن يعزو التدهور السريع لجهاز المناعة إلى هذه البكتيريا لأنها على خلاف فيروس الإيدز قادرة على خداع خلايا المناعة، حيث تتغلغل فى أنسجة الجسم وأعضائه وتختفى تماماً من مجرى الدم، فلا تظهر فى أى تحليل لدم المريض.

قال وهو يتحدث إلى رئيسه الجنرال «آرمهوايت»:

«الذى يحيرنى حقاً هو كيف دخلت المايكوبلازما هذه إلى مرضى الإيدز..!».

هنا يتنبه جنرال آرمهوايت أن منج لون قد وصل إلى منعطف خطير فى استفساراته، فنظر إليه محذراً فى لهجة واضحة التهديد.. قال: يجب أن تتنبه أننا عندما نتحدث عن الإيدز فيجب أن نحصر كلامنا عن فيروس الـ Hiv، ونقطع ألسنتنا تماماً عن الخوض فى المايكوبلازما المصاحبة لهذا الفيروس.. إن آلاف الأطباء فى العالم يتعاملون مع الإيدز.

« يتشكك فى شىء إضافى مصاحب للفيروس..».. لاحظ الجنرال آرمهوايت أن منج لون يهز رأسه صامتاً وقد بدا على وجهه الوجوم وعدم الاقتناع فواصل تحذيراته بعبارات صارمة وجارحة فى نفس الوقت، حيث قال: «منج.. إنك تثير غضبى بسبب ما يعتريك من نوبات إنسانية تافهة من وقت لآخر.. لا تنس أننا توصلنا إلى سلاح بيولوجى رائع.. إنه آخر شىء يمكن أن يتوقعه أى إنسان.. فهو ينتج عدداً لا حصر له من الأعراض المرضية المحيرة للإنسان تسلمه إلى الموت أو العجز المزمن، وبهذا يمنحنا ميزة فائقة على المدى الطويل - فيما يتعلق بأهدافنا العسكرية - ضد الدول المارقة والمشاغبة مثل كوبا وكوريا الشمالية.. فانتشار العجز بين سكان هذه البلاد المعادية يمكن أن يؤدى بها إلى الإفلاس، حيث يتحول العدد الأكبر من الناس إلى عجزة غير قادرين على الإنتاج».

هز دكتور منج لون رأسه مستنكراً وحاول مرة أخرى أن يوضح فكرته مبدياً شكه فى القدرة على احتواء هذا المرض إذا تحول إلى وباء «لا ينجو منه الجنود الأمريكيون بل ينتقل معهم إلى أسرهم هنا.. ولن ننجو منه نحن كذلك!.. أنا لا أظن يا سيدى أنه مرض يمكن السيطرة عليه.. ولا أعتقد أن المضادات الحيوية ستكون ذات فاعلية فى هذه الحالة».

زمجر جنرال آرمهوايت ورد بحزم بادى العنف: «دكتور لون.. العلماء من أمثالى وأمثالك لن يصيبهم هذا المرض أبداً بسبب هذا الكائن الدقيق.. إننا مختلفون.. إننا علماء كبار.. من جنس أعلى شأناً من بقية الناس.. إننا نملك مفاتيح هذه الأسرار المستغلقة على سائر البشر»!

لم يستسلم دكتور لون بعد بل مضى فى محاولة إقناع الجنرال فألقى بآخر ما فى جعبته من هواجس ومخاوف قال: «سيدى.. إن إطلاق هذا الكائن بين الناس قد يتسبب فى كوارث لا حدود لها.. فهو ميكروب قابل للتشكل والتكيف وتتغير خصائصه بمرور الوقت.. ومن ثم يصبح شرساً لا نستطيع مقاومته!».

أجاب الجنرال نافد الصبر: «منج.. يجب أن تتوقف عن هذا الهراء والجدل العقيم.. لقد أصبح الأمر خارج أيدينا الآن.. إنه الآن فى يد أعلى مستوى من الإدارة السياسية للبلاد».

فى هذه الأثناء جاء الدكتور «دويتشمان» وقد تناهت إلى مسامعه أطراف من الحديث فأراد أن يساند الجنرال.. قال وهو يوجه النقد إلى دكتور منج لون: «لا تكن شديد النبل يا دكتور منج.. فالأرض قد ضاقت بسكانها.. وإبادة هذه الجحافل من السكان المتخلفين سيترتب عليها بالتأكيد تحسن فى وسائل العيش على هذا الكوكب.. انظر إلى أفريقيا وآسيا وغيرهما من قارات العالم الثالث وهى تعج بحشود من البشر.. هذه «المايكوبلازما» سوف تقوم بعمل رائع فى خدمة أهدافنا السياسية العليا على المدى البعيد.. هل تحتاج إلى أن أذكرك؟ إنها أهداف من شأنها أن توفر الفرصة لعدد أقل من سكان هذا الكوكب - هم صفوة الصفوة - للتحكم فى موارد الأرض.. تذكر أيضاً أن هذا الانفجار السكانى الذى نشهده اليوم يعوق أهدافنا التى رسمناها للقرن الواحد والعشرين.. إن بقاء هذه الأعداد الهائلة من البشر سوف يحدث خللاً خطيراً فى النظام العالمى الجديد!.. أنت مثلاً جئت هارباً من الصين الشيوعية.. تصور ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن مجموعة من القادة الشيوعيين الأغبياء قد تمكنوا من السيطرة على العالم!.. إن العالم كله سوف يصبح مثل الصين الحمراء!».

تمهل دكتور منج لون قليلاً حتى تهدأ انفعالات «دويتشمان» ثم ابتدره بقوله: «ولكن يا سيدى ليس كل الناس أقوياء بدنياً وعقلياً فى آن واحد.. ونحن نعلم أن بعض عظماء التاريخ كان من بينهم أناس معوقون بدنياً.. وإذا انتشر هذا الوباء الذى نشارك فى صنعه فسيكون أمثال هؤلاء العباقرة هم أول الضحايا».

هنا تدخل الجنرال آرمهوايت ليحسم الأمر وينهى الجدل.. قال: «من يحتاج مثل هؤلاء المعوقين؟ فليذهبوا إلى الجحيم.. إن العالم سيكون أفضل إذا تخلصنا منهم.. امضوا إلى أعمالكم ياسادة وكفى جدالاً».

علماء ولكن أشرار:

هناك نماذج أخرى من الشخصيات المعقدة تعمل فى الجامعة ومراكز الأبحاث بها.. مما يصوره الكتاب أحسن تصوير.. من هذه النماذج شخصية دكتور «جيلتر» ودكتورة «آمى كرابنر».. فدكتور «جيلتر» يتمتع بقدرة هائلة على إخفاء حقيقة ما يكنه من مشاعر تجاه الآخرين، حيث يظهر لهم المودة، بينما يدبر لهم المكائد فى الخفاء للإيقاع بهم.. وهو دائم المفاخرة بما يتمتع به من مواهب عبقرية مزعومة وبما تم إنجازه على يديه.. وفى الحقيقة ما يزعم هو أنها إنجازات ليست أكثر من مبالغات، أو انتحالات من أعمال الآخرين الذين أوقعهم الحظ العاثر تحت سيطرته الإدارية.. أما عبقريته الحقيقية فتتجلى فى قدرته على الخداع وتدبير المؤامرات للآخرين وتشويه سمعتهم بنسبة أشياء سيئة من صنع خياله إليهم.

وتتجاوب مع هذه السمات الشيطانية دكتورة آمى كرابنر.. هذا إلى جانب كونها قبيحة الوجه حقودة وتافهة.. ومن ثم فلا عجب أن يتوافقا معاً فى التآمر على زميلة لهما بالكلية تتمتع بقسط ملحوظ من الجمال والاستقامة والإنجازات العلمية الحقيقية هى الدكتورة «مارى لوبين».. وهكذا بدأ دكتور جيلتر ودكتورة كرابنر فى نسج شائعات مهينة عنها.. فعندما أصيبت بمرض غريب (بسبب سموم وضعت لها فى الطعام كما علمنا) أشاع جيلتر وكرابنر أنها لا تعانى من مرض عضوى، ولكنه مجرد أعراض عصابية لمرض نفسى.. وينضم إليهما أستاذ ثالث من الشخصيات المرموقة فى الكلية هو دكتور «جراهام» إذ يساهم بنشر شائعات كاذبة ضد دكتورة مارى لتيئيسها ودفعها إلى الجنون أو الانتحار.. لذلك وجدناه يسعى بين أعضاء هيئة التدريس والطلبة والإداريين بقصة لا يمل من ترديدها.. مفادها أنها سرقت رسالتها للدكتوراة من أحد طلابها ثم حطمت مستقبله، وأن الأستاذ الذى كان يشرف على رسالتها راودها عن نفسها فأذعنت له.. ولولا ذلك ما حصلت على درجة الدكتوراة!

تلك عينة من البشر اختارهم مدير الجامعة المرموز إليه فى الكتاب باسم «دكتور ماستر»، ليقوموا نيابة عنه بالأعمال القذرة بل والإجرامية ضد مارى وزوجها.

فى هذه الأثناء يلقى دكتور كانون مصرعه فى ظروف غامضة داخل مكتبه فى الجامعة - كما سبق أن ذكرنا - ويشيع مدير الجامعة أن تحقيقات الشرطة كشفت عن قاتله وهو إرهابى من أصل إيرانى، والحقيقة أن تحقيقات الشرطة لم تسفر عن شىء وقيدت الحادثة ضد مجهول.. ثم تتوالى الاغتيالات لخمسة آخرين من العلماء بالجامعة وتلفق التحقيقات على نفس المنوال.

كانت دكتورة مارى تعتزم السفر إلى بريطانيا للمشاركة فى مؤتمر ينعقد فى جامعة أكسفورد، ووجدها مدير الجامعة فرصة للتخلص منها بعيداً عنه فجمع أتباعه وأخطرهم بالمهمة الجديدة ثم ترك لهم تدبير التفاصيل وحذرهم فى نهاية الاجتماع قائلاً: «أنا لا أريد أن أعرف ما ستفعلونه ولا متى.. أنا مهتم فقط بالنتائج.. لا يرد اسمى على ألسنتكم، ولا



تتصلوا بى أثناء العملية.. هذه العملية يجب أن تكون محكمة غير قابلة للاكتشاف».

وفى محاولة أخرى يجرى حوار طويل بين دكتور بلتشر نائب رئيس الجامعة للأبحاث وبين دكتور إيطاليانو المكلف بمهمة جديدة لاغتيال دكتورة مارى.. وعندما أبدى إيطاليانو بعض الاعتراض عنفه محذرًا: «دعنى أضع لك المسألة بطريقة أخرى. كما فهمت من دكتور ماستر. إذا لم تشارك فى هذه المهمة وتفعل ما تؤمر به فسوف لن يكون لمكانك أو مركزك وجود فى خطة الجامعة القادمة».. وكذلك يريد بلتشر ألا يذكر إيطاليانو شيئًا عن رئيس الجامعة أو عنه شخصيًا فيقول: «أنا ليس لى أى علاقة بالموضوع.. ولم أتحدث إليك بشىء.. هل فهمت؟!».. فلما واصل إيطاليانو اعتراضاته ألقى إليه بلتشر بآخر تهديد. قال: «أنت تعرف أن هذه ليست أول مرة تقوم بخدمة مثلها لدكتور ماستر.. أم أنك قد نسيت!!» هنا انهارت مقاومة إيطاليانو فجأة وشرع يسأل مع زملائه: «ما هى الجائزة والزيادة فى المرتبات والحسابات البنكية!!».

أقول معلقًا: عندما يوجد شخص ما على رأس مؤسسة علمية مثل الجامعة يديرها بعقلية رئيس عصابة، وعندما يكون مسئولا عن تطوير مشروع إجرامى فى الأسلحة البيولوجية السرية متسترًا تحت غطاء الجامعة وسمعتها العلمية. لابد أن يسرى الفساد فى هذه المؤسسات إلى النخاع.. ولا يُستغرب أن تطفو على السطح وتبرز مثل هذه الشخصيات المنحرفة فتملأ المكان بالعفونة والشر.. وتُطارد الشخصيات التى تتمسك بنبلها الأخلاقى وكرامتها العلمية من أمثال دكتورة مارى وزوجها دكتور جاريد.

عندما قرر (رئيس العصابة) التخلص من دكتور جاريد ماكنكولز (الاسم الرمزى لمؤلف الكتاب) بعث إليه بثعبان ناعم الملمس هو دكتور كلينجر.. جاءه بوجه بشوش هادئ ليسمح له بالمشاركة فى اجتماع علمى مع زملاء لدكتور جاريد قادمين من هولندا.. وحرص أن يجلس على مائدة الطعام بجوار دكتور جاريد ليدس له السم فى طعامه على غفلة منه.. ولكن دكتور جاريد أصبح يتوجس خيفة من تناول الطعام خارج بيته بعدما تكررت محاولات تسميمه هو وزوجته.. فاقتصر على تناول لقيمات قليلة.. ومع ذلك شعر فى تلك الليلة بآلام حادة فى معدته وتأكدت بذلك شكوكه فى دكتور كلينجر.

تصاعدت محاولات اغتيال دكتور جاريد وزوجته وتعددت أساليبها وقد سبق أن أشرنا إلى محاولة بعض سيارات نقل كانت تتحرش بسيارتهما الصغيرة والتصادم بها، كما لاحظ دكتور جاريد أن حرس الجامعة يتربصون به لقتله عند خروجه من الجامعة وجرت مطاردة له فى إحدى الأمسيات ولكنه تمكن من الإفلات منهم.. وبلغ الأمر بالتحرشات والاعتداءات - كما ذكرنا سابقًا - إلى درجة السطو على منزلهما وسرقة وثائق وملفات خاصة بهما. وسرقت عينات الدم والأنسجة التى حصلا عليها من مرضى حرب الخليج (لفحصها) فى معملهما بالكلية.

وضيق عليهما رئيس الجامعة الخناق والمحاصرة.. وفُرضت الرقابة الكاملة على اتصالاتهما وبريدهما والفاكسات التى تصل إليهما فى الجامعة، فكانت هذه كلها ترسل إلى رئيس الجامعة.. فقد قرر الرجل حرمانهما من كل نشاط علمى: فلا ندوات ولا محاضرات ولا مقابلات صحفية ولا نشر لأبحاثهما فى مجلات علمية.

فلما فشلت كل محاولات الاغتيال قرر إبعادهما نهائيًا من الجامعة، فسلط على دكتور جاريد لجان تحقيق وجهت إليه اتهامات أبطلها بحججه ومنطقه.. وأخيرًا قام رئيس الجامعة بتشكيل لجنة عليا برئاسته وعضوية نوابه الكبار للنظر فى أبحاثه وتقييمها وإثبات تجاوزاته للنظام الجامعى.. كانت أسئلة المحققين تصوب إليه كالرصاص من كل جانب باستفزاز واضح.. ولكن دكتور جاريد امتص غضبه بهدوء وأجاب عليهم إجابات منطقية أفحمتهم جميعًا.. ثم شرع يهاجم مواقفهم ويكشف عما فيها من تناقضات، مما جعل أحد أعضاء لجنة التحقيق يبدى امتعاضه من أسلوب المحققين المستفز والهجوم الذى لا مبرر له على زميل لهم من كبار العلماء.

فلما تبين الرئيس أن الطوق الذى أحكمه على رقبة دكتور جاريد بدأ ينكسر وأنه لا فائدة من الاستمرار فى التحقيق، وقف فجأة بادى الإحباط ثم أشار بانتهاء الجلسة وانفض الجمع إلى حال سبيله.

ولكن دكتور جاريد أيقن أنه لا سبيل إلى بقائه فى هذا الجحيم وأنه لم يعد أمامه هو وزوجته غير الفرار..

وكانت بداية اهتمام دكتور ماكنكولز بالظاهرة التى أطلق عليها مرض حرب الخليج عندما عادت ابنته مريضة، وكانت مجندة فى حرب الخليج الأولى، كانت تعانى من مرض غريب أبرز أعراضه الإعياء الشديد المزمن مع تدهور فى صحتها العامة، وقد صنفها أطباء الجيش مع الأمراض النفسية كغيرها من العائدين من الحرب. ولكن أباها وهو الطبيب العالم فحصها وتأكد أنها لا تعانى أى اضطرابات نفسية، وإنما مصابة بنوع من الميكروب يسمى «مايكوبلازما فرمنتانس Mycoplasma Fermentans».

أكد هذا الاتجاه عند دكتور ماكنكولز أن دكتور «موشى» - من أطباء الجيش - قد تشكك هو أيضًا فى الحالات المرضية للجنود العائدين، حيث لاحظ أنها لا تستجيب للعلاجات النفسية العصبية، فأحال بعضهم للدكتور ماكنكولز لفحصهم وعلاجهم. هؤلاء الجنود والضباط الذين تحقق الشفاء لهم على يد دكتور ماكنكولز كانوا أكبر دعاية له فى أوساط القوات البحرية وأسرهم ممن يعانون من أعراض مماثلة.. وكانوا أكبر عون له فى محنته مع إدارة الجامعة، وفى إنشاء مركز أبحاثه الخاص بكاليفورنيا.

انفتاح الأفق:

من هنا فصاعدًا سوف نشير إلى صاحبى القصة باسميهما الحقيقيين: جارث نيكولسون ونانسى نيكولسون، ونهمل الاسم المستعار (جاريد ومارى ماكنكولز).. فقد حدث تغير جذرى فى حياتهما: كانا ممنوعين - أثناء عملهما بالجامعة - من التحدث إلى الصحافة والإعلام، بل من المحاضرة والاشتراك فى المؤتمرات العلمية.. ولكن بنضالهما ومساعدة أصدقائهما فى القوات البحرية والكونجرس انفتح الطريق أمامهما لمخاطبة الرأى العام الأمريكى على نطاق واسع، وتمكنا من المحاضرة فى وزارة الدفاع وفى إدارة المحاربين القدامى.

من المؤلفان؟

ما ورد فى هذا المقال ليس قصة أدبية من نسج الخيال، وإنما هو وقائع وأحداث حقيقية جرت على الأرض.. هى حقائق عاشها شاهدا عيان وكانا من ضحاياها.. وشاءا أن يسجلاها للتاريخ والعبرة فى كتاب.. وليس المؤلفان شخصين عاديين، ولا صحفيين ممن يجريان وراء الأخبار المثيرة لإمتاع القراء ونيل الشهرة، إنما هما من أبرز العلماء وأكثرهم شهرة فى الولايات المتحدة، وضعهما القدر - فى مرحلة من حياتهما معًا - فى واحد من أكبر مراكز تطوير الأسلحة البيولوجية فى العالم.. إنهما الزوجان دكتور جارث نيكولسون ونانسى نيكولسون.

الأول مدير وكبير العلماء فى أشهر مركز أبحاث طبية بهانجتون فى ولاية كاليفورنيا.. كان فى السابق أستاذ الطب التكاملى فى جامعة كابتول.. كما عمل أستاذًا فى جامعة «نيوكاسل» بأستراليا، ثم فى جامعة تكساس.. تعتبر أبحاثه وكتاباته من أهم المراجع التى يحرص الباحثون على الاتصال بها، لمعرفة آخر تطورات البحث العلمى فى الكائنات الدقيقة.. نُشر له أكثر من ٢٥٠ دراسة علمية وطبية.. وحرر ١٤ كتابًا لمجموعة من كبار العلماء.. وعمل فى مجالس تحرير عشرين مجلة طبية وعلمية.. وهو الآن رئيس تحرير مجلتين علميتين.. حصل على جوائز عديدة فى الطب والعلوم من الولايات المتحدة وبريطانيا.

أما زوجته وشريكته فى تأليف الكتاب فهى رئيسة مجلس إدارة المركز المذكور.. عملت فى كثير من الجامعات الأمريكية، ونُشر لها خمسون بحثًا علميًا مرموقًا.. وحاضرت فى مؤتمرات علمية عالمية بالولايات المتحدة وخارجها، بلغ عددها ٦٠ مؤتمرًا.. وحصلت هى أيضًا على جوائز علمية.. وكانت امرأة العام العلمية سنة ١٩٩٦ - ١٩٩٧م.

مركز الأبحاث الطبية الذى يملكانه، طبقت شهرته الآفاق وله موقع على الإنترنت يحظى باحترام واسع من العلماء، وهو موئل لزيارة عشرات الألوف من المستفسرين وطالبى العلاج والمؤيدين لتوجهات المركز والمساندين له فى أنحاء العالم، ورقمه على شبكة الإنترنت هو wwwimmed.org..

واستطاع دكتور جارث نيكولسون تقديم تقارير مفصلة إلى الكونجرس وأدلى بشهادته (تحت القسم) أمام لجنة المحاربين القدامى، وجاء تقريره فى ٢٤ يناير ٢٠٠٢ شاملاً وقاطعًا ومدعمًا بالوقائع والأدلة العلمية المستخلصة من دراسته وفحصه لعدد كبير من مرضى حرب الخليج، واستطاع أن يلفت نظر البنتاجون بقوة إلى ضرورة الاعتراف بحقيقة المرض والبدء فى علاجه بالطريقة الصحيحة، باعتباره مرضًا عضويًا لا علاقة له بالأمراض النفسية.. وقد أثبت فى تقريره الحقائق التالية:

١ ـ أن المرضى قد تعرضوا فى حرب الخليج لمواد كيمائية سامة ولأشعة ذرية ولأسلحة بيولوجية.

٢ ـ أن المرض قد انتقل إلى أفراد أسر الضحايا الأكثر اختلاطًا بهم.

٣ ـ وجود نوع من بكتيريا المايكوبلازما يسمى «فرمنتانس».

٤ ـ وجود أعراض مرضية ناتجة من تحلل الجهاز العصبى المركزى منها مرض الإعـيـاء الـشـديـد المـزمـن «Fypromayologia» (فيبروميولوجيا).

٥ ـ إمكانية علاج إصابات المايكوبلازما بـنـوع مـن المضادات الحيوية هى: دوكسيسيكلين Doxycycline.

وشدد دكتور نيكولسون فى نهاية تقريره على ضرورة محاكمة المسئولين عن إعداد الجيش للمعركة وعن إنكار حقيقة المرض والمماطلة فى العلاج.

وردت فى ثنايا الكتاب حقائق أخرى كثيرة بعضها جاء عرضًا، ولكن فى مجموعها تستحق من القارئ المحلل كثيرًا من البحث والتأمل، فوق أنها تثير تساؤلات مهمة منها مثلاً: أى نوع من النظام هذا الذى يحكم الولايات المتحدة؟! من هذه الحقائق:

١ ـ اعترف الجنود المرضى بأن قياداتهم أمروهم بتلقى عدد كبير من التطعيمات قبل الذهاب إلى الجبهة بزعم أنها ضرورية لمقاومة آثار الأسلحة ذات الدمار الشامل التى عند صدام حسين وأمروهم ألا يفصحوا لأحد عن هذه التطعيمات حتى لا يفسد صدام حسين هذه الخطة..!

٢ ـ حصل دكتور نيكولسون على تقارير من أصدقاء له فى منطقة الشرق الأوسط عن تفشى أمراض الإنهاك المزمن والسرطان بشكل ملحوظ بين الأهالى فى المناطق العسكرية.

٣ ـ عندما تفجر موضوع ظاهرة مرضى الخليج فى الإعلام الأمريكى اختفت الطعوم المخزنة بالآلاف حتى لا يتم فحصها فى أى تحقيق محتمل.. وفعلاً عندما طلب الكونجرس ملفات هذه الطعوم للتحقيق لم يحصل على شىء.

٤ ـ عرف دكتور نيكولسون من حراس سجون تكساس الذين لجأوا إليه لعلاجهم عن جوانب مروعة من التجارب التى أجريت على نزلاء السجون دون علمهم بحقيقة هذه التجارب، فلما فقدوا حياتهم قام الجيش بنقلهم إلى معسكراته، حيث أحرقت جثثهم مع سجلاتهم فى مدافن خارج المدينة.. وقال أحد الحراس إن الجيش أخذ صورة من هذه السجلات كما أخذ تعهدات منا إذا وجدنا أى ملفات أخرى مفقودة، فإن من وجدها مسئول عن تسليمها فورًا إلى الجيش.

٥ ـ دكتور تشارلز مورفى: ضابط طبيب بالبحرية الأمريكية كان رئيسًا لوحدة مهمتها إجراء تجارب على بعض المتطوعين المجندين فى البحرية فى أحد المستشفيات العسكرية. أفلت أحد ضحاياه من الموت وجاء يطلب مساعدة دكتور نيكولسون.. إنه المجند «مايكل جونز».. يقول: «عندما أفقت من إحدى النوبات التى انتابتنى أثناء التجارب سألت الممرضات عن زملائى المتطوعين فعرفت أنهم قد ماتوا جميعًا ولم يبق سواى.. فلما ذهبت إلى دكتور ميرفى أستفسر منه، أنكر الواقعة تمامًا.. بل أنكر أنه عمل فى المستشفى الذى ذكرته له وكنت أخضع فيه لتجاربه، كذلك أنكرت القوات البحرية وجود اسمى ضمن سجل مرضاها..»، ولكن مع إصرار المجند ومساعدة نائب الكونجرس عن ولايته تمكن من استرجاع ملفه الطبى من المستشفى وظهر توقيع دكتور مورفى عليه مصحوبًا بخاتم مكتوب عليه «تجارب الحرب البيولوجية».

٦ ـ أعجب ما ورد فى الكتاب من أخبار دكتور مورفى هذا أنه عمل فترة من الوقت رئيسًا لمعمل أبحاث خاص بالحرب البيولوجية (فى مصر).. طبعًا هو مركز أمريكى..! يذكر الكتاب أنه معروف باسم «مركز أبحاث أمراض المناطق الحارة».. فأى مركز هذا؟ وفى أى موقع يوجد على خريطة المحروسة؟ وماذا كان يفعل دكتور مورفى فى مصر؟

هذا المورفى الذى لم يتورع عن استخدام مواطنيه الأمريكيين حيوانات تجارب على الأسلحة البيولوجية هل يتورع عن استخدام المصريين التعساء الذين تغص بهم المستشفيات العامة ويموت منهم العشرات يوميًا فى صمت. هل يتورع عن استخدامهم حيوانات تجارب للحرب البيولوجية؟! سؤال يحتاج إلى بحث لا أطيقه ولست مؤهلاً له.. وحسبنا الله ونعم الوكيل! ■

كتاب الزاوية

عن بيع البنوك المصرية للأجانب

عادل حسين

❖ لماذا نسمح ببنوك العملات الحرة التى ستنافس بنوكنا المصرية فى تجميع المدخرات العربية ومدخرات المصريين فى الخارج؛ كى توجهها إلى أعمال لا تخضع لأولوياتنا.. ولكن تخضع لأوامر المراكز الرئيسة لهذه البنوك فى العواصم الأجنبية؟!

❖ إن البنوك وشركات التأمين هى خط الدفاع الأساسى للقطاع العام.. وهى الضمان الأساسى لإمكانية تمويل التنمية، فبدون السيطرة المركزية على الموارد والتحكم فى إنفاقها وفق الأولويات.. كيف نتحدث عن تنفيذ خطة مستقلة طموح؟

❖ كان إنشاء بنك مصر من النتائج الجوهرية لثورة ١٩١٩ الوطنية العارمة، وكان أجدادنا يدركون أن اقتحام القطاع المصرفى أساس للتحرك نحو الاستقلال الاقتصادى، وكان طلعت حرب يقول: إن «أموال البلاد معطلة: بعضها مُكتنَز، وبعضها فى بنوك أجنبية. وكلاهما لا تستفيد منه البلاد شيئًا مذكورًا. إن نظرة فى تقارير هذه البنوك، تدلنا على أن الجزء الأكبر من أموالنا مستعمل خارج البلاد، فى بونات على خزائن الحكومات، أو سنَدات قروض الحرب، أو ما شابه ذلك من العمليات التى هى فى مصلحة المساهمين فقط، ومصلحة الدول التابعة لها». إلا أن قوى السيطرة الاستعمارية، كانت تدرك أهمية بقائها فى هذا الموقع أداة أساسية لاستمرار سيطرتها؛ ولذا لم يكن التمصير سهلاً، وبعد أكثرَ من ثلاثة عقود من النضال، كانت البنوك الأجنبية فى عام ١٩٥٦ ما زالت تستحوذ على ما يزيد على نصف جملة الودائع بالبنوك التجارية، وعلى ما يناهز نصف إجمالى قروض البنوك والكمبيالات المخصومة لديها.



استطاعت عبقرية الشيخ المراغى أن تنجز - فى إصلاح الأزهر الشريف - ما عجز عنه الكثيرون - من السابقين واللاحقين

المراغى المصلح

محمد عمارة

● الشيخ المراغى.. هو محمد بن مصطفى بن محمد بن عبدالمنعم المراغى (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ، ١٨٨١ - ١٩٤٥م) - نسبة إلى «مراغة»، مركز «جرجا»، محافظة «سوهاج» - بصعيد مصر.

● ولد فى ٧ ربيع الثانى عام ١٢٩٨ هـ - ٩ مارس عام ١٨٨١م.

● ولقد وجهه والده - الذى كان على قدر من العلم والثقافة - إلى حفظ القرآن الكريم.. ولقنه نصيباً من المعارف الدينية العامة.

ولنجابته بعث به والده لطلب العلم فى الأزهر الشريف - بالقاهرة - فتلقى العلم على كوكبة من علمائه.. وتأثر بعلماء التيار المجدد - ومنهم شيخه الشاب على الصالحى.. الذى درس المراغى عليه علوم العربية، وتأثر بأسلوبه فى البيان والتعبير.

حرص المراغى على أن تكون الدراسة بالأزهر جامعة بين الطرق القديمة والطرق الحديثة المعروفة عند علماء التربية»

● فلما كان اتصاله بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) كانت النقلة النوعية التى حددت مكانته العلمية، ومستقبله فى مدرسة الإحياء والتجديد والإصلاح.. فلقد تتلمذ على محاضرات الأستاذ الإمام فى التفسيرات للقرآن الكريم.. وفى التوحيد وتنقية العقائد الإسلامية من «شغب» المتكلمين القدماء.. وفى البلاغة التى وصلت العربية الحديثة بعصر الازدهار، متخطية عصور الجمود والركاكة والانحطاط.

● وفى ١٢ ربيع الأول عام ١٣٢٢هـ - ٢٧ مايو عام ١٩٠٤م - تقدم الشيخ المراغى لامتحان «العالمية» - وهو فى الرابعة والعشرين من عمره - وكان أصغر أقرانه سناً - وكان يومئذ مريضاً بالحمى - فنال شهادة «العالمية» بتقدير «الدرجة الثانية» - مثل أستاذه محمد عبده!.. وذلك لأن الطلاب السالكين طريق التجديد لم يكونوا - فى ذلك الحين - يحظون بالرضى من قبل شيوخ الأزهر، الذين كانت تغلب عليهم المحافظة والتقليد!

● وكما كان محمد عبده أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٨م) - موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام - وكان المهندس الأول لفكر مدرسة الإحياء والتجديد، وأبرز زعماء الإصلاح الدينى.. كذلك كان الشيخ المراغى أنجب تلاميذ الأستاذ الإمام، وحامل لواء مشروع الإصلاح الدينى الذى صاغته هذه المدرسة، لتخرج به الأمة الإسلامية من بين شقى رحى «التخلف الموروث» و«التغريب» الزاحف على العقل المسلم فى ركاب الاستعمار الغربى، والذى يتمدد فى الفراغ الثقافى الذى صنعه الجمود والتقليد.

● ولقد عمل الشيخ المراغى - عقب تخرجه - بالتدريس فى الأزهر بضعة أشهر، لفت فيها الأنظار، حتى لقد التفت حوله حشود من الطلاب.

● وبعد عام من تخرجه، رشحه الشيخ محمد عبده ليعمل قاضياً بالسودان - الذى كان تحت الحكم الثنائى: الإنجليزى المصرى -.. ولقد كتب عن لقائه بأستاذه الإمام محمد عبده لوداعه ليلة سفره إلى السودان سطوراً تفصح عن نضجه العلمى المبكر، وتشى بملامح عبقرية إسلامية فى طريقها إلى التألق والنبوغ.. كتب فقال:

«ذهبت لوداع الشيخ محمد عبده ليلة سفرى إلى السودان لتولى قضاء مديرية دنقلة فى نوفمبر ١٩٠٤م، فسألنى:

- هل معك رفقاء السفر؟

- فقلت: نعم، بعض كتب آنس إليها، وأستديم بها اتصالى بالعلم.

- فقال: أو معك كتاب الإحياء (إحياء علوم الدين للإمام الغزالى؟).

- فقلت: نعم.

- فقال: هذا الكتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفراً طويلاً دون أن يكون رفيقه».

ثم يستطرد الشيخ المراغى متحدثاً عن مكانة الإمام الغزالى فى فكره.. ومكانته من فلاسفة الإسلام فيقول:

«إذا ذكرت أسماء العلماء، اتجه التفكير إلى ما امتازوا به من العلم وشعب المعرفة..

فإذا ذكر ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨هـ ٩٨٠ - ١٠٣٧م) أو الفارابى (٢٦٠ - ٣٣٩هـ ٨٧٤ - ٩٥٠م)، خطر بالبال فيلسوف عظيم من فلاسفة الإسلام..

وإذا ذكر ابن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨هـ ١١٦٥ - ١٢٤٠م) خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطرها.

وإذا ذكر البخارى (١٩٤ - ٢٥٦هـ ٨١٠ - ٨٧٠ م) ومسلم (٢٠٦ - ٢٦١هـ ٨٢٠ - ٨٧٥م) وأحمد (١٦٤ - ٢٤١هـ ٧٨٠ - ٨٥٥م) خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٨٥ - ١١١١م)، فقد تشعبت النواحى، ولم يخطر بالبال رجل واحد. بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد منهم قدرته وخطره. يخطر بالبال الغزالى الأصولى الحاذق الماهر، والغزالى الفقيه الحر، والغزالى المتكلم إمام السنة وحامى حماها، والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العلم وخفيات الضمير، ومكنونات القلوب، والغزالى الفيلسوف الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف، والغزالى المربى، والغزالى الصوفى الزاهد.

وإن شئت فقل: إنه يخطر بالبال رجل هو «دائرة معارف» عصره، ورجل متعطش إلى معرفة كل شىء، نهم إلى جميع فروع المعرفة..».

هكذا كتب الشيخ المراغى عن الفكر الإسلامى وأعلام هذا الفكر - فى هذه السن المبكرة - هذه السطور التى تحدد مكانته من العلم الإسلامى.. ومن تقدير العلماء..

● وفى السودان، عمل الشيخ المراغى قاضياً لمديرية «دنقلة».. ثم انتقل قاضياً «للخرطوم».. واتصلت - من السودان - مراسلاته مع شيخه الأستاذ الإمام، الذى ظل المراغى وفياً له ولمذهبه فى الإصلاح الدينى، حتى لقد أرجع إليه كل ما قدم فى هذا الميدان.. فقال عنه - يوم عودته المظفرة إلى مشيخة الأزهر - فى ربيع الأول ١٣٥٥ هـ - يونية ١٩٣٥م: «إنه هو المصباح الذى اهتدى به».. ووصف منزله بأنه «كان محط الرغائب، وأمل كل طالب».

● وفى عام ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧م استقال الشيخ المراغى من منصب القاضى بالسودان - لخلاف بينه وبين قاضى القضاة والسكرتير القضائى - مستر كارتر - وهو إنجليزى - حول اختيار المفتشين بالمحاكم الشرعية السودانية.. وحول التمييز الإنجليزى بين القضاة الإنجليز وبين القضاة المصريين.. فلقد كان مرتب القاضى الإنجليزى خمسين جنيهاً. بينما كان مرتب القاضى المصرى أربعة عشر جنيهاً.. فلما قرر المفتش القضائى الإنجليزى للقضاة المصريين «علاوة» قدرها ستة جنيهات، رفضها الشيخ المراغى.. ودار بينه وبين المفتش الإنجليزى هذا الحوار:

- كارتر: إنى لأعجب لقاض شرعى يرفض ستة جنيهات علاوة فى الشهر!

- الشيخ المراغى: إن عجبى مثل عجبك! من أن القاضى الإنجليزى يتناول ٥٠ جنيهاً، بينما تستكثر على القاضى الشرعى ٢٠ جنيهاً!

وطلب الشيخ إجازة ثلاثة أشهر «وعاد إلى مصر» واستقال.. ورفض العودة إلى السودان، رغم إلحاح السكرتير الإنجليزى عليه فى العودة.

● وفى غرة شعبان عام ١٣٢٥ هـ - ٩ سبتمبر ١٩٠٧ - عين الشيخ المراغى مفتشاً للدروس الدينية بديوان عموم الأوقاف (نظارة الأوقاف).. ولقد جمع بين هذه الوظيفة وبين العمل الذى يهواه، وهو التدريس بالجامع الأزهر.

● وإبان عمله مفتشاً للدروس الدينية بنظارة الأوقاف، صحب الخديو عباس حلمى الثانى (١٢٩١ - ١٣٦٣هـ ١٨٧٤ - ١٩٤٤م) لصلاة الجمعة بأحد المساجد.. وكان الخطيب كفيفاً - وهو العلامة الشيخ يوسف الدجوى (١٢٨٧ - ١٣٦٥هـ - ١٨٧٠ - ١٩٤٦م) -



فاستنكف الخديو أن يكون الخطيب والإمام أعمى!.. فأجابه الشيخ المراغى:

- إن الإسلام لا يشترط أن يكون الإمام أعمى أو بصيراً..

فخرج الخديو من المسجد غاضباً!

• وفى عام ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م طلب «سلاطين باشا» (١٨٥٧ - ١٩٣٢م) - وكيل حكومة السودان بمصر - من الشيخ المراغى أن يعود إلى السودان قاضياً للقضاة.. فقال له الشيخ:

- إن حكومة السودان - الإنجليزية - أبت علىّ فى العام الماضى وظيفة مفتش بالمحاكم الشرعية، فكيف ترضى اليوم أن أكون قاضياً للقضاة؟!

فأجابه «سلاطين باشا»:

- إن الحكومة اقتنعت اليوم بما لم تكن تقتنع به، وإنى أريد أن أعرف الشروط التى تجعلها أساساً لقبول هذا المنصب الخطير؟

فاشترط الشيخ المراغى أن يصدر مرسوم تعيينه من الخديو - حاكم مصر المسلم - وليس من الإنجليز - لما فى ذلك من دلالة سياسية فى علاقة السودان بمصر - ودلالات شرعية، تؤكد على اختصاص الحاكم المسلم بالولايات الشرعية فى بلاد الإسلام.

ولقد أصر على شرطه هذا، حتى استجابت له الحكومة الإنجليزية.. فصدر قرار تعيينه قاضياً لقضاة السودان فى ٣ رجب ١٣٢٦هـ - أول أغسطس ١٩٠٨م - من الخديو - وليس من الإنجليز.

• وفى السودان أصر الشيخ المراغى على أن يختار هو - وليس السكرتير الإنجليزى - المذاهب والآراء والاجتهادات الفقهية التى يحكم بموجبها القضاة.. وكانت تلك بدايات إنجازاته فى إصلاح القضاء الشرعى بالسودان.. وفيه كان أستاذاً ومعلماً ومرشداً للقضاة.. كما عمل على تكوين جيل من القضاة السودانيين، فأشرف على القسم الشرعى بكلية «جوردون» وزوده بأساتذة من العلماء المصريين الممتازين - من الأزهر ودار العلوم - فكان - بذلك - المؤسس الحقيقى للقضاء الشرعى السودانى الحديث..

• وفى السودان تعلم الشيخ المراغى اللغة الإنجليزية.

• وإبان ثورة الشعب المصرى ضد الاحتلال الإنجليزى، طلباً للاستقلال ١٣٣٧ هـ ١٩١٩م، قاد الشيخ المراغى المصريين بالسودان فى حملة لمناصرة الثورة الوطنية، ولإعانة ضحاياها.. فأصدروا نشرة عنوانها: «اكتتاب لمنكوبى الثورة بمصر»، كانت بمثابة صوت الثورة المصرية فى السودان، وصوت التضامن السودانى مع الثورة المصرية.

ولقد اتهمه الإنجليز «بإعلان الثورة فى السودان».. وطلب منه المستر «دن» - نائب الحاكم العام للسودان - إيقاف هذا النشاط.. فرفض.. فلما قال له المستر «دن»:

- إنى أكلمك كرئيس..

رد عليه الشيخ - غاضباً -:

- كنت أفهم أنك تعلم واجبك! إنه ليس لى رئيس هنا، فإن الحاكم العام معين بأمر ملكى، وهو الحاكم السياسى، وأنا معين بأمر ملكى، وأنا قاضى القضاة، ولا إشراف لأحد منا على الآخر.

• ولقد تصاعد غضب الإنجليز على الشيخ المراغى.. فاقترح البعض سجنه.. واقترح البعض اعتقاله ونفيه.. ولكن الحاكم العام للسودان خشى غضبة الشعب السودانى.. فقرر منحه إجازة عاجلة غير محدودة.. فعاد إلى مصر.. وانتهى عمله بالسودان ١٩١٩م.

• ولقد كانت شجاعة الشيخ المراغى فى الحق نموذجاً يعيد إلى الذاكرة المثل العليا التى تجسدت فى التاريخ العظيم لعظماء علماء الإسلام.

فإبان توليه للقضاء - بمصر - حاول أحد الأثرياء التأثير على ضميره القضائى، لقاء مبالغ مالية ضخمة، يسيل لها اللعاب!.. فأبى ضميره مخالفة الحق والعدل.. فاستأجر هذا الثرى مجرماً لقتل الشيخ!.. فألقى عليه ماء النار.. لكن الله لطف، فأصاب ماء النار عنقه وأجزاء من جسمه.. ولم تلن - مع ذلك - لعدالة الشيخ قناة.. وعرفت هذه القضية باسم «قضية هنرى سكاكينى»..

• ولقد كانت الحكومات المصرية - خضوعاً للاستعمار الإنجليزى - قد حرمت على مشيخة الأزهر التدخل فى السياسات العامة - خصوصاً ما يمس منها مصالح الدولة المستعمرة - .. لكن الشيخ المراغى رفض هذا الخضوع.

وعلى حين صمت رؤساء الوزارات المصرية، وجمهور الساسة والنخبة السياسية وزعماء الأحزاب عن التصدى للمخطط الصهيونى المتحالف مع الاستعمار الإنجليزى لاغتصاب أرض فلسطين ومقدسات المسلمين فى القدس الشريف.. جهر الشيخ المراغى - من موقعه كشيخ للأزهر ١٩٢٩م - بالرأى الإسلامى والوطنى فى هذا المخطط الاستعمارى الصهيونى.

الإصلاح القضائى والتشريعى

فى مصر.. وبعد عودة الشيخ المراغى إليها من السودان عام ١٩١٩م.. كان الإصلاح القضائى والتشريعى من أهم الميادين التى أولاها عنايته - كما كان هذا الميدان امتداداً لما قام به فى السودان - مع التوسع والشمول الذى يقتضيه الواقع فى مصر..

وفى هذا الميدان من ميادين الإصلاح - القضائى والتشريعى - مارس الشيخ المراغى العمل الإصلاحى من موقع «الخبير».. فلقد تولى - فى هذا الميدان - من المناصب الرفيعة:

١ - رئيس التفتيش الشرعى بوزارة الحقانية - (العدل) - فى ٩ أكتوبر ١٩١٩م - محرم ١٣٣٨هـ.

٢ - ورئيس محكمة مصر الكلية الشرعية فى ١٥ ذى القعدة ١٣٣٨ - ٢١ يوليو ١٩٢٠م.

٣ - وعضو المحكمة العليا الشرعية فى ١٧ جمادى الأولى ١٣٣٩هـ - ٢٧ يناير ١٩٢١م.

٤ - ورئيس المحكمة العليا الشرعية فى ٢ جمادى الأولى ١٣٤٢هـ - ١١ ديسمبر ١٩٢٣م.

وإبان توليه لهذه المناصب القضائية - على امتداد نحو عشر سنوات - امتدت إصلاحاته إلى ميادين التشريع والتقنين للفقه الإسلامى.. وطبق دعوة أستاذه الإمام محمد عبده إلى الاستفادة - فى التشريع والتقنين - من مجمل التراث الفقهى الإسلامى، على اختلاف مذاهبه.. وليس فقط المذهب الحنفى - كما كان الحال فى الدولة العثمانية وولاياتها - ومنها مصر..

ولقد قال الشيخ المراغى للجنة تنظيم الأحوال الشخصية - التى رأسها -:

«ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان، وأنا لا يعوزنى بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم.

إن الشريعة الإسلامية فيها من السماحة والتوسعة ما يجعلنا نجد فى تفريعاتها وأحكامها فى القضايا المدنية والجنائية كل ما يفيدنا وينفعنا فى كل وقت، وما يوافق رغائبنا وحاجاتنا وتقدمنا فى كل حين، ونحن فى ذلك كله ملازمون لحدود شريعتنا.

ولكن فريقاً من متأخرى العلماء رأوا أن كل ما جاء فى كتب الفقه من المتون والحواشى والآراء المصيبة والمخطئة كل ذلك من الدين ومن أصوله التى يجب أن نتمسك بها ولا نحيد عنها، وهم مخطئون فى هذا الفهم، إذ إن من ينظر فى كتب الشريعة الأصلية بعين البصر والحذق، يجد من غير المعقول أن نضع قانوناً أو كتاباً أو مبدأً فى القرن الثانى عشر من الهجرة ثم تجىء بعد ذلك فنطبق هذا القانون أو المبدأ ١٣٥٤هـ.

وإن من ينظر فى أقوال الأئمة من مذهب أبى حنيفة وما وقع بينه وبين أصحابه محمد وزفر وأبى يوسف، وبينهم هم، يجد التجديد فى الأحكام الشرعية ميسوراً لنا، ويجد بطلان الدوام لأحكام معينة وبقائها حيث يبقى الدهر من الأمور البدهية.

ومعنى هذا أن المسائل الفقهية مادامت غير قطعية فهى قابلة، بحكم الشرع، للتجديد والتغيير.

هكذا رسم الشيخ المراغى منهاج الإصلاح والتجديد فى التشريع والتقنين.. ثم وضع هذا المنهاج فى الممارسة والتطبيق.

ولقد كان صدور قانون الأحوال

كان الشيخ المراغى أنجب تلاميذ الأستاذ الإمام، وحامل لواء مشروع الإصلاح الدينى الذى صاغته هذه المدرسة، لتخرج به الأمة الإسلامية من بين شقى رحى «التخلف الموروث» و«التغريب»



الشخصية فى ذى القعدة ١٣٣٨هـ - يوليو ١٩٢٠م - أول إنجاز من إنجازات الإصلاح التشريعى التى قادها الشيخ المراغى ووجهها ورعاها فى هذا الميدان.

وتلاه تعديل قانون الطلاق - الذى جعل الطلاق الثلاث طلقة واحدة - وتلاه إصلاح القوانين الحاكمة لعدة الزوجة التى غاب عنها زوجها.. والقانون الذى يجعل للحفيد - الذى مات والده قبل جده - ميراثًا فى تركة جده..

وهكذا أخذت دعوة الإمام محمد عبده للإصلاح القضائى والتشريعى تعرف طريقها إلى التطبيق على يد أبرز تلاميذ الأستاذ الإمام وأنجبهم.. الذى حمل علم الإصلاح الدينى فى القرن العشرين.

ولقد كان شعار الشيخ المراغى فى احتضان مجمل تراث المذاهب الفقهية الإسلامية.. والاختيار من بين اجتهاداتها.. وفتح باب الاجتهاد فى القضايا والمشكلات المستجدة.. وفى التيسير فى الفتوى.. كان شعاره كلمة أستاذه الإمام محمد عبده: «العلم هو ما ينفعك وينفع الناس».. ولقد قال المراغى فى هذه المعانى: «.. ومن المعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب هذا الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبى يهدى إلى الحق فى أكثر الأوقات. يجب أن يدرس الفقه دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها فى الأدلة، وأن تكون الغاية من تلك الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها.

والنظر فى الأحكام الاجتهادية يجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة، كما كان يفعل السلف من الفقهاء..

وهناك أمور يجب أن يترفق الفقهاء فيها بالناس، وأن يراعوا قواعد اليسر التى هى أخص صفات الإسلام، ولا يوقعهم فى الحرج..».

ومع احتضان تراث المذاهب الفقهية الإسلامية المختلفة.. عمل الشيخ المراغى على التقريب بين مذاهب الطوائف الإسلامية، التى قسمت «مقالاتها الكلامية» جمهور الأمة الإسلامية.. فكان - بذلك - أول المصلحين الذين ارتادوا هذا الميدان فى القرن العشرين.

ففى المحادثات التى دارت بينه - كشيخ للأزهر - وبين الزعيم الإسماعيلى أغاخان (١٢٩٤ - ١٣٧٦ هـ ١٨٧٧ - ١٩٥٧م) - فى ١١ فبراير ١٩٣٨م - تم الاتفاق على تكوين هيئة للبحث الدينى، تستهدف:

١ - تأكيد روابط الصداقة بين المسلمين فى كافة أنحاء الأرض.

٢ - إيجاد تضامن بين الهيئات التعليمية فى البلاد الإسلامية يكون من ورائه نشر التعليم على وجه العموم، ونشر الثقافة الإسلامية على وجه الخصوص.

٣ - العمل على تبسيط قواعد الدين الإسلامى وتعاليمه.

٤ - محاولة التوفيق بين المسلمين مهما اختلفت مذاهبهم وفرقهم.

هكذا كان الإصلاح القضائى.. والتجديد الفقهى.. والتقنين لقواعد الفقه وأحكامه.. والتقريب بين المذاهب الإسلامية: أول الميادين التى جاهد فيها الشيخ المراغى، فأرسى قواعد الإصلاح الدينى فى القرن العشرين.

وهذه الإنجازات الإصلاحية - التى طبقها بمصر - مضافًا إليها ما أنجزه قبلها فى السودان، قد مثلت الميدان الأول من ميادين الإصلاح الدينى الذى دعا إليه وطبقه هذا الإمام العظيم.

إصلاح الأزهر الشريف

كان حلم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - فى حياته - وكانت مقاصده العظمى من وراء جهاده الفكرى - غير إصلاح مناهج الفكر والنظر.. وتوسيع أبواب الاجتهاد وميادينه.. وتأكيد علاقة الصداقة بين العلم والدين.. وبين الشرع والعقل والسنة الكونية والاجتماعية - كانت أحلامه ومقاصده: إصلاح المؤسسات التى تصنع العقل المسلم، وتصوغ وجدان النخبة الإسلامية، التى علق عليها الآمال فى قيادة الأمة على طريق الإقلاع الحضارى، وتجاوز المأزق الذى وقعت فيه الأمة بسبب «التخلف الموروث» عن عصور التراجع الحضارى، وبسبب «الهيمنة الغربية» التى تحرس هذا التخلف وهذه الأمراض الحضارية التى يعانى منها المسلمون.

وكان فى مقدمة هذه المؤسسات التى جاهد محمد عبده لإصلاحها:

١ - الأزهر الشريف.

٢ - المساجد.

٣ - القضاء الشرعى.

٤ - الأوقاف.

٥ - المدارس.

وشاء الله أن يتولى الشيخ المراغى مشيخة الأزهر فى ٢ ذى الحجة ١٣٤٦هـ. ٢٢ مايو ١٩٢٨... أى بعد أقل من عام على وفاة سعد زغلول... فكان الفارس الذى قاد مسيرة الإصلاح لهذا المعهد العتيق - والذى واجه - بشجاعة وإصرار - كل التحديات التى وضعت فى طريق هذا الإصلاح.. فأنشأ اللجان لدراسة واقع الأزهر.. ولاقتراح سبل الإصلاح.. وأنشأ التنظيمات الجديدة، التى تمثلت فى كليات اللغة العربية.. والشريعة.. وأصول الدين.. وأنشأ التخصصات العلمية داخل هذه الكليات.. وأنشأ الدراسات العليا لخريجى هذه الكليات.. وأعلن أن المقاصد من وراء إصلاح هذا المعهد العتيد هى:

١ - تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتها إلى أصول الدين.

٢ - إحياء التراث العلمى المجيد الذى خلفه لنا كبار علماء المسلمين.

٣ - عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضًا صحيحًا فى ثوب نقى خال من الغواشى المشوهة لجماله.

٤ - العمل على إزالة الفوارق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها.

● وإلى جانب هذا التنظيم للتعليم الجامعى الأزهرى، تم تنظيم التعليم قبل الجامعى - المعاهد الدينية الابتدائية والثانوية.

وفوق ذلك - ومعه - تم التطوير للمناهج الدراسية، على النحو الذى تجمع فيه بين الأصالة والتجديد..

● كذلك تم إنشاء «لجنة الفتوى بالأزهر» - من اثنى عشر عالمًا من كبار العلماء - فى ٢ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ - ١١ أغسطس ١٩٣٥م.. وتم إنشاء «قسم الوعظ والإرشاد» بالأزهر ١٩٢٨م.. وأعيد تنظيم «هيئة كبار العلماء».. وتم إنشاء «مراقبة البحوث الثقافية الإسلامية» فى شعبان ١٣٦٤هـ - يوليو ١٩٤٥م.

● ولقد كان واضحًا - ومعلنًا - أن هذا الإصلاح للأزهر وتعليمه الدينى إنما يتغيا الإصلاح الإسلامى على النطاق العالمى.. وذلك انطلاقًا من عالمية الإسلام.. ووحدة الأمة الإسلامية.. والمكانة التاريخية للأزهر فى هذه العالمية.. ودور مصر - بلد الأزهر - فى المحيط الإسلامى الكبير..

ولقد أشار هذا المشروع الإصلاحى للأزهر إلى هذه المقاصد العالمية فى رسالة هذا المعهد العتيد، فقال:

«إن لدى الأمة قضايا كثيرة معقدة فى حاجة إلى الدرس والبحث، وفى مقدمتها:

١ - قضية الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراشدين.

٢ - قضية التعليم الدينى على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب وأخرجته العقول.

٣ - حماية الدين من العدوان، والدعوة إليه كأمر الله.

٤ - قضية نظام الأمم الإسلامية وارتباط بعضها ببعض ارتباط تعاون وتناصر.

٥ - قضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير أمورهم بحيث تخفف عنهم أعباء الحياة.

٦ - مقومات الأمم الإسلامية التى يجب أن يحافظ عليها.

● والناظر فى هذه «المذكرة» التى كتبها الشيخ المراغى منهاجًا لإصلاح الأزهر يدرك أن هذا الإصلاح - بنظره - إنما كان السبيل لتحقيق عالمية الإسلام، بتحقيق العالمية للجامعة الإسلامية الأولى، وإصلاحها كى تكون جديرة بتحقيق هذه الرسالة العالمية للإسلام.. ولذلك، تحدثت هذه «المذكرة» عن أن:

«فى الدين الإسلامى عبادات وعقائد وأخلاق وفقه

اشترط المراغى أن يصدر مرسوم تعيينه من الخديو. وليس من الإنجليز لما فى ذلك من دلالة سياسية ودلالات شرعية، تؤكد على اختصاص الحاكم المسلم بالولايات الشرعية فى بلاد الإسلام

كتاب الزاوية

تجربة البنوك الأجنبية (١)

عادل حسين

وكلنا يذكر تقرير وزير المالية والاقتصاد المصرى حول دور البنوك الأجنبية، بعد تأميم قناة السويس؛ فقد استخدمت الدول الغربية هذه البنوك وسيلة للتخريب، وأصدرت إليها توجيهًا «بكف يدها عن إجراءات التمويل المعتادة»: سواء فى ذلك تمويل محصول القطن، أو التمويل الصناعى والتجارى، وكانت ترمى بذلك إلى إحداث تدهور فى اقتصاديات البلاد لتثير اضطرابات عامة بها، وأضاف الوزير: إن «الأحداث أثبتت أن كثيرًا من فروع بنوك الدول المعتدية التى كانت تعمل فى مصر، تمنح قروضها إلى عملائها فى مصر؛ بناء على أوامرَ مباشرة تأتيها من الخارج. ومؤدَّى هذا أن سياسة الائتمان التى يقوم عليها الاقتصاد المصرى كانت ترسم خارج البلاد: وفقًا لما تمليه مصالح غير مصرية- هذا على الرغم من أن النفوذ الذى كانت تملكه هذه البنوك الأجنبية، كان مستمداً مما يتجمع لديها من أموال مصرية، وودائعَ يأتمنها المصريون عليها، ومدخرات يحتفظون بها لديها؛ إذ إنه لم يكن لديها بمصر رءوس أموال تُذكر».

ووزير المالية والاقتصاد (صاحب هذا التقرير) كان عبد المنعم القيسونى، ويشهد للرجل أنه عاد إلى تذكير الاقتصاديين المصريين، بمضمون الكلام السابق فى مارس ١٩٧٤: فقد أشار إلى دعوته لرؤساء البنوك الأجنبية فى مصر فى يوليو ١٩٥٦، «وطلبت شخصيًا من رؤساء البنوك الأجنبية فى مصر ألا يستغلوا وضعهم الخاص، ولا يستغلوا سيطرتهم على الموارد المتاحة تحت أيديهم للتأثير على الاقتصاد المصرى؛ خصوصًا أننا كنا على أبواب موسم قطنى جديد، وكان لا بد من تدبير الأموال لتمويل مشتريات القطن من المنتجين، وإعدادها للتصدير إلى الخارج.

الإصلاح القضائى.. والتجديد الفقهى.. والتقنين لقواعد الفقه وأحكامه.. والتقريب بين المذاهب الإسلامية، أول الميادين التى جاهد فيها الشيخ المراغى، فأرسى قواعد الإصلاح الدينى فى القرن العشرين

فى نظم الأسرة وفقه فى المعاملات، مثل البيع والرهن، وفقه فى الجنايات.. وقد عرض الدين الإسلامى لغيره من الأديان، وعرض لعقائد لم تكن لأهل الأديان، وأشار إلى بعض الأمور الكونية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة، من جماد ونبات وحيوان.

وقد هوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السماوية السابقة، وهوجم من أتباع الديانات السابقة، وهوجم من ناحية العلم، وهوجم من أهل القانون.

ولهذا كانت مهمة العلماء شاقة جداً، تتطلب معلومات كثيرة:

- تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها.
- ومعرفة ما فى الأديان السابقة.
- ومعرفة ما يجد فى الحياة من معارف وآراء.
- ومعرفة طرق البحث النظرى وطرق الإقناع.
- وتتطلب فهم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهماً صحيحاً.
- وتتطلب معرفة اللغة وفقهها وآدابها.
- وتتطلب معرفة التاريخ العام وتاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ التشريع وأطواره.
- وتتطلب العلم بقواعد الاجتماع..
- يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة، وأن تدرس السنة دراسة جيدة، وأن يفهما على وفق ما تتطلب اللغة العربية فقهها وآدابها من المعانى، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة، وأن يبتعد فى تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه، وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية.
- يجب أن تهذب العقائد والمعاملات وتنقى مما جد فيها وابتدع، وأن تهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق وقواعد الإسلام الصحيحة.
- يجب أن يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة، والأحكام المجمع عليها، والنظر فى الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة، كما كان يفعل السلف من الفقهاء.
- يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما هو موجود فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى، ليظهر للناس يسره وقدسيته وامتيازه عن غيره فى مواطن الاختلاف.
- ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها وأسباب التفرقة وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها.
- يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها، وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة، مما يتوقف عليه فهم القرآن فى الآيات التى أشارت إلى ذلك.
- يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طرق التأليف الحديثة، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة فى عصور الإسلام الزاهرة والطرق الحديثة المعروفة عند علماء التربية.
- يجب أن يفعل هذا لإعداد رجال الدين، لأن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عامة، ودينه عام، يجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة والأمكنة المختلفة».

هكذا حدد الشيخ المراغى معالم المنهاج الإصلاحى للأزهر الشريف.. حدد المقاصد والوسائل.. انطلاقاً من عالمية رسالة هذا المعهد العتيد، النابعة من عالمية الإسلام الحنيف.. وأكد على ضرورة أن يجمع هذا الإصلاح بين الأصالة وبين التجديد، إن فى العلوم والمعارف أو فى سبل التأليف والتدريس.. بحيث تتخطى الدراسة فى الأزهر ركاكة عصور التراجع الحضارى والفكرى لتجمع بين إبداعات عصور الازدهار الأولى للحضارة الإسلامية وإبداعات الإحياء والتجديد فى نهضتنا الحديثة.. وبعبارته: «يجب



أن تكون الدراسة بالأزهر جامعة بين الطرق القديمة في عصور الإسلام الزاهرة والطرق الحديثة المعروفة عند علماء التربية».

ولأن الطريق - عام ١٩٢٨م - لم يكن معبداً أمام الشيخ المراغي لتطبيق هذا المشروع الإصلاحي للأزهر الشريف.. وبسبب من العقبات - من خارج الأزهر ومن داخله - اضطر الشيخ إلى الاستقالة في ٦ جمادى الأولى ١٣٤٨هـ - ١٠ أكتوبر ١٩٢٩م.

لكن طلاب الأزهر - وعلماء التيار التجديدي فيه - انخرطوا - لعدة سنوات - في المظاهرات والإضرابات والاعتصامات - حتى سميت الثورة الأزهرية الكبرى.. وتعرض الأزهر إبانها إلى قمع الحكومات المستبدة - مثل حكومة إسماعيل صدقي باشا (١٢٩٢ - ١٣٦٩هـ - ١٨٧٥ - ١٩٥٠م) - التي فصلت العديد من علماء الأزهر وطلابه.. حتى اضطرت هذه الحكومات - في النهاية - إلى الرضوخ لهذه «الثورة» فعاد الشيخ المراغي ثانية إلى مشيخة الأزهر ظافراً ومنتصراً - في ٢٣ محرم عام ١٣٥٤هـ - ٢٧ أبريل ١٩٣٥م.. فشرع في تنفيذ مشروعه الإصلاحي، الذي تخطى به الأزهر أعناق القرون، ليصبح حاضراً ومؤثراً في مجتمع القرن العشرين.

لقد حقق الشيخ المراغي أغلب المقاصد التي تحدثت عنها «مذكرته» لإصلاح الأزهر.. في التنظيمات.. وفي مناهج التدريس.. وفي الانفتاح على تراث عصر الازدهار لحضارة الإسلام.. والاستفادة من ثمرات التجديد في العصر الحديث..

كذلك ضمن بقاء الأزهر مستقلاً عن التبعية للسلطة السياسية للدولة.. وأيضًا استعاد للأزهر كثيراً من الاختصاصات التي سبق وسلبتها منه «الدولة».. فدعم ذلك من استقلال هذا المعهد العتيد..

ولأن الشيخ المراغي كان واحداً من عظماء العلماء في القرن العشرين، لم تنسه نشوة النصر عندما عاد إلى المشيخة عام ١٩٣٥م، ذكر فضل أستاذه الشيخ محمد عبده، إمام الدعوة إلى إصلاح الأزهر في العصر الحديث.. فقال الشيخ المراغي في الخطاب الذي ألقاه في الاحتفال بعودته إلى المشيخة:

«.. ومن الحق، أيها السادة، علينا ألا ننسى في هذه المناسبة، والحديث حديث الأزهر والأزهريين، ذلك الكوكب الذي انبثق منه النور الذي نهتدي به في حياة الأزهر العامة، ويهتدي به علماء الأقطار الإسلامية في فهم روح الإسلام وتعاليمه، ذلك الرجل الذي نشر الحياة العلمية والنشاط الفكري، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم، وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها، وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الأخلاق، ذلك الرجل الذي لم تعرفه مصر، إلا بعد أن فقدته، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن في التاريخ، ذلك هو الأستاذ الإمام (محمد عبده) قدس الله روحه وطيب ثراه، وقد مر على وفاته ثلاثون حولاً كاملة.

ومن الوفاء، بعد مضي هذه السنين، ونحن نتحدث عن الأزهر، أن نجعل لذكراه المكان الأول في هذا الحفل، فهو مشرق النور، وباعث الحياة، وعين الماء الصافية التي نلجأ إليها إذا اشتد الظمأ، والدوحة المباركة التي نأوي إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير».

هكذا تحدث الشيخ العظيم - محمد مصطفى المراغي - في لحظة الانتصار - عن أستاذه العظيم الشيخ محمد عبده.. وعن ريادته لميدان إصلاح الأزهر.. والإصلاح الإسلامي على امتداد عالم الإسلام.. واصفاً إياه بأنه «الكوكب الذي انبثق منه النور الذي نهتدي به في حياة الأزهر عامة، ويهتدي به علماء الأقطار الإسلامية في فهم روح الإسلام وتعاليمه».

وبهذا القبس من الخلق العظيم استطاعت عبقرية الشيخ المراغي أن تنجز - في إصلاح الأزهر الشريف - ما عجز عنه الكثيرون - من السابقين واللاحقين! ■

كتاب الزاوية

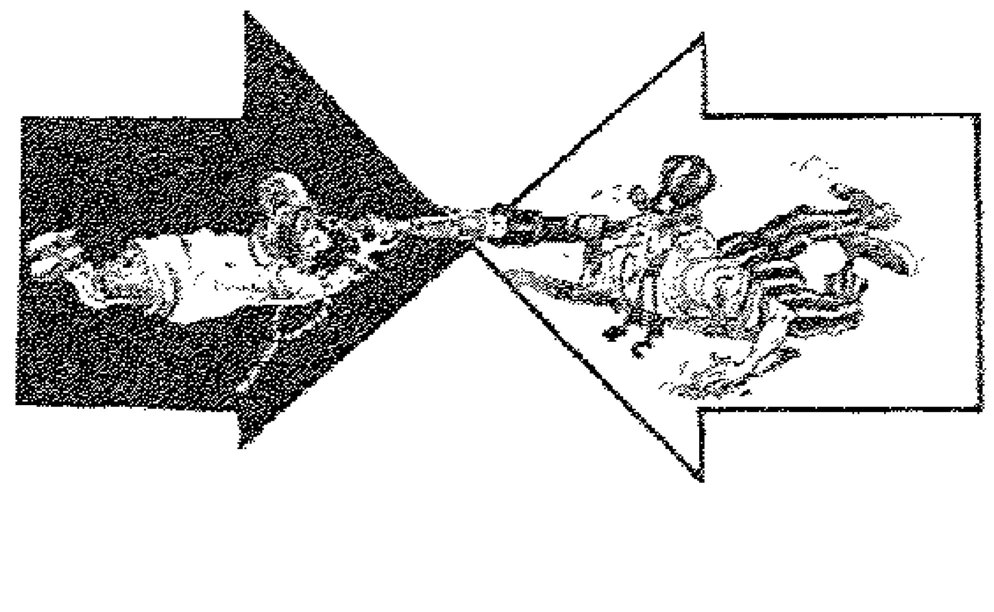
تجربة البنوك الأجنبية (٢)

عادل حسين

وتعلمون حضراتكم أننا عندما أممنا قناة السويس قامت الدولة المستعمرة بتجميد أموالنا كلها لديها، وكنا متوقعين هذا، فحاولنا تهريب بعض هذه الأموال إلى دول أخرى قبل التأميم بثلاثة أو أربعة أيام؛ حتى لا تشعر هذه الدول بما كنا قد انتويناه تجاه قناة السويس. ولكن كانت الأموال التي تمكنا من توجيهها للخارج لا تزيد على ٤ أو ٥ ملايين من الجنيهات، وكانت البنوك الأجنبية - بطبيعة الحال - خاضعة لنظام الرقابة على النقد الأجنبي، ولكننا كنا نطبق الرقابة على النقد بشيء كبير من المرونة؛ بحيث إن البنوك الأجنبية كان في إمكانها أن تتصرف - إلى حد ما - في هذه الأموال: أموال الاعتمادات وحصيلة الصادرات... إلخ، وفي طريقة استخدامها.

طلبت منهم مراعاة المصلحة العليا للاقتصاد المصري في طريقة استخدامهم للأموال المحلية والأجنبية الموجودة تحت سيطرتهم، ولكنهم لم يستجيبوا لرجائي، وعملوا على تخفيض المبالغ المخصصة لتمويل القطن، كما عملوا على سرعة استنزاف مبالغ النقد الأجنبي التي كانت حرة تحت تصرفهم؛ بحيث يضعوننا أمام مشاكل اقتصادية داخلية وخارجية حرجة. وكان لا بد من اتخاذ إجراء مضاد، إجراء لحماية الاقتصاد المصري؛ ولمنع سيطرة الأجانب عليه، ولمنع تهديد الأجانب لنا، واستخدامهم لأموالنا المودعة لديهم لطعننا في صدورنا. وكان الرد الطبيعي على ذلك هو فرض الحراسة على بنوك الأعداء، ثم تمصيرها كليًا.

أمريكا والإسلاميون (٣)



رؤية الإخوان للأمريكان!

خليل العناني

■ تتميز جماعة الإخوان المسلمين دون غيرها من حركات الإسلام السياسي بقدر عال من البراجماتية والواقعية السياسية، وهو ما يجعلها تتحرك بقدر من التوازن في ترتيب علاقتها بالأطراف الإقليمية والعالمية المؤثرة. بيد أن الأمر مختلف بالنسبة للعلاقة مع الولايات المتحدة، التي تنظر إليها الجماعة بقدر عال من الريبة والشك في إمكانية قيام علاقة طبيعية متواصلة على أسس من التفاهم المشترك.

ونحن نتحدث هنا عن الجماعة الأم الموجودة في مصر، وليس عن فروعها المتناثرة في بقية بلدان العالم العربي، والتي قد يتمتع بعضها بعلاقات جيدة مع واشنطن كما هو الحال في الكويت وسوريا والأردن والمغرب، كل حسب مصالحه وأهدافه بالطبع.

فبالنسبة للإخوان المسلمين في مصر فإن رؤيتهم للولايات المتحدة، كطرف يمكن الوثوق به والدخول في علاقات مباشرة، سلبية للغاية، وهي رؤية تتداخل فيها العديد من العوامل السياسية والأيديولوجية والتاريخية. دون أن يعني ذلك عدم وجود قنوات اتصال «خلفية» بين الطرفين، ولكنها لم تصل يوماً إلى حد العلانية أو التصريح بها وهو ما يعكس مدى هشاشة العلاقة بين الطرفين.

ويمكن القول أن هناك ثلاثة متغيرات تحكم الرؤية الإخوانية للعلاقة مع الولايات المتحدة:

أولها: مدى الثقة التي يمكن أن تنشأ بين الطرفين، والتي تجسدها مواقف واشنطن من الجماعة ومدى إصرارها على المضي قدماً في توطيد العلاقة مع الجماعة.

ثانيها: مدى استعداد واشنطن للضغط على النظام المصري بهدف تقليل مساحة الاستبداد وفتح الحياة السياسية أمام جميع القوى والحركات الاحتجاجية، وهو ما قد يسمح للجماعة بالاندماج «الشرعي» في الحياة السياسية.

وثالثها: ألا تلجأ واشنطن إلى استخدام علاقتها مع الإخوان المسلمين «كفزاعة» تلوح بها للنظام السياسي في مصر، حتى لا تفقد الجماعة جزءاً كبيراً من رصيدها المجتمعي.

مصادر الرؤية الإخوانية:

يمكن القول بأن هناك ثلاثة أبعاد رئيسية تشكل الخلفية الأساسية في رؤية الإخوان للولايات المتحدة، وتتمثل في:

ـ البعد العقائدي:

تقيم جماعة الإخوان المسلمين رؤيتها للولايات المتحدة على أساس عقيدي «ديني» انطلاقاً من فهمها للإسلام كمنهج كامل تنبثق منه رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان والعالم، وهي رؤية وضع جذورها الإمام حسن البنا الذي أكد على ضرورة أن يكون الإسلام هو قائد البشرية بما يقدمه من منظومة قيمية تقوم على الأمن والحرية والمساواة والعدالة. لذا ترفض الجماعة قيادة الغرب وزعامته للعالم ومنازعته للأمة الإسلامية في هذا الإطار. فضلاً عن التبشير بنهاية الغرب وانحلال حضارته وهو ما يسري على الحضارة الأمريكية بالطبع.

ـ البعد الحضاري:

يمكن القول بأن ما كتبه حسن البنا في مذكراته عام بشأن النظرة للحضارة الغربية، لا يزال يمثل المرجعية الأساسية التي تشكل علاقة الجماعة بالغرب، والتي يستند إليها العديد من قيادات الجماعة حتى اليوم. ومن المعروف أن البنا قد وجه انتقادات عنيفة للحضارة الغربية واصفاً إياها بأنها حضارة انحلال وتردٍ، فهي بالنسبة له «حضارة مادية» وعاجزة عن قيادة البشر وإسعادهم وذلك لافتقارها إلى الجانب الروحي والأخلاقي.

وعلى الرغم من أن حديث الإمام البنا كان ينصرف إلى الغرب بشكل عام، وتحديداً الغرب الأوروبي، إلا أن نفس الخطاب، ونفس المفردات يتم إعادة إنتاجها من خلال الخطاب الذي يتحدث به المرشد الحالي لجماعة الإخوان المسلمين محمد مهدي عاكف الذي يشير في إحدى رسائله الأسبوعية إلى أن «النظام العالمي الجديد (الذي تقوده الولايات المتحدة) نظام استعماري قديم يستخدم أدوات جديدة.. الإغواء مع القمع، والاختراق والسيطرة مع مزاعم الشراكة، والتفكيك مع التدمير، تفكيك الدول كإطار لتجميع الشعوب ضد الهيمنة، وإثارة الأقليات ومشكلات الحدود والنعرات العرقية والفتن الطائفية والحروب الأهلية، وعزل المجتمعات العربية عن المجتمعات الإسلامية، بتشجيع الاتجاهات القومية، وتجهيل المجتمعات، واستهداف عقول الشباب، وتدمير نظام القيم، وتعميم مشاعر الإحباط».

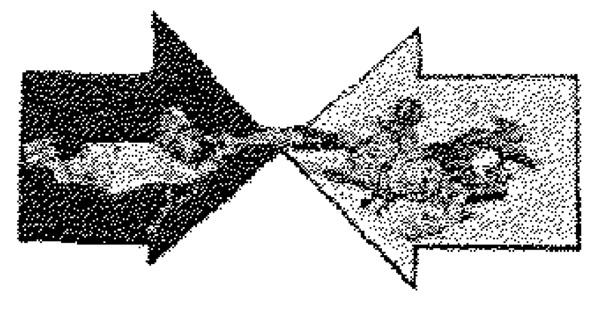
ولا يختلف رأي الدكتور عصام العريان رئيس القسم السياسي في جماعة الإخوان المسلمين عن ذلك كثيراً حين يشير إلى أنه «من الصعب إطلاق هذا المسمى على بلد لا يتعدى تاريخه مائتي عام، لذا من الصعب الحديث عن وجود حضارة بالمعنى المعروف. وبافتراض أنها حضارة، إلا أنها قامت بالأساس على نزعة استئصالية إقصائية من خلال استئصال الهنود الحمر، كما أنها حضارة «مادية» تقوم على ثنائية القوة والمال»[1].

بل هو نفس الرأي الذي يراه النائب الأول للمرشد الدكتور محمد حبيب الذي يرى أن الحضارة الأمريكية تقوم على مبدأ «البقاء للأقوى»، وأنه قائم على الازدواجية في مسألة الديمقراطية والحريات[2].

ـ البعد السياسي:

يعتبر البعد السياسي أحد المحددات الرئيسية في نظرة الإخوان للولايات المتحدة، ويتم من خلالها بناء الكثير من المواقف الإخوانية، وهو موقف وإن كان لا يختلف كثيراً عن موقف قطاعات عريضة من الشعوب العربية، إلا أنه في الحال الإخوانية أكثر حدة نظراً لتأثير العاملين السابقين. ويمكن تشريح هذا البعد من خلال ثلاث نقاط رئيسية، أولها النظر للولايات المتحدة باعتبارها قوة احتلال، وفي هذا الإطار يتبنى المرشد الحالي للإخوان المسلمين نفس الموقف الذي أعلنه الإمام الأول للجماعة حين كان يتحدث عن الاحتلال الأوروبي (البريطاني والفرنسي والإيطالي) للدول العربية، ويرى فيه نموذجاً لحكم الجبروت والقهر، في حين ينظر المرشد الحالي للجماعة للولايات المتحدة باعتبارها رمز الجبروت والطغيان.

الأمر الثاني هو العلاقة مع إسرائيل، وتحتل هذه العلاقة مساحة كبيرة جداً من نظرة الإخوان المسلمين للعلاقة مع الولايات المتحدة، وهي نظرة لها جذور تاريخية منذ حسن البنا وحتى الآن، وهي العلاقة التي تتحطم على صخرتها أية رغبة إخوانية في التقرب والتحاور مع الولايات المتحدة. وهي نقطة «مقدسة» لدى الإخوان المسلمين، الذين يرون أن هناك تطابقاً في الأفكار والأجندات



ما كتبه حسن البنا فى مذكراته عام بشأن النظرة للحضارة الغربية، لا يزال يمثل المرجعية الأساسية التى تشكل علاقة الجماعة بالغرب، والتى يستند إليها العديد من قيادات الجماعة حتى اليوم

السياسية بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

أما الأمر الثالث فيتعلق بدعم الولايات المتحدة للأنظمة الاستبدادية فى العالم العربى، وازدواجية الخطاب الأمريكى فيما يتعلق بمسألة الحريات ونشر الديمقراطية. وهى نظرة تاريخية لدى الإخوان المسلمين، حيث تبدو غالبيتهم على يقين بأن «الغرب» له اليد الطولى فى إيجاد وتثبيت النظم الحاكمة فى معظم بلدان العالم الإسلامى، وهو فى ذلك يربطها به ويستغلها لتحقيق مصالحه مقابل بقائها فى السلطة.

طبيعة العلاقة:

تاريخياً، يشير البعض إلى وجود علاقات بين جماعة الإخوان المسلمين فى مصر والولايات المتحدة ومن ذلك ما يقال عن بعض الوقائع التاريخية فى العلاقات الملتبسة بين الإخوان والأمريكان، فعندما بدأت تظهر إبان الحرب العالمية الثانية بوادر وراثة أمريكا للإرث الإمبراطورى الإنجليزى كان الإخوان من أنشط الحركات الشعبية، فأراد الإنجليز وبموافقة أمريكية تأسيس جمعية منافسة هى «إخوان الحرية» كان نشاطها ثقافيا واجتماعيا وتحرريا لجذب الشباب. وفشلت التجربة، كما فشلت محاولات أمريكية لاستقطاب عدد من الرموز الفكرية الإسلامية المصرية. فى أعقاب الحرب العالمية الثانية أشار البعض إلى إجراء حوار بين الإمام الشهيد حسن البنا وأحد أعضاء السفارة الأمريكية فى القاهرة حول مقاومة المد الشيوعى الذى كان هدفا مشتركا، لكنه لم يصل إلى نتيجة بسبب اختلاف التوجهات والمنطلقات.

وقد تكرر الأمر فى السبعينيات عندما وقع الاحتلال السوفيتى لأفغانستان وبدأت أمريكا بمساعدة حلفائها فى المنطقة العربية وباكستان فى التصدى لخط الوصول إلى المياه الدافئة وظهرت فكرة دعم المجاهدين الأفغان وحاول الأمريكيون عن طريق المرحوم الرئيس أنور السادات إقناع الإخوان بالمشاركة فى القتال بجوار الأفغان وقد رفض الإخوان ذلك.

ثم جاء عقد الثمانينيات والذى تطورت فيه العلاقة بين الطرفين بشكل غير مسبوق وعلى خلفية حاجة الولايات المتحدة للمجاهدين العرب فى مواجهة الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان، وهو ما ساهم فى تقريب العلاقة بين مختلف تيارات الإسلام السياسى فى المنطقة والولايات المتحدة عبر المظلة السعودية.

وقد كان وقوع أحداث الحادى عشر من سبتمبر علامة فارقة فى رؤية الطرفين (الإخوان والإدارة الأمريكية) كلاهما للآخر، وهو ما حدا بهما إلى النظر فى ضرورة إعادة صياغة هذه العلاقة على أسس جديدة.

وقد أفرزت هذه المرحلة العديد من المتغيرات التى دفعت كلا الطرفين إلى إعادة صياغة الحسابات، فمن جهتها دخلت الولايات المتحدة، تحت قيادة الرئيس الحالى جورج بوش، فى مواجهة مباشرة مع العديد من تنظيمات الإسلام السياسى خاصة تلك التى تنتهج العنف، وبدا أن ثمة اضطراباً فى رؤية الإدارة الأمريكية للعلاقة مع التيارات الإسلامية المعتدلة، وكيفية التعاطى معها.

وهذه المرحلة يمكن تقسيمها إلى مرحلتين جزئيتين، الأولى: مرحلة ما قبل فوز حماس بالانتخابات الفلسطينية، وهى المرحلة التى شهدت دعماً معنوياً واضحاً من الإدارة الأمريكية للتيارات المعتدلة وفى مقدمتها الإخوان المسلمين فى مصر، حتى وصل الأمر إلى التصريح بعدم ممانعة الولايات المتحدة فى وصول الإسلاميين المعتدلين للحكم. وهى تصريحات جاءت على لسان أعلى القيادات فى الإدارة الأمريكية بدءاً من الرئيس بوش نفسه، وحتى وزيرة خارجيته كوندليزا رايس. وفى هذا الصدد يمكن رصد العديد من الإشارات:

- جاءت أولى الإشارات بعدم ممانعة الولايات المتحدة بمشاركة الإسلاميين المعتدلين فى السلطة عبر تصريحات ريتشارد هاس مدير تخطيط السياسات بوزارة الخارجية الأمريكية، والتى جاءت فى سياق خطابه الذى ألقاه أمام مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى، والذى سبقت الإشارة إليه، حيث ذكر هاس أن «الولايات المتحدة لا تعارض الأحزاب الإسلامية .. نحن ندرك تماماً عندما نشجع الديمقراطية أن التحرك المفاجئ نحو الانتخابات الحرة فى البلدان ذات الأكثرية الإسلامية قد يأتى بالأحزاب الإسلامية إلى الحكم. لكن السبب لا يكمن فى كون الأحزاب الإسلامية تتمتع بثقة السكان الساحقة بل لأنها فى الغالب المعارضة المنظمة الوحيدة للحالة الراهنة التى تجدها أعداد متزايدة من الناس غير مقبولة»[3]. وقد جاء خطاب هاس متأثراً بما حققه الإسلاميون فى تركيا والمغرب والبحرين.

- تم طرح فكرة الإسلام الليبرالى على نطاق واسع، وأصدر مركز راند دراسة للباحثة شيرلى بينارد حول إمكانية دعم الولايات المتحدة لمشروع الإسلام الليبرالى فى الشرق الأوسط، والذى يعنى ضمنا القبول بالإسلاميين المعتدلين طرفاً فى العملية السياسية[4].

- أعلنت رايس أثناء عودتها من جولتها فى الشرق الأوسط فى ٢٣ يونيو ٢٠٠٥ بأن الولايات المتحدة لا تمانع فى وصول الإسلاميين إلى الحكم، إذا ما أجريت انتخابات حرة فى العالم العربى. وأن الولايات المتحدة ترى أهمية فى التحاور مع الإسلاميين - فى المنطقة العربية، وأنها لا تخشى من وصول تيارات إسلامية إلى السلطة[5]

وعشية فوز الإخوان المسلمين فى مصر بنحو عشرين بالمائة من مقاعد البرلمان المصرى ٨٨ من إجمالى ٤٥٤ ترددت دعوات كثيرة لفتح حوار معهم، وقد بدا أن هناك تياراً داخل الإدارة الأمريكية يتبنى فكرة التواصل مع الإسلاميين المعتدلين وعلى رأسهم جماعة الإخوان المسلمين، ولكنها كانت دعوات تجرى على استحياء، ولم تجد حماساً كبيراً من صقور البيت الأبيض والمحافظين الجدد.

ومن جهتها لم تمانع جماعة الإخوان المسلمين فى مصر تجاه عقد لقاءات مع مسئولين أمريكيين، وجاء ذلك على لسان العديد من قادتها، فقد أكد العريان أن الجماعة على استعداد لمحاورة الولايات المتحدة مشيراً فى تصريحات أدلى بها لوكالة فرانس برس عشية انتهاء الانتخابات البرلمانية فى ديسمبر ٢٠٠٥ إلى أن «موقف الاخوان يتلخص فى أننا دعاة حوار ونؤمن بالتعاون بين الحضارات على أسس متكافئة ونؤمن بأن هناك قيمًا مشتركة بين كل الثقافات والشعوب».

وغالباً ما تشترط الجماعة حضور ممثل من وزارة الخارجية المصرية لأى حوار قد يجرى مع أى من المسئولين الأمريكيين، وهو ما أكده المرشد العام للجماعة فى حواره مع جريدة الشرق الأوسط الذى أجرى فى الحادى عشر من ديسمبر ٢٠٠٥ حين أشار إلى ضرورة أن يتم ترتيب أى لقاء فى هذا الإطار من خلال وزارة الخارجية المصرية.

وهى بالطبع اشتراطات مفهومة فى إطار رغبة الجماعة فى إزالة المخاوف لدى النظام المصرى من أى محادثات قد تجرى بينها وبين الأمريكيين، وفى نفس الوقت تجنب استغلال النظام لأى حوار قد يجرى بين أعضاء الجماعة ومسئولى السفارة الأمريكية بالقاهرة من أجل التنكيل بالجماعة وتشويه صورتها أمام الرأى العام.

وعلى الرغم من عدم وجود حوار مباشر بين الطرفين (الإخوان والأمريكيين) إلا أن العلاقة بينهما خلال هذه المرحلة اتسمت بالتفاؤل والرغبة فى البحث عن مخرج من معضلة الرقابة الحكومية على إجراء مثل هذا الحوار، إما من خلال ممثلى الجماعة فى مجلس الشعب أو من خلال وسطاء آخرين.

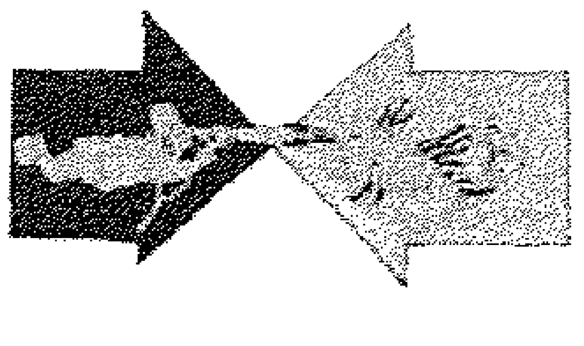
أما المرحلة الجزئية الثانية، فهى مرحلة ما بعد فوز حماس بأغلبية المجلس التشريعى الفلسطينى فى السادس والعشرين من يناير ٢٠٠٦، وهو الفوز الذى قلب موازين المعادلة الأمريكية فى المنطقة، وأعاد الهواجس التقليدية حول احتمالات وصول الإسلاميين للسلطة فى العالم العربى.

معوقات الحوار

بافتراض وجود نية لدى الطرفين الأمريكى والإخوانى لإجراء حوار جاد حول صياغة العلاقة بينهما، إلا أن ثمة معوقات يجب التخلص منها قبل الحديث عن إجراء مثل هذا الحوار، ويمكن تلخيص هذه المعوقات فيما يلى:

١- عدم الثقة فى الولايات المتحدة:

هناك اقتناع لدى قيادات جماعة الإخوان المسلمين بعدم جدية الولايات المتحدة فى إجراء حوار مع الجماعة، فضلاً عن



غالباً ما تشترط الجماعة حضور ممثل من وزارة الخارجية المصرية لأى حوار قد يجرى مع أى من المسئولين الأمريكيين، وهو ما أكده المرشد العام للجماعة

اقتناعهم بالتردد الأمريكى فى مسألة دعم الديمقراطية فى العالم العربى.

كما أن هناك شكوكا قوية لدى الإخوان المسلمين حول نوايا الإدارة الأمريكية من الدعوة لإجراء أى حوار مع الإخوان وما إذا كان حواراً جاداً يهدف إلى مصلحة مشتركة أم هو لاستخدام الإخوان فزاعة يتم تهديد النظام المصرى بها كى يرضخ للشروط الأمريكية، خاصة حول الملفات الإقليمية الصعبة (العراق وفلسطين والسودان). ثم هناك السياسة الأمريكية الواضحة نحو توظيف المعارضة العربية ضد النظم الحاكمة: حدث ذلك فى العراق وكانت الكارثة التى ستؤدى بالعراق إما إلى حرب أهلية أو فوضى عارمة. ويحدث ذلك الآن مع سورية. وهو ما يرفضه الإخوان رفضا قاطعا على حد تعبير عصام العريان.

٢ـ التخوف من تآكل الرصيد الشعبى:

تخشى جماعة الإخوان المسلمين فى مصر من أن يؤدى إجراء أى حوار «علنى» مع الولايات المتحدة إلى تآكل الرصيد الشعبى والمجتمعى للجماعة، خصوصاً فى ظل الصورة السلبية التى تسود العالم العربى تجاه الولايات المتحدة. كما أن هناك تخوفاً كبيراً من أن يستغل النظام المصرى إجراء مثل هذا الحوار من أجل تشويه صورة الجماعة لدى الرأى العام وهى حيلة يبرع النظام المصرى فى استخدامها منذ أكثر من نصف قرن.

٣ـ تناقض الرؤية بين الطرفين:

بالنظر للخلفية الأيديولوجية لكل طرف، يبدو أن ثمة تناقضاً جوهرياً يقف حائلاً دون إجراء أى حوار بين الطرفين. فالإدارة الأمريكية، حسب جماعة الإخوان المسلمين، لديها مشروع كونى يهدف للهيمنة على العالم. فى حين أن الجماعة، وحسب ما يشير إليه عصام العريان فى مقاله المذكور، لديها مشروع ثابت يتقدم بخطى ثابتة لبناء نهضة إسلامية إصلاحية يعتمده الإخوان المسلمون كحركة إسلامية شعبية واسعة الانتشار فى أنحاء العالم كله. فالمشروع الإسلامى للنهضة يهدف إلى تحرير الأركان الإسلامية من كل هيمنة أجنبية عسكرية أو اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية، ويسعى إلى إصلاح الحكم فى البلاد الإسلامية لتحقيق الحريات والديمقراطية الإسلامية على حد قوله.

٤ـ الخوف من بطش النظام المصرى:

لا يمكن لأحد أن يتجاهل الوضع القانونى لجماعة الإخوان المسلمين فى مصر، والتى لا تحظى بالشرعية القانونية وهو ما يضعها باستمرار تحت «رحمة» النظام المصرى، والذى لا يتورع عن التنكيل بأى فصيل سياسى يسعى لإقامة علاقة مع الولايات المتحدة، ويرغب فى أن يظل هو «المحتكر» الوحيد لهذه العلاقة.

فرص الالتقاء

نظرياً وفى ظل المعوقات السابقة قد يبدو افتراض حدوث تواصل من أى نوع بين الولايات المتحدة والإخوان المسلمين فى مصر أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً، بيد أنه من الناحية الواقعية فإن فرص الالتقاء بين الطرفين قد تصبح أمراً ملحاً فى إطار تقييم كل طرف لمصالحه ومدى قدرته على توظيف علاقته مع الآخر من أجل إنجاز هذه المصالح. وهو ما قد يبدد أى عقبات قد تعترض طريق الحوار، كما أن مثل هذا الحوار لا يعنى بالضرورة تغيير الانطباعات والأحكام العقائدية والفكرية بين الطرفين، حيث يمكن لكليهما الاحتفاظ برؤيته الأيديولوجية للآخر، وتصبح الأولوية للمصالح.

وقبل الحديث عن طرق الحوار، يجب الإشارة إلى أن هناك ثلاثة محددات تحكم أى حوار مستقبلى قد يجرى بين الطرفين، أولها: مدى استمرار الضغط الأمريكى على النظام المصرى لتقليل جرعات الاستبداد ضد مختلف القوى السياسية، بما قد يسمح للإخوان وغيرهم بالتنفس والانخراط فى العملية السياسية.

ثانيها: أن تحسم الولايات المتحدة خياراتها فيما يخص أجندة دعم الديمقراطية فى العالم العربى وتقبل نتائجها حتى وإن جاءت بالإسلاميين إلى السلطة. وثالثها: أن تعيد الولايات المتحدة النظر فى علاقتها بإسرائيل بحيث لا تبدو علاقة «التصاق» وتواؤم فى المواقف، لأن ذلك من شأنه نسف أى علاقة مستقبلية بينها وبين أى فصيل إسلامى فى العالم العربى. وفى كل الأحوال يجب على الولايات المتحدة أن تدرك أنها بحاجة ماسة للتواصل مع جماعة الإخوان المسلمين بشكل جاد يمكن البناء عليه مستقبلاً وذلك انطلاقاً من حقيقتين هامتين، أولاهما: أن الإخوان يشكلون البديل المحتمل فى حال حدوث فراغ سياسى «مفاجئ» فى النظام السياسى المصرى، ناهيك عن كونهم كتلة المعارضة الرئيسية فى البلاد. وثانيتهما: أن تطوير العلاقة مع الإخوان المسلمين فى مصر قد يساعد الولايات المتحدة فى تليين مواقف بعض التيارات «الإخوانية» المنتشرة حول العالم، وذلك انطلاقاً من الروابط التنظيمية بين الجماعة «الأم» وغيرها من التنظيمات الفرعية.

وفى هذا الإطار يمكن القول أن هناك ثلاثة طرق يمكن من خلالها التوصل إلى صيغة ملائمة لإجراء حوار جاد وفعال مع جماعة الإخوان المسلمين فى مصر:

الطريق الأولى:

أن يجرى الحوار بشكل رسمى من خلال التقاء المسئولين الأمريكيين بأعضاء الكتلة البرلمانية للإخوان فى مجلس الشعب، على غرار ما يجرى مع بقية أعضاء البرلمان من الأحزاب والقوى السياسية الأخرى، وهو ما يحرص الطرفان على القيام به حالياً؛ بيد أن المعضلة هى فى كيفية مواصلة هذا الحوار بشكل منتظم بحيث يؤسس لعلاقة أكثر متانة تقوم على توصيل كل طرف لرؤيته حول مستقبل العلاقة مع الآخر. ولا مانع هنا أن توجه دعوات رسمية من الكونجرس الأمريكى لوفد من أعضاء مجلس الشعب المصرى يكون من بينهم أعضاء فى جماعة الإخوان المسلمين بصفتهم البرلمانية طبعاً.

الطريق الثانية:

أن يجرى الحوار مع قيادات الإخوان المسلمين عبر مراكز الأبحاث والهيئات الأهلية فى الولايات المتحدة، وهو ما لا ترفضه قيادات الجماعة، بل على العكس من ذلك يرحبون به، ومن شأن هذه الطريق أن تمهد لإمكانية عقد لقاءات ثنائية مشتركة على مختلف المستويات. بيد أن هذه الآلية تتطلب مزيداً من الضغط على النظام المصرى بهدف عدم ممانعته فى قيام أعضاء الجماعة بهذا النشاط من حيث إجراءات السفر وترتيب اللقاءات ..إلخ.

الطريق الثالثة:

أن تضغط الولايات المتحدة على النظام المصرى عبر أدواتها المختلفة، الدبلوماسية والاقتصادية، من أجل الاعتراف القانونى بالجماعة، وهو إجراء رغم صعوبته النظرية فى ظل تذرع النظام برفض التدخل فى شئونه، إلا أن هناك مبررات كثيرة يمكن للطرف الأمريكى الاستناد إليها ليس أقلها التمثيل الشرعى الكبير للجماعة فى البرلمان، ناهيك عن الطابع السلمى للجماعة والذى يميزها عن غيرها من الجماعات العنيفة. وفى هذه الحال سيصبح إجراء الحوار وتبادل العلاقات مع الجماعة أمراً عادياً.

هوامش ومراجع

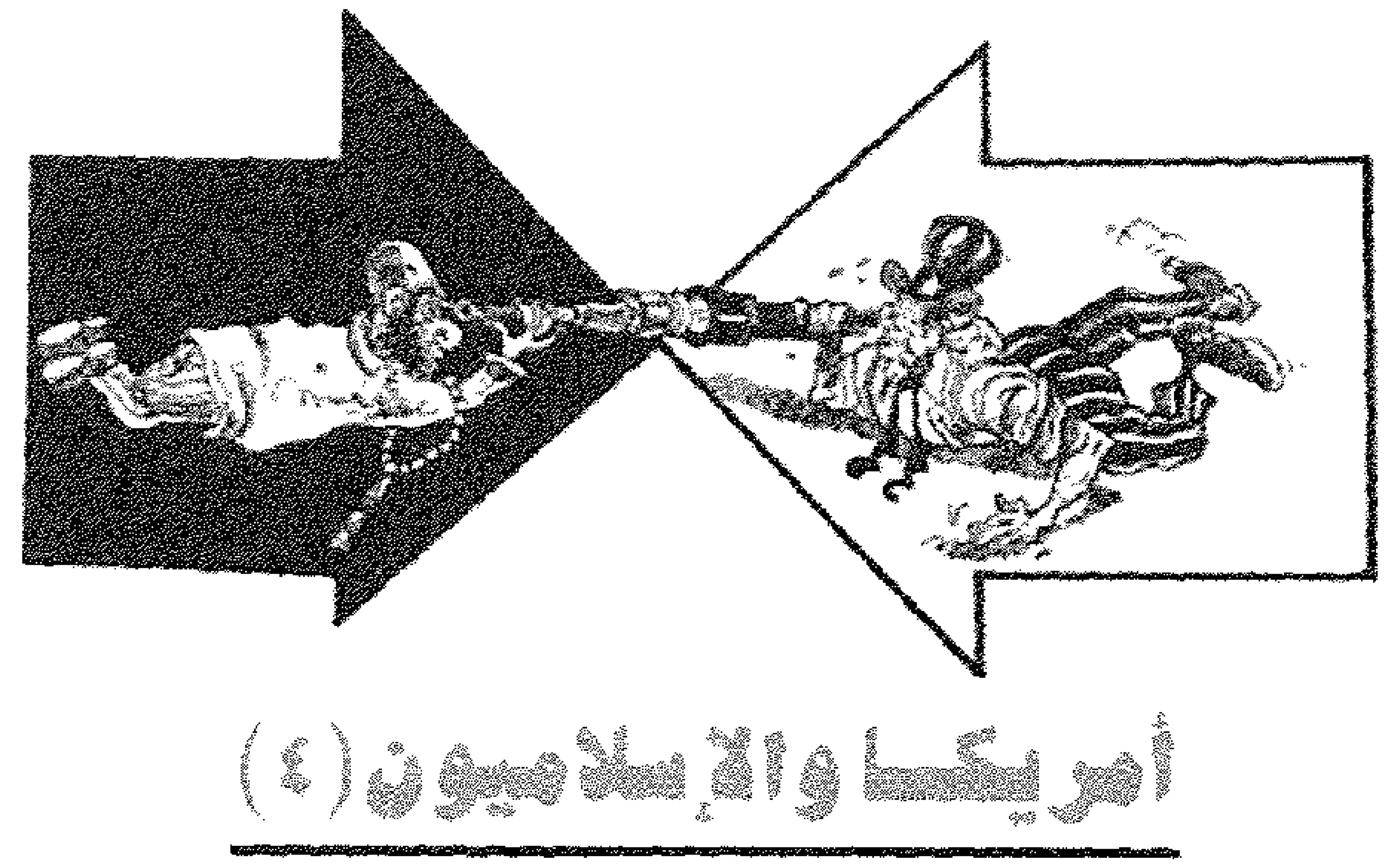
(١) من محادثة هاتفية مع د. عصام العريان، يوم الجمعة ٢ فبراير ٢٠٠٧، الساعة الحادية عشرة مساء.

(٢) من محادثة هاتفية مع د. محمد السيد حبيب، يوم السبت ٣ فبراير ٢٠٠٧، الساعة العاشرة والنصف مساء.

(٣) Richard N. Haass, Towards Greater Democracy in the Muslim World, Council on Foreign Relations, Washington, D.C. December 4, 2002 at: http://www.cfr.org/publication/5283/towards_greater_democracy_in_the_muslim_world.html

(٤) لمزيد من التفاصيل حول هذا التقرير، راجع الرابط: http://www.rand.org/pubs/monograph_reports/2005/

(٥) نص الحديث مع رايس على الرابط: http://usinfo.state.gov/mena/Archive/2005/Jun/27-774513.html



أمريكا والإسلاميون (٤)

شيعة وأمريكان!

إبراهيم سعيد البيضانى

لم تأت الولايات المتحدة إلى العراق بهدف تحقيق الديمقراطية وضمان حقوق الإنسان، بل إن احتلالها للعراق يأتى بدوافع وأهداف ومصالح إقليمية ودولية تتطلبها سياستها الدولية لتحقيق الزعامة والانفراد بقيادة العالم، وتأمين مصالحها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية فى المنطقة التى تضمن لها سيادة العالم والهيمنة على القرار الدولى؛ ومصالح أخرى تتعلق بالنفط وأمن إسرائيل، فضلا عن أن الأخطاء التى ارتكبها صدام حسين أعطت مبررات وهيأت ظروفًا مناسبة للولايات المتحدة لتحقيق هذا الهدف، إذ استغلت أخطاء النظام ووظفتها بشكل مناسب لتحقيق أهدافها، وبالتالى فإن احتلالها للعراق أحدث فراغا سياسيا كبيرا تحتاج الولايات المتحدة إلى من يملؤه، لذلك فإنها لا يمكن أن تتجاوز أحزاب المعارضة التى كانت خارج العراق، ولا يمكن لها أيضا أن تتجاوز مكونات المجتمع العراقى والعوامل والقوى المؤثرة فيه .

ينضاف إلى ذلك أن احتلال العراق يرتبط بالهدف اللاحق للمخطط الأمريكى نحو إيران، ففى دراسة حول القواعد الأمريكية فى العالم أعدها برادلى تايلر الباحث فى مركز راند للدراسات، أكدت أن من الأسباب وراء احتلال العراق هو إقامة قواعد عسكرية واستخبارية على أرضه، وهذا الأمر لابد أن ترافقه إقامة حكومة موالية للولايات المتحدة للمحافظة على هذه المنشآت، وتقديم التسهيلات اللازمة، وهذه القواعد مفيدة فى مواجهة إيران التى تعد الهدف الثانى المرشح للضربة الأمريكية القادمة، إذ كانت الولايات المتحدة ولا تزال تنظر إلى إيران بوصفها أحد عناصر محور الشر الثلاثة وتؤدى دورا يتناقض مع المصالح الأمريكية فى المنطقة، وترى فيها أنها تدعم حزب الله فى لبنان وتدعم حماس فى فلسطين المحتلة، ولها علاقات وثيقة مع تنظيم القاعدة، وبذلك فإن الباحث يرى أن إقامة حكومة عراقية موالية للولايات المتحدة ستكون ملاذا أمنا لقواعدها وللنفط، وهذا كان من أهم الأهداف وراء الحملة على العراق .

وفى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة تستعرض قوى المعارضة حول إمكانية ملء الفراغ بعد الإطاحة بصدام حسين فإنها لا يمكن أن تغفل الشيعة فى الجنوب الذين يشكلون ٦٥٪ من السكان وهى التى خذلتهم عام ١٩٩١، فإنها أيضا لا تخفى مخاوفها من قيام نظام يسيطر عليه الشيعة الذين تتواجد قياداتهم فى طهران، ويكون هذا النظام على صلة قوية بإيران(١). لذلك فإن جملة من الهواجس من الشيعة كانت الولايات المتحدة تراها ترتبط بالتدخل الإيرانى والخوف من إقامة دولة دينية .

إن الوضع السياسى الجديد فى العراق يستدعى عدم تجاهل حقيقة الحيف والظلم الذى تعرضت إليه الطائفة الشيعية فى العراق والإجراءات التعسفية التى أدت إلى حرمانهم من المشاركة فى الحكم، وحرمانهم من أداء طقوسهم الدينية، مما دفع الشيعة إلى البحث عن دور أكبر للحوزة فى النجف فى الحياة العراقية الجديدة، إذ تحظى الحوزة العلمية بمكانة مؤثرة فى حياة المواطن العراقى، وتحظى بتأييد والتفاف العشائر العراقية فى الجنوب وفى الفرات الأوسط، لذلك فإن أصحاب القرار فى الولايات المتحدة لا يمكن لهم تجاهل هذه الحقيقة فى أهمية هذه المكانة فى حياة أغلبية المجتمع العراقى، وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن الدور الذى اضطلع به الشيعة فى العراق الحديث ذو جذر وطنى عام ولم يكن بمعزل عن نشاطات وحركة المجتمع العراقى الأخرى، أى أنه لم يحمل صبغة طائفية، بل كان موقفا ودورا وطنيا(٢).

يصف تقرير لـBBC نشر فى السابع من آيار عام ٢٠٠٣ أن معظم رجال الدين الشيعة فى العراق يدعون إلى فصل الدين عن الدولة ويرفضون التدخل فى السياسة، وإن أبرز مراجع الشيعة فى العراق السيد على السيستانى يعتقد أن على الزعماء الدينيين عدم التدخل فى السياسة، ويرى ضرورة فصل الدين عن الدولة، وقد يكون بعض رجال الدين العراقيين العائدين من إيران ونتيجة معايشتهم للتجربة الإيرانية، واطلاعهم على جوانب النقص فى الإسلام السياسى، فإنهم لا يفضلون إقامة دولة دينية على غرار إيران، فضلا عن سيطرة الشيعة المعتدلين من رجال الدين وإعادة مكانة الحوزة العلمية فى النجف قد يضر بالدور الذى كانت تمارسه إيران والحوزة العلمية فى قم ويضعفه.

وتبدى الولايات المتحدة عدم الرضا من دور قيادى شيعى للعملية السياسية فى العراق فى إطار الهواجس والقلق من الدور الإيرانى فى مرحلة ما بعد صدام حسين فى العراق، فقد أكدت دراسة أعدتها وزارة الخارجية الأمريكية بالاشتراك مع معهد جيمس بيكر للدراسات، أنه فى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة تعد لغزو العراق، كانت ترى أيضا أن القوى الدينية والعرقية الرئيسية تتميز بعدم الثقة والكراهية أحيانا ومرد ذلك هو سنوات القمع والملاحقات التى مارسها نظام صدام حسين، لذلك كانت تضع فى حساباتها أن تنشر قوات دولية فى المناطق التى من المتوقع أن تنشب فيها أعمال عنف، بل لا تخفى قلقها من أن تسعى إحدى دول الجوار(إيران) إلى السيطرة على مناطق محددة من العراق فى الجنوب والشمال(٣).

ويرى وانغ جنيغ ليه الباحث فى الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، أن الولايات المتحدة تخشى من سيطرة الشيعة على الحكم فى العراق، لأنها تعتقد أن ذلك يعزز النفوذ الإيرانى، وهى فى الوقت نفسه تخشى السنة الذين يرتبطون مع نظام صدام حسين ومع حزب البعث بصلات وثيقة، لذلك فإنها أمام هذه الصورة تريد أن تنقل السلطة المحدودة إلى حكومة مشتركة تمثل كل الأطياف، أقرب إلى أن تكون حكومة حقيقية، لكى تتمكن من أن تحتفظ بوجودها العسكرى فى العراق(٤).

وقد تكون إيران أمام ملف شائك ومعقد فى التعامل مع العراق بعد سقوط نظام صدام حسين، إذ إنها فى الوقت الذى رأت فيه خلاصا من نظام مستبد، أو أنه قد يفتح آفاقا جديدة للمد الشيعى فى العراق والمراهنة على إمكانية إقامة حكومة دينية فى العراق على غرار الحكومة الإيرانية من خلال النتائج المتوقعة للانتخابات التى ستفرز فوزا شيعيا كبيرا، ولكنها من جانب آخر قد تكون قلقة من نتائج أخرى تتمثل فى استعادة الحوزة العلمية فى النجف لمكانتها الدينية التى فقدتها نتيجة الاضطهاد الذى تعرضت له فى فترة حكم صدام حسين، وأمام تنامى دور الحوزة العلمية فى قم، لذلك فإن هذا الدور الجديد لحوزة النجف سيؤدى بالنتيجة إلى إضعاف دور ومكانة حوزة قم، ويضعف دور إيران لدى الشيعة فى العالم وفى المنطقة، فضلا عن أن هناك اتجاها لدى بعض علماء الشيعة فى إحياء الزعامة العربية للمرجعية الشيعية فى العراق(٥).

لذلك لا يمكن أن ننفى حقيقة الدوافع والمصالح

راهنت الولايات المتحدة على علاوي ليس بوصفه شيعيا علمانيا فقط، بل لمواجهة النفوذ المتزايد لرجال الدين الشيعة، لكي تتمكن خلاله من احتواء الشيعة، وتقدم خيار إياد علاوي بعد فشل رهان الولايات المتحدة على الدكتور أحمد الجلبي

الإيرانية في التدخل في الشأن العراقي لما له من ارتباط بالدور السياسي والديني لإيران في زعامة الشيعة في العالم، ولكن في الوقت نفسه لا يمكن التعامل مع الشيعة في العراق بوصفهم منقادين للنفوذ الإيراني في العراق .

وقد أثارت مسألة تشكيل مجلس الحكم والحكومة الانتقالية كثيرا من الاتهامات والشكوك بأنها اعتمدت منهجا طائفيا من خلال مراعاة التكوين الاجتماعي والعرقي والطائفي للمجتمع العراقي، وعلى الرغم من أن ذلك قد يحمل أيضا مؤشرات إيجابية في خلق فرصة للتعايش والحوار والعمل الجماعي، إلا أن الخشية كانت من أن تصبح منهجا وسلوكا ثابتا في العملية السياسية يؤدي إلى إبعاد العناصر الوطنية ذات الكفاءة من ساحة العمل السياسي للتصدي للمشكلات والتحديات السياسية والوطنية. إذ إن تشكيل مجلس الحكم يتناغم مع خصوصية مرحلة انتقالية، لم يزل البلد فيها في طور مخاض وولادة جديدة، ولم تضع فيه آلية مناسبة للحكم بعد، وعلى الرغم من أنه لم يعكس بشكل حقيقي واقع المجتمع، فإنه يعبر عن ضرورات اضطرارية لمرحلة انتقالية[٦]. ينضاف إلى ذلك فإنه يوفر حالة من التوازن القلق، ولا يعبر عن حكومة قوية متماسكة.

وما يؤكد أن الولايات المتحدة ليس مع الخيار الإسلامي، ونحن بصدد حالة الشيعة في العراق، نقول إنها تراهن على خيار شيعي علماني، وقد اختارت الدكتور إياد علاوي أول رئيس لحكومة عراقية بعد تجربة مجلس الحكم،وعلق متحدث باسم البيت الأبيض على اختياره لرئاسة الحكومة العراقية، إنه قطعا قائد جيد ويتمتع بتأييد واسع من العراقيين، وقال مسئول في الإدارة الأمريكية إننا سعداء بهذا الاختيار ونعتقد أنه سيكون رئيسا جيدا للوزراء وأنهم مسرورون وسعداء بالصفات التي يتمتع بها والتأييد الذي يحظى به .

وفي الوقت الذي كانت تتردد فيه الأنباء عن اختيار الدكتور إياد علاوي لرئاسة الوزراء تحدثت الصحف البريطانية عن علاقته بالمخابرات الأمريكية والبريطانية، ومن هذه الصحف الإندبندنت البريطانية التي أشارت إلى أن مهمة الدكتور علاوي الذي يرتبط بجهاز المخابرات البريطانية أن يقنع العراقيين والعالم أن الاحتلال قد انتهى على الرغم من وجود آلاف الجنود الأمريكيين على الأرض العراقية، فضلا عن محاولة إقناع الدول الأخرى أنه سيقود حكومة مستقلة وهذا صعب أمام العلاقة التي تربطه مع المخابرات المركزية الأمريكية وجهاز المخابرات البريطانية، وأن هذه الصلات القوية مع الغرب قد تضعف مكانته وسمعته بين العراقيين، وقد يكون اختياره لرئاسة الوزراء أنه يحقق التوازن بين الأطراف العراقية الداخلية، سواء كانت داخل المجتمع الشيعي أو حتى مع السنة الذين يشعرون بالتهميش في ذلك الوقت .

وقد راهنت الولايات المتحدة على علاوي ليس بوصفه شيعيا علمانيا فقط، بل لمواجهة النفوذ المتزايد لرجال الدين الشيعة، لكي تتمكن خلاله من احتواء الشيعة، وتقدم خيار إياد علاوي بعد فشل رهان الولايات المتحدة على الدكتور أحمد الجلبي، وحاولت أن توظفه كجسر للعلاقة مع المرجع الديني الأعلى سماحة السيد السيستاني، ولكن هذه المحاولة فشلت بسبب إدراك ومعرفة السيد السيستاني خطورة التعاطي مع إياد علاوي الذي يرتبط مع الولايات المتحدة بعلاقات وثيقة. وهذا السياق من العمل السياسي بالتأكيد سينعكس على الدور السياسي والأداء السياسي لعلاوي.

احتفظ الدكتور علاوي بمكانة لدى المواطن العراقي، وأصبح خيارا مهما في الساحة العراقية وتمكن أن يحصد أربعين مقعدا في الجمعية الوطنية، وهذا يعد نجاحا كبيرا، بل أصبح من المتوقع أن يكون له نصيب أوفر في الانتخابات الأخرى التي جرت في كانون الأول عام ٢٠٠٥ . وجاءت النتائج عكس ما كان متوقعا فقد تراجعت مكانته، بل أدت سياسته إلى اصطدام وتقاطع تام بينه وبين الشيعة كمجتمع وكقوى سياسية.

وانعكست أجندة الولايات المتحدة على أداء الدكتور إياد علاوي، إذ تعامل بشدة متناهية مع التيار الصدري أثناء مواجهة النجف، فالولايات المتحدة ترى أن للسيد مقتدى الصدر أجندة سياسية وعسكرية تشكل تحديا كبيرا للاستراتيجية الأمريكية، وأن هذه الأجندة أكبر من أن تتسع لها برامج الزعامات السياسية الموجودة في العراق، وضمن استراتيجية كانت تراها الولايات المتحدة مناسبة لمواجهة المد الإيراني في العراق والحد من دور المرجعية العلمية في النجف، فقد تحرك الدكتور إياد علاوي باتجاه تكوين تحالفات مع البعثيين ومع قوى سياسية ودينية سنية، وبالتالي فإن ذلك أبعده عن التأثير في الوسط الشيعي، مما أدى إلى حرمانه من فرصة الحصول على نتائج أكبر في انتخابات كانون الأول ٢٠٠٥، وبالتالي أضعفت الولايات المتحدة من خيارها المفضل الخيار الشيعي العلماني .

وفي مقال للكاتبة نعومي كلاين في صحيفة الجارديان تقول إن فوز الائتلاف في الانتخابات يعارض الوجود والسياسات الأمريكية، وترى أن الناخبين وجهوا لطمة للولايات المتحدة عندما أطاحوا بإياد علاوي الذي عينته، وأن تصويت العراقيين لصالح الائتلاف يعني التصويت لصالح مغادرة قوات الاحتلال من العراق، وصوتوا ضد سياسة السوق الحرة التي تريد الولايات المتحدة تطبيقها في العراق . وفي مقال نشر في صحيفة التايمز وصفت فيه الكاتبة السيد السيستاني بأنه أقوى رجل في العراق، وتوقعت أنه سيكون له أثر كبير على مصير العراق وأن تأثيره يفوق ما يتمتع به كل الساسة العراقيين والقوات الأجنبية مجتمعين، وأن فوز القائمة التي يدعمها سيلعب دورا رئيسيا في تحديد ملامح الدولة العراقية المقبلة .

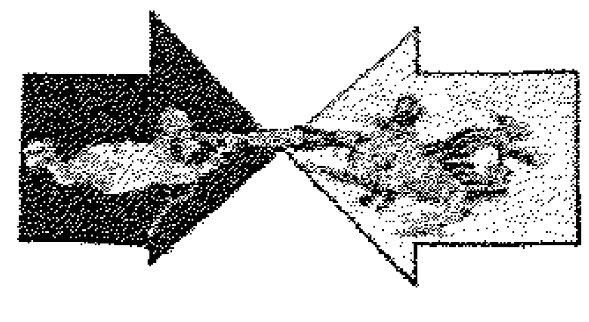
ولا يمكن أن نبعد المسار الذي اعتمده الدكتور إياد علاوي بعد إعلان نتائج الانتخابات عن وجهة النظر القائلة بأن نتائج الانتخابات جاءت مخيبة لآمال الولايات المتحدة، إذ قاد حملة محلية ودولية للتشكيك بنتائج الانتخابات وشكل كتلة مرام المعترضة على نتائج الانتخابات، وبعدها جاءنا بصيغة المشاركة الوطنية والاستحقاق الوطني، ثم بصيغة مجلس الأمن القومي، ثم المشاركة بالاعتراض على تولي الدكتور إبراهيم الجعفري رئاسة الحكومة الجديدة وآخرها الدعوة لتشكيل حكومة إنقاذ وطني، والهدف من وراء كل هذه المواقف إضعاف دور الشيعة في الحكومة المقبلة والالتفاف على نتائج الانتخابات، وهو تعبير واضح على كره الولايات المتحدة للإسلاميين، وعدم رغبتها في قيادة الشيعة للعملية السياسية في العراق .

وعلى أثر النتائج التي حققها الائتلاف العراقي الموحد في انتخابات كانون الثاني عام ٢٠٠٥، صرح وزير الدفاع دونالد رامسفيلد بأن الشيعة في العراق عراقيون وليسوا إيرانيين، وقلل من المخاوف التي تتحدث عن احتمال ظهور حكومة إسلامية شيعية على غرار الحكومة الدينية في إيران، ووصف ذلك بأنه أمر مستبعد، وأن وجهة نظر رامسفيلد أيدها ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي وقال إنه ليس هناك ما يبرر الخوف والقلق الأمريكي من أن العراقيين سيقدمون على أمر لا نحبذه، وعلى الرغم من النتائج التي أفرزتها انتخابات كانون الثاني عام ٢٠٠٥ وأظهرت تقدم الشيعة فإن الولايات المتحدة رأت في إقبال المواطنين العراقيين على صناديق الاقتراع تحدياً للإرهاب، وأنه خطوة مهمة باتجاه مواجهة أيديولوجية التطرف والكراهية، وهي تحد للمنهج الذي يعتمده الزرقاوي والتكفيريون، بل إن هذا الإقبال على صناديق الاقتراع هو فرصة لبناء عراق ديمقراطي موحد، وأعربت رايس عن ارتياحها لبروز الشيعة في العراق، وهذا الارتياح نابع من كونهم أغلبية السكان وانهم كانوا مضطهدين، وأن ظهورهم في المسرح السياسي مظهر جيد في العراق، ولكنها لم تخف مخاوفها من أن هيمنة الشيعة على الحكم نتيجة فوزهم الكاسح في انتخابات كانون الثاني عام ٢٠٠٥ قد ينعكس على صياغة الدستور العراقي الجديد واعتماده على الشريعة الإسلامية التي ترى أنها تحد من حقوق المرأة، وأكدت وقوف بلادها إلى جانب حقوق المرأة في بلدان الشرق الأوسط والبلدان الإسلامية .

يمكن القول إن الولايات المتحدة لن تستطيع السيطرة على العراق دون أن يقبل الشيعة الذين يشكلون الثقل الأكبر في المجتمع، وعلى الرغم من عدم استخدام الشيعة أسلوب المواجهة والرفض مباشرة مع الأمريكان بعد أن أصبح الاحتلال أمرا واقعا، إلا أن الغالب على موقف الشيعة هو عدم الرضا على الوجود الأمريكي، واعتمدت المرجعية الدينية حث المواطنين على المفاوضات والحوار والتظاهرات السلمية بهدف إقامة وإجراء الانتخابات، وهذا الاتجاه قاده المرجع الديني الأعلى السيد السستاني، أما التيار الصدري الجناح الآخر من الشيعة وهو جناح واسع ومهم فقد اعتمد أسلوبا وخطابا رافضا للوجود الأجنبي في العراق، وساهمت السياسة الأمريكية التي اعتمدت القمع والعنف في دفعه إلى المواجهة مع الأمريكان، فضلا عن أن الشيعة أدركوا أن الولايات المتحدة تعمل على تحديد وتقييد سلطاتهم ودورهم، لأنها فشلت في الدفاع عن المجتمع وفشلت في تحقيق الأمن، مما زاد من خيبة الأمل وردة الفعل تجاه الوجود الأمريكي[٧].

وعلى الرغم من أهمية القول بأن الطائفية ليست هي المشكلة الرئيسية فيما وصل إليه العراق من ظروف معقدة، إلا أن من الخطأ تجاهل حقيقة الانقسام

شيعة وأمريكان



الطائفى الذى مر به العراق طيلة تاريخه، وحرمان الشيعة من الحكم العثمانى الذى وضع النخبة السياسية السنية فى المقدمة، واستمرار هذا الوضع حتى بعد سقوط الدولة العثمانية واحتلال بريطانيا للعراق، إذ احتفظت النخب السياسية السنية بقيادة المجتمع العراقى،وظل الشيعة يعانون من الغبن والاضطهاد حتى عام ٢٠٠٣، وقد يكون القول إن الخلافات بين الشيعة والسنة هى خلافات سياسية أكثر منها دينية وطائفية، وهى أيضا متأثرة بطبيعة الأنظمة السياسية وبطبيعة الصراع والتنافس الدولى والإقليمى. لذلك فإن التغيير الذى حدث فى عام ٢٠٠٣ جعل الشيعة يبحثون عن فرصة غابت عنهم مدة طويلة، ومن جهة أخرى فإن التغيير الجذرى فى طبيعة الحكم عام ٢٠٠٣ وشعور السنة أنهم فقدوا سلطة كانوا يتمتعون بها لقرون طويلة من الزمن، انعكس على الواقع السياسى والاجتماعى والطائفى فى العراق .

إن المنحى الطائفى أخذ يتجه نحو التصعيد بشكل كبير وسريع منذ تفجير قبة الإمامين على الهادى والحسن العسكرى فى سامراء فى ٢٢/شباط / ٢٠٠٦، ولا يمكن أن ننكر أن هناك ردة فعل قوية من الشيعة نتيجة هذا الفعل الإجرامى الذى استهدف رموزهم ومعتقداتهم فى الصميم، ولكن من جانب آخر، فإنه لابد من القول إن هناك تصعيداً واضحاً فى حجم ونوع أعمال العنف والقتل التى أخذت تعطى لنفسها صبغة طائفية أو أنها تنفذ تحت اللافتات والشعارات الطائفية المتشددة،ولم يتمكن الأمريكان بوصفهم دولة الاحتلال وأنهم يمتلكون الأوراق والخيارات والصلاحيات أن يوقفوا العنف أو أن يمنحوا الحكومة العوامل والشروط التى تجعلهم قادرين على تحقيق الأمن .

وحاولت الحكومة الأمريكية فى خطابها بشأن العراق أن تستبعد استخدام تعبير الحرب الأهلية لوصف الأوضاع التى تجرى فى العراق، وقد يكون مرد ذلك لدوافع سياسية، لأن الحرب الأهلية فى العراق تضعف من تأييد الأمريكيين للحرب فى العراق، ولكنها لم تكن قادرة على أن تتجنب هذا الوصف، وشاع استخدام تعبير الحرب الأهلية فى الصحف الأمريكية مثل صحيفة نيويورك تايمز ولوس انجليس تايمز وشبكة إن بى سى، إذ شهد عام ٢٠٠٦ تصعيدا كبيرا فى العنف الطائفى، وقال بيل كيلر رئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمز إن من الصعب أن تجادل بأن هذه الحرب لا ينطبق عليها التعريف المقبول بصفة عامة للحرب الأهلية، وأكد الجنرال جون أبى زيد قائد القيادة الأمريكية الوسطى أمام أعضاء لجنة القوات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ فى الثالث من آب ٢٠٠٦ أن العنف الطائفى فى العراق وفى بغداد بالتحديد أصبح فى أسوأ حال شهده العراق على الإطلاق، وحذر من أنه ما لم يتوقف العنف فإن العراق يتجه نحو الحرب الأهلية .

والموقف الأمريكى من الشيعة فى العراق يتأثر بموقف الدول العربية السنية، إذ يكثر الجدل فى الأردن حول ظاهرة التشيع نتيجة وجود آلاف الشيعة العراقيين. والاستقطاب السياسى الإقليمى للمحور الإيرانى السورى، والتخوف العربى من النفوذ الإيرانى فى العراق وفى المنطقة العربية، وعلى الرغم من أن ظاهرة التشيع لا تزال محدودة، إلا أنهم ينظرون إليها بأنها مقلقة، وتشير التقارير الصحفية إلى أن الأجهزة الأمنية الأردنية لم تكتم تخوفها من هذه الظاهرة، فضلا عن أن الشارع الأردنى بدا غير راض عن السياسة الإيرانية تجاه العراق، وعن المعلومات التى تشير إلى تدخل إيرانى طائفى فى العراق ودعم إيران للميليشيات الشيعية، وأخذت المصادر تتحدث عن تنسيق أردنى سعودى لمواجهة ما تسميه بالنفوذ الإيرانى لدعم الجناح العسكرى للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية المتمثل بمنظمة بدر وحزب الدعوة، وأن المخاوف الأردنية والقلق الأردنى قد أسهم فى صياغته وتكونه شهادات لمسئولين ولشخصيات عراقية مثل الدكتور إياد علاوى وحازم الشعلان وفلاح النقيب وأيهم السامرائى وأعضاء فى كتلة الحوار الوطنى وهيئة علماء المسلمين،واتفق البلدان على تنسيق مواقفهما بشأن ما تسميه النفوذ الإيرانى المتزايد فى العراق. وتأتى تصريحات وزير الخارجية السعودى سعود الفيصل ومهاجمته للشيعة وتقديم الدعم للسنة فى هذا الإطار، وتضمن التنسيق الجديد مطالبة واشنطن للعمل معها فى مواجهة الشيعة ومواجهة النفوذ الإيرانى فى العراق(٨).

وقد اتهم مرشد الثورة الإسلامية الإيرانية آية الله على خامنئى الولايات المتحدة بأنها هى التى تحرض السنة والشيعة على الاقتتال الطائفى وتريد أن تزرع التشاؤم فى نفوس الناس، وأكد خامنئى فى خطبة الجمعة التى ألقاها فى طهران فى تشرين الأول من عام ٢٠٠٦، بأن الولايات المتحدة تريد جعل السنة والشيعة يقاتلون بعضهم، وبالتأكيد أن مرشد الثورة الإسلامية يريد أن يبعد التهم التى توجهها الولايات المتحدة لإيران بأنها تقدم الدعم للمسلحين الشيعة. وعموما فإن الاتهامات المتبادلة بشأن العراق أصبحت فاعلة ومؤثرة فى المشهد العراقى، بل إنها من أكثر القضايا أهمية وحساسية .

ويعد موضوع مستقبل التواجد العسكرى فى العراق وامكانية بقاء أطول للقوات الأمريكية فى العراق فى ظل حكومة إسلامية شيعية موضوعا مهما فى قراءة طبيعة العلاقة بين الولايات المتحدة والشيعة فى العراق، وحسب نشرة الدفاع الأمريكية يوجد للولايات المتحدة قوات فى ١٣٥ دولة من دول العالم، وإن لديها أكثر من ٧٠٪ من دول العالم، ولم تدخل الولايات المتحدة بلداً ثم تخرج منه سوى فيتنام وكوريا الشمالية، لذلك فإن المتوقع أن يكون هذا الوصف ينطبق على العراق، كشفت صحيفة جمهوريت التركية فى كانون الثانى عام ٢٠٠٤ أن الولايات المتحدة تريد بناء سبع قواعد عسكرية فى العراق، ثم نشرت صحيفة نيويورك صن فى الشهر نفسه أن البنتاجون يبنى نظام اتصالات عسكرية مستديما فى العراق وهو أساس ضرورى لوجود عسكرى دائم، لذلك يتوقع المراقبون أن الحديث عن انسحاب من العراق هو حديث تكتيكى استراتيجى أو إعادة انتشار، ومن ثم فإن الولايات المتحدة تتحدث عن انسحاب بعد استكمال مهمة بناء جيش عراقى، وهذه مهمة ليس من المنتظر أن تنتهى بسرعة إذ لم تقم الولايات المتحدة بإجراءات جدية فى بناء جيش عراقى وقوة أمن بالعدد والعدة المطلوبين .

ولكن هناك مبررات قد تدفع الأمريكان للتفكير فى الانسحاب منها الخسائر التى تعرضوا لها، وارتفاع التكلفة المادية والبشرية لوجودهم فى العراق، إذ ذكر تقرير بعنوان (المستنقع العراقى التكاليف المتزايدة للحرب ومسألة إعادة القوات إلى الوطن) نشر فى ٣١ / ٨ / ٢٠٠٥ أن تكاليف الحرب على العراق باتت قريبة من ٧٠٠ مليار دولار، وهذه التكاليف تضغط بدورها على الاقتصاد الأمريكى وقد تؤدى إلى مضاعفة العجز المتوقع فى الميزانية الاتحادية للسنوات العشر القادمة، فضلا عن الشكوك المتزايدة من بقاء ومن نشاط القوات الأمريكية فى العراق، وانعكاس هذا التواجد المكثف للقوات الأمريكية فى العراق على قدرة الولايات المتحدة على اتخاذ قرارات مهمة فى مواضيع مهمة أخرى، فضلا عن ضغط الجمهوريين واليوم الديمقراطيين المتزايد داخل الكونجرس باتجاه سحب الجيش الأمريكى(٩)، لذلك فإن انسحابا جزئيا قد يسهم فى تحسين الأجواء والأوضاع فى العراق وفى الولايات المتحدة .

فضلا عن ذلك فإن استراتيجية الانسحاب من العراق وتقرير توجهات السياسة الأمريكية تجاه العراق خلال المدى القريب والبعيد ترتبط بأن مصالح استراتيجية تجعل الولايات المتحدة مضطرة إلى الاحتفاظ بنسبة كبيرة من قواتها فى العراق، وعلى رأس تلك المصالح النفط، إذ بدا العالم يشهد ندرة نفطية عالمية وانخفاضا فى الاحتياطى النفطى، بل إن الكثير من الكتب والإصدارات والآراء ترى أن حروب الطاقة قد بدأت فعلا نتيجة الحاجة والطلب المتزايد على النفط، وأن من يسيطر على النفط يمتلك السلطة والقوة الاقتصادية بيده، وترى الولايات المتحدة أن السيطرة على النفط هى جزء من استراتيجياتها العالمية فى التحكم بقارة (أوراسيا) التى توصف بأنها قلب العالم، فضلا عن هذا الهدف المتمثل فى الحاجة إلى القوة العسكرية هو أن أحد أهم المحركات للسياسة الخارجية الأمريكية لمرحلة ما بعد الحرب الباردة هو كيفية التعاطى مع الدول التى تصفها الفاشلة وأنها مرتع للإرهاب، وأن هناك ارتباطا بين هذا الأمر وبين العولمة، وأن المصالح التى بموجبها حركت الولايات المتحدة قواتها العسكرية فى فترة التسعينيات أعطتها فرصة أن تثبت وجودها العسكرى فى مناطق واسعة من العالم، بل يرى البعض أن ١١ / أيلول كان هبة من السماء، منح الولايات المتحدة فرصة فرض قواعد جديدة فى العالم(١٠).

لذلك فإن الولايات المتحدة أمام خيارين أولهما انسحاب جزئى تكتيكى يحقق للأمريكان البقاء لفترة أطول بأقل الجهد والتكاليف، وثانيهما بناء قواعد عسكرية ثابتة فى العراق تحقق المطلوب منها، وفى كلتا الحالتين فإن تحقيق ذلك قد تراه مناسبا فى ظل حكومة عراقية تسيطر عليها الأحزاب الدينية الشيعية. وكل ذلك يعكس الهواجس والقلق من حكم الشيعة الإسلاميين فى العراق .

وهى تبحث عن تحقيق النصر فى العراق ترى الولايات المتحدة أن مشاركة واسعة للسنة العرب فى العملية السياسية تراه

من الخطأ تجاهل حقيقة الانقسام الطائفى الذى مر به العراق طيلة تاريخه، وحرمان الشيعة من الحكم العثمانى الذى وضع النخبة السياسية السنية فى المقدمة

ضروريا لتحقيق ذلك، ففى خطاب ألقاه فى ٢٠ كانون الأول / ديسمبر فى واشنطن قال ستيف هادلى مستشار الأمن القومى الأمريكى «إن هناك اعترافا متناميا بأن الإخفاق ليس خياراً فى العراق»، إن الهزيمة فى العراق ستوجد «ملاذا آمنا للإرهابيين» فى بلد يحتوى على موارد طبيعية هائلة يمكن استخدامها لتمويل هجمات إرهابية فى المستقبل وهذا يعد إقراراً متنامياً بضخامة منافع النجاح الأمريكى فى العراق وقال: «إن النجاح سيسدد ضربة حاسمة إلى الأيديولوجية التى تضرم نار الإرهاب الدولى . وسيكون العراق الديمقراطى منارة للحرية، تلهم المصلحين الديمقراطيين فى جميع أنحاء الشرق الأوسط» . وذكر هادلى أن الإجماع الذى أخذ يسود بين الساسة الأمريكيين يتركز على خمسة عناصر تتضمن تدريب قوات الأمن العراقية ونقل المزيد من المسئوليات الأمنية إليهم وإدخال السكان العرب السنة فى العملية السياسية ودعم العراقيين وهم يراجعون وربما يعدلون دستورهم كى يصبح بمثابة ميثاق وطنى بين المجموعات العراقية المتنوعة، وتوسيع دعم المجتمع الدولى للعراق وإشراكه فى إعادة بناء العراق وإعادة تركيز الدعم لإعادة إعمار العراق والجهود الاقتصادية كى تتبدى أمام أعين العراقيين وظائف ومزايا ملموسة . وقال هادلى إن مفتاح النجاح بتعديل الدستور هو فى إجراء تعديلات تعالج هواجس السنة ولكنها لا تخلق توقعات. «وأضاف أن آخر شىء تريده هو إجراء تعديلات أو تغيرات لا تلبى هواجس السنة ثم يأتى السنة ينسحبون من العملية السياسية . إنه يتطلب حنكة سياسية حقيقية من المجتمعات الثلاثة، السنة والشيعة والأكراد».

هذا الوصف يعد بمثابة توجهات أمريكية بشأن سياستها فى العراق، إذ أخذت تدفع وتشجع السنة على المشاركة فى الانتخابات، بل حتى فى إقامة حكومة وحدة وطنية وتلوح باحتمالات الدفع والتشجيع على إجراء تعديلات فى الدستور تلبى هواجس السنة، والأكثر من ذلك فإن الولايات المتحدة فتحت قنوات اتصال مع الإرهابيين، وأخذت تعيد النظر فى استخدام المفردات والخطاب تجاههم وأبدلت الإرهابيين بالمسلحين، إذ يجب أن تفهم أن هذه التوجهات تستهدف خلق موازنة فى الحكومة العراقية المقبلة والحد من تأثير وانفراد القوى السياسية الشيعية فى العملية السياسية للمرحلة المقبلة .وعلى الرغم من أن مؤشرات تقرير بيكر هاملتون تشير إلى عدم إمكانية تلبية كافة مكونات المجتمع العراقى المتناقضة فى سلة واحدة، ويمكن اعتماد ما تمتلكه الأكثرية (الشيعة والأكراد) مع ضمان حقوق السنة، إلا أن الرئيس بوش أصر فى استراتيجيته على إعطاء مساحة أكبر لمشاركة السنة فى العملية السياسية والتعامل مع المتطرفين والمتشددين لدى الشيعة والسنة على حد سواء، وكل ذلك يأتى فى إطار تحقيق توازنات قلقة لا تسمح للشيعة بالانفراد أو امتلاك مفاتيح الحل فى العراق وحدهم .

ويأتى ملف حقوق الإنسان ليكون مؤشرا آخر على أن الولايات المتحدة وظفته ضد الشيعة فى العراق كجزء من حالة عدم الرضا من الإسلاميين الشيعة، فقد أكد تقرير المنظمة الدولية لحقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش) لعام ٢٠٠٦ تدهور حقوق الإنسان فى العراق، إذ أشار إلى انتهاكات تقوم بها القوات الأمريكية العراقية المشتركة أثناء قيامها بسحق الإرهابيين والمتمردين بما يؤدى إلى مقتل المدنيين وانتهاك قوانين الصراعات المسلحة، وقال التقرير إن معظم المزاعم بشأن سوء معاملة المعتقلين تطال قوات وزارة الداخلية العراقية وعناصر من القوات المسلحة التى تعمل تحت أمر وزارة الدفاع العراقية

وجه الرئيس الأمريكى جورج بوش فى خطابه استراتيجية النصر نقدا قصد به الشيعة، إذ قال (والبلد الذى ينقسم إلى فئات ولا يتجاوز المظالم القديمة بلد لا يستطيع التحرك قدما ويواجه خطر الانزلاق مجددا إلى الطغيان) وفى إشارة أخرى قال (يجب علينا أن نضمن أن قوات الشرطة تدرك أن مهمتها هى خدمة قضية عراق حر، لا معالجة مظالم قديمة بالاقتصاص من الناس خارج شرعة القانون)[11].

وفى الاستراتيجية الجديدة التى أعلنها الرئيس الأمريكى بوش فى مطلع عام ٢٠٠٧ فإنه وصف موضوع الميليشيات بأنه أخطر الملفات التى تواجه السياسة الأمريكية فى العراق ووضع ما يسميهم بفرق الموت والميليشيات على حد سواء مع الإرهابيين، ومنذ قضية ملجأ الجادرية حتى اليوم تتكرر مشاهد الاتهام والضغط على الشيعة وعلى ردة الفعل التى ارتكبتها بعض القوى المسلحة من الشيعة فى التعامل مع ملف الاحتقان الطائفى والتهجير الذى دفع إليه الإرهابيون .

وعلى نفس المنوال فى مواجهة البرنامج السياسى للحكومة العراقية التى تقودها بشكل كبير الأحزاب الشيعية الإسلامية تعثرت برامج وسياسة الإعمار، اذ اتسمت مشاريع الإعمار فى العراق خلال السنوات الثلاث الماضية بالبطء والتلكؤ وعدم الوضوح، إذ أن نسبة ما نفذه فى الواقع من برامج الإعمار هى محدودة جدا وتشير دراسة يابانية أن نسبة التنفيذ هى ٥ ٪ فقط، فضلا عن أن هذه النسبة لا تذهب كاملة للإعمار، إذ يشوبها الفساد الإدارى ومصاريف العمالة الأجنبية، وتشير أحدث دراسة لوزارة التخطيط العراقية إلى أن المبالغ المنفقة وكلفة المشاريع المقررة هى ٢.٥ مليار دولار من خلال صندوقى الأمم المتحدة والبنك الدولى والمعونات الثنائية، فضلا عن المنحة الأمريكية البالغة ٢.٩ مليار دولار حتى شباط عام ٢٠٠٥، وبذلك يكون مجموع إعانات الإعمار نحو ٤.٥ مليار دولار . وقد أثير جدل حول الفساد الإدارى الذى رافق عمليات الإعمار اتهم فيه مسئولون أمريكيون وساسة عراقيون وإداريون، لذلك جرى الحديث عن اختفاء أموال تقدر بالمليارات وظل موضوع الأمن هاجسا يعيق الإعمار، وأصبح أيضا ذريعة لمزيد من النهب والاختلاس[12].

ينظر الأمريكان نظرة متفائلة للاقتصاد العراقى، ويرون أن هناك عوامل إيجابية تتوفر فيه كالعملة المستقرة والبورصة المستقلة والبنك المركزى وقانون الاستثمار والقوانين الضريبية، ولكن الرئيس الأمريكى جورج بوش وصف أن اكبر تحد يواجه العراق هو إعادة البنية التحتية النفطية والكهربائية ووعد بمواصلة جهود إعادة التعمير ومساعدة الحكومة الجديدة فى تطبيق الإصلاحات وتشييد اقتصاد حديث، ودعا الدول كافة إلى إعادة الممتلكات العراقية المتجمدة وحثها على إسقاط ما لديها من ديون على العراق، فضلا عن تقديم القروض والمساعدات له.

لذلك فإن العقبات التى واجهت حكومتى الجعفرى والمالكى فى شأن الانطلاق أو الاندفاع نحو برنامج واسع للإعمار الكفيل بفتح آفاق واسعة ورحبة أمام بناء تجربة عراقية جديدة، تشير إلى أن الولايات المتحدة تشترك مع الحكومات العراقية المشار إليها فى الفشل الذى رافق القيام بحملات الإعمار، إذ لم يلمس المواطن العراقى أى تطور فى هذا المجال على الأرض، يمكن أن ينعكس على حياة المواطن وأمنه واستقراره.

مضامين ومؤشرات ختامية

. لم ينجح الشيعة فى إزالة الشكوك بشأن التدخل الإيرانى، وتأثير إيران فى برامج الأحزاب السياسية الدينية الشيعية، وفتح فرصة أوسع للتعاون مع الولايات المتحدة وبناء جسور من الثقة معها، إذ لا تزال الولايات المتحدة غير واثقة من أن مصالحها تتحقق مع قيادة الأحزاب الدينية الشيعية للعملية السياسية، فضلا عن أنهم أى الشيعة لم يتمكنوا أن يظهروا قوتهم وتماسكهم وتوظيف عناصر الضغط لديهم لضمان تأييد أمريكى لمشروعهم السياسى فى العراق، ينضاف إلى ذلك أن الشيعة لم يتمكنوا من النجاح فى الملف الأمنى سواء كان ذلك نتيجة عدم الحصول على الدعم الأمريكى المطلوب، أو عدم توظيف المجتمع وقيادته باتجاه مكافحة الإرهاب وتقوية مؤسسات الدولة العسكرية والأمنية نحو ذلك، بل إن الخطاب السياسى الشيعى لم يرتق إلى مستوى مواجهة حملات التشكيك والرفض والتحدى، لذلك انعكست هذه المواجهة السياسية الخطابية على الموقف الأمريكى الذى أخذ ينظر باهتمام إلى الاختراقات فى وزارة الداخلية وعدم منح الحكومة الصلاحيات المناسبة، فضلا عن موضوع الميليشيات الذى أخذ مساحة أكبر من الاهتمام فى الخطط الأمريكية فى العراق .

. إن استمرار العقبات والفشل فى الملف الأمنى فى العراق، يدفع العلاقات بين الولايات المتحدة والشيعة إلى أن تأخذ منحى يصب فى الصراع والاصطدام، إذ إن فشل أو نجاح التجربة السياسية فى العراق هو رهن بحل الأزمة الأمنية، وإن برنامجاً أو استراتيجية جديدة بشأن العراق لا تأخذ بنظر الاعتبار توقفا نهائيا للعنف لن تكون ناجحة ومجدية، وبالتالى فإن فشل الحكومة المنتخبة هذه المرة سيكون منعطفا فى وصف العلاقات بين أمريكا والشيعة وبالتالى يدفع الشيعة أو يضطرهم إلى المواجهة السياسية والعسكرية، ويدخل الوجود العسكرى

الأمريكي في مأزق جديد قد يكون أكثر خطورة من الملفات والأزمات التي تواجهها الولايات المتحدة في العراق .

. إن استمرار العنف والاحتقان الطائفي والأعمال الإجرامية الإرهابية يدفع إلى أن يهيمن المسلحون والمتشددون والمتطرفون على الساحة السياسية وعلى الأرض، وتعني بالنتيجة زيادة الاحتقان واستمرار القتل وجرائم الاغتيال،وستواجه الاستراتيجية الأمريكية الفشل، وهذا الفشل يجعل العراق على أعتاب مرحلة خطيرة تدفعه إلى مزيد من التدهور والاحتقان والحرب الأهلية.

إن مراهنة الولايات المتحدة على ظهور ونمو قوة سياسية علمانية يكون لها حضور فاعل في السياسة العراقية يظل خيارا متوقعا وقائما، ولكن ذلك لا يعني أنه يأتي من خلال خلق الأزمات ووضع العراقيل أو من خلال استمرار دوامة العنف، بل من خلال خلق أجواء من الأمن والاستقرار والتطور في العملية السياسية، فضلا عن أن الخيار العلماني الذي تبحث له عن مكان في الساحة السياسية العراقية ليس بالضرورة أن يأتي من خلال التصدي للتيار الإسلامي، إذ إن للخيار الإسلامي وخاصة حالة الشيعة في العراق تأثيرا واسعا ومهما، لابد من التعامل معه بواقعية وفهم جديدين يرتقيان معا لأداء دور وطني أكبر، وقد ينمو ويظهر اتجاه علماني إسلامي.

. إن زج العراق في الاستراتيجية الأمريكية نحو إيران، يجعل العراق ساحة من ساحات الصراع والتنافس بينهما، ويجعل من الولايات المتحدة لا تحمل برنامجا وديا تجاه الشيعة في العراق، إذ لا تستطيع الولايات المتحدة أن تجمع بين نجاح الشيعة في العراق وبين ضرب الشيعة في إيران معا، إذ إن الحملة العسكرية المتوقعة ضد إيران دفعت الولايات المتحدة إلى الضغط على الشيعة في العراق، والقيام بحشد عربي ضد ما تسميه نفوذا إيرانيا في العراق، وبذلك أصبح الشيعة في العراق ضحية أجندة إيرانية لم تكن موفقة في محاولة إشغال وإفشال الوجود العسكري الأمريكي في العراق، وهي أيضا ضحية لأجندة أمريكية تستهدف تصفية الحساب مع إيران ومنع تطورها النووي أو محاولة تغيير نظامها السياسي .

. إن الولايات المتحدة رفعت شعارات حقوق الإنسان والديمقراطية وبشرت بإقامة مجتمع مدني متطور في العراق، وهذه المفردات أخذت مساحة كبيرة في خطابات الرئيس الأمريكي بوش وفي خطابات وتصريحات المسئولين الأمريكيين، وبذلك فإنها ملزمة أمام نفسها وأمام شعبها والرأي العام العالمي أن تقدم ما من شأنه أن يضع العراق على طريق السير نحو الديمقراطية .

. إن المؤشرات التي تضمنها تقرير بيكر هاملتون ومواقف الديمقراطيين في الكونجرس الأمريكي بشأن جدولة الانسحاب ومنح الحكومة العراقية صلاحيات واسعة في الملف الأمني وعدم زج قوات أمريكية جديدة في العراق، فضلا عن الدعوة إلى فتح الحوار مع المراجع الدينية في النجف ومع السيد مقتدى الصدر، تبدو أكثر واقعية ومنطقية في معالجة أوضاع العراق وتحقيق نتائج إيجابية باتجاه الحل في العراق . وقد يفتح كل ذلك آفاقا جديدة لنظرة اكثر واقعية للإسلاميين الشيعة في العراق.

الهوامش

(١) المعارضة العراقية لصدام، تحليل بقلم فيونا سيمون .

(٢) مصطفى كاظم الشيعة في العراق بين الدين والسياسة، تقرير BBC منشور بتاريخ ٢٠٠٣/٥/١٩ .

(٣) رؤية أمريكية لعراق ما بعد صدام حسين .

(٤) وانغ جنيغ ليه، التناقض القومي الأمريكي المتزايد .

(٥) محمد عباس ناجي، ما هي حقيقة المد الشيعي الإيراني في العراق، ملف الأهرام الاستراتيجي، إصدار مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية.

(٦) رجائي فايد المأزق العراقي:مشكلات بناء الدولة في مجتمع تعددي، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٣٧ لسنة ٢٠٠٤ .

(٧) بريارا بليت،استياء شيعي من سلطة التحالف في العراق، تقرير BBC منشور بتاريخ ٢٠٠٤/٤/٢٠ .

(٨) محمد العرسان،التشيع السياسي ..سيناريو يقلق الحكومة ٢٠٠٧/١/١٤ :تقرير لخليل رضوان،جريدة المستقبل ٢٠٠٧/١/٨.

(٩) علي حسين باكير: الانسحاب الأمريكي من العراق.. الدوافع والانعكاسات، الجزيرة نت ٢٠٠٥/١٢/٨ .

(١٠) سعد محيو، أمريكا والعراق: نفط واستراتيجيات عليا، الجزيرة نت ٢٠٠٥/١٢/٣١ .

(١١) العناصر الأمنية والسياسية والاقتصادية لاستراتيجية النصر، خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش في مؤتمر المحاربين القدماء يوم ٢٠٠٦/١/١٠ .

(١٢) علي الراوي، بعد عامين من الغزو.. تداعيات المنجز والمشكل، الجزيرة نت ٢٠٠٥/٤/٧ .

كتاب الزاوية

أمريكا وبنوكها في مصر

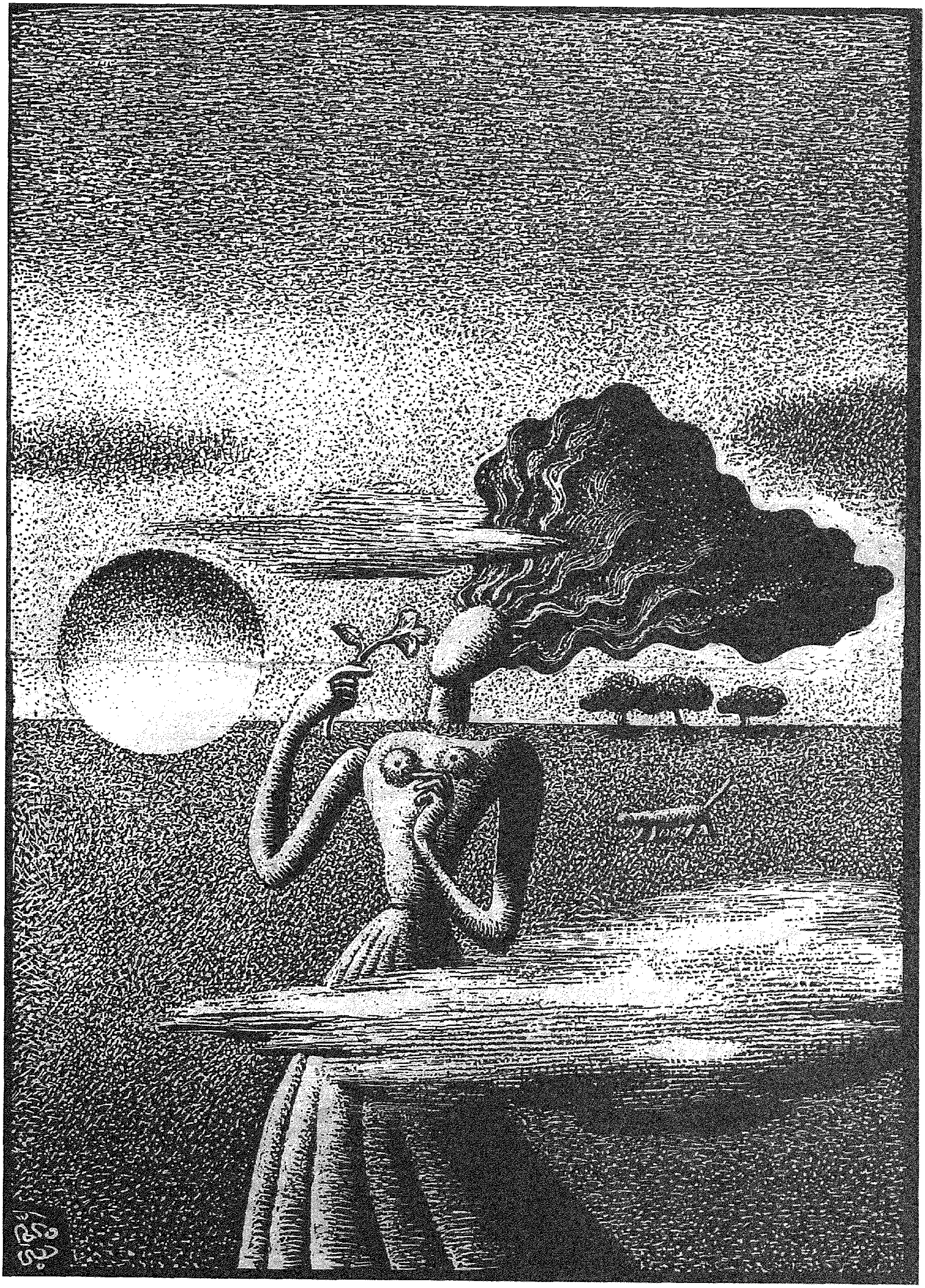
عادل حسين

أ ـ صدر القانون ٤٣ لاستثمار المال العربي والأجنبي والمناطق الحرة، بعد إسكات الأصوات المعارضة، وحدث في التطبيق ما توقعناه. فقطاع البنوك كان المجال الوحيد الذي اندفع إليه رأس المال الأجنبي، فهم يدركون مثلنا وأكثر منا، الأهمية الاستراتيجية لهذا القطاع. إن دافيد روكفلر لم ينتظر حتى صدور القانون، فطالب أثناء مقابلته للرئيس السادات (فبراير ١٩٧٤) بفتح مكتب لبنك تشيزمانهاتن الذي يرأسه، وفي مفاوضات عبد العزيز حجازي مع وليم سايمون (وزير المالية الأمريكي في يوليو ١٩٧٤) وقعت الوثائق الخاصة بإعادة العمل باتفاقية ضمان الاستثمارات الأمريكية في مصر، وتم الاتفاق في المباحثات على خطوات تتضمن:

١ ـ السماح لأربعة بنوك أمريكية من الدرجة الأولى، بفتح فروع لها في مصر، وهي «تشيزمانهاتن»، و«فيرست ناشيونال بانك»، و«بنك أوف أمريكا»، و«الأمريكان إكسبريس».

٢ ـ تزور مصر مجموعة من ١٦ من كبار رجال الأعمال الأمريكيين الذين يمثلون ١٠ من أكبر الشركات الأمريكية.

ثبت من بيانات هيئة الاستثمار أنه حتى مارس ١٩٧٥، كان ١٩ بنكًا من البنوك العالمية قد طلبت افتتاح فروع لها في مصر. أوضحت البيانات أنه تمت بالفعل الموافقة على إنشاء خمسة بنوك، منها بنك مشترك يتألف من بنك مصر (٥١٪) مع بنك فيرست ناشيونال شيكاغو، وبنك دي روما.



«رفيقــات» الســجن!

محمـــــود الســــوردانى

■■ فى صيف ١٩٤٧ تأسست الحركة الوطنية للتحرر الوطنى (حدتو) بعد أن اتحدت المنظمتان السريتان الحركة المصرية واسكرا، وتخرج أقوى وأكثر المنظمات الشيوعية السرية إلى الوجود لتلعب أخطر الأدوار، وأكثرها تأثيراً فى الكفاح السياسى والحركة الوطنية المصرية قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبعدها، فقد كان عدد من أبرز مناضليها يعملون فى صفوف تنظيم الضباط الأحرار، بل إن حدتو هى التى كانت تقوم بطباعة منشورات الضباط الأحرار فى مطبعتها السرية يتسلمها جمال عبدالناصر بنفسه بالقرب من المنيل ومن الرفيق ملكون ملكونيان كما هو معروف.

السطور التالية تتناول وقائع سجن واعتقال شيوعيات سواء من حدتو أو من غيرها من المنظمات فى الفترة التى أعقبت التجريدة الكبرى فى عام ١٩٥٩ والتى استمرت حتى ١٩٦٤ .

على مبعدة نحو ألف كيلو متر من معسكر اعتقال المحاريين، كانت نساء حدتو وغيرها من المنظمات يقبعن بسجن القناطر للنساء! (يبعد عن القاهرة عدة كيلو مترات). وإذا كان عددهن قد بلغ ستًا وعشرين فقط، إلا أن مجتمعاً مثل المجتمع المصرى كان يرفض ويدين بشدة تورط سلطات القمع فى اعتقال أو سجن النساء فى قضايا سياسية، وقبل عام ١٩٥٢ يمكن رصد حالات قليلة جداً تم اعتقالهن، غير أن تجريدة يناير ١٩٥٩ وانفجار الهوس المعادى للشيوعية، كان أقوى من أن يتوقف أمامه أحد.

تأخر اعتقال النساء أقل من ثلاثة شهور بعد تجريدة الأول من يناير، حيث بدأت حمنة اعتقالهن فى ٢٨ مارس ١٩٥٩، فهوجم بيت الفنانة التشكيلية إنجى أفلاطون، لكنها كانت تتوقع ذلك وهربت، كما اعتقلت انتصار خطاب وزوجها صلاح تاركين طفليهما عمر (١٤ سنة) وهشام (١٠ سنوات) ورفض الضابط الذى ألقى القبض عليهما أن تصطحب معها الطفلين لتوصيلهما إلى بيت جدتهما القريب.

كانت المشكلة الأولى التى واجهت تلك الاعتقالات أن لا أحد كان قد فكر فى إعداد مكان لاعتقالهن، فالقلعة (المعتقل الأول الذى يستضيف المناضلين) لم تكن معدة لاستقبال النساء، وهو ما دعا قائد المعتقل للصراخ فى القوة التى اصطحبت انتصار خطاب رافضاً دخولها! وبعد عدة اتصالات تم إرسالها إلى حجز قسم الموسكى مع ثريا شاكر التى كان قد تم اعتقالها فى الليلة نفسها.

كانت ثريا قد اتفقت مع زوجها المهندس فوزى حبشى على أن يظل هارباً ولا يمر على أسرته إلا لحظات قليلة للاطمئنان إذا ما وجد منشفة الوجه منشورة على حبل الغسيل فى الشرفة المطلة على الشارع، وهى العلامة التى تعنى أن المكان لايزال آمناً. وكانت قد أوت إلى فراشها متأخرة بعد الاحتفال بعيد الميلاد الثامن لابنها الأكبر ممدوح. بالمصادفة كانت حماتها معها تحضر عيد الميلاد ليلة الاعتقال. تركت ثريا وراءها إلى جانب ممدوح كلاً من حسام ٦ سنوات ونجوى الرضيع التى لم يتجاوز عمرها عاماً واحداً. ومع ذلك تمكنت من اختطاف منشفة الوجه من حبل الغسيل، طبقاً للاتفاق بينها وبين فوزى حبشى. حاولت ثريا أن تصطحب معها طفلتها نجوى الرضيع، إلا أن الضابط رفض تماماً، وقال لها - كالعادة - إنها لن تتغيب أكثر من نصف ساعة!!

أما فاطمة زكى عضو اللجنة الوطنية العليا للطلاب والعمال أثناء انتفاضة ١٩٤٦، فلم يكن قد مر على زواجها من نبيل الهلالى سوى ستة شهور، وتم القبض عليها أثناء هروبها وأودعت قسم عابدين مع إجلال السحيمى فى حجز النساء. ومثلما حدث مع انتصار خطاب، رفض قائد معتقل القلعة استقبال ليلى الشال وأعيدت إلى المباحث العامة، بينما قبض على ثريا أدهم زوجة حلمى ياسين من بيت أسرة زوجها وهى تعانى من التهاب رئوى حاد ألزمها الفراش، حتى أنهم اعتقلوها وتوجهوا بها إلى المستشفى رأساً فى اليوم نفسه، وفى شهر رمضان الكريم قبل مدفع الإفطار!!

اهتدى مكتب مكافحة الشيوعية إلى حل مشكلة مكان إيداع المعتقلات أخيراً وهو سجن القناطر للنساء المجاور لسجن القناطر للرجال الذى استضاف بدوره عدداً كبيراً من المناضلين سواء ممن اعتقلوا عام ١٩٥٩ أو بعد ذلك.

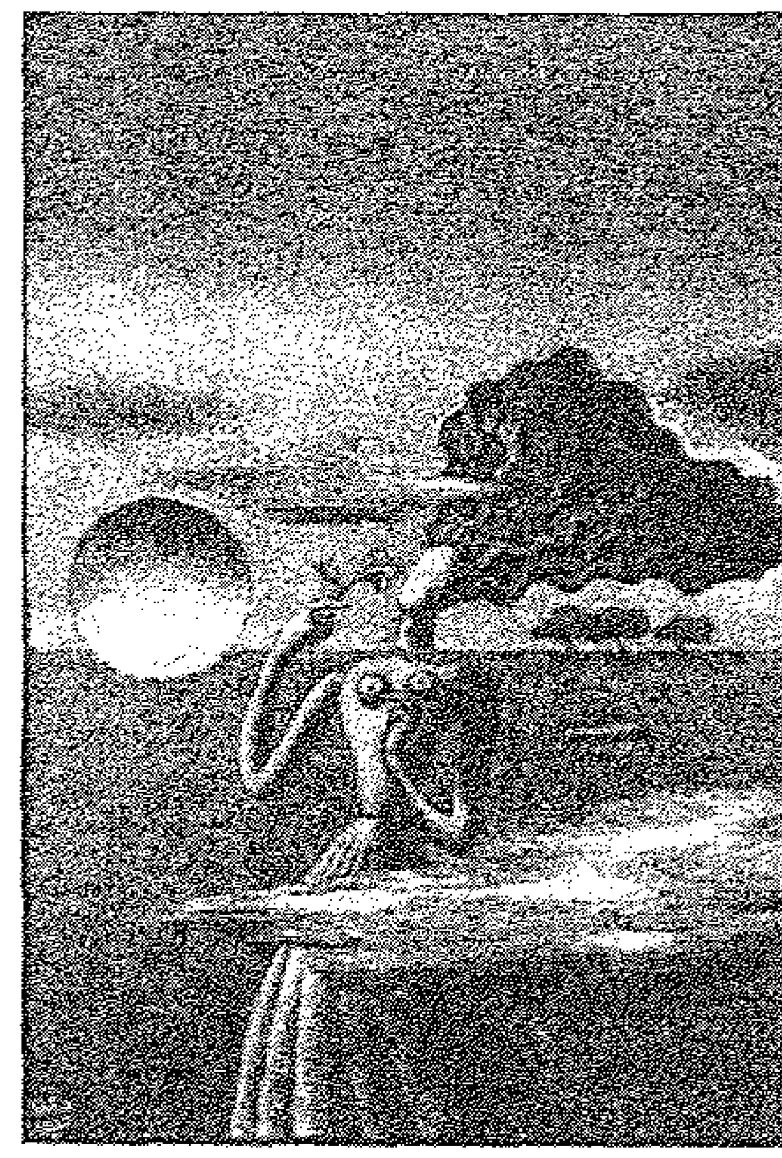
جينيفيف سيداروس تركت أيضاً ثلاثة أطفال أكبرهم عمره ٤ سنوات لتقضى نحو خمس سنوات رهن الاعتقال حسبما أشارت فى الجزء الثالث من «شهادات ورؤى». وبنت شبرا ثريا إبراهيم التى كان بيت أسرتها ملاصقاً لبيت عائلة حفنى ناصف الثورية الشهيرة، اعتقلت تاركة ابنتها تسعة شهور، بينما زوجها د. مختار السيد كان قد اعتقل قبلها. إيفون حبشى - التى كان شقيقها ضابط شرطة - توجه لاعتقالها جزار طنطا الشهير أنور منصور قاتل الشهيد محمد عثمان نفسه، لذلك لم يتورع عن الإمساك بالمقص فى قسم شرطة طنطا وقص شعرها لينتزع منها أماكن الهاربين فى طنطا. وعندما فشل شحنها فى سيارة مصلحة السجون مع الرجال من المساجين الجنائيين. وداد مترى لم تمكث فى المعتقل إلا حوالى خمسة شهور، وتعرضت أثناء القبض عليها وهى تسير فى الشارع مع فخرى لبيب لالتواء فى ذراعها بسبب العنف المستخدم معها، والأكثر إزعاجاً بالنسبة لها هو أن أسرتها بكاملها فى تلك الليلة كانت تستعد للسفر إلى الإسكندرية بعد ساعات، وخرجت من بيتها بعد أن قالت إنها لن تتغيب أكثر من نصف ساعة. وكان كل ما يهمها بعد القبض عليها هو قلق أمها وشقيقتيها، فقد كانت كبيرة العائلة ومسئولة عنها بعد وفاة والدها.

وداد مترى وإيفون حبشى تم تقديمهما للمحاكمة فى قضية، لذلك يبدو أنهما كانتا تقيمان فى عنبر آخر باعتبارهما تحت التحقيق، وهو العنبر الذى كانت تقيم به مسجونات أخريات من بينهن مارسيل بنينو الجاسوسة الإسرائيلية، إلى جانب أجنبيات أخريات مثل مارى بابا دوبلو اليونانية وليفكى ياناكاكيس، ثم ميمى كانل الإيطالية المتزوجة من كمال عبدالحليم، وكان محكوماً عليها بثلاث سنوات قضتها وخرجت من مصر، ثم عادت متنكرة إلا أنها قبض عليها وحكموا عليها بخمس سنوات قضتها كلها حسبما قالت ثريا شاكر فى ورشة العمل التى نظمتها لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية، وأضافت وداد مترى فى المصدر نفسه أنها كانت عازفة موسيقى ماهرة، وقد سمحوا لها فى السجن بدخول آلة كمان، كانت تعزف عليها موسيقى كلاسيكية عندما تكون حالتها طيبة، لكنها كانت تفرض عليهن أن يرتدين ملابس رسمية إذا رغبن فى الاستماع إلى عزفها!

أما العنبر الذى كان يضم القسم الأغلب من المعتقلات فكان اسمه أصلاً عنبر الدعارة، حسبما قالت ليلى الشال لفخرى لبيب فى كتابه الأخير «الشيوعيون

لـــم تتـــرك المباحـــث
العـــامة طريقـــة إلا واســـتخدمتها
لـلـضـغـط عـلـى المـعـتـقـلات والـتـوقـيـع
عـــلى مجـــرد ورقـــة
لاستنكار أفكارهــــن

رفيقات السجن!



بعد جهد شديد استطعن إقامة علاقات إنسانية مع المسجونات فى قضايا القتل والمخدرات والدعارة، وكذلك مع السجانات

وعبدالناصر»، وبعد تسكين الشيوعيات سمى عنبر الشيوعية وهو «مبنى طوله عشرة أمتار، وعرضه خمسة أمتار. كان به سبعة سرر فى صفين، وكل سرير مكون من ثلاثة طوابق، لا توجد على السرر حشايا ولا أية مفروشات أخرى، فقط على كل سرير بطانية واحدة، وبالعنبر جردلان، عندما دخلت الرفيقات العنبر لم يكن لدى أى منهن أية فكرة عن استخدام هذين الجردلين فقالت السجانة: واحد للمياه والآخر للحاجة».

منطقة القناطر التى تضم سجنًا للرجال وآخر للنساء يفصل بينهما شارع واسع، تعد من أكثر المناطق سحرًا وخصوصًا فى الشتاء (كاتب هذه السطور قضى بضعة شهور فى سجن القناطر للرجال عام ١٩٨١)، فالأرض المحيطة تعد من أخصب الأراضى، والأشجار متكاثفة ومتنوعة، والطبيعة سخية للغاية، والألوان والظلال دائمة التغير والتنوع، لكن البرد قارس حقًا وتشعر به يدق عظامك ويؤلمها بشدة.

وإذا كان الشيوعيون فى السجون الأخرى لم ينجحوا فى إقامة حياة عامة مشتركة سواء فى المعيشة أو فى المواقف السياسية والمطلبية داخل السجون بسبب اختلاف الانتماء الحزبى، فإن النساء - على اختلاف واقتتال المنظمات التى انتمين إليها - استطعن إقامة حياة عامة مشتركة، كما استطعن توحيد مواقفهن فى مواجهة الإدارة وانتصرن فى أغلب المعارك التى جرت ضدها، كذلك أصدرن بيانات مشتركة، ودخلن معًا إضرابات عن الطعام.

إنجى أفلاطون - الفنانة التشكيلية الراحلة وذات الأصول الأرستقراطية العريقة، كانت قد استطاعت الهرب أكثر من ثلاثة شهور من أمر اعتقالها، وتنكرت فى زى فلاحة ممن يعشن فى المدن، وارتدت طرحة فوق منديل الرأس وجلبابًا أسود طويلاً وكردانًا على الرقبة ووضعت كحلاً أسود كثيفًا فى عينيها، وعاشت مع زوجين مسنين كانت ظروفهما المالية صعبة باعتبارها هاربة من بيت الطاعة. ثم قبض عليها فى كمين بعد أحد الاجتماعات الحزبية، واستطاعت بمهارة تحسد عليها أن تتخلص من تقرير عن اضرابات عمال الترام كان كافيًا لتوقيع أقصى عقوبة عليها. فى اليوم التالى حقق معها وكيل نيابة يدعى أحمد موسى (كان على علاقة بزوجها محمد أبو العلا وكيل النيابة الراحل، الذى مات بعد خروجه من السجن). وسألها الرجل: هل كنت هاربة؟ أجابته بأنها كانت هاربة بالفعل لأن أمر الاعتقال كان غير قانونى «وأنا لست على استعداد للذهاب إلى السجن».. فعاد يسألها إن كانت متنكرة، فأجابته بأنها فنانة وتحب رسم الفلاحين، وبسبب هروبها ارتدت تلك الملابس وكانت تقف أمام المرآة لترسم نفسها!! فانفجر فى الضحك بالطبع!

بعد ثلاثة أيام قضتها فى مبنى وزارة الداخلية قابلها خلالها حسن المصيلحى وغيره من كبار الضباط وحاولوا استدراجها للإدلاء بمكان هروبها دون جدوى. وعندما أودعت سجن القناطر كان كحل عينيها قد ساح وجلبابها اتسخ وبدت هيئتها كمتسولة حتى أن رفيقاتها لم يتعرفن عليها فى البداية!

أما الشابة الفلسطينية صهباء البربرى خطيبة الشاعر معين بسيسو فقد نقلوها من السجن الحربى إلى سجن القناطر، مثلما نقلوا خطيبها من الحربى إلى الواحات.

لا أعرف ما إذا كان علىّ أن أكرر أن هؤلاء النساء كن يعملن بالسياسة بطبيعة الحال، ولم يكن مجرد زوجات بل مناضلات، يناضلن فى صفوف منظماتهن المختلفة شأنهن شأن رفاقهن من الرجال سواء فى النقابات أو الأحياء أو أماكن عملهن أو فى الأجهزة الفنية مثل المطبعة أو فى شبكات توزيع المنشورات.. إلخ.

فى الكتيب الصغير الذى أهدانى إياه صديقى الكبير عريان نصيف «المرأة المصرية واليسار»، تذكر ثريا حبشى أسماء ٢٤ معتقلة ومسجونة من بينهن ٩ أمهات تركن أطفالهن خارج الأسوار، والباقيات توزعن بين من تخرجن فى الجامعات أو مازلن طالبات، إلى جانب عاملة من شبرا الخيمة، وفتاة صغيرة من بنى سويف عمرها ١٦ عامًا (تذكر ثريا إبراهيم فى «شهادات ورؤى» أن عمرها كان ١٣ سنة فقط)، ولم تكن شيوعية بل تلميذة لشيوعى مدرس فى بنى سويف. قضت ثلاث سنوات فى السجن وخرجت شيوعية، بل ورفضت قبل الإفراج عنها كتابة استنكار مثلما فعل البعض من الرجال).

تركزت جهود المباحث وإدارة السجن على الضغط على من تركن أبناءهن بحرمانهن من رؤيتهم، خصوصًا أن الآباء كانوا مسجونين أيضًا. فتضاعف قلقهن، وابتدعن طرقًا عديدة لرؤية أبنائهن الذين كانت أعمارهم تتراوح بين عام واحد وسن المراهقة، على النحو الذى سوف أورده بعد قليل، عانين بطبيعة الحال، فأغلبهن كن يدخلن السجن للمرة الأولى، والعنبر مغلق طوال اليوم، إلا للذهاب لدورة المياه الموجودة فى مستشفى السجن مرتين صباحًا وعصرًا، والكتب والجرائد والأوراق والزيارات ممنوعة والطعام بالغ الرداءة (متعهد التغذية لسجن القناطر تمكن من بناء عمارة سكنية شاهقة خلال السنوات الأربع التى قضتها الرفيقات فى السجن).

وسرعان ما أدركن أنه يجب عليهن مواجهة تلك الظروف والتغلب عليها، وكما روت فاطمة زكى لفخرى لبيب فى «الشيوعيون وعبدالناصر»:

«اتفقت أنا وثريا أدهم وسعاد الطويل وإجلال السحيمى على ضرورة عمل شىء ما. فى اليوم التالى ساعة طابور الصباح صحت فى الجميع أن يتجمعن معًا لنبدأ تمارين رياضية. شكلن دائرة وبدأت التمارين: واحد.. اثنين.. الرأس واليدين، البطن والرجل، ثم رقص إيقاعى.. خطوة لليمين خطوة لليسار. والمسجونات العاديات يتساءلن عن هؤلاء اللواتى يرقصن داخل السجن. بعد هذا الطابور الرياضى توجهنا للاغتسال فى دورة المياه، ثم تناولنا الإفطار. بدا الأمر وكأننا فى معسكر خاص بنا، كان الأمر المهم هو تحطيم رهبة السجن».

بينما تقول إنجى أفلاطون:

«عندما وصلت فى شهر يونية كانت معنويات الزميلات هائلة. يتصرفن وكأنهن فى رحلة.. لعب وغناء.. حتى إذا جاء شهر يوليو وانتشر جو الإفراج والعفو فى السجن، دخلت الزميلات فى هذا الجو أيضًا. لذلك ناقشت مع اللجنة القيادية، (لجنة تشكلت داخل سجن القناطر ضد مختلف التنظيمات) خاصة والزميلات عامة، ضرورة تجهيز أنفسنا للحفاظ على صحتنا ومعنوياتنا لأننا سنظل فى السجن مدة طويلة».

بعد جهد شديد استطعن إقامة علاقات إنسانية مع المسجونات العاديات من المتهمات فى قضايا القتل والمخدرات والدعارة والسرقة، وكذلك مع السجانات، إلا أنه بعد شهرين فقط، أدلى جمال عبدالناصر بتصريح شهير للصحفى الهندى كارينجيا قال فيه «ليس فى مصر معتقلون أو معتقلات». ووصلت الصحيفة التى نشرت الخبر إلى سجن القناطر. وأثناء مناقشته تذكرت ثريا شاكر ما سمعته من زوجها فوزى حبشى أن مصطفى النحاس أعلن عام ١٩٤٨ أنه لا توجد معتقلات فى مصر، وخرج الجميع فى اليوم نفسه بناء على ذلك التصريح. تروى ثريا شاكر ما جرى بعد مناقشة تصريح جمال عبدالناصر.

«اتفقنا فيما بيننا أننا سوف نذهب بعد الطابور.. إلى غرفة المأمور ونخبره أننا قررنا الاعتصام عنده حتى يأتى من يؤكد لنا وضعنا الحالى.. فرئيس البلاد يقول بالفم المليان إن ماعندوش معتقلين.. نبقى إحنا مين؟! وبعد طابور الصباح ذهبنا بشلة المعلم إلى غرفة المأمور وأخبرناه بما اعتزمناه، بالطبع رفض أن نحتل غرفته وهاج وماج وهددنا بالويل والثبور وعظائم الأمور حتى نرتدع ونعود إلى عنبرنا لكن نحن لم نهتم وأصررنا على موقفنا فأدخلونا غرفة الرئيسة وهى الغرفة المقابلة لغرفة المأمور.. وأحضروا حوالى ٢٠٠ أو ٣٠٠ عسكرى عملوا التمام والفرقعة بالسلاح وهذا بالطبع للتخويف.. وبعد أن تركونا

رفيقات السجن!

لمدة ساعة تقريباً وهى التى عمل فيها المأمور الاتصالات والذى منه وحضر مدير المنطقة ونقلوا السجن يعنى أدخلوا كل السجينات فى عنابرهن إلا حوالى ٣٠ أو ربما أكثر المعروف عنهن الخناقات وأجسامهن ضخمة وأدخلوهن علينا الغرفة الصغيرة اللى إحنا مزنوقين فيها وكل واحدة منا استلمتها اثنتان على الأقل من السجينات الفظيعات وهات يا ضرب فينا وشد شعر وسحل والذى منه، فهتفنا رغم كل هذا ونحن مسحولات إلى العنبر:

تسقط سياسة الكذب والنفاق..

وهكذا حتى وصلنا إلى العنبر مكسرين مدغدغين، وفاطمة زكى كسر لها ضلع،.. سجلوا الحادث على أنه خناقة بين المسجونات العاديات والمعتقلات الشيوعيات ووقعوا علينا عقوبات كثيرة..».

بطبيعة الحال استفدن كثيراً من تلك المعركة على الرغم من الضرب والتكسير، فقد رفضن الاستسلام وشعرن بقدرتهن على المقاومة. لذلك سرعان ما نظمن المحاضرات والمناقشات، ونظمن تجربة محدودة لمحو أمية بعض المسجونات الجنائيات، وأعددن مجلة مسموعة، وشكلن فريقاً للتمثيل داخل العنبر، كانت الفنانة محسنة توفيق هى البريمادونا فيه بطبيعة الحال. وكان فى السجن مكتبة، إلا أنه لم يكن مسموحاً لهن بالاستعارة منها، غير أن علاقاتهن بالمسجونات الجنائيات مكنتهن من قراءة أغلب ما فيها من خلال استعارة زميلاتهن من الجنائيات. والطريف أن إنجى أفلاطون اكتشفت أن عدداً كبيراً من تلك الكتب كان مكتوباً عليه اسم زوجها محمد محمود أبو العلا الذى كان نزيلاً فى سجن الرجال من قبل، وهى التى كانت قد أحضرت له الكتب!

وبعيداً عن السياسة كانت إنجى أفلاطون من أهم الفنانات التشكيليات فى مصر بلا جدال، ولم تكن تستطيع الحياة دون أن ترسم، لذلك طلبت من مأمور السجن أن يسمح لها بالرسم، ولما رفض، عرضت عليه أن ترسم لحساب السجن، أى تسلم لوحاتها للإدارة التى تقوم ببيعها لحساب السجن. وبعد لأى وجهود مضنية استطاعت أسرتها أن تستخرج لها تصريحاً رسمياً بالرسم داخل السجن، فرسمت فى تلك الفترة عدداً من أجمل لوحاتها وأكثرها تأثيراً. ومن بينها الصورة الشهيرة للطفلة التى تمسك ببرتقالة، وهى فى الأصل ابنة واحدة من تجار المخدرات المحكوم عليها بتأبيدة، كانت قد دخلت عنبر المعتقلات فرحين بها وأعطينها برتقالة، وحين بدأت الطفلة فى تناولها، وكانت إنجى تراقبها منذ دخولها، شرعت فى رسمها على الفور. تلك اللوحة تحديداً نالت إعجاب العميد عباس قطب مدير منطقة سجون القناطر وأصر على شرائها بجنيه واحد وكادت تلك اللوحة النادرة أن تضيع تماماً، إلا أن البرواز الخالى الذى اشترى العميد اللوحة خصيصاً ليضعها فيه كان أصغر من اللوحة فأعادها وطلب منها أن ترسم لوحة أخرى وأبلغها بالمقاس الذى يريده!! وعندما وصل مأمور جديد للسجن اسمه عبدالقادر فهمى، كان متشدداً جداً ويقضى فترات طويلة كل يوم يراقب إنجى وهى ترسم، ولأن إنجى كانت تهرب لوحاتها خارج السجن، فقد خافت من مراقبته واكتشافه اختفاء إحدى اللوحات، واضطرت لرسم نسختين من كل لوحة، وهو أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لأى فنان كما هو معروف، وعلى الرغم من ذلك صادرت المباحث إحدى عشرة لوحة لا يمكن تعويضها أبداً، ومن بينها بورتريه لامرأة محكوم عليها بالإعدام، ولم تستطع استردادها.

على الرغم من كل ذلك إلا أن هناك جرحاً مفتوحاً ومؤلماً على الدوام، وهو حرمانهن من رؤية أطفالهن، فيما عدا أسماء البقلى التى اعتقلت وهى حامل فى أيامها الأخيرة، وساعدها طبيب السجن على أن تلد فى معتقل مستشفى قصر العينى حتى لا يقال إن طفلها ولد فى السجن! وبعد شهر عادت أسماء البقلى ومعها طفلها ياسر الذى تفتح وعيه وتعلم أولى الكلمات داخل عنبر المعتقلات الشيوعيات بسجن القناطر، وكان موضع عناية وحب كل المعتقلات اللائى مارسن أمومتهن معه على مدى ما يقرب من ثلاث سنوات، لكن استمراره بعد ذلك كان مستحيلاً، ليس فقط بسبب لوائح مصلحة السجون، بل أيضاً لأنه لم يكن يعرف أحداً فى الخارج، وأبوه على مبعدة أمتار قليلة فى سجن القناطر للرجال، وقد رفضت المباحث السماح له برؤية ياسر مطلقاً. الحل كان البحث عن طريقة لنقل أسماء وياسر لمستشفى قصر العينى، وإتاحة الفرصة ليتعرف على أسرته الجديدة فى الخارج، قبل أن تضطرها اللوائح لإخراجه فى الموعد المحدد، وهو ما نفذته بأقصى قدر من السرعة. المدهش أن ياسر يوم خروجه من السجن انطلق راكضاً بجنون إلى الخارج دون أن يودع أمه! ورفض فيما بعد أن يزورها أو يراها!

أما ثريا شاكر فتحكى لفخرى لبيب فى جداريته أنها فوجئت ذات يوم بمأمور السجن يستدعيها ثم «وجدت هناك طفلة صغيرة تجلس على مكتبه. كانت جميلة كالقمر. وقفت أمامها أتأملها. أمعن فيها النظر وأتساءل إن كانت هذه نجوى ابنتى.. كانت الطفلة تنظر لى أيضاً دون أن تعرفنى. لم أكن قد رأيتها منذ عامين. قال مأمور السجن: ألا تعرفين هذه الطفلة؟ وللحال تحول شكى إلى يقين. هذه الجميلة ابنتى. اختطفتها وانهلت عليها تقبيلاً.

قال لى المأمور: لقد جاء بها عمها هذا الصباح وقال إن الطفلة تريد رؤية أمها وأنا لا أريد زيارتها، لكن ها هى الطفلة أمامك تريد أن تتعرف على أمها ومرجع الأمر إلى إنسانيتك.. وأنا كأب لم أستطع أن أمنعها من رؤيتك رغم مخالفة هذا للوائح والقوانين».

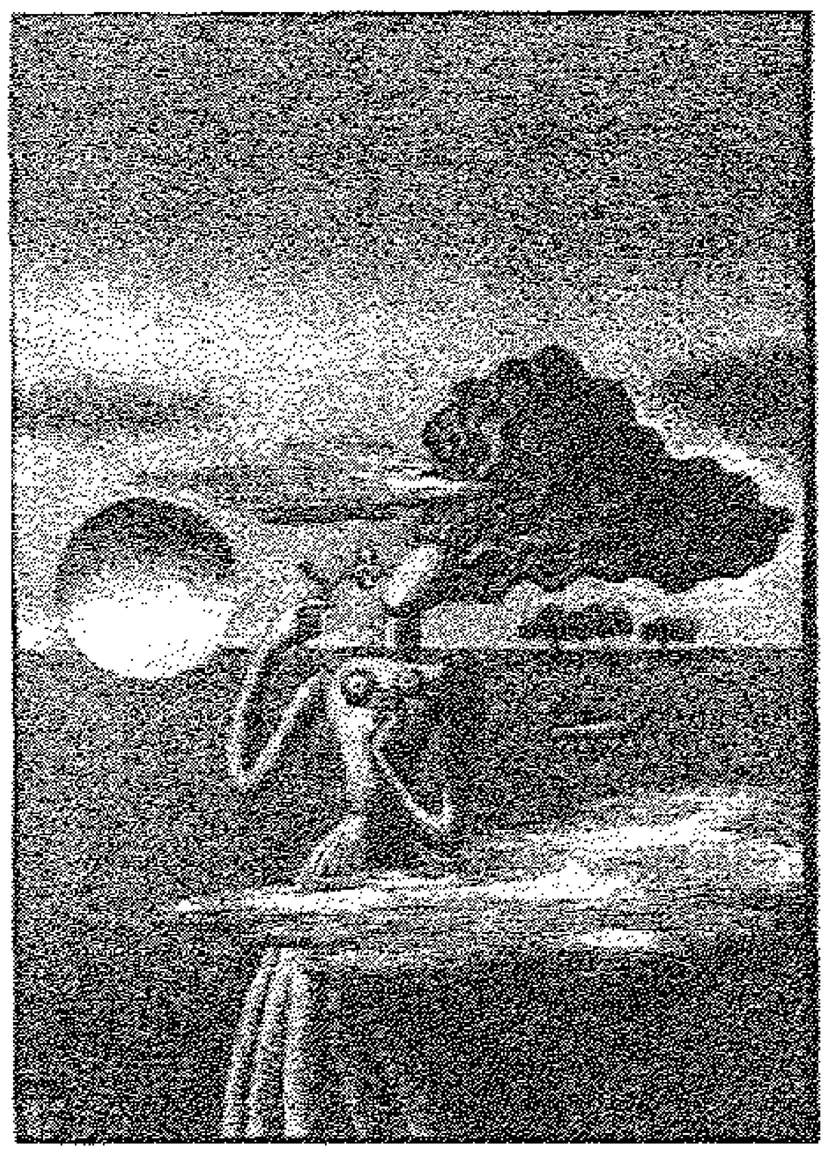
فى الأعياد تسمح مصلحة السجون بزيارة أطفال السجينات الجنائيات لأمهاتهن وقضاء النهار معهن، إلا أن هذا لم يكن مسموحاً به لأطفال المعتقلات السياسيات، ولأن علاقة الأخيرات بالسجانات كانت طيبة، فقد سألت كل من ثريا شاكر وثريا إبراهيم وانتصار خطاب وسميرة الصاوى، الباشسجانة ما إذا كان بإمكانهن أن يرين أطفالهن واستغلال تلك الفرصة السانحة، فوافقت، إلا أنها أدخلت المعتقلات مع أطفالهن إحدى الغرف وطلبت منهن ألا يحدثن ضجة حتى لا ينتبه المأمور، والأرجح أنه كان يعرف، فقد سبق له السماح لثريا شاكر برؤية طفلتها نجوى على مسئوليته الشخصية.

وتحكى انتصار خطاب لفخرى لبيب أيضاً - أن ضابطاً شاباً اصطحبها من القناطر إلى قصر العينى للكشف عليها لاحتمال إصابتها بالسرطان، وأثناء الطريق طلبت من الضابط أن يسمح لها برؤية ابنيها اللذين لم تكن قد رأتهما منذ عامين، ووافق الضابط على الفور وذهب بها إلى بيت والدتها حيث قضت بعض الوقت معهما، ثم غادرت إلى قصر العينى.

اعتاد ابناها التسلل لزيارتها فى قصر العينى، وكانت الممرضات يخفينهما أثناء مرور الضباط، سواء من قسم الشرطة التابع له المستشفى أو المباحث العامة. لكن أحد الضباط لمح الابن الأكبر عمر وانهال عليه ضرباً، وبادله عمر الضرب بكل الحقد الذى كان يختزنه لمن حبسوا أمه وأباه. عادت انتصار بعد شهر إلى سجن القناطر، ولم تمر شهور قليلة إلا ووصلها خطاب من عمر فى أوائل عام ١٩٦٢ تقول كلماته:

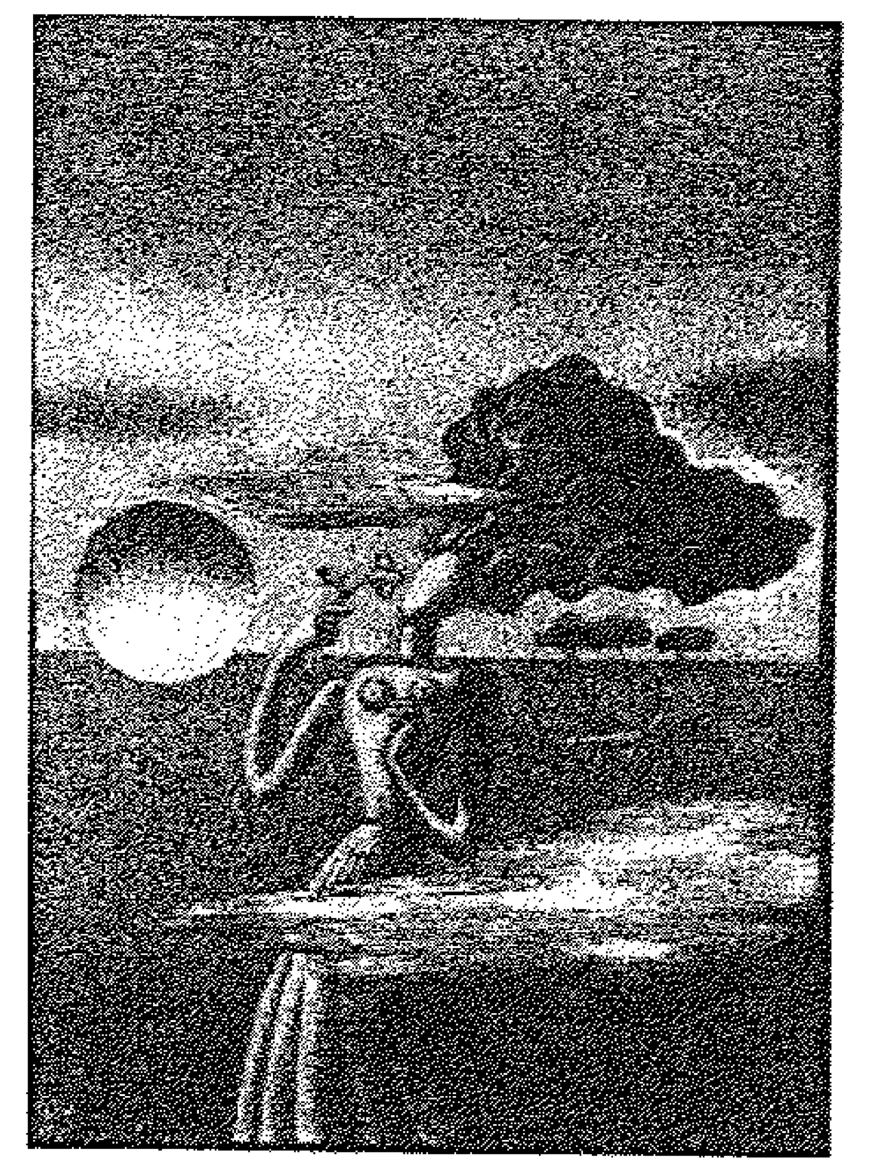
«أنت وزوجك (يقصد أمه وأباه) تتركان أولادكما. فى حين أن الأمر لا يحتاج منكما لأكثر من التوقيع على ورقة فتخرجان من السجن. رشاد خميس وقع على هذه الورقة وخرج إلى أولاده، هذا الخطاب إنذار.. إننى متعب للغاية حيث تسبكما وتشتمكما جدتى على الدوام. إذا استمر موقفك على الرفض فهذا آخر خطاب منى إليك، لأنى سوف أنتحر، سوف أحرق نفسى».

لم تستطع انتصار احتمال الموقف وكادت تفقد صوابها، وأسرعت بتدبير طريقة للعودة إلى قصر العينى وشرح الأمر لعمر، فهى لم تدخل السجن بإرادتها، والورقة



عندما قالت الرفيقة أوديت: البيت الذى شهد وحدة الحزب لا يمكن أن يكون هو البيت الذى يناقش فيه حله

رفيقات السجن!



الفلسطينية
صهباء البربرى خطيبة
معين بسيسو
نقلوها من السجن الحربى
إلى سجن القناطر،
مثلما نقلوا خطيبها
من الحربى
إلى الواحات

التى يطلبون التوقيع عليها هى الرصاصة التى يقتل بها الإنسان نفسه وإنسانيته.

من جانب آخر لم تترك المباحث العامة وحسن المصيلحى أسلوباً أو طريقة إلا واستخدمتها للضغط على المعتقلات والتوقيع على مجرد ورقة لاستنكار أفكارهن ومعتقلاتهن، وهو ما قاومنه بشدة ولم يسقط أحد منهن. حتى عايدة بدر التى لم تكن تعرف أى شىء عن الشيوعية، وكل ما فى الأمر أنها تصدت للقوة التى هاجمت بيتها للقبض على شقيقها أحمد بدر فاعتقلوهما معاً، وحاول حسن المصيلحى عدة مرات إقناعها بكتابة استنكار لتخرج، إلا أنها صمدت، كما يليق بابنة بلد حقيقية عاشت مع الشيوعيين وأكلت معهم «عيش وملح» وعرفت معدنهم الحقيقى.

وفى ديسمبر ١٩٦١ دخلت المعتقلات الشيوعيات إضراباً عن الطعام استمر ١٧ يوماً كدن يفقدن حياتهن خلاله، فقد كان مطلبهن غير واقعى على الإطلاق، وهو الإفراج عنهن، وأنهين إضرابهن بعد حضور مندوب من رئاسة الجمهورية، وحصلن على «وعد» بالإفراج، وهو أقل كثيراً من الإفراج بالطبع! إلا أن حياتهن كانت مهددة بالفعل بعد ١٧ يوماً. ثريا شاكر مثلاً كان وزنها ٧٣ كيلو جراماً قبل الإضراب وبلغ ٥٦ كيلو جراماً بعده، وأصيبت جينيفيف سيداروس بنزيف، وأشرفت فاطمة زكى على الموت. وبدلاً من الإفراج حصلن على عدد من المكاسب مثل قراءة الجرائد (وإن كان السيد مندوب رئاسة الجمهورية سمح بالأهرام فقط!) وتحسين الطعام وزيادة الأمانات فى الكانتين وخطاب كل أسبوع من المعتقلة لأسرتها، وكما هو واضح فإن ما تحقق نتيجة الإضراب كان محدوداً جداً ولا يتناسب مع إضراب استمر ١٧ يوماً، ويبدو أنهن لم ينجحن فى إدارة المعركة، كما أن رفاقهن فى سجن الرجال المجاور كانوا رافضين لإضرابهن وحاولوا إثناءهن عن تنفيذه دون جدوى.

على أى حال، أمست الظروف أكثر إنسانية بعد الإضراب، فقد فتح باب «عنبر الشيوعية» طوال النهار، وسمح لهن رسمياً بوابور جاز لطهى الطعام، ومشاهدة التليفزيون الذى كان قد بدأ إرساله للمرة الأولى فى مصر، كما كن يشاهدن فيلماً كل أسبوع، إلا أنهن كن يحرصن على تصفيف شعورهن وارتداء فساتينهن ويحتسين الشاى وهن جالسات أمام شاشة السينما!

ثم بدأت المحاكمات..

كانت إيفون حبشى من طراز خاص جداً وتمتعت بما لم تتمتع به أى من المعتقلات، فقد أفرج عنها للمرة الأولى فى ٢٤ يوليو ١٩٦٠، ثم أعيد القبض عليها فى أبريل ١٩٦٢، وأفرج عنها فى فبراير ١٩٦٣، وأعيد القبض عليها مرة ثالثة فى ديسمبر ١٩٦٣.. كان ممكناً لها احتمال كل ذلك ما دامت تقضى فترات اعتقالها بين رفيقاتها فى سجن القناطر، إلا فى المرة الأخيرة حين سقطت فى كمين أعد لها بدقة، حيث اتصل بها هاتفياً شخص طلب مقابلتها، وعندما التقيا أخبرها أن أحد الرفاق - المعروفين لها - أرسله ليسلمها بعض الأوراق، وفى الموعد المحدد ألقى القبض عليها فور تسلمها الأوراق. قضت فى البداية سبعة أيام فى حجز قسم الخليفة الكريه، فهو واحد من أبشع المحطات التى يتم فيها تجميع المساجين والمسجونات الجنائيين قبل الترحيل إلى السجون. حقق معها وكيل النيابة تحقيقاً صورياً استمر ليلة كاملة حتى الخامسة صباحاً بهدف إنهاكها. وبسبب صلابتها فى التحقيق أودعت سجن القناطر - نساء - فى عنبر المخدرات ليس فى عنبر الشيوعية الذى كان خالياً بعد الإفراج عن المعتقلات. كان عنبر المخدرات قد أعد لها وحدها لتقضى ٧٠ يوماً فى حبس انفرادى وأجبرت على ارتداء ملابس السجينات المحكوم عليهن، بينما تقضى لوائح مصلحة السجون بارتداء المسجونات تحت التحقيق ملابس بيضاء، ثم أفرج عنها فى أواخر مارس ١٩٦٤، ولذلك فهى آخر شيوعية يفرج عنها تقريباً.

أما إنجى أفلاطون فقد حكم عليها بسنتين سجناً أنهتهما فى ١٩٦١/٦/١٩ وأعيد اعتقالها فى اليوم نفسه دون أن تغادر فناء السجن، وكل ما جرى هو نقلها من عنبر المسجونات إلى عنبر المعتقلات. وعلى الرغم من أن موقف ثريا أدهم القانونى كان جيداً، فلم يثبت عليها إلا مجموعة من الخطابات الشخصية بينها وبين زوجها حلمى ياسين، ومع ذلك أصرت على أن تقدم دفاعاً سياسياً أثناء محاكمتها، وكانت أول امرأة مصرية تقدم دفاعاً سياسياً. وعندما قاطعتها هيئة المحكمة، قفزت فوق مقعدها داخل القفص وألقت دفاعها الذى تركز حول حل أزمة الديمقراطية باعتبارها الطريق الوحيد للحفاظ على استقلال الوطن وتدعيمه وأنهته بالكلمات التالية:

.. وليس لدى ما أقوله سوى أنه يشرفنى أننى منذ عام ١٩٤٦ وأنا أقدم كل ما أملك بلا تردد ولا مقابل، فى سبيل قضية بلادى العزيزة وشعبها الحبيب، لقد اشتركت فى مذبحة كوبرى عباس فى ٩ فبراير ١٩٤٦، وكذا ٢١ فبراير ١٩٤٦، وكنت عضوة فى لجنة العمال والطلبة. اشتركت فى إضرابات عام ١٩٤٧، ونتيجة لنشاطى الوطنى إبان العهد الملكى وإرهاب إبراهيم عبدالهادى عام ١٩٤٩ حكم على بالسجن. وفور خروجى اشتركت فى معركة الكفاح المسلح فى القنال عام ١٩٥١. واستمر نضالى الوطنى بعد الثورة، وساهمت فى كل معارك كفاح شعبنا. ففى عام ١٩٥٦ كنت عضوة فى لجنة المقاومة الشعبية فى كفر الدوار، وفى ١٩٥٧ كنت عضوة فى لجنة التوعية الانتخابية. وفى عام ١٩٥٨ قمت بدورى فى توعية الشعب بأهمية الوحدة العربية والديمقراطية وأهميتها بالنسبة لكفاح شعبنا وكافة الشعوب العربية.

وأنا اليوم بعد ثلاث سنوات من الاعتقال، بعد كل ما قاسيته وأقاسيه من تدهور سريع فى صحتى يكاد يودى بحياتى، بعد كل التعذيب الوحشى الذى لاقاه زوجى محمد حلمى ياسين فى معتقل أوردى أبى زعبل، أعلنها مدوية، إنى أفخر وأعتز بنضالى وتضحياتى من أجل بلادى. إنى مستعدة، اليوم وغداً وفى كل وقت، أن أقدم حياتى حتى آخر قطرة من دمى فى سبيل مصرنا العزيزة ومستقبل شعبنا الباسل المجيد.

ومع ذلك حكم عليها بثلاث سنوات، كانت قد أنهتها بالفعل فتحولت إلى معتقلة! وهو نفسه ما جرى مع ثريا إبراهيم التى كان من بين قرائن الاتهام ضدها أن لها طفلة اسمها «مير» أى السلام بالروسية! حيث حكم عليها بسنتين ثم تحولت إلى معتقلة، وهو أيضاً ما جرى مع نوال الحملاوى التى حكم عليها بسنتين وتحولت إلى معتقلة.

إلى جانب ذلك، لعبت أمهات المعتقلين دوراً بالغ الأهمية. وعندما التقيت مثلاً بعم عريان نصيف لنتجاذب أطراف الحديث حول دور الأمهات، ضحك قائلاً: إنه جند أمه الرفيقة صفية التى فاجأته بقراءة أوراق حدتو وكان يحتفظ ببعضها فى البيت منذ بدايات ارتباطه بالسياسة دون أن يعلم عريان! وساعدته بعد أن اقتنعت بما قرأته فى الأوراق والمطبوعات المختلفة. وحسبما ورد فى الكتيب الذى أعدته لجنة إحياء ذكرى شهداء ومناضلى اليسار - «المرأة المصرية واليسار» - روى فخرى لبيب حكاية الرفيقة صفية..

بعد معركة ١٩٥٦ وفى جلسة صفاء بين الأم وابنها طلبت منه أن يشرح لها أفكاره وقضيته بالتفصيل، ثم سألته عن موقفه من الدين، وظلا يتحدثان حتى الصباح.. وفى النهاية قالت له:

- لو كان السيد المسيح عايش لاتهموه بالشيوعية وسجنوه!

وفى اليوم التالى طلبت السيدة أنس غبريال حنا الانضمام لحدتو واختارت «صفية» اسماً حزبياً لها اعتزازاً بدور صفية زغلول، وعملت فى جهاز الاتصال الذى يعد أكثر أجهزة المنظمة حساسية ويتطلب السرية الشديدة والذكاء.

رفيقات السجن!

وعندما تمت الوحدة بين المنظمات المختلفة أعدت الرفيقة صفية عريان «تورتة» على شكل المنجل والمطرقة منقوشًا عليها: الحزب الشيوعى المصرى الواحد ٨ يناير ١٩٥٨. وفى تجريدة يناير ١٩٥٩ يهرب عريان نصيف من القبض عليه فتعتقل المباحث والده وشقيقته الصغرى حتى يسلم نفسه. أصيبت شقيقته بانهيار عصبى حاد فأفرج عنها فى اليوم التالى، بينما أخذوا الأب فى نزهة طويلة بين أقسام بوليس طنطا والإسكندرية والقاهرة (كعب داير)، وبسبب ما تعرض له من إهانات أصيب بالشلل.

ومع ذلك صمدت الرفيقة صفية وظلت على موقفها. وعندما قبض على ابنها قامت بدور قيادى فى جبهة العائلات التى تشكلت من أمهات الشيوعيين لمساندتهم فى السجون والمعتقلات المختلفة بما فى ذلك معتقل المحاريق الذى كانت تزوره مرة كل شهر حاملة معها أكبر كمية ممكنة من الأدوية.

أما السيدة بديعة مصطفى عبده أم الرفيقين محمد ومصطفى عباس (من حدتو أيضًا)، فقد وقفت وراء ابنيها منذ قبض عليهما للمرة الأولى فى يوليو ١٩٤٩ وحتى تجريدة يناير ١٩٥٩ مقتنعة بموقفهما وساندتهما، مثلها مثل زكية أحمد حسين أم أحمد ومحمود العطار، فكلاهما كان مناضلاً، وكذلك السيدة نور أم محمد وميسور والسيد مصطفى شعراوى، والأربعة شيوعيون (فيما بعد تزوجت إحدى بناتها من شيوعى أيضًا!) وأم نسيم يوسف والسيدة مفيدة بطرس أم نبيل زكى والسيدة إلين السندى أم فخرى لبيب وزوجات وشقيقات أخريات شكلن جبهة العائلات لمساندة أبنائهن وأزواجهن بكل الأشكال: برقيات الاحتجاج والمسيرات والمظاهرات والزيارات وتوفير الأدوية والاحتجاجات المختلفة.

سوف أتوقف قليلاً عند الرفيقة أوديت (السيدة مرتا عازر يوسف) أم نسيم يوسف التى اكتشفت طريق ابنها مبكرًا وتعاطفت معه. كانت تشاركه فى إخفاء الأوراق التنظيمية، وعندما يقبض عليه كانت هى الوسيط بينه وبين رفاقه فى الخارج فى تهريب الأوراق والبيانات. وفى إحدى المرات التى زارت فيها نسيم اصطحبت معها نبيل زكى باعتباره ابنها وديع وكأنه جاء معها ليزور أخاه، وجلسا معًا فى الزيارة يتهامسان بأخبار المنظمة خارج وداخل السجن. وفى عام ١٩٥٧ أبلغها حلمى ياسين أن اللجنة المركزية لحزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى وافقت على عضويتها بالحزب، فاختارت أوديت اسمًا حزبيًا لها. وبعد تجريدة ١٩٥٩ علمت أن ابنها ومجموعة من الرفاق فى أوردى أبى زعبل والزيارة ممنوعة، فتفتق ذهنها عن حيلة لمعرفة أخباره والاطمئنان عليه. حملت «صُرة» كبيرة على رأسها ومضت إلى «عزبة السجانة» التى تسكن فيها أسر سجانة الأوردى القريب. كانت الصُرة تضم ملابس وأقمشة وطرحًا ومناديل رأس وأغراضًا مختلفة، ومثلت دورها بإتقان باعتبارها دلالة تبيع بالتقسيط، وجلست فى طرقات العزبة تعرض بضاعتها على زوجات وبنات السجانة، وسألت عما يحتجنه لتأتى به لهن فى المرة القادمة، وفى الوقت نفسه تعرفت على جغرافية المنطقة، وتمكنت من معرفة موقع الأوردى بالضبط. وعندما عادت بعد أيام قليلة يوم عيد الأم ٢١ مارس ١٩٦٠ إلى عزبة السجانة كانت تحمل على رأسها صرة خالية إلا من أشياء قليلة، فالتف حولها النساء يسألنها عما كن قد طلبنه منها، فأجابتهن أنها صادفت فى الطريق من اشترى منها ما تحمله ووعدتهن أن تأتى بطلباتهن فى مرة قادمة، وبعد أن تركت العزبة سارت فى اتجاه الأوردى علها تلمح ابنها، إلا أن أحد الحراس شاهدها من أعلى البرج، وشعرت هى بحركة ما فى اتجاهها فبادرت بالفرار. وفى أبريل ١٩٦٢ ألقى القبض عليها وقضت ثلاثة أيام فى زنزانة المباحث العامة قبل أن يحقق معها، ثم يضطر وكيل النيابة للإفراج عنها.

وبعد خروج معتقلى معسكر المحاريق سألها أحد قيادات الحزب إذا كانت توافق على عقد اجتماعات اللجنة المركزية فى بيتها، رحبت بالطبع وأمنت الاجتماع، ثم شهد بيتها فى ٨ يناير ١٩٦٥ احتفالية تأسيس الحزب التى حضرها أكثر من ٣٠ رفيقًا..

وبعد ذلك وعندما بدأ الكلام يتردد حول حل الحزب سألها الرفيق نفسه الذى كان قد طلب منها عقد اجتماع اللجنة المركزية فى بيتها، سألها عما إذا كان ممكنًا عقد اجتماع آخر للمؤتمر الذى سيناقش حل الحزب، رفضت على الفور وأجابت فى حدة:

- البيت الذى شهد وحدة الشيوعيين ووحدة الحزب لا يمكن أن يكون البيت الذى يناقش فيه حل الحزب. ■

كتاب الزاوية

الحصاد الأليم (١)

عادل حسين

فى فبراير سنة ١٩٧٦، نشر أن البنك الأهلى فقد ١٠٠ من خيرة العاملين. وبنك مصر فقد ٥٠ من أكفأ كوادره.. استقالوا ليعملوا فى البنوك الأمريكية.. وفى نهاية العام، سجل تقريرٌ رسمىٌّ (غير منشور) للبنك المركزى المصرى تقييمًا عامًا لما تحقق، فقال: إن «هذه البنوك (الأجنبية) بدلاً من أن تصبح مركز (جذب) الأموال إلى مصر، تحولت إلى مراكز (طرد) إلى الخارج».

وأثبت التقرير مسألة أن هذه البنوك، عملت على استنزاف الخبرات المصرية، وأوضح أنه على الرغم من انقضاء ما يقرب من عام ونصف على ممارسة بعض هذه البنوك لنشاطها فى مصر، إلا أنها لم تحقق نتائجَ لها وزنُها فى مجال جذب رءوس الأموال من أسواق النقد العالمية. وإنما اعتمدت أساسًا على مواردها الذاتية. وعلى الموارد المتاحة من السوق المحلية، بل شاركت بنوك القطاع العام التجارية فى الاحتفاظ بمدخرات المصريين، وودائع بضع شركات من القطاع العام من العملات الأجنبية. ولم تأخذ هذه البنوك دورها بعد فى تمويل مشروعات التنمية الاقتصادية فى البلاد.

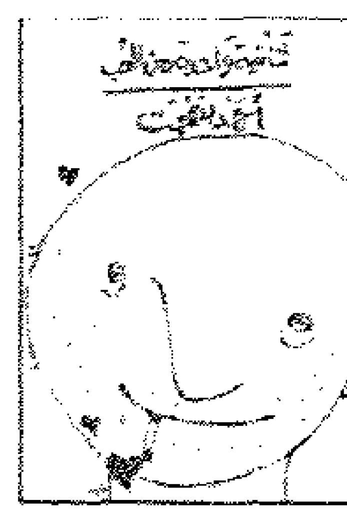
صحيح أن البنوك المشتركة فى مراحلها الأولى، ومعدلات النمو فى السنة الأولى لا يُقاس عليها: (لأن الزيادات تُنسب فى هذه الحالة إلى أرقام البداية المحدودة)، ولكن حتى إذا أخذنا فى الاعتبار، تظلُّ معدلات النمو فى البنوك المشتركة خطيرةَ الدلالة، خاصة ومعدل النمو المقابل فى البنوك التجارية التابعة للقطاع العام، يكاد يكون صفرًا.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشـكـر الـنـاشـريـن والـكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

ثانية واحدة من الحب

أحمد بهجت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٦١صفحة



كتب المؤلف هذه المجموعة من القصص فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى، وبحسب ما يرد فى تقديمه لها، فإنها متأثرة بأسلوب تشيكوف، أبطالها محبطون، يعيشون حالة من البؤس الإنسانى لا يدرون له سببًا، هم ضحايا ظروف قاهرة لا يملكون منها فكاكًا، صاغها المؤلف فى أسلوب ساخر، وكثير من القصص تقترب حواراتها من لغة الحياة اليومية. نقرأ مثلاً فى «اكتشاف أثرى خطير» حكاية السيدة سعيدة مسعد، والحكاية تدور عام ٢٠٠٠، أى قبل ما يزيد على ربع قرن من زمان كتابتها، وفيها أن الدنيا قامت ولم تقعد لأن تاكسيًا توقف للسيدة سعيدة مسعد، بدأت الصحف تكتب، والمحللون الاجتماعيون والنفسيون والمروريون يحللون الحدث الذى كان فارقًا ومدهشًا فى ذلك الوقت، وبعد أن أدلى كل طرف بدلوه، اتضح فى نهاية المطاف أن سائق التاكسى أشعل سيجارة انزلقت منه حتى كادت أن تحرق قدمه فاضطر للتوقف، وفى هذه اللحظة فتحت السيدة باب السيارة ودخلت، وتم إقفال المحضر باعتبار أن الحادث الذى جرى كان قضاءً وقدرًا.

وفى «يوم القيامة» نلمح هذا الرعب الذى حاق بمعلم القهوة بعدما نشرت الصحف عن اقتراب يوم القيامة، ونتابع أيضًا كيف تعامل زبائن المقهى مع الخبر، فهناك من قرر ألا يدفع إيجار شقته أو يسدد فواتير الكهرباء، وهناك من قرر أن يسترد ودائعه لدى الناس، وهناك من بدأ بالتفتيش فى خزانة ذنوبه، غير أن زبونًا واحدًا هو الأسطى حسين كان الأكثر حنقًا من الباقين، قال لهم: خايفين ليه ما تقوم القيامة، هى الجرايد بتكتب والهنادوة بيصلوا والعالم ميت فى جلده، إنما ما هياش قايمة، كلنا حنشرب المقلب ولا هياش قايمة، بكره تشوفوا وتقولوا الأسطى حسين قالها، ده كلام جرايد يا عم.

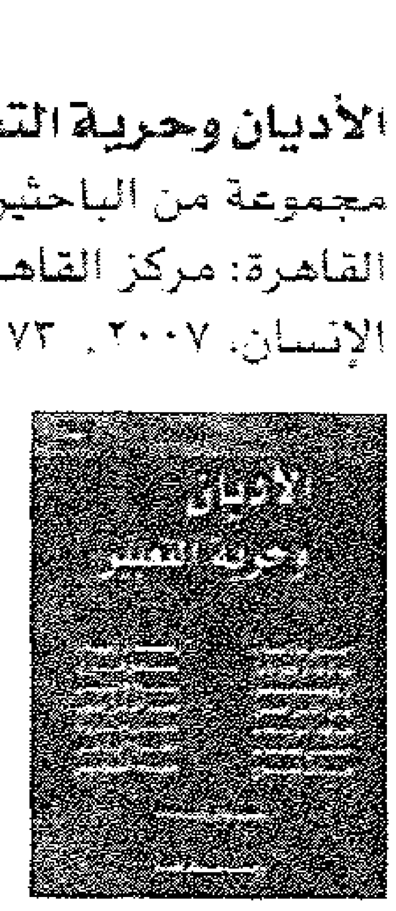
وفى قصة أخرى تحمل عنوان «مؤتمر الشياطين الهاربين» يقدم المؤلف سيلاً من النقد لأوضاع الناس وسلوكياتهم فى ذلك الزمن، وقدرتهم الفذة على الغش والخداع والتدليس، حتى أن الشياطين المسلطة عليهم والموكول لها من قبل إبليس إغراؤهم بارتكاب الذنوب، لم يستطيعوا التأثير فيهم وقرروا أن يأخذوا إجازات بدون مرتب، لأن البنى آدمين تفوقوا عليهم فى شرورهم، ولم يعد لديهم - أى الشياطين - ما يمكنهم عمله.

كما تحضر اللغة الساخرة فى القصة التى تحمل عنوان «عينيها بتطق شرار» وهى سخرية نابعة من المفارقة وسوء الفهم، اللذين جعلا حسن صاحب الحمار يتصور أن السائحة حين نظرت إليه وألقت بنفسها فى أحضانه لم تكن ترغبه هو، إنما كانت تريد أن تضربه، وتسرق الحمار.

الأديان وحرية التعبير

مجموعة من الباحثين

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٧، ٤٧٣صفحة



يضم الكتاب حصاد المحطة الثانية من محطات برنامج الحوار المصرى الدانماركى، على خلفية الأزمة التى أثارها أحد الرسامين الدانماركيين واتهم فيها بالإساءة إلى الرسول الكريم، وهى المحطة التى عقدت فى الفترة من ٦ إلى ٨ ديسمبر ٢٠٠٦، وشارك فيها عدد من الصحفيين والباحثين والفنانين من الجانبين، ويتضمن الكتاب ثلاثة فصول، يدور الأول منها حول محور إشكالية حرية الرأى والتعبير فى أزمة الرسوم الدانماركية، ويستعرض عددًا من وجهات النظر المتباينة فى هذا الإطار، فيقدم بهى الدين حسن قراءة فى أسباب التوتر المزمن بين المسلمين والغرب، ويعرض رضوان زيادة رؤيته حول حدود حرية الرأى والتعبير، ينتهى فيها إلى أن ما قامت به صحيفة «يولاندر بوست» الدانماركية خرج من حدود حرية الرأى والتعبير إلى الإساءة، ويقدم المعهد الدانماركى لحقوق الإنسان دراسة حول حرية التعبير من واقع أزمة الرسوم، ويحلل خالد صلاح الدوافع وراء نشر الصحيفة الدانماركية للرسوم، وأوجه الاتفاق بينها وبين دوافع الصحف المصرية فى تغطيتها للأزمة.

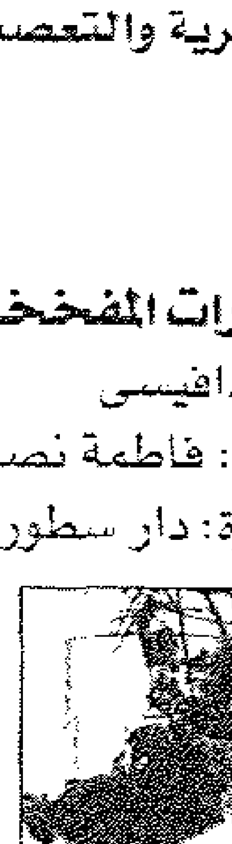
ويتناول الفصل الثانى إشكالية حرية الرأى والتعبير والأديان فى مصر، حيث يتناول الوصاية الدينية على حرية الإبداع الأدبى والفنى والحرية الأكاديمية، من خلال قراءة محمود الوردانى لأزمة رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا»، وتحليل حلمى سالم للأسباب التى جعلت الشعر دومًا محل اتهام، كما يقدم صلاح عيسى انتقاداته لأسباب مصادرة فيلم «المهاجر» بحكم قضائى، ويستعرض حافظ أبوسعدة دور الأزهر فى الرقابة على الأعمال الفنية والأدبية. ويتناول سامح فوزى الكيفية التى يجرى بها تناول العقيدة المسيحية فى وسائل الإعلام ومناهج التعليم المصرية، ويعرض عددًا من النماذج التى يرى فيها تشجيعًا على التطرف وطعنًا فى العقيدة المسيحية. وفى الفصل الثالث يقدم المستشار هشام البسطويسى قراءة فى حرية الصحافة وضوابطها فى قضاء محكمة النقض، وكيفية تعامل القضاة مع النصوص الجائرة، وتستعرض «أن ويبر» السوابق القضائية للمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان حول المادة ١٠ من الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان ذات الصلة بمكافحة العنصرية والتعصب.

السيارات المفخخة.. التاريخ السرى

مايك دافيس

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٧، ٢٦٨صفحة



يتابع الكتاب التاريخ السرى للعمليات الإرهابية باستخدام المتفجرات والسيارات المفخخة، وهو يبدأ بالتفجير الذى قام به مايك بودا فى شارع وول ستريت، احتجاجًا على اعتقال السلطات لرفقائه وإبقائهم فى السجون، وكانوا قلة ذات توجهات سياسية مناهضة لم ترحب بها الحكومة الأمريكية، وكانت الحصيلة ٤٠ قتيلاً وأكثر من ٢٠٠ مصاب، وهكذا، تمكن مهاجر إيطالى فقير من أن يحدث رعبًا غير مسبوق فى أحد أقداس الرأسمالية الأمريكية، باستخدام بعض أصابع الديناميت وكومة من المعادن الخردة وعربة كارو حصانها مسروق، وكانت هذه هى بوابة استخدام العربات المفخخة، إذ استخدمت عصابات شتيرن الصهيونية أسلوب تفجير الشاحنات والسيارات ذاته، لقتل الآلاف من الفلسطينيين بدءًا من أوائل الأربعينيات.

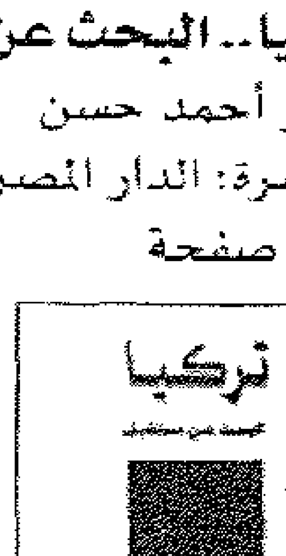
ويشير المؤلف إلى أن الجهاديين فى معسكرات القاعدة فى أفغانستان، كانوا يدرسون بدأب كتاب «الثورة» الذى ألفه مناحم بيجن، والذى يحكى فيه عن ذكرياته فى عصابة الأراجون الصهيونية الشهيرة.

يتابع المؤلف بعد ذلك العديد من الانفجارات التى شهدتها مناطق الصراعات الساخنة فى أوروبا وأمريكا ومنطقة الشرق الأوسط، والتى كانت السيارات المفخخة هى أداتها الأساسية، وقد جرت هذه التفجيرات على خلفيات سياسية أحيانًا، ولأسباب اجتماعية وطائفية فى بعض الأحيان، ويقول إنه بعد القدس فى ١٩٤٨ وسايجون فى ١٩٥٢، كانت نيقوسيا منذ منتصف الخمسينيات هى الوجهة المنطقية لقنابل السيارات، أثناء حملة اليونانيين القبارصة الدموية لطرد البريطانيين، ثم كان الظهور التالى لقنبلة السيارات فى باليرمو الإيطالية، والتى شهدت سلسلة من التفجيرات مع تصاعد حروب المافيا الأهلية، حتى أواسط الستينيات. وهى السنوات التى شهدت أيضًا تفجيرات متعددة بالأسلوب ذاته فى عدة أهداف بالولايات المتحدة الأمريكية، ومع بداية السبعينيات، كان الجيش الجمهورى الأيرلندى قد أضحى صداعًا مزمنًا فى رأس بريطانيا وكانت تفجيرات لندن فى ١٩٧٢ هى ذروته آنذاك، فإذا وصلنا إلى الثمانينيات، صارت بيروت هى نجم هذا النوع من التفجيرات، خصوصًا مع تشعب الصراعات بين طوائفها وأحزابها وقبائلها ومصالح أفرادها، واللاعبين الداخليين والخارجيين فيها، فى هذه الأثناء أيضًا كانت ثمة تفجيرات تجرى فى اليابان وفى إسبانيا وفرنسا والسلفادور وكولومبيا وبيرو، لأسباب انفصالية واجتماعية، حتى وصلنا إلى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وكانت الذروة التى شاهدها العالم كله على الهواء مباشرة، تفجير برجى التجارة العالمى وضرب البنتاجون، وبحسب أحد الخبراء، فإن قنبلة السيارات صارت هى السلاح النووى لحرب العصابات.

تركيا.. البحث عن مستقبل

ياسر أحمد حسن

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ٣٥٤ صفحة



عاش المؤلف فى العاصمة التركية

«أنقرة» ٤ سنوات، وكان قريباً من أحداث كثيرة رآها رأى العين، ومن ثم فإن دراسته تلك وإن سعت إلى أن تكون موضوعية أو أكاديمية، خصوصاً فى الجانب التأريخى منها، فإنها باعترافه لم تخل من الانطباعية التى تميز أعمال من يكتبون من واقع خبراتهم الشخصية.

قسم المؤلف دراسته إلى سبعة أبواب، بدأها بباب تاريخى عن تركيا من الإمبراطورية إلى الجمهورية، يستعرض فيها نشأة الدولة العثمانية، وظهور الأتراك بقوة على مسرح السياسة العالمية، والإصلاحات التى قام بها السلطان محمود الثانى عسكرياً ومدنياً، ثم صدور فرمان التنظيمات الشهير فى عهد السلطان عبدالمجيد الثانى، والذى اعتبر بداية لعصر جديد انفتحت فيه تركيا على الغرب، وانبعثت قومية تركية جديدة، وبداية التيارات الفكرية المتناقضة، والتى ظهرت فى شكل «روابط» مثل: الرابطة العثمانية والرابطة الإسلامية والرابطة التركية، وبشكل عام، فقد تمخض الصراع بين هذه الاتجاهات، والإصلاحات التى جرت فى أواخر الدولة العثمانية، عن ظهور الجمهورية الكمالية فى ١٩٢٣، التى استبعدت تماماً الرابطة الإسلامية، وأكدت علمانية تركيا، وحلت الجمهورية محل الإمبراطورية وبدأت النخبة العسكرية تلعب دوراً أكبر فى توجيه سياسات الدولة الجديدة.

ومنذ وفاة مصطفى كمال أتاتورك عام ٣٨، بدأت محاولات أصحاب الاتجاهات المحافظة فى الظهور من جديد، واستعادة المساحة التى انتزعتها الدولة الكمالية منهم. وبدا أن الإسلام السياسى يستعد لاستعادة دور افتقده فى سنوات تأسيس الجمهورية الكمالية، مستفيداً من التوجهات الليبرالية التى أطلقها عصمت إينونو خليفة أتاتورك، وحين تولى عدنان مندريس رئاسة الحكومة لمدة عقد كامل (١٩٥٠ - ١٩٦٠) قبل أن يستولى الجيش على السلطة فى ٢٧ مايو ١٩٦٠ فى أول انقلاب عسكرى فى تاريخ الجمهورية، فتح آفاقاً جديدة للمخزون الروحى الإسلامى الكامن فى أعماق الأتراك، وبدا أن هناك صلحاً بين الجمهورية التركية والهوية الدينية للمجتمع التركى التى تصور بعضهم أنها ماتت، واستعاد المدنيون السلطة أو بالأحرى أعادها الجيش إليهم، وظهر فى الصورة حزب العدالة الذى اعتبر نفسه امتداداً للحزب الديمقراطى الذى أسسه مندريسى، وصار رئيسه سليمان ديميريل رئيساً للوزراء فى ١٩٦٥، وقد رفض ديميريل أن يخوض نجم الدين أربكان الانتخابات على قائمة حزبه فخاضها مستقلاً ونجح، وهو ما دفعه إلى تأسيس حزب النظام الوطنى عام ١٩٧٠، وبرغم حظر هذا الحزب بحكم من المحكمة الدستورية، فإن ظهوره كان بداية حاسمة لتاريخ جديد فى تركيا يؤذن بصعود تيار الإسلام السياسى، لتبدأ تحولات مرحلتى الثمانينيات والتسعينيات، واللتين شهدتا نمواً متزايداً للمجتمع المدنى وللإسلام السياسى فى آن معاً، وظهور أحزاب الرفاه ثم العدالة والتنمية، وصولاً إلى رجب طيب أردوجان وما يجرى فى تركيا اليوم.

حكايات عن ناس طيبين

سعيد الكفراوى

القاهرة: دار العين، ٢٠٠٧، ٢٤٢ صفحة



هذه حكايات عن ناس وأماكن، وجوه تعلق بها المؤلف وأحبها وعاش معها ذكريات حلوة ومرة، يعبر عنها هنا بأسلوبه الذى لا يخلو من شاعرية قاص، وسردية شاعر، يقول هو أنهم ناس طيبون مروا بى يوماً ومضوا، وأنا أقف على رصيف الأيام أرقبهم لعلى فى مرورهم أحصل منهم على شفاء لروحى، وعزاء لخيبات الرجاء المقيمة.

هكذا تطالعنا وجوه أم كلثوم ونجيب محفوظ ومحمد مستجاب وعدلى رزق الله وحلمى التونى ومحمد عفيفى مطر ويحيى حقى وألفريد فرج وغيرهم، كما تطالعك وجوه لبسطاء قادمين من الموالد والقص الشعبى واحتفاليات القرى بمشايخها وأبطالها الأسطوريين، وأماكن شهدت سجالات وانتفاضات وانقلابات فكرية وندوات أدبية: مقهى ريش وكازينو قصر النيل وشارع محمد على ومعهد الموسيقى العربية وقرى الدلتا والصعيد.

اقرأ فى «حكايات عن نجيب محفوظ»، ذلك التشبث الذى يصل حد الوله بأم كلثوم، والذى تبدى حين هاجم المؤلف والشاعر محمد عفيفى مطر كوكب الشرق، ونسبا إليها وإلى غنائها ما جرى فى يونيو ١٩٦٧، باعتبار هذا الغناء نوعاً من التخدير لهمة الشعب: فإذا بنجيب محفوظ يصمت ولا يشارك فى الحديث فى ندوته التى اعتاد أن يقيمها فى كازينو قصر النيل، ثم ينظر فى ساعته وينهض، ومن على الرصيف المقابل ينادى المؤلف ويحذره، فى مشهد يصفه المؤلف على هذا النحو:

قبض على ياقة قميصى وهزنى بعنف وقال لى بصوت متهدج بالغضب: اسمع، إياك انت وعفيفى مطر تشتموا أم كلثوم قدامى مرة ثانية، فاهم ياكفراوى. وجذب قميصى جذبة غاضبة وتركنى ومضى.

يحكى المؤلف أيضاً عن بداياته الأولى، ولقائه بصاحب القنديل يحيى حقى، الذى كان وقتها رئيساً لتحرير مجلة «المجلة»، التى قدمت عشرات من المبدعين وكتاب القصة. كيف استقبله يحيى حقى وقد كان - المؤلف - لايزال بعد فتى ريفياً تتعثر خطواته تحت مصابيح العاصمة، فإذا بالكاتب الكبير يبعث الطمأنينة فى نفسه ويطمئنه على أصالة موهبته.

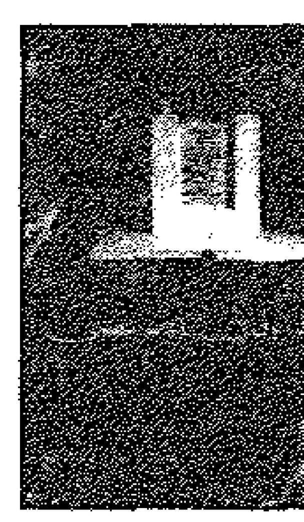
وعبر مقالته عن مقهى ريش، نكتشف ما جرى فى مصر منذ حقبة السبعينيات إلى اليوم، تحولات هائلة أطاحت بطموحات وقيم كبرى، وأفسحت مجالاً لزمن آخر سادت مفاهيمه وعربدت حتى طفت، يقول المؤلف: عاد المقهى ببريقه، ولكن زمنه لم يعد، هجره رواده واحتكره زمن الانفتاح البغيض فيما هجره كتابه وفنانوه، هؤلاء الذين صنعوا بهجته يوماً، وأطلقوه فى تاريخ مصر علامة على زمن، وأحداث ربما لن تعود أبداً.

وفى فصل أم كلثوم، تاريخ من الغناء والفن الجميل، وسرد لعلاقة الفنانة الكبيرة بملحن أغنياتها وشعرائها الأثيرين، هكذا يرى المؤلف الوجود التى أحبها، عنواناً لزمن وتلخيصاً لمرحلة.

الملك فاروق فى الأدب المصرى

مصطفى بيومى

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٧، ١٣٧صفحة



عبر دراسة أعمال عدد من الأدباء المصريين ينتمون إلى أجيال مختلفة، يرصد المؤلف صورة الملك فاروق. يدرس المؤلف نماذج من أعمال نجيب محفوظ ويوسف إدريس وإحسان عبدالقدوس وفتحى غانم وسليمان فياض وصنع الله إبراهيم وبهاء طاهر وجميل عطية إبراهيم ويوسف السباعى وحسين عبدالعليم وإبراهيم عبدالمجيد.

وتتفاوت صورة الملك فاروق فى أعمال هؤلاء طبقاً للموقف الفكرى والسياسى لكل منهم، وهو ما أشار إليه عمرو عبدالسميع فى مقدمة الكتاب، ففاروق فى أعمال يوسف إدريس مثلاً، قاتل ورئيس عصابة، كما أن الأعمال الأولى ليوسف إدريس تعكس هذه الدرجة من العداء للملك، الذى يوصف بأنه طاغية ومتسلط، وهو عند فتحى غانم إنسان يمكن أن يدان دون المساس بوضعيته كملك ورمز سياسى، فهو ليس ملكاً فاسداً منحلاً متسلطاً، لكنه إنسان شرير فاسد الأخلاق، أى أن فتحى غانم ينتصر للصورة الإنسانية غير السوية لفاروق دون التورط فى الإدانة الرخيصة التى تقدمه ملكاً بلا ملامح إنسانية.

أما نجيب محفوظ الذى كان وفدياً صميماً، فإن أبطال روايته يدافعون عن الزعامات الوفدية فى مواجهة تعنت الملك وألاعيبه التى حرمت الوفد من الوصول إلى الحكم، وهو ما كان يستحقه بوصفه حزب الأغلبية الشعبية، لكن محفوظ لا يتردد فى أن يورد على لسان نائب وفدى يدعى السلهوبى جملة فى رواية «السمان والخريف» هى بمثابة نبوءة، إذ اعتبر النائب الوفدى أن سقوط الملك على أيدى ضباط يوليو، كان سقوطاً لكل شىء، أى لكل ما مثله عصر الملك فاروق من تعددية وأحزاب بما فيها الوفد نفسه. وأما يوسف السباعى فقد كان عداؤه سافراً للملك، ورفضا لما مثلته أحزاب ما قبل الثورة بما فيها حزب الوفد نفسه، وكانت روايته «رد قلبى» أبلغ تعبير عن هذا التوجه.

وقد انفرد إحسان عبدالقدوس، حسب ما يقول المؤلف، بكراهيته للملك والوفد والثورة جميعاً، وإن كان المؤلف يعيب على روايات عبدالقدوس التى تعاملت مع هذه المسألة، الإنشائية التى خلت من ملامح إبداعية حقيقية.

وبصفة عامة، فإن الاستنتاج الأبرز الذى يخرج به قارئ الكتاب، هو أننا بحاجة إلى نظرة أخرى لتاريخنا، فالملك فاروق لم يكن شراً مطلقاً، كما أن الذين أقصوه وطردوه، لم يكونوا من الأطهار الأنقياء.

رؤى إسرائيلية

رشاد عبدالله الشامى

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٧، ١٦٥صفحة



شجع انفتاح آفاق الدراسات النقدية لأسفار العهد القديم فى القرن التاسع عشر، العلماء من المسيحيين واليهود فى دول غرب أوروبا، على إنجاز عدد كبير من الدراسات والأبحاث، التى اقتربت من قضايا إشكالية عديدة تحفل بها قصص التوراة، اعتباراً من قصة الخلق ثم الطوفان والبدايات الأولى لنشأة الشعب العبرى، والتى يؤرخ لها بهجرة إبراهيم إلى أرض كنعان، ثم قصة إقامة بنى إسرائيل فى مصر وخروجهم منها إلى أرض سيناء والتيه فيها مدة أربعين عاماً، ثم دخولهم أرض كنعان وما واكب هذا الدخول من عمليات غزو وقتل وتدمير وإبادة للشعب الكنعانى.

هذه التفاصيل جميعها من أكثر الفصول إثارة وغموضاً فى تاريخ بنى إسرائيل فى العصور القديمة، وهى ما

يناقشه المؤلف الذى يدخل فى غمار هذه الإشكاليات على المستويين التاريخى والدينى، ويناقش أطروحات العلماء والأكاديميين الإسرائيليين حولها.

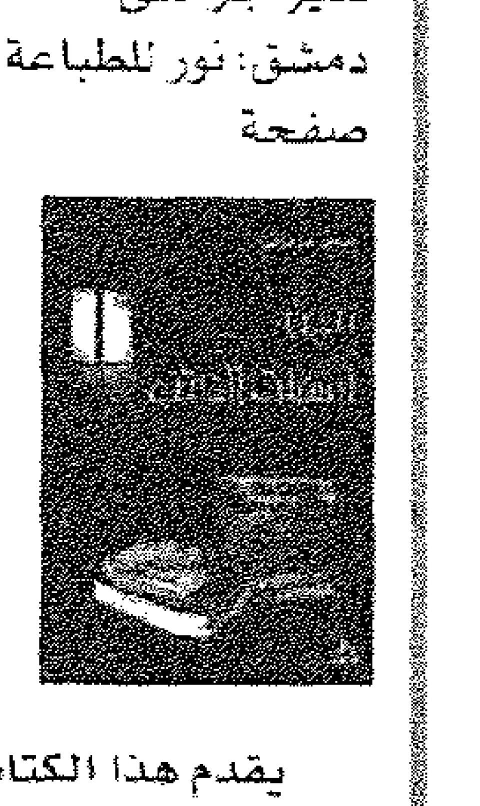
فى الجزء الأول من الكتاب والذى يحمل عنوان «قضايا إشكالية فى التاريخ اليهودى القديم»، يقدم المؤلف عدداً من الدراسات التى كتبها علماء يهود متخصصون فى علوم العهد القديم والتاريخ اليهودى القديم، وتدور جميعها حول قصة خروج بنى إسرائيل من مصر، إضافة إلى قضايا أخرى.

وفى الجزء الثانى الذى يحمل عنوان «قضايا إشكالية فى الفكر الدينى اليهودى» يناقش المؤلف عدداً من دراسات العلماء الإسرائيليين فى الفكر الدينى اليهودى، حيث يتناول حزمة من هذه القضايا، بدءاً من إشكالية تفضيل اليهود لحياة الشتات، والفروق عن الإقامة فيما يسمى أرض الميعاد، وإشكالية تدوين التوراة، ومدى صحة الوقائع الواردة عن غزو أرض كنعان فى سفر يشوع، ثم التطرق للمقارنة بين تصور العلاقة بين الله والإنسان، من خلال الرؤية اليهودية المتجسدة فى سفر أيوب، والرؤية اليونانية المتجسدة فى كتاب السياسة لأفلاطون، ثم الانتقال إلى رؤية تفسيرية معاصرة من خلال الفكر الوجودى لقصة «سادوم وعمورة» ثم لسفر يونان (يونس)، كما يقدم سرداً وثائقياً لأسماء المستوطنات الصهيونية فى القدس وفى الضفة الغربية وغزة، وفقاً لأسماء وفقرات وردت فى أسفار العهد القديم.

من أمهات الكتب

نذير جزماتى

دمشق: نور للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ٢٧٠ صفحة



يقدم هذا الكتاب قراءات فى الكتب العربية والمترجمة، لناعوم تشومسكى ودلال النبرى ومنصف السليمى وعماد صباغ وعبدالعزيز حمودة وإمام عبدالفتاح إمام وعبدالستار إبراهيم وآخرين، ولا يحظى بعرض مسهب سوى كتاب ناعوم تشومسكى فقط. أما بقية الكتب، فيقدم لها المؤلف عروضاً مختصرة وأحياناً قراءة سريعة تستعرض المحتوى فقط، وبشكل عام، يغيب البعد النقدى عن هذه القراءات التى يمكن اعتبارها فحسب دليلاً إرشادياً للقارئ كى يختار بينها ما يهوى قراءته، وإن كانت العروض حتى بهذه الطريقة تفتح آفاقاً لحوارات حول أفكار أساسية مهمة تضمها هذه الكتب.

مثلاً تطرح دلال النبرى فى كتابها «جرامشى فى الديوانية فى محل من الإعراب» إشكاليات عدة فيما يتصل بموضوع التحديث منها قصور النظر العربى عن الإحاطة بموضوعاته محل النظر، وانهزام مثقفينا أمام إشكالية الدين والدولة، وهى تشير إلى أن مجتمعاتنا تحتاج إلى مقاربة مختلفة عن مقاربة التقليد/ التحديث، وأما كتاب عبدالعزيز حمودة «المرايا المحدبة»، فقد تضمن نسفاً لعديد من الاتجاهات النقدية الحديثة، وعاب على النقاد والأكاديميين استخدام هذه المصطلحات دونما تريث، وبرأيه فإن البنيوية والتفكيكية، ابنتان شرعيتان للحضارة الغربية ومن الخطأ فرضهما على المجتمع العربى، لأن الحداثة الغربية هى نتاج واقع يختلف عن الحداثة العربية، ورأى أن فشل البنيوية الجوهرى تمثل فى قدرتها المكتسبة على تحقيق تحليل لغوى بنائى للنص مع فشل كامل فى بنية النص، أمام النقد التفكيكى فهو رقص على الأجناب، حيث يرقص الناقد والنص الأدبى فى حركة مراوغة مستمرة، يهتز كل منهما على الجانب المعاكس من جانب رفيقه، والتفكيكية باعتبارها صيغة لنظرية النص والتحليل، تخرب كل شىء فى التقاليد، وتشكك فى الأفكار الموروثة عن اللغة والنص والسياق والمؤلف والقارئ والتاريخ وأشكال الكتابة النقدية، ويرتبط التفكيك سياسياً بتراجع اليسار وصعود نجم اليمين المحافظ فى قلب أوروبا الثقافى وهو فرنسا.

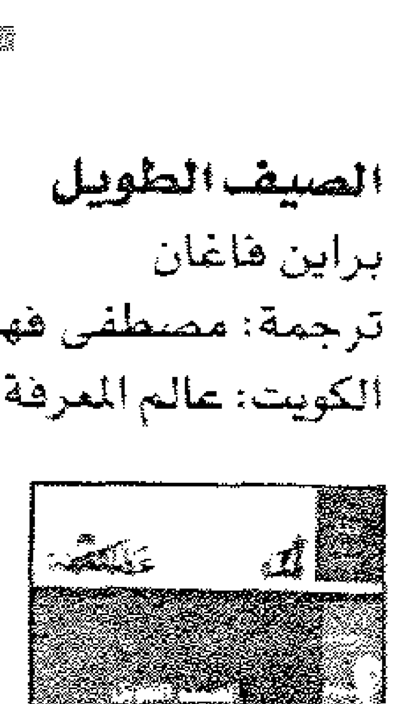
بهذه الطريقة قرأ المؤلف عدداً من الكتب وقدم أفكارها الأساسية، فى السياسة والثقافة والاجتماع والأدب.

الصيف الطويل

براين فاغان

ترجمة: مصطفى فهمى

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٧، ٢٥٥صفحة



المعنى الذى يؤكده المؤلف هنا وهو فى الأصل عالم إنسانيات وآثار، هو أن للمناخ تأثيراً حاسماً فى صنع الحضارة، جرى ذلك منذ فجر التاريخ، مع العصور الجليدية الأولى، إذ كان الإنسان دائماً يتحرك، حيث اعتدال المناخ وتوفر الأمطار والظروف الملائمة للزراعة، وقد كانت هذه هى العوامل الأولية التى ساهمت فى نشأة

رواية من الواقع العربى



لماذا فقد حورس عينه

ميرفت عبدالناصر

دار شرقيات: ٢٠٠٧

منذ أربعة آلاف عام كتب سنوحى تجربته عن الغربة. وعن هذه القصة كتب الروائى الفنلندى (ميكا والتارى) روايته (المصرى) وتُرجمت إلى معظم لغات العالم. وعنها أيضاً أنتجت هوليوود فيلماً لم يرق إلى مستوى الرواية. ترى الباحثة أن قصة سنوحى الذى صاغها شعراً هى ملحمة عن تجربة شخصية. وأنها أول عمل أدبى فى التاريخ يتناول الغربة والاغتراب. سنوحى يطرح معانى العودة للوطن. وعلاقة الإنسان بالمكان. والهروب من جغرافية ذاتية ليعيد اكتشافها. إنها رحلة الذات فى بحثها الدائم عن الذات من أجل تحقيق الذات، إنها الذات القومية وليست الشخصية. ترى د. مرفت أن سنوحى طرح الصراع بين «الأسيوية والأفريقية» وأن مصر تنتمى إلى أفريقيا خاصة وأن كلمة (الأسيوية) تتكرر كثيراً «كناية عن الخطر لا سيما الشعور بالعدوانية والاضطهاد..

وعن فلسفة الوجود والعدم كتبت د. مرفت أن الـ (با) المصرية هى صورة طائر يحمل رأس إنسان قال المصرى عنها إنها «الروح الطليقة» وأن فرويد استوحى بنيته الشهيرة للنفس البشرية من مصر. وكان مبهوراً بمصر القديمة. وكان يكتب وأمامه تمثال (بتاح) الذى تنص فلسفته فى الخلق على الدور الإبداعى للفكرة وللكلمة. وعندما هرب من النازية وترك فينا إلى لندن كتب لأحد أصدقائه «لقد وصل أصدقائى المصريون. وصلوا بسلام» وكان يقصد مجموعة التماثيل المصرية. هذا الإعجاب بمصر لم يحجب عن الباحثة الخطأ الذى وقع فيه فرويد، حيث إنه عندما صاغ نظريته عن الوعى واللاوعى.. إلخ. فإنه رغم إدراكه لمعنى الـ (با) والـ (كا) المصريتين، فإنه نسب ذلك للإغريق وليس للمصريين، حيث استخدم لفظ الروح (سيكى) من فعل التنفس الإغريقية.

وعن إيمحوتب (أى الذى يأتى فى سلام) قال عنه مايكل رايس إنه المؤسس الحقيقى للحضارة المصرية. وقال عنه لورد كلارك إنه أول من أدرك المعنى الحقيقى للخلود. وإذ يرتبط الخلود بالبناء، كان إيمحوتب أول من تعامل مع الحجر، فصنع منه أول بناء حجرى فى التاريخ (هرم سقارة) وبذلك كان أول المعماريين، ولذلك وصفه جون راى بأنه أول «ليوناردو دافنشى عرفه التاريخ فهو أول فنان يتبع أسلوباً علمياً فى التجريب» وهو أول من فكر فى قياس النيل. وهو أبوالطب، وارتبط اسمه بعدة آلهة كان أشهرهم تحوت الذى أعاد لحورس عينه، وهى نفس العين التى اتخذها الطبيب لتكون علامة البدء فى كتابة روشتة العلاج والمستخدمة حتى الآن. واعترف فرويد بدور إيمحوتب فى العلاج النفسى. وتشير د. مرفت إلى المبادئ الأخلاقية التى وضعها إيمحوتب لممارسة الطب، وبالتالى يكون هو، وليس أبوقراط، أول من سن القانون الأخلاقى لمهنة الطب. ومن حقه علينا أن يكون اسم (القسم) هو إيمحوتب وليس أبوقراط.

دخلت د. مرفت بيتها الريفى فى إنجلترا. وجدت فوضى غير مفهومة، لا توجد سرقة، ولكن مقتنياتها المحببة إليها فى غير مكانها، فمن هو الزائر الغريب؟! إنه عصفور ميت وجدته ملفوفاً بـ (إيشارب) يحمل الرموز التى استعان بها المصرى فى كتابة لغته. وأن هذه الرموز معظمها من عالم الطيور. هكذا تلضم الباحثة التاريخ بالواقع، الفكر بالعاطفة.

وعن فلسفة (سيا) كتبت أنها تعنى البصيرة والمعرفة الكلية. ومن مكوناتها كلمة (ريخ) أى تقنية المعرفة ومنها تم اشتقاق كلمة تاريخ وتأريخ. ورغم ذلك فإن رع يحذر تحوت من مخاطر الكلمة المكتوبة وقال له أخشى أن يظن الناس أن المعرفة تأتى فقط من الكتب. وتوصل المصرى إلى الـ (جيكا) أى ملكة الحدس. وأن فرويد وبروست اهتما بمفهوم (الحيكا المصرى) وفى قراءة جديدة لأسطورة فقد حورس لعينه ثم استعادتها كتبت أن (ست) رمز المعرفة الأحادية المتآمرة. وأن حورس رمز المعرفة المثالية المندفعة، وأنه من المنطقى ألا يحسم الصراع لصالح أحد الطرفين، فكان لابد من تدخل (تحوت) الذى وقف فى جانب حورس وأعاد له عينه. والمغزى من تدخل تحوت أن تكون العين المستردة هى (المعرفة الحكيمة) ذات البصيرة قبل البصر.

هل أحلم إذا تمنيت أن يقرأ أحد المسئولين عن التعليم كتاب د. مرفت، فيقرره على طلبة المدارس والجامعات، ليعرفوا جذورهم، خاصة أن الباحثة غزلت الماضى والحاضر فى جدلية واحدة؟

طلعت رضوان

الحضارات الأولى فى مصر وبلاد الرافدين على سبيل المثال، وما يهدد الحضارة والبشرية اليوم، هو ما بات يعرف بالاحتباس الحرارى.

لكن الضغط المناخى ليس شراً كله، فهو وإن لم يحقق انهياراً كاملاً، فإنه يمثل حافزاً لتسيير الابتكار التكنولوجى والتنظيم الاجتماعى، إذ كانت أوروبا فى القرن الرابع عشر مجرد قرية ريفية بنيتها التحتية بدائية للغاية، ملوك وملكات يحكمون مدناً مزدحمة تعانى من نقص الطعام والخدمات الأساسية من مياه نظيفة ومساكن صحية.. إلخ، لكن المطالب الضرورية لعصر الجليد الصغير ساعدت على أن تأتى بثورة زراعية، بدأت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى البلاد المنخفضة، ثم انتشرت إلى إنجلترا بعد ذلك بمائة سنة، وهكذا ظهرت مزارع كبرى وفرت محاصيل لم تكن معروفة قبلاً، كما انتشرت المراعى بصورة غير مسبوقة، ولم تأت نهايات القرن الثامن عشر، حتى كانت إنجلترا ودول أوروبا المنخفضة مكتفية زراعياً، وهو ما مثل دعماً كبيراً للثورة الصناعية، إذ صار ممكناً توفير الطعام للمدن فى هذه المرحلة من ازدهارها وتزايد سكانها، ولم يبق متخلفاً زراعياً فى غرب أوروبا سوى فرنسا، إذ لا يوفر المناخ السيئ قدرة على إنتاج محاصيل جيدة، وهو ما أدى إلى زيادة الجوع، وساهم فى إحداث قدر متزايد من التفسخ الاجتماعى وتهديد الحكومات.

ولم تنج آسيا من التغيرات المناخية التى ميزت عصر الجليد الصغير، إذ شهدت عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر فصول ربيع وخريف أدفأ، واستمرت التقلبات ذاتها فى أوروبا.

والآن فإن سبب الاحترار ليس فقط طبيعياً، بل هو من صنع الإنسان، وبحسب المؤلف فإننا نعيش داخل كبسولة من الاقتصاد الكوكبى، إذ صار بإمكان التغيرات المناخية أن تقتل عشرات الآلاف كل يوم، فضلاً عن تهديدها لملايين آخرين بالجوع والموت، بسبب التصحر وافتقاد الشروط الصحية للحياة، خصوصاً مع الانفجار السكانى الرهيب الذى شهده العالم، واكتظاظ المدن بصورة غير مسبوقة. ويشير المؤلف إلى أن المخاطر فى ازدياد، مع زيادة حرارة الأرض، ويشير كذلك إلى وفاة أكثر من ٢٠ مليون شخص فى أنحاء مختلفة من العالم بالجوع والأوبئة فى القرن التاسع عشر، وأن مئات الملايين اليوم مهددون بالمصير ذاته، مع غفلة العالم عن هذه المخاطر.

أيام محمد على

محمد حاكم

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧، ٣١٠ صفحات



قدر علماء الحملة الفرنسية سكان مصر عام ١٨٠٠ بنحو ٢,٥ مليون نسمة، يعيش نحو ٣٧ ألفاً منهم فى البنادر والباقون فى القرى، ويعيش نحو ٧٢٪ من سكان الحضر فى القاهرة وحدها تليها دمياط، ثم ١٥ مدينة أخرى تراوح عدد سكانها بين ٥ آلاف إلى ١٠ آلاف نسمة، بما يعنى أن غالبية سكان مصر آنذاك كانوا يعيشون فى الأرياف، فيما تركزت غالبية سكان الحضر فى العاصمة.

ويعنى هذا الكتاب أساساً بالتمايز الاجتماعى بين سكان الريف والحضر، ويلاحظ المؤلف أنه بالنسبة للقرى فقد حدث قدر من التمايز فى توزيع «الحيازات» على الفلاحين بمساحات تتراوح بين ثلاثة وخمسة أفدنة من أراضى الخراج، وقد تم توزيع هذه الأراضى على الفلاحين القادرين أى دون المعدمين، وتم تسجيل هذه الحيازات فى السجلات الرسمية، جرى ذلك فى الفترة من ١٨١٣ وحتى ١٨١٨، وهكذا نشأ تمايز طبقى فى الريف بين المعدمين والقادرين، وقد سهلت التحولات الرأسمالية فى الزراعة هذا التمايز، وصار كل فلاح يحاسب على حدة على أساس ضريبة ثابتة، واهتزت المسئولية التضامنية للقرية، حيث كان سكان القرية جميعاً ملزمين بتسديد ما على أرضها الزراعية من عوايد، وتحول شيخ القرية إلى موظف حكومى من الدرجة الدنيا. وتم تقسيم القرية إلى وحدات أصغر، وهو ما أدى إلى تفتت المشترك القروى المصرى (وحدة إنتاجية مشتركة الزمام، وحدة ضريبية باعتبار أهله متضامنين فى سداد الخراج، وحدة تسخير عند صيانة شبكات الرى، وفى ستينيات القرن التاسع عشر كان هذا المشترك القروى قد اختفى تماماً.

يشير المؤلف إلى تماثل الخطاب الاستشراقى مع الخطابين العلمى والحكومى فيما يتعلق بالتمايز الذى شهدته القرية استناداً إلى غياب مفهوم الملكية الخاصة إذ كانت الدولة هى مالك الأرض.

ويقترح المؤلف بديلاً عن هذه الفكرة مفهوم الحيازة الأثرية، كما يشير إلى أن بعض القرى وجد بها فلاحون لا يملكون أرضاً ويعملون أجراء عند أولئك الذين يمتلكون أرضاً، كما لاحظ أن بعض هؤلاء الملاك قد يتحولون إلى أجراء فى السنوات التى لا تصل إلى أراضيهم فيها مياه الرى، فيتجهون إلى القرى التى يمكن أن تتوفر لهم فيها فرص العمل.

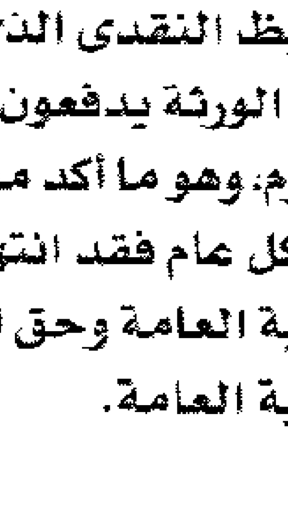
ويرى المؤلف أن ثمة توزيعاً قانونياً لعملية الاستحواذ بين القرية والمدينة، إذ بقى للقرية حق الحيازة الأثرية، وللمدينة حق الملكية العامة من خلال الوالى، إضافة إلى حق الالتزام، ومثل حق الحيازة الأثرية ميداناً للصراع بين القرية والمدينة، ففى الوقت الذى رأت فيه القرية حقاً شرعياً، رأت فيه المدينة تكليفاً يجبر الفلاحين على الارتباط بالأرض، وساعدت عملية الحيازة الأثرية على ظهور طبقة جديدة ممن لديهم القدرة على فك رهن الأرض وما عليها من ضرائب، وبالتالى صارت حيازاتهم أكبر من قدراتهم أو حجم قوة عملهم العائلية.

من ناحية ثانية كان الصراع بين الملكية العامة وحق الالتزام ملمحاً للطبيعة الصراعية لظاهرة الاستحواذ على الأراضى الزراعية داخل المدينة ذاتها، إذ أعطى للملتزم حق التمتع بفوائد الالتزام طوال حياته، مقابل «حلوان» يدفعه يساوى ثلاثة أمثال الفايظ النقدى الذى حددته السلطة، وكان الورثة يدفعون «الحلوان» بعد وفاة الملتزم، وهو ما أكد ملكية الوالى للأرض، وبشكل عام فقد انتهى الصراع بين حق الملكية العامة وحق الالتزام لصالح حق الملكية العامة.

الإعلام والسلطة

فاروق أبوزيد

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٧، ٢١٤صفحة



عبر ثمانية فصول، يبحث هذا الكتاب فى واحد من أهم الموضوعات ذات الصلة بالإعلام، وهو موضوع العلاقة بين الإعلام والسلطة. ويقدم رؤى لا يغيب عنها الطابع الأكاديمى والعلمى فى فصوله جميعها، قبل أن يتوقف عن قصة الإعلام والسلطة فى مصر، منذ بدايات عصر محمد على وحتى اليوم.

ويلاحظ المؤلف أنه فى ظل السلطة الاستبدادية التى حكمت مصر فى معظم تاريخها، لم يكن أمام الإعلام إلا القيام بواحد من دورين:

إما أن يكون الأداة المعبرة عن السلطة والمبررة لشرعيتها والمحرضة ضد خصومها ومعارضيها، والمدافعة عن سياساتها وإنجازاتها، أو أداة مقاومة للسلطة والناقدة لسياساتها والمحرضة على الانقلاب عليها، والنموذج الثانى وإن كان ممثلوه أقل، إلا أنه برز أكثر فى الإعلام المهاجر، وقد شهد القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين هجرة الصحف والصحفيين.

يتابع المؤلف مسيرة عدد من أصحاب الصحافة المهاجرة، يعقوب صنوع وأديب اسحق وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعلى الغاياتى وابراهيم المويلحى وعبدالعزيز جاويش، ومع إعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وصدور دستور ١٩٢٣، بدأت الحياة النيابية المصرية وعادت الصحف للصدور، ولم يعد هناك مبرر لهجرة الصحفيين، وتمتعت الصحافة بهامش واسع من الحرية، حتى جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢، وعادت ظاهرة هجرة الصحافة والصحفيين من جديد، وكان أحمد ومحمد أبوالفتح أبرز من هاجر من الصحفيين فى الخمسينيات، وكان على أمين أبرز صحفى مصرى هاجر فى الستينيات، وفى عهد السادات زادت هجرة الصحفيين المصريين.

وعلى صعيد التشريعات والقوانين، يتابع المؤلف ما صدر من قوانين المطبوعات وتأثيرها على الصحافة والصحفيين، إذ كان أول تشريع للمطبوعات فى مصر أثناء الحملة الفرنسية فى يناير ١٧٩٩، وتتالت القوانين والتشريعات بدءاً من قانون المطبوعات العثمانى ١٨٦٠ وحتى اليوم، وقد تفاوتت التشريعات من حيث التقييد والإباحة وفقاً للنظام السياسى السائد، فقد تمتع الإعلام المصرى فى مرحلة الديمقراطية الليبرالية (١٩٢٣-١٩٥٢) بهامش أوسع من الحرية، فيما تقلصت هذه المساحة تماماً مع إعلان ثورة يوليو ١٩٥٢، وهو ما عكسته التشريعات التى صدرت فى تلك المرحلة وتطبيقاتها، ثم بدأ إلى التحول من النظام السلطوى إلى النظام الديمقراطى فى عهد السادات مع وجود سمات سلطوية، أى أنه كان نظاماً مختلطاً من هذه الزاوية، أما فى المرحلة الحالية فقد زادت السمات الديمقراطية، وإن كان المؤلف يعتقد أن الغالب على المرحلة الأخيرة أيضاً هو النظام الإعلامى المختلط.

ديوان توفيق الحكيم

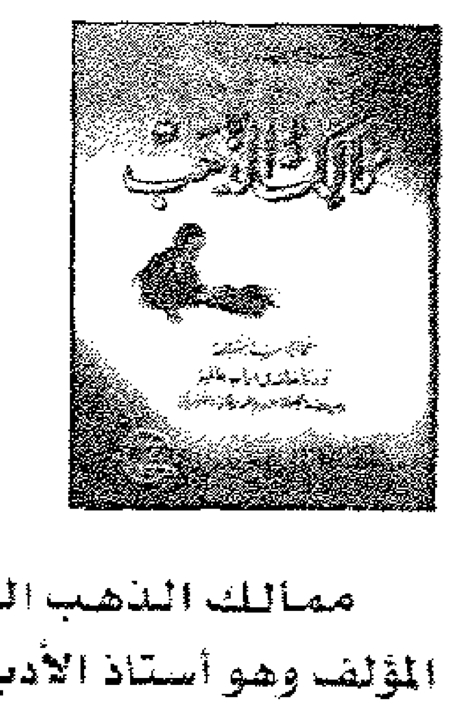
إبراهيم عبدالعزيز
القاهرة: نفرو للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧، ١٦١صفحة



اختار توفيق الحكيم منذ البداية التمثيلية الأدبية والمسرحية والقصة، لتكون قوالبه التى يصب فيها إبداعه الأدبى، لأن أدبنا العربى كان يفتقر إلى هذه الأنواع، إلا أن علاقته بالشعر كانت قديمة، ليس فقط كمتذوق وإنما أيضاً كمبدع، وقد تأثر فى كتابته بما كانت عليه المذاهب السريالية والرمزية التى كانت ذائعة الصيت فى أوروبا حيث كان يقيم فى أوائل القرن العشرين، لكنه أيضاً فى كثير مما كتب بدا مسحوراً ببلاغة القرآن وشاعرية تصويره فى العديد من الصور، حتى إنه كتب قصائد من الشعر المنثور، نشر بعضها فى «زهرة العمر» وبعضها الآخر فى «رحلة الربيع والخريف»، وقد طرح رأيه فى الشعر الجديد فى كتابه «فن الأدب»، وقد رأى أن استلهام الشعر الجديد عندنا جاء صدى لما جرى فى أوروبا، دون أن يلتفت إلى الأثر الذى ينبغى أن يتأسى به أكثر من أى شىء آخر

ممالك الذهب

ماهر شفيق فريد
القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٧، ١٢٧٥صفحة



ممالك الذهب التى جعل منها المؤلف وهو أستاذ الأدب الإنجليزى فى جامعة القاهرة عنواناً لكتابه، هو كما يقول عوالم الأدب والفن، والتى تحدث عنها الشاعر الرومنتيكى الإنجليزى جون كيتس.

ويضم الكتاب عشرات الدراسات التى قام بها المؤلف أو ترجمها على مدى أربعين عاماً من عمله فى حقل النقد أو فى الجامعة، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام:

فى القسم الأول أعمال أدبية مترجمة.

حيث يقدم ترجمة لقصة السندباد البحرى، وثلاث مسرحيات.

منها ما يستوحى قصة يوحنا المعمدان فى العهد الجديد.

ومنها ما يندرج فى باب الملهاة الاجتماعية الخفيفة.

ومنها ما يمثل مسرح العبث فى القرن العشرين، ثم أقصوصة من جواتيمالا وقصائد من قارتى أفريقيا وآسيا.

وفى القسم الثانى من الكتاب، دراسات فى آداب عالمية، تبدأ بتجربة المؤلف نفسه فى نقل قصائد تى. اس. إليوت إلى اللغة العربية، ثم موضوعات لا تندرج فى باب الأدب بمعناه الدقيق وإن كانت تمت له بصلة ما.

منها فائدة المكتبات، التراث القبطى، مصر فى عيون الرحالة الأجانب، مبادئ الفن، خواطر عن كارل بوبر ودريدا وبول ريكور وجابرييل مارسيل وسارتر ومقالات عن دانتى وشكسبير والشعراء الرومانتيكيين الإنجليز وأوسكار وايلد وتشيكوف وأوكتافيوباث وداريوفو وغيرهم، ومتابعات عشر للجديد فى المشهد الأدبى شرقاً وغرباً، وتقديم لعدد من رسائل الماجستير والدكتوراة البريطانية.

أما القسم الثالث، فهو جولات فى الصحافة الأدبية والبريطانية منذ عقد الستينيات وحتى اليوم.

وهى فترة كانت حافلة بالنشاط النقدى سواء فى المجال الأكاديمى أو المنتديات أو على صفحات الجرائد والمجلات.

دوريــــــــات

«حوار الطرشان» حول الحركة الإسلامية

أوراق اشتراكية
العدد ١٧ - صيف ٢٠٠٧

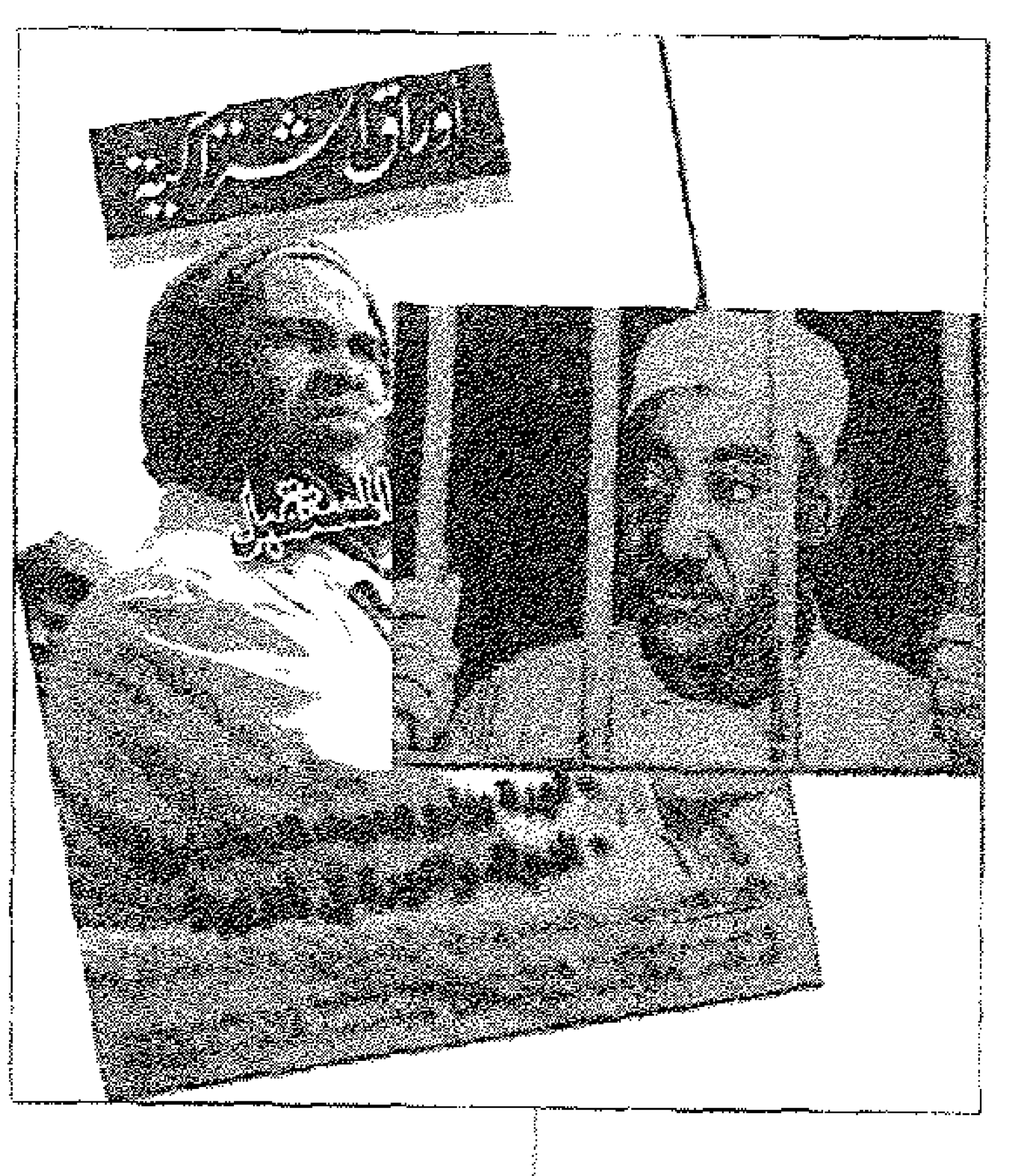
انقسم اليسار المصرى والعربى فى فهم ما تم فى غزة فى شهر يونيو الماضى. وهو كان قد انجر قبلها إلى فهم رومانسى للتجربة الديمقراطية الموريتانية. بينما لا يزال الغموض يلف رؤيته للتطورات الهائلة الجارية فى أمريكا اللاتينية، بالتحديد فى فنزويلا وبوليفيا. هذا طبعا ناهيك عن استمرار «حوار الطرشان» حول الحركة الإسلامية والموقف منها.

فى عدد صيف ٢٠٠٧ تحاول «أوراق اشتراكية» - وهى مطبوعة فصلية تصدر عن مركز الدراسات الاشتراكية فى مصر - معالجة كل هذه الموضوعات فتتناول الصراع فى غزة والتطورات فى فنزويلا وموريتانيا، فضلا عن قراءة فى قانون الجودة فى التعليم المصرى، ومراجعة لأسباب العنف الطائفى المتصاعد ضد الأقباط.

يضم العدد دراسة جادة للكاتب الماركسى مصطفى مجدى الجمال حول اليسار ومواقفه من الإسلاميين، تطرح أكثر الأسئلة جوهرية فى الموضوع الملتبس لدى معظم تيارات اليسار المصرى.

يفرد هذا العدد أيضا مساحة للاحتفال بمئويتين: مئوية السينما المصرية ومئوية نظرية الثورة الدائمة لصاحبها الماركسى الثورى الروسى ليون تروتسكى.

فى المئوية الأولى يقدم لنا خالد الصاوى نظرة بانورامية على تاريخ السينما المصرية مستنتجا «أن أصل علتها هو الطبقة البرجوازية القائمة عليها». وفى الثانية يحاول جون مولينو، الاشتراكى البريطانى، التدليل على «أن نظرية الثورة الدائمة مازال لديها ما تقدمه لنا كمرشد للنضال حتى يومنا هذا».



وفى إطار المناسبات تحتفى المجلة أيضا بالذكرى الخامسة والخمسين لثورة يوليو بدراسة لنور منصور حول علاقة الثورة بالديمقراطية من خلال قراءة للمرحلة الحاسمة من ٥٢ إلى ٥٤ تكشف عن أصل الصراع وحقيقة أطرافه. هذا بالإضافة إلى دراسة تاريخية هامة أخرى بقلم عمر الشافعى عن تجربة الحزب الشيوعى المصرى الأول فى مطلع العشرينيات.

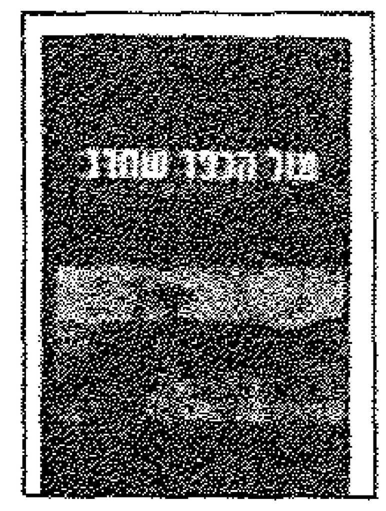
تضم قائمة كتاب هذا العدد: عاصم الدسوقى وأحمد الخميسى وأمينة رشيد وإسلام عبد المعطى وصفاء الليثى، الذين يقدمون مراجعات متنوعة لإبداعات جديدة. ففيما يقدم عاصم الدسوقى قراءته لإشكاليات التأريخ فى الحركة الشيوعية المصرية فى ضوء صدور المجلد الهام لوثائق الحركة من منشورات مركز البحوث العربية والأفريقية. تقدم أمينة رشيد وأحمد الخميسى قراءات نقدية لروايتى «نبيذ أحمر» لأمينة زيدان و«رائحة النعناع» لحسين عبد العليم. أما فيلم «تيمور وشفيقة» فقد وجد له مجالا فى المطبوعة الرصينة بعد أن كتبت عنه صفاء الليثى بوصفه من أفلام الصيف «الخفيفة».

ملف المجلة تم تخصيصه «حوارات حول الحركة العمالية المصرية» وتطوراتها الأخيرة تضمن لقاءات مع إيهاب شلبى المهندس والعامل بغزل شبين الكوم والهامى الميرغنى الباحث والكاتب الاشتراكى ومصطفى بسيونى الصحفى وعضو مركز الدراسات الاشتراكية، بالإضافة إلى قراءة تحليلية لتامر وجيه حول ظروف المرحلة الراهنة من الصراع الطبقى فى مصر والإشكاليات الاستراتيجية والتكتيكية التى تطرحها تلك الظروف.

מול הכפר שחרב
חגי רוגני
פרדים
256 עמודים

أمام القرية المدمرة

حجاى روغانى
دار النشر: برديس
٢٥٦ صفحة



يتطرق المؤلف للشعر العبرى من العام ١٩٢٩ وحتى العام ١٩٦٧، وتحديداً النصوص الشعرية التى تطرقت للصراع اليهودى العربى. ويشير الكتاب إلى أنه خلال هذه الفترة كانت هناك ثلاثة أجيال من الشعراء، الجيل الأول يمثله الشاعر اليمينى المتطرف اورى تسفى غرينبرغ وافوت يشورون ونتان الترمان، والثانى يمثله حاييم غورى ويهودا عميحاى وابا كوينر، والثالث يمثله نتان زاخ وليه غولدبرج. الكتاب مكون من ثمانية فصول تتطرق لنصوص شعرية نظمها الشعراء المنتمون للأجيال الثلاثة. يعتبر المؤلف أن غرينبرغ هو أكثر الشعراء الصهاينة تطرفاً حيث اشتهر بمواقفه المعادية للعرب والمطالبة بطردهم من أرض فلسطين، فى حين يقف الشاعر يشورون فى الطرف الأخر، حيث كتب العديد من القصائد التى تطالب بالتعايش والتعامل الحضارى مع فلسطين وشعبها. وقد اشتهر الشعراء الشيوعيون من أمثال مردخاى ابى شاؤول والكسندر بن. ويصف الكتاب الترمان بأنه «شاعر الأمة»، فى حين وصف كلاً من غورى وكوينر بأنهما من الشعراء الجنود لأنهما وصفا حرب العام ١٩٤٨.

הרב קוק
אבינועם רוזניק
מרכז שזר
287 עמודים

الحاخام كوك

افينوعم روزنيك
دار النشر: مركز شازار، ٢٨٧

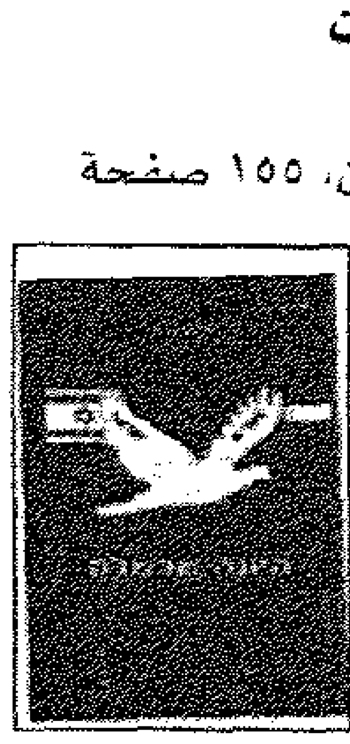


يعتبر الحاخام أبراهام كوك، من أهم الشخصيات التى صنعت الحدث اليهودى فى القرن العشرين. فكوك هو مؤسس تيار الصهيونية الدينية، وهو التيار الذى يلعب دوراً مركزياً فى السياسة والمجتمع الإسرائيلى. وقد صدر عن دار النشر شازار كتاب للكاتب والمؤرخ افينوعم رزنيك يتحدث عن السيرة الذاتية للحاخام كوك. وللوقوف على مدى مساهمة كوك فى التفاف أكبر قطاعات اليهود المتدينين حول المشروع الصهيونى، تجدر الإشارة إلى أنه حتى نهاية القرن التاسع عشر كان التيار الأرثوذكسى الاشكنازى بشقيه الليتائى والحسيدى يمثل المتدينين اليهود فى شرق أوروبا وروسيا، وكان هذا التيار يرى أنه يتوجب عدم التدخل من أجل إقامة دولة لليهود التى تقوم بعد مجىء «المسيح المخلص». فجاء الحاخام كوك لكى يصدر فتوى جسدت فى الحقيقة انقسام التيار الأرثوذكسى ومولد التيار الدينى الصهيونى، حيث أفتى كوك أنه من أجل عودة المسيح المخلص، فيتوجب العمل على إقامة الدولة اليهودية. وأخذ كوك فتوى لأحد كبار الحاخامات اليهود فى القرن الثانى عشر، الذى أفتى أن استيطان «أرض إسرائيل» يعدل جميع فرائض التوراة الثلاثمائة وستين. وولد كوك عام ١٨٦٥ فى لاتفيا، المتاخمة لروسيا، وتوفى فى العام ١٩٣٥. أسس كوك العديد من الحركات الصهيونية الدينية الاستيطانية مثل حركة «بنى عكيفا» للشبيبة اليهودية المتدينة، وأقام الحاخامية الكبرى، وكان الحاخام الإشكنازى الأول. إلى جانب ذلك كان غزير الإنتاج، حيث لم تقتصر كتاباته على تفسير النصوص الدينية، بل تعداها إلى الفكر والفلسفة. ويتبنى أفكار الحاخام كوك معظم المستوطنين اليهود فى الضفة الغربية والجولان.

היונה שכשלה
יוחנן קץ
יארון גולן
155 עמודים

الحمامة التى سقطت

يوحنان كاتس
دار النشر: يارون غولان، ١٥٥ صفحة



يتعرض هذا الكتاب للمبادرات السياسية التى طرحت بين عامى ١٩٦٧ و١٩٧٣، أى بين الحربين. ويشير المؤلف إلى أن هذه الفترة شهدت طفرة فى العمل السياسى لمحاولة وضع حد للصراع بين إسرائيل والعالم العربى، حيث تمثلت بشكل خاص فى مساعى الأمم المتحدة عبر مبعوثها غورنار يارينغ الذى سعى ليكون وسيطاً لحل الصراع. ومع هذا فإن هذه الجهود فشلت فى منع اندلاع حرب العام ١٩٧٣. ويشير الكتاب إلى مبادرة روجرز، حيث قامت إسرائيل برفض مبادرتى كل من يارينغ وروجرز. ويحمل المؤلف إسرائيل المسئولية عن الفشل فى التوصل لتسوية سياسية كان من الممكن أن تمنع نشوب حرب العام ٧٣، حيث كانت إسرائيل ترفض من حيث المبدأ التوصل لتسوية سياسية تقوم على أساس الانسحاب من الأراضى العربية التى احتلت عن طريق القوة. يتناول الكتاب الموقف الإسرائيلى من المناطق التى احتلت فى العام ٦٧ منذ الأيام الأولى من الحرب وحتى بداية مهمة يارينغ فى كانون الأول من العام ١٩٦٧. وبعد ذلك يتطرق الكتاب إلى المساعى التى قام بها المبعوث الدولى وحرب الاستنزاف على قناة السويس وحتى طرح مشروع روجرز فى كانون الثانى ١٩٦٩. وفى الفصل الأخير من الكتاب يتطرق الكاتب إلى الوضع الدولى ورفض مشروع روجرز من قبل إسرائيل وتفجر حرب العام ٧٣.

בעלי חיים בשירות הבטיחון וההגנה
דן יהב
מבט
280 עמודים

الحيوانات فى خدمة الأمن والدفاع

دان ياهف
دار النشر: مباط
عدد الصفحات ٢٨٠

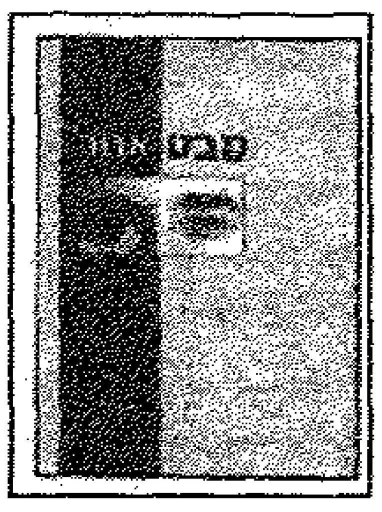


فى كتابه هذا يوثق الدكتور دان ياهف آليات تجنيد العصابات الصهيونية قبل العام ٤٨، والكيان الصهيونى بعد ذلك للحيوانات فى الحرب ضد الشعب الفلسطينى. الكتاب يتطرق الى اعتماد الصهاينة على الحيوانات فى أداء الخدمات الأمنية منذ أن شرع الصهاينة فى التمهيد لبناء مشروعهم العنصرى فى العام ١٨٧٠ وحتى العام ٢٠٠٦. فى البداية يتطرق ياهف إلى وسائل تسخير الإنسان للحيوان من ناحية تاريخية، وتسخيره لها فى الحروب. وينتقل بعد ذلك للحديث عن وسائل استخدام الصهاينة للحيوانات قبل العام ٤٨ وبعد الإعلان عن تأسيس دولتهم على أرض فلسطين. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر كان المستوطنون الصهاينة يستخدمون الحصان فى حراسة مستوطناتهم، وكانت فرق الحراسة تعتمد بشكل أساسى على الحصان. فى نفس الوقت استخدمت عناصر العصابات الصهيونية الذين كانوا يعملون فى الأفرع الاستخبارية التابعة للحركات الصهيونية الجمال للتمويه على القبائل البدوية التى كانت تعيش فى صحراء النقب لكى يتم التعامل معهم كما لو كان بدوا فلسطينيين، وذلك لكى يتسنى لهم الحصول على المعلومات الاستخبارية التى ساعدتهم بعد ذلك فى مهاجمة هذه القبائل وطرد أفرادها من الأراضى الشاسعة التى كانوا ينتشرون عليها. وأقام المستوطنون الأوائل فرقة «راكبى البغال» العسكرية لحراسة خطوط التماس بين المستوطنات والتجمعات الفلسطينية. ويضيف ياهف أن العصابات الصهيونية استخدمت الحمام فى عمليات التجسس، والكلاب فى اقتفاء الأثر، وإن كان الجيش الإسرائيلى قد أنشأ بعد ذلك وحدة خاصة من قصاصى الأثر يخدم بها بشكل خاص عدد من البدو الذين خانوا شعبهم، ومازالت تعمل حتى الآن، حيث يلعب افرادها دوراً أساسياً فى حماية حدود الكيان الصهيونى، وقد سقط العشرات من عناصر هذه الوحدة.

מבט אחר
דן בן חורין
רימונים
106 עמודים

وجهة نظر أخرى

دان بن حورين
دار النشر: ريمونيم
عدد الصفحات ١٠٦ صفحات



يتطرق هذا الكتاب إلى شخصية موشيه شاريت ثانى رئيس وزراء لإسرائيل والذى كان يعد الرجل الثانى فى هرم القيادة للكيان الإسرائيلى. الكتاب ينسف الانطباع الذى تولد عن شاريت بأنه كان معتدلا وأقل تشدداً من بقية القيادات الصهيونية. ويؤكد المؤلف أن شاريت كان يشارك رئيس وزراء إسرائيل الأول دفيد بن غوريون كل أفكاره المتطرفة والعنصرية إزاء الوجود الفلسطينى فى فلسطين، مع أنه كان من المعروف عنه أنه من مؤيدى العمل الدبلوماسى فى حل القضية السياسية مع القادة العرب، حيث أجرى لقاءات معهم فى الفترة الممتدة بين العامين ١٩٣١ و١٩٣٦، حاول فيها إقناعهم بقبول إقامة دولة لليهود على أرض فلسطين. يستعرض الكتاب أيضا لسيرة شاريت الذاتية وبداية ظهوره القيادى على ساحة العمل

الصهيونى. ففى العام ١٩٣١ عين سكرتيراً للدائرة السياسية فى الوكالة اليهودية.

לנצח את הטלר
אברהם בורג
ידיעות ספרים
220 עמודים

أن تنتصر على هتلر

ابراهام بورغ

دار النشر: يديعوت سفريم



بالنسبة لكل من يتابع الإنتاج الفكرى فى إسرائيل، فإنه لا جدال عنده على حقيقة أن الكتاب الذى ألفه رئيس الكنيست الإسرائيلى الأسبق إبراهام بورغ بعنوان «أن تنتصر على هتلر»، والصادر عن دار النشر «يديعوت سفريم» فى تل أبيب، يهز بقوة كل الأسس التى استندت إليها الفكرة الصهيونية. ففى هذا الكتاب يعلن بورغ «طلاقه» للصهيونية، بعد أن يطالب بإلغاء الطابع اليهودى لدولة إسرائيل. ولا تنبع أهمية وتاريخية ما جاء فى كتاب بورغ لأن مؤلفه هو رئيس سابق للكنيست ومن قادة حزب العمل سابقاً، بل إن بورغ المتدين شغل فى الماضى الوكالة اليهودية التى تعتبر أهم واكبر مؤسسة تجسد الفكرة الصهيونية لمسئوليتها عن تهجير يهود العالم لإسرائيل؛ ولأنه أيضا نجل الدكتور يوسيف بورغ من مؤسسى حزب «المفدال» الدينى، والذى ينظر إليه كرمز «وطنى» لأنه ظل وزيرا فى حكومات إسرائيل من العام ٤٨ حتى العام ١٩٨٣.

يسخر بورغ فى كتابه من زعم إسرائيل بأنها دولة ديموقراطية، معتبراً أنه لا يمكن الجمع بين اليهودية والديموقراطية. ويسدد بورغ سهامه لعدد من «البقرات الصهيونية المقدسة»، ويطالب بالتنازل عن الطابع اليهودى، قائلاً أن الدولة هى «وسيلة علمانية لا تهتم تماما بالشحنة الروحانية أو الصوفية أو الدينية. إن تعريف إسرائيل أنها دولة يهودية يصبح شيئًا قابلاً للانفجار». ويشير إلى أن مفتاح نهاية إسرائيل هو الطابع اليهودى للدولة. ويسخر بورغ من ادعاء الحركة الصهيونية بأن إسرائيل هى دولة يهودية وديموقراطية، معتبراً أنه لا يمكن الجمع بين اليهودية والديموقراطية. ويسدد بورغ سهامه إلى العديد من «البقرات المقدسة»، مثل قانون العودة الذى يضمن لكل يهودى فى أى بقعة من العالم الحق بالهجرة إلى إسرائيل وان يصبح «مواطنا» فيها، مطالباً بإلغائه. وأضاف «قانون العودة قانون اعتذارى. هذه صورة مرآة لهتلر. لا أريد أن يحدد لى هتلر هويتى. أنا كديمقراطى وكإنسانى يعرض القانون على تناقضا. قانون العودة يفصل بيننا وبين يهود الشتات وبيننا وبين العرب». وهاجم بورغ بشدة استلاب المجتمع الإسرائيلى لمفهوم القوة، قائلاً: «أحب أن تعرفوا أن الإسرائيلى يفهم القوة فقط. لو كان شخص ما كتب أن العربى يفهم القوة فقط أو أن التركمانى يفهم القوة فقط لكان اتُهم فورا بأنه عنصرى. وبحق». وأضاف: «أرى مجتمعى يذوى أمام ناظرى. أردت أن يدرك التيار المركزى أنه عندما ندع الجيش ينتصر (بحسب الشعار الإسرائيلى الذى يرفعه اليمين الإسرائيلى)، فإنه غير قادر على ذلك (غير قادر على) أن يعى أن القوة ليست هى الحل. إن الحديث عن محو غزة يدل على أننا لم نستوعب الدرس». ويعتبر بورغ أن المجتمع الإسرائيلى هو مجتمع «مذعور»، ويضيف «إننا معوقون نفسيا. إسرائيل تعانى صدمة نفسية مستديمة.. صدمة النازية أفقدتنا توازننا. إننا نعيش بشعور أن كل العالم ينفر منا. التشدد يسيطر على هويتنا.. إننا مجتمع يعيش على سيفه، وهذا الشعور ورثناه من ألمانيا، وكأن ما سلبوه منا خلال ١٢ عاماً يحتم أن يكون سيفنا كبيراً جداً.. أليس جدار الفصل الذى نقيمه فى الأراضى الفلسطينية خير دليل على انفصام الشخصية الذى نعانيه؟». ويعتبر بورغ أن إصرار إسرائيل على احتلال الأراضى العربية «جزء صغير جدا من المشكلة». ويضيف: «إسرائيل مجتمع خائف. من أجل البحث عن مصدر وسواس القوة واقتلاعه يجب علاج المخاوف. والخوف الأعلى، الخوف السابق هو ستة ملايين يهودى قتلوا فى الكارثة». ويحذر من أن مصدر قوة اليمين فى إسرائيل يكمن فى حرصه على نشر البارانويا، أنا أقبل وجود صعاب. ولكن هل هى مطلقة؟ هل كل عدو هو أوشفيتس؟ هل كل حماس طاغية؟».

זהויות במשחק
תמיר שורק
מגנז
246 עמודים

هويات فى اللعب

تمير شورك

دار النشر: ماغنس

عدد الصفحات: ٢٤٦ صفحة



تمير شورك هو عالم اجتماع إسرائيلى معروف، يحاول فى كتابه هذا رصد تأثير الرياضة على الانتماء القومى لفلسطينيى العام ٤٨ الذين لم تستطع العصابات الصهيونية اجتثاثهم عندما قامت إسرائيل فى العام ١٩٤٨. الكتاب يتعرض لمعضلة الازدواجية التى يواجهها الرياضيون من فلسطينيى ٤٨، حيث انهم يشاركون فى الحياة الرياضية الإسرائيلية على الرغم من تواصل الصراع العربى الإسرائيلى. وتبرز هذه المعضلة بشكل خاص عندما يشترك فريق عربى إسرائيلى فى مباريات دولية كما حدث مؤخراً مع فريق سخنين، أو عندما يشارك لاعب عربى فى المنتخب الإسرائيلى فى المباريات التى تمهد للتنافس على كأس العالم وكأس أوروبا. الكتاب يتطرق إلى تاريخ الحركة الرياضية لفلسطينيى ٤٨، منوهاً إلى أن هذه الحركة بدأت فى العام ١٩٠٨، أما أول اتحاد رياضى فقد أقيم فى العام ١٩٣٤، وظل حتى العام ١٩٤٨ حيث تم تدميره على أيدى الحركات الصهيونية. وحتى ذلك التاريخ، نجح الاتحاد فى تنظيم مباريات وبطولات فى العديد من المجالات الرياضية مثل كرة القدم والطائرة والتنس والسباحة ورفع الأثقال والملاكمة. لكن بعد إقامة إسرائيل، فإن ظهور الرياضيين الفلسطينيين لم يظهر بشكل جدى إلا فى الثمانينيات من القرن الماضى، حيث برز منهم زاهى ارملى ورفعت تورك.

סוגיות בגיאפוליטיקה
ארנון סופר
משרד הבטיחון
152 עמודים

قضايا فى الجغرافيا السياسية

ارنون سوفير

وزارة الدفاع الإسرائيلية

١٥٢ صفحة



هل هناك ثمة إمكانية للتوصل لتسوية سياسية للصراع بين إسرائيل والعالم العربى؟. فى إسرائيل صدر مؤخراً كتاب جديد للإجابة عن هذا السؤال، وقد أثار هذا الكتاب اهتماماً كبيراً فى الأوساط السياسية والأمنية ولدى النخب بشكل عام فى تل أبيب. وعلى الرغم من أن كتاب «قضايا فى الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط»، لمؤلفه خبير الديموجرافيا الإسرائيلى البروفيسور أرنون سوفير حاول إضفاء مسحة من المعالجة المهنية الأكاديمية فى إجابته عن هذا السؤال، فإن الإطار العام والجوهرى لهذه المعالجة عنصرى بامتياز. وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب يوحى لأول وهلة أنه يتناول الجغرافيا السياسية للمنطقة من خلال عرض أكاديمى خالص ومحايد، إلا أنه يحاول من مقدمته إلى آخر صفحة فيه أن يقدم مسوغات لدعم أيديولوجيا اليمين الصهيونى المتطرف التى تؤكد أن البون الحضارى الشاسع بين العالم العربى الذى يمثل التخلف والدونية وإسرائيل التى تمثل الحضارة الغربية، لا يسمح ابتداء بالتوصل لمثل هذه التسوية. وأهمية الكتاب على الرغم من حججه الواهية والمتداعية، تتمثل ليس فقط فى تبنى وزارة الدفاع الإسرائيلية إصداره، بل إن هذا الكتاب أعد بعد الاتفاق بين سوفير ووزارة الدفاع ليكون مرشداً لقيادة الأجهزة الأمنية والاستخبارية والمراكز المسئولة عن تقديم التقديرات الاستراتيجية فى المؤسسة العسكرية الإسرائيلية حول العالم العربى.

فى البداية حرص المؤلف على التأكيد على أن السمات العامة لمنطقة «الشرق الأوسط» تتمثل فى أنه «منطقة صحراوية، موطن للقومية العربية، والإسلام، والنفط، وأنه يقع على مفترق طرق»، وهذا السمات كما يرى سوفير مقومات أساسية للتخلف.

ويفطن سوفير فجأة إلى المشكلة التى وقع فيها من خلال ربط سمات «الشرق الأوسط» بالتخلف، لأنه يدرك أن ثمة مناطق كثيرة تتقاطع مع هذه المنطقة فى كثير من السمات التى أشار إليها، فحاول أن يوجد فروقًا بين المسلمين العرب فى العالم العربى، الذى يطلق عليه «الشرق الأوسط»، والمسلمين فى مناطق أخرى تتشابه فى ظروفها الجغرافية والمناخية مع العالم العربى مثل إيران وأفغانستان وباكستان. وحسب منطق سوفير، فإنه نظراً لأن الإسلام تعرض لتأثير ديانات أخرى فى هذه البلدان، فإن المسلمين هناك هم أقل خطورة من المسلمين فى «الشرق الأوسط». ويجزم سوفير فى كتابه أن الشرق الأوسط «الإسلامى والعربى» يرفض الاندماج فى تيارات العولمة لأنه ليس لديه ما يضيفه بالنسبة لها، فهذا الشرق بالنسبة للمؤلف هو مركز للتطرف والإرهاب، وتخلو أجندته من الجدل حول قضايا المجتمع المدنى وقضايا المراة وغيرها.

كل ذلك ليصل المؤلف فى النتيجة إلى استنتاج هام وأساسى وهو أنه فى ظل أوضاع الشرق الأوسط (العالم العربى)، وسماته العامة، فإنه لا يوجد لإسرائيل شريك ممكن فى عملية التسوية السياسية للصراع مع العالم العربى، وبالتالى فهو يرى أنه يتوجب على إسرائيل مواصلة امتشاق سيفها للذود عن بقائها.

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

مساءلة منهج لا شعار

فى مزيج من الأدلة الشرعية، والأسانيد القانونية، والإحالات التاريخية، جاء رد د. محمد سليم العوا فى العدد الماضى على مساءلة د. جابر عصفور لشعار «الإسلام دين ودولة».. «كاشفاً» لحقائق عدة، كثيراً ما ينالها التشويه والتلبيس ممن يتابعون الشأن الإسلامى، نقداً وتحليلاً.

ومرد هذا التشويه والتلبيس يرجع فى الأساس إلى أنهم ينظرون إلى الشأن الإسلامى من خلال عيون المستشرقين، ودوائر البحث الغربية، وما يثيرونه من شبهات حول أصول الإسلام وتاريخه، وممارسات المسلمين ومدى ارتباطها بتلك الأصول.. حتى إننا لا نبالغ إذا أسميناهم بالمستشرقين العرب!

وبالإضافة إلى ما ذكره د. العوا فى رده، فإن لى عدة ملاحظات أوجزها فيما يلى:

أولاً: إذا أخذنا فى الاعتبار ما قرره علم المنطق من أنه «لا مشاحة فى الاصطلاح»، لكان الأجدر بالدكتور عصفور أن يناقش ويسائل برنامجاً لا شعاراً!، لأن العبرة بالمسميات لا الأسماء، وبالمضامين لا العناوين، ثم إن الشعار قد يأتى فضفاضاً وغير منضبط بمقاييس اللغة، وحينئذ فليس من الحكمة أن نقف عنده بالتحليل والتدقيق، ولعل هذا الأمر هو ما جعل د. عصفور يجهد نفسه ليشرح لنا أن واو العطف التى بين (الدين والدولة) «لا تقيم اتحاداً بين طرفيها، كى يغدو كل منهما غيره، وإنما تفصل بين المعطوفين بما يؤكد تمايزهما، ومن ثم تمايز الإسلام من حيث هو دين عن الدولة التى يغدو الإسلام مصدراً من مصادرها التشريعية، دون أن يكون هو إياها بالضرورة».

ومن ناحية أخرى، فقد غاب عن د. عصفور أن شعار «الإسلام دين ودولة» لم يرد فى القرآن الكريم والسنة النبوية، إنما هو صياغة اجتهادية، جاءت لتعبر عن فكر يستمد أصوله من القرآن والسنة والخبرة التاريخية، بما يعنى أنه لا قداسة لهذا الشعار ولا لغيره من الشعارات التى يُعبر من خلالها عن الطرح الإسلامى، ومن ثم فالأولى أن تتوجه الجهود لمناقشة المضامين بدلاً من العناوين.

كما لا يفوتنا أن مهمة الشعار تظل محصورة فى حشد التأييد، وجمع الطاقات، وتحريك الهمم، وتلخيص المضمون، دون تفصيل أو شرح. وخير مثال لذلك: حركة «كفاية»، فهى قد اختصرت مهمتها فى مقاومة التوريث والاستبداد والظلم الاجتماعى و... فى كلمة واحدة: «كفاية»!!

> «الإسلام دين ودولة»
>
> مساءلة شعار

ثانياً: نحن نعلم أن شعار «الإسلام دين ودولة» ترفعه جماعات إسلامية متنوعة، تشمل الإخوان المسلمين، والجماعات الجهادية وغيرها، لكن الأمر الذى ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا فى هذا المقام، أن هذه الجماعات فيما بينها تقف على طرفى نقيض عند الدخول فى تفاصيل هذا الشعار!

فبينما ينطلق الإخوان المسلمون من إسلامية المجتمع، ولا يكفرون أحداً نطق بالشهادتين، ويؤكدون على «بشرية» الداعين للحل الإسلامى، وأنهم غير معصومين، ودعاة لا قضاة، ويؤمنون بالتعددية الفكرية والحزبية، وبتداول السلطة، والاحتكام إلى الجماهير.. نجد الجماعات الإسلامية الأخرى تختلف قليلاً أو كثيراً - ليس هذا مقام تفصيل - فى ذلك.

وكان الأولى بالدكتور «الجامعى» أن يبين لنا الشرائح المختلفة للإسلاميين، وموقفهم من الشعار محل البحث، وموقفهم أيضاً من القضايا التى ذكرناها قبل قليل.

ثالثاً: يحرص كثير من العلمانيين على إظهار رموزنا الثقافية والفكرية وكأنهم دعاة للعلمانية، ومعادون لمحاولات وصل حاضر الأمة بأصولها ومنابعها الإسلامية، وهم فى سبيل تحقيق ذلك لا يتورعون عن تزييف التاريخ، وإظهار بعض صفحاته التى قد تشهد لهم وكتمان صفحات أخرى تدمغ حججهم وباطلهم! وهذا يأتى فى محاولة منهم لإثبات أن لأفكارهم جذوراً، وأنهم ليسوا شاذين ولا متغربين!!

فهم يتكلمون عن الشيخ على عبدالرازق وكتابه «الإسلام وأصول الحكم» ولا يذكرون تراجعه عما ورد فى هذا الكتاب حين نشر فى مجلة «رسالة الإسلام» فى مايو سنة ١٩٥١ مقالاً نقد فيه ما ذكره فى كتابه فقال: «فقد زعم الطاعنون أنى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا، أما أنا فقد رددت بأنى لم أقل ذلك مطلقاً، لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره».

ثم يقول: وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لسانى يومئذ ولم أرد معناها، ولم يكن يخطر لى ببال، بل لعله الشيطان ألقى فى حديثى (أى: حديثه مع د. أحمد أمين) بتلك الكلمة ليعيدها جذعة تلك الملحمة التى كانت حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، والتى أشرت إليها آنفاً، وللشيطان أحياناً كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس (انظر: الإسلام والسياسة د. محمد عمارة ص ١٢٠ - ١٢٢، طبعة دار السلام، ط١، ٢٠٠٤م).

وهم أيضاً يتحدثون عن الشيخ خالد محمد خالد وكتابه «من هنا نبدأ» ويتعامون عن كتابه بعد ذلك «دين ودولة» ويكفى أن أشير فى هذا إلى المقال الضافى الذى كتبه د. محمد رجب البيومى فى مجلة «الهلال» فى يوليو سنة ٢٠٠٤م. وقد ذكر فيه أمثلة كثيرة لتحولات المفكرين وفيئهم إلى رحاب الإسلام، أمثال: طه حسين، ومنصور فهمى، ومحمد حسين هيكل، ومصطفى محمود وغيرهم.

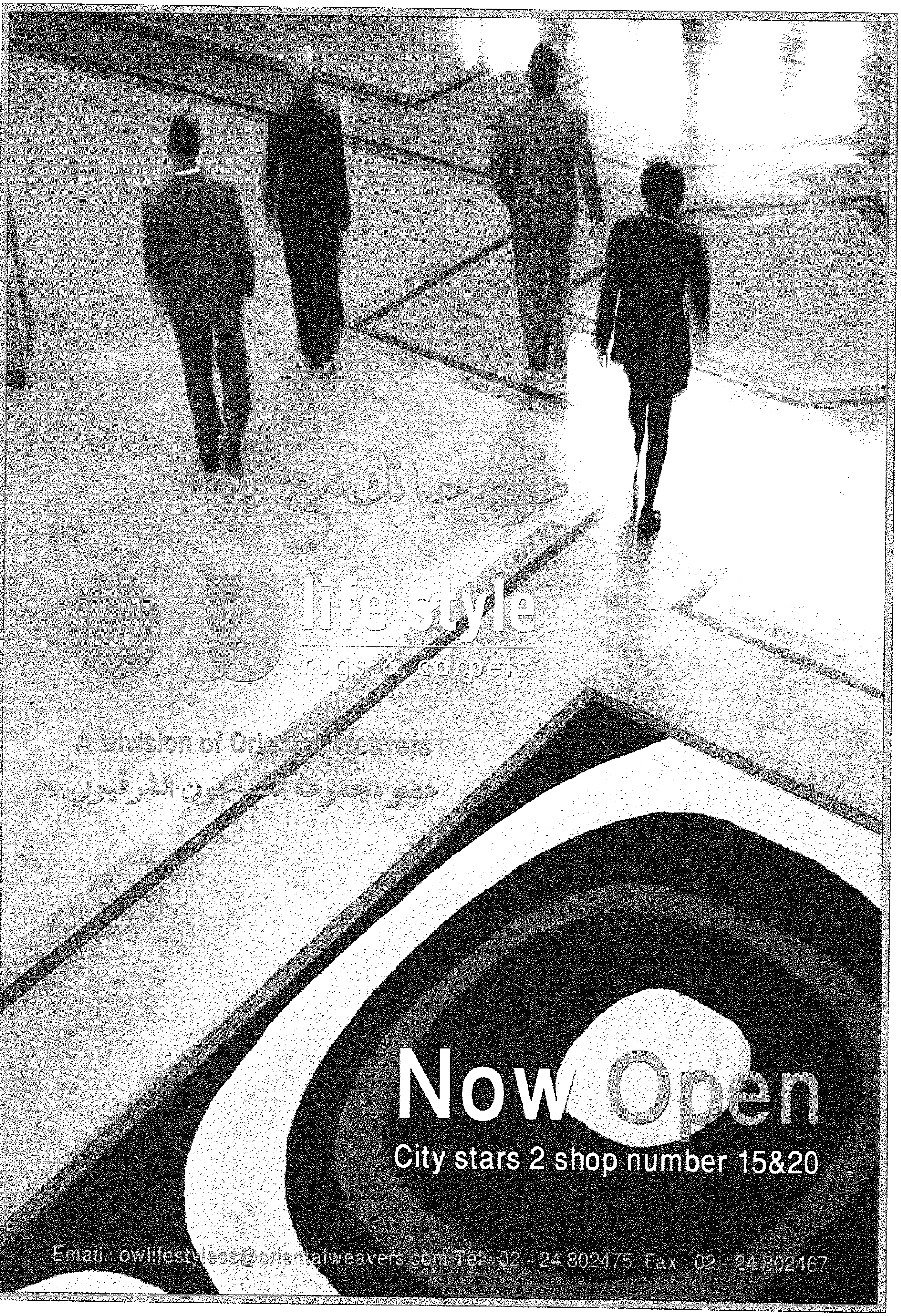
وقد سار د. عصفور على ذات المنهج حين ذكر حديث الإمام محمد عبده عن أن «الإسلام هدم بناء السلطة الدينية، ولم يدع لأحد بعد الله سلطاناً على عقائد الناس»، وتغافل فى الوقت نفسه عن كلام الإمام محمد عبده الذى يدعو فيه إلى تحكيم الإسلام فى دنيا الناس، لأن فيه مصلحتهم العاجلة والآجلة، يقول الإمام محمد عبده: «إن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً».

رابعاً: أكد د. عصفور فى مساءلته عدم تمايز الإسلام عن غيره من الأديان، لأنها حسب رأيه «كلها تقوم على الهدايات العامة والأحكام الكلية التى لا يمكن التفريط فيها.. ولا تتناقض فيما بينها، بل تتآزر وتتداعم، فتغدو مصدراً لا غنى عن استلهامه فى التشريعات المدنية».

وهذا الذى يطرحه د. عصفور عن علاقة الإسلام بغيره من الأديان، خاصة فى ناحية التشريع والأحكام، أراه يأتى فى إطار أوسع وهو مغازلة الأقباط، واللعب بورقة الأقليات، والتلويح بفزاعة الإخوان والإسلاميين، لأنه كلام فى السياسة أكثر منه فى الدين أو القانون! وهو لا يقف أمام التمحيص العلمى، والمعرفة العميقة بحقيقة الأديان، ومنزلتها بعضها من بعض.

الإسلام.. قد جاء مُصَدِّقًا لما بين يديه من الكتب والرسالات، وجاء أيضاً - وهذا هو الذى يتجاهل ويتغافل - مهيمناً عليها، وناسخاً لأحكامها إلا فيما دلت النصوص على بقاء حكمه، ووجوب العمل به، قال الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهيمناً عليه..» (المائدة: ٤٨).

السنوسى محمد السنوسى
باحث إسلامى



طور حياتك مع
life style
rugs & carpets
A Division of Oriental Weavers
عضو مجموعة النساجون الشرقيون
Now Open
City stars 2 shop number 15&20
Email : owlifestylecs@orientalweavers.com Tel : 02 - 24 802475 Fax : 02 - 24 802467

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 105 - October 2007

مجلة شهرية . العدد المائة وخمسة . السنة التاسعة . أكتوبر ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

المسكوت عنه فى قضايا الصحافة

- أوروبا : هل تصبح إسلامية؟
- الأمريكان : كيف يبيعون حروبهم؟!
- الصور : ألبوم التاريخ .. يوميات مقدسية
- حكايا اللطائف والقطائف




مما جرى في بر مصر
يوسف الشريف
عبد الرحمن الكواكبي
طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
د. محمد عمارة
مذكرات
عريان يوسف سعد
تاريخ الاستشراق وسياساته
الصراع على تفسير الشرق الأوسط
زكاري لوكمان
علاء الأسواني
شيكاجو
محمد سلماوي
نجيب محفوظ
المحطة الأخيرة
نجيب محفوظ
أولاد حارتنا
جلال أمين
ماذا علمتني الحياة؟
سيرة ذاتية
خالد الخميسي
تاكسي
حواديت المشاوير
بهاء طاهر
واحة الغروب
رواية
الآتي
محاضرات
أحمد زويل
الزمن
في النظام السياسي للدولة الإسلامية
د. محمد سليم العوا
محمد حسنين هيكل
مدافع آية الله
قصة إيران والثورة
ستون عاما من الصراع في الشرق الأوسط
شهادات للتاريخ
بطرس بطرس غالي و شيمون بيريز
الكبد
الدليل المتكامل للكبد
الأمراض - التشخيص - العلاج


لأننا دائماً نهتم بالإحتياجات الحقيقية
لعملائنا وصلنا بثقتكم لأكثر من
مشـــترك
موبينيل
اتكلم من القلب

السنة التاسعة
العدد المائة وخمسة
أكتوبر ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- تانيا راينهارت.. عالمة لغويات إسرائيلية ومن نشطاء حركة السلام.
- تيموثي جارتون آش.. أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة أكسفورد.
- جيفري سانت كلير.. صحفي وكاتب ومحرر نشرة Counterpunch السياسية.
- حسام تمام.. باحث مصري.
- خالد الخميسي.. روائي مصري.
- راسل بيكر.. كاتب أمريكي حاصل على جائزة بوليتزر.
- زكاري لوكمان.. أستاذ تاريخ الشرق الأوسط الحديث بجامعة نيويورك.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- عصام نصار.. أستاذ التاريخ ومدير مشارك في مؤسسة الدراسات المقدسية.
- كمال حبيب.. متخصص في الشئون التركية.
- محمد معوض النجار.. كاتب مصري.
- معتز الخطيب.. كاتب وباحث من سوريا ومدير تحرير الملتقى الفكري للإبداع.
- منار الشوربجي.. باحثة متخصصة في الشئون الأمريكية.
- هاشم النحاس.. ناقد سينمائي.
- هشام الحمامي.. باحث في شئون الحركات الإسلامية.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي - Daryl Cagle, Riber Hansson

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نون

سلامة أحمد سلامة

حصاد صيف ساخن

العالم من بعيد يبدو أكثر اختلافًا مما يتصور الكثيرون.. تترتب أولوياته بحسب اهتمامات أبعد ما تكون عن اهتماماتنا. ونقف نحن بالنسبة إليه فى أسفل سلم من الأولويات، ما نفتأ ننزلق إلى ما دونها، حتى لا يبقى من العالم العربى والشرق الأوسط غير الجانب المظلم، الذى يثير الإشفاق أحيانًا ويثير الخوف معظم الأحيان. وبمجرد أن يخرج المواطن العربى من الحدود الجغرافية والسياسية التى تحاصره، تتكشف أمام عينيه ضآلة عالمه الذى يلاحقه ليل نهار، واتساع المسافة التى تفصل بينه وبين العالم المتقدم أو بينه وبين الآخرين.

وهم يقولون إن العالم تغير بعد سبتمبر إلى نوع من المواجهة بين الإرهاب والعالم المتحضر، ولكنه فى الواقع تغير إلى مواجهة بين الغرب وكل ما يخالفه من مسلمات وقيم وطرائق للتفكير والسلوك.. تركزت بشكل واضح فى العالم العربى والشرق الأوسط والعالم الإسلامى، ولكنه لم يستبعد مناطق أخرى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، مازال ينظر إليها باعتبارها مجالاً للمواجهة فى المستقبل المنظور، حتى وإن بدا فى تعامله مع روسيا والصين والهند والبرازيل أنه أكثر استعدادًا للمواءمة والمساومة والقبول. ولكن يبقى الإرهاب والقضاء عليه هو شعار القرن الواحد والعشرين. وأن توضع تحت عباءته أشكال مختلفة من الأفكار والأنشطة والمرجعيات التى ستتوالد بفعل صراعات وقوى جديدة مع تقدم القرن، لن تستسلم بسهولة لمنطق القوة العظمى الوحيدة فى العالم.

ومن الثابت أن التحول الجذرى الذى طرأ على موقف أوروبا، بعد حربين طاحنتين ضد دولتين إحداهما من أفقر دول العالم هى أفغانستان، والثانية من أغنى دول العالم بالثروة النفطية وهى العراق. ولكنهما تنتميان إلى العالم الثالث. قد جاء نتيجة اقتناع غربى عام بأن إخضاع الشعوب فى هذه الدول وإدخالها فى زمرة القيم والمصالح الغربية لن يتم بالسهولة المتوقعة وسوف يواجه بمقاومة عنيفة تستدعى وحدة الصف بين أمريكا وأوروبا، وتجميع الجهود والسياسات لقمع قوى التمرد والثورة التى تسعى للخروج على هيمنة النظام العالمى بقيادة الغرب.

ويمكن القول إن الخلاف الذى ظهر فى صفوف الغرب بين أمريكا من ناحية، وأوروبا من ناحية أخرى بسبب حرب العراق، قد تم رأب الصدوع التى نجمت عنه، والتى أدت إلى بعض التباينات فى المواقف التى عارضت حرب العراق. ونحن نشهد الآن تنسيقًا أوسع نطاقًا بين الدول الأوروبية وأمريكا فى أفغانستان، يلعب فيه حلف الأطلنطى دورًا رئيسيًا.. ليس لمساعدة أمريكا على تحقيق أهدافها فى أفغانستان ولكن لمنع حدوث انهيار غربى وهزيمة محققة لجيوش الأطلنطى فى مواجهة طالبان، أو بعبارة أخرى هزيمة للغرب فى مواجهة قوى التمرد الإسلامية التى أعادت بناء نفسها وانتشارها، كما نشهد تعاونًا أوروبيًا أمريكيًا - تقوده فرنسا ساركوزى لمساعدة القوات الأمريكية على الخروج من العراق بأقل الخسائر الممكنة.. سياسيًا وعالميًا.

وقد كان من أهم مظاهر التغيير التى حدثت وساعدت على التقارب وإعادة بناء التحالف الأطلنطى على أسس جديدة، تستبعد الانفراد الأمريكى بالقرار، ذهاب التيارات السياسية التى أسهمت فى توسيع الهوة بين الطرفين، بخروج شرودر وشيراك وتونى بلير وبرلسكونى، ومجىء قيادات أوروبية تدرك أهمية الشراكة الأوروبية الأطلنطية، ليس فقط فى مواجهة قوى التمرد الهائمة عالميًا، ولكن أيضًا فى مواجهة أخطار التمرد الروسى والعملقة الصينية وانفلات مخاطر الانتشار النووى الذى تقوده إيران.. وكلها كانت من أخطر التطورات التى شهدها العالم فى سنوات ولاية بوش وخلافاته مع أوروبا. ولذلك لم يكن غريبًا أن تتساقط من إدارة بوش معظم الشخصيات التى رسمت ونفذت سياسة اليمين الأمريكى الجديد، وتسببت فى إضعاف أمريكا وهزيمة معظم مخططاتها. فلم يبق من غلاة اليمين فى إدارة بوش غير نائبه تشينى، بينما ذهب فيث وولفوفيتز وعدد كبير من مساعدى الرئيس وأقرب مستشاريه فى البيت الأبيض وعلى رأسهم دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى السابق الذى لعبت سياساته دورًا أساسيًا فى إغراق أمريكا فى وحل العراق.

ولكى تكتمل أركان الصورة البانورامية لمظاهر التغيير، فلابد أن ننتبه إلى ما طرأ على العلاقات الغربية من تحولات تبدو طفيفة فى ظاهرها، ولكنها بالغة العمق والدلالة، إزاء كل من الصين وروسيا. إذ تعمل روسيا بوتين على ملء الفراغ السياسى الذى أحس به العالم نتيجة انهيار الاتحاد السوفيتى. وقد انعكس ذلك فى موقفها الحاسم من معارضة نشر الصواريخ الأمريكية فى أوروبا الشرقية - بولندا والتشيك - وهددت باتخاذ إجراءات مضادة إذا واصلت أمريكا محاولاتها. وأحدثت هذه القضية انقساماً داخل التحالف الأطلنطى هدد بإعادة أجواء الحرب الباردة فى أوروبا. وبدا واضحًا أن على أوروبا أن توازن بين مصالحها فى علاقات سياسية واقتصادية مستقرة مع روسيا، وبين الانجراف وراء سياسات دفاعية استفزازية لا جدوى منها غير إثبات الهيمنة الأمريكية العالمية. وتلعب روسيا بعدة أوراق مهمة فى هذا الصدد.. من بينها سيطرتها على نسبة كبيرة من مصادر الطاقة والغاز التى تعتمد عليها أوروبا. واحتفاظها بعلاقات ودية متوازنة مع إيران مكنتها من امتلاك أوراق عديدة، ليس فقط فى الملف النووى الإيرانى، ولكن أيضًا فى التأثير على مجريات الأمور فى الشرق الأوسط.

ولا يمكن فى هذا الإطار إغفال الظهور المثير للصين كقوة عظمى منافسة، نجحت فى كسر الحواجز الاقتصادية على مستوى العالم وأصبحت تمثل شبحًا مخيفًا يصعب الإمساك بأطرافه سياسيًا واقتصاديًا، بل وعسكريًا. إذ لم يعد النمو الاقتصادى المذهل للتنين الصينى الذى أغرق أسواق أوروبا والعالم بمنتجات صناعية وسلع استهلاكية كانت حكرًا على الغرب، هو الذى يثير المخاوف من المنافسة الشرسة للاقتصاد الصينى واستيلائه على الأسواق العالمية، ولكن اختناق الصين تحت وطأة نموها الاقتصادى المتسارع يثير قلق الغرب من الأضرار البيئية الجسيمة

نحن نشهد الآن تنسيقًا أوسع نطاقًا بين الدول الأوروبية وأمريكا في أفغانستان، يلعب فيه حلف الأطلنطي دورا رئيسيا.. ليس لمساعدة أمريكا على تحقيق أهدافها في أفغانستان ولكن لمنع حدوث انهيار غربي وهزيمة محققة لجيوش الأطلنطي في مواجهة طالبان

التى تنطوى على مخاطر تدميرية على الشعب الصينى نفسه، وبين الخوف من الطغيان الصينى الجارف على الغرب ومصالحه، والحرص على ألا تبقى الصين خارج الضوابط والمعايير العالمية سواء فى إنتاجها الصناعى أو فيما تفرزه من أضرار بيئية أو فى الالتزام بالقيم السائدة للحريات وحقوق الإنسان.. تظل العلاقات بين الغرب والصين فى منطقة حرجة متأرجحة يصعب التنبؤ باحتمالاتها أو ضبط إيقاعها.

وهذه الحقيقة هى التى تعطى للصين قوتها غير المحدودة، والتى ثبت تأثيرها فى حل مشكلة الملف النووى الكورى، وعندما تنعقد دورة الألعاب الأوليمبية القادمة فى بكين، وتثبت الصين قدرتها على تنظيم هذا الحدث العالمى بنفس الدرجة من الإتقان والروعة والإخراج التى تميزت بها عواصم الغرب، مع أكبر عدد من الميداليات الذهبية، فسوف تتبوأ الصين مقعدها كقوة عالمية كبرى معترف بها فى المحافل الدولية التى ظلت مغلقة فى وجهها ومقصورة على الثمانية الكبار.

لم تكن شهور الصيف الحارقة التى أفصحت بشدة عن تفاقم ظاهرة الاحتباس الحرارى وما أشعلته من حرائق وتسببت فيه من عواصف وفيضانات فى الغرب غير الوجه الجغرافى للتغيير المناخى الذى أصاب العالم فى صورته الراهنة. أما الوجه السياسى فقد عبرت عنه ثلاث صور متباينة لأحداث وقعت فى مناطق النفوذ الغربى، وكلها تحمل دلالات وإرهاصات ذات مغزى:

أولها وأكثرها دلالة، ولا يمكن فصلها عما يحدث فى العراق، هو الهزيمة التى أنزلتها طالبان بالغرب، حين أجبرت كوريا الجنوبية على اتخاذ قرارات صعبة تراجعت فيها عن السياسات الغربية الثابتة فى التعامل مع طالبان فى أفغانستان مقابل الإفراج عن أكثر من عشرين فتاة ورجلاً كوريين سقطوا أسرى فى يد طالبان. وقد استجابت كوريا الجنوبية لشروط طالبان فوعدت بسحب قواتها من أفغانستان مع نهاية العام، وتعهدت بعدم إرسال بعثات تبشيرية إلى الأراضى الأفغانية، ودفعت دية تقدر بعشرين مليون دولار لقوات طالبان.

وقد دأبت السياسات الغربية، سواء فى العراق أو أفغانستان، أو حتى مع إسرائيل على عدم الاستجابة أو التغاضى عن الشروط التى تفرضها الجهة الخاطفة، بدعوى عدم التسليم بشرعيتها، وهو وضع معكوس دوليًا وإنسانيًا، ففى كل هذه الحالات تقوم حالة حرب عدوانية من قوى أجنبية تحتل أراضى دول وشعوب أخرى تدافع عن حقوقها وحرياتها. وتحت ذرائع مختلفة كالحرب ضد الإرهاب أو الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان وتقدم المرأة، تتكاتف قوى دولية طامعة فى ثروات هذه الشعوب، لإخضاعها وابتزازها واستغلالها.

ويبدو تناقض المشهد الغربى ونفاق قيمه السائدة التى تحارب التعصب الدينى لجماعات طالبان والقاعدة، من حادث اختطاف الرهائن الكوريين الذين يمثلون بعثات تبشيرية أرسلتها الكنائس الإنجيلية للتبشير بالدين المسيحى بين القبائل الأفغانية التى عرفت تاريخيًا بتعصبها للإسلام.. فى خضم حرب دامية لم تتوقف منذ ست سنوات. وهو ما أوقع الإعلام الغربى فى تناقض بين الدفاع عن إطلاق سراح المختطفين ومعظمهم من النساء، وبين الأنشطة المشبوهة للكنائس الإنجيلية فى مناطق المنازعات والحروب.

أما الصورة الثانية والتى كانت بمثابة لطمة لتيار غربى سائد، يجد له أنصارًا فى عالمنا العربى، يخلط بين الدين والسياسة ويستبعد عن الفكر الإسلامى والحضارة التى قامت عليه القدرة على إقامة نظام حكم رشيد يواكب الحداثة، ويقوم على الديمقراطية واحترام الحريات والقيم الإنسانية.. فقد وقعت تفاصيلها فى تركيا، حين نجح حزب العدالة والتنمية - ذو التوجهات الإسلامية - فى فوز مرشحه بمنصب رئيس الجمهورية فى انتخابات نزيهة لا مطعن عليها، وبعد جهود مضنية بذلتها قوى المعارضة العلمانية المؤيدة من الغرب الذى يخفى تعصبه الدينى وراء أقنعة زائفة من الدفاع عن حرية الرأى والعقيدة، والفصل بين الكنيسة والدولة، وبين الدين والسياسة.. وكلها صياغات لفظية تفتقر إلى الممارسة الصحيحة على أرض الواقع.

فلا يوجد فى حقيقة الأمر سبب يدعو الجيش التركى إلى الاستناد فى الدفاع عن الكمالية والكماليين وادعاء العلمانية، غير الإصرار على الإبقاء على نفوذه فى الحياة السياسية التركية وتفصيل الديمقراطية على مقاس البذلة العسكرية التى تتمتع بامتيازات هائلة لا مثيل لها فى الدول الديمقراطية عمومًا.

وعلى الرغم من أن سنوات حكم حزب العدالة والتنمية لم تشهد ممارسات توحى بأن الحزب سوف يعود بتركيا إلى نظام الخلافة الإسلامية، أو أن رجال الدين وعلماءه هم الذين سيتولون حكم البلاد، أو أن الانتخابات النزيهة سوف تكون لمرة واحدة وتنتهى حقبة الديمقراطية التركية، إلا أن الحملات على الحزب ومرشحه عبدالله جول وماضيه القديم كعضو فى حزب الرفاه الإسلامى، لم تتوقف.. لا من جانب القوى والأحزاب السياسية التركية، ولا من جانب السياسيين الأوروبيين والإعلام الغربى، الذى وجد فى زوجة عبدالله جول وغطاء رأسها وملابسها المحتشمة سببًا كافيًا لقرب سقوط تركيا فى زمرة الأنظمة الدينية المرجعية التى تجتاح الشرق الأوسط والعالم الإسلامى.. ومن ثم المبرر الذى يضمن تعطيل قبول عضويتها الكاملة فى الاتحاد الأوروبى.. وهو الاتجاه الذى يقوده ساركوزى حتى لا تحصل تركيا إلا على عضوية ناقصة لأنها لا تنتمى إلى الحضارة المسيحية الأوروبية!! وهذا الاتجاه الذى تقوده فرنسا تسايرها فيه معظم الدول الأوروبية باستثناء بريطانيا وبعض أحزاب هنا وهناك - وهو ما يلقى الضوء على أسباب فشل حوار الحضارات أو حوار الأديان، تلك المقولة الزائفة التى تتعلق بها كثير من الجهود والمحاولات الضائعة بين العرب وأوروبا بين وقت وآخر.

غير أن هذه الصورة قد تعنى بالنسبة للدول العربية والإسلامية، شيئًا مختلفًا تمامًا عما تعنيه بالنسبة لأوروبا والغرب. فهى إذا كانت تعنى بالنسبة لأوروبا بداية حقبة جديدة فى

إذا كانت تعنى بالنسبة لأوروبا بداية حقبة جديدة فى التعامل مع تركيا، إلا أنها تعنى بالنسبة للدول العربية والإسلامية إحباطًا لأنظمة حكم عاجزة ومرتعشة من نفوذ التيارات الإسلامية المتنامية، وفشلاً فى مواجهة المستقبل

التعامل مع تركيا، إلا أنها تعنى بالنسبة للدول العربية والإسلامية إحباطًا لأنظمة حكم عاجزة ومرتعشة من نفوذ التيارات الإسلامية المتنامية، وفشلاً فى مواجهة المستقبل.

ولا يكتمل المشهد إلا بصورة ثالثة، تعكس استمرار حالة التوتر وصعوبة الاندماج داخل معظم المجتمعات الأوروبية إزاء التجمعات المقيمة والوافدة من المهاجرين ذوى الأصول الإسلامية والآسيوية والأفريقية.. فلا يكاد يمضى يوم إلا وتقع فيه حادثة اعتداء عنصرى على مواطنين من أصول غير أوروبية، تقع على عاتقهم أقل الأعمال شأنًا وأكثرها أهمية فى نفس الوقت مثل أعمال النظافة والخدمة فى المطاعم وغيرها من الأعمال الخشنة فى مجتمعات الرفاهية، التى تأنف من هذه الخدمات وتتركها للقادمين من وراء البحار.. مع العلم بأن معظم المجتمعات الأوروبية باتت تعانى من الشيخوخة بسبب انخفاض نسبة المواليد، وأصبحت نظمها الاجتماعية الخاصة بالتأمينات والمعاشات تعتمد على ما ينضم إليها من أيد عاملة مهاجرة أو من الأجيال الثانية والثالثة لأبناء المهاجرين.

ولا يقدم الإعلام الغربى المتحامل على الأجانب عمومًا تفسيرًا لهذه الحوادث العنصرية، التى لا يعتبر اختلاف الدين والجنس هو سببها الوحيد، فحين تعرض ثمانية من الهنود لضرب مبرح فى إحدى المدن الألمانية الصغيرة من جانب عصابة من الشباب والنساء المنتمين لتنظيم نازى، لم تنجح الشرطة فى القبض على أحد أو تقديم المعتدين للمحاكمة، وبدا من تفسير الإعلام الألمانى للحادث أن مجرد تجمع الشباب الهندى فى مقهى كان مثيرًا ومستفزًا للمشاعر.. وهى ظاهرة سيكولوجية معروفة، فالغريب الذى لا تفهم لغته أو عاداته أو سلوكه يظل مصدرًا للتوجس والريبة.

وتشجع المنافسات السياسية والحزبية على المستوى المحلى فى مواسم الانتخابات على ظهور مثل هذه النعرات الطائفية العنصرية.. وتنبثق عنها بالتالى أفكار وتشريعات تستجيب لمشاعر البورجوازيات الصغيرة المعادية للأجانب، تسعى لمنع الشعارات والملابس التى قد تميزهم. ولم تكن مشكلة الحجاب وغطاء الرأس بالنسبة للفتيات المسلمات غير جانب منها، وقد استقرت هذه التشريعات والممارسات فى معظم الدول الأوروبية، على اعتبار أن ارتداء الشعارات الدينية مثل غطاء الرأس أو الصليب أو الطاقية اليهودية فى الأماكن العامة والمبانى الحكومية يعد انتهاكًا لحيادية الدولة واستقلاليتها، وعلى الأخص بالنسبة للمدرسين والقضاة والشرطة والموظفين العموميين.

ومع ازدياد أعداد المهاجرين من دول إسلامية لأوروبا برزت هذا الصيف بشكل خاص مشكلة بناء المساجد.. التى يمارس فيها المسلمون شعائرهم الدينية، إعمالاً لحرية العقيدة التى تنص عليها مواثيق الاتحاد الأوروبى. وقد فجرت مشاكل وصدامات حادة فى الإدارات المحلية لمدن عديدة فى إيطاليا وألمانيا واليونان.. عارضت السلطات فيها بناء المساجد لأسباب ملفقة: إما بسبب طول المئذنة، أو غرابة الشكل المعمارى للمسجد فى البيئة المحيطة به، أو ضخامة البناء عن الحد المعتاد مقارنة بدور العبادة الأخرى.

من المؤكد أن العالم العربى والإسلامى فقد فى غمرة هذه التطورات كثيرًا من أرصدته السياسية وأهميته لدى الغرب، وبينما كانت أوروبا أكثر تفهمًا وقربًا من مشاكل الشرق الأوسط والتحولات الفكرية والثقافية فى العالم الإسلامى، وأكثر إنصافًا فى بواتقها من تعقيدات المنطقة والصراع العربى الإسرائيلى، فإن عجز العالم العربى عن النهوض الذاتى وحل مشاكل التخلف التى تعرقل مسيرته، أدى إلى ما يمكن اعتباره تراجعًا فى درجة الاهتمام والمساندة من جانب أوروبا الغربية. والثابت أن الشعوب التى لا تستطيع أن تساعد نفسها سرعان ما ينصرف الآخرون عن مساعدتها.. وهذه هى حالة العالم العربى الراهنة، الذى تلتف مشاكله حول عنقه وتضغط عليه إلى درجة الاختناق وافتقاد البوصلة والهدف.

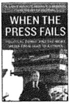
لقد أصبح الخطر الحقيقى الذى يهدد العلاقة بين العالم العربى وأوروبا، هو النظر إليه باعتباره عبئًا ثقيلاً ومصدرًا للمتاعب والأخطار التى تمس أمن أوروبا وتعرقل مسيرتها نحو التكامل والاتحاد.. ويضاعف من هذا الشعور الاقتناع بفشل معظم مشروعات التقارب والتعاون الأوروبى المتوسطى والعربى، أو على الأقل هزال الناتج السياسى والاقتصادى منها. وقد أصبح على الأوروبيين فى كثير من المواقف أن يقارنوا بين الخسائر التى تنجم عن مساندة العالم العربى الإسلامى، فى مقابل الفوائد الناجمة عن مسايرة السياسات الأمريكية، رغم ما يكتنفها من مغامرات ومخاطر وانفراد بالرأى.

وربما كان من أهم ما أسفرت عنه تطورات هذا الصيف، والتى انعكست ملامحها فى الصور الثلاث السابقة، هو ازدياد التورط الأوروبى فى المشاكل الناجمة عن مغامرات اليمين الأمريكى وما جره من حروب وصراعات دامية فى مناطق مختلفة من العالم تدور معظمها فى الشرق الأوسط: فى العراق ولبنان وفلسطين، ثم فى دارفور وقبل ذلك فى أفغانستان. وفى كل هذه الأزمات تنغمس الأصابع والمصالح الأوروبية وتشتبك بشدة مع المصالح الأمريكية، حيث يجرى التنسيق بين الطرفين، دون اعتبار أو وزن للمصالح العربية.

وعلى الرغم من أن حكومات أوروبا تواجه مشكلة فى التغلب على معارضة شعوبها للتورط العسكرى الأوروبى فى أفغانستان وفى غيرها من مناطق الأزمات، إلا أنها لا تكف عن إثارة مخاوف الرأى العام من تعرض الأمن الأوروبى لمخاطر الإرهاب الإسلامى.. وهى تتخذ من مخاطر الإرهاب الذى لا يمر يوم دون اعتقال مشتبهين بتهمة التدبير لعمليات تخريبية ضد أهداف أمريكية أو عسكرية، ذريعة لتشديد الإجراءات الأمنية وتبرير إرسال قوات لمكافحة القاعدة أو طالبان فى أفغانستان وغيرها.. باعتبار هذه الخلايا والجهات مصدرًا لخطر داهم يهدد أمن واستقرار أوروبا.

لن يكون هذا الصيف على الأرجح هو الأسوأ فى عام حافل بالأزمات، فالقادم هو الأسوأ بكل الحسابات والتوقعات. ■





تهددها قوانين السوق..

GOOD BYE NEWSPAPERS

راسل بيكر

فى عهد الناشرين القدامى، كانت قدرة الجريدة على تحقيق الأرباح مجرد جزء من قيمتها. أما اليوم، فهى كل شىء

[١]

لقد وقعت الصحافة الأمريكية فى أسر الاكتئاب. إذ أكدت لها العديد والعديد من أشكال السلطة أن أيامها معدودة كما تقوضت أبنية الكثير والكثير من الصحف

When The Press Fails: Political Power and the New Media from Iraq to Katrina
(عندما تخفق الصحافة: النفوذ السياسى ووسائل الإعلام الحديثة من العراق حتى كاترينا)
by: W. Lance Bennett, Regina G. Lawrence, and Steven Linvingston
University of Chicago Press, 263PP., $22.50

American Carnival: Journalism Under Siege in an Age of New Media
(المهرجان الأمريكى: الصحافة تحت الحصار فى عصر وسائل الإعلام الحديثة)
by: Neil Henry
University of California Press, 326PP., $24.95

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

فى الوقت الذى تبدو فيه الصحافة المصرية محاصرة وسط ترسانة من قوانين بالية، وسياسات غائبة ومهنية مفتقدة، ورغبات جامحة تحاول العودة بها إلى المربع رقم١. وفى حين مازلنا فى مصر «الرائدة فى عالمها العربى» نناقش قضايا حرية الصحافة ومسئوليتها، والتى باتت بدهية فى عالمنا المعاصر منذ زمن بعيد، تجد قضايا «أخرى» فى مجتمعات «أخرى» طريقها إلى طاولة النقاش والحوار. ولكنها، ولسبب يعود أساسًا إلى ثقافة مجتمعية «ترسخت» يكون النقاش و«الحوار» أيضًا «مختلفًا».

قبل أسابيع ثارت ضجة كبرى فى المجتمع الصحفى «هناك» عندما أقدم روبرت مردوك ديناصور الصحافة الأمريكى. الأسترالى الأصل على شراء صحيفة وول ستريت جورنال Wall Street Journal الأمريكية العريقة مقابل ٥ مليارات دولار، ورغم أن عملية الشراء كانت «قانونية» تمامًا، إلا أن العاصفة التى ثارت فى وجه الصفقة ربطتها فى نهاية المطاف بتعهد من المالك الجديد باحترام استقلالية الصحيفة والصحفيين.

القضية اختارتها الدورية الرصينة New York Review of Books لتناقشها تحت عنوان «معبر» رأينا الاحتفاظ به.

المحـــرر

الجيدة. فقدت الصحافة الأمريكية الكثير من احترام الجمهور. أما قاعات المحاكم - التى تعاملت معها ذات يوم شأنها شأن نمر يغط فى النوم - فتوبخها الآن بمذكرات استدعاء لا تخلو من وقاحة وتزج فى السجون بمراسلين يأبون التعاون مع النائب العام. ترميها برامج الراديو الحوارية ومدونات الإنترنت بالشتائم بلا هوادة. يتنمر عليها الآخرون بسهولة فتذعن لمخططات ترسمها ماكينة دعاية رئاسية تصمم على التحكم فى الأخبار.

يستنزف الإنترنت إعلاناتها ودوائر توزيعها ويبدو أن ملاكها ألم بهم إفلاس فى ملكة الخيال الضرورية لتحقيق الازدهار فى العصر الإلكترونى. لقد كشفت استطلاعات الرأى أن المزيد والمزيد من الشباب يطلعون على الأخبار من أجهزة التليفزيون والكمبيوتر مما أوجد شعوراً كئيباً بأن الصحافة صارت وسيلة من وسائل الماضى بل صارت عربة يجرها حصان بطريق سريع من ثمانية مسارات.

ثم هناك مواطن الإحراج: صحفيون مخادعون من أمثال جيسون بلير وستيفين جلاس يحولون الصحافة إلى مهزلة بينما تقع نخبة الصحفيين المتابعين لأخبار واشنطن فريسة الخداع بغرض معاونة دائرة من متآمرى المحافظين الجدد لشن الحرب على العراق. ماذا جرى للأبطال؟ لقد اعتاد الصحفيون ألا يكفوا عن الحديث عن مآثر بوب وودورد وكارل



بيرنستاين أثناء ووترجيت؛ وهالبيرستام ونيل شيهان ومالكوم براون فى فيتنام؛ وبانش سالزبيرجر وكيه جرام وهما يخاطران بكل ما يمتلكان لنشر وثائق البنتاجون. وبدلاً من الأبطال، يدور الحديث اليوم حول عمليات الاحتيال بين الصحفيين وصحافة تغطى أخبار واشنطون تغطية ضعيفة لا تحول دون أن تتجنب ألعاب القمار.

لا شك أن روبرت موردوك قد بث الانقباض طويلاً فى وسائل الإعلام حول العالم إلا أن الإعلان فى مايو عن استعداد عائلة بانكروفت مالكة ذا وول ستريت جورنال لبيع جريدتها لموردوك مقابل خمسة مليارات دولار سدد إلى الصحافة ضربة موجعة بحق. لقد ألفنا بيع الجرائد فى هذه الأيام بيد أن ذا وول ستريت جورنال ليست مجرد جريدة ككل الجرائد. إنها واحدة من أكثر دعائم الصحافة الأمريكية افتخاراً. وكما هو الحال مع ذا نيو يورك تايمز وذا واشنطون بوست، هيمنت عليها ذرية رجل أسسها منذ أجيال طويلة.

لقد شكلت هيمنة العائلات على الجرائد الثلاث حماية من متطلبات سوق المال الملحة مما سمح لها بإصدار مطبوعات ذات جودة محترمة وتكلفة عالية. وقد قيل - وهو الاعتقاد السائد - إن العائلات المسيطرة يدفعها إحساس نبيل بأن جرائدها بمثابة مؤسسات شبه عامة. لا ريب أن الربح شكل عاملاً حيوياً لبقائها لكنه لم يكن الهدف الأساسى. أما أن تأخذ واحدة من هذه العائلات الأموال فى النهاية لتتنحى جانباً فهذا يضاعف من حجم المخاوف القائلة بعدم وجود جريدة قيمة لا يمكن بيعها فى السوق لقاء ثمن ملائم. إن وجود موردوك فى ذا وول ستريت جورنال يمثل نذيراً مظلماً للصحفيين فى كل مكان. فحينما تصرح اللافتة المعلقة على نافذة المتجر بأن «كل شىء للبيع»، غالباً ما تتبعها عبارة «سوف يغلق المتجر أبوابه».

ثمة كتابات متزايدة حول تعدد مشكلات الصحافة غير أن أغلبها معنى بالجانب التحريرى من المهنة، ربما لأن معظم القادرين على الكتابة عن الصحافة لا يرتاحون للكتابة عن الموارد المالية. ومع ذلك تتركز أخطر المشاكل فى جانبى الملكية والإدارة. إن أفضل المناقشات حول مشاكل مجالس الإدارات ومكاتب الأعمال يكتبها فى الصفحات المالية والخطب المالية صحفيون يشغلون وظائف إدارية بالجرائد. ألقى جون إس. كارول - المحرر السابق بجريدة لوس أنجلوس تايمز - خطبة واسعة الانتشار بين المشتغلين فى الصحافة أمام الجمعية الأمريكية لمحررى الجرائد منذ سنة مضت. وقد كانت تعبيراً يتسم بالبلاغة عما يساور المراسلين والمحررين فى الوقت الحالى من قلق بشأن المستقبل. اختار كارول لخطبته عنوان «ماذا سيحل بالجرائد؟»، وكما يدل العنوان لم يكن تقديره لما قد يطرأ فى المستقبل مفعماً بالبهجة.

لقد تولاه الانزعاج من انهيار التفاهم بين مالكى الجرائد والعاملين من الصحفيين ومن فقدان ما جمع بينهما يوماً ما من هدف مشترك. وقد طرأ هذا، على حد قوله، من جراء استيلاء المدراء الماليين بسوق المال على مهام اضطلع بها فى الماضى ناشرون أكفاء. بدأ الانهيار من القمة منذ أربعين عاماً حينما طفق الملاك المحليون يبيعون جرائدهم للشركات. ومع تغير طبيعة الأسواق، انتقلت السلطة من الشركات إلى صناديق الاستثمار التى تجنى الأرباح من خلال استثمار أموال الآخرين بأساليب تجعلها تتضاعف، فصار من العسير تحديد ملاك الجريدة. لم يعد الملاك «بشراً يمكن تعيين هويتهم»، كما عبّر كارول عن الموقف. إذ أحياناً ما يفتقر المالك إلى الهوية. مالك حمل اسماً فى السابق مثل أوتيس تشاندلر صاحب لوس أنجلوس تايمز وجون نايت صاحب سلسلة جرائد نايت ريدر وبارى بينجام صاحب كوريير-جورنال بمدينة لويفيل. كما تراءى المالك أحياناً مجرد حجرة تحفل بباحثين فى التسويق يجوبون العالم بأجهزة الكمبيوتر بغرض الفوز بفرص استثمار مريحة. وأحياناً أخرى يكون مديراً لصندوق استثمارى تعوزه الخبرة ولا يعبأ بالصحافة.

فى «مرحلة ملكية ما بعد الشركات»، يأسر كارول إلينا، شهدنا تقلص أهداف الجريدة فى أعين مالكيها. ففى عهد الملاك المحليين القدامى، كانت قدرة الجريدة على تحقيق الأرباح مجرد جزء من قيمتها. أما اليوم، فهى كل شىء. إذ ذهبت أدراج الرياح الفكرة القائلة بأن الجريدة لا بد أن ترشد جمهور القراء، بأن عليها واجباً أمام المجتمع، بأنها مدينة بالفضل للعامة...

وأخالنا عندما نرنو ذات يوم إلى الأربعين سنة الفائتة، سوف نتساءل كيف سمحنا للمصلحة العامة بأن تخضع كل هذا الخضوع للربح الخاص... ماذا يريد الملاك الحاليون من جرائدهم؟ -- الإجابة فى منتهى السهولة: الأموال. هذا كل ما فى الأمر.

إن كارول خبير بتفاصيل هذه القضية. فباعتباره رئيس تحرير لوس أنجلوس تايمز، كان يقدم تقاريره إلى مالكها: شركة تريبيون، كتلة من الشركات المختلطة تنامت من شيكاغو تريبيون - المنتحلة للقب «أعظم جريدة فى العالم»، - لصاحبها الكولونيل روبرت ماكورميك. وقبل أن يخمن أحد أن ازدهار بورصة أواخر القرن العشرين يدخل مرحلة التكوين، اشترت شركة تريبيون جرائد قديمة شهيرة فى عدة ولايات، من بينها لوس أنجلوس تايمز، جريدة نالت وقتها احتراماً جماً بوصفها واحدة من أبرز صحف أمريكا اليومية.

GOOD BYE NEWSPAPERS

الناشرون والصحفيون الذين لا يستطيعون تحقيق الازدهار فى العصر الإلكترونى، سيجعلون من الصحافة وسيلة من وسائل الماضى

الآن يعمل «الصحفى» مذيعا للبرامج، يربح أموالاً طائلة «ليس للتنقيب عن الأخبار ونقلها بل للترفيه عن المشاهدين بارتجاله البارع وشخصيته الماهرة فى الجدال»

تعزز صيت لوس أنجلوس تايمز قبل جيل من وصول كارول على يدى أوتيس تشاندلر، ناشر زاخر بالنشاط كان على استعداد أن ينفق بسخاء بل وبتبذير أحياناً حتى ينافس خيرة المؤسسات الصحفية. استطاع أن يتحمل التكلفة، فهو ينتمى إلى أسرة امتلكت الجريدة. إنه من نسل هارى تشاندلر (١٨٦٤-١٩٤٤)، ملك من ملوك العقارات بكاليفورنيا أودع الودائع لأبنائه خلال سنوات الكساد. تكاثرت أسرة تشاندلر بسرعة؛ وفى النهاية كانت ودائع الأسرة المصدر الرئيس للدخل لحوالى ١٧٠ فرداً من ذرية هارى.

لا ريب أن ذرية أوتيس كانت أقل عدداً فى عهده، وعلى الرغم من هيمنته على العمل ولا مبالاته بسياسات الجريدة التقليدية الموالية لليمين، تمكن من تسيير لوس أنجلوس تايمز على هواه طالما لاتتعرض أموال العائلة للخطر. انقضى الوقت وكذا حياة أوتيس. فتوددت شركة تريبيون لورثة تشاندلر غير العابئين بالصحافة على أية حال. تم إبرام الصفقة عام ٢٠٠٠ بأن اشترت شركة تريبيون لوس أنجلوس تايمز والشركة الأم «تايمز-ميرور»، مقابل ثمانية مليارات وثلاثة مقاعد بمجلس إدارة تريبيون.

اعتادت شركة تايمز - ميرور هى الأخرى جمع الجرائد. (نيوزداى فى لونج أيلاند و ذا بالتيمور صن و ذا هارتفورد كورانت من بين جرائد أخرى) وقد سقطت جميعها فى سلة تريبيون بشيكاغو. الواضح أن تريبيون كانت مؤسسة مالية هائلة وعليه عرضة للسقوط لما انهار السوق وبدأت الأسهم - وبخاصة أسهم الجرائد - فى الانحدار. نجح كارول فى عبور الأزمة بجريدة تايمز وكان على استعداد للاقتصاد عندما راح رؤساؤه بشيكاغو يطلبون منه تخفيض نفقات التحرير عام ٢٠٠٣، ثم طلبوا منه تخفيضها مرة ثانية وثالثة. مما جعله يعترض بأن الاقتصاد يهدد الجريدة بضرر بالغ إلا أن شيكاغو أصرت على المزيد من التقليص. انتهى الأمر به إلى تقديم استقالته عام ٢٠٠٥ ثم ما لبثوا أن طلبوا من رئيس التحرير خليفته إجراء المزيد من تخفيض النفقات فاستقال هو الآخر.

لقد أسهمت واحدة من نظريات سوق المال فى التقليص التدريجى للصحافة. تفترض النظرية أن «خفض الإنفاق يفضى إلى زيادة المكاسب». لقد شعر مسئولو الجرائد فى كل مكان بحاجة ملحة إلى تحسين الأداء بينما خلفت السياسة الناتجة عن تخفيض النفقات مشهداً يترع بجرائد مهلهلة معيبة لا تخدم القارئ المهتم بما يطرأ فى العالم ودولته والمجتمع المحلى. إذ أنقصت سياسة الاقتصاد عدد المراسلين المتمركزين فى الخارج وأضعفت مكاتب الأخبار فى واشنطون أو أغلقتها كلية وشلت المراسلين المحليين الذين راقبوا عن كثب فى الماضى الحكام والعمد وهيئات التشريع بالولايات والأنذال الصغار والمحتالين وهيئات المحلفين المرتشين. بالإضافة إلى أنها أدت إلى انكماش حجم الصفحة النموذجية للجرائد، إذ وفرت تكلفة الورق بتقليص المحتوى من الأخبار.

تنشر أعمدة الأعمال بالجرائد ما يصيبها من تآكل. إذ تورد بكل إصرار أخبار انكماش حجم صفحاتها البوصة تلو البوصة وانكماش وظائف صحفيى التغطية الإخبارية الوظيفة تلو الوظيفة إلا أن الإحصاءات وحدها تعجز عن توصيل خسارة البلاد الحقيقية. فإلى جانب لوس أنجلوس تايمز، تشمل الجرائد التى تشهد تخريباً من جراء سياسة «توفير النفقات» عدة جرائد صُنفت يوماً من بين خيرة جرائد البلاد: ذا بالتيمور صان وذا ميامى هيرالد وذا فيلاديلفيا إنكوايرر وذا دى موين ريجيستير وذا هارتفورد كورانت و لويفيل كورير-جورنال وسان خوزيه ميركورى نيوز وسانت لويس بوست-ديسباتش على سبيل المثال.

كثيراً ما تراود الحيرة الملاك الجدد حينما يجابههم المحررون والمراسلون بالحجة التقليدية: إن هدف الصحافة هو تقديم خدمة للعامة من خلال تزويد جماعة المواطنين بالمعلومات اللازمة لدفع عجلة الديمقراطية. غير أن الملاك الجدد يرمقون الواجب بنظرة مخالفة. إن «ارتباكاً يتولاهم حقاً أحياناً عندما يلفون أفراداً بينهم لا يدينون بالفضل بالدرجة الأولى لحاملى الأسهم»، كما صرح كارول.

ما الذى يؤثر فى هؤلاء الناس؟ يتساءلون. إنهم يعتبرون أن مهمة أى موظف تنحصر فى تحقيق ربح مالى جيد وليس الانهماك فى شكل حالم من أشكال الإحسان على حساب الشركة... وعليه ينظر رؤساء الشركات إلى معتقداتنا وكأنهم ينظرون إلى شىء غريب مهدر للمال مثقل بالملل.

لا يقدر خطاب كارول بمال؛ فهو يسدد نظرة متجهمة من صحفى عامل إلى ما غيرته ممارسات السوق التنافسية فى المهنة: غير أن دونالد جرام - رئيس مجلس إدارة واشنطون بوست - قد ألقى مؤخراً نظرة مشابهة من مقعد المالك. وقد نُشرت تعليقاته بصفحة الآراء فى ذا وول ستريت جورنال فى أبريل عندما هاجمت سوق المال ذا نيو يورك تايمز.

يجاهر كارول بأن رأسمالية السوق الحر لا تخدم مهنة الصحافة على أى وجه، وفى حال تطبيقها تطبيقاً صارماً، تعمل على تقويض أركانها. المدهش - فهو فى النهاية مالك لجريدة - أن جرام يتفق معه على ما يبدو. فقد اتسمت مقالته - ما لا يزيد على نحو ألف كلمة - بالغضب الشديد محذرة من أن الإصرار العنيد لسوق المال على زيادة الأرباح إلى الحد الأقصى قد يصبح مميتاً للصحافة.

إن ما استفزه لإلقاء مثل هذا التصريح هو محاولات أحد المدراء الماليين بشركة مورجان ستانلى كسر بنية الأسهم ذات المستويين المحافظة على هيمنة أسرة سالزبيرجر على ذا نيو يورك تايمز. تأسست تلك البنية فى هيكل شركة تايمز عندما دخلت الشركة سوق الأسهم ١٩٦٧ وهى تحصر السيطرة على الشركة فى حاملى فئة مميزة من الأسهم ينحدر أغلبهم من أدولف إس. أوكس، مؤسس تايمز الحديثة عام ١٨٩٦، أما ناشرها الحالى، أرثر أو. سالزبيرجر جونيور، فهو ابن حفيد أوكس.

حاول مورجان ستانلى إشعال ثورة فى الربيع الماضى بين حاملى الأسهم غير المتمتعين بالامتيازات. إذ حثهم على الامتناع عن التصويت لمن رشحتهم شركة تايمز لمجلس إدارتها. اعترف جرام أنه ليس منزهاً تماماً من المصلحة نظراً لأن ذا واشنطون بوست تدار هى الأخرى فى إطار بنية أسهم ذات مستويين مصممة لإبقاء تحكم الأسرة فى الشركة. تشكلت ذا واشنطون بوست بصورتها الحديثة عام ١٩٣٣ عندما اشتراها يوجين ماير (شخصية لا يستهان بها فى سوق المال) فى مزاد علنى بعد إشهار إفلاسها. إن جرام حفيد ماير وعلى الرغم أن ثروة عائلته ترسخت فى سوق المال، من الجلى أن إزعاجاً ينتابه من إحكام عالم المال الحديث قبضته على الصحافة. إذ كتب قائلاً إن دعم هجوم مورجان ستانلى على بنية الأسهم ذات المستويين «بمثابة القيام بمخاطرات مجنونة» بمستقبل ذا نيو يورك تايمز. تخلص من بنية الأسهم ذات المستويين وسيصطف خلال دقائق معدودة صف من المشترين المتلهفين على ابتياع الشركة»، كتب جرام. «لن يسع مخلوق الاعتراض على الوضع. سيضم الصف شركات للأسهم الخاصة ومليارديرات طافحين بالغرور وشركات دعاية دولية تفتش عن أية ملكيات شهيرة والعديد من المشترين الآخرين». وقد توقع لجريدة ذا نيو يورك تايمز أن «تباع فى المزاد العلنى مثلها مثل ضلع من لحم البقر».

[٢]

تحظى شراهة سوق المال باهتمام قليل فى تقرير نيل هنرى المطول عن متاعب الصحافة فى عصرنا الإلكترونى. يلتحق هنرى بكلية الصحافة فى جامعة كاليفورنيا بمدينة بيركلى بعد مسيرة مهنية فى ذا واشنطون بوست. يعنى كتابه بمواضيع ينبغى أن تثير قلق شبان يبدؤون خطواتهم الأولى فى المهنة. كيف يؤثر الإنترنت فيما لا زلنا نسميه «الصحافة»؟ هل يمثل «التدوين» مستقبل الصحافة؟ كيف يمكن للصحفيين تجنب ألاعيب أجهزة الدعاية الضخمة التابعة للحكومة وقطاع الأعمال والتى تؤثر عليهم بالسلب؟

لقد تعذرت عليه الإجابة على تلك الأسئلة والواقع أنه لا توجد حتى الآن إجابات محتملة عليها. فحينما تبدل التكنولوجيا الحديثة كل شىء، يصبح الاحتمال الوحيد المؤكد مستقبلاً مختلفاً تماماً عن أى شىء متوقع. يكتفى هنرى بإفساح المجال لعالم الاجتماع هيربرت جانز ليفصح عن تشاؤمه من فرص الصحافة فى مستقبل إلكترونى باسم.

إن تاريخ التجديد التكنولوجى يوحى بالفعل بأن التجديد الثقافى والاجتماعى والاقتصادى المتوقع حدوثه من جراء التكنولوجيا الحديثة لا يتجسد فى الغالب تجسداً مادياً. وبناء على ذلك لن تسهم التكنولوجيا وحدها بالكثير فى خلق مستقبل مشرق للصحافة.

إن من يؤكد أن الإنترنت سوف يحل محل الجرائد كمصدر للمعلومات لا

GOOD BYE NEWSPAPERS

الملاك الجدد ينسون المهمة الحقيقية للصحافة. ويعتبرون أن مهمة أى «موظف» تنحصر فى تحقيق ربح مالى جيد وليس الانهماك فى الحلم بعمل جيد

نظرية سوق المال التى تفترض أن «خفض الإنفاق يفضى إلى زيادة المكاسب» أفضت بنا الى مشهد يترع بجرائد مهلهلة معيبة

يفسر كيفية حدوث هذه النقلة. فطبقاً لتقدير جون كارول، تنبع حوالى ٨٠٪ من كل الأخبار المتاحة على الإنترنت فى الوقت الحاضر من الجرائد، ولا توجد شركة إنترنت تمتلك المصادر الضرورية لتجميع المعلومات وتحريرها فى نطاق أكثر الجرائد اليومية تواضعاً. علاوة على أن الشركات من أمثال جوجل وياهو ليس لديهم، على ما يظهر، أى اهتمام بالانخراط فى الصحافة الجادة. (لجوجل موقع إخبارى أوتوماتيكى - جوجل نيوز - ينفذ إلى المئات من الجرائد الإلكترونية وتقارير وكالات الأنباء؛ كما يشتمل ياهو على تقارير وكالات الأنباء بموقعه الإخبارى. إلا أن الاثنين لا يوظفان المراسلين ولا يزودان القراء بتغطية إخبارية خاصة بهما.)

إن إنترنت الوقت الحالى هو بالأساس نسخة إلكترونية من الصبى ذى العشرة أعوام الذى اعتاد اعتلاء الدراجة ليقذف بالجريدة أمام الشرفة الأمامية: أى أداة توزيع بارعة. لا شك أيضاً أنه مصدر ثمين لإجراء الأبحاث ومراجعة الحقائق. فمراسل اليوم المزود بكمبيوتر محمول ينعم بحرية الوصول الفورى إلى مواد كانت فى يوم من الأيام تستلزم بحثاً مطولاً لا جدوى منه فى الغالب «بمراجع» الجريدة. من الواجب إذن أن يرفع الإنترنت من كفاءة التقارير وتحريرها.

يمثل التدوين تطوراً أكثر إثارة للانتباه ربما لأن ثمة حماسة أى حماسة تعترى كل المدونين. إن التدوين قيد نافع يعترض طريق الصحافة المهملة والمتخاذلة؛ فيقظة المدونين لا تغفل أقل هفوة ولا أدنى إسقاط كما أن غضبهم مستعص على الاحتمال. يصر المدونون الملتزمون على أنهم يمارسون مهنة الصحافة بمثل ثقة مراسلين من أمثال جون بيرنز، مراسل يغطى حرب العراق من بغداد لجريدة ذا نيو يورك تايمز. وأى فرد له رغبة فى مناقشة المسألة لا بد أن يتهيأ لجدال يتواصل طيلة الليل وحتى الأسبوع المقبل. لكن ما لا جدال فيه هو أن كل مدون بوسعه الآن أن يصير كاتب عمود. ومع جيوش ضخمة من كُتاب الأعمدة تخط المدونات، يتحتم فى النهاية أن ينتج بعضهم عملاً مبتكراً جذاباً منعشاً للأذهان لينفث حياة جديدة فى شكل صحفى بات الآن بالياً.

وكما هو إحساس العديد ممن يعلقون على الصحافة فى هذه الأيام، يخامر الغضب مؤلفى كتاب عندما تخفق الصحافة - ثلاثة أساتذة فى الصحافة - من أداء الصحافة المترهل حينما كان بوش وتشينى ورامسفيلد وولفوتز وشركاؤهم يعبئون شهية العامة لشن الحرب على العراق. البادى أن الجميع، بمن فيهم أغلبية الصحفيين، يتفقون على أن الصحافة فشلت فشلاً ذريعاً لكن إذا ما كان إنجازهم للمهمة على خير وجه كان سيحبط من عزيمة المحافظين الجدد على شن الحرب فهذا نقاش آخر. لكن بصفتى متابعاً للأحداث عن كثب، لا أعتقد أن شيئاً كان بمقدوره منعهم. فقد استولت شهوة الحرب على عقول الجماهير كما أحجم الكونجرس - القوة الوحيدة القوية بما يكفى لمجابهة حماقات الرئيس وإن لم تمنعها على الدوام - عن العمل كذراع فعالة للحكومة وبات بلا أدنى طائل عدا عند تهليله لقرارات الرئيس. لقد وصف السيناتور روبرت بورد، السناتور الديمقراطى عن غرب فيرجينيا، موقف الكونجرس بدقة عندما رماه «بالفاتر».

وكأنهم يبرهنون على وجهة نظره، صوت معظم ديمقراطيى الكونجرس الطامحين إلى شغل منصب الرئيس - ومن بينهم هيلارى كلينتون - لصالح الحرب. لقد كان قرارهم ببساطة رد فعل على الضرورة السياسية للحظة الآنية عندما تصاعد الطلب الوطنى على الحرب. وفى مثل تلك المواقف يختار السياسيون تقريباً على الدوام أن يصبحوا رؤساء بغض النظر عن الخطأ والصواب.

بإمكان المرء فى النهاية أن يعزو إلى الإدارة عملية خداع متقنة. فقد ضللت وزير خارجيتها كولين باول بل إنها خدعت نفسها بالاعتقاد فى الانتصار انتصاراً سريعاً مكللاً بالورود. وبرغم أداء الكونجرس المهين، تخبو ببطء الفكرة القائلة بأن الصحافة كان بمقدورها منع الكارثة. إن كتاب عندما تخفق الصحافة لا يقر تلك النظرية لكنه ولا ريب يلمح إليها. «من اللافت إلى الانتباه أن الصحافة ظلت صامتة وإن لعبت فى الأغلب دور شريك غير مرتاح أثناء تمرين لى الوقائع، الذى باعت به الإدارة الحرب»، يشير المؤلفون.

لا تعنى استقلالية الصحافة أن الجدل العام الناتج سوف يشكل بالضرورة مجريات السياسة أو يدخل عليها التحسينات. إلا أن الاعتراض على بعض السياسات المريبة قد يزود على أقل تقدير أعداداً كبيرة من المواطنين بالمعلومة فى الوقت الملائم. وعندما يفطن هؤلاء المواطنون أن ثمة مساحة مشروعة من الإعلام العام تعرض مشاكلهم الخاصة على الملأ، ربما يبدؤون فى التصرف كجمهور بدلاً من المعاناة منعزلين من صدمتهم وخشيتهم فى الوقت الذى تتوالى فيه الأحداث.

يتوقع مؤلفو الكتاب فى مثل تلك التصريحات ما لا تستطيع الصحافة تقديمه. لا ريب أن إذاعة نشاطات واشنطون وتوضيح تفاصيلها أمر صحى لكنها عملية مضجرة قد لا تثمر عما هو أفضل من حالة من اللامبالاة العامة. لقد أخذت ذا واشنطون بوست تعرى فضيحة ووترجيت على الملأ فى صيف ١٩٧٢ غير أن الأمريكيين ظلوا بعد انقضاء ستة أشهر غير مكترثين حتى إنهم أعادوا انتخاب الرئيس نيكسون بأغلبية لم يحظ بها أى حزب أمريكى فى التاريخ. ولولا تدخل جون سيريكا، أحد القضاة غير المعروفين بمجلس النواب، ربما مرت فضيحة ووترجيت بدون تحول الأنظار إليها.

وبينما يبالغ المؤلفون فى تقدير سلطة الصحافة، يستحق تحليلهم لصحافة واشنطن الضعيفة نظرة عن قرب. إن التعيين فى واشنطون أعظم جائزة من الممكن أن تهديها أية جريدة إلى صحفى، وليس من المستغرب إذن أن نجد صحافة واشنطون مجموعة من نخبة المراسلين: ذوو تعليم راق، ينالون أكبر المرتبات، يتمتعون بموهبة عالية، تسودهم الراحة وسط أصحاب السلطة، يخالجهم قدر من الغرور لوقوفهم على أسرار لا يعرفها الآخرون، لكنهم حريصون بوجه عام على إبقاء جمهور القراء على علم دائم بما يحدث بدون أن يلم بهم الخوف ولا التحامل. غير أنهم أخفقوا خلال سنوات بوش - كما يؤكد مؤلفو عندما تخفق الصحافة - بسبب ميلهم إلى الإذعان لمواقع السلطة.

إن «إذعانهم للسلطة، ليس وليداً حديثاً لعهد بوش، وفقاً لحديث المؤلفين، إنما عادة «متأصلة بعمق - ولا تنفك تتعزز - فى ثقافة الصحافة السائدة وروتينها». إنها عادة تجعل صحفيى واشنطون عرضة للتلاعب من قبل الأقوياء وتدفعهم إلى الكف عن

صحافتهم

اعتذرت الإذاعة العامة الوطنية الأمريكية «إن. بى. آر» عن إجراء مقابلة خاصة مع الرئيس الأميركى جورج بوش، عرضتها عليها السكرتيرة الصحافية فى البيت الأبيض، دانا برينو، وكانت مناسبة المقابلة الذكرى الخمسين على إنهاء الفصل العرقى فى المدارس الأمريكية. وكان سبب الرفض هو أن البيت الأبيض اشترط أن يجرى اللقاء صحافى معين هو المحلل خوان وليامز، الذى يعمل متعاونا مع قناة «فوكس» والذى سبق أن أجرى المقابلة الوحيدة لـ«إن. بى. آر» مع بوش. وقالت الين ويس، نائبة رئيس الأخبار فى «إن. بى. آر» إن «البيت الأبيض لا ينبغى أن يختار الشخص الذى يجرى المقابلة». وأضافت أن «إن. بى. آر» أبلغت سكرتيرة البيت الأبيض الصحافية، دانا برينو، أنهم «ممتنون لهذه الفرصة، ولكن كنا نود أن نختار نحن من يجرى المقابلة معه».

واشنطن بوست/ الشرق الأوسط
٢٧ سبتمبر

GOOD BYE NEWSPAPERS



الاعتراض والاحتجاج. إذ غالباً ما يُرمى المعترضون والمحتجون بـ «المنشقين»، فلا يأخذهم الآخرون على محمل الجد.

يتجسد الإذعان للسلطة فى تغطية الصحفيين المتواصلة لأكثر توافه البيت الأبيض. إذ تترع الجرائد بأخبار الرئيس عندما لا يصنع ما لا يزيد على الترجل من الطائرات أو قضاء الإجازات أو مصافحة النبلاء من الزوار. وعلى مستوى أعمق يتراءى هذا الإذعان واضحاً فى لغة الصحافة. فنادراً ما استخدم المراسلون كلمة «تعذيب» فيما يخص أبا غريب. يشدد بوش على أن الولايات المتحدة لا تقر التعذيب فيما لم تسرع الصحافة فى استعمال الكلمة. إذ أطلقت على أخبار أبى غريب وصور التعذيب المفجعة كلمة «الانتهاكات».

وعلى صعيد أكثر خطورة، يعنى الإذعان للسلطة استعداد الصحفيين لسرد وقائع الحكومة كما يمليها عليهم أصحاب السلطة. لقد تحدثت إدارة بوش عن خلق واقع خاص بها. يشير مؤلفو عندما تخفق الصحافة إلى «واقع» بوش هذا باعتباره «نصاً» ويوجهون النقد إلى صحافة واشنطون لقبولها هذا النص كحقيقة واقعة حتى عندما «تراءى هذا النص مخالفاً كلية لما يطرأ من أحداث جلية» مثلما جرى إبان حرب العراق.

وعلى العكس من الانطباع السائد، تواجدت على الساحة صحافة محترمة عندما كانت الإدارة تندفع باتجاه الحرب. ظهرت كذلك معارضة بينة، حتى فى العاصمة أثناء انطلاق قرار الحرب عبر الكونجرس. الأمر ببساطة هو أن الصحافة لم تسلط عليها الضوء الكافى، فقد جاءت مثلاً على لسان أشخاص ليسوا من ذوى السلطة - سيناتور كينيدى عن ولاية ماسيتشوسيتس وبيرد عن ويست فيرجينيا، وكلاهما ديمقراطيان. ولكى يلم المرء بتحذيرات السيناتور بيرد من الاندفاع فى الحرب ومناشداته الكونجرس لاستيعاب التزاماته الدستورية، على المرء أن يلبث مرهفاً السمع لمحطة سى-سبان التليفزيونية. لكنك تلمح بالكاد كلمات بيرد فى جريدتى تايمز وبوست. فمع أنه عضو رفيع المستوى بمجلس الشيوخ وموسوعة بشرية عن تاريخه، قبع خارج دائرة السلطة وعليه تعرض للتجاهل بمنتهى السهولة على حين لم يلف المشاهد مفراً من مشاهدة آرى فليتشر - الناطق الرسمى باسم البيت الأبيض - على جميع الشبكات التليفزيونية.

وعلى النقيض من الانطباع الموحى بأن صحافة واشنطون كانت بأكملها تغط فى سبات عميق، ثمة مراسلون حققوا فى القضية بشكل واف. إذ أثنى مايكل ماسينج - صاحب تقارير ظهرت بين هذه الصفحات عن التغطية الصحفية الهزيلة لما قبل الحرب - على العديد من مراسلى ذا واشنطون بوست وذا نيو يورك تايمز وذلك لما كتباه من تقارير فندت حجج الإدارة الأمريكية. لكن غالباً ما وجد ماسينج تقاريرهم مستترة فى تحفظ بين ثنايا الجريدة.

فقد كتب والتر بينكاس ودانا ميلبانك فى ذا واشنطون بوست، على سبيل المثال، أن الولايات المتحدة تستعد لمهاجمة العراق اعتماداً على عدة مزاعم تدين صدام حسين، مزاعم «تم تفنيدها - وفى بعض الحالات دحضها - من قبل الأمم المتحدة والحكومات الأوروبية بل وتقارير المخابرات الأمريكية». غير أن القصة توارت بالداخل فى صفحة ١٣أ . أفضى بينكاس إلى ماسينج أن محررى ذا واشنطون بوست «خاضا مرحلة كاملة كيلا يُصدرا الصفحات الأولى بأخبار كانت ستحدث فرقاً».

لقد أطرى ماسينج إطراء لا حد له جوناثان لانداى وورين ستروبل وجون والكوت من مكتب نايت ريدر بواشنطون لما قدموه من تغطية ثابتة لم تقبل مطلقاً «نص» الإدارة. لكن ها هو عيب آخر بصحافة واشنطون: لم تؤثر تقارير نايت ريدر حول حقيقة «النص» على بقية الصحافة على الإطلاق؛ لأن نايت ريدر لا يصدر جريدة فى واشنطون وهكذا لم يقرأ أحد هناك التقارير.

قد يعكس هذا ما هو أسوأ من مجموعة صحفيين نائمين بواشنطون أثناء اللحظات الحاسمة. إذ تحدث جون والكوت - رئيس مكتب نايت ريدر بواشنطون - مؤخراً عن تغطية مكتبه لحرب العراق فصرح بأن صحافة واشنطون يشينها ما هو أخطر من الجبن ويعيبها ود زائد عن اللازم مع أصحاب السلطة:

ثمة كسل لا ريب فيه: إن أكثرية ما جاهرت به الإدارة، وبخاصة فيما يتعلق بالعراق وتنظيم القاعدة، لم يكن أكثر من ادعاءات كاذبة ومع ذلك لم يكترث سوى قلة من المراسلين للتأكد من صحته.

تطلب الأمر أيضاً القليل من الشجاعة لإغضاب فريق البيت الأبيض المشهور بأنه لا يعلن للعالم إلا ما يخدم أهدافه وأهواءه. إذ يجلب الاعتراض على «النص» العقاب على أيدى مسئولى البيت الأبيض. فقد تم منع مراسلى نايت ريدر من السفر على طائرة وزير الدفاع لمدة ثلاثة أعوام لأن تغطيتهم اختلفت عن «النص». كما كتب السفير السابق جوزيف ويلسون أن صدام حسين لم يشتر اليورانيوم من النيجر مثلما أنبأ الرئيس الكونجرس فانهارت مسيرة زوجته المهنية فى وكالة الاستخبارات من جراء تسريب الإدارة لطبيعة عملها.

وعبر أثير برامج التليفزيون الحوارية الموالية لليمين المحافظ، اتُهم الصحفيون المعارضون «للنص» بالتحيز وإبطان دوافع غير وطنية واللا مبالاة بحيوات الجنود الأمريكيين بل وإضمار نية الخيانة. إن برامج الإذاعة الحوارية تقذف الآن الصحفيين بافتراءات لا تنقطع تحت ستار الحصانة نظراً لاضمحلال الدعم الجماهيرى للصحافة العدوانية. إذ أطلق المحافظون السياسيون حملة ناجحة تتابعت سنوات طويلة لتصوير الصحافة كرسول مخادع ينشر السلبية ويسمم العقول بأفكار يسارية متحيزة. تصدرت الكتب المعالجة لهذا الموضوع قائمة أفضل المبيعات فيما أخذ «المذيعون» السياسيون يكررون الرسالة بلا كلل فى المحطات الإخبارية.

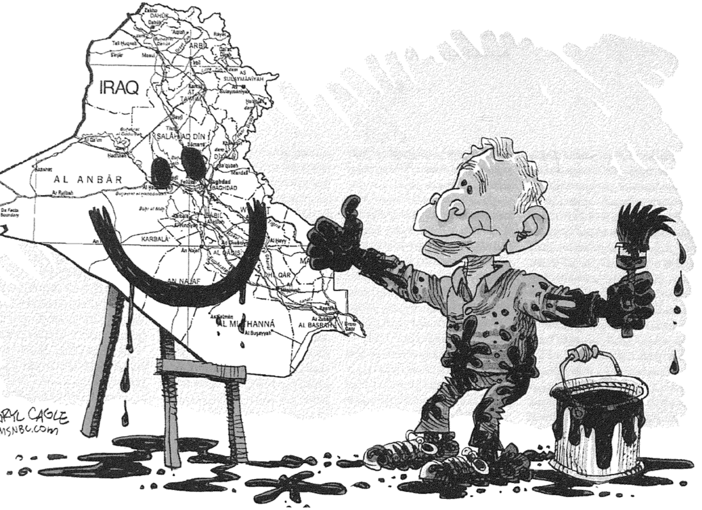
أدى ذلك إلى حدوث هوة واسعة بين المواطنين والصحافة، هوة تتضح فى تبدل نظرة العامة إلى الصحفيين العاملين. إذ كانوا فى يوم من الأيام أبطالاً ثقافيين: تسبغ عليهم الأفلام سحراً كما هو الحال مع كلارك جيبيل وروزاليند راسل. كانوا ملح الأرض، يتحلون ببراعة الحديث وأناقة المظهر ويتمسكون بالمبادئ العليا. هكذا كان جيمز ستيوارت وهمفرى بوجارت وكارى جرانت وروبرت ريدفورد وداستين هوفمان، كلهم لعبوا دور الصحفى على شاشات السينما. لقد كان الصحفى أشبه ببطل من الطبقة العاملة جدير بالفوز بسلطان نجوم هوليوود.

يرسم نيل هنرى فى كتابه المهرجان الأمريكى صورة «للصحفى» المعاصر بكل «أشكاله المختلطة»، ليفسر للقارئ سبب تراجع تعاطف الجماهير معه. لقد انقضى أمد طويل منذ أن تطلع الأمريكيون إلى الصحفى كشخص من الطبقة العامة يعلم سيدة ثرية مدللة كيفية التصرف ببساطة. إن المواطن العادى يرى اليوم - على حد قول هنرى - «الصحفى بوصفه متحدث التليفزيون الذى تدفع له المحطات مكافآت معتبرة كى تند عنه ضجة منتظمة فى البرامج الإخبارية». الآن يعمل «الصحفى» مذيعا للبرامج، يربح أموالاً طائلة «ليس للتنقيب عن الأخبار ونقلها بل للترفيه عن المشاهدين بارتجاله البارع وشخصيته الماهرة فى الجدال».

إن صحفى اليوم - كما يراه هنرى - شخص يعلق فى القنوات التليفزيونية على محاكمة قتل، ينطق بحكم الإدانة ويتكلم عن أقصى العقوبة قبل أن يبحث فى الأدلة، أو نجمة تليفزيونية تقبض مليارات الدولارات لتتزعم لمدة دقائق وجيزة أنها تعى مشاكل الطبقة العاملة. وهناك «المُطلع العنيد على أخبار واشنطون الذى يتنقل ولاؤه وأخلاقه من جهة إلى أخرى؛ يعمل ناطقاً رسمياً للبنتاجون أو مستشاراً للحملات الانتخابية أو كاتباً لخطب الرئيس فى سنة من السنوات» ثم يشتغل السنة التالية مذيعاً بإحدى القنوات أو مراسلاً لمجلة من المجلات المرموقة. ولو حدث وشغل موقعاً فى التليفزيون، يصبح الصحفى أو الصحفية فى حاجة إلى «شد العين وزرع الشعر وحقن البوتوكس» بغرض خلق مظهر شبابى لا مناص منه لنقل الحقيقة نقلاً مقنعاً للمشاهد.

من الواضح أن استياء يداخل هنرى من كل هذا الوضع. فالمجموعة التى وصفها من الأنانيين والأفاقين والمرتزقين السياسيين والثرثارين والدجالين والمراسلين المدللين والحقراء المجردين من المبادئ تشكل جميعها هذا النظام الغامض المسمى بـ «الإعلام». أما كيفية اختلاط الإعلام والصحافة بهذه الأوضاع الفاسدة فهى حكاية طويلة لا تخلو من تعقيد لكن الظاهر أن لا مفر منها. الحق أن وسائل الإعلام أمست مجرد لاعب ثانوى فى مهرجان هنرى بل إن ثمة شكاً إذا ما كان هناك كثيرون ممن يأبهون بالأمر. لا أحد يتصل بالجريدة متوقعاً أن يجد بطلاً على الطرف الآخر.

فكل من يتصل بالجرائد لن يلقى على الأرجح سوى رسالة مسجلة على جهاز الرد على المكالمات كما جرى مع هنرى الذى اتصل عشوائياً بعدة جرائد. ألفى صعوبة فى الوصول إلى أى شخص. لقد شعر بالوحدة مع هذا الهاتف. ■



جيفرى سانت كلير

لن نتذكر كيف شنت الحرب على العراق بقدر تذكرنا كيف تم تسويقها. كانت حرب بروباجندا، حرب إدارة الوعى، حيث تقذف اطلاقات الجمل المثقلة بالإيحاءات مثل «أسلحة دمار شامل» و«دولة مارقة»، على الجمهور المستهدف: نحن.

من أجل أن تفهم حرب العراق لا تحتاج أن تستشير جنرالات، وإنما تستشير نساجي القصص ومديرى العلاقات العامة الذين نصبوا المسرح تمهيدا للحرب من أروقة واشنطن حيث يتعايش جواسيس السياسة والأضاليل والحرب النفسية.

تأمل رحلة دوسيه العراق الذى تشبث به تونى بلير، من موقع طالب جامعة إلى عملية قص ولصق فى الخطاب الفخيم لرئيس الوزراء أمام مجلس العموم. وقد دفع بلير العنيد وذلق اللسان ثمنا لمبالغاته الحمقاء. أما بوش الذى سرق فقرات كاملة من خطاب بلير من أجل تقديم قضيته ببلاهته المعتادة، فقد انزلق بمهارة عبر العاصفة. لماذا يا ترى؟

على عكس بلير، لم يسع فريق بوش إلى تقديم قضية قانونية لتبرير الحرب. لم يكن لديهم الدافع لدعم اتهاماتهم ضد العراق بما يجعلها تتماسك كدليل يعتد به. كان الجهد الحقيقى موجها إلى تصعيد مزاج الحرب لدى الرأى العام باستخدام سيكولوجية الخوف.

لم تكن الحقائق شيئا مهما فى نظر فريق بوش. كانت شذرات يسهل التخلص منها متى شاءوا واستبدالها بأى مبرر يميل كفة الاستفتاءات إلى ميزانهم. فالحرب كانت بسبب أسلحة الدمار الشامل فى أسبوع وبسبب القاعدة فى الأسبوع التالى. وحين لا يؤثر أى من المبررين على الأرض، يصبح المبرر المقابر الجماعية (وكثير منها يعود إلى الحرب العراقية الإيرانية التى كانت الولايات المتحدة تناصر العراق فيها) للدلالة على أن صدام حسين كان رجلا شريرا يستحق الإطاحة به. كان شعار ماكينة العلاقات العامة البوشية هى: تجاوزوا واستمروا. لا توضحوا. قولوا أى شىء لإخفاء بشاعة الدوافع الحقيقية للحرب. لا تنظروا إلى الخلف أبدا. اتهموا المشككين بأنهم خونة للوطن. وفى النهاية حتى وولفويفتز الحذر اعترف بان المبرر الرسمى للحرب اصطنع خصيصا لجعل الغزو سائغا وليس لتبريره.

كان المطبلون لبوش من صقور المحافظين الجدد ينظرون إلى حرب العراق كمنتج وبالضبط مثل موديل جديد من أحذية نايكة، تحتاج إلى حملة دعاية من أجل إغراء المستهلكين. استخدمت نفس الأساليب (وعادة نفس أساطين العلاقات العامة) فى تسويق السجائر والسيارات رباعية الدفع ومقالب النفايات الذرية، كذلك لتسويق حرب العراق. من أجل بيع الغزو، عيّن دونالد رامسفيلد وكولن باول وبقية الزمرة أشهر مستشارى الدعاية فى مناصب عليا فى البنتاجون والخارجية. وسرعان ما أصبح لهؤلاء المضللين القول الفصل فى كيفية اختلاق مبررات الحرب على العراق، بدلا من وكالات الاستخبارات والدبلوماسيين المحترفين. فإذا كانت المعلومات الاستخباراتية لا تناسب النص، يمكن تغييرها أو طمسها.

خذ مثلا، شارلوت بيرز التى اختارها باول وكيلة لوزارة الخارجية فى عالم ما بعد ٩/١١، لم تكن بيرز دبلوماسية. بل لم تكن حتى سياسية. كانت أسطورة فى الدعاية والاختلاق وكانت تسمى فى صفحات البنزنس والشائعات «ملكة ماديسون افينيو». وقد صعدت على أكتاف حملتين دعائيتين إحداهما عن رز (انكل بين) والأخرى عن شامبو (هيد اند شولدرز) ضد القشرة. مثل صاروخ إلى قمة عالم الدعاية والإعلان رئيسة لدارين عملاقتين من دور الدعاية: اوغليفى وماذرز إضافة إلى جى والتر تومبسون.

فى وزارة الخارجية، عملت بيرز التى التقت باول فى ١٩٩٥ حين عملا معا فى مجلس ادارة شركة جلف ايرستريم gulf airstream، وكما يقول باول فى «صياغة سياسة خارجية أمريكية جديدة» وقد انتزعت اكثر من ٥٠٠ مليون دولار من الكونجرس من أجل «حملة وسمة أمريكا - brand America»، التى كانت تركز بشكل كبير على بث البروباجندا الأمريكية فى العالم الإسلامى وموجهة على الأخص إلى مراهقيه.

كانت بيرز تقول «إن الدبلوماسية العامة هى ذراع حيوية جديدة سوف تقاتل الإرهاب مع الوقت. فجأة نجد أنفسنا ملزمين بإعادة تعريف من هى أمريكا ليس فقط لأنفسنا وإنما للعالم

ترجمة: بثينة الناصرى

من أجل أن تفهم حرب العراق لا تحتاج أن تستشير جنرالات، وإنما نساجي القصص ومديري العلاقات العامة الذين نصبوا المسرح تمهيدا للحرب من أروقة واشنطن حيث يتعايش جواسيس السياسة والأضاليل والحرب النفسية

الخارجي». لاحظوا الاهتمام الذى توليه بيرز لاستغلال الوعى والإدراك على عكس مثلا السعى لإحداث تغيير حقيقى فى السياسة الأمريكية.

إن الدبلوماسية العتيقة تتطلب اتصالات مباشرة بين ممثلى الأمم وعملية أخذ وعطاء مثيرة للجدل، مغلفة عادة بالخداع (انظر ابريل جلاسبى) ولكنها تظل عملية تبادل آراء على أية حال. أما الدبلوماسية العامة كما تعرفها بيرز فهى شىء مختلف تماما. أنه طريق باتجاه واحد، دعاية أمريكية من جانب واحد تبث مباشرة إلى الجمهور الداخلى والدولى، نوعا من القصف الكثيف غير الرسمى.

كانت أفكار حملاتها بلهاء ومهلهلة مثل المؤتمرات الصحفية لبوش. غزو أمريكا لأفغانستان والعراق هو لسبب وحيد: تحرير المقهورين. ومن هنا إطلاق تسمية «عملية حرية العراق» على الحرب الأمريكية حيث صورت صواريخ كروز كأنها رموز التحرير. حتى بوش نفسه فسر معادلة بيرز فى جوهرها العجيب «هذه حرب من أجل السلام».

وقد استقالت بيرز بهدوء من منصبها قبل أسابيع قليلة من دك بغداد بصواريخ توماهوك. من وجهة نظرها كان الانتصار قد تحقق فى الحرب بالإعلام أما الألعاب النارية للصدمة والترويع فهى مثل ملاطفات ما بعد العملية الجنسية.

وفى البنتاجون جند دونالد رامسفيلد فكتوريا (تورى) كلارك مديرة للشؤون العامة. وكانت كلارك تعرف كيف تلعب بالخيوط داخل المؤسسة السياسية فى واشنطن. وقبل أن تصبح بوقا لرامسفيلد كانت على رأس إحدى أعظم شركات سمسرة السلطة فى العالم: مكتب واشنطن لشركة هيل ونولتون Hill and Knowlton (الشركة التى لفقت قصة حضانات الأطفال المبتسرين والبطة الغارقة بالزيت وقصة نيرة وغيرها فى حرب الكويت - المترجمة)

وحالما استقرت فى منصبها، عقدت كلارك اجتماعات دورية مع مجموعة منتقاة من أفضل مستشارى العلاقات العامة والدعاية وجماعات الضغط فى واشنطن لتطوير خطة تسويق لحروب البنتاجون المرعبة القادمة. كانت المجموعة تتكون من شخصيات الوزن الثقيل من كلا الحزبين. وكانت تسميها «مجموعة رامسفيلد» وفيها شيلا تيت مديرة علاقات عامة وكاتب الأعمدة الصحفية رتش لورى والمستشار الجمهورى السياسى ريتش غالين.

ومن ذوى الفكر كان فى المجموعة تومى بوجس الديمقراطى شقيق كوكى روبرتس فى إذاعة NPR وابن نائب لويزيانا هيل بوجس. وفى الوقت الذى كان فيه بوجس يناقش مع أعلى مسئولى البنتاجون حول كيفية الدعاية للحرب على الإرهاب، كان يعمل بحماسة مع العائلة المالكة السعودية. فى عام ٢٠٠٢ وحده دفع السعوديون لشركة كورفيس للعلاقات العامة مبلغ ٢,٢٠ مليون دولار لحماية مصالحهم فى واشنطن. ففى أعقاب التغطية الصحفية المعادية بعد الكشف عن هوية مختطفى الطائرات فى أحداث ١١ أيلول، كانت العائلة المالكة تحتاج الى كل ما تستطيع شراءه من المساعدات المناسبة. ويبدو أن أموالهم لم تذهب هباء. فيمكن لتسويق بوجس الفعال أن يفسر سبب إسقاط الاتهامات عن السعوديين بتمويل القاعدة من التقرير الكونجرسى الأخير حول التحقيقات فى فشل الاستخبارات فى تفادى ١١ أيلول.

طبقا لمطبوعة «بى آر ويك» التجارية، أرسلت مجموعة رامسفيلد «استشارة» للبنتاجون تقول لكلارك ورامسفيلد بأنه من أجل تسويق الحرب على الإرهاب للرأى العام الأمريكى، عليهم أن يقترحوا صلة لدول وليس فقط لجماعات مثل القاعدة. بكلمات أخرى، يحتاجون إلى إيجاد هدف ثابت للحملات العسكرية، أماكن بعيدة لإسقاط صواريخ كروز والقنابل العنقودية. واقترحت المجموعة فكرة (كانت تطوف أصلا فى ذهن رامسفيلد) اعتبار ما تسمى الدول المارقة على أنها المخطط الحقيقى للإرهاب. وهكذا خلق (محور الشر)، وفى الواقع لم يكن محورا أبدا طالما أن اثنتين من هذه الدول: إيران والعراق تكره إحداهما الأخرى ولم تكن لأى منهما علاقة مع الثالثة: كوريا الشمالية.

سفحت عشرات الملايين من الأموال الفدرالية على شركات العلاقات العامة والإعلام من أجل تلفيق وإذاعة الخطاب البوشى الذى يقول انه من الضرورى اقتلاع صدام قبل أن يفجر العالم بإسقاط قنابل كيماوية ونووية من طائرات مسيرة بعيدة المدى. الكثير من هؤلاء رؤساء شركات العلاقات العامة ومستشارى الدعاية كانوا أصدقاء قدامى للحلقة الضيقة حول بوش. وبالتأكيد كانوا محاربين قدماء مثل تشينى وباول فى الحرب السابقة ضد العراق، وهى كانت أيضا حربا قائمة على الأكاذيب.

على رأس القائمة جون ريندون رئيس شركة فى واشنطن اسمها ريندون جروب. ريندون كان واحدا من أقوى الضاربين فى واشنطن وهو (بتاع كله) الذى لم يكن يسمح بأى ارتباط حزبى يقف فى طريق اى مهمة. ريندون خدم كمستشار إعلامى لمايكل دوكاكيس وجيمى كارتر إضافة إلى ريجان وبوش الأب. كلما أراد البنتاجون أن يشن حربا، يعرض خدماته مقابل سعر. خلال عاصفة الصحراء كسب ريندون ١٠٠ ألف دولار بالشهر من العائلة المالكة الكويتية. وأتبع ذلك بعقد قيمته ٢٣ مليون دولار مع السى آى اى لإنتاج بروباجندا مضادة لصدام فى المنطقة.

وكجزء من مشروع السى آى اى هذا، خلق ريندون وسمى المؤتمر الوطنى العراقى واقترح صديقه احمد الجلبى، المصرفى المريب، لرئاسة المنظمة.

بعد ١١ أيلول بوقت قصير، سلم البنتاجون لشركة ريندون مهمة دعائية كبيرة أخرى لقصف أفغانستان. وقد انغمس ريندون فى التخطيط والدعاية للحرب الوقائية ضد العراق رغم أن كلا من ريندون والبنتاجون رفضا الإفصاح عن تفاصيل عمل الشركة فى هذا المجال.

ولكن ليس من الصعب اكتشاف لمسات ريندون خلف الكثير من أحداث الحرب على العراق الدرامية بضمنها إسقاط تمثال ساحة الفردوس (بواسطة القوات الأمريكية وجماعة الجلبى) وتصوير عراقيين مهللين يحملون الإعلام الأمريكى حين كانت فرقة المشاة الثالثة تمر أمامهم. وكان ريندون قد فعل الشىء نفسه فى الحرب الأولى حين أعطى الكويتيين أعلاما أمريكية وقاد قطيع مراسلى الإعلام لتصوير التظاهرة المدبرة. قال ريندون عن ذلك فى ١٩٩١ «من اين تعتقدون انهم أتوا بالأعلام الأمريكية؟ تلك كانت مهمتى».

وقد تكون شركة ريندون قد لعبت دورا فى دفع المعلومات المزيفة التى أصبحت مثل لعنة على إدارة بوش. فى كانون الأول ٢٠٠٢ كتب روبرت درايفوس بان الحلقة الضيقة فى البيت الأبيض كانت تفضل المعلومات الصادرة عن الجلبى ورفاقه من تلك التى يقدمها محللو وكالة المخابرات المركزية.

إذن كانت مهمة ريندون وأمثاله تقديم نوع جديد من الحرب النفسية خارج الدائرة الرسمية، أى خصخصة البروباجندا الرسمية ويقول عن نفسه «أنا لست محللا للأمن القومى أو تكتيكى عسكرى. أنا سياسى وشخص يستخدم الاتصالات لتلبى أهداف السياسة العامة أو لصناعة أهداف السياسة. فى الواقع أنا محارب معلومات ومدير الوعى».

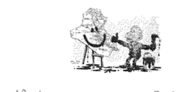
ما هى بالضبط إدارة الوعى؟ البنتاجون يعرفها كالتالى «إجراءات لتوصيل و/أو إخفاء معلومات منتقاة ومؤشرات للجماهير الأجنبية للتأثير على عواطفهم ودوافعهم وإدراكهم المحايد» بتعبير آخر الكذب حول مقاصد الإدارة الأمريكية. وفى عرض نادر للصراحة على الملأ سمح البنتاجون بتسريب خطته التى طورها ريندون من اجل تأسيس وكر على مستوى عال داخل وزارة الدفاع لإدارة الوعى. وقد أطلق عليه «مكتب التأثير الإستراتيجى» ومن بين مهامه العديدة زرع قصص كاذبة فى الصحافة.

لاشىء يحرك الإعلام السائد فى غضبة للكرامة مثل مذكرة حكومية رسمية تتبجح حول كيفية استغلال الإعلام لتحقيق أغراض سياسية. وهكذا فإن نيويورك تايمز وواشنطن بوست أثارتا زوبعة حول مكتب التأثير الإستراتيجى. فقام البنتاجون بإنهاء العملية، وانتفخت اوداج الصحافة بهذا النصر. ومع ذلك فقد ابلغ رامسفيلد فريق صحافة البنتاجون بأنه رغم إقفال المكتب ولكن نفس العمل سوف يستمر «يمكنكم أن تستلموا الجثة. يمكنكم أن تأخذوا الاسم، ولكنى سوف استمر بعمل كل ما نحتاج عمله. وقد فعلت».

وعلى المستوى الدبلوماسى، ورغم البنادق المؤجرة والقصص المزروعة فإن صورة الحرب قد ضاعت. فقد فشلت فى إقناع حتى اشد الحلفاء حماسة والدول العميلة لأمريكا بان العراق كان يشكل خطرا. وفشلت فى إحراز مباركة الأمم المتحدة وحتى الناتو، وهو تابع لواشنطن. وفى نهاية الأمر، تشكل حلفاء الراغبين من بريطانيا وإسبانيا وإيطاليا واستراليا وبعض دول الاتحاد السوفيتى السابق. وحتى مع ذلك كانت شعوب تلك الدول تعارض الحرب.

فى الداخل كانت الحكاية مختلفة. أصبح الشعب المذعور بتهديدات الإرهاب والاقتصاد المتردى فريسة سهلة لقصف بوش الإعلامى بان العراق دولة إرهابية ترتبط بالقاعدة وأنها على وشك شن هجمات على أمريكا بأسلحة الدمار الشامل.

وقع الأمريكان ضحية نصب ذكى يسنده قصف يومى من تضخيم الخطر والتشويه والخداع والأكاذيب، ليس حول تكتيكات أو ستراتيجية أو خطط الحرب وإنما حول مبررات الحرب. لم تكن الأكاذيب تهدف إلى إرباك نظام صدام حسين وإنما الشعب الأمريكى. مع بداية الحرب كان ٦٦٪ من الأمريكان يعتقدون أن صدام حسين كان وراء أحداث ١١ أيلول و٧٩٪ يعتقدون انه كان على وشك الحصول على سلاح نووى.



كيف تبيع حربا..؟!

وبالتأكيد كان اقرب شىء وصله العراق بخصوص امتلاك قنبلة نووية هو طارد غاز صدئ مدفون لمدة ١٣ سنة فى حديقة مهدى العبيدى وهو عالم عراقى متقاعد. لم يكن فى العراق أية أسلحة كيماوية أو بيولوجية فاعلة. فى الواقع، لم يكن يملك حتى أى صواريخ سكود رغم روايات البنتاجون حول صواريخ سكود التى أطلقت على الكويت.

لم تكن هذه الاستعراضات ستنجح لولا كتائب الصحافة المتواطئة. وقد وصفت فكتوريا كلارك التى طورت خطة البنتاجون للصحافة المرافقة للجيش، ذلك بوضوح قبل عدة أسابيع من الحرب: «سوف تشكل التغطية الإعلامية لأية عملية مستقبلية الوعى الشعبى إلى حد كبير».

خلال حرب الفيتنام، ساهمت صور الجنود المعوقين والقرى المضروبة بالنابالم فى دعم المعارضة للحرب وساعدت فى تسريع انسحاب الجيش الأمريكى. وقد قصدت عصابة بوش على قلب ظاهرة فيتنام رأسا على عقب باستخدام التلفزيون كقوة لدفع الولايات المتحدة فى حرب لا يريدها أحد فى الواقع.

ما كان البنتاجون يسعى إليه هو نوع من حرب الصالونات حيث يمكن السيطرة على الصور التى يتفرج عليها الأمريكان بدلا من صور الجنود القتلى والأطفال العراقيين الموتى، والى حد كبير السيطرة على محتوى الأخبار. وبعملية إرفاق المراسلين مع فرق معينة من الجيش، كانت كلارك تعتقد أن البنتاجون يستطيع بهذه الطريقة أن يعتمد على أن يقيم المراسلون علاقات إنسانية مع القوات إلى حد الشعور بالاعتماد فى حياتهم وأمنهم عليهم. وقد نجحت الفكرة بطبيعة الحال. أحد المراسلين لشبكة التلفزيون الوطنية قال إن الجيش الأمريكى هو «حامينا». وقد اعترف المراسل الراحل ديفد بلوم فى ان بى سى، على الهواء بأنه مستعد «لعمل أى شىء وكل شىء يطلبه الجيش منه».

وهكذا حين احتاج البنتاجون إلى قصة بطولية، قامت الصحافة بالواجب. وأصبحت جيسيكا لينج أول نجمة فورية للحرب. كانت أسطورتها: امرأة شجاعة أصيبت فى معركة شرسة وأسرها عدو لا يعرف الرحمة ولكن فريقا من منقذين أبطال ضحوا بأرواحهم لإنقاذها من الموت. وكانت الصورة التلفزيونية تنقل فرسان مدرعين ويضعون نظارات الرؤية الليلية. وقد اتضح فيما بعد أن كل تفاصيل مغامرتها البطولية كانت كاذبة وملفقة. ولكن محنة الجندية لينج التى هيمنت على الأخبار لمدة أسبوع كانت صالحة للغرض الذى أطلقت من أجله: تحويل الانتباه عن حملة عسكرية متعثرة بدأت تبدو أخطر مما صورتها الإدارة الأمريكية للشعب الأمريكى.

وقد تلقفت الصحافة النهمة قصة لينج ضمن عملية بنتاجون اسمها (كاميرة قتالية) وهى شبكة مصورى الجيش والمحررين الذين كانوا يرسلون ٨٠٠ صورة و٢٥ لقطة فيديو فى اليوم إلى الإعلام. وكانت مهمة المحررين فى عملية(كاميرا قتالية) combat camera يراجعون الأفلام لعمل مونتاج يناسب البنتاجون حاذفين مشاهد غير مريحة مثل الأضرار الثانوية (الضحايا العراقيين) والقنابل العنقودية والأطفال والجنود القتلى وضربات النابالم والقوات المتذمرة.

وقد تنبأت اللفتنانت جين لاروج مديرة (كاميرا قتالية) فى العراق «الكثير من صورنا سوف يكون لها اثر كبير على الرأى العالمى». وكانت محقة فى ذلك. ولكن حين تحولت الحرب الساخنة إلى احتلال اشد سخونة، سعى البنتاجون، رغم خطاب حاكم الاحتلال بول بريمر حول إقامة مؤسسات ديمقراطية مثل الصحافة الحرة، إلى تشديد القبضة على احتكار تدفق الصور الخارجة من العراق. أولا حاول إغلاق قناة الجزيرة القناة الإخبارية العربية. ثم أعلن البنتاجون انه يود طرد كل فرق الأخبار التلفزيونية الأجنبية من بغداد.

ونفخت بعض الصحف فى التهديد الذى تمثله أسلحة الدمار الشامل العراقى كما فعلت الواشنطن بوست. فى الأشهر السابقة للحرب، كانت نسبة الافتتاحيات فى البوست المؤيدة للحرب إلى المناهضة هى ٣ إلى ١.

وعديد من الصحفيين القارعين طبول الحرب على العراق كانوا قبل سنوات يقفون موقفا مناقضا. خذ مثلا الكاتبة لورا ميلروى التى تصر على أن العراق كان وراء تفجير مبنى اوكلاهوما فى ١٩٩٣.

كيف تغير الزمان! فى ١٩٨٧ كانت ميلروى تشعر بالتعاطف مع صدام وقد كتبت مقالة فى «نيو ريبابلك» بعنوان «العودة إلى العراق: حان الوقت لتغيير السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط» وقد جادلت فيها أن على الولايات المتحدة احتضان نظام صدام العلمانى كحاجز أمام الأصولية الإسلامية فى إيران. وكان المؤلف الذى شاركها هذا الرأى هو دانيال بايبز الذى يعتبر اليوم اشد المصابين الأمريكيين بمرض الإسلام فوبيا. وقد كتبت مالروى وبايبز «تشمل الأسلحة الأمريكية التى يمكن أن يستخدمها العراق، الألغام المضادة للبشر والرادار الكاشف للمدفعية. ويمكن للولايات المتحدة أيضا زيادة المعلومات الاستخباراتية التى تزود العراق بها».

فى التحضير للحرب، ظهرت ميلروى فى كل الوسائل الإعلامية للحض على غزو العراق. كانت تظهر غالبا فى قناتين أو ثلاث فى نفس اليوم. كيف يمكن للمراسل أن يصل إلى هذا الإنجاز؟ كانت تساعدها الينا بينادور نجمة الإعلام التى تدير رابطة بينادور. من مواليد بيرو، وضعت بينادور مهارتها اللغوية فى مهنة مربحة مثل تسهيل العلاقات الإعلامية لصفوة السياسة الخارجية فى واشنطن. وهى أيضا تشرف على منتدى الشرق الأوسط وهو طاحونة فكر صهيونى. ومن زبائنها بعض أهم صقور الأمة مثل مايكل لدين وتشارلس كروثامر وال هيج وماكس بوت ودانيال بايبز وريتشارد بيرل وجودى ميلر. وخلال حرب العراق كانت مهمة بينادور زرع هؤلاء المتحمسين للحرب فى وسائل الإعلام، وفى برامج الحوارات وصفحات الرأى.

ولم تكتف بينادور بذلك وإنما كانت هى التى تقترح المواضيع وتراقب لئلا يخرج الضيوف عن النص. وتقول عن ذلك: «هناك بعض الأشياء، عليك أن تقولها بشكل مختلف، مختلف قليلا وإذا لم تفعل ذلك سيفزع الناس، سيفزعون من نوايا حكومتهم.

كان يمكن للإعلام أن يتناول قضية الحرب بشكل مختلف، كأن يفضح ثقوب نسيج بيت العنكبوت الذى غزلته الإدارة الأمريكية فى تبرير الحرب، ولكن بدلا من ذلك تصرفت الصحافة الأمريكية مثل شركات النفط. فقد سعت للتربح من حرب العراق والاستفادة من الغزو. لم يكن هاجسهم الوقائع غير المريحة أو تقديم أصوات معارضة.

لاشىء يوجز هذه المقاربة بشكل كاشف فاضح مثل طرد فيل دوناهيو مقدم أحد برامج الحوارات الحرة فى MSNBC عشية الحرب. وقد استبدلت الشبكة برنامجه (عرض دوناهيو) ببرنامج اسمه (العد التنازلى:العراق) وهو يقدم الشكل المعهود من تحليلات العسكريين المتقاعدين ومسئولى الأمن وآخرين من المطبلين للغزو. وقد وضع رؤساء الشبكة اللوم فى إلغاء برنامج دوناهيو على قلة مشاهديه. فى حين أن الواقع يقول شيئا مخالفا. فخلال حياة البرنامج كان عدد المشاهدين اكثر من أى برنامج آخر على الشبكة. وقد توضح السبب الحقيقى لهذه الضربة الوقائية على دوناهيو فى مذكرة داخلية رؤساء شبكة إن بى سى القلقين. تقول المذكرة إن دوناهيو يقدم واجهة صعبة للشبكة فى زمن الحرب فيبدو انه يستمتع باستضافة ضيوف مناهضين للحرب ومناهضين لبوش ويسودهم التشاؤم والتشكك بدوافع الإدارة الأمريكية».

وقد حذرت المذكرة من أن برنامج دوناهيو يعرض الشبكة لخطر وصمها باللاوطنية وانها «مكان لاجندة الليبراليين مناهضى الحرب فى نفس الوقت الذى يلوح به منافسونا بالعلم فى كل مناسبة» وهكذا وبدون نظرة ثانية، ركلت الشبكة دوناهيو ورفعت علم المعركة.

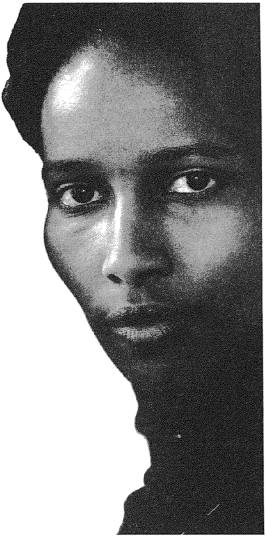
إن مبيعات الحرب تكسب.

ولكن لابد من التحذير منعا سوء الفهم: هذه البضاعة لا تسترجع ولا تستبدل..

جيفيرى سانت كلير مؤلف كتاب «كان اللون بنيا لفترة طويلة حتى ليبدو خضر فى عينى: سياسات الطبيعة» وكتاب «السرقة الكبرى: البنتاجون» وكتابه الأحدث «زمن النهاية: موت السلطة الرابعة» بالمشاركة مع المؤلف اليكساندر كوكبرن. ■

ورغم البنادق المؤجرة والقصص المزروعة فإن صورة الحرب قد ضاعت. فقد فشلت فى إقناع حتى أشد الحلفاء حماسة والدول العميلة لأمريكا بأن العراق كان يشكل خطرا. وفشلت فى إحراز مباركة الأمم المتحدة وحتى الناتو، وهو تابع لواشنطن

EURABIA



الصعوبات التى تواجهها أوروبا مع مسلميها هى أيضا موضع تبسيط هستيرى، خاصة فى الولايات المتحدة حيث تزداد انتشارا المخاوف المتكررة من أن تقع «عوروبا Eurabia، أو أوروبا المستعربة» الواهية المعادية لأمريكا وللسامية أسيرة للهيمنة العربية الإسلامية

قمت فى العام الماضى بزيارة كاتدرائية سان دينى الشهيرة الواقعة فى أطراف باريس. وقد بهرتنى الأضرحة والآثار الجنائزية الرائعة للوك وملكات فرنسا، بمن فيهم «شارل مارتل Charles Martel» الشهير بـ«المطرقة»، والذى يعد انتصاره على جيوش المسلمين الغازية قرب «بواتييه Poitiers» عام ٧٣٢ للميلاد علامة فارقة فى إيقاف الزحف الإسلامى على أوروبا (عام ٧٣٢ هو العام الأكثر شيوعا، ولكن اثنين من العلماء الفرنسيين يؤكدان أن ذلك وقع عام ٧٣٣، انظر كتاب: معركة بواتييه - أكتوبر ٧٣٣، تأليف «جيه إتش روى» و«جيه ديفيوس») ولدى خروجى من الكاتدرائية، سرت حوالى مائة ياردة عبر ميدان «فيكتور هوجو» إلى الشارع التجارى الرئيسى الذى كان يعج بالمتسوقين المحليين ذوى الأصول العربية والأفريقية، بمن فيهم الكثير من النساء اللاتى يرتدين الحجاب. وجدت نفسى أفكر: إذن فقد انتصر المسلمون فى معركة «بواتييه» رغم كل شىء! لم ينتصروا بقوة السلاح وإنما بالهجرة السلمية والتوالد.

على مسافة قصيرة من طريق كاتدرائية الملوك، وفى المكاتب الخلفية المتحفظة لـ«جمعية التوحيد»، التقيت بـ«عبد العزيز الجوهرى»، أحد أبناء المهاجرين المغاربة البربر، وهو ناشط سياسى إسلامى فصيح. وقد تحدث بعاطفة جياشة وبلغة فرنسية مثالية عن بؤس الأحياء السكنية الفقيرة حول باريس - التى كانت تتعرض ثانية أثناء حديثنا إلى الدمار بسبب الاحتجاجات - والتمييز الاجتماعى المستمر ضد المهاجرين والمتحدرين منهم. قال «الجوهرى» بغضب: «إن النموذج الجمهورى» الفرنسى الشهير إنما يعنى فى الواقع «أنا أتحدث الفرنسية، وأدعى جان-دانيال، عيونى زرقاء، وشعرى أشقر». أما إذا كنت أدعى «عبدالعزيز»، ولى بشرة داكنة، ومسلم كذلك، فإن الجمهورية الفرنسية لا تطبق فى الواقع ما تدعو إليه. أين نحن من «المساواة» و«الحرية» و«الأخوة» (الشعار الثلاثى للثورة الفرنسية)؟ ثم أرسل «الجوهرى» رسالته الشخصية إلى «نيكولاس ساركوزى Nicolas Sarkozy» وزير الداخلية المتشدد والمرشح اليمينى الأول لخلافة «جاك شيراك Jacques Chirac» كرئيس لفرنسا، (وهو ما حدث بالفعل) فى كلمات لن أنساها أبدا، قال «الجوهرى» بصوت مدو: «أنا فرنسا».

كان من الممكن أن يضيف «الجوهرى» أيضا «أنا أوروبا». حيث إن العزلة الصارخة لكثير من المسلمين - خاصة الجيلين الثانى والثالث لعائلات المهاجرين، شباب وفتيات ولدوا فى أوروبا - هى إحدى أعقد المشكلات التى تواجه القارة اليوم. ولو استمرت الأوضاع السيئة الحالية، فإن تلك العزلة وما تفرزه وتتغذى عليه من استياء البيض - أساسا - من الأوروبيين المسيحيين، يمكن أن تمزق النسيج المدنى لأعرق الديمقراطيات الأوروبية. لقد حفزت تلك العزلة بالفعل قيام أحزاب شعبية مناوئة للمهاجرين، وساهمت بصورة مباشرة فى الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ (كان خاطفو الطائرات من أمثال محمد عطا قد تطرفوا أثناء إقامتهم فى أوروبا)، وفى تفجيرات مدريد فى الحادى عشر من مارس ٢٠٠٤، واغتيال المخرج الهولندى «ثيو فان جوخ» فى الثانى من نوفمبر ٢٠٠٤، وتفجيرات لندن فى السابع من يوليو ٢٠٠٥، والتخطيط لمحاولة تفجير عدة طائرات ركاب متجهة من بريطانيا إلى الولايات المتحدة والتى أحبطتها السلطات

1- Murder in Amesterdam: The Death of Theo Van Gogh and the Limits of Tolerance

(جريمة قتل فى أمستردام: مصرع ثيو فان جوخ وحدود التسامح)

Ian Buruma

Penguin, 278PP., $24.95

2 -The Caged Virgin: An Emancipation Proclamation for Women and Islam

(العذراء الحبيسة: دعوة لإعتاق النساء والإسلام)

Ayaan Hirsi Ali

Free Press, 187PP., $19.95

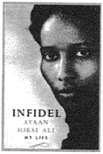
بترتيب مع مجلة:

The New York Review of Books

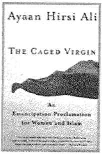
ترجمة: عادل فتحى

عـــوروبـــا!

تيـمـوثـى جـارتـون آش







البريطانية فى العاشر من أغسطس ٢٠٠٦ .

إن الصعوبات التى تواجهها أوروبا مع مسلميها هى أيضا موضع تبسيط هستيرى، خاصة فى الولايات المتحدة حيث تزداد انتشارا المخاوف المتكررة من أن تقع «عوروبا Eurabia، أو أوروبا المستعربة» الواهية المعادية لأمريكا وللسامية أسيرة للهيمنة العربية الإسلامية («عوروبا» هو العنوان الأصلى لجريدة مغمورة، ويبدو أن هذا المصطلح قد شاع على يد كاتبة تدعى «بات يوور Bat Ye'or». ويلخص غلاف كتابها «عوروبا: المحور الأوروبى- العربى Eurabia: The Euro-Arab Axis» تلك النظرية: «يتحدث هذا الكتاب عن تحول «أوروبا» إلى «عوروبا»، وهو ملحق ثقافى وسياسى عن العالم العربى/ الإسلامى. و«عوروبا» هى بالضرورة ضد المسيحية وضد الغرب وضد أمريكا وضد السامية». وتستند حجة «بات يوور» - التى تشكل نظرية المؤامرة أحد أهم عناصرها - فى معظمها إلى تأثير التعاليم السرية المزعومة لمنظمة تدعى الحوار الأوروبى العربى Euro-Arab Dialogue (EAD)». وفيما يلى نموذج لأسلوبها المباشر المتوازن: «هل تعد حرب الاتحاد الأوروبى السرية ضد إسرائيل، من خلال حلفائها العرب الفلسطينيين، هى استكمال للمحرقة؟» وهى تصف الأمم المتحدة بأنها «محكمة دولية معادية للسامية تسعى لفرض الرؤية الإسلامية لأهل الذمة على إسرائيل. وفى كتابه: «عندما نامت أوروبا: كيف يدمر الإسلام المتطرف الغرب من الداخل While Europe Slept: How Radical Islam Is Destroying the West from Within» يكرر «بروس باور Bruce Bawer» - بلا تمحيص - نظرية «بات يوور»، بل ويشير إلى أنه «بإمكان أوروبا ببساطة أن تصر على أساليبها السلبية وأن تنزوى عبر فترة انتقالية إلى حكم كامل للشريعة الإسلامية وتطبيق كامل لوضع أهل الذمة. ورغم السوابق المريبة أعلاه، فإن كلمة «عوروبا» حققت مؤخرا مصداقية كاملة عبر الأطلنطى، حيث وردت على غلاف مجلة «الاقتصادى Economist». ارجع للمجلة، عدد ٢٤-٣٠ يونيو ٢٠٠٦). وبصفتى أحد سكان «عوروبا»، فلابد أن أوضح بعض الفوارق الأساسية. بداية، هل نتحدث عن الإسلام أم المسلمين أم الإسلاميين أم العرب أم المهاجرين أم داكنى البشرة أم الإرهابيين؟

إن كل تلك الأشياء السبعة تختلف عن بعضها.

حيث أعيش - فى أوكسفورد، عوروبا - فإنى ألتقى بالمسلمين البريطانيين بصورة يومية تقريبا. إن جذور عائلاتهم تعود إلى باكستان والهند وبنجلاديش. وهم مواطنون بريطانيون مسالمون وملتزمون بالقانون ومكافحون أكثر من العديد ممن أعرفهم من الإنجليز الأصليين. وكما يشير مؤلفو دراسة حديثة ممتازة عن الإسلام فى فرنسا، فإن غالبية المسلمين الفرنسيين قد اندمجوا جيدا - نسبيا - فى المجتمع الفرنسى (كتاب «دمج الإسلام: التحديات السياسية والدينية فى فرنسا المعاصرة Integrating Islam: Political and Religious Challenges in Contemporary France» تأليف: «جوناثان لورانس Jonathan Laurence» و«جاستين فيس Justin Vaisse»). إن الكثير من التمييز الذى يشكو منه «الجوهرى»، والذى ينتشر بصور مختلفة ودرجات متفاوتة فى معظم الأقطار الأوروبية، يعانى منه بنفس الدرجة المهاجرون من غير المسلمين. لقد كان - إذا جاز التعبير - تمييزا أعمى ضد البشر ذوى البشرة الداكنة والأسماء أو اللهجات الأجنبية، إنها عنصرية صرفة عتيقة الطراز أو نوع من رهاب الأجانب، أكثر من كونها تحاملا أكثر تحديدا يعرف الآن باسم رهاب الإسلام.

هناك عبر القارة الأوروبية عدد من القضايا شديدة التباين - وإن كانت متشابكة - خاصة بالإسلام. إن الاتحاد الروسى يضم أكثر من ١٤ مليون شخص - يشكلون ١٠٪ على الأقل من عدد السكان الذى يتناقص بسرعة - ممن يمكن اعتبارهم مسلمين، ولكن غالبية الأوروبيين لا يعتبرونهم جزءا من المشكلة الأوروبية (تتباين كثيرا أرقامهم التقديرية ما بين ثلاثة ملايين إلى ثلاثين مليونا. وعندما تقدمت روسيا عام ٢٠٠٣ بطلب للانضمام إلى منظمة المؤتمر الإسلامى، ذكر فلاديمير بوتين رقما تقريبيا مشكوك فيه هو ٢٠ مليون. إرجع إلى البحث الموثق لـ «إدوارد دبليو ووكر Edward W. Walker» فى مجلة «الجغرافيا والاقتصاد فى أوراسيا Eurasian Geography and Economics» المجلد ٤٦، العدد ٤، ٢٠٠٥. وأنا مدين بالشكر العميق لـ «جون دانلوب John Dunlop» لمساهمته بهذا المرجع). وعلى النقيض من ذلك، فى حالة دولة مثل تركيا تضم حوالى سبعين مليون مسلم يعيشون فى دولة علمانية، فإن الأوروبيين يتجادلون بشدة بشأن ما إذا كان يجب قبول قطر كبير - مسلم فى معظمه - لم يكن يعد جزءا من أوروبا من معظم النواحى الثقافية والتاريخية والجغرافية التقليدية، عضوا فى الاتحاد الأوروبى. وتوجد فى البلقان منذ قرون مجتمعات من المسلمين الأوروبيين - يزيد عددهم الإجمالى عن سبعة ملايين - بمن فيهم دولة مسلمة كبيرة هى ألبانيا، وكيان آخر هو كوسوفو الذى سيصبح - عاجلا أو آجلا - دولة ذات أغلبية مسلمة، والبوسنة وهى دولة هشة ذات أكثرية مسلمة أيضا، وكذلك أقليات لا يستهان بها فى مقدونيا وبلغاريا وصربيا والجبل الأسود.

إن هؤلاء المسلمين البلقان أوروبيو الأصل وليسوا مهاجرين لأوروبا. ومع ذلك فهم يشكلون - مثل الأتراك - جزءا من الأقليات المسلمة المهاجرة فى دول أوروبا الغربية مثل ألمانيا وفرنسا وهولندا. وفى خلال عقد من الزمان سيصبح معظم مسلمى البلقان - على الأرجح - مواطنين فى الاتحاد الأوروبى، سواء عن طريق انضمام دولهم للاتحاد الأوروبى أو بحصولهم هم أنفسهم على جنسية دول أخرى عضو فى الاتحاد الأوروبى. لقد ساهم التراخى المخزى لأوروبا الغربية تجاه الاضطهاد الصربى و- بدرجة أقل - الكرواتى لمسلمى البوسنة فى التسعينيات فى إذكاء شعور واسع بأن المسلمين كانوا ضحايا فى أوروبا. وبالنسبة للتدخل العسكرى لأوروبا الغربية - والولايات المتحدة - فى كوسوفو لمنع محاولة إبادة الألبان المسلمين على يد الصرب المسيحيين، فلم يعد الكثيرون يذكرونه الآن كثيرا.

عندما يتحدث الناس باستفاضة عن «المشكلة الإسلامية فى أوروبا»، فإن ما يفكرون به عادة هم الأكثر من خمسة عشر مليون مسلم المتحدرين من عائلات من أصول مهاجرة والذين يعيشون الآن فى دول أعضاء فى الاتحاد الأوروبى تقع فى غرب وشمال وجنوب القارة وكذلك فى سويسرا والنرويج. أما أعدادهم فى الدول حديثة الانضمام للاتحاد الأوروبى والتى تقع فى وسط وشرق أوروبا - مثل بولندا - فهى قليلة لا تذكر. ورغم أن عملية الإحصاء فى فرنسا معقدة بسبب إغفال الجمهورية الفرنسية - نظريا - لاعتبارات اللون والدين والأصول العرقية وعدم احتفاظها بإحصائيات واقعية، فمن المرجح وجود ما يقدر بخمسة ملايين مسلم فى فرنسا، أى ما يزيد على ثمانية بالمائة من إجمالى عدد السكان. وربما هناك أربعة ملايين مسلم - معظمهم من الأتراك - فى ألمانيا، وحوالى مليون مسلم فى هولندا، أى أكثر من خمسة بالمائة من إجمالى عدد السكان.

يعيش معظم هؤلاء المسلمين فى المدن و- إجمالا - فى مناطق معينة من تلك المدن، مثل المنطقة الإدارية حول «سان دينى» التى تضم بعضا من أسوأ المشاريع الإسكانية سمعة فى ضواحى باريس. ويقدر أن واحدا من كل أربعة يقطنون مارسيليا هو من المسلمين. وفى كتابه الرائع «جريمة قتل فى أمستردام» يكشف «إيان بوروما» عن إحصائية رسمية تؤكد أن حوالى ٤٥٪ من تعداد سكان أمستردام عام ١٩٩٩ كانوا من أصول أجنبية، وهى نسبة يتوقع ارتفاعها بحلول عام ٢٠١٥ إلى ٥٢٪ معظمهم من المسلمين. إن



المهاجرين المسلمين لديهم عامة معدلات مواليد أعلى من السكان الأوروبيين «المحليين». ووفقا لأحد التقديرات فإن أكثر من ١٥٪ من الفرنسيين بين السادسة عشرة والخامسة والعشرين هم من المسلمين (انظر المقال عظيم الفائدة لـ «تيموثى إم سافيج Timothy M. Savage» بعنوان «أوروبا والإسلام: تعاظيم الهلال، صدام الثقافات Europe and Islam: Crescent Waxing, Cultures Clashing» مجلة «واشنطون ربع السنوية The Washington Quarterly» المجلد ٢٧، رقم ٣، صيف ٢٠٠٤، صفحة ٢٥-٥٠).

وعلى ذلك، فمع استمرار الهجرة والارتفاع النسبى لمعدل المواليد واحتمال توسعة الاتحاد الأوروبى إلى البلقان وربما تركيا، فإن المزيد والمزيد من مواطنى الاتحاد الأوروبى سيصبحون مسلمين. إن المسلمين سوف يشكلون ما بين ٢٠ إلى ٩٠ بالمائة من تعداد السكان فى بعض أحياء المدن فى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا وهولندا. وستكون غالبيتهم من الشباب، والكثير جدا منهم سيكونون من الفقراء ضعيفى التعليم وعاطلين عن العمل ومنعزلين عن المجتمع، لا يشعرون بالانتماء للمكان الذى يعيشون فيه ولا للقطر الذى جاء منه آباؤهم، ويقعون فى حبائل المخدرات والجريمة أو التطرف السياسى والدينى.

ولو استطعنا نحن الأوروبيين التقليديين أن نعكس الاتجاه الحالى ونمكن أناسا مثل «الجوهرى» وأبنائه من أن يشعروا بالانتماء فى وطنهم كمسلمين أوروبيين، فمن الممكن أن يصبحوا مصدرا للإثراء الفكرى والحيوية الاقتصادية ويساعدوا فى التعويض عن المعدل المتسارع لزيادة عدد المسنين فى أوروبا. ولو فشلنا فى ذلك فسوف نواجه المزيد والمزيد من التفجيرات.

لقد طرأت لدى «إيان بوروما» - وهو نصف هولندى ونصف بريطانى ولكنه عالمى تماما - فكرة رائعة أن يعود إلى وطنه هولندا لاستكشاف أسباب ومغزى عملية الاغتيال التى تمت فى الثانى من نوفمبر ٢٠٠٤ وراح ضحيتها «ثيو فان جوخ» وهو مخرج أفلام ومنتقد مستفز للثقافة الإسلامية، على يد شاب هولندى مغربى الأصل عمره ٢٦ عاما يدعى «محمد بويرى». وصل «بويرى» إلى مكان الحادث على متن دراجة وأطلق النار على «فان جوخ» عدة مرات فى شارع عام ثم أخرج مدية وشق عنقه كما لو كان «يشق إطارا مطاطيا» حسبما ذكر أحد الشهود. ثم استخدم «بويرى» سكينا آخر ليثبت على صدر «فان جوخ» رسالة طويلة غير مترابطة تنادى بشن حرب مقدسة ضد كل الكفار وقتل عدد من الناس الذين يكرههم، وعلى رأسهم السياسية الهولندية (سابقا) صومالية المولد «أيان هيرسى على» والتى كانت الرسالة موجهة إليها. كان «فان جوخ» قد قام بالاشتراك مع السيدة «على» بعمل فيلم قصير بعنوان «إذعان Submission» يصور قهر النساء فى بعض العائلات المسلمة عن طريق عرض آيات من القرآن (الكريم) على أجساد الفتيات شبه العارية بينما هن يسردن الإساءات الشخصية التى تعرضن لها. وقد تضمنت رسالة اغتيال «بويرى» ما يلى:

أنا مؤمن تماما أن أمريكا سوف تسقط

أنا مؤمن تماما أن أوروبا سوف تسقط

أنا مؤمن تماما أن هولندا سوف تسقط

أنا مؤمن تماما أن هيرسى على سوف تسقط

أنا مؤمن تماما أن الكفار المتعصبين سوف يسقطون

والسؤال الذى يشغل بال «بوروما» فى كتابه «جريمة قتل فى أمستردام» - وهو عبارة عن مجموعة من المقالات والتحقيقات الصحفية المتميزة المثيرة الذكية - هو: ما الذى حدث للبلد المتسامح المتحضر الذى أتذكره من طفولتى؟ (كان «بوروما» قد غادر هولندا عام ١٩٧٥ فى سن الثالثة والعشرين). ما الذى حدث لأرض «سبينوزا Spinoza» (باروخ سبينوزا من أهم الفلاسفة الهولنديين فى القرن السابع عشر) و«يوهان هويزينجا Johan Huizinga» ١٨٧٢- ١٩٤٥ وهو مؤرخ هولندى ومن مؤسسى علم التاريخ الثقافى الحديث (الذى زعم فى مقال له نشر عام ١٩٣٤ أنه إذا حدث يوما أن أصاب التطرف الهولنديين، فإن تطرفهم سيكون تطرفا معتدلا؟ ذكر «بوروما» فى كتابه أن اغتيال «فان جوخ» كان «نهاية لحلم جميل من التسامح والنور فى أكثر البقاع الصغيرة تقدما فى أوروبا». ولكن جزءا من إجابته يوحى بأن الحقيقة اختلفت دائما عن أسطورة التسامح الهولندى، لو نظرنا على سبيل المثال إلى المواقف تجاه اليهود أثناء وبعد الحرب. ويستشهد «بوروما» بتصريح رائع لـ «فريتز بولكشتاين Frits Bolkestein» وهو سياسى هولندى شهير ومفوض أوروبى سابق، يقول فيه: «لا يجب أبدا أن نستخف بمدى الكراهية التى يشعر بها الشعب الهولندى تجاه المهاجرين المغاربة والأتراك، ليس «المسلمين» بالتحديد وإنما المهاجرون من بلدان معينة».

الآن يعود «بوروما» لزيارة الضواحى الخضراء التى عاش بها طفولته - تتكرر كلمتا «خضراء» و«مورقة» مرارا - ويتحدث إلى المفكرين وأولئك الذين يطلق عليهم بسخرية «أصدقاء ثيو» ويستمع إلى آرائهم بشأن الكيفية التى انهار بها النموذج الهولندى للتعددية الثقافية والذى كان يقوم على أعمدة مستقلة لكل ثقافة. لقد تم السماح بدخول عدد هائل من المهاجرين فى فترة وجيزة ولم يندمجوا بما يكفى فى المجتمع الهولندى من النواحى اللغوية أو الثقافية أو الاجتماعية. لقد تم جلب الآباء والأمهات إلى هولندا للعمل كـ «عمال ضيوف»، ولكن أبناءهم أصبحوا الآن بلا عمل غالبا.

وبالنسبة لموقف الشعب الهولندى من الإسلام، فإن «بوروما» يشير إلى أن أمثال «بيم فورتيون Pim Fortuyn» السياسى الشعبى المعادى للمهاجرين كانوا يشعرون بالغضب الشديد إزاء قيام المسلمين بالإفصاح عن عقيدتهم علنا، لأنهم هم أنفسهم كانوا قد تمكنوا للتو من «الانعتاق بصعوبة شديدة من قيود دياناتهم الأصلية»، أى المسيحية الكاثوليكية أو البروتستانتية، ناهيك عن ذكر مواقف المسلمين تجاه الشواذ جنسيا (كان «فورتيون» واحدا منهم) والنساء. وعندما سئل «فورتيون» عن عدائه للإسلام، قال: «ليست لدى الرغبة أن أمر بتجربة تحرير النساء والشواذ جنسيا مرة ثانية». وقد اغتيل «فورتيون» على الطريقة الهولندية على غرار «فان جوخ» على يد رجل يقود دراجة، وإن لم يكن قاتله مسلما هذه المرة. كان «فان جوخ» مفتونا بـ «فورتيون». فى الواقع - كما كتب «بوروما» - فقد لقى المخرج مصرعه على يد «بويرى» بينما كان يقوم بعمل فيلم رعب على غرار أفلام «هيتشكوك» عن عملية اغتيال سفورتيون».

بالنسبة لنا نحن الأوروبيين غير المسلمين أو الغربيين عموما، فإن الجزء من القصة الذى يسرد ردود أفعال أناس مثل «فورتيون» و«فان جوخ» هو الذى يروق لنا أكثر من غيره. ولكن الجزء الآخر هو فعلا ما نحتاج لأن نفهمه، ألا وهو تجربة المهاجرين المسلمين والمتحدرين منهم. هل كان القاتل «محمد بويرى» مختلا وحيدا، أم أنه كان عرضا لوباء أوسع انتشارا؟ إن الإجابة ليست مطمئنة. إن «بويرى» ينتمى لمن أدعوهم بـ «ناس الوسط»، أولئك الذين لا يشعرون بالانتماء للبلدان الأوروبية التى يعيشون فيها ولا للأقطار التى جاء منها آباؤهم. إنهم يقطنون «مدنا فضائية» متصلة بالبلدان التى ولد فيها آباؤهم وأمهاتهم عن طريق أطباق الاستقبال الفضائية التى تجلب القنوات التليفزيونية المغربية والتركية، وعن طريق الإنترنت والتليفونات المحمولة. وبخلاف المهاجرين المسلمين فى الولايات المتحدة فإن الكثير من المهاجرين المسلمين فى أوروبا يذهبون لـ «الوطن» كل صيف، إلى المغرب والجزائر وتركيا أو أى قطر آخر قريب من أوروبا، ولعدة شهور فى كل مرة أحيانا. وعادة ما يتحدث الجيل الثانى فى وطنه الأوروبى باللغة المحلية - الهولندية أو الفرنسية أو الإنجليزية - مع إخوتهم وأخواتهم، بينما يتحدثون باللغة الأصلية - البربرية أو العربية أو التركية - مع آبائهم وأمهاتهم، أى بنسبة ٥٠- ٥٠ كما ذكر لـ «بوروما» رجل هولندى من أصل مغربى بربرى. وعندما سأله «بوروما» عن فريق كرة القدم الذى يشجعه، قال الرجل: «المغرب». وعندما سأله عن جواز السفر الذى يفضل أن يحمله، أجاب: «الهولندى».

سمعت على لسان الغالبية العظمى من الشباب الذين قابلتهم فى المشاريع السكانية حول باريس والتى ضربتها أعمال الشغب، قصصا مشابهة عن حيوات ممزقة: عن أجازات صيف رعوية قضوها فى مزارع الجدود فى الجزائر وتونس، وعن الولاءات المقسمة التى يكشفها السؤال: «ما هو فريق كرة القدم الذى تشجعه؟ كانت إجابة ذوى الأصول الجزائرية: «فريق الجزائر»، وقد تحولت مباراة شهيرة بين الجزائر وفرنسا عام ٢٠٠١ إلى أعمال شغب خطيرة. ولكن عندما قاد زين الدين زيدان الفرنسى/ الجزائرى الفريق الفرنسى فى مباريات كأس العالم فإنهم شجعوا فرنسا (كنت آمل - حتى الدقائق الأخيرة من نهائى كأس العالم - أن يقدم الأداء العبقرى والمنضبط لـ «زيدان» باعتباره قائد الفريق

بصفتى أحد سكان «عوروبا»، فلابد أن أوضح بعض الفوارق الأساسية. بداية، هل نتحدث عن الإسلام أم المسلمين أم الإسلاميين أم العرب أم المهاجرين أم داكنى البشرة أم الإرهابيين؟ إن كل تلك الأشياء السبعة تختلف عن بعضها

الفرنسى، نموذجا يحتذى لملايين المسلمين الفرنسيين. ولكن ضربة الرأس الخسيسة التى وجهها بقوة ضد «ماركو ماتيرازى Marco Materazzi» المدافع الإيطالى الأبيض الكاثوليكى (فرضا)، قدمت إلهاما مختلفا للمسلمين الأوروبيين. وبالتالى فإن الثقافة الشعبية قادت القصة إلى منعطف غير متوقع، فجرى فى فرنسا الاحتفال بضربة رأس «زيدان» بأغنية جذابة مسلية لاقت نجاحا فوريا هائلا. ويمكن سماع الأغنية على الموقع /www.koreus.com media/zidane-coup-boule-mix.html). قال لى «الجوهرى»: «فى المغرب أنا مهاجر مغترب، وفى فرنسا أنا مهاجر وافد».

إن هؤلاء يعانون - من الناحية الثقافية - من ازدواج فى الشخصية. والتغريب لا يكون ثقافيا فقط. وقد التقى «بوروما» بطبيب نفسى متخصص فى المشاكل النفسية للمهاجرين. ومن الواضح أن النساء والجيل الأول من المهاجرين الرجال كانوا الأكثر ميلا للوقوع فى براثن الاكتئاب، بينما يعانى رجال الجيل الثانى من الفصام. وطبقا لأبحاث هذا الطبيب فإن مهاجرا مغربيا من الجيل الثانى هو معرض للإصابة بالفصام أكثر عشر مرات من مواطن هولندى الأصل من نفس الخلفية الاقتصادية.

كان «محمد بويرى» أحد أفراد الجيل الثانى، هولندى مغربى بربرى، تعرض للعديد من التجارب. كان يتردد على مدرسة ثانوية هولندية أطلق عليها اسم الرسام «بيت موندريان Piet Mondrian» وكان يتحدث الهولندية ويشرب الخمور ويتعاطى المخدرات، وكانت له علاقة غير شرعية بفتاة نصف هولندية نصف تونسية. كان يجد نفسه منجذبا للفتيات الغربيات، ولكنه فقد صوابه عندما أصبح لشقيقته صديق (Boyfriend) يدعى «عبده». كان الجنس قبل الزواج أمرا لا غبار عليه بالنسبة له، ولكن ليس بالنسبة لأخته. كان من المعتقد أن شرف العائلة ذا الأهمية التقليدية القصوى، يكون قد تلطخ بلا قابلية للإصلاح فى نظر مجتمعه المسلم المغربى على يد ابنة أو أخت مارست الجنس قبل الزواج. وقد هاجم بويرى «عبده» بسكين ودخل السجن لبعض الوقت. وتوفيت والدته بسبب سرطان الثدى. ثم أدار «بويرى» ظهره لما أصبح الآن يعتبره سلوكيات أوروبية فاسدة. فأطلق لحيته وارتدى عباءة مغربية وطاقية صلاة، ووقع تحت تأثير داعية تكفيرى متطرف من سوريا. وقد وضع «بويرى» دعايات إسلامية على الإنترنت وشاهد أفلام فيديو لكفار أجانب فى الشرق الأوسط قطعت أعناقهم على يد مجاهدين. وطبقا لمصدر هولندى استشهد به «بوروما»، فإن «نور الدين» صديق «بويرى» قضى ليلة زفافه مع عروسه على فراش أرضى فى شقة قاتل المستقبل يشاهد كفارا يذبحون.

فى الأول من نوفمبر ٢٠٠٤ قضى «محمد بويرى» أمسية هادئة مع أصدقائه. فقد خرجوا يتجولون، واستمعوا لتلاوة القرآن من خلال سماعات الرأس المتصلة بمشغلات موسيقية رقمية. وقد علق «بويرى» على جمال السماء فى تلك الليلة. وفى الصباح التالى استيقظ فى الخامسة والنصف صباحا وأدى الصلاة ثم قاد الدراجة ليذبح «فان جوخ». ومن الواضح أنه كان ينوى تعريض نفسه للقتل أثناء تبادل إطلاق النار اللاحق مع الشرطة.

هناك متشابهات لافتة بين قصة «بويرى» وقصص بعض من مفجرى لندن ومدريد وأعضاء خلية القاعدة فى هامبورج الذين كانوا من أهم مخططى هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على نيويورك. كان هناك نفس الانغماس المبدئى ثم الرفض الغاضب للثقافة العلمانية الأوروبية الحديثة، فى صورها الهولندية أو الألمانية أو الأسبانية أو البريطانية، بإغراءاتها المعروفة مثل الحرية الجنسية والمخدرات والخمور ووسائل الترفيه الإباحية، وكذلك آلام التمزق بين وطنين لا يعد أى منهما وطنا كاملا، وتأثير الأئمة المتطرفين والمواد الإسلامية المنتشرة على الإنترنت أو الشرائط الصوتية أو شرائط الفيديو أو اسطوانات الفيديو الرقمية. كان هناك إحساس عالمى بأن المسلمين ضحايا، وهو شعور تفاقم بسبب قصص الأهوال من البوسنة والشيشان وفلسطين وأفغانستان والعراق. من المؤكد أن هؤلاء القتلة الانتحاريين لا يمثلون الغالبية العظمى من المسلمين المقيمين فى سلام فى أوروبا. ولكنهم جميعا - بلا شك - أعراض متطرفة واستثنائية لتغريب يحدث على نطاق أوسع لأطفال المسلمين المهاجرين إلى أوروبا. إن عقولهم وقلوبهم المريضة تكشف - بصورة متطرفة - عن علل «ناس الوسط».

يكرس «بوروما» فصلا من الكتاب لـ «أيان هيرسى على» وفيلم «إذعان» الذى صنعته مع «ثيو فان جوخ» ويكشف عن الممارسات السيئة ضد النساء المسلمات. لقد وردت قصة حياة «على» فى مقالات ومقابلات لا حصر لها. فى الواقع أن «أيان» كانت موضوعا لا يقاوم بالنسبة للصحفيين، باعتبارها امرأة طويلة فائقة الجمال غريبة الأطوار شجاعة ذات سيرة حياة جديرة بالإعجاب، وهى تعيش الآن تحت التهديد المستمر بالذبح مثل «فان جوخ». ومن بين الجوائز العديدة المدرجة على الغلاف الخلفى لكتابها الجديد «العذراء الحبيسة»، جائزة «بطل الشهر» لمجلة «فتنة Glamour»، بجانب «جائزة الشجاعة الأدبية»، و«جائزة الشبكة الدولية لإعتاق النساء المتحررات» و«هولندى العام ٢٠٠٤»، و«ديك الشرف ٢٠٠٤»، و«جائزة الحرية الدنماركية». هكذا نحب أبطالنا، فاتنين. وليس من قبيل عدم الاحترام للسيدة «على» أن ننوه إلى أننا لم نكن لنولى قصتها وآراءها كل هذا الاهتمام لو أنها كانت قصيرة وبدينة وحولاء.

وبينما كان الكتابان اللذان نحن بصددهما ما زالا فى المطبعة، وقعت فضيحة أخرى حول «على». فقد أسقطت «ريتا فيردونك Rita Verdonk» وزيرة الهجرة الهولندية المتشددة الجنسية الهولندية عن السيدة «على» بعد إذاعة تقرير فى التليفزيون الهولندى يكشف عن قيامها بتقديم بيانات كاذبة لدى طلبها حق اللجوء السياسى إلى هولندا عام ١٩٩٢. وفى الحقيقة فإن السيدة «على» روت بالفعل تلك القصة بنفسها عدة مرات. وعندما ألح «بوروما» لها أنها طالبة لجوء سياسى كاذبة أجابت «نعم، طالبة لجوء سياسى كاذبة جدا». وقد أثار قرار الوزيرة القاسى عاصفة من الاحتجاج فى البرلمان الهولندى الذى كانت «على» نائبة فيه عن نفس الحزب الذى تنتمى إليه «فيردونك». وقد اضطرت «فيردونك» لنقض قرار إسقاط الجنسية. كما انهار التحالف الذى يشكل الحكومة الهولندية نتيجة لذلك. ولكن الضرر كان قد وقع الفعل. فقد أعلنت «على» عن استقالتها من البرلمان الهولندى ونيتها الانتقال إلى «المعهد التجارى الأمريكى American Enterprise Institute» فى واشنطون.

بعد أن قرأت العديد من المقابلات التى أجريت معها وقضيت أمسية فى لندن أتحدث إليها، فإنى أكن لـ «على» احتراما عظيما بسبب شجاعتها وإخلاصها ووضوحها. ولا يعنى ذلك أنه يجب على المرء قبول كل وجهات نظرها. إن كتابها «العذراء الحبيسة» يضم عنوانا فرعيا فى طبعته الأمريكية «دعوة لإعتاق النساء والإسلام». ربما كان من الدقة أكثر أن نعتبره دعوة لإعتاق النساء «من» الإسلام. وهى تسرد فى كتابها حكايات حقيقية مروعة عن القهر والإساءة اللذين تتعرض لهما الفتيات فى بعض العائلات المهاجرة المسلمة فى أوروبا، وذلك استنادا إلى خبرتها أولا كمترجمة وثانيا كسياسية. فبعض هؤلاء الفتيات يكرهن على الزواج ضد رغبتهن، وهى تستعمل هنا تعبير «اغتصاب مقنن». وتتعرض أخريات لمعاملة سيئة من قبل الأزواج أو الآباء أو الأعمام. وإذا ما حاولن الرحيل أو اتخاذ صديق (Boyfriend)، فإنهن يتعرضن للتهديد والضرب بل والقتل، فيما يسمى بـ «جرائم الشرف». وقد ذكرت «على» فى كتابها وقوع إحدى عشرة جريمة قتل لفتيات مسلمات فى دائرتين فقط للشرطة بهولندا فى خلال سبعة أشهر من عامى ٢٠٠٤ و٢٠٠٥.

تتعرض الفتيات الصغيرات من بلدان مثل الصومال لما يطلق عليه - بتعبير مخفف - «ختان الإناث»، وهو إجراء يتضمن - حسبما تصف «على» - استئصال بظر الفتاة والشفرين الخارجيين والداخليين، وكذلك كشط جدران المهبل بآلة حادة مثل قطعة زجاج أو شفرة موسى أو سكين تقطيع البطاطس، ثم ثنى الساقين معا حتى تنمو جدران المهبل على الوضع الجديد. وتصف «على» تلك العملية على النحو الصحيح ليس باعتبارها «ختانا للإناث» وإنما «بتر أعضاء تناسلية». وقد تعرضت «على» نفسها لتلك العملية الرهيبة حسب تعليمات جدتها الصومالية. وقد كتبت نصا مؤثرا وعمليا جدا بعنوان «عشر نصائح للمرأة المسلمة التى ترغب فى الرحيل» تهيئ فيه النساء للصدمة والألم والأخطار المحتملة للرحيل عن عائلة مسلمة.

تؤدى «على» خدمة كبيرة بلفت أنظارنا لتلك الفظائع التى تشكل الجانب السفلى المظلم لـ «التعددية الثقافية» المتسامحة المزعومة. مع ذلك فإن بعض النساء المسلمات يعارضن الأسلوب الذى تلقى فيه



عوربا

«على» بمسئولية قهرهن على العقيدة الإسلامية بدلا من ثقافات معينة قومية ومحلية وقبلية، والتى جئن منها. وتقر «على» فعلا بأن بتر الأعضاء التناسلية لم يرد فى القرآن. ويورد «بوروما» مقابلة تليفزيونية أجرتها «على» مع نساء فى ملجأ هولندى للزوجات المساء إليهن والبنات ضحايا الضرب واللاتى ندد الكثير منهن بشدة بفيلم «إذعان». صرخت إحداهن: «إنك فقط تهيننا، إن إيمانى هو الذى يقوينى». ووفقا لـ «بوروما» فقد نبذت «على» اعتراضاتهن بإيماءة متغطرسة من يدها.

كان المقصود من البداية أن يكون فيلم «إذعان» عملا استفزازيا. لقد كتبت «على» تقول إن الثقافة الإسلامية تحتاج شيئا مثل فيلم «حياة بريان The Life of Brian» (فيلم كوميدى شهير) للمخرج «مونتى بايثون Monty Python» يخرجه «ثيو فان جوخ» عربى مع شخصية محمد (عليه الصلاة والسلام) كمحور لها (ربما كتبت هذه الجملة قبل مصرع «فان جوخ»، فقد ظهرت الطبعة الهولندية من هذا الكتاب عام ٢٠٠٤). وتتذكر «على» أن من اللحظات الحاسمة فى تجربتها الشخصية كانت قراءة كتاب بعنوان «بيان الملحد The Atheist Manifeso». كما استمدت «على» الإلهام من مقال «جون ستيوارت ميل John Stuart Mill» بعنوان «عن إخضاع النساء On the Subjection of Women». تقول «على»: «أطالب بأن نتشكك فى المبادئ الأساسية للإسلام». وفى الصفحة الأخيرة من كتابها تختتم «على» بقولها: «أول ضحايا محمد (عليه الصلاة والسلام) هى عقول المسلمين أنفسهم. فهم حبيسو الخوف من جهنم، كما يرهبون الممارسة الطبيعية للحياة والحرية والسعادة».

ورغم أنها وقعت فى شبابها تحت إغراء الأصولية الإسلامية بتأثير من تعاليم أحد معلمى المدرسة، إلا أن «على» هى الآن أصولية شجاعة صريحة تنويرية بدرجة مبسطة. وقد تحولت «على» - بطريقة مشابهة لمؤرخى المفكرين السياسيين - من النقيض إلى النقيض. وذلك بالضبط هو السبب فى اعتبارها بطلة فى أعين كثير من المفكرين الأوروبيين العلمانيين الذين هم أنفسهم أصوليون متنورون. وهم يؤمنون بأن كل الأديان - وليس الإسلام فقط - تهين العقل وتعطل الروح البشرية. ويؤمن معظمهم أن أوروبا المعتمدة تماما على الإنسانية العلمانية ستكون قارة أفضل. ربما كانوا على حق (بعض من أقرب أصدقائى أصوليون تنويريون)، وربما كانوا على خطأ. لا داعى لأن نتظاهر بأن ذلك لا يمثل تحديا مباشرا للإسلام. لم يكن «محمد بويرى» - فى نقده اللاذع المجنون - مخطئا تماما حين اعتبر أن عدوه الأوروبى الأول هو «الأصولى الملحد».

على كل رجل وامرأة فى أوروبا الآن أن يتمتع بالحرية الكاملة لتبنى وجهات نظر إلحادية أو تشككية، دون خوف من الاضطهاد أو الترهيب أو الرقابة. أرى أنه من العار المشين بالنسبة لهولندا وأوروبا أننا لم نتمكن - كأوروبيين - من الاحتفاظ بيننا بشخص مثل «آيان هيرسى على» التى كانت ترمى إلى الكفاح فى سبيل هولندا أفضل وأوروبا أفضل. ولكنى لا أعتقد أنها ترسم طريق المستقبل لمعظم مسلمى أوروبا، ليس على الأقل لسنوات طويلة قادمة. إن السياسة التى تتوقع أن يتخلى ملايين المسلمين سريعا عن عقيدة آبائهم وأمهاتهم ليست - ببساطة - بسياسة واقعية. ولو أن الرسالة التى تصلهم منا أن عليهم - كى يكونوا أوروبيين - أن يتخلوا عن دينهم، فعندئذ سوف يختارون ألا يكونوا أوروبيين. إن مطالبة العلمانيين الأوروبيين بأن يتحول المسلمون لمذهبهم - مذهب الإنسانية العلمانية - ستكون غير متسامحة، تماما كطلب المجاهدين الإسلاميين أن نتحول لمذهبهم. ولكن الأصوليين التنويريين سوف يحتجون بأن إيماننا قائم على العقل. حسنا، فى هذه الحالة سيجيب المسلمون بأن إيمانهم قائم على الحقيقة.

إن القصص الهولندية الأصلية لـ «ثيو فان جوخ» و«آيان هيرسى على» و«محمد بويرى» لا تشغل سوى ركن صغير من النسيج الهائل المعقد لأوروبا والإسلام. ولو سألنا: «ما الذى يجب عمله؟ ستكون الإجابة: أشياء كثيرة مختلفة فى أماكن مختلفة. يجب أن نكون ثعالب لا قنافذ. إذا استشهدنا بالاقتباس الشهير لـ «إسايا برلين Isaiah Berlin» (فيلسوف سياسى ومؤرخ يهودى بريطانى روسى المولد، ١٩٠٩-١٩٩٧) من مقطع من شعر «أرشيلوكاس Archilochus» (شاعر إغريقى عاش فى القرن السابع قبل الميلاد)»: الثعلب يعلم أشياء كثيرة، ولكن القنفذ يعلم شيئا واحدا كبيرا». يجب علينا - فى مواجهة القنافذ ذات الصوت العالى فى «قناة فوكس للأخبار Fox News» - أن نستمر على إصرارنا بأن كل ما نراه ليس فقط حربا كبيرة على الإرهاب يجب أن ينتصر فيها «الأخيار» بعد أن يقضوا على «الأشرار».

يؤكد «بوروما» - عن حق - على التنوع الثقافى للمهاجرين المسلمين. فالبربر من جبال «الريف» ليسوا تماما مثل المغاربة من الوديان، والأتراك لديهم أساليب للتأقلم تختلف عن الصوماليين، ناهيك عن الباكستانيين فى بريطانيا. لقد قام المستعمرون الأوروبيون فى القرن التاسع عشر بدراسة الخصائص العرقية لمستعمراتهم. والآن - فى القرن الحادى والعشرين - فإننا بحاجة إلى دراسة جديدة للخصائص العرقية لمدننا. وبالنظر إلى أن الأقطار الأوروبية تميل إلى قبول أعداد كبيرة من المهاجرين من مستعمراتها السابقة، فإن الدراسات الجديدة يمكن بناؤها على الدراسات القديمة. وفى الوقت نفسه، فإن الأساليب البريطانية والفرنسية والهولندية والألمانية لدمج - أو عدم دمج - المهاجرين تتباين كثيرا بكل ما فيها من نقاط القوة والضعف. وما يصلح على سبيل المثال للكشميريين الباكستانيين فى «برادفورد» قد لا يصلح للمغاربة البربر فى أمستردام، والعكس صحيح.

علينا أن نقرر ما هو الضرورى فى أسلوب حياتنا الأوروبى وما هو قابل للتفاوض. فأنا أرى - على سبيل المثال - أن إصرار الحكومة الفرنسية على عدم السماح للنساء بارتداء الحجاب فى أى مؤسسة رسمية هو حمق سياسى لا يمكن تبريره أخلاقيا، وهو مصدر شكوى جديدة لمسلمى فرنسا كما سمعت مرارا من نساء يقطن فى المشاريع الإسكانية قرب «سان دينى». يبدو لى أمرا كريها أن تمنع الجمهورية الفرنسية النساء من ارتداء الحجاب، وكذلك أن تجبرهن الجمهورية الإيرانية الإسلامية على ارتدائه، وذلك استنادا إلى المبدأ نفسه. فى مجتمع عصرى حر يجب أن يتمكن الرجال والنساء الراشدون من ارتداء ما يحلو لهم (لاحظ أنى أشير بالتحديد إلى النساء «الراشدات». فهناك جدل بأن حظر الحجاب فى المدارس قد يشعر الفتيات المراهقات فى الواقع بالتحرر مما يعتبرنه سلطة أبوية أو مجتمعية أو دينية مستبدة. ولكن ماذا عن حقوق الفتيات المراهقات اللاتى قد يخترن - بحرية - أن يرتدين غطاء للرأس؟). ومن الناحية العملية، فمن المؤكد أن فرنسا لديها ما يكفى من الصعاب فى علاقاتها مع مواطنيها المسلمين بدون خلق مثل تلك الصعاب الإضافية.

من جهة أخرى، فإن حرية التعبير ضرورية. وهى الآن مهددة من قبل أناس مثل «محمد بويرى» الذى يحمل رسالة لأناس مثل «آيان هيرسى على» تقول: «لو قلت ذلك فسوف أقتلك». فى الحقيقة أن «بوروما» يخبرنا أن «بويرى» شرح للمحكمة أن الشريعة الإلهية لم تسمح له بالعيش فى هذه الدولة أو أى دولة أخرى يسمح فيها بحرية التعبير (فى هذه الحالة لماذا لم يعد إلى المغرب؟). ولكن حرية التعبير تهددها أيضا السياسات الاسترضائية للحكومات الأوروبية المذعورة والتى تحاول تطبيق الرقابة تحت مسمى التوفيق بين أعراق المجتمع. ومن الأمثلة المزعجة على ذلك اقتراح الحكومة البريطانية مشروع قانون ضد التحريض على الكراهية الدينية. تلك صيغة للتعددية الثقافية تقول: «احترم مقدساتى وسوف أحترم مقدساتك». ولكنك لو جمعت كل مقدسات كافة ثقافات العالم فلن يتبقى لديك الكثير لتتحدث عنه بحرية.

إن الجهود الحاذقة للشرطة والاستخبارات للإمساك بالإرهابيين المحتملين قبل أن يشرعوا فى العمل ضرورية، ليس فقط لإنقاذ حياة الضحايا المحتملين، وإنما هى أيضا حيوية لأن كل عمل إرهابى وحشى يرتكب باسم الله يعجل من المنحنى المتدهور لفقدان الثقة بين الأوروبيين المسلمين وغير المسلمين. لقد أخبرت امرأة هولندية- مغربية تدعى «نورا» «بوروما» أنه قبل هجمات الحادى عشر من سبتمبر على نيويورك كانت فقط تدعى «نورا»، وفجأة أصبحت «مسلمة». إن القضاء على هذا الخطر سيعنى أيضا المراقبة الدقيقة للأئمة الإسلاميين الميالين للعنف والذين نراهم مرارا يزرعون التطرف فى عقول الشباب الأوروبى المسلم المستاء من أوضاعه.

من زاوية أخرى فإن الاقتصاديات الأوروبية تحتاج لخلق وظائف إضافية والتأكد من أن المسلمين لديهم فرصة عادلة للحصول عليها. وقد كشف استطلاع حديث لـ «مؤسسة بيو Pew» أن القلق الأكبر لدى المسلمين فى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا هو البطالة. إن الحديث عن البطالة أيسر من التعامل معها، على ضوء البطء التاريخى لعملية خلق الوظائف فى أوروبا والمنافسة

الشرسة من العمالة الماهرة منخفضة الأجر فى آسيا وانعكاسات التمييز القائم على رهاب الأجانب فى العديد من الدول الأوروبية. أما ظروف الإسكان فهى مصدر رئيسى آخر للشكوى. ومع ذلك فإن محاولة علاج ذلك عن طريق الإنفاق العام سوف تضخم من الميزانيات المتضخمة بالفعل. ولو استقر الرأى على معالجة الأمر على حساب السكان المحليين، فإن ذلك يمكن أن يترجم إلى مزيد من الأصوات للأحزاب الشعبية المعادية للمهاجرين.

إن مشكلة أوروبا مع مسلميها المهاجرين وأوضاع «ناس الوسط» ستظل موجودة حتى لو كانت هناك دولة فلسطينية مستقلة مزدهرة، وحتى لو لم تقم الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض الدول الأوروبية الأخرى بغزو العراق. ولكن ليس هناك من شك فى أن القضية الفلسطينية وحرب العراق قد زادتا من إحساس مسلمى أوروبا بالظلم العالمى. ويتضح ذلك بجلاء فى السير الذاتية لمفجرى مدريد ولندن. وفى استطلاع حديث أجرته القناة الرابعة فى التليفزيون البريطانى، وافق ما يقارب ثلث الشباب المسلم المشاركين على الرأى القائل بأن تفجيرات يوليو التى وقعت فى لندن كان لها ما يبررها بسبب الدعم البريطانى للحرب على الإرهاب (يمكن الرجوع بهذا الشأن ولمزيد من التفاصيل عن تغريب الجيل الأصغر من المسلمين البريطانيين إلى مقالى فى «الجارديان The Guardian» فى ١٠ أغسطس ٢٠٠٦). إن إقامة دولة فلسطينية حقيقية وسحب القوات الغربية من العراق سوف يمحو - على الأقل - اثنين من مصادر الشكوى. أما الهجوم على دولة مسلمة أخرى - مثل إيران - فسوف يزيد من تفاقم المشكلة.

من المنطقى فى علاقتنا مع الإسلام كدين أن نشجع النموذج الإسلامى الذى يتوافق مع مبادئ أوروبا العصرية المتحررة الديمقراطية. ومن الوارد وجود هذا النموذج، حسبما يؤكد إصلاحيون إسلاميون مثل «طارق رمضان»، وهو شخصية أخرى مثيرة للجدل لا تحظى بثقة «أيان هيرسى على» أو اليسار الفرنسى أو اليمين الأمريكى، وإن كانت تلقى قبولا واسعا بين الكثير من الشباب الأوروبى المسلم. يؤكد «رمضان» أن الإسلام - إذا ما فسر على الوجه الصحيح - لا يجب أن يتعارض مع أوروبا الديمقراطية. وبينما يلمح الـ «عوربيون Eurabianists» إلى أن «زيادة عدد الأوروبيين المسلمين تعنى زيادة عدد الإرهابيين»، فإن «رمضان» يعتقد أنه كلما زاد عدد الأوروبيين المسلمين كلما قل احتمال أن يصبحوا إرهابيين. وبمنطق المؤمنين - وليس أناس مثل «محمد بويرى» و«ثيو فان جوخ» و- ربما - «أيان هيرسى على» - فإن الأوروبيين المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين صالحين و- فى الوقت نفسه - أوروبيين صالحين (يعتمد هذا الملخص القصير لآراء «رمضان» على محاضرات سمعته يلقيها كزميل زائر فى كلية «سان أنطونيو St. Antony» بجامعة أوكسفورد حيث سيصبح الآن زميلا باحثا طوال العامين الأكاديميين القادمين ومرتبطا بـ «مركز الدراسات الأوروبية European Studies Centre» و«مركز الشرق الأوسط Middle East Centre». لقد أدى الجدل الشديد حول «رمضان» إلى شعوره بأنه لم يعد مرحبا به فى معظم المناطق الأوروبية المتحدثة بالفرنسية، وإلى عدم حصوله على تأشيرة دخول للولايات المتحدة لشغل مقعد دائم فى جامعة «نوتردام Notre Dame». ومن محاضراته المصنفة حول الجدل بشأن الشريعة الإسلامية «أن تكون مسلما أوروبيا: دراسة للمصادر الإسلامية فى السياق الأوروبى To Be a European Muslim: A Study of Islamic Sources in the European Context».

وفى النهاية فإن ذلك يمثل تحديا للمجتمعات - وكذلك الحكومات - الأوروبية. فعلى سبيل المثال، فإن جزءا كبيرا من التمييز فى فرنسا يرجع إلى قرارات فردية اتخذها أرباب أعمال بالمخالفة للسياسة العامة السائدة وقوانين البلاد. إن المواقف والسلوكيات الشخصية لمئات الملايين من الأوروبيين غير المسلمين، أثناء التعاملات اليومية الصغيرة التى لا حصر لها، هى التى سوف تقرر ما إذا كان مواطنوهم المسلمون سيبدأون فى الإحساس بأن أوروبا هى وطنهم أم لا. وبالتأكيد فإن ذلك سيعتمد أيضا على الخيارات الشخصية لملايين من المسلمين الأفراد والقدوة التى سيقدمها قادتهم الروحانيون والسياسيون.

هل من المتوقع أن ينجح الأوروبيون فى مواجهة التحدى؟ أخشى أن الإجابة ستكون بالنفى. هل ما زال ذلك ممكنا؟ نعم، ولكن لم يعد هناك متسع من الوقت. ■

كتاب الزاوية

رسالة ابن فضلان

فى وصف الصقالبة

منذ مطلع القرن الثالث الهجرى (٩٧٧ م تقريبًا) كثرت لدى شعوب الدول الإسلامية المترامية الأطراف الكتب الموضوعة فى أدب المسالك والممالك أو ما يمكن تسميته أدب الرحلات حسب المصطلح المعاصر. وكتب الرحالة المسلمون العديد من الكتب التى تصف ما شاهدوه سواء الأماكن أو الشعوب وعاداتها وتقاليدها وعقائدها. واشتهر منهم العديدون مثل الكندى واليعقوبى وقدامة بن جعفر وابن حوقل وأحمد بن فضلان الذى زار بلاد الشمال الأوروبى بين عامى ٩٢١ و٩٢٤م ووصفها وصفًا دقيقًا فى كتابه المعروف باسم «رسالة ابن فضلان».

وابن فضلان هو أحمد بن عباس بن رشيد بن حماد العالم الإسلامى الذى سافر كعضو فى سفارة الخليفة العباسى المقتدر بالله أبا الفضل جعفر بن الخليفة المعتضد الذى تولى الخلافة عام ٩٠٨ ميلادية. وقد وصل هذا الخليفة كتاب من ملك الصقالبة المش بن يلطوار يطلب منه أن يرسل إليه من يفقهه فى الدين ويعرفه شرائع الإسلام وبناء على ذلك تكون وفد رسمى ضم ابن فضلان. وقد عانت المخطوطة التى كتبها ابن فضلان عن الرحلة أى قبل ١٠٨٠ عامًا من الترحال والنسخ والضياع والنقل، كما يشير الدكتور الكاتب والأكاديمى الفلسطينى المقيم فى النرويج د. أحمد أبومطر على موقع ديوان العرب الإلكترونى. وتولى زمام المبادرة فى جمع وتحقيق المخطوطة الباحث النرويجى بيير فراوس عام ١٩٥١ وفى نفس الوقت كانت هناك جهود عربية من جانب الدكتور سامى الدهان عضو المجمع العلمى العربى بدمشق، وكذلك الباحث التركى زكى وليدى طونجان. وتنشر «وجهات نظر» بعض مقتطفات من الرسالة.

اختــــــــراع

"الإنســـان الإسلامى"

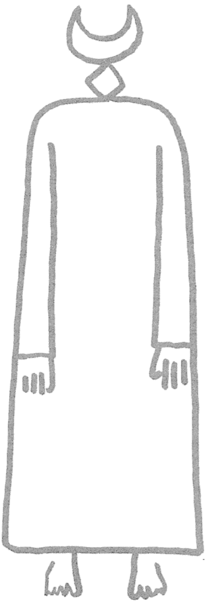
■■ كانت طرق تحليل وتخيل وتصوير الشرق عند الباحثين والكتاب والفنانين الأوربيين فى القرن التاسع عشر متشابكة غالبا بطرق معقدة مع واقع السلطة الأوربية المتنامية على تلك الشعوب والأراضى. ولكن هذا لا يعنى أن كل مستشرق كان عميلا واعيا للاستعمار، أو أن كل إنتاج بحثى أو فنى للاستشراق قد استُعمل فى تبرير الاستعمار أو إضفاء الشرعية عليه. فكما سنرى، لم يكن هناك أبدا موقف أوربى موحد بالكامل تجاه الإسلام أو المسلمين أو الشرق أو الاستعمار. ولكن فى نفس الوقت أفاد التوسع الدرامى للقوى الأوربية فى امتدادات واسعة من العالم الإسلامى فى دعم مقدمات منطقية أو افتراضات معينة وطرق بعينها فى فهم وتعريف الإسلام والشرق (بالإضافة للغرب) على حساب غيرها. وهذا بدوره رجّح تعريف الباحثين لما كانوا يدرسونه والأسئلة التى يطرحونها، بطرق معينة على حساب غيرها، مما أدى لإنتاج تفسيرات أفادت بدورها فى دعم افتراضات مسلم بها عن مصادر وطبيعة التفوق الغربى وتخلف الإسلام وتدهوره.

يتمثل أحد العناصر الأساسية فى فكر التيار الأوربى الرئيسى فى القرن التاسع عشر (ثم الأمريكى لاحقا) عن الشرق فى تصور معين عن الفرق بين الشرق والغرب. فإلى جانب افتتان أقسام من الحركة الرومانتيكية بخصائص الشرق، تطور شعور واسع الانتشار (ولكنه بالطبع لم يكن عاما) بأن الغربيين مختلفون جوهريا عن المسلمين وعن كل آخر، أصبح يعرَّف الآن باعتباره غير- غربى، ومتفوقون عليهم. وقد لخص مكسيم رودنسون بشكل رائع هذا التحول فى المواقف الأوربية:

ربما كان الشرقى يوصف دائما بأنه عدو همجى، ولكن فى العصور الوسطى كان على الأقل على نفس مستوى نظيره الأوربى. وبالنسبة لمفكرى التنوير وايديولوجيى الثورة الفرنسية، كان الشرقى قبل كل شىء رجلا مثل أى رجل آخر، برغم كل غرابته فى المظهر واللباس. ولكنه فى القرن التاسع عشر أصبح شيئا منفصلا تماما، مغلقا عليه بإحكام فى خصوصيته الخاصة، وإن ظل مستحقا لنوع من الإعجاب الحاقد. هذا هو مصدر «الإنسان الإسلامى» homo islamicus[1]، وهو تصور مقبول على نطاق واسع حتى فى يومنا هذا[2].

وعند رودنسون يشير مصطلح «الإنسان الإسلامى» إلى اعتبار المسلم نوعا خاصا من البشر، مختلفًا خصوصا عن «الإنسان الغربى». وكما ناقشت سابقا، كان الأوربيون الغربيون يتجهون إلى اعتبار أنفسهم منتمين إلى حضارة متميزة وفريدة، هى «الغرب»، مختلفة جوهريا عن كل حضارة أخرى، بما فى ذلك الإسلام. كان الأساس الذى شيدت عليه هذه الرؤية للعالم هو المقدمة المنطقية القائلة بأن الكيانات الأساسية التى ينقسم إليها النوع البشرى ليست هى الدول أو الإمبراطوريات، وإنما حضارات، لكل منها جوهرها المتميز وقيمها الداخلية الفريدة التى شكلت بقوة وعى وأفعال من يخضعون لها. وعلى ذلك كان التاريخ الإنسانى من حيث الجوهر هو قصة صعود واضمحلال الحضارات.

كانت رؤية التاريخ كتتابع للحضارات (وللإسلام كحضارة كانت يوما عظيمة، تتحلل الآن) مقبولة على نطاق واسع فى القرن التاسع عشر، وما زالت قوية حتى يومنا هذا. كانت هذه الفكرة مركزية فى فكر الفيلسوف الألمانى الواسع التأثير جورج فيلهلم فريدريش هيجل George Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١). صور هيجل تاريخ الإنسانية كقصة تتابع صعود وسقوط حضارات، ساهمت كل منها بشىء من روحها أو «عبقريتها» الخاصة الفريدة، ثم اضمحلت. وبالنسبة لهيجل يكشف هذا عن الصيرورة التى تحرك وفقا لها ما أسماه «الروح المطلق» - وهو مصطلحه الذى يطلقه على كل ما هو واقعى فى كليته، وهو فعليا نوع من إعادة المفهمة الفلسفية لله - بشكل جدلى نحو الوعى الذاتى. تحرك المنحنى التاريخى للروح المطلق، فيما رأى هيجل، من الشرق إلى الغرب، من طفولته فى الشرق عبر اليونان وروما إلى البلوغ مع صعود الشعوب الجرمانية. وفى الطريق ساهم اليهود بعقيدة التوحيد، أى الإيمان بإله واحد كلى القدرة والعلم بدلا من تعدد الآلهة، بينما كان دور الإسلام الصغير نسبيا هو الحفاظ على تراث الحضارتين الإغريقية والرومانية وتسليمه إلى أوربا، ثم أخذ يذوى فى شيخوخته. أما الآن، أى فى القرن التاسع عشر، فقد اختفت كل الحضارات الأقدم أو هى فى طور التحلل، ولكن الروح المطلق استطاع أن يحقق تعرفه الكامل على نفسه فى الغرب



زكــــــــارى لــوكــمـــــان

من كتاب
تاريخ الاستشراق وسياساته
الصراع على تفسير الشرق الأوسط
زكارى لوكمان
ترجمة: شريف يونس
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٧

Contending Visions of the Middle East:
The History and Politics of Orientalism
by: Zachary Lockman
Combridge University Press, 2004

ربما كان الشرقي يوصف دائما بأنه عدو همجي، ولكن في العصور الوسطى كان على الأقل على نفس مستوى نظيره الأوربي

الحديث - وبشكل أدق فى بلد هيجل، ألمانيا.

ولكن حتى من كانوا أقل ميلا إلى المخططات الفلسفية - التاريخية الفخمة، قبل كثير منهم أن الحضارة هى الوحدة الأساسية للتحليل التاريخى، وتتبعوا جذور الحضارة التى اصطلحوا على تسميتها بالغرب حتى اليونان القديمة، التى اعتقدوا أن الكثير من القيم والمعتقدات المركزية التى رأوا أنها تميز خصائص الحضارة الغربية - بما فيها الحرية والديمقراطية والفلسفة والعلم والعقلانية - قد برز على السطح للمرة الأولى فى التاريخ الإنسانى هناك. كان الإيمان الراسخ بهذا هو الذى أتاح للفيلسوف والاقتصادى الإنجليزى جون ستيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣) الجزم بأن «معركة الماراثون Marathon» حين هزم الإغريق الفرس عام ٤٩٠ قبل الميلاد، أكثر أهمية، حتى كحدث فى التاريخ الإنجليزى، من معركة هاستنجز Hastings «حين هزم النورمان الغزاة الأنجلو - ساكسون عام ١٠٦٦ م»(٣). كان لهذا التأكيد معنى عند ميل (وآخرين) لأنهم اعتبروا أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد سلفا مباشرا وضروريا للثقافة والحرية الإنجليزية فى القرن التاسع عشر، وهو منظور من شأنه أن يستبعد الكثير مما حدث على مدار الخمسة عشر قرنا الفاصلة بين الحدثين، ويجعل كثيرا من العوامل والصيرورات الأخرى التى شكلت التطور التاريخى لإنجلترا غير مرئية أو غير مهمة.

وقدم كثير من المؤرخين والفلاسفة رؤى مشابهة حتى فترة متقدمة من القرن العشرين. فقد تتبع الفيلسوف أوزوالد شبنجلر Oswald Spengler (١٨٨٠ - ١٩٣٦)، الذى طُبع كتابه الواسع التأثير «اضمحلال الغرب The Decline of the West» بعد الحرب العالمية الأولى، ما اعتبره نمو وتحلل الحضارات المختلفة التى تصل إلى الذروة فى الغرب المعاصر، الذى رأى أنه يدخل الآن المرحلة الأخيرة من تطوره. أما أرنولد توينبى Arnold Toynbee (١٨٨٩ - ١٩٧٥)، وهو مؤرخ بريطانى بارز تأثر بشبنجلر وكان أثره كبيرا على بضعة أجيال من المؤرخين، بمن فيهم بعض من كتبوا عن الإسلام والشرق الأوسط، فقد قَبِل المقدمة المنطقية القائلة بأن الحضارات، التى رأى أنها كيانات ثقافية كبيرة متماسكة ومستقرة نسبيا، هى وحدة التحليل الحقيقية بالنسبة للمؤرخين. ففى كتابه البارز المكون من ١٢ جزءا بعنوان «دراسة فى التاريخ A Study of History»، والذى صدر بين ١٩٣٤ و١٩٦١، اضطلع بدراسة مقارنة لإحدى وعشرين حضارة (تشمل الإسلام) فى التاريخ المكتوب، متتبعا نشأتها وتطورها، وعزا اضمحلالها النهائى إلى عدم قدرتها على الاستجابة بشكل كاف للتحديات الأخلاقية والدينية. وبرغم أن العديد من الباحثين قد انتقدوا ميل توينبى إلى إصدار تعميمات تاريخية كاسحة، وقراءته للتاريخ وفقا لخطوط نابعة من الغائية المسيحية. سوف نرى لاحقا أن كثيرا من جوانب منهجه قد ظلت مؤثرة حتى يومنا هذا.

اعتبر المستشرقون والآخرون الذين سلموا بهذه الرؤية للتاريخ الإنسانى أن الحضارة الإسلامية قد بزغت شابة وقوية فى القرن السابع، ووصلت إلى ذروة قوتها السياسية والعسكرية ومجدها الثقافى («عصرها الذهبى») فى القرون الثامن والتاسع والعاشر تحت حكم العباسيين الذين كانت عاصمتهم بغداد، ثم فقدت تدريجيا عافيتها وقدرتها على الإبداع الثقافى وقابليتها لاستيعاب الأفكار الجديدة والتأثيرات الثقافية والاغتناء بها. ويشكل العثمانيون نوعا من الزفرة الأخيرة، الاندفاع الأخير نحو التوسع الإقليمى وربما الازدهار الثقافى، قبل أن يستأنف اضمحلال الحضارة الإسلامية مساره العنيد. ووفقا لهذه الرؤية أصبح الإسلام بشكل متزايد أكثر تصلبا وأقل مرونة وأكثر استبدادية وأقل تسامحا وأكثر عداء للتأثيرات الخارجية، وأثبت بذلك عدم قدرته على امتصاص الأفكار والتقنيات الديناميكية الجديدة التى تطورت فى مكان آخر، هو الغرب، ومجاراتها. فبينما كان الغرب يندفع إلى الأمام، انزلق الإسلام إلى ركود اجتماعى وثقافى واستبداد سياسى.

اتساقا مع هذا التفسير للتاريخ، مال الباحثون المستشرقون الأوربيون فى القرن التاسع عشر إلى التركيز على ما اعتبروه الفترة «الكلاسيكية» للإسلام، من ظهوره وحتى الفترة التى يفترض أنه وصل فيها إلى ذروته وبلغ أكثر أشكاله نقاء؛ فكل ما تلا ذلك اعتُبر إلى حد كبير قصة اضمحلال وانحلال، أو على الأقل فترة تجمد وركود ثقافى واجتماعى. وفوق ذلك قادت رؤية الإسلام كحضارة متماسكة ومتميزة، واحدية الثقافة من حيث الجوهر، كثيرا من المستشرقين إلى الزعم بأن الأفكار والمؤسسات السائدة فى كل المجتمعات الإسلامية، وطريقة سلوك وتفاعل المسلمين فى كل مكان وزمان، هى فى العمق تعبيرات عن جوهر ثقافى نقى للإسلام، وقيمه وأفكاره الأساسية، التى يمكن فهمها على أفضل نحو بدراسة نصوص فترته الكلاسيكية. وبالتالى مال الباحثون المستشرقون إلى الاهتمام بدرجة أقل باختلافات التفكير والسلوك فى المجتمعات الإسلامية من مكان لآخر وتغيرها عبر الزمن - أى قل اهتمامهم بالتنوع والتعقد الدائمين فى المعتقدات والممارسات الإسلامية - أو بما فعله المسلمون وفكروا فيه حقيقة وكيف عاشوا.

وبكلمات أخرى، كانت المقدمة المنطقية الصريحة أو الضمنية فى البحث الاستشراقى فى معظم القرن التاسع عشر تقول إن هناك بالفعل «إنسانًا إسلاميًا» homo islamicus مميزًا، له بدرجة أو بأخرى تركيب ذهنى ثابت مختلف جوهريا، بل ويشكل النقيض المطلق لتركيب ذهن «الإنسان الغربى». ويمكن التعرف على الخصائص الجوهرية لأعضاء هذا الجنس الفرعى من البشر باستعمال مناهج الدراسة الفلسفية لنصوص أساسية معينة، اعتُبر أنها تضم المبادئ الأساسية للحضارة الإسلامية. وطبيعى أنهم وضعوا القرآن فى الصف الأول بين هذه النصوص، يليه مجموعة محدودة نسبيا من كتابات دينية وأخلاقية وفلسفية وقانونية صدرت عن النخبة المتعلمة قبل أن يبدأ اضمحلال الإسلام. وقد آمن الباحثون بأن بمقدورهم من خلال دراسة هذه النصوص الأساسية أن يستنبطوا خصائص «العقل الإسلامى»، على أساس افتراض أن كل المسلمين، منذ ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر، كانوا مقيدين بالتفكير والإيمان والفعل داخل الحدود الصارمة التى وضعتها الطبيعة الجوهرية للحضارة التى انتموا إليها.

وتتمثل خلاصة سيادة هذا النموذج والمناهج الفلسفية التى تشكل أساسه فى أن أصبح حقل الاستشراق مع الزمن حقلا معزولا للغاية ومنطويا على نفسه وغير راغب أو قادر على التغير لكى يصل إلى إدراك أفضل للعالم المتغير والمنظورات الثقافية الجديدة، برغم المعرفة الهائلة التى تميز بها أفضل باحثى الاستشراق فى القرن التاسع عشر وإسهاماتهم بالغة الأهمية فى دراسة الإسلام.

على ذلك تشكل الاستشراق فى مناخ من التراجع عن شمولية التنوير عند كثيرين فى أوربا والتأكيد الجديد (أو المجدد) على الفوارق بين الشعوب والحضارات، فى هيراركية جديدة للتقدم البشرى يوضع فيها الغرب الحديث على القمة. وبنهاية القرن التاسع عشر استُكمل هذا المنظور بتصور أكثر خبثا بكثير عن كيفية انقسام البشرية، مذكور باختصار فى الفصل الثانى. فقد بدأ بعض المفكرين الأوربيين والأمريكيين يرون، بتأثير تفسير مغلوط معين لنظرية تشارلز داروين Charles Darwin عن نشوء وارتقاء الأنواع كنتيجة للانتقاء الطبيعى، وبتأثير المسيرة الظافرة للاستعمار الأوربى، أن تفوق الغرب الثقافى والسياسى ليس ببساطة نتيجة القيم والمؤسسات المتفوقة لتلك الحضارة - والتى ربما تستطيع الشعوب غير الغربية بالإرشاد السليم أن تستوعبها فى النهاية - وإنما بالأحرى نتيجة للصفات البيولوجية الفطرية المتفوقة للعنصر «الأبيض» - الذى سمى غالبا «الآرى» أو «القوقازى». ووفقا لهذه الرؤية، التى أصبحت مقبولة على نطاق واسع عند علماء ومثقفين محترمين، وشكلت جانبا كبيرا من البحث الأكاديمى، تكون البشرية منقسمة بشكل طبيعى إلى جماعات بيولوجية متمايزة، ومرتبة بشكل هرمى بين أعراق رفيعة وأخرى دنيا.

ولا عجب أن معظم سكان أفريقيا وآسيا قد اعتُبروا منتمين إلى أعراق متخلفة بيولوجيا، أقل بطبيعتها من العرق الأبيض فى الذكاء والقدرة على إقامة حضارة - وهو نظام للتصنيف جعل الحكم الاستعمارى الأوربى يبدو بالطبع طبيعيا وحتميا. وكما قرر صحفى أمريكى شعبى، هو لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard فى كتابه الصادر فى ١٩٢١: المد الصاعد للون ضد السيادة البيضاء على العالم The Rising Tide of Color Against White World-Supremacy:

من ظلال ما قبل التاريخ برزت العناصر البيضاء إلى المقدمة، وأثبتت بطرق لا تحصى صلاحيتها للهيمنة على النوع البشرى. لقد شكلوا بالتدريج حضارة مشتركة، ثم، حين أتيحت لهم فرصتهم الفريدة للهيمنة على المحيطات قبل أربعة قرون، انتشروا فى كل أنحاء الأرض، فملأوا أماكنها الخالية بذريتهم المتفوقة، وضمنوا لأنفسهم التفوق فى العدد والسيادة... أخيرا توحَّد الكوكب تحت هيمنة عرق واحد بحضارة مشتركة(٤).

وبرغم أن الأمر لم يخل يوما من وجود كثير من الباحثين وغيرهم أدانوا العنصرية البيولوجية باعتبارها غير علمية وخبيثة، كان جانب كبير من الخطاب الأوربى - الأمريكى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عن العالم - بما فيه الشرق الإسلامى - ملوثا بدرجات مختلفة بالإيديولوجيا العنصرية. كما أن معظم من رفضوا عنصرية بيولوجية صريحة قبلوا مع ذلك ادعاء طويل العمر واسع الانتشار يقول بأن الأفضل تشخيص وتصنيف الجماعات الإثنية والأعراق والشعوب والحضارات المختلفة من حيث ماهياتها الثقافية الثابتة بدرجة أو بأخرى، وهو ادعاء ظل له نفوذه حتى يومنا هذا.

إرنست رينان ومحاوروه

لكى نفهم بشكل أفضل هذا الادعاء، الذى يرى البعض أنه مركزى فى استشراق القرن التاسع عشر، ولكى ندرك بعض الأفكار الواسعة

كل من زاروا الشـرق أو أفريقيا صـدمتهم الـدوائر الحـديدية التى تحيـط برأس المـؤمن الحقيقـى وتحـد من عقـلـه بشـكل قـاتل، بما يجعـله مغلقا بشكل مطلق أمـام المعرفة

الانتشار فى الغرب عن الإسلام، يمكن أن نعود إلى إرنست رينان Ernest Renan (١٨٢٣ - ١٨٩٢). ففى النصف الأخير من القرن التاسع عشر كان رينان يعتبر على نطاق واسع أبرز فيلولوجى وباحث فى الأديان فى فرنسا. وبرغم أنه كتب أساسا عن المسيحية واليهودية ولم يتلق تدريبا على الاستشراق أو يعتبر مستشرقا، فإن منظوره عن الإسلام والعالم الإسلامى - الذى عبر عنه بوضوح شديد وبقوة فى محاضرة بالسوربون عام ١٨٨٣ بعنوان «الإسلام والعلم» Islam and Science جرى تداولها على نطاق واسع. وبالتالى قد تمكننا هذه المحاضرة من أن نتعرف بوضوح على كيفية فهم كثير من المستشرقين (ومثقفين آخرين، وكذلك الموظفين الحكوميين والجمهور المتعلم) للإسلام والعالم الإسلامى المعاصر فى تلك الفترة[٥].

فبرغم أن رينان بدأ محاضرته منتقدا من يتكلمون عن الأعراق والأمم كما لو كانت مقولات مصمتة وغير متغيرة، فإن مناقشته لما أسماه «التدنى الواقعى للبلدان المحمدية، وانحطاط الدول التى يحكمها الإسلام، والخواء الفكرى للأعراق التى تحصل على ثقافتها وتعليمها من هذا الدين وحده»، كانت جوهرانية بوضوح، بمعنى الاعتماد على رؤية للإسلام ككيان مصمت واحدى له جوهر أو شخصية غير متغيرة، تسيطر، فوق ذلك، بالكامل على الحياة العقلية والسلوك الاجتماعى للمسلمين فى كل مكان:

كل من زاروا الشرق أو أفريقيا صدمتهم الدوائر الحديدية التى تحيط برأس المؤمن الحقيقى وتحد من عقله بشكل قاتل، بما يجعله مغلقا بشكل مطلق أمام المعرفة، غير قادر على تعلم أى شىء أو الانفتاح على أية فكرة جديدة. فالطفل المحمدى (:المسلم - ت) منذ نشأته الدينية فى سن ١٠ أو ١٢ سنة، والذى ربما كان يتمتع فى بعض الحالات بقدر من الذكاء حتى ذلك الحين، يصبح بضربة واحدة متعصبا، مليئا بالفخر الغبى بامتلاك ما يؤمن بأنه الحقيقة المطلقة، سعيدا بما يحط منه كما لو كان يحوز امتيازا خاصا... (المسلم) لديه أعمق الازدراء للتعلم، للعلم، لكل شىء يكوّن الروح الأوروبية. إن هذا الميل العقلى الذى يطبعه الإيمان الإسلامى فى الذهن قوى للغاية، بحيث تختفى كل الاختلافات بين الأعراق والقوميات مع التحول إلى الإسلام.

وجدير بالملاحظة أن رينان يتكلم بثقة، هنا وفى مقاله كله، عن «المحمدى» بالمفرد، لأن المسلمين جميعا فى كل مكان متماثلون عنده من حيث الجوهر. فبمجرد أن يصبح المرء مسلما، يفقد فورا فيما يبدو كل قوى التفكير التى ربما يكون قد ولد بها (برغم أن الأطفال المسلمين عند رينان يولدون «فى بعض الحالات» فقط «ببعض الذكاء»)، ويصبح متعصبا ضيق الأفق، إنسانا آليا خاضعا تماما لتعاليم إيمانه، التى اعتقد رينان أنه يمكن استنباطها من نصوص الإسلام الرئيسية. وكان الإسلام عند رينان مضادا للعقلانية والعلم بطبيعته وبشكل أبدى: فهذا متأصل فى قلبه ذاته، فى جوهره، ولا يمكن أن يتغير.

ويمضى رينان متسائلا، كيف يمكن إذن أن نفسر عبقرية العلم والفلسفة الإسلاميين فى العصور الوسطى، حين كانت الحضارة الإسلامية «سيدة الغرب المسيحى»؟ تناول رينان تلك المشكلة بالتأكيد على أن الإسلام كان فى البداية من إنتاج العرب البدو، الذين كانوا مثل غيرهم من «الساميين» يفتقرون تماما إلى أى اهتمام بالفلسفة أو العلم. وفيما بعد، خلال العصر العباسى، برزت الحضارة الفارسية القديمة والمعرفة اليونانية القديمة التى احتفظ بها المسيحيون المحليون تحت القشرة الإسلامية وأنتجا ازدهار الفلسفة والعلم والثقافة. ويرى رينان أن الخلفاء الذين أضفوا رعايتهم على هذا الازدهار الثقافى والعقلى يصعب أن نسميهم مسلمين، وأنه برغم أن هذه الحضارة استعملت اللغة العربية، فإنها لم تكن حقا عربية، وإنما كانت أساسا إغريقية وفارسية - أى «آرية».

ولكن حينئذ نفد «مشعل الإنسانية» الذى أضاء للحظة بسطوع بالغ فى الشرق وانتقل إلى أيد أخرى: «... كان غربنا هذا يستيقظ يقظة تامة من سباته... وجدت أوروبا عبقريتها، وبدأت ذلك التقدم الفائق للعادة، الذى سيكون حده الأقصى هو التحرر الكامل للنوع البشرى». سرعان ما أتى «العنصر التركى» ليسيطر على معظم الأراضى الإسلامية «ويتسبب فى نشر شامل لفقره الكامل فى الروح الفلسفية والعلمية»، ليدفعها إلى الانحطاط العقلى. وعلى ذلك كان العرق بالنسبة لرينان، كما هو الحال بالنسبة لكثير من المفكرين التاريخيين والاجتماعيين الأوروبيين المعاصرين له، يلعب دورا تفسيريا أساسيا: فقد اعتُبر العرق العربى غير قادر بشكل متأصل على التفكير الفلسفى والعلمى، أو حتى معاديا له؛ وكان الأتراك بالمثل معوقين؛ ولكن الفضول والإبداع استمرا فى الازدهار بين المثقفين الفرس (الآريين) حتى بعدما أصبحوا مسلمين. وعلى ذلك لا يهتم رينان بما كان الفلاسفة والعلماء المسلمون العظام فى القرون الوسطى يعتقدون فيه بشأن العلاقة بين إيمانهم واستخدامهم للعقل: فالإسلام عنده بالتعريف وفى كل زمان ومكان يعارض بشكل عنيد الاستخدام الحر للعقل البشرى. فإذا كان هؤلاء الناس قد ساهموا فى الفكر البشرى، فلا بد أن ذلك يرجع إلى انتصار خصائصهم العرقية الفطرية على قيود الإيمان الذى أعلنوه.

ويواصل رينان قائلا: واليوم يقمع الإسلام «أجزاءً واسعة من كوكبنا، ويحافظ فيها على الفكرة الأكثر تعارضا مع التقدم - الدولة القائمة على ثورة زائفة، وحكم اللاهوت للمجتمع. إن الليبراليين الذين يدافعون عن الإسلام لا يعرفون طبيعته الحقة. الإسلام هو الاتحاد الوثيق للروحى بالزمنى؛ إنه حكم عقيدة، إنه أثقل الأصفاد التى حملتها الإنسانية يوما... إن ما يميز المسلم من حيث الجوهر حقا هو كرهه للعلم، هو اعتقاده بأن البحث لا جدوى منه، تافه، ولا يتفق مع الورع...». فرينان يدعى أنه، على خلاف «الليبراليين» الذين هاجمهم، يفهم طبيعة الإسلام الحقة: أى كونه بالضرورة فى كل زمان ومكان معيقا للتقدم وعدوا للعقل. ويعكس وصف رينان للإسلام بأنه «ثورة زائفة» صدى المجادلات المسيحية القروسطية، بينما يلمح أسلوبه إلى عداوة تجاه الإسلام لا تتفق مع ادعائه بأنه يتحدث كباحث محايد.

واختتم رينان كلامه بالموافقة على استعمال القوة العسكرية الأوربية فى احتواء أو إخماد المقاومة ضد الاستعمار. ومدح العلم باعتباره الروح الحقة للمجتمع المتحضر، وعبر عن سروره بأنه «يضع القوة فى خدمة العقل». وحذر قائلا: «هناك فى آسيا عناصر من البربرية تشبه تلك التى شكلت الجيوش الإسلامية الأولى، والأعاصير العظمى لأتيلا Attila (ملك قبائل الهون التى اجتاحت ودمرت الإمبراطورية الرومانية الشرقية ولكنها هُزمت أمام الإمبراطورية الغربية فى منتصف القرن الخامس الميلادى - ت) وجنكيز خان Genghis Khan (١١٦٢ - ١٢٢٧، مؤسس إمبراطورية المغول، بعد توحيد القبائل المغولية تحت قيادته فى ١٢٠٦ - ت). ولكن العلم يحرس الطريق. فلو كان عمر (بن الخطاب - ت) أو جنكيز خان قد وجدا مدفعية قوية تواجههما لما تجاوزا حدود صحاريهما... لقد قيل الكثير فى نقد الأسلحة النارية فى البداية، ولكن ألم تساهم مع ذلك فى انتصار الحضارة؟».

أما أن رينان قد حط من قدر اليهود واليهودية كما فعل مع العرب والترك والمسلمين والإسلام، وأن كتاباته عن المسيحية قد صدمت الكاثوليك الورعين فليس عزاء كبيرا؛ فقد كان فى زمنه باحثا ومثقفا واسع النفوذ وكانت آراؤه تُتداول على نطاق واسع عبر أوروبا وما وراءها، لتعزز موقفا ازدرائيا تجاه الإسلام وشعورا بالتفوق الغربى أضفى بدوره الشرعية على الاستعمار الأوربى. ومع ذلك لم تكن رؤى رينان محل إجماع، حتى بين باحثى الإسلام المعاصرين له. فمثلا كان إجناز جولدتسيهر Ignaz Goldziher (١٨٥٠ - ١٩٢١)، وهو باحث من أصول مجرية يهودية وأحد أبرز مؤسسى الدراسات العربية والإسلامية الحديثة، ينتقد بقوة ما اعتبره من جانب رينان إعلانات منتفخة بلا أساس عن التدنى الأخلاقى والثقافى والفكرى للشعوب «السامية» (اليهود وكذلك العرب)، ورفض ادعاءه بأن كل جماعة إثنية أو عرقية تمتلك روحا وعقلية فريدة يمكن أن تُنسب إليها إنجازاتها الثقافية (أو افتقارها المزعوم إلى الإنجازات)[٦]. بالمقابل رأى جولدتسيهر أن أصول وتطور الحضارة الإسلامية يجب أن تدرس بالقراءة الدقيقة للمصادر الأصلية فى سياقها التاريخى. وقد قُدّر لهؤلاء الذين اعتمدوا هذا التوجه، ومنهم الكثير من الباحثين فى وسط أوربا (وغيرهم أيضا)، أن يشكلوا تيارا مؤثرا داخل الاستشراق الأوربى فى القرن العشرين.

غير أن آراء رينان واجهت أيضا نقدا من اتجاه آخر. فحين سخر رينان من الليبراليين «السذج الذين يدافعون عن الإسلام» فى محاضرته بالسوربون، ربما كان فى ذهنه آنذاك أناس مثل ولفرد سكاون بلنت Wilfred Scawen Blunt (١٨٤٠ - ١٩٢٢)، وهو رجل إنجليزى اهتم بالإسلام وعارض بشدة احتلال بريطانيا لمصر فى ١٨٨٢، والاستعمار البريطانى لأيرلندا والهند. رأى بلنت أن الإسلام يتفق مع العقل الإنسانى ويمكن أن يعاد تفسيره بما يخدم احتياجات المسلمين المعاصرين[٧]. كانت الأفكار التى عبر عنها بلنت إلى حد كبير أفكار المثقفين المسلمين الذين اتصل بهم عن قرب. ففى أواخر القرن التاسع عشر كانت هناك مناقشات حية عبر العالم الإسلامى حول كيفية مقاومة التدخل الاستعمارى الأوربى وكيف يمكن للمسلمين أن ينتفعوا بالعلم والتكنولوجيا الأوربيين، وكذلك من التقاليد الإسلامية، ليستطيعوا مواجهة التحديات التى تجابه مجتمعاتهم.

وكان المسلمون المتعلمون أيضا يزدادون علما بما يقوله الأوربيون عنهم وعن الإسلام، وحاول بعضهم أن يجعل منظوره الخاص يؤخذ فى الاعتبار. ففى الواقع لم تذهب أقوال رينان عن الإسلام والعلم بلا صدى. فبعد أسابيع قليلة من محاضرته فى السوربون نشرت صحيفة فرنسية خطابا من ناشط قيادى مسلم كان يعيش فى باريس وقابل رينان للتعارف فيما بينهما، وهو جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨/

٩ - ١٨٩٧)، الذى وُلد وتربى كمسلم شيعى فى إيران، وتعلم ليصبح رجل دين شيعيا، ولكنه أخفى أصوله وادعى بالمقابل أنه أفغانى سنى لأنه أراد أن يؤثر على العالم الإسلامى السنى الأوسع. كان الأفغانى (الذى تعرف عليه جولدتسيهر أيضا خلال إقامته فى مصر فى أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر) نوعا من محرض وداعية محترف: لقد ارتحل عبر العالم الإسلامى من الهند إلى أفغانستان إلى إيران إلى الإمبراطورية العثمانية إلى مصر، وكذلك عبر أوربا، ليحث المسلمين على التعاون لإصلاح مجتمعاتهم ومقاومة التهديد الاستعمارى الوشيك.

مدح الأفغانى فى خطابه للصحيفة المعرفة الواسعة لرينان وبصيرته، ولكنه رفض حجته القائلة بأن عظمة الحضارة الإسلامية لا تدين للعرب بشىء. وافق الأفغانى على أن الإسلام قد حاول أن يخمد العلم: «فطالما ظلت البشرية موجودة سيظل الصراع قائما بين العقيدة والبحث الحر، بين الدين والفلسفة»، بين المسلمين كما بين المسيحيين. ولكن الأفغانى واصل قائلا: «لا أستطيع أن أتوقف عن الأمل فى أن تنجح المجتمعات المحمدية يوما فى كسر قيودها والسير بعزم فى طريق الحضارة على طريقة المجتمع الغربى، الذى لم يكن فيه الإيمان المسيحى، برغم تصلبه وعدم تسامحه، عقبة منيعة بحال»[٨].

بدأ رينان رده على خطاب الأفغانى بوضعه داخل نظام التصنيف العرقى المألوف: أوضح رينان أن «الشيخ جمال الدين أفغانى متحرر تماما من تحيزات الإسلام: فهو ينتمى إلى تلك العروق النشطة لإيران العليا الواقعة على الحدود فوق الهند، التى ما زالت الروح الآرية تزدهر فيها بقوة، تحت اللباس الإسلامى السطحى. إنه أفضل إثبات لتلك البديهية العظيمة، التى أعلنا عنها كثيرا، وهى أن قيمة الدين يجب أن تُحدد بقيمة الأعراق التى تعتنقه... الشيخ جمال الدين هو أنقى حالة يمكن أن نستشهد بها للاحتجاج العرقى على الغزو الدينى». وادعى رينان أنه لم يؤكد أن كل المسلمين سيغرقون دائما فى الجهل، وإنما أصر على أن انبعاث الأراضى الإسلامية لا يمكن أن يتم من خلال إصلاح الإسلام، وإنما من خلال إضعافه، من خلال تحرير المسلم من دينه الخاص، عن طريق التعليم أساسا، تماما مثلما تخلى الأوربيون عن المسيحية الأرثوذكسية وآمنوا بالعقل والعلم بدلا منها.

إننا لا نعرف ماذا كان يمكن أن يقوله جمال الدين الأفغانى ردا على إرنست رينان، الذى كانت له إذن الكلمة الأخيرة فى هذا الحوار. وبالفعل، برغم النقد المتقطع من المسلمين ومن أوربيين منشقين، ظلت آراء مثل تلك التى عبر عنها رينان قوية النفوذ إلى فترة متقدمة من القرن العشرين، بين الباحثين، وكذلك بين الجمهور الأوربى ككل، بما فيه هؤلاء المرتبطون بشكل مباشر بحكم المستعمرات الأوربية ذات النسبة المعتبرة من المسلمين من سكانها.

هوامش

(١) «الإنسان الإسلامى» مصطلح محور من مفهوم شائع هو «الإنسان الاقتصادى»، والمقصود بالأخير السخرية من اختزال الإنسان فى «كائن اقتصادى» يتحرك بدوافع اقتصادية بحتة وملم تماما بالاقتصاد. والمعنى المقصود هنا هو تنميط مشابه للمسلمين بتصوير كل منهم كـ«كائن إسلامى»، أى اختزاله فى حمله لدين الإسلام، بصرف النظر عن الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية فيما بين هؤلاء البشر، وسيشرح المؤلف هذا لاحقا.

(2) Rodinson, Europe, p. 60.

(3) نقلا عن خطاب كتبه جون ر. لنز للمحرر: The New York Times Book Review, November 1998.

(4) Lothrop Stoddard, The Rising Tide of Color Against White World-Supremacy (New York: Charles Scribner's Sons, 1921), pp. 299-300.؛ وعن العنصرية فى تلك الفترة، انظر: George W. Stocking, Race, Culture, and Evolution: Essays in the History of Anthropology (New York: The Free Press, 1968) and Victorian Anthropology (New York: The Free Press, 1987); and Elazar Barkan, Retreat of Scientific Racism: Changing Concepts of Race in Britain and the United States between the World Wars (Cambridge: Cambridge University Press, 1992).

(5) Ernest Renan, The Poetry of the Celtic Races, and Other Studies, trans. William G. Hutchison (Port Washington: Kennikat Press, (1970), p.

(6) Lawrence I. Conrad, "Ignaz Goldziher on Ernest Renan: From Orientalist Philology to the Study of Islam," in The Jewish Discovery of Islam: Studies in Honor of Bernard Lewis, ed. Martin Kramer (Tel Aviv: The Moshe Dayan Center for Middle Eastern and African Studies, 1999), pp.

(٧) للاطلاع على سيرة موجزة لبلنت، انظر: Albert Hourani, Europe and the Middle East (Berkeley: University of California Press, 1980), ch.

(٨) يمكن العثور على النص الكامل لخطاب جمال الدين الأفغانى فى: Nikki R. Keddie, ed., An Islamic Response to Imperialism: Political and Religious Writings of Sayyid Jamal al-Din "al-Afghani" (Berkeley: University of California Press, 1968).؛ وجدير بالذكر أن الأفغانى قد حرص على ألا يترجم أو ينشر خطابه فى منطقة الشرق الأوسط، خوفا من أن يصدم ذلك الرأى العام الإسلامى ويقوض أهدافه السياسية. أود أن أشكر جوان كول Juan Cole على أنه ذكّرنى بهذه النقطة.

كتاب الزاوية

رسالة ابن فضلان

روس كأنهم النخل

قال أحمد بن فضلان: ورأيت الروسية وافوا فى تجارتهم ونزلوا على «نهر إتل» فلم أرَ أتم أبدانًا منهم كأنهم النخل، شقر حمر، لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه، ويخرج إحدى يديه منه. ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه جميع ما ذكرنا.

وسيوفهم صفائح مشطبة أفرنجية. ومن حد ظفر الواحد منهم إلى عنقه مُخضر شجَرٌ وصُوَر، وغير ذلك.

وكل امرأة منهم فعلى ثديها حُقة مشدودة إما من حديد وإما من فضة، وإما من نحاس، وإما من ذهب، على قدر مال زوجها ومقداره. وفى كل حُقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدى أيضًا. وفى أعناقهن أطواق من ذهب وفضة، لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقًا، وإن ملك عشرين ألفًا صاغ لها طوقين، وكذلك كل عشرة آلاف يزدادها طوقًا لامرأته. فربما كان فى عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة.

وأجلّ الحلى عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذى يكون على السفن يبالغون فيه، ويشترون الخرزة بدرهم، وينظمونه عقودًا لنسائهم. وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة. يجيئون من بلدهم فيُرسون سفنهم بإتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شطه بيوتًا كبارًا من الخشب.



تركيا

■■ قام الإسلام - ولازال - بدور بارز فى تاريخ الأمة التركية وكان العامل المهم دائما فى توجيه الروح التركية.. فهو الذى أعطى للدولة العثمانية شخصيتها الدولية وكيانها التاريخى وهو الذى منحها شرعية قيادة العالم الإسلامى طوال ستة قرون وهو الذى ساعد على تحقيق التجانس و الدمج الاجتماعى بين القوميات والجنسيات المختلفة فى ربوع الإمبراطورية..

ورغم إلغاء مصطفى كمال أتاتورك الخلافة فى ٣ مارس ١٩٢٤م فإنه لم يستطع أبدا إلغاء الإسلام من قلوب وعقول ووعى ووجدان الناس. وهو الذى لم يدخر وسعا ولم يترك وسيلة لمحاربة الإسلام وسلخ تركيا منه إلا وفعلها.. فى حالة مدهشة من حالات التطور التراجعى..إذا جاز الوصف..كان أتاتورك فيما يبدو متأثرا فيها بمفهوم (العلمانية الثورية) التى قال بها فلاسفة مثل ماركس وفيورباخ فى أواخر القرن التاسع عشر... والتى كانت تستهدف هدم الدين وتخليص الدولة والمجتمع من تأثيراته تماما... فى حين أن منشأ العلمانية كان بغرض الحد من أثر الدين والكنيسة على شئون المجتمع وسياسة الدولة فقط... ولم تكن هناك نوايا لمخاصمة الدين وعدائه..

فقام أتاتورك بفرض القبعة على الشعب بالقانون وببطش الدولة وحارب الأبجدية العربية التى كانت تُكتب بها اللغة التركية فصدر قانون بالكتابة بالأبجدية اللاتينية ونُقيت التركية من الكلمات الفارسية والعربية وأصبح الأذان للصلاة بالتركية. ثم جاءت الهجمة الشرسة على أسماء الشعب فيما عرف بـ (معركة الألقاب)... وحقيقة لم أعرف فى تاريخ (الضرورات) أطرف وأغرب مما فعله أبو الأتراك... فقد بدا واضحًا أنه ورجاله يسعون لتغيير دين الشعب وهيئته وأسمائه وكل ما يتعلق بهويته وأصل وجوده شكلا ومضمونا..وفى الذكرى العاشرة لتأسيس الجمهورية التركية جُمعت المصاحف والكتب الدينية ووضعت على ظهور الإبل ليقودها رجل يرتدى الزى العربى متجها بها نحو الجزيرة العربية وعُلقت على رقاب الإبل لافتة تقول: (جاءت من الصحراء ولتعد إلى الصحراء وجاءت من العرب فلتذهب إلى العرب).. أخطأ أتاتورك فى حق أمته خطأ فادحا حين اعتبر الإسلام عقبة فى طريق التقدم والنهوض ناسيا أن الدين فطرة ومشاعر وحقيقة من حقائق الحياة وهو(مركب الحضارة)الذى يمزج(الإنسان والتراب والوقت) فالفكرة الدينية رافقت دائما تركيب الحضارة عبر التاريخ كما يقول مالك بن نبى.. أو كما قال برتراند رسل (الدين كلمة لها تاريخ طويل.... وحقيقة الناس هى العقل والدين والغريزة)... فما بالك إذا كان هذا الدين هو الإسلام الذى هو بطبيعته طريقة ومنهاج شامل للحياة وما بالك إذا كان هؤلاء الناس هم الأتراك بشدتهم وحدتهم وقوتهم... والغريب أنه أثناء حرب الاستقلال ١٩٢٠ اعتمد أتاتورك على أئمة المساجد فى تعبئة الجماهير وتحفيزها.. وكان بديع الزمان النورسى (الكردى) من أوائل العلماء الذى وقفوا إلى جانبه، بل إن رجال الدين أنفسهم ساهموا فى التمهيد لمجيئه (المؤتمر الأول للجمعية الوطنية كان يضم ٧٣ عالما دينيا من بين ٣٦١.. وحين أصدر شيخ الإسلام فى الآستانة فتواه المشهورة بتكفير أتاتورك رد عليه مفتى أنقره بفتوى مضادة تحمل توقيع ١٥٢ عالمًا دينيا بتحريض من أتاتورك..) لم يفعل أتاتورك أى شىء فى سبيل الإصلاح الحقيقى والذى كان المجتمع التركى - كما كل العالم الإسلامى - بحاجة حقيقية إليه..فظل الريف التركى كما هو على تخلفه وفقره تحت سيطرة الأغوات وبقى الأشراف فى المدن كما هم يمارسون استغلالهم وتسلطهم.. حتى العلمانية المستوردة لم يقم أتاتورك بتطبيقها كما اخترعها الغرب فالعلمانية الغربية كانت تعنى الخلاص من ظروف الحروب الدينية والتى طالما اصطلت بها شعوب أوروبا.. وليست من الدين..وتطورت فأصبحت تضمن حرية العقيدة والتعبير..ولا تأخذ موقفا مناوئا للدين وشعائره كما فهمها وطبقها هو.. فقط أقام ديكتاتورية الحزب الواحد (حزب الشعب الجمهورى)..وأعطى لصحوته مفهوما (فاشستيا) أراد فيه للجماهير أن تكون كتلاً بلا ملامح بلا معالم بلا أفكار..فألغى المحاكم الشرعية واستعاض عنها بالقانون المدنى السويسرى والقانون الجنائى الإيطالى والقانون التجارى الألمانى ومنع تعدد الزوجات.. حين صدرت هذه القرارات قامت ثورة الشيخ سعيد النورسى فى شرق الأناضول ورغم وصفها بالكردية الانفصالية فإن أهم مطالبها كانت المطالبة بعودة الخليفة (وحيد الدين) آخر سلاطين بنى عثمان.. ونشطت أيضا الجماعات النقشبندية وبقيت حركات الرفض والممانعة هذه مستمرة حتى عام ١٩٣٦ .. وحين اشتد الضغط عليها اتجهت إلى السرية خاصة بعد المحاكمات والإعدامات.

ولأن القوانين الحتمية أقوى من فعل الأفراد كما يقول ابن خلدون والدين فى حياة الأمم من أحتم الحتميات فبعد نصف قرن من هذه التجربة النشاز بدا للنخبة التركية أنها كمن كان يطرق أنفه على باب مغلق طوال السنين السابقة وأن الخلل لم يكن بين القبعة والطربوش وأن القصة

هشـــام الحمـــامى

عام ١٩٥٠ أصدر رئيس الوزراء عدنان مندريس قرارا برفع الحظر عن الأذان باللغة العربية وكان ذلك أول ثغرة تنفتح فى جدار القهر الأتاتوركى

الجـــديـــدة!

أبعد عمقا من كل ما فعله أبو الأتراك.. الذى ترك لمن بعده وهم تبدد وكثير من الجراح... فما أن جاء عام ١٩٤٦ حتى ألغى نظام الحزب الواحد وأقرت التعددية واصبح الدين حاضرا فى كل البرامج الحزبية.. وحدث تحول فى سلوك النظام تجاه الإسلام عندما أدرك حزب الشعب الجمهورى(حزب أتاتورك) حجم الفراغ الذى لم يستطع النظام أن يملأه فى المجال الدينى فاقترح السماح بإجراء تعليم دينى بشرط أن يكون تحت حكم وسيطرة الدولة. وفى ١٩٤٧ قرر الموافقة على اقتراح بالسماح بتعليم الدين الإسلامى بالحروف اللاتينية بشكل خاص وخارج المدارس الرسمية على أن يتم ذلك تحت إشراف وزارة التعليم. وفى ١٩٤٨ أعلن برنامج المواد الدينية التى ستدرس للصفين الرابع والخامس الابتدائى وفى ١٩٤٩ أصبحت المادة الدينية تدرس فى المدارس الابتدائية بموجب إذن كتابى من ولى الأمر بشرط أن تدرس خارج أوقات الدراسة الرسمية وفى الفترة التى كانت فيها الحكومة الائتلافية مكونة من حزبى الشعب الجمهورى والسلامة الوطنى عام ١٩٧٣ تم وضع المواد الدينية فى جميع الصفوف تحت مسمى (دروس الأخلاق) على أن تكون بمعدل ساعة أسبوعية وبشكل إجبارى. وكانت مدارس الأئمة والخطباء قد أغلقت تماما بعد عام ١٩٣٠بسبب عدم وجود طلاب!!!.

ولكن مع التحول لحياة التعددية الحزبية وتخلى حزب الشعب الجمهورى - مضطرا - عن نظرته للإسلام باعتباره عامل إعاقة أمام التحديث المنشود...ومع التوجه نحو الديمقراطية فى الفترة التى حكم فيها الحزب الديمقراطى البلاد بعد هزيمته لحزب الشعب الجمهورى عادت هذه المدارس ثانية وبدأ السياسيون يتزلفون إلى الناخبين من أجل الحصول على أصواتهم وتوجهوا إلى جماهير كانت مهملة منذ أعوام طوال وخشى حزب الشعب رافع راية العلمانية من أن تهرب منه الأصوات نحو الأحزاب الأخرى....

وبعد تردد طويل وافق على وضع التعليم الدينى فى نظام الدولة خاصة بعد شعور الجميع أن الدولة بحاجة حقيقية إلى(رجل دين مثقف) وتوفرت لديهم قناعة بأن رجال الدين المثقفين سيقومون بأدوار هامة فى تحقيق التماسك الاجتماعى للوطن.

وبدأ الحزب الديمقراطى والحزب الجمهورى يتنافسان على أصوات الجماهير بقرارات الانفتاح الدينى وعندما فاز الحزب الديمقراطى بالأغلبية عام ١٩٥٠ أصدر رئيس الوزراء عدنان مندريس قرارا برفع الحظر عن الأذان باللغة العربية وكان ذلك فى حد ذاته حدثا هائلا بكل المقاييس وأول ثغرة تنفتح فى جدار القهر الأتاتوركى...وتم ترميم المساجد وأصبح النشاط الإسلامى مسموحا به بعد أن كان محظورا غير أن هذه التوجهات السياسية ذات البعد الاجتماعى والسياسى الخطير لم تستطع النخب العلمانية الشرسة احتمالها واستخدمت عصاها الغليظة...فقام الجيش بانقلابه الأول فى٢٧ /٥/ ١٩٦٠باعتباره الحامى لمبادئ أتاتورك العلمانية وحامى الجمهورية وتم إعدام (عدنان مندريس)رئيس الوزراء فى هذا الانقلاب وتولى قائد الانقلاب (جمال جورسيل) رئاسة الدولة والوزراء ووزارة الدفاع.

وفى عام ١٩٦١ انشق حزب العدالة عن الحزب الديمقراطى ووصل إلى الحكم عام ١٩٦٥وحدث تحول آخر مهم داخل حزب الشعب الجمهورى بتولى بولند أجاويد رئاسة الحزب واعترف لأول مرة أن الصراع لم يكن بين الطربوش والقبعة بل بين الفقر والاستغلال وأن كل الأحزاب استغلت الدين لإخفاء عجزها السياسى والاقتصادى والاجتماعى..

كانت فترة الستينيات قد شهدت تحولات خطيرة على المستوى الاجتماعى والاقتصادى فتغيرت كثير من أنماط الحياة. وعلى المستوى السياسى انتشرت الأحزاب اليسارية فى صفوف الطلاب والمثقفين وظهرت أيضا فى تلك الفترة توجهات سياسية (إسلامية)واضحة وصريحة فظهر البروفيسور نجم الدين أربكان الذى عينه حزب العدالة رئيسا لاتحاد مجالس الصناعة والتجارة التركية وقد كان لتوه قادما من ألمانيا حاملا الدكتوراه فى صناعة المحركات الميكانيكية ثم كان الظهور القوى له فى الحياة السياسية حين فاز كمرشح مستقل عن دائرة قونية وكان فوزا كبيرا وساحقا بما يتجاوز كونه فوزا لنائب له جماهير...

وفى عام ١٩٧٠م أسس أربكان حزب النظام الوطنى منفصلا به عن حزب العدالة..الذى كان بدوره منفصلا عن الحزب الديمقراطى...تميز برنامج الحزب بالاتجاه شرقا نحو(المحيط الحضارى والتاريخى) للأمة التركية وبدأ فى انتقاد حزب العدالة وحزب الشعب وفى نفس الوقت كان ملتزما بالنظام القانونى للبلاد..ولم يحاول أبدا الخروج عليه.وفى العام التالى أقام الحزب مؤتمره السنوى الأول مبتدئا الحفل بالنشيد الوطنى واختير أربكان أمينا له...(حلمى يقود خطاى)..كانت هذه الفترة تتسم بالقلق السياسى وعانت البلاد من أزمات حادة لم تفلح الحكومات المتعاقبة فى معالجتها وهو ما دعا الجيش فى ١٢ مارس ١٩٧١ إلى توجيه مذكرة إنذار لرئيس الوزراء وقتها(سليمان ديميريل)تدعوه فيه إلى إجراء إصلاحات سريعة من أجل القضاء على أسباب هذه الأزمات..وإلا فإن الجيش سيمارس حقه الدستورى ويتولى مقاليد الحكم وعرف هذا الانقلاب فى الحياة السياسية التركية بـ(انقلاب المذكرة) فاستقالت الحكومة وحظر حزب النظام الوطنى وأغلقت مقراته ومكاتبه واضطر أربكان لمغادرة البلاد حتى تهدأ هذه العاصفة.

فى عام(١٩٧٢م) أسس فريد ملان حزب السلامة الوطنى على نفس نهج حزب النظام وبقى أربكان فى الظل بعد عودته إلى البلاد..وخاض الحزب الانتخابات البرلمانية وحصل على(٤٩) مقعدا ودخل فى حكومة ائتلافية مع حزب الشعب الجمهورى وتضمن الاتفاق بينهما مبادئ هامة منها إطلاق الحريات العامة وحرية الصحافة والعفو عن السجناء السياسيين. وتولى أربكان منصب نائب رئيس الوزراء وأجاويد رئيسا وكانت خطوة واسعة للأمام بالنسبة للحركة الإسلامية التى حصلت على مكاسب مهمة فى حقيقة الأمر من هذا التحالف مثل فتح عدد كبير من مدارس الأئمة والخطباء وكانت أهم إنجازات هذه الوزارة إقناع قيادة الجيش التركى بإنزال قواتها فى جزيرة قبرص شعبى كبير واحتلال أكثر من ثلثها لحماية المسلمين القبارصة (الأتراك)وأصبحت الحركة الإسلامية المتمثلة فى حزب السلامة الوطنى رقما مهما فى الحياة السياسية التركية.. وهو ما لم يكن مقبولا من النخبة العلمانية التى زادت مخاوفها أكثر وأكثر فافتعلت أزمة سياسية واستقال أربكان ومؤيدوه من الوزارة.

كان أربكان فى موقفه الحازم من قضية الإنزال التركى فى قبرص زعيما شعبيا بامتياز... ذلك أن الشعب التركى يعتبر جزيرة قبرص جزءا منه خاصة بعد أن قامت بريطانيا بتمكين اليونانيين منها حتى يصبحوا أكثرية وهى الجزيرة التى لا تبعد سوى ستة كيلومترات عن الموانئ التركية فى حين تبعد عن اليونان أكثر من ستمائة كيلومتر.ائتلف حزب السلامة الوطنى مع حزب العدالة فى حكومتى ١٩٧٥م-١٩٧٨ وكان أربكان يشغل منصب نائب رئيس الوزراء وتبنى الحزب فى هذه الفترة قضايا ذات طابع اقتصادى بالأساس وكان أربكان مسكونا بتجربة النهوض العظيم فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية فقام الحزب بحملة قومية لإنشاء صناعات كبرى خاصة فى مجال الأسلحة الثقيلة فافتتح فى ١٩٧٦ أكثر من مائة مؤسسة صناعية كبرى وعمل على إصدار



كان أوزال يرى أن الإسلام المعتدل كإطار أيديولوجى مهم لمنع نمو الأفكار المتطرفة خاصة بعد نجاح الثورة الإسلامية فى إيران

قانون يُلغى الفوائد الربوية على القروض الزراعية تيسيرا على الفلاحين وتم إحلال زراعة الحبوب محل زراعة الدخان... وقام بإصلاحات اجتماعية واقتصادية كبيرة.

وفى عام (١٩٨٠م) عقد الحزب مؤتمرًا شعبيًا تحت شعار(أنقذوا القدس) ورُفعت فيه الأعلام الخضراء وظهرت دعوات لإقامة دولة إسلامية فى تركيا!!!! وبدا أن الحركة الإسلامية تتمرد على ذاتها وتستولد لها حجما جديدا ولم يكن الزمن مواتيا ولا الريح موافقة بعد لمثل ذلك فقام الجيش على الفور بانقلاب عسكرى وسيطر العسكريون على السلطة السياسية وتم حل الأحزاب ومن بينها بالطبع حزب السلامة وتركزت السلطة فى يد مجلس الأمن القومى وقيدت الحريات العامة ولم يُسمح بدخول انتخابات عام ١٩٨٣م إلا لثلاثة أحزاب هى حزب الديمقراطية ويتكون من جنرالات الجيش المتقاعدين وحزب الشعب الجناح الأتاتوركى وحزب الوطن الأم بقيادة (تورجوت أوزال) وهو الذى فاز فى تلك الانتخابات وظلت الحياة السياسية فى تركيا على ما بها من قلق وعدم استقرار.

وأوزال مهندس كهربائى له خبرة لا بأس بها بالشئون الاقتصادية والسياسية وكان من قبل مرشح حزب السلامة الوطنى عن ولاية (أزمير) ويوصف بأنه سفير الغرب فى تركيا ورغم ذلك فإن الحركة الإسلامية فى عهده -سواء كان فى رئاسة الوزراء أو فى رئاسة الجمهورية- تمتعت بحرية كبيرة واحتلت مساحة أكبر فى الشارع التركى، فقد كان أوزال يرى أن الإسلام المعتدل كإطار أيديولوجى مهم للحد من تطرف الأتاتوركية التى أضرت بالأمة التركية.. وأيضا لمنع نمو الأفكار المتطرفة خاصة بعد نجاح الثورة الإسلامية فى إيران... لذلك تَبَنَّى سياسات إسلامية معتدلة مقارنة بسابقيه فدعم المدارس التى تُخرج الأئمة والخطباء لتصل نسبة خريجيها إلى ٢٠٪ من خريجى المدارس المتوسطة وسمح بالدعوة الإسلامية فى الإذاعة والتلفزيون وسمح للفتيات بارتداء الحجاب بعد أن كان ممنوعا وسمح بقيام مؤسسات الأوقاف كما سمحت السياسات الاقتصادية التى تبناها بوجود شركات ومشروعات إسلامية.

تولى أوزال رئاسة الجمهورية فى نوفمبر ١٩٨٩م وقبل توليه الرئاسة بيوم واحد نظمت طالبات جامعة أنقرة مظاهرة كبيرة اشترك فيها خمسة آلاف طالبة احتجاجًا على منع الحجاب فى الجامعات التركية بقرار من المحكمة الدستورية العليا وأحدثت هذه المظاهرة أثرا كبيرا فى الشارع التركى، حيث رأى البعض أن الظهور المكثف للمحجبات هو من قبيل التخطيط السياسى حيث يقدمون النساء فى الواجهة مما يجعل تأثيرهن أقوى ومواجهتهن أقل ورأى آخرون أن النساء رفعن رايات الانتماء للإسلام بارتداء الحجاب لتثبت الحركة الإسلامية فى تركيا أنها موجودة فى الوجدان الشعبى وبذلك استطاعت الحركة الإسلامية أن تنقل معركتها مع العلمانيين إلى الشارع لتحريك المشاعر الإسلامية لدى المواطن التركى ولا شك أن هذا الأداء من قبل الحركة الإسلامية كان يهدف إلى عدم حدوث انتكاسة للإسلاميين كالتى حدثت فى بداية الثمانينيات...وكان اربكان قد أسس حزب الرفاه عام ١٩٨٣ وكان برنامجه تحت عنوان(النظام العادل) مشيرا إلى النظام الإسلامى. كان برنامج الحزب يهدف إلى إلغاء العلمانية الثورية أو(الشاملة) كما سماها لاحقا العلامة الدكتور عبد الوهاب المسيرى. وخاض به أربكان الانتخابات بعد ذلك. فاستطاع فى الانتخابات المحلية عام ١٩٨٩م أن يحصل على خمس بلديات وفى عام ١٩٩٢م كانت المفاجأة الكبيرة فى الوسط السياسى التركى بفوزه الكبير فى الانتخابات..

كان اقتراب الحركة الإسلامية من السلطة فى هذا الوقت اقترابا حكيما وئيدا يستند على قاعدة اجتماعية قوية ومما ساعد على ذلك أيضا انشغال المؤسسة العسكرية التركية والائتلاف الحكومى بمواجهة حزب العمال الكردستانى وزعيمه عبد الله أوجلان فاستثمر حزب الرفاه ذلك الأمر فى إعلانه رفضه المطلق للعنف وأنه لن يخرج على شرعية الدولة بل انه جزء من هذه الشرعية والتى هى بدورها تمنحه شرعية وجوده ونشاطه..أيضًا كان وجود الرئيس تورجوت أوزال فى الحكم بأفكاره غير المتطرفة تجاه الإسلاميين عاملا مهما ساهم فى تقوية موقفه إلا أن أوزال توفى بأزمة قلبية مفاجئة فى ٤/١٧/ ١٩٩٣ قبل أن يكمل فترة رئاسته وتولى الحكم بعده (سليمان ديميريل).

ومع تنامى الشعور الإسلامى فى تركيا وسيطرة حزب الرفاه على عاصمتى تركيا: أنقرة وإستانبول توحدت أحزاب اليمين واليسار ضده لتستطيع مواجهته وعلى العكس حقق الحزب فوزًا كبيرا فى انتخابات ١٩٩٤م وهو ما أقلق الأحزاب المختلفة فبدأ بعضها يخاطب الجماهير عن طريق فتح معاهد لتدريس القرآن الكريم كان نجاح تجربة حزب الرفاه فى الانتخابات البلدية وتأكيده العملى بأنه حزب نظيف وقريب من الهموم العادية للناس وارتقائه بالخدمات فى البلديات التى فاز فيها دون تفرقة بين الناس.. خطوة واسعة أخرى للأمام وانتقل الحزب من شرعية المسجد إلى شرعية المجتمع بهدوء وقوة وثبات فحقق شعبية كبيرة رغم ما واجهه من حملات لتشويه أدائه والتقليل من أهميته وتجلت هذه الجماهيرية للحزب فى الانتخابات البرلمانية فى ١٩٩٥م حيث حصل على(١٥٨) مقعدًا من(٥٥٠) مقعدا وحصل فى الانتخابات البلدية الجزئية التى جرت فى ذلك العام على ٣٣٪ من الأصوات وأعقب هذا الفوز الكاسح للرفاه انهيار الحكومة الائتلافية بين حزبى(الطريق القويم) و(الوطن الأم).وتحالف الجميع ضد وصول حزب الرفاه للحكم فعهد الرئيس ديميريل إلى تانسو تشيلر زعيمة (الطريق القويم) بتشكيل الوزارة ففشلت.. وقدم الرفاه ملفات تُدينها بالفساد وحصل على موافقة من البرلمان على إجراء تحقيق حول ممتلكاتها الشخصية.

أما(مسعود يلماظ) زعيم حزب(الوطن الأم) فلجأ إلى حيلة المحكمة الدستورية العليا والتى استطاع الحصول منها على حكم بعدم دستورية اقتراع الثقة على حكومة اربكان فأدى ذلك إلى فوضى سياسية مع إصرار عنيد على عدم صعود أربكان لرئاسة الوزارة.لكن الحزب أدار هذه الأزمة بحكمة وخبرة عالية فكان أن أعلنت تشيلر قبولها الائتلاف السياسى معه على أن يتولى أربكان رئاسة الوزارة وتكون الوزارات السياسية السيادية من نصيب حزب الطريق القويم وفى يونيو ١٩٩٦م تشكلت وزارة ائتلافية برئاسة نجم الدين أربكان ولأن الفشل فى شىء أفضل من عدم خوض التجربة فقد أصبح اربكان بذلك أول (إسلامى) يصعد إلى قمة السلطة السياسية فى العصر الحديث فى الشرق الأوسط عن طريق الانتخاب رغم أنه لم يكن هناك ثمة فشل.. فالتجربة على قصرها تعد ناجحة - أو بروفة لنجاح آت عما قريب - فقد استطاع الرجل فى هذه الفترة التى تولى فيها الوزارة،وهى عام واحد أن يخفض ديون تركيا من (٣٨) مليار دولار إلى (١٥) مليار دولار وقام بسياسات ناجحة فى الداخل والخارج بعيداً عن أى شبه تطرف..إلا أن المؤسسة العسكرية رأت فى نجاحاته الكبيرة خطراً كبيراً خاصة أنه اقترب من بعض القضايا الشائكة فى تركيا - وعلى رأسها القضية الكردية- لحلها وبدأت قيادة الجيش فى توجيه انتقادات لاذعة لأربكان فتأزمت الأوضاع السياسية مما دفع أربكان إلى الدعوة لانتخابات مبكرة وقدم استقالته من رئاسة الحكومة.

كانت الحركة الإسلامية أمام خيارين بعد هذا الحضور والنجاح وبعد اعتقال رجب اردوغان- أحد أهم رجال اربكان- وإسقاط حكومة اربكان فى ١٩٩٧وفرض الإقامة الجبرية عليه.

الخيار الأول التحريض والتعبئة الجماهيرية والدخول فى مواجهة مسلحة مع الجيش فى ظل تركيبة عرقية مركبة بعض الشىء وهو ما يعنى أن المواجهة ستكون شديدة القسوة وهم الطرف الأضعف فيها والعسكريون فى هذا الأمر على استعداد لفعل ما تشيب له سود النواصى (الجزائر نموذجا) مما سيعيد الحالة الإسلامية فى تركيا إلى المربع رقم واحد والخيار الثانى هو المحايلة والمداراة والعمل الهادئ للخروج من هذا الفخ المنصوب.. فكان الخيار الثانى دون ضجيج وصخب وكان الالتحام الأكثر بالشارع والطبقات المعدمة فيه والسعيد من اعتبر بأمسه ونظر لنفسه.. وأمس الانقلابات غير



مع تنامي الشعور الإسلامي في تركيا وسيطرة حزب الرفاه على عاصمتي تركيا: أنقرة واستانبول توحدت أحزاب اليمين واليسار ضده لتستطيع مواجهته

بعيد واستطاعت الحركة الإسلامية فى تركيا بذلك أن تقدم نموذجًا فريدًا فى الاستجابة لضغوط الواقع السياسى والاجتماعى المفروض عليها والتكيف معه والاستفادة منه دون أن تتخلى عن أفكارها ودون أن تلجأ إلى العنف.. فرسخت أقدامها اكثر واكثر فى الواقع التركى واستطاعت أن تدرأ الضرر وتجلب المصلحة بحكمة واقتدار بالغين..

لا غنى لأى مهتم بالحالة التركية من الإلمام الجيد بتركيبة (السلطة الفاعلة فى تركيا..والتى تشكل المؤسسة العسكرية فيها اليد الضاربة.. لاعتبارات كثيرة أهمها بالطبع الاعتبار التاريخى لقيام الجمهورية التركية.. يليها دوائر المال ودوائر الاعلام.. الإعلام بمختلف مكوناته ورجال الأعمال - الحاضرون دوما وأبدا فى لعبة السياسة والحكم -..

يذكر لنا التاريخ أن المؤسسة العسكرية كان لها دور بارز على الدوام فى جميع الدول التى شكلها الأتراك فى التاريخ كالدولة السلجوقية والدولة العثمانية وكان لها دور كبير فى جميع الانتصارات والتوسعات التى تمت وجعلت من الدولة العثمانية إمبراطورية كبيرة تمتد فوق ثلاث قارات ولكنها بمرور الوقت وباشتراكها فى السياسة وألاعيبها تحولت إلى مشكلة كبيرة وسبب قوى من أسباب اضمحلال وسقوط الإمبراطورية العثمانية.

فى العهد الجمهورى مارست المؤسسة العسكرية دورا سيئا فى الحياة السياسية.. تبدى ذلك فى ٣ انقلابات عسكرية كاملة فى ١٩٦٠ وفى ١٩٧٢وفى ١٩٨٠ ونصف حركة انقلابية عام ١٩٩٧ عندما ساعدت على إسقاط حكومة أربكان. والمؤسسة العسكرية فى تركيا لها وضع شديد الخصوصية ففى جميع الدول تكون رئاسة الأركان العامة للجيش تابعة لوزارة الدفاع وتتم جميع التعيينات والترقيات والإحالة للتقاعد أو الفصل من الجيش من قبل هذه الوزارة إلا أن المؤسسة العسكرية التركية -التى يرأسها رئيس الأركان- لا ترتبط بوزارة الدفاع بل برئيس الوزراء وذلك من الناحية الشكلية فقط. وواقع الحال أنها مؤسسة قائمة بذاتها تماما وتقوم باتخاذ جميع القرارات المتعلقة بالجيش دون أن يكون لوزير الدفاع أو لرئيس الوزراء أى سلطة والقادة الفاعلين هم أعضاء هيئة الأركان الذى يضم قادة أقسام الجيش البرية والجوية والبحرية والشرطة العسكرية.. أما الهيئة التى يسيطرون على كل شيء من خلالها فهى لجنة (الأمن القومى) التى تجتمع مرة كل شهر برئاسة رئيس الجمهورية وحضور أعضاء مدنيين وعسكريين. وهذه اللجنة لها صلاحيات كبيرة وسنرى حجم التطور الديمقراطى الذى أحدثه حزب العدالة فى الحياة التركية حين نعرف ما آلت إليه هذه الصلاحيات بعد التغييرات الأخيرة. تنبثق عن لجنة الأمن القومى سكرتارية تضم ٧٠٠ موظف وتتكون هذه السكرتارية من سكرتير عام برتبة جنرال يعينه رئيس الأركان العامة ثم مساعد السكرتير العام ومساعدين له ثم المستشارين الرئيسيين ثم المستشارين الاعتياديين ثم مديرى الدوائر وأخيرًا الخبراء فى مختلف الاختصاصات.

هذه اللجنة تقوم بتوجيه جميع الهيئات الدستورية ولها حق جمع المعلومات من جميع الدوائر الرسمية ولها صلاحية تنفيذية ولها صلاحية رقابية على جميع هذه الهيئات والدوائر وتقوم بكل هذا باسم رئيس الوزراء.

وعلى ضوء المعلومات التى لدى لجنة الأمن القومى من الجهات المختلفة تقوم بإصدار أوامرها حول كيفية قيام هذه المؤسسات والهيئات بتطبيق وتنفيذ المصالح العليا للبلاد حسب رأيها هى طبعا.

(حكومة حزب العدالة والتنمية) قامت بطرح هذه المعضلة على واجهة الجدل العام فقامت بإلغاء الصفة التنفيذية والرقابية التابعة للجنة الأمن القومى وسكرتاريتها وأعطت لها صفة استشارية فقط كما سحبت من رئيس الأركان العامة صلاحية تعيين السكرتير العام للجنة ونقلت هذه الصلاحية إلى رئيس الوزراء وإلى رئيس الجمهورية والشيء المهم هنا سحب صلاحية تدخل هذه اللجنة فى الهيئات والمؤسسات المختلفة والوزارات وحصر عملها ومهمتها فى إطار تقديم الاستشارة إلى الحكومة التى لها مطلق الحرية فى الأخذ أو عدم الأخذ بها كما لم يعد هناك شرط كون السكرتير العام للجنة شخصًا عسكريًا .وبهذا تكون لجنة الأمن القومى استشارية فقط مثلها مثل اللجان الشبيهة لها والموجودة فى بعض الدول الغربية(مجلس الأمن القومى فى أمريكا)(مجلس الدفاع الأعلى فى فرنسا) هذه اللجان تقوم بمهام استشارية فتقدم المعلومات والاستشارات للحكومة فى الشئون الدفاعية والسياسية والخارجية ولا تتدخل فى الشئون السياسية ولا فى عمل الحكومة أو فرض رأيها عليها أو تدبير انقلابات عسكرية أو إسقاط حكومة.

كما نصت التعديلات الأخيرة التى قام بها حزب العدالة على قيام لجان من البرلمان ووزارة المالية بمراجعة نفقات الجيش وهو ما لم يكن مسموحًا به من قبل مع بقاء فقرات سرية تعتبر من جهة الأمن القومى من أسرار الدولة. كما نصت التعديلات الجديدة على قيام لجنة الأمن القومى بعقد اجتماعاتها كل شهرين بدلا من كل شهر.. هذه القوانين الجديدة ثورة حقيقية بكل معنى الكلمة لأنها تزيل الهيمنة العسكرية عن الحياة العامة فى تركيا..على أنه يجب التريث قليلا فى الحكم على نجاح التجربة قبل مرور وقت كاف على تطبيقها وتحولها إلى حقيقة راسخة فى الحياة السياسية التركية لأن الجيش الآن يخوض معركة وجوده ولأن النخب العلمانية فى تركيا ليست هينة ولها قدرة كبيرة على حبك المؤامرات واصطناع الأزمات الحكومة من جهتها تعتبر معركتها مع العسكر معركة مصير وهى تسير قدما فى اتجاه خطوات جديدة لتكون الإدارة التركية إدارة مدنية خالصة.. ويبدو بالفعل أن منحنى (العسكرة) قد أخذ مسار هبوطه..فمثلا تم ربط رئاسة الأركان العامة بوزارة الدفاع وإعطاء حق الدفاع للضباط المطرودين من الجيش أمام المحكمة العسكرية. الاتحاد الأوربى وأمريكا تابعا هذه التطورات بإعجاب كبير فالجيش الآن لم يعد هو القوة الأولى والوحيدة فى تركيا ومن الصعب قيامه بانقلابات مثلما كان الأمر فى الماضى... يمنعه من ذلك أولا الوضع الدولى وثانيا أن حزب العدالة لم يخرج عن الإطار الديمقراطى الذى توافق عليه الجميع. وبات واضحا للجميع أنه لن يتم حسم هذه المعركة المصيرية دون مساعده الاتحاد الأوربى وأمريكا التى لعبت دورا مؤيدًا لجميع الانقلابات العسكرية السابقة.

الجهاز الإعلامى له تأثير قوى ويغلب على القائمين عليه طابع المخاصمة للدين وتوجد فى تركيا العديد من المؤسسات الإعلامية ومحطات الإذاعة والتلفزيون ومعظمها تؤيد العلمانية الشاملة وتهاجم الإسلاميين بضراوة وتعمل على إظهارهم بالمظهر الرجعى المنعزل الكاره للعلم والحضارة وكالعادة يعمل الإعلام على إلهاء الجماهير بأخبار الكرة والمغنين والأزياء والمسلسلات وكل ما من شأنه تسطيح وعى الناس... وسيتمكن رجب اردوغان فيما بعد من نزع إحدى هذه المؤسسات المهمة من صاحبها وتحويلها إلى ملكية الحكومة بعد كشف التلاعب المالى لصاحبها وسيتفق مع صاحب أكبر مؤسسة إعلامية والتى تتبع لها (السى إن إن) التركية على ألا تهاجمه ووزارته وأن تفسح المجال لرجاله بالظهور فيها والكتابة فى صحفها. رجال الأعمال أيضا من المدافعين عن العلمانية بشدة بطبيعة الحال... لأنها توفر لهم أجواء التراخى والتفلت تلك الأجواء الهامة للنمو السريع لثروات... لكننا سنرى أيضا نجاح أردوغان فى إقناع الغالبية منهم بتأييده ومطالبة الجيش بفسح المجال لحزبه (العدالة والتنمية) باعتباره الداعى القوى لتقوية المكانة الإقليمية لتركيا وتحسين اقتصادها ومحاربة الفساد وزيادة الحريات.

وعلى الجانب الأخر هناك الأحزاب السياسية والتى تطورت تطورا كبيرا على مدار ثمانية عقود هذه الأحزاب تنتمى بدرجة أو بأخرى للتيار اليسارى والتيار اليمينى والتيار الإسلامى.

وهذه الأحزاب هى:

١. حزب الشعب



منحنى (العسكرة) أخذ مسار هبوطه.. فمثلا تم ربط رئاسة الأركان العامة بوزارة الدفاع وإعطاء حق الدفاع للضباط المطرودين من الجيش أمام المحكمة العسكرية

الجمهورى الذى أسسه (مصطفى كمال أتاتورك) عام ١٩٢٣ وهو أول حزب سياسى بعد إعلان الجمهورية ويقوده اليوم (دنيز بيكال) ٧٠ عاما ويقود المعارضة السياسية لحزب العدالة.

٢ . حزب الطريق القويم أسسه الزعيم السياسى (سليمان دميريل) وهو حزب يمينى محافظ يعتبر نفسه امتداداً للحزب الديموقراطى الذى أسسه (عدنان مندريس) ويقوده اليوم (محمد أغار) الذى انتُخب نائباً لأكثر من مرة ومعروف عنه تشدده فى المسائل القومية. تسلم قيادة الحزب من (تانسو تشيللر) ويُمثله اليوم فى البرلمان نائبان فقط.. أقام ائتلافا مع حزب الوطن الأم لقطع الطريق على حزب العدالة.

٣. حزب الحركة القومية: حزب يمينى قومى متشدد أقام عام ١٩٩١ ائتلافاً انتخابياً مع حزب الرفاه واستطاع دخول المجلس النيابى إلا أنه فشل عام ١٩٩٥ فى تجاوز عقبة ١٠٪ من مجموع الأصوات لكنه فى عام ١٩٩٩ نجح بنسبة ١٨٪ ودخل البرلمان بنسبة كبيرة لأول مرة فى تاريخ تركيا السياسى.

٤ . حزب السعادة: فى عام ١٩٧٠ أسس (نجم الدين أربكان) حزب النظام الوطنى الذى أغلقته المحكمة الدستورية العليا بتهمة مناهضته للنظام العلمانى ومحاولة إقامة دولة دينية فشكل(أربكان) (حزب السلامة الوطنى) عام ١٩٧٢ الذى حُلَّ هو الآخر فأسس أربكان حزب الرفاه وليكون مصيره نفس مصير ما قبله و ما بعده.. أقصد حزب الفضيلة... والذى يواجه سنة ٢٠٠٢ مشاكل من نوع جديد...داخل البيت هذه المرة.. ويترتب على ذلك ظهور حزب العدالة والتنمية بزعامة (رجب طيب أردوغان) الذى يُمثل الجناح التجديدى فى الحركة الإسلامية... بينما أنشأ الجناح المقرب إلى (أربكان) حزب السعادة الذى انتخب أعضاءه (رجائى قوطان) زعيماً لهم. وقد فشل حزب السعادة فى الانتخابات الأخيرة..

٥ . حزب الوطن الأم: أسسه الرئيس التركى السابق (تورغوت أوزال) عام ١٩٨٠وخلفه فى قيادته (مسعود يلماظ) الذى أضعف الحزب وتعثر فى دخول المجلس قبل ٤ أعوام. يقوده اليوم(أركان مومجو) الحقوقى٤٤ عاما وكان من المقربين إلى أوزال. المدهش أنه دخل الانتخابات عام ٢٠٠٢ من خلال العدالة والتنمية وفاز فى الانتخابات ليتسلم حقيبة التربية والسياحة ثم استقال من العدالة وعاد إلى الوطن الأم وهو الآن من المعارضين الأشداء للعدالة.

٦ . حزب اليسار الديموقراطى: هو امتداد لحزب الشعب الجمهورى أسسه مجموعة من السياسيين اليساريين تحت فكرة يسار الوسط وعلى رأسهم(أجاويد) المولود فى اسطنبول عام ١٩٢٥ انضم لحزب الشعب الجمهورى حيث تدرج فيه إلى أعلى المناصب القيادية وكان الساعد الأيمن لعصمت اينونو التلميذ النجيب لأتاتورك دخل البرلمان مبكرا وانتُخب أكثر من مرة واختير رئيساً لمجلس الوزراء وخلال تواجده فى السجن ومنعه من ممارسة العمل السياسى أدارت زوجته شئون الحزب. تسلم (أجاويد) الدفة فى الحزب حتى وفاته مؤخراً. كان أكبر فوز حققه عام ١٩٩٩ بحصوله على ٢٢٪ من مجموع الأصوات. حزب اليسار الديمقراطى علمانى متطرف، وظهر ذلك عندما وقف فى وجه (مروة قواكجى) النائبة التى حاولت قسم اليمين البرلمانى وهى محجبة فمنعت من ذلك.

٨. حزب العدالة والتنمية: تأسس عام ٢٠٠١ ..أسسه (رجب طيب أردوغان) معتبراً نفسه حزب المحافظين الديموقراطيين الإسلاميين.الذين يؤمنون بأن الديمقراطية منظومة قيم قانونية وحقوقية ينظمها عقد اجتماعى سياسى ثقافى يقوم على احترام التعددية ونبذ الاستبداد.. وهو ما تبدو عليه الآن كل تيارات الإسلام الإصلاحى تقريبا...

استطاعت الحركة الإسلامية التعامل مع واقع النظام العلمانى فى تركيا وفق منطق (على العاقل أن يقتصد فى الرغبات الحكيمة) بدقة ووعى فاستطاعت التقدم وانتزاع شرعية جماهيرية ضاربة..وهو النموذج الذى يقدمه الآن حزب العدالة ببراعة..خاصة بعد انشقاقه عن حزب السعادة وعن أبو الحركة الإسلامية فى تركيا(نجم الدين أربكان)..وهو الانشقاق الذى لم يسلم من بعض المنازعات والتجاذبات التى ساورها بعض الحدة فى تناول المواقف خاصة من حزب السعادة تجاه حزب العدالة على رغم التزام قادته وأعضائه بأدب الاختلاف وحرصهم البالغ على صون الود القديم.. وبدا لى من خلال ما رأيته بنفسى فى تركيا أن قيادات حزب العدالة كانت فى تجربة الرفاه أشبه ما تكون بعينات من المستقبل مزروعة فى الحاضر العابر.. حزب العدالة يقدم نفسه الآن على أنه حزب علمانى وأنه ارتضى بالعلمانية كما ينص عليها الدستور وهو يطالب الجيش باحترام المبادئ العلمانية الحقيقية.. والتى لا علاقة لها بالدين على أساس(عدم الاختصاص) والتى لا يفرض فيها الدين نفسه على الدولة ولا تملك فيها الدولة السيطرة على الدين لكن واقع الحال فى تركيا هو أن الدولة فى تركيا تسيطر على الدين بل أحيانا كثيرة تقمعه وتنفيه..البعض يقول أن حزب العدالة لا يملك أى خيار سوى إعلان نفسه حزبا علمانيا لأن أى حزب وفق الدستور التركى يتجاوز النظام العلمانى فإنه حزب غير قانونى. والبعض أيضا يشكك فى أن حزب العدالة ربما يمارس نوعا من (الإخفاء) عندما يصف نفسه بالعلمانى والعبرة بالتطبيق وليس بالبحث فى الضمائر..حزب العدالة جاء من رحم حزب الرفاه وكل قادته معروفون بأنهم تلاميذ نجباء للبروفيسور اربكان وبالتطور الطبيعى للأشياء برزت قيادات وتوارت قيادات.. وتغيرت أحداث وتطورت أحداث وما من شك أن لكل مرحلة رموزها كما أن لكل معركة رجالها...حزب العدالة يمتلك الآن قيادة شابة جديدة أدت أدوارا سياسية بامتياز وهذه القيادة الجديدة تعتقد اعتقادا واضحا أن القيم الإسلامية لها دور مهم تلعبه فى الحياة السياسية التركية بل وفى المجتمع التركى بأكمله حتى لو لم يتم السماح بتطبيق الشريعة الإسلامية فقيمة العدل وقيمة الحرية وقيمة الغنى والكفاية..كلها قيم إسلامية فى الصميم وإن لم تتحرك بها فى المجتمع بشعارات إسلامية..وأتصور أنه كلما عاش الإسلاميون حساسية الحركة باتجاه خط(الإنسان الكريم).. كلما كانوا أكثر اقترابا وتماسا مع فكرة (الدولة الإسلامية) ومع فكرة (المجتمع المسلم)..ولفوتوا الفرصة على الموتورين الكارهين لفكرة (الإيمان بالله الخالق المهيمن الذى بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله) ولكنهم كما كان يقول العقاد لا يجرؤون على التصريح بذلك..فيهاجمون الإسلاميين فإذا ما قام الإسلاميون داعين إلى (دولة الإنسان الكريم) بكل ما تعنيه الكرامة من عدل وحرية وغنى ومعرفة.. فقد أدوا ما عليهم كأصحاب دعوة ورسالة دون المرور بطريق الألغام والفخاخ.

رجب طيب أردوغان ٥٣ عاما يعتبر أحد أهم رموز الحركة الإسلامية فى تركيا الأن بل فى العالم الإسلامى كله واستطاع أن يوظف قدراته السياسية فى رفع رصيد الحركة الإسلامية سياسيا بين الجماهير وبطريقة غير مسبوقة.. تخرج عام ١٩٨١من كلية التجارة فى إستانبول والتحق مبكراً باتحاد الطلبة المحسوب على اليمين المحافظ ليتدرج ويتتلمذ على يدى (نجم الدين أربكان) لسنوات طويلة عام ١٩٩٤ انتخب رئيساً لبلدية إستانبول حيث جمع حوله مجموعة من القيادات الإسلامية الشابة.... بدا أردوغان بفكره الحركى وحركيته الفكرية مثل شخصية (تروفيموف) فى مسرحية (بستان الكرز) لتشيكوف يبشر بالخير والنور والأيام الجميلة التى تنتظر. فى محيط من اليأس والظلمة.. وصوته لا يكف عن الترديد بأننا نسير إلى الأمام وكل ما يبدو الآن مستحيلا سيصبح سهلا قريبا..علينا أن نعمل وأن نبحث عن الحقيقة. وستصبح (تركيا) كلها بستانًا لنا..وينتهى به الأمر بالانفصال السياسى عن (نجم الدين أربكان) تحت شعار التغيير والتجديد فى العمل السياسى نهجاً ومضموناً وبدا أنه يريد أن يبث حديثا كان من قبل مكتما...فقد حان حين تناول القضايا الكبرى فى الواقع التركى..الاقتصاد المتردى بين يدى الفساد والجيش المتصدى للحريات.. وإن بلغ الصغير مدى الكبير×× فقد خلق الصغير من الكبير.



حزب العدالة يقدم نفسه الآن على أنه حزب علمانى وأنه ارتضى بالعلمانية كما ينص عليها الدستور وهو يطالب الجيش باحترام المبادئ العلمانية الحقيقية

أردوغان قدم النموذج العملى للزعيم الوطنى الملتحم بآلام الجماهير وآمالهم..فعلى المستوى الخارجى لم ينبطح لسياسات بوش كبعض الدول وخصوصا فى قضايا مثل العراق وفلسطين وغيرها وهو يسير وفق نظرية الزحف البطىء الهادئ باتجاه الشارع التركى بغية إعادة الروح الإسلامية له واستطاع أن يكون نموذجا لدول العالم الإسلامى والعالم الثالث...

فهو الاقتصادى المحنك الذى استطاع إيجاد حلول جذرية لمعضلات اقتصادية واجهت تركيا على مدى عقود مثل التضخم والأمية وتردى الخدمات واهتم كثيرا بالطبقات الفقيرة والتى كانت تحسب دائما للأحزاب العلمانية وهى التى كانت تتلاعب بفقرها وعوزها..هؤلاء الفقراء الآن أصبحوا مدركين للوسطية الإسلامية بمعناها الفكرى والسلوكى فعادت لهم روحهم الإسلامية بعد طول غياب.الحركة الإسلامية بدأت من المسجد والمدرسة ثم ما لبثت أن انتقلت إلى العمل المدنى بتعدد أشكاله إلى أن وصلت إلى البلديات التى تتمتع بصلاحيات إدارية واسعة وتقدم خدمات متنوعة وقد نجحت الحركة الإسلامية فى انتخابات اكبر البلديات..اسطنبول التى يقدر عدد سكانها بـ١٥ مليون نسمة وأنقرة ومعظم المدن الأخرى كانت الاختبار الحقيقى للإسلاميين فى تركيا والذين استطاعوا تقديم نموذج رائع فى التنمية الحقيقية والتغيير الجذرى وإعادة الوجه الحضارى الإسلامى للمدينة التركية ببناء المساجد والاهتمام بها ونشر الثقافة الإسلامية وإحياء دور الدين فى حياه الناس وهو ما أعطى الحركة الإسلامية شعبية واسعة حتى فى صفوف بعض العلمانيين فكانت البلديات فى حقيقة الأمر خطوة مهمة للأمام باتجاه البرلمان ثم الوزارة...

عندما تولى حزب العدالة الوزارة كان رجاله يوقنون أن الإسلام يقف على أرضية المادة والروح ويدخل فى معترك السياسة ويقوم بالمساومات التى لا تمس المرجعيات النهائية. فتصرف بحكمة ومرونة كبيرة وتحاشى تماما المعارك التافهة ولم يطلق تصريحات استفزازية ضد أحد. ولم يول اهتماما كبيرا بموضوعات ذات حساسية خاصة كموضوع الحجاب لأنه كان يعد نفسه فى حقيقة الأمر لإنجازات تاريخية.

فقام الحزب بإصلاحات قانونية وحقوقية عديدة فسَنَّ القوانين التى توسع نطاق الحريات الفردية وشدد العقوبة على التعذيب سواء فى السجون أو فى أقسام الشرطة وسن حرية التجمعات والمظاهرات وسن قانون حق الفرد فى الحصول على المعلومات وحق التعبير السلمى عن الرأى بجميع أشكاله وحق الأقليات العرقية فى تعلم وتعليم لغاتها كما أصدر قانون العفو عن التائبين من حزب العمال الكردستانى الانفصالى كل هذه الخطوات أظهرت أن هذا الحزب المتهم بالرجعية -لكونه ذا جذور إسلامية- أكثر تقدمية وانفتاحا من أى حزب آخر وأقرب إلى المدنية المعاصرة من جميع الأحزاب الأخرى وأثبت ذلك عمليا على الارض وبين الناس.

أهم ما قام به الحزب على الإطلاق - بعد مواجهته للمؤسسة العسكرية وقوانينها - هو نجاحه فى النهوض بالاقتصاد التركى فى فترة قصيرة وهوالاقتصاد الذى كان يعيش أزمة حادة من مدة طويلة... فقام بإصلاحات وإجراءات إسلامية بحق وإن لم يعلن ذلك فى شعارات وهتافات (كان المعين صافيا وكانت السواقى أكثر صفاء) فخفض النفقات الحكومية إلى أبعد مدى وخفض عدد الوزارات وباع آلاف السيارات الحكومية والفيلات الفاخرة التى كانت مخصصة للنواب وشكل لجانًا برلمانية لتعقب الفاسدين الذين سرقوا البنوك الحكومية والخاصة وأصدر قانونًا يسمح للحكومة بوضع اليد على أموال أصحاب ومديرى هذه البنوك وأموال أقاربهم من الدرجة الأولى والثانية واسترداد قيمة ما نهب من هذه الأموال وهو ما أدى إلى إشاعة جو من الثقة والأمان بحق وحقيق كما يقولون.

وكانت النتيجة أن قيمة الليرة التركية ارتفعت مقابل الدولار أكثر من ٣٠٪وهبطت نسبة الفائدة بمقدار ٤٠٪ وزادت الصادرات بنسبة ٣٤٪ وهبط معدل التضخم بشكل كبير واتبع الحزب سياسة خارجية رشيدة فاهتم بتحسين علاقات تركيا مع دول الاتحاد الأوربى وأمريكا وأثبت أن تركيا ليست تابعة لأمريكا عندما رفض البرلمان التركى (والحزب يملك فيه أغلبية ٣٦٨ مقعدًا من ٥٥٠) دخول ٦٠ ألف جندى أمريكى إلى شمال العراق من الأراضى التركية ولكنه لم ينسف جميع الجسور مع أمريكا وحاول استدراك التوتر الذى حدث بسبب هذا الرفض لأن عدم استعداء أمريكا كان ضروريًا له ومعروف أن هناك قدرًا من التداخل بين البعد الداخلى والبعد الخارجى فى علاقة السلطة بالإسلاميين فى العالم الإسلامى (ومازال الارتباك الذى حدث خلال العامين الماضيين مع نداءات الإصلاح فى الأذهان) والسلطة فى العالم الإسلامى توقن أنه دون مباركة من الخارج فلن يمكن للإسلاميين الاقتراب من السلطة. سواء للسطوة الساحقة للأجهزة فى الدولة أو لغياب التفاعل الإقليمى فى ظل إجماع (عربى بالأساس) على استبعاد الإسلاميين من دائرة البديل...

تجربة حزب العدالة ستؤثر بلا شك على وجهة النظر الأمريكية فى الأحزاب الإسلامية. فى اتجاه قبول أمريكى محتمل بالأحزاب الإسلامية فى العالم الإسلامى مستقبلا..وكان التقرير الذى أصدره مؤخرا مركز (منتدى الصراعات) ومديره - ألستر كروك - هو أحد مستشارى (سولانا) المبعوث الأوروبى الشهير.. قد دعا إلى السماح (للإسلام النهضوى بالسير فى طريق الانتخابات لتحقيق الأهداف التى يسعون إليها وإلا فإن شباب هذا التيار سيتحول إلى العنف)...فتركيا اليوم أكثر دولة إسلامية فى العالم متقدمة فى مجال الديمقراطية والحرية.فصوت الناس مسموع وليس هناك شىء اسمه تزوير الانتخابات...والناس هناك قادرون على تغيير الحكومات التى لا يريدونها...

حزب العدالة - فيما أتوقعه - يريد إدخال تركيا إلى أوروبا حتى يكون للإسلام صوت أمين داخلها..صوت هى أحوج ما تكون إليه الآن.. والآن أكثر من أى وقت مضى..فى كتابه(القيمة الخلقية الثالثة) يقول جيرالد هيرد إن القيمة الثالثة هذه هى تلك القيمة التى يفتقدها الغرب التعيس بتحكيم القانون العلمى فى كل شىء حتى غدا الإنسان آله قابلة للتحكيم والتحكم.. كل شىء ماكينة....كل شىء لا هدف له لا أخلاق له لاقيمة له.

ما يحدث الآن فى تركيا أمر بالغ الأهمية.. إنه أشبه بثورة حقيقية لم يحدث لها مثيل طوال عهد الجمهورية وستكون لها آثار كبيرة داخل وخارج تركيا كما ذكرنا من قبل سواء فى العالم الإسلامى أو فى أوروبا نفسها وستكون تركيا عما قريب النموذج المثالى لدولة ديمقراطية يقودها حزب ذو جذور إسلامية دولة استقرت فيها الديمقراطية بكل مؤسساتها .ويصبح الحكم فى تركيا نموذجا عمليًا للدولة (بنت عصرها) التى تستلهم الإسلام فى أيديولوجيتها وإدارتها.. إن على مستوى التنمية والتقدم فى اتجاه الأفضل والأرقى أو على مستوى ضبط العلاقة بين السلطة والمجتمع.. أو على مستوى التنوع والتعدد سواء على أرضية إسلامية أو وطنية وكلها مستويات لم تبلغها دولة إسلامية من قبل..ما بالك إذا كانت دولة إسلامية(مفتاح) كما توصف مصر وتركيا وإيران فى العلوم الاستراتيجية..

لا شك أن مناخ الحرية والانفتاح - وتوازنات إقليمية أخرى - أتاح للحياة السياسية فى تركيا قدرا كبيرا من النمو والثراء..على رغم التهديد الدائم من المؤسسة العسكرية..وإلا فماذا كان يمكن أن يكون عليه الحال لو أن حالة (تكلس الثبات) التى تعانى منها بعض البلدان الإسلامية كانت موجودة فى تركيا... تركيا اليوم على أبواب عهد جديد بلا مبالغة وقد رأيت بشائر ذلك بنفسى أثناء زيارتى الأخيرة لحضور فعاليات الاحتفال بذكرى فتح القسطنطينية... من رأيتهم فى اسطنبول أو أنقره سواء كانوا إسلاميين أم علمانيين.. يؤكدون ذلك.... وإذ يبدو لى أن الآتى سيدوم طويلا.. فادعوا الله أن يكون الآتى ما نتمناه..

منى إن تكن حقا تكن أسعد المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا.. ■



الجمهـــوريـة «الثالثـــة»

كمـــــــال حــــــبـيـب

مجيء عبد الله جول إلى قلب القلعة العلمانية ليحتل المكان الذى تبوأه من قبله «كمال أتاتورك» مؤسس الجمهورية الأولى يضرب لنا الأمثال، فالجمهورية الأولى كانت ضد مجتمعها تبنت العلمانية كعقيدة ثيوقراطية لا تعرف التعدد وترفض الدين الإسلامى وتوقن أن التقدم هو عند الغرب، ولذا فكل التماثيل المنصوبة لأتاتورك فى العاصمة السياسية للبلاد «أنقرة» أو العاصمة الثقافية «اسطنبول» تشير ناحية الغرب. الجمهورية الأولى التى أسسها «أتاتورك» جاءت على أسنة العنف والقسر استناداً إلى ثقافة دولتية لا تعرف الرحمة، وكانت نموذجاً لدولة من بنات أفكار مؤسسها ولم يكن لها وجود فى أرض الواقع، إذ ظل المجتمع مغاضباً لها رافضاً لمنهجها وأسلوبها الفوقى الحاد الذى أسس لقطيعة روحية ومعرفية مع التراث السابق للجمهورية، فحتى موت مؤسس الجمهورية الأولى عام ١٩٣٨ م عرف الدستور الذى وضعه عام ١٩٢٤ م أكثر من عشرة تعديلات دستورية كلها كانت تسعى لإلغاء أى تعبير عن الإسلام فى البنى القانونية أو السياسية أو الاجتماعية للدولة بما فى ذلك طبعاً الإشارة إلى أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام، ولم يوضع نص علمانية الدولة فى الدستور إلا عام ١٩٣٧ م، ومثل «عصمت إينونو» خليفة «الباش معلم» كما كان يطلق على «أتاتورك» استمرارا لتقاليد الجمهورية العلمانية التى أصبحت العلمانية فيها أيديولوجية فاشية متعصبة، جعلت من «مصطفى كمال» الرجل الصنم، وتحت الضغوط الاجتماعية والخارجية معاً اضطر «إينونو» إلى أن يقبل بالتعددية الحزبية وظهر «الحزب الديموقراطى» الذى قاده «عدنان مندريس» عام ١٩٤٦ وبذلك انتقلت تركيا من نظام الحزب الواحد إلى نظام التعددية الحزبية، وفى انتخابات عام ١٩٥٠ اكتسح «الحزب الديموقراطى» الانتخابات النيابية وتسيد المشهد السياسى حتى انقلاب عام ١٩٦٠ م، وهو الانقلاب الذى عمد التدخل العسكرى فى الحياة السياسية التركية.

وفى الواقع فإن الديموقراطية التركية كما أسس تقاليدها العسكر والبيروقراطية المدنية - وكما يقول «ميتن هيبر وجاكوب لاندو» فى كتابهما المهم عن «الأحزاب السياسية والديموقراطية فى تركيا» - كانت تعبيراً عن القطاع الرأسى فى الدولة ولم تتسع لتشمل القطاع الأفقى الذى يعبر عن المجتمع، فالنخبة البيروقراطية التى ورثت الكمالية ابتدعت ما أطلقت عليه «عقلنة الديموقراطية» واعتبرت أن الساسة الذين حاولوا ممارسة الديموقراطية فعلا هددوا مصالح الدولة ومن ثم لا بد من استبدالهم بساسة يتمتعون بالمسئولية والإحساس ومستعدين للاستجابة لديموقراطية معقلنة هى تعبير عن جدل النخبة لتحديد السياسة الأفضل وليس للتوفيق بين الرؤى والمصالح المختلفة.

ومهندسو النظام السياسى التركى كما أرسته تقاليد الجمهورية الكمالية جعلوه يرتكز على ركيزتين أولهما: الجيش الذى مثل دائماً روح الدولة التركية فهو الذى استعاد لها استقلالها، ثم النظام الحزبى الذى تأسس ليكون حزبين كبيرين أحدهما يمثل اليمين التقليدى والثانى يمثل اليسار التقليدى، ومع انقلاب عام ١٩٧١ وعام ١٩٨٠ اكتسب الجيش والبيروقراطية الدولتية صلاحيات واسعة جعلت النظام الحزبى والمؤسسات المعبرة عن الجماهير والمجتمع رهينة لرضاهما.

الجمهورية الثانية كما تعرف فى الجدالات السياسية التركية تنتمى لمن أرسى تقاليدها وهو «طورجوت أوزال» الذى أسس حزب «الوطن الأم» عام ١٩٨٣ وحمل برنامجاً اقتصادياً متكاملا حرر به الاقتصاد التركى من هيمنة الدولة والقطاع العام وهو ما فتح الباب واسعاً أمام تركيا لتصبح قوة اقتصادية إقليمية، لقد كانت رؤية «أوزال» الثاقبة لاستعادة الوجه المدنى للدولة التركية لا تعتمد على إجراءات سياسية فقط بل على إدخال المجتمع فى دورة حياة اقتصادية ليبرالية على النمط الغربى بحيث يستحيل تلقائياً تدخل الجيش، وكان «أوزال» يعتبر نفسه المؤسس الثانى للدولة التركية، وهو أول مسئول رسمى تركى يدعو علانية إلى انتقاد الكمالية وطرح العلمانية على بساط البحث ونقدها طالما أن قطاعا من الشعب يرفضها، وكان أول رئيس جمهورية تركى يثابر علنا وبصورة منتظمة على أداء الفروض الدينية وزيارة أضرحة الأولياء وأدى فريضة الحج وانتعشت فى عهده موجة التدين وبروز الطرق الصوفية، وهو من وصف الدولة التركية بأنها علمانية وإسلامية وديموقراطية، وقال ماذا لو انتهكنا الدستور ولو لمرة واحدة ؟ والعديد من الأفكار التى يحملها اليوم مؤسسو الجمهورية الثالثة «جول وأردوغان والذين معهما» مثل ضرورة تغيير الدستور وانتخاب الرئيس مباشرة من الشعب هى من بنات أفكار «أوزال» الذى يحظى باحترام كبير بين النخب الاقتصادية التركية عامة والإسلامية منها خاصة فهو من فتح لهم الباب واسعاً لتأسيس أكبر الشركات التركية التى عرفت باسم «رأس المال الأخضر»، وأوزال هو أول رئيس تركى يتحدى الجيش ويقيل رئيس الأركان واستخدم على نطاق واسع علاقاته الدولية خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية والغرب ليحجم سطوة الجيش وتدخله فى الحياة العامة والسياسة.

أهم ما طرحته الجمهورية الثانية هو أن العلمانية الكمالية ليست مقدسة وأنها لم تعد صالحة للتعايش مع حقائق العصر الجديد وأن التطور الاجتماعى والثقافى فى تركيا والعالم لم يعد يقبل بأيديولوجية جامدة متصلبة أصبحت فى مقام العقيدة السياسية ومن ثم لا بد للبحث عن تأويل جديد للعلمانية يتجاوز التفسير الكمالى ويعطيها وجها إنسانيا يجعله تقبل بالتعددية والتسامح مع الآخرين المختلفين مع الكمالية خاصة الإسلاميين، ومن ثم لا بد من احترام اختيارهم وأخذ رغباتهم الدينية فى الحسبان.

أما الجمهورية الثالثة التى تسجل بداية لعصر جديد فى تركيا والتى يقودها حزب العدالة والتنمية (الآق بارتى) أو الحزب الأبيض - فإنها تمثل ثورة صامتة فى البلاد حيث أننا أمام حزب يمثل قلب يمين الوسط التركى فهو يعبر عن تقاليد التعددية السياسية والاقتصادية والمسئولية الاجتماعية تجاه الفقراء ولذا فإن التيار الاجتماعى الذى صوت لحزب العدالة والتنمية هو خليط من الإسلاميين

مطلب تغيير الدستور على سلم أولويات مؤسسى الجمهورية الثالثة، وهذا الدستور سيأخذ فى حسبانه بالضرورة التوازن المدنى - العسكرى بما يسمح بتراجع تأثير العسكرى على المدنى

والمحافظين فى تقاليدهم وقيمهم والعلمانيين وأبناء الطبقة الوسطى والطلاب والشباب والمرأة وكذلك قطاع مهم من الفقراء، فقد حصل الحزب على ٤٧٪ من الأصوات فى الانتخابات الأخيرة التى جرت يوم ٢٢ يوليو محققا بذلك تقدما كبيراً مقارنة بنتائج الانتخابات الماضية التى جرت فى نوفمبر ٢٠٠٢ م، ومثلت الإنجازات الاقتصادية التى حققها فريق حزب العدالة والتنمية المحفز الرئيسى لتصويت المواطن التركى له.

والحدث الأهم هو أن يعتلى سدة رئاسة الدولة «عبد الله جول» «رفيق كفاح رئيس الوزراء التركى» طيب أردوغان «لتنسجم مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع معاً من أجل إنجاز المهام الملقاة على عاتق مؤسسى الجمهورية الثالثة ذوى الجذور الإسلامية والذين يسمون أنفسهم بأنهم «ديموقراطيون محافظون»، والديموقراطية المحافظة تعبر عن استحضار التقاليد العثمانية ذات الطابع المدنى التى تغلب التوافق والوئام على المواجهة والصراع، كما ترفض الاستقطاب والثنائيات التى تلغى الآخرين وتسعى لبناء حالة تنسجم فيه الحداثة والتراث والقيم الإنسانية والعقلانية.

والتحدى الأكبر الذى يواجهه مؤسسو الجمهورية الثالثة هو كيف تتحول الدولة التركية من «دولة عميقة» - أى دولة فيها جانب لا يمكن رؤيته أو معرفته يخترق النظام السياسى لصالح فئات معينة إلى «دولة طبيعية» يحكمها ويوجهها القانون وحده ولا شىء غيره، والدستور الذى يحكم البلاد والذى وضع عام ١٩٨٢ هو محل سخط النخبة التركية لأن الجيش هو الذى وضعه متحالفاً مع حزب الشعب الكمالى، وقال عنه رئيس محكمة الاستئناف «سامى سلجوق» عام ١٩٩٩ م «تركيا لا يمكن ويجب أن لا تدخل القرن الواحد والعشرين بدستور قاربت درجة شرعيته الصفر»، ومن ثم فإن مطلب تغيير الدستور هو على سلم أولويات مؤسسى الجمهورية الثالثة، وهذا الدستور سيأخذ فى حسبانه بالضرورة التوازن المدنى - العسكرى بما يسمح بتراجع تأثير العسكرى على المدنى وهناك محاولات جرت فى هذا السياق- لم تكتمل بعد - تمثلت فى تغيير الدستور التركى بما جعل الغلبة فى «مجلس الأمن القومى التركى» للمدنيين، كما سيأخذ فى حسبانه المركب العلمانى - الإسلامى، وكما يقول هاينتس كرامر فى كتابه الهام «تركيا المتغيرة تبحث عن ثوب جديد» ليس الخيار الحقيقى بالنسبة للأتراك فى عملية تصميم دولة حديثة قادرة على مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين خياراً بين كمالية علمانية من ناحية وإسلام سياسى أصولى من ناحية ثانية، فالخيار الحقيقى هو الخيار بين أسلوب قائم على دولة أكثر تسلطاً فى تنظيم مجتمع سريع التغير، يشكل فيه الإسلام عاملاً اجتماعياً يتعذر استئصاله من جهة وأسلوب قائم على مجتمع مدنى أكثر ديموقراطية فى التعامل مع عملية التغيير من جهة ثانية».

فتركيا الجديدة هى تلك التى تعتمد أسلوباً للإدارة ذات طابع مدنى ديموقراطى يأخذ فى حسبانه انتقال الإسلام من الهامش الذى وضعه فيه «أتاتورك» إلى القلب الذى فتح له طريقه «أوزال»، ولم تعد الكمالية ولا حزب الشعب الجمهورى أو اليسار الديموقراطى أصواتاً صالحة لعصر تجاوز الأيديولوجيات السياسية المغلقة.

فوز «عبد الله جول» برئاسة الجمهورية -«القلعة العلمانية»- وإلى جواره «رئيس الحكومة» طيب أردوغان «هو تعبير عما يمكن أن نصفه بالمصطلح العثمانى» واقعة خيرية معاصرة «تجسر الفجوة» التى أقامتها الكمالية العلمانية بين الدولة والمجتمع التركى وتفتح الباب واسعاً أمام آمال راودت الغالبية العظمى للأتراك وهى كيف تستعيد الدولة التركية ومؤسساتها السياسية والقانونية وظائفها وفعاليتها أمام تغول البيروقراطية العسكرية التى تتذرع دوماً بحماية العلمانية وتعرضها للخطر وهى ذريعة كانت مقبولة وممكنة فى ظل الجمهورية الأولى أما فى ظل الجمهورية الثالثة ذات الوجه المستند إلى إرادة الشعب واختياره من ناحية وإلى تمثل العقل التركى الكبير الذى يعرف كيف يصل إلى أهدافه بدون مواجهة واستفزاز فإن هناك آمالاً تتعاظم باستعادة دولة الخلافة لهويتها وتماسكها فى الداخل و تأثيرها الإقليمى والدولى فى وقت تتعاظم الحاجة إليه فى الخارج. ■



الشيخ والحركة

حسام تمام

■■ الشيخ يوسف القرضاوى هو ابن خالص لحركة الإخوان المسلمين، فلم يعرف عنه انتماء حركى أو فكرى لغير جماعة الإخوان ومدرستها، كما لم يعرف له خروج صريح منها أو عنها. وقد عرف القرضاوى بحركة الإخوان ربما بالقدر الذى عرفت به، وارتبطا معا فى كل مراحل العمر كأنك تقرأ تاريخها حين تقرأ مذكراته التى صدرت فى ثلاثة أجزاء حتى كتابه هذه السطور: وكأنه يكتب عن نفسه حين يؤرخ للجماعة فى كتابه: الإخوان المسلمون سبعون عاما فى الدعوة والتربية. يقترب عمر القرضاوى من عمر الإخوان (ولد فى عام ١٩٢٦ وتأسست الجماعة بعد ميلاده بعامين) وتاريخه فى الدعوة يكاد يتطابق مع الفترة الأبرز فى تاريخ دعوة الإخوان.

كان القرضاوى واحدا من أبناء جيل من الأزهرية الذين التحقوا بالجماعة وتتلمذوا فى مدرستها ونشطوا فى دعوتها، جيل ضم أشهر الأسماء فى عالم الفقه والدعوة من أمثال الشيوخ محمد الغزالى وسيد سابق ومتولى الشعراوى وعبد المعز عبد الستار وعبد الستار فتح الله سعيد وعبد الرشيد صقر وأحمد العسال وعبد العظيم الديب وخالد محمد خالد ومناع القطان وأحمد الشرباصى وصلاح أبو إسماعيل وأحمد حسن الباقورى ومحمود عبد الوهاب فايد ومحمد سيد طنطاوى ومحمد المختار المهدى وعبد الله الخطيب ومحمد الراوى ومحمد البرى... حتى يمكن النظر إليه كجيل مؤسس فى علاقة الأزهر بالحركة الإسلامية الأم.

ورغم أنه كان واحدا من العشرات بل وربما المئات الذين التحقوا بالجماعة من طلاب الأزهر الشريف وخريجيه إلا أن القرضاوى كان نسيج وحده فى علاقة الشيخ بالحركة وفى وضعية الأزهرية فى الحركة الإسلامية؛ فالآخرون ممن تشابهوا معه فى تجربة الالتحاق بالحركة الإسلامية إما استوعبتهم الحركة كاملا داخلها فتماهوا فيها حتى فقدوا شخصية العالم الأزهرى المستقل، فلم يعد لهم وجود أو تأثير أو اجتهاد خارجها (كما هو الحال مع الشيخ محمد عبد الله الخطيب عضو مكتب الإرشاد الذى يلقب بمفتى الجماعة وهو أقرب إلى ممثل للتنظيم لدى الأزهرية أكثر منه ممثل الأزهرية فى التنظيم، ومثله أيضا الشيخ أبو الحمد ربيع عضو مكتب الإرشاد الراحل)، أو اصطدموا بها حين عبروا عن ذواتهم وأفكارهم وأحسوا بذاتهم «الأزهرية» وما تحمله أو تفرضه من استقلال العالم الأزهرى (كما جرى مع الشيخ محمد الغزالى الذى فصلته الجماعة ضمن من عرفوا بمجموعة المشايخ الأزهرية فى تداعيات أزمة صدامها مع النظام الناصرى عام ١٩٥٤ أو الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد الذى استقال من مكتب الإرشاد فى عام ١٩٨٧ بسبب ما اعتبره سيطرة السياسيين على الجماعة وعدم اعتبارهم للأزهرية)، أو أنهم تبنوا مبكرا مقاربة تقوم على ترك مسافة بينهم كعلماء أزهريين وبينها كحركة تجمع ما بين الدعوة والسياسة (مثلما فعل الشيخ محمد البرى الذى صار رئيسا فيما بعد لجبهة علماء الأزهر، والشيخ محمد المختار المهدى إمام أهل السنة الرئيس العام للجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة، والشيخ محمد متولى الشعراوى - إن صحت رواية أنه كان إخوانيا - الذى ابتعد مبكرا عن الجماعة وكان يرى أنه من الأفضل للإنسان أن يبقى مع الإخوان فترة التكوين التى يأخذ فيها خير الحركة ثم لابد أن يتركها قبل أن يطوله أذاها: الذى كان يعنى به صراعاتها السياسية).

وحده يوسف القرضاوى كان الشيخ الذى استطاع نسج علاقة خاصة وفريدة مع جماعة الإخوان؛ هى علاقة الشيخ المتحقق والحركة التى دائما ما كانت ترتاب من كل من يحمل بداخله جينات الاستقلال فى الفكر أو الحركة ..حتى شاعت فيها مقولة أن (لا مكان فى الإخوان لعسكرى ولا أزهرى)!

لقد امتلك الشيخ يوسف القرضاوى مواهب وقدرات أتاحت له بناء علاقة خاصة مع حركة الإخوان المسلمين، وهى علاقة نادرة قلما تتكرر بين شيخ أزهرى وحركة تجمع ما بين الدعوة والسياسة. إن تفهم هذه العلاقة الخاصة والفريدة يتطلب الإمساك بمفاتيح أساسية يمكن أن تفتح أمامنا أبوابا واسعة للتعرف على مساحات مازالت مجهولة فى حياة الشيخ يوسف القرضاوى آخر حبات العقد فى جيل من كبار مشايخ الأزهر الشريف

لا ينفصل القرضاوى الإنسان عن الداعية حتى فى عطلات الصيف وإجازات السياحة. فهو فى كل بلد يزوره يحل ضيفا على الحركة الإسلامية الممتدة فى أنحاء العالم العربى وفى المهاجر؛ يدعوه أبناؤها فى مناشطهم وفاعلياتهم الخاص منها والعام ليقوم بينهم خطيبا وواعظا، فهو لا يفصل بين وقت السفر للاستجمام والترفيه وبين ما يراه واجب الدعوة

المجددين الذين ملئوا الدنيا وشغلوا الناس.

أول مفاتيح العلاقة نجده فى: تعدد وجوه القرضاوى ومن ثم المواقع التى احتلها والأدوار التى لعبها فى الحركة..فالقرضاوى يمثل نمطا فريدا بين الأزهرية يستعيد تراث العلماء الأوائل الذين يجمعون بين علوم ومعارف يندر اجتماعها فى شخص واحد فى هذا الزمن الذى أصبح زمن التخصص بل والتخصص الدقيق داخل الفرع الواحد من المعارف والعلوم، و يكاد القرضاوى- الذى يبدو متأثرا بنموذج الإمام أبى إدريس الشافعى- أن يكون آخر حبات عقد هذا النمط الذى انفرط .

فالقرضاوى فى أحد وجوهه هو أبرز ممثلى مدرسة تيسير الفقه الإخوانية التى قامت على مهمة تقريب الفقه وتبسيطه والتى نجحت فى أن تخرج الفقه من الشأن الخاص إلى الشأن العام، وهى المدرسة التى بدأها الشيخ سيد سابق بكتابه فقه السنة الذى وضعه بتكليف من الشيخ المؤسس حسن البنا وقدم له بمقدمة تحتفى به وتعرف بأهميته. وإذا كان للشيخ سيد سابق فضل السبق فقد كان القرضاوى الأشهر بين فقهاء هذه المدرسة والأكثر قدرة على التجديد والاستمرارية، وقد كانت بدايته مع كتابه الشهير (الحلال والحرام فى الإسلام) الذى أصدره عام ١٩٥٩، فكان أول وأشهر كتبه التى عرفت به فى العالم الإسلامى على نطاق واسع.

لا تنحصر أهمية كتاب (الحلال والحرام) للقرضاوى فى مجرد اختياراته الفقهية التى تميل لرفع الحرج والتيسير على الناس وهو منهجه الذى التزمه طوال حياته (التيسير فى الفتوى والتبشير فى الدعوة)، ولكن تتعداها إلى أهمية مقاربته التى تعتمد تقريب الفقه وإتاحته للمسلم غير المختص بالعلم الشرعى. إن القرضاوى فى هذا الكتاب الذى افتتح به حياته فى التأليف يخرج الفقه من كتب الفقهاء المكتوبة بلغة تراثية متخصصة بل ومغلقة أحيانا ويصوغه بلغة معاصرة سهلة قريبة من معجم المثقف بل المتعلم العصرى بما يسمح لغير الفقهاء بالتعامل مباشرة مع مسائل وقضايا يحتاج إليها فى حياته اليومية.

مع كتاب (الحلال والحرام) وما تلاه من كتابات فقهية أخرى للقرضاوى لم يعد المسلم المعاصر يجد عنتا فى التعامل مع الفقه ومسائله، بل صارت كتب الفقه جزءاً من مكتبة المسلم الملتزم كما هو الحال فى كتاب الحلال والحرام نفسه والذى طبع ما يقارب من ثلاثين مرة وترجم إلى أكثر من عشرين لغة!

سيستمر القرضاوى فى توجهه هذا خاصة بعد القبول الحسن الذى لاقاه كتابه (الحلال والحرام فى الإسلام) وستتوالى كتاباته التى تبسط مسائل الفقه وتقربها للقارئ غير المختص فيصدر له (فقه الزكاة) فى مجلدين، ثم (فتاوى معاصرة) فى ثلاثة مجلدات ..ثم يخصص سلسلة كاملة لهذا الغرض سماها سلسلة تيسير الفقه أصدر منها: الصيام ، الطهارة، أصول الفقه الميسر... ليصبح القرضاوى أهم شيوخ مدرسة تيسير الفقه وتقريبه التى استفادت منها حركة الإخوان والحركة الإسلامية فى عمومها فى بسط مشروعها الذى اعتمد على نقل مسائل الشرع من الخاص إلى العام وتجاوز احتكار المؤسسات الدينية للمعرفة الدينية.

لم يقف دور القرضاوى الفقيه على تبسيط الفقه وتقريبه وتيسير مسائله على أهمية هذا العمل إذا ما وضع فى سياقه التاريخى، بل جاوز ذلك إلى السعى لحسم كثير من المسائل الفقهية التى لم يكن يجرؤ على الاقتراب منها والكلام فيها- فضلا عن التيسير بشأنها- غيره من فقهاء الحركة من قبل. فكان من أوائل من تكلموا فى قضايا مثل الحكم الشرعى للموسيقى والغناء، فخصص جزءاً وافرا من كتابه الأول (الحلال والحرام) لهذا الموضوع وكذلك تطرق له فى (فتاوى معاصرة) ثم أصدر كتبا كاملة فى الباب نفسه فكتب كتابا عن (الإسلام والفن) وثانيًا عن (فقه الغناء والموسيقى فى ضوء الكتاب والسنة) وآخر عن (اللهو والترويح). لقد تبنى القرضاوى فى هذه القضايا منهج التيسير والإباحة ولم يتوسع فى المنع والتحريم كما كان يفعل غيره وكان فى وعيه- دائما- حاجة المشروع الإسلامى إلى التيسير باعتباره مشروع أمة وليس مشروعا فرديا يمكن لصاحبه أن يتوسع فى المنع اتباعا لقاعدة سد الذرائع.

كما كان من أول من تعاطى بقوة مع موضوع الحقوق الاجتماعية والسياسية للمرأة فدعم الأستاذ عبد الحليم أبو شقة فى إصدار موسوعته الشهيرة (تحرير المرأة فى عصر الرسالة) التى يمكن أن تعد أهم ما صدر فى هذا الباب. وتصدى بجرأة كبيرة لمزاج التشدد والميل للتحريم فى مسائل المرأة الذى سيطر على الحركة الإسلامية إبان السبعينيات، بل وذهب فى بعض الأحيان إلى مخالفة شيخه ومرشده الشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان مثلما فعل فى إباحته لعمل المرأة سياسيا والإقرار لها بالحقوق السياسية كاملة (المشاركة فى الانتخابات تصويتا وترشيحا) على الرغم من أن البنا كان يذهب إلى عكس ذلك. وللقرضاوى رسالة لطيفة عن (مركز المرأة فى الحياة الإسلامية) يمكن أن تلخص رؤيته المتسامحة ومنهجه فى التعاطى مع قضايا المرأة.

لقد مكنت القرضاوى جرأته كفقيه على التعاطى مع عدد من الإشكالات الفقهية التى كانت عقبة أمام تطور الحركة فى بعض مراحلها؛ خاصة مسائل الفقه السياسى، فجاء القرضاوى ليفكك للحركة هذه الإشكاليات ويقدم لها المخرج اللازم مثلما فعلت فتواه بجواز نشأة الأحزاب السياسية وتعددها (باعتبار أن الأحزاب فى السياسة مذاهب فى الفقه) وبحق المرأة فى ممارسة السياسة تصويتا وترشيحا.

ولم يكن القرضاوى فى حركة الإخوان مجرد فقيه تلجأ إليه فى مسائل الفقه الخاصة، كما لم يتوقف دوره عند تلبية حاجات الحركة من الفقه الميسَّر (بفتح السين) والميسِّر (بكسرها)، بل كان فيها داعية مبرزا تهتز له أعواد المنابر وتتأثر لخطبه ومواعظه البليغة الفاعليات والملتقيات الإسلامية الخاص منها بأعضاء الحركة ومحازبيها أو المفتوحة لجمهور الصحوة الإسلامية وهو وجه آخر ومهم من وجوه القرضاوى التى أثرت فى علاقته بالحركة الإسلامية.

ليست هناك إحصاءات موثقة، كما ليس ممكنا الحديث عنها أصلا؛ لكن بالإمكان وبقدر لا بأس به من الثقة القول بأن القرضاوى كان الداعية الأكثر تأثيرا فى تاريخ الحركة الإسلامية اعتمادا على كونه صاحب الباع الأكبر فى هذا المجال عبر آلاف الخطب والدروس والمحاضرات التى ألقاها فى الخاص والعام من عمل الحركة منذ أن عمل بقسم نشر الدعوة فى بداية حياته وطوال أكثر من ستين عاما لم يتوقف فيها عن الخطابة ودروس الوعظ حتى وهو يكتب الكتب أو يقدم برامج إذاعية (نور وهداية) أو برامج التلفاز الشهيرة مثل (الشريعة والحياة) أو (هدى الإسلام).

لقد بدأ القرضاوى الخطابة ودروس الوعظ ولم يتحصل بعد على الشهادة الثانوية، فخطب فى مسجد قريته ولم يزل ابن الستة عشر عاما واشتهر حتى تسمى المسجد باسمه. ثم استمر فى الدعوة واعظا وخطيبا فى الجامعة الأزهرية وفى صفوف الحركة الإسلامية التى كانت تستعين به فى عمل قسم نشر الدعوة، وحتى حين استعانت به فى قسم الاتصال فى العالم الإسلامى فقد كان دوره دعويا يقوم على إعطاء دروس الوعظ والتعريف بالفكرة الإسلامية خارج القطر (كما يحكى فى مذكراته عن رحلته الأولى إلى الشام).. وفى محبسه مع الإخوان فى محنتهم الثانية إبان صدامها الأول مع النظام الناصرى عام ١٩٥٤ كان القرضاوى الإمام الذى يصلى بأبناء الحركة والداعية الذى يخطب فيهم ليبثهم معانى الإيمان والصبر والثبات وكانت هذه مهمته الأولى وربما الوحيدة إذا اعتمدنا مذكراته الشخصية.

وحين هاجر إلى الخليج كان أبرز ما عرف به واشتهر كونه داعية موفقا يمتلك أسباب النجاح من قوة حافظة وسلامة لغة وحسن بيان وسعة ثقافة وقدرة على الخطابة واستثارة عواطف الجماهير، وهو ما كان سببا فى توفيقه فى الرحلات الدعوية التى كان يقوم بها فى أنحاء العالم وما زال منذ انتقاله للإقامة فى قطر.

يذكر له تاريخ الحركة الإسلامية فى نشأتها الثانية فى عقد السبعينيات فى مصر أنه كان الداعية الأكثر تأثيرا فى الجماعات الإسلامية التى نشأت فى الجامعات المصرية هذه الفترة، وأنه تقاسم مع الشيخ محمد الغزالى الذى كان يسبقه سنا ولم يكن قد غادر البلاد وقت المحنة الناصرية، مهمة التأثير فى القطاع الأكبر من هذه الجماعات بما أدى إلى نقلها تدريجيا تيار الإخوان المسلمين ثم تنظيمها.

كان القرضاوى أول خطيب لصلاة العيد



فى كل قضايا الأمة ومعاركها وأزماتها كان حضور القرضاوى يتأكد يوما فيوم كزعيم ومحرض سياسى للشارع الإسلامى والمسلم فى كثير من الأحيان، حتى صار تبنيه لقضية ما مقدمة أكيدة لتحويلها إلى قضية من قضايا الأمة

الجامعة التى أعادت الجماعات الإسلامية إحياء سنة إقامتها فى الخلاء، فخطب أول خطبة صلاة عيد الفطر فى الخلاء فى ميدان عابدين عام ١٩٧٦ والتى صارت من بعدها تقليدا ثابتا، كما خطب فى العيد التالى فى استاد الإسكندرية.

استمر القرضاوى فى عمل الداعية حتى بعد أن استقر أستاذا فى جامعة قطر، ولم يصرفه العمل البحثى والكتابة عن القيام بعمل الداعية من خطابة ووعظ، بل لم يتوقف عن هذا العمل حتى بعد أن بدأ يحل ضيفا على البرامج الدينية فى محطات التلفاز والفضائيات. فرغم أن أكثر من أربعين مليون مسلم عبر العالم يتابعونه عبر برنامج الشريعة والحياة فى فضائية الجزيرة الشهيرة مازال القرضاوى ملتزما بدور ومهام الداعية فى أبسط صورها؛ فلا يتخلف عن خطبة الجمعة فى مسجده الشهير بالعاصمة القطرية الدوحة (مسجد عمر بن الخطاب) إلا لسفر أو مرض. ولا يعتذر عنها أو عن الصلاة برواد المسجد أيا كان عددهم وإمامة صلاة التراويح بهم فى رمضان ووعظهم بين الركعات ثم الدعاء بهم دعاءً طويلا فى الوتر الأخير من الصلاة..لا يعترف القرضاوى بأن وسيلة من وسائل الدعوة يمكن أن تغنى عن أخرى، ولا يقبل أن يتوقف عن درس دعوى يحضره عشرات أو حتى مئات الناس لحساب برنامج فى قناة يشاهده الملايين.

بل لا ينفصل القرضاوى الإنسان عن الداعية حتى فى عطلات الصيف وأجازات السياحة، فهو فى كل بلد يزوره يحل ضيفا على الحركة الإسلامية الممتدة فى أنحاء العالم العربى وفى المهاجر: يدعوه أبناؤها فى مناشطهم وفاعلياتهم الخاص منها والعام ليقوم بينهم خطيبا وواعظا، فهو لا يفصل بين وقت السفر للاستجمام والترفيه وبين ما يراه واجب الدعوة. أذكر أننا كنا ضيوفا فى ملتقى إسلامى فى المغرب، فى صيف ٢٠٠٦، وكان القرضاوى يقضى إجازة الصيف مع أهله فى مدينة طنجة، وألمّ به المرض فمنعه الأطباء من الحركة خشية تدهور حالته الصحية وإراحة له من عناء السفر والخطابة (وكان ينتظر إتمام الثمانين أمد الله فى عمره)، ولما علم بإصرار شباب الحركة الإسلامية فى مدينة مكناس التى تبعد عنه بمئات الكيلو مترات واجتماعهم بالآلاف انتظارا للقائه سافر بطائرة خاصة وخطب فيهم أكثر من ساعتين متواصلتين لا يقطعها إلا التكبير وصيحات الترحيب.

والقرضاوى لدى حركة الإخوان ليس الفقيه والداعية الذى يكتفى بمد الحركة بالزاد الفقهى والدعوى فحسب؛ بل هو بالنسبة لها أيضا المربى والمؤطر التربوى وهو وجه لا يقل أهمية فى وجوه القرضاوى، فهو شارك مبكرا فى وضع البناء التربوى والثقافى داخل التنظيم عبر سلسلة مقالات مطولة كتبها لهذا الغرض تحت عنوان «ثقافة الداعية»، كانت تنشرها مجلة الدعوة التى كانت تصدرها جماعة الإخوان فى السبعينيات. (وقد صدرت مجمعة فيما بعد فى كتاب يحمل العنوان نفسه) ثم وضع كتابا آخر عن (الوقت فى حياة المسلم) كان موجها بالأساس لجمهور الدعاة، ثم وضع كتابا ثالثا بالغ الأهمية عن (ظاهرة الغلو فى التكفير) كان له تأثير كبير فى تحصين الصف الإخوانى من هذه الموجة التى ضربت الحالة الإسلامية مدة عقدين. كما وضع القرضاوى تصوره فى القضية التربوية للحركة فى كتاب مستقل (التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا) يعد من أهم الكتب المعتمدة لدى الحركة فى هذا الباب.

كما كان من أبرز من شاركوا فى عملية التأطير والتكوين لأبناء الجماعة داخل محاضنها التربوية الخاصة مثل لقاءات الأسر والكتائب وهى لقاءات مغلقة على أطر الحركة، وقد ظل يقوم بذلك منذ عرف داخل الحركة إلى فترة تبدو قريبة حتى ما قبل انشغاله. ثم هو قضى فترة داخل الجماعة يقوم بمهام التربية والتكوين للإخوان من خارج القطر المصرى أثناء عمله ضمن قسم الاتصال بالعالم الإسلامى كما يروى فى مذكراته عن رحلته إلى سوريا والأردن ولبنان.

ثم هو الذى تعمد دوما متابعة الحركة فى مراحل نموها بالنصح والتوجيه وسعى إلى إرشادها إلى الوجهة الصواب فكتب عدة رسائل مهمة كانت كلها تدور حول ترشيد الحركة من أهمها: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، والصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى، والصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، والصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، ومن أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، وأولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة...إلى غيرها من مؤلفات ناصحة للحركة ولكن من داخلها: قد تحمل نقدا ولكنه بروح المحب الحادب عليها.

ووجوه القرضاوى فى حركة الإخوان تتجاوز الشيخ أو العالم الأزهرى إلى المحرض السياسى الذى يقدم الوقود الدينى لقضايا الحركة السياسية ومعاركها سواء أكانت معارك خاصة بالحركة أو كانت تتصل بالقضايا العامة أو «قضايا الأمة» التى احتلت قمة أولوياته فيما بعد حين كفَّ عن دخول السياسة من باب الحركة الإسلامية الخاص.

لقد شارك القرضاوى فى مقتبل حياته بالخطابة السياسية تأييدا ودعما لمرشحى الإخوان فى الانتخابات البرلمانية التى ترشحوا لها فى أوائل الخمسينيات، وكان يتنقل بين المدن خطيبا لهم حتى وصل فى جولاته إلى جنوب الصعيد محرضا الناس على تأييد مرشحى الإخوان.

وحين انتقل إلى خارج البلاد وتراجعت أعماله التنظيمية تدريجيا قام القرضاوى بهذا الدور فى قضايا الأمة التى كان أبرز من تولوا الدفاع عنها وتحريض الناس من أجلها..فاحتلت قضية فلسطين مبكرا اهتمامه، وخطب وحاضر من أجلها فى كل مكان زاره ودافع عن الحقوق الفلسطينية مؤكدا على أنها أرض إسلامية من النهر إلى البحر وأنه لا حل إلا بقيام دولة إسلامية على أرضها عاصمتها القدس..وقال فيها قصائد من الشعر حفظ الناس منها مقطعا يقول فيه: فلسطين بلا قدس.. كجثمان بلا رأس.

وكان من العلماء الذين وقعوا على فتوى بأن أرض فلسطين كلها وقف إسلامى لا يجوز التصرف فيه سدا للطريق على التنازلات التى كان يخشى منها مع بدء العرب مفاوضات مع الكيان الصهيونى .واستمر الرجل يولى اهتماما خاصا بالقضية الفلسطينية باعتبارها قضية الأمة المركزية ودافع عن العمليات الاستشهادية حتى وضعته الولايات المتحدة على قوائم الممنوعين من دخول أراضيها ولاحقه اللوبى الصهيونى فى بريطانيا لمنعه من زيارتها. ثم هو الذى دشن من أجلها مشروعات الدعم المادى والمعنوى وعلى رأسها مشروع ائتلاف الخير. وربما لم تتفجر قضية تهم الأمة أو الحركة الإسلامية إلا ووقف فيها القرضاوى محرضا يقدم وقود المعركة، فعل ذلك فى أثناء الغزو والاحتلال السوفيتى لأفغانستان واستمر فى حشد التأييد للمجاهدين حتى انسحاب السوفييت منها. وفعل ذلك فى الغزو الأمريكى للعراق فكان أعلى الأصوات وأكثرها تأثيرا فى رفض الحملة الأمريكية على أراضيه فأفتى بوجوب الجهاد لمقاومة الغزو الأمريكى ثم لمقاومة هذا الاحتلال، وكان من أكثر العلماء الذين أعلنوا موقفهم صراحة من اعتبار القوات الأمريكية فى العراق قوات احتلال يجب على الأمة مقاومتها ويجب عليها دعم المقاومين لها. وجر موقفه هذا عليه حملات إعلامية من بعض المنابر الإعلامية التى اتهمته بدعم الإرهاب.

تكرر الأمر فى أزمة الرسوم



مثلما حسم القرضاوى انتماءه وولاءه للخط العام الحركى للإخوان فقد وضح حسم انتمائه أيضا للتيار العام الفكرى الوسطى للحركة والذى أسسه مؤسس الجماعة، وهو التيار الذى يعرف بالتيار البناوى (نسبة للشيخ حسن البنا)

الدنماركية المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم فوقف القرضاوى محرضا للشارع المسلم على الغضب احتجاجا على إهانة الرسول الأعظم وقاد معركة الاحتجاج ضد الدنمارك وكان أبرز من دعوا إلى مؤتمر نصرة الرسول الذى عقد بالعاصمة البحرينية المنامة، ودشن حملة المقاطعة للشركات والمنتجات الدنماركية حتى اضطر حكومتها إلى اتخاذ خطوات لتهدئة الرأى العام المسلم. وحدث ذلك أيضا فى الأزمة التى خلفتها تصريحات البابا بنديكتوس بابا الفاتيكان والتى تضمنت إساءة إلى الإسلام والنبى محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كان القرضاوى الأعلى صوتا والأكثر قدرة على حشد الشارع المسلم للاحتجاج ضد هذه التصريحات.

وفى كل قضايا الأمة ومعاركها وأزماتها كان حضور القرضاوى يتأكد يوما فيوم كزعيم ومحرض سياسى للشارع الإسلامى والمسلم فى كثير من الأحيان، حتى صار تبنيه لقضية ما مقدمة أكيدة لتحويلها إلى قضية من قضايا الأمة. لقد كان القرضاوى صاحب الصرخة الشهيرة (ادفع دولارا تنقذ مسلما) والتى سعى من خلالها لتعبئة جهود الأمة لدعم العمل الخيرى والدعوى الذى تحتاجه. على أساس من دعوته هذه تأسست الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية فى الكويت والتى قامت لتحقيق هذا الهدف.

أما الوجه الذى لم يغب دائما للقرضاوى وكان شريكا فى كل وجوهه الأخرى وكان حاضرا فى كل أدواره داخل الحركة الإسلامية فهو وجه الشاعر، فمنذ شرخ شبابه وشعر القرضاوى حاضر بين أبناء حركة الإخوان، كتب مبكرا ولم يزل طالبا فى المرحلة الثانوية مسرحيته الشهير (عالم وطاغية) التى يمجد فيها من مقاومة العلماء - فى نموذج سعيد بن جبير- لظلم الحكام الطغاة - فى نموذج الحجاج بن يوسف، فكان أبناء الحركة الإسلامية خاصة فى أوساط الشباب الجامعى يؤدون هذه المسرحية فى مناسباتهم وفاعلياتهم. كما اشتهرت قصيدته النونية التى كتبها فى السجن الحربى يصف فيها الأهوال التى عاناها مع معتقلى الإخوان فى هذا السجن المرعب، وتعد - مع قصيدة أبتاه للشاعر هاشم الرفاعى- من أهم قصائد السجون التى اشتهرت بين أبناء الحركة الإسلامية فى نصف القرن الأخير.

وللقرضاوى ديوانان من الشعر (نفحات ولفحات، والمسلمون قادمون) مثلت قصائدهما وقودا لشباب الحركة الإسلامية يبثه روح الثورة والرغبة فى الانعتاق من الظلم ويلهمه معانى التضحية والفداء من أجل أمته.

أثناء حرب الإبادة التى تعرض لها المسلمون فى البوسنة والهرسك كانت فاعليات التضامن التى تقيمها الحركة الإسلامية لا تبدأ أو تنتهى إلا بإنشاد قصيدته التى يقول فى مطلعها:

أنا عائد أقسمت أنى عائد
والحق يشهد لى ونعم الشاهد
وعى القذيفة والكتاب القائد
ويقودنى الإيمان نعم القائد

وفى كل الفاعليات الجماهيرية التى كانت تقيمها الحركة الإسلامية كان القرضاوى حاضرا كفقيه أو كداعية وكمحرض سياسى.. وإذا غاب فلم يكن يغيب شعره الحماسى الذى يلهب المشاعر ويثير العواطف ويحشد الأنصار والجماهير على قضاياها.

أما المفتاح الثانى لفهم خصوصية هذه العلاقة الفريدة بين الشيخ والحركة فهو فى اتساع خريطة أفكار الشيخ القرضاوى واهتماماته ونشاطاته وتطابقها مع مثيلتها لدى الحركة حتى يكاد يمثل وحده حركة موازية لها دون تعارض معها.

لقد اتسعت خريطة اهتمامات القرضاوى وأعماله بصورة يندر أن تتكرر لدى أبناء جيله فضلا عن خلفه من شيوخ الأزهر وعلمائه حتى ممن التحقوا بالحركة الإسلامية، وكانت المفارقة أنها- عند التدقيق - تتشابه وخريطة اهتمامات حركة الإخوان ونشاطاتها حتى تكاد تتطابق معها.

لقد اشتغل القرضاوى فى قضايا الدعوة والتربية، وقضايا الفقه والتفسير، وقضايا الاقتصاد والتنمية، وقضايا الثقافة والفكر، وفى العمل الخيرى والإغاثى، وفى قضايا السياسة..وكان فى كل حركته يتقاطع فكرا ومنهجا مع حركة الإخوان إن لم يتطابق معها ..ليس هذا فحسب بل إن كتاباته تأتى دائما إما لتقدم الأساس الفكرى والشرعى لعمل الحركة أو لتفكك قضايا الالتباس ومساحات التوتر التى تعوق حركتها.

إبان الحقبة الناصرية فى الستينيات وحين كانت الحركة تواجه تحديا على مستوى مشروعها الإسلامى الذى صار موضوعا للنقد والتحدى من قبل أنصار المشروع الاشتراكى كان اهتمام القرضاوى بالدفاع عن هذا المشروع وحمايته من موجة النقد التى كادت تعصف به فكتب وقتها سلسلته الشهيرة عن حتمية الحل الإسلامى (الحل الإسلامى فريضة وضرورة، الحلول المستوردة وماذا جنت على أمتنا، بينات الحل الإسلامى، أعداء الحل الإسلامى..).

وفى إبان انبعاث الصحوة الإسلامية فى السبعينيات انصب جهد القرضاوى على قضية ترشيد الصحوة الوليدة، فكتب سلسلة رسائل وكتب مهمة فى هذا الموضوع (ظاهرة الغلو فى التكفير، أين الخلل؟، فقه الأولويات، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، والصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى، والصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، والصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، ومن أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، وأولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة.

ثم لما تعددت تيارات الصحوة والجماعات العاملة لها بما فتح باب التنافس بينها والتصادم فى بعض الأحيان حاول القرضاوى وضع أسس للتعاون بين جماعات الدعوة والعاملين فى حقلها. فكتب عن: شمول الإسلام، والمرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة، وموقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقى، والسياسة الشرعية فى ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، وكيف نتعامل مع التراث والاختلاف والتمذهب... وكانت كتاباته فى هذا الموضوع- فى مجملها- شرحا وتطويرا للأصول العشرين التى وضعها الإمام حسن البنا كأصول للمشروع الإسلامى الحركى الأول (الإخوان المسلمين)، ولكن بصياغة جديدة وأكثر مناسبة للتعددية التى صارت إليها الصحوة الإسلامية.

ثم لما صارت الحركة الإسلامية فى تحدى سؤال الدولة: سواء نظريا أو واقعيا كما جرى فى بعض البلدان التى تولت فيها الحركة السلطة اتجه القرضاوى إلى بيان شكل الدولة «الإسلامية» التى يتصورها، وسعى للإجابة على إشكالات هذه المرحلة فكتب: ملامح المجتمع الإسلامى الذى ننشده، وشريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان، غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى، الأقليات الدينية والحل الإسلامى، جريمة الردة وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة.

ولما انفتحت الحركة على سؤال العولمة والانفتاح على الآخر كان له سبق الاشتباك مع أسئلة اللحظة، فكتب: المسلمون والعولمة، خطابنا الدينى فى عصر العولمة، الإسلام والمسلمون وعلوم المستقبل على أعتاب القرن القادم، المسلمون والتخلف العلمى، ورعاية البيئة فى شريعة الإسلام، وحقوق المسنين من منظور إسلامى، الغرب والإسلام، وربما افتقدت بعض كتاباته فى قضايا مثل العولمة وحوار الأديان والحضارات الإحاطة اللازمة بموضوعاتها نظرا لطبيعتها الفكرية المعقدة والسن التى بلغها الشيخ (كتب فى ذلك بعد السبعين) إلا أنه كان رائدا فى توجيه الحركة



باستثناء رسالة (دعاة لا قضاة) لم تقدم الجماعة نقدا مؤسسيا لأفكار سيد قطب، بل كان الغالب أنها استحضرت أفكاره فى مراحل مختلفة، خاصة بعد إعدامه وتحوله رمزا للحركة الإسلامية

والاتجاهات الإسلامية إلى أهمية الاشتباك مع مثل هذه القضايا.

وقد عدد القرضاوى من وسائل وآليات عمله التى جمعت ما بين التقليد والحداثة: من الخطبة والدرس الوعظى والمحاضرة العلمية.. إلى برامج الإذاعة والتلفاز والفضائيات وموقع الإنترنت. كما قارب ما بين الخاص والعام فى حركته: من دروس تكوينية داخل الأطر التنظيمية بمستوياتها المختلفة إلى الوسائل المفتوحة التى تناسب العام من خارج التنظيم، وهو دائما رجل التنظيم بكل مستوياته ورجل العام بكل شرائحه وطبقاته.

كما نوَع الشيخ القرضاوى فى بناء مشروعه بين الجهد الفردى وبناء المؤسسات؛ حتى بدا أقرب إلى مؤسسة متكاملة. فقد نجح القرضاوى فى بناء شبكة عالمية تتصل بكل أنشطته واهتماماته وتغطيها حتى يكاد لا يستثنى مؤسسة من مؤسسات العمل الإسلامى بتخصصاته المختلفة فى أنحاء العالم تقريبا منها إلا كان له بها صلة وثيقة؛ فهو عضو إن لم يكن مؤسسا لأهم مؤسسات العمل الإسلامى العالمية: نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مجلس إدارة مركز بحوث إسهامات المسلمين فى الحضارة فى قطر، مجمع الفقه الإسلامى التابع لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة، المجمع الفقهى التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامى بجدة.المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن، مجلس الأمناء للجامعة الإسلامية بإسلام آباد، مجلس الأمناء لمركز الدراسات الإسلامية فى اكسفورد، رابطة الأدب الإسلامى، جمعية الاقتصاد الإسلامى بالقاهرة، الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت، مجلس الأمناء لمنظمة الدعوة الإسلامية فى أفريقيا ومركزها الخرطوم، الهيئة الشرعية العالمية للزكاة بالكويت، مجلس إدارة صندوق قطر الإسلامى للزكاة والصدقة، مجلس أمناء الوقف الإسلامى لمجلة المسلم المعاصر، المجلس العلمى للكلية الأوروبية للدراسات الإسلامية فى فرنسا. هيئة الرقابة الشرعية لشركة الراجحى للاستثمار بالسعودية.هيئة الرقابة الشرعية لمصرف قطر الإسلامى وبنك قطر الإسلامى الدولى ومصرف فيصل الإسلامى بالبحرين وباكستان وبنك التقوى بسويسرا، المؤسسة الإعلامية الإسلامية العالمية بإسلام آباد، مجلس إدارة جمعية البلاغ الثقافية لخدمة الإسلام على الإنترنت، المجلس الأوربى للإفتاء والبحوث.وائتلاف الخير....ثم الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين الذى أسسه القرضاوى كأهم تجمع لعلماء المسلمين فى العالم.

امتلك القرضاوى المفاتيح السابقة ولكنه لم ينفرد بها بل ربما شاركه فيها آخرون بقدر يزيد وينقص، أما المفتاح الذى انفرد به فهو القدرة على صياغة علاقة فريدة مع التنظيم تتجاوزه دون أن تصطدم به. وقد نجح القرضاوى فى ذلك بسبب توفره على جملة صفات خاصة وبسبب استراتيجيته التى اتبعها فى علاقته مع تنظيم الإخوان.

لقد حسم القرضاوى أمره مبكرا وطوال علاقته بالحركة بالانتماء للخط العام فى الحركة والولاء لقيادتها الشرعية المجمع عليها دون الارتباط فى مشروعات جانبية يمكن النظر إليها باعتبارها تمثل «جيوبا» تنظيمية أو تيارات مخالفة للجماعة، التزم القرضاوى بهذا الانتماء مهما كان تقديره لكفاءة هذه القيادة مادامت شرعية ومجمعا عليها، ولم يتورط فى مشروعات جانبية مهما كان اتفاقه مع أفكارها وتقديره لها.

لقد التزم القرضاوى هذا حين وقعت الأزمة الشهيرة عام ١٩٥٤ واختلفت الجماعة حول شخص المرشد الثانى المستشار حسن الهضيبى، فرغم أن القرضاوى كان أقرب إلى منطق وجبهة من عرفوا بتيار المشايخ والأزهرية المعارض للهضيبى وسياساته (يمثله الشيوخ محمد الغزالى وسيد سابق وعبد المعز عبد الستار..) فلم يصل الأمر بالقرضاوى إلى الانضمام إلى هذه الجبهة حين انشقت على الجماعة أو احتجت على قرار فصلها. بل التزم القرضاوى ما انتهت إليه القيادة الممسكة بدفة التنظيم، وعاش معها فترة السجن والتزم بأوامرها وتكليفاتها دون أن يعلن خلافه معها أو رفضه لقيادتها رغم وقع السجن وهول التعذيب وسعى جمال عبد الناصر ونظامه لضرب وحدة الإخوان التنظيمية.

تكرر الأمر كذلك مع حزب الوسط الذى يمكن النظر إليه كأكبر انشقاق تنظيمى عرفته الجماعة منذ أزمة المرشد الثانى، فرغم أن القرضاوى كان متعاطفا مع هذا المشروع وقريبا من أبناء الجيل الذى قاد التجربة - جيل الوسط: ورغم أن أصحاب المشروع الحزب أكدوا فى ورقته المذهبية تأثرهم باجتهاداته وآرائه فى الفقه السياسى (جواز التعددية الحزبية، وفكرة الإسلام الحضارى) إلا أن القرضاوى لم يدخل طرفا فى هذا المشروع خاصة بعدما انتقل من محاولة تجديد إلى خصومة تنظيمية مع جماعة الإخوان والقيادة الشرعية لتنظيمها الشرعى. واكتفى بموقع الناصح للجماعة الناقد لسياستها فى هذا الملف والداعم فكريا ومعنويا من طريق غير مباشر لهؤلاء الشباب من جيل الوسط.. واستمر القرضاوى يلقى سنويا وفى كل إجازة صيف محاضرة فى المنتدى الذى يعقده حزب الوسط بمقر المركز الدولى للدراسات فى الوقت الذى يحل ضيفا على الفاعليات التى تقيمها الجماعة فى بعض النقابات المهنية أو نوادى أعضاء هيئة التدريس.

مثلما حسم القرضاوى انتماءه وولاءه للخط العام الحركى للإخوان فقد وضح حسم انتمائه أيضا للتيار العام الفكرى الوسطى للحركة والذى أسسه مؤسس الجماعة، وهو التيار الذى يعرف بالتيار البناوى (نسبة للشيخ حسن البنا). ولم يعرف عن القرضاوى ارتباطه بأى اتجاهات فكرية أخرى فرعية تخرج به عن هذا التيار، بل لقد خاض مبكرا مواجهات «فكرية» ضد هذه التيارات خاصة المتشدد منها وكان من أبرز من تصدوا لها.

حدث ذلك مبكرا حين اختلف القرضاوى مع شيخه وأستاذه البهى الخولى مسئول الدعوة فى المكتب الإدارى للإخوان فى مديرية الغربية التى كان يتبع لها، فقد جمع الخولى عددا من أبناء الإخوان النابهين وكوَن منهم ما أسماه بـ (كتيبة الذبيح) بغرض تربيتهم تربية روحية خاصة على المنهج الصوفى الذى يرى أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه ويبالغ فى طاعة المريد لشيخه، وقد دعا الخولى تلميذه القرضاوى مع عدد من أقرانه النابهين (منهم أحمد العسال وعبد العظيم الديب من الأزهر)، فرفض القرضاوى الشاب دعوة أستاذه بسبب ما رآه من تربية تخالف المنهج البناوى حيث تقوم على السمع والطاعة المطلقة وتستحضر الطريقة الصوفية التى تنعدم فيها شخصية المريد لتذوب فى إرادة شيخه. وكان هذا وعيا مبكرا من القرضاوى- ولم يزل شابا فى المرحلة الثانوية- بالتيار الفكرى والتربوى الذى ينتمى إليه ويتمثله بحيث يمكن أن يدافع عنه أمام من كان وقتها يقف منه موقف التلميذ.

تكرر ذلك فى خروج آخر ولكنه أكبر وأشد تأثيرا على التيار البناوى فى الجماعة، وهو التيار القطبى (نسبة إلى الشهيد سيد قطب). لقد تأثرت جماعة الإخوان بدءا من النصف الثانى من عقد الستينيات بأطروحات سيد قطب التى كانت تحمل فى داخلها انقلابا على أفكار المؤسس حسن البنا، كانت الأطروحات القطبية أكثر تشددا وانكفاءً على الذات، وأكثر ميلا للمفاصلة مع المجتمع والتصدى لما تراه خروجا على المنهج الإسلامى، ومن ثم أكثر استعداداً للتصادم مع هذا المجتمع.

ربما وباستثناء رسالة (دعاة لا قضاة) التى تنسب للمرشد الثانى القاضى حسن الهضيبى لم تقدم الجماعة نقدا



أدرك القرضاوى مبكرا أن موقعه الصحيح لخدمة دعوته وفكرته ليس فى العمل التنظيمى بالجماعة حتى وإن كان فى قمة هرمه

جديا مؤسسيا لأفكار سيد قطب، بل كان الغالب أنها استحضرت أفكاره وكتاباته فى بنيتها الفكرية والتربوية فى مراحل مختلفة، خاصة بعد إعدامه وتحوله رمزا للحركة الإسلامية فى كل أنحاء العالم وأكاد أجزم بأن الشيخ القرضاوى كان من أوائل من تجرؤوا على نقد سيد قطب وسعوا إلى استعادة الإخوان للمنهج البناوى.

فى الثمانينيات من القرن الفائت وأثناء علو الخطاب القطبى وسطوته كتب القرضاوى مقالة فى جريدة الشعب المصرية القريبة من الحركة الإسلامية كانت الأولى فى نقد بعض أفكار سيد قطب. ثم خصص فيما بعد مساحات كبيرة فى الجزء الثالث من مذكراته لاستكمال هذا النقد بما أثار عليه ثائرة عدد كبير من الكتاب والقيادات الحركية الإسلامية حتى من داخل جماعة الإخوان نفسها.. فكانت واحدة من المعارك الفكرية الإسلامية المهمة فى الأعوام الأخيرة.

ومثلما جسد القرضاوى للحركة خط الدفاع عن تيارها العام فى مواجهة أفكار وافدة تمددت فى فراغ غياب المؤسس مثلما حدث مع سيد قطب، فقد جسد القدرة على تمثيل الخط العام للحركة فكريا وفقهيا ولكن من دون الجمود عليه بل مع إعطائه طاقة تجديدية، فرغم أنه صار يمثل امتدادا فقهيا وفكريا وتربويا للإمام المؤسس للبنا إلا أنه لم يكن امتداد المقلد المتبع بل المجدد القادر على مخالفة إمامه ولكن خلاف التلميذ مع شيخه وليس خروجا عليه تماما كما فعل فى رفضه لما ذهب إليه البنا من منع المرأة من حقوقها السياسية، أو رفضه لموقف البنا الرافض للأحزاب والحزبية، أو خلافه مع ما ذهب إليه البنا من إمكان تلبس الجن بجسد الإنسان. والقرضاوى يسوق اجتهاداته فى هذا الصدد فى سياق المجتهد الذى يكمل على خطى شيخه ولكنه يخالفه فى بعض اجتهاداته دون أن يمنعه ذلك من الإقرار له بالفضل والتقدمة.

أما أكثر ما تميز القرضاوى به فى سياق صياغته لعلاقته مع الإخوان فهو قدرته المذهلة على تحديد موقعه المناسب له فى الحركة وتطوير هذا الموقع وفق تطوره الشخصى وبحيث يتناسب مشروعه الخاص مع مشروع الحركة العام.

مبكرا حدد القرضاوى موقعه فى الحركة واختار أن يكون عمله فيما يتصل بتخصصه ومجال اهتمامه ونبوغه، فعمل فى قسم نشر الدعوة الذى يتناسب واهتماماته وملكاته الذاتية، وحين التحق بقسم الاتصال بالعالم الإسلامى ظل عمله داخل القسم منصبا على نشر الدعوة خارج القطر المصرى ولم يكن عملا تنظيميا. بل إن القرضاوى لم يتردد دائما ومبكرا فى رفض العمل التنظيمى إلا ما يتصل منه بمشروعه الدعوى الشرعى، لذلك فلم يرحب بتولى المهام التنظيمية وكان أول موقع تنظيمى قبله هو مسئولية الإشراف على الأزهر الشريف.

ثم للرجل قدرة تثير الإعجاب على أن يحدد وبدقة متى يبدأ التنظيم والعمل التنظيمى ومتى ينتهى فى حياته وأين يلتقى معه وأين يبتعد عنه، وهو قادر على استشعار التغيرات التى تطرأ أو التى يجب أن تتم على علاقته بالتنظيم حضورا وغيابا قربا وبعدا.

لذا لم يتردد الرجل الذى بدأ حياته فى جماعة الإخوان واعتقل بسببها مرتين أن يرفض منصب المرشد العام مرتين إحداهما وهو فى مقتبل حياته الدعوية وقبل أن يسطع نجمه. لقد رفض القرضاوى- حتى قبل أن يملأ الدنيا ويشغل الناس- منصب المرشد حين عرض عليه عام ١٩٧٦ الذى كان قد خلا بعد وفاة المرشد الثانى القاضى حسن الهضيبى وبقيت الجماعة مدة عامين من دون مرشد.. لقد أدرك القرضاوى مبكرا أن موقعه الصحيح لخدمة دعوته وفكرته ليس فى العمل التنظيمى بالجماعة حتى وإن كان فى قمة هرمه: منصب المرشد فكتب رسالته إلى الدكتور محمود أبى السعود عضو الهيئة التأسيسية الذى تولى عرض المنصب عليه قائلا:

(إنى أعتقد أن من مصلحة الدعوة التى أنتمى إليها، ومصلحة الإسلام عامة، الذى نذرت نفسى لخدمته: أن أظل مشتغلا بالعلم وبالبحث، لإتمام ما عندى من مشروعات علمية أراها مهمة ونافعة إن شاء الله.

وقد أتيح لى الآن - من خلال موقعى ومعرفة الناس بى - أن أتصل بالجمعيات العلمية فى مؤتمرات عربية وإسلامية وعالمية شتى. ومن الخير أن يستمر هذا الاتصال بعد أن فرضت على العزلة مدة طويلة فى مكان قصى منعزل.

إن جماعتنا لم تخل - ولن تخلو إن شاء الله - من الكفايات القادرة على قيادة السفينة بقوة وأمانة، ولن تعدموا (القوى الأمين) أو (الحفيظ العليم) فى صفوف الحركة، بعون الله).

ثم عاد وجدد الرفض مرة ثانية عام بعد وفاة المرشد الخامس مصطفى مشهور حين عرض عليه المأمون الهضيبى التنازل عن المنصب له إذا ما قبل قيادة الجماعة، واعتبر القرضاوى وقتها أنه قد صار ملكا للأمة كلها بما يمنعه من أن يحصر نفسه فى جماعة أو تنظيم ولو كان بحجم وانتشار وتأثير الإخوان المسلمين... ولم يكن القرضاوى يقارب الأمر من منطق برجماتى بقدر ما كان يقدر بدقة موقعه المفترض من الجماعة ويستشعر التغيرات التى تطرأ عليه وتلزمه.

وقد استطاع القرضاوى الانتقال فى علاقته بالتنظيم من موقع التبعية أو الانضباط التنظيمى إلى لعب دور الإلكترون الحر الذى ينتمى إلى الحركة ولكن دون أن يقع أسير منطقها التنظيمى، لذا فقد ظل الجميع يعرفون القرضاوى كواحد من جماعة الإخوان دون أن يسألوا عن موقعه التنظيمى أو وضعيته قبولا ورفضا من قيادة التنظيم. ومع الزمن صار مثل هذا التساؤل يقابل بسخرية إما لأن الإجابة عنه تبدو بديهية أو لأنها صعبة.. لذلك تحول القرضاوى إلى مرشد لأبناء الجماعة وجمهورها دون سؤال منهم عن موقعه التنظيمى داخلها.

كما امتلك القرضاوى كذلك القدرة على تجاوز الإطار التنظيمى وعقباته ولكن دون الوقوع فى مأزق الاضطرار للخروج عليه ومن ثم الاصطدام به، فهو استطاع إنجاز انتقال هادئ من المركز إلى التخوم ومن التخوم إلى خارج التنظيم بتدرج ودون صدام، لذلك لم يعرف عنه خروج تنظيمى رغم أنه حدث، ولم يتطرق جمهور الإخوان إلى السؤال عن علاقته بالتنظيم رغم أنه خارج التنظيم فعلا، بل وربما اكتشف الإخوان- فيما بعد- أنه من الأفضل عدم إثارة هذا السؤال الذى يسىء لمن يطرحه ولن يترتب عليه أى فعل أو موقف من الرجل إيجابا ولا سلبا.

لقد أدى امتلاك القرضاوى لهذه القدرة فى صياغة علاقة خاصة مع التنظيم إلى تجاوزه الإطار الإخوانى تنظيما وحركة إلى مواقع أخرى لم تكن مفتوحة فيما قبل أمام المدرسة الإخوانية مثلما هو الحال مع تيار السلفية الإصلاحية، فصار القرضاوى مقبولا بل وأحيانا مرجعا معتمدا لدى تيار السلفية الإصلاحية فى السعودية ودول الخليج، وصارت بينه وبين رموزها صلات قوية كما هو الحال مع الشيخ سلمان بن فهد العودة وسفر الحوالى وعائض القرنى...ربما لم يحدث هذا مع شيخ «إخوانى» غير القرضاوى، وهو عكس ما جرى - مثلا- مع الشيخ محمد الغزالى رغم وحدة الفكر التى تجمعهما حتى التطابق. ولم يكن مرد الأمر إلى حدة الغزالى وقسوته فى نقد السلفية بما جر عليه خصومات وأشعل بينه وبينها المعارك، بل لقدرة خاصة لدى القرضاوى فى إدارة العلاقة مع الفاعلين الإسلاميين بما يجعله قادرا ليس فقط على تجاوز الانتماء التنظيمى وما قد يترتب عليه من إشكالات بل وتجاوز الانتماء الفكرى والمذهبى بما يسمح له بتجاوز مظلته التنظيمية والحركية لمخاطبة آخرين من خارجها. ■



القرضاوى مرجعا

معتز الخطيب

■■ شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين صراعًا على الإسلام: عقيدة وشريعة ومرجعية. فقد نشب صراع بين الأنظمة القائمة وحركات الإسلام السياسى، كما نشب صراع بين الإصلاحيين والتقليديين والأصوليين. ولا يزال ذلك الصراع قائمًا عبر أشكال مختلفة. ومرد ذلك كله إلى مساحة التصورات وعالم الأفكار، وفى القلب منه تقع مسألة المرجعية التى يتم التنازع فيها وعليها، وتحديدًا فى الإسلام السنى.

١ - السياق التاريخى:

سقطت الخلافة الإسلامية فى النصف الأول من القرن العشرين، وبعد الاستقلال عن الاستعمار نشأت الدولة الوطنية فى العالم العربى، وحين صيغت الدساتير فى تلك الدول وضع نص - فى معظمها - يفيد بأن دين الدولة الرسمى هو الإسلام، والشريعة الإسلامية هى مصدر رئيس أو المصدر الرئيس من مصادر التشريع فيها. ومع ذلك نشب صراع حاد بين تلك السلطات والتيار الأصولى حول حقيقة «إسلامية» الدولة، ونشأت أطروحة «الدولة الإسلامية» التى تتلخص مهمتها فى تطبيق الشريعة، وتتفق على هذا المطلب جميع حركات الإسلام السياسى وإن اختلفت فى وسائل تنفيذه.

وفى ظل ذلك الصراع والجدل الذى كان يدور معه، كانت فكرة المرجعية تشغل المركز فيه، ففى بعض الأحيان حافظت المؤسسة الدينية على استقلاليتها عن السلطة القائمة، ومارست سلطتها بموازاة السلطة السياسية، وفى أحيان أخرى لجأت السلطة السياسية إلى استتباع المؤسسات الدينية لأجهزة الدولة، فأنشأ منافسوها مرجعيات دينية موازية، كثيرًا ما اكتسبت شعبيتها من استقلالها عن الدولة.

المرجعية فى الإسلام السنى تقوم - فى تكونها ومسارها التاريخى - على مرجعية فكرية غير مرتبطة بأشخاص، ومع وجود السلطة الإسلامية - تاريخيًا - والتى يتمتع فيها الفقه الإسلامى - على اختلاف مذاهبه - بسلطة واسعة وفاعلية كبيرة فى المجتمع: اتسع نطاق تلك المرجعية المرتبطة بمنظومة فكرية يعود الفضل فى تشكلها إلى تراكم معرفى تاريخى توارد عليه علماء كثيرون.

كان الفقه - وهو ينتظم جميع أفعال المكلفين المسلمين - يقع فى مركز العلوم، وحياة المجتمع الإسلامى، وتتلخص مهامه فى ثلاث: التطبيق فى المحاكم والقضاء، وأنه معيار المؤمنين فى تصرفاتهم، وكذلك هو مصدر المشروعية للمجتمع والدولة.

فالفقه هو الذى كان يقوم بدور المشرع وليس الدولة، وسلطة الفقهاء كانت سارية على الدولة: فهو مصدر الشرعية للأفراد والمجتمع والسلطة. ومن هنا لم تستطع معظم الدساتير الحديثة أن تتجاهل مرجعية (الشريعة الإسلامية)، لكن بقى ذلك على نطاق ضيق وغير فاعل فى أغلب الأحيان، وهذا ما أدى إلى انتشار مصطلح «الشريعة» مع الحديث عن فكرة «الدولة الإسلامية» و«الصحوة الإسلامية» بهدف إعادة الطابع الإسلامى للحياة العامة، وهنا كان اللجوء إلى الفقه للتعرف على حلول مناسبة لأسئلة الناس والعصر.

شكلت تلك الشريعة الشغل الشاغل للشيخ يوسف القرضاوى، فمهمة الدولة الإسلامية تطبيق الشريعة، وألف كتابًا سماه «المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية»، كما سمى برنامجه الشهير عبر قناة الجزيرة الفضائية «الشريعة والحياة». والشريعة هنا ليست تطبيق قوانين العقوبات الإسلامية، بل إعادة الطابع الإسلامى للحياة، وهو ما يجسده تعبير «الحفاظ على الهوية» الذى انشغل به الشيخ كثيرًا. فمصطلح «الشريعة» يحمل أبعادًا سياسية: خاصة أنه انتشر فى ظل الصراع على الإسلام الذى كان يتوزع على اتجاهات ثلاثة هى: خطاب يعتبر الإسلام المرجعية الشاملة، ومن أبرز رموزه القرضاوى، وخطاب الدولة والمؤسسات الدينية التقليدية التى كانت تسعى لاحتواء الإسلام، والخطاب العلمانى الذى تحول لاحقًا إلى ممارسة تجديد الدين لمحاولة كسب معركته على أرض خصومه.

٢ - مكونات المرجعية

والجدال بين تيارى المحافظة والتجديد كان يدور على ساحة الشريعة - بمعناها الشامل - ومحورها الفقه الإسلامى. وهنا يبرز الدور الذى أسهم به القرضاوى (إلى جانب شخصيات أخرى كالشيخ محمد الغزالى) فى بناء مرجعيته وخطابه عبر أكثر من نصف قرن. فوسطيته التى تحدث عنها كثيرًا قامت على حلول توفيقية وتصالحية، جمعت بين المحافظة والتجديد بعد أن نشأ صراع بينهما منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر. وهو فى هذا استطاع أن يشيع خطابًا معاصرًا يستثمر فيه المصطلحات الحديثة فى صوغ المقولات الإسلامية التراثية فى سياق وعى ساد لدى العلمانيين بلا معقولية الدين، وأنه إحالة إلى التخلف. كما أن جزءًا كبيرًا من خطاب الشيخ كان - على رغم مرونته تجاه الغرب - بهدف الحفاظ على الهوية ومقاومة التغريب الذى هو «تحول روحى وفكرى باتجاه ديانة الغرب» الدنيوية على حد تعبير جيرار ليكلرك.

وعلى المستوى الفقهى، استطاع القرضاوى أن يحدث مقولات جريئة فى الفقه التقليدى، ليضفى عليه طابع المعاصرة، وليبث الفاعلية فيه فيستعيد دوره فى الحياة العامة بعد أن أقصته الدولة الوطنية، ومن هنا شكل كتابه الأول «الحلال والحرام» (كتبه سنة ١٩٥٩م) مساهمة بارزة استطاع من خلاله أن يوسع دائرة «الحلال» ليجعل من الفقه أقل عبئًا على المسلم فى حياته المعاصرة، الأمر الذى أسهم فى انتشاره الكبير فى الشرق والغرب، وأدى إلى اعتماد كثير من المسلمين فتاواه، وهذا أحد الأسباب التى جعلت منه أحد أهم رموز «الصحوة الإسلامية» التى أقلقت العلمانيين الذين كان يخوض معاركه الفكرية معهم.

وفيما يخص الفقه السياسى الذى ضمر فى الفقه التقليدى، فقد استطاع أن يسهم فى تنميته بشكل واضح من خلال بحثه فى مسائل الذمة والأقليات والدولة الإسلامية والحريات وكذلك فى المجال الاقتصادى والبنوك الإسلامية، ومعالجة الفقر وغير ذلك مما يصب فى نصرة فكرة «شمولية الإسلام» التى وإن لم يكن منشئها، إلا أنه كان - فى تقديرى - من استطاع أن يحولها إلى وعى شعبى عام، بأن جعل من الإسلام نظام حياة لجمهور كبير من المسلمين.

وهو فى سبيل ذلك كله، كان يجرؤ على اقتحام مساحات سكت عنها غيره، أو لم يتجرأ على الخوض فيها، وكانت توجهاته وأقواله تعكس استجابة جيدة لتحديات العصر، ومعرفة جيدة بالواقع، من خلال ما أسماه «فقه التيسير» إلى جانب أنواع أخرى من الفقه، مثل «فقه الأولويات» و«فقه الأقليات» و«فقه المقاصد» التى أصبحت (إلى جانب غيرها من المقولات: الدولة، الحريات، الديمقراطية، شمولية الإسلام ...) جزءًا من الخطاب الإسلامى المعاصر ككل.

وثمة عوامل كثيرة ساهمت فى تكون مرجعيته، لعل من أبرزها: موسوعيته، فقد شارك وأسهم فى علوم كثيرة، إلى

جانب سهولة خطابه الذى استطاع أن يقرّب الكثير من الأفكار لأذهان الناس، فأنشأ - إلى جانب الغزالى فيما يخص الفكر السياسى تحديداً- تياراً عريضاً يستطيع الآن أن يحركه معه إذا تحرك، ويمكن أن يوصف بالتيار الغالب أو الرئيسى. فقد استطاع بنشاطه الواسع جداً: عبر العلوم المختلفة، والندوات والمؤتمرات والمنظمات الكثيرة التى يشارك فيها أو يرأسها، أن يكوّن حالة يمكن البناء عليها فى تكوين ذلك التيار الأساسى.

إلى ذلك فإن حرية الحركة والنشاط التى أتيحت له فى قطر أسهمت فى تكوين مرجعيته، فقد جاب العالم كله انطلاقًا منها، وكان يحرص فى رحلاته على إقامة الصلات العلمية مع مختلف العلماء، وكذلك مع عدد من المسئولين السياسيين، ومع هذا فإن ازدواجية علاقته بالسلطتين العلمية والسياسية لم يجعله يذوب فى واحدة منهما، محافظ على قدر كبير من استقلاليته، ومن هنا نبعت قوة مرجعيته من أمرين: اقتناع الناس بأفكاره، وقدرته على إبقاء الاحترام له ولمشروعيته وشعبيته فى ظل فساد عدد من العلماء، أو استتباعهم لمؤسسات السلطة، وكذلك فى ظل غياب عدد من الرموز العلمية المؤثرة كالغزالى والشعراوى والطنطاوى وآخرين (وكلهم كان له حضور إعلامى)، فضلاً عن انحسار مرجعية الأزهر لأسباب عديدة.

ولم يكن حرصه على إنشاء مرجعية عُلمائية «عالمية» - تجسدت لاحقًا فى (الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين) برئاسته - خارجًا عن دائرة تحركاته وواقع تأثيره، فقد قابَل موسوعيته العلمية بمكانة مرموقة لدى العلماء والشعوب الذين التقاهم، وهم لا يحصَون، وعلى الخصوص: انشغاله بمسلمى الغرب والشرق معًا، سعيًا لتجسيد «الأمة الإسلامية» التى يتحدث عنها باستمرار ويجتهد لأجل وحدتها. وهو هنا لا يغادر الوعى التاريخى بدور العالم فى الحياة والمجتمع، ففى حين انحسر الفقه عن الحياة العامة وتَقلّص دور العالم (الدينى) فى المجتمع بفعل عوامل عديدة: نجد القرضاوى يستصحب مرجعية الفقيه ودور المفكر المنشغل بقضايا الأمة، فنجده حاضراً فى القضايا الكبرى ومعبراً عن موقفه منها ومُعبِّئًا الجماهير لأجل ذلك.

شعبيتُه الكبيرة والواسعة: فئات وجغرافيًا، انبنت من خلال عوامل عديدة، فقبل الإعلام تكونت من خلال كتاباته الكثيرة، وسفره الدائم، وعلاقته بالإخوان المسلمين والحركات الإسلامية ككل. ومع الإعلام توسعت شعبيته كثيرًا بفعل حرصه على استخدام التقنيات الحديثة فى نشر خطابه وتدعيم مرجعيته، ومن هنا كان لفضائية الجزيرة، وموقع «إسلام أونلاين» وموقعه الشخصى على الإنترنت: دورٌ مهم فى ذلك؛ إذ شكّل كلّ ذلك منابرَ غير تقليدية وذات جماهيرية كبيرة يستطيع مخاطبتها وإيصال أفكاره إليها. وهو بقى محافظًا على استخدام تلك المنابر جميعًا جنبًا إلى جنب، التقليدى منها وغير التقليدى (خطبة الجمعة، الحوارات الصحفية، الكتب والمنشورات، الإنترنت، الفضائيات، الدروس العامة فى المساجد، المؤتمرات، والمحاضرات، والمؤسسات الأهلية ...).

٣ - مفهوم المرجعية

وهكذا أسفر نشاط الشيخ القرضاوى عن تحوّل فكرة المرجعية من المنظومة إلى الشخص بما يمثله من «توجه» فى ظل السياق التاريخى الذى شرحناه. وهذا ما دفع شخصاً مثل حسن نصر الله (الأمين العام لحزب الله) إلى وصفه بأنه «يمثل ما يشبه المرجعية عندنا»، ويقصد المرجعية الشيعية، لكن مرجعية القرضاوى ليست من نمط المرجعية الشيعية بالتأكيد، ووعيه بذلك كان سبب تفكيره بإنشاء مرجعية «عالمية» تمثلت فى الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين. فمرجعية القرضاوى ليست إلزامية تفرضها البنية الكهنوتية كما لدى المرجعية الشيعية، وإنما هى مرجعية اختيارية فرضتها عوامل عديدة كما شرحناها: شخصية وعلمية وإعلامية وسياسية. ومن هنا باتت تحرص معظم المؤسسات أو النشاطات العلمية والخيرية على وجود اسم القرضاوى فيها بما يمنحه من مصداقية ومشروعية لها.

وأحسب أن وفاة القرضاوى الذى يبلغ الثمانين سنة الآن: ستطرح بعض التحديات الصعبة، فلا أعتقد بوجود شخصية موازية له بكل مكوناته السابقة، مؤهلة لأن تشغل الأدوار العديدة التى اضطلع بها مجتمعةً، كما أن سؤال من ينوب عنه فى كل تلك المؤسسات التى أقامها سيكون سؤالاً صعباً للغاية، فهو لم ينشئ تلاميذ شخصيين، وإن كان أنشأ مدرسة فكرية، وهذا - من المحتمل - أن يعيد المرجعية إلى مرجعية الأفكار والمنظومة الفكرية من جديد. ■

كتاب الزاوية

رسالة ابن فضلان

عندما يسافر الروس!

قال أحمد بن فضلان: وساعة توافى سفنهم إلى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيذ، حتى يوافى خشبة طويلة منصوبة. لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت فى الأرض. فيوافى إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها، ثم يقول لها: «يا رب قد جئت من بلد بعيد، ومعى من الجوارى كذا وكذا رأسًا، ومن السمور كذا وكذا جلداً»، حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجاربه. ثم يقول: «وجئتك بهذه الهدية». ثم يترك الذى معه بين يدى الخشبة - ويقول: «أريد أن ترزقنى تاجراً معه دنانير ودراهم كثيرة فيشترى منى كل ما أريد ولا يخالفنى فيما أقول»، ثم ينصرف.

فإذا تعسر عليه بيعه وطالت أيامه. عاد بهدية ثانية وثالثة. فإن تعذر ما يريد، حمل إلى كل صورة من تلك الصور الصغار هدية، وسألها الشفاعة، وقال: «هؤلاء نساء ربنا وبناته وبنوه»، لايزال يطلب إلى صورة صورة يسألها، ويستشفع بها ويتضرع بين يديها، فربما تسهل له البيع فباع، فيقول: «قد قضى ربى حاجتى، وأحتاج أن أكافيه». فيعمد إلى عدة من الغنم أو البقر فيقتلها ويتصدق ببعض اللحم، ويحمل الباقى فيطرحه بين يدى تلك الخشبة الكبيرة والصغار التى حولها. ويعلق رؤوس البقر أو الغنم على ذلك الخشب المنصوب فى الأرض. فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت جميع ذلك. فيقول الذى فعله: «قد رضى ربى عنى وأكل هديتى!».


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي ال
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com

اللطائف و القطائف

لـــلــه درقــطـــائــف مـحـــشـــوة مـــن فـــســـتـــق دعـــت الـــنــــواظـــر والـــيـــــدا
شـــبــــهـــتـــهـــا لمـا بــــدت فـى صـحـــنـــهـــا بــحـــقـــاق عـــاج قـــد حـــشـــين زبـــرجـــدا

محمد معوض النجار

■■ رمضان شهر القرآن والعبادة والصوم والبر والإحسان فيه تصفو النفوس وتتآلف وتكثر الاحتفالات بلياليه المباركة حيث يصلى القيام ويتلى القرآن.. وتكثر ولائم الإفطار التى انتشرت فى كل أقطار العالم مسلمة وغير مسلمة. ويمتاز رمضان بأن له ألوانا من الأطعمة يقبل الناس فيه على تناولها ولعل من أشهر هذه الأطعمة حلوى الكنافة وحلوى القطائف.

ولقد أفرد الإمام السيوطى إحدى رسائله للكنافة والقطائف وأخرجها باسم «منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف».

والإمام عبد الرحمن بن أبى بكر وله نسب طويل لا داعى لذكره المشهور بجلال الدين السيوطى، والسيوطى من سُيوط وهى لغة فى أسيوط، حيث ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة للهجرة الموافقة لسنة أربع وأربعين وأربعمائة بعد الألف للميلاد وفى مقدمة رسالة منهل اللطائف نجد أن تاريخ ميلاده كان سنة ثمان وأربعين وثمانمائة إلا أن مقدمة كتاب التحدث بنعمة الله للدكتور عوض الغبارى[1] والدكتور عصام عيد فهمى فى مقدمة كتاب أصول النحو عند السيوطى يذكر أن تاريخ الميلاد سنة تسع وأربعين[2] وقد توفى أبوه بعد أن انتقلوا للقاهرة وسن السيوطى ثمانية أعوام وقد دفن السيوطى بالقاهرة سنة إحدى عشرة وتسعمائة للهجرة. وقد كان والد السيوطى عالما وله مصنفات وأخذ عنه الكثيرون ويذكره السيوطى بأنه كان صالحا يختم المصحف كل أسبوع.. أما الشيخ السيوطى المدفون بأسيوط فهو الجد التاسع للإمام السيوطى ويسمى الشيخ همام وكان متصوفا من أصحاب الأحوال.

رغم أن السيوطى قد نشأ يتيما وفقد إخوته وأولاده فيقول فى نبرة حزينة «فكذا غالب إخوتى وأولادى ماتوا شهداء»[3].. فقد مات أولاده جميعا فى حياته وكان له ابن يسمى ضياء الدين يحضر الدروس مع السيوطى عند بعض الشيوخ لطلب العلم وقد توفى فى حياة السيوطى، وآخر أولاده فتاة ماتت قبل موته بحوالى عام ونصف ورغم ذلك فإن السيوطى كان يمتاز بثلاث صفات:

أ) الإيمان القوى حتى أنه اعتزل قرابة العشرين عاما متفرغا للعبادة.

ب) الروح العلمية التى تجعله يذكر إيجابيات خصمه كما فعل مع الجوجرى بل ويصف بعض مؤلفاته (مؤلفات السيوطى) بقوله «لا أعتد بها لأنها عن طريق البطالين الذين ليس لهم اعتناء إلا بالرواية المحضة ألفتها فى زمن السماع وطلب الإجازات» أى زمان التلمذة مع أنها مشتملة على فوائد بالنسبة لما يكتبه الغير[4] وقد كان السيوطى يرى أنه لابد لكل نقل من ذكر مصدره بل مصادره وألا يلقى الكلام على عواهنه والدقة فى النقل والأخذ مع التحقيق والتدقيق.

ج) إلى جانب أنه عالم متبحر برع فى أغلب علوم زمانه كعلوم اللغة والفقه والحديث والتفسير والبديع والتاريخ وأهدى للمكتبة العربية فى هذه الأفرع أو الفنون كما كان يسميها، أمهات الكتب التى تعد كلها من المراجع الهامة كالجامع الكبير والإتقان فى علوم القرآن والمزهر وحسن المحاضرة.. كان السيوطى خفيف الروح وكان شاعرا وأديبا وليس أدل على خفة روحه من أسماء بعض مصنفاته مثل «الكاوى فى تاريخ السخاوى» و«تعريف الأعجم بحروف المعجم» و«المصابيح فى صلاة التراويح»، «الشماريخ فى علم التاريخ»، «اللفظ الجوهرى فى ردخباط الجوجرى».. هذا عدا ما نجده من استعمال التورية فى شعره ونثره وقد ألف فى نوادر قراقوش[5] وكم هى ظريفة تلك النوادر.

ويخيل إليك وأنت تقرأ فى رسائل السيوطى ومقاماته أنك لست فى آخر عصر سلاطين المماليك بل إنك فى الثلاثين والأربعين من القرن الماضى حيث ازدهرت الصحافة الأدبية ونشبت المعارك الأدبية الضارية التى دارت بين الأدباء الكبار من أمثال الرافعى والعقاد وطه حسين وزكى مبارك. كانت الحياة الثقافية والفكرية فى عهد السيوطى موارة لا تهدأ، يكثر فيها الأخذ والرد... ونجد السيوطى فى أسلوبه واضحا جليا، حقا أنه يستخدم السجع ولكنه قد يتخلى عنه.

والعجيب فى أمر السيوطى أنه يذكر شيوخه فى التحدث بنعمة الله فيذكر مائة وثلاثين عالما أحصيت فيهم ثلاثا وثلاثين سيدة ويقول عنهم «فهؤلاء مائة وثلاثون هم عوالى شيوخى فى الرواية على اختلاف طبقاتهم»[6].

شيوخه العوالى بينهم ثلاث وثلاثون سيدة منذ أكثر من خمسمائة عام أليس هذا عجيبا ويجعلنا نعيد النظر فى وضع المرأة فى تاريخنا؟

وقد كان السيوطى عالما مجددا رافضا لإغلاق باب الاجتهاد فنرى له مؤلفى «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض»، «تقرير الاستناد فى تيسير الاجتهاد» بل ونجد له فتوى فتحت عليه باب معركة كبرى، وذلك وكأنه من مؤسسى إحدى منظمات الحفاظ على البيئة فى عصرنا الذى نعيشه الآن، إذ أفتى بمنع البناء على النيل لأن ذلك يفسد ماء النيل ويشوه منظره فتعرض له ابن الكركى الذى يقال أن بيته كان قد برز على النيل بروزا واضحا، وادعى ابن الكركى أن السيوطى يفتى بهدم مقياس الروضة فألف السيوطى فى ذلك مقامة باسم «طرز العمامة».

وقد نشأ السيوطى فى عصر سادت فيه الفتن والقلاقل وكثرة تنازع أمراء المماليك فيما بينهم كى يصلوا إلى كرسى السلطنة، فعاصر أحد عشر سلطانا إلا أن السلاطين الذين أدركهم وعيه هم يلباى والظاهر تمرتبغا والأشرف سيف النصر قايتباى وقد كان من السلاطين الأقوياء والناصر محمد بن قايتباى ثم الظاهر قنصوه ثم الأشرف جامبلاط ثم العادل طومان باى بن قنصوه وهؤلاء السلاطين الأربعة مدة حكمهم جميعا لا تصل لخمس سنوات ثم جاء السلطان قنصوه الغورى، وفى عصره توفى الإمام السيوطى. وهذه الفترة كثرت فيها الفتن والأوبئة وارتفعت فيها الأسعار وشحت الأقوات وقل الفيضان إلا أن الحركة الثقافية والفكرية كانت مزدهرة فلقد أصبحت مصر موئلا للعلماء وألفت فيه الموسوعات مثل السلوك للمقريزى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى. نهاية الارب فى فنون


2007



الأدب للنويرى وصبح الأعشى للقلقشندى وقد أثرى علماء ذلك العصر الثقافة العربية والإسلامية بمؤلفاتهم وكان آخرهم ابن إياس الحنفى الحموى مؤلف بدائع الزهور فى وقائع الدهور وهو تلميذ الإمام السيوطى وكان السيوطى أحد أبرز مظاهر تلك النهضة وقد دفعت مكانة السيوطى العلمية أن يعد نفسه لأن يكون رجل المائة الذى يجدد للأمة دينها وخاصة وأنه قد علّم ودرّس فى أكبر مدارس القاهرة كالمسجد الطولونى والمدرسة الشيخونية والخانقاه البيبرسية[٧].

مؤلفات السيوطى البعض جعلها ثلاثمائة مؤلف ومنهم جورجى زيدان والسيوطى نفسه والبعض قال إن مؤلفاته ستمائة مؤلف منهم ابن إياس المؤرخ[٨] وخير الدين الزركلى ود. طاهر حموده وأوصلها إياد خالد الطباع إلى أربعة وتسعين ومائة بعد الألف والحق أن للسيوطى فى مؤلفاته كتبا ورسائل ومقامات كان يعطى صورة لما يدور بنفسه ومجتمعه ففى رده على السخاوى «وقد أبان عن نفسه بالحجج المقنعة وبالأسلوب الذى يفيض سخرية ومرارة مخلصا للعلم والحق منزها نفسه عن سرقة كتب غيره كما ادعى السخاوى»[٩].

الرسالة... صدرت فى أربع وستين صفحة من الحجم المتوسط ولكن الأربع عشرة الأولى عبارة عن مقدمة والأربع عشرة الأخيرة عن الفهارس وبذلك تكون الرسالة من صفحة خمس عشرة إلى الصفحة خمسين والتحقيق لمحمود نصار ومراجعة أحمد عبد التواب عوض والناشر دار الفضيلة وتقول المقدمة أن السيوطى حين ألف حسن المحاضرة لم يذكر اسم منهل اللطائف وكذلك لم أجد اسم منهل اللطائف فى كتاب التحدث بنعمة الله[١٠]».

وتقول مقدمة منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف «ورد ذكر المؤلف فى مرجعين صنفا فى ذكر مؤلفات السيوطى وأماكن وجودها وهو بعنوان» دليل مخطوطات السيوطى وأماكن وجودها «صنفه الأستاذ أحمد الخازندار مسئول مكتبة المخطوطات العربية جامعة الكويت، والأستاذ محمد إبراهيم الشيبانى مسئول لجنة المخطوطات جمعية إحياء التراث وطبع الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٤٠٣ هـ، سنة ١٩٨٣م بمكتبة ابن تيمية[١١].

وفى مقدمة المصنف يذكر السيوطى «قال الجوهرى فى الصحاح القطيفة دثار مخمل والجمع قطايف وقطف ومنه القطيفة التى تؤكل. ويقول أما الكنافة فلم يذكرها أحد من أئمة اللغة ولا فى الألفاظ اللغوية ما يصلح أن يكون مادة لها والذى يظهر أنها لفظ أعجمى أو يونانى»[١٢].

وينقل السيوطى عن ابن فضل الله فى المسالك «كان معاوية - رضى الله عنه - يجوع جوعا شديدا فشكا ذلك إلى محمد بن أثال الطبيب فاتخذ له الكنافة يأكلها فى السحر فهو أول من اتخذها»[١٣].

وأنا أشك فى أن معاوية أول من اتخذها وأن الطبيب محمد بن أثال قد اخترع الكنافة اختراعا كذلك أعتقد أن الكنافة ذات أصل عربى. ففى مادة كنف بلسان العرب نجد «يضع عليه كنفه يستره وتكنفوه واكتنفوه أحاطوا به والكنيف الترس السترة والحظيرة للإبل والغنم لأنها تحيط بها إذن فالكنف هو الإحاطة والكنافة مدورة تحيط بوسط» الصانية التى تعمل بها ويجوز أن تكون لأنها تلف حول حشوها فلقد قال عمر - رضى الله عنه - عن عبد الله بن مسعود «كنيف ملأ علما»[١٤].

وكذلك معنى القطائف فإن لسان العرب له رأى آخر غير القطيفة فيقول صاحب اللسان القطف ما قطف من الثمر والجمع قطوف وهو اسم لكل ما يقطف كالذبح والطحن فعلى هذا شبهت بالثمار، وأسماء الحلوى قد تتخذ أسماء الثمار مثل بلح الشام.. وهذا معنى مقبول ويقول ابن منظور نقلا عن أبى حنيفة القطف ضرب من شجر الجبل وهو مثل شجر الأجاص فى القدر ورقته خضراء مُعْرضَة حمراء الأطراف خشناء وانظر إلى قول أبى حنيفة «ورقته خضراء معرضة حمراء الأطراف» ألا تشبه تلك الورقة واحدة القطائف. هذا والله أعلم ورحم الله السيوطى ورحمنى[١٥].

يقول مؤرخو الأدب عن العصر العباسى الثانى إن من الموضوعات الشعرية التى تناولها شعراء ذلك العصر وصف الأطعمة وصانعيها

فهذا ابن الرومى يقول فى وصف خباز:

إن أنس لا أنسى خبازا مررت به
يدحو الرقاقة مثل اللمح للبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة
ومابين رؤيتها كوراء كالقَمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر[١٦]

وقال أيضا ابن الرومى:

وخبيصة صفراء دينارية
ثمنا ولونا زفها لك جؤذر
عظمت فكادت أن تكون إوزة
وثوت فكاد إهابها يتفطر

وقال فى اللوزينج:

يخطئنى منك لوزينج
إذا بدا أعجب أو عجبا
تغلق الشهوة أبوابها
إلا أبت زلفاه أن يحجبا

وقال أحمد بن يحيى فى القطائف:

قطائف قد حشيت باللوز
والسكر الماذى حشو الموز
تسبح فى آذى دهن الجوز
سررت لما وقفت فى جوز

وقال ابن الرومى فى القطائف:

دانت قطائف بعد ذاك لطائف
ترضَى اللهاةُ بها وترضى الحنجر
ضَحِك العيون من الطَبرزد فوقها
دَمع العيون من الدهّان يعصر

ومن الأمور التى يمكن أن تلاحظ أن الشعراء العباسيين قد أولعوا بالحديث عن القطائف ولم يذكروا الكنافة ولعل ذلك راجع إلى أن الكنافة طعام شامى أموى وكراهة العباسيين للأمويين شديدة خاصة أن أغلب الأبيات السابقة قد أنشدت فى مجلس الخليفة العباسى المكتفى.

إذن لماذا لم يذكر شعراء بنى أمية الكنافة؟

شغل الأمويون شعراءهم بالنقائض، وشغل الشعراء بالفرق، كالشيعة والخوارج والزبيريين.... إلخ.

قال نقاد الأدب إن الشعر فى عصر المماليك والأتراك قد تناول الأغراض التافهة وذكروا مثالا لذلك أن شاعرا قال قصيدة فيمن أهداه تمرا واعتبر التمر غرضا تافها!! ترى ماذا يقولون لو عرفوا أن شاعرا عرف بشاعر الكنافة وهو أبو الحسين الجزار؟ ولندخل فى رسالة السيوطى منهل اللطائف، من الملاحظ أن الرسالة قد اعتمدت على عدد قليل من الشعراء فعددهم لا يصل إلى العشرين ومن الظريف أن بعضهم قد تعصب للكنافة ومدحها وفضلها على القطائف وهو أبو الحسين الجزار ولكن السيوطى يذكر له أربعة أبيات فى مدح القطائف:

يا من إذا الخطب دجا ليلةً
جَنَّة أنوارُ له أشرقت
سَقَت أياديك عروس المنا
حتى رأيناها وقد أذرفت
مهلا فإن السحب إذا واظبت
أرض بهتان الحيا أغرقت
قطائفى واظبها قطرها
فاستبحرت من بعدما شرّقت

وهو الذى قال فى الكنافة وقد تخيلها حبيبة حسناء غاضبة تتهمه بحب القطائف فلذا غضبت عليه وصدته:

ومالى أرى وجه الكنافة مغضبا
ولولا رضاها لم أرد رمضانها
عجبت لها فى رقة كيف أظهرت
على جفاء صدعنى جفانها
ترى اتهمتنى بالقطائف فاغتدت
تصد اعتقادا أن قلبى خانها
ومذ قاطعتنى ما سمعت كلامها
لأن لسانى لم يخاطب لسانها

وقال أيضا فى الكنافة وكم كان ظريفا:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر
وجاد عليها سكرا دائم الذرّ





وتبا لأوقات المخلل إنها
تمر بلا نفع وتحسب من عمرى
اهيم غراما كلما ذكر الحمى
وليس الحمى إلا القطارة بالسعر
وإشتاق إن هبت رياح قطائفٍ
السحور سجدا وهى عاطرة النشر
ولى زوجة إن تشتهى قاهرية
أقول لها ما القاهرية فى مصر[17]

ويذكر السيوطى للشاعر جمال الدين بن نباته هذه الأبيات التى ضمنها أشطرا من شعر الآخرين كما فى الشطر الأخير فى البيت الثالث:

ذكرتك والأسماء تذكر بالكُنَى
فلله يا أسما الكنافة والذكر
ولم أنس ليلات الكنافة قطرها
هو الحلو إلا أنه السحب الغر
تجود على ضعفى فاهتز فرحة
«كما انتفض العصفور بلله القطر»

ويقال إن أسما ابنته، وكان يحن لها مع الكنافة، فلقد كانت أسما مقيمة بدمشق وهو بالقاهرة وننتقل إلى شعراء القطائف.

فقال زين القضاه السكندرى:

لله درقطائف محشوة
من فستق دعت النواظر واليدا
شبهتها لما بدت فى صحنها
بحقاق عاج قد حشين زبرجدا

وقال بعضهم:

وقطائف مصفوفة فى الجام
كعصابة سجدت وراء إمام
فرش الطبرزد فوقها فكانها
أزرُ تُمدُ على ظهور نيام

وقال جمال الدين ابن نباته:

وقطائفٍ رقت جسوما مثلما
غلظت قلوبا وهى لى أحبابُ
تحلو فما تقلى فأشهد قطرها
الفياض أن يدنى على سحاب

وقال سعد الدين بن محمد بن الشيخ الصوفى محيى الدين بن عربى مفضلاً الكنافة:

غدت الكنافة بالقطائف تسخر
وتقول إنى بالفضيلة أجدر
طويت محاسنها لنشر محاسنى
كم بين ما يطوى وآخر ينشر
لحلاوتى تبدو وتلك خفية
وكذا لحلاوة فى البوادى أشهر

حقا.. إننا نجد فى هذه الأشعار أخطاء نحوية كما فى بيتى ابن نباته فروى بأوه مضمومة والذى يليه بأوه مكسورة وكذلك نجد ركاكة.. - وذلك شيئا لا ننكره - ولكننا نلمس ظرفا وخفة روح.. ألا تضحك مع ذلك الشاعر أبو الحسين الجزار الذى يقول وتبا لأوقات المخلل وألا ترق وتحن مع ابن نباته الذى ذكر ابنته النائية بدمشق حين رأى الكنافة.

ألا نستخلص من تلك الأبيات أنفسا ظريفة وروحا مصرية لطيفة، وكأن الله بعث بالكنافة والقطائف، ليصدق فيهما الشعراء التعبير عن أنفسهم وعن الظرف المصرى رغم ما قيل إنها أغراض تافهة عيبت عليهم وعلى عصرهم! إلا أنهم صدقوا فى التعبير عن لهفتهم إلى الكنافة والقطائف وأليست تلك الصورة صورة القطائف وهى مصفوفة طرفها الرقيق للأمام وطرفها المحشو الكبير للخلف كأنها مصلون وراء إمام.

ونجد فى الرسالة لغزا لزين الدين أبو كثير فى القطائف وهو لغز نثرى جاء فيه «ما اسم يعتنى الصائمون غالبا بتحصيله وتتنافس الأكابر فى جملته وتفصيله، خماسى الحروف فى الترصيف والترتيب مسطح الشكالة فى البساطة كرسى عند التركيب إذا حذف خمساه رأيته طائرا...

قال الصلاح الصفدى فكتبت الجواب وجهزت له منه صحنا.

أمولاى زين الدين منك مهتدى
نداه وإن كان الصلاح غدا يُهْدِى
بعثت بلغز قد حلا منك لفظه
فأجمل ذكر القطر فضلا عن الشهدى
فسامح فقد أوضحته لك صورة
على أنه لابد من شرح ماعندى

وقال السيوطى نفسه فى لغز له نثرا وشعرا:

يشابه بيت العنكبوت، وله فى النحل رغبوت، يدب دبيب النمل فى الرمل، يسيل من عين القطر ويجرى من عيون كأنها عيون الخنساء تجرى على صخر، يجرى ثم يجمد ويكوى بالنار ويكمد... ويخالل القطر وله إلمام بكتاب القطر لابن هشام فهو لا يزال ينشد من قول من قال:

اسقنى شربة ألذ عليها
واسق بالله مثلها ابن هشام
عسلا باردا بماء سحاب
إننى لا أحب شرب المدام[18]

تبا لتلك الألغاز التى ابتلى بها شعراء العصر المملوكى والتركى والتى كان الهدف منها إظهار البراعة فى صناعة الكلام لا إظهار ما يعتمل فى النفس والتعبير عنها بصدق وقد أوردنا هذه الألغاز لأننا نتحدث عن رسالة منهل اللطائف وما حوته[19].

وقال الصلاح الصفدى فى قطائف كثيرة قليلة الحلاوة:

قطائف كثيرة لم تحو
قطرا وما اتت بطعم حلو
كأنها قول ابن معطى النحوى
عدتها ألف خلت من حشو[20]

ولا شك أن أمير هذه الرسالة ظرفا وخفة روح هو الشاعر أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار المصرى الذى أرى أن من الواجب أن نلقى الضوء على حياته، ونستعين بذلك بمقال نشره الدكتور محمد رجب البيومى فى مقال نشره له الهلال فى عام تسعة وخمسين وتسعمائة وألف وكان وقتها مدرسا بالمدرسة الثانوية بالمنصورة ولم يكن قد حصل على درجة دكتور بعد[21].

فيقول الدكتور البيومى عن الجزار «وصلة الجزار برمضان صلة طريفة كشخصه الطريف، فقد كان ينتظر هذا الشهر المبارك لا ليفرغ لصومه ولا لصلاته كما يفعل الزهدة المتورعون، بل ليلتهم حلواه الجميلة ويتغزل فى كنافته وقطائفه وليستهدى المياسير من الناس نماذج لذيذة من مشتهياته ومغرياته، وشاعر يحتفل بمأكولات رمضان هذا الاحتفال جدير أن نتذكره فى شهر الصيام ليكون طرفة من طرائفه العذاب ويمضى الدكتور بيومى متحدثا عن شاعره: فقد نشأ فى أواخر العصر الأيوبى فمدح الملوك والوجهاء ونال الهبات الوافرة وذاع صيته فروى العامة شعره وقربه الخاصة فمازحهم وفاكههم وآكلهم وشاربهم وكانت الكنافة أحب طعام إليه يتلهف لها فى غيبتها تلهف العاشق ويبث شعره شجونه فى غيبتها وقد سبق أن أوردنا المقطوعة التى أولها «ومالى أرى وجه الكنافة مغضبا.. لقد طار ذكر الشاعر وتناشد الجميع أشعاره، وسر به أبوه سرورا عظيما، وكان والده هو الذى شجعه على قول الشعر وتعجب إذ تعجب لذلك الوالد الأمى الذى شجع ابنه على قول الشعر الفصيح بل ونرى ذلك الوالد يأخذ ابنه إلى شاعر مشهور عرف بأبى الإصبع ورأى الشاعر الكبير الشاعر الجزار

ينتقل بين البحور المختلفة فى المقطوعة أو القصيدة الواحدة فقال له إنك عوام ماهر.. فلو قال له لا تحافظ على وزن لضايقه وضايق أباه ولحرم نفسه من هديه اللحم التى جاء بها أبوه وعندما ذهبت دولة الأيوبيين وجاءت دولة المماليك الذين لا يقدرون الشعر صار الشاعر يستهدى أحد الموسرين الكرام الكنافة وقد كان هذا الموسر كريما، لا يبخل على الشاعر بحبيبته الكنافة وقد قال الجزار لصديقه الموسر شرف الدين عندما نهاه عن امتهان الجزارة

لا تلمنى يا سيدى شرف الدين إذا
ما رأيتنى قصابا
كيف لا أشكر الجزارة ماعشت حافظا
وأرفض الآدابا
وبها أضحت الكلاب ترجينى وبالشعر
كنت أرجو الكلابا

ويبدو أن مهنة الجزارة لم تكن تدر عليه فى هذه الأيام دخلا يجعله يروى نهمه للذائذ فنراه يشكو من قله ما تدر مهنة الجزارة - فى أيامه - من دخل يجعله يعيش فى حال من الفقر ولا يذوق اللحم:

أصبحت لحاما وفى البيت لا
أعرف ما رائحة اللحم
جهلته فقرا فكنت الذى
أضله الله على علم



ولنر تعبيره أضله الله على علم فرغم ما عنده من علم إلا أن علمه لا ينفعه ولا يهتدى به وكذلك حاله فرغم أنه جزار وعنده اللحم إلا أن لحمه لا ينفعه ويعيش فى شوق إليه ويبدو أنه كان يعيش فى شوق لكل اللذائذ ولكنه لا ينكر للجزارة أفضالها فيقول:

الا قل للذى يسأل
عن قومى وعن أهلى
لقد تسأل عن قوم
كرام الفرع والأصل
ترجيهم بنو كلب
وتخشاهم بنو عجل

وقد قال الجزار مداعبا أباه عندما تزوج أبوه فى شيخوخته من امرأة مسنة:

تزوج الشيخ أبى شيخة
ليس لها عقل ولا ذهن
لو برزت صورتها فى الدجى
ما جسرت تبصرها الجن
كأنها فى فرشها رمه
وشعرها من حولها قطن
وقائل قال فما سنها
فقلت ما فى فمها سن

ويصل حب التهريج بالجزار إلى أن يسخر من ملابسه ومن داره فمن ذلك قوله يتهكم على دار سكنها:

ودار خراب بها قد نزلت
ولكن نزلت إلى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون
بها أو أكون على القارعه
تساورها هفوات النسيم
فتصغى بلا أذن سامعه
وأخشى بها أن أقيم الصلاة
فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت (إذا زلزلت)
خشيت بأن تقرأ الواقعة

ونترحم مع الدكتور محمد رجب البيومى على الجزار الشاعر الظريف الساخر الذى احتل بظرفه مكانة فى الحياة الاجتماعية فى عصره وجعل المقريزى فى السلوك وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة يتحدثون عنه مع من تحدثوا عنهم من أعلام عصرهم ولعل الجزار بشعره وظرفه قد استحال إلى شخصية رمضانية ظريفة فرحمه الله. ■

الهوامش

١) السيرة الذاتية للإمام الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتاب التحدث بنعمة الله د.عوض الغبارى صـ١ سلسلة الذخائر والتحدث بنعمة الله لجلال الدين السيوطى تحقيق اليزابيث مارى سارتين صـ٣٢ سلسلة الذخائر.
٢) أصول النحو عند السيوطى عصام عيد أبو غريبه صـ٢٣ .
٣) السيرة الذاتية للإمام الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتاب التحدث بنعمة الله صـ٦ .
٤) التحدث بنعمة الله صـ١٢٦ وكلمة الغير التى فيها غير معرفة لا ترضى بعض النحاة لأن غير لا تعرف ولكن الدكتور محمود الطناحى فى كتاب مستقبل الثقافة العربية ذكر أنه وجدها معرفة عند أبى هلال العسكرى فى المعانى وكتاب الهوامل والشوامل لأبى حيان التوحيدى وابن مسكويه (كتاب الهلال صـ١٦٥ .
٥) الفكاهة فى مصر د.شوقى ضيف صـ٤٨ سلسلة إقرأ.
٦) التحدث بنعمة الله صـ٧٠ .
٧) التحدث بنعمة الله صـ٢٢٧ .
٨) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس الحموى جـ٢٤، صـ٩٥ .
٩) السيرة الذاتية للإمام الحافظ جلال الدين السيوطى فى التحدث بنعمة الله صـ ٥١ وقد ألف السيوطى فى الرد على السخاوى - الذى كان مولعا بتجريح كل من تحدث عنهم من الأعلام - مقامتين هما ساحب سيف على صاحب حيف، الفارق بين المصنف والسارق.
١٠) راجع أسماء المصنفات التى ذكرها السيوطى فى التحدث بنعمة الله من صـ١٠٥ حتى صـ ١٣٦ .
١١) منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف مقدمة المحقق محمود محمد نصارصـ١٠ .
١٢) منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف مقدمة المصنف صـ١٣ .
١٣) منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف مقدمة المصنف صـ١٤ .
١٤) لسان العرب لابن منظور مادة كنف صـ٣٩٤٠،صـ٣٩٤١،صـ٣٩٤٢ . لسان العرب لابن منظور مادة قطيف صـ٣٦٨٠،صـ٣٦٨١ .
١٥) لسان العرب لابن منظور مادة قطيف عندما ذكر السيوطى معنى القطائف والكنافة ركز على معجمين هما الصحاح للجوهرى والقاموس المحيط الأول للفيروزبادى ولكننا نورد هنا ما جاء فى لسان العرب.
١٦) حصاد الهشيم للمازنى صـ١٣٠ والطبرذدالسكر.
١٧) قاهرية اسم نوع من الحلوى.
١٨) ابن هشام عالم نحوى مصرى ألف كتاب قطر الندى وبل الصدى.
١٩) منهل اللطائف من صـ٤٠ إلى صـ٤٩ .
٢٠) ابن معطى عالم نحوى أصله من المغرب وضع ألفية فى النحو تحوى كل قواعد النحو قبل أن يؤلف ابن مالك ألفيته وقد أشار إليه ابن مالك فى ألفيته حين قال:
وتقتضى رضا بغير سخَط
وهو بسبق حائزٌ تفضيلا
فائقة ألفية ابن معط
مستوجبٌ ثنائى الجميلا
٢١) مجلة الهلال مقال «أبو الحسين يحيى الجزار» بقلم محمد رجب البيومى.



كتاب الزاوية

رسالة ابن فضلان

طقوس الموت

قال أحمد بن فضلان: وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم، وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئًا من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه، بل لا يتعاهدونه فى كل أيام مرضه لا سيما إن كان ضعيفًا أو مملوكًا، فإن برئ وقام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، فإن كان مملوكًا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير.

وإذا أصابوا سارقًا أو لصًا جاءوا به إلى شجرة غليظة وشدوا فى عنقه حبلاً وثيقًا وعلقوه فيها، ويبقى معلقًا حتى يتقطع من المُكث بالرياح والأمطار.

وكان يقال لى إنهم يفعلون برؤسائهم عند الموت أمورًا أقلها الحرق. فكنت أحب أن أقف على ذلك، حتى بلغنى موت رجل منهم جليل، فجعلوه فى قبره، وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها.

وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة، ويجعلونه فيها ويحرقونها. والغنى يجمعون ماله، ويجعلونه ثلاثة أثلاث. فثلث لأهله، وثلث يقطعون له به ثيابًا، وثلث ينبذون به نبيذًا يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها، وتحرق مع مولاها.

وهم مستهترون بالنبيذ يشربونه ليلاً ونهارًا، وربما مات الواحد منهم والقدح فى يده. وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه: «من منكم يموت معه؟» فيقول بعضهم: «أنا» فإذا قال ذلك فقد وجب عليه، لا يستوى له أن ترجع أبدًا، ولو أراد ذلك ما تُرك. وأكثر من يفعل هذا الجوارى.


OW life style
rugs & carpets
A Division of Oriental Weavers
عضو مجموعه النساجون الشرقيون
City stars 2 shop number 15&20
Email.: owlifestylecs@orientalweavers.com Tel : 02 - 24 802475 Fax : 02 - 24 802467

صورة لصندوق العجب.
المصور غير معروف





الصور "ألبوم التأريخ"

الحياة اليومية كمصدر للدراسة التاريخية

عصام نصار

الصور الفوتوغرافية تضيف جانبًا مهمًا على النص ذاته كونها تشكل التاريخ العام، وبهذا يكون واصف من أوائل المؤرخين الذين استندوا إلى الصورة أكثر من الوثيقة لسرد التاريخ الفلسطيني

جرت العادة لدى المؤرخين التقليديين على اعتبار مذكرات القادة (السياسيين أو الأمريكيين أو الملوك والرؤساء) أو الشخصيات المرموقة بأنها مصادر أولية فى دراسة التاريخ كونها تشكل سيراً ذاتية. فالسيرة بكونها نمطا معاصرا للكتابة تضع شخصية المؤلف فى مركز الحدث كلاعب رئيسى، وتعطينا كقراء صورة من الداخل عن الأحداث وصناعتها من قبل صاحب السيرة الذاتية. وإذا كانت السيرة أو السيرة الذاتية نمطا من الكتابة مقصورا على أصحاب النفوذ والسلطة، فإنها بذلك لم تشكل نمط كتابة يستخدمه أفراد من عامة الشعب. الفئة الأخيرة هذه كتبت ما يعتبره المؤرخون مذكرات ذاتية أو شخصية لا نفع لها إلا فى إطار التواريخ العائلية أو المهنية التى تتعلق بمهنة كاتب المذكرات. مثال أن تؤخذ بعين الاعتبار مذكرات موسيقار فى كتابة تاريخ الموسيقى، وإذا كان طبيبًا تؤخذ مذكراته فى الحسبان فقط فى كتابة تاريخ مهنة الطب. لا يعنى هذا أن المذكرات هى نمط كتابى خاص بالعامة مقابل السيرة التى ترتبط بالخاصة. لا بل إن المذكرات شكلت، على الأقل منذ القرن التاسع عشر، نمط كتابة يمارسها الجميع بغض النظر عن مواقعهم السياسية والاجتماعية. أما الفرق الرئيسى ما بين نمطى الكتابة فيكمن فى كون المذكرات، بعكس السير، تعتبر تأريخا ذاتيا يكتب ليس بالضرورة بغرض النشر أو على الأقل ليس للنشر فى زمن حياة مؤلفه. فالمذكرات تعكس رؤى شخصية وتتعامل مع أسرار هى غالبًا ليست للنشر وتكتب بغرض المتعة الذاتية بدون أخذ القارئ بعين الاعتبار بالضرورة. وبرغم أن المذكرات الشخصية غالبًا ما تشكل نوعا من محاولات تحسين صورة الذات لكنها أساسًا تكتب بشكل انتقائى ولأسباب شخصية وليست عامة. وهى بالتالى تخرج عن كونها دراسة تاريخية أو سجلا

القدس فى المذكرات الجوهرية
من مذكرات الموسيقى واصف جوهرية
(جزءان: العثمانية/ الانتدابية)
تحرير وتقديم سليم تمارى وعصام نصار
القدس ـ مؤسسة الدراسات المقدسية ـ ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٥



صورة خليل جوهرية فى اللباس العسكرى العثمانى إبان خدمته فى العسكرية فى بيروت.
المجموعة الجوهرية ألبوم رقم ٥.
من محفوظات مؤسسة الدراسات الفلسطينية فى بيروت

تاريخيا متكاملا كونها تعكس وجهة نظر كاتبها أساساً. وفى أمور مختلفة ومتغيرة وليست متكررة (مثل التكرار المعهود فى وثائق المحاكم مثلاً)، ذلك بعكس مذكرات القادة أو سيرهم التى يكتبها مؤرخوهم والتى قلما تتشكل من أحداث كتبت عشوائياً لأسباب ذاتية أو مزاجية. مما يزيد العملية تعقيداً أن مذكرات القادة يمكن معاينتها عبر مقارنتها بأحداث ومصادر معروفة مثل وثائق حكومية، تواريخ مكتوبة وما إلى ذلك. أما المذكرات الشخصية فغالباً ما يصعب مقارنة المعلومات الخاصة بها والتى تتعلق بما شاهد الكاتب أو ما شارك به.

مذكرات واصف جوهرية وهى أساساً مذكرات شخصية لمواطن مقدسى عادى لم يتمتع بصلاحيات سياسية كتلك التى يتمتع بها الرؤساء والقادة لتشكل مذكراته سيرة ذاتية لا تعتبر من وجهة نظر المؤرخ التقليدى مصدرا أساسيا لدراسة التاريخ. لكن المذكرات الجوهرية تشكل مثالا مهما يثبت خطأ وجهة النظر التقليدية التى تضع المذكرات الشخصية للحياة اليومية لأبناء الفئات الشعبية بدرجة أقل أهمية من السير الذاتية للنخب.

مذكرات واصف جوهرية تشكل دليلاً على أن المذكرات الشخصية من الممكن أن تكون أدلة ومصادر لدراسة الحياة الاجتماعية فى زمان ومكان كتابتها. ولأن واصف جوهرية كاتب بارع وملاحظ دقيق وكون الأحداث التى يصفها ويدونها تدور فى مدينة القدس فى مرحلة طواها النسيان ولم يكتب حولها الكثير أو أن ما كتب عنها يتعلق فقط بالأحداث السياسية الجسيمة وليس بأحوال عامة الناس إبان المراحل المؤرخ لها تشكل مذكراته وثيقة مهمة دون أدنى شك. ومما يزيد من أهمية الوثيقة الجوهرية هذه كونها تصف الحياة فى المدينة فى مرحلة غالباً ما يكتب تاريخها بطريقة انتقائية يقصد منها إلغاء ومحو ذاكرة المشهد القدسى الاجتماعى لتلك الفترة وتهميش دور أبناء وسكان المدينة الأصليين، أمثال واصف جوهرية، فى صنع تاريخ المدينة. أما أهمية المذكرات من ناحية كونها تشكل دليلاً وثائقياً حول طبيعة الأحداث السياسية المهمة التى كانت تجرى آنذاك، فهى وإن كانت بلا شك كذلك، لكنها ليست محط اهتمامنا الرئيسى إذا ما أخذناها بمعزل عن مشروع واصف جوهرية الشامل وهذا ما سنأتى على ذكره لاحقاً.

تقع قيمة الوثيقة الجوهرية فى كون كاتبها شاهدا على عصره أكثر منه مشاركاً فاعلاً فى أحداثه. وكون المذكرات تدون لأحداث خاصة أحياناً تتعلق بعائلة الكاتب أو بأصدقائه أو معارفه الآخرين لا يقلل من أهميتها شيئاً. فواصف يصف عبر شبكة علاقاته هذه عملية دخول مظاهر الحداثة إلى المدينة مثل وصفه لدخول الكهرباء إلى المدينة ودخول السيارة الأولى إليها، وكذلك الأمر هو يؤرخ لتبعات دخول أدوات وأجهزة حديثة مثل بابور البريموس أو الجرامافون واصفاً لقارئه الطريقة التى غير استعمال هذه الأدوات والابتكارات حياة الناس والمجتمع القدسى فى حينه. زد على ذلك أن واصفاً بصفته موسيقياً مقدسياً يقدم لنا صورة حية عن الأجواء الموسيقية والفنية فى القدس فى زمنه مؤرخاً لمن كان ذا شأن آنذاك فى الحقل الموسيقى. وهو أيضاً يعطينا صورة مختلفة عما نعرفه اليوم لنوعية العلاقات ما بين أبناء الأديان المختلفة والطوائف المختلفة فى المدينة. كما تزودنا المذكرات بصور عدة تصف أفراح المقدسيين وعادات لهوهم عبر وصف أجواء المقاهى والسهرات الليلية وبذات الوقت تصف لنا أتراح الناس والتقاليد المرتبطة بالوفاة، خاصة فى الأجواء التى يصف بها واصف وفاة أبيه أو وفاة رئيس البلدية سليم الحسينى. كذلك الأمر فإن المذكرات تصف لنا أيضاً علاقة أبناء القدس بالمسئولين المحليين والعثمانيين وعلاقة السلطات المحلية ممثلة بالبلدية بالسلطة المركزية. أما على المستوى الأعم والأكبر، فواصف يعطينا وصفاً لأوضاع الجيش العثمانى إبان الحرب العالمية الأولى ولاحقاً الإدارة البريطانية فى فلسطين، راسماً صوراً



أحمد جمال باشا
قومندان الأوروهمايونى الرابع
ناظر الحربية المعروف
بجمال السفاح
المصور: خليل رعد

تفصيلية لتنقلاته مع أبيه ومن ثم وحده بين المدن والقرى المختلفة من خلال علاقته مع عائلته ومع العائلة الحسينية فى القدس. والمذكرات أيضاً تصف لنا العلاقات ما بين عائلة واصف المسيحية المقدسية والتى تتفاعل مع المشهد الإسلامى كجزء منه، وبذلك فهى تصف نوعية العلاقات ما بين أبناء القدس المسلمين والمسيحيين واليهود. واصف جوهرية ينقل لنا صورة بهذا الإطار لم نعهد سماعها منذ فترة طويلة حول الانفتاح الدينى فى المدينة.

وبالتالى فإن مذكرات واصف تشكل بلا شك مصدراً مهماً فى دراسة التاريخ الاجتماعى لمدينة القدس، دون أدنى شك فى مرحلة الانتداب ونهاية الحكم العثمانى.

إن ما يجمع كل هذه المواضيع سويا ويجعلها تشكل وحدة واحدة فى نص مذكرات المؤلف هو تحديداً أنها أحداث ووقائع مقدسية وهنا برأيى تكمن أهمية المذكرات الرئيسية. فهى تشكل أولاً وقبل كل شىء سرداً لحياة القدس ذلك بكونها مذكرات مكان أكثر من كونها مذكرات شخص. وهذا النوع من الكتابة، بحسب ما يشير دى سورتو «تحوى بداخلها جهداً يحول الأمكنة إلى فضاءات كما يحول الفضاء الاجتماعى إلى مكان». فالقصص التى يرويها واصف تخلق القدس وتصبح جزءاً من المدينة كمكان تماماً كما تصبح القدس جزءاً من الفضاء الذى يشكل الرواية، فتصبح المواقع مرتبطة بأشخاص وأحداث تماماً كما تصبح الأحداث جزءا من معرفة المدينة ذاتها. لكن الجزء المهم من مشروعه يبقى بدون شك الألبومات السبعة المصورة التى تركها لنا مع مخطوطة مذكراته مرفقاً معها مخطوطات توضيحية حول الصور واحدة بواحدة. هذه الألبومات تدلنا على أن مشروع واصف جوهرية هو أكبر بكثير من مجرد مشروع مذكرات توثيق لأحداث عائلية أو محلية معينة. فالصور المكونة للمجموعة ليست صورا شخصية بقدر ما هى صور سياسية عامة واجتماعية توثيقية ترينا حياة فلسطين ومجتمعها إبان مراحل الأحداث السياسية الكبيرة التى عصفت بها منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى النكبة. الصور الشخصية فى الألبومات سواء كانت للأصدقاء أو الأقارب أو حتى لواصف نفسه قليلة الوجود فى الألبومات.

الإشكالية التى علينا التعاطى معها هنا ترتبط بالسؤال التالى: لماذا اختار واصف ألا تكون هذه الصور الخاصة ضمن إطار المجموعة الفوتوغرافية المصاحبة للمذكرات بالرغم من أنها أحياناً تصور أحداثاً وأشخاصاً ذكرت بالتفصيل فى المذكرات؟ لماذا اختار واصف أن يكون الجزء المصور من مذكراته خالياً تقريباً من التفاصيل الخاصة بالرغم من أن المذكرات ذاتها مليئة بمثل هذه التفاصيل؟

هل من الممكن أن يكون واصف قد نظر للألبومات المصورة على أنها الجزء من المجموعة الجوهرية المرتبط بالتاريخ الرسمى الذى غالباً ما أبقاه واصف خارج إطار المذكرات؟ بالطبع من الصعب أن نجيب عن هذا السؤال بطريقة قاطعة. لكننا نعتقد جازمين استناداً للألبومات ذاتها بأن واصف على ما يبدو فكر بأن الصور فى الألبومات تشكل الخلفية الضرورية التى عبرها يمكن فهم الأحداث الخاصة والعامة التى يذكرها فى مذكراته. فمثلاً فى أحد ألبوماته المصورة نجد أن واصف قد وضع صوراً لكل رؤساء بلدية القدس منذ تأسيسها، ربما فى ذلك صور أولئك الذين لم يعرفهم بالرغم من أن هذه المادة لا تشكل جزءاً من المذكرات. ما يذكر فى المذكرات حول رؤساء البلدية تعلق فقط بفترة رئاسة صديق والده حسين الحسينى أو بالفترة التى عمل فيها واصف فى البلدية فى بداية مرحلة الانتداب. وإن كانت البلدية ورؤساؤها قد شكلت جزءا من اهتمام واصف كما يتضح من المذكرات، فماذا عن وضعه لصور كافة متصرفى القدس العثمانيين منذ تأسيس المتصرفية وحتى نهاية الحكم العثمانى عام ١٩١٧م.

فى أجزاء أخرى نجد أن المؤلف يضع صوراً لجمال باشا القائد العسكرى التركى وغيره من

القادة العسكريين العثمانيين إبان الحرب. أو صوراً للبحرية العثمانية فى البحر الميت، حيث قد خدم واصف إبان الحرب. فى هذا الإطار فقط نجد صوراً عائلية فى المجموعة. حيث نرى صور أخيه خليل فى الزى العسكرى العثمانى. لكننا لا نرى الأخ فى أى أجواء عائلية. فالصور هنا بمثابة دليل على مشاركة آل الجوهرية بصنع تاريخ المرحلة. وبهذا الإطار. فإضافة صورة عائلية اعتبر مبرراً على ما يبدو كونه يشكل استثناء موضوعاً ضمن إطار تاريخى مناسب.

مما يؤكد اعتقادنا هذا كون واصف يفتتح الكتاب الأول (فهرست الألبوم ١) بالجملة التالية:

«أزين هذا الألبوم الذى يحتوى على مجموعة تاريخية قيمة من شخصيات وأحداث مدينة القدس إبان الحكم العثمانى بصورتين على صفحة الغلاف الأولى: رمز الدولة العثمانية (...) صاحب الجلالة السلطان عبدالعزيز أحد ملوك الدولة العثمانية وقد خلفه بهذا المنصب العالى أخوه السلطان عبدالحميد.. وصورة لنجل عطوفاء (كذا) رؤوف باشا متصرف القدس.

التقديم هذا بالإضافة لطرافته الناجمة عن كونه قد كتب بالغالب بعد حوالى خمسين عاما على نهاية الدولة العثمانية يعطى القارئ الانطباع بأن واصف يكتب وبذهنه تأريخ لمرحلة حية كما لو كان قد طلب منه ذلك من قبل السلطان ذاته أو من قبل متصرف القدس. وإن كانت طرافة البداية هذه تتماشى تماماً مع أسلوب واصف فى كتابة المذكرات ذاتها، فإن عناوين فهارس الصور التى تركها مع الألبومات تشير إلى طبيعتها بشكل واضح. الألبوم الأول أسماه (القدس فى العهد العثمانى لغاية ٨ كانون الأول ١٩١٧) وبقية الألبومات اعتبرها أجزاء لما أسماه (تاريخ فلسطين المصور فى العهد البريطانى منذ ٩ كانون الأول ١٩١٧).

أما محتويات الألبومات من الصور الفوتوغرافية فهى تشمل نوعاً من البانوراما البشرية التى تصف حال القدس وسكانها فى زمن حياة المؤلف. فنحن نرى صوراً لرؤساء الطوائف الدينية وصورا أخرى لمتقلدى المناصب (مثل القواس أو حراس كنيسة القيامة أو أفراد من الدرك). وصوراً لزيارات قام بها رسميون أوروبيون أو مسلمون إلى القدس. كل هذا موثق فى الألبومات ومصنف زمنياً. فواصف قد افترض على ما يبدو أن مشاهد الصور سيرى الألبومات كاملة وبالترتيب الذى



اختاره واصف ليستحضر أو يشكل صورة عن تاريخ القدس عموماً وتاريخ فلسطين تحديداً. وكأن واصف أراد بذلك أن تكون الصور الفوتوغرافية المرجع التاريخى العام والذى بدونه لا يمكن فهم التفاصيل اليومية الواردة فى المذكرات.

وبالتالى فإن الصور الفوتوغرافية تضيف جانباً مهماً على النص ذاته كونها تشكل التاريخ العام، وبهذا يكون واصف من أوائل المؤرخين الذين استندوا إلى الصورة أكثر من الوثيقة لسرد التاريخ الفلسطينى. إن وصفنا الصور بهذا الإطار يتحتم علينا البدء بالصور إذن قبل الخوض فى النص. وهذا أمر إذا ما فعلناه فسنجد أن النص أيضاً سيأخذ أبعادا جديدة مرتبطة بالصور. حيث سيصبح النص مرآة لما فى الصور ويتحول بذلك إلى نص عام تاريخى وليس إلى نص خاص عائلى، بمعنى أن النص سيصبح نصا شاهدا على عصر ومراقبا للأحداث أكثر بكثير من كونه نصا شخصيا حول مشاركة مؤلفه بالأحداث. فحديث واصف عن قصصه ومغامراته الشخصية فى المذكرات قد وضع دوماً فى إطار أكبر بكثير من إطار عالمه الخاص ويقدم لنا صورة عامة عن حياة والده ومن خلاله حياة بعض من أعيان القدس (الحسينى) وبهذا المعنى فإن البعد الشخصى والعائلى يخدمه ككاتب للانتقال إلى الفضاء الاجتماعى العام. وهو بذلك لم يكتب مذكرات شخصية بل كتب شهادات حية عن حياة مجتمعه وسياسته مستخدماً علاقاته الشخصية كمحطات ليس إلا. وهذا الانطباع تثبته الصور الفوتوغرافية وترتيبها فى الألبومات. فواصف الذى لم يكن مصوراً ولم يأخذ الصور الفوتوغرافية شخصياً، بل قد جمعها من مصادر عدة وبعناية فائقة موثقاً إياها، كما لو كان يوثق لمشروع كبير جداً مثل تاريخ القدس فى تلك الفترة.

تجدر الإشارة هنا إلى الجهد الهائل الذى بذله واصف جوهرية فى تزويدنا بأسماء كل الأشخاص المصورين. فهذا الجهد إذا ما وضع فى الإطار التاريخى الخاص به يزيد من اطلاعنا على طبيعة







سليم حسين الحسينى آخر رئيس لبلدية القدس فى نهاية العهد العثمانى ١٩١٤
تصوير: الأمريكانى كولونى

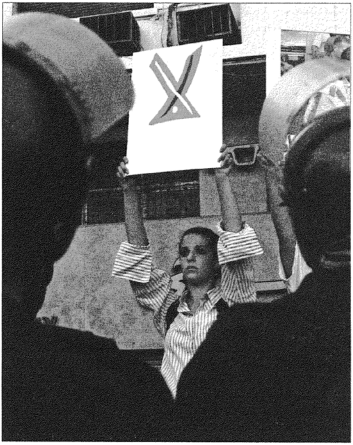


موسى كاظم الحسينى
أول رئيس لبلدية القدس فى العهد البريطانى.
المصور غير معروف.
المجموعة الجوهرية

المرحلة التاريخية ويعطيها وجهها الإنسانى. كذلك الأمر فإنه يقف فى مواجهة التيار الشائع فى كتابة تاريخ فلسطين والقائم على تجاهل الوجود الفلسطينى، على الأقل بالمعنى الاجتماعى والإنسانى وبذات الوقت التركيز على حضور «الآخر». على سبيل المثال الصورة الشهيرة لاستلام مدينة القدس للجيش البريطانى والتى نجدها فى عدد كبير من الكتب التاريخية حول فلسطين ظهرت فى ألبوم الجوهرية مذيلة بأسماء كل المشاركين العرب فيها (وهم الأغلبية) فى الوقت الذى تظهر به هذه الصورة فى الكتب الأخرى (مثل كتاب بارثا فستر Our Jerusalem) مع وضع أسماء المشاركين الإنجليز (وهم اثنان فقط) وأحيانًا اسم رئيس بلدية القدس أيضًا.

بالطبع فإن هنالك نواقص لا بد أن تبرز فى إطار مشروع كبير كهذا، فيا حبذا لو أن واصف قد ترك لنا معلومات أكثر حول الصور مثل من صورها وتاريخ تصويرها وكيف حصل هو شخصيًا عليها.. إلخ. فربما كنا قد وضعنا أيضًا إلى جانب كل ما تعطينا إياه المذكرات تاريخًا آخر يتعلق بتاريخ التصوير الفوتوغرافى فى القدس. لكن واصف لم يعر أى أهمية لذلك كون ما شغل باله المشروع الأهم الذى يستند إلى استعمال الصورة كوثيقة تاريخية تتعلق بتاريخ المدينة آنذاك. وهو محق بذلك فالصور التى جمعها تقف بذاتها كتاريخ تقريبًا متكامل للمدينة آنذاك. والمذكرات فى الجانب الآخر أيضًا تقف بذاتها كمصدر مهم لدراسة الحياة الاجتماعية فى القدس. والصور والمذكرات معًا يعطونا صوة أكبر ومهمة جدًا حول الحياة الاجتماعية والسياسية، العامة والخاصة، الكبيرة والصغيرة، التى سادت فى فلسطين آنذاك. وهو بذلك يقدم لنا عملاً يستحق التقدير العظيم ويشكل مساهمة قد تكون أهم كثيرًا مما قدمه الساسة فى مذكراتهم عن تلك المرحلة أمثال عبدالله قائد الجيش العربى خلال معركة القدس أو أنور نسيبة الذى ترك مذكرات تتعلق أيضًا بذات المعركة وغيرهم ممن كتبوا حول مراحل أخرى أو حول تجارب محددة. لكن الذين كتبوا كواصف نص عن الحياة اليومية للناس العاديين وعلاقتهم بالأحداث التى عايشوها هم قلة عمومًا. واصف جوهرية يعطينا الكثير من الانطباعات الشخصية عن الأحداث وخاصة عبر ترتيب الصور واختيار ما يتم تمثيله عبرها. لكنه قد اختار أن يجعل قارئه يستتع وينتقل معنويًا وبالخيال إلى القدس كما عرفها واصف آنذاك وذلك من خلال وصفه الدقيق للمواقع المختلفة وللأشخاص المشار إليهم وسرده البارع لتفاصيل الحدث. ■

ـ فى العدد القادم:
سليم تمارى: «يوميات مقدسية»



من مظاهرات صيف ٢٠٠٥
©Aladin Abdel Naby- Reuters

كفاية!

إعادة تعريف السياسة فى مصر

منار الشوربجى

هى حركة عابرة للأيديولوجيا ومن ثم تمثل النواة الأولى لما يمكن أن يخلق على المدى الأطول نسبيا وفاقا وطنيا ومن ثم تيارا أساسيا mainstream جديدا

حين تم الإعلان عن الحركة المصرية من أجل التغيير- كفاية فى ٢٠٠٤، اهتم بها الكثيرون فى مصر وخارجها وإن لم يدركوا بالضرورة مغزاها الحقيقى. فقد قفز البعض إلى تحليلات جانبها الصواب بينما أساء آخرون فهم دلالاتها. ولعل سوء الفهم قد نبع من أن تلك التحليلات قد قرأت الحركة إما من منظور بالغ الضيق ركز على تفصيلات بعينها فأغفل الصورة الكلية، أو من منظور بالغ الاتساع اعتمد على أدبيات الحركات الاجتماعية فى الغرب. وقد أخفقت كل تلك التحليلات فى وضع يدها على جوهر الإسهام الذى قدمته حركة كفاية للحياة السياسية المصرية.

وقد سعى هذا البحث إلى دراسة حركة كفاية من واقع سياقها السياسى والتاريخى. وهو فى ذلك يقدم أطروحة رئيسية مؤداها أن المغزى الحقيقى للحركة يتمثل من ناحية فيما حملته بين جنباتها من نواة يمكن - إذا ما تم العناية بها والبناء عليها- أن تنتج قوة سياسية عريضة ذات طابع جديد يناسب بالضبط ما تحتاجه مصر فى اللحظة الراهنة. فهى فى أن حركة عابرة للأيديولوجيا ومن ثم تمثل النواة الأولى لما يمكن أن يخلق على المدى الأطول نسبيا وفاقا وطنيا ومن ثم تيارا أساسيا mainstream جديدا. ومن ناحية أخرى، مثلت الحركة نوعا جديدا ومبدعا من العمل السياسى فى مصر.

كان النظام السياسى المصرى قد وصل فى مطلع الألفية الثالثة إلى أفق مسدود. فأحزاب المعارضة الشرعية قد صارت حبيسة مقراتها، عاجزة عن التواصل مع الجمهور ومحاصرة بترسانة هائلة من القوانين المقيدة لعملها. وقد عانت تلك الأحزاب لسنوات من تراجع متزايد فى عضويتها، فضلا عن صراعاتها الداخلية الضروس. أما جماعة «الإخوان المسلمون» فرغم أنها تظل محجوبة عن الشرعية إلا أن استراتيجيتها وتكتيكاتها السياسية خصوصا فى التعامل مع القوى السياسية الأخرى قد خلق درجة عالية من الشك إزاءها لدى الكثيرين فى أوساط النخبة. وفى الوقت ذاته، يظل الاستقطاب الإسلامى/العلمانى عائقا مهما فى سبيل الوصول إلى وفاق وطنى حول القضايا الجوهرية. الأمر الذى لا يستفيد منه فى الواقع سوى الحزب الحاكم بينما لا يضيف إلى رصيد الإخوان- القوة الأكبر على الأرض فى مصر.

ووسط ارتفاع درجة السخط السياسى من ناحية، وانعدام الثقة المتبادل بين القوى والتيارات الأيديولوجية المختلفة من ناحية أخرى، صارت مصر فى حاجة اليوم، أكثر من أى وقت مضى، إلى نوع جديد من السياسة ينسج مشروعا وطنيا جامعا من عناصر ومقومات المشروعات الوطنية للقوى السياسية المختلفة. فمشكلات مصر قد بلغت درجة من التعقيد لم يعد من الممكن معها أن يتولى علاجها تيار سياسى بمفرده.

وفى هذا السياق من الفوضى والاكتئاب الوطنى، برز جيل جديد من السياسيين يمنح مصر الأمل فى إعادة تعريف السياسة. وقد وجد هؤلاء فى كفاية ساحة وأداة فى آن معا، ومن خلالها ابتكروا ذلك النوع الجديد من السياسة. وهى من ثم تجربة لا يمكن فهمها إلا فى إطار السياق السياسى والتاريخى الفريد الذى شكل خبرات مؤسسيها وتطلعاتهم ورؤيتهم للمستقبل.

فعلى مدى أكثر من عقد كامل، تواصلت تلك المجموعة من الناشطين والمثقفين عبر الخطوط الأيديولوجية بحثا عن أرضية مشتركة فيما بينهم. ورغم أن مثل هذا التفاعل العابر للخطوط الأيديولوجية ليس فريداً فى التجارب والخبرات الديمقراطية لأمم أخرى إلا أن كفاية تمثل المرة الأولى التى ينجح فيها مثل هذا الجهد فى مصر المعاصرة.

بعبارة أخرى، فإن ما قيل فى معرض انتقاد كفاية أو التهكم عليها من أنها مثلت نوعا من «السمك لبن تمر هندى» هو بالضبط الإسهام الأهم على الإطلاق الذى قدمته كفاية للحياة السياسية فى مصر.

وينبغى فى البداية الإشارة إلى أن أى تقييم لكفاية، ينبغى أن ينصرف التحليل فيه إلى مستويين. الأول يتعامل مع كفاية كحركة احتجاج، بينما يتناولها الثانى كأحد تجليات ظاهرة أخرى مهمة، هى ذلك التفاعل العابر للخطوط الأيديولوجية. وتزعم هذه

نشرت النسخة الأصلية المطولة لهذه الدراسة فى دورية Arab Studies Quarterly فى عدد شتاء ٢٠٠٧

ما قيل في معرض انتقاد كفاية أو التهكم عليها من أنها جمعت الشامي علي المغربي هو بالضبط الإسهام الأهم علي الإطلاق الذي قدمته للحياة السياسية في مصر

الدراسة أنه لا يمكن الوقوف على الإسهام الحقيقى لكفاية دون العناية بذلك المستوى الثانى من التحليل.

أولا: العدسة الغلط تؤدى بالضرورة لانعدام الرؤية!

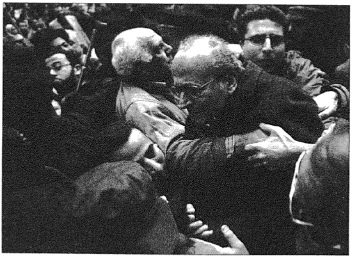
منذ اليوم الأول، وجهت لكفاية انتقادات واسعة من السياسيين والمثقفين على حد سواء. وقد تناولت تلك الانتقادات الحركة من زوايا كثيرة شملت طبيعة تركيبها وأدائها ومنهجها. بينما قلل آخرون من شأنها باعتبارها «أداة لقوى أجنبية» أو «شوية عيال». لكن الانتقاد الأكثر رصانة كان ذلك الذى اعتبر كفاية بالأساس حركة احتجاج «نخبوية. استهدفت الرئيس مبارك شخصياً دون أن تقدم مرشحا بديلا أو تبلور رؤية بناءة للتحول السياسى[1].

وقد اكتسب ذلك الانتقاد زخماً أكثر عقب الانتخابات الرئاسية فى (٢٠٠٥). فلما كان شعار كفاية الأساسى هو لا للتمديد لا للتوريث «فإن الحركة - وفق هؤلاء- تكون قد فقدت مبرر وجودها بنهاية الانتخابات». وباستثناء رفض نتائج الانتخابات، الذى عبر عنه شعار «باطل» «لم تقدم الحركة جديدا»[2]. وحين لعبت كفاية دوراً قيادياً فى تأسيس الجبهة الوطنية للتغيير عشية الانتخابات البرلمانية لاحقا، اعتبرت كفاية وكأنها بتسلم الشعلة لأحزاب المعارضة نفسها التى قالت كفاية عند تأسيسها أنها نشأت تحديدا كرد فعل لجمودها»، فقد استدرجت كفاية للجلوس مع قيادات «المعارضة المستأنسة»، بدلاً من أن تبلور مطالب بعينها للتغيير السياسى[3].

ورغم أن الانتقادات السابق ذكرها رأت كفاية من منظور سلبى إلا أن التقديرات الأكثر إيجابية لحركة كفاية لم تلتقط هى الأخرى المغزى الحقيقى لها. فعلى سبيل المثال، رأى اليسار الأمريكى فى كفاية بداية «لعملية إعادة بناء اليسار المصرى الذى سحقته عقود طويلة من القمع الأمنى»، ورمزا لتعافى ذلك اليسار بعد سنوات من «التهميش الناجم عن صعود الإسلام السياسى». بل إن بعض المحللين المصريين وصفوا كفاية بأنها حركة احتجاج «علمانية»،ومن ثم انتقدوها حين لم تقم بما توقعوه منها ضمنا وهو احتواء الإسلاميين![4].

وترى كاتبة السطور أن كفاية قد أسىء فهمها على نطاق واسع فى الغرب، وكذلك فى أوساط النخبة المصرية نظراً لاعتماد تصنيفات العلوم الاجتماعية الغربية، خاصة أدبيات الحركات الاجتماعية، لأجل فهم وتحليل ظاهرة ناجمة عن سياق اجتماعى سياسى مصرى مغاير تماماً. ويزداد هذا القصور المنهجى تعقيداً لدى قراءة أدبيات كفاية برؤية أيديولوجية انتقائية.

ومع ذلك يظل مفهوم «الحركات الاجتماعية الجديدة» هو الأقرب لتحليل الكثير من ملامح كفاية. فهى فعلا حركة احتجاج، تسعى إلى أحداث تحول فى مصر عبر عمل مستمر وممتد[5] وهى عبارة عن شبكة فضفاضة من تجمعات صغيرة منتشرة فى طول البلاد وعرضها. وشأنها شأن الحركات الاجتماعية



عبد الوهاب المسيرى مع المتظاهرين
©Amr Dalsh- Reuters

الجديدة، تهدف كفاية إلى خلق الوعى العام وتحفيزه . لكن، وبخلاف الحركات الاجتماعية، ونظراً لضرورات فرضها الواقع المصرى، لم تركز كفاية على قضية واحدة. فضلا عن أنها اتسمت بالتنوع الأيديولوجى. . ومن ثم فإن قراءة كفاية من منظور الحركات الاجتماعية والتى ركزت أدبياتها خصوصا الأمريكية على قضايا مثل تعبئة الموارد والعمليات السياسية الخاصة بتلك الحركات، يحجب عن ذلك التحليل تلك السمة المميزة لكفاية والتى هى فى الواقع أهم إسهاماتها.

وعلى نقيض الذين سعوا لفهم كفاية من خلال عدسة «الحركات الاجتماعية الجديدة» وهى عدسة بالغة الاتساع، فإن هناك من سعوا للتعامل معها من خلال عدسة أيديولوجية هى بالضرورة غاية فى الضيق والانتقائية. فالنظر إلى كفاية بعين أيديولوجية يؤدى إلى أن نرى فيها ما يريد كل اتجاد لنا أن نراه. وهذه الرؤى من شأنها أن تقدم لنا «كفايات» متعددة متنافرة. فصحيح أن كفاية ضمت يساريين - شيوعيين وناصريين - لكنه صحيح أيضاً أنها ضمت بين مؤسسيها إسلاميين من حزبى الوسط والعمل.

ورغم أنه من المهم التنبيه إلى المشكلات الناجمة عن تصنيف كفاية كحركة اجتماعية جديدة، إلا أنه من المهم أيضا ألا يؤدى ذلك للقفز إلى تصنيفها وفق قالب آخر. إذ لأنها نوع جديد من السياسة فى مصر لا يزال فى طور التشكيل فإن الصورة النهائية التى ستكون عليها الحركة ينبغى أن تظل سؤالا مفتوحا، على الأقل فى الوقت الراهن.

ثانيا: تخطي حاجز الأيديولوجيا

رغم أن كفاية قد تم الإعلان عنها فى عام ٢٠٠٤، إلا أنه يمكن القول أنها كانت فى طور التشكيل تعتمل تحت السطح منذ منتصف التسعينيات. والمقصود بذلك أن مفتاح فهم حركة كفاية هو تتبع جذورها عبر العودة للخبرة السياسية لمؤسسيها. فمؤسسو كفاية ينتمون إلى ما صار يعرف بـ «جيل السبعينيات»، وهم مجموعة من النشطاء كانوا منخرطين بشكل مكثف فى الحركة الطلابية بالجامعات المصرية فى السبعينيات. ورغم أنهم جاءوا من خلفيات أيديولوجية متنوعة. إلا أنهم حرصوا منذ فترة ليست قصيرة على مد الجسور السياسية فيما بينهم للتغلب على المعارك الأيديولوجية التى طالما عانت منها مصر. بعد أن صارت لديهم قناعة بأن الخصومة الأيديولوجية التى تسود العلاقة بين أبناء الأجيال الأكبر سنا من النخبة السياسية لم تؤد إلا إلى تعزيز قدرة الحزب الحاكم على استمرار احتكاره للسلطة.

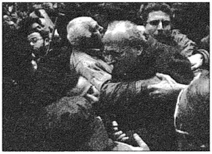
وجيل السبعينيات هو جيل الناصرية بمعنى من المعانى. فقد تفتح وعيه عمليا فى أوج التجربة الناصرية. وكانوا - فى أغلبهم - الأكثر إيمانا وحماسة للحلم الوطنى الذى كان عنوان تلك المرحلة. ثم تعرض هذا الجيل لصدمة كبرى مع هزيمة ١٩٦٧. فكما يقول أحمد بهاء الدين شعبان، أحد قادة الحركة الطلابية فى السبعينيات وأحد مؤسسى كفاية، «لقد ضاع الاستقلال الوطنى باحتلال سيناء، وانهار الشعور بالفخر الوطنى وتحطم شعار الجيش القوى فى الحرب. وقد تحول كل ما قيل عن النظام السياسى الجديد إلى كابوس من صراعات مراكز القوى، والقمع البوليسى والتعذيب فى المعتقلات، ووجدنا أنفسنا إزاء نظام يأكل حتى أشد المخلصين له.

ولعل مواجهة تلك الحقيقة المريرة فى مرحلة عمرية مبكرة كانت هى المسئولة عن الحس النقدى العالى الذى ميز موقف هذا الجيل إزاء السياسة عموما منذ ذلك الحين. فقد أدى انهيار الصورة المثالية للنظام الناصرى إلى تولد القناعة لديهم بأن السبب الرئيسى لذلك الفشل المدوى لتجربة واعدة كان هو الطغيان والاستبداد. حتى الناصريين منهم كانوا قد أدركوا ذلك واعترفوا به.

البحث عن المشترك

بحلول عام ١٩٧١، كانت مصر تمر بحالة اضطراب سياسى. فاستمرار حالة اللا سلم واللا حرب مع إسرائيل فاقمت من الصعوبات الاقتصادية، خاصة لدى الفقراء. وقد قاد طلاب الجامعات الاحتجاجات، وطالبوا بوضع حد لحالة اللا فعل إزاء إسرائيل. وكان اليسار هو المهيمن على





كفاية!

الحركة الطلابية فى عامى ١٩٧٢ و١٩٧٣، واستمر كذلك حتى ١٩٧٥، باستثناء بعض التجمعات الثقافية التى نشط من خلالها الإسلاميون. ولكن خلال ذلك العام، بدأ الإسلاميون يحصلون على بعض المقاعد فى مجالس اتحادات الطلاب. وبحلول ١٩٧٧، كانوا قد اكتسحوا الاتحادات الطلابية فى ثمان من أصل ١٢ جامعة، فحلوا محل اليسار باعتبارهم القوة التعبوية الرئيسية فى الحركة الطلابية.

وفى البداية كان رد فعل النظام إزاء صعود الإسلاميين فى الجامعات هو القبول الضمنى على أقل تقدير، لكن تزايد نفوذ الإسلاميين جعل النظام يتراجع عن توجهه. وقد تفاقم التوتر بين الطرفين عندما عارض الطلاب الإسلاميون زيارة السادات للقدس ثم عارضوا دعمه لشاه إيران، ثم تبع ذلك حملة قوية ضد مقولته «لا دين فى السياسة». حتى بلغت المواجهة ذروتها باعتقال القيادات الإسلامية لدى معارضتهم لاتفاقات كامب ديفيد.

وقد جاء معظم مؤسسى كفاية من قادة الحركة الطلابية فى السبعينيات، فى طوريها الرئيسيين. وتعنى هذه الحقيقة البسيطة أنهم يساريون (ماركسيون وناصريون) وكذلك إسلاميون. ورغم اختلاف المجموعتين جذرياً حول الكثير من القضايا، إلا أن الواضح أن قضايا السياسة الخارجية كانت بمثابة أرضية مشتركة يتفقون بشأنها وهو أمر يبدو أنهم أدركوه مبكرا.

وقد استمر صعود التيار الإسلامى يلقى بظلاله على السياسة المصرية طوال عقد الثمانينيات. وانضم بعض قادة الحركة الطلابية فى السبعينيات لاحقا إلى الإخوان المسلمين، ونشطوا سياسياً من خلال النقابات المهنية التى سيطروا عليها مع نهاية ذلك العقد.

وبالطبع، ولدت تلك النجاحات الإسلامية توترات لا مناص منها، حتى بلغ الاستقطاب الإسلامى العلمانى المتصاعد، مستويات غير مسبوقة فى أوائل التسعينيات. وقد أعرب الكثيرون فى النخبة عن قلقهم ونادوا بوضع حد لذلك الاستقطاب.

ومن المهم الإشارة إلى أن تلك كانت دعوة جديدة من نوعها فى ذلك الحين. فقد شهدت السبعينيات بالفعل استقطابا مماثلا، ولكن لم تبرز فى المشهد السياسى أى قوة لها مصلحة لتنادى بمثل تلك الدعوة إلى حوار وطنى. لكن المفارقة فى تلك المرحلة تمثلت فى أن النظام كان مسئولا عن وضع البذور الأولى لانحسار تلك المواجهات الأيديولوجية ولو مؤقتا. ففى ١٩٨١ زج السادات قبل اغتياله بفترة وجيزة إلى سجونه مثقفين وناشطين من كافة الاتجاهات السياسية. فوجد الخصوم أنفسهم وجهاً لوجه فى المعتقل فكانت فرصة لحوار حمل فى طياته بوادر واعدة. بيد أن الطريق إلى حوار حقيقى لم يكن دائما طريقاً مستقيماً.

لكن بداية التسعينيات حملت أملا معقولا على الأقل فى إجراء حوار وطنى حقيقى بين أطراف المعارضة. فلدى إحرازهم مكاسب كبيرة فى الانتخابات البرلمانية ومنظمات المجتمع المدنى، كالنقابات المهنية واتحادات الطلاب، كان من «الصواب سياسيا» للإخوان المسلمين فتح حوار مع اليسار[11]. وعلى الجانب الآخر، كان اليسار الذى منى بهزيمة بعد أخرى بما فى ذلك انهيار الاتحاد السوفيتى، قد وجد فى الحوار مع التيار الإسلامى أداة للعودة إلى الساحة السياسية بقوة عبر إسهام من نوع جديد.

وبينما كان الكثيرون على الجانبين أكثر اهتماماً فى الحقيقة بتسجيل النقاط فى «مناظرة» لا الاشتباك فى «حوار» جدى، كان البعض من جيل السبعينيات جادا بالفعل بشأن الحوار وبذل هؤلاء جهدا واعيا وعمديا فى ذلك الاتجاه.

وكانت من أولى التجارب فى ذلك الصدد هو ذلك الجهد الذى بذله اثنان من قيادات الحركة الطلابية: أحمد عبدالله رزة وعصام سلطان حين اشتركا فى تنظيم مؤتمر استغرق ثلاثة أيام فى عام ١٩٩٣. كان أحمد عبدالله رزة اليسارى أحد أبرز قيادات الحركة الطلابية فى أوائل السبعينيات[6]. أما عصام سلطان، الإسلامى، فكان أحد قياداتها فى الثمانينيات. فى ذلك الوقت، كان عصام سلطان عضواً فى الإخوان المسلمين، وقام من خلال موقعه كمنسق للجنة الشباب بنقابة المحامين، بالتعاون مع أحمد عبدالله بتنظيم ذلك المؤتمر الذى فتح حواراً بين الأجيال الجديدة من الاتجاهات السياسية المختلفة.

غير أن عام ١٩٩٣ قد شهد حدثا آخر. فقد اقتنص الرئيس مبارك الفرصة، وبادر فى أكتوبر بالدعوة إلى مؤتمر للحوار وطنى تحت رعاية النظام. ولكن ما حدث كان أبعد ما يكون عن الحوار، إذ استخدمت الحكومة اليد الثقيلة فى تنظيم المؤتمر، فاستبعدت الإخوان المسلمين والشيوعيين، وانتقت بنفسها المشاركين الذين مثلوا أحزاب المعارضة الشرعية، الأمر الذى أدى إلى غياب القضايا الجوهرية عن الحوار فتحول فى أفضل الحالات إلى بمحادثات مرتبة سلفا[7].

الشخصى يبتكر السياسى!

وإزاء ذلك المشهد السياسى، أدرك عدد من رموز جيل السبعينيات فى تلك الفترة من التسعينيات أى قبل أن يؤسسوا كفاية بعقد كامل ضرورة إجراء حوار وطنى حقيقى يضم كل التيارات ومن ثم يفتح الباب أمام التوصل إلى وفاق وطنى حقيقى. وكانت إحدى الخبرات المهمة فى هذا الشأن الحوار الوطنى الذى نظمته عام ١٩٩٤ «لجنة التنسيق بين النقابات المهنية». فعلى مدى يومين، وبمشاركة مفكرين ونشطاء بارزين من مختلف التيارات السياسية، ناقش المؤتمر قضايا الحريات السياسية والمدنية من منظور علمانى وإسلامى. وقد أسفر الحوار عن تشكيل لجنة تمثل كل القوى السياسية لكتابة وثيقة للوفاق الوطنى. لكن بعد تقدم كبير عبر عام كامل من العمل، أخفقت اللجنة فى تحقيق مهمتها بسبب تصاعد الخلاف بين الدكتور سعيد النجار، المفكر الليبرالى البارز والمستشار مأمون الهضيبى القيادى الإخوانى[8] ومن المؤكد أن جيل السبعينيات قد لاحظ أن الرجلين كانا ينتميان إلى الجيل الأكبر سنا.

وقد تزامن مع هذه الجهود فى منتصف التسعينيات خروج بعض الناصريين والإسلاميين من جيل السبعينيات من إطار الحزب الناصرى والإخوان المسلمين. ورغم اختلاف الأسباب فى كل حالة، إلا أن عاملا مشتركا كان بارزا فى الحالتين وهو تحفظ أولئك الشباب من كلا الفريقين على منهج تنظيمهم السابق فى التعامل مع القوى السياسية الأخرى. إذ وجدوا أن البحث عن أرضية مشتركة مع القوى الأخرى هو المفتاح الحقيقى للإصلاح فى مصر. وقد صارت هاتان المجموعتان اللتان تقدمتا لاحقاً بطلب تأسيس حزبى الكرامة والوسط من اللاعبين الرئيسيين فى تأسيس كفاية.

غير أن تجربة ١٩٩٤ للحوار الوطنى لم تكن التجربة الأخيرة. بل لعل أكثر التجارب ثراء وإنجازا كان ذلك الحوار غير الرسمى الذى بدأ فى عام ١٩٩٦ وتناول قضية الديمقراطية. وفى تقديمه للكتاب الذى وثق ذلك الحوار، شرح فريد زهران أن تلك اللقاءات التى استمرت عامين كاملين قد أتاحت للمتحاورين معرفة أفضل ببعضهم البعض، وأقامت جسوراً فيما بينهم، بل وهو الأهم وثقت علاقاتهم الشخصية. وكان الهدف من وراء قرار نشر وقائع ذلك الحوار ليس فقط الإعلان عن الأرضية المشتركة التى بحث عنها المتحاورون واكتشفوها، ولا مجرد «تعميق اتفاقاتنا وتوضيح خلافاتنا، ولكن بهدف إشراك المزيد والمزيد من أبناء جيلنا فى الحوار الدائر حيث يصعب على أى من الأفراد المشاركين فى الحوار أن يزعموا لأنفسهم أحقية تمثيل تياراتهم»[9].

وعلى مدار السنوات الخمس عشرة التالية، استمرت تلك المجموعة من رموز جيل السبعينيات فى إجراء مثل هذه الحوارات غير الرسمية، ورحبوا بالمشاركين من الأجيال الأخرى. وقد أسهمت تلك الجهود المستمرة فى التعرف على القيم والأهداف المشتركة، وأتاحت للمشاركين التعرف على طبيعة الشروط اللازم توفرها للوصول إلى إجماع وطنى. بل تجاوز هؤلاء جراحا وخصومات لم تشف منها الأجيال السابقة عليهم.

صحيح أن كفاية ضمت يساريين - شيوعيين وناصريين - لكنه صحيح أيضاً أنها ضمت بين مؤسسيها إسلاميين من حزبي الوسط والعمل

وبنهاية التسعينيات، كان ذلك التواصل الإنساني المستمر قد أتاح لأولئك الناشطين العمل معا بشأن ما يتفقون عليه من قضايا. وكانت الأرضية المشتركة موجودة بالفعل. ومن خلال لجنة دعم الانتفاضة الفلسطينية لم يعد تفاعل هؤلاء يقتصر على الحوار، إذ انتقل خطوة أخرى ليشمل هذه المرة عملا مشتركا.

وقد أدى مثل ذلك التفاعل وغيره إلى بناء درجة عالية من الثقة العابرة للخطوط الأيديولوجية، لم تشهدها الأجيال السابقة. وقد وصل عمق تلك الثقة إلى مستوى لافت، فكما يقول أمين إسكندر، أحد مؤسسي حزب الكرامة وحركة كفاية، فانهم قد صاروا يوقعون البيانات السياسية بالنيابة عن بعضهم البعض، دون استشارة مسبقة. وهو معنى بالغ الدلالة فى واقع الأمر.

ومرة أخرى فى أوائل عام ٢٠٠٠، عمل أولئك الناشطون معاً ومع قوى أخرى، على طرح مشروع لتعديل الدستور. ولكن الأحداث الإقليمية والدولية فى عام ٢٠٠١ فرضت نفسها ومن ثم احتلت القمة على سلم الأولويات. فقد شغلت أحداث الأرض المحتلة الجميع. ثم جاء غزو العراق ليضيف مساحة «مشتركة» أخرى. وصار من قبيل الاجماع لدى أولئك النشطاء أنه كلما زاد العدوان الخارجى، صار للإصلاح الوطنى الأولوية. كما صارت الحريات السياسية هى المفتاح لمقاومة احتلال فلسطين والعراق. ومن هنا صارت الساحة مهيئة لظهور حركة جديدة تجسد ذلك الإجماع الناشئ، وتكشف عما ينطوى عليه من إمكانات جديدة.

وحول مائدة إفطار رمضانية فى خريف ٢٠٠٣ بمنزل أبوالعلا ماضى، زعيم حزب الوسط، التقى ٢٣ من المفكرين والناشطين من مختلف التيارات، وطرحوا بمرارة سؤالاً مهما: «إلى أين تذهب مصر؟».

ويمكن التقاط الومضة الأولى لكفاية فى المزاج العام الذى هيمن على تلك المناقشات. وقد انتهى لقاء تلك الليلة باختيار ستة[١٠] من بين الحاضرين يمثلون كافة التيارات السياسية للعمل على صياغة مشروع بيان يصلح أساسا للعمل السياسى المستقبلى. وقد استغرق العمل على إعداد تلك الوثيقة ثمانية اشهر كاملة من أجل التوصل إلى صياغات تعبر عن رؤى وتوجهات تلك المجموعة التى تتسم بالتعددية الشديدة.

ثم طرح البيان للتوقيع من جانب الشخصيات العامة، و سرعان ما وصل عدد الموقعين عليه إلى ثلاثمائة. عندئذ قرر المؤسسون الإعلان فى سبتمبر ٢٠٠٤ عن تأسيس الحركة المصرية من أجل التغيير-- كفاية.

وقد جاء مؤسسو كفاية من كل ألوان الطيف السياسى فى مصر من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، فضلا عن بعض الليبراليين.

لكن كفاية التى ولدت فى بيت أحد الإسلاميين على مائدة إفطار رمضانية أعلن عنها فى لقاء موسع عقد فى مقر جمعية الصعيد المسيحية التى تحظى باحترام واسع، واختير جورج اسحق اليسارى الذى لا ينتمى لجيل السبعينيات منسقا عاما. وتم اختيار التوقيت ليتزامن مع انعقاد المؤتمر السنوى للحزب الحاكم.

«الخطر الراهن»

كان من الواضح أن غزو العراق قد فاقم إحساس مؤسسى كفاية بجسامة المخاطر التى تحيط بمصر. وقد عبر البيان التأسيسى لكفاية عن هذا المعنى حيث قال الموقعون عليه أنهم «اتفقوا على أن يتجمعوا معا على اختلاف اتجاهاتهم السياسية والفكرية لمواجهة أمرين مترابطين كل منهما سبب ونتيجة للآخر[١١].. وهى المخاطر الخارجية والاستبداد الداخلى. وبوضع الخطر الخارجى فى الفقرة الأولى لبيانها التأسيسى، فإن كفاية قد رفضت أحلام المحافظين الجدد فى واشنطن. فبالنسبة لمؤسسى كفاية كان «الخطر الراهن هو فى الواقع سياسات بوش فى المنطقة[١٢]».

ورغم أن إدارة بوش تزعم أنه خلافا لسياسة دعم الدكتاتوريات التى طالما اتبعتها واشنطن فإنها الآن جادة فى دعم التحول الديموقراطى فى الشرق الأوسط الا أن حركة كفاية بكل التيارات الأيديولوجية التى تضمها لم تجد لتلك الدعاوى الأمريكية مصداقية ولا فائدة إذ اعتبرتها مجرد وسيلة جديدة لتحقيق الهيمنة.

ورغم أن الكثيرين من نقاد كفاية قالوا أنها لم تقدم بديلا واضحا إلا أن الحركة فى الواقع قدمت رؤية معقولة طويلة الأجل. فالبيان الذى يطرح رؤيتها متاح على موقعها الإليكترونى فضلا عن أنه صدر مطبوعا بعنوان «نحو عقد اجتماعى سياسى جديد».

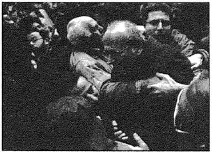
والمشروع يفصل فى رؤية التغيير، فهو يدعو إلى وضع حد للصلاحيات غير المحدودة للرئيس عبر اختياره فى انتخابات مباشرة ووضع حد لمرات تولى المنصب فضلا عن آليات لمحاسبة شاغله. كما يدعو البيان لإلغاء الطوارئ ويرسم إطارا لنظام سياسى يقوم على فصل السلطات واستقلال القضاء وإطلاق الحريات السياسية والمدنية.

ورغم أن تلك المطالب تتبناها قوى سياسية أخرى- كما يقول تقرير مجموعة الأزمات الدولية[١٣]- إلا أن كفاية اعتبرت تلك المطالب بمثابة مهام المرحلة الانتقالية التى تفتح الباب «نحو تحول ديموقراطى جذرى فى الأفكار والسياسات والمؤسسات». بعبارة أخرى فان ما اعتبرته القوى الأخرى إصلاحا ضروريا كان عند كفاية مجرد الخطوة الأولى - أى المرحلة الانتقالية. والمفارقة هنا أن كفاية التى اتهمت بأنها تدعو إلى الفوضى فى المجتمع كانت هى التى أولت عناية خاصة لرسم إطار واضح لمهام المرحلة الانتقالية وهو بالضبط ما يجنب البلاد حدوث فراغ فى السلطة ومن ثم فوضى، وعلى أساس أن النجاح فى المرحلة الانتقالية هو المفتاح الذى يعتمد عليه مستقبل العملية السياسية الديموقراطية.

ويدعو البيان إلى تشكيل حكومة ائتلافية فى المرحلة الانتقالية، تترأسها شخصية عامة مستقلة وتضم مختلف التيارات السياسية والفكرية فى المجتمع وتكون مهمة تلك الحكومة خلق البيئة اللازمة لإجراء الانتخابات. ويلى ذلك انتخاب جمعية وطنية لكتابة دستور جديد للبلاد[١٤].

ويقول تقرير مجموعة الأزمات الدولية- الذى نقل عنه الكثيرون- أن هذه الأفكار برغم أنها جيدة على المستوى النظرى إلا أنها طوباوية فى جوهرها ويبدو أن كفاية تبنتها لاستكمال الشكليات[١٥]. ويضيف التقرير أن كفاية قد نشرت مثل تلك الوثائق «تعويضا عن» افتقارها لأى تركيز واضح على «أى مطلب ديموقراطى إيجابى». وفى الواقع فإن هذا التحليل مبنى على إخفاق كامل فى التقاط خصائص مهمة لكفاية. فنجاح كفاية فى تخطى الحواجز الأيديولوجية هو بالضبط العنصر الجديد الذى يجعل من تشكيل حكومة ائتلافية فى مرحلة انتقالية مسألة ممكنة. والأهم من ذلك أن دور كفاية فى الدفع نحو جبهة وطنية عشية الانتخابات البرلمانية فى ٢٠٠٥ كان دليلا واضحا على أن تلك الأفكار لم تقدم فى ٢٠٠٤ «لاستكمال الشكليات» أو الاستهلاك المحلى، إذ ثبت أن كفاية معنية جديا بالعمل الذى يجمع أكثر من تيار. أما موضوع «المطلب الديموقراطى الإيجابى» الذى لم تطرحه كفاية، فلعله لا يوجد. فى إطار احتياجات مصر الراهنة- مطلب ديموقراطى «أكثر إيجابية» من خلق حالة وفاق وطنى. تلك هى الجوانب الواعدة التى مثلتها تجربة كفاية والتى غفل عنها تماما تقرير مجموعة الأزمات كما غفل عنها كثيرون داخل مصر وخارجها.

لقد كانت كفاية- التى قاطعت انتخابات الرئاسة. عازمة منذ البداية على توجيه عناية أكبر للانتخابات البرلمانية وصارت فعلا إحدى القوى الرئيسية الدافعة نحو تشكيل الجبهة الوطنية بهدف طرح قائمة موحدة لمرشحى المعارضة لتنافس مرشحى الحزب الحاكم فى الانتخابات التشريعية. وكما أعلن فى ٨ أكتوبر ٢٠٠٥ ضمت الجبهة حركة كفاية والإخوان والوفد والتجمع والناصرى والعمل والكرامة والوسط.





كفاية!

إلا أنه كان واضحا منذ البداية أن آفاق نجاح الجبهة محدودا نظرا للمشكلات الهيكلية والتنظيمية التى تعانى منها الأحزاب السياسية وجدة فكرة الجبهة الوطنية، بما كانت تعنيه من توفيقات لم تكن أطراف كثيرة مستعدة للوفاء بها. لكن يظل صحيحا أنه «لأول مرة من خمسين عاما» اجتمعت قوى المعارضة على إنشاء تحالف من أجل انتخابات برلمانية. كما يظل صحيحا أنها تمثل أحد تجليات محاولات جيل السبعينيات المستمرة لتخطى الحواجز الأيديولوجية والفكرية التى ظلت تمنع التيارات المختلفة من العمل معا.

ثالثا: إعادة إنتاج المعنى

استخدم الكثيرون شعارات كفاية المباشرة للتشكيك فى جدية الحركة. خاصة تلك التى اعتبرها بعضهم «فجة» مثلت «إهانات» غير مقبولة لرئيس الدولة. لكن ربما يكون من المهم تحليل تلك الشعارات وفق معيار مختلف يتخطى المستوى المباشر ويذهب إلى ما هو أعمق منه. فمن خلال تلك الشعارات وغيرها من الأدوات كانت كفاية تخلق فى الواقع نوعا جديدا من السياسة يناسب احتياجات لحظة بعينها من تاريخ مصر.

ولعل تعبير «كفاية» ذاته يفيد فى شرح وجهة نظر الكاتبة فى الإسهام الذى قدمته الحركة. فدلالة التعبير تتجاوز فى الواقع كونه مصريا بامتياز بل ويأتى من عمق الثقافة الشعبية المصرية. ولأنها كلمة واحدة معبرة وموحية تنطوى على دلالات كثيرة، فإنها تتسم أيضا بالسيولة ذاتها التى اتسمت بها الحركة. فهو التعبير الذى سمح بتوليد عدد كبير من الحركات الأصغر مثل «فنانون من أجل التغيير» «وشباب من أجل التغيير» وعمال وصحفيون ومحامون... الخ وهو أيضا الذى سمح للحركة الأم أن تنظم عددا من المظاهرات تتعلق بقضايا مختلفة من البطالة إلى الفساد وكلها تحت شعار كفاية: كفاية بطالة، كفاية فساد. فشعار كفاية كان بمثابة السهل الممتنع، فهو تعبير بالغ البساطة ولكنه موح وثرى.

ويرى البعض أن شعارات كفاية المفرطة فى التبسيط انما تعكس حالة الحركة نفسها فهى «مجرد حركة احتجاج لا تملك رؤية بناءة لعملية التحول». غير أن الواضح أن أصحاب هذا الرأى ينطلقون من تعريف محافظ لمعنى «الرؤية البناءة» ذلك لان كفاية قد قدمت فى الواقع بديلا ولكنه بديل راديكالى لمستقبل مصر. ولا يجوز فى الواقع الانسياق وراء الاختزال الذى اعتبر أن كفاية قد استهدفت الرئيس شخصيا ذلك لان الحركة فى الواقع قد رفضت قواعد اللعبة السياسية ذاتها. فالحياة السياسية فى مصر قامت منذ زمن على احتكار شبه كامل للسلطة السياسية مع وجود إطار قانونى يحاصر كل من الأحزاب ومنظمات المجتمع المدنى. وما فعلته كفاية كان أن التفت حول ذلك الإطار المؤسسى برمته. فعندما رفضت الانصياع إلى قواعد اللعبة السياسية الموجودة فإنها فى الواقع قد أعادت تعريف السياسة والعمل السياسى فى تلك اللحظة تحديدا من تاريخ مصر.

فقد كان فى الجوهر من فكر مؤسسى كفاية إن الشرعية ليست منحة حكومية ولا تتطلب إذنا من الحكومة. وبالخروج إلى الشارع دون إذن مسبق، فقد وسعت كفاية من مساحة المتاح وارتادت بذلك فضاءات عامة جديدة أيضا. وبوضع لفظ بالتغيير فى اسمها، فقد حركت كفاية رمال المشهد السياسى كله. إذ لم تعد قواعد لعبة بالإصلاح التى انجرفت إليها أحزاب المعارضة لسنوات وغرقت فيها هى الحاكمة.

ولأن تلك رؤية راديكالية، فقد احتاجت كفاية فى مراحلها المبكرة على الأقل أن تكون «مجرد حركة احتجاج». فعلى مدى اكثر من نصف قرن كان المصريون قد اعرضوا عن السياسة بسبب الخوف والقمع أو الشك فى جدوى العمل السياسى، فنشأت أجيال جديدة لا صلة لها بالعمل السياسى بالمطلق. ومن هذه الزاوية تكون كفاية قد تعاملت مع اكثر مشكلات مصر السياسية حدة وهى انسحاب الأغلبية الساحقة من المصريين من السياسة.

وفى مراحل الاضطراب وعدم اليقين السياسى، فإن العمل السياسى لا يكون هدفه بالضرورة أحداث تغيير فورى فى النظام السياسى، إذ لا يقل أهمية عن ذلك أن يشكل ذلك العمل تحديا لأنماط اللغة والخطاب والثقافة السائدة التى يتم من خلالها ترتيب المعلومات وفهم الأحداث[١٦]. وهذا بالضبط هو ما فعلته كفاية ففى تلك اللحظة من تاريخ مصر وبعد أن تركت الأغلبية الصامتة السياسة بالكامل للنخبة فان القدرة على إنتاج أنماط جديدة للمعنى تتناقض مع الأنماط المفروضة وتتحداها وتطرح شكلا بديلا لتنظيم المعلومات السياسية وترتيبها إنما يمثل تحولا مهما يؤتى أثره على المدى البعيد. أما كون كفاية حركة نخبوية فهو صحيح وإن كان مؤسسوها على وعى بذلك الطابع لكفاية معتبرين انه من المهم لإحداث التحول الديموقراطى أن يستعيد المواطن العادى الثقة والأمل على الأقل فى قطاع من النخبة.

ولا يأتى مأزق كفاية الراهن-كما قيل فى معرض انتقادها- من كونها «مجرد حركة احتجاج ومظاهرات» وإنما من استمرارها مجرد حركة احتجاج لفترة أطول بكثير مما ينبغى. وكان المسئول عن ذلك هو فى الواقع الخلافات داخل الحركة حول طبيعة الدور المراد لها أن تلعبه.

فهناك فى كفاية تياران الأول يؤكد على موقف المواجهة مع النظام والأحزاب السياسية القائمة ويرى كفاية باعتبارها بالأساس حركة عصيان مدنى.

ويرى هذا التيار أن النظام فى مصر ينهار ومن ثم فإن دور كفاية أن تعجل بذلك عبر حركة عصيان مدنى واسعة. ويؤمن هذا الفريق بأن وصول عدد من المتظاهرين إلى ما يزيد على المائة ألف من شأنه أن يسقط النظام[١٧]. أما الجناح الثانى فى كفاية فيرى الحركة باعتبارها النواة الأولى لحركة قاعدية «فالمظاهرات هى فقط المرحلة الأولى» كما يقول محمد السيد سعيد. وإسقاط النظام -الذى هو بالمناسبة يعانى من فوضى ولكنه لا يتهاوى- ليس هو الأولوية. وإنما الأولوية هى لإعادة بناء المؤسسات الديموقراطية فى القرى والمدن وإعادة إحياء الاتحادات والمجالس المحلية حتى تصبح مصر كلها ورشة عمل للتغيير الديموقراطى.

وقد صار واضحا أن تبنى منهج التظاهر كمفتاح للتحول الديموقراطى قد أضر بالحركة ووضع حدا لتطورها. صحيح أن التظاهر كان بالغ الأهمية فى المراحل الأولى وأسهم بالفعل فى إعادة تعريف السياسة. إلا أن كفاية قد سمحت لنفسها بالانجرار إلى استراتيجية تقوم على التظاهر فقط. وقد أضر ذلك بالحركة من أوجه عدة. فمن ناحية، صار بالإمكان إجهاض زخم الحركة عبر حظر مظاهراتها. ومن ناحية أخرى أدى التركيز على المظاهرات فقط كأداة للعمل عبر فترة زمنية ممتدة إلى تشكيل توقعات الجمهور. فكفاية فى الوعى العام صارت موجودة فقط ما دام نشطاؤها فى الشارع ومن ثم حين مارس النظام قيودا على التواجد فى الشارع ساد الشعور بانحسار كفاية. غير أن الأهم من ذلك كله هو أن تلك الاستراتيجية حرمت كفاية من القدرة على ابتكار أنماط جديدة من العمل السياسى تناسب مرحلة ما بعد كسر التابوهات السياسية وتقيم للحركة وجودا سياسيا مستقلا وفاعلا.

خلاصة

ما لم توجد فى مصر قوى سياسية حية قادرة على التنافس السلمى فان الانتخابات لا يمكن أن تكون هى المدخل للتغيير الديموقراطى السلمى فى مصر. فبينما يمثل الإخوان المسلمون قوة سياسية مهمة فان ضعف القوى السياسية الأخرى من شأنه أن يؤدى إلى وقوع مصر-إذا ما جرت انتخابات حرة فى براثن احتكار سياسى آخر يكون هذه المرة بقيادة الإخوان المسلمين. وعندئذ ولأن هناك استقطابا إسلاميا علمانيا واضحا

كفاية التي ولدت في بيت أحد الإسلاميين علي مائدة إفطار رمضانية أعلن عنها في لقاء موسع عقد في مقر جمعية الصعيد المسيحية. واختير جورج اسحق اليساري الذي لا ينتمي لجيل السبعينيات منسقا عاما

وتوترا بين الإخوان من ناحية والكثير من القوى السياسية من ناحية أخرى، فالأرجح أن وصول الإخوان للسلطة من شأنه أن يفاقم مشاكل مصر لا يساعد على حلها.

و في هذا السياق تحديدا يأتي المغزى الحقيقي لكفاية. فالجيل الذي أسس الحركة قدم لمصر بديلا أفضل يتمثل في غرس البذور الأولى لعملية مصالحة سياسية بين التيارات الأيديولوجية المختلفة، الأمر الذي يفتح الباب أمام الوصول إلى وفاق وطني.

لقد أدرك مؤسسو كفاية أن احتكار الحزب الحاكم للسلطة يرتكز إلى حد كبير على انقسام قوى المعارضة وعجزها عن صياغة مشروع مشترك للتغيير أو حتى الاتفاق على أي مطلب سياسي. ومن ثم فقد كانت مصر في تلك اللحظة تحديدا من تاريخها في حاجة إلى حركة سياسية عابرة للأيديولوجيا.

ويلاحظ نقاد كفاية بحق أن الحركة فقدت زخمها. ورغم أن كفاية الآن في مفترق طرق وربما بحاجة إلى إعادة نظر شاملة في دورها فإنه يمكن القول أنها تواجه نوعين من التحديات.

ويتمثل التحدي الأول في تعميق أهم إسهاماتها وتوسيع نطاقه ألا وهو التفاعل السياسي العابر للأيديولوجيا. فالنجاح الذي حققه مؤسسو كفاية كان بمثابة خطوة مهمة للأمام في مسألة التفاعل العابر للأيديولوجيا، إذ نقلوا هذا التفاعل من مستوى العمل المشترك بشأن قضايا السياسة الخارجية فقط إلى مستوى أعلى يتمثل في حركة سياسية هذه المرة وهو ما يمثل تجربة واعدة يمكن تعميقها لتشمل قضايا جوهرية بل وتوسيع نطاقها إلى ما يتخطى كفاية نفسها.

وهناك بعض المؤشرات الإيجابية في هذا الصدد، ففي كل الخلافات الحادة التي وقعت داخل كفاية منذ تأسيسها لم يحدث في أي من تلك الخلافات اصطفافا أيديولوجيا. ففي كل معركة داخلية كان كل طرف من أطراف النزاع يتسم بالتنوع الأيديولوجي الذي تتسم به الحركة ذاتها.

أما التحدي الثاني الذي يواجه كفاية فهو التوصل إلى إجماع بداخلها يقدم رؤية واضحة وواقعية لمستقبل الحركة. ومن ثم أدواتها.

ونظرا لطبيعة الأوضاع السياسية المصرية والطابع النخبوي لكفاية، فلا يجوز لرموزها أن يتوقعوا منها أن تتحول لحركة جماهيرية لكن كفاية تستطيع أن تنشط المجتمع عبر وسائل أخرى غير التظاهر والدعوة للعصيان المدني.

ولا يقل أهمية عن ذلك أن وجود كفاية بحد ذاته يلهم أجيالا جديدة من المصريين. فجيل السبعينيات الذي أسس الحركة جيل فريد من المصريين. فهو جيل مسيس ولديه خبرة بالعمل السياسي المباشر في آن معا. وفي المقابل فان العناصر المسيسة من الأجيال الأصغر ذات خبرة سياسية محدودة خصوصا بالعمل السياسي المباشر ومن ثم لديها من خلال كفاية فرصة لاكتساب مهارات العمل السياسي .

بعبارة أخرى فان التحدي الذي تواجهه كفاية هو التقييم الموضوعي والإدراك الواقعي للممكن والمستحيل ومن ثم التركيز على مواطن قوة الحركة وأهم إسهاماتها وتعميقها.

وسواء عاشت حركة كفاية في صورتها الحالية أو أخذت شكلا جديدا أو حتى فقدت وجودها ككيان سياسي بالكامل، يظل صحيحا أن مسيرة جيل السبعينيات نحو خلق وفاق وطني قد صارت أكثر صلابة ووضوحا من أي وقت مضى. فعندما يلتقي أبو العلا ماضي الإسلامي وأحمد بهاء الدين شعبان الماركسي طوعا ويعملان معا بشكل جاد حول مشروع مشترك عابر للخطوط الأيديولوجية، يصبح علينا الانتباه إلى أن مساحة المشترك بين التيارات السياسية في مصر أكثر اتساعا بالتأكيد مما يريد لنا النظام أو الإخوان أن نفترض.

وهذا التفاعل الذي يتجاوز الخطوط الأيديولوجية لا يزال في مراحل مبكرة وتواجهه صعوبات بل وانتكاسات، ولكنه أيضا يحرز تقدما. ففي الثمانينيات اقتصر التفاعل على الحوار وفي التسعينيات أخذ شكل العمل المشترك بشأن القضايا السياسية الخارجية فقط. وفي العقد الراهن عبر عن نفسه في شكل حركة كفاية وتظل الصورة المستقبلية لمثل هذا العمل سؤالا مفتوحا.

خلاصة القول إن تقييم مغزى حركة كفاية ينبغي أن يتخطى حتى المسار المستقبلي للحركة ذاتها. فقد فتحت كفاية آفاقا جديدة للممكن في مصر وقفزت بنا قفزة إيجابية نحو المستقبل حينما بذرت البذور الأولى نحو وفاق وطني. إذا ما تمت العناية بتلك البذور ورعايتها. وفي هذا الجانب تحديدا فقد حقق مؤسسو كفاية -المختلفون أيديولوجيا. نجاحا مدويا. ■

هوامش ومراجع:

اعتمدت هذه الدراسة علي مصادر أولية، من مقالات وتقارير صحفية، وبيانات الحركة ووثائقها، فضلا عن مقابلات شخصية ممتدة على مدى ستة أشهر(من سبتمبر ٢٠٠٥ وحتى فبراير ٢٠٠٦) أجرتها الباحثة مع عدد من مؤسسي الحركة: أمين إسكندر، أبوالعلا ماضي، أحمد بهاء الدين شعبان، جورج اسحق، عصام سلطان، محمد السيد سعيد ومحمد السعيد إدريس.

١ . وحيد عبد المجيد، «الخريطة السياسية المرتبكة في مصر»، الحياة، ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٥؛
Reforming Egypt, In Search of a Strategy, International Crisis Group, Middle East/North Africa Report, 46, Oct. 4, 2005:i and 10

٢ .وحيد عبد المجيد، «الخريطة السياسية المرتبكة في مصر»، لندن: الحياة، ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٥

٣ .. إيمان يحيي، «سنة من عمر كفاية، سنة حلوة يا جميل»، الكرامة، ٢٤ يناير ٢٠٠٦.

4. Issander El Amrani, Kifaya and the Politics of the Impossible, ZNet, Jan. 4, 2006 <www.zmag.org/content/showarticle/cfm?SectionID=22ItemID=9463> Feb.27, 2006

وانظر أيضا: صلاح عيسى، الأصابع الإخوانية لحركة كفاية، الجمهورية، ١٩ يناير ٢٠٠٦.

5. Joseph R. Gusfield, »The Reflexivity of Social Movements: Collective Behavior and Mass Society Theory Revisited«, in: Enrique Larana, Hank Johnston and Joseph R.Gusfield, eds., New Social Movements, From Ideology to Identity, (Philadelphia: Temple University Press, 1994), pp.58-78

٦. الراحل أحمد عبد الله لم يشترك في تأسيس كفاية

٧- مصر والنموذج الديمقراطي، سلسلة حوارات المستقبل، (القاهرة: دار المحروسة، ١٩٩٩)، ص ٢١٥-٢٢٧.

٨ . المرجع السابق

٩ . مصر والنموذج الديمقراطي، مقدمة بقلم فريد زهران، ص ٧

١٠ . كان هؤلاء الستة هم جورج إسحق، أحمد بهاء الدين شعبان، محمد السعيد إدريس، سيد عبد الستار المليجي، أبو العلا ماضي، وأمين اسكندر.

١١ . البيان التأسيسي لحركة كفاية علي موقعها الألكتروني:
<http://harakamasria.net/informationMOre.asp?id=803&idd=14> July,13,2005.

١٢ . من شلجنة الخطر الراهنص في السبعينات إلي كتاب وليم كريستول عام ٢٠٠٠ الذي يحمل نفس الاسم، استخدم المحافظون الجدد -علي مدي عقود- تعبير «الخطر الراهن»، لكن المفارقة أن أجندة المحافظين الجدد في الشرق الأوسط- والتي يروج لها في واشنطن باعتبارها نصيرة الديمقراطية في العالم العربي هي التي ينظر إليها كخطر راهن من جانب القوي الديمقراطية في مصر

انظر:
William Kristol and Robert Kagan, eds, «The Present Dangers», (San Francisco: Encounter Books, 2000).

١٣- المجموعة الدولية للأزمات منظمة غير حكومية مقرها بروكسل ببلجيكا، وتقوم بأبحاث وتحليلات حقلية، ولها مكاتب عمل بمختلف أنحاء العالم. انظر موقعها الإلكتروني: www.crisisgroup.org

١٤ - . نحو عقد اجتماعي سياسي جديد، إصدارات كفاية، الطبعة الأولي، أغسطس ٢٠٠٥.

١٥• Reforming Egypt, In Search of a Strategy , International Crisis Group, Middle East/North Africa Report, 46, Oct. 4, 2005:i and ١٠

١٦. Alberto Melucci, A Strange Kind of Newness: What's «New» in New Social Movements, in: New Social Movements, From Ideology to Identity, pp. 101-130 (p ١٠٢.)

١٧ .عبد الحليم قنديل، العمود الأسبوعي، العربي الناصري، ١٢ يونيو ٢٠٠٥. الرابط الإلكتروني:
<http://al-araby.com/articles/958 / 050508- 958-col- wat.htm > acc. 15/03/06

خلع الكرافتة وهو

خالد الخميسى

لم يخب حكمه فمن حمل شعلة الضمير فى قلبه وكان شغوفا بالقضايا الفكرية منذ طفولته ظل على مدار حياته صلبا أمام مغريات المرأة اللعوب المسماة بالحياة

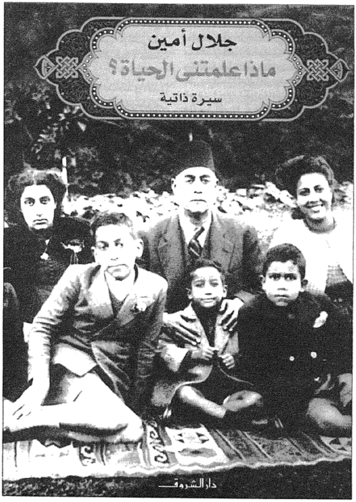
استطاع د. جلال أمين أن ينقل إلى القارئ ألمع اللحظات والساعات والأفكار والمعانى التى أضاءت حياته، نقلها لنا ببساطة معجزة وكأنه يدردش معنا على مائدة الإفطار، وكانت كل فكرة تعرّض لها الكاتب خلال سيرته الذاتية من اللمعان بحيث أضاءت ركنا مظلما فى السيرة الذاتية لكل قارئ. تعرض الدكتور جلال أمين فى كتابه لقضايا الحياة التى تواجهنا ونحتاج أمامها إلى تقديم إجابات، قدمها بعذوبة فى القول وعمق فى المعنى على مائدة إفطار أطباقه الخاصة لحل معضلات الحياة. لم يترك شيئا إلا وناقشنا إياه، ولكن لا شك أن الدرس الرئيسى الذى يخرج به قارئ هذا الكتاب هو فهم عميق للنفس البشرية فهو فى ذلك أشبه بعمل أدبى شديد البلاغة يكاد يقارب فى هذا المضمار أحد أعمال دستويفسكى.

ألقى الضوء من خلال سيرته على عشرات وعشرات الشخصيات، منها العام ومنها الخاص وضغط على زر المشاهدة السريعة Fast Forward فشاهدنا معه الحياة تلهث بسرعة السنين بقسوتها البالغة، وكان معياره الدائم للنظر إلى الشخصيات هو فى مدى قدرتهم على التعاطى مع القضايا الفكرية والقضايا الأخلاقية، وكأنه قد ركّب فى نظارته التى يحملها على أنفه منذ الصغر عدسة للأخلاق وأخرى للفكر. ومن خلالهما شاهد العالم وتابع الأحداث على مدار حياته. ولم يخب حكمه فمن حمل شعلة الضمير فى قلبه وكان شغوفا بالقضايا الفكرية منذ طفولته ظل على مدار حياته صلبا أمام مغريات المرأة اللعوب المسماة بالحياة.

قلت للدكتور جلال أمين فى الاحتفال الذى أقامته له «دار الشروق» بمناسبة إصدار الكتاب أن هذا الكتاب هو أول كتاب أسمعه بعينى. فرجّح هو أن السبب «أنه خلع الكرافتة وهو يكتب». وفى الحقيقة أنا أتفق معه تماما، فرابطة العنق قد تكون مفيدة ونحن نتقدم لعروس جميلة أو نتقدم لوظيفة جديدة، ولكنها تضغط على العنق بشدة أثناء الكتابة فتخرج الألفاظ معوجة وممطوطة وفى الأغلب لا معنى لها، والمعنى واضح هو أن نكتب دون تشنج ودون أن نكشر عن أنيابنا أو أن نتصور أن ما نكتبه هو رحيق دمائنا فيكفى أن تعبر الكلمات عن أفكارنا، ويفضل ألا نعرق ونحن نكتب إلا إذا كان الجو شديد الرطوبة والحرارة، وعلينا أيضا أن نقوم بإلغاء كل المصطلحات المترجمة التى نقرؤها الآن فى معظم المقالات وهى كلمات أقرب إلى اللاتينية منها للعربية وهى مصطلحات مترجمة عن طريق مترجمين لا يعرفون العربية أصلا. وقد خلت الصفحات الأربعمائة من السيرة الذاتية من أى من تلك المصطلحات المنبعجة فجاء النص عربيا صرفا. وأنا الآن أخلع أمامكم الكرافتة لأحاول الكتابة بالبساطة نفسها التى كتب بها سيرته.

من العسير التعرض بالنقاش لكتاب مثل هذا الكتاب، فالسيرة الذاتية لجلال أمين جاءت كفيض من الأفكار المتلاحقة توالت أمواجها الهادرة بتلاحق سنى عمره، ولكنها أمواج بالسكر وليست بالزبد مما احتوته من خفة الظل المشهور بها جلال أمين، من ذكرياته عن والده ووالدته التى لم يناداها الأب باسمها طوال حياته، إلى إخوته وأصدقائه وزملائه ومعاصريه والساسة ورجال القانون والاقتصاد والفكر. وتذكرت قول الشاعر «أبى الحباب الغرناطى»: «ماذا أقول وكل قول قاصر.. فى وصف بحر زاخر الأمواج». فقررت أن أتناول الكتاب من زاوية واحدة وهى ماذا علمنى الكتاب من دروس فى حياتى ولنبدأ بقضية المدرسة التى أثارها الدكتور جلال أمين فى سيرته الذاتية.

يشعر الكاتب بالشفقة تجاه معارفه وأصدقائه وبالتأكيد تجاهنا جميعا أمام الحيرة التى تنتاب الأهل فى اختيار نوع التعليم المناسب لأولادهم. يحكى عن الجهد المضنى الذى بذله جده لاختيار الوجهة التى يجب عليه اتباعها فى تعليم ابنه احمد، فقد أدخله مدرسة بعد أخرى ويحكى عن العذاب الذى تعرض له والده من جراء تلك التغييرات المتصلة على أمل إلحاقه بالمدرسة الأفضل، ثم يحكى كيف أن هذا السيناريو قد استمر معهم وأن والدهم قد بذل جهده فى البحث عن المدرسة الأنسب لهم، وكان ذلك سببا فى أن قاموا هم أيضا بتغيير المدرسة، وعلى مدار حياة الكاتب شاهد من خلال عائلته ما يعانيه الأهل من جهد ووقت ومناقشات عن المدرسة الأنسب للأبناء، ويؤكد فى النهاية أنه لم يعد لديه شك فى أن الأهل يبالغون بشدة فى أهمية



ماذا علمتنى الحياة؟
سيرة ذاتية
جلال أمين
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٧

يكتب «حياة» جلال أمين

المدرسة فى تنمية القدرة العقلية للطفل أو تنمية حسه الأخلاقى، وأن أثر الأسرة والمناخ السائد أهم من أثر المدرسة، وهناك أيضا الاستعداد الطبيعى للطفل أو مجموعة المقومات النفسية والجينية التى تشكل شخصيته وإمكانياته، ويحكى لنا عن الفارق الشاسع بين أختيه فاطمة ونعيمة اللتين ذهبتا إلى نفس المدارس فتفوقت الأولى وخابت الثانية، وانتمت الأولى إلى العالم الحديث والثانية إلى العالم القديم، حتى أن نعيمة لم تستطع صبرا وخرجت مبكرة من المدرسة. أما الابن الأكبر محمد فقد التحق بمدرسة الفرير ولم تضف له المدرسة شيئا غير أنه عندما كان يقوم بعمليات حسابية كان ينطق الأرقام بالفرنسية. ويرجح الكاتب أن أباه بعد تجربته مع أبنائه أدرك هو الآخر عدم أهمية نوع المدرسة فى المستوى التعليمى للأبناء. ولكن الكاتب من أجل أن يريكنا حكى لنا أيضا عن قصة لكاتبه المفضل «جورج أورويل» المعروف بانحيازه الفكرى للبسطاء، أنه أدخل ابنه فى مدرسة باهظة التكاليف وسألوه ألا ترى أن هناك تناقضا فى ذلك؟ فأجاب أنا ضد وجود تلك النوعية من المدارس وسوف أسعى لإلغائها ولكن مادامت موجودة فأنا سوف ألحق أبنائى بها. وفى الحقيقة أن هذا الموضوع يمكن أن يأتى فى قائمة أكثر الموضوعات التى أرقت حياتى الشخصية، وقد خرجت من الكتاب بأننى ولا شك قد بالغت كثيرا فى أهمية المدرسة وأن التضحيات المالية التى أتجشمها يجب علىّ إعادة النظر فيها ولو لم أستطع فلأتمنى إذن أن يكون أورويل على حق.

اختار جلال أمين فى صباه «فولتير» لكى يكون مثله الأعلى أسوة بأخيه حسين أحمد أمين الذى يكبره بعامين ونصف الذى كان قد اختار نابليون وماركس وتولستوى على التوالى كمثل عليا له، لم يحدثنا عن بقية إخوته الخمسة محمد وفاطمة ونعيمة وعبد الحميد وأحمد وعمن اختاروا لكى يكونوا مثلهم الأعلى، على الأرجح لأنهم كانوا أكبر كثيرا من جلال وبالتالى لم يعرف موقفهم من المثل العليا، أثارتنى كثيرا تلك الأمثلة من المثل العليا، حيث إنهم كانوا كلهم من الأوروبيين، فرنسا لها نصيب الأسد باثنين ثم روسيا وألمانيا، ولم يتم اختيار إنجليزى لأنهم على الأرجح من المحتلين، وتذكرت أن د. جلال فى أحد كتبه السابقة ذكر أن التأثير الأوروبى لم يكن واضحا تماما فى جيل والده العلامة أحمد أمين والذى كان اختار على الأرجح فى صباه مثلا أعلى من أعلام العرب، وأن التأثير الغربى بدا واضحا فى جيله الذى نشأ فى الربع الثانى من القرن العشرين. وتذكرت أن د. لويس عوض فى سيرته الذاتية «أوراق العمر» ذكر أننا يمكننا من الأسماء التى يطلقها المجتمع على أبنائه أن نعرف مدى التقدم الاجتماعى الذى أحرزناه، فعندما تكون الأسماء مرتبطة بالدين كأسماء شنودة وكيرلس ولويس من المسيحيين، وسيف الإسلام وشيماء وإسلام من المسلمين لأدركنا مدى التدهور الاجتماعى الذى نعيشه والعكس صحيح، فيرى الدكتور لويس عوض أنه خلال فترات الانحطاط تسعى كل طائفة دينية أن تتقوقع على نفسها وخلال تلك الأزمنة يمكنك أن تقوم بفرز طائفى من خلال الأسماء التى نطلقها على أبنائنا. وأذكر أن أسماء زملائنا المسيحيين فى فصل مدرستى - وكلنا ولدنا ما بين عامى ١٩٦٢ و١٩٦٣ - كانت: مجدى وشريف وماجد وسامح ورفيق وكان هناك شريف آخر، ولم يكن من بين أسماء المسلمين ما يدل على الانتماء الدينى بشكل صريح. وعلى العكس من ذلك تحمل أسماء زملاء أولادى فى الفصل الذين ولدوا بين عامى ١٩٩٥ و١٩٩٦ فرزا طائفيا شديدا، فمعظم الأسماء فى الفصل مثل سيف الإسلام وكيرلس وبدر الدين وشنودة. ولو طبقنا هذا المعيار على اختيارات الصبية لمثلهم العليا هل يمكننا أن نستخلص نتائج اجتماعية؟ رفضت بعنف وأنا صبى أن يكون لى مثل أعلى، على الأرجح لأننا (كلنا ولاد تسعة)، واختار بعض أصدقائى مثلا عليا لهم وكانوا على ما أتذكر معظمهم من المصريين، كان ذلك فى منتصف السبعينيات من ذلك القرن، ومن الجميل أن نعرف المثل العليا لصبية اليوم.

تعرض د. جلال لقراءاته فى فترة الصبا والشباب منذ ١٩٤٥ وهو فى العاشرة من العمر وحتى ١٩٥٥ وهو فى العشرين، بدأ بكتب كامل الكيلانى وجودة السحار، ثم انتقل إلى محمود تيمور وتوفيق الحكيم وطه حسين والمازنى والمنفلوطى وانتهى بنجيب محفوظ ويوسف إدريس. وبالتأكيد لم يخل الأمر من الكتب الأوروبية فبدأ بالكتاب الإنجليز ثم وبفضل أخيه حسين اكتشف الأدب الروسى وبدأ فى التهام روايات دستويفسكى وتولستوى وتورجنيف وقصص تشيخوف، كان قارئا نهما ولكن ما لفت نظرى هو: لماذا قرأ جلال الصبى كل تلك الكتب؟ أعتقد أن السبب هو أنه لم يفرض عليه أحد قراءتها. فقد ترك والده الكتب منثورة كالدر فى أنحاء المنزل، لم يطلب من أبنائه الالتفات إليها، تصور د. جلال أن والده مشغول أو غير مهتم ولذلك لم يسأل أحدا القراءة، ولكنى أرى أن ما فعله أحمد أمين كان فى منتهى الحكمة، وإلا ما كان اشترى كامل الكيلانى لو لم يكن عابثا. ما تعلمته أن علينا أن نجعل منزلنا حديقة مليئة بالورود ومن المؤكد أن الأبناء مع الوقت سوف يبدأون فى استنشاق أزهارها. رغم حزنى أن د. جلال لم يستنشق من روض الشعر العربى.

التحق د. جلال بكلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٥١ وأفرد لها فصلا كاملا فى كتابه وحكى لنا عن أساتذته ومعيديه ومن بينهم أستاذان مشتركان بينى وبينه وهما الدكتور زكى شافعى والدكتور رفعت المحجوب الذى قام بتدريسى مادة «المالية العامة» عام ١٩٨٣. ولكن قصة علاقته بأستاذه الدكتور سعيد النجار تستحق أن نتوقف عندها برهة، لأن لديها مقومات درامية جدا، فهى علاقة افتتان من جانب الدكتور جلال أمين بأستاذ اكتشف مع الوقت أنه يقف فكريا على طرف نقيض مع كل ما يؤمن به، جاهد هذا الأستاذ فى سبيل بيع القطاع العام ودعم مشروع الشرق أوسطية، والسلام مع إسرائيل والأنكى أنه كان رجلا محترما، فلم يكن مأجورا أو من المرتزقة الجدد، ورغم كل ذلك لم يستطع الدكتور جلال إلا أن يحبه، علاقة التلميذ بالأستاذ الساحر استمرت رغم كل الخلافات الفكرية وانتهت بأن كليهما قد سلم بأن الكمال مستحيل وأن كلا منهما به من أوجه الضعف ما يفرض عليه أن يكون أكثر صبرا وتسامحا مع صاحبه.

سافر إلى إنجلترا عام ١٩٥٨ فى بعثة حكومية لدراسة الاقتصاد فى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، وأشرف على رسالته للماجستير الأستاذ «ليونيل روبنز» الذى أفاده بعلمه الغزير وأفادنى شخصيا بمقولة أراها فى منتهى الأهمية قالها لتلميذه جلال عندما اشتكى من حجم الكتب التى نصحه بقراءتها فقد قال له «يجب أن تتعلم أن تقفز فى القراءة» (You have to learn how to skip) ويقول الكاتب إنه بتعلمه هذا القفز قد استفاد استفادة عظيمة، فلا يمكن أن ندرك حجم الفائدة التى يمكن أن يجنيها القارئ من وراء هذا التعلم، ويتحسر الكاتب على الوقت الذى أضاعه فى قراءة كتب سخيفة كان من الواجب عليه تركها منذ إدراكه سخافتها. وقد تأثرت جدا بهذه المقولة حيث إننى قد تعلمت منذ الصغر ألا أترك كتابا قد بدأته وألا أترك طبقى إلا فارغا، وإذ بى أدرك حجم خطئى فى الأمرين، فعندما نشعر بالشبع علينا التوقف عن الأكل ولابد أيضا أن نأخذ بمقولة روبنز ونتعلم ألا نقرأ ما لا يفيد.

وفى إحدى المحاضرات العامة التى كانت كلية لندن تنظمها لطلابها حاضر الأستاذ الشهير فى علم الاقتصاد ريتشارد ليبسى وخلال المناقشة التى أعقبت المحاضرة حكى المحاضر قصة للتدليل على أنه لو قدر له الاختيار مرة أخرى فى العلم الذى سوف يتخصص فيه لما اختار علم الاقتصاد، وملخص القصة أنه أثناء بحث كان يقوم به يتطلب إعداد جدول إحصائى يبين تطور الأسعار عبر فترة زمنية معينة (بين سنة ١٩٣٠ وعام ١٩٦٠ على سبيل المثال)، كتبت السكرتيرة الأرقام الدالة بالمقلوب فجاء الرقم الخاص بأول سنة ١٩٣٠ وكأنه الرقم الخاص بآخر سنة ١٩٦٠ وهكذا. وعندما بدأ الأستاذ فى التحليل الاقتصادى لم يفطن للوهلة الأولى للخطأ ووجد أنه من الممكن أن يفسر الأرقام وهى مقلوبة على هذا النحو بنفس النظرية التى استخدمها لتفسير الأرقام وهى مرتبة الترتيب الصحيح بالطبع مع بعض التحفظات الطفيفة. وعندما اكتشف الأستاذ الكبير الخطأ هاله أن تكون هذه هى حالة علم الاقتصاد، وتعجب من هذا العلم الذى يمكن لنظرياته أن تفسر الشىء ونقيضه بنفس الدرجة من اليقين. وهذه القصة تعكس فى الواقع خيبة أمل الدكتور جلال أمين نفسه فى علم الاقتصاد الذى أمضى حياته كلها فى تدريسه، فالأرقام تبدو شديدة النقاء وحادة النصل والعلم يقف أمامها منحنيا، ولكن فى الواقع هى شديدة الرياء

يقول الكاتب إنه بتعلمه هذا القفز قد استفاد استفادة عظيمة، فلا يمكن أن ندرك حجم الفائدة التى يمكن أن يجنيها القارئ من وراء هذا التعلم، ويتحسر الكاتب على الوقت الذى أضاعه فى قراءة كتب سخيفة كان من الواجب عليه تركها منذ إدراكه سخافتها

متقلبة الألوان تراها من كل زاوية بشكل مختلف، وكان جدى مفيد الشوباشى يشك هو أيضا فى الأرقام ولا أنساه وهو يقول لى أن الأرقام يمكنها أن تكون مخادعة وأن واحدا زائد واحد لا يمكن أن يساويا اثنين لأنه لا يوجد واحد يساوى واحدا فى هذا العالم. ويمكننا أن نفهم اتجاه الدكتور جلال أمين إلى الكتابة فى الموضوعات الاجتماعية والسياسية والثقافية العامة حيث إن كلها تعكس الواقع المعاش أفضل كثيرا من لعبة خداعنا بالأرقام من جهابذة «فين السنيورة» فى لعبة الثلاث ورقات التى يلعبها معنا يوميا وزراء الاقتصاد والمالية والاستثمار وغيرهم.

اختار جلال أمين «مشكلة الغذاء فى مصر وعلاقته بالتنمية» موضوعا لرسالته للدكتوراة، وتناول من خلال هذا الفصل موضوعا غاية فى الخطورة وهو طريقة كتابة الرسائل ومدى إضافتها للعلم، فالموضوع هو كيف يمكنك أن تكتب المفروض عليك كتابته بغض النظر عن أهميته، فكان عليه إضافة بعض المعادلات الرياضية وإلا لما اكتسبت الرسالة الاحترام الواجب، وعليه أن يستخدم بعض المناهج العلمية الحديثة لإضفاء الهيبة على الرسالة فقام هو باستخدام تحليل النفقات والمنافع رغم جهله التام بالجوانب الفنية فى الزراعة المصرية ولا يكاد يعرف على حد قوله التفرقة بين فدان مزروع بالقطن وآخر مزروع بالقمح. وكان لا يعرف العوامل المتعلقة بالتربة والرى التى قد تكون أهم من أى عامل اقتصادى فى تحديد قرار المزارع فى نوعية الزراعة، فكل هذه العوامل الهامة بشكل واقعى لا تهم إذا كان الغرض الحصول على الدكتوراة. وبالطبع لم تكن المشرفة على الرسالة أكثر علما فيما يخص الزراعة المصرية. وفى الواقع هذا هو الحال فى معظم إن لم يكن كل الرسائل التى أعدها أصدقائى. فالجامعات أصبحت مثلها مثل الأرقام مخادعة. وانضمت رسائل الدكتوراة لعصر الجماهير الغفيرة.

أطلق الدكتور جلال أمين على النصف الثانى من القرن العشرين العصر الأمريكى، وهو ممتد معنا حتى الآن، مؤكدا كلمات الشاعر أحمد فؤاد نجم التى كتبها فى ستينيات القرن الماضى فى أغنية «جيفارا مات»: «دا منطق العصر السعيد.. عصر الزنوج والأمريكان.. الكلمة للنار والحديد.. والعدل أخرس أو جبان». فقد قامت الثورة المصرية برضا أمريكى، واستمر الوجود الأمريكى فى مصر بشكل أو بآخر حتى كتابة هذه السطور. وقد أفرد الكتاب فصلا عن الثورة المصرية، تناول خلاله الكاتب شعوره تجاه النظام وتجاه جمال عبد الناصر. وكان هذا التناول فى منتهى الواقعية والإنسانية بالنسبة لى، فقد اعتدت أن أقرأ انحيازا مطلقا أو عداء عنيفا تجاه عبد الناصر، ولكن فى هذا الكتاب حكى لنا جلال أمين قصة مختلفة بها كافة درجات الرمادى واختفت قصة الطيب والشرير المكررة أو ثنائية: (انت بتشجع الأهلى ولا الزمالك؟). فقد كان سرور جلال الشاب الذى كان وقتها فى السابعة عشرة من عمره غامرا بقيام الثورة وتبادل التهانى مع أصدقائه بفرح صادق، ثم انقلب الحال وأصيب بخيبة أمل فى الثورة فى مارس ١٩٥٤ بعد قرار عزل محمد نجيب حتى أنه انضم لاعتصام فى مبنى الجامعة للمطالبة بعودة نجيب.

بعدها تم الاعتداء على السنهورى المناصر لنجيب وبعدها بشهرين مات الوالد أحمد أمين، وفى هذه الفترة نشأ لديه شعور قوى بكراهية جمال عبد الناصر باعتبار أن له الدور الأكبر فى عزل نجيب وترتيب الاعتداء على السنهورى وتوقيع اتفاقية الجلاء التى كرهها الكاتب كراهية عميقة لرفضه بعض نصوصها والخاصة بعودة الانجليز لاحتلال قناة السويس فى حالة الاعتداء على أى دولة عربية. وتدور الأيام وإذا بقرار عبد الناصر بتأميم قناة السويس يحول تلك الكراهية فى نفس كاتبنا إلى تعاطف وتقدير ومحبة وتتفجر فرحة واعتزاز أكبر مما يمكن وصفه، وتتأكد تلك المشاعر بوحدة مصر وسوريا، ثم تأتى قرارات التأميم عام ١٩٦١ فيبلغ حماس جلال أمين ذروته وظن أن الآمال الكبرى على وشك أن تتحقق وأننا على وشك أن نقبض على السحاب بأيدينا (وهو ما لخصه الشاعر العظيم صلاح جاهين فى احدى قصائده: «كان وعد منك.. كان حلم منا.. قالت الشفايف.. شافت عيونا»). ولكن عجلة الأحداث تدور فى اتجاه مختلف عما يأمله، ويذكر الكاتب أن أول شرخ فى هذا التعاطف بدأ عام ١٩٦٣ بموقف عبد الناصر السلبى من ميشيل عفلق وهو الأب الروحى لحزب البعث وخاصة أن جلال أمين كان قد انضم لحزب البعث خلال سنوات الجامعة، وتتوالى الأحداث التى تفقده التعاطف بالكامل مع الحكومة المصرية ومع جمال عبد الناصر، فالدولة تتحول تدريجيا إلى دولة بوليسية ومخابراتية، القمع السياسى يصل لمعدلات غير مقبولة وجاء التحول دراميا من أحسن الأحوال إلى قبح الأهوال. وخلال هذه الفترة قبضت الحكومة على صديقه «على مختار» دون أى سبب واضح وعلى الأرجح كان سببا شخصيا. قرأ أخوه محمد فى الجريدة الصباحية وهو يهم بالذهاب إلى مكتبه كرئيس لمجلس إدارة شركة إيديال خبر إحالته إلى المعاش ولم يكن قد بلغ الخمسين.

وعند ذهاب أخيه عبد الحميد إلى معمله فى المركز القومى للبحوث لم يجد أى أثر للأجهزة التى يستخدمها فى بحوثه وعرف أنها نقلت إلى مركز الطاقة الذرية فى اليوم السابق لأن مسئولا كبيرا سوف يفتتح هذا المركز، ومنذ ذلك اليوم امتنع عبد الحميد عن الذهاب إلى مركز البحوث بل وانقطع تماما عن التدريس فى كلية الهندسة ولم يكن قد بلغ الأربعين. ثم تأتى الهزيمة العسكرية عام ١٩٦٧ والتى أطلقوا عليها النكسة لتصيب المجتمع كله بصدمة كاسحة ويذكر فى كتابه أن الحزن كان عميقا والذهول كان أكبر، أما خيبة الأمل فكانت أعظم وأخطر وبالتالى فلا عجب أنه تلقى خبر وفاة عبدالناصر بهدوء وبمشاعر فيها من الدهشة أكثر مما فيها من الحزن، وتدور دورة الزمان دورتها المخيفة فيعود عبد الناصر فى قلب جلال أمين كما كان بعد قرار التأميم رجلا محترما للغاية وأصبح على استعداد كامل لنسيان كل ما ارتكبه عبد الناصر من أخطاء، فما قيمة الحريات السياسية أمام بيع وطن، فقد بدأ السادات فى تنفيذ المشروع الأمريكى بداية بالانفتاح الاقتصادى عام ١٩٧٤ ثم السلام مع إسرائيل وما تلاه من تنازلات فى كافة المجالات، الأمر الذى أطاح باستقلال مصر السياسى.

نحن أمام قصة من لحم ودم وليست من ورق سلوفان كما اعتدنا.

وقد طبق جلال أمين معاييره للحكم على الأشخاص على أنور السادات وهما علاقة الشخص بالأخلاق وبالفكر، فوجد أن السادات يثير السخرية والرثاء أكثر مما يثير الاحترام أو الحب، فبدا أنه رجل غير جاد ومغامر لمصلحة نفسه، كثير المزاح.. قليل الصبر على القراءة أو التفكير مع إفراط فى الحرص على الفخفخة. وكان كل ما يصل إلى جلال أمين مما يتعلق بسلوكه أو مواقفه يؤكد صحة هذا الموقف السلبى ويقويه. هكذا إذن يطبق جلال أمين معاييره للحكم على الأشخاص.

وفى لحظة التهليل والزغاريد التى شنها السادات بعد حرب أكتوبر، أصاب جلال أمين غم شديد، فبعد أسبوعين من قيامها وضحت رغبة أنور السادات فى السلام وبدا له أن هناك خطة أمريكية بمباركة أنور السادات لدفع مصر إلى التصالح مع إسرائيل، لم يستطع البقاء فى وطن يتم بيعه فرحل إلى الكويت فى بداية ١٩٧٤ للالتحاق بالعمل فى الصندوق الكويتى. وانضم جلال أمين إلى قافلة المثقفين المهاجرين الذين سافروا بين عامى ١٩٧٢ و١٩٧٧ بعد أن أدركوا هول المؤامرة التى ينفذها أنور السادات، كان من بينهم من عائلتى والدى عبد الرحمن الخميسى وخالى على الشوباشى الكاتب والروائى، وغيرهما الكثير مثل أحمد بهاء الدين وألفريد فرج ومحمود السعدنى وأحمد عبدالمعطى حجازى ورجاء النقاش وصلاح الليثى وغالى شكرى ونبيل زكى وأحمد عباس صالح وأمير اسكندر ومحمود أمين العالم وغيرهم الكثير ليشكلوا موجة كاملة من هجرة المثقفين المصريين بعد موجة هجرة أصحاب الملايين فى الستينيات ولكل عصر مطرودوه ورجاله.

وجاءت بعد الكويت محطة الولايات المتحدة التى وجدها أسوأ حالا مما تخيله جورج أورويل فى ١٩٨٤، فأورويل كان يكتب عن النظم الديكتاتورية، ولم يكن يتخيل أن يصل الأمر بالنظم «الديمقراطية» إلى هذا الوضع الشمولى، وقد اعتبر جلال أمين الوضع فى مصر وأمثالها مما شاع اعتبار نظام الحكم فيها شموليا، وهو بالفعل كذلك، أفضل حالا من الوضع فى الولايات المتحدة، فقد ينعم أهل مصر بدرجة

أكبر من الاستقلال وحرية التعبير عن النفس، مما يتمتع به الأمريكيون، لمجرد أن المصريين لا يعتريهم أى شك فى أى وقت فى زيف ما يزعمه نظامهم من ديمقراطية، ولا تثير فيهم الدعاية السياسية من خلال وسائل الإعلام إلا السخرية المعلنة أو الصامتة، بينما يبدى الأمريكيون استعدادا مدهشا لقبول ما تقوله لهم وسائل الإعلام. وقد اعتاد المصريون قراءة ما بين السطور فى إطار شكهم التاريخى بما تدعيه الحكومة، وعلى العكس من ذلك فالأمريكيون يسيرون كالإبل العمياء وراء حكوماتهم. ومن المنطقى أن نفهم شعور جلال أمين إزاء الشعب الأمريكى إذا وضعنا عدستى الأخلاق والفكر على عيوننا، فهو شعب يهتم بالكثرة على حساب الجودة والسرعة على حساب العمق. وهو يحكى لأخيه حسين عن لوس أنجلوس فى عام ١٩٧٨ فيقول: «لا تستطيع أن تأمن على أولادك فيها، فالجو ينضح بالجنس والجريمة والمخدرات». فما أشبه قاهرة اليوم بأمريكا منذ ثلاثين عاما. فالجنس يطل علينا من معظم القنوات الفضائية عبر عشرات الفيديو كليب والبرامج. والمخدرات تباع فى كل شارع من شوارع القاهرة، أما الجريمة فما زلنا - ونحمد الله - متأخرين فيها قليلا.

وينهى الدكتور جلال أمين سيرته الذاتية بفصل بعنوان البدايات والنهايات وهو نص أدبى يقع فى حوالى الستين صفحة شديد الشبه بأعمال نجيب محفوظ المتأخرة مثل كتابه حديث الصباح والمساء، فقد نقل لنا وكما يبدو على العنوان حياة البشر منذ البدايات وحتى النهايات فى سرعة مقبضة، فنحن نتحمل الحياة لأننا نعيش تفاصيلها المضة ولكن من الصعب تحملها لو شاهدناها من عل، فهى سوف تبدو بلا معنى: ميلاد يلحقه موت وفى الطريق نسير مرغمين نحو المصير المحتوم ويظل عقلنا يحلم وحده بالنجوم ونخرج منها بقبض الريح. وكما قال الشاعر إبراهيم الأحدب «وما الحياة إلا طيف يمر بنا.. وصدق ميعاده نوع من الكذب».

فيقول جلال أمين فى هذا الفصل إنه عندما يستعرض حياته وحياة من يعرفهم وتاريخ بلده خلال حياته يجدها مليئة بالأمثلة على خيبة الأمل والرجاء، فكم علق آمالا على تغيّر سياسى فى مصر ثم ظهر أن الأحوال لم تتحسن بسببه بل أصبحت أسوأ مما كانت عليه. كم تصور أن هناك نموذجا يُحتذى فوجد أنه ليس أفضل من غيره، كم أمل فى أن العلم يمكن أن يمدنا بمعرفة يقينية بالعالم ثم ظهر له مدى خضوع العلماء للتحيزات والأهواء. ولكن خيبة الأمل تلك تبدو منطقية تماما إذا فهمنا النفس البشرية، فالإنسان لديه ميل طبيعى فى أن يرغب فى أشياء تفوق قدراته، أو أن يطمح فى تحقيق رغبات متعارضة لا يمكن أن يتحقق بعضها إلا إذا فشل فى تحقيق رغبة أخرى، فالإنسان يريد أكبر قدر من المال وأكبر قدر من راحة البال فى نفس الوقت. يريد احترام الناس وحبهم وفى نفس الوقت السيطرة عليهم. وإذا لم يطمح إلى كل ذلك فقد يرغب فى أشياء تتعارض مع رغبات الآخرين. فما الذى يمكن أن نتوقعه غير خيبة الأمل؟

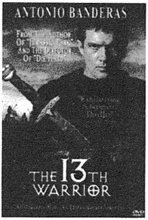
أما على المستوى السياسى فقد خاب أملنا فى تحقيق الديمقراطية وفى حل مشكلة فلسطين وفى تحقيق تقدم اقتصادى وفى التقريب بين الطبقات وحتى فى نشر التعليم ومحو الأمية وفى نظام اجتماعى أكثر عدالة، ولا يبدو للمؤلف أن المصريين اليوم يتمتعون بحرية سياسية أو فكرية أكبر مما كانوا يتمتعون بها قبل ١٩٥٢، فالنظام فى الثمانينيات والتسعينيات وحتى الآن استمر فى لا مبالاته بالزيادة الفاحشة فى التفاوت بين الدخول واستمرار الكساد الاقتصادى وارتفاع معدلات البطالة كما استمر النظام فى استكانته لمطالب الأمريكيين والإسرائيليين وممثلى المؤسسات الدولية. أما الديمقراطية السياسية التى اتضح زيفها فى عصر السادات فقد زاد تزييفها فى عصر مبارك.

حاول الدكتور جلال أمين فى نهاية كتابه الممتع أن يقبض قلبنا بخيبات الأمل المتصلة ولكنه لم ينجح تماما، فالكتاب متعة فكرية حقيقية وقد استطاع الكاتب بطرقات إزميله فى صخرة الحياة أن يستخرج تمثالا كامل الأوصاف لا زيادة فيه ولا نقصان. ■

كتاب الزاوية

رسالة ابن فضلان

الفيلم والمسلسل



يعتمد فيلم الحركة «المحارب الثالث عشر» (١٩٩٩) على رواية مايكل كرايتون أكلة الموتى. الفيلم من إخراج جون ماكتيرنان ويدور حول رحلة أحمد بن فضلان (أنطونيو بانديراس) الواقعية فى نهر فولجا بالقرن العاشر الميلادى. يثير أحمد غضب أحد النبلاء من ذوى السلطة فى بغداد فيأمره الخليفة بأن يصبح «سفيرًا للشمال» مما يعنى إقصاءه عن المدينة. يرتحل بصحبة أحد أصدقاء والده فيقابل مغيرين من الفايكنج مات ملكهم للتو. يجاهد صانعو الفيلم لإضفاء صبغة تاريخية عليه: إذ يشتمل على حوارات باللغة العربية والسويدية والنرويجية والدنمركية واليونانية. إلا أن حبكة الفيلم هى بالأساس إعادة سرد معاصر لملحمة بيالوف الأنجلو سكسونية تمتزج بعناصر ألف ليلة وليلة. وقد أنتجت سوريا خلال العام الحالى مسلسلاً يروى قصة ابن فضلان ويربطها بأحداث الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما عرف بالرسوم الكاريكاتورية. وقد جرى عرض المسلسل وهو بعنوان «سقف العالم» فى شهر رمضان المبارك على الفضائية السورية والفضائية اللبنانية.

سينما شابة أمس واليوم

هاشم النحاس


على الكسار


نجيب الريحانى


إسماعيل ياسين


عبد المنعم مدبولى

■■ أقصد بالسينما الشابة، السينما المصرية خلال العشر سنوات الأخيرة، خاصة الأفلام التى ظهرت مع بداية القرن الـ ٢١. والهدف رصد ما طرأ عليها من تحولات فى القيم الجمالية والثقافية، واخترت لها عنوان «السينما الشابة» لأن معظم العاملين بها من الفنانين والفنيين من الشباب الذين ظهرت أعمالهم لأول مرة فى هذه المرحلة. الأمر الذى لم يسبق له مثيل بهذه الدرجة فى مراحل سابقة.

ورغم ما تعرضت له هذه السينما من هجوم شرس من بعض النقاد، ورغم ما اتسم به الكثير من أفلام هذه المرحلة بالسطحية، إلا أن بها قدرًا كافيًا من الأفلام الجيدة، ما يستحق التأمل والتقدير.

ولها من السمات الخاصة ما تميزها عما سبق، وتجسد ما يمكن أن نطلق عليه السينما الشابة أو الموجة الجديدة فى السينما المصرية.

ولست مبالغًا إذا ذهبت إلى أن هذه المرحلة الجديدة «بأفلامها الجيدة» تمثل قفزة فى السينما المصرية تماثل على نحو ما القفزة التى حققتها على إثر إنشاء استديو مصر، ولنفس الأسباب تقريبًا.

فالقفزة التى حققها استديو مصر قامت على ساقين أحدهما توفير أحدث المعدات السينمائية وقتها، وثانيهما إرسال البعثات للخارج لتوفير الكوادر البشرية وضم إليه من سبق له الدراسة فى الخارج.

وكذلك ترجع القفزة التى حققتها السينما الشابة اليوم إلى عاملين رئيسيين: أولهما الأخذ بوسائل التقنية الحديثة التى اجتاحت العالم وأصبحت ميسرة للجميع وساهمت فى رفع المستوى التقنى للفيلم، وعلى الأخص معدات المونتاج الإلكترونى «الكمبيوتر». وذلك فضلاً عن تقدم إمكانيات آلة التصوير ومعدات التحكم فى حركتها، وارتفاع نسبة حساسية الفيلم الخام.

أما العامل الثانى فهو وفرة الخبرة البشرية بفعل التراكم مع توالى دفعات خريجى معهد السينما، وانتشار دورات التدريب السينمائية، فضلاً عن انتشار الثقافة السينمائية ووفرة المعلومات التقنية الحديثة عن طريق المطبوعات أو شبكة المعلومات الدولية «النت». وتغلغل ثقافة الصورة فى الثقافة المعاصرة. وشجع ذلك على وجود جيش من الشباب الجدد «الفنانين والفنيين» العاملين فى هذا الحقل.

تحولات فنية

من أول الملامح العامة التى تميز أعمال هذه المرحلة الارتفاع بمستوى التقنية عامة «الكلام ينصب دائمًا على أفضل الأفلام». ولا يتوقف ذلك على نقاء الصورة، وإنما يمتد بوجه خاص إلى الدقة فى عمليات المونتاج التى لم تكن متاحة على نفس المستوى بالوسائل القديمة «المفيولا»، وكان لذلك أهميته فى تحقيق مصداقية السرد.

المعارك فى الأفلام القديمة مثلاً تبدو فى مشاهد هزيلة مثيرة للضحك، إلى جانب مثيلاتها من مشاهد المعارك فى الأفلام الحديثة التى تخلق واقعًا مقنعًا على الشاشة يكتسب المصداقية «القدرة على الإقناع» حتى فى أشد حالاته مبالغة، مثل تصادم المركبات أو تحطيمها أو العربات الطائرة أو الساقطة من فوق القمم أو ما شابه ذلك. وكذلك الحال فى المطاردات أو الاشتباك الجسدى.

وقد أدت الدقة مونتاجيًا «بالإضافة إلى الحيل السينمائية» إلى عودة أفلام الجريمة والحركة بعد أن أخذت فى التراجع فى العقود السابقة.

كما أدت هذه الإمكانية المونتاجية إلى الإغراء باستخدام مشاهد الحركة «المعارك - المطاردات» داخل معظم الأفلام رغم اختلاف نوعياتها.

ويجب ألا ننسى أهمية المونتاج الحديث فى المساعدة على خلق إيقاع أسرع فى السرد يتناسب مع العصر. والإيقاع السريع الذى شمل معظم الأفلام يمثل ملمحًا واضحًا فى أفلام بداية هذا القرن يكاد يفصلها عما سبق.

واختفت اللقطة الطويلة الثابتة التى يدور فيها الحوار بين اثنين أو أكثر.

والملاحظ الارتفاع العام لأداء الممثلين الذى يبدو أكثر تلقائية مما سبق حتى بالنسبة للممثلين الثانويين، ويرجع ذلك إلى مرونة حركة الكاميرا وتقدم إمكانيات المونتاج، فضلاً عن تفهم الممثل لمتطلبات الصورة السينمائية، ومراعاة المخرج لها عند توجيه الممثل أو استخدام الكاميرا.

وتمثل الأغنية أحد معالم أفلام هذه المرحلة التى عادت إليها بقوة، بعد أن كادت تخبو، حيث لا يخلو منها فيلم من الأفلام أو يكاد. وقد تحولت الأغنية فى هذه المرحلة إلى نوع الأغنية الشائع وهى أغانى الكليب التى تتميز بالإيقاع السريع وثراء الصورة وحيوية المونتاج على نحو غير مسبوق.

وكثيرًا ما يتم استخدامها دراميًا أو مصاحبًا للحدث وبعض الأغانى تأتى من خارج الشاشة، ولم يعد للأغنية الطويلة أو أغنية الطرب التى تقصد لذاتها - غالبًا - مكان فى هذه الأفلام. ولم نعد نرى المغنى الذى يقف وحده أمام الكاميرا معظم الوقت، ولا شك أن الأغنية الحديثة فى الفيلم أصبحت أكثر سينمائية.

وإذا كانت الأفلام الكوميدية قد اجتاحت السينما مع بداية هذه المرحلة، فما لبثت السينما المصرية مع بداية هذا القرن أن استردت توازنها بإنتاجات فيلمية مختلفة الأنواع، فإلى جانب الأفلام الفكاهية نجد أيضًا الأفلام الغنائية وأفلام الحركة، فضلاً عن الأفلام الواقعية.

وهناك من الأفلام ما تتداخل فيه معظم هذه الأنواع (غاوى حب مثلاً). وهذا التداخل الذى يبدو على نحو أكثر كثافة مما كان فى أفلام المراحل السابقة يمثل أحد الملامح الفارقة بين أفلام هذه المرحلة وما سبقها.

ومن العوامل التى أضفت ثراء للصورة فى أفلام هذه المرحلة الميل فى عدد غير قليل منها إلى التصوير فى أماكن طبيعية وسياحية بعيدة عن القاهرة، ومنها ما هو خارج مصر (حرامية فى تايلاند - فول الصين العظيم - أفريكانو).

ومن الملامح أيضًا انتشار الفكاهة فى الغالبية الساحقة من الأفلام بحيث يندر أن نجد فيلمًا دون مواقف فكاهية، وقد غلب فى كثير منها وخاصة (فى الأفلام الكوميدية) القفشات اللفظية «الإفيهات» التى أثارت النقد ضدها.

تحولات ثقافية

(١) المحرمات

ولعل أهم ملامح أفلام هذه المرحلة

وبينهما ١٠٠ عام!

هذه المرحلة الجديدة «بأفلامها الجيدة» تمثل قفزة فى السينما المصرية تماثل على نحو ما القفزة التى حققتها على إثر إنشاء استديو مصر، ولنفس الأسباب تقريبًا


فؤاد المهندس


عادل إمام


محمد هنيدى


محمد سعد

هو المحاولة المتكررة لاقتحام أو اختراق المحرمات. الجنس مثلاً فى «مذكرات مراهقة» وغيرها، الدين فى «بحب السيما»، السياسة فى «عمارة يعقوبيان». ولا يقتصر الأمر على مثل هذه الأمثلة التى تحتل فيها المحرمات موضوعًا أساسيًا، فهناك العديد من الأفلام التى تخترق المحرمات بشكل جزئى أو على هامش الأحداث، نذكر مثلاً تعليق كريم عبدالعزيز فى دور لص السيارات بعد أن مر بنقطة تفتيش، وقوله لجنود النقطة وهو يدعى تحيتهم «مصر أمانة فى أيديكم»، بينما نراه قد مر بسيارته المسروقة دون وعيهم «فيلم أبو على».

وفى فيلم «ميدو مشاكل» نجد سخرية لاذعة من التقديس الأعمى للوطن عندما نرى أحمد حلمى وهو يتدرب على عملية تخريب باسم الوطن تصاحبها أناشيد وطنية، بينما نعلم أنها على العكس ضد مصالح الوطن وأنه كان مخدوعًا.

وكذلك نجد فى فيلم «عسكر فى المعسكر» سخرية لاذعة من التمسك الحرفى بالنص الدينى عندما يأمر محمد هنيدى صديقه بالتمسك بالحديث النبوى الذى يأمر بطاعة الأم، ونحن نعلم أن أمه تحرضه على القتل للأخذ بالثأر، ونعلم فى الوقت نفسه كما يعلم هنيدى فيما بعد أنه هو المطلوب للثأر.

(٢) صورة القبطى

عهدنا فى الأفلام المصرية طوال المراحل السابقة إسناد بعض الأدوار الثانوية لشخصية القبطى المصرى. وغالبًا ما يكون شخصية نمطية تتمثل فى المحاسب أو الصراف الذى يتصف بالأمانة والدقة فى عمله، وغالبًا ما يكون طيب الطباع. وكان الدافع إلى ذلك هو - كما يبدو - تحاشى الخوض فى حياة الشخصية القبطية المصرية رغم امتزاجها فى نسيج حياتنا الاجتماعية، وذلك تجنبًا لوهم إثارة الفتنة.

الجديد فى هذه المرحلة هو ظهور عدد غير مسبوق من الأفلام تتجاوز هذا المستوى السابق من المعالجة الهامشية. وتدخل بنا إلى أعماق هذه الشخصية والكشف عن متناقضاتها، فضلاً عن دخول الأماكن القبطية المقدسة ومعرفة بعض ما يجرى بها من حياة اجتماعية، إلى جانب دورها الدينى، مما لم يسبق عرضه فى السينما المصرية. وفى هذه الأفلام تقوم الشخصية القبطية بدور رئيسى وليس ثانويًا كما سبق. بالإضافة إلى الاقتراب من التعبير الواقعى للعلاقة بين المسلم والقبطى وإن شابه بعض المثالية.

نضرب مثلاً لذلك بفيلم «الرهينة» إخراج ساندرا نشأت ٢٠٠٧ وإن جاء محافظًا ودعائيًا نوعًا ما فى تناول العلاقة بين المسلم والقبطى فى مصر، من خلال قصة قبطى يتم اختطافه، وتجرى محاولة إلصاق التهمة بالمتطرفين الإسلاميين، بينما يتم إنقاذه باعتباره شخصية مصرية «وإسقاط العامل الدينى» على يد شخصية مسلم.

ويتناول «فيلم هندى» علاقة صداقة «مثالية» بين مسلم وقبطى يتنافسان حول امتلاك شقة، ينتهى بهما الأمر إلى تنازل كل منهما للآخر عن الشقة. رغم أن ذلك أدى إلى فقدان كل منهما لخطيبته. وفى الفيلم ندخل الكنيسة لأول مرة لنرى محاولات شاب قبطى يتقرب إلى فتاة قبطية.

أما «فيلم ثقافى» فيضم مشهدًا أراه من أجمل المشاهد وأعمقها تعبيرًا عن العلاقة الحميمة بين الشبان المسلمين والأقباط، حيث يتسلل مجموعة من الشبان المسلمين بسهولة داخل الكنيسة أثناء أداء طقوس الوفاة لوالد صديقهم ليطلبوا من صديقهم مفتاح شقته حتى يتيسر لهم مشاهدة فيلم بورنو.

حركة الشبان داخل الكنيسة وتقاطعها مع إجراءات الطقوس وتعاملهم مع صديقهم بتلقائية شديدة تكشف عن ألفتهم بالمكان وعدم غرابته عنهم. وحسرة الصديق على عدم مشاركتهم الفرجة على الشريط وهو يعطيهم المفتاح يعبر عن الواقع النفسى لهذه الشخصية دون تزييف مفتعل.

ويبدو أن التناول الواقعى الجرىء الصادق للشخصيات والعلاقات القبطية التى تشغل لأول مرة أحداث الفيلم «بحب السيما» كانت صدمة بالنسبة لمشاعر بعض الأقباط الذين لم يعتادوا رؤية أنفسهم. ومنها بعض تناقضاتهم على هذا النحو من الوضوح. رغم أن هذا التناول فى رأيى يجعل الشخصية القبطية بواقعيتها وتناقضاتها وجوانب ضعفها أقرب إلى قلوب المشاهدين، حيث يتناول الفيلم شخصية قبطى يؤدى تزمته الدينى إلى انحراف زوجته وإن انتهى الفيلم بإعادة القبطى إلى توازنه النفسى وتراجع الزوجة عن الانحراف بفضل الابن الذى كان يحب السينما. وشارك الأب فى النهاية هواية ابنة فى حب السينما والإقبال على الحياة. فيلم مصرى وشخصيات مصرية ١٠٠٪ كانت قبطية فى الفيلم ويمكن أن تكون إسلامية. ومن مشاهد الفيلم التى أثارت الجدل مشهد شاب يغازل من نافذة الكنيسة فتاته فى البيت المواجه.

وأحدث هذه الأفلام فى مجموعتنا هو فيلم «عمارة يعقوبيان» ٢٠٠٦ الذى يقدم شخصية شريرة يدبر مؤامرة للاستيلاء بدون وجه حق على شقة بالعمارة، الذى أثار أيضًا بعض الأقباط رغم أن مثل هذه الأعمال الشريرة لا تعبر إلا عن ضعف بشرى لا علاقة له بالهوية الدينية، ووجود مثل هذه الشخصية يجعل من الشخصية القبطية شخصية طبيعية ضمن إطار الشخصية المصرية ويبعد عنها سمة المثالية المفتعلة التى كانت تتصف بها فى الأفلام السابقة، لكنها من ناحية أخرى تعزل الشخصية القبطية عن الواقع المصرى.

(٣) إبداعات نسائية

من الملاحظ أن المرأة قامت بدور فعال فى تأسيس السينما المصرية وكان فى مقدمتهم رائدات السينما المصرية اللائى ساهمن فى الإخراج والتمثيل والإنتاج بداية من عشرينيات القرن الماضى، وهن عزيزة أمير وفاطمة رشدى وأمينة محمد وآسيا ومارى كوينى. غير أن هذا الدور أخذ فى الانحسار تدريجيًا حتى اختفى تقريبًا فى العقود الأخيرة من القرن الماضى.

ولعل من أبرز الظواهر التى تميز هذه المرحلة «موضوع الدراسة» عما سبقها من مراحل تاريخ السينما المصرية هى ظاهرة اقتحام المرأة بأعداد غير مسبوقة فى العمل السينمائى الإبداعى «خارج التمثيل»، حيث بلغ عدد المخرجات ستا، وجميعهن من الشابات الجدد فيما عدا واحدة فقط إيناس الدغيدى.

إذا كانت الأفلام الكوميدية قد اجتاحت السينما مع بداية هذه المرحلة، فما لبثت السينما المصرية مع بداية هذا القرن أن استردت توازنها بإنتاجات فيلمية مختلفة الأنواع

ووصل عدد المونتيرات الجديدات إلى ١٣ مونتيرة. وذلك فضلاً عن عمل المرأة لأول مرة فى التصوير السينمائى «نانسى عبدالفتاح» فى فيلم «فى شقة مصر الجديدة».

واصلت إيناس الدغيدى مرافعتها الدفاعية عن حقوق المرأة فى أفلام: «مذكرات مراهقة» ٢٠٠١، «الوردة الحمراء» ٢٠٠٢، «ما تيجى نرقص» ٢٠٠٦، وفى «الباحثات عن الحرية» ٢٠٠٥ طرحت مسألة حق المرأة فى الحرية الجسدية.

وتعتبر ساندرا نشأت فى مقدمة المخرجات الشابات. قدمت ٦ أفلام متنوعة الاتجاهات، وهى «مبروك وبلبل» ٩٨، فيلم إنسانى بطله شخصية معوقة، و«ليه خلتنى أحبك» ٢٠٠٠ من نوع الأفلام العاطفية، و«حرامية فى كى جى ٢» (٢٠٠٢)، و«حرامية فى تايلاند» ٢٠٠٣ من نوع أفلام الكوميديا الخفيفة، أما «ملاكى إسكندرية» ٢٠٠٥ (سنذكره تفصيلاً فيما بعد، و«الرهينة» ٢٠٠٧ فمن نوع أفلام الحركة، وفيهما تصل ساندرا نشأت إلى أعلى مستوياتها الحرفية.

ومنهن أسماء البكرى التى قدمت فى هذه المرحلة «كونشرتو فى درب سعادة» ٢٠٠٠، ومن قبله فى المرحلة السابقة «شحاذون ونبلاء». والفيلمان يدوران فى أجواء شعبية وإن كانا مأخوذين عن روايتين فرنسيتين لألبير قصيرى.

أما هالة خليل فقدمت اثنين من أرقى وأرق أفلام هذه المجموعة وهما «أحلى الأوقات» ٢٠٠٤ عن علاقة إنسانية حميمة بين ثلاث من الصديقات مع التعرض لمشاكل حياتهن الخاصة، و«قص ولزق» ٢٠٠٧ عن حلم الهجرة الذى يداعب الشباب بسبب البطالة وضيق الحياة الاقتصادية.

ومنهن كاملة أبوذكرى التى قدمت «سنة أولى نصب» ٢٠٠٤ وكانت أكثر نضجاً فى «ملك وكتابة» ٢٠٠٦، وسخرت فيه من الجمود العاطفى أو اللامبالاة العاطفية لدى الرجال.

أما منال الصيفى فقدمت فيلماً فريداً فى موضوعه، حيث تطرح فلسفة خاصة عن الحياة والموت فى «الحياة منتهى اللذة» ٢٠٠٥. ومن الملاحظ فيما عدا ساندرا نشأت وأسماء البكرى نجد أن بقية المخرجات أسندن أدوار البطولة فى أفلامهن إلى المرأة، وهو ما يعنى أهمية خاصة، حيث يشير إلى دور المرأة الفنانة فى التعبير عن المرأة الإنسانية، بعد أن كان الرجال يحتكرون هذه المهمة.

أنواع فيلمية

• الأفلام الكوميدية

فى مقدمة الأنواع الفيلمية التى عالجتها هذه المرحلة، الأفلام الكوميدية التى تدفقت وأثارت موجة من النقد نتيجة لسطحية عدد كبير منها ولكثرة اعتمادها على القفشات اللفظية «إفيهات». لكنها من ناحية أخرى تضمنت عدداً غير قليل من الأفلام التى مثلت مرحلة جديدة من الكوميديا، المعبرة عن زمنها وبأسلوب سينمائى تميز عما سبق بسرعة الإيقاع وتنوع اللقطات وثراء المناظر.

ومن خلال هذه النوعية من الأفلام ظهر على القمة ممثلو فكاهة جدد من الشبان أمثال محمد هنيدى - علاء ولى



الدين - محمد سعد - هانى رمزى - أحمد حلمى، إلى جانب آخرين من المساعدين، وهى مجموعة لم يتوفر مثلها فى المراحل السابقة، حيث كانت تسود شخصية كوميدية واحدة «تقريباً» فى كل مرحلة مثل نجيب الريحانى - إسماعيل يس - عادل إمام.

ومن أول هذه الأفلام التى حققت نجاحاً جماهيرياً كان مفاجئاً «إسماعيلية رايح جاى» إخراج كريم ضياء الدين ١٩٩٧. ومن الجدير بالذكر أن ما حققه الفيلم من نجاح مفاجئ كان وراء السبب فى تدفق الأفلام الفكاهية فيما بعد، التى بالغت فى استخدام المواقف والأغانى والكلمات العبثية التى كانت بدايتها أغنية «كامننا» فى فيلم «إسماعيلية رايح جاى»، «كاتش كادر فى الألولو كامننا».

ولا يخفى دلالة مثل هذه التعبيرات العبثية التى انتشرت انتشاراً كاسحاً يمثل انعكاساً للعبثية السائدة فى المجتمع المصرى المعاصر.

ومن بين هذه الأفلام اختص «اللمبى» بأقسى الهجوم من النقاد، بينما قوبل من الجمهور بإقبال ساحق، ووصل إيراده إلى أعلى إيراد حققه فيلم مصرى فى تاريخ السينما المصرية.

والحقيقة فى رأيى أن الفيلم تضمن من التلميحات والتصريحات ما يحمل دلالات ثقافية مهمة غابت على النقاد، حيث عبثاً تحاول الشخصية الرئيسية فى الفيلم أن تجد لها مكاناً أو مصدراً للرزق، لكن الظروف تكون دائماً غير مواتية، وخاصة تكرار مطاردات الشرطة لمشاريعه الاقتصادية البسيطة. ولكن يبدو أن استجابة الجمهور كانت أكثر وعياً بما تحمله دلالات الفيلم من نقد لاذع لما انتهى إليه وضع الإنسان الفرد البسيط فى المجتمع المصرى. ومن ضمن المقدسات التى سخر منها الفيلم سخرياته بأغنيات أم كلثوم سواء عن الوطن أو الحب، وفى رأيى أن الفيلم من الناحية السينمائية كان مبشراً بمولد مخرج جديد للكوميديا. وقدم ما يمكن اعتباره أول أغنية سينمائية كوميدية فى السينما المصرية وهى أغنية «البسكلتة».

ويعتبر مخرج اللمبى «وائل إحسان» أبرز المخرجين الشبان الذين تخصصوا فى إخراج الأفلام الكوميدية «٦ أفلام حتى ٢٠٠٧» فى مقدمتها إلى جانب اللمبى، «اللى بالى بالك» ٢٠٠٣، زكى شان ٢٠٠٥، ومطب صناعى ٢٠٠٧، الأولان من تمثيل محمد سعد والأخيران أحمد حلمى.

ومن المخرجين الشبان أيضاً ممن ساهموا بأكثر من فيلم كوميدى «محمد أمين» الذى قدم من خلال فيلميه المتميزين رؤى فكرية لها أهميتها الخاصة بالنسبة للمجتمع المصرى والعربى، وهما «فيلم ثقافى» ٢٠٠٠، و«ليلة سقوط بغداد» ٢٠٠٥.

وعلى إدريس الذى قدم فيلمين من بطولة النجم الكوميدى الأشهر عادل إمام وهما «التجربة الدانماركية» ٢٠٠٢، «عريس من جهة أمنية» ٢٠٠٤. ومن مخرجى الجيل السابق سعيد حامد أكثر المخرجين إنتاجاً للأفلام الكوميدية فى هذه المرحلة (٩ أفلام ما بين ١٩٩٨ - ٢٠٠٥) أبرزها «صعيدى فى الجامعة الأمريكية» ١٩٩٨، الذى قدم بنجاح محمد هنيدى أحد ابرز نجوم المرحلة الذى واصل نجاحه مع نفس المخرج فى فيلمين متميزين «همام فى أمستردام» ١٩٩٩، و«جاءنا البيان التالى» ٢٠٠١.

ومن مخرجى الجيل السابق يواصل المخرج رأفت الميهى فى بداية هذه المرحلة تقديم رؤاه الكوميدية الخيالية الساخرة التى ترتفع إلى مستوى مناقشة القضايا الإنسانية العامة كما فى «تفاحة» ٩٧ ماجد المصرى، و«ست الستات» ٩٨ أشرف عبدالباقى.

ومن الأفلام الكوميدية التى تستحق الذكر فيلم «جواز بقرار جمهورى» إخراج خالد يوسف - «محامى خلع» إخراج محمد ياسين - «غبى منه فيه» إخراج رامى إمام، وأبرزت الأفلام الثلاثة المهارة الكوميدية للنجم هانى رمزى الذى قام ببطولتها.

ومنها أيضاً «معالى الوزير» إخراج سمير سيف وبطولة أحمد زكى ٢٠٠٢، و«السفارة فى العمارة» إخراج عمرو عرفة وبطولة عادل إمام ٢٠٠٥.

الأفلام الغنائية

كما عادت الأفلام الغنائية إلى الظهور فى هذه المرحلة، وأعنى بها الأفلام التى يقوم ببطولتها أحد نجوم الغناء. وكانت هذه الأفلام قد أخذت فى الانحسار فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين بعد أن كانت تحتل مكان الصدارة فى السينما المصرية منذ أيام نشأتها حتى الخمسينيات والستينيات.

وكانت الأغنية فى بداية هذه الأفلام تمثل مركز الثقل فى الفيلم أيام أن كان يقوم ببطولة الأفلام نجوم من مقام محمد عبدالوهاب وأم كلثوم، وإن تراجعت الأغنية قليلاً فيما بعد لتأخذ العناصر السينمائية الأخرى مكانتها تدريجياً إلى جانبها مع نجوم الغناء فيما بعد، مثل ليلى مراد - محمد فوزى - فريد الأطرش - شادية، وصولاً إلى عبدالحليم حافظ.

وقد امتلأ تاريخ السينما المصرية بالكثير من الأفلام الغنائية الممتعة التى أنعشت الوجدان العربى، وكانت الممثل



الشرعى للثقافة المصرية فى العالم العربى.

ومازالت هذه الأفلام تحتفظ بجاذبيتها حتى الآن مثل «غزل البنات»، و«شاطئ الغرام» (ليلى مراد)، و«ليلى بنت الشاطئ» و«كل دقة فى قلبى» (محمد فوزى) و«لحن الخلود» (فريد الأطرش) و«أيامنا الحلوة»، و«يوم من عمرى» و«أبى فوق الشجرة» (عبدالحليم حافظ)، والفيلمان الأخيران «يوم من عمرى» (إخراج عاطف سالم) و«أبى فوق الشجرة» (إخراج حسين كمال) قدم فيهما المخرجان ما يمكن اعتباره نموذجاً متقدماً لما عرف فيما بعد بأغنية الفيديو كليب، التى سبق لنا ذكر مواصفاتها. وقد أصبحت تسود بشكل مطلق فى أفلامنا الأخيرة.

ويرجع الفضل فى عودة الأفلام الغنائية مؤخراً إلى مجموعة جديدة من نجوم الغناء الشبان أمثال محمد فؤاد، ومن أفلامه «إسماعيلية رايح جاى»، «رحلة حب»، «غاوى حب». ومصطفى قمر فى «أصحاب ولا بيزنس» و«حريم كريم» وغيرهما. وتامر حسنى فى «حالة حب». وحكيم فى «على سبايسى». وخالد سليم فى «كان يوم حبك».

والجديد فى بعض هذه الأفلام أنها خرجت - عامة - عن نطاق قصة الحب المعهودة النمطية فى الأفلام الغنائية فى المراحل السابقة، بينما سار بعضها على نفس النمط الذى يحكى عن المغنى الشاب الفقير الذى يحقق الشهرة بعد ذلك، ويتزوج بمن يحب، ولكن أفلام هذه المرحلة الحديثة لم تحقق من المكانة الرفيعة ما سبق أن حققته الأفلام الغنائية القديمة.

ويعتبر فيلم «مفيش غير كده» حالة فريدة بين هذه الأفلام بما فيها الأفلام القديمة، حيث يقدم نموذجاً لفيلم «الكوميديا الموسيقية» مطابقاً للمواصفات العالمية لهذه النوعية، فنجد حوارات مغناة والكل يغنى والكل يرقص، ومنهم (أروى) المغنية الجديدة التى قدمها الفيلم، وهو ما يبشر باتجاه جديد للفيلم الغنائى فى السينما المصرية.

أفلام الحركة

وتمثل أفلام الحركة التى عادت هى الأخرى فى هذه المرحلة بعد انحسارها نوعاً فيما قبلها، ملمحاً جديداً من ملامح أفلام الشباب.

وقد كانت أفلام الحركة من أوائل أنواع الأفلام التى عرفتها السينما المصرية «إبراهيم لاما - نيازى مصطفى» غير أن ما تقدمه أفلام الحركة فى هذه المرحلة يمثل قفزة واسعة من الناحية الحرفية، إذا ما قارناه بأفلام نفس النوعية فى المراحل السابقة، ويرجع ذلك بالطبع إلى التقدم التكنولوجى المتاح الآن على نحو ما سبق أن ذكرناه.

ومن هذه الأفلام المعاصرة: «مافيا» إخراج شريف عرفة ٢٠٠٢ - «تيتو» إخراج طارق العريان ٢٠٠٤ - «حرب أطاليا» إخراج أحمد صالح ٢٠٠٥، ومن أبرزها «واحد من الناس» أحمد جلال ٢٠٠٦، «الرهينة» ساندرا ٢٠٠٧ - «خيانة مشروعة» خالد يوسف ٢٠٠٧.

وفى «ملاكى إسكندرية» ٢٠٠٥ قدمت ساندرا شكلاً نادراً من أشكال التحقيق فى أفلامنا المصرية داخل هذه النوعية، كما أن النهاية التى فاجأتنا بتحطيم اليقين الثابت لدى بطل الفيلم والمشاهد ببراءة البطلة يمثل نهاية غير مسبوقة.

غير أن هذه الأفلام فى عمومها رغم تقدمها التقنى غير المسبوق ارتمت تماماً (أو تكاد) فى أحضان الشكل الهوليوودى لهذه النوعية، ما يصيبها بالغرابة بالنسبة للمشاهد العربى.

الواقعية

خارج الأنواع النمطية السابقة يسهم هذا الجيل بمجموعة من الأفلام التى يمكن اعتبارها امتداداً لتيار الواقعية الذى يمثل أهم تيارات السينما المصرية (فى نظرى). وقد عهدنا فى هذا التيار أن يدور حول محور واحد فى كل مرحلة من المراحل، ففى مرحلة الخمسينيات وما بعدها كان المحور الأساسى هو إدانة العهد البائد، وما بعد ٦٧ كان المحور الأساسى التنديد باستبداد السلطة فى المرحلة السابقة، وفى السبعينيات كان المحور الأساسى نقد الانفتاح، وفى الثمانينيات كان المحور الأساسى الكشف عن أوجه الفساد المختلفة التى استشرت فى المجتمع نتيجة لسوء النظام. أما فى هذه المرحلة فيتخذ تيار الواقعية ثلاثة محاور:

المحور الأول: وهو الأقل أفلاماً التى تدور حول الفساد امتداداً لمحور المرحلة السابقة، وليس غريباً أن المبدعين الأساسيين لهذه الأفلام ينتمون إلى مراحل سابقة. وهم المخرج داود عبدالسيد فى فيلم «مواطن ومخبر وحرامى» ٢٠٠١، وكاتب السيناريو وحيد حامد الذى قدم فى هذه المرحلة الأفلام الثلاثة التالية «معالى الوزير» ٢٠٠٢ - «ديل السمكة» ٢٠٠٣ - والفيلمان من إخراج سمير سيف، و«عمارة يعقوبيان» ٢٠٠٦ إخراج مروان حامد.

أما المحور الثانى فقد جاء على قدر من الكثافة العددية غير المسبوقة، تدور حول مشاكل الشباب. وكانت البداية الفيلم الساخر «فيلم ثقافى» ٢٠٠٠ إخراج محمد أمين عن مشكلة مجموعة من الشباب يحاولون البحث عن مكان لمشاهدة شريط فيديو «بورنو». ومن أحدثها «أوقات فراغ» ٢٠٠٦ إخراج محمد مصطفى الذى يصور مجموعة أخرى من الأبناء يعانى كل منهم مشكلة خاصة مع الآباء. والفيلمان يمثلان نفساً جديداً فى السينما المصرية لا نجد ما يماثله فى المراحل السابقة إلا نادراً.

وفيما بين الفيلمين نجد من أفلام هذا المحور: «مذكرات مراهقة» ٢٠٠١ إخراج إيناس الدغيدى، «أسرار البنات» ٢٠٠١ إخراج مجدى أحمد على، والفيلمان يناقشان حب المراهقة وما يتبعه من مشاكل فى مجتمعنا الشرقى. و«سهر الليالى» ٢٠٠٣ إخراج هانى خليفة الذى يخترق لأول مرة قداسة مؤسسة الزواج ويضعها فى قفص الاتهام. و«حب البنات» ٢٠٠٤ إخراج خالد الحجر الذى يقدم مشاكل الحب من خلال ثلاثة نماذج من الأخوات البنات. و«بنات وسط البلد» ٢٠٠٥ عن علاقة البنات والصبيان المعاصرة. وموقفهم من الزواج، وآخرها «فى شقة مصر الجديدة» ٢٠٠٧ يطرح مشكلة العنوسة، والفيلمان من إخراج محمد خان. ومن الملاحظات المميزة فى هذه المجموعة بروز البطولة الجماعية فى أغلب ما ذكرناه من أفلام.

المحور الثالث ويمثله مجموعة من الأفلام التى نجح مخرجوها فى إضفاء طابع خاص، يميزها عن غيرها ويمنحها عمقاً يوسع من آفاق الفهم ما يتجاوز تفاصيلها الجزئية. وإن ظلت علاقتها متصلة بالواقع. ومن هذه الأفلام فيلما المخرج الكبير يوسف شاهين «الآخر» ١٩٩٩ و«إسكندرية نيويورك» ٢٠٠٤ اللذان يناقشان علاقة الشرق بالغرب. وإن جاء الثانى استكمالاً لرباعيته السينمائية التى مزج فيها بين سيرته الذاتية وسيرة الوطن. ويمكن أن نضيف إليها فيلمه «المصير» ١٩٩٧، وإن كان يدور فى جو تاريخى، إلا أنه يمس الواقع المعاصر بطرح موضوع التطرف الدينى فى العصور الوسطى.

ومنها «جنة الشياطين» ٢٠٠٠ و«بحب السيما» ٢٠٠٤، والفيلمان يضعان مخرجهما أسامة فوزى من بين أفضل مخرجينا الشبان لارتفاع مستواهما الفنى وما تميزا به من جرأة فى تناول موضوعات تشتبك مع المحرمات. فالأول جنة الشياطين يصور عبث مجموعة من الشباب بجثة أحدهم بينما أسرة صاحب الجثة تستغرقها مناقشة طقوس الدفن المناسبة بدعوى الحفاظ على كرامة الأسرة. والثانى يتطرق إلى مشكلة الجمود الدينى لدى شخصية مسيحية. ومنها فيلم «خالد يوسف تلميذ يوسف شاهين «العاصفة» ٢٠٠١ الذى كان أول أفلامه وناقش فيه حرب الخليج الثانية.

ومن الأفلام المتميزة داخل هذه المجموعة «الرغبة» إخراج على بدرخان ٢٠٠٢ الذى يعالج صراعات نفسية اجتماعية حادة وفيه تقدم نادية الجندى دوراً متفرداً بين أدوارها السينمائية وإن كان الفيلم يشوبه قدر من الغربة التى ترجع إلى أصله الأجنبى.

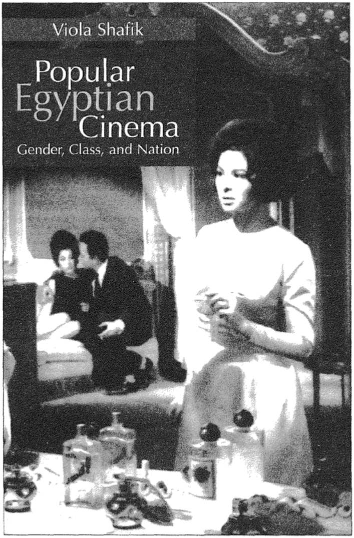
ومن أفضل أفلام هذه المجموعة الأفلام الثلاثة التالية التى تمزج بين الواقع والأسطورة وتخلق جواً من السحر يغمر أحداث السرد، وهى بترتيبها الزمنى، «القبطان» إخراج سيد سعيد ١٩٩٧ عن شخصية شعبية أسطورية، و«عرق البلح» إخراج رضوان الكاشف ١٩٩٩ عن قرية صعيدية غارقة فى الأساطير يتركها رجالها بحثاً عن الرزق خارجها. و«أرض الخوف» إخراج داود عبدالسيد ٢٠٠٠ عن شخصية فقدت هويتها بإرادتها وعبثاً تحاول استردادها. ويمكن أن نلحق بهذه الأفلام الثلاثة الأخيرة فيلم «الساحر» ٢٠٠٢ والذى يقاربها فى جاذبيتها السحرية. ويتناول مشكلة أب شعبى فى علاقته بابنته المراهقة.

الأمل

لقد حاولت فى هذه الدراسة أن أجمع أهم ما جرى من تحولات فنية وما يتعلق بها من تحولات جمالية وثقافية فى السينما المصرية فى العشر سنوات الأخيرة. واعتمدت على أفلام بعينها رأيتها تستحق الذكر دون غيرها وأسقطت العدد الأكثر من الأفلام لتدنى مستوياتها. ذلك أن الأفلام الجيدة وحدها هى التى تصنع تاريخ الفن وتمنحه كرامته.

وقد حاولت أن أضع هذه التحولات فى نسق يحدد علاقاتها البينية والعلاقة بينها وما سبقها من مراحل، ويكشف عن قيمتها ومكانتها، ولعل ما قدمته عن هذه التحولات وإيجابياتها يثير قدراً من الثقة بحاضر السينما المصرية الشابة والأمل فى مستقبلها. ■

السينما الشعبية فى مصر .. النوع والطبقة والهوية



في كتاب السينما المصرية الشعبية الذى صدر أخيرا عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة تتأمل فيولا شفيق فى تاريخ الأفلام التجارية المصرية بتركيز خاص على الأفلام التى لاقت نجاحا كبيرا فى شباك التذاكر عند توزيعها فى مصر والعالم العربى. وفى نظرة نقدية تتفحص فيولا شفيق تلك الأفلام على خلفية الوضع الاقتصادى السياسى العام فى البلاد منذ ظهور صناعة السينما فى الثلاثينيات عبر فترات حكم عبد الناصر وأنور السادات وحتى عصر العولمة. وتجد الباحثة إشارات متناقضة فى الأفلام المختلفة التى تتناول مجموعة عريضة من العلاقات بين الجنسين إلى التيار الإسلامى والأفكار الشائعة حول الجنس والأخلاق والتنوع فى المجتمع مع تركيز خاص على الأقباط واليهود والنوبيين. وتستخلص فيولا شفيق من تلك التأملات نتائجها الخاصة حول تكوين المجتمع المصرى والأنماط السينمائية والمحظورات الاجتماعية. كما أنها ترصد الأنواع المختلفة من الأفلام مثل أفلام الحركة والواقعية والميلودراما وعلاقتها بالنظرة للثقافة الرفيعة والشعبية. وتقول فيولا شفيق فى مقدمة كتابها إنها قررت التركيز على السينما المصرية تحديدا لأنها بسبب ضخامة الإنتاج وتوافر الاستوديوهات والخبرات فيها منذ سنين لا تزال المصدر الرئيسى للأفلام والمسلسلات والبرامج التى تغذى أغلب القنوات التليفزيونية العربية الأخرى حتى مع صعود نجم سوريا فى المسلسلات ولبنان فى الفيديو كليب والإعلانات والإمكانيات الكبيرة وانعدام البيروقراطية المتوافر فى دبى. كما أن هيمنة مصر فى هذا المجال متجذرة فى تاريخها الطويل من صناعة الترفيه وتحديدا المسارح التى ازدهرت منذ نهاية القرن التاسع عشر والموسيقى التى أصبحت صناعة أيضا منذ بدء التسجيلات فى النصف الأول من القرن العشرين.

أما كتابها الأول السينما العربية: تاريخ وهوية ثقافية، فيعتبر عملاً فريداً من نوعه حيث إنه يجمع بين تاريخ السينما وعلم الاجتماع من حيث مناقشته للكيفية التى تم بها تصوير الهوية العربية والعديد من القضايا المشكلة للصورة الذاتية التى يحملها العرب عن أنفسهم على الشاشة. السبب الثانى من أسباب أهمية الكتاب هو أنه لا يقتصر على دولة عربية واحدة ولكنه ينطلق من المتشابهات بين تاريخ وثقافات الدول العربية ليرصد تصوير واقعها على الشاشة مع تركيز خاص على السينما المصرية والجزائرية. وتمزج فيولا شفيق النقد الفنى بالتاريخ للتأثيرات الاقتصادية والأيديولجية المختلفة على الفنون فى المنطقة. كما أنها تسجل معلومة مهمة ودالة وهى الفرق بين الإشارات المعتادة لـ «السينما العربية» فى الأدبيات العربية و«السينمات العربية» فى الأدبيات الفرنسية حيث تميل فيولا شفيق إلى الرأى القائل بأن التشابه بين الثقافات والتاريخ العربى أكثر من الاختلافات. فالعالم العربى ككل تقريبا مر بتجربة الاحتلال الأجنبى والتحرر الوطنى ومرت دول عربية عديدة ومؤثرة بتحولات سياسية خاصة اتجاه الاشتراكية مما كان يعنى أن تسيطر الدولة على صناعة السينما. بالنسبة لموضوع البحث كان ذلك يعنى أن تصبح السينما سجلا جيدا للتصور الذى يطرحه النظام عن المجتمع وعن النماذج المرغوبة والمكروهة فيه وعن الأجندة السياسية والاجتماعية كما يحددها. كما أن السينما تصبح فى هذه الحالة مقياسا جيدا للتحول الذى يطرأ على قيم المجتمع عبر تغير واقع الشخصيات المختلفة التى يتم تصويرها وتغير التصورات عن أنماط حياتها وموقعها فى المجتمع.

كما يفرد الكتاب جزء كامل للحديث عن الاختلافات فى التناول بين ثلاثة أنواع من الأفلام. الأفلام المنقولة من روايات أو قصص منشورة من قبل وتقول فيولا شفيق إن ظاهرة الروايات التى تتحول الى أفلام ظاهرة عالمية كانت فى الغرب وسيلة لجذب الطبقات البرجوازية لمشاهدة الأفلام عبر تصوير الروايات التى يفضلونها. أما فى مصر تحديدا فقد تسببت الموجة الواقعية فى السينما فى الخمسينيات والستينيات فى انتشار الأفلام المستوحاة من روايات وكيف أن رواية مثل غادة الكاميليا التى قدمت مرتين بشكل صريح فى السينما المصرية، ومرات عديدة أخرى كانت إلهاما لأعمال مختلفة، تم التدخل فى مسارها أو فى طبيعة أبطالها لتعكس صورة أقرب لتخيل صناع الفيلم عن المجتمع المصرى. النوع الثانى هو الواقعية والتى تزامن انتشارها وازدهارها مع صعود حركات التحرر الوطنى فى الخمسينيات حيث انصرف اهتمام صناع السينما عن الأفلام الترفيهية وبدأ التركيز فى فحص الواقع ونقده.

أما النوع الثالث من الأفلام فهو السينما التاريخية وهى بغض النظر عن مضمونها شديدة التأثر بالأوضاع الثقافية وكاشفة لتأثير التوقيت على المضمون حيث من السهل استشراف موقف صانعى الفيلم من الحاضر عبر الصورة التى يرسمونها للأحداث السابقة وعبر اختلاف تناول الحدث فى الأفلام التى أنتجت فى فترات زمنية مختلفة. وفى نهاية الكتاب تتفحص الكاتبة كل دولة عربية على حدة كاشفة التفاصيل المميزة لصناعة السينما فى كل دولة على حدة. فى الطبعة الأخيرة من الكتاب تناقش الباحثة ما طرأ من تغيرات ومواضيع جديدة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وتفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك.

وبالرغم من أن الكتابين يتناولان موضوعاً متشابهاً إلا أن هناك فرقاً واضحاً ومهماً حيث يناقش كتاب السينما العربية فكرة التاريخ والثقافة بشكل عام بينما يغوص الكتاب الثانى بعمق فى تفاصيل المجتمع المصرى وتأثير التغيرات التى تطرأ عليه على إقبال المشاهدين على نوعيات معينة من الأفلام. أى أن الكتاب الثانى وكما هو واضح من عنوانه لا يهتم بما أنتجه صناع السينما بتأثير وعيهم بتطور المجتمع وإنما باستقبال الجمهور لتلك الأفلام على اختلافها والأسباب والدوافع التى تجعل نوعيات معينة من الأفلام تنال نسب مشاهدة عالية جدا فى فترات تاريخية معينة.

درست فيولا شفيق السينما فى هامبورج وهى باحثة سينمائية حرة ومخرجة لها العديد من الأفلام التسجيلية مثل شجرة الليمون (١٩٩٣) الذى حصل على جائزة أحسن فيلم تسجيلى قصير فى مهرجان صور العالم العربى عام.

نرمين نزار

Popular Egyptian Cinema
(السينما الشعبية المصرية)
Viola Shafiq
AUC Press: LE120

Arab Cinema History and Cultural Identity
New Revised Edition
(تاريخ السينما العربية والهوية الثقافية)
Viola Shafik
AUC Press: LE90

قصة الفتى مروان!

■■ هل هى قصة حب رومانسية أضفى البعاد والقضبان والاشتياق عليها طعم ونكهة مفتقدة وسط ركام الماديات؟

أم هى حدوتة لا يمكن لمثل أحداثها أن تلهث خطواتها سوى على أرض فلسطين.

هل هى قصة بطولة فى زمن تشتاق فيه الجماهير إلى «بطل» وقيم ومثاليات وثبات ورجولة؟

أم هى سجل لمرحلة فاصلة فى تاريخ القضية الفلسطينية؟

لم أصنف ما سوف أكتب حين وجدت نفسى أمسك بالقلم كى أدون سطور هذا الكتاب.

فتافيت الصورة

هذا من ناحية الحدوتة نفسها.

أما من ناحيتى أنا، فلا أستطيع أن أحدد بالضبط الحالة التى كنت أكتب عبرها، هل كنت كطفل رأى صورة جذبته، وهى صورة على طريقة لعبة الـ «بازل» التى تتطلب وضع كل قطعة من قطعها المفتتة فى مكانها الصحيح لإعادة إظهار الصورة، ثم ما إن بدأت فى جمع «فتافيت» الصورة تمهيداً لوضع كل «فتفوتة» إلى جوار الأخرى حتى اكتشفت أن القطع ليست فقط مفتتة وفى حاجة إلى إعادة ترتيب، إنما هى أيضاً متناثرة ولابد من العثور على ما تبعثر من أجزائها بين مصادر متباعدة.

أم كنت كروائية قضيت جزءاً من عمرى أتمنى القيام بتأليف رواية حول بطل توقظ قصته حنين الجماهير إلى البطولة، ثم إذا بى أجد فى حكاية مروان حدوتة أروع من الخيال، فأخذت أروى وأرتوى.

أم كنت أقوم بجمع مادة هذا الكتاب وصياغتها بروح أسطورية مصرية مستوحاة من دأب إيزيس فى حرصها على جمع أجزاء أوزوريس المتناثرة كى يظل رمز قصته حيًا مثلما جاء فى الأسطورة الفرعونية القديمة.

مروان البرغوثى
سهام ذهنى
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ٢١١ صفحة

أيًا كان ما كنته عن جمع المادة، فقد أخذت ملامح القصة تكتمل عبر مقابلات وقراءات واتصالات تليفونية وقص ولزق واستيقاظ مبكر وسهر لليال وكلمة من هنا وحكاية من هناك كدأب النمل فى القيام بنقل «فتفوتة» تتبعها «فتفوتة» فتصبح «الفتافيت» زاداً لليالى البرد الطويلة.

إنما كان يحول بينى وبين الاكتفاء أن القصة التى أكتبها مازالت ساخنة، بل كلما بدا أنها قد بردت اتضح أن جذوتها تخبو فقط ثم ما يعقب ذلك ليس سوى لهب من جديد.

ولما امتد بى الوقت، إذا بالكتابة بعد فترة تنضب. أحايل القلم، أرجوه، أستسمحه. بينما القلم فى حالة احتجاج. جرى لى هذا عبر الفترة التى شهد خلالها المجتمع المصرى حراكًا سياسيًا ملحوظًا أعقبه احتقان سياسى بائن مع ما تمخض عنه الحراك السياسى من تراجع فى التوقعات المأمولة، وصار الشارع المصرى فائراً، وبات قلمى شيمته الصمت وما لنداءاتى نهى عليه ولا أمر.

نعم، وامتدت الحالة المصرية الهادرة واستطالت وتشعبت، وإذا بى مشحونة برغبة فى الكتابة حول الداخل المصرى فى الوقت الذى صار وجدانى ممتلئًا بالحدوتة التى كنت قد بدأتها حول البطل الفلسطينى بكل ما فى حكايته من أبعاد.

المصباح والغبار

ومع استمرار راية العصيان على قلمى دعتنى صديقتى «سهام سعد حويدق» كى أستكمل كتابة حدوتة مروان بعيداً عن ضجيج القاهرة فى الجناح الخاص بها داخل قرية «علاء الدين» بمدينة الغردقة على شاطئ البحر الأحمر.



مجسم ضخم لمصباح علاء الدين فى مدخل القرية أيقظ فى روعى صوتا يصيح بأن الأسطورة تتضمن أن خادم المصباح لا يستجيب إلا لمن يزيح الغبار.

ثم أمام البحر، حيث الاتساع والبراح وزهور الشرفة البيضاء واللوحة اليومية بلا تكرار لبهاء شروق الشمس، والرحلة السنوية لأسراب مهاجرة من الطيور، ومشهد تقافز لعصفور يتبعه عصفور. فى تلك الأجواء المحببة إلى عينى لم أكتب، لكننى تأملت. سألت نفسى عما عساه يجعلنى حريصة على تسجيل حالة نضالية فلسطينية فى الوقت الذى اندلعت خلاله العديد من المتغيرات التى أدت إلى أن يصبح الشأن الداخلى المصرى شديد الإلحاح. وتوصلت إلى أن هذا ربما يعود إلى إيمانى بأن الشعب الفلسطينى المحتل قد ألهمنا نحن المصريين الذين من المفترض أننا غير محكومين بواسطة احتلال.

لقد أوحى الشعب الفلسطينى إلينا بالكثير عبر نضاله. أطفاله علمونا، استشهاديوه واستشهادياته حركونا، سجناؤه بإضراباتهم الباسلة عن الطعام ألهمونا. مجرد دقة أقدام بنات مركز «لاجئ» حين جئن من مدينة «بيت لحم» فى عز توهج الانتفاضة وعرضن بدار الأوبرا المصرية أغنياتهن الشعبية عبر رقصة الدبكة التراثية، فإن دقات أقدامهن قد ذكرتنا بكيف يمكن أن يكون الفن سلاحا، ابتساماتهن ومحاولاتهن الحصول على قدر من البهجة رسم لنا أنه حتى القدرة على الأمل وتجاوز الألم سلاح.

فبالأمل ومعه العمل لن يظل مروان والشرفاء الأسرى قابعين فى زنازين الاحتلال. فى اللد وفى الرملة، وفى المكسوبية بالقدس حيث تدق أجراس الكنائس ويجلجل الأذان، حيث التين والزيتون وأحمال السنين، حيث مروان والقسام وذكرى الرنتيسى والشيخ ياسين، حيث الإيمان والمجاهدين وحيث الذين ألهموا الشعوب العربية أن لا قيد يستطيع قمع الحرية. وأن إسرائيل وغيرها تملك أن تعتقل الشرفاء، إنما يولد غيرهم، تحجب الأجساد عن الشمس، لكن الأفكار لا يمكن حجبها بل يوميًا تزداد أعداد المؤمنين بها، ولا يمكن أن توجد زنازين تسع لكل الأعداد التى فى ازدياد.

مروان البرغوثى بيديه المرفوعتين عبر الأغلال كأنها تجديد لمقولة تعلمناها صغاراً فى كتب التاريخ بالمدارس بأن من أقوال الزعيم المصرى التاريخى مصطفى كامل هو «ألا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس».

لقد تحرك الجيش المصرى عام ١٩٥٢ عقب ما جرى فى فلسطين عام ١٩٤٨.

تندلع الانتفاضة فى فلسطين، تدوى المظاهرات بالقاهرة.

هنا رام الله، هنا القاهرة. هنا بيت لحم أو الناصرة.

الخليل، العريش، وغزة، السويس.

هنا المواجهات وأيضًا هناك.

هنا اعتقالات، صناديق انتخاب. وقطب وحيد، وقيد حديد. أيعلم أحد للحديد ما يفله غير الحديد.

جنين، بورسعيد، وعزم عنيد يدوى بأن زماننا ليس زمان العبيد.

هنا الغردقة. فراشة تطير وأخرى تفك خيطان الشرنقة.

هنا الإسكندرية، هنا دير ياسين.

هنا الأقصى، وأرض بارك الله حولها، هنا القدس.

هنا بئر سبع وعزل انفرادى. هنا دوى زئير الأسد.

هنا سجن «الرملة» و«هداريم»، هنا زنازين.

هنا سجان.

هنا عزم، هنا إيمان.

هنا مروان.

وصوت يجلجل من كروان.

هنا «كوبر».

أحمال السنين كقنابل موقوتة.

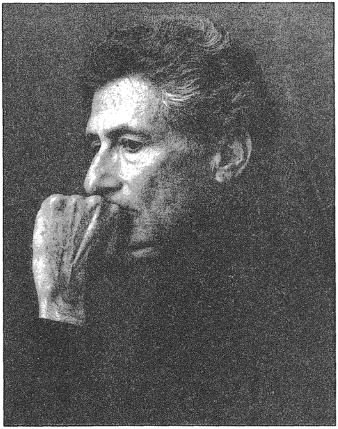
المال والزيتون.

وتوتة توتة.

نبدأ الحدوتة.

سهام ذهنى

في ذكرى إدوارد سعيد
حينما تكون القوة هي الحق



تانيـــــــا راينهـــــارت

■■ لم أقابل إدوارد سعيد وجهاً لوجه. كنا نتواصل عن طريق الكلمات المكتوبة، وفي أغلب الأحيان لم يكن سوى عن طريق الكلمات المكتوبة العامة. لكنه، ومع ذلك، قام بدور التكوين في حياتي. عندما أتذكر سعيد، فإنني لا أتذكر المثقف، والمحلل السياسي ثاقب الفكر، وصوت العقل والعدالة فحسب، بل أتذكره في سياق الحياة في المنفى - حياته كجزء من الشتات الفلسطيني. أتذكر أن تفقد مشاهد طفولتك الجميلة وجذورك الجماعية التي تشكل جزءاً لا يستهان به من تكوين هويتك. وفي هذه الحالة، فإن منفى سعيد يقع بصورة غير مباشرة أيضاً على مسئوليتي بصفتي عضواً من الشعب المضطهِد - الشعب الذي تسبب في حدوث هذا. أود أن أقرأ من الفقرات الافتتاحية لكتابي «إسرائيل/فلسطين»:

تأسست دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨ في أعقاب حرب يطلق عليها الإسرائيليون «حرب الاستقلال»، ويطلق عليها الفلسطينيون «النكبة» - أي المصيبة أو الكارثة. شعب مُطارَد ومضطهَد سعى إلى إيجاد مأوى ودولة لنفسه، لكنه فعل ذلك ليدفع الثمن الباهظ شعب آخر. ففي أثناء حرب ١٩٤٨، أخرج الجيش الإسرائيلي أكثر من نصف السكان الفلسطينيين في ذلك الوقت - وهم مليون و٣٨٠ ألف شخص - من وطنهم. ورغم أن إسرائيل تدعي رسمياً أن غالبية اللاجئين فروا ولم يطردوا، فإنها ما زالت ترفض السماح لهم بالعودة، كما طالب بذلك قرار الأمم المتحدة الذي صدر بعد حرب ١٩٤٨ بفترة قصيرة. وهكذا، تم الحصول على الأراضي الإسرائيلية عن طريق التطهير العرقي للسكان الفلسطينيين الأصليين.

وليست هذه العملية بغير شائعة في التاريخ، فلا تزال تصرفات إسرائيل لا تقارن بالنسبة للتطهير العرقي الذي مارسه المستوطنون وحكومة الولايات المتحدة ضد الأمريكيين الأصليين. فلو كانت إسرائيل توقفت عند ذلك الحد، أي عند عام ١٩٤٨، ربما كان بإمكاني التعايش مع هذا الوضع أو القبول به. نشأت كإسرائيلية على الاعتقاد بأن تلك الخطيئة الكبرى التي تأسست دولتنا بناء عليها ربما تغتفر يوماً ما على أساس أن جيل المؤسسين كان يقوده إيمانٌ بأن هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ الشعب اليهودي من خطر محرقة أخرى. إلا أنها لم تتوقف عند هذا الحد[1].

ففي عام ١٩٦٧ غزت إسرائيل واحتلت الضفة الغربية وقطاع غزة الفلسطينيتين، واضطرت موجة جديدة من اللاجئين إلى الخروج إلى المنفى. ومنذ ذلك الحين دأبت إسرائيل على احتلال هذه الأراضي بوسائل قمع ازدادت عدوانية أكثر فأكثر. اليوم يعيش ٣.٥ مليون فلسطيني في ظل الاحتلال الإسرائيلي.

السؤال الذي واجه سعيد بوصفه عضواً في المجتمع المضطهَد، وواجهني - بوصفي عضوة في مجتمع المضطهِدين - هو: ما هي الوسائل المتاحة لمقاومة مثل هذه الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان الأساسية والقانون الدولي؟ ظهرت في أثناء سنوات الاحتلال مدرستان فكريتان حول هذه المسألة. الأولى مدرسة السلاح أو التحرير بالقوة. وكان من بين الفلسطينيين في ذلك الوقت أولئك الذين كانوا يتكلمون عن «إلقاء اليهود في البحر» - على أساس أن القضاء على إسرائيل هو السبيل الوحيد لتحرير فلسطين في نهاية المطاف. أما النموذج الآخر من الصراع، وهو النموذج الذي طالما ظلَّ سعيد يذكرنا به، فهو الطريق الذي مهَّده مانديلا في جنوب أفريقيا. السود في جنوب أفريقيا يفوق عددهم البيض بدرجة كبيرة، وربما كان ممكناً بالنسبة لهم الاعتقاد بقدرتهم على التخلص في النهاية من كل السكان البيض الذين ظلوا يضطهدونهم لسنوات. لكن لم يكن هذا هو الخيار الذي اختاروه، بل اختاروا بدلاً منه تقديم حل يقوم على المساواة والكرامة الإنسانية لجميع سكان جنوب أفريقيا، من بينهم البيض.

وفي مارس ٢٠٠١، كتب سعيد من جنوب أفريقيا حيث كان مشاركاً في مؤتمر عن القيم في التعليم. اقتبس من كلمة مانديلا بالمؤتمر، مشيراً إلى عبارتين تأثر بهما تأثراً عميقاً: «العبارة الأولى - حملة مناهضة الفصل العنصري (الأبارتهايد) «كانت واحدة من أعظم صور الكفاح الأخلاقي» التي «استحوذت على خيال العالم». وكانت العبارة الثانية في وصفه للحملة المناهضة للفصل العنصري، لا بوصفها مجرد حركة لإنهاء التمييز العنصري، لكن كوسيلة «بالنسبة لنا جميعاً لتأكيد إنسانيتنا المشتركة». تُصوِّر كلمات العبارة «لنا جميعاً» ضمنياً أن جميع الأعراق في جنوب أفريقيا، ومن بينهم البيض المؤيدون للأبارتهايد، مشاركون في صراع يهدف في النهاية إلى التعايش والتسامح و«تحقيق القيم الإنسانية»[2]. أوضح سعيد أن كفاح السود في جنوب أفريقيا استطاع الاستحواذ على خيال وأحلام العالم بأسره، لأنه قدَّم للمجتمع ككل - حتى البيض الذين كان من الجليّ أنهم استفادوا من نظام الأبارتهايد - السبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله الحفاظ على القيم الإنسانية الأساسية.

يقول سعيد إن الكفاح الفلسطيني يجب أن يقوم على أساس أن الشعب اليهودي هنا ليبقى. لابد أن يسعى الكفاح نحو التوصل إلى تسوية يمكن من خلالها التعايش على أساس الكرامة الإنسانية، تسوية «تستحوذ على خيال العالم»:

يتعين علينا إيجاد حل للصراع يعمل، بحسب عبارة مانديلا الثانية، على تأكيد إنسانيتنا المشتركة كيهود وعرب. معظمنا لا يزال عاجزاً عن تقبل فكرة أن اليهود الإسرائيليين هنا ليبقوا، وأنهم لن يرحلوا، مثلما أن الفلسطينيين لن يرحلوا أيضاً. من المفهوم أنه من العسير للغاية على الفلسطينيين القبول بهذا، لأنهم لا يزالون في مرحلة فقدان

المحاضرة التذكارية لإدوارد سعيد لعام ٢٠٠٦ بجامعة أديليد في أستراليا في السابع من أكتوبر ٢٠٠٦

ترجمة: علاء الدين محمود

أراضيهم، والتعرض للاضطهاد بشكل يومى. لكننا لم نركز بما يكفى عند التلميح غير المسئول وغير المتدبر فى ما قلناه أنهم سيجبرون على المغادرة (مثل الحروب الصليبية) على إنهاء الاحتلال العسكرى كضرورة أخلاقية أو على تقديم صيغة لتحقيق أمنهم وتقرير مصيرهم بما لا يلغى أمننا وتقرير مصيرنا...

«اليهود الإسرائيليون والعرب الفلسطينيون محصورون فى رؤية سارتر للجحيم، أى «الأشخاص الآخرين»... لذا، فالأمر متروك لنا لتقديم الإجابة التى لا تستطيع تقديمها السلطة أو البارانويا. فلا يكفى أن نتكلم عموماً عن السلام، بل لابد من توفير الأرض الصلبة له، ولا يمكن لهذه الأرض أن تتوفر إلا من خلال الرؤية الأخلاقية، وليس عن طريق «البرجماتية» أو «العملية». إذا أردنا جميعا أن نعيش - وهذا هو واجبنا - فعلينا ألا نستحوذ على خيال شعبنا فحسب، بل على خيال مضطهدينا. وعلينا أيضاً الالتزام بالقيم الديمقراطية الإنسانية»[٣].

تبنت أغلبية المجتمع الفلسطينى هذا النموذج الثانى منذ عام ١٩٨٨ على الأقل. ففى نوفمبر ١٩٨٨، وفى أوج الانتفاضة الفلسطينية الأولى، اجتمع المجلس الوطنى الفلسطينى - وهو أعلى مجلس للمنظمات الفلسطينية - فى دورته التاسعة عشرة فى الجزائر تحت عنوان «اجتماع الانتفاضة». وأصدر المجلس بعد التصويت بأغلبية ساحقة ٢٥٣ صوتاً مقابل ٤٦ صوتاً قرارات بقبول تقسيم فلسطين التاريخية على طول حدود ما قبل ١٩٦٧، وهو ما يعنى بالنسبة للفلسطينيين قبول ٢٢٪ فقط من أرضهم التاريخية باعتبارها دولتهم فى المستقبل. دعت قرارات المجلس الوطنى الفلسطينى إلى تسوية سلمية للصراع، وإلى إدانة الإرهاب بكافة أشكاله. قال إدوارد سعيد بحماس حينما كان حاضراً فى هذا الاجتماع التاريخى: «نشأ معظمنا على حقيقة (وعاش وتذكر) أن فلسطين بلد عربى، ورفض التنازل عن أى شىء أكثر من التخلص من أزمة دولة يهودية فازت على حسابنا وعلى حساب فقداننا لأرضنا ومجتمعنا، وآلاف لا تحصى حرفياً من الأرواح... ولأول مرة أيضاً اعترفت البيانات اعترافاً ضمنياً بدولة لم تقدم لنا شيئاً يذكر»[٤].

لكننا نجتمع هنا اليوم فى زمن التحدى الصعب والحقيقى لرؤية مانديلا وسعيد، وروح الحل الذى يمكن أن يستحوذ على خيال العالم. تتسبب إسرائيل الآن فى وقوع النكبة الفلسطينية الثالثة. كانت الأولى فى عام ١٩٤٨، والثانية فى عام ١٩٦٧، بينما تقع الثالثة اليوم. ففى ظل التغطية الإعلامية الضئيلة للغاية، يُطرَد الفلسطينيون من أراضيهم، ويحاصرون فى جيوب أصغر فأصغر تفرض قيوداً على حركتهم. الفلسطينيون يموتون كل يوم، لا من إطلاق النار والقصف من قبَل الجيش الإسرائيلى فحسب، لكنهم يموتون أيضاً عند حواجز الطرق - إذا كان شخص ما مصاباً بأزمة قلبية، فإنه قد لا يستطيع الوصول إلى المستشفى فى الوقت المناسب - أو لأنهم أصيبوا بجروح بسبب الجيش الإسرائيلى. فى أعقاب كل اعتداء إسرائيلى، بالإضافة إلى القتلى، هناك عدد أكبر من الجرحى. ولا يدخل الجرحى والمصابون فى إحصائيات الشر، لكن ما احتمالات بقائهم على قيد الحياة فى ظل انهيار النظام الصحى فى الأراضى (الفلسطينية)؟

ولفهم المشروع الإسرائيلى الحالى، دعونا نرجع إلى التاريخ. فمنذ احتلال عام ١٩٦٧ فكرت النخب السياسية والعسكرية الإسرائيلية ملياً حول مسألة كيفية الحفاظ على أقصى مساحة من الأرض المحتلة بأدنى عدد من السكان الفلسطينيين. وتطور نموذجان للـ«حل» فى الفكر السياسى الإسرائيلى.

افترض النموذج الأول، وهو السائد فى الأوساط العسكرية التى كان آرئيل شارون أهم متحدث باسمها، أنه فى ضوء تفوق إسرائيل عسكرياً، فإن المقاومة الفلسطينية لابد أن يقضى عليها فى النهاية. لذلك، من الضرورى القضاء على أى شكل من أشكال السلطة الفلسطينية أو مركز قوتها، كما فعل شارون فى لبنان عام ١٩٨٢، رأى هذا النهج من خلال منظوره على المدى الطويل أنه من الممكن إيجاد سبل أكثر تطوراً للتوصل إلى «حل» على غرار ١٩٤٨، لذا يصبح من الضرورى إيجاد دولة للفلسطينيين. «الأردن هى فلسطين» - هى العبارة التى صاغها شارون فى الثمانينيات.

بينما نشأ النموذج الآخر منذ الثمانينيات فى دوائر حزب العمل الأكثر «اعتدالاً». اقترحت خطة آلون الخاصة بحزب العمل ضم ٣٥-٤٠ بالمائة من الأراضى لإسرائيل، بالإضافة إلى حكم أردنى أو شكل من أشكال الحكم الذاتى لما تبقى من الأرض التى يعيش عليها الفلسطينيون



Orientalism (1978)

(الاستشراق)

Penguin Books Ltd, 2003, 432PP, $14.62

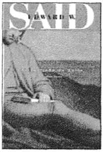
إنه رائعة من روائع دراسات الأدب المقارن والمدرسة التفكيكية. يحتدم الجدل حول إذا ما كان أكثر كتب سعيد دقة لكن لا شك فى كونه واحداً من أعظمها تأثيراً. يسدد ادوارد سعيد عيناً فاحصة إلى الدراسات الشرقية ومع ذلك يوضح للقارئ أنه لا يقتحم أرضاً بكراً. فهو يحصر الاستشراق فى كيفية تناول الدارسين الغربيين للمجتمعات العربية بشمال أفريقيا والشرق الأوسط. يظل سعيد ضمن حدود أواخر القرن الثامن عشر وحتى الوقت المعاصر له بينما تتراجع الأبحاث الأوروبية عن الشرق إلى العصور الوسطى. غير أن بحث سعيد يتجاوز أعمال الأكاديميين فى حقل الاستشراق ليشمل الأدب والصحافة وكتب الترحال والدراسات الدينية والفلسفية ومن ثم ينتج مشهداً تاريخياً وأنثروبولوجياً يدمج أفكار فوكو عن «الخطاب» وأفكار جرامشى عن «الجرد».

يطرح الاستشراق ثلاث قضايا. الأولى هى أن الاستشراق - وإن يزعم أنه حقل موضوعى نزيه - يخدم فى النهاية أهدافاً سياسية. الثانية هى أنه عاون الأوروبيين (وبخاصة الإنجليز والفرنسيين) على خلق صورة نخبوية عن أنفسهم. فى النهاية يؤكد سعيد أن الاستشراق أنتج وصفاً زائفاً للثقافة العربية والإسلامية. وسواء اختلف المشهد الأكاديمى معه أو اختلف، فالمهم هو أن الكتاب قطعة منعشة للأذهان وخطيئة لو أعرض عنه جمهور القارئ.

Reflections on Exile (2000)

تأملات حول المنفى)

Harvard University Press, 2002, 656PP, $16.88



يشمل تأملات حول المنفى حوالى خمسين مقالة تدور فى الأغلب حول مواضيع أدبية وإن لا تفتقر إلى مناقشات عن الفلسفة والتاريخ والفن والأحداث المعاصرة. يُعمل سعيد فكره فى مسيرة عدة كُتاب من بينهم ميرلو-بونتى وكونراد ونيتشه وفيكو وفوكو وهيمنجواى وبلاكمور ومحفوظ وميلفيل بيد أنه لا يغفل أيضاً باخ ولا فيديليو. يحلل قصص طرزان وأفلامه ويقدم «كل التقدير لراقصة شرقية». تبحث عدة مقالات - من ضمنها «مناقشة ثانية للاستشراق» - فى ردود الفعل على كتابه الاستشراق. أما «تأملات حول المنفى» فتتوغل فى التأثير الشخصى والأدبى لهذه التجربة. يتضمن المجلد مراجعات للكتب ومجادلات عنيفة وإعجاب سعيد بهذا الفنان أو ذاك المفكر ومحاولاته لبلورة «الصورة الكاملة». إن فطنة سعيد وسعة فكره تجعلان هذه المجموعة واجبة القراءة.



Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World (1981)

(تغطية الإسلام: كيف يقرر الإعلام والخبراء كيفية رؤيتنا لبقية العالم)

Vintage, 1997, 272PP, $11.20

لقد صورت أجهزة الإعلام الأمريكية - بدءاً من أزمة الرهائن الإيرانية وحتى حرب الخليج وتفجير مركز التجارة العالمى - «الإسلام» باعتباره كياناً يتكشف عن وحدة صلبة ومرادفاً للإرهاب والهستريا الدينية. إن سعيد يكشف النقاب فى هذا الكتاب الكلاسيكى - المُحدَث الآن - عما يقبع تحت التغطية «الموضوعية» للعالم الإسلامى من برامج خفية وتشويه للحقائق. وعلى الرغم أن الستة عشر عاماً التى انقضت منذ ظهور الإصدار الأول لهذا الكتاب اتصفت بزيادة الحساسية تجاه

بالفعل. تمثل هذه الخطة في نظر مؤيديها حلاً وسطاً لا غنى عنه، إذ رأت أنه من المستحيل تكرار «حل» عام ١٩٤٨ الذي تمثل في الطرد الجماعي، سواء لاعتبارات أخلاقية أو لأن الرأي العام العالمي لن يسمح بتكراره.

كان اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، والاتفاقيات التي تلته في الواقع، تنفيذاً لخطة آلون الخاصة بحزب العمل. لم يفهم الموقف بهذا الشكل في ذلك الوقت. فالفلسطينيون، فضلاً عن اليسار الإسرائيلي، رفض خطة آلون على طول الخط، تلك الخطة التي تسلب منهم ٤٠ بالمائة مما تبقى من أرضهم التاريخية، بل يبقى سائر الأراضي تحت السيطرة الإسرائيلية، مع تقييد الحكم الذاتي. توصل الفلسطينيون والإسرائيليون والعالم إلى الاعتقاد بأن إسرائيل، في ظل رابين، قد غيرت اتجاهها أخيراً ومستعدة لإنهاء الاحتلال وتنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، بعد فترة انتقالية مدتها خمس سنوات. ومع ذلك، وكما ذكرت بالتفصيل في كتابي «إسرائيل/فلسطين»، ما نفذته إسرائيل منذ البداية أثناء سنوات أوسلو (١٩٩٣-٢٠٠٠) لم يكن سوى خطة آلون. رابين نفسه أعلن استعداده لقبول هذه الخطة فعلاً في عام ١٩٨٣، والتي نُفذت في عام ١٩٩٣. ففي مقابل التزام عرفات بالسيطرة على الإحباط الفلسطيني وضمان أمن إسرائيل، بدا رابين على استعداد للسماح للسلطة الفلسطينية بإدارة الجيوب التي ما زال يقيم فيها الفلسطينيون. وبالتدريج اتضح لمؤيدي خطة آلون أنه يمكن التوسع حتى في المناطق «الخالية من العرب» لتتجاوز نسبة الـ ٣٥٪ التي سبق أن وافق عليها رابين في عام ١٩٨٣، نُزعت ملكية نحو ٥٠ بالمائة من أراضي الفلسطينيين أثناء سنوات أوسلو، والتي أصبحت الآن أراضي الدولة، ومناطق أمنية، و«أراضي احتياطية للمستوطنات». ومع ذلك، بدا أنهم كانوا راضين بالـ ٥٠ بالمائة هذه، كما أنهم سيسمحون للفلسطينيين بنوع من الوجود في شكل حكم ذاتي في الـ ٥٠ بالمائة الأخرى. ومن ثَمَّ، فإن النموذج الذي نشأ خلال سنوات أوسلو كان فصلاً عنصرياً كلاسيكياً.

بيد أن النموذج الآخر، وهو نموذج التطهير العرقي الواسع، لم ينته تماماً في الجيش أو في دائرة «جنرالات السياسة» الذين انتقلوا من الجيش إلى الحكومة. ففي نظرهم حتى نظام الأبارتهايد هذا قد أعطى الكثير للفلسطينيين، فمن منظور المدى البعيد، حتى الحكم الذاتي الجزئي قد يُمكّن الأطر السياسية لمقاومة فلسطينية للاحتلال في المستقبل. ومنذ بداية اتفاقيات أوسلو، برز صوتان مهمان ضدها هما صوت إيهود باراك، رئيس الأركان في ذلك الوقت، وآرئيل شارون، أحد زعماء المعارضة في حزب الليكود آنذاك.

في عام ١٩٩٩، وصل الجيش إلى السلطة عن طريق «جنرالات السياسة» - باراك أولاً ثم شارون. وفُتح الطريق لتصحيح ما اعتبروه خطأ فادحاً في أوسلو. أرى في كتابي «إسرائيل/فلسطين» أن التصعيد الحالي للأعمال العدائية التي بدأت في نهاية سبتمبر ٢٠٠٠ ليست انفجاراً عفوياً للعنف، وإنما تحرك مدروس ومعد إعداداً جيداً من قبل الجيش الإسرائيلي بهدف إلغاء ترتيبات أوسلو. ومن أجل تحقيق ذلك، كان من الضروري أولاً إقناع المجتمع الإسرائيلي والعالم الغربي بأن الفلسطينيين لا يرغبون في العيش في سلام وأنهم في الواقع يهددون وجود إسرائيل نفسه. نجح باراك في ذلك عن طريق خدعة «عرضه السخي» في قمة كامب ديفيد في يوليو ٢٠٠٠. وبحلول عام ٢٠٠٢، وفي عهد شارون، استكملت عملية استعادة السيطرة العسكرية المباشرة على الأراضي المحتلة. وشرعت إسرائيل في حملتها الواسعة للتطهير العرقي للفلسطينيين على طول الجدار الذي بدأت بناءه في عام ٢٠٠٣.

ولفهم الدافع وراء مشروع الجدار، دعونا نلقي نظرة على الخريطة التي وزعتها عليكم. هذه هي الخريطة الرسمية الوحيدة التي قدمتها إسرائيل باعتبارها مقترحها بشأن الاتفاق النهائي. كما قدمها رئيس الوزراء آنذاك إيهود باراك في مفاوضات طابا-إيلات في مايو ٢٠٠٠ (قبل شهرين من انعقاد قمة كامب ديفيد)، وكانت قد نُشرت أصلاً باللغة العبرية في صحيفة «يديعوت أحرونوت» في ١٩ مايو من نفس العام. تقع المناطق داكنة اللون وفقاً لهذه الخريطة تحت «السيادة الفلسطينية»، والتي تشكل معاً ٦٠ بالمائة من مساحة الضفة الغربية. أما باقي الضفة الغربية فستظل إسرائيلية - المناطق باللون الأبيض سيتم ضمها على الفور، والمناطق المظللة سيتم حيازتها «مؤقتاً». تقسم أرض الفلسطينيين «ذات السيادة» إلى أربعة جيوب معزولة دون اتصال بين الأراضي. ولكي نفهم نوع الحياة التي يمكن أن يتوقعها الفلسطينيون داخل الـ ٦٠ بالمائة الخاصة بهم، فإننا سوف نبحث الوضع داخل المناطق داكنة اللون من الخريطة. هذا هو الوضع الذي كان قائماً في الضفة الغربية حتى حلول عام ٢٠٠٠، (تشير الجيوب الفلسطينية كما هو مخطط إلى المناطق أ- السيطرة الفلسطينية الكاملة، وب- السيطرة الفلسطينية الجزئية، كما حددتها مختلف الاتفاقيات التي أعقبت أوسلو). لا يزال في هذه المناطق نحو ٤٠ مستوطنة إسرائيلية منعزلة (مثلثات بيضاء) تربط بينها الطرق الأمنية والمناطق العسكرية. وبالتالي فإن المناطق الرمادية الأفتح لوناً داخل المناطق داكنة اللون هي الأراضي والطرق والمواقع العسكرية التي تسيطر عليها إسرائيل. ومن ثَمَّ تُقسم هذه المناطق الجيوب داخلياً إلى وحدات أصغر محاطة بالطرق والمواقع العسكرية الإسرائيلية. لم تُشر خطة مايو أبداً إلى تفكيك هذه المستوطنات أو تغيير الوضع الداخلي في الجيوب. وبعد ذلك بشهرين، في قمة كامب ديفيد في يوليو ٢٠٠٠، حدثت معجزة عندما أُعلن أن خطة إسرائيل هي إعادة ٩٠ بالمائة من الأراضي إليهم. لكنها لم تقدم أية خرائط أو تفاصيل بشأن الأراضي في هذه الخطة التي يفترض أنها جديدة. ورغم أن الوقت لا يسمح بمناقشة هذا هنا، كان المطلوب أن يظل الوضع كما هو عليه[٥] داخل الجيوب في خطة باراك التي قدمها في كامب ديفيد أيضاً.

وبالتالي، ظلت هذه الخريطة الخطة الرسمية الوحيدة التي اقترحتها إسرائيل بالنسبة للاتفاقيات النهائية، بل ودأبت إسرائيل منذ نهاية عام ٢٠٠٠ على العمل بشكل مكثف على تنفيذ هذه الخريطة. لكن وقبل أن تكون تلك الخطة مجرد مقترح ينتظر الموافقة الدولية، كان مشروع الجدار الذي بدأه شارون يهدف إلى إقرارها كحقيقة على أرض الواقع. وفي المرحلة الحالية يُبنى الجدار أساساً على الخط الذي يفصل المناطق (الفلسطينية) داكنة اللون عن المنطقة بيضاء اللون التي سيتم ضمها الى إسرائيل في الجانب الغربي من الضفة الغربية. أما العمل على الجدار الشرقي الذي سيفصل الضفة الغربية عن نهر الأردن فلم يبدأ بعد، لكن إسرائيل تتخذ خطوات منتظمة لعزل هذه المناطق عن بقية الضفة الغربية، وطرد الفلسطينيين المقيمين في غور الاردن خارج أراضيهم[٦].

أفظع جوانب مشروع الجدار الحالي ما يحدث داخل المناطق بيضاء اللون في الخريطة، وهي تلك المناطق المزمع ضمها رسمياً في النهاية إلى إسرائيل. هذه المناطق على الخريطة المنقطة بنقط رمادية تمثل مواقع القرى والبلدات الفلسطينية. أما المناطق بيضاء اللون التي تحيط بها فهي أراضيهم. يهدف مشروع الجدار إلى فصل القرى عن أراضيها - ستكون الأراضي على الجانب الإسرائيلي من الجدار، بينما ستظل القرى في الجيوب الفلسطينية. لذا فإن خط الجدار الحالي ليس مستقيماً، كما يظهر في هذه الخريطة، لكنه يمر خلال القرى، ليصنع في الكثير من المناطق حلقة تحيط بإحدى البلدات أو القرى، ولا يترك سوى مخرج واحد يربطها بالضفة الغربية. وبالتالي يفصل الجدار البلدات والقرى عن الأراضي الزراعية التي تعيش عليها. الجدار يفصل القرى عن بعضها البعض فصلاً دائماً، ويحولها إلى جيوب معزولة. وفي بعض الحالات، لن يكون للقرى أي ممر يربطها بأية أراضٍ أخرى بالضفة الغربية الفلسطينية، لكنها ستبقى بشكل تام على الجانب الإسرائيلي من الجدار، محاطة بنظام إسرائيلي من الحواجز التي تفصلها عن حقولها وعن سائر الضفة الغربية، لتتحول إلى سجون مفتوحة حقيقية.

وفقاً لأرقام الامم المتحدة، والتي صيغت أيضاً باختصار في الحكم الصادر عن محكمة العدل الدولية، سوف يُعزل ٢٣٧ ألف فلسطيني خارج الجدار، وتُقطع الصلات بينهم وبين الضفة الغربية نتيجة لبناء الجدار. بينما سوف ينضم حوالي ١٦٠ ألف فلسطيني آخرين إلى جانب الضفة الغربية من الجدار، لكنهم سوف يقيمون في مجتمعات محلية مطوقة بالكامل، معزولين عن أراضيهم الزراعية وأماكن عملهم وجامعاتهم ومدارسهم. كما يتم الإعلان أيضاً عن أرقام مماثلة في الإعلام الإسرائيلي[٧]. وبذلك يعزل مسار الجدار الحالي ٤٠٠ ألف فلسطيني عن مصادر رزقهم ويحبسهم في جيوب معزولة. فماذا سيحدث لهؤلاء الناس ولأرضهم التي تستولي عليها إسرائيل الآن؟ في ظل عدم وجود أية وسيلة للعيش، فإنهم سيضطرون إلى مغادرة هذه الجيوب في غضون السنوات القليلة المقبلة بحثاً عن فرص عمل في ضواحي مدن الضفة الغربية وبلداتها. وبهذه الطريقة، سيتم «تطهير» أجزاء الضفة الغربية المتاخمة لحدود إسرائيل من الفلسطينيين. يحدث هذا بالفعل في قلقيلية وطول

كرم، حيث استكمل بناء الجدار فى عام٢٠٠٣، كانت قلقيلية بلدة مزدهرة، ومركزاً محلياً للتجارة والزراعة. فصلها الجدار عن أراضيها، وطوق البلدة من جميع الجوانب، تاركاً مخرجاً ضيقاً يسيطر عليه الجيش باعتباره المخرج الوحيد الذى يربطها بالضفة الغربية. قلقيلية اليوم مدينة ميتة بالفعل. لقد فرَّ الكثير من سكانها بحثاً عن لقمة العيش على أطراف البلدات الأخرى بالضفة الغربية؛ بينما استسلم أولئك الذين لا يزالون هناك لليأس والوهن الذى يصيب السجناء.

تستدعى كلمة «الترانسفير» الذكرى الجماعية المروعة لشاحنات تصل فى منتصف الليل لنقل القرويين الفلسطينيين عبر الحدود، وهو ما حدث فى عدد من المناطق فى عام ١٩٤٨. لكن الترانسفير باتباع هذا النموذج غير ممكن فى عالم اليوم. اليوم يجب أن يتم الترانسفير بشكل أكثر بطأ وفى الخفاء. يتعرض اليوم ٤٠٠ ألف فلسطينى لمثل هذه العملية من الترانسفير البطىء والخفى بعيداً عن أراضيهم، حيث يجرى دفعهم إلى أربعة جيوب كبيرة فى الضفة الغربية خصصتها إسرائيل للوجود الفلسطينى. كما دأبت إسرائيل فى الوقت نفسه على تصعيد سياستها قديمة العهد لتهجير الفلسطينيين قسرياً وفى الخفاء خارج فلسطين. أجبرت إسرائيل الفلسطينيين الحاملين لجوازات سفر دولية والذين يعيشون فى الأراضى المحتلة منذ سنوات على الخروج. لكن لا يزال هناك ٣٫٥ مليون فلسطينى يعيشون فى الجيوب، ورغم اضطرار الكثير منهم إلى الرحيل، فإن عدداً كبيراً منهم لا يزال يعيش هناك. فما الذى تخطط له إسرائيل بالنسبة للباقى من الفلسطينيين؟ مع بقاء ٣٫٥ مليون شخص تحت الاحتلال، بلا حقوق إنسان، كان السؤال الذى طالما أزعج المحتلين هو كيفية السيطرة على هذا الشعب بما لا ينغص على المحتلين حياتهم. يتمثل الحل الذى وضعته إسرائيل فى عهد شارون فى نظام معقد من السجون المفتوحة. تم دفع الفلسطينيين إلى جيوب محكمة الإغلاق ومحاطة بالسياج. يسيطر الجيش الإسرائيلى على الفلسطينيين من خارج الجيوب محكمة الإغلاق؛ لكنه يدخل إليها متى شاء. وبحسب علمى، فهذا النموذج من الاحتلال - أى سجن أمة بأكملها، وليس مجرد مجموعة من الناس، كوسيلة للسيطرة على شعبها لضمان الهدوء بالنسبة للمحتلين شىء جديد فى التاريخ - نموذج غير مسبوق من الاحتلال ويجرى تنفيذه بسرعة وكفاءة تبعث على الرعب.

نشأ نموذج السجن للمرة الاولى فى قطاع غزة، وتطور بالفعل أثناء سنوات أوسلو. ففى عهد رابين، شُيِّد سياج إلكترونى أدى إلى إغلاق القطاع من جميع جوانبه المتاخمة للحدود مع إسرائيل. وهكذا، وأثناء سنوات أوسلو أصبح أكثر من مليون شخص سجناء بالفعل على أرضهم، حيث لا يمكنهم الحركة أو الخروج منه إلا من خلال البوابات الأمنية التى تسيطر عليها إسرائيل، وفى معظم الحالات، لا يسمح لهم مطلقاً بالحركة أو بالخروج. تسيطر إسرائيل منذ أوسلو على كل جانب من جوانب الاقتصاد بغزة، من بينها توقيت دخول وخروج البضائع وكمية الوارد والصادر منها. استخدمت إسرائيل أسلوب تضييق الخناق الاقتصادى كوسيلة أساسية للسيطرة قبل التصعيد الحالى. ولم تزد إسرائيل إلا من إحكام سيطرتها من الخارج منذ إخلاء مستوطنات قطاع غزة. إن ما نشهده الآن هو استكمال لتضييق الخناق على قطاع غزة الذى تحوَّل إلى سجن مفتوح كبير يسيطر عليه حراس السجن سيطرة كاملة. كان هدف القيادة الإسرائيلية الحالية إقامة نفس الوضع فى الضفة الغربية أيضاً. لكن ذلك بدا مستحيلاً منذ بضع سنوات فقط. الضفة الغربية أكبر بكثير من حيث المساحة من منطقة غزة، وتتمتع بنوع ما من الاقتصاد الصحى. لكن فى الواقع، يهدف مشروع الجدار، وحواجز الطرق، وتضييق الخناق الاقتصادى، والاضطهاد السياسى للمؤسسات السياسية الفلسطينية المنتخبة إلى تحقيق نفس الهدف.

من المسائل التى ظلت تشغل المجتمع الدولى هى كيفية التعامل مع الدول التى تنتهك القانون الدولى بصورة منهجية، أى الدول المجرمة أو الدول المارقة. إسرائيل دولة مارقة بكل المقاييس. فى عالم عادل ومنضبط النظام، سوف تفرض المؤسسات الدولية عقوبات على إسرائيل، كما فعلت مع دول مارقة أخرى فى الماضى. لكن فى العالم الحالى، فإن ذلك لا يحدث فحسب، لكننا نجد أن الغرب يقرر أن يفرض المقاطعة والعقوبات على الفلسطينيين بدلاً إسرائيل. ومنذ الانتخابات الفلسطينية فى يناير ٢٠٠٦، جُمِّدَت جميع المساعدات الدولية

الكثير من الأقليات العرقية والعنصرية والجنسية. تواصلت عملية قولبة الشعوب الإسلامية واستمر التحامل فى تصويرها. إن تغطية الإسلام كتاب شديد الدقة جذاب الأسلوب يبرز كيف خلدت وسائل الإعلام الرائجة فى الولايات المتحدة صورة ضيقة معادية للشعوب الإسلامية مؤكداً على أن تلك الصورة حالت دون تحقق الإدراك الشامل للإسلام فى حين اختلقت عدواً خيالياً لشتى الطوائف الأمريكية.

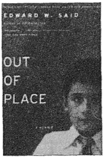


Culture and Imperialism (1993)

(الثقافة والإمبريالية)

Vintage, 1994, 480PP, L6.99

يورد سعيد وقائع وحججاً تبرهن خير برهان على الحكمة القائلة: «القلم أقوى من السيف». إن الثقافة والإمبريالية كتاب ألمعى عن نقد أدبى يستحيل بالأساس إلى علم سياسى. إذ يقيم الدليل على أن أكثر أدوات الإمبريالية الغربية فاعلية للهيمنة على الثقافات الأخرى هى أدوات أدبية فى جوهرها بقدر ما هى سياسية اقتصادية. يتعقب سعيد مواضيع الأدب الغربى إبان القرن التاسع عشر والقرن العشرين ووسائل الإعلام المعاصرة بصفتها أسلحة للغزو كما أنه يضع تحليلاً مذهلاً لصعود الأصوات الوطنية المعارضة فى كتابات «المستعمرات». يبوح سعيد إلينا بأنها ليست صدفة أن يصوغ إنجليزى من العصر الفيكتورى، إدوارد بولوير. ليتون، عبارة «القلم أقوى من السيف». إنه كتاب لا بد من أن يطالعه كل راغب فى استيعاب كيف تُخضع الكلمة الثقافات وكيف تتحرر الثقافات من خلال إنعاش الأصوات القديمة وخلق أصوات جديدة خليقة بعوالم حديثة.

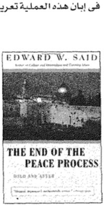


Out of Place (1999)

(خارج المكان)

Vintage, 2000, 336PP, $11.90

إن إدوارد سعيد واحد من أكثر نقاد المشهد الثقافى شهرة بعد الحرب العالمية الثانية. سلطت كتبه فى الأدب والسياسة والنقد الفلسفى ضوءاً مختلفاً على إدراك القارئ لتأثير الإمبريالية الأوروبية على مجريات الثقافة الحديثة. تشمل مسيرة سعيد المهنية كمفكر حقول الأدب والسياسة والموسيقى والفلسفة والتاريخ. وباعتباره فلسطينياً مغترباً - إذ نشأ فى الشرق الأوسط وعاش بعدها فى الولايات المتحدة - فقد شهد تأثير الحرب العالمية الثانية على العالم العربى وتفسخ فلسطين وولادة إسرائيل وتولى عبد الناصر السلطة ونشأة منظمة التحرير الفلسطينية والحرب الأهلية فى لبنان وعملية السلام المترنحة فى العقد العاشر من القرن العشرين. لذا يعد إصدار سعيد لمذكراته خارج المكان حدثاً لا يستهان به. فالكتاب يزود القارئ بوصف لا يخلو من فتنة للتطور الشخصى لناقد ومفكر تجاوز الخط الفاصل بين الشرق والغرب ليعيد فى إبان هذه العملية تعريف المفاهيم الغربية عن الشرق ومحنة الشعب الفلسطينى.



The End of the Peace Process: Oslo and After (2000)

(نهاية عملية السلام: أوسلو وما بعدها)

Vintage, 2001, 432PP, $11.70

مرة أخرى يسبغ إدوارد سعيد فى كتابه الثامن عشر بصيرته الحافلة بالذكاء على قضية تموج بالجدل. ففى خمسين مقالة (نُشرت أغلبها فى جريدتى الأهرام ويكلى والحياة اللندنية)، يصوب نظرة كئيبة تتلون بشىء من السخرية إلى عملية السلام بالشرق الأوسط منذ

للفلسطينيين، بما فيها الأموال للمنظمات غير الحكومية. ويتعاون الغرب بينما تمتنع إسرائيل عن دفع أموال الضرائب التي تدين بها للفلسطينيين؛ وبالتالي الاقتصاد الفلسطيني مصاب بالشلل التام، فلا رواتب، ولا خدمات اجتماعية، ولا رعاية طبية أو مستشفيات عاملة.

منذ عامين، احتفل العالم الغربي بفجر الديمقراطية في الشرق الأوسط، بعد رحيل عرفات، واستعدادات الشعب الفلسطيني لأول انتخابات ديمقراطية. ووفقا لتقرير چيمي كارتر في «صحيفة الهيرالد تربيون» كانت الانتخابات «نزيهة وعادلة، تميزت بالمنافسة الشديدة، وغياب العنف إلى جانب قبول الفائزين والخاسرين بالنتائج. فمن بين ٦٢ عملية انتخابية أشرف عليها... مركز كارتر، كانت هذه الانتخابات من بين الأفضل تصويراً لإرادة الشعب».[٨] في عالم عادل ومنضبط النظام، لا يمكننا أن نتخيل أن حكومة انتخبت بهذه الطريقة يمكن أن تفقد صلاحيتها لأن إسرائيل لا يعجبها اختيار الناخبين المعنيين بالمسألة. لكن في عالم تحكم فيه الولايات المتحدة، فإن القوة هي الحق، ويمكن للقوة أن تُعَرِّف الديمقراطية حسبما يتراءى لها. وهكذا أُعلِن أنه لن يتم الاعتراف بنتائج الانتخابات الفلسطينية إلا بعد تحقيق ثلاثة «شعارات». وفي الوقت نفسه سيجري معاقبة وتجويع الشعب الفلسطيني عن طريق مقاطعة اقتصادية أملاً في أن يؤدي ذلك إلى انهيار الحكومة المنتخبة.

يتمثل الشعار الأول في أن حماس يجب أن «تنبذ العنف». ما هو مضمون هذا الطلب بالضبط ؟ في يناير ٢٠٠٥، أعلنت حماس قرارها باستبدال الكفاح المسلح بالكفاح السياسي، ووافقت على وقف إطلاق نار أحادي الجانب («تهدئة»). وخلال عامين منذ ذلك الحين، لم تقم حماس بهجوم إرهابي واحد. ولم تشارك حماس وفقاً لمصادر أمنية إسرائيلية منذ الانتخابات في إطلاق صواريخ القسام من غزة[٩] حتى هجوم إسرائيل على قطاع غزة في صيف ٢٠٠٦.

الشعار الثاني هو ضرورة أن تعترف حماس بالاتفاقيات السابقة. أوضح رئيس وزراء حماس هنية في مقابلة له مع صحيفة واشنطن بوست أنه وفقاً لاتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، وبعد فترة انتقالية مدتها خمس سنوات، كان لابد أن تخرج الدولة الفلسطينية إلى حيز الوجود. لكن إسرائيل خالفت كل بند من بنود الاتفاقية وواصلت احتلالها لأراضي الفلسطينيين وسلبها منهم. واستطرد قائلاً من الآن فصاعداً لن تعترف حكومته إلا بالاتفاقيات التي تخدم صالح الشعب الفلسطيني.

الشعار الثالث هو أن تعترف حكومة حماس بوجود إسرائيل. لكن حقيقة الأمر هي أن إسرائيل هي الطرف الذي لا يعترف بحق الفلسطينيين في الوجود كدولة. كما شاهدنا، في اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في عام ١٩٨٨ بالجزائر، تعهد الشعب الفلسطيني بالاعتراف بتقسيم البلد وأنهم راضون بدولة داخل حدود ١٩٦٧، إسرائيل لم تفعل شيئاً منذ ذلك الحين لإثبات أنها مستعدة لقبول مثل هذا الحل الوسط. في عالم عادل، لابد أن يطالب المجتمع الدولي بالاعتراف المتبادل.

بالنسبة لإسرائيل، نتائج الانتخابات الفلسطينية ليست سوى ذريعة لإعلان الحرب على الشعب الفلسطيني. بالنسبة لإسرائيل، لم يكن هناك شريك فلسطيني للسلام. أُعلِن أولاً أن عرفات غير موثوق به، ثم إن عباس ضعيف جداً، والآن جاء الدور على هنية. نظراً لأن إنهاء الاحتلال هو الشيء الذي ليست إسرائيل على استعداد للنظر فيه، فإن الخيار الذي تروج له هو القضاء على الفلسطينيين باللجوء إلى القوة الغاشمة المدمرة. لابد من تجويعهم، وقصفهم وإرهابهم لمدة شهور، حتى يفهموا أنه لا جدوى من التمرد، والقبول بالسجن مدى الحياة هو الأمل الوحيد للبقاء على قيد الحياة. لابد من تدمير نظامهم السياسي المنتخب، ومؤسساتهم، وشرطتهم. لابد أن تحكم الأراضي المحتلة بحسب رؤية إسرائيل عصابات محلية بالتعاون مع حراس السجون. دأبت إسرائيل منذ الانتخابات الفلسطينية على استغلال موجة الإسلاموفوبيا في الولايات المتحدة وأوروبا لإشراكهم كشريك فاعل في هذه الحرب ضد الفلسطينيين، والقيام بدورهم في خنق وتجويع وإضعاف الشعب الفلسطيني، في الوقت الذي تقوم فيه إسرائيل بمهمتها لتحقيق الدمار.

هذه أيام مظلمة للغاية، وقد عدنا إلى مسألة خيارات الكفاح - مسألة إدوارد سعيد التي بدأنا بها. القطب الذي يدعو إلى حلول يتم تنفيذها بالقوة - أي حلول القضاء على المعتدي - يزداد قوة اليوم أكثر من أي وقت مضى. منح رئيس إيران أحمدي نجاد صوتاً لهذا القطب، حينما أعلن أن العالم العربي لن يدفع بعد اليوم ثمن المحرقة اليهودية - لابد من التخلص من إسرائيل وعودة اليهود إلى أوروبا. كثيرون فقدوا الأمل في خيار إجبار إسرائيل سياسياً على تغيير سياساتها، وحظي هذا الخط من التفكير بتأييد في قلوب الكثير من الناس. بينما لا يزال النموذج الآخر، الذي مهد له مانديلا ودعا إليه سعيد، كما هو.

الدرس الآخر الذي نستفيده من مانديلا ومن كفاح شعب جنوب أفريقيا، وهو الدرس الذي لم أذكره من قبل، هو أن الكفاح لابد أن يكون دولياً. لقد انهارت الهيمنة البيضاء بجنوب أفريقيا وتداعت بسبب الضغط الدولي. بدأ الكفاح بمجموعات صغيرة من الطلاب تدعو إلى المقاطعة وإلى التوقف عن التعاملات التجارية. ثم نما إلى الضغط على الشركات التي تتعامل مع جنوب أفريقيا، وأدى في النهاية إلى إجبار الحكومات على اتخاذ رد فعل، وفرض عقوبات على جنوب أفريقيا. لكن هذا هو نموذج الصراع السياسي السلمي. فإذا كنت أستاذاً جامعياً وقررت عدم المشاركة في مؤتمر في جنوب أفريقيا أو في إسرائيل، فأنت لا تمارس أي عنف، لكنك قررت أن تبين أنك لن تتعاون مع مجتمع يسمح بأن تحدث فيه مثل هذه الجرائم.

هذا الطريق من الكفاح الدولي لا يزال مفتوحاً. وفي الواقع، لم تكن السنوات القليلة الماضية مجرد سنوات انتصار لسياسات التوسع الإسرائيلية. فرغم النجاح الواضح الذي حققته جماعات اللوبي المؤيدة لإسرائيل في إخراس أي نقد يوجه لإسرائيل، خلال هذه الفترة نمت المعارضة لسياسات إسرائيل كثيراً في أذهان الناس في جميع أنحاء العالم. فعلى سبيل المثال، وفي استطلاع للرأي في أوروبا قبل عامين بشأن الدول التي ينظر إليها الناس باعتبارها الأكثر خطراً على السلام العالمي، رأى معظم الأوروبيين أنها إسرائيل (بل أكثر من الولايات المتحدة، وهذا بالطبع، ليس صحيحاً). يبدو أن نجاح البروباجاندا لم يكن سوى نجاح جزئي فحسب. يجري السكوت عن عنف إسرائيل والتغاضي عنه في وسائل الاعلام، وفي القوانين أو البيانات التي تصدرها الحكومات. لكن وعي الناس بالموقف ليس إلا في ازدياد.

أرى في آخر كتاب لي بعنوان «خارطة الطريق الذي لا يصل إلى أي مكان» أن الولايات المتحدة اضطرت لفترة قصيرة خلال هذه الفترة، التي يزداد فيها تورطها أكثر فأكثر في احتلال العراق، للاستسلام للرأي العام الأوروبي، كما نقله بلير، لتمارس ضغطاً حقيقياً على إسرائيل. لم يكن إخلاء شارون لمستوطنات غزة فعلاً نابعاً عن إرادة حرة، بل قراراً فُرِضَ عليه في ذروة الضغوط الدولية التي أعقبت تخريب إسرائيل لخارطة الطريق وبناء الجدار في الضفة الغربية. كان الضغط الأمريكي هائلاً للغاية، رغم أنه توارى وراء الكواليس تماماً، ليشمل العقوبات العسكرية. كانت الذريعة الرسمية لفرض العقوبات هي بيع إسرائيل لأسلحة للصين، لكن في مناسبات سابقة، كانت الأزمة قد انتهت بمجرد موافقة إسرائيل على إلغاء الصفقة. هذه المرة كانت العقوبات غير مسبوقة، واستمرت حتى توقيع اتفاق العبور في نوفمبر ٢٠٠٥.

هذا التحول في الأحداث يبين قصور البروباجاندا. المفاهيم الأساسية مثل العدالة والقانون الدولي والتضامن مع المقهورين اختفت من الخطاب السياسي السائد، لكنها حاضرة في أذهان الناس. وهذا يبين أن الكفاح المستمر يمكن أن يكون له تأثير، ويمكن أن يؤدي إلى قيام الحكومات باتخاذ رد فعل. اقتبس من «خارطة الطريق الذي لا يصل إلى أي مكان»:

«بدأ مثل هذا الكفاح حينما نجح الشعب الفلسطيني الذي تحمل سنوات من القمع الوحشي، من خلال روح «صموده» - وارتباطه بأرضه - وتحمله وتنظيمه ومقاومته اليومية في إبقاء القضية الفلسطينية حية، وهو الأمر الذي لم تستطع كل الأمم المضطهَدة القيام به. واصل الشعب كفاحه مع الكفاح الدولي - حركات التضامن التي ترسل أعضاءها إلى الأراضي المحتلة لتساند الفلسطينيين في كفاحهم داخل وطنهم، أساتذة الجامعة الذين يوقعون عرائض المقاطعة ويعرضوا أنفسهم للمضايقات يومياً، بضعة صحفيين شجعان أصروا على تغطية الحقيقة، في مقابل ضغط الإعلام المتواطئ وجماعات اللوبي المؤيدة لإسرائيل. يبدو غالباً أن هذا الكفاح من أجل العدالة بلا جدوى. لكن ومع ذلك، فقد كان له تأثير على الرأي العام، مما يؤدي بدوره إلى إجبار الحكومات على اتخاذ رد فعل»[١٠].

هذا الكفاح، الذي هو أملنا، ليس خلاصاً للشعب الفلسطيني فحسب.

فنظام السجون هذا الذى تقيمه إسرائيل سجنٌ للإسرائيليين أيضاً. تجعل هذه الدولة الصغيرة المكونة من ٧ ملايين نسمة، ٥,٥ مليون منهم من اليهود، من نفسها عدواً للعالم العربى ككل، والآن، للعالم الإسلامى بأسره. مثل هذه الدولة لا تملك أى ضمان للبقاء على المدى البعيد. لذا، فإن إنقاذ الفلسطينيين أيضاً إنقاذ لإسرائيل.

أود أن أختتم كلامى ببضع كلمات شخصية. فى الأشهر القليلة الماضية، قررت أننى لا أستطيع الاستمرار فى العيش فى إسرائيل فى ظل الظروف الراهنة. كنت دائماً أتساءل عن الخط الفاصل الذى سيجعل من بقائى أمراً غير أخلاقى ومستحيلاً دون أن أكون شريكة فى الجريمة. بالنسبة لى، لقد تم تجاوز هذا الخط الفاصل فى هذا الصيف.

هذا قرار مؤلم بالنسبة لى، لأننى أحب هذا البلد - الذى وُلدت فيه. أحب مناظره الطبيعية - مشاهد طفولتى الجميلة - نسيم المساء، البحر، لحظات الغروب. أحب الناس (على العكس من قادتهم) والعبرية هى اللغة الوحيدة التى أعرفها حق المعرفة. لم أتصور أننى ساضطر إلى الرحيل عنه. ظننت أننى سأقضى حياتى كلها فى الكفاح فى هذا البلد. ولكن الآن، أنا ذاهبة إلى المنفى، مثل سعيد. هذا منفىً اختيارى - لذا فهو شديد الاختلاف عن المنفى الفلسطينى. ولأنه عمل نابعٌ عن اختيار، فإن جزءاً منى يتألم أيضاً لخيانة لرفاقى فى الكفاح. فإلى جانب إسرائيل الاحتلال، وإلى جانب كل الأهوال التى وصفتها هنا، هناك إسرائيل/فلسطين تتشكل هناك فى السنوات القليلة الماضية.

هناك عدد غير قليل من الإسرائيليين الذين يناضلون يومياً ضد هذه الفظائع، ويقومون غالباً بما يبدو أنه طرْقٌ شديد بإصرار وعناد على أبواب أسوار السجن. تحديداً، هناك شكل واحد من أشكال الكفاح التى تطورت، وهو شكل رائع حقاً من أشكال الكفاح. السكان الفلسطينيون على طول خطوط الجدار مصممون على عدم انتظار وقوع النكبة الثالثة، بل سيقفون هناك، على أرضهم، أمام الجرافات والجيش الإسرائيلى فى مقاومة سلمية. لا يملكون من سلاح سوى شجاعة أولئك الذين رابطوا على أرضهم جيلاً بعد جيل، ليقفوا أمام واحدة من أكثر الآلات العسكرية وحشية فى العالم. ومنذ البداية، انضم الإسرائيليون إليهم فى هذا الكفاح. إننا نشهد فى السنوات الثلاث الماضية، ربما لأول مرة فى تاريخ الاحتلال، كفاحاً شعبياً إسرائيلياً/فلسطينياً مشتركاً بحق. لقد كنت هناك. كنت فى قرية مسحة منذ الأيام الأولى للمقاومة الشعبية؛ وكنت فى بلعين. لكن أصبح من المستحيل بالنسبة لى أن أتحمل ذلك. فوحشية الجيش تفوق قدراتى الجسدية - فهو يضربونك، ويلقون عليك بقنابل الغاز المسيل للدموع، ويصوبون القنابل اليدوية الصاعقة على جسمك، أو يصوبون الرصاصات المطاطية على عينيك. لا أدرى كيف يستطيع الشباب الناشطون فى العشرينيات من عمرهم تحمل هذا الأسبوع تلو الأسبوع، لكنى لا أملك القدر الكافى من الشباب لأكون قادرة على القيام بالشىء نفسه.

عندما أرحل، فسوف أترك هذا الكفاح أيضاً. لكننى أتعهد لرفاقى فى إسرائيل/فلسطين بأننى سأواصل الكفاح من الخارج. لأن الطريق الذى شارك مانديلا وسعيد فى تمهيده - طريق الكفاح السياسى الدولى والسلمى - لا يزال قائماً، ويمكن أن يؤدى بنا إلى النصر. ■

هوامش:

(١) إسرائيل/فلسطين، المقدمة، ص ٧-٨.

(٢) إدوارد سعيد، «البديل الوحيد»، الأهرام ويكلى على الإنترنت، ١-٧ مارس ٢٠٠١، وعدد رقم ٥٢٣، أعيد نشره فى كتاب لإدوارد سعيد، «من أوسلو الى العراق وخارطة الطريق»، نيويورك: دار كتب بانثيون، ٢٠٠٤، ودار كتب فينتيج ٢٠٠٥، (الصفحات ٤٨ - ٥١ من طبعة دار كتب فينتيج).

(٣) المرجع السابق.

(٤) إدوارد سعيد، «أجندة فلسطين»، أعيد طبعه فى الفصل الخامس عشر من كتابه «سياسة نزع الملكية» (نيويورك: دار كتب فينتيج، ١٩٩٤)، ١٤٨. ويعرض المقال عرضاً موجزاً وشاملاً لقرارات الدورة.

(٥) انظر «إسرائيل/فلسطين»، الفصل الثانى.

(٦) انظر، على سبيل المثال، أميرة هاس، «إسرائيل تعزل غور الأردن عن بقية الضفة الغربية»، هآرتس، ١٣ فبراير ٢٠٠٦.

(٧) ميرون رابابورت، «يديعوت أحرونوت»، ٢٣ مايو ٢٠٠٣؛ أكيفا إيلدار، «هآرتس»، ١٦ فبراير، ٢٠٠٤.

(٨) جيمى كارتر، «معاقبة الأبرياء جريمة»، انترناشيونال هيرالد تريبيون، ٧ مايو ٢٠٠٦.

(٩) أموس هاريل «قوات الدفاع الإسرائيلية وصواريخ القسام/اللاتسامح»، هآرتس، ٧ ابريل ٢٠٠٦؛ أموس هاريل وأرنون ريجيولار، «قوات الدفاع الإسرائيلية: حماس فى طريقها لتلجيم صواريخ القسام»، هآرتس، ١٠ ابريل ٢٠٠٦.

(١٠) تانيا راينهارت، «خارطة الطريق الذى لا يصل إلى أى مكان»، «إسرائيل/فلسطين منذ عام ٢٠٠٣»، فيرسو، لندن، نيويورك، ٢٠٠٦، ص ١٣١.

اتفاقيات أوسلو. يتولى سعيد القلق على مصير الفلسطينيين فيستكشف - بدون أى تكلف - علاقة الشعب الفلسطينى بالحكومة الإسرائيلية وحياته تحت حكم السلطة الفلسطينية. يضع اتفاقيات أوسلو تحت المجهر مشدداً على أن الفلسطينيين استسلموا لإسرائيل وكذا للسلطة الفلسطينية وعرفات. لا محل للسلام، على حد قوله، بدون مساواة أو احترام؛ وعليه فهو يحث الفلسطينيين على مقاومة المستوطنات الإسرائيلية بمظاهرات مجردة من العنف وبتأليف جمعيات ديمقراطية بوسعها التعايش سلمياً مع إسرائيل. وبين صفحات الكتاب لا يسكت سعيد عن دور المفكرين فى الخطاب السياسى والهولوكوست وكذلك النمو السياسى لابنه وديع. إن نهاية عملية السلام تحليل مفحم - يأبى تعقب أى خط حزبى - لتعقيدات سياسات الشرق الأوسط وحقائقها القاسية.

■



Power, Politics, and Culture (2001)
السلطة والسياسة والثقافة
Pantheon, 2001, 512PP, $9.27

«أنا آخر مفكر يهودى... التابع الحقيقى الوحيد لأدورنو. دعنى أصوغ المسألة على النحو التالى: أنا فلسطينى-يهودى»، يجاهر سعيد بلسان مستفز فى إحدى مقابلاته لجريدة هآرتس عام ٢٠٠٠ مؤكداً أنه لا يقبل تصنيفه ضمن أية قوالب فكرية. إن هذه الحوارات - الممتدة زهاء خمسة وعشرين عاماً - تتتبع وجهات نظر سعيد العميقة وصراحة لم يحد عنها قط بشأن سياسة الشرق الأوسط. يتعلق الجزء الأول من الكتاب بالنقد الأدبى والنظرية الثقافية فيتجلى للقارئ استعداد سعيد للتفكير خارج الأطر الجاهزة. فهو مثلاً لا يخاف، باعتباره مؤمناً بالجمع بين العمل الأكاديمى والنشاط السياسى، انتقاد الماركسيين الأكاديميين لفشلهم فى دمج النظريات بالتطبيق. تتمحور مقابلات الجزء الثانى حول محاولة سعيد العثور على تطبيقات عملية لأفكاره السياسية ولا سيما فى الشرق الأوسط. علاوة على أنه يتحدث عن صدام حسين والحركة القومية وحياة سلمان رشدى السرية والموسيقى الكلاسيكية. إن السلطة والسياسة والثقافة نظرة موجزة إلى أفكار سعيد وأعماله.

■



From Oslo to Iraq and the Road Map (2003)
(من أوسلو إلى العراق وخارطة الطريق)
Pantheon, 2004, 352PP, $25.95

قبل ثلاث سنوات من وفاته عام ٢٠٠٣، راقب سعيد بمنتهى السخط بعض أشد اللحظات تجهماً فى التاريخ المأساوى لصراع الشرق الأوسط. إن المقالات المجمعة هنا ساخرة النبرة مكسورة الفؤاد. يغدق فيها سعيد آيات الاحتقار على أريل شارون «الشيطانى» غير أنه يدخر ازدراء لا بأس به «للحكم الخرب» لياسر عرفات. يتفق البعض مع سعيد فى دعوته الفلسطينيين والإسرائيليين إلى الاتحاد ضمن دولة واحدة ذات قوميتين مختلفتين بيد أن نقده لتوجه أوسلو إلى حل يتضمن دولتين صار الآن أشبه بالعلم بالغيب. يشجب سعيد العمليات الانتحارية وينصح الفلسطينيين بدلاً منها «بالتمسك بالسمو الأخلاقى» وتشييد مجتمع مدنى مستقر لكنه يصر على أن الاحتلال الإسرائيلى والمستوطنات وعمليات الانتقام من الفلسطينيين تضطلع بالمسئولية الأولى عن استمرارية النزاع. يستولى القلق على سعيد من «سيطرة إسرائيل على السياسة الأمريكية» بعد الحادى عشر من سبتمبر. لكن فيما يتعلق بالعراق، لا يقترح سعيد - المعارض لحكم صدام وسياسة العقوبات والغزو الأمريكى - بديلاً. ومع ذلك فإن هذه المقالات تذكرة بما فقدناه: متحدثاً بليغاً مفعماً بالعاطفة بلسان التقدميين فى العالم العربى.

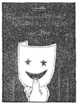
■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

كشف الأقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية

جلال أمين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧ ، ١٥٠صفحة



الهدف الأساسى من عملية نزع الأقنعة التى يقوم بها المؤلف، هو الكشف عن أن كثيراً مما يقدم لنا بوصفه علماً فى الاقتصاد، هو أقرب إلى المذهب أو الأيديولوجية، وأن كثيراً مما يعرض للجمهور بوصفه نظريات علمية فى موضوع التنمية الاقتصادية، ليس سوى أقنعة تختفى وراءها الوجوه الحقيقية، أى المصالح والأهواء والتحزبات.

ومنذ البداية يطرح المؤلف عدة أمثلة لموضوعات اقتصادية اختلفت حولها آراء الاقتصاديين بشكل جذرى من فترة زمنية لأخرى، منها مثلاً موضوع الثمن، الذى أخضعه البعض لحجم ما يبذل فى تصنيع السلعة من جهد، فيما رده آخرون لمقدار ما تحققه السلعة من منفعة، ورده فريق ثالث إلى قانون العرض والطلب.

وفيما يتعلق بالتنمية على سبيل المثال، كان هناك اعتقاد فى الكتابات الاقتصادية التى سادت فى الخمسينيات والستينيات من قبل مؤسسات دولية مثل صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، أن للدولة دوراً مهماً فى دفع عجلة التنمية فى الدول المتخلفة اقتصادياً، وأعطت هذه الكتابات تقديراً متزايداً لفكرة التخطيط، بما فيها التخطيط الشامل، أما الآن، فإن هذا الدور للدولة صار مذموماً كلية، كما أن «زيادة متوسط الدخل» كهدف أساسى لعملية التنمية، تعرض لنقد جارح، وبدأت عملية إعادة الاعتبار لفكرة إعادة توزيع الدخل بعد ربع قرن من النمو السريع الذى لم يحقق تحسناً ملحوظاً فى أحوال الفقراء، ثم يلاحظ المؤلف أن هدف زيادة معدل النمو فى متوسط الدخل قد عاد من جديد لاحتلال مركز الصدارة فى ربع القرن الأخير، كما أن فكرة «التساقط» أى تساقط ثمرات النمو إلى أصحاب الدخول المنخفضة، قد أعيد إليها الاعتبار هى الأخرى وإن بصيغة مختلفة، فالشائع الآن أنه لا شىء أفضل للفقراء من الزيادة السريعة فى متوسط الدخل للدولة ككل، عن طريق زيادة معدلات الاستثمار الوطنى، والأجنبى، وأن نفسح المجال للقطاع الخاص قدر استطاعتنا، وأن نتركه يعمل دون قيود أو مضايقات.

ومن التنمية الاقتصادية الهادفة إلى زيادة متوسطات الدخول، إلى التنمية البشرية التى شاعت فى التسعينيات بديلاً عن التنمية الهادفة إلى إشباع الحاجات الأساسية وخلق فرص العمل، والتى تتضمن إطالة العمر المتوقع للإنسان ونشر التعليم، إلى تنمية إنسانية تفسح مجالاً أوسع لتمكين المرأة، هذه النظريات كلها ليست سوى أقنعة تختفى وراءها مصالح وأهواء دول وجماعات كبرى، وهو ما يكشفه المؤلف فى هذا الكتاب بالتفصيل.

■

حناجر وخناجر

عمار على حسن

القاهرة: نفرو للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧ ، ١٥٧صفحة



يضم الكتاب عدداً من الدراسات وجد المؤلف أن بينها صلة قربى، فيتناول الفصل الأول رحلة المصريين من تأليه الحاكم إلى تكفيره، والدور الذى لعبه الدين فى هذا المضمار، أى أن هذا الفصل يركز بشكل أساسى على دور الدين فى المكون الثقافى المصرى وخصوصاً فى شقه السياسى، حيث نقلت حركات الإحياء الدينى الرؤى الإصلاحية للإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا، إلى حركة سياسية على يد الإمام حسن البنا بتأسيسه جماعة الإخوان المسلمين فى عام ١٩٢٨، وقد فطن الحكام لأهمية الدين فى هذه المسألة فلجأوا بدورهم إلى استخدامه لكسب شرعية يفتقدونها، أو لتبرير سياسات يقدمون عليها ولا تحظى بقبول شعبى.

وفى الفصل الثانى الذى جعل المؤلف عنوانه من القاهرة إلى تورابورا، يناقش الطريق المصرى إلى تنظيم القاعدة، ورحلة الجماعات الإسلامية زمانياً إلى حقب موغلة فى القدم، ومكانياً إلى آفاق جهادية فى أفغانستان ومرتفعات تورابورا.

وفى الفصل الثالث يتناول ظاهرة التضييق الأمنى على أساتذة الجامعات ومحاصرة الفكر والنشاط الطلابى، وهى الإجراءات التى أصابت العقل المصرى فى مقتل، باعتبار الجامعة بأساتذتها وطلابها معملاً نشطاً لتفريخ الفكر والتفاعل بين الأفكار، وكيف أثرت قواعد الترقى والتدخلات الأمنية فى الجامعة فى إفساد المنظومة التعليمية برمتها، والمنظومة العقلية بالتبعية.

ويرصد فى الفصل الرابع حركات الاحتجاج السياسى وكيفية تعاطى الدولة معها بوصفها حركات تمرد خارجة عن الأطر الشرعية، ضارباً المثل بنموذج حركة كفاية، التى تضم أشتاتاً من القوى السياسية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

■

حضارتهم وخلاصنا

المهاتما غاندى

ترجمة: نجدة هاجر - سعيد الغز

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٧ ، ١٨٧صفحة



يعرض هذا الكتاب المهم العديد من الأفكار التى نادى بها المهاتما غاندى، الرجل الذى تحدى بأسلوبه فى المقاومة السلبية الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس، والكتاب عبارة عن محاورة بين قارئ مفترض وغاندى نفسه، الذى يقول فى مقدمة الكتاب إن هذه المحاورات حقيقية، جرت بينه وبين أشخاص حقيقيين يرمز لهم بكلمة القارئ.

يسأل القارئ غاندى مثلاً عما إذا كان شكل الحكم البريطانى لا يفى بالغرض المطلوب فى حالة تحقيق الهند لاستقلالها، ولا يستحق التقليد، فيجيبه بأن حالة إنجلترا المعاصرة يرثى لها، وأن ما يسمونه أبا البرلمانات ليس سوى كائن عقيم، لا يقدر على العمل ما لم تأته الأوامر من الخارج.

وحين يسأله القارئ عن الأسباب التى أوصلت إنجلترا إلى هذا المنحدر، يجيبه: هذه الحالة ليس مسئولاً عنها الشعب البريطانى، وإنما المسئول الحقيقى هو الحضارة الحديثة التى ليس لها من الحضارة سوى الاسم، فإنها فى الواقع تدفع أوروبا إلى الهلاك يوماً بعد يوم.

ويضيف: لقد وصلت هذه الحضارة إلى درجة لم يعد علينا معها سوى الانتظار بصبر لنراها تقضى على نفسها وتنهار كبيت من الورق المقوى أمام النار، وحسب تعاليم النبى محمد، حضارة كهذه إنما هى حضارة شيطانية، والتعاليم الهندوسية تسميها العصر الأسود المظلم.

وحين يسأله: ما رأيك فى التنافر الغريزى القائم بين الهندوس والمسلمين، يرد غاندى: هذا التعبير من وضع عدونا المشترك، لقد ازدهرت حياة الهندوس فى ظل حكم المسلمين والعكس بالعكس، واعترفت كل طائفة بأن القتال معناه الانتحار، ولذلك قرر الجميع أن يعيشوا معاً بسلام، ولم يعكر صفو هذا السلام إلا مجىء الإنجليز.

ويضيف: هل فى استطاعتنا أن ننسى بأن لكثير من الهندوس والمسلمين أجداداً مشتركين، وبأن دماء واحدة تجرى فى عروقهم، وهل يصبح الناس أعداء بمجرد أن يغيروا دينهم، إن الأديان ما هى إلا وسائل تقودنا بطرق متعددة إلى نقطة واحدة، إلى الله.

هكذا تحدث غاندى فى محاوراته.

■

مدخل إلى المقام الليبى

السنوسى محمد

القاهرة - لندن: المركز العربى الدولى للإعلام، ٢٠٠٧ ، ٢٦٧صفحة



تجمع هذه الدراسة الشعر الشعبى الليبى المغنى وتخضعه للفحص، وتصنف أوزانه فى إطار ما تسميه «المقام»، وتثبته كقياس فنى لأوزان شعر الأغنية الشعبية الليبية، وهدف الدراسة هو تحديد معالم وتركيبة المقام الليبى من خلال الأغنية، التى خضعت للحدس والتخمين دونما منهج علمى واضح، وتعتمد الدراسة على نصوص مختارة من الشعر الغنائى يرجع بعضها لأكثر من قرنين من الزمان، وهى بذلك تتجاوز ما تنادى به بعض نظريات الفلكلور فى تحديدها للمعامل التراثى بأنه ذلك الجهد الذى مضى عليه أكثر من ٢٥ عاماً، وقد جمعت هذه النصوص من تسجيلات مسموعة ومرئية ومقابلات مع حفاظ ورواة لهذا التراث، وتقدم عدداً من أعلام الفن الليبى من أمثال على الشعالية ومحمد السيد بومدين ورجب البكوش والشريف الماقن.

تقع الدراسة فى أحد عشر باباً.

■

الليبرالية المصرية

رفعت السعيد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧ ، ٢٨٥صفحة



يستكمل المؤلف بهذا الكتاب، ما بدأه فى كتابه «عمائم ليبرالية» الذى بدأ به دراسته الليبرالية المصرية، بوصفها أحد التيارات السياسية التى لعبت دوراً بارزاً فى مسيرة الاستقلال الوطنى وتحقيق النهضة المصرية، وقد بدأ منذ رفاعة الطهطاوى الذى اعتبره «أبو الليبرالية المصرية»، كما درس مشايخ آخرون كان لهم دور مهم فى تدعيم مسيرة هذا التيار مثل الشيخ محمد عبده والشيخ أمين الخولى والشيخ على عبدالرازق وأحمد أمين، وكذلك طه حسين استناداً إلى أن دراسته التى شكلت بناءه الأساسى كانت فى الأزهر الشريف.

وإلى جانب طه حسين، يدرس المؤلف فى هذا الكتاب شبلى شميل، فرح أنطون، ولى الدين يكن، سلامة موسى، إسماعيل مظهر، قاسم أمين، طنطاوى جوهر، عبدالقادر حمزة، إضافة إلى عدد من الشعراء ذوى النزعة الليبرالية مثل حافظ إبراهيم وأحمد شوقى وخليل مطران. وفى المجال السياسى يكتفى بزعيم الوفد سعد زغلول ومن بعده مصطفى النحاس ثم ما مثلته الطليعة الوفدية.

إلى ذلك يبدى المؤلف وهو الأمين العام لحزب التجمع ذى النزعة اليسارية ملاحظات على أداء هذا التيار، الذى بدا فى أحيان كثيرة وقد اتخذ مواقف مناقضة لمبادئه الفكرية الداعمة لحرية الفكر والاعتقاد، ومنها مثلاً وقوف سعد زغلول الذى دافع عن استقلال الأمة وعن حقوقها السياسية ودستورها المنظم للعلاقات بين السلطات بداخلها، فى موقف معاكس لحرية الفكر والإبداع فى حدثين شهيرين فى تاريخ الفكر المصرى المعاصر، ونعنى موقفه من كتاب طه حسين «فى الشعر الجاهلى»، وموقفه من كتاب على عبدالرازق «الإسلام وأصول الحكم»، كما يشير إلى مأزق آخر صنعه الليبراليون اللبنانيون والشوام الذين أتوا إلى مصر لأسباب مختلفة فى تلك الفترة، ساعين إلى الاستفادة من مناخ الحريات السياسية النسبى الذى كان موجوداً فى مصر ولم يكن موجوداً فى بلادهم، وبلغ عددهم مع مطلع القرن العشرين نحو مائة ألف، وتمتعوا بكافة الحقوق التى تمتع بها المصريون بوصفهم رعايا الدولة العثمانية، ومن ناحية ثانية، فقد أحاط بعض من هؤلاء ليبراليتهم بانتقادات حادة للموروث المصرى، وتحدوا المشاعر المصرية إزاء الاحتلال البريطانى، وتملق بعضهم الاحتلال، وهاجم بعضهم الدين وتهكم على العلماء.

إلا أن الضعف الأساسى الذى شاب الليبرالية المصرية كما رآه المؤلف، كان كامناً فى البنية المجتمعية وفى الظروف الموضوعية للنشأة، إذ كان الفارق الجوهرى بين الليبرالية الغربية والليبرالية المصرية، أن الأولى قامت فى مجتمعات مستقلة لا تعانى من ضغوط الاحتلال الذى يعرقل تطورها السياسى والاجتماعى، فيما قامت الثانية فى مواجهة مقاومة عاتية من الاحتلال والقصر.

مصر القديمة فى عيون حديثة

جمال بدوى

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٧ ، ٢٤٢صفحة



ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب، مصر مهد الحضارة، مصر أرض الديانات، ملوك وعلماء رحالة، وبانتقاء دال.

يختار المؤلف من حوادث التاريخ ومن الإبداع المصرى القديم ما يبرهن به على أفكاره من أن فجر الضمير الإنسانى والأخلاقى بمعناه الواسع نشأ فى مصر القديمة وانتقل منها إلى العالم.

وليس أدل على ذلك من الحرية التى نالتها المرأة فى الحضارة الفرعونية القديمة، والتى لم تنل مثلها فى أى حضارة أخرى، حتى ظهور الإسلام وتكريمه للمرأة.

وقد اهتم المصرى القديم بالأسرة كنواة أولى للمجتمع، ولم يكن مباحاً للرجل تعدد الزوجات إلا فى الطبقة الأرستقراطية وعند الملوك فحسب.

وفى أحوال محددة كانت المرأة تسمح لزوجها بالزواج من أخرى، إذا كانت هى عقيماً، وكان الزواج يتم برضاء الطرفين، الفتى والفتاة، ويشهده شهود ويوقع له عقد رسمى يباركه كاهن المعبد.

وكان عقد الزواج يتضمن حقوقاً للطرفين، فى حالة الانفصال أو الطلاق، وقد أعرب عديد من المؤرخين الغربيين عن دهشتهم من الحقوق التى تمتعت بها المرأة، فى وقت كانت المرأة اليونانية تجر من رقبتها بحبل كأنها دابة.

وكان الزوج يضمن لزوجته عيشها كله من طعام وشراب وملبس وحماية، ويتعهد الزوج فى حالة تركه لزوجته بتعويضها بأوزان من الذهب والفضة ينفقان عليها.

وفى حالة الانفصال يتم تقسيم الممتلكات المشتركة بينهما بطريقة منظمة، كما يتم الاتفاق على الكيفية التى سيعيش بها الأولاد مع الأب أو الأم.

هذا واحد من موضوعات الكتاب الذى يحتشد بالعديد من الموضوعات الجادة مثل فكرة تقديس الفرعون، وأصل اللغة الهيروغليفية، والحب والهيام عند الفراعنة، والموالد عند القدماء، ومن يكون فرعون موسى، وافتراءات اليهود على الأنبياء، فضلاً عن دراسات مبسطة عن عديد من الملوك والعلماء والرحالة.

رسائل المشاهير

سامى كمال الدين

القاهرة: دار شادى زاهد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧ ، ٢٦٦ صفحة



يتضمن الكتاب رسائل متبادلة بين المشاهير من الكتاب والفنانين والسياسيين. تكشف هذه الرسائل عن جوانب خفية فى شخصيات أصحابها، إذ مع الأوراق لا مجال للتخفى والإخفاء والتظاهر بعكس المشاهد الحقيقية، هذا ما يلاحظه المؤلف مثلاً فى رسائل إحسان عبدالقدوس إلى أمه السيدة روزاليوسف، إذ تكشف رسائله إليها عن حب طاغ وولِه بشخصية الأم وجمالها وفكرها، فتبدو رسائله إليها كمن يغازل حبيبته، فهو حب تفضحه رسائله.. «كنت أراك جميلة طول عمرى، ومازلت حتى اليوم أراك بضفائر طويلة فى لون الذهب، وبشرتك فى لون اللبن المخلوط بعصير الورد، وعيناك فى لون الربيع تنبضان بالحياة والحنان، وشفتاك فيهما رحمة وكبرياء».

أما القائمقام يوسف صديق أحد أبطال ثورة يوليو ١٩٥٢ فيكتب إلى زوجته ١٩٣٦: إننى تعبت من إرسال قبلاتى إليك وأود أن أقبلك فعلاً، فليس القول كالعمل، سنبدأ شهر العسل من جديد، وسنبدأ حياتنا الزوجية من جديد، وعليك أن تعتبرى نفسك الآن خطيبتى وأن موعد زفافنا هو أول يوليو ١٩٣٦ لا ٤ أبريل ١٩٣٥. ويخاطب الرئيس السادات أولاده قائلاً: «وحشتونى يا غجر يا أولاد الغجر، سأفسحكم بسيارة عمكم جمال».

أما رئيس المخابرات صاحب السمعة السيئة على المستوى الشعبى والذى ألصقت به كل خطايا ما قبل ١٥ مايو ١٩٧١، ونعنى به صلاح نصر، فإن رسائله تكشف عن شخص شديد التقوى والورع، فرسائله إلى أولاده من المعتقل تحتشد بعبارات الإيمان الذى يقترب من التصوف، ويطلب منهم دوماً أن يدعوا له لإيمانه ببراءته وأنه مهما طال ليل الظلم فلابد له من نهار.

وتشير رسائل الشاعر أمل دنقل إلى أخيه وأمه إلى طباعه التى يميزها الكبرياء والاعتداد الشديد بالنفس، إلى حد رفض الاقتراض من أخيه برغم حاجته الشديدة للمال لاستكمال علاجه الذى كان يتكلف أكثر كثيراً من دخله، أما رسائل المخرج محمد كريم إلى أصدقائه من الفنانين وبينهم يوسف وهبى ومحمد عبدالوهاب، فإنها بشكل ما، تؤرخ لفترة فى مسيرة السينما المصرية.

مذكرات عريان يوسف سعد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧ ، ٢٤٦صفحة



يمثل عريان يوسف سعد نموذجاً للوطنية المصرية فى صورتها شديدة النقاء، واسمه ذائع فى كتب التاريخ التى تناولت ثورة المصريين فى عام ١٩١٩، إذ كان هو الشاب الذى ألقى بقنبلته على موكب يوسف وهبة باشا رئيس الوزراء الذى جاء به الاحتلال الإنجليزى أثناء مروره بمنطقة سليمان باشا، نجا رئيس الوزراء وألقى القبض على عريان يوسف ليقضى عقوبة السجن عشر سنوات، وحين سئل الشاب الذى كان عضواً نشطاً فى منظمة اليد السوداء، والتى ضمت شباباً وطنيين جعلوا هدفهم اغتيال ضباط الاحتلال الإنجليزى ومن يتعاون معهم من المصريين عن دافعه لارتكاب الجريمة، قال إنه آثر أن يكون هو من يغتال يوسف وهبة المسيحى، حتى لا يقال إن مسلماً قتله وتتحول المسألة إلى قضية طائفية لا وطنية.

كان هذا هو إدراك الرجل لدوره ولقضية بلاده، وهو ما يتبدى فى كل سطر من سطور المذكرات التى تم تقسيمها إلى جزءين، يتناول الجزء الأول رواية صاحبها لما جرى فى ثورة ١٩١٩، ومشاركته فى مظاهرات الطلبة واعتقاله فى سجن القلعة، وحكاية استقلال ميت غمر، ثم انضمامه إلى منظمة اليد السوداء ومحاولته اغتيال رئيس الحكومة يوسف وهبة باشا، كما يتضمن هذا الجزء التحقيق معه والحكم عليه وترحيله إلى سجن طرة، وفى سجن طرة تدور أحداث الجزء الثانى من المذكرات، ونقرأ فيها عن محاولته الهرب بصحبة حجاج وهو رئيس

عصابة، تمكنوا جميعًا من الهرب من الليمان ثم قبض عليهم بعدها بفترة وجيزة، ثم بقاؤه فى انتظار الحكم عليه بالإعدام أو بالأشغال الشاقة المؤبدة، وأما المرة الوحيدة التى بكى فيها عريان يوسف سعد داخل الليمان، فكانت حين قال له ملاحظ السجن «يا شحات»، يقول عريان: لقد واجهت الموت فأطل علىّ من فوهات المسدسات المصوبة إلى رأسى، ثم حكم علىّ بالأشغال الشاقة عشرة أعوام، ووضع الحديد فى رجلى، وكل ذلك لم يثر فى نفسى شعور ألم ولم يبعث دمعة واحدة من عينى. ولكن تلك الكلمة التى قالها الملاحظ أثارت فى نفسى ألمًا شديدًا فاق كل ما أثارت الشدائد فى نفسى من آلام.

هذا هو عريان يوسف سعد الشاب الوطنى صاحب المذكرات.

■

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

عبدالرحمن الكواكبى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧ ، ١٤١ صفحة



يعد عبدالرحمن الكواكبى (١٨٤٨ - ١٩٠٢) المولود فى مدينة حلب، أحد المصلحين الاجتماعيين والسياسيين الأوائل، وبسبب نزعته الإصلاحية، وخصوصًا ضد الاستبداد السياسى الذى رآه أصل كل فساد، سجن وتعرض للتشريد والنفى، وآراؤه فى مقاومة الاستبداد تجمع بين البعدين السياسى والاجتماعى معًا، فإذا كان قد أقر أن أصل الداء هو الاستبداد السياسى ودواؤه هو الشورى الدستورية، فقد قال أيضًا إن تراكم الثروات المفرطة مولد للاستبداد ومضر بأخلاق الأفراد.

وإذا كان بين تعريفات علم السياسة أنه «علم إدارة الشئون المشتركة بمقتضى الحكمة»، فإن الاستبداد كما عرفه الكواكبى هو «التصرف فى الشئون المشتركة بمقتضى الهوى». أما أشد مراتب الاستبداد فهى «حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية».

وأما المستبد فإنه يود أن تكون رعيته كالغنم درًا وطاعة، وكالكلاب تذللاً وتملقًا، وعلى الرعية أن تكون كالخيل إن خدمت خدمت، وإن ضُربت شرست. وهكذا، فإن الكواكبى يحمل الرعيةَ وزر أن يولَّى عليها مستبد، وأن ترضى العيش فى جحيم الاستبداد، ويجعل الاستبداد عقابًا دنيويًا لقوم لا يحبهم الله ارتضوا الظلم والمهانة، فهو يرى أن الاستبداد هو يد الله القوية الخفية يصفع بها رقاب الآبقين من جنة عبوديته إلى جهنم عبودية المستبدين الذين قد يشاركون الله فى عظمته ويعاندونه جهارًا، والاستبداد هو نار غضب الله فى الدنيا، والجحيم نار غضبه فى الآخرة، والاستبداد هو أعظم بلاء يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبته الآنفة، كما أن المستبدين يتولاهم مستبد، وأما الأحرار فيتولاهم أحرار، وهذا صريح معنى: كما تكونوا يولى عليكم.

ولم يتوقف الكواكبى فى حديثه عن الاستبداد عند حدود الاستبداد السياسى، إنما تحدث عن العلاقة بين الاستبداد وأمور أخرى كثيرة: الدين والعلم والمال والمجد والأخلاق والتربية والنهضة، وبعد أن يفصل العلاقة بين الاستبداد وكل هذه الأمور يقدم ثلاث قواعد أساسية لمقاومة الاستبداد هى: أولاً أن الأمة التى لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية، ثانيًا: الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج، ثالثًا: يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد.

وإلى جانب هذه القواعد العامة، يقدم الكواكبى عددًا من النصائح للناشئة كى يستحقوا الحرية ويسحقوا المستبدين، تتلخص جميعها فى ضرورة أن يهيئ الشاب نفسه خلقيًا وعلميًا ودينيًا واجتماعيًا، أى أنه يتبنى منهجًا إصلاحيًا متدرجًا، ويأنف من العنف الذى يقود إلى الفتنة.

■

جماليات الشعر العربى

دراسة فى فلسفة الجمال فى الوعى الشعرى الجاهلى

هلال الجهاد

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٤٧٢ صفحة



تمثل هذه الدراسة خطوة أولى لكن أساسية وضرورية من أجل أن يكون التفكير فى الجمال وممارسته همًا مصيريًا للعربى المعاصر، وأن يكون الجمال ركنًا أساسيًا فى الرؤية العربية المعاصرة للعالم بما هى نظام للمعنى مؤطرًا بالقيمة. لقد فكرنا كثيرًا فى الوجود والمصير، وفى المعرفة والتقدم والحداثة، لكننا لم نفكر فى القيمة كثيرًا. ومن هنا كانت رؤية العربى المعاصر لذاته وللعالم تعانى من التشوش الذى كان من أهم نتائجه هذه الانتكاسات المتواصلة.

إن القيمة تضبط تعالى الغايات وتسبغه على وسائل، وهذه هى التوصية الأولى والأخيرة لهذه الدراسة، إنها دعوة لأن نبحث عن القيمة فى ذواتنا. صحيح أن تيار الخراب يكتسح عالمنا، لكن لا سبيل لوقفه إلا بالجمال الذى سيكون معبرنا الوحيد إلى الإنسان العربى الذى يكمن فينا، وهو يكافح من أجل حريته بما هى قيمة كل القيم.

■

المسألة القبطية والشريعة والصحوة الإسلامية

أبوالعلا ماضى

القاهرة: سفير الدولية للنشر، ٢٠٠٧ ، ٢١٠ صفحة



عناوين الكتاب ثلاث قضايا شائكة، ربما كان أكثرها سخونة وحساسية المسألة القبطية، وهى المسألة التى تتصدر النقاش العام فى مصر منذ عقد على الأقل، وقد كان معتادًا أن يثار الخلاف حولها بين الإسلاميين والعلمانيين، إذ كان الأخيرون يرفضون أسلمة الدولة ظنًا منهم أن هذه الأسلمة تنقص من مواطنية الأقباط وتجور على حقوقهم، ومنذ عقد على الأقل، دخل الأقباط بأنفسهم طرفًا فى هذا الجدل، من خلال أقباط المهجر أولاً ثم أقباط الداخل فيما بعد.

وقبل استعراضه لمواقف الأطراف المختلفة من المسألة القبطية، يقدم المؤلف عرضًا تاريخيًا لمحاولات العبث بالملف القبطى منذ الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨، وقصة المعلم يعقوب الذى شكّل جيشًا لمساندة الفرنسيين من ٢٠٠٠ قبطى، وانتهى به الأمر مذمومًا من الجماعة المصرية كلها بمسلميها وأقباطها، ليموت وحيدًا فى عرض البحر، وحتى مؤتمر أقباط المهجر الذى عقد قبل عامين، مرورًا بالمؤتمر القبطى الذى عقد فى أسيوط عام ١٩١١، والذى رد عليه الوطنيون المصريون بالمؤتمر المصرى فى أبريل من نفس العام، ثم إعلان دستور ١٩٢٣ الذى ساوى بين جميع أبناء الأمة على خلفية المواطنة، وشعار ثورة ١٩١٩ الخالد: الدين لله والوطن للجميع.

ويلاحظ المؤلف، وهو نفسه وكيل مؤسسى حزب الوسط «تحت التأسيس»، أن المسألة القبطية توارت مع قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، إذ نجحت الثورة فى جذب الجميع لصالح مشروعها السياسى الاجتماعى المناهض للاستعمار والرأسمالية العالمية، وقد عادت المسألة القبطية للظهور من جديد مع تولى الرئيس السادات وسعيه للاستقواء بالإسلاميين فى مواجهة اليساريين والناصريين والقوميين خصوصًا فى الجامعة، واستمرت المسألة القبطية فى التصاعد فى مرحلة حكم الرئيس مبارك، وتعددت حوادث العنف ذات المسحة الطائفية، وتراجعت المشاركة القبطية فى الشأن العام.

إلى جانب هذا الملف الشائك، يناقش المؤلف قضية الشريعة وتطبيقها، وينحاز فى السجال كله إلى فكرة الدولة المدنية، رافضًا الدولة الدينية، وإلى فكرة المواطنة بديلاً عن الطائفية، وإلى التعددية والديمقراطية والفصل بين السلطات، أى شكل الحكم كما تعرفه النظم السياسية الحديثة، بديلاً عن الشكل الذى كانت عليه دولة الخلافة الأولى.

■

صفحات من الأدب التركى

زينب أبوسنة

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٧ ، ٢٥٥صفحة



يتضمن الكتاب عدة دراسات فى الأدب التركى الحديث والمعاصر، فى المسرح والشعر والقصة والرواية. وهى تشير فى الفصل الخاص بالمسرح على سبيل المثال إلى تطور فن المسرح فى تركيا، إذ كانت للقبائل التركية التى هاجرت من آسيا إلى الأناضول فنون شبيهة بفن المسرح، كما كان للسلاجقة والعثمانيين مسارحهم، وتتابع تطور فنون المسرح حتى بدايات تغريبه فى ١٨٣٩، أى تحول المسرح التركى إلى مسرح أوروبى الطابع، فى الأداء كما فى الديكور وغيره، وعقب تأسيس الجمهورية التركية ظهر اهتمام كبير بالمسارح التى تدعمها الدولة، وافتتحت بيوت الشعب ومسارح ذات طابع قومى، ويمكن اعتبار فترة الخمسينيات فترة الوثبة المسرحية الكبرى، والتى سبقت فترة ازدهار المسرح التركى فى الستينيات، والتى شهدت تأسيس مسارح للهواة، وبروز البعد الاجتماعى فى الكتابة للمسرح، و كذلك العودة إلى بعض موضوعات التراث الدينى وغيره، وهى المرحلة التى مازالت مستمرة حتى اليوم.

وتشير فى فصل تال إلى فكرة تبسيط اللغة التى اضطلع بها عدد من الأدباء الأتراك المعاصرين، وعلى رأسهم شناس وحسين مجاهد وأحمد حكمت والشاعر القومى أحمد أمين والشاعر رضا توفيق ثم جماعة الأدب الجديد، وإن كان هذا

التيار قد لاقى صعوبات وتحديات شديدة من التقليديين الرافضين لفكرة تبسيط اللغة.

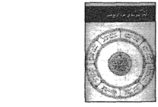
فى دراسة أخرى تقدم لنا صورة المثقف فى الأدب التركى الحديث من خلال روايات يعقوب قدرمى، والتى يبدو فيها المثقف هو الخادم الذى تملى عليه مسئوليته الاجتماعية دور القائد فى تعليم وتوجيه الجماهير المتخلفة، وهى فكرة مغايرة لما كان سائدًا طوال الحقبة العثمانية. وتقدم كذلك دراسة نقدية مطولة لديوان الشاعر سليمان نصيف «فراق عراق» وتصل من خلالها إلى عدة نتائج أهمها، أنه تجسدت لدى الشاعر فى هذا الديوان فكرة انهيار الدولة العثمانية، بصفته واحدًا من المسئولين فى الدولة آنذاك، ولذا بدا عشقه للتاريخ العثمانى، وعبر عن وطنية فائقة تصل إلى مرتبة الفدائية، إذ كان مفتونًا بالبطولة، وكثيرًا ما ترددت فى قصائده معانى الثأر واستعداده الدائم للمخاطرة فى سبيل ما يؤمن به، وهو نموذج العثمانى المسلم الذى يمزج بين الدين والفكرة القومية.

نطالع بعد ذلك دراسة عن واحد من أشهر الأدباء الأتراك المعاصرين هو يشار كمال، الذى رشح مرات عديدة لنيل جائزة نوبل فى الآداب، وهو واحد من أكثر من أسهموا فى نقل الأدب التركى إلى العالمية وترجمت أعماله إلى ما يقرب من أربعين لغة، وهو كاتب عاش وسط الناس وعبر عن الصراعات الاجتماعية فى بلاده، كما تخصص دراسة مطولة للأديب التركى الحاصل على جائزة نوبل فى الآداب هذا العام، أورهان باموك، فتقدم دراسة نقدية لروايته «جودت بك وأولاده»، و«اسمى أحمر»، وهما من أشهر رواياته.

■

ابن خلدون.. البحر المتوسط فى القرن الرابع عشر

الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٧، ٤٦١ صفحة



يجمع هذا الكتاب خلاصة أبحاث لنحو ٥٠ عالمًا، جميعها تدور حول ابن خلدون الذى توفى قبل ستمائة عام من اليوم فى القاهرة، وتركز بشكل أساسى على القرن الرابع عشر وسقوط الأندلس، والعلاقات التى قامت تجاريًا وسياسيًا وثقافيًا، بين الدول الإسلامية الواقعة على شاطئ المتوسط ودول أوروبا التى تقابلها على الضفة الأخرى، ووفقًا لابن خلدون، فإن الموقع الجغرافى يمثل عاملاً رئيسيًا فى تطور المجتمعات والحضارات، بما يرتبط به من عوامل مناخية وبيئية، كما أن البيئة تلعب دورًا كبيرًا فى تكوين شخصية ساكنيها، وقد اعتبر ابن خلدون الاختلافات بين الأمم والشعوب مسألة إيجابية، فالتنوع اللغوى والعرقى والدينى ضرورة لنمو العلاقات بين الأمم والشعوب، يدرك ابن خلدون هذا ويحبذه، دون أن يغفل عن الخصوصية التى تميز المجتمعات العربية والإسلامية، فضلاً عن أنه يرى أن الأمم تمر بدورات من البداوة والتحضر متواصلة، وقد تأثر فى بناء نظريته حول تكوين السلطة بهذه الرؤى، إذ اعتبر الأمة تاريخًا حيًا، وثيق الصلة بالأنساب والمكونات الثقافية الأساسية لكل شعب أو أمة فى الشرق والغرب.

وفى هذا الكتاب دراسات وثيقة الصلة بابن خلدون ورؤاه للعلاقات بين الدول الواقعة على المتوسط، وهى دراسات تقع تحت عديد من العناوين الأساسية هى: ابن خلدون وعصره، أحوال الدولة، الحروب والدبلوماسية والتوسع، التجار والطرق والبضائع، علم السكان ونهاية العالم والعلاج، حياة ابن خلدون، إشبيلية فى القرن الرابع عشر.

ويتضمن الكتاب معرضًا للصور ذات الصلة بموضوعاته، أقيم فى القصر الملكى بمدينة أشبيلية فى الفترة من مايو إلى سبتمبر من العام الماضى.

■

يوسف السباعى فارس الرومانسية والواقعية

لوسى يعقوب

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ١٢٦صفحة



وصف الأديب المصرى الراحل يوسف السباعى بأنه فارس الرومانسية، والإضافة التى تقدمها المؤلفة هنا حول شخصية يوسف السباعى وأدبه، أنه كان أيضًا أديبًا واقعيًا، عالج مشكلات وقضايا الوطن فى رواياته، وتغلغل فى شرايين المجتمع دون أن يفقد طبيعته المثالية، وإنما كانت رومانسيته المزعومة تلك ستارًا يغلف هذه المثالية، وهو ما يتبدى بوضوح فى أعماله «السقا مات»، «أرض النفاق»، «يا أمة ضحكت»، «نائب عزرائيل».

تقدم المؤلفة رؤيتها تلك من خلال خمسة فصول هى: حياة السباعى الشخصية والأدبية، بين الرومانسية والواقعية وهو فصل تدرس فيه القصة والرواية عند السباعى والمرأة فى أدبه، مواقف يوسف السباعى من أدبه، بين القومى والإنسانى، أديب الحياة.

■

حدتو.. سيرة ذاتية لمنظمة شيوعية

محمود الوردانى

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٧، ٥١٥ صفحة



الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) هى أكبر التنظيمات الشيوعية التى عرفتها مصر، نشأت فى ١٩٤٧، لكن سبقتها عدة تنظيمات يسارية أخرى، بل كان بمصر حزب شيوعى رسمى تم تأسيسه عام ١٩٢٣. وبسبب خلافات وانقسامات داخلية، تفتت العديد من هذه التنظيمات، بعد أن انقلب فريق من مؤسسيها على فريق آخر، أو بسبب خيانة بعض المنضمين إلى هذه التنظيمات لأصحابهم، وتجنيدهم كعملاء للأمن. وحدتو كانت المنظمة الأكبر عددًا والأكثر تأثيرًا، خصوصًا فى الأوساط العمالية، وكثير من الانشقاقات التى جرت فى الحركة اليسارية خرجت أساسًا من معطفها، وهى ضمت إلى جانب المشتغلين بالسياسة والمنشغلين بالشأن العام فى صورته المباشرة، أدباء وفنانين وشعراء، كما ضمت نخبة من أبناء الأرستقراطية المصرية، وأبناء وزراء وباشوات. وسنلاحظ أن المؤلف لا يتوقف عند حدتو فحسب، بل يسبقها بالتأريخ لمنظمات شيوعية أخرى عملت سرًا، قام على إنشائها أجانب ويهود مصريون، من أمثال جاكورى كومب ومارسيل إسرائيل وريمون أجيون وراؤول كوريبل، وقد لعب هؤلاء دورًا مهمًا فى تأسيس ما يسميه المؤلف الحلقة الثانية من التنظيم.

وضمت التنظيمات الشيوعية فى ذلك الوقت عددًا كبيرًا من الأسماء التى صارت نجومًا فى مجالاتها فيما بعد، منهم المخرج الكبير صلاح أبوسيف والمخرج حلمى حليم والسينمائى سعد نديم، إلى جانب مجموعة الفن والحرية التى ضمت جورج حنين وأنور كامل ورمسيس يونان وكامل التلمسانى وفؤاد كامل وغيرهم.

ويشير المؤلف إلى أن ارتباط الحركة الشيوعية بالأجانب واليهود فى بدايتها كان له ما يبرره، إذ كانت مصر تحت الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢، وكانت للأجانب حياتهم الخاصة ومجتمعاتهم شبه المغلقة عليهم، كما كانوا متأثرين بالمد اليسارى الحادث فى أوروبا عشية الحرب العالمية الأولى، وقد تمثل ذلك فى بعض المنظمات التى أنشأوها من نوع اتحاد أنصار السلام والمحاولون وإيسكرا وتحرير الشعب وغيرها.

المؤلف لا يقدم تأريخًا للحركة الشيوعية أو لمنظمة حدتو، بقدر ما يقدم سردية إنسانية، لا تخلو من التعاطف ومن الشهادات الحية والتفاصيل الصغيرة، التى صنعت برأيه هذه الملحمة المسماة حدتو.

■

العلاقات المصرية الإيرانية

سعيد الصباغ

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٢٣٣صفحة



شهدت العلاقات المصرية - الإيرانية حالات عدة من الشد والجذب، واتسمت عمومًا بفتور قطعه تعاون كبير على الصعيد الاقتصادى والتجارى فى الفترة من ١٩٧١ وحتى ١٩٧٨، وقطيعة وصلت إلى حد الخصومة خصوصًا فى السنوات الأولى لقيام الثورة الإسلامية فى إيران.

وفى الحالة الأولى كانت العلاقة الخاصة التى جمعت بين الرئيس السادات والشاه محمد رضا بهلوى سببًا رئيسيًا فى تحقيق التقارب بين الدولتين، إذ مثل السادات من ناحية انقلابًا على كل ما جسده سلفه - الرئيس عبدالناصر - من سياسات، إذ اختار السوق المفتوح بديلاً عن الاشتراكية، والاقتراب من أمريكا بديلاً عن التقارب مع الاتحاد السوفيتى، وهى سياسات خففت من حدة القطيعة بين مصر وإيران، خصوصًا أن الشاه ربطته علاقة وثيقة بالولايات المتحدة الأمريكية، ومن ناحية ثانية كان ثمة إعجاب متبادل بين السادات والشاه، تبدى منذ لقائهما الأول حين تم إيفاد السادات من قبل الرئيس عبدالناصر ممثلاً لمصر فى مؤتمر القمة الإسلامى الأول الذى دعا إليه ملك المغرب محمد الخامس فى عام ١٩٦٩، عشية إحراق أحد اليهود الصهاينة للمسجد الأقصى، وأثناء المؤتمر تبادل الشاه والسادات الجدل حول دور الحروب فى حسم المشكلات الدولية، وأعرب الشاه عن استعداده لمساعدة مصر «بشرط أن تكون قد وعت درس الهزيمة»، واعتبر السادات ما قاله الشاه إهانة لمصر، فرد بأن مصر على استعداد لتحمل أعباء الهزيمة ومسئولية النصر فى المستقبل وحدها إذا لزم الأمر، وبعدها نجح الملك فيصل ملك السعودية فى عقد لقاء لتصفية الأجواء بين الزعيمين، وكانت بداية لعلاقة وثيقة لا تخلو من إعجاب متبادل عبر عنه

كلاهما فى مناسبات مختلفة فيما بعد، وقد استمر الطرفان هذه العلاقة كل بطريقته، فقد عملت إيران على استقطاب مصر فى ظل تراجع علاقاتها مع موسكو، وتحويلها إلى مركز من مراكز مقاومة الشيوعية فى المنطقة، كما عملت مصر على كسب إيران لصالح القضايا العربية وخصوصاً قضية فلسطين، وقد مثلت السنوات من ١٩٧٤ وحتى ١٩٧٧ أضخم تعاون اقتصادى فى تاريخ البلدين على الإطلاق، وبسبب هذه العلاقة أمكن للبلدين تجاوز نقاط خلاف عديدة نشأت آنذاك، أهمها قضية احتلال إيران للجزر الإماراتية الثلاث: طنب الكبرى، وطنب الصغرى، وأبو موسى، والتوتر الذى شاب العلاقات الإيرانية العربية بوصول البعثيين إلى الحكم فى العراق بانقلاب قاده أحمد حسن البكر فى عام ١٩٦٩.

وقد أخذ منحنى العلاقات بين البلدين فى التدهور مع قيام ثورة الخمينى فى ١٩٧٩، وإعلانه رفض بلاده معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية واتفاقات كامب ديفيد، وانضمامه إلى جبهة المقاطعة العربية لمصر، بل وإفتائه بتكفير الرئيس السادات شخصياً.

وزادت الجفوة اتساعاً باستقبال مصر الرسمى لشاه إيران بعد خلعه، وإعلانها رفض احتجاز رهائن أمريكيين من قبل طلاب إيرانيين فى مبنى السفارة الأمريكية بطهران، ثم المساندة المصرية للعراق فى حرب طويلة ضد إيران بعد أن كان الموقف المصرى محايداً فى بدايات الحرب، وهو ما مكّن العراق من الصمود وقلب الموازين لصالحه فى بعض فتراتها، ولأسباب إقليمية ودولية، فإن هذه الهوة لم يتم ردمها حتى الآن، ومازالت محاولات التقارب التى يبذلها وسطاء بين البلدين، لم تؤت ثمارها بعد.

■

الصراع على العراق

عبدالكريم العلوجى

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٧، ٢٢٠ صفحة



دخلت أمريكا العراق بزعم وجود أسلحة للدمار الشامل، ودمرت بنيته الأساسية وأعادته قروناً إلى الوراء، ثم ثبت أن هذه الأسلحة لا وجود لها، وبرغم ذلك بقيت القوات الأمريكية وقوات التحالف فى بلاد الرافدين، تفكك أوصاله وتمحو من الوجود آثار حضارة من أقدم وأعرق حضارات العالم، ولذا فإن هدف المؤلف من كتابه يتبدى فى هذه الصيحة التى يطلقها فى مقدمته: ارحلوا عن العراق.

يتألف الكتاب من أربعة فصول: العراق تاريخياً، العراق بعثياً، العراق محمياً، ثم العروبة وتحديد مستقبل العراق، وهو يدعو. ويدعو الدول العربية إلى رفض مجلس الحكم الانتقالى الذى يعتبره غير شرعى، ويرى أن اعتراف بعض الدول العربية بهذا المجلس لا يستند إلى أى شرعية قانونية، ويناقض ميثاق جامعة الدول العربية، الذى ينص على استقلال الدولة العضو ويرفض وجود دولة محتلة فى عضوية الجامعة العربية.

الكتاب إلى ذلك، يتتبع مسيرة العراق وتاريخه وثوراته وتطوره السياسى، وموقفه من عديد من الأحداث الإقليمية والدولية مثل الحربين العالميتين وحرب فلسطين، وعلاقاته بدول الجوار، كما يتابع المؤامرة الأمريكية على العراق، والصراع بين العراق وإيران، والأطماع فى نفط العراق، ثم حربى الخليج الأولى والثانية، وفى هذا الإطار، يقدم عدداً وافراً من الوثائق والقرارات الدولية التى تؤكد استقلالية العراق وعدم شرعية العدوان عليه، هى القرارات التى انتهكتها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها فى أبشع صورة، ثم يقدم رؤية للمرحلة الانتقالية التى يعيشها العراق تحت الاحتلال.

■

سوسيولوجيا الفن

مجموعة من الباحثين

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٧، ٣٢٥صفحة



يبحث هذا الكتاب فى الإضافات التى يمكن أن يقدمها علم الاجتماع إلى فهمنا للفن فى المجتمع المعاصر، فى الفن التشكيلى والموسيقى والسينما والباليه وغيرهما من الفنون، وهو إلى ذلك يقدم دراسات فى سوسيولوجيا الجمال والتأملات النقدية والفنون الرفيعة والسوق، وهذه الرؤى تقلل التخصصات الأكاديمية من قيمتها أو تتجاهلها تماماً، إلا أن علم الاجتماع استطاع أن يطور سلسلة من طرق التفكير وأدوات التحليل المفيدة، وأن يكشف عن أن التحولات النموذجية فى الأساليب الجمالية كانت مدفوعة بنمط معين من التنظيم الاجتماعى، وأن التغير فى الأساليب الجمالية مثل فى ذاته انعكاساً للتغيرات فى طبيعة العلاقات الاجتماعية، وفى الممارسات الإبداعية والجمالية فى الحياة الشعبية.

والخلاصة التى تقدمها إحدى الدراسات المهمة فى الكتاب تؤكد على ضرورة أن تكون سوسيولوجيا الفن ناقدة للذات الممثلة لها، وأن تبعث الحيوية فى الافتراضات النظرية حول مفاهيم الفن وآلياته وأن تضعها فى سياقها التاريخى دون تعصب لاتجاه أو آخر، إذ إن الفن الذى يتخذ فكرة أو ظاهرة معينة موضوعاً له، يمكن أن يزودنا بفهم سليم لرؤية جماعة من الناس وربما المجتمع كله فى فترة تاريخية معينة لتلك الفكرة أو الظاهرة، بمعنى أبسط، فإن دراسات من هذا النوع تفسر لنا: لماذا حفظ الناس فى هذا الزمن أو ذاك هذه القصيدة عن ظهر قلب، ولماذا كانت تفضيلاتهم فى الأعمال الروائية والقصصية على هذا النحو، وما هى طبيعة المواد الثقافية التى يتسلون بها فى أوقات فراغهم، دون أن ينظر إلى هذا بوصفه تأريخاً للفن فحسب، وإنما - وهذا هو الأهم - تبصير بالعلاقة التى تربطه بالمجتمع وتحولاته.

■

عصر الثورة: أوروبا (١٧٨٩ - ١٨٤٨)

إريك هوبزباوم

ترجمة: فايز الصياغ

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧، ٦٣٩ صفحة



أدت الثورة الفرنسية والثورة الصناعية إلى تحول العالم بين عامى ١٧٨٩ و١٨٤٨، هذه «الثورة المزدوجة» التى خلقت العالم الحديث كما نعرفه لخصها إريك هوبزباوم فى هذا الكتاب المثير والمفيد، مع محافظة صارمة على موضوعية المؤرخ.

لقد تتبع إريك هوبزباوم، بوضوح تحليلى، هذا التحول الذى أحدثته «الثورة المزدوجة» فى كل نواحى الحياة فى أوروبا: فى مجال الحرب والدبلوماسية، فى المناطق الصناعية الجديدة، وعلى الأرض، وسط طبقات الفلاحين والبورجوازية والأرستقراطية، فى أساليب الحكم والثورة، فى العلوم والفلسفة والدين، فى الآداب والفنون..

«عصر الثورة» هذا يتبعه، ضمن إصدارات المنظمة، «عصر رأس المال» و«عصر الإمبراطورية»، حرصاً على مد القارئ العربى بثلاثية هوبزباوم الشهيرة التى يعتبرها المتخصصون أحد الإنجازات الكبرى فى مجال المؤلفات التاريخية، خلال القرن العشرين.

■

العمران المصرى.. رصد التطورات فى عمران أرض مصر فى أواخر القرن العشرين واستطلاع مساراته المستقبلية حتى عام ٢٠٢٠

الباحث الرئيسى د. أبوزيد راجح

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٢



هذا الكتاب يقدم رصداً للعمران المصرى فى أواخر القرن العشرين ثم محاولة استقراء مساراته فى عام ٢٠٢٠ فى ظل عدة احتمالات لما سوف يكون عليه النظام العام فى مصر فى هذا التاريخ.

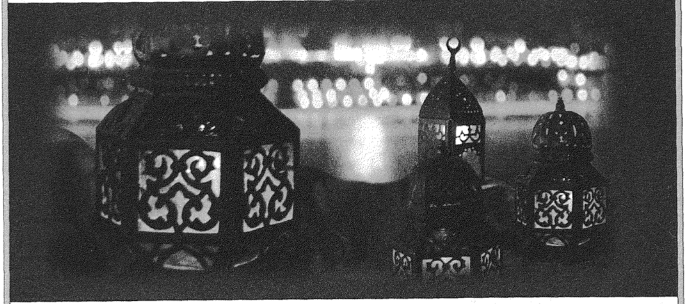
ولقد أخذ العمران فى هذا الكتاب بمعنى «عمارة الأرض» بكل ما تعنيه هذه العبارة الموجزة من تنمية وحضارة وارتقاء بالحياة، فالعمران فى حقيقة الأمر قراءة فى جغرافية المكان، وقراءة فى تاريخ المجتمع.

ويتكون العمران أفقياً «مكانياً» من ثلاثة مكونات وهى: القرى والمدن والمجتمعات الجديدة، ويتكون رأسياً «خدمياً» من ثلاثة عناصر وهى الإسكان والمرافق والتشييد. وتمثل المكونات الأفقية والعناصر الرأسية فى تقاطعها شبكة العمران التى تغطى الحيز المعمور بأكمله.

يشتمل هذا الكتاب على ثمانية أجزاء، الجزء الأول منها مقدمة فى العمران - الخصوصية المصرية كتمهيد عام للعمران المصرى وتعريف بمكوناته والقوى المؤثرة فى تشكيله وتوجيه مساراته. ثم يلى ذلك ثلاثة أجزاء لمكونات العمران المكانية وهى المدن والتحضر، والقرية والتنمية الريفية، والمدن والمجتمعات الجديدة، ويلى ذلك ثلاثة أجزاء لعناصر العمران الخدمية وهى الإسكان، والمرافق العامة - شرايين العمران، والتشييد، ثم يأتى الجزء الثامن والأخير ليستكشف ما قد يكون عليه العمران المصرى فى عام ٢٠٢٠ فى ضوء خمسة سيناريوهات يمثل كل منها أحد النظم العامة المحتملة التى قد تكون سائدة فى مصر فى هذا الوقت.

وأخيراً.. يعتبر هذا الكتاب هو المحاولة الأولى لجمع شتات العمران فى منظومة واحدة وإلقاء الضوء على بعده الإنسانى والاجتماعى والذى نرجو أن يجد له مكاناً بجانب الدراسات الجادة المهتمة بمصر الحاضر ومصر المستقبل.

■



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 106 - November 2007 ، مجلة شهرية . العدد المائة وستة . السنة التاسعة . نوفمبر ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل

فى أكسفورد

الصحافة والسياسة والحضارة والتاريخ



فاروق أم فاروقان!

- حكام مصر فى محكمة نجيب محفوظ
- الثقافة العربية .. هل هى ديمقراطية ؟!


A Division of Oriental Weavers
عضو مجموعه النساجون الشرقيون
OW life style
rugs & carpets
Oriental Weavers
City stars 2 shop number 15&20 Tel : 02 - 24 802475 Fax : 02 - 24 802467 Email.: owlifestylecs@orientalweavers.com

السنة التاسعة

العدد المائة وستة

نوفمبر ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج

أحمد الزيادى

الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير

سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير

أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى

حلمى التونى

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أميمة عبداللطيف.. صحفية مصرية مقيمة فى لبنان.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- جوناثان فريدلاند.. كاتب صحفى فى صحيفة الجارديان البريطانية.
- حافيظ إسماعيلى علوى.. أستاذ اللسانيات جامعة ابن زهر ـ المغرب
- خيرى منصور .. كاتب عربى.
- سليم تمارى.. أستاذ علم الاجتماع ومدير مؤسسة الدراسات المقدسية.
- طارق البشرى .. كاتب ومؤرخ.
- عزمى بشارة.. كاتب عربى.
- عماد الغزالى.. صحفى.
- لطيفة محمد سالم .. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية آداب بنها.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- محمد حسنين هيكل.. صحفى.
- هانز كونج.. مدير المعهد المسكونى الألمانى سابقًا وأستاذ علم فلسفة الديانات.
- يوسف الشريف .. صحفى.

رسوم العدد للفنان

محمد حجى

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

٣ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية

ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)

البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.

إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب ٣٣ البانوراما . مدينة نصر

هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية . السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.

Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



محمد حسنين هيكل

عن الصحافة والسياسة والحضارة والتاريخ

بدعوة من اللورد كريس باتن رئيس جامعة أوكسفورد العريقة والسياسي البريطاني الشهير، ألقى الأستاذ محمد حسنين هيكل يوم الاثنين «٢٩ أكتوبر الماضي» المحاضرة التذكارية الأولى بمعهد رويترز للدراسات الصحفية والذي أنشأته الجامعة نهاية العام الماضي كمعهد متخصص تابع لكلية العلوم السياسية.

المحاضرة التي حملت عنوان «جسور وعقبات» شهدها جمع من مجلس أمناء الجامعة وأساتذتها وطلابها في مقدمتهم اللورد باتن فضلا عن رئيس مجلس إدارة وكالة رويترز العالمية للأنباء ونخبة من كبار الصحفيين والأكاديميين البريطانيين.

وهنا نص المحاضرة:

■ اللورد «باتن»
رئيس جامعة أوكسفورد
حضرات السيدات والسادة

• يسعدني ويشرفني أن تتفضلوا بدعوتي أول متحدث في المحاضرة التذكارية بكلية الصحافة التي أسس لها هذا التوافق بين جامعة «أوكسفورد ووكالة رويترز».

إن هذا التوافق بين جامعة عريقة (أوكسفورد) ووكالة أنباء شهيرة (رويترز) يصعب أن يكون لقاء مصادفات، إذا دققنا أسبابه وتمثلنا نتائجه.

ومن وجهة نظر عملية وعلمية كذلك فإن الصحافة على تنوع وسائلها وأدواتها لديها ثلاث طرق اقتراب واضحة إلى وظيفتها الحيوية في مجتمعات الحرية والتقدم.

• أول طرق الاقتراب: أن تكون الصحافة مكتوبة أو مسموعة أو مرئية خطوطا مفتوحة تنقل القرار السياسي على اختلاف مجالاته: داخلية وخارجية اقتصادية واجتماعية إستراتيجية وعسكرية من مواقع صُنعه إلى أوسع دوائر المواطنة التي يهمها شأنه، بحيث يتأكد الحق العام في العلم به، وتتوافر إمكانية التعرف على موجباته، والاستعداد لآثاره وتكاليفه، والاطمئنان إلى اتساقه مع الإرادة العامة في الوطن وخارجه، ولكي يظل تحت المتابعة الدستورية والقانونية، ويصبح الرأي العام قادرا على ممارسة مسئولية الرقابة عليه، والقدرة على إعادة توجيهه ديمقراطيا إذا لزم.

• وطريق الاقتراب الثاني: أن تكون وسائل الصحافة وأدواتها خطوطا مفتوحة أيضا ما بين مجالات الفكر والعلم والفن من مراكز حيويتها، سواء في الجامعات، أو المعاهد ومراكز البحث، أو مسارح العرض والأداء وأشكالها المتعددة في التعبير إلى جمهور واسع له الحق أن يرى ويستوعب ويستمتع.

• وطريق الاقتراب الثالث: أن تحاول نفس الوسائل والأدوات قصاراها كي تنقل وتستثير أنفع وأرفع حوار بين القرار السياسي وشئونه الجارية وقضاياه واهتماماته وبين الأفكار وقدرتها على تخصيب الفعل الإنساني وتوليده، لكي يجمع الحوار ما بين الفعل والفكر، ويؤكد القيمة ويحفز إرادة إنسانية ذكية وقوية وهنا فإن التوافق بين الجامعة العريقة ووكالة الأنباء الشهيرة يصبح مرغوبا فيه ومطلوبا.

إن طرق الاقتراب الثلاثة كما وصفتها لا تحقق مطلوبها بهذه البساطة التي وصفتها، فالواقع العملي أكثر تعقيدا، لأن مراكز صُنع القرار لا تمارس فعلها في المثالي المفترض، وإنما تمارسه تحت سطوة صراعات تاريخية كبرى ومصالح يتعارض بعضها مع بعض، والكثير منها غائر في زمانه، أو جامح في مقاصده، أو عنيف في ممارساته، وفي ظل هذه الأحوال فإن القرار السياسي تحكمه بالقطع عوامل غير مثالية!

• بالتوازي فإن مجالات صُنع الأفكار ومنجزات العلوم وتجليات الفنون لا تطرح ما لديها في ذات الفضاء المثالي المفترض، وإنما تتأثر هذه المجالات في مجمل نشاطها بضغوط يناسبها أن تضرب علها تزيح، أو تحجب علها تحتكر، وهنا تبرز عوائق تعرقل المثال الحر للقيمة والقدوة.

• يلي ذلك أن قنوات الاتصال التي تمثلها الصحافة لا تمارس دورها في نقل الأخبار والأفكار وصوت وصدى الحوار، على خطوط مستقيمة سالكة ومطهرة، وإنما تتعرض قنواتها المفتوحة على الطرق الطويلة لأنواع ودرجات من التدخل والتحيز تمليها الصراعات والضغوط والمصالح، وحتى الأهواء والأمزجة.

حضرات السيدات والسادة

إنني سعيد بهذه الفرصة التي أتحتموها لي كي أتحدث أمامكم في هذه المناسبة التي توافقت فيها جامعة عريقة مع وكالة أنباء شهيرة على لقاء يسهم في دعم كفاءة الإعلام من حيث إعداده وتأهيله لأداء دوره دون عوائق بين القرار والأفكار والحوار، وبحيث يتحمل هذا الإعلام مسئوليته في أزمنة متغيرة.

إننا نتحدث كثيرا عن عالم واحد لكن مثل هذا الحديث فيه قدر من المبالغة، أو ربما التمني، فقد نكون في حكم الجغرافيا عالما واحدا، لكننا في حكم التاريخ عالمان: شمال وجنوب، وليس يجدي أن نتأدب ونجامل في الحقيقة، وكذلك ليس يجدي أن نكتفي بالنظر إلى النخب المتعولمة في الجنوب، وننسى الكتل الهائلة من البشر وراءها بل وبعيدا عنها.

إن هناك عالمين: شمال وجنوب والفجوة بين الاثنين واسعة وخطرة، وهي تزداد اتساعا وخطرا إذ تلتبس الحقائق وتتداخل الهواجس بين المثالي المفترض وبين الواقع العملي المعقد عند صناع القرار والأفكار، وعندما تتلكأ قنوات النقل والتدفق الحر، وتتلوى مرات وتنسد مرات، وتصبح الفجوة هوة، والهوة هاوية، وتتحول الرسالة لغما في حرف أو قنبلة في رسم!

حضرات السيدات والسادة

إذا كانت دعوتكم مبعث سعادة وشرف لي، فهي في ذات اللحظة مسئولية تدعوني أن أتحدث معكم بصراحة وأمانة، أزعم أنها قد تكون مقبولة مني وربما مغفورة.

ذلك أنني رجل من عالم الجنوب يدرك هموم عالمه لأنه يعيش واقعها، وهو يتحدث إلى عالم الشمال ويحسب أنه يستطيع فهمه، بظن أن الظروف أتاحت له أن يعيش مهنة الصحافة في الجنوب وفي الشمال معا، فقد كتب في العالم العربي وعنه، ومارس في الجريدة والكتاب والتليفزيون هناك، ثم إن الظروف منحته فرصة أن يمارس هنا كذلك وانطلاقا من هذا البلد بالتحديد، حيث قامت صحف ودوريات بريطانية عديدة مثل «التيمس» و«الجارديان» و«الإندبندنت» و«الأبزرفر» بنشر مقالاته وأحاديثه، ثم إن مؤسسات نشر عريقة قامت بإصدار الطبعات الأصلية من كتبه، فظهرت كاملة في المكتبات لطالبيها، ثم نشرت على فصول مسلسلة حملتها صحف كبرى مثل «الصنداي تلجراف» و«الصنداي تيمس» إلى جانب مقالات وأحاديث وغيرها، وكل ذلك أخذ عمله إلى لغات كثيرة وصلت به واسعا وبعيدا!

حضرات السيدات والسادة

قلت إن انتمائي لعالم الجنوب يجعلني مدركا لهمومه ومشاكله، وقلت إنني زائر للشمال يظن أو يتوهم أنه يتفهم هذا العالم ومحركاته، وقلت إن المسافة بين العالمين واسعة وتزداد اتساعا، وأسمح لنفسي بالقول ومن هذه الحافة بين العالمين بأننا نحتاج الآن وبسرعة إلى جسور لعبور هذه المسافة، وإلا تصادمت الكتل ووقعت انفجارات مهولة تسقط مثل الكواكب التي يختل مدارها في ثقوب سوداء في مجاهل الفضاء! وبعض ذلك وارد، واحتمالاته تتزايد إن لم نبذل جهدا، وأول الجهد أن نتصارح، مهما كانت المصارحة مزعجة!

دعوني أبدأ وأقول بتعميم إجمالي إن عالمنا في الجنوب يشعر بأن القرار الصادر من مراكز القوة الدولية كما يصل إليه يصدمه بقسوة لا يبدو أنها تأبه وتهتم وبإصرار على العنف لا يبدو أنه يخشى أو يتحرج ثم إن صوت الحوار لا يدعوه إلى مشاركة، لأن القرار في معظم الأحيان ينقض عليه بغتة ودهما.

يشعر عالمنا في الجنوب كذلك أن دنيا الأفكار والعلوم والفنون كما تضيء أمامه من بعيد ليست مقبلة عليه أو مرحبة به كما يأمل ويتمنى.

ثم إن صوت الحوار يصل إلى الجنوب - إذا وصل - مثقلا بشوائب من التحيز بل والعدوانية!

وهنا وفي هذا السياق فإنني أستأذن أن أطرح أمامكم ثلاث ملاحظات، آمل أن توضع في اعتباركم، راجيا ألا يعتبر القول فيها نوعا من الشكوى أو عارضا من هواجس عقد نفسية لدى القائلين بها، وإذا بدا ظاهر هذه الملاحظات بعيدا عن الموضوع، فإنني آمل في صبركم لعله يتضح أنها قريبة منه إن لم تكن في صميمه.

أولى الملاحظات: أننا لسنا أمام صراع حضارات متعددة متعارضة يمكن أن تتصادم أو تتصالح، لأن شواهد التطور التاريخي تومئ إلينا بأنها حضارة إنسانية واحدة، صب فيها الجميع ما زاد عندهم أوقات الفيض، وسحب منها الجميع ما لزمهم أوقات الجفاف، وساعدوا - كل في زمانه - على ملء خزان هائل للحضارة الإنسانية أصبح شراكة طبيعة ورصيدا جماعيا متاحا بالحق لمن يريد ويستطيع.

ومن المفيد هنا أن نتذكر أنه مع اتساع الأرض واتصال التاريخ فإن كافة الشعوب والأمم قدمت ما راكمته من ثقافات البيئة والمعرفة والتجربة وعن طريق الانتقال الحر للمنافع إضافات سخية ومستمرة وتلقائية إلى المشترك البشري الجامع.

ذلك أحدث حالة التأمل والفلسفة بحثا عن الحق والحقيقة حالة كشف العقل حين تعرف الناس في الفجر الإنساني الأول على ملكات التصور، وتوصلوا إلى سر الحرف في الأبجدية وسحر الرقم في العدد، حالة التنبه إلى معجزة الزراعة، حالة صناعة الأدوات والمعدات، حالة فنون المعمار، حالة فتح الطرق واستئناس وسائل المواصلات، حالة صنع السفن وركوب البحار، حالة النظر إلى الفلك ومسارات النجوم، إلى آخره.

في هذه الحالات وغيرها فإن الثقافات الطالعة في كل مكان شقت جداول وينابيع محلية، فاضت على جوارها عندما تبين هذا الجوار نفعها، ثم التقت هذه الجداول والينابيع لتكون ما يمكن أن نسميه مجمع ثقافات أو أحواض حضارة بعضها يكاد يكون مرسوما محددا كخط بالقلم ومثاله الأظهر حوض البحر الأبيض ثم إن الأحواض الحضارية في كل إقليم من أقاليم الدنيا امتلأت وفاضت، وتمددت واتصلت بحيث بسطت محيطا واسعا لحضارة إنسانية قابلة للانتشار، قادرة على العطاء، عابرة للزمان والمكان.

لسنا أمام صراع حضارات تتصادم أو تتصالح، بل هي حضارة واحدة، صب فيها الجميع ما زاد عندهم أوقات الفيض، وسحبوا منها ما لزمهم أوقات الجفاف

وعلى امتداد عملية التفاعل بين الثقافات وهي تتدفق من مواقعها الأولية وأحواضها الأوسع إلى المحيط الكبير، وما بين الصب والسحب من الرصيد المشترك للحضارة الإنسانية فإن الحوض الحضاري للبحر الأبيض تحركت عليه تيارات تتبدى وكأنها خريطة مناخية حية موصولة بين معابد وقصور بابل ومنف إلى أروقة وأعمدة أثينا إلى مكتبة الإسكندرية، إلى دار الحكمة في بغداد إلى دمشق إلى قرطبة، ثم عبر صقلية نحو جنوب أوروبا إلى إيطاليا ثم إلى الشمال نحو ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، ثم يتجه الخط عابرا للأطلسي إلى أمريكا ينفذ من الشاطئ إلى الشاطئ في اتجاه الباسيفيك، ليعود فيطل على شرق آسيا، فإذا الحيوية المتجددة لفيض البحر الأبيض عبر الأطلنطي تجتاز المحيط الهادي لكي تلتقي هناك بالحوض العميق للحضارة الصينية.

لقد تصادف هذا الصيف أنني وقفت أمام مكتبة الإسكندرية التي أعيد بناؤها، ثم كنت بعد أيام عند سفح «الأكروبول»، ثم صعدت سلم كنيسة القديس «بطرس» في الفاتيكان، ثم تجولت متأملا معالم النهضة ومقتنيات القصور في «فلورنسا»، ثم مشيت فوق جسور فينيسيا نحو ميدان القديس «مرقس»، وعند هذه المواقع ومشاهدها فقد ملأت خواطري عبارة كتبها الأستاذ Stefano Carboni أمين متحف «المتروبوليتان» في نيويورك قال فيها: «إن حوض البحر الأبيض المتوسط حدود سائلة! Liquid Frontiers»، وذلك وصف دقيق لحركة الثقافات في صنع أحواض حضارية، ثم فيضان هذه الأحواض لتصنع محيطا حضاريا عالميا وإنسانيا واحدا، وربما أننا إذا عدنا لحظة إلى مجال السياسة نتذكر أن هذا المحيط الإنساني ينسب ولو من باب المجاز في كل عصر إلى القوة الغالبة فيه: فهو فرعوني في عصر، إغريقي في عصر ثان، روماني في عصر ثالث، مسيحي في عصر رابع، إسلامي في عصر خامس، أوروبي في عصر سادس، أمريكي هذه اللحظة العابرة!

ومع تعدد اللغات في حالة الثقافات، فإن الحضارة لها لغة رئيسية في كل آن، هي لغة القوة الغالبة في زمانها، فهذه اللغة الرئيسية نطقت يونانية لحظة، لاتينية لحظة أخرى، عربية بعد ذلك ثم فرنسية أو إنجليزية في هذا الزمان، وقد تصبح نبرة أخرى غدا أو بعد غد!

جئت إلى هنا لداع رئيسي هو أن أطل على مشهد المحيط الحضاري الإنساني، قريبا من شاطئ المهنة التي تعنيكم وتعنينا

وعلى تقلب العصور فإن غلبة القوة لا يصح أن

على مشهد المحيط الحضاري..

قريبا من شاطئ المهنة

كان أمل كثيرين لو تذكر خليفة بطرس الرسول أن السيد المسيح نفسه من مواليد الناصرة، والقديس بطرس الذي يقوم الفاتيكان على رفاته من أبناء القدس، كلاهما من الشرق

تُنسينا شراكة الرصيد الإنساني لمحيط الحضارة فوق أي إمبراطورية أو لغة!

أنتقل إلى ملاحظة ثانية ملخصها أنه قبل سنوات قليلة وقع استغلال فجيعة إنسانية محزنة ضربت مدينة نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وبهذا الاستغلال تحولت الفجيعة إلى عملية تلاعب مقصود بالصور وبأسلوب خداع البصر، فإذا العالم يفاجأ بأن صورة المسلم عربيا وغير عربي قد أزيحت لتحل محلها صورة المتعصب الإرهابي، ثم تضافرت عناصر من عوالم القرار والأفكار والحوار تحت ضغوط المصالح المتصارعة بقصد ترسيخ هذا التلاعب بالصور وخداع البصر، إلى حد إعادة كتابة قصة الإرهاب في التاريخ، فإذا الشمال بريء منه، وإذا الشرق الأقصى بعيد عنه، وإذا الدين الإسلامي وحده مرادف للانتحار والقتل في المخيلة العامة الشائعة في الشمال.

نلاحظ أن رمزا دينيا له مقامه هو بابا الفاتيكان «بنديكتوس السادس عشر» وقف يتحدث عن الإسلام وعن الحضارة في جامعة ألمانية. فإذا هو يلحق «التمدن» بالشمال، و«الهمجية» بالجنوب الإسلامي، ويقرر - ولو بالتلميح - أن الفارق بين العالمين: «أن الغرب أخذ من المسيحية ثم من الفلسفة اليونانية ما يميزه عن غيره في إعلاء قيمة الإنسان»، وكان أمل كثيرين ورجاؤهم لو تذكر خليفة «بطرس الرسول» أن المسيحية كلها غيث نزل على الشرق وفاض على الغرب رسالة وحكمة، حواريين وقديسين، قصصا وتعاليم، صلوات وترانيم، كما أن السيد «المسيح» نفسه من مواليد «الناصرة»، والقديس «بطرس» الذي يقوم الفاتيكان على رفاته من أبناء القدس، كلاهما من الشرق، وأن القديس «مرقس» الذي تقوم كنيسته بمعمارها المتميز على أجمل ميادين أوروبا «سان ماركو»، مولود في أقاصي صعيد مصر، وكان مدفنه في الإسكندرية، ومنها أخذ رفاته (ولا أقول سرق) في القرن التاسع إلى «فينيسيا» وذلك رغم أن كبار فناني النهضة جنحوا إلى تصوير هؤلاء الرسل والقديسين والحواريين معظم الوقت أصحاب بشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر ذهبي.

هذا عن التأثر بالمسيحية في شأن تمدن الشمال أو تمدن الغرب.

وأما عن نفحة الفلسفة الإغريقية، فليس هناك من لا يعرف أن الفلسفة الإغريقية لها مقدمات سبقتها وجوار مشرقي أحاط بها وانساب إليها، ثم إن الفلسفة الإغريقية ضاعت من أوروبا في ظلام القرون الوسطى، بينما كان الجنوب الإسلامي في حالة انتعاش وتدفق ثقافي، وضمن تفاعلات هذا الانتعاش والتدفق فإن الفلسفة الإغريقية عادت إلى أوروبا عن طريق فلاسفة الأندلس العرب، وعلى رأسهم الفيلسوف المسلم الأشهر «محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي»، ولم يكن «ابن رشد» وغيره من فلاسفة الإسلام مجرد وسطاء أو ناقلين، وإنما كانوا مجددين زادوا بالدرس، وتوسعوا وأحاطوا.

هي إذن حدود سائلة على حد وصف أستاذ متحف «المتربوليتان» الحكيم.

حضرات السيدات والسادة

بقيت ملاحظة ثالثة أتمنى أن ألمسها في رفق.

إنني توسعت كثيرا في حديث التاريخ، بينما حديثنا عن الصحافة، وظني أن هناك صلة من نوع ما بين الاثنين، معتقدا أن الشرق المسلم ومعه مسيحيوه يدفع الضرائب مرتين:

الأولى لأن حركة التقدم العالمي بسبب ثورة العلوم والتكنولوجيا لم تعطه حتى الآن فرصة لالتقاط الأنفاس، يمسك لحظتها بالعصر ويواصل معه وفي حين أن الشرق البوذي نجح أحيانا في الإمساك باللحظة، فإن الشرق الإسلامي ومعه مسيحيوه تعذر عليهم اللحاق لأسباب معقدة ليس هذا مجالها.

والثانية - وهي التي تعنيني لاتصالها بموضوع الإعلام، وملخصها أن الشرق المسلم يعاني من أن الأقلام والأضواء والعدسات كلها توجهت وتركزت عليه، بينما هو يعاني المرحلة الأصعب في الانتقال من قديم إلى جديد، ومن تأخر إلى سبق، ومن عتمة إلى نور.

وبالطبع فإنكم تتذكرون أن ولادة الجديد عندكم جرت وراء ستار، وأما في عالمنا فإنها جارية في منتصف النهار، وكذلك كان الجديد عندنا حملا ومخاضا وميلادا عاريا تحت الوهج وعلى مرأى ومسمع من عالم يتابع ما يجري متجاهلا لحقيقة أن الحمل والمخاض وولادة الجديد حتى وإن كانت مؤلمة عندكم كما هي عندنا، فإن الفارق أنها جرت عندكم مكتومة لتظهر بعدها في كتب التاريخ بأثر رجعي، لكنها عندنا جرت على الهواء مباشرة فبدت وكأنها فضائح بالصورة والصوت واللون.

حضرات السيدات والسادة

لقد كنتم محظوظين في اجتياز الجسور من التخلف إلى التقدم ولم يكن لدينا مع الأسف هذا الحظ أو بعضه.

ويسأل بعض زملائنا هنا في الشمال: وماذا نفعل؟ - أوليست تلك طبيعة عصر السرعة؟ والتساؤل صحيح والرد عليه بأمانة: أن الإعلام في الغرب ليس مطالبا بالتأكيد وهو يغطي الشأن الجاري في الجنوب أن يستعيد السجلات كل مرة لكن المرادف المعنوي لتعذر الاستعادة هو استذكار درجة من ثقافة الإدراك والتعاطف والموضوعية.

دعوني أقول أنه ليس من باب التعسف أن نسأل لو أن الصحافة الحديثة وضمنها وكالات أنباء مثل «رويترز» أو مؤسسات مثل A.B.C، وC.B.S، وN.B.C، والجزيرة، وSKY، وFOX، وC.N.N، كانت حاضرة زمن حروب الأباطرة والملوك والكرادلة والعلماء والمذاهب والطوائف والقوميات والطبقات والإمبراطوريات والتحديات الإمبراطورية لها في أوروبا؟!

ماذا على سبيل المثال لو كانت هذه الصحافة الحديثة حاضرة أيام مذبحة سان بارتوليميو مثلا حين جرى ذبح مئات الألوف من الهوجونوت الفرنسيين على أيدي مواطنيهم من الكاثوليك، بتحريض كرادلة ونبلاء؟!

وماذا لو كانت هذه الصحافة الحديثة حاضرة في ميدان الكونكورد حيث كانت مقصلة الثورة الفرنسية تدور وتقطع رؤوس الملوك والأمراء والسياسيين والمفكرين كل يوم من الصباح إلى منتصف الليل؟! أو لو عبرت البحر إلى برج لندن تنقل ما يجري وراء أسواره للإخوة من النبلاء والمحظيات وأولياء العهود من مآسي وأهوال؟!

وماذا لو كان هناك بث على الهواء مباشرة لوقائع الحرب الأهلية الأمريكية، حين قتل فيها الأخ أخاه، وانتهك عرضه، وحرق زرعه واستباح مدنه وقراه في أطول مجزرة عاشتها أمريكا، وأغزر شلال دم تدفق في العالم الجديد!

وماذا لو كان نفس البث المباشر حاضرا ينقل على الهواء مباشرة مشاهد بعض أو أشد الأعمال ظلما في تاريخ الإنسانية؟! تلك التي كان الشمال لسوء الحظ فاعلها، من ظاهرة الاستعمار إلى ظاهرة العبودية وإلى ظواهر أخرى متوالية في قلب القرن العشرين، وضمنها الستالينية والفاشية والنازية، ومعاداة السامية، ومحارق الهولوكوست التي طالت اليهود وغيرهم من الأجناس والأعراق.

وماذا لو أن هذه الوسائل كانت حاضرة وعلى الهواء مباشرة تنقل الحرب الأهلية في أسبانيا، وتنقل فظائع «جويرنيكا» و«فالينسيا» و«توليدو»، بدل أن تعتمد في وصفها على لمحات من كتابات فنانين وساسة من وزن «بابلو بيكاسو» و«أرنست همنجواي» و«أندريه مالرو» و«هيو توماس»؟!

تذكرون أن وسائل الإعلام الحديث لم تلحق إلا قرب النهاية بأهوال الحرب العالمية الأولى، وإلى حد محدود بالحرب العالمية الثانية، ونعرف بالطبع أن هاتين الحربين العالميتين كانتا صراعا بين قوى

ماذا لو كان البث المباشر حاضرا ينقل على الهواء مشاهد بعض أو أشد الأعمال ظلما في تاريخ الإنسانية؟! والتي كان الشمال لسوء الحظ فاعلها

الشمال ذاتها، لكن الأطراف المتحاربة نقلت ميادين القتل إلى كافة القارات وفرضتها على كل الأمم والشعوب، وكانت الحصيلة الإنسانية ما بين ستين وسبعين مليونا من القتلى، وما بين مائة وخمسين إلى مائة وسبعين مليونا من الجرحى في الحربين معا، وعندما جاء المشهد الأخير في الحرب العالمية الثانية ووقع استعمال السلاح النووي، فإنه لم يكن هناك نقل مباشر على الهواء، وعلى أية حال فقد اكتفينا جميعا بسماع أصداء المأساة قائلين في نفس واحد شمالا وجنوبا: لن يتكرر ذلك مرة أخرى، ومع ذلك وبرغم هذا التعهد الإنساني الجامع فإنه عندما نشبت المعارك في أفغانستان والعراق، لم تتورع القوات الأمريكية عن استعمال أنواع من أسلحة «اليورانيوم» المستنفد، وتلك درجة من الاستهتار بالوعد وبالإنسان يصعب اغتفارها.

حضرات السيدات والسادة

تلاحظون أنني أطلت الحديث فيما جرى عندكم وكنت في ذلك عامدا حتى تبين الصورة أمامكم، ومع أن ذلك إلحاح أعتذر عن طوله ولا أعتذر عن مقصده فمن الإنصاف أن نتمثل وجها آخر للحقيقة، وهذا هو الحال دائما، فإلى جانب ما عرضت لطرف منه وكان يمكن أن أمضي في قوائمه إلى ما لا نهاية فإن هناك فضلا يصعب إنكاره مبدئيا على صحافة الشمال، أوله ودون تحفظ، فإن بعض قضايانا توجهت إليها لمحات مضيئة لضمائر يقظى قاومت ضغوطا وتهديدات نعرف مدى خطرها ونقدر درجة نفاذها إلى دوائر صنع القرار والأفكار والحوار.

وعلى سبيل المثال فإنه رغم سطوة أصدقاء إسرائيل فإن بعضا من الحقيقة ظهر وبان عن قضية الشعب الفلسطيني الذي اقتلع من أرضه وأزيح إلى معسكرات وجيتوات مقهورة بائسة ثم إنه برغم سلطان ما سمي بجماعة المحافظين الجدد ومعهم مجموعة المستشرقين الجدد فإن حقيقة ما جرى في العراق تكشفت ابتداء من غزو وطن عربي وتمزيقه بغرور وجهالة القوة وبذرائع مختلقة كما أننا عرفنا أن الشعب العراقي فقد نصف مليون مواطن قتلوا، وثلاثة ملايين خرجوا لاجئين من وطنهم، بعضهم داخله في العراق، وأكثرهم في المنافي خارجه، ثم إننا بفضل تلك الضمائر اليقظى في الشمال عرفنا ما جرى في معاقل القهر من «جوانتانامو» إلى «أبو غريب» إلى الفالوجة إلى البصرة إلى الموصل.

إن تلك الضمائر الحية في صحافة الشمال هي التي كشفت كثيرين من هؤلاء الذين قدموا خططا سياسية والذين قدموا فتاوى علمية في خدمة مشروع أخذه ما يعتري الإمبراطورية من حماقة القوة، وتجاهل ما تراكمه الإمبراطورية من حكمة الخبرة، ليثبت أن مشروعه هو الأقصر عمرا في تاريخ الإمبراطوريات، لأنه الأقصر نظرا بينها!

إننا وأهم من ذلك كله في تجربة الصب والسحب من الرصيد الإنساني المشترك في المحيط العالمي الأوسع أخذنا هذا العلم البديع الذي قام هذا المعهد ليخدم أهدافه وهو: الصحافة مكتوبة، مسموعة، مرئية، ولا أتجاوز إذا قلت أنه أدى دورا هائلا في حياة عالمنا.

إنكم بالطبع سبقتم وطورتم، مستعينين باختراقات التكنولوجيا، حتى أصبح الإعلام العابر لمسافات الكون أبرز ظواهر العصر وأقوى محركاته.

حضرات السيدات والسادة

على أن طبائع مراحل التطور كما تفتح باستمرار تقيد أحيانا فتضع حدودا لما يمكن أن يأخذه الناس عن غيرهم، بل يتحتم عليهم أن يصنعوه في تجربتهم بآلامهم، لأن هناك مجالات يستحيل فيها اختصار المعاناة بالنقل أو بالمحاكاة، تجنبا لإعادة اختراع العجلة من جديد.

وأول هذه المجالات هو مجال الحرية ليس بمعناها الشاعري وإنما باعتبارها توجها إلى نظم دستورية وقانونية مضمونة بعقد اجتماعي وسياسي يفرض احترام الحقوق وبحيث يستطيع أي مواطن حر أن يمارس مسئولية المواطنة.

إن تجارب الحرية يصعب نقلها ويصعب انتشارها، وتعميمها بالحركة الطبيعية الذاتية لعملية التطور بل يتحتم صناعتها من البداية إلى مقصودها، أو صيانة هذا المقصود والدفاع عنه، لأن العصور لا تتماثل والأحوال لكلٍ أحكامها.

فعبر القرن العشرين بالذات تحددت القواعد والأصول عندكم، وأصبح ممكنا إرساء أصول وترسيخ بناء، وذلك لم يحدث بعد عندنا في الجنوب، حيث مازالت الحدود مضطربة، ومازالت القواعد واهية، لأن الصراع من أجل التنوير والحرية والتقدم يتخبط محتدما وتحت ظروف عصية.

● بينها أن هذه المعركة في الجنوب تختزل في لحظة زمنية راهنة معارك واجهت الشمال متتالية. فهناك تعاقبت وتوالت عصور التغيير: الحرية والتنوير، الصناعة والتجارة، العدل الاجتماعي، المواصلات والاتصالات، الإنترنت وعالم النشر الإلكتروني. لكنه عندنا تزاحم ذلك كله مع تباين الخلفيات والرؤى والضرورات.

● وبينها أن تداخل العصور أحدث ضغوطا ومؤثرات حادة، قومية ودينية وطائفية ومذهبية، أدت إلى خلط بين الأولويات، وإلى شطط في الوسائل قاد أحيانا إلى مجاهل تاهت بعيدا بالمقاصد.

● وبينها أن المناخ الذي يحيط بعملية ولادة تجري على الهواء مباشرة، على قارعة الطريق وفي منتصف النهار يصيب كافة الأطراف بكل الأعراض التي تصاحب الانكشاف، ومنها الاضطراب والادعاء والإخفاء والتعمية.

● وبينها أن نظم الحكم القائمة عجزت أن تؤسس لنفسها شرعية دستورية أو قانونية، ولم تعد سلطتها اختيارا وتفويضا وإنما إملاءً وقمعا، تعطلت إزاءه دواعي الرشد السياسي والاجتماعي وإدارة الأزمات، وذلك ساعد على الإساءة لمشهد التطور عندنا وإساءة إلى صورته.

● ومع أنني أتردد كثيرا قبل أن أضيف أي مسئولية إلى حساب غير المعنيين في الأصل بها، فلابد من القول ودون حرج أن العنصر الخارجي يلعب دورا شديد السلبية في منطقتنا من الجنوب، بالتحديد الشرق الأوسط.

فهناك في قلب هذه المنطقة ثلاثة دواعٍ للخطر أشير إليها باقتضاب لكي أتجنب تكرارا شائعا ومملا رغم صحته، وهي بالترتيب: الموقع الإستراتيجي، وأهمية البترول حتى يظهر بديل له، وإسرائيل.

● وهنا فمن الحق أن أضيف أن التفاعل بين عوار الشرعية الذي أصاب الدولة العربية الراهنة مع ضغوط التطور في الداخل على النظم مع دواعي الخطر من العناصر الخارجية، كل ذلك أدى إلى فجوات واسعة سمحت بالتدخل الدولي في الشأن الداخلي للمنطقة، على أنه لسوء الحظ أن بعض النفاذ الخارجي إلى المنطقة لم يكن دائما ضيفا ثقيلا دعا نفسه، وإنما وصل مدعوا مرغوبا فيه لمناورات السياسة الداخلية وتوازناتها المتصورة أو المتوهمة!

حضرات السيدات والسادة

إذا كنت قد وجهت بعض الملاحظات وفي لهجتها نبرة حدة، فإنني لم آت إلى هنا مكابرا ولا معايرا.

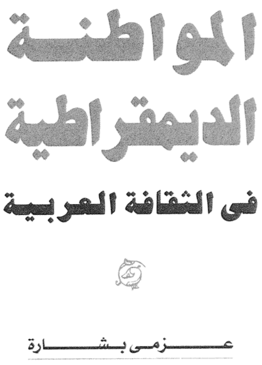
وإذا كنت في نفس الملاحظات قد اعترفت بالتقدير لضمائر حية أدت أمانتها عندكم، فإنني لم آت إلى هنا مادحا أو مهنئا.

وإذا كنت أخيرا قد لمست جانبا من الأوضاع الراهنة في أحوالنا، فإنني لم آت إلى هنا شاكيا أو محرضا.

لقد جئت إلى هنا لداعٍ رئيسي هو أن أطل على مشهد المحيط الحضاري الإنساني، قريبا من شاطئ المهنة التي تعنيكم وتعنينا وجئت وورائي مؤسسة تحمل بمحض المصادفات اسمي، شاغلها خدمة الكفاءة المهنية لشباب الصحفيين العرب.

وقصارى ما أريده وذلك قصدي وهدفي، لا يخرج عن المشاركة معكم في بناء جسر على موقع من مواقع الحضارة الإنسانية الواحدة التي صبت فيه كل الأمم ما تجمع لديها من نتاج ثقافاتها مما يكون صالحا للجميع، وحقا للجميع، لأنه ملك الجميع.

وشكرا لكم. ■

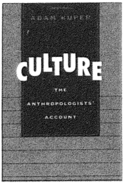


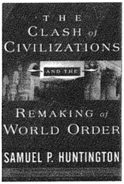
■ منذ أن نشر كتاب ألموند وفيربا حول الثقافة المدنية عام ١٩٦٣ يتفق الباحثون بدون استثناءات تذكر على اعتبار الثقافة السياسية هي تلك القيم التي تعزز أو تضعف (تدعم أو تقوض) منظومة معينة من المؤسسات السياسية، أو توزيع معين لأنماط التوجهات السياسية والسلوك تجاه النظام السياسي ومركباته المتعددة، والسلوك تجاه دور الذات الإنسانية (الفرد، المواطن) في هذا النظام.

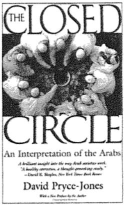
كانت هذه دراسة مهمة في تجريب أدوات البحث الكمي الإحصائي، الجديدة في حينه، في جمع ووصف وتحليل مواقف من قيم وقضايا ومسائل اعتبرها المؤلفان مهمة في تطوير ثقافة مدنية تساعد على ثبات النظام الديمقراطي. وفي تلخيص التوجه بعد عدة سنوات يقول غابرييل ألموند إن بحثه يتموضع وسط تقليد يمتد من أفلاطون وأرسطو وحتى مونتسكيو وتوكفيل في تعليق أهمية على عناصر ثقافية وأمزجة وعوامل أخرى متعلقة بشخصية الأفراد والأمم. ولا شك أن مفاهيم وأدوات العلوم الاجتماعية الحديثة من نوع الماكرو. سوسيولوجيا من فيبر وبارسونز، مرورًا بعلم النفس الاجتماعي والأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الإحصاء قد لعبت الدور الأساسي في تطور ما يمكن تسميته بنظرية الثقافة السياسية.

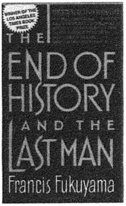
والمحاولة برمتها ناجمة عن الصدمة من تعثر التفكير التنويري الذي يؤمن بالتقدم عبر التعليم والتطور والعقلنة وغيرها، ومحاولة البحث عن سبب تعثر التنوير في مجتمعات متقدمة تحولت إلى مجتمعات سلطوية شمولية. والصدمة الأهم التي حاول الكاتبان أن يحولاها إلى تساؤل هي سقوط الديمقراطية في إيطاليا وألمانيا. وقد حاول الكتاب استنباط نظرية من مقارنة الثقافات السياسية بموجب مفاهيم ومعايير محددة بين ألمانيا وإيطاليا من جهة، وبريطانيا والولايات المتحدة، حيث عاش النظام الديمقراطي ونجا من الأزمات، من جهة أخرى. والنظرية متعلقة بالثقافة التي تساند بقاء الديمقراطية وتساعد في تصليبها.

والحقيقة أن أرسطو وتوكفيل ومونتسكيو الذين يفترض أنهم يمثلون تقليدًا يأخذ بالاعتبار العلاقة بين «طبائع» الناس ونوع نظام الحكم، بل يدعي أنهم يستدلون على هذا من ذلك، يقدمون في الواقع وصفًا يكاد يكون انطباعيًا لطبائع الناس وتوافقه مع التضاريس الطبيعية والمناخ والنظام الاجتماعي.. وعندما يقوم كاتب بطرح علاقة سببية بين الطبائع وطبيعة النظام الاجتماعي، فهو في الواقع يعبر عن انطباعاته وليس عن نظرية علمية مفترضة يجري فحصها عند هؤلاء الفلاسفة. ولا يتوفر هنا من العلم إلا محاولة التفسير العقلاني للنفس من البيئة. ومهما كانت المحاولة انطباعية فهي تحاول استبدال الأساطير والحكايات.









وغالبًا ما تقصر نظريات علمية اجتماعية في تفسير طبيعة نظام الحكم أو تقلبه أو غيرها. ولقد طورت آلية مغالطة هي سد الفجوات في التفسير بافتراض علاقة سببية بين ظاهرة وأخرى.. طبائع الناس وثقافتهم من جهة، وسلوكهم السياسي من جهة أخرى مثلاً. هنا تهرب إلى داخل الخطاب نظرية أخرى يصعب دحضها أو إثبات صحتها، لكي تسد تقصير النظريات القائمة. وهذه بحد ذاتها مهمة في تطور الفكر العقلاني في تفسير المجتمعات وسلوكها وأنظمتها، ولكنها ليست نظرية علمية يؤخذ بها.

ومن زاوية نظر أخرى يمكن اعتبار هذا التطور جزءًا من تقليد أرساه ماركس فيبر عندما علق أهمية كبرى على ما أسماه هو الأخلاق البروتستانتية في تطور ونشوء البرجوازية ودعم نشوء الاقتصاد الرأسمالي. كتابات ماكس فيبر بهذا الشأن موازية لإنتاج ماركس بشأن تفسير نشوء الرأسمالية بصرامة علمية تؤسس لعلم السوسيولوجيا بأفق أوسع من المادية التاريخية، وبعدها لا يوجد اقتصادي ينكر أهمية الثقافة وأنماط السلوك وأخلاقياته المتعلقة بالعمل كفريضة والربح والانضباط والتقشف والإنتاج التي تتحول إلى قيم وأعراف في بناء طبقة المبادرين الذين لا يربحون من أجل الاستهلاك والمفاخرة بالمظاهر، بل ينتجون ليستثمروا، ويستثمرون ويعملون ويخلقون «لأن هذا حسن». ولا أحد ينكر دور كل هذا في نشوء الصناعة والورش الكبيرة، وفي إنتاج اقتصاد السوق أو الاقتصاد الرأسمالي، ولكن في الوقت ذاته لا يوجد اقتصادي جدي يرتب قائمة من أنماط السلوك اللازم توفرها لإنتاج الرأسمالية. وهكذا لا يوجد عالم اجتماع جدي ينكر أهمية الثقافة السياسية في الديمقراطية، ويفترض ألا يوجد عالم اجتماع جدي يضع قائمة بمميزات الثقافة السياسية الديمقراطية، فكم بالحري مميزات الثقافة التي تؤدي سببيًا إلى غياب الديمقراطية.

وعلى كل حال لم يدع الكاتبان أنهما يفسران غياب ظاهرة الديمقراطية، حيث لم تنشأ، ولا ادعيا تفسير نشوئها، حيث نشأت بأدوات نظرية الثقافة السياسية، بل حاولا تفسير ثبات الديمقراطية، حيث

المقال يتضمنه كتاب يصدر قريبًا عن مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) تحت عنوان: «في المسألة العربية: مقدمة لبيان ديمقراطي عربي»

نقول إن العنف فى الشرق الأوسط، أو بين العرب فى القرنين الأخيرين، بما فيهما القرن العشرون، كان أقل بكثير منه فى أوروبا فى الفترة الزمنية نفسها والتى أسست لقيام الديمقراطية هناك

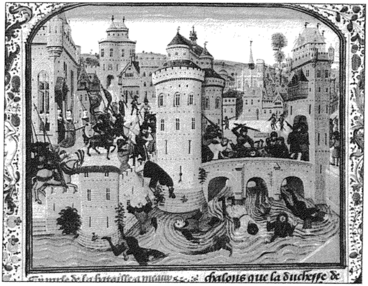
توجد باعتبار أن الثقافة المدنية عنصر حيوى فى الحفاظ عليها. ولكن كما يحصل غالباً فى الأكاديمية تم توسيع مفعول النظرية لتفسير نشوء الظاهرة وغيابها.. وهذا هو الفرق بين النظرية السوسيولوجية والغيبيات.. ونحن نعتبر ما كتبه ألموند وفيربا من باب النظريات التى يمكن دحضها وتفنيدها والاختلاف معها، وليس الغيبيات التى لا يمكن إثباتها ولا دحضها.

وفى تلخيص بعدما يقارب العقدين على صدور الكتاب يذهب سيدنى فيربا أبعد من ذلك فيدعى، أنها، أى الثقافة السياسية لا تشكل حتى نظرية، بل محاولة لطرح معادلات وتأسيس علاقات يعتبرها مهمة بين المعتقدات ومواقف وقيم الأفراد تجاه نظام سياسى وبين ثبات هذا النظام واستقراره. ويرى فيربا أن الدراسة تشكل نجاحاً نسبياً فى تجميع المواد وتصنيفها وتشخيص الثقافة السياسية، ولكنه يقول أيضاً إن تأسيس العلاقة بين الظاهرتين كان مشدوداً ومتوتراً بعض الشىء، أى مفروضاً عليهما.

فى مثل هذه الحدود وبعد مثل هذا التلخيص يمكن اعتبار محاولة ألموند وفيربا محاولة شرعية من الناحية النظرية. وعلى هذا النمط من التفكير والتنظير تأسست فيما بعد دراسات إحصائية عديدة تجرى فى دول كثيرة وتسمى فحص مؤشر الديمقراطية، وغالباً ما تنشر كتقارير دورية. وهى تصلح لفهم بعض التطورات بقيود معينة، وربما لتوقع سلوكيات انتخابية وغير انتخابية، وتندرج برأيى فى فهم ما يسمى الرأى العام مع قيود. هذا تلخيص لحدود هذه المحاولات برأينا. ولا يجوز إلقاؤها جميعاً فى سلة المهملات، إضافة إلى ذلك ينبغى فهم أنها زاوية نظر واحدة استاتيكية للظاهرة الاجتماعية السياسية المسماة الرأى العام، وهى وحدها غير كافية لفهمها وتفسيرها.

لقد وجهت انتقادات كثيرة لهذه الدراسة لمحاولتها وضع علاقة سببية واضحة بين الثقافة السياسية والنظام الديمقراطى. وقد وافق المؤلفان لاحقاً على جزء من هذه الانتقادات. وكعهدنا دائماً بـ «الصناعة الأكاديمية» تبدلت النظريات مع تغير درجة الاهتمام، ومع تقلب الأجندة السياسية، وفيما بعد همش الاقتصاد السياسى ونظرية الدولة ونظرية التبعية وغيرها نظرية الثقافة السياسية.

يقول مايكل هدسون مراجعاً وداعياً إلى عودة نظرية ثقافة سياسية معدلة فى تفسير المسألة الديمقراطية، أنه على الرغم من نواقص كتاب ألموند وفيربا من العام ١٩٦٣، إلا أنه كان خطوة مهمة فى تطور علم السياسة الأمريكى. فقد شكل تقدماً بالنسبة للمحاولات الانطباعية السابقة فى الرصد والتقييم السيكولوجى



مذبحة الفلاحين الفرنسيين على يد كتائب ولى العهد الفرنسى ١٣٥٨
(منمنمة - المكتبة الوطنية - باريس)

للشخصية الوطنية أو التقدمية أو الفاشية. أما فلسفياً، فيعود هذا التقليد كما أسلفنا إلى أفلاطون وتوكفيل وأرسطو ومونتسكيو مع فرق فى التشديد على الطبيعة والإقليم والطبائع البشرية وغيرها.

أما إذا بحثنا عن تأسيس إمبيرى (أو امبيريقى) لفكرة «الجماعة» كمحدد للسلوك السياسى، فقد قدمت دراستهما دعماً جديداً لفرضية أن مجموعة عادات وسلوكيات تتميز بالثقة المتبادلة هى شرط جوهرى فى تطور الحياة الثقافية، وللمشاركة السياسية ووجود معارضة موالية، أى تشترك فى الولاء للدولة وللكيان الوطنى، ولا تتحول معارضتها إلى العمل مع قوى أجنبية، أو الانفصال، أو تقويض أسس الدولة. وكما أسلفنا جوبهت فكرة «الثقافة المدنية» بجملة من الانتقادات والاعتراضات المنهجية. وقد تم عملياً تجاوز وتخطى فكرة جمع معلومات وجمع إجابات عن أسئلة فى استمارة من أجل فهم الثقافة السياسية لمجتمع.. ما عدا فى بعض النشاطات التدريبية لطلاب الدراسات العليا، وفى الإحصائيات المعدة للنشر فى الصحف.

ومع موجة التحول الديمقراطى فى العقدين الأخيرين، أو التنظير لها من مختلف الأجندات، وانتشار مفهوم المجتمع المدنى من جديد، عادت نظرية الثقافة السياسية لتحتل مكانة أكثر أهمية مما كانت عليه قبل أربعة عقود. ولذلك، وعلى الرغم من نقده القديم لنظرية الثقافة السياسية وبخاصة عند المستشرقين كتفسير للأنظمة السياسية فى العالم العربى يعود هدسون ليدعو إلى عدم رمى طفل الثقافة السياسية مع مياه الاستشراق المتسخة.

يدعو هدسون إلى استرجاع نظرية، أو للدقة مقاربة، أو زاوية نظر الثقافة السياسية كأداة معدلة فى محاولة تفسير النظم السياسية، وذلك بمفهوم جديد أو معدل لها لا يرضى بالتقييمات الفظة واللاتاريخية عن الإسلام والمجتمعات الإسلامية مثلاً. ويرحب هذا التوجه باتجاه البحث عن «ثقافة فرعية» (Subculture)، ثقافة فرعية، عمودية وأفقية وبكل الاتجاهات بحيث تعالج قضايا عينية. وهنا، أى فى الحالات العينية والفرعية، لا يجوز إنكار دور الثقافة إذا وضعت فى إطار وسياق تاريخى واجتماعى، وخاصة إذا تم تسجيل ومراقبة وتحليل الثقافة فى إطار التنافس بين القوى الاجتماعية المختلفة على الثروة ومصادر القوة، وفى استغلالها وإعادة تشكلها لأغراض السيطرة، أى أنها دعوة للتعامل مع الثقافة السياسية كعنصر متغير متحرك ومرتبط بعناصر أخرى. ولكن أهميتها كعنصر كامنة فى أنه لا يمكن اختزاله إلى العناصر الأخرى مثل الاقتصاد والدولة. فهو عنصر أولى من بين عناصر أخرى، وليس عنصراً ثانوياً متأثراً فحسب.

وقد ذهب مثقفون قوميون وديمقراطيون عرب فى الماضى أبعد من ذلك فى وصف أهمية الديمقراطية كثقافة وكقيم. ولا بأس فى ذلك مادام وا يرون وظيفتهم هى التثقيف والتربية والشحن بالقيم الديمقراطية. وهو دوافع وموقف. وهذا لا يقبل بالنظرية حجة لعدم الفعل. ولا يتعلل بانتظار تشكل ثقافة ديمقراطية كمبرر لعدم اتخاذ موقف «إلى أن تتشكل، وإلى أن يعى الناس أهمية الديمقراطية ويتماثلون معها قيمياً».

ولكى نصور ما نقصد، نأخذ مثلاً على ذلك مثقفاً عربياً ليس ديمقراطياً ليبرالياً بمفاهيم اليوم، ولكنه يؤكد على القيم والثقافة الديمقراطية بزخم فكرى وروحى وبدقة ومعرفة لا يتوفر حتى جزء منه لدى منظرى المجتمع المدنى ومنظرى الثقافة الديمقراطية فى أيامنا. وهو مالك بن نبى. ويستخدم بن نبى القيم الديمقراطية ليس فقط للتعبئة، وإنما للتحذير من الدساتير الميتة المنسوخة نسخاً عن الدساتير الديمقراطية من دون أن يتم العمل بها. يقول مالك بن نبى مثلاً: «فليس فى بريطانيا نص دستورى - وهو نص متواضع نسبياً يكفل حقوق الشعب الإنجليزى وحرياته، بل يكفلها التقليد البريطانى القديم، وبعبارة أخرى، الروح البريطانى نفسه. إن عملية خلق الديمقراطية ليست إذاً مجرد نقل بسيط للسلطات بين فريقين، ملك وشعب مثلاً، بل هى تكوين المشاعر، والردود العكسية، والموازين التى تكون أسساً ديمقراطية فى ضمير شعب، وفى تقاليده. إن الدستور الديمقراطى هو، بصورة عامة، نتاج عملية خلق الديمقراطية، وهو لا يعبر تعبيراً صادقاً عن ديمقراطية ما، إلا فى حدود الخلق التى تسبقه». وماذا يقصد مالك بن نبى بالشعور الديمقراطى أو القيم أو حتى الخلق الديمقراطى؟ يجيب الكاتب قائلاً: «إن شعور أوروبا الديمقراطى كان النهاية السحرية لحركتى الإصلاح والنهضة. ولكن هذا الشعور هو، فى كل عملية خلق ديمقراطى، فى أوروبا وخارجها نوع من الحد النفسى، يبدو تحته شعور العبد، كما يبدو فوقه شعور الطاغية. إن الإنسان الحر مواطن ديمقراطية ما هو توكيد إيجابى بين هذين السلبين..». لا يقصر مالك بن نبى عملية تشكل الديمقراطية على أوروبا. وهو لا يرى حاجة لنسخ العملية التاريخية الخصوصية التى قادت إليها. ولكن مع ذلك هنالك قيماً عامة يصفها بشكل جميل كقيم المواطنة الديمقراطية: المجال الموجب ما بين سلبى العبد والطاغية. وبرأينا فإن هذا التشديد على الثقافة الديمقراطية، لا يعتبرها نظرية سوسيولوجية أو سياسية فى تشكل ونشوء وارتقاء من جنس إلى آخر أرقى منه على سلم التطور، بل يرى بالديمقراطية قيمة لا بد من التعبئة والتثقيف عليها. ولابد أن يتخلل التثقيف والتربية عليها فعل الخلق الديمقراطى، وإلا كان الإصلاح شكلياً ومنسوخاً وميتاً.

هذا هو الفرق بين التشديد الديمقراطى على الثقافة من أجل تعزيز الديمقراطية والتعبئة والتحريض وخلق القيم الديمقراطية، وبين التشديد عليها ساكنة لغرض تبرير إعاقة الديمقراطية.

ولكن نزعة وضع الديمقراطية كثقافة فى

المقدمة تحولت إلى ما يشبه النظرية مع عمليات الإصلاح واللبرلة وازدياد التوجه إلى دراسة المجتمع المدنى وأهميته وكيفية رصد وتسجيل عناصر ثقافية فى دراسة المجتمع المدنى. وفى رأينا يمكن اعتبار هذه النزعة التبريرية المتأخرة تراجعاً قياساً بزخم التبشير الديمقراطى عند جيل من الديمقراطيين القوميين والوطنيين وجد من واجبه نشر قيم الديمقراطية عبر تأكيدها فى عملية تشكل المواطنة الديمقراطية وتعرية النسخ والاستيراد الجاهز. فالأخير لا يفشل فقط، ولا يكتفى بنسخ الأسماء من دون المسميات بل يمنع تطوير الثقافة المحلية، والكشف عن أنويتها (جمع نواة) غير المتعارضة مع الديمقراطية فى الثقافة القائمة، ونقاط الارتكاز القائمة فيها والمتوافقة مع تطور قيم ديمقراطية. لدينا هنا موقف ثقافى من الديمقراطية لا يرى عيباً فى الثقافة العربية والإسلامية يمنعها من تطوير قيم مواطنة ديمقراطية.

من الضرورى تفنيد ونفى التعميمات حول الشخصية أو الثقافة العربية أو الإسلامية التى تزعم وجود تناقض بينها وبين الديمقراطية. ولكن لا يجوز الاستهتار بأهمية العناصر الثقافية طالما تم التسليم بأنها لا تعبر عن جوهر لا تاريخى، بل هى تاريخية، مصنوعة. إذ لا يمكن الاستخفاف بضرورة فحص انتشار تأكيد الأفراد على الانتماء الطائفى والإثنى وأسباب تسييسه وأسباب نهوضه التاريخى مثلاً بعد فترة من الانزواء والتهميش، بفعل أيديولوجيات تقدمية الطابع، وذلك بفحص وجود هذه الظاهرة وتأثيرها فى عملية بناء مجتمع أو نظام ديمقراطى، وإعاقة نشوء التعددية الحزبية وغير ذلك.

يجوز، بل من الضرورى دراسة العناصر كما الظواهر المجتمعية، لا أكثر ولا أقل. ولا حاجة إلى تبرير ذلك. المشكلة تكمن فى اعتماد الثقافة وحدها أو افتراضها ثابتة ومرتبطة بجماعات بشرية مثل صفة يحملونها على نمط «العقلية». أما الأخذ بالثقافة السائدة عند فئات اجتماعية فى سياقات تاريخية محددة كعنصر فى التفسير فلا حاجة إلى تبريره. والتفسير يبقى دونها ناقصاً، كما أنه من الضرورى أخذها بالاعتبار عند التخطيط السياسى والمجتمعى لعملية التحول الديمقراطى. ولا يجوز إهمال مثل هذه الظواهر وأهميتها. فلا يمكن شرح ظواهر مثل الأصولية الإسلامية مثلاً من دون أخذ عناصر الثقافة السياسية وتغير الثقافات الفرعية وأنماط السلوك السياسى بين الريف والمدينة والمجتمع الجماهيرى وتفسير أنماط التعددية تبعاً لذلك. وهذه بالطبع ليست نظرية فى الثقافة السياسية للمجتمعات، بل تقبل بوجود ثقافات مختلفة متعددة ومتغيرة فى كل مجتمع.

ولكنها ترى أنه لا يمكن الاستغناء عنها فى عملية تفسير نشوء وتعطل أو تعطيل الديمقراطية مثلاً.

والحقيقة، وعلى الرغم من أننا نعى إشكالية وضع الثقافة كحيز قائم بذاته يدعم أو يعيق التحول السياسى إلى نظام ما، إلا أننا لا نرى مشكلة فى البحث عن الثقافة السياسية الداعمة للديمقراطية أو لغيرها من الأنظمة السياسية. المشكلة هى فقط فى دور ومكانة الثقافة السياسية المدعاة. وهل هى سبب أم نتيجة، أم كلاهما؟ والمشكلة الثانية كما أسلفنا هى تحويل مركبات حضارية وتقاليد وإرث ثقافى وغيره إلى ثقافة سياسية واعتبارها كياناً ثابتاً أصدق تعبيراً عنه هو فكرة العقلية (Mentality)، أو الثقافة كما يستخدمها كل من هانتنجتون وبرنارد لويس. وهى برأينا فكرة عنصرية تجعل من الثقافة كياناً لا تاريخياً يحل محل العرق أو العنصر فى الفكر العنصرى، مع الفارق أنه أكثر قبولاً وحداثة خاصة عندما يدعم بنوع من العلوم والمشاهدات الأنثروبولوجية أو الاستشراقية أو غيرها. هذا، ونود هنا التذكير أن منظرين عنصريين مثل جوبنو فى نظرية الأعراق والفرد وروزنبرج فى كتابة أسطورة القرن العشرين، وهم من مصادر النازية الفكرية، لم يكتفوا بالدجل بل حاولوا تقديم شواهد تجريبية وتاريخية على صحة النظرية العرقية وتأثير «العرق» على الثقافة والسياسة والأخلاق.

خذ مثلاً على العقلية أو الثقافة بالمفهوم العنصرى من يدعى أن العنف السياسى هو مركب ثابت من مركبات الثقافة السياسية العربية ناجم عن عقلية القبيلة مثلاً، ويتمظهر فى الدولة العربية كنوع من التعبير عن جدية نوايا الحاكم: «العنف هو مركب جوهرى فى عملية صنع القرار، إنه دليل على جدية النوايا، والتصميم على السير قدماً من أجل مصلحة المجموع». وكأن الحاكم أو الدولة فى الغرب لا تحتاج إلى العنف للتعبير عن التصميم والحزم. ولا تنتهى سلسلة الكتب والدراسات التى تتحدث عن «العقل السياسى العربى» أو «العقل التآمرى العربى» أو الشخصية السلطوية» العربية كأنها جواهر قائمة بذاتها.

وغالباً ما تتم مراقبة النظام السلطوى أو الشمولى فى الغرب وعملية نشوئه التاريخى ويتم إسقاطه بصفاته ومكوناته هذه على سياق تاريخى آخر فى الشرق، ولكن عندما يعتبر نوعاً من العقلية. وهذا يعنى أن ما هو ناشئ تاريخياً، وبالتالى أيضاً زائل تاريخياً فى الغرب، هو جوهر فى الشرق.

الكارثة هنا هى الخلط بين مميزات أى نظام سلطوى فى الغرب كما فى الشرق، وبين مراقبته فى الشرق واعتباره ثقافة محلية. ونحن لا نرفض هذا الادعاء نظرياً فقط، وإنما نقول إن العنف فى الشرق الأوسط، أو بين العرب فى القرنين الأخيرين، بما فيهما القرن العشرون، كان أقل بكثير منه فى أوروبا فى الفترة الزمنية نفسها والتى أسست لقيام الديمقراطية هناك. ولا يجرؤ باحث جدى على أن يتحدث عن العنف فى أوروبا كثقافة سياسية ملازمة لها. والتقاليد القبلية نفسها التى يدعى كاتب مثل دافيد برايس جونز أنها عنيفة يمكن أن ينظر إليها فى سياقات اجتماعية تاريخية بالعكس كأدوات وضوابط اجتماعية ضد عنف من النوع الذى انفلت فى أوروبا مبكراً بعد التحديث، كما فى حالة النازية والفاشية والستالينية وغيرها.

فمثلاً من الواضح الجلى أن التعددية القبلية والعشائرية كوحدات اجتماعية وكثقافة مرتبطة بها، ليست ديمقراطية، ولكنها بالتأكيد من معيقات تطور نظام سياسى شمولى من نوع الفاشية والنازية والشيوعية. فمثل هذا الأنظمة تحاول خلق تجانس أيديولوجى وهيمنة تفترض علاقة مباشرة بين الحزب والفرد، وبين الدولة والفرد كفرد مذرر، كما أنها لا تسمح أن توازنه أية قوة اجتماعية تحول بينها وبين الفرد. وقد تصل الهيمنة المطلوبة على الأفراد حد محاولة تأسيس دين جديد فى الأنظمة الشمولية هذه، ولكنها بشكل عام تحتاج إلى استثمار كم هائل من العنف للإرهاب والتخويف فى عملية تقويم وهندسة المجتمع وإنتاج الإنسان الجديد كما تدعى.

وغالباً ما يبدأ نقد الثقافة السياسية العربية بنقد ثقافة وعلاقات القرابة والقبيلة كنقيض للعلاقات الحرة والطوعية التى على أساسها تقوم المؤسسات الديمقراطية وفكرة الفرد الحر الإرادة للقيام بعملية تعاقد. حسناً، هذا نقد تقليدى وطبيعى للفرق بين الجماعة العضوية والمجتمع. والقبائل بهذا المعنى كانت قائمة فى ماضى مجتمعات كثيرة قبل الحداثة، وقبل أن تصبح ديمقراطية.

وتناول هذه العلاقات كعائق تاريخى يمنع تطور الديمقراطية عندما تتوفر عوامل أخرى، وتتوفر الإرادة السياسية هو من باب البحث عن مخارج لتفسير «غياب الديمقراطية». فى مثل هذه الحالة نحن أمام غيبيات. وإذا اعتبر تشخيص صفات القبيلة كحائل ضد الفردية وضد قيام الاتحادات الطوعية والتعاقدية تشخيصاً لـ «سبب غياب الديمقراطية» فهو يتحول إلى موقف أيديولوجى فارغ، إذ إنه ليس نموذجاً لنشوء ثقافة ديمقراطية، ولكن يمكن تخيل تحول ديمقراطى فى مجتمعات ودول كهذه قبل تغير الثقافة. فوجودها ليس سبب غياب الديمقراطية.

ولكن هذا النقد غير المشروع لهذه البنية كأنها شأن مميز للعرب، يتحول إلى نقد مشروع ليس لعامل تاريخى يمنع التحول أو يستخدم لتبرير عدم التحول إلى الديمقراطية، بل فقط إذا بدأت عملية دمقرطة، وإذا بدأت نخب سياسية بالمقابل باستثمار علاقات العشيرة لتحقيق تبعية سياسية بدل الأحزاب مثلاً، أو إذا استبدلت التعددية السياسية بتعددية عشائرية أو طائفية. هنا تصبح هذه الثقافة واستثمارها من قبل نخب سياسية عائقاً أمام تطور عملية إقامة المؤسسات وصنع القرار والمهنية وغير ذلك. وهذا نقد ديمقراطى مشروع للثقافة السياسية القبلية السائدة. بل يصلح هذا النقد كموقف وبرنامج وربما كراية نضال ديمقراطى ضد عوائق التطور الديمقراطى وضد تفريغه من مضمونه فى العديد من البلدان.

وهذا النقد الثقافى المشروع هو فى الواقع:

أولاً: نقد سوسيولوجى وليس نقداً ثقافياً بالمعنى الضيق للكلمة. فسلوك النخب السياسية الحديثة العقلانى والدستورى والقانونى، بل الديمقراطى أحياناً، يحمل رواسب سوسيولوجية تشكل وجهه الخفى المظلم أو «لا وعيه السياسى» أو حتى أداة تستثمر بشكل براجماتى لبناء الولاءات والحفاظ عليه فى علاقة الزبونية والاستزلام «ولى النعمة - المستفيد»، أو «الزعيم والخادم»، أو «التابع والمتبوع». ولا شك أنه حتى النخب الحديثة بما فيها بناة الدول العربية ومؤسسوها قد لجأوا إلى هذا النوع من الولاءات فى حالة الأزمات، أو بعد مرحلة الاستقرار. وبعد عقود على تأسيس دولة بدأ تأسيسها بشكل حديث نجد أن التعيينات تتم جهوياً أو عائلياً أو طائفياً. ويتم أحياناً تحويل المقربين والموالين من مرحلة التأسيس، مثل أعضاء مجلس الثورة، أو مؤسسى الحزب إلى ما يشبه قبيلة المقربين بحيث يحل فى مثل هذا الإطار الولاء الشخصى للرئيس مكان الكفاءة أو المناقبية أو الأقدمية والخبرة المطلوبة وغير ذلك. ولا ينفى هذا الوضع صفة الحداثة ولا حتى النهضوية عن بعض النخب بل يثبت أنها تحمل معها رواسب وعلاقات اجتماعية بل حتى عملية تنشئة بيتية عائلية أبوية. وهذه تتفعل وتصبح ذات تأثير وقابلة للتنفيذ لأن النظام مركزى رئاسى يتمحور حول شخصية ورغبة وقرارات «الزعيم القائد»، أو «الأخ القائد»، أو «الرئيس القائد»، أو «الزعيم الملهم». وبغض النظر عن حسن نوايا هذا الأخير والنخب المؤسسة أو سوئها، نجد أن نظام الولاءات يحل محل المؤسسات أو ينخر فيها بالتدريج، إلى أن يصبح فى مرحلة الانحطاط الأبدية «التملق هو الطريق إلى الجاه والجاه هو الطريق إلى المال» فى نظام ينخره الفساد والاستبداد، كأننا لم نغادر مرحلة الانحطاط الخلدونية.

ليس هذا النقد أخلاقياً أو ثقافياً،



معركة الخوبارتاه - أواخر القرن ١٥.. (منمنمة من حولية انجلترا - المكتبة البريطانية - لندن)

ونحن نجده مؤخرًا كتحليل سوسيولوجى مفيد لمنشأ النخب العربية الحاكمة فى حالات خاصة يتجاوز الندب والصراخ والشتم والتخوين فى دول عربية. وهو يبرز التناقض الهائل بين الثقافة المعلنة والشعار المعلن وحتى الممارسة القانونية والاجتماعية الفعلية للنظام كما فى مجلة الأحوال الشخصية التونسية، وهو فخر عملية التحديث لدى النظام فى تونس مثلاً من جهة، وبين السلوك السياسى البطريركى الأبوى الجديد الذى يعيق بناء المؤسسات على أساس المعيار الموضوعى والحجج العقلانية والكفاءة والوطنية والإخلاص للدولة، ويستبدلها بعلاقة التبعية الشخصية للحاكم على أنواعها من القرابة وحتى الولاء كنوع من القرابة، والتى يمكن جمعها كلها تحت عنوان العشائرية السياسية من جهة أخرى.

وثانيًا: نقد العشائرية السياسية ليس فى بنية النظام غير الديمقراطى الداخلية، بل فى حالة الانفتاح والتعددية، وتحول العشائر السياسية إلى وحدات سياسية متنافسة هو نقد مطلوب فى خضم التحول الديمقراطى. وسوف يكون لنا عدة وقفات مع هذا النوع من النقد الذى يجد الناشط الديمقراطى نفسه بحاجة يومية إليه فى كل بلد عربى. إن تحول التعددية الديمقراطية فور الانفتاح السياسى إلى تعددية تعتمد كل وحدة فيها نظام الولاءات العمودية على أساس الانتماء الجهوى أو الطائفى أو العشائرى هو من الآليات التى تفرغ كل إصلاح سياسى من المضمون الديمقراطى.

والمفارقة الكبرى أن تكريس التعددية العشائرية كأنها تعددية سياسية بدل التشديد على التعددية الحزبية والفكرية فى إطار الرابطة القومية فى عملية بناء الأمة فى العالم العربى هو من مظاهر التعامل بسطحية ولا مبالاة مع مسألة التعددية السياسية عند التدخل الغربى بشأن الديمقراطية فى البلدان العربية، وهو من أهم مميزات السياسة الغربية الحالية ضد عروبة الدولة العربية ومجتمعها.

الأمر نفسه ينطبق على مهرب آخر من التفسير النظرى من نوع تحميل العلاقات السلطوية البطريركية، داخل العائلة مثلاً، مسئولية انتظار ثقافة تعيق الديمقراطية. والحقيقة أن بناة الديمقراطية فى التاريخ كانوا عمومًا شخصيات سلطوية داخل عائلاتهم، ولم يتناقض سلوكهم السلطوى فى الحيز الخاص، مع دوافعهم الناشئة تاريخيًا، الثورة أو الإصلاحية، لبناء قواعد لعبة ديمقراطية فى الحيز العام، وبشكل خاص فى الدولة، وسيادة القانون واستقلال القضاء وغيره.

لقد تم منح حق الاقتراع وتوسيع الحقوق لتشمل المرأة مثلاً على مراحل فى الغرب ذاته.

والأهم من ذلك أن «دمقرطة» العلاقات الأسرية مثلاً ودخول القانون إلى الحيز الخاصة ينظم العلاقات داخل الذوات نفسها التى تشكل عناصر مؤلفة للنظام مثل العائلة. فمثلاً بعد نضال طويل داخل الدول الديمقراطية ذاتها بدأ مفهوم سيادة القانون بالتوسع ليتدخل فى العلاقات الأسرية من نوع المساواة داخل العائلة ووقف النزعة التسلطية الأبوية والعنف الأسرى ضد المرأة والأطفال. وعلى الرغم من أن الأحزاب السياسية تعيش فى عالم آخر غير الحيز الخاص، إلا أن القانون فى الدول الديمقراطية تدخل متأخرًا وبعد تردد فى تنظيم العلاقات ودمقرطتها داخل الأحزاب ذاتها. ويبدو ذلك غريبًا وبخاصة أن الأحزاب رابطة طوعية يستطيع المرء أن يغادرها إذا لم يعجبه ما يجرى فيها ولا أحد يجبره على البقاء فيها، ومع ذلك تدخل القانون فى عملية إدارتها باعتبارها حيزًا عامًا، أى باعتبارها حيوية للمجتمع وللنظام الديمقراطى. ولكنه تدخل متأخرًا وبعد تردد حقيقى ومناقشات فكرية وقانونية مستفيضة طيلة عقود.

وكما يبدو لا يرى المنظرون العرب وغير العرب الذى يعلقون أهمية كبرى على السلوك الذهنى والثقافة أهمية هذا الفصل التاريخى بين الحيز الخاص والعام الذى مكن من تطور الديمقراطية فى الغرب، ثم رسم هذه الحدود فى كل مرة من جديد. ويتعلق هذا الأمر بالثقافة كما بأى قطاع آخر. فدمقرطة العلاقات السارية وقيمها لم يكن شرطًا لتطور الديمقراطية فى الغرب، بل بالعكس. ولم تزل العلاقات البطريركية من الأسرة أولاً كشرط للديمقراطية والثقافة الديمقراطية، بل سمحت الديمقراطية بموازنتها ومكافحتها فى المجتمع ثم فى الأسرة.

تعنى الديمقراطية بتنظيم العلاقات الديمقراطية داخل الحيز العام أولاً. وهى تعتبر الفصل بين الحيز العام والخاص العنصر الأكثر أهمية فى استعداد وجاهزية ثقافة المجتمع وتشريعاته للديمقراطية. وهذا الفصل الذى يقلل من وزن العنصر الثقافى هو أنه يحصر بعضه فى الحيز الخاص. ولكن هذا لا يكفى إذ لا يلبث أن تبدأ عملية إعادة رسم حدود تدريجية بين الحيز العام ليشمل تدخل الحقوق الديمقراطية وسيادة القانون فى الحيز الخاص، وبين اعتبار الديمقراطية تبدأ هناك وبذلك تحميل الثقافة الديمقراطية داخل العائلة وغيرها ما لا تحمل.

والفصل بين الحيز الخاص والعام لا يقل أهمية عن الفصل بين الفرد والجماعة العضوية، إذ مكن الفصل الأخير من تصور مجتمع متعاقد، ومن تصور فصل الدين عن الدولة وتصور مؤسسات ومرافق عامة تهم المجتمع ككل فى الوقت ذاته. هذه شروط مهمة. وهى تعنى أن عملية التحول الديمقراطى غالبًا ما لا تغير بعض الجوانب فى «الذهنية» والسلوك، مثل الدين والثقافة وغيرها، بقدر ما تدفعها إلى الحيز الخاص، فلا تحمى بذلك الخصوصية فقط من تدخل المجتمع، بل تحمى المجتمع منها ومن فرضها، إذا صح التعبير.

منذ ماكس فيبر ومحاولة إعادة إنتاج مقولة الأخلاق البروتستانتية كمقدمة لتطور الرأسمالية فى أوروبا تعددت المدارس السوسيولوجية التى تعتمد مسألة الثقافة كثقافة سياسية تشترط لتطور الديمقراطية خارج أوروبا من منطلق أن الأخيرة بادرت لخلق شروطها التاريخية الثقافية. ولذلك وبمعنى ما تحولت الظروف التاريخية لنشوء الرأسمالية فى أوروبا إلى شروط تاريخية، وكأن الديمقراطية سوف تظهر، وتولد، وتنشأ من جديد فى كل مرة. حاولت هذه المدارس، ويحاول أتباعها فى الحاضر إثبات أن أنماط السلوك الثقافية والمعتقدات تعيق أو تدعم التقدم: عند تالكوت بارسونز وفى نظريات التحديث وفى الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية عند فرانك بواز وعند مارجريت ميد وروث بنيديكت. وأيضًا فى الانقلاب الذى أحدثته النظرية السلوكية (Behaviorism) فى الخمسينيات والستينيات. وبعدها تأتى التفسيرات غير الصحيحة وتوسيع نطاق مفعول نظريات جابرييل ألموند وسيدنى فيربا المذكورة آنفًا حول توفر وعدم توفر ثقافة مدنية مساندة للديمقراطية. فقد انطلق تفسير ألموند وفيربا من تشكيل ثلاثة أنماط سلوكية سياسية، وافترضا أن بناء الديمقراطية وإعادة إنتاجها يلزمه من بينها نمط المشاركة الذى قيست درجاته وأشكاله من مقارنة خمس تجارب فى إيطاليا وألمانيا وبريطانيا والمكسيك والولايات المتحدة. لقد أنتج المؤلفان الأخيران مفهومًا عن الثقافة السياسية أضحى واسع التأثير كما أسلفنا بما فى ذلك فى دوائر سياسية.

وقد رفض مفكرو «الخيار العقلانى الفردى» فى العلوم الاجتماعية عمومًا المقولات عن تأثير الثقافة فى نظام الحكم السائد،

باعتبارها إما بديهية تشرح ذاتها أو نظرية لا يمكن فحصها. ولكن آخرين لجأوا إليها باعتبارها تفسيراً يتم استلاله أو اختلاقه لتفسير كل انحراف عن جادة النظرية، أو لتبرير كل خطأ فى التوقع أو التنبؤ حول نشوء أو عدم نشوء الديمقراطية أو غيرها من التنبؤات التى لم يمكنهم تفسير خطئها فعزوه لعامل الثقافة. وكأن عامل الثقافة هو الاحتياطى الموجود لدى النظرية عند إصابتها بقصور فى التفسير. وبذلك أنتجت «الثقافة السياسية» معجماً لكل نظرية عاجزة عن تفسير ظواهر مثل عدم تمكن مجتمعات معينة من الانتقال إلى الديمقراطية. كانت الثقافة ملجأ يستقبل النظريات المهزومة حول غياب الديمقراطية عندما تعجز النظريات الاقتصادية والاجتماعية عن شرح غيابها.

وقد أشار فوكوياما إلى أن انتصار النموذج الديمقراطى الليبرالى قد تم عالمياً على مستوى الوعى الذاتى. وهو يقصد أنه على مستوى الوعى لا يوجد نموذج قادر على التنافس مع الديمقراطية الليبرالية كخيار قيمى وكخيار عقلانى على المستوى الذى يسميه فوكوياما المستوى الأيديولوجى. ويتابع فوكوياما أنه لا يبدو أن هنالك منافساً على مستوى المؤسسات الديمقراطية كذلك. ولا يوجد بنظره نموذج عالمى مطروح كبديل لها. ويدعى فوكوياما أن المشكلة تكمن فى مستويين أعمق وأبطأ تطوراً هما المجتمع المدنى، والمستوى الأعمق منه الذى يعيق التحول الديمقراطى ويؤخره، أى يحمله المسئولية حيث لا تنتصر هذه النماذج التى أعلن انتصارها فى كتابه المنشور فى العام ١٩٩٢ «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» وهو ما يسميه فوكوياما المستوى الثقافى الذى يقوم عليه المجتمع المدنى.

ولا ندرى إذا كان فوكوياما يلاحظ أن هذا المستوى الثقافى العميق المزعوم يشبه من حيث عمقه وتمرده اللاعقلانى على الخيار الواعى (الذى انتصرت فيه الديمقراطية كما أسلفنا) وعلى المؤسسات (وفيها أيضاً انتصرت الديمقراطية الليبرالية) مستوى الـ «إيد» اللاواعى فى التحليل النفسى عند فرويد. هؤلاء المنظرون يقسمون الشعوب وحركة التاريخ من دون أن يدروا كما يقسم فرويد النفس البشرية ليفسر سلوكها الشاذ. ويبدو أنه كتب على نقاد فرويد وماركس أن تلاحقهم لعنة تقليدها عندما يريدون ربط علاقة موجبة بين سبب ونتيجة، وبين عامل رئيس وثانوى، أن يفترضوا بنى غير واعية وباطنية تفعل فعلها فى تحديد الوعى والمؤسسات من خلف ظهور الأفراد عند ماركس، وفى لاوعيهم عند فرويد. وهى فى الحالتين بنية تحتية نفسية أو اقتصادية. ونقادهما يفترضون بوعى أو بدون وعى الافتراضات نفسها لتفنيدهما. وهى هنا تظهر كبنية ثقافية لا واعية تتدخل ضد الثقافة الواعية ذاتياً. ولهذا الغرض يعرف فوكوياما الثقافة كما يلى: «أعراف وعادات أخلاقية تمرر وتوارث بواسطة التقاليد، ومع أنها متأثرة بالمستويات الثلاثة الأخرى إلا أنها الأبطأ فى التغير».

ويشمل هذا المستوى الدين والعادات والتقاليد وبنية العائلة والقيم السائدة. وهو إذ يعلل بها إعاقة التحول يرفض ويفند ادعاء هانتنجتون أن الثقافة الكونفوشيوسية تحديداً تشكل عائقاً من هذا النوع. ومع أنه يؤكد المبدأ والمنهج، ولا يختلف معه فى حالة الإسلام، ولكنه يرى أن «الإسلام» خطر محلى، وبديل محلى وليس خطراً على الصعيد العالمى يهدد انتصار الديمقراطية كنموذج. فـ «الإسلام» ليس بديلاً عالمياً مطروحاً كنظام مثل الشيوعية.

تحاول ليزا وادين استنباط مفهوم أكثر نقدية للثقافة كعملية «صنع المعنى». وتحاول وادين الثقافة هنا إلى ممارسة بدلاً من أن تكون مجموعة صفات متشيئة. إنها ممارسة سيميائية لجعل العالم الذى نعيش فيه مفهوماً، مع أنها ممارسات فى ظروف وحدود معطاة، ولكنها تحتمل خيارات. ونحن نتفق معها أن مفهوماً كهذا يساهم فى فهم السياسة، ويمكن علماء السياسة من ربط بعض الروابط السببية والبحث عن الأدلة. دراسة عملية (إنتاج المعنى) تتضمن تحليل العلاقات بين ممارسة الوكلاء الاجتماعيين (Agents) (من نوع الرقابة الذاتية، أنماط الترفيه، عادات العمل.. إلخ) ووظيفية المنظومات الثقافية (المقصود هنا هو اللغة كأنظمة رمزية، أنظمة الرموز السيميائية (Semiotic) فالكلمات أو اللغة ككلمات لا تكفى هنا).

تقدم ليزا وادين تعريفات الثقافة التى ورثها علماء السياسة عن جيرتز رغم إجازات الأخير، وبخاصة فى تحديده لأهمية الرموز فى عملية إنتاج المعنى للأفراد. وتدعى الكاتبة أن «الجيرتزيين» فى الأنثروبولوجيا، ثم فى العلوم السياسية استخدموا مفاهيم متعددة ومركبة للثقافة وكانوا مستعدين للتنازل عن بعض من إمكانيات المنظومة التحليلية التى تفحص درجة التماسك السيميائى (Semiotic Coherence) لمجموعة بشرية محددة. لم تعد الثقافة ما تملكه مجموعة بشرية محددة، بل سؤال ما هى هذه المجموعة. ومازال معظم علماء السياسة يتعاملون مع الثقافة وكأنها مجموعة صفات ثابتة عند جماعة بشرية ويقللون من فهم تاريخية هذه الصفات وديناميكيتها وتبدلها وتطورها بما هى عملية إعادة إنتاج المعنى عند المجموعة.

كان من المألوف أن تجد فى دراسات تقدم تفسيراً «يقارب البداهة» لأنظمة الحكم فى إسبانيا والبرتغال فى أوروبا والغالبية الساحقة من بلدان أمريكا اللاتينية الحكم فى إسبانيا والبرتغال فى أوروبا والغالبية الساحقة من بلدان أمريكا اللاتينية إلى أنظمة حكم ديكتاتورية بربط النظام بانتماء غالبية سكانها للمذهب الكاثوليكى الذى يفترض أنه مذهب يتناقض مع الديمقراطية. لا بد أنه لو أثار أحدهم مثل هذه الفكرة فى أيامنا لأصبح محط سخرية جماعية. ولكن ما يقابلها من حديث شائع، حتى بين مسلمين، عن علاقة الإسلام بالديمقراطية والتخلف.. مازال يؤخذ بجدية.

إلى هذا النموذج أخيراً، ينتمى هانتنجتون، أى إلى المدارس التى تفسر السياسة والنظم السياسية بالثقافة، وبخاصة فى مقاله «صراع الحضارات» من العام ١٩٩٣ الذى تحول إلى كتاب «صراع الحضارات وصناعة النظام العالمى الجديد» من العام ١٩٩٦. ثم أتبع بعدد لا يحصى من الأدبيات التى كتبها هو وتلامذته، والتى تزامن نشرها مع ازدياد نفوذ القوى المحافظة الجديدة فى السياسة والثقافة السياسية السائدة فى واشنطن.

الثقافة عند هانتنجتون ليست هى صراع المنظومات الاقتصادية ولا هى صراع أيديولوجى يعبر عن الأول. وبرأيى أن تعريف هانتنجتون للثقافة يزج منذ البداية بشكل واضح بمسألة الهوية، أى أن منهجه البحثى يتورط فى عالم سياسات الهوية الأيديولوجية، ومن هنا سلبيته وموقفه الهدام والأيديولوجى، بمعنى غير العلمى. فهو يقدم تعريفاً جوهرانياً واضحاً للحضارة ثم يبينه أيضاً بشكل نظرى فى العلوم الاجتماعية لأنه برأيه يمكن إعداد قائمة جاهزة ومفصلة بالصفات التى تميز حضارة، وثم بحثها كمعطى عند جماعة بشرية محددة.

لم يعد العالم بموجب المدارس والتيارات التى ينتمى إليها هانتنجتون يقسم بموجب الأنظمة الاقتصادية، بل بموجب الثقافة والحضارة. وعند تعريفه للحضارة يجد الكاتب نفسه مستخدماً تعبيرات متعلقة بالهوية. «الحضارة هى أعلى تجمع ثقافى للناس وأوسع مستوى للهوية الثقافية قبل تلك التى تميز الجنس البشرى عن بقية الأنواع. وهى تعرف بعناصر مشتركة موضوعية مثل اللغة، والتاريخ، والدين، والعادات، والمؤسسات، وبمستوى تماهى الأفراد ذاتياً. توجد عند الناس مستويات للهوية: وقد يعرف الإنسان ذاته بدرجات مختلفة من التأكيد والتشديد (رومانى، إيطالى، كاثوليكى، مسيحى، أوروبى، غربى) الحضارة التى ينتمى إليها بأنها أوسع وحدة تماه من تلك الهويات التى يتماهى معها بشدة. يعرف الناس ويعيدون تعريف هوياتهم، ولذلك أيضاً تتغير حدود الحضارات». وتكاد الهوية إذاً عند هانتنجتون تفسر كل شىء تقريباً، وهو يفرط فى استخدام التعابير: تماهى، وانتماء، وهوية. لدينا هنا أحد آباء سياسات الهوية التى تتهم بها الأصوليات على أنواعها، ويتهم بها القوميون على أنواعهم. على الباحث ألا ينسى للحظة أن التنظير الأكثر منهجية لسياسات الهوية يوجد فى معابد وهياكل الأكاديمية الغربية ذاتها فى الولايات المتحدة.

من زاوية نظر هانتنجتون يتوفر مع مصطلحات الثقافة والهوية، أو الثقافة كهوية، مفتاح لفهم إسقاطات التحديث مثلاً. فبرأيه التحديث والتغيير الاجتماعى يفصل الناس عن هوياتهم المختلفة. كما تضعف الدولة الوطنية كمصدر للهوية. وفى تقديره فى دول العالم تحركت الديانات، الدين كوحدة انتماء وتماه، لجسر هذه الفجوة، ويتم ذلك غالباً بصورة الحركات المسماة «أصولية». توجد كل هذه الحركات فى المسيحية الغربية أو اليهودية والبوذية والهندوسية كما فى الإسلام. الناس النشيطون فى الحركات الأصولية فى غالبية الدول والديانات هم شباب خريجو كليات وفنيون أو مهنيون من الطبقة الوسطى، ورجال أعمال. «علمنة العلم.. هى من حقائق الحياة الاجتماعية

مع موجة التحول الديمقراطى فى العقدين الأخيرين، أو التنظير لها من مختلف الأجندات، وانتشار مفهوم المجتمع المدنى من جديد، عادت نظرية الثقافة السياسية لتحتل مكانة أكثر أهمية مما كانت عليه قبل أربعة عقود

المسيطرة فى القرن العشرين. وإحياء الدين، وانتقام الإله على حد تعبير جيل كيبل يزود بأساس جديد للهوية والالتزام يتجاوز الحدود الوطنية ويوحد الحضارات».

يقول الكاتب إن السؤال المطروح فى الصراعات الأيديولوجية هو «على أى جانب أنت؟». ويستطيع الناس أن يغيروا خياراتهم من جانب إلى آخر. أما فى الصراع بين الحضارات فالسؤال هو «من أنت؟» أو «ماذا أنت؟» وهذا معطى لا يمكن تغييره.. والجواب الخاطئ على هذا السؤال قد يعنى رصاصة فى الرأس. هذا السؤال يميز بين الناس بشكل أكثر حدة من الإثنية. قد يكون الشخص نصف فرنسى أو نصف عربى أو مواطن فى بلدين، ولكن من الصعب أن يكون الإنسان نصف كاثوليكى أو نصف مسلم». يصعب أن يجد المرء تشديداً على الهوية كتفسير للصراعات والمواقف كما فى هذه الفقرة.

ولكن أليس هذا كلاماً فارغاً؟ فبموجب تقسيم هانتنجتون حتى لو أصبح الفرنسى مسلماً فإنه يبقى ضمن الحضارة المسيحية الغربية، وحتى لو تحول مسلم إلى مسيحى فى فلسطين أو غيرها فإنه يبقى جزءاً من الحضارة الإسلامية. ومادامت المسألة طوائف وهويات وغيرهما، فليست هنالك حدود للتمييزات بين انتماء حقيقى أو غير حقيقى وطارئ.. ومحاولة هانتنجتون التخفيفية للتمييز بين الإثنى والحضارى ووقعهما من ناحية «الرصاصة فى الرأس» هى محاولة بائسة. فبالإمكان دائماً الادعاء أن هذا المسيحى ليس «مسيحياً حقيقياً»، وأن هذا المسلم «ليس مسلماً فعلاً».. واختيار هانتنجتون مركب حضارى واحد هو الانتماء الطائفى فى سياق حضارى معين، والتشديد عليه (يطلق عليه هانتنجتون خطأ عبارة الانتماء الدينى) هو انتقائية أيديولوجية تتم برأينا لغرض فى نفس يعقوب.

ويكمن تناقض مطلب الديمقراطية فى السياق الحضارى المختلف برأى هانتنجتون فى أن بعض الدول العربية قد وصلت إلى درجة من التطور الاقتصادى - الاجتماعى تحتم تغيير النظام السلطوى القائم، وأدى هذا إلى فتح النظام السياسى العربى على احتمالات متعددة. وقد استغل هذا الانفتاح من قبل حركات إسلامية معادية للديمقراطية. وبنظر هانتنجتون الديمقراطية الغربية عندما تطالب بالديمقراطية فى مثل هذه الحالة إنما تقوم بسذاجة بتعزيز ودعم القوى المعادية للغرب نفسه.

والغريب الذى يكاد يكون مسلياً فى هذا الأمر أن نظريات هانتنجتون نشأت فى السياق التاريخى السياسى نفسه الذى أنشأ المحافظين الجدد. ولا يكاد ينتقد أى منهما الآخر، هذا مع أن أفكاره تتناقض مع محاولة المحافظين الجدد تصدير الديمقراطية إلى سياقات حضارية مناقضة لها بمصطلحات هذا المفكر اليمينى، بل هو يحرض ضد اللعب المغامر بفكرة هذا التصدير صراحة. ولكن هذا التصدير هو بالضبط ما يدعو إليه المحافظون الجدد وقامت به الإدارة الأمريكية فى عهدهم. فما هو التفسير لهذه المفارقة العجيبة لتزامن أفكار تبدو متناقضة ولكنها منسجمة فى الأجواء المحافظة فى المؤسسة ذاتها؟ التفسير أن الدعوة لتصدير الديمقراطية والدعوة لأخذ صراع الحضارات بجدية وجهان للعملة الأيديولوجية نفسها للإمبراطورية الأمريكية وفى خدمة السياسة الحربية نفسها المؤدية إلى الهيمنة. لا صراع الحضارات هو مقولة علمية، ولا إمكانية تصدير الديمقراطية على بارجة هو مقولة علمية أيضاً. ومرحى للتناقض بين المواقف والتنظيرات مادامت فى خدمة نفس المصالح.

يعتقد هانتنجتون أن العلاقة بين الإسلام والغرب هى عبارة عن صدام حضارات من قبل الطرفين. ويقتبس برنارد لويس الذى سبقه إلى استخدام العنصرية فى وصف العلاقة بين الإسلام والغرب. «نحن نواجه مزاجاً وحركة تتجاوز بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التى تتبعها. أمامنا لا أقل من صدام بين حضارات. قد يكون غير عقلانى، ولكنه تاريخى بالتأكيد. إنه خصم قديم لتراثنا اليهودى - المسيحى، وحاضرنا العلمانى، وضد توسع كليهما على المستوى العالمى».

ويرى هانتنجتون فى الواقع أن مفاهيم مثل: الفردية، الليبرالية، الدستورية، حقوق الإنسان، المساواة، الحرية، السوق الحر، حكم القانون... هذه كلها مفاهيم غربية لا تجد لها صدى أو قيماً شبيهة فى الحضارات الأخرى. لا يوجد فقط للحضارة الغربية وغيرها من الحضارات جوهر، بل أيضاً لهذه المفاهيم جوهر غربى. وهذا يعنى أن التفاوت بين الحضارات غير ناجم عن تفاوت بالدرجة فى توزيع قيم ومفاهيم كونية، بحيث نقول إن مجتمعاً ما أرقى أو أكثر تطوراً، أو أقل أو أكثر احتراماً للحرية. لأن الحضارات بمفهومها عند أمثال هانتنجتون لا تتفاوت كمياً على الإحداثيات نفسها. وتمايزها هو تعبير عن اختلاف جوهرى، وإحداثيتها مختلفة وهى قائمة فى رسم بيانى آخر تماماً. فالقيم والمفاهيم ترتبط وتفهم أيضاً فى سياق حضارى، بمعنى أن القيم والمعايير والمفاهيم منبثقة من حضارات وليس العكس.

ولكى يثبت وجهة نظره فإن لدى هذا الباحث الاستعداد أن يستعرض بالاسم مواقف وخطابات تعبوية ألقتها شخصيات سياسية ودينية عربية بمن فيهم الرئيس صدام حسين والملك حسين بن طلال والخمينى والداعية السعودى الشيخ سفر الحوالى إبان وعشية حرب الكويت المسماة حرب الخليج الثانية، ومحاولتهم تصوير حرب أمريكا على العراق إثر غزو الكويت كأنها حرب ضد المسلمين، أو حرب الغرب ضد الإسلام.

من الواضح الجلى أن هذا الاستخدام لخطابات تعبوية أيديولوجية سياسية ودينية لإثبات فرضية لا يثبت شيئاً حول طبيعة الصراع كصراع بين حضارات. ولكى توضح الفكرة وتظهر سخافتها ما علينا إلا أن نتخيل كيف كان باحث غربى سيحكم على باحث عربى يجلب خطابات بوش واستثمارها للدين كدليل على أن حربه فى الواقع هى حرب مسيحية موجهة ضد الإسلام، وأن هذه هى طبيعة وجوهر هذه الحرب. ولكن هذا بالضبط ما يؤكده أصوليون مسلمون، مع الفرق أن هذا ما يجعل هذا النوع من صراع الحضارات يعتبر تحريضاً تعبوياً ضد الغرب وليس نظرية علمية، كما اعتبر تفسير الإعلام العربى لتعبير «حملة صليبية» فى خطابات بوش. أما تحريض هانتنجتون التعبوى على مستوى الهوية واقتباساته لجمل من خطابات كأنها أداة فيعتبر نظرية علمية.

ولكن لسوء حظ النظرية أن هانتنجتون يؤيد ليس فقط مقولة صراع الحضارات الأصولية، بل أيضاً قراءة شعوب المنطقة العربية للحرب ضد العراق مثلاً كازدواجية معايير أمريكية، وبخاصة إزاء تصرف الغرب فى البوسنة وفلسطين. والجديد أنه يؤيد هذه الازدواجية، ويعتبر بها وتعتبر اختلاف المعايير المستخدمة وازدواجيتها بين العدو والحليف والصديق طبيعية. وللدقة لا يبرر هانتنجتون ازدواجية المعايير بموقف عنصرى مثلاً، بل يضفى عليها موضوعية علمية فى فهم العالم. إنه يؤكد فقط أنها فى صلب صراع الحضارات إذ يستخدم الناس معياراً لأقربائهم وآخر لخصومهم من أبناء الحضارة نفسها ومعياراً آخر لخصومهم فى الحضارة الأخرى. والحقيقة هى أن طبيعة ازدواجية المعايير عنده تكاد تكون هى التبرير لنموذج صراع الحضارات، أو الهويات فى نظرة متفحصة أكثر. لكى تبرر السياسة ازدواجية معاييرها يجب إما أن تقر بعنصريتها، كما يفعل هانتنجتون عملياً معتبراً الأمر طبيعياً، أو يقر الباحث الموضوعى بأن المصالح هو المعيار الوحيد، وأن هذه المعيار الوحيد هو الذى يدفع إلى تناقض مواقف بحسب المصلحة فتبدو ازدواجية معايير، أو تفترض أن المرجعية التاريخية والسياق التاريخى هو صراع حضارات لا مكان فيه لمعيار واحد.

يبدو هذا تصويراً موضوعياً للواقع. على الأقل نظرياً، ولكن عندما يتكلم أو يكتب «ابن حضارة غربية» مثله مثل برنارد لويس داعياً للدفاع عن حق هذه الحضارة ضد التهديد الإسلامى أو ضد «نزعة العالم الإسلامى الانتقامية من نمط الحياة الغربى»، فهو فى واقع الحال كمن يعتبر صدام وصراعه الحضارات حالة من الدفاع المشروع عن الذات. والدفاع عن الذات تبرير يصح فى حالة المعتدى عليه بدرجة أكبر مما فى حالة المعتدى. وإذا كان يعتبر ازدواجية المعايير فى صلب هذ االصراع وكآلية دفاع لحضارة ضد حضارة معادية، فهو فى الواقع يؤيد ازدواجية المعايير، ففى ظل سريان نموذج صراع الحضارات لا معنى لمعايير ولا لقيم كونية. المعايير والقيم تصلح فى إطار حضارة معينة وفى سياقها. على كل حال هو من الصراحة بحيث يفضح استخدام «الغرب» فى صراعه مع الإسلام مقولات مثل «المجتمع العصرى» أو «العالم الحر» لوصف نشاطه ولإضفاء الشرعية على عمليات أو خطوات تقوم بها الولايات المتحدة وأوروبا. فهو يعتبر صندوق النقد وغيره من المؤسسات الاقتصادية العالمية «أدوات تفرض مصالح الغرب الاقتصادية على الأمم الأخرى».

ولكن ما المهم هنا؟ المهم أنه لا يقوم بمهمة فضح علمية لمقولات أيديولوجية وأدوات سيطرة يقدمها الغرب كأنها مصطلحات كونية، بل عملية تباهٍ أو تفاخر، بمعنى أنه لا يرى حتى حاجة إلى الغطاء الأيديولوجى. وهذا مفهوم جديد لـ «الموضوعية العلمية» كنفى للحاجة إلى الغطاء الأيديولوجى. وهذه تعبيرات عن ثقة بالنفس. الثقة الإمبريالية بالنفس بعد انهيار الاتحاد السوفيتى تسمح بنشوء تيارات من داخلها تعترف صراحة بأن ما قدم حتى الآن كتعابير كونية هو فى الواقع غطاء أيديولوجى. ويقوم هانتنجتون بإزالة هذا الغطاء ليس فى خدمة «العلم» كما يدعى، بل لأن الإمبريالية فى مرحلة الثقة بالذات لم تعد بحاجة إلى أقنعة، وتصوير الصراع كصراع سافر بين حضارات هو مبرر نزع الأقنعة حتى عن ازدواجية المعايير. والسؤال الذى يفطن إليه هانتنجتون هو: ألا يصح أن تكون عبارة «صراع الحضارات» كمقولة نظرية، هى أيضاً غطاء مثل «صندوق النقد الدولى» و«المجتمع الدولى» و«المجتمع الحر» وغيره لتغطية صراعات نفوذ وقوة واقتصاد. بحيث لا تصح هذا كغطاء إلا إذا اقتنع الناس بها؟ والمقصود هو: ألا يصح أن يقال إن نظرية صراع الحضارات ذاتها هى غطاء أيديولوجى جديد لصراع مصالح وسيطرة واقتصاد وهيمنة عسكرية؟ ■

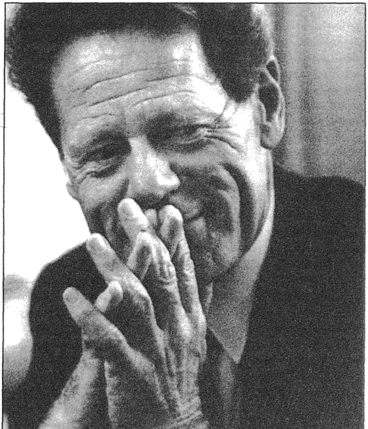
الاقتراب من الإسلام

هانز كونج

■■ «لقد أضحت الخيارات واضحة: تناحر بين الأديان، وصراع بين الحضارات، وحرب بين الأمم ؛ أو: حوار بين الثقافات وسلام بين الأديان سعياً نحو سلام بين الشعوب. ألا يجدر بنا أن نواجه الخطر المدمر المحدق بالإنسانية بأن نهدم جدران التعصب حجراً بعد حجر وأن نبنى جسور الحوار بما فى ذلك جسوراً مع الإسلام بدلاً من أن نقيم مزيداً من عوائق الكراهية والانتقام والعداء؟»

كان الجدل العالمى الذى ثار بشأن نشر الرسوم الدانمركية المسيئة للرسول ٢٠٠٦ دافعاً إضافياً للفت النظر لأهمية التعريف بالإسلام ورسم خرائطه العقيدية والحضارية.

إن اقتراباً موضوعياً، هادئاً، ومتفهماً للإسلام هو اقتراب ممكن، بعيداً عن الاستقطاب والتهييج العاطفى لتبنى مواقف حادة. ولا شك أن المناقشة المتوازنة للأسباب العميقة للتوتر، واقتراح حلول بناءة لحل المشكلات المعقدة والعميقة قد بات ضرورياً.



ضد أطروحة صراع الحضارات:

«لا سلام عالمياً دون سلام بين الأديان».. هذه هى النتيجة التى توصلت إليها بعد سلسلة من الحوارات والمحاضرات حول المسيحية والإسلام نظمتها فى جامعة توبنجن ١٩٨٢. ولقد كتبت كتباً بالتعريف بالأديان لأننى وجدتها مهمة جليلة وملحة، فكتبت كتاب «اليهودية» ١٩٩١، وكتاب «المسيحية» ١٩٩٤، وهذا العام نشرت كتاب «الإسلام» باللغة الإنجليزية فى سفر ضخم. وقد بدأت الكتاب الأخير بخطة أجدها المفتاح لتغيير الوعى العالمى واللازم لبقاء الإنسانية، وهى أنه: لا سلام بين الشعوب بدون سلام بين الأديان ولا سلام بين الأديان بدون حوار بين الأديان، ولا حوار بين الأديان بدون بحث فى أصول وقواعد الأديان.

فى عام ١٩٩٣ رسم المنظر السياسى الأمريكى صامويل هنتنجتون ملامح خطة مضادة، فى البداية بشكل حذر فى صيغة سؤال، لكن لاحقاً كإطار مرجعى للسياسة الخارجية الأمريكية، ألا وهى «الصراع بين الحضارات».

فهل المعركة بين الحضارات هى سيناريو عالمى لا يمكن تجنبه؟ لقد كان هنتنجتون، وهو مستشار للبنتاجون، غير منشغل بديناميات كل ثقافة وأوجه التنوع بداخلها، بل ربما لا يعرف إلا القليل عن الارتباطات التاريخية بين الأديان والثقافات، والتحولات السلسة، والتلاقح الخصب والتعايش السلمى. كل ما توقعه هو صراع خطير بين «الغرب» و«الإسلام». وفى هذا الاتجاه سعى لتوفير حجج أيديولوجية - بعد نهاية الحرب الباردة- تفيد أن صورة الإسلام كعدو ستحل محل الشيوعية. ولا أدرى هل كان ذلك عن قصد أم لا لكن هذه الأطروحة مهدت لحروب تالية.

فى ١٩٩٢، وقبل نشر مقال هنتنجتون فى مجلة الشئون الدولية بعام، مباشرة بعد نهاية حرب العراق الأولى فى عهد بوش الأب، ولعقد كامل قبل الحرب الثانية، بدأ فريق من المثقفين والسياسيين من المحافظين الجدد فى تهيئة الأجواء أيديولوجياً لحرب وقائية لتأمين احتياطات نفطية للولايات المتحدة، وبسط الهيمنة الأمريكية وتأمين إسرائيل. وبعد انتخاب بوش الابن ١٩٩٩ بدأ رسم الخطط المفصلة للحرب، وتم توظيف المذبحة غير المسبوقة فى أحداث الحادى عشر من سبتمبر واتخاذها كمبرر لشن حرب على أفغانستان والتهديد بأخرى على العراق التى لم يكن لها ناقة ولا جمل فى الأحداث. ولم تتمكن الولايات المتحدة من الحصول على دعم مجلس الأمن. فما كان منها إلا أن شنت حرباً عسكرية كثيفة على العراق بعد حملة دعاية كاذبة عن أسباب الحرب وبمخالفة قواعد القانون الدولى وضد احتجاج الرأى العام العالمى، وبدعم لا مبرر له من بريطانيا بقيادة تونى بلير، وهى حرب بدا مع الأيام وكأنها كسبتها.

لكن بدلاً من الانتصار على الإرهاب فى أفغانستان والشرق الأوسط والعالم فقد انتشر الإرهاب أكثر، فى أحداث بالى والدار البيضاء والرياض وإسطنبول. وفى مدريد ١١ مارس ٢٠٠٤ تمت أول مذبحة بعد الحادى عشر من سبتمبر على الأرض الأوروبية. وقد أدى هذا الهجوم إلى سقوط الحكومة الأسبانية -التى شاركت فى تحالف حرب العراق- فى الانتخابات التى جرت بعد الهجوم بيومين. وحتى بالنسبة للدول الأوروبية التى لم تشارك فى الحرب على العراق فإن هجوم مدريد كان مؤشراً على تصاعد درامى للوضع الدولى المتأزم.

إن حربين شنتا على دولتين

من كتاب:
Islam
Past, Present, & Future
(الإسلام.. الماضى، الحاضر، والمستقبل)
Hans Kung
Translated by: John Bowden
The American University in Cairo Press

ترجمة: هبة رءوف

حين أكتب وأنا غير مسلم عن الإسلام فإن كتابتى هى تعبير عن الأمل فى ألا يضعف الإسلام أو يختفى، بل أن يتجدد من داخله. إننى أكتب وأنا مستوعب جدليات الاستنارة لأراهن على تجديد الإسلام

إسلاميتين، بالإضافة لسياسات الكيل بمكيالين التى مارستها الدول الغربية لصالح إسرائيل وسياساتها الاستيطانية عبر عقود والتى تتحدى كل قرارات الأمم المتحدة قد أشعلت الغضب فى العالم الإسلامى بأسره وزادت من مرارته المكتومة وزادت مواقفه تشدداً. وبدا وكأن الصراع بين الحضارات نبوءة تحققت وأثبتت صدقها.

إننا بلا شك فى مرحلة صعبة لكنها مفصلية فى إعادة صياغة العلاقات الدولية بين الغرب والإسلام وبين الأديان الإبراهيمية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام.

لقد أضحت الخيارات واضحة: تناحر بين الأديان، وصراع بين الحضارات، وحرب بين الأمم (أو: حوار بين الثقافات وسلام بين الأديان سعياً نحو سلام بين الشعوب.

ألا يجدر بنا أن نواجه الخطر المدمر المحدق بالإنسانية بأن نهدم جدران التعصب حجراً بعد حجر وأن نبنى جسور الحوار بما فى ذلك جسوراً مع الإسلام بدلاً من أن نقيم مزيداً من عوائق الكراهية والانتقام والعداء؟

إننى لا أطالب بأن يتم تجاهل الخلافات، ولا بأن يتم المزج بين الأديان وإسقاط الفوارق، كل ما أطالب به هو اقتراب شريف وصادق للتفهم، يتأسس على وعى ذاتى متبادل بأهمية الموضوعية والإنصاف، وعلى معرفة عميقة بما يفرق... وما يجمع.

هل جهد مثل هذا هو مسعى ساذج،كما يظن الساخرون منه فى مجالات السياسة والأعمال والعلم و الصحافة؟

أرى على العكس أنه الخيار الوحيد الواقعى، فإذا كنا لا نريد التخلى عن الأمل فى نظام عالمى أفضل.إننى مقتنع بأن الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها ستجد لنفسها طريقاً للخروج من حالة الهوس بالحرب كما نجحت فى الخروج من الحقبة المكارثية فى الخمسينيات، وأنها ستعيد اكتشاف رسالتها وتقاليدها الديمقراطية.

إن ثبوت فشل استراتيجية الخيارات المنفردة للقطب الدولى الأوحد وإخفاق سياسات الحرب الشرسة فى أفغانستان والعراق والانفراد الأمريكى بإدارة الصراع فى فلسطين وفقدان المصداقية الأخلاقية على المستوى الدولى قد جعلت حوار الثقافات وحوار الأديان أكثر إلحاحاً. فالمعركة ضد شبكة من الرجال المضللين باسم الدين الذين يمارسون العنف هى أمر لا مفر منه، لكنها لن تكون معركة على الأرض وفى البحر والجو كما تتصور إدارة بوش، لكن معركة يمكن إدارتها عن طريق الشرطة والمخابرات والوسائل الدبلوماسية والمالية المناسبة لكل موقف. لكن فى الوقت ذاته لا بد من دعم التغيير السياسى والتجديد الدينى فى العالم الإسلامى لكى نزيل جذور التطرف والارهاب فى دوائر المحرومين والمحبطين من الشعوب. فقط إذا استطعنا عزل العناصر المتطرفة التى تستخدم العنف وتمكين المعتدلين، وفقط لو تمكنا من بناء جسور الثقة وبلوغ الاستقرار فى العلاقات بين العالم الغربى والإسلام، وفقط إذا ثبتت إمكانية أن يتعايش الإسرائيليون والعرب والغربيون- من اليهود والمسيحيين والمسلمين- وألا يعاملوا بعضهم البعض كأعداء بل كشركاء، فقط حينئذ نستطيع التغلب على المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لواقعنا ونستطيع الإسهام فى خلق نظام دولى أكثر سلاماً.

لهذا فإن الكثير من الناس اليوم يرون أنه لا ينبغى الوقوع مرة أخرى فى المواجهة السياسية والعسكرية، والاعتداء والانتقام الذى مارسته الأمم الغربية وتجاوزته لحسن الحظ بعد الحرب العالمية الثانية. بل هناك حاجة بالأحرى لإدراك حاسم للمنظومة المعرفية «ما بعد- الحداثية» للتفاهم والتعاون والاندماج السياسى والاقتصادى والثقافى، التى صيغت فى ميثاق الأمم المتحدة، وصيغتها الأكثر تقدماً هى الاتحاد الأوروبى.

على المدى البعيد يمكن بناء السلام والحرية فقط على أساس من النظم الدستورية، التسامح، حقوق الإنسان، والمعايير الأخلاقية. وأنا على وعى بالتحديات السياسية التى تواجه هذا التصور، وأشرت لها فى نص نشرته ضمن نصوص لمجموعة من علماء سياسة وفلاسفة أخلاق نشرت فى كتاب عام ٢٠٠٣ تحت عنوان «سياسات السلام: نحو رؤية أخلاقية للعلاقات الدولية».

إن الحضارات والثقافات بكلياتها لا يمكن دعوتها للحوار، حيث إنها وحدات مجردة، بل تتم دعوة الأفراد والجماعات من خلفيات ثقافية متنوعة، والدعوة يجب أن توجه خاصة للنخب السياسية والاقتصادية والثقافية صاحبة المسئولية.

وبالنسبة للإسلام ينبغى أن يسأل المسيحيون وغيرهم أنفسهم: لماذا يعتنق ٢,١ بليون نسمة فى العالم هذا الدين، ويتنامى هذا العدد، من الساحل الأطلسى لأفريقيا لجزر إندونيسيا، ومن وسط آسيا لموزمبيق؟ لماذا الإسلام هو ثانى دين فى العالم بعد المسيحية ويأمل البعض أحياناً أن يتفوق عليها فى يوم من الأيام؟ ولماذا هو فى تقدير من يؤمنون به ليس فقط أحدث وأكمل دين بل أيضاً أقدم العقائد وأكثرها إنسانية؟

لماذا كان الأقدر أكثر من أى دين آخر على أن يجتذب ويجمع أتباعا من شتى الخلفيات كالبدو البربر وعرب الشرق الأوسط وأفارقة من شرق وغرب القارة السوداء وترك وبوشناق وألبان وفرس وباكستان وهنود و/ن أهل الصين والمالايو- فى الحقيقة أناس من كل بقاع الأرض رغم اختلافاتهم الثقافية؟ وأين تكمن جاذبية الإسلام وقوته؟ ما مصادره وقيمه ورموزه؟ ما رسالته وجوهره ومكوناته؟ ما الذى يشكل حياة المسلم وسياسات الإسلام وثقافته وفنونه؟ما نقاط الضعف وما الإخفاقات؟ وما هى الأسئلة النقدية التى يجب على المسلمين أن يسألوها؟

دفع الناس للتحاور:

فى ضوء الأدبيات الثرية عن الإسلام، قد يسأل ما الذى يمكن أن يقدمه كتاب جديد عن الإسلام؟خاصة لو كان المرء مطلعاً على الأدبيات المتاحة ودرسها بعمق. ما الإشكال الذى يستهوى الباحث ليكتب ما قد يراه إضافة للمعرفة المتاحة، وما الصيغة التى ستميز عملا كهذا، وما منطق مثل هذا السعى؟

هناك بالفعل كتب كثيرة بلغات شتى تدرس التاريخ الثقافى والسياسى للإسلام، بيد أننى لا أكتب عن الإسلام كمؤرخ للثقافة أو مؤرخ للدين أو مؤرخ سياسى وقانونى، بل أكتب كى أعين الناس على الإنخراط فى حوار فى هذه المرحلة التاريخية الفارقة نحو علاقة جديدة بين الحضارات والأديان والشعوب وكى يتمكنوا من تقدير الموقف العالمى بشكل أفضل ويستجيبوا له بشكل أفضل، سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين، علمانيين أم سياسيين أم قيادات من رجال الأعمال أم صناع ثقافة أم مدرسين أم رجال دين أم طلاب. هذا لا يمكن أن يتم بدون فهم لأديان العالم. ولا شك أن المرء لا يمكن أن يتجنب التعرض للتاريخ والسياسة والثقافة والقانون، لكن هدفى الأساسى وهو الحوار بين الحضارات- والذى أهتم به من منذ عقود -سيظل هو المهيمن على النص.

هذه هى الإضافة التى أرى أننى كباحث متخصص فى الدراسات الدينية والفلسفة وناشط فى الحوار الدينى يجب أن أقوم بها.

إننى آمل أن يتم تقديم توصيف منصف للإسلام فى التاريخ والحاضر، فالأربعة عشر قرناً التى مرت على بدء الدعوة الإسلامية لا يمكن أن تقدم بشكل مبسط مثلما لا يمكن تبسيط القرون الثلاثين التى مرت على اليهودية أو القرون العشرين التى مرت على المسيحية، وبالتالى فإن الكتابة عن الإسلام لا يمكن أن تكون وصفاً تاريخياً علمياً محايداً عن تاريخ الإسلام أو محض وصف منظم لتعاليمه الدينية، بل المطلوب هو استعراض واستخلاص مركب -متتابع وموضوعى- لأبعاده التاريخية وأنساقه النظامية.

من المهم الانفتاح على تاريخ عظيم للإسلام هو تاريخ درامى وثرى ومتنوع، لكننى أواظب على قطع تسلسل الحكى بإثارة أسئلة نقدية عن نتائج التغيرات التى مرت بالإسلام فى أنساقه المعرفية المتنوعة، فلا بد من التساؤل وإثارة الجدل خاصة حين نتوقف أمام لحظات عجزت فيها التقاليد التاريخية عن التواصل مع الآخر.ولا شك أن مثل هذا النوع من الكتابة لا بد أن يكون بحثاً بينياً يجمع مفاهيم ومصطلحات من عدة فروع علمية، وأن يتجنب الشتات المنهجى ويقدم رؤية متعددة الأبعاد للإسلام.

وأنا على وعى بالمخاطرة التى يتضمنها هذا الاقتراب فى كل صفحة أكتبها، فمثل هذه الكتابة أشبه بالسير على حبل مشدود، إذ يجب السير بحذر لتحقيق التوازن بين الفهم العميق -الذى لا يجب أن يبرر الوضع القائم الساكن بحال، وبين النقد الذى لا يجب أن يفترض أم من يوجه النقد يحتكر الحقيقة والحق.

وحين أكتب وأنا غير مسلم عن الإسلام فإن كتابتى هى تعبير عن الأمل فى ألا يضعف الإسلام أو يختفى، بل أن يتجدد من داخله،وبدون أى إحساس بالتفوق من أى نوع- مسيحى أو علمانى. إننى أكتب وأنا مستوعب جدليات الإستنارة لأراهن على تجديد الإسلام.

ولا شك أنه فى ظل الانفجار المعلوماتى الذى نعيشه ويزيد المتاح لنا من معرفة بثلاثين فى المائة كل عام حسب بعض التقديرات فإن كتاباتى لا تقدم فقط محض معلومات محايدة بل أيضا ترشد القارىء، فهى تقدم الإسلام بطرق متنوعة لكن كمنظومة متكاملة وليس كأنساق جزئية.وقد تمكنت من أن أطور هذا الاقتراب لدراسة الإسلام لأننى أمتلك أدوات مفاهيمية وأنساق معرفية أستخدمها فى التحليل وهى نتاج خيرات بحثية سبقت وطورتها فى كتابى «هل الله موجود: إشكالية الألوهية فى العالم الحديث» ١٩٧٨، وتأملات منهجية ضمنتها فى كتابين تاليين هما «علم اللاهوت فى الألفية الثالثة» ١٩٨٧، و«المسئولية العالمية» ١٩٩١.

ولا شك أن التحليل بتوظيف الأطر المعرفية والأنساق المرجعية والمفاهيمية قد أثبت جدواه فى تسعينيات القرن العشرين.ولذا فبدلاً من الاستعراض التاريخى المتسلسل للحوادث والمذاهب والشخصيات، فإنه يمكن إعادة بناء الأربعة عشر قرناً الماضية فى صورة أنساق معرفية متتالية مر بها الإسلام،مع تزويد القارئ بإحالات

للأدبيات المرجعية الأساسية في كل قضية.

إن فهم التاريخ من خلال الأطر المرجعية لكل مرحلة وللرموز التي صاغت تلك المرحلة، وكيف تولدت من بعضها البعض، ولماذا ضعف بعضها وتراجعت سطوته، لكنه ظل جزءاً من التقاليد واستمر في البقاء إلى عصرنا هذا، وكيف برزت أنساق معرفية متنوعة، وكيف يمكن أن تصعد أنساق معرفية وصيغ للنهضة في المستقبل.

إن هناك اعتقاداً شائعاً بين المسلمين بدرجة أكبرمنه لدى اليهود والمسيحيين ألا وهو أن دينهم بقي كما هو عبر القرون وأنه لم يمر بتحولات كبرى فارقة بل نمى بتدرج. وأنا أعتقد أن هذا غير صحيح، لكنني على أية حال لست منشغلاً بالماضي بل بالحاضر، وكيف انتهى الإسلام إلى ما هو عليه اليوم، وما يمكن أن يصير إليه في المستقبل.

إن سمة هذه الطريقة في الاقتراب من التاريخ لا تتبع التعاقب التاريخي بل تقسم التاريخ إلى حقب ذات خصائص وإلى إشكاليات يتم استعراضها في كل مرحلة وعبر المراحل، وهذا يفرض تحديات على جبهتين: الأولى هي جبهة القارئ المسلم الذي قد يتساءل كيف لمتخصص مسيحي في علوم اللاهوت أن يجرؤ على أن ينخرط في الجدل الداخلي للمسلمين وهمومهم، والثانية هي جبهة القارىء المسيحي والذي سيتساءل كيف جرؤ باحث مسيحي على التمادي في الاتفاق مع المسلمين في قضايا كثيرة إلى هذه الدرجة.

إنني لم أشارك قط في حوار بين الأديان يتعمد تجاهل الأسئلة الحرجة والقضايا الخلافية، واجتهدت في تجنب الحوارات المريحة التي تثير حفيظة رجال الكنيسة أحياناً رغم أن معلوماتهم عن الأديان الأخرى سطحية في أحسن الأحوال، لكنني في الوقت ذاته عارضت دوماً افتعال النزاع والخصومة من جانب رجال الدين المتحجرين على الجانبين والذين لا يفكرون خارج رؤيتهم المغلقة ويزعمون احتكار العقيدة الصحيحة.

وأنا آمل أن تتجه تلك المنهاجية في تقديم إجابات لأسئلة عديدة وتحفيز المسلمين والمسيحيين (بل واليهود) على فهم بعضهم البعض. ولا شك أنه كان لزاماً على أن أتجاوز التفاصيل والطرائف بل وبعض الأحداث المهمة لكي أحتفظ بتماسك الأطروحة وتقديم مسار التاريخ في تطوره، وكان أيضاً من الضروري أن أركز على القلب الإسلامي أي العالم العربي وتركيا وإيران، وأعطى الأطراف وهي أفريقيا جنوب الصحراء والهند وجنوب شرق آسيا أولوية أدنى، كما أوليت نظرى للإسلام السياسي والبعد القومي بأكثر مما تناولت الإسلام الشعبي. فقد حرصت على ألا أغرق في التفاصيل وأن أضع يدى على ملامح كل مرحلة وسمات كل نسق معرفي وثوابته ومتغيراته والتحديات التي واجهها على خلفية التطور التاريخي. وكانت الأنساق التي طورتها هي: نسق المجتمع الإسلامي الأول، ثم نسق الإمبراطورية الإسلامية، ثم نسق الإسلام كدين عالمي، ثم نسق العلماء والمتصوفة، ثم نسق التحديث في العالم الإسلامي. وذلك بسبيل فهم النسق المعاصر. ولأن كل نسق لا يزول مع نشؤ نسق جديد فإن التداخل بين الأنساق ليس فقط حتمياً بل هو أيضاً ثرى.

مسيرة فكرية ممتدة:

إن رؤيتي للإسلام هي حصيلة بحث ونتيجة خبرات متراكمة، بدأت مع أول زيارة لي لدولة إسلامية في شمال أفريقيا ١٩٥٥ وأنا ما زلت طالب للدكتوراه، والتي شهدت أول تجربة حوار لي بين المذاهب المسيحية ودار حول الخلاف الرئيسي بين الكنيسة الكاثوليكية وتيار الإصلاح الديني، وكان موضوع رسالتي للدكتوراه هو نظرية التعليل عند كارل بارث ١٩٥٧، وقد سجلت إنطباعاتي في مذكراتي «نضالي من أجل الحرية» ٢٠٠٣. وقد اكتشفت وأنا أكتب مذكراتي كيف تطورت منهاجيتي في دراسة الأديان والحوار الديني.

وكانت سلسلة المحاضرات التي ألقيتها في جامعة توبنجن ١٩٨٢ مع زميلي جوزيف فان إس حول الحوار بين الأديان والحوار مع الإسلام أساسية في تطوير بحوثي الأكاديمية عن الإسلام.. وكانت اللقاءات والندوات والجولات التي قمت بها أساسية في تعميق معرفتي بالعالم الإسلامي خاصة حين شاركت في الفيلم التسجيلي التليفزيوني «اقتفاء الأثر» الذي أنتجته قناة ألمانية وأخرى سويسرية في التسعينيات في سبعة أجزاء وصدر عنه كتاب بالإنجليزية ٢٠٠٢ تحت عنوان «اقتفاء الطريق» مصحوباً باسطوانة ممغنطة لمن يهتم بالبحث أو التدريس.

إن كتابي الأخير عن الإسلام بعد أن كتبت عن اليهودية والمسيحية يكمل ثلاثية هي مشروعي في دراسة «الحالة الدينية في العصر الحديث»، والذي ركزت فيه على الأديان التي كانت بداياتها في الشرق الأدنى. وقد طورت الإطار النظري إبان مشروعي البحثي عن حوار الأديان والسلام العالمي الذي امتد ثماني سنوات من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٧ بدعم من يوبيل شركتي بوش ودايملر بنز.

لقد وفيت بوعدي وأنجزت مشروعي، وهو تحليل القوة الروحية للأديان التي سادت في الألفيتين الماضيتين وما زالت تؤثر في واقعنا الراهن وأن أقدم تشخيص منهاجي منظم لتلك الأديان الثلاثة من أجل استشراف الخيارات المتاحة للمستقبل وتطوير حلول واقعية ودينية للواقع، وفي دراستي للإسلام قرنت بين اقترابي الوصف والنقد، كما نقدت في مرآة التحليل المسيحية واليهودية نقداً ذاتياً لكي أنظم الكتب الثلاثة في خيط واحد وتتكامل. وما زلت أعتبر كتابي «المسئولية العالمية» هو التتويج لمشروعي عن السلام العالمي وحوار الأديان، والذي مهد لكتبي اللاحقة وهي: «منظومة أخلاق عالمية للسياسة الدولية والاقتصاد» ١٩٩٧، و«العلم والأخلاق العالمية» ١٩٩٨، و«سياسات السلام: الأسس الأخلاقية للعلاقات الدولية» ٢٠٠٣. وقادت تلك الجهود العالمية لتأسيس مؤسسة الأخلاق العالمية التي حظيت بدعم وفقى من آل جروين والتي نظمت العديد من الأنشطة مع المؤسسات التعليمية ومنظمة الأمم المتحدة. www.weltethos.org

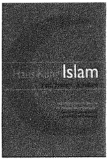
وقد شغلتني قضايا مسيحية فكتبت عن الإصلاح الديني والتجديد المطلوب اليوم في المسيحية وحاولت أن أستشرف مستقبلها في «تجديد المسيحية اليوم: إحياء الأمل» ١٩٩٠، كما كتبت مقالات ودراسات عن أحوال المسيحية في أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وفي كتابي «موجز تاريخ الكنيسة الكاثوليكية» ٢٠٠٢ فتحت أعين الكثيرين على المشاكل الضخمة المتراكمة التي تواجه الكنيسة ولأزمتها التي يعاني منها بنيانها، وأكملت النقد في سيرتي الذاتية الصادرة بعده بعام، والتي أتمنى إن توفر لي الوقت الكافي أن أكتب الجزء الثاني منها والذي يتناول الآفاق التي شهدها النصف الثاني من حياتي الذي تعرضت فيه لعواصف شديدة لكن وصلت لبر الأمان ولشطآن ومساحات مفتوحة وجديدة.

إسهام المسلمين في حوار الحضارات:

لو انتقلنا من الحديث حول معرفة الأديان وتأكيد حتمية الحوار لواقع المشهد الدولي للعلاقة بين الحضارات نجد من المفارقات أنه في عام ١٩٨٨ وقبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وفي مواجهة اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً بعزمها وتصميمها على تشجيع وتيسير الحوار بين الحضارات مواجهة أطروحات الصراع بين الحضارات وصوتها المرتفع والإعلان عن عام ٢٠٠١ عاماً لحوار الحضارات، ومن اللافت أن دعم هذا التوجه جاء من جانب الدول الإسلامية، فقد كان اقتراح تخصيص عام ٢٠٠١ لحوار الحضارات بمبادرة من السيد محمد خاتمي في خطابه ٢١ سبتمبر ١٩٩٨ أمام الجمعية العامة، وكان مما قاله: «إننا نأمل أنه من خلال هذا الحوار يمكن دعم العدالة والحرية في العالم. ورغم إن الإنجاز الأكبر لهذا القرن هو إدراك أهمية الحوار ومغزاه ورفض منطق القوة، وتنامي جهود التفاهم السياسي والاقتصادي والثقافي، وتمتين أسس العدل والحرية وحقوق الإنسان. إن دعم قيم التمدن، سواء على المستوى القومي أو الدولي، مشروط بحوار بين المجتمعات والحضارات يتم فيه تمثيل الرؤى المختلفة والتوجهات المتباينة. وإذا وجهت الإنسانية جهودها مع مطلع الألفية لدعم الحوار بشكل مؤسسي والسعي لإحلال الحوار والتفاهم محل العداء والمواجهة فإن هذا سيترك شرعية بالغة القيمة ويحقق مصلحة الأجيال القادمة».

وقد أكدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ والحرب على أفغانستان والوضع المتردي والمتأزم في الشرق الأوسط الحاجة لمثل هذه المبادرة.

وقد اجتمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة مرة أخرى يومي ٨ و٩ نوفمبر ٢٠٠١ لمناقشة موضوع الحوار بين الحضارات واستعراض أنشطة العام ومناقشة تقرير لجنة الخبراء والأجندة العامة وبرئاسة نائب السكرتير العام للأمم المتحدة السابق



إن هناك اعتقادا شائعا بين المسلمين بدرجة أكبرمنه لدى اليهود والمسيحيين ألا وهو أن دينهم بقى كما هو عبر القرون وأنه لم يمر بتحولات كبرى فارقة بل نما بتدرج

جياندومنيكو بيكو، وقدم الخبراء الذين مثل الطرف الإسلامى منهم د. أحمد كمال أبو المجد من مصر والأمير الحسن بن طلال من الأردن، ود. جواد ظريف من إيران، قدموا تقريرهم الذى صدر بالإنجليزية تحت عنوان «عبور الفجوة: الحوار بين الحضارات»، والذى سعى لوضع إطار مرجعى جديد للأمم المتحدة يقوم على أساس الأخلاق الإنسانية. ولكن هذا التقرير وشعار عام ٢٠٠١ عن حوار الحضارات لم يستلفتا نظر الإدارة السياسية ولا الإعلام ولا الرأى العام فى الولايات المتحدة الأمريكية (بعكس الحفاوة به فى ألمانيا)، رغم أن الفكرة كانت جديرة بأن تحظى باهتمام واسع وتهيمن على الساحة السياسية بقوة.

وقد جرت مداولات لمدة يومين فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، وتحدث الكثير من ممثلى الدول -خاصة الإسلامية- ضد صراع الحضارات ودفاعاً عن حوار الحضارات. وفى يوم ٩ نوفمبر صدر قرار عن الجمعية العامة بمبادرة من المجموعة الإسلامية بأجندة دولية للحوار بين الحضارات. وأشارت للقرار السابق وأكدت على أهمية حوار الحضارات، وأوضحت البنود التسع للقرار بالتفصيل أهداف ومبادئ هذا الحوار، ونصت المادة الأولى على أن حوار الحضارات عملية متواصلة تستند إلى « رغبة جماعية فى التعلم والإنفتاح وتجاوز التعصب والبحث فى تطوير دلالات مشتركة للمفاهيم وللقيم الأساسية». فى حين أكدت المادة الثانية على «تطوير فهم أفضل بالإستناد للأخلاق المشتركة والقيم العالمية الإنسانية».

لقد كانت الغاية هى تأكيد معنى العيش المشترك وبناء مجتمع دولى يتوافق على أخلاق وقيم مدنية ويلتزم بتحقيق الرفاهة للجميع، وهو ما لا يعنى الغزو الثقافى كما يخشى بعض المسلمين، وليست الغاية أن تذوب الأديان فى دين واحد، بل تقبل التنوع وتعدد طرائق العيش والعقائد، وأن الصراع يمكن تجنبه لو تم احترام حريات الأطراف الأخرى، والاحتفاء بالتنوع الخلاق فى ظل إنسانية مشتركة وثقة متبادلة.وكان هناك رغبة فى تجنب الحلقة المفرغة من العنف والإنتقام التى بدت إرهاصاتها بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر.

فكيف يمكن تلمس تلك المعانى فى التراث الإسلامى؟

الأسس الإسلامية لأخلاق عالمية:

كان «أصغر على إنجنير» وهو مفكر مسلم هندى قد قام بمقارنة الإعلان الصادر عن «برلمان أديان العالم» الصادر ١٩٩٣ الذى يدعو لأخلاق عالمى بالقيم التى يحملها النص القرآنى، وكان استنتاجه أنه لا يتعارض مع روح الإسلام.

وسوف أستلهم من نصه وأبين كيف أن الأسس الالتزام الأخلاقى التى تتبناها الأديان كافة لها قاعدة فى القرآن، وأضاهيها ببيان «نداء لمؤسساتنا الرائدة» الذى صدر عن «برلمان أديان العالم» ١٩٩٩ وتقرير ٢٠٠١ عن عبور الفجوة الذى أشرنا له، وتلك الأسس هى:

● ثقافة اللاعنف واحترام الحياة:

تمتلئ الأحاديث النبوية بتقديس الحياة وعدم قتل المدنيين أو الأبرياء، وفى القرآن أنه «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً».

● ثقافة التضامن والنظام الاقتصادى العادل:

ففى القرآن نجد أن العدل والقسط تقترن بالإسلام، فالله يأمر بالعدل ويوصى المؤمنين بالقسط، وينص على «اعدلوا هو أقرب للتقوى». فنظام اجتماعى غير عادل لا يمكن أن يكون نظاماً إسلامياً.وفى القرآن أن الفائض من المال يجب أن يتوجه لتنمية المجتمع ومكافحة الفقر، والزكاة أحد فرائض الإسلام.

● ثقافة التسامح والحق:

فالصدق والحق من قيم الإسلام، والله هو الحق، والحق قرين العدل، والنظام الاجتماعى العادل يتأسس على نظام للحقوق.

● ثقافة المساواة فى الحقوق والإنسانية المشتركة بين الرجال والنساء:

إن القرآن يعطى الرجال والنساء مكانة متساوية فى المجال الدينى والعام. ولكل منهم نصيب مما اكتسبوا.

أسس التفاهم بين الإسلام والغرب:

لقد أدى الجدل بشأن حوار الحضارات وقرارات الأمم المتحدة فى هذا الصدد إلى أن أضحت فكرة الأخلاق العالمية موضع إهتمام مركزى فى الأمم المتحدة، وذلك بدعم رئيسى من كوفى عنان السكرتير العام للأمم المتحدة الذى حصل على جائزة نوبل للسلام، والذى أكد إلتزامه بهذه الفكرة فى محاضرة ألقاها تحت عنوان «هل ما زالت هناك قيم عالمية؟» فى سلسلة محاضرات الأخلاق العالمية التى ألقاها فى جامعة توبنجن ١٢ ديسمبر ٢٠٠٣ بدعوة من مؤسسة الأخلاق العالمية، والتى قال فيها: «إن القيم العالمية مطلوبة بإلحاح فى عصر العولمة أكثر من ذى قبل، فكل مجتمع يحتاج نسق ناظم من القيم، حتى يعرف الناس ما الذى يمكن أن يتوقعوه من بعضهم البعض والأسس التى يتعايشون بناء عليها ليديروا اختلافاتهم بدون اللجوء للعنف.وهذا ينطبق على المجتمعات الوطنية كما على المجتمع الدولى».

إن هذا ينطبق على العلاقة بين الإسلام والغرب.فرغم كل الإدانة لهجمات الحادى عشر من سبتمبر فإننا لا يجب أن نقبل إثارة صراع بين الحضارات يسقط فيه الملايين من البشر من لحم ودم ضحايا معركة متوهمة بين «غرب» و«إسلام»، وكأن قيم الإسلام والغرب لا يمكن أن تتوافق. بلى، يمكن أن تتوافق كما يمكن أن يؤكد لنا ملايين المسلمين هنا فى ألمانيا وفى الغرب.ورغم ذلك يجد اليوم الكثير من هؤلاء المسلمين أنفسهم عرضة للشكوك والتحرشات التى يصل بعضها لحد الاضطهاد. مثلما يجد بعض الغربيين فى بعض البقاع فى العالم الإسلامى أنفسهم معرضين للعداء وأعمال عنف.

لقد أكد كوفى عنان الأمين العام السابق للأمم المتحدة على أن صلاحية القيم العالمية لا تعتمد على درجة تطبيقها والالتزام بها. فالمنظومات الأخلاقية هى دائماً ذات مشروعية قيمية وذات طبيعة مثالية نصبو لها ونتطلع لتحققها. وهكذا فإن التقصير يجب أن يدان لا أن يؤدى عدم الالتزام بها لإسقاطها بالكلية.

وفى حالة المسيحية كما فى حالة الإسلام لا يجب إدانة منظومة أخلاقية لأن هناك بعض التجاوزات من بعض الأتباع، فأنا كمسيحى لا أتمنى أن يتم الحكم على ديانتى تأسيساً على خبرة الحروب الصليبية أو خروج المسلمين من الأندلس، وبالمثل لا أقبل أن يتم إدانة منظومة أخلاق يعتنقها غيرى لأن بعض الإرهابيين قاموا ببعض الأفعال باسم الدين.

وبالمثل فكما أنه لا ينبغى إدانة ديانة لأن بعض أتباعها قام بأفعال معينة، كذلك لا يمكن التخلى عن القيم العالمية لأن البعض لا يؤمنون بالفكرة.بل أزعم أن وجود تلك الآراء يجب أن يدفعنا للتمسك بتلك القيم المشتركة.

ولم يكن كوفى عنان غافلاً عن أن القيم ليست معانى مجردة بل تتجلى فى سياقات وثقافات، لذا فإن وجود قيم عالمية لا ينفى الإختلاف فى تأويله أو تقديم وجهات نظر متنوعة، ولا تلغى التنازع أو أن توظف المجتمعات الإنسانية بطرق مختلفة لحل مشكلاتها.

وقد أكد عنان هذا المعنى بتوظيف المبادئ الأربعة التى ينطلق منها بيان برلمان الأديان العالمية فى رؤيته للأخلاق العالمية، وكيف يمكن أن ننطلق منها لكن نختلف فى تأويلها:

● قد نكون جميعاً مؤمنين باللاعنف وإحترام الحياة، لكن قد نختلف فى قضية التعامل مع من أزهقوا الأرواح: هل نزهق أرواحهم هم أيضاً، أو شرعية أن يستخدم الأبرياء العنف إذا تم استخدامه ضدهم.

● قد نكون جميعاً ملتزمين بالتضامن مع البشر الآخرين من أجل نظام اقتصادى أكثر عدالة، لكننا نختلف بشأن السياسات الأمثل التى يمكن أن تحقق ذلك.

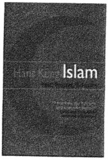
● قد نكون جميعاً مؤمنين بأهمية التسامح وإحقاق الحق، لكن قد نختلف بالطريقة الأمثل فى التعامل مع أنظمة لا تمارس التسامح ولا تحترم إحقاق الحق.

● قد نكون جميعاً ملتزمين بصدق بفكرة الحقوق المتساوية والمساواة بين النساء والرجال، لكن قد نختلف حول التمييز بين أدوار الرجل وأدوار المرأة وما إذا كان من حق بعض المجتمعات فرض قداسة العلاقة الزوجية.

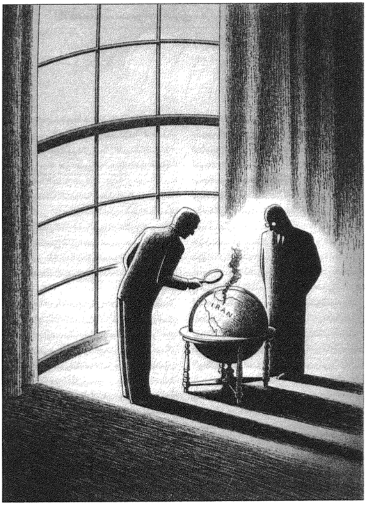
لقد كانت هذه رؤية كوفى عنان الذى قاد سفينة الأمم المتحدة فى لحظة عاصفة قد تكون الأكثر صعوبة فى المنظمة.

إن مبدأ الإنسانية من مبادئ الأخلاق العالمية الأساسية، وحفظ كرامة الانسان من أسس القرآن، فالله استخلف الإنسان فى الأرض، وفى الحديث «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

و كل ما سلف من المعلوم المستقر من تراث الأديان الإبراهيمية. لذا فإن صراعات الماضى.. يمكن تجاوزها. ■



تمتلىء الأحـاديث النبوية بتقديس الحياة وعدم قتل المدنيين أو الأبـريـاء، وفـى الـقـرآن أنـه «مـن قـتـل نـفـسـا بغيـر نفـس أو فسـاد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعـاً»



رائحة الحريق القادم!

مـازن النجـار

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تُذكى وإن الحرب أولها كلام

من قصيدة للشاعر الأموي نصر بن يسار
والي خراسان (٤٦ - ١٣١ هـ / ٦٦٦ - ٧٤٨ م)

Israel & Syria: The Military Balance and Prospects of War
(إسرائيل وسوريا: التوازن العسكرى واحتمالات الحرب)
Anthony H. Cordesman
Washington, DC: Center for Strategic & International Studies, August 2007, 210 pp.

■■ الدكتور أنتونى كوردزمان، مؤلف أمريكى ذائع الصيت وخبير استراتيجى بـ«مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية» بواشنطن (CSIS). يرى كوردزمان أن التوازن العسكرى الراهن بين العرب وإسرائيل يتكون من توازنين منفصلين إلى حد كبير. أول هذين التوازنين هو بين إسرائيل والفلسطينيين. فمنذ اندلاع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠، أصبحت هناك حرب لا متناظرة، كسبتها إسرائيل إلى حد كبير. وقد سممت الأوضاع السياسية المترتبة عليها أجواء الإقليم، وأفضت إلى صراع أهلى بين الفلسطينيين قد يستغرق حله سنوات. وبالنسبة للحاضر على الأقل، يميل هذا التوازن بوضوح لصالح إسرائيل إلى حد أن الحرب الإسرائيلية الفلسطينية الدائرة منذ عام ٢٠٠٠ هى سياسية فى معظمها أكثر منها عسكرية.

التوازن الثانى تشكله إسرائيل وسورية. فقد أدى سلام إسرائيل مع مصر والأردن إلى عزل سورية عسكرياً وسياسياً عن جيران إسرائيل العرب الرئيسيين. وقد فاقمت سورية الأمور أكثر بإضعاف صلاتها بالقوى العربية الأخرى كالمملكة العربية السعودية، وبمغامراتها فى لبنان، وبعلاقاتها الخاصة مع إيران، وبسوء إدارة التنمية الاقتصادية، وبؤس تخطيط القوات والتطوير العسكرى. يمكن لسورية استخدام الحركات «الإرهابية والمتطرفة» كوكلاء، ولكن ذلك الاستخدام لا يتجاوز كونه جهداً تخريبياً يستفز إسرائيل أكثر مما هو ضغط عليها أو تهديد لها. ويمكنها أيضاً الانضمام لإيران فى دعم حركة كحزب الله؛ لكن مثل هذه الصراعات - كحرب إسرائيل مع حزب الله فى صيف ٢٠٠٦- لا تمنح سورية نفوذاً أو فعالية عسكرية أو فوائد عسكرية واضحة.

لكن فيما يخص التوازن العسكرى التقليدى، يعتقد المؤلف أن سورية أصبحت معزولة وضعيفة جداً مقارنة بإسرائيل، وأى حرب بينهما ستكون دموية ومكلفة لكلا الطرفين، لكن المؤكد تقريباً أن تكسبها إسرائيل بسرعة وحسم. بيد أنه ليس لإسرائيل ما تكسبه من احتلال المزيد من الأراضى السورية، وتكبد ضحايا وتضحيات غير ضرورية، أو تقويض سورية على نحو قد يجىء بحركة إسلامية سنية أكثر نزوعاً نحو المخاطر. مثل هذه الحرب، لا رابح فيها؛ بل ستكون مواجهة يخسر فيها الطرفان بالنسبة لهدف أو خيار السلام، بصرف النظر عن نتيجة أو حصيلة المعارك والطرف الأكثر معاناة فى سياق العملية.

فى العام الذى أعقب الأداء العسكرى «غير المرضى» للجيش الإسرائيلى فى لبنان خلال صيف ٢٠٠٦، أصبحت العلاقات الإسرائيلية السورية متوترة بشكل مطرد، حيث شرعت كل من الدولتين إلى تعزيز قدراتها العسكرية فى إقليم الجولان. وفى أعقاب اندلاع الحرب بين إسرائيل وحزب الله، صدر عن دمشق تهديدات ببدء عمل عسكرى فى مرتفعات الجولان. وقد أثنى الرئيس السورى بشار الأسد على حزب الله نظراً لقيامه بـ «هزيمة الجيش الإسرائيلى»، وأعلن أن «الجولان سوف تتحرر بأيد سورية».

وفى ذات الوقت تقريباً، ظهرت سلسلة من التقارير فى الصحافة السورية تلمح إلى «مقاومة» فى هضبة الجولان. وفى أغسطس/آب ٢٠٠٦، أى عقب الحرب مباشرة، أعرب مسؤولون إسرائيليون عن قلقهم من أن نجاح حزب الله فى تشغيل واستخدام الأسلحة التى أمدته بها سورية قد يسرِّع بحصول سورية على مزيد من منظومات الأسلحة التى استخدمها الحزب فى مواجهة إسرائيل، وقد يشجع سورية على الدخول فى تجربة مواجهة عسكرية.

وأكد هؤلاء المسئولون الإسرائيليون أن السوريين قد بذلوا جهوداً لعدة سنوات للتغلب على التفوق العسكرى الإسرائيلى - فى الدروع وسلاح الجو- بالاستثمار فى الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات (ATGM)، وصواريخ أرض-أرض البالستية التى بوسعها تهديد عمق إسرائيل، وصواريخ أرض-جو التى قد تمثل تحدياً للقوات الجوية الإسرائيلية. وكان رئيس أركان الجيش الإسرائيلى

أحد السيناريوهات القائمة، والذي يقلق مخططي الدفاع الإسرائيليين، هو أن تقوم سورية بشن حرب عصابات من عشرات القرى السورية المأهولة بمحاذاة الحدود، والتي أنشأتها في العقد الماضي

السابق، الجنرال دان حالوتس، قد أعلن أنه لا يعتقد بأن سورية ترغب أو حتى تفكر ببدء حرب ضد إسرائيل؛ لكن وكالة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (أمان) في أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٦ رفعت -على أي حال- مستوى مخاطر الحرب من «احتمال منخفض» إلى «محتمل».

قام الجانبان مؤخراً بتبديل أوضاعهما العسكرية في الجولان. ففي الجزء الأخير من عام ٢٠٠٦، وعلى طول الحدود السورية-الإسرائيلية، تم تعزيز القوات السورية بألوية كوماندوز (صاعقة) ووحدات مدفعية. على الجانب الآخر، عزز الجيش الإسرائيلي وجوده على طول الحدود أيضاً إلى أعلى مستوى له في عشر سنوات؛ مضاعفاً عدد أفراده على جبل الشيخ، وهو أعلى قمة جبلية تسيطر عليها إسرائيل، وموقع استراتيجي لمراقبة سورية. كذلك، شرع سلاح الهندسة في الجيش الإسرائيلي بتعزيز «العائق العريض» الممتد بطول الحدود لاعتراض أي غزو سوري محتمل، بينما تم تكليف وحدات مشاة ومدرعات بمناورات عسكرية واسعة النطاق في الجولان.

وبنهاية عام ٢٠٠٦، أوردت دورية «جينز الأسبوعية العسكرية Jane's Defence Weekly» أن أوساط استخبارات وزارة الدفاع الإسرائيلية قد انقسمت لدى تفسيرها وتقييمها لتحركات سورية المستجدة باتجاه تدعيم قواتها في مرتفعات الجولان. فقد أوردت «جينز» في يناير/كانون الثاني الماضي أن الجنرال يوسي بيداتس، رئيس قسم الأبحاث في الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (أمان)، أبلغ مجلس الوزراء الإسرائيلي في ١٠ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦ أن «الرئيس السوري بشار الأسد يجهز جيشه لمواجهة مع إسرائيل... وقد أمر الأسد بدفع المزيد من الأسلحة المضادة للدبابات إلى الحدود، وكذلك تسريع إنتاج صواريخ أرض-أرض بعيدة المدى».

لكن بعد بيان الجنرال بوقت قصير، أصدر متحدث باسم الجيش الإسرائيلي توضيحاً (لبيان الجنرال) يقول «إن جيش الدفاع الإسرائيلي لا معلومات لديه بأن سورية تنوي شن حرب في الصيف (القادم)... وأن الجنرال بيداتس كان يتحدث حول اتجاهات أو وتائر، لا عن عملية عسكرية محددة». وبناء على تقرير صحافي في نفس الدورية، في حين يُقدر فرع الاستخبارات العسكرية بالجيش الإسرائيلي «أمان» أن الدعوات السورية لاستئناف المفاوضات مع إسرائيل تعكس إرادة حقيقية، فإن مئير دغان، رئيس الاستخبارات الإسرائيلية الخارجية (موساد)، قد ادعى أن لا نية حقيقية لدى بشار الأسد للتفاوض مع إسرائيل. وقد أكد الجنرال أموس يادلين رئيس «أمان» أن «ثمة احتمال منخفض بالنسبة لقيام سورية بشن حرب ضد إسرائيل»؛ لكنه أوضح أيضاً أن «هناك إمكانية أن تبدأ سورية عمليات عسكرية في مرتفعات الجولان من أجل وضع قضية الجولان على الأجندة العالمية».

لكن أحد السيناريوهات القائمة، والذي يقلق مخططي الدفاع الإسرائيليين، هو أن تقوم سورية بشن حرب عصابات من عشرات القرى السورية المأهولة بمحاذاة الحدود، والتي أنشأتها سورية في العقد الماضي. لكن «جينز» تقول أنه لدى مناقشة إمكانية اندلاع الصراع مع إسرائيل، بدأ الرسميون السوريون في استخدام تعبير «مقاومة»، وهو عادة ما يصف تكتيكات حزب الله في حرب العصابات ضد إسرائيل. بيد أن مصدراً رفيعاً بالجيش الإسرائيلي أشار إلى أن السوريين يستطيعون استعارة بعض التكتيكات التي استخدمها حزب الله، لكنهم يتيحون أيضاً أهدافاً انتقامية لسلاح الجو الإسرائيلي أكثر كثيراً مما أتاحه حزب الله. بل كان رئيس الوزراء الإسرائيلي أكثر تصريحاً عندما أكد أن قدرات إسرائيل الاستراتيجية «ستوضع موضع الفعل عندما نزيل قيوداً قيدنا بها أنفسنا في حرب لبنان».

وخلال ربيع ٢٠٠٧، قدمت سلسلة تقارير صحافية في الإعلام الإسرائيلي وصفاً تفصيلياً لما قيل أنه تعاظم لحشد عسكري سوري قرب مرتفعات الجولان. ففي ٢٢ فبراير/شباط الماضي، ذكرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية أن القوات المسلحة السورية تم تعزيزها على نحو غير مسبوق في الذاكرة الراهنة، وبمساعدة تمويل سخي من إيران. وقالت هآرتس أن التوجه الأساسي لوتيرة التسلح السوري يتكون من مقذوفات صاروخية وصواريخ بعيدة المدى، كما تعززت البحرية السورية بصواريخ إيرانية موجهة ضد السفن من طراز «نور» (C-٨٠٣)، وهي مماثلة للصاروخ الذي استخدمه حزب الله في ضرب بارجة البحرية الإسرائيلية «هانيت» في حرب الصيف الماضي، فقتل أربعة جنود من طاقمها. وقالت الصحيفة أيضاً أن سورية على وشك إتمام صفقة مع روسيا تحصل بموجبها على آلاف الصواريخ المضادة للدبابات من طراز تلك التي استخدمها حزب الله بنجاح في حرب الصيف الماضي ضد الدروع الإسرائيلية. وأخيراً، ذكر تقرير هآرتس أيضاً أن سورية قد اختبرت إطلاق صواريخ بالستية، مثل سكود «دي» أرض-أرض، والذي يمكنه وضع معظم إسرائيل في مرمى النيران السورية.

مع بداية صيف ٢٠٠٧، كانت العلاقات بين سورية وإسرائيل متوترة وغامضة. فقد أشار عدد من التقارير الصحافية إلى أن جهوداً سرية لاستمزاج المواقف تجاه السلام بين القدس ودمشق أوشكت أن تؤتي أكلها، لكن تقارير أخرى قدرت أن السوريين كانوا في الحقيقة يُعدون للحرب في هذا الصيف. وأوردت الأنباء في ٦ يونيو/حزيران الماضي أن رئيس الوزراء الإسرائيلي، إيهود أولمرت، قد عيَّن لجنة وزارية لمراجعة الخطط التشغيلية (العملياتية) للجيش الإسرائيلي ضد سورية، بينما ورد في الوقت ذاته أنه كان يستكشف خيارات تجديد عملية التفاوض مع الرئيس السوري بشار الأسد.

وذُكر أن أولمرت قد أرسل رسائل سرية إلى الرئيس الأسد في مايو/أيار الماضي مفادها أن إسرائيل تريد التخلي عن الجولان مقابل صفقة سلام. وفي اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلي أوائل يونيو/حزيران الماضي، أعلن رئيس الوزراء إيهود أولمرت قبوله رسمياً لمبادرة السلام التي تبنتها القمة العربية في عام ٢٠٠٢، كأساس لمفاوضات مع العالم العربي كله، طبقاً لمبدأ «الأرض مقابل السلام». لكن الرد السوري جاء غاضباً على لسان متحدث باسم الحكومة السورية: «إن مرتفعات الجولان سورية، ولا حاجة لعروض سريّة».

كثف الجيشان السوري والإسرائيلي تدريباتهما في إقليم الجولان في شهري مايو/أيار ويونيو/حزيران ٢٠٠٧. وفي أواخر مايو/أيار، أجرى السوريون تدريبات عسكرية واسعة النطاق، شملت كافة فروع القوات المسلحة. ركز السوريون - بشكل أساسي- على اعتراض المدرعات الإسرائيلية باستخدام منظومات روسية متطورة من صواريخ مضادة للدروع. وقد فصَّل تقرير لدورية «جينز» الأسبوعية العسكرية مخاوف ضباط الاستخبارات الإسرائيليين فيما يتعلق بالاستعدادات العسكرية السورية. فالجنرال أموس يادلين، رئيس الاستخبارات العسكرية (أمان)، قد أبلغ الكنيست الإسرائيلي في ٥ يونيو/حزيران الماضي أن «سورية تظهر استعدادها للحرب كما لم تفعل من قبل». وقبل ذلك بيوم واحد، قال الجنرال يوسي بيداتس، رئيس قسم الأبحاث في (أمان): «رغم أن الحشود السورية دفاعية بطبيعتها، لا زال ممكناً تحويلها إلى وضع هجومي خلال ساعات؛ فسورية تقوم باستعدادات ملموسة لتعزيز كثافة قدراتها النارية، وتجهز مواقعها الحدودية، وتجري تدريبات على مستوى كتيبة». وأضاف الجنرال بيداتس أن سورية تسرع مشترياتها ومقتنياتها العسكرية، في إشارة إلى تعاقد سورية مؤخراً مع روسيا للحصول على منظومات صواريخ دفاع جوي من طرازي Pantsyr-S1E ETor-M1، وصواريخ موجهة مضادة للدبابات.

وكان مصدر رفيع بوزارة الدفاع قد أبلغ دورية «جينز» الأسبوعية أن «السوريين قد تعلموا بدقة الدروس من حرب إسرائيل في لبنان بصيف ٢٠٠٦، خاصة فعالية وتأثير الأسلحة المتقدمة المضادة للدبابات والدروع الإسرائيلية، ومحدودية فعل سلاح الجو الإسرائيلي في كبت وتقييد إطلاق الصواريخ على المؤخرة السكانية الإسرائيلية الأكثر هشاشة في إسرائيل. وطبقاً لما أوردته «جينز»، كانت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية أكثر ما تكون قلقاً إزاء سيناريو تحاول فيه سورية السيطرة على الجزء الشمالي من مرتفعات الجولان، في محاولة لتحسين موقعها الاستراتيجي في المفاوضات المستقبلية حول هذه الأرض. يقول نفس المصدر أنه «نظراً للمستوى الراهن لانتشار قواتهم، يستطيع السوريون إنزال قوات كوماندوز مظليين والسيطرة على عدة تلال في الجولان خلال ساعات... ثم يستطيعون في الحال الدعوة إلى وقف لإطلاق النار واستدراج إسرائيل إلى طاولة المفاوضات بينما تكون لهم اليد العليا. بيد أن الجيش الإسرائيلي مصمم على منع أي إنجاز حاسم لسورية».

بدورها، استمرت القوات الإسرائيلية في مسلسل مناورات عسكرية واسعة النطاق في

رائحة الحريق القادم!

إقليم الجولان. وبحلول منتصف يونيو/ حزيران، أجرى الجيش الإسرائيلى مناورة عسكرية رئيسة بمشاركة مختلف القوات، وشملت المناورة محاكاة لهجوم حيث قصفت قاذفات إف-١٥ مواقع سورية افتراضية بقرب الحدود. وأشارت صحيفة «معاريف» الإسرائيلية إلى أن جيش الدفاع الاسرائيلى سيواصل سلسلة من التدريب المكثف فى مرتفعات الجولان طوال شهر يوليو/تموز ٢٠٠٧؛ وأشارت معاريف أيضا إلى القدس بعثت برسالة الى دمشق، موضحة أن إسرائيل لا نية لديها لمهاجمة سورية، وأن التدريبات كانت دفاعية محضة. ثم أعلن وزير الدفاع الاسرائيلى بيريتس أن «جيش الدفاع الإسرائيلى يجب أن يكون مستعداً لكل سيناريو. نحن نجرى تدريبات، ونأمل ألا يسىء السوريون تفسير ذلك». المحلل الاستراتيجى بجامعة تل أبيب، إيال زيسر، لاحظ أيضا أن احتمال حدوث سوء تفاهم عسكرى قد يتصاعد سريعاً وينزلق إلى مواجهة خطرة. يقول زيسر: «لم يحدث أبداً مثل هذه الحالة من التأهب العسكرى منذ الثمانينيات؛ وهناك خطر كبير من وقوع سلسلة ردود فعل إذا أخطأ أحد الجانبين فى قراءة نية الآخر».

احتمالات الحرب

ليس ثمة من شك فى أن كلتا الدولتين تأخذ تهديد الحرب بجدية كافية للإعداد والتدريب استعداداً للصراع، قد يفضى إلى استخدام الصواريخ الباليستية وأسلحة الدمار الشامل، فضلاً عن القوات التقليدية. فالدولتان -لأكثر من ثلاثة عقود- قد أعدتا العدة ليوم يشتعل فيه أوار الحرب بمرتفعات الجولان. وإضافة إلى ما أحدثه الطرفان من إصلاحات فى جيشيهما فى السنوات الأخيرة، وتعاظم الحشد العسكرى بالعام الأخير: فقد أعد كل من الجيشين بالفعل خططاً حربية تشغيلية (عملياتية).

يعتقد كوردزمان أن فرصة سورية ضئيلة أو معدومة للفوز فى حرب تقليدية مع إسرائيل، أو فى استخدام ما لديها من أسلحة كيميائية (وربما بيولوجية) -على نحو ذى جدوى- ضد إسرائيل المسلحة نووياً. وتظهر مقابلات مع كبار المسئولين والضباط، الإسرائيليين والسوريين، أن الحكومتين وقادة جيشيهما يفهمون هذه الحقائق. وهناك مخاوف راهنة أكثر إلحاحاً لدى الجانبين فيما يخص احتمالات الصراعات غير التقليدية أو «غير المتناظرة». وتشعر إسرائيل بالقلق، خاصة إزاء إمكانية قيام حرب أخرى بالوكالة، إذ يتعين عليها أن تتعامل مع حزب الله (المدعوم من إيران وسورية) فى لبنان. ومع ذلك، هناك شائعات متواصلة فى كل من الدولتين حول خطط للهجوم عليها من قبل الدولة الأخرى. وهناك أيضا إمكانية لأن يقع أحد الجانبين فى مقامرة أو خطأ حسابى جسيم (سورية؟!) أو يرد على هجمات غير متناظرة أو تقليدية أو بالوكالة بحرب تقليدية (إسرائيل؟!). وكان بعض المحللين فى كلا البلدين قد رفع إمكانية وقوع حرب محتملة حول الجولان عام ٢٠٠٧، ويشعر بعض المحللين الإسرائيليين أن سورية تعظم قدراتها العسكرية لمثل هذا الهجوم و/أو تزيد قواتها الصاروخية بدعم إيرانى. لا يزال السلام خياراً أفضل وأوجه من الحرب لكلا الجانبين؛ وقد دعا الرئيس الأسد لمفاوضات جديدة حول الجولان. لكن وللأسف، ليس هذا بإقليم «المساومين العقلانيين»، كما يرى كوردزمان: إنه الشرق الأوسط.

إن أى تقييم أو تقدير للتوازن العسكرى بين إسرائيل وسورية شأنه فى ذلك كشأن أى تقييم للمناحى الأخرى فى التوازن العسكرى العربى-الإسرائيلى، ينبغى أن يتناول حقيقة أن قياس القوة بالكم قد يختلف جداً عن قياس القوة بالكيف (نوعيا). فأعداد القوى العاملة قد لا تعنى الكثير كمقياس للقدرة أو المزايا العسكرية. فالقيادة، والقدرة على إجراء عمليات مشتركة ومجتمعة، والقدرة على استدامة دورات مركبة من الحرب المناورة والسريعة، كلها دالة على نوعية وجودة القوى العاملة. كذلك، يعتبر تحديث العتاد العسكرى، والتكامل بين منظومات السلاح، والقيادة والسيطرة، والاستهداف والقدرات الاستخبارية، كلها بشكل عام أكثر أهمية من عدد الدبابات، والطائرات المقاتلة، والبوارج الحربية. أما العتاد العسكرى الحديث فهو الآن أكثر تطوراً وقدرة من العتاد المنتج منذ عقد أو أكثر. ويصدق هذا بشكل خاص لدى إسناد العتاد الحديث بأسلحة حديثة دقيقة التوجيه، وبالإحداثيات الهندسية للمناطق، وبالاستخبارات، وبالمراقبة، وبنظم الاستطلاع. وفى حالات أخرى، فإن القدرة على تحديث وتعديل العتاد القديم هى أمر بنفس القدر من الأهمية، كما هو أمر الصيانة الكفء. فنفس النوع من العتاد قد يكون أكثر فعالية بكثير فى دولة أو وحدة مقاتلة بعينها، مقارنة بغيرها.

الخيارات السورية فى الجولان

تواجه سورية تحديات استراتيجية رئيسة وعديدة منها: التعامل مع إسرائيل، وإيجاد سبل للاستفادة من «دور المخرب» فى مجال الأمن الإقليمى، والحفاظ على الأمن الداخلى لنظام أخفق فى تحديث وتنمية البلاد. نظرياً، التحدى الاستراتيجى الأهم والأكبر بالنسبة لسورية هو تكوين قوات عسكرية حديثة وفعالة بما فيه الكفاية لتتمكن من تحرير الأراضى السورية فى مرتفعات الجولان، والقيام بعملية هجومية كبيرة ضد إسرائيل. فى الممارسة، لا حظ لسورية عملياً فى اكتساب مثل هذه القدرة بدون عمليات نقل جديدة وضخمة للسلاح والتكنولوجيا؛ لكن من المستبعد للغاية أن تسمح إسرائيل لهذه التحولات أن تتم فى عالم لم يعد ممكناً فيه لروسيا أن تتدخل ضدها أحادياً. ورغم شائعات الحرب التى تطلقها وسائل الإعلام ومراكز التفكير، لم تظهر سورية اهتماماً علنياً بأى مغامرات عسكرية فى المنطقة. فالرئيس السورى بشار الأسد قد سعى علانية لمبادرات سلام؛ بينما صرح نائب الرئيس السورى فاروق الشرع لإذاعة الجيش السورى فى ١٤ أغسطس/ آب ٢٠٠٧ أن «إسرائيل تعلم جيداً أننا لا نرغب فى الحرب، وستكون دمشق مستعدة دائماً للرد على أى هجوم إسرائيلى، لكن سورية لن تبدأ بالهجوم».

إن مرتفعات الجولان هى إحدى أهم المناطق الاستراتيجية فى الشرق الأوسط. ففيها نحو ٤٢ مستوطنة إسرائيلية وحوالى ٢٠ ألف مستوطن إسرائيلى، إضافة إلى بعض العرب الدروز. وتعتبر منطقة زراعية وسياحية هامة لإسرائيل، وتزود مساقط (مستجمعات) المياه بمرتفعات الجولان -بما فيها بحيرة طبريا- إسرائيل بنحو ٥٠ فى المائة من إمدادات المياه الطبيعية بها، فهى إذن مصدر مياه هام لإسرائيل، رغم أن قيام إسرائيل ببناء محطات تحلية يقلل اعتمادها على مثل هذه الإمدادات.

الجانب الرئيس لأهمية الجولان الاستراتيجية من وجهة نظر عسكرية يكمن فى جغرافيتها. فهى هضبة مساحتها حوالى ١١٥٠ كيلو متراً مربعاً، وتقع بين منطقة الجليل وسهل دمشق. وتمتد نحو ٦٧ كيلومتراً طولاً من شمالها إلى جنوبها، وأقصى اتساع لها عرضاً هو ٢٥ كيلومتراً من المنطقة العازلة بين سورية والأراضى الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلى فى الجولان إلى الجليل. قبل حرب عام ١٩٦٧، كانت الحدود السورية-الإسرائيلية تمتد بطول ٧٦ كيلومتراً بمحاذاة الجولان. يقول كوردزمان بعدم وجود تعريف دقيق لحدود الجولان. لكن مع ذلك، وعلى نحو فضفاض، يمثل نهر الأردن (وادى الشريعة) حدودها الغربية، ونهر اليرموك حدودها الجنوبية، ونهر سعر حدودها الشمالية. ويفصل الأخير هضبة الجولان البركانية عن تكوينات الحجر الجيرى لجبل الشيخ. الحدود الشرقية مع سهل حوران غير محددة، رغم اعتبار نهر علان ونهر رقاد أحياناً كحدود.

رغم أن ليس لسورية أن تأمل فى اختراق عميق للجولان، لكنها قد تشن مثل هذا الهجوم فى مسعى لخلق حقائق جديدة على الأرض، وكمحاولة لإعاقة الجيش الإسرائيلى بإقامة دفاعات ثابتة وتحصينات طوارئ. قد تخاطر سورية بالهجوم إذا رأت أن بمقدورها تحقيق المفاجأة الاستراتيجية، ومهاجمة القوات الإسرائيلية فى الجولان قبل أن تتمكن إسرائيل من تعبئة قواتها - كما سبق لها أن فعلت فى حرب أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣- والإمساك بمساحة كبيرة من الجولان لفترة طويلة؛ بما يكفى لقيام الرأى العام العالمى بإيقاف القتال، واستخدام مثل هذا «العلاج بالصدمة» لتحقيق أهدافه فى عملية السلام. وقد تشعر سورية بأنه حتى النجاح المحدود يمكن أن يغير نتائج مفاوضات السلام، ويتيح لها استجابة أفضل لضم إسرائيل رسمياً للجولان، أو تحاول استغلال الوجود المعطل أو المقوض للجيش

رائحة الحريق القادم!

الإسرائيلى فى الجولان دون وضع قيود تعويضية على سورية.

ربما تكون سورية قادرة على فعل أفضل فى بعض الطوارئ النظرية أو الافتراضية التى واجهت خلالها إسرائيل حرباً متعددة الجبهات مع مصر. بيد أن سورية قد فقدت أى فرصة لدعم رئيس ومباشر بالقوات البرية لأى قوة عربية أخرى فى أعقاب تفكك قوات العراق الجوية والبرية الثقيلة فى عام ٢٠٠٣.

لقد تم نشر جزء كبير من القوات المسلحة السورية إلى الأمام تجاه الجبهة، ويمكن تعبئتها بسرعة والهجوم عبر الجولان بما يعادل ست فرق مدرعة تقريباً. لكن سورية ستواجه مشكلة تشغيلية (عملياتية) حرجة فى جميع الطوارئ غير المتوقعة. فمن غير الواضح مدى المفاجأة التى يمكن لسورية إنجازها، حتى لو مارست خداعاً استراتيجياً واسعاً، وقامت بالهجوم خلال ممارسة تدريبات مفترضة. فقد قام الجيش الإسرائيلى بنشر نطاق واسع من كافة أجهزة استشعار الطقس، وتستطيع افتراضياً اكتشاف أى حركة عسكرية سورية رئيسة بما يتيح وقتاً كافياً للتعبئة والاستجابة؛ رغم قصور هذه المؤشرات عن ضمان صحة تقييم الجيش الإسرائيلى للتحركات السورية، أو ما إذا كان القادة السياسيون سيختارون الاستجابة. تشمل التغطية الإسرائيلية لسورية استطلاعاً برادار متقدم محمول جواً يمتد نطاق تغطيته إلى شمال دمشق من مواقع فى المجال الجوى الإسرائيلى، وتغطية من منظومة طائرات بدون طيار (UAVs) متقدمة تشمل استخبارات إليكترونية فضلاً عن منظومات تصوير، وتغطية استخبارية (تنصت) إليكترونية محمولة جواً قادرة على تحديد خصائص وموقع أى مرسل إليكترونى سورى (بما فيها أجهزة الرادار السورية)، وأجهزة الاستشعار الأرضى فى الجولان وعلى جبل الشيخ.

يفصل القوات الاسرائيلية عن القوات السورية منطقة محدودة القوات بعرض عشرة كيلومترات، لا يجوز فيها لكل جانب نشر أكثر من ستة آلاف جندى، و٧٥ دبابة، و٣٦ مدفع هاوتزر قصير المدى (يعادل ١٢٢ ملليمتراً). وثمة منطقة أخرى محدودة القوات بعرض عشرة كيلومترات، لا يجوز فيها لكل جانب نشر أكثر من ٤٥٠ دبابة، ١٦٢ قطعة مدفعية فى نطاق لا يتجاوز ٢٠ كيلومترا. وأخيراً، يحظر على كل جانب نشر صواريخ أرض-جو على مسافة تقل عن ٢٥ كيلومتراً من منطقة فض الاشتباك.

باختصار، سيكون «السباق إلى الجولان» استراتيجية سورية فى غاية الخطورة على الجيش السورى؛ حتى لو كان بمقدوره أن يحقق قدراً كبيراً من المفاجأة. لا تستطيع سورية أن تتجاهل حقيقة أن سلاح الجو الإسرائيلى يمكنه أن يتدخل فى المعركة بقدرات إصابة ممتازة الدقة وخوف قليل من صواريخ الدفاع الجوى السورى سطح-جو، وأن إسرائيل تحتكر الأسلحة النووية فى المنطقة. كذلك، لا يمكن لسورية أن تتجاهل مخاطر أن تصعد إسرائيل باستخدام تفوقها الجوى والصاروخى لضرب أهداف رئيسة، عسكرية واقتصادية. وحتى لو أمكن لسورية أن تسجل مكاسب مؤقتة على الأرض، فإن التكاليف الاستراتيجية قد تكون أعلى كثيراً من قيمة تلك المكاسب. سورية ببساطة معرضة جداً لأشكال أخرى من التصعيد والهجوم الإسرائيلى.

الخيارات الإسرائيلية إزاء سورية

كما هو الأمر بالنسبة لأى هجوم إسرائيلى فى الاتجاه الآخر، فإن الجيش الإسرائيلى حالياً يظهر اهتماماً بالاشتباكات بين قوات مدرعة حاشدة، والاحتفاظ بخيار التقدم أماماً إلى الأراضى السورية. لا تزال الحروب المدرعة التى تتيح المناورة والالتفاف والاختراق فى سورية خياراً قائماً، لكن العمل الدفاعى فى العمق يتيح استنزافاً أبلغ للقوات السورية مع إصابات إسرائيلية أقل. كذلك، يتيح العمل الدفاعى فى العمق أيضاً لإسرائيل أن تقرر ما إذا كانت ستقوم بهجوم مضاد، بدلاً من الاعتماد على مثل تلك الهجمات وأن تنوع تشكيلتها من الدروع والمدفعية والدعم الجوى المباشر، والضرب الجوى فى العمق السورى، فى حين يتم الدفاع عن الخط الأمامى. تعلمت القوات الجوية الإسرائيلية من أخطائها ونجاحاتها فى حربى ١٩٧٣ و١٩٨٢، ومن حرب الخليج. فقد حسنت باضطراد تنسيقها مع القوات البرية فى العمليات المشتركة.

بمقدورها أن تقوم بأداء أفضل بكثير لدى تنسيق المعركة الجوية البرية فى كل من العمليات التكتيكية، وعلى المستوى الاستراتيجى. فى إسرائيل، تفتقر نظم «القيادة والسيطرة والاتصالات والحوسبة والاستخبار» المعروفة بـIC4، ونظم إدارة المعركة إلى التكنولوجيا والتقنيات المتقدمة المستخدمة لدى القوات الأميركية؛ لكن هذه النظم مصممة لمنطقة ومهام فريدة وتتيح استخدام أصول (عتاد وأنظمة) تقنية عسكرية معينة بفعالية عالية. وقد جادل بعض المخططين العسكريين الإسرائيليين منذ عام ١٩٧٣ -وعززت خبرة اسرائيل فى ١٩٨٢ وجهة نظرهم- بأن على إسرائيل إما أن تقوم بأعمال قتالية عسكرية محدودة جداً، وإما أعمال قتالية حاسمة استراتيجياً.

لقد تم تنظيم وتجهيز القوات الجوية الإسرائيلية بحيث تستخدم مزيجاً من طائرات التجسس الإليكترونى، مشوشات على اتصالات العدو، قذائف للمواجهة، أنظمة استهداف على الأرض، طائرات بدون طيار (UAVs)، فضلاً عن تدابير لقمع الدفاعات الجوية السورية. وقد حسنت باضطراد قاعدتها التكنولوجية بحيث تعكس الدروس المستقاة من الصراعات الأخيرة، بينما أحرزت سورية تقدماً محدوداً لدفاعاتها الجوية فى العقد الماضى. ونتيجة لذلك، قد يظفر سلاح الجو الإسرائيلى بحرية عمل فورية فوق الجولان، مع تفوق جوى فوق مناطق حرجة بسورية خلال ٢٤-٤٨ ساعة، ثم الحفاظ على التفوق الجوى فى كثير من المجال الجوى السورى.

واصلت القوات الإسرائيلية إجراء مزيد من التحسينات على قدرات الإنذار وأجهزة الاستشعار وقدرات إدارة المعارك الضرورية لقتال معارك متواصلة (٢٤ ساعة يوميا) ومكثفة، وفى جميع الأحوال الجوية. كثير من أجهزة الاستشعار، وغيرها من العتاد الاستخبارى، الذى يحسّن قدرة إسرائيل على الإنذار وتوصيف التحركات السورية، تتيح قدرات استهداف - فى كافة الأحوال الجوية- مما يجعل استفادة سورية من الطقس والتضاريس للتخفى أمراً صعباً. كذلك، تخطط إسرائيل باستمرار لتحسين مقتنياتها وعتادها من سلاح الجو، وقذائف، وصواريخ على نحو يسمح لإسرائيل بضرب أعمق فى ميدان معركة الجولان، وعلى مقربة من دمشق. على نقيض ذلك، تفتقر سورية إلى قدرات استخبار وإنذار وإدارة معارك وقدرات ضرب تضاهى ما لدى إسرائيل؛ لذلك تعتبر سورية نصف عمياء مقارنة بإسرائيل.

تجبر سبل النفاذ إلى الجولان سوريةعلى الدفع بقواتها المدرعة فى أى هجوم رئيس، مع قدرة قليلة على توفير دفاع جوى فعّال أو حتى منع القوات الجوية الإسرائيلية من توجيه ضربات (جو- أرض) مكثفة فى عمق ميدان المعركة، دون الحاجة لانتظار كسب معركة جوية تحسم مسألة السيادة على الجو. لا يقتصر ما لدى إسرائيل على أسلحة متقدمة مضادة للدبابات وطائرات عمودية هجومية، بل يمكنها أيضاً استخدام صواريخ وقذائف لقتل الدروع المتقدمة بأعداد كبيرة فى نطاقات إصابة تزيد على ٦٠-٨٠ كيلومتراً. لم يعد الليل وسوء الأحوال الجوية أصدقاء لسورية؛ إذ لدى إسرائيل قدرات متفوقة فى الحرب الليلية، وإمكانات للإنذار والاستخبار يمكنها افتراضياً العمل فى أى طقس.

سيؤدى عامل الغموض والارتباك الذى سيواجه

كلتا الدولتين تأخذ تهديد الحرب بجدية كافية للإعداد والتدريب استعدادا للصراع، قد يفضى إلى استخدام الصواريخ الباليستية وأسلحة الدمار الشامل، فضلاً عن القوات التقليدية

رائحة الحريق القادم!

سورية في عمليات تحت هذه الظروف - من جهة أخرى- إلى بطء حركة القوات السورية والسماح لإسرائيل باستنزافها أكثر خلال تقدمها.

لكن القوات الجوية الإسرائيلية تواجه قيوداً عملياتية أساسية معينة في استخدام مثل ذلك الدفاع. فالقوات الجوية وحدها لا يمكنها تدمير كافة القوات البرية - لعدو رئيس مثل سورية- في غضون فترة قصيرة، رغم أنها قد تكون حاسمة لدى التعاون مع الجيش الإسرائيلي في هجوم جوي-أرضي. كما يمكنها المساهمة في المعركة البرية: لكن القوات السورية قرب الجولان هي قريبة جداً من الحدود، وأكبر بكثير من أي مزيج من قصف جوي اعتراضي وإسناد جوي وثيق، ليعمل كبديل لعمل دفاعي فعال من قبل القوات البرية الإسرائيلية.

كذلك، هناك حدود أيضاً لقدرة إسرائيل على استغلال بعض قدراتها التقنية في بدايات اندلاع الصراع التي تكون أقل حدة في المعتاد. فلا يمكن استخدام القوات الجوية بنفس المرونة في هجمات على مناطق مأهولة بالسكان، وأي جهد للقيام بقصف دقيق في حرب المدن يثير مخاطر جدية حول الأضرار الجانبية للسكان. ولا يتيسر عادة للقوات الجوية تحديد مواقع قوات حرب العصابات وتدميرها أو أداء دور حاسم في «صراع منخفض الكثافة». وإذا كان للقوات الجوية الإسرائيلية أن تتكبد أقل خسائر وتوقع أقصى الضرر بسورية، فعليها إنجاز درجة عالية من المفاجأة التكنولوجية في قمع الدفاع الجوي، بإجراءات احترازية (وقائية) أو خداعية. وكما تعلمت من حرب ١٩٨٢، ليس معقولاً أن تكشف إسرائيل عن قدراتها في إسكات دفاع العدو الجوي في هجمات محدودة على أهداف محدودة، فتعطى العدو الوقت لتحسين دفاعه وتطوير تدابير مضادة.

يمكن لإسرائيل أن تصعد الصراع بسهولة وصولاً إلى ضرب أي مزيج - تقريباً- من الأهداف السورية خارج الجولان. فأي نجاح سوري كبير في هجوم على الجولان من شأنه أن ينطوي على مخاطر انتقام إسرائيلي استراتيجي، باستخدام القوات التقليدية. تمتلك إسرائيل حالياً إمكانات وتفوقاً نوعياً كبيراً في الجو، ودقة في الاستهداف والهجوم، وقدرات الحرب الإليكترونية: بما يمكنها ربما من الفوز بالسيادة الجوية في غضون ساعات واختراق جزء من الدفاعات الجوية السورية على الأرض في يوم واحد. ثم يمكن لإسرائيل ضرب أهداف سورية عالية القيمة مع إفلات نسبي من العقاب في حرب تقليدية: ولن يكون بوسع سورية الانتقام سوى بإطلاق عدد محدود من الهجمات الجوية والصاروخية.

أولويات سورية

الاستراتيجية الواقعية

لا يمكن لأهل الفطنة من صناع القرار بسورية أن يتجاهلوا حقيقة أن سورية قد أصبحت قوة عسكرية إقليمية من الدرجة الثالثة، وأن احتياجاتها الداخلية الأساسية هي الاستقرار الداخلي والتنمية. كما أنهم لا يمكنهم تجاهل مخاطر أي سباق تسلح مفتوح. وبدون راع خارجي كبير، لا تستطيع سوريا الحصول على الأسلحة التي تلزمها لتحديث قواتها، وليس واضحاً ما إذا كان لدى قواتها المسلحة القيادة، والاحتراف (المهنية)، والقاعدة التقنية اللازمة لاستخدام مثل هذه الأسلحة إذا ما أصبحت متاحة. أدى إخفاق القيادة السورية في إجراء التحديث والإصلاح الاقتصادي إلى شل قدرة سورية على تمويل قوات عسكرية حديثة ومواكبة التكنولوجيا الحديثة: كما قلص -بشدة وعلى وجه الإجمال- التنمية والنمو الاقتصادي في سورية.

ونتيجة لذلك، فإن التحديات الاستراتيجية الواقعية (الحقيقية) لسورية ليست حرباً مع إسرائيل، أو بذل الجهود لاسترداد الجولان، ولكنها إلى حد كبير أكثر تواضعاً. يجب على سورية:

١. الاحتفاظ بأفضل وضع دفاعي في وسعها لردع إسرائيل دون استفزاز الأخيرة باتجاه رد فعل انتقامي كبير.

٢. إيجاد سبيل لتحديث قواتها بشكل أفضل، لا سيما منظوماتها الأساسية من صواريخ أرض-جو، ونظم «القيادة والسيطرة والاتصالات والحوسبة والاستخبار» (BM net /I C4)، ونظم الاستشعار.

٣. السعي لإيجاد توازن دقيق بين بعض التحديث لأسلحة الدمار الشامل ونظم التوصيل لردع اسرائيل، واستفزاز (استدراج) إسرائيل للقيام بإجراءات أو أفعال احترازية وقائية أو لتصعيد واسع في حالة الحرب.

٤. السعي إلى إيجاد توازن بين الاقتصاد المحلي والاحتياجات الاجتماعية وبين نفقات التحديث العسكري.

٥. تحديد نمط هيكل (بنية) القوات المسلحة التي تريد أن تؤمنها لنفسها. لا تزال القوات السورية - وإلى حد كبير- منظمة ومجهزة لقتال حروب طويلة ضد إسرائيل، بالاشتراك مع جيوش عربية أخرى. فهي تفتقر لسرعة الحراك وقدرات الفوز بانتصارات حاسمة في أي حرب مبكراً.

٦. إقامة علاقة جديدة مع لبنان، لا تستند إلى احتلال أو جهود متواصلة للتدخل.

٧. التوصل إلى قرار استراتيجي حول دورها في السعي إلى عملية سلام ذات معنى مع اسرائيل.

٨. الاختيار بين استغلال فوز حماس، أو التوصل لعلاقة مختلفة أكثر استقراراً مع الفلسطينيين.

٩. ردع أي شكل من أشكال الفعل السوري في الأردن من تهديدات واحتياجات عسكرية إلى أعمال عدائية من جانب وكالات ووكلاء الاستخبارات السورية.

١٠. تأمين الحدود العراقية، وتقرير ما إذا كان استمرار الدعم للمقاومة العراقية يخدم مصالح سورية الاستراتيجية، لا سيما في ضوء احتمال سحب الولايات المتحدة لمعظم أو كافة قواتها من العراق بمجرد أن يبدو آمناً ومستقراً سياسياً.

١١. الحفاظ على الأمن الداخلي إزاء تهديدات داخلية خطرة من متطرفين إسلاميين، وعناصر إخوان مسلمين، وتهديدات خارجية من حركات كالقاعدة.

١٢. تحسين الوضع المالي والنقدي. فاقتصاد سورية لا يزال إلى حد كبير تحت سيطرة الحكومة المركزية، وتفتقر قطاعاته الأساسية للاستثمارات الأجنبية والمحلية اللازمة.

١٣. إيجاد توازن بين علاقتها الاستراتيجية مع إيران، واحتمال التوصل لتسوية سلمية مع إسرائيل، وعلاقاتها بالدول الأخرى. فسورية ليست معزولة عن الغرب فقط، بل أيضا عن دول عربية رئيسة بعد مزاعم «تورطها» في اغتيال الحريري.

١٤. موازنة تمويل الحاجة للأمن الداخلي مع احتياجات موقف استراتيجي دفاعي أمام إسرائيل.

يجب على سورية أن توازن جهودها الأمنية مع الحاجة للتعامل مع مشكلات ديموغرافيه رئيسة واتساع نطاق القوة العاملة، والحاجة للتنمية الاقتصادية وخلق فرص العمل، والحاجة للانفتاح السياسي. وفي الوقت الحاضر، تبدو سورية ملتزمة بالحفاظ على قوات أكبر كثيراً مما يمكن أن يؤمل في تحديثه أو تفعيله، وهذا لا محالة يؤثر على نموها الاقتصادي وقدرتها على صيانة استقرارها الداخلي. وتتضح الحاجة لتغييرات أساسية في كل من استراتيجية سورية ووضع القوات، ولكن ذلك كان واضحاً بنفس القدر لربع قرن تقريباً. وقد تكون المحصلة النهائية أن طموحات وأفعال النظام خارجياً تؤدى إلى تفاقم التوترات الداخلية والمشاكل الأمنية التي ينبغي أن تكون بؤرة التركيز الرئيسة لصانع القرار السياسي. التحدي الاستراتيجي الحقيقي هو تحديث اجتماعي ونمو اقتصادي؛ أمر لا يمكن لقواتها العسكرية وقوى أمنها الداخلي إنجازه. ■

القوات الجوية وحدها لا يمكنها تدمير كافة القوات البرية ـ لعدو رئيس مثل سورية- في غضون فترة قصيرة، رغم أنها قد تكون حاسمة لدى التعاون مع الجيش الإسرائيلي في هجوم جوي ـ أرضي

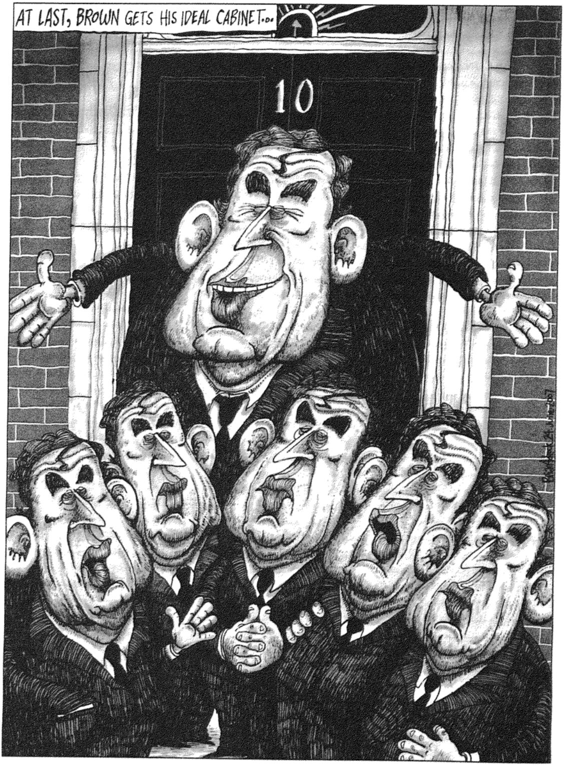
من هو جوردون براون؟

جوناثان فريدلاند

كانت كل إشارة، سواء فى ماضيه أو فى طبيعته، أو فى قوانين الثقل السياسى الصارمة، توحى بأن جوردون براون مؤهل لأن يصبح واحدا من أعظم رؤساء الوزارة الذين لم تحظ بهم بريطانيا. يمكن وصف مسيرته المهنية بأنها سلسلة من الفرص الضائعة، إما بسبب سوء حظه أو افتقاره إلى الشجاعة، حتى بدا وكأن قدره قرر حرمانه من طموحه المزدوج: أن يتزعم حزب العمال وأن يصبح رئيسا للوزراء. فى عام ٢٠٠٤ قال جوناثان باول، وكان فى وقتها رئيس موظفى تونى بلير «إنها تراجيديا شكسبيرية. إن جوردون براون يشبه الفتى الذى يظن أنه سيصبح ملكا لكن ذلك لا يتحقق له أبدا. لن يكون رئيسا للوزراء على الإطلاق».

لقد فاتت براون، على أية حال، زعامة الحزب فى ١٩٩٤، التى لم يرشح لها، فاسحا الطريق لتونى بلير الأصغر منه سنا، ومن النادر كما علمتنا السوابق أن تتاح فرصة ثانية. كان على براون أن يجثم منتظرا على أكثر الأغصان هشاشة، وهو غصن ولى العهد، لوقت أطول من أى من سابقيه (ربما مع الاستثناء البائس لانطونى إيدن). قبل ثلاث عشرة سنة، لم يكن هناك سوى القلة الذين يراهنون على حظوظ براون: بالتأكيد سوف يظهر جيل آخر، بالتأكيد سوف يتعثر براون، خاصة حين تسلم الحزب السلطة فى ١٩٩٧ وعين براون فى منصب وزير المالية، حيث كان يمكن لأية هزة فى الاقتصاد البريطانى أن تكلفه منصبه.

أكثر من ذلك، كانت الأسباب التى دعت إلى أن يكون بلير الاختيار المناسب لحزب العمال فى ١٩٩٧ مازالت قائمة. ففى حين أن



Gordon Brown, Prime Minister
(جوردون براون، رئيس الوزراء)
by Tom Bower
London: Harper Perennial, 576pp.,
£ 8.99

Gordon Brown: Speeches, 1997-2006
(جوردون براون: الخطابات ١٩٩٧-٢٠٠٦)
edited by Wilf Stevenson
London: Bloomsbury, 462pp.,
£ 30.00

Courage: Eight Portraits
(الشجاعة: ثمانى صور)
by: Gordon Brown
London: Bloomsbury, 274pp.,
£ 16.99

بترتيب مع:
The New York Review of Books
ترجمة بثينة الناصرى

فى حين أن براون يمكن أن يكون ساحرا فى الجلسات الخاصة، ولكنه يفتقد إلى الكاريزما الجماهيرية. إنه شخص لا يصلح للتليفزيون، أشعث الهيئة، وأحيانا يميل إلى إطلاق وابل من رصاص الإحصائيات

براون يمكن أن يكون ساحرا فى الجلسات الخاصة، ولكنه يفتقر إلى الكاريزما الجماهيرية. إنه شخص لا يصلح للتليفزيون، أشعث الهيئة، وأحيانا يميل إلى إطلاق وابل من رصاص الإحصائيات، ويملك «وجها مثل صباح شتوى ماطر فى مقاطعة فايف» كما وصفه الراحل روبن كوك وزير الخارجية السابق. كان براون يفتقر إلى موهبة بلير الطبيعية لارتجال الملاحظات المتعاطفة، وفى حين أن بلير يتكلم بلكنة جنوب إنجلترا، وهى المنطقة التى تحسم الفوز لحزب العمال، كان براون من مدينة كركالدى الاسكتلندية القاسية. ورغم ذكائه الاستراتيجى المشهود، كان يبدو وكأن قدره ألا يتسلم زمام القيادة، وإنما أن يكون، كما كتب توم باور «المهندس الاسكتلندى فى الباخرة، يكدّ فى غرفة المكائن، يلمع الكباسات ويزيل الشحوم».

ومع ذلك، ففى ٢٧ يونيو ٢٠٠٧، بعد ثلاثة أيام من إعلانه زعيما لحزب العمال فى مؤتمر حزبى خاص، دخل جوردون براون مبنى ١٠ داونج ستريت رئيسا للوزراء. لقد أضاع جل السنوات العشر الماضية محصورا فى نزاعات مريرة وحروب مع بلير - حول اختيار الوزراء، حول دور القطاع الخاص فى توفير الخدمات العامة، حول تبنى بريطانيا للعملة الأوروبية الموحدة، ولكن دائما، وفوق كل شىء، كان الصدام بسبب الطموحات الشخصية - كان الاثنان فى منافسة حامية أصبحت المحرك الحاسم لحكومة العمال. وبصفته وزير المالية الأطول مدة والأكثر هيمنة فى التاريخ البريطانى، فقد تمكن من إزاحة حفنة من المنافسين المحتملين لخلافته. وهو إنجاز يتسم بقسوة وجراة بلا نظير. كان تفوقه كاسحا حتى إنه لم يواجه أية منافسة لزعامة حزب العمال.

وقد عدل نقاد براون توقعاتهم بما يتلاءم وواقع الحال: حتى لو أن براون حقق المستحيل وفاز، فقد توقعوا أن يفشل فى وظيفته. سوف تكون إدارة بائسة، تكرارا لسنوات ١٩٧٦-١٩٧٩، حين تولى جيمس كالاهان وهو وزير مالية سابق آخر، منصب رئيس الوزراء خلفا لهارولد ولسون الشخصية الكارزمية ومعبود الإعلام، ليواجه الفشل المحتوم (وفى حالة كالاهان، كانت مارجريت ثاتشر) ولكن مع ذلك فقد أربك براون المتشككين مرة أخرى. كانت أشهره الأولى فى رئاسة الوزراء ناجحة، كسبت له قفزة فى الاستفتاءات وترحيب عام لمعالجته الحازمة والثابتة لسلسلة من الأزمات المبكرة من بينها: محاولات هجمات إرهابية، وفيضانات ممتدة. والصفات التى كانت تعتبر نقاط ضعف: افتقاره للبريق والتألق - أصبحت نقاط قوته. ويتساءل الآن أشد أعضاء الحزب المتحمسين عما إذا كان براون سوف يفوز بفترة رابعة متوالية غير مسبوقة لحزب العمال، وما إذا كان سينجح، حيث فشل بلير، فى قيادة حكومة عمال اصلاحية عظيمة.

واحد من كبار زملاء رئيس الوزراء فى مجلس الوزراء يتحدث بين الخاصة حول نسختين من براون: «براون الطيب» و«براون الشرير». وبارتياح يضيف الوزير: إن الأول هو الذى كان يقود البلاد منذ يونيو. الأخير هو الشخص الذى يبحثه توم باور فى سيرة حياته «جوردن براون رئيس الوزراء».

لم يكن هذا الكتاب مفاجأة لقراء كتب باور السابقة. فهو يتخصص فى عمليات الهدم التفصيلى، يكوم التفاصيل والكشوفات التى يمكن أن تحطم الصورة العامة لشخص ما (من ضمن ضحاياه السابقين أساطين النصب: روبرت ماكسويل وكونراد بلاك الذى أدين مؤخرا). وحسب الأصول يقدم باور شخصية براون باعتباره معقدا نفسيا - وهو وصف لبراون حين كان وزيرا للمالية، قذفه به أحد موظفى بلير مجهول الهوية ولكن يعتقد أنه كان الستير كامبيل السكرتير الصحفى السابق لبلير - ومن أشد أنواع الجوارح السياسيين ضراوة. وهذا البراون الذى انتخب للبرلمان فى ١٩٨٣ كان شخصا فوضويا، تغص شقته بالورق والكتب، تنتابه نوبات غضب شديدة مفاجئة. يكتب باور فى وصف ذلك: «كان يفقد هدوءه مرارا، يصرخ بشتائم مقذعة فى من يعتبرهم فاقدى النزاهة أو الكفاءة». وقد استمرت هذه العادة وهو فى منصبه، حيث يشتم براون أو ينفجر فى وجه من يخالفه، نافرا، على سبيل المثال، من المسؤولين الذين شككوا فى خطوته التى رحب بها الكثيرون، وقد اتخذها خلال أيام من انتخابات ١٩٩٧ لمنح الحرية لبنك إنجلترا فى تحديد سعر الفائدة. ويفسر براون كل معارضة على أنها خيانة، منقلبا حتى على أقرب زملائه الذين فشلوا فى إظهار إخلاص كاف له. وكان يصرخ بوجه بلير - رئيسه الاسمى - بانتظام ويعارضه، رئيسه الاسمى، وقد كان مصدر الصراع المتكرر بين الاثنين هو قيام براون بسد الطريق مرارا على بلير فى سعيه للانضمام إلى العملة الأوروبية الموحدة.

وقد أدار باور رحاه عبر عشر سنوات من هذا السلوك، واصفا كل فخ وكل مصيدة نصبها بيروقراطيو وايتهول للوزير سيئ الحظ، كل مراوغة لئيمة، كل مناورة من بلير والبليريين، خاصة مع إصرار براون فى أكتوبر ١٩٩٧ على أن بريطانيا لن تنضم إلى اليورو حتى تنجح فى خمسة اختبارات اقتصادية، ضامنا بهذا الا يتخذ ذلك القرار الحيوى فى مبنى رقم عشرة وإنما فى وزارة المالية. كان ذلك استنزافا ورهقا، ومن الواضح أن باور يتوقع من قرائه أن يصدموا بما كشفه.

ولكن كتاب باور، كما يقر هو نفسه، لم يكن محايدا[1]. من الواضح أنه اعتمد كثيرا على البليريين أو على الأقل، مصادر معارضة لبراون، ويحمل كل من حاورهم ندوبا من تسلط براون، ومن هنا كان حماسهم للانتقام. وكان النقد الأشد شراسة هو الطعن فى كفاءة براون، مما يناقض الصورة العامة للوزير باعتباره حجر الأساس فى حكومة بلير، والمصرفى الصامد الذى يقف خلف رئيس الوزراء ذى الشخصية التليفزيونية.

ويستعين باور بخطوط الهجوم التقليدية المألوفة، بدءا من الزعم بأن براون كان مهووسا بالسلطة، ميالا إلى إدارة أصغر التفاصيل ليس فى الاقتصاد بحسب وإنما فى السياسة البريطانية الداخلية برمتها، حتى أنه يلزم الوزارات الأخرى بتنفيذ أوامر وزارة المالية وبعكسه يهدد بتخفيض ميزانياتها. (تحققت هذه السلطة بموجب صفقة غرانيتا سيئة الصيت فى عام ١٩٩٤ والتى سميت باسم المطعم الذى وافق فيه براون أن يرشح بلير لزعامة الحزب بدون منافس، فى مقابل تأكيدات على ألا يتدخل أحد فى شئون وزارة المالية، وربما أيضا - مع أنه لا سبيل لتأكيد ذلك - وعد بأن يخلف بلير).

باور يخطىء براون لإطلاقه باستمرار خططا بيروقراطية معقدة و لجوئه إلى تشديد النظام الضريبى بين حين وآخر، خانقا الشركات الصغيرة ومسببا إرباكا للمحتاجين الذين يعتمدون على منافع الدولة، سواء فى كتابة قانون الضريبة فى ثمانمائة صفحة أطول من النص السابق فى أول ثلاث سنوات له فى المنصب أو الترقيع الأخرق لشبه خصخصة مترو الأنفاق فى لندن، مضيعا ٤٥٥ مليون استرلينى بشكل أجور للمحامين والمحاسبين وحدهم. والصورة التى يعكسها الكتاب عن براون هى انه مبدع خطط كبيرة بدون أدنى اعتبار لنتائجها أو تكاليفها.

ولكن مجرد تمكن براون من تفادى إلقاء اللوم عليه لكل هذا، هو دليل على مهاراته السياسية، إلا أن مهارته تتجلى واضحة فى سجله الاقتصادى الذى اختار باور أن يمر عليه مرور الكرام. لقد تمتعت بريطانيا بنمو مستمر فى كل فترات حكم حزب العمال (وهو اتجاه بدأ، إذا كان لابد من الاعتراف، فى السنوات الأخيرة من إدارة جون ميجور المحافظة)، وهذه حالة غير مسبوقة. براون كان وزير المالية الأول فى حزبه الذى يحافظ طوال منصبه على الاستقرار والرفاهية. مخلصا الحزب مما كان عائقا من عوائق الانتخابات، ألا وهى سمعة الحزب بالافتقار إلى الكفاءة الاقتصادية.

أكثر من ذلك، لم يكن إنجاز براون فى تراكم الثروة فقط، وإنما قام بنعومة - لئلا يخيف مملكة إنجلترا الوسطى نصف المحافظة - بإعادة توزيع بعض الثروة على الأكثر احتياجا. ولكن باور لا يعبأ بهذا أو بإنجاز براون فى إنقاذ ٦٠٠ الف طفل من الفقر (هدفه هو تخفيض فقر الأطفال إلى النصف بحلول ٢٠١٠ وإلغاؤه فى ٢٠٢٠) مع أن هذين الإنجازين هما اللذان يفسران وصوله إلى السلطة مؤخرا.

تركيز براون على رفع مستوى الفقراء، مع إدراكه بضيق أفق مناورته، بسبب تلاشى شهية الناخب البريطانى للاشتراكية التقليدية، مرتبط بشكل وثيق بشخصية «جوردون الطيب» كما وصفه زميله الوزير. خلال السنوات الطويلة للمعارضة الداخلية، صنع براون لنفسه صورة الأمين على شعلة الحزب التقليدية. كان الوزير، فى نفس الوقت، (جوردون الحديدى) لأثرياء مدينة لندن مع وعود بألا يمس شيئا من ثرائهم أو يقف أمام طموحاتهم، و(جوردون الأحمر) الذى يدعو للعقيدة القديمة للموالين لمبادئ الحزب، الملتزمين خصوصا بأعظم إنجازات الحزب، وهى الخدمة الصحية الوطنية التى تمولها الدولة وقد تأسست عام ١٩٤٨. وكان الكثير من هذا هو الذى صنع صورة براون كبديل اشتراكى ديمقراطى لبلير الذى

من هو جوردون براون؟

اختار أن يقف في الوسط. ولكن استمرارية أسطورة (جوردون الأحمر) تعزى في جلها إلى الحياة التي عاشها الرجل نفسه وشكلت شخصيته.

ولد عام ١٩٥١ وكان والده قسا بروتستانتيا مشيخيا (Presbyterian). وقد عرف جوردون براون مبكرا الثمن الإنساني للتدهور الصناعي. كان الفقراء يقفون على باب منزل القس في كيركالدي يسألون المساعدة. ومن منبر الكنيسة، كان والده يحث رعيته وأبناءه على واجب بذل الجهود وخدمة الآخرين، وكان يخطب ضد اللامساواة وينذر بسرعة زوال الثروات. وكان براون في شبابه يكتب تعليقات سياسية في النشرة التي يصدرها أخوه يدويا. وكان طالبا مجتهدا حتى إنه انتسب إلى جامعة أدنبرة حين كان عمره ست عشرة سنة. على أية حال، أدت إصابة أثناء لعبة رجبي إلى انفصال الشبكية في عينيه الاثنتين، مما أدى إلى قضائه أول ستة أشهر من سنته الجامعية الأولى في المستشفى، ملازما السرير وفي ظلام دامس. وقد خلفت التجربة لديه إيمانا شديدا بخدمات الصحة الوطنية التي رعته حتى الشفاء، في حين أن مواجهة الخوف من عمى دائم بدت وكأنها ختمت تماهيه مع الضعفاء. وقد خرج من المحنة بفقدان عينه اليسرى وتضرر عينه اليمنى ولكن مع إمكانية الرؤية، رغم أنه مازال يحتاج إلى طباعة خطبه بحروف كبيرة ووضعها على صندوق عال قريب من عينه في مجلس العموم من أجل رؤية أوضح. وعلى وجهه يظهر تأثير ثانوي للإصابة. لم تغير عينه اليسرى الميتة ملامحه فقط وإنما أدى فشل إحدى أربع عمليات أجريت عليه، إلى تلف في عضلات الوجه، مما جعل الابتسام صعبا. والنتيجة هي الملامح الكئيبة التي ميزت صورة براون لدى الجمهور. وهذا يعني أن أحد التحولات الكبيرة في ٢٧ يونيو كانت الانتقال من رئيس وزراء يبتسم طوال الوقت إلى رئيس وزراء لا يستطيع الابتسام طبيعيا على الإطلاق.

كان براون طالبا سياسيا صارما، لم تحركه الشعارات الثورية لليسار الطلابي عام ١٩٦٨، ولم يغازل الفصائل الشيوعية التي اجتذبت العديد من الذين أصبحوا وزراء معه فيما بعد. كان تركيزه على حزب العمال منذ البداية. وقد كتب أطروحة الدكتوراه حول السياسي في حزب العمال الاسكتلندي جيمس ماكستون الذي كتب عنه اى جي بي تايلور قائلا: «كان سياسيا لديه كل الصفات إلا واحدة: موهبة النجاح».

هذا الالتصاق بتراث الحزب ساعد براون، خلال فترة الانتظار الطويل لخلافة بلير، وليس لأن هذه الصفة تتناقض بحدة مع بلير الذي كان يجاهر ببعده عن حزبه الذي ينتمي إليه، بانيا صيته على ذبح أبقاره المقدسة، وأشهرها حذفه للمادة الرابعة من دستور الحزب التي تلزم الحزب بـ «شيوع ملكية وسائل الإنتاج». ربما يكون براون قد شارك بلير في هندسة وصياغة حزب عمال جديد. الحزب المحدث، المؤيد للسوق الحرة الذي أنهى ثماني عشرة سنة من خسارة الانتخابات، ولكنه لم يحتقر الحزب القديم كما كان بلير يفعل. وهذا واحد من عدة اختلافات مضيئة بين الرجلين اللذين يمثلان قطبين متضادين في مخيلة حزب العمال. بلير كان صديق المشهورين والأغنياء الجدد، يقضي إجازته في منزل سلفيو برلسكوني في ساردينيا ومع باري جب من فريق البي جيز في فلوريدا. براون كان شخصا يحب الخصوصية، عبوسا، يقضي اجازاته منذ ولادة أبنائه مع العائلة والأصدقاء في سكوتلندا.

وقد كان المال، غالبا، مصدر متاعب عائلة بلير، من قبول زوجته شيري أجورا ضخمة للتحدث في المناسبات العامة إلى الاتهام بأن رئيس الوزراء كافأ المتبرعين الكبار للحزب بالألقاب والتشريف بضمنها رفعهم إلى مصاف النبلاء. ولم يحدث أن وجه أي اتهام من هذا النوع إلى براون الذي ترك سيارة الجاغوار المخصصة للوزير، مفضلاً عليها سيارة فورد عادية. وفي حين كان ضيوف العشاء لدى بلير نجوم غناء صغار ومقدمي برامج تليفزيونية، كان براون يدعو إلى وزارة المالية باحثين ليستفيد من خبرتهم في حوارات معمقة. بلير لديه قدرة محام على الإجابات السريعة والبليغة واللماحة، بينما كان براون ينحو منحى المؤرخين. كان بلير نموذج رجل القرن الواحد والعشرين، يرتدي القمصان مفتوحة الياقات ويشرب الشاي بالمج Mug، أما براون فقد كان نقلة إلى القرن الماضي (في صورة حديثة له ظهر وهو يلعب التنس مرتديا بدلة).

كان التناقض يبدو قدريا. كان بلير معروفا بحظه الحسن الذي لا يصدق، حتى إن زوجته ولدت طفلا رابعا مكتمل الصحة وهي في سن الخامسة والأربعين، في حين أن براون كان يعاني طوال حياته من سوء الحظ. فطفلته الأولى جنيفر ولدت ولادة مبتسرة في ٢٠٠١ وماتت بعد عشرة أيام. وقد رزق فيما بعد بطفل



كان بلير نموذج رجل القرن الواحد والعشرين، أما براون فقد كان نقلة إلى القرن الماضي (في صورة حديثة له ظهر وهو يلعب التنس مرتديا بدلة)

وحيد صحيح الجسم هو جون، ولكن طفله الآخر فريزر ولد مصابا بتليف المثانة وهو مرض مميت لا شفاء منه. وحين استلم براون منصبه رئيسا للوزراء، نشر ستيف بيل رسام الكاريكاتير في صحيفة الجارديان، وهو ليس صديقا لبلير، رسما يظهر وجه بلير مثل شمس تخيم عليها سحابة وجه براون.

وبراون لا يهرب من صورة الرجل الجاد. فقد كان موضوع الكتابين اللذين نشرهما مؤخرا هو «جوردون الطيب» الذي يكد بلا هوادة ويتعاطف مع الضعفاء. فكتابه (الخطب ١٩٩٧-٢٠٠٦) يعكس الوزن التقليدي الذي يستمر براون في وضعه على النمط السياسي الذي يتلاشى بسرعة. وقبل توليه منصب رئيس الوزراء، كان براون يعمل أشهرا على كتابة خطبة واحدة. يستشير الخبراء في الحقل المطلوب، يقرأ بشكل موسع قبل أن ينقر على لوحة الكومبيوتر بأصبعين لكتابة النص. والنتيجة نصوص صعبة القراءة فهي محشوة بتعبيرات ومصطلحات تكنوقراطية من التي ظل يستخدمها لمدة عقد من السنين في وزارة المالية. ولكنها تكشف رؤيته للعالم، بضمنها محاربة الفقر في الوطن والخارج، تحديد منطقة عامة «ينبغي ألا تعرض للمتاجرة بيعا أو شراء»، وحماية بريطانيا من رياح العولمة، وتأكيد (المواطنة البريطانية) التي تتجاوز الشهية المتنامية للانفصال في سكوتلندا وويلز وحتى إنجلترا.

يمهد لكل خطبه بكلمات مديح من واحد من قائمة النجوم التي تشمل الان غرينسبان وآل غور وحتى جي كي راولنج. وإذا كانت هذه حيلة السياسي القديم، أن يقف إلى جانب عظماء الرجال والنساء على أمل أن يقع عليه نثار من بريقهم، فهي حيلة متواضعة مقارنة بالشجاعة. ومن الواضح أنه اقتدى بكتاب جون كنيدي (شخصيات شجاعة profiles in ®courage) كتاب كنيدي حول ٨ شخصيات شجاعة اختارهم من اعضاء الكونجرس عبر التاريخ الأمريكي)، كتب براون صورا مختصرة لثمانية أشخاص أبدوا شجاعة استثنائية في السعي من أجل قضية: نلسون مانديلا وديتريتش بونهوفر ومارت لوثر كنج وروبرت كنيدي وراول والينبرج واونج سان سو كي وسيسيلي سوندرس التي أسست حركة التكية البريطانية (نزل للفقراء تصرف عليه منظمات دينية)، واديث كافيل التي مرضت الجرحى في بلجيكا خلال الحرب العالمية الأولى وساعدت الكثير من جنود الحلفاء في العودة إلى إنجلترا.

والمنطق السياسي واضح: هل هناك أفضل، حالما يدخل براون الرقم عشرة، من أن يكون اسمه مرتبطا مع بعض الأسماء العملاقة في التاريخ الحديث؟[٢]. مع ذلك فالمسألة ليست بهذا الشكل. يكتب براون بأن إلهامه كان موسوعة أطفال قرأها حين كان في العاشرة، وكانت مليئة بقصص البطولة والجرأة أبطالها شاكلتون وسكوت وكابتن أوتس من بين آخرين. وهذا يليق بشخصية براون الرجعية. (يصف المحافظون براون بأنه «سياسي تناظري في العصر الرقمي» وبالتأكيد من الصعب إنكار هذا، رغم اهتمامه المبكر بالإنترنت، ولكنه يبدو مثل مبعوث من عصر سابق). وطبقا لذلك فالكتاب مكتوب بتدفق عظيم. على سبيل المثال، يكتب في سرد قصة راول والينبرج:

بوسترات «مطلوب» مع وعد بمكافأة للقبض على والينبرج، كانت ملصقة في أنحاء المدينة (بودابست). وكان القتلة يطاردونه، ومع ذلك استطاع والينبرج، الذي لم يكن ينام في نفس المكان أياما متتالية، بشكل ما أن يسبقهم بخطوة.

وقد وصفت صحيفة السبيكتاتور كتاب الشجاعة

من هو جوردون براون؟

بأنه (كتاب للقراءة على الشواطئ). ربما لكثرة الأخطاء في تحريره.. ولكن في الحقيقة، لم يكتب أي رئيس وزراء منذ تشرتشل كتابا جيدا مثل هذا، على الأقل ليس أثناء ممارسة العمل السياسي.

في الواقع أن هناك تسع صور شخصية في هذا الكتاب والتاسعة هي صورة جوردن براون نفسه. فاهتماماته، ومن بينها الواجب ونداء خدمة الجماهير واضحة في كل صفحة. ولكنه يهيمن عليها بأسلوب لايخدمه أيضا. حيث إن أحد الأسئلة التي لاحقت براون منذ بداية صعوده المهني هو: هل يتمتع براون بالصفة التي يعجب بها كثيرا؟ حتى أصدقائه يعترفون بان براون يفتقر للشجاعة.

لو كان يملك الجرأة لتحدى زميله سكوت جون سمث لزعامة الحزب في ١٩٩٢. ربما كان قد فاز واحتفظ بتوني بلير كشريك اصغر كما كان منذ أن التقيا وأصبحا متحالفين، يشاركان في مكتب واحد في مجلس العموم في عام ١٩٨٣. ربما كانت داوننج ستريت ستكون من نصيب براون في ١٩٩٧. ولكن تنحيه من أجل بلير في ١٩٩٤، كان على أية حال، اعترافا بواقع سياسي: كانت تصويتات أعضاء حزب العمال لصالح بلير بنسبة كبيرة. (في هذه القراءة لا تعكس غرانيتا الخيانة العظيمة التي ستحرم الرجل الكبير في أسطورة براون من حقه الشرعي، ولكن باعتبارها صفقة جيدة لبراون، حصل فيها على سلطة أكبر).

ما إن حل في منصبه، كان أمام براون فرص للفتك ببلير، ومع ذلك في كل مرة كان يرفض أن يفعل أي شيء أكثر من خدشه. والتفسير الحميد هو أن براون كان يخشى من تأثير انقلاب أخوي على وحدة الحزب. وكان قد رأى ما فعله استبعاد تاتشر بالمحافظين. ولكن من الجانب الشخصي، لم يفت براون ملاحظة أن ذابح تاتشر، مايكل هيزلتاين، لم يصبح بعدها رئيسا للوزراء.

إن أعظم حظوظ براون هي أضعف نقاط بلير، وكلاهما له صلة بالحرب على العراق. لو كان براون قد انضم إلى روبين كوك في الاستقالة من الحكومة في مارس ٢٠٠٣، كان من المحتمل أن يسقط بلير وألا ترسل القوات البريطانية للمشاركة في القتال. وقد يخمن المؤرخون ما إذا كان جورج بوش سيشن الحرب في مثل تلك الظروف بدون حليف بريطاني: إذا كان الجواب هو كلا. اذن يكون براون الرجل الذي كان يمكن أن يمنع غزو العراق ولكنه لم يفعل. وكل هذا يعطي شحنة أكبر لما ورد في كتابه (الشجاعة) من سرد حول أقدام بوبي كنيدي على الاختلاف مع قيادة حزبه لمعارضته الحرب في فيتنام: هل توحي تلك القصة بندم براون لعدم اتخاذه الموقف نفسه إزاء حرب العراق؟

في الواقع احتفظ براون بصمت مدروس خلال فترة الإعداد للحرب، وهو دليل على ما وصفه موظف سابق من أنها عادة براون الشبيهة بـ (ماكافيتي) في الاختفاء عند أول علامة على ظهور مشكلة. ذلك الصمت سمح لقبيلة العمال ان يروا براون على أنه معارض للحرب من خلف الابواب. وهذه المعارضة حتى وإن كانت صامتة، فقد اضافت إلى جاذبيته كزعيم منتظر. وحين صادق في النهاية على الحرب، فعل ذلك بتهذيب شديد وبدون حماسة مما أكد ذلك الاعتقاد. على الأقل، ضمن موقفه أن يُنظر إلى ورطة العراق على أنها محنة بلير الشخصية وليس الحزب.

في ٢٠٠٤ كان موقف بلير هشا.. بعد هزة فضيحة أبي غريب وتحقيق هوتون الذي أعقب انتحار العالم الحكومي ومفتش الأسلحة السابق في الأمم المتحدة ديفد كيلي. وزاد الطين بلة، انتفاضة برلمانية حول أجور التعليم الجامعي، مما جعل بلير يتأرجح من أوهى الخيوط. وكل ماكان على براون أن يفعله هو أن يقف جانبا ويشاهد خصمه وهو يتهاوى. بدلا من ذلك، أمر الموالين له أن يتراجعوا، مما أعطى بلير ثلاث سنوات أخرى في إدارة البلاد. الآن، السؤال حول شجاعة براون يمتد الى المستقبل. هل يطلب منه أن يقف في وجه إدارة بوش، أن يعارض مغامرة عسكرية مشئومة أخرى؟ هجوما على إيران مثلا؟ هل لدى براون القوة للقيام بذلك؟

يقترب جوردون براون من نهاية أول مائة يوم في داونتج ستريت، وهي فترة اعترف هو نفسه بأنها ستكون حساسة في تثبيته في عقل الناخب البريطاني. وفي أواخر الصيف، تجاوز كل التوقعات بضمنها توقعات معسكر براون نفسه. فقد أظهرت الاستفتاءات المبكرة اكتساح براون غريمه ذا الجاذبية التليفزيونية الزعيم المحافظ البالغ من العمر إحدى وأربعين سنة، ديفد كاميرون، حتى إن معظم تخمينات وسائل الإعلام تركزت على احتمال أن يقوم رئيس الوزراء الجديد باستغلال شعبيته ويدعو لانتخابات مبكرة، فيكسب بذلك تفويضا جديدا خاصا به. وقد تصاعد هذا الحديث إلى درجة أن الحزب حين اجتمع في مؤتمره في الأسبوع الأخير من سبتمبر، لم يكن لدى الوفد والسياسيين والصحافة أي موضوع يتحدثون فيه عداه. (ولكن براون تراجع مستبعداً إجراء انتخابات مبكرة) (المحرر).



> **إن أحد الأسئلة التي لاحقت براون منذ بداية صعوده المهني هو: هل يتمتع بالصفة التي يعجب بها كثيرا؟ حتى أصدقائه يعترفون بأن براون يفتقر للشجاعة**

لقد ساعدت أحداث استثنائية مبكرة في تثبيت هذه النظرة الإيجابية لبراون. فبعد ست وثلاثين ساعة من تنصيبه في رقم عشرة، اكتشفت سيارة مفخخة في ويست ايند بلندن، أعقبها هجوم فاشل على مطار جلاسكو. لم تكن هناك علامة على الذعر. لم يهرع براون ليقف أمام الكاميرات مصرا على أنه سيتولى المسألة بنفسه أو يعلن القتال من أجل الحضارة، كما كان سابقه سيفعل. بدلا من كل ذلك طلب من وزيرة الداخلية جاكي سمث أن تخاطب الشعب، محققا وعده بأن يستبدل «مَرْيسة» بلير بالعودة إلى الحكومة الوزارية.

وحين اضطر للتعليق بعد هجوم غلاسكو، فعل ذلك ببساطة وجدية وكأنه يناقش جريمة خطيرة وليس عملا حربيا. هذا يطابق رفض براون لتعبير «الحرب على الإرهاب» والذي يعتقد أنه يمنح مكانة كبيرة لإرهابيي القاعدة. المعالجة الجديدة التي أزالت سخونة اللحظة فورا، ونشرت الهدوء بدلا من الذعر، لقيت ترحيبا عالميا وخاصة من المجتمع الاسلامي في بريطانيا، فقد ظهر إعلان في صفحة كاملة في عدة صحف وطنية بعد عدة أيام، بتوقيع المنظمات الإسلامية الرئيسية في بريطانيا، ترحب بجهود براون وتتعهد بتعاونها في جلب المذنب إلى العدالة. ولم يحدث مثل هذا على أيام بلير.

كما غاب التهويل عن معالجة براون لفيضانات منتصف الصيف في شمال ووسط إنجلترا، وانتشار مرض القدم والفم في الماشية والذعر المالي في منتصف سبتمبر الذي شهد هرولة أحد أكبر المقرضين البريطانيين، وهو بنك نورثرن روك (رغم أنه في هذه القضية الأخيرة جلب اختفاء براون أول الأمر نقدا حول عودة عادة الاختفاء عند المصاعب، إلى الظهور). شعر براون أنه يستطيع أن يعتمد على وزرائه، خاصة أنه كان قد اختار وزراء جيدين. حتى الصحف المعروفة بعداوتها اضطرت إلى الترحيب بفريق يوحي بوصول حكومة جديدة - حيث كان ستة وزراء منهم تحت سن الأربعين - وتبدو أنها تضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

كما واجه براون صيت هوسه بالسيطرة، بتعيين عدة شخصيات من غير حزب العمال - وهي ممارسة شائعة في الولايات المتحدة ولكن لا سابقة لها في بريطانيا - بضمنهم مارك مالوك براون الذي كان في وقت ما رئيس اتحاد الصناعات البريطانية ونائبا سابقا للأمين العام للأمم المتحدة. في سبتمبر، سحب البساط من تحت أقدام كاميرون بالإعلان بأن اثنين من أعضاء البرلمان المحافظين وافقا على إشغال منصبي مستشارين لحكومة العمال (مع ثالث من الحزب الديمقراطي الليبرالي). كما أنه وخز المحافظين أكثر من ذلك، وأزعج من تبقى من اليسار في حزب العمال حين استضاف تاتشر نفسها على الشاي في رقم عشرة، بل وقف الاثنان معا أمام المصورين. وكان قصد براون الواضح هو التأكيد على أن الخيمة الكبيرة لحزب العمال الجديد ستكون من الاتساع بحيث تمثل شيئا قريبا من حكومة وطنية تتجاوز الحزب.

كان براون يدرك أن عليه أن يترك انطباعا قويا قبل أن تذهب الأمة في إجازة أغسطس. وبسرعة شرع في محو الجوانب المزعجة في إرث بلير، حيث أوقف خطة لبناء «كازينو سوبر» على طراز لاس فيجاس في مانشستر. وهكذا كسب الثناء من المحافظين الاجتماعيين في صحيفة الديلي ميل وكذلك قراء

الجارديان المعادين لأخلاق الثراء السريع فى عصر بلير. كما قام بخطوة كبيرة توضح انفصاله عن ثقافة البروباجندة، بإعلان سياسة الحكومة على أرضية مجلس العموم بدلا من تسريبها أولا إلى الصحف المتعاطفة. وكان ذلك الأسلوب المفضل لدى الستير كامبيل. وقد كشف عن برنامج للإصلاح الدستورى جعل منظمى الحملات الانتخابية يكاد يغمى عليهم، بضمنه وعد لتسليم السلطات التنفيذية الرئيسية - ومنها سلطة إرسال القوات للحرب - إلى البرلمان.

ولكن لم تكن النقلة أكثر وضوحا منها فى علاقته مع إدارة بوش. استخدم براون زيارته الأولى إلى الولايات المتحدة فى يوليو للإشارة، بوسائل باطنة وعلنية، بأن تغييرا قد حصل. قبل قيامه بالرحلة، حذر وزير الخارجية الجديد مالوك براون، من أن لندن لم تعد «مرتفقة على الركاب» فى بيت بوش الأبيض. وقد أنكر المتحدث باسم براون فى وقتها تلك الجملة بنعومة، رغم مايعرف عن براون من إعجابه بكل ما هو أمريكى.

قبل وصول الأطفال، كان براون يقضى عطلة كل صيف فى كيب كود، مختلطا مع أفراد متنوعين من عائلة كنيدى. وكان الفكر الأمريكى هو المؤثر الرئيسى فى تشكيل أفكاره، فقراءاته الواسعة كانت تشمل مفكرين محافظين مثل جريترود هملفارب وجيمس كيو ولسون، وهو يتابع السياسات الأمريكية بتفصيل دقيق. بالتأكيد، من بين الاثنين كان براون هو الذى يميل إلى أمريكا وليس بلير، الذى كان يفضل البروفنس وتوسكانى. ومع ذلك فإن أفعال براون فى كامب ديفد أكدت حقيقة ملاحظة مالوك براون.

اختفت الملابس القطنية، والتخاطب بالأسماء الأولى والتصرفات الودودة غير الرسمية التى كانت تطبع اجتماعات القمة بين بوش وبلير. وحسب طلب براون، ارتدى رئيس الوزراء والرئيس بدلات رسمية وخاطب أحدهما الآخر بشكل رسمى. أراد براون أن يوصل رسالة أن العلاقة من الآن سوف تكون مجرد علاقة عمل. وقد ساعد عجز براون عن إجراء الأحاديث الخفيفة، رغبته فى ألا ينظر إليه على أنه «صاحب» بوش وأن «العلاقة الخاصة» سوف تكون بين بريطانيا والولايات المتحدة وليس بين رقم عشرة والبيت الأبيض. وكما علق أحد حلفاء براون فيما بعد «كان شيئا رائعا مشاهدة جوردون وهو يحول مثالبه الطبيعية إلى مكاسب».[3]

إضافة إلى ذلك أعلن براون أنه خطط لاستمرار سحب القوات البريطانية من العراق. وطبقا لذلك فقد شهد سبتمبر انسحاب ٥٥٠ جنديا بريطانيا من البصرة، وهكذا أصبح الوجود البريطانى فى العراق مقصورا على مطار البصرة. والأهم من ذلك أن براون شرح مفهومه المختلف تماما عما لا يريد أن يسميه الحرب على الإرهاب. والنقطة الجوهرية فيه هى البرهنة للرأى العام الإسلامى أن الغرب يقدم آمالا أكثر من الإسلام العنيف[4]. ومن هناك جاءت رحلة براون من كامب ديفد إلى الامم المتحدة، مسلحا بعزم ذكورى، للعمل على أهداف التنمية الألفية. يعتقد براون أن الغرب إذا اهتم بمحاربة الإيدز والفقر والمذابح الجماعية فى افريقيا فسوف لن تلقى دعاوى الجهاديين ضد القوى الامبريالية المتفسخة، آذانا مصغية فى العالم الإسلامى.

لقد أدى الترحيب الحار الذى استقبل به براون حتى الآن، الى انهيار أسهم بلير: لقد أوضح رئيس الوزراء الجديد أن الامور يمكن أن تدار بشكل مختلف. والأكثر أهمية من ذلك، أن براون لا يرى نفسه يحكم فى الأيام الأخيرة لإدارة آفلة. وإذا كان زميلا صعبا لبلير «مثل قريب مجنون فى العلية، يقرع باستمرار على الأرض بالمقلاة» كما قال مساعد سابق فى داوننج ستريت - إذن ربما كان ذلك بسبب نفاد صبره ورغبته فى أن يحكم بدون إعاقة. الشىء الواضح الآن: أن طموحه لم يكن للمنصب الرفيع وإنما للسلطة، ويبدو أن لديه النية لاستخدامها. ■

الهوامش

(١) من أجل الاطلاع على بحث متحيز مماثل، ولكن هذه المرة إلى جانب براون، انظر كتاب روبرت بيستون (بريطانيا براون) الصادر فى لندن عن شورت بوكس ٢٠٠٥

(٢) من الممكن اكتشاف هدف مماثل فى تأليف براون الاسمى لمجموعة من الصور لدعاة ومتطوعين بريطانيين غير معروفين، والذى نشر بعد شهر من وصوله إلى داوننج ستريت: أبطال كل يوم فى بريطانيا (نشر أدنبرة /مينستريم ٢٠٠٧)

(٣) انظر مقالة ماثيو دانكونا «على الطريق مع جوردون بحثا عن القلوب والعقول» نشر فى السبيكتاتور، ٤ أغسطس ٢٠٠٧/.

(٤) قدم براون لمحة من هذا التفكير الجديد فى مقالة نشرها متزامنة مع لقائه الأول مع الرئيس بوش. انظر «شراكة للأبد» (الواشنطن بوست ٣٠ يوليو ٢٠٠٧)

كتاب الزاوية

الديمقراطية فى فكر رواد النهضة المصرية

دراسة الديمقراطية فى مصر لا تتكامل إلا فى إطار الوعى بالتراكم الثقافى لتيار التنوير منذ بزوغ خيوطه الأولى رغم المصاعب الجمة التى واجهها هذا التيار فى تطلعه لبناء الأمة الواحدة على أساس العلم والعقل والديمقراطية والمساواة والحكم المدنى، كما يقول الأستاذ نبيل فرج فى كتابه «الديمقراطية فى فكر رواد النهضة المصرية» الصادر عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان (٢٠٠٧) وحكم هذا التراث الديمقراطى وحدد مستواه واتجاهاته مواقف أصحابه من التراث أو من الموروث والوافد. وكان هناك تباين واضح بين ٣ تيارات، الأول اهتم بالتراث العربى وحده، والثانى بالثقافة العصرية الغربية، والثالث حاول أن يأخذ بنصيب من الاثنين.

وقد أحسن المؤلف صنعًا عندما عرض على صفحات الكتاب مواقف رواد النهضة فى مصر من الديمقراطية لأن هذه المواقف جزء من تاريخ الشعب المصرى وكفاحه فى سبيل الديمقراطية بحيث يمكن القول بأن من عرض لهم المؤلف فى كتابه هم آباء الديمقراطية فى مصر.

ولأن النهضة المصرية الحديثة تجاوزت نطاق المحلى إلى العالم العربى، فإن المؤلف لم يفرق بين أسماء مصرية وأسماء عربية، فعرض لمواقف الأسماء البارزة سواء كانت مصرية أو عربية. وتنشر «وجهات نظر» بعض مواقف لهؤلاء الرواد.

"يوميات مقدسية"

سليم تمارى

صورة لقواس فى القدس



تظهر القدس العثمانية فى معظم الكتابات التاريخية المعاصرة كمدينة إقليمية فى أطراف الدولة العثمانية تتميز بنسيج اجتماعى طائفى ومتقوقع. ويصر العديد من هؤلاء المؤلفين على مطابقة الوعى القومى والاثنى بحدود الانقسامات الطائفية التى كانت ترسم معالم المجموعات السكانية داخل البلدة القديمة.

ويرافق هذا التقسيم الاثنى ـ الطائفى عادة تقسيم تجمعات المدينة داخل السور فى أحياء المسلمين والنصارى والأرمن واليهود. فى هذه الرؤية الضيقة نرى أربع حارات منغلقة تعزز حدودها آليات التضامن الطائفى والتخصص المهنى. والمدارس والتكايا، والطقوس والاحتفالات الدينية وفوق ذلك كله وفوق ذلك كله تحريم التزاوج والتصاهر خارج الدين والطائفة. وفى هذا المنظار فإن التعايش والحراك الاجتماعى المحدود بين هذه الطوائف بقى محصورًا فى آليات السوق «التجارة» والتزاور الاجتماعى حتى انتهاء الحقبة العثمانية.

وتبدو حداثة المدينة من هذا المنظار كنتيجة لانهيار النظام العثمانى أمام الثالوث الغربى: التغلغل الاقتصادى الأوروبى، والهجرة الصهيونية، ومشاريع التحديث الإدارى التى أدخلتها سلطات الانتداب البريطانية.

تقع أهمية مذكرات واصف الجوهرية فى أنها تصور حياة يومية جماعية للقدس تبلورت فى هذا النموذج التقليدى للمدينة. وتسلط الأضواء على رؤية مغايرة بديلة. هذه الرؤية تتمحور حول مظاهر الحداثة المرتكزة على ديناميات داخلية فى المدينة العثمانية فى بلاد الشام. كما أن الجوهرية يصور لنا وتيرة اجتماعية عاصرها شخصيًا داخل أسوار المدينة، تتسم بالحراك الاجتماعى والتداخل والتفاعل بين أفراد وعائلات الطوائف المختلفة لا تنعكس فى كتابات معظم المؤرخين للمدينة. بل على العكس فهو يورد القصة تلو الأخرى (راجع مثلاً رواية فصل الزوار المسلمين عن المسيحيين من قبل الشرطة البريطانية عند مدخل الحرم) التى تظهر ـ دون قصد من الكاتب ـ أن نظام الأحياء الطائفية ـ كتقسيم إدارى ـ هو فى الواقع من نتائج سياسات الانتداب البريطانى على فلسطين، ولا يرجع إلى تقسيمات «عضوية» من الفترة العثمانية كما هو شائع.

إن استعمال تعبير «الهجين» فى وصف المشهد الثقافى لمدينة القدس خلال فترة الحرب العظمى الأولى يحمل فى طياته عدة مشاكل. فالاستعمال الحالى للهجينية السائد فى العلوم الاجتماعية المعاصرة يشير تحديدًا إلى انتشار الهويات ذات الاثنية المتعددة القاطنة فى نفس الحيز الحضرى. وفى تبلور تعابير ثقافية مركبة فى نمط الحياة واللباس والطبخ والاستعمالات اللغوية. وهى بالأساس هجانة ثقافية نشاهدها اليوم فى المدن الكبرى فى الدول الصناعية وما بعد الصناعية التى اجتاحتها هجرات جماعية واسعة من العالم الثالث، مما نتج عنها تبلور هويات ثقافية ثنائية.

أما فى القدس العثمانية قبل الحرب العظمى فنشاهد ـ فى الرؤية الجوهرية لها ـ تشكل وعى طائفى محلى فى صراع أحيانًا وفى تآلف أحيانًا أخرى مع التيار العروبى القومى ومع النهضة الوطنية الفلسطينية فى مجابهة الحركة الصهيونية.

ساهمت بطريقتها الخاصة المذكرات الجوهرية فى رأيى فى إعادة النظر فى هذا الخطاب السائد حول الهوية الفلسطينية فى مجالين. الأول يتعلق بالافتراضات حول طبيعة الهوية الذاتية للمقدسيين بشكل خاص وللفلسطينيين والشوام فى هذه الفترة الانتقالية المهمة، وثانيًا فى تحديد علاقة الوجدان الدينى الشعبى بتبلور وتكوين الهوية الوطنية التى تتجاوز النطاق المحلى.

ومع أن المجتمع المقدسى كان يتسم بهوية دينية قوية الملامح إلا أن حدود التجمعات السكانية لم تأخذ شكلاً طائفيًا بالدرجة الأولى، ولا طابعًا اثنيًا (ربما باستثناء التجمع الأرمنى فى منطقة

القدس فى المذكرات الجوهرية
من مذكرات الموسيقى واصف جوهرية
(جزءان: العثمانية/ الانتدابية)
تحرير وتقديم عصام نصارى وسليم تمارى
القدس ـ مؤسسة الدراسات المقدسية ـ ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٥



صورة تسليم القدس.. تصوير: الأمريكانى كولونى

البطريركية الأرمنية). بل أخذت طابع «المحلة». كما كانت تعرف الأحياء الأهلية فى الفترة العثمانية. وتمت إعادة صياغة وحدة المحلة فى فترة الانتداب لصالح نظام الحارات الرباعى - الذى ارتكز الآن على قاعدة دينية طائفية وتفرعاتها المذهبية الأصغر.

فحارة النصارى أصبحت مكونة من دير الروم وتوابعه، ومن تجمعات السريان والأقباط واللاتين، إلخ.. وفى الشمال الشرقى للمدينة داخل السور تم إطلاق اسم حارة المسلمين على المحلات (جمع محلة) التى سادت فيها أغلبية إسلامية، وهو مفهوم انتدابى مستحدث بدأ بتكريس التقسيمات الطائفية فى مواجهة تبلور الوجدان القومى فوق - الدينى.

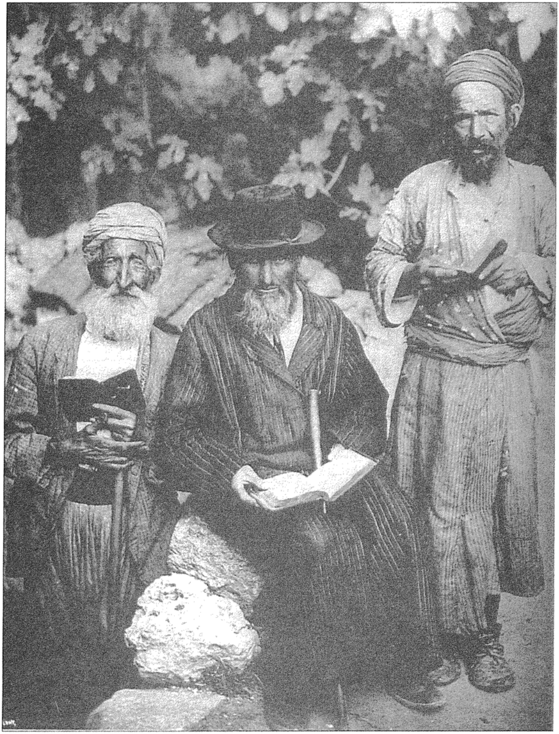
ولكن التحدى الوطنى - القومى كان أحد الأطر التى بدأت بإضعاف الوجدان الطائفى. نراها هنا تتواجد مقابل علاقات المحسوبية والحماية والتكافل بين عائلات أشراف القدس وحلفائهم من الفئات المهنية والصناع والمستخدمين. كما هو الحال فى هذه المذكرات فى علاقة آل الحسينى مع عائلة الجوهرية. وهى علاقة استمرت من جيل إلى جيل.

تمتد مذكرات جوهرية الكاملة فترة ستين عاماً (١٩٠٤ - ١٩٦٨) من تاريخ القدس الحديث العاصف، وتغطى أربعة أنظمة حكم وخمس حروب. والأهم أنها تشكل معلماً لانتقال المجتمع الفلسطينى إلى الحداثة وخروج سكانها إلى خارج تخوم انغلاق المدينة المسورة.

كان والده. جريس (جرجس). مختار الطائفة الأرثوذكسية الشرقية فى المدينة القديمة (١٨٨٤)، وعضواً فى مجلس بلدية القدس. برئاسة سليم الحسينى وفيضى العلمى. وكونه تدرب محامياً، فقد ألم بالقانون الشرعى الإسلامى وأتقن عدة لغات. بما فيها اليونانية والتركية والعربية. وقد عمل فترة قصيرة مخمن ضرائب حكومياً، إلا أنه تحول لاحقاً إلى العمل الخاص، فأصبح ملتزم حرير ناجحاً فى العيزرية، ومالكاً لمقهى عام على نهر الجريشة. كذلك كان صانع أيقونات ماهراً، وموسيقياً هاوياً، الأمر الذى يفسر تشجيعه لواصف على تعلم عزف العود منذ شبابه المبكر.

أما والدة واصف، هيلانة بركات. فتحدرت من عائلة أرثوذكسية بارزة كانت تقطن فيما أصبح يعرف لاحقاً باسم حارة النصارى. وبما أن جريس، والد واصف، عاش فى حوش عائلة بركات السكنى قبل انتقاله إلى حارة السعدية، فقد أصبح صديقاً لوالد هيلانة. وعندما توفى هذا الأخير فى سن مبكرة، تولى الشاب جوهرية العناية بولدى بركات، وتزوج هيلانة التى كانت تصغره كثيراً، عندما أصبحت بالغة.

إن الصورة التى يرسمها واصف للحياة اليومية فى محلة السعدية (الواقعة بين باب الساهرة وطريق الآلام)، خلال العقد الأول من القرن الماضى، تشكل إحدى أكثر الوثائق قيمة عن الحياة الفلسطينية المدينية، على



صورة لبعض من يهود القدس فى أواخر العهد العثمانى.. الصورة من ألبوم رقم ٦ من المجموعة الجوهرية

الإطلاق. والوصف يوفر مصدرًا أوليًا من الدرجة الأولى بالنسبة إلى المؤرخ الاجتماعى والباحث الإثنوجرافى. والتحولات التى أدت إلى برجزة أنساق الحياة العائلية مصنفة زمنيًا وموصوفة بالتفصيل الدقيق.

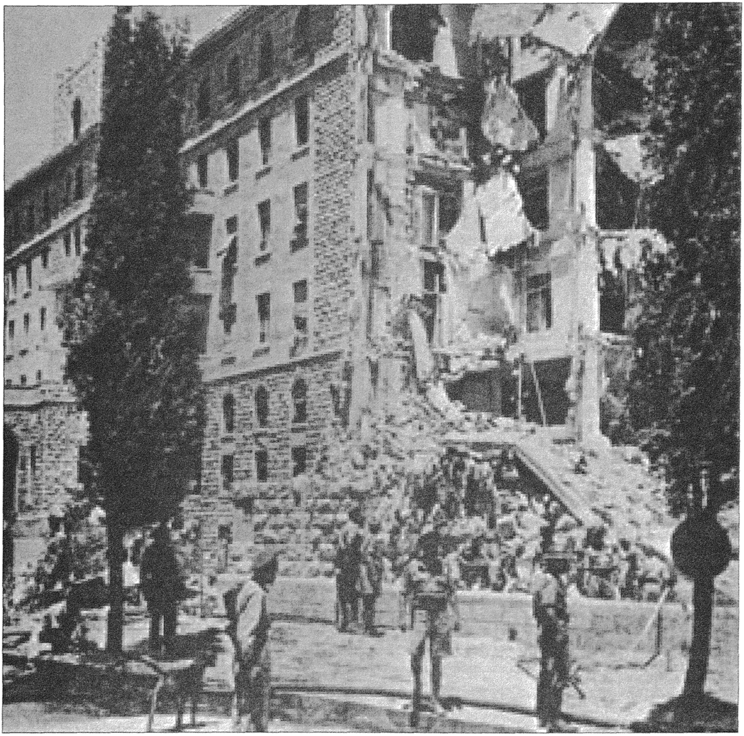
وتعزز رؤية جوهرية الذهنية لتقسيمات أحياء القدس، وكذلك تحديد التخوم بين الجماعات السكانية التى كانت قائمة فى شبابه، اعتقادنا بأن تقسيم المدينة إلى أربعة أحياء طائفية لم يكن يتوافق مع العرف السائد فى زمنه، وإنما كان تطورًا لاحقًا. وقد وضع البريطانيون الحدود الجديدة لأغراض المحافظة على التقسيمات بين سكان المدينة على أساس إيجاد توازن طائفى حديث بين المجموعات الطائفية والإثنية الأربع. وكان أساس هذا التوازن الحفاظ على الوضع القائم فى إدارة الأماكن المقدسة، التى جرى التفاهم فى شأنها فى أواخر العهد العثمانى، وجرى تفصيلها وتدوينها فى بداية حكم الانتداب على المدينة.

واليوميات تتحدى ضمنًا هذا المفهوم المبسط لتركيب الأحياء، القائم على تنظيم العلاقة بين المقدسيين على أساس بيئتهم الدينية والإثنية. وفى تصوير واصف للحياة اليومية فى أزقة المدينة القديمة، يسترعى انتباهنا ضعف ذلك المفهوم على صعيدين: واحد يوحى بأنه لم يكن هناك تطابق واضح بين الأحياء والديانة: فنحن نرى اختلاطًا كبيرًا بين الجماعات الدينية فى كل حى. وعلى الصعيد الآخر، فإن الوحدة الانتمائية الأساسية فى البلدة القديمة كانت المحلة، شبكة الأحياء ذات التخوم الاجتماعية، التى أبدى الناس فى داخلها درجة عالية من التضامن بين الجماعة السكانية. وقد تم التعبير عن مثل هذا التماسك فى الزيارات الدورية والمشاركة فى الطقوس، بما فيها الأعراس والجنائز. كما فى المشاركة النشيطة فى الأعياد الدينية. وهذا التضامن يضعف ثبات النظام الطائفى الموروث من حقب ما قبل الحداثة.

لكن الحدود الطائفية كانت تتزعزع أيضًا جراء نهوض الحركة الوطنية فى فلسطين: بداية فى سياق الحركة الدستورية العثمانية فى نهاية القرن، وخصوصًا بعد انقلاب سنة ١٩٠٨، الذى تلقى الكثير من الدعم فى دوائر المثقفين فى القدس، ولاحقًا فى الاتجاهات المناهضة للأتراك فى إطار الحركة القومية لسورية الكبرى. ويمكن التقاط هذه التحولات فى هذه المذكرات مصادفة وبصورة انتقائية. فجوهرية - الذى لم ينخرط فى أى حركة سياسية، لكنه كان عثمانيًا وطنيًا ثم لاحقًا فلسطينيًا وطنيًا - كان يؤمن بوضوح بأن التحرك نحو الحداثة (بما فيها الالتزام بمبدأ الوطنية العثمانية) مرتبط بالحراك السكنى إلى خارج المدينة من قبل الطبقات الوسطى الصاعدة. وكان أبناء الأعيان قد أسسوا قاعدة سكنية جديدة فى الشيخ جراح إلى الشمال، وفى منطقة الوعرية إلى الجنوب من المدينة منذ منتصف القرن التاسع عشر. وفى أوساط السكان اليهود كانت حركة مماثلة حدثت من خلال بناء الأحياء الجديدة فى منا شعاريم ويمين موشيه، مؤذنة بافتراق وحدة الحال (الانتماء الوطنى) بين العربى الفلسطينى الحديث وبين الوعى الطائفى اليهودى، حتى قبل ترسخ الصهيونية فى أوساط سكان المدينة اليهود.

تنامى المدينة الحديثة

توفر يوميات جوهرية للمؤرخ الاجتماعى سجلاً معاصرًا فيما يتعلق بتنامى المدينة خارج أسوارها أيضًا. ومع أن أحياء الشيخ جراح ويمين موشيه والوعرية، كانت قد أنشئت قبل زمانه، فإن واصف يروى قصة تنامى حى المصرارة وحى المسكوبية على امتداد طريق يافا فى صباه، ثم أعقبتهما أحياء الطالبية والقطمون فى الثلاثينيات من القرن العشرين. وكان شاهدًا على تدشين الطريق الجديدة التى تصل المدينة القديمة بالمصرارة، برعاية رئيس البلدية فيضى العلمى سنة ١٩٠٦م. وشهد هذا التوسع - وآخر مثيل سبقه فى البقعة - انتقال مئات العائلات (كثير منها مذكور بالاسم هنا) إلى مبان حديثة من القرميد والأسمنت المسلح بقضبان الحديد. واستمر سكان جميع هذه المساكن الجديدة فى بناء أحواض تتغذى بماء المطر فى فنائها، لقضاء حاجاتهم اليومية فى فترات صيف القدس الطويلة والجافة. وإلى هذه الأحياء أدخلت أيضًا وسائل



فندق الملك داود بالقدس بعد نسفه عام ١٩٤٦. فى مجموعة صور عصام نصار الخاصة

الحداثة: الكهرباء - أولاً فى مجمع نوتردام فى مقابل البوابة الجديدة تماماً، والسيارة على طريق يافا، والسينما، وفوق ذلك جميعاً، الفونوغراف الذى أدخل جوهرية إلى عالم سلامة حجازى وسيد درويش.

والنتيجة هى صورة حميمية لحداثة القدس العثمانية فى اللحظة نفسها التى كانت الصهيونية على وشك الصدام بالحركة الوطنية الفلسطينية الناشئة. يروى جوهرية قصة دخول الفونوغراف والسينما إلى مقاهى المدينة سنة ١٩١٠، والدهشة التى مر بها عندما رأى الصور المتحركة أول مرة فى المسكوبية (وكان رسم الدخول بشلك عثمانى، ويدفع عند المدخل). وفى سنة ١٩١٢، رأى أول مرة عربة من دون حصان («سيارة فورد» يسوقها السيد فيستر من الكولونية الأمريكية) فى متنزه البلدية بالقرب من شارع يافا. وفى صيف سنة ١٩١٤، ركب حماراً مع والده إلى البقعة فى ضاحية القدس الجنوبية. ليشاهد هبوط طائرة عسكرية عثمانية فيقول: «... كانت المدينة مقفرة من سكانها فى يوم الصيف الحار ذاك. وجمع البائعون المتجولون ثروة من بيع الماء» ولسوء الحظ، تحطمت الطائرة فى سمخ (طبرية)، وقتل طياراها التركيان، الضابطان نورى وإسماعيل. وقد ألف واصف مرثية خاصة على شرفهما، والتى - كما يدعى - غُنيت فى جميع أنحاء البلد. وفى خريف ذلك العام، استطاع أن يتواجد فى جنوب القدس ليرى هبوط أول طائرة فى البقعة الفوقا. يقودها ضابطان، ألمانى وتركى.

وواصف الذى كان منخرطاً بعمق فى شئون الطائفة الأرثوذكسية العربية، يبدى مع ذلك تعلقاً فريداً فى الثقافة الإسلامية لمدينته. وترغمنا رؤيته على إعادة النظر فى المعرفة التقليدية بشأن بنية القدس الطائفية والمذهبية فى العصر العثمانى المتأخر. وعلى سبيل المثال، قصص لا حصر لها - الكثير منها فضائحى وهزلى - ترسم صورة حية لتعايش عميق الجذور بين عائلات مسيحية ويهودية فى قلب ما أصبح يعرف بالحى الإسلامى. ولم يكن ذلك تجاوزاً متسامحاً لأقليات ذمية تتمتع بالحماية، وإنما انخراط إيجابى فى شئون الجيرة. كانت تشكل ديانتهم اعتباراً ثانوياً بالنسبة إلى تراثهم المدينى الأوسع. كذلك ما من شك فى أن عائلة جوهرية على الرغم من وعيها العميق لتراثها الأرثوذكسى، كانت أيضاً ذات انتماء عميق للثقافة الإسلامية. وقد جعل جريس أبناءه يقرءون القرآن ويحفظونه فى سن مبكرة. وعندما مات فى أيلول/ سبتمبر ١٩١٤، رثاه خليل السكاكينى (بموت جوهرية انتهى عصر الظرف)، وتبعه الشيخ على الريماوى - صديقه الحميم: «لم أصدق أن روح الجوهرية تبقى فى (مقبرة) صهيون، بل تنتقل فى هذه الليلة إلى (مقبرة) مأمن الله»!!

ومثل هذا الموقف يتجاوز

ألبوم التاريخ

يوميات مقدسية

بمسافة كبيرة أنماط التعايش العادية التي كانت رائجة في ذلك العصر. ويلاحظ واصف كيف أن عوانس من الطائفة الأرثوذكسية بدأن يتمتمن: «يوه.. يبقى هيك؟.. صاير مسلم.. يا أختي من كثر ما بيعاشر المسلمين!! إلا..» وهكذا انكسفت والدتي وحاولت أن تدافع عنه».

مقهى جوهرية

يدخلنا جوهرية إلى وسط اجتماعي مقدسي غني، في فترة ما بعد الحرب وفي العشرينيات، والذي يمكن وصفه أيضاً بأنه مجتمع طرب ومتعة. حفلات ليلية من تجمعات الندماء والرقص والتدخين.. تتكرر على امتداد المخطوطة. وقد قدمت العائلة مساهمة كبيرة لهذا الوسط الفني الاحتفائي من خلال افتتاح مقهى جوهرية سنة ١٩١٨ بالقرب من المجمع الروسي عند المدخل الجنوبي لطريق يافا. وقد جلب خليل، شقيق واصف، إلى هذا المقهى البار مهارات كان اكتسبها في بيروت في أثناء خدمته في الجيش العثماني. وقد شملت هذه تقديم وجبة «مزة» خاصة مع طلبات العرق والماء المثلج، الأمر الذي كان تجديداً في القدس، وأصبح ممكناً مع إدخال مولدات الطاقة الكهربائية. وخلال أشهر على افتتاح المقهى، أصبح نقطة جذب رئيسية للباحثين عن الطرب في جميع أنحاء المدينة. واشتهر باستقدام أفضل المغنين إلى البلد، بمن فيهم الشيخ أحمد طريفي، ومحمد العاشق، وزكي أفندي مراد، وبديعة مصابني. وتعود علاقة واصف ببديعة مصابني، وزوجها نجيب الريحاني إلى هذه الفترة. وكانت مصابني تزور يافا في زيارات فنية من حين لآخر في أثناء الصيف، في طريقها من القاهرة إلى بيروت، وأحياناً قد تصل إلى القدس. بداية، التقاها واصف في صيف سنة ١٩٢٠ (ص ٣٦١)، عندما كانت تؤدي دورها الفني على مسرح/ ومقهى المعارف خارج بوابة الخليل مباشرة. وهو يسجل عدداً من مقطوعاتها الغنائية/ الراقصة التي كانت تؤديها بلباس شفاف. كما أدت عدداً من أغاني سيد درويش، التي كانت لها شعبية كبيرة، وخصوصاً سخريتها الاجتماعية بالأغنياء «الحق عل الأغنيا». وكان أحد المقاطع الشعرية الذي غالباً ما يلهب جمهور مستمعيها الذي بإعادته هو:

إمتى بقى نشوف قرش الشرقي
يفضل ببلده ولا يطلعشي

ولاحقاً، كان واصف يلتقي بديعة بصورة شخصية في حفلات حميمة في قصور أعيان القدس، مثل فخري النشاشيبي، ومصطفى الجبشة، أو في فندق سانت جون الذي كان يملكه حماه. وفي إحدى المناسبات، رافق واصف بديعة على عوده في حفلة امتدت طوال الليل، ابتدأت في مقهى جوهرية، واستمرت في بيت والده. وهي ليلة احتفظ بتسجيل فونوغرافي لها لولعه بها.

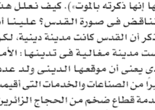
وكانت بديعة واحدة من عدة فنانين مصريين ولبنانيين ممن أقام واصف علاقات بهم، بمن فيهم سلامة حجازي، وداود حسني، والشيخ يوسف المنيلاوي. وقد أصبح كثيرون من هؤلاء المغنين يتمتعون بشعبية في فلسطين مع استيراد الآلات الموسيقية الجديدة: بداية، آلة التسجيل الشمعي الأسطوانية، ومن ثم الغرامافون المسير يدوياً، الذي توضع عليه الأسطوانات البلاستيكية ذات الـ ٧٨ دورة في الدقيقة، والتي يشير إليها باسم فونوغرافات إديسون. ولدى بداية الحرب العالمية الأولى، كان في القدس عشر آلات كهذه فقط، ثمن كل واحدة منها نحو ٢٥ جنيهاً فرنسياً. وهي ثروة صغيرة في تلك الأيام، الأمر الذي يجعل الحصول عليها مقتصراً على عدد من المالكين القلائل. وخلال الحرب، بدأ عدد من مقاهي القدس يجذب الزبائن عبر شراء فونوغرافات وعزف قطع مختارة بحسب الطلب.

وقد وهب واصف صوتاً رائعاً، جعله مطلوباً كثيراً للأداء في الأعراس، حتى وهو في سن المراهقة. لكن حبه الأبدي كان للعود، الذي بحلول سنة ١٩١٨ كان أتقنه إلى الحد الذي جعله أكثر العازفين المنشودين في فلسطين، أو هكذا يدعي. وكان يعزف العود لأبناء نخبة المدينة أساساً، وعادة في بيوت خاصة يحتفظون بها لصديقاتهم. وقد احتفظ عدد من أبناء العائلات الأرستقراطية المقدسية - بمن فيهم آل الحسيني والنشاشيبي - بشقق خاصة لصديقاتهم في ضواحي المدينة الجديدة، والكثيرات منهن يونانيات وأرمنيات ويهوديات. وتشير مذكرات جوهرية إلى الكثير من وقائع المناسبات الاحتفالية التي أمضاها برفقة أبناء النخب الاجتماعية وصديقاتهم، برفقة مطربين مسلمين ومسيحيين ويهود.

هناك سمة أخرى للحياة الثقافية في القدس العثمانية يرد ذكرها هنا هي «الأوضة»، الشبيهة بشقة العازب في فرنسا. وكان من عادة الرجال العزاب من أبناء الطبقة الغنية في المدينة القديمة أن يستأجروا شقة مفروشة ذات غرفة واحدة، حيث كانوا يمضون مساءهم يلعبون الورق ويدخنون ويشربون. وفي ليالي الشتاء الطويلة، يحيون جلسات عود. ويسجل جوهرية عدداً من «الأوض» المعروفة جيداً في المدينة القديمة والشيخ جراح. حيث كان يؤدي موسيقاه. ولعدة أعوام، كان هو نفسه يحمل مفتاح «أوضة» حسين هاشم الواقعة خلف مقبرة ماميلا. حيث كان يعزف لسيدات روسيات ويونانيات برفقة راغب بك النشاشيبي (رئيس بلدية القدس لاحقاً) وإسماعيل الحسيني.

إن هذه الوقائع تضطرنا إلى إعادة النظر في صورة القدس في بداية القرن، التي كثيراً ما توسم - زيفاً - بأنها مدينة متجهمة ومحافظة وكئيبة من قبل الزوار والمحليين، على حد سواء (ويقتطف إدوارد سعيد عن أبيه، مستذكراً حياته المبكرة في المدينة قوله: «إن الشيء الوحيد الذي قاله عنها إنها ذكرته بالموت»). كيف نعلل هذا التناقض في صورة القدس؟ علينا أن نتذكر أن القدس كانت مدينة دينية، لكن ليست مدينة مغالية في تدينها: الأمر الذي يعني أن موقعها الديني ولد عدداً كثيراً من الصناعات والخدمات التي أقيمت لخدمة قطاع ضخم من الحجاج الزائرين، لكن سكانها الأصليين لم يكونوا بالضرورة أكثر تديناً من مراكز مدينية في المناطق الجبلية. فعلى سبيل المثال، كان لكل من نابلس والخليل والناصرة سمعة دينية أكثر تزمتاً من القدس.

لكنني أعتقد أن التفسير الأقرب لهذه الليبرالية الاجتماعية تكمن في مكان آخر. فرواية جوهرية تأتي من فترة سابقة لتاريخ المدينة، عندما كانت الفوارق الطبقية والامتيازات الإقطاعية تخلف مناخاً معيناً، تشعر الطبقة العليا فيه بأنها معصومة في أنماط سلوكها عن الضوابط الاجتماعية لجمهور العامة. وفي كثير من الأحيان، كان أبناء هذه النخبة يتباهون بهذا السلوك مثلما كان الحال مع الشراب في العلن، والعلاقات بين الجنسين من دون خوف من عقاب. ومصدر آخر من الحماية لمجالات الحرية الاجتماعية هذه هو أن القدس كانت لا تزال مدينة مغلقة إلى حد ما. ويظهر فيها تدفق محدود من القرى المحيطة، أو من جبل الخليل، من الفلاحين المهاجرين الذين خلقوا لاحقاً أجواء محافظة أصبحت المدينة معروفة من خلالها.



ختم ستورز كحاكم القدس العسكري

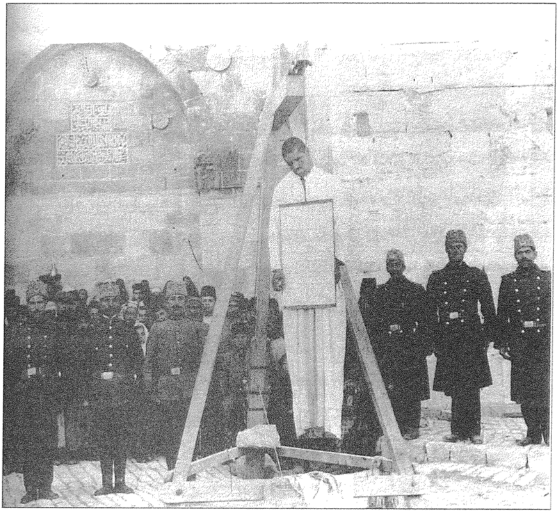


ختم البريد العثماني

تعددية الطقوس الدينية

تدعو مذكرات جوهرية القارئ إلى المشاركة في عالم من التسامح الديني والتعدد الثقافي اللذين يصعب استشفافهما في الأجواء السائدة اليوم من الانعزالية الإثنية والأصولية الدينية. لقد كانت فترة ما قبل القومية التي غمرت فيها الهوية الدينية «الآخر» في أعيادها وطقوسها. ويروي جوهرية عن فترة عيد الفصح كمناسبة للاحتفالات الإسلامية - المسيحية - اليهودية. وهو يفصل في وصف مواكب «أحد الشعانين» (التي كانت تتقدم من المسجد الإبراهيمي في الخليل إلى القدس). وعيد النبي موسى يُستحضر هنا أنه احتفال شعبي إسلامي، يندمج في عيد الفصح الأرثوذكسي الشرقي. وأناشيد «سبت النور» (في ذكرى قيامة المسيح) التي تعتبر أهم احتفال شعبي مسيحي في فلسطين. منسقة بصورة وثيقة مع الأعياد الشعبية الإسلامية. وكان الشبان المسلمون والمسيحيون يحتفلون بعيد «بوريم» «المساخر» في الأحياء اليهودية. ويصف واصف بدقة الأزياء التي ارتدوها في هذه المناسبة. ومرتين في العام، شاركت عائلات مسلمة ومسيحية، بمن فيها عائلة جوهرية، في الاحتفالات اليهودية على ضريح شمعون الصديق في الشيخ جراح (والمناسبة معروفة باسم «شطحة اليهودية»)، حيث كان «حاييم» عازف العود، وزكي، ضارب الدف، يغنيان بمرافقة ألحان أندلسية.

لكن أهم الاحتفالات جميعاً كانت تقام خلال شهر رمضان. ويخصص واصف فصلاً كبيراً من مذكراته لوصف حياة الأعياد في الشارع، والأطعمة، وعروض الأراجوز الدرامية، والمصابيح السحرية، والكثير من مسرحيات الظل كان يؤدى بخليط من اللهجات التركية العثمانية والحلبية، التي كان المؤلف يعيد إنتاجها بأمانة. ومع أنه لا يقول ذلك صراحة، فإن بعض المسرحيات التي جرى تمثيلها، تضمن سخرية اجتماعية جريئة، ونقداً سياسياً مبطناً للنظام. وكان عدد من صانعي البضائع ومؤسسات الحلوى (مثل



صورة لأحد أبناء فلسطين معلقًا على عود المشنقة أمام باب الخليل فى القدس فى حوالى عام ١٩١٥. المصور خليل رعد من مجموعة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ببيروت

زلاطيمو) يستخدم الحفلات لتقديم عروض تجارية، يغنيها ممثلو الظل، لترويج المبيعات.

كذلك كانت المدينة تحتفل بمناسبات موسمية لا صلة لها بالأعياد الدينية. ويحدد واصف مناسبتين علمانيتين: شطحات الصيف إلى سعد وسعيد، وزيارات الربيع لبئر أيوب. وأصبح موقع سعد وسعيد، فى الفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، المكان المختار للعائلات المسيحية والمسلمة للنزهة فى أوقات بعد الظهر من الصيف الحار. وقد شجعهم على ذلك بصورة خاصة تنامى القصور الجديدة حول المصرارة ومنطقة الشيخ جراح. وفى هذه الطلعات، كانت تستهلك كميات كثيرة من الشراب والأكل، وكانت تستمر، عادة، إلى ساعات المساء المتأخرة، عندما كان على المستمتعين أن يعودوا قبل إغلاق بوابات المدينة. وفى الربيع كانت هذه الطلعات تتوجه إلى بئر أيوب، عند ينابيع سلوان التحتا، حيث كانت عائلات القدس تجد مخرجًا من شتاء البلدة القديمة القاسى.

ومع تطبيق شروط وعد بلفور خلال الانتداب البريطانى، وصلت هذه الفترة من التسامح الدينى إلى نهايتها. فالحركة الوطنية الفلسطينية، بالرغم من كونها فى جوهرها حركة علمانية، بدأت باكتساب حماسة دينية. والسلطة الكولونيالية الجديدة بدأت تفسر الأنظمة بشأن السيطرة الدينية وحق الوصول بمصطلحات الانعزالية المذهبية. ومنع المسيحيون من دخول الأمكنة المقدسة الإسلامية، والمسلمون من دخول الكنائس المسيحية والأديرة بمرسوم عسكرى. وكانت العادة فى تلك الأيام بالنسبة إلى الشباب المقدسى - من جميع الأديان - الخروج إلى النزهة فى المروج الخضراء داخل منطقة الحرم. ومع دخول الانتداب أصبحت المنطقة محظورة. ويصف واصف مغامرة قام بها فى يوم ربيعى فى نيسان/ أبريل ١٩١٩، فى أيام الحكومة العسكرية البريطانية الأولى، عندما تظاهر بأنه «مسلم» (أو مسلمان بلغة الهنود) أمام حراس منطقة الحرم الهنود، بينما منع رفيقه محمد مرزوقة، ذو العينين الزرقاوين، من الدخول، لأن واصف أوضح لهم، أنه يهودى.

البحرية العثمانية

أنهى نشوب الحرب العالمية الأولى خمسة قرون من الحكم العثمانى للقدس وفلسطين. وفى سنوات الحرب، مر واصف بأشد فترات حياته درامية: موت والده، بلوغه سن الرشد،

أبى يحفظ القرآن

عندما تَعْلَمُ بأن جدى خليل جوهرية توفى عندما كان والدى جرجس يلعب الكلول تعترف بأنه كان قاصرًا فتعلّم اللغة العربية ثم التركية ثم اليونانية لوحده وبدون مدرسة. وأخيرًا تعلم القانون وأصبح محاميًا معروفًا فى المحاكم الشرعية ومحاميًا فى المحاكم المدنية عند فتوحها بالقدس زمن واصف بك العظم من دمشق رئيس محكمة الجزاء. وقد سافر إلى استانبول فى ذلك الزمن مرتين عرفنى الرحلة الثانية كانت بوظيفة خاصة للبطريرك ذميانوس وكان معه المرحوم يعقوب سعيد وأخته أم جورج أدرنلى وكانت رحلته الأولى للتجارة فى الكارب.

كان حافظًا للقرآن ويحسن قراءته حتى إنه كان يصحح خطئى عندما كنت أراجع درسى فى القرآن فى البيت وأنا تلميذ فى المدرسة الدستورية. فإذا ما قرأت السورة قراءة غير صحيحة فكان يردنى من غرفة الصالون غيبًا فأرجع عن خطئى وهكذا كان شريكًا فى المحاماة مع داود أفندى الراغب ثم مع فرنسيس البينا، ثم مع بشارة طاسو فى يافا وكان هذا يزورنا وينام فى بيتنا عند زيارته القدس. وإنى لم أزل أحتفظ ببعض الوكالات باسمه ومن ضمنها وكالة من عائلة سرسق فى لبنان، كما أنى أحتفظ بأوراقه بخط يده التى لها علاقة بالمحاماة وإنى أؤكد للقارئ بأن خطه أفضل من خطى أنا صاحب هذا الكتاب وأن اسمه مدون كمحام معروف بالقدس فى مجلة خاصة كانت تصدر شهريًا فى الآستانة رسميًا. وأن وكالة سرسق وتيان فى لبنان باسم والدى مؤرخة.

انتقاله إلى أريحا، تجنيده فى البحرية العثمانية ـ فى البحر الميت!

شهدت الحرب تجنيد الآلاف من شباب القدس فى الجيش العثمانى، بمن فيهم الكثيرون من الرجال المسيحيين المقدسيين، فمع إدخال إصلاحات التنظيمات سنة ١٨٣٩، وخصوصاً بعد إصدار «قانون الولايات» سنة ١٨٦٤، لم يعد أبناء الأقليات الدينية معفيين من الخدمة. وشهد واصف الكثيرين من أبناء عائلته القريبين، وأغلبية معارفه، يرسلون إلى الجبهة السورية. وضم هؤلاء أخاه الأصغر توفيق، الذى نقل إلى دمشق بعد فترة قصيرة من العزف فى الفرقة العسكرية التركية فى القدس، حيث أصيب بجروح بالغة فى المعركة، وأخاه الأكبر خليل، الذى خدم فى بيروت. ومع اشتداد تطويق الحلفاء للجيش العثمانى، انقلبت قيادته العامة، بإمرة جمال باشا، ضد القوميين العرب فى سوريا الكبرى. وكان خليل نفسه شاهداً على شنق عشرات الوطنيين العرب علناً فيما سمى لاحقاً ساحة الشهداء فى بيروت.

أما بالنسبة إلى واصف، فالحرب كانت تعنى أريحا، والبحر الميت، وازدهاره المهنى الموسيقى. وفى سنة ١٩١٧، تسلم مهمته الأساسية الأولى، عاملاً لدى وليه، حسين بك الحسينى، فى إدارة تجارة الحبوب الخاصة به بين فلسطين والأردن، والذى كان العثمانيون أعفوا الحسينى تواً من عمله رئيساً لبلدية القدس، وذلك لمصلحة ضابط تركى (ورأى واصف فى هذه الخطوة بداية تتريك نظام الإدارة العثمانى). وفى غياب معبر للبضائع على نهر الأردن، كانت التجارة تمر عبر البحر الميت فى مراكب يملكها آل الحسينى. ومع بداية الحرب، وضعت البحرية العثمانية يدها على هذا الخط الاستراتيجى، وجرى تجنيد واصف فى البحرية وهو فى السابعة عشرة من عمره (مع أنه يجب أن يكون الآن ابن ٢٠ عاماً . ويبدو أنه يخصم ثلاثة أعوام من عمره لأسباب غير موضحة). وقد أمضى واصف، خلافاً لأخيه، ونظراً إلى مهاراته الموسيقية، أغلبية سنوات الحرب يمتع ضباط البحرية الأتراك وعشيقاتهم. وسريعاً ما أنشئ ميناء على الشاطئ الغربى للبحيرة، وأعطيت للجوهرية وظيفة قنطارجى، نائب الضابط المسئول عن وزن القمح المستورد، الذى كان يشترى من القبائل البدوية فى منطقة الكرك ويشحن عبر البحر إلى الجانب الفلسطينى. وقد أمضى واصف ما تبقى من سنوات الحرب «عسكرى حبوب» فى النهار، و«ضابط عود» فى الليل، كما يسمى نفسه. إلى أن أعفى من مهماته لدى هزيمة العثمانيين على أيدى الحلفاء.

لقد كانت تجارة الحبوب شريان الحياة للجيش العثمانى، ومصدر ثراء بالنسبة إلى آل الحسينى. ولضمان تزويد ثابت من شرق الأردن، ولتعزيز جبهة فلسطين ضد قيادة الحلفاء فى مصر، بنى العثمانيون ميناء على الضفة الغربية للبحر الميت، وكان ولى آل جوهرية حسين بك، وكذلك واصف نفسه منخرطين مباشرة فى بناء الميناء. وتضمنت العملية تجنيد عشرات الملاحين العرب من يافا، الذين حملوا معهم تقاليدهم البحرية وجلبوا عائلاتهم إلى أريحا، كما نقلوا براً عدة سفن شراعية ومراكب من البحر الأبيض المتوسط. وقد أوجد حضور الملاحين جواً ساحلياً مبهجاً من الشراب والغناء والمرح (بما فى ذلك حفلات الحشيش الليلية)، أقام أود جوهرية خلال سنوات الحرب. وبسبب قرب واصف من آل الحسينى، وربما بسبب مصادفة تعيينه فى حامية أريحا البحرية، كان شاهد عيان على زيارات قام بها أنور وجمال باشا لفلسطين فى سنة ١٩١٦ . وهو يذكر أيضاً حادثة هزلية، إذ حاول تقديم التبغ إلى جمال باشا، الذى لم يكن يُدخن ونال توبيخاً عسكرياً على سلوكه الأرعن.

إلا أن موقفه من قائد النظام العثمانى الجديد ملتبس. ففى أحداث سنة ١٩١٦، يصف الحماسة والمودة اللتين أبداهما السكان الفلسطينيون المحليون فى أريحا والقدس تجاه جمال باشا وغيره من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى (ص ٢٥٥). ولاحقاً، يصف قسوة القادة العثمانيين فى محاولتهم سحق الحركة الوطنية. ولا شك فى أن هذا التناقض الظاهر عكس الغموض تجاه العثمانيين، الذى ساد فلسطين خلال الحرب، والموقف المتردد تجاه المستقبل، وهو غموض يصادفه المرء بصورة أكثر بلاغة فى مذكرات أخرى، موازية لمذكرات جوهرية، هى مذكرات خليل السكاكينى.

تنعكس تناقضات هوية القدس العثمانية فى تأسيس جمعية الهلال الأحمر سنة ١٩١٥، التى قامت فى الظاهر لكسب التأييد الشعبى فى فلسطين لمصلحة القوات العسكرية العثمانية ضد الحلفاء. وعلى الرغم من إشارات واصف الكثيرة إلى وحشية جمال باشا والثلاثى، فإنه كان مؤيداً نشيطاً للجمعية، وعمل سكرتيراً لأحد أعضائها القياديين، هو حمادة العفيفى (صفحة ٢٢٥). وكانت الجمعية، التى تمركزت بصورة بارزة فى المجمع الروسى المعروف بالمسكوبية، برئاسة حسين أفندى، الذى كان أجبر فى حينه على التخلى عن موقعه رئيساً للبلدية، كما ضمت بين مؤسسيها عدداً من المواطنين البارزين، المسيحيين واليهود منهم: إبراهيم (أبراهام) عينتيبى، يتسحاق إليشار، سليم خورى، وديع كتانه، وضابطان قياديان من الجيش العثمانى. واستطاعت جمعية الهلال الأحمر من خلال حفلاتها الموسيقية العامة، وعبر الالتماسات المباشرة، أن تجمع مبالغ كثيرة لمصلحة المجهود الحربى ضد العدو البريطانى والفرنسى. لكن جوهرية يرى أن الجمعية كانت ترمى أيضاً إلى إقامة جسر بين مصالح الطائفة اليهودية فى فلسطين والحكومة العثمانية، قبل ظهور الصهيونية قوة فاعلة. وكان دور كل من إبراهيم عينتيبى، مدير شبكة مدارس الأليانس الإسرائيلية فى القدس، والآنسة لانداو، التى توصف بأنها «حلقة الوصل بين الطائفة اليهودية فى القدس والقيادة العسكرية العثمانية»، محورياً فى توطيد هذه الروابط. ومن أجل هذا الهدف جندا عدداً كبيراً من النساء المقدسيات الشابات، اللواتى ارتدين بزات عسكرية عثمانية احتفالية، تحمل شارات جمعية الهلال، والتمسن هبات عينية ونقدية للجيش. ويحدد واصف هوية عدد من هؤلاء «السيدات الحسناوات»، اللواتى طورن علاقات حميمة بأصحاب السلطة العثمانية العليا: الآنسة تيننباوم («إحدى أجمل النساء اليهوديات فى فلسطين»، صفحة ٢٢٦) التى أصبحت خليلة جمال باشا، قائد الجيش الرابع (وبعد الحرب تزوجت أبكاروس، مدعى عام القدس الشهير)، الآنسة سيما المغربية، التى أصبحت خليلة سعد الله بك، قائد حامية القدس، الآنسة كوب، التى أصبحت خليلة مجيد بك، متصرف (حاكم) المدينة.

مذكرات فى الميزان

توفر المذكرات الجوهرية مادة دسمة للباحث التاريخى فى عدة مجالات من أهمها: تبلور تراث موسيقى شعبى إقليمى يربط بين بلاد الشام ومصر، من خلال تطور تكنولوجيا الإنتاج الموسيقى السماعية (الاسطوانة الشمعية واللدنة، الغرامافون والمذياع) ومن خلال تكثيف التواصل بين المغنين والتخوت الشرقية القادمين من مصر إلى الشام، والهجرة المعاكسة وظهور المنابر المناسبة لهذه الحفلات الموسيقية. ومن أهمها الكباريهات والمقاهى. حيث يحتل المقهى نصيب الأسد فى وصف الجوهرية لأماكن الأداء الموسيقى لفنه وجمهوره.

وفى وصف الجوهرية للحياة اليومية التى عاصرها نكتشف ـ أو بالأحرى نعيد اكتشاف ـ مجتمع متغير لم يعد معنا . ولكنه يسلط الأضواء على تبلور حداثة المدينة الفلسطينية، وانعتاق القدس من حاراتها المحصورة داخل السور إلى رحاب الضواحى الجديدة إلى الغرب والشمال من البلدة القديمة.

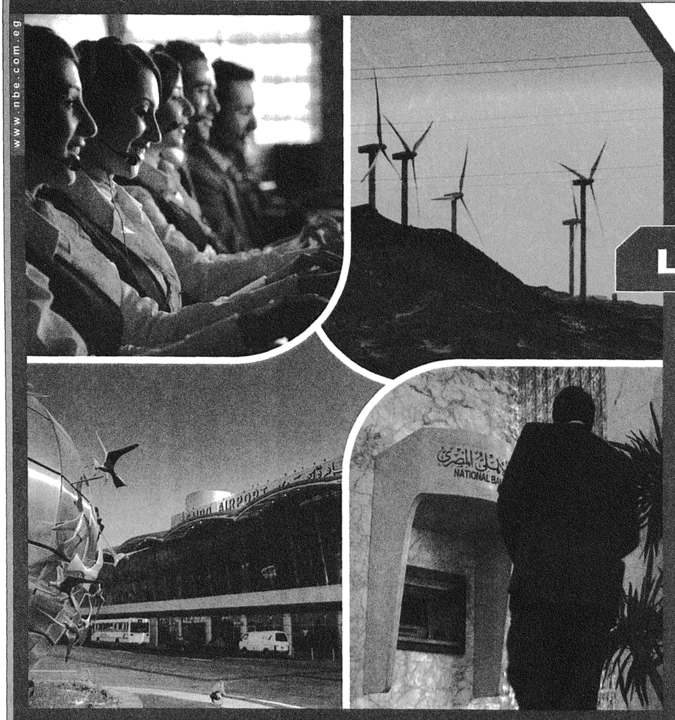
وفى هذا الخطاب نكتشف أيضاً ـ وهنا تقع أصالة كتابات الجوهرية ـ أن الحياة الاجتماعية داخل السور لم تكن مكبوتة ولا متقوقعة كما هو سائد. فالعلاقات الجوارية هناك تمكنت من تجاوز الحدود الطائفية والإثنية وبشكل حميمى غير متوقع كما سيتضح من وصف الروابط التكافلية بين عائلة الجوهرية وآل الحسينى. ومع أن هذه العلاقات بدأت كعلاقة محسوبية فى العهد العثمانى، إلا أنها نمت واتخذت أشكال صداقات وروابط شخصية فى الفترة الانتدابية بعد انهيار النظام الالتزامى القديم.

الأهم من ذلك أن هذه المذكرات تتحدى النظرة التقليدية إلى مجتمع القدس بوصفه مجتمعاً محافظاً منغلقاً يعتاش من الأوقاف الدينية واقتصاد الحجيج. ونجد فى الجوهرية وجهين لهذا التحدى:

الأول: فى وصفه لمظاهر الدين الشعبى الذى يجمع بين الطابع الاحتفائى للمواسم والأولياء والمزارات والذى يدمج الموسيقى الشعبية مع الطقوس الدينية الأزلية لأتباع الديانات الثلاث مع بقايا التراث الدينى المخضرم والسابق للتوحيد (ربما تراث يبوسى كنعانى). وتتجلى فى هذه المواسم مشاركة أهل الطائفة باحتفالات الآخر كما نرى فى مواسم النبى روبين والنبى موسى وعيد الخضر (مار جريس)، حيث يشترك المسلم والمسيحى واليهودى فى إحياء الذاكرة الجماعية الشعبية.

ونراه أيضاً فى بروز ثقافة علمانية جديدة لدى أبناء فلسطين من الطبقات الوسطى أبدع الجوهرية فى الاحتفال بها والمشاركة فى صنعها. وهى ثقافة المسارح والمقاهى والأمسيات الغنائية. خاض المؤلف غمارها بداية فى فرقة الجيش العثمانى فى القدس ثم انتقل إلى أدائه فى موسيقى الأفراح والاحتفالات الخاصة، ثم شارك فى موسيقى المسارح العامة والمقاهى الجماهيرية.

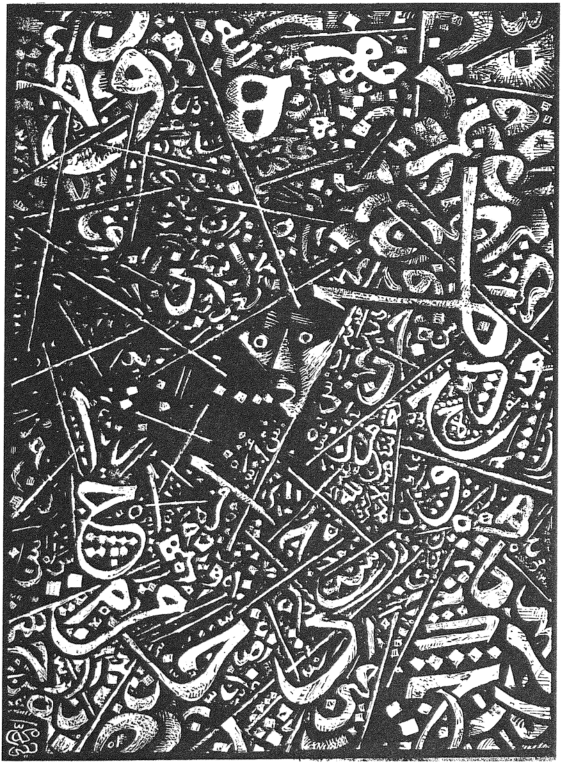
إن المقابلة بين هذين المظهرين للحداثة ونتائجهما لافت للنظر. فالتوليفة الدينية للدين الشعبى (مثلاً فى احتفالات النبى موسى والنبى روبين الشعبية) تبلورت باتجاه قومى فى الصراع الدامى بين النزعة القومية العربية فى العشرينيات والثلاثينيات فى اصطدامها مع الحركة الصهيونية. من ناحية أخرى فإن الثقافة العلمانية الشعبية امتدت وتخدرت فى الأربعينيات واكتسبت زخماً عندما أصبحت الجسر الواصل بين ثقافة فلسطين المدينية وثقافة الموسيقى والمسرح والسينما فى العالم العربى. ■


www.nbe.com.eg
NATIONAL BA

النص.. بين

طارق البشرى

[١]



■ ■ يتعامل رجل القانون دائمًا مع نصوص، سواء بالنسبة لعمله النظرى والتفسيرى، وبالنسبة لممارسته التطبيقية فى القضاء والإفتاء، لأنه دائمًا يتعامل مع مبادئ وقواعد مصوغة فى عبارات عامة، كما أنه يتعامل مع وقائع وأحداث جرت وتمت ويتلقاها هو فى صياغات خبرية، فهو فى الأغلب الأعم لا يتعامل مع الحدث إبان حدوثه ولا مع الواقعة فى حال جريانها، ولكنه يتعامل معها عند الإخبار عنها بعد تمامها، ويكون جزء من عمله هو التحقق من صواب الإخبار عنها، وذلك فى مجال عمله التطبيقى. وتكون غاية عمله التطبيقى هى إنزال أحكام النصوص المصوغة فى مبادئ وقواعد عامة على ما أخبر به الواقع من أحداث ونوازل معينة، وذلك لتقرير المركز القانونى الشرعى لمن تلحقهم آثار الحدث بعد تمامه.

فثمة قاعدة عامة ومبدأ عام مصوغ فى نصوص وهو ما نسميه التشريع أو القاعدة القانونية، وثمة إخبار بواقع حادث صيغ فى نصوص أيضًا وهو ما نسميه الدليل الذى تحكمه قواعد الإثبات، ولكن شتان بين النوعين من النصوص من حيث الطبيعة ومن حيث طرائق التعامل مع كل منهما. وإن منهج التعامل مع النص يختلف حسب طبيعته وما أعد من أجله. تشريعيًا كان هذا النص أو إخباريًا يتعلق بوزن الدليل على ثبوت الوقائع.

والنص بعامة هو عبارات محددة بألفاظها يرد بها معنى من المعانى، وهو عبارات مكتوبة أو مروية تثبت برسمها ويتناقلها الناس بحرفها، وإن المتلقى لها يستخلص منها دلالات فكرية حول معنى من المعانى ويرتب عليها النتائج، بمعنى أنها تشكل صيغة من العبارات المحددة بكلمات وألفاظ تفيد معانى وتنتقل إلى الناس بالقراءة أو بالسماع، وهم

التشريع.. والإخبار

النص التشريعي يتشكل في صورة نموذج قابل للتكرار بموجب طبيعته وبمقتضى أصل وظيفته المؤداة أو المقصود تأديتها. وهو أمر بشيء أو ناه عن شيء أو مرتب لأثر ونتيجة على فعل أو مقدمة

يتعاملون معها ويتفاعلون معها، وهنا يرد الفارق الأساسى فى النصوص، بين ما يمكن أن نسميه «النص التشريعى» الذى يتعلق بمبادئ وقواعد عامة، وبين ما نسميه هنا «النص الإخبارى» أو النص التاريخى الذى يتعلق بذكر واقعة أو حادث، ويقوم به دليل على ثبوتها أو نفيها.

النص التشريعى يتشكل فى صورة نموذج قابل للتكرار بموجب طبيعته وبمقتضى أصل وظيفته المؤداة أو المقصود تأديتها. وهو أمر بشىء أو ناه عن شىء أو مرتب لأثر ونتيجة على فعل أو مقدمة. والنص الإخبارى أو التاريخى يتشكل فى صورة إخبار عن واقعة أو حادثة نزلت، من وقائع الزمان الماضى أو الحاضر أو يمثل قولاً عنها أو تعليقًا عليها. فهو مثبت لوجوه ممارسة، وهو ذكر نازلة أو بيان موقف عينى أو فعل لبشر أو قول لبشر. ولكل من هذين النوعين أساليب مختلفة ومناهج متباينة فى التعامل.

[٢]

النص التشريعى نص معد لكى يحكم تصرفات الناس بعد صدوره سواء أكانت معاملات كبيع وزواج أو سلوكيات كصلاة وصوم أو عقوبات. وهو بأصل وجوده نص «متعد» وليس مجرد نص «لازم» بالمعنى اللغوى لهذين المفهومين. أى أنه نص لا ينفذ على مصدره فقط ولا تقتصر دلالته فى شأن من أصدره ولا تنحصر دلالته فى محتوى عينى له. إنما هو دائمًا يتعدى إلى الغير، بل إن المقصود من إصداره هو أن يتعدى إلى الغير ويحكم أنشطتهم.

والنص التشريعى يصدر فى الحاضر، أى فى الزمان الذى يصدر فيه، فلا ترد دلالته ولا أثره على الماضى الذى تم وجرى قبله. وذلك سواء أكان نصًا تشريعيًا إلهيًا ورد بالقرآن الكريم «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» وكذلك: «... إلا ما قد سلف»، بمعنى أن النص المحرم لزواج معين لا يسرى على ما سلف من زيجات مخالفة له. سواء أكان كذلك أو كان نصًا تشريعيًا وضعيًا ورد فى قوانين الدولة «مبدأ عدم رجعية القوانين». فهو دائمًا نص «قبلى»، أى يصدر قبل ما يتعامل معه من أحداث، من حيث استخلاص مفاده مما هو تال لصدوره وخاضع لمجاله، ومن حيث تطبيق دلالته على ما يعقبه.

بينما النص الإخبارى هو نص تاريخى، أى أنه ابن زمن حدوثه، هو نص لازم يتعلق بما أورد من وقائع وأحداث، لا يتعدى إلى وقائع وأحداث غير ما ورد به، ولا يحكم أحداثًا أو أشخاصًا غير من اشتملهم ببيانه، وهو من جهة أخرى يصدر فى الحاضر الذى صيغ فيه، وتنصرف آثاره ودلالته على الماضى الذى سجله، والذى يكون تم من قبل. فهو نص عينى تنحصر دلالته ومفاداته على ما شمله من واقعه ومن شملهم من أشخاص، وهو نص «بعدى»، أى أنه نتج وصدر بعد الحدث الذى يدل عليه، وليس شأنه فى ذلك شأن النص التشريعى الذى يصدر قبل الحدث الذى يدل عليه.

وهذه الفروق فى طبيعة كل من النصين أنتجت فروقًا كبيرة فيما يتعلق بمنهج تناول أى منهما وطريقة التعامل معه. ونحن فى عملنا القانونى التطبيقى ننزل حكمًا واردًا بنص تشريعى على واقعة أو تصرف وارد بنص إخبارى.

النص التشريعى هو نص نموذج، ودلالته معدة لكى تكون قابلة للتكرار، وآثاره معدة لتكون عابرة للزمن، لذلك يتضمن القدر اللازم من التعميم والتجريد، وأن يصدق على الأفعال المشار إليها فيه بأوصافها لا بأعيانها، وأن يصدق على الأفراد الذين يلحقهم حكمه بأوصافهم لا بذواتهم. ومن هنا كان أول درس يتلقاه طالب الحقوق عن نظرية القانون هو أن القاعدة القانونية لابد أن تكون عامة ومجردة، بمعنى أنه يتعين أن تعالج بطريقة تجعلها تسرى على الأحداث والأشخاص بموجب ما يتوافر فى أى من ذلك من وصف موضوعى. والنص هنا هو حكم يتعلق بأمر أو نهى أو بوضع مثل «كلما جرى كذا وجب أن يحدث كذا» فهو يضع شرطًا لتصرف أو يرتب نتيجة على تصرف، بغض النظر عن ذوات الأفراد وعينيات الأفعال.

والنص التشريعى بذلك يصوغ نموذجًا قابلاً للتكرار، وإن لم تكن فيه هذه القابلية فهو لن يكون نصًا تشريعيًا. وهو لن يكون كذلك إلا باشتماله على عنصر يتوافر مع توالى الزمن وتكراره، وأن يكون عنصرًا حاضرًا فى الأزمان التالية، يؤثر فى غيره ويتأثر به، مثل «إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه»، «إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير» (صدق الله العظيم) ومثل ما يرد بالقانون الوضعى «كل من اختلس منقولاً مملوكًا لغيره فهو سارق»، «يعاقب بالحبس مع الشغل على السرقات التى تحصل فى مكان مسكون»، «لا يجوز أن تزيد ملكية الشخص من الأراضى الزراعية عن خمسين فدانًا»، «كل عقد يترتب عليه مخالفة هذا الحكم يعتبر باطلاً»، «كل خطأ سبب ضررًا للغير يلزم من ارتكبه بالتعويض»، «يقرر القاضى مدى التعويض عن الضرر الذى لحق بالمضرور».

النص هنا صيغ صياغة تجعله نموذجًا لحالة وليس حالة بعينها، وهو بحسبانه نموذجًا يكون قابلاً للتكرار على كل ما يحدث من وقائع وتكون اتصفت بالأوصاف والأوضاع الواردة بالنص، ونحن عندما نتعامل مع مثل هذه النصوص يقابلنا نوعان من الأسئلة، نوع ينظر إلى عبارات النص وألفاظه أى إلى هيكل النموذج المعد وسمته ورسمه، ونوع آخر ينظر إلى الوقائع أو التصرفات أو الحالات التى تعرض على النص، أى أن المادة التى سيتعامل معها النموذج.

ففى النوع الأول من الأسئلة، عن تحريم القرآن الكريم للخمر، يقابلنا السؤال عما هو الخمر وما هو الميسر وما هو الرجس وما هو الاجتناب، وفى قانون العقوبات يقابلنا السؤال عما هو الاختلاس، ما هو المنقول وما هو المملوك ومن هو الغير، وفى قانون الإصلاح الزراعى يقابلنا السؤال عمن هو الشخص وما هى الملكية وما هى الأرض الزراعية، وكلها من أسئلة النوع الأول التى تتعلق بدلالات ألفاظ النص وعباراته، وباستنباط ذلك من المعانى اللغوية ومن المعانى الاصطلاحية التى يعبر بها أهل كل علم أو حرفة، وكذلك مما جرت به أعراف التعامل والتفاهم بين الناس فى كل صقع أو زمان. ونحن فى إدراك هذه المعانى نكون مازلنا نقف عند حدود نص جامد نتفهم دلالته فى ذاته فقط، سواء باستنباط المعانى من مقتضياتها أو باستقراء دلالتها من سوابق ما اشتملت عليه من حالات.

أما النوع الثانى فهو ينظر إلى الواقع الحادث، أى الواقع الذى جد وحدث بعد صدور النص التشريعى وينظر إلى ما يعتمل فى هذا الواقع وليس إلى العبارات فى ذاتها، لذلك تكون أسئلته أسئلة عينية تتعلق بالحالات التى يراد إنزال حكم النص عليها، وهى حالات مفردة أو ظواهر مخصوصة طرأت من بعد. وأسئلته هى من نوع، هل المادة السائلة التى أمامنا هى خمر، وهل الذبيحة التى نشاهدها كانت ميتة قبل حز السكين أم أثناء ذلك أم بعده، وهل الأرض المشار إليها مملوكة وهل هى زراعية وما مساحتها

ومن مالكها، إلى آخر هذه الأوصاف التى نستخلصها من الواقع المحسوس المحدد فى كل حالة على حدة، أو من خلال ظواهر مخصوصة جدت ونريد أن نعرف فى أى مركز شرعى أو قانونى يتعين أن نضعها.

[٣]

هذان النوعان من الأسئلة ومن وجوه النظر هما طرفا عملية تفهم النص التشريعى، وهذان الموضوعان ليسا منفصلين أحدهما عن الآخر، إنما هما متفاعلان يشكلان منهجاً واحداً فى فهم النص واستدعاء معناه مطبقاً على حالة معينة أو حالات مخصوصة. وإن ما نسميه تفسيراً للنص التشريعى أو اجتهاداً فى فهم دلالته أو فقه أحكامه، إنما يتعلق بهذه العملية مطبقة على حالة أو حالات معينة، أو أنه استخراج لمعانى النص التشريعى منظوراً فى فهمه إلى سوابق أعماله على الحالات التى طبق بشأنها. وفى كلمة، فإن التفسير هو تحريك النص الثابت على الواقع المتنوع والمتعدد الحالات. وهو ما يصل بين ما تتناهى ألفاظه وعباراته فى ذاتها، بما لا تتناهى حالاته فى تنوعها وتعددها وإحداثها وتغيرها.

والنص التشريعى بذاته، أو بألفاظه وعباراته، هو دائماً نص محافظ، وسواء أكان نصاً قديماً أو جديداً، وسواء أكان نصاً ورد فى كتاب سماوى لا يلحقه التغيير والتبديل لوروده من خارج الزمان والمكان، أو كان وضعياً يضعه الناس فى كل حين ليحكم ما يتراءى لهم من شئون دنياهم فى كل زمان ومكان. هو نص محافظ لأن وظيفته التشريعية أن يحكم واقعاً يطرأ بعده، وأن يلزم حركة الواقع من بعد صدوره لكى تكون محكومة به غير خارجة عن ضوابطه، ولو لم يرد به حاكموه الواقع التالى عليه ما كان يصدر أصلاً، وحتى النص الوضعى الذى يصدره الناس لتغيير أوضاع فى نظم حياتهم ومعاملاتهم حتى هذا النص الذى قصد به تغيير البيئة الاجتماعية القائمة عند



صدوره، فهو أيضاً له وجهة محافظة ترد إليه مما يحمل من أحكام ثابتة وما يفرضه من ذلك على واقع تال، بأشخاصه وعلاقاته.

وإذا كان ذوو الفكر الوضعى الفلسفى يستكثرون أن يحكموا بمبادئ الشريعة الإسلامية، لأنها تشمل نصوصاً وردت فى مصادر تشريعية أبلغت للناس من ألف وخمسمائة سنة، أو من قبل ذلك كما فى أديان سابقة أخرى، فإن من النصوص الوضعية فى البلاد الغربية والتى تبنت الفلسفة الوضعية فى التشريع، إن منها ما يعود إلى مائتى سنة مثل القانون المدنى الفرنسى الذى صدر أيام حكم نابليون لفرنسا، ومنها سوابق تشريعية قضائية عرفتها بريطانيا مثلاً من مئات السنين، ومجموعات القوانين التى صدرت فى مصر سنة ١٨٨٣ بعضها ظل يعمل لسبعين سنة تقريباً مثل القانون المدنى القديم الأخذ من القانون المختلط الصادر فى ١٨٧٥ وهو الآخذ من القانون الفرنسى وبعضها بهذه المصادر ذاتها ظل يعمل من بعد عشرات السنين فى مصر مثل القانون التجارى والقانون البحرى. وعاصر كل ذلك، سواء فى فرنسا وإيطاليا، أو فى مصر، عاصر نظماً سياسية ودستورية واقتصادية ومستويات تطور فى الأساليب التقنية ومذاهب فكرية وثقافية وعادات عيش ونظم عمل، عاصر فى كل ذلك من التغييرات ما لا يقل حجمه ولا وزنه وأثره ما حدث فى العالم على مدى القرون السابقة، وعرف فى بلادنا نظم احتلال أجنبى ونظم استبداد وديمقراطية ونظماً رأسمالية واشتراكية، عاصر كل ما يعرفه القارئ من تطور وتغير فى عشرات من السنين كثيفة الأحداث مزدحمة الوقائع متغيرة العلاقات متنوعة الثقافات.

[٤]

هذا عن وجه الثبات فى النص التشريعى، وأما ما يتعلق بتعامله مع الواقع المتغير، فإن هذا الوجه من وجوه منهج التفسير هو ما يكسب النص الثابت حركيته وفاعليته، وذلك بالخاصة الأولى التى ذكرتها وهى أن النص معد فى صياغته لأن يتجاوز زمن صدوره بما يلاحق ما يستجد من حالات، وهو معد لأن يتجاوز حدود ألفاظه لكى ينسحب على حالات ذات تنوع، وكل ذلك يجرى بمناهج عقلية اجتهد رجال المنطق، وعلماء أصول الفقه وفقهاء التفسير لأن يضعوا لها الضوابط والحدود.

لقد وضعت مناهج لتفسير النص التشريعى بما يمكن من تطبيقه على الواقع المتغير وعلى الحالات المتنوعة، ولهذا الأمر مناهجه فى الفقه الغربى، مما ينقسم إلى مدارس ومذاهب، فيقال مدرسة الشرح على المتون والمدرسة التاريخية والمدرسة الاجتماعية وغير ذلك، وأساس الخلاف بينها فى ضبط المنهج يتعلق بثبات النص ومحدودية معانيه الواردة بألفاظه وعباراته وبتغير وقائع الزمان والمكان وتنوع الحالات.. وفى فقه الشريعة الإسلامية وضعت مصادر لاستخراج الأحكام مثل القياس وضوابطه الذى يضيف إلى الحالات المنصوصة حالات أخرى وكذلك المصالح المرسلة التى تشغل من المجالات ما يقع بين المأمور به والمنهى عنه وما يقارب كلا منهما، وكذلك الاستصحاب والاستحسان لمن يقول به وغير ذلك، كما وضعوا مذاهب فى تخريج الأحكام من خلال عباراتها ولاستقراء القواعد الشرعية العامة من الأحكام التفصيلية إدراكاً للمقاصد العامة الهادية فى التفسير وغير ذلك، ولا أريد أن أزيد فى أمر يدخل بنا إلى ما يخرجنا عن السياق العام الذى نحاول رسم خطوطه العامة.

والذى أريد أن أشير إليه فى هذا الحديث أن النص التشريعى له اتصال مباشر بزمان التطبيق، وليس بزمان الإصدار فقط، بل إن اتصاله بزمان التطبيق أكثر وثوقاً من اتصاله بزمان الإصدار، ونحن كلما أعملنا حكمه فى حالة عرضت فى لحظة زمانية ما كان هذا النص ليس ابن الزمن الذى صدر فيه بقدر ما يكون ابن الزمن الذى أعمل فيه، لأنه ليس ماضياً ولى، ولكنه حاضر فى هذا الزمن الذى نزلت فيه النازلة التى استدعت تطبيقه عليها.

وإن أى واقعة تحدث فى تاريخ معين يمكن أن تتجمع فى حكمها مجموعة من النصوص وليس نصاً واحداً فقط، فواقعة قتل شخص مثلاً فى سنة ٢٠٠٧ يحكمها قانون العقوبات الصادر فى ١٩٣٧ بالنسبة للجريمة وقانون الميراث الصادر فى ١٩٤٣ بالنسبة لواقعة الإرث واقتسام المال الموروث، وقوانين المعاشات والتأمينات الصادرة فى ١٩٧٥ مثلاً أو ما بعدها بالنسبة لما يصرف لأولاده القصر وزوجته من معاش.

وهكذا، وكل من هذه القوانين صدر فى وقت مختلف عن وقت صدور الآخر، ولكنها تجتمع فى حكم الواقعة بصرف النظر عن تاريخ صدور كل منها، وهى تجتمع على ذات المستوى من الفاعلية بحسبانها كلها قوانين الحاضر بالنسبة للواقعة التى حدثت فى ٢٠٠٧ مثلاً، وأن أحكامها بحسبانها من «حاضر الواقعة» تتداخل فى التفسير وتبين الدلالات.

وهذا النص التشريعى يتجدد تطبيقه وتتجدد دلالاته وهو بتنوع الحالات التى تعرض له فى التطبيق تغتنى معانيه وما يستفاد منه من أحكام. وإنه مثل الكائن الحى الذى تكسبه الحركة والتعامل خصوصية وخبرة وثراء فى الأثر والدلالات. وفى العمل

القانونى التطبيقى نلحظ نصوصًا تصير ثرية جدًا وخصبة جدًا فى معانيها، ويمكن أن يوضع فى تفسيرها ما لا يكاد يحصى من الشروح، نلحظ ذلك مع طول المعايشة فى العمل التطبيقى حتى فى داخل القانون الواحد، وذلك بسبب كثرة تعامل الناس بما يخضع لها من أحكام، نتيجة أوضاع اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية، والكثرة تفيد التنوع وكثرة التداخل بين الأنشطة وتستثير الالتباس والعمل على إعادة الضبط والتحديد، وتستثير الأذهان لتبيين الضوابط والفروق وتحديد الآثار المترتبة على الوقائع والتصرفات.

وعلى سبيل المثال، فإن الدستور المصرى الذى صدر فى سنة ١٩٢٣ فيه مواد استغرقت جهودًا هائلة فى تفسيرها، وكان ذلك يعود إلى الصراع السياسى المحتدم إبان سريان الدستور بين أنصار التوسعة فى الحركة الشعبية وبين أنصار التوسعة فى سلطات الدولة والملك مثل المادة ١٥ الخاصة بحرية الصحافة، والمادة الخاصة بتنظيم الاجتماعات، وثمة نصوص ترد فى كتب الشرح والمجموعات القانونية تسرد سردًا مجردًا، فلا يكاد يلتفت إليها، مثل المادتين ١٦و١٧ الخاصتين بالتعليم فى الدستور ذاته. وعلى سبيل المثال أيضًا، أذكر منذ سنوات بداية عملى فى مجلس الدولة فى شبابى فى النصف الثانى من القرن العشرين، كانت ترد إلينا فى إدارة الفتوى بالمجلس المشاكل القانونية الخاصة بتطبيق قانون الإصلاح الزراعى وتحديد ما يستولى عليه لدى كبار الملاك، فكانت هناك نصوص تخضع لضغط كثيف فى التطبيق من كثرة المشاكل وتنوع الحالات التى تعرض وهى النصوص الخاصة بما تستولى عليه الحكومة من الأرض وما تسمح للمالك باستبقائه وما يعتبر مملوكًا للمالك وما لا يعتبر مملوكًا، مثل المادتين ٣ و٤ من القانون ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ وما يليه. وكان ثمة مادتان لا يكاد يفطن إليهما قارئ القانون وهما المادتان ٢٢ و٢٣ منه الخاصتان بالحد الأدنى للملكية الزراعية وعدم جواز تفتيتها لأقل من فدانين وعدم جواز التجزئة لأن المتعاملين جميعًا ابتعدوا عنها ولم يلتفتوا إليها ويكاد ألا يكون أحد طلب تطبيقها.

أردت بذلك كله أن أشير إلى أن النص التشريعى لا يتصل بزمان صدوره فقط، ولكنه يكاد يولد يوميًا مع كل حادث أو تصرف يقتضى استدعاء حكم هذا النص، ويعتبر عنصرًا من عناصر الحاضر، حاضر الواقعة الحادثة أو التصرف الصادر مما يخضع لمجال انطباق النص التشريعى.

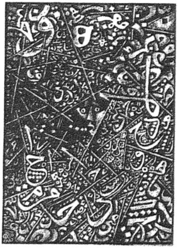
[٥]

أما النص الإخبارى فهو يثبت حدثًا أو ينبئ به، سواء أكان الحدث واقعة مادية أو كلامًا قيل أو كُتب أو علاقة ظهرت أو أمرًا تنظيميًا جرى، أو كان شيئًا من ذلك تغير وتعدل، هو واقعة أو فعل لبشر أو قول لبشر. على أن يتعين أن نلحظ أن النص الإخبارى المعنى هذا ليس هو فقط الواقعة التى نزلت وليس فقط العمل الذى مورس، ولكنه أيضًا «الإخبار» بأى من ذلك بالكتابة أو بالرواية أو بأى صورة من صور التناقل أو التداول لما حدث.

فنحن هنا إزاء واقعة حدثت وحفظها بعد حدوثها ذكرها أو الإخبارعنها، ويتعين أن نتأمل فى هذا الشأن، فإن الواقعة فى ذاتها كان من شأن حدوثها أن تستوعب وتمتص فيما حولها من وقائع وأحداث وأن يذهب بها ويطمسها من بعد ما يتلوها من وقائع وأحداث تتلوها وتزيلها أو تغيرها أو تتراكم عليها بما يطمس تفردها وتبينها بحسبانها حدثًا متميزًا منظورًا إليه فى ذاته. ولكن ذكر الواقعة أو الإخبارعنها ثبتها أولاً، فصار هذا الذكر لها أو الإخبار بها مما يبقى النبأ عنا حتى بعد زوالها أو استيعابها فى غيرها مما يجرى حولها أو يتلوها. ثم إن هذا الذكر لها أو الإخبار بها يحملها بالتناقل خارج محيط حدوثها، سواء فى داخل الزمان الذى وقعت فيه إلى غير من تعاملوا مع وقوعها تأثيرًا فيها وتأثرًا بها، أو إلى خارج زمان حدوثها كله.

ونحن يتعين أن نتنبه هنا إلى أن ما تناقل، أى ما تجاوز محيط حدوثه مكانيًا أو زمانيًا، ليس الحدث ذاته واقعة أو تصرفًا، ولكنه الإخبار عنه هو ما تناقل وتجاوز محيطه الزمانى أو المكانى، وهذا الفارق فارق جوهرى، وهذا الفارق وضعنا مباشرة فى صميم «نظرية المعرفة» التى تعتبر بابًا من أبواب الفلسفة وعلومها، وهى ببساطة تتعرض للمسألة الفلسفية الخاصة بطبيعة المعرفة البشرية للموجودات الكائنة خارج الإدراك البشرى وحدود هذه المعرفة ومدى مصداقيتها. ولكننا لا نتكلم فى هذا المجال الفلسفى، وإنما نعرض لفكرة التمييز بين الواقعة أو الفعل كما حدث فى ذاته وفى سياق ما أحاط به من أحداث سابقة ولاحقة ومواكبة، وبين إدراك الواقعة أو الفعل لدى من أثبتها ونقلها، أى لدى المخبر عنها حسبما صيغت لديه فى نص كلام مكتوب أو مروى وهنا تدخل فى مجال نظرية الإثبات فى القانون فيما يتعلق بالشهادة والإقرار وتبيين القرائن وغير ذلك ولكننى هنا لا أتكلم فى هذا المجال المتسع الأرجاء المتعدد الوجوه، إنما أتكلم فقط فيما يخص الفرق الأساسى بين ما يشكل نصًا إخباريًا وبين النص التشريعى، أتكلم عما يخص هذا الفرق من زاوية واحدة تتعلق بمناحى استخراج الدلالات وما يفيد فى ذلك.

والأصل فى الإخبار عن الحدث أن يكون لصيقًا به ولا يجاوزه، وإن كان الحاصل أيضًا أنه يتضمن أثرًا أسبغه



عليه من تحول على يديه الحدث إلى الخبر بالإدراك له وبالنقل، وهو أثر يرد من إنشاء الخبر وذكره، وهو أثر يحتمل قدرًا من التحوير والتغيير، بالإضافة إليه أو بالاجتزاء منه أو بالتبعيض له بذكر بعض مظاهره دون بعض. فما لا يعتبر لدى كثيرين مما يكمل الحدث، قد يعتبر لدى آخرين أجزاء متممة ومكملة له وأن تكون من مقتضاه، كانتقال مال من يد شخص إلى يد شخص، يخبر بها معزولة عما يكملها من اتفاق أو أفعال غصب أو غير ذلك. والأمر أحيانًا يدق فلا تكون الزيادة أو النقصان أو الاجتزاء مقصودة ممن أخبر بالحادث ولكنها تكون بسبب عدم تبين المخبر أو بسبب أن تكوينه العقلى المسبق وتجاربه السابقة لم تمكنه من استيعاب جملة ما يعتبر من أجزاء الحدث أو متمماته، مصداق ما ورد بالقرآن الكريم «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى» صدق الله العظيم (سورة البقرة الآية ٢٨٢).

ثم هناك التشكل العقلى والثقافى وما يولده نوع الخبرات المتراكمة لدى من ينشئ الخبر أو ينقله بما يجعل المخبر يسبغ على الحدث من أحكامه أو تقاريره أو أوصافه التعبيرية ما يتحول به الحدث على يديه إلى الإخبار عنه وصياغته فى نص. فمثلاً واقعة أن جماعة من الناس تجمعت فى الطرق وصارت تهتف هتافًا ما، فهذا حدث، ولكن الإخبار عنه قد يورد له وصفًا، فهو انتفاضة أو ثورة أو فتنة أو تمرد شعب أو غير ذلك، وهذا الوصف هو ما أضافه الخبر إلى الحدث عندما صار نصًا، وهو يحمل أثرًا واضحًا لمن نقل الحدث وحوله إلى خبر.

[٦]

إن النص فى هذه الحالة يكون وسيلة للإخبار بحدث، هو إدخال للحدث فى صيغة كلامية من صيغ التعبير بالكتابة أو الشافهة، وهو فى ذلك يحمل وصفًا للحدث، وصفًا ممن تولى صياغة الإخبار به، حسبما ذكر فى الفقرة السابقة، فثمة عدد من الخصائص للنص

الإخبارى (أو النص التاريخى) وهى خصائص لصيقة به لا تكاد تنفك عنه، ومنها:

أولاً: إنه نص يتعلق بحدث سابق عليه، أى أنه نص يكون معبراً ومخبراً عن حدث سابق، ومن ثم يكون نصاً تاريخياً لأن وجود الخبر يفيد تماماً وقوع المخبر عنه وأنه قد مضى. والأحداث نوعان من حيث الزمان نوع فورى الحدوث، أى يحدث بدءاً وتماماً فى ذات اللحظة بما يصعب معه فى تعاملات الناس الفصل الزمنى بين البدء والتمام، مثل الصور المعروفة عن تعبير الشخص الطبيعى عن إرادته القانونية أو أى قول يصدر من شخص معين أو قتل إنسان أو ضربه، ونوع ممتد يستغرق زماناً يدركه الناس فى معاملاتهم العادية، مثل القرار الإدارى المركب الذى يتشارك فى إصداره عديد من الجهات أو المجالس أو المؤسسات، ومثل أحداث التاريخ بعامة كحرب مثلاً أو عملية انتخابات لمجلس تشريعى تستغرق شهراً أو شهرين. فالغالب فيها أنها أحداث ممتدة زمانياً وليست من نوع ما يبدأ وينتهى فى لحظته، إنما هى تبدأ وتستمر فى التشابك وسط صراعات ومجادلات بين قوى عديدة، متعارضة أو متحالفة أو تتخلق فى مراحل التشكل حتى يكون تمام اكتمالها هو تمام انتهائها وبداية ما ولدت من آثار، ويكفى أن نضرب مثالاً على ذلك بحادث حرب أو حادث ثورة أو حادث بناء نظام سياسى.

وأن النص أو النصوص التى تخبرعن أى من الأحداث سواء أكانت أحداثاً فورية أو ممتدة إنما تكون مما يخبر عن ماض تنبئ به وتصفه، ووصف الحدث عند ذكره يبدو فى الغالب الأعم من الحالات لا مندوحة عنه، لأن الوصف يلتبس بالتعبير عن الحدوث. فأخذ المال من شخص إلى شخص لا يعبر عنه بهذا اللفظ إلا فى النزر اليسير من الحالات، إنما يقال أعطى أو استولى أو استرد أو تقاضى أو منح أو استلم، والغالب من هذه الألفاظ تحمل ظلالاً من معان تعبر عن رضاء أو كره فضلاً عن لفظ اقتحم أو اغتصب أو غير ذلك، والمهم هنا أننا نتعرض لحدث مفرد، ومهما كان له أو صار له من متشابهات فإنه معين بذاته وليس



نمطاً متكرراً، أو بمعنى أدق ليس المقصود عند الإخبار عنه ذكر جنس له أو نوع، إنما المقصود إفراده بذاته بما ينبئ عنه ويبينه، ولذلك فإن من يتكلم عنه أو يبحثه أو يتعامل معه بأى من وجوه التعامل إنما يتعين أن يدخل إليه فى ماضيه وينظر إليه ويستبينه فى بيئته وفى سياقه الذى حدث فيه وتفاعل معه.

وهذا ما يفترق به تماماً النص التشريعى عن النص الإخبارى أو التاريخى من حيث الطبيعة والخصائص ومناهج التعامل معه، النص التشريعى نتفهمه فى سياق ما يتلوه من وقائع. والنص الإخبارى نتفهمه فى سياق ماضيه وما واكب نزوله.

ثانياً: النص الإخبارى بوصفه صيغة لإثبات حدث مضى أو تبيينه، يرتكز فى مصداقيته على وسائل التحقيق لأدلة الإثبات للوقائع والتصرفات، أو لمنهاج التحقيق التاريخى للأحداث، ووسائل التحقيق والإثبات فى مجال الحقوق والقانون معروفة للوالجين فى مجال هذا العلم بفروعه المدنية والإدارية والجنائية، كما أن مناهج تحقيق الأحداث العامة والتاريخية معروفة لذويها، وفيها نقد الرواة الذين تناقلوا ذكر الحدث ونقد الوثائق والمستندات التى دلت عليه واشتملت على ذكره فى مدوناتها. ودلائل الثبوت هنا تتراوح فى القوة والضعف، كما تتراوح فى نسبية الدليل ومدى حجيته، وفى مجال الحقوق فإن الفروق معروفة فى الحجية وطبقاً لمداها بين الإقرار على النفس أو الشهادة على الغير أو القرائن بدرجاتها المتباينة، وفى مجال علوم الاجتماع والتاريخ فإن ذكر الوقائع والأحداث يتوافر لها كذلك فى الحجية ما يتراءى من مدى حياد المصدر أو انحيازه ومدى مصداقيته، فيما عرف عنه ومدى ضبطه فى التثبت، وتقوى دلالة الثبوت وتضعف وفق ما يتبين فى هذا الصدد.

ومن ناحية أخرى أهم، فإنه متى ثبت حدوث الفعل، فيستحيل بعد ذلك إلغاؤه أو نفيه، لأنه فعل مضى وانتهى، ويستحيل إلغاء الماضى كما يستحيل تغيير وقائعه وأحداثه أو تعديل ما وقع.

والنص التشريعى يخالف النص الإخبارى (أو النص التاريخى) فى هذا المجال من طرفيه، فالنص التشريعى يحتاج للإقرار بقيامه ووجوده درجة أو حداً أدنى من اليقين فى الثبوت لا يمكن النزول عنها، وإلا انتفى النص التشريعى، لأنه لا يمكن أن يتحاكم الناس فى حاضرهم ومستقبلهم إلى ما لم يثبت لوجوده درجة عالية جداً من درجات اليقين المعتبر، سواء أكان نصاً دينياً أو نصاً وضعياً، وسواء أكان قانونا أو عرفاً، كما أن النص التشريعى بخلاف النص الإخبارى له حجية مطلقة على من ينتفع به أو يضار به، أما النص الإخبارى فحجيته نسبية لأنه ابن واقع محدد ولد فى سياقه واكتسب مضامينه من هذا السياق المحيط به، وتحددت دلالاته العينية فى إطاره دلالة غير قابلة للتكرار، فهو ليس نموذجاً يتوالد مع الزمن.

وكذلك فإن النص التشريعى يمكن أن ينسخ إذا ثبت صدور تشريع تال له ألغاه صراحة أو تضمن أحكاماً مخالفة له، ويكون نسخه أو إلغاؤه من تاريخ صدور التشريع التالى المخالف حسبما هو معروف، وبسبب قيام هذا التصور فإن النص التشريعى كان إبان سريانه ممتد الأثر على ما يليه من أحداث وهو يحكم ما تلا صدوره من وقائع، أما النص الإخبارى أو التاريخى فهو حدث مضى وانتهى وليس له حاكمية وليس له أثر مباشر، يمتد فى المستقبل، بما يجعله نموذجاً قابلاً للتكرار، يمكن أن تكون له آثار واقعية ترتبت عليه، ولكن هذه الآثار تلحق به التحاق نتيجة بسبب أي نتيجة عينية ملموسة مفردة بسبب هو عينى وملموس ومفرد كذلك، دون أن يكون النص فى ذاته متجدد التطبيق على حالات لم تنجم عنه وإنما لاحقها بحسبانه تشريعياً متجدد الحضور معها ومع كل حالة مماثلة تولد.

سيبقى الحدث دائماً منسوباً إلى زمان وقوعه، وسيبقى محك تقديره وفهمه واستخلاص دلالاته هو موقف الحدث مما واكبه

[٧]

وقد سبقت الإشارة إلى أن النص الإخبارى هو بوصفه صيغة ذكر لحدث ماض، إنما يحمل غالبا وصفاً لهذا الحدث، وفقاً للدلالة أو الفحوى التى وقرت لدى من صاغ الحدث فى خبر مكتوب أو مروى، وأن الوصف أو التعبير الذى صيغ به الخبر الغالب أن تختلف أو تتنوع عليه وجوه النظر

من كتاب أو رواة أو باحثين، ناهيك عن أن يكونوا أطرافًا فى خصومة أو أن يكونوا من ذوى المصالح المتعارضة، وهنا يتفاوت ما تفضى إليه الدلالات والتى يمكن استفادتها أو استخلاصها من الحدث، لأن النص هنا إنما يكون صنعه من أعد الحدث أو شارك فى صنعه أو عاصره، أو يكون هو من أثبته من بعد أو علق عليه، فهو من ثم يحمل أثرًا لوجهة النظر الحكمية لمن قام بصياغته.

ولكن مع ذلك كله سيبقى الحدث دائمًا منسوبًا إلى زمان وقوعه، وسيبقى محك تقديره وفهمه واستخلاص دلالاته هو موقف الحدث مما واكبه وأحاطه من ظروف فى السياق الزمانى والمكانى له، وسيبقى صحيحًا القول بأننا إذا نزعناه من سياقه هذا فسيفقد دلالته ومعناه، ونحن لكى نفهم دلالة حدث ما تصرفًا كان أو واقعة، يتعين أن نحيط بأوضاع نشأته وظروف تكونه وما تجمع على تشكيله من أوضاع وما ترتب على قيامه من آثار، ونحن نكون أقرب لفهم هذا النص وأصوب فى استخلاص دلالاته كلما اقتربنا من طريق نشأته وتكونه، وكلما وصلناه بالأوضاع والأحداث التى صدر فيها، وهذا الوصل بأوضاع النشأة يكون هو ما يجلى الحقيقة بقدر الإمكان بشأنه ويخلص الخبر بقدر الإمكان بما يكون علق به من شوائب الأوصاف غير الدقيقة، أو المنحازة لطرف ضد طرف.

ومن هنا يتعين ملاحظة عدد من الأمور لاستكمال فهم دلالة النص الإخبارى، من ذلك سياق الحدث المنصوص عليه فى المجال الثقافى، أى مجال إدراك المتعاملين له بمعناه لغة ومصطلحًا وتعارفًا، وكذلك سياقه فى المجال الاجتماعى والسياسى إن كان حدثًا ينتمى إلى هذه المجالات، وسياق النص المصاغ به الخبر فى إطار ما كان يجرى به الخطاب بين من يوجه الخطاب ومن يتوجه له الخطاب، لأن وجوه التركيز فى الكلام ووجوه التفصيل والإجمال فيه تكشف عن طبيعة الجدل والحوار العام الدائر عندما وضع النص الإخبارى وصيغ به الخبر عن الحدث.

والخلاصة أننا نقترب من النص التشريعى أكثر من فهم دلالاته وإدراك معانيه كلما استطعنا أن ننقله أكثر إلى حاضرنا، وكلما أعملناه فى سياق هذا الحاضر، ولا شك أن أوضاع إصدار النص التشريعى فى زمانه وتتبع تعامل الأجيال السابقة معه فى أزمانهم المتوالية هى مما يساعدنا فى إيضاح دلالات هذا النص وقدراته فى توليد الأحكام منه، مما يسمى بـ «اختلاف الفتوى باختلاف الزمان والمكان»، إلا أنه يبقى أمر مهم وهو أن ثمة علاقة مباشرة بين النص التشريعى وبين الواقع المستقبل فى تطبيقه على الوقائع الحاصلة.

وبالمغايرة لهذا الوضع بالنسبة للنص الإخبارى فنحن نقترب منه أكثر فى فهم دلالاته وإدراك معانيه كلما استطعنا أن ننتقل نحن إليه فى زمان حدوثه وصياغاته، واستحضرنا بهذا الانتقال أكثر ما يمكن استحضاره من وقائع ماضية وأحداثه المحيطة به على المستويات الإدراكية الثقافية والاجتماعية، والحادث أنه فى النص التاريخى الذى يتعلق بأوضاع عامة سياسية واجتماعية، فكثيرًا ما يجرى إسقاط ثقافى من أوضاع الحاضر المعيش على الماضى الذى ينتمى إليه الحدث وتشكل فى ثناياه وصيغ الخبر فيه، وكذلك بالنسبة للنص الإخبارى الذى يجرى بين أفراد الناس فى تعاملاتهم الحقوقية يمكن أن يطغى فكرنا الحاضر على تفهم صياغات جرت فى الماضى عن أحداث جرت فى هذا الماضى، وفقًا لدلالات تعدلت وهذه عيوب وشوائب يتعين الحذر منها، وسيبقى الأمر الجوهرى هو أننا لن نقترب من فهم النص الإخبارى اقترابًا أكثر إدراكًا للصواب إلا إذا انتقلنا إلى زمانه واستوضحنا معانيه فى ذلك السياق، وبالعكس لن نقترب من النص التشريعى اقترابًا أكثر إدراكًا للصواب إلا إذا نقلناه إلى زماننا الذى يطبق فيه بحسبانه من عناصر هذا الزمان المتجدد. والحمد لله.

كتاب الزاوية

الديمقراطية ورواد النهضة

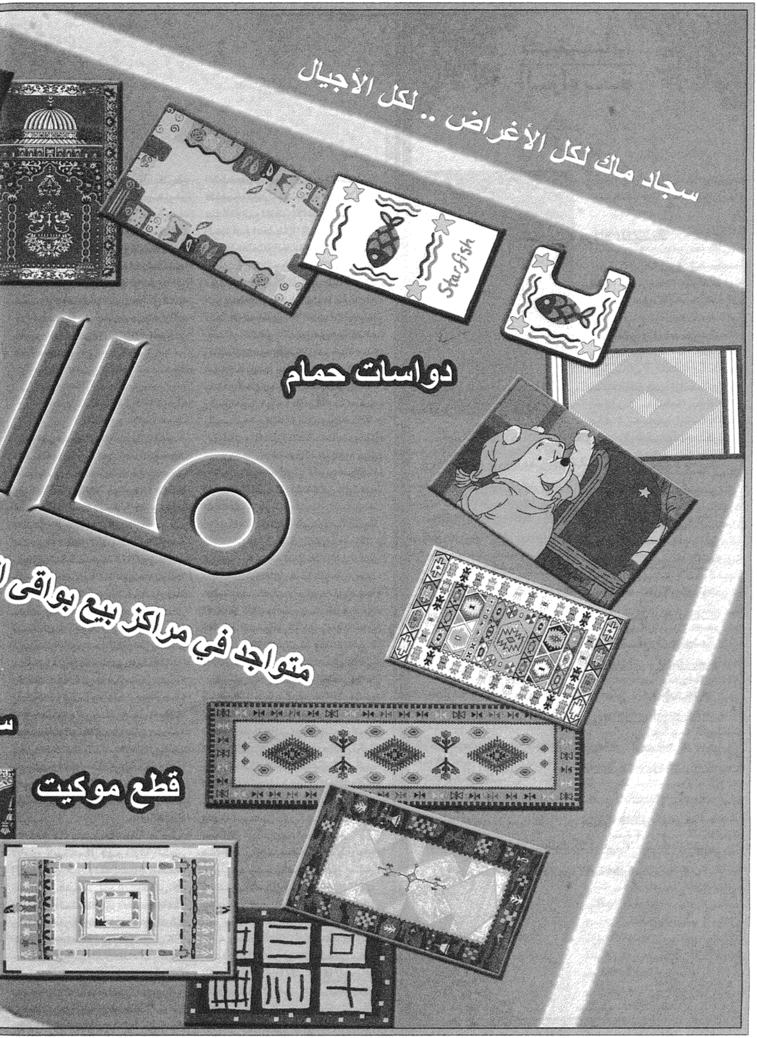
أديب إسحق

الملك إما استبدادى، وإما شورى. والشورى إما جمهورية، أو ملكية. وهذه مراتب الملك منذ كان القانون، ووجب حفظه، وخرج عن هذه المراتب الحكومة الفوضى إن صحت تسمية الفوضى بحكومة.

وما كل ملك بملائم لكل قطر. وما كل قطر بصالح لكل ملك. فالجمهورية وهى حكومة الشعب بالشعب، لا يحسن أن تكون فى قوم تولاهم الجهل. والملكية الاستبدادية، وهى حكومة الشعب بواحد منه لا يصلح أن تكون فى قوم بلغوا من التمدن والمعرفة غاية نبيلة، وإن كانت فلا تلبث أن تنقلب شر منقلب، كما جرى لحكومة لويس السادس عشر، وشارل العاشر. ونابليون الثالث فى فرنسا فإن حكومات هؤلاء الملوك، وإن وسمت بالشورية ظاهرًا، فقد كانت استبدادية باطنًا، وذلك ما دعا إلى نقضها، وثل عروشها.

ومن الحكومات من تراعى ذلك فتجريه إيثارًا لمصلحة بلادها وحرصًا عليها، ومنها من تمتنع عنه فتكره عليه.

ولقد عرف الناس الآن شرور الاستبداد، وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضى به، وصار الأمر شورى عند جميع الدول المتمدنة إن صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقًا بدولة متمدنة. ولا يتعذر على العاقلين منا أن يزيلوا أفكار التعصب من أفكار الجاهليين، فنكون جميعًا أمة واحدة لا تتعصب إلا لوطنها، ولا تطلب إلا صيانته، وتنقش على صفحات قلوبها: فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
www.maccarpet.com

التقويل

مقالة فى هاجس الاستباق

خيرى منصور

■■ إذا صحّ أن تاريخ العلم هو ذاته تاريخ الأخطاء فمن باب أولى أن تكون المعرفة كلها بمثابة اعتذارات متعاقبة عن منجز ناقص، لأن المستقبل ليس مجرد مجال حيوى لتجليات الماضى وتمدده، بقدر ما هو أحيانا قطيعة مزدوجة، مع المنهج والمحتوى، وحين قال الفرد وايتهد بأن البشرية محكومة على الدوام بالارتطام بأفق إغريقى، لم يكن يعنى أن الإغريق قادمون من المستقبل ليصادروا على كل مغامرة... والمعنى الوحيد الذى يمكن استخلاصه من تلك العبارة هو أن المغامرة الإغريقية لا الإغريق هى قدر الإنسان الذى يحاور شروطه.

وإذا كان التأويل مطلبا معرفيا بالحاح، لأنه يغنى ويعدد فإن التقويل هو على النقيض منه رغم اعتباره فى بعض الأحيان وعلى نحو إجرائى أقصى مراحل التأويل..

فالتقويل، تعذيب النصوص على طريقة قاطع الطريق اليونانى بروكوست لتعترف بما لم تقترف، وهو أيضا تأبيد للماضى باعتباره النموذج الكامل، والتورط بفقه التقويل معناه أن يجد الإنسان نفسه مثقلا بحمولة من الأجوبة على كل أسئلته على اختلاف الأمكنة والأزمنة، وبذلك يكون قد حكم عليه بالبطالة العقلية لأن هناك من فكروا عنه وحلموا له... وعاشوا أيضا نيابة عنه.

التقويل هو التعبير الأدق كما نرى عن تاريخ داجن، يخلو تماما مما سمّاه هيجل المكر أو المباغتة غير المحسوبة.

وللتقويل تجليات فى الأدب والفلسفة والعلوم ولا ينجو منه حتى الفن.

إنه شغف إنسانى لتحقيق هاجس الاستباق استرضاء لنرجسية قومية أو فردية أو أيديولوجية، وإذا كان القدماء قد قالوا أقوالنا كلها فتبًا لهم كما قال دانتوس ساخطا....

إن التقويل الذى يتجاوز حاصل جمع الممكنات للنص أو الظاهرة أو الحدث.. هو مصادرة بامتياز، بل هو الماضى وقد استطال ليقضم ما تبقى من أشواق إنسانية للتغيير والكشف والاجتراح!

لنبدأ من ذلك التقويل العفوى، من نهايات مملكة الأمثال، حيث تم الوفاق على أن المثل حكمة تختزل خبرة أجيال، وما من شىء كالمثل يحيل إلى الذاكرة الجمعية، الذاكرة المصون من كل نسيان. فى مصر يقولون حين تأزف المناسبة.. «على رأى المثل»، وفى العراق يقولون «لم يترك أبو المثل شيئا لم يقله.. ثم يقول أبو المثل».. وأبو المثل هذا هو مصدره التاريخى الذى يعيد إنتاج نفسه فى كل مناسبة مماثلة، وفى الشام يقولون: مثل مايقول المثل.. الخ.



ها نحن إزاء معرفة أنجزت بكاملها فى الماضى، وقطرت فى مختزلات كلامية قابلة للحياة فى كل حين، لا شىء يتجدد إذن، مادام القياس ممكنا على الدوام ومادام النموذج الماضوى قد انغلق على نفسه فى تلك الخلاصات التى لايأتى المستقبل إلا بصفته مجالا حيويا لها.. ولكى يكرس مصداقيتها..

من هذا المبتدأ، تقويل الكلام المقول من قبل، من خلال دمجه بالحادثة المعادة.. أو بمعنى أدق المستعادة، فالبشر يمشون حول أنفسهم، ويعودون دائما إلى تلك المحطات التى ظنوا أنهم فارقوها.. هذا ما يشى به تقويل المثل حين يتم العثور على حادثة تتطابق مع معناه كدائرتين متساويتين فى القطر والمحيط، ومن خلال هذا الانطباق التام يتجدد المثل المقول من قبل ويستمد طاقة جديدة للإقامة فى الذاكرة، وحتى الشعر فى أعلى درجات (تقويله) حين يكون خلاصة لحكمة، متشبها بالمثل أو صائرا إياه فى بعض الأحيان، يتم تجريده من مصدره الذاتى، وتحل المرجعية الجماعية متجسدة فى الذاكرة الكلية محل الشاعر نفسه، ولو شئنا التعبير بشكل أدق لقلنا: يتم تجريده من شعريته تماما، وتقطر منه الحكمة (المَثَلية) لكى يعاد تقويله فى مناسبات ملائمة، إننا فى هذه الحالة أمام (آلية) عجائبية تقوم بتهجير القصيدة، أو بعضها . من زمانها ومكانها وذاتيتها إلى أزمنة وأمكنة وذاتيات مغايرة، بحيث يبلغ التقويل حد إعادة الكتابة.

إننا أمام (مكتوب) يتم اجتراره حين يتطلب الأمر ولأبى الطيب المتنبى حصة الغابة كلها وليس الأسد وحده فى هذا المضمار[1]، فهو الشاعر الأكثر استقطارا للحكمة، ولعله الشاعر الأكثر تداولا على هذا الصعيد، حتى بالنسبة له.. فهو يرى نفسه القائل المستمر، بل مصدر كل قول، الآخرون من الشعراء يشكلون فى مجموعهم أصداء له، يذكرون به كالمثال الأفلاطونى السماوى، الذى تتناسل صوره الباهتة وظلاله فى الأرض، إن سيلان القول فى حالتى الشعر الحكمى والمثل الشعبى يشبه إلى حد بعيد سيلان الزمن نفسه، وربما تخطاه كما فى إحدى مبالغات أبى الطيب المعروفة، بعد هذا المدخل، سنجد أنفسنا فى مواجهة التقويل الواعى القصدى، ذلك الذى أمثلته متناثرة بدءا من طرائق التفسير وانتهاء بإغلاق الزمان ومصادرة المستقبل على الحكمة التى تم تقطيرها فى الماضى، لقد كان الغزالى يقول:

(إذا بدا لك تناقض بين الدين والعلم فاعمد إلى التأويل ذلك خير من أن ترمى الدين بتهمة الضعف). هكذا تصدر الحاجة، وليس الرغبة حسب، فى التقويل عن هاجس احترازى، خشية أن تقدم

فى مصر يقولون حين تأزف المناسبة.. «على رأى المثل»، وفى العراق يقولون «لم يترك أبو المثل شيئا لم يقله.. ثم يقول أبو المثل».. وأبو المثل هذا هو مصدره التاريخى الذى يعيد إنتاج نفسه فى كل مناسبة مماثلة، وفى الشام يقولون: مثل مايقول المثل

سيرورة الواقع حرجا ميدانا لفكرة أبدية الصواب، والتأويل بهذا المعنى الذى يذهب إليه الغزالى يتضمن فى طياته كل أو معظم ممكنات التقويل، وربما كان التقويل أعلى مراحل التأويل، خصوصا حين تكون الفكرة المراد تأويلها قد قاربت النضوب، أو باعدت التجربة كثيرا بين إيحاءاتها وبين طبيعة الحادثة التى تستدعيها(٢).

أبو ذؤيب الهذلى وهيجل!

الرواية التى وردت عن أبى ذؤيب تليق بالمأساوية التى ينضح بها حس زمانى جعل من (المنية) حيوانا أبداً لا تنفع معه التمائم ففى الرواية هلك لأبى ذؤيب خمسة بنين فى عام واحد أصابهم الطاعون، وفى رواية أخرى: له سبعة بنين شربوا من لبن شربت منه حية ثم ماتت فيه فهلكوا فى يوم واحد، واستبد به الحزن حتى قال إنه (الثامن) أو (السادس) الذى سيلحق بهم:

فغبرت بعدهم بعيش ناصب
وإخال أنى لاحق مستتبع

إن ديوان أبى ذؤيب مفعم بهذا الاحساس التراجيدى بالزمن(٣)، فالزمن قهار إنه (أداة) الموت أو لنقل إنه عدو البشر لأن الموت (ينمو فيه): يقول الناقد يوسف سامى اليوسف فى مقالة له عن الرثاء فى الشعر الجاهلى: ينم الرثاء الجاهلى عن جدلية فى العقل العربى، ويضرب أمثلة لعل أبرزها ما يقوله أبو ذؤيب نفسه:

«والدهر لايبقى على حدثانه»، متوصلا إلى طرح السؤال الذى استوقفنا. فى هذا الصدد، يتساءل يوسف: ما الفرق بين فهم شعرائنا للزمن على هذا النحو وبين فهم هيجل للجدل على النحو التالى «الجدل هو القوة الكلية التى تقاوم والتى لا يمكن لأى شىء أن يقف فى وجهها مهما يعد هذا الشىء نفسه محصنا ضدها»(٤)؟

بهذا (التقويل) يجعل الناقد اليوسف من الجدل الهيجلى مجرد تكرار (منهاجى) لما قاله من قبل أبو ذؤيب أو (صفية الباهلية) إنه الهاجس الاستباقى نفسه، ذلك الذى يجعل المعرفة قد تمت فى الماضى كمحتوى ومضمون، وما القادم إلا فضاء لغوى لها.. أى مجالا مستقبليا لاستعادتها، إن فكرة (الفردوس المفقود) أو العصر الذهبى كما يسميه (هزيود) تعاد هنا وإن على مستوى آخر، يختلف. كميا. فقط، ولكى يستجيب الجدل الهيجلى لعملية التقويل، يتم أولا اختزاله إلى سطرين فقط، ولأن المقاس عليه شاعر. أبو ذؤيب. فإن الطريقة التى يتم بها اختزال هيجل هى من أقارب الشعر. الفقراء. أو لنقل البعيدين خارج العمومة والخئولة.

إن ما يجعل هذا التقويل القسرى الذى يقوم به الناقد (اليوسف) لافتا للانتباه. والنقض أيضا. هو موقف الناقد نفسه من مسألة مماثلة، ففى المقالة التى كتبها المستشرق (مالتر براونة). بعنوان (الوجودية فى الجاهلية)(٥) يفسر هذا المستشرق الألمانى النسيب الجاهلى وفقا وانطلاقا من رؤية وجودية ومن غريب المصادفة ان يصوغ (براونة) سؤاله عن مطلع معلقة عبيد بن الأبرص على الشكل التالى:

«هل هذه الأبيات لشاعر قديم أم لأحد الشعراء الوجوديين فى وقتنا هذا؟» ويتوصل المستشرق الألمانى أخيرا إلى «أن ما يشغل الإنسان طيلة تاريخه هو خوف الفناء والتناهى».

يثور يوسف على تفسير براونة هذا، ويسجل ضده عدة نقاط يكفينا أن نشير إلى واحدة منها فقط هى اعتراض الناقد يوسف على تعامل المستشرق (براونة) مع الشعر الجاهلى كما لو كان مسلوخا عن أرضيته الاجتماعية ويفترض أن الشاعر يقف من الوجود موقفا أنطولوجيا.. الخ(٦).

ما الذى فعله «براونة» أكثر من اليوسف نفسه؟ لقد صاغ سؤاله. الاستنكارى ـ بشكل مشابه تماما لسؤال اليوسف، لدى براونة يصبح (عبيد بن الأبرص) وجوديا معاصرا، من باريس أو الدنمارك لا فرق، ولدى اليوسف يصبح (أبو ذؤيب) فيلسوفا جدليا معاصرا، يرث الشاليين الألمان، إن اعتراض الناقد يوسف على (عصرنة) براونة القسرية لعبيد بن الأبرص لم ينبع، كما رأينا، من اعتقاد مغاير، لأنه هو نفسه لجأ إلى هذه العصرنة القسرية فى موقف آخر(٧) يبقى لدى تفسير واحد.. هو أن اعتراض اليوسف على تفسير براونة منطلق من اختلافه مع سياق المقول.. اى مع السياق الاستشراقى الذى ورد فيه ذلك التفسير. يعيننا على هذا الحكم ماسبق وقاله اليوسف فى كتابه (مقالات فى الشعر الجاهلى) عن ضرورة تخليص الشعر الجاهلى من (براثن) المستشرقين ولعل استخدام هذه المفردة بالذات (براثن) ترينا إلى أى حد يتطلب الأمر استعدادا للاستجابة لهذا التحدى. الحيوانى الشرس كما يشى استخدام مفردة (براثن).

نحن قد نعثر على أوليات أو (مبادهات) فى الجدل حين نقرأ الشعر الجاهلى رثاء كان أو غير ذلك، لكن الحماسة لن تبلغ بنا حد الجزم بأن (حدسا) شعريا مبهما فى قصيدة قادرة على الهجرة إلى المستقبل وبعد قرون عدة تصبح الفلسفة. أو أحد أهم منجزاتها النهاجية. مجرد صدى لذلك الحدس البعيد.

ذو الرمة ودافنشى

كثيرا ماينبئ الزعم بالاحتياز عن نقيضه تماما، وقد يكون هذا شكلا من أشكال التداوى، أو الترميم اللاواعى، ولعلم النفس ومدارسه الحديثة كلام لا ينتهى حول هذه المسألة:

فى المثال التقويلى التالى.. يتساءل د. عبدالله الطيب بصيغة لا تغاير صيغة السؤال عند كل من (براونة) و(اليوسف) أما تساؤل د. الطيب فهو عن الشبه الشديد بين بيت وصفى لذى الرمة.. وبين لوحة (لاجيوكاندا) أو (الموناليزا) لدافنشى، ولكى نفهم دوافع السؤال لنقرأ هذا البيت لذى الرمة:

كأن عمود الفجر جيد ولبة
بعيد الدجى من حرة الوجه سافر

وحسب تفسير د. الطيب لهذا البيت نقرأ:

«هنا صورة امرأة جميلة برزة، سافرة الوجه، على رأسها الخمار وجيدها ولباتها مشرقة ومن حولها سواد»، ويضيف: ما أشد ماتشبه هذه الصورة لوحة ليوناردو دافنشى (لاجيوكاندا) فهل وقع الحافر على الحافر؟ أم وقع إلى دافنشى بعض ماترجم إلى اللاتينية أو عنها من شعر (غيلان)؟(٨).

ها نحن فى مواجهة تقويل مركب، ولكى يتم تفكيكه علينا أولا أن نشير إلى أن د. الطيب لم يجد فى موروثنا ما يكفى من الفن التشكيلى لأسباب معروفة، فلجأ إلى الشعر ليبحث فيه عن تعويض يتيح له التقويل، ولو رجعنا إلى شرح بيت ذى الرمة الذى يشكل مسودة أو (اسكتش) لوحة دافنشى سنجد أنه يقبل التقويل على كل صورة لامرأة جميلة (بالرغم من اختلاف معايير الجمال بين عصر وآخر)، ومن ناحية أخرى نجد أن د. الطيب لكى يستقيم له التقويل يخلع عن (الجيوكاندا) تاريخها على مستويين: المستوى التاريخى العام (عصر النهضة وما يعنيه على المستويات كافة) والمستوى الخاص الذى يشير إلى التاريخ الشخصى لهذه اللوحة بالذات والمدة التى استغرقها الرسم، وما أضيف إلى هذا التاريخ الشخصى للوحة من تفاسير سايكولوجية (دراسة فرويد لشذوذ دافنشى مثلاً)(٩).

إن القفز على كل القرائن المصاحبة لميلاد اللوحة قد تم استجابة لهاجس (الاستباق) أو النزوع التقويلى الذى يسعى إلى جعل (المستقبل) مجالاً أو فضاء تتكرر فيه المعرفة، إنه مجرد فضاء، حيز سرعان ما يشغله الشاغل الأبدى لكل حيز.

أما المثير حقاً فى هذا المستوى التقويلى فهو التجاوز الجسور لكل الحدود بين فنى الرسم والشعر، ولتراث كل منهما ونقده ووسائل تعبيره.. إلخ. والتفسير الوحيد لهذه (الجسارة!) هو (إنابة) الشعر كموروث متحقق عن (الرسم) كموروث محتمل، ولقد شاء د. الطيب أن يفجر هذا (الاحتمال) عبر فن آخر مختلف أداة وطرائق وموروثاً!(١٠).

إن أمثلة (التقويل) التى يقدمها د. الطيب فى كتابه عديدة، وبعضها يقبل المناقشة والاختلاف. الكمى. كمقارنة قصيدة كيتس (البلبل) بالقصائد العربية التى امتازت بمطالع النسيب، أو مقارنة قصيدة (بليك) عن النمر وقصيدة للمتنبى عنه.. الخ.

وأيا كانت درجة الصواب والخطأ فى مقارنات كهذه، فإن ما يهمنا منها هو باطن نيتها، المغاير تماما للهدف المعلن عنه، فإذا كان شاعر قديم قد قال قصيدة ثم وجدنا ما يشبهها فى الآداب الأوروبية بعد سبعة قرون فإن هذا معناه أحد اثنين:

إما أن يكون الشاعر الاسبق بسبعة قرون مؤثراً وماساً لشعراء أتوا بعده بقرون.. وهذه مسأله طبيعية.. ولعلها النية المعلنة.

أو أن يستمد الشاعر الأقدم أهميته أو مصداقيته من شاعر أتى بعده بقرون، (وهذا باطن النية).. وفى هذه الحالة الأخيرة يضيف المقول للمقول مستوى ثالثا صعباً، من شأنه أن يقلب المشهد كله.. ويجعل كل مقارنة ذات هدف (تقويلى) يمجد الماضى تستدير على أعقابها لصالح الجديد المكرر والموصوف بالتغذى على خبرة السابق الرائد.

عندما يتوقف الزمن

فى الكثير من القصائد العربية الحديثة التى استخدم شعراؤها (أسطورة يوليسيس) يتخبط الزمن، منتظراً بدوره عودة البحار الى المرأة المترقبة عودته مع الأمواج على الشاطئ.. وقد قارنت فى أحد المقالات، بين هذا المستوى من الاستخدام السكونى، الاتباعى للأسطورة وبين استخدام شاعر يونانى معاصر (ريتسوس) وكان مثيرا لدهشتى، فى الأقل، أن أجد هذا الشاعر يعيد صياغة أسطورة أسلافه مشبعا إياها من روح عصره، حيث لا ينتظر أحد أحداً.(١١)

وإذا كان هذا هو الشأن مع الشعر، فهناك ما هو أكثر اثارة للدهشة، فالفكر نفسه يذهب أحيانا ضحية وهم مماثل.

ولنكن مثالنا متعلقا بأهم ما حدث فى تاريخنا المعاصر.. ما سمى نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، وما كانت تشير إليه كلمة نكبة من ابهام ميتافيزيقى، يضع هزيمة تاريخية فى سياق



أحداث طبيعية كالزلزال والبراكين والكوارث التى لا دخل للإنسان فيها.

فى (ربيع) عام ١٩٤٨ إن كان لذلك العام ربيع حدثت الهزيمة وتم النزوح وكتب الكتاب والشعراء والساسة الكثير.. كان من بين أبرز ما كتب فى ذلك العام (معنى النكبة) لـ قسطنطين زريق، وكتب يومئذ فى مقدمة كتابه يقول:

«ليست هزيمة العرب فى فلسطين بالنكسة البسيطة أو بالشر الهين العابر، إنما هى نكبة بكل مافى هذه الكلمة من معنى»[١٢].

بعد عشرين عاما حدثت النكبة الثانية، وكان من الطبيعى أن تصدر الطبعة الثانية من كتاب معنى النكبة، على هيئة كتاب جديد عنوانه (معنى النكبة مجدداً)[١٣] كلمة واحدة أضيفت إلى العنوان القديم وهى (مجدداً) كلمة تعادل عشرين عاما بكل ما فيها من ثورات وإرهاصات وانقلابات وتحولات و...و.. لكن ماعلاقة هذا كله بالتقويل موضوعنا المحورى فى هذه المقالة[١٤].

لنعد الى مقدمة الكتاب الصادر بعد عام ١٩٦٧، يقول المؤلف «واليوم عدت إلى هذا (المعنى) أى معنى النكبة فوجدته ينطبق بجوهره على الحالة الحاضرة، ثم يعيد المؤلف كتابة الأسباب والنتائج وما يتفرع عن كل منهما».

هنا نجد شيئاً مشابهاً لما يقوله المتنبى:

أجزنى إذا أنشدت شعرا فإنما
بشعرى أتاك المادحون مردداً

والنكبة هى التى تأخذ دور الشاعر، مصدر القول هنا أنها تعيد إنتاج نفسها فى معزل عن البشر المنكوبين الذين وقع فعلها عليهم، فهى حدثت عام ١٩٤٨، إذن كل ما سيقال عند تكرارها هو تقويلها هى، أنها الأفصح والأكثر إبانة، وهكذا تتولى هى نفسها أيضا تنقيح الطبعة الثانية عن تفاصيلها وأسبابها ونتائجها... إلخ.

أردت من خلال هذا المثال الأخير أن أضيف شاهدا إلى فن التقويل بمستوياته المتعددة والمركبة.. والمعقدة ايضا.. فالمقول قد يأخذ شكل (مثل) أو (شعر حكمى) أو (نكبة) أو أى شىء آخر.. ومن ثم يبدأ برحلات متكررة لاستعادة معناه.. وهو أشبه ببئر أسطورية لا تنضب، يكفى الظامئ أن يرمى به حصاة ليطفر منها الماء لكن الشىء غير المتوقع من تكرار رمى الحصى هذا أن تصبح البئر نفسها حصاة عملاقة يابسة.. أما الماء فمطرود على جانبى الفوهة وفى أفواه السائلين!

المقول قد يأخذ شكل (مثل) أو (شعر حكمى) أو (نكبة) أو أى شىء آخر.. ومن ثم يبدأ برحلات متكررة لاستعادة معناه.. وهو أشبه ببئر أسطورية لا تنضب، يكفى الظامئ أن يرمى به حصاة ليطفر منها الماء لكن الشىء غير المتوقع من تكرار رمى الحصى هذا أن تصبح البئر نفسها حصاة عملاقة يابسة

الماضى القادم

هل كان شكسبير يعرف بأنه سوريالى؟ وبماذا يجيب هراقليطس حين يسأله أحد المعاصرين فى (لقاء مفترض) عن انضوائه الأيديولوجى فى القرن الحادى والعشرين؟

هناك على الدوام نزوع من الحاضر لكى يتأصل ويبحث عن أسلاف منسيين تحت غبار الكتب أو فى المتاحف، الصوفى الإسلامى كشكسبير وهراقليطس لم يكن يعرف أنه أحد جذور قصيدة النثر، ومواقف «النفرى» ومخاطباته رغم احتضانها الحانى لتفسيرها المعاصر فهى لم تكن تطمح إلى مثل هذه التفاسير والتصنيفات، والسهروردى ما كان يعلم بأن أحد نصوصه (الغربة الغربية مثلا) سيصبح ماضياً معاصرا يتاخم ويزاحم أحدث النصوص فى هذا القرن.

هل نحن الذين (نقوّل) هؤلاء ما لم يقولوه؟ أم تراها نصوصهم المفتوحة على آفاق الأزمنة هى القابلة للتقويل والتأويل؟.

ما من واحد من أسلاف الفلسفة والشعر إلا ووجد من يصنفه ويضعه فى سياق يتخطى ذاته (المفردة) حتى بات هؤلاء... أو هكذا يخيل لى - مندهشين أمام الخرائط والخانات التى حلوا فيها.

. من هنا تأخذ قولة برنارد شو الشهيرة:

أن «المسيح ليس مسيحياً» مغزاها - ويصبح «فرويد» بهذا المعنى ليس فرويدياً، وهيجل ليس هيجلياً... الخ.

وذلك ببساطة لأن البشر قادرون على تحويل الأفكار الكبيرة تبعاً لمصالحهم، وما يسود من ثقافات فى فترة ما. لهذا ازدهرت (الانتقائية) دائما، وأخضع الموتى لعمليات جراحية واسعة بما يلائم حاجة الأحياء... فاستؤصلت أفكار وأضيفت أخرى، لا أجد تفسيرا لنزوع الحاضر نحو تأطير الأسلاف واختزالهم فى اتجاهات وأنساب فكرية غير ميل خفى يضاف إلى طاقة التبرير لديهم.... هذا الميل هو السيطرة على ماء المحيط بصبه فى زجاجات ذات أشكال، وتحويل الغابة إلى حزم (ناشفة) قابلة للحفظ، والسهولة التى تقدمها عملية التأطير متأتية من إحساس أهل الحاضر باستحالة السيطرة على تراث المعرفة بدون (التأطير والقطعنة والاختزال) الثالوث اللعين الذى تفقد الذات العارفة أهم ملامحها من خلاله.

من هنا كان خلق السلالات والعائلات الفلسفية والفنية بمثابة تسهيل لتداول المعرفة على حساب (العارفين) وجعل التيمات أسساً لهذه المعرفة بحيث ينضوى الأشخاص - مفكرين وشعراء وفلاسفة- تحت هذه الخيام العملاقة فلا يصعب حصرهم ولا يفلت أحد منهم من (القطعنة) والتدجين المنهجى.

ربما لهذه الأسباب... أو غيرها كان «سورين كيركفورد» يرفض أن يدرسه أحد مع آخرين، أو أن يحشر فى سلالة فلسفية مهما بلغت عراقتها، لقد أراد من وجوديته(الكاثوليكية) أن تكون جزيرة وحدها فى محيط تتداخل فيه الأمواج ويمحى أثر الخطوات قبل أن يبدأ، وهو يذكرنا بإسلام (أبى ذر) الذى شاءه صاحبه أن يكون على طريقته منعزلا، حزينا وعلى سيمائه نذير اغتراب.

إن ظاهرة أبى ذر فى إسلامه و«كيركفورد» فى مسيحيته متكررة فى تاريخ الفكر البشرى، ما من أحد جاء يعترض على حكمة التاريخ بحكمته إلا ورفض الهجوع على غصن ما فى شجرة عائلة ما...

لكن الموت وغياب هؤلاء المكتمل يجعلهم فى حوزة الآخرين تماما، الذين يصغرونهم ببضعة قرون قد تبلغ العشرات فى بعض الأحيان.

البحث عن أسلاف

من التجارب الأولية فى علوم الاتصال أن فكرة واحدة تنتقل من مصدرها إلى الشخص العاشر عبر تسعة أشخاص تتعرض إلى تحوير وحذف وإضافات تفقدها جوهرها الأصلى، وتصبح فكرة أخرى مختلفة كلية، قد لا ينطبق هذا المثال على انتقال الأفكار من خلال المخطوطات المتوارثة والموقعة لكنه ينطبق بشكل ما على المنقول الشفوى أو المخطوط غير المحقق.

لقد استطاعت الكتابة كانجاز بشرى هائل أن تخلصنا من ضياع الفكرة من خلال الرواية، حيث ما من مجال أوسع من مجال الانتحال والإضافة والانتقاء حيث تلعب المصلحة المباشرة فى هذه المجالات دورا خطيرا.

ولو عدنا إلى المثال الأول سوريالية شكسبير ومادية هراقليطس وغربة السهروردى نجد أن الحاجة إلى هؤلاء هى التى أعادت اختراعهم مجددا.

فأندريه بريتون الذى أدخل عددا من القدامى فى سورياليته بدءا من الإغريق حتى دانتى وشكسبير كان يدرا من حيث يعلم.. أو لا يعلم.. تهمة متوقعة بالهجنة واللاتاريخية. لهذا يركز مثلا على بودلير بوصفه السلف الأخلاقى له.

ولم يكن «أدونيس» فى اختياره نصوص «السهروردى» و«النفرى» طائعا لمزاج فكرى فحسب. إن الأسباب التى جعلته يستبعد «الغزالى» هى التى جعلته ينتسب إلى هؤلاء، وهو كشاعر حديث ومشتبك مع السائد الشعرى والثقافى وجد أن عليه أن يتبع ذلك الخيط فى نسيج التراث. أى أن يبحث عن شرعيته فى التراث وعن أبيه فى زحمة الآباء. إن ما يثير الانتباه هو ذلك الهاجس البشرى الذى جعل حتى الرواد فى ميادينهم يتخوفون من كونهم يقفون عند صفر الخليقة، وهم بالتفاتهم إلى الوراء بحثا عن وجوه تشبههم إنما يفعلون ذلك بحثا عن (تاريخية) لما يقولون أو يعبرون حتى السورياليون الذين وثبوا إلى- ما فوق الواقع- كانوا يرتكزون إلى واقع أكثر تركيزا، مما يعيد إلى أذهاننا قول آرنست فيشر عن اللاواقع بأنه على الدوام (واقع جدا).

التقويل

أفعى البوا..

كان الفنانون والشعراء والفلاسفة عسيرى الهضم حين تبتلعهم أفعى البوا، وعن تجربة بيكاسو يقول سارتر... إن الأفعى لفظته لأنها لو أبقته لدمرها الغثيان، لكن ما يقوله سارتر عن بيكاسو انطبق بشكل مضاد على الأسماك الصغيرة - سهلة الهضم - بحيث أصبحت(البوا) بمعناها الحقيقى والرمزى مثل (أسد) فاليرى. لدى فاليرى الأسد هو قطيع الخراف المهضومة..ولدى البوا (الأسماك المهضومة) وفى الحالين تتخلى الخراف كما الأسماك عن هويتها لتصبح جزءا من طاقة أنسجة، من كيان عضوى جديد.

إنهما كالدجاج وقطع الحلوى والفاكهة التى يأكلها الإنسان، يحيلها إلى(عضوية) فاقدة أشكالها تلك. وأفعى البوا هى التجسيد الحى لتلك السياقات التى تعتاش على (الأفراد).

إن عسر الهضم الذى تتعرض له البوا فى مثال سارتر بدأ منذ القدم. ربما من محاولة أوغلت فى النسيان، وسيستمر على ما يبدو ما استمر الحوار بين الفرد والجماعة، بين وعى يتحسس حدوده وصحراء مغمورة بظلال لا حصر لها، تطمع إلى قضم ظل (الغفارى) المتوحد.

والفنان قد يتنازل - إلى حين- عن عينيه لعينين اجتماعيتين لكنه فى هذه الحالة يكون قد تخلى طواعية عن امتيازه الذى هو امتياز الجميع (به) أو من خلاله، إنه بارتباطه الشديد مع المستقبل قادر على رؤية ومعاينة الناقص فى المعطى، كان لسان حاله يقول: ما من معطى يشكل إجابة.

لقد كان الحوار داميا فى بعض الأحيان بين ذات تفيض على سواها وبين زحف (سواها) عليها، لهذا قال البعض علينا أن نكون مع أفلاطون، ضد أرسطو.. ومع أرسطو ضد أفلاطون، لا رغبة فى المخالفة المجانية، بل توكيدا لحيوية الاختلاف وتعدد زوايا الرؤية، ولعلهم قصدوا شيئا كهذا بقولهم: إن المثالية نصف الفلسفة ونصفها الآخر مادية.

إن فى التصنيف وتوزيع الخانات استجابة لرغبتين بشريتين هما التماثل والامتثال، وفى التماثل تكون شرعية النموذج والتخلص من عبء الخروج على معايير الميزان المعروفة (بماذا نزن حين يفيض الموزون؟) وفى الامتثال تلتئم الدائرة الاجتماعية بكاملها ويصبح المحيط كله فى مجال الرؤية.. وربما اللمس... أو القبض بإحكام.

فى البدء كان الشعراء، معذرة فى البدء كان الإنسان، ثم الشعراء ومن بعدهم جاء الخليل ليكتشف عروضهم ولا يخترعه، فقد كان هذا (العلم) معروفا من قبل وهو الذى جعله معروفا، وفى البدء أيضاً كان الرسامون والنحاتون...منذ الكهف الخائف حتى المعبد ومن بعدهم جاءت التسميات... والخانات والخرائط.

إن ما يقوله (ماكليش) عن الفرق بين الشعر والنقد ينطبق هنا تماما، فهناك على الدوام من يعانى صعود الجبل ويغامر فى الأصقاع الصعبة وهناك من ينتظر لرسم الخرائط، كم من الخطوات سيضيع فى مقياس الرسم الجائر؟ إن من يتلقى العصى(عصى التاريخ والجغرافيا) ليس كمن يعدها.

لقد جاءت التسميات الجمعية تنميطا وتكريسا لنمذجة تتفق والنمذجة الأخلاقية -السلوكية- القانون للجميع. وهذا ما يعفى المشرع من تعدده ويتيح فرصة للمحامين، فى الفن يحدث شىء مشابه، فحين يحشر خمسون رساما فى تسمية واحدة وخلف لافتة واحدة فإن الخصائص الفردية- التى هى رأس المال كله حين يتعلق الأمر بالإبداع- تبدأ بالتراجع والاختفاء تحت ضغط القاسم المشترك السهل..عندئذ تكون فرصة الناقد- لا مؤرخ الفن - إنها محاماة من نوع آخر، لا يتقاضى فيها الناقد أجرا إلا ما سيبلعه من إبداع بطريقته.

ألهذا يحجم النقد مثلا عن محاولات اجتراحية مدفوعة بقوة نحو المستقبل، قليلة عليها البصمات المعروفة؟

يحجم النقد لأن مثل هذه المحاولات الاجتراحية تتطلب- بل تشترط- نقدا اجتراحيا، مجاورا لا لاهثا، لأن النقد اللاهث والاتباعى يبحث عن قطط يسميها قططا، وعن حجارة يسميها حجارة، قياسا على نماذج مستقرة، مسماة ومفحوصة، لكنه حين يصادف فى حديقته حيوانا به بعض الغرابة أو حجرا يرتعش أو شجرة لها أصابع فإنه يتراجع مأخوذا.... وقد يفر من حديقته إلى الأبد.

لا سبيل إذن لفهم الوحشى المنزوف للتو، إلا من خلال تدجينه فى الأقفاص الجاهزة، وطرق كل نتوء فيه كى يستوى ويتساوى مع أسنان المشط الأخرى.

لقد استطالت اليد البشرية بالعصا، وطارت بالآلة والرصاصة نتيجة الحاجة إلى الاختراع، وبذلك سيطرت على المسافة وكثرت نفسها وكذلك ظلت عين الصياد الأولى تدور فى محجرها بشكل شيطانى وقبضت على اللامنظور بالمنظار.

كان من الأجدى للإنسان أن يطور قدراته الحسية أيضا وأن ينفذ إلى ما تحت بشرة النفس وأدمتها بحثا عن تلك الجوهرة السوداء التى لا تبين أو تفقس من محارتها إلا بالكد الروحى والانسحاب من عالم الربح والخسارة لاقتحام عالم كل ما فيه (انتصار) بغض النظر عن الربح والخسارة.

ربما لأن الأفكار الكبيرة ليست ذات نفع نهارى تلامسه اليد العمياء التى لا ترى ما هو أبعد من أظافرها، ربما لهذا السبب ظلت مطوية كثياب ميت عزيز فى الخزائن وعلى الرفوف حيث لا متسع من الوقت - أو الوجد- لسؤال مدبب يصيب القلب، وما من إجابة سوى النزيف.

النزيف، هذه الكلمة الفاتحة، المحذوفة قسرا من مطلع كل فكرة (منتجة) لا مركبة ولا معادة صياغتها ببلاغة... مهما بلغت.

النزيف، رائحة الدم الطرى فى الأفكار المتفجرة للتو من شريان مزقه التوتر ففاض كالقداسة على الكتاب.

فرادى جاءوا منذ أكاديموس حتى اليمامة، ومن الإسكندرية الأولى حتى شمس النهضة، ومن ظهيرة النهضة حتى هذا المساء جمعتهم اليد المحترقة ووزعتهم على خرائط تختزل عشرات الألوان فى بضعة ألوان... وككل الخرائط كان لهم مقياس رسم جائر فى التجمع والتصغير والنمذجة ينتقل الدم الجارى فى الأنساغ إلى زجاجات فى ثلاجات مصرف الدم.

وعبر هذه المراحل الثلاث يرغم كيركفورد على التنازل عن(لا منهجيته) ويصبح فلقة فى الوجودية المسيحية، وينوب عنه فى المدرسيات المولعة بالأمثلة جابرييل مارسيل مثلا.

ويتخلى (الغفارى) عن ظله المتوحد فى الصحراء وعلى عتبة الجنة لغابة الظلال المفروزة عن ظل عملاق... وقد يصبح بالمعنى نفسه عدد من الشعراء او الرسامين او الفلاسفة كيسا محشوا بالبيض، التشابه، والرتيب، وعديم الأبعاد.

نعود ثانية إلى (البوا) النهمة وذات الخوف الكبير المتحفز للابتلاع إن شهية البوا مفتوحة أبدا للأفراد الأقل امتثالاً.

للفنانين الأقل شبها بالنموذج.

إن وجبة دسمة للبوا قد تكون (بيكاسو) أو(أراغون) أو(ماياكوفسكى)، لكن المشكلة تبدأ مع عملية الابتلاع، والضيق بهذا الابتلاع.

الملفوظ خارجا يعود إليه عبر أطول طريق ممكن، يعود إلى عصيانه الجميل الذى هو امتثال مضاد، امتثال لما تصدع به الرؤيا.

وفى إحدى مقالاته، الأكثر مغامرة، يقول رولان بارت عن كتاب ما يسمى بالرواية الجديدة أو (اللارواية). إنهم لا يتشابهون، وذلك لسبب واحد، هو عدم وجود مدرسة أو اتجاه يحمل هذا الاسم!

هذا الرفض من بارت يكرس امتيازا فرديا لكل واحد من هؤلاء الكتاب الذين يلتقون ليفترقوا، والذين يجتذب تشابههم السطحى الناقد المدرسى المفتون بالأطر والخانات والجداول...

ومثلما فعل بارت فعل بعض كتاب ما يسمى (الجيل الغاضب) وبعض كتاب مسرح اللامعقول.. فليس من هؤلاء من ذهب متوشحا بشكل مسرحى اسمه العبث أو اللامعقول، لقد أطلق مارتن اسلن هذه التسمية التى حاول النقد المدرسى أن يجعل منها (عنبرا) يحشر فيه شكل مستطيلات متساوية كل من يحاول أن يجرب شكلا غير تقليدى فى المسرح.

ولقد قال كامو: أنه شوهد (بالخطأ) على سفينة الوجوديين، وهو ليس كذلك أبدا. إن حربا ساخنة كانت ولا تزال تدور بين كتاب يعون امتيازاتهم الفردية وبين نقاد مدرسيين يهيئون النقالات لحشر (السلالات) و(العائلات) الثقافية فى عنابرهم، حيث يتم اختصار الفروق بعناوين قد لا تزيد على مفردتين!

كيف يمكننا ان نفهم تسميات مثل جيل الستينيات والسبعينيات العربية أو الثلاثينيات الإنجليزية أو جيل ١٩٢٧ الأسبانى أو جيل ما بين الحربين الأوربى أو... دون أن تتخلى عن فروق قد تكون جوهرية بين أبناء الجيل الواحد؟ والتسمية الواحدة؟.

وإذا انتقلنا من هذا التعميم التاريخى إلى الأمثلة المتعينة يتبين لنا ما نقصده هنا بشكل أكثر وضوحا.

منذ شعراء المعلقات حتى جيل ما يسمى (الرواد) فى الشعر الحديث ينزع الدارس إلى البحث عن المشترك التاريخى- المضمونى، أم إلى أى حد يفارق زهير طرفة... فتلك مسألة تأتى فى الدرجة الثانية أو الرابعة!

ولو بحثنا عن نقاط الاتفاق والافتراق بين أدونيس وعبد الصبور وخليل حاوى ونازك الملائكة... لوجدنا أننا نتوقف عند (بعثرة) العمود واعتماد التفعيلة كوحدة إيقاعية، ثم نجد أنفسنا عند المفترق الكبير لطرق أربع فى الرؤية ومكونات الثقافة ودرجة الحداثة والموقف... إلخ.

لقد اندرج فى ملف الواقعية عشرات الكتاب والفنانين الذين - لو تقصينا أعمالهم جيدا - لتبين لنا أن لكل منهم واقعيته الجديرة بتسمية.

وحتى داخل الحركة السوريالية كان هناك من أراد الفكاك من ضغط الواقع والتاريخ والهرب إلى (ما فوقهما) وكان هناك من أراد أن يقول (لا) وينتصر لواقعه الشخصى فى الواقع العام.

إن البحث عن الشبه وعقد المقاربات فى ضوء هذا البحث أسهل بكثير من البحث عن (الفروق) التى هى كما قلت من قبل (رأس المال كله) عندما يتعلق الأمر بالإبداع. فالسطوح وكذلك المظاهر الخارجية للأبنية والتماثيل تتشابه لدى العين الكليلة، بينما حين تتسع الرؤية تتضح الفروق وتغتنى الخريطة بألوان غير قابلة للاختزال، ويصبح مقياس الرسم خديعة علنية.

وما أن لاح فى الأفق قطيع الأحصنة الوحشية حتى سارع النقد المدرسى إلى تهيئة المستطيلات المتساوية تحت سقوف واطئة.

لكنه حين أخفق فى القبض على الأحصنة، رسمها كالإنسان البدائى على جدران الإسطبل، وجلس عند العتبات ينتظر عبثاً صهيلها.....!

فى العدد القادم
«محراث الحداثة»

فضــــاء.. التاكســـى!

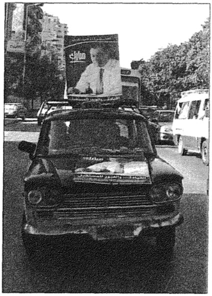
أميمــــــــة عبد اللطيف

■ قبيل وفاته بأشهر، جاهر عالم الاجتماع الفرنسى المرموق آلان روسيون بمخاوف حقيقية جراء تزايد حدة التوترات الاجتماعية التى تضغط بقوة على المصريين. وذهب إلى حد تشبيه حالة الاحتقان السياسى والاجتماعى التى تمر بها مصر بتلك التى سبقت فترة ما قبل «ثورة يوليو» لقد عكست هذه التوترات عودة ما وصفه بـ «المسألة الاجتماعية» لتحتل صدارة المشهد السياسى المصرى.

كان روسيون يرى أن التهديد الأكبر لاستمرارية النظام المصرى لن يأتى من خلال جماعة الإخوان المسلمين أو عبر أحزاب المعارضة الورقية، أو ربما حتى عبر الحركات الاحتجاجية غير المتحزبة، وإنما الخطر الأكبر يتمحور حول التصورات الشعبية السائدة حيال نظام الحكم فى مصر.

ثمة ملامح يمكن تلمسها لغضبة اجتماعية مقبلة، حذر منها روسيون. وهى تبدو جلية أكثر من أى وقت مضى، بحيث إن أخبار الإضرابات والاعتصامات العمالية التى بلغت قرابة المائتى اعتصام وإضراب خلال العام المنصرم فقط تؤشر على أن المصريين أخذوا يعبرون عبر هبات شعبية وغير مسيسة عن كراهيتهم للحكومة. هذه الهبات التى لا ترفع مطالب نخبوية من قبيل الإصلاح السياسى أو الانتخابات الحرة أو وقف عجلة التوريث وإنما فقط «مياه نظيفة ووظيفة مؤمنة ورغيف عيش» ليست سوى احتجاج شعبى ينم عن سخط على الحكومة والمعارضة على حد سواء.

غير أنه لا يمكن للمرء أن يلمس المخاوف والغضبة الشعبية للمصريين بشكل فردى فقط عبر حضور الندوات وحلقات النقاش التى يحاضر فيها نخبة البلد. وكما هو الحال فى العديد من الدول فى عالمنا العربى يبدو ما اصطلح على تسميته بـ «لغة الشارع» أو آراء «رجل الشارع» هى الأكثر قدرة على تفسير كيف يفكر المصريون ويتصرفون ككائنات سياسية (سياسيا). فهؤلاء يمثلون بحق الأغلبية الصامتة أو مصر أخرى غير مسموع صوتها.



©Mona Sharaf - Reuters

لذا حين أراد خالد الخميسى الذى درس العلوم السياسية ثم تحول للكتابة السينمائية والصحافية أن يدشن لمشروع يسعى من خلاله لتفكيك رموز السلوك السياسى للمواطن العادى قرر أن يتم ذلك عبر استطلاع آراء ذلك النوع من المواطنين الذين على دراية بالشارع وآرائه لكونهم بحكم مهنتهم ولكونهم الأكثر اختلاطا بمختلف نماذج المجتمع الذين ينتمون لطبقات اجتماعية متنوعة وهؤلاء بطبيعة الحال هم سائقو التاكسى. اعتبر الخميسى أن طريقة تفكير هؤلاء السائقين وتعاطيهم مع الشأن العام تعكس فى مجملها تعاطى «الغلابة» من المصريين مع السياسة التى يقفون على الهامش منها ورغم ذلك هم أكثر القطاعات المجتمعية تأثرا بها.

يستعرض الخميسى عبر محادثات سجلها مع حوالى ٥٨ سائق أجرة فى القاهرة على مدى عام كامل بعضا من هذه التصورات الشعبية فى روايته تاكسى والتى سجلت أعلى نسبة مبيعات فى القاهرة (٣٥ ألف نسخة). وقدم الخميسى هذه الرؤى العفوية عبر مقتبسات من خبرات السائقين الذين تصادف و كان بصحبتهم فى المشاوير التى قام بها. وهو قدمهم بصفتهم شخصيات مبهمة ربما حفاظا على سلامتهم وربما هو لم يكن يعنيه فى مهمته هذه اسم السائق أو أى شيء يكشف عن هويته مادام الهاجس الأساسى يكمن فى محاولة التعرف على أفكاره وآرائه بالأوضاع السياسية والاجتماعية فى البلاد. لا يشكل اهتمام المصريين بالكتاب ونسبة المبيعات التى حققها أى مفاجأة تذكر. فرغم أن هناك فائضا من المؤلفات الأكاديمية التى عملت على تقصى سؤال «ماذا حدث للمصريين؟» إلا أن ثمة فرادة تميزت بها رواية الخميسى. فأسلوبه غير التقليدى ولغته السلسة ومحاولته العفوية للتعرف على التصورات الشعبية جعلت رواية تاكسى - ربما ومن دون مبالغة - هى أحد أكثر المؤلفات والأعمال الأدبية التى استطاعت أن تؤرخ للتحولات الاجتماعية والسياسية التى خبرتها البلاد خلال الخمسة عقود الماضية.

من دون شك أحد الأمور التى ساعدت الخميسى على إتمام مهمته هو أنه اختار أن يوثق حركة الشارع فى لحظة سياسية مشحونة بالتحولات والأحداث فى تاريخ مصر الحديث. فلأول مرة منذ عقود لم تعد حركة الاحتجاج الشعبى موجهة ضد إسرائيل أو الولايات المتحدة وإنما ضد «عدو محلى» إذا جازت التسمية ألا وهو نظام الحكم والأجهزة الأمنية التى تتحكم بمفاصله. وفى الفترة من أبريل ٢٠٠٥ إلى مارس ٢٠٠٦ كان الخميسى مراقبا عبر مشاهداته لاحتلال الشارع موقع الصدارة للتظاهرات المناهضة لنظام الحكم والاحتفاليات المصاحبة للانتخابات الرئاسية ثم البرلمانية ولمشاهد العنف القبيح الذى مورس بحق المتظاهرين والمعارضة. سجل الخميسى ضمن مشاهداته ردود فعل المصريين حيال ظهور أول حركة احتجاج سياسى غير متحزبة وهى تتحدى نظام الرئيس حسنى مبارك وكذا ردود أفعالهم حيال أول انتخابات رئاسية يتنافس فيها الرئيس للمرة الأولى ضد تسعة مرشحين آخرين والتى أعقبتها الانتخابات البرلمانية التى حظيت فيها جماعة الإخوان المسلمين بـ ٨٨ مقعداً بمجلس الشعب بعدما خاضوا معارك عنيفة ضد البلطجة المؤسسية التى قادها الحزب الوطنى الحاكم.

كان عاما حافلا بالأحداث والتظاهرات والتظاهرات المضادة بين أنصار التوريث ومعارضيه. كان الشارع فى قلب هذه الأحداث بل والساحة الوحيدة لها فيما كان الخميسى يمارس هوايته المفضلة فى الاستماع لشريحة من المصريين العاديين الذين تأثروا بهذه الأحداث على كافة مستوياتهم الحياتية فيما هم لا يملكون من أمرهم شيئا ويكتفون بدور

تاكسى حواديت المشاوير
خالد الخميسى
القاهرة دار الشروق ٢٠٠٧ (الطبعة السادسة)

المعلق على مشهد لا يعنيه من قريب أو بعيد .

هؤلاء السائقون بينهم المحاسب والمحامى والمدرس الذين ارتضوا بهذه المهنة بعدما خذلتهم الدولة وهم غاضبون من التقشف الاقتصادى الذى يعيشونه ولديهم مخزون هائل من الحنق على النظام فما كان منهم إلا أن استولوا على هذه المساحة العامة الضئيلة المتمثلة فى التاكسى ليصبوا جام غضبهم على السياسة وطبقة السياسيين وهم يفعلون ذلك أمام غرباء أى راكبى التاكسى الذين ربما يشاركونهم أيضا هذا الشعور بالغضب والرفض . فرادة الرواية أنها تفسر كيف أن التاكسى أو هذا الفضاء الصغير لم يعد فقط ينظر إليه باعتباره وسيلة المواصلات الأكثر رفاهية وإنما اكتسب معنى مضافا حين تحول لفضاء عام فى وقت أصبحت كل الفضاءات العامة التى تستوعب حركة الشارع واحتجاجه وغضبته ضد النظام مقفلة بفعل القبضة الأمنية المخيفة.

وأهمية الرواية تكمن فى كونها تكشف بشكل عفوى عن نظرة المصريين - خاصة الطبقات المهمشة منهم - إلى الحكومة والنظام وتجيب بشكل غير مقصود عن سؤال لطالما قض مضاجع من يتابعون حركات الاحتجاج فى مصر وهو: لماذا لا يتظاهر المصريون رغم كل الغبن الواقع بحقهم ولماذا لا يخرجون إلى الشارع أفرادا وجماعات للاحتجاج ضد النظام؟.

وتكشف أيضا عن العلاقة التى تتسم بشيزوفرانية رهيبة بين المصريين والسلطة حيث الخوف الذى يمنعهم من الثورة ضدها رغم أنهم لا يكنون لها إلا الاحتقار وهو معبر عنه فى العديد من التعليقات التى وردت على ألسنة غالبية سائقى التاكسى الذين التقاهم الخميسى. وهو يكاد يكون الجزء الأخطر فى الرواية الذى يكشف عن تصورات المصريين لحكومتهم العتيدة لأن هذه التصورات من شأنها أن تعكس ربما شكل وحجم الغضبة المقبلة فالحكومة بنظر المصريين «مرعوبة ركبها بتخبط فى بعضها ونفخة وتقع». وهناك من يرى «إحنا عايشين فى كدبة ومصدقينها والحكومة دورها تراقب إن إحنا مصدقين الكذبة».

أما أحدهم فقد ختم شكوى عريضة بجملة «هما عايزين مننا إيه! عمالين ينهبوا ويسرقوا ويرتشوا وآخرتها إيه موش عارف! نهج (نهاجر) زى ما كل الناس بتهج».. ولكن إذا كان الحال كذلك لماذا لا يهب المصريون ضد حكومة يرونها ضعيفة وهشة وبماذا يمكن تفسير هذه اللامبالاة المتناهية التى صارت أحد أهم ملامح المصريين خلال الخمسة عقود الماضية يضع أحد السائقين يده على الإجابة ربما من دون أن يدرى «الحكومة زرعت فينا الرعب من الجوع وخلت كل واحد يقول ياللا نفسى».

ويضيف آخر «المشكلة فينا إحنا لأن ١٨ و١٩ يناير كانت بداية ثورة ماكملتش»، ولأن (فيه متين واحد ماسكين لافتات وحواليهم ييجى ألفين عسكرى وضابط وعربيات أمن مركزى قافلة الدنيا».

واحتلت المسألة الاقتصادية صدارة النقاشات التى دارت بين الخميسى وسائقيه ما بين رواتب لم تعد تفى بالحد الأدنى من الحياة الكريمة والأسعار المرتفعة التى أضحت روتينا يوميا لا يملك سائقوه إلا أن يلوموا الحكومة التى يعتبرونها لا تفكر إلا «بالأغنياء والسائحين الأجانب» وعلى حد قول أحدهم «واضح أن خطة الحكومة الحقيقية أنها تخلينا نهج كلنا على بره.. بس لو هجينا كلنا الحكومة هتسرق مين.. تحس أنهم بيبذلوا مجهود لخراب بيتنا وعاوزين يحولونا لشحاتين أو مجرمين».

من دون شك أن صراحة كتلك ليس من المتوقع أن تسمعها فى منتديات القاهرة النخبوية أو فى مراكز الفكر المنشغلة بقصة الإصلاح السياسى فى الشرق الأوسط . لهذا السبب بالذات تميزت رواية الخميسى فحكايات التاكسى كشفت عن وجود مخزون شعبى هائل من الغضب والإحباط ضد الوضع القائم. الأمر المحزن هو أنه لو صدقت تصوير الخميسى فإن إمكانية أن يتحول هذا الغضب الشعبى لقوة تغيير حقيقية فى مجتمع مجمد تكاد تكون معدومة.

يبقى من المهم بمكان معرفة هوية الجهة التى سيكون بإمكانها أن تستثمر حالة الغضب والاحتجاج التى تسود قطاعات واسعة من المجتمع للدفع بقضية تغيير النظام.

غير أن المشكلة التى تواجه الجميع هى عدم وجود قيادات تستطيع أن تؤدى دورا فى رسم شكل وتوقيت وطبيعة هذا التغيير، بما يحصن البلاد من مصير قاتم. ■

الفاجومى.. سفير الفقراء!

يوسف الشريف

لم يكن خبر اختيار منظمة «النداء العالمى لمكافحة الفقر» للشاعر الشعبى الشهير أحمد فؤاد نجم سفيراً فوق العادة للفقراء مفاجئاً له، فقد سبق هذا الاختيار ترشيحه للمنصب من قبل الزعيم الأفريقى نلسون مانديلا، إيذاناً بممارسة «أبو النجوم» نشاطه الإنسانى بمجرد استلامه جواز السفر الدبلوماسى الأحمر، لكنه لم ينتظر.. إذ راح يجرى مع نخبة من المتخصصين والباحثين الاجتماعيين والمتطوعين مسحاً للعشوائيات حول القاهرة، وتسجيل أسماء نحو ألف أسرة من الفقراء، والشروع فى دراسة أوضاعهم المعيشية الصعبة، مقدمة لوضع الخطط والحلول الكفيلة بمساعدتهم سواء مادياً أو تأهيلهم مهنياً والبحث لهم عن فرص فى سوق العمل!

والشاهد أن نجم أو «أبو النجوم» أو الفاجومى على نحو ما لحق باسمه من أوصاف وألقاب، يستحق بلا شك هذا التكريم السامى عن جدارة، فهو قد عاش عمره منذ الطفولة يرتع فى ألوان متباينة من الفقر، إذ كان ورفيق دربه الفنان عبدالحليم حافظ نزيلى ملجأ الأيتام فى صباهما الباكر.. والقصة يرويها الدكتور هشام عيسى الطبيب الخاص لعبدالحليم حافظ بكل تفاصيلها المثيرة.. يقول: فى أطراف مدينة الزقازيق وبجوار السكة الحديد - كما يقال فى الريف المصرى عن محطة القطار - أقام الموسر عبداللطيف بك وهبة ملجأ للأيتام كان يتولى الصرف عليه من ماله الخاص، وفى هذا الملجأ تجاور صبيان كانا ينامان على سريرين متقابلين يحملان رقمى ٩٤ و٩٥، ورغم اختلاف المشارب بينهما والطباع، تشاء تصاريف القدر أن يرحلا إلى القاهرة وهما لا يزالان فى عمر غض الإهاب، وأن تتجاوز إبداعاتهما وما تحقق لهما من الشهرة التى طبقت آفاق مصر إلى الوطن العربى والعالم، أحدهما وهو عبدالحليم الذى حاز على لقب «العندليب» وأحمد فؤاد نجم على لقب الفاجومى!

فى الملجأ كان التعليم يشمل المستوى الابتدائى، وكان الأستاذ محمود حنفى المسئول عن دروس الموسيقى، ومحمد أفندى فكرى يقود فريق العازفين على الوتريات وكلاهما كان يرعى موهبة عبدالحليم، وفى كل صباح كان نزلاء الملجأ يقفون طابوراً وهم يرتدون القميص والبنطلون «الشورت» والطاقية «الكاكى» ويرددون نشيداً يتغنى بالملك الصغير فاروق الأول ملك مصر والسودان - وكان قد توج حديثاً إثر بلوغه السن القانونية - مطلعه:

ملك الملوك يا زين/ فاروق يا نور العين/ يابو وردة على الخدين/ يا ملكنا وتعيش لينا.

وبينما كان الصبيان يرددون النشيد فى حماس واستمتاع، كان نجم يبتسم فى سخرية تشى بما سوف يكون عليه من التمرد والعناد، ولا عجب أن يمارس فى حياته بعدئذ مختلف ألوان الشقاوة والصعلكة والإبداع النضالى كما لو أنه اختار السير على درب الأديب عبدالله النديم لسان حال الثورة العرابية، حيث انبرى نجم يوجه سهام نقده اللاذع وسخرياته المرة لأوضاع المجتمع المقلوبة وهجاء النظام الذى وقف على يساره يحارب سلبياته!

أذكر حينما كنت مسئولاً عن مكتب صحيفة «الوطن الكويتية» بالقاهرة، أننى صحبت نجم وصديقنا الكاتب الراحل إبراهيم منصور فى زيارة لملجأ الزقازيق، فى سياق إعداده حلقات لصحيفة الوطن عن سيرة «الفاجومى» إبان ثمانينيات القرن الماضى، وهناك أدركنا واقعة مداعبة نجم لعبدالحليم حافظ فوق سطوح الملجأ، وإلى حد انهيار سور السطوح المتهالك ووقوع عبدالحليم أرضاً وإصابته فى ظهره، وبعدها كان الفراق بينهما، حتى التقيا عبر زيارة قصيرة قام بها عبدالحليم لنجم فى سكن صديقه حجازى رسام الكاريكاتير بحى المنيل، ثم شاء القدر أن يتخلى عبد الحليم عن فكرة إنتاج فيلم من إخراج يوسف شاهين عندما وجده يضيف إلى السيناريو شخصيتين هما أحمد فؤاد نجم والملحن الشيخ إمام عيسى، فانطلق يمزق صفحات السيناريو وهو يقول: «المجنون جايب لى اثنين شيوعيين يعلمونى الوطنية فى الفيلم»، رغم أن أيهما لم يكن شيوعياً!

أذكر فى زيارتنا لملجأ الأيتام بالزقازيق أن عبدالحليم حافظ كان قد أعاد ما جرى سحبه من سجلاته عبر أقاربه لكل ما يؤكد علاقته بالملجأ بعدما كان قد تورط فى إنكار تلك العلاقة فى أحاديثه الصحفية مع بدايات شهرته!

أذكر كذلك أن الأديب الكويتى سليمان الفهد كان قد وصل خصيصاً إلى القاهرة لإقناع نجم باستبعاد بعض الوقائع من مسلسل «الفاجومى» رأت إدارة صحيفة الوطن أنها قد تشوهه كشاعر مناضل، عبر حديثه عن تعاطى البعض من أقاربه الحشيش، لكن نجم أصر على الحقيقة كما هى وبلا رتوش!

وهكذا ذاق نجم منذ طفولته وصباه مرارة الحرمان حتى الثمالة، ولعله من هنا كانت علاقته المؤبدة بالفقر والفقراء، فكان تعبيره الواقعى الصادق عن آلام ومشاغل ومطالب السواد الأعظم من المصريين المحرومين، عبر موهبته الفطرية كشاعر للعامية اختار النضال السياسى والاجتماعى محوراً وموضوعاً لقصائده ومعظمها وجدت طريقها إلى التلحين والغناء والانتشار كما النار فى الهشيم!

كان ذيوع شعر نجم وشهرته فى أعقاب هزيمة الخامس من يونيو ١٩٦٧.. يقول: كنا حتى ذلك الحين نصدق ما تقوله لنا وسائل الإعلام الحكومية.. كنا نصدق أننا أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط، ويومها كان رد فعل خطاب الرئيس جمال عبدالناصر فى ضمير شاعرنا مزيجاً من القهر والغضب، لا لأن عبدالناصر أعلن مسئوليته عن الهزيمة، ولكن لأن الشعب كان قد اكتشف حقائقها المذهلة سافرة، وأن الجيش المصرى لم يتقدم خطوة، وإنما تقدم الجيش الإسرائيلى عشرات الكيلو مترات فى سيناء حتى وصل إلى مشارف قناة السويس!

جلس نجم يفكر.. وإذا بالشعر ينساب تلقائياً يعرى الهزيمة بصدق وأسى بلا أى تبرير أو تزويق، حكى عن ضباطنا العائدين من خط النار فى قصيدة عامية لاذعة شهيرة، وجه جام غضبه ونقده لقادة الجيش الذين حكموا وصالوا وجالوا على مدى خمسة عشر عاماً تحت ذريعة الإعداد للمعركة الحاسمة مع إسرائيل.

من هنا كانت لحظات تدشين نجم شاعراً كاشفة لأبعاد الهزيمة الماحقة، متزامناً مع التدشين الموسيقى للشيخ إمام عيسى الذى لحن وغنى أشعاره النوبية، وإذا بها تثير فى مصر وفى الوطن العربى عاصفة من البكائيات ونقد الذات للأوضاع السياسية العربية المنقلبة وغياب التخطيط والإعداد والتعبئة الكفيلة بمواجهة إسرائيل وردعها!

الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا

إلى أعلى عمارة بحى الزمالك اصطحبنى أحمد إبراهيم حجازى رسام الكاريكاتير وزميلى فى مجلة «روز اليوسف» أوائل عام ١٩٦٨ للقاء مهم كما أوحى لى، وفى غرفة ضيقة ومتواضعة على السطوح مخصصة لغسيل السكان كان فى استقبالنا نفر من الأصدقاء.. الأديب محمد جاد والمصور الفوتوغرافى الفنان أحمد نور الدين والفنان التشكيلى عدلى رزق الله والفنان التشكيلى جودة خليفة و...

مضى الوقت فى الدردشة والسخريات والطعام والشراب، حتى دخل الغرفة شاب نحيل منكوش الشعر وهو يقود خطى رجل ضرير يضع على عينيه نظارة سوداء ويغطى رأسه بطاقية سوداء من الوبر أشبه بغطاء الرأس الباكستانى ويرتدى بدلة متفحمة شديدة السواد وحذاء ممزقاً، ثم وبشكل طبيعى اندمجنا فيما كنا نخوضه من حديث وطعام وشراب، ولأنه لم يكن لى سابق معرفة بهما، فقد همست أسأل حجازى عنهما.. وبدوره همس قائلاً: اصبر شوية!

بعد قليل دخل الغرفة جديد.. وكان شاباً طويلاً هادئاً يحمل العود، وبعدها جرى التعارف عملياً مع الغرباء الثلاثة، وكانوا الشاعر أحمد فؤاد نجم والموسيقى المطرب الشيخ إمام عيسى وحامل العود محمد على، وإذا بالمفاجأة وتفاصيلها المثيرة، تترى تباعاً، فكان نجم يلقى قصائده ثم يتبعه إمام بغنائها والعزف على العود، بينما كان محمد على ضابطاً

للإيقاع عبر النقر بأصابعه على المائدة!

كانت البداية حول موضوع النكسة وقصيدته العامية الشهيرة «الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا يا محلى رجعة ظباطنا من خط النار»، ولأنى كنت آنذاك مراسلاً عسكريًا لمجلة روزاليوسف، ولأنى شهدت المأساة كاملة على الطبيعة فى سيناء، من هنا كان انفعالى الشديد وأنا أحاول جاهدًا احتباس الدموع!

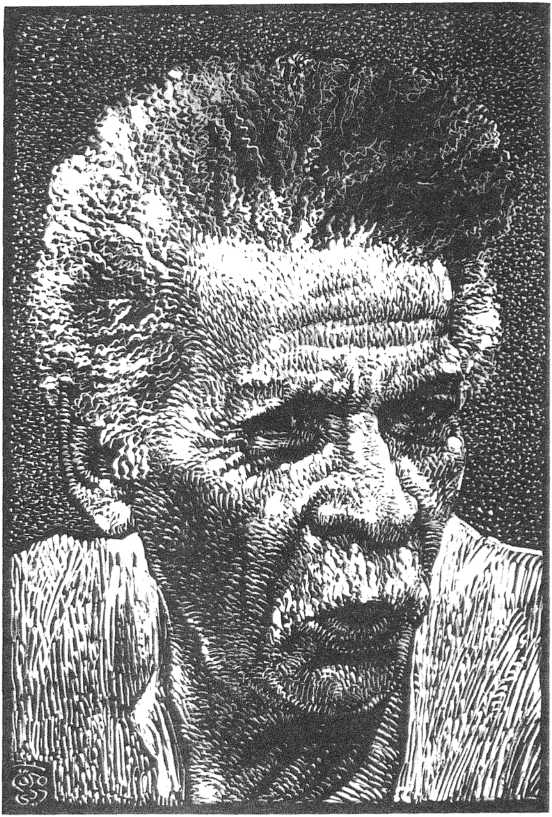
بعدها على ما أذكر كانت أغنية «توت حاوى حاوى توت» ثم تتابعت الأغنيات بعد ذلك «إيه آخر الصبر يا شيخ أيوب»، و«الله الله يا بدوى هات الشخاليل».. ثم كانت الخاتمة أغنية «جيفارا مات آخر خبر فى الراديوهات»!

كنا نردد كوبليهات الأغنيات مسحورين بشكل جماعى وفى حرارة وحماس ولوعة، وكانت المعانى والمرامى تضطرب فى أعماقنا وضمائرنا، وأدركت وأنا المتيم بأنواع الغناء كما لو أننى اكتشف عالمًا آخر مختلفًا. فقد كانت أشعار نجم غير مسبوقة فى خياراتها النقدية الصارخة، كما كانت أنغام إمام وغناؤه هديرًا مزلزلاً!

وتساءلت فى نفسى: من أين كل هذا الزخم الإبداعى الثورى؟ ولعله من هنا كان طريقى سالكًا إلى حى الغورية، حيث المنبع والنبع.. حيث سكن نجم وإمام شديد التواضع فى خوش قدم، ولا أدرى لماذا دار فى ذهنى شبه نجم بالشاعر الإسبانى الشهير «لوركا»، فهو فقير مثله وعظيم على شاكلته، وإذا كانت شهرة لوركا لكونه صاحب أجمل الأغنيات فى تاريخ إسبانيا منذ كانت الأندلس، فهذه أغنيات إمام ونجم القصيرة تحفر لها مكانًا مرموقًا فى تاريخ القاهرة الغنائى!

ما بين خوش قدم والأكاديمية

من يومها راحت قدماى تقودانى يومًا بعد آخر ما بين خوش قدم وشقة الأديب محمد جاد الشهيرة فى العجوزة التى كنا نسميها الأكاديمية، حيث كان يأوى إليها إمام ونجم أحيانًا ويبدعان. ويؤمها جوقة من الأدباء والشعراء والفنانين الواعدين، وبينهم الأبنودى وأمل دنقل ويحيى الطاهر وعبدالرحيم منصور وسيد خميس وسيد حجاب



رغم اختلاف المشارب بينهما والطباع، تشاء تصاريف القدر أن يرحلا إلى القاهرة، وأن تتجاوز شهرتهما آفاق مصر. أحدهما عبدالحليم حافظ والآخر أحمد فؤاد نجم!



الفاجومى

الذين استمعوا مثلى لأحمد فؤاد نجم وهو يلقى أشعاره وبينها قصيدة «شحاتة المعسل» فى جامعة القاهرة، لا يزالون يتذكرون تلك الجرأة، فقد كان الصف الأول من المسرح يضم البصاصين والمخبرين

وعدلى رزق الله ونجيب شهاب وحسن الموجى وخيرى شلبى ونبيل تاج ومحمد لاشين وسعيد عبيد الذى عاد من الخليج مطربًا وزعيمًا لفرقة جيش التواشيح والممثل على الشريف.. وغيرهم كثر، حتى هرب محمد جاد من مطاردة الشرطة واختفى فى قريته «بركة السبع»، وفقد شقة العجوزة بعدما عجز عن دفع الإيجار ولم يكن يتجاوز ستة جنيهات، وعلى ما يبدو أنه وجوقة المثقفين كانوا تحت المراقبة الأمنية، فلم يسلم منهم من الاعتقال والحبس سوى البعض، ورغم أن محمد جاد كان ناصريًا إلا أنه كان يرفض تجاوزات الأمن فى عهد عبدالناصر. وأذكر أنه كتب وأنشد زهاء ٢٥ أغنية قام بتلحينها حسن الموجى رفيق الشيخ إمام قبيل شهرته بسنوات، كى يتم إنشادها خلال نص مسرحى تحت عنوان «قهوة البوستة» التى كانت ملتقى جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وعبدالله النديم ويعقوب صنوع، وماتزال هذه المسرحية وغيرها من شعر وأدب وفلسفة محمد جاد فى حوزة أسرته وبعض أصدقائه فى انتظار أن ترى النور، وتلك كانت البيئة والأجواء الإبداعية التى شهدت ولادة نجم وإمام إثر هزيمة يونيو ١٩٦٧!!

والشاهد أننى عندما شرعت إلى التحقيق فى صحة معلوماتى عن شقة العجوزة «الأكاديمية»، أكد لى الأصدقاء الثقاة الذى كانوا يأوون إليها، أن الناقد الأديب سيد خميس يرحمه الله كان يتكفل بدفع الإيجار، بينما كان عداد النور فقط باسم محمد جاد، ثم إن سيد خميس كان يتولى من دخله المحدود توفير الطعام والمأوى والكتب لروادها من الأدباء والصحفيين الفقراء!

هكذا استبدت بمشاعرى واهتمامى ظاهرة «نجم ـ إمام» وكأننى أمام أسطورة حية ومتجددة، وراحت أشرطة هذا الثنائى المدهش تفرض نفسها على الأسماع، وكانت قد فرضت نفسها تلقائيا على الأسماع فى القاهرة ومصر من أدناها إلى أقصاها ومختلف ربوع الوطن العربى. كما كانت إعادة نسخ هذه التسجيلات عاملاً مهمًا فى توسيع دائرة الاستماع وكسب المزيد من الأنصار والمعجبين. وإلى الحد الذى استعدت من أجله قراءة المؤرخ ابن إياس لعلى أسترشد به فى استبيان تاريخ الظاهر خوش قدم، حيث سكن (نجم ـ إمام) فى واحد من الأحياء التى تحمل اسمه.. يقول فى كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» حول صفات ومكارم الملك الظاهر أبى سعيد سيف الدين خوش قدم المؤيدى، إنه تسلطن على حكم مصر يوم السبت السابع وعشرين من رمضان سنة خمسة وستين وثمانمائة هجرية، ومات على سرير الملك بعد سبع سنوات، وله من العمر نحو من سبعين سنة، وكان ملكا جليلاً كفؤًا للسلطنة، أدوبًا، حشمًا، عاقلاً، وقورًا، شجاعًا، مقدامًا، عارفًا بأنواع الفروسية، وكان إذا ساق الفرس لا ينفرد ذيله من تحت فخذه وهو فى قوة سوقه، وكان عنده تواضع.. سيوسًا عند المحاكمات من غير حدة ولا بادرة. عارفًا بتدبير أحوال المملكة، ماشيًا على طريقة الملوك السالفة!

ثم نستكمل الملامح الشخصية أو السيرة الذاتية فى كتاب ابن إياس حول خوش قدم.. يقول: كان تابعًا لطريقة أستاذه المؤيد فى عمل المواكب بالقصر والمبيت به فى ليلتى الاثنين والخميس، ويصعد العسكر إلى القلعة وهم بالشاش والقماش، وينزل لفتح السر فى يوم وفاء النيل بنفسه كعادة المؤيد، ويلبس الأمراء الصوف بمطعم الطير الذى فى المطرية، ويشق القاهرة فى المواكب الحافلة والأمراء قدامه، ويكون له يوم مشهود، ويدبر فى كل سنة المحمل فى رجب، وتسوق الرماحة على العادة القديمة ويصرف على ذلك جملة أموال، ويحرق بالرملة النقوط الهائلة، وتصرف الناس فى تلك الأيام أموالاً لها صورة، وتعمل الأسمطة والمدات الحافلة.

ثم يختتم ابن إياس شهادته عن أيام الظاهر خوش قدم «كانت أيامه كلها لهو وانشراح، ولم يقع فى أيامه الطاعون ولا الغلاء، ولا أخرج من مصر تجريدة إلى البلاد الشامية، وكان شهمًا مهابًا حسن الهيبة، جميل الصورة، أحمر اللون، مدور الوجه، شائب اللحية، طويل القامة، ضخم الجثة، فصيح اللسان بالعربية، يقرأ القرآن، وله بعض اشتغال بالعلم، وكان رومى الجنس من الأرناؤوط، وكان ترفًا فى ملبسه، صنع له مهاتير وركبًا من الذهب، وكان يلبس السمور الفاخرة وأقبية الصوف الأخضر ويبطنها بالمخمل الأحمر، ويلبس القمصان الحرير فى الشتاء، وكان عنده رقة حاشية ويسمع المغنى، كثير النكاح، غير عفيف الذيل.. وكان يحب العلماء والفقراء، وكان يمازح ندماءه غير عبوس، وكان لا يوصف بالكرم الزائد ولا بالبخل المفرط وهو آخر من مشى من ملوك مصر على النظام القديم وطريقة الملوك السالفة!

يا رب ياللى خلقت البوليس

وإذا كان سبر أغوار شخصية أحمد فؤاد نجم تكشف عن مصادفة التشابه فى البعض من صفات الظاهر خوش قدم، فليس من بينها السلطة والهيلمان أو الثراء، وإنما فى عشق المغنى والنساء، والحدب على الفقراء، فهو قد انجذب إلى ألحان الشيخ إمام الذى باح بشعره وجسد معانيه، وهو الذى تزوج زهاء خمس مرات، أولاها فى الريف منذ أربعين عامًا، وبينهن المطربة عزة بلبع، والكاتبة الصحفية صافيناز كاظم، وآخرهن «أم زينب» التى كانت طفلة صغيرة ونمت وكبرت أمام عينيه، وهى التى ترعاه الآن فى شيخوخته منذ سكن جبل المقطم، وبات سكنه محرابًا للإبداع، وملتقى للحوار والمؤانسة مع الأصدقاء والمعجبين والمريدين، وتلقى شكاوى الفقراء والمظلومين!

وربما لا يعرف سوى القلة من المثقفين أن الشاعر فؤاد قاعود كان قد هبط إلى القاهرة قادمًا من الإسكندرية أواخر ستينيات القرن الماضى يبحث عن فرصة للنشر، فكان اعتماد إحسان عبدالقدوس له مبدعًا وتعيينه بمجلة «روزاليوسف» ليس بصفته محررًا وإنما بصفته شاعرًا!!

وكان الشيخ إمام قد تعرف على قاعود قبل نجم عبر ما كانت تنشره له مجلة صباح الخير من القصائد العامية، حيث لحن له وغنى عشرا من قصائده العامية كان أكثرها رواجًا وقتئذ تلك الأغنية التى كانت تحكى يوميات بائع جائل فى وسائل النقل العام «لبان دكر مجوهرات بكش/ شخليلة فلايات/ وباغة للقميص/ ونوجة ياليلى فى مترو الذوات/ يا كمسرى يا كمسرى يا نص عسكرى.. إلخ.

إلى ذلك كانت قصيدة «الشاعر» التى كتبها قاعود تعليقًا على حادث احتجاز أحمد فؤاد نجم فى مركز شرطة إمبابة عام ١٩٦٨ ومطلعها:

ومن علامات النهاية/ إن اللى شوفته قصاد عينى بيقتل/ هوه اللى بيحقق معايا.

من المضحك وشر البلاء ما يضحك أن يبتكر الشاعر محمد لاشين دعاء وهتافًا من قبيل رفع الروح المعنوية، وكان يردده مع نجم ومحمد جاد وشقيقه جمال وضابط الإيقاع محمد على والمثال الشعبى محمود اللبان مع صحبه المحبوسين فى الحجز، ولا أكاد أتذكر من هذا الدعاء الهتاف سوف:

يا رب ياللى خلقت البوليس وفايتهم يناكفونا

بادعيك تاخدهم جهنم زى ما خدونا

عن هذه الواقعة المثيرة حكى محمد جاد فى مقال كتبه على هامش حلقات «الفاجومى» التى نشرتها صحيفة الوطن الكويتية مع بداية شهر نوفمبر ١٩٨٨.. يقول: «كنا عائدين من سهرة فى بيت النحات الفلسطينى المعروف «مصطفى الحلاج»، كنا نبحث عمن يقدم لنا العشاء ونقدم له فن «إمام ونجم»، وللأسف الشديد لم نجد هناك سوى الظلمة والجوع.. شربنا الشاى وانطلقنا فى الظلمة، كنا فى الصيف لكننى أحسست بالبرد ربما بسبب الجوع الشديد، فى الشارع كانت مساكن عمال إمبابة ممتدة حتى مركز إمبابة على اليمين، بينما النيل على الشمال، كنا نسير فى الظلام الدامس متلاصقين وخلفنا الشيخ إمام

عيسى يقوده جمال جاد، بينما محمد لاشين يقود محمود اللبان.. عندئذ سألت نجم «إيه رأيك نغنى فى الظلام».. كله يغنى عشان ننسى الجوع والفقر الذى لا يسعفنا لا بالطعام ولا أجرة التاكسى حتى نعود إلى خوش قدم؟

وبدأنا نغنى وراء نجم، وكان المشهد على ما يبدو مثيراً لشخص يتربص بنا فى الظلام، وإذا به يستوقفنا ويعلن أنه شيخ المخبرين فى مركز إمبابة، ثم إذا به يصاب بحمى فظيعة.. حمى القسوة الشديدة بلا أى مبرر، نزل بكل كفه على وجه نجم بشكل متكرر وكأنه يحاول قتله.. كأن هناك ثأراً حقيقياً حل موعده.. بل إن الضرب تواصل بعد وصولنا إلى مركز إمبابة تحت ضوء لمبة كهربائية ضخمة ولا وقت عند شيخ المخبرين للتفاهم، لكأن نجم لص خزائن تم القبض عليه بعد بحث دائب استمر سنوات وسنوات، ويخشى أن يفلت منه، أشهر لص خزائن فى التاريخ، إذ ظل يعاجله تباعاً بضربات موجعة وقاتلة، ولا أعرف كيف لم يمت الشاعر الكبير تحت هذا الكم من الصفعات رغم أنه كان مريضاً!

والحقيقة أنى كلما راجعت تفاصيل الواقعة كما حققها جاد وشهادة لاشين، أكاد أرتعد شفقة على هؤلاء الذين وقعوا دون جريرة ولا سبب فى شراك التعذيب والإهانة والتجويع عدة أيام، إلى حين رق قلب ضابط المباحث عندما أدرك أن بينهم صحفيين وشعراء، بينما كان الشيخ إمام قد أفلت وحده بأعجوبة واستطاع أن يركب تاكسى إلى خوش قدم بخمسة وعشرين قرشاً كانت كل ما فى حافظته، وهكذا جرى تغيير محضر الشرطة باعتبار المتهمين لا يحملون بطاقة شخصية.. فكان قرار وكيل النيابة تغريم كل منهم جنيهين ونصف الجنيه تقديراً لظروفهم!

قبيل هذه الواقعة المأساوية كانت ولادة نجم الحقيقية كشاعر شعبى يعبر باقتدار فى لهجة بسيطة وحاسمة عن تداعيات النكسة على كل صعيد، والدعوة إلى المراجعة ونقد الذات فى مرارة لأسبابها المعروفة والمستبطنة، ثم إن هذه الولادة واكبت ظهور نجم وإمام على مسرح نقابة الصحفيين بعد أن كان مجال التعبير والإفصاح سراً فى البيوت والمقاهى والقرى والأحياء الشعبية.

قدم الناقد الكبير رجاء النقاش والمرحوم محمود المراغى وكيل النقابة نجم وإمام وسط حشد ضخم من الصحفيين والضيوف الذين ضاقت بهم



الفاجومى

لا ينكر نجم أنه دخل السجن للمرة الأولى بتهمة التزوير، ورب ضارة نافعة كما يقولون، فقد قضى فى العقوبة ثلاث سنوات، انفتحت خلالها شهيته للقراءة، وحتى أدركته موهبة الشعر

المقاعد وردهات وحديقة النقابة، واستمر الحفل ثلاث ساعات متصلة لم يتوقف خلالها التصفيق وترديد الكوبليهات الغنائية لحظة واحدة، كانت ثورة ثقافية عارمة بأى معنى، لكنى لم أسترح لهذا النجاح منقطع النظير، ويا ليت أحد اهتم بتسجيل هذا الحفل التاريخى، إذ كان وراءه مجهود جماعى شارك فيه حجازى رسام الكاريكاتير وصاحب الأيدى البيضاء على حركة إمام ونجم، وكذا رجاء النقاش وسعد الموجى وحسن الموجى وفؤاد القاعود ومحمد جاد الرب!

وحدث ما توقعته وخشيته، وغيرى من أنصار هذا الثنائى الثورى الفريد، حيث اهتزت له السلطة غضباً، وحيث انطلقت بعض الأبواق الصحفية فى سيل من الهجوم المقذع والبذاءة من عقالها، كل انطلق نفر من الشعراء المنافقين والموالين يدبجون القصائد السياسية دون جدوى.. أقصد دون أن يتمكنوا من مطاولة أشعار نجم وجذب الجماهير الكامنة إلى الصدق والإخلاص!

وفى تقديم حان رقيق ظل رجاء النقاش يواصل التعريف بنبوغ وإبداعات نجم وإمام عبر إذاعة صوت العرب إبان أيام شهر رمضان عام ١٩٦٨، كما أصدر رجاء النقاش أربعة أعداد متتابعة عنهما فى مجلة الكواكب من الغلاف إلى الغلاف.. وكان رئيساً لتحريرها، لكن نجم خشى على نفسه وعلى إمام من تلك الاتهامات والشائعات الرديئة التى حاولت الترويج بشبهة احتواء السلطة لهما!

والذين استمعوا مثلى لأحمد فؤاد نجم وهو يلقى أشعاره وبينها قصيدة «شحاتة المعسل» فى جامعة القاهرة، لا شك أنهم لا يزالون يتذكرون هذه المفاجأة وتلك الجرأة، فقد كان الصف الأول من المسرح يضم البصاصين والمخبرين، لكنهم لم يملكوا سوى التصفيق له فى خضم تصفيق نحو ١٥ ألف طالب، وهو يسخر من سوقية «شحات المعسل»، وإذا بهم يحاولون محاصرة نجم قبل إفلاته فيما يشبه حركة نفاق لشحات المعسل نفسه!

بعدها كانت مباحث أمن الدولة قد ضاقت ذرعاً بكل هذا النشاط السياسى المحموم، وهذا الانتشار الواسع الذى امتد إلى النقابات والجامعات، والتجاوب الجماهيرى مع الاثنين والسخط على النكتة والنقد الصارخ للغفلة والتسيب والإهمال الذى أدى إليهما، وتداعياتها الوخيمة على الصعيد الاجتماعى على نحو ما جسدته أغنية نجم وإمام لأحوال مصر:

ناح النواح والنواحة على بقرة حاحا النطاحة
والبقرة حلوب.. تجلب قنطار
لكن مسلوب.. من أهل الدار
والبقرة تنادى.. وتقول يا ولادى
وولاد الشوم رايحين فى النوم.. إلخ.

لكأن أحمد فؤاد نجم الحفيد العصرى للشاعر جمال الدين السلمونى الذى عاش زمان السلطان الغورى عام ١٥١٧ ميلادياً، حين ندد بالمظالم التى سادت فى عصره، وناله منها الضرب والعسف على يد عبدالبر قاضى القضاة.. فأنشد يقول:

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها
ولم لا وعبدالبر قاضى قضاتها
أينكر فى الأحكام زوراً وباطلا
وأحكامه فيها بمختلفاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة
يرى أنه حل على شبهاتها
فإسلام عبدالبر ليس سوى
بعمته والكفر فى سنماتها

إلى أن يقول:

ولو أمكنته كعبة الله باعها

وأبطل منها الحج مع عمراتها

ومن هنا كانت الطبخة الأمنية جاهزة عبر تلفيق الجريمة الكبرى التى تناولتها مختلف الصحف والمجلات فى صدر صفحاتها «الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم أكبر تجار مخدرات فى مصر» وفى السياق جرى التحفظ على اثنين كيلو حشيش وكيلو أفيون و.. القصة باتت بعد مضى زهاء ٣٨ عاماً باتت معروفة بكل تفاصيلها المثيرة، فقد تم القبض على إمام ونجم ومحمد لاشين وسعد الموجى فى أماكن متفرقة وفى مواقيت مختلفة، حيث سيق المتهمون إلى مديرية الأمن العام، ومنها إلى النيابة، ومنها إلى قاضى المعارضات الذى شكل جلسة سرية!

قدم المحامون مجموعة من الصحف والمجلات التى كتبت عن إمام ونجم باعتبارهما ظاهرة أدبية وفنية جديرة بالاحترام والتشجيع، ومن بينها مقال للدكتور فؤاد زكريا فى مجلة «الفكر المعاصر»، وافتتاحية رجاء النقاش فى مجلة الكواكب، وعمود الأستاذ محمود أمين العالم الذى أكد فيه أن إمام هو سيد درويش العصر، وأن نجم هو بديع خيرى أو بيرم التونسى، وعندئذ طلب القاضى الاستماع إلى أشعار نجم، بلسانه، ثم طلب الاستماع لها عبر تلحين وأداء إمام، وراح يغنى ويضبط الإيقاع عبر النقر على منصة القضاء، فكان قرار القاضى أن القضية لا تستند إلى أساس والإفراج عنهم بكفالة مالية، وإذا بجمع غفير من المواطنين يتقاطرون على قاعة المحكمة ويدفعون الكفالة!

لكن المتهمين الأبرياء أغلقت عليهم الزنازين لمدة يومين، وعندما ثاروا وصاحوا يهتفون ضد الظلم والظالمين، استدعاهم المأمور واشترط حضور ضامن لهم للإفراج عنهم، ومن عجب أن يتقدم واحد من المخبرين لم يكن له سابق معرفة بالمتهمين الأبرياء، وحدق فى وجوههم.. ثم أمسك القلم ووقع على الأوراق ضامناً لله فى لله، فلما خرجوا إلى ساحة الحرية بادروا إلى شراء الصحف.. حيث وجدوا صفحات الحوادث بيضاء من أى ذكر لوقائع القضية ولا أى متابعة للمحاكمة التى انتهت بالإفراج عنهم!

الفصام بين نجم وإمام

على أن بانوراما السيرة الذاتية لشاعرنا الفاجومى ماتزال غير مكتملة وتحتاج ولا شك إلى كتاب يحرره جمع من الكتاب

والنقاد، وعليهم أن يجمعوا ما خفى منها من الوقائع والتفاصيل عبر شهادات الأصدقاء والمريدين، ولعلنا فى هذه السطور الباقية نستكمل ما توافر لنا عنها من المعلومات عبر معادلة «ما لا يدرك كله لا يترك جله»!

منها أن نجم كان قد احتضنه الأديب يوسف السباعى فى بدايات قدومه إلى القاهرة، وأسند إليه وظيفة متواضعة فى منظمة التضامن الأسيوى ـ الأفريقى، لكنها لم تصادف طبيعته وموهبته، بل ونال جائزة يوسف السباعى عن «ديوانه الكروى» وطبعه على نفقة المجلس الأعلى للفنون والآداب، ولا شك أن هذا العمل الأدبى الغض لا يطاول عظمة وقيمة أشعاره الثورية، إذ كان لا يستحق القراءة اليوم لشدة سذاجته وسطحية أفكاره، وهو ما يؤكد مقولة نجم من أن النكسة هى التى صنعت منه شاعرًا مكتملاً!

ونجم تردد على المعتقلات وكان نزيل السجون عدة مرات، وبينها سجن مصر وأبوزعبل وشبين الكوم وقرة ميدان والقلعة، ودائمًا فى أعقاب كل قصيدة يعبر فيها عن أزمات مصر السياسية والاجتماعية يقول ساخرًا: ربما كنت الوحيد فى التاريخ الذى قدم إلى محاكمة عسكرية بتهمة الشعر، وكانت القصيدة الشهيرة بعنوان «بيان هام»، ومع ذلك لا ينكر أنه دخل السجن للمرة الأولى بتهمة التزوير، ورب ضارة نافعة كما يقولون، فقد قضى فى العقوبة ثلاث سنوات، انفتحت خلالها شهيته للقراءة، وحتى أدركته موهبة الشعر، وشجعه مدير السجن ابراهيم عزت وكذا المأمور سمير قلادة على أن يتقدم لمسابقة أعلن عنها المجلس الأعلى للفنون والآداب.. فكان صدور ديوانه الأول «صور من الحياة والسجن».

المعروف فى تقاليد السجون المصرية عندما يأتى المساء، سواء عندما تغلق الزنازين، أو عندما يتم الإفراج عن أحد المسجونين، حيث يصدر صوت من أحد الزنازين مخاطبًا المساجين فى مختلف الأدوار والعنابر، ويبدأ عادة بتحية حراس الليل، ثم تحية الرفاق السياسيين وغير السياسيين، ثم يبدأ فى إبداء ما يريده وما يطرحه عليهم من قضايا ونوادر وحكايات.



الفاجومى

كانت لحظات تدشين نجم شاعرًا كاشفة لأبعاد الهزيمة الماحقة، متزامنة مع التدشين الموسيقى للشيخ إمام عيسى، وإذا بها تثير فى مصر وفى الوطن العربى عاصفة من البكائيات ونقد الذات

من سجنه فى أبى زعبل أنشد يوم ٢٠ مايو ١٩٧٧ قصيدته الشهيرة:

عنبر.. كله يسمع/ شخشخت بالزهر/ ما نصفنيش ولا مرة/ وراهنت بالمهر/ وبالبقشيش على مره/ والسجن للحر/ وإن كان مر/ ولا مرة/ فكرت فى التوبة/ من دى النوبة بالمرة ـ الأولة للنبى/ والثانية أيوب/ والثالثة غربتى/ والرابعة المكتوب/ والخامسة اللى افترى/ حتمًا يبات مغلوب. الأولة يا نبى يا محرر الإنسان/ يا بلسم اللى ابتلا/ يا نجدة للغلبان/ كرمت صف البشر/ من طايفة الحيوان/ ورفعت سيف الهدى/ عالى على الطغيان/ وغسلت أرض العرب من بقعة الأوثان. وزعقت يا أمتى/ فى سائر الأزمان/ الظلم لو يوم حكم/ والحق لو يوم هان/ يحرم عليكى الندى/ والنسمة والألوان/ تسرح بحورك عطشى/ فى الزرع والإنسان/ ويجرى فيك الحنش/ وتحوم الغربان/ ترمى الخراب على الجبل/ والسهل والوديان/ والنور يغور من السما/ ووجه القمر بيان/ الشوف يضيع فى العما/ والظلمة والأحزان/ والخوف يطيح فى البشر/ من قسوة السجان/ الناس تخاف بعضها/ وتخوف السلطان.. إلخ.

على ضفاف الشعر ظل أحمد فؤاد نجم ولا يزال يرنو إلى قيام لحزب أخضر، يقتفى آثار التلوث البيئى والميكروبى والنووى، إذ يعتقد أن هذه الأخطاء سوف تنعكس على المواليد المشوهين وعلى الناس والحياة ومستقبل البشرية بوجه عام، وإذا كانت الجماهير قد احتضنت ظاهرة نجم وإمام، وشقت لنفسها طريقًا للوصول إلى حيث كانت سكناهم ومحراب إبداعاتهم، من هنا كان التفكير إبان تألق هذه الظاهرة الثقافية السياسية فى السبعينيات مدعاة لاقتراح دعا إليه البعض من الكتاب لكتابة عبارة شارع نجم وإمام أسفل اللوحة الزرقاء التى تحمل عبارة شارع خوش قدم سابقًا تكريمًا لعطائهما ودورهما الثقافى والفنى!

وأتذكر أبوالنجوم وقد أنكر ذاته وإشباع إعجابه بالشاعر نجيب سرور عبر الحفاوة بواحدة من قصائده العامية، حيث كون من أجلها «فرقة الشحاتين» مع الشيخ إمام ومحمد على ضابط الإيقاع الذى رمته الأقدار فى صحبتهما إلى سجن القلعة بدون أى اتهام، ونفر من أبناء زقاق خوش قدم.. عازفين وكورال، وحيث انهمك الجميع فى غناء القصيدة كلما انتهى إمام من تلحين أبياتها تباعًا التى تقول:

البحر غضبان ما بيضحكش
أصل الحكاية ما تضحكش
وجرحنا ولا عمره دبل
والبحر بيضحك ليه
وأنا نازلة ادلع أملا القلل

وإذ كان نجم قد توقف عدة سنوات عن الشعر لالتقاط الأنفاس، وربما تحت إغراءات التجريب، سواء عبر التمثيل والغناء والكتابة للسينما والصحف، فقد أكد أنه لم ينضب له معين من الإبداع، حين فاجأ القراء بالقصيدة الطويلة الرومانسية التى نشرتها صحيفة «العربى الناصرى» يوم ٢٠ يونيو ٢٠٠٤ تحت عنوان «أدى مصر».. يقول:

والله لو سعدنى زمانى لأسكنك يا مصر/ وأبنى لى فيكى جنينة فوق الجنينة قصر/ وأبعت منادى ينادى كل يوم عصر/ دى مصر جنة هنية للى يسكنها/ واللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى ـ مصر الطين/ والفلاحين/ والكادحين/ والملاحين/ والبنايين/ والسقايين/ والصيادين/ والمنشدين/ والمغرمين/ والصنايعية/ مصر النخيل والنيل/ والصبر والمواويل والغزل.. والملاغية/ وع البحر جمالات/ بيملوا دوا رقهم/ عيان يا طبيب/ وصفولى الدوا ريقهم.. إلخ. ومن أشهر دواوين نجم الشعرية «صور من الحياة والسجن» و«يعيش أهل بلدى» و«أغنيات الحب والحياة» و«الطير المهاجر».

كذلك كانت تجربة نجم مذيعًا لبرنامجه الفضائى «الأول» واسمه يا عيش أهل بلدى، و«الثانى» حبايب، حيث يستضيف البسطاء من طبقات المجتمع، ويستخرج منهم أجمل ما لديهم من الأفكار والتجارب، بعد أن مل المشاهدون تقديم الأعلام والمشاهير، وتسليط الأضواء على الطبقة الحاكمة، وهو فى إجابته عن اتهامه بحب المال يقول: هل كثير علىَّ ألف جنيه مقابل حديث فى التليفزيون، ولو كان ذلك الاتهام فى محله فلماذا رمت بى المقادير لسكنى شقة متواضعة فى المساكن الشعبية بالمقطم!

ثم لا يفوتنى فى نهاية السيرة واقعتان، الأولى عندما استتاب عن هجومه ونقده للرئيس جمال عبدالناصر، وحين رحيله رفعه إلى مصاف القديسين.. وأنهى قصيدة يشير فيها بمواقفه الوطنية والقومية أنهاها قائلاً: وإن كان جرح قلبنا.. كل الجروح طابت.

وأما عن الواقعة الثانية فحول الفصام والقطيعة بين نجم وإمام.. يقول: الشيخ إمام أصبح فى ذمة الله، وهو كان فنان عظيم وإنسان عظيم وحذاؤه ـ يرحمه الله ـ برقبة الكثير من الفنانين العرب.. أنا لم أنقلب عليه، لكن هناك من لعب هذا الدور من وراء الكواليس عندما كنا فى باريس.. والأسماء معروفة.. والمناصب معروفة.. والأهداف معروفة، وعندما توفى.. أنا الذى غسلته وكفنته ودفنته بيدى، وأقمت عزاءه من القروش القليلة التى كانت معى، وبمساعدة أهالى خوش قدم! لعنة الله على فتنة المال!

وعلينا إذن انتظار عطاء نجم وممارسته لمهام منصبه الجديد بعدما أصبح سفيرًا فوق العادة لمكافحة الفقر والحدب على الفقراء فى مصر، فهل ينجح فى مسعاه الإنسانى بعدما أكد حضوره كشاعر شعبى متألق ومشاغب سياسى جسور؟ ■

صورة الشاعر والوطن.. فى تحقيقات القضاء

عمـــــــاد الغـــــــزالى

■■ ثمة ما يغرى دائمًا بالقراءة فى سيرة أحمد فؤاد نجم الشخصية ومسيرته الشعرية، فالشاعر الذى أقض مضاجع السلطة طوال عهدى عبدالناصر والسادات، لم يكتب شطرًا فى قصيدة قبل بلوغه الثانية والثلاثين، وكان اكتشافه لملكاته الشعرية قد بدأ فى السجن، الذى دخله لأول مرة فى عام ١٩٦٠ متهمًا فى جريمة تزوير استمارات حكومية، يحصل بمقتضاها على بضائع يبيعها لحسابه، وقد حكم عليه بثلاث سنوات، إلا أنه خرج فى مايو ١٩٦٢ لـ «حسن السير والسلوك».

وقتها كان نجم يعمل بوزارة المواصلات، التى عينته فيها حكومة الوفد بعد انسحابه من العمل بمعسكرات الاحتلال ضمن ٨٠ ألف عامل غادروها بعدما ألغى النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦ يقول نجم فى مذكراته: «ثلاث سنين قضتهم فى سجن أرميدان بتهمة التزوير غيروا خط سيرى وقلبوا حياتى وخلقوا منى كائن جديد، كائن إيجابى بقى له اهتمامات تأثر بها وأثر فيها فى حدود إمكانياته، ثلاث سنين اكتشفت فيها الشاعر اللى أصبح بعد كده حديث الناس من المحيط إلى الخليج أو فى أى مدينة أو قرية فى كوكب الأرض فيها ناس بيتكلموا عربى».

وسنلاحظ أن نجم يعود بالقضية إلى عام ١٩٥٩، فى الوقت الذى يشير الكاتب الكبير صلاح عيسى فى مقدمته للكتاب إلى أنها جرت عام ١٩٦٠، كما ستتكرر هذه المبالغات التى يتحدث بها نجم عن نفسه فى التحقيقات، إذ ليس صحيحًا بالتأكيد أنه «حديث الناس من المحيط إلى الخليج أو فى أى مدينة أو قرية فى كوكب الأرض فيها ناس بتتكلم عربى»، وإن كان ذلك لا ينفى شاعريته وتأثيره فى مصر وخارجها.

وإذا كان الأستاذ صلاح عيسى يؤرخ لبدايات نجم فى القصيدة السياسية بقصيدة «يعيش أهل بلدى»، التى كتبها كما يقول فى ربيع ١٩٦٧، فإنه يؤكد فى المقدمة التى كتبها لمذكرات نجم والتى حملت عنوان «الفاجومى» أنه «لم تكن له أى صلة بالسياسة أو بشئون الحكم ولم يكتب فى أيهما شعرًا قبل ٥ يونيو ٦٧». والحقيقة أن نجم أتبع «يعيش أهل بلدى» بقصيدة سياسية أخرى عكست مدى وعيه السياسى والاجتماعى، الذى كان لفترة السجن أكبر الأثر فى تشكيله، إذ التقى فى سجن مصر العمومى بعدد من الكتاب الذين كانوا محبوسين على ذمة قضايا شيوعية، بينهم الناقد سامى خشبة والقاص الراحل عبدالحكيم قاسم، ومن خلالهما سمع للمرة الأولى شعرًا لفؤاد حداد الذى كان معتقلاً هو الآخر فى سجن الواحات، يقول الفاجومى الذى كان معجبًا بالغرب وبكل ما يأتى منه أو يصدر عنه بتأثير أخيه الأكبر «محمد»: «بدأت أصحى وأشوف الناس والأمور والأشياء بعين ثانية، زمان قبل السجن لما قريت ديوان بيرم التونسى وسمعت ألحان سيد درويش وزكريا أحمد ما كنتش معجب، كنت مبهور بشوقى وعبدالوهاب، وبأى شىء فيه ريحة أوروبا المكرمة، كان فيه حاجة ربنا يكفيك شرها اسمها جراة الجاهل(...) طول النهار أتعالم وأتفلسف أسفه عشاق شعر بيرم وألحان سيد درويش وزكريا أحمد باعتبارها حاجات بلدى، وأنا راجل أفرنجى أبًا عن جد، ثم إيه حكاية فنان الشعب اللى ورموا دماغنا بيها دى؟ وشعب إيه الحافى ده؟ شعب جبان وخانع طول عمره وراضى بالذل ويستاهل ما يجرا عليه، الكلام ده وأكثر منه كان هو بيقولهولى محمد أخويا وأنا كنت طبعًا بأصدقه، بعد السجن اتعلمت وفهمت، يا بنت الإيه يا مصر، أتاريكى حكاية طويلة مالهاش أول من آخر».



كان ما أجج وعى نجم السياسى فى المرحلة الأولى، هذا التناقض الحاد بين طبقة الأثرياء وطبقة الفقراء، والفساد الذى استشرى فى النظام وقيادات القطاع العام الذين نهبوا ثرواته، وتناولتهم الرسوم الكاريكاتيرية لرسامى روز اليوسف وخصوصًا حجازى، وكان هذا الفساد أحد مؤشرات الهزيمة التى جرت بعد ذلك بشهور، يقول نجم فى قصيدته «التحالف»:

يعيش التنابلة/ فى حى الزمالك/ وحى الزمالك/ مسالك مسالك/ تحاول تفكر تهوب هنالك/ تودر حياتك/ بلاش المهالك/ لذلك/ إذا عزت توصف حياتهم/ تقول الحياة عندنا/ مش كذلك.

وفى مقطع آخر من القصيدة:

يعيش الغلابة/ فى طى النجوع/ نهارهم سحابة/ وليلهم دموع/ سواعد هزيلة/ لكن فيها حيلة/ تبدر تخضر جفاف الربوع/ مكن شغل كايرو/ مايتعبش دايره/ لا ياكل/ ولا حتى يقدر يجوع.

كان نجم يتندر من الاتحاد الاشتراكى الذى يضم تحالف قوى الشعب العامل من فلاحين وعمال وجنود ومثقفين ورأسمالية وطنية، وقد رأى أن هذا التحالف ينسفه تناقض حاد بين طبقتين: الأثرياء الذين يزيد ثراؤهم وتتكدس ثرواتهم بفعل الفساد والرشوة، والفقراء الذين يرزحون فى البؤس والمهانة، وقد عبر عن الطبقة الأولى بساكنى حى الزمالك، والثانية بهؤلاء الذين يعيشون فى طى النجوع، لكنه لم ينس المثقف، أحد أقسام التحالف الخمسة، والذى كان لتخاذله وانتهازيته بالغ الأثر فى ذيوع الفساد والتمهيد لأجواء الهزيمة التى جرت بعد ذلك بشهور قليلة، فهذا المثقف على مقهى ريش.. «محفلط مزفلط كثير الكلام/ عديم الممارسة/ عدو الزحام/ بكام كلمة فاضية/ وكام اصطلاح/ يفبرك حلول المشاكل قوام/ يعيش المثقف/ يعيش يعيش يعيش».

والحقيقة أن هذا النقد اللاذع للمثقفين، لم ينفرد به نجم وحده، بل تواتر فى عديد من الأعمال الشعرية والقصصية لتلك المرحلة وما بعدها، وربما كانت «بروتوكولات حكماء ريش» للمسرحى والشاعر الراحل نجيب سرور هى الأشهر بينها، نقرأ مثلاً: نحن الحكماء المجتمعين بمقهى ريش/ من شعراء وقصاصين ورسامين/ ومن النقاد سحالى الجبانات/ حملة مفتاح الجنة/ وهواة البحث عن الشهرة/ وبأى ثمن/ والخبراء بكل صنوف الأزمات/ نحن الحكماء المجتمعين بمقهى ريش/ قررنا ما هو آت:

لا تقرأ شيئًا.. كن حمال حطب/ واحمل طن كتب/ ضعه بجانب قنينة بيرة/ أو فوق المقعد/ واشرب وانتظر الفرسان/ سوف يجىء الواحد منهم تلو الآخر/ يحمل طن كتب.

ونقرأ أيضًا:

يا ذوبانًا لاكت شرف الكلمة/ يا صبيان السوق الحرة/ حيث يباع الله بكأس زبيب/ ما أرخص فى السوق الإنسان.

ونقرأ:

لا تصمت أبدًا.. إن الصمت جهالة/ واحذر أن تتكلم فى الموضوع/ لا موضوع هنالك/ لكن خذ سمة الأستاذ/ وحذار أن تنسى البايب/ والكلمات الخرز اللاتينية/ قل فى الواقع واصمت لحظة/ قل لا شك/ واصمت لحظة/ ثم مقدمة محفوظة/ من فذلكة المنهج/ حسب الموجة والتيار.

وأيضًا:

لا يخدعك المسرح والأدوار/ المكياج.. الأزياء.. الديكور.. الاكسسوار/ هذا بعض السوس/ الزاحف فى المقهى الملعون/ والآتى من عهد الهكسوس/ جاسوسًا خلف الجاسوس.

حتى هذه اللحظات لم يكن هناك ما يسىء بين نجم والسلطة، بل تم تعيينه عقب خروجه من السجن عام ٦٢ فى منظمة

شاعر تكدير الأمن العام
صلاح عيسى
دار الشروق - ٢٠٠٧

أحمد فؤاد نجم
الأعمال الكاملة
دار الأحمدى للنشر - ١٩٩٨

الفاجومى
سيرة ذاتية للشاعر
دار الأحمدى للنشر

بروتوكولات حكماء ريش
نجيب سرور
دار الشروق - ٢٠٠٧

أمل دنقل
الأعمال الكاملة
المجلس الأعلى للثقافة
دار الأحمدى للنشر - ٢٠٠٣

الأعمال الكاملة
بيرم التونسى
دار مصر للطباعة - ١٩٨٧



التضامن الأفروآسيوى. وطبع ديوانه الشعرى الأول فى المجلس الأعلى للفنون والآداب بمقدمة للدكتورة سهير القلماوى، وقدمه الإذاعى القدير طاهر أبوزيد فى إحدى حفلات الإذاعة بوصفه موهبة شعرية ساطعة تستحق التشجيع.

وكان ديوانه الأول «من الحياة والسجن» هوالمناسبة التى تعرف من خلالها على رفيق دربه الشيخ إمام عيسى، الشيخ الضرير الذى كان يسكن حجرة فقيرة فى «حوش قدم» بالغورية، برفقة صديقه الفنان التشكيلى التلقائى محمد على. وقتها كان نجم قد «التقى» ببنت الحلال صاحبة البيت الذى كان يقيم فى إحدى غرفه ببولاق الدكرور. وبدأ يعد العدة للاستقرار وتكوين عش الزوجية والانخراط فى السلك الاجتماعى، لكن لقاءه بمحمد على والشيخ إمام قلب تخطيطه كله رأساً على عقب، وقرر أن يقيم معهما، وقذف بفكرة الاستقرار من دماغه، وبمفتاح غرفة بولاق الدكرور من أقرب نافذة.. يقول نجم عن الليلة التى جمعته بالشيخ إمام: «الليلة دى أنا مش فاكر تاريخها، كل اللى فاكره أنها كانت ليلة صيفية من سنة ١٩٦٢، وكانت ليلة ولا كل الليالى، ليلة ما تحسبهاش من العمر رغم أنها كانت أهم وأخطر ليالى العمر على الأقل بالنسبة لى، وبالنسبة للشيخ إمام، وبالنسبة للمارشال المتعجرف الأليط الأسطى محمد الصايغ الشهير بمحمد على».

فى تلك الأثناء، بدأت الظاهرة الفنية إمام/ نجم سطوعها المدوى، وتحول المنزل رقم ٢ بحارة حوش قدم إلى كعبة يحج إليها عشرات من المثقفين والأدباء والفنانين من مصر ومن كل بقعة عربية، وتحولت غرفتهما الفقيرة إلى منصة إطلاق قصائد مناهضة للنظام بما يمثله من فساد واستبداد، تصبح بعد لحظات أغنيات يرددها المصريون جميعاً: طلبة وعمال ومثقفين، وهذا بالضبط ما حرك السلطة فى اتجاه هذه الظاهرة الفنية السياسية المؤرقة، إذ لم تهتم كثيراً بشأنها طالما بقى تأثيرها فى دائرة المثقفين والأفندية، لكنها انزعجت جداً حين تجاوز تأثيرها وامتد إلى العمال والفلاحين والطلبة، جرى ذلك كله بعد يونيو ١٩٦٧، حين شاعت أغنيتهما الشهيرة «بقرة حاحا» وصارت على كل لسان، وقد مثلت هذه القصيدة مرثية غاضبة ضد النظام والفساد والاستبداد، وكشفت بوضوح عن المقدمات التى قادت - والتى كان حتماً لا بد أن تقود - إلى الهزيمة، إذ انشغل الجميع بكيفية حلب البقرة ونهب خيراتها، دون أن يهتم أحد بكيفية حمايتها والدفاع عنها ضد الغزاة..

«وف يوم معلوم/ عملوها الروم/ زقوا الترباس/ هربوا الحراس/ دخلوا الخواجات/ شفطوا اللبنات/ والبقرة تنادى/ وتقول يا ولادى/ وولاد الشوم/ رايحين فى النوم/ البقرة انقهرت/ فى القهر انصهرت/ وقعت فى البير/ سألوا النواطير/ طب وقعت ليه/ وقعت م الخوف/ والخوف بيجى ليه/ من عدم الشوف/ وقعت م الجوع ومن الراحة/ البقرة السمرا النطاحة/ ناحت مواويل النواحة/ على حاحا/ وعلى بقرة حاحا».

وقد كتبت هذه القصيدة بعد ثلاثة أيام من هزيمة ٥ يونيو ٦٧، أما حين تكشفت الأمور تماماً، وصار خبر الهزيمة أكثر ذيوعاً من أن يخفى، كتب نجم قصيدته التى وضعته مباشرة، ومعه الشيخ إمام، فى مواجهة صارمة مع نظام عبدالناصر الذى كان يفكر فى طريقة لاحتواء هذه الظاهرة، بعد أن تركهما النظام يطلقان أغنياتهما بحرية نوعاً ما، للتنفيس عن الغضب المكتوم الذى كان أشبه بمراجل تغلى فى قلوب الناس، التى شبعت كلاماً عن إسرائيل التى سيتم إلقاؤها بمن ورائها فى البحر، وعن جيش العرب العرموم القادر على سحقها فى ساعات معدودة، فإذا بالجيوش العربية تدحر فى لمح البصر.

لكن حين وصلت سخرية نجم إلى الجيش كان على النظام أن يتحرك، ويورد الأستاذ صلاح عيسى واقعة يقول إنها شبه مؤكدة، يقول فيها إن الرئيس عبد الناصر حين وصله تقرير حول ظاهرة إمام/ نجم التى عجزت الأجهزة السياسية والأمنية عن اتخاذ قرار بشأنها، طلب أن يستمع إلى ما يذيعانه من أغنيات وأشعار، ثم سأل وزير ا لداخلية شعراوى جمعة: إيه المشكلة؟ فقال الوزير: المشكلة أن اعتقالهما يمكن يعمل دوشة بين المثقفين، فقال عبدالناصر: بلا مثقفين بلا كلام فارغ، اعتقلهم.

وتفتق ذهن شعراوى جمعة عن تدبير قضية تعاطى حشيش للاثنين، لكنهما خرجا منها، فكان لابد لوزير الداخلية وللنظام أن يلجآ للخيار الصعب، فأعيد اعتقالهما.. حفاظاً على الأمن العام، فصدر قرار باعتقال نجم فى ١٥ مايو ١٩٦٩، وقرار آخر باعتقال الشيخ إمام فى أول يونيو ١٩٦٩، وبقيا معتقلين لمدة عامين، فيهما، توفى الرئيس عبدالناصر وتولى السادات الحكم.

هذه الرواية ذاتها يرويها الأستاذ صلاح عيسى فى تقديمه لمذكرات نجم بحذافيرها، لكنه يستبدل بشعراوى جمعة وزير الداخلية فى الأولى، محمد فائق وزير الإعلام فى الثانية.

هذه الواقعة التى جرت بين الرئيس عبدالناصر وأى من الرجلين، لابد أنها تسربت إلى المؤلف، بواسطة أحدهما، أو من خلال طرف ثالث حضر الواقعة، وفى الحالين فإن متنها يشير إلى انزعاج عبدالناصر من أغنيات إمام ونجم، ورغبته فى أن يضع حداً للمسألة. أما القصيدة التى بثت «الوقيعة» بين الطرفين فكانت قصيدة «الحمد لله».

«الحمد لله خبطنا/ تحت بطاطنا/ يا محلى رجعة ظباطنا/ من خط النار/ يا أهل مصر المحمية/ بالحرامية/ الفول كتير والطعمية/ والبر عمار/ والعيشة معدن واهى ماشية/ آخر آشيا/ مادام جنابه والحاشية/ بكروش وكتار/ ح تقول لى سينا وما سيناشى/ ما تدوشناشى/ ماستميت أوتوبيس ماشى/ شاحنين أنفار/ إيه يعنى لما يموت مليون/ أو كل الكون/ العمر أصلاً مش مضمون/ والناس أعمار/ إيه يعنى فى العقبة جرينا/ ولا ف سينا/ هى الهزيمة تنسينا/ إننا أحرار/ إيه يعنى شعب ف ليل ذله/ ضايع كله/ دا كفاية بس أما تقول له/ إحنا الثوار/ الحمد لله ولا حولا/ مصر الدولة/ غرقانة فى الكدب علاولة/ والشعب احتار/ وكفاية أسيادنا البعدا/ عايشين سعدا/ بفضل ناس تملا المعدة/ وتقول أشعار/ أشعار تمجد وتماين/ حتى الخاين/ وإن شالله يخربها مداين/ عبدالجبار. بهذه القصيدة عرف نجم الطريق إلى سجون عبدالناصر، كسجين سياسى هذه المرة، وتضخمت ملفاته القضائية بعدها خصوصاً فى عهد السادات، كانت آخرها فى أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ التى خرجت الجماهير فيها تندد بزيادة الأسعار، كانت انتفاضة شعبية أسماها السادات وإعلامه الرسمى: انتفاضة الحرامية.

هل تصلح ملفات التحقيق فى ذاتها وثائق تاريخية؟

يجيب صلاح عيسى على السؤال بتأكيد أهمية هذا النوع من الوثائق، كونها تتضمن مبارزات منطقية بين سلطات الاتهام وهيئات الدفاع، يحاول فيها كل طرف أن يؤكد صحة موقفه، وحين تنظر المحكمة فى ذلك كله، فإنها تفاضل بين ما انتهى إليه كل طرف، ومدى قوة حججه وسلامتها ودقتها.

لكنه يحذر فى الوقت نفسه من أن كل طرف فى سعيه لتغليب وجهة نظره، قد يتحايل أو يكذب أو يستبعد قرائن أو يستخدم أدلة تخدم موقفه، وهو ما يعنى أن هذا النوع من الوثائق ينبغى أن يؤخذ بحذر وحيطة.

والملفات التى يستعرضها المؤلف فى حالة أحمد فؤاد نجم، هى تحقيقات النيابة العامة التى جرت معه بسبب قصائده المناهضة للنظام، فى أعوام ١٩٧٢، ١٩٧٣، ١٩٧٤، ١٩٧٥، ١٩٧٧.

إذ لم يكن قد مر على خروج نجم وإمام من المعتقل أسابيع قلائل (٢١ أكتوبر ١٩٧١)، حتى انخرطا بسرعة فى

الرئيس عبد الناصر حين وصله تقرير حول ظاهرة إمام/ نجم التى عجزت الأجهزة السياسية والأمنية عن اتخاذ قرار بشأنها، طلب أن يستمع إلى ما يذيعانه من أغنيات وأشعار



حركة الطلاب المناهضة للرئيس السادات، المطالبة باسترداد الأرض وتنفيذ وعوده بعام الحسم، وكانت أشعاره تنتشر بين الطلبة بسرعة البرق، فى مجلات الحائط ومنشورات الغضب وهتافات المتظاهرين، وألقى القبض على زعماء الطلبة، و١٧ آخرين من المندسين بينهم، الذين حرضوهم على التظاهر فى ديسمبر ١٩٧٢، وبقى نجم فى المعتقل تسعة شهور كتب خلالها ثمانى قصائد هى: صباح الخير على الورد اللى فتح فى جناين مصر، أو آه، الفوازير، القواد الفصيح، على الربابة، شيد قصورك، كلمتين لمصر، فات الهوى.

وجميع هذه القصائد باستثناء الغزلية الأخيرة، تعبر عن تفاؤل نجم بالجيل الجديد من الشباب، الذى تحدى السلطات والقهر وحيطان الزنازين العالية، وأطلق صيحته فى مواجهة التخاذل والتراجع عن خوض معركة الحسم واسترداد الكرامة.. نقرأ فى «صباح الخير»: صباح الخير على ولادك/ صباح الياسمين والفل/ تعيشى ويفنوا حسادك/ ويسقوهم/ كاسات الذل/ صباح الخير/ على الثانوى/ وأهلاً بيكو فى القلعة/ ويااللى فى الطريق جايين/ مادامت مصر ولادة/ وفيها الطلق والعادة/ حتفضل شمسها طالعة/ برغم القلعة والزنازين.

ونقرأ فى «شيد قصورك»: إحنا اتوجعنا/ واكتفينا/ وعرفنا/ مين سبب جراحنا/ وعرفنا روحنا/ والتقينا/ عمال وفلاحين/ وطلبة/ دقت ساعتنا/ وابتدينا/ نسلك طريق/ مالهش راجع/ والنصر قريب من عنينا/ النصر أقرب/ من ايدينا.

ونقرأ فى «على الربابة»: صلاح الدين/ ينادى من منامته/ على النايمين/ على دم الضحايا/ لا أنا منكم ولا انتو ولادى/ إذ رضيتم/ بغير النصر غاية/ ولا غير السلاح فى الحرب/ يحكم ويحسم/ فى المشاكل والقضايا.

وفى «كلمتين لمصر»: قصرك المسحور غيلانه/ أغبى من دود الغيطان/ بعد مص الغصن لاخضر/ ينحتوا عضم العيدان/ واللى خلا الأرض خضرا/ واللى خلا الدار أمان/ عاش بجوعه ملو جوفه/ مات بخوفه م الغيلان.

وفى «أو آه» التى يسخر فى نصف أبياتها من الرئيس السادات، ويحيى فى نصفها الآخر نضال الشباب: شفت الولدات الشلبية/ ليلة التحرير يا أسطى فاروقه/ أهو دولا ولادنا وأكبادنا/ وقلوبنا عليهم مشقوقة/ يا سلام يا صلاة النبى أحسن/ على جيل العلم يا مرزوقة/ حلوين وحياتك يا بلدنا/ يا أم الخيرات المسروقة/ إحنا اللى رمينا البدراية/ وروينا الأرض المعزوقة/ وحنحصد بكره وحنغنى/ وعيون الخاين مخزوقة.

ولم يكن نجم وحده من عبّر عما جرى فى ليلة اعتصام الطلبة بميدان التحرير، والتى تم فضها بالقوة، واقتيد قادة الطلبة و«المندسين» فيها إلى المعتقل، بل إن شاعراً آخر عرف بمناهضة توجهات نظام السادات لتحقيق السلام مع إسرائيل، كتب واحدة من قصائده عن هذه الليلة، يقول صاحب «لا تصالح» الشاعر الراحل أمل دنقل فى قصيدته «أغنية الكعكة الحجرية»: دقت الساعة الخامسة/ ظهر الجند دائرة من دروع وخوذات حرب/ ها هم الآن يقتربون رويداً.. رويداً/ يجيئون من كل صوب/ والمغنون - فى الكعكة الحجرية - ينقبضون/ وينفرجون/ كنبضة قلب/ يشعلون الحناجر/ يستدفئون من البرد والظلمة القارسة/ يرفعون الأناشيد فى أوجه الحرس المقترب/ يشبكون أياديهم الغضة البائسة/ لتصير سياجاً يصد الرصاص/ يغنون نحن فداؤك يا مصر.

وبعد خروج نجم من المعتقل بأسبوع واحد اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣، وكتب عدة قصائد لحن بعضها للإذاعة، وبعد أسابيع قليلة كان نظام السادات قد أفصح عن توجهاته الجديدة، فحرب أكتوبر هى آخر الحروب، وأمريكا تملك ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى منطقة الشرق الأوسط، وأنه مستعد للذهاب إلى الكنيست لتحقيق السلام مع إسرائيل، وعلى المستوى الاقتصادى، أعلن السادات أنه آن الأوان لإعادة هيكلة الاقتصاد المصرى، والعدول عن الاشتراكية، والاتجاه إلى المعسكر الغربى الرأسمالى بانحيازاته المعروفة، ولم يعجب ذلك نجم بطبيعة الحال، فلم يسكت، ولم يسكت النظام عليه، ليعود إلى السجن من جديد فى سبتمبر ٧٤.

بصرف النظر عن ملابسات عديدة أحاطت بالقبض على أحمد فؤاد نجم فى سبتمبر ١٩٧٤ يوردها المؤلف تفصيلاً فى الكتاب، فإن هذه القضية عرفت باسم «قضية نيكسون بابا»، نسبة إلى القصيدة التى كتبها نجم بمناسبة زيارة الرئيس الأمريكى لمصر فى يونيو ١٩٧٤، وهى أول زيارة يقوم بها رئيس أمريكى لمصر، حيث استقبل بحفاوة بالغة، ودُبر له استقبال شعبى أسطورى، شاركت فيه الجماهير التى سعت الآلة الإعلامية الرسمية إلى إقناعها بأن ترحيبها برئيس أمريكا، سيعود عليها بالرخاء الوفير، وستتدفق المعونات الاقتصادية التى ستحيل حياة الناس إلى نعيم مؤكد، أما نجم فقد أراد أن يلقى بكرسى فى الكلوب، ويحيل الفرح إلى مأتم.

يقول نجم فى قصيدته «نيكسون»: شرفت يا نيكسون بابا/ يا بتاع الووترجيت/ عملولك قيمة وسيما/ سلاطين الفول والزيت/ فرشولك أوسع سكة/ من راس التين على مكة/ وهناك تنفد على عكا/ ويقولوا عليك حجيت/ ما هو مولد ساير داير/ شيلاه يا صحاب البيت.

وفى مقطع آخر من القصيدة: عزموك فقالوا تعالى/ تاكل بامبون وهريسة/ قمت انت اكمنك مهيف/ صدقت إن إحنا فريسة/ طبيت لحقوك بالزفة/ يا عريس الغفلة يا خفة/ هات وشك/ خد لك تفه/ شوبش من صاحب البيت.

وحكاية عريس الغفلة تذكرنا بقصيدة دفع بيرم التونسى ثمنها غالياً، حيث تم نفيه إلى باريس، وبقى فيها لمدة ١٨ سنة، بعيداً عن مصر التى عشقها وملكت عليه جوارحه، وهى القصيدة التى نال فيها بيرم التونسى من شرف العائلة المالكة، فشكك فى نسب الملك فاروق إلى أبيه، وقذف فى حق الملكة «نازلى» واتهمها فى عفتها..

يقول بيرم فى قصيدته «القرع السلطانى»:

البنت ماشية من زمان تتمخطر
والغفلة زارع فى الديوان قرع أخضر
تشوف حبيبها فى الجاكتة الكاكى
والستة خيل والقمشجى الملاكى
تسمع قولتها.. يا وراكى
والعافية هابلة والجدع متشطر
والوزة من قبل الفرح مدبوحة
والعطفة من قبل النظام مفتوحة
والديك بيدن والهانم مسطوحة
تقرا الحوادث فى جريدة كتر

وفى قصيدة أخرى عنوانها «مجرم ودون»:

ولما عدمنا بمصر الملوك
جابوك الإنجليز يا فؤاد قعدوك
تمثل على العرش دور الملوك
وفين يلقوا مجرم نظيرك ودون
وخلوك تخالط بنات البلاد
على شرط تقطع رقاب العباد
وتنسى زمان وقفتك يا فؤاد
على البنك تشحت شوية زتون
بذلنا ولسه بنبذل نفوس
وقلنا عسى الله يزول الكابوس
ما شفنا إلا عرشك يا تيس التيوس
لا مصر استقلت ولا يحزنون

نعود إذن إلى التحقيق فى قضية «نيكسون بابا»، وردود نجم على أسئلة المحقق، التى تفصح عن رؤيته لشعره ودوره فى النضال ضد السلطة الفاسدة المستبدة، وهذه بعض إجاباته:

- لا أكتب شعراً مناهضاً للسلطة إلا إذا كانت السلطة تناهض الشعب المصرى.

- قصائدى لا تحتوى على مهاجمة السلطة، وإنما قد تتضمن نقداً يمثل وجهة نظرى، موجهاً للأحداث والتصرفات والانحرافات الموجودة بالفعل داخل جهاز الدولة، وهذا النقد يدعم السلطة ولا يقوضها.

- ولأنى كنت غير موافق

كان نجم يتندر على الاتحاد الاشتراكى الذى يضم تحالف قوى الشعب العامل، وقد رأى أن هذا التحالف ينسفه تناقض بين طبقتين: الأثرياء الذين يزيد ثراؤهم، والفقراء الذين يرزحون فى البؤس والمهانة



على زيارة نيكسون ولازلت غير موافق عليها، فقد أبديت فى القصيدتين وجهة نظرى التى تعبر عن استيائى الشديد من الزفة التى قابل بها البعض نيكسون القاتل، بينما دم أولادنا فى حرب أكتوبر الذى أساله نيكسون لم يكن قد جف بعد.

- اعتقادى أن السلطة وطنية رغم كل أخطائها التى منها اختفاء السلع الضرورية للشعب، ومهزلة المواصلات التى تشكل مهانة فى رأيى للشعب المصرى. وحين يسأله المحقق: ما هو موقفك من نظام الحكم القائم ومن سياسة الدولة الخارجية والداخلية، يجيب: أنا مع الاشتراكية ومع الميثاق ومع بيان ٣٠ مارس، ومع الاتجاه إلى تعميق الحريات وإرساء سيادة القانون لأن ده من صالح طبقتى، ده من الناحية النظرية، أما من ناحية التطبيق فأنا شايف إن ده ما بيحصلشى(...) زائد ما يحدث فى كل أجهزة الدولة من فساد وانحراف ورشوة وسرقات وتخريب(...) وأما بالنسبة للسياسة الخارجية فأنا أرى ألاّ نكون تابعين لأحد، وكل ما أرجوه أن توفق القيادة السياسية فى تحرير الأرض المحتلة وفى النهوض بالدولة حتى نستطيع اللحاق بركب التطور.

وحين ينبهه المحقق إلى أن الأسلوب الذى صيغت به آراؤه فى موضوع الانفتاح أسلوب صارخ فيه تعريض بالمسئولين، يجيب: هذا أسلوبى وأنا أستقيه من الشعب المصرى المشهور بالسخرية اللاذعة والنكتة الساخنة، أما مسألة التعريض بالمسئولين التى تشتم من كل كلمة من كلامى فهى غير صحيحة، والمسئولين ليسوا زجاجاً علشان كل ما الواحد يتكلم كلمة يقولوا حاسبوا على المسئولين، والمفروض أن ترتفع هذه الحصانة الغبية عن المسئولين إذا كنا فعلاً نريد بناء بلدنا ونتغلب على سلبياتنا.

وفى آخر التحقيق قال نجم: أريد أن أسجل أن القصائد موضوع الاتهام ليست أكثر حدة مما يكتب على صفحات الجرائد، وأنه فى المرات الكثيرة التى قُبض علىّ فيها وقدمت للتحقيق أو اعتقلت، لم يثبت أنى عميل لأى جهة أجنبية، ولا معادى لبلدى، كل ما فى الأمر أنى فاهم إن الشعر له دور نقدى وأن الفنان كالفانوس ويجب الاهتداء به لا تحطيمه.

صار نجم زبوناً معتمداً فى كل سجون مصر، ومع كل انتفاضة جماهيرية أو مظاهرة طلابية يتم اقتياده إلى السجن حتى لو لم يكن بين المتظاهرين، وهو ما جرى فى يناير ١٩٧٥ حين اقتيد هو وزوجته صافى ناز كاظم إلى السجن بتهمة الانضمام إلى تنظيم كتاب الغد الشيوعى.

وفى التحقيق معه فى هذه القضية سيرد ملمح أشرنا إليه فى البداية، يتعلق بمبالغات نجم عن نفسه، التى يرمى من ورائها إلى سحب المحقق إلى مناطق أخرى لا صلة لها بالتحقيق والتمويه عليه، فحين يسأله المحقق: ما قولك فيما هو منسوب إليك؟ يرد: أنا غير منتسب لجمعية كتاب الغد، لأن هذه الجمعية بتعادينى وبتشنع علىّ، والمنضمون إلى هذه الجمعية بعض الشعراء محدودى الموهبة، وبيحاربوا الشعراء ذوى المواهب، وأنا على وجه التحديد، لأنى أتمتع بموهبة فذة فى الشعر.

نفس هذا المعنى تقريباً يردده نجم حين ألقى القبض عليه على خلفية أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧، يسأله المحقق: ما قولك فيما هو منسوب إليك؟ يجيب: من المعروف أننى شاعر هذا الوطن، وأن شعرى هو نبض هذا الشعب، وأننى معروف ليس على مستوى مصر فحسب، بل على مستوى العالم.

وسنلاحظ أن نجم بدا فى هذا التحقيق بالذات أكثر قدرة على مواجهة سلطات التحقيق إلى حد اتهامها بالتعسف والظلم، وهذه عينة من إجاباته..

- مباحث أمن الدولة دأبت على الزج بى فى كل القضايا التى تحاول تلفيقها للوطنيين لتغطية إفلاسها وفشلها فى القيام بواجبها نحو حماية أمن هذا الشعب من المستغلين واللصوص والسماسرة والمهربين وعملاء المخابرات المركزية الذين يتولون أخطر المواقع.

- أريد أن أتوجه بالسؤال إلى النيابة: هل هى جادة بالفعل فى توجيه هذه الاتهامات التافهة إلىّ، وهل تجد النيابة العامة نفسها مرتاحة الضمير، وهى تأمر بانتهاك حريتى ومسكنى فى منتصف الليل، والقبض علىّ وإيداعى السجون التى لا تصلح لمعيشة الكلاب، وهل هناك مبرر قانونى لاستمرار حبسى بعد أن اتضح للنيابة تفاهة تحريات المباحث(...) إن ما يقومون به اليوم هو قهر لمصر، وسوف لا يغفر التاريخ لكل من يشارك فى هذه المهازل(...) وفى النهاية ثقوا أن مصر قادمة، مصر الحرة النظيفة الشريفة المتحررة، وسوف تسقط كل قلاع القهر، وسوف يبقى هذا الشعب، كما استطاع أن يبقى سبعة آلاف عام، بالرغم مما مر عليه من ظلم وقهر.

وعلى الرغم من تبرئة نجم فى قضية أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧، فإنه حوكم أمام المحكمة العسكرية بسبب قصيدته «بيان هام» التى سخر فيها من الرئيس السادات، وحُكم عليه بالسجن لمدة عام. ولكنه ظل هارباً لمدة ثلاث سنوات إلى أن ألقى القبض عليه فى أحداث سبتمبر ١٩٨١ ضمن مئات من المثقفين والمفكرين والفنانين من كافة الاتجاهات، ليمضى عقوبة الحبس لمدة عام، وكان الاتهام الذى وجه إليه فى هذه القضية هو إهانة رئيس الجمهورية بالقول والصياح، وتقليد صوت الرئيس بصورة فيها كثير من السخرية، والتشكيك فى أمانة الرئيس ونزاهته.

يقول نجم فى «بيان هام»:

هنا شقلبان/ محطة إذاعة حلاوة زمان/ يسر الإذاعة/ وما يسركوش/ بهذى المناسبة/ وما بندعيكوش/ نقدم إليكم/ ولا تقرفوش/ شحاتة المعسل/ بدون الرتوش/ شبندر سماسرة بلاد العمار/ معمر جراسن للعب القمار/ وخارب مزارع/ وتاجر خضار/ وعقبال أملتك/ أمير الجيوش/ ما تقدرش تنكر/ تقول ما أعرفوش/ ما تقدرش أيضاً/ تقول ما اسمعوش/ شحاتة المعسل/ حبيب القلوب/ يزيل البقع/ والهموم والكروب/ يأنفس/ يأفين/ يبلبع حبوب/ ويفضل يهلفط/ ولا تفهموش.

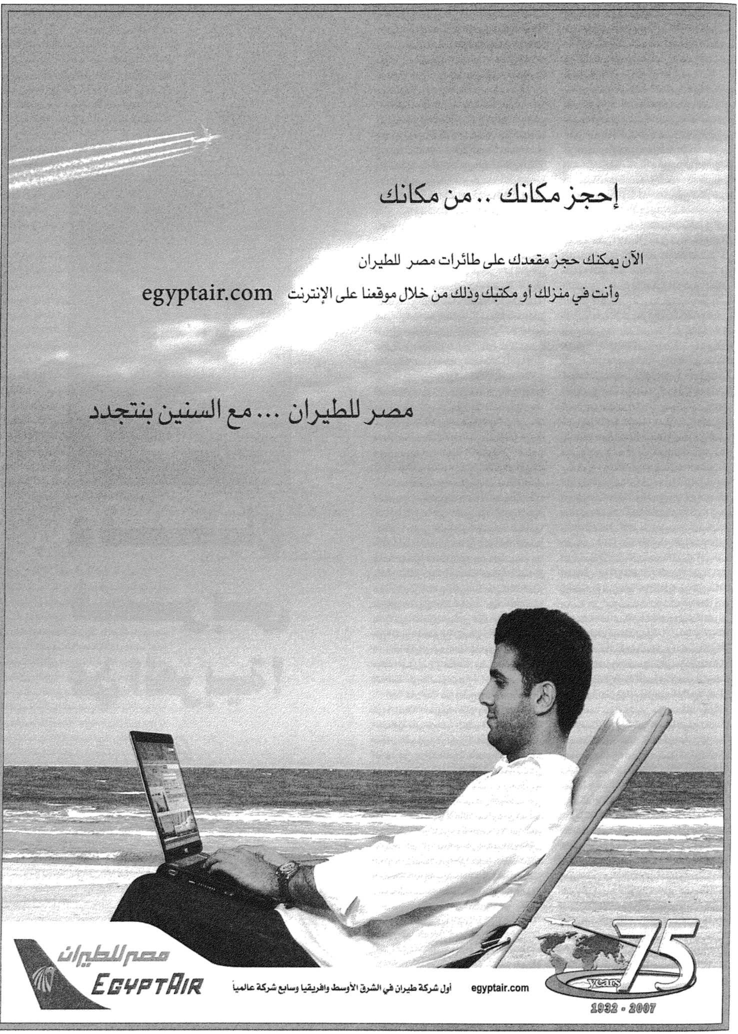
وبطبيعة الحال لم يكن «شحاتة المعسل» هنا سوى الرئيس الراحل أنور السادات شخصياً.

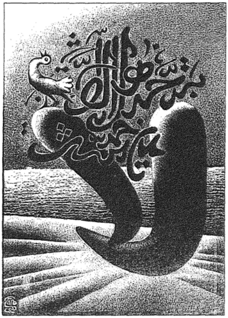
قراءة التاريخ عبر الملفات القضائية مما برع فيه الكاتب الكبير صلاح عيسى، وهو حين يفعل، فإنه لا يقدم لنا فحسب ما انطوت عليه التحقيقات، وإنما يقرأ من خلالها التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى للمجتمع المصرى، فالذى يقرأ مثلاً ما كتبه عن «ريا وسكينة» فى كتابه «رجال ريا وسكينة»، يتعرف على الحالة التى كان عليها المجتمع المصرى فى بدايات القرن الماضى وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وهى الحالة التى حولت «ابنتى همام» إلى نموذج أسطورى للشر والقتل المجانى، فقر وجهل ونزوح من نجوع الصعيد شديدة البؤس بحثاً عن لقمة العيش، فى مجتمع يعج بالفوضى ولا يسعه أن يوفر حداً أدنى للمعيشة.

الأمر ذاته يمكن اكتشافه فيما كتبه عيسى عن خط الصعيد، الذى تحول إلى أسطورة فى المخيلة الشعبية، وكان ما علق به من الأكاذيب والأوهام، أكثر بكثير مما ارتبط به من حقائق ووقائع، لنكتشف أننا بإزاء مسوح اجتماعية سياسية مكتوبة بلغة علمية مبسطة، لا تخلو من تشويق.

وفى حالة الشاعر أحمد فؤاد نجم، فنحن بإزاء ملف سياسى بامتياز، فظاهرة إمام/ نجم برزت من هذا السياق، وقد نجح صاحب «عرابى» و«هوامش المقريزى» و«مثقفون وعسكر» أن يغوص أعمق فى أسبابها والأجواء المحيطة بها، فى اقتراب حميم من ثنائى ملأ الدنيا وشغل الناس منذ نهاية الستينيات وحتى السنوات الأخيرة من سبعينيات القرن الماضى، وكان تعبيراً عن تطلعات الناس وطموحات البسطاء فى وطن أجمل وأعدل، ودفع الاثنان إمام/ نجم الثمن باكراً، ومقدماً أيضاً. ■

صار نجم زبوناً معتمداً فى كل سجون مصر، ومع كل انتفاضة جماهيرية أو مظاهرة طلابية يتم اقتياده إلى السجن حتى لو لم يكن بين المتظاهرين


إحجز مكانك .. من مكانك
الآن يمكنك حجز مقعدك على طائرات مصر للطيران
وأنت في منزلك أو مكتبك وذلك من خلال موقعنا على الإنترنت egyptair.com
مصر للطيران ... مع السنين بنتجدد
مصر للطيران
EGYPTAIR
أول شركة طيران في الشرق الأوسط وافريقيا وسابع شركة عالمياً
egyptair.com
75 years
1932 - 2007



دفـــاع غـــربى عن العربية!

حافيظ إسماعيلى علوى

محاسن العربية فى المرآة الغربية
أو دلالة الشكل فى العربية فى ضوء اللغات الأوروبية
ديفيد جستس

ترجمة: حمزة بن قبلان المزينى

■■ الترجمة أداة من أدوات تحديث الثقافة العربية، ومدخل مهم لتجاوز ذهنية العتاقة والمستنسخات، وأداة للانخراط فى التكتلات العلمية والمعرفية المعاصرة، التى تشكل مظهرا من مظاهر الوضعية المعرفية الحديثة.

لقد أدرك العرب منذ أمد بعيد مدى أهمية الترجمة ودورها فى الانفتاح على «الآخر» والتعرف والتواصل مع ثقافته وحضارته؛ بحيث «يذكر مؤرخو نشأة العلوم الإنسانية وتطورها أنها بدأت فى القرن الأول الهجرى، ثم تطورت بعد ذلك نتيجة لعوامل متعددة، لتصل مداها إبان العصر العباسى، وبخاصة عهد المأمون...».

وفى الوقت الذى أصبحت فيه أهمية الترجمة العلمية تتعاظم اليوم، وأكثر من أى وقت مضى، نتيجة للانفجار المعرفى الكبير، والتقدم التكنولوجى الهائل فى جميع مجالات الحياة، تعرف حركة التعريب والترجمة فى البلاد العربية تعثرا كبيرا، وهذا على عكس ما يفرضه منطق العقل، الذى يحتم أن تولى الترجمة أولوية خاصة فى العالم العربى، لكونه متلقياً للمعرفة العلمية أكثر منه منتجاً لها.

وللتدليل على تخلف الترجمة فى ثقافتنا يكفى أن نشير هنا إلى «أن بلدان الوطن العربى، البالغ تعداد سكانها ٢٥٠ مليون نسمة فى العام ١٩٩٢، قد أصدرت ٦٧٩٥ مطبوعة، تأليفا وترجمة، فى العام ١٩٩٢، منها ٥٤٨ مطبوعة فقط فى العلوم. بينما دولة واحدة، كإسبانيا، مثلا، البالغ تعداد سكانها ٣٩ مليون نسمة فقط، أصدرت فى العام ذاته ٤١٨١٦ مطبوعة، منها ٢٥١٢ مطبوعة فى العلوم. هذا يعنى أن دول الوطن العربى مجتمعة، وتعداد سكانها ستة أضعاف تعداد سكان إسبانيا، تصدر فقط سدس ما تصدره إسبانيا وحدها، والتى تعتبر دولة متقدمة علميا. كما أن عدد عناوين الكتب المترجمة، فى كافة أقطار الوطن العربى، منذ ما بعد عهد الخليفة العباسى، المأمون، وحتى عقد التسعينيات من القرن العشرين المنصرم، لا يصل إلى ١٥ ألف عنوان. وهذا ما يساوى ما ترجمته دولة البرازيل وحدها، وهى من الدول النامية، فى ٤ سنوات».

وإذا كان هذا هو وضع الترجمة عموما فى الثقافة العربية، فإن وضع الترجمة اللسانية «أى ترجمة الكتب المتخصصة فى مجال اللسانيات» ليس أحسن حالا، على الرغم من إدراك العرب لأهمية اللسانيات فى القرن العشرين، وقدرتها الجبارة على صياغة المعرفة النقدية الحديثة وخطرها فى تشكيل الوعى المنهجى المتجدد فى العلوم الإنسانية والاجتماعية وعلى الرغم، أيضا، من كون الترجمة اللسانية من أهم الأبواب التى بها يمكن، بل ينبغى للباحثين العرب أن يساهموا فى نشر اللسانيات العامة الحديثة بربوعنا نشرا سليما بعيدا عما يكتنف - مع الأسف - الكثير من أعمال التبسيط اللسانى الصادرة بالعربية أصلا من خلل واضطراب.

وتتحكم فى تخلف الترجمة اللسانية فى ثقافتنا العربية اعتبارات كثيرة نجملها فيما يلى:

❖ تأخر البعثات اللسانية إلى الخارج، التى لم تعرف إلا منتصف القرن العشرين، حينما أوفدت جامعة القاهرة(جامعة فؤاد الأول سابقا) عددا من المعيدين بها إلى كل من انجلترا، وألمانيا، وفرنسا، للتخصص فى اللسانيات العامة general linguistics، أو اللسانيات المقارنة comparative Linguistics، وما تبع ذلك من قيام حركة لسانية حديثة تأليفا وترجمة.

❖ غياب شرط التفاعل الحضارى الذى يشجع على الإقبال على ترجمة الكتب اللسانية؛ فما زالت اللسانيات تعتبر من العلوم الكمالية عند شريحة عريضة من المثقفين، وهذا يلخص الوضع الحالى للدرس اللسانى فى ثقافتنا، وهو وضع نعتبره نتيجة طبيعية لملابسات التلقى: التى اعتبرت اللسانيات بموجبها علما غربيا لا يمكن أن يفيد الثقافة العربية فى شىء.

❖ ارتباطا بغياب شرط التفاعل الحضارى، نسجل عدم وجود سوق لسانية تدخل فى عجلة الرواج. إن هذه السوق غير موجودة لدينا للأسف،وهذا على عكس ما نجده فى العالم المتقدم؛ فأى علم من العلوم كيفما كان لا بد له من مؤسسات سواء على مستوى الإنتاج أو الاستهلاك. كما أن الثقافة العربية تفتقر بشكل ملحوظ إلى كل جوانب التكامل الذى يفرض تداخل الاختصاصات، حتى تكتمل الدورة ويتم بلوغ الأهداف المتوخاة، وما يؤسف له أن اللسانيات معرضة أكثر من غيرها لاهتزاز الوضعية بسبب حاجتها الماسة إلى هذا التكامل. إن أى علم من العلوم سواء أكان رياضيا أم فيزيائيا أم لسانيا هو فى حاجة ماسة إلى مؤسسات للإنتاج والترويج والاستهلاك، كما أن مجالات البحث تفرض هذا التكامل والتداخل.

❖ إشكالية المصطلح اللسانى: إن «مفاتيح العلوم مصطلحاتها، ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى، فهى مجمع حقائقها المعرفية، وعنوان ما يتميز به كل واحد عما سواه.وليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية، حتى كأنها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاته إلا محاور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وحقائق الأقوال» لكن، وعلى الرغم من هذه الأهمية، فإن المصطلحات اللسانية العربية مازالت تشكل موضوعا سجاليا فى الثقافة العربية، وتفتقد إلى الصرامة الاصطلاحية اللازمة، وتقف عائقا أمام تطور اللسانيات عوضا عن أن تكون مساعدا يقربنا من هذا العلم الحديث.

❖ وجود مجموعة من المدعين، فأصبح الخلط قائما بين خطابات/ ترجمات لسانية، وخطابات/ ترجمات محسوبة على اللسانيات لا تمت إليها بصلة. إن اللسانيات باعتبارها علما من العلوم الإنسانية تقبل ما يمكن أن نسميه «الشعوذة اللسانية»، وهذا يجعل الكثير من الكتابات/ الترجمات التى تحسب على اللسانيات، لا تساعد الناس على استيعاب اللسانيات استيعابا صحيحا. ويزيد من تعميق هذا الإشكال

غياب مؤسسة علمية يعهد لها الاهتمام بمراجعة ما يكتب وتقويمه قبل نشره...

غير أن هذه الصعوبات لا تعني مطلقا أن الثقافة العربية ظلت أرضا مواتا، تنعدم فيها كل ترجمة جادة، فالإنصاف يقتضي منا أن نشير إلى أن ثمة إشراقات عربية في مجال الترجمة، نجحت نجاحا في تفعيل الترجمة ونشر المعرفة في الثقافة العربية، وتمكين القارئ العربي من الانخراط في الثقافة اللسانية المعاصرة، وربطه بسياقاتها الفلسفية والمعرفية والاستدلالية، وفي هذا الإطار نقدم نموذجا لهذه الترجمات الجادة في اللغة العربية، يتعلق الأمر بترجمة كتاب: «محاسن العربية في المرآة الغربية، أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية».

«محاسن العربية في المرآة الغربية، أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية». هو عنوان الكتاب الذي ألفه المستعرب الأمريكي المعاصر «ديفيد جستس» عام ١٩٨٧، ونقله إلى اللغة العربية الدكتور حمزة بن قبلان المزيني، ونشره مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية سنة ٢٠٠٥ . يقع الكتاب في ٦٦٣ صفحة من الحجم الكبير. وتكمن أهمية هذا الكتاب فيما يلي:

❖ كونه دراسة معمقة للدلالة في العربية مقارنة بما في اللغات الأوروبية القديمة والحديثة. فقد استقصى مؤلفه كثيرا من الظواهر اللغوية الشكلية التي تؤثر في التعبير عن الدلالة. وناقش نقاشا مستفيضا تلك العلاقة بين المعنى وشكل الكلمة وبينه وبين أشكال العبارات والتركيبات النحوية المختلفة. وقد تضمن الكتاب كثيرا من الآراء الجديدة في تحليل هذه العلاقة.

❖ لا يندرج الكتاب في اللسانيات المقارنة بالمعنى الدقيق للكلمة، فهو كإطار نظري ينضوي تحت لواء اللسانيات التوليدية، كما يجمع مؤلفه بين مناهج لسانية متعددة: علم التاريخ اللغوي، وعلم الاجتماع اللغوي، اللسانيات الوصفية والمقارنة.

❖ يوفر الكتاب للقارئ قاعدة من المعطيات الصواتية والصرافية والتركيبية والدلالية التي يمكن أن تكون منطلقا للباحث في دلالة الأشكال والبنى. ويمكن إعادة صياغتها وتحليلها في نماذج لسانية معاصرة.

❖ يسد الكتاب الطريق على المزاعم التفاضلية التي تنطلق من فرضية المفاضلة بين اللغات، وهي أطروحة أيديولوجية أكثر منها علمية. ويمكن القول، إن هذا الطرح حاضر في مرجعيتين ثقافيتين: مرجعية ثقافية عربية تمثلها لسانيات التراث، ومرجعية استشراقية متعصبة لأفضلية اللغات الأوروبية. في هذا الإطار يقدم الكتاب قيمة مضافة للقارئ العربي تتمثل في استحضار قراءة المستشرقين لعدد من الظواهر اللغوية وآرائهم من منظور المقارنة أو من منظور إعادة بناء تحاليل القدماء، أو أحيانا اقتراح اجتهادات خاصة في تحليل الظواهر اللغوية العربية، ولا شك أن استحضار هذه المنظورات الاستشراقية في دراسة مظاهر الصرف والتركيب والدلالة تمكن القارئ من الإلمام بمنظورات قرائية متعددة غير منحصرة في المرجعية النحوية التراثية.

❖ يتميز الكتاب أيضا بدفاعه العلمي العميق عن العربية في مواجهة اللغط غير العلمي المألوف الذي يثار في بعض الكتابات المتحيزة، ويتمثل في الإشارات الكثيرة إلى ما يزعم أولئك أن فيه دلالة على عيوب تصور قصور العربية وقصور العقلية العربية التي تتكلمها. وقد بين المؤلف بتفصيل عميق أن هذه المزاعم غير عادلة، بل سطحية، وهي تدل على مدى جهل قائليها بطبيعة اللغات عموما، كما أنها تدل على أن من يتفوهون بتلك المقولات يجهلون لغاتهم هم، حقيقة، لأن تلك العيوب المزعومة (إن كانت عيوبا بالمفهوم اللغوي المحض) موجودة في اللغات الأوروبية نفسها التي ينظرون إليها على أنها النوع الأرقى من اللغات. وبين أن كثيرا من تلك الآراء ينطلق من مواقف مسبقة غير موضوعية من اللغة العربية لأسباب ثقافية وأيديولوجية في الغالب، كما سنبين في عرضنا التفصيلي لمحتويات الكتاب.

وبالمقابل جاء الكتاب ردا علميا هادئا على مجموعة من المغالطات والمزاعم المتحيزة ضد اللسانيات التي يرددها بعض الباحثين العرب، والتي ترى أن البحث اللساني لا يمت بصلة إلى الثقافة العربية واللغة العربية: لأنه «بحث أوجدته ظروف اللغات الأوروبية التي تختلف في انتماءاتها وتكوينها وبيئاتها وشعوبها المتكلمة بها وتاريخها عن العربية وظروفها، اختلافا كبيرا، يجعلنا في موقف رافض لكل ما يراد من الباحثين المعاصرين العرب أن يسلكوه، أو يتعاملوا به مع العربية». فقد جاء كتاب جستس ليفند هذه المزاعم من خلال محاولته إنصاف العربية، فهدفه، كما يقول، أن يجعل من دراسته: «مرآة لسانية متعاطفة مع العربية. وسوف تستقصي هذه الدراسة الاستراتيجيات والبنى التي تبدو كأنها تميز هذه اللغة، وسوف تحاول أن تجلي عنها الغموض بإيراد المشابهات الأساسية لها في اللغات الأوروبية المعروفة. وغرضي هنا ذو شقين: أن أكشف للقارئ الخصائص المتحققة في الفضاء اللغوي العربي، وأقصد بذلك الارتباط بين الوزن والمعنى الذي يمكن أن تفخر به العربية فخرا خاصا؛ ثم أكشف، حين يكون ذلك ملائما، الإجراءات الشكلية التي نستعملها نحن (يقصد متكلمي اللغات الأوروبية) في لغاتنا لنؤدي الأغراض الدلالية نفسها».

انتظم الكتاب في ثلاث مقدمات (مقدمة المترجم) و(مقدمة المؤلف للترجمة العربية) و(مقدمة المؤلف)، وتمهيد واثني عشر فصلا واستهل المؤلف التمهيد بالإشارة إلى أن مصطلح «اللغة العربية» وصف واسع جدا، وقد رسم حدود هذا المصطلح، وخص استعماله بتحديد دقيق في الدراسة التي يروم القيام بها، دون أن يعني ذلك الحديث عن التاريخ الخارجي للغة العربية أو أن يحدد مكانها في الأسرة اللغوية التي تنتمي إليها. لقد «بدأت العربية الأدبية التي نعرفها بداية دقيقة مع القرآن الذي بدأ نزوله شفهيا في سنة ٦١٠م. ومع أنه لم يجمع جمعا كاملا إلا في خلافة عثمان (٦٤٤-٦٥٦م) إلا أن ظروف جمعه تجعلنا نطمئن اطمئنانا يكاد يكون كاملا إلى الدقة التي روى بها»(ص ١٧).

ويرجع سبب الغنى المعجمي للغة العربية لبعض العوامل الاجتماعية والتاريخية ومنها الصنعة الشعرية، التي تعشق الإغراق في البحث عن الانحرافات اللغوية الجديدة واعتمادها المبالغ فيه أحيانا عن الكلمات النادرة من أجل الوفاء بمتطلبات الوزن

ويشير المؤلف أيضا إلى أن الشعر صيغ بلغة مشتركة قريبة من اللغة التي أنزل بها القرآن وازدهر قبل البعثة بقرن أو يزيد. كما وقف على المشكلات التي أثارها تدوين هذه المادة اللغوية بعد الإسلام، والتي وصلت إلى حد التشكيك في صحة الشعر الجاهلي(ص ص ١٧-١٨).

يعرض المؤلف أيضا، للظروف التي ساعدت على استمرار صلاح الوصف الذي أعطاه على الإنتاج الأدبي والرسمي عبر العصور حتى عصرنا الحاضر، ومن تلك الظروف، مركزية القرآن لدين عظيم، وهو الكتاب الذي لم يترجم ولم يعدل، والمكانة السامية للشعر عند العرب.

ويشير الكاتب إلى الاختلافات المعجمية والأسلوبية، بالإضافة إلى اختلافات ليست أساسية في النحو، لكنها اختلافات لا تزيد على تلك التي نجدها في لغات أخرى، وحتى وإن رغبنا في تجزيء هذه اللغة النموذجية، فإن ذلك لا يتعدى حدود وصفها بمصطلحات مثل «العربية المبكرة»، مما يعني أن مقياس التجزيء تاريخي وليس بنيويا: فالتمييز بين العربية واللهجات «ينبغي ألا يتوقع أن تنطبق الأحكام التي أطلقها على «العربية»، لزوما، على أية واحدة من اللهجات، ذلك أن اللهجات، مع أن أغلبها أقل اختلافا بعضه عن بعض من اختلاف الفرنسية اليومية عن اللاتينية، تمثل لغات مختلفة كما تمثل بالأخص منظومة من الديناميات اللسانية الاجتماعية المختلفة جدا». (ص١٩).

وتنم هذه الملاحظة عن وعي سوسيولساني عميق لدى الباحث، لكونه يقارن بين العربية الكلاسيكية واللهجات المتفرعة عنها، واستناد الباحث لمقاييس سوسيولسانية أو تاريخية غايته القصوى منها تفادي الأحكام والتعميمات الزائفة. وعلى عكس المسار التاريخي الاجتماعي واللغوي للعالم اللاتيني/ الروماني (تحول اللهجات الرومانثية لتصبح لغات نموذجية مكتوبة) لم ترتق أية لهجة في العالم المتكلم بالعربية إلى مكانة اللغة النموذجية المكتوبة حتى في المنطقة التي تستخدم فيها تلك اللهجة، لهذا ظل متكلمو اللهجات العربية إلى الآن يستعملون اللغة القديمة المثقلة بالتاريخ في الأغراض الأدبية والرسمية(ص٢٠).

الأمر لا يقتصر على صعوبة رسم حدود اللغة (العربية)، إذ تتمثل هذه الصعوبة أيضا في رسم الحدود بين المستويات والأنواع فيها. وهذا ما استلزم حذرا منهجيا في دراسته التي اهتم فيها بالأسلوب والتركيب.

صعوبة اللغة العربية

استهله المؤلف بالحديث عن مسلمة رئيسة مفادها صعوبة اللغة العربية. لقد وجد المؤلف أن العربية أكثر صعوبة من اللغات الهندية الأوروبية الحديثة التي درسها، لكنه

هذه الصعوبات لا تعنى مطلقا أن الثقافة العربية ظلت أرضا مواتا، تنعدم فيها كل ترجمة جادة.

يجادل الذين يرون أن اللغة العربية صعبة على التعلم قائلا: «أما أنا فقد وجدت اللغة العربية أكثر صعوبة من اللغات الهندية الأوروبية الحديثة التى درستُ، لكننى انتهيت إلى أن الجانب البنيوى المحض أى نظامها اللغوى المجرد. لا يُسهم فى هذه الصعوبة إلا بقدر ضئيل» (ص٢٥).

إن اللغة العربية، من حيث البنية، لغة مطردة ومصقولة بشكل غير معهود. وتسهم فى ذلك عوامل عديدة منها:

- اطراد الأفعال بشكل عام، مع وجود عدد قليل من القواعد الصواتية الضرورية التى تعمل على الكلمة لتصل بها إلى شكلها المنطوق...
- أن معظم المعجميات تبنى من ثلاثة أصوات صامتة تدخل فى عدد قليل من أنماط الحركات (الأوزان)
- اطراد التركيب
- لا وجود فى العربية إلا للمذكر والمؤنث، فباستثناء عدد محدود من الحالات، يخضع التذكير والتأنيث لقاعدة دلالية واحدة.
- وجود ثلاث حركات للإعراب فقط... (ص٢٧)

والمشكلة الواحدة فى اللغة العربية هى مشكلة بنيوية تحديدا، وهى أنه لا يمكن التنبؤ بجمع الاسم، لوجود احتمالات نظرية كثيرة.

ويفسر المؤلف صعوبة اللغة العربية بأسباب خارج اللغة بوصفها نظاما مجردا، وهى أسباب تاريخية وأسلوبية واجتماعية توقف على أهمها بتفصيل. وبما أن الكتاب موجه بالأساس إلى القارئ الغربى، فإن المؤلف عادة ما يستدل على ما يقوله بعقد مقارنات بين الوضع فى اللغة العربية، وغيرها من اللغات الأخرى. ومن أهم الخلاصات التى انتهى إليها أن الصعوبة التى تلصق بالعربية ترجع بالأساس إلى الافتراضات المسبقة التى تتخفى وراء الأفكار المعبر عنها، ولعدم وجود طرق تعليمية عامة معترف بها لتعليم العربية، فكتب المقدمات المتوفرة الآن ليست مرضية وبالتالى يتمكن المؤلف ديفيد من تمييز مستويات الصعوبة المزعومة، والتى تقترن بالخلفيات المسبقة من جهة، وبعدم وجود أنحاء تيسيرية لتعلم اللغة العربية لكون الجهاز التعليمى ظل أسير لغة النحاة الواصفة. كما يقدم المؤلف على هذا المستوى بعض الاقتراحات الجديرة بالاهتمام.

ويحاول ديفيد جستس دحض الكثير من المقولات السلبية التى تنطلق من الزعم بأن هناك عيوبا بنيوية فى اللغة العربية مما يجعلها عصية على التعلم والفهم والنمو والوفاء بالتعبير عن الأغراض العلمية المعاصرة. وهى مقولات سادت فى السياق الثقافى الغربى (والعربى) لأمد طويل، من غير أن يتصدى



لها أحد بالدرس العلمى المستقصى الرصين. وقد نجح المؤلف ببراعة فى تفنيد تلك المقولات الاتهامية الواحدة تلو الأخرى: إلا أن تحليلاته لم تكن «دفاعًا» عن اللغة العربية بقدر ما كانت تجلية لأمر هام هو أن اللغة العربية لغة بشرية طبيعية تتضمن من الظواهر ما تتضمنه اللغات الأخرى[12] ومن الغريب أن تسود مثل هذه المزاعم فى سياق هيمنة النموذج التوليدى واللسانيات المعرفية Cognitive التى تقوم على فكرة اشتراك اللغات البشرية فى عدد من الخصائص البنيوية التى تشكل جزءا من الملكة اللغوية التى يتقاسمها البشر، مما يعنى أن الترويج لمزاعم من هذا القبيل يبقى مقرونا بغايات أيديولوجية أكثر منها علمية.

عشوائية العلامة

تتصل عشوائية العلامة فى اللغة العربية بالطبيعة الحوسبية المجردة لنظامها الصرفى. وهى خاصية توليدية تقوم على ضم جذور صامتة إلى مواد صائتية لاشتقاق، ليس فقط، العلامات اللغوية القائمة، بل والممكنة أيضا.

ويسهم نظام كتابة العربية، بتغييبه النسبى أو الكلى للحركات، فى التأكيد على الطبيعة العشوائية للعلامة اللغوية فيها. من حيث إن القارئ يدرك فى الكلمة المكتوبة جملة من الكلمات المحتملة ولا يصل إلى المقصود إلا من خلال الاستعانة بالسياق. وينفى المؤلف أن تكون للأصوات العربية دلالات تؤديها على حد زعم البعض، إلا ما يكون من ترميز صوتى كواحد من العمليات العشوائية التى تسهم غالبا فى صوغ الكلمات من نحو تكرار حرف الفاء فى «حفيف» أو تكرار حرف الزاى فى «أزيز» من دون أن تكون للفاء دلالة الحفيف ولا للزاى دلالة الأزيز. وقد ترد حروف للدلالة على ضد ما يعتقد أنها تؤديه من معنى. وبالمقابل فإن العربية تستعمل الرمزية الصرفية فى شكل صيغ مخصوصة ذات دلالات متميزة من غير أن تكون للأصوات المكونة لها صلة بتلك الدلالات، ومن ذلك، مثلا، دلالة كلمة «اخشوشن» وقد صار فيها طول صرفى على استكثار ما تدل عليه، عادة، كلمة «خشن».

ثم إن الاشتقاق القائم فى العربية على اعتمال الجذور والأوزان وأحرف الزيادة الموسعة للجذور، يسمح لهذه اللغة بإنشاء حقول دلالية ارتباطية بين المشتقات مع استحداث قيم دلالية تزيد عن قيمة الأصل المشترك بينها. ويكشف هذا الفصل عن الكليات التوليدية للنظام الاشتقاقى والمعجمى العربى، وقد تمكن المؤلف من ربط ميكانزمات التوليد المعجمى باطرادات دلالية محددة.

التراكم

استعرض المؤلف فى هذا الفصل قضية ضخامة المعجم العربى، ثم حاول تصفح الأثر الذى يمكن أن تتركه هذه الضخامة على الدلالة المعجمية وبنية الجمل. كما أشار إلى اختلاف الباحثين فى تقديرهم لهذا الغنى، ومن هؤلاء شحنة ١٩٦٩ وبيستون وهاملتون جب وهايوود ومونتيه.

ويرجع سبب الغنى المعجمى للغة العربية لبعض العوامل الاجتماعية والتاريخية ومنها الصنعة الشعرية، التى تعشق الإغراق فى البحث عن الانحرافات اللغوية الجديدة واعتمادها المبالغ فيه أحيانا عن الكلمات النادرة من أجل الوفاء بمتطلبات الوزن. وقد دخلت هذه الكلمات النادرة مجال النثر منذ الصدر الأول للإسلام وتجلى حضورها فى المنظومات التعليمية والكتب الفقهية التى ازدهرت فى أواخر العصور الوسطى.

فى الإطار نفسه يعرض المؤلف لما كتبه بلاشير فى الموضوع. وتبقى العوامل التاريخية فى نظر المؤلف، من أهم المؤثرات فى مفردات العربية وهو ما أدى إلى غزارة معجم تتراكم فيه المفردات الخاصة الدالة على الأماكن والأزمنة». وقد عرض المؤلف لوضع مشابه فى العبرية والإنجليزية والألمانية والإسبانية.

ويخلص جستس إلى أن محاولة البحث عن علاقة اللغة بحياة متكلميها من السهل أن يوقعنا فى الخطأ، وقد اعتمد المؤلف فى إبراز هذه العلاقة على الافتراض الستوكى على وجه الخصوص.

وفى الفصل السابع حظيت خصيصة التضاد فى اللغة العربية باهتمام كبير منذ العلماء المسلمين القدماء حتى الدارسين الغربيين المعاصرين، كما اختلفت وجهات نظرهم بشأن هذه الظاهرة. لقد عرض المؤلف لوجهات النظر تلك، وقدم مجموعة من الأمثلة للظاهرة المدروسة، وخلص إلى أن هذا النوع من الكلمات لم يعد مستعملا لأسباب شرحها بتفصيل. ثم حاول بعد ذلك اطراح أكبر عدد ممكن من الأمثلة المزعومة للتضاد.

وقف عرض المؤلف أيضا لأنواع من التضاد فى اللغة العربية، ومنها: التضاد المعجمى، والتركيب التضادى السطحى، والتناقض (التفكير المزدوج)، وعن بعض المقتضيات عن الشكل فى المعجم، كما أدرج تحت كل صنف مجموعة من القضايا التى وقف عليها بالتحليل والمناقشة المستفيضة والعميقة.

وفى الفصل الثامن: يناقش المؤلف فى هذا الفصل صيغة «فعلة» التى تؤدى معنى الطريقة التى ينفذ بها الفعل فى اللغة العربية. وقد أورد المصطلحات الإنجليزية المرادفة لهذا المصطلح استنادا إلى ترجمة رايت وهنرى فليش، ثم ناقش تلك الطروحات نقاشا مستفيضا من خلال أمثلة أخذها من كتب طه حسين ومن ألف ليلة وليلة...

«ويبدو واضحا أن أسماء النوع على وزن فعلة لم تعد تستعمل بشكل مطرد أو قوى فى العربية النموذجية المعاصرة». (ص ٣٥٦)

وللاطلاع على غزارة أسماء النوع التى رويت فى العربية تفحص ثلاثة مواضع اختارها عشوائيا من معجم إدوارد لين. كما ناقش الكيفية التى تتعامل بها الإنجليزية واللغات الغربية منها مع هذه الفصيلة الدلالية نفسها صرفيا. (ص ٣٥٩)، ودحض الافتراض الستوكى فى حالة أسماء النوع فى العربية استنادا إلى مجموعة من الأسباب.

أما التاسع: يناقش المؤلف فى هذا الفصل وصف وليم رايت وريكندورف للتراكيب النحوية العربية، كما يشير إلى ما تضمنه كتاب كانترينو من الأمثلة العربية النموذجية المعاصرة. (ص ص ٣٨٣، ٣٩٠).

التعليقات والشروحات

مكنت تعليقات المترجم وشروحاته من توضيح كثير من الأفكار، كما حاول فى كثير من الأحيان أن يستدرك على الكاتب بعض ما فاته أثناء معالجته لبعض الظواهر كما يبدى المترجم معرفة لسانية دقيقة فى الحواشى والتعليقات؛ بحيث لا يقتصر التعليق عنده على الإحالة على نصوص لسانية موازية للتعمق فى القضايا المطروحة، وإنما يتجاوز هذا المستوى إلى اقتراح معطيات جديدة من اللغة العربية وبعض اللغات الأخرى (الإنجليزية خصوصا) لتفسير قضايا المتن.

الإبانة المصطلحية:

أغنى المترجم الكتاب بكشافات مهمة: كشافا للغات، وكشافا للأعلام، وكشافا لأهم المصطلحات الواردة فى الكتاب باللغة الإنجليزية ومقابلاتها العربية، والصفحات التى وردت فيها. وسنركز بشكل خاص على الجانب المصطلحى بالنظر إلى أهميته فى

الترجمة، وبالنظر أيضا إلى الصعوبات الكثيرة التى يثيرها، والتى يترتب عليها نجاح الترجمة أو فشلها.

لقد أشرنا آنفا إلى أن المصطلح اللسانى يبقى من المعوقات الكبرى التى تقف حاجز عثرة أمام اللسانيات العربية، غير أن للمزينى نظرة أخرى بخصوص هذه الإشكالية، فهو يعتبر صوغ المصطلح جزءا لا يتجزأ من العمل العلمى. إن صوغ المصطلحات عمل فى صميم البحث العلمى، فهو جزء لا يتجزأ منه غير منفصل عنه. إن المصطلحات تخلق نتيجة للحاجة إليها أثناء البحث وليست عملا مستقلا: فصوغ المصطلحات عملية إبداعية يقوم بها المتخصص أثناء قيامه ببحثه حين تلجئه الضرورة إلى ذلك، وتقوم هذه العملية على ثلاثة أركان أساسية هى:

أ: المعرفة العلمية الدقيقة بالشىء المراد تسميته

ب: القدرة اللغوية وتحوى المعرفة بقوانين اللغة ومعجمها وطرق التعبير عنها

ج: سعة التخيل التى تجعل المتخصص قادرا فى وقت وجيز على الربط بين الركنين الأولين.

فلابد من توفر هذه الأركان الثلاثة لكى يتمكن المتخصص من صوغ مصطلحات علمية ملائمة، فمعرفة الشىء المراد تسميته وحدها ليست كفيلة للعثور على تسمية موفقة»[١٦] ويكمن سر الإخفاق فى صوغ المصطلحات العلمية، فى نظر المزينى، فى الاعتقاد بأن هناك مناسبة بين الاسم والمسمى، لذلك فإن كثيرا من المشتغلين بهذا الاهتمام يوجبون أن يكون المصطلح دالا على ما يطلق عليه من حيث الشكل أو الوظيفة أو غير ذلك.

ويرجع المزينى مصدر الخلل فى الترجمات اللسانية العربية إلى أن كثيرا من المترجمين ليسوا من المتخصصين فى اللغة العربية فأكثرهم متخصص أساسا فى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية. ومن هنا فإن المشكل يتمثل فى عدم تمرس بعض هؤلاء المترجمين بالأساليب العربية وهو ما ينشأ عنه استغلاق تلك الترجمات وعجمتها. وإذا وجدنا من المترجمين متخصصا فى اللغة العربية، فإنه، فى أغلب الأحيان، يفتقر إلى تمرس كاف باللغة المصدر فيلجأ إلى القواميس لتذليل الصعوبات التى تواجهه أثناء عملية الترجمة، غير أن القواميس، فى نظر المزينى، لا يمكن أن توفر معرفة وتعميما للمصطلحات؛ لأن المصطلحات العلمية هى بالأساس وليدة لصفة الإبداع فى اللغة.

إن مشكل الترجمة ليس مشكل مصطلحات، فى نظر المزينى، بل مشكل التعبير الدقيق عن مضمون تلك المصطلحات، وعلى هذا الأساس فإن المشكلات المرتبطة بالمصطلح هى مشكلات خارجية لا علاقة لها بالمصطلح نفسه، وأن الكثير منها لا يقتصر على الوضع فى اللغة العربية بل هو شائع فى اللغات الأخرى ولم يمنع من الإبداع العلمى فيها.

ويظهر من ترجمة الكتاب، الذى يمكن أن نعتبره نموذجا تطبيقيا لأفكار المزينى السابقة، أن المترجم لم يجد صعوبات تذكر فى استعمال اللغة العربية فى التعبير عن الأفكار والمفاهيم اللسانية وصوغ المصطلحات المناسبة لها، ساعده على ذلك خبرته وتمرسه، وانخراطه فى الترجمة منذ سنوات. لقد نجح المترجم بمهارة فائقة، وحنكة متميزة، واقتدار كبير، فى سك المصطلحات المناسبة، وسبك الجمل العربية بشكل مؤد، على الرغم من صعوبة الجهاز الاصطلاحى للكتاب الذى ينتمى إلى مستويات لسانية مختلفة (صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية...) ويعد ثمرة لتاريخ طويل من التنظير اللسانى الغربى.

وصفوة القول إن ترجمة كتاب «محاسن العربية فى المرآة الغربية أو دلالة الشكل فى العربية فى ضوء اللغات الأوروبية» نعتبرها إضافة نوعية فى الثقافة العربية، ونموذجا للترجمة الجيدة والمتقنة والمقنعة فى الوقت نفسه، لخلوها من كثير من مظاهر الترهل اللغوى الذى تطفح به كثير من الترجمات اللسانية العربية. صحيح أن الترجمة جاءت متأخرة نسبيا، بالنظر إلى أهمية الكتاب، وإلى طبيعة الزمن اللسانى؛ فقد نشر الكتاب سنة ١٩٨٧م، ولم تظهر ترجمته إلا فى سنة ٢٠٠٥م، غير أن هذا لا نعتبره إشكالا، لأن الكتاب من أمهات المصادر المعرفية، ولأن القضايا التى يعالجها مازالت قضايا راهنة، وستبقى كذلك لسنوات طويلة أخرى. كما أن تأخر الترجمة تحكمت فيه اعتبارات موضوعية بالأساس كشف المترجم عن بعضها فى المقدمة ومنها:

❖ صعوبة موضوعه: ذلك أن موضوع «الدلالة» يعد من أدق المواضيع التى تتناولها اللسانيات.

❖ ثم إن المؤلف مغرم غراما شديدا بالكلمات الغريبة واللهجية وتلك التى تعد من الألغاز وتلك التى تحيل إلى كثير من الظواهر والأحداث والشخوص الثقافية فى اللغات الأوروبية، فقد وجد المترجم صعوبة بالغة فى تتبع تلك الظواهر ولم تسعفه المعاجم فى التغلب على تلك المشكلات فى كثير من الأحيان.

❖ رفض الناشر الأصلى للكتاب إعطاء حقوق النشر باللغة العربية إلا لناشر معروف...

وعلى الرغم من هذا التأخر المبرر، وهذه الصعوبات فقد كان سعى المترجم حثيثا لإخراج الكتاب إلى حيز الوجود، وتمكين القارئ العربى من الاطلاع على واحد من أهم الكتب اللسانية فى العصر الحديث. ■

كتاب الزاوية

الديمقراطية ورواد النهضة

مى زيادة

لقد لمست موجة الديمقراطية شواطئ الشرق الأدنى وأول من هتف بها فى مصر لطفى بك السيد يوم كان بعضهم يطلقون عليه مزاحًا لقب «الفيلسوف الديمقراطى». ولم تقف المسألة عند حد المزاح بل هو لاقى من اعتناق الأفكار الحديثة مصائب واحتمل سخافات منها أنه يوم كان مرشحًا لعضوية الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤ حاربه أحد مزاحميه بما لو فهمه القوم لكان للطفى بك لا لخصمه حجة. قال الخصم: «يبقى نائب عنا إزاى؟ دا راجل ديمقراطى!» فأرعبت الناخبين هذه الكلمة الأعجمية وأولوا معناها بأسوأ ما يتوهمون. بيد أن التغير ناموس الكون ولم تمض خمسة أعوام حتى صار لمصر الفتاة حزب يدعى «الحزب الديمقراطى المصرى» تنتسب إليه فئة من أرقى الشبان المتعلمين فى أوروبا، العائدين من مدارسها العالية بمعتبر الشهادات ومحترم الألقاب.

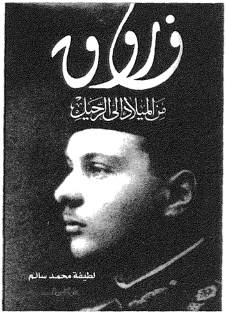
إن الإسلام كان أبدًا ديمقراطى المبادئ ديمقراطى الأساليب. وهل من ديمقراطية أتم من أن نرى الملوك يتخذون لهم من الجوارى زوجات شرعيات ويرفعونهن إلى مراتب الملكات؟ أو هل من ديمقراطية أوفى من أن يخرج من الطبقة الدنيا قوم يرتفعون بكفاءتهم الشخصية ورجاحة عقولهم فيحملون أعظم الألقاب ويقلدون أجل المناصب؟ ولكن على مقربة من هذا التساهل والإنصاف تقوم أرستقراطية مزدوجة؛ لأن موقف الأجير المصرى إزاء صاحب الأرض يكاد يكون ـ فضلاً عن موقف العامل المصرى إزاء الممول ـ موقف الرقيق إزاء الشريف فى نظام الإقطاع وكانت الحال على ذلك فى سوريا وفلسطين حتى الحرب العظمى.

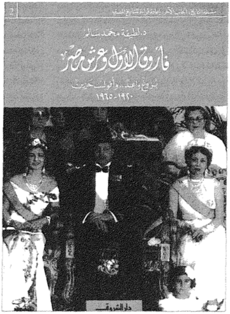
الجدل الذى أثاره مسلسل تليفزيونى حول آخر من حكم مصر من الملوك «فاروق الأول» غاب عنه حقيقة أن «الملك» كان موضوعاً لكتب ومراجع عديدة. سواء لمؤرخين حاولوا - بحكم المهنة - تحرى ما يوجبه «التأريخ» من دقة، أو لسياسيين حاولوا - لأسباب مفهومة - إلقاء الضوء على جانب واحد من القصة.

«وجهات نظر» بحكم طبيعتها تحاول هنا العودة بالجميع إلى «الكتب» كمصدر أساسى للمعرفة. وذلك من خلال عرض صفحات لواحد من كتابين (أحدهما تقترب صفحاته من الألف ويعد ربما المرجع الأساسى فى موضوعه) لأستاذة تاريخ كرست سنوات ليست بالقليلة لدراسة تاريخ الملك السابق.

المحـــرر

فاروقان!





لطيفــة محمـــــد ســـــالم

■ تعد عقوبة النفى من العقوبات القاسية، إذ إن صدور الحكم بترك أرض الوطن الذى هو أغلى ما يمتلكه الإنسان الذى ينتمى إليه من الأمور الصعبة على النفس، وعبر تاريخ مصر تعرض كثيرون لتلك العقوبة، وبالطبع فقد اختلفت أبعاد كل قضية. وفى حالة الملك فاروق، فإنه لأول مرة يأتى نفى الحاكم على أيدى المصريين المحكومين وليس العكس، ولذلك دلالته الواضحة، والتى حملت بين طياتها. أنه أصبح هناك من يحاسب الحاكم، ويقرر مصيره، وفقاً لما أقدم عليه من تصرفات أضرت بمصر والمصريين. ودائماً تكون سنوات النفى تجسيداً لعذاب نفسى. يدخل تحته الألم والحسرة، وأحيانا الندم فى حالة الشعور بالذنب إزاء أفعال معينة. ولكن بالنسبة لفاروق فقد اختلف الأمر إلى حد كبير، فبرغم نهاية حكمه الحزينة، فإنه استمر على منوال نمط حياة الأخر، تلك التى كان يعيش فى كنفها على أرض مصر.

فاروق من الميلاد إلى الرحيل
د. لطيفة محمد سالم
طبعة دار الشروق ٢٠٠٥ . ٨٥٠ صفحة

فاروق الأول وعرش مصر:
بزوغ واعد.. وأفول حزين
(١٩٢٠ - ١٩٦٥)
د. لطيفة محمد سالم
دار الشروق ٢٠٠٧ . ٢٦٠ صفحة

أولاً - الرحيـــــل

عندما تحركت المحروسة، استفسر ربّانها عن الجهة التى يوجه إليها دفته، فجاء أمر فاروق إلى إيطاليا، وبالذات نابولى، فلم تكن تختلف كثيرا عن الإسكندرية التى كانت لها المكانة لديه - كان إبان فترة النفى، كلما يمر على طريق ساحلى، يتأثر تماما، حيث يستعيد ذكريات كورنيش الإسكندرية. ونابولى هى المدينة والميناء الجميل الذى أبحرت إليه المحروسة، تقل أباه صبيا، وجده الخديو إسماعيل منفيا فى يونية ١٨٧٩، بعد أن نجح التدخل الأنجلو فرنسى فى عزله.

وايطاليا بصفة عامة طبعت ثقافتها على أبيه، وبالتالى فإنه عندما تفتحت عيناه، وجدتا الإيطاليين داخل القصر، فارتبط بهم، لدرجة أنه تحدى الإنجليز من أجلهم، وقد وضح ذلك بصفة خاصة فى أثناء الحرب العالمية الثانية وانعطافه تجاه المحور. والإيطاليون مثلهم مثل شعوب البحر المتوسط، ودودون ومشاعرهم العاطفية جياشة، بالإضافة إلى أساليبهم التى يجذبون بها الآخرين. وعليه فقد تأثر فاروق بهم وأحبهم، وبطبيعة الحال كان للإيطاليات الحظوة لديه. فضلا عن أنه منذ ست سنوات، استقبل الملك فيكتور عمانويل عام ١٩٤٦، الذى كان زميلا لأبيه بالكلية الحربية فى تورينو. ورحب فاروق به وبزوجته، وخصص له قصر أنطونيادس بالإسكندرية.

إذن، فأمر عادى أن يولى فاروق شطره تجاه إيطاليا. وبرغم أن هذا الاتجاه كان متوقعا فى مصر، فإنه حدثت بعض التكهنات عن المكان الذى سيقصده، حتى لقد ورد بالصحافة أنه سيبحر إلى الولايات المتحدة، وربما يكون التفكير فى هذا بسبب العلاقة الطيبة التى ربطته بها، وما شوهد من تدخل سفيرها من أجل تأمينه واحترامه. ويبيّن القائم بالأعمال البريطانى أن هناك ثلاثة بلاد يمكن أن يتجه إلى أحدها فاروق، فبجوار إيطاليا ذكر إسبانيا والبرتغال.

واستمرت الرحلة البحرية إلى نابولى ثلاثة أيام، وكانت مكونات المحروسة تنطق بالطابع المصرى الذى أحبه فاروق، وكثيراً ما كان يركز رؤيته على لوحة انتصار رمسيس الثانى، ذلك الملك الذى رفع شأن مصر، فهل كان يبحث عن أى وجه



للمقارنة معه، أم كان يتمنى أن يكون مثله؟ وبخاصة أنه فى بداية حكمه ملأه الفخر بأنه يجلس على عرش فرعون مصر. هذا الانتماء جعله يعشق آثارها، ويفكر فى مشروع متحف جديد لحضارتها. ومر أمام عينيه سيناريو حياته، وسيطرت عليه مسألة أن ما حدث له مؤامرة وراءها الشيوعيون. وكان مما ساءه أن المأكل والمشرب كان متواضعًا جدًا ومحدودًا للغاية، إذ كان أن يقتصر على الخبز. غير الطازج. والجبن. والسؤال: هل كان ذلك مقصودا حيث من المشهور عن فاروق حبه للطعام، أم أن ظروف السفر وسرعته كبلت المسئولين عن التحضير للرحلة؟ وعلى أى حال، فقد فرض الواقع نفسه، وحاول فاروق طوال الرحلة أن يخفف من المناخ الكئيب بطريقته المعهودة المسلية. وفى تلك الأثناء، كانت مصر قد أبلغت السفير المصرى فى روما بقدوم الملك أحمد فؤاد الثانى.

ثانيا. الوصـــول

عقب وصول فاروق إلى نابولى فى ٢٩ يولية، وقد تصادف أنه ذكرى يوم توليه سلطاته الدستورية، استقبله السفير المصرى فى إيطاليا، ومعه بعض من أعضاء السفارة، وعمدة نابولى، وقليل من الصحفيين. وتولى يخت فخر البحار. تصادف وجوده فى مياه البحر المتوسط عائدا إلى الإسكندرية من مسابقة بإيطاليا. نقل أمتعة فاروق وأسرته من المحروسة. وودعه من كانوا على متنها، وعادت من حيث أتت. ثم ما لبث أن اتصل بأحد معارفه من الإيطاليين. شغل فيما سبق منصب قنصل إيطاليا فى مصر. فقدم له المساعدات، ومنحته إيطاليا حق اللجوء السياسى، فى مقابل ألا يحرجها بإقحام نفسه فى أى نشاط سياسى.

وبمجرد أن وطئت قدما فاروق كابرى، ذلك المكان الذى اختاره، ويعد أهم مصيف لنابولى، عقد مؤتمرا صحفيا موسعا، وتحدث فيه باللغات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية، معلنا أنه سيبدأ أول إجازة حقيقية فى حياته، ورغم كونه لم يعد ملكا، فإنه أصبح مسئولا عن ابنه الملك أحمد فؤاد الثانى. وعندما سئل عن أمواله، نفى تماما جلبه لأى ثروة من مصر، وأن لديه ما يجعله يعيش حياة كريمة، ولم يتعرض للسياسة مبينًا أنه ضيف على إيطاليا ويجب عليه احترامها، ولكنه ذكر أن هناك صعوبات تواجه العرش، وأنه يأمل للحكومة المصرية أن تثبت مكانتها فى ظل الظروف الدولية القائمة. وأخيرا عرج على مشاعره تجاه مصر وشعبها، مصرحا بأن لديه حرية العودة إلى مصر، وبالطبع لم يكن هذا التصريح ينم عن الواقع، وإنما للإيحاء بأنه لم يخرج من مصر مطرودا.

ثالثًا. الحياة الجديدة

ورصدت كاميرات الصحافة الأجنبية خطواته. ومع يقينه بالأسباب التى أدت به إلى نهاية هذا المطاف، وأنه أصبح عليه أن يتخذ مما حدث عبرة وعظة، ويعطى الصورة العكسية علها تشفع له، فقد استمر على ما أصابه من استهتار ولا مبالاة وفساد، إذ غدا من الصعب عليه التخلى عن قسمات شخصيته، بالإضافة إلى أنه قد أضحى طليقا. حقيقة أنه كان كذلك فى أثناء ملكه، ولكنه بعد إجباره على تركه، زادت طلاقته، حيث انتابته الأحاسيس، بأن الاستمرار فى هذا الطريق هو الذى سيعوضه ما فقده.

ولم يمكث فاروق كثيرا فى كابرى، واستقر المقام به فى ڤيلا فخمة وكبيرة، ضمت أربعين غرفة، وتقع بإحدى ضواحى روما، وكان له حرسه الخاص المسلح، وأيضا كلاب لحراسته. وواصل نظامه اليومى، فهو يستيقظ متأخرا، ويلتهم طعامه، ويقرأ الصحف، ويجرى مكالماته التليفونية، ثم يستعد للخروج ليرتاد أماكن النوادى الليلية. ولم تفارقه هواياته التى حضرت داخله بمختلف أنواعها، ومن أهمها القمار، وهو لعبته المفضلة، ومارسها مع مختلف المستويات، ودخل تحتها بائعو الصحف، وجارسونات البارات، وأصبح اللعب يتم وفقا لقواعده، وليس عن طريق ما كان يحدث فى مصر من الاستيلاء على أموال اللاعبين معه، والذين قدموها عن طيب خاطر فى سبيل تحقيق مصالحهم.

ووجه فاروق اهتمامه إلى النساء، اللاتى أيضا اختلفت أنواعهن وأعمارهن ومهنهن، إذ وجد فى الاختلاف متعة، لكنه مع ذلك كانت له بعض المفضلات، اللائى يتمتعن بالنمط البرىء الساذج. وبدا الجديد الذى طرأ عليه، حين كون علاقات مع نساء دون المستوى، وكم استغلته مثل هذه النوعيات، فبعد أن يستولين على ما يردن من هدايا وخلافه يتركنه. ووفقا لشخصيته غير المستقرة، والمصابة بالملل دائما، فهو يتنقل بين الواحدة والأخرى دون أدنى صعوبة. وكان من خصائصه التباهى بأن النساء لعبته، وأنهن يجدن فيه الصفات المحببة لهن، وقد جاء ذلك نتيجة العجز الذى عانى منه.

وساءت علاقة فاروق بناريمان إلى درجة كبيرة، واستخدم معها أقصى أنواع القسوة، وسخر منها، إذ شعر بداخله أنها قدم شؤم عليه، برغم إنجابها الوريث. ونالت أمها أصيلة هانم نصيبها من شتائمه، حيث حمل لها القدر الكبير من الكراهية. وطلبت الملكة السابقة الطلاق، نظرا لتلك المعاملة القاسية، ولذلك المناخ السيئ الذى انغمس فيه زوجها، والذى أصبحت لا تتحمله، لأن الأمر اختلف عما قبل، إذ كانت من الممكن أن تغمض عينيها، وتتغاضى عن تصرفاته لو ظل على عرشه، فى مقابل أنها الملكة المتوجه، بالإضافة إلى أن الوضع الذى ارتكزت عليه بصفتها أم الملك أحمد فؤاد الثانى، قد انتهى بسقوط الملكية ونهاية أسرة محمد على، وإعلان الجمهورية فى مصر يوم ١٨ يونية عام ١٩٥٣.

وأصبح الانفصال بينهما أمرا محتوما، ولعبت حماة فاروق الدور المضاد له، ونجحت فى التفريق بين الزوجين، بعد أن قابلت ابنتها فى سويسرا التى سافرت إليها للعلاج ثم عادت معها إلى روما. وعليه تعقدت الأمور، وانتهى الأمر بعودة ناريمان إلى مصر. وهنا استخدمها رجال الثورة ورقة رابحة فى إضفاء المزيد من الإساءة على الملك المخلوع.

ورفعت ناريمان دعوى طلاق على فاروق أمام محكمة مصر الجديدة الشرعية، وتم إعلانه فى روما. وفى البداية طلبت نفقة كبيرة، وكان لها الحق فى حضانة ابنها. ووكل فاروق محاميا فى القضية، وانتهت بصدور حكم الطلاق البائن، دون نفقة أو حضانة، وبُلّغ به فاروق رسميا فى ٢ فبراير ١٩٥٤، وسعد به كثيرا.

وأولى فاروق أسرته الصغيرة اهتماما، وكان تركيزه واضحا على التعليم، فحرص على أن تتلقى بناته الدروس فى اللغات والموسيقى، كما عقد النيَّة على تعليم ابنه فى الكلية التى كان أبوه يرغب فى إلحاقه بها وحُرم من الحصول على شهادتها، وهى كلية إيتون ببريطانيا ذات المستوى العالمى الشهير. ومن الملاحظ أن المتتبع لطريقته فى تربيته لهذا الابن، يجدها تكرارا لنفس أسلوب أبيه معه. وما لبث أن قرر نقل أسرته الصغيرة إلى سويسرا، لاقتناعه بأنها الأكثر أمنا حيث كان يخشى عليهم من المؤامرة، ولارتفاع مستوى التعليم فيها، وأخيرا ليتفرغ تماما لحياته الخاصة. ووكل إلى فوزية المسئولية عن أختها الصغرى فادية وأخيها أحمد فؤاد، وقد سمح لأمه بزيارته، وأعطى الإذن لفريدة لترى بناتها. وفى تلك الأثناء تمكن من أن يحصل لأولاده على جنسية إمارة موناكو. وكان بين الحين والآخر يسافر إلى سويسرا، ليلتقى أسرته، وفى بعض الأوقات يصطحب معه ابنته الكبرى فريال إلى حفلات القران الملكى، أملا فى زواجها من أحد رواد تلك المجتمعات الراقية.

وانجرف فاروق مع نزواته وفكاهاته ومجموعاته، وبخاصة الجميلات من الجنس الناعم، وظهرت من بينهن فتاة، لديها جميع المواصفات التى يفضلها ويحبها، حتى فى الصوت، فضلا عن امتلاكها لمشاعر الحنان الذى كثيرا ما افتقده، وهى إيرما كابتشى مينوتولو Irma Capece Minutolo، وبعد أن كانت فى بادئ الأمر مغنية الأوبرا تهدف إلى أن يسطع نجمها عن طريقه، سرعان ما ارتبطت به، وأصبح مهمًا فى حياتها، بعد أن غمرها بالأحاسيس التى جعلتها ملكة غير متوجة، وهى الأخرى، تمكنت من أن تضع يدها على نقاط ضعفه وتشعره بأنه مازال ملكا فى كل شىء. ورغم اكتشافه أنها لم تكن من عائلة أرستقراطية كما أفهمته فى البداية، وإنما ابنة سائق تاكسى، وتعيش فى إحدى حوارى نابولى، فقد استمر على علاقته بها، ولم يكن ذلك يمنع من وجود بعض الخلافات العابرة بينهما. وبقيا معا حتى آخر عمره، وأحبته لدرجة أنها حضرت إلى مصر لكى تزور مقبرته.

ومع جميع ما قدمته إيرما له، ووفقا لطبيعته، فإنه لم يكتف بها، ودائما يريد أن يؤكد لنفسه وللأخريات أن كل واحدة منهن تختلف

فاروقان!



عن الأخرى، ولم يسبب ذلك إزعاجًا لإيرما. وقد بلغ من استهتاره أنه سمح لها بالتردد عليه فى الفيلا التى يعيش فيها مع أسرته قبل أن تنتقل إلى سويسرا، وكان فى هذا تحد لمشاعر البنات وهن فى سن المراهقة. ومما يذكر أنه ترك السكن الفخم بعد أن أصبح بمفرده وانتقل إلى شقة من دورين فى روما.

وتعددت رحلاته الخارجية، التى كان يصطحب فيها إيرما أحيانا، وحظيت باريس بالنصيب الأوفر منها، إذ اختلط بكبار الشخصيات هناك. وارتفع مؤشر تبذيره إلى أعلى درجة، لكنه عاد وتدرج فى الانخفاض خصوصا بعد وفاة الملك عبد العزيز بن سعود، الذى لم يبخل عليه بالمساعدات المالية. أيضًا فقد كان فاروق يتكبد الخسائر نتيجة لتلك القضايا التى رفعها على الكتاب والصحفيين، واتهمهم فيها بالسب والقذف فى حقه. ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، وإنما تعداه إلى الشركات التى اتخذت منه النموذج الكاريكاتيرى لترويج سلعها. ولكن ليس معنى هذا أن أمواله نضبت، إذ كان يمتلك الكثير.

ولما كان هناك نوع من الصداقة تربطه مع أمير موناكو، أراد شراء كازينو القمار بها، ولكن المليونير أوناسيس لم يمكنه من تحقيق ذلك وقام بشرائه. ومن المعروف أن ممتلكاته فى مصر، وضعت فى البداية تحت الحراسة، وفى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٣، قرر مجلس قيادة الثورة إلغاء الحراسة، ومصادرة هذه الممتلكات، وحاول فاروق إقامة دعوى أمام محكمة العدل الدولية لإلغاء القرار، ولكنه فشل.

ومما يذكر أنه وقع فى براثن البعض الذى تقرب منه، واحتال عليه، واستنزف منه الأموال، ولم يكن بجواره من ينبهه، إذ إنه تخلى عن أمين فهيم سكرتيره الخاص، نتيجة لحدوث اختلافات بينهما، وقد كانت تربطه به علاقة طيبة فترة طويلة منذ وجوده فى القصر، وعندما التحق بالسفارة المصرية فى روما، وحل مكانه شاب فرنسى لم تكن له مواصفات سابقة.

رابعًا. حُلم العودة

لم يفقد فاروق الأمل فى العودة إلى عرش مصر مرة أخرى، وراوده حُلم التحقيق، وذلك عندما يختلف العساكر وفقا لرؤيته. وقد وضح هذا من خلال ذكرياته التى نشرتها صحيفة إمباير نيوز فى الفترة من أكتوبر ١٩٥٢ إلى إبريل ١٩٥٣، وهاجم فيها القائمين على الحكم فى مصر. وأدرك قادة الثورة أن عينيه على مصر، وقلبه يهفو لها، ووفقا لخطتهم فى تأمين الثورة، وبعد ثمانية أشهر من قيامها، ساءهم تحركات الملك السابق، وموقف الحكومة الإيطالية السلبى من ذلك.

وكان لابد من الرد، ومن ثم أدلى محمود فوزى وزير الخارجية بتصريح، أذيع لمندوبى الصحف، ووكالات الأنباء، بين فيه أن التقاليد الدبلوماسية لا تسمح بأن يقوم لاجئ سياسى بنشاط سياسى، وأن مصر راعت هذا الأمر، عندما لجأت إليها الأسرة الملكية الإيطالية، وأن الخديو إسماعيل حينما استقر به المقام فى إيطاليا، لم يقدم على أى نشاط سياسى. هذا الأمر الأخير يفتقد الدقة، حيث إن الخديو قام بمحاولات للعودة

هـــــذا الكتـــــــاب

دون وجل من سوء حكم، يمكن القول إن فاروقا، ملك مصر بين عامى ١٩٣٧ و١٩٥٢، كان الحاكم الأسوأ حظا من أبناء أسرة محمد على، من حيث الصورة التى استقرت له فى الوجدان الوطنى العام.

ولأول وهلة يبدو أن سبب ذلك ما آل إليه عهد هذا الرجل من خلع عن العرش، ولكنه لم يكن الوحيد من أبناء الأسرة العلوية الذى انتزع عنوة من على كرسى الحكم. فقد سبقه إلى ذلك اثنان من هؤلاء، جده الخديو إسماعيل (١٨٧٩) وابن عمه الخديو عباس حلمى الثانى (١٩١٤)، غير أن الأمر مختلف، فقد تم خلع الحاكم الأول بعد مؤامرة اشتركت فيها حكومتا باريس ولندن، وانتهت بأن أصدر السلطان العثمانى فرمان الخلع، مما كان محل سخط المصريين، ثم إنه قد خلفه ابنه الخديو توفيق، الذى لم يكن حريصا على الإساءة لسمعة أبيه. وكان الخلع أكثر درامية مع عباس حلمى الثانى الذى استبعد عن العرش بأمر من وزارة الخارجية البريطانية، الأمر الذى جعل المصريين لا يقرون مثل هذا الخلع، ولا يعترفون بشرعيته. وهفا فريق كبير منهم إلى عودة عباس على أسنة الرماح التركية والألمانية، حتى إنه انتشرت بينهم خلال الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) الأهزوجة التى ظلوا يرددونها «الله حى عباس حى»!

ونرى أن تلك الظروف قد أبقت لكل من الخديويين المخلوعين، إسماعيل وحفيده، مكانة خاصة فى الوجدان الوطنى المصرى، والذى ظل يحنو عليهما.

اختلف الأمر مع فاروق الذى تم خلعه من جانب المصريين، وبانتهاء عهده انتهى عصر الأسرة العلوية برمته، ولم يكن هناك على سدة الحكم من يدافع عنه بحسبان أنه فى الوقت نفسه حفظ لمكانة الأسرة كما حدث فى المرتين السابقتين، بل تحول الأمر إلى وصم الرجل وعهده بكل نقيصة.

وبدا ذلك من أكثر من حقيقة:

١ - إدانة عهد الرجل بكل الأدوات التى كان النظام الجديد يملكها، من صحف وإذاعة وما إلى ذلك من وسائل الإعلام، حتى شاع توصيف عصره «بالعهد البائد»!

٢ - إن ما توصلت إليه الدراسة التى بين أيدينا من وصم الملك المخلوع «بانفصام الشخصية» كان صحيحا، لأنه الأمر الذى شهد عليه كثيرون من أكثر المقربين للملك المخلوع، وهى الشهادة التى أدلى بها المرحوم حسن باشا يوسف وكيل الديوان الملكى خلال الفترة بين عامى ١٩٤٢ و١٩٥٢ لكاتب هذه السطور شخصيا. ومن سوء حظ الملك المخلوع أن شخصيته السيكوباتية قد غلبت عليه خلال النصف الثانى من عهده، مما تشكلت معه اللقطة الأخيرة من صورته، وكانت سلبية بكل المقاييس.

٣ - فضلا عن كل ذلك، فإن الظروف التى عانت منها مصر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ - ١٩٥٢) والتى كابدت منها بلدان كثيرة فى العالم كانت فى حاجة إلى قيادة واعية تنتشلها منها، وهو ما لم يكن فاروق مؤهلا له!

وعندما تساءلنا فى هيئة تحرير هذا الكتاب عن صحة هذه الصورة كان الإجماع أنها تقدم جانبا من الحقيقة، وأن رسالتنا ألا ننساق مع ما هو شائع، وإلا تصبح هذه السلسلة أقرب إلى رجع الصدى، وإنما تتركز المهمة فى تحرى جوانب هذه الحقيقة كافة.

كان من الطبيعى أن نسند عملية التحرى تلك للأستاذة الدكتورة لطيفة محمد سالم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، ومن أكثر المؤرخين إلماما بحياة الملك المخلوع بحكم ما لها من أعمال موسوعية تخص عصره.

وبعد عنت فى الدراسة، ومكابدة نعلم حجمها، خرجت الأستاذة المؤلفة بنتيجة مفادها أنه كان هناك فاروقان وليس فاروقا واحدا... الأول حكم مصر خلال الفترة بين عامى ١٩٣٧ و١٩٤٤، وكان واعدا بكل المقاييس، وربما كان من أكثر حكام أسرة محمد على قبولا بل وشعبية عند المصريين.

غير أن انقلابا قد حدث فى شخصية الرجل بعد إقالة الوفد فى أكتوبر عام ١٩٤٤، وبينما كانت الحرب العالمية الثانية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وأصبح لدينا فاروق آخر. وقد نجحت المؤلفة، ليس فحسب فى تقديم صورة هذا الآخر، وإنما قبل ذلك فى أن تقدم الأسباب المقنعة التى أدت إلى هذا التحول، الأمر الذى نأمل أن يشاركنا فيه القراء.

وعلى الله قصد السبيل،،

يونان لبيب رزق

لم يغب الأمل عن الملك المخلوع في العودة إلى مصر، واسترجاع التاج الملكي، معتقدا بإمكانية عودة الملكية مرة أخرى

إلى أريكة الخديوية إبان الثورة العرابية. وذلك عكس حفيده فاروق، الذي يصدر نشرة صحفية يومية من خمسين نسخة، بها أخبار مشوهة، مستقاة من راديو إسرائيل، وأنه بناء على ذلك، تطلب مصر وقف مثل هذا النشاط.

وجاء إلغاء النظام الملكي، وإعلان الجمهورية، ليكون لطمة قوية لفاروق، وقد وقع هذا الحدث أثناء المفاوضات بين مصر وبريطانيا، التي كانت تواقة إلى انقسام قيادة الثورة، ليسهل لها الاتفاق، ولما أيقنت صعوبة ذلك، تراءى لها مساندة الأمير محمد عبد المنعم الوصي على العرش ليجلس عليه، مما دفع إلى إعلان الجمهورية.

وعقب توقيع إتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤، والسياسة التي انتهجها عبد الناصر، وخصوصا ما يتعلق بالقومية العربية، والتي أقلقت لندن، وتلك الكراهية التي لا حدود لها وحملها إيدن رئيس الوزراء البريطاني له، فرض التفكير نفسه في الطريقة المثلى لإقصاء عبد الناصر عن الحكم، واختيار البديل، وعندما وضع اسم فاروق، لم يجد المسئولون البريطانيون بدًا من أن يستبعدوه كلية، وذلك بعد أن حرق جميع أوراقه.

ولم يغيب الأمل عن الملك المخلوع في العودة إلى مصر، واسترجاع التاج الملكي، معتقدا بإمكانية عودة الملكية مرة أخرى. وجرت اتصالاته مع أعداء الثورة في الخارج، وابتز البعض منه الأموال لتحقيق غرضه، وباءت مجهوداته بالفشل. وكان من بين أدوات أمله التي استخدمها طوال فترة نفيه، العلم المصري بلونه الأخضر الذي احتل المكانة لديه. إذ يحمل له آخر ذكرى لوداعه. حتى لقد رفعه على إحدى نوافذ بيته، ووضعه على سيارته والتي اختار أن تكون ذات اللون الأخضر هي الأخرى، إذ كان يفضله ويرتاح إليه.

وكان لمثول رموز النظام الملكي أمام المحاكم التي أنشأتها الثورة، والأحكام التي صدرت ضدهم، رد الفعل على فاروق، فازداد هجوما على رجالها وانتقد الأوضاع القائمة في مصر، وهذا وضع طبيعي، ومنتظر أن يصدر عنه.

وبوقوع العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، امتلأ فاروق غبطة وسعادة، ووثق بأن ملكه على وشك أن يعود، وعقد مؤتمرا صحفيًا، وصرح بأن نهاية محنة مصر من الرعب والبؤس قريبة، بعد أن أصبحت دولة بوليسية، والشعب أسير داخلها. وتكلم عن الاعتقالات، وأن عبد الناصر دكتاتور طاغية، مثله كالحرباء التي لديها القدرة على تغيير لونها، فهو يستطيع أن يعادي الشيوعية، ويؤيد الروس في الوقت نفسه، وأشاد بعهد الملكية، مبينا كيف أن الطعام والعمل كانا متوافرين للجميع.

وفي الحين ذاته، بعث بثلاث رسائل إلى الرئيس الأمريكي ورئيسي وزراء إنجلترا وفرنسا، يشرح فيها التطورات المحزنة التي تمر مصر بها، والمسيرة الخطرة التي تتعرض لها تحت حكم العساكر، ويطالبهم بطرق كل السبل لتدبير حل سلمي لما يعانيه الشعب المصري، لأنه من غير المعقول أن يتحمل مسئولية من يحكمه، وحتى لا يظل إلى مالا نهاية، يدفع ثمن أخطاء غيره. ولم تلق هذه الرسائل أي آذان صاغية، لأن فاروقا، كان قد انتهى بلا رجعة من الحسابات الدولية، لدرجة أنه عندما حضر حفل قران جريس كيلي على صديقه أمير موناكو، وكعادته سجل بجوار اسمه حرف R. الحرف الأول من كلمة Roi وتعني ملك بالفرنسية. لم يجد الاحترام، وكان السفير المصري مدعوا، فلم يوجه أي اهتمام بملك مصر السابق، وعلى الفور انسحب فاروق غاضباً.

وعندما تحطمت خطة العدوان الثلاثي، وانسحب المعتدون من الأرض المصرية، وازداد تألق عبد الناصر، وبخاصة عقب قيام الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨، ومضى يعمل على اكتساب المزيد من النقاط داخل مصر وخارجها، أدى ذلك إلى وجود الحاقدين عليه في المنطقة العربية، وأيضا جدد البصيص من الأمل عند فاروق، بعد أن جمع عداء عبد الناصر بين الطرفين، ولكن الأمر لم يسفر عن أي نتيجة إيجابية، مما أصاب الملك السابق بالإحباط، الذي أقعده عن أن يفكر مرة أخرى في عودته ملكًا على مصر.

وانغمس فاروق في حياته الخاصة المعتادة إلى أن واجهته مشكلة ابنته الصغرى فادية في بداية عام ١٩٦٥ التي أحبت شابا مسيحيا روسيا، يعمل جيولوجيا، التقته في مدرسة اللغات الأجنبية بسويسرا، وكانت والدته مُدرِّسة لها. وأرادت أن تتزوجه، وهو ما لا تجيزه الشريعة الإسلامية. وفشل فاروق في الحيلولة دون إتمام هذا الزواج، الذي لم يكن راضيا عنه، ليس فقط من ناحية الدين، ولكن أيضا بسبب عدم التكافؤ الاجتماعي. وأصرَّت الابنة، وتراءت أمام عينيه مأساة أخته فتحية. ولما كان قد تعود على الصدمات، فإنه سلم بالأمر الواقع. ولم يمض إلا القليل حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في ١٧ مارس ١٩٦٥ دون أن يحقق الحلم الذي راوده كثيرا.



خامسا . اللغز

قضى فاروق بداية ليلته الأخيرة مع إيرما، ثم اصطحب صديقتها مصففة الشعر أنا ماريا Anna Maria إلى أشهر مطعم فرنسي في روما وهو «إيل دي فرانس»، وتناولا العشاء، وكعادته التهم كمية كبيرة من الطعام الذي جمع بين فواكه البحر المختلفة، واللحوم المتنوعة، والنشويات المتعددة، وأخيرا الحلويات الشهية، وبعدها أشعل السيجار، ولكنه فجأة شعر بضيق في التنفس، وألقى على أريكة، وفي الحال نقلته الإسعاف إلى المستشفى، وفي غرفة الإنعاش، أمده الأطباء بالأوكسجين، وحاولوا تدليك قلبه الذي سرعان ما توقفت دقته الأخيرة.

كان عمر فاروق وقتئذ خمسة وأربعين عاما، وقد زاد وزنه إلى درجة كبيرة أثناء النفي، وهو منذ عام ١٩٥٤ يتلقى العلاج، حيث لم يكن قلبه سليما نتيجة لتناوله كميات وأنواع من الطعام الدسم، وبرغم تحذير طبيبه من ذلك، فإن عناده طغى عليه، وبالتالي أصبح شيئا طبيعيا أن يتعرض لتصلب الشرايين مع ارتفاع في ضغط الدم، بمعنى أن الموت الذي داهمه، كانت له أسبابه الصحية. ولكن حدثت ملابسات قادت إلى أن هناك مؤامرة دُبِّرت لتنهي حياته حتى يوأد أمله، ولا تكون له أية قائمة، ومن ثم يسقط القلق الذي ساور المسئولين في مصر من وجوده وتحركاته. وذلك رغم أن الهدوء لازمه في الفترة الأخيرة.

وبعد ثلاث سنوات من موت فاروق، قُدِّم رئيس المخابرات العامة المصرية صلاح نصر للمحاكمة، وذُكر أنه ردد بعض الأقوال بشأن نهاية حياة الملك السابق، وعندما نشر كتاب «شاهدة على انحرافات صلاح نصر» لاعتماد خورشيد، وكانت مقربة لهذا المسئول، سجلت كيف حضر لها في فيلتها مخمورا، وقال لها إنه في انتظار مكالمة تليفونية مهمة من الخارج، وبالفعل جاءت مكالمتان تحملان خبر موت فاروق، الأولى من شخص إيطالي، والثانية من مساعد صلاح نصر، وهو إبراهيم بغدادي. أحد الضباط الأحرار. تفيد بأن المهمة نفذت بنجاح. ونقل رئيس المخابرات الخبر لعبد الحكيم عامر، ثم قدمه هدية إلى عبد الناصر. وتمت العملية باتفاق مع المخابرات الإيطالية، ووضع له نوع من سم الأكوتين في الجمبري، وهو لا يظهر في التشريح. ووفقا لما ذُكر، فإن الجثة لم تُشرَّح، بالرغم مما هو وارد عن إمكانية اغتياله. وقد عاش مرتابا من أن يحدث له ذلك أو لأولاده. كما أن من كانت ترافقه في عشائه الأخير، لم يظهر لها أثر وقت الوفاة، إذ تركت المكان على وجه السرعة، ولم يعرف السبب. وفي ذلك الحين، تردد أن روما كانت مركزًا للمخابرات المصرية للتجسس على كل من فاروق وإسرائيل.

ووفقا لمنهج البحث التاريخي، فإنه من الصعب إثبات حادثة دون وثائق. وأن المذكرات وما يتبعها من ذكريات لابد أن تخضع لقواعد النقد، وبتطبيق ذلك على المعلومات السابقة، يصبح لابد من وجود قرائن، وهي غائبة، وبخاصة أن ما تقوم به أجهزة المخابرات يخضع لأنظمة معينة، تخفي الآثار المترتبة على عملياتها. أيضا فمن المسلم به أن ينفي إبراهيم بغدادي ما ذكرته صاحبة الكتاب.

ومن المعروف أن صلاح نصر

فاروقان!



كثيراً ما أوهم عبد الناصر بأن المؤامرات تحاك ضده، وهو دائماً يتوصل إلى مخططيها، ويُنفِّذ أحكامه عليهم، وذلك حتى يؤمن نفسه بالاستمرار فى منصبه.

هذا ويجب أن نضع فى الحسبان أن مفهوم عبد الناصر بشأن تحرك القوى الأجنبية ضده هو حقيقى، إذ تنطق الوثائق البريطانية. خصوصا قبل عام ١٩٥٦ . بضرورة التخلص منه. ومن هنا كان يخشى من إمكانية الإطاحة به بأية طريقة، وبالتالى اتخذ النظام البوليسى موقعه لدى نظامه، سواء داخل مصر أم خارجها. ولكن ليس معنى ذلك تفسير أن ملك مصر السابق اغتيل بناء على أمر منه لصلاح نصر، حيث لا يوجد ما يثبت ذلك.

وهكذا تحول موت فاروق إلى لغز، ومازالت علامات الاستفهام قائمة، هل هو موت طبيعى، أم اغتيال درامى؟ والواقع أن هناك نماذج أخرى فى التاريخ، تحمل الاستفسار نفسه، ولم يحل لغزها بعد.

سادساً. الوداع الأخير

كانت إيرما أول من تلقى خبر موت فاروق، فحزنت عليه وبكته كثيرا، واتصلت بأولاده فى سويسرا، فحضروا على الفور، وكذلك حضرت فريدة وأختاه فوزية وفايزة. وكُفِّن فاروق، وغطى بالعلم المصرى الأخضر الذى لازمه طوال فترة نفيه، وأقيمت صلاة الجنازة عليه، ووضع فى قبر مؤقت، وتلقى ابنه العزاء.

وبناءً على وصية فاروق بأن يدفن فى مصر بمسجد الرفاعى مقر مقابر أسرته، جرت المساعى من أجل تحقيق ذلك، وفى الوقت ذاته أبدى الملك فيصل بن عبد العزيز رغبته فى أن يستقبل جثمان فاروق ليدفن فى الأراضى المقدسة، مما سهل الأمر لنجاح محاولات إسماعيل شيرين والتى انتهت بموافقة عبد الناصر على أن يتم الدفن بمصر، بعد أن شعر بنوع من الإحراج فى حالة الرفض، ولكنه وضع شرط السرية التامة فى التنفيذ.

فهل هذا يرجع إلى أنه أراد إقصاء أى مشاعر تجاه ملك مصر السابق، برغم علمه أنه ابتعد عن أذهان المصريين؟ أو تحسبا لأى خطر نتيجة وجود بعض القلاقل حينئذ فى مصر؟ ربما أحدهما أو الاثنان معا.

وبعد عشرة أيام من تاريخ الوفاة، جاء المشهد الأخير، إذ نقل جثمان فاروق على طائرة تابعة لشركة الطيران العربية المتحدة . المصرية . ووصلت إلى القاهرة مع منتصف الليل، واستقبله فوزية وفايقة وزوجاهما إسماعيل شيرين وفؤاد صادق فقط. وفى حراسة مشددة من رجال صلاح نصر، تم الدفن فى قبر إبراهيم باشا، وليس فى مسجد الرفاعى تبعا لوصيته، ودون أية مراسم، واستغرقت الإجراءات دقائق معدودة، وورى جسد فاروق ثرى مصر. وفى عهد أنور السادات، أمر بنقل رفاته إلى مسجد الرفاعى، وتعددت الرؤى فى هذا الشأن: هل ليحقق لفاروق وصيته، أو لتلك العلاقة التى بدأت تنسج خيوطها مع أحمد فؤاد الثانى ملك مصر السابق والأخير، أو ليظهر أمام المصريين بروح تسامح كبير العائلة؟ وأيا كان الأمر منها، فإنه بهذا الإجراء، انطوت صحفة فاروق الذى كان ملكاً . ■

من الحب إلى المنفى

حاولت هذه الدراسة وضع النقاط على الحروف فى تناولها لشخصية الملك فاروق، بحيث أصبحت واضحة المعالم، وجاء تقييمها بناء على الغوص فى أعماقها، وربطها بالظروف التى أحاطت بها.

والسؤال الذى أطل برأسه أمام السطور: هل كان فاروق فاسداً منذ بدايته أو أن البيئة التى احتضنته جعلته فاسداً قبل نهايته؟

وتم التوصل إلى أن فاروقا قضى ما يقرب من منتصف عمره حكمه يحمل البزوغ الواعد للمصريين. حقيقة أنه أثناء تلك الفترة، وهو شاب يانع، كانت له السياسة التى هندسها الثانى على ماهر . أحمد حسنين، ورسما خطوطها الأوتوقراطية، واستطاع الوفد أن يتحداها، ونال جزاءه. ولكن شخصية فاروق آنذاك، احتوت المصريين الذين غمروه بالحب بشكل لافت للنظر، وليست مبالغة إذا قيل إن أحداً من الحكام لم يحصل عليه من قبل.

أما النصف الآخر من عمر حكمه، فقد تحول مؤشره إلى النقيض، وبالتالى انعكس ذلك على الناس، وبعد أن كانت بيوتهم تحتل فيها صورة فاروق الصدارة على حوائطها، غدت تداس بالأقدام.

والواقع أن من تحلَّق حول فاروق، وبخاصة الحاشية، أولئك الأشخاص غير المسئولين، حرصوا على أن يجعلوه شخصا غير الذى كان، ونجحوا فى البحث عمَّا بداخله من سلبيات، ووضعوا أيديهم عليها، وأضافوا إليها، وأطلقوا لها العنان، بعد أن مهَّدوا له طريقها، وفرشوه بالإغراءات المختلفة الأشكال والألوان. وكذلك الرسميون ورجال السياسة بمن فيهم القيادة الوفدية . فى مرحلة ما قبل الانهيار . الذين تفانوا فى العمل على إرضائه، ولكل منهم كانت سياسته التى يريد تحقيقها . والنتيجة المنطقية أنه أمسى فاروقا آخر اختلف عن فاروق الأول.

وانتقل فاروق إلى حياة جديدة فى المنفى، ولكنه سار على الدرب نفسه، ولم يبد أى ندم على ما اقترفه فى حق نفسه، وحق شعبه، ذلك الذى لم يأسف عليه، حيث لم يبرح عن ذهنه سنواته الأخيرة فى الحكم، تلك التى عاشت مصر ترزح تحتها وتئن من تدهور أوضاعها . ومن أجل هذا كان التأييد لما حدث فى ٢٣ يولية ١٩٥٢، والذى سرعان ما أصبح ثورة كاملة وشاملة، سعد بها المصريون وباركوها.

زعامات "أمام العرش"

■ نادى حورس:

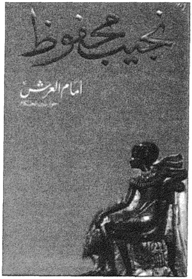
ـ محمد على باشا.

فدخل رجل ملء مستقيم البنيان قويه وتقدم حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ ولدت فى مدينة قولة، نشأت يتيما، ولما ترعرعت انتظمت فى سلك الجندية، وذهبت إلى مصر ضمن حملة لقتال الفرنسيين. ولما جلا الفرنسيون عن مصر جعلت أدرس الأحوال وأفكر فى المستقبل. تكشف لى ضعف العثمانيين، ووحشية المماليك، وانتبهت إلى قوة ثالثة لا يحسب حسابها أحد هى قوة أهالى البلاد وزعمائهم، فقررت أن أوثق علاقتى بهم لعلهم يصلحون أساسا أقيم عليه دولة جديدة تستعيد من الماضى أمجاده الغابرة. ونجحت فى ذلك أيما نجاح، حتى خلع الأهالى الوالى التركى وبايعونى حاكما محله. واعترف الباب العالى بالأمر الواقع فاستتب لى الأمر. وشرعت فى العمل فلم أكف عنه حتى نهاية عمرى. تخلصت من المماليك وهم الشر المقيم. وتلقيت من الباب العالى أمرا بمحاربة الوهابيين فى الجزيرة العربية فانتصرت عليهم. وكونت جيشا من المصريين، وفتحت السودان، وقتل ابنى إسماعيل فى الحرب فانتقمت له بقتل عشرين ألفا من العدو، وأنشأت للجيش مدارس ومصانع كما أنشأت أسطولا مستعينا فى ذلك كله بالخبراء الفرنسيين. ولم أغفل الإصلاح فادخلت زراعات جديدة كالقطن والنيلة والأفيون وغرست الأشجار والحدائق، كما أنشأت مدارس للطب وبنيت المستشفيات، وأرسلت البعثات من أبناء البلاد لفرنسا بلد الحضارة الحديثة، ونظمت الإدارة والأمن، ومن آثارى الكبرى القناطر الخيرية، كما أنشأت أول مطبعة فى الشرق وهى مطبعة بولاق. وطلب منى الباب العالى أن أحارب عنه فى المورة

من رواية:
أمام العرش
حوار بين الحكام
نجيب محفوظ
القاهرة ـ دار الشروق ـ ٢٠٠٦



"انعقدت المحكمة بكامل هيئتها المقدسة فى قاعة العدل بجدرانها العالية المنقوشة بالرموز الإلهية.. أوزوريس فى الصدر على عرشه الذهبى إلى يمينه إيزيس على عرشها وإلى يساره حورس على عرشه وعلى مبعدة يسيرة من قدميه تربع تحوت كاتب الآلهة مسندًا إلى ساقيه المشتبكتين الكتاب الجامع.. وعلى جانبى القاعة صنعت الكراسى بقشرة من الذهب الخالص تنتظر من سيكتب لهم الخلاص من القادمين."

والشام فحققت انتصارات عظيمة حتى حل الرعب فى قلب الباب العالى نفسه فأراد أن يوقفنى عند حدى ولكنى حاربته وغزوت بلاده وكدت أستولى على عاصمته لولا تدخل الدول الأجنبية التى خافت أن تتجدد دولة الإسلام على يدى، وتألبت علىّ الدول، واضطرتنى للخضوع للباب العالى نظير أن يجعل مصر وراثية فى بيتى، واضطررت لتصفية الجيش وكثير من المدارس والمصانع، وساءت حال البلاد، ولم أحتمل النهاية ففقدت عقلى ثم حياتى.

قال خوفو:

ـ كأنها أسرة فرعونية جديدة رغم أصلها الأجنبى.

وقال تحتمس الثالث:

ـ لقد أعدت إمبراطوريتى، وإنى أشهد لقائدك بالبراعة، ولكنك فقدتها فى أثناء حياتك فهى أقصر الإمبراطوريات عمرا فى التاريخ، وإنى أعجب كيف قتلت عشرين ألفا انتقاما لابنك كأنك لم تسمع عن سياستى الحكيمة فى الأمم المغزوة؟

فقال محمد على:

ـ لم أسمع عنها ولم يهتم أحد بآثاركم قبل أن يهتم بها علماء الحملة الفرنسية ويحلون ألغاز لغتها، غير أننى كنت أستلهم حكمتى الخاصة من المعاملة المباشرة للبشر..

فقال تحتمس الثالث:

ـ إنى أشهد لك بالعظمة، وعلى ضوء ذلك أفهم غرورك، وكان بودى أن أتسامح معك لولا النهاية السريعة الأسيفة التى آلت إليها إمبراطوريتك، وهذا يعنى أن إدراكك رغم ذكائك كان ناقصا، لم تدرك أبعاد الموقف الدولى جيدا فتحديته وأنت لا تدرى وعرضت نفسك لقوة لا قبل لك بها.

ـ اعتقدت أن فرنسا ستقف إلى جانبى حتى النهاية..

فقال له الحكيم بتاح حتب:

ـ هذا أيضا لا يدفع عنك مظنة قصر النظر.

فقال محمد على:

ـ كانت ثمة فرصة مواتية لتجديد دولة الإسلام من منطلق مصر الفتية.





فقال إخناتون:

- إنى أدرك ذلك تماما وأحيى طموحك لإحياء دولة الواحد الأحد..

فقال الملك خوفو:

- ليتك وضعت عبقريتك وأحلامك فى تقوية مصر وقنعت بذلك.

وقال أبنوم:

- لم يكن إيمانك بالشعب كاملا ولا حبك له بالقدر الذى يجعلك توظف جهدك الحقيقى لإحيائه ودعمه، استخدمت الفلاح فى سبيل الأرض والدولة وكان الواجب أن توجه كل مؤسسة لخدمة الشعب، ولكن لا يفكر بهذه الطريقة إلا من كان مثلى أنا.. ومهما يكن من أمر فلن أنسى لك فضل دفعك الفلاحين إلى مسرح الإدارة والسياسة والعسكرية والعلم..

وهنا قالت إيزيس:

- من أجل ذلك أعتبر هذا الحاكم الأجنبى من أبنائى.

وقال أوزوريس:

- لو كانت هذه المحكمة هى صاحبة الفصل فى تقرير مصيرك لوجهت إليك نقدا قاسيا وتوبيخا جارحا ثم حفظت لك حقك فى مقعدك بين الخالدين، وسنرفع بشأنك تقريرا إلى محكمتك الإسلامية ينوه بأعمالك الجليلة وسيعتبر فى جملته تزكية لشخصك من مصر وأهلها.

ونادى حورس:

- أحمد عرابى.

فدخل رجل مائل للطول والامتلاء ذو رزانة ووقار، فتقدم حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- حفظت القرآن صغيرا بقريتى بالشرقية، وانتظمت فى سلك الجندية فى الرابعة عشرة، وصلت إلى رتبة قائمقام فكنت أول مصرى يصل إلى هذه الرتبة، وكانت الرتب الكبيرة وقفا على الشراكسة، وكان المصرى محتقرا فى وطنه، فأقنعت بعض الزملاء بالمطالبة بعزل وزير الحربية الشركسى المتحيز فقبض علينا، فثار الجند الوطنيون حتى أفرج عنا. ولمست ما يعانيه الشعب من ظلم فتحركت بالجيش إلى قصر عابدين وطالبت الخديو بإسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب فقال لى: «أنا ورثت ملك هذه البلاد وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا» فقلت: «لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم» وقد انتصرنا على أعداء الشعب وتكون مجلس نيابى ووزارة وطنية، ثم تدخلت الدول الأجنبية لمنع المصريين من تولى شئونهم خوفا على مصالحها، وخان الخديو وبعض الانتهازيين الوطن فاتفقوا مع أعدائنا الإنجليز، ودافعنا عن وطننا بكل ما نملك ولكننا انهزمنا وحوكمنا وحكم علينا بالنفى المؤبد ومصادرة أملاكنا.

وتكلم الملك خوفو فقال:

- ولكنك تحديت الجالس على العرش وخاطبته بما لا يخاطب به الملوك!

فقال أوزوريس:

- تغير الزمان أيها الملك فلم يعد الملوك يحكمون نيابة عن الآلهة ولكن بالمشاركة مع الشعوب.

فقال خوفو:

- مشاركة الفلاحين فى الحكم تعنى الفوضى.

فقال أبنوم:

- بل هى وثبة كبرى فى مدارج الخير.

وقال أحمد عرابى :

- كان الخديو ورجاله من عنصر أجنبى.

فقال الملك مينا:

- لقد قامت وحدة مصر على عناصر بشرية متنوعة اندمجت جميعها فى الوطن وأخلصت للعرش.

فقال أحمد عرابى:

- لم أكافح إلا العناصر التى أبت الاندماج، والدليل على ذلك أن حزبى لم يخل من وطنيين من أصل شركسى.

فسأله أبنوم:

- ولم لم تقتل الخديو وتكون أسرة جديدة من أصل شعبى؟

- كان هدفى تحرير الشعب وإشراكه فى حمل المسئولية..

فقال أبنوم:

- كان قتله أفضل ولكنك على أى حال صاحب الفضل فى الدفاع عن حق الشعب..

وتكلم تحتمس الثالث فقال:

- كان الموقف يتطلب قيادة عسكرية خارقة فى عبقريتها وللأسف لم يتهيأ لك شىء من ذلك.

فقال أحمد عرابى:

- بذلت أقصى ما لدى.

وقال رمسيس الثانى:

- وكان يجب أن تقاتل حتى الموت بين جندك.

وقال أبنوم:

- وكان يجب أن تقضى على جميع أعدائك لتقضى على الخيانة فى مهدها.

فقال إخناتون:

- إنك رجل طيب القلب فجرت عليك النهاية المقدرة للقلوب الطيبة.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- هكذا ثرت من أجل حرية الشعب فجررت عليه احتلالا أجنبيا..

وهنا قالت إيزيس:

- هذا ابن مترع القلب بالنوايا الطيبة وهب شعبه ما يملك من حب غير محدود وقدرات محدودة، وقد تآمر الأعداء على تصفية ثورته ولكنهم لم يستطيعوا استئصال البذرة التى غرسها فى الأرض الطيبة.

وقال أوزوريس:

- إنى أعتبرك نورا تألق فى الظلمات التى رانت على وطنك، وقد عوقبت فى حياتك بما يعتبر تكفيرا عن أخطائك فعسى أن تحظى بالبركات فى ساحة محكمتك، ولن نقصر عن التنويه بفضلك بما أنت أهله.

وهتف حورس:

- مصطفى كامل.

فدخل شاب ممشوق القامة عذب الملامح، ومضى عارى الرأس حافى القدمين حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- بلغت الوعى وأنا تلميذ فى عصر الاحتلال البريطانى فكرهته وصممت على محاربته، وشرعت فى ذلك وأنا تلميذ، وزارنا فى المدرسة جناب الخديو عباس الثانى فاستقبلته بخطبة وطنية حماسية استجابت لها وطنيته وشبابه، وتوثقت بينى وبينه منذ ذلك اليوم علاقة وثيقة، فمضى يمدنى بالتشجيع والمال للتخلص من الاحتلال، واستوت علاقتى على نفس النهج مع الخليفة والجمعية الإسلامية، أما قبلتى فى جميع الأحوال فكانت استقلال مصر وحريتها، من أجل ذلك تغير موقفى من الخديو عندما اتفق مع الاحتلال، وكانت حال الشعب لا تبعث على الأمل، ولكنى لم أقصر فى إيقاظ وعيه الوطنى بالكلمة فى الصحف والخطابة، كما قمت بالدعاية لقضية وطنى فى الخارج حتى عرفها الأحرار فى أوروبا وخاصة فرنسا، ولما ارتكب الإنجليز جريمتهم الكبرى فى دنشواى استنكرت أعمالهم الوحشية ونددت بالأحكام التى أصدرتها المحكمة الزائفة على أهل القرية الأبرياء فزعزعت عرش طاغية الإنجليز فى مصر حتى اضطرت بلاده إلى استدعائه، ثم أسست الحزب الوطنى وهو أول حزب سياسى منظم أنشئ فى مصر، تضمن برنامجه الجلاء والدستور فى ظل الدولة العثمانية، وواظبت على الجهاد فى الداخل والخارج حتى أسلمت الروح فى عز الشباب..

وتكلم بسماتيك الثالث فسأله:

- ألم يقتلك الإنجليز؟

- كلا.

- هذا عجيب، لقد عاصرت الاحتلال الفارسى مثلما عاصرت الاحتلال الإنجليزى، ومثلك حاولت إيقاظ الوعى الوطنى ولما علم قمبيز بأمرى قتلنى دون تردد، فكيف تركك الإنجليز دون عقاب؟!

فقال مصطفى كامل:

- كان الاحتلال قد تمكن من دعم سيطرته الكاملة على البلاد فلم ير بأسا من منح معارضيه شيئا من الحرية، استهانة بهم فى الواقع، وتظاهرا أمام العالم باحترام القيم..

- ألم تتعرض لأذى ملموس؟

- أضمر لى الكراهية وحرض أصدقاءه على مهاجمتى.

- زمانك وفر لك من الأمان ما لم يوفر لى بعضه، والحق أنى لم أعرف مجاهدا سعيد الحظ مثلك، حظيت بتأييد الخديو والخليفة والجمعية الإسلامية، وهاجمت عدوك فى الداخل والخارج دون عقاب، واكتسبت مجدا وشهرة دون أن تدفع ثمنا، لم تقتل كما قتلت أنا، ولم تنف كما نفى أحمد عرابى..

فقال مصطفى كامل:

- أحمد عرابى خائن جر على بلاده الاحتلال..

فقال له أبنوم:

- كيف تتهم الرجل بالخيانة وهو ما ثار ونفى إلا دفاعا عن شعبك! وما كان الخائن إلا والد صديقك ومؤيدك ومعينك، وقد خان وطنه بشهادتك كما خان أبوه من قبل.

فقال مصطفى كامل بإصرار:

- إنى أعتبره المسئول الأول عن الاحتلال..

قال أبنوم:

- إنك شاب وطنى متحمس صادق النية سعيد الحظ عشت حياتك فى جو معبق بأبهة العرش والخلافة والحضارة الفرنسية، لم تشم رائحة العرق الكادح ولم تكابد آلام الجهاد الحقيقية ولم تتورع عن النيل من الثائر الحقيقى..

وهنا قالت إيزيس:

- إنه الابن الذى أيقظت حماسته الوجدان الوطنى بعد أن كاد الاحتلال يخمد أنفاسه.

وقال أوزوريس:





ـ لم يكن بوسعك أن تفعل خيرا مما فعلت ولن ينسى فضل كلماتك، فاذهب إلى محكمتك مصحوبا بدعواتنا القلبية.

ونادى حورس:

ـ سعد زغلول.

فدخل رجل طويل القامة، مهيب الطلعة، قوى القسمات، جذاب الملامح، وتقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ ولدت فى أبيانة، درست فى الأزهر، تتلمذت على يد جمال الدين الأفغانى، عملت محررا بالوقائع المصرية تحت رياسة وأستاذية محمد عبده، انضممت إلى العرابيين فى ثورتهم، وفى أول عهد الاحتلال البريطانى اعتقلت كعضو فى جمعية الانتقام وفصلت من وظيفتى، وعملت فى المحاماة، فالقضاء، اخترت وزيرا للمعارف ثم وزيرا للعدل، وعقب انتهاء الحرب العظمى الأولى وإعلان الهدنة توليت زعامة الحركة الوطنية، وأقمتها على أساس متين من الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين، وناديت بحق مصر فى الحرية والاستقلال، فقبضت علىّ السلطات البريطانية ونفتنى إلى جزيرة مالطة، وما إن ذاع الخبر حتى قامت الثورة الشعبية احتجاجا على نفيى ومطالبة بالاستقلال، مما اضطر إنجلترا إلى الإفراج عنى، وسافرت مع أعضاء الوفد إلى باريس لعرض قضيتنا على مؤتمر الصلح فأغلق أبوابه فى وجوهنا، ودخلنا فى مفاوضات مع الإنجليز دون نتيجة، وحدث انقسام فى الوفد، ورجعت إلى مصر، ثم نفيت مرة أخرى إلى جزر سيشل فى المحيط الهندى ولم يفرج عنى إلا سنة ١٩٢٣، وتوليت الوزارة سنة ١٩٢٤ بعد انتخابات شعبية، ودخلت فى المفاوضات التى سرعان ما فشلت، واضطررت إلى الاستقالة عقب اغتيال أحد كبار الإنجليز، ثم ائتلفت الأحزاب أمام دكتاتورية الملك، وتوليت رياسة مجلس النواب، تاركا رياسة الوزارة للدستوريين، ودارت المفاوضات من جديد ولكنى غادرت الدنيا قبل أن أعرف نتائجها..

وتكلم أبنوم فقال:

ـ لقد قمت أنا بأول ثورة شعبية فى نهاية الدولة القديمة وقمت أنت بالثورة الشعبية الثانية بعد آلاف السنين فأنت أخى وخليفتى وحبيبى.

فقال الملك خوفو:

ـ ثمة فرق بين الثورتين يجب أن يذكر وهو أن ثورة أبنوم كانت ثورة العامة على الصفوة أما ثورة سعد زغلول فكانت ثورة شعب مصر كله فقراء وأغنياء على الاحتلال الأجنبى..

فقال أبنوم:

ـ أعتقد أن الأغنياء لا يحبون الثورة.

فقال سعد زغلول:

ـ حرصت من أول الأمر على الاتحاد كقوة لا غنى عنها أمام العدو، ولكن ثبت لى أن الأغنياء يكرهون الثورة أكثر مما يكرهون الاحتلال.

فقال أبنوم:

ـ كان يجب أن تتخلص منهم.

فقال سعد زغلول:

ـ لقد انشقوا علىّ راسمين لأنفسهم طريقا إلى الاستقلال يناسب رؤيتهم.

وقال الملك مينا:

ـ لقد وحدت المصريين كما وحدت أنا مملكتهم فأنت فى ذلك صديقى وخليفتى..

وسأله أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ رغم ما ثبت لك من زعامة بعد الثورة فإنك قبلت العمل فى ظل الاحتلال قبل الثورة ولم تنضم للحزب الوطنى، ما تفسير ذلك؟

فقال سعد زغلول:

ـ كان الحزب الوطنى يدعو إلى مبادئ خيالية، من ذلك أنه لا مفاوضة إلا بعد الجلاء مما يعنى بقاء الاحتلال إلى الأبد، ومنه مقاطعة الوظائف العامة لهيمنة الإنجليز عليها، ولا يكفى فى نظرى أن تطالب الناس بسلوك معين ولكن يجب أن يكون هذا السلوك ممكنا دون تهاون أو إجحاف، وأن يصلح للتطبيق العام، وقد استطاع مصطفى كامل مقاطعة الوظائف بما كان يمده الخديو وغيره به من مال، واستطاع محمد فريد ذلك لثرائه الواسع، ولكن ماذا يصنع أتباع الحزب؟..إن اتبعوا مثل زعامتهم هلكوا وإن خالفوها مضطرين خانوا العهد، فكيف يدعو أناس إلى ذلك المبدأ المتعالى الذى يعز على التطبيق ويورث الشعور بالإثم؟.. ثم كيف نترك الوظائف العامة للأجانب؟ وقد قبلت الحياة الرسمية لأمارس من خلالها ما استطعته من مقاومة ومن أداء خدمات لوطنى كان فى أشد الحاجة إليها،وقد اعترف بذلك خصومى قبل أصدقائى..

فقال أوزوريس مخاطبا الجميع:

ـ أعمال هذا الزعيم مدونة فى الكتاب لمن يريد أن يطلع عليها ولكنا فى هذه المحكمة لا نناقش إلا الأعمال الفاصلة.

ثم خاطب سعد قائلا:

ـ زعم خصومك أن الثورة قامت وأنت فى المنفى وأنك لم تفعل شيئا لإشعالها بل إنك دهشت لقيامها كحدث غير متوقع، فما قولك فى ذلك؟

فقال سعد زغلول:

ـ كانت حال البلاد تدعو لليأس، وأعترف بأننى دهشت لقيام الثورة كما دهش الزعيم السابق لى وهو محمد فريد ولكنى لم أقصر فى تهيئة الجو لها بالخطابة لدى كل مناسبة والاجتماع بالناس فى بيتى وفى دعوة الناس فى الريف والمدن لتأييدى فى موقفى مما عبأ الشعور القومى،والثورة قامت احتجاجا على نفيى فكان شخصى فى الواقع هو مشعلها المباشر.

فقال أبنوم:

ـ الموقف الخطير يتطلب عادة سلوكا معينا والزعيم القادر هو من يستطيع أن يكون القدوة لهذا السلوك، وقد كان الموقف يحتاج إلى التضحية، فهى أقصى ما يستطيع شعب أعزل أن يقدمه حيال قوة قاهرة، ولما تحدى سعد العدو واضطره إلى نفيه أعطى هذه القدوة المطلوبة ففعل الشعب مثله وقامت الثورة، ومما يشهد لسعد بالعظمة أنه أقبل على التضحية وهو يائس من ثورة تحميه أو تدافع عنه فكانت تضحيته كاملة، شجاعة نبيلة لا أمل لها فى أى نوع من النجاة، ولو كان يأمل فى ثورة لقلل ذلك درجة من ضخامة تضحيته..

فقال أوزوريس:

ـ وقيل أيضا إن تعصبك لزعامتك هو ما اضطر العقلاء من معاونيك على الانشقاق عليك، فما قولك فى ذلك؟

فقال سعد زغلول:

ـ المسألة أننى اندمجت فى الثورة وآمنت بها ووجدت فيها ضالتى التى كنت أبحث عنها طوال حياتى، أما العقلاء فقد كرهوا الثورة وخافوها وقنعوا بالحلول الزائفة، كانوا ذوى مال وخبرة وحنكة ولكن وطنيتهم لم تكن خالصة كما كان إيمانهم بالشعب معدوما..

فقال أوزوريس:

ـ وقال بعض أعوانك إنه كان يجب أن تبقى على رأس الثورة ولا تقبل رياسة الوزارة؟

فقال سعد زغلول:

ـ كانت وزارتى امتدادا للثورة على المستوى الرسمى..

فقال أبنوم:

ـ كنت أفضل أن تأخذ برأى أولئك الأعوان!

وهنا قالت إيزيس:

ـ لتبارك الآلهة هذا الابن العظيم البار الذى برهن على أن شعب مصر قوة لا تقهر ولا تموت.

وقال أوزوريس:

ـ إنك أول مصرى يتولى الحكم منذ العهد الفرعونى، وتوليته بإرادة الشعب، من أجل ذلك أهبك حق الجلوس بين الخالدين من أجدادك حتى تنتهى المحاكمة، ثم تمضى بسلام إلى محكمتك مصحوبا بتزكيتنا وصادق أمانينا.

واتخذ سعد زغلول مجلسه بين الخالدين فى قاعة العدل المقدسة.

وهتف حورس:

ـ مصطفى النحاس.

فدخل رجل قوى الجسم والوجه مائل للطول، تقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ ولدت فى سمنود فى أسرة من أبناء الشعب الفقراء، وبفضل اجتهادى أتممت تعليمى، ولتفوقى عينت فى القضاء فعرفت بالعدل والنزاهة، وكنت من أنصار الحزب الوطنى الذى زاملت رئيسه طالبا بالمدرسة الخديوية، وعند تأليف الوفد برياسة سعد زغلول اختارنى عضوا فيه، ونفيت معه إلى سيشل عام ١٩٢١، واشتركت فى وزارته الشعبية الثورية، وعقب وفاته انتخبت رئيسا للوفد، وحملت عبء الجهاد فى سبيل الاستقلال والحياة الديمقراطية ربع قرن من الزمان، وقد توليت الوزارة سبع مرات وأقلت منها ست مرات لخلافات مع الإنجليز أو الملك، وفى ١٩٣٦ وتحت ضغط التهديد بحرب عالمية قبلت الائتلاف مع الأحزاب وعقدنا معاهدة مع الإنجليز اعترفت باستقلال مصر، ووعدت بالجلاء بعد عشرين عاما، وقامت الحرب العالمية فى فترة حكم استبدادى ملكى، واتهم الملك بالاتصال بأعداء الإنجليز فنشبت أزمة سياسية خطيرة وفكر الإنجليز فى خلع الملك، وتقدمت لإنقاذ البلاد والعرش وألفت وزارة فى ظروف عسيرة، ولما انتهت الحرب بانتصار الإنجليز شرعت فى المطالبة بالجلاء الفورى ولكن الملك أقالنى، ورجع الملك إلى استبداده وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ حتى اضطر إلى الموافقة على استفتاء الشعب عام ١٩٥٠، فرجعت إلى الوزارة، وفاوضت الإنجليز من أجل الجلاء، ولما لم أجد منهم استجابة ألغيت المعاهدة وأعلنت الجلاء فتآمر علىّ أعدائى فى الداخل والخارج واستطاع الملك أن يتخلص منى. وقامت ثورة يوليو واضطررت إلى اعتزال السياسة حتى وافانى الأجل.

فقال أوزوريس:

ـ يهم الحاضرين أن يعرفوا بعض الإنجازات التى قدمتها فى أثناء توليكم الوزارة؟

فقال مصطفى النحاس:







- بالرغم من أن الشعب لم يحكم إلا ثمانية أعوام نظير تسعة عشر عاما استبد فيها الملك وأحزاب الأقلية بالسلطة، وبالرغم مما تعرضت له من اضطهاد وعسف ومحاولات متكررة لاغتيال حياتى فقد وفقنى الله إلى تحقيق خدمات غير قليلة، منها على سبيل المثال، إلغاء الامتيازات الأجنبية، إلغاء صندوق الدين، تأسيس جامعة الدول العربية، استقلال القضاء، استقلال الجامعة، قانون التوظف، منع الأجانب من تملك الأراضى الزراعية، التعويض عن إصابات العمل والتأمين الإجبارى ضدها، الاعتراف بنقابات العمال، فرض استعمال اللغة العربية فى الشركات الأجنبية، الضمان الاجتماعى، ديوان المحاسبة، مجانية التعليم الابتدائى والثانوى والمتوسط، ديوان المحاسبة.

وقال أبنوم:

- مرحبا بالثائر الشعبى الثالث فى حياة شعبنا، وقد استمد قوته من إيمانه بشعبه وإلهه، واتسمت حياته بالكفاح الطويل والنزاهة، وقد عاش فقيرا ومات فقيرا.

وقال الملك إخناتون:

- تقبل حبى أيها الزعيم، إنك مثلى تفانيا فى الإيمان بالإله الواحد، والإخلاص للمبادئ الطاهرة، ومثلى أيضا فى حب البسطاء من الشعب والاختلاط بهم دون حاجز من التعالى أو الكبرياء، ومثلى تعرضت لعداوة الأوغاد وعباد السلطة وأسرى الأنانية حيا وميتا ومثلى أخيرا فيما حظيت به من نشوة النصر وما ابتليت به من الجحود والهزيمة، ولكن أبشر فالنصر فى النهاية لنا..

وهنا قالت إيزيس:

- هذا ابن أصيل من أبنائى البررة.

فقال أوزوريس:

- إنى أهبك حق الجلوس مع الخالدين حتى نهاية المحاكمة، ثم تمضى إلى محكمتك مشفوعا بأكرم تزكية.

وهتف حورس:

- جمال عبد الناصر.

فدخل رجل طويل القامة واضح الملامح، عظيم الشخصية، ومضى فى سيره حتى وقف أمام العرش.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- أنتمى إلى قرية بنى مر من أعمال أسيوط، ونشأت فى أسرة فقيرة من أبناء الشعب فكابدت مرارة العيش وشظفه، وتخرجت فى الكلية الحربية عام ١٩٣٨، واشتركت فى حرب فلسطين، وحوصرت مع من حوصر فى الفالوجا، وقد هالتنى الهزيمة، وهالتنى أكثر جذورها الممتدة فى أعماق الوطن، فخطر لى أن أنقل المعركة إلى الداخل حيث يكمن أعداء البلاد الحقيقيون، وأنشأت فى حذر وسرية تنظيم الضباط الأحرار، ورصدت الأحداث انتظارا للحظة المناسبة للانقضاض على النظام القائم، وقد حققت هدفى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ثم تتابعت إنجازات الثورة مثل إلغاء النظام الملكى، واستكمال استقلال البلاد بالجلاء التام، والقضاء على الإقطاع بإصدار قانون الإصلاح الزراعى، وتمصير الاقتصاد، والتخطيط لإصلاح شامل فى الزراعة والصناعة يستهدف خير الشعب وتذويب الفروق الطبقية، وبنينا السد العالى وأنشأنا القطاع العام متجهين نحو الاشتراكية، وكونا جيشا حديثا قويا، ونشرنا الدعوة للوحدة العربية، وساندنا كل ثورة عربية أو إفريقية، وأممنا قناة السويس فكنا منارة وقدوة للعالم الثالث كله فى نضاله ضد الاستعمار الخارجى والاستغلال الداخلى، وحظى الشعب الكادح فى عهدى بعزة وقوة لم يعرفهما من قبل، ولأول مرة يشق طريقه إلى المجالس التشريعية والجامعات ويشعر بأن الأرض أرضه والوطن وطنه، وقد تربصت بى قوى الاستعمار حتى أنزلت بى هزيمة منكرة فى ٥ يونيو ١٩٦٧ فزلزلت العمل العظيم من جذوره وقضت علىّ بما يشبه الموت قبل موافاة الأجل بثلاثة أعوام، وقد عشت مصريا عربيا مخلصا ومت مصريا عربيا شهيدا.

وتكلم الملك رمسيس الثانى فقال:

- دعنى أعرب لك عن عظيم حبى وإعجابى، وما حبى لك إلا امتداد لحبى لذاتى فما أكثر أوجه الشبه التى تجمع بيننا، كلانا يشع عظمة تملأ الوطن وتتجاوز حدوده، وكلانا جعل من هزيمته نصرا فاق كل نصر وكلانا لم يقنع بأعماله المجيدة الخالدة فأغار على أعمال الآخرين ممن سبقوه، وقد ساندنى الحظ بأن توليت عرش مصر وهى سيدة الأمم، أما أنت فحكمتها وهى أمة صغيرة وسط عمالقة، وقد وهبتنى الآلهة طولا فى العمر وقوة فى الروح والجسد وضنت عليك إلا بالقليل فعاجلك الأجل قبل الأوان..

وتكلم الملك مينا فقال:

- ولكن اهتمامك بالوحدة العربية فاق اهتمامك بالوحدة المصرية فحتى اسم مصر الخالد شطبته بجرة قلم، واضطررت العديد من أبناء مصر إلى الهجرة التى لم يمارسوها إلا فى فترات قهر عابرة!

فقال جمال عبد الناصر:

- ليس الذنب ذنبى إذا توهم بعض المصريين أن الوحدة العربية تعنى الضياع لهم، وليس الذنب ذنبى إذا تحققت أعمال مجيدة على يدى بعد أن عجز السابقون عن تحقيقها، فالحق أن تاريخ مصر الحقيقى بدأ مع ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وسرت همهمة بين الجالسين مضت تشتد حتى هتف أوزوريس:

- النظام والهدوء أيها السادة، أفسحوا صدوركم لأى قول يقال..

فقال أبنوم:

- اسمح لى أن أحييك بوصفى أول ثائر من فقراء مصر، وإنى لأشهد لك بأن الفقراء لم ينعموا بالأمان والأمل فى عهد - بعد عهدى - كما نعموا فى عهدكم، ولا مأخذ لى عليك إلا إصرارك على أن تكون ثورتك بيضاء على حين كان يجب أن تجرى الدماء فيها أنهارا!

فتساءل الملك خوفو محتجا:

- ماذا يقول هذا السفاح؟!

فقال أوزوريس بحدة:

- تذكر أنك لست على عرشك، اعتذر.

فقال خوفو بخشوع:

- معذرة.

وقال الملك تحتمس الثالث:

- على الرغم من نشأتك العسكرية فقد أثبت قدرة فائقة فى كثير من المجالات إلا العسكرية، بل إنك لم تكن قائدا ذا شأن بأى حال من الأحوال!

فقال جمال عبد الناصر:

- تعذر علىّ النصر على جيش متفوق فى التسليح ومؤيد بأقوى دولة على سطح الأرض!

فقال أمحتب وزير الملك زوسر:

- كان واجبك أن تتجنب الحرب وأن تكف عن استفزاز الدول الكبرى..

فقال جمال عبد الناصر:

- كان ذلك يتناقض مع أهدافى وقد خدعت أكثر من مرة.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- إنه عذر أقبح من الذنب.

وقال سعد زغلول:

- لقد حاولت أن تمحو اسمى من الوجود كما محوت اسم مصر، وقلت عنى إننى اعتليت الموجة الثورية عام ١٩١٩، فدعنى أحدثك عن معنى الزعامة، الزعامة هبة ربانية وغريزة شعبية، لا تلحق بإنسان مصادفة ولا كضربة حظ أعمى، والزعيم المصرى هو الذى يبايعه المصريون على اختلاف أديانهم وإلا لم يكن زعيما مصريا أبدا، إن جاز أن يكون زعيما عربيا أو إسلاميا، بيد أننى رغم ذلك لم أضمر لك الرفض، واعتبرت تجنيك على نزوة شباب يمكن التسامح معها نظير ما قدمت من خدمات جليلة، لقد قامت الثورة العرابية فناضلت نضالا كريما وأحبطت إحباطا أليما، وقامت ثورة ١٩١٩ فحققت من المآثر ما شهد به التاريخ ولكن تكاثر أعداؤها حتى اجتاحها حريق القاهرة، ثم جاءت ثورتك فتخلصت من الأعداء وأتمت رسالة الثورتين السابقتين، وبالرغم من أنها بدأت كانقلاب عسكرى إلا أن الشعب باركها ومنحها تأييده، وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها وأن تقيم حكما ديمقراطيا رشيدا، ولكن اندفاعك المضلل فى الطريق الاستبدادى هو المسئول عن جميع ما حل بحكمك من سلبيات ونكبات..

فقال جمال عبد الناصر:

- كان يلزمنا فترة انتقال لتحقيق الأسس الثورية..

فقال مصطفى النحاس:

- حجة دكتاتورية واهية طالما سمعناها من أعداء الأمة، كان بين يديك قاعدة وفدية شعبية انهلت عليها بدباباتك، وعجزت عن إقامة بديل عنها فظلت البلاد تعانى الفراغ، ومددت يدك إلى المنبوذين من الأمة فوقعت فى تناقض مؤسف بين عمل إصلاحى يعتبر فى روحه امتدادا لروح الوفد أسلوب حكم يعتبر امتدادا لحكم الملك والأقليات، حتى قضى أسلوب الحكم على جميع النوايا الطيبة!

فقال جمال عبد الناصر:

- الديمقراطية الحقيقية كانت تعنى عندى تحرير المصرى من الاستعمار والاستغلال والفقر..

فقال مصطفى النحاس:

- وأغفلت الحرية وحقوق الإنسان، ولا أنكر أنك كنت أمانا للفقراء ولكنك كنت وبالا على أهل الرأى والمثقفين وهم طليعة أبناء الأمة، انهلت عليهم اعتقالا وسجنا وشنقا وقتلا حتى أذللت كرامتهم وأهنت إنسانيتهم ومحقت إيجابيتهم وخربت بناء شخصياتهم والله وحده يعلم متى يعاد بناؤها، أولئك الذين جعلت منهم ثورة ١٩١٩ أهل المبادرة والإبداع فى شتى المناشط السياسية والاقتصادية والثقافية، بل أفسد الاستبداد عليك أجمل قراراتك، انظر كيف فسد التعليم، وتفسخ القطاع العام، وكيف قادك التحدى للقوى العالمية إلى الهزائم المخجلة والخسائر الفادحة ولم تفد من الرأى الآخر ولم تتعظ بتجربة محمد على، وماذا كانت النتيجة؟.. دوى وجلجلة وأساطير فارغة تقوم على تل من الخرائب..





فقال جمال عبد الناصر:

ـ لقد نقلت وطنى من حال إلى حال كما نقلت العرب وسائر الأمم المغلوبة على أمرها، وسوف تعالج السلبيات حتى تزول وينساها الزمن ويبقى ما ينفع الناس، وعند ذلك يقر الناس بعظمتى الحقيقية..

فقال مصطفى النحاس:

ـ ليتك تواضعت فى طموحك، ليتك عكفت على إصلاح وطنك وفتح نوافذ التقدم له فى شتى مجالات الحضارة. إن تنمية القرية المصرية أهم من تبنى ثورات العالم، إن تشجيع البحث العلمى أهم من حملة اليمن، ومكافحة الأمية أهم من مكافحة الإمبريالية العالمية، وأسفاه لقد ضيعت على الوطن فرصة لم تتح له من قبل، فلأول مرة يحكم ابن وطنى من أبناء البلاد دون مناوئ من ملك أو مستعمر، ولكنه بدلا من مداواة ابن وطنه المريض دفع به إلى مباراة البطولة العالمية وهو ينوء بأمراضه فكانت النتيجة أن خسر البطولة وخسر نفسه..

وهنا قالت إيزيس:

ـ إن فرحتى برجوع العرش إلى أحد أبنائى لا تقدر، وإن أعماله الجليلة لتحتاج إلى جميع جدران المعابد لتسجيلها، أما الأخطاء فلا أدرى كيف أدافع عنها..

فقال أوزوريس:

ـ لو كانت محكمتنا هى صاحبة الكلمة الأخيرة فى الحكم عليك لاقتضانا العدل تأملا وعناء طويلين، فقليلون من قدموا لبلادهم مثلما قدمت من خدمات، وقليلون من أنزلوا بها مثلما أنزلت من إساءات، ولكن بالنسبة لأنك أول من يجلس على عرشها من أبنائها، وأول من يخص الكادحين برعايته فإننا نسمح لك بالجلوس بين الخالدين لحين انتهاء المحاكمة، وستذهب بعد ذلك إلى محكمتك مؤيدا بتزكية مناسبة.

ونادى حورس:

ـ محمد أنور السادات.

فدخل رجل متوسط القامة رشيق القد عميق السمرة، مضى فى سيره حتى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ ولدت فى قرية ميت أبو الكوم، ونشأت فى أسرة فقيرة، ووجدت عناء لا يستهان به كى أستمر فى الدراسة، وقد تشبعت بروح الوطنية منذ صغرى، وشاركت فى المظاهرات الوفدية، ثم أمكننى الالتحاق بالكلية الحربية التى فتحت أبوابها لأمثالى من أبناء الشعب بعد معاهدة ١٩٣٦، ومنذ تخرجى هالنى وضع الجيش تحت سلطة البعثة العسكرية الإنجليزية، وخامرتنى أفكار للدعوة لثورة مسلحة ضد الإنجليز فأنشأت أول تنظيم سرى فى الجيش عام ١٩٣٩، وقد اتصلت بالإخوان المسلمين وأعجبت بنشاطهم، كما حاولت أثناء الحرب الاتصال بالألمان، وعقدت العزم على اغتيال المتعاونين مع الإنجليز من المصريين، وقد قُبض علىّ نتيجة لذلك، وحُوكمت، ولكنى نلت البراءة، بل ورجعت إلى خدمة الجيش، وفى ذلك الوقت اتصل بى جمال عبد الناصر وضمنى إلى تنظيمه، وقامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢، وتتابعت الأحداث حتى وافى الأجل جمال عبد الناصر فخلفته فى منصبه فى ظرف بالغ الدقة، وكنت على علم بالسلبيات التى نخرت فى عظام عهد عبد الناصر فتوثبت لإحداث ثورة جديدة تنقذ البلاد من الموت الذى تتردى فيه، قضيت على مراكز القوى، واتجهت على مهل نحو الأمان وسيادة القانون والديمقراطية، وفى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، فاجأت العدو المحتل، بل فاجأت العالم بهجوم لم يتوقعه أحد، وحققت انتصارا أنقذ الروح العربية من القنوط كما انتشل الشرف من الهوان، ثم تسنمت بمغامرة أخرى باقتحامى بلد الأعداء داعيا إلى تصفية الموقف بالكلمة لا بالسلاح، وانتهى سعيى الطويل إلى معاهدة كامب دافيد، وناديت بالانفتاح لإنقاذ الاقتصاد الوطنى، وتقدمت فى الديمقراطية خطوات جديدة، ولكن اعترضتنى عقبات غيرت من حساباتى، فقد انحرفت المعارضة، وهب التيار الدينى يهدد البلاد بالعنف، فوقفت من الجميع موقفا حازما لا مفر منه، ولكن الأمور انتهت باغتيالى فى ذكرى اليوم الذى حققت فيه لوطنى عزة النصر.

وتكلم الملك إخناتون فقال:

ـ أحييك كداعية من دعاة السلام، ولا أدهش لاتهام خصومك لك بالخيانة فقد تلقيت منهم نفس التهمة لذات السبب.

فقال تحتمس الثالث:

ـ يذكرنى انتصارك بانتصار رمسيس الثانى الذى كلل بمعاهدة سلام والزواج من ابنة ملك الحيثيين!

فقال رمسيس الثانى :

ـ الحاكم مسئول أولا عن حياة شعبه، ومن هذا المنطلق يقوم على الحرب أو يجنح إلى السلام.

فقال أنور السادات:

ـ وقد آمنت بصدق بعقم الاستمرار فى الحرب.

وقال الملك أمنحتب الثالث:

ـ ما أشبهك بى أيها الرئيس فى حب الرفاهية لشعبك ولنفسك، كلانا عشق الأبهة والنعيم والعظمة والقصور، غير أن زمانى سمح لى بأن أنهل من النعيم بلا كدر. أما زمانك فأذاقك الحلو والمر، دعنى أعرب لك عن حبى وعطفى.

وقال الملك حور محب:

ـ توليت الحكم فى ظروف تشبه فى بعض مناحيها الظروف التى تحدتنى أول حكمى عقب وفاة الملك العجوز آى. وأعترف بأنك قمت بأعمال جليلة، ووجهت ضربات صادقة، ولكنك تهاونت فى معاقبة الفساد والمفسدين حتى أوشكوا أن يحيلوا انتصاراتك إلى هزائم.

فقال أنور السادات:

ـ شغلت بتشجيع العاملين عن الضرب على أيدى المفسدين.

فقال حور محب:

ـ لا قيام لدولة إلا على الانضباط والأخلاق.

وسأله جمال عبد الناصر:

ـ كيف هان عليك أن تقف من ذكراى ذلك الموقف الغادر؟

فقال أنور السادات:

ـ اتخذت ذلك الموقف مضطرا إذ قامت سياستى فى جوهرها على تصحيح الأخطاء التى ورثتها عن عهدك.

ـ ولكنى عهدتك راضيا ومشجعا وصديقا؟

ـ من الظلم أن يحاسب إنسان على موقف اتخذه فى زمن رعب أسود خاف فيه الأب ابنه والأخ أخاه!

ـ وما النصر الذى أحرزته إلا ثمرة استعدادى الطويل له!

فقال أنور السادات:

ـ ما كان لمنهزم مثلك أن يحقق انتصارا، ولكنى أرجعت للشعب حريته وكرامته ثم قدته إلى نصر أكيد.

ـ ثم تنازلت عن كل شىء فى سبيل سلام مهين فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيت على مصر بالانعزال والغربة..

فقال أنور السادات:

ـ لقد ورثت عنك وطنا يترنح على هاوية الفناء، ولم يمد لى العرب يد عون صادقة، ووضح لى أنهم لا يرغبون فى موتنا كما لا يرغبون فى قوتنا كى نظل راكعين تحت رحمتهم، فلم أتردد فى اتخاذ قرارى..

ـ واستبدلت بعملاق طالما ساندنا عملاقا طالما ناصبنا العداء.

ـ اتجهت إلى العملاق الذى بيده الحل، وصدقت الحوادث ظنونى!

ـ واندلقت فى الانفتاح حتى أغرقت البلاد فى موجة غلاء وفساد، وبقدر ما كان عهدى أمانا للأغنياء واللصوص.

فقال أنور السادات:

ـ لقد عملت لخير مصر فوثب الانتهازيون من وراء ظهرى!

وتكلم مصطفى النحاس فقال:

ـ حاولت اغتيالى وكدت تنجح لولا العناية الإلهية، ثم فقدت حياتك نتيجة للاغتيال، ترى ألا زلت تؤمن به؟

فقال أنور السادات:

ـ نحتاج لأضعاف عمرنا كى نتعلم الحكمة.

فقال مصطفى النحاس:

ـ وسمعت عن دعوتك إلى الديمقراطية فدهشت ثم تبين لى أنك تريد حكما ديمقراطيا تمارس على رأسه سلطاتك الدكتاتورية!

ـ أردت ديمقراطية ترعى للقرية آدابها وللأبوة حقوقها.

ـ هذه ديمقراطية قبلية.

فقال سعد زغلول:

ـ هذا حق، ولكن الديمقراطية الحقيقية تؤخذ ولا تمنح فلا تغال فى لومه..

وقال مصطفى النحاس:

ـ واشتدت الضائقة بالناس، وحدث ما يحدث عادة فى مثل تلك الظروف من أعراض الفتن والتطرف، فتركت الأمور تستفحل كأنك لا تبالى، ثم انفجرت بغتة فألقيت بالجميع فى السجون فأغضبت المسلمين والمسيحيين والمتطرفين والمعتدلين، وانتهى الأمر بمأساة المنصة..

فقال أنور السادات:

ـ وجدت أنه لا مفر من ضربة حاسمة اتقاء لفوضى توشك أن تجر البلاد إلى حرب أهلية.

فقال سعد زغلول:

ـ عندما يغتصب الحاكم حقوق شعبه يخلق منه خصما، وعند ذلك تهدر قوة البلاد الأساسية فى صراع داخلى بدلا من أن توجه للعمل الصالح.

وهنا قالت إيزيس:

ـ بفضل هذا الابن ردت الروح إلى الوطن، واستردت مصر استقلالها الكامل كما كان قبل الغزو الفارسى، وقد أخطأ كما أخطأ سواه وأصاب أفضل مما أصاب كثيرون.

فقال أوزوريس:

ـ أرحب بك بين الخالدين من أبناء مصر، وسوف تمضى بعد ذلك إلى محكمتك الأخرى مؤيدا بتزكية مشرفة منا. ■

كــــــتب إســـبانـيـة

CONVIVIR CON EL ISLAM
(التعايش مع الإسلام)

رافائيل جوميز بيريز

دار النشر: أيونسا، ٢١٦ صفحة



رافائيل جوميز هو كاتب له اهتمامات تاريخية وفلسفية من منظور تاريخى، له مؤلفات أخرى مثل مقدمة للميتافيزيقيا، وموجز تاريخى للثقافة الأوربية. فى هذا الكتاب يتناول رافائيل واحدة من أهم القضايا المثارة على الساحة الأوربية وكذلك فى العلاقات بين الشرق والغرب سواء على المستوى السياسى أو على المستوى الشعبى.

فالكاتب ينطلق من فرضية أن الوجود الإسلامى فى البلاد غير الإسلامية فى قلب القارة الأوربية لا يمكن تجاهله سواء كان هذا التواجد ظاهراً لشهود العيان من خلال الآثار الإسلامية فى شبه الجزيرة الإيبيرية، صقلية، فرنسا، تركيا، ودول البلطيق التى كانت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية، أو هذا التواجد المتمثل فى أقليات تعيش فى قلب المجتمعات الأوربية مطالبة بالمساواة كمواطنين يحملون جنسية هذه البلاد.

لكن منذ ما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر وهناك العديد من علامات الاستفهام التى تثار حول سلوك المسلمين فى هذه البلاد، وزاد التوتر داخل هذه المجتمعات منذ تفجيرات مدريد وكذلك تفجيرات لندن. وأصبح المجتمع فى حالة ريبة من هذه الأقليات، وهذا ما يدفع المجتمع دفعاً نحو تفتيت الجماعة الوطنية، لاسيما عندما يكون الأمر متعلقاً بخصوصية لأقليات تصطدم خصوصياتها مع قوانين هذه الدول. من هنا يطرح الكاتب ضرورة العمل على إيجاد مساحة من التوافق التى تسمح بالعيش المشترك، لاسيما أن هذه الأقليات أصبحت جزءاً لا يتجزأ من نسيج المجتمع، فالإسلام فى أوربا حقيقة يصعب تجاهلها.

من هنا يلجأ الكاتب لتقديم الإسلام بشكل مختلف ليغير الصورة التى انطبع بها الإسلام فى الفترة الأخيرة نتيجة لتصرفات وأفعال بعض المسلمين، كوسيلة للتعايش القائم على التعارف المتبادل بدلاً من الركون إلى التجاهل أو المواجهة العنيفة. فيقدم الكاتب الجانب الحضارى من الإسلام فى التاريخ ويعرض جوانب متعددة ومتنوعة للثقافة الإسلامية بداية من الحب فى الإسلام مروراً بالأدب والفن ووضع المرأة حتى آداب الطعام، دون تجاهل الجوانب الأكثر إثارة للجدل فى الإسلام.

■

CONVERSACIONES CON PLATON
(محاورات مع أفلاطون)

دونالد مور

دار النشر: بايدوس ايبريا، ١٥٧ صفحة



يقدم الكاتب دونالد مور وهو من المتخصصين المعاصرين فى أفلاطون وفلسفته وأفكاره منهجاً وأسلوباً جديداً فى قراءة تراث أفلاطون ومحاوراته وسيرته الذاتية من خلال الاعتماد على محاورات متخيلة بين أشخاص من أزمنة مختلفة سواء قديمة أو حديثة مع خبراء معاصرين. ولد أفلاطون فى أثينا عام ٤٢٨ قبل الميلاد ونشأ فى عائلة أرستقراطية. مر فى حياته بمراحل مختلفة وطرح برؤيته وفى محاوراته العديد من الأفكار ذات الأهمية القصوى اليوم مثل علاقة السياسة بالفلسفة، وتقسيم البشر إلى معادن من حيث نشأتهم، وشكل وتقسيم المدينة الفاضلة، حكم الفلاسفة، برامج تأهيل الحكام الفلاسفة، وكذلك الشيوعية كضرورة لتأسيس المدينة الفاضلة.

هذا الكتاب يتيح لنا فرصة السفر إلى اليونان القديمة وتناول التراث الفلسفى اليونانى لهذا الفيلسوف من جانب المتخصص فى أفكاره دونالد مور وكاتب كـتـــــــاب Zen and the Art of Motorcycle Maintenance، روبرت بيرسيج Robert Pirsig.

يبدأ الكتاب بعرض مقدمة بسيطة عن حياة الفيلسوف اليونانى أفلاطون ثم يدخل روبرت بيرسيج فى محاورة ممتدة وتجريدية مع أفلاطون تناولت العديد من الموضوعات بداية من أسطورة الكابيرنا مروراً بوضع المرأة والحرية والبحث عن الحقيقة والحب والديمقراطية.

يعتبر هذا المنهج أسلوباً جديداً للتعامل مع التراث سواء من خلال عملية الرصد التاريخى لأحداث تاريخية أو إعادة قراءة النص الفلسفى من جديد فى ظل إطار اجتماعى وثقافى وسياسى وحضارى مختلف عن تلك الأطر التى أنتج فى ظلها أفلاطون هذا النص.

■

EL OCCIDENTE DIVIDIDO: LAS RELACIONES BILATERALES ENTRE ESTADOS U NIDOS Y EUROPA
(الغرب المنقسم: العلاقات الثنائية بين الولايات المتحدة وأوروبا)

مارتا اوتشمان

جامعة أوتونوما متروبوليتانا المكسيك، ٢٤٨ صفحة



منذ انتهاء الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفيتى وانهيار حائط برلين، شرع النظام الدولى فى اتخاذ شكل جديد لم يطرأ على العالم من قبل سوى فى فترات قديمة وهو اتخاذ شكل الأحادية القطبية الذى تسيطر عليه الولايات المتحدة الأمريكية التى تفرض مفهومها للسلام فيما يسمى بـ «Pax Americana»، وإن لم يكن هذا الشكل شديد الوضوح فى بداية التسعينيات مع إعلان الرئيس الأمريكى «جورج بوش» الأب لقيام النظام الدولى الجديد، حيث أكد الكثير من المحللين أننا نمر بحالة من السيولة والفوضى الدولية، وترددت الولايات المتحدة فى الاضطلاع بدورها كقطب أوحد مهيمن على النظام الدولى حتى أحداث الحادى عشر من سبتمبر التى أرست مبادىء جديدة لنظام الأمن العالمى الجديد لم يشهد التاريخ نظيراً لها من قبل، وأهمها مبدأ الحرب الاستباقية كوسيلة للدفاع الشرعى عن النفس فى ظل جدل سياسى وقانونى بين العديد من فقهاء القانون الدولى.

يرى البعض أن الغرب كتلة واحدة ولابد من التعامل معه من هذا المنطلق، وقد اتضح خطأ هذه الرؤية فى أثناء الحرب على العراق فقد بدا الغرب منقسماً على نفسه بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين المحبذين للأجندة الأطلنطية على نظيرتها الأوروبية وعلى رأسهم بريطانيا، فى مواجهة المحور الفرنسى- الألمانى الرافض للحرب، وبدا الأمر كأنه شكل من أشكال مقاومة الهيمنة الأمريكية كقطب أوحد فى النظام الدولى وإشعار العالم بأن هناك قطباً آخر يتطور من مرحلة لأخرى إنه الاتحاد الأوربى الهادف لتحويل أوروبا من دول قومية إلى وحدة اقتصادية وعسكرية وسياسية واحدة تعيد لأوربا مجداً مفقوداً.

من هنا يتطرق هذا الكتاب لقواعد العلاقة بين شطرى الأطلنطى منذ السبعينيات إلى حرب العراق، وكيفية تطور هذه العلاقة بين التنسيق فى أحيان والتنافس فى أحيان أخرى، ومستقبل هذه العلاقة وأهم القضايا المثارة على الأجندة الأطلنطية.

■

IDENTIDAD Y OPCION: DOS FORMAS DE ENTENDER LA POLITICA
(الهوية والاختيار: أسلوبان لفهم السياسة)

أجيلار فيرناندز، سوسانا وتشوليا رودريجو، أليسا

دار النشر: ألينسا، ٣٦٨ صفحة



يطرح الكتاب إشكالية الهوية كمحدد للسلوك السياسى بشكل جماعى من جانب جماعات من الأفراد فى مواجهة الخيار الانتخابى الذى يمثل المحدد الفردى للسلوك السياسى، كنمطين وأسلوبين لفهم الظاهرة السياسية الناتجة عن السلوك السياسى للأفراد.

الأفراد يتصرفون جماعياً عندما يتعلق الأمر بوضع طبقى دفاعاً عن مصلحة هذه الطبقة، أو دين عندما يتعلق الأمر بمصالح جماعة دينية، أو طائفة مهنية عندما يهدد الأمر مصالحها. هذا الأسلوب لفهم السلوك السياسى لعدد من الأفراد سواء كان هذا السلوك سلمياً أو عنيفاً، شرعياً أو غير شرعى يكون شارحاً وكاشفاً فى كثير من الأحيان للظاهرة السياسية، ولكن الأمر لا يخلو من التفضيلات والخيارات الفردية التى تؤثر فى السلوك السياسى للفرد خاصة سلوكه الانتخابى فى ظل النظم الانتخابية المتعددة فى العديد من الدول الليبرالية، فالتفضيلات الشخصية التى قد تكون خليطاً من الانتماء لجماعة دينية وطبقة وطائفة معينين تستطيع أن تحسم وتفسر الظاهرة السياسية بشكل أفضل.

من هنا يتعرض هذا الكتاب إلى أن الهوية الجماعية فى الماضى كانت أكثر تأثيراً على السلوك السياسى للأفراد أكثر من الآن، حيث زاد الاتجاه نحو الفردية والتفضيلات الشخصية، ولكن هذا لا يعنى إهمال الهوية الجماعية أكثر منه إشارة إلى ضرورة المزج بين العنصرين لفهم السلوك السياسى لمواطن فى أحد الأنظمة السياسية.

■

LA MANO INVISIBLE: EL GOBIERNO DEL MUNDO
(اليد الخفية: حكومة العالم)

خوقين أستفانيا

دار النشر: بونتو دا لاكتورا، ٢٤٠ صفحة



يتعرض الكتاب لأثر الثورة التكنولوجية الكبرى في العالم والعولمة على معنى القوة والسيطرة على العالم، فقد تغيرت هذه المعاني للقوة عن الماضي، في الماضي كنا نستطيع أن نتكلم عن القوة العسكرية والغزو والإجبار أما الآن فالقوة الاقتصادية تحديداً أصبح لها شأن كبير في إدارة العلاقات على المستوى العالمي بين الدول وحتى الأفراد، كذلك أصبح للقوة معان كثيرة تتعلق بما أسماه جوزيف ناى بالقوة الرخوة أو القوة الناعمة والمتعلق بالسيطرة على قلوب وعقول الأفراد، والسيطرة على تفضيلاتهم الشخصية بما يخدم النظام الاقتصادي العالمي والعولمة، فهذه هي اليد الخفية التي يتحدث عنها الكاتب في هذا الكتاب، ربما تختلف بعض الشيء عن تلك التي تحدث عنها آدم سميث ولكنها تطرح معنى جديداً للقوة وممارساتها والسيطرة على العالم، في محاولة للإجابة على التساؤل الكبير الذي يطمح أكثر من حقل علمي إلى الإجابة عليه: من يحكم هذا العالم؟

■

EL ANTIAMERICANISMO ESPANOL
(ضد الأمركة الأسبانية)

أليساندرو سيرجيني

دار النشر: سينتيسيس، ٣٠٤ صفحات



في السنوات الأخيرة كثر الحديث داخل أسبانيا عن رفض الهيمنة الأمريكية والسياسة الأمريكية بل والأمركة بكل ما تشمله من مظاهر للحياة، لاسيما بعد السياسات الأمريكية الإمبريالية بعد الحادي عشر من سبتمبر والحرب على أفغانستان وتلا ذلك الحرب على العراق وتبعية رئيس الوزراء الأسباني «خوسيه ماريا أسنار» للرئيس الأمريكي «جورج دبليو بوش» والمحافظين الجدد في هذه الحرب، وإرسال القوات الأسبانية للمشاركة في حرب لصالح المصالح الأمريكية على غير رغبة الشعب الأسباني.

في الواقع أن هذا الخطاب السياسي ضد الأمركة ليس حديث العهد ولكنه قديم للغاية قدم العلاقات الأسبانية الأمريكية، لاسيما أن بداية مد النفوذ الأمريكي في نطاقها الإقليمي كقوة إقليمية حديثة في نهاية القرن التاسع عشر على حساب أسبانيا التي كانت تترنح في مواجهة القوى الاستعمارية الأوربية سواء في كوبا أو الفلبين، وتشترك هذه المشاعر الأسبانية مع المشاعر في أمريكا الجنوبية، ويعود الأمر برمته لأسباب وجذور تاريخية ساهمت في ترسيخ صورة سلبية ذات ملامح محددة لدى الشعب الأسباني على مدار عقود طويلة عن الأمركة والولايات المتحدة الأمريكية تبدأ بحرب ١٨٩٨ بين الطرفين.

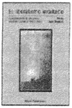
من هنا يرصد الكتاب هذه الجذور التاريخية، وماهية هذه الصورة السلبية، وخصائصها وتطورها، ووصفه لتاريخ تكوين هذه الصورة.

■

EL LIBERALISMO EXALTADO
(الليبرالية المجددة)

مارتا رويس خامينيس

دار النشر: فوندامنتوس



تواجه الأيديولوجية الليبرالية العديد من التحديات على مستوى الحركة وعلى مستوى النظرية في الفترة الأخيرة لاسيما في ظل المواجهة الدائمة بين المجتمع في مواجهة الفرد، خاصة أن الليبرالية تؤكد على الفردانية، وفي حين تعتبر الدولة القومية هي الوحدة السياسية الأساسية في الغرب، فإن تكوين هذه الوحدة السياسية كأساس للجماعة الوطنية عادة ما يصطدم بالخصوصية التي توجد لدى الجماعات والمجتمعات المحلية، خاصة إذا كنا بصدد مجتمع متسع ومترامي الأطراف مثل المجتمع الأسباني.

فالكاتبة تتناول التجربة الداخلية للاتحاد الفيدرالي في المجتمع الأسباني تاريخياً بين الكوميونات الأسبانية شمالاً وجنوباً في الفترة ما بين ١٨٢٣ و١٨٣٣ وكيفية التعامل مع هذه الخصوصية في المجتمعات المحلية الأسبانية، وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يعتمد على الجانب التاريخي بشكل مكثف في تجربة تاريخية معينة إلا أن هذا الكتاب يتناول قضية ضاغطة على العديد من المجتمعات في الغرب والشرق في تساؤل صريح حول حدود الخصوصية التي تتمتع بها المجتمعات المحلية في مواجهة المجتمع ككل، فأسبانيا بها حركة أيتا الانفصالية ورغبتها في الحكم الذاتي، والحكومة الفيدرالية الأمريكية تواجه مشاكل عدة في مواجهة مجتمعات الأميش التي ترفض الحياة القائمة على التكنولوجيا الحديثة.

وبين النظرية والتطبيق وخصوصية كل مجتمع في التعامل مع هذه القضية تواجه الليبرالية تحديات عديدة تفقدها في كثير من الأحيان البريق الذي يغطيها كحل عالمي لجميع المجتمعات.

■

HISTORIA DE EUROPA: DESDE LAS INVASIONES AL S. XVI
(تاريخ أوروبا: منذ غزوات القرن السادس عشر)

هنرى برينا

مكان النشر: المكسيك، ٤٧٢ صفحة



يتناول الكاتب في هذا الكتاب فترة العصور الوسطى في المجتمع الأوروبي التي تسمى «عصور الظلام»، ويضع الكاتب إطاراً زمنياً معيناً يتناول خلاله حالة المجتمع الأوروبي وتطوره، فهو سيتعرض للمجتمع الأوروبي منذ غزوات البربر لأوربا في القرن السادس عشر تحديداً عام ١٥٥٠ ميلادياً وانتهاء بالوصول إلى الثورة الفرنسية.

عموماً يوجد اتجاه جارف لدى المؤرخين لاستخدام مناهج جديدة لعرض الأحداث التاريخية بشكل يبتعد بعض الشيء عن تاريخ الملوك والأمراء والتاريخ السياسي والعسكري الذي سيطر لفترة طويلة على مناهج التاريخ، والتطرق إلى تاريخ المجتمعات والبسطاء والتاريخ الاجتماعي لهذه الجماعات البشرية، وكانت هناك العديد من المحاولات لتحقيق ذلك وأدت إلى الكشف عن العديد من المغالطات التاريخية وحقائق مزيفة تحدث عنها تاريخ الملوك والأمراء، كما كان كاشفاً في كثير من الأحيان عن غموض انتاب القارئ للتاريخ السياسي والعسكري للبلاد.

يحاول الكاتب تبعاً لمنهجه الكشف عن الجذور الاجتماعية لتطور فكرة الرأسمالية والتطورات التي شملت المجتمع الأوروبي عامة وصولاً للحظة الحداثة، وكذلك الثورة الفرنسية التي يعتبرها الكثيرون نقطة تاريخية فاصلة في تاريخ العالم كله.

■

HISTORIA DE LAS RELIGIONES
(تاريخ الأديان)

فيلورامو جيوباني

مكان النشر: برشلونة، ٤٤٨ صفحة



يقوم الكاتب في هذا الكتاب باستعراض تاريخي للأديان التي مرت على البشرية منذ العصور القديمة إلى اليوم، ويقوم في ذات الوقت بطرح إشكاليات فكرية حول التطور الذي حدث للبشرية في اعتناق الأديان، وهو يلجأ في ذلك لتصنيفات زمنية وجغرافية، محاولا تقديم تفسير لهذه التصنيفات التاريخية للحقب الزمنية.

يبدأ الكاتب بتناول الديانات الوثنية للعالم القديم سواء في بلاد ما بين النهرين ومصر انتهاء بالديانات التي ظهرت في الأمريكتين في الفترة التي سبقت اكتشاف كريستوفر كولومبوس لأمريكا الشمالية، وقام السكان الأصليون لهذه القارة باعتناقها، مروراً بألهة اليونان والرومان القديمة.

ثم تنتقل الدراسة لتناول مجموعة جديدة من الأديان السماوية التوحيدية والتي ترتبط بالخلاص الأبدي للبشرية «اليهودية، المسيحية والإسلام» ، إلى جانب ديانة الزرادشتية الديانة الفارسية القديمة المنسوبة إلى زرادشت الذي ظهر حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد، والمانوية وهي بدعة مسيحية ثنائية أسسها «ماني بن فاتك» في القرن الثالث الميلادي وتقوم على الصراع بين الخير والشر.

و يتناول في الفصل اللاحق الأديان الخاصة بالانعتاق من العبودية والخلود والمنتشرة في الهند ومنطقة الشرق الأقصى «الهندوسية، البوذية، الشنتوية».

وأخيراً يختتم الكاتب هذا الكتاب بالتطورات الحديثة التي حدثت لهذه الأديان في ظل الثقافة الحديثة، وعلاقة الدين بالحداثة ومابعد الحداثة، وكيفية تأثير ذلك على نظرة الأفراد في المجتمعات للدين ودوره في حياتهم، وعلاقاتهم بالإله، وظهور حركات دينية جديدة تتخذ مظهر خاص وتدعى لنفسها الصدق في مواجهة الآخرين.

■

«تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.»

الدين والسياسة

يوسف القرضاوى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧ ، ٢٤٢صفحة



موضوع الدين والسياسة والعلاقة بينهما فى المجتمعات الإسلامية، أحد أهم المسائل القديمة الحديثة فى أن معاً، وهى تناقش فى كل عصر بصور وأشكال مختلفة، وأحياناً بطرق أكثر تخلفاً ونزقاً من السابق، وقد تنتهى الاتهامات بين الطرفين على الجانبين بالتكفير والخروج من الملة.

والكتاب يضم خمسة أبواب، يخصص الأول منها لتحديد المفاهيم، مستعرضاً مفهوم كلمة السياسة فى التراث الإسلامى وعند الفقهاء والفلاسفة والكُتّاب الغربيين، كما يعرض لمفهوم كلمة الدين لغة واصطلاحاً، ويناقش فى الباب الثانى العلاقة بين الدين والسياسة عند الإسلاميين والعلمانيين، وفى الثالث يتتبع فكرة الدولة فى الإسلام ومرجعيتها وصلتها بمفاهيم الشورى والديمقراطية وحقوق الإنسان، ويرد فى الباب الرابع على بعض دعاوى العلمانية، ويخصص الأخير للعلاقة بين الأقليات الإسلامية والمجتمعات التى تعيش فيها فى الغرب.

والخلاصة التى يقدمها المؤلف هى أنه لا انفصال للسياسة عن الدين ولا للدين عن السياسة، ومن الخير للسياسة أن يدخل فيها الدين فيوجهها إلى الحق ويرشدها إلى الخير ويعصمها من الانحراف والطغيان، كما أنه من الخير أن تدخل السياسة فى الدين لتجعله قوة هادية تضىء لها طريق العدل والشورى والتكافل، وتعينها على نصرة الحق.

ويؤكد على أن هذا هو ما مضى عليه تاريخنا طيلة ثلاثة عشر قرناً، حتى دخل الاستعمار الغربى بلاد المسلمين وتحكم فى مصائرهم، ووجه التعليم والتثقيف والإعلام كيف يشاء.

من هذه الزاوية يدافع المؤلف عن حق الإسلاميين أن يكون لهم حزب سياسى، وهو يرى أن هذا الحزب سيكون له برنامجه الذى يحدد فيه رؤيته ورسالته وأهدافه ووسائله لتحقيقها، وأنه سيعمل فى ظل الدستور القائم وإن كانت مرجعيته مستمدة من الشريعة الإسلامية، ويشير إلى أن الإمام على بن أبى طالب سمح للخوارج المعارضين لحكمه أن يكون لهم حزب سياسى، ولا يرفض الدكتور القرضاوى أن يكون للأقباط بدورهم حزبهم السياسى. ويشدد على أن دولة الإسلام هى دولة مدنية مرجعيتها الإسلام، وليست دولة يحكمها «رجال دين» كما كان الحال فى أوروبا فى العصور الوسطى، وقيام الدولة الإسلامية على عقيدة الحاكمية لله لا يعنى أنها دولة دينية، فهذه الدولة تتوافق بالضرورة على جوهر فكرة الديمقراطية وإن اختلفت تطبيقاتها عما هو معمول به فى الغرب، أما الأقليات فقد نظمت العقيدة حقوقهم ومنحتهم الأمان على أموالهم وأعراضهم، فصاروا مواطنين مثلهم مثل المسلمين من أبناء الوطن، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم.

■

سلافة النديم

عبدالمنعم إبراهيم الجميعى

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٧ ، ٣٦٧صفحة



تراث عبدالله النديم الفكرى متعدد الجوانب، فمنه التراث الصحفى، وخطبه ومؤلفاته التى كتبها فى فترة اختفائه عن عيون الإنجليز الذين كانوا يتبعون أثره بسبب كتاباته التى أشعلت روح الثورة فى زمن عرابى، وقد جمع شقيقه عبدالفتاح نديم هذه الآثار فى خمسة منتخبات: الرسائل الأدبية، منتخبات التنكيت والتبكيت وقد استعان فى جمعها من مقالات الأعداد الأولى من مجلة التنكيت والتبكيت، منتخبات الأستاذ، منتخبات علمية، منتخبات متفرقة. وبشكل عام، فإن ما كتبه النديم كان انعكاساً للقضايا التى شغلته وانشغل بها عصره، وكثير منها يدور حول الإصلاح السياسى، وترقية أحوال أبناء البلد اجتماعياً واقتصادياً وتعليمياً.

وكان منهج النديم فى العموم هو عدم الاندفاع فى تقليد الأوروبيين والانبهار بالحضارة الغربية، وإنما بالبحث فى الإمكانات الذاتية لأهل البلد وتراثهم الدينى والثقافى، وتمثل مقالته «عربى تفرنج» نموذجاً دالاً على هذه الفكرة المحورية، وفيها يتحدث عن شاب من أبناء الفلاحين سماه زعيط، أرسلته الحكومة المصرية لاستكمال تعليمه فى أوروبا، وبعد أن أتم دراسته هناك عاد إلى بلاده متبرماً بعادات قومه وأخلاقياتهم، ولم يكتف بذلك، بل أخذ يذم أهله وبلاده ونسى لغته العربية.

وقد وصف النديم هذا الشاب بأنه لم يتهذب صغيراً ولم يعرف حقوق وطنه ولا حق لغته، ولا قدر شرف أمته، كما نعته باللئيم الجاهل فى حق الوطن.

■

النوبة القديمة فى صور

محمد رياض ـ كوثر عبدالرسول

القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٧ ، ١٠٠ صفحة



المادة الأساسية فى هذا الكتاب هى الصور، وقد التقطها المؤلفان عبر ثلاث دراسات ميدانية قاما بها إلى النوبة القديمة استهدفت حفظ التراث الأصلى لبلاد النوبة قبل أن يندثر تحت بحيرة السد العالى.

وشملت الدراسة الأولى قريتى سيالة والعلاقى لمدة أسبوعين فى يناير ١٩٦٢، وكان الاهتمام موجهاً فى الأساس إلى الكنوز والعبابدة، وهما من القبائل النوبية الأساسية الكبرى، وجرت الدراسة الثانية فى سبتمبر من نفس العام واستغرقت شهراً، قام خلاله الباحثان بدراسات جغرافية وأنثروبولوجية، من دهميت فى شمال بلاد الكنوز إلى قرشة وسيالة ثم المالكى والسنجارى فى العليقات، وأخيراً الدروتوشكى من بلاد الفريجة فى جنوب النوبة المصرية.

وكانت الدراسة الثالثة فى منطقة كروسكو والمالكى والدخلانية وجرت طوال شهر يناير ١٩٦٣.

والكتاب يضم خمسة أقسام: يستعرض القسم الأول المظاهر الطبيعية فى النوبة القديمة، ويتناول القسم الثانى: النوبيين فى تكوينهم القبلى والعشائرى، ويخصص القسم الثالث للسكن النوبى معمارياً وهو يتميز بسمات بيئية خاصة، ويناقش القسم الرابع أشكال النشاط الاقتصادى فى النوبة القديمة، ويعرض القسم الخامس بعض المظاهر الاجتماعية من احتفاليات واعتقادات بكرامات الأولياء وغيرها مما يؤمن به أهل النوبة، أما الميزة الأساسية للكتاب فهو هذا الكم من الصور المصاحب لكل قسم والذى ينقل نبض الحياة فى بلاد الدهب كما عرفت عند الفراعنة.

■

ما بعد الاحتراق

محمد قنديل بعاير

المغرب: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦ ، ٩٦صفحة



لعلها من المرات القلائل التى يكتب فيها مبدع مقدمة لعمله، فقد اعتدنا أن يقوم بهذا الدور ناقد أو باحث أكاديمى، يقرأ العمل قراءة فاحصة، ثم يقدم رؤيته لمواطن الضعف والتميز فيه، وقد تتضمن دراسة من هذا النوع إطلالة على الأعمال السابقة للمؤلف وموقعه بين مجايليه.

لكن المؤلف هنا اختار أن يخبرنا بنفسه عن نفسه، فيقدم لنا قصصه ودوافعه لكتابتها، وطريقته فى السرد وفى انتقاء أبطالها، وهل هم محض خيال أم لهم ظل من الواقع، وهو يبدأ بالشكوى، من الأدب المغربى فى عمومه ـ رغم تميزه ـ لم يحظ بعد بالاهتمام الكافى من النقاد والباحثين، وبتسليط الأضواء عليه من وسائل الإعلام، ثم ينبهنا إلى أنه بالفعل فكّر فى أن يسند مهمة كتابة المقدمة إلى بعض من النقاد «الذين يكتبون بوضوح وموضوعية»، لكن ذلك لم يحدث، لأسباب لم يعلنها، فقرر هو أن يكتبها بنفسه، ويمكننا أن نتكهن بدوافعه لكتابة مقدمة على هذا النحو التعريفى من هذه الفقرة التى يوردها فى المقدمة..: «وهناك من الأدباء المغاربة من تنبه بفطنته إلى أن معاصريه سيهملون ذكره لا محالة، فبادر إلى التعريف بحياته، وتسجيل وتوضيح كل ما له علاقة بأعماله الأدبية فى ثنايا مؤلفاته».

وهو تعبير أن ما كتبه مجرد «معالم» على طريق مجموعته القصصية، إذ يأبى أن يكون خصماً وحكماً فى الوقت ذاته، لكنه يرى أن الكاتب يتحمل مسئولية كبرى فى التعريف به وبحياته، وتوضيح الظروف التى أدت إلى ظهور أعماله الأدبية وجمعها وترتيبها ووضع إطارها التاريخى، مع الحذر من ألا يتجاوز الحدود كأن يمدح نفسه أو يمجد أعماله.

وفى إطار تعريفه أو تقديمه لقصصه، ينبهنا إلى أن قصصه هى «لحظة من لحظات التأمل تقترب فى صفائها وشفافيتها من لحظات المناجاة والقداسة» وهى «لا تنتظم فى خط فكرى واحد» وأن «فيها المتخيل وفيها ما التقطته من الآخرين أثناء أحاديثى معهم»، كما ينبهنا كذلك إلى أنه ليس البطل الحقيقى لهذه القصص، وأنه حاول أن يكون صادقاً مع نفسه فى التعبير عن تجارب أبطالها.

■

تضم المجموعة ثماني قصص، ومؤلفها يعمل أستاذًا للغة العربية، وصدرت له من قبل مجموعة قصصية (ويأتي بعدها آخرون) وقصة طويلة (الجثث والرائحة) ورواية (النصف الضائع).

■

شفيق الحوت بين الوطن والمنفى

شفيق الحوت

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ٥٤٨ صفحة



ينفي المؤلف أن يكون الكتاب سيرة ذاتية فيقول في المقدمة: «هذا ليس سيرة ذاتية وليس سيرتي بالذات على الرغم من أني صاحبها وراوي أحداثها، هي سيرة فلسطين وشعبها ما بين ثلاثينيات القرن العشرين وبدايات الألفية الثالثة للميلاد، وهي الفترة الزمنية التي شاءت أقداري أن تكون فسحة عمري، وأن أمضيها بين فلسطين وجوارها».

وهكذا تسنح الفرصة للقارئ أن يأخذ حقائق «الوقائع الفلسطينية» مباشرة ممن عاشها بتفاصيلها. ومن عناوين تلك «الوقائع» والمحطات بداية المشوار من يافا إلى المنفى. ومن «الحوادث» إلى «جبهة التحرير» لتتوالى التجارب التي يختلط فيها الشخصي بالعام، حيث يفاجأ القارئ بالكثير من الحقائق التي تكشف للمرة الأولى وبحسب خريطة الكتاب: من قيام منظمة التحرير الفلسطينية إلى أيلول ١٩٧٠ إلى عبدالناصر كما عرفه شفيق الحوت، والترحال من الأردن إلى لبنان ومن الفاكهاني إلى الأمم المتحدة وحروب الإخوة الأعداء، إلى اجتياح لبنان ثم انتفاضة الحجارة إلى مفاوضات السلام إلى الاستقالة احتجاجًا على «أوسلو».

■

الحبق والعتبات

محمد الشركي

المغرب: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٧، ١٣١ صفحة



مجموعة من المقالات التي كتبها المؤلف في زاويته الأسبوعية بجريدة العلم المغربية، تتناول الشأن الثقافي والشأن الفكري العام، وتمثل تواصلاً بين الكاتب وقرائه على مستويات عديدة، ولأن المؤلف شاعر وروائي (صدرت له رواية «العشاء السفلي» عام ١٩٨٧، وديوان شعر «كهف سهوار ودمها» عام ٢٠٠١) فإن كثيرًا من مقالاته تبدو كما لو كانت نصوصًا أدبية من حيث اللغة والبناء، ويبدو هذا الملمح خصوصًا في مقالته متعددة الأصوات: تلك المسافرة ما وراء الخرائط، نقرأ فيها صوت عبدالوهاب المؤدب: بأية كلمات أنطق، وفي أي دغل أسير، في السلام كما في الخطر، مدلها بالحب لأقتفي آثارها، وهي المقطع الثاني من قبر ابن عربي.

ونقرأ صوت جبران خليل جبران كما جاء في كتابه «النبي»: «إنني على أتم الأهبة للسفر، فقد وصل الجدول إلى البحر، وأتيح للأم العظيمة أن تضم ابنها إلى صدرها ثانية».

لكننا في مواقع أخرى نقرأ عن أحداث ثقافية (كتب ومراجعات ونقد) وسياسية (عن الشأن العراقي والفلسطيني والعربي في عمومه)، وفي مقالات أخرى نقرأ عن أماكن وشخوص، مثل الذي يكتبه عن مقهى «جلال» بمدينة فاس العتيقة، عن زبائنها ونادلها وقهوتها .. «دائمًا يفرض عزيز بانخراطه الكلي في إعداد القهوة، لأن القهوة أمر مهم، ودعامة نباتية بعيدة الغور في ليل الكائن وصباحه، ما من شك في أن الهجرة النوميدية التي تنقلت عبرها شجيرة القهوة المباركة في كل تخوم الأرض هتوفه بدرس عوليسي يهبط إلى الدم مع كل رشفة».

كما ستجد دراسات مختصرة عن التشيكي ميلان كونديرا، والمغربي محمد العلوي البلغيثي، والكاتب المغربي كذلك عبدالقادر الشاوي، وأيضًا عن محمد القاسمي، وعن الأمريكي جون شتاينبيك، والشاعر سركون بولص وبكائية من أجل رامبو، ومقالة أخرى عن ريلكة.

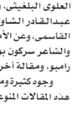
وجوه كثيرة ومدن وأماكن تصادفنا في هذه المقالات المنوعة.

■

ما أشهى طعم الحرية

سمير القضاة

بيروت: الكوكب، ٢٠٠٧، ١٠٩ صفحات



يأتي هذا الديوان ضمن سلسلة أعمال إبداعية لكُتّاب جدد، شعراء وقصاصين وروائيين، تنوي الدار العريقة (رياض الريس) التي احتفت بنشر الكتب السياسية والفكرية والأعمال الإبداعية لكبار المبدعين، أن تخصصها لمبدعين ينشرون ربما للمرة الأولى، وقد أسست لهذا الغرض فرع أسمته «الكوكب».

والمؤلف شاعر أردني شاب ويضم ديوانه نحو خمس وعشرين قصيدة، من أجواء الديوان نقرأ في قصيدة «على الصبح»:

على الصبح أن يتمرد يومًا/ فلا يستفيق/ على القلب أن يستريح قليلاً/ ويترك أحقاده في الطريق/ على الجوع أن يستحي ذات يوم/ فيلفظ من بين أسنانه لقمة/ ليطعم أذلته دنيا العقوق/ على الشعر أن يترفع عن معطيات الحياة/ ويرمي الشباك إلى جرفة الشمس/ قبل الشروق/ على العمر أن يتمهل في عدوه/ نحو خط النهاية/ هل صار حقًا على المرء أن يتلاشى/ ولما يذق بعد طعم الرحيق؟

■

نفط إيران

روجر هاورد

ترجمة: مروان سعدالدين

بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧، ٢٤٦ صفحة



يومًا بعد آخر، تتصاعد احتمالات الصدام بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية، ومع تزايد الفشل الأمريكي في العراق، بات هذا الصدام وشيكًا أكثر من أي وقت مضى، حتى إن خبراء كثيرين يعتقدون أن الحرب العالمية الثالثة، ستبدأ شرارتها عبر هذا التصعيد المستمر بين الملالي والمحافظين الجدد.

وعلى الرغم من الاتفاق على أن الخطاب العدائي للرئيس الإيراني أحمدي نجاد يحيل من البلاغة والشحن الإعلامي، أكثر مما ينطوي عليه من قدرة حقيقية على المواجهة، فإن مكانة نفط إيران في الصراع لا يمكن إغفالها، ويشكل ارتفاع أسعار النفط عاملاً مهمًا في سياسة التحدي النووي الجديدة التي تنتهجها إيران، وهي أحد أكبر مصدري الفط في العالم، وهو ما يمكن ملاحظته من تغير الموقف الإيراني بدءًا من العام ٢٠٠٣، فقبل هذا التاريخ، كانت إيران مستعدة للتعاون مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، ومع بداية عام ٢٠٠٤ ارتفعت أسعار النفط بصورة مذهلة، بلغت الضعف تقريبًا، وهو ما جعل عملية فرض عقوبات اقتصادية على إيران أمرًا مستحيلاً، وهو ما دفع نجاد إلى القول إن بلاده لن ترضخ للظلم والضغوط، بل ويهدد بأنه في حالة اعتداء الولايات المتحدة الأمريكية على بلاده، فإن إيران ستكون جاهزة لضرب عدد كبير من الأهداف الأمريكية في عديد من دول العالم، وهكذا وجدت أمريكا نفسها محاصرة بضغوط دولية شديدة تمنعها من عزل إيران ومحاصرتها اقتصاديًا.

هذه هي المسألة الأساسية التي يناقشها الكتاب في أربعة فصول، وإذا كانت هناك نتيجة ما للنقاش الذي يطرحه المؤلف عبر هذه الفصول، فهي أن أمريكا بانتهاجها سياسة عدائية لإيران، تساهم في تقويض قوتها الذاتية، وتكتب نعيها كقوة عظمى وحيدة.

■

مصر في عهدي عباس وسعيد

زين العابدين شمس الدين نجم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٢٢٠ صفحة



لم تشهد الفترة الممتدة من نهاية عصر محمد علي (١٨٤٨) إلى بداية عصر إسماعيل عناية من قبل المؤرخين، برغم أنها شهدت حكم واليين هما عباس باشا حفيد محمد علي وابنه سعيد باشا، وامتد حكمهما خمسة عشر عامًا.

وعلى الرغم من تشابه الواليين في هذا الإهمال من قبل المؤرخين، فقد كانا مختلفين تمام الاختلاف، إذ كان عباس باشا انعزاليًا يكره المصريين ولا يرى أي أمل في تطويرهم وتحديث حياتهم، وشهد عهده ردة عن كثير مما جرى في زمن جده، فيما كان سعيد أكثر انفتاحًا على المصريين والغرب معًا، وارتبط عهده بتوظيفهما في مواقع كانوا بعيدين عنها دومًا، فضلاً عن إقراره اللغة العربية لغة رسمية في دواوين الحكومة، في الوقت الذي كان عباس يقرب إليه الأتراك ويخاف من الأجانب والمصريين.

وعلى الرغم من سعي محمد علي منذ البداية إلى تعليم حفيده عباس باشا، فإنه لم يفلح، إذ انصرف تمامًا عن التعليم، وربما كان الوحيد من أبناء الأسرة العلوية الذي لم يتقن لغة أجنبية، ولم يفلح في أية مهمة إدارية كلفه بها الجد، وإن كان عهده شهد استكمال مشروع مد خطوط السكك الحديدية الذي كان الإنجليز مهتمين به إلى أبعد حد، وقد أضاف عباس إلى عزلته وسوء إدارته وكراهيته للمصريين وعزوفه عن الاتصال بالأجانب، أضاف إلى ذلك كله قطيعة أقامها مع دولة الخلافة العثمانية، وقد قاده ذلك كله إلى نهاية مأساوية حيث قتل في قصره بمدينة بنها.

وعلى العكس من عباس أقبل سعيد على التعلم، ودرس في فرنسا العلوم

البحرية والهندسية، واكتسب خبرات نظرية وعلمية كبيرة حتى صار قائداً للأسطول المصرى ١٨٤٧.

وكانت بداية حكمه مبشرة بفترة سعيدة مزدهرة فى حياة مصر والمصريين، الذين شجعهم على تولى المناصب العليا ورقى أحوالهم ونشر العدل بينهم، إلا أن آفته الأساسية كانت ميله إلى الأجانب وضعفه فى مواجهتهم وإسرافه الشديد الذى اضطره إلى الاستدانة من بيوت المال الأجنبية، مما أدى إلى تغلغل النفوذ الأجنبى فى شئون مصر، وهو الأمر الذى انته باحتلال البلاد فى ١٨٨٢. إلا أن بعض المؤرخين يؤكد على أن سعيداً وإن كان قد ترك حكومة مستضعفة، فإنه ترك شعباً غنياً بثرواته وموارده، وكان عصره عصر تقدم ورقى، وربما كان تساهله فى تمدين مصر على النمط الأوروبى، رد فعل طبيعى لرجعية عباس وميوله الانعزالية.

■

رفاعة الطهطاوى

محمد عمارة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٣٨٧صفحة



كانت البعثة التى أرسلها محمد على إلى فرنسا عام ١٨٢٦، هى الإطلالة المهمة للعناصر الوطنية على الحضارة الغربية، فقد تضمنت سبعة عشر وطنياً مصرياً حميماً ومثلهم من المصريين ذوى الأصول العثمانية، وقد تنوعت مجالات الدراسة التى أرسلت إليها هذه البعثة، فى الطب والكيمياء والزراعة والمعادن والمعمار وغيرها، بعكس مبعوثى ١٨١٣ و١٨١٨ الذين اقتصرت دراستهم على الفنون الحربية والبحرية، إضافة إلى سبك الحروف وفنون الطباعة.

ولم يكن الشيخ رفاعة بين طلابها، بل رشحه لها شيخه حسن العطار كى يؤم أفراد البعثة ويتولى مهام الوعظ والإرشاد. لكن الفتى النابه لم يكتف بممارسة المهمة التى أرسل من أجلها (الوعظ والإرشاد الدينى) فبدأ على الفور فى تعلم اللغة الفرنسية، ليس للتجديد والرطانة فحسب، وإنما دراسة تعينه على ترجمة الفنون والآداب الفرنسية وفهم ثقافة القوم، وهو لم يقنع بما يمكن أن يحصله من خلال البعثة، فأخذ يقتطع من مصاريفه لشراء كتب متنوعة، واستأجر مدرساً خصوصياً لتقويته فى الفرنسية، وكانت شهادة اعتماده للجنة التى امتحنته ١٢ كتاباً مترجماً عن الفرنسية فى عدة علوم، ومخطوطة كتابه الذى ألفه فى باريس «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز»، وهو الكتاب الأشهر بين كتبه كلها، والذى يقول عنه المستشرق الفرنسى كوسان دى برسنال: أراد رفاعة بهذا الكتاب أن يوقظ أهل الإسلام، ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الأفرنجى والترقى فى صنائع المعاش، وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها، أراد أن يذكر به لأهالى بلده، أن ينبغى لهم تقليد ذلك».

وهو ما يعنى أن الرجل لم يكن مجرد ناقل لثقافة غربية فحسب، إنما كان مناضلاً هدفه إيقاظ أمته ووطنه والشرق الإسلامى كله، كما أن حديثه فى السياسة والدستور ووصفه للمؤسسات التى شاهدها لإدارة شئون الدولة، قصد به أن يفتح أمام الشعب ساحات الديمقراطية، وأن يتجاوز الاستبداد والطغيان والحكم الفردى.

وفى فترة وجيزة أنجز الطهطاوى أول مشروع لإحياء التراث العربى الإسلامى فى مصر، ونجح فى استصدار أمر من الخديو سعيد بطبع عدد من الكتب العربية المهمة، ثم أبعد لمدة عامين، وعاد من جديد فى عهد الخديو إسماعيل وتولى ديوان المدارس، ثم قلم الترجمة الذى أنشأه الخديو لترجمة القوانين الحديثة وإصلاح حال القضاء، وتولى رئاسة تحرير «روضة المدارس»، وكانت الأولى من نوعها فى مصر التى تعنى بالشئون الثقافية والأدبية.

وكان كتابه «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز» فى سيرة الرسول وفى البناء السياسى والاقتصادى والاجتماعى للدولة الإسلامية الأولى، ولم يكن الهدف هو السرد التاريخى والحكى، وإنما كى يستفيد منه من يبنون الدولة العصرية.

وللطهطاوى عدة مؤلفات مهمة أخرى هى: «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية»، «المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين»، «أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل»، وقد سار فيها جميعاً على النهج ذاته، ولهذا كله استحق الطهطاوى أن يكون رائد نهضة مصر الحديثة.

■

بيوجرافيا الجوع

أميلى نوثومب

الرباط: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٦، ٢٤٠صفحة



أميلى نوثومب، هى ابنة سفير بلجيكى، ولدت فى اليابان عام ١٩٦٧، وتنقلت بسبب وظيفة والدها وعمله فى مجال الدبلوماسية بين عدة دول، من اليابان إلى الصين، ثم إلى نيويورك وبنجلاديش وكمبوديا وعديد من دول الشرق الأقصى، وكانت ثمرة هذا الترحال هى هذه الرواية، التى يبدو أنها سرد لحياتها هى منذ كانت طفلة.

لكن لماذا الجوع هو ما يخيم على أجواء الرواية التى تستقى كثيراً من مادتها من التاريخ الاجتماعى والسياسى للمناطق التى زارتها، السبب أن القاسم المشترك بين الشعوب قاطبة هو أنها شهدت المجاعة فى فترة ما من تاريخها، فالمجاعة تولد الروابط والصلات، والبداية من الصين، التى هى - كما تقول المؤلفة - زعيم البطون الخاوية من دون منازع، فماضيها سلسلة من الكوارث الغذائية التى أسفرت عن أعداد لا تحصى من الموتى، وأول ما يبادر به صينى صينياً آخر هو سؤال: هل أكلت؟

والجوع الذى ترمى إليه المؤلفة، ليس بالضرورة ودائماً هو الجوع إلى الأكل، وإنما الجوع بمعناه الأشمل، الجوع إلى العاطفة، إلى الحنان، إلى الصلات التى تقيم دعائم من نوع ما بين البشر على اختلاف طبائعهم وعاداتهم وثقافاتهم، وهذا هو ما يشغلها كراوٍ لأحداث الرواية، وما يشغل أبطالها الواقعيين والمتخيلين كذلك، فهى تقول مثلاً: فى الصين اكتشفت جوعاً كنت أجهله، هو الجوع للآخرين، وعلى الأخص الجوع إلى الأطفال الآخرين، فى اليابان لم يكن فى حياتى متسع للشعور بالجوع إلى الكائنات البشرية، كانت نيشيو سان تمدنى بوافر من غذاء الحب بحيث أغنتنى عن طلب المزيد، أما أتراب اليوشيان فكانوا لا يثيرون فى قدارتى إلا الشعور باللامبالاة.

أما فى بنجلاديش، فقد علموها أن الجوع ألم يزول بسرعة، بعد ذلك يعانى المرء من آثاره لا من عذابه.

هكذا يسيطر الجوع بأشكاله على السرد ويسم الشخصيات جميعها.

■

الحركات الإسلامية من منظور الخطاب العربى المعاصر

تركى على الربيعو

الدار البيضاء: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٧، ٢٧٢ صفحة



عبر ثمانية فصول، يناقش المؤلف واحدة من أهم الظواهر فى المجتمعات العربية المعاصرة، وهى ظاهرة الحركات الإسلامية، ويحلل خطابها الفكرى والسياسى والدينى، ومنذ البداية يشير إلى أن صرخات الإدانة على مشروعية الظاهرة، والتحليلات المتشنجة المتسرعة لها، تساهم فى تعقيدها وتعميق الفجوة حولها، وتثبت أوهام المثقفين النخبوية الذين يدعون أنهم على عتبات الحداثة، كما تؤكد من ناحية ثانية أن الحل البوليسى للظاهرة ليس ناجعاً، ويزعم أنه يقدم قراءة تشخيصية للظاهرة عبر عدة محاور: الحركات الإسلامية من منظور الخطاب التقدمى العربى، الإسلام السياسى فى خطابات النخبة المفكرة، قراءة الإسلام السياسى بالانشداد إلى رتبة الأيديولوجيا، حدود التكامل بين القراءة السوسيولوجية والقراءة الاستشراقية، من نقد الخطاب الدينى إلى الرهان على النص المقدس، جدلية الدين والسياسة فى الخطاب العربى المعاصر، الإسلام السياسى فى خطاب ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، الإسلام السياسى وضرورة الخروج من دائرة الفتنة.

ويبدى المؤلف وجهة نظر تستحق المناقشة، مفادها أن ثقافة المراجعة لن تتم إلا عبر تجاوز المناطحات الثقافية السائدة على الطرفين العربى والإسلامى، والتى تستعير بواعث التعبير عن نفسها من الماضى التليد، ماضى الحروب الصليبية بكل ما فيها من انتصارات وهزائم، وهو الأمر الذى فعله عدد من الأكاديميين والمثقفين الأجانب وخصوصاً مستشرقى الولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما فعله القس جيرى فالويل والقس روبرتسون راعى العلاقات الإنجيلية فى البيت الأبيض، وكلاهما وجه سباباً مباشراً للإسلام ورسالته، كما كانت أطروحات برنارد لويس حول الإسلام، والتى تراه ديناً متعصباً عصياً على كل محاولات التغيير والاندماج فى الحداثة، واضحة فى خطاب جورج بوش الذى تحدث عن الحروب الصليبية وأهمية مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية للإرهاب فى العالم، وفى طليعة الإسلام والشعوب المسلمة، وهو ما فتح الباب واسعاً لخطاب إعلامى وسياسى متشدد، تبناه اليمين المحافظ الذى يسيطر على مقاعد الحكم والإدارة فى الولايات المتحدة الأمريكية.

■

الإمبراطورية البيزنطية

محمد مؤنس عوض

القاهرة: عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، ٢٠٠٧، ٥٥٤صفحة



تبحث هذه الدراسة فى تاريخ الأسر الحاكمة للإمبراطورية البيزنطية، وتنتهى

إلى أن الأسرات الحاكمة لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ الإمبراطورية مقارنة بالأدوار الأخرى للأباطرة الثانويين، كما أكدت الدراسة على أهمية العوامل الداخلية فى سقوط الإمبراطورية، أى أن سقوطها من الداخل كان أسرع كثيراً من سقوطها من الخارج، ويشير المؤلف إلى الطابع البرجماتى للتاريخ السياسى البيزنطى، ومن ثم فإن حوادث الغدر والخيانة مثلت جزءاً من ذلك التاريخ، ولذا فقد عجزت الإمبراطورية البيزنطية بعد رحلة دامت أكثر من ١١ قرناً عن تقديم نموذج أخلاقى رفيع لأحد أباطرتها الكبار، وظل تاريخها تشوبه الدسائس والمؤامرات، وقد عاشت الإمبراطورية القرنين الأخيرين مرحلة احتضار طويلة، ولم تكن تملك العقل، بل كانت امبراطورية الصدى، خصوصاً مع الصعود المتنامى للإمبراطورية الشابة الصاعدة آنذاك، الإمبراطورية العثمانية.

ويشير المؤلف كذلك إلى الدور المهم الذى لعبته المرأة، أماً وزوجة وعشيقة فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وقد دفع التعطش إلى السلطة المطلقة المرأة لأن تدخل معترك المؤامرات لتصل إلى قمة عالم السياسة وإن ضحيتها المفضلة هو الرجل.

ويؤكد المؤلف كذلك على الدور الذى لعبه المسلمون فى التاريخ البيزنطى على مدى تسعة قرون من أصل ١١ قرناً، وهو ما لم يفعله المستشرقون الغربيون للإسلام وأهله، باستثناء عدد قليل منهم.

■

الإسلاميون الجدد والعلمانية الأصولية فى تركيا

عبدالحليم غزالى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧، ١٠٣ صفحات



يحكى الكتاب فى اثنى عشر فصلاً تجربة الإسلاميين الأتراك فى الحكم، ويتناول نشأة حزب العدالة والتنمية بوصفه الوعاء السياسى لهؤلاء الإسلاميين، ووصوله للسلطة فى عام ٢٠٠٢، وكيف كان هذا النجاح ثورة صامتة ضد النخب العلمانية التركية، التى تدين بالولاء للأب المؤسس مصطفى كمال أتاتورك وينظر العلمانيون إلى حزب العدالة والتنمية بأنه حزب ذو أجندة سرية، سيتم تنفيذها تدريجياً وعلى مدى طويل، مستفيداً من تجربة سلفه حزب «الرفاه» واصطدامه بالسلطة، برغم المبادئ العامة التى رفعها والتى لم تكن فى ذاتها صادمة للأتراك، ومنها أن الإسلام هو الرابطة الأولى بين الأتراك، وتشجيع دور الدولة فى عملية التصنيع، وأهمية دورها فى تحقيق العدالة الاجتماعية، ورفض التغريب والأنظمة الاقتصادية الربوية، واعتبار العالم الإسلامى هو المحيط الطبيعى لتركيا، وهى المبادئ التى جذبت طبقات المحرومين والفقراء. واستمدت حالة الشد والجذب تجاه حزب الرفاه، حتى أصدرت المحكمة الدستورية التركية فى عام ١٩٩٨ حكماً بإغلاقه، ومنعت عدداً من قياداته وعلى رأسهم أربكا من ممارسة السياسة لمدة ٥ سنوات.

ولأن الحزب كان يتوقع هذه الخطوة فقد أنشأ حزب الفضيلة الذى أغلق عام ٢٠٠١، ثم حزب السعادة وحزب العدالة والتنمية، ويمثل الأخير الجناح الإصلاحى وقاده أردوجان وجول، اللذان سعيا إلى تجنب الأخطاء التى وقع فيها حزب الرفاه وأهمها الاصطدام بالجيش.

وقد حقق الحزب فى انتخابات ٢٠٠٢ مفاجأة كبيرة وصفت بأنها زلزال سياسى حين فاز بـ ٣٦٣ مقعداً من أصل ٥٥٠ مقعداً فى البرلمان، وقد اعتبر كثير من المراقبين الأتراك أن هذا الفوز الكبير الذى حققه حزب العدالة والتنمية، كان تعبيراً عن السخط الجماهيرى فى مواجهة الأحزاب التقليدية التى احتكرت السلطة لسنوات طويلة، بالإضافة إلى أن حزب العدالة نجح فى إقناع الجماهير بصدق توجهاته ورغبته فى التغيير الحقيقى، وحين تشكلت الحكومة قال عبدالله جول إن حكومته ستذهل الأوروبيين بخطواتها الجادة، التى ستبرز للعالم أن تركيا دولة مسلمة ديمقراطية معاصرة، تصلح نموذجاً لبقية الدول الإسلامية.. إلى ذلك، يتناول الكتاب الإصلاحات التى أجراها حزب العدالة والتنمية فى إطار سعيه لانضمام تركيا للاتحاد الأوروبى، والمشكلات التى واجهها فى السلطة والتحسن الهائل الذى طرأ على الاقتصاد التركى فى عهده، والعلاقات مع أمريكا والدول العربية، وغيرها من الموضوعات وثيقة الصلة بالصعود الإسلامى فى تركيا

■

نصارى القدس

أحمد حامد إبراهيم القضاة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ٥٦٧ صفحة



ضمن سلسلة أطروحات الدكتوراه، تأتى هذه الدراسة التى تبحث فى أوضاع نصارى القدس فى القرن التاسع عشر.

وتكمن أهمية الدراسة فى أنها أول دراسة تتناول الأحوال العامة للنصارى فى القرن التاسع عشر فى ضوء معطيات سجلات محكمة القدس الشرعية فى القدس العثمانية، والمعلومات الواردة فى هذه السجلات فى غاية الأهمية وهى فريدة من نوعها ولا تتوافر فى المصادر التقليدية.

جاءت الدراسة فى تمهيد وستة فصول، وتحدثت عن طوائف النصارى التى عاشت فى مدينة القدس، وعن الحياة الاجتماعية. وتناولت الأحوال الشخصية التى تمتعت بها طوائف النصارى ودورهم فى الإدارة والتعليم. كما تحدثت عن الحياة الاقتصادية والحياة الدينية وعن موقف الدولة العثمانية من التنصير وإسلام بعض النصارى، ومن بناء الكنائس. كما بحثت فى علاقات طوائف النصارى بعضها ببعض، وعلاقاتهم بالمسلمين. ودعمت بمجموعة من الجداول الإحصائية ومجموعة من الملاحق.

■

المحامون بين المهنة والسياسة

أمانى الطويل

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٢١٥صفحة



تشير دراسة النخبة السياسية المصرية إلى الدور المهم الذى لعبته جماعة المحامين فى تشكيلها، خصوصاً ذلك القطاع الذى طالب بالاستقلال، ووقف فى وجه الاستعمار البريطانى، أى الذى عنى أساساً بالشأن السياسى، ومنهم سعد زغلول ومصطفى كامل ومصطفى النحاس ومكرم عبيد وغيرهم كثيرون.

وتمثل نقابة المحامين الوعاء الذى عبر عن طموحات هذه الطبقة فى تحقيق الاستقلال السياسى والمطالبة بالدستور، وهى الأقدم بين نقابات مصر جميعها، حيث تشكلت فى عام ١٩١٢، وبسبب أهميتها فى قيادة النضال الوطنى، حرص حزب الوفد منذ تشكيله فى ١٩١٨، على أن يكون أعضاء مجلسها من الوفديين، كما حرص سعد زغلول على أن يضم فى وزارته نقيب المحامين، وكانت نقابة المحامين هى أول نقابة تعلن الإضراب احتجاجاً على نفى الزعماء الوطنيين فى ثورة ١٩١٩، وسعت الأحزاب والحركات السياسية التى نشأت فى مصر فى تلك الفترة فى استقطاب المحامى، فتوزعوا بين كافة الأحزاب والقوى السياسية، وحين قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، سعت إلى تأميم الشارع السياسى لصالحها بما فيها النقابات، وهو ما أدى إلى تراجع دور نقابة المحامين السياسى، ومع سياسة الانفتاح الاقتصادى والسوق المفتوح منذ السبعينيات، بدأت نقابة المحامين تستعيد دورها السياسى من جديد، الأمر الذى يؤكد ارتباط جماعة المحامين بالسياسات الليبرالية، وهى الفرضية التى تطرحها المؤلفة للمناقشة.

وفى سعيها لتدعيم فكرة الارتباط بين تحديث المجتمع ونشأة مهنة المحاماة، تعود المؤلفة إلى زمن الوالى محمد على، وتشير إلى ارتباط تجربته التحديثية بما اشتملت عليه من تطور فى الكليات الزراعية، ثم التدخل الأجنبى والامتيازات الأجنبية وتنظيم القضاء على النمط الأوروبى، بظهور مهنة المحاماة، والتى ولدت أساساً على يد العرضحالجية، ثم تطورت مع نظام التوكيلات حتى وصلت إلى ما هو عليه الآن، ومع بروز أسماء كبيرة مثل سعد زغلول وإبراهيم الهلباوى ومكرم عبيد بين المحامين، اكتسبت المهنة احتراماً من نوع خاص، بعدما دعمها إنشاء مدرسة الحقوق فى عهد إسماعيل ١٨٦٨، وإقرار مجلس النظار المساواة بين خريجيها وخريجى المدارس الأوروبية فى التعيين فى وظائف القضاة والنيابة، وشعر المحامون بتميز تعليمهم وتفوقهم الثقافى، وعديد من أبناء النخبة المثقفة المصرية فى هذه المرحلة وما بعدها، كانوا من دارسى الحقوق.

إلى جانب التمهيد، يتضمن الكتاب بابين تدرس المؤلفة فى أولهما جماعة المحامين من حيث الأصول الاجتماعية وتطور المكانة السياسية، وكذلك نشأة وتطور نقابة المحامين، وتدرس فى الثانى موقف المحامين تجاه الأحزاب، وتجاه بعض القضايا التى شغلت الوطن.

■

النفس والجنس والجريمة

خليل فاضل

القاهرة: دار ملامح للنشر، ٢٠٠٧



عن العلاقة الجدلية بين النفس والجريمة وارتباط الجنس بهما فى بعض الحالات، ينقسم إلى ثلاثة فصول: فى الفصل الأول ما بين ريا وسكينة وبنى مزار، اختيار المؤلف حادثتى ريا وسكينة وبنى مزار على اعتبار أن كلا منهما قد حقق دوياً إعلامياً ارتجت له جنبات الرأى العام فى مصر، وإن كانت ريا وسكية قد حظت بالقسط الأوفر لقدمها التاريخى، وهنا يبرز السؤال المحير: ما هو ارتباط ريا وسكينة بالجنس؟

كثير من الناس لا يعرف أنهما كانتا «يديران بيوتًا للدعارة بمساعدة رجالهما.

في الفصل الثاني المعنون في مسألة القتل فيتناول الكاتب أحداثًا هزت بلادها، ففي عيد ميلاد هتلر قام مراهقان أمريكيان بنفس مدرستهما وقتل خمسة عشر طالبًا بدم بارد، وفي أمريكا أيضًا كان قاتل الـ ١٧ رجلاً شاذًا وجانحًا وقاتلاً غير عادي، أكل أجزاء من جثث ضحاياه ومارس الجنس مع أربعة من الموتى ثم مات على يد سجين آخر.

أما الفصل الثالث: اغتصاب وشذوذ، فيتناول الأبعاد النفسية لانتهاك الأطفال جنسيًا، ومنها إلى قضية بريطانية حيث يسمح القضاء هناك للجاني باستجواب المجني عليهما فيما يشبه إعادة اغتصابهما.

يفتح المؤلف ملفات العنف الزوجي الشائع في كل بلدان العالم تقريبًا، لكن هذه المرة يناقش عنفًا غير محسوب من الزوجة (جاكي) التي هشمت زوجها (أندرو)، وكذلك في بريطانيا وفي قضية غريبة وفريدة من نوعها كان بطلها مهندس تليفونات بريطاني استخدم مهارته واستغل مهنته، لكي يرعب ٣٠٠٠ امرأة عن طريق الهاتف.

الكتاب في فصله الأول يلمس العلاقة بين النفس والجريمة ويمر بالجنس عابرًا. وفي الفصل الثاني تكون العلاقة الثلاثية بين النفس والجريمة (عنوان الكتاب) الأوضح في جرائمها وأحداثها. أما الفصل الثالث فهناك ربط بين النفس والجريمة والجنس، وبين النفس والجنس فقط دون الجريمة.

يحاول الكتاب الرصد، التحليل، الفهم، التأمل ويترك للقارئ مساحات كبيرة لمتابعة البحث وللتأمل.

■

الزمن

أحمد زويل (محاضرة)

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٣٦صفحة



تضم هذه الكراسة محاضرة مهمة للعالم المصري الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء أحمد زويل حول مفهوم الزمن، ألقاها في نيودلهي ثم برلين فيما بعد.

وهو يتابع فكرة الزمن التي اهتم بها العلماء منذ القدم، والتي ألقت بتأثيراتها على العلوم والرياضيات وتطورهما، وصولاً إلى الفمتو ثانية التي يرى الدكتور زويل أنها ستكون لأبحاثها آثار مهمة في المستقبل. ويشير إلى أن مسألة انعكاس الزمن، بمعنى أنه يمضي إلى الخلف ويسير إلى الوراء هي أكبر التحديات، خصوصًا أن الإنسان لا يتوقف حلمه ورغبته في التحرر من قيود الزمن واختراقه والسير عكس اتجاهه، وهو يرى أن ذلك نظريًا ممكن، وهو ما سيمكن الإنسان من تغيير أحداث وقعت بالفعل في الماضي، وكذلك تلح على الإنسان رغبة أخرى أن يسافر في اتجاه مستقبلي، وهو ما قد يدخله في عوالم غريبة.

■

١٠٠ سنة سينما

عزت السعدني

القاهرة: كتاب اليوم (عن دار أخبار اليوم)، ٢٠٠٧



إذا كانت شمس السينما قد أطلت على الدنيا في الثامن والعشرين من ديسمبر من عام ١٨٩٥.. أي منذ ١١٢ سنة.. من خلال أول عرض سينمائي أقامه للجمهور الفرنسي الاخوان لومير في قاعة الصالون الهندي بمقهى الجراند كافيه في شارع كابوسين في باريس.. والذي اعتبره مؤرخو السينما التاريخ الرسمي لبداية تاريخ السينما في العالم.

فإن مصر بعد أربعة أيام فقط لحقت نفسها وشهدت أول عرض سينمائي أقيم في مقهى زواني في الإسكندرية في أول يناير عام ١٨٩٦.

وبعد ٢٨ يومًا لا غير شهدت القاهرة أول عرض سينمائي في العالم أقيم في دار سينما «سانتي» على مقربة من فندق شبرد القديم الذي احترق في حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ وتحول إلى ساحة لانتظار السيارات!

وكان غير مسموح للسيدات بحضور العرض السينمائي.. إلا بعد نحو عام كامل.. عندما نشرت جريدة الأخبار - وهي غير جريدة الأخبار الحالية التي أصدرها مصطفى أمين وعلي أمين في عام ١٩٥٢ - خبرًا في ٣ ديسمبر ١٨٩٦ يسمح للسيدات بحضور عرض السينماتوغراف في حمام شنيدر من الرابعة حتى السادسة مساء مع أطفاله ليشاهدن أبرع وأبدع ما يراه المتفرج!

أما أول دار للسينما في مصر فقد أقيمت في عام ١٨٩٧ ولكن في الإسكندرية بشارع لومير بمحطة مصر وكانت الإسكندرية سباقة دائمًا في مجال السينماتوغراف!

وقد نشر الأهرام أيامها أن المصريين يشكون من سوء المعاملة داخل دور السينما، حيث كانوا يتركون الصفوف العشرة الأولى للأجانب.. أما المصريون فإنهم يجلسون في مقاعد الترسو!

ومع احتفال الأوساط الفنية والثقافية في مصر هذا العام بمرور مائة عام على السينما المصرية.. يصحبنا المؤلف في رحلة تفصيلية مع السينما المصرية بكل نوابغها وأساتذتها من الذين أرسوا قواعدها من المخرجين أمثال محمد بيومي ومحمد كريم إلى الذين واصلوا مسيرة النجاح والتألق من الرعيل الأول حتى الأجيال الأخيرة.

■

مائة وهم حول الشرق الأوسط

فريد هاليداي

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦، ٢٨٥صفحة



الافتراض الأساسي الذي يقدمه المؤلف هنا هو أن الشرق الأوسط يعيش في غابة من الخرافات والأساطير التي تهيمن على علاقات دولة ببعضها البعض، وتحكم العلاقة بين الحكام والمحكومين.

بين هذه الأوهام مثلاً أن الشرق الأوسط مختلف في نواحي أساسية عن بقية العالم، وأنه لذلك ينبغي أن يفهم بمصطلحات متمايزة عن تلك التي يتم استخدامها، وينفي المؤلف هذا القول ويؤكد على أن الشرق الأوسط يتشارك مع بقية العالم بخصائص كثيرة أكبر بكثير مما يظهر من فوارق، فمجتمعاته ودوله وشعوبه جزء من الاقتصاد العالمي، وجميعها - جميع دول العالم - تتمسك بمبادئ الاستقلال والثقافة الوطنية.

بين هذه الأوهام أيضًا أن الشرق الأوسط منطقة تهيمن عليها الكراهية والتجهم ولا يتمتع شعبها بحس الدعابة، وهذا أيضًا وهم كبير إذ لا يمكن الحكم على شعوب الشرق الأوسط جميعها بهذه الطريقة، كما أنه ليس هناك مؤشر عالمي للمرح يمكن القياس عليه.

ثالث هذه الأوهام، أن وقوع الحروب في الشرق الأوسط في العصور الحديثة هي استمرار للعنف والفتوحات السابقة، ويرد المؤلف على هذا الوهم بقوله: أن تاريخ أوروبا في القرن العشرين يحتشد بعشرات من صور العنف التي تتجاوز ما جرى في مجتمعات الشرق الأوسط.

هناك وهم آخر يقول إن العرب شعب صحراوي، وهو وهم كبير ساهم في ترسيخه مستشرقون غير محايدين، والذي ينظر إلى الشرق الأوسط في عمومه يرى فيه مجتمعات حضرية متمدينة، وحتى منطقة شبه الجزيرة العربية التي ينظر إليها باعتبارها الأكثر صحراوية في منطقة الشرق الأوسط، فإن أغلب سكانها ليسوا من البدو وإنما مزارعون، وحضريون يتوزعون على عدة مدن ساحلية.

وثمة وهم آخر يشير إلى أن عداء العرب لإسرائيل هو استمرار لعداء مناهضي السامية الأوروبيين، وخصوصًا النازيين للشعب اليهودي، وهذا وهم كبير لأن عداء العالمين العربي والإسلامي لليهود في القرون التي سبقت القرن العشرين كان أقل حدة من عداء الأوروبيين لهم.

مائة وهم من هذا النوع يدحضها المؤلف ويبرهن على كذبها.

■

إدارة هندسة النظم

بنيامين بلانشارد

ترجمة: حاتم النجدي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ٧١٨ صفحة



يوفر كتاب «إدارة هندسة النظم» الخبرة التقنية والإدارية للتطبيق الناجح لهندسة النظم، ودليل خبرة لانتقاء التقانات الملائمة باستخدام الأدوات التحليلية المناسبة، وتطبيق التقنيات المجدية لتطوير سيرورة جيدة لهندسة النظم.

وتشمل هذه الطبعة المحدثة عرضًا جديدًا وموسعًا لأحدث المواضيع مثل: المعالجة، والتعهيد الخارجي، وتحليل المجازفة والمخاطر، والعولمة، والتقانات الجديدة.

وبمساعدة دراسات حالة واقعية عديدة، يستعرض المؤلف خطوة بخطوة، نهجًا نزوليًا شاملاً قائمًا على دورة حياة النظام ثبت أنه يقلص التكلفة، ويسهل سيرورة التصميم والتطوير، ويحسن الوثوقية، ويكسب الزبائن. إن مفاهيم هندسة النظام وأدواتها وتقنياتها المشمولة هنا مفيدة لكل من المشاريع الكبيرة والصغيرة.

وتعد هذه الطبعة من الكتاب مرجعًا أساسيًا لكل المهندسين جميعهم الذين يعملون في التصميم والتخطيط والتصنيع. وهي أيضًا مدخل ممتاز لطلاب هندسة النظم.

ومؤلفها أستاذ سابق في قسم هندسة النظم والهندسة الصناعية في معهد فرجينيا التقني، وفي الجامعة الحكومية في بلاكسبورج.

■

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها.
مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

أحمد أمين فى مذكرات جـلال أمـيـن

قرأت فى «وجهات نظر» مقالاً للأستاذ خالد الخميسى عن كتاب الدكتور جلال أمين الأخير «ماذا علمتنى الحياة.. سيرة ذاتية» وقد أعارنى ولدى محمد الكتاب الذى نشرته دار الشروق هذا العام. واستقبلته بحفاوة لا تخفى لأسباب عديدة: منها الظمأ للقراءة كلما سنحت الفرصة خاصة فى فصل الصيف، ومنها أن تلك السيرة استهوتنى، للوهلة الأولى، فصاحبها سَلَكَ قبلى ذات الدراسة، فقد سبقنى إلى الالتحاق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة والتخرج منها بعام واحد فى ١٩٥٥، ومنها أنه سبقنى مولدًا بقليل وإن أصر على أن يجمع مولدنا ذات عام ١٩٣٥، ومنها أنه من أطهر الأصلاب: فأبوه المفكر الإسلامى الأزهرى الشهير الدكتور أحمد أمين صاحب «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» الذى استقر اسمه بين هذا الرعيل الذى أنبتته أخريات القرن التاسع عشر ليحمل لنا، مع أنداده، الدكتور محمد حسين هيكل والشيخ مصطفى عبدالرازق، والأستاذ العقاد ومحمد فريد وجدى وأترابهم، مشاعل التنوير والفكر التى أضاءت لنا، ولمن قبلنا، الطريق، ومهدت السبيل فى كل ما حوم حول الإسلام فاغترفنا من معين العلم والمعرفة ذلولاً.

أقبلت على التهام صفحات الكتاب الرشيق الذى أشرفت صفحاته على الأربعمائة بنهم تؤججه الأسباب التى أسلفت، وراقنى الكتاب، فى مجمله، إذ أتاح لى التعرف على صاحب السيرة ورهط إخوته وأخواته الذين سبقوه مولدًا، فقد كان ثامنهم ومسك ختام تلك العصابة التى وهبها الدكتور أحمد أمين لبلده، وحرص على أن يسلحها بالعلم فى غاية ذراه: إذ مكنهم وحثهم على الحصول على الدرجات العليا من التعليم فحصل أغلبهم على إجازة الدكتوراه من الخارج فى مختلف التخصصات.

واستوقفنى فى ذلك الكتاب دهاء الأم التى غلبت عاطفتها عقلها فأبت أن تسمح لابنها البكر «محمد» باللحاق بالبعثة الحكومية التى اختير لها لتحضير الدكتوراه فى إنجلترا وتوهمت الأم «أن الزوج المستبد يفرق بينها وبين ابنها المفضل ويرسله إلى بلاد البرد القاتل!» وتفتق ذهنها عن حيلة فإذا بها تتصل خلسة بالدكتور طه حسين تليفونيًا، فلان لها قلبه وقال لها باللغة العربية الفصحى «كونى واثقة أنه لن يسافر حتى يأتى الإذن منك» إلا أن الأب لم يلبث ـ حين علم ـ أن أحبط مسعاها وأجبرها على الاتصال بطه حسين لتقول له بموافقتها على السفر.

وكانت تلك الحيلة مسبوقة بحيلة أخرى للأم حين أصر زوجها على أن يحرمنا من الدكتور جلال «صاحب السيرة» ذاته لما حملت فيه، فقد صمم الأب على ضرورة أن تتخلص الأم من حملها فى جلال وأعد للأمر عدته عن طريق الاستعانة بطبيب أجنبى متخصص ليجهض الحمل، إلا أن الأم تملصت وهربت عدة مرات إلى أن تظاهرت بالانصياع والإذعان لرغبة الزوج اللحوح وتوجهت معه للمترو قاصدين زيارة الطبيب فاستقل الأب العربة الأمامية مطمئنًا لركوب زوجته فى عربة السيدات الخلفية، إلا أنه اكتشف ـ فى محطة الوصول ـ أنها عمدت إلى التخلف، لم تفتر همة الأب بل ساقها إلى الطبيب سوقًا إلا أنها أفلحت فى حمل الطبيب على التراجع والعدول عن الإجهاض حين دفعته بقدمها بكل قوتها وهى تصيح فى ثورة «روح يا شيخ، هوه أنا حبلى فى الحرام!» ومن ثم فقد كان صاحب السيرة، بفضل الله، ثمرة لتلك الحيل وهذا الإصرار.

أما حيلة الأم فى مصروف البيت الذى اعتادت أن تتلقاه من زوجها فقد استدعت لذاكرتى سيرة هند زوجة أبوسفيان التى اعترفت للنبى ـ بعد إسلامها ـ بأنها كانت تتحايل على شح زوجها وتقتيره، بعدم التزام الأمانة معه، كان للأم ـ حسبما تروى السيرة ـ خطة سحرية فكانت تستقطع من المصروف ما تدخره لنفسها ثم تنقض على زوجها وتلح عليه فى أن يبيعها نصف المنزل الذى يملكه وتصر على أن يسجل البيع، فيذعن الزوج لرغبتها ثم لا تلبث بعد ذلك تطالبه بالأجرة المستحقة لها عن هذا النصف الذى تملكته من فوائض ماله، وكان الزوج يرضخ لهذا الطلب العادل!

واستوقفتنى شجاعة أحمد أمين حين كان يزهد أو يضيق بكتابة مقاله المعتاد فى مجلة الثقافة التى كان يتولاها، وكان ولده الدكتور جلال ـ صاحب السيرة ـ ينوب عنه ويفتديه وهو فى نحو السادسة أو السابعة عشرة من العمر! فى كتابة هذا المقال الذى كان الشيخ الجليل يدفع به إلى المطبعة ليظهر ممهورًا باسمه! وهو مسلك ينبئ عن شجاعة الأب، وبراعة الابن.

أما ما هالنى فى تلك السيرة كلها ـ وهذا الكتاب ـ ما ساقه صاحبها ورواه، حول تدين أبيه وأمه، وما استهل به باب (التراثيون الجدد) ص ٣٠٣ وما بعدها فقد أورد فيه نصًا:

(فى كتاب «حياتى» وصف أبى البيت الذى نشأ فيه بقوله إنك إذا فتحت بابه «شممت منه رائحة الدين ساطعة زاكية». أما أنا فلا أستطيع بالمرة أن أقول إن هذا الوصف ينطبق على البيت الذى نشأت فيه، فأبى على الرغم من نشأته هذه، وشدة تدين أبيه وأمه، ونوع التعليم الذى تلقاه فى صباه وشبابه، ورغم أن أهم كتاباته كانت تدور حول الإسلام، لم يكن متدينًا بمعظم المعانى الشائعة اليوم. إنى لا أتذكر مثلاً أنى رأيت أبى وهو يصلى، ولا أذكر أنى رأيته وهو يقرأ فى المصحف، إنى أتذكر اعتذاره عن الصوم بسبب مرض أو آخر كان يفرض عليه نظامًا معينًا فى الأكل أو بسبب التدخين، ولكنى لا أتذكره وهو ينتظر حلول المغرب ليتناول إفطاره فى رمضان..)

(أما أمى فلم تكن أكثر تدينًا من أبى.. ولكنى لا أتذكر أداءها لصلاة أو صوم، ولا هى أدت فريضة الحج أو عبرت عن رغبة شديدة فى أدائها. وما أكثر ما كانت تستخدم عبارة «إنما الأعمال بالنيات» لتبرر تقصيرها فى أداء شعائر الدين.. إن هذا الموقف من جانب أبى وأمى قد ترك فينا كلنا، نحن الإخوة الذكور والإناث، أثرًا دائمًا لم تمحه الأيام، فلا أذكر أن أحدًا منا نحن الإخوة قد واظب على أداء شعائر الدين لفترة طويلة فى حياته).

لقد صدمتنى تلك الكلمات حتى لقد كدت أطوى الكتاب كمدًا قبل أن أفرغ من قراءته، وأسفت ـ ولا أزال أسف ـ على مسلك الابن البار (صاحب السيرة) من أبيه، فقد عمد إلى فضحه بعد رحيله رغم أن الله ستره، وكان حريًا بالابن أن يستر أباه ولا يفضحه عسى الله أن يشمله بعفوه ورحمته وصفحه، وهو إذ فضحه فقد أخل بواجب الإحساس بالوالدين الذى فرضه الله قرينًا لعبادته وألوهيته ووحدانيته، خاصة بعدما لحق الأب برحاب الله وتجرد من أى حول أو قوة وانقطع عمله بموته إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، وهكذا فقد ضن الابن البار على أبيه بالستر، فضلاً عن الدعاء.

ويذكرنى عقوق صاحب السيرة بوفاء الدكتورة بنت الشاطئ الشهيرة، وبرها بأبيها (الشيخ المغمور محمد على عبدالرحمن) حين آثرت أن تهديه كتابها «بطلة كربلاء» وتوحى للقارئ أن أباها كان مصدر إلهامها وعطائها الرشيد فقد قالت له نصًا فى الإهداء «.. كأنما كنت معى تكتبه لى وتمليه على»!

ولا أستطيع، بحال، أن أغفر للابن أن يشوه صورة أبيه الذى استقر فى خيال الناس ووجدانهم عالمًا أزهريًا ومفكرًا مرموقًا شغل بالكتابة والبحث، وبشر بـ «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» ثم عمد ـ فى سلوكه ـ أن هدم أركان الإسلام وتقويض دعائمه حين هجر الصلاة والقرآن، وعزف عن الصيام بسبب مرض أو آخر أو بسبب التدخين!

وأذكر أننى كنت فى نحو الأربعين من عمرى حين لاحظ أبى ـ يرحمه الله ـ أننى لا أحفل بقراءة القرآن على نحو إقبالى عليه فى صدر شبابى فبعث إلىّ رسالة قال لى فيها: «ولدى الحبيب: أردت أن أكتب لك من مدة طويلة، ولكنى ترددت وطال ترددى، ترددت لأنى لا أريد أن أقوم منك مقام المؤدب، وقد أحسن المولى بفضله تأديبك، أو مقام المرشد، وقد لمست رشدك قبل رشدك، وما كنت أتوهم إلى طاعته وأنت أطوع لى منى، لقد أصبحت ـ والأسى يملأ فؤادى والحزن يعصر قلبى ـ تنسى مولاك الذى خلقك ورعاك، وأعطاك كل ما تتمناه، نسيت ـ أو تناسيت ـ القيام له واللجوء إليه وأغفلت كتابه وهو نورك فى الدنيا وشفيعك فى الآخرة! ولم يكن هذا حالك. فما الذى جعل للشيطان هذا السلطان؟ ألم تعلم أن مولاك يحفظ لك أملك، وأباك الذى يعيش الآن نافلة العمر، ويريد أن يبقى لك أبد الدهر، ويحفظ لك أبناءك وهم زهرة الحياة، وبسمة الزمن، ولا أريد أن أطيل عليك أو أثقل، فكل ما أرجوه منك أن تعود سيرتك الأولى فورًا الآن. إذا كنت متوضئًا فجدد وضوءك للتوبة والإنابة وابدأ فورًا فى قراءة القرآن ليحصل لك الأمان والاطمئنان. حفظك المولى يا بنى، وحفظ لك أبناءك الأعزاء وجعلك كما تحب وأحب لك».

ولا أستطرد إلى الرسائل التى حرص أبى، رحمه الله، على أن يحتنى بها على الانتظام فى الصلاة التى كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا، وأول ما يُسأل المرء عنه يوم يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه.

إسماعيل محمد عبداللطيف
محام بالنقض

أيـمــــــن الـصــــيــاد

«من قـريـب»

■■ بين أهل الرأي - وبحكم التعريف الذي يفترض الاختلاف ابتداءً - يندر أن تجد صاحب قلم لا يختلف عليه اثنان.

سلامة أحمد سلامة: الكاتبُ .. والإنسان هو ذلك «النادرُ» الذي لا يُختلفُ عليه - أو يكاد - كلُّ من قرأه أو «اقترب» منه. وقد شاءت الأقدار أن أشرُف بأن تجمعنا «وجهات نظر» الفكرة والمطبوعة .. وأن يجمعنا مكتبٌ واحد لسنوات قاربت العقد في حساب الأيام. فعرفته «من قريب». وعرفتُ فيه «مهنيا» كيف تكون الليبرالية الحقيقية، ومعنى أن تكون مستقلاً. وأهمية أن تكون جاداً ومنظماً ومسؤولاً وملتزماً بما عليك من واجب. وعرفت فيه «إنسانياً» معنى الاحترام، والتواضع.. ودماثة الخلق. ورأيت «من قريب» كيف يجيدُ الإنصات مهما يكن المتكلم أو قيمة الكلام.



يعرف كل متابع لعموده اليومي «من قريب» في «الأهرام» العريقة، كيف أنه في صحافة «ألجمتها» تبعيتها للدولة، ظل سلامة أحمد سلامة «مختلفاً» عن أولئك الذين اختاروا الوقوف في «طابور السلطان»، وإن كان في الوقت ذاته - وهذا سره - نجح «بوسطيته» المصرية الخالصة أن ينأى بقلمه بعيداً عن أي اتهام «بالتطرف» معارضة أو قدحاً.

سلامة أحمد سلامة .. «من قريب»: صوفي النزعة، ألماني الانضباط، مصري الوسطية. يترفع عن الصغائر. ويربأ بنفسه دوماً - احتراماً أو انضباطاً أو حياءً - عن أن يطلب مزية أو استثناء. أو أن يضع نفسه حيث لا يحب.. أو لا يجب أن يكون.

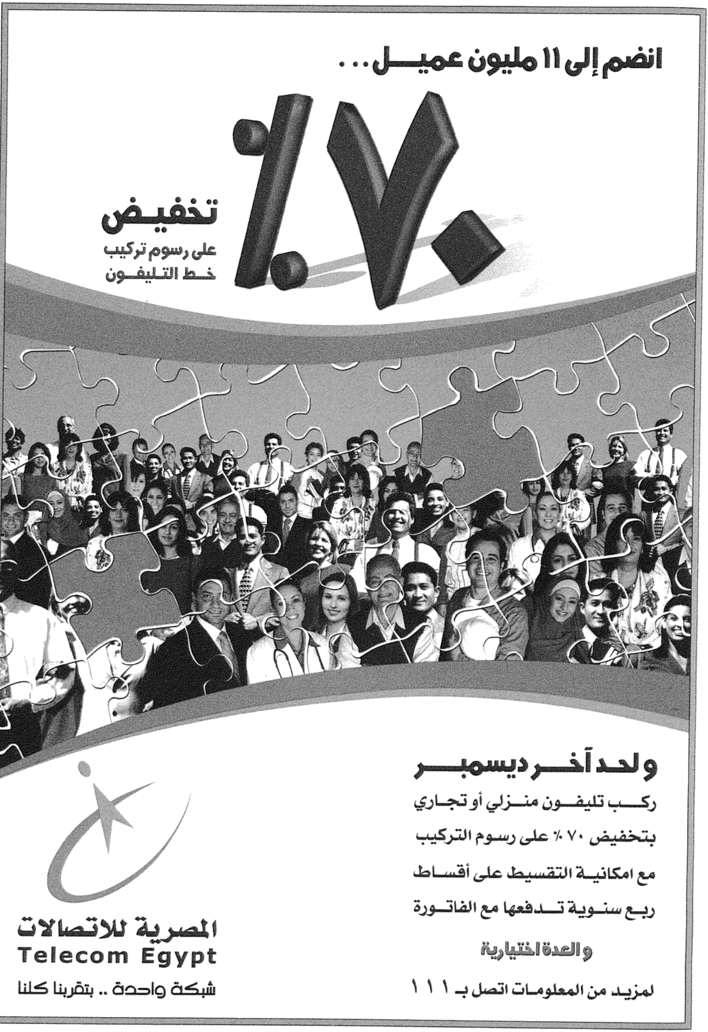
«من قريب» .. عرفَ قارئ «وجهات نظر» سلامة أحمد سلامة، ككاتب ورئيس للتحرير. واليوم.. وإذ أشرُف أن يترك لي مكانه، بعد أن رأى أن الوقت قد حان لكي يتخفف - رسميا - من عبء المسؤولية وتبعاتها، منطلقاً لآفاق الفكر الأرحب. لاأكتمُ القارئ سراً أنه كان قد ألحَّ مراراً خلال السنوات الماضية على أن يترك موقعه ليتفرغ للكتابة، إلا أننا كنا دائما - ربما لأنانية المحب - المعارضين لما طلبه مرة وألح عليه مرات. أما وقد وصلت الأمورُ إلى نهاياتها فيبقى أن أؤكد ماقلته سابقا: أن سلامة أحمد سلامة معنا: إن لم يكن كرئيس للتحرير. فباسمه الذي نشرُفُ به، وقلمه الذي نحرصُ عليه، ورأيه الذي نقدره ونعتز به. وأن «رئيس التحرير» الفعلي لهذه المجلة، كان وسيظل في واقع الأمر «قارئها» الكريم. الذي نعتقد - بما وضعناه لأنفسنا من نهج أعلناه هنا مرارا ونلتزم به - أن واجبنا هو أن نجتهدَ «جميعا» لنقدم له ما قد يفتقده في زحام ساحة إعلامية امتلأت صخباً وألواناً وأصواتاً عالية. مطبوعة تدققُ اللفظ والمعنى واختيارَ الموضوع، وتفضلُ النظر من مسافة مناسبة تسمح برؤية أعمق.. تنظرُ «في» تفاصيل المشهد، ولا تكتفي بالنظر «إليه».. ولايستهويها اللهاث خلف تدافع الأحداث، فتتأثر بالضرورة بلفح توهجها الآني، وتضطرُ إلى أن تدفع ثمنا حتميا من تحرٍ لدقةٍ مطلوبة، والتزام بموضوعية واجبة.

مطبوعة تعنى بالأصول والمنابع والمرجعيات كمصدر لا ينضب للمعرفة الإنسانية. وتلتزم بأن تكون الساحة المتاحة دائما لـ «الرؤى المتمعنة والمتعمقة» التي قد تحتاج مقالا يقف في مكانٍ وسطٍ بين المقال الصحفي المقيد بحجمه المعتاد وبين الكتاب اللا محدود بطبيعته. وهذا النوع من المقال تعود فكرته في الحقيقة إلى الأستاذ هيكل الذي رأى منذ البداية - ورأينا معه - «أن الومضة السريعة الآن للصورة وليست للكلمة، ذلك أن أي مهتم بالشأن العام سوف يتابع الخبر صورا متلاحقة على الشاشات المضيئة، لكنه يريد من الكلمة أن تذهب إلى ما وراء الصور. وأن تقول له على مهل ما الذي يجرى؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومن؟ ومتى؟ وأن تروى ذلك على مهل..».

وبعد.. فأرجو أن يأذن لي القارئ الكريم، أن «أكرر» ما سبق أن أكدناه هنا غير مرة من أن سياستنا التحريرية في «وجهات نظر» كانت وستظل دائما - بحكم الاسم والهدف - أن ندلل على حقيقة أن الاختلافَ في الرأي لا يتطلبُ غيرَ «الحوار». وأن الحوار يعني في تعريفه الوحيد: تبادلاً لـ «وجهات نظر». فالمتابع للمجلة من عددها الأول لابد أن يلاحظ أنه ما من «رؤية» ضلت طريقها للنشر، في حال توافر شروط «مهنية» لا ننكر صرامتها. إذ يعتقد القائمون على تلك المجلة صادقين بأن «للنظر زوايا مختلفة» وأن رؤيةً مكتملةً للمشهد - مع افتراض إمكان ذلك - لا تتأتى أبدا إلا بمطالعته من مختلف الزوايا.

ففي مواجهة ما بدا مرة - أو مرات - في المشهد الثقافي والفكري العربي، من أن الحوارَ «الحقيقي» يتركُ مكانه عادةً لصخب الخلط والصياح والضجيج والشجار، كان ضروريا (نكرر) أن تكون هناك «محاولةٌ» لإزاحة غبارٍ كثيفٍ تراكمَ على تقاليد الحوار في ثقافة سبقت فجعلت «للكلام» علماً خاصاً قبل عدة قرون. ولعله كان ضروريا أيضاً أن تؤكد «وجهات نظر» أن للحوار آلياته. حيث يحددُ الراغبون - بدايةً - حول ماذا يتحاورون، وما هي نقاطُ الاتفاق. وما هي تلك التي مازالت محلاً للخلاف، ومن ثم للحوار. ثم ما هي المرجعياتُ المتفق عليها، وما هي التعريفاتُ المحددة لما سيستخدمونه من مصطلحات... هنا - وهنا فقط - يبدأُ تبادل «حقيقي» لوجهات النظر بين أطرافٍ تعلمُ بالضرورة أن هناك «رأيا آخر» ليس لنا بالتالي أن نتبرمَ من الإنصات إليه، بعقلٍ يدققُ، وقلبٍ يسمح.. واستعداد لأن نقبلَ منه كما نرفض.

حاولنا في «وجهات نظر».. وسنحاول، مستندين إلى دعم ناشر مثقف - نثق في تاريخه - متمثلين دوما شعاراً وضعه «أستاذنا جميعا» محمد حسنين هيكل لهذه المجلة منذ أن كانت مجرد فكرة: «مجلة مختلفة .. لقارئ مختلف». ■


انضم إلى ١١ مليون عميـــل...
٧٠٪
تخفيـض
على رسوم تركيب
خـط التـليفـون
ولحد آخـر ديسمبـر
ركـب تليفــون منــزلي أو تجـاري
بتخفيض ٧٠ ٪ على رسـوم التركيب
مع امكانيــة التقسيط على أقســاط
ربع سنـوية تــدفعها مع الفاتــورة
والعدة اختيارية
لمزيـد من المعلومـات اتصل بـ ١١١
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا

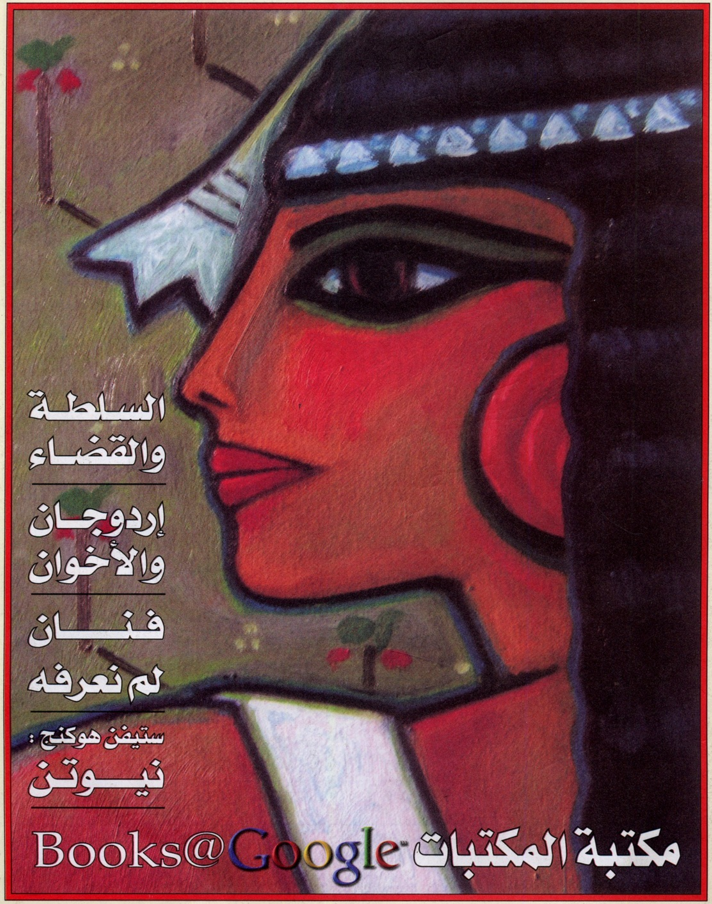
وجهات نظر

الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 107 - December 2007

مجلة شهرية . العدد المائة وسبعة . السنة التاسعة . ديسمبر ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات



السلطة والقضاء

إردوجان والأخوان

فنان لم نعرفه

ستيفن هوكنج:

نيوتن

مكتبة المكتبات Books@Google



جوئل بينين
شتات اليهود المصريين
عبد الرحمن الكواكبي
طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
د. محمد عمارة
مروان كنفاني
سنوات الأمل
تاريخ الاستشراق وسياساته
الصراع على تفسير الشرق الأوسط
زكاري لوكمان
ستون عاما من الصراع في الشرق الأوسط
شهادات للتاريخ
بطرس بطرس غالي و شيمون بيريز
مذكرات
عريان يوسف سعد
السلام والحب والشفاء
الطريق إلى العلاج الذاتي
كتاب النصيحة
قابوس نامه
عبد الرحمن الكواكبي
الأعمال الكاملة
صلاح عيسى
شاعر تكدير الأمن العام
الملفات القضائية للشاعر أحمد فؤاد نجم
جلال أمين
ماذا علمتني الحياة؟
سيرة ذاتية
مذكرات فخري عبد النور
مصر في عهدي عباس وسعيد
النقراشي
مما جرى في بر مصر
يوسف الشريف


GOBELIN
BY ORIENTAL WEAVERS
La Boutique
Oriental Weavers
8 EL SHAHED ZAKARIA KHALIL STREET, HELIOPOLIS, CAIRO. Tel: 22686690
30 GAMET DAWAL STREET, MOHANDESEEN, GIZA. Tel: 33459661
35 ABU EL FEDA STREET EL ZAMALAK, Giza. Tel: 37374411
A Division of Oriental Weavers
عضو مجموعه النساجون الشرقيون

السنة التاسعة
العدد المائة وسبعة
ديسمبر ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد :

كتَّاب العدد :

- إبراهيم الهضيبى.. باحث فى شئون الحركات الإسلامية.
- بشير الكاتب.. جراح سورى - عميد كلية الطب بجامعة حلب سابقًا.
- چيسون إيشتاين.. كاتب أمريكى.
- حسن محمد هند.. مستشار بمجلس الدولة.
- حسين عبد الله.. خبير اقتصاديات البترول والطاقة.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- خيرى منصور .. كاتب عربى.
- ستيفن هوكنج.. عالم فيزيائى إنجليزى بارز.
- سعيد عبدالفتاح عاشور.. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
- طارق على.. روائى وكاتب بريطانى من أصل باكستانى.
- لطيفة محمد سالم .. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية آداب بنها.
- محمد عدنان سالم.. ناشر سورى.
- مصباح الله عبدالباقى.. أستاذ مساعد بالجامعة الإسلامية العالمية - إسلام أباد - باكستان.
- يسرى القويضى.. سفير سابق ورسام مصرى مهتم بتاريخ الفنون.

رسوم العدد للفنان
سعد الدين شحاته

(الغلاف: حلمى التونى.. تفصيل من لوحة زيتية)

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

فى الستين .. فات أوان الندم

باكستان على الحافة!

طارق على

فى الثالث من نوفمبر الماضى، فاجأ الرئيس الباكستانى الجنرال برويز مشرف العالم بانقلابه الثانى (الأول كان عام ١٩٩٩، واستولى عن طريقه على السلطة)، فقد أوقف العمل بالدستور وفرض فعلياً الأحكام العرفية، واعتقل المئات من السياسيين العلمانيين والإسلاميين والمحامين وناشطى حقوق الإنسان، كما أوقف بث القنوات التليفزيونية الخاصة.

ولم يكن «الانقلاب الثانى» سوى ذروة الصراع بين مشرف وخصومه السياسيين الذين صعدوا احتجاجاتهم فى الشهور الأخيرة لإنهاء حكمه الديكتاتورى، فقد تصدت المحكمة الدستورية لقراراته، الأمر الذى جعل مشرف يتهمها بعرقلة جهوده للقضاء على التطرف فى البلاد، كما أن المحامين الباكستانيين تزعموا حركة المعارضة لحكمه فى الوقت الذى صعدت الحركات الإسلامية المتشددة من هجماتها على الجيش الباكستانى على الحدود مع أفغانستان، وقد حاول مشرف قبيل التصعيد الأخير تجميل نظام حكمه بالسماح بعودة بنازير بوتو زعيمة حزب الشعب إلى البلاد لخوض الانتخابات البرلمانية (المقررة فى يناير المقبل) وتولى رئاسة الحكومة مع استمراره كرئيس للبلاد، إلا أنه عندما شعر أن المحكمة الدستورية لن تصادق على عملية انتخابه والتى جرت مؤخراً قرر تصعيد المواجهة التى لا يعلم أحد كيف ستتطور وما هى تداعياتها.

الكاتب والناشط البريطانى الباكستانى الأصل «طارق على» زار باكستان قبيل إعلان مشرف حكم الطوارئ وكتب مقالاً فى مجلة لندن ريفيو أوف بوكس، رسم فيه صورة بلد أصابه الإحباط بعد ٦٠ عاماً من الاستقلال وجنرال يرغب فى البقاء على سدة السلطة بأى ثمن وكل وسيلة. «وجهات نظر» تنشر هذا المقال العميق الذى يمثل رؤية تحليلية واستشرافية لمستقبل هذا البلد المسلم.

«المحرر»



■■ من الأفضل تجنب باكستان فى شهر أغسطس حيث تهطل الأمطار لتحول السهول إلى حمام بخار هائل. حين كنت أعيش هناك، كنا نهرب إلى الجبال، ولكنى هذا العام بقيت فى مكانى. القاتل الحقيقى هو الرطوبة. يأتى الخلاص بدفقات صغيرة: سكون فجائى يتبعه إظلام السماء، دمدمة الرعد مثل رجع قنابل بعيدة ثم مطر غزير تفيض منه الأنهار وروافدها بسرعة هائلة. وتعيق الفيضانات السريعة المرور فى المدن. وتجرى مياه الصرف الصحى عبر أحياء الفقراء والأغنياء على السواء. وحتى لو انتقلت مباشرة من غرفة مكيفة الهواء إلى سيارة مكيفة الهواء، فإنك لا تستطيع الهروب من الرائحة تماماً. فى أغسطس قبل ستين عاما انفصلت باكستان عن شبه القارة الهندية. هذا الصيف، ازددت وعيا وأنا أشهد بنفسى تسرب السلطة بعيدا عن برفيز مشرف، رابع دكتاتور عسكرى فى البلاد.

الإحباط والغضب كانا سائدين. لم يعد مجدياً، تغذية المشاعر المعادية للهنود وللهندوس فى محاولة لتشجيع التلاحم الوطنى. كانت الاحتفالات بذكرى الاستقلال فى ١٤ أغسطس أكثر تصنعا وإزعاجا من أى وقت مضى. الشعارات المتنافرة والخالية من المضمون والتى لم تعد تؤثر فى أى شخص، كليشيات بلا حدود فى ملاحق الصحف وهى تتنافس على المساحة مع صور جامدة للمؤسس (محمد على جناح) والشاعر (اقبال). مناقشات تافهة تذكرنا بما قاله أو لم يقله جناح. وتكرار إدانة لورد مونتباتن الغدار وزوجته «اللعوب» ادوينا، بسبب تفضيلهما الهند عند تقسيم الغنائم. وهذا صحيح ولكننا لا نستطيع أن نلقى اللوم عليهما للخراب الذى أصبحت الباكستان عليه. فى الجلسات الخاصة طبعا، هناك الكثير من الحديث الصادق وعدد مدهش من الناس الذين يشعرون أن قيام الدولة أصلا كان خطأ.

بعد عدة سنوات من الانفصال عن بنجلادش عام ١٩٧١، نشرت دار بنجوين كتابا لى بعنوان (هل تستطيع باكستان أن تعيش؟). وقد أدين الكتاب علنا ومنع من قبل الدكتاتور فى ذلك الوقت الجنرال ضياء الحق، ومع ذلك تمت قرصنة الكتاب فى عدة طبعات. تساءلت: أنه إذا كان للدولة أن تستمر بنفس الطريقة القديمة، فإن بعض أقاليم الأقليات قد تنفصل هى الأخرى تاركة البنجاب وحدها، تختال مثل ديك على كومة روث. والكثير ممن اعتبرونى

بترتيب مع:
London Review of Books

ترجمة بثينة الناصرى

خائنا ومرتدا، يسألون الآن نفس السؤال. وأقول لهم: فات أوان الندم. الدولة باقية. ولن يضمن بقاءها، الدين أو «أيديولوجية باكستان» الروحية، وإنما قدرتها النووية وواشنطن.

فى ذكرى ميلاد البلاد الستين (كما فى الذكرى العشرين والثلاثين) يحاول نظام عسكرى القتال دفاعا عن وجوده. هناك حرب على حدوده الغربية، بينما فى الداخل يتعذب النظام على أيدى الجهاديين والقضاة. ويبدو أن كل هذا لم يشكل أى فرق لدى الشباب راكبى الدراجات النارية الذين ينطلقون فى شوارع لاهور فى سباقهم الانتحارى السنوى. يبدو أن الشىء الوحيد الذى يستحق الاحتفال به هو الحق فى الموت. خمسة فقط تمكنوا من الموت هذا العام، وهو رقم أقل بكثير من السنوات الخمس السابقة. قد تكون هذه طريقة معقولة للاحتفال بذكرى صراع قطع فيه مليون شخص بعضهم البعض اربا حينما كانت الامبراطورية البريطانية المتداعية تستعد للهروب نحو الوطن. فى عشية التقسيم، كُرس اجتماع وزارى فى لندن للأزمة المتصاعدة فى الهند. وقد كُتب فى المحاضر: «كان السيد جناح شديد الغضب والتصميم. وقد بدا فى نظر وزير الخارجية مثل رجل يعرف أنه سوف يقتل ولهذا يصمم على أن ينتحر لتفادى ذلك». ولم يكن وحده على هذه الحالة.

والآن هناك طاغية عسكرى آخر يتلقى التحية فى عرض عسكرى فى ذكرى الاستقلال فى إسلام أباد، وهو يلقى خطابا سيئًا كتبه بيروقراطى متضجر فشل فى كبت تثاؤب المتملقين المحيطين به. حتى طائرات إف ١٦ التى تحلق بتشكيلات جميلة فشلت فى إثارة الجمهور. كانت الأعلام ترفرف بأيدى طلاب المدارس والفرقة تعزف النشيد الوطنى، وقد تم بث العرض على الهواء ثم انتهى كل شىء.

الصحف الأوروبية والأمريكية الشمالية تعطى الانطباع بأن مشكلة باكستان الأولى، إن لم تكن الوحيدة، هى قوة المتطرفين الملتحين المتوارين فى جبال الهندو كوش (سلسلة جبال فى جنوب غرب آسيا تمتد لأكثر من ٨٠٥ كم غربيًا من شمال باكستان إلى شمال شرق أفغانستان- المترجمة)؛ والذين كما ترى الصحف على وشك الاستيلاء على السلطة. وحسب هذه الرؤية فإن مشرف وحده القادر على منع أى جهادى من وضع أصبعه على الكابس النووى. ولكن، مع الأسف، يبدو أنه الآن غارق فى بحر المشاكل وهكذا فإن وزارة الخارجية الأمريكية قد دفعت بقارب مطاطى منفوخ أكثر من اللازم اسمه بنازير بوتو.

فى الواقع، إن خطر استيلاء الجهاديين على باكستان بعيد. ليس هناك احتمال استيلاء متطرفين متدينين إلا إذا أراد الجيش ذلك، كما فى الثمانينيات، حين سلم الجنرال ضياء الحق وزارتى التعليم والإعلام إلى «جماعتى إسلامى»، وكانت النتائج مؤسفة. هناك مشاكل خطيرة تجابه باكستان، ولكن واشنطن تتغافل عنها عادة، إدارة ومؤسسات مالية. ورغم أن الافتقار إلى البنى التحتية الاجتماعية الأساسية يسبب اليأس وفقدان الأمل، ولكن مع ذلك لا يلتحق بالجهاد إلا فئة صغيرة جداً.

خلال فترات الحكم العسكرى فى أفغانستان، كانت الصفوة الحاكمة تتكون من ثلاث مجموعات: قادة عسكريين، سياسيين من المنافقين المصفقين، ورجال أعمال يضعون أعينهم على العقود الدسمة أو الأراضى التى تملكها الدولة. وقد قضت هذه الصفوة السنوات الستين الأخيرة تدافع عن ثروتها التى حازتها بطرق مريبة وعن امتيازاتها، وكان القائد الأعلى (عسكريًا كان أم غير ذلك) ينتشى دائما بالإطراء والتملق. الفساد يغلف باكستان. الفقراء يتحملون العبء ولكن الطبقات الوسطى تأثرت أيضاً. لم يعد المحامون والأطباء والمعلمون ورجال الأعمال الصغار، والتجار، يستطيعون العيش فى نظام يقوم على المحسوبية والرشوة. البعض هرب - هناك ٢٠ ألف طبيب باكستانى يعملون فى الولايات المتحدة وحدها- ولكن الآخرين يتكيفون مع النظام، ويقبلون تنازلات تدفعهم إلى التشكيك العميق بأنفسهم وبكل الآخرين.

والفراغ الأخلاقى الناتج عن هذا تملؤه الأفلام الإباحية والتشدد الدينى من كل الأنواع. فى بعض المناطق تجد الدين والإباحية جنبًا إلى جنب: أعلى المبيعات لأفلام الفيديو الإباحية هى فى بيشاور وكويتا، وهما من معاقل الأحزاب الدينية. ويستهدف قادة طالبان فى باكستان محلات الفيديو، ولكن المتاجرين بها يختفون عن الأنظار انتظارا للظهور مرة أخرى. وينبغى ألا نظن أن معظم الأفلام الإباحية تأتى من الغرب / ففى باكستان هناك صناعة مزدهرة لها نجومها المحليون من ذكور وإناث.

وفى هذه الأثناء، ينشط الإسلاميون فى تجنيد المؤيدين. ودعاة جماعة التبليغ (TJ تبليغى جماعة) - الذين يعملون بدأب وصرامة، يتركون أثرًا فعالاً كبيرًا. ويصطف فى طابور المنتمين: الخاطئون الباحثون بيأس عن التوبة وهم من كل طبقات المجتمع.

تقع مقرات جماعة التبليغ الباكستانية فى ريوند. التى كانت فيما مضى قرية صغيرة تحيطها حقول القمح والذرة وبذور الخردل. والآن هى ضاحية متمدنة وراقية من ضواحى لاهور. حيث بنى الأخوان شريف قصرًا على الطراز الخليجى حين كانا فى السلطة فى التسعينيات. تأسست جماعة التبليغ فى العشرينيات من القرن الماضى من قبل مولانا الياس، وهو رجل دين تدرب فى حلقة سنية فى ديوباند فى اوتار براديش. فى بداية الأمر، كانت مقراتها تتركز فى شمال الهند. ولكن اليوم هناك مجموعات كبيرة منها فى أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية. وتأمل جماعة التبليغ أن تحصل على رخصة لبناء مسجد فى شرق لندن إلى جانب الموقع الاوليمبى. وسوف يكون أكبر مسجد فى أوروبا.



هناك طاغية عسكرى آخر يتلقى التحية فى عرض عسكرى فى ذكرى الاستقلال فى إسلام أباد، وهو يلقى خطابا سيئًا كتبه بيروقراطى متضجر فشل فى كبت تثاؤب المتملقين المحيطين به

فى باكستان، ينتشر تأثير جماعة التبليغ وكان تغلغلها فى فريق الكريكت الوطنى أكبر إنجازاتها. حيث ينشط انزمام الحق ومحمد يوسف للدعوة لها فى الوطن فى حين أن مشتاق أحمد يبذل كل جهده لرعاية مصالحها فى بريطانيا.

ونصر آخر للجماعة حدث بعد ١١/ ٩ وهو تجنيد جنيد جمشيد، المغنى الكارزمى الرئيسى فى أول جماعة بوب باكستانية ناجحة وهى «فايتال ساينس vital signs». وقد تبرأ المغنى عن ماضيه ويغنى الآن الأغانى الدينية فقط (الذكر) أو (نعت naats) بالباكستانية.

يشدد التبليغيون على جهادهم السلمى ويصرون على أن هدفهم هو نشر الإيمان الصادق من أجل مساعدة الناس على إيجاد الطريق الصحيح فى الحياة. وقد تكون هذه هى الحقيقة. ولكن من الواضح أن بعض المجندين الذكور الشبان، وهم يشعرون بالملل من التعاليم والمراسم والطقوس، يفضلون أن يضعوا أياديهم على كلاشينكوف. ويعتقد الكثيرون أن معسكرات الدعوة التبليغية هى أرض تجنيد خصبة للجماعات المسلحة التى تنشط على الحدود الغربية وفى كشمير.

لقد تأخرت المؤسسة فى التشكيك بتفسير الإسلام على طريقة جماعات مثل التبليغ. وقد نصح مشرف الشعب أن يذهبوا لرؤية فيلم «خدا كى لى» (باسم الله) وهو فيلم جديد أخرجه شعيب منصور (الذى كتب وأنتج بعض أكثر أغانى فرقة فايتال ساينس نجاحًا). ولكن هذا قد لا يساعد الفيلم، أو الإسلام المعتدل الذى يبشر به، إذا عرفنا أن نسبة شعبية مشرف تأتى بعد أسامة بن لادن حسب استفتاء حديث، ولكنى ذهبت لمشاهدة الفيلم فى حفلة ماتينيه فى لاهور وكانت السينما مكتظة بالشباب. مقاعد



الفيلم جيدة ولكنه كان مطولاً ومباشرًا. ومع ذلك فقد كان له بعض التأثير. على الأقل قدم الفيلم أفكارا جديدة، لم تطرح من قبل فى دولة لا تنتج صناعتها السينمائية سوى تفاهات بوليوود (هوليوود السينما الهندية - المترجمة)، حتى إذا كانت الأفكار محدودة بأنماط المسلم الجيد والمسلم السيئ. العنف الجهادى سيئ، والموسيقى جيدة وليست محرمة. العنف والاغتصاب فى أرض الشر على الحدود الباكستانية الأفغانية تتقاطع مع مشاهد فى الولايات المتحدة بعد ٩/١١، حيث يعتقل موسيقى باكستانى من قبل عناصر الاستخبارات ويعذب (مشاهد التعذيب تستغرق وقتا طويلا). المضمون هنا أن كل طرف يتغذى على الطرف الآخر. إنه فيلم محتشم وكان من الواضح أن الشبان الذين يجلسون خلفى، كانوا يرغبون بمشاهدة بعض مشاهد الجنس. فحين قدمت طالبة بيضاء فى شيكاغو هدية للموسيقى الباكستانى، علق أحدهم: «إنها تعطيه رقم هاتفها». ولو لم يطلب منهم حاجب السينما السكوت لكان استمتاعى بالفيلم أكثر.

أحد أهم التهديدات لحكم مشرف هو الهيئة القضائية. فى ٩ مارس، أوقف مشرف افتخار محمد شودرى، رئيس القضاة فى المحكمة العليا عن العمل، ريثما ينتهى التحقيق. وكانت التهم الموجهة ضده متضمنة فى رسالة من نعيم بخارى وهو محام فى المحكمة العليا. ومما يثير الاستغراب أن الرسالة وزعت على نطاق واسع - وقد استلمت نسخة منها عبر بريدى الإلكترونى. وتساءلت فى حينها ما إذا كان هناك شىء فى الأفق، ولكن بعد ذلك قررت أنها مجرد عنقود غضب. ولكن الأمر لم يكن كذلك. كانت جزءًا من خطة. بعد عرض العديد من الشكاوى الشخصية، هيمنت بلاغة مبالغ بها:

«فضيلة القاضى، إن كرامة المحامين تنتهك باستمرار من قبلكم. إننا نعامل بقسوة وفظاظة وفجاجة وبذاءة. ولايُسمع لنا. ولايُسمح لنا أن نعرض قضيتنا. ثمة مجال ضيق للمحاماة. إن الكلمة الدارجة فى غرفة المحامين لوصف المحكمة رقم واحد هى «المذبح». وإخضاعنا يتم بالعدوان علينا من قبل المنصة التى ترأسونها. كل ما نأخذه منكم هو الاستعلاء والعدوان والتحارب».



خلال فترات الحكم العسكرى فى أفغانستان، كانت الصفوة الحاكمة تتكون من ثلاث مجموعات: قادة عسكريين، سياسيين من المنافقين المصفقين، ورجال أعمال يضعون أعينهم على العقود الدسمة أو الأراضى التى تملكها الدولة

وكان يجب أن تنبهنى هذه الفقرة لما يجرى حقيقة:

«أشعر بالألم للتغطية الإعلامية للقضايا التى يتعامل معها فضيلة القاضى فى المحكمة العليا تحت شعار الحقوق الأساسية. كان يمكن لقضاة المناطق بكل سهولة، البت فى مثل هذه القضايا، وليس المحكمة العليا. كما تؤلمنى أيضا التغطية الإعلامية للمحكمة العليا حول قضية استرداد أنثى. فى غرفة المحامين، نسمى هذا «سركا إعلاميا»».

كان رئيس القضاة قد بدأ فى إحراج النظام. فقد وقف ضد الحكومة فى عدد من القضايا المهمة، بضمنها الخصخصة المتسرعة لمصنع فولاذ باكستان فى كراتشى، وهو مشروع برعاه رئيس الوزراء شوكت (شورتكت) عزيز. (شورتكت shortcut هى تسمية ساخرة أطلقها الشعب على رئيس الوزراء وتتلاعب على اسمه - شوكت- وشورتكت تعنى طريقًا مختصرًا- المترجمة). والقضية تذكر بروسيا على عهد يلتسن. وكان الاقتصاديون قد قدروا أن المصنع يساوى ٥ بلايين دولار. وقد بيع ٧٥٪ من الحصص بمبلغ ٣٦٢ مليون دولار فى مزاد استغرق ٣٠ دقيقة لمجموعة موالية تتكون من شركة عارف حبيب للأمن (باكستان) والطوريقى (السعودية) وحديد وفولاذ ماجنتوغورسك ايرون (روسيا). ولم يعجب الجيش هذه الخصخصة. واشتكى القائد المتقاعد حق نواز اختر بأنه «لو بيع المصنع كخردة لكان قد أتى بمبالغ أكبر» وكان الإدراك العام هو أن تلك العملية تمت لمساعدة أصدقاء الرئيس ورئيس الوزراء. وقد أبلغنى فى كراتشى، أحد مرتادى البورصة بأن شركة عارف حبيب للأمن (التى تمتلك ٢٠٪) قد أقيمت كواجهة لشوكت عزيز. ويشاع أن عملاق الفولاذ السعودى (٤٠٪) صديق حميم لمشرف، وكانت الشركة قد قدمت إلى البلاد لإقامة مصنع فولاذ على ٢٢٠ هكتارًا من الأراضى المؤجرة من مصنع الفولاذ الباكستانى. كل هذا أصبح ملك الشركة الآن.

بعد أن أصرت المحكمة العليا على أن إحضار الناشطين السياسيين (المخفيين) إلى المحكمة ورفضت إغلاق قضايا الاغتصاب، كان هناك قلق فى إسلام أباد من احتمال أن يعلن رئيس القضاة عدم دستورية الرئاسة العسكرية. وهنا سادت بارانويا. كان يجب اتخاذ بعض الإجراءات. قرر الجنرال ومجلس وزرائه إخافة شودرى بإيقافه عن العمل. وأبقى رئيس القضاة تحت الإقامة الانفرادية لعدة ساعات، وعامله ضباط الاستخبارات بخشونة بالغة، وانتهكت كرامته على شاشة التليفزيون الحكومى. ولكن بدلا من التراجع وقبول تسوية استقالة براتب تقاعدى كبير، أصر القاضى على الدفاع عن نفسه، مما أشعل حركة كبيرة دفاعا عن استقلال القضاء. وهذا يثير الدهشة. فالمعروف عن القضاة الباكستانيين أنهم محافظون وقد أقروا بشرعية كل انقلاب تحت حيثية «مبدأ الضرورة» (رغم أن البعض رفض حلف يمين الولاء لمشرف).

حين زرت باكستان فى أبريل، كانت الاحتجاجات تتسع يوما بعد يوم. وكانت محصورة أساسا فى محامى البلاد البالغ عددهم ٨٠ ألفًا وفى عشرات القضاة، ولكن الشغب انتشر خارج هذا النطاق، وكان شيئا غريبا فى بلاد ينأى شعبها عن حكم الصفوة. ولكن المحامين كانوا يحتجون دفاعًا عن فصل السلطات الدستورى. وكان مما يبعث على السرور أن شيئًا قديم الطراز يكتنف هذه الاحتجاجات: فلم يكن المحرك هو المال أو الدين، ولكن المبدأ.

وقد حاول المهنيون من المعارضة (بعضهم كان قد نظم هجمات فجة على المحكمة العليا حين كانت مع السلطة) أن ينسبوا القضية لأنفسهم. قال لى عبد حسن مانتو وهو أحد أكثر محامى البلاد المحترمين «لا تتصور أنهم قد تغيروا فجأة. ومن الجانب الآخر، حين يحين الوقت فأى شىء قد يشعل الشرارة».

لقد أصبح واضحا لمعظم أعضاء حكومة إسلام أباد بأن ما أقدموا عليه كان خطأ هائلا. ولكن كما يحدث عادة فى الأزمات، بدلا من الاعتراف بالخطأ والتحرك لتصحيحه، قررت السلطة أن تستعرض قوتها. كان أول الأهداف هى قنوات التليفزيون المستقلة. فى كراتشى وفى مدن أخرى أظلمت فجأة ثلاث قنوات وهى تعرض تقريرًا عن المظاهرات. وكان هناك غضب شعبى



عارم. فى ٥ مايو، انطلق شودرى من إسلام أباد إلى لاهور ليتحدث. وقد توقف فى كل مدينة على الطريق للقاء مؤيديه. استغرق الوقت ٢٦ ساعة لإكمال رحلة تستغرق عادة من أربع إلى خمس ساعات. فى إسلام أباد، خططوا لضربة مجهضة.

كان مقرراً أن يزور القاضى، كراتشى وهى أكبر مدينة فى البلاد فى يوم ١٢ مايو. السلطة السياسية هنا هى فى أيدى (حركة قوامى المتحدة /الحركة الوطنية المتحدة) وهى جماعة بغيضة تأسست خلال دكتاتورية سابقة، ومشهورة بأنشطتها فى مجال الحمايات وأنواع أخرى من العنف. وقد دعمت مشرف بإخلاص فى كل الأزمات التى مر بها. قائدها ألطاف حسين يدير الحركة من ملاذه الآمن فى لندن، هرباً من انتقام أعدائه الكثيرين إذا عاد إلى البلاد. فى خطاب بالفيديو موجه إلى أتباعه فى كراتشى قال «إذا كانت المؤامرات تحاك لإنهاء الحكومة الحالية المنتخبة ديمقراطياً، إذن كل عضو فى الحركة الوطنية المتحدة سوف يقف صلباً ويدافع عن الحكومة الديمقراطية». وكانت هذه طريقته. وحسب توجيهات إسلام أباد قرر قادة الحركة منع القاضى من إلقاء خطابه فى اجتماع كراتشى. لم يسمح له بمغادرة المطار، وهوجم مؤيدوه فى أجزاء عديدة من المدينة. وقتل حوالى ٥٠ شخصاً. وبعد أن عرضت لقطات من العنف على شاشة تليفزيون عاج Aaj ، هوجمت المحطة بمتطوعين مسلحين من الحركة قاموا بإطلاق النار على المبنى لمدة ست ساعات كاملة وأحرقوا السيارات الموجودة فى ساحة وقوف السيارات الخاصة بالمحطة.

وفى هذه الأثناء، عجزت إدارة المحطة التليفزيونية بشكل غامض عن الاتصال بضباط الشرطة الكبار أو الوزير أو حاكم المدينة. وأدرك الناس السبب وأعلنوا إضراباً عاماً شاملاً زاد من عزلة النظام. وقد نشرت مفوضية حقوق الإنسان فى باكستان فى أغسطس تقريراً مدمراً بعنوان (مذبحة فى كراتشى) أكد بتفاصيل كثيرة ما يعرفه كل شخص: لقد صدرت أوامر للشرطة والجيش بعدم التدخل فيما كان أعضاء الحركة الوطنية المتحدة يقومون بالقتل والتدمير.

ولم يكن أمام مشرف الذى كان يحاول أن يحتفظ بقبضته على البلاد، بديل، سوى التراجع. قدم رئيس القضاة استئنافه ضد إيقافه عن العمل، أمام المحكمة العليا. وفى ٢٠ يوليو صدر قرار بالإجماع لإعادته إلى منصبه وشوهد محامو الحكومة يهرعون إلى خارج المحكمة مجللين بالعار. وشرعت المحكمة التى بثت فيها الحياة فى تنفيذ مهامها. كان حافظ عبد الباسط سجيناً (مخفيا) متهماً بالإرهاب. استدعى رئيس القضاة المدير العام لوكالة التحقيق الفيدرالية الباكستانية طارق برفيز وسأله بأدب عن مكان السجين. أجاب برفيز بأنه لا يعلم بل إنه لم يسمع بعبد الباسط. أصدر رئيس القضاة أمراً لمدير الشرطة أن يأتى بعبد الباسط إلى المحكمة فى غضون ٤٨ ساعة: «إما أن تأتى بالمعتقل أو تستعد لتذهب أنت إلى السجن» بعد يومين أحضر عبد الباسط ثم أطلق سراحه، بعد أن عجزت الشرطة عن تقديم دليل ضده. ولم يسعد هذا الخبر واشنطن ولندن. كانت الحكومتان على اقتناع بأن عبد الباسط إرهابى ويجب أن يبقى فى السجن إلى أجل غير محدد، بالضبط كما كان سيحدث لو كان الأمر يجرى فى بريطانيا والولايات المتحدة.

وتنظر المحكمة العليا حالياً ست شكاوى ضد قرار مشرف دخول سباق الرئاسة بدون التخلى عن رئاسته للجيش. ويزداد القلق فى إسلام أباد. ويهدد الموالون للرئيس بأسوأ العواقب إذا كان حكم المحكمة ضد ترشيح الرئيس. ولكن إعلان حالة طوارئ سوف يتطلب دعماً من الجيش وقد قيل لى بأن مصادر غير رسمية كشفت أن هناك معارضة من جانب الجنرالات للتدخل. وعذرهم المؤدب هو أن انشغالهم الكثيف فى «الحرب على الإرهاب» يعيقهم عن الحفاظ على القانون والنظام فى المدن. (لقد فرضت حالة الطوارئ فعلاً وقال مشرف إنها ستكون لمدة شهر فقط - المترجمة).

وعندما انتهت أزمة القضاء مؤقتاً، طفت على السطح أزمة أكثر حدة. معظم الجماعات الجهادية اليوم هى نسل هجين لأجهزة الاستخبارات الباكستانية والغربية، وقد ولدت فى الثمانينيات من القرن الماضى حين كان الجنرال ضياء فى السلطة يشن حرباً نيابة عن الغرب ضد الروس (الملاحدة) الذين كانوا يحتلون أفغانستان.



كان رئيس القضاة قد بدأ فى إحراج النظام. فقد وقف ضد الحكومة فى عدد من القضايا المهمة، بضمنها الخصخصة المتسرعة لمصنع فولاذ باكستان فى كراتشى، وهو مشروع يرعاه رئيس الوزراء

حينذاك بدأت الرعاية الحكومية للجماعات الإسلامية. وأحد رجال الدين المستفيدين، كان مولانا عبد الله الذى منح أرضاً لبناء مدرسة دينية فى قلب إسلام أباد، ليس بعيداً عن المبانى الحكومية. وسرعان ما توسعت المساحة لتستوعب بناء مبنيين منفصلين (للطلاب الذكور والإناث)، مع توسيع مسجد لال (المسجد الأحمر). كل ذلك كان بأموال حكومية ومن الناحية التقنية، تعتبر الحكومة صاحبة هذه الملكية.

خلال الثمانينيات والتسعينيات، أصبح هذا المجمع معسكر ترانزيت للجهاديين الشباب وهم فى طريقهم للقتال فى أفغانستان وفيما بعد كشمير. ولم يخف عبد الله معتقداته. كان متعاطفاً مع التأويل الوهابى السعودى للإسلام وخلال الحرب العراقية الإيرانية، كان سعيداً بقتل «الزنادقة» الشيعة فى باكستان. وكانت رعايته لجماعات الإرهاب شديدة الطائفية والمعادية للشيعة هى التى قادت إلى اغتياله فى أكتوبر ١٩٩٨. وقد قتله أعضاء فصيل إسلامى منافس فور انتهائه من الصلاة فى مسجده.

خلفه فى إدارة المسجد والمدارس ابناه عبد الرشيد غازى وعبد العزيز. وقد وافقت الحكومة على أن يؤم عزيز صلاة الجمعة ويخطب فى المصلين. وكانت خطبه مؤيدة للقاعدة، رغم أنه كان أكثر حذراً بعد ١١ سبتمبر. وكان الموظفون المدنيون الكبار وضباط الجيش يحضرون صلاة الجمعة غالباً. وكان أخوه رشيد الأكثر ثقافة وذلاقة لسان، بوجهه الناحل ولحيته الشعثاء، يجيد اجتذاب الصحفيين الزائرين سواء أجانب أو محليين.

ولكن بعد نوفمبر ٢٠٠٤، حين شن الجيش تحت ضغط شديد من الولايات المتحدة، عدواناً على المناطق القبلية المتاخمة لحدود أفغانستان، توترت العلاقة بين الأخوين والحكومة. ولكن عزيز بالأخص كان هادئاً وربما لم يكن ليولى الأمر أهمية ولكن طبقاً لرشيد «جاءنا كولونيل متقاعد من الجيش الباكستانى بعريضة مكتوبة يطلب فيها فتوى توضح رأى الشريعة فى الحرب التى يشنها الجيش على القبائل». عزيز لم يضيع أى وقت. أصدر فتوى يعلن فيها أن قتل هؤلاء الناس من قبل جيش مسلم حرام «وأى



عسكرى يقتل خلال العملية ينبغى أن يحرم من الدفن الإسلامى» وأن «المقاتلين من الجانب الآخر الذين يموتون أثناء المعركة مع الجيش الباكستانى يعتبرون شهداء». خلال أيام من نشر الفتوى، صادق عليها علنًا حوالى خمسمائة «باحث إسلامى». ورغم الضغط الشديد من رعاة المسجد فى الاستخبارات العسكرية الباكستانية، رفض الأخوان سحب الفتوى. وكان رد الحكومة لدهشة الجميع خافتًا. أنهى مركز عزيز الرسمى كإمام للمسجد وصدر قرار باعتقاله لكن لم ينفذ أبدا وسمح للأخوين بالاستمرار. ربما رأت الاستخبارات العسكرية أن ثمة فائدة فى ذلك.

فى بداية ذلك العام، ادعت الحكومة أنها كشفت مؤامرة إرهابية لتفجير مقرات عسكرية بضمنها مقر الحكومة ومبان أخرى، وفى ١٤ أغسطس عثر على بنادق آلية ومتفجرات فى سيارة عبد الرشيد غازى. وأصدرت مذكرات قانونية جديدة بحق الأخوين واعتقلا. عند هذه المرحلة، أقنع وزير الشئون الدينية إيجاز الحق وهو ابن الجنرال ضياء، زملاءه لإعلان العفو عن رجلى الدين مقابل اعتذار مكتوب تعهدا فيه بعدم الانخراط فى صراع مسلح. وقد قال رشيد: إن هذه مؤامرة حيكت لإرضاء الغرب. وفى مقالة كتبها ونشرت فى إحدى الصحف طالب وزير الشئون الدينية أن يقدم الدليل على أنه كتب ذلك التعهد. وقوبل طلبه بالصمت.

فى يناير هذا العام، قرر الأخوان تحويل تركيزهما من السياسة الخارجية إلى الداخلية وطالبا بتطبيق فورى للشريعة. حتى ذلك الوقت كانا يكتفيان بإدانة السياسات الأمريكية فى العالم الإسلامى وإدانة رجل أمريكا مشرف لأنه قدم المساعدة فى الإطاحة بحكومة طالبان فى أفغانستان. ورغم أنهما لم يؤيدا علنا المحاولات الثلاث لاغتيال مشرف، ولكن لم يكن سرًا أنهما أسفا على نجاته. وكان المقصود من البيان الذى أصدراه فى يناير أن يكون استفزازًا علنيًا للنظام. وقد شرح عزيز برنامجه: «سوف لن نسمح بالرقص والموسيقى فى باكستان. وكل من يهتم بمثل هذه الأمور عليه أن ينتقل إلى الهند. لقد تعبنا من الانتظار. إما الشريعة وإما الشهادة». وقد شعرا بالخطر بعد قيام الحكومة بتهديم مسجدين بنيا بشكل غير قانونى على أرض تعود ملكيتها للدولة. وحين استلما



فى الواقع أن الجهاديين غير محبوبين فى معظم باكستان ولا الحكومة محبوبة أيضا. وتثير واقعة المسجد الأحمر الكثير من التساؤلات التى لم يتم الإجابة عنها. لماذا لم تتصرف الحكومة فى يناير؟

إبلاغات تعلن عزم الحكومة على تهديم أجزاء من المسجد الأحمر ومصلى النساء، أرسل الأخوان عشرات البنات الطالبات وهن يرتدين البرقع لاحتلال مكتبة أطفال مجاورة للمصلى. وقد فوجئت عناصر الاستخبارات بهذا التطور، ولكنها سرعان ما بدأت التفاوض لإنهاء هذا الاحتلال.

استمر الأخوان فى اختبار تحمل السلطات. طبقت الشريعة وأشعلت النيران فى أكوام من الكتب والأسطوانات المضغوطة والدى فى دى. ثم وجهت طالبات المدرسة (كلمة مدرسة وتكتب بالإنجليزية بنفس اللفظ أصبحت تعنى لدى الغرب - المدارس الدينية - المترجمة) نيرانهن إلى بيوت الدعارة الرائجة فى إسلام أباد مستهدفات العمة شميم، وهى قوادة مشهورة فى هذا المجال كانت تقدم الفتيات «المحترمات» للاغراض غير المحترمة، وكان من زبائنها العظماء والأخيار (ومنهم عدد من رجال الدين المعتدلين). كانت العمة تدير بيت الدعارة وكأنه مكتب: تراعى ساعات العمل وتغلق المحل فى منتصف النهار أيام الجمع ليتمكن الزبائن من الذهاب إلى أقرب مسجد، وهو بالمناسبة المسجد الأحمر. وقد هاجمت كتائب الأخلاق المنزل و«حررت» النساء. كان معظم البنات متعلمات وبعضهن أمهات وحيدات وبعض آخر أرامل. ولكن يشتركن جميعا فى حاجتهن الملحة للنقود، وكانت ساعات «المكتب» تناسبهن. هربت العمة شميم من المدينة، وبحثت عاملاتها عن توظيف مماثل فى مكان آخر، فى حين هللت بنات المدرسة لهذا النصر السهل الذى شجعهن على طرق أبواب أخرى، فقررن الهجوم على محلات المساج الراقية فى إسلام أباد، ولم تكن كلها أماكن للجنس، وبعضها كان يعمل فيها مواطنون صينيون. اختطفت ست نساء صينيات فى أواخر يونيو وأخذن إلى المسجد. ولكن هذا لم يرض السفير الصينى الذى أخطر الرئيس «هو جنتاو» الذى كان أكثر غضبًا، وطالبت بكين بتحرير مواطناتها بدون تأخير. وصل مندوبو الحكومة الباكستانية إلى المسجد لشرح أهمية العلاقات الاستراتيجية بين الصين والباكستان، وهكذا أطلق سراح النساء. وقد تعهد أصحاب مهنة المساج بأنه من هنا فصاعداً سوف يقوم الرجال فقط بالمساج للرجال. وهكذا أنقذ الشرف، رغم أن الصفقة كانت تناقض تعاليم القرآن. وقد وصفت الصحافة الليبرالية الحملة ضد الفجور بأنها تحويل باكستان إلى طالبانية مما أزعج رجلى الدين فى المسجد الأحمر وقال رشيد: «حين أصبح رودى جليانى عمدة نيويورك، أغلق دور الدعارة. فهل كان ذلك تحويل أمريكا إلى طالبانية؟».

شعر مشرف بالغضب والإحراج لخطف النساء الصينيات، وطالب بحل. وصل السفير السعودى فى الباكستان على سعيد العوض العسيرى إلى المسجد وقضى تسعين دقيقة مع الاخوين. رحبا به ولكنهما أبلغاه بأنهما يريدان تنفيذ الشريعة السعودية فى باكستان. هل لديه اعتراض على ذلك؟ رفض السفير لقاء الصحافة بعد الزيارة، ولهذا لم يعرف رد فعله. ولما فشلت مساعيه، وضعت الخطة (ب) قيد التنفيذ.

فى ٣ يوليو، بدأ الجنود فى مد أسلاك شائكة فى نهاية الشارع أمام المسجد. فتح بعض طلاب المدرسة النيران وقتلوا جنديا، وأشعلوا النيران فى وزارة البيئة المجاورة. ردت قوات الأمن ليلتها بالغاز المسيل للدموع وبالبنادق الآلية. فى صباح اليوم التالى أعلنت الحكومة حظر التجول فى المنطقة وبدأ حصار المسجد الذى استغرق أسبوعا، وكانت شبكات التليفزيون تعرض الصور على العالم كله. لابد أن رشيد كان سعيدا لذلك. وقد اعتقد الاخوان أن إبقاء النساء والأطفال رهائن داخل المجمع قد ينقذهم. ولكن أطلق سراح البعض منهم واعتقل عزيز حين كان يحاول الهرب مرتديًا برقعًا. فى ١٠ يوليو أغار الجنود أخيراً على المجمع. وفى المصادمات التى جرت، قتل عبد الرشيد ومائة آخرون على الأقل. قتل أيضا أحد عشر جنديا وأصيب أكثر من أربعين. وقد هوجمت عدة مراكز للشرطة وكانت هناك تحركات تنذر بالسوء فى منطقة القبائل. حيث خاطب مولانا فقير محمد وهو مؤيد كبير لطالبان، الآلاف من أبناء القبائل المسلحين «ندعو الله أن يهلك مشرف وسوف نثأر للفظائع التى وقعت فى



مسجد لال». وقد كرر أسامة بن لادن هذا المضمون حين أعلن أن مشرف «كافر» وأن «إزالته واجبة الآن».

كنت فى كراتشى فى الأسبوع الأخير من أغسطس، حين هاجم انتحاريون أهدافا عسكرية من بينها حافلة تحمل موظفى الاستخبارات الوطنية، ثأرا لموت رشيد. ولكن فى البلاد بشكل عام تم إسكات رد الفعل. أذاع قادة MMA وهو تحالف أحزاب دينية تحكم إقليم الحدود وتتشارك فى السلطة فى بلوشستان، تصريحات منددة ولكنهم لم يتخذوا أى إجراء.

ولم يخرج فى مسيرة دعى إليها فى بيشاور بعد يوم من الأحداث سوى ألف شخص. وكانت هذه أكبر مسيرة احتجاجية، وكان مزاج المشاركين هادئًا. لم يكن هناك تمجيد بصوت عال للشهداء. مما يشكل تناقضًا حادًا بالمقارنة مع حملة إعادة رئيس القضاة إلى وظيفته. بعد ثلاثة أسابيع تجمع أكثر من ١٠٠ ألف شخص فى مدينة بنجابى فى كاسور لإحياء الذكرى الـ ٢٥٠ لوفاة شاعر القرن السابع عشر الكبير بُلّة شاه وهو شاعر مميز من شعراء الصوفية الذين يرفضون الدين المنظم والتشدد. وكان هذا الشاعر يشبه الملا «رجل الدين» بكلب نابح أو ديك صائح.

فى الواقع أن الجهاديين غير محبوبين فى معظم باكستان ولا الحكومة محبوبة أيضا. وتثير واقعة المسجد الأحمر الكثير من التساؤلات التى لم يتم الإجابة عنها. لماذا لم تتصرف الحكومة فى يناير؟ كيف استطاع رجال الدين تجميع كل هذه الأسلحة بدون علم الحكومة؟ هل كانت الاستخبارات على علم بوجود ترسانة أسلحة مخبأة داخل المسجد؟ إذا كانت تعلم فلماذا سكتت؟ كيف كانت العلاقة بين رجال الدين وعناصر الحكومة؟ لماذا أطلق سراح عزيز وسمح له بالعودة إلى قريته بدون توجيه تهم له؟ هل قررت الدولة أن تتخلى عن احتكارها للعنف؟

الكثير من هذا له صلة بأفغانستان. لقد أحيا فشل احتلال الناتو، طالبان مرة أخرى كما أحيا تجارة الهيروين وساهم فى قلقلة شمال غرب باكستان. وقد قتل القصف الجوى الأمريكى العشوائى الكثير من المدنيين الأبرياء وتظل ثقافة الثأر قوية فى المنطقة. كما ساعد فساد ومحسوبية حكومة كرزاى على نفور الكثير من الأفغان الذين كانوا قد رحبوا بالإطاحة بالملا عمر أملا فى ظروف أفضل. ولكن بدلا من ذلك شهدوا الاستيلاء على الأراضى وبناء فيلات فارهة لأعوان كرزاى. وهناك شائعات تدور بأن شقيق كرزاى الأصغر أحمد والى كرزاى أصبح واحدًا من أكبر بارونات المخدرات فى البلاد. وبما أن قبائل البشتون (أكبر القبائل فى أفغانستان - المترجمة) لم تعترف أبدا بخط دورانت، وهى الحدود بين باكستان وأفغانستان التى فرضها البريطانيون، لذلك حين يهرب المقاتلون إلى منطقة القبائل الواقعة تحت السيطرة الباكستانية، لا يسلمونهم إلى إسلام أباد، وإنما يطعمونهم ويكسونهم حتى يعودوا إلى أفغانستان أو يظلوا فى حمايتهم مثل قادة القاعدة. وتشعر واشنطن بأن صفقات مشرف مع قادة القبائل على الحدود هى استسلام لشروط طالبان وهى غاضبة لأن الولايات المتحدة هى التى تدفع نفقات تحركات الجيش الباكستانى وتشعر بأنها لا تحصل على مقابل يساوى قيمة ما تدفعه. ناهيك عن ١٠ بلايين دولار استلمتها باكستان منذ ١١ سبتمبر للمشاركة فى «الحرب على الإرهاب».

المشكلة هى أن بعض عناصر الاستخبارات العسكرية الباكستانية يشعرون بأنهم قادرون على استرداد أفغانستان، حالما تنتهى عملية «الحرية الدائمة» التى تشنها الولايات المتحدة، ولهذا السبب يرفضون قطع العلاقات مع قادة المقاتلين. بل إنهم يعتقدون أن الولايات المتحدة قد تفضل يومًا ما مثل هذه السياسة. وأشك فى أن يحدث ذلك: التأثير الإيرانى قوى فى هيرات وغرب أفغانستان، ويستلم التحالف الشمالى أسلحة من روسيا، والهند هى القوة الإقليمية الكبرى. إن تسوية مستقرة لابد أن تشمل ضمانة إقليمية لاستقرار الأفغان وتشكيل حكومة وطنية بعد انسحاب الناتو.

حتى لو قبلت واشنطن نسخة منقحة من طالبان، فإن الدول الاخرى ذات الصلة لن تقبل. ولن تؤدى جولة جديدة من الصراعات الأهلية إلا إلى التفكك. وإذا حدث هذا، فإن قبائل البشتون على كلا جانبى خط دورانت قد



أحيا فشل احتلال الناتو، طالبان مرة أخرى كما أحيا تجارة الهيروين وساهم فى قلقلة شمال غرب باكستان. وقد قتل القصف الجوى الأمريكى العشوائى الكثير من المدنيين الأبرياء وتظل ثقافة الثأر قوية فى المنطقة

يفكرون فى إقامة دولة خاصة بهم. إن ذلك يبدو مثل خيال بعيد، اليوم. ولكن ماذا إذا تفككت كونفيدرالية القبائل التى تشكل أفغانستان إلى دويلات صغيرة، كل منها تحت حماية قوة أكبر؟

عودًا إلى قلب باكستان، فإن أعقد القضايا وأكثرها تفجرًا هى اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية. ولهذا صلة بزيادة عدد المدارس الدينية. لو كان هناك نظام تعليمى رسمى نصف محترم لما شعرت العائلات الفقيرة بالحاجة إلى تسليم ابن أو بنت إلى رجال الدين على أمل أن يحصل طفل واحد على الأقل على ملابس وطعام وتعليم. لو كان هناك حتى شبه نظام صحى، لأنقذ الكثيرين من المرض الذى يتسبب فيه الوهن والفقر. لم تفعل أى حكومة منذ ١٩٤٧ الكثير لمعالجة اللا مساواة. إن الفكرة التى تراود البعض من أن عودة بنازير بوتو المنتظرة، جاثمة على كتف مشرف، ستعنى التقدم، هى فكرة مضحكة مثل تصور نواز شريف بأن ملايين الناس سوف يستقبلونه حين يصل مطار إسلام أباد، الشهر الماضى. (وضعت بنازير بوتو حال عودتها قيد الإقامة الجبرية ثم أطلق سراحها ولكن منعت عن الخطابة فى مؤتمرات وندوات - المترجمة). فى نهاية هذا العام يحين موعد الانتخابات العامة (أجّل مشرف الانتخابات إلى يناير العام القادم- المترجمة)، إذا ثبت التلاعب بها كما فى الانتخابات السابقة فإن النتيجة هى المزيد من ابتعاد الشعب عن العملية السياسية. الصورة قاتمة. ليس هناك بديل سياسى مهم للحكم العسكرى.

قضيت يومى الأخير فى كراتشى مع صيادى سمك فى قرية قرب نهير كورانجى. كان «شورتكت» عزيز قد وافق على إزالة المنغروف «شجر استوائى» حيث يعيش المحار والكركند «سرطان البحر»، والأرض يجرى استصلاحها لبناء دياموند ستى وشوجر ستى وبشاعات أخرى على طراز مبانى الخليج. وكان الصيادون يقومون بحملات ضد هذا التعدى على حقوقهم ولكن بدون جدوى. قال أحدهم ساخرًا: «نحتاج إلى تسونامى». تحدثنا عن ظروفهم المعيشية. قالت امرأة منهم «كل ما نحلم به هو مدارس لأطفالنا، دواء وعيادات فى قرانا، ماء نظيف وكهرباء فى بيوتنا. هل هذا كثير علينا؟». لم يذكر أى منهم الدين.. ■

لم كل هذا الاهتمام بالمدارس الدينية؟

إن قضية المدارس الدينية الأهلية فى باكستان كثرت الكتابات حولها من قبل الكتاب الغربيين، وزاد الاهتمام بها من قبل ساستهم منذ ظهور حركة «طالبان» فى أفغانستان عام ١٩٩٤م ووصولهم بعد ذلك إلى الحكم فيها عام ١٩٩٦م، وذلك لأن حركة طالبان كانت قد تشكلت من أفراد معظمهم من الأفغان الدارسين فى المدارس الدينية الباكستانية، وقد ووجهت هذه الظاهرة فى ذلك الوقت باستغراب شديد جدا : لأن الحركة المذكورة ظهرت فجأة من غير أن تسبقها إرهاصات قوية، وكان السبب الثانى للاستغراب هو قيام هذه الطبقة من المجتمع بهذا التحرك، لأن طلاب المدارس الدينية كانوا يعرفون بانعزالية شديدة، وكانوا معروفين بأنهم يعيشون فى الماضى ولا علاقة لهم بحاضر أمتهم ولا بحاضر شعوبهم : لكنهم قلبوا كل الموازين والحسابات، وقاموا بهذه الحركة القوية التى سمع صداها ليس فى أفغانستان وحدها بل فى المنطقة كلها، ومن هنا بدأ المحللون يبحثون عن الجهة التى تقف وراءهم : لأنهم كانوا مقتنعين بأن التحرك الذاتى من قبل هذه الطبقة إن لم يكن مستحيلا فهو مستبعد جدا[1]. ومع هذا الظهور المفاجئ المستغرب فرحت بها القوى المحلية والدولية لأنها وجدت فيها جهة يستفاد منها فى القضاء على الأحزاب الجهادية التى أدت دورها فى التعجيل بالقضاء على الاتحاد السوفيتى، وفقدت الآن مبرر وجودها!! فى نظر هذه القوى العالمية والمحلية، ومن هنا كان التعامل الأمريكى مع الظاهرة الطالبانية فى تلك الفترة إما الإغماض أو السكوت أو المساعدة عن طريق وكلائها فى المنطقة!!.

ولما بدأت حركة طالبان تخرج عن الإرادة الأمريكية، وبدأت ترفض الانقياد لها والرضوخ لمطالبها بخصوص قيادات تنظيم القاعدة الذين ورث نظام طالبان مشكلتهم من حكومة الأستاذ ربانى السابقة عليه، فإن أغلبهم قد انتقلوا إلى أفغانستان فى عهد الأستاذ برهان الدين ربانى، فلما رفضت حركة طالبان المطالب الأمريكية بتسليم هؤلاء لها بدأت السياسة الأمريكية تجاهها تتغير وبالتبع تغيرت سياسة بعض الدول فى المنطقة كذلك، وبدأت أمريكا تهتم بالمدارس الدينية التى اعتبرتها مشاتل (Nurseries) لتلك الحركة الجهادية الفتية الجديدة التى ظهرت فى صفوف العلماء التقليديين، والتى بدأت ترفض الطلبات الأمريكية، وتخرج على نظامها العالمى الجديد الذى لا يتحمل ذلك بحال من الأحوال، وكانت هذه ظاهرة جديدة فى هذه المنطقة، فإن الحركات الجهادية السابقة فى الفترة القريبة الماضية كانت تقودها أو تؤيدها الحركات التجديدية بدل العلماء التقليديين كما حدث فى الحركة الجهادية ضد الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان.

ولما كانت المدارس الدينية فى باكستان . فى نظر الأمريكان ومن ورائها الدول الأوروبية . تغذى هذه الحركة زاد اهتمامها بالمدارس الموجودة فيها، وبدأت أمريكا وحلفاؤها تلحظ يد خريجى هذه المدارس أو طلابها فى كل حادثة عنف تحدث فى أى ناحية نائية من العالم، وبدأت تتهم هذه المدارس بأنواع من التهم، فاتُهمت المدارس وخريجوها بالعمل الجهادى فى كشمير، واتهموهم بحادثة الهجوم على البرلمان الهندى فى «نيو دلهى» فى ديسمبر عام ٢٠٠١م وكذلك ترى أمريكا أن طلاب المدارس الدينية كانوا هم المتورطون فى تفجيرات «بالى» بإندونيسيا فى عام ٢٠٠٢م ثم فى ٢٠٠٥م والمدارس الدينية هى المتهمة فى حوادث التفجيرات فى مترو «لندن» فى ٧/٧/٢٠٠٥م فى نظر أمريكا والدول الغربية الموالية لها فعندما حدثت تلك الحوادث أتهم العديد من المدارس فى باكستان بالتورط فيها : لأن بعض المتهمين بالتفجيرات كانوا قد زاروا بعض المدارس فى باكستان أثناء زيارة سابقة لهم إلى باكستان! مع أن جميع المتهمين كانوا من خريجى الجامعات البريطانية فى التخصصات العصرية، فلا تتهم تلك الجامعات بأنها أوكار إرهاب!! وتعتبر هذه المدارس أوكار إرهاب لأن بعض المتهمين بالتفجيرات زاروها مرة واحدة فى حياتهم!، فكأن تأثير هذه الزيارة الوحيدة أكثر بكثير من تأثير الدراسة لسنوات طويلة فى الجامعات البريطانية!. وترى أمريكا أن المقاومة ضد تواجدها فى أفغانستان يقودها طلاب هذه المدارس وخريجوها، وأن كل هذه الأعمال وما أشبه ذلك مما تنسب إلى المدارس الدينية أعمال إرهابية، وبناء على هذا الافتراض تعتبر أمريكا وحلفاؤها هذه المدارس أوكار إرهاب، وتتهمها الجهات الغربية من مراكز الدراسات والبحث بأنها تدرب طلابها على الأسلحة وفنون القتال، وتعلمهم العنف واستخدام الأسلحة، ومن هنا يرون أنه يجب القضاء عليها بكل وسيلة ممكنة سواء عن طريق الضغط على الحكومة الباكستانية لتسن قوانين معينة للسيطرة عليها ولتخطو خطوات يتم بها تفريغها من المضمون وإبعادها عن أداء دورها فى المجتمع، وأن لا تتورع فى هذا حتى عن استخدام الاسلحة والقوة العسكرية ضدها بصورة فجة كما فعلت فى حالة (لال مسجد).

بعد هذا الاهتمام الشديد من قبل الحكومات الغربية وأصحاب القرار السياسى فى تلك الدول بالمدارس الدينية الأهلية، وإصدار مئات الدراسات عنها من قبل الجهات البحثية المؤثرة فى القرار السياسى الغربى يتطلع كل مثقف فى العالم الإسلامى يهمه ما يجرى حوله، وما

المدارس الدينية فى باكستان...

معاهد

أم

أوكار إرهاب؟!

ترى أمريكا أن طلاب المدارس الدينية كانوا هم المتورطون فى تفجيرات «بالى» بإندونيسيا فى عام ٢٠٠٢ ثم فى ٢٠٠٥م والمدارس الدينية هى المتهمة فى حوادث التفجيرات فى مترو «لندن» فى ٢٠٠٥/٧/٧

مصباح الله عبد الباقى

يخطط للعالم الإسلامى من قبل القوى المؤثرة فى القرار العالمى أن يعرف الحقيقة بعيدا عن التهوين والتهويل فى أمر المدارس الدينية، ومن هنا نحاول أن نستجلى فى هذا المقال بعض الحقائق حول هذه المدارس باختصار، ونجيب على بعض الأسئلة التى تدور فى ذهن القارئ عن حقيقة هذه المدارس، وخلفيتها التاريخية، والوضع الحالى لها، وعن حقيقة التهم الموجهة إليها بالإرهاب من قبل الجهات الغربية والشرقية، هذه بعض النقاط التى سنتناولها فى السطور القادمة بعون الله تعالى.

أ ـ التعريف بالمدارس الدينية

«المدارس» تطلق فى باكستان بل وفى شبه القارة الهندية كلها على المؤسسات التعليمية الأهلية التى تقوم بتدريس اللغة العربية وعلومها والعلوم الشرعية مجانا وبدعم مالى من أهل الخير من أبناء الشعوب المسلمة، وتسمى المدرسة أيضا بـ«الجامعة» و«دار العلوم» و«المدرسة العربية الإسلامية»، ويعتبر المسجد الجامع من أهم عمارات المدارس الدينية، بل وفى كثير من الأحيان يكون المسجد هو المبنى الأساسى للمدرسة، وهذا يعطى للمدرسة قداسة خاصة فى نفوس الناس.

المنهج الدراسى

الكتب الدراسية المقررة فى المدارس الدينية أغلبها باللغة العربية، وفى الغالب يشتمل المنهج التعليمى على تدريس العلوم والفنون التالية: التجويد وتفسير القرآن الكريم وعلوم القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وعلوم الحديث والفقه الإسلامى وأصول الفقه والعقائد والكلام والسيرة النبوية وعلوم البلاغة وعلم الصرف العربى وعلم النحو والأدب العربى والمنطق القديم والفلسفة القديمة والتاريخ وعلم الأخلاق.

بالإضافة إلى بعض العلوم العصرية مثل: الرياضيات، والعلوم، واللغة الأردية، والدراسات الباكستانية.

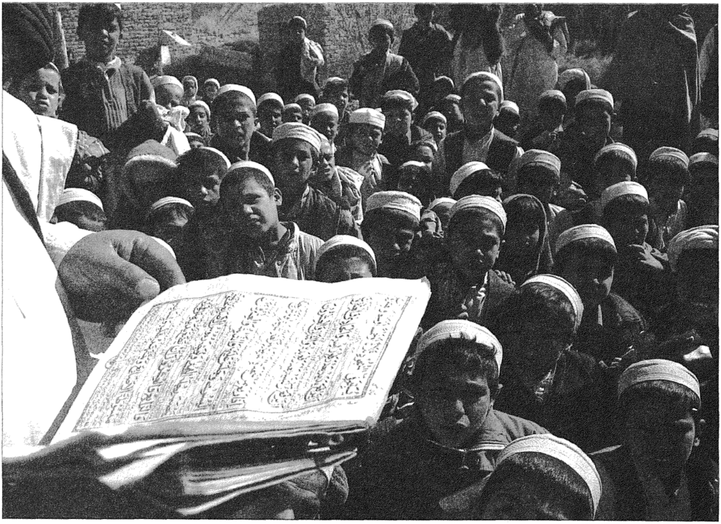
وأغلب الكتب المقررة فى المنهج التعليمى للعلوم والفنون القديمة هى المتون المعقدة التى تشبه الألغاز والتى كتبت فى الفترة التى كان العلماء يهتمون فيها بكتابة المتون ويتفننون فيها. فيدرس على سبيل المثال فى النحو كتاب «الكافية لابن الحاجب» وفى علم الصرف «الشافية لابن الحاجب كذلك» وفى فن المنطق كتاب «التهذيب لجلال الدوانى» وكتاب «سلم العلوم لمحب الله البهاروى»، والكتب المقررة فى المنهج التعليمى للمدارس الدينية وإن كانت باللغة العربية إلا أن شرحها وتدريسها يتم باللغات المحلية. ويهتم المدرس فى الغالب بالكتاب وحل رموزه، بدل اهتمامه بالمعلومات الواردة فيه حول الموضوع، والمنهج الدراسى الحالى محل نقاش حاد بين الجهات المختلفة، فمنهم من يرى تغييره جذريا، ومنهم من يرى إجراء التعديلات المناسبة بطبيعة المنهج الحالى، ومنهم من يرى الاحتفاظ على المنهج الحالى على حاله.

ب ـ الخلفية التاريخية

المدارس الدينية ليست ظاهرة طارئة على المجتمع الباكستانى، بل المدارس الدينية متواجدة فى منطقة شبه القارة الهندية منذ استقرار الإسلام فيها فى عهد السلطان محمود الغزنوى (المتوفى فى عام ٤٢١هـ الموافق لشهر أبريل عام ١٠٣٠م) وكانت هذه المدارس هى المعاهد التعليمية الوحيدة فى المجتمع، ولم يكن هناك انفصال بين مؤسسات التعليم المدنى والتعليم الدينى، فكانت هذه المدارس تخرج كل المهنيين والخبراء الذين كان المجتمع يحتاج إليهم، واستمر الوضع على هذا المنوال فى كل العصور التاريخية التى مرت على المجتمع فى شبه القارة الهندية التى تعتبر باكستان الحالية جزءا منها، فاستمر نظام التعليم بنفس الطريقة فى عهد الغوريين، والمماليك، والخلجيين، وأسرة تغلق، وأسرة السادات، واللوديين، وازدهر التعليم فى العصر المغولى للهند العصر الذى بدأ بانتصار بابر فى معركة «بانى بت» الأولى عام ٩٣٢هـ الموافق عام ١٥٢٦م على إبراهيم لودهى ملك الهند حينذاك واستمر إلى أن سقط رسميا بعد ثورة المسلمين الشهيرة ضد الاستعمار الانجليزى عام ١٨٥٧م، وازهى عصور التعليم والتقدم فى فترة المغول عصر الملك الصالح اورنكزيب عالمكير، فقد نشأت مؤسسات تعليمية كثيرة جدا فى عصره إلا أن مدرستين من تلك المدارس كان لهما تأثير كبير على التعليم الدينى بعد ذلك، وما زال هذا التأثير قائما.

ولما استقر الإنجليز فى حكم شبه القارة الهندية فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى واستقلوا به بدأوا بصورة تدريجية القضاء على نظام التعليم الدينى أو بالأحرى على نظام التعليم الشرقى، فاستولوا على أوقاف المدارس الدينية ومصادر تمويلها، ومنعوا توظيف المتخرجين من تلك المؤسسات التعليمية فى مؤسسات الدولة، وكان ردود أفعال القائمين على المدارس الدينية شديدة تجاه هذه السياسة الجائرة للحكومة الإنجليزية لشبه القارة الهندية، فتحصنوا فى المدارس واعتبروا الحفاظ على المدارس الدينية من واجبهم

مدرسة إسلامية فى كراتشى





الدينى، لأن التعليم فى مؤسسات التعليم العصرى، وخاصة فى المدارس التى أنشأتها الحكومة الإنجليزية، كان مرافقا بالجهود التنصيرية، والنظام التعليمى الذى أنشأه الإنجليز كان مبنيا على التصور العلمانى. فاستبعدوا منه التعليم الدينى، ومن هنا نشأت الازدواجية فى نظام التعليم: فظهرت مدارس للتعليم العصرى وانتشرت بمساعدة الحكومة الإنجليزية وتشجيعهم. وبقيت المدارس الدينية على حالها تعمل بالمساعدات الشعبية بعيدة عن تأثير الدوائر الرسمية، ولما نشأت باكستان عام ١٩٤٧م ورثت هذا الانفصام بين نظام التعليم الدينى ونظام التعليم العصرى، وما زال الأمر كما كان لم يتغير مع مرور هذا الزمن الطويل لأسباب كثيرة ليس هذا محل ذكرها. فخلاصة الكلام أن المشكلة الأساسية التى يعانى منها نظام التعليم فى باكستان وهو الازدواجية فى مؤسسات التعليم الدينى والعصرى من مخلفات الاستعمار البريطانى لشبه القارة الهندية.

ج - الاتجاهات الفكرية

تخضع المدارس الدينية فى باكستان لاتجاهات فكرية مختلفة: يمكن أن نقسمها أولا إلى اتجاهين كبيرين: أولهما: أهل السنة، وثانيهما: الشيعة. ثم ينقسم الاتجاه الأول إلى أربع مدارس فكرية هى: المدرسة الديوبندية والمدرسة البريلوية والسلفية والجماعة الإسلامية والاتجاه الشيعى. وسيتم التعريف على هذه الاتجاهات باختصار فيما يلى:

أولا: الاتجاه الديوبندى

الديوبندى نسبة إلى جامعة إسلامية ذائعة الشهرة تُسمى «دار العلوم ديوبند»، وهى من أكبر الجامعات الإسلامية الأهلية فى شبه القارة الهندية، أنشئت فى ١٥/ محرم ١٢٨٣هـ الموافق ٣٠/ مايو ١٨٦٧م فى مدينة ديوبند (الواقعة شمالى الهند، على بعد ١٥٠ كيلومترا من دهلى العاصمة) بعدما قضى الإنجليز نهائيا على الحكم الإسلامى ولفظت الدولة المغولية أنفاسها الأخيرة، وفشلت ثورة المسلمين ضد الإنجليز عام ١٨٥٧م، وكادت تتكرر مأساة المسلمين فى الأندلس على الأراضى الهندية.

أسهم فى إنشاء دار العلوم ديوبند مجموعة من العلماء، على رأسهم الشيخ محمد قاسم النانوتوى (المتوفى ١٢٩٧هـ)، والعلامة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى (المتوفى ١٣٢٣هـ)، والشيخ الأديب ذوالفقار على (المتوفى ١٣٢٢هـ)، والشيخ الحاج عابد حسين (المتوفى ١٣٣١هـ)، وغيرهم، وهذه المدرسة وإن كانت تتبع المذهب الحنفى لكنها تتميز بآرائها الخاصة فى مجالات مختلفة. وكل من يتبع هذه المدرسة الفكرية فى آرائها فتعتبر مدرستها تابعة للاتجاه الديوبندى.

ثانيا: الاتجاه البريلوى

البريلوية نسبة إلى الشيخ أحمد رضا خان البريلوى، كان جده سماه بهذا الاسم، وكان اسمه الأصلى محمد، واسمه الذى يدل على تاريخ ميلاده «المختار» وهو ١٢٧٢هـ الموافق ١٨٥٦م. وكان يسمى نفسه عبد المصطفى.

وولد الشيخ أحمد رضا خان بالتحديد فى العاشر من شوال عام ١٢٧٢هـ الموافق ١٤/ يونيو عام ١٨٥٦م بمدينة بريلى بولاية اترا برديش بالهند التى تبعد عن دهلى حوالى ١٣٥ ميلا إلى جهة الجنوب الشرقى، ومدينة بريلى مركز منطقة «روهيل كند».

تخرج الشيخ أحمد رضا خان على يدى أبيه الشيخ نقى على خان، ودرس عنده منهج (الدراسة النظامى)، ثم أخذ بعض العلوم عن الشيخ الشاه آل الرسول المارهروى (المتوفى عام ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٧٩م)، وكان هو مرشده فى الطريقة والتصوف، وأخذ عن الشيخ عبد العلى الرامفورى (المتوفى عام ١٣٠٣هـ الموافق ١٨٨٥م) علوم الهيئة وبعض العلوم العقلية، ودرس عند الشيخ الشاه أبى الحسين أحمد النورى المارهروى (المتوفى عام ١٣٢٤هـ الموافق ١٨٨٣م) علم الجفر، وبرع فى علوم كثيرة، وكان يكتب باللغات الفارسية والعربية والأوردية نظما ونثرا[٢].

أنشأ الشيخ أحمد رضا خان البريلوى مدرسة لنشر أفكاره، ولمقاومة أفكار مخالفيه من المنتمين لدار العلوم ديوبند عام ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٤م، وسمى هذه المدرسة باسم «مدرسة منظر الإسلام»، والشيخ أحمد رضا خان البريلوى وإن كان منتميا إلى المذهب الحنفى إلا أنه يميل إلى التصوف الخرافى ويغلب عليه الميل إلى بعض البدع العملية، ويرى بعض الآراء العجيبة والغريبة حول النبى صلى الله عليه وسلم، مثل اعتقاده أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس من البشر وإنما هو نور من نور الله تعالى، واعتقاده بأن النبى صلى الله عليه وسلم يحضر مجالسهم، ويعتقد بجواز الاستعانة بالأموات وخاصة على بن أبى طالب رضى الله عنه وعبد القادر الجيلانى رحمة الله عليه.

وكل من يتبع آراء الشيخ أحمد رضاخان البريلوى يسمى «بريلويا» وتعتبر مدرسته منتمية إلى الاتجاه «البريلوى» وهم يسمون أنفسهم «أهل السنة والجماعة».

ثالثا: الاتجاه السلفى

الاتجاه السلفى أو (أهل الحديث) اتجاه معروف فى العالم الإسلامى عموماً بسمت متقارب أو متشابه، ولهم مدارس متعددة فى باكستان.

رابعا: الاتجاه الشيعى

الاتجاه الشيعى اتجاه معروف بعقائده وأفكاره، ولهم مدارس عديدة فى باكستان خاصة فى المناطق التى يقطنها الأغلبية الشيعية، وفى الغالب يكون المدرسون فى هذه المدارس من خريجى الحوزات العلمية فى مدينة «قم» بإيران، أو فى مدينة النجف الأشرف بالعراق، وقد ازداد نشاط الشيعة بشكل غير مسبوق بعد الثورة الإيرانية فى الثمانينيات من القرن الماضى، وخاضوا مواجهات دموية مع الأغلبية السنية بسبب مطالبتهم بتطبيق الفقه الجعفرى فى مجتمع ذى أغلبية سنية وبسبب سبهم وشتمهم للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

خامسا: الجماعة الإسلامية فى باكستان

الجماعة الإسلامية فى شبه القارة الهندية الباكستانية جماعة إسلامية معاصرة، تعمل، كما تصرح فى أدبياتها، لإقرار الشريعة الإسلامية فى المجتمع وتطبيقها فى حياة الناس، والوقوف ضد جميع الاتجاهات العلمانية التى تحاول إبعاد الإسلام عن سدة الحكم، أنشأها الأستاذ سيد أبو الأعلى المودودى المولود فى ١٩٠٣م.

ولما أحس المودودى أن فكره قد انتشر عن طريق مجلته «ترجمان القرآن»، وأن مجموعة كبيرة من الناس قد اقتنعوا بفكرته، دعا عن طريق مجلته «ترجمان القرآن» لتجمعهم فى لاهور، فاجتمع حوالى أربعين شخصا بدعوته فى لاهور فى ٣/ شعبان ١٣٦٠هـ الموافق ٢٦/ أغسطس عام ١٩٤١م، وأسسوا الجماعة الإسلامية، وانتخب هو أميرا لها.

ومع إعلان قيام دولة باكستان فى (١١ من شوال ١٣٦٦ هـ الموافق ٢٨ من أغسطس ١٩٤٧م)، عاد المودودى مع زملائه إلى لاهور؛ حيث افتتح مقر الجماعة الإسلامية بها. ومن ذلك اليوم والجماعة الإسلامية مستمرة فى عملها ودعوتها لإقامة دين الله وتطبيق شرع الله فى واقع الحياة، وقد أنشأت الجماعة الإسلامية مدارس دينية متعددة فى مختلف أنحاء باكستان، أو أنشأها الأفراد المنتمون للجماعة الإسلامية بصفتهم الشخصية وكل هذه المدارس تنسب إلى الجماعة الإسلامية.

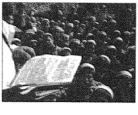
د - حقائق وأرقام

لقد اختلفت آراء الكتاب حول عدد المدارس الدينية فى باكستان حاليا، فقد بالغ الكتاب الغربيون فى عدد المدارس الدينية الأهلية فى باكستان، فقد أوصلها بعضهم إلى أربعين ألف مدرسة، والآخر أوصلها إلى خمسين ألف مدرسة، وهى أرقام تخمينية بتصريح من الكتاب أنفسهم، فقد قدم الدكتور جيسكا سترن (Jessca Stren) أحد الباحثين بجامعة هارفارد، دراسة عن المدارس الدينية، وكتب فيها، إلى جانب التهويلات والتمويهات والتشويهات الأخرى، أن عدد المدارس الدينية فى باكستان يقع بين أربعين ألفا إلى خمسين ألف مدرسة[٣].

وكتب (PW Singer) بحثًا قدمه لمعهد بروكنجز (Brookings Institution) فى عام ٢٠٠١م ذكر فيه أن عدد المدارس الدينية فى باكستان يبلغ ٤٥ ألف مدرسة دون أن يشير إلى مصادره التى استقى منها المعلومات.

وقد هوّل كثير من الكتاب الغربيين الآخرين من عدد المدارس الدينية فى باكستان خطأ أو على سبيل العمد، وابتعدوا بذلك عن المناهج العلمية فى بحوثهم ودراساتهم، ومن شأن مثل هذه المعلومات التى تجد مروّجين كثيرين لها فى الغرب، أن تقدم، مع الصورة الخاطئة

جهة الالحاق	مدارس البنين	مدارس البنات	مدارس مختلطة	مجموع المدارس
المدارس الملحقة بوفاق المدارس (الاتجاه الديوبندى)	١.٣٧٩	٥٥٥	١.٥٢٠	٣.٤٥٤
تنظيم المدارس (الاتجاه البريلوى)	٨٣٣	٤٣٩	١.٣٨٢	٢.٦٥٤
رابطة المدارس الإسلامية (الجماعة الإسلامية)	٣٠٤	١٢١	٤٨١	٩٠٦
الاتحادات الأخرى (السلفية والشيعة)	٣٠١	١٣٤	٤٩٩	٩٣٤
غير الملحقة باتحادات المدارس	١.١٠٨	٥٦٦	١.٨٦٩	٣.٥٤٣
مجموع المدارس عام ٢٠٠٥م	٣.٩٢٥	١.٨١٥	٥.٧٥١	١١.٤٩١



عن برامجها. صورة مخيفة عن هذه المدارس إلى الجمهور الغربي بل وأصحاب القرار السياسي والعسكري في العالم الغربي، وأن ترسخ في أذهانهم أن أفواجا من المتشددين والانتحاريين تدرب في هذه المدارس، وإن لم يقض عليهم وعلى محاضنهم (المدارس الدينية) سينقضون بعد فترة وجيزة على العالم الغربي المتحضر.

وترى الحكومة الباكستانية أن عدد المدارس الدينية الأهلية المسجلة لدى الاتحادات المختلفة وغير المسجلة لدى تلك الاتحادات كان يبلغ عام ٢٠٠٥م، (١١٤٩١) مدرسة، وهذا العدد يشكل فقط (٠.٠٥) من إجمالي عدد المؤسسات التعليمية للتعليم العام الرسمية منها والخاصة الذي يبلغ (٢٢٧.٧٩١) مؤسسة تعليمية، والتفاصيل التي أصدرتها الحكومة الباكستانية[٤] لكل المدارس الدينية لعام ٢٠٠٥م موزعة على الاتجاهات المختلفة كانت على النحو التالي:

ويرى بعض الباحثين أن عدد المدارس قد يبلغ حاليا في عام ٢٠٠٧م إلى ما يقرب من عشرين ألف مدرسة للبنين والبنات في مختلف أنحاء باكستان.

وبناء على تلك الإحصائيات فإن عدد الطلاب والطالبات المسجلين في المراحل الدراسية المختلفة بالمدارس الدينية كان ما يفوق مليون ونصف مليون طالب وطالبة، ونسبة الطالبات حوالي ٣٧٪ من إجمالي عدد الطلاب والطالبات، ويشكل الطلاب نسبة حوالي ٦٣٪ من إجمالي عدد الطلاب والطالبات، بينما يشكل طلاب وطالبات المدارس الدينية حوالي (٠.٠٤٪) من إجمالي عدد الطلاب المسجلين في مؤسسات التعليم العام البالغ عددهم (٣٣.٣٧٩.٥٧٨) حسب الإحصائيات الرسمية لعام ٢٠٠٥م، وهذه النسبة أقل من نسبة المدارس الدينية بالنسبة لمؤسسات التعليم العام، والتفصيل الذي أصدرته الحكومة الباكستانية[٥] للطلاب والطالبات المسجلين في المدارس الدينية في عام ٢٠٠٥م موزعين على المراحل الدراسية كان كالتالي:

	المناطق الحضرية			المناطق الريفية			مجموع كل المناطق		
	البنون	البنات	المجموع	البنون	البنات	المجموع	البنون	البنات	المجموع
المجموع	٤٨٥.٢٠٢	٣٢٦.٧٨٨	٨١١.٩٩٠	٤٦٠.٦٦٥	٢٤٥.٦٤٣	٧٠٦.٣٠٨	٩٤٥.٨٦٧	٥٧٢.٤٣١	٥١٨.٢٩٨,
تعليم القرآن	٢١٣.٢٤٣	١٦١.١٧٠	٣٧٤.٤١٣	٢٣١.٤٩٦	١٤١.٨٧٣	٣٧٣.٣٦٩	٤٤٤.٧٣٩	٣٠٣.٠٤٣	٧٤٧.٧٨٢
تحفيظ القرآن	١٥٦.٢٨٨	٨٠.١٩٦	٢٣٦.٤٨٤	١٣١.٦٣٧	٤١.٧٤٢	١٧٣.٣٧٩	٢٨٧.٩٢٥	١٢١.٩٣٨	٤٠٩.٨٦٣
المرحلة الابتدائية	٣٦.٢٥١	٢٦.٠٩٦	٦٢.٣٤٧	٣٩.٩٥٣	٢٨.٤٦٤	٦٨.٤١٧	٧٦.٢٠٤	٥٤.٥٦٠	١٣٠.٧٦٤
المتوسطة	١٨.٩٣٩	١٠.٤٣٥	٢٩.٣٧٤	١٨.٣٥٨	١٠.٢٣٦	٢٨.٥٩٤	٣٧.٢٩٧	٢٠.٦٧١	٥٧.٩٦٨
الثانوية العامة	١٧.٥٨٥	١٤.٢٠٠	٣١.٧٨٥	١٣.٢٠١	٨.٠٠٧	٢١.٢٠٨	٣٠.٧٨٦	٢٢.٢٠٧	٥٢.٩٩٣
الثانوية الخاصة	١٢.٣٣١	١٠.٩٩٥	٢٣.٣٢٦	٨.٩٢١	٤.٢٢٦	١٣.١٤٧	٢١.٢٥٢	١٥.٢٢١	٣٦.٤٧٣
المرحلة العالية	٩.٩٤٢	٧.٣٢٨	١٧.٢٧٠	٥.٥٦٢	٢.٥٠٦	٨.٠٦٨	١٥.٥٠٤	٩.٨٣٤	٢٥.٣٣٨
المرحلة العالمية	٩.٨٧٤	٦.٢٤٢	١٦.١١٦	٣.٣٦٠	٢.٠٧٦	٥.٤٣٦	١٣.٢٣٤	٨.٣١٨	٢١.٥٥٢
مرحلة التخصص	١.٦٩٤	٩٨٨	٢.٦٨٢	١.١٧٠	٢٢٥	١.٣٩٥	٢.٨٦٤	١.٢١٣	٤.٠٧٧
المتفرقة	٩.٠٥٥	٩.١٣٨	١٨.١٩٣	٧.٠٠٧	٦.٢٨٨	١٣.٢٩٥	١٦.٠٦٢	١٥.٤٢٦	٣١.٤٨٨

ويخمن بعض الكتاب أن عدد الطلاب والطالبات المسجلين في المدارس الدينية يكون قد وصل إلى حوالي (١.٩) مليون طالب وطالبة.

عدد الأساتذة والمدرسين في المدارس الدينية

وقد بلغ عدد المدرسين في المدارس الدينية (٥٥٢١٠) مدرسين ومدرسات حسب الإحصائيات الرسمية التي أوردتها الحكومة الباكستانية على موقعها الرسمي[٦]، وعدد المدرسين من هذا المجموع الكلي (٤٢.٥٩١) بينما يصل عدد المدرسات إلى (١٢.٦١٩) مدرسة، وهذا يعني أن المدرسات يشكلن ٢٣٪ من مجموع عدد المدرسين والمدرسات، والسبب في ذلك أن المدرسين يدرسون في مدارس البنات بسبب النقص في المدرسات، بينما المدرسات لا يدرسن في مدارس البنين، وتشير الأرقام المذكورة في الجدول التالي أن نصف العدد المذكور لم يكملوا المرحلة المتوسطة من التعليم العام، والسبب في ذلك أن ما يقرب من نصف العدد المذكور يعني (٤٤٪) من المدرسين والمدرسات في المدارس الدينية هم المحفظون (مدرسو تحفيظ القرآن الكريم) وهؤلاء في الغالب يكتفون بحفظ القرآن الكريم وببعض التعليم الديني، ولا يواصلون الدراسة في مدارس التعليم العام.

هـ ـ دور المدارس:

المدارس الدينية القائمة في باكستان حاليا التي تصل عددها حوالي عشرين ألف مدرسة عام ٢٠٠٧م تقدم خدمات عديدة ومتنوعة للمجتمع، منها على سبيل المثال الخدمات التالية:

التعليم المجاني: تقدم هذه المدارس حاليا، باعتراف من الحكومة الباكستانية، التعليم المجاني بمعنى الكلمة لحوالي (١.٩) مليون طالب وطالبة في مختلف المراحل الدراسية، حتى أنها لا تكلفهم شراء الكتب الدراسية فإن أغلب المدارس الدينية توفر حتى الكتب الدراسية لطلابها في بداية السنة الدراسية وتستردها منهم في نهايتها، بل وفي كثير من الأحيان توفر لهم السكن والطعام المجانين وفي بعض الأحيان توفر بعض المدارس اللباس لطلابها، وأغلب الدارسين في تلك المدارس أبناء الفقراء من الشعب الباكستاني الذين لا يستطيعون توفير مصاريف التعليم الرسمي لأولادهم، فإن حوالي ٤٧٪ من طلاب المدارس الدينية من المناطق الريفية التي تعتبر أكثر فقرا من المناطق الحضرية، وهذه خدمة لا تقدمها أية جهة ولا مؤسسة غير حكومية في أي ناحية من أنحاء العالم.

الإرشاد الديني وإصدار الفتاوى: تقدم المدارس الدينية خدمة الإرشاد الديني للمجتمع، و وتقوم بهذه المهمة دار الإفتاء التي تعتبر جزءا أساسيا للمدارس الكبيرة، ويكون عمل هذه الشعبة إصدار الفتاوى حسب الاستفتاءات التي ترد على المدرسة من قبل شرائح مختلفة في المجتمع، ويتم إصدار الفتوى تحت رعاية أحد المشايخ المتخصصين في الفقه ويعاونه مجموعة من الباحثين الشباب، ويكون في الغالب نقولا عن الكتب القديمة، وقد تجد بعض دور الإفتاء التابعة لهذه المدارس تصدر فتاوى حول قضايا عصرية عويصة، وقد وصلت عدد الفتاوى الصادرة من قبل بعض دور الإفتاء التابعة للمدارس الكبيرة إلى عشرات الآلاف في مختلف المجالات، ثم تطبع هذه الفتاوى في العديد من المجلدات بعد المراجعة والتدقيق، وتنشر لتعميم الفائدة.

إعداد البحوث والدراسات: تنشئ بعض المدارس الكبيرة قسما خاصا لإعداد البحوث والدراسات، ويسمى في الغالب دار التصنيف، يقوم هذا القسم في الغالب بإعداد البحوث والدراسات ونشرها، أو يقوم بنشر الكتب التي يؤلفها الأساتذة والمدرسون في هذه المدارس، لا شك أن أغلب الكتب التي تصدر من قبل هذه الأقسام في المدارس تحمل طابع المدارس الدينية في عدم الجدة، وعدم تناول القضايا العصرية التي تهم المجتمع، لكن مع ذلك تجد من بينها بعض الكتب المفيدة جدا أيضا.

إصدار المجلات: تصدر المدارس الكبيرة مجلات تسهم في نشر الوعي الديني، وتهتم كل مجلة بنشر أفكار الجهة التي تنتمي إليها إلى جانب القضايا الفقهية والبحوث العلمية الأخرى، إلا أنها تستغل في بعض الأحيان للرد على المخالفين والطعن فيهم والتشنيع عليهم، تصدر بعض المدارس عدة مجلات وبلغات مختلفة مثل الأوردية والإنجليزية والعربية.

توفير الأئمة والخطباء للمساجد: ومن الخدمات المهمة التي تقدمها المدارس الدينية توفير الأئمة والخطباء لعشرات الآلاف من المساجد في المدن الباكستانية وقراها وفي كثير من الأحيان يقوم المتخرجون من المدارس الدينية في باكستان بواجب الإمامة والخطابة في المراكز الإسلامية التابعة للجاليات المسلمة في الدول الغربية، ومنذ عهد الجنرال محمد ضياء الحق، الحاكم العسكري الأسبق لباكستان، يوظف الجيش الباكستاني خريجي المدارس الدينية في المساجد التابعة للثكنات العسكرية أيضا.

توفير المدرسين والأساتذة للمدارس الدينية وللدراسات الإسلامية: وتقوم المدارس الدينية بتغذية المدارس الدينية بمدرسين جدد، فإن هذا العدد الكبير من المدارس الدينية يحتاج إلى مدرسين جدد باستمرار ويستكمل هذا النقص من خريجي هذه المدارس نفسها، وفي بعض الأحيان يوظف خريجو المدارس الدينية مدرسين لمادة الدراسات الإسلامية واللغة العربية في المدارس والكليات العصرية التابعة للحكومة.

و ـ مشاكل المدارس

إلى جانب ذلك تعاني المدارس الدينية من مشاكل كثيرة ومتنوعة، منها ما يتعلق بالمنهج الدراسي، ومنها ما يتعلق بالمدرس، ومنها ما يتعلق بالطلاب، ومنها ما يتعلق بإدارة المدرسة، وتوظيف الطلاب بعد التخرج، هذه المشاكل تبحث فيها الجهات المختصة في داخل مؤسسة التعليم الديني، لكن المشاكل الكثيرة منها عالقة مازالت تنتظر الحل، لكنها ليست من قبيل المشاكل التي يتحدث عنها الإعلام الغربي، فإن هذه المشاكل التي أشرت إليها يجب البحث عنها لتطوير هذه المدارس بما يتناسب مع طبيعتها ويتناسب مع ظروفها التي تعيش فيها، أما المشاكل التي يطرحها الإعلام الغربي، فإنه يروم من ورائها تدمير نظام التعليم الديني والقضاء عليه كليا ودمجه في التعليم العام كليا، ومن أهم التهم الموجهة لهذه المدارس من قبل الإعلام الغربي التهمة بأنها أوكار إرهاب، ومشاتل تغذي خنادق القتال بالجنود.

ز ـ تـهـمـة الإرهـاب

تتهم المدارس الدينية فى باكستان بالإرهاب باستمرار خاصة بعد حوادث الحادى عشر من سبتمبر، وبعد الهجوم الأمريكى على أفغانستان واحتلاله لها، وتتهم المدارس الدينية بأنها تغذى المقاومة ضد القوات الأجنبية فى أفغانستان، ولا تحدث حادثة من حوادث العنف فى منطقة من مناطق العالم إلا ويبحثون عن يد المدارس الدينية وراءها، وتروج الإعلام الغربى خاصة بأن المدارس الدينية تدرب طلابها على استخدام الأسلحة وفنون القتال، لكننا لو رجعنا إلى الحقائق لثبت أنها لا تؤيد هذه المزاعم، هذه الحقائق باختصار كما يلى:

أولا: لا توجد مادة واحدة فى المنهج التعليمى للمدارس الدينية تتعلق بشىء من الفنون العسكرية، بل ويعترض على المدارس الدينية أنها لاتدرس حتى تاريخ بعض الحركات الجهادية أو الحركات التجديدية فى المنطقة، وتركز على العلوم والفنون القديمة التى لا صلة لها بالحياة اليوم مثل الفلسفة القديمة وغيرها.

ثانيا: لم تثبت الحكومات الباكستانية المتعاقبة تورط مدرسة واحدة فى التدريب العسكرى أو حوادث العنف مع التصريحات الكثيرة لوزراء الداخلية لتلك الحكومات ضد المدارس الدينية، ومن أصرح الأمثلة التى اتهمت فيها مدرسة وإدارتها بالإرهاب هى حادثة مدرسة «جامعة حفصة للبنات» فى المسجد الأحمر (لال مسجد) ولم تكن مشكلة تلك المدرسة الإرهاب أو العنف، كانت مشكلتها مشكلة سياسية أو الاحتجاج على بعض تصرفات الحكومة بطريقة مخصوصة قد تكون تلك الطريقة خاطئة لكن المشكلة لم تكن مشكلة الإرهاب أو العنف، كانت إدارة المدرسة المذكورة وطلابها وطالباتها تعترض على عدة أمور، أولها قرار الحكومة بهدم مجموعة من المساجد فى مدينتى «راولبندى» و«إسلام آباد» بحجة أنها تشكل خطرا على أمن الشخصيات رفيعة المستوى فى الدولة وفى الجيش، أو أنها بنيت على أراض حكومية، ولتسجيل احتجاجهن استولت طالبات جامعة حفصة (لال مسجد) على مكتبة للأطفال مجاورة لمدرستهن، واشترطن تخليتها بعد أن تتعهد الحكومة بالتخلى عن قرار هدم المساجد المقرر هدمها، وكان الأمر الثانى الذى احتج عليه طلاب تلك المدرسة وطالباتها هو انتشار مراكز الدعارة فى مدينة إسلام آباد التى ازداد انتشارها فى الآونة الأخيرة وخاصة بعد سن الحكومة لقانون «صيانة حقوق النساء» الذى هو فى الحقيقة تعديل فى قانونى «الزنى» و«القذف» وكان هدف الحكومة من سن القانون المذكور. فى رأى عامة العلماء والمعارضين للتوجهات الانفتاحية لحكومة الجنرال مشرف، فتح المجال لترويج الفساد الأخلاقى، وتهيئة الظروف للتحلل والتحرر بالمفهوم الغربى للكلمتين، وكانت طريقة احتجاجهم أنهم كانوا يذهبون لتلك المراكز ويحضرون النساء المتورطات فى الفساد الخلقى أوكانوا يحضرون معهم من يدير تلك المراكز، وكانوا ينصحونهم بترك هذا العمل الشنيع، ويعرضون عليهم البدائل العملية فى حالة تركهم إياه، ثم كانوا يخلون سبيلهم، وكان الأمر الثالث الذى احتجوا عليه هو تورط الجيش الباكستانى فى القتال ضد القبائل الباكستانية بتشجيع من أمريكا، وكانت طريقة احتجاجهم فى ذلك أن أصدرت دار الإفتاء التابعة للمدرسة المذكورة (مدرسة لال مسجد) فتوى شرعية بعدم جواز ذلك، لم تكن هناك تهمة سوى هذه الأمور وما صاحب ذلك من بعض الحوادث البسيطة، فلم يتهموا بقتل أحد ولا بتفجير قنبلة، لكنهم مع ذلك عاملتهم حكومة الجنرال مشرف معاملة المجرمين الخطيرين، ولما أعلن الرئيس الأمريكى جورج بوش أن العملية العسكرية ضد المسجد الأحمر فى إسلام آباد جزء من حربنا ضد الإرهاب والإرهابيين، أدرك الشعب الباكستانى أن الجنرال مشرف قام باستخدام الجيش والقوة العسكرية بهذه الصورة البشعة ضد مدرسة اعتصم فيها مجموعة من طلابها إرضاء لأمريكا وبطلب من الرئيس الأمريكى، ولم يكن الأمر متعلقا بالإرهاب أو العنف من قبل المدرسة المذكورة أو إدارتها أو طلابها أو طالباتها.

ثالثا: التاريخ الطويل للمدارس الدينية فى باكستان بل وفى شبه القارة الهندية شاهد على أنها معاهد تعليمية محضة ولم تتورط فى وقت من الأوقات فى أعمال العنف.

لكن السؤال الذى يطرح نفسه ويلح على البحث عن الإجابة هو عن سبب اهتمام الدول الغربية عموما وأمريكا خصوصا بالمدارس الدينية ومحاربتها بالصورة التى نراها ونشاهدها فى هذه البرهة من الزمن، فإنها لا تتورع حتى عن استخدام القوة العسكرية ضدها بأبشع صورها، فضلا عن محاربتها إياها بالوسائل السياسية والاقتصادية، فقد قصفت مدرستين: إحداهما فى منطقة «باجور» القبلية قصفتها بالصواريخ فى٢٩/ اكتوبر عام ٢٠٠٦م وقتلت فيها أكثر من (٨٠) طالبا كانت أعمارهم أقل من عشرين سنة، كانوا يحفظون القرآن الكريم، وبعضهم كانوا قد أكملوا حفظه، والأخرى كانت فى منطقة «دته خيل» وقتلت فيها أكثر من ٣٢ شخصا، ولما كثر الاحتجاج الشعبى فى باكستان وخافت الحكومة من ردود الأفعال القوية للشعب تحملت مسؤولية القصف على عاتقها، وأعلنت أنها هى التى قصفت المدرستين، ولم تقصفها أمريكا!، وأشادت أمريكا وبريطانيا، وأستراليا بالعملية العسكرية ضد (لال مسجد) المسجد الأحمر التى وقعت فى فترة (من ٢٠٠٧/٧/٣ إلى ٢٠٠٧/٧/١٠)، إلى جانب ذلك حاولت بكل الطرق الممكنة أن تضيق على المدارس الدينية فى جمع التبرعات.

ويبدو أن السبب الحقيقى وراء هذه الهجمة الشرسة التى تتعرض لها المدارس الدينية من قبل الإعلام الغربى والدول الغربية وعلى رأسها أمريكا القضاء عليها، ليس بسبب تورطها فى العنف والإرهاب، بل لأن القضاء عليها وعلى نظام التعليم الإسلامى فى كل البلدان جزء من استراتيجيتها فى ما يستعد له الغرب فى «صدامه» مع الإسلام وحضارته، فإن الغرب يتصور أن نظام التعليم الإسلامى هو الذى يغذى الجبهة الإسلامية المعارضة له، والمدارس الدينية جزء من أهم أجزاء النظام التعليمى المذكور، ومن هنا تتعرض لهذه الهجمة الشرسة من قبل الدول الغربية والحكومة الباكستانية على حد سواء.

نعم يعترض طلاب المدارس الدينية وخريجوها وعلماؤها مثل باقى أفراد المجتمع الباكستانى على ازدواجية المعايير الأمريكية فى التعامل مع قضايا المسلمين، ويعترضون على السياسات الأمريكية المتهورة التى عرضت العالم بأكمله لمخاطر كبيرة تهدد البشرية بكاملها، كما يعترضون على سياسة حكومة الجنرال مشرف فى تحالفها مع أمريكا فى حربها على ما تسميه إرهابا، ويحتجون عليها، ويعتبر الغرب هذا الاعتراض من قبل المدارس الدينية على سياسات حكومة الجنرال مشرف المتحالفة مع أمريكا فى حربها المزعومة على الإرهاب إرهابا وعنفا، كما يعتبر الاحتجاج على ما قامت به أمريكا من قتل الناس وتشريدهم لمجرد تهمة وما تقوم به حتى الآن إرهابا وعنفا، نعم إن كان هذا إرهابا وعنفا فبعض طلاب المدارس الدينية وخريجوها متورطون فى ذلك، لكنهم ليسوا وحدهم بل يوافقهم فى ذلك جمهور كبير فى المجتمع الباكستانى وخارجه، ومن هنا إن كانت أمريكا تريد أن تعالج موجة العنف الصاعدة فى العالم كله وإن أرادت أن تقلل مشاعر الكره تجاهها فى العالم الإسلامى فليس طريقها هذه الهجمة الشرسة على المدارس الدينية بل حلها مراجعة السياسات الخارجية والداخلية بتأن وهدوء وترك التهور والظلم، والابتعاد عن الغرور، ولا يستبعد ذلك من عقلاء الشعب الأمريكى.■

التوزيع حسب المؤهلات العلمية	التوزيع حسب مجال التدريس				
	المتفرق	التخصص	الدرس النظامى	تحفيظ القرآن	المجموع
المجموع الكلى	٦.٩٣٢	٣.٠٩٩	٢٠.٩٠٦	٢٤.٢٧٣	٥٥.٢١٠
لم يكملوا المتوسطة	٢.٠٦١	٧٧٧	٧.٤١١	١٣.٥٥٨	٢٣.٨٠٧
أكملوا المتوسطة	١.٩٥٧	٦٥٤	٦.١١٦	٦.٢٧٧	١٥.٠٠٤
أكملوا الثانوية	١.١٩٤	٤١٩	٢.٦٥٧	٢.٢٦٥	٦.٥٣٥
تخرجوا من الجامعة	٩٣١	٥٠٠	١.٩٧٧	١.١٧٨	٤.٥٨٦
فوق مرحلة الليسانس	٧١٦	٦٢١	٢.٤٧٣	٨٥٠	٤.٦٦٠
ماجستير الفلسفة	٤٩	٦٤	١٨٣	٨٢	٣٧٨
الدكتوراة	٢٤	٦٤	٨٩	٦٣	٢٤٠

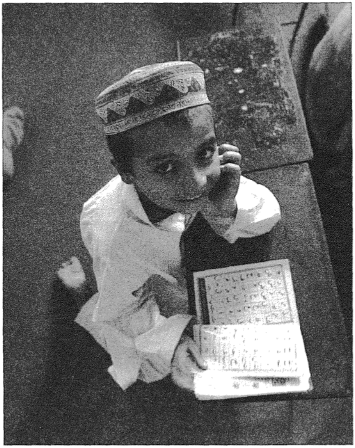
هـــــوامــــــش:

١ - لست هنا بصدد البحث عن خلفية ظهور حركة طالبان، وهل كانت نتيجة تحرك ذاتى للقائمين بها، أم أنها كانت مدفوعة، أم أنها ظهرت بتحرك ذاتى من قبل القائمين بها ثم حاولت القوى المحلية والدول المجاورة والقوى العالمية استغلالها والاستفادة منها لأهدافها، وقد تحدثت عن كل هذه القضايا وغيرها فى كتاب بعنوان «طالبان أفغانستان من حلم الملا إلى إمارة المؤمنين»، نشره معهد الدراسات السياسية (القسم العربى) بإسلام آباد عام ١٩٩٧م.

٢ - راجع مجموعة الرسائل الرضوية ج: ٢ ص: ٣٠١ وما بعدها.

٣ - جريدة (Dawn) الباكستانية عدد ٢/ديسمبر عام ٢٠٠٢م.

٤ - راجع:
http://www.statpak.gov.pk/depts/fbs/publications/ nec2005/nec46.pdf
5 - .html2005/nec2005http://www.statpak.gov.pk/depts/fbs/publications/nec
6 - http://www.statpak.gov.pk/depts/fbs/publications/nec2005/nec2005.html



مدرسة على الحدود الأفغانية

بين المسجد والمدرسة

سعيد عبدالفتاح عاشور

دأب العلماء على الجلوس في المساجد، وحول كل واحد منهم حلقة من طلاب العلم. فإذا حان وقت الصلاة، وارتفع صوت المؤذن مناديًا (الله أكبر) هب الجميع لأداء الفريضة

لكل حضارة عبر عصور التاريخ صفاتها المميزة التى تكسبها طابعًا خاصًا يميزها عن غيرها من الحضارات السابقة عليها أو اللاحقة بها. وإذا كانت الحضارة الإسلامية باعتراف كافة الباحثين فى الشرق والغرب هى أعظم حضارة عرفها العالم أجمع فى حقبة العصور الوسطى، فإن من أبرز الصفات المميزة لهذه الحضارة أنها حضارة إنسانية، استهدفت خير الإنسان والرحمة به، وتحقيق أكبر قدر من النفع له، والعمل على السمو به إلى أعلى المستويات روحيًا وفكريًا ومعيشيًا.

وفى هذا الإطار حفلت الحضارة الإسلامية بعديد من المؤسسات المتباينة فى أصولها وتكوينها وطابعها العام وأهدافها، ولكن يربطها بعضها ببعض رباط مشترك هو أنها استهدفت خير الفرد والمجتمع. ومن هذه المؤسسات ما غلبت عليه الصفة الدينية كالمساجد والخانقاوات والزوايا، ومنها ما اتخذ طابعًا اجتماعيًا كالحمامات والسبل والبيمارستانات، ومنها ما استهدف تحقيق رسالة علمية وتعليمية كالمدارس والمكاتب وبيت الحكمة ودار العلم، ومنها ما تميز بوضعه الاقتصادى كالوكالات والخانات والفنادق والقياس والأسواق.. وغير ذلك. وفى حالات كثيرة تتعدد ألوان النشاط فى المؤسسة الواحدة، بمعنى أن تجمع المؤسسة بين لونين أو أكثر من ألوان النشاط الحضارى، ولكن يظل أحد هذه الألوان، غالبًا على غيره، بحيث يكسب المؤسسة صفتها المميزة، المعبرة عن وجهها الحقيقى وهدفها الرئيسى وطابعها المميز. من ذلك على سبيل المثال لا الحصر - أن المدرسة الزمامية التى بناها سنة ٧٩٧هـ الأمير زمام الدين مقبل الرومى. زمام (الأدر) الشريفة للسلطان الظاهر برقوق. «جعل بها درسًا وصوفية ومنبرًا يخطب عليه فى كل جمعة»، بمعنى أنها جمعت بين وظائف المدرسة والخانقاة والجامع.

ومهما تتباعد أو تتقارب هذه المؤسسات التى تميزت بها الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، فى أهدافها ومهامها وطابعها، فإن المسجد ظل دائمًا وأبدًا يتبوأ مكان الصدارة، ليبدو فى صورة المؤسسة الأولى فى الإسلام التى غدت رمزًا وعنوانًا له ومقرًا لعديد من ألوان النشاط التى ارتبطت به وعبرت عنه. وفى فجر الإسلام، أقامت طلائع المسلمين المهاجرين إلى يثرب مسجد قباء، حتى هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام فأقام مسجده فى المدينة المنورة، وشارك بنفسه فى عملية بنائه، واتخذه مقرًا لحكومة الدولة الإسلامية الوليدة، حتى قدر له أن يدفن فيه عند وفاته. وفى جو البساطة الذى أحاط بالدولة الإسلامية، فى مرحلة النشأة، كان المسجد المتعدد الأوجه، فهو بيت الله الذى تقام فيه الصلاة ويتلى القرآن الكريم، وهو دار القضاء الذى يجلس فيه القضاة ليحكموا بين الناس بما أنزل الله، وهو مقر الحكومة الذى يخرج منه المبعوثون ويستقبل فيه السفراء، وتعقد فيه الألوية وتنطلق منه الجيوش للغزو، وهو دار العلم الذى يلتقى بين جوانبه المعلمون والمتعلمون ليتدارسوا أصول دينهم وأركانه ويتدبروا القرآن وأحكامه، ويحيطوا بسنة نبيهم وأحاديثه.

وبازدياد أعداد الداخلين فى الإسلام، تعددت المساجد فى الأمصار، وصار لا يكتفى بمسجد جامع واحد فى المدينة الواحدة، وإنما كثرت المساجد الجامعة وتقاربت فى المدينة الواحدة، منها ينطلق الأذان، وفيها تؤدى الصلوات، وتلقى خطبة الجمعة. وربما بلغ من تقارب المساجد بعضها من بعض أن تتداخل أصوات المؤذنين والمصلين فيها، مما أثار استياء بعض أهل العلم والمعرفة. يحكى المقريزى عن موضعين بالقاهرة كانت تقام فيهما الصلاة، بحيث «يسمع كل من صلى بالموضعين تكبير الآخر، وهذا وأنظاره من شنيع ما حدث فى غير موضع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم..!!».

ثم كان أن أدى اتساع الدولة الإسلامية من ناحية وارتقاء نظمها نتيجة المجتمع الإسلامى والاحتكاك بالحضارات الأخرى التى سادت المنطقة من ناحية أخرى، إلى مولد مؤسسات أخرى متنوعة الأغراض، تنهض بخدمة المجتمع، مما خفف عن المساجد العبء الكبير الذى تحملته فى الدور الأول من أدوار مولد الدولة الإسلامية، وهكذا ظهرت بيوت للإمارة استوعبت العديد من أجهزة الحكم، ودور للقضاء تتحمل صياح المتقاضين ومشاداتهم ومنازل للتجار ينزلون بها خلال أسفارهم، ومكاتب لتعليم الأيتام وتأديب الصغار.. وبذلك أخذ المسجد يتخفف من كثير من الأثقال الملقاة على عاتقه، ليتفرغ للمهام الدينية

بحث قدمه الكاتب إلى ندوة «المدارس فى مصر الإسلامية التى نظمها المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ١٩٩١

ظلت المساجد تمثل المكان المختار لتلقين العلم، حتى العلوم العقلية والتجريبية

الأساسية التى ارتبط بها وأقيم من أجلها.

وهناك لون من ألوان النشاط الحضارى فى الإسلام، ارتبط ارتباطًا وثيقًا بشئون العبادة والدين، ونعنى بهذا اللون النشاط العلمى الذى لم يقصد به فى صدر الإسلام إلا العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه.. ثم ما تفرع عن هذه العلوم من نحو وتاريخ. وكان من الطبيعى أن يتخذ هذا النشاط من المساجد مقرًا له. جاء فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان يجلس فى مسجده بالمدينة يبصر الناس بشئون دينهم ودنياهم، ويفسر لهم القرآن الكريم، ويجيب عن أسئلتهم، ويوضح لهم ما صعب عليهم فهمه من أحكام الدين. وبعد الرسول (ص) انتشر الصحابة ثم التابعون فى الأمصار يجلسون فى المساجد ويلتف حولهم المسلمون الجدد لينهلوا من علمهم ما يرتبط بالقرآن والحديث وسيرة الرسول (ص) وأحكام الدين. وهكذا ولدت بين جنبات المساجد العلوم الدينية المتعددة، فدأب العلماء على الجلوس فى المساجد، وحول كل واحد منهم حلقة من طلاب العلم يتلقون العلم على أيديهم. فإذا حان وقت الصلاة، وارتفع صوت المؤذن مناديًا (الله أكبر) هب الجميع لأداء الفريضة، ثم تنتظم حلقات العلم مرة أخرى بعد الصلاة.

ومع اتساع دائرة الحضارة الإسلامية، وتطورها، تجاوزت الرغبة فى طلب العلم نطاق العلوم الدينية إلى غيرها من العلوم النقلية والعقلية. وكان أن ظهرت حركة الترجمة لتنقل إلى المسلمين معارف أصحاب الحضارات القديمة، وبخاصة اليونانيون والفرس وغيرهم. وسرعان ما ظهر أن المسجد بطبيعته وطابعه لا يتسع لهذه الألوان الجديدة من ضروب المعرفة، ومن ثم ظهرت مراكز. مثل بيت الحكمة ودار العلم. لتستوعب حركة الترجمة إلى العربية وكذلك العلوم العقلية والتجريبية. فضلاً عن بعض النزعات المذهبية والفكرية. وقد تمتعت هذه المراكز الجديدة برعاية الخلفاء، مثل هارون الرشيد الذى أنشأ بيت الحكمة فى بغداد، ومثل الخليفة المأمون الذى أرسل مبعوثين من العلماء إلى بلاد الروم لجلب الكتب اليونانية فى الطب والكيمياء والفلسفة وغيرها وترجمتها إلى العربية فى بيت الحكمة. أما دار العلم التى أنشأها الفاطميون فى مصر فكان محور نشاطها الدعوة الفاطمية وأصول المذهب الإسماعيلى وما يرتبط به من فقه وعقائد. ومن الواضح أنه لا يوجد موضع لعلوم أهل السنة وفقههم فى هذه المؤسسات، الأمر الذى أدى إلى ظهور مؤسسات أخرى جديدة. أو زوايا العلم التى وجدت فى بعض المساجد، مثل الزاوية التى نسبت إلى الإمام الشافعى بجامع عمرو بن العاص، والزاوية المجدية التى رتبها مجد الدين أبوالأشبال (ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) وزير الأشرف موسى الأيوبى ورتب لها عدة أوقاف، مما مكنها من البقاء حتى أيام المقريزى فى القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر للميلاد. ومع ذلك فقد ظلت المساجد ـ وبخاصة الكبرى ـ تمثل المكان المختار لتلقين العلم، حتى العلوم العقلية والتجريبية ـ مثل الطب ـ ظلت تدرس أحيانًا. وحتى وقت لاحق ـ بالمساجد. ومن ذلك ما ذكره عبداللطيف البغدادى (ت ٦٢٩هـ) من أن درسًا فى الطب كان يلقى فى الأزهر فى منتصف نهار كل يوم، ولكن فى الوقت الذى عاشه عبداللطيف البغدادى ـ فى القرن السابع الهجرى، الثالث عشر للميلاد ـ كانت قد ظهرت المدرسة لتنافس المسجد فى مكانته كمركز للنشاط العلمى فى العالم الإسلامى. وإذا كان المسجد يفسر فى اللغة بأنه موضع السجود ومكان الصلاة، فإن المدرسة تفسر بأنها موضع الدرس، ويقال درس الكتاب درسًا ودراسة، أى قرأه وأقبل عليه ليحفظه ويفهمه. أما المدرس فهو «الذى يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والصرف ونحو ذلك». ومن هذا يبدو أن فكرة المدرسة ارتبطت بالعلوم الدينية، أو العلوم الشرعية.

يذكر المقريزى أن المدارس كانت مما استحدث فى الإسلام، إذ لم تكن تعرف زمن الصحابة والتابعين «وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة» أى فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر للميلاد، ويقال إن أول مدرسة بنيت فى الإسلام هى المدرسة البيهقية فى نيسابور بإقليم خراسان. ثم تتابع إنشاء المدارس بعد ذلك، فاشتهرت منها المدرسة النظامية ببغداد، وقد نسبت إلى نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ملكشاه، وقد شرع فى بنائها سنة ٤٥٧هـ، وتمم البناء فى سنة ٤٥٩هـ.

ومهما يقال من أن السلاجقة وأتباعهم توسعوا فى إنشاء المدارس لتكون مراكز لتدريس فقه أهل السنة وعلومهم، مما يساعد على التصدى للشيعة والحد من نفوذهم، فإننا ـ من وجهة نظرنا ـ يجب أن نضع موضع الاعتبار أن اتساع دائرة العلم، وازدياد أعداد طلاب العلم، تطلب إقامة مراكز خاصة بالتعليم يكون الهدف الأول من وجودها أن تستوعب هذا الكم الكبير من الدراسات ومن الطلاب. وبين رحابها يجتمع المعلمون والمتعلمون، وربما اقتصر التردد عليها والإقامة فيها على أهل العلم وحدهم ـ دون غيرهم ـ ليمارسوا فيها نشاطهم. يذكر المقريزى فى حديثه عن المدرسة الناصرية أنه كان «لا يملك غريب أن يصعد إليها». وهكذا بخلاف المسجد الذى كانت أبوابه مفتوحة على مصاريعها أمام كل مسلم، سواء كان من رجال العلم أو من غير رجال العلم. وكان بحكم طابعه وجذوره وأصوله، وما جاء عنه فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، أقرب إلى قلوب المسلمين، وأيسر فى التردد عليه وقضاء الساعات بين رحابه. وحسبه أنه بيت الله.

وقد خصصت كل مدرسة لمذهب أو أكثر من مذاهب أهل السنة، وفقما يحدد مؤسس المدرسة ومنشئها من ذلك أن المدرسة النظامية ـ مثلاً ـ كانت وقفًا «على أصحاب المذهب الشافعى أصلاً وفروعاً». وهكذا حتى أنشأ الخليفة المستنصر بالله العباسى (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ/١٢٢٦ ـ ١٢٤٢م) المدرسة التى نسبت إليه فى بغداد سنة ٦٣١هـ، وجعلها لمذاهب أهل السنة الأربعة، فكانت أول مدرسة فى الإسلام جمعت بين كل المذهب الحنفى والشافعى والحنبلى والمالكى.

أما مصر فكانت فى الحقبة التى شهدت ظهور المدارس فى المشرق تحت حكم الفاطميين، وهم شيعة إسماعيلية، ولذا قال البعض إن مصر لم تأخذ بفكرة إنشاء المدارس إلا فى عهد صلاح الدين، الذى أسقط الخلافة الفاطمية، وربط مصر بالخلافة العباسية السنية، وربما تأثر أصحاب هذا الرأى بعبارة ذكرها المقريزى نصها «وأما مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين، ومذهبهم مخالف لهذه الطريقة (بناء المدارس)، وإنما هم شيعة إسماعيلية».

على أن هناك شواهد تجعلنا لا نأخذ بهذا الرأى، إذ يشير عدد من النصوص المعاصرة إلى أنه وجدت مدارس بمصر فى العصر الفاطمى قبل عهد صلاح الدين. وإذا كان البعض يؤكد أن فكرة المدرسة ارتبطت بالمذهب السنى، فإن علينا أن نضع موضع الاعتبار أن أهل مصر ظلوا طوال العصر الفاطمى متمسكين بمذهب أهل السنة، وأنه على الرغم من جهود الفاطميين فى الدعوة لمذهبهم فإن هذه الدعوة لم تلق استجابة من أهل مصر. يضاف إلى ذلك أن صلة مصر الروحية والفكرية بالعالم السنى لم تنقطع طوال العصر الفاطمى، فتردد عليها بعض شيوخ العلم ورجال الدين من أهل السنة. وبدراسة تاريخ الحقبة التى حكم فيها الفاطميون مصر، يتضح لنا أن هناك من أهل السنة من شغلوا بعض الوظائف والمناصب الإدارية.

وهكذا ظل المذهب الإسماعيلى فى العصر الفاطمى مقصوراً على فئة الحكام من الخلفاء، ومن أحاط بهم وارتبط بهم من الأتباع وهؤلاء اتخذوا من القاهرة مركزًا رئيسيًا للدعوة الفاطمية ولنشاط الدعاة لها. أما خارج مدينة القاهرة، فإن الدعوة الفاطمية اتصفت بالضعف حتى كادت تخبو فى الأقاليم البعيدة عن عاصمة البلاد، ولعل فى هذا بعض السر فى أن أولى المدارس السنية التى عرفتها مصر فى العصر الفاطمى كانت خارج القاهرة، وفى مدينة الإسكندرية بالذات. ويفسر هذا أن المدارس القليلة التى عثرنا على أسمائها فى مصر الفاطمية، كانت محدودة الشهرة، تبدو وكأن جوًا من التستر وعدم الرغبة فى الظهور أحاط بها، وذلك حرصاً من القائمين عليها والمنتمين إليها على عدم استثارة الحكام الشيعة.

يذكر ابن خلكان فى ترجمة العادل ابن السلار (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م) وزير الخليفة الظافر الفاطمى أنه «كان ظاهر التسنن، شافعى المذهب». ومع ذلك فقد صار العادل واليًا على الإسكندرية. وفى أثناء ولايته على الثغر، «وصل الحافظ أبوطاهر السلفى ـ رحمه الله تعالى ـ إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به فاحتفى «العادل» به، وزاد فى إكرامه، وعمر له هناك مدرسة (سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥٦م) وفوض تدريسها إليه، وهى معروفة إلى الآن، ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعية سواها».

ونخرج من هذا النص بحقيقتين: الأولى هى أن بعض أهل السنة ولوا مناصب لها وزنها فى الدولة الفاطمية، مما جاء مصحوبًا بتردد بعض علماء أهل السنة على مصر فى العصر الفاطمى، حيث مارسوا نشاطًا علميًا، وبخاصة خارج القاهرة. أما الحقيقة الثانية فهى ظهور المدرسة على أرض مصر فى أيام الدولة الفاطمية، قبل بزوغ نجم صلاح الدين.

وبالإضافة إلى هذه المدرسة، التى عرفت باسم «السلفية»، نسبة إلى الحافظ أبى طاهر أحمد السلفى، هناك مدرسة أخرى ورد ذكرها فى المصادر المعاصرة، أنشأها بالإسكندرية أيضًا الوزير رضوان الولخشى سنة ٥٣٢هـ (١١٣٨م)، أى فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله. وقد عرفت هذه المدرسة باسم العوفية نسبة إلى الفقيه المالكى أبى طاهر بن عوف الذى قام بالتدريس فيها. بل إن الرحالة بنيامين التطيلى الذى زار الإسكندرية فى فجر مولد الدولة الأيوبية ذكر أن بها عشرين مدرسة.

ومهما يكن من أمر، فإن سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية فى مصر، صحبه التوسع فى إنشاء المدارس، ذلك أن صلاح الدين الأيوبى اقتدى بسيده نور الدين محمود الذى «بنى بدمشق وحلب وأعمالهما عدة مدارس.. ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس.. أولاده وأمراؤه، ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك (سلاطين المماليك) وأمرائهم وأتباعهم إلى يومنا هذا...».

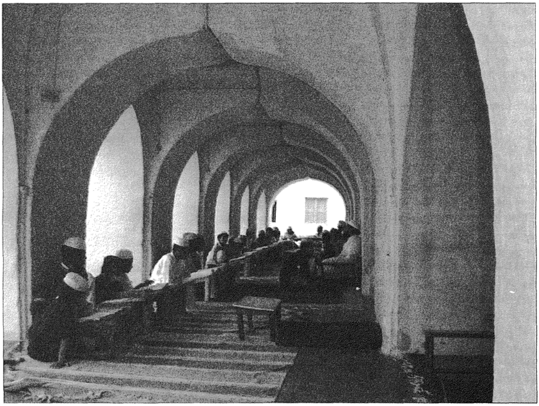
وبتتبع المدارس فى مصر، نجد بعضها اختص بمذهب واحد من مذاهب أهل السنة الأربعة - كالمدرسة السيوفية تجاه الصنادقة بالقاهرة - وقد اختصت بالمذهب الحنفى، والمدرسة الناصرية التى اختصت بالمذهب الشافعى، والمدرسة الصاحبية التى اختصت بالمذهب المالكى. هذا فى حين وجدت مدارس أخرى احتضنت مذهبين، كالمدرسة الفاضلية التى ضمت المذهبين الشافعى والمالكى، ومدرسة سيف الدين منكوتمر التى ضمت المذهبين الحنفى والمالكى، والمدرسة الأقبغاوية والمدرسة الفارقانية، وكان بكل منهما «درس للطائفة الشافعية، ودرس للطائفة الحنفية».

وهنا نلاحظ ملاحظتين، الأولى هى أن المذهب الحنبلى لم يكن له حظ وافر من إقبال المعاصرين فى مصر، يعادل بعض ما كان



ألـواح الخشـب . موريتـانيـا

مدرسة داخل مسجد فى الهند يعود تاريخ انشائه إلى القرن الثامن عشر



صلاح الدين اقتدى بسيده نور الدين الذى بنى بدمشق وحلب عدة مدارس

للمذاهب الثلاثة الأخرى، وهى الحنفى والشافعى والمالكى. والملاحظة الثانية هى أننا لم نصادف فى تتبعنا لمدارس مصر، مدرسة جمعت بين ثلاثة من مذاهب أهل السنة. وإنما كان الغالب هو أن تختص المدرسة بمذهب واحد أو مذهبين. هذا فى حين وجدت إشارات فى بعض المصادر المعاصرة إلى وجود بعض مدارس بالشام حوت ثلاثة من مذاهب أهل السنة.

وإذا كانت المدرسة المستنصرية التى افتتحت فى بغداد سنة ٦٣١هـ هى أول مدرسة فى الإسلام جمعت بين تدريس المذاهب الأربعة: المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى، فإنه ما كادت تمضى عشر سنين على قيام هذه المدرسة، حتى افتتحت بالقاهرة سنة ٦٤١هـ المدرسة الصالحية، التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب - السلطان قبل الأخير من سلاطين بنى أيوب - وجعلها مجمعا للمذاهب الأربعة. وبذلك كان الصالح نجم الدين أيوب «أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة فى مكان».

وكان أن كثرت مدارس المذاهب الأربعة فى مصر بعد ذلك مثل المدرسة الظاهرية التى أنشأها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ، والمدرسة المنصورية التى أنشأها السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٤هـ، والمدرسة الناصرية التى بدأ كتبغا بناءها، ثم أتمها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣هـ، والمدرسة التى أنشأها السلطان الناصر حسن بجامعه تجاه القلعة سنة ٧٥٧هـ.

وهنا لابد لنا من وقفة إزاء هذه المؤسسة الضخمة التى أنشأها السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، للبت فى قضية مهمة تباينت فيها أقوال المؤرخين، ولم يبت فيها حتى اليوم برأى حاسم قاطع. هل هذه المؤسسة الكبرى التى أقامها السلطان الناصر حسن والتى مازالت شامخة ببنائها الفخم فى مواجهة قلعة الجبل، هل هى جامعة مدرسة أم أنها مدرسة جامعة؟ وبعبارة أخرى: هل كان الهدف الأول الأساسى من إقامتها أن تكون جامعا يضم بين رحابه مدرسة، أم أن تكون مدرسة تستهدف التعليم، على أن تقام فيها شعائر الصلاة وخطبة الجمعة؟ لقد أطلق كثيرون اسم «مدرسة السلطان حسن» على هذه المؤسسة، فى حين أطلق آخرون - ومازالوا يطلقون - اسم «جامع السلطان حسن» عليها. ومع ما بين المصطلحين من ترابط إلا أن البحث العلمى يتطلب وضع خط مميز بينهما.

أما هذا الترابط فيبدو فى أن هناك هدفا مشتركا بين إنشاء المسجد وإنشاء المدرسة، وهو هدف يتمثل فى التطلع إلى حسن الأجر والثواب. فإذا كان المسجد هو بيت الله الذى يرفع ليذكر فيه اسمه، مما جعل إقامة المساجد من أجل الأعمال التى يمكن أن يتقرب بها المسلم إلى ربه، فإن المدارس اعتبرت أيضا قلاعا للعقيدة وحصونا للدين، لأن الإسلام حث على العلم والتعلم، وكان أول لفظ نزل من القرآن الكريم هو كلمة «اقرأ» والقراءة هنا ليست غاية فى حد ذاتها، وإنما هى وسيلة لطلب العلم من أفضل أبوابه.

ومن ناحية أخرى، فإن المقصود بالعلم والتعلم هنا، تدارس العلوم الدينية التى يؤدى تعلمها إلى خير دين الإنسان ودنياه. وحسب العلم فى الإسلام أنه أثر عن الرسول (ص) أنه قال: «خير العلم خير من خير العبادة»، وأنه (ص) قال «لكل شىء عماد، وعماد الإسلام العلم». ولتأكيد الطابع الدينى للمدرسة، روعى فى تخطيطها وتصميمها أن تكون مقاربة فى هندستها وصورتها للمسجد، بمآذنه ومنبره وأروقته وزخارفه.

ومادام الهدف متقاربا بين المسجد والمدرسة، فإن الوظائف والمهام تشابهت إلى حد يقرب من التطابق، بمعنى أن المسجد صار مكانا للعبادة والدرس، فى حين صارت المدرسة مكانا للدرس والعبادة. وبعبارة أخرى أقيمت الصلاة وعقدت حلقات العلم فى المسجد، فى حين عقدت حلقات العلم وأقيمت الصلاة فى المدرسة. وهكذا وجد ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الجامع المدرسة». وما يمكن أن نطلق عليه اسم «المدرسة الجامع». ولعل حرص مؤسس المدرسة على أن تكون مؤسسته مكانا للعبادة، هو الذى جعله يزودها بمنبر وميضأة ومئذنة أو أكثر. ولكن مع كل ذلك ومع الاعتراف بأهمية المدرسة ومكانتها وطابعها الدينى، إلا أن مكانة المسجد أو الجامع فى قلوب المسلمين فاقت كل ما عداه من مؤسسات أخرى فى الإسلام. وحسب المسجد أنه يمثل المؤسسة الأولى فى الإسلام، التى سبق ظهورها مولد المدرسة بأكثر من أربعة قرون. وقد أدرك المعاصرون أن إقامة الجمعة والخطبة فى المدارس جاءت نتيجة لضرورة وليست هدفا من إنشائها. يذكر المقريزى أنه حدث سنة ٧٥٨ هـ على أيام السلطان الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون أن قام القاضى علم الدين إبراهيم - ناظر الدولة - بتجديد عمارة المدرسة الصاحبية «واستجد فيها منبرا، فصار يصلى بها الجمعة إلى يومنا هذا، ولم يكن قبل ذلك بها منبر ولا تصلى فيها جمعة».

وإذا كان المسجد قد احتفظ بمكانته كمركز للعلم والتعليم فإن أشعة العلم التى تنبثق من بيت الله تكون دون شك أسطع نورا وأقوى تأثيرا فى النفس من تلك التى تنبعث من أى مكان آخر. يذكر أحد فقهاء عصر سلاطين المماليك - هو الفقيه ابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٨هـ أن مواضع التدريس ثلاثة: هى البيت والمدرسة والمسجد. وقال إن المسجد أفضلها جميعا، لأن الفائدة من التدريس أن تظهر به سنة أو تخمد بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الدين.

يذكر المقريزى أن المدارس كانت مما استحدث فى الإسلام، إذ لم تكن تعرف زمن الصحابة والتابعين «وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة» أى فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر للميلاد

والمسجد خير مكان تتوافر فيه هذه الفوائد، لأنه موضع مجتمع الناس.

ولا أدل على أن المسجد كانت له مكانته الخاصة فى قلوب المسلمين، من ذلك النموذج الذى أتى به القلقشندى لما ينبغى أن تستهل به كتب الأوقاف على المساجد، والذى يتصدره الحديث الشريف «من بنى مسجدا لله - ولو كمفحص قطاة - بنى الله تعالى له به قصرا فى الجنة». وبعد هذه الافتتاحية، يمضى واضع هذا النموذج لحجة الوقف على المسجد، فيقول: «وبعد، فلما كانت المثوبات مضمونة الأجر عند الكريم، والأعمال متعددة فى التقديم وكان بنيان المساجد وافرا أجرا.. ورأى العقلاء أن الأوقاف على المساجد والجوامع من أنفس قواعد الدين وأعلى، فلذلك قيل فى هذا الإسجال المبارك...».

وبدراسة النص الأخير دراسة متأنية نجده يؤكد أن الأعمال التى يثاب عليها الإنسان «متعددة فى التقديم»، وأن إقامة المساجد لها الأولوية فى وفرة الأجر عند الله تعالى. ومعنى هذا أنه إذا كان المسجد والمدرسة قد تداخلا فى الوظيفة، فإن بناء المسجد المدرسة كان أكثر قبولا وأعظم ثوابا فى نظرهم - من بناء المدرسة المسجد.

ومهما يكن من أمر، فإنه تحت تأثير هذا التداخل الوظائفى بين المسجد والمدرسة، والتشابه بينهما فى الهندسة والشكل العام، أطلق بعض المعاصرين على مؤسسة السلطان حسن اسم «جامع»، فى حين أطلق عليه آخرون اسم «مدرسة». وممن أطلق على هذه المؤسسة اسم مدرسة من المؤرخين المعاصرين ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، وابن تغرى بردى (٨٧٤هـ)، وابن حجر (٨٥٢هـ) وابن اياس (٩٢٩هـ).

على أننا نلاحظ على هؤلاء المؤرخين المعاصرين الذين أطلقوا على مؤسسة السلطان حسن اسم «مدرسة»، أنهم فعلوا ذلك فى سياق الأخبار التى دونوها فى حولياتهم، أو فى سياق التراجم التى أوردتها للسلطان الناصر حسن، صاحب هذه المؤسسة. وبعبارة أخرى فإنهم لم يطلقوا اسم «مدرسة» على هذه المؤسسة داخل إطار دراسة قائمة بذاتها يعالجون فيها المؤسسات الإسلامية وأنواعها، أو يتتبعون فيها المدارس والجوامع التى أقيمت فى حقبة معينة أو فى عصر معين، مما يتطلب مراعاة الدقة فى التصنيف والحرص على اختيار الصفة الأساسية لهذه المؤسسة أو تلك.

وربما كان المؤرخ أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥هـ) كبير مؤرخى مصر فى القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر للميلاد - هو الوحيد الذى وصلتنا عنه مثل هذه الدراسة المقننة الدقيقة. ذلك أن المقريزى حرص فى موسوعته الكبرى «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» على أن يقسم المؤسسات فى القاهرة إلى أنواع، أفرد لكل نوع قائمة مستقلة وضع لها عنوانًا منفردًا بنفسه، بحيث يعبر كل نوع عن الخصائص والأوصاف والمهام والوظائف التى يتميز بها ذلك النوع من المؤسسات. فتحت عنوان «ذكر المساجد الجامعة» جمع المقريزى «ما فى ظواهر القاهرة ومصر من الجوامع مع التعريف بحال من أسسها، وبالله التوفيق». ثم تناول جوامع مصر والقاهرة واحدًا بعد آخر، وخصص لكل منها عنوانًا يحمل اسم الجامع: الجامع العتيق، جامع العسكر، جامع ابن طولون، الجامع الأزهر، جامع الحاكم.. وأفرد لكل جامعة دراسة قد تطول أو تقصر حسب المقتضيات. ولم يغب عن المقريزى فى هذه الدراسة أن يشير إلى إسهام الجامع فى النشاط العلمى، فهو فى حديثه - مثلاً - عن الجامع العتيق أو جامع عمرو بن العاص، يقول «وبالجامع زوايا يدرس فيها الفقه».

وبعد أن ينتهى من ذكر الجوامع فى صفحات طويلة، ينتقل المقريزى إلى المدارس، فيضع عنوانًا كبيرًا «ذكر المدارس»، فيبدأ بشرح معنى الدرس والتدريس والمدرسة، وفى ضوء هذا الشرح يتناول المدارس فى مصر والقاهرة واحدة بعد أخرى، ويخصص عنوانًا لكل مدرسة، بدءًا بالمدرسة الناصرية. فإذا فرغ من ذكر المدارس انتقل إلى ذكر المارستانات. وهكذا يتتبع المقريزى كل المؤسسات التى حفلت بها مصر والقاهرة فى إطارها الصحيح، مع الإشارة دائمًا إلى ما قد يكون لهذه المؤسسة أو تلك من وظائف أخرى تأتى على هامش وظيفتها الرئيسية التى استهدفها مؤسس المنشأة أو صاحبها.

وهنا يبدو الفارق واضحًا بين الأسلوب الذى اتبعه المقريزى فى حولياته، والأسلوب الذى اتبعه فى خططه. ففى حوليات المقريزى المعروفة باسم «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» اهتم المؤرخ بالجرى وراء الأخبار المتلاحقة، موجهًا جل عنايته نحو تتبع مسيرة الأحداث، مستخدمًا فى ذلك ما هو شائع ومعروف ومتداول بين الناس من مصطلحات. وهكذا أشار المقريزى فى حولياته إلى مؤسسة الناصر حسن باسم «مدرسة السلطان حسن». وجاء تعبيره هذا فى سياق الكلام عن فتنة دبت فى صفوف المماليك فاستغل بعضهم موقع هذه المؤسسة - المواجهة للقلعة - فى رمى خصومهم بالنشاب.

أما فى كتابه «المواعظ» الذى خصصه لدراسة خطط مصر والقاهرة، فإن المقريزى - وهو العالم المحقق الذى عاصر تلك الحقبة، وكرس نحوًا من عشرين عامًا من عمره فى وضع هذا الكتاب، مراعيًا الدقة المتناهية فى تصنيف المؤسسات التى حفلت بها مصر والقاهرة، وضع مؤسسة السلطان حسن فى قائمة «الجوامع». فتحت عنوان «ذكر المساجد الجامعة» تتبع المقريزى جوامع مصر والقاهرة واحدًا بعد آخر، مع ذكر عنوان كل منها، حتى أتى بعنوان كبير نصه «جامع الملك الناصر حسن». واستهل المقريزى كلامه عن هذا الجامع بعبارة «هذا الجامع يعرف بمدرسة السلطان حسن». ومن هذه العبارة يفهم أن الأصل فى هذه المؤسسة أن تكون جامعًا، ولكنها اشتهرت وعرفت باسم «مدرسة السلطان حسن». فتسميتها مدرسة لا يعدو أن يكون اسم الشهرة، وليس الاسم المعبر عن وضعها الحقيقى. وقد تمسك المقريزى بإطلاق اسم «الجامع» على هذه المؤسسة فى المادة العلمية الطويلة التى أوردها عنها: فهذا الجامع كذا، ويحكى عن هذا الجامع كذا، وجعل السلطان على هذا الجامع أوقافًا كذا...

ومثل هذا التحديد والتأكيد لا يمكن أن يصدر عن عالم مثل المقريزى، وفى كتاب مثل الخطط، اعتباطًا، وإنما لا بد أن لدى هذا العالم المعاصر من الأسانيد والأدلة الواقعية ما جعله يصر على وضع مؤسسة السلطان حسن فى قائمة جوامع القاهرة - وليس فى قائمة مدارسها - من ناحية، ثم على التمسك بصفة «الجامع» ليصف بها هذه المؤسسة من ناحية أخرى. ولم ينف المقريزى أبدًا عن هذا الجامع أنه نهض أيضًا بوظيفة «المدرسة» شأنه شأن معظم الجوامع المعاصرة، ولكنه جعل صفة الجامع هى الأولى وهى الهدف من بنائه، وبعد ذلك تأتى صفة المدرسة، فقال إن هذا الجامع «يعرف بالمدرسة» ولم يقل «إن هذه المدرسة تعرف بالجامع». وبعبارة أخرى فإن مؤسسة السلطان حسن «جامع مدرسة» وليست «مدرسة جامع». ■

كتاب الزاوية

مذكرات عريان يوسف سعد

فى عام ١٩١٩، وبينما كان يوسف وهبة باشا رئيس الوزراء (القبطى) يمر فى شارع سليمان باشا، ألقى عليه طالب الطب (القبطى) عريان يوسف سعد، عضو منظمة اليد السوداء - التى كان هدفها اغتيال ضباط الاحتلال البريطانى والمتعاونين معهم من المصريين - ألقى عليه قنبلتين ولكن وهبة باشا نجا وحكم على عريان يوسف سعد بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات، وقد اعترف بأنه أراد كـ «قبطى» أن يغتال عميل الاستعمار، حتى لا يدان المسلمون ويقال إن الباعث دينى، ومن ثم تشوه الحركة الوطنية.

وتتناول هذه المذكرات، التى قد تكون أول مذكرات لسجين سياسى مصرى فى العصر الحديث، تاريخ ثورة ١٩١٩ من وجهة نظر أحد المشاركين فيها، وتلقى الضوء على بعض الأحداث المجهولة والمثيرة كاستقلال ميت غمر وإعلانها سلطنة وكيفية التحاقه بمنظمة اليد السوداء - إحدى أكثر المنظمات المصرية السرية غموضًا - وخطة الاغتيال ومذكراته الشيقة فى السجن.

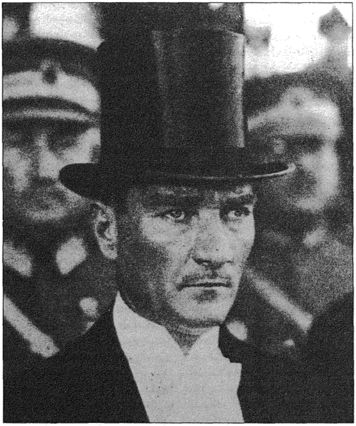
ويستعرض صاحب المذكرات فى هذا الكتاب نشاطه السياسى فى مرحلة شديدة الأهمية من تاريخه المصرى، ويكشف عن صفحات مجهولة قام فيها بدور بارز دون ادعاء أو مبالغة. وقد اختارت «وجهات نظر» نشر مقتطفات من هذا الكتاب الذى صدرت طبعته الأولى عن «دار الشروق» خلال العام الحالى.

بين

أردوجان والإخوان

إبراهيم الهضيبى

حرص أردوجان على عدم تصعيد الاستقطاب مع العلمانية بينما زاد بعض النواب الإسلاميين فى مجلس الشعب المصرى من حدة الاستقطاب حينما اتخذوا موقفًا رافضًا للعلمانية باعتبارها تمهيداً لإزاحة الشريعة



مصطفى كمال أتاتورك



حسن البنا

أردوجان تجنب صراعا مبكرا مع الجيش فى معركة هامشية. خاضها من قبله أربكان فاستنزفت مجهوده بشكل كبير، وخرج منها مجروحا على أقل تقدير

لم يعد بإمكان إسلامى يسعى للإصلاح وعلاج مشكلات الأمة أن يتجاهل التجربة التركية فى العمل الإسلامى وتجربة حزب العدالة والتنمية بشكل خاص للاستفادة منها فى فهم أسباب النجاح. والحقيقة أن اهتمامى بالتجربة التركية بدأ قبل أعوام مع وصول العدالة والتنمية للسلطة فى ٢٠٠٢. ومن خلال متابعتى أظن أن (خلطة النجاح) التركية تمثلت فى توليفة كبيرة من المواقف السياسية قد تختلف صحتها وخطئها من قطر لآخر، إلا أن منهجيتها واحدة، ووصفتها تتمثل فى مجموعة من النقاط الواضحة.

الشرط الأول للنجاح هو فهم الواقع السياسى بمستوياته المختلفة: المحلية والإقليمية والدولية، وبتداخلات الداخل والخارج فى هذه المستويات. والواقع السياسى التركى معقد، فمحليا تعانى تركيا انقساما حادا بين الإسلاميين والعلمانيين الأتاتوركيين، تعمق بإصرار رئيس الوزراء (الإسلامى) الأسبق نجم الدين أربكان على انتهاج خط المواجهة، والذى أسفر فى النهاية عن إسقاط حكومته بعد أن حاصرتها المؤسسات العلمانية وعلى رأسها الجيش، وفرضت عليه تنفيذ أجندة علمانية لائكية فلم يجد بدا من الاستقالة. هناك أيضا الصراع العرقى التركى الكردى، وهو الصراع الذى يسبب حرجا شديدا للحكومة التركية فى مسألة حقوق الإنسان، وخاصة مع محاولات الانضمام للاتحاد الأوروبى.

وإقليميا كانت هناك أزمات متعددة، بدءا بالأزمة الكردية، ومرورا بحرب العراق، والقضية الفلسطينية، إضافة إلى الرغبة فى الانضمام للاتحاد الأوروبى، والتى لم تكن شديدة الإلحاح فى هذا الوقت كما أصبحت بعد أن تولى الحزب السلطة.

ودوليا كانت هجمات الحادى عشر من سبتمبر قد لفتت أنظار العالم إلى (الشأن الإسلامى)، وكذلك إلى أزمة الديمقراطية فى الشرق الأوسط، فسعت إدارة بوش إلى إيجاد مساحات أوسع (ولو نسبيا) من الحرية فى الأنظمة السياسية الشرق أوسطية، ومحاولة دمج الحركات الإسلامية المعتدلة (وإن ظل تعريف الاعتدال مبهما) فى الأنظمة السياسية لبلادها لدعم الاعتدال فى مواجهة التطرف، وكانت هناك الحرب على الإرهاب، وما أنتجته من استقطاب حاد على المسرح الدولى بسبب رؤية الرئيس الأمريكى الذى قسم العالم إلى قسمين؛ إرهابيين، وحلفاء للولايات المتحدة فى حربها على الإرهاب.

وعن تداخلات الداخل والخارج فقد كانت العلاقات الإقليمية مع إسرائيل محكومة بقوة الجيش العلمانى وسيطرته على نظام الحكم وعدم قدرة الإسلاميين على مواجهته، وكان للجيش كذلك دور كبير فى تحديد كيفية معالجة الشأن الكردى، والظرف الدولى كان يؤثر على شكل العلاقات الإقليمية لحرصه على إبقاء الدول (المتطرفة) مثل إيران وسوريا خارج التحالفات الرئيسية فى المنطقة، وكان المحلى والإقليمى يتداخلان فى قضية الحرص على إنجاز بعض الإصلاحات الداخلية للمضى قدما باتجاه الاتحاد الأوروبى.

ومسألة السعى للاتحاد الأوروبى فى ذاتها كانت موضع خلاف داخلى؛ فقد جسدت الانقسام المجتمعى التركى بين طرف يرى بلاده جزءا من أوروبا، وطرف آخر يراها عاصمة الخلافة الإسلامية.

والحقيقة أن الواقع كان بطبيعة الحال أكثر تعقيدا من ذلك، ولكنى أردت فقط ان أشير إلى خطوطه العريضة. وبلا شك فقد كانت خطوات العدالة والتنمية تشير بوضوح إلى فهم دقيق لهذا الواقع. وما يعنينى هنا هو أن الحزب لم يدرك المؤثرات المحلية فى صناعة القرار وحسب، بل تخطى ذلك للمؤثرات الإقليمية والدولية، وفهم أشكال التشابك بينها، وعكف على دراسة التجارب الإسلامية التى لم تحقق النجاح المطلوب، الأمر الذى استغرق وقتا طويلا سبق الإعلان عن الحزب، وقد استفاد بذلك من أخطاء أربكان المتسرع دائما فى إنشاء حزب جديد كلما حظر النظام العلمانى أحد أحزابه.

ثانى شروط النجاح هو التسليم بمعطيات الواقع السياسى، أو شروط اللعبة السياسية فى الساحة التركية. وأقصد بذلك الموافقة على المعطيات والانطلاق من أرض الواقع، ومما هو موجود بالفعل، لا مما يراه منضبطا وصحيحا أو عادلا. ويبدو أن هذا أحد أهم أسباب النجاح، والمتابع للحركة الإسلامية فى المغرب وتركيا يلحظ ذلك؛ ففى تركيا لم يتخذ أردوجان وحزبه موقفا سلبيا من العلمانية، وفى المغرب اعترف الإصلاحيون بالملك كـ(أمير المؤمنين) واعتبروا مهمتهم بالتالى هى إصلاح المجتمع لا أسلمة الدولة، وفى كلتا الحالتين فقد أثر ذلك إيجابا على شكل التعامل معهم مقارنة بغيرهم من الإسلاميين الذى تمسكوا بمواقف صلبة فى قضايا لا تستحق هذا القدر من الجمود.

فأردوجان تجنب صراعا مبكرا مع الجيش فى معركة هامشية، خاضها من قبله أربكان فاستنزفت مجهوده بشكل كبير، وخرج منها مجروحا على أقل تقدير، وفى المغرب لا يزال الفارق بين تعامل النظام مع العدل والإحسان، وتعامله مع العدالة والتنمية مؤشرا واضحا على الفوارق والعقبات التى يسببها عدم الاعتراف بمعطيات الواقع السياسى. وهذا هو فقه الواقع الذى ينطلق من الأرض حتى يتمكن من التغيير.

ويمكن مقارنة ذلك ببعض المواقف الإسلامية فى مصر التى (تجاهد) و(تناضل) من أجل التأكيد على عدم جواز رئاسة الدولة للمرأة والقبطى، وهى قضايا خلافية، ولا تأثير لطرح هذه الآراء، والتمسك بهذا الاختلاف (الذى يتم أحيانا من باب محاولة إبراز تمايز الحركة الإسلامية عن غيرها من القوى) إلا تعطيل الإسلاميين عن الإنخراط بشكل تام فى الحياة السياسية.

وإذا كان فهم الواقع والدخول السلس فى العملية السياسية من دون الاصطدام بقواعد اللعبة هما الشرطان الأول والثانى لنجاح حزب العدالة والتنمية فى تركيا، فإن التحديات التى يفرضها الوجود السياسى، بل والوجود فى الحكم، هى بطبيعة الحال أخطر من تلك التى يجب اجتيازها للدخول إلى حلبة السياسة.

وأول شروط هذا النجاح هى الحرص على وحدة الوطن، وعدم الالتفات لاستفزازات من شأنها زيادة الاستقطاب بين أبنائه. ومن ذلك رفض أردوجان النزول للشارع بمظاهرات ردا على المظاهرات العلمانية الرافضة لترشيح جل للرئاسة قبل أشهر، وكان رفضه حتى لا تزيد رقعة الاستقطاب فى الشارع التركى بين المشروع الإسلامى الإصلاحى المدنى، وبين المشروع العلمانى الأتاتوركى، وقد قلص أردوجان الرقعة بين أصحاب المشروعين من أبناء الوطن الواحد بحديثه عن العلمانية بعد الانتخابات، والذى أشار خلاله إلى الفارق بين النموذج الأوروبى الأنجلو ساكسونى والنموذج التركى اللائكى فى العلمانية فوضع غلاة العلمانية فى تركيا فى موقف محرج يصعب معه إيجاد مبرر للتمييز ضد الإسلاميين والتدخل السافر للدولة فى المؤسسات الدينية.

يمكن مقارنة هذا الموقف بموقف بعض النواب الإسلاميين فى مجلس الشعب المصرى الذين زادوا من حدة الاستقطاب بين المشروع الإسلامى والعلمانى فى مصر (إن جاز القول بوجود مشروع علمانى يعبر عن تيار شعبى حقيقى) حين اتخذوا موقفا حادا رافضا للمواطنة باعتبارها تمهيدا لإزاحة الشريعة مثلا.

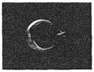
ويمكن كذلك المقارنة بين هذا الموقف وبين موقف حزب الله وحلفاؤه فى لبنان حين نزلوا للشارع لإسقاط الحكومة، ورد أنصار الحكومة اللبنانية بالنزول للشارع، وما سببه ذلك من انقسام فى الشارع اللبنانى بدأت آثاره تتضح جليا، نسأل الله السلامة للبنان وأهلها.

ثانى الشروط هى عدم استفزاز الخصوم السياسيين، والتركيز على مواطن الإجماع الشعبى والانطلاق منها عوضا عن ذلك. فعلى سبيل المثال، (معركة الحجاب) فى تركيا هى الساحة الأشهر للنزاع بين الإسلاميين والعلمانيين، ولأسباب تاريخية وواقعية لا تزال اليد العليا للعلمانيين استنادا إلى قوة الجيش والقضاء على الرغم من تفوق الإسلاميين على مستوى الشارع. وقد دفع هذا التفوق الشعبى بنجم الدين أربكان -أستاذ جل وأردوجان- للدخول فى صدام مباشر مع العلمانيين، فدفع بمبرشحة محجبة للبرلمان، وكان نجاحها إيذانا باندلاع البركان العلمانى الذى انتصر على أربكان ومنعه من العمل السياسى، وسحب الجنسية من النائبة.

أما أردوجان فقد أدرك أن محاولة تغيير الواقع قبل تغيير معطياته هى معركة خاسرة، فقرر ألا يخوضها، ولم يستفز خصومه، فلم يخض المعركة بشكلها التقليدى، وإنما خاضها بأشكال أخرى سيأتى تفصيلها لاحقا، المهم أنه أرسل ابنتيه للدراسة فى الولايات المتحدة لأن الجامعات التركية تحظر على الطالبات ارتداء الحجاب، وقد كسب بتلك الخطوة الكثير بعد أن خسر أردوجان بسبب المعركة ذاتها الكثير أيضا.

يأتى بعد ذلك عدم الالتفات لاستفزازات الخصوم السياسيين، أو (الفخاخ) التى ينصبونها، مثل ما سبق الحديث عنه عن مظاهرات العلمانيين فى الشارع، ومثل تصريح رئيس الجمهورية العلمانى عن أن قصر الرئاسة ليس المكان المناسب لوجود المحجبات. وقد جاء هذا التصريح قبل حفل كان من المفترض أن يستقبل فيه القصر الوزراء وزوجاتهم المحجبات، فذهب الوزراء من دون زوجاتهم لتجنب الاستفزاز، ولم يسمحوا للموقف بأن يكون استفزازا يدفعهم لزيادة الاستقطاب بين المشروعين الإسلامى والعلمانى بتنمية نقاش

أردوجان والإخوان



حول أحقية الزوجات المحجبات فى الحضور، فلم تكن تلك القضية الجزئية هى ما يشغل بال أردوجان، ولم تكن معطيات الواقع تقول أن تحقيق مكسب جزئى فى هذه النقطة يصب فى مصلحة المشروع الإصلاحى الإسلامى بأبعاده الاستراتيجية.

ويختلف هذا الموقف بالطبع عن موقع الحركة الإسلامية فى مصر مثلا، التى انجرت بسهولة شديدة للرد على استفزازات كلامية لم يتبعها أى فعل متعلقة بالحجاب أطلقها وزير الثقافة، بل وحفرت لنفسها أفخاخا أخرى بتصريحات بعض النواب بأن رئيس الوزراء (يستحق الإعدام) واعتبار ذلك أمرا شرعيا، وتقديم استجوابات ومشروعات قوانين تحمل أسماء بها معارضات مع أسماء بعض الأفلام والمسرحيات بشكل استعدى الفنانين على الحركة (خاصة فى ظل غياب التوازن الإعلامى فى التناول) وأدخلها فى معارك بعيدة عن أهدافها الأساسية، وغيرها من مشاهد التصعيد التى تنجر إليها الحركة الإسلامية فتفقد الكثير.

ولا يمكن الإشارة لهذا الأمر من دون الإشارة لموقف الجناح المسلح لحماس، الذى استجاب للاستفزازات الفتحاوية والإسرائيلية فخسر الكثير لا من معركته فحسب بل من القضية الفلسطينية ككل، وأقول الجناح العسكرى لأن أى مراقب يستطيع أن يفصل بين الخطاب الرد-فعلى لقيادات الجناح وبين الخطاب السياسى المتوازن لقيادات حماس السياسية مثل خالد مشعل رئيس المكتب السياسى.

والمعيار الرئيسى هنا، والذى يحدد أسلوب الرد ويقى من الاستفزاز هو وضوح الرؤية الكلية، وهو ما توفَّر للعدالة والتنمية كما لم يتوفر لأى حركة إسلامية أخرى. فقراءة أردوجان للواقع السياسى لبلده جعله يدرك أن معركة الإسلام الحقيقية (كما هى فى الحقيقة فى جل -إن لم يكن كل- بلاد المسلمين) هى معركة الدفاع عن الديمقراطية وتوسيع قاعدتها وليس مواجهتها، وبالتالى فهو يحاول تحقيق مكاسب ديمقراطية يوسع بها مساحات الحرية بشكل تدريجى، سيأتى الحديث عنه..

المهم أنه من أجل ذلك الهدف، الذى به لا بغيره تتحقق مقاصد الشريعة، أجَّل أردوجان ورفقاؤه بعض الأهداف الجزئية، التى لم يحن وقتها بعد، ومرة أخرى تبقى كلمة السر فقه الواقع مع وضوح الرؤية.

فعندما قدَم الحزب مشروع قانون الزنى للبرلمان، أثار ذلك خلافا مجتمعيا حادا، وبدأ الجيش يتحدث (وهى الخطوة السابقة للتحرك) دفاعا عن العلمانية من التهديد الإسلامى، وزاد هذا من حالة الاستقطاب الشعبى خاصة فى ظل تربص العلمانيين بالحزب، فقررت قيادة الحزب سحب المشروع من البرلمان على الرغم من امتلاك الأغلبية البرلمانية اللازمة لتمريره، لعدم وجود توافق مجتمعى عليه، وهى الخطوة التى أثارت حفيظة الإسلاميين حول العالم، بل وحتى التقليديين فى تركيا، الذين لم يدركوا أبعاد وأولويات واقعهم.

وليس هذا مجال الحديث الفقهى عن الأولويات والمقاصد، وعن التدرج الذى هو من طبيعة فقه الواقع، ولذا فسأكتفى بالإشارة إلى النجاح السياسى الذى حققه هذا القرار بوجود مزيد من الاستقرار الذى مكَّن الحزب من المضى قدما فى إصلاحاته الحقيقية، العميقة والهادئة فى آن واحد.

وإذا كان ذكاء أردوجان وحسن فهمه لواقعه سببا فى تجنب العديد من الصدمات على المستوى المحلى والدولى؛ وإذا كان نجاحه فى الاختبارات المحلية الأولى قد تمثل فى قبول قواعد اللعبة السياسية من دون فقد القدرة على تحريكها، وبناء التوافق المجتمعى والخروج من حيز الإستقطاب الإسلامى العلمانى، فإن هذه النجاحات لم تكن لتكون ذات قيمة إلا بنجاح أردوجان وجل فى تأمين المشروع إقليميا ودوليا.

ولا يمكن لمتابع المشهد التركى إلا أن يلحظ تفوق التلميذ أردوجان على أستاذه أربكان فى عمل توليفة ربط وتشابك للداخل بالخارج حقق من خلالها مكاسب كبيرة. فأربكان -وهو ابن المدرسة الإسلامية التقليدية التى حاولت التجديد إجرائيا ولكنها لم تُحدِث تجديدا أو حراكا فكريا ملموسا- والذى أسس حركة الفكر الوطنى (حضانة) الحركات الإسلامية التركية كان يفكر منذ اللحظة الأولى فى بناء تحالف إسلامى، وسلك لذلك المسالك التقليدية. فكانت زيارته الخارجية الأولى لطهران، ثم تبعها بزيارات لعدة دول إسلامية أسس خلالها مجموعة الدول الصناعية الإسلامية الثمانى. ولا يخفى على ذى لب حجم التغيرات التى يحتاجها المسرح الدولى قبل السماح بظهور مثل هذه القوى الإسلامية، خاصة إذا كانت تضم بين أعضائها إيران.

زاد من حدة الأمر أن أربكان التزم سياسة اقتصادية منغلقة أمام الغرب فلم يعد الباب مفتوحا أمام استيراد المنتجات الغربية كما كان من قبل، وهو ما شكَّل تهديدا لمصالح الغرب الاقتصادية، هذا بالإضافة إلى التهديد الأمنى والسياسى الذى رآه البعض بسبب الموقع الاستراتيجى لتركيا وكونها «بوابة أوروبا الشرقية».

بيد أن الآثار السلبية للزيارة لم تبرز على المستوى الدولى فحسب، بل كانت سببا فى زيادة الاحتقان بين أبناء مشروع علمانى يريدون الانفصال بتركيا عن ماضيها الإسلامى والانطلاق بها نحو أوروبا، وهؤلاء ليس من الممكن الاستهانة بهم فى الواقع السياسى التركى، إلا أن أربكان لم يأبه بهم، وكان واضحا فى اختياره السير شرقا ليزيد المساحة بينه وبين فصيل من أبناء شعبه إتجه غربا، وبالطبع فقد كلفت تلك الأخطاء أربكان غاليا، ومثلت أحد أسباب سقوط حكومته.

وقد تعلم أردوجان من أخطاء أستاذه، فلم يتخل عن الحلم الإسلامى، ولكنه سعى لتحقيقه بطريقة أكثر فعالية، وبأدوات أكثر عصرية، وأكثر حفاظا على مصالح شعبه. فهو أولا أدرك أن ميزان القوة ليس فى صالحه لا داخليا ولا خارجيا، أى أنه غير قادر على مواجهة الجيش والغرب بسلك طريق أربكان، فسلَك طريقا آخر يؤدى للمقصد ذاته.

حافظ أردوجان على قرب المساحة بينه وبين العلمانيين بأن قرر السير غربا فى اتجاه الاتحاد الأوروبى. وإذا كان أربكان قد استقل طائرة رئاسة الوزراء لأول مرة متجها إلى طهران، فإن رحلة أردوجان الأولى كانت إلى بروكسل، مقر الاتحاد الأوروبى، وهو بتلك الخطوة وحدها ضرب كل العصافير، وسأشير إليها واحدا تلو الآخر فيما بقى من هذا التحليل.

فهو أولا بعث برسالة طمأن بها شعبه على حرصه على الوحدة، ثم أنه جسد الحلم التركى بالانضمام للاتحاد الأوروبى فصار يحمل مشروعا وطنيا تركيا لا مشروعا إسلاميا يمثل طائفة دون أخرى من أبناء الشعب التركى.

والأهم أنه يعلم أنه فى طريق سيره إلى الاتحاد سيكون مطلوبا من تركيا القيام ببعض الإصلاحات السياسية الديمقراطية هو فى أشد الحاجة إليها، ويقف الجيش عثرة فى طريق تطبيقها، ولكن إذا كانت هذه الإصلاحات هى ثمن الانضمام للاتحاد الأوروبى، فإن الجيش لن يكون أمامه إلا الرضوخ، لأن المطالب فى تلك الحالة ليست مطالب الإسلاميين أو الحكومة، وإنما هى مطالب الشعب بأسره.

أول هذه المطالب كان القيام بإصلاحات ديمقراطية، وإبعاد الجيش (حامى الأتاتوركية) عن العمل السياسى، ذلك الجيش انقلب على أربع حكومات ذات طابع إسلامى خلال أقل من نصف قرن، وتقليص قوة الجيش فى الساحة السياسية التركية، هو مكسب كبير ولا شك للدولة بأسرها، وللحركة الإسلامية فيها على وجه الخصوص.

ومن مطالب الاتحاد الأوروبى كذلك ما يتعلق بحقوق الإنسان، وهو ما استخدمه أردوجان للضغط فى مسألة الحجاب أحيانا، ولكنه ظل حريصا على عدم جعلها معركته الأساسية، وعدم اتخاذ أى قرار جذرى فى هذه المسألة حتى يتحقق التوافق المجتمعى المطلوب، ومسألة حقوق الإنسان كانت هامة كذلك فى معالجة القضية الكردية بعيدا عن أسواط الجيش، وإن بقى أردوجان مضطرا للتقارب مع الجيش أحيانا فى هذه القضية، كما هو الحال فى الأسابيع الأخيرة.

لم تكن قضية «الزوجات المحجبات» هى ما يشغل بال أردوجان فى الوقت الذى انجرت فيه الحركة الإسلامية بسهولة للرد على استفزازات كلامية متعلقة بالحجاب أطلقها وزير الثقافة

أردوجان والإخوان

وتعامل أردوجان مع الأزمات الدولية يعكس فهما عميقا للواقع والثوابت، ومرونة كبيرة فى التحرك بين هذه وتلك لتحقيق المقاصد. فقد واجهته أزمة حادة فور وصوله للحكم، وهى الرغبة الأمريكية فى استخدام الأراضى التركية فى حربها على العراق. والخيارات هنا كانت صعبة؛ فأردوجان يدرك أنه غير قادر على مواجهة الغرب، وغير راغب فى استعدائه خاصة فى ظل الترقب الداخلى لخطوات الحكومة (الإسلامية) كما رآها العلمانيون منذ اليوم الأول، ويرفض- من ناحية أخرى -خيانة مشروعه كما فعل الحكام الذين تحدثوا ملء أفواههم ضد الحرب ثم قدموا لها الدعم اللوجستى الذى طلبته الادارة الأمريكية أقدم أردوجان على مناورة سياسية تدل على فهمه لواقعه والقدرة على استخدام آلياته بشكل جيد. فقد أعلن أنه لا يمانع فى استخدام الأراضى التركية كقواعد أمريكية فى الحرب، إلا أن الأمر يستلزم موافقة البرلمان، ورفض توجيه حزبه فى اتجاه القبول أو الرفض، وجاءت النتيجة بالرفض، وبالطبع أحدث ذلك توترا فى العلاقات التركية الأمريكية، ولكنه كان توترا سرعان ما تم تجاوزه، لأن الموقف ذاته اتسم بالمرونة بسبب قبول أردوجان لهذا الأمر فى البداية.

وكانت تلك القضية، وقضية العلاقات الإسرائيلية هى أخطر ما يهدد بقاء أردوجان، الذى تجاوز العقبة الأولى بمناورة سياسية مميزة، ثم تجاوز العقبة الثانية بقلب الطاولة على الجميع، واستغلال الأمر لبناء أهمية إقليمية لبلده تمكنه من تحقيق أهدافه، والأهم من ذلك تأمين مشروعه.

فقد كانت قضية العلاقات التركية الإسرائيلية شديدة الحساسية. فنجم الدين أربكان، الذى بدأ حكمه رافضا التعامل مع إسرائيل ومحاولا بناء تحالف إسلامى، اضطر فى نهاية الأمر إلى توقيع اتفاقيات عسكرية معها تحت ضغط الجيش. وكان ذلك درسا هاما لأردوجان فهم منه أن معطيات الواقع السياسى بأبعاده المحلية والإقليمية والدولية لن تمكنه من إحداث تغيير جذرى فى شكل العلاقة.

تجاوز أردوجان هذه النقطة بعبقرية فذة، فقد انتقل بالعلاقة من كونها علاقة حلفاء إلى كونها علاقة تنافس على النفوذ فى منطقة (الشرق الأوسط الجديد). ولم يكن بإمكان الغرب أو الجيش مواجهة هذا التغيير فى السياسة؛ فطالما أن الأمر لم يكن عداء لإسرائيل، ولم يكن تحولاً إسلامياً كلاسيكياً، فهو أمر لا مناص من قبوله كأى تغيير سياسى ناتج عن تغيير حكومى، أو تغيير فى موازين القوى، أو الحسابات السياسية فى المنطقة.

انتقل أردوجان بنجاح بالعلاقة من علاقة الحليفين إلى الندين، وإن بقيت بعض الأمور خارج نطاق سيطرته مثل التعاون العسكرى الذى يسيطر عليه الجيش، فلم يحاول الاقتراب من هذه الملفات لعلمه أنه لن ينجح فى تغيير مسارها فى الوقت الحالى، وبالتالى فإن أى تدخل لن ينتج عنه إلا إحداث اضطراب لحكومته، وفى نفس الوقت فقد كان سكوته عنها مطمئنا للغرب ولإسرائيل، فلم تتخذ أية مواقف عدائية تجاه سياساته الإصلاحية، وإصلاحه فى العمق الإسلامى الذى سيأتى الحديث عنه لاحقا.

ومن موقعه الجديد، أشار أردوجان أكثر من مرة إلى ربط العلاقة بإسرائيل بسير عملية السلام، فكسب بذلك نقطة لصالح القضية الفلسطينية، استفزت العلمانيين فى تركيا، ولم ترض إسرائيل من دون شك، ولكنها بقيت خطوة فى إطار لا فقط (الشرعية الدولية) بل وأيضا مساحة الحرية التى تسمح بها موازين القوى الدولية. وقد استقبل أردوجان بعد ذلك مجموعة من قيادات حماس فاستغل موقعه لإتاحة آفاق سياسية جديدة للحركة فى وقت كانت فيه اختناقا كبيرا.

وقد أدرك الحزب بوعى شديد التغييرات التى طرأت على العالم بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فقدم نفسه للعالم كنموذج إسلامى ديمقراطى جدير بالاحتذاء، فلم يكن بإمكان الحكومات الغربية السعى لإسقاطه. بل إنه (ركب موجة) الإصلاحات الديمقراطية فحاول استثمار علاقاته بالعالم الإسلامى من أجل (نشر الديمقراطية) وإقناع الأنظمة العربية بتوسيع دائرة المشاركة السياسية. أدرك أردوجان أن الواقع السياسى الإقليمى يحتاج لنموذج ديمقراطى له صبغة إسلامية فكان هو هذا النموذج، وقال إن حزبه (ليس حزبا محليا، بل هو نموذج عالمى سيثبت للعالم أن الإسلام والديمقراطية يلتقيان ولا يتصارعان).

وبهذا الوجه الإصلاحى اكتسب أردوجان لحزبه دورا وأهمية إقليمية مكنته من تأمين مشروعه، كما اكتسب لإصلاحاته الداخلية المزيد من الشرعية السياسية فاستطاع تحجيم الجيش بشكل أكبر. والعبقرية تكمن مرة أخرى فى أنه اختار خطابا غير صدامى، بل إنه اختار الخطاب الذى يجبر الغرب على عدم مقاومة مشروعه من دون خسائر سياسية كبيرة.

وهذا التوجه وهذه المساحات المشتركة من العمل مع الغرب على القضايا المشتركة هو ما سمح لأردوجان بأن يتوغل فى العمق الإسلامى ويبدأ عملية إصلاحه من دون مقاومة داخلية أو دولية شديدة. وفى هذا الإطار- كما فى غيره- تعلم أردوجان من أخطاء أربكان، وسعى لتحقيق أهدافه بشكل أكثر فاعلية وتأثيرا، فلم يحاول إنشاء أى مؤسسة أو تحالف إسلامى جديد، بل حاول إصلاح ما هو قائم بالفعل. فدفع بأكمل الدين إحسان أوغلى مرشحا لمنصب الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى، هى المنظمة التى يرى فيها عدد كبير من المفكرين الإسلاميين نموذجا عصريا لوحدة الأمة الإسلامية، بديلا عن نموذج أو نسق الخلافة التاريخى. وبالطبع فإن وجود الدفع بمرشح لمؤسسة موجودة بالفعل وتركيا عضو فيها أقل استفزازا للأطراف الداخلية والخارجية من بناء مؤسسة جديدة. كما أنه فى واقع الأمر أكثر تأثيرا على المدى البعيد. فى حالة استجابة بعض الأطراف الإسلامية على الأقل للمحاولات الإصلاحية.

كانت السياسة الخارجية واحدة من أهم مجالات التمايز بين حكومتى أربكان وأردوجان، فسياسة الأول كانت أحد أسباب تهشمه الداخلى، فيما كانت للثانى أحد أهم عناصر القوة الداخلية. وقد أثبت أردوجان أنه من الممكن دائما تحقيق مقاصد الشريعة، وأن الشريعة بفهمها العميق قابلة للتطبيق فى كل زمان ومكان، إذا ما اجتهد العقل فى فهم الواقع، وإذا ما استخدمت الأدوات المختلفة فى تنزيل النص، مثل فقه الواقع، والمقاصد، والأولويات، والموازنات.

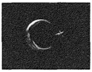
وكانت أهم نجاحات أردوجان الداخلية توسيع قاعدة مؤيديه، واستطاعته جذب أنصار من خارج التيار الإسلامى، يؤمنون بحكومته وبرنامجه ويدافعون عنه، فى تجسيد عملى رائع لمفهوم الشريعة التى جاءت لخير وسعادة البشرية، فقد كان هؤلاء الذين لا يؤمنون بالفكرة الإسلامية يرون الخير فى حكومته وبرنامجه. ففى الانتخابات الأخيرة، حقق العدالة والتنمية الفوز فى ٦٩ من أصل ٨١ محافظة تركية، وهو رقم تخطى منتهى أحلام الإسلاميين قبل فترة قصيرة.

نجاح أردوجان فى هذه الخطوة انبنى على نجاح سابق لأربكان، الذى التزم منذ البدء خطابا تركيا وطنيا، على عكس العديد من الحركات الإسلامية المعاصرة التى لا تزال تعانى انفصاما بين انتمائها الأممى وانتمائها الجغرافى، من دون أن تدرك أن التقسيم الجغرافى للأمة يفرض عليها الالتفات للانتماء الجغرافى. ونجاح الحركة التركية فى هذا الإطار يعبر عنه أستاذى الدكتور عماد الدين شاهين- أستاذ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة - بقوله إن أردوجان نجح فى تحويل حركته من كونها تيارا إسلاميا رئيسيا لكونها تيارا وطنيا رئيسيا.

وقد تم ذلك بالتزام خطاب وطنى يخاطب



أردوجان والإخوان



الجميع ولا يستعدى أحدا (يمكن مقارنة ذلك بالخطاب الإسلامى فى مصر، إذ تكفى قراءة سريعة للموقع الرسمى للإخوان ليقرأ المرء مصطلحات عدائية للـ«علمانيين الشيوعيين الماركسيين الملحدين أعداء الإسلام» عشرات المرات فى مقالات مكررة الأفكار والألفاظ لمجموعة من الكتاب غير المميزين، والقياديين الذين يتم إفساح المجال أمامهم للكتابة باتساع من قبيل المجاملة التنظيمية، وجل هذه الاتهامات تأتى بسبب خلافات فى الرؤية السياسية لا علاقة لها بالدين، والحقيقة أن هناك محاولات ملموسة للحد من هذه الكتابات، ولكنها لازالت غير كافية)، وكذلك تحقيق إنجاز ملموس على الأصعدة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

فأما الإنجاز السياسى فقد كان إعادة الاعتبار للدور التركى فى المنطقة باعتبارها لاعبا أساسيا، ورقما لا يمكن تجاوزه فى معادلة الشرق الأوسط، وهو ما أعاد إلى (التركى) اعتباره وثقته فى نفسه، حتى صارت تركيا أكثر هدوءا واتزانا فى السعى للانضمام للاتحاد الأوروبى. ذلك أن أردوجان أدرك أن تركيا الأوروبية لن تكون أبدا بلدا بنفس الأهمية السياسية لتركيا المتوسطية، ، وبإعادة توجيه البوصلة السياسية، من دون التنازل عن الطموحات الأوروبية، فقد زادت من أهمية تركيا، وهو ما انعكس من دون شك على شعبية الحكومة.

وهناك الإنجاز السياسى على المستوى الداخلى بتوسيع قاعدة التأييد والمشاركة من خلال إنجاز سياسى ملموس فى مكافحة الفساد، انعكس اقتصاديا بالطبع فى شكل زيادة الموارد الحكومية. وقد تم ذلك من خلال عدة إجراءات بدأ بها الحزب فترة حكمه الأولى، منها بيع آلاف البيوت الفيلات الحكومية التى تستخدم من قبل كبار البيروقراطيين، وتقليص عدد الوزارات بما يزيد على الثلث، وغيرها من الإجراءات التى كان الحزب قد أعدها قبل وصوله للسلطة، وأعلن عنها أردوجان فور استلام حزبه مقاليد الأمور

كان هناك الإنجاز السياسى الرائع فى الانفتاح السياسى الذى شهدته قوائم الحزب الانتخابية، التى ضمت بعض رموز (العلمانية المعتدلة)، وهو ما شكل ضربة قاصمة للسجال والاستقطاب الإسلامى العلمانى الذى كانت تدفع باتجاهه قوى المعارضة أملا فى حدوث اضطرابات تدفع الجيش للتحرك. والعبقرية هنا تكمن فى إدراك أردوجان بأن مطالبه فى زيها الوطنى لا تتعارض مع مطالب المعتدلين العلمانيين، وإنما الصدام واقع لا محالة بين الغلاة فى الطرفين الإسلامى والعلمانى. ثم إنه يدرك أن معركة الإسلام الحقيقية -كما سبق- هى معركة توسيع قاعدة الديمقراطية وجعلها أكثر تمثيلا، وهو المطلب الذى سيلتف حوله معتدلى العلمانية، حتى لو لم توافق مآلاته أهدافهم.

وهذا الانفتاح (والتواضع) السياسى كان سلاحا فائزا فى يد العدالة والتنمية منذ البداية؛ فبعد فوزه فى انتخابات ٢٠٠٢ بأغلبية مطلقة من مقاعد البرلمان للمرة الأولى فى تركيا منذ زمن بعيد، كانت الخطوة الأولى لأردوجان هى اللقاء مع زعماء المعارضة لتنسيق أجندة العمل الوطنى. هذا النهج انتهجه الإخوان المسلمون فى مصر عقب انتخابات مجلس الشعب ٢٠٠٥، حيث عقدوا لقاءات مع الزعامات السياسية المختلفة، بل ومع القوى التى تخاف الصعود الإسلامى مثل الأقباط، إلا أن عقبات كثيرة (أغلبها أمنى) حالت دون أن تحقق هذه اللقاءات مقاصدها، وهو ما يستحق الدراسة والتقييم، وليس هذا مجاله.

وعلى الصعيد الاجتماعى نجح الحزب فى استقطاب بعض الفئات الاجتماعية الهامة فى تركيا، بقطع النظر عن انتمائها الإيديولوجى، لما رأت فى برنامج العدالة والتنمية من تحقيق لأهدافها ومصالحها. فالحزب أولا بسياساته الاقتصادية نجح فى استقطاب رجال الأعمال الوطنيين، بأن فتح أمامهم سبل الاستثمار وتحقيق الأرباح، وكان من نتيجة ذلك أن نجح الحزب أيضا فى استقطاب قطاع كبير من الفقراء، بعد أن توفرت فرص كبيرة للعمل، وزاد الدعم الحكومى بسبب توفر قدر كبير من الأموال نتيجة لترشيد الإستهلاك الحكومى.

وقد كان من أسباب دعم الفقراء للحكومة كذلك خلفية أهم شخصيات الحزب، أردوجان وجل، فكلاهما ينتمى أصلا لهذه الطبقة، وكلاهما يصر فى كل مناسبة سياسية على تأكيد انحيازه لها، وهو ما تترجمه السياسات الفعلية لهما لا كما يحدث فى النظام المصرى. والحقيقة أن الجانب الشخصى لأردوجان وجل كان له دورا كبيرا فى نجاح الحزب، وهو ما سنتناوله فيما بعد.

أما على الصعيد الاقتصادى، ولعله الأهم، فقد كانت النجاحات الاقتصادية للحكومة التى انتشلت تركيا من تعثرها الشديد سببا أساسيا فى التفاف الكثير من غير الإسلاميين حولها. وقد نقل لى أساتذتى ممن هم على صلة بعلمانيى تركيا قولهم أنهم لا يمانعون فى بقاء أردوجان الإسلامى فى السلطة طالما استمر فى مكافحة الفساد، وتوسيع مساحات الحريات الشخصية، والأهم تحقيق الإنجاز الاقتصادى. ولعل ثقة الشعب التركى فى السياسة الاقتصادية لأردوجان قد عكسه ارتفاع مؤشر البورصة التركية فور إعلان فوزه.

أما عن أسباب النجاح الاقتصادى فلعل أهمها على الإطلاق التخطيط الجيد. فبحسب مسؤولى الحزب، فإن أردوجان ورفاقه كانوا قد أعدوا ٣٠٠ مشروعا اقتصاديا جاهزا للتنفيذ قبل وصول الحزب للسلطة، وهو ما يدل على أن الحزب قد تجاوز الخطاب الدينى العاطفى، الذى يتحدث عن سعادة البشرية بحكم الإسلام من دون تقديم حلول عملية، واتجه إلى العملية فى توفير أسباب النجاح، فاعتمد مشروعات وسياسات اقتصادية توفر قدرا من الرخاء، وتتجاوز بالوطن أزمته الاقتصادية.

تعامل أردوجان مع الأزمات الدولية يعكس فهما عميقا للواقع والثوابت، ومرونة كبيرة فى التحرك بين هذه وتلك لتحقيق المقاصد

وقد انعكس هذا (التخطيط الدقيق) -كما يسميه الإمام البنا- على المؤشرات الاقتصادية بشكل كبير؛ فقد انخفض معدل التضخم من ٧٠٪ عام ٢٠٠١ إلى ٥,٩٪ عام ٢٠٠٦، وزاد الناتج القومى بنسبة الثلث، وزادت الصادرات التركية بنسبة كبيرة بسبب الدعم الحكومى، وزادت الاستثمارات الأجنبية بسبب الإصلاحات السياسية التى جذبت الإستثمارات، ووصلت معدلات النمو الاقتصادى إلى ٧٪.

وأخيرا يبقى القول فى هذا الإطار أن هذا الإنجاز الملموس على الأصعدة المختلفة هو ما مكن العدالة والتنمية من اختراق الحصار الإعلامى الذى فرضه عليه العلمانيون. ففى انتخابات ٢٠٠٢، وفى الانتخابات المبكرة الأخيرة، شنت الصحف الرسمية العلمانية، إضافة إلى المؤسسات العلمانية من قضاء وجيش، حملة عنيفة على الحزب، طالت فى المرة الأولى أردوجان فاتهمته بالفساد، وطالت فى الثانية الحزب بأسره، وفى كلتا المرتين كان التلاحم الحقيقى (لا البروباجاندا ولا الظهور السياحى) مع الشارع، إضافة إلى العمل وتحقيق الإنجاز المستمر، هو الواقى، وهو السلاح الذى وصل بالعدالة والتنيمة إلى السلطة.

وتبقى فى مناقشة أسباب النجاح الذى حققه حزب العدالة والتنمية التركى نقطة هى من الأهمية بمكان، وتتمثل فى الفارق فى أسلوب وقدرات القيادة بين نجم الدين أربكان ورجب طيب أردوجان.

وليس المقصود من هذه المقارنة هو الانتقاص من شأن أربكان، بل هو سياسى إسلامى كانت له نجاحات كبيرة، وسيبقى التاريخ يذكر له كونه أحد أهم إسلاميى تركيا. ولعل هذا السبب تحديدا هو ما يجعل هذه المقارنة غاية فى الأهمية؛ فأربكان هو النموذج التقليدى للـ(إسلامى)؛ وهو نموذج متكرر بطول العالم الإسلامى وعرضه، يتصدر ساحات العمل الإسلامى، ونموذج أردوجان هو نموذج آخر يحاول أن يحدث (نقلة) فى الحركة الإسلامية وتتفاوت قوته بين مكان وآخر.

نجم الدين أربكان هو (الأستاذ) كما يلقبه أتباعه، الذين (يقبلون يده) كدلالة على الاحترام والتقدير، تماما كما هو الحال مع العديد من القيادات الإسلامية. وهو الزعامة التاريخية، التى ظهرت فى ستينيات القرن الماضى، ولا تزال تتصدر ساحات العمل، بجد وحماس، وإصرار على استكمال المسيرة. أما أردوجان فهو المواطن الإسلامى،

أردوجان والإخوان

لاعب الكرة الذى شارك فى المباراة التى أقيمت بين زعماء أوروبا وأمريكا اللاتينية بمناسبة تسلم فنلندا لرئاسة الاتحاد الأوروبى، وهو ليس الزعيم الأوحد وإنما هو قائد الفريق، الذى يظهر فيه لاعبون لا يقلون عنه أهمية مثل جل وزير الخارجية ثم رئيس الجمهورية، وأرنيش رئيس البرلمان. وهو أيضا التكنوقراطى المتميز، هو وأغلب قيادات الحزب، الذى اكتسب خبرة العمل فى المؤسسات الدولية، وانشغل منذ البداية (بالسياسة الشعبية) عن طريق التواصل مع الجماهير فى المحليات.

وأربكان هو الإسلامى التقليدى، صاحب المواقف الصلبة، التى يظن تجاوزها تفريطا، مثل إصراره على أن تتصدر قضية الحجاب أولوياته، وموقفه من إسرائيل، وهى مواقف أقرب للعاطفية والنظرية منها للعملية والبراجماتية السياسية الإسلامية (وأنا أعلم أن الإسلاميين لا يحبون هذه اللفظة، ويمكن استبدالها بالمقاصدية أو الواقعية)، وهذه المواقف الصلبة هى ما أنتجت صدامات كبيرة مع الجيش والمؤسسات العلمانية كان نتيجتها إسقاط حكومته ومنعه من العمل السياسى وحظر حزبه. ولكن (العناد السياسى) الذى يتميز به أربكان كغيره من الإسلاميين التقليديين جعله يصر على الاصطدام، فأسس حزبا آخر على نفس المبادئ بل وفى نفس المقر أداره عن طريق أحد أصدقائه وخاض به نفس المعارك فخسر جولات أخرى.

وأنا هنا أقاوم إغراءً فى أن أستطرد فى هذه النقطة، وأن أشير إلى أوجه التشابه بين هذا السلوك وبين سلوك العديد من القيادات الإسلامية فى مصر ولبنان والجزائر والأردن وفلسطين، أقاوم هذا الإغراء حتى لا أضع أحدا فى موقف دفاعى يمنعه من رؤية المقصود من المقال، وحتى لا تتم شخصنة الفكرة وتحويلها لاتهامات لأفراد مخلصين يحملون قضايا أمتهم، ولكن تبقى الإشارات والمشابهات واضحة لكل ذى عينين.

أما أردوجان فهو السياسى المرن؛ يعارض الانضمام للاتحاد الأوروبى ويعتبر ذلك سلخا لتركيا عن جذورها الإسلامية، ثم يعيد تقييم الأمور ويرى المصلحة فى ذلك فيذهب للتوقيع على أحد الشروط فى كنيسة أوروبية؛ يقرأ أبيات من الشعر الإسلامى فى مظاهرة تساند أربكان فيسجن، ثم يخرج فيدرك خطورة الصدام الإسلامى العلمانى فيزور قبر أتاتورك، يؤكد حفاظه على علمانية الدولة (وليس هذا تفريطا، فكما أشرت من قبل، كان العلمانية التى أعلن أردوجان قبولها هى ما نسميه فى مصر مدنية الدولة)؛ يقدم مشروعا لتجريم الزنى للبرلمان فيحدث ذلك اضطرابا داخليا وأوروبيا فيسحبه؛ يناور الولايات المتحدة فيحقق مقصده من دون مواجهة، كل هذا لخصه أردوجان نفسه حين انفعل على هجوم عنيف فى البرلمان فرد قائلا: «تغيرت، بل تطورت، ولم أبق على ما كنت عليه قبل ٣٠ سنة، إن عقلى ليس متحجرا».

والحقيقة أن هذا (التطور) عجزت بعض العقول (خاصة من ذات التشكيل الذى يسميه الدكتور القرضاوى بالظاهرية الجدد، الذين ينظرون إلى النص بمعزل عن الواقع والمقصد) عن فهمه، ولم تر الخير الذى تعود به هذه الديناميكية ودورها فى تحقيق المقاصد، وأشعر أننى أكثر من استخدام كلمتى الواقع والمقاصد، ولكنى أراهما المفتاح لفهم سياسات أردوجان، وكذا لبناء منهجية إصلاح إسلامى معاصرة.

وعلى صعيد القيادة، فأربكان هو القائد الإسلامى التقليدى، الذى تكاد زعامته تصطبغ بصبغة دينية، فيكون زعيما دينيا لا سياسيا، وهو ما تنكره كل الحركات الإسلامية المعاصرة لأن الإسلام لا يعرف الزعامة الدينية، ومع ذلك تبقى تصبغ قياداتها بتلك الصبغة الدينية. فقول أربكان فى حزبه لا يرد، وهو لا يعتذر أبدا عن تصريح أو قرار خاطئ لأن ذلك ينتقص من قدر حركته أو دعوته.

وكان طبيعيا لذلك أن يبقى أربكان على رأس الأحزاب الإسلامية المختلفة التى أسسها فى تركيا لمدة ثلاثين عاما من دون أن يحاسبه أحد، بل ومن دون أن ينافسه أحد على الزعامة (حين ناقشت فضيلة الأستاذ محمد مهدى عاكف، المرشد العام للإخوان المسلمين، حول هذه النقطة رآها نقطة الضعف الوحيدة فى صديقه أربكان). حتى عندما منعه القضاء من ممارسة العمل السياسى إختار هو رئيس الحزب البديل، صديقه رجائى كوطان، فظل بعلم الجميع الرئيس الفعلى للحزب. والأمر يكاد يكون متطابقا مع حركات إسلامية متعددة بطول العالم الإسلامى وعرضه.



ولذلك كان صعبا على الحزب أن يحتمل وقوف جل كمرشح لرئاسة الحزب أمام كوطان، فجل وأردوجان ومجموعتهما -بحسب أربكان- لازالوا صغارا، رغم أنه كان أصغر منهم حينما تصدر العمل الإسلامى ودفع بالحركة خطوات للأمام قبل أربعة عقود. بل إن كوطان اعتبر ترشح جل أمامه (خروجا سافرا على تقاليد الحزب) التى لم تكن تسمح لأحد بالترشح أمام الرئيس!!

أما جل وأردوجان فقد أعلنا من البداية أن مجموعتهم لن تقصى أى فكرة من الحوار، وأدارا حوارات علمية فكرية سياسية بمساعدة متخصصين مثل المفكر أحمد داود أوغلو لبناء برنامج للحزب ومنهجية للتعامل مع الواقع، فكان التجديد الفكرى.

وحرص جل وأردوجان على ألا تتكون حول أى منهما هالة الزعامة الأسطورية، فتبادلا مواقع القيادة غير مرة. فجل ترشح أمام كوطان على رئاسة حزب الفضيلة، ثم رأس أردوجان حزب العدالة والتنمية، وتولى جل رئاسة الوزراء، ثم تنازل عنها لأردوجان، ثم عاد الحزب يرشح جل لرئاسة الجمهورية، لتكتمل السيمفونية الرائعة التى أكدت أن المناصب والزعامة ليست هدفا، وقد تنازل كل منهما عنها مرات، وهى آخر ما ينزع من القلب من حظوظ النفس كما فى الحديث.

ويحضرنى هنا قول الله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)؛ واللسان ليس اللغة المنطوقة فحسب، والبيان ليس البيان الكلامى دون غيره.



وأردوجان تحدث بلسان قومه حين كان مواطنا تركيا، تواصل مع الفقراء، وشاركهم حلم الانضمام للاتحاد الأوروبى، وتعامل مع معطيات الواقع بشكل جيد، فقدم بيانا عمليا تمثل فى نجاحات سياسية واقتصادية واجتماعية كانت دليلا على فعالية فكرته وقابليتها للتطبيق، وما فكرته إلا فهمه للإسلام.

والحقيقة أن أربكان عجز عن رؤية العالم كما يراه أردوجان، وأصر على عناده وأحادية التفكير التى تميز بها كغيره من الإسلاميين التقليديين الذين لا يرون الأمور إلا من زاوية واحدة، فاتهم العدالة والتنمية بالعمالة لأمريكا وإسرائيل، ثم قال فى كلمة معبرة وقت الانتخابات (إن من أعطى صوته للعدالة والتنمية قد اشترى تذكرة لجهنم). هكذا وصل الخلاف بين الإسلاميين التقليديين والمجددين إلى (حارة سد)، بسبب جمود فى مواقف القيادات التاريخية للحركة الإسلامية التركية، ولكن الشعب التركى انحاز للخيار التجديدى. وحتى بين الأصوات الإسلامية فقد كانت الغالبية فى صالح مشروع أردوجان التجديدى؛ ففى حين حصد الرفاه ٢٢٪ من الأصوات عام ١٩٩٥، لم يحصل السعادة إلا على ٤٪، وأغلب الظن أن باقى الأصوات الإسلامية ذهبت للعدالة والتنمية.

وبعد، فهذه محاولة لتقييم تجربة إسلامية وليدة ولكنها ناجحة، أشرت فيها لبعض أسباب النجاح، دون أن أنسى توفيق الله، ودون أن أنسى أن للتجربة أخطاء، ولكن هذه تكفل بها غيرى، إذ ما لبثت الحركة أن نجحت فى الانتخابات حتى تلقتها الأقلام الإسلامية بالاتهامات، وبالإشارة إلى أخطائها، أو على أحسن تقدير عدم القدرة على استنساخها مع الإشارة لعوامل التمايز من دون العوامل المشتركة. فرأيت أن الأولى أن أشير لبعض الدروس، لعل الله ينفع بها العاملين على الساحة الإسلامية، وتبقى إشارة أخيرة إلى الفارق بين السياق التركى والسياقات الأخرى، ففى تركيا -كما يقول الدكتور محمد حبيب- يقصى الجيش الإسلاميين، وفى مصر يقصى النظام الإسلاميين وغير الإسلاميين، وبالتالى فالسياق مختلف، وأنا أعلم أنه من غير المعقول تطبيق نفس سياسات العدالة والتنمية فى غير تركيا، وإنما أقصد دراسة المنهجية فى التعامل وليس ما ينتج عنها، علنا نتمثل قول الله تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا)، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل، والحمد لله رب العالمين. ■

"خير النساء"

بقيت خير النساء بحجابها
مثارًا للتعليقات والقلق وتصوير الأمر بالانقلاب الدستورى، الذى يوشك على تدمير الدولة العلمانية

كان الحدث الأكبر والأعظم على الساحة الدولية والإسلامية خاصة طوال شهرى أغسطس وسبتمبر ٢٠٠٧م، هو وصول السيدة «خير النساء» زوج «عبدالله جول» إلى قصر الرئاسة التركى «جانقاء»، بعد مرور أكثر من ثمانين عامًا على وجود آخر سيدة محجبة فيه، وهى «لطيفة هانم» زوج «مصطفى كمال أتاتورك»، الرجل الذى ألغى الحجاب فى سلسلة إجراءاته لتحويل تركيا من دولة الخلافة الإسلامية التى ينتمى إليها العرب والعجم، إلى دولة قومية حديثة، لا علاقة لها بالإسلام ولا بالمسلمين.

لم تكن «خير النساء» بحجابها وحرصها على أداء الصلوات الخمس، هى القضية الأساسية التى تؤرق الفريق المهيمن على تركيا، والمتسلح بالجيش والدستور والقانون والنخبة الثقافية وقادة الأجهزة والمؤسسات المختلفة.. ولكن «خير النساء» كانت رمزًا لقضية أكبر وأعمق، إذ إن زوجها «عبدالله جول» إسلامى الفكر والتوجه والتصور، قد صار رئيسًا للجمهورية التركية التى تعتمد «العلمانية» منهجًا ودستورًا، ومعنى وصوله إلى سدة الحكم تحويل مسار النظام التركى العلمانى وتغييره، وهو ما يغضب الفريق المهيمن وأنصاره، ويهز الصورة السياسية والعقدية لتركيا التى استقرت فى الأذهان أكثر من ثمانية عقود.. وإذا عرفنا أن هذه الصورة مقدسة، وينبغى عدم المساس بها، فلنا أن نتخيل عمق الصراع بين أصحابها، وأولئك السادة الذين دفعت بهم الانتخابات التشريعية ثم الرئاسية، إلى سدة الحكم وقيادة البلاد، وهم يمتلكون فكرًا مغايرًا وتصورًا معاكسًا!

لقد أصدرت قيادة الجيش التركى تحذيرًا من انتهاك «العلمانية» أو الخروج على تقاليدها، وأسسها، وحذر رئيس الأركان فى هذا الجيش، من أسماهم بـ «أوكار الشر» من أى تغيير فى النسق العلمانى للبلاد.

ومع ذلك، فقد أقسم «عبدالله جول» على حماية الدستور والالتزام بالنظام العلمانى، واحترام العقائد والحريات الشخصية..

وبقيت خير النساء بحجابها مثارًا للتعليقات والقلق وتصوير الأمر بالانقلاب الدستورى، الذى يوشك على تدمير الدولة العلمانية، وتبدى ذلك فى رفض قادة الجيش حضور حفل التنصيب، الذى أقيم لعبدالله جول، وهو يتسلم رئاسة الجمهورية، كما رفض بعضهم أداء التحية العسكرية له، وطرحت تساؤلات عديدة عن موقف السيدة «خير النساء» المحجبة من حضور الحفلات الرسمية والزيارات الخارجية برفقة زوجها، حيث تحظر «العلمانية» على نساء الأتراك ارتداء الحجاب، ولكن زوجها الرئيس استطاع أن يتجاوز هذه التساؤلات بطريقة «دبلوماسية»، وفوّت على المتربصين به وبالمرجعية الإسلامية فرصة النيل منه أو منها..

ولكن بقى الأمر يمثل معضلة فى الذهنية العلمانية السائدة، داخل تركيا، وعلى امتداد العالم الإسلامى، فهذه الذهنية تبدو أكثر توحشًا فى فهمها للعلمانية، حيث تنطلق من مفهوم استئصالى لا يتسامح مع الإسلام بوصفه دين الأمة الأساسى، ولا يرتضى بمشاركة التصور الإسلامى للتصورات الأخرى فى معالجة قضايا الواقع ومشكلاته، وبدا الأوروبيون الذين نشأت «العلمانية» فى أحضانهم أكثر تسامحًا، وأكثر قبولاً لوجود الإسلام بوصفه - على الأقل - عقيدة شخصية يجب احترامها وعدم المساس بها.

لقد نشأت «العلمانية» أو الدنيوية فى أوروبا نتيجة لظروف تاريخية خاصة بها، حيث كان للكنيسة دور سلبى فى حياة الناس، من حيث الهيمنة على دنياهم وأخراهم، سواء فى الواقع السياسى أو الاجتماعى، ونتجت مظالم عديدة، أدت إلى ثورات عديدة أبرزها الثورة الفرنسية، التى كان أحد شعاراتها «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، ونشأ ما يسمى بفصل الكنيسة عن الحكومة، ليكون للأولى دورها المحدود فى الوعظ والإرشاد الدينى دون أن تتدخل فى السياسة أو العلم أو الاقتصاد أو غير ذلك.

شاع آنئذ مصطلح «العلمانية» تعبيرًا عن الفصل بين الكنيسة والحكومة، ومر هذا المصطلح بمراحل عديدة أبرزها تقنين استعمار الشعوب المستضعفة «ومعظمها إسلامية»، واستحلال ثرواتها، والهيمنة على مقدراتها، والعمل على تغيير هويتها وثقافتها.. بيد أن الكنيسة تلاقت مع الحكومة فى العقود الأخيرة من القرن العشرين فيما يشبه التحالف، لتحقيق غايات دينية واستعمارية، فقد كانت الكنيسة من خلال تعاونها مع أمريكا، فى عهد «ريجان»، عاملاً رئيسيًا فى إسقاط المعسكر الشيوعى وتفكيكه انطلاقًا من بولندا ومنظمة «تضامن»، وعمال «جدانسك» وقيام ما يسمى «بمجلس الكنائس العالمى» للسيطرة على كنائس العالم باختلاف مذاهبها وطوائفها، من خلال دعم سياسى واضح تقدمه أمريكا ودول الغرب، ثم وصل الأمر إلى صعود من يسمون بالمحافظين الجدد إلى سدة الحكم فى العديد من دول الغرب، وهم الذين يحكمون الآن على غيرهم من الشعوب باسم الله، ويقسمون الشعوب إلى أشرار وأخيار، ومتطرفين ومعتدلين، مما يعبر عن حالة من التوحد بين الكنيسة والحكومة مرة أخرى، وإن كان واقع الحياة الديمقراطية فى الغرب، يحول دون تكرار مظالم الكنيسة ضد رعاياها، كما كان يحدث فى أزمنة ما قبل العلمانية.

وقد كانت تركيا أو «بلاد الروم» - كما كان يسميها المسلمون الأوائل - هدفًا استراتيجيًا للسعار الوحشى الاستعمارى، بوصفها زعيمة العالم الإسلامى من خلال الخلافة التى كانت تسمى آنئذ بالدولة العثمانية، حيث بدت هذه الدولة رمزًا لعدو الحق بأوربا كثيرًا من الهزائم والمتاعب خاصة بعد نجاح الأخيرة فى إجلاء المسلمين من الأندلس عقب إبادة الألوف منهم، وتحويل من تبقى إلى «المسيحية»، وقصة «محاكم التفتيش» فى هذا السياق معروفة.

وقد كان تشويه الدولة العثمانية، ووصمها بكل الصفات السلبية، خطوة أخرى، تلتها خطوات أخرى بتحريك النزعة الطورانية داخل تركيا، ورعاية نخبة تركية موالية للغرب، وقضم أطراف الدولة العثمانية استعماريًا، وتفتيت ممتلكاتها تمهيداً لوراثتها فيما أطلق عليه اسم تركة «الرجل المريض»..

وقد نجحت أوروبا فى تحقيق استراتيجيتها بتفكيك الإمبراطورية الإسلامية، وإقامة الدولة القومية العلمانية التى تخلصت من الإسلام فى الحكم والسياسة والاقتصاد والتعليم والحياة الاجتماعية، على نحو أثار كثيرًا من الجدل والغضب فى أرجاء العالم الإسلامى، ولكن ذلك لم يمنع استقرار الوضع الجديد، مع سقوط العرب. مركز الدولة العثمانية - فى براثن الوحشية الاستعمارية التى لم تتوان عن تكرار ما جرى فى تركيا فى البلاد العربية.

ومع مرور الوقت، وتعدد الأحداث، واستقلال الدول العربية، وإنشاء الكيان الصهيونى فى فلسطين، وهزيمة العرب داخليًا وخارجيًا، وتصاعد المد الإسلامى، بالتوازى مع صعود القمع والاستبداد وهيمنة النخب المتغربة، فقد جاء وصول الإسلاميين إلى الحكم فى تركيا، وقيادتهم لمؤسسات الرئاسة والوزارة فى ظل سطوة الجيش والنخب العلمانية التى تقود مرافق الدولة الرئيسية ليشكل مفاجأة غير متوقعة بعد أكثر من ثمانين عامًا، وهو ما أثار التساؤلات التى لم تتوقف، وأظنها لن تتوقف، وخاصة فى بلادنا العربية، عن علاقة الدين بالدولة، واستمرار الصراع بين سلطان الدين على عواطف الشعوب العربية وقلوبها من ناحية، وبين حكومات تساندها نخب ثقافية تتبتل فى محراب العلمانية، وتتوسل فى سبيل ذلك بأحدث ما وصلت إليه تقنيات القمع والحصار والتشهير.

وإذا كانت العلمانية أو الدنيوية فى الغرب تعنى الفصل بين الكنيسة والحكومة، فالإسلام ليس فيه كنيسة، ولا يعرف مسمى «رجال الدين»، لأن من يقومون على شئون العقيدة والشريعة، هم علماء، مثلهم مثل علماء الجغرافيا والتاريخ والكيمياء والرياضيات والفلك.. لهم حق الاحترام والتوقير، ولكنهم لا يملكون لأحد نفعًا ولا ضررًا، كما لا يشكلون سلطة للغفران أو الحرمان، والإسلام فى كل الأحوال يعالج شئون الاعتقاد والسلوك الإنسانى، فى أساسيات أو ثوابت معروفة، تجعل المجتمع الإسلامى مدنيًا، وليس علمانيًا أو بوليسيًا أو عسكريًا.. إنه مجتمع القيم والأخلاق

في قلعـــــة العلمـــــانيــة!!

حـلـمـى مـحـمـد الـقـاعـود



العامة التى تجعل الفرد مسئولاً عن نفسه أمام ربه وخالقه: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (الأنعام: ١٦٤).

ومن المفارقات التى طفت على سطح الواقع الإسلامى بعامة، عقب فوز حزب «العدالة والتنمية» التركى بالأغلبية الشعبية فى الانتخابات التشريعية الأخيرة (يوليو ٢٠٠٧م)، أن الدستور العلمانى فى تركيا أتاح للهامش المحدود من الحرية، أن يساعد على وصول الإسلاميين إلى سدة الحكم، ودخول «خير النساء» بحجابها المميز إلى قصر «جانقاه»، فى الوقت الذى تنص فيه الدساتير العربية أو معظمها على إسلامية الدولة، ولكنها لا تسمح للقوى الإسلامية بالحركة السياسية التى تتيح لها الصعود إلى الحكم، أو المشاركة المحدودة فى النشاط السياسى، مما يؤدى إلى اعتقالات ومحاكمات، وخصومات مستمرة تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة، ويكفى أن بعض الدول العربية لا تسمح بظهور مذيعة محجبة على شاشة تليفزيونها الرسمى!

فى السياق ذاته، تبدو الخصومة بين الدين والدولة ـ السلطة بمعنى أدق ـ قائمة على المغالبة، وليس المحاورة، ففى الوقت الذى تسخر فيه أجهزة السلطة من إعلام وصحافة، وإذاعة وتلفزة، وتعليم وثقافة، وهيئات رسمية وتشكيلات حزبية، لترسيخ مفهوم الفصل بين الدين والواقع، وتستعين بالنخب العلمانية فى تشويه صورة الإسلام، وربطها بسلوك بعض المنتسبين إليه من الأفراد أو الجماعات، دون النظر إلى طبيعة الإسلام فى مصادره الجوهرية والأصيلة.. فإنها لا تسمح للنخب الإسلامية بعرض وجهة النظر الإسلامية العلمية، وإذا حدث استثناء فهو نادر ومحدود وغير مؤثر.

ولا شك أن هذه الخصومة ذات مستوى آخر وأخطر فى حقيقة الأمر، فهى صراع بين النموذج الغربى الذى يسعى لفرض هيمنته فرضًا كاملاً شاملاً على العالم الإسلامى، والنموذج الإسلامى الذى يبدو غائمًا ومنهكًا ومثخنًا بالجراح، بعد حروب وانكسارات وهزائم على مختلف المستويات..

كتاب الزاوية

فى طريق السياسة ثم الثورة

مذكرات عريان يوسف سعد

كانت أول خطوة لى فى طريق السياسة، ثم الثورة، دعوة من زميل فى مدرسة الطب للذهاب إلى مكتب شقيقه المحامى فى القاهرة لنوقع عريضة توكيل للوفد المصرى. ولست أستطيع أن أصور مشاعرى، وأنا أدلف إلى ذلك المكتب فى سواد الليل فأجد زميلى فى غرفة وكيل المحامى ونحن جميعًا نكاد يختفى كل منا عن أنظار صاحبه من شدة الحذر. وأمسك بالورقة فأقرأ فيها أننى أوكل سعد زغلول ومن معه للسعى فى المطالبة باستقلال مصر ما وجد إلى السعى سبيلاً، وأمسك القلم فأوقع باسمى وصناعتى:

عريان يوسف سعد طالب طب

إذن فقد أصبحت صاحب قضية، وقد وكلت فى تلك القضية محاميًا. أما القضية فقضية استقلال الوطن، وأما الوكيل فهو سعد زغلول. وإذن فقد حُق لى أن أتتبع خطوات ذلك المحامى ومدى نشاطه، وهل يقوم على الوكالة الخطيرة كما يجب أن يقوم الوكيل الأمين، أم أنه تصدى لها لحاجة فى نفسه.

ولكن دروس مدرسة الطب لا تترك فراغًا لطالبها، ولذلك اقتصرت رقابتى على السؤال فى فترات الراحة فأسمع أن معركة حامية نشبت بين رجال الحزب الوطنى وبين سعد وزملائه حول صيغة التوكيل، وأن تلك الصيغة قد عُدلت بما أرضى رجال الحزب الوطنى فقبلوا أن يوقعوا التوكيل. وهكذا انفرد سعد بتمثيل المصريين جميعًا بعد أن بايعه الحزب الوطنى، وأصبح سعد حامل العَلَم الذى حمله من قبله أحمد عرابى ثم مصطفى كامل ثم محمد فريد.

إن خصوم الإسلام فى تركيا أقوى من أردوجان وحزبه جميعًا، وهم ليسوا قاصرين على الداخل، بل يمتدون إلى الخارج ودول الجوار

ومع أن حزب «العدالة والتنمية» تعرض لمضايقات عديدة، وحملات مكثفة من النظام العلمانى، إلا أنه أثبت وجوده، لأنه يقدم أسلوبًا جديدًا للحركة الإسلامية فى التعامل مع القضايا المختلفة، وهو أسلوب ناجح وفعال، يجعل منه نموذجًا يفرض نفسه على الحركة الإسلامية فى بقية أرجاء العالم الإسلامى.

وللأسف، فإن بعض الإسلاميين لا يدركون حجم المصاعب التى يتحرك من خلالها «العدالة والتنمية»، ويتصورون أن «رجب الطيب» يمكنه أن يحول تركيا بعد فوزه وفى وقت قصير إلى عاصمة للخلافة الإسلامية مرة أخرى. ويطبق الشريعة الإسلامية مباشرة، وهذا عصف، وتفكير بعيد عن المنطق، لأن الرجل يتحرك فى متاهة موحشة مليئة بالخوف والرعب وقوى الظلام المعادية للإسلام..

إن خصوم الإسلام فى تركيا أقوى من أردوغان وحزبه جميعًا، وهم ليسوا قاصرين على الداخل، بل يمتدون إلى الخارج ودول الجوار، ويمكن تلخيصها فى:

المؤسسة العسكرية التى أعدمت رئيس الوزراء عدنان مندريس عام ١٩٦٠، مؤسسة التعليم العالى التى تقوم بالإشراف على مائة جامعة وتقوم بتصفية الأساتذة من ذوى الميول الإسلامية، النقابات اليسارية، المؤسسة العسكرية السرية (جلاديو) ويقف وراءها حلف الناتو، وهى منظمة مدربة على جميع أنواع الاغتيالات والتفجيرات، وكثيرًا ما تقوم بعمليات اغتيال وتنسبها للإسلاميين، خاصة عند اغتيال كاتب ملحد أو صحفى شيوعى فتثور الصحافة والميديا لمواجهة (الخطر الإسلامى) الذى يريد جر تركيا إلى الظلام والعصور الوسطى، الدستور الذى يحرم قيام أحزاب إسلامية، ويفرض على كل حزب أن يؤكد على علمانيته ومبادئ أتاتورك، وعلى كل مسئول ونائب أن يقسم على إخلاصه لهذه المبادئ.

وقد أدرك «أردوغان» أن الإعلان عن إسلامية حزبه سيورده موارد التهلكة (بالقانون)، وسيدفع به مع رفاقه إلى السجن (بحكم المحكمة الدستورية) مع مصادرة أموالهم وأموال الحزب، ولذا فإنه نظر إلى المساحة التى يمكن أن يعمل من خلالها لخدمة أهداف الإسلام العليا دون لافتة إسلامية، وفى مقدمة هذه الأهداف مكافحة الفقر والجهل والمرض وتقوية تركيا سياسيًا واقتصاديًا وعلميًا وتقنيًا وصناعيًا، وزيادة ثقلها السياسى فى العالم، وتخليص الاقتصاد التركى من قبضة العلمانيين المتطرفين، ورفع العوائق أمام التعليم الدينى والحرية الشخصية للمسلمين الأتراك، وترسيخ الديمقراطية وحقوق الإنسان، والعمل على إنهاء الهيمنة العسكرية على السياسة التركية، وإنهاء عهد الانقلابات العسكرية التى أخرت البلد عقودًا طويلة.. وهذه الأهداف - دون ريب - عندما تتحقق ستعود على ملايين المسلمين فى تركيا وخارجها بخير كثير. أهم بكثير من اللافتات والشعارات فى المرحلة الحالية على الأقل.

لقد واجه «أردوغان» الشارع السياسى، بل الشعب التركى بلغة الأرقام تعبيرًا عما حققه فى حكومته الأولى، قبل الانتخابات التشريعية الماضية:

- تخفيض نسبة التضخم من ٣٧٪ إلى ٩٪ تقريبًا.
- تخفيض نسبة الفائدة من ٦٥٪ إلى ١٥٪ تقريبًا. (والعمل مستمر لتخفيضها إلى أدنى حد ممكن).
- إعادة الاعتبار لليرة التركية، حيث حذف ستة أصفار منها لتقترب من الدولار الأمريكى فى أجرأ خطوة اقتصادية لم تقدم عليها الحكومات السابقة (الدولار الأمريكى = ليرة ونصف ليرة تركية تقريبًا).
- توزيع الكتب والكراسات والأدوات الكتابية على جميع طلاب المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية مجانًا، ويبلغ عددهم عشرة ملايين طالب تقريبًا، فرفع بذلك عبئًا كبيرًا عن كاهل

الفقراء، بالإضافة إلى تخصيص مرتبات للطلاب المحتاجين.

- وضع يد الدولة على أملاك اللصوص الكبار وبيوتهم ومصانعهم ويخوتهم وسياراتهم الفارهة وقدمهم للمحاكمة، وخلص البلاد من طبقة النهب التى يقدر ما هربته إلى الخارج بأكثر من ٤٦ مليارا.
- وزع مليون ونصف المليون طن من الفحم سنويًا مجانًا على العائلات الفقيرة فى المناطق الباردة، واستفاد من هذه المعونة أربعة ملايين تركى.
- قام ببناء ٢٨٠ ألف شقة سكنية للعائلات الفقيرة بأقساط سهلة وميسرة، أقل من الإيجار الشهرى، على مدى ٢٠ عامًا، ولا تدفع إلا بعد الانتقال للسكن فيها. وقد وزع ١٤٠ ألف شقة، والباقى فى مرحلة البناء، ويأمل فى رفع العدد إلى نصف مليون شقة.
- نفذ مشروعات عمرانية جبارة بشق مساحات من الطرق المرصوفة تبلغ أضعاف ما تم إنجازه منذ تأسيس الجمهورية حتى قيام حكومة العدالة والتنمية.
- ارتفع دخل الفرد التركى من ٢٥٠٠ دولار عندما تولى السلطة إلى ٥٥٠٠ دولار لأكثر من الضعف.
- زادت الصادرات التركية من ٣٦ مليار دولار إلى ٩٥ مليارًا.
- انخفضت ديون تركيا لصندوق النقد الدولى من ٢٣ مليار دولار إلى ٩ مليارات فقط، وصرح رئيس البنك المركزى بأن تركيا لم تعد بحاجة إلى صندوق النقد الدولى.
- أنشأ ٣٩ جامعة جديدة وفتح أبواب المستشفيات جميعًا أمام الفقراء حتى المستشفيات الخاصة، حيث يقوم المريض بدفع نسبة قليلة وتتكفل الدولة بدفع الباقى.
- سنّ العديد من القوانين التى تعطى مساحة أكبر للحرية الفردية وكرامة الإنسان وتحرم التعذيب فى السجون وأقسام الشرطة، وتتيح حرية التجمع والتظاهر وإبداء الرأى والحصول على المعلومات، وحق الأقليات فى التعلم بلغاتها.
- سعى إلى تصفية الأجواء مع جيران تركيا، وخاصة العرب، وقوى علاقاته بالجمهوريات التركية فى آسيا الوسطى، وكثف نشاطه فى المؤتمر الإسلامى، بالإضافة إلى خدمات عديدة يصعب تفصيلها الآن. (اعتمدنا فى البيانات السابقة على مقال قيم للكاتب التركى: أورغان محمد على، نشرته مجلة «المجتمع» الكويتية فى ٢٠٠٧/٩/١م).

لقد حقق «أردوجان» استقلال تركيا عن أمريكا والكيان الصهيونى، ورفض المشاركة فى العدوان على العراق أو تقسيمه، وحظى باحترام الاتحاد الأوروبى.

إن تجربة حزب «العدالة والتنمية»، من التجارب المهمة التى تتحرك فى الإطار المتاح من جانب العلمانية المتوحشة، وقد حقق ذكاء قادته نجاحًا كبيرًا بتركيزهم على القاسم المشترك الذى لا تختلف عليه الأغلبية الساحقة من الشعب والنخبة، بل إن بعض العلمانيين لا يملكون أمام هذا القاسم المشترك إلا أن يسهموا فى الانضواء تحت لوائه. صحيح أن العلمانيين الغلاة لن يكفوا عن هذا التربص، واصطياد الأخطاء الصغيرة، ولكن الحركة الذكية التى تصحح نفسها باستمرار، قادرة على جذب الأنصار وتحييد الخصوم، وهو ما ينبغى أن يلتفت إليه قادة الحركة الإسلامية فى دول العالم أجمع..

إن القوى المعادية للإسلام والمسلمين لن يهدأ لها بال، حتى تظل لها الهيمنة والسيطرة فى ظل تحالفها مع العدو التاريخى وهو الغرب الاستعمارى.. وسوف تعرقل كل نهضة يسعى إليها العالم الإسلامى أو جزء منه، ولكن من قال إن الطرف الإسلامى لا يملك أسلحة ماضية فى هذا الصراع؟

لقد آن الأوان بعد التجربة التركية أن يتحقق توافق بين الدين والدولة لتوفير عناء طويل ومستمر بين السلطات وشعوبها، ويتوقف نزيف الطاقات والإمكانات لبناء غدٍ أفضل، ومستقبل أحسن. ■

كتاب الزاوية

استقلال ميت غمر!

مذكرات عريان يوسف سعد

وجدت ميت غمر قد أعلنت استقلالها، وألفت حكومة ونادت بالمرحوم أحمد بك عبده سلطانًا على ميت غمر. وكان طلبة المدارس العليا والثانوية الذين لم يعتقلوا والعمال يقومون بدور الحرس الوطنى، أما مأمور المركز وموظفوه فلزموا منازلهم.

ولم يقع بالمدينة حادث اعتداء واحد، أو حادث سرقة خلال فترة الاستقلال التى دامت نحو أسبوعين.

وعندما وصلت السفينة ورست على شاطئ الرياح التوفيقى وجدت طلبة ميت غمر الذين يدرسون فى المدارس الثانوية أو العليا (ولم يكن فى ميت غمر حتى ذلك التاريخ سوى مدرستين ابتدائيتين، ولم يكن فى مصر كلها سوى ثلاث مدارس ثانوية فى القاهرة هى - السعيدية والخديوية والتوفيقية - بجانب مدرستين غير تابعتين لوزارة المعارف هما: الإعدادية الثانوية والإلهامية. وكان فى طنطا مدرسة ثانوية أنشئت سنة ١٩١٤، وفى الإسكندرية مدرسة رأس التين الثانوية وكانت المدرسة العباسية قد استولت عليها السلطة العسكرية سنة ١٩١٥ وحولتها إلى مستشفى لجرحى الدردنيل.

كان الطلبة قد بلغهم منذ ساعات أن هناك طلبة فى قارب يسير بهم نحو المنصورة، وفيه بعض الطلبة من ميت غمر، وكان قد بلغهم نبأ اعتقالى فى القلعة. فكانوا فى انتظارنا يهتفون وينشدون نشيد الحرية الذى نظم ولحن عقب قيام المظاهرات فى ٩ مارس سنة ١٩١٩ - وكانت مفاجأة لنا: من الذى نقله؟ ومن علمهم إنشاده؟ وقد لحن على غرار السلام الوطنى المصرى.

محراث الحداثة

خيـــــرى منصـــــور



يشير محمد أركون بشكل دقيق إلى الصعوبات التى يواجهها الباحث العربى إذا أراد استعمال اللغة العربية لتقديم بحوث تحليلية انتقادية للتراث[١]، وتنقسم هذه الصعوبات إلى نوعين، أولهما صعوبات متعلقة باللغة وثانيهما صعوبات متعلقة بالأطر الاجتماعية للمعرفة، ونظرا لكون عملية التطور اللغوى منوطة بأوضاع المجتمع المستعمل للغة، نجد أن اللغة العربية بقيت محافظة على تعابير دينية ونتف من الفقه والنحو والأدب، منفصلة عن المعجم العقلانى الذى أحدثه الفلاسفة فى الفترة الممتدة بين القرنين السابع والثالث عشر الهجرى، والمثال الذى يضربه أركون حول هذه المسألة لا يخلو من دلالة رغم التبسيط المبالغ به، فهو يرى أن اللغة المحافظة والمنفصلة عما يسميه المعجم العقلانى هى أشبه بالفلاح الذى بقى يستعمل المحراث العتيق دون أى تحسين آلى.

إن مجال التقويل فى هذه النقطة بالذات هو الاستعاضة عن تطوير اللغة بمطها مطا خارجيا، وجعلها تستجيب لما يراد منها قوله وهو خارج (خطابها)، قد يصعب علينا أن نجد فى (تقويل المحراث) إن أمكن مثل هذا التقويل مرادفا لتقويل كلمة (سياسة) أو (دولة) أو أى من الكلمات التى وردت فى سياقات فكرية وفقهية تراثية لكن محدودية القدرة التى يتسم بها المحراث لا بد أن تنطبق فى نهاية المطاف على محدودية اللفظة (القاموسية) قبل الإضافات والتطويرات التى أحدثها (المعجم العقلانى).

ويمكننا أن نأخذ من أركون أمثلة سرعان ما تأوى إلى سياقنا هذا، فهو يقول:

«بلغ ابتعاد الأطر الاجتماعية عن المعاجم والتعابير العلمية إلى أنها اكتفت بترديد قواعد فارغة جامدة فى علم النحو، ودفنت مؤلفات من الأهمية بمكان راجعة لا إلى عهد مثلا» ويذكر عددا من الأطروحات التى قدمت بجامعة السوربون تأكيدا على غلبة هذا المنحى.

لكن أليس بوسع القارئ أن يتساءل عن تلك المؤلفات المهملة والتى هى من الأهمية بمكان كما يصفها (أركون)؟

سيفضى هذا التساؤل حتما إلى تقويل افتراضى، ولعل (الأهمية بمكان) التى تمتاز بها تلك المؤلفات المهملة كامنة فى قدرتها على استمرارية القول، أى فى قابليتها للتقويل، وهذا ما تشى به عبارات محمد أركون وإن كان لا يصرح به، غير أن مراجعتنا لطروحات أخرى لهذا المفكر العربى تضعنا إزاء قرائن تؤكد ما ذهبنا إليه.

ويستخدم كاتب آخر مصطلح (التحديث) بمعانٍ مختلفة تبعا لسياقات البحث، يهمنا من استخدام د. حسن صعب لمصطلح التحديث بمعنى (التقويل) وقفته السريعة مع هيجل، وهو يذكرنا على الفور بجدلية (أبى ذؤيب) السابقة بعدة قرون لجدلية هذا الفيلسوف الألمانى[٢]، لكن د. حسن صعب يلجأ إلى تقويل آخر، مستعينا بالقرينة الوحيدة التى وجدها عند هيجل فى كتابه (فلسفة التاريخ) وتحديدا تلك النقطة التى يتحدث بها هيجل عن موقف الإسلام من الثبات (نفيه) عن كل موجود حسى.

ولكون د. صعب معروفا باهتمامات مستقبلية، ويلح فى مؤلفاته على هاجس التحديث، فإنه يثير أكثر من سواه مسألة التقويل. فللمستقبل حسب ما تشير خرائط صعب الفكرية جذور عميقة فى الماضى، ولربما كان قادما منه فى بعض الأحيان، لهذا تحظى مفردة (الاجتهاد) باهتمامه حتى ليسعى إلى جعل الاجتهاد حقا لكل مسلم، ولما كان الاجتهاد حقا للجميع فالتشريع أيضا حق للجميع.

إن ربط المستقبل بالماضى بصفة هذا الأخير (المستمرة) تجعل استنتاجات د. صعب الحاسمة قابلة للنقاش وللنقض أحيانا. وسنرى أنه فى طرحه لمفهوم القيادة والمجتمع الإنمائى ينأى عن جدلية الاسلام (التى تعرضت للتقويل) وعن هيجل فى الوقت نفسه، اللهم إلا إذا اقتصرنا على هيجل منتقى، يتجسد مطلقه فى النهاية فى الدولة(فريدريك).

يقول د. صعب: «يسبق التحديث القيادى فى الدولة النامية التحديث المجتمعى، ولذلك يتوقف التحديث على انبثاق قيادة ريادية إنمائية تلتزم بعملية التحديث».

قد لا يكون المجال هنا متاحا لمناقشة هذا الطرح، لكننا نستطيع أن نستنتج بادئ ذى بدء أن مثل هذا التصور لهرمية القيادة يغفل ظروف وشروط وبيئات إفرازها، لقد قدم التاريخ أمثلة كثيرة تدحض هذا التصور المدرسى للقيادة، ونحن لدى قراءتنا د. صعب فى فصول أخرى من كتابه (تحديث العقل العربى) نجد أن (التقويل) غير المصرح به كامن

اقترن اسم أبي حامد الغزالى بديكارت، وكان هذا الاقتران بين الاسمين يأتى غالبا فى سياق البحث عن تأثيرات الفيلسوف الإسلامى على الفيلسوف الفرنسى، وخصوصا فيما يتصل بالشك المنهجى، الذى تبلور لدى ديكارت

بين السطور. وإذا كانت كلمة تحديث تؤخذ أو (تُقسر) على حمل معنى التقويل فإن استخدام د. صعب لمصطلح (الاجتهاد) يقع فى دائرة الفهم نفسها.

الغزالى وباسكال

اقترن اسم أبى حامد الغزالى بديكارت، وكان هذا الاقتران بين الاسمين يأتى غالبا فى سياق البحث عن تأثيرات الفيلسوف الإسلامى على الفيلسوف الفرنسى، وخصوصا فيما يتصل بالشك المنهجى، الذى تبلور لدى ديكارت إلى الحد الذى أصبح فيه مصطلح (الديكارتية) ينطلق من الشك منهجا ويوحى به عند كل ذكر له، ومنذ كتب (شارل سومان) الفرنسى مقالته الشهيرة بعنوان ديكارت والغزالى، أخذ هذا العنوان يتكرر فى معظم المعالجات التى تنطلق من المثاقفة موضوعا، أو تلك التى كرست لتبيان فضل العرب على الغرب.. إلخ.. لهذا سيبدو أشبه بالقطع لمتوالية نفسية ذكر الغزالى هذه المرة مقترنا بباسكال، وقد رأينا إرجاء مسألة التقويل فى ثنائية الغزالى - ديكارت إلى فصل مستقل وسنكتفى هنا بالتوقف عند العلاقة بين الغزالى وباسكال.

يذكر د. عبد الرحمن بدوى، فى كتابه (دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى)[3] أن مسألة تأثر باسكال (المفكر الرياضى الفرنسى المعروف) بديكارت ظاهرة، فلباسكال حجة مشهورة لإثبات وجود الآخرة تسمى (رهان باسكال) Pascal Paride خلاصتها أن باسكال يوجه خطابه إلى المنكرين للآخرة قائلا:

- «إذا كسبتم، كسبتم كل شيء، وإذا خسرتم لم تخسروا شيئا»، ويضيف د. بدوى أن هذه الحجة ذكرها الغزالى فى (الإحياء..) وكتب أخرى يقول:

«قال على رضى الله عنه لمن كان يشاغبه ويماريه فى الآخرة إن كان الأمر على ما زعمت تخلصنا جميعا وإن كان الأمر كما قلت فقد هلكت ونجوت».

ويرى د. بدوى أن هذا الاتفاق بين الغزالى وباسكال جاء عن طريق معرفة باسكال لكلام الغزالى إما عن طريق مستشرق معاصر له أو لعل باسكال تنبه إلى اسم الغزالى فى كتاب خنجر الإيمان الذى ألفه (ريموندو مارتين)[4]!

وبطبيعة الحال نحن لا نعترض على إمكانية قراءة أو تأثر باسكال بالغزالى، لكن أهذا كل الغزالى.. والسؤال نفسه ينطبق على باسكال أن عملية التقويل كما رأينا فى أمثلة سابقة تتطلب عدة مراحل لكى تستقيم، وهنا يتم أولا اختزال كل من الغزالى وباسكال إلى سطرين فقط.. كما يتم انتزاع هذين السطرين من سياق متصل لكل من الفيلسوفين، ولكى يتضح ما نعنيه سنحاول قراءة بعض تأملات باسكال ونرى إلى أى حد يمكن أن تقبل التقويل بالنسبة لمن جاءوا بعد باسكال، وإلى أى حد يمكن أن يكون باسكال نفسه استجابة لتقويل من سبقوه؟

إن باسكال يذكر أسماء من أخذ منهم كإشارته إلى شيشرون وحتى أسماء من يتعارض معهم كذكره (مونتين) مثلا[5].

وماذا لو أخذنا هذه الكلمات الثلاث التى يعرف بها باسكال الإنسان:

«تقلب، ضجر، قلق»؟ ثم حاولنا البحث عن صداها فى كلمات ترد (هى ذاتها) لدى كيركفارد مثلا؟

وماذا لو أخذنا منه أيضا وصف الإنسان بأنه: إذعان، رغبة فى الاستقلال، حاجة؟

ثم كيف نقرأ لباسكال مثلا قوله: «الإلحاد دليل على قوة العقل لكن إلى حد».

إن تأملات باسكال تبلغ ذروتها فى هذا السؤال: كم من الممالك تجهلنا؟

و لم يقل العكس: كم من الممالك نجهلها، إنه يضع المجهول واللانهائى فينا (أى فى الإنسان نفسه).

ولا يقلل من أهمية الغزالى مثلا أن نجده مفارقا لكثير من تأملات باسكال، إن لكل منهما عالمه اللاهوتى وموروثه وموقفه من العقل.. إلخ..

إن تقويل الغزالى أو سواه من الفلاسفة والمفكرين من شأنه أن يحجب قيمته بعكس النية المعلنة الهادفة إلى إعلاء شأنه، لقد استمر باسكال فى ثقافة ووعى مواطنيه من الفلاسفة على اختلاف عهودهم واتجاهاتهم، فمن فولتير إلى شاتوبريان لا نجد إلا تعظيما لباسكال.. أما المعاصرون فلقد لخص كل من فاليرى ومورياك وغرين موقفهم فيه، قال فاليرى: باسكال أعظم العقول التى ظهرت أما جوليان غرين فيقول عنه: أعظم الفرنسيين شأنا.

أينشتاين والفلاحة!

إذا كان الفنان شاعرا أو روائيا أو غير ذلك يستتر خلف شخوصه، حاجبا عنا أفكاره المجردة عن العالم.. أو بمعنى أدق ثقافته، فإنه فى نشاطه الفكرى خارج النص يتضح (مفكرا) من هذا المنطلق. سنحاول قراءة بعض الأفكار الأساسية للدكتور يوسف إدريس من خلال حوار مطول أجراه معه إبراهيم منصور، ضمن مشروع يحمل عنوانا ذا مغزى هو (الازدواج الثقافى) ويهمنا بطبيعة الحال من هذه الأفكار ما يتصل مباشرة بالتقويل.

يقول د. إدريس معقبا على مفهوم الأدب الشعبى: «إن كلمة (شعبى) مضللة لأن الناس تربطها بالتدنى والانحطاط، وأنا أعتبر أن نظرية مثل نظرية النسبية (لأينشتاين) مثلا هى تفكير شعبى ذلك أنها ترتكز على فلسفة التناسب، أى فكرة أنه لا يوجد شيء مطلق»[6].

يعود بنا د. إدريس إلى ما قلناه فى السطور الأولى من مقالة سابقة عن المثل الشعبى وفن تقويله عندما تستدعيه حادثة ما.

ويحسن بنا قبل أى تعليق على اعتبار (نظرية النسبية) تفكيرا شعبيا أن نورد هذه الحوارية الطريفة بين أينشتاين نفسه وسيدة من أفراد الشعب حين طلبت منه تلك السيدة أن يشرح لها (النسبية) فقال:

- «كنت أسير مرة مع رجل مكفوف البصر فذكرت له أننى أحب اللبن. فسألنى: ما هو اللبن؟ فقلت: إنه سائل أبيض، فقال: أعرف ما هو السائل.. ولكن لا أعرف (الأبيض) فقلت: إنه لون ريش البجع، أما الريش فأعرفه لكن ما هو البجع.. إلخ..

وليس عيبا أو نقيصة ألا يعرف أفراد الشعب العاديون نظرية النسبية أو الفيزياء النووية أو نظام الحاسبة الإلكترونية، وليس - بالمقياس نفسه - المسلم العادى عارفا بأصول الفقه كلها أو عالما بأصول الدين، كما أن المتدين المسيحى ليس (بيكون) أو (رينان) أو راهبا حتى! وكذلك العامل الذى لن يجد من يعيِّره بعدم قراءة كارل ماركس أو آدم سميث أو... إلخ.

لكن ما يجعل هذه الأمور (نقائص) بالنسبة لأفراد الشعب هو افتراضنا القسرى أنها من صميم معارفه، إن الجسد الذى يقيم فيه الناس جميعهم ويتوهمون معرفته يخذلهم فى أول (ألم) يصدر عنه فيلجأون إلى شخص يسمونه الطبيب، ود. إدريس كان طبيبا رحمه الله ويعرف ذلك جيدا.

يستطرد د. إدريس بعد ذلك فى عملية (التقويل) إلى: «أن أبا ذر الغفارى يعرف عن الاشتراكية ما يزيد على ما كتبه كارل ماركس نفسه».

هنا يعيدنا إدريس إلى سوء التفاهم الناجم عن الكلام، وإلى تلك الخاصية التى تتمتع بها العربية كما يقول الماوردى، لقد قال كامو مرة: لم أتعلم الاشتراكية من ماركس وإنما تعلمتها من البؤس، فلو قال د. إدريس إن (البؤس) مصدر معرفة للاشتراكية أو مصدر توق إليها لكان الكلام مفهوما، فالبؤس أعمق نبعا من أبى ذر وماركس.

لكن الجزم بأن (معارف) أبى ذر الاشتراكية تزيد كثيرا على معارف ماركس أو غيره من علماء الاقتصاد السياسى المعاصرين فذلك تقويل يستحق اسما آخر، إنه إنتاج كاريكاتورى للمسكين أبى ذر وتحميل له ما لا يطيق!

وأخيرا يقول د. إدريس إن المرأة الريفية العجوز تقول لابنها وهى تضربه:

- أنت عاملنى رمرم يا ابن القمحاوى.

ورمرم حسب تفسير د. إدريس هو (روميو) ويستنتج من هذا أن المرأة الريفية العجوز تعرف شكسبير!

وبطبيعة الحال فإن جهل المرأة الريفية العجوز بشكسبير أهون ألف مرة من معرفة كهذه تختزل إلى مجرد سماع اسم مشوه لبطل مسرحية ولا يعيب المرأة أبدا أن تستخدم أى اسم لعاشق من السير الشعبية العربية لأنها ستكون معرفة وجدانية فى الأقل!

ومن مستويات التقويل التى لا تخلو من طرافة:

يقول د. إدريس إن ما يكتبه (روب غرييه) الآن كان موجودا منذ ما يزيد على ٨٠٠ عام فى الأدب الشعبى!

ويقول أيضا: إن أحدث نظرية فى علم النفس تستند إلى مثل شعبى يقول: اضحك للدنيا تضحك لك!

وليس تعاليا على المثل الشعبى الذى يوجز خبرة قرون نقول: إن هذا الاختزال من شأنه أن يضيف إلى التقويل ذراعين عملاقتين تجران المستقبل برمته إلى نقطة هناك.. بعيدة جدا فى الماضى، إذن ما جدوى كل هذه الفلاحة فى أرض المستقبل؟ وما جدوى المعرفة؟ إذا كان كل شيء قد أنجز فى الماضى، وما دمنا

هاجس التقويل (٢)



نكتفى باستحضاره كوصفة أدبية لحل كل مرض مستعص.

ولكن الدكتور إدريس سرعان ما يقف على الشاطئ الآخر، ويتحدث بمنطق تاريخى - علمى، يجعل كل أشكال التقويل تلك كلاما سريعا وعابرا إذا قيس بما قاله عن التسمية الشعبية لحركة (عرابى) فهو يقول: إن الفلاحين أطلقوا عليها كلمة (هوجة) المشتقة من هياج، هذا بينما نجد المؤرخين يسمونها (ثورة) لأنهم بحكم ثقافتهم يعتبرونها (ثورة) والواقع أن التعبير الشعبى أكثر دقة [٧]!

بهذا المنطق تصبح (الاستباقات) الشعبية لروب غرييه وعلم النفس وأينشتاين والاشتراكية مجرد (هوجة) كلامية لا أكثر ولا أقل.

ها هو د. إدريس نفسه يرى أن التسمية شديدة الأهمية، وأن المصطلح يوجز فهم عصر أو مرحلة بكل ما فيها من إنجازات.. وهو إذ يصر على تسمية (العرابية) بالهوجة بخلاف تسمية المعاصرين لها (ثورة) إنما يقول على نحو غير مباشر: إن قرنا واحدا قد يدفع المؤرخ إلى إعادة إنتاج الماضى وفقا لهواه وظروفه وموقعه.. إلخ.. [٨].

أما السؤال الأخير هنا.. فهو ما الذى فعلته ثمانية قرون (بالرواية المضادة) أو ما اصطلح عليه بهذا الاسم؟

أتبقى الدقة نفسها رغم ظهور واختفاء ثمانية أجيال، بينما تذهب الدقة أدراج الرياح حين يمر قرن واحد - جيل واحد - كما حدث فى تسمية (العرابية) سواء كانت هوجة أو حركة أو ثورة؟

الآمدى وبريل

عاش زين الدين الآمدى فى بغداد فى أوائل القرن الثامن الهجرى، وكان عالما مصابا بالعمى منذ طفولته، وقد اهتدى الآمدى إلى صنع الحروف البارزة على طريقة (بريل) قبل هذا الأخير بستة قرون.

يرجع د. حسين مروة براءة هذا الاختراع للآمدى. ويستغرب كيف يحتفل العالم بإنجاز (بريل) الكبير ولا يعرف شيئا عن المخترع العربى الأول.. حسن.. حتى الآن، لا نجد أكثر من محاولة بريئة لإعادة الحق إلى نصابه، ولإنصاف الآمدى تاريخيا فى الأقل..

لكن ما يضيفه د. مروة فى مقالته عن الآمدى هو ما يستحق المناقشة، إنه مستوى آخر من مستويات التقويل، ذلك لأنه يقول: لو كانت وسائل القرن التاسع عشر المدنية متهيئة فى القرن الرابع عشر لكان للتراث العربى فضل انتشار هذه الطريقة العملية الناجحة لقراءة العميان..

والمشكلة كلها تكمن فى هذه الـ (لو).. إنها منحى افتراضى فى التاريخ، تقوم على أسس لعبة سامية، لكنها لعبة على أية حال.

فلو طبقنا هذه الـ (لو) على عباس بن فرناس أو دافنشى مثلا لجزمنا بأن معاصرى هذين الرجلين كانوا سيوفرون على أنفسهم مشقة السفر بالبحر أو العربات أو الخيل، ولكانوا وفروا الكثير من الجهد والوقت عبر اختزال المسافات بواسطة الطيران..

وبالفرضية نفسها يمكن العودة إلى الحروب القديمة، وافتراض أن اختراع البارود صاحبته ظروف مناسبة، أو (لو) أن الراديوم كان مكتشفا فى الحروب الصليبية مثلا..؟!

التقويل على هذا المستوى الاختراعى - العلمى، يتطلب شيئين.. أولا: إبدال الظروف التاريخية والعلمية، بحيث يتسنى (للبيضة) حاضنة مناسبة لتفقيسها، وثانيا: إحالة الاختراع الذى توفرت له ظروفه وجاء عمليا ونافعا إلى (مسودته) الأولى، ذلك كبديل (تقويلى) عن النظر إلى اختراع الآمدى مثلا بصفته حلقة من حلقات تاريخ العلم.

ونحن بطبيعة الحال لا نميل إلى نسيان الأسس فى أى علم.. أو نسيان من كان لهم الفضل الأبدى فى اختراعات تخص الإنسانية لكننا نميل بالطبع إلى (فحص) التقويل حتى العلمى منه، لأنه يقوم على سجالية ستفضى فقط إلى تضخم هاجس الاستباق، أو لنقل بمعنى آخر تنبئ عن نزوع قومى للعلم.

وربما كانت (أسبقية) زين الدين الآمدى على بريل مجرد مدخل تعمدنا البساطة فيه.. إلى تقويل فلسفى أشد تعقيدا لدى د. مروة نفسه ففى كتابه: «النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية» - ج ٢. يحدث تقويل لنصوص الفارابى، فقد جعل د. مروة من فكرة تعاقب الصور والأضداد على الهيولى التى يفسر من خلالها الفارابى فناء الأفراد وبقاء النوع.. موقفا ماديا متقدما أو تصورا جدليا للطبيعة ويرى (على حرب) فى كتابه (مداخلات) إن المؤلف حين فطن إلى اختلاف ذلك عن قوانين الجدل (احتواء الشىء ضمنا على ضده وتجاوزه إلى مستوى أشمل) فإنه - د. مروة - حل الإشكال باللجوء إلى اعتبار كلام الفارابى على أنه (مرحلة من مراحل تاريخية الحقيقة).

ونحن نعلم أن للفارابى نصوصا صريحة حول سيادة الأصول على الفروع، أى حول (التقويل) وإن لم يرد هذا المصطلح لدى الفارابى أو سواه.

وإذا عدنا إلى مداخلات (حرب) ثانيا نجد أن المثال الذى يقدمه (النظام) المعتزلى للتأويل فى حدوده القصوى يؤدى إلى النتيجة نفسها، فأقوال النظام المعروفة مثل (الأجسام كلها متحركة) أو (الحركات هى الكون لا غير ذلك) أو كل شىء قد يداخله ضده قد وجدت من (يقولها) لكى تصبح أسلافا لما يقوله (انجلز) مثلا على هذا الصعيد.

إن المشكلة فى هذا المستوى من التقويل تكمن فى سوء فهم قد نشأ عن الألفاظ، لكأنما كل تشابه فى اللفظ هو تشابه فى المضامين وقد لاحظ (الماوردى) بنباهة فقهية أن الكلام.. كل الكلام يحتمل بطبيعته تأويلات مختلفة، وأن اللغة العربية أخص اللغات بهذه المعانى.

تقويل العلم

حين يتعرض اغروس وستانسيو لمواقف العلماء فى عصرنا من علم الماضى،يضعان القارئ أمام اتجاهين متعاكسين فيأخذان على سبيل المثال رأى الفيزيائى ارنست ماخ(فى عام ١٩٠٣) حيث يقف هذا العالم موقفا متشددا متطرفا أحيانا، من منجزات العلم التى تمت فى الماضى يقول: (أما بقايا الأفكار القديمة التى لا تزال عالقة بالفلسفة وعلم القانون والفنون والعلوم. فهى تشكل عوائق لا مزايا وهى على المدى لن تصمد أمام تنامى آرائنا نحن) ويأخذان من عالم آخر هو (هايزنبرغ) قوله الأقل تطرفا إزاء الماضى: (إن الفيزياء الحديثة لم تغير شيئا فى ميادين العلم الكلاسيكية العظيمة والميكانيكا والبصريات والحرارة...) ويكتمل اتجاه السهم المعاكس عند ما يقوله أينشتاين عن نيوتن فهو يقول لا يظن أحد أن ابتكار نيوتن العظيم يمكن أن تطيح به هذه النظرية أو تلك... فأفكاره الواضحة ستحتفظ بقيمتها حتى الأبد.

إن (حتى الأبد) هذه التى يمهر بها (آينشتين) إنجاز نيوتن تنطوى على قطيعة أيضا. تشبه إلى حد بعيد تلك القطيعة الابستولوجية التى يتحدث عنها الجابرى كضرورة لوعى التراث.. فعبر هذه القطيعة يتم التواصل، فالماضى مفعم كما هو معروف بالمغامرة والأخطاء معاً وهو مفعم بالأخطاء لأنه مغامر فى الأساس، تلك الأخطاء التى يخشى (ديكارت) أن نصاب بعدواها، لهذا لجأ إلى التماس الهداية من ذاته كما يقول، وكان (الشك) المنهجى وسيلته المثلى لالتماس هذه الهداية.

ثمة فرق بائن بين مفهومين: الماضى

ليس عيبا أو نقيصة ألا يعرف أفراد الشعب العاديون نظرية النسبية أو الفيزياء النووية أو نظام الحاسبة الإلكترونية، وليس - بالمقياس نفسه - المسلم العادى عارفا بأصول الفقه كلها أو عالما بأصول الدين

هاجس التقويل (٢)

كمجال زمانى تم فيه إنجاز على أصعدة العلم والفن كلها.. مفهوم متحصن بالتقويل وادعاء بلوغ الكمال، ومفهوم يتحصن بسلاح آخر تماما... هو الانفتاح على المغامرة اللاحقة، وفى هذه الحالة الثانية يجد الخطأ القديم صوابه الذى ضلّ عنه فى المستقبل، بعكس الحالة الأولى القائمة على التقويل حيث يستمد الخطأ القديم صوابه الكامل والأبدى من أسبقيته الزمانية. ومن قدرته المطاطية على استيعاب ما ليس له، إن كل نظرة إلى الماضى بوصفه (مرنا) ومطاطيا إلى حد اصطياد كل ما هو قادم هى ذات منبع ميثولوجى بشكل أو بآخر، وفى وسع المرء أن يشم رائحة (توراتية) فى كل المرات التى يتم بها الحديث عن الماضى بصفته (المطاطية) تلك.

وقد لعب (اليونانيون) فى عصورهم الذهبية خاصة دورا بالغ الإغراء فى (التقويل)، باعتبارهم جعلوا أفق المستقبل كله يونانيا، فقد عبر (وايتهد) يوما عن هذه (المحنة) بقوله إن مكابدات البشر بعد الإغريق ستكون لبلوغ شىء مستحيل هو (اللايونانية) أو بمعنى آخر أن يأتوا بجديد يضاف إلى المنجز اليونانى ولعل المقالة المفعمة إعجابا بالماضى اليونانى والتى كتبتها (اديت هاملتون) تصلح نموذجا للتقويل الأوروبى المعاصر لليونانيين القدماء... تبدأ (هاملتون) مقالتها بسؤال يشى بأن الإجابة عن هى فحوى المقالة كلها، أما السؤال فهو: هل هناك ماض دائم الوجود. إن مجمل ما تقوله المقالة والأمثلة التى تكتظ بها من حياة اليونانيين تجيب بنعم على نحو غير مباشر، فمثلا....

● إن أعظم حضارة سبقت حضارتنا هذه هى حضارة الإغريق.

● لقد قال أحد الإغريق: إن الأرض تدور حول الشمس وكان ذلك قبل أن يفكر به كوبرنيكوس بستة عشر قرنا.

● كما أن إغريقيا آخر قال بأن الإبحار غربا من إسبانيا، وعلى ذات خط العرض لا بد أن يصل بالإنسان إلى اليابسة، وكان ذلك قبل أن يقدم كولومبوس كشوفاته بألف وسبعمائة سنة.

● وقال داروين: إننا مجرد طلاب وتلاميذ فى التفكير العلمى بالنسبة لأرسطو.

العروى وكروتشه

عندما قرأت الليلة السابعة من الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى تذكرت على الفور كتيبا للناقد الانجليزى أ.ريتشاردز بعنوان (الشعر والعلم) فكلاهما، التوحيدى وريتشاردز، تحدثا، بالرغم من الفارق الزمنى الكبير نسبيا بينهما عن العلاقة الإشكالية بين الشعر والعلم، التوحيدى ذهب إلى ديوان أهل الحساب والبلاغيين أصحاب الإنشاء، وجعلهم- على طريقته- يتحاورون حول أيهما أكثر ضرورة وأهمية الحساب أم البلاغة؟ وكانت الغلبة للبلاغيين الذين ينتسب إليهم التوحيدى، وينحاز إلى رأيهم، لأن البلاغة حسب رأيه ضرورية لأهل الحساب والديوان، ويضرب التوحيدى أمثلة عن أخطاء (لغوية) ممكنة، من شأنها أن تفسد الحساب كله! أما ريتشاردز فموقفه معروف، ونداؤه بالتزاوج الحضارى بين العلم والشعر دفعه إلى مواقف مشحونة بالحماسة حد المبالغة ومجانبة العلم نفسه وعندما راجعت الشعر والعلم مجددا وجدت أن ما بين التوحيدى وريتشاردز من لقاء لا يتعدى عنوان الصراع، ثم يفترقان إلى عالمين متغايرين، فالعلم لم يعد (حسابا ديوانيا) لدى ناقد أوروبى معاصر، كذلك فنون الكتابة لم تعد (حرفة بلاغية) تقوم فى الأساس على إتقان الصياغة.

الشىء نفسه حدث خلال قراءة (القرطاجنى) و(امبسون) الإبهام والغموض، وكيف نظرا إليه بالرغم من البون الشاسع بين السياقين اللذين ينسب كلٌ منهما إليهما. إن الإغراء بالتقويل لدى (حازم القرطاجنى) يتجاوز كثيرا مثيله لدى التوحيدى بشأن علاقة العلم بالأدب، فحازم يقول مثلا:

(إن المعانى وإن كانت مقاصد الكلام ومواطن القول تقتضى الإعراب عنها والتصريح عن مفهوماتها فقد يقصد فى كثير من المواضع إغماضها وإغلاق أبواب الكلام دونها والدلالة على المعانى على ثلاثة أضرب: دلالة الإيضاح ودلالة الإبهام ودلالة الإيضاح والإبهام معاً).

وهو يقترب مما يقوله (وليم امبسون) عن أنماط الغموض وربما استطاعت تحليلات القرطاجنى ملامسة الكثير من التحليلات المعاصرة للغموض والإبهام، لكن (تقويل) حازم ما لم يقله تماما هو ضرب من الإساءة إلى كلا الاثنين وجل ما يمكن الحصول عليه من هذا التقويل هو أحراز (الاستباق) المشحون بهاجس تراثى - قومى.

وليكن اعترافا منى القول بأن ما وجدته من تنبه اثنين لهذه المسألة هما عبدالله العروى ومحمود الربيعى قد دفعنى إلى التراجع أمام إغراء (تقويل القرطاجنى تحديداً).

فمحمود الربيعى حين خطر له أن يختار نصوصا من تراثنا النقدى القديم لم يندفع باتجاه التقويل بحيث تطرح تلك النصوص على القارئ المعاصر وكأنها (لا زمنية) أى مطلقة الصواب، وتصلح لكل أوان، صحيح أن بعضها لم يدفنه الماضى تماما- واستطاع الصمود النسبى أمام عواصف التطور النقدى وثوراته الكبرى، لكن هذا بالطبع يختلف عن الزعم بأنها (كلية النفع) ومعزولة عن سياقاتها التاريخية - الثقافية يقول د. محمود الربيعى:

(أريد أن أنفى عن نفسى مظنة مقاصد معينة فى احتفائى بهذه النصوص من النقد العربى القديم، وأريد أن أنفى عنها مظنة أننى سأجهد فى سبيل إثبات أن هذه النصوص إنما اخترتها لأنها تقارع نصوص النقد العالمى...).

ويضيف د.الربيعى أنه على وعى بأن مثل هذه الأفكار المعدة سلفا كانت منزلقا خطيرا انزلق إليه دارسون كثيرون. إن وعيا من هذا المستوى قد جعل الناقد والنصوص فى آن معا فى منجى من التقويل أما (العروى) فقد كان تنبهه لهذه المسألة أشد خطورة، لأنها تتعلق بالتاريخ بمعناه العام وليس بأحد نشاطاته أو فروعه... وهو هنا يقول عن الوثيقة المكتوبة (يجب دراسة كل كلمة فيها فى إطار القاموس، فإذا وجدنا كلمة (مخزن) مثلا فى وثيقة مؤرخة يجب أن نضمنها المعنى الجارى فى الوقت الذى كتبت فيه ولا يمكن أن تقحم معان لاحقة وهذا المنهج الذى يدعو إليه العروى أطلق عليه فى كتابه (أصول الحركة الوطنية المغربية) اسم المنهج الفيلولوجى (وهو مأخوذ من الفيلسوف كروتشه).

ويرى (العروى) أن ما يعوزنا بالفعل لقراءة الوثيقة المكتوبة قاموس تاريخى يعطينا تسلسل المعانى حسب التسلسل الزمنى، فلسان العرب فعلا ليس قاموسا تاريخيا.

ويأخذ العروى كلمة (الجهاد) مثلا ترد فى الشعر الجاهلى والقرآن وكتب الفقه دون أدنى ترتيب زمنى فلا يمكن أن نقول بأن كلمة جهاد فى القرن الفلانى كانت تعنى كذا وفى القرن الفلانى كذا... الخ وبما أن الوثيقة ترجع إلى الفترة الفلانية فإن كلمة جهاد فيها تحمل حتما المضمون الفلانى.

ويتوصل العروى حسب منهجه الفيلولوجى هذا إلى ترك الأبواب مفتوحة أمام جميع التأويلات لكن ليميز بين التأويل القريب والتأويل البعيد بحيث يمكن قول كل ما نريد حول ابن خلدون مثلا ولكن لا نستطيع أن نؤوله على أنه ماركس قبل ماركس.

إن مفهوم العروى للتأويل البعيد يقترب كثيرا مما نعنيه بالتقويل، فاعتبار ابن خلدون ماركس قبل ماركس هو تقويل بامتياز، لأننا فى حالة كهذه نغفل المعانى الدقيقة للألفاظ، ويغرينا تشابهها حيث نصل إلى تشابه قسرى فى المضامين.

وربما كانت أمثلة العروى لكلمتى المخزن والجهاد أكثر توفيقا فى هذا السياق من غيرها، فكلمات مثل: دولة، حرية، سياسة، باعتبارها مرجعيات أبحاث ومثار جدال لا ينتهى قد تصلح أمثلة على سوء التفاهم هذا... المتولد على المسافة (المهملة) بين المعنى القاموسى الدقيق والمعنى التاريخى اللاحق، المكتسى بدلالات تطورية.

ولو شئت أن أضرب مثالا فى هذا المجال لقلت أن مفردة (التسوية) تختزل عشرات الأمثلة لترينا الفرق الهائل بين دلالاتها فى مراحل مختلفة.

فأهل التسوية هم الذين يسوون بين الأمم ولا يجعلون فضلا لأمة على أخرى ويمثلهم أكثر المتدينين من العلماء العرب والعجم لأن روح الإسلام وقواعده تؤيد هذا المذهب.

ولو قرأنا هذا الوصف لأهل التسوية حسب ما يورده أحمد أمين فى ضحى الإسلام لوجدنا أن فارقا كبيرا بينه وبين التسوية كمصطلح سياسى فى وقتنا هذا وإن أية مراجعة للكتب والمقالات التى عالجت الصراع العربى - الصهيونى والقضية الفلسطينية بعامة كانت تهدف باستخدامها كلمة التسوية إلى فهم مشترك هو التنازل عن حقوق عربية للعدو فهل يحق لقارئ الوثيقة المكتوبة أن يعامل كلمة التسوية كما وردت لدى مؤرخين إسلاميين بالمعنى نفسه الذى ترد فيه كتابات سياسية معاصرة!!؟ ■

هوامش

١ - محمد أركون - الفكر العربى - ت د. عادل العوا - منشورات عويدات بيروت ط١ ١٩٨٢ص٧ ومابعدها.

٢ - د. حسن صعب - تحديث العقل العربى - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٢ط٢ ص٨٨، والمقصود بجدلية أبى ذؤيب ما أشرنا إليه فى المقالة السابقة.

٣ - د. عبد الرحمن بدوى - دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى ط٣ ١٩٧٩-دار القلم - بيروت - ص

٤ - المصدر نفسه ص٢٨.

٥ - بليز باسكال - خواطر - ت ادوار البستانى - اللجنة اللبنانية - بيروت ١٩٧٢ ص٤١.

٦ - الازدواج الثقافى - محاولات إبراهيم منصور - دار الطليعة - بيروت ط١ - ١٩٨١ .

٧ - حسين مروة - عناوين جديدة لوجوه قديمة - الدار العالمية - بيروت ط١. ١٩٨٤ ص١٦٣ .

٨ - على حرب - مداخلات - دار الحداثة - بيروت ط١ ١٩٨٥ ص ٢١٦ .

Google™

مكتبة المكتبات!

جيســــــون إيشـــــــتاين

عاجلاً أم آجلاً سوف يصبح جوجل وأفاتاراته (تصاويره الممثلة لأشخاص) ليس فقط مكتبة المكتبات متعددة اللغات في العالم، بل متجراً عالمياً يقدم ملايين العناوين للقراء عبر العالم

إن الخلطة المتزايدة من الفن والعلم وما وراء الطبيعة والمعرفة التطبيقية والمعروضات والنميمة والمعلومات الخفيفة المخزنة إلكترونيا على الشبكة العنكبوتية العالمية تنحدر مباشرة من الثرثرة غير المفروزة التى تناقلتها الأفواه اعتباطياً ومن مكان إلى آخر والتى أرسى أسلافنا منها دعائم حكمة سلالتنا البشرية لآلاف السنين كانت هذه الثرثرة قد حفظت فى الذاكرة القبلية، فى لغات وثقافات طواها النسيان، حتى حملت ضرورات التجارة البازغة من حوالى ستة آلاف سنة. وهو حدث جديد فى المسيرة الطويلة لسلالة الإنسان العاقل. حملت على اختراع اللغة المكتوبة، وهى الشرط اللازم للعالم الموثق اليوم والذى يشمل الشبكة نفسها.

إن اختراع الذاكرة الإلكترونية أثناء الحرب العالمية الثانية واختراع الشبكة العنكبوتية العالمية من سبعة عشر عاماً مضت فحسب، بصفتها فى الأصل طريقة للعلماء للاتصال بالزملاء البعيدين، هو تطور أبعد. وربما النهائى. للانتقال الحاسم من ذاكرة جمعية معتمدة كثير الاعتماد على نظم تذكيرى إلى نقش نثرى على الطين والحجر والورق. بهذه الأدوات البدائية استطاع البشر أخيراً أن يسجلوا، بلغة عالية الجمال وعميقة الفهم، التراث الأدبى والحكمة المتراكمة أثناء عصرنا الطويل عصر ما قبل التاريخ. أما ما هى الانتصارات الأكبر للروح الإنسانية التى قد تتشكل من الشبكة العنكبوتية العالمية، إذا نجت سلالتنا من حماقتها الحالية، فهو شىء وراء التخيل.

فى ١٩٩٨ أنشأ طالبان خريجا جامعة ستانفورد، لارى بيدج وسيرجى ر. ن. جوجل دوت كوم، وهو محرك بحث يستخدم تقانة أفضل من التى وجدت من قبل لفهرسة واسترجاع المعلومات من العالم المتنوع الهائل للشبكة العنكبوتية العالمية ولتحديد مراتب مواقع الشبكة العنكبوتية التى تحتوى على هذه المعلومات وفقاً لصلتها بعمليات بحث معينة بناء على عدد الروابط من بقية الإنترنت لموقع ما.

وقد قام نظام مرتبة الصفحة هذا بتحويل الشبكة العنكبوتية من غايتها الأصلية بصفتها مصطبة للعلماء، ومن الثرثرة العشوائية سرعان ما أصبحت مورداً قابلاً للبحث يمد ببيانات حقائقية ذات مستويات متنوعة من الجودة لملايين المستخدمين. ومرة أخرى كانت ضرورات التجارة هى التى حولت جوجل نفسها من تقنية بحث عبقرية بدون خطة مشروع إلى مشروع ضخم الربحية يقدم تنويعة من خدمات تشمل البريد الإلكترونى والأخبار والفيديو والخرائط، ويقدم جهده الحالى والمكلف والبطولى كل البطولة، إن لم يكن كيشوتياً، لرقمنة محتويات النطاق العام «لمشاع» من الكتب والمقتنيات الأخرى للمكتبات العامة الكبرى. ولعل هذا البرنامج يوفر للمستخدمين، أينما وجدت وصلات الإنترنت فى العالم، نفاذاً إلى الملايين من عناوين الكتب، بينما يمكن المكتبات العامة نفسها من خدمة ملايين المستخدمين بدون إضافة شبر واحد من مساحات الأرفف أو تحمل بنس واحد من تكلفة التوصيل.

إن ناشرى الكتب وأصحاب حقوق المادة الآخرين، وقد دفعتهم مبادرة جوجل والتكاليف المنخفضة والأرباح المرتفعة والانتشار الهائل للتوزيع الرقمى بدون وسيط، لابد فى النهاية أن يتغلبوا على تباطئهم التاريخى ويوافقوا، مثل ناشرى الموسيقى، على تسويق عناوين الكتب التى يملكون حقوقها فى شكل رقمى إما لتقرأ على الخط أو على الأرجح لتطبع عند الطلب عند مرحلة البيع، وفى كلتا الحالتين مقابل رسوم تساوى التكاليف والأرباح العادية للناشرين وحقوق المؤلفين التعاقدية. وهكذا لأول مرة فى تاريخ الإنسانية هناك إمكانية بأن كل كتاب طبع على الإطلاق بأية لغة سوف يكون متاحاً لكل إنسان على الأرض لديه نفاذ إلى الإنترنت.

ليست الثورة التى قامت بها جوجل موضع ترحيب من الجميع. يتخوف جان .نويل جانينى، مدير ببليوتيك ناسيونال (المكتبة الوطنية) فى كتاب جوجل وأسطورة المعرفة العالمية من أن المكتبات العامة الوطنية بما فيها مكتبته هو سوف تعانى فى ظل هيمنة جوجل العالمية، ولكن لا شىء يمنع المكتبة الوطنية ونظيراتها من رقمنة مجموعاتها الخاصة أو السماح لجوجل بعمل ذلك من أجلها مثلما فعلت المكتبة البودلية بأكسفورد. وقد زاد كرس أندرسن محرر مجلة وايرد على مقاله المؤثر «الذيل الطويل» ليكون كتاباً من الأفضل مبيعاً يبين فيه أن «مساحة الأرفف» الفسيحة الخاصة بالشبكة العنكبوتية تسمح بمحتوى رقمى لا حدود له عملياً يخلق تنوعه طلباً غير متوقع حتى الآن على المصنفات المجهولة نسبياً أو المتخصصة فى سوق غير متجانسة تتجاوز جملة جمهوره باهتماماته متعددة الأشكال جمهور المصنفات الأفضل مبيعاً بكثير، والذى تعكس هيمنته الحالية البنية شديدة المركزية لتجارة التجزئة اليوم والمعتمدة على الدوران السريع للمصنفات المتشابهة تشابهاً كبيراً.

لقد تجلت اللامركزية الجذرية للسوق الرقمية فعلياً فى صناعة الموسيقى وتوحى الشواهد المبدئية بأن اختياراً أكبر سوف يخلق بالمثل، كما يتنبأ

Google and the Myth of Universal Knowledge: A View from Europe
(جوجل وأسطورة المعرفة العالمية: وجهة نظر من أوروبا)
by: Jean - Noel Jeanneney, translated from the French by Teresa Lavender Fagan

The Search: How Google and Its Rivals Rewrote the Rules of Business and Transformed Our Culture
(البحث: كيف أعادت جوجل ومنافسوها كتابة قواعد مجال العمل وحولوا ثقافتنا)
by: John Battelle

The Long Tail: Why the Future of Business is Selling Less of More
(الذيل الطويل: لماذا ستكون التجارة فى المستقبل هى بيع «كميات» أقل من «أصناف» أكثر)
by: Chris Anderson

Libraries and Google
(المكتبات العامة وجوجل)
edited by: William Miller and Rita M. Pellen

The Goolge Story: Inside the Hottest Business, Midia, and Technology Success of Our Time
(قصة جوجل: داخل أنشط تجارة ووسيلة إعلامية وتقنية ناجحة فى زمننا)
by: David A. Visa and Mark Malseed

بترتيب مع:
The New York Review of Books
ترجمة: محمد فتحى كلفت

لأول مرة هناك إمكانية بأن كل كتاب سوف يكون متاحاً لكل إنسان لديه نفاذ إلى الإنترنت

Books@google



كرس أندرسن، طلباً أكبر على نطاق واسع من الكتب. ومثال جلى على ذلك هو كتب بالإسبانية سوف تخدم ٤٠ مليون إسبانى يعيشون الآن فى الولايات المتحدة ويتلقون خدمات هزيلة من تجار تجزئة يشح وجودهم. ووفقاً لمارك ساندلر من جامعة ميتشجن، فى مقال له بكتاب المكتبات العامة وجوجل، فإن تجربة أجرتها مكتبة جامعة ميتشجن تشمل رقمنة ١٠٠٠٠ من الكتب المتخصصة «قليلة الاستخدام» مع عرضها على الشبكة العنكبوتية نتج عنها «ما بين ٥٠٠٠٠٠ ومليون كدخول فى الشهر، وفيما مضى، كانت هذه الأعمال متاحة الوصول»، كما يكتب ساندلر، لشريحة أساسية من ٤٠٠٠٠ طالب وعضو هيئة تدريس فقط. أى حوالى أربعة قراء لكل كتاب ضمن المشروع. وعندما أتيح الوصول لنسخ إلكترونية من هذه الأعمال أمام العالم بأسره، فجأة أصبح القراء ٤٠٠٠٠٠: ١. أضاف إلى ذلك إلى أى مدى يتجاوز النفاذ للشبكة عوائق التوصيل المادى - اطلب كتاباً (لا تراه بعينك) من المخزن، انتظر ٢٤ ساعة للتوصيل، احضر بنفسك إلى المكتبة لتشتريه، إلخ. فإلكترونياً، نحن نتحدث عن إشباع فورى لاحتياج من أرقى الاحتياجات. هذا حلم بخدمة أصبح حقيقة بالنسبة للمكتبات ولرواد المكتبات، خاصة لهؤلاء الذين ليس لديهم نفاذ مباشر إلى مجموعة كبرى من مجموعات أبحاث المكتبات.

لذا، فإن الخوف من احتكار عالمى من قبل جوجل قد يكون بلا أساس، حيث يضيف المنافسون جزئيات متخصصة إلى ذيل جوجل نفسها الطويل والآخذ فى الاستطالة.

لم يكن جوجل محرك البحث الأول الذى يغربل محتويات الشبكة ولكن أصبح ابتكاره بيدج رانك (مرتبة الصفحة) الطريقة الأكثر شعبية لترتيب مواقع الشبكة العنكبوتية عن موضوع ما وفقاً لصلتها المحتملة بعمليات بحث معينة. ولم يكن مبتكرو جوجل أيضاً هم أول من يدرك التورطات التجارية لتقنية تأتى بملايين الباحثين إلى موضوعات بعينها، وهكذا ترشد المستهلكين الذين يخدمون أنفسهم بأنفسهم إلى نطاق واسع من البضائع والخدمات؛ لكن تقانة جوجل الفريدة توفر الوسائل الأكثر فاعلية لمجاورة الإعلانات مع نتائج البحث الملائمة. إن مئات الآلاف من المعلنين، أغلبهم مشاريع تجارية صغيرة، يطرحون عطاءاتهم فى مزاد لوضعهم ملاصقين لمواقع الشبكة العنكبوتية محل اهتمام زبائنهم المحتملين، يدفعون الآن لجوجل عن كل مرة ينقر فيها أحد الباحثين ليصل إلى موقعهم، مما يجعل جوجل واحدة من أغنى الشركات فى العالم، فهى عملياً دليل تفاعلى ذو تنوع لا نهائى يخدم سوقاً عالمية ممقرطة جذرياً.

إن الهدف الذى ينسبه مؤسسو جوجل المثاليون لأنفسهم هو العمل الصالح، والذى ينعكس فى الشعار غير الرسمى للشركة، «لا تكن شريراً». والمواجهة بين مؤسسين لا يتمنون إلا فعل الخير وبين الواقع المعقد لإنجازهم التجارى المدهش هى قضية لها بعد كتابى يستدعى إلى الذاكرة طرد آبائنا الأولين، عاريين ومرتعشين، من جنة عدن ما قبل الخطيئة إلى عالم فيه الاختيار إجبارى والخطأ محتوم، بركة وحملاً عليهما وما أسماه (جون) ملتون، بمشاعر متضاربة، بذرتهما المنحوسة.

لم تثبت براءة جوجل فى مواجهتها المعروفة مع حكومة الصين، والتى طالبت فى يناير (٢٠٠٦) بأن تلغى من بحث جوجل وخدماته الإخبارية مواقع محددة هجومية سياسياً، وهو ما وافقت عليه جوجل. ووضح مسئولو الاتصالات فى جوجل: «بحساب كل النواحى، نحن نؤمن بأنه أن تكون لديه خدمة تعمل روابطها ويُحذف منها عدد لا يذكر أفضل من أن تكون لدينا خدمة غير متاحة على الإطلاق. كانت بيعة خاسرة يصعب علينا القيام بها، ولكنها بيعة أحسسنا أنها تخدم فى نهاية الأمر المصالح العليا لمستخدمينا الموجودين فى الصين». إن جوجل شركة عامة مسئولة نحو حمَلة أسهمها وتتحداها ياهو وميكروسوفت ومنافسون أقوياء آخرون تلزم العهود الإيمانية لشركاتهم الصمت حيال مسألة الخير والشر. وبالنسبة لجوجل ومنافسيها تعتبر الصين سوقاً لا يمكن الاستغناء عنها. وكون «بيعة» جوجل «الخاسرة» تخدم فى نهاية الأمر «مستخدميها»، فهذا فى أفضل الأحوال نصف حقيقة بما أنها تخدم فعلياً الرقباء الصينيين لما ليس فى مصلحة مستخدميها. نصف حقيقة مشابهة هى الكلام عن «عدد لا يذكر» من المواقع المحذوفة، بينما الحقيقة الكاملة هى أنه فقط المواقع المعترض عليها لدى حكومة الصين حذفت[1]. مرحبا إذن فى العالم الحقيقى حيث سياسة جوجل للخصوصية هى إفراز آخر لمراوغات المحامين.

ريما تتم المشاركة بمعلوماتك الخاصة.. (إذا) انتهينا إلى أن القانون يلزمنا بحماية، أو (اعتقدنا) أن النفاذ لهذه المعلومات أو الحفاظ عليها أو كشفها ضرورى بشكل معقول لحماية حقوق جوجل أو مستخدميه أو عموم الناس أو ملكياتهم أو أمانهم.

«بعبارة أخرى» كما يكتب جون باتل، مؤلف كتاب البحث، وهو تناول غنى بالمعلومات ومتحمس، ولكنه ليس خالياً من النقد، لإنجاز جوجل الاستثنائى، «إذا قررت جوجل أن تتبع معلوماتك الخاصة واتخاذ اللازم يصب فى مصلحتها العليا، فإنها تستطيع ذلك وسوف تفعله».

إن سياسة الخصوصية والتصريحات المتعلقة بالصين هما ازدواجية شركات نموذجية ليست شريرة بقدر ما هى متدنية بالمعايير المترفعة لطالبين خريجى جامعة ستانفورد وضعا شعار شركتهما قبل أن يجدا نفسيهما غائصين للركب فى وحل العالم الحقيقى.

ومواجهة جوجل مع القوانين المعقدة لحقوق المادة هى حالة أكثر إثارة للاهتمام تنطوى على تناقض محدث داخل القانون خلقته تقانة الرقمنة. يسمح قانون حقوق المادة بما يسمى «الاستخدام الرشيد» أى حق نسخ الاقتباسات القصيرة من الأعمال المحمية بشكل غير مدفوع، على سبيل المثال فى المراجعات النقدية والمقالات الدراسية. وقبل الرقمنة كانت هذه مسألة تنحصر فى مجرد إيجاد الاقتباس المرغوب فى نص مطبوع ونسخه مع إسناده إلى العمل الخاص بشخص ما. أما أن توفر جوجل هذه الفرصة لمستخدميها، فعليها أولاً رقمنة النص بأكمله، وهو ما ينتهك الشرط المنصوص عليه فى قانون حقوق المادة والذى يمنع نسخ ما يزيد على قطعة صغيرة. سوف يستمر محامو جوجل والناشرون فى أخذ رد عقائدى فى هذا الصراع حتى يقرر ناشرو الكتب أن يدخلوا العالم الرقمى لمصلحة الجميع والتى تشمل مصلحتهم الخاصة ومصلحة مؤلفيهم. سوف تكون القضية بعد ذلك محل نظر. وفى غضون ذلك يراوغ المحامون ويحصلون أتعابهم.

ووفقًا لديفيد فايز فى كتابه قصة جوجل، وهو تأريخ ممتاز يوضح جنبًا إلى جنب مع كتاب البحث لباتل، فإن فكرة بحث الكتب على جوجل خطرت للارى بيدج، الشريك فى تأسيس جوجل، عندما كان لايزال مرشحًا للدكتوراة فى ستانفورد وتذكر معاناته طالبًا فى المدرسة الثانوية فى العثور على أدلة الاستعمال التى كان يحتاجها لتجميع الإلكترونيات. وقد واجه فى الدراسات العليا شكلاً أكثر حدة للمشكلة. «الأن وفى هذه اللحظة»، كما يقال، «من الصعب حقًا للدارسين أن يعملوا خارج نطاق خبرتهم بسبب القيود المادية للمكتبات». ما كان يتصوره هو نظام إعارة إلكترونى للمكتبات تعير فيه المكتبات بعضها البعض العناوين بشكل رقمى بدلاً من شحن نسخ ورقية. ومن هذا التفكير الأريب نما بحث الكتب عن جوجل ملتزمًا برقمنة ما يصل إلى ٢٠ مليون من عناوين المشاع من مجموعات المكتبات الكبرى ويتحدى ناشرى الأعمال المحمية عن طريق نسخ ملكيات مؤلفيهم للسماح بالاقتباسات المباحة. أما كيف ستجنى الأموال من هذا المشروع الضخم فهذا ما يبقى غير واضح ولعلها قد كانت مسألة غير ذات بال عند بيدج المتحلى بروح الجماعة عندما تخيل الأمر، ولكن عاجلاً أم آجلاً سوف يصبح جوجل وأفاتاراته (تصاويره الممثلة لأشخاص) ليس فقط مكتبة المكتبات متعددة اللغات فى العالم، بل متجرًا عالميًا يقدم ملايين العناوين للقراء عبر العالم وسوف يتحول ذلك فيما بعد إلى أموال، مما يطرح الاحتمال النظرى الذى مفاده أن كل كتاب طبع على الإطلاق بأية لغة ربما يتم النفاذ إليه بالفعل من أى مكان توجد فيه وصلات الإنترنت.

ويبدو أن التصور الأصلى لبيدج بخصوص بحث الكتب على جوجل كان أن الكتب، مثل أدلة الاستعمال التى كان يحتاجها فى المدرسة الثانوية، مناجم معلومات يمكن للمستخدمين أن يبحثوا فيها كما يبحثون فى الشبكة العنكبوتية. ولكن أغلب الكتب، على عكس أدلة الاستعمال والقواميس والتقاويم وكتب الوصفات والدوريات العلمية وبرشامات الترجمة الخاصة بالطلبة، وهلم جرا، لا يمكن تمثيلها تمثيلاً كافيًا بجوجلة موضوعات من قبيل أخيل/ الغضب، أو عطيل/ الغيرة، أو آهاب/ الحيتان. فالإلياذة، ومسرحيات شيكسبير، ورواية موبى دك هى نفسها معلومات القراءة والتأمل بنصها الكامل. وبينما تتأقلم الرقمنة وذيلها الطويل على سنن الطبيعة البشرية، فسوف يعالج هذا المفهوم الخاطئ نفسه كما سيفعل الخطأ المتعلق به والذى مفاده أن الكتب المنقولة إلكترونيًا سوف تقرأ بالضرورة على أجهزة إلكترونية. فقط أولئك الذين لم يقرأوا الإلياذة أو موبى دك أو المنزل الكئيب أو طريق سوان أو أصل الأنواع، سوف يراودهم هذا الشىء بعيد الاحتمال. وحتى يتطور البشر أنفسهم كمستقبلات إلكترونية، سوف يختار القراء مثل هذه الكتب ـ تجسيد الحضارات ـ كملفات من الشبكة العنكبوتية العالمية، والتى منها إما سوف تنقل إلى حاسوب شخصى وتطبع ـ وهو إجراء عويص ينتج عنه كومة من الورق المفكك ـ أو، على نحو أكثر إرضاء، إلى ماكينة قريبة ليست أكبر من ماكينة صرف آلى والتى سوف تطبع وتجلد وتهذب آليًا الكتب المطلوبة عند الطلب والتى لا يمكن تمييزها عن الكتب المجهزة فى المصنع، لتقرأ كما قرئت الكتب لقرون مضت.

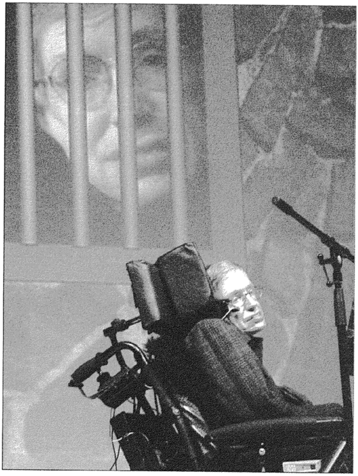
وفى هذه الأثناء تكون جوجل قد قلبت، مع مشروع جوتنبرج وتحالف المحتوى المفتوح وبرامج عمل مشابهة، صفحة جديدة فى تاريخ الحضارات، تاركة لنا صلاحية وعبء استكمال القصة. وكجزء من هذا المجهود، فقد ركبت أون ديماند بوكس، وهى شركة لى فيها حصة، قطعة تجريبية من ماكينة كالتى وصفتها لتوى، فى متجر الكتب بالبنك الدولى بواشنطن العاصمة، ماكينة تستقبل ملفًا رقميًا وتطبع وتجلد آليًا عند الطلب نسخة خفيفة الغلاف وبجودة المكتبات وبتكلفة منخفضة، فى غضون دقائق وبأقل تدخل بشرى. ماكينة صرف آلى للكتب.

ولقد أرسلت ماكينة تجريبية ثانية إلى مكتبة الإسكندرية بمصر وسوف تطبع قريبًا الكتب باللغة العربية، وسوف تُركب قطعة أحدث لاحقًا هذا العام (٢٠٠٦) أو فى أوائل العام القادم (٢٠٠٧) فى مكتبة نيويورك العامة[٢]. ■

هـــــــوامـــــــش:

(١) رفضت ويكيبديا، على عكس جوجل وياهو وميكروسوفت، تقييد محتواها، وقد كانت ممنوعة طيلة العام الماضى فى الصين.

(٢) انظر جيسون إيشتاين، «مستقبل الكتب»، تكنولوجى ريفيو، يناير ٢٠٠٥.



عَالم نيوتن!

"ستيفن هوكنج أحد أشهر وأعظم العلماء في النصف الثاني من القرن العشرين. أعاد إصدار أشهر كتبه «تاريخ موجز للزمن» تحت عنوان «التاريخ الأوجز للزمن» ويتناول هذا الكتاب أكثر الأمور تطورًا وتقدمًا في علوم الفيزياء والكون بلغة سهلة ومفهومة. وظل الكتاب على قائمة «الصنداي تايمز» للكتب الأكثر مبيعًا لمدة ٢٣٧ أسبوعًا.

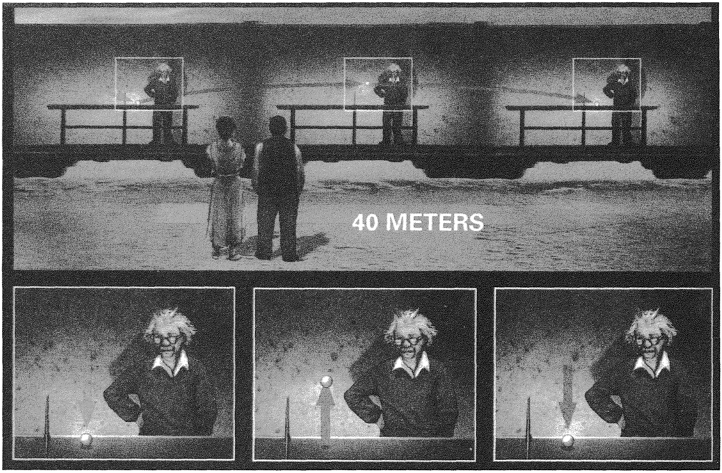
هوكنج عالم فيزيائي إنجليزي ولد عام ١٩٤٢. اشتهر بسبب نظريته حول الثقوب السوداء. ويركز أبحاثه حول الفضاء والكون وتطوير نظرية النسبية. ويعاني هوكنج من مرض في الأعصاب سبب له شللاً في جميع الوظائف المرتبطة بالعضلات، مما اضطره لاستخدام كمبيوتر ناطق في عمله."

المحـــــرر

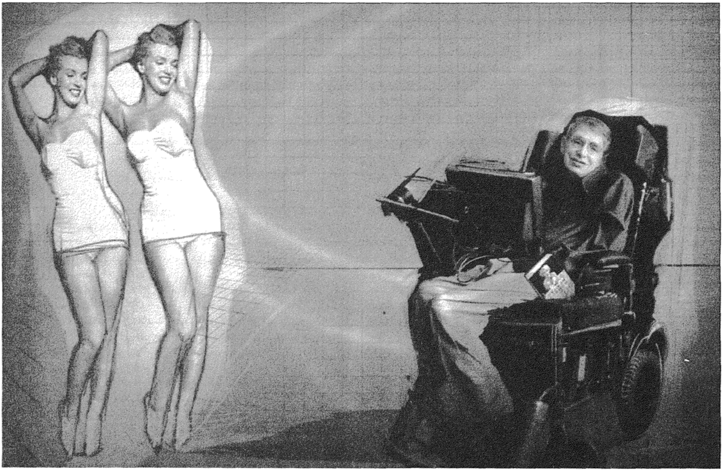
■■ ترجع أفكارنا الحالية عن حركة الأجسام إلى جاليليو ونيوتن. فقد كان الناس من قبلهم يصدقون أرسطو الذي قال إن الحالة الطبيعية للأجسام هي السكون، ولا تتحرك إلا تحت تأثير قوة أو دفعة. وتبعاً لذلك فإن الجسم الأثقل سيسقط بسرعة أكبر من الجسم الأخف لأن الأول ستمارس عليه قوة جذب أكبر تجاه الأرض. ومن التقاليد الأرسطية كذلك أن الإنسان يستطيع التوصل إلى جميع القوانين التي تحكم العالم بالفكر المطلق فقط، وليس من الضروري إثبات ذلك عملياً بالمشاهدة. وهكذا لم يهتم أحد قبل جاليليو بمراقبة ما إذا كانت الأجسام ذات الأوزان المختلفة تسقط بسرعات مختلفة. ويقال إن جاليليو قد أثبت خطأ نظرية أرسطو وذلك بإسقاط أجسام ذات أوزان مختلفة من برج بيزا المائل بإيطاليا. وهي قصة على الأغلب غير حقيقية، ولكن جاليليو قام بعمل شبيه بذلك: فقد وضع بعض الكرات مختلفة الأوزان على سطح أملس مائل. والوضع هنا مماثل للسقوط الرأسي للأجسام مختلفة الأوزان، لكن من الأسهل متابعة انحدار الكرات على السطح المائل حيث أن السرعة هنا أبطأ. وقد بينت قياسات جاليليو أن كل جسم يزيد من سرعته بنفس المعدل بصرف النظر عن وزنه. فمثلاً إذا تركت كرة تنحدر على سطح مائل بسرعة تزيد متراً كل عشرة أمتار، فإن الكرة ستقطع مسافة السطح المائل بسرعة متر واحد في الثانية أثناء الثانية الأولى ومترين في الثانية بعد ثانيتين وهكذا بصرف النظر عن وزن الكرة. ومن الطبيعي أن تنحدر كرة من الرصاص بسرعة أكبر من الريش وذلك لأن الريش يعاني مقاومة الهواء لحركته (تباطؤ). فإذا أسقطنا جسمين لا يتأثران بمقاومة الهواء مثل كرتين مختلفتي الوزن من الرصاص، فإنهما ستسقطان بنفس المعدل. (وسنرى السبب لاحقاً). وعلى القمر حيث لا يوجد هواء ليبطئ من معدل سقوط الأشياء، قام رائد الفضاء ديفيد سكوت David Scott بتجربة الريش والرصاص فوجد بالفعل أن كليهما يصل إلى الأرض في نفس اللحظة.

وقد استخدم نيوتن قياسات جاليليو أساساً لقوانينه عن الحركة. وفي تجارب جاليليو كان الجسم ينحدر تحت تأثير القوة نفسها على السطح المائل (تأثير وزنه)، أما نتيجة ذلك فكانت تسارع الجسم باستمرار. وقد أثبت ذلك أن التأثير الحقيقي للقوى هو دائماً تغيير سرعة

من كتاب:
BRIEFER HISTORY OF TIME A
(التاريخ الأوجز للزمن)
STEPHEN HAWKING
With Leonard Mlodinow
New York, BANTAM, 2005
تصدر ترجمته العربية عن دار العين للنشر
ترجمة: أحمد عبدالله السماحي وفتح الله الشيخ

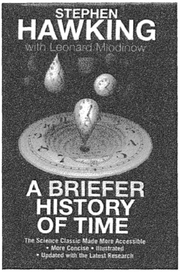


قوة الجاذبية للأجسام المركبة.. إذا تضاعفت كتلة الجسم تتضاعف قوة الجاذبية التى يمارسها



عالم نيوتن!

ستيفن هوكنج



الجسم، وليس مجرد دفعه إلى الحركة، كما كان يعتقد الناس فى السابق. ويعنى ذلك أيضاً أنه عندما لا تؤثر أى قوة على الجسم فإنه سيحتفظ بحركته فى خط مستقيم وبالسرعة نفسها. وقد وردت هذه الفكرة لأول مرة بوضوح تام سنة ١٦٨٧ فى كتاب نيوتن الأشهر «المبادئ الرياضية» (Principia Mathematica) وهو ما أصبح يعرف بالقانون الأول لنيوتن. أما ما يحدث للجسم عندما تؤثر عليه قوة ما فيفسره القانون الثانى لنيوتن. وينص هذا القانون على أن الجسم يغير من سرعته (يتسارع) بمعدل يتناسب مع القوة التى تؤثر عليه. (فمثلاً يتضاعف التسارع كلما تضاعفت القوة المؤثرة) وكذلك يقل التسارع كلما قلت كتلة الجسم (كمية المادة فى الجسم). وتقدم لنا السيارة مثالاً مألوفاً: فكلما زادت قوة المحرك زاد التسارع، لكن لو كانت السيارة أثقل فسيقل التسارع إذا استخدمنا المحرك نفسه.

وبالإضافة إلى قوانين نيوتن عن الحركة التى تصف كيفية تفاعل الأجسام مع القوة التى تؤثر فيها، فإن نظرية نيوتن للجاذبية توضح كيفية تعيين نوع معين من القوى، وهى قوى الجاذبية. وكما سبق أن ذكرنا، تنص هذه النظرية على أن كل جسم يتجاذب مع كل جسم آخر بقوة تتناسب مع كتلة كل جسم منهما. وبذلك تتضاعف قوة التجاذب بين جسمين إذا تضاعفت كتلة أحدهما (وليكن الجسم أ). وهو ما يمكن توقعه لو فكرنا أن الجسم الجديد أ مكون من جسمين لكل منهما الكتلة الأصلية قبل مضاعفتها. وسيتجاذب كل من هذين الجسمين مع الجسم «ب» بالقوة الأصلية نفسها. وهكذا تصبح قوة التجاذب الكلية بين أ و ب ضعف القوة الأصلية. وإذا تضاعفت كتلة الجسم الآخر مرتين فإن قوة التجاذب الكلية بينهما ستتضاعف ست مرات.

وهكذا يمكننا أن ندرك لماذا تسقط جميع الأجسام بالمعدل نفسه. فوفقاً لقانون نيوتن عن الجاذبية فإن جسماً له ضعف كتلة جسم آخر سيجعل قوة الجاذبية تتضاعف وحيث أن كتلة الجسم قد تضاعفت فإن قانون نيوتن الثانى يؤدى إلى اختزال التسارع إلى النصف بالنسبة لكل وحدة من القوى. وتبعاً لقوانين نيوتن فإن هذين التأثيرين سيلاشى كل منهما الآخر تماماً، مما يعنى أن التسارع سيظل هو نفسه دون النظر لتغيير الوزن.

هل يهم حقيقة ما إذا كان أرسطو أم نيوتن هو الذى على صواب؟ وهل الفرق بينهما اختلاف فى الشكل أم فى الفلسفة؟ أم هو موضوع هام للعلوم؟

وينبئنا قانون الجاذبية لنيوتن كذلك أنه كلما تباعدت الأجسام تقل قوى التجاذب بينها. وينص القانون على أن قوة تجاذب أحد النجوم هى بالضبط ربع قوة تجاذب قوة نجم آخر على بعد مساو لنصف مسافة النجم الأول. ويتنبأ هذا القانون بمدارات الأرض والقمر والكواكب بدقة عظيمة. ولو كان هذا القانون ينص على أن قوة جاذبية النجم تنخفض أسرع أو أبطأ مما هى عليه بالنسبة للمسافة، لما كانت مدارات الكواكب بيضاوية، بل لهوت الكواكب فى مسار حلزونى نحو الشمس أو أفلتت منها إلى الفضاء.

ويكمن الاختلاف الكبير بين أفكار أرسطو وأفكار جاليليو ونيوتن فى اعتقاد أرسطو أن حالة السكون لأى جسم هى الحالة المفضلة إذا لم تدفعه قوة ما. وبالتحديد لأنه كان يعتقد أن الأرض فى حالة سكون. لكن تبعاً لقوانين نيوتن فإنه لا توجد حالة سكون قياسية متفردة. ويمكن القول أن جسماً ما أ فى حالة سكون بينما الجسم ب هو الذى يتحرك بسرعة ثابتة، أو العكس: الجسم الساكن هو ب بينما يتحرك الجسم أ

المراوغ

لم يكن اسحق نيوتن رجلاً سوياً. فقد كانت علاقته بالأكاديميين الآخرين غير طيبة. وقد أمضى سنواته الأخيرة غارقاً فى نزاعات ساخنة. وبعد ظهور كتابه «المبادئ الرياضية» Principia Mathematica، الذى يعد بالتأكيد أهم الكتب على الإطلاق فى عالم الفيزياء، ذاع صيت نيوتن بشكل بارز. عين بعد ذلك نيوتن رئيساً للجمعية الملكية وأصبح أول عالم يحمل لقب فارس.

سرعان ما اصطدم نيوتن بالفلكى الملكى جون فلامستيد John Flamsteed الذى كان قد مده بكثير من البيانات التى احتاجها نيوتن قبل نشر كتاب «المبادئ الرياضية». وقد حدث هذا الاصطدام لأن فلامستيد امتنع عن إعطائه معلومات أخرى كان يحتاجها نيوتن. كان نيوتن لا يسمح بأن يقال له لا، فقام بتعيين نفسه فى مجلس إدارة المرصد الملكى وحاول أن يرغم فور ذلك فلامستيد بنشر تلك البيانات. رتب نيوتن للاستيلاء على تلك المعلومات، وجهز لينشرها على يد العدو اللدود لفلامستيد وهو إدموند هالى Edmond Halley. غير أن فلامستيد قام بعرض قضيته على المحكمة وحصل على حكم يمنع نشر هذه المعلومات المسروقة قبل نشرها بفترة وجيزة. أثار هذا الأمر حمق نيوتن، ولكى ينتقم من فلامستيد حذف كل ما يشير إليه فى الطبعات التالية لكتاب «المبادئ الرياضية».

والجدل الأكثر شدة كان مع الفيلسوف الألمانى جوتفريد لايبنز Gottfried Leibniz. كان كل من لايبنز ونيوتن بمفرده، وبعيداً عن الآخر، قد طور فرعاً من الرياضيات أطلقوا عليه علم التفاضل والتكامل، والذى بنيت عليه معظم الفيزياء الحديثة. وبالرغم من أننا نعرف أن نيوتن قد اكتشف هذا العلم قبل لايبنز بسنوات إلا أنه لم ينشر أبحاثه إلا مؤخراً. وأصبح الجدل الكبير حول من توصل أولاً إلى هذا العلم من أسباب انقسام العلماء على فريقين يؤيد كل منهما أحد الاثنين. والأمر الجدير بالملاحظة أن معظم المقالات التى كتبت دفاعاً عن نيوتن كانت فى الأصل مكتوبة بخط يده ولكن بأسماء أصدقاء له! وعندما احتدمت المعركة ارتكب لايبنز خطأ بأن رفع الأمر للجمعية الملكية. وعليه فقد عين نيوتن نفسه بصفته رئيساً للجمعية - لجنة «غير منحازة» لفحص الأمر، وكانت اللجنة بالصدفة مكونة كلها من أصدقائه! ولم يكن ذلك هو ما فعله نيوتن فقط، بل إنه قام بنفسه بكتابة تقرير اللجنة ونشره رسمياً بواسطة الجمعية الملكية التى اتهمت لايبنز رسمياً بالتزوير. ولم يكتف نيوتن بذلك بل نشر تعليقاً (تحت اسم مستعار) على هذا التقرير فى دوريته الخاصتين بالجمعية الملكية. وقد كتب نيوتن بعد وفاة لايبنز أنه كان فى غاية السعادة لأنه «حطم قلب لايبنز».

كان نيوتن أثناء معركتيه السابقتين قد ترك كمبريدج والأكاديمية وأصبح نشطاً فى العمل بالسياسة فى مناهضة الكاثوليكية ببلده كمبريدج ثم بعد ذلك بالبرلمان مما جعله يحصل على مكافأة فى شكل وظيفة مريحة هى مدير صك النقود الملكى. وهنا استخدم نيوتن مقدرته الفائقة فى المراوغة واللوع القاسى فى مواقف أكثر قبولاً اجتماعياً، حيث قاد بنجاح عملية ضبط كبيرة لتزوير النقود، والتى أرسل بناء عليها الكثير من الرجال إلى حتفهم بالموت شنقاً.

بسرعة ثابتة. فمثلاً إذا نحينا جانباً دوران الأرض ومدارها حول الشمس، فمن الممكن القول أن الأرض فى حالة سكون وأن قطاراً يتجه شمالاً بسرعة ٩٠ ميلاً فى الساعة. أو يمكن القول أن القطار ساكن والأرض هى التى تتحرك جنوباً بسرعة ٩٠ ميلاً فى الساعة. وإذا أجرينا تجاربنا على أجسام تتحرك على متن القطار فإن قوانين نيوتن تظل سارية. فمن هو الذى على صواب نيوتن أم أرسطو؟ وكيف نتوصل إلى ذلك؟

ولنتصور الاختبار الآتى: تخيل نفسك محبوساً فى صندوق ولا تعلم ما إذا كان هذا الصندوق مستقراً على متن قطار متحرك أو على الأرض الثابتة. ووضع الصندوق على الأرض الثابتة هو حالة السكون القياسية عند أرسطو، فهل هناك طريقة لتحديد وضع الصندوق؟ إذا أمكننا ذلك فسيكون أرسطو على صواب وأن حالة السكون على الأرض هى حالة خاصة. فإذا أجرينا تجاربنا داخل الصندوق وهو على متن القطار فإنها ستؤدى إلى النتائج نفسها كما لو كان الصندوق على رصيف القطار «الساكن» (إذا افترضنا عدم وجود أى عوائق أو استدارات فى حركة القطار). وستجد أن لعب تنس الطاولة على القطار له نفس سلوك لعب تنس الطاولة فى ملعب ساكن. وإذا كنت داخل الصندوق وتؤدى نفس اللعبة فى قطار يسير بسرعات مختلفة بالنسبة للأرض (وكل سرعة ثابتة) مثلاً صفر و٥٠ و٩٠ ميلاً فى الساعة فإن حركة الكرة لن تتغير وستظل كما هى فى كل الأحوال. وهذا هو سلوك العالم الذى تعكسه قوانين نيوتن: لا توجد طريقة يمكن أن تعرف بها ما إذا كان القطار هو الذى يتحرك أم الأرض. ولا يصبح مفهوم الحركة واضحاً إلا مقارنة بأجسام أخرى.

فهل يهم حقيقة ما إذا كان أرسطو أم نيوتن هو الذى على صواب؟ وهل الفرق بينهما اختلاف فى الشكل أم فى الفلسفة؟ أم هو موضوع هام للعلوم؟ فى الواقع هناك تطبيقات قوية مؤكدة لعدم وجود حالة سكون قياسية مطلقة فى الفيزياء؛ ويعنى ذلك أننا لا نستطيع تحديد ما إذا كان حدثان قد وقعا فى زمانين مختلفين فى نفس المكان فى الفضاء.

ولنتصور ما يلى: نفترض أن شخصاً ما على متن قطار يقذف بكرة تنس الطاولة إلى أعلى عمودياً على الطاولة بحيث تسقط فى نفس النقطة كل ثانية. وبالنسبة لهذا الشخص لا يتغير موقع الصدمة الثانية عن الأولى ولا يفصل بين الموقعين أى مسافة. أما بالنسبة لشخص يقف خارج القطار فإن الصدمتين سيفصل بينهما أربعون متراً تقريباً حيث سيكون القطار قد قطع هذه المسافة فى الفترة بين الصدمتين. ووفقاً لنيوتن فإن كلا من المشاهدين لهما نفس الحق فى اعتبار أنفسهما فى حالة سكون، ولذا فإن وجهتى نظرهما مقبولتان، ولا تفضل إحداهما الأخرى كما كان يعتقد أرسطو. وسيختلف موقع الأحداث والمسافة بينها بالنسبة لشخص على القطار وآخر على الرصيف، ولا يجب أن يكون هناك سبب لتفضيل أحدهما على الآخر.

كان نيوتن منزعجاً جداً لغيبة الموقع المطلق أو الفضاء المطلق، كما كان يسمى من قبل، لأن ذلك لم يكن يتفق مع فكرته عن وجود رب مطلق. وفى الحقيقة رفض نيوتن تقبل عدم وجود الفضاء المطلق، حتى وإن كانت قوانينه تتضمن ذلك. وقد تعرض نيوتن لنقد شديد من كثير من الناس نتيجة لهذا الاعتقاد اللامنطقى. وكان أكثرهم نقداً له الأب بيركلى الفيلسوف الذى كان يعتقد أن كل الأجسام المادية والمكان والزمان هى مجرد خداع. وعندما سمع الدكتور جونسون الشهير برأى بيركلى صاح «إننى أرفضه مثل هذا» وضرب بقدمه صخرة كبيرة.

كان كل من أرسطو ونيوتن يعتقدان فى الزمن المطلق. ويعنى ذلك أنهما كانا يعتقدان أن أى شخص يمكن أن يعين الفترة الزمنية بين حدثين بدون أى مشاكل، وستكون هذه الفترة هى نفسها بصرف النظر عن الشخص الذى يرصدها، بشرط أن يستخدم الشخص ساعة دقيقة. وعلى عكس الفضاء المطلق فإن الزمن المطلق كان يتسق مع قوانين نيوتن. وهو نفسه ما يعتبره معظم الناس فكرة مقبولة. إلا أنه خلال القرن العشرين أيقن الفيزيائيون أن عليهم أن يغيروا من أفكارهم حول الزمان والمكان. وكما سنرى، فقد اكتشفوا أن طول الزمن بين حادثتين مثل المسافة بين النقطتين التى ترتد بينهما كرة تنس الطاولة، أمر يتوقف على المشاهد. وقد اكتشفوا كذلك أن الزمن ليس منفصلاً ولا مستقلاً تماماً عن المكان. وكان مفتاح هذه العلاقة هو النظرة الجديدة لخواص الضوء. وقد تبدو هذه الأفكار على النقيض من خبرتنا، لكن ومع أن قبولنا الظاهرى المبنى على خبرتنا يتسق تماماً مع حركة أشياء مثل التفاح أو الكواكب التى تتحرك بسرعة بطيئة نسبياً، لكنها لا تتسق بالمرة مع الأشياء التى تتحرك بسرعة قريبة من أو مساوية لسرعة الضوء. ■

كتاب الزاوية

الانضمام إلى اليد السوداء!

مذكرات عريان يوسف سعد

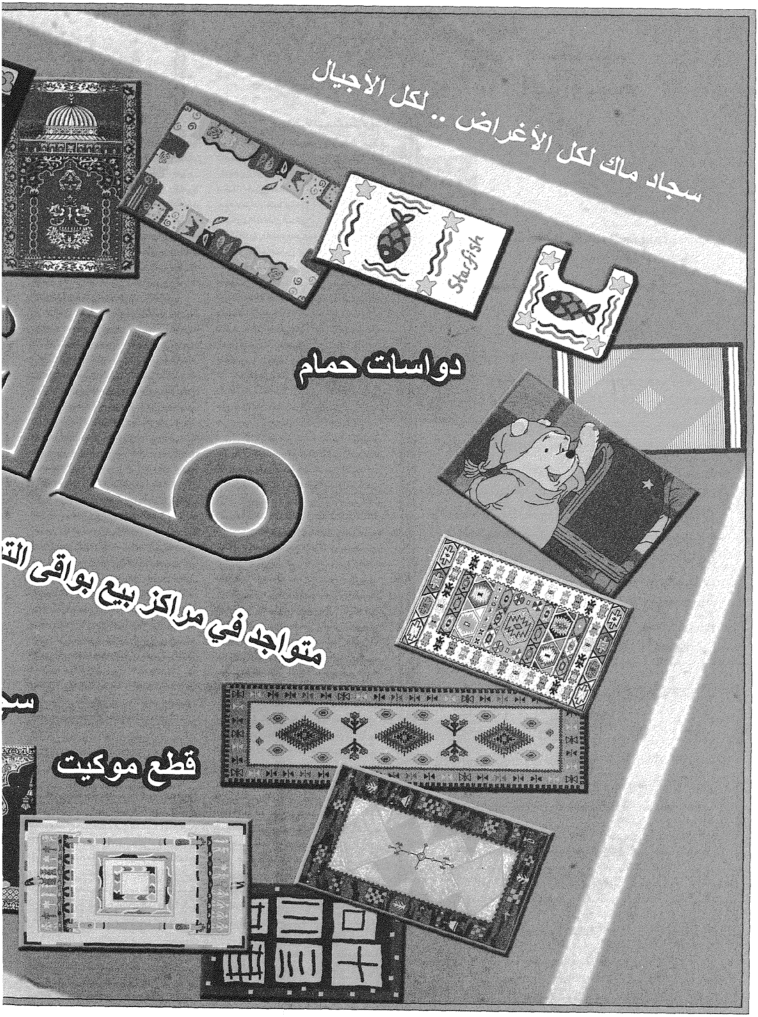
كان فى مدرسة الطب جماعة من الطلبة تألفت قبل نشوب الثورة من تلقاء نفسها من خليط من طلبة السنوات الدراسية جميعها تربطهم رابطة التقارب فى الميل إلى العبث فى أوقات الفراغ. والقيام بالرحلات الرياضية أطلقوا على أنفسهم جمعية الأنس. فلما نشبت الثورة كان أفرادها زعماء المدرسة يجتمعون سرًا مرة فى منزل أحدهم ومرة فى مسجد المنيرة.

ولقد انتهزت فرصة اجتماعهم مرة لبحث شئون السياسة والأحزاب، وبعد أن أقسموا اليمين على الاحتفاظ بسرية الاجتماعات طلبت الكلمة وعرضت عليهم ضرورة الالتجاء إلى أعمال العنف. فلقيت منهم معارضة صاخبة تبلغ حد الإجماع. وعبثًا حاولت تبرير وجهة نظرى فسكت. ولكن ذلك الفشل الذى تعرضت له لم يجاوز وقت الاجتماع. فما انفرط عقده وخرجنا حتى وجدت زميلاً كان يميل إلى الهدوء يتأبط ذراعى فسرنا حتى إذا انفردنا قال لى: أجاد أنت فيما تقول؟ قلت: وأى جد!

قال: سآتيك غداً بطلب انضمام إلى جماعة اليد السوداء. وانصرف.

وفى اليوم التالى، قابلنى زميل آخر وناولنى ورقة وقال: وقع عليها لأرى إذا كنت أستطيع إلحاقك باليد السوداء. وكان على الورقة مثلث مطبوع فوقعتها وسلمتها له. وبعد قليل جاء صاحبى الأول فوقعت له ورقة مرسومًا عليها خنجر.

وبعد يومين عاد صاحبى هذا. وقال لى: لقد أصبحت عضوًا فى الجماعة وأنا زميلك.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
تصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

الأحجار لم تتركنا لكنه سيفعلها

حسين عبدالله

■■ تموج الساحة العالمية بدراسات ساخنة حول لحظة بلوغ الإنتاج العالمي من النفط ذروته المتوقعة، لكي يبدأ النفط رحلة النضوب النهائي حيث لا يتجدد مهما طال الزمن. وبذلك يدخل النفط سجل التاريخ تحت مسمى «عصر النفط»، مثله مثل «العصر الحجري». ويبقى الفارق بينهما أن الأحجار لم تتركنا، ولكن النفط سوف يتركنا، وإلى الأبد.

ويدور الخلاف بين من يتوقع استمرار الوفرة النفطية عبر فترة ممتدة من المستقبل المنظور، ومن ثم يروج لاتجاه الأسعار نحو الانخفاض أو على الأقل ثباتها أو ارتفاعها بمعدلات بطيئة، ويأتي على قمة هؤلاء هيئة معلومات الطاقة الأمريكية US Energy Information Administration (EIA) التي تتسم دراساتها بالتفاؤل. وفي الجانب المقابل يوجد من يتوقع ازدياد الإمدادات النفطية شحة تعجزها عن مواجهة الارتفاع المطرد في الطلب العالمي، ومن ثم تشتد حدة الصراع بين الدول لتأمين احتياجاتها منه، كما تتجه الأسعار إلى الارتفاع. وقد وصل سعر برميل البترول خلال الشهر الماضي إلى حوالي ٩٥ دولاراً في قفزة غير مسبوقة.

ويعتمد الداعون لإبقاء سعر النفط عند مستوى متدن على أن كلفة التنقيب عن النفط وإنتاجه قد اتجهت خلال السنوات الأخيرة وسوف تظل تتجه مستقبلا إلى الانخفاض نتيجة للتحسينات التقنية. ومن ثم فإن أصحاب الحقول الحدية ذوي النفقة المرتفعة سوف يكون في مقدورهم ضخ كميات متزايدة من النفط في أسواقه مما يشعل المنافسة بين المنتجين ومن ثم تنخفض الأسعار.

ونحن لا نجادل في أن التحسينات التقنية قد حققت بالفعل انخفاضا ملحوظا في نفقات البحث عن النفط وتنميته وإنتاجه حتى منتصف التسعينيات. فهذه مقولة صحيحة ولكن ما يستخلص منها كاتجاه عام غير صحيح. فقد قامت شركات النفط العالمية بمساندة الدول الصناعية الغربية بالإنفاق على تطوير تقنيات البحث عن النفط وإنتاجه خارج أوبك، عقابا لها على ما حققه العرب بفضل حرب أكتوبر ١٩٧٣ من تصحيح لنصيب الدول المنتجة والذي لم يتجاوز عبر ربع القرن السابق على تلك الحرب ثلاثين سنتا للبرميل (مقومة بدولار ١٩٤٧) أو ٨٥ سنتا بالدولارات الجارية عام ١٩٧٠، فقفز إلى ١٢ دولارا ساريا من ١٩٧٤. وقد كان من أبرز التحسينات التقنية التي تحققت نتيجة لتكثيف الإنفاق الغربي خارج أوبك: تقنيات المسح السيزمي ثلاثي الأبعاد، والحفر الأفقي، والحفر في المياه العميقة، وتحسين معامل الاستخلاص Recovery Factor من الحقول القديمة والذي ارتفع في بعض الحالات من نحو ٣٥٪ في المتوسط إلى أكثر من ٥٠٪.

غير أن النتائج النهائية لتلك التحسينات التقنية لم تنجح في زيادة حجم الاحتياطيات النفطية المكتشفة، إذ لم يعد في الإمكان العثور على حقول عملاقة من نوع ما تحقق في الخليج

وداعا.. عصر النفط!



بلغ الإنتاج العالمى من السوائل النفطية عام ٢٠٠٥ نحو ٣٠ مليار برميل لم يتجاوز منها إنتاج الحقول المكتشفة حديثا نحو الثلث، فضلا عن اتجاه النفقات للارتفاع

العربى. إذ انخفض حجم الحقل المكتشف من نحو ٢٠٠ مليون برميل فى المتوسط خلال عقد الستينيات من القرن الماضى، عندما ركزت الشركات جهودها الاستكشافية فى الشرق الأوسط، إلى نحو ٥٠ مليون برميل خلال التسعينيات. وكنتيجة لذلك انخفض حجم النفط المكتشف على مستوى العالم من نحو ٧٠ مليار برميل سنويا فى المتوسط خلال الستينيات إلى نحو ٢٠ مليار برميل خلال التسعينيات، وهو ما لا يكفى لتعويض ما ينضب من الاحتياطيات بالإنتاج، إذ يغطى الإنتاج فى حدود ٥٥ مليون ب/ى فقط بينما تراوح الإنتاج العالمى من النفط خلال النصف الثانى من التسعينيات حول ٧٥ مليون ب/ى، ويتجاوز الآن ٨٥ مليون ب/ى مع تزايد مطرد فى الاستهلاك بمعدل يقارب ٢٪ سنويا فى المتوسط.

وكمثال حديث، فقد بلغ الإنتاج العالمى من السوائل النفطية عام ٢٠٠٥ نحو ٣٠ مليار برميل لم يتجاوز منها إنتاج الحقول المكتشفة حديثا نحو الثلث، فضلا عن اتجاه النفقات للارتفاع.

كذلك يوضح تقرير حديث لمجموعة IHS Energy Group أن اثنتى عشرة دولة مسئولة عن إنتاج ثلث الإنتاج العالمى من النفط لم تستطع خلال السنوات العشر ١٩٩٢-٢٠٠١ تعويض ما نضب من احتياطياتها إلا بنسب ضئيلة. بل إن أهم الدول المنتجة وهى روسيا والمكسيك والنرويج وبريطانيا تراوح معدل التعويض فيها بين ١٥٪ و٣١٪.

وإذا كان خبراء جيولوجيا النفط العالميين لا يستبعدون احتمال العثور على حقول عملاقة، إلا أن ما يحظى بموافقة أغلبهم أن تلك الحقول قد لا توجد إلا فى مناطق صعبة نائية وبتكلفة مرتفعة، وأن العالم بعد أن استهلك ما يقرب من ثلث الثروة النفطية Oil resources سوف يواجه صعوبات متزايدة فى استخلاص الباقى، وهو ما ينعكس فى ارتفاع التكلفة والأسعار.

ويعارض هؤلاء الخبراء الادعاء بأن احتياطيات النفط قد ارتفعت خلال السنوات العشرين الماضية ويصفون الزيادة بأنها وهمية، وأن العالم لم يتمكن من تعويض ما استخرج من النفط الخام على مدى السنوات العشرين الماضية.

ولعل مما يؤكد تلك الرؤية أن بعض الزيادات التى أدخلت على حجم الاحتياطيات النفطية كانت زيادات دفترية، إذ قامت بعض دول أوبك خلال النصف الثانى من ثمانينيات القرن الماضى بزيادة حجم احتياطياتها النفطية بنحو ٧٠٪ دفعة واحدة وكان أغلب تلك الزيادة ناتجا من إعادة التقدير Revision أكثر منه نتيجة لجهود استكشافية جديدة. وكان الهدف من تلك الزيادة استخدامها كذريعة لحصول كل دولة على نصيب أكبر من نظام الحصص الذى بدأت أوبك بتطبيقه منذ ١٩٨٢ للحفاظ على سقف جماعى للإنتاج حماية للأسعار من التآكل.

تأكيدا لما سبق، وكما يستخلص من بيانات المساحة الجيولوجية الأمريكية US Geological Survey (USGS) لعام ٢٠٠٢ فإن الاحتياطيات النفطية العالمية المؤكدة تقدر بنحو ٩٥٩ مليار برميل وذلك بنقص ١١٪ عن التقديرات التى تتبناها أوبك وجهات أخرى. كذلك تقدر USGS احتياطيات أوبك النفطية المؤكدة بنحو ٦١٢ مليار برميل وهو ما يقل بنحو ٢٨٪ عما هو شائع ومعلن.

كذلك تبنت وكالة الطاقة الدولية International Energy Agency (IEA) التى أنشئت عام ١٩٧٤ لتخدم مصالح الدول الصناعية الغربية فى مجال الطاقة والنفط، فى تقريرها الذى أذاعته عام ١٩٩٨ بعنوان World Energy Outlook توجها يحذر من العجز المتوقع فى الموارد النفطية بحلول ٢٠٢٠. ففى تقدير الوكالة للإنتاج تدخل ما تطلق عليه النفط غير التقليدى Unconventional oil ومن أمثلته سوائل الغاز الطبيعى NGLs وفوائض التكرير Refining gains والسوائل المستخلصة من الطفل النفطى Oil shale ومن رمال القار Tar sands ومن الفحم... إلخ. وتتوقع الوكالة أن يبلغ إنتاج النفط التقليدى Conventional oil ذروته فى منتصف العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين (أى حوالى ٢٠١٥) ليبدأ بعد ذلك رحلة النضوب الطبيعى. وتنتهى الوكالة إلى أن إجمالى العرض العالمى من النفط بنوعيه (التقليدى وغير التقليدى) يمكن أن يقصر بحلول ٢٠٢٠ عن مواجهة الطلب العالمى المتزايد، وأن العالم يمكن أن يواجه بحلول العام المذكور عجزا يقدر بنحو ١٩ مليون ب/ى وهو ما ينبغى توفيره من مصادر نفطية غير تقليدية وغير معلومة فى الوقت الحاضر.

هذا اعتراف صريح من منظمة دولية تمثل مصالح الدول الصناعية الغربية بأن العالم مقبل على فترة تشح فيها الإمدادات النفطية. وقد أتبعته الوكالة بدعوة أعضائها لاتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة هذا الموقف، وهو تحذير يحمل فى طياته نبوءة الصراع الدولى المتوقع لتأمين احتياجات الدول من النفط وغيره من مصادر الطاقة. ويأتى هذا التحذير على خلاف رؤية من يتوقعون أن العالم سوف يغرق فى فائض من إنتاج النفط يدفع المنتجين إلى التنافس لتصريفه ولو بأسعار متدنية.

هذا فيما يتعلق بالاحتياطيات النفطية، أما بالنسبة لاتجاه النفقات إلى الارتفاع فيستخلص من تقرير Merrill Lynch الذى أذيع فى أبريل ٢٠٠٤ بعنوان Higher Sustained Oil Price Now A Recognized Realty أن تكلفة العثور على النفط وتنميته قد أخذت فى الارتفاع منذ منتصف التسعينيات بمعدل ١٠٪ سنويا فى المتوسط، ولذلك صار يلزم لتشجيع الاستثمار فى صناعة النفط أن يرتفع السعر للحفاظ على معدل العائد فى ضوء الارتفاع الذى طرأ على التكلفة. ففى منتصف التسعينيات كان الإنفاق الرأسمالى (الاستثمار) اللازم للعثور على قدرة إنتاجية Oil Productive capacity خارج دول أوبك تعادل برميلا يوميا لمدة عشر سنوات يقدر بنحو ١٤.٦ ألف دولار، وبذلك تتراوح تكلفة العثور على النفط وتنميته حول ٤ دولارات للبرميل فى المتوسط، وهو ما كان خليقا بتحقيق عائد على الاستثمار نحو ١٣٪ مع وجود سعر للنفط يتراوح حول ١٨ دولارا للبرميل. أما خلال الفترة ٢٠٠١-٢٠٠٣ فإن حجم الإنفاق الرأسمالى اللازم للعثور على قدرة إنتاجية مماثلة ارتفع إلى نحو ٢٥.٦ ألف دولار وبذلك ارتفعت تكلفة العثور على النفط وتنميته إلى ٧ دولارات للبرميل فى المتوسط وهو ما يتطلب ارتفاع السعر إلى ٢٨ دولارا حتى يمكن تحقيق عائد على الاستثمار يعادل ١٣٪ كما كان الحال قبل ارتفاع التكلفة. بل إن ثمة دلائل - كما ورد بالتقرير - تشير إلى أن تلك التكلفة الرأسمالية سوف تستمر فى الارتفاع بمعدل يتجاوز ١٠٪ سنويا فى المتوسط، وذلك إضافة إلى احتمال ارتفاع نفقات التشغيل Operating costs إلى فوق ما عهدناه خلال السنوات الأخيرة(١).

ويخلص تقرير Lynch إلى أن افتراض استمرار أسعار مرتفعة للنفط صار حقيقة واقعة، ليس فقط فى أسواقه بل أيضا فى أسواق الأوراق المالية. وفى مجال السياسات التى تنتهجها شركات النفط العالمية.

وإذا كان تقرير Lynch الذى صدر فى أبريل ٢٠٠٤ قد توقع استمرار ارتفاع السعر إلى ٢٨ دولارا للبرميل فى المدى المتوسط، إلا أن آليات السوق العالمية للنفط تكفلت برفع السعر إلى أكثر من مثلى ما توقعه التقرير، كما قفزت التكلفة فى صناعة النفط قفزات كبيرة خلال الأعوام الأخيرة.

من ذلك دراسة أعلنت نتائجها خلال فبراير ٢٠٠٧ واشترك فى إعدادها بيتا الخبرة Cambridge Energy Research Associates (CERA) و IHS Energy Group حيث تشير إلى أن الشركات العالمية صارت منذ ٢٠٠٥ تضع خططها الاستثمارية على أساس سعر للنفط لا يقل عن ٥٠ دولارا للبرميل. وكان الباعث لتلك القفزة ما حدث خلال عامى ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ من ارتفاع كبير فى التكلفة الرأسمالية فى القطاع العلوى Upstream من صناعة النفط (التنقيب والتنمية والإنتاج).

وإذ لا يتوفر للآن معيار معتمد لمتابعة اتجاه التكلفة الرأسمالية فى مشروعات القطاع العلوى، فإن دراسة HIS/CERA تحاول ابتكار رقم قياسى لهذه التكلفة Upstream Capital Costs Index (UCCI) مستخدمة المعلومات التى حصلت عليها من ٢٨ مشروعا نفطيا على المستوى العالمى (منها ١٦ بريا Onshore و١٢ بحريا Offshore)، مع الاستعانة بالأرقام المتاحة فى الصناعات التى

العالم يمكن أن يواجه بحلول العام المذكور عجزا يقدر بنحو ١٩ مليون ب/ى وهو ما ينبغى توفيره من مصادر نفطية غير تقليدية وغير معلومة فى الوقت الحاضر



تستخدم منتجاتها فى تلك المشروعات النفطية وهو ما يوضحه الجدول الخاص بالتكلفة الرأسمالية، ويتوقع أن تعدل التقديرات دوريا وتنشر بانتظام فى شهرى مايو ونوفمبر من كل عام.

ويستخلص من دراسة HIS/CERA عدد من النتائج أهمها:

(١) اتجاه تكلفة مشروعات توسيع القدرة الإنتاجية للنفط إلى الارتفاع، وبخاصة منذ ٢٠٠٥، حيث صارت الشركات العالمية تخطط مشروعاتها على افتراض سعر للنفط لا يقل عن ٥٠ دولارا بعد أن قفزت التكلفة الرأسمالية للعثور على النفط وتنميته فوق مستواها عام ٢٠٠٠ بنحو ٦٧٪ وكان معظم الزيادة خلال العامين الأخيرين، حيث قفزت خلال العام المنتهى فى آخر أكتوبر ٢٠٠٦ بمعدل ١٥٪ فى المتوسط.

(٢) فى ضوء ارتفاع التكلفة على هذا النحو، يتوقع أن ترجأ أو تلغى بعض مشروعات التوسع فى القدرة الإنتاجية للنفط إذا انخفضت الأسعار عن ٥٠ دولارا. وإذا حدث ذلك بالفعل، فلابد أن يتكرر ما حدث منذ مستهل ٢٠٠٤ عندما أخذت أسعار النفط فى الارتفاع نتيجة لقصور القدرة الإنتاجية للنفط عن مواكبة الطلب العالمى الذى تزايد بمعدلات غير مسبوقة، إذ ارتفع بنحو ٦ مليون ب/ى خلال الفترة ٢٠٠٣-٢٠٠٦.

(٣) وإذ تمثل تكلفة الحفر نحو ٤٠-٥٠٪ من التكلفة الرأسمالية للتنقيب والتنمية، فإن ارتفاع تكلفة الحفر بنحو ٢٥٪ يمكن أن يؤدى إلى ارتفاع التكلفة الرأسمالية الكلية للمشروع بنحو ١٠٪.

(٤) يتجه العالم إلى التوسع فى التنقيب عن النفط فى المناطق المغمورة Offshore حيث ساعد التقدم التقنى على إمكانية الحفر فى مناطق أعمق. ومن هنا صارت الصناعة تعانى من ندرة فى الأجهزة المستخدمة فى تلك المناطق ومن أمثلتها أجهزة الحفر البحرى rigs والسفن المستخدمة فى المناطق المغمورة، وبخاصة السفن المزودة بالرافعات العملاقة Heavy lift crane vessels.

هذه هى الصورة التى تعكس انتهاء عصر الوفرة النفطية وبدء اقتراب الإنتاج من ذروته المتوقعة لكى يعقبها الاتجاه نحو النضوب النهائى ومن ثم تزداد شحة الإمدادات النفطية وعجزها عن مواجهة الطلب العالمى المتزايد فى ظل الأسعار المتدنية والتى لم تتجاوز خلال عقد التسعينيات ٥ دولارات للبرميل مقومة بدولار ١٩٧٣ الذى صححت خلاله الأسعار بفضل انتصار أكتوبر من ٣ إلى ١٢ دولارا.

الدعوة الغربية لرفع معدل النضوب فى دول أوبك من ٢٪ سنويا إلى ٤٪ من شأنه أن يقصف عمـــر تلك الاحتياطيات إلى النصف

خلافا لتلك الرؤية التى قد تبدو متشائمة رغم اتسامها بالواقعية، تفترض بعض الدراسات المتفائلة ذات التوجه الغربى، ومنها دراسات هيئة معلومات الطاقة الأمريكية EIA، أن أوبك لديها من الإمكانيات ما يمكنها من القيام بدور المنتج المكمل Residual producer والتوسع فى بناء قدرتها الإنتاجية بحيث تغطى الفجوة بين الإنتاج خارجها وبين الاحتياجات العالمية المتزايدة عبر المستقبل المنظور. ومن هذا المنطلق تفترض دراسات EIA أن القدرة العالمية لإنتاج السوائل النفطية بنوعيها سوف ترتفع - وفقا لسيناريو متوسط - من نحو ٨٤.٣ مليون برميل يوميا٢ فى عام ٢٠٠٥ إلى نحو ١٠٤ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ وإلى ١١٨ مليون ب/ى عام ٢٠٣٠، وهو ما يفى باحتياجات العالم فى ظل أسعار معقولة.

وتتوقع الهيئة الأمريكية فى تقريرها الصادر فى مايو ٢٠٠٧ بعنوان International Energy Outlook ان الأسعار المعقولة (فى نظرها) سوف تنخفض (بدولارات ثابتة القيمة) من ٦٨ دولارا للبرميل عام ٢٠٠٦ إلى ٤٩ دولارا عام ٢٠١٤ ثم تبلغ ٥٩ دولارا بحلول ٢٠٣٠ (وهو ما يعادل حينئذ بالدولارات الجارية نحو ٩٥ دولارا للبرميل)، وإن كانت الهيئة لا تقدم ما استندت إليه فى تحديد «معقولية» تلك الأسعار.

وفقا لتلك التقديرات، وبافتراض قيام أوبك بسد فجوة العجز كما تتوقع EIA، فإن عدد الدول القادرة على توسيع قدرتها الإنتاجية من أعضاء أوبك، وفقا لسيناريو متوسط، سوف يتقلص إلى نحو ست دول يقع منها خمس فى الخليج وهى السعودية والعراق والإمارات والكويت وإيران ويضاف إليها فنزويلا، كما يتوقع أن تسيطر هذه الدول الست بحلول عام ٢٠٣٠ على القدرة الإنتاجية لنحو ٤٢ مليون ب/ى وهو ما يعادل ٣٥٪ من القدرة العالمية لإنتاج السوائل النفطية بنوعيها فى ذلك العام.

والواقع أن السيطرة على إنتاج السوائل النفطية، وانحصارها فى عدد محدود من الدول، أهمها ١٢ دولة أعضاء أوبك ثم روسيا و٤ دول حول بحر قزوين، كانت قد بدأت معالمها فى الظهور خلال السنوات الأخيرة وذلك نتيجة لعجز الإنتاج العالمى عن مواجهة الارتفاع المفاجئ فى الطلب، وهو ما دفع الأسعار إلى أكثر من مثليها خلال السنوات ٢٠٠٣-٢٠٠٦ (من ٢٨ إلى ٦١ دولارا لبرميل من سلة أوبك ORB).

فوفقا لتقديرات EIA وكما يتضح من جدول القدرات الانتاجية، يتوقع ان ترتفع القدرة الإنتاجية لأهم الدول المصدرة للسوائل النفطية وعددها ١٧ دولة من نحو ٤٧ مليون ب/ى عام ٢٠٠٥ الى ٦٢ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ والى ٧٤ مليون ب/ى، وهو ما يؤدى إلى ارتفاع سيطرة المجموعة خلال السنوات المذكورة من نحو ٥٦٪ إلى ٦٠٪ والى ٦٣٪ من القدرة العالمية لإنتاج السوائل النفطية.

هذه تقديرات هيئة أمريكية تميل فى توجهاتها إلى التفاؤل وتفترض - خلافا للكثير من الدراسات المتاحة - استمرار الوفرة النفطية وتدنى الأسعار خلال المستقبل المنظور. أما الواقع، وكما تعكسه الشحة النفطية التى أوضحنا أهم معالمها، فهو غير ذلك، وبخاصة إذا انتقلنا من جانب العرض والإمدادات إلى جانب الطلب والاستيراد.

فبالنسبة للدول الصناعية الغربية أعضاء OECD يتوقع أن يرتفع استهلاكها من السوائل النفطية (بنوعيها) خلال الفترة ٢٠٠٤-٢٠٣٠ من ٤٩ مليون ب/ى إلى نحو ٥٧ مليون ب/ى، بينما يبلغ إنتاجها المحلى منه ٢٢.٥ مليون ب/ى عام ٢٠٠٤ ولا يتجاوز هذا الحد بحلول ٢٠٣٠. وبذلك يرتفع العجز فى احتياجاتها النفطية خلال تلك الفترة من نحو ٢٦ مليون ب/ى إلى ٣٥ مليون ب/ى، وهو ما يرفع بالتبعية درجة اعتمادها على الاستيراد من ٥٣٪ إلى ٦١٪ خلال الفترة المذكورة.

وفى داخل المجموعة الغربية، تشتد صعوبة موقف الولايات المتحدة التى انفردت عام ٢٠٠٦ باستهلاك ٢٠.٦ مليون ب/ى من السوائل النفطية وهو ما يعادل ٢٥٪ من الإنتاج العالمى كما انفردت بواردات صافية ١٢.٣ مليون ب/ى وهو ما يعادل ٢٤٪ من إجمالى واردات العالم من تلك السوائل التى بلغت ٥٢.٦ مليون ب/ى، وفقا لتقديرات البريطانية للبترول BP Statistical Review of World Energy-June 2007. وإذ يتوقع أن يبلغ استهلاك الولايات المتحدة من السوائل النفطية بحلول ٢٠٣٠ نحو ٢٦.٦ مليون ب/ى ولا يتجاوز إنتاجها المحلى نحو ٩.٧ مليون ب/ى، فان العجز الصافى فى احتياجاتها النفطية يمكن أن يرتفع خلال الفترة ٢٠٠٦-٢٠٣٠ من نحو ١٢ إلى ١٧ مليون ب/ى ويرتفع معه اعتمادها على الاستيراد من ٦٠٪ إلى ٦٤٪ وفقا لتقديرات EIA المتفائلة.

أما تقديرات وكالة الطاقة الدولية IEA: World Energy Outlook-٢٠٠٦ - وهى أقل تفاؤلا وأكثر واقعية من توقعات EIA - فتشير إلى ازدياد الاعتماد العالمى على استيراد السوائل النفطية عبر المستقبل المنظور، وهو ما يوضحه الجدول الخاص بأهم الدول المستوردة للسوائل النفطية (الوحدة = الواردات

جدول متابعة التكلفة الرأسمالية

عناصر التكلفة الرأسمالية فى القطاع العلوى للنفط	ارتفاع التكلفة خلال الـ ١٢ شهرا الأخيرة ٪
الصلب (عقب قفزة كبيرة فى العام الأسبق)	٣.٥
أجهزة الحفر البحرية Offshore rigs	٣٠٩.٢
المعدات Equipments	١٦.٥
أحواض بناء السفن المساعدة فى الحفر البحرى	٢١.٧
المواد Bulk moterial	١٢.٥
السفن الحاملة لمعدات الحفر البحري	٤١.٠
أجهزة الحفر البرية Land rigs	١٨.٢
الإشراف الهندسى والإدارى للمشروع	٢٣.٠
العمالة الفنية Construction labor	١٣.٠



النفطية كنسبة مئوية من الاستهلاك المحلى):

وهنا يمكن ملاحظة التفاوت بين توقعات هيئة EIA وتقديرات وكالة الطاقة الدولية IEA فيما يخص درجة اعتماد الولايات المتحدة على الاستيراد بحلول عام ٢٠٣٠، إذ تقدره الهيئة بنحو ٦٤٪ بينما تقدره الوكالة بنحو ٧٤٪. وهكذا الحال بالنسبة لباقى المفردات التى ورد ذكرها.

أما فى جانب الصادرات النفطية، وعلى الرغم من التفاوت الكبير بين تقديرات كل من الهيئة والوكالة والشركة البريطانية، مما لا يتسع المجال لتناوله، إلا أن ما يستخلص من الدراسات المتاحة يشير إلى أن سيطرة أوبك ستظل قوية، إذ يتوقع أن تحافظ على نصيب يقارب ٦٠٪ من الصادرات العالمية للنفط خلال الفترة ٢٠٠٦-٢٠٣٠، وذلك رغم ارتفاع حجم تلك الصادرات من نحو ٥٣ مليون ب/ى إلى ٧٧ مليون ب/ى خلال الفترة المذكورة.

وإذ يتوقع أن لا يقل نصيب أوبك وروسيا ودول بحر قزوين الأربع عن ثلاثة أرباع الصادرات العالمية من السوائل النفطية، فإن المنطق الاقتصادى السليم بالإضافة لاشتراك المصالح لابد أن يؤدى إلى الاتفاق على وضع وتنفيذ سياسة رشيدة لتحديد المعروض من السوائل النفطية فى الأسواق، حفاظا على قيمتها الحقيقية من التآكل وهى فى طريقها إلى النضوب النهائى. بل إن مصلحة المجتمع الإنسانى تقتضى عدم إهدار تلك الثروة الناضبة بحرقها كوقود وأن تدخر لما هو أنبل استخداما Noble uses باعتبارها أهم المواد الخام فى صناعة البتروكيماويات التى تضيف كقيمة مضافة نحو ٢٦٠٠ دولار إذا تم تصنيع برميل من النفط كمنتجات بتروكيماوية نهائية قابلة للاستهلاك، بينما لا تتجاوز تلك القيمة عند استخدامها كوقود بضعة دولارات.

فى ضوء ما تقدم، يمكن الآن فهم الأسباب غير المعلنة صراحة لمحاولات الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، فرض الحراسة والوصاية - طوعا أو غصبا - على نفط الخليج العربى الذى يضم ثلثى احتياطيات النفط العالمية ويتوقع أن لا تقل مساهمته عن ٣٥٪ من الاحتياجات العالمية للنفط بحلول ٢٠٣٠، أو ما يقرب من نصف الصادرات النفطية العالمية فى العام المذكور.

ولا تقتصر لهفة الدول الغربية، بقيادة الولايات المتحدة، لتأمين احتياجاتها النفطية على استخدام الأساليب التجارية المعتادة ومعاملة أصحاب النفط معاملة الشريك التجارى كما تتعامل هى فيما بينها، بل ذهبت فى محاولة تحقيق أهدافها إلى حد احتلال دولة ذات سيادة، وهى العراق، والتهديد بضرب إيران بحجة سعيها لامتلاك إمكانيات تخصيب الوقود النووى، وأخيرا إقامة منصات نووية فى دول شرق أوروبا مع توجيه صواريخها نحو المنطقة بحجة مكافحة الإرهاب. هذا، بالإضافة إلى زرع واستخدام إسرائيل منذ ١٩٤٨ كشوكة فى ظهر العرب لتشتيت جهودهم وصرف أذهانهم عن المطالبة بحقوقهم المشروعة فى إدارة ثروتهم النفطية إدارة مستقلة ومتحررة من الضغط الغربى.

جدول يوضح تقديرات هيئة EIA لإنتاج السوائل النفطية بنوعيها عبر الفترة ١٩٩٠ ـ ٢٠٣٠
(الوحدة = مليون برميل يوميا)

القدرة الانتاجية للسوائل النفطية	١٩٩٠		٢٠٠٥		٢٠٢٠		٢٠٣٠	
	كمية	٪	كمية	٪	كمية	٪	كمية	٪
نفط تقليدى								
أوبك	٢٤.٩	٣٨	٣٤.٧	٤٢	٤٤.٨	٤٦	٥٤.١	٥٠
باقى العالم	٤٠.٨	٦٢	٤٧.٢	٥٨	٥١.٧	٥٤	٥٣.١	٥٠
جملة النفط التقليدى	٦٥.٧	١٠٠	٨١.٩	١٠٠	٩٦.٥	١٠٠	١٠٧.٢	١٠٠
الخليج العربى (أوبك أو غير أوبك)	٢٥		٢٩		٣٠		٣٥	
نفط غير تقليدى								
أوبك	٠٠		٠,٦		١,٩		٢,٧	
باقى العالم	٠,٦		٠.٨		٥.٤		٧.٨	
جملة النفط غير التقليدى	٠.٦		٢.٤		٧.٣		١٠.٥	
جملة السوائل النفطية (تقليدية وغير تقليدية)								
إجمالى العالم	٦٦.٣	١٠٠	٨٤.٣	١٠٠	١٠٣.٨	١٠٠	١١٧.٧	١٠٠

وقد اقترن بهذا الاتجاه العدوانى للولايات المتحدة مسارعة عدد من الدول الصناعية الغربية المستوردة للنفط بتقديم الدعم للعسكرى فى احتلال العراق والتشدد فى فرض العقوبات على إيران، طمعا فى نصيب من نفط الخليج عندما تشح الإمدادات العالمية وتقوم الولايات المتحدة، باعتبارها الراعى الأكبر للذئاب الغربية، بتوزيع الغنائم النفطية. ومن الغريب أن اليابان، التى حرمت من تشكيل قوات عسكرية بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية، قد سمح لها ولم تتردد فى المساهمة بإرسال قوات عسكرية إلى العراق، ولعل دافعها أنها تعتمد اعتمادا كاملا على استيراد السوائل النفطية. أما الصين التى وقفت من احتلال العراق موقف المعارض فإنها لا تتوقع أن يصيبها شىء من الغنيمة النفطية التى يحلم الراعى الأكبر بالفوز بها وتوزيعها وفق مصالحه، فيمنح من سانده ويحرم من تتعارض معه مصالحه.

ولكى تترجم لهفة الدول الغربية، بقيادة الولايات المتحدة، على تأمين احتياجاتها المستقبلية من نفط أوبك عموما، ونفط الخليج العربى خاصة، تدعو تلك الدول لتوسيع القدرة الإنتاجية لدول أوبك ورفع ما يعرف بمعدل النضوب فيها Outtake من ٢٪ وهو مستواه الحالى إلى ٤٪ أو اكثر. وتوضيحا لمعدل النضوب، وهو مقياس نسبى لحجم الإنتاج السنوى مقسوما على حجم الاحتياطيات التى تم اكتشافها وتنميتها Developed reserves ينبغى الرجوع إلى ما سبق شرحه حول تقدير الاحتياطيات النفطية والتى يشوبها قدر كبير من التفاوت. كذلك تجدر الإشارة إلى أن المعايير المعتمدة لدى هيئة السوق المالية الأمريكية Securities and Exchange Commission (SEC) تميل للتقدير المتحفظ وذلك لحرصها على حماية المستثمر فى أسهم وسندات شركات النفط، ومن ثم تلزم الشركات بعدم المبالغة فى تقدير ما تمتلكه من الاحتياطيات النفطية والتى ينعكس أثرها بالضرورة فى ارتفاع أسعار الأسهم والسندات التى تصدرها وتتداول فى الأسواق المالية. ويأتى هذا الالتزام على خلفية الشكوك التى تحيط عادة بتقدير الاحتياطيات النفطية فى الدول المنتجة حيث تميل الشركات العاملة فيها للمبالغة فى تقديرها لأسباب أبسطها رفع قيمة أسهمها المتداولة فى الأسواق العالمية، وأخطرها طمأنة الدولة المنتجة أن لديها ما يكفى من تلك الاحتياطيات لمواجهة احتياجات الأجيال المقبلة (مصر كمثال)، ثم تسارع فى الإنتاج بمعدلات مرتفعة لكى تحصل على نصيبها فى أقل وقت وتغادر إلى موقع جديد مع الاعتذار أن تقديرها السابق أصابه الخطأ، وجل من لا يسهو!!

جدول القدرة الانتاجية لأهم الدول المصدرة للسوائل النفطية

القدرة الانتاجية للسوائل النفطية	٢٠٠٥		٢٠٢٠		٢٠٣٠	
	كمية	٪	كمية	٪	كمية	٪
أوبك (نفط تقليدى)	٣٤.٧		٤٤.٨	٤٦	٥٤.١	
أوبك (نفط غير تقليدى)	٠.٦		١.٩		٢.٧	
أوبك	٣٥.٣	٤١.٩	٤٦.٧	٤٥.٠	٥٦,٨	٤٨.٣
روسيا	٩.٥	١١.٣	١٠.٧	١٠.٣	١١.٥	٩.٨
دول بحر قزوين	٢.١	٢.٥	٤.٨	٤.٦	٥.٧	٤.٨
القدرة الإنتاجية للدول الـ ١٧	٤٦.٩	٥٥.٦	٦٢.٢	٦٠.٠	٧٤.٠	٦٢.٩
إجمالى العالم	٨٤.٣	١٠٠	١٠٣.٨	١٠٠	١١٧.٧	١٠٠

وبصرف النظر عن حقيقة تقديرات الاحتياطيات النفطية، فإن الدعوة الغربية لرفع معدل النضوب فى دول أوبك من ٢٪ سنويا فى المتوسط إلى ٤٪ من شأنه أن يقصف عمر تلك الاحتياطيات إلى النصف بحيث تنضب فى ٢٥ عاما بدلا من خمسين عاما. وبذلك تؤمن الدول الغربية احتياجاتها النفطية عبر الفترة التى تحتاجها للتوصل إلى بدائل للطاقة تغنيها عن النفط. وعندها سيكون النفط قد غادرنا إلى الأبد لأنه لا يتجدد مهما طال الزمن. أما رفع معدل النضوب إلى ٧٪، وهو ما يعتبره بعض المحللين حده الأقصى فى دول أوبك، على تفاوت بين الدول، فإن معناه فناء احتياطيات أوبك فى ١٤ عاما، أى بحلول ٢٠٢٠ وهو الإطار الزمنى الذى يختلف المحللون حوله فيما يتعلق بإمكانية استمرار التوازن العالمى بين العرض والطلب.

ومن هنا يمكن فهم ما عبر عنه صراحة الرئيس بوش فى حديث له خلال أكتوبر ٢٠٠٦ بتحذير الشعب الأمريكى من خطورة

كتــاب الـزاويــة

أنــا لهــا

مذكرات عريان يوسف سعد

إن البلاد قادمة على خطر محدق. هذا قبطى يرأس الوزارة والشعب ثائر والتلغرافات تنهال كل يوم على رياسة الوزارة تطالب باستقالتها، والمظاهرات تنقطع تهتف بسقوطها. إذا دبر فرع من الفروع عليه وقعت الواقعة وقيل إن المسلمين اعتدوا على رئيس الوزارة لأنه قبطى. ولكن لو أننى أنا أيضًا اعتديت عليه، وتمكنت من الهرب لما قيل غير ذلك، إذ لا يقوم دليل على أن المعتدى قبطى. إذن لابد من أن أُسلم نفسى بعد الاعتداء، حتى يعلم العالم أن المعتدى ليس من المسلمين.ولقيت صديقى ففاتحته فى الأمر وعرضت عليه حديث نفسى، فقال: أمهلنى حتى الغد. وجاء فى غده يحدثنى عن خطورة الأمر، وكيف أن الموت فيه أمر محقق: إما فى أثناء الحادث على يد الحرس، وإما بحكم الإعدام الذى لا شك فيه.

قال: تدبر الأمر وفكر فيه إلى غد.

قلت: ما أنا بحاجة إلى تدبر وتفكير، فقد حزمت أمرى.

قال صاحبى: أما لك فى الدنيا مأرب تبغى الحياة لتحقيقه؟

قلت: بلى لى مأرب فى أن أموت فى سبيل الحياة.. حياة الوطن. وأنا ميت على كل حال إن لم أمت اليوم فى شرخ الشباب فأنا ميت حين تدركنى الشيخوخة.



الانسحاب من العراق وما يؤدى إليه من تهديد لاحتياجات الولايات المتحدة من النفط. وقد أعاد بوش تأكيده، حتى بعد هـزيـمـة حـزبـه الجـمـهـورى أمـام الديموقراطيين فى انتخابات نوفمبر ٢٠٠٦، بأن قواته العسكرية سوف تبقى فى الخليج لفترة طويلة، كما أصر فى حديثه عن حالة الاتحاد يوم ٢٣ يناير ٢٠٠٧ على إرسال قوات عسكرية إضافية إلى العراق وذلك فى عناد صارخ ضد جميع القوى المعارضة، سواء من الأغلبية البرلمانية فى مجلسى الشيوخ والنواب، أم فيما انتهى إليه تقرير بيكر-هاملتون من توصيات، أم المظاهرات الشعبية التى تطوف الولايات المتحدة منادية بالانسحاب من العراق.

بقيت كلمة أخيرة عن الدور الإسرائيلى الذى استخدمه الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، لفرض السيطرة على نفط العرب عبر ما يقرب من نصف قرن. وإذا كانت أوبك قد استردت حقها المشروع فى إنتاج وتسعير النفط بكسر تلك الشوكة فى أكتوبر ١٩٧٣، إلا أن تلك الفترة لم تدم لأكثر من عشر سنوات، إذ عادت الدول الصناعية الغربية، بقيادة الولايات المتحدة، تنظم صفوفها لإجهاض الانتصار العربى، فاستخدمت حزمة من السياسات كان من بينها إعادة تسليح إسرائيل وتزويدها بسلاح نووى لتنشيط دورها كشوكة فى ظهر العرب وتفتيت قدرتهم على حماية الحقوق المشروعة التى اكتسبوها فى ظل حرب أكتوبر.

بذلك أخذت أسعار البترول فى التآكل منذ مطلع الثمانينيات، ثم انهارت (معبرا عنها بدولارات ثابتة القيمة عند ١٩٧٣) من نحو ١٥ دولارا خلال النصف الأول من عقد الثمانينيات إلى أقل من ٥ خمسة دولارات خلال الفترة ١٩٨٦-٢٠٠٣، وهو ما يعادل ثلث ما تحقق فى ظل انتصار أكتوبر والثورة الإيرانية. وكان من نتائج انهيار الأسعار تقلص عائدات دول أوبك التى يمثل العرب ثلاثة أرباعها (بدولار ثابت القيمة عند ١٩٧٣) من ١١٨ ملياراً عام ١٩٨٠ إلى نحو ٢٩ ملياراً سنويا فى المتوسط خلال النصف الثانى من الثمانينيات، والى نحو ٤٠ مليار دولار سنويا فى المتوسط على امتداد التسعينيات وحتى مطلع عام ٢٠٠٤ عندما بدأت آليات السوق، رغما عن إرادة المنتج والمستهلك، تصحح الأسعار التى تدنت إلى قاع لا تحتمله تلك الآليات.

هكذا، وبحسبة بسيطة، يمكن أن نتبين أن المكاسب التى حققتها الدول المستوردة للبترول (وأهمها المجموعة الغربية بقيادة الولايات المتحدة) وخسرتها دول أوبك خلال الفترة ١٩٨٦-٢٠٠٣ لا تقل عن ١٥٠٠ مليار دولار ثابت القيمة (عند قيمته عام ١٩٧٣) وهو ما يعادل بالقيمة الحالية للدولار نحو ٧٥٠٠ مليار دولار (أى ٧.٥ تريليون دولار). ■

هــــوامــــش:

١ . ينظر فى موضوع الاستثمارات النفطية دراستنا الموسعة فى التقرير السنوى المعنون «الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية ٢٠٠٥»، مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية، دار الأهرام المصرية، مارس ٢٠٠٥.

٢ . تتفاوت تقديرات الإنتاج تبعا لاختلاف الجهة القائمة بالتقدير وتبعا لاختلاف المعايير والتصنيفات المستخدمة، ويرجع فى تفصيلات هذا الموضوع إلى كتابنا «مستقبل النفط العربى»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، يونيو ٢٠٠٦.

٣ - أهمها ٣.٦ مليون ب/ى لرمال القار Oil sands (بتيومين) و٢.٤ مليون ب/ى للنفط المستخلص من الفحم و١.٧ مليون ب/ى من النفط العضوى Biofuels الذى يستخلص من منتجات نباتية كقصب السكر والأذرة وهو ما يكشف ضآلة الآمال المعلقة على هذا الوقود. ثم يأتى بعد ذلك النفط عالى الكثافة (أغلبه فى فنزويلا- أوبك) والسوائل المستخلصة من الغاز (أهمها فى قطر-أوبك).

٤ . وهو العام الذى تحولت فيه الولايات المتحدة من مصدر للنفط إلى مستورد صاف له.

جدول أهم الدول المستوردة للسوائل النفطية

الدولة أو المنطقة	٢٠٠٤	٢٠١٥	٢٠٣٠
الدول الصناعية أعضاء	٥٦	٦٢	٦٥
الولايات المتحدة	٦٤	٦٩	٧٤
أوروبـا	٥٨	٧٥	٨٠
اليـابـان	١٠٠	١٠٠	١٠٠
الصـــين	٤٦	٦٣	٧٧
الهنـــد	٦٩	٧٧	٨٧

صـورة الـعـرب فـى الأدب الـفـارسـى الحـديـث

■■ هذا الكتاب، يُعد، على ما يبدو، الأول الذى يتعامل مع هذا الموضوع الملح، وربما أيضاً الأول الذى يبحث فى صورة العرب فى أدب جيرانهم.

المؤلفة الأمريكية المتخصصة فى الدراسات الإيرانية، قسمت مؤلفها إلى خمسة أجزاء:

المقدمة: تخصصها الكاتبة للحديث عن المؤلف والشخصيات التى تشكل أرضية بحثها، وكذلك موضوع (الأيْرَنَة)، أو: الشعور الذاتى الإيرانى الحديث بدءاً من القرن التاسع عشر.

الفصل الأول: كتابات الرجال، آراء الرجال: تتعامل الكاتبة مع صورة العرب فى مؤلفات خمسة أدباء ترى أنهم من أهم أدباء إيران هم محمد على جمال زاده، صادق هدايات، صادق جوباك، مهدى أخوان ساليس، ونادر نادربور. وقد لاحظت الكاتبة فى بعض مؤلفات هؤلاء الكتاب ميلاً كبيراً للتحقير من العرب، خصوصاً عند ربط الإسلام بالعروبة. هنا تصير معاداة العرب جزءاً من معاداة الإسلام، أو بالعكس. الإسلام بعين بعضهم «ردىء» لأنه عربى، أو العرب سيئون لأن الإسلام سيئ. وهى تجد فى كتابات محمد على جمال زاده مثل «الفارسية سكَر» و«حدثَ ذات مرَة»، و«كان أو لم يكن» أمثلة كثيرة تحاول الانتقاص من قدر العربى، ومن ذلك على سبيل المثال قوله «العربى («البدوى؟») فى الصحراء يأكل الجراد، مثلما يشرب كلب أصفهان المياه المثلجة. محمد جمال زاده لا يهاجم الإسلام بل يخرجه من نبتته العربية ليجعل منه جزءاً متمماً للثقافة الفارسية.

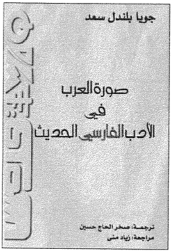
أما الكاتب الفارسى الأكثر إثارة للجدل، صادق هدايت، فقد عنى بإيران المجوسية، وانتقد بشدة مؤسسات المذهب الشيعى فى العديد من كتاباته ومنها على سبيل المثال «السيدة علوية/ علوية خانم» و«طلب المغفرة»، و«الكلب الضال». تظهر معاداة الإسلام، الذى يربطه فى نهاية المطاف بالعرب، فى «طلب المغفرة» حيث يصور مجموعة من زوار العتبات المقدسة بأنهم مجموعة من القتلة: فمنهم امرأة قتلت طفلين رضيعين من أطفال ضرتها، ومن ثم دست السم للأم، وأخرى قتلت أختها غير الشقيقة لتتزوج من زوجها.

الشاعر مهدى أخوان ساليس شأن

صورة العرب فى الأدب الفارسى الحديث

تأليف: جويا بلندل سعد
ترجمة: صخر الحاج حسين
إصدار: قدمس للنشر والتوزيع
٢٠٠٧ ، ٢٠٠صفحة

زملائه، يحتقر العرب ويندب رحيل ثقافة فارس ماقبل الإسلام وعظمتها حيث يرى أن قدوم الإسلام، على يد العرب الفاتحين بالطبع «أنوارا كاذبة: قافلة من عشاق موتى فى مستنقع على حاجب المحراب المقدس». بل إن العرب شياطين، قوى الظلام والشر «رغم الفساد الأوربى فى أيامنا هذه والذى يلعب آلاف الخدع . . فإن قذارات العرب وعارهم أكثر بشاعة، والأكثر تدميراً هو هذا البلاء القديم . . .هذا الشيطان (العربى) قد غزا ولايزال، قتل ودمر ولايزال.



والأمثلة هذه تتكرر فى كتاب نادر نادربور الذى يربط على نحو وثيق بين معاداة العرب ومعاداة الإسلام إلى درجة رفضه للأخير. لذا فإنه يرى أن الفرس، فى الأيام الأخيرة من الحكم الساسانى أساءوا فهم الإسلام عندما عدوه خلاصاً من الاضطهاد الإمبراطورى . . لقد خدعوا عندما ظنوا أن الإسلام يمثل قيم المساواة والأخوة، ولذا فإنه يرفض مقولة «أنا إيرانى وروحى الإسلام». وآراؤه هذه نراها فى قصائده «إعلان الربيع»، و«قُم» و«شروق من الغرب» و«هنا وهناك» وغيرها.

هذا التحقير، ترى الكاتبة أنه مرتبط عند أولئك الكتاب بالبحث عن الذات الإيرانية حيث لم يتمكنوا من التعبير عن ذاتهم الإيرانية إلا عبر هذا الأسلوب العصبى.

على النقيض من كتابات الأدباء الإيرانيين، نرى أن الكاتبات الإيرانيات، حتى قبيل الثورة الإسلامية فى إيران، لم يعادين العرب على أى نحو، حتى عندما توافرت «الحبكة الأدبية» لذلك. وقد وصلت المؤلفة إلى هذه النتيجة من خلال متابعة أعمال كل من الشاعرة فروغ فرخ زاده، وطاهره سفرزاده والروائية سيمين دانش فسار.

الشاعرة والمخرجة السينمائية فروغ فرخ زاده، التى أتت من الطبقة الوسطى، المفترض أنها الأكثر تأهلاً واستعداداً لتقبل الأفكار العصبية، خصوصاً أن والدها كان فى الجيش الإمبراطورى واحتكت بالعرب بسبب عيشها فى إقليم خوزستان/ عربستان، خلت كتاباتها من أى معاداة للعرب. بل إنها تستخدم مفردات عربية فى بعض قصائدها ومن ذلك على سبيل المثال كلمة (شط) العربية بدلاً من (رود خانه). وإن انتقدت الشاعرة فروغ الإسلام، فإن ذلك كان يتم بوصفه مؤسسة إيرانية وليس «أجنبية» أو عربية. وقد وصلت الكاتبة إلى استنتاجاتها هذه من خلال قراءة مستفيضة لقصائدها ومنها «أشعر بالحزن على الحديقة» و«عصيان» و«الأيات الأرضية» و«ولادة أخرى» وغيرها.

الشاعرة طاهره سفر زاده التى درست وعاشت فترة فى الولايات المتحدة وكتبت قصائد بالإنجليزية أيضاً، كانت أكثر اهتماماً بالبحث عن الذات. وانجذابها تجاه الإسلام «ينبع من حبى للعدالة وكراهيتى للظلم والاستبداد والتسويات». لكن الشاعرة تربط همها الذاتى بالكونى فتهدى قصيدة «عبر ممر الصمت والعذاب» إلى الجيش الجمهورى الإيرلندى الذى كان يناضل عسكرياً لتوحيد إيرلندا الشمالية بالوطن الأم. وكثيراً ما تذكرت فلسطين فى قصائدها باللغة الفارسية وكذلك الجنود المصريين ضحايا عدوان عام (١٩٦٧). والكاتبة متأثرة بالإسلام إلى درجة استخدام صوره فى شعرها، وباللغة العربية «تبت يدا أبى لهب وتب»، وكذلك صوت الأذان، باللغة العربية «صوت الأذان الطاهر يسمع، صوت الأذان الطاهر من الأيدى المؤمنة لإنسان...». وهى، وعلى عكس غيرها من الأدباء الفرس، لم تنظر إلى سلمان الفارسى بتلك الصفة حيث تقول فى «رحلة سلمان» «لم يكونوا عرباً، لم يكونوا فرساً، كانوا مواطنين فى مملكة الحق . . كانوا الحرية...». فالعرب، بنظرها، لم يكونوا غزاة، بل مسلمون جاءوا برسالة الحق.

والأمر ذاته ينطبق على سيمين دانش فشار التى تفادت نقد العرب على أى نحو، حتى عندما كانت تتحدث عن رحلاتها فى جنوبى البلاد حيث تقطن الأكثرية العربية.

فى العرض الثالث، فى الجزء الرابع من الكتاب، تحاول الكاتبة البحث عن موقف (رجل فى الوسط)، هو، فى ظنها، جلال آل أحمد (١٩٢٣-١٩٦٩) لأنه «حتى من دون إنجازاته الأدبية العديدة يبقى . شخصية هامة وإشكالية . . بسبب افتراضه القائل إن الإسلام الشيعى الاثنى عشرى مركب لنواة ضرورية لمفهوم الإيْرَنَة (Iraniness)، وذلك عبر مؤلفاته العديدة ومنها «خائف فى الحشود» و«ابتلى بالغرب» و«إفطار فى غير أوانه» و«الزيارة» و«الجمارك والمكوس» وغيرها. وفى المؤلفات هذه، جميعها تظهر معاداة العرب على نحو جلى حيث يظهر العربى بصفات (مخادع، جشع، غشاش) ولغة العرب «هذرمة».

ويمكن الاسترسال طويلاً فى عرض النعوت هذه وإيراد الأمثلة، لكن علينا الاختصار والقول إن أولئك الكتاب، الرجال، عندما أرادوا التعبير عن «إرينتهم/ Iraniness» لم يتمكنوا من عمل ذلك سوى بالتميز عن الآخر، اللصيق، وهو العروبة والإسلام، فهاجموا الطرفين ظناً منهم أن ذلك يمنحهم هوية خاصة قضى عليها قبل عشرات القرون.

وإن كان البعض يظن أن نشر هذا الكتاب بالعربية «فى هذا الوقت تحديداً» عمل ضار وقد يساهم فى التحريض المذهبى والقومى فى بلادنا، فإنه من الغلط التعامل مع المعارف العلمية على هذا النحو. من الضرورى للعرب معرفة ما يكتب عنهم، كقومية، حتى يتمكنوا من صياغة وعيهم لما يجرى حولهم، من دون مواربة أو نفاق. وسيكون من المفيد لو بادر الباحثون العرب إلى عمل أبحاث مشابهة، أى: صورة الغير فى الأدب العربى.

ويؤكد الناشر، (وهو فارسى الأصل من مدينة طهران) أن ظاهرة العداء للعرب بين أصحاب الرأى فى إيران، ظاهرة حديثة العهد، لم تتعد القرن الأخير، ويضيف: عندما نعود إلى باعث هذا العداء اللامعقول ضد السكان الأصليين من عربنا (عرب الأهواز) وكذلك ضد الشعوب العربية المجاورة التى تشاركنا فى الدين، وهو عهد الشاه رضا البهلوى، يتضح لنا أن جميع أهل القلم تقريباً يتفقون ويتناغمون، على الأقل فى موضوع معاداة العرب، مع رغبات الشاه رضا البهلوى.

ويتطرق الناشر إلى موقف المثقفين الذين يصفهم باللادينيين فى عهد الجمهورية الإسلامية تجاه العرب ويقول: إن اتساع دائرة العداء للعرب فى عهد السلطة الراهنة، كما نشاهد مظاهرها، هى تجسيد للاستياء السياسى، وفى الحقيقة إن المثقف اللادينى الحالى يريد أن يحمل مسئولية تخلفه الاجتماعى وعدم جدارته فى الساحة السياسية والأحداث التى شهدتها البلاد خلال القرن الأخير يحمل هذه المسئولية العرب الذين عاشوا قبل خمسة عشر قرناً كى يبعد نفسه وببساطة عن الأسئلة الوطنية المطروحة عليه!. ■

زياد منى

"لبيب تادرس" أغنية لم تكتمل!

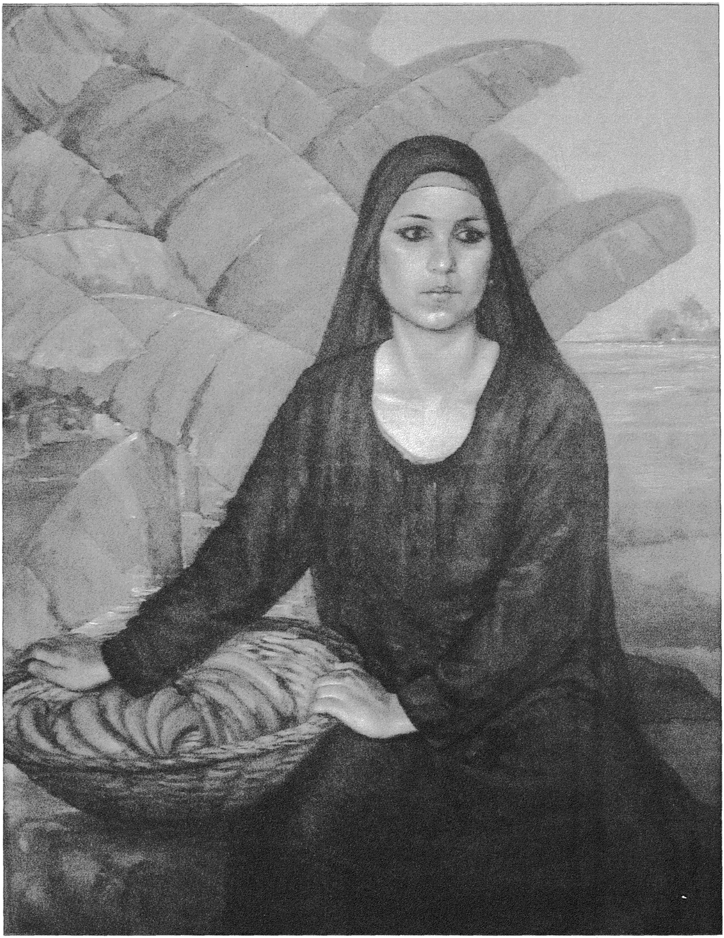
يســــرى القويضـــى

الحضارة فى مصر.. وتجلياتها الثقافية مثل جبل الثلج، جزء صغير منها يظهر على السطح والقسم الأكبر غائر وكامن فى الأعماق.. سواء كانت هذه الحضارة والثقافة على شكل آثار فرعونية قديمة أو غيرها، فهى تطل علينا بمفاجآتها من وقت إلى آخر لتذكرنا بأن ما لدينا، وما نعرفه ليس كل شىء.. وهنا..

وفى مجال «الفنون الجميلة» نسلط الضوء على جانب خفىّ ومجهول من الحركة الفنية التشكيلية وروادها.. فى كتاب نشره سفير فنان، وعلى نفقته الخاصة، ليقول لنا أن «الدنيا ما زالت بخير!!»

حلمى التونى





بائعة الموز ـ ٨٠×١٠٤سم ـ زيت على توال ـ مقتنيات السيدة سامية تادرس

< الفنان فى مرسمه بدرب اللبانة واقفًا أمام حامل الرسم يصور موديلاً جالسة.

"لبيب تادرس" أغنية لم تكتمل!

لبيب تادرس هو واحد من هؤلاء الفنانين الذين ينطبق عليهم وصف الناقد الفنان عز الدين نجيب «بالفنانين الذين ضاعوا فى كهف النسيان»



لبيب تادرس
أغنية لم تكتمل
(١٨٩٤ ـ ١٩٤٣)
يسرى القويضى
الناشر: المؤلف ـ القاهرة ٢٠٠٧

ينتمى الفنان لبيب تادرس إلى رعيل الفنانين الأوائل الذين على أكتافهم تأسس التصوير المصرى الحديث.

ذلك الرعيل الذى ولد أعضاؤه فى فترة العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، وشبوا ونشطوا مع بدايات القرن العشرين.

ويمكن أن نميز فئتين من الفنانين داخل هذا الرعيل:

الفئة الأولى: الفنانون الهواة، وهم الفئة التى مارست الفن كهواية ولم يعتمدوا على الفن كمهنة، وإنما كانت لهم وظائف وأنشطة أخرى فى المجتمع يتكسبون منها. ولعشقهم الفن وحبهم له، اعتمدوا على أنفسهم فى الأساس لاكتساب مهارات الرسم والتلوين، وصقلوا تلك المهارات فى المراسم الخاصة للفنانين الأجانب سواء داخل مصر أو خارجها.

وبرز منهم كل من التالية أسماؤهم مرتبين حسب تاريخ ميلاد كل منهم، محمد ناجى (دبلوماسى) ١٨٨٨، ولبيب تادرس (موظف حكومى) ١٨٩٤، ومحمود سعيد (قاض) ١٨٩٧.

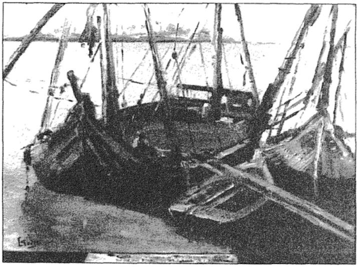
الفئة الثانية: الفنانون المحترفون الذين درسوا الفن أكاديمياً فى مدرسة الفنون الجميلة، وبعد التخرج منها أصبح تدريس الفن وممارسته هو عملهم ومصدر رزقهم فى الحياة، ومنهم كل من أحمد صبرى ١٨٩١، ومحمود مختار ١٨٩١، ويوسف كامل ١٨٩١، وراغب عياد ١٨٩٢، ومحمد حسن ١٨٩٢، وعثمان مرتضى دسوقى ١٨٩٦، ومحمود حسنى ١٨٩٩.

وبتضافر جهود هاتين المجموعتين (الهواة والمحترفين) تأسست فى مصر اللبنة الأولى للفن المصرى الحديث، وكان نشاط هؤلاء الفنانين وأعمالهم محل فخر وتقدير من أوساط الساسة والمثقفين، واعتبر مظهراً من مظاهر تأكيد الشخصية المستقلة لمصر الحديثة، وبخاصة فى خضم الفوران الشعبى فى ١٩١٩، وفى أعقاب إعلان مصر مملكة مستقلة عام ١٩٢٢.

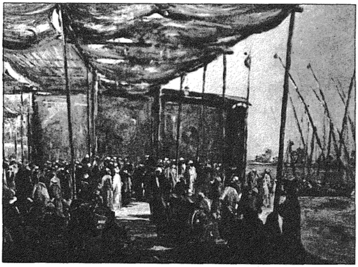
كان إعلان قيام الدولة المصرية نقطة محورية فى تاريخنا الحديث. وتأكيداً على دورها كدولة مستقلة حرصت مصر على التواجد فى المحافل الدولية السياسية والاقتصادية، كما حرصت أيضاً على التواجد فى المحافل الثقافية، وفى هذا الإطار جاءت مشاركة مصر فى معرض باريس الدولى عام ١٩٣٧، والتى قام الفنانون المصريون بتصميم الجناح المصرى به، بالإضافة إلى مشاركتهم بأعمال فنية كانت موضع إعجاب وتقدير، وفاز الجناح المصرى بميدالية ذهبية، كما حصل الفنان محمد ناجى على شهادة شرفية، وحصل الفنان لبيب تادرس على ميدالية فضية.

وبعد نجاح المشاركة المصرية فى معرض باريس الدولى بعام، أقدمت مصر فى يونيو عام ١٩٣٨ على المشاركة لأول مرة فى بينالى فينيسيا الدولى فى دورته الحادية والعشرين.

واختيرت أعمال عدد من الفنانين المصريين المشهود لهم بالبراعة، لتمثيل مصر فى



المراكب النيلية راسية



سوق على ضفاف النيل ـ مقتنيات السيد/ محمود أبو الفتح (صاحب جريدة المصرى)



بورتريه سيدة مجتمع - ٤٠×٥٠ سم - زيت على قماش - مقتنيات السيد/ مفيد راغب حنين

"لبيب تادرس" أغنية لم تكتمل!

ذاك البينالى، فجاءت المشاركة على النحو التالى:

أولاً: التصوير

أحمد عثمان	٣ دراسات ولوحة
أحمد صبرى	٤ لوحات
على كامل الديب	لوحة واحدة
حسين فوزى	لوحتان
لبيب تادرس	٣ لوحات
محمود سعيد	٩ لوحات
محمد ناجى	١٥ لوحة و١٤ رسمًا
راغب عياد	٣ لوحات
سعيد الصدر	لوحة واحدة
يوسف كامل	٣ لوحات

ثانيًا: الحفر

نحميا سعد	٤ لوحات حفر

ثالثًا: النحت والخزف

أحمد عثمان	قطعتان
داريا جمساريان	قطعتان
إبراهيم جابر	قطعة واحدة
محمود مختار	٤ قطع
منصور فرج منصور	قطعة واحدة
سعيد الصدر	قطعتان

رابعًا: حديد مطروق

وشاركت مدرسة الفنون التطبيقية بباب من الحديد المطروق.

ويلاحظ أنه إلى جانب مشاركة الفنان لبيب تادرس فى كل من معرض باريس الدولى عام ١٩٣٧ وكذلك فى بينالى فينيسيا عام ١٩٣٨، فقد قبلت لوحة له تمثل منظرًا طبيعيًا للنيل اسمها «أمسية صيفية» Summer Evening للعرض بمعرض الجمعية الملكية البريطانية بلندن، والذى أقيم فى أغسطس ١٩٣٧، ولاقت عند عرضها قبولاً كبيراً.

كانت مشاركات الفنان لبيب تادرس الناجحة، وانخراطه فى الحركة الفنية المصرية بنشاط، تبشر بارتفاع نجمه فى مجال تصوير المناظر الطبيعية التى برع فيها، وبشكل يتفوق فيه على أقرانه من المحترفين، لكن القدر يقسو فى أحيان كثيرة، فقد توارى اسمه واختفى فجأة.

أدى اختفاء الفنان لبيب تادرس المفاجئ إلى سقوط اسمه من ذاكرة النقاد ومتابعى الحركة الفنية المصرية، وظل معروفًا فقط لهؤلاء الذين تعامل معهم من معاصريه الذين تابعوا نشاطه وأعماله، ولكن مرور السنين ووفاة من كانوا يعرفونه، وعدم توفر سجلات توثيق سيرته وأعماله، وكذلك لتبعثر إنتاجه الفنى - الذى لم يبق منه سوى القليل - لكل تلك الأسباب لم تتوفر معلومات كافية عنه.

إن لبيب تادرس هو واحد من هؤلاء الفنانين الذين ينطبق عليهم وصف الناقد الفنان عز الدين نجيب لهم «بالفنانين الذين ضاعوا فى كهف النسيان». وإذا صادفنا اسمه فى الكتب المعدودة التى أرخت للحركة الفنية المصرية الحديثة، فلن تجد سوى سطور قليلة اكتفت بالإشارة إليه باقتضاب بمثل ما ورد فى كتاب «٥٠ سنة من الفن» للكاتبين الناقدين وهما الصحفى كمال الملاخ والفنان رشدى إسكندر (طبعة ١٩٦٢).

وكذلك الحال عندما

جلسة استرخاء بمرسم الفنان بدرب اللبانة



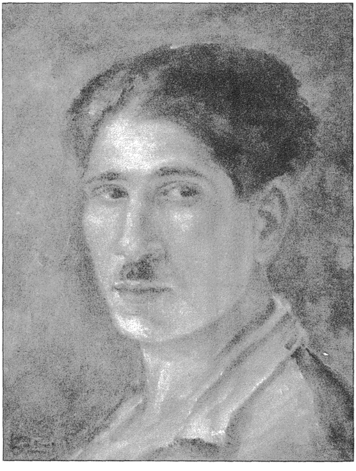


منظر طبيعى ٤٠×٤٨سم ـ زيت على خشب ـ مقتنيات السيدة ناهد سعد حليم

بورتريه لبيب تادرس ٣٩×٢٨سم ـ زيت على خشب ـ مقتنيات/ نبيل رشدى حليم

ذات الضفائر ـ ٣٦×٣٤سم ـ زيت على قماش ـ مقتنيات/ سمير أمين تادرس





"لبيب تادرس" أغنية لم تكتمل!

تتصفح موقع بنك المعلومات لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة على شبكة المعلومات الدولية، فلن تجد إلا إشارة عابرة، لا تسمن ولا تغنى، كما لا توجد حتى صورة شخصية للفنان، ولا أى عمل من أعماله. وفى مراجع أخرى لن تجد ذكرًا له على الإطلاق، وكأنه لم يتواجد، كما حدث فى كتاب «التصوير الحديث فى مصر» للناقد إيميه آزار، الذى ربما تعمد عدم ذكره لأنه اعتبره من فئة المخلصين للقواعد الأكاديمية، المقلدين للأساليب الغربية، أو قد يرجع ذلك إلى عدم معرفة آزار بأعمال الفنان، إذ إن تادرس توفى فى عام ١٩٤٣، عندما كان آزار فى العاشرة من عمره.

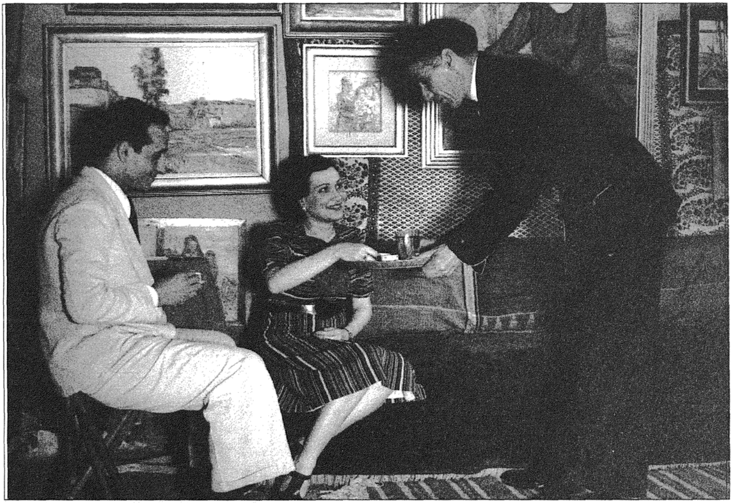
فى صعيد مصر بمدينة طهطا بمديرية سوهاج عاش السيد تاوضروس موسى مع قرينته السيدة لطيفة الببلاوى - التى تمت بقرابة وثيقة بالسيد ويصا واصف باشا - راضين قانعين بحياة ليست مترفة ثرية، ولكنها كانت هادئة مريحة، كانت مثالاً لأسرة مصرية صميمة، مؤمنة، تحافظ على التقاليد، وتعيش فى وئام مع النفس ومع المجتمع.

بعد أن رزقت تلك العائلة بأولادها الذكور، حليم، وأمين، ونجيب، رزقت فى عام ١٨٩٤ بأصغر الأولاد، وأسماه والداه لبيب. وبعد ميلاده بفترة قصيرة، صفى الوالد متعلقاته بطهطا، وانتقل بأسرته إلى القاهرة، ليعمل موظفًا لدى إدارة محلات بنزيون، وأقام فى شقة كبيرة بالمنزل رقم ١١ بشارع قنطرة غمرة، بحى غمرة، لتنعم الأسرة بالحياة فى العاصمة التى تعج بالحركة والحياة، ولتتمتع فيها بآخر المستحدثات الواردة من أوروبا المتحضرة. إنها حياة مختلفة عن تلك التى كانوا سيعيشونها لو بقوا فى طهطا بصعيد مصر.

وتمشيًا مع مناخ المدينة، وتسهيلاً لنطق اسم تاوضروس، وحتى يكون وقعه على الأذن موسيقيًا سهلاً، فقد ارتضى رب العائلة تحويره ليصبح تادرس، وظل الاسم فى شكله الجديد لقبًا للعائلة، يحمله الأحفاد وأولادهم، حتى يومنا هذا.

كبر لبيب وشب فى ذلك الحى، وكان وثيق الارتباط بأخيه نجيب الذى يقاربه فى السن، إذ يكبره بعامين فقط، كان يضع عنده سره، ويأتمنه عليه، وقد وضح ذلك من الخطابات القليلة المتبقية والمتبادلة بينهما.

حصل الشاب لبيب تادرس على الشهادة الابتدائية، وعندما بلغ من العمر ثمانية عشر عامًا التحق بوظيفة فى وزارة الداخلية، وفى نفس الوقت تابع دراسته الثانوية، وحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩١٧، والأرجح أنه فكر لفترة من الزمن فى الالتحاق بالجامعة لدراسة الحقوق، إذ عثرنا ضمن أوراقه على جدول



محاضرات كلية الحقوق، لكن يبدو أنه صرف الفكرة عن ذهنه، واستمع إلى ما أملته عليه رغبته فى تعلم الرسم والتصوير، ويقول الفنان لبيب فى نبذة كتبها عن نفسه، إنه عقب إتمامه الدراسة الثانوية اهتم بالرسم، فالتحق فى عام ١٩١٨ بمدرسة الفنون الإيطالية (القسم الليلى) وحصل منها على دبلوم فى الرسم والحفر. ثم عكف على دراسة المناظر الطبيعية التى كانت أكثر الموضوعات قبولاً لديه، وكان رغم أعبائه الوظيفية يجد الوقت للخروج إلى الطبيعة حاملاً أدوات الرسم لينقل المناظر مباشرة.

دفع شغف لبيب تادرس ورغبته فى إتقان التصوير إلى الدراسة على يد الأستاذ كاميللو انوشنتى الإيطالى فى عام ١٩٢٥ ولمدة سنتين، وقد انعقدت خلالها صداقة بينهما، ظلت مستمرة حتى عام ١٩٤٠ عندما رحل الفنان الإيطالى عائداً إلى بلاده.

شارك لبيب تادرس، شأنه شأن شباب زمانه، فى مناصرة ثورة ١٩١٩، وسعى مع زملائه الفنانين لدعم النعرة الوطنية عن طريق محاولة وضع إطار مؤسسى للحركة الفنية المصرية، وفى ذلك السياق لبى الفنان لبيب تادرس الدعوة الأولى التى دعت إليها جماعة الإصلاح لإقامة معارض وطنية، وحضر الاجتماع الأول الذى عقد فى أوائل عام ١٩١٩ والذى استمر لعدة جلسات، انتهت إلى انسحاب معظم الحاضرين نتيجة انقسام الرأى حول الاقتراح الذى طرحه الفنان راغب عياد بتنظيم عرض يضم قسمين أحدهما للهواة والثانى للأساتذة المحترفين.

عقب فشل الاجتماع الأول، بذلت عدة جهود ومحاولات لإقامة عروض مصرية، ومنها إنشاء الجمعية المصرية للفنون الجميلة التى تكونت فى مارس ١٩١٩ وأقامت معرضين أحدهما فى عام ١٩١٩ والثانى فى عام ١٩٢٠. كما أنشأ السيد فؤاد عبدالملك ـ وهو من كبار مشجعى الفن ومحبيه ـ داراً للفنون والصنائع المصرية، و أقام عدة معارض لأعمال الفنانين المصريين.

استقر الأمر فى النهاية على إنشاء جمعية محبى الفنون الجميلة عام ١٩٢٢ والمستمر وجودها منذ ذلك الوقت وحتى الآن، وهى بذلك تعد أقدم الجمعيات المصرية التى تعنى بالإبداع الفنى، ودأبت منذ إنشائها على إقامة معارض سنوية.

فى وسط تلك التطورات والشد والجذب بين المحترفين والهواة، كان لبيب تادرس محسوباً على قائمة الهواة، لكنه فى حقيقة الأمر لم يكن هاوياً عادياً، لقد كانت لوحاته أفضل من لوحات الكثير ممن يعتبرون أنفسهم من المحترفين، وبدأبه وجهده رسخ أقدامه، وأثبت نفسه واندمج مع زمرة الفنانين المشهود لهم بالكفاءة، وحول ذلك الموضوع يذكر أحد أصدقائه الآتى:

«عندما انفرط عقد الهواة الذين ظهروا فى أول معرض عام ١٩١٩، لأن غالبيتهم لم يستطع أن يلحق بالمحترفين فى اتجاههم إلى الفن الحقيقى، بقى منهم فقط لبيب تادرس يحدوه أمل فلحق بالأساتذة، وقبلت أعماله لأول مرة فى معرض الربيع الذى أقيم عام ١٩٢٣».

واظب لبيب تادرس على المشاركة فى معارض جمعية محبى الفنون الجميلة منذ أول معارضها عام ١٩٢٣ وحتى وافته المنية فى عام ١٩٤٣، وطبقاً لما يذكره الفنان لبيب تادرس فى النبذة التى كتبها عن نفسه أشار إلى أن وزارة المعارف اقتنت ثمانى لوحات من أعماله، ضمت بعضها إلى متحف الفن الحديث، كما اشترت وزارة الخارجية المصرية فى عام ١٩٣٧ إحدى لوحاته وحفظت بالسفارة المصرية بمدينة استكهولم بناء على إرشاد الفنان محمود بك سعيد وموافقة المسيو جورج ريمون مراقب الفنون الجميلة فى ذلك الوقت. ■

كتاب الزاوية

عتاد الاغتيال

مذكرات عريان يوسف سعد

ذهبت إلى صاحبى فى الصباح فى منزله، وإذا به يقدم لى مسدسين وقنبلة من قنابل الجيش البريطانى اليدوية (ملز) وهى صغيرة، كالكمثراة الصغيرة.

كدت أطير من الفرح حين خلوت بصاحبى، ورأيت أنه حقًا متصل باليد السوداء وأنها ليست كما خفت أن تكون غولاً لا وجود له.

قلت له بعد أن أطلعنى على طريقة استعمال القنبلة: أليس لدى الجماعة نوع يصنع محليًا أشد فتكًا من هذه؟

قال: هناك نوع آخر ولكنه أخطر على حامله. فهذه حتى لو سقطت على الأرض لا تنفجر مادام الحائل بين المفرقعات والكبسولة فى مكانه، وهو لا ينزع إلا عند الاستعمال. أما النوع الآخر، فإنه إذا انقلب أو حتى إذا مال ميلاً شديداً انفجر بعد خمس ثوان، ولذلك فإن حامل القنبلة عرضة للنسف إن زلت قدمه أو أساء وضعها.

قلت: إن الأمر لا يحتمل التفكير فى السلامة، وهى مجازفة محققة النهاية. فلا بأس فى أن تبدأ مبكرة قليلاً.. لا بأس فى أن تبدأ المجازفة من وقت حمل القنبلة بدل أن تبدأ وقت إلقائها! لم يبق إلا أن نعرف منزل رئيس الوزارة، ومواعيد خروجه وعودته والطريق التى يسير فيها ركبه.

وجاء صاحبى بالعنوان. إنه يسكن فيلا فى شارع شواربى المتفرع من شارع قصر النيل، وإنه يخرج الساعة التاسعة، وإن السيارة تسير من شارع شواربى إلى قصر النيل إلى ميدان سليمان باشا، فشارع سليمان باشا فميدان قصر النيل (الخديو إسماعيل) فشارع قصر العينى فشارع الشيخ يوسف (مجلس النواب) فرياسة الوزارة فى لاظ أوغلى.

السُلطة والقضاء!

حسن محمد هند

ليس خافيا على الجميع ما حدث سنة ١٩٦٩ حين صدرت قرارات رئيس الجمهورية بفصل عدد كبير من القضاة وتحويل البعض منهم لوظائف إدارية نتيجة موقف نادى القضاة الذى أصدر بيانا رفض فيه اشتغال القضاة بالسياسة

يؤسس الفقه لمفهوم الدولة فى الإطار الدولى حيث تتكون من شعب وإقليم وسلطة سياسية وهذه هى الشروط اللازمة للاعتراف بها على المستوى الدولى(١) ويميل عدد كبير منه إلى الأخذ بالرأى الذى يعترف بأن الدول والأفراد والمنظمات الدولية والهيئات الأخرى التى ليست لها هذه الصفة كالاتحادات الدولية والأقاليم الدولية وغيرها هى من أشخاص القانون الدولى(٢).

بيد أنه على الصعيد الداخلى فإن الدولة تؤسس على سلطات ثلاث هى السلطة التشريعية التى تتولى مهمة التشريع، والسلطة التنفيذية التى تقوم على إدارة الدولة، والسلطة القضائية التى تتولى الفصل فى المنازعات بين الأفراد أو بينهم، والحكومة حين تمارس سلطة إدارة لا سلطة حكم، وبالنظر إلى تنظيم السلطة القضائية الوارد فى دستور سنة ١٩٧١ نجد أنه ورد. فى الفصل الرابع فى المواد من ١٦٥إلى ١٧٣بعنوان «السلطة القضائية». استقلال السلطة القضائية فى مجموعها وفى المادة ١٦٦ على استقلال القضاة وفى المادة ١٦٧ على تحديد الهيئات القضائية واختصاصها وفى المادة ١٦٨ على ضمان عدم قابليتهم للعزل وفى المادة ١٧٢ على أن مجلس الدولة هيئة قضائية مستقلة تختص بسائر المنازعات الإدارية، وقد صدرت القوانين رقم ٤٦ لسنة ١٩٧٢ بتنظيم السلطة القضائية والقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ بتنظيم مجلس الدولة والقانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٧٩ بتنظيم المحكمة الدستورية العليا، وبتعديل الدستور سنة ١٩٨٠ استحدث سلطة دستورية جديدة هى سلطة الصحافة ووردت فى المواد ٢٠٦. ٢١١ من الدستور، وقد تبنت دساتير مصر المتواترة منذ دستور سنة ١٩٢٣ حتى دستور سنة ١٩٧١ منهج الفصل بين السلطات. لذا ينبغى إلقاء الضوء على علاقة السلطة القضائية بالسلطة التنفيذية ؛ إذ لم تأخذ مصر بما تطبقه بعض الدول من انتخاب أعضاء السلطة القضائية بل جرت تقاليدها حتى قبل دستور سنة ١٩٢٣ على أن تتولى السلطة التنفيذية تعيين رجال القضاء بمختلف مستوياتهم ولكن المُشرّع قد دعم استقلال جهات القضاء المتعددة فى مجالات التعيين والترقية والتأديب، وقد تقرر ذلك فى القوانين الأساسية المنظمة لجهات القضاء(٣).

وقد تناول كثير من القضاة أزمة الديمقراطية وتدخل السلطة التنفيذية فى السلطة القضائية ومنهم المرحوم د. فاروق عبد البر(٤). وبدأ هذا الاتجاه منذ إنشاء مجلس الدولة بالقانون رقم ١١٢ لسنة ١٩٤٦ الذى أنشئ باقتراح من السلطة التنفيذية؛ إلا أن ذلك لم يغير الشعور العدائى لهذه السلطة حياله، وظهر ذلك فى علاقتها به، وتكشف تقارير المجلس عن أعماله المنشورة فى مجلة مجلس الدولة، عن توتر مستمر فى العلاقات بينهما منذ إنشائه. وقد ازداد التوتر بين مجلس الدولة وبين الحكومة فبعد وصول حزب الوفد إلى الحكم فى يناير سنة ١٩٥٠ طلب أحد الوزراء باسم حكومة الوفد من السنهورى التنحى عن رئاسة مجلس الدولة بدعوى أنه كان ينتمى إلى أحد الأحزاب السياسية، فلما اجتمعت الجمعية العمومية لمستشارى مجلس الدولة وشجبت هذا الطلب خرج أحد وزراء الحكومة الوفدية لينشر فى الصحف أحاديث تمس شخص رئيس المجلس(٥).

وبقيت حكومة الوفد على خصومتها للمجلس، فقد أجرت تعديلين على قانون المجلس صدر بهما القانون رقم ٦ لسنة ١٩٥٢: جعل أولهما الاختصاص بنظر وقف تنفيذ القرار الإدارى المطعون فيه لمحكمة القضاء الإدارى بعد أن كان لرئيس مجلس الدولة وحده. وقد عزا السنهورى هذا التعديل إلى الأحكام التى أصدرها بوقف تنفيذ قرارات خاصة بالبورصة وما كان يقع فيها من تلاعب وعبث واستهتار، وبحرية الصحافة وما كان يقع عليها من اعتداء سافر. أما التعديل الثانى فصدر بهدف تمكين وزير العدل من الإشراف على المجلس ومستشاريه وموظفيه الفنيين(٦).

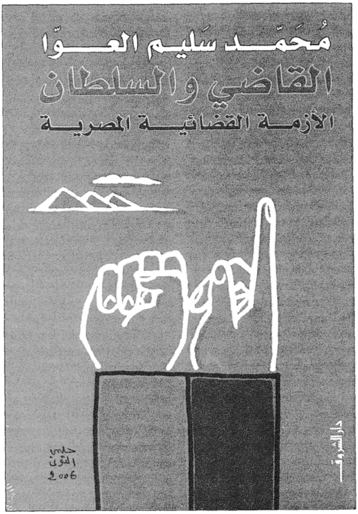
وجاءت ثورة ١٩٥٢ يوليو «ومع تقديرى الشخصى لثورة ٢٣يوليو ولشخص جمال عبد الناصر» وما جاءت به من آمال وأحلام عظام بيد أنه وقع صدام عظيم بين الثورة والسنهورى إذ إنه فى مساء ٢٧مارس ١٩٥٤ حاول الملك سعود إصلاح ذات البين بين الرئيس محمد نجيب وجمال عبد الناصر، فطلب من نجيب الحضور إلى قصر الطاهرة فحضر واستدعى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر والدكتور السنهورى فحضروا جميعا وكان موقف الدكتور السنهورى أثناء هذا الاجتماع واضحا فى معاداته لأساليب العنف وافتعال المظاهرات. وقد رسخ فى أذهان رجال الحركة بزعامة عبد الناصر بأن السنهورى يقف فى صف نجيب، ويريد أن يصفى الثورة ويصبح رئيسا لمجلس الوزراء متحالفا مع الإخوان بعد أن رشح من قبل مصادر شتى لتولى رئاسة الوزارة المدنية التى كان مقررا لها أن تتولى السلطة فى الفترة التى بقيت على انتخابات الجمعية التأسيسية طبقا لتنظيم مقترح من جانب سليمان حافظ والدكتور العمرى وافق عليه عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ثم نجيب فى ٢٢مارس ١٩٥٤ .... وإذا كان الأمر كذلك فقد قرروا التخلص منه ومن نجيب على السواء. ولعل هذا هو سر توافق الاعتداء على محمد نجيب والسنهورى من حيث التدبير والتوقيت والتنفيذ. ففى مساء ٢٩مارس ١٩٥٤ هوجم محمد نجيب فى مقر مجلس الوزراء وفى ذات اليوم هوجم السنهورى فى مجلس الدولة، وكان المتظاهرون على وشك الفتك به لولا أن تلقى عنه الضربات بعض معاونيه(٧).

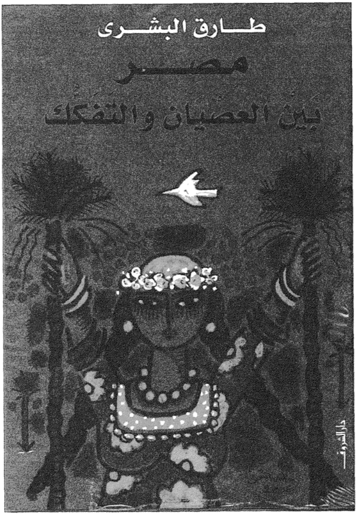
وليس خافيا على الجميع ما حدث سنة ١٩٦٩ حين صدرت قرارات رئيس الجمهورية بفصل عدد كبير من القضاة وتحويل البعض منهم لوظائف إدارية نتيجة موقف نادى القضاة الذى أصدر بيانا رفض فيه اشتغال القضاة بالسياسة، وقد أطلق عليه بيان ٢٨مارس وضمنوه ضرورة: تأمين الحرية الفردية لكل مواطن فى الرأى والكلمة والاجتماع......... وأن ذلك لا يكون إلا بتأكيد مبدأ الشرعية الذى يعنى فى المقام الأول كفالة الحريات للمواطنين كافة.

وفى ضوء نص المادة ٨٨ من الدستور الحالى الصادر سنة ١٩٧١قبل تعديلها فى مارس ٢٠٠٧ التى كانت توجب الإشراف القضائى على الانتخابات صدر حكم المحكمة الدستورية العليا فى القضية رقم ١١لسنة ١٣ ق بجلسة ٢٠٠٠/٧/٨ مقررا أن الإشراف القضائى يجب أن يكون حقيقيا وقرر قاعدة قاض لكل صندوق انتخابى. وقد أفرزت انتخابات سنة ٢٠٠٠وسنة ٢٠٠٥ عن ظهور أغلبية

- القاضي والسلطان
  الأزمة القضائية المصرية
  محمد سليم العوا
  القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٦
- مصر بين العصيان والتفكك
  طارق البشرى
  القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٦

ازداد التوتر بين مجلس الدولة وبين الحكومة فبعد وصول حزب الوفد إلى الحكم فى يناير سنة ١٩٥٠ طلب أحد الوزراء باسم حكومة الوفد من السنهورى التنحى عن رئاسة مجلس الدولة بدعوى أنه كان ينتمى إلى أحد الأحزاب السياسية





برلمانية جديدة لطائفة ما يسمى بالمستقلين.

وتحركت الحكومة بطلب تعديل ٣٤ مادة من الدستور[٨] من بينها المادة ٨٨ من الدستور بحيث يكون الإشراف لهيئة عليا للانتخابات والأدهى من ذلك أن هذا التعديل الدستورى أجرى دون تطبيق قاعدة قاضى لكل صندوق التى لم تكن قد ألغيت بعد، ورغم أن أحكام المحكمة الدستورية كشفت بجلاء[٩] عن حقيقة غاية فى الأهمية أن استقلال السلطة القضائية لازما لضمان موضوعية الخضوع للقانون ولحصول من يلوذون بها على الترضية القضائية. يؤيد ذلك:

أولا: إن إعلان المبادئ الأساسية فى شأن استقلال القضاء التى تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بقراريها الصادرين فى ١٩٨٥/١/٢٩ و١٩٨٥/١٢/١٣.

ثانيا: إن استقلال السلطة القضائية وحيدتها ضمانتان تنصبان معا على إدارة العدالة بما يكفل فعاليتها، وجدير بالبيان أن السلطة التنفيذية أوغلت فى تعطيل أحكام القضاء وليس أوضح من رفض وزير العدل الحالى لحكم المحكمة الإدارية العليا الصادر بإلزامه بعلاج القاضى المنزلاوى بمجلس الدولة على نفقة الدولة، وقيامه بالإشكال فى تنفيذ الحكم أمام محكمة جزئية، وهى محكمة غير مختصة يدرك ذلك جيدا بوصفه رئيسا أسبق للمحكمة الدستورية العليا، وقد تدخل السيد رئيس الجمهورية بإصداره قرار بتنفيذ الحكم، والشىء بالشىء يذكر فأثناء الحرب العالمية الثانية صدر حكم قضائى بهدم مطار وكانت مقولة تشرشل الخالدة «نخسر الحرب ولا نمتنع عن تنفيذ أحكام القضاء». أما فى مصر ورغم أن القاضى يعالج بتمويل من قبل صندوق يمول خصما من رواتب القضاة، إلا أن وزير العدل امتنع عن تنفيذ الحكم، وانتظر قرار رئيس الجمهورية.

وقد صدر كتابان فى غاية الأهمية فى علاقة السلطة بالقضاء هما «القاضى والسلطان» للدكتور محمد سليم العوا. و«مصر بين العصيان والتفكك» للمستشار طارق البشرى - دار الشروق سنة ٢٠٠٦.

استهل العوا فى المقدمة[١٠] بأن جوهر المشكلة السياسية فى أى مجتمع هى الصراع بين السلطة والحرية فأما السلطة فهى إنفاذ القول على الغير، وأما الحرية فهى حق الناس فى الاختيار عند القدرة عليه ولأن السلطان يصر على توسيع نطاق سلطانه فإنه يضيق بأولئك الذين تكون مهمتهم تضييق هذا السلطان ولم تجد معظم هذه المجتمعات المعاصرة خيرا من القضاة المستقلين لتولى مهمة مراقبة هذا الاختيار وهو ما يُعرف بالإشراف القضائى على الانتخابات ثم عرض لحقبة الصراع بين السلطة والقضاء سنة ١٩٦٩ والتى انتهت بقرارات فصل عدد من القضاة ثم طعن فيها أحد القضاة وصدر حكم لصالحه وأثمرت عن صدور قانون السلطة القضائية رقم ٤٦ لسنة ١٩٧٢. وخلص إلى أنه سيتناول فى ثلاثة فصول جوانب الصراع بين القاضى والسلطان فتناول فى الفصل الأول[١١] أصل القضية «الإشراف القضائى على الانتخابات» إذ استعرض حكم المحكمة الدستورية العليا الصادر فى القضية رقم ١١ لسنة ١٣ق بجلسة ٢٠٠٠/٧/٨ والتى قضت بعدم دستورية نص الفقرة الثانية من المادة ٢٤ من القانون رقم ٧٣ لسنة ١٩٥٦ بتنظيم مباشرة الحقوق السياسية فيما تضمنه من تعيين رؤساء اللجان الفرعية من غير أعضاء الهيئات القضائية (قاضى لكل صندوق) وقد قامت الحكومة بتنفيذ هذا الحكم بيد انه استدعى مسائل كثيرة أهمها التى تتعلق بالشروط الواجب توافرها لتحقيق

نزاهة الانتخابات وضمان حريتها وعن الضمانات الواجب توفيرها ليكون استقلال القضاء الذى يشرف رجاله على الانتخابات كاملا بحيث يمكنهم من التصرف بحياد وحرية حقيقيتين بعيدا عن مؤثرات الإغراء والإغواء وبخاصة أن حكم الدستورية سالف البيان ذهب إلى «أنه لكى يؤتى هذا الإشراف أثره فإنه يتعين أن يكون إشرافا فعليا لا صوريا أو منتحلا .... لتكون السيادة للشعب وحده باعتباره مصدر السلطات». وقبل هذا الحكم بثلاث سنوات كان قضاة مصر قد عقدوا فى ٢٧ يونيو ١٩٩٧ بناديهم الندوة الأولى لضمان نزاهة الانتخابات التى ناقشوا فيها التعديلات الواجبة لقوانين الانتخاب العامة تأمينا لنزاهتها وتثبيتا للثقة العامة فيها وفى القانون والقضاء... وقد انتهوا إلى تأكيد توصية مؤتمر العدالة الأول سنة ١٩٨٦ بضرورة تنظيم الإشراف القضائى على الانتخابات فى كل مراحلها بما يحقق رقابة جادة وفعلية وبحيث يرأس القضاة اللجان الانتخابية كافة ولو استلزم ذلك إجراء الانتخابات على مراحل وأعدوا مذكرة بذلك إلى مجلس الشعب والشورى وأضاف أن القضاة الذين تتم الانتخابات تحت إشرافهم هم قضاة القضاء العادى والإدارى والمحكمة الدستورية العليا وبناء عليه صدر قرار محكمة النقض فى ٢٠٠٣/٥/١٢ فى الطعنين الانتخابيين رقمى ٩٥٩و ٩٤٩ لسنة ٢٠٠٢ الذى انتهى إلى تقرير بطلان الانتخابات فى دائرة الزيتون سنة ٢٠٠٠ وأسس ذلك على أن ست لجان فرعية أسندت رئاستها إلى غير القضاة من أعضاء هيئة قضايا الدولة والنيابة الإدارية (لأنهم ليسوا قضاة) وتناول اتجاه محكمة النقض الذى أصل لفكرة الهيئة القضائية وعرفها بأنها الهيئة التى تفصل بين الناس بقضاء أى الفصل بين الخصومات بحكم له قوة الإلزام.

ومن البديهى أن أعضاء هيئة قضايا الدولة والنيابة الإدارية ليس من شأنهم الفصل فى الخصومات بين الناس بحكم له قوة الإلزام ولا يتوافر لهم الاستقلال ولا الحصانة ولا الحيدة.

كما عرض د. العوا تاريخيا لفكرة التنظيم الطليعى فى القضاء الذى أسسه شعراوى جمعة آخر وزير داخلية فى عهد جمال عبد الناصر الذى كتب تأشيرة مؤرخة ١٩٦٨/٤/١٧ نصها «تشكل جماعة قيادية للهيئات القضائية وتلحق بتنظيم القاهرة». ويرى أن محاضر اجتماعات هذه الجماعة القيادية أن الهدف من استعمال تعبير «الهيئات القضائية بالرغم من عدم انطباق هذا التعبير على إدارة قضايا الحكومة والنيابة الإدارية كان هو تسويغ نقل بعض أعضاء إدارة قضايا الحكومة إلى مقاعد القضاء........ وإسقاط هيبة القضاء بعامة ومحكمة النقض بخاصة، ولإشعار الهيئة القضائية أن الحصانة التى كان يقررها الدستور المؤقت وقانون السلطة القضائية لن تحميهم من بطش السلطة».

وقد طعن أحد رجال القضاء فى القرارات بقوانين (قرارات مذبحة القضاء) وحكمت محكمة النقض بعد نضال مشرف بإلغائها جملة واعتبارها عديمة الأثر قانونا واضطرت الحكومة إلى إصدار قانون جديد بإعادة باقى المعزولين إلى مناصبهم. وما أشبه الليلة بالبارحة فقد أجرى الاستفتاء على تعديل المادة «٧٦» من الدستور فى ٢٠٠٥/٥/٢٥ . وقد شكل نادى القضاة لجنة من السادة المستشارين لدراسة ما جرى فى هذا الاستفتاء انتهت إلى التوصيات الآتية:

١. عدد اللجان الفرعية بلغ ٥٤٣٥٠ لجنة فرعية وعدد أعضاء الهيئات القضائية ١١١٢٥عضوا أى أن نسبة إشراف القضاة ٢٠٪

٢. استحال على القضاة رؤساء اللجان العامة المرور على اللجان الفرعية.

٣. اختلاف كشوف الناخبين عن بعضها بما يعنى أنه جرى تعديلها.

٤. عدد اللجان الفرعية التى رأسها أعضاء الهيئات القضائية لا تزيد على ٥٪

٥. كثير من اللجان القضائية التى أشرف عليها القضاة كان الإقبال فيها ضعيفا وتوجد لجان أخرى لم يحضر فيها أحد.

٦. عندما تمسك معظم القضاة الذين رأسوا اللجان الفرعية بتطبيق قانون مباشرة الحقوق السياسية فى شأن إجراء الاقتراع فقد أثار ذلك استياء رجال الإدارة.

٧. لم يراع فى الموظفين الذين رأسوا اللجان الأخرى أى شروط مثل الدرجة الوظيفية أو المؤهل الدراسى أو حسن السمعة وبلغت نسبة الحضور فيها أكثر من ٩٠٪ وأنهت هذه اللجان عملها قبل الموعد المحدد.

. ربط القضاة فى مداولات الجمعية العمومية فى ٢٠٠٥/٥/١٣ بين إشرافهم على الانتخابات وأمرين:

١. صدور مشروعهم لتعديل قانون السلطة القضائية الذى يكفل لهم الاستقلال.

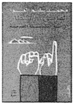
٢. تعديل قانون مباشرة الحقوق السياسية بما يكفل لهم الإشراف الكامل على الانتخابات بجميع مراحلها. وإذ لم تأخذ الحكومة هذه التوصيات مأخذ الجد وألقت باللائمة على القضاة ونعت عليهم اشتغالهم بالسياسة. وانتهى د. العوا فى هذا الخصوص إلى أنه قد جرت فى النهر مياه كثيرة حتى أتهم القاضيان هشام البسطويسى ومحمود مكى وهما نائبان لرئيس محكمة النقض بأنهما قذفا فى حق قاض، وأحيلا بهذه التهمة إلى مجلس التأديب الذى أصدر حكما بلوم الأول وبراءة الثانى. وتناول فى الفصلين التاليين حكم مجلس التأديب الصادر ضد القاضيين هشام البسطاويسى ومحمود مكى، ومشروع تعديل قانون السلطة القضائية.

ولما كان حكم مجلس التأديب مثار طعن أمام القضاء وقد صدر تعديل قانون السلطة القضائية حال صدور الكتاب، وتعمل الحكومة حاليا على تعديل القانون مرة أخرى فإن الموضوع يتجسد فى تدخل السلطة التنفيذية فى شئون القضاة، وقد استعانت الحكومة بأصحاب المنطق الصورى الذين قاموا بتعديل المادة ٨٨ من الدستور وأسندوا الإشراف على الانتخابات برمتها لهيئة عليا مشرفة على الانتخابات ونفوا قاعدة قاض لكل صندوق من النص الدستورى بحيث إنه لا يوجد طعن فى الدستور ذاته ويبقى الأمر فى يد هذه اللجنة العليا التى يصدر بتعيين أعضائها قرار إدارى أيا كان مصدره وقد بادر أصحاب هذا الرأى للقول بأن مصر مليئة بالشرفاء من غير القضاة الذين يجب أن يبقوا فى محاكمهم ولا تهتز هيبتهم بينما يكمن الرد- فى رأينا- على هذه الحجج فى أن العلة تدور مع الحكم وجودا وعدما وأن علة الإشراف القضائى وقاعدة قاض لكل صندوق هو أن حصانة القاضى تقيه من الضغوط؛ كما أن القضاة هم الطليعة فى ظل انحدار طليعة البرجوازية المصرية التى حملت لواء التغيير قبل ثورة ٢٣يوليو١٩٥٢ ومنهم سعد زغلول وقاسم أمين وذلك فى ظل النص القديم الذى استلزم الإشراف القضائى الذى قال فى الإشراف «أشرف عليه: تولاه وتعهده وراقبه وأشرف الشىء» أمكنه........ وولج الحكم إلى أن الإرادة المقصودة من الأعمال التحضيرية هو قصد إمساك أعضاء الهيئات القضائية تقديرا لحيدتهم وذلك لتدعيم الديموقراطية وكفالة مباشرة حق الانتخاب سليما غير منقوص.

وإذ عرض العوا بدراسة مستفيضة لوقائع هذه المرحلة مستعينا بذاكرة ما أطلق عليه مذبحة القضاة ١٩٦٩ وهى المذبحة الثانية إذ أن المذبحة الأولى كانت سنة ١٩٥٤، وقد نتج عن الثانية فكرة إدخال التنظيم الطليعى فى القضاء، بينما نرى نحن أن فكرة الآلية القانونية من متخصصين أضحوا يشرفون على الحياة السياسية القانونية ويصوغون ويسوغون للسلطة تعديل الدستور والقانون بما يخرج القضاة من حلبة الإشراف على الصندوق الانتخابى ومن ثم التدخل فى شئون القضاة بقانون إثر قانون حتى يتحقق لهم ما يصبون إليه وهو ما سبق أن أطلق عليه السنهورى «التعسف فى استعمال التشريع» ذلك أن هذه التشريعات ليس غايتها الصالح العام المشترك الذى يحمى الأمن والسكينة الاجتماعية والتقدم الاقتصادى والاجتماعى.

وفى تصورنا أن أصل ذلك يعود بدءا من قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، وكانت أول مشكلة واجهت الثورة[١٢]، هى الوصاية على العرش حين ترك الملك قبل سفره مظروفا مختوما بأسماء الأوصياء فى ظل دستور

القضاة هم الطليعة
فى ظل انحدار طليعة
البرجوازية المصرية التى حملت لواء التغيير
قبل ثورة ٢٣يوليو١٩٥٢ ومنهم
سعد زغلول وقاسم أمين





١٩٢٣ الذى كان ينص فى المواد ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ على ألا يؤدى أوصياء العرش عملهم إلا بعد أن يؤدوا لدى المجلسين (مجلسى البرلمان) مجتمعين اليمين باحترام الدستور وقوانين الأمة المصرية........ وأنه اثر وفاة الملك يجتمع المجلسان بحكم القانون فى مدة عشرة أيام من تاريخ إعلان الوفاة فإذا كان المجلس منحلا وكان الميعاد المعين فى أمر الحل لاجتماع المجلس الجديد يتجاوز اليوم العاشر فإن المجلس القديم يعود للعمل حتى يجتمع المجلس......... وقد اختلف الرأى: هل تطبق المواد الخاصة بالملك المعزول، ومعنى ذلك دعوة البرلمان الوفدى المنحل ليتم حلف اليمين الدستورية أمامه، أم تعتبر هذه الحالة حالة خاصة تواجه بإجراء جديد، وعندئذ لا يدعى البرلمان الوفدى المنحل....... وكانت وجهة نظر الوفد، كما عبر عنها فى ذلك الحين هى دعوة البرلمان السابق إلى الاجتماع لإعلان أسماء الأوصياء أمامه وقد قابل مصطفى النحاس على ماهر وأطلعه على آراء ثلاثة من رجال القانون الوفديين فى هذه المسألة الدستورية........ على أن القوى المناوئة للوفد لم تلبث أن سارعت لإحباط هذه المحاولة وأعلن مكرم عبيد وفتحى رضوان بالحزب الوطنى «أنه ليس لهذا البرلمان حكم فيما جاءت به الثورة، وقد يكون هذا البرلمان شريكا للملك المعزول فى أخطائه وآثامه التى استوجبت عزله وأثارت غضب الشعب عليه......أما الإخوان المسلمون؛ فقد اعتبروا أن الدستور لم يعد له وجود من ناحية الواقع ولا من ناحية الفقه، كما كان سليمان حافظ، وكيل مجلس الدولة حريصا أشد الحرص على عدم دعوة البرلمان الوفدى المنحل للانعقاد.

ويذهب د. وحيد رأفت عند أخذ الأصوات بعد هذه المناقشة التى شارك فيها عدد من المستشارين الحاضرين: «كنت وحدى صاحب الرأى القائل بأن يجرى على تنازل الملك عن العرش ما يجرى على حالة وفاته، وأنه يتعين بالتالى إعمالا لأحكام دستور ١٩٢٣ والأمر الصادر فى ١٣إبريل سنة ١٩٢٢ بشأن توارث العرش دعوة مجلس النواب المنحل ومجلس الشيوخ إلى الانعقاد فورا لاختيار هيئة الوصاية على العرش، ولكى يؤدى الأوصياء اليمين الدستورية أمامهما، بينما انقاد جميع زملائى الآخرين إلى جانب رأى الدكتور السنهورى ووكيله سليمان حافظ وصدرت الفتوى من قسم الرأى بهذا المعنى.......... وهنا ثرت فى وجه الزميل سليمان حافظ مذكرا بأنه لا يليق بسدنة القانون وحماته أن يستعدوا الحكومة على نواب انتخبهم الشعب لتمثيله. وأضفت وهو ما أثبته هنا للذكرى التى قد تنفع المؤمنين أننا بصدد انقلاب عسكرى لا يعلم إلا الله أين سيقود البلاد، وان واجبنا كحقوقيين مدنيين أن نتضافر لمواجهة ما يصاحب مثل هذه الانقلابات العسكرية من خطر على الحريات.

وما إن اطمأن[١٣] الدكتور السنهورى على مؤازرة مستشارى الرأى له حتى أخذ هو والأستاذ سليمان حافظ رئيس قسم الرأى فى إعداد التشريع المترتب على هذه الفتوى..... كما سارعا بإبلاغ الرئيس على ماهر بمضمون تلك الفتوى فقام بدوره بإبلاغها إلى اللواء محمد نجيب وزملائه قادة حركة الجيش، و حتى لا يترك لهم فرصة العدول عنها أو مجرد التفكير فى ذلك أمر بأن تذاع فورا من محطة الإذاعة لكى يسمعها القاصى والدانى.

ونحن نرى أن هذه الفتوى قد دشّنت لمفهوم تعدد الرؤى الذى يسود فقه القانون الإدارى بوجه عام، ولكن دوما يكون هناك راجح ومرجوح، ولاشك أن رأى الدكتور وحيد رأفت هو الرأى الراجح ويمكننا القول أنه الصائب إلا أن السنهورى ورفاقه رأوا الميل مع ثورة يوليو والوقوف فى وجه الوفد فصدرت الفتوى وبدأت مرحلة التوسيد للحكومة بآليات العقد والقرار وأفكار ابتدعها الفقه والقضاء لتمكن لسلطات الدولة من الحكم دوما بأطر قانونية، وثانى هذه المواقف كان تعديل قانون الأحزاب؛ إذ اقترح سليمان حافظ مشروع قانون بتنظيم الأحزاب السياسية وأخذ يدافع عن مشروعه فى صلابة ويجسد خطر الأحزاب على مسار الحركة، ويروى بعض المهازل والمفاسد التى أحاطت ببعض قادتها[١٤].

وما إن تولى محمد نجيب رئاسة مجلس الوزراء وصار سليمان حافظ نائبا لرئيس مجلس الوزراء ووزيرا للداخلية فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ حتى صدر المرسوم بقانون رقم ١٧٩ لسنة ١٩٥٢ بتنظيم الأحزاب السياسية فى ٩سبتمبر ١٩٥٢ .

وهذا المرسوم بقانون صدر خصيصا لضرب حزب الوفد، باعتباره الحزب الوحيد صاحب التأييد الشعبى الأوسع........... وكان المرسوم بقانون رقم ١٧٩ لسنة ١٩٥٢ بمثابة خطوة نحو محاصرة الأحزاب وإخضاعها لسلطة الجيش المتمثلة فى وزارة الداخلية».

ونرى هنا أيضا أن المشرع القانونى اتخذ شكل إصدار القانون للسيطرة على الأحزاب فيكون قد وسد للسلطة الوليدة السيطرة على العرش«سلطة رئيس الدولة» ثم السيطرة على الأحزاب.

ويأتى بعد ذلك الحادث الشهير فى اعتداء عمال النقل على السنهورى بمكتبه فى غضون أحداث مارس ١٩٥٤ الشهيرة التى عصفت بآلية تطبيق الديمقراطية إلى غير رجعة ويورد د. فاروق عبد البر صورة نشرتها جريدة كورييرديلاسيرا الإيطالية، فى ٣٠ مارس سنة ١٩٥٤، للدكتور السنهورى، عقب الاعتداء عليه من جانب العسكر وتابعيهم فى ٢٩ مارس سنة ١٩٥٤ . فبعد أن مكن القانونيين للسلطة الوليدة، قامت بالاعتداء عليهم تباعا بدءا من السنهورى وسليمان حافظ الذين نجد أشباها لهم فى أروقة السلطة الحالية على كل شكل ولون.

ويبدو الطرح ذاته برؤية جلية فى كتاب المستشار طارق البشرى: مصر بين العصيان والتفكك، إذ يذهب إلى أنه لا يتفق مع الحديث عن الدعوة لتعديل الدستور لما يلى:

١ ـ أن المشاكل التى نعانى منها ليست من نقص فى الدستور ولكن من عدم تطبيق الجانب الإيجابى فيه.

٢ ـ أن المطالبة بتعديل الدستور قبل علاج المشاكل الراهنة التى أفضت إلى عدم تطبيقه لن تحل المشكلة التى ستستمر بعد تعديل الدستور.

٣ ـ أن تعديل الدستور يمكن أن يبرر إجراء تعديلات تنتكس بالحالة الدستورية ولا تطورها.

وطالب بإلغاء حالة الطوارئ التى استمرت منذ أكتوبر ١٩٨١ وعند إجراء الانتخابات أن تجرى بغير ضغط وطبقاً للقانون وأحكام المحاكم وأن سلطة التنفيذ المندمجة بالتشريع أدت للاندماج بما لا يقوم به فى الواقع أى تعدد أو تنوع أو تداول فى الهيئة القابضة على سده الحكم والمطلوب أيضاً فك القيود التى وردت فى قانون الأحزاب بالنسبة لحرية التكوين الحزبى والنقابات المهنية. وطالب بتحرير الجمعيات التعاونية من تبعيتها لوزارة الشئون الاجتماعية وتخفيف سلطة وزارة العدل على القضاة. وجدير بالبيان أن فكرة تشخيص الدولة وشخصنة السلطة تناولها كثير من الكتاب وأخص منهم بالذكر نبيل عبد الفتاح[١٥] الذى ذهب إلى أنها نزعة عمدية .. اختطفت منها الدولة لصالح مصالحها الطبقية الضيقة؟ لصالح جماعة معينة وتناول أسباب هذه الظاهرة فى شخصنة الحاكم وامتداد عمليات الشخصنة من قمة الصفوة العليا إلى المراتب السلطوية الأدنى فى المستويات السياسية والحكومة ثم أمتد إلى الجهاز الإدارى حتى صغار الموظفين العموميين.

٢ ـ ظواهر الفساد السياسى والبيروقراطى وفى المحليات اجتاحت أجهزة الدولة وشاعت من قمة الهرم السياسى والاجتماعى والبيروقراطى إلى قاعدته مروراً بوسطه مما أدى إلى شيوع إحساس لدى غالبية الجمهور بأن الدولة لم تعد الإطار الجامع لكل المصريين وإنما إدارة تدار من خلال قلة تحتكر السلطة والقوة والثروة العمومية وإصدار القرارات.

٣ ـ أدى فساد المصارف العمومية وسوء إدارتها وغياب الشفافية والمساءلة القانونية إلى تدخل ذوى السلطة الواقعية المطلقة والنفوذ السياسى فى عمليات توجيه رؤساء ومديرى البنوك ومنح تسهيلات لرجال الأعمال.

٤ ـ أن ظواهر نهب ونهش المال العام بلا رادع أو ضابط أو رحمة أو خلق أو دين امتد إلى المحليات وأجهزة الحكم المحلى والمجالس

ضعف وإذعان القانون وقواعده أدى إلى هيمنة قوانين الفساد وأبرز قواعده تمثلت فى بيع الخدمات والتراخيص والقرارات فى سوق بيع صلاحيات الوظيفة العامة عبر الرشوة والارتشاء

الشعبية التى قيل فيها أن فسادها لا حدود له قط وبحيث بات هو القانون الحاكم لمعاملاتها.

٥ . ضعف وإذعان القانون وقواعده أدى إلى هيمنة قوانين الفساد وأبرز قواعده تمثلت فى بيع الخدمات والتراخيص والقرارات فى سوق بيع صلاحيات الوظيفة العامة عبر الرشوة والارتشاء . وإذ انتهى فكر نبيل عبد الفتاح وضيف إليه البشرى الذى يؤسس لفكرة الدولة المشخصنة وهى الدولة القائم عليها لا تربطه عائلة قبلية ولا نقابة أو جماعة دينية ولا حزب سياسى أو طبقة اجتماعية وهو يسيطر بذاته على مفاتيح السلطة وتغير آلة الحكم وأجهزته كلها تحت أمرته ولا يقيده إلا الإمكانيات المادية للدولة وأجهزتها فى الحركة والنفوذ وهو يتغلب على ضغط عمال الدولة عليه بأن يشخصن الفئة المحيطة به من العاملين معه بإبقائهم فى وظائفهم أطول مدة ممكنة بحيث تحل العلاقات الشخصية محل علاقات العمل الموضوعية والمهم أنه لا يقوم من خارج إطار أجهزة الحكم ما يكون ذا تأثير عليه ولا تقوم آلية ما للتبادل والتأثير معه وهو خارج إطار السلطة والوظائف الرسمية. ومن الممكن القول أنه للأسباب السابقة مجتمعة. دعى طارق البشرى إلى العصيان ذلك أن الشخصنة أدت إلى استخدام الدولة للعنف وهو الحل الجاهز دائماً والسريع لمواجهة أى تحرك أو تجمع ولو فى مهده لإجهاض ما يتكون وردع ما هو فى طريق التكوين. ويستشهد بعبارة غاندى «أن الحاكم عندما يواجه الحركة الشعبية السلمية بالعنف يكون كمن ضرب بسيفه الماء ليقطعه» فالعنف لا يهزم الحركة السلمية مهما آذى رجالها فلا بد للحاكم من الشرعية مهما كان ذات سلطات مطلقة ويستشهد بتجربة الهند ويذهب إلى أن ما أدركه غاندى أن الإنجليز ما كانوا يستطيعون أن يحكموها بغير تعاون الهنود وخضوعهم لذا عمل غاندى على إنهاء هذا التعاون».

وجدير بالبيان أن ما قاله طارق البشرى هو ذات ما قاله نبيل عبد الفتاح فى مؤلفه سالف البيان عن الدولة والانقسام الجماعى وجمهورية الخوف الذى يأكل الروح والنفاق والفساد الذى يقف ضد قيم الجمهورية والمواطنة والاندماج القومى مما أدى إلى نشأة الحكومة الرخوة وأدت النخبة الحاكمة إلى تحطيم الأمة وغابت كوادر الصف الثانى بما يعنى استمرار الفشل وازدراء الجماهير ويتناول البشرى فكرة الإصلاح السياسى مروراً بالإصلاح الدستورى وأن تعديل المادة ٧٦ لا يظهر أثره إلا بعد خمس سنوات من سنة ٢٠٠٥ إلى ٢٠١١ ولذلك لن ينتهى الحكم الشخصى وفرض سلطة أجهزة الدولة إلا بوضع حد أقصى للمرة التى يمارس فيها الرئيس سلطته على هذه الأجهزة. وأن يكون مسئولاً أمام هيئات دستورية عما يرسم من سياسات ويتخذ من قرارات وما ينفذ من أمور.

ويرى أن الرقابة الخارجية على أى من شئوننا فى الانتخابات أو غيرها لن تنتج إلا مزيداً من التفكيك، و ينبغى أن نشغل همومنا بإضعاف مؤسسات وأجهزة بنيت بجهود الأجيال وصارت جزءاً من ثروتنا الوطنية ويستشهد بأن الوطنيين أمثال محمد شريف أيام الخديو إسماعيل كانوا حريصين على ألا تمتد الرقابة الأجنبية إلى تكوين الإدارة المصرية.ونضيف نحن نريد أن نقاوم عوامل التفكيك وقواه واقترح أن يتم قصر مدة الرئاسة على مرتين وأن الفصل فى صحة عضوية أعضاء البرلمان يكون لهيئة قضائية «لمحكمة النقض أو المحكمة الإدارية العليا».

وفى المسألة القضائية فقد قال طارق البشرى القول الفصل بأن عقداً قد انفرط وأن جهاز آلياً قد تفككت أجزاؤه ويأتى ذلك من اللاسياسة بصدد المسألة القضائية التى عرفت أول أحداثها حين كان النظام القضائى يلفظ أنفاسه وشاء له أن يقدم خصومه للقضاء وعرضت الدعوى على رئيس دائرة يطمئن الملك وحاشيته إلى تفهمها لرغباته وكان رئيس الدائرة يبلغ سن التقاعد فى يونيو ١٩٥٢ وعرضت الحكومة اقتراحا بمد سن الإحالة للتقاعد واجتمع نادى القضاة ورفض مد السن وبعد هزيمة ١٩٦٧ وفى سنة ١٩٦٨ بدأت الطريقة ذاتها وهى محاولة النظام السياسى فى حالة الضعف الذى سببته الهزيمة وحاول إدخال القضاة فى التنظيم السياسى وعن طريق إدخال عناصر من غير القضاة فى تشكيل المحاكم وهنا جاءت وقفة القضاة فى ناديهم وإصدارهم ما عرف باسم بيان ٢٨ مارس ١٩٦٨ ويقول «كما جرت أحداث سنة ١٩٥٢ فى نهاية نظام سياسى جرت أحداث سنة ١٩٦٩ فى نهاية نظام آخر».

ويضيف أن الوقفة الحادثة فى سنة ٢٠٠٦ أقوى الوقفات التى يقفها القضاة دفاعاً عن استقلالهم فى استمراريتها، وفى حدة الصراع القائم بشأنها؛ إذ لم يحدث قط فى الماضى أن ضرب قاضى من القضاة فى الشارع؛ كما حدث فى يوم ٢٤ ابريل ٢٠٠٦، ولم يحدث قط أن قدم شيوخ أجلاء من رجال القضاء إلى المحاكمة التأديبية (لجنة الصلاحية) التى يقدم إليها من ينسب إليهم الانحراف.

ونرى أولاً: أن النظام ظل يستند لفترة طويلة فى شرعيته لثورة يوليو ١٩٥٢، ثم تحول بعد فترة ليسند ذلك إلى ما أطلق عليه «روح أكتوبر١٩٧٣»، وقد حمل لفترة راية الحرية الاجتماعية وتبنى الدولة للتنمية فى مقابل تقييد بعض الحريات السياسية وبرر ذلك بأحداث الإرهاب، ثم بدأ النظام يبحث عن شرعية جديدة، فتم التمهيد النيرانى بتعديل المادة ٧٦ من الدستور بحيث يباح لأشخاص متعددى الترشيح لرئاسة الجمهورية، وقد قام أحد القائمين على صياغة التشريعات بإعداد تعديل لنص المادة «٧٦» من الدستور أجرى عنه استفتاء دستورى فى ٢٠٠٥/٥/٢٥، ودليل خطئها وإثمها أن السيد رئيس الجمهورية بذاته هو من طلب تعديلها مرة ثانية فيما بعد، وكان يتم بيع شركات القطاع العام بالقانون رقم ٢٠٣ لسنة ١٩٩١ رغم مخالفة ذلك لنصوص المواد ٣٠. ٣٤ (الملغاة) من الدستور، وصدرت قوانين التحول الاقتصادى وهى قوانين البورصة، والتحكيم رقم ٢٧لسنة ١٩٩٤ لتحمل شرعية مغايرة وجديدة وهى تلك التى يحمل بمقتضاها رجال الأعمال لواء التنمية لذلك كان من الضرورى إجراء تعديلات دستورية حتى لا يطعن على بيع شركات القطاع العام بعدم الدستورية، كذا إجراء تعديلات تشريعية لحماية رأس المال الخاص الذى دشن النظام فى شرعيته الثالثة أنه يقود قاطرة التنمية وإذ أحدث القضاة إحراجا للنظام لم يكن فى الحسبان فى الانتخابات التشريعية سنة ٢٠٠٠، وسنة ٢٠٠٥ إذ نجح فى هذه الانتخابات تيارات من المستقلين وغيرهم من المعارضين وندد القضاة فى ناديهم بالمخالفات التى تمت فى هذه الانتخابات وطالبوا بالإشراف القضائى الكامل عليها، واحترام أحكام القضاء فى خصوصها وعدم الالتفاف على الأحكام بالقول بأن الفصل فى صحة العضوية البرلمانية ينعقد للبرلمان «سيد قراره» وضرورة تعديل قانون السلطة القضائية بما يحقق استقلالها عن السلطة التنفيذية لذلك كان من الضرورى فى هذه الحالة استبعاد الإشراف القضائى بعد أن صار نادى القضاة بيت الأمة وتجسد فيه مفهوم البطل الشعبى الذى تحقق قبله لأشخاص مثل أحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد، وبعد أن طرحت فيه وبمناسبته أطروحات الإصلاح ومنها أطروحة د. يحيى الجمل والمستشار طارق البشرى الذى نادى بالعصيان ورفض ونرفض معه التدخل الأجنبى، ولكن نتمثل قول شعيب: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله».

ثانيا: إذا تعرضنا للسلطات الثلاث وما فعلت فيها جمهورية الخوف التى تأكل الروح نجد أن السلطة التشريعية يتم اختيار أعضائها عن طريق الانتخاب الذى يتم عبر تجييش الحكومة والحزب الحاكم لإنجاح أشخاص محددين يظلون مدينين بالولاء لصاحب الفضل. أما عن السلطة التنفيذية التى تتكون من مجلس الوزراء والوزراء والمحافظين الذين يعينون بقرارات جمهورية ويغدون موظفين عموميين يتلقون الأوامر وفق قواعد التبعية الرئاسية، أما عن السلطة القضائية فقد تم استعراض ما تم حيالها.

ثالثا أما عن استشرافنا لما سينجم عن ذلك التمهيد لتزاوج رأس المال والسلطة فلتأصيل فكرة السلطة التى يتعين

قال طارق البشرى القول الفصل بأن عقداً قد انفرط وأن جهاز آلياً قد تفككت أجزاؤه ويأتى ذلك من اللاسياسة بصدد المسألة القضائية التى عرفت أول أحداثها حين كان النظام القضائى يلفظ أنفاسه

عليها تحقيق العدالة يجب استعراض خلاصة آراء الفقهاء فى هذا الصدد والتى يمكن إجمالها فيما يلى:

يورد «جون لوك» ١٦ فى كتابه الحكومة المدنية فكرة عقد الأشراف الذى يبرمه الأشراف نيابة عن الشعب مع الحكومة واستلزم من الحكومة الوفاء للشعب بثلاث احتياجات «قانون مقرر ومعروف وقاضى منزه وقوة تنفيذية لفرض القرارات العادلة مع وجود فصل بين السلطات» كما أوجب «مونتسكيو» فى كتابه روح القوانين إلزام الحكومة بإجراءات تتسم بالحرية فى سن التشريع وقد بدت جليا فكرة العقد الاجتماعى عند جان جاك روسو بضرورة صدور القانون بإرادة عامة. وعند هيجل فإن حريات الأفراد لا تصبح شيئا ملموسا إلا إذا جعل الفرد من المصلحة المشتركة رائدة. وأجمل «بنتام» فى كتابه «مبادئ الأخلاق والتشريع» أن غاية التشريع تحقيق المصالح الاجتماعية بالحفاظ على مستوى لائق للحياة الإنسانية وقد أضاف فقهاء القانون مثل «دوجيه» إلى ما تقدم وجوب إضافة الروح التضامنية بإرساء الحقوق الطبيعية للأفراد التى تتجسد فى وجود قانون طبيعى. وأخيرا يتمسك الفقه الألمانى بضرورة تدخل الدولة لإعطاء الأفراد حقوقها مع الاعتراف بوجود مجال للحقوق الفردية والفصل بين السلطات ويتساءل الفقه الألمانى هل يمكن تجاهل الحرية؟! بالطبع فإن الإجابة هى النفى. ونعود إلى فكرة الصالح المشترك الذى يتكون من مجموع صوالح الأفراد بما يتضمن العدالة الاجتماعية -أول فروع الصالح المشترك- التى يجب أن تتأسس على العدالة التوزيعية فتتوزع الثروة على كافة أفراد الشعب بمساواة تناسبية؛ إذ لاشك أن المساواة مرتبطة بالحرية، ويتفرع عن ذلك مساواة الرجل بالمرأة وعدم تمييز أبناء طائفة على أخرى. و السكينة الاجتماعية هى ثانى فروع الصالح المشترك التى تتأسس على فكرة الشرعية وهى خضوع الجميع للقانون ومنهم الحكومة. ويأتى التقدم الاجتماعى الذى يبدأ بالحرية ومنها حرية الفكر والتعبير بما يتضمن حرية الصحافة وحقوق تكوين الأحزاب والنقابات والجمعيات ونقد العمل العام. وبناء عليه؛ تأتى فكرة تداول السلطة.

هذه الأفكار التى تضمنتها الفلسفة الدستورية وإعلانات حقوق الإنسان تتجسد فى عبارة واحدة «القيمة التى تستوعب كل قيم الحرية والعدالة والمساواة لتحقيق المنافع اللازمة للحياة الإنسانية، وقد استقر الفقه القانونى على أن الدولة تتكون من شعب وإقليم وسلطة سياسية، فإذا لم تقم السلطة السياسية بتحقيق الصالح المشترك أو الصالح العام وفق ما تقدم ولم تحقق مبدأ الفصل بين سلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية؛ فقد افتقدت الشروط الواجبة لاعتبارها سلطة، وهو ما أضحى جليا فى شخصنة السلطة. والأسباب التى أوردها تفصيلا الأستاذان طارق البشرى ونبيل عبد الفتاح ونعزوها لتزاوج رأس المال والسلطة الذى ستصل فيه مصر إلى مرحلة ما بعد الليبرالية المتوحشة. وإزالة أسباب هذا الانهيار فى رأينا. يأتى بالعودة إلى مفهوم الدولة المدنية التى تتحقق فيها العدالة- بمفهومها العام فضلاً عن عدالة توزيع الثروة بين المواطنين كافة- والشفافية، كما تمارس السلطة بأطر ديمقراطية يتحقق فيها الصالح المشترك للمواطنين كافة. ■

هـوامـش:

١. د. جعفر عبد السلام: مبادئ القانون الدولى العام. دار النهضة العربية سنة ١٩٨٦ ص ٣٠٧

٢. د. يونس العزاوى: مشكلة المسئولية الجنائية الشخصية فى القانون الدولى. مطبعة شفيق بغداد سنة ١٩٧٠ ص ٢٩

٣. د. سليمان الطماوى سالف الإشارة ص ٥٨٣

٤. يراجع بهذا الصدد كتاب: د. فاروق عبد البر: موقف عبد الرزاق السنهورى من قضايا الديمقراطية على نفقة المؤلف (د ش) سنة ٢٠٠٥ ص ١٢٦. ١٥٦،

٥. مجلة مجلس الدولة س ٢، يناير ١٩٥١، ص ٥٠٠ وما بعدها

٦. مجلة مجلس الدولة س ٤ ص٥٠٤ وما بعدها

٧. د. فاروق عبد البر سالف الإشارة ص ١٥٧

٨. ونرى أن هذه التعديلات الدستورية لا تستند إلى شرعية ثورة ٢٣يوليو١٩٥٢ بأى حال

٩. (الطعن رقم ١٣٣ سنة قضائية ١٩ مكتب فنى ٩ تاريخ الجلسة ٠٣ / ٠٤ / ١٩٩٩) (صفحة رقم ٢٣٧).

١٠. د. محمد سليم العوا: القاضى والسلطان الأزمة القضائية المصرية دار الشروق سنة ٢٠٠٦ ص ١٤.

١١. د. محمد سليم العوا سالف الإشارة ص ١٨ وما بعدها.

١٢. د. فاروق عبد البر: موقف عبد الرزاق السنهورى من قضايا الحرية والديمقراطية ٢٠٠٥ د ن ص١٠٣

١٣. د. فاروق عبد البر المرجع السابق ص ١١٠ وما يليها.

١٤. د. فاروق عبد البر المرجع السابق ص ١٤١.

١٥. الحرية والمراوغة دار ميريت القاهرة سنة ٢٠٠٥ ص ٣٥.

١٦. راجع مؤلفنا بالاشتراك مع د. نعيم عطية الفلسفة الدستورية للحريات الفردية دار الكتب القانونية سنة ٢٠٠٦ (تناولنا ماضمه الكتاب من آراء الفقهاء بصفة عامة).

كتاب الزاوية

لم يبق إلا التنفيذ

مذكرات عريان يوسف سعد

خفق قلبى. لقد حانت الساعة. فقمت أقصد منتصف الشارع حيث صممت على مواجهة السيارة. وإذا السيارة تخرج من شارع قصر النيل وخلفها موتوسيكل يعرج إلى اليمين فيدخل من شارع سليمان باشا فى الاتجاه الآخر فعجبت، ثم فطنت إلى الغلطة الهائلة. لقد حسب صديقى أن السيارة القادمة سيارتنا المقصودة وأوهمه الموتوسيكل الذى يتبعها أنه موتوسيكل الحرس. إن فى السيارة سيدة وأطفالها!! يا للهول! لو لم أفطن لهذا الخطأ!!

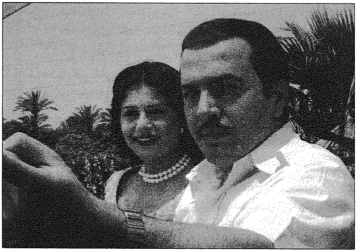
وعدت لأجد صاحبى فى البيت فما أن رآنى حتى عانقنى وهو يكاد يبكى. لقد كتب الله لنا النجاة من ارتكاب جريمة كانت كافية لتشويه حركة الاستقلال كلها.

أسرعت نحو الشارع فتوسطته وإذا السيارة والجنديان راكبا الموتوسيكل خلفها تخرج من شارع قصر النيل، وتدور فى الميدان فوقفت فى وجهها. وأخذت القنبلة من جيبى وقلبتها وقذفتها نحو السيارة القادمة. وكان السائق أسرع منى فدار بالسيارة حول نفسها ووقف وقفة فجائية واستقرت القنبلة بجانب العجلة الخلفية وانفجرت، وما كادت تنفجر حتى كانت القنبلة الثانية تنفجر فوق السيارة.

سقط الجنديان وموتوسيكلاهما، ونهضا لينضما إلى اثنين قفزا من السيارة، وأحاط الجميع بى وكل منهم شاهر مسدسه على رأسى. قال الضابط: معك إيه؟ قلت: مسدسان. قال: سلمهما. خطر لى خاطر كالبرق. إن أنا وضعت يدى فى جيبى، وأخرجت المسدس ربما أطلقوا علىَّ النار. قلت له: مد يدك وخذهما. مد الضابط يده فى جيبى فأخرج مسدسًا، ويده فى الجيب الآخر فأخرج المسدس الثانى. لم يستغرق ذلك كله نصف دقيقة.

فاروق «التليفزيونى»!

بشير الكاتب



فاروق وفريدة.. فى المسلسل (٢٠٠٧)



.. وفى الواقع (١٩٣٦)

لقد استمتعنا بمشاهدة المسلسل التليفزيونى «الملك فاروق»، لأنه كان يمثل حقبة مهمة من تاريخ مصر الحديث. وكان الأستاذ عمار أبوعابد قد كتب كلمة عن هذا المسلسل فى العدد ٩٩٨٦، بتاريخ ٢٦ أيلول ٢٠٠٧ من صحيفة تشرين، وكذلك فى العدد ٩٩٩٤، بتاريخ ٢٠٠٧/١٠/٦ فى نفس الصحيفة، فأظهر قيمة المسلسل من ناحية التمثيل والإخراج، ولكنه أشار بأن المسلسل كان محاولة لإحياء ذكرى العهد الملكى فى مصر ومحاولة لاستعطاف الرأى العام عنه أو رد الاعتبار له.

ومع كل تقديرى لفكرة الأستاذ أبوعابد، إلا أننى أعتقد أن الدكتورة لميس جابر كتبت المسلسل بموضوعية دقيقة، وراعت التسلسل التاريخى للحوادث وصورت تلك الفترة من تاريخ مصر تصويراً حقيقياً دون أى تحيز، وكان هذا المسلسل مبادرة جيدة منها لكى يطلع الجيل الجديد على الحقائق التاريخية بشكل موضوعى. فتلك الفترة من تاريخ مصر لم تكن كما قد يتصورها البعض فترة مظلمة تعج بالخيانة والفساد، وليس الملك رغم العديد من تصرفاته التى ترجع بشكل أساسى إلى عدم نضجه فى الحكم والسياسة، بالملك الخائن أو الظالم، وإنما كان يتمتع بالعديد من الخصال الطيبة والمزايا الإنسانية التى كان يمكن أن تُستثمر فى الطرق الصحيحة لو قدر له من يقف بجانبه كمرشد أو ناصح أمين.

ولا شك أن إنتاج المسلسلات التاريخية أمر ليس بالسهل. وقد يستطيع المخرج أن يعتمد على التماثيل الباقية فيخرج مسلسلاً عن زنوبيا ملكة تدمر أو كليوباترا ملكة مصر، أو يستعين باللوحات والرسومات التى تمثل غزو نابليون لمصر والمعارك التى جرت بينه وبين المماليك، أو حملة نابليون إلى روسيا وعودة جيشه المهزوم منها. ولكن كيف يتمكن من إخراج فيلم عن معركة اليرموك وفتح بلاد الشام أو فتح عمورية من قبل المعتصم أو فتح الأندلس من قبل طارق بن زياد. أو هرب صقر قريش من دمشق إلى الأندلس وتأسيسه للدولة الأموية هناك، إذ لا يوجد أى تماثيل أو لوحات تجسد تلك الحوادث.

ما أود أن أقوله: إن إخراج الدراما التى تمثل التاريخ الحديث لا يقبل انحرافاً عن الواقع أو تحويراً لما كانت الأمور عليه، لأن الصور الوثائقية موجودة وهى فى متناول يد المخرجين، ولا تحتاج إلا إلى دقة وصدق فى النقل إلى المشاهد..

بالنسبة لمسلسل «الملك فاروق»، لا شك أن الحلقات قد تمكنت من سرد الحوادث المختلفة اعتباراً من تولى الملك فاروق العرش حتى نهاية النظام الملكى بكل دقة وأمانة تاريخية، ولم تهمل تقريباً حادثة أو مناسبة مهمة وذلك وفقاً للتسلسل الزمنى الصحيح.

الكاتبة لم تحاول أن تبرئ العهد الملكى أو تستدر العطف عليه، ولكنها عرضت الواقع السياسى المصرى كما كان بكل موضوعية، وتركت الحكم للمشاهد. وأعتقد أنها قامت بمهمة تاريخية قيمة، حيث أتاحت الفرصة للجيل الحاضر أن يطلع على مجريات الأمور فى مصر اعتباراً من الربع الثانى للقرن العشرين، وألا يكون متأثراً أو محكوماً بمقولة معينة فرضتها الظروف السياسية اللاحقة. وصحيح أن المعلومات التاريخية حول تلك الحقبة أصبحت متوفرة وخاصة فى السنوات الأخيرة، ليس فقط فى الكتب وإنما فى الدوريات على تباينها فقد أفردت مجلة «الموعد» مؤخراً حيزاً فى كل عدد للملك فاروق بقلم «محايد» ذكرت فيه الكثير من المعلومات حول فاروق وحكمه، كما أنه قد صدرت فى مجلة «وجهات نظر» مقاطع من مذكرات السفير البريطانى السير مايلز لامبسون وبشكل خاص فيما يتعلق بحادثة ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢.. ولكن الكاتبة تمكنت من سرد جميع المعلومات المتعلقة بحكم الملك فاروق. واستطاعت بشكل يستدعى التقدير تصوير الحوادث المختلفة وخاصة حادثة ٤ فبراير، والمقابلة التى جرت بين الملك والسفير البريطانى بعد محاصرة قصر عابدين، فعرضتها فى منتهى الأمانة، وأنصفت فاروق، هذا الشاب الأغر الذى كان فى الثانية والعشرين من عمره، كيف تصرف بحكمة وجنب بلاده هزة عنيفة، وختم مقابلته للسفير البريطانى بتهكم ذكى، حينما أبلغه سبب عدم توقيعه على وثيقة التنازل عن العرش التى عُرضت عليه وقد كُتبت على ورق عادى لا يليق تقديمه إلى الملوك، وإذا كانت عند السفارة الإنجليزية أزمة ورق، فكان بإمكان السفارة طلب إمداد من الورق من القصر.. هذه الكلمات تدل على ذكاء ورباطة جأش عفوية من ملك كان عرشه فى مهب الريح!.. وهذا مثال على أن المسلسل تمكن من عرض الوقائع المختلفة بأسلوب جذاب وصادق، مما يجعل المشاهد الذى كان متأثراً بالمقولات المختلفة عن الملك فاروق

رغم أننى سورى، فإنه قُدر لى أن أعايش تلك الفترة من تاريخ مصر أولاً بسبب عمرى. وثانيًا بفضل متابعتى لقراءة المجلات المصرية كالمصور والاثنين والدنيا، وآخر ساعة وأخبار اليوم والهلال التى كان والدى مشتركًا بها

يراجع نفسه فى محاولة لتصحيح «بعض» معلوماته السابقة..

أما بالنسبة للإخراج، فلا شك أنه يجب علينا أن نهنئ الأستاذ حاتم على.. فهو أولاً فى عمر لا يسمح له أن يكون شاهدًا على الوقائع التى جرت فى الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن الماضى، ثانيًا: أنه سورى لم يعش فى مصر ولا أظن أنه كان على اطلاع على ما كان يجرى فى مصر إذا لم يكن قارئًا متابعًا للصحافة المصرية فى ذاك الزمن.. ولا أدرى إذا تيسر له ذلك!.. حين إعداد هذا المسلسل، فالمخرج الذى يقوم بإخراج مسلسل كهذا المسلسل يجب أن يكون مطلعًا على أدق التفاصيل للحياة السياسية المصرية فى تلك الفترة أو أن يتمكن من الاستعانة بمن سمحت له سنه وظروفه وتنشئته أن يكون واقفًا بدقة على ما كان يجرى فى مصر فى تلك الآونة. ولذا فللأستاذ حاتم على العذر كل العذر إذا لم يتمكن أحيانًا من التحكم فى الشخصيات أو فى التصرفات التى كانت تصدر عن شخصيات ذاك الزمن، مما قد لا يتطابق مع ما كانت عليه فى الواقع.

وأنا رغم أننى سورى، فإنه قُدر لى أن أعايش تلك الفترة من تاريخ مصر أولاً بسبب عمرى. وثانيًا بفضل متابعتى لقراءة المجلات المصرية كالمصور والاثنين والدنيا، وآخر ساعة وأخبار اليوم والهلال التى كان والدى مشتركًا بها، وكنت فى سن أتوق فيها إلى القراءة بنهم فتجمعت فى ذاكرتى معلومات كثيرة عن تلك الحقبة من تاريخ مصر.

أ ـ شخصيات المسلسل:

١ ـ الملك فاروق: لقد كان اختيار الفنان تيم الحسن، اختيارًا موفقًا جدًا جدًا، ولا أظن أنه يوجد بسهولة بين الممثلين العرب من هو أفضل منه ليلعب دور الملك فاروق وخاصة فى شبابه، وحتى بعد أن تخطى الأربعينيات وبدأ وزنه يزداد وشعره يقل.. وربما كان يجب أن يكون تساقط شعر الرأس تدريجيًا، لا كما حدث فى المسلسل فجائيًا فى الحلقات الأخيرة. وقد ترافقت فترة تساقط الشعر مع استعمال النظارة الطبية وعلى الأغلب السوداء، وهذا ما كان عليه الأمر فى الواقع.

ولقد ظهر فاروق بصفاته المختلفة، فهو ملك لم يشبع مراهقته كشاب، وصاحب نزوات وميل إلى التفرد فى الرأى والسيطرة، ويحمل عواطف مضادة نحو السفير البريطانى وبالتالى إلى الإنجليز ويميل إلى أعداء الإنجليز الذين هم الطليان والألمان. وكان يقع دون شك تحت تأثير حاشيته وخاصة الطليان منهم كـ (بوللى)، ولكنه من جهة أخرى لم يكن بالملك المستبد الفرد بل يحكم ضمن قيود من الدستور الذى لا يمكنه أن يخالفه. ولم يكن يستعمل العنف أو الظلم أو التعسف تجاه من لا تروقه تصرفاتهم، وحتى إنه كان يتمتع بروح إنسانية تجاه البسطاء من حاشيته ويريد الخير للأمة المصرية مع شعور وطنى تجاه القضايا القومية كالجامعة العربية وفلسطين.

ولقد أثرت حياته الخاصة على سلوكياته، فعلاقته بزوجته فريدة (صافيناز ذو الفقار) قد بردت تدريجيًا، التى انتهت أخيرًا بالطلاق. من ناحية أخرى، فإن سيرة والدته الملكة نازلى أصبحت موضوعًا متعبًا ومقلقًا له، فهى تريد بحكم الأمومة أن تعامله كولد لا كملك مسئول أمام الحكومة والشعب.. وعلاقة والدته بأحمد حسنين اضطرته أن يقبل الأمر الواقع ويوافق على زواجهما، ثم حادثة طلاق شقيقته الأميرة فوزية من شاه إيران كانت صدمة بالنسبة إليه. وأخيرًا أتته الطامة الكبرى وهى علاقة والدته برياض غالى ثم ما أنتجته هذه العلاقة من زواج غالى بالأميرة فتحية ثم زواج الأميرة فائقة بفؤاد صادق.. وكلا الزواجين لم يكونا مناسبين ولكن زواج الأميرة فتحية برياض غالى كان بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير، لاختلاف الدين وسوء السيرة الذاتية والتفاوت الاجتماعى الكبير بين الطرفين، ذلك مما حدا الملك إلى اتخاذ إجراءات قاسية بحق والدته وشقيقته فتحية. وقد تمكن الفنان تيم الحسن من تجسيد هذه الاضطرابات الشديدة التى تعرض لها فاروق بكل براعة.

ويقال إن فاروق كان يتصرف أحيانًا بعصبية شديدة وقد يرفع صوته أمام والدته.. ولكنه كان قادرًا من جهة أخرى رغم صغر سنه على ضبط أعصابه والتحكم بها فى الأزمات المهمة، وأكبر مثال على ذلك تصرفه مع السير مايلز لامبسون «يوم ٤ فبراير». وربما يمكن أن يؤخذ على الفنان تيم الحسن أن صوته كان أحيانًا خافتًا إلى درجة يصعب فهم ما يقوله، وقد يكون ذلك راجعًا إلى الموسيقى التصويرية العالية التى كانت ترافق أغلب أجزاء المسلسل.

٢ ـ الملكة نازلى: لا شك أن الفنانة وفاء عامر التى تتمتع بجمال مبهر تمكنت من تمثيل دور الملكة نازلى بكل براعة وإتقان، وإن كانت الملكة نازلى أقل جمالاً منها. ولقد مثلت الفنانة وفاء عامر دور الملكة الأرملة التى عاشت مع زوج ملك يكبرها بسنين عديدة، فلم ترتوِ من الحياة الصاخبة التى تتوق إليها ولم تُشبع العواطف المتأججة التى كانت بداخلها. وقُدر لها أن تعرف حسنين منذ سنوات عديدة وتعجب بشخصيته الهادئة القوية وتصرفاته المتزنة الجذابة، فوقعت فى حبه وتعلقت به وكان آخر المطاف أنها تزوجته رغم كل محاولات ابنها الملك لثنيها عن هذا الموضوع. وربما يمكن أن يؤخذ على المخرج أنه لم يظهر أثر السنين على وجه الملكة نازلى، فقد بقيت حتى آخر المسلسل محتفظة بنضارتها ورشاقتها وحيويتها.

٣ ـ أحمد محمد حسنين: لقد تم اختيار الممثل عزت أبوعوف لهذا الدور، وأعتقد أنه ربما كان من الأفضل إعطاء هذا الدور إلى الممثل هشام سليم، فهو بقليل من الماكياج، كان يمكن أن يكون نسخة طبق الأصل من أحمد حسنين، فالفنان أبوعوف، رغم قامته التى تشبه قامة حسنين، فإن وجهه لم يكن يتطابق مع سحنة أحمد حسنين الهادئة. وأحمد حسنين كان لا يفرق تسريحة شعره، بل يسرحه إلى الخلف، وشارب أحمد حسنين ليس كما كان عليه شارب عزت أبوعوف رفيعًا دقيقًا وساكنًا كشارب كلارك غابيل. وحسنين كان يضع طربوشه بشكل مستقيم وليس بميل إلى الجهة اليمنى مع الشرابة. وحسنين كان معروفًا بأنه يتحدث بهدوء وبطء، وليس بعنف وسرعة وحدة ودائمًا مع حاجبين مقطبين.. وفى أحيان كثيرة كان يتكلم بسرعة لا تفهم معها كلماته. وكان حسنين رجلاً فى غاية التهذيب والأدب ولا يمكن أن ينسى أصول البروتوكول الملكى سواء فى حديثه مع الملك فلا يمكن أن تتكلم معه ويده فى جيب بنطاله (كما فى الحلقة ١٣)، أو أثناء حواره مع الملكة نازلى، فهو مهما شعر بتعلقها به، فلا أعتقد أن تهذيبه كان يسمح له أن يخاطبها بقسوة تصل إلى درجة اتهامها بأنها مجنونة (الحلقة ١٠)!.. ثم هل من المعقول أن يستقبل الأمير محمد على الوصى على العرش وهو فى (الروب دوشامبر) ويكتفى بوداعه وهو وراء مكتبه بقوله «بأمان الله» (الحلقة ١٢)؟.. كما أن أحمد حسنين لم يكن يستعمل العصا أبدًا ولا توجد له صورة مع عصاه!

٤ ـ على ماهر باشا: قام بدوره الممثل نبيل الحلفاوى. وفى رأيى أن اختياره لهذا الدور لم يكن موفقًا، ولو أن الممثل عزت أبوعوف كان أقصر قامة، لكان أفضل منه بكثير فى تمثيل دور على ماهر باشا، وربما كان يمكن ذلك لو أجرى تعديل على شارب عزت أبوعوف وهو بدور حسنين، بحيث يكون أعرض قليلاً، واستعيض عن الطربوش القصير الذى وضع على رأس نبيل الحلفاوى بطربوش أطول وكان مائلاً مع الشرابة إلى الجهة اليمنى لكان أفضل بكثير. فالحلفاوى ذو العينين الجاحظتين والفم المندفع قليلاً إلى الأمام، وطربوشه القصير المستقيم المائل قليلاً إلى الخلف لا يمكن أن يذكر أبدًا بعلى ماهر.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإننى أربأ أن يكون على ماهر باشا عميلاً يقبض من الطليان كما جرت الإشارة إليه فى المسلسل ولو بصورة عابرة، فقد كان رجلاً فى منتهى العفة والاستقامة والولاء للعرش. وهذا هو رأسماله الأساسى، لأنه لم يكن يستند إلى حزب أو كتلة شعبية. ولكن شخصيته القوية وكفاءته وولاءه للعرش هو الذى جعل منه «على ماهر» الذى كان الجميع يقدرونه ويحترمونه ولو لم يحبوه.

ولقد اعتبر عبدالوهاب طلعت باشا كبير الأمناء رجل على ماهر فى القصر والشخص المرفوض من قبل السفارة الإنجليزية. وعبدالوهاب طلعت باشا كان رجلاً مهيبًا أنيقًا يضع نظارة طبية دائمًا، وقد رأيته





شخصيًا حينما أوفده الملك فاروق كمندوب عنه مع اللواء عمر فتحى باشا للمشاركة فى جنازة المرحوم سعد الله الجابرى رئيس وزراء سوريا الأسبق. وصور عبدالوهاب طلعت باشا تملأ الصحف والمجلات المصرية، فقد كان فى كل مناسبة يقف خلف الملك فاروق مباشرة، والشخص الذى اختير لتمثيل دوره كان أبعد ما يكون عنه، وكان يبدو كعامل ريفى بسيط يرتدى بذلة أفرنجية رسمية.

٥ ـ مصطفى النحاس باشا:

لقد كان اختيار الأستاذ صلاح عبدالله ليقوم بدور النحاس اختيارًا موفقًا جدًا. ويتهيأ للمشاهد أن هذا الممثل قُدر له أن يعرف النحاس شخصيًا. فقد استطاع أن يعيد للمشاهد شخصية هذا الزعيم الشعبى الكبير، ببساطته، وأريحيته وإيمانه بالشعب وتمثيله الفعلى له، وسماحته التى تدل على نفس كبيرة وقلب مفعم بالطيبة وحب الناس. ويقال إن النحاس كان يندر أن يتناول الطعام بمفرده، بل كان دومًا يستضيف من يكون فى زيارته. ولقد تمكن الممثل الأستاذ عبدالله أن يجسد النحاس بشكل قريب جدًا إلى الواقع.. فطربوشه المائل إلى الخلف واستخدامه للعصا، وطريقة حديثه ولهجته الخطابية وإيمانه بحزبه وسعيه إلى كبح جماح الملك وإرجاعه دومًا إلى النصوص الدستورية وحبه لمن يعمل معه من رجالات الوفد، ونفسه المتسامحة حتى مع مكرم عبيد باشا الذى انشق عنه وكتب ضده كتابًا أسود حين التقاه فى عزاء صبرى أبوعلم باشا. ولقد كان مشهدًا رائعًا موقف النحاس فى مجلس النواب وهو يدافع عن نفسه تجاه اتهامات مكرم عبيد له.. إلى درجة أنه عرض الفراء الذى اشترته زوجته أمام المجلس (كما كان فى الحلقة ٢٤).

ولكن من الغريب أن لا يهتم المخرج بإجراء ماكياج على رأس النحاس بحيث تظهر صلعته المعروفة.. ولم يكن هذا التدبير بالأمر العسير، ثم كان من الغريب أن نرى صاحب المقام الرفيع النحاس باشا يسافر إلى الصعيد مع زوجته وهى بكامل قيافتها ومرتدية (اليشمك الأبيض) ويجلسان مع جمهرة من أعضاء الوفد على مقاعد خشبية من التى كانت توجد فى الدرجة الثالثة فى القطارات. ومهما كان النحاس رجلاً شعبيًا متواضعًا، فلا أعتقد أنه كان يجلس فى قطار الصعيد فى الدرجة الثالثة!.. ثم إنه ليس من المعقول أن يرتدى النحاس بدلة (الردنكوت) الرسمية وهو يسافر بالقطار بجولة فى الصعيد. أما زينب هانم الوكيل (زوجة النحاس باشا)، فكانت فى الحقيقة أجمل مما ظهرت عليه فى المسلسل، كما أنها بدت فى المسلسل فى غاية الوداعة والمسالمة، مع أن السيدة زينب الوكيل كانت ذات شخصية قوية، حتى إنها كانت فى حياتها مع النحاس مسيطرة عليه ربما لجمالها أو لفارق السن بينهما، ولما فُطرت عليه من حب التحكم، ولا شك أنها أوجعت رأس زوجها أحيانًا بمداخلاتها ووساطاتها وحتى من بعض طموحاتها المادية، كما كان يشار إلى ذلك من قبل معارضى النحاس.

٦ ـ حسين سرى باشا:

تمكن الممثل الذى يقوم بدوره أن يعرضه بشكل جيد، إذ إنه كان يمثل الخيط الرفيع الذى يربط القصر بالسفارة البريطانية. وحسين سرى كان رجلاً ذا عقل هندسى وتفكير منظم. وقد تجلى ذلك عندما نصح الملك قبل ثورة ٢٣ تموز بإسناد وزارة الحربية إلى محمد نجيب ورئاسة الوزارة إلى النحاس. وربما لو أن فاروق اتبع نصيحته لتلافى حدوث الثورة ضده.. ولكن حسين سرى ظهر فى المسلسل، وخاصة عندما كلفه فاروق برئاسة الوزارة لأول مرة عام ١٩٤٢ أكبر كثيرًا مما كان عليه.. فأغلب الظن أنه كان فى الخمسينيات من عمره، ولكنه ظهر بطربوشه الذى يصل إلى أذنيه وشعره الأبيض ووجهه المتهدل أكبر كثيرًا مما كان عليه فى الواقع.

٧ ـ الأميرة شويكار:

هذه الأميرة التى كانت مطلقة الملك فؤاد الأول، ورثت عن أخيها ثروة كبيرة، وكانت مشهورة بحفلاتها الصاخبة ومحاولاتها استمالة الملك فاروق بتلك الحفلات. ولكنها كانت لا تعتبر جميلة، بل على الأصح قبيحة الشكل، وكانت قد تقدمت بالعمر.. وهى كما كانت تبدو فى صورها، ذات وجه نحيل متطاول، وجسم ضئيل وعينين غائرتين، وليست كما بدت فى المسلسل أميل إلى البدانة وذات وجه مستدير فيه مسحة من الجمال.

٧ ـ شخصيات أخرى متعددة ظهرت فى المسلسل كانت بعيدة كل البعد عن حقيقتها وذلك كمكرم عبيد باشا، الرجل الثورى والخطيب المفوه، كان يبدو هادئًا جدًا ومسالمًا للغاية، إلا مرة واحدة حينما عزى النحاس بوفاة صبرى أبوعلم باشا. ورغم مرور السنين ظهر مكرم عبيد وقد بقى محافظًا على كثافة شعره ولون شاربه الأسود، إلا فى الحلقات الأخيرة فقط.

وأحمد ماهر باشا الذى قام بدوره الممثل محمود الجندى، ربما كان موفقًا فى تقليد حركاته ولهجته فى الكلام، ولكن أحمد ماهر لم يكن ذا حاجبين أسودين كثيفين كما ظهر بهما محمود الجندى، ولم يكن يرتدى طربوشه إلى الأمام، بل مائلاً قليلاً إلى الجهة اليمنى والخلف، ولم يكن شعره أسود يتبارز من جانبى الطربوش حتى أذنيه.. كما أن شاربه لم يكن بالشكل الذى كان عليه فى المسلسل.

وقد صورت حادثة اغتيال أحمد ماهر باشا فى البهو الفرعونى فى مجلس النواب من قبل محمود العيسوى وهو يرتدى بذلة بيضاء.. ولم يكن اغتياله فى فصل الصيف، ولكن ربما صُور بالبذلة البيضاء لإظهار الدم الذى تدفق على بذلته بوضوح.

أما ممثل دور محمود فهمى النقراشى باشا، فلم يكن يمت بأى شكل من الأشكال إلى ما كان عليه النقراشى.

ولكن الممثلة منة فضالى استطاعت أن تكون قريبة الشبه والتصرفات إلى حد كبير من الملكة فريدة، على عكس والد الملكة (يوسف ذو الفقار باشا)، فأنا أذكره عندما كان يصطاف فى فالوغا (لبنان) ويجلس صباحًا فى مقهى الشرشارة، وبقى فى مخيلتى رجلاً فى منتهى الرشاقة والوسامة، تنطبق عليه أوصاف رجل السلك السياسى، ولم يكن شخصًا بدينًا مترهلاً كما بدا فى المسلسل.

وربما كان أنجح من جسده المسلسل هو فؤاد سراج الدين باشا، فقد كان فعلاً نسخة طبق الأصل للباشا الثرى البدين ذى (الشامة) على خده.. والذى عرف كيف يدخل قلب النحاس حتى وصل إلى منصب سكرتير حزب الوفد. ولم يكن فاروق يرتاح إليه، لأننى أعتقد أن فؤاد سراج الدين الرجل الإقطاعى الكبير ذو الأصول العائلية العريقة لم يكن يعطى فاروق ما يرغبه من اهتمام أو خنوع.

ولابد لنا أن نذكر أن الفنان الذى قام بدور كريم ثابت باشا، لم يكن يشبهه أبدًا سواء فى شكله أو فى تصرفاته.. ثم إن كريم ثابت لم يعين مستشارًا صحفيًا للقصر إلا فى أواخر الأربعينيات أو ربما بداية الخمسينيات بعد أن أنعم عليه برتبة الباشوية.

أما بالنسبة إلى كبير الياوران عمر فتحى باشا، فقد كان فعلاً أمينًا مخلصًا للملك، ولكن الممثل الذى اختير للقيام بدوره ربما كان يشبه قليلاً عمر فتحى باشا فى شبابه.. ولكن عمر فتحى الذى نعرف صوره وهو دومًا إلى جانب أو خلف الملك، كان شعره وشاربه قد بدأ بالشيب فى أواخر الأربعينيات. ولم يكن ينتعل الجزمة بل يرتدى بنطالاً طويلاً، ولا يعقل أن يبقى معلقًا الأوسمة على صدره بشكل دائم، لأن الضباط يضعون إشارات الأوسمة على صدورهم ولا يعلقونها إلا فى المناسبات الرسمية.

ولا شك أن الممثل الذى قام بدور السفير البريطانى (اللورد كيلرن) كان ناجحًا جدًا.. فقد كان قريب الشبه به إلى حد مقبول، وكان ناجحًا جدًا فى تمثيل العنجهية البريطانية الإمبراطورية، والضرب بعرض الحائط بكل الأصول والأعراف والتقاليد الدبلوماسية الدولية حينما تصطدم بمصالح الإمبراطورية. واللغة الإنجليزية التى كان يتكلمها كانت بلكنة إنجليزية حقيقية.

عدا عن كل ذلك، فكان يجب ألا نستمع إلى أغنية أسمهان (ما بين رنين الكاس) لأن هذه الأغنية كانت فى فيلم «غرام وانتقام» الذى جرى عرضه بعد سنتين تقريبًا من مجريات الحلقة الـ ١٥.

ب ـ ملابس الممثلين

لا شك أن مسلسل الملك فاروق سواء من ناحية التأليف أو الإخراج أو السيناريو كان مسلسلاً ناجحًا. وليس من الغريب أن تتمكن الدكتورة لميس جابر من كتابة هذا المسلسل، فهى وإن كانت فى عمر لم يسمح لها بأن تعيش فى تلك الفترة من تاريخ مصر، فإنها ولا شك قد اطلعت عليها سواء مما قرأته عنها أو مما سمعته من الوسط الذى عاشت فيه. وكانت كما سبق القول موضوعية جدًا. وقد تمكنت أن تنقلنا ببراعة إلى أجواء مصر الحقيقية قبل أكثر من نصف قرن.. بارك الله بها. ولكن الأمر الذى يدعو إلى الإعجاب أن يقوم مخرج سورى شاب بإخراج مسلسل كهذا المسلسل، وهو غريب عن البلد، لم تتح له فرصة مواكبة التاريخ الذى تمر فصول المسلسل خلاله، فتهنئة مخلصة له وللجهود الجبارة التى بذلها. ولكن المأخذ الكبير على هذا المسلسل ـ وهذا مما أضعفه وأبعده كثيرًا عن الواقع ـ هو (مع احترامى لشخصه وأنا لا أعرفه) الشخص الذى تولى اختيار

الملابس والقيافات. فهو قد اخترع قيافات لم تكن أصلاً موجودة أو بالأصح ليس لها وجود، فعمد إلى نوع من زركشة الملابس ليس له أساس أو لزوم، فعرض علينا قيافات مزركشة بشكل مضحك كألبسة البوابين الذين يقفون على أبواب الفنادق الكبيرة.. قيافات ليس لها تواجد مصرى أو عالمى ولا تليق بملوك ورؤساء وزارات ورجالات كبار وملكات وأميرات وسفراء، لأنها كانت أشبه ما تكون بقيافات لاعبى السيرك أو بوابى الفنادق كما قلته آنفاً.. أو ربما منومين مغناطيسيين من الذين يمارسون ألعاب الخفة!.. وأنا لا أقول هذه الأقوال من باب المبالغة أو التجنى، لأننى سأورد العديد من الأمثلة والإثباتات على ما أقول. وإنه لمن دواعى الأسف الشديد أن السلبيات التى ظهرت فى موضوع الملابس والقيافات خفضت كثيراً من قيمة هذا المسلسل الممتاز. لقد كان بالأحرى لمصمم الملابس ألا يبتكر قيافات خيالية غير واقعية، وكان من الأفضل كثيراً لو كلف نفسه عناء الرجوع إلى المجلات المصرية القديمة كالمصور والاثنين والدنيا ويطلع على الصور المنشورة آنذاك سواء للملك أو للأشخاص الذين تناولهم المسلسل. وأنا أؤكد له أنه كان سيوفر على نفسه ابتكار كثير من القيافات المضحكة التى ظهرت فى المسلسل، والتى ليس لها أساس أو وجود فعلى.

إن القيافات الرسمية التى كانت فى مصر والتى وضع أسسها الملك فؤاد الأول وقد استوحاها من البلاط العثمانى الذى عمل فيه لفترة كانت على الأشكال التالية: بذلة التشريفة الكبرى وهذه إما أن تكون بالمعطف الأسود الذى يصل إلى ما تحت الركبة والبنطال الأسود، وذلك فى فصل الشتاء أو بالمعطف الأبيض المماثل والبنطال الأسود فى فصل الصيف، وقد تمكن مصمم الأزياء من تشبيهها إلى درجة مقبولة، ولكن هذه القيافة لم يكن الملك يرتديها إلا فى المناسبات الرسمية الكبيرة لحفل افتتاح البرلمان أو حين استقبال الملوك أو الرؤساء الزائرين، ولذا فقد كان من المضحك حقاً أن نرى الملك فاروق (كما فى الحلقة ٢٥) يذهب إلى مباراة رياضية وهو بملابس التشريفة الكبرى، وإلى جانبه أحمد حسنين باشا وهو ببذلة رسمية لا تلبس إلا ليلاً!

إن القيافة الرسمية الدارجة التى كانت فى مصر فى العهد الملكى هى (بدلة الردنكوت) المأخوذة عن العثمانيين، وهى سترة سوداء تصل إلى ما تحت الركبة مع بنطال أسود أو مخطط، وتكون ياقة السترة من الأطلس الأسود، أما فى الصيف فيكون الردنكوت من قماش خفيف وبلون فضى مع ياقة من الأطلس بنفس اللون. أما بدلة (البونجور) التى ترتدى فى المناسبات الصباحية الرسمية، وهى سترة ذات ذيل إلى الخلف وبنطال مخطط، فلم تكن تستعمل أبداً فى مصر إلا من قبل بعض رجالات السلك السياسى الأجنبى. فما بالكم إذا كان مصمم الأزياء قد حرف أيضاً هذه القيافة فجعلها بسترة سوداء وبنطال أبيض مما ليس له وجود فى الدنيا بأسرها. ولقد بدا الأمير محمد على وهو الرجل المهيب ذو اللحية البيضاء، بمظهر مضحك وهو يرتدى بونجور مطرزاً أشبه ما يكون بمهرج فى السيرك (الحلقة ١٢ من المسلسل).

أما قيافة الملك فاروق حين استقباله لعلى ماهر باشا، بعد زيارة هذا الأخير للسفير الإنجليزى.. فقد كانت قيافة خيالية ليس لها وجود إلا فى مخيلة مصمم الأزياء. وكانت تشبه إلى حد كبير قيافة ضباط الجيش الفرنسى قبل الحرب العالمية الثانية (كما فى الحلقة ١٠). وفى (الحلقة ١١) ظهر ناظر الخاصة الملكية (مراد محسن باشا) وهو يرتدى بذلة بيضاء تبدو أشبه بالسموكنج ويضع ربطة عنق (بابيون) بيضاء وذلك فى حفلة فى حديقة القصر. والواقع أنه لا توجد قيافة من هذا النوع أبداً!.. ثم.. هل كان الملك فاروق يستعمل الجلابية الفضفاضة وهو فى غرفة نومه.. وحتى إذا كان يستعملها فهل من الضرورى أن تكون مطرزة مذهبة كالتى ترتديها السيدات؟.. وكان من المضحك جداً أن نرى فاروق أثناء لقائه بوالدته الملكة نازلى خلال المعاتبة التى جرت بينهما، مرتدياً كسوة بلون أخضر مع ياقة مطرزة بشكل غريب وربطة عنق على شكل (فولار) مع دبوس كبير موضوع فى الجزء العلوى من (الفولار).. ولو تحرينا جميع صور الملك فاروق لما وجدنا صورة تمثله بقيافة شبيهة بتلك التى ظهر فيها!

ثم فى حفلة افتتاح البرلمان وإلقاء الملك لخطاب العرش، فإن النواب كانوا يرتدون فى مصر ما يسمى «بالبذلة الاستامبولية» وهى تشبه «الفراك»، سوى أن «الفراك» ذو ذيل إلى الخلف. أما الاستامبولية فكانت على شكل سترة تصل إلى الركبة وتستعمل معها ربطة العنق (البابيون) البيضاء. أما القيافة التى ظهر فيها النواب فى افتتاح البرلمان فكانت تشويهاً فظيعاً لبذلة (السموكنج) التى لا تلبس إلا ليلاً والتى تكون على شكل جاكيت قصير مع ياقة من الأطلس الأسود. لا كما ظهرت فى المسلسل بياقات لماعة بيضاء أو رمادية.. فهذه كانت أيضاً قيافات مبتكرة من قبل مصمم الأزياء وليس لها أصل واقعى على الإطلاق.

عدا عن ذلك كله، فهل من الضرورى كما ظهر فى الحلقة الـ ١٠ أن ترتدى الملكة نازلى حين أرادت الحديث مع ابنها فاروق حول علاقتها بحسنين لباس السهرة.. وحتى إن كانت ترتديه فما معنى وضعها الفراء على كتفيها وهى فى غرفة النوم؟

ثم إن حسنين كان دوماً يظهر فى مكتبه وهو يرتدى بدلة (الردنكوت) وبياقة من الأطلس الفضى، ويضع ربطة عنق على شكل (فولار) مع دبوس كبير وياقة منشاة مكسورة.. فهذه ليست القيافة اليومية لرئيس الديوان الملكى أحمد حسنين ولا حتى فى المناسبات الرسمية.. وكم كان من الغريب أن نرى حسين صبرى باشا عندما مثل بين يدى الملك حين تكليفه برئاسة الوزارة، أن يكون مرتدياً مع الردنكوت الأسود ربطة عنق على شكل بابيون حمراء (كما فى الحلقة ١٤). ولقد تكررت نفس القيافة مع النقراشى باشا (كما فى الحلقة ٢٧).

والفنان الذى صمم أزياء المسلسل، ألغى تقريباً ربطة العنق العادية، وألبس الجميع (فولاراً) وأصر على وضع دبوس كبير للجميع فى أعلى الفولار، كما أنه ألبس محمد محمود باشا ردنكوت «بلون بنى» وهذه أيضاً كانت قيافة «مخترعة» من قبله.

ربما يقول قائل: وما قيمة هذه الملاحظات عن الملابس والقيافة؟، ويعتبرها أموراً تفصيلية أو ربما يصفها بأنها تافهة.. ولكن الواقع غير ذلك، لأن هذه الملاحظات أضعفت المسلسل كثيراً رغم جودة الكتابة وبراعة السيناريو وحبكة الإخراج. ولو أن (دافيد لين) كان يصور لورنس أو الشيخ عودة أبو تايه أو الأمير فيصل بغير القيافة والمظهر الذى بدوا فيه أو أن المرحوم مصطفى العقاد أظهر الجنرال غرازيانى بقيافة ضابط إنجليزى أو ألمانى، وعمر المختار بشكل شيخ تونسى أو مراكشى لما كان لهذين الفيلمين التأثير الكبير الذى أحدثاه.

وأرجو من القراء ألا يظنوا أننى أبالغ فى انتقاد الملابس والقيافات، ويمكن لأى شخص يريد أن يتأكد من صحة المعلومات التى أوردتها، الرجوع إلى المجلات المصرية التى كانت تصدر فى تلك الفترة.

ولكن مع كل ذلك، يبقى مسلسل «الملك فاروق» عملاً جيداً وهادفاً وبوجه خاص بالنسبة لجيل عربى كبير، لا يعرف شيئاً عن هذه الحقبة التاريخية فى أكبر بلد عربى فى نهايات القرن العشرين، بارك الله فى الكاتبة والمخرج والممثلين جميعاً.

وكم أتمنى أن يظهر فى البلاد العربية وبالتحديد من القطر العراقى كاتب كالدكتورة لميس جابر ليكتب بنفس الموضوعية والحيادية والتجرد عن الملك فيصل الأول ملك العراق وتأسيس الدولة العراقية الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى، ثم كيف انتهت هذه الدولة بمجزرة قصر الرحاب والنهاية الحزينة للملك فيصل الثانى، فإن من حق الجيل العربى الشاب أن يطلع على حقيقة الأحداث التى جرت فى أجزاء مختلفة من الوطن العربى فى خمسينيات القرن الماضى، لما يحمله من ذكرى وعبر.. مع أخلص التمنيات للدراما العربية. ■

يبقى مسلسل «الملك فاروق» عملاً جيداً وهادفاً وبوجه خاص بالنسبة لجيل عربى كبير، لا يعرف شيئاً عن هذه الحقبة التاريخية فى أكبر بلد عربى فى نهايات القرن العشرين

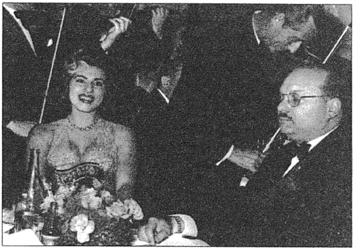
... نهاية ملك

لطيفة سالم

مع تدهور الأوضاع الداخلية، راودت الملك فاروق فكرة التصالح مع الوفد الذى كان قد أعاد ترتيب أوراقه ووجد أن من مصلحته إتمام ذلك، وأجريت الانتخابات وفاز فيها، وشكل وزارته فى ١٢ يناير ١٩٥٠، وانتهج منهاجًا يختلف عما سبقه، حيث حقق الرغبات الملكية دون تردد على أساس احتواء فاروق ليتفرغ لحركة الكفاح الوطنى ضد الإنجليز. واستمر فاروق فى العبث بأموال الدولة، وحدثت عدة أزمات، كان من أبرزها العدوان على مجلس الشيوخ وقضية الأسلحة الفاسدة، ولكن لم يستمر الوفاق طويلاً بين الملك والوفد، فقد جمعتهما المصلحة، ولم يغب عن ذهن الملك لحظة أن النحاس هو عدوه اللدود، وحينما أدرك الأخير أن الرضا الملكى لن يستمر ركز جهوده على محاربة الإنجليز، فتصلب فى المفاوضات، وأقدم على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى الحكم الثنائى. واستسلم فاروق ووقع مراسيم الإلغاء خوفًا من النتائج المترتبة على الرفض فى وقت بلغ فيه غضب الشعب مداه، بالإضافة إلى الشعور الذى انتابه بأنه فى طريق الزوال، وأن مثل هذا العمل الوطنى ربما يضع به نواة يستند عليها ويستعيد بعضًا من شعبيته التى فقدها، لكنه فى الوقت نفسه استاء من أن يظهر الوفد مرة أخرى فى ثوب البطولة الوطنية، خاصة أنه - أى الوفد - شجع وبارك حركة كتائب الفدائيين ضد الإنجليز فى القناة، لذا فقد قلق فاروق من أية مكاسب يحصل عليها الوفد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه خشى من أن توسيع نطاق النضال ضد الإنجليز يتحول بعد ذلك ضده، وبالرغم من أنه كان يمتلك ورقة الإقالة، فإن الظروف التى كانت تمر بها مصر فى ذلك الوقت اختلفت عن سابقتها، وسرعان ما تهيأت الفرصة عندما اشتعلت القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢، ليقيل فاروق الوزارة فى اليوم التالى للحريق بعد أن أعلنت الأحكام العرفية.

ومما يذكر فى هذا الصدد أن فاروقًا ترك سياسته المتأرجحة تجاه الإنجليز أثناء تلك الفترة، فكان إصغاؤه لهم واضحًا، إذ أدرك تمامًا مدى ارتباط عرشه برضائهم عنه، وفى الحين ذاته رأت لندن أن التقارب إليه وعدم معاكسته سوف يُمكنها من حل القضية المصرية لما هو فى صالحها. ولما ارتفع المد الوطنى، وجدت أن المصالح بين العرش والوفد يتيح لها الوصول إلى نتائج مرضية، لذا فقد أيدت وباركت عودة الوفد للحكم، ولكن لم تأت الرياح بما تشتهى السفن وتأجج الموقف ضدها، وبالتالى أصبح هناك اتفاق بينها وبين فاروق على إقصاء الوفد عن الوزارة، ومهدت أحداث الإسماعيلية التى وقعت فى ٢٥ يناير وحريق القاهرة فى اليوم التالى إلى تحقيق المرغوب.

وأشارت أصابع الاتهام فى حريق القاهرة إلى جهات عديدة، وحامت الشبهات حول الكثير، ودخل فاروق فى دائرة الاتهام، وسيقت الأدلة على ذلك، لكنها لم تكن موثقة، وإنما شملت تصرفات صدرت عن القصر لم تكن معهودة من قبل، ومن ثم شكلت استنتاجات تفيد أن الملك صاحب يد فى الحريق، إذ إنه أثناء اشتعاله كان على المائدة الملكية فى قصر عابدين مدعوون منهم الكثير من الضباط يتناولون الغداء احتفالاً بمقدم ولى العهد، وأن ما اتبع يخالف ما جرت عليه العادة من ترتيبات، وأنه رغم علمه بأن القاهرة ماجت منذ الصباح بالمظاهرات لم يلغ الدعوة، كما رفض تدخل الجيش فى البداية لإخماد الحريق، وعندما وافق كانت النيران قد أتت على الكثير. ومما لا شك فيه أن موقف فاروق أسهم فى مأساة أحداث هذا اليوم، ولكن لم يُجزم حتى اليوم بأنه الفاعل.



فاروق مع إيرما فى كازينو مونت كارلو (١٦ فبراير ١٩٥٤)

قسمات شخصية

لاحق فاروق الفشل فى المحافظة على مكانته بعد انخفاض شعبيته، وبالذات بعد أن أصبحت حياته الخاصة تلوكها الألسنة فى كل مكان، وسقطت نهائيًا القدوة الحسنة التى يجب أن يتمتع بها ولى الأمر. ومن المعروف أن الحياة المغلقة التى عاش فى كنفها فى بداية تكوينه أثرت على شخصيته، كما أن التصرفات غير اللائقة لأمه التى بدت عليها مع توليه السلطة أثرت هى الأخرى عليه، أيضًا فإنه افتقد الرباط الوثيق مع أخواته ما عدا فوزية، وذلك رغم التصاقه بهن فى مرحلة طفولته، كذلك فقد ورث النزعة الاستبدادية عن أبيه، هذا بالإضافة إلى بعض العادات التى تأصلت فيه ولازمته، ومنها الشراهة فى الأكل، وحب الاقتناء الذى دفعه أحيانًا للاعتداء على ملكية الغير، كذلك استخدم ذكاءه فى ممارسة القمار ليستحوذ على ما فى جيوب الآخرين.

أما عن علاقاته النسائية، فقد ارتبط فى مقتبل عمره عاطفيًا بصافيناز، تلك التى تزوجها وأصبحت الملكة فريدة التى أحبها واحترمها المصريون، ولكن لم تدم علاقة الحب بين الزوجين طويلاً لذلك المناخ الذى أوجده الملتفون حوله واستسلم له، فأصبحت له العلاقات النسائية المتعددة التى حرص فيها على المظهر أكثر من الجوهر، وقد اتسعت وقت الأزمات التى كان يمر بها سواء السياسية أو النفسية. وبطبيعة الحال كان فاروق تواقًا إلى وريث له، وذلك بعد أن رزق بثلاث بنات هن: فريال وفوزية وفادية، وأصبح طلاق فريدة متوقعًا بين الحين والآخر، وتم فى ١٩ نوفمبر ١٩٤٨. وفى أعقابه ازداد تهور الملك، وجاءت رحلته الخاصة إلى أوروبا لتسجل الصحافة الأجنبية استهتاره. ويأتى زواجه الثانى من ناريمان فى ٦ مايو ١٩٥١ ليمثل مغامرة أخرى من مغامراته، وقد أنجبت له ولى العهد الذى كان ينتظره طويلاً، واحتفل بقدومه يوم حريق القاهرة.

ومما يُسجل أن الحاشية التى أحاطت بفاروق لعبت دورًا إيجابيًا فى النيل منه، إذ تأثر بتوجيهاتها، واحتل قمتها العاملون فى القصر الذين ورثهم عن أبيه سواء من الإيطاليين أو المصريين، بالإضافة إلى الجدد الذين التصقوا به وعدوا مستشارين له فى مختلف المجالات وأوصلوه إلى حافة الهاوية.

الانهيار

مثلت الفترة الزمنية منذ حريق القاهرة وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ منعطفًا خطيرًا، إذ تخبط فاروق أثناءها محاولاً مصارعة الأمواج المتلاطمة التى لم تهدأ إلا بغرقه، فتتابعت وتلاحقت إبان هذه المدة الوزارات التى فشلت فى أن تنجح فى مهامها، ولعبت يد الملك بالتغيير لأهوائه ومصالحه، وكانت آخر وزارة قبل قيام الثورة هى التى صدر أمر ملكى بتشكيلها فى ٢٢ يوليو. ولم يكن فاروق بغافل عما يمكن أن يحدث فى الجيش ضد النظام القائم، لذا حرص كل الحرص على أن تكون له السيطرة عليه، ودخل فى صراع مع الوفد فى هذا الشأن، ولكن بدأ الاستياء يدب بين الضباط الشبان مع أخريات الحرب

الجدل الواسع حول مسلسل الملك فاروق،
والذى اختلط فيه بعض الحنين إلى الماضى
بكثير من السخط على الحاضر، انتقل فى معظمه من مربع التاريخ «الموثق»
إلى مربع السياسة «بأهوائها»، الأمر الذى ربما
جعل هذا «التعليق التأريخى» ضروريًا

العالمية الثانية بسبب سوء تصرفات الملك، فتعددت لقاءاتهم، وجاءت حرب فلسطين لتوحد جهودهم. وفى سبتمبر ١٩٤٩ تشكلت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، واستغلوا الأوضاع المتردية، وشكلت منشوراتهم مصدرًا لإزعاج فاروق، تلك التى انتشرت معلنة صراحة إسقاط الولاء له. ووقع الملك فى الحذر، وأدخل فى روعه سحق هؤلاء الضباط، حيث عدهم متمردين، فى وقت قرروا فيه دخول معركة التحدى، ونجحوا فى مسألة انتخابات نادى الضباط فى آخر عام ١٩٥١، إذ أصروا على أن يكون اللواء محمد نجيب مرشحهم لرئاسة مجلس الإدارة، ووقفوا أمام مرشح الملك، أيضًا فإن الضباط الأحرار فازوا ببعض مقاعد مجلس الإدارة. وسقط أعوان فاروق، وراحوا يعملون بهمة ونشاط لكسب مزيد من الانتصارات عليه، وخاصة بعد حريق القاهرة، إذ أيقنوا مدى سهولة السيطرة على القاهرة.

وأمام ذلك صدر قرار القائد العام بحل مجلس إدارة النادى فى ١٦ يوليو، ولم ينصت فاروق للناصحين له بأن ثورة الضباط لا تحمد عقباها، وأبدى استخفافًا بالأمر، وبين أنه سينكل بالخارجين عن طوعه، ويكتب القائم بالأعمال البريطانى لحكومته فى ٢٠ يوليو، ليصور الحالة الخطيرة التى عليها الجيش ويُبين أن هناك ثورة عسكرية على الأبواب. وبالفعل أسهمت تصرفات فاروق بالتبكير فى قيام الضباط الأحرار بالحركة، وأصبح لابد لهم من استعجال ضربتهم قبل أن يسبقهم الملك بعد أن توصلت أجهزة الأمن إلى معرفة الاثنى عشر ضابطًا.

المشهد الأخير

لم يكن فاروق يُقدر تمامًا خطورة الموقف فى الجيش، حيث عد ما يحدث فقاعات هوائية، وقد أعطاه جبروته وصلفه الثقة المتزايدة فى النفس، واستمر هذا الأمر حتى صباح ٢٣ يوليو، وسرعان ما علم ما قام به الضباط الأحرار. وعندما فشلت محاولات منع إذاعة بيانهم، أيقن خطورة الموقف، وانهارت حالته، وانقلب استهتاره إلى خوف سيطر عليه، فاتصل على الفور بـ «كافرى Caffrey» السفير الأمريكى فى القاهرة لإنقاذه، وهنا لابد من توضيح أن الملك كان على علاقة طيبة مع الولايات المتحدة الأمريكية، وقد اعتقد منذ بداية حكمه أنه من الممكن أن ينال تأييد ومساندة واشنطن ليتحدى لندن ويوقع الشقاق بينهما، ولم يدرك كنه التآخى الأنجلو أمريكى فى ذلك الوقت، كذلك فإنه أمام قوة التسلط البريطانى عليه اندفع إلى مزيد من التقرب للجانب الأمريكى الذى كان يرى فيه أنه من الممكن أن يمد يده للمساعدة فى نجاح المفاوضات مع بريطانيا هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ليكون عونًا فى وقف أى تأثير شيوعى سوفيتى، خاصة مع تحرك الجماعات اليسارية فى مصر.

وعقب إذاعة بيان حركة الضباط الأحرار فى صباح ٢٣ يوليو، حدث نوع من التعاون بين الخارجيتين البريطانية والأمريكية، إذ اتحدت وجهة النظر بشأن أن ما حدث فى مصر هو أمر داخلى، وهذا ما ركز عليه اللواء محمد نجيب القائد العام للحركة فى اتصالاته سواء مع السفارة البريطانية أو السفارة الأمريكية، ومن الواضح أن كلا من لندن وواشنطن كانتا على يقين من أن فاروقًا لم تعد له القدرة على الإمساك بزمام الحكم، خاصة أن مسألة إشراك مصر فى نظام الدفاع المشترك لم تخرج إلى حيز التنفيذ. ومن ثم فإن التغيير كان مطلوبًا، وركزت بريطانيا على أن تدخل قواتها يمكن أن يحدث إذا مُست أرواح الإنجليز أو ممتلكاتهم، واتفقت مع الولايات المتحدة على أنه إذا كان هناك خطر أحمر - أى سوفيتى - فلابد من تغيير موقفهما، والمعنى واضح.

ورغم الخوف الذى يسيطر على فاروق، فقد راوده الأمل فى إمكانية حصر الحركة، ولذا فإنه عندما استقبل على ماهر فى ٢٤ يوليو - الذى شكل الوزارة - وعرض عليه الأخير مطالب قادة الحركة لم يجد من الملك الأذن المصغية فيما يختص ببعض أفراد حاشيته، ولكن لم يستمر ذلك طويلاً وسرعان ما جثم الخوف على قلبه، فانتقل من قصر المنتزه إلى قصر رأس التين رغبة فى الحماية. ويتحرك القائم بالأعمال البريطانى والسفير الأمريكى لدى قادة الحركة لضمان الأمان لفاروق وعائلته.

وحينما اطمأن قادة الحركة على عدم التدخل العسكرى البريطانى عجلوا بالإقدام على عزل فاروق، ودارت المناقشات حول مصيره بعد تنفيذ قرار عزله، ورُجح الرأى المعتدل بأن يذهب فاروق إلى المنفى، وأقصى الرأى الخاص بضرب عنقه، وذلك وفقًا لعدة اعتبارات تمثلت فى الخشية من التدخل الأنجلو أمريكى، والرغبة فى تفادى إراقة الدماء لأن ذلك ربما يكون له رد فعل سيئ من الشعب على الحركة التى مازالت فى مهدها. وأخيرًا فإن النزعة الخيِّرة الرافضة للقسوة احتلت موقعًا على خريطة التنفيذ، ومعروف أنه من سمات المصريين أنهم شعب لا يميل إلى العنف.

وفى صباح ٢٦ يوليو تم حصار قصر رأس التين بواسطة الحركة، وردًا على ذلك أمر فاروق بتحصين القصر، وحدث تبادل قصير لإطلاق النار بدأه القصر وأسفر عن خسائر بسيطة، وعلى الفور استسلم القصر، وتدخل السفير الأمريكى فى الحال وهدأ من روع فاروق الذى التقى به رئيس الوزراء ليعرض عليه الإنذار، واحتوى على مطلبين: التنازل عن العرش لصالح ابنه أحمد فؤاد الثانى فى موعد غايته الظهر، وأن يترك مصر بالطريقة التى يختارها فى موعد غايته السادسة مساء، فصال فاروق وجال، وصرح بأنه سيقاوم، وأن لديه القوة والقدرة. وهنا تلطف معه على ماهر وأقعده عن ثورته، وبين له أن نتيجتها حرب أهلية لا يرضاها، وأن الشعب تفاقم سخطه، وبالتالى فموقفه لا يؤهله لأى حركة مقاومة، وأن ما عليه إلا تحقيق المطلوب منه لضمان العرش لابنه. فتقبل فاروق الأمر الواقع، وطلب من السفير الأمريكى أن يواصل جهده ويعمل على سلامته ويحضر لتوديعه قبل السفر، وفضل الملك أن يكون سفره على يخت المحروسة، وعرض عدة طلبات فيما يختص بالمرافقين معه، وأن يحافظ على كرامته فى وثيقة التنازل عن العرش، وأن تتخذ جميع مراسم التوديع الخاصة بمغادرة الملك البلاد.

ووقع فاروق على الوثيقة مرتين، واختلفت الآراء حول ذلك، وعلى أية حال فقد كان الموقف عصيبًا رغم أنه عاش توقعاته منذ حادث ٤ فبراير، ولكن فقدان السلطة والجاه ليس بالأمر الهين فى الوقت الذى سيطرت عليه الرغبة فى إنقاذ نفسه مهما كان الثمن. واستنفر السفير الأمريكى والقائم بالأعمال البريطانى نفسيهما من أجل العمل على سلامة فاروق ورحيله فى هدوء.

ومضى الملك السابق يعد نفسه لخروجه الأخير من مصر، وارتدى زى أمير البحار، والتقى بأختيه فوزية وفايزة وزوجيهما وحماته، ثم حضر السفير الأمريكى وسكرتيره ورئيس الوزراء، وسرعان ما غادرت ناريمان وأحمد فؤاد وفريال وفوزية وفادية القصر، وحيا فاروق موظفيه وضباطه، وأجريت له المراسم الرسمية، وصافح مودعيه وقال لعلى ماهر: «أدعو لكم بالتوفيق، وأتمنى كل الخير للبلاد، وأنه يجب على الإنسان أن يخضع لحكم الظروف والأقدار، وأسأل الله للجيش وللبلاد كل النجاح» وحضر محمد نجيب ومعه بعض ضباط الحركة متأخرين لوداع فاروق الذى دار بينه وبين القائد العام للحركة الحوار المعروف. ومما يذكر فى هذا الصدد أن ترتيبات الوداع أعدَّ لها السفير الأمريكى مع رئيس الوزراء.

ومع غروب شمس ٢٦ يوليو ١٩٥٢ تتحرك المحروسة لتقل فاروق بعد أن هوى إلى منفاه، ويختار إيطاليا للعلاقة العاطفية التى تربطه بها، فيعطى أمره بالإبحار إلى نابولى التى اختارها جده إسماعيل، وكان قد أهدى له قصر فيها، كما وضع فاروق فى اعتباره أنه سبق أن رحب بملكها فيكتور عمانويل وأسكنه قصر أنطونيادس بالإسكندرية عام ١٩٤٦. وبذلك يسدل الستار على آخر ملك حكم مصر بعد أن أمضى فى حكمها فترة ضمت عقدًا ونصفًا من الزمان، زخمت بالأحداث التى أدار دفتها، ولم يكن ربانًا ماهرًا أمام الأنواء، فاستبد وطغى. فلم ترحمه، فكانت النهاية التى لم تقتصر عليه فقط، وإنما دخل تحتها أيضًا مكونات العصر الملكى برمته، لتبدأ مصر فترة جديدة من حياتها فى ظل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وتختار لنفسها النظام الجمهورى، وتسقط كل ما سبقه. ■

محمد عدنان سالم

خُذ الكتابَ بقُوَّة!

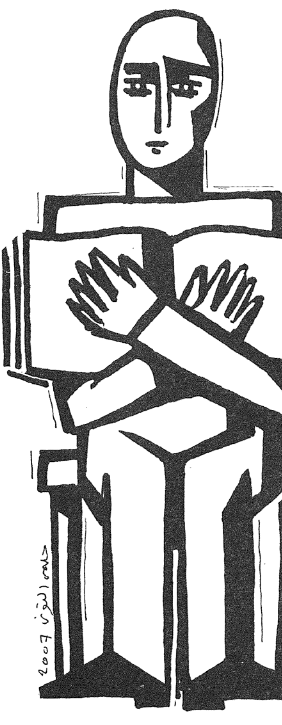
هل كانت مصادفة أن يأتى الأمر بقراءته فى أول آية يتنزل بها وحى السماء، عندما أراد الله لهذه الأمة أن تنهض من رقادها على رمال الصحراء، فترص صفوفها وتوحد كلمتها أولاً، ثم تنشر رسالتها ثانيًا، لتبنى للإنسانية حضارة تشع أنوارها على ثلث المعمورة فى فترة وجيزة معجزة، ولتقدم أصدق وأسرع نموذج تطبيقى فعال للأمر الإلهى الأول (اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم) «العلق ٩٦/١-٣»؟!

هل كان حدثًا عارضاً أن يجعل الرسول تعليم الأبناء فداءً للأسرى، وأن يؤسس معاوية نواة بيت الحكمة، ثم يقوم خالد ابن يزيد بتنظيمها وتزويدها بالكتب المترجمة والمؤلفة، وأن يطلب المأمون أحمال الكتب شرطًا للصلح مع بعض البلاد المفتوحة، وأن يدفع لمترجمه حنين ابن اسحاق وزن ما يترجمه له من الكتب ذهبًا، مهما بالغ فى ثخانة ورقها وتكبير حروفها وتوسعة ما بين أسطرها؟!

ألم يهب الأمريكيون لإصلاح نظم التعليم لديهم، عندما سبقهم الروس إلى القمر، بوصفها مكمن الداء ورأس الدواء؟!

ألم يهب الفرنسيون عندما لاحظوا نسبة ضئيلة من التراجع فى القراءة لدى أجيال الشباب عام ١٩٩٣ لينظموا مهرجان جنون المطالعة، فيفتحوا أبواب المكتبات العامة والخاصة، وينزل الوزراء والمفكرون والكتاب إلى الشوارع والحدائق والساحات، ليعيدوا للشعب زخم القراءة؟!

إن الكتاب خزانة المعرفة، والقراءة سر التقدم ومفتاح النهوض.. لا أعنى قراءة المقررات المدرسية، فهى قراءة تستهدف الشهادة ولا تبنى الثقافة، وتنتهى بالحصول على هدفها، فيتردى المجتمع فى أمية ثقافية لاحقة، دونها أمية الحرف، نلاحظ آثارها فى عزوف أجيال الشباب عن متابعة التحصيل وعن القراءة، وفى ضحالة المعارف، وركاكة اللغة، ومستوى الأحاديث فى الأسمار، ونوع الإجابات فى المسابقات المعروضة على الملأ فى الفضائيات، إنما أعنى القراءة خارج المقررات المدرسية، القراءة المستمرة من المهد إلى اللحد، أعنى القراءة التى ترقى بالكتاب إلى مستوى الحاجة، فيكون الكتاب رغيف الفكر إلى جانب رغيف المعدة. هل يقوم جسد من دون رغيف؟! كذلك لن ينمو فكر من دون كتاب..



بل إن هم الجسد إلى الرغيف يورث البطنة والتخمة، ونهم الفكر إلى الكتاب يوسع آفاق المعرفة، ويهتك أستار المجهول، ويكشف أسرار التقدم.. إن وعاء المعدة محدود، ووعاء الفكر بلا حدود.. من يقرأ أكثر يرتق أكثر، وستكون منزلته عند آخر كلمة يقرؤها.

لا أحب إنشاد القصائد فى مديح الكتاب، من أجل أن ألفت الأنظار إليه، فقد أغنانى الشعراء عن ذلك، إنما أريد أن ألفت النظر إلى أننا، فى عصر المعلومات وتفجر المعارف وثورة الاتصال، لن نستطيع أن نحتفظ بجهلنا أو تجاهلنا للكتاب، لن نستطيع أن ندخل حلبة السباق العالمى من دون كتاب.

لقد أصبحت الأمم تقاس بمقدار ما تملكه من ثروة المعلومات، لا بما تملكه من ثروة المال وقوة السلاح وتطاول المداخن الشاهقة وناطحات السحاب. ولقد تنامى العمل الفكرى على حساب العمل اليدوى، وها هى ذى أيرلندا خلال عشرين عاماً تنافس أمريكا فتصدر من البرامج الإلكترونية ما قيمته ٦٠ بليون دولار، بعد أن أصلحت نظامها التعليمى وعرفت الطريق.

إن المعلومات سباق الألفية الثالثة، ونحن الآن على عتبة السباق، وسيقال لنا عند خط النهاية: (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) «الإسراء ١٧/ ١٤».

يقول ليف فلاديمير مدير مكتبة داج همر شولد الأسبق: «إن أى مصدر للقوة ليس بوسعه أن يولد قدراً من النور، أكبر مما يصدره كتاب صغير» ولا أدل على صدق مقولة فلاديمير من هذا الحشد الكبير الذى تحشده الرقابات لمحاصرة الكتاب، خوفًا من أن يتسرب منه شعاع يضيء، أو ريح تعصف، أو هدير يقلق. ذلك أن الكتاب فكرة، والفكرة إبداع، والإبداع تجديد، والتجديد تجاوز للمألوف، وتجاوز المألوف مخالفة، والمخالفة تحدٍ، والتحدى يخلق الآخر، والآخر تعدد، والتعدد يثير التصادم، ومن التصادم ينبعث الرعد، صوتًا يخرق الصمت، ونورًا يضيء ظلام الطريق، ويبعث على الحركة، والحركة حياة.. من هذا كله تنبع قوة الكتاب، وقديماً قيل: «إذا أردت أن تستريح، فعليك أن تغلق الباب الذى يأتيك بالريح».

ولكن هل يملك الكتاب فعلاً كل هذا السحر؟ وهل يحمل كل كتاب حقيقة خالصة بين دفتيه؟ هل يمكن لكتاب من عند غير الله أن يكون صوابًا كله؟ هل يخلو كتاب من خطأ، حتى لو أسميناه خطأ مطبعيًا؟! أليس فى بعض الكتب تضليل يخلط الحق بالباطل، ويلبس الشر لبوس الخير، بل أليس فى بعضها ما هو شر كله؟ فكيف يستطيع الإنسان أن يميز الخبيث من الطيب؟ ألا يستدعى الأمن الثقافى للمجتمع إقامة الحواجز

هل يملك الكتاب فعلاً كل هذا السحر؟ وهل يحمل كل كتاب حقيقة خالصة بين دفتيه؟
هل يمكن لكتاب من عند غير الله أن يكون صواباً كله؟
هل يخلو كتاب من خطأ، حتى لو أسميناه خطأ مطبعياً؟!

والغرابيل لمنع الخبيث من التسلل إلى عقول أفراده؟!

أبداً.. لست أرى ذلك، بل إننى أرى فى ذلك نوعاً من الأحادية يورث العقم، ويقتل الإبداع، ولا تنبثق الحقيقة إلا من تصادم الأفكار، ولن يعرف الحق إلا إذا اقترن بالباطل: (كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) «الرعد ١٣/١٧».

إن المصفاة الحقيقية للأفكار فردية وهى العقل الذى وهبه الله لكل إنسان، وأمن المجتمع الثقافى لا يتحقق بفرض الوصاية على الإنسان، وتجريده من حقه فى الاطلاع، وحرمانه من متعة تقليب وجهات النظر، وإزالة الأدران وتنحية الأشواك عن وجه الحقيقة.

إننى أثق بالقارئ ووعيه.. أثق بالقراءة الحرة وقدرتها على تصحيح مسارها وتلافى أخطائها، وأشجب كل أشكال الوصاية والحجر على الأفكار.. وأرى أن الوصى مهما سمت مواهبه، لا يمكن أن يكون أوعى من القارئ، وأقدر على تنحية السم والعفن من غذائه الفكرى.. وأن ترك القارئ يكون مناعته الفكرية ذاتياً، أولى من افتراض قصوره المزمن، وتعطيل عقله، لممارسة التفكير بالنيابة عنه.. وأن الأمن الثقافى للمجتمع لا يمكن أن يتحقق بأفراد قاصرين، تعوزهم المناعة الفكرية فى وجه الاختراقات الثقافية الجارفة، فى عصر العولمة وثورة المعلومات وتقنيات الاتصال.

أولوية الكتاب

تُرى عن أى أولوية للكتاب يمكننى أن أتحدث؟! عن الدور النظرى الذى يلعبه الكتاب فى بناء الإنسان وإشادة الحضارات وإنهاض الأمم، فأُملّكم بحديث مكرر طالما سمعتموه وقرأتموه، قصائد فى مديح الكتاب خير جليس، ومحاضرات عن حاجة الإنسان للقراءة، وسرد تاريخى عن اهتمام الأمراء والحكام وبناة الحضارات السالفة بالعلم والعلماء، وإغداق العطايا على المؤلفين والمترجمين؟! أم عن الواقع العملى الذى يشغله الكتاب فى حياتنا، فأصدمكم بواقع مرير يعيشه الكتاب بيننا، وأؤنسكم بزفراته الحرى، وشكاواه الصارخة، وأناته الموجعة، وأزعجكم بأرقام مخجلة عن عدد العناوين التى تصدر فى الوطن العربى وعدد النسخ الذى يطبع منها، ونصيب الفرد من ذلك، وما يستهلكه من الورق المطبوع فى الكتب والصحف والمجلات، مقارناً بما يستهلكه الفرد وما ينتجه الناشرون فى الدول المتقدمة؟!

وعن أى إنسان يمكننى أن أتحدث؟! عن الإنسان الذى يخططون لإنتاجه فى معامل الاستنساخ بمواصفات نموذجية معينة وموحدة، يتحكمون فيها من خلال التلاعب بموروثاته، فيلبون طلبات الشركات والمؤسسات والحكومات بحسب احتياجاتها إلى جندى مغوار، أو مزارع قن، أو عامل حاذق، يضاهئون به خلق الله؟! أم عن الإنسان الذى خلقه الله بيديه فى أحسن تقويم، ثم نفخ فيه من روحه، وخصه بقسمات وطبائع خاصة به، وسوى بنانه وأفرده ببصمة لا يشاركه فيها أحد لتكون بمثابة توقيعه، ووهبه العقل وميزه به من سائر مخلوقاته، وأمره بإعماله فى الكشف عن قوانين الكون المسخر به، وهداه النجدين وخيره أن يسلك أحدهما بمحض اختياره، وحمله المسئولية أمانة أبت السماوات والأرض أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان ثقة بنفسه واعتداداً. فأسجد الله له ملائكته تقديراً وإكباراً وحسن ظن به، فى أنه سوف يحسن اختيار طريق الخير رغم قدرته على اختيار طريق الشر.

ثم جعل منه الذكر والأنثى، وسيلة لحفظ نسله ونمائه، وجعل من آياته فيه اختلاف ألسنته وألوانه، وجعل منه شعوباً وقبائل وأمماً وحضارات، تتدافع وتتخاصم ثم تتحاور وتتعارف وتتفاهم، وعد ذلك الاختلاف ضرورة لتطور الإنسانية ونموها وتلاقح الثقافات وارتقائها (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) «البقرة ٢/٢٥١».

وعن أى كتاب أتحدث؟! عن الكتاب فى وعائه الورقى الذى يتأهب للرحيل، بعد أن أدى خدماته الجلية للإنسانية قرابة خمسمائة عام، وأمد المعرفة بوابل من النسخ ظل ينثرها بين أيدى الناس منذ اخترع جوتنبرج المطبعة عام ١٤٤٠، تربع خلالها على عرش المعرفة بلا منازع، حتى جاءته الوسائط الحديثة تجتذب إليها سمع الإنسان أصواتاً مسجلة، وتجتذب بصره صوراً مرئية، وتجتذب سائر حواسه حركات إلكترونية تأخذ بالألباب؟!

أم عن الكتاب فى وعائه الإلكترونى القادم بسرعة مذهلة، يغير ويبدل فى الكتاب كل شىء، شكله وحجمه، وطرق خزن المعلومات فيه وسبل استرجاعها.

يختزل مكتبة ضخمة تحتاج إلى مائة ألف متر من الأرفف لاستيعاب كتبها فى علبة صغيرة تحتوى على بضعة أقراص ليزرية، لا يتجاوز قطر الواحد منها ١٥ سم وسماكته أقل من ١ مم، ثم يعود فيختزل لك كل احتياجاتك اليومية من المعلومات ووسائط الإعلام والاتصال فى جهاز جيبى صغير يضع المعلومة بين يديك مثل خاتم سليمان كلمح بالبصر. يعد بإراحة المكتبيين من أعباء التخزين و«الأرشفة» والتصنيف، وإسعاد ربات البيوت بتوفير الجدران التى كان يحتلها الكتاب ويقول هل من مزيد، فيستبدلن به لوحات الفن والزينة، ويبشر أنصار الطبيعة وحماة البيئة، بإنقاذ شجرة من القطع مقابل كل نسخة مطبوعة من كتاب، وحماية البيئة من التلوث بآلاف الأطنان من الأحبار ورصاص الأقلام، ونفايات المطابع، وفضلات الصحف، والكتب المستعملة.

ما أريد أن أؤكده أننا نعيش فى عالم متميز، تجتاز فيه الإنسانية منعطفاً حاداً، ومثلما تدرجت فى عصور الرعى والزراعة والصناعة، ها هى ذى تدخل الآن عصر المعلومات، الذى تتنامى فيه العمالة الفكرية على حساب العمالة اليدوية، وتتبدل فيه مقاييس التقدم ومعايير ارتقاء الأمم، وتترك خصائصه آثارها العميقة على طرق التفكير، وأنماط العيش، وسبل التخاطب، وأساليب التربية والتعليم، وقواعد السلوك، وسائر العلاقات الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، المحلية منها والإقليمية والدولية.

وككل التحولات الكبرى فى التاريخ سوف تضطرب القيم والموازين وأنماط السلوك خلال مراحل التحول، وسوف يقاوم الإنسان التغيير ويدافعه بحكم الاعتياد، إلى أن يستقر الجديد وتثبت فعاليته وجدواه.

حالة عزوف

إننى أعرف أن أمة (اقرأ) باتت لا تقرأ. وأن إهمالها القراءة لم يعد سراً يجهله أعداؤها، بل هم يستيقنونه إلى درجة أنهم ينشرون مخططاتهم ونواياهم المبيتة ولا يخشون اطلاعهم عليها: فلقد سبق لدايان أن طمأن إسرائيل حين نشر بعض مخططاته إلى أن العرب لا يقرءون.

وأزمة الخليج عام ١٩٩٠ مرت دون أن نستطيع قراءتها فى ضوء التاريخ ولا فى ضوء الواقع، فضلاً عن المتوقع.. لقد كان كل شىء فى هذه الأزمة مبرمجاً ومخططاً له بدقة، ومعلناً عنه فى وقت مبكر، فى كتب ودراسات ترجمت إلى العربية ونشرت فى أوطاننا.. مررنا بها كأنها لا تعنينا، ثم نفذنا مضامينها كلها بدقة وأمانة كما أريد لنا. وأعرف كذلك أن مناهجنا التعليمية قد ربطت طلابنا بالمقررات الدراسية ومختصراتها، فقتلت لديهم روح البحث، وصرفتهم عن المطالعة خارج المنهاج، وكرهت إليهم القراءة والكتاب، حين حصرت هدفهما بالامتحان والشهادة. تنتهى الحاجة إليهما وتبدأ القطيعة معهما بالنجاح فى الامتحان وتحصيل الشهادة.

إن مناهج التربية والتعليم، هى المسئولة عن غرس عادة القراءة لدى الإنسان من أجل بناء مجتمع قارئ. وهى القادرة على تكوين القارئ النهم، الذى يعد الكتاب حاجة أساسية لتنمية عقله وفكره، مثلما يؤمن بأن الرغيف حاجة أساسية لنماء جسده، بل هو يشعر بأن معدته محدودة إذا تلقت من الطعام أكثر من حاجتها أصيب بالتخمة، بينما عقله غير محدود يلتهم كل ما يقدم له من زاد المعرفة، ويقول: هل من مزيد؟! فإن هى أرادت أن تستخدم طاقتها فى بناء الإنسان القارئ، أقبلت عليه منذ الصغر، توسع مداركه، وتفتح له آفاق المعرفة، وتغريه بها مستغلة ما فطر عليه من حب الاطلاع، والسعادة بالتعرف على المجهول، فتطارحه الأسئلة وتدفعه للتساؤل، ثم تضع بين يديه المراجع والمصادر، وتتركه يواجه تعب الولوج إليها، ويعانى مشقة البحث فيها، وينتابه الإحباط تارة والأمل أخرى، حتى يظفر بما يريد، وتغمره السعادة بما حصل عليه بجهده وتعبه وسهره.. عند ذلك ستقوم بينه وبين الكتاب ألفة ما بعدها ألفة، وسيشعر أن حياته مدينة للكتاب، وأنه لا يستطيع أن يعيش من دون كتاب، يصطحبه معه كل حين، يحيى به كل وقت انتظار فيزهق ملله، ويخصه بساعات من وقته يخلو بها معه.

أما إذا أرادت أن تضرب به مثل السوء، وتذهب به خارج دورة الحضارة، فتصرفه عن عادة القراءة، وتبغضه بالكتاب، وتشغله بسفاسف الأمور.. فإنها تعمد إلى ربطه بالمقررات، وصرفه عن المراجع، وقتل روح السؤال والتساؤل لديه، وإراحته من عناء التفكير ومشقة البحث، فها هو ذا الكتاب المقرر بين يديه، قد احتوى علم الأولين والآخرين، وما عليه إلا أن يقرأه آناء الليل وأطراف النهار حتى يحفظ كل حرف فيه، ويصبه فى ورقة الامتحان صباً، فينال الشهادة، وتنقطع بها صلته بالكتاب، بل يصبح الكتاب أبغض شىء إليه، لأنه كان الضيف الثقيل المفروض عليه، وها قد انتهت حاجته إليه.. أفتراه يبحث عن نظيره ليعكر عليه صفو هدوئه.

والمناهج، عندما تمارس هذا الدور، تلغى كل دور لمكتبة المنزل أو المدرسة، ولحصة المطالعة، ولواجب المطالعة الحرة، ولحلقة البحث، وتصنع من الكتاب أعدى عدو للإنسان.

خذ الكتاب بقوة!

وأعرف كذلك أن حالة العزوف القرائي والأمية الثقافية اللاحقة، قد أضرت بحركة النقد، وحدت من تداول الأفكار، وأدت إلى ركودها. فضمر الإبداع وتحجرت العقول، وغاضت الثقافة في المياه الآسنة.

وأعرف أيضًا كيف توقعت (الأيديولوجيات) في الوطن العربي، وفرضت الوصايات، وشُحذت مقصات الرقباء، ورُوج لقرارات المنع والحجر على العقول، وأُدخلت في قوالب جاهزة متباينة ومزاجية، وفرضت ثقافة الاتجاه الواحد، واحتكرت الحقيقة، وحجب الرأي الآخر، وهدأ الحوار، وغاب النقد، وساد الصمت، وضمر الإبداع، وابتلي الفكر بالعقم، وتقطعت أوصال الكتاب، فأوصدت دونه الأبواب، وحرم القارئ من حقه الطبيعي في الاطلاع. أعرف كيف اقتنصت وسائل الإعلام العابر والمعلومات السريعة، شريحة كبيرة من قراء الكتاب، بما تملكه من جاذبية وسائطها المتعددة في الصوت والصورة والحركة، فآثروها على الكتاب، وأسلموا إليها قيادهم وأوقاتهم، وفضلوا التحول إلى متلق يستمع ويشاهد مسترخيًا على أريكته، يتجرع ويحتسي ما يقدم له من دون كبير تدخل أو اختيار.. آثروا ذلك على معاناة القراءة الجادة، وما تتطلبه من تركيز ووعي، فتسطحت الثقافة، ولم يبق للكتاب إلا قارئ للمقررات على مقاعد الدرس، أو مثقف هاوٍ عاشق للكتاب لم يخدعه البريق. أعرف كيف انتحل العازفون عن القراءة الأعذار الواهية لتسويغ عزوفهم المنكر عن الكتاب وهجرهم المستهجن له، متعللين بغلاء سعره وضعف قدراتهم الشرائية ومحدودية دخلهم تارة، وبتعقد سبل الحياة وتعاظم هموم العيش وضيق الوقت تارة أخرى، وأن لو صح منهم العزم وصدقت النية لوفروا للكتاب الوقت والمال. اعرف ذلك كله، وأعرف أن هذه الإعاقة المزمنة التي حلت بالكتاب قد حجبته عن أداء دوره المنشود في بناء الإنسان، وأن العقاقير المسكنة وقصائد المديح المدغدغة للعواطف لم تنفع في علاج مشكلاته التقليدية.

الخروج من الإعاقة

لكنني واثق من أن الكتاب في عصر المعلومات، وانفجار المعرفة والاتصالات، سوف يتجاوز كل أزماته المزمنة ومشكلاته التقليدية. وأن اختراق المعلومة لكافة الحدود والسدود والحواجز والقيود، وغزارتها بما يشبه طوفان نوح؛ تنهمر بها الفضائيات من السماء، وتنبجس بها الشبكات العنكبوتية عيونًا من الأرض، وسهولة تخزينها وتصنيفها واسترجاعها، سوف يغير أذواق الناس وأنماط تفكيرهم وأساليب تعاملهم وتحصيلهم. وأن تعدد الخيارات أمام المتلقي ووفرتها بين يديه، سوف يكسر احتكارات المعرفة، ويضع الجميع أمام فرص متكافئة على عتبة سباق واحدة تشتمل على الغني والفقير، والقوي والضعيف، يفوز فيه من كان أحسن عملاً. ولسوف تسقط الوصايات الفكرية وممارسات القمع والحجر، وتنفتح القواقع الأيديولوجية والتيارات الفكرية والثقافات على بعضها بعضًا ويسود الحوار. ولسوف يعلو شأن الثقافة ويشتد تأثيرها ويزداد دور المثقفين. وسيتقن الإنسان السباحة في خضم المعلوماتية حين يجد نفسه ملقى في غماره. وسيواصل الإنسان كدحه لمعرفة الأسماء كلها التي علمها الله لأبيه آدم من قبل. وسوف يستعيد الكتاب دوره المنشود في بناء الإنسان، ولن يكون يومها خير جليس للإنسان، لأنه سوف يكون هو الإنسان.

هل أنا بذلك أسحب أزمة الكتاب من أيدي الدارسين والباحثين، وأترك حلها لحتمية التاريخ وسنة التطور، تحلها بعفوية وتلقائية من دون جهد إنساني ولا عناء. حاشا أن أفعل ذلك، وأنا أومن بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. إنما أردت أن ألفت النظر إلى التغيير الكبير في طبيعة الأزمة، في ظل ثورة المعلومات والاتصالات والعولمة، وأن المشكلات التقليدية المزمنة للكتاب التي لم نفلح في حلها، قد حلت محلها مشكلات جديدة ملحة، لم نعكف على دراستها بعد ولم نتبين ملامحها.

إن علينا أن ندرس خصائص المعلوماتية وتأثيراتها المتوقعة المترتبة عليها، وأن نتأهب للعبور إلى عصر المعلومات على بصيرة.. وأخشى ما أخشاه أن نسقط على جسر العبور بين المرحلتين فلا نحن نقرأ الكتاب التقليدي ولا نحن نقرأ كتاب المعلوماتية المقبل لا محالة.

لن يواجه الكتاب ـ في طريق رحيله ـ عن الورق، وتحوله إلى أوعيته الإلكترونية الجديدة ـ غير تشبث الإنسان بقديمه ومألوفه وعاداته، ورفضه الغبي لكل جديد، وسيتذرع لرفضه بألف حجة وحجة، وسيذرف دموع التماسيح أسفًا على فراق الكتاب، بعد صحبة حميمة استمرت مئات السنين. وهي ذرائع واهية، اعتاد الكتاب عليها، إبان كل رحلة يعتزم القيام بها إلى مسكن جديد، وما هي إلا مسألة زمن وأجيال.. يألف بعده الجيل الجديد ما أنكره الآباء، وتذهب أوعية الآباء ومألوفاتهم إلى متاحف التاريخ.. هكذا واجه الإنسان القديم آلات الطباعة متشبثًا بالنساخة اليدوية، زاعمًا أنها تنبض بفيض من روح الناسخ وفنه تارة، وأنها بدعة لم يقترف الآباء إثمها تارة أخرى، فتأخرت المطبعة عن خدمة الفكر في العالم الإسلامي زمنًا طويلاً، حتى تحجر هذا الفكر بين أيدي النساخ.. أما أنها ذرائع واهية، ودموع كاذبة، فهي كذلك عند الشعوب (النائمة) ـ على الأقل ـ، لأنهم يتذرعون بها لتسويغ عزوفهم القرائي الراهن، فلا يقرءون الكتاب في وعائه الورقي التقليدي، وتعوزهم الهمة لامتلاك ناصية قراءة الكتاب في أوعيته الإلكترونية الجديدة، والقدرة على التعامل معها.

سيذهب الكتاب التقليدي الورقي، ويحل محله الكتاب الجديد الإلكتروني ـ حتمًا ـ ويبقى الكتاب ـ في رأيي ـ كتابًا، يتغير فيه الشكل والوعاء، ويبقى المضمون، ولا يستقر من أوعيته في أيدي الناس، إلا ما ينفع الناس، ويكون أيسر استخدامًا، وأقل تكلفة، وأجدى نفعًا.

التعايش في مرحلة الانتقال

وسوف يتعايش الأسلوبان الورقي والإلكتروني، بمقدار ما يتمكن الورقي من الانسحاب والإلكتروني من الحضور في عملية إعادة انتشار تدريجية على خطين متقابلين، على نحو ما يتعايش قطارا ذهاب وإياب في نقطة التقاء تبدأ صغيرة، ثم تتطابق، ثم تضمحل، ثم يتباعدان بعد أن يتبادلا تحية الوداع.

وما يقال عن تعايش مشابه لتعايش الشاشة الكبيرة مع الصغيرة، والصحافة الورقية مع الإذاعة والتلفاز، فإني أراه تشبيهًا مع الفارق، وأنه سينقضي بانقضاء الحاجة إليه، بمعنى أن الشاشة الكبيرة ستبقى ما بقيت الحاجة إليها قائمة.. وأن التشبيه الأكثر تطابقًا مع موضوعنا هو: تعايش وسائط الإنارة بفوانيس الزيت والغاز مع وسائط الإنارة بمصابيح الكهرباء، وكذلك وسائط النقل على ظهور البغال، مع النقل بالسيارات والطائرات. إنها ما تزال متعايشة (أي موجودة بشكليها التقليدي والجديد)، ولكن بأية نسبة؟!

وليس المطلوب لتجاوز (الأزمة) ـ وأنا لا أرى أنها أزمة، بقدر ما هي صعوبة عابرة، مثل صعوبات السفر أو الانتقال إلى مسكن جديد ـ سوى:

١ ـ أن يخرج جيل الكتاب الورقي ـ الذي هجر الكتاب وتردى في أمية لحقت به منذ أن غادر مقاعد الدرس ـ من حالة عزوفه القرائي، ويتعرف من جديد على أهمية القراءة، ودورها في ارتقاء الأمم والأفراد على السواء، ويروض نفسه على تخصيص وقت يومي ـ مهما كان ضئيلاً ـ لقراءة جادة في كتاب مختار.. وأن يحاول الاطلاع ـ ولو بقدر يسير ـ على أوعية المعلومات الإلكترونية الجديدة، ويحاول تشغيلها، والتآلف معها، وعدم التوجس منها، حتى لا يبدو في أعين أولاده وأحفاده متخلفًا ومناهضًا للتقدم.

٢ ـ أن تغير المؤسسات التربوية ومعاهد التعليم ومناهجها باتجاه ثقافة الحواسب والبرامج الإلكترونية، فإنها ثقافة المستقبل، وأن تتعجل ذلك قبل أن يفوتها القطار، فتفقد سيطرتها على الأجيال واحترامها لها..

إن الأجيال القادمة، هي أجيال الكمبيوتر لا محالة، فتحت أعينها عليه، وتمرست أصابعها بنقر أزراره، وتوجيه فئرانه، واندمجت معه لعبًا وتعلمًا، وربما هربت إليه إن لم تجد في المدرسة والبيت ما يروي ظمأها منه.. هذا إذا لم يغير الكمبيوتر أساليب التعليم وأنماط التعلم ويلغي دور المدرسة نهائيًا، مستبدلاً بها التعليم عن بعد.

٣ ـ أن تجتهد دور النشر في الارتقاء بعملها على مسارين:

أولهما: مسار النشر التقليدي، فترتقي به في حسن الاختيار لموضوعاته، وتوضيح معاييرها في هذا الاختيار، وتغليب جانب الإبداع والتجديد والإضافة العلمية.. فتعدد مصادر المعرفة ووفرة إنتاج المعلومات، لم يتركا مجالاً للتكرار والاجترار والتقليد والمحاكاة، وكذلك تحسين تواصلها مع القارئ، وابتكار أساليب جديدة لجذبه إليها، ولفت نظره عن الوسائل الإعلامية الأخرى التي باتت أكثر إغراء.

وثانيهما: مسار النشر الإلكتروني، الذي يجب أن تستعد للتحول تدريجيًا إليه، قبل أن يفوتها القطار فتصبح من المهن المنقرضة التي انقضت حاجة الناس إليها إلا على سبيل الفولكلور.

ولست في ذلك أتحدث من فراغ، فالشركات المنتجة للبرامج (بما فيها الكتاب الإلكتروني)، شركات جديدة متخصصة لا علاقة لها بصناعة النشر، بل هي تنأى بنفسها عن أن تنسب إليها، وتكون جزءًا منها، وتنكر على الناشر التقليدي أن يطور نفسه باتجاه النشر الإلكتروني، وترى أنهما صناعتان منفصلتان متباينتان.

والمعلومات قد أخذت فعلاً ترحل عن الورق إلى الأقراص الممغنطة والإنترنت، بادئة بالموسوعات والمعاجم والأطالس، فتوقفت الموسوعة البريطانية عن صدورها التقليدي على الورق، ولحقتها لاروس وغيرها من الموسوعات الذائعة. وستتبعها أسفار أخرى بعد أن تختار أزياءها وأساليبها الجديدة التي ستحتال بها على القارئ، لتكسر الحواجز التي أقامها دونها، وتخترق صدوده عنها.

فلنصغ من جديد لنداء (اقرأ)

قد رأينا أثر (القراءة) في بناء الإنسان وتقدمه وارتقائه.. حتى إننا

خُـذ الكتـاب بقُـوّة!

نستطيع القول بثقة «إن القراءة للإنسان ضرورة لا غنى له عنها، ولا يمكنه العيش بدونها، فهى الغذاء لروحه، مثلما الطعام غذاء لجسده».. بل إن القراءة هى ما يميز الإنسان من الحيوان، إذ هما يشتركان فى حيازة الجسد وتوفير متطلباته، ويتمايزان فى انعدام قدرة الحيوان على التفكير، واعتماده على قواعد السلوك التى تمده بها غريزته وموروثاته (جيناته)، وامتلاك الإنسان أدوات المعرفة التى بها قد تأهل للاستخلاف فى الأرض، عندما تقبل - بشجاعة - عرض الأمانة، وحمل - بثقة واعتداد - مسئوليتها، فاستحق تكريم الله تعالى، وأمره الملائكة بالسجود له.

فأما تميز الإنسان من الحيوان - على الرغم من اشتراكهما فى استخدام الطعام وسيلة لنمو الجسد - فإنه واضح فى المراحل التى قطعها الإنسان منذ أن لم يكن شيئاً مذكوراً، حتى عصر المعلومات الذى يعيشه الآن، ماراً بكل عصور الصيد والرعى والزراعة والصناعة، يرتقى من مرحلة لأخرى فى طريق سعيه إلى الله (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) «الانشقاق ٦/٨٤».. بينما أمة النحل لو حذفت من تاريخها مليون سنة لما عثرت على تغيير يذكر فى طريقة كدحها وبناء خليتها لتودع فى حجراتها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس، ولتكون واحدة مما سخره الله تعالى فى هذا الكون لخدمة الإنسان.. ومثلها أمة النمل، لو عزلت جيلاً منها عن أمهاته منذ أن تفقس بيوضه لما احتاج إليها فى تعلم طرق عيشه ودأبه ومثابرته، مستغنياً عنها بما أودعه الله تعالى فى جيناته من قواعد سلوكه.



أمـة (اقرأ) بـاتـت لا تـقـرأ. واهمـالها القـراءة لـم يـعـد سـراً يجهله أعداؤها، بل هم يستيقنونه إلى درجة أنهم ينشرون مخططاتهم ونواياهم المبيتة ولا يخشون اطلاعهم عليهـا

وحده الإنسان، الذى يحفظ حصيلته من المعلومات المتراكمة لديه عبر الأجيال نتيجة التجارب والخبرات البشرية، يستفيد منها ويعالجها ويضيف إليها، كى يتطور ويرتقى، متسامياً بوتيرة متسارعة ليحقق حسن ظن الله به.

فبعد أن قبل التحدى وحمل الأمانة فى موقف مهيب قصه الله تعالى علينا بقوله: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً) «الأحزاب ٧٢/٣٣».

وبعد أن تحمل مسئولية أدوات المعرفة التى زوده الله بها، وأمره باستخدامها، وحذره من تعطيلها (ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) «الإسراء ٣٦/١٧»، وفى الآية نهى صريح عن التصرف بغير علم، وإسقاط لدعوى الجهل بالتشريع، فلا تسمع دعوى الجهل بالقانون بعد نشره وبيانه للناس، وتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه من وسائل المعرفة؛ من سمع وبصر وفؤاد، ومنحهم فرصة السؤال. إن عجزت أفهامهم عن إدراك الحقائق: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) «النحل ٤٣/١٦».

بعد كل أولئك أعلن الله تعالى فوزه فى المسابقة على سائر الكائنات، وأمر الملائكة بالسجود له تكريماً وتعظيماً، وما كان ذلك إلا لأمور:

أولها: قدرته على تحصيل المعلومات ثم اختزانها واسترجاعها، فأنبأ الملائكة بأسمائهم، وعجزت الملائكة قائلة: (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا)، فلا طاقة لنا على تجاوز هذا الذى علمتنا.

والثانى: قدرته على مخض المعلومات وتمييز الخبيث من الطيب، ثم الاختيار بين النجدين بعد اتضاحهما له، وسلوك أحد الطرفين بمحض اختياره، أو بمعنى آخر قدرته على اختيار طريق المعصية، وتحمل النتائج المترتبة على اختياره الحر، فى حين أن الملائكة لا يملكون هذه القدرة، فلا يعصون الله ما أمرهم، ولا يفعلون إلا ما يؤمرون به، وهم مبرمجون على سلوك طريق واحد لا يحيدون عنه، ولا فضل لهم ولا اجتهاد فيه فيحاسبوا عليه.

والثالث: قدرته على تنمية المعلومات وتوليد الأفكار، ثم السمو والارتقاء بها، ومتابعة تطوره مستفيداً من تجاربه، ليتمكن من تجنب طريق الفساد فى الأرض وسفك الدماء على الرغم من امتلاكه القدرة على السير فيه، مما أثار الدهشة والاستغراب لدى الملائكة، عند عرض (مشروع) خلق الإنسان عليهم، فلم يتبينوا حكمة الخالق منه، ولم يدركوا قدرة هذا الإنسان على تخطى الصعاب وتجاوز الأخطاء، والاستفادة من التجارب، وهو ما نستشفه من حسن ظن الله تعالى به عندما قال للملائكة: (إنى أعلم ما لا تعلمون).

ولك أن تفتح ملف هذا المشروع، وتقرأ قصة المسابقة الفذة والامتحان العسير الذى خاضه الإنسان، ومسألة تفوقه على الملائكة، وفوزه بجائزة التكريم الإلهى، فى قوله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) «البقرة ٢/٣٠-٣٣». وبعد ذلك كله كان النداء: (اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم) «العلق ٩٦/ ١ - ٥». مؤكداً أولوية القراءة فى حياة الإنسان، وأنه لن يكون إنساناً، ولن يستطيع تحقيق الهدف من خلقه وهو (الكدح والتسامى) إذا لم يقرأ.

وتسألنى ماذا أقرأ؟

لقد أسعدنى سؤالك هذا، إنه ينم عن اتخاذك القرار بالإقبال على القراءة، ولابد أنك فكرت ملياً قبل اتخاذ قرارك، باحثاً عن وقت يومى - مهما كان ضئيلاً - تخصصه لها وتلتزم به، مثلما تلتزم بمواعيد الغداء والعشاء، وعن مبلغ - مهما كان زهيداً - تخصصه فى ميزانيتك لشراء الكتاب أسوة بما تخصصه لشراء الطعام والشراب.

لا يهمنى سؤالك: ماذا أقرأ؟! فأنا واثق من أنك تجد ما يطيب لك أن تقرأه بين آلاف الكتب المنثورة بين يديك فى المكتبات ومعارض الكتاب، وسوف تتكون لديك الخبرة الكافية لكى تحسن الاختيار، وتعرض عن الغثاثة والضحالة والاجترار، فلا تغتر بالعناوين وإثارتها، والأغلفة وأناقتها، بل تبحث عن المضامين، تتعرف عليها من مسرد الموضوعات، وتتصفح المقدمة فيتبين لك هدف الكتاب، ويتضح لك المكتوب من عنوانه.

نصيحتى إليك أن تستبدل بسؤالك ماذا أقرأ؟! سؤالاً مهماً كيف أقرأ؟!

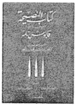
ليكن اختيارك لما تقرأ حراً.. قد تخطئ فى الاختيار فسرعان ما ترمى الكتاب الذى لم يرق لك جانباً، مشمئزاً أو مختلفاً أو مغاضباً، وربما راجعت نفسك وبدا لك أنك تسرعت فى حكمك عليه بعض الشىء فتعود إليه متفحصاً مناقشاً وباحثاً متأملاً.. وقد تزل قدمك فتمضى مع كاتب فى طريق ملتوٍ أو مسدودٍ أو مشوش أو غائم أو معتم، فلا تقلق، بل واصل قراءتك فإن القراءة المستمرة تصحح أخطاءها، وابحث عن الرأى الآخر، فإن الرأى يصقل الرأى ويقوم المعوج، والأفكار كائنات حية تتكاثر بالتزاوج، وتنمو بالنقد والتصارع، وبارقة الحقيقة لا تنقدح إلا باحتكاك الأفكار وتصادمها.

لا تسلم قياد فكرك وعقلك لأحد، واخلع نفسك من كل وصاية، وانطلق فى قراءتك حراً طليقاً، ولا تغلق على نفسك باب التساؤل بذريعة الانضواء تحت إطار فكرى معين، فإن التفجر المعرفى من حولك فى عصر المعلومات لم يترك مجالاً للتقوقع، وباب التساؤل وحده طريقك إلى ارتياد آفاق المعرفة، واختبار صحة معلوماتك وترسيخ قناعاتك على هدى وبصيرة، وتنمية مناعتك ضد كل الاختراقات الثقافية والفكرية فى عصر العولمة. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

كتاب النصيحة

كيكاوس بن وشمكير
تعريب: محمد صادق نشأت وأمين عبدالمجيد
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٦٣صفحة



يتمتع هذا الكتاب بشهرة كبيرة داخل إيران وخارجها، وهو معروف باسم «قابو سنامة»، ومؤلفه هو الأمير كيكاوس، وقد ألفه من أجل ابنه «كيلاشاه»، وقد ألفه في شيخوخته بعد أن خبر الناس وغرف من ينابيع الحكمة وتجارب الأيام، وهذه الترجمة هي الأولى إلى العربية، وهي تضع بين يدي القارئ صورة واضحة للحياة العلمية والاجتماعية في العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري، وهي صادقة بعيدة عن التكلف والمبالغة والخيال.

وأبواب الكتاب أربعة وأربعون. وقد قسمها المترجمان من حيث الموضوع إلى ستة أقسام: في الأبواب التسعة الأولى يقف الأمير من ابنه موقف الواعظ الناصح، فيتحدث عن معرفة الله وخلق الأنبياء وزيادة الطاعة ومعرفة حق الوالدين، والكلام حسنه وقبيحه، وحفظ الأمانة، ويورد نصائح أنوشيروان العادل ثم يتكلم عن الشيخوخة والشباب.

والقسم الثاني يتحدث فيه عن آداب اللياقة وقواعد الحياة الخاصة التي تليق بالأمراء وعلية القوم، فيتكلم عن ترتيب الطعام والشراب وآداب الضيافة، والاستمتاع والذهاب إلى الحمام، والنوم والراحة، والصيد وغيرها.

والقسم الثالث يتناول المعاملات من جمع المال وشراء الرقيق والبيت والضياع والخيل والزواج وحق الولد واختيار الصديق وتدبر أمر العدو والعفو والعقوبة.

ويدور القسم الرابع حول العلوم والمهن التي يحتاج إليها المرء لكسب معاشه، وتدور حول طلب علم الدين والقضاء والتجارة والطب والهندسة والفلك والشعر والغناء وخدمة الملوك ومقاومتهم والفلاحة.

ويعالج في القسم الخامس الشئون العليا في الدولة، فيتحدث عن الحروب وشروط الوزارة والقيادة والملك.

ويختتم في الباب الرابع والأربعين بالحديث عن المروءة ومفهومها عند كل طائفة من الناس، وآداب أهل التصوف والصنعة.

الفضاء المعلوماتي

حسن مظفر الرزو
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ٤٩٤ صفحة



يستخدم مصطلح الفضاء المعلوماتي لوصف البيئة الافتراضية للإنترنت ووسائط الاتصال الرقمية الأخرى التي يكثر استخدامها في مجتمع المعلومات اليوم. وهذه الدراسة تقدم معالجة معرفية لعدة مسائل تتعلق بهذا الفضاء عندما ينظر إليه ككيان وجودي متكامل أفرزته البيئة الشبكية الرقمية، وتسعى إلى تحليل مكوناته للتوصل إلى فهم جديد لفضاء يحيط بنا من كل جانب ويوشك أن يبتلعنا في كيانه الفريد.

ويأمل المؤلف أن يسهم هذا الكتاب كنقطة بداية متقدمة على طريق تحليل ماهية الفضاء المعلوماتي، وأن يخط نهجًا يسعى إلى تكوين صورة واضحة المعالم عن هذه البيئة الجديدة التي أصبح مصيرنا ومستقبلنا مرهونًا بقدرتنا على التعامل معها، واستثمارها لإعادة تشكيل مفردات منظومتنا التقنية والثقافية والاجتماعية في عصر المعلومات.

الأمن الإعلامي العربي

رفيق نصرالله
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ١٣٢صفحة



شهد الإعلام العربي انقلابات متلاحقة منذ سبعينيات القرن العشرين، وكانت الشاشة هي الزلزال الذي هز أركان الإعلام، ليصير المشاهد جزءًا من التحول اليومي، وخلال السنوات العشر الممتدة من ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٥ كان واضحًا أن الآخر تمكن من إحداث شرخ في بنية الإعلام العربي، وتعميم لغة أخرى أسقطت ما كان سائدًا من ثوابت ومسلمات، فظهر الإسرائيلي على الشاشة بلا حرج، وتحولت فضائيات عربية عديدة إلى مسرح مرئي يناقش كل القضايا بتداعياتها المختلفة والمتناقضة أحيانًا، دون الأخذ في الحساب مستوى ثقافة الرأي العام العربي الذي عانى كبتًا سياسيًا لفترة طويلة، خاطبته هذه المحطات بكثير من الفوضى والحماس.

المؤكد أن المجتمع العربي يمر بمرحلة تحول في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وهو - بتعبير المؤلف - يلامس زمن العولمة دون أن يستعد لهذه الملامسة بخطط مسبقة، لهذا يبدو أن هذا التحول مفتوح ومرتجل، مفتوح على فقدان مقومات الحصانة وإمكانية الاحتفاظ بالموروث، وأمام هذا الواقع تحول الخطاب الإعلامي والممارسة الإعلامية إلى انعكاس لهذا الواقع، مفتقدًا المشاركة الحقيقية المنطلقة من رؤيته للمستقبل تنسجم وضرورة التحول.

في ضوء هذه التصورات، يناقش المؤلف عديدًا من القضايا المهمة التي تتماشى فيها قضايا الإعلام بغيرها مما يعبر عنه أو يمثل انعكاسًا له، ومنها مصطلح الأمن الإعلامي، التكون الإعلامي الأيديولوجي، الإعلام العربي والقضية الفلسطينية، الشرق الأوسط الكبير وإعلام الفدرلة، فضائيات رجال الأعمال، الإعلام العربي في زمن العولمة.

الغرق

يوسف الشاروني
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ١٤٧صفحة



بعد رحلة طويلة مع الإبداع جاوزت نصف القرن، أمضاها مخلصًا لفن القصة القصيرة وحده، فضلاً عن دراسات أدبية ونقدية جادة، ها هو العمل الروائي الأول ليوسف الشاروني، والذي يسميه «تحقيق روائي»، وهو يدور حول غرق العبارة المصرية «المحروسة» في رحلة للحجاج المصريين بين ميناءي السويس وجدة، وقد سعى إلى التعرف على أبعاد الحدث وما وراءه من مأس إنسانية وحكايات ترسم في مجملها لوحة بانورامية لعالم من البشر، ينتمون إلى بيئات مختلفة وطبقات اجتماعية متباينة، معتمدًا على المادة التي نشرتها الصحف عن الحادثة. وفي التحقيق الروائي إدانة لأشكال مختلفة من الفساد والإهمال والأنانية باتت تغطي حياتنا وتطبع سلوكنا اليومي.

ومنذ البداية، نكتشف أننا أمام الأسلوب المميز للشاروني، جمل تلغرافية قصيرة، احتشاد مكثف للأحداث والتداعيات والصور، إنه الأسلوب ذاته الذي يميز القصة القصيرة لا إطناب ولا تطويل دون مبرر فني، وحتى حين يستخدم روايات عديدة لشهود عيان وأفراد الطاقم الفني للباخرة وناجين من الكارثة وصحفيين، فإنه يتعامل معها بأسلوبه المقتصر وعباراته التي تشق طريقها إلى المعنى مباشرة دون مراوغات بلاغية، وهو أسلوب يتبدى بوضوح في سرد تفاصيل الدقائق السبع للكارثة التي راح ضحيتها ٥٧٤ راكبًا بمن فيهم قائد السفينة وغالبية طاقمها، ولم تكتب النجاة إلا لـ ١٨٠ راكبًا فقط، أما قائد السفينة كريم كانو، فقد كان للعثور على جثته بين ضحايا الحادث أثر مدوي، إذ أعطى بعدًا جديدًا للحادث، لأن وجود جثته بين الغرقى يعد دليلاً دامغًا على التزامه بالواجب، وبتقاليد مهنة البحرية التي تلزم القبطان بأن يكون آخر من يغادر السفينة، لكن تبقى المأسي الإنسانية التي خلفها غرق السفينة، شاهد عيان لا ينزوي ولا تواري جثته التراب.

معارك فنية

نبيل حنفي محمود
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٧، ٢٠٤صفحات



شهدت الحياة الفنية عديدًا من المعارك التي ألقت بظلالها على الواقع الفني المصري عبر تاريخه الطويل، كان أقطابها موسيقيين وشعراء وفنانين ممن أثروا الحياة الفنية لسنوات طويلة.

المعركة الأولى التي يشير إليها المؤلف كان بطلها الشيخ زكريا أحمد، الملحن العبقري، وطرفها الآخر محمد البحر الابن الأكبر للشيخ سيد درويش، الذي اتهم زكريا أحمد بسرقة أحد ألحان والده أو على الأقل مقطع كامل منها لتغنيه السيدة فتحية أحمد وهي مطربة مشهورة في ذلك الوقت، وقد كتب البحر انتقاده في مجلة المسرح وكان سنه وقتها لا يتجاوز السابعة عشرة، وبدا أن المجلة منحازة بشكل كامل إلى جانب ابن سيد

درويش، واستمرت المعركة التى دخل فيها أطراف عديدة، واتضح أن من أشعل شرارتها هو الشيخ يونس القاضى، وهو شاعر غنائى كتب العديد من الأغنيات بألحان كبار ملحنى عصره، وبالطبع لم يعدم الشيخ زكريا من يدافعون عنه ومنهم الفنان حامد مرسى، وانتهت المعركة وخرج منها زكريا أحمد أقوى مما كان، وانكشف الغرض من ورائها، كما يشير المؤلف، وهو أطماع الشيخ يونس القاضى فى إرث سيد درويش.

ثمة معركة مهمة أيضاً يوردها المؤلف بطلها عبدالحليم حافظ، الذى بدأ نجمه فى الصعود مع بداية الخمسينيات، فإذا به يخرج على الناس بتصريحات مهينة لفنان الشعب سيد درويش، استمرت المعركة فترة طويلة، وشارك فيها نقاد وكتاب وموسيقيون وصحفيون، أما لماذا ارتكب عبدالحليم هذه الحماقة، فثمة تفسيرات عديدة، بينها أنه كان مطرب ثورة يوليو الأول، وكان يشعر أنه مدين لهذه الثورة بالكثير، وأراد أن يعبر لها عن امتنانه بالنيل من فنان وموسيقى كان رمزًا لثورة ١٩١٩، التى بدا أن ثورة يوليو - أو هكذا تصور هو - تناصبها العداء.

أما التفسير الثانى فإنه كان يهاجم سيد درويش لحساب أستاذه وشريكه فى صوت الفن فيما بعد محمد عبدالوهاب، أما عبدالحليم نفسه فقد قال إنه لم يقصد الإساءة إلى سيد درويش، وإنما قال ما قاله مدفوعاً بسؤال استفزازى فى لقاء صحفى فحواه: لماذا لا تغنى أغانى سيد درويش، وكان رده أن زمن سيد درويش انتهى ولا مبرر لإعادة إحياء أغنياته.

معارك عديدة يتضمنها الكتاب تبرز فيها أسماء فنية كبيرة من نوع أم كلثوم والقصبجى ومحمود الشريف وبليغ حمدى وبيرم التونسى ومرسى جميل عزيز وجليل البندارى وكمال الطويل وفريد الأطرش وآخرين.

■

هموم سياسية

حازم الببلاوى

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ٣٦٦صفحة



يضم الكتاب مجموعة من المقالات التى كتبها المؤلف، وهو فى الأصل اقتصادى ليبرالى مرموق، خلال السنوات الخمس الأخيرة. وجميعها تدور حول قضايا عامة شغلت المجتمع المصرى والعربى، وقد قسمها إلى سبعة فصول، يدور الأول منها حول النوازع البشرية، وبحسب المؤلف فإن الحديث عن السياسة وانشغالات الناس يتطلب معرفة النوازع التى تحرك البشر، ولذا فإنه يبدأه بمقال عنوانه «السيد والخادم»، عن العلاقة بين الحاكم والمحكومين، دون أن يعنى ذلك بالضرورة أن العلاقة بين الطرفين تسير دوماً وفق هذه الآلية، فقد تطورت الأمور إلى درجة أوجدت آلية أكثر ليونة من فكرة «ذهب المعز وسيفه» التى كرسها المعز لدين الله الفاطمى، حيث قدم أوراق اعتماده للمصريين، وفى كثير من دول العالم الثالث، فإن القانون صار أداة طيعة يستخدمها الحاكم بديلاً عن أساليب قديمة كانت تصمه بالديكتاتورية والاستبداد. ويضم هذا الفصل عدداً من المقالات التى تمثل عزفًا على اللحن ذاته.

أما الفصل الثانى فهو برأى المؤلف جوهر الكتاب، وهو يعالج موضوع الديمقراطية والإصلاح السياسى، ويبدأ بمقال عنوانه «الديمقراطية بأيدينا لا بيد عمرو»، يدعو فيه المؤلف إلى الأخذ بالديمقراطية كمنهاج للحكم بصرف النظر عن الضغوط والمطالبات الخارجية، ويؤكد على أن جوهر الديمقراطية الليبرالية هو احترام حقوق الأفراد، وفى مقال «دروس الديمقراطية» إشارة إلى أن الديمقراطية ليست فقط الانتخابات وحكم الأغلبية، إنما هى قبل أى شىء آخر عدم تركيز السلطات. وفى مقال تال تحت عنوان «المال والسلطة»، إشارة إلى تأثير المال على السلطة. وفى هذا الفصل أيضاً دراسات عن المسئولية السياسية، والديمقراطية والتكنولوجيا، والإصلاح السياسى والإدارة السليمة.

ويناقش الفصل الثالث «الشريعة والحياة» عدداً من القضايا ذات الصلة بهذا الموضوع المهم، مؤكداً على أنه لا كهنوت فى الإسلام، فالإسلام يدعو إلى الوحدانية دون وساطة بين المسلم وربه، ويناقش فى عدة مقالات متتالية مفهوم العلمانية، «عن العلمانية»، «العلمانية مع القراء»، «العلمانية والحريات الدينية»، «العلمانية والحجاب التركى» وجميع هذه المقالات تؤكد أن المبدأ الأساسى للعلمانية هو ضمان حريات الأديان جميعها دون استثناء.

ويخصص الفصل الرابع لمفهوم «العروبة»، وبحكم التخصص يركز المؤلف على أسباب ضمان أساس النجاح فكرة التكامل الاقتصادى العربى، كما أن العروبة ذاتها إضافة وليست خصماً من الوطنية المصرية.

الفصل الخامس يحمل عنوان «الغرب وأمريكا» وهى محاولة للفهم فى زمن سيادة أمريكا على العالم، ويخصص المؤلف الفصل السادس للهموم الاقتصادية، أما السابع فيعرض لعدد من تجاربه الشخصية.

■

رحلة الصورة والمصوراتية

أمكنة (دورية)

العدد الثامن : يونيو ٢٠٠٧



عدد جديد من هذه الدورية التى تعنى بثقافة المكان، والتى استطاعت خلال أعدادها السبعة السابقة أن تؤكد جدارتها وسط سيل من المطبوعات الثقافية والنوعية، ويبقى مهما أن نشير. كما اعتدنا ربما فى كل مرة تناولنا محتوياتها بالعرض. أنها لاتتبع مؤسسة صحافية حكومية، ولاتصدرها شركة مساهمة وفق قوانين ملكية المؤسسات الإعلامية الجديد، إنما يصدرها مجموعة من شباب المثقفين، هم من اختاروا فكرتها البراقة بثقافة المكان، وهم من يحررونها وينجزون الصور الفوتوغرافية المصاحبة لموضوعاتها ويرسمون ماكيتاتها البسيطة من الألف للياء، ويشرف على تحريرها الشاعر علاء خالد وزوجته الكاتبة والمصورة الفوتوغرافية سلوى رشاد والأديب مهاب نصر، كما أنها تصدر. وهذه ميزة إضافية. من مدينة الأسكندرية، مستعيدة ماضى مدينة الثغر العريق، وقت أن كانت عنوانا للثقافة الإنسانية فى أكثر صورها رحابة.

العدد الجديد مهدى إلى روح الشاعر الشاب أسامة الدناصورى الذى توفى فى منتصف هذا العام، ويضم ملفا عنوانه «رحلة الصورة»، يكتب فيه عبد العزيز السباعى عن بدايات الفوتوغرافيا فى مصر، حيث وفد عدد من المصورين الفوتوغرافيين من كافة أرجاء العالم لتسجيل تاريخها وفنها وعاداتها، والتقطت أول صورة فوتوغرافية فى مصر لحاكم القاهرة فى ٧ يناير ١٨٣٩ ومدون عليها «هذا من عمل الشيطان».

ومنذ هذا التاريخ ذاع فن التصوير الفوتوغرافى فى مصر، وصار مهنة يحمل أصحابها صندوقا خشبيا يتجولون به على الأرصفة والمتنزهات بصحبة كاميرا «الألومنيت» للصور المائية. وشيئا فشيئا حل الأستوديو بديلا عن التصوير الشمسى، وتأسست العديد من الاستوديوهات فى القاهرة والأسكندرية مثل «برودواى»، أراكش، أرمان، لوتس، لافيترى وغيرها، وصارت مقصدا للعديد من الناس من أطراف المدينتين الكبيرتين والقرى المحيطة بهما. وتحول «المصوراتى» إلى «مزار» يقصده الراغبون فى تخليد لحظات بعينها، وهم فى أوج أناقتهم .

ويكتب الفنان التشكيلى الراحل هانى الجويلى عن «الصورة المومياء»: الصورة التى تذكرنا بمن أحببنا وبمن نحب.. من صادقنا ومن نكره، الأهل والغرباء، الصور الرائعة لأماكن زرناها والصور السيئة التى نرغب فى تمزيقها، الصورة التى تدفعنا للشراء أو الرثاء، ذاكرتنا هى متوالية الصور التى نملكها، لاتمحو ذاكرتك، قد تحتاجها يوما.

وتعقب المقال مجموعة من الصور المميزة التى التقطها الجويلى قبل رحيله، والتى تشير إلى موهبته المؤكدة فى هذا اللون من الفنون.

أما فؤاد الخورى فهو فنان لبنانى ولد فى باريس فى ١٩٥٢، ويعيش بين باريس ولبنان، وقد رصد فى أعماله الأولى الحرب الأهلية اللبنانية، فيكتب نصا عنوانه «اكتشاف الطريق» يكشف فيه عن إحساس عميق بثقافة المكان وعن تجربة انسانية «نزعت عن الفوتوغرافيا الشق المهنى وحولت العمل لأداة للتحدث والاستكشاف» كما جاء فى التذييل المصاحب للمقال، وثمة مايفيد فى خبرة خورى الفريدة منها مثلا: «اكتشاف المكان يكون دوما على العكس من الرحلة السياحية وبرنامجها ويحمل عينى إلى مجمل التفاصيل»، «حين أدخل إحدى المدن انتهى بأن أعرف أحياءها المختلفة بشكل أفضل من الكثير من سكانها»، «بغير اعتياد على أن أحمل معى صور من أحب»، «فى معظم القرى التى زرتها كنت أبدأ بشراء خريطة لدراسة تكوين المكان (...) وبسبب سكانها الذين غالبا مايكونون من المهمشين أو الوافدين الجدد قد تمثل هذه الأحياء خطرا ما، فكنت أكتفى لذلك بأن ألتقط الصور دون النظر عبر العدسة فى بعض الأحيان»، «الاختيار يتطلب انتباها خاصا لاسيما لو كان الأمر يتعلق بعمل مطلوب من جهة ما حيث يجب الموازنة بين مطالب الجهة وما نشعر به على أرض الواقع»، «لكى تكون صورة ما جيدة يجب أن تسعد فى نفس الوقت هؤلاء الذين التقطت لهم الصورة والذين يشاهدونها».

بالملف مقالات وتجارب أخرى عديدة لـ«رندا شعث» و«فالتر بنيامين وآخرين»، وبالعدد مقالات عديدة يضمها ملفان كبيران هما «خيالات المدينة» و«أساطير الحياة اليومية»، و«حوار مع شلة المنيل» يجريه علاء خالد مع المخرج مجدى أحمد على والفنان التشكيلى عادل السيوى والكاتب جلال الجميعى والقاص أمير سالم والناقد السنمائى محسن ويفى والسيناريست سامى السيوى.

عزومتي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٢٨صفحة



وصفات سهلة لاتتضمن مكونات غريبة، ولا تحتاج إلى أدوات مطبخ مميزة، بما يعنى أنها فى متناول ست البيت العادية، وقد تم تقسيمها بطريقة مبسطة كذلك على هذا النحو: المقبلات، السلاطات، الشوربة، اللحوم، الدجاج، الأسماك وفواكه البحر، المكرونات، الأرز، الخضروات، الحلويات، العزومات.

أما المقدمة فهى إرشادات عامة تساعد ست البيت على تنظيم الوقت وتوزيع المهام قبل وأثناء العزومة، كما تقدم بعض المعلومات عن تنسيق المائدة، واللمسات البسيطة التى تجعلها تبدو بشكل جميل وأنيق.

■

بستان المسرح
فريدة النقاش
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧، ٣٤٩صفحة



يضم الكتاب مجموعة من الدراسات التى كتبتها المؤلفة عن المسرح منذ الستينيات وحتى اليوم. متابعات ورؤى لتجارب مسرحية، ودراسات عن روّاد وهبوا حياتهم لفن المسرح. التتابع الزمنى للمقالات التى نشرت فى صحف ومجلات مصرية وعربية، وقُدم بعضها إلى مهرجانات مسرحية، يكشف عن الحالة التى آل إليها المسرح منذ أواسط السبعينيات وحتى اليوم، خصوصاً إذا قورنت هذه الحالة بما كان عليه المسرح فى عقد الستينيات. فى الستينيات كان ثمة رسالة يلقى بها المسرح فى مواجهة جمهوره، منذ منتصف السبعينيات، تحول المسرح إلى حالة تجارية بائسة، دون أن ينفى ذلك وجود بعض المحاولات الجادة لتجاوز هذه الحالة الرديئة.

فى دراسة عن المسرح الشعبى تشير المؤلفة إلى مسرح نجيب سرور، خصوصاً مسرحية «منين أجيب ناس»، والتى يبنى فيها على قصتين إحداهما أسطورية والأخرى واقعية، الأولى هى قصة «إيزيس وأوزوريس»، والثانية «حسن ونعيمة»، وكلتاها تتحدث عن جمع الشتات وتوحيد أجزاء الجسد المبعثر، وبطريقته التى تكثّف المسرح الشعبى مستفيداً من التراث بكل ما فيه من حواديت وأساطير وأمثلة وحكم وأشعار، يكشف لنا المؤلف عن الصراع الذى خاضه الشعب ضد ظالميه وغزاته.

وتقارن فى دراسة أخرى بين شهرزاد توفيق الحكيم وشهرزاد نعمان عاشور، وتشير إلى أن زمن توفيق الحكيم فى المسرحية يدور فى تلك الدورة المأساوية المتكررة التى لا تنتهى، بينما يتقدم زمن نعمان عاشور لاقتحام المستقبل، وتشير كذلك إلى أن الحكيم كان غارقًا فى مسرحه الذهنى بعكس عاشور الذى غاص فى قلب الواقع، فالزمن عنده هو تاريخ الناس، هو زمن الفعالية الإنسانية تلك التى لا يعنى بها الحكيم كثيراً.

دراسات عن المسرح العربى والعالمى وأخرى عن التجريب ومهرجانه الذى يعقد فى القاهرة منذ سنوات مع اهتمام خاص بالمسرح الفلسطينى، وبالقضية الفلسطينية كما عولجت مسرحياً، وعديد من القضايا الفكرية التى عنى بها المسرح الجاد.

■

ذاكرة الخيال المبجل
كريم محمد حسنين
القاهرة: المركز الدولى للإعلام، ٢٠٠٧، ١٦٠صفحة



متتاليات من أدب الرحلات، عن الهند البلد الذى تتنوع فيه الديانات واللغات واللهجات والقوميات، والمؤلف أديب عراقى زار الهند للمشاركة فى فعالية ثقافية، فهام بها عشقًا وطاف بربوعها مستدعيًا صورة الشاعر الهندى الكبير طاغور الذى ينقل عنه فى المقدمة قوله: أنا هذا البخور الذى لا يضوع عطره ما لم يحدق/ أنا هذا القنديل الذى لا يشع ضوءه ما لم يشعل.

يكتب عن إله القردة الذى خصصت له حديقة كبيرة، وعن نهر نارمادا المقدس، وقلعة ساهى باهى، ومدينة هيماجل التى تجمع الفنون الهندية المتنوعة والأديرة البوذية والمعابد الهندوسية، كما يكتب عن الموسيقى والفنون البصرية ورياضة اليوجا ذات الطبيعة الصوفية، وعن تاج محل وبوذا وعقيدة التناسخ، وعشرات من التفاصيل الأخرى عن هذا البلد شديد التنوع والثراء الثقافى الباذخ، ولا يغيب أبداً الزعيم الهندى العظيم غاندى الذى تجسدت فيه قيم الصمود والتسامح والإيثار فى أروع صورها.

■

حيرة العائد
محمود درويش
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ١٦٨صفحة



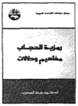
فى الكتاب عشرات الكلمات التى قالها محمود درويش فى مناسبات شتى. معظم هذه الكلمات تتناول شخصيات أبدعت فى مجال أو أكثر من ياسر عرفات إلى إميل حبيبى وفدوى طوقان إلى نزار قبانى وسعدى يوسف ومحمد الماغوط إلى سمير قصير وممدوح عدوان وجوزف سماحة.

ويمكن أن نقسم الكتاب إلى ثلاثة محاور: هموم الوطن وشجون المنفى وهما شغل محمود درويش الشاغل، إضاءات على أعلام فى النضال والأدب والشعر والفن والسياسة، كلمات ألقاها المؤلف فى مناسبات تكريمية له. فى المحور الأخير يبدو المؤلف فى غاية التواضع وهو يلقى الضوء على محمود درويش الأديب والشاعر ناقداً وموضحاً ومحللاً.

يقول: «قليلون هم الشعراء الذين يولدون شعرياً دفعة واحدة. أما أنا، فقد ولدت تدريجياً وعلى دفعات متباعدة. ومازلت أتعلم المشى العسير على الطريق الطويل إلى قصيدتى التى لم أكتبها بعد».

■

رمزية الحجاب: مفاهيم ودلالات
عايدة الجوهرى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٢٦صفحة، ١٠ دولارات أو ما يعادلها



إذا كانت إعادة قراءة التاريخ تشكل هدفًا أكاديميًا يبغى المعرفة ويطلب العلم لغاية فى حد ذاته، فإن إعادة قراءته من منظور دور النساء فيه يعتبر هدفًا سياسيًا واهتمامًا بالمشاركة الإيجابية فى الواقع الثقافى والاجتماعى من أجل إحداث تغيير نحو حياة ثقافية واجتماعية أكثر عدلاً وأكثر توازنًا لجميع أفراد المجتمع.

وطالما أن المعرفة، أو المعرفة التاريخية، مرتبطة بالقوة والسلطة السائدة، فإن عمليات الاستبعاد والتهميش تطال الفئات المحكومة، بما فيهن النساء، حتى صار التاريخ يسرد وكأن النساء خارجه، الأمر الذى خلق حاجة شديدة إلى خلق تراكم معرفى من الدراسات التى تبحث فى التاريخ العربى من منظور يأخذ فى الاعتبار التشكيل الثقافى والاجتماعى للجنس، والتى تستفيد من النظريات الحديثة فى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتتناول التاريخ من زوايا عبر التخصصات المختلفة.

عام ١٩٢٨ تجرأت امرأة لبنانية فى العشرين من عمرها على التمرد على قانون يحجب النساء ويفرض عليهن نسق عيش يحجبهن عن المشاركة فى دورة الحياة، فلم تثر على الحجاب كزى مفروض بالقوة على النساء بقدر ما ثارت على الحجاب كوسم جندرى جنسانى للأجساد أكثر منه وسمًا أيديولوجيًا. هذه المرأة هى نظيرة زين الدين - نستعيدها لأنها مهمشة، وقلما تذكر، ولأننا نتساءل كيف واجهت امرأة ذاك العصر إشكاليات مازلنا نواجه بعضها.

■

النقراشى
هدى شامل أباظة
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٢٨٣صفحة



يعيد هذا الكتاب الاعتبار لواحد من الشخصيات الوطنية فى التاريخ المصرى، والذى بدأ حياته باكرًا عضوًا فى التنظيم السرى الذى أنشأه «الوفد» لمواجهة رجال الاحتلال والقصر، وبرغم نشاطه الوطنى المبكر، فإنه لم ينضم رسميًا للوفد إلا فى عام ١٩٢٧، وحين توفى سعد زغلول باشا، تحمس النقراشى وأحمد ماهر لأن يخلفه مصطفى النحاس وليس فتح الله بركات، ابن اخت سعد الذى لم يكن سعد يحبه كثيراً، وكانت وجهة نظر النقراشى وماهر، أن اختيار النحاس يعيد الوفد إلى طبيعته الأصلية بوصفه حزب الجماهير أو حزب الجلابيب الزرقاء كما كان يسمى، إذ ينتمى النحاس إلى هذه الفئة من الناس، كما أن عدم اختيار ابن أخت سعد زغلول، ينفى تماماً فكرة توريث الزعامة ويؤكد على الانتخاب الحر، غير أن الخلاف سرعان ما دب بين النقراشى والنحاس حين اعتلى الأخير زعامة الوفد، وكان مصدر الخلاف كما رآه النقراشى، هو رغبة النحاس فى أن

يحظى بما كان يحظى به سلفه من زعامة مقدسة لا تُسأل عما تفعل، وكان رأى النقراشى وماهر أن ذلك الزمن ولّى، وأن الظرف التاريخى الذى سمح لسعد زغلول بهذه المكانة قد تغيّر، واستمر الخلاف بين النحاس والنقراشى حتى أقاله النحاس من الوفد عام ١٩٣٧، ليؤلف مع أحمد ماهر الهيئة السعدية، أما الانشقاق الأكبر الثانى فكان بخروج مكرم عبيد باشا وتشكيله الكتلة الوفدية ١٩٤٧.

وقد شارك النقراشى فى عديد من الوزارات فى هذه المرحلة، وكان رئيسًا للوزراء حين قامت حرب فلسطين، وقد أيّد دخول مصر الحرب، وهو الذى تنسب إليه مجزرة كوبرى عباس التى جرت فى ١٩٤٦ حين انتفض الطلبة يتظاهرون ضد الاحتلال والسلطة، فأمر هو وكان وزيرًا للداخلية وقتها بفتح الكوبرى على الطلبة، مما أدى إلى إصابة أعداد كبيرة منهم، لكن المؤلفة وهى حفيدته، فهى تبرئه تمامًا من هذه الحادثة، بل ترى فيها كثيرًا من المبالغات، إذ لم يقع ضحايا بين الطلبة وإن كان بعضهم أصيب فى الاشتباكات مع الأمن، كما أن هذه المظاهرات كانت مدبرة لإحداث أكبر قدر من الفوضى فى أنحاء مصر لإفشال المفاوضات التى كانت جارية مع الإنجليز.

وكان قرار النقراشى باشا بحل جماعة الإخوان فى ديسمبر ١٩٤٨ بعد عديد من حوادث الاغتيال التى نسبت للجماعة، وهو الذى أدى إلى مقتله على يد أحد أفراد الجماعة بمبنى وزارة الداخلية، وقد ردت الداخلية باغتيال حسن البنا.

■

وعاء المعرفة

تقديم: إسماعيل سراج الدين

تحرير: خالد عزب

الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٧، ٣٢٣صفحة



كان اكتشاف الحروب حدثًا بالغ الأهمية، عمل على تيسير التواصل بين الناطقين بها، فضلاً عن أنها سجلت عبر الوسائط البدائية التى استخدمها الإنسان، مثل البردى فى مصر الفرعونية، والألواح الطينية فى العراق، حضارة هؤلاء البشر الذين أبدعوا فى مناح عدة، وحفظت اللغة هذا الإبداع، وكشفت للمتأخرين حضارة الإنسان القديم.

هذا يعنى أن الوسيط المادى الذى استخدمه الإنسان القديم، كان مهمًا بقدر أهمية اللغة ذاتها، كما أن المادة المستخدمة فى صناعة هذا الوسيط، تم اختيارها من البيئة المحيطة، فعلى ضفاف النيل كثر نمو نبات البردى، فاستخدم المصرى القديم سيقانه فى صنع لفائف من الورق قاومت العوامل البيئية المختلفة آلاف السنين، وفى بلاد ما بين النهرين بالعراق، كان الطمى هو الأكثر ذيوعًا، واستخدمه العراقيون فى صناعة ألواح الكتابة التى ظلت باقية حتى اليوم، وفى الصين استخدموا الأوراق النباتية والأقمشة البالية فى صناعة وسيط ظل صالحًا للاستخدام حتى الآن ونعنى به الورق، والآن، فإن الوسائط تطورت بشكل مذهل حتى وصلت إلى الإنترنت والمكتبات الرقمية، وهو تطور تدريجى أثمر هذه الثورة الهائلة فى عالم الاتصالات، ودون شك، فإن اختراع الطباعة كان هو الحدث الأهم فى تاريخ الكتابة، وقد بدأت محاولاتها الأولى فى الصين، إلا أن انتشار الطباعة كان على يد «جوتنبرج»، وهكذا كان من الممكن طباعة آلاف النسخ من كتاب ما، وهى المهمة التى اضطلع بها النساخون قبل ظهور الطباعة. وفى مصر، كان مؤسس نهضتها الحديثة محمد على باشا على وعى كبير بأهمية المطبعة لتواكب النهضة العلمية والثقافية التى عمل على نشرها فى البلاد، فكانت مطبعة بولاق هى التى ترجمت أفكار رواد النهضة من أبناء المصريين الذين أرسلهم محمد على باشا فى بعثات علمية إلى أوروبا، وكان لهذا أثره البالغ فى تنمية الوعى العام وإدراكه للمعارف والعلوم الحديثة، وأيضًا لحقوقه السياسية والإنسانية كما تبدت فى كتابات المبتعثين الأوائل.

يتتبع الكتاب قصة تدوين المعرفة منذ عصورها ما قبل التاريخ، تلك التى كتب فيها الإنسان على جدران الكهوف، ثم مراحل التدوين على الألواح الطينية (العراق) والألواح المغطاة بالشمع (الإغريق)، فالتدوين على الورق (الصين)، حتى ظهرت الطباعة أولاً فى الصين، ثم على يد يوحنا جوتنبرج فى أوروبا وانتقالها إلى الشرق العربى.

ويخصص الكتاب فصولاً عن قصة الطباعة فى مصر منذ الحملة الفرنسية إلى نشأة مطبعة بولاق ودورها فى عهد سلاطين وولاة مصر منذ محمد على باشا الكبير، وأهم الإصدارات التى خرجت من هذه المطبعة، وفصل عن نشأة الصحافة المصرية مع جريدة الوقائع، ويختص الفصل السابع بأوعية المعرفة المرجعية عبر العصور مع التركيز على الوسائط الحديثة كالحاسب الآلى والإنترنت وعمليات النشر الإلكترونى، ويشير فى الفصل الأخير إلى مكتبة الإسكندرية كوعاء رقمى حديث.

■

اليوبيل الذهبى لمجلة العربى



يحتفل الإصدار الجديد لمجلة العربى بمرور ٥٠ عاما على صدور المجلة، والتى كان عددها الأول قد صدر فى ديسمبر عام١٩٥٨.

وفى هذه المناسبة تنشر العربى حوارا مع صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، أمير الكويت، أجراه الدكتور سليمان العسكرى، رئيس التحرير. وفى الحوار يوجه أمير الكويت التحية لكتاب المجلة وقرائها، ويعلن استعداد الكويت لإطلاق مشروع لرعاية الموهوبين من أبنائها، كما يلقى الضوء على آمال الكويت وطموحاتها فى السنوات القليلة المقبلة وخططها للنهضة والتنمية.

ويأتى هذا الحوار استمرارا لمسيرة طويلة قام خلالها، سموه، برعاية «العربى» منذ عددها الأول وحتى الآن.

كما تصدر العدد أيضا تهنئة للعربى قدمها سمو ولى العهد الشيخ نواف الأحمد الجابر الصباح، وشهادة لسمو رئيس مجلس الوزراء ناصر المحمد الأحمد الجابر الصباح.

وفى هذا العدد التذكارى الخاص، اختارت العربى أن تجعل منه وثيقة حية، تحاول بها ان تتأمل أحوال ٥٠ عاما مرت من عمرها ومن عمر الوطن العربى، شهد فيها المواطن العربى أحلاما، وآمالا عريضة، وخيبات، كما شهدت الساحة السياسية الكثير من الأحداث العاصفة. تنشر العربى فى هذا العدد ملفا شاملا عن أحوال العالم العربى فى نصف قرن، عبر عدد من الدراسات والمقالات منها مقالا للدكتور غسان سلامة يتأمل فيه أهم الأحداث السياسية والتاريخية التى مرت بها المنطقة، ويكتب الدكتور محمد جابر الأنصارى عن عشرة كتب أثرت فى العقل العربى، بينما يتناول الدكتور صلاح فضل التمثيل الجمالى للحياة فى عشر روايات عربية، ويكتب كمال رمزى عن أهم الأفلام السينمائية العربية التى اقتبست من الروايات الأدبية فى خلال نصف القرن. أما جمال غيطاس فيكتب مقالا موسعا عن أبرز العلماء العرب فى نصف قرن.

تنشر العربى أيضا ملفا بعنوان «الشعراء.. طيور مغردة» يضم قصائد لم تنشر من قبل لعدد من أبرز الشعراء العرب ومنهم الدكتورة سعاد الصباح، ومحمد على شمس الدين، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وسيف الرحبى، ود.عدنان مصطفى، وعلى السبتى وزياد آل شيخ وغيرهم.

وأجرت المجلة سبقا صحافيا حيث بحثت طويلا عن فتاة الغلاف الذى تصدر العدد الأول لمجلة العربى، حتى توصلت للسيدة عواطف العيسى، وأجرت معها حوارا، شاملا، وخرج العدد الجديد يحمل صورة السيدة عواطف العيسى كشهادة توثيقية بصرية حاولت المجلة أن تلقى بها الضوء على التغيرات التى مر بها المواطن العربى فى نصف قرن.

وفى نفس السياق أجرى أشرف أبو اليزيد مواجهة حوارية مع سليم زبال، أحد أبرز المحررين المؤسسين لمجلة العربى، وله دور بارز فى إخراجها الفنى أيضا وصدورها بالشكل الذى عرفه القارئ العربى من الخليج للمحيط. كما أن سليم زبال كان أول من قام بالاستطلاعات الصحفية فى أرجاء العالم العربى تحقيقا لشعار «اعرف وطنك أيها العربى» الذى أطلقه أول رئيس لتحرير المجلة الراحل الدكتور أحمد زكى.

وتضمن العدد مجموعة من شهادات الكتاب ورجال الثقافة والفكر الذين شاركوا بأفكارهم وأقلامهم على صفحات العربى ومنهم د. سعاد الصباح، والدكتور عبد الهادى التازى، ليلى العثمان، د.محمد الرميحى، مصطفى نبيل، سليمان الفهد، فاضل خلف، على عبد الكريم، د.محمود السمرة.

كما قدم إبراهيم فرغلى قراءة شاملة لأعداد العربى منذ أول أعدادها وحتى أحدث ما صدر منها، ملقيا الضوء على أهم ما قدمته المجلة لقرائها، والسمات المميزة لإنجازات كل من رؤساء التحرير الذين تعاقبوا عليها بدءا بالدكتور أحمد زكى، مرورا بالكاتب الصحفى أحمد بهاء الدين، ثم الدكتور محمد الرميحى ووصولا للدكتور سليمان العسكرى، الذى حققت المجلة فى عهده عددا من المزايا التحريرية على مستوى الشكل والمضمون.

وطارت العربى إلى بلدين عربيين الأول هو الجزائر حيث تابع الدكتور محمد المنسى قنديل، بصحبة المصور الفنان رضا سالم، أحوال العاصمة الثقافية للعالم العربى لهذا العام، وانعكاس المناسبة على الأوضاع الثقافية للجزائر بشكل عام.

أما أشرف أبو اليزيد فقد أجرى استطلاعا من البحرين، التى كانت الدولة التى استطلعت العربى أحوالها لأول مرة على صفحاتها قبل خمسين عاما، فكيف كانت وكيف أصبحت، هذا ما يحاول أن يكشفه المحرر والمصور الفنان حسين لارى.

وبينما كانت تمور العراق أحد الموضوعات التى احتفت بها العربى فى أول اعدادها، فإن الأحداث الساخنة الأخيرة حالت العربى من القيام بموضوع مماثل من العراق فى الوقت الراهن، وكان البديل هو التحقيق المميز الذى كتبه أسامة الرحيمى عن تمور الكويت فى «الوفرة» و«العبدلى»، بعد أن أصبحت واحدة من سلعها المهمة.

وكتبت فادية الزغبى موضوعا موسعا عن الدور الرائد الذى تقوم به المرأة الكويتية فى الاقتصاد الكويتى فى الوقت الراهن.

وبالإضافة لهذه الموضوعات وغيرها الكثير، فإن العربى حرصت على تقديم أبوابها الثابتة لقرائها، إضافة إلى العديد من الخدمات الصحفية، والمقالات التى تعطى لهذا العدد الخاص ثقلا خاصا ومميزا.

■

مدخل إلى البلاغة القرآنية

حلمى محمد القاعود

الرياض: دار النشر الدولى، ٢٠٠٧، ٣٢٠صفحة



كان العرب قبل ظهور الإسلام، أهل فصاحة وبلاغة، وحين نزل القرآن الكريم فى الجزيرة العربية، مثل تحدياً لهؤلاء الأقوام على أكثر من مستوى، فقد كان ثورة - إن جاز التعبير- على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة، أما التحدى المباشر للعرب فكان هذا الإعجاز اللغوى والبلاغى للقرآن الكريم، الذى جاء ليهزم براعتهم وفصاحتهم، وكان عليهم أن يبرروا هذه الهزيمة بالادعاء أن هذا القرآن سحر، أو أنه أساطير الأولين أو أن صاحب الرسالة مجنون، فلما ثبت لهم أن الكتاب منزّل، وأنه ليس كلام بشر، لم يجدوا بداً من السيف والقتال.

فى ستة فصول، يحاول المؤلف أن يبين لنا أسرار هذه البلاغة القرآنية محيطاً بها من كافة جوانبها: التاريخى، الأسلوبى، التطبيقى، ثم يخصص الفصول الثلاثة التالية لإعجاز القرآن وآراء العلماء فيه، وفضل القرآن الكريم على اللغة العربية، ثم القصة القرآنية فى الختام.

والمؤلف يشير إلى عشرات المواضع على سبيل الاستدلال وتأكيد فكرته، وجميعها تدل على بلاغة القرآن فى الحرف واللفظ والمعنى، أما القصة القرآنية بوصفها وجهاً من وجود الإعجاز القرآنى ومظهراً من مظاهر بلاغته، فقد جاءت فى إطار غير مسبوق فى الفن القصصى الذى عرفته البشرية، حيث تمزج الغاية الدينية بالصورة الفنية أو القصصية، محققاً المتعة الأدبية وتعميق الفكرة فى آن معاً، وكان سيد قطب هو أول من ركز على مجال القصة القرآنية فى العصر الحديث، فقد تناول طبيعة القصة القرآنية وأغراضها وآثار خضوعها للغرض الدينى، ومشاركة الدينى للفنى أو الفنى للدينى فى بناء القصة وما فيها من رسم للشخصيات وتصوير، والقصص القرآنى بنص الكتاب هو أحسن القصص، ومن صفاته أنه مستمر لا ينتهى تأثيره بمجرد الفراغ من تلقيه، وللقصة القرآنية أهداف عديدة يوردها المؤلف، منها إثبات الوحى والرسالة، التأكيد على أن الدين كله من عند الله، التوحيد، وحدة وسائل الدعوة، الأصل المشترك للدين، بيان انتصار الأنبياء وهزيمة المكذبين، التبشير والتحذير.

■

الفنون البصرية وعبقرية الإدراك

شاكر عبدالحميد

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ٦٢٤صفحة



الفنون البصرية هى تلك التى تعتمد فى إنتاجها وإبداعها وفى تذوقها وتلقيها على حاسة الإبصار، وهى تشتمل على الرسم والتصوير والنحت والعمارة وغيرها. وأما الإدراك فهو عملية يضفى العقل الإنسانى خلالها المعنى على المدركات الحسية التى يتلقاها، ويركز الكتاب بين الفنون البصرية جميعها على خمسة أنواع هى: الرسم والتصوير الملون والنحت والعمارة والتصوير الفوتوغرافى، وبعد أن يقدم المؤلف تعريفات موجزة لهذه الأنواع الخمسة من الفنون البصرية وتطورها وأبرز مبدعيها، ينتقل فى الفصل الثانى إلى المكونات البصرية وسيكولوجية الإدراك، ويدحض المقولة التى ترى أن الأبجدية التشكيلية فى عصر العولمة، مختلفة عن تلك التى نادى بها الفنان المجرى فيكتور فازاريللى فى النصف الأول من القرن العشرين، وغيرها من المقولات التى تقوم فى جوهرها على رفض القديم كله لصالح التقنيات الحديثة، مؤكداً على أن عالم الفنون البصرية يقوم على التراكم والتجاوز والكثرة، فالجديد فى الفن لا يتناقض مع القديم، بل يتكامل معه، وهو إذ يستعرض العناصر التى يتشكل فيها العمل الفنى: النقطة، الخط، الهيئة، الضوء، اللون، الملمس، الحيز المكانى، الزمان، الحركة، الكتلة، فإنه يؤكد على أنها مرتبطة برباط وثيق أو أن كلا منها يوصل بالضرورة للآخر.

فى الفصل الثالث يتحدث المؤلف عن الطفل وتفكيره البصرى، مستنداً إلى رؤى ودراسات نظرية لرسوم الأطفال.

ويخصص الفصل الرابع للمخ والتفكير البصرى وذكاء الإدراك، والخامس لفكرة المكان وتطور التفكير البصرى عبر التاريخ، مشيراً كذلك إلى عديد من النظريات التى تناولت هذا الموضوع، وإلى تطبيقات عملية لبعضها، كما فى حديثه عن مايكل أنجلو والجاذبية والنحت، والمكان فى الفن الإسلامى، وفنون الفيديو آرت ومعجزة الصور المتحركة.

ويتناول الفصل السادس فكرة الخيال البصرى بدراسة أعمال فيوز يلى وهنرى روسو وجورجيو دى كيريكو ورينيه ماجريت وماكس إرنست وبول دلفو وشاجال، وأما الفصل السابع ففى الفنون البصرية بين التذوق والإبداع، والثامن للفنون البصرية والثقافة البصرية.

■

التراث الشعبى فى عالم متغير

إشراف وتحرير: محمد الجوهرى

القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٧، ٤١٨صفحة



منذ بدايات ثورة الاتصالات والتكنولوجيا الإلكترونية، انشغل علماء الفلكلور بتأثير هذه الثورة على التراث الشعبى، كما انشغل علماء الأنثربولوجيا بما يمكن أن يطرأ على الثقافة الإنسانية بسبب هذا التطور، لكن ثمة رأياً يميل إليه الدكتور محمد الجوهرى المشرف على تحرير الكتاب، لباحث التراث الشعبى أحمد رشدى صالح، مفاده أن التغير لا يمكن أن يقضى على التراث الشعبى، فهذا التراث بما يتمتع به من مرونة وقدرة على إعادة التكيف فى كل ظرف إنسانى جديد، فيبدع تراثاً جديداً يحقق له الاستمرار.

وبشكل عام فإن الأشكال العديدة من التراث تتزامن وتتداخل فى حياة الفرد، فالفرد إلى جانب فرادته التى تميزه عن الآخرى، فإنه عضو فى جماعة ضمن أسرة أو ضمن اهتمامات مهنية وبينية لها سمات خاصة يكتسب منها ويضيف إليها، فمن هى الفئة الأكثر ميلاً إلى التجديد والتغيير فى التراث، إنهم الشباب كما يشير المؤلفون، هم الأميل للجديد فى الملبس والموسيقى والأدب، والأكثر استعداداً للاستجابة للمتغيرات التى تفرضها ثورة الاتصالات.

ويأتى بعد ذلك أصحاب الدعوات، أى الداعية إلى أفكار جديدة للتغيير فى المجتمع، وهؤلاء قد يكونون أصحاب دعوات سلفية تدعو إلى الغوص أعمق فى الماضى، أو أصحاب دعوات تغريبية لا ترى خلاصاً إلا فى التشبه والتشبث بكل ما هو غربى، ويعد سكان المدن أو السكان الحضريون، هم الفئة الثالثة الأكثر ميلاً للتغيير فى التراث وتجديده فى مقابل الريفيين أو قاطنى القرى.

إلى ذلك يلعب التعليم دوراً مهماً فى إعادة إنتاج التراث، وتشير إحدى الدراسات إلى مرحلة الأسرة العلوية فى مصر، فقد كان التعليم أحد أدوات نهضة مصر الحديثة، ومن خلاله تعرّف المصريون على أنماط مختلفة من الحياة وطرائق جديدة للعيش، وبدا هذا التأثير بوضوح فى الأزياء على وجه الخصوص، ولا يضارع التعليم فى هذا التأثير سوى وسائل الاتصال خصوصاً فى العصر الحديث، حيث تفتحت آفاق رحبة على عالم واسع بكل ما فيه من قيم وعادات وأنماط سلوكية.

■

النظام القانونى لحرية التعبير

حسن محمد هند

القاهرة: الطوبجى للنشر، ٢٠٠٧، ٣٧٠صفحة



تنص المادة ٤٧ من الدستور الدائم لمصر الصادر فى ١٩٧١ على أن حرية الرأى مكفولة، ولكل إنسان حرية التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو بالكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير فى حدود القانون ضماناً لسلامة البناء الوطنى.

وهكذا فإن الدستور بنصه جعل حرية التعبير حقاً لكل إنسان، لكنه نظم ممارسة هذا الحق فى إطار قانونى يبينه المؤلف وهو مستشار بمجلس الدولة فى الفصل الأول من الكتاب، حيث يناقش فيه المفهوم الدستورى لحرية التعبير والضوابط المنظمة لممارسة هذا الحق والقيود عليه.

فى الفصل الثانى مبحثان عن التنظيم القانونى لحرية الصحافة فى العالم وفى مصر، يتبعه بآخر عن اتجاهات القضاء فى قضايا النشر، ويتعرض الفصل الرابع لواحد من الإشكالات التى تتجدد يوماً بعد آخر فى شكل اعتصامات أو إضرابات يقوم بها عمال أو موظفون أو طلبة أو مجموعات احتجاج اجتماعى أو سياسى، ويتعرض المؤلف فيه للتنظيم القانونى للحق فى التجمع، التنظيم القانونى لحق الأحزاب فى ممارسة هذا الحق، التنظيم القانونى لحق الإضراب، حق تكوين النقابات، حق تكوين الجمعيات، وفى الفصل الأخير دراسة مفصلة حول حق نقد العمل العام، يناقش فيها المؤلف اتجاه كل من المحكمة الدستورية العليا ومجلس الدولة والقضاء المقارن والقضاء الجنائى فى هذه المسألة.

وفى الختام يتحفظ المؤلف على اعتبار الصحافة سلطة رابعة إلى جانب السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، ويطالب المؤلف باستصدار قرار جمهورى بتشكيل لجنة عليا دائمة لتقييم الأعمال التى تتعرض لحرية العقيدة أو الجنس تتشكل من كافة القيادات الفكرية والعقائدية وممثلى الأزهر والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، كما يطالب بتعديل تشريعى يتضمن حظر فرض الحراسة بإجراء إدارى، والنص على مشروعية الإضراب، وكذلك تعديل قانون العقوبات لإلغاء فرض عقوبة بدنية على الصحفى، اكتفاءً بالغرامة وهى عقوبة جنائية، وكذلك تعديل القانون رقم ١٠٠ لسنة ١٩٩٣ بإلغاء كافة القيود على حرية العمل النقابى.

■

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

ثقافة الاعتراف

فى عدد نوفمبر ٢٠٠٧ نشرت صفحة «رسائل وآراء» رسالة من الأستاذ إسماعيل محمد عبداللطيف بعنوان (أحمد أمين فى مذكرات جلال أمين) وفيها يستعرض الأستاذ إسماعيل عبداللطيف رأيه فيما كتبه الأستاذ جلال أمين عن والده الراحل أحمد أمين منتقدًا ما كتبه الأستاذ جلال أمين عن والده فيما يخص الالتزام الدينى من صوم وصلاة وحج، مخالفًا بذلك الصور الذهنية لدى العامة والتى كونوها عن الأستاذ أحمد أمين صاحب المؤلفات الشهيرة عن الإسلام وأستأذنكم أن يكون لى تعقيب على ما كتبه الأستاذ إسماعيل عبداللطيف.

فى مجمل ثقافتنا العامة لا نعرف نحن الشعوب الشرقية على وجه العموم ما يمكن أن أسميه (ثقافة الاعتراف) ويبدو أن مرجع هذا الغياب لثقافة الاعتراف يعود إلى ما يمثله الاعتراف كحالة من حالات المنهى عنه دينيًا كما تقول بعض النصوص على عكس المجتمعات الأوروبية التى يرتبط عندها الاعتراف ويقترن بفكرة التطهر وليس بفكرة (الجهر) كما هو الحال عندنا. مما أورثنا فى النهاية إلى أننا أصبحنا أسرى للازدواجية باطن غير معلن وظاهر غير مكتمل ولم نتعود على الجهر بالحقائق، وعندما حدث أن جهر أحدنا بما رآه وعايشه كانت صدمة القارئ بما قرأه رغم أنه يعلم يقينًا صدق الراوى فيما روى.

تقول المقولة المشهورة والتى أوردها الأستاذ جلال أمين فى كتابه (إن المذكرات التى لا تدين صاحبها لا تستحق القراءة)، وهذا أيضًا على عكس ما تعودنا عليه وألفناه، فنحن غالبًا ما نقرأ مذكرات كتبت بيد أصحابها ولا هم لهم فيها إلا التمجيد والتصفيق لأنفسهم وما أكثر هذه النوعية من الكتابات فى سوق كتابتنا الراكد وعندما خالف أحدنا هذه السنّة غير الحميدة أزعجنا الخلاف (وهو يزعجنا دائمًا).

يقول الأستاذ إسماعيل عبداللطيف ما نصه (لقد صدمتنى تلك الكلمات حتى لقد كدت أطوى الكتاب كمدًا قبل أن أفرغ من قراءته وأسفت ولا أزال آسف على مسلك الابن البار (صاحب السيرة) من أبيه، فقد عمد إلى فضحه بعد رحيله رغم أن الله ستره وكان حريًا بالابن أن يسترا أباه ولا يفضحه عسى الله أن يشمله بعفوه ورحمته وصفحه، وهو إذ فضحه فقد أخل بواجب الإحساس بالوالدين الذى فرضه الله قرينًا لعبادته وألوهيته ووحدانيته، خاصة بعدما لحق الأب برحاب الله وتجرد من أى حول ولا قوة وانقطع عمله بموته إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، وهكذا فقد ضن الابن البار على أبيه بالستر فضلاً عن الدعاء). هذا ما كتبه الأستاذ إسماعيل وفيما كتب عين الحالة التى نتحدث عنها ونرصدها.

والعلة التى نقصدها هنا هى (التجريد)، فنحن فى عموم ثقافتنا لا نعرف التجريد، لا نعرفه حتى فى الخصومة فما بالنا بالقرابة. الأستاذ جلال أمى فعل فى كتابه ما لا يفعله الكثيرون، لقد تجرد وعندما تجرد رصد، حتى إن منتقده لا يشك فى صدق رصده ونحن أيضًا لا نشك فى ذلك، ولكنها المشاعر التى تغلب العقل دائمًا حتى لو كانت على حساب الحقيقة.

لقد قرأت كتاب الأستاذ جلال أمين بشغف ونهم ولم تكن هذه أول مرة أقرأ له فيها، بل إننى أستطيع أن أقول إننى من قرائه ومتابعيه.

وما كان يشدنى فى كتاباته دائمًا هذه القدرة على الرصد والتحليل الموضوعى وإعلان رأيه حتى لو صدم الآخرين وحتى لو تصادم مع المألوف وما مذكراته الأخيرة إلا درة تاج هذا النهج، فلقد طبق ما يقول عن الآخرين على نفسه رصدًا وجهرًا، أليست هذه فضيلة يحمد عليها ألا يعد ما فعله سُنة غائبة عنا فكرًا وعملاً.

الأستاذ جلال أمين لم يسئ لوالده ولكن الإساءة الحقة هى هذه الحالة من حالات تقديس كل ما سلف، حتى أصبح السلف بمثابة (تابو) مقدس لا يجوز الاقتراب منه إلا بالإشادة والتمجيد، مخالفين نحن فى ذلك حقيقة بشريتهم وما يعتريها من ضعف لا يعيبهم.

إن الذى دفعنى للتعليق على رسالة الأستاذ إسماعيل عبداللطيف عدة أسباب، أولها هو تقديرى الشديد لصاحب السيرة وما يمثله من منهج فى الفكر والرأى والكتابة. وثانى هذه الأسباب هو أن هذه الرسالة نكأت هذا الجرح الثقافى الذى يعترى حياتنا (من وجهة نظرى على الأقل أليست الحياة وجهات نظر) أقول إنها نكأت جرحًا يتجسد فى قبر كل ما يعيبنا مما أفقدنا القدرة على الرصد الموضوعى وبذلك فقدنا التشخيص السليم. فإذا كنا فقدنا صحة التشخيص فكيف لنا بصحيح العلاج.

نحن لا نمارس ثقافة الاعتراف إلا عندما يتعلق الأمر بالحديث عن الآخرين نقول عنهم ما نشاء ولكن عند الحديث عن ذواتنا فرادى ومجتمعات فلا وجود إلا لثقافة (الاحترام) والتى هى فى حقيقتها الاسم الخادع لثقافة (الكذب) إن لم يكن على الآخرين فعل الأقل على أنفسنا. وما أقوله لا علاقة له بما يسمى (جلد الذات) هذه المقولة التى لا يراد لنا بها إلا الاستمرار فى الغيبوبة، ومع ذلك فجلد الذات أشرف كثيرًا من خداع الذات، هذا إذا كان ليس من الاختيار بينهما بُد.

محمد عبدالفتاح السرورى
الإسكندرية
Elsorory@yahoo.com

■

حضارة الإبادة

تحية عطرة من محب لكم من المملكة العربية السعودية، محب لكم ولجهودكم الإعلامية المتميزة والمتمثلة فى مطبوعتكم المتميزة بمحتواها وكتابها وسياقها الفكرى وإخراجها، مطبوعة تمنيت لو أنى اطلعت عليها منذ بدايتها قبل تسع سنوات ونيف، ولقد شد انتباهى فى عدد شهر سبتمبر البحث المعنون: حضارة الإبادة لأستاذ الأدب الإنجليزى الدكتور عبدالوهاب المسيرى والبحث المكمل له عن نزع القدسية عن الهولوكوست، بحثان جامعان يستحقان الثناء فى العرض والتكامل الموضوعى، ولن أتبع ثنائى هذا بنقد لاذع أو مخالفة قاسية للكتاب الأفاضل، ولكن هذين المقالين شحذا زناد فكرى فى موضوع حول مستقبل أمتنا العربية والإسلامية، هل سوف يظل شبح الماضى يطارده والمؤامرة تحيطه إلى درجة تنسينا أو تشغلنا عن السوس الذى ينخر فى جسم الأمة ويحاول قتل الحاضر ووأد المستقبل.

هشام محمد قزمان
باحث فى الفكر الإبداعى/ جيولوجى

■

تصويبان

فى عدد مايو ٢٠٠٧ نشرت مجلة «وجهات نظر» مقالاً مترجمًا بعنوان «الثورة.. رأس المال.. الإمبراطورية.. العرب: عصور التحول» ونتيجة لخطأ مطبعى ورد اسم المترجم بشكل خاطئ والاسم الصحيح هو فايز الصياغ وهو عالم اجتماع من الأردن، زميل زائر فى مركز الدراسات الاستراتيجية، الجامعة الأردنية، عمل أستاذًا، لعدة سنوات، فى جامعة تورنتو الكندية. له مؤلفات ومترجمات بالعربية والإنجليزية فى المجالات الاجتماعية والتنموية والثقافية.

كما سقط سهوًا اسم المصور إيهاب عبداللطيف فى المقال الذى نشرته المجلة فى يونيو الماضى بعنوان «قاهرة الرواية العربية».

وإيهاب عبداللطيف مصور وفنان فيديو ومصمم إضاءة مسرحية. وقد اشترك فى أوائل التسعينيات فى تأسيس فرقة الشظية المسرحية.

المحرر

■

Crash Proof
(برهان الانهيار)

Peter D. Schiff, John Downes
Wiley, $27.95, 288PP, 2007



من وجهتى النظر الاقتصادية والمالية، الولايات المتحدة تبدو رائعة من الخارج، ولكن الحقيقة أن هناك كارثة توشك على الحدوث تحت السطح، ففى فترة قصيرة تحولت الولايات المتحدة من الدائن الأكبر بين دول العالم، إلى المدين الأكبر، وانخفضت قيمة الدولار، وقل تصدير المنتجات المحلية، مما ينذر بكارثة وشيكة على الاقتصاد الأمريكى.

لأكثر من عقد، محلل ومتوقع بورصة وول ستريت «بيتر شيف» ساعد العديد من زبائنه فى إعادة تنظيم حقائبهم المالية وحماية مدخراتهم من انخفاض قيمة الدولار وانخفاض العائدات على المدخرات.

فى هذا الكتاب يساعد «شيف» القراء بتزويد بصيرتهم بنقاط الضعف التى تعترى دعائم الاقتصاد الأمريكى، مدللا على مجموعة من الإجراءات الواجب اتخاذها لحماية الاستثمارات الشخصية موضحا إياها فى ثلاث نقاط رئيسية، أولها هو إعادة التفكير فى محفظة الأوراق المالية ناصحا بضرورة استبدال حصص الدولار الأمريكى بحصص أخرى من العملات الأجنبية الأكثر استقرارا، وثانيها، الاتجاه إلى استثمار المدخرات الشخصية فى المعادن النفيسة كالذهب والفضة التى من شأنها ضمان الأمان للمدخرات، والثالث هو ضرورة وجود السيولة الكافية دوما لضمان وجود مال كاف للعيش ووجود احتياطى مناسب لشراء أى من الأصول بأسعار رخيصة.

■

The Post-Birthday World
(ما بعد عيد الميلاد)

Lionel Shriver
HarperCollins, $25.95, 528PP, 2007



هل يمكن لقبلة أن تغير مجرى حياة ثلاثة أشخاص؟

«ليونل شريفير» فى تلك الرواية تحكى عن قصتين متوازيتين لراسمة كتب الأطفال «ارينا ماكجوفلن» التى تتمتع بحياة مستقرة فى لندن مع زوجها الأمريكى «لورانس» بمركز أبحاث كبير.

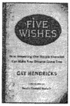
«رمزى أكتون» لاعب السنوكر العالمى والمطلق منذ عام، يحتفل بعيد ميلاده هذا العام مع أصدقائه القدامى «ارينا» و«لورانس».

فى تلك الليلة وجدت «ارينا» نفسها فجأة تتوق لتقبيل «رمزى» لتبدأ أحداث القصتين، لنرى ماذا يمكن أن يحدث إن قبلته، وماذا سيحدث إن لم تفعل.

■

Five Wishes
(خمس أمانى)

Gay Hendricks
New World Library, $18.00, 128PP, 2007



لن تستطيع أبدا أن تعرف متى ستحدث، متى ستصادف لحظة تحول درامى فى حياتك. فالحياة تتغير فى لحظات، فعندما تنظر إلى حياتك الماضية، تجد أن هناك محادثة قصيرة أو كتابا قرأته غير حياتك بأكملها.

«جاى هيندركس» لديه خبرة شخصية كبرى مع تلك التغيرات التى حدثت للإنسان، فهو قد صادف مثل تلك التغيرات نتيجة لمحادثة أجراها منذ عدة أعوام بإحدى الحفلات التى كان يحضرها، والآن هو يعيش الحياة التى طالما تمناها.

الكتاب دعوة لتغيير الحياة إلى الأفضل، وإلى إحداث لحظة التغيير إلى الأفضل دوما.

■

Three Cups of Tea
(ثلاثة أكواب من الشاى)

Greg Mortenson, David Oliver Relin
Penguin, $15.00, 368PP, 2007



بعض الفشل يؤدى أحيانا إلى نجاح ضخم، وفشل «جريج مورتينسون» المرض الأمريكى فى تسلق مجموعة جبال كى٢ التى تحوى ثانى أعلى جبال العالم، قاده إلى نجاح مذهل فيما بعد.

سقط «جريج مورتينسون» مريضا أثناء رحلة تسلقه، ولجأ إلى قرية باكستانية أوته لسبعة أسابيع، مما يدفعه ردا على هذا الجميل إلى وعدهم ببناء أول مدرسة لقريتهم، وينفذ وعده، ليقيم مدرسة تصبح مشروعا يعمم فيما بعد ليصل عدد مدارسه إلى خمسين مدرسة بباكستان وأفغانستان.

الكتاب يوضح تفاصيل دقيقة حول علاقة الأمريكى بأهل القرية ومسنيها، والمجاهدين ورجال طالبان والبنات الصغيرات اللاتى يمتلئن بالطموح، كما يجادل «مورتينسون» حول أهمية الحرب ضد الإرهاب موضحا، أن أكثر الطرق فاعلية للقضاء على الإرهاب هو توجيه الجهود الدولية جميعها للقضاء على الفقر وإيصال التعليم لغير القادرين عليه.

■

If I Did It
(لو كنت فعلتها)

Goldman Family, Pablo F. Fenjves, and Dominick Dunne
Beaufort Books, $24.95, 254PP, 2007



فى عام ١٩٩٤ كل من «رون جولدمان» و«نيكول براون» قتلوا بوحشية فى منزلهم بمدينة برينتوود الأمريكية بولاية كاليفورنيا، وحوكم بتلك القضية التى استحوذت على اهتمام الرأى العام الأمريكى «او جى سمبسون» الذى وجد من قبل هيئة المحلفين غير مذنب، مما دفع أهالى الضحايا إلى رفع قضية مدنية ضد «سمبسون» متهمين إياه بالتسبب فى موت «رون ونيكول» عن طريق الخطأ، وهو ما وجد مذنبا بشأنه.

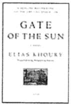
بحلول عام ٢٠٠٦ أعلنت احدى دور النشر الأمريكية إصدارا لكتاب بقلم «سمبسون» يحكى عن تفاصيل ارتكابه لتلك الجرائم، إن كان ارتكبها. ولكن مع وجود رفض كبير من الرأى العام لتربح «سمبسون» من القضية والجريمة. مما دفع دار النشر إلى إلغاء إصدار الكتاب، وأصدرت محكمة حكما بنقل حقوق ملكية الكتاب إلى عائلة القتيلين.

عائلة الضحيتين اعتبرت الكتاب اعترافا بالقتل مما دفعها لنشره ملحقا بتعليقها راجين أن يعرف الرأى العام كله الحقيقة.

■

Gate of the Sun
(باب الشمس)

Elias Khoury , Humphrey Davies (Translator)
Picador, $15.00, 544PP, 2007



رواية باب الشمس لإلياس خورى، نشرت لأول مرة بالعربية عام ١٩٩٨ عن دار بيروت للنشر، ثم ترجمت إلى العبرية والفرنسية، واختيرت ككتاب العام بصحيفة لوموند الفرنسية عام ٢٠٠٢. وحولت إلى فيلم سينمائى عربى من جزءين.

الرواية تدور أحداثها فى مستشفى مؤقت بمخيم شاتيلا للاجئين على أطراف بيروت، حيث يجلس الدكتور خليل بجوار سرير صديقه فاقد الوعى يونس، المقاتل الفلسطينى، ليتذكر حياتهما.

البداية عام ١٩٤٨، والحرب العربية الإسرائيلية، والانتهاك الإسرائيلى للأرض الفلسطينية، والنزوح الفلسطينى من الأراضى المحتلة، وبداية تكوين مخيمات اللاجئين.

تجسيد رائع للحياة الفلسطينية منذ ١٩٤٨ وحتى الآن.

■

Become a Better You
(كن أفضل مما أنت عليه)

Joel Osteen
Free Press, $25.00, 320PP, 2007



أمام أكثر من ٤٢٠٠٠ محتشد، وملايين المشاهدين عبر التلفاز، يلقى «جول أوستين» خطبته الأسبوعية المليئة بالحكمة والإلهام.

كتابه الأول «حياتك الأفضل الآن» الذى بيع منه أكثر من ٤ ملايين نسخة، وترجم إلى أكثر من ١٧ لغة، ساعد العديد من الناس على التقرب من الله عن طريق تنفيذ العديد من الروحانيات فى حياتهم اليومية.

فى هذا الكتاب (كن أفضل مما أنت عليه) يقدم «جول أوستين» ٧ طرق بسيطة وعميقة لتساعد القراء على اكتشاف أشياء أفضل فى حياتهم،

لاكتشاف ماذا ولدوا له، ووأهدافهم الشخصية والقدر.

يتكلم الكاتب مباشرة إلى القلب، مازجا تعاليم الإنجيل، والشهادات، والخبرات الشخصية لتنيير حياة القراء.

■

World Without End

(عالم بلا نهاية)

Ken Follett

Dutton, 35.00$, 1024PP, 2007



بعد ثمانية عشر عاما من روايته الأولى الملحمية الأشهر على الإطلاق (أعمدة الأرض) التى تتحدث فى أكثر من ١٠٠٠ صفحة عن إنشاء كاتدرائية إنجليزية فى القرن الثانى عشر الميلادى، تأتى رواية ملحمية جديدة (عالم بلا نهاية) لتدور أحداثها فى القرن الرابع عشر الميلادى حول تطورات الأحداث لأبطال الرواية السابقة، وخاصة مع وجود العديد من الأحداث الجسام فى تلك الحقبة مثل الموت الأسود والحرب مع فرنسا.

تدور أحداث الرواية بين عامى ١٣٢٧ و١٣٦١ عن أربعة أطفال، تتطور الحياة بهم لتصبح واحدة منهم زوجة لقروى، وأخرى كراهبة، وآخر كبناء، وآخر كفارس. يتقاسمون تجربة مؤلمة تؤثر بطرق مختلفة فى حياتهم.

■

Love in the Time of Cholera

(الحب فى زمن الكوليرا)

Gabriel Garcia Marquez

Vintage, $14.95, 368PP, 2007



«غابرييل غارسيا ماركيز» الروائى الكولومبى المبدع، وصاحب جائزة نوبل فى الأدب ١٩٨٢ عن روايته (مائة عام من العزلة) التى ترجمت إلى ٢٣ لغة، مما أدى إلى ذيوع صيته بعدها، منبها العالم كله إلى أدب أمريكا اللاتينية.

«ماركيز» يعتمد فى فكرة روايته الأصلية على مقولته «أن هذا الحب فى كل زمان وفى كل مكان، ولكنه يشتد كثافة، كلما اقترب من الموت» وهى فكرة تأملية تدور حول الحب والخيال.

الرواية مليئة بالأحداث، حيث إنها تسرد قصة رجل وامرأة منذ فترة المراهقة وحتى بلوغهما ما بعد السبعين، واصفة لكل ما تغير حولهما من أحداث كالحروب الأهلية فى منطقة الكاريبى وانتشار مرض الكوليرا فى المنطقة.

الرواية تحكى عن قصة حب «فلورنتينو اريثا» لـ «فيرمينا اديثا» التى بدأت منذ لقائهما لأول مرة فى المدرسة الدينية فى مراهقتهما، ثم للفراق الدرامى الذى حدث بينهما لتتزوج الفتاة طبيبا جذابا، وتنسى حب «فلورنتينو» للأبد.

ولكن «فلورنتينو» يظل اثنين وخمسين عاما على عهده، محبا ومنتظرا لها، ومحاولا الوصول اليها، لتكلل محاولاته فى النهاية بالنجاح.

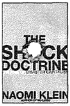
■

The Shock Doctrine

(مذهب الصدمة)

Naomi Klein

Metropolitan Books, $28.00, 576PP, 2007



كل من المعجبين والمنتقدين يتفقون على أن الراحل الحائز على جائزة نوبل «ميلتون فريدمان» كان اقتصادياً غير عادى، وكان ذا تأثير كبير. فى هذا الكتاب الكندية «كيلين» تهاجم مبادئ «فريدمان» لاقتصاديات السوق الحرة، التى دعا إلى تطبيقها على سلسلة من الدول منذ عام ١٩٧٥.

البداية كانت عندما اقنع «فريدمان» الديكتاتور التشيلى «أوغستو بينوشيه» إلى اعتماد اقتصاد السوق الحرة كبرنامج له، وهو ما تطور بعد ذلك لتصل التجربة للعديد من دول العالم.

«كيلين» تفسر تفسيرا مضادا لنتائج «العلاج بالصدمة» واضعة أساس أطروحتها التى ترى أن مذهب «فريدمان» يتطلب لتطبيقه أزمات قوية، مهاجمة للعديد من برامج الإصلاح التى استهدفت فصل الدولة عن الاقتصاد والتى طبقت فى العقود الثلاثة الماضية فى بوليفيا وبولندا وروسيا والصين والمملكة المتحدة، والعديد من الدول الأخرى.

ترى الكاتبة أن اقتصاديات تحرير السوق قد أوجدت ما يسمى برأسمالية الكوارث المعقدة وهى تعتمد على الشركات التى تزدهر بحدوث الكوارث، مدللة على قولها بدراسة بعض حالة لبعض الشركات العاملة فى أمريكا وإسرائيل.

■

Come On People

(هيا أيها الناس)

Bill Cosby, Alvin F. Poussaint

Thomas Nelson, $25.00, 288PP, 2007



جاء العنوان الداخلى لذلك الكتاب بجملة (على الطريق من ضحايا إلى منتصرين) ليصف الهدف الرئيسى لذلك الكتاب، فالمؤلفان يقدمان رسالة قوية للمجتمع من أجل تقويته، ومن أجل عالم أفضل.

المؤلفان يتصديان لأزمات الناس الناتجة عن العديد من العوامل، كفقدان الثقة فى النفس، والهجر والغضب والخوف والحزن والشعور بالاستغلال، والشعور بفقدان الأمان، فمثل تلك المشاعر فى الأغلب من شأنها عرقلة قدرتهم على التقدم للأمام، ومن ثم يهدف المؤلفان إلى مساعدة أولئك الضحايا ليتحولوا إلى منتصرين.

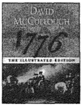
■

1776

(١٧٧٦)

David McCullough

Simon & Schuster, $65.00, 256PP, 2007



اثنا عشر شهرا، بالغة الأهمية فى حرب الاستقلال الأمريكية، كيف خسرت الإمبراطورية العظمى أمام مجموعة من المزارعين الضعاف، المؤرخ ذائع الصيت ديفيد مكولوغ يغطى الجانب العسكرى الكامل لعام ١٧٧٦، ببصيرة مميزة وبأسلوب سرد قصصى لا يخلو من الإمتاع، يضيف منظورا جديدا لبداية الثورة الأمريكية، فهو على عكس من سبقوه، يؤرخ عاما وليس شخصا.

كان الوضع ينذر بحتمية الحرب فى أواخر ١٧٧٥، كفاح السياسيين البريطانيين والأمريكيين للوصول إلى تسوية لم ينجح، كان على الجانبين تحمل عدة ظروف قاسية، منها برد الشتاء القارس، الذى كان له دور كبير جدا فى حسم العديد من المعارك.

البريطانيون كانوا يتوقعون حسم المعركة سريعا، ولكن عزيمة الأمريكيين كان لها عامل معاكس لطموحات البريطانيين، العامل النفسى كان يصب فى مصلحة الأمريكيين، فكلما حققوا انتصارا ولو ضعيفا وهينا يزيد هذا من معنوياتهم، وعلى العكس كان يحبط البريطانيون كثيرا، فعلى سبيل المثال كان تراجع البريطانيين من بوسطن مذلا إلى أقصى حد، بينما استيلاء الأمريكيين على ترينتن ذات الأهمية الإستراتيجية المحدودة، كان مهما جدا لدى الأمريكان.

■

A Lifetime of Secrets

(حياة من الأسرار)

Frank Warren

William Morrow, $27.95, 288PP, 2007



لثلاثة أعوام ظل «فلرانك وارين» يدعو الناس من دول مختلفة وثقافات مختلفة إلى إرسال كروت بريدية إليه تحمل أشكالا مبتكرة وأسرارا لم يصرحوا بها من قبل، لينشرها فى مدونته على الإنترنت التى تعد معرضا فنيا دسما، ولينشر أيضا تلك الأعمال فى سلسلة من ثلاث كتب.

الكتاب يحوى اعترافات عدة تحمل العديد من المشاعر، من خيانة وندم وأمل وحب.

■

Thieves in Retirement

(لصوص متقاعدون)

Hamdi Abu Golayyel, trans. Marilyn Booth

AUC Press: LE 70



يمكن اعتبار حمدى أبو جليل الكاتب المصرى البدوى الوحيد قبل ظهور مسعد أبو فجر خاصة أنه لم يبتعد كثيرا عن

مجتمع البداوة قبل مجيئه إلى القاهرة كما أنه لا يكتب عن هذا المجتمع بنظرة المرشد السياحى. فى رواية لصوص متقاعدون لا يكتب أبو جليل عن المجتمع البدوى من الأساس ولكن الراوى شاب بدوى غادر مضارب قبيلته ليحيى فى أطراف القاهرة ويكون شاهداً على أنماط البشر التى تعيش من حوله وعلى علاقاتهم المتشابكة. يبدأ الراوى بكونه مخزنًا لأسرار جيرانه المأساوية والكوميدية فى نفس الوقت. فهناك سيف الذى سيتحول جنسيا وجمال تاجر المخدرات والحكيمة التى تدير منزلها للدعارة والشيخ حسن كثير الذنوب. ولكن مع حرصه الشديد إلا أن أسرار الراوى تصبح مع الوقت معروفة لأبو الجمال صاحب المنزل المعروف بعدله وقسوته. مع أن أبطال العمل هم ممن درج على تسميتهم بالمهمشين إلا أن تناول الكاتب لهم لا يتضمن أى تعاطف أو استعلاء فالراوى يتأمل المجتمع المحيط به ويحاول أن يتكيف معه ويتقى شره فى نفس الوقت.

■

Leaves of Narcissus
(أوراق النرجس)

Somaya Ramadan
AUC Press: LE75



فازت الدكتورة سمية رمضان عام ٢٠٠١ بجائزة نجيب محفوظ التى تمنحها الجامعة الأمريكية لعمل روائى عربى سنويا عن روايتها أوراق النرجس. والرواية تدور حول مفاهيم الوطن والغربة والاغتراب الفعلى والنفسى. فالبطلة كيمى شخصية هشة تعانى من نوع من الفصام أو اختلال الهوية يجعلها لا تستطيع التفرقة بين آلام الآخرين وآلامها الشخصية. المعضلة بالنسبة لكيمى ليست فى وجودها هى إنما فى كيفية وجودها فى أوقات منفصلة ومتناقضة. على المستوى الأول لقراءتها فإن أوراق النرجس رواية عن شخص (البطلة) من الشرق يذهب للدراسة فى الغرب تماما كما كانت الكثير من الكتابات من قبلها لتوفيق الحكيم وطه حسين والطيب صالح. البطل هنا فتاة ووجهتها أيرلندا وهى جزء من الغرب ولكنها فى نفس الوقت دولة وقعت تحت الاستعمار مثلها مثل أغلب البلاد الشرقية.

■

Architecture for the Dead
(عمارة من أجل الأموات)

Galila El Kadi and Alain Bonnamy
AUC Press: LE200



على عكس الشائع، لم تكتسب المنطقة المسماة بمدينة الموتى شهرتها من أن الأحياء يتخذون من أحواش المقابر أماكن للسكن فهى من قبل هذا التطور الحديث نسبيا كانت تضم بعض أجمل نماذج العمارة الإسلامية. تمتد تلك المنطقة المنقسمة إلى منطقتين على مسافة ١٢ كيلو متراً من الشمال إلى الجنوب وتمثل بالتالى جزءاً أساسياً من أفق المدينة. تتنوع أحجام المقامات والأبنية التى بنيت فى هذه المنطقة على مر التاريخ بدءاً من العصور الوسطى وتفتخر باحتوائها على بعض أهم نماذج المعمار المملوكى على وجه التحديد. إن منطقة مدينة الموتى لا تضاهيها أى منطقة أثرية أخرى فى المنطقة وهى إلى حد بعيد غير موثقة حتى الآن. من هنا تأتى أهمية الكتاب الذى اشترك فيه المعمارية جليلة القاضى والمصور آلان بونامى. فهو يجمع بين التوثيق المعمارى الوصفى وبين الصور والخرائط والمخطوطات التفصيلية لكمية هائلة من الطرز المعمارية من المملوكى إلى المملوكى الحديث إلى الباروك والنيو فرعونى. كما تتنوع الأعمال المعمارية ما بين المبانى الحجرية الضخمة بقبابها ومآذنها المزركشة وبين الأعمال الخشبية الدقيقة والصغيرة وجميعها موثقة بتفاصيلها. كما أن الكتاب لا يغفل أماكن السكن الحديثة التى صنعها الناس داخل المدينة.

■

Egyptian Customs and Festivals
(العادات والمواسم المصرية)

Samia Abdennour
AUC Press: LE60



سامية عبد النور التى اشتهرت بكتابة وصفات غذائية وكتب طهى فى مصر هى فى الأصل فلسطينية تزوجت من مصرى وأتت لتعيش فى هذا البلد الغنى بأعياده وطقوسه الخاصة فى تلك الأعياد والمناسبات. كان أحد الأسئلة المهمة التى خطرت لها والتى قد تخطر على بال أى شخص يأتى للحياة فى مصر من بلد آخر هو كيف يحتفل المصريون بأعيادهم. والحقيقة أن الكثير من المصريين أنفسهم لا يعلمون أصول تلك الاحتفالات والمعانى الضمنية لطقوسها. بالنسبة للزائر توجد أسئلة من نوع، ماذا أتوقع أن أجد على المائدة المصرية فى المناسبات المختلفة وماذا أقول لزميلى المصرى إذا عطس وما الذى يفعله المصريون بالهون والغربال والكيس الذى يحتوى على سبعة حبوب عند ولادة طفل جديد. وتغطى الكاتبة العديد من الطقوس والمناسبات الخاصة بالزواج والوفاة والأعياد الدينية والصيام. كما أنها تفرد أجزاء من كتابها للطعام المنزلى والأطعمة المعتاد بيعها فى الشوارع والأماكن العامة. كما أنها تشرح ما يعتبره المصريون آداب التعامل وهى منطقة شديدة الحساسية فى الثقافات المختلفة حيث من المعتاد أن يكون فعل ما مقبولا تماما فى ثقافة ما، بينما يعتبر نفس الفعل فى ثقافة أخرى إهانة شديدة أو تصرفاً غير لائق اجتماعيا.

■

The Changing Middle Eastern Family
(العائلة الشرق أوسطية المتغيرة)

Kathryn M. Yount and Hoda Rashad
AUC Press: LE 120



يعرض كتاب العائلة المتغيرة فى الشرق الأوسط آراء أكاديمية متعددة حول انتشار الأفكار التنموية حول الأسرة والمجتمع فى ثلاث دول هى مصر وإيران وتونس. وتأتى أهمية المقارنة من التشابه بين الدول الثلاث بالرغم من اختلاف تاريخهم السياسى ونخبهم الثقافية ونظمهم القانونية. يعتمد الكتاب على استطلاعات رأى ومقابلات مع العامة فى الدول الثلاث. وقد قاست تلك الاستطلاعات رد الفعل لدى رجل الشارع للقضايا المختلفة بما فى ذلك تقبلهم أو رفضهم للأفكار المختلفة حول الزواج والطلاق وتعليم المرأة والإنجاب والحياة العائلية. إن الكتاب يملأ فراغا مهما فى البحوث الاجتماعية حول المنطقة بفحص تأثير الأفكار وليس العوامل الاقتصادية والاجتماعية على التطور التاريخى لمفهوم الأسرة. وتتنوع العلوم التى تعتمد عليها المقالات بين الأنثروبولوجيا والديموجرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع لتوثيق الطرق العديدة التى استجاب بها الأفراد للمؤثرات العالمية حول مفاهيم العائلة والأمة.

■

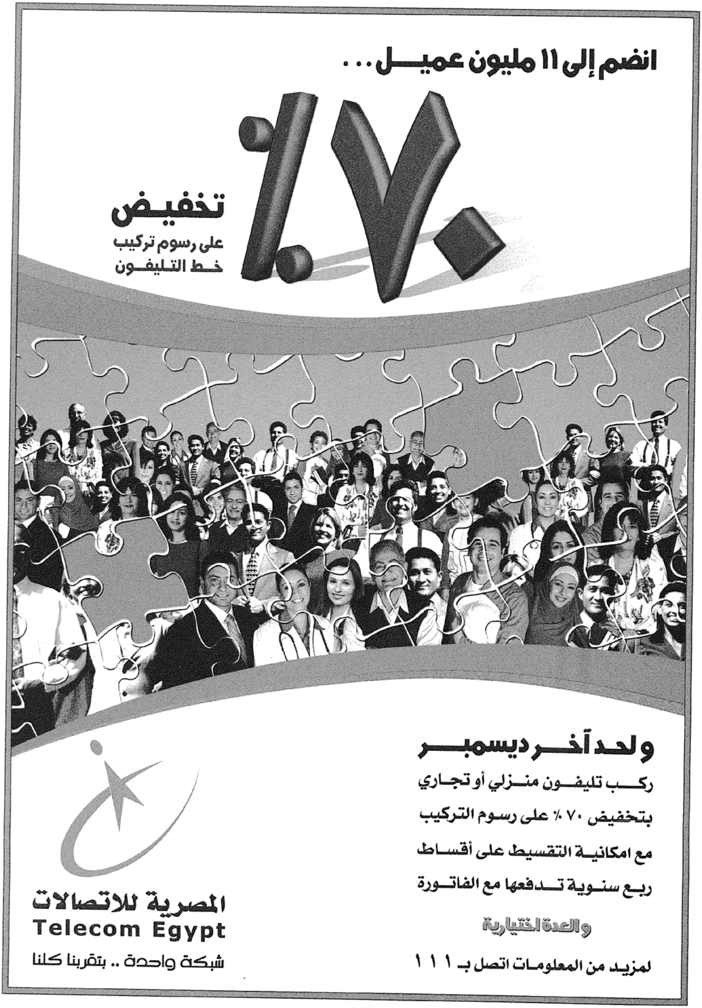
Cairo of the Mamluks: A History of Architecture and Patronage
(قاهرة المماليك: تاريخ من العمارة والرعاية)

Doris Behrens-Abouseif
AUC Press: LE250



حكم المماليك مصر لمدة قرنين ونصف القرن فى تجربة فريدة من نوعها يحكم فيها عبيد دولة ويتبادلون الإمارة فيما بينهم بسلسلة من الاغتيالات والمؤامرات. ومع ذلك فإن للمماليك إسهاماً مهماً جداً فى مجال المعمار حيث إن الغنى الثقافى الذى منحه لهم تنوع خلفياتهم العرقية كان محركا مهما فى التطوير الذى أحدثوه فى الزخارف المعمارية وفى تنوع وجمال مبانيهم ومنها الكثير الذى لا يزال جزءاً أساسيًا من أفق القاهرة البصرى الحالى. وتوثق دوريس بهرانس أبوسيف، أستاذة الفن والعمارة الإسلامية فى كلية الدراسات الشرقية والأفريقية فى لندن بشكل شامل لأهم العناصر المؤثرة فى تطور المعمار المدنى المملوكى كما تبحث فى الأسباب الاجتماعية والسياسية التى دفعتهم لرعاية بناء المساجد والمدارس والمستشفيات والأضرحة. ويتضمن الكتاب صورا ملونة وخرائط والمخطوطات لستين نموذجا من أهم ما بناه المماليك فى القاهرة منشورة بترتيبها الزمنى بدءاً من الضريح الذى بنته شجرة الدر لزوجها، الحاكم الأيوبى الأخير لمصر للمدرسة المبهرة للسلطان حسن ومجمع السلطان الغورى آخر حاكم مملوكى قوى. وتعتمد دوريس أبوسيف فى كتابها على مراجع ووثائق عربية كما تعتمد على أحدث الدراسات المتخصصة لتقديم تاريخ حديث وشامل لمبانى القاهرة التى استحقت شهرتها.

■


انضم إلى ١١ مليون عميـــل...
٧٠٪
تخفيـض
على رسوم تركيب
خــط التـليفــون
ولحد آخــر ديسمبــر
ركـــب تليفـــون منــزلي أو تجــاري
بتخفيض ٧٠ ٪ على رسـوم التركيب
مع امكانيــة التقسيط على أقســاط
ربـع سنــوية تــدفعها مع الفاتــورة
والعدة اختيارية
لمزيـد من المعلومـات اتصل بـ ١١١
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا

الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 108 - January 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وثمانية . السنة التاسعة . يناير ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

2007

الكتب .. مراجعة المراجعات .. وجائزة لتداول السلطة !

« تلات سلامات » .. زمن محمود الشريف





السنة التاسعة
العدد المائة وثمانية
يناير ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- أبوالعلا ماضى.. ناشط إسلامى - وكيل مؤسسى حزب الوسط (تحت التأسيس).
- أمبرتو إكو.. كاتب وروائى وأستاذ للفلسفة بجامعة بولونيا.
- أنطوان زحلان.. أستاذ سياسات العلوم ومؤسس الجمعية الملكية الأردنية للعلوم.
- جريج جراندن.. أستاذ التاريخ فى جامعة نيويورك.
- خالد أبوالفضل.. أستاذ القانون الإسلامى وحقوق الإنسان بجامعة كاليفورنيا.
- السيد أمين شلبى.. سفير سابق والمدير التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية.
- طاهر حمدى كنعان.. نائب رئيس وزراء أردنى سابق وعضو منتدى الفكر العربى.
- عبد الرءوف الريدى.. رئيس المجلس المصرى للشئون الخارجية.
- محمد المهدى.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- محمود محيى الدين.. اقتصادى وسياسى مصرى يشغل حاليًا منصب وزير الاستثمار.
- معتز خورشيد.. مدير المجلس العربى للدراسات العليا ونائب رئيس جامعة القاهرة السابق.
- مينا بديع عبدالملك.. أستاذ ورئيس قسم الرياضيات بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية.
- نبيل حنفى محمود.. كاتب وأستاذ بجامعة المنوفية.
- يواكيم تشيسانو.. رئيس موزمبيق الأسبق.

رسوم العدد للفنان

محمد حجى - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٢٤٠٤٨٥٢٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية . السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهمًا - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

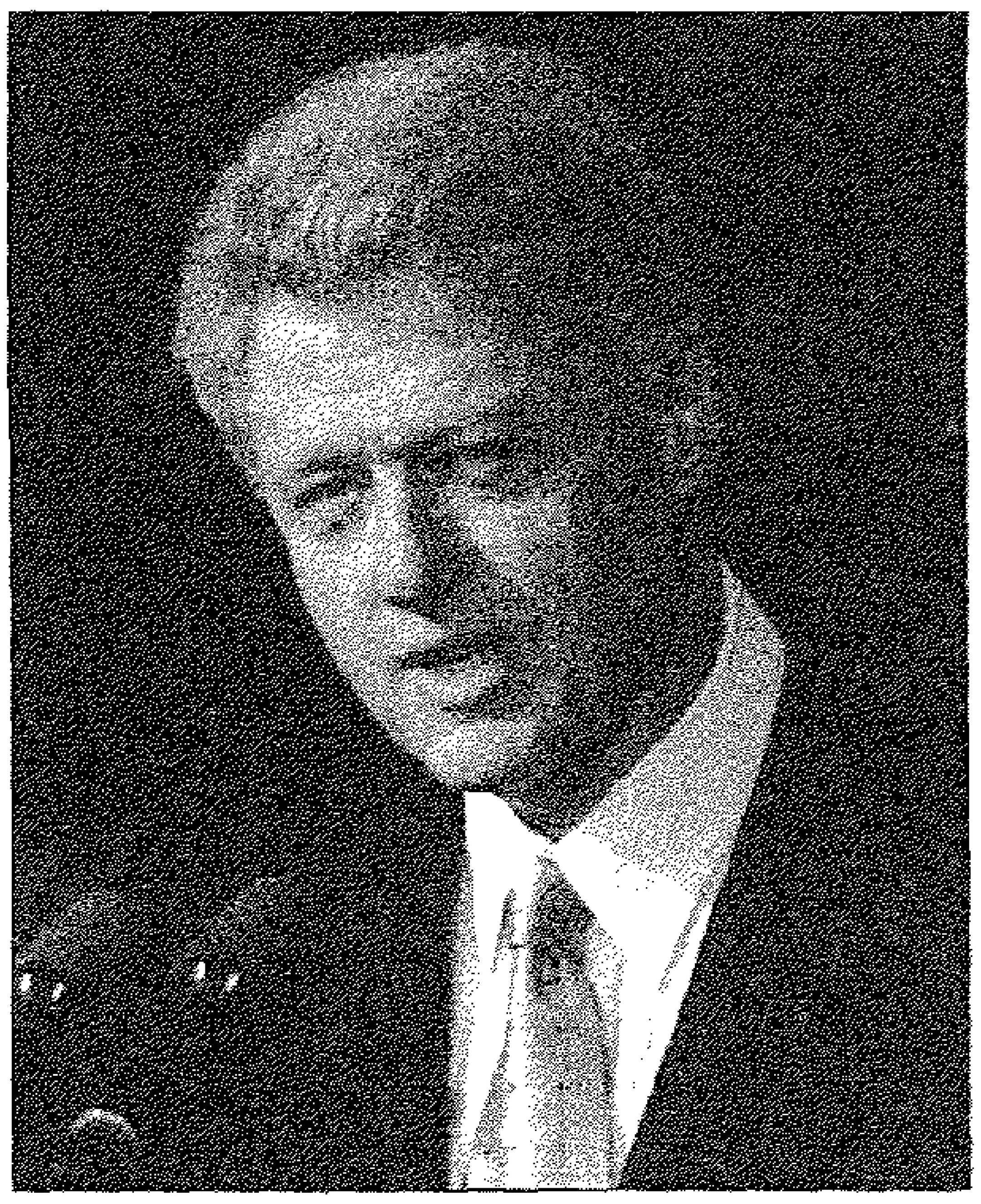
طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

أمريكا وثلاثة رؤساء

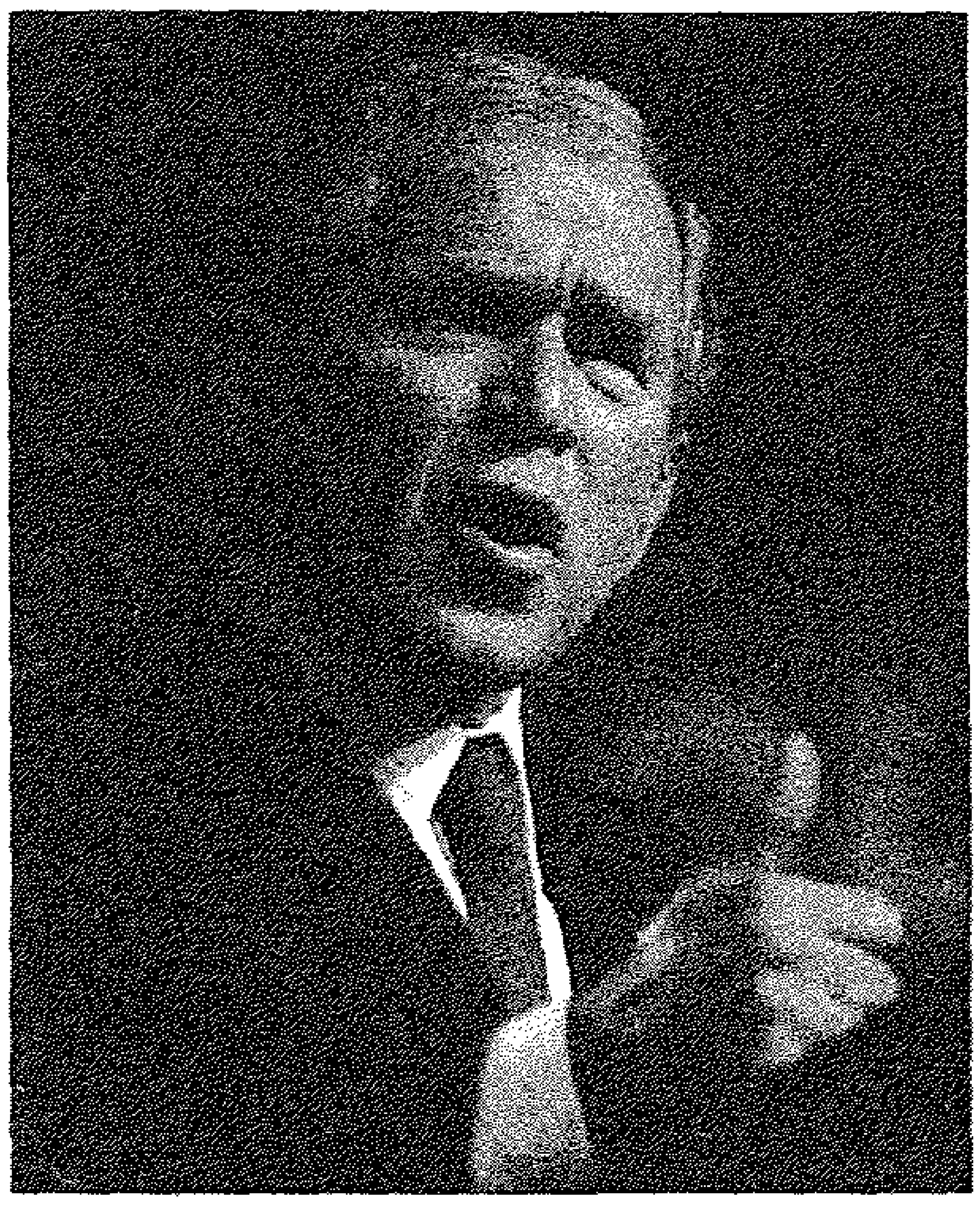
السيد أمين شلبى



بوش الأب



كلينتون



بوش الابن

زيجنيو برجنسكى هو أحد الخبراء الأمريكيين البارزين، وقد بنى سمعته الأكاديمية كخبير فى شئون الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية، واعتبر كتابه الذى كتبه بالتعاون مع صموئيل هينتنجتون USSR - US أحد المراجع الأساسية فى فهم السياسة السوفيتية والتعامل معها. وقد اختاره الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر مستشاراً للأمن القومى ١٩٧٦ - ١٩٨٠ وارتبط عهده بثلاثة أحداث تحويلية كبرى: معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية ١٩٧٨، واستكمال عملية الانفتاح على الصين، وإقامة علاقات دبلوماسية كاملة معها واستراتيجيته فى توريط الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان، ودعمه العسكرى للمجاهدين الأفغان والذى كان من عوامل تفكك الاتحاد السوفيتى.

وبعد انقضاء عمله كمستشار للأمن القومى عمل زميلا فى معهد الدراسات الاستراتيجية فى واشنطن وأصدر كتبه: Out of Control, The Erand Chess game, The Choice والكتب الثلاثة تناقش الوضع الأمريكى بعد انقضاء الحرب الباردة.

Second Chance : Three Presidents and The Crisis of American Superpower

(فرصة ثانية.. ثلاثة رؤساء وأزمة القوة العظمى الأمريكية)

Zbigniew Brzezinski

Basic books 2007

هذا الكتاب الذى نعرض له هو استمرار لهذا المشروع بالتركيز على الرؤساء الثلاثة الذين ورثوا نهاية الحرب الباردة: بوش الأب، وبيل كلينتون، وبوش الابن. وموضوع هذا الكتاب هو كيف فهم الرؤساء الثلاثة نهاية الحرب الباردة وجوهر العصر الجديد، وهل استرشدوا برؤية تاريخية تتفق مع هذا الحدث؟ وهل اتبعوا استراتيجية متماسكة؟ وأى قرارات فى السياسة الخارجية كانت أكثر تأثيرا؟ وهل تركوا العالم على صورة أحسن أم أسوأ؟ وهل كان الموقف الأمريكى فى العالم أضعف أم أقوى؟ وأى دروس رئيسية للمستقبل يمكن الخروج بها من أداء أمريكا عبر السنوات الخمسة عشر باعتبارها القوة الأعظم الوحيدة؟ وعلى هذا تصبح هذه القوة الأعظم الأولى، وهذه السنوات الخمسة عشر وهؤلاء الرؤساء الثلاثة الذين تولوا خلالها هى موضوع هذا الكتاب.

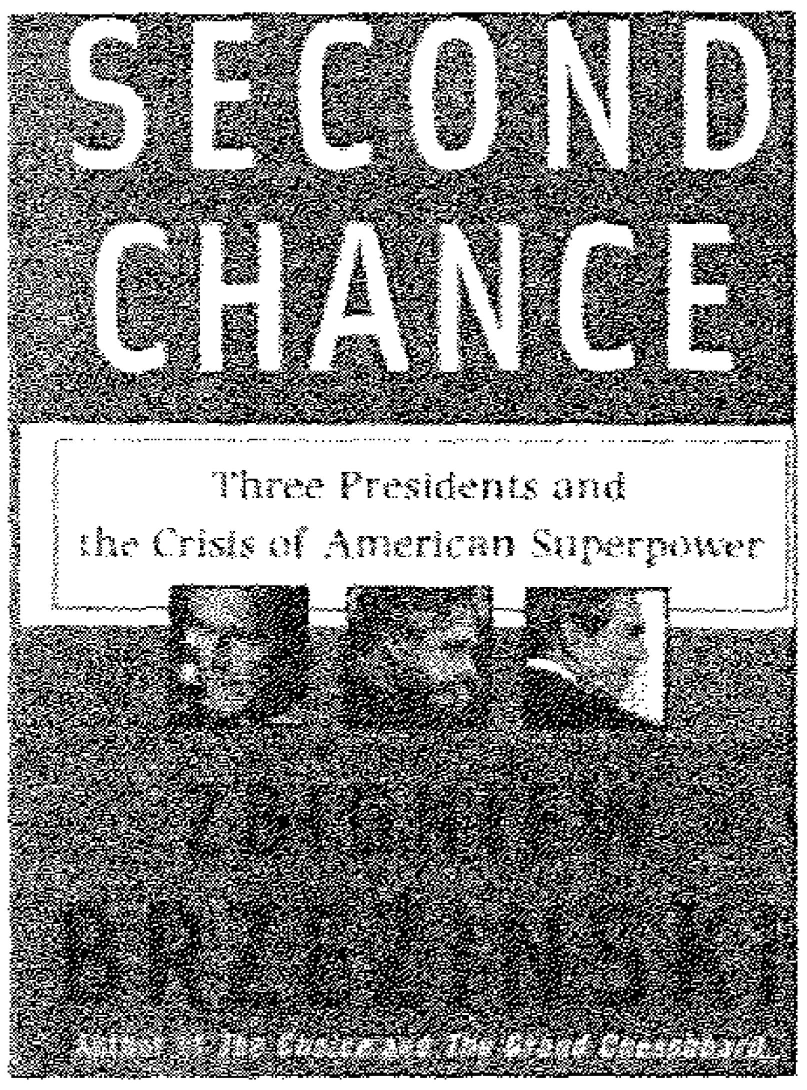
ويبدأ برجنسكى بالرئيس الأمريكى الأول الذى ورث نهاية الحرب الباردة ومن ثم بروز الولايات المتحدة باعتبارها القوة الأولى والوحيدة فى العالم، وهو جورج بوش الأب. وقد كانت العلامة المميزة فى عهده هى عبارة «النظام الدولى الجديد» والتى أصبحت ترمز لرؤيته للعالم.

وباعتبار أنه عاصر عملية تصدع الاتحاد السوفيتى فإن جورج بوش قد تعامل بمهارة مع هذا التطور، وقد توافق مع هذه العملية عدوان صدام حسين على الكويت وهو ما عبأ به بوش الرأى العام الدولى بمهارة دبلوماسية فائقة وبتصميم عسكرى، إلا أنه فى الحالتين لم يترجم أى انتصار إلى نجاح تاريخى دائم، فالنفوذ السياسى الأمريكى الفريد فى هذا الوقت لم يطبق استراتيجيا لا إلى إحداث تحول فى روسيا ولا جلب السلام فى الشرق الأوسط، غير أنه إنصافا لبوش فإنه من الرؤساء الأمريكيين منذ نهاية الحرب الثانية كان عليه أن يواجه هذا الغليان الواسع والكثيف. وأيا كانت التحفظات على ميراثه إلا أنه أحسن اختيار فريقه للسياسة الخارجية. ولكن فى الوقت الذى كان يتشاور معهم ودعوته من وقت لآخر لمستشارين من خارج البيت الأبيض، فقد كان بوش بدون شك الأول بينهم والصانع الأول العليم والواثق للقرار. غير أن ما كان يحتاجه بوش هو تحديد أولوياته والنظر ابعد من اليوم والغد وأن يكون واضحا حول إحساسه بالاتجاه والتصرف على هذا الأساس. وهذا هو ما لم يفعله بوش، وقد ركز فى المقام الأول على الهدف الحساس فى الإدارة السلمية لتفكك الإمبراطورية السوفيتية، ثم على وقف أطماع صدام حسين ولقد حقق بشكل لامع كلتا المهمتين ولكنه لم يستغل أيا منهما.

وفى إدارته للتفكك السوفيتى وآثاره، فقد كان فى قمة أولويات بوش التأكد من أن الترسانة النووية السوفيتية لن تقع فى أيد لا يعتمد عليها فى الدول التى تخلفت عن الاتحاد السوفيتى والتى كانت تتركز فيها هذه الترسانة، وهكذا فقد كان التركيز الرئيسى للدبلوماسية الأمريكية خلال العام الأخير فى الرئاسة هى المفاوضات مع الدول المستقلة حديثا: أوكرانيا، بيلاروسيا، وكازاخستان حول نقل هذه الأسلحة إلى روسيا نفسها، مثل هذا العمل كان يتطلب وقتا وطاقة، وقد تعامل معه فريق بوش بمهارة معتمدا على النفوذ الضخم الذى تمتعت به الولايات المتحدة فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى. غير أن تعقد الأحداث والمهام التى يجب مواجهتها فى السنوات الثلاث السابقة قد تركت إدارة بوش مجهدة فكريا وبلا فكر خلاق، فحقيقة أن بوش وفريقه قد أداروا بنجاح تفكك الإمبراطورية السوفيتية ولكن كان لديهم القليل من الوقت للتخطيط لما بعد النصر الذى - شأن غيرهم - لم يتوقعوه بشكل كامل.

ومع الوقت القليل الذى تبقى قبل الانتخابات الرئاسية التالية، فإن إغراء الاعتماد على أكاليل النصر وعلى شعار غامض كان قويا بما لا يمكن مقاومته. وقد كانت سياسة بوش تجاه روسيا الجديدة غنية بالبلاغة، وكريمة فيما يتعلق باللفتات ولكنها خاوية استراتيجيا. ولقد ترك فريق بوش التحديات الجديدة لروسيا ما بعد

مع بداية عام ١٩٩٢ كان لدى بوش الأب قدرة أكثر لتحقيق اختراق للسلام، ولكنه لم يحاول الضغط على الأطراف لتسوية القضايا الرئيسية المتنازع عليها



الاتحاد السوفيتى تأخذ مجراها فى الوقت الراهن حتى يمكن معالجتها فى الولاية الثانية التى لم تأت. وقد أعيد تحديد مفهوم النظام الجديد بشكل ملائم لكى يتضمن روسيا يلتسين ولكن بدون أى مضمون جديد وبدون أى استجابة طويلة الأجل لعالم ما بعد الاتحاد السوفيتى. أما عن موقف الإدارة من أفغانستان فقد كان سلبيا فالولايات المتحدة التى قدمت عبر رؤسائها كارتر وريجن وبوش دعما للمقاومة، فعلت القليل للتعامل مع أفغانستان المدمرة بعد الخروج السوفيتى ولضمان الاستقرار السياسى والنقاهة الاقتصادية. وقد ظهرت آثار هذا الإهمال بعد وقت طويل من خروج بوش من السلطة.

أما عن منطقة الشرق الأوسط ونزاعها الطويل الأمد فإن برجنسكى يعتبر أن التحالف الذى صنعه بوش ضد صدام حسين قدم فرصة للولايات المتحدة لاستخدام وضعها الاستثنائى لكى تعالج أكثر صراعات المنطقة مرارة والتى سببت كثيرا من المعاناة ومصدرا رئيسيا لتصاعد المشاعر المعادية لأمريكا، وهو الصراع الفلسطينى الإسرائيلى.

وقد بدأ بوش ولايته الرئاسية مستعدا للقيام بمبادرة شاملة لإنهاء الصراع، حتى قبل حرب ١٩٩١ فقد صدرت عنه إشارات عن ذلك رغم وجود حكومة الليكود فى إسرائيل والتى كانت ملتزمة ببناء المستوطنات فى الأراضى الفلسطينية، ففى مايو ١٩٨٩ وبعد أربعة شهور من توليه السلطة، ذكر وزير خارجية بوش صراحة للايباك اللوبى الإسرائيلى الأساسى أن «على إسرائيل فى هذا الوقت التخلى إلى الأبد عن الرؤية غير الواقعية عن إسرائيل الكبرى.... والتخلى عن سياسة الضم ووقف نشاط المستوطنات والتواصل مع الفلسطينيين كجيران يستحقون الحقوق السياسية». وفى مارس ١٩٩٠ أعلن بوش نفسه «أن مواقف السياسة الخارجية للولايات المتحدة تقول إننا نعتقد أنه لا يجب أن تكون هناك مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية وفى القدس الشرقية». وفى منتصف عام ١٩٩١ طلب شامير قرضا بـ ١٠ بلايين دولار فى الوقت الذى رفض فيه بناء المستوطنات وهو ما قابله بوش بفرض حظر على ضمان قروض لإسرائيل.

وهكذا فإنه فى عام ١٩٩١ ومع بداية عام ١٩٩٢ كان لدى بوش الأب قدرة أكثر لتحقيق اختراق للسلام أكثر من أى رئيس أمريكى آخر منذ ايزنهاور، ولكنه لم يحاول أن يستخدم موقفه الاستثنائى فى المنطقة للضغط على الأطراف لتتبنى مبادئ واضحة فيما يتعلق بالقضايا الرئيسية المتنازع عليها كما أنه لم يلزم أمريكا بمثل هذه المبادئ من خلال إعلان علنى وملزم. أما هذه المبادئ فهى فى تقدير برجنسكى: لا لحق العودة للفلسطينيين، لا لتوسع إسرائيلى كبير بعد حدود ١٩٦٧، تعويضات للأراضى لأى تغيرات، صيغة للمشاركة حول القدس، ونزع السلاح لما يترتب من دولة فلسطينية.

ويعتبر برجينسكى أن ولاية ثانية ربما كانت ستعطى بوش الوقت لكى يصبح حقا رئيسيا مجددا، و الذى سيصنع مرحلة تاريخية جديدة. وبالتأكيد فإن سجله فى التعامل مع محنة الإمبراطورية السوفيتية تستحق أكبر استحسان، ولكن فى الشرق الأوسط فإن انتصارا عسكريا مذهلا قد انخفض إلى مجرد نجاح تكتيكى والذى أصبح ميراثه الاستراتيجى سلبيا بشكل تدريجى. ويستخلص برجينسكى أن العمل غير المنتهى فى كل من الصراع العربى الإسرائيلى، ووقف إطلاق النار فى العراق سوف تلازم خلفاء بوش، وأصبح العرب بشكل متزايد يرون دورا أمريكيا فى المنطقة لا نفوذا مجددا ولكن كإعادة إنتاج للماضى الاستعمارى.

على العكس من خلفه كان للرئيس بيل كلينتون رؤية عالمية. وقد تلاءمت بشكل كامل الحتمية التاريخية الكامنة فى مفهوم العولمة، بالاعتقاد العميق لكلينتون أن أمريكا لكى تبرر دعوة نفسها «بالأمة التى لاغنى عنها» يجب أيضا أن تجدد نفسها، وبالنسبة لكلينتون كانت السياسة الخارجية إلى حد بعيد امتداداً للسياسة الداخلية. وهكذا أصبح التجديد الداخلى الموضوع الرئيسى لولاية كلينتون الأولى، ولكن مادامت السياسة الخارجية لا يمكن تجاهلها، فإن تركيز كلينتون على العولمة قدم له صيغة فى دمج الداخلى والخارجى وحررته من الالتزام بتحديد واتباع استراتيجية منتظمة للسياسة الخارجية، وهكذا أصبحت العولمة الموضوع الذى بشر به كلينتون باعتقاد رسولى فى الداخل والخارج وخلال زيارة له لفيتنام فى مؤتمر ٢٠٠٠ وصف العولمة بأنها «المعادلة الاقتصادية لقوة الطبيعة» وبعد ذلك أبلغ الرئيس الروسى بأن السمة المحددة للعالم هى العولمة.

وعكس بوش الأب، نظر كلينتون للشئون الخارجية كاستمرار للسياسة الداخلية بوسائل أخرى. وقد أثرت هذه النظرة أيضا فى الطريقة التى صنعت بها قرارات السياسة الخارجية تحت قيادة كلينتون وكيف اختيرت الشخصيات الرئيسية لفريقه فى السياسة الخارجية. وقد أظهرت ولايته الثانية نوعا من التكيف وإن كان متأخرا بعض الشىء. فقد انجذب إلى ارتباط أكبر بالسياسة الخارجية وعكس فريقه للشئون الخارجية مستوى عاليًا من النشاط. غير أن الأولوية التى أعطاها كلينتون فى ولايته الأولى للسياسة الداخلية كان لها تأثيرها الجانبى حيث شجعت الكونجرس الذى يتأثر بشكل متزايد باللوبيات والارتباطات الأجنبية، بأن يشرع للسياسة الخارجية. وقد كان أكثر هذه اللوبيات نشاطا ونجاحا هما اللوبى الإسرائيلى والكوبى واللذان امتلك كل منهما الموارد لكى يصنع فروقا فى عمليات التبرع خلال الانتخابات وخاصة فى ولايتين هما نيويورك وفلوريدا. ولكن للإنصاف لكلينتون جعلت الحالة العنيفة للعالم من الصعب تحديد أولويات واضحة للسياسة الخارجية وتحديد التهديدات الجيوبوليتيكية، على عكس بوش لم يواجه كلينتون تحديات لها إمكانات ضخمة على الخير أو الشر مثل أزمات الكتلة السوفيتية أو التحدى الذى فرضه غزو صدام حسين للكويت.

وقد عكس كلينتون صورة جذابة لقائد شاب يمتلك حساسية للمعضلات التكنولوجية والبيئية التى تواجه البشرية وعلى وعى بالعيوب الأخلاقية للوضع العالمى ومستعد لأن يعبئ البشرية فى جهد مشترك للتعامل مع مشكلات لم تعد قابلة للحل من خلال أمة واحدة.

وقد جاء اختفاء الاتحاد السوفيتى ليخلق ثلاث فرص هامة لكلينتون لاتباع أجندته حول الأمن والتعاون العالمى. فقد جعلت من الممكن إطلاق مبادرات أمريكية روسية شاملة للحد من التسلح بين الأمتين. وقد خلف اختفاء العالم الثنائى القطبية نظاما عالميا أوسع للأمن المشترك. كما أن انتهاء تقسيم أوروبا كان يعنى أن أوروبا الأكبر والقابلة للحياة المتصلة بشكل أوثق بأمريكا من خلال الرابطة الاطلنطية سوف تبزغ. وقد أدى انهيار الاتحاد السوفيتى - بوجه خاص - إلى تحقيق الهدف الأول وخلق فرص مواتية لوقف سباق التسلح بين الولايات المتحدة وروسيا والتوصل إلى اتفاقات مثل سولت ٣ عام ١٩٩٣ لخفض الترسانات الأمريكية والروسية، وهكذا شهد منتصف التسعينيات نهاية سباق التسلح كأكبر مصدر للتهديد المحتمل والمدمر فى تاريخ البشرية. غير أن هذا لم يمنع من ظهور تحديات جديدة مثل التحدى الذى مثلته كوريا الشمالية والذى ظهر بعد أسابيع من تنصيب كلينتون. وعبر العامين التاليين دخلت الولايات المتحدة الأمريكية وكوريا الشمالية فى محاولات عقيمة حول البرنامج الكورى النووى وحول برنامجها للصواريخ التكنولوجية، بل إنه عند نقطة ما من عام ١٩٩٦ راودت إدارة كلينتون فكرة ضربة استباقية ضد المنشآت النووية لكوريا الشمالية ولكن كلينتون قرر فرض عقوبات اقتصادية بدلا من ذلك وفى نهاية عام ٢٠٠٠ وقبل أسابيع من الانتخابات الرئاسية زارت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت الرئيس الكورى الشمالى وألمحت إلى إمكانية زيارة الرئيس كلينتون لبيونانج. وقد كان الدرس الذى خلفه كلينتون لخلفائه فى قضية منع الانتشار أنه مع عدم التعادل الضخم فى القوة بين الولايات المتحدة وبين غيرها من الذين يسعون إلى الانتشار النووى، فإن البديل الوحيد للحرب هو التعاون الدولى الحقيقى على المستوى الإقليمى وفى مرحلة مبكرة من التحدى النووى.

ويعتقد برجنسكى أنه مما أضر بسمعة كلينتون كقائد له رؤية فشل الولايات المتحدة فى دعم الجهد الدولى لإطلاق استجابة مشتركة للتهديد المتزايد للاحتباس الحرارى العالمى. وقد انتهى الجدل الداخلى الذى ثار فى الولايات المتحدة والذى انحنى كلينتون أمامه معارضة الكونجرس بروتوكول كيوتو على أساس أنه ليس عمليا ولا عادلا. وفى نهاية عهد كلينتون فإن الأجندة المأمولة لرئاسته كانت موضع شك فيما عدا توسيع ودعم التحالف الأطلنطى الذى بدأ باعتباره أكثر الاتحادات الاستراتيجية دوما وإن كانت سوف تتعرض للضرر بشكل جاد من سياسة خلفه، غير أن رؤية كلينتون الرئيسية وهى العولمة

أمريكا
وثلاثة رؤساء

باعتبارها «المعادل الاقتصادى لقوة الطبيعة» أصبحت تحت هجوم عنيف.

غير أنه إذا كانت الحرب الباردة قد انتهت إلا أنها قد رفعت الغطاء عن عدد من الصراعات والمشكلات الدولية، وهذا ما واجهه كلينتون حين واجه بعد توليه اشتعال العنف فى عدد من مناطق العالم مثل الصومال، ورواندا، وتفكك يوغسلافيا وانغماس روسيا فى الحرب مع الشيشان واختبار الصين لحدود تصميم الولايات المتحدة لحماية تايوان، وأكثر من ذلك تقيح النزاع العربى الإسرائيلى عبر ولايتيه حيث لم يتحقق إلا تقدم ضئيل وعدد من النكسات فى عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية، والعراق حيث أصبحت مصدرا من المواجهة الدورية وتكثيف عمليات الإرهاب ضد الولايات المتحدة مع ارتفاع حرارة المنطقة. مثل هذه التحديات كانت تتطلب قدراً أكبر من الإيمان فى قوة الاندفاع التاريخية للعولمة. ولكن لرصيد كلينتون ضد ميله الطبيعى، حاول كلينتون أن يتجاوب مع الأزمة فى البلقان وكان ناجحا فى النهاية ولكن لسوء الحظ فإن هذا لا يمكن أن ينطبق فى حالة الصومال ورواندا.

وفى تقدير برجنسكى أن ميراث كلينتون الأكثر مدعاة لخيبة الأمل كان فى فشله فى استغلال الفرص التى ظهرت على السطح على الأقل حول مناسبتين تتعلقان بالعلاقة الفلسطينية الإسرائيلية الراكدة. وربما أيضا فيما يتعلق بالعلاقة الأمريكية الإيرانية. وقد كانت الفرصة الأولى لدفع سلام فلسطينى إسرائيلى قد بزغت بعد وقت قصير منذ تولى كلينتون السلطة. أما الثانية فقد حدثت قبل وقت قصير من تولى كلينتون السلطة، وقد أضيعت السنوات بين ذلك فى الوقت الذى انحرفت فيه السياسة الأمريكية تدريجيا من الالتزام المتحيز لتسوية عادلة إلى وضع منحاز وأحادى الجانب لإسرائيل. وقد عكس فريق كلينتون هذا التطور حيث اختير الفريق الذى تولى المفاوضات من معاهد البحث الموالية لإسرائيل واللوبيات الإسرائيلية. وقد عارض أبرز هؤلاء أى مبادرة محددة للسلام على أساس أن الوقت يجب أن يمر قبل أن يكون الفريقان مستعدين لتسوية حقيقية. ومثل هذه الحجة استخدمتها أكثر العناصر المتشددة فى إسرائيل الذين استخدموا الوقت لتوسيع ودعم المستوطنات فى الأراضى الفلسطينية باعتقاد أن «الحقائق المتحققة» على الأرض سوف تجبر الفلسطينيين بعد ذلك على تنازلات أحادية أكثر. أما فيما يتعلق بدعوة كلينتون الى مؤتمر كامب ديفيد ٢ فإنه على عكس كارتر، كان يفتقر إلى إطار أمريكى مسيطر قائم على مواقف أمريكية محددة وعلى مشروع أمريكى للتفاوض. وإذا كان الجهد الذى بذله كلينتون لإحداث اختراق قد بذل فى وقت مبكر، مباشرة بعد انسحاب باراك فربما كان هنالك وقت لكى يستقر الغبار ولكى تسود صيغة كامب ديفيد بعد ذلك.

أما عن العلاقات مع إيران فقد ظلت مجمدة وفى عداء متبادل، وقد كانت اختيارات كلينتون محدودة بتشريعات معادية سياسيا له والتى تمنع أى استكشاف لحوار إيرانى - أمريكى. وعلى العكس، فقد أعلن كلينتون فى خطبة امام المؤتمر اليهودى العالمى؛ وردا على لفتة إيرانية لفتح آبار بترولها للاستثمارات الأمريكية، إصدار أوامر رئاسية تمنع التجارة مع إيران، وفى عام ١٩٩٧ أنتجت الانتخابات الإيرانية رئيسا معتدلا. الأمر الذى كان من المفروض أن يفتح نافذة لاستكشاف تحسن فى العلاقات الأمريكية الإيرانية. ولكن خوفا من الآثار الداخلية من اللوبيات الإسرائيلية والإيرانية؛ اختار كلينتون مرة أخرى ألا يتصرف بشكل إيجابى. هذه التطورات فى مجموعها قد أنتجت آثاراً عكسية أساسية حول رؤية المنطقة لأمريكا. فقد كان الكثيرون فى الشرق الأوسط ينظرون الى دخول أمريكا فى المنطقة كقوة محررة سوف تؤدى إلى رحيل السيطرة البريطانية الفرنسية، ولكن بعد خمسة عقود فإن أعداداً متزايدة من العرب والمصريين والإيرانيين أصبحوا بشكل متزايد يتبنون تصور أن المنطقة مرة أخرى تعانى من السيطرة الأجنبية تحت قناع جديد. وهو الشعور الذى أدى بدوره إلى إعطاء دافع للأعمال المميتة والإرهابية الموجهة ضد الشخصيات العسكرية والدبلوماسية الأمريكية فى المنطقة، ورغم هذا فإنه ليست هناك شواهد أن تصاعد التهديد الإرهابى المعادى للولايات المتحدة قد أدى إلى أى جهد أمريكى جاد لصياغة استراتيجية شاملة لإجهاض هذه التهديدات. هذا الركود الجيوبيولتيكى فى المنطقة - الذى باركته أمريكا إلى حد بعيد، لم يشجع أياً من هذه الجهود. وقد ظلت القضية نائمة حتى صدم الرأى العام الأمريكى بصياح شنيع بعد ٧ أسابيع من رحيل كلينتون عن السلطة.

وهكذا ترك كلينتون منصبه والعلاقات الفلسطينية الإسرائيلية فى أسوأ صورها والشرق الأوسط فى حالة غليان أكثر مما كان عندما تولى منصبه. ولسوء الحظ فإن نظامه غير المكترث فى صنع القرار والذى أفسدته الحسابات السياسية الداخلية قد أدى إلى خجل استراتيجى والذى كانت له معان خطيرة لمصالح أمريكا طويلة الأجل.

فإذا كان كلينتون قد نجح فى التوصل إلى تسوية عادلة للصراع الفلسطينى الإسرائيلى فإنه كان سيكسب لنفسه ولأمريكا نجاحا تاريخيا هاما.

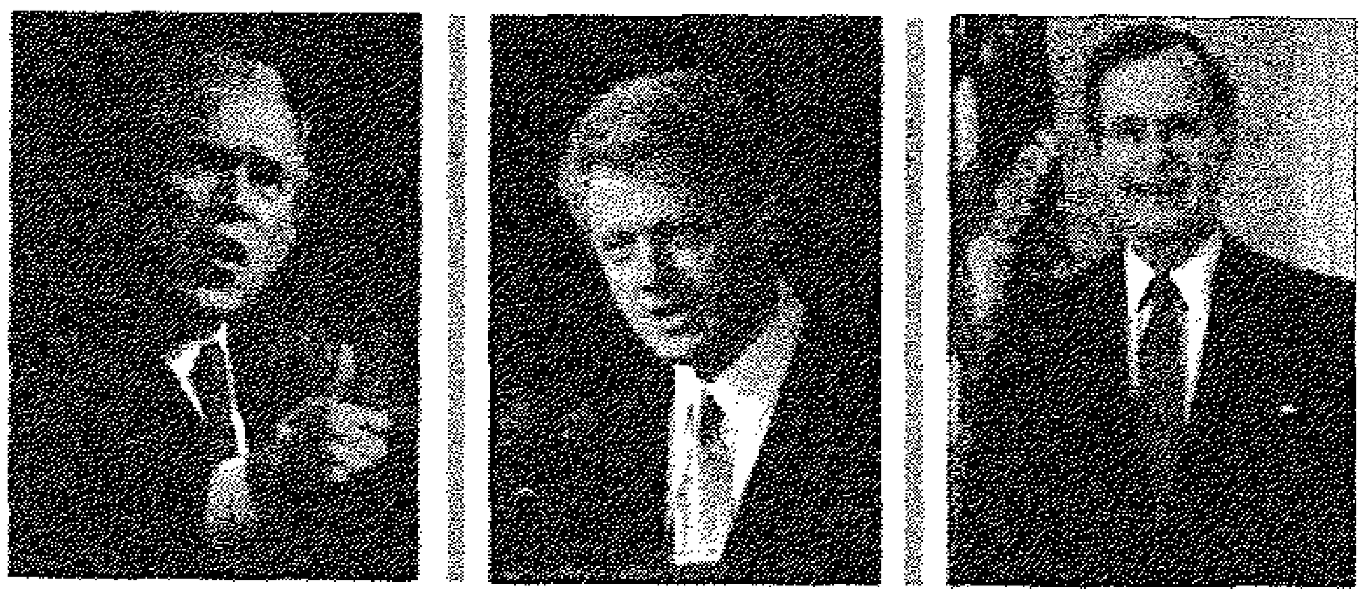
ويستخلص بريجنسكى تقييمه لسنوات كلينتون فى السلطة بقوله أن كلينتون نفسه كان موضع إعجاب ومحبوبا عالميا وبجاذبية شخصيته تكاد ترقى إلى رئيسين سابقين هما فرانكلين وروزفلت وجون كيندى، ولكن لم يستغل سنواته الثمانى فى البيت الأبيض لكى يحول زعامة أمريكا المكتسبة الجديدة إلى طريق محدد يلهم الأمم الأخرى باتباعه، وهو ما لم يبذل أبدا جهدا منسقا لتطوير واتباع استراتيجية شاملة لدور أمريكى مسئول فى العالم العنيف الذى يواجهه، وقد كان لديه الذكاء والشخصية لعمل ذلك، ولكن أسلوبه اللامبالى والانتهازى لصنع القرار لم يكن ليؤدى إلى وضوح استراتيجى وكان إيمانه فى الحتمية التاريخية للعولمة جعلت مثل هذه الاستراتيجية غير ضرورية وهكذا يمكن القول أنه خلف عام ٢٠٠١ ميراثا غير مكتمل ومعرضاً للخطر لخليفته ونقيضه الأيديولوجى.

يطلق برجينسكى على جورج دابليو بوش «القيادة الكارثية»، ويعتبر أن أحداث ٢٠٠١/٩/١١ كانت أحداثا تحويلية تحول منها بوش إلى قائد حاسم لأمة فى حرب، وبناء على هذا فإن أمريكا ستتصرف بذاتها بغض النظر عن آراء الحلفاء، والتف الشعب الأمريكى حول القائد واستراتيجيته التى عكست «الحرب على الإرهاب» اهتمامات إمبريالية تقليدية للسيطرة على موارد الخليج الفارسى وكذلك رغبات المحافظين الجدد لدعم أمن إسرائيل بتصفية الخطر العراقى. وقد كانت النتائج الأولية لهذا الخليط مؤدية إلى الفخر و الخيلاء. فقد أطيح بحكومة طالبان فى أفغانستان وفى أقل من ١٨ شهراً بنظام صدام حسين بهجوم أرضى أمريكى فى أقل من ثلاثة أسابيع؛ وهكذا كان المزاج فى البيت الأبيض مزاج انتصار ورفض للمفاهيم القائمة على الواقع reality based معتبرين أن الولايات المتحدة الآن هى إمبراطورية وأنهم حين يتصرفون فإنهم يخلقون الواقع. وليس من المستغرب ألا يتأخر الانتقام، ففى خلال شهور فقط أصبحت السياسة الخارجية للقوة الأعظم الأولى المهيمنة يسيطر عليها النتائج المستنفرة للحرب فى بلد بعيد بدأتها الولايات المتحدة ولكنها لا تستطيع أن تنهيها وفى نفس الوقت أخذت الحرب على الإرهاب شكل تصادم مع عالم الإسلام ككل.

من ناحية أخرى فإن مستشارى بوش الابن للشئون السياسية الداخلية انتهزوا هذه اللحظة لرفع الهجوم الإرهابى إلى إعلان عن تكريس الرئيس كقائد أعلى يمنح سلطات تنفيذية قوية، وبمخاطبة الوطنية الغاضبة للجمهور فى الوقت الذى أشاعوا فيه الخوف والارتياب فى الآخرين، سوف تولد فوائد سياسية وقد جاءت انتخابات عام ٢٠٠٤ لكى تؤيدهم، وهكذا أصبحت الحرب التى لا نهاية لها على الإرهاب أداة سياسية داخلية مثلما هى أداة للسياسة الخارجية، أما وزير خارجية بوش كولين باول فعلنيا كان غامضا، و كان أكثر المتحدثين دفاعا عن الحرب فى العراق مجادلا بأنها ضرورة يمليها التهديد الذى تفرضه أسلحة الدمار الشامل لدى العراق. ولكنه على المستوى الشخصى كان يعرب عن تحفظات عميقة حول مقدمات ونتائج الطريق الذى يعتزم الرئيس الشروع فيه، ولا يمكن للمرء إلا أن يتساءل ماذا كان يمكن أن يحدث إذا ما كان بدلا من أن يعرب عن آرائه مع كتاب ومعلقين قد اختار أن يتخذ موقفا علنيا حول مسألة لها مثل هذه المركزية للمصالح القومية.

كذلك من الصعب تفادى النتيجة أنه فى لحظة ما فى عام ٢٠٠٢ فإن مجلس الأمن القومى قد توقف عن أن يمارس دوره التقليدى فى الفحص الدقيق وتقييم تدفق المعلومات الاستخبارية إلى الرئيس، كذلك فإن التقييمات البديلة والمتشككة قد توقفت عن أن تصل للرئيس. وهكذا ظهر توافق واقعى فى صالح العمل العسكرى مع بداية عام ٢٠٠٢، ومع يونيو كان نائب الرئيس يشرح فوائد إزاحة صدام حسين بالقوة «فالمعتدلون فى المنطقة سوف يتجرأون، وسوف تتقدم قدرتنا على دفع العملية السلمية بين الفلسطينيين والإسرائيليين». وعبر السنوات الثلاث أو الأربع القادمة فإن الهوس على مستوى عال بالعراق قد غطى على كل قضية خارجية واجهتها أمريكا.

ومع عام ٢٠٠٦ كان واضحا أن تكاليف الحرب قد تعدت الإنجاز الإيجابى الوحيد الذى حققته وهو الإطاحة بصدام حسين، وهذه التكاليف تتحدث عن نفسها وأصبحت مألوفة. فهى أولا قد سببت ضررا فاجعا لوضع أمريكا العالمى وتصدعت مصداقية أمريكا العالمية، كما قوضت عدم الثقة فى شرعية أمريكا العالمية وهى المصدر الرئيسى للقوة اللينةSoft Power للأمة؛ وما هو أكثر أهمية من كل شىء فقد أساءت إلى قيادة أمريكا العالمية ولم تعد أمريكا قادرة على أن تجمع العالم حول قضيتها ولا على أن تسود بشكل حاسم



باستخدام القوة. وقد قسمت حلفاءها ووحدت أعداءها وخلقت فرصا لخصومها ومن يتمنون لها الشر. وتحول عالم الإسلام إلى كراهية مريرة، وانحسر الاحترام لأمريكا كدولة بشكل كبير، في الوقت الذي تعرضت فيه قدرة أمريكا على القيادة بضرر بالغ. وثانيا: كانت الحرب على العراق كارثة جيوبولوتيكية، فقد حولت الموارد والاهتمامات عن الإرهاب، وتلى النجاح الأولى للحرب في أفغانستان بإعادة بعث طالبان وخلفت بذلك ملاجئ جديدة للقاعدة، وقد تطور الاتجاه في الصومال، وظل الاستقرار السياسي في باكستان موضع شك حيث استغلت العناصر الأكثر تطرفا في البلد علاقة النظام الوثيقة مع الولايات المتحدة.

أما عن الخسارة المادية للحرب فقد كانت ترتفع بشكل ثابت، ففي الوقت الذي كان فيه عدد الموتى الأمريكيين يقترب من ٣٠٠٠ وقرابة ٢٠,٠٠٠ من المشوهين يسجلون، فإن عدد القتلى من العراقيين ظل غير محصى بشكل متعمد، فمن الواضح أن يبلغ عشرات الآلاف بالإضافة إلى الجرحى وحيث يلوم أقاربهم أمريكا على ذلك.

ويمكن تقدير التكاليف المالية بشيء من الدقة وهذه وفقا لدراسات الكونجرس تعدت ٣٠٠ بليون، أما التكاليف غير المباشرة فهي أعلى بعدة مرات، وبالتالي فإن معاني ذلك بالنسبة للقوة العسكرية الأمريكية وصحتها الاقتصادية من الواضح أنها معاكسة. وعلى عكس توقعات نائب الرئيس فقد شاعت المشاعر المعادية لأمريكا في الشرق الأوسط واكتسبت القوى الراديكالية السياسية جاذبية شعبية وهددت النظم الصديقة للولايات المتحدة، وأزاح تدمير العراق الدولة العربية الوحيدة القادرة على الوقوف في وجه إيران مفيدة بذلك أكثر خصوم أمريكا حماسا في المنطقة، وباعتبارات جيوبولتيكية كانت الحرب هزيمة أنزلتها أمريكا على نفسها وكسبا خالصا لإيران. وثالثا: فإن الهجوم على العراق قد زاد من التهديد الإرهابي للولايات المتحدة، فالحرب على الإرهاب، وحيث ليس هناك عدو محدد بوضوح ولكنه يحمل معاني معادية للإسلام، وحدت الرأي العام الإسلامي نحو عداء متزايد نحو أمريكا وبذلك خلق تربة خصبة لتجنيد أعداد إرهابية جديدة تحمل خصومة دينية لغير المؤمنين وهذا بدوره زاد من الصعوبة أمام المعتدلين المسلمين لمحاربة الخلايا الإرهابية لتجميع شعوبهم ضد المشاعر السياسية والدينية المتطرفة.

وعلى عكس ما يردده بوش نفسه فإن انتشار العداء لأمريكا لم يكن لأن المسلمين في المنطقة «يكرهون الحرية» ولكن لأن الذكريات التاريخية جعلتهم يكرهون التوافق المتزايد بين القوة الأمريكية في المنطقة بالماضي الاستعماري القديم والسياسات الإسرائيلية في الوقت الحاضر. ومما ضاعف من معضلات الحرب التي شنتها إدارة تفتقر إلى المنظور التاريخي هو التوافق السيكولوجي بل والعيني للسلوك الأمريكي مع السلوك الإسرائيلي. وقد أثارت مشاهد السلوك الأمريكي ضد السكان العراقيين الخائفين والمعصوبي الأعين نفس مشاهد السلوك الإسرائيلي ضد الفلسطينيين.

وقد كان الطابع غير التاريخي للمغامرة الأمريكية قد أبرز حدود الاستراتيجية التي تعتمد في المقام الأول على القوة. وهذا المفهوم الذي بشر به الاستراتيجيون الذين وجهوا السياسة البريطانية في المنطقة، ورد الفعل الإسرائيلي للعداء العربي، ومما كان مميزا للحالات الثلاث الاعتقاد بأن العرب لا يحترمون إلا القوة وينظرون إلى أي استعداد للمساومة كعلامة على الضعف، وهكذا فإن القوة العسكرية الساحقة قد وضعت مرارا باعتبارها الأداة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها لحل الصراعات وفرض حلول دائمة.

ويعتبر برجنسكي أن المشكلة بالنسبة لأمريكا هي أنه رغم أن قوتها لا تقارن بأي دولة أو مجموعة دينية في المنطقة فإنها لا تستطيع لأسباب داخلية أن تعبأ على نطاق كاف بفرض إرادتها بالقوة عبر الشرق الأوسط وما وراءه. وباختصار، عند برجينسكي، فإن الولايات المتحدة تواجه على نطاق أوسع كثيرا نفس المعضلة التي تواجهها إسرائيل فيما يتعلق بجيرانها العرب: فكلا الجانبين يفتقر إلى الوسائل لفرض حله الدائم المنفرد الذي يمليه بشكل كامل تحديده الخاص لأهدافه ومصالحه. ويستخلص أن مثل هذه المفاهيم الخاطئة التي تتبناها الولايات المتحدة بما فيها فرض الديمقراطية يجب أن تجعل الولايات المتحدة تفكر بشكل جاد حول النتائج الطويلة الأجل لتورط عسكري أمريكي في The Global Balkans، فما حدث بالفعل في العراق والمعضلات المتزايدة التي تواجهها إسرائيل كنتيجة لسوء الاعتماد على أفكار متشابهة في التعامل مع الجيران إنما يقدم مؤشرا لنوع الصعاب التي يمكن أن تهدد وضع أمريكا العالمي.

ولهذا فإنه من الأمور العاجلة أن تتوقف أمريكا عن أن ترى «الجبهة المركزية» باعتبارها نوعا من الرسالة التاريخية وإن تبدأ في أن تراها كدرس تستمد منه تغييرات أساسية في أسلوبها في التعامل مع الشرق الأوسط، ويخلص إلى أن الحرب على العراق في كل مظاهرها وبالطريقة التي تقررت بها داخليا وروجت خارجيا وأديرت بها قد تحولت إلى كارثة، الأمر الذي وصم رئاسة بوش باعتبارها فشلا تاريخيا.

ويعود برجنسكي إلى التركيز على السياسات الأمريكية والإسرائيلية في الشرق الأوسط فيعتبر أنه مع عام ٢٠٠٦ كان يجب أن يكون واضحا لإدارة بوش أنه لا الولايات المتحدة أو إسرائيل وحدهما أو معا لديهما القوة على سحق وإعادة تنظيم الشرق الأوسط بشكل يتفق تماما مع تصورها، فالمنطقة واسعة جدا وشعبها أقل استعدادا لأن يخاف وأكثر قابلية للاستثارة بالكراهية والغضب واليأس، وأعداد متزايدة على استعداد لأن تندرج في مقاومة مركزة أو إرهاب بلا عقل، وكلما كان رد الفعل الأمريكي والإسرائيلي بتوسيع نطاق ومستوى العنف المضاد، كلما كان من الممكن أن يستدرجا في حرب طويلة ومتسعة.

ويستخلص برجنسكي أن تصرفات أمريكا السيئة التوجيه تحمل أخطارا طويلة الأجل: إن الولايات المتحدة سوف تخسر فيما بعد كل أصدقائها العرب وعلى هذا تفقد القدرة على التأثير في اتجاهاتهم وبالتالي فإنه مع كل الغايات والأهداف فإن الولايات المتحدة سوف تطرد سياسيا من الشرق الأوسط وأن إسرائيل سوف تندرج في حروب غير متكافئة بشكل ينفي مزاياها التكنولوجية والعسكرية وكنتيجة لذلك تصبح إسرائيل فيما بعد في خطر مميت.

عكس بوش الأب، نظر كلينتون للشئون الخارجية كاستمرار للسياسة الداخلية بوسائل أخرى، وقد أثرت هذه النظرة في طريقة صنع القرارات وكيف اختيرت الشخصيات الرئيسية لفريقه

أما فيما يتعلق بسياسة الإدارة تجاه إيران فإن الحظر الذي فرضته إدارة بوش على نفسها فيما يتعلق بالتعامل الجاد مع طهران هو الذي دفع لرفض اختبار إيراني عام ٢٠٠٣ وبعد وقت قصير من سقوط بغداد حول إمكانية حوار واسع يتضمن كلا من الأمن والقضايا الاقتصادية بما فيها مشكلة الضمانات النووية بل وحتى حل الدولتين للصراع العربي الإسرائيلي. مثل هذا الاختبار كان قد سبقه في نهاية عام ٢٠٠١ جهود إيرانية مساعدة تثير الدهشة لدعم الحكومة في أفغانستان بعد أن أطاحت الولايات المتحدة بنظام طالبان. وقد كان التأثير الخالص لهذه السياسة القائمة على الحصار هو دعم العناصر الأصولية في النظام الإيراني في الوقت الذي تقدمت فيه إيران بثبات وخلسة لاتباع برنامجها النووي. وقد تكررت نفس هذه المعضلة في التعامل مع البرنامج النووي لكوريا الشمالية. فمع بداية عام ٢٠٠٤ وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة من خلال الضغوط الإقليمية لكي تغير موقفها بشكل هام حيث لم تبد كل من روسيا والصين استعدادا لاتباع الولايات المتحدة في سياسة الحصار الدولي لكوريا الشمالية، وهكذا أصبح من الواضح أن الجهد الإقليمي المتعدد الأطراف هو الذي له فرصة النجاح في دفع كوريا الشمالية للوصول إلى حل مقبول. وقد كانت اللجنة السداسية التي بدأت رسميا عام ٢٠٠٤ متضمنة الولايات المتحدة والصين واليابان وروسيا وكوريا الجنوبية. اعترافا كبيرا أن أمن الشرق الأقصى يتطلب نوعا ما من المعمار الدولي.

ويستخلص برجنسكي من استعراضه للخمسة عشر عاما التي انفردت بها الولايات المتحدة أن القوة العسكرية الأمريكية عام ٢٠٠٦ قد تكون أكبر مما كانت عليه عام ١٩٩١، إلا أن قدرة أمريكا على تعبئة وإلهام والتوجه نحو اتجاه مشترك وبشكل تستطيع فيه أن تصوغ الواقع الدولي. هذه القدرة انحدرت إلى حد بعيد، وبعد خمسة عشر عاما من تنصيبها كقائد عالمي، فإن أمريكا أصبحت مصدرا للخوف وديمقراطية وحيدة في عالم معاد سياسيا. ■

صعود أوباما



عبد الرءوف الريدى

> **صعد هذا الشاب الأسمر النحيل باراك أوباما على خشبة المسرح وسط عاصفة من التصفيق التى تلقاها من حضور واقف على قدميه تحية له**

■■ فى أجواء السباق المحموم الجارى الآن فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، والتى ستتصاعد طوال عام ٢٠٠٨ لتصبح أشبه ما تكون بالسيرك القومى الذى تجتمع فيه فنون المسرح الأمريكى، مع رقص على الأسلاك واللعب مع الحيوانات وسط موسيقى الروك الصاخبة وصولاً إلى يوم الإدلاء بالأصوات فى نوفمبر ٢٠٠٨ .

قادتنى الظروف أخيرا إلى حضور حفل أقيم فى أحد مسارح برودواى الشهيرة من أجل دعم المرشح الأمريكى ذى الأصول الأفريقية باراك أوباما... والذى انطلق كالصاروخ فى سماء السياسة الأمريكية منذ أقل من عامين. حينئذ لم يكن أحد يعرفه خارج ولاية إلينوى التى يمثلها الآن فى مجلس الشيوخ. ومنذ أعلن أوباما عن اعتزامه الترشح لرئاسة الولايات المتحدة قبل أقل من عام مضى، أصبحت حملته الانتخابية تكتسب زخما يوما بعد يوم. وأصبح هو التالى فى الترتيب مباشرة لهيلارى كلينتون زوجة الرئيس السابق كلينتون وصاحبة أعلى الأصوات فى استطلاعات الرأى العام للحصول على ترشيح الحزب الديموقراطى.

وباراك أوباما هو هذا الشاب الأسمر الذى جاء أبوه من كينيا فى شرق أفريقيا فى بعثة دراسية بالولايات المتحدة أخذته إلى جزر هاواى حيث التقى بأمريكية بيضاء وتزوجها وكان باراك هو نتاج هذا الزواج. لم يمكث الأب كثيرا فى أمريكا حيث عاد إلى كينيا تاركاً ابنه الصغير فى رعاية أمه وجدته. كان باراك آنذاك طفلاً صغيراً، وباستثناء فترة قصيرة قضاها مع أمه فى أندونيسيا، كانت تربية باراك فى أغلبها على يد أمه وجده فى جزر هاواى.. حتى أتيحت له الفرصة بسبب تفوقه الدراسى أن يحصل على منحة لدراسة القانون فى كلية الحقوق بجامعة هارفارد. وهناك كانت بداية تألقه عندما انتخب رئيسا لتحرير المجلة القانونية لجامعة هارفارد Harvard Law Review وهو ما أهله بعد ذلك للالتحاق بواحدة من أهم المهن فى الحياة الأمريكية وهى المحاماة. إلا أن العمل العام سرعان ما استهوى أوباما فذهب إلى شيكاغو... معقل أمريكا السوداء... ليعمل كمسئول اجتماعى وسط الأحياء الفقيرة السوداء فى المدينة... وهناك بدأ فى تكوين قاعدته السياسية التى دعمته ليصبح بعد ذلك عضوا فى المجلس التشريعى للولاية ثم عضواً بمجلس الشيوخ عن ولاية الينوى فى الكونجرس الأمريكى عام ٢٠٠٢ وهو مازال فى بداية الأربعينيات من العمر...

وفى واحدة من أهم وأول المعارك التى واجهها فى مجلس الشيوخ كان مشروع القرار الذى تقدم به الرئيس الحالى بوش لتفويضه بشن الحرب على العراق... وبينما صوت الجمهوريون إلى جانب رئيسهم ولم يجرؤ عدد كبير من الديمقراطيين على معارضة التيار الجارف الذى كان مؤيداً آنذاك للحرب.. كان أوباما السناتور الحديث ضمن الأقلية التى صوتت ضد هذا القرار، وأصبح هذا التصويت اليوم واحدا من أهم البراهين التى تُقدمها حملته على شجاعته وعلى حكمه الصائب فى مسائل الحرب والسلام... فى الوقت الذى صوت فيه منافساه الرئيسيان هيلارى كلينتون وجون إدوارد فى صالح قرار الحرب وكل منهما عضو قديم فى مجلس الشيوخ.

أخذت مقعدى بين أكثر من ألف فى مقاعد أحد مسارح برودواى الشهيرة، وكان الحضور بطبيعة الحال من أنصار أوباما والمعجبين به وغيرهم ممن تستهويهم متابعة الانتخابات الأمريكية، وسارت وقائع الحفل حسب البرنامج المعد... فقرات راقصة وفقرات غناء تماما كما هو الحال فى المسرح الموسيقى الأمريكى... ثم جاءت الفقرة الختامية عندما صعد على المسرح صبى صغير وقال «أيها السيدات والسادة... أقدم لكم الآن الرئيس المقبل للولايات المتحدة... باراك أوباما» وصعد هذا الشاب الأسمر النحيل باراك أوباما على خشبة المسرح وسط عاصفة من التصفيق التى تلقاها من حضور واقف على قدميه تحية له، واستمر التصفيق لعدة دقائق بينما يقف أوباما على المسرح ممسكاً الميكروفون المتنقل ويتحدث عن الأسباب التى دعته للترشح... وما الذى يأمل فى تحقيقه إذا انتخب رئيسا للولايات المتحدة... كما أخذ يرد على الدعايات المضادة له، إلى الذين قالوا أنه لا يملك الخبرة الكافية ليكون رئيسا... تساءل أوباما عن أى نوع من أنواع الخبرة يريدونها... أهى خبرة أناس مثل نائب الرئيس الأمريكى تشينى ووزير الدفاع السابق رامسفيلد وكلاهما يملك خبرة طويلة فى أجهزة الحكم فى واشنطن. ومع ذلك كانا من أهم من أدخل أمريكا فى مأزق الحرب فى العراق، ويستطرد للقول إن أمريكا لا تحتاج إلى هذا النوع من الخبرة... إنها تحتاج إلى نوع جديد من القيادة وخبرة جديدة ورؤى جديدة... ثم أشار إلى خبرته لمدة واحد وعشرين عاما فى العمل مع الناس فى أحياء شيكاغو الفقيرة وفى تدريس القانون الدستورى فى جامعات شيكاغو وفى تمثيل شعبه فى مجلس تشريعى الولاية ثم تمثيلها على المستوى القومى فى مجلس الشيوخ بالكونجرس الأمريكى... أما عن أولوياته إذا فاز بالمنصب فسيكون على رأسها إخراج الولايات المتحدة من مستنقع العراق، وسيكون أسلوبه فى العلاقات مع دول العالم قائما على التفاوض والحوار، ولن يرفض التحدث والتفاوض مع أية دولة... فهو من المؤمنين بما سبق أن قاله جون كيندى عن أن أمريكا لا ينبغى أن تخشى التفاوض مع أية دولة.

أما فى الداخل فسيكون على رأس

أولوياته سبعة وأربعون مليون أمريكى محرومون حاليا من التأمين الصحى ويجب أن تغطيهم مظلته وأن يحصل الأطفال والشباب الأمريكيون على أفضل تعليم فى العالم، فمن العار على أمريكا أن يكون مستوى التعليم المتاح فيها للعامة غير القادرين، على هذا المستوى الحالى من التخلف بالمقارنة إلى الدول الأخرى.

إن صعود نجم أوباما بهذه السرعة المذهلة إنما هو نتاج حالة الإحباط التى تنتاب الكثير من الأمريكيين من حكم الرئيس بوش ودفعهم إلى البحث عن صوت نقيض لبوش.. ومن هؤلاء ديمقراطيون كبار.. مثل تيودور سورنسون الذى كان المساعد الأول للرئيس كيندى.. وبرجنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر والذى يعمل ابنه مستشاراً لأوباما... وغيرهم كثيرون.

لا يعنى ذلك بطبيعة الحال أن الطريق للبيت الأبيض مفتوح أمام أوباما فأغلب الديمقراطيين يؤيدون هيلارى كلينتون.. وهى تلعب أوراقها بمهارة كبيرة وتستفيد من نصائح وخبرة زوجها الرئيس السابق وهو أحد أكثر الأمريكيين خبرة بالعملية الانتخابية، كما تستفيد من شبكة علاقاته الواسعة.. وفى آخر استطلاع للرأى حصلت هيلارى على ستين فى المائة من الأصوات بينما حصل أوباما على حوالى خمسة وثلاثين.. كما أن حملة هيلارى تكتسب كل يوم أنصاراً جدداً.. إلا أن ذلك لا يعنى أن الأمور قد حُسمت تماماً لصالحها لتفوز بترشيح الحزب الديموقراطى.. فمازال هناك وقت طويل قد تحدث فيه مفاجآت وسيكون الاختبار الأكبر فى الانتخابات التمهيدية بولاية نيوهامشير وأيوا فى الشهور الأولى من عام ٢٠٠٨ . ومع ذلك فسواء فاز أوباما بترشيح الحزب الديمقراطى أم لم يفز به.. وسواء نجح فى الانتخابات أم لم ينجح فى حالة فوزه بالترشيح فهو مازال فى أوائل الأربعينيات من العمر.. ومازال المستقبل أمامه مفتوحاً.

أعود إلى الحديث عن خطاب أوباما فى المسرح ببرودواى، وهو بالمناسبة خطيب ساحر يخاطب العقل وينأى عن الديماجوجية والصياح.. أخذ يتحدث عن أنه يريد أن تستعيد أمريكا أفضل سجاياها.. وأن تستعيد روحها التى فقدتها.. وفى كل ذلك كان وكأنه يعيد فصلا مشرقا من التاريخ الأمريكى.. عندما انعقدت قيادتها لجون كيندى ولقد كان كيندى فى أوائل الستينيات، هو الغائب الحاضر فى هذا اللقاء.

والواقع أن من أفضل ما تقدمه التجربة الأمريكية هو هذا الذى رأيته أمامى فى لقاء أوباما.. ابن مهاجر قادم من أفريقيا يشق طريقه بكفاءته ثم يصبح رئيسا محتملا لهذه البلاد...

وبعد ماذا تعنى بالنسبة لنا هذه الانتخابات القادمة للرئاسة الأمريكية؟ اعتقد انها يجب أن تعنينا.. ويجب أن نقيم قنوات التواصل مع المرشحين بما فيهم أوباما.. الذى أراه شيئا جديدا على الساحة السياسية الأمريكية.. وأنا من المؤمنين بأهمية إقامة علاقات وثيقة مع كل القوى فى أمريكا على رأسها الأمريكيون من أصل أفريقى الذين يشكلون ما يقرب من خمس الشعب الأمريكى.. وأعتقد أن أغلب المرشحين يهمهم أن يسمعوا منا.. وأن يتعرفوا على رؤيتنا.. فلقد أصبح الشرق الأوسط بندا ثابتا على جدول أعمال أمريكا.. تلك كانت لمحة عما يجرى فى الانتخابات التى يجب أن نوليها اهتمامنا.. فما سيقوم به القادم الجديد للبيت الأبيض سيؤثر علينا.. وعلى شعوب هذه المنطقة.. شئنا أم أبينا.

وفى وسط هذه الحملة الصاخبة نرى حملة لا تهدأ تستهدف تصوير الإسلام وكأنه العدو ويقود هذه الحملة مستشارو المرشح الجمهورى جوليانى عمدة نيويورك السابق.

مع ذلك فالرأى العام الغالب يريد أن يعرف الحقائق وواجبنا أن نعمل على إسماع صوتنا.

وسط ذلك أيضاً توجد أصوات شجاعة تقرع الأجراس وتحاول تنبيه الرأى العام الأمريكى لخطورة ما جرى وما يجرى.. ومصر بحكم ما تمثله يجب أن ينتظرها دور كبير فى عام ٢٠٠٨ عام انتخابات رئيس جديد وكونجرس جديد فى الولايات المتحدة.

كتاب الزاوية

ابن العماد الأقفهسى

أخبار نيل مصر

مؤلف مخطوطة أخبار نيل مصر هو شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبدالنبى، أبوالعباس الأقفهسى ثم القاهرى الشافعى، المعروف بابن العماد الأقفهسى، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ/ /١٤٠٦م.

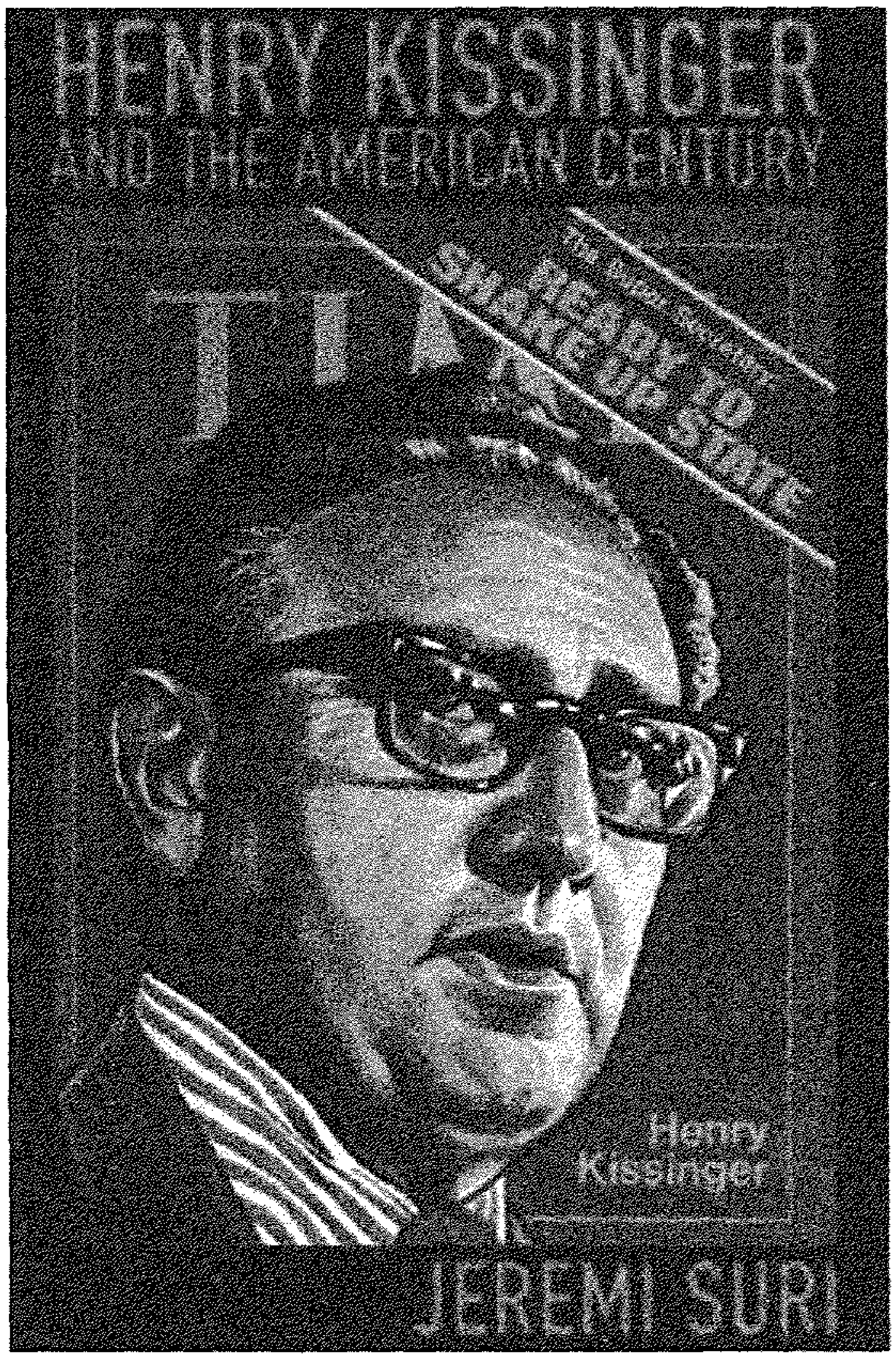
مؤلفاته عديدة، منها: التعقبات على المهمات، شروح المنهاج، أحكام المساجد، أحكام النكاح، آداب الطعام، والإبريز فيما يقدم على موت التجهيز، القول التام فى أحكام المأموم والإمام، موقف المأموم والإمام، شرح العمدة، الأربعين النووية.

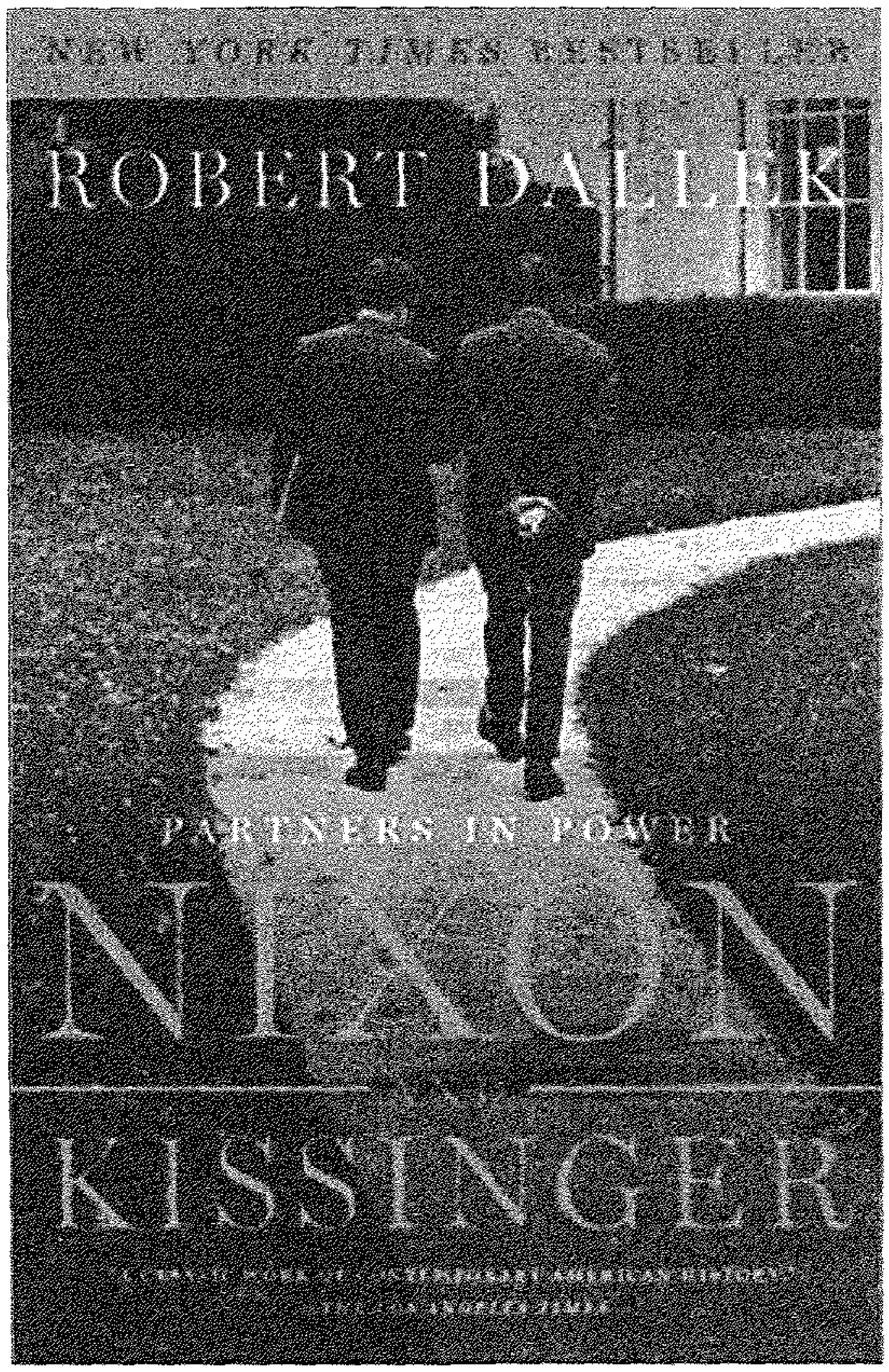
اعتبره معاصروه أحد أئمة الفقهاء الشافعية فى عصرهم - أى العصر المماليكى.

أما مخطوطة أخبار مصر، فترجع أهميتها إلى أن المعلومات التى وردت بها توضح بجلاء أن العلماء المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدى فى ميدان الاستكشاف والتفسير، سواء ما كان متعلقًا بنهر النيل، أو ببعض الظواهر الطبيعية، أو بالآثار القديمة.

كما ترجع أهميتها إلى أن مؤلفها قام بجمع معظم النصوص التى كتبها الجغرافيون والمؤرخون والفقهاء السابقون عن نهر النيل من المصادر المختلفة، وقام بترتيبها ومقارنتها ببعضها البعض، ثم كتبها فى هذه المخطوطة مجتمعة.

وتنشر «وجهات نظر» بعض فصول من المخطوطة التى حققها ووضع حواشيها الدكتورة لبيبة إبراهيم مصطفى والأستاذة نعمات عباس محمد وصدرت عن دار الكتب والوثائق القومية بمصر عام ٢٠٠٦ .





عـــــودة

جـــريـــج جـــرانـــدن

تقف سياسة هنرى كيسنجر الواقعية بنسبيتها الأخلاقية وإقرارها بحدود القدرة الأمريكية، على طرف نقيض من المسيحية الإنجيلية للمحافظين الجدد التى انطلقت بعد هجمات ١١ سبتمبر. وكان مثال كيسنجر قد استغل طويلا للتقليل من شأن اليمين الجديد. وزير الخارجية «يتكلم مثل تشرتشل» و«يتصرف مثل تشامبرلين»[١]. كما كتب نورمان بودورتز عام ١٩٧٦. وحتى قبل أن يلعن المحافظون كيسنجر لتعامله مع الصين وموسكو، لم تكن لديهم ثقة بشركائه خاصة نيلسون روكفيلر.

Nixon and Kissinger: Partners in Power
(نيكسون وكيسنجر: شركاء فى السلطة)
Robert Dallek
Ailen lane 2007

Henry Kissinger and the American Century
(هنرى كيسنجر والقرن الأمريكى)
Jeremi Suri
Harvard £ 10.95, 368pp

بترتيب مع:
London Review of Books

ترجمة بثينة الناصرى

فى منتصف الستينيات، كان كيسنجر مستشار روكفلر، وحين انضم إلى إدارة نيكسون فى ١٩٦٨ فعل ذلك ليس بصفته أستاذ هارفارد الطموح، ولكن باعتباره وصيا على الجناح الداعى للمعايشة الدولية فى الحزب الجمهورى. وكان رؤساء الشركات أمثال آل روكفلر الذين مولوا الحزب الجمهورى، يعجبون بتمسك نيكسون بمبادئ حزب الشعب الأمريكى المناهضة للشيوعية حين كانت تستخدم ضد العناصر الأكثر راديكالية فى (الصفقة الجديدة)[٢]. ولكنهم كانوا يدركون عدم ثباتها، فهى دمقرطة مهزوزة للسياسة الخارجية أحدثتها الاحتجاجات ضد حرب فيتنام. كانت «المؤسسة» كما كان نيكسون يصف نخبة السياسة الخارجية فى واشنطن، تقر أن أمريكا فى أزمة عميقة، ولكن الحل لم يكن فى تصعيد الحرب الباردة وزيادة متسارعة فى المصروفات العسكرية، كما كان دعاة العسكرة يطالبون. بدلا من ذلك دفعت النخبة باتجاه تطبيع العلاقات الدولية. وهنا دخل كيسنجر على المسرح، وكان قد صنع اسمه من إبداء إعجابه بالسياسى مترنيخ.

شغل كيسنجر مناصب فى إدارتى نيكسون وجيرالد فورد، أولا كمستشار للأمن القومى ثم منذ ١٩٧٣ أصبح وزيرا للخارجية أيضا إضافة لوظيفته. وبصفته مهندس سياسة الانفراج فى العلاقات الدولية، تجنب كيسنجر، بشكل مدروس، النظرية الأخلاقية التى اتسم بها موقف واشنطن فى بدايات الحرب الباردة. بالنسبة له لم يكن الاتحاد السوفيتى شرا وجوديا يحتاج إلى القضاء عليه ولكن دولة شرعية لها مصالح محددة. فى عام ١٩٧٢ ساعد فى رعاية أول معاهدة للحد من الأسلحة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبدأ تطبيع العلاقات مع الصين. قبل عقدين من السنين، رفض جون فوستر دالاس وزير خارجية ايزنهاور آنذاك مصافحة شواين لاى. أما كيسنجر فهو لم يصافحه فقط وإنما رحب به وبالرئيس ماو باعتبارهما رجلى دولة عظيمين. وبدلا من ادعاء الحق بضرورة التدخل الأمريكى فى العالم الشيوعى باسم الحرية، وعد كيسنجر باحترام المخاوف الأمنية لخصومه. وفيما بعد سوف يساعد الانفراج وإعادة النظر فى المقاربة الدولية: الولايات المتحدة الأمريكية على انتزاع نفسها من فيتنام وتأكيد نفوذها فى مجالات تأثيرها، فى حين أن ذلك سوف يسمح للبيت الأبيض أن يلتف حول اليسار المناهض للحرب، داخل الوطن. وقد عبر كيسنجر عن ذلك بقوله: «رفض التفاوض مع الكرملين سوف ينشر فيروس الاحتجاج ضد حرب فيتنام فى كل مناحى السياسة الخارجية الأمريكية وربما فى عمق تحالفاتنا».

كيسنجر الذين شهد فى طفولته انهيار جمهورية فايمار[٣]، تخيل نفسه مدافعا عن الوسط ضد اليسار واليمين. فى ١٩٧١ قال فى تجمع من شركات الساحل الشرقى والأكاديميين الكبار بأن بطء انسحاب الإدارة من فيتنام مقصود به «تحييد» المؤدين للديمقراطى الجنوبى جورج ولاس الذى كان يحاول أن يترشح للرئاسة عام ١٩٧٢. إذا انسحب نيكسون بسرعة كبيرة، كما حذر كيسنجر، فإن

كيسنجر

في ١٩٧٦ حظر فورد على كيسنجر إلقاء خطابات خوفا من هروب الجمهوريين المحافظين إلى ريجان. وهكذا كان احتواء كيسنجر خطوة مهمة في استعادة «الاستقامة» للدبلوماسية الأمريكية

نسبة ١٣٪ التى حصل عليها ولاس فى انتخاب ١٩٦٨ - وكان قد ترشح كمستقل ببطاقة انفصالية وقسم أصوات الجناح اليمينى- قد تتصاعد إلى ٤٠٪. فى نفس الوقت، كان يضغط بانتظام على المحافظين فى كاليفورنيا بقيادة حاكم الولاية رونالد ريجان. وضد اتهاماتهم باسترضاء العدو والخيانة، بالغ كيسنجر فى نجاح حملة القصف على لاوس وكامبوديا. قال «لقد حققنا ماكنا نسعى إليه» ودافع عن نفسه ضد الموظفين الذين استقالوا احتجاجا على غزو كامبوديا عام ١٩٧٠ بالقول لهم: «إننا ننقذكم من اليمين» فردوا عليه: «اليمين هو أنت».

وقد بدت سياسة الانفراج حلا مناسبا للأزمات التى تكاثرت على البلاد. فى ١٩٦٨، مع أول عجز تجارى كبير فى فترة ما بعد الحرب، وهبوط قيمة الدولار وانهيار معيار الذهب وزيادة منافسة أوروبا واليابان والعالم الثالث، بدأ الاقتصاد فى الاهتزاز. واكتسب الانفراج بعدا اقتصاديا إضافة إلى البعد السياسى، وكان بمثابة حبل إنقاذ للقاعدة الصناعية لتحالف الصفقة الجديدة المتهاوى: فمن شأن عدم التصعيد العسكرى أن يحرر الدخل العام للاستثمار الإنتاجى ويقلل من ضغوط التضخم التى كانت ترعب مديرى السندات فى البنوك متعددة الجنسيات. فى حين أن تطبيع العلاقات الدولية سوف يفتح الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية والصين للتجارة والاستثمار.

ولكن التطبيع فشل فى حل أزمة دعاة الكينيزية (ذات علاقة بنظريات جون مانيارد كينيز الاقتصادية والتى تدعو لمزيد من البرامج الاجتماعية المالية للدولة لتوفير فرص العمل واجتذاب الاستثمارات - المترجمة) فالصين كانت حالة ميئوسا منها، فى حين أن اقتصاد أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى كان من الفقر بحيث لا يستطيع استيعاب كميات كافية من الرأسمال الأمريكى، وفى غاية التعقيد والغموض بحيث لا يصلح لشراكة تجارية مربحة- وهكذا ساعد كل ذلك على تقوية دعاة الحرب الباردة وأعداء الانفراج الآخرين. بعد استقالة نيكسون، وضع ريجان خطته لسرقة الترشيح الجمهورى لعام ١٩٧٦ من جيرالد فورد. هاجم كيسنجر للتفريط بالمصالح الأمريكية فى قناة بناما وخيانة الأصدقاء فى جنوب أفريقيا وتايوان. فى نفس الوقت، انضم دونالد رامسفيلد وكان وزير دفاع فورد فى ذلك الوقت وديك تشينى وكان رئيس موظفى البيت الأبيض بجهودهما لعرقلة كيسنجر وتخريب معاهدة سولت جديدة مع روسيا (يقصد الاتحاد السوفيتى - المترجمة). حشر تشينى «بند الأخلاق» فى الخطاب الجمهورى، رافضا «التنازلات غير اللازمة» المتضمنة فى «الاتفاقيات السرية» مع السوفييت داعيا لسياسة خارجية دافعها، ليس سياسات القوة وإنما «الإيمان بحقوق الإنسان وحكم القانون وبإرشاد من الرب». فى ١٩٧٦ حظر فورد على كيسنجر إلقاء خطابات حول السياسة الخارجية فى كاليفورنيا خوفا من أن يسرع ذلك بهروب الجمهوريين المحافظين إلى ريجان. وهكذا كان احتواء كيسنجر خطوة أولى مهمة فى استعادة «الاستقامة» (ترجمتنا لكلمة righteousness وتعنى أن كل أفعال أمريكا لا تصدر عن شر- المترجمة) فى الدبلوماسية الأمريكية وهى استعادة أكملها «وضوح أخلاقى» حدد رد فعل جورج بوش على هجمات ١١ سبتمبر.

ولكن كانت ثمة عقدة صغيرة فى هذه القصة وهى تكمن فى كيسنجر نفسه الذى لم يكن يرغب فى النأى بنفسه عن دائرة النفوذ السياسى. فى خريف ٢٠٠٢، فى الوقت الذى كانت فيه إدارة بوش تقرع طبول الحرب على العراق، حذر كيسنجر بأنه من الضرورى بناء تحالف دولى، ثم أسرع بالمصادقة على الغزو، بل ربطه بالحملة لهزيمة القاعدة. وقد شهد أمام لجنة فى مجلس الشيوخ بأن الهدفين كانا «متصلين اتصالا شديدا حتى لا يمكن الفصل بينهما و.. محاولة فصلهما سوف تجعل من الصعب تحقيق أى منهما. الحرب ضد الإرهاب سوف تستغرق سنوات عديدة. التعامل مع أسلحة الدمار الشامل فى العراق لا يمكن أن ينتظر». وحتى فى الوقت الذى كان فيه نقاد الحرب يركزون غضبهم على اليعقوبيين الجدد مثل بول وولفولتز وجماعته، كانت يد مترنيخ العجوز كما قال الصحفى بوب وودوارد. تمارس «تأثيرا قويا وإن كان خفيا» على سياسة بوش تجاه العراق، كان يلتقى بانتظام مع الرئيس وتشينى. ينفض مذكراته العتيقة من عهد حرب فيتنام لحث الإدارة على البقاء فى نفس المسار: «سحب القوات الأمريكية سوف يكون مثل الفول السودانى المملح للشعب الأمريكى: كلما زاد عدد القوات الامريكية التى تصل إلى الوطن، كلما طالب الشعب بالمزيد منها. وسوف ينتهى هذا بالضرورة إلى مطالبات بانسحاب من جانب واحد».

من المغرى أن نفسر عودة كيسنجر إما باعتبارها مؤشرا على عودة بوش إلى الواقعية بعد أن تكسرت مثاليته على صخرة الواقع الجيوبوليتيكى أو أنها نموذج لـ «غرائز رجل البلاط» التى اشتهر بها كيسنجر، كما وصف والتر ازاكسون ذات مرة، نزعته لقول ما يريد الذين فى السلطة أن يسمعوه من أجل حصوله، ليس على النفوذ ولكن الإيحاء بالنفوذ. فنصائح الرجل العجوز مطلوبة لأنها تصلح أن تكون غطاء لقرارات اتخذت مسبقا.

هناك بعض الحقيقة فى كلا التفسيرين، ولكن مع هذا فإن واقعية كيسنجر ومثالية المحافظين الجدد تتنافسان على نزوات دبلوماسية بقدر ما تساهمان بالتبادل على تجذر الغرور. فلم يكن هناك فرق بين مصادقة كيسنجر الخفية على القتل والتعذيب اللذين نفذهما حلفاء الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وجنوب شرق آسيا، أو كلام وليام كريستول المعسول حول فوائد تغيير الأنظمة بالقوة فى الشرق الأوسط: كلاهما يفعلان ذلك باسم أهداف نبيلة (القانون والحرية والديمقراطية). هناك تماثل فى التكتيكات والأسلوب أيضا: تشكك كيسنجر فى الاخرين، وتحايله ورفضه إظهار أى نوع من الندم، كانت سوابق سلوك سار على خطاها بوش ومن وراءه. وإذا كنتم تعتقدون بأن تهديد إدارة بوش باستخدام أسلحة نووية تكتيكية تؤشر على تغير جذرى من ماض عقلانى، فمن المفيد ان نذكركم بأن كيسنجر لم يدع فقط لمثل هذه الاستراتيجية فى كتاباته الأكاديمية المبكرة وإنما قام بنفسه بوضع الولايات المتحدة فى حالة طوارئ نووية املا أن يرهب السوفييت للاعتقاد بأن نيكسون كان (مجنونا) بما فيه الكفاية ليبدأ حربا درية.

وقد يكون ريجان قد شكك فى مؤهلاته المناهضة للشيوعية ولكن كيسنجر استطاع أن يكيف نفسه بسرعة لليمين الجديد. «إننا نتطلع الآن جميعا إلى رونالد ريجان لضمان تحقيق آمالنا» قال مخاطبا حشدا فى احتفال الترشيح لعام ١٩٨٠. وقد تسبب ذلك فى احتقار جماهيرى له، أقل قليلا مما حظى به جيمى كارتر. وقد شغل منصب مستشار غير رسمى للبيت الأبيض خلال الثمانينيات. وكان رئيس لجنة الحزبين التى صادقت على حروب ريجان الدموية فى أمريكا الوسطى. ومرة أخرى، هل يمكن أن نعزو عودته إلى اليمين إلى شخصيته الحربائية المتقلبة؟ ربما يكون هذا التعبير دقيقا، ولكنه لا يكفى لتفسير هذه التصرف. فقد كان تحوله جزءا من نقلة أكبر لمؤسسات ما بعد الحرب التى ساندت سابقا سياسة الانفراج - مثل مؤسسة بروكنجز واللجنة الثلاثية ومجلس العلاقات الخارجية والتى كان فيها كيسنجر ولايزال عضوا بارزا - والآن تتصالح مع ثورة ريجان وتسمع لبعض النقد على هامش أجندتها المحلية والخارجية وهى: تمزيق دولة الرفاهية، زيادة المصروفات العسكرية وتصعيد الحرب الباردة. حتى نلسون روكفيلر لحق بالركب قبل أن يفوته القطار، باعثا مندوبا إلى مؤتمر الحزب الجمهورى لعام ١٩٨٠ من أجل تهدئة المعارضة فى أوساط الجمهوريين الليبراليين فى خطاب حزبى، لو كان قد ألقى قبل أربع سنوات فقط لاعتبر متطرفا.

إذا تأملنا الأحداث الماضية، كانت إدارة نيكسون انتقالية تؤشر التحول من سياسة الصفقة الجديدة متعددة الجوانب، إلى عسكرية وأخلاقية واستباقية اليمين الجديد. كيسنجر بدوره، كان مفكرا انتقاليا، وهذا هو السبب أن واقعيته سالت بتدفق فى المثالية التى بررت تدمير العراق.

أحد الجوانب المهمة فى السياسة الانتقالية هو

معرفة كيفية التعامل مع الرصد والمراقبة والمعارضة الجماهيرية. في السنوات القليلة التي سبقت تنصيب نيكسون، تضافرت كل أعمدة المجتمع المؤسساتية التي تمنح شرعية للحكومة - الصحافة والجامعات وصناعات السينما والفن والكنائس والمحاكم للوقوف ضد الانتقالية مما خلق مايعتبره المحافظون الجدد «ثقافة معادية» متخندقة. أما كيسنجر فقد اعتبرها شفافية حكومية مفرطة أتاحت للمواطن أو الصحفي أن يركز على وقائع منعزلة في حين يتجاهل الصورة الجيوبوليتيكية الأكبر. وقد هتف مرة «لقد أصبح أداء السياسة الخارجية مستحيلاً في ظل هذه الظروف» وكان ذلك حين واجهه صحفي حاملاً وثائق تشير إلى أن نائب الرئيس جيرالد فورد أعطى لسوهارتو الضوء الأخضر لغزو تيمور الشرقية عام ١٩٧٥، مما نتج عنه وفاة ٢٠٠ ألف شخص.

بلغت مناورات نيكسون وكيسنجر لتفادي المساءلة - وعمليات تنصتهم واقتحام المنازل ليلاً ومطاردة المعارضين - مبلغا أسطوريا وتعزى غالباً إلى ضعف في الشخصية وإلى بارانويا وعنجهية. ولكن روبرت داليك في كتابه (نيكسون وكيسنجر: شركاء في السلطة) يموضع تحايلهم ضمن تحول أوسع لدبلوماسية لا يتبين فيها الخيط الذي يفصل السياسة الخارجية عن الداخلية.

بدون أية إشارة إلى ضرورات الدفاع القومي. في قضايا الشرق الأوسط، كما يكتب داليك «كانت السياسات الداخلية لها الأولوية» فقد أراد نيكسون أن يضغط على إسرائيل لتتخلى عن برنامجها النووي، ولكنه سرعان ما تراجع خوفا من خسران الأصوات المؤيدة لإسرائيل في الكونجرس. كان نيكسون «يرى في محادثات سولت قيمة سياسية أكثر منها أمنية. في حين أبلغ كيسنجر الرئيس بأن سياسة الانفراج سوف «تكسر ظهر هذا الجيل من القادة الديمقراطيين» أجابه نيكسون «هذا صحيح. علينا أن نحطم ثقة الشعب بالمؤسسة الأمريكية».

كان تداخل السياسة الخارجية مع الداخلية يتم- على الأغلب - بسبب فيتنام، كانت الإدارة في حاجة إلى الخروج من فيتنام وإيقاف استنزاف قوتها في العالم وفي الوطن، ومن أجل أن تحقق ذلك عمل نيكسون وكيسنجر على استقرار العلاقات مع الصين والاتحاد السوفيتي، حتى يستطيع كل منهما أن يجند خصمه الشيوعي للضغط على فيتنام الشمالية وتحييد مطالبات الشعب الأمريكي لإحلال السلام، ولكنهما مع ذلك شعرا بأنهما مجبران على توسيع الحرب إلى كمبوديا ولاوس من أجل إجبار هانوي على الموافقة على تسوية تحترم سيادة سايغون، وبهذا تتاح الفرصة للبيت الأبيض للحفاظ على «مصداقيته» مع الحلفاء واسترضاء يمين ثائر. في ١٩٧٠ كتب كيسنجر إلى نيكسون: «يجب أن نصعد أو نخسر الرئاسة».

وكان الرئيس قد بدأ يشكك في كفاءة حملة القصف ولكن كيسنجر أصر على أن «رجة» قوية يمكن أن تكسر الجمود في باريس حيث كان المفاوضون الفيتناميون الشماليون يرفضون التزحزح عن موقفهم. وكان من رأي كيسنجر أيضا أن التصعيد قد ينهي الجمود السياسي في الوطن. كان يقول: «احتياطي الأصوات الداعمة في البلاد موجود على اليمين». وكان أحمق في اعتقاده بأنه يستطيع أن يلعب بين اليمين واليسار. لم يكن وسيطا وإنما كان مسهلاً للأمور، يمهد الأرضية لثورة ريجان، الذي حقق ما لم يستطع كيسنجر تحقيقه من إنهاء أزمات السبعينيات. لا عن طريق العنف السري المغلف بالحديث عن «التعاون المتبادل»، ولكن عن طريق العسكرية الصريحة المشربة بإحساس الاستقامة الأمريكية.

لقد أصبحت الأساليب التي استخدمها نيكسون وكيسنجر من أجل عرقلة المراقبة الديمقراطية للسياسة الخارجية، نهج الإدارات الأمريكية منذ ذلك الحين، واستخدمت مؤخرا للتشكيك بالنقاد ولنشر معلومات مضللة حول غزو العراق. في نفس الوقت، استمر تحلل الخط الفاصل بين السياسة الخارجية والداخلية. لم يحدث في التاريخ الأمريكي أن كانت حظوظ السياسة الداخلية للتحالف الحاكم تعتمد هذا الاعتماد الكلي على السياسة الخارجية كما يحدث في نهج الحزب الجمهوري هذا اليوم، وهو يستخدم ذريعة الأمن القومي و«الحرب على الإرهاب» ليوصل ما تفرقه الاختلافات في أوساط دوائرهم الانتخابية المتنافسة وبين المحافظين الجدد واليمين المتدين، مثلا، أو الليبراليين الاجتماعيين والمحاربين الثقافيين.

ولكن مع ذلك هناك فرق مهم وحيد، احتفاظ كيسنجر بسلطته رغم كل شيء.

في السبعينيات كان على نيكسون وكيسنجر إلقاء الكثير من الخطب حول السلام ونزع السلاح، ليس من أجل إسكات مناهضي الحروب فحسب ولكن أيضا لإرضاء «المؤسسة» التي كان يشتكي منها نيكسون وإليها كان كيسنجر يبعث تقاريره. اليوم، الوسيلة الوحيدة التي يمكن للجمهوريين أن يأملوا في كسب الانتخابات الرئاسية القادمة هي بالتعهد ليس بسياسة التعايش وإنما بالحرب الدائمة.

من الصعب أن يتفق كيسنجر كما قدمه المؤلف داليك - غيورا، متملقا، منافقا، ووصوليا - مع ذلك الكيسنجر الذي قدمه جيرمي سوري في كتابه (هنري كيسنجر والقرن الأمريكي).

في كتاب داليك، لا نرى مفاوضا عظيما ولكن ساذجا يستغله نظراؤه الروسيون والفيتناميون والصينيون الأكثر دهاء. لم يكن عسيرا على ممثلي هانوي إلى محادثات السلام في باريس، أن يكتشفوا بسرعة، فرحة كيسنجر الطفولية في المشاركة في العالم النادر للدبلوماسية الكوزموبوليتانية واستغلوا ذلك لجر المناقشات إلى صالحهم، حتى اشتكى نيكسون قائلا: «من الواضح أنه لا يستطيع أن يفاوض». كما أن كيسنجر كان يذعن لمعاداة نيكسون للسامية، بإبعاد موظفيه اليهود عن اجتماعات البيت الأبيض، وكان يثور غضبا لأي إهانة يتخيلها. وكتب هالدمان في يومياته «يصر هنري على الهرولة إلى الرئيس وإخباره أننا على وشك أن نشتبك في حرب في الشرق الأوسط». والرئيس يسأله ماذا يريد أن يفعل حول هذا الموضوع. ولم يكن لديه أية أفكار سوى رغبته في الهيمنة. المشكلة الحقيقية في هنري أنه يتحمس كثيرا حول هذا الأمر».

كتاب داليك شامل ومفصل ويعتمد بشكل كبير على النصوص التي أفرج عنها مؤخرا لمحادثات هاتفية كان كيسنجر قد سجلها سرا، إضافة إلى شرائط نيكسون التي أتيحت للجمهور حديثا، ومذكرات البيت الأبيض وأوراق ويوميات ايتش آر هالدمان، كبير موظفي نيكسون واليكساندر هيج، نائب كيسنجر في مجلس الأمن القومي. ويصعب على المرء - في أكثر من سبعمائة صفحة - أن يعثر على مبادرة سياسية خارجية واحدة لم تستغل لمكسب داخلي: سواء إسكات المعارضة أو الانتصار على المنافسين أو إظهار نيكسون بمظهر «رجل الموقف والحكمة»، استعدادا لإعادة انتخابه في ١٩٧٢. وعلى سبيل المثال، لم يكن للضغط المبكر لبناء نظام دفاعي صاروخي ضد الصواريخ البالستية، علاقة بالقوة السوفيتية بقدر علاقته بتأكيد هيمنة نيكسون على السياسة الخارجية في مواجهته مع الكونجرس. وبمساعدة كيسنجر، كسب الرئيس المعركة بتضخيم الخطر السوفيتي، ثم تباهى في مذكرة نصر حول «أسلوب نيكسون» بالتعامل مع الكونجرس حتى

في خريف ٢٠٠٢، في الوقت الذي كانت فيه إدارة بوش تقرع طبول الحرب على العراق، حذر كيسنجر بأنه من الضروري بناء تحالف دولي، ثم أسرع بالمصادقة على الغزو



كيسنجر في كتاب سوري، على العكس من ذلك، «رجل دولة بطل» و«رجل قوي العاطفة يسعى لفعل الخير في العالم باتخاذ خيارات صعبة» و«دخل عالم السياسة لأسباب أخلاقية». وما يراه داليك انتهازية يعتبرها سوري «مرونة». وكتاب سوري أقصر بكثير من كتاب داليك ولكنه أكثر طموحا، وأفضل ما يقال عنه

إنه رد فعل على كتاب «محاكمة هنرى كيسنجر» المثير للجدل والذى صدر عام ٢٠٠١ لمؤلفه كريستوفر هتتشنز الذى يرى ضرورة محاكمة كيسنجر لجرائم ضد الإنسانية.

على الضد من ذلك، يصور سورى بطله كرجل دولة لايخلو من الأخطاء ولكنه رجل شريف «ارتكب أخطاء كثيرة فى ظروف عصيبة». ويأتى ذكر لاوس على الهامش وينتقد كيسنجر بسبب «قصور خياله» خاصة فى شيلى وفيتنام. ولكن سورى لا يذكر دعم كيسنجر لغزو تيمور الشرقية، أو تجاهله جريمة قتل نصف مليون بنغالى فى بنجلادش أواخر ١٩٧١ التى ارتكبتها باكستان الغربية، حليف واشنطن والصين، وعدم رغبته فى أن تفسد هذه الجريمة رحلته التى صنعت مجده إلى بكين، أوتمويله متمردى رينامو فى موزمبيق، أو دوره فى تدمير كمبوديا، الذى ساعد فى تولى الخمير الحمر السلطة. يكتب سورى «آلاف من الناس قتلوا بسبب قرارات كيسنجر» مقللا من الرقم الذى قد يصل إلى أكثر من مليون. ويؤكد أكثر من مرة أن كيسنجر «لم يكن مجرم حرب».

ويطالب سورى أن تفسر افعال كيسنجر فى الإطار التاريخى لتساعدنا على فهم سبب ارتكاب «رجال ونساء أخيار أعمالاً سيئة». وهو اقتراح لا يناسب من يتصدى لكتابة التاريخ. ويجادل سورى بأن التجارب التى عاشها كيسنجر - مثل مشاهدة انهيار الديمقراطية الألمانية وصعود النازية، ويهوديته ووضعه كمهاجر فى المجتمع الأمريكى - هى التى شكلت فلسفته الدبلوماسية خاصة انعدام ثقته بديمقراطية الجماهير. ويركز سورى بحق على «الثورة الكونية فى أواخر الستينيات» كحد فاصل فى العلاقات الدولية وهو أمر كان يمكن لكيسنجر أن يستغله لصالحه. ولكن بدلا من استغلال هذه الثورة فى الاقتصاد والسياسة فى ذلك الوقت، يصفها سورى بكلمات مماثلة لتلك التى يستخدمها بطل كتابه، باعتبارها انهياراً عاماً للسلطة. يكتب قائلاً: «عانت التقاليد الاجتماعية والثقافية من هجوم منسق. الخوف من فوضى عالمية حلت محل التسليم بوجود نظام دولى» أما القادة السياسيون فقد «نالهم الضرر». يتماهى الكاتب مع بطل كتابه حتى يكون من الصعب القول متى ينتهى تفسير سورى لرؤية كيسنجر للعالم ومتى يبدأ تحليله هو فهو يكتب مثلا «مثل الديمقراطيات عشية الحرب العالمية الثانية، أصبح مواطنو المجتمع الدولى ضعفاء ومقسومين وجبناء».

هاجمت جين كيركباتريك سفيرة ريجان للأمم المتحدة، ذات مرة، إدارة كارتر لتفسير أحداث العالم بمصطلحات عامة، باعتبارها ناتجة عن «مسارات» و«قوى». وقالت إن هذا يعكس بلاهة تحليلية وضياعاً أخلاقياً. ولكن موظفى كارتر لايعترضون الآن ضد سورى الذى يحثنا على «فهم تجربة هنرى كيسنجر والقوة الامريكية كمسارات للعولمة - ترجمة الأفكار والشخصيات والمؤسسات من مجتمعات متنوعة» ويقول «ظل كيسنجر ورجال الدولة الآخرون خاضعين لقوى ثورية أكبر لم يستطيعوا كبحها».

فى نظر سورى كانت مسيرة كيسنجر العملية، مثل القرن الأمريكى ككل، «تتوضح تدريجيا بالفعل الماضى». وكلاهما «تأثرا بعمق وأحيانا تشوها - بفعل عوامل خارجية. بضمنها الصراعات العسكرية البعيدة عن أمريكا الشمالية، وانهيار المجتمعات الأجنبية، وظهور أنظمة عنيفة. كان القرن الأمريكى رد فعل على التحولات الدولية». وهذا المصطلح الأخير يتكرر مثل أحجية مما يجعل التاريخ بلا معنى: «كان القرن الأمريكى رد فعل على التحولات الدولية. كان قرناً كونياً».

ويجادل سورى بحرارة بأن التزام كيسنجر لإعادة إحياء القوة الأمريكية كان مثالياً: ويقتبس من كيسنجر قوله بأن كل ما فعله كان دفاعاً عن أمريكا «لمثاليتها وإنسانيتها واحتضانها لآمال البشرية». ويقول سورى عن كيسنجر «كان يدافع عن حلمه الأمريكى فى فيتنام». ومع ذلك فلأن سورى يملك فهما فجا للسياسة فهو يعمى عن رؤية الطريقة التى أوصلت بها أسباب كيسنجر «الأخلاقية»، واحتقاره للمراقبة الديمقراطية ورغبته فى تنفيذ أى جريمة لتوسيع المصالح الأمريكية، المؤسسة الدبلوماسية الأمريكية إلى المحافظين الجدد.

فى نهاية كتابه يقدم مقارنة بين رد فعل بوش على أحداث سبتمبر و«مقاربة كيسنجر الأكثر حذرا والأقل ديمقراطية للسلطة» والتى تجعل المرء يتساءل: كيف أن قيام كيسنجر بالقصف السرى لبلدين، ناهيك عن وضع الجيش الأمريكى فى حالة إنذار نووى، يمكن أن يسمى مقاربة حذرة أو كيف أن «مقاربة بوش للسلطة» يمكن وصفها بالديمقراطية.

لايعتبر داليك ناقداً راديكالياً للسياسة الخارجية الأمريكية، وعلى الأرجح يصلح كتابه هدية بمناسبة أعياد الكريسماس أكثر مما يصلح للمناقشة فى ندوة. ومع ذلك فهو يؤسس تاريخه على أفعال أناس حقيقيين مما يسمح له أن يزن نتائج تلك الأفعال. بخلاف سورى الذى نال الكثير من الثناء لإضافته المنظور «العابر للأوطان» إلى التاريخ الدبلوماسى، فهو يحاول بطموح أكبر تقييم معنى «القرن الأمريكى». ويناشدنا أن نتأمل امتلاء حياة كيسنجر، ومع ذلك فهو يرسمه بكلمات تفتقر إلى الوضوح، بل إنه ينحو إلى التعميم ومن الناحية التاريخية يخلو كتابه أحيانا من المنطق فهو يكتب «لكل صماته المميزة. كيسنجر واحد منا».

يغسل جيرمى سورى جرائم كيسنجر - وبالتالى جرائم «القرن الأمريكى» - فى حمام من التفاهة فهو يقول «لم يسع كيسنجر لرسم بحر جديد لرحلة حياته. لقد أبحر مع التيار، يغير اتجاه السفينة بمهارة ليصطاد الرياح فى أشرعته».

حين طلب سورى من كيسنجر، فى حوار لكتابه، الإعلان عن «مبادئه الأخلاقية القوية - المبادئ التى لا يمكنه أن يتخطاها» قال كيسنجر إنه «غير مستعد للإعلان عن ذلك الآن». ويعتبر سورى هذا دليلا على صراع كيسنجر مع ضميره، مع حقيقة أن «النوايا الحسنة دائما تأتى بنتائج سيئة». ولكن كيسنجر كان قد أجاب على سؤال مشابه فى عام ١٩٧١. سأله صحفى: ما هو الخط الذى إذا تم تجاوزه، قدم كيسنجر استقالته؟ وكانت لحظة مواتية لهذا السؤال حيث كان نيكسون وكيسنجر - خوفاً من احتمال عدم التمكن من الخروج من فيتنام قبل انتخابات ١٩٧٢ - قد بدأ فى قصف لاوس مرة أخرى، كجزء من حملة متقطعة ألقت فيها الولايات المتحدة ملايين الأطنان من النابالم والفوسفور الأبيض والمتفجرات القوية وقتلت مئات الألوف من اللاويين. أجاب كيسنجر بأنه سوف يستقيل إذا «أصبح اتجاه السياسة برمته مقيتاً أخلاقياً بالنسبة لى» ولكنه لم يرغب فى انتقاد نيكسون «إلا إذا نصبت أفران غاز أو ارتكبت فظائع أخلاقية شنيعة». إن فشله بعد عقود من ذلك من تذكر حتى هذا الجواب المثير للجدل ليس دليلاً على صراع أخلاقى ولكنه دليل على صمت رجل مسئول عن ارتكاب أكبر الفظائع المبررة باسم الأمن القومى.

بلغت مناورات نيكسون وكيسنجر لتفادى المساءلة - وعمليات تنصتهم واقتحام المنازل ليلاً ومطاردة المعارضين - مبلغاً أسطورياً وتعزى غالباً إلى ضعف فى الشخصية وإلى بارانويا وعنجهية



هوامش المترجمة

(١) ونستون تشرتشل رئيس وزراء بريطانيا لمرتين. فى مايو ١٩٤٠ خلف رئيس الوزراء تشامبرلين وقاد بريطانيا إلى النصر ضد قوات المحور. وكان مشهوراً بخطبه البليغة التى كانت ملهمة لقوات الحلفاء. وبعكسه كان ارثر نيفيل تشامبلرين سياسياً محافظاً رأس الوزارة من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٠ الذى تميز بسياسة ترضية ادولف هتلر والحكومة النازية بتوقيعه اتفاق ميونخ عام ١٩٣٨.

(٢) الصفقة الجديدة New Deal هو عنوان عدة برامج اجتماعية واقتصادية نفذها الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت بين عامى ١٩٣٣ و١٩٣٨ بهدف دعم الشعب والاقتصاد خلال فترة الكساد الكبرى. وتعتبر نقلة فى السياسة الأمريكية الهادفة إلى رفع دعم الدولة وتشجيع القطاع الخاص. وكان من نتائج هذه البرامج: سيطرة الدولة على الاقتصاد والنقد، والتدخل للسيطرة على الأسعار والإنتاج الزراعى، وتشجيع الاتحادات والنقابات المهنية.

(٣) جمهورية فايمار هى اختراع المؤرخين فليس هناك مثل هذه التسمية، بل كان الاسم الرسمى هو (ألمانيا). وقد تأسست فى فبراير ١٩١٩ فى ألمانيا المهزومة واستمرت حتى مارس ١٩٣٣ حين استبدلت ديمقراطيتها بالرايخ الثالث وصعود هتلر.

الديمقراطية..

طاهر حمدي كنعان

لا تبدأ الديمقراطية بدون ديمقراطيين بل بحملة قيم وثقافة تبدأ بسيادة وحقوق الشعب وبالعدالة كحالة من المساواة ورفض الامتيازات الحصرية لفئات معينة على الأقل

«الكتاب» العظيم.. يعظّم فائض المنتفع

من مفاهيم علم الاقتصاد اللصيقة بمنطق هذا العلم، والتى لا تنفك تثير الإعجاب كلما تأملها المرء عند الحالات التى تستدعيها، هو مفهوم «فائض المنتفع» أو «فائض المستهلك» consumer's surplus الذى يسجل فى بعض قراءاته الفرق بين قيمة المنفعة التى يحصل عليها المستهلك أو المنتفع بمنتج معين والتى تعادل تكلفة المال والوقت والجهد المطلوب لإنجاز هذا المنتج، وبين الثمن الفعلى الذى يدفعه المنتفع للحصول عليه. الذى ينشئ هذا الفرق أو «الفائض» هو وجود عدد كبير من المستهلكين أو المنتفعين بالمنتج مما يمكن من توزيع تلك التكلفة على ذلك العدد الكبير بحيث يستطيع كل واحد منهم أن يحصل على المنتج مقابل ثمن تافه يعظّم بدرجة جد كبيرة قيمة «فائض الانتفاع» لدى كل واحد منهم. ومن الأمثلة على الحالات التى تستدعى التأمل فى ذلك المفهوم حالة الكتاب الذى يخطه عالم أو مفكر عظيم يضع فيه عصارة علمه وتجربته باذلاً أياماً وليالى من الجهد فى البحث وتقليب الأفكار لاستخلاص أفضلها لكى يعهد به إلى الصحائف الورقية. وفى الأزمنة المبكرة من نشأة الحضارة كان الحصول على مثل ذلك النتاج يقتضى من المنتفع أن يبذل مالاً طائلاً لمنتجه سواء كان فيلسوفاً أو مفكراً أو أديباً أو فناناً لكى يحفزه للإنتاج أو ليكافئه عليه، وفى هذه الحالة لا يحصل هذا المنتفع الأول على أى فائض. لكن بعد تدوين ذلك النتاج فى كتاب قابل للاستنساخ وسماح راعيه الأول باستنساخه، يصبح المنتفع التالى الذى يحصل على نسخة ثانوية من الكتاب متمتعاً بفائض يعادل الفرق بين التكلفة الأصلية للمنتج وتكلفة استنساخ النسخة الواحدة. وحين كان الاستنساخ يدوياً يقتضى جهداً غير قليل من الكاتب المحترف الذى يتوخى الدقة ويتمتع بالخط الجميل، فإن «فائض الانتفاع» وإن كان ضخماً بالقياس إلى ما تكلفه المنتفع الأصلى، إلا أنه زهيد جداً بالقياس إلى الفائض الذى أضحى يتمتع به المنتفع فى زماننا الراهن حين يستطيع أن يحصل مقابل ثمن بخس دراهم (أو دنانير أو دولارات) معدودة على أفضل إنتاج لأعظم المفكرين أو الأدباء أو الفنانين، (بل وفى عهد الإنترنت مقابل لاشىء سوى تكلفة الربط بالعنكبوت العالمى العريض «ع ع ع» أو "www" (world wide web)!!

إن إدراكى لذلك المفهوم المركزى فى علم الاقتصاد (وإعجابى المستمر به) أنشأ عندى عادة معاملة النتاج الفكرى أو الأدبى أو الفنى (من كتاب أو قرص إلكترونى أو تنزيل download من الإنترنت) بكثير من الاحترام. فإذا خطر لى أو طلب منى التعليق على أى منتج جدى فى الفكر أو الفن أو نقده، فإنى أفعل ذلك بمنتهى التهيب والشعور بجسامة «فائض المنتفع» الذى يمثله ذلك المنتج، ولذلك لا أسمح لنفسى بالتعليق أو النقد إلا بعد الاستيعاب المتأنى والدقيق لمضمون ما أنا بصدد نقده أو التعليق عليه.

وحين استلمت نسختى من كتاب عزمى بشارة الجديد «فى المسألة العربية، مقدمة لبيان ديمقراطى عربى»، شرعت فى قراءته بكل عناية واهتمام، ليس فقط لضخامة «فائض المنتفع» الذى يهدينا إياه مفكر عربى بمستوى عزمى بشارة، ولكن أيضاً لنيتى المسبقة أن أقوم بمهمة كتابة مراجعة له، كون منشأ الكتاب كان محاضرة شرفنى الكاتب بتقديمها فى عمان فى خريف ٢٠٠٥ ضمن فعاليات «المركز الأردنى لأبحاث وحوار السياسات» فى موضوع «تحديات الانتقال إلى الديمقراطية». وكان وقعها على كل من سمعها غاية فى التأثير، ورأيت فيها مقومات تضعها فى مستوى البيان التاريخى أو «المانيفستو» فيما يخص مقاربة الديمقراطية من منظور قومى عربى. ولذلك حين قام المركز بنشر نص المحاضرة المفرغ من التسجيل الصوتى (كونها كانت حديثاً مرسلاً من رؤوس أقلام وليس من نص مكتوب) وجدت من المناسب أن أضيف إلى عنوانها الأصلى «تحديات الانتقال إلى الديمقراطية».. التكملة اللائقة «.. مقدمة للبيان الديمقراطى العربى». وحين استجاب عزمى بشارة لأهمية تطوير أفكارها المحورية إلى كتاب كامل فى «المسألة العربية» سرنى بأنه لم يتخل عن تلك التكملة للعنوان وإن أدخل عليها قدراً من التواضع فجعلها «مقدمة» وليس «المقدمة»!

يقدم الكتاب عدداً من الأطروحات الفكرية التى تسعى إلى التحديد النظرى الدقيق لعدد من المفاهيم التى يلتبس فهمها عند الكثيرين من المفكرين السياسيين ومن الحركات السياسية المتأثرة بذلك الالتباس والمعرضة بذلك إلى التيه فى تجارب سياسية غير مجدية. ولما كان هذا الجهد الفكرى بطبيعة أهدافه نظرياً وتجريدياً، فإن نصوصه تقتضى قدراً غير قليل من التأنى والصبر فى القراءة لاستيعاب مراميها.

ظاهرة الديمقراطية

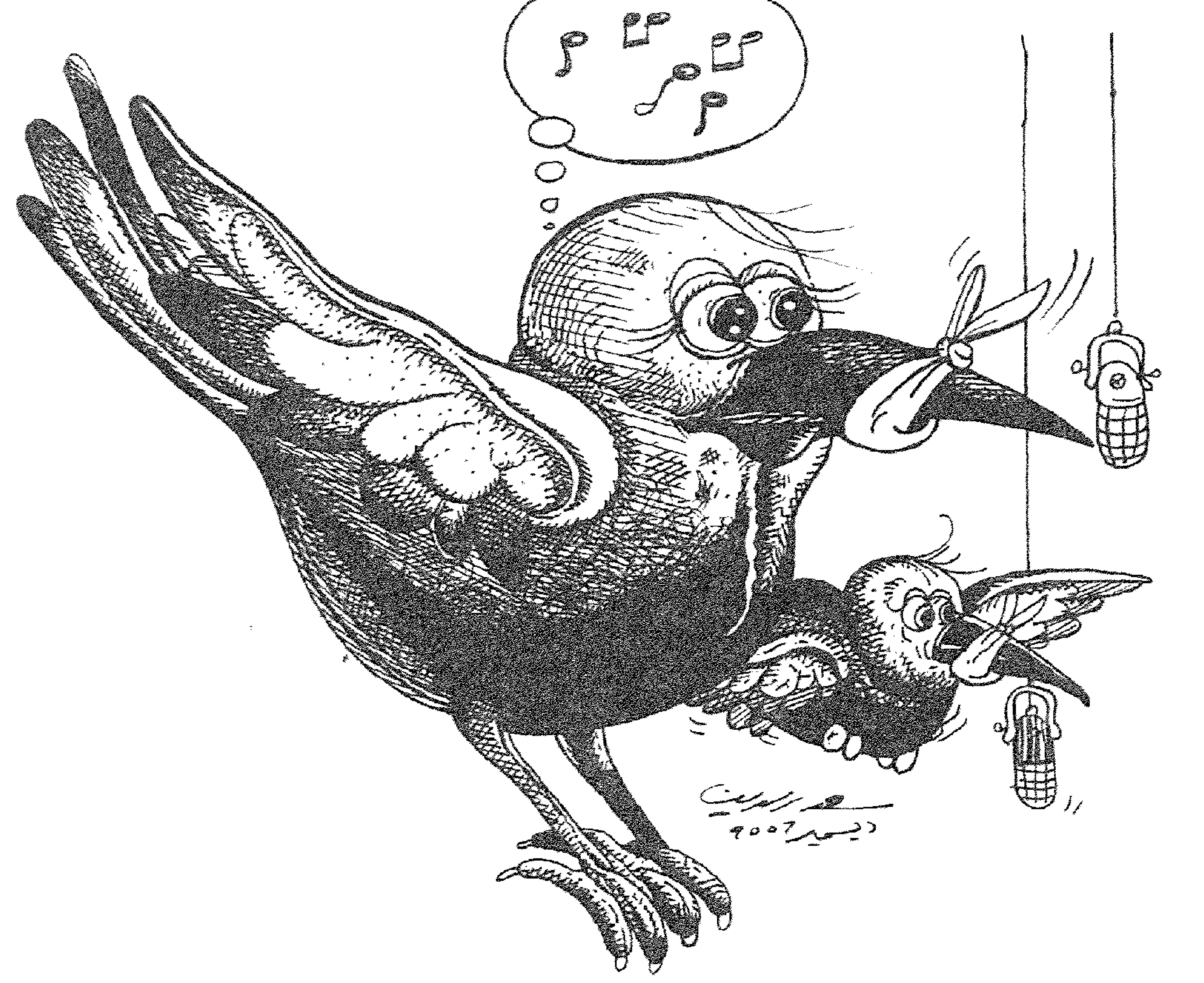
الأطروحة المحورية فى الكتاب هى التمييز بين الديمقراطية كما نشأت تاريخياً نتاجاً لعملية إنضاج طويلة لهذه الظاهرة الاجتماعية التى نشاهدها فى عصرنا وقد اكتملت صورتها المؤسسية المحددة وأضحت قادرة على استدامة ذاتها وظائف وغايات، وبين المبادرة المستعجلة لتأسيسها أو «إعادة إنتاجها» فى مجتمعات كالمجتمعات العربية على الخلفية التاريخية التى قادت إلى واقعها الراهن وضمن السياق الدولى والمؤثرات الخارجية التى تكتنفها من كل الجهات. هنالك فرق كبير بين الأمرين: نشوء الظاهرة تاريخياً وإعادة إنتاجها آنياً.

ويلفت الكتاب النظر إلى أن الخطأ الذى يقع فيه المهتمون بإنشاء الديمقراطية فى مجتمعاتنا العربية هو استصغارهم شأن تلك العملية التاريخية والتوهم أن الديمقراطية تنشأ بمجرد توفر مقوماتها التى يتم تشخيصها من استقراء خصائص الديمقراطيات الكبرى كالفرنسية أو البريطانية أو الألمانية أو الهندية، غافلين عن أن الديمقراطية التى تأسست تاريخياً فى هذه الدول/الأمم باتت نظاماً يستديم ذاته بعوامل أعمق غوراً من تلك المقومات. والحال هو أن معرفة الشروط المطلوب

الخطأ الذى يقع فيه المهتمون بإنشاء الديمقراطية فى مجتمعاتنا العربية هو استصغارهم شأن تلك العملية التاريخية والتوهم أن الديمقراطية تنشأ بمجرد توفر مقوماتها

فى المسألة العربية
مقدمة لبيان ديمقراطى عربى
عزمى بشارة
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية - ٢٠٠٧

مشـــــروع عـــــربـى!!!



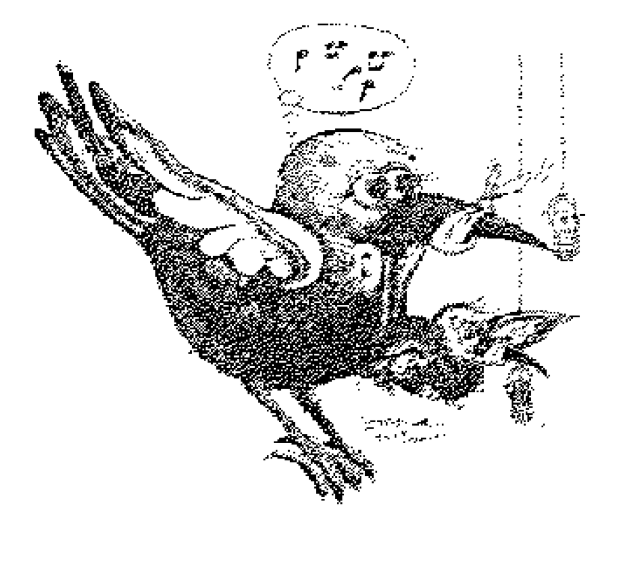
توفرها لتأسيس ديمقراطيات جديدة وتحديد هذه الشروط لا يكون بمجرد تعداد الصفات أو المقوّمات أو العناصر التى ميزت الديمقراطيات التاريخية، والتساؤل عن ورودها أو غيابها فى هذا المجتمع أو ذاك، ومن ثم استنتاج مدى ابتعاد أو اقتراب هذا المجتمع من تأسيس نظام ديمقراطى. إن نظرية نشوء الديمقراطية المبنية على الاستقراء التاريخى قد تستنتج أن العوامل الحاسمة فى نشوء الديمقراطية كانت متماهية مع بعض العناصر التى أصبحت تعرف بعناصر «الحداثة» مثل نمو الطبقة الوسطى الواسعة فى مقابل الإقطاع والإكليروس كما حدث فى فرنسا، ونشوء مفهوم جديد للأمة وارتفاع مستوى التعليم وصعود القومية على أنقاض الانتماءات الأصغر... إلخ.. وفى بعض الحالات ارتبط نشوء الديمقراطية بالصراع بين الكنيسة والنبلاء والملك وتحالفات شتى قامت بالتوازى مع ذلك... إلخ.. ما يجعل الشروط التاريخية لهذا كله لانهائية وغير محددة بحيث لا يمكن استحضارها من جديد، بل يصعب فى ذلك الاستقراء للتاريخ، الاختيار بين ما يعتبر الأسباب الجوهرية لنشوء وتطور الديمقراطية وبين التفاصيل التاريخية اللا نهائية التى سبقت هذا التطور. لكن بعض عناصر الحداثة، وبالذات النزعة الليبرالية، لم تكن أساسية فى نشوء الديمقراطية. وفى هذا الصدد يشير الكاتب إلى أن الأمر احتاج إلى بضعة قرون لكى تلتقى الديمقراطية مع الليبرالية فى الحداثة ذاتها. فالليبراليون المدافعون عن الحريات وحقوق المواطن والسوق الحرة لم يكونوا ديمقراطيين تاريخيا. والديمقراطيون من بداية الثورة الفرنسية غالبا لم يكونوا ليبراليين. وربما من هذه الزاوية يمكن النظر إلى الوراء والقول: «إن الأمر احتاج إلى حربين عالميتين وإلى تحول الاشتراكية دون حريات (الديمقراطيات الشعبية كما وصفت ذاتها) إلى أحد أسوأ أنواع الاستبداد: حتى بدأ الناس بتصور الديمقراطية كنظام ديمقراطى ليبرالى يقوم على حكم الأغلبية بموجب القواعد الديمقراطية الليبرالية بما فيها الرقابة على حكم الأغلبية واستقلال القضاء والحريات وتعميم المواطنة وحقوقها».

يضيف الكاتب: إن نضوج تلك الديمقراطيات التاريخية واستقرارها وصل بها إلى القدرة على استدامة النظام الديمقراطى فيها، وإنجاز هذه الاستدامة دون الحاجة بالضرورة إلى ديمقراطيين ينشغلون بهذه المهمة. لأن الديمقراطية وفى مرحلة استدامة الذات، يمكنها أن تصمد وتتطور بغض النظر عن قيم الشخوص التى تدير دفة الحكم. وتفترض هذه المرحلة - وهى مرحلة استدامة الديمقراطية لذاتها - أن قواعد وأسسا للحكم قد أرسيت، وقد نشأ لها حراس فى القضاء والصحافة والأكاديميا، وهى قادرة على استدامة النظام حتى لو كان من يقف على رأسه (بوش مثلاً) لا يحمل قيماً ديمقراطية كما حملها الديمقراطيون الأوائل، ولا قيما ليبرالية كم حملها الليبراليون غير الديمقراطيين فى القرن التاسع عشر... أو قد يحملها لدوافع لا علاقة لها بالديمقراطية مثل المحافظة على التقاليد والهوية او لغرض الدعاية الانتخابية وغيره، وهذا هو المهم فى حالة وجود نظام ديمقراطى يستديم صناعته لذاته: إن دوافع السياسيين وأهدافهم لا تؤثر على طبيعة النظام وقواعده.

عالمنا العربى الراهن:

لا تستحضر الديمقراطية باستحضار «مقومات»، بل يصنعها مناضلون ديمقراطيون.

فى المقابل، فى رأى مؤلف الكتاب، أنه «لا يمكن تأسيس أو إنشاء نظام ديمقراطى فى مرحلتنا التاريخية المعاصرة دون ديمقراطيين» (تثقيل العبارات وارد فى النص الأصلى!) خاصة أن المطلوب من التأسيس أن يتم دفعة واحدة فلا يعيد عبور المراحل التى قطعتها الديمقراطيات التاريخية. يمكن تخيل دور شخوص وأحزاب غير ديمقراطية فى عملية تطوير الديمقراطية ونشوئها تاريخيا دون أن تدرى ودون وعى منها لطبيعة الدور الذى قامت به. ولكن لا يمكن أن يُبدأ عن سبق الإصرار بتأسيس نظام ديمقراطى فى أى منطقة بما فى ذلك المنطقة العربية دون أن يكون



الديمقراطيون «متورطين فى عملية ذلك التأسيس للديمقراطية فكرا وبرنامجا».

«وفى كل مرحلة من مراحل تاريخ نشوء الديمقراطية والصراع على توسعها وتطورها» يضيف المؤلف، «كان الرعيل الأول من الديمقراطيين يحمل مثلا ديمقراطية، فى سياق عصره ومقارنة بما كان، على الأقل. لا تبدأ الديمقراطية بدون ديمقراطيين بل بحملة قيم وثقافة تبدأ بسيادة وحقوق الشعب وبالعدالة كحالة من المساواة ورفض الامتيازات الحصرية لفئات معينة على الأقل. وكان توق هؤلاء الوطنيين الجمهوريين للاستقلال الوطنى والعدالة حقيقيا. فى حين أن من يطرح استيراد النظام الديمقراطى جاهزا على بارجة إلى البلدان العربية هم نيو-ليبراليون لا يحملون قيم الليبرالية والديمقراطية ولا الحماس لتحقيق ما يرونه عدالة إطلاقاً. ويعتقدون عادة أن هنالك تناقضا بين العدالة والإنصاف والبراجماتية التى رفعت إلى درجة القيمة حينا، أو إلى درجة الترادف مع العقلانية أحيانا. هناك ترويج نيوليبرالى للتناقض بين العدالة والعقلانية، لا يميز مراحل انطلاق التحولات الديمقراطية بل مراحل الانحلال. ويكفى أن نأخذ مثلا نصائح الليبراليين الجدد العرب المتكررة بألف صيغة للشعب الفلسطينى عند كل مفترق بالتخلى عن العدالة والقبول بموازين القوى فيصلا بينهم وبين إسرائيل، والقبول بشروط الأخيرة للتسوية بحجة الواقعية وعدم تفويت الفرص. ليست هذه صفات ومزايا ولا مميزات الثقافة المؤسسة للديمقراطية».

ويبين الكاتب أنه بالرغم من ذلك فإن حلفاء الولايات المتحدة ووكلاء بضاعتها الديمقراطية الجاهزة للتصدير، وبالذات فيما يخص القضية الفلسطينية: لا ينفكون ينصحون شعوب المنطقة بعدم قبول فكرة العدالة أصلاً كمبدأ، وإنما قبول معايير غير حقوقية من نوع موازين القوى وغيرها، وهى نابعة من أفكار وفلسفات قد تعمل فى ظل النظام الديمقراطى ولكنها بحد ذاتها لم تنتج ديمقراطية فى يوم من الأيام. ومن يتخل عن مفاهيم الحق والعدل لا يمكن أن يكون ديمقراطياً حقيقياً. ... «ويجب ألا يخطر فى البال أنه لو وضعنا «جورج بوش» بعقليته الحالية مواطنا أو سياسيا فى بلد ليس فيه ديمقراطية فهو يستطيع أن يقود أو يبدأ أو يساهم فى عملية تأسيس ديمقراطية: هو لن يستطيع ذلك لأنه ليس ديمقراطياً. الديمقراطية تتضمن قيماً أساسية من أهمها الصدق والعدالة. وبوش كسائر «المحافظين الجدد» بعيد أقصى البعد عن الإيمان بهذه القيم».

ويؤكد الكاتب أن الديمقراطية فى حالة مثل حالة البلدان العربية هى - فوق كل شىء وقبل كل شىء - مسألة سياسية نضالية، لا تقدم على صينية من فضة، ولا على دبابة من فولاذ. والأخيرة تؤدى إلى جباية ضحايا من الآخرين، فيبدو الطرف الذى يناضل ويضحى هو الطرف المناهض لـ «الديمقراطية»، ويضيف:

«هنالك طبعا من يرد على هذا الكلام بحجة أمريكية مفادها أن التدخل الأجنبى، والأمريكى تحديدا، حيوى ولا يمكن تجنبه أو الاستغناء عنه فى عملية إنشاء الديمقراطيات فى «دول مستعصية على التحول» لا يمكن أن يسقط فيها النظام من دون تدخل أجنبى. وقد أنشئت مثل هذه النظم بتدخل خارجى، أمريكى تحديدا، بعد «عملية بناء الأمة»... فى اليابان وألمانيا وإيطاليا. ولكن هذا غير صحيح. فقد كانت اليابان وألمانيا وإيطاليا أمما حديثة قبل الاحتلال، وفى مرحلة حداثة متطورة ووحدة وطنية أدت إلى بدايات نظام ديمقراطى. وكان هنالك إصلاح استمر عقودا فى حالة إمبراطورية «ميجى» وتعثر فى العشرينيات من القرن العشرين فى حالة اليابان، وفى ألمانيا كانت جمهورية فايمر، وإيطاليا عاشت تجربة ديمقراطية عقدين قبل مرحلة موسولينى. وعج تاريخ تلك البلاد الحديث بديمقراطيين واشتراكيين كقوى اجتماعية وأحزاب وأفراد أصحاب مشاريع ديمقراطية وتقاليد وقواعد اجتماعية فى المنافى والمعتقلات. لم يخلق تدخل الولايات المتحدة وحكمها العسكرى فى تلك الدول نظاما ديمقراطيا من لا شىء. كما أن تدخل الولايات المتحدة جاء منسجما مع التجانس والوحدة الوطنية فى هذه الدول وليس حليفا لتقسيمها ومعاديا لثوابتها القومية».

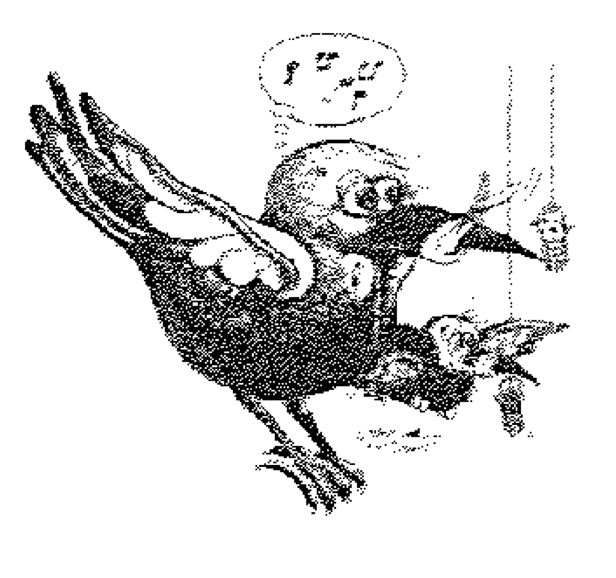
ولقد خصص الكاتب مساحة كبيرة من نصوصه لكى يبرهن على أن التحول الديمقراطى أكثر جدية من أن يعهد به إلى من لا يمكن أن يكونوا ديمقراطيين حقيقيين ما داموا تحت أى عذر يتراخون فى التصدى الفكرى والعملى للمشروع الإمبريالى للمحافظين الجدد فى البيت الأبيض والبنتاجون.

وعاء القومية الديمقراطى

وظف عزمى بشارة ذخيرة فكرية وعلمية ضخمة لفرز المثقفين الذين يدركون أن إضفاء الأولوية القصوى على الديمقراطية وعلى تمكينها من استعادة المبادرة العربية الوطنية والاجتماعية، يقتضى وجود الوعاء الذى يحتويها والإطار الذى تتشكل فيه وهو الـ«نحن» المتخيلة imagined community . إن هذه الـ«نحن» ليست جماعة عضوية بل هى أشمل من ذلك، ولكنها متخيلة بأدوات مثل الطباعة والنشر والدولة والتعليم والتأريخ وكأنها جماعة عضوية. هذه الـ «نحن» ضرورة لازمة لتطوير درجة من التسامح والثقة تمكن من احتواء سوق وطنية، ومن الاختلاف والتنافس، وتمكن من احتواء التنافس على تعريف الخير العام لهذه الجماعة وتنظيمه بشكل سلمى، (هذه أولويات سابقة لكل النظريات حول بنية الديمقراطية مثل الفصل بين السلطات واستقلالية القضاء وغيرها، لأنها الشرط لفعل هذه النظريات). وفى إطار العضوية فى الجماعة السياسية، القومية، ينشأ بداية الحديث عن حقوق المواطن ثم يتوسع، حتى يصبح تعريف المواطنة فى الدولة تعريفا كونياً متجاوزاً للقومية. إن القومية تتحمل فى داخلها النقاش السياسى وتبادل السلطة بالسبل السلمية، والنقاش السياسى يتحول إلى أحزاب، وهذه الأحزاب تحمل وتتحمل الاختلاف فى وجهات النظر السياسية بحيث لا ينفرط المجتمع وينحل إلى طوائف وجماعات أهلية متصارعة متحاربة.. القومية هى إمكانية «نحن» متخيلة تحتوى هذه العملية.

وفى أساس الفكرة القومية عند عزمى بشارة «بناء دولة المواطنة التى تكون ملكاً لجميع مواطنيها دون أى تمييز عرقى أو إثنى أو دينى أو طائفى بين المواطنين سواء فى حقوقهم فيها أو واجباتهم تجاهها...»، ولذلك تتناقض الفكرة القومية أيما تناقض مع التشكيلات القبلية والعشائرية والطائفية والمذهبية التى شكلت زمر «الجماعات العضوية التى تعود فى تكوينها إلى سلسلة تاريخ طويلة، آخر حلقاتها الامبراطورية العثمانية». وكانت الشعوب التى استظلت بهذه «الدولة العلية» بما فيها معظم الشعوب العربية مجرد رعايا للسلطان. وفى غياب حقوق المواطنة بالمفهوم والممارسة الحديثة كان «مرجعية» الفرد للمحافظة على حقوقه والدفاع عن مصالحه هو العائلة أو العشيرة أو الطائفة التى ينتسب إليها، يحتمى بعزوتها أو أموالها فى وجه الوالى أو الانكشارى من منفذى القمع السلطانى. بسبب هذه الخلفية، فإن انتقال الولايات العثمانية سابقاً إلى العصر الحديث وتحولها عبر المرحلة الكولونيالية إلى «دول» مستقلة، فإن أيا منها لم يتحول إلى «دولة أمة» بمفهومها الحديث، بمعنى أن كل من يعيش فى كنفها يرتبط بالدولة ارتباطاً يلغى كل الولاءات العائلية أو العشائرية أو القبلية ويستبدل بها الولاء للوطن. فالقومية العربية قبل مرحلة بناء أمة المواطنين هى حاجة عملية لتوحيد غالبية الشعب حتى فى الدولة القطرية لكى لا ينهار إلى طوائف؛ وهى ليست مجرد «اثنية» مختلقة مركبة بل جامع ثقافى من الدرجة الأولى يقوم على عناصر قائمة غير مختلقة مثل اللغة المشتركة، والتعبيرات المختلفة عن تطلعات سياسية مشتركة لها تاريخ حديث وقديم. حتى بعناصرها الرومانسية ليست القومية العربية مجرد حالة رومانسية بل حاجة عملية ماسة وبراجماتية فى الوصول ليس فقط إلى مجتمع حديث قائم على الانتماء الفردى، بل أيضا لتزويد المواطن بهوية ثقافية جامعة تحيد غالبية الطوائف والعشائر، العربية على الأقل، عن التحكم بانتماء الفرد السياسى.

لذلك يفتح عزمى بشارة الباب على مصراعيه حتى لأقطار من اختراع سايكس بيكو أن تنجز ديمقراطية مستقيمة شريطة أن تنجح مثل هذه الدولة القطرية فى تشكيل أمة مدنية على أساس الانخراط فى مواطنة حقوقية بحيث تكون الدولة/الأمة المدنية، وليس العشيرة أو الطائفة، هى الضمان ضد الاستبداد. بل قد يستغرب بعض القوميين العرب التمييز الذى يقيمه الكاتب بين قومية عربية ثقافية ينتمى إليها غالبية المواطنين فى الدول العربية من جهة، وأمة سياسية قائمة على المواطنة القطرية: هى مجتمع مدنى نحو الداخل وأمة نحو الخارج.



ويمكن أن يستنتج من هذا التمييز تصوّر حالة عربية تنشأ فيها دول قطرية يتشكل مجتمعها على أساس ديمقراطي حقيقي من المواطنين المتساوين فعلاً في الحقوق والواجبات متجاوزين أية روابط عشائرية أو طائفية إلى الولاء الخالص «للوطن». في هذه الحالة قد لا يتم إنجاز دولة- أمة على المستوى العربي الشامل في الأمد القريب، بل قد تنشئ هذه الأقطار مرحلياً بدلاً من ذلك متحداً اقتصادياً ثقافياً أو common wealth كونها تضم شعوباً تجمعها قومية ثقافية مشتركة، وهذه حالة متقدمة جداً قياساً بالواقع العربي الحالي، وقد تكون هي التمهيد المطلوب لأي اتحاد طوعي. لكن الدول العربية القطرية القائمة، مع الأسف الشديد، فشلت في عملية بناء الأمة على أساس المواطنة، أو على الأقل على أساس هوية محلية إثنية متخيلة مثلاً(*).

القومية العربية والإسلام السياسي

بخلاف الفكرة القومية، لا يقدم الدين حلا مرضياً لموضوع «المواطن- الدولة». والكتاب يقدم أعمق تحليل نقدي أعرفه لتسييس الدين ومحاولات تحويل العقيدة الدينية إلى هوية وانتماء أشبه بالقومية. فنشأ الخطر المعاصر أن يخسر العرب العالمين: عالم الدين كوازع أخلاقي وكعقيدة إيمانية حرة، وعالم القومية كخطاب حديث يسعى إلى بناء أمة حديثة. والأمة المواطنية الحديثة هي نحو الداخل: دولة- مجتمع مدني قائم على المواطنة، وهي نحو الخارج: أمة ودولة- قومية.

وإن من نادى بتمييز عقيدي للمسلمين عن سواهم باعتباره أساساً في التميز السياسي للأمة بدل تميز قومي للعرب مسلمين وغير مسلمين، ما لبث أن انتهى إلى هوية دينية للعرب في مقابل هويات قومية. ثم ما لبث هذا التيار أن اعتمد على أغلبية دينية ديموجرافية تبرر هذه الهوية، أغلبية تحسب بالولادة لا بالإيمان الفعلي. وهذا لا يختلف عن الصيغة العنصرية من القومية، أي أن الهوية تحتسب بغض النظر عن الإيمان الفعلي بالعقيدة. وقد كان هذا الإيمان المبرر الوحيد بداية لنسخ مفهوم الأمة الإسلامية القديم كجماعة المؤمنين ضد الجماعة القومية كأساس لتأسيس الأمة الحديثة.

وكما لم تنجح الهويات الوطنية القطرية في استبدال القومية العربية، فهي أيضا لا تستطيع التغلب على الإسلام السياسي المتشرذم طائفياً، لأن الهويات الوطنية هي غالبا أقل شرعية منه، أو لأنها بنيت أصلا على التوازن الطائفي المحلي، أو على سيطرة طائفة من العهد الاستعماري. ولكن الرابطة العروبية فقط هي التي تستطيع شمول السنة والشيعة والمسلمين والمسيحيين العرب. القومية العربية صيرورة مستمرة بالتوازي مع عملية بناء الدولة العربية والهويات المحلية وبتفاعل معها. ولأن الهوية العربية هوية تشمل أغلبية المواطنين لغةً وثقافةً وانتماءً فإنها قادرة أن تقدم حتى في كل دولة على حدة وعاء لتأطير الخلاف السياسي في تيارات ومواقف ومصالح عند الأغلبية ومن خلال احترام حقوق غير العرب المتساوية كمواطنين أفراد وكجماعات لها حقوق.

فمن حق مثل هذه الجماعات بنظر العروبة المنفتحة والإنسانية الحصول على حقوق ثقافية جماعية في حالة تأكيدهم على هوية ثقافية غير عربية موروثة أو حتى مصنوعة.

إن تعريف المسلم في عصرنا ليس المسلم المتدين، بل من يولد مسلما أو يصبح مسلما بمعنى الانتماء الطائفي، وهذه هي الأغلبية المقصودة عندما يتم الحديث عن غالبية إسلامية. وهذه عصبية لا تقل عن عصبية الرابطة القومية التي تغذي للتجييش والتعبئة عند أيديولوجييها. أما إذا كان المقصود بالمسلم كمفهوم عقيدي، فهذا يعني بالتأكيد مساساً بمبدأ المواطنة، وحتى مواطنة المسلمين. ولا شك أن حكم المفهوم هذا بناء على العقيدة يتحول إلى «المسلم المؤمن»، ثم المؤمن بتفسير معين للإسلام، الأمر الذي يقصي من المواطنة المسلمين الذين يعترضون على التفسير الرسمي أو السائد للعقيدة، وهكذا... في هذه الحالة يصبح التمييز الرئيسي موجها ضد المسلمين غير المتكيفين مع التفسير السائد للإسلام.

وكل هذا النهج هو عبارة عن مس بالمواطنة كفكرة، وبالمواطنة المتساوية كممارسة. ومهما أعقب هذا المس من وعظ حول التسامح وعدم جواز الافتراء على غير المسلمين والاعتداء عليهم من منطلق «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» كـ«معاهدين»، أو من الواجب حمايتهم لأنهم في ذمة المسلمين. وأن هذا هو العهد لكي تبقى علاقة «نا» بـ«هم» كعلاقة وصاية (إذا صيغت سلبا) أو حماية (إذا صيغت إيجابا) وهي علاقة بين طرفين وليس بين مواطنين. إضافة إلى ذلك فإنهما طرفان غير متساويين. فهنالك طرف يملك الدولة ويمنح الحقوق أو الحماية أو الوصاية، وطرف آخر متسامح معه.. وهذا مناقض لعملية بناء الأمة الحديثة باتجاه المساواة أمام القانون والديمقراطية وحقوق المواطنة.

ختاماً، يشكل هذا الكتاب أكثر المعالجات الفكرية أصالة «للمسألة العربية» بما هي إشكالية تعثر النهوض المدني والوطني والقومي بسبب غياب «مشروع للتحول الديمقراطي» يناضل من أجله ديمقراطيون حقيقيون، ويتماهى غياب المشروع الديمقراطي هذا مع غياب «مشروع قومي» يوفر الوعاء الذي يجعل دولة المواطنة ممكنة من خلال استبدال الرابطة القومية بكل الروابط التي تقف حواجز بين المواطن والدولة المكرسة لجميع مواطنيها من دون تمييز سواء كانت تلك الروابط ولاءات قبلية أو عشائرية أو دينية أو طائفية أو عرقية أو إثنية أو غيرها من الانتماءات القديمة ذات الخلفيات التاريخية والثقافية، أو كانت ولاءات مستحدثة نتيجة تكتلات المصالح الطبقية والكومبرادورية المرتبطة غالباً بمشروعات دول الهيمنة والاستتباع، والتي تغذي وتتغذى من «رخاوة الدولة» واستشراء الفساد.

بالمعاني التي تستخلص من هذا الكتاب، فإنه لا الديمقراطية ولا القومية العربية ماهيات أو جواهر ذات وجود موضوعي وحتمي كما الظواهر المادية أو الطبيعية الصماء. ولكنها أفعال إرادة و«مشروعات» إنسانية حية يبتدعها الإنسان الحر حين يمارس ما تقتضيه حريته من مسئولية لتجاوز معطيات الواقع المرفوض ولصنع مشروعه. ماهيته الفردية والمجتمعية، عن طريق الانخراط في عملية بناء مجتمعه وأمته واستقبال المقبل من حياته والأيام ملتزماً إنجاز هذه المهمة..

إن تعريف المسلم في عصرنا ليس المسلم المتدين، بل من يولد مسلما أو يصبح مسلما بمعنى الانتماء الطائفي، وهذه هي الأغلبية المقصودة عندما يتم الحديث عن غالبية إسلامية

هامش

(*) لا يتردد أحد المفكرين المرموقين في التنازل بخفة عن «فائض المتنفع» فيتعجل قراءة الكتاب ونقده بما يعكس قصوراً مؤسفاً في فهم الكتاب نصاً وروحاً. فيبدي استنتاجات تعكس همومه الذاتية المشروعة لكنها تتسرع بالظن أن عزمي بشارة لا يشارك هذه الهموم. من ذلك الظن أن الدعوة الديمقراطية في نظر عزمي بشارة «لا تستقيم إلا في إطار أمة ناجزة»، في حين أن ما أوردناه أعلاه يبين عكس ذلك تماماً! كذلك يجنح الناقد إلى فقدان التماسك المنطقي في نقده. فمن جهة هو يقر بأن عزمي بشارة «يتبنى الديمقراطية كما يتبناها الديمقراطيون العرب الآخرون»، وهذا إقرار يشكر عليه. لكنه ينتقد عزمي بشارة لأنه «يأخذ على الديمقراطيين العرب عدم فهمهم أن الديمقراطية لا تصح من دون أمة... وهو لذلك يخاطبهم بصراحة كخصوم ومن دون تمييز». يفهم من هذا أن عزمي بشارة متورط في الخصومة مع جميع الديمقراطيين العرب «دون تمييز» لأنهم لا يفهمون أن الديمقراطية لا تصح بدون أمة، أي بدون اقترانها بالفكرة القومية. ليس هنالك معنى لهذا الكلام سوى أن «جميع» الديمقراطيين العرب «دون تمييز» هم على مذهب الأستاذ الناقد في اعتقاده أن الديمقراطية تصح بدون الوعاء القومي. وإذن فإن الديمقراطي العربي الوحيد والفريد في هذا العالم الذي يحرص على المحتوى الديمقراطي للعروبة والوعاء العروبي للديمقراطية هو عزمي بشارة. «هذا كلام له خبء، معناه ليست لنا عقول» كما يقول المعري!. (انظر برهان غليون، دفاعاً عن الديمقراطية والديمقراطيين العرب، يومية الاتحاد الإماراتية، تصفح ٢٤/١٠/٢٠٠٧).

النمو وحده لا يكفى!



■■ أمسية رمضانية قضيتها فى بلدتى كفر شكر الواقعة فى محافظة القليوبية، وكانت المناسبة لتوزيع الجوائز للفائزين فى إحدى المسابقات التى تعقد فى هذا الشهر لتلاميذ المدارس من حفظة القرآن الكريم. وقد رأى المنظمون ألا تكون الجائزة للفائزين فقط من ذوى السبق فى الحفظ والتجويد، ولكن كل مشارك تكون له أيضا جائزة تحفيزاً وتقديراً.. والجائزة رمزية ومعها ثلاثون من الجنيهات المصرية، وضعت فى مظروف صغير والتقطت صور تذكارية.

وانتهى الحفل البسيط بسعادة ظاهرة على الأطفال.. فمنهم من لم يحصل على جائزة من قبل، ومنهم من لم ير هذا المبلغ البسيط من المال مجتمعا فى يده لعمل قام به.. ومنهم من لا تعنيه الجائزة النقدية بقدر الفوز والاحتفاء.

وكاد يخرج المحتفلون جميعاً، لولا صوت طفلة فى الثامنة أو نحوها يكاد لا يبين بين صخب الخارجين من القاعة، فاستعانت بأحد ذويها يرفعها من الأرض لكى تظهر بين الناس.. فتواجه المنظم بكلمات مستفهمة ببساطة وبراءة: «يا عمو».. «وأنا أين جوابى؟».. تقصد مظروف النقود الصغير، وعن بعد قريب يقف ما يظهر أنهما أبوها وأمها معاً.. يقفان فى حياء وتعفف.. وبوادر من أمل على وجهيهما أن يلبى طلب ابنتهما حتى بعدما انفض الحفل.. فبادرت الطفلة شارحة أنها ذات حق كأقرانها وأنه لا ذنب لها فى سهو المنظمين عن ذكر اسمها.. فما كان من المنظم إلا أن تدارك الأمر سريعا فأتى بمظروف فائض، وأعطاه للطفلة التى أصرت على أن تحظى بصورة تذكارية لكى يكتمل الأمر لها.. كاكتماله فى ظنها لمن سبقها.. وكان من الواضح أنها أشد احتفالاً بالصورة التى التقطت منها بالمظروف الذى أعطته سريعا لأمها التى أمسكت به بتقدير ظاهر لما فيه رغم تواضعه.. وابتسامة تعلو وجهها محدثة زوجها فى همس، ربما فيما يمكن فعله بهذا المبلغ مع إقبال العام الدراسى.. كأن يكمل ثمن حذاء.. أو تشترى به بعض الجوارب متواضعة الثمن.. أو يسدد جانباً من الرسوم المستحقة للمدرسة الابتدائية والتى تبلغ خمسة وثلاثين جنيها.

إن هذا الحدث ليس فريداً بل يتكرر بصور متباينة فى مناسبات مختلفة وبشهود شتى.. ولكنى اصطحبته معى وأنا أطالع كتاباً صدر منذ شهور عن النمو والتقدم والسياسات المحققة لهما.. وتحديداً فيما يتعلق بالارتباط بين النمو ومكافحة الفقر وتحقيق الغنى.

ألف هذا الكتاب جريجورى كلارك «Gregory Clark»، أستاذ التاريخ والاقتصاد بجامعة كاليفورنيا- ديفيز ورئيس قسم الاقتصاد بها، والمتخصص فى تحليل النمو الاقتصادى طويل الأجل وثروات الأمم، والمتبحر فى دراسة التاريخ الاقتصادى لانجلترا والهند. ذكر المؤلف فى مقدمة كتابه المعنون «وداعاً للهبات[1].. تاريخ اقتصادى مختصر للعالم» Farewell to Alms... A Brief Economic History of The World والذى يقع فى ٤٢٠ صفحة، أن هذا الكتاب حصيلة عشرين عاماً من البحث والتحليل والتحرى والتنقيب، مستعينا بأرشيف من الوثائق التى علاها غبار السنين فى انجلترا، خاصة تلك المتعلقة بمستندات الملكية والحقائق الاقتصادية وتطورها على مدار ٨٠٠ سنة، حفظتها السجلات وطوتها مصونة فى دور حفظ الوثائق التى حماها استقرار فريد تمتعت به انجلترا على مدار ما يقترب من ألفية كاملة من الزمان.

والكتاب قد كتب عن قصد ومحاولة مخلصة من مؤلفه على غرار النهج الذى خط به كتاب «ثروة الأمم» لآدم سميث، وكتاب «رأس المال» لكارل ماركس، على اختلاف منهجيهما وتباين ما استخلص منهما وما أحدثاه من جدل وما ترتب

محمـــــود محيـى الديـن

Farewell to Alms... A Brief Economic History of The World
(وداعاً للهبات.. تاريخ اقتصادى مختصر للعالم)
Gregory Clark
Princeton University Press,
Princeton and Oxford: 2007, 420pp

معظم الناس قد عاشوا عند ذات المستوى
من المعيشة مقاسة بالمكتسبات المادية دون فوارق ظاهرة لمدة تقترب من الألف عام
السابقة على الثورة الصناعية

على اتباع ما فهم أو تصور لما جاء فيهما من رؤى وأفكار فى صياغة السياسات الاقتصادية والاجتماعية.. بل فى تشكيل مجتمعات برمتها.. لا أقول إن هذا الكتاب الجديد سيحدث ذات التأثير الممتد للكتابين العتيدين، ولكنى أقول إن هذا الكتاب مثله مثل كتاب آخر أشار إليه المؤلف تحت عنوان: « مدافع وجراثيم وصلب» «Guns, Germs & Steel» الذى يأخذ هذا «المنهج الكبير» المتسع للباحث فى تطور ثروات وفقر وغنى الأمم وأسبابها وما آلت إليه أحوالها مقارنة بنفسها وبغيرها عبر الوقت.. لا يخلو الكتاب من بعض مفاجآت قد يكون تأثيرها فى جمعها فى كتاب واحد يرصد التاريخ الاقتصادى منذ عام ١٠٠٠ قبل الميلاد حتى عام ٢٠٠٠ من الميلاد ولكن بتحليل أدق منذ عام ١٢٠٠ حتى عام ١٨٠٠ ثم بعمق فى التحليل من عام ١٨٠٠ حتى الزمن الراهن.

وما يخلص إليه الكتاب يمكن تلخيصه فيما يأتى:

❖ إن معظم الناس قد عاشوا عند ذات المستوى من المعيشة مقاسة بالمكتسبات المادية دون فوارق ظاهرة لمدة تقترب من الألف عام السابقة على الثورة الصناعية.

❖ إن الحدث الأكبر فى التاريخ الاقتصادى للعالم هو هذه الثورة الصناعية التى حققت معدلاً فى النمو الاقتصادى يتجاوز عشرة أمثال ما كان عليه هذا النمو قبلها لما لا يقل عن ٣٪ فى العام، منذ القرن الثامن عشر، وذلك فى انجلترا وللبلدان الأخرى التى تحققت فيها أبعاد وآثار ايجابية لهذه الثورة الصناعية بعدها وبمقادير مختلفة.

❖ رغم النمو الهائل فى الاقتصاد العالمى فى القرنين الماضيين فإن الناس فى بلدان كثيرة أسوأ حالا مما كان عليه آباؤهم فى قرون مضت، بما يدحض فكرة الانسياب والتساقط «Trickle Down» التلقائى الشامل لآثار النمو المتحقق فى بلدان الغنى والتقدم إلى بلدان الفقر والتخلف الاقتصادى.

❖ يمكن تفسير الزيادة المتحققة فى النمو الاقتصادى، وبشكل قاطع من وجهة نظر المؤلف، من خلال ما أطلق عليه اكتشاف «المعرفة النافعة» وتوظيفها بكفاءة فى العملية الاقتصادية المحققة للتقدم.

وفى الكتاب نقد شديد لنظريات النمو الاقتصادى لعجزها عن تفسير هذا الاستقرار لمستوى معيشة متدن لفترة طويلة من الزمن اقتربت من آلاف السنين، بما جعل الإنجليز على سبيل المثال فى منتصف القرن الثامن عشر يتطلعون إلى مجرد محاكاة نمط معيشة أهل روما من الناحية المادية فى القرن الأول قبل الميلاد، وينظرون إليه كنموذج يحتذى رغم ما يقرب من ١٨٠٠ عام بين أهل روما وهى فى أوجها، قبل انحدارها، وأهل لندن وهم فى مرحلة بدايات الثورة الصناعية، قبل صعودها، وكل ما كان يرجوه أهل لندن فى مبلغ علمهم وقتها محاكاة لنموذج أهل روما من معيشة على ما ظنوه فيها من ترف فى العيش أصبح محط آمالهم... فإذا بأحفادهم ومن حاكوهم ثم من نافسوهم وتجاوزوهم بفضل تداعيات الثورة الصناعية، وما أحدثته بعدها، يبلغون مصاف فى مستوى المعيشة المادى ما يعبر عنه هذا الشكل البيانى.

ثم ينتقد كلارك نظريات النمو لعجزها عن تفسير هذا التباين الحاد فى النمو بعد الثورة الصناعية عما كان قبلها حيث عاش الناس فى ظل معدلات نمو متدنية، انخفضت فى أحوال كثيرة عن معدل نمو السكان بما أوقع الناس فيما يعرف « بفخ مالثوس» نسبة إلى توماس روبرت مالثوس، صاحب الكتاب الشهير عن السكان الصادر فى عام ١٧٩٨، وهذا هو فخ الفقر الذى يحدث عندما ينمو السكان بمعدل سنوى يزيد عما ينتجونه من سلع وخدمات بما يؤدى إلى تراجع مستوى المعيشة ثم الفقر بعدم القدرة على تلبية الاحتياجات الأساسية.

ويمكن اعتبار أن كتاب كلارك قد ساند وجهة نظر مالثوس فى تفسير أوضاع المعيشة للناس حتى عام ١٨٠٠، وأن الخلاص من فخ الفقر هو توظيف المعارف النافعة فى تحقيق النمو الاقتصادى والتقدم وهو ما لم يدركه مالثوس لأنه لم يشهد آثار الثورة الصناعية التى حققت هذا الانفلات من فخ الفقر، ولا يرى كلارك فى الوقت ذاته وفقاً للمنهج الذى اتبعه من منظور التحليل التاريخى الاقتصادى أن نظريات النمو الاقتصادى المعروفة بمدارسها الثلاث: مدرسة العوامل الخارجية والعوامل المؤسسية، ومدرسة نقاط التوازن المتعددة عبر الزمن، ومدرسة النمو الداخلى.

لم تعط هذه المدارس تفسيراً مقنعاً لأوضاع معيشة الناس قبل الثورة الصناعية أو بعدها. من وجهة نظر كلارك الذى يعول على المعرفة واكتشافها وتطويرها وتوظيفها بمهارة وكفاءة لكى يتحقق النمو والتقدم، وهو ما قد تكون قد اقتربت منه مدرسة النمو الداخلى خاصة فيما يتعلق بموضوع التعلم وأثره على النمو، ولكنها تضيف إليه عناصر أخرى تعتمد على إسهامات المدرستين الأخريين.

ولكن يذكرنا كلارك فى أكثر من موضع فى كتابه بأن وجهة نظره فى تحقيق الطفرات فى النمو الاقتصادى على شاكلة ما حدث إبان الثورة الصناعية وما بعدها على هذا النحو، قد تطلب بيئة مواتية تحققت لإنجلترا ولم تتحقق لسواها فى هذا الوقت لكى تنفلت من فخ الفقر وتودع اقتصادا يعتمد على الإقطاع الزراعى، تنعم به القلة وتعيش الأغلبية فيه على ما قد يمنح لها طوعا أو كرها..

هذه البيئة التى ساندت النهضة والثورة الصناعية تمتعت باستقرار وانعزال عن الفوضى التى كانت تموج بها بلدان أخرى فى أوروبا. حيث سادت فى انجلترا قيم لطبقة متوسطة أخذت فى التعلم، والسعى إلى تطبيق قيم متوازنة للعمل، واحترام حرية الفكر، والدأب الشديد والإنتاجية العالية فيما تفعل، كما تولدت لهذه الطبقة رغبة عالية فى الادخار، ليس تحوطاً فقط ضد تقلبات الزمن بل ثقة فى عائد الادخار واستثماراً فى المستقبل. وهذا ما أكد عليه بول جونسون فى كتابه عن تاريخ الإنجليز.. من أن الانعزال عن الاضطرابات التى سادت أوروبا هو أهم الخيوط المميزة للتاريخ الانجليزى، وهذا الانعزال لم يكن مانعاً من التواصل والتعامل والتعاون مع الآخرين، ولكنه كان مانعاً من انتقال عدوى الفوضى التى سادت فى بعض البلدان الأخرى، التى عزلتها عن هذه الجزيرة بحار مانعة من الولوج إليها بيسر، وسياجات حامية تكونت من ثقافة لطبقة وسطى ساعية إلى التقدم.

وهو ما يؤكد عليه كلارك أيضاً فى تفسيره لتحقق النمو والتقدم والآثار الايجابية للثورة الصناعية والقدرات على توظيف المعارف النافعة بمهارة فى العملية الاقتصادية فى بلدان أخرى.. من ضرورة وجود هذه البيئة المواتية المساندة للنمو والتطور والإبداع.. وهو ما تحقق لبلدان أخذت تنتشل من فخ الفقر شعوبها وبفضل نمو متواصل مطرد لم يقل عن ٧٪ لمدة عشرين عاماً متواصلة.

فالنمو المتسارع للصين منذ عام ١٩٨٠ حقق لها القدرة على انتشال ٤٠٠ مليون من مواطنيها إلى ما فوق خط الفقر.. وإذا ما رجعنا إلى حالة الصين نفسها إلى عام ١٩٦٠ نجد أن النمو الاقتصادى فيها بمعدل ٧,١٣٪ سنوياً من هذا التاريخ قد حقق لها زيادة فى متوسط الدخل فى عام ٢٠٠٥ بأربعة عشر مثلاً لما كان عليه دخلها فى عام ١٩٦٠ .. وقد حققت كوريا الجنوبية زيادة فى متوسط دخول مواطنيها بلغت عشرة أمثال فى أربعين سنة. وحققت سنغافورة زيادة مماثلة فى خمس وثلاثين سنة.. وهناك أمثلة أخرى مماثلة كاليابان وماليزيا وتايلاند، أو أمثلة أقل إنجازاً كالبرازيل.. لكن كل خبرات الدول المشار إليها قد اشتركت فى تأكيد أن النمو الاقتصادى المطرد هو أكثر الأدوات كفاءة فى تخفيض معدلات الفقر وتحقيق مستوى معيشة أفضل للفقراء وتوفير خدمات تعليمية وصحية أفضل لهم.

ولكن النمو الاقتصادى وحده، وإن كان مطرداً، ليس إكسيراً ناجعاً.. وهو ما يذكرنا كلارك به فى حديثه عن البيئة المواتية الصالحة والدافعة للنمو.. فغنى الأمم ونجاحها فى مكافحة الفقر وتحقيقها للتقدم مرهون بإرساء العدالة بين الناس.. وفى المضمار الاقتصادى لا تتحقق هذه

كتاب الزاوية

ابن العماد الأقفهسى

فضل النيل

وقد وردت فيه آيات وأحاديث.

أما الآيات: فمنها قوله تعالى: «وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى»(سورة محمد من الآية١٥).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيحان، وجيحان/، والفرات، والنيل، «كُلّ» من أنهار الجنة».

قال البغوى فى تفسير هذه الأنهار الأربعة: تخرج من نهر الكوثر. قال: قال كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم.

ونقل ابن زولاق فى «تاريخ مصر» عن كعب الأحبار: أن نهر مصر نهر العسل فى الجنة، والفرات نهر الخمر، وسيحان نهر الماء، وجيحان نهر اللبن.

وفى حديث الإسراء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لما انتهيت إلى سدرة المنتهى فرأيت أربعة أنهار (يخرج) من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان، «فقلت: يا جبريل ما هذه الأنهار؟». قال: أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات».

وقال ابن زولاق فى تاريخ مصر: إن النيل يجرى من تحت سدرة المنتهى، وإنه لو تُقُفّى آثاره لوجد فى أول جريانه أوراق الجنة. قال: ولذلك ندب إلى أكل البلطى من السمك، لأنه يتتبع أوراق الجنة فيرعاها. ويشهد لصحة «ما ذكره» ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بالحيزوم فإنه يرعى من حشيش الجنة».

فى النمو والتقدم والعدالة بين الناس



العدالة إلا بتكافؤ الفرص للناس كافة دون تمييز.. تكافؤ فى فرص التعلم والتدريب والرعاية الصحية، ونصيب عادل من البنية الأساسية المعينة لهم على الانتقال والحركة سعياً وراء الرزق.. تكافؤ فى فرص الحصول على الموارد الممكنة لهم فى المنافسة من تمويل لإنشاء المشروعات والمشاركة فيها ملكية لها أو العمل فيها وتكافؤ فى فرص الحصول على أراض ينشئون عليها مشروعاتهم.

ثم إذا دخلوا الأسواق بمنتجاتهم وخدماتهم تتحقق لهم عدالة المنافسة فى أسواق تحكمها قواعد الكفاءة وتضبطها معايير رقابية حصيفة.. صارمة فى تطبيق القانون دون تمييز.. مرنة فى التطور، ملاحقة للمستحدثات، ولما يستجد فى الأنشطة الاقتصادية بفضل إبداع الناس وتجديدهم.

عندئذ يمكن الاطمئنان إلى أن الدخول المتحققة فى قطاعات وأقاليم النمو ستولد دخولاً جديدة متدفقة، من خلال الطلب على المنتجات وزيادة الطلب على العمالة والتشغيل ومن ثم زيادة الدخول، وفقاً للآليات الراسخة «لأثر مضاعف الاستثمار والطلب»... وهذا يأخذ وقته ومضماره ويتحرك بفاعلية كلما زادت مرونة الاقتصاد ودرجة استجابته من خلال أنشطة إنتاجية، ومدى اعتماده على مكونات محلية الإنتاج.

لاحت على خاطرى صورة هذه الطفلة، صاحبة الجائزة، وأنا أطالع ما جاء فى هذا الكتاب من مسيرة النمو ومكافحة الفقر والشروط المرصودة فيه لمتطلبات التقدم[٢]... إن هذه الطفلة ذات الاستعداد الفطرى والذهنى للانطلاق والتعلم والتسابق والمنافسة وإثبات الذات، كحال أبناء وبنات عمرها[٣] من المصريين، يجب أن تحصل على فرصة متكافئة ومنافسة عادلة ليس فقط فى مسابقة رمضانية ولكن فى مسابقة الحياة.. إن هذه الطفلة ومثيلاتها كثيرات أراهن تواقات للمثابرة والاجتهاد، تعلماً، ثم مشاركة فى سوق العمل، ثم انطلاقاً فى قيادة المشروعات. إنها وأقرانها وقريناتها، لا ينتظرون جميعاً تساقط ثمار النمو من أهل الغنى.

ولكن هذه الطفلة وأقرانها لا يحتاجون إلا تكافؤاً فى الفرص، فى التعلم والتدريب والرعاية الصحية، ونصيباً من الخدمات العامة يعين على الحراك الاجتماعى الإيجابى، وهى قبل كل ذلك من مبادئ تحقيق العدالة بين الناس التى لا تتقدم الأمم إلا بها. ▒

هوامش:

١ ـ تترجم أيضاً بمعنى صدقات أو تبرعات.

٢ ـ يذكرنا المفكر المصرى الكبير الدكتور/ زكى نجيب محمود - فى كتابه حصاد السنين - «أن فكرة التقدم محتوية على وجوب التغير مع متغيرات الحضارات المتعاقبة والتطور الذى ينقل صورة الحياة نحو ما هو أعلى، ومعنى ذلك وجوب الاهتمام بالمصير، ولا ينفى هذا الاهتمام أن تجىء قوائمه مستندة على تراثنا الذى تركه لنا السلف، على ألا يكون فى حياتنا الحاضرة بمثابة النهاية التى نقف عندها، بل يكون بين أيدينا نقطة ابتداء نجاوزها على مستلزمات حاضر حى ومستقبل مأمون».

٣ ـ نقلاً عن الموقع الرسمى لمحافظة الاسكندرية على شبكة المعلومات الدولية أعلن وكيل وزارة التربية والتعليم بمحافظة الإسكندرية يوم الأحد الثانى من ديسمبر ٢٠٠٧ «أن ثلاثة تلاميذ من أبناء المحافظة حصدوا المراكز الأولى فى مسابقة أذكى أذكياء العالم الرابعة عشرة فى مجال الحسابات العقلية والتى شارك فيها ٢٧٠٠ طالب وطالبة من ٣٥ دولة. وقال إن المسابقة أقيمت فى ماليزيا ونظمتها هيئة «يو سى ماس» لافتا إلى أن المسابقة تعتمد على قياس قدرة الطالب فى الإجابة على ١٠٠ مسألة حسابية فى زمن أقصاه ٨ دقائق دون استخدام الآلة الحاسبة. وأضاف أن الطالبة «سارة يحيى حسن» من مدرسة «نبوغ الابتدائية» حصلت على المركز الأول تحت سن ٧ سنوات، كما حصلت الطالبة «ريناد صبرى القاضى» من مدرسة «السيكرد هارت» على المركز الأول والطالب «تقى أيمن رشاد» على المركز الثانى فى منافسات تحت سن ٩سنوات. ويذكر الخبر أن مصر تعد الدولة الأولى التى تحصل على أكثر من مركز متقدم على مدار تاريخ البطولة».

الشريعة حاضنة الحقوق

خالد أبو الفضل

لم يكن أبداً ثمة تعارض بين الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان. وأنا أحترم كل واحد منهما بدافع ووازع من الآخر. وأرى أن كل ما أتى به أى منهما من مبادئ كالحسن أو الجمال أو المعروف والتسامح أو المحافظة على كرامة الإنسان لمجرد كونه إنساناً بغض النظر عن لونه أو جنسه أو معتقده، وتحريره من العبودية لغيره من البشر، هو بالتحديد ما أتى به الآخر. بمعنى أنه طالما كان كل منهما يستهدف تحقيق نفس الغايات، فإنهما يصبحان بالقطع كوجهى العملة الواحدة.

فى الشريعة فإن الله لن يستفيد شيئاً من طاعة الإنسان، والقصد من هذه الطاعة فى نظرها هو تحقيق الخير للإنسان، وحقوق الإنسان إذا ما خدمت مصالح خاصة تسلطية ضلت الطريق وأصبحت أداة لاستغلال وهلاك الشعوب، بحيث يمكن القول إن القصد منها كذلك هو تحقيق الخير للإنسان كالشريعة سواء بسواء. وهى نظرة غير مقبولة من البعض، ولكن من درس مناهج الشريعة العقلانية والأخلاقية، وكذا درس أسس حقوق الإنسان العقلانية والأخلاقية، أدرك صحة ما أقول به على وجه اليقين.

لا أستطيع أن أنكر أن هناك من جعلوا الشريعة نقيض كل شىء تمثله حقوق الإنسان، فأنكروا القبح والحسن كمصدر عقلانى ومنهاج أساسى فى تحديد نطاق الشريعة وأهدافها، بل أنكروا الأسس الأخلاقية للشريعة باعتبارها هدفاً مقصوداً لذاته، وجعلوا النص هو الهدف بغض النظر عن نتائجه وأثره على الاعتبارات الإنسانية مع انفرادهم بتفسيره وفق فهمهم له. بل تمادى بعض هؤلاء فجعل الشريعة عبارة عن هوية قبلية تناقض كل ما هو غربى أياً كان، ونسى هؤلاء - مثلاً - أن أول أوقاف فى العالم ظهرت أساساً فى العالم الإسلامى وكانت للعناية بالأيتام والأرامل والنساء الهاربات من وضع استبدادى، بل إن بعضها أوقف على رعاية القطط والكلاب الضالة. لقد وجد نظام الوقف أولاً فى ظل الحضارة الإسلامية بوازع مباشر من الشريعة وأهدافها الأخلاقية وليس تطبيقاً لنص ما. ونظر هذا النفر إلى علماء كابن رشد وابن سينا وابن طفيل وابن ماجه وابن عقيل وكأنهم خارجون على الشريعة فى حين أننا نعلم يقيناً أن كل مفكر ممن ذكرت لعب دوراً أساسياً ومحورياً فى التأثير على فكر توماس كوينس وجروتسيس وفوكن دور وسواريز وروسو ولوك.

أيها الحضور الكريم: يعلم المتخصصون منكم أن من ذكرت من مفكرى العرب هم الآباء الفعليون لفكر حقوق الإنسان ولمبادئ حقوق الإنسان، ولولاهم لما عرف الغرب فكرة حقوق الإنسان أصلاً، ولكن مع السلفية الإسلامية التى طردت أمثال ابن طفيل وابن ماجه من الشريعة الإسلامية، يقابل هؤلاء السلفيين مباشرة متطرفون غربيون ممن تمسكوا بنظرية صراع الحضارات، فأنكروا فضل المفكرين المسلمين على الفكر الغربى وعلى المفكرين الغربيين أمثال بروتس وسواريز وغيرهما ممن جاءت كتاباتهم شاهدة على هذا التأثير. ولهذا تصوروا خطأ وظلماً، أن حقوق الإنسان هى اختراع غربى بحت، أتى إليه المسلمون وكأنهم يدعون إلى فتات المائدة الإنسانية، رغم أنه لولا إلهام الشريعة الإسلامية لمفكرى الإسلام العظام كابن رشد وابن سينا وابن طفيل وابن ماجه وابن عقيل، لما اهتدى المفكرون الغربيون لنظرية حقوق الإنسان ممن تأثروا بأفكار هؤلاء العلماء المسلمين.

وبالمناسبة فإنه غير صحيح ما يتصوره البعض من أن الحضارة الإسلامية نقلت عن الفكر الإغريقى بغير إضافة أو استيعاب، وهو تصور متطرف وغير علمى، فالعلماء المسلمون ترجموا عن الإغريق ونقلوا عنهم، ولكنهم كانوا فى موقف المستوعب الذى أضاف إليه الكثير، بحيث يمكن القول بأن كلا من الحضارتين الغربية والإسلامية تشتركان فى سيمفونية متكاملة كونت مبادئ وحقوق الإنسان، ولا عجب فى ذلك، لأن الفكر الإنسانى عبارة عن غراس يؤازر بعضه بعضاً. فى منظومة يكمل بعضها البعض، ويضيف بعضها إلى الآخر، ومن الصعب وضع حدود فاصلة لها، فلم ولن تجد مظهراً من مظاهر الحضارة إلا وجدت للحضارة الإسلامية مساهمة فى جذوره، التى كانت جزءاً لا يتجزأ من الواقع الإنسانى العام. ومن يدع أن الغرب هو الغرب والشرق هو الشرق ولا يلتقيان، لا يعرف شيئاً عن تاريخ الحركات الاجتماعية والحركة الفكرية للبشر.

أيها الحضور الكريم: ليس هدفى من هذه الكلمة أن أثبت فضل الإسلام، وقدر مساهمته فى تقرير حقوق الإنسان، ففضل الإسلام أمر مقرر لدى العلماء والمفكرين غير المنحازين وكتب فى شأنه الكثيرون من علماء الغرب المنصفين، ولكن هدفى هو أن أقرر أن من يخلقون صوراً متطرفة للواقع الإنسانى سواء فى الشرق أو الغرب، وسواء من المسلمين أو غير المسلمين يمثلون خطراً على كل المعايير الخلقية والجمالية والحضارية للإنسان. ولتسمحوا لى أن أقدم مثلاً على هذا الفكر المتطرف الذى يقدمه أشخاص من أمثال برنارد لويس وصمويل هنتنجتون ممن يرون - وفى صراحة وبدون مواربة - أن كل ما هو خير وجميل يأتى من الحضارة الغربية، وأن كل ما هو سيئ وقبيح يأتى من الحضارة الإسلامية وغيرهما يوجد آخرون، ومن هؤلاء هذا الذى نشر نصاً مفزعاً أذيع - للأسف - من إحدى محطات الإذاعة الأمريكية، دعا فيه إلى ضرب العالم الإسلامى بالقنابل الذرية، وتهجير المسلمين من الغرب والحيلولة دون هجرة أى منهم إليه مجدداً. بل وصل إلى حد المطالبة بتنصير كل مسلم يقيم فى الغرب كرهاً عنه. ولعلكم تظنون أنى ألتقط نصاً تافهاً لشخص تافه، ولكنى أقول لكم وللأسف الشديد إن هذا النص يحظى برقم (٣) فى أمريكا من حيث إقبال الجمهور على البرنامج الذى يذيعه، بل استضاف هذا البرنامج نائب رئيس الجمهورية الأمريكية ديك تشينى ونيتنياهو وكذا عمدة مدينة نيويورك، بل وصل الحال بديك تشينى إلى شكر «مايكل سافج» مقدم هذا البرنامج، على أفكاره المفيدة والملهمة كما جاء فى ثناء ديك تشينى عليه.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن «مايكل سافج» هذا يبث برنامجاً يومياً ينشر الكراهية للمسلمين، ووصل به الحال إلى حد وصف القرآن بأنه كتاب شيطانى مملوء برسالة واحدة وهى رسالة الكراهية، وأن المسلمين غير قادرين على استيعاب حقوق الإنسان بسبب هذا القرآن، لذا ففى رأيه أنه لا يجب أن يعامل المسلمون وفق معايير حقوق الإنسان، وإنما يجب أن يقتلوا تقتيلاً. وغير مايكل سافج كثيرون يرون أن الدولة الممثلة للحضارة فى الشرق الأوسط هى إسرائيل، وإنها هى التى تمثل الحضارة والقيم المحافظة على حقوق الإنسان فى مواجهة قوى الظلام والشر.

واسمحوا لى أيها السيدات والسادة أن أسألكم كيف يمكن لشخص يؤمن بأفكار كأفكار مايكل سافج أن يتهم الشريعة بأنها لا أخلاقية فى حين أنه هو نفسه يعد مثالاً حياً لانعدام الأخلاق والقيم الإنسانية؟!

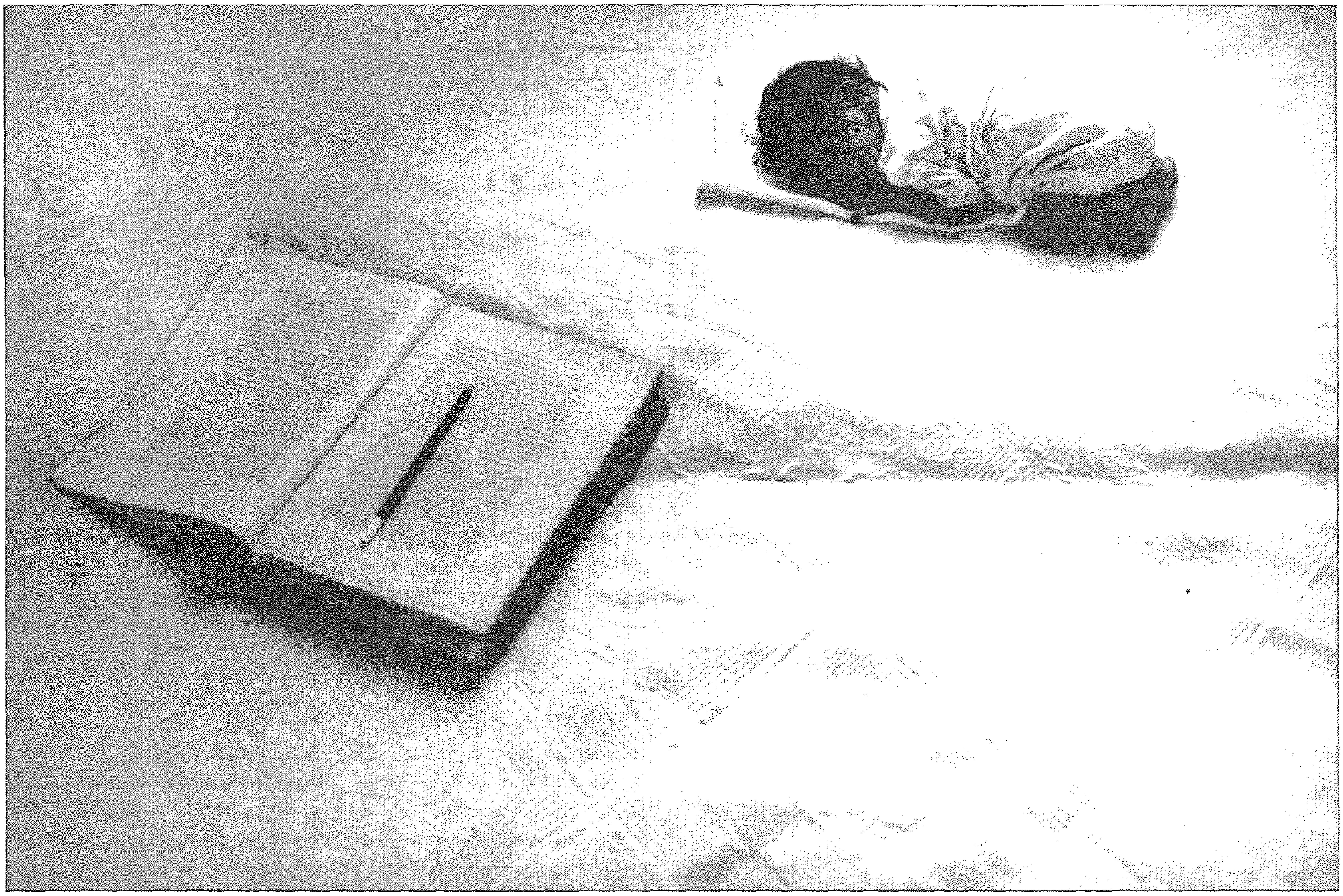
أيها السيدات والسادة: كنت أتمنى لو أن مايكل سافج كان مثالاً وحيداً وفريداً فى آرائه القبيحة المتطرفة، ولكن للأسف إنه يمثل تياراً يصدر فى أمريكا وحدها كتاباً أو أكثر كل أسبوع ينهال بالشتائم والسباب على الإسلام والقرآن ورسول الإسلام ولو نظرتم إلى قائمة الكتب الأكثر مبيعاً - وهى قائمة النيويورك تايمز - ستجدون أن أكثر الكتب مبيعاً هى الكتب التى يؤلفها أشخاص يزعمون أنهم كانوا مسلمين ثم ارتدوا عن الإسلام بعدما تبينوا حقيقته السوداء البشعة.

على أن ثمة التباساً يجدر التنبيه إليه فى هذا المقام، وهو أنه يوجد خلط متعمد بين احترام الدولة للحقوق المدنية لمواطنيها، وبين انتهاكها لحقوق الإنسان ويستغل هذا الخلط فى تمرير الثانية تحت غطاء من الأولى. فاحترام الدولة للحقوق المدنية لمواطنيها، لا يعنى البتة أنها دولة تحترم حقوق الإنسان، أو حتى أنها دولة ديمقراطية، لأنه لا يمكن أن يخرج من تحت عباءة القبح أى جمال.

فدولة مثل جنوب أفريقيا قبل أن تتولى الأغلبية مقاليد الحكم فيها، كانت تحترم وبكل دقة الحقوق المدنية لمواطنيها البيض، ولكن كانت على رأس القائمة فى انتهاك حقوق الإنسان. ونفس الشىء بالنسبة لإسرائيل التى تحترم بصورة دقيقة الحقوق المدنية لمواطنيها، ولكنها تمارس الانتهاك المستمر لحقوق الإنسان الفلسطينى وبصورة بشعة، وفى ظل التركيز الإعلامى المتحيز على احترام إسرائيل للحقوق المدنية لمواطنيها، يجرى التعتيم على انتهاكها المنهجى لحقوق غير مواطنيها من الفلسطينيين الذين يلقون على يديها أبشع أنواع الانتهاك لحقوق الإنسان.

أيها السيدات والسادة: الجمال لا يتجزأ، والقبح لا يتجزأ، وكل منهما يأتى من نبع واحد، وفى النهاية إما أن نكون بصدد حضارة إنسانية، أو لا إنسانية.

محاضرة ألقاها الكاتب فى جامعة أوسلو فى ١٢ نوفمبر الماضى بمناسبة الاحتفال بفوزه بجائزة حقوق الإنسان التى تمنحها الجامعة



إنـــــه الـتـعـلـيــــم

أنـــطـــوان زحـــلان

بلغ العدد الإجمالى للعرب الذين تسربوا إلى الدول الأعضاء لدى الـ (OECD) فى عام ١٩٩٩ نحو ٩٦٧,٥٤٨ بما يمثل زيادة عن عدد الهنود الذين تسربوا إلى تلك الدول بنحو ٣٠٠,٠٠٠

تعد كل من المعرفة والعلم بمثابة أنشطة عامة لسائر المجتمعات فى حين أن كل مجتمع لديه مشكلاته وتحدياته الخاصة. وتتمثل أحد أبرز ملامح المعرفة فى الحاجة إلى رأس المال البشرى وذلك لأغراض إنتاج وتطبيق تلك المعرفة[1] بينما تمثل الأنظمة القومية للتعليم العالى والأبحاث والتنمية أكثر الأدوات فاعلية لخلق وتطبيق المعرفة. فعلى الرغم من إمكانية الاحتفاظ بالمعرفة لآجال طويلة سواء فى شكل أوراق مكتوبة أو بطريقة إلكترونية؛ إلا أن تلك المعرفة ستكون فى هذه الحالة غير ذات قيمة ما لم تقم الكوادر التى تمتلك العلم والمهارات بالاطلاع عليها بهدف تشكيلها وتطويعها.

كذلك لن تكون المعرفة ذات فعالية ما لم يكن الأشخاص الذين يسعون إلى استخدامها أشخاصا يتسم سلوكهم بالتنظيم وتدعمهم هيئات وسياسات ملائمة. لذا، وبناء على ما سبق، يمكن إرجاع الفجوة المعرفية بين الدول إلى العديد من الأسباب، منها:

- قصور فى رأس المال البشرى.
- الاطلاع المحدود على المعرفة المحفوظة.
- غياب أو قصور المنظمات التى يتحتم وجودها لتوظيف رأس المال البشرى.
- غياب السياسات الاقتصادية والعلمية الفعالة التى يمكن من خلالها اكتساب وتراكم وتطبيق معرفة بعينها.
- غياب المنظمات و/أو الهيئات المدعمة التى تقوم بتقديم الخدمات القانونية والمالية المطلوبة.

يمكن تقسيم الدراسة التى نحن بصددها إلى قسمين:

القسم الأول: يقوم بعرض البيانات والتحليلات التى يمكن الوقوف من خلالها على طبيعة ومدى الفجوة المعرفية لدى العرب.

القسم الثانى: يتناول الإجراءات التى - إذا تم تبنيها - سوف تمكن الدول العربية، منفردة أو مجتمعة، من العمل على تخطى الأزمات التنموية من خلال التوظيف الفعال لما لديها من رأس مال بشرى وموارد بشرية. إن المشكلة الرئيسية التى تنطوى عليها الصلة بين التعليم العالى والأبحاث والتنمية من جهة وتطبيق المعرفة من جهة أخرى تتمثل فى انعدام التأثير المباشر للجانب الأول على الجانب الثانى، حيث ينعكس التأثير الذى تمارسه نظم التعليم العالى على المجتمع واقتصادياته من خلال ما تنتجه تلك النظم من أبحاث وما يتم توظيفه من خريجى تلك النظم، ولكن ذلك

ترجمة: دعاء شندى

الصورة من مجموعة story of Z للفنان فؤاد الخورى

> **عندما كنت طالبا بالجامعة فى عام ١٩٤٩ كانت هناك عشر جامعات فقط بالعالم العربى وحوالى ٣٠،٠٠٠ من الخريجين، ثم تزايد عدد الجامعات إلى أن وصل إلى ما يزيد على ٣٠٠ جامعة تخرج فيها حوالى ١٥،٠٠٠،٠٠٠ طالب**

يـــا عـــــرب!!*

التأثير يتضاءل بشكل كبير بسبب قلة الأبحاث وارتفاع معدل تسرب المتعلمين والمثقفين إلى خارج الدول العربية، على الرغم من ذلك، يمكن تغيير هذا الوضع إلى الأفضل.

القسم الأول: طبيعة الفجوة المعرفية لدى العرب:

المعرفة هى عملية معقدة بطبيعتها. هناك عدة مؤشرات محددة لوضع الدول تشمل: رأس المال البشرى، التمويل المقدم للأبحاث والتنمية، عدد الإصدارات السنوية التى يتم نشرها فى الصحف الدولية المتخصصة، عدد العاملين فى مجال العلوم والهندسة، درجة كفاءة النظام التعليمى، عدد براءات الاختراع التى يتم تسجيلها سنويا، الصادرات من المنتجات ذات التكنولوجيا المتطورة، وأيضا معدل التغير فى تلك المؤشرات. وسوف تتناول هذه الدراسة بالشرح المؤشرات الأربع الأولى من المؤشرات سالفة الذكر.

من الصعب تحديد حجم تلك المؤشرات المصاحبة لمستويات محددة للتنمية ولكن يوجد اجماع عالمى على أن هناك بعض الدول قد أحرزت انطلاقة فيما يتعلق بالنمو الاقتصادى. فمن المتفق عليه مثلا أن كلا من الصين والهند تمران بمرحلة الانطلاق تلك، حيث لم يعد العالم يتحدث اليوم عن النمو الاقتصادى غير المكتمل لدى الصين والهند بل صار مترقبا لانضمام كلتا الدولتين إلى مجموعة الدول الصناعية. لذلك أصبحت هاتان الدولتان بمثابة مقياس هام تقارن الدول الأخرى به.

قامت منظمة الدول الإسلامية بطرح دراسة بشأن الأنشطة العلمية فى كافة البلدان الإسلامية التى يشكل سكانها ٢٥٪ من إجمالى سكان العالم، وأقرت تلك المنظمة بأن إسهام الدول الإسلامية فى النتاج البحثى على مستوى العالم خلال العقد الماضى لا يتعدى نسبة ٢.٥٪[٢] كما أورد التقرير العلمى الصادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) فى عام ٢٠٠٥ وصفا للموقف العلمى لدى العالم العربى[٣] وسوف نورد فى هذه الدراسة مصادر معلوماتية إضافية لتمكين القارئ من إجراء المقارنات والمقابلات بين أنماط الأداء لدى الدول العربية.

موقف رأس المال البشرى العربى:

خرجت الدول العربية من تحت وطأة الاستعمار بمستوى زهيد من رأس المال البشرى، حيث قامت كافة الدول العربية بعد الحصول على استقلالها بالتوسع الجذرى فى أنظمتها التعليمية. وأتذكر عندما كنت طالبا بالجامعة فى عام ١٩٤٩ أنه كان هناك عشر جامعات فقط بالعالم العربى وحوالى ٣٠،٠٠٠ من الخريجين، ثم تزايد عدد الجامعات إلى أن وصل إلى ما يزيد على ٣٠٠ جامعة تخرج فيها حوالى ١٥،٠٠٠،٠٠٠ طالب. ويتضح من الجدول رقم (١) أن معدل القيد بالجامعات العربية - محسوبا على أساس كل مليون فرد - يفوق معدل القيد بالجامعات لدى كل من الصين والهند (وذلك فى عام ٢٠٠٥).

و لكن على الرغم من ذلك لا يزال العمل البحثى يمارس لدى الجامعات العربية فى نطاق محدود، فتلك الجامعات مثقلة بالأعباء التعليمية بينما يعد تمويل الأبحاث بها (كما سأوضح فيما بعد) فى حكم المنعدم، ونتيجة لذلك ظل العرب دائما يعتمدون على السفر للخارج لاستكمال دراساتهم العليا. لقد بلغ إجمالى عدد العرب المقيدين بجامعات خارج الوطن العربى نحو (١٢٠،٦٠٢) دارس وذلك طبقا لآخر إحصائيات اليونسكو فى هذا الصدد فى عام ١٩٩٩ مقارنة بـ (١٠٦،٠٣٦) دارس من الصين و(٥٢،٩٣٢) دارس من الهند مقيدين بتلك الجامعات (أنظر الجدول رقم ١)، ومن هنا يتضح أن عدد العرب الذين يقومون بعمل دراسات أجنبية يفوق عدد الصينيين والهنديين فى هذا الجانب. ويقوم حوالى ٨٢٪ من هؤلاء الطلاب العرب باستكمال دراساتهم العليا فى الدول الأعضاء لدى منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية (OECD) حيث تعد الجامعات الأوروبية أكثر الجامعات جذبا للطلاب العرب.

ويمكننى فى ضوء البيانات الإحصائية غير المكتملة المتوفرة من جانب اليونسكو تقدير عدد الدارسين العرب الذين يحصلون على شهادات الدكتوراه من جامعات بالخارج سنويا بنحو ١٢،٠٠٠ دارس وكذلك القول بأن ٨٥٪ أو أكثر من هؤلاء الدارسين يتسربون إلى خارج الدول العربية التى ينتمون إليها، أى بما يشكل خسارة للعالم العربى تتمثل فى فقدان حوالى عشرة آلاف من الدارسين الحاصلين على شهادات الدكتوراه سنويا. فهناك عدد من العرب الحاصلين على شهادات الدكتوراه يتراوح بين ٦٠،٠٠٠ و٧٠،٠٠٠ عربى يعملون داخل العالم العربى مقارنة بـ ١٥٠،٠٠٠ من العرب الحاصلين على شهادات الدكتوراه ويعملون خارجه.

و من بين الحائزين لشهادات الدكتوراه فى العالم العربى يقوم حوالى ١٠،٠٠٠ فقط بنشر واحدا أو أكثر من الأبحاث أو الدراسات سنويا بأحد الدوريات الدولية المتخصصة، بينما لا يوجد لدى الباقى من حائزى شهادات الدكتوراه فرصة لإجراء الأبحاث النشطة وذلك نتيجة لبيئة العمل المجدبة والافتقار إلى التمويل الموجه نحو الأبحاث والتنمية.

تعد الصين والهند أكثر الدول التى تخطو خطى تنموية سريعة، حيث حلتا محل كوريا وتايوان اللتان أصبحتا الآن فى مصاف الدول الأعضاء لدى الـ(OECD). من خلال الجدول رقم (١) يلاحظ أن الدول العربية لديها اهتمام بطلب العلم - سواء داخل العالم العربى أو خارجه - بدرجة أكبر من الصين والهند، وهذا يعنى أن مقدار رأس المال البشرى ليس هو العامل الذى أدى إلى احتلال الصين والهند لمركز الصدارة بين الدول النامية أو إلى نمو الدول العربية بشكل بطىء، ولكن سيتضح تفصيليا فيما بعد أن السياسات العلمية والاقتصادية القومية لدى الدول العربية هى ما يؤدى إلى حرمان تلك الدول من تعظيم الاستفادة من رأس المال البشرى لديها.

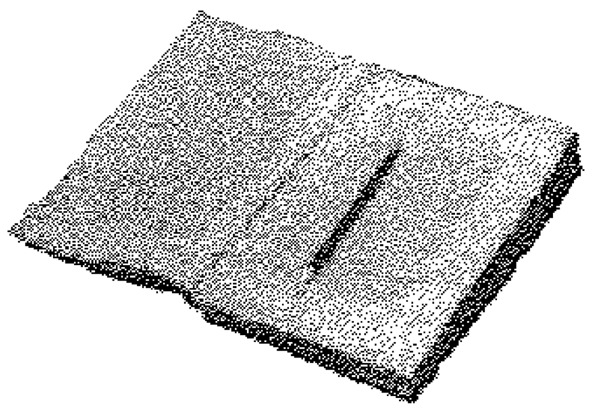
● تم تجميع بيانات هذا الجدول من الإحصائيات المعدة من جانب اليونسكو وغير ذلك من مصادر، حيث يشتمل العمود الثانى من الجدول على البيانات المتوفرة لدى اليونسكو فى حين يمثل العمود الثالث النسخة المنقحة من تلك البيانات بعد تصحيحها استنادا إلى الإحصائيات المعدة من جانب الاتحاد الأوروبى.

بلغ العدد الإجمالى للعرب الذين تسربوا إلى الدول الأعضاء لدى الـ(OECD) فى عام ١٩٩٩ نحو ٩٦٧ ٥٤٨ بما يمثل زيادة عن عدد الهنود الذين تسربوا إلى تلك الدول بنحو ٣٠٠ ٠٠٠ ونقص عن عدد الصينيين الذين تسربوا إلى ذات الدول بمقدار ضئيل (الجدول رقم ٢).

● تم أخذ تلك البيانات من الجدول رقم (٦،II،A٢)، SOPEMI ٢٠٠٤ (التقرير السنوى عن مسارات الهجرة الدولية)، OECD، لعام ٢٠٠٤.

يمثل معدل تسرب العرب إلى الخارج - على أساس الفرد الواحد - أربعة أضعاف معدل تسرب الصينيين وخمسة أضعاف معدل تسرب الهنود إلى الخارج، ويصل عدد المهاجرين من الصينيين والهنود إلى ٣.٦ مليون فرد مقارنة بـ ٤.٥ مليون مهاجر عربى. بينما يقوم كل من العالم العربى والصين بتصدير أعداد متساوية من الكوادر فائقة المهارة إلا أن العالم العربى يفوق الصين والهند مجتمعتين من حيث المعدل الإجمالى للهجرة (بما يشمل الكوادر فائقة المهارة والكوادر متوسطة المهارة والكوادر التابعة).

يعمل المهنيون العرب بكفاءة كبيرة فى الدول الأعضاء لدى الـ(OECD) وهذا ما يتضح

إنه التعليم  يا عــــرب

من خلال استمرار تسرب العرب إلى تلك الدول والمناصب المرموقة التى يشغلها العرب هناك. لا توجد هناك دراسات تتناول المقارنة بين أداء مختلف الجاليات العربية وغير العربية فى تلك الدول، فعلى الرغم من وجود اختلافات جوهرية بين أداء تلك الجاليات إلا أنه لا يمكن القول بأن أداء أى منها يفوق أداء الأخريات.

يعتمد استنباط النمو الاقتصادى من رأس المال البشرى على الوسائل المستخدمة فى أداء النشاط الاقتصادى. فالاستثمارات التى تتم من خلال عقود المشروعات المتكاملة (أو ما يعرف بـ «عقود تسليم مفتاح») التى تسهم بالقليل فى عملية نقل التكنولوجيا إلى المنظمات القومية والإقليمية لا يتمخض عنها أى عمالة محلية إنما يترتب عليها معامل مضاعف منخفض. وإذا تمعنا فى السلوك الذى تتبعه كل من الهند والصين وكوريا وغيرها سنجد أن تلك الدول تتبع سياسات يتم من خلالها توظيف كل نشاط باعتباره آلية لاكتساب وتراكم التكنولوجيا، لذلك استطاعت تلك الدول أن تواصل كافة استثماراتها وتديرها وتبتكر فيها وتطور من أدائها وتضاعفها.

لقد كان ذلك بمثابة السبب الرئيسى وراء معدلات النمو السريع التى سجلتها كل من الصين والهند، حيث أن امتلاك كلتا الدولتين للعلوم الضرورية والسياسات الاقتصادية قد أدى إلى تفعيل توظيف وتنمية المؤسسات القومية لديها بغرض اكتساب وتراكم وتطبيق وتطويع التكنولوجيا، هذا فى حين أن الدول العربية لم تمتلك مثل تلك العلوم والسياسات[4].

من المتوقع دائما أن يتم تعويض التكلفة التى يتم تكبدها فى إطار تعليم رأس المال البشرى من خلال ما يقوم به الخريجون من إسهامات تجاه الاقتصاد القومى، لذا فإن القدرة على توظيف الخريجين بشكل فعال تحتل أهمية اقتصادية قصوى. وتنم ظاهرة تسرب المتعلمين والمثقفين عن الحقيقة القائلة بأنه بإمكان بعض الدول القيام بتعليم أبنائها ولكن دون القدرة على توظيفهم بشكل فعال، فهذه الدول لا تستطيع استخلاص المنافع الاقتصادية المرجوة من استثماراتها المبذولة فى التعليم.

إن السياسات القومية الخاصة بعمليات الإنتاج والابتكار والاستثمار هى أحد العوامل المحددة لمدى إمكانية استنباط النمو الاقتصادى من رأس المال البشرى. فالاستثمارات التى يتم تنفيذها من خلال عقود المشروعات المتكاملة (أو ما يعرف بـ «عقود تسليم مفتاح») والتى لا تتيح سوى مجال ضيق لتوظيف المؤسسات والعمالة القومية دائما ما ينتج عنها معامل مضاعف منخفض.

إلى جانب ذلك، يعد العالم العربى بمثابة مرتعا خصبا للاستثمارات التكنولوجية، حيث بلغ حجم الاستثمارات فى قطاع البترول والغاز وكذلك فى مجالات التشييد والبناء والنقل والتصنيع وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ما يزيد عن ٣٠٠٠ مليار دولار خلال الفترة من عام ١٩٨٠ حتى عام ٢٠٠٠. ولكن على الرغم من ذلك لم يقابل تلك الزيادة فى حجم الاستثمارات ارتفاع فى دخل الفرد، لذا ففى هذه الحالة قد يكون من شأن التوظيف الأكثر فعالية لرأس المال البشرى الإتيان بنتائج أفضل. وبالتالى يتضح مما سبق أن المشكلة التى يواجهها العالم العربى ليست نقصا فى رأس المال أو رأس المال البشرى أو حتى فى الأبحاث والتنمية، وأن حل تلك المشكلة التى يعانيها فى هذا الصدد يكمن - بما لا يدع مجالا للشك - فى توظيف رأس المال البشرى بصورة أفضل[5].

تمويل الأبحاث والتنمية:

إن السبيل الوحيد لامتلاك فريق من الباحثين على درجة عالية من الكفاءة (من بين الحاصلين على درجة الدكتوراه) ودعم استمرار هؤلاء الباحثين على تلك الدرجة من الكفاءة سيكون من خلال تمكينهم من إجراء الأبحاث وهذا ما يعنى أن تمويل الأبحاث والتنمية هو أمر حاسم فى هذا الصدد.

لقد قمت - من خلال الجدول رقم (٣) - بتلخيص بعض معلومات المقارنة الواردة فى تقرير اليونسكو، حيث يتضح أن الدول العربية إلى جانب الدول الأقل نموا (و هى الدول الأكثر فقرا على مستوى العالم) تقوم بتخصيص الجزء الأصغر من الناتج القومى الإجمالى الخاص بها لدعم الأبحاث والتنمية. وتعد دول مجلس التعاون الخليجى من أقل الدول دعما للأبحاث والتنمية على مستوى العالم العربى من حيث نسبة ما تخصصه للأبحاث والتنمية من الناتج المحلى الإجمالى الخاص بها. كما تعتبر عملية تمويل الأبحاث هى اكثر المناحى التى يبرز فيها قصور الدول العربية بالمقارنة بكل من الصين والهند، حيث تقوم حكومتى الصين والهند بتوفير مخصصات مالية لدعم الأبحاث والتنمية أكبر بكثير من المخصصات التى توفرها أى من الحكومات العربية فى هذا الصدد (انظر الجدول رقم ٣)، وهذا ما يؤدى بدوره إلى تسرب المتعلمين والمثقفين إلى خارج الدول العربية التى سجلت معدلات لهذا التسرب أعلى بكثير من المعدلات المسجلة لدى كل من الصين والهند وذلك على أساس الفرد الواحد. ويمثل التمويل المقدم من حكومتى الصين والهند - على التوالى - لدعم الأبحاث والتنمية بهما نحو عشرة أمثال وثلاثة أمثال التمويل المقدم من حكومات الدول العربية لدعم الأبحاث والتنمية بها وذلك على أساس الفرد الواحد.

الجدول رقم (٣): مقارنة بين الدول فيما يتعلق بدعم الأبحاث والتنمية (خلال عام ٢٠٠٢) المتمثل فى إجمالى المبالغ المنصرفة على الأبحاث والتنمية:

مقارنة النتاج البحثى:

إن من أهم الوسائل المتبعة لتقييم النشاط العلمى هو أن تعقد مقارنة بين أعداد الأبحاث التى يتم نشرها فى الصحف الدولية المتخصصة من جانب مختلف الدول على أساس كل مليون فرد من سكان كل واحدة من تلك الدول (الجدول رقم ٤). لقد اتضح من خلال تلك المقارنات أن النتاج البحثى العربى قد ارتفع من ١١ بحثا تم نشرها فى عام ١٩٨١ إلى ٣٣.٢ بحث تم نشرها فى عام ٢٠٠٣ وذلك على أساس كل مليون فرد. أما كوريا فقد وصل النتاج البحثى الخاص بها فى عام ١٩٨١ إلى ستة أبحاث فقط على أساس كل مليون فرد، وهو ما يساوى النتاج البحثى فى العالم العربى لعام ١٩٨٥، فى حين وصل النتاج البحثى لكوريا فى عام ٢٠٠٣ إلى ثلاثة عشر أمثال نتاجها البحثى لعام ١٩٨١. وبالنسبة للهند، فقد ظل كم النتاج البحثى الخاص بها مستقرا بما يتراوح بين ١٧ و١٩ بحث تم نشره خلال الفترة من عام ١٩٨١ حتى عام ٢٠٠٣ وذلك على أساس كل مليون فرد. أما الصين، فلقد ارتفع رصيد النتاج البحثى لديها من بحث واحد إلى ٣٦ بحث فى عام ٢٠٠٣، أى انه كان هناك شبه تعادل فى رصيد النتاج البحثى لدى كل من الصين والعالم العربى بالنسبة لعام ٢٠٠٣. منذ عام ٢٠٠٣ قامت كل من الصين والهند بزيادة المخصصات الموجهة للبحث والتنمية بشكل كبير وكذلك بتعميق السياسات العلمية الخاصة بها لإسراع معدلات التنمية الاقتصادية.

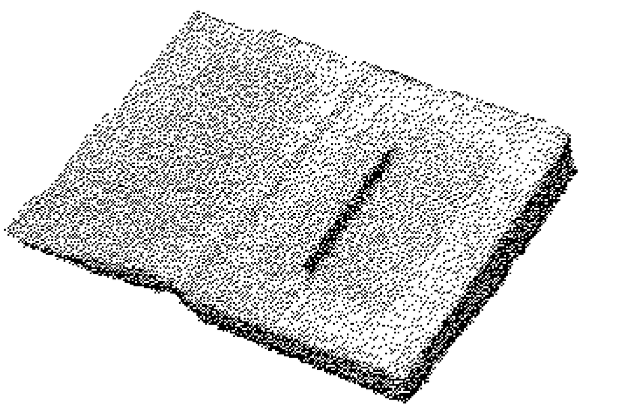
هذا فى حين أن كم النتاج البحثى والتنموى ورصيد رأس المال البشرى لدى الدول العربية قد وصل فى عام ٢٠٠٧ إلى ما وصلت إليه كل من الهند والصين فى تلك الجوانب خلال عام ٢٠٠٣. فالصين تخطو خطوات سريعة مثلها فى ذلك مثل كوريا التى سبقتها فى هذا المضمار، ومما لاشك فيه أنها قد سبقت العالم العربى خلال السنوات الأربع الأخيرة.

التعاون الدولى بين الباحثين العرب:

أن التعقيد والشمولية التى تتسم بهما العملية المعرفية جعل إيجاد مبدأ التعاون بين الباحثين العرب أمرا لا مفر منه، ولهذا فلا بد من تهيئة الظروف الاجتماعية والسياسية بما يمهد لخلق هذا التعاون.

الجدول رقم (١): الدراسة بالخارج بالنسبة للدول العربية مقارنة بالصين والهند

الدولة	عام ١٩٩٩	عام ١٩٩٩ (منقح)	السكان: عام ١٩٩٧ (بالمليون)	الدراسة خارج الوطن: لكل مليون فرد	الدراسة داخل الوطن	الدراسة داخل الوطن: لكل مليون فرد
الدول العربية	١١١.٨٥٤	١٠٦.٦٠٢	٢٥٣.٤	٤٧٦	٣.١٦٨.٤٤٥	١٢.٤٧٤
الصين	٩٥.٨٩٩	١٠٦.٠٣٦	١.٢٢٧.٠	٨٦	٧.٣٦٤.٠٠٠	٦.٠٠٢
الهند	٤٨.٣٤٨	٥٢.٩٣٢	٩٦٢.٠	٥٥	٩.٨٣٤.٠٠٠	١٠.٢٢٣



و يتحدد مدى التعاون بين الباحثين من خلال كم الأبحاث المشتركة التى يتم إنتاجها. يوضح الجدول رقم (٥) فيما يلى حدوث تعاون دولى بين الباحثين فى كافة الدول العربية فى عام ١٩٩٥، ولكن هناك عدد من الاختلافات الجوهرية بين الدول العربية فيما يتعلق بمستوى وقوالب هذا التعاون.

يتسم التعاون فى مجالات العلم والتكنولوجيا بأهمية قصوى فيما يتعلق بجودة ونجاح المشروعات العلمية. فالتقدم العلمي يعتمد على الخبرات عالية المستوى والتى تعد فى حد ذاتها بمثابة سلعة نادرة وصعبة المنال، ولذلك فمن هنا تأتى أهمية التعاون بين عدد صغير نسبيا من العلماء الذين يعملون فى مجال بعينه. لقد دعمت العديد من الدراسات الحديثة التوجه نحو هيمنة فرق البحث على مجالات إنتاج المعرفة(١) حيث تنتمى فرق البحث تلك إلى العديد من الجهات والمنظمات.

يأخذ التعاون الدولى بين العلماء وأخصائيى التكنولوجيا أشكالا عدة من أبرزها المناقشات والمبادلات التى تتم من خلال اللقاءات العلمية. ففى عام ١٩٩٥ على سبيل المثال تم عقد حوالى ١٨.٠٠٠ لقاء علمى نشرت فعالياته على مستوى العالم، حيث توافرت للعلماء من خلال تلك اللقاءات فرص جيدة للنقاش وتبادل المعلومات.

ولكن يلاحظ أن العلماء المتخذين من الدول العربية مقار لهم لم تكن لهم نسبة مشاركة مرضية فى مثل تلك اللقاءات، حيث قاموا بتقديم ٢٠٠ ورقة بحث فقط على مدار ١٨.٠٠٠ لقاء علمى تم عقده على مستوى العالم فى عام ١٩٩٥، وهذا ما يعنى أن مستوى التواصل من جانب العلماء العرب مع المجتمع الدولى هو مستوى متضائل للغاية.

ومن الأشكال الأخرى التى يأخذها التعاون الدولى بين العلماء هو اشتراك العلماء من دولتين أو أكثر فى عمل الأبحاث. لقد قمت بعمل تحليل مفصل للنتاج البحثى العربى اتضح من خلاله أن التعاون بين العلماء العرب هو عنصر شبه منعدم تقريبا على الرغم من وجود عدد من المنظمات العربية الإقليمية التى تهدف إلى توطيد أواصر هذا التعاون، ذلك لأن المنظمات العربية القومية والإقليمية لا توفر موارد جادة وحقيقية لدعم هذا التعاون.

هناك عدد كبير من المشاكل العلمية والتكنولوجية المشتركة بين الدول العربية لذا لا بد من إيجاد عوامل محفزة لخلق التعاون العلمي بين تلك الدول. فمعظم الوطن العربى مثلا يقع ضمن منطقة صحراوية جافة تندر فيها المياه مما يستلزم عمل الأبحاث حول استخدام المياه فى الزراعة وكذلك حول إدارة الموارد المائية. هذا بالإضافة إلى أن العديد من الدول العربية هى منتجة للبترول والغاز، مما يفرض تحديات تكنولوجية مشتركة تهيئ فرصة للتعاون العلمى وتبادل الخبرات فى تلك الجوانب. علاوة على ما سبق فإن هناك عددا من المشكلات التى تجتمع عليها الدول العربية فى مجالات الصحة وتطبيق القوانين والمعايير المختلفة وغير ذلك من المجالات.

الجدول رقم (٢): أعداد الكوادر فائقة المهارة (HSP) بالدول الأعضاء لدى الـ (OECD) فى عام ١٩٩٩

الدولة	عدد المغتربين	نسبة الـ (HSP)	عدد الـ (OECD)
العالم العربية	٤.٤٦٢.٣٩١	٪ ٢٣	٩٦٧.٥٤٨
الصين	١.٩٢٨.١٩٩	٪ ٥١.٩	١.٠٠٠.٧٣٥
الهند	١.٦٤٩.٧١١	٪ ٣٩.٦	٦٥٣.٢٨٦

الجدول رقم (٣): مقارنة بين الدول فيما يتعلق بدعم الأبحاث والتنمية (خلال عام ٢٠٠٢) المتمثل فى إجمالى المبالغ المنصرفة على الأبحاث والتنمية:

الدولة	المبالغ المنصرفة (بالمليار دولار)	النسبة التى تمثلها المبالغ المنصرفة من الناتج المحلى الاجمالى	المبلغ المنصرف للفرد الواحد	عدد الباحثين لكل مليون فرد
كافة دول العالم	٨٢٩.٩	١.٧	١٣٤.٤	٨٩٤.٠
الدول المتقدمة	٦٤٥.٨	٢.٣	٥٤٠.٤	٣.٢٧٢.٧
الدول النامية	١٨٣.٦	١.٠	٤٢.٨	٣٧٤.٣
الدول الأقل نموا	٠.٥	٠.١	٠.٧	٤.٥
الدول العربية الأفريقية	١.٢	٠.٢	٦.٥	١٥٩.٤
الدول العربية الاسيوية	٠.٦	٠.١	٦.٢	٩٣.٥
كافة الدول العربية	١.٩	٠.٢	٦.٤	١٣٦.٠
البرازيل	١٣.١	١.٠	٧٥.٠	٣١٤.٩
الصين	٧٢.٠	١.٢	٥٦.٢	٦٣٣.٠
الهند	٢٠.٨	٠.٧	١٩.٨	١١٢.١
إسرائيل	٦.١	٤.٩	٩٢٢.٤	١٣٩٥.٢

● مصدر البيانات المدرجة بالجدول: UNESCO op.cit. table 1p.٤

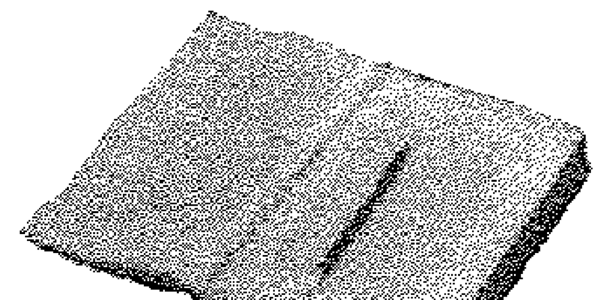
الجدول رقم (٤): عدد الأبحاث التى تم إصدارها لدى بعض الدول على أساس كل مليون فرد

الدولة	١٩٨١	١٩٨٥	١٩٩٠	١٩٩١	١٩٩٢	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٥	٢٠٠٣
العالم العربى	١١	١٥	٢١	٢١	٢١	٢١	٢٤	٢٦	٣٣.٢
البرازيل	١٦	١٩	٢٥	٢٧	٣١	٣١	٣٤	٤٢	٧٤.٨
الصين	١	٣	٧	٧	٨	٨	٩	١١	٣٦.١
الهند	١٧	١٥	١٦	١٧	١٧	١٧	١٨	١٩	١٩.٤
كوريا	٦	١٥	٤٢	٤٨	٥٨	٧٤	٩٧	١٤٤	٤٣٣
فرنسا	٤٩٦	٥٩٣	٦٢٨	٦٢٧	٦٨٦	٧٢١	٧٦٨	٨٤٠	٨٢٦
هولندا	٥٦٧	٧٦٨	٩٣٢	٩٢٠	١٠٠٩	١٠٩٨	١١٦٦	١٢٥٢	١٢٠٩
سويسرا	١٢٠٢	١٤٠٦	١٣٥٢	١٣٦١	١٥٢٥	١٦٢٢	١٧٨٠	١٨٧٨	٢٠٠٥

● تم تجميع بيانات هذا الجدول من خلال المعلومات المتاحة لدى معهد المعلومات العلمية بمدينة فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية

قام العلماء فى الجامعات لدى دول مجلس التعاون الخليجى بنشر ١٧٢٢ بحث فى عام ١٩٩٠ بالإضافة إلى ٢٧١٦ بحث فى عام ١٩٩٥، حيث تم عمل ٢٥٪ من تلك الأبحاث بالاشتراك مع علماء ينتمون لجهات غير عربية فى حين بلغ عدد ما تم عمله من تلك الأبحاث بالاشتراك مع دول مجلس التعاون الخليجى نحو ٧.٢٪ فى عام ١٩٩٠ و٦٪ فى عام ١٩٩٥(٢).

تحتل دول المغرب العربى أعلى نسب التعاون الدولى فى مجال عمل الأبحاث فى حين تعد نسبة التعاون الإقليمى لديها فى هذا الصدد من أقل النسب. لقد طرأت بعض التغيرات على معدلات التعاون الدولى فى مجال عمل الأبحاث لدى أربع من دول المغرب العربى فيما بين عامى ١٩٩٠ و١٩٩٥، حيث انخفض معدل التعاون الدولى لدى الجزائر من ٨٠٪ إلى ٦٩٪ من إجمالى عدد الأبحاث بينما ارتفع رصيد ليبيا من ٣١٪ إلى ٦٠٪ وكذلك رصيد المغرب من ٦٤٪ إلى ٧٤٪ وتونس من ٢٩٪ إلى ٦٤٪. وبذلك يكون متوسط معدلات التعاون الدولى فى مجال عمل الأبحاث لدى دول المغرب العربى قد ارتفع من ٥٤٪ إلى ٦٤٪ خلال تلك الفترة. لقد قام العلماء فى كل من الجزائر والمغرب وتونس بنشر عدد إجمالى من الأبحاث يصل إلى ١٢٦٤ بحث خلال عام ١٩٩٥ منها ٨٠٤ أبحاث تم عملها بالاشتراك مع علماء من خارج دولهم. ومما يثير الدهشة هنا هو أن ١١ بحثا فقط من جملة الـ ٨٠٤ أبحاث سالفة الذكر هو ما اشترك فى عمله علماء ينتمون لاثنتين من دول المغرب العربى فى حين أن واحدا فقط من تلك الأبحاث الأحد عشر قد تم عمله بواسطة علماء دول المغرب العربى فقط، ولذلك يمكن القول بأن معدل التعاون الإقليمى فى مجال



عمل الأبحاث هو معدل متضائل للغاية.

يصل معدل التعاون الدولى فى مجال عمل الأبحاث لدى دول المشرق العربى إلى ٢٥٪ من إجمالى ما يتم عمله لدى تلك الدول من أبحاث، فى حين أن معدل التعاون فيما بين تلك الدول فى هذا المجال هو معدل محدود للغاية.

النظم العلمية والتكنولوجية لدى العرب:

تعود الأزمة التى تمر بها التنمية العربية إلى أن الدول العربية لا تحصل على العوائد التى من المفترض أن تحصل عليها من خلال استثماراتها فى كل من الموارد البشرية وعمليات الأبحاث والتنمية وتكوين إجمالى رأس المال الثابت، وهذا ما يمكن إرجاعه بشكل كبير إلى تردى حالة النظم العلمية والتكنولوجية القومية.

النظم العلمية والتكنولوجية هى بطبيعتها نظم مكثفة من التكنولوجيا المعقدة تشمل الهيئات والمنظمات المختلفة، وتتمثل أهم وظائف تلك النظم فى إنتاج وتراكم واكتساب ونشر المعرفة وكذلك تحويلها إلى عناصر هامة ومفيدة.

إن جودة وكفاءة الروابط بين مختلف مكونات النظم العلمية والتكنولوجية تلعب دور حاسم لا يقل أهمية عن الدور الذى تلعبه مكونات تلك النظم فى حد ذاتها؛ أو بمعنى آخر، مكونات تلك النظم ستكون غير ذات أهمية ما لم توجد هذه الروابط[٨].

من العوامل التى تحول دون تكوين الروابط سالفة الذكر هى تلك السياسات الاقتصادية والعلمية السائدة وما يصاحبها من ضعف (وفى أغلب الأحيان انعدام) الجمعيات والاتحادات المهنية العربية وكذلك الافتقار إلى التمويل الموجه لدعم تنقلات العلماء العرب للمشاركة فى المؤتمرات والأنشطة العلمية على المستويات القومية والإقليمية والدولية.

تتحدد كل من إنتاجية العمالة والقدرة على اكتساب وتراكم التقنيات الحديثة من خلال مدى الربط بين مهارات العمالة وتأهيلها وإدارتها من ناحية والنظم العلمية والتكنولوجية من ناحية أخرى. إن الالتفات إلى إنتاجية وأداء العمالة يعد من العوامل الأساسية فى بناء القدرة التنافسية لدى اقتصاد أى أمة.

فى عام ١٩٧٠ اقتربت الدول العربية من مستويات إنتاجية العمالة لدى كل من اليابان وأوروبا، ولكن من الغريب أن

الجدول رقم (٥): التعاون الإقليمى والدولى بين الباحثين فى العالم العربى خلال عام ١٩٩٥

الدولة	العدد الإجمالى للأبحاث التى تم إنتاجها	عدد ونسبة الأبحاث المشتركة	الدول المشاركة فى أكبر عدد من الأبحاث المشتركة	عدد الأبحاث التى شاركت فيها منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية	عدد الأبحاث التى شاركت فيها دول عربية	عدد الأبحاث التى شاركت فيها جهات متعددة الجنسيات
الجزائر	٣٢٨	٢٢٧ (٦٩٪)	فرنسا ١٥١ (٦٥٪)	١٨٧ (٨١٪)	٣ (١٪)	
البحرين	١٠٦	٢٩ (٢٧٪)	المملكة المتحدة ٧ (٢٤٪)	١١ (٣٨٪)	٣ (١٠٪)	٦ (٢١٪)
مصر	١٩٩٩	٥٨٥ (٢٩٪)	أمريكا ١٥٤ (٢٦٪)	٣٦٧ (٦٣٪)	١٢٣ (٢١٪)	٤٩ (٨٪)
العراق	١١٤	٣٤ (٣٠٪)	أمريكا ٥ (١٥٪)	٢٠ (٥٩٪)	١٢ (٣٥٪)	٠٠
الأردن	٢٦٦	٩٥ (٣٦٪)	أمريكا ٢٣ (٢٤٪)	٥٨ (٦١٪)	١٨ (١٩٪)	١٢ (١٣٪)
الكويت	٢٩٠	١١٧ (٤٠٪)	أمريكا ٢٥ (٢١٪)	٥٦ (٤٨٪)	٢٦ (٢٢٪)	١٧ (١٥٪)
لبنان	٧٣	٣٢ (٤٤٪)	أمريكا ١٤ (٤٤٪)	٢٧ (٨٤٪)	١ (٣٪)	٤ (١٣٪)
ليبيا	٥٨	٣٥ (٦٠٪)	المملكة المتحدة ٩ (٢٦٪)	١٦ (٤٦٪)	٧ (٢٠٪)	٤ (١١٪)
موريتانيا	٧					
المغرب	٥٣٦	٣٩٥ (٧٤٪)	فرنسا ٢١٤ (٦١٪)	٣١٤ (٨٠٪)	٢ (٥,٠٪)	٦١ (١٥٪)
عمان	٨٤	٣٧ (٤٥٪)				
فلسطين	١٦					
قطر	٥٩	٣٦ (٥٤٪)	مصر ٢٣ (٦٤٪)	٩ (٢٥٪)	٢٤ (٦٧٪)	٢ (٦٪)
السعودية	١٢٤٠	٢٩٤ (٢٤٪)	أمريكا ٧٢ (٢٥٪)	١٦١ (٥٥٪)	٧٩ (٢٧٪)	٢٦ (٩٪)
الصومال	٦					
السودان	١١٢	٧٤ (٦٦٪)	أمريكا ١٠ (١٤٪)	٤٥ (٦١٪)	١١ (١٥٪)	١٣ (١٨٪)
سوريا	١٣٤	٨١ (٦٠٪)*	فرنسا/المملكة المتحدة ١٦	٤٤ (٨٦٪)		٢ (المركز الدولى للأبحاث الزراعية فى المناطق الجافة ICARADA)
تونس	٣٤٢	١٤٧ (٤٦٪)	فرنسا ٨٧ (٥٩٪)	١٢٢ (٨٣٪)	٣ (٢٪)	١٧ (١٢٪)
الإمارات	١٣٧	٥٥ (٤٠٪)	مصر ١١ (٢٠٪)	٢٦ (٤٧٪)	٢٢ (٤٠٪)	٦ (١١٪)
اليمن	٣٠	٢٨ (٨٣٪)	فرنسا/المملكة المتحدة ١٦	١٥ (٥٤٪)	٨ (٢٩٪)	٤ (١٤٪)
الإجمالى	٥٩٣٧	٢٣٠١ (٣٩٪)	٧٥٤ (٣٣٪)	١٤٧٨ (٦٤٪)	٣٤٢ (١٥٪)	٢٢٣ (١٠٪)

* يشمل ذلك ٢٩ بحثاً تم إصدارها من جانب علماء لدى (ICARADA).

❖ مصدر بيانات هذا الجدول: المؤلف الخاص بالدكتور أ.ب.زحلان بعنوان «العلم والتكنولوجيا لدى العالم العربى: يمضيان بلا تغيير»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-١٩٩٩ (باللغة العربية)

تأخذ مستويات إنتاجية العمالة لدى الدول العربية فى الانحدار مع بداية عصر ازدهار البترول فى عام ١٩٧٤ واستثمار ٢٠٠٠ بليون دولار فى تكوين إجمالى رأس المال الثابت مع حلول عام ٢٠٠٠ وكذلك التوسع الشامل فى الأنظمة التعليمية على كافة المستويات[٩]. وتشير التقديرات إلى أن الدول العربية تستثمر مبلغاً يتراوح بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ بليون دولار فى مشروعات جديدة تعتمد بشكل شبه حصرى على أسلوب عقود المشروعات المتكاملة (أو ما يعرف بعقود تسليم مفتاح).

يعد الانحدار فى معدل أداء العمالة العربية بمثابة ظاهرة متفردة وذلك نتيجة الاعتماد المتزايد على أنماط التعاقد القائمة على عقود المشروعات المتكاملة «عقود تسليم مفتاح» وأسلوب استحواذ العميل فى ذات الوقت الذى زادت فيه أعداد المتخصصين والموارد المالية؛ وهذا يرجع إلى انعدام التكامل فيما بين كل من النظام التعليمى والوضع الاقتصادى وسوق العمل.

يمكن تلخيص المعوقات التى تواجه عملية التنمية فيما يلى:

- السياسات المتبعة من قبل القطاع العام والمتمثلة فى إبرام عقود مشروعات متكاملة «عقود تسليم مفتاح» مع جهات استشارية دولية متخصصة فى التصميمات الهندسية مع توجيه اهتمام محدود نحو اكتساب المعرفة.
- التكامل الرأسى بين المؤسسات الصناعية القومية الرئيسية واعتمادها الكبير على موردى الخدمات المتصلة بالصناعة العالمية وبالتالى عدم الالتفات إلى الجهات القومية والإقليمية.
- التطبيق المحدود لأساليب إسناد الأعمال والتعاقد من الباطن من جانب الشركات المملوكة للدولة وشركات القطاع الخاص.
- أوجه القصور لدى الهيئات العلمية والمهنية قومية كانت أم إقليمية.
- محدودية الاهتمام الموجه نحو التكنولوجيا التفكيكية والهندسة العكسية.
- قلة الدراسات التى يتم إجراؤها إقليمياً فيما يتعلق بالسياسة العلمية.
- ندرة الأماكن المخصصة للعلوم والتكنولوجيا حول الجامعات والمدارس الفنية، بغرض الترويج نقل التكنولوجيا إلى المشروعات الصغيرة والمتوسطة.

• رداءة خدمات المعلومات الفنية والإحصائية[10].

• تدنى مستوى الحوافز الباعثة على الابتكار.

• ضعف الأليات المخصصة لدعم أفضل الممارسات.

• عدم توجيه الاهتمام المناسب نحو تشجيع المنافسة.

• توجيه قدر ضئيل من الاهتمام نحو إنتاجية العمالة ومراقبة الجودة[11].

الإجراءات الواجب اتخاذها:

لقد لوحظ من القسم الأول من هذه الدراسة أن ما لدى العرب من رأس مال بشرى وإمكانات فى مجال البحث والتنمية وموارد طبيعية يضاهى أو أحيانا يفوق ما لدى كل من الصين والهند من تلك العوامل، وذلك على أساس الفرد الواحد، فى حين يقل مستوى أداء الدول العربية بكثير عن مستوى الأداء لدى كل من هاتين الدولتين. إن إصلاح السياسات الحالية لن يصبح ممكنا إلا فى ضوء الفهم المتعمق للأسباب الباعثة على تدنى مستوى الأداء لدى الدول العربية بالمقارنة بالدول الأخرى.

يتطلب تفهم الصعوبات الحالية بكل ما يكتنفها من تعقيد إجراء كم كبير من الأبحاث خاصة فى المجالات الاقتصادية والإدارية وكذلك فى مجال السياسة العلمية، بحيث يتسنى لنا كعرب تحديد ما يواجهنا من مشكلات عديدة وبالتالى إيجاد الحلول العملية لتلك المشكلات.

وهناك بعض السبل المتعارف عليها تتسم بعاملى السرعة وانخفاض التكلفة ويمكن من خلالها نشر الخبرات وتدعيم الأبحاث فى المجالات سالفة الذكر بشكل تدريجى. ومما يسهل اتباع تلك السبل توافر رأس المال البشرى وكثرة الجامعات لدى الدول العربية.

يعد تدريب وتأهيل القوى العاملة من أهم الإجراءات التى يجب اتباعها لزيادة العمالة وخفض التكاليف، حيث يهدف هذا الإجراء إلى تعزيز قدرات العمالة ورفع مستوى الإنتاجية فيما يتعلق بالتقنيات التى يوجد عليها طلب كبير وكذلك ضمان رواج تلك العمالة من خلال تأهيلهم بالشهادات التى تعكس مهاراتهم.

تعد مؤسسات الاستشارات والمقاولات العربية من أهم أدوات تحويل الاستثمارات الموجهة نحو التعليم والأبحاث والتنمية إلى منافع اقتصادية. لذلك يجب إعطاء الأولوية للإجراءات التى تمكن تلك المؤسسات من زيادة حصتها فى السوق، وهذا ما سوف يؤدى بدوره إلى دعم القدرة على منافسة شركات المقاولات الأجنبية فى الأسواق المحلية. وتشمل تلك الإجراءات تحسين الخدمات المالية، تأسيس نظام قانونى وتشريعى يتسم بالكفاءة، تدريب وتأهيل العمالة، وتوفير خدمات معلوماتية وإحصائية تتصف بالدقة والفعالية. من شأن الإجراءات سالفة الذكر تدعيم الروابط بين كل من مؤسسات الاستشارات والمقاولات، والمنظمات المهنية، والجامعات والموارد البشرية العربية[12]. كما يمكن من خلال تلك الإجراءات إحراز العديد من المنافع والأرباح على المستويين الاجتماعى والاقتصادى.

تمويل اللقاءات العلمية:

تعد ندرة التعاون بين العلماء فى الدول العربية من أهم العراقيل التى تحول دون الاستفادة من رأس المال البشرى المتاح. تمثل اللقاءات العلمية آلية منخفضة التكلفة لإجراء المناقشات والمبادلات العلمية بين المتخصصين، ولهذا فإن زيادة التمويل الموجه إلى المؤتمرات العلمية داخل الوطن العربى من شأنه تمكين العلماء من تضفير مجهوداتهم والعمل مجتمعين بشكل أفضل.

تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات:

تحتل الدول العربية مكانة متأخرة فى مصاف الدول فيما يتعلق بتطوير قطاعات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات على الرغم من قيام الدول العربية بشراء كم هائل من الخدمات المتصلة بتلك التكنولوجيا والأجهزة اللازمة للعديد من المجالات والجهات كالاتصالات العسكرية، خدمات التليفزيون والإذاعة، الصناعات المختلفة، الهيئات الحكومية، المطارات والخطوط الجوية، والبنوك. لا بد من توجيه الجهود المشتركة نحو تحليل مكونات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الخاصة بعقود المشروعات الضخمة مما سيكفل دعم المشاركة المحلية فى مجال نقل التكنولوجيا والابتكار فى هذا المجال الحيوى.

لا بد أن يتم تضييق نطاق الفجوة المعرفية لدى العرب من خلال سبل سوية ومنخفضة التكلفة بما سيسهم بشكل كبير فى تحقيق المنفعة العامة والاعتماد على الذات والرخاء على المستوى القومى.

هوامش:

(*) خلال حملته الانتخابية للفوز بالرئاسة الأمريكية عام ١٩٩١، استخدم الرئيس الأمريكى بيل كلينتون (تولى الرئاسة من ١٩٩٢ حتى ٢٠٠٠) شعار It's economy Stupid للتدليل على أهمية الاقتصاد فى تحديد توجهات الناخب الأمريكى.

١ ـ يستخدم المصطلح «رأس المال البشرى» للإشارة إلى «الأشخاص المتعلمين». ومن المصطلحات شائعة الاستخدام أيضا فى الآونة الأخيرة مصطلح «الكوادر فائقة المهارة - (HSP)»، وهو ما يطلق على خريجى الجامعات. حيث حل هذا المصطلح محل مصطلح آخر كان يستخدم فى الماضى بنفس المعنى: ألا وهو «القوى العاملة عالية المستوى»، وهو ما يترجم بالإنجليزية إلى «High Level Manpower». ولكن هذا المصطلح اندثر فى الوقت الحاضر بعد احتلت قضايا المرأة مركزا هاما على الساحة.

٢ ـ س.ت.ك نعيم وعطاء الرحمن (محررين). «موقف البحث العلمى لدى الدول الأعضاء فى منظمة الدول الإسلامية»، COMESTECH، باكستان (إصدار عام ٢٠٠٦). يفرد هذا الإصدار فصل خاص بكل واحدة من الدول الأعضاء يستعرض اهم المعلومات عن سكانها. التغيرات التى طرأت على الوضع التعليمى لها خلال العقد المنقضى. معلومات عن أبرز عشرة فروع من العلم لديها. مجالات البحث العلمى الخاصة بها خلال الخمس أو العشر سنوات الماضية. الجامعات ذات الإنتاجية الموجودة فيها. أبرز مفكريها والجامعات التى ينتمون إليها. أعداد واتجاهات الإصدارات العلمية لديها خلال العقد المنقضى. وصادراتها والناتج المحلى الإجمالى الخاص بها.

٣ ـ اليونسكو. «التقرير العلمى الصادر عن اليونسكو فى عام ٢٠٠٥». اليونسكو ٢٠٠٥.

٤ ـ أ.ب. زحلان. العلم والتكنولوجيا لدى العالم العربى: يمضيان بلا تغيير. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ١٩٩٩ (باللغة العربية).

٥ ـ أ.ب. زحلان. ibid.

٦ ـ ستيفان واشتى، بينجامين ف. جونز وبرايان أوزى «تزايد هيمنة فرق البحث على مجالات إنتاج المعرفة». Science ٣١٦، رقم ٥٨٢٧. الصفحات من ١٠٣٦-١٠٣٩. ١٨ مايو ٢٠٠٧.

٧ ـ يمكن الاطلاع على المزيد من المعلومات بشأن التعاون الإقليمى والدولى فى مجال الأبحاث والتنمية من خلال (زحلان - ١٩٩٩).

٨ ـ تم مناقشة تلك الموضوعات تفصيليا فى أحد إصدارات أ.ب زحلان بعنوان «صناعات البناء لدى العرب»، Croom Helm. لندن. ١٩٨٣، حيث تم نشر نفس الإصدار باللغة العربية من جانب مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ١٩٨٣. وكذلك من الإصدارات الأخرى الخاصة بزحلان فيما يتعلق بنفس الموضوعات هو إصدار بعنوان «اكتساب القدرات التكنولوجية: دراسة بشأن شركات الاستشارات والمقاولات العربية»، Macmillan، لندن، ١٩٩٠، حيث تم نشر نفس الإصدار باللغة العربية من جانب كل من مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ١٩٩٠ وزحلان (١٩٩٩).

٩ ـ أ.ب. زحلان، «إنتاجية العمالة والمنافسة». المشرق العربى، رقم ٢، الصفحات من ٩٨-١١٢. ١٩٩٤.

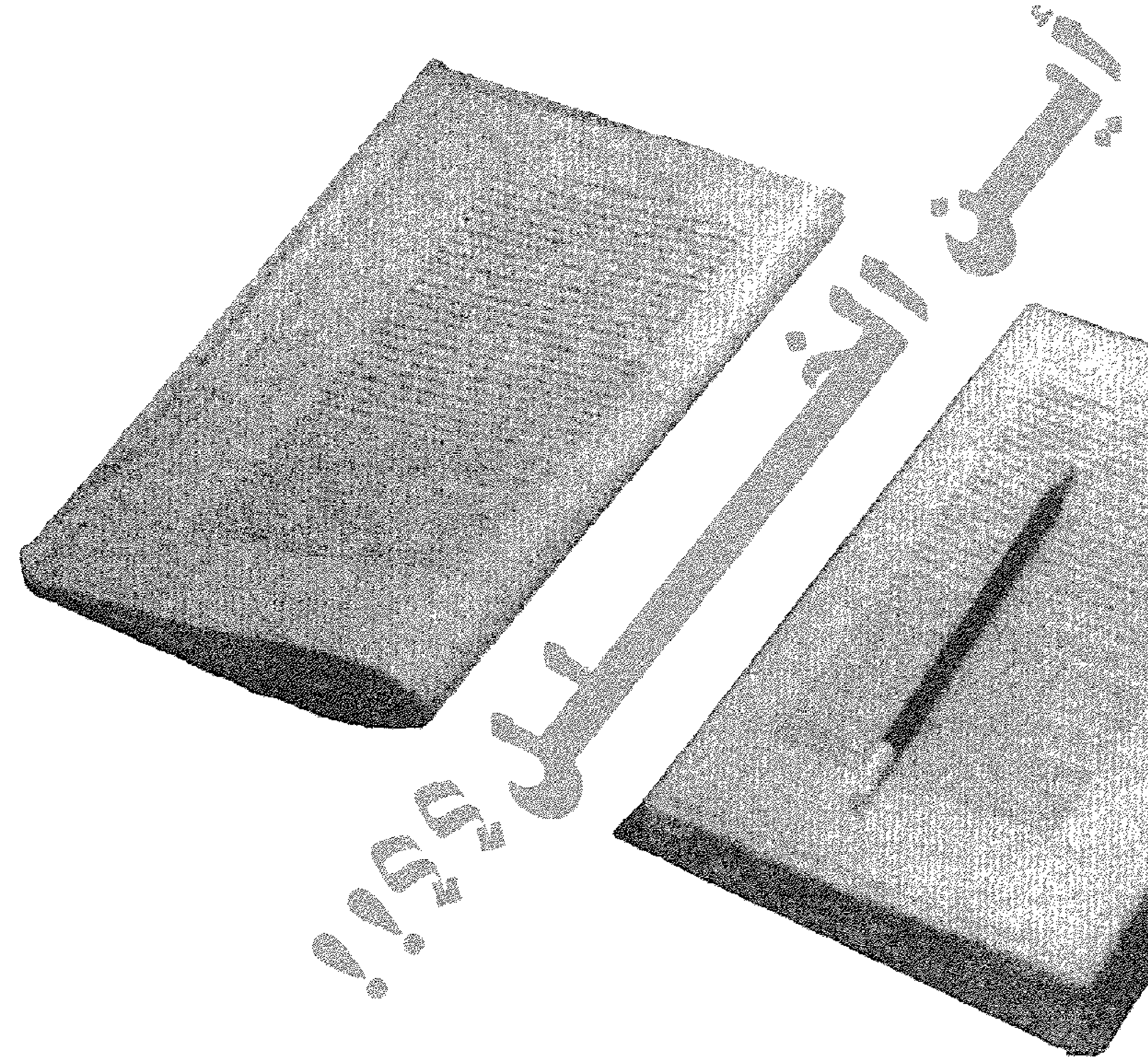
١٠ ـ بالطبع هناك بعض الاستثناءات من ذلك.

١١ ـ تم توجيه بعض الجهود فى العديد من الدول العربية نحو تحسين معايير ونظم مراقبة الجودة لديها.

١٢ ـ عماد مصطفى، «الإطار التنظيمى لعمليات اكتساب المعرفة ونقل وإدارة وتعريب التكنولوجيا» ٢٠٠٣.

النتاج البحثى العربى
قد ارتفع من ١١ بحثا تم نشرها
فى عام ١٩٨١ إلى ٣٣,٢ بحث تم نشرها
فى عام ٢٠٠٣ وذلك على أساس
كل مليون فرد

أين الخلل؟!!



معتز خورشيد

تعانى الجامعات الخاصة من نقص فى مواردها البشرية من هيئة التدريس والهيئة المعاونة، فى حين تمتلك الجامعات الحكومية كوادر تعليمية وبحثية أكثر عددا وقدرة علمية وتنوعًا أكاديميًا

تشهد مصر - فى الوقت الراهن - حواراً مجتمعياً متعدد الأطراف يدور حول الرؤى المستقبلية لتطوير منظومة التعليم العالى وتحديثها وإعادة هيكلتها وضمان جودة أدائها وتنظيم القدرة التنافسية لخريجيها على المستويين الإقليمى والعالمى. وتعود أهمية هذا الحوار إلى المكانة التى تحتلها منظومة التعليم فى أى مشروع قومى للتنمية الشاملة بمصر، وما يمكن ان تقوم به من دور محورى للارتقاء بالعنصر البشرى وتعظيم قدراته بغية اللحاق بعصر المعرفة ومجتمعات الحداثة بالألفية الثالثة.

وقد طُرحت - فى هذا الصدد - رؤى تطويرية متباينة ومقترحات إصلاحية بديلة على الأصعدة الأهلية والحزبية والحكومية الرسمية. كما نُظمت العديد من الندوات والحلقات النقاشية والمؤتمرات العلمية المتخصصة التى تسعى فى مجملها الى وضع استراتيجية متكاملة لإصلاح مسار العملية التعليمية والخروج بها من الحلقة المفرغة التى تحد من قدرتها على الانطلاق نحو تحقيق أهداف التنمية البشرية.

وبرغم الاختلافات فى الرؤى ومقترحات التطوير فقد اجتمعت الآراء على ضرورة ارتباط جهود الإصلاح بمعالجة الاختلالات الهيكلية فى منظومة التعليم العالى، حيث أفادت أدبيات التنمية الشاملة وبرامج الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى - على المستوى العالمى - أن مشكلة الدول النامية تكمن أساساً فى ماتعانيه من اختلالات هيكلية فى بنية المجتمع وما ينتج عنها من انعكاسات سالبة على معدلات الأداء الاقتصادى والاجتماعى وعلى قدرة الدول النامية على تحقيق الأهداف التنموية والارتقاء بالمستوى المعيشى للمواطن.

أولاً: أنواع الاختلالات الهيكلية

تفرق برامج التنمية بين نوعين من التشوهات الهيكلية فى بنية الاقتصاد والمجتمع. يتمثل النوع الأول فى عدم اتساق - أو توازن - هيكل الإنتاج وتوزيع الدخل والتجارة الخارجية والعمالة والسكان... إلخ. فالدول الخليجية تعانى - على سبيل المثال - من عدم اتساق فى هيكلها السكانى وقوة العمل بها من حيث تنامى نسبة العمالة الوافدة وتراجع معدلات مشاركة قوة العمل الوطنية فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى. فى حين تعانى دول نامية أخرى من تحيز فى هيكلها الإنتاجى تجاه النشاط الخدمى مع تقلص فى الدور التنموى لقطاعها الصناعى. ويلاحظ أيضاً تزايد اعتماد الدول النامية على الواردات من العالم الخارجى مع تدنى دور الإنتاج الوطنى فى إشباع الطلب المحلى على السلع والخدمات. كذلك تعتبر ظاهرة نقص موارد الدول النامية من النقد الأجنبى نتيجة مباشرة لاختلال العلاقة بين الصادرات والواردات فى ميزان المدفوعات.

أما النوع الثانى من الاختلالات البنيوية فيتمثل فى وجود ازدواجية بين قطاعات الاقتصاد وشرائح المجتمع بدول العالم الثالث. فتباين معدلات التنمية البشرية ومستوى الخدمات الاجتماعية بين المناطق الريفية والحضرية يمثل إحدى المشاكل الهيكلية للعديد من الدول النامية، كما يمثل

تباين مستوى الأجور السائدة في القطاع الخاص عن مستوى الرواتب التي يتقاضاها العاملون بالقطاع العام نوعية أخرى من الازدواجية ذات التأثير السالب على جهود التنمية الشاملة. كذلك يمكن اعتبار اختلاف مستوى التكنولوجيا المطبقة في القطاعات الصناعية المنظمة عن التقنيات السائدة في قطاعات الاقتصاد غير المنظم ازدواجية تتطلب اتباع السياسات والتدابير الملائمة للتقليل من آثارها السالبة على الاداء الاقتصادي والاجتماعي.

ومن هنا فقد توجهت معظم الخطط الإنمائية - وما تتضمنها من برامج تنفيذية - إلى معالجة الاختلالات الهيكلية والقضاء على الازدواجية السائدة في البنية الاجتماعية والاقتصادية بالدول النامية كأحد المتطلبات الرئيسية لإصلاح المسار الاقتصادي والاجتماعي وتحقيق أهداف التنمية الشاملة.

وبالمثل، يتسم نظام التعليم العالي بمصر بشيوع العديد من الاختلالات في هيكله والتشوهات في بنيته الأساسية بما يهدد جهود الإصلاح الراهنة ويحد من قدرتها على تحقيق الأهداف التعليمية المرغوبة.

ثانياً: الاختلال بين مخرجات التعليم وسوق العمل

يعتبر الاختلال بين مخرجات التعليم ومتطلبات سوق العمل من أهم المشاكل الهيكلية التي يتعين التصدي لها من قبل متخذ القرار التعليمي وخبراء التعليم العالي والبحث العلمي على المستوى الوطني. إذ يمكن تفسير مشكلة البطالة الهيكلية ليس فقط بالفجوة الكمية بين حجم المخرجات التعليمية وما يمكن أن يوفره المجتمع وقطاعاته الإنتاجية من فرص عمل للخريجين، ولكن أيضاً بقصور مؤسسات التعليم العالي الوطنية في إعداد خريج قادر على التفاعل مع متطلبات أسواق العمل والمنافسة على المستويين المحلي والإقليمي بما يتناسب مع عصر العلم والتكنولوجيا ومجتمعات المعرفة وعولمة الأنشطة الإنتاجية والخدمية..

وبناء على ما سبق فإن التغلب على هذه القضية الهيكلية يتطلب من قبل وزارة التعليم العالي والمجلس الأعلى للجامعات ومجلس الجامعات الخاصة في مصر بالاشتراك مع وزارة التنمية الاقتصادية - المسئولة عن صياغة خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية - إعداد دراسة شاملة تقوم بقياس الفجوة المستقبلية بين مخرجات منظومة التعليم العالي (عرض قوة العمل) ومتطلبات القطاعات الإنتاجية والخدمية من الخريجين وفق الفئة المهنية للخريج موزعة على المحافظات والأقاليم الحضرية والريفية بمصر (الطلب على قوة العمل). وتعتبر هذه الفجوة بين قوى العرض وعناصر الطلب من المؤشرات التخطيطية الهامة لتخصيص الاستثمارات في قطاعات التعليم العالي العامة والخاصة والأهلية، من حيث تأثيرها على المواءمة بين مخرجات العملية التعليمية ومتطلبات أسواق العمل. ويمكن بطبيعة الحال تبني سياسات من شأنها إعداد طالب التعليم العالي وفق متطلبات المجتمع المعرفي بالألفية الثالثة من ناحية، وتوجيهه الى التخصصات العلمية الأكثر طلباً في أسواق العمل الوطنية والإقليمية من ناحية أخرى.

ثالثاً: الازدواجية بين الجامعات الخاصة والعامة

تعاني منظومة التعليم من اختلال رئيسي يتمثل في الازدواجية (Duality) بين الجامعات العامة ومؤسسات التعليم العالي الخاصة، ويمكن رصد هذه الازدواجية بين الجامعات الخاصة والعامة في النقاط التالية:

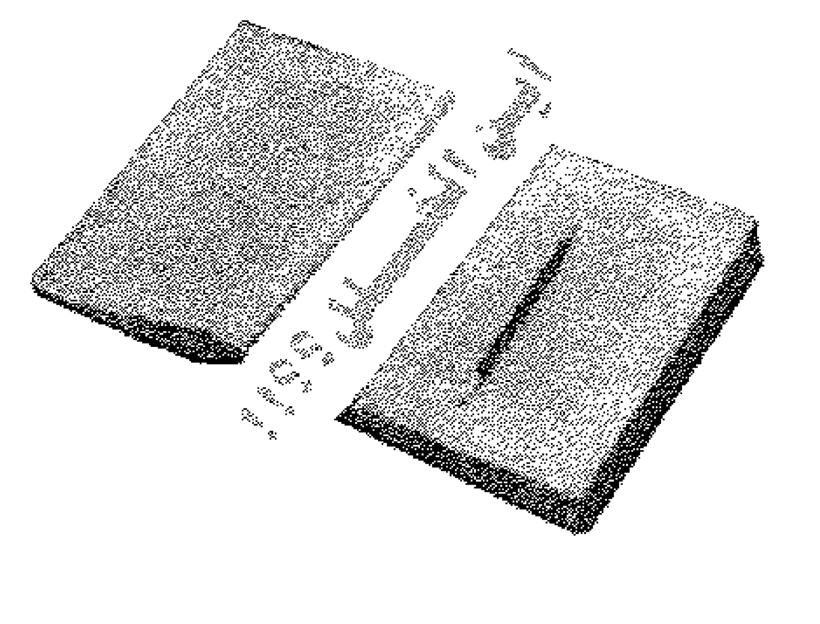
١ - تعاني الجامعات الخاصة من نقص في مواردها البشرية من هيئة التدريس والهيئة المعاونة، في حين تمتلك الجامعات الحكومية كوادر تعليمية وبحثية أكثر عدداً وقدرة علمية وتنوعاً أكاديمياً. ففي جامعة القاهرة - على سبيل المثال - يقدر حجم هيئتها العلمية - في عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥ - بما يزيد على عشرة آلاف عضو منهم نحو ستة آلاف ونصف أستاذ جامعي، في حين يتراوح عدد أعضاء هيئة التدريس المعينين بالجامعات الخاصة (١٠٠-٢٠٠) عضو في المتوسط. وتنعكس هذه الازدواجية في تعاظم طلب الجامعات الخاصة - التي يصل عددها في الوقت الراهن إلى ١٦ جامعة - على أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الحكومية، وعلى وجه الخصوص في التخصصات العلمية الأكثر حداثة ومن أعضاء هيئة التدريس الأكثر خبرة وكفاءة علمية، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى استنزاف الكوادر البشرية المتميزة بالجامعات الحكومية. وفي محاولته لعلاج هذا التباين، وضع مجلس الجامعات الخاصة قواعد حاكمة لتقدير أعداد هيئة التدريس المعينين بالجامعات الخاصة وتوازن هذا العدد مع حجم الإعارات والانتدابات من الجامعات الحكومية. بيد أن هذا التوجه المرغوب يتعين أن يصاحبه سياسة مكملة لاختيار أعضاء هيئة التدريس تضمن مستوى جودة التعيينات بالقطاع الخاص.

٢ - بالإضافة إلى التباين في توافر الموارد البشرية بين القطاعين الخاص والعام، فإن منظومة التعليم المصري تشهد اختلالاً واضحاً في معدلات الأجور المطبقة بالجامعات الحكومية والخاصة. ففي حين يصل مرتب الأستاذ الجامعي بالجامعات الحكومية الى نحو ثلاثة آلاف جنيه في المتوسط، فإن مرتبه بأي جامعة خاصة قد يصل إلى ثمانية أو عشرة آلاف جنيه شهرياً. وبصرف النظر عن الخلاف في معدلات الاستخدام السائدة في كل من الجامعات الخاصة والعامة، فإن هذا الاختلال في منظومة الأجور من الممكن أن يساهم في خلق مناخ غير صحي قد يهدد كفاءة أداء منظومة التعليم العالي ككل. وحيث ان الأجور بالقطاع الجامعي الخاص تعكس - إلى حد كبير - التكلفة السوقية لوظيفة الأستاذ الجامعي، ونظراً لتوجه الدولة السياسي والاقتصادي نحو تحرير الأسعار والأجور بشكل شامل والارتقاء بجودة التعليم العالي، فإنه يتعين إعادة النظر في منظومة الأجور والمرتبات والمكافآت بقطاع التعليم العالي العام، والسعي إلى تذويب الفوارق بين ما يتقاضاه أعضاء هيئة التدريس في كل من القطاعين العام والخاص.

٣ - تتميز الجامعات الخاصة بوفرة مواردها المالية مع تواضع أعداد الطلاب بها، في حين تعاني الجامعات الحكومية من تكدس في أعداد طلابها ونقص في مواردها المالية المتاحة. ويعود التناقص في أعداد الطلاب بالجامعات الخاصة إلى صغر الشريحة المجتمعية القادرة على سداد رسومها الدراسية المرتفعة من ناحية، وعدم سعيها إلى تنويع التخصصات العلمية بكلياتها ومعاهدها استكمالاً للمجالات الأكاديمية غير المتوافرة بالجامعات الحكومية، من ناحية أخرى. أما التكدس العددي بالجامعات الحكومية فيعود - بطبيعة الحال - إلى سياسة الحكومة الحالية للتوسع في إتاحة التعليم العالي بمصر وفق التوجه العالمي نحو ديمقراطية التعليم وإتاحته للقادر وغير القادر من شرائح المجتمع. ويتطلب علاج هذه المشكلة الهيكلية أن تسعى الجامعات الخاصة إلى تطوير تخصصات علمية غير متوافرة (أو غير مكتملة) بالجامعات الحكومية، مع استكمال مواردها البشرية وربط مستوى رسومها الدراسية بمعدلات جودة أدائها والتكلفة المرتفعة لإمكاناتها المادية. كما يتطلب الأمر أن تتوجه الجامعات العامة إلى تعظيم جهودها في مجال البحث عن مصادر بديلة - غير حكومية - لتمويل انشطتها التعليمية والبحثية من خلال تقديم خدمات مجتمعية متميزة، مع توجه الحكومة إلى زيادة الطاقة الاستيعابية للجامعات الحكومية من خلال زيادة الاستثمارات في قطاع التعليم وتحفيز القطاع الخاص على المشاركة في دعم وتطوير منظومة التعليم العام.

٤ - مازالت الجامعات الحكومية - بحكم إمكاناتها البشرية وأعداد طلابها وخريجيها وبالتنوع في مناهجها العلمية - تقوم بالدور الرئيسي في منح الدرجات العلمية وتوفير الكفاءات المهنية التي تتطلبها سوق العمل المصرية والإقليمية العربية. ومازال دور الجامعات الخاصة محدوداً في هذا الشأن نظراً لحداثة تجربة التعليم العالي الخاص في مصر من ناحية، وتركيز الجامعات الخاصة على عدد محدد من التخصصات العلمية المتكررة بالتعليم العام دون الاجتهاد في تطوير برامج حديثة تخدم متطلبات سوق العمل، من ناحية أخرى. وحيث إن التجارب الدولية تفيد أن الدول التي حققت نجاحات في مجال تطوير التعليم العالي وتعظيم مساهمته في مجال التنمية البشرية، قد ارتكزت على نظم تعليمية مشتركة تعتمد على كل من القطاعين العام والخاص في تقديم الخدمات التعليمية، فإنه يتعين صياغة خطة قومية شاملة في مجال التعليم تسعى - في المدى الطويل - إلى الزيادة المخططة لمشاركة التعليم الخاص في منظومة التعليم العالي وتنسيق الأدوار بين القطاعين الخاص والعام فيما يخص تحقيق متطلبات سوق العمل والارتقاء بجودة العملية التعليمية والحفاظ على معدلات الإتاحة المرغوبة وفق التوجه العالمي لديمقراطية التعليم العالي.

أعداد الطلاب في بعض كليات التجارة الحكومية يقدر بنحو (٥٠) ألف طالب في المتوسط، في حين يصل عدد الطلاب بكليات الحقوق والآداب إلى ما يقارب (٢٥) إلى (٣٠) ألف طالب.



رابعاً: اختلال أعداد الطلاب والإمكانات

إلى جانب الازدواجية السائدة فى منظومة التعليم العالى بين المؤسسات العامة والخاصة، فإن الجامعات الحكومية تواجه مشكلة هيكلية رئيسية تتمثل فى اختلال العلاقة بين أعداد الطلاب والإمكانات المتاحة من قاعات تدريسية ومعامل بحثية وأجهزة علمية ومكتبات رقمية ووسائل تدريبية.

وتفيد مؤشرات التعليم العالى أن أعداد الطلاب فى بعض كليات التجارة الحكومية يقدر بنحو (٥٠) ألف طالب فى المتوسط، فى حين يصل عدد الطلاب بكليات الحقوق والآداب الى ما يقارب (٢٥) إلى (٣٠) ألف طالب. هذا فى الكليات النظرية - أى العلوم الإنسانية والاجتماعية - أما الكليات العملية مثل الهندسة والطب والحاسبات والمعلومات فقد تزايدت أعداد طلابها بشكل كبير خلال حقبتى الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضى وبداية الألفية الثالثة. فقد خرجت كلية الحاسبات والمعلومات بجامعة القاهرة - وهى كلية حديثة أنشئت فى عام ١٩٩٦م - دفعتها الأولى فى عام ٢٠٠٠م وكان عدد الخريجين لا يتجاوز المائة خريج. بيد أن عدد الطلاب فى الدفعات التالية - خلال الأعوام العشر الماضية - قد قفز من مائة طالب فى عام ١٩٩٦م إلى نحو (٧٠٠) طالب فى عام ٢٠٠٧م. وبالطبع فإن النمو الكبير فى أعداد الطلاب لم يقابله زيادة مماثلة فى حجم الموارد المالية والطاقة الاستيعابية والإمكانات المادية والبشرية.

ومما لاشك فيه أن هذا الاختلال الهيكلى يمثل عائقاً أساسياً يقلل من فرص الجامعات الحكومية لتحقيق أهداف ضمان جودة العملية التعليمية والبحثية وتأهيل طلابها للتفاعل مع متطلبات عصر العلم والتكنولوجيا ومجتمعات المعرفة.

وحيث إن التوجه نحو تطوير الأداء الجامعى وضمان جودته يعتبر ضرورة يفرضها مناخ التعليم العالى وأسواق العمل على المستويين الوطنى والعالمى، فإن علاج هذا الاختلال بين كثرة الأعداد الطلابية والإمكانات المادية للجامعات، يجب أن يحتل مرتبة متقدمة فى سلم أولويات استراتيجية التعليم العالى والبحث العلمى. ويمكن تحقيق ذلك من خلال حزمة متكاملة من السياسات تتمحور حول زيادة قدرة الجامعات الخاصة والأهلية والمعاهد العليا الفنية على استيعاب جزء من طلاب الجامعات الحكومية، وزيادة حجم الاستثمارات الحكومية والمشتركة لتحقيق الزيادة المرغوبة فى الطاقة الاستيعابية للجامعات الحكومية فى ظل مستويات مقبولة من جودة الأداء، وخلق مناخ مناسب يسمح بتعظيم الموارد الذاتية للجامعات العامة، واستخدام طرق تعليمية غير تقليدية لتقليل الاعتماد على أسلوب التدريس وجهاً لوجه مثل التعليم الإلكترونى والتعلم عن بعد، وأخيراً وليس آخراً التوجه إلى أنماط ونظم تعليمية أكثر مرونة مثل مراكز التعليم المفتوح والجامعات الافتراضية.

خامساً: الاختلالات المالية

الجامعات المصرية تعانى - فى معظمها - من اختلالات مالية هيكلية على مستويات متعددة. فالجامعات الحكومية تعانى - بشكل أساسى - من عدم الاتساق بين إيراداتها الذاتية وما توفره الحكومة لها من دعم مالى وبين متطلباتها من الإنفاق على العملية التعليمية والبحثية فى ظل مستوى مرغوب من جودة الأداء. وتمثل هذه الفجوة المالية عائقاً رئيسياً فى طريق تحقيق أهداف التطوير والتحديث للعملية التعليمية بوجه عام. كذلك تتسم الجامعات والمعاهد الخاصة بوجود اختلالات مالية تكمن فى تباين المعايير المستخدمة فى تحديد العلاقة بين مستوى ما تقدمه الجامعة أو المعهد من خدمات تعليمية وبحثية، وقيمة ما تحصله من رسوم دراسية. وبرغم تأثر مستوى هذه الرسوم التعليمية - وفق آليات السوق - بحجم الطلب على الخدمات التعليمية والمجال الأكاديمى للدراسة ومعدلات الربحية المرغوب تحقيقها، فإن توافق الرسوم الدراسية مع مستوى جودة الخدمات التعليمية المقدمة - وما تتضمنه من إنفاق مادى - يعتبر أمراً ضرورياً لضمان سلامة المنظومة السعرية بسوق التعليم العالى، ومن ثم استخدامها فى اختيار الطالب للجامعة أو المعهد الذى سيلتحق به. ومن هنا فإننا نشهد تبايناً غير منضبط فى الرسوم الدراسية على مستوى الجامعات الخاصة والأهلية - لا يعكس بالضرورة فروق جودة الأداء - بدءاً من ثلاثة آلاف جنيه سنويا فى بعض المعاهد العليا وصولاً الى نحو (٧٥) ألف جنيه فى إحدى الجامعات الخاصة.

وعلى مستوى آخر، فإن ميزانية الجامعات المصرية تتضمن عدم اتساق فى توزيع بنودها على عناصر الإنفاق، إذ يحتل باب الأجور والمرتبات نسبة مرتفعة من جملة الإنفاق فى الجامعات الحكومية، فى حين يتراجع حجم الإنفاق على البحث العلمى والتطوير وهو الأمر الذى يخل بقدرة الجامعة على استكمال أنشطتها التعليمية والبحثية والخدمية المجتمعية بالجودة والكفاءة المرغوبة. وتشير المؤشرات المالية بجامعة القاهرة - على سبيل المثال - إلى أن بند الأجور والمرتبات (الباب الأول) يقدر بنحو (٦٥٠) مليون جنيه سنوياً، فى حين تصل معدلات الإنفاق الجارى على البحوث (٨٠٠) ألف جنيه فقط (بند ٣ بحوث بالميزانية). ومن هنا فإن إعادة هيكلة الموازنة المالية للجامعات الحكومية وزيادة حجم الإنفاق على بعض أبوابها من خلال تنويع مصادر تمويلها الذاتى والتخصيص الأمثل للدعم الحكومى يمثل خطوة ضرورية فى اتجاه التصحيح الهيكلى لمنظومة التعليم الحكومية.

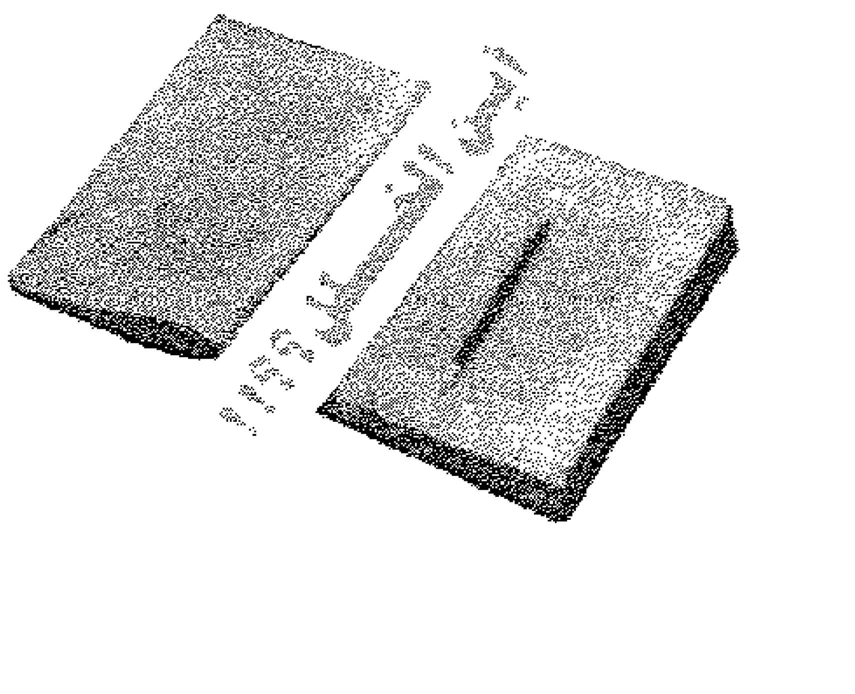
> **ميزانية الجامعات المصرية تتضمن عدم اتساق فى توزيع بنودها على عناصر الإنفاق، إذ يحتل باب الأجور والمرتبات نسبة مرتفعة من جملة الإنفاق فى الجامعات الحكومية، فى حين يتراجع حجم الإنفاق على البحث العلمى**

سادساً: البرامج الخاصة والمتميزة

ومما يزيد عملية التصحيح الهيكلى صعوبة، توجه الدولة - فى الوقت الراهن - نحو تطبيق سياسات من شأنها تعميق حدة هذه الاختلالات. إذ تؤدى البرامج الخاصة أو المتميزة بالجامعات الحكومية - التى بدأ تطبيقها فى الآونة الأخيرة بغية توفير موارد ذاتية إضافية للجامعة - إلى وجود أنماط أو نظم تعليمية متباينة داخل الكلية الواحدة تختلف فى مستوى جودة الخدمة التعليمية والأساليب والتكنولوجيات المستخدمة ومستويات الإشراف العلمى والإرشاد الأكاديمى، كما أن هذه البرامج الخاصة من الممكن أن تؤدى إلى إرساء مبدأ يتنافى مع التوجه العالمى لإتاحة التعليم بالجودة المرغوبة للقادر وغير القادر مالياً على حد سواء، على الأقل بالجامعات الحكومية. كما أنه يصعب قبول مبدأ المفاضلة بين الطلاب المتساوين فى القدرة العلمية بنفس المعهد أو المؤسسة العلمية بناء على الإمكانات المالية لأولياء الأمور، إذ إن هذا التوجه من الممكن أن يؤدى إلى خلق مناخ اجتماعى غير موائم بين الطلاب.

سابعاً: مهام الجامعة

يتعين الإشارة فى هذا الصدد إلى الاختلال فى دور الجامعات الذى قد ينشأ عن تباين الوزن النسبى لتوزيع جهودها بين مجالات التعليم والبحث العلمى وخدمة المجتمع وتنمية البيئة إلى جانب الدور التنويرى والثقافى. ومع قبول التوجه الراهن نحو تخصص بعض الجامعات فى مجال محدد مثل الجامعات ذات التوجه البحثى، أو جامعات الدراسات العليا، أو الجامعات التكنولوجية، غير أن الأمر المحقق - فى هذا الشأن - أن مسمى «الجامعة» قد نشأ أساساً بهدف تحقيق الحد الأدنى



«للجمع» بين التعليم والبحث والتنوير المجتمعي. وهنا يجب الإشارة أيضاً إلى قصور مغاير في الجامعات الحكومية من حيث سعيها إلى التعدد الكبير في التخصصات العلمية دون توافر المقومات المطلوبة لتحقيق هذا التوسع غير المنضبط في التخصصات. فتركيز الجامعات على مجالات تميزها العلمي والأكاديمي وفق ما تملكه من قدرات خاصة يعد توجهاً مرغوباً لتنمية القدرات وضمان جودة الأداء. ولا يعني ذلك عدم قيامها بأنشطة متنوعة في إطار التعليم والبحث العلمي والخدمة المجتمعية، ولكنها تقوم به في مجال تميزها العلمي وبقدر ما تملكه من قدرات متطورة. ومن هنا فإن البدائل المطروحة في الوقت الراهن لتقسيم الجامعات الحكومية الضخمة متعددة التخصصات إلى مجموعة من الجامعات المتخصصة ذات التميز النسبي يمثل - وفق المنطق السابق - توجهاً مرغوباً من الممكن أن يساهم في تقليل الاختلالات الهيكلية في منظومة التعليم العالي.

ثامناً: صعوبة الإتاحة مع الجودة

يتبقى أن نناقش - في نهاية هذه الدراسة - إحدى القضايا الرئيسية المثارة على ساحة التعليم المصري في الوقت الحالي، وهي مشكلة «الإتاحة مع ضمان الجودة». إذ تبنت الحكومة المصرية - خلال النصف الثاني من القرن الماضي - سياسة رامية إلى التوسع في إتاحة التعليم للراغبين فيه. وقد تناغمت هذه السياسة مع التوجه العالمي - وقرارات منظمة الأمم المتحدة - بأن التعليم يتعين أن يكون حقاً للقادر وغير القادر على حد سواء. وأن مفهوم «ديمقراطية التعليم» يجب أن يتسع ليشمل طبقات اجتماعية أكثر شمولاً. هذا وقد نجحت مصر في تحقيق معدلات إتاحة مرتفعة - في هذا المجال - وإن كان ذلك على حساب جودة الأداء، نظراً لقصور الموارد المالية والزيادة الكبيرة في أعداد الطلاب بالجامعات الحكومية.

وفي ظل تنامي دور العلم والتكنولوجيا في الألفية الثالثة والانتقال إلى المجتمعات المعرفية وتزايد حدة المنافسة في ظل المناخ الجديد للعولمة، فقد تعاظمت الحاجة إلى الاهتمام بقضايا ضمان الجودة والاعتماد على مستوى التعليم ما قبل الجامعي والتعليم العالي على حد سواء. ومن هنا فقد طرحت وزارة التعليم العالي والحزب الوطني رؤية تعليمية مغايرة مفادها أن السياسات التعليمية للدولة - خلال المرحلة المقبلة - يتعين أن تنتقل من التركيز على إتاحة فرص تعليمية لقاعدة عريضة من الطلاب - حتى وإن لم تتحقق مستويات الجودة المرغوبة - إلى التوجه نحو تعليم يسعى إلى ضمان جودة منظومة التعليم، حتى وإن نتج عن هذا التوجه انعكاسات سالبة على معدلات الإتاحة الحالية.

والمشكلة تكمن في صعوبة تطبيق هذه الرؤية المستقبلية وعدم القدرة على تحقيق أهدافها في ظل المناخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي المصري الراهن، حيث يتعذر تقنين الجودة مع استمرار الإتاحة في ظل الأعداد الكبيرة للراغبين في الالتحاق بالمرحلة الجامعية. وإن النقص المتوقع في الأعداد المقبولة بمؤسسات التعليم العالي الحكومية - الذي سينتج عن تطبيق معايير ضمان الجودة - سيتعذر تعويضه في ظل محدودية الإنفاق القومي على التعليم والبحث العلمي.

أي أن هذا الاختلال الناجم عن صعوبة - أو تضارب - هدفي الجودة والإتاحة في إطار منظومة التعليم العالي المصرية، يمكن اعتباره إحدى القضايا الهيكلية المطلوب مواجهتها. بيد أن هذه المشكلة تتطلب وضع استراتيجية قومية يشارك بها القطاعان الحكومي والخاص ومؤسسات المجتمع المدني لتطوير الجامعات الحكومية وتعظيم إمكاناتها المالية، وزيادة الطاقة الاستيعابية للتعليم العالي من خلال زيادة حجم الاستثمارات في التعليم العالي والتوسع في الجامعات الأهلية والخاصة بما يسمح بتوزيع أفضل لخريجي المرحلة الثانوية الراغبين في استكمال دراستهم العليا. كما يتطلب الأمر وضع سياسات تتضمن الاعتماد - بشكل أكبر - على أنماط ونماذج تعليمية مغايرة تسمح بدعم التوجه نحو الجودة دون التأثير سلباً على التوسع في التعليم العالي. فمما لا شك فيه أن مراكز التعليم المفتوح والجامعات الافتراضية ومراكز التعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد يمكن أن تمثل توجهاً مرغوباً لتحقيق هدف الجودة مع استمرار الإتاحة. ■

كتاب الزاوية

ابن العماد الأقفهسي

منابع النيل

إنه يخرج من جبل القمر، على ما ذكره الكندي، وذكره أيضاً المسعودي، وصاحب الأقاليم السبعة.قال: وإنه يخرج أصله من جبل القمر من عشرة عيون: خمسة تجتمع في بطيحة، يعني مكان مسطح من الأرض، ثم يجتمع بعد ذلك الماءان. وذكر صورة جبل القمر وأنه مقوس، وعلى رأسه شراريف هكذا.

وذكر المسعودي في مروج الذهب: أن الفلاسفة قالوا: إنه يجري على وجه الأرض تسعمائة فرسخ، وقيل ألف فرسخ في عامرها وغامرها، من عمران وخراب، حتى يأتي إلى بلاد أسوان من صعيد مصر، وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر. وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار، يجري النيل في وسطها، فلا سبيل إلى جريان السفن فيه. وهذا الموضع فارق بين مواضع سفن الحبشة في النيل، وبين سفن المسلمين، ويعرف هذا الموضع في النيل بالجنادل والصخور. ثم يأتي (النيل) الفسطاط، فينقسم خلجانات إلى بلاد: تنيس، ودمياط، ورشيد، وإلى إسكندرية، كل يصب إلى البحر (الرومي).

قال: وأصل النيل ومنبعه من تحت جبل القمر، ومبدأ ظهوره من اثنتي عشرة عيناً. وجبل القمر خلف خط الاستواء: يعني الذي يستوي فيه الليل والنهار، وأضيف إلى القمر لأنه يظهر تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه، بسبب النور والظلمة، والبدر والمحاق.

"تلات سلامات"

محمود الشريف

نبيل حنفي محمود

كانت أغنيات ابن مدينته: سيد درويش في طليعة ما ردده محمود الشريف أيامها من أغنيات ليطابق بين ما تعلمه عن الغناء والموسيقى وما يردده الناس من غناء، فاكتشف ولاحظ أصدقاؤه أن صوته مقبول في الغناء

■■ لست أدري متى استوقفتني تلك الملاحظة، ولكن الأمر المؤكد... أن ذلك حدث منذ سنوات ليست بالكثيرة وفي أحد الأيام الأولى من شهر رمضان المعظم، كنت يومها أستمع إلى أغنية «رمضان جانا» التي لحنها محمود الشريف وتغنى بها محمد عبدالمطلب، عندما قفزت تلك الملاحظة إلى عقلي في صورة التساؤل التالي: كيف صنع محمود الشريف لحنا كهذا عاش بين الناس لأكثر من نصف قرن؟. فإذا بهاتف من داخلي يرد على تساؤلي بتساؤل آخر: وهل كانت «رمضان جانا» وحدها من بين أعمال محمود الشريف التي عاشت بين الجماهير وقاومت الزمن والنسيان؟. بدا التساؤل الأخير آنذاك كلمعة البرق، فبدد ما أحاط باسم محمود الشريف في عقلي من ظلال وحجب، ووجدت نفسي أردد أسماء ومطالع أغنيات كثيرة اختزنها عقلي في مستويات الوعي المختلفة وكانت جميعها من تلحين محمود الشريف، تذكرت يومها الأغنيات التالية: «ياحمام البر» لأحلام - «تلات سلامات» لمحمد قنديل - «أبيض ياوردي» لشادية - «يا سيدي أمرك» لعبد الحليم حافظ - «القلب والا العين» لسعاد محمد - «ياوله يا وله» لعبد الغني السيد - «عاد السلام يا نيل» لفايدة كامل و«الله أكبر» للمجموعة. أغنيات حفظتها الذاكرة... فهي لا تغيب ولا تنسى لأنها تشكل للمرء والأمة تراثاً وهوية. محمود الشريف.. هذا العبقري.. كيف نسيناه في زحمة الحياة وهجمة الأغاني الشبابية والفيديو كليب؟، وكيف أصبح لقب الموسيقار في أيامنا هذه يطلق على كل من هب ودب ومن لم يأت بواحدة - واحدة فقط - من مثل روائع محمود الشريف التي لا تموت؟. والمقال الحالي يهتم برصد أهم المراحل في مسيرة محمود الشريف الفنية ويحاول أيضاً أن يجلو بعض الخصائص المميزة لإبداعاته الغنائية والموسيقية.

الميلاد والنشأة

خيمت أجواء من الحزن والقلق على الإسكندرية في صباح السبت الثالث من جمادى الأولى من سنة ١٣٣٠ هـ والموافق العشرين من أبريل عام ١٩١٢م، كان مبعث الحزن ما تناقلته الصحف عن حادث غرق السفينة تيتانك خلال رحلتها الأولى والأخيرة في مساء الاثنين الخامس عشر من أبريل ١٩١٢ م. بينما جاء القلق مما حملته الصحف من برقيات تلغرافية عن مهاجمة الأسطول الإيطالي لبعض مناطق الدولة العثمانية في اليوم السابق وهو الجمعة الموافق التاسع عشر من أبريل، ومصر أيامها كانت ولاية عثمانية. وفي نفس اليوم - الجمعة ١٩/٤/١٩١٢م - شاهد الإسكندرانيون كسوفا للشمس في الثانية من بعد الظهر. في تلك الأجواء المشحونة بالخوف والتوتر والقلق، وفي منزل صغير بحي باكوس برمل الإسكندرية، وضعت زوجة مقيم الشعائر بمسجد سيدي العجمي: حسين إبراهيم ولداً أسماه والده محمود الشريف، وعندما روعت مجموعة من المهربين واللصوص والد محمود الشريف، وكان ذلك بغية اتخاذ مسجد سيدي العجمي - الذي يقع في حي العجمي عند الأطراف الغربية لمدينة الإسكندرية - وكرا لأعمالهم المشينة، هجر مقيم الشعائر الطيب حي العجمي، واتخذ لنفسه مشتلاً للزهور في منطقة بعيدة. آنذاك.. كان الفتى محمود الشريف يتلقى تعليمه الأولى في الكتّاب، وبعد أن أتم حفظ بعض من أجزاء القرآن الكريم بالكتّاب، التحق بمدرسة حجر النواتية الأولية في حيّ باكوس، وجاءت وفاة والده بعد أيام من انتظامه بدراسته الأولية لتغير من مسار حياته، حيث قرر أخوه الأكبر - والذي أصبح مسئولاً عن الأسرة - أن أوان مشاركة الصبي محمود الشريف في توفير الرزق لنفسه وللأسرة قد حان، مما ترتب عليه انقطاع محمود الشريف عن الدراسة بعد انتظامه فيها لستة أشهر فقط، ولتشهد شوارع حيّ باكوس وحاراته بعد ذلك تنقل الصبي محمود الشريف بين مهن بسيطة بحثاً عن قروش قليلة يقيم بها أوده وينفق منها على أسرته، حيث عمل لفترة كصبيّ جزار، وقضى فترة أخرى يدفع عربة بطيخ ينادي عليه في شوارع باكوس، لقد أكسبت خشونة البداية بين أهل باكوس من البسطاء والكادحين الفتى محمود الشريف إحساساً صادقاً بالرجولة والأصالة والقوة، وانطبعت قسوة انتزاعه من صفوف الدراسة وإلقائه المبكر لمعترك الحياة في مظهر متجهم وملامح صارمة، ولكن ذلك لم يكن إلا ستاراً يخفي قلباً يفيض برقة تشبه نسمات الإسكندرية في لياليها الصيفية!.

تدور حياة البسطاء من ساكني الأحياء الشعبية المصرية حول محور واحد يتمثل في الكفاح من أجل لقمة العيش ومواصلة الحياة، وهو كفاح كثيراً ما تتخلله المشاحنات والمعارك التي تعد بمثابة ملح الحياة في تلك الأحياء، ولما كان محمود الشريف يميل للرياضة بطبعه ويتميز ببنيان جسدي قوي، فإنه اتجه منذ صباه لتعلم رياضة المصارعة حتى أتقنها، وقد جاء تحول مشاعره تجاه الفن وبالتحديد فن الغناء والموسيقى كنتيجة لموقفين، تمثل الموقف الأول في مصاحبته لأخيه إسماعيل إلى قصر الأمير عمر طوسون بحي باكوس في الإسكندرية، حيث كان الأخ يعمل عازفاً في الفرقة الموسيقية بالقصر، وهناك في قصر الأمير عمر طوسون صافحت مؤلفات كبار الموسيقيين الغربيين أسماع الفتى محمود الشريف، فبهرته تلك الأعمال من نوعية السيمفونية والكونشرتو والسوناتة وغيرها من أشكال التأليف الآلي العالمي، وجاء الموقف الثاني عندما استمع محمود الشريف إلى درس في العزف على العود يتلقاه حلاق من حي باكوس على يد مدرس للعود، فأرهف سمعه لما يدور في درس العود، ورويدا وجد نفسه يتدخل فيما يلقيه المدرس على الحلاق من أمور فنية، ولم يلبث حتى انضم إلى الحلاق في دروس تعلم العزف على العود، ثم أتقن عزف العود على يد اثنين من كبار الموسيقيين الإسكندرانيين الهواة هما محمد فخري وجورج طانيوس، وقطع محمود الشريف شوطاً آخر في سعيه لتعلم الغناء والموسيقى مع اثنين من مطربي الإسكندرية، أولهما هو الشيخ علي الحارس والذي أخذ عنه الأدوار والموشحات القديمة، وأما الآخر فهو الشيخ فؤاد محفوظ الذي تلقى عنه علوم وقواعد الموسيقى الشرقية، وعندما استكمل محمود الشريف أدواته في فني الغناء والموسيقى، مضى يطابق بين ما تعلمه من علوم الغناء والموسيقى على ما يستمع إليه من أغنيات، وكانت أغنيات ابن مدينته: سيد درويش في طليعة ما ردده محمود الشريف أيامها من أغنيات ليطابق بين ما تعلمه عن الغناء والموسيقى وما يردده الناس من غناء، فاكتشف



لم تكن نجاحات محمود الشريف مع فرقة بديعة مصابنى هى كل مطمحه من عمله بالفن، ولكن عينه كانت على السواد الأعظم من جمهور الغناء



ولاحظ أصدقاؤه أن صوته مقبول فى الغناء، فانطلق يردد ما يحفظ من أغنيات سيد درويش ومحمد عبدالوهاب وغيرهم من رواد الغناء فى حفلات الأصدقاء وأفراح حى باكوس، حتى شاع ذكره بين الناس فى الحى الشعبى كنجم بازغ فى دنيا الغناء.

بين الفرق المتجولة والصالات

كانت الإسكندرية فى مطلع الثلاثينيات. وعندما احترف محمود الشريف العمل بالموسيقى والغناء. مقراً لعديد من فرق التمثيل والغناء المتجولة، جاء ظهور تلك الفرق مواكباً لبدء انهيار المسرح الغنائى بمصر فى أعقاب أزمة ١٩٣٠م الاقتصادية الكبرى، ويتذكر محمود الشريف بدايته مع إحدى الفرق المتجولة بالإسكندرية فيقول عن ذلك: «ثم احترفت بالانضمام إلى مسرح شعبى فى الإسكندرية، وكان هذا المسرح يحشر فى رواياته ألحان سيد درويش، فبدأت أحفظها، وكان صاحب المسرح يفرض على أن أغنى أثناء الاستراحة، فكنت أغنى أدوار عبدالوهاب وسيد درويش وأتصرف فيها تصرفاً يعجبنى ويعجب الناس، ومن هنا اكتشفت أننى أستطيع أن أكون ملحناً». لم يذكر محمود الشريف فى حديثه لمجلة «الراديو المصرى» عن حياته اسم صاحب المسرح الذى شهد خطوته الأولى فى احتراف الغناء، وإن كانت بعض المصادر قد أشارت إلى أنه عمل فى عام ١٩٢٨م وعند بداية رحلته مع الغناء فى فرقة «أحمد المسيرى» كممثل ومطرب وملحن، وأنه تنقل بعد ذلك بين عدة فرق بالإسكندرية منها: «فرقة فوزى الجزايرلى» - «فرقة على الحاج» - «فرقة خميس سكر» - «وفرقة فوزى منيب». وقد اتفقت جميع المصادر التاريخية التى اهتمت بالحديث عن محمود الشريف على نزوحه إلى القاهرة فى مطلع الثلاثينيات بعد سنوات قضاها متنقلاً بين فرق الإسكندرية المتجولة.

ولدت فكرة انتقال محمود الشريف إلى القاهرة لعرض فنه خلال حديث له مع أحد ممثلى فرقة عمل بها لفترة من الوقت، دار الحديث فى مدينة العريش التى انتهى إليها مطاف الفرقة، حيث تحدث إليه زميله الممثل حسن راشد عما يمكن أن يحققه من نجاح فى مسارح القاهرة وإذاعاتها، وعندما اتخذ الشريف قراره بالذهاب إلى القاهرة، استضافه حسن راشد. وكما ذكر محمود الشريف نفسه - بمنزله فى القاهرة، ثم تولى الرجل مهمة تقديمه إلى ملكة الاستعراضات: بديعة مصابنى، كانت بديعة مصابنى تدير آنذاك صالتين للاستعراضات، إحداهما شتوية فى شارع عماد الدين الذى كان يغص بالمسارح والملاهى، والأخرى صيفية بجوار كوبرى الانجليز (الجلاء حالياً) وفى الأرض التى يرتفع عليها الآن فندق شيراتون القاهرة، وبعد أن استمعت بديعة مصابنى إلى غناء محمود الشريف وعزفه على العود، وافقت على ضمه إلى أعضاء فرقتها، حيث أسندت إليه مهمة المشاركة مع مجموعة أصوات الرجال فى تأدية أدوار الغناء الجماعية التى تفيض بها استعراضات الفرقة، وكان أول أجر تقاضاه محمود الشريف من عمله فى فرقة بديعة مصابنى هو اثنا عشر جنيها فى الشهر، كانت بداية عمل محمود الشريف فى مسرح بديعة مصابنى الاستعراضى قرابة نهاية عام ١٩٣٤م، حيث ظهر اسمه فى إعلانات فرقة بديعة مصابنى بصحافة ذلك العهد وبين أسماء المشاركين فى برامج الفرقة منذ شهر نوفمبر فى عام ١٩٣٤م.

الإذاعة والشهرة

لم تكن نجاحات محمود الشريف مع فرقة بديعة مصابنى هى كل مطمحه من عمله بالفن، ولكن عينه - شأنه فى ذلك شأن جميع من احترفوا الغناء - كانت على السواد الأعظم من جمهور الغناء، وهو الجمهور القابع فى الريف والحضر وفى الأكواخ والقصور، ولم يكن جمهور فرقة بديعة مصابنى ليمثل بأى حال من الأحوال السواد الأعظم من جمهور الغناء، وإنما كان ذلك السواد يمثل بجمهور الإذاعات التى كانت قد توحدت فى محطة حكومية مع بداية عمل محمود الشريف عند بديعة مصابنى، فلما أصاب الشريف ما أصاب من شهرة بألحانه لفرقة بديعة مصابنى، اتجه إلى الإذاعة لتكون هى وسيلته للوصول الى الجماهير العريضة التى خرج منها ويعتقد فى قرارة نفسه أنه يغنى ويلحن لها، وسرعان ما عرفت ألحان محمود الشريف طريقها إلى آذان مستمعى محطة الإذاعة المصرية الحكومية، وقد غلب قالب المونولوج الفكاهى على معظم أعمال محمود الشريف الأولى بالإذاعة، وذلك ربما لانتشار هذا القالب من خلال صالات الملاهى والمسارح المنتشرة فى ذلك العهد، وربما أيضاً لأن ذلك القالب كان مقارباً لما قدمه الشريف لفرقة بديعة مصابنى أو لأنه الأقرب إلى قلوب البسطاء من الناس، ومن مونولوجات محمود الشريف الفكاهية الأولى بالإذاعة نذكر ما يلى حيث يقرن باسم المونولوج اسما المؤلف والمؤدى بالإضافة إلى تاريخ الإذاعة الأولى: (مغازلة فى الطريق: يونس القاضى - حسين ابراهيم، ١٩٣٦/٤/١٥م) - (المرايا: أبوالسعود الإبيارى - فتحية شريف، ١٩٣٧/٦/٨م) - (أنا عقلى احتار: زكى إبراهيم - فتحية شريف، ١٩٣٧/٦/٨م) - (عايزة أحبك: أبوالسعود الإبيارى - فتحية محمود، ١٢/ ١٩٣٨/٢ م) - (أعيط لك: أبوالسعود الإبيارى - فتحية محمود، ١٩٣٨/٢/١٢م) و(آخر الشهر: أمين صدقى - حسين المليجى ونعمات المليجى، ١٩٣٨/٢/١٢م)، لم تكن الأعمال الإذاعية الأولى لمحمود الشريف كلها مونولوجات فكاهية، ولكنها تضمنت أيضاً أول أغانيه الوطنية، ونعنى بذلك أغنية «الوطن» التى كتبها أبوالسعود الإبيارى وتغنت بها علية فوزى من أستوديو الإذاعة بالإسكندرية فى العاشرة وخمس وخمسين دقيقة من صباح الأحد الموافق ١٩٣٧/٤/٢٥م.

لم تحقق أى من الأعمال الأولى لمحمود الشريف الشهرة لاسمه، سواء تلك التى أذيعت عبر ميكروفون الإذاعة أو غيرها من أعماله لفرقة بديعة مصابنى، ولكن الشهرة جاءته عندما استمع من الشاعر الغنائى محمد عثمان خليفة الشهير بابن الليل إلى المذهب والمقطع الأول من طقطوقة جديدة، كان نص المذهب والمقطع الأول كما يلى:

بتسألينى بحبك ليه
سؤال غريب ما أجاوبش عليه
الدنيا ليل ساكن هادى
وأنا غريب فى الدنيا دى
وأنت القمر نورك بادى
لقيت فى ضيك إرشادى
إلى طريق الأمل
إلى الأمانى
نورك يابدر اكتمل
فى الليل هدانى
بتسألنى بحبك ليه
سؤال غريب ما أجاوبش عليه

أعجب محمود الشريف بكلمات ابن الليل وقرر أن يلحنها، اتخذ محمود الشريف صيغة التحميلة لوضع مقدمة قصيرة للحنه لهذه الطقطوقة، والتحميلة فى الموسيقى العربية هى لحن موزون بالإيقاع تؤديه الآلات مجتمعة ويتخلل أجزاءها ارتجالات لحنية من كل آلة على حدة، قسم الشريف المقطع الأول من الطقطوقة إلى جزءين، تكون الجزء الأول منهما من البيتين التاليين: (الدنيا ليل ساكن هادى / وأنا غريب فى الدنيا دى - وانت القمر نورك بادى / لقيت فى ضيك إرشادى)، وقد أعطى الشريف ذلك المقطع لحناً من مقام البياتى، ثم لحن الجزء الثانى والذى يتضمن البيتين المتبقيين من المقطع الأول وهما: (إلى طريق الأمل / إلى الأمانى - نورك يابدر اكتمل / فى الليل هدانى) من مقام الراست الشجى، وكرر الأمر نفسه مع الجزء الثانى من الطقطوقة، لقد جدد محمود الشريف فى قالب الطقطوقة عندما ابتكر التقسيم السابق، لكنه فى نفس الوقت أعطى للأغنية لحناً أصولياً فائق الجمال.

يضم تراث الغناء المصرى عدداً كبيراً من المونولوجات الفكاهية التى لحنها محمود الشريف وتغنى بها محمود شكوكو على امتداد سنوات كثيرة



ثنائية الملحن / المطرب

لم يكن محمود الشريف ليقنع بما تحقق لشق الملحن فى شخصيته الفنية من نجاح، وبينما هنالك شق المطرب من تلك الشخصية لم يستمع إليه جمهور الغناء الكبير بالإذاعة بعد: لذا... يمكن القول بأنه وطبقاً للنظام المعتمد بالإذاعة فى ذلك العهد، قام محمود الشريف بعرض صوته أمام لجنة اختبار الأصوات الجديدة بالإذاعة، فأجازته اللجنة ليغنى فى الإذاعة بين كوكبة من أجمل الأصوات فى كل تاريخ الغناء المصرى، نذكر من أصوات الرجال فى هذه الكوكبة أسماء مثل: محمد عبدالوهاب. فريد الأطرش. صالح عبدالحى. محمد بخيت. محمد عبدالمطلب. عبدالغنى السيد. عبداللطيف عمر. محمد صادق وعباس البليدى، وجاءت الإذاعة الأولى لمحمود الشريف كمطرب فى وصلتين قدمتهما الإذاعة فى مساء الخميس ١٣/٤/١٩٣٩م، غنى محمود الشريف من ألحانه فى الوصلة الأولى التى بدأت فى السادسة والنصف أغنيتين من تأليف السيد زيادة، كانت الأغنية الأولى هى نشيد «روح الشباب»، بينما حملت الأغنية الثانية اسم «ليلة فى الصحراء»، وفى الوصلة الثانية لمحمود الشريف فى ليلة الخميس ١٣/٤/١٩٣٩م والتى بدأت قبل الثامنة بعشر دقائق وكانت مدتها عشرين دقيقة، تغنى الشريف بنشيد وأغنية من ألحانه أيضاً، كان النشيد هو نشيد «الوطن» من كلمات أبوالسعود الابيارى، وقد سبق للمطربة علية فوزى أن تغنت به فى ٢٥/٤/١٩٣٧م، بينما كانت الأغنية وهى «روحى بتنادى عليك» من تأليف السيد زيادة.

أكد محمود الشريف. وللمرة الثانية فى بدايته مع الغناء كمطرب - انحيازه الواضح للغناء الوطنى، وذلك عندما قدم بالإذاعة وفى العاشرة من مساء يوم الاثنين ٢٢/٥/١٩٣٩م أول نشيد قومى وطنى من ألحانه وغنائه، وكان مطلع ذلك النشيد الذى كتبه السيد زيادة كما يلى:

يامصر ياكل الرجاء
أنت مهد الأوفياء
اطلبى منا الفداء
واصعدى نحو السماء
وانشدى أعلى القمم

لم تحفظ الإذاعة وشركات الصوتيات شيئاً من الأعمال التى تغنى بها محمود الشريف فى بداية ومعظم مرحلة (الملحن / المطرب) من مشواره مع الغناء، تلك المرحلة التى استغرقت سنوات عقد كامل فيما بين عامى ١٩٣٩ و١٩٤٩م، وضاعت هذه الأعمال بين ما ضاع من تراث الإذاعة المصرية، ومن الغريب أن ما يسمعه جمهور الغناء حتى الآن من الغنائيات التى أداها محمود الشريف بصوته هو - وعلى الأرجح - آخر ما غنى بالإذاعة، والمعنى بذلك غنائياته الجميلة فى البرنامج الغنائى: «قِسَم»، وهو البرنامج الذى اشتهر بين الناس وطوال اكثر من نصف قرن من الزمان باسم «السلطانية»(، وقد أذيع البرنامج لأول مرة من الإذاعة فى العاشرة من مساء السبت ٤/٦/١٩٤٩م، قدم محمود الشريف فى هذا البرنامج الذى تدور فكرته حول المثل الشعبى «اجرى يا ابن آدم جرى الوحوش... غير رزقك لم تحوش»، قدم أربعة ألحان تغنى بها جميعاً وشاركته فى بعضها أصوات مجموعة المنشدين (الكورس)، والألحان الأربعة هى: موال «إن طال عليه الليل». طقطوقة «يا خال أنا خالى». واللحنان الجماعيان «هيلا هيلا» و«الدنيا أرزاق».

تكشف الأعمال الغنائية الأربعة الباقية لمحمود الشريف فى التسجيل المتداول للبرنامج الغنائى «قسم»، أن الشريف كان يغنى بصوت مقبول محمل بشحنة من الإحساس العميق والتعبير الصادق، فضلا عن أن أداءه كان يتسم بالسلاسة والدقة، ولعل السبب فى خصائص غنائه تلك يرجع إلى كونه ملحناً، لم يكن صوت الشريف فيما يستشف من أدائه لألحان برنامج «قسم» الأربعة من الأصوات الصادحة الرخيمة كأصوات كبار المطربين، ولم يكن صوته أيضاً قادراً على التطريب بنفس قدرته على التعبير والتصرف والنابعة من شق الملحن فى شخصيته الفنية، ولم يكن صوته كذلك من الأصوات العالية ذات المساحة الكبيرة والمقامات الكثيرة، وإنما دار غناؤه لهذه الأعمال فى طبقات القرار من صوته والتى تنتمى إلى فئة الباص من التقسيم الغربى لأصوات الرجال، لذلك لم يقدم أعمالاً غنائية أخرى بصوته - فيما تم رصده من أعماله أثناء إعداد هذا المقال - وبعد ألحانه الأربعة فى البرنامج الغنائى «قسم»، ولعله أدرك بعد إذاعة ذلك البرنامج فى صيف عام ١٩٤٩م، أن صوته قد أعطى كل ما يستطيع أن يعطيه فى مجال الغناء، وأنه ليس هناك ما يمكن لذلك الصوت أن يضيفه إلى تراث الغناء المصرى والعربى فى عصره الذهبى، وهو العصر الذى قلنا ونكرر أنه امتد لنصف قرن فيما بين عشرينيات القرن العشرين وسبعينياته.

ملك الأغنية الشعبية

عندما توقف محمود الشريف عن الغناء أو كاد فى مطلع الأربعينيات، كان جانب الملحن فى شخصيته الفنية ما زال ناضراً ويختزن الكثير من الأفكار والأنغام، فانطلق ومنذ السنوات الأولى من الأربعينيات ينفث طاقاته الثرية فى ألحان ترنَّمت بها معظم الأصوات الجميلة التى كانت تملأ سوق الغناء شدواً وترجيعاً، وقد بلغ إنتاج الشريف فيما بين الأربعينيات ونهاية الثمانينيات من القرن الماضى المئات من الألحان التى صاغها فى القوالب الآتية: الطقطوقة - الموال - المونولوج الفكاهى - النشيد - القصيدة - البرنامج الغنائى والمقطوعة الموسيقية، ويمكن القول بأن جنس الأغنية الشعبية والتى تجىء فى القوالب الثلاثة الأولى (الطقطوقة - الموال والمونولوج الفكاهى) كان هو الغالب على إنتاج الشريف من الألحان، حيث قدم عبر مشواره مع الغناء عشرات بل مئات من الأغنيات الشعبية التى تناقلتها الألسن منذ إذاعتها الأولى واستقرت فى القلوب حتى أيامنا هذه.

اختلف أهل الغناء كثيراً حول مفهوم الأغنية الشعبية، وبالرغم من ذلك فقد أظهر الخلاف نقاط اتفاق يمكن أن تشكل تعريفاً أولياً للأغنية الشعبية، فالأغنية الشعبية - من وجهة نظر الجميع - هى أغنية تتكون من كلمات بسيطة مما يتردد على ألسنة الناس وفى قالب نظمى بسيط، وتلحن هذه الكلمات البسيطة بألحان سهلة التراكيب النغمية مما يمكن أن تردده أصوات الناس العادية ولا يتطلب أداء هذه الألحان أصواتاً مدربة أو موهوبة، لقد كان سيد درويش خير مثال على نقاط الاتفاق هذه حول الأغنية الشعبية. فقد خرج كما نعرف جميعاً من بين جماهير الشعب، ولما كان فناناً صادقاً وموهوباً بالفطرة، فإن أغنياته تميزت بكلماتها البسيطة وتراكيبها السهلة وألحانها التى تتردد على شفاه الجميع بسهولة.

اختلف إسهام الشريف بالتلحين فى فرعى الأغنية الشعبية الآخرين عن إسهامه فى الفرع الرئيسى وهو الطقطوقة، والمعنى بالفرعين الآخرين من الأغنية الشعبية هما المونولوج الفكاهى والموال، فبينما غلب قالب الطقطوقة على معظم ما قدم من أغنيات شعبية خلال مشوارد مع الغناء، فإن ما قدمه من مونولوجات فكاهية يجىء تاليا فى مجال الأغنية الشعبية لما قدمه من طقاطيق، ويحل الموال ثالثاً فى ترتيب القوالب التى استخدمها الشريف فى معالجة الأغنية الشعبية. ويرجع اهتمام الشريف بتقديم المونولوجات الفكاهية إلى فترة بدايته مع الفرق المتجولة بالإسكندرية وغيرها من مدن ومسرح بديعة مصابنى بالقاهرة، حيث كانت المونولوجات الفكاهية تشكل آنذاك ركناً أساسياً فيما تقدمه الفرق المتجولة وفرقة بديعة مصابنى من غناء، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى كون هذا القالب الغنائى أقرب الى أذواق الغالبية من جمهور الغناء فى ذلك العهد، تلك الغالبية التى تشكلت فى تلك الفترة من العمال وصغار الموظفين والمهنيين، مما جعل رواج

هذا العبقرى.. كيف نسيناه فى زحمة الحياة وهجمة الأغانى الشبابية والفيديو كليب؟، وكيف أصبح لقب الموسيقار يطلق على كل من هب ودب



قالب المونولوج الفكاهى فى تلك الفترة عظيماً، ولنضرب مثلاً هنا بواحد من أوائل المونولوجات الانتقادية الهادفة التى قدمها محمود الشريف، ونعنى بذلك مونولوج «تصفر... تخضر... تحمر» الذى كتبه أبوالسعود الابيارى ولحنه محمود الشريف وتغنت به ثريا حلمى للمرة الأولى من الإذاعة فى الخامسة والربع من مساء الاثنين ١٠/١/١٩٤٤م، ويبدأ المونولوج بالمذهب والمقطع التاليين:

وشك أحياناً يصفر
وساعات يخضر ويحمر
علشان إيه والنبى ليه
قلبنا عندك بعد الشر
تلهف من واحد سلفية
وتماطل شهر وشهرين
قفشك يوم ومعاك نقدية
تحتار تهرب وتروح فين
إن قال لك سلامات تصفر
وأما يقول لك هات تخضر
وتشوف الوصلات تحمر
عينك ما تفتحش ف عينه
ولزومه إيه
ربح نفسك وادفع دينه
يا فلان بيسه ولا تصفر... ولا تخضر... ولا تحمر

يعد محمود شكوكو أكثر الأصوات الغنائية تقديماً لمونولوجات محمود الشريف الفكاهية، ومن أوائل المونولوجات التى قدمها الشريف لشكوكو المجموعة التالية التى أذيعت من الإذاعة المصرية فى السابعة وعشر دقائق من مساء الاثنين ١٩٤٤/١/٣١م، كانت هذه المجموعة من المونولوجات التى تغنى بها محمود شكوكو، كما كانت تعرفه الإذاعة فى الأربعينيات - من ألحان الشريف تتضمن الآتى متبوعاً باسم مؤلفه: (الجدعنة: فتحى قورة) - (آه م القبض: خليل موافى) - (الحق على: إبراهيم جكلة) و(حدق ولبق: محمد الشاطبى)، وتتميز هذه المونولوجات بالمواقف الضاحكة وتعتمد كثيراً على المفارقات اللغوية التى تدفع المستمع اليها للضحك والإغراق فيه، ومن خلال هذا الضحك يعالج الشاعر الأفكار التى يريد أن يطرحها على مستمعى المونولوج.

يضم تراث الغناء المصرى عدداً كبيراً من المونولوجات الفكاهية التى لحنها محمود الشريف وتغنى بها محمود شكوكو على امتداد سنوات كثيرة بعد المونولوجات الأربعة المشار إليها هنا قبلاً، ومن هذه المونولوجات نذكر الآتى: «ياسلام يا خوها» من تأليف أحمد فهمى وجاء بفيلم «تاكسى حنطور» الذى عرض لأول مرة فى ١٩٤٥/٩/٣ م - «الأباريق» الذى قدمته الإذاعة مع مونولوج «وراك وراك» لأول مرة فى ١٩٤٦/٢/٢٥م (المونولوجان من تأليف فتحى قورة) - «حمودة فايت يابنت الجيران» من كلمات عباس كامل وتضمنه فيلم «صاحب بالين» الذى عرض لأول مرة فى ١٢/٢٣/١٩٤٦م (اشتركت سعاد مكاوى مع شكوكو فى أداء المونولوج) - «الحارس الله» من تأليف أحمد فهمى وأذيع فى ٦/٢٩/١٩٥٥م و«جرجونى وقفلوا الأجزاخانات» الذى كتبه محمود الكمشوشى وقدمته الإذاعة لأول مرة بعد خمس وثلاثين دقيقة من الساعة الحادية عشرة فى صباح الاثنين ١٩٥٨/٨/١١م، لقد حقق كثيراً مما لحنه الشريف لشكوكو من مونولوجات نجاحاً ساحقاً لم يتوفر ولو جزء منه لأغنيات جميلة تغنت بها أكبر الأصوات الغنائية، ولعل البعض من كبار السن ما زال يذكر ترديد المصريين وراء شكوكو لمونولوجات مثل «الأباريق» و«حمودة فايت». لقد حقق هذان المونولوجان نجاحاً يفوق الوصف، حيث رددهما الجميع بمصر، وتغنى بهما محمود شكوكو فى حفلاته ولسنوات طوال.

الغناء للوطن

أكد محمود الشريف منذ خطواته الأولى فى عالم الغناء المصرى انحيازه الواضح للغناء لمصر أو للوطن، وقدم نشيدان وطنيان بين أعماله الأولى، وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م لتسقط النظام الملكى بمصر، غير أهل الغناء معتقداتهم بين يوم وليلة، فالأغانى التى كانت تضاف فى كل عام إلى رصيد مكتبة الإذاعة من خلال احتفالات المناسبات الملكية، تحولت ببساطة إلى أغان ثورية عندما تم استبدال اسم الملك بالحركة (وهو الاسم الأول للثورة)، وقد شارك محمود الشريف فى مجموعة الأغنيات التى أطلقها أهل الغناء بعد أيام قليلة من نجاح الثورة للترحيب بالنظام الجديد وإدانة النظام السابق، جاء مضمون أغنيات الشريف الأولى بعد نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م مقارباً فى مجمله لمضمون أغلب الأغنيات التى قدمت فى نفس الفترة، ومن بواكير الأعمال الغنائية التى لحنها محمود الشريف بعد نجاح الثورة نذكر المجموعة التالية موضحاً بها أسماء الشعراء والأصوات الغنائية وتاريخ الإذاعة الأولى: (مونولوج «قف من أنت»: أبوالسعود الإبيارى - ثريا حلمى، ٢٠٠٥/٩/٢٧م) - (يا ابن مصر: الصول محمود جاد - محمد عبدالمطلب، ١٩٥٢/٩/٢٨م) - (جيش الكرامة: عبدالفتاح مصطفى - محمد عبدالمطلب، ١٩٥٢/١٠/٢م) و(قولوا بإذن الله: إبراهيم رجب - عباس البليدى، ١٩٥٢/١٠/٧م).

قدم محمود الشريف خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الثورة مجموعة صغيرة من الأغنيات الوطنية، نذكر من هذه المجموعة الآتى: «إلى وطنى» التى كانت من نظم الدكتور مختار الوكيل وغناء فايدة كامل - «ودينا على أسوان» التى كتبها على زهران وانطلق بها صوت محمد قنديل ونشيد «ارفع راسك» الذى أنشده سيد إسماعيل وكانت كلماته لمأمون الشناوى، إن أغنيات كهذه وربما غيرها لم تترك أثراً فى سجلات الغناء الوطنى وانمحت من ذاكرة الناس، ولكن الشريف قدم أيضاً أغنيات وطنية أخرى تعد بمثابة معالم لتاريخ وتطور الأغنية الوطنية المصرية، ومن هذه الأغنيات ما قدمته الإذاعة لأول مرة قبل عشر دقائق من منتصف ليل الاثنين الموافق ١٩٥٥/١١/٢١ م، ليلتها قدمت الإذاعة - وللمرة الأولى - رائعة الشريف (وطنى)، كانت هذه الرائعة من تأليف أحمد مخيمر وشدت بها نجاة الصغيرة مع عبدالرءوف اسماعيل، وفيما يلى نقدم الأبيات التالية التى تشكل المقطع الأول من هذه الأغنية التى تزداد بهاء مع كر الأيام:

وطنى وصباى وأحلامى
وطنى وهواى وأيامى
ورضا أمى
وحنان أبى
وخطى ولدى
عند اللعب
يخطو برجاء بسام
وطنى وصباى وأحلامى

مثلت قصيدة «وطنى» للرباعى (مخيمر - الشريف - نجاة وعبدالرءوف) نهجاً جديداً فى صياغة الأغنية الوطنية، حيث تخلص الشاعر ومن بعده الملحن ومن ثم المؤديان من المباشرة والصياح السائدين فى وطنيات هذه الفترة، لذلك جاءت المعانى جديدة والصوت رائقاً وواثقاً، لقد اعتقد الناس عندما ذاعت تلك الأغنية أن صوت عبدالرؤوف اسماعيل هو صوت المطرب الصاعد إلى آفاق الشهرة أيامها: عبدالحليم حافظ، وظل هذا الاعتقاد مسيطراً على البعض حتى فى عقد الستينيات، وذلك للتشابه الكبير والواضح بين صوتى المطربين، ومن أغنيات الشريف التى تعد من علامات تطور الأغنية الوطنية المصرية نذكر أيضاً أغنيته الرائعة «يا حمام البر»، تلك الأغنية التى قدمتها الإذاعة المصرية ولأول مرة مساء يوم الاثنين الموافق ١٨/٦/١٩٥٢م، جاءت الأغنية بين مجموعة من الأغنيات أطلقتها الإذاعة ابتهاجاً برحيل آخر جنود الاحتلال البريطانى لمصر فى يوم الأربعاء الموافق ١٣/٦/١٩٥٦م.

كانت صياغة صلاح جاهين العبقرية لهذه الأغنية باستخدام بعض المأثورات

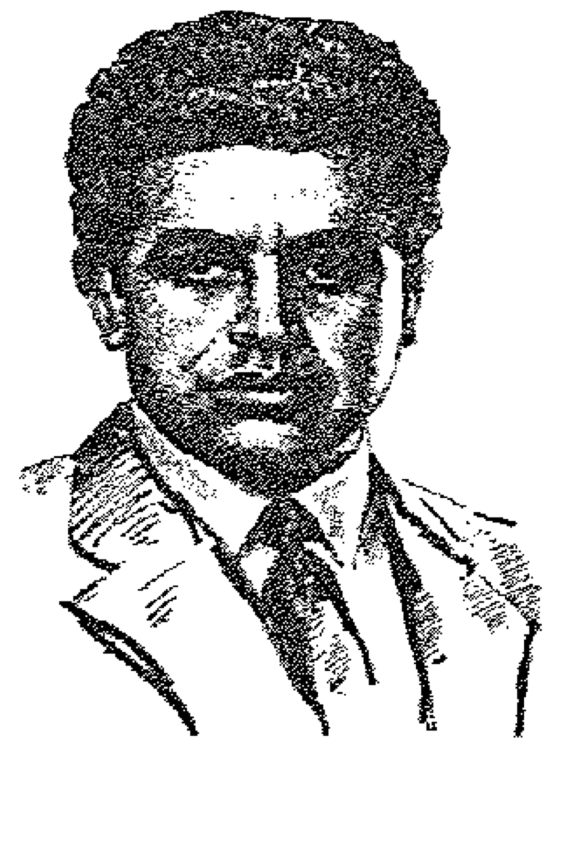
لم يجد الشريف فى حياته درويشاً واحدا ينصفه من أولئك الذين أحلوا السرقات الفنية لغيره أو هللوا لاستعلاء الصغار

الشعبية والوطنية، هى كل ما يحتاجه محمود الشريف ليضع لهذه الأغنية واحداً من أجمل وأعذب الألحان الغنائية (الميلودية) فى تاريخ الغناء المصرى كله، ولينطلق بذلك اللحن البالغ العذوبة والشجن صوت المطربة أحلام الذى جمع فى نبراته بين العاطفية والشعبية، مما جعلها ويحق أجمل أغنيات تلك المرحلة من نضال الشعب المصرى.

لم تهنأ مصر بجلاء الاحتلال البريطانى أكثر من أربعة أشهر ونصف الشهر، حتى هاجمت قوات العدوان الثلاثى الأراضى المصرية فى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٥٦م، فسطرت الأغنية الوطنية المصرية واحداً من أمجد فصول تاريخها عندما تصدت لمقاومة العدوان، وبالطبع لم يتخلف محمود الشريف عن الإسهام فى تسطير هذا الفصل، حيث قدم على وقع دوى غارات طائرات العدوان على القاهرة أحد أهم أناشيد المرحلة والغناء الوطنى المصرى فى كل عصوره، والمعنى بذلك هو نشيد «الله أكبر».

اختار محمود الشريف إيقاع المارش لنشيد «الله أكبر»، وجعل لحن النشيد الغنائى من مقام عجم مع تلوين درجة المقام وكذلك التلوين الكروماتيكى، لقد استغرق انتاج هذا النشيد يوماً واحداً انقضى فى تأليفه وتلحينه وتوزيعه - الذى قام به عطية شرارة - وتحفيظه لمجموعة أصوات الرجال بالإذاعة وتسجيله فى النهاية، وبالرغم من ذلك حقق النشيد نجاحاً امتد حتى أيامنا هذه، تمثلت أول مظاهر هذا النجاح فى إقبال الجماهير عليه منذ إذاعته الأولى، وجاء ثانى هذه المظاهر يوم أن فاز هذا النشيد بالمركز الأول فى استفتاء أجرته مجلة «الإذاعة» مطلع عام ١٩٥٧م، ويتبقى ثالث هذه المظاهر وأهمها على الإطلاق فى استمرار بقائه بأسماع الناس، وذلك عندما اختارته دولة ليبيا الشقيقة سلاماً وطنياً لها منذ عام ١٩٦٩م وحتى الآن.

واكبت أغنيات محمود الشريف الوطنية جميع المناسبات الوطنية التى كانت بمثابة السمة المميزة لمصر الخمسينيات، ومن هذه المناسبات نذكر كلاً من الوحدة بين مصر وسوريا وبناء السد العالى وتسليح الجيش المصرى، لقد سجلت تلك الأغنيات التى لحنها محمود الشريف وتغنت بها أصوات كثيرة كفاح وآمال المصريين خلال حقبة من أهم وأحرج حقب تاريخ مصر الحديث، وأفصحت هذه الأغنيات فى نفس الوقت عن مفهوم الأغنية الوطنية عند محمود الشريف، فإذا به مفهوم يحتوى هموم الوطن والمواطن ويسخر مواهب المشاركين فى إنتاج الأغنية للتغنى بتاريخ الوطن ونضال الشعب.



تكريم ورحيل

إن الدارس للغناء المصرى فى عصره الذهبى لا يجد ملحناً أنتج قدر ما أنتج محمود الشريف من أغنيات شعبية ووطنية، وكأن رسالة الرجل فى الحياة كانت هى «الغناء للشعب والوطن»، لقد كان محمود الشريف صاحب موهبة متفردة بين مواهب عدة تميز بها ذلك العصر، ومما يعلى من قيمة هذه الموهبة أن الرجل لم يضعف - ولو لمرة واحدة - أمام إغراءات الاقتباس أو الأخذ من الغرب، كانت إبداعاته جميعاً - وأن تسربل بعضها بأستار التوزيع الموسيقى - محلية قحة تعبر عن البسطاء من الناس، ولنأخذ هنا مثالاً واحداً لفكرة محلية واحدة أعطت لواحد من ألحانه ملامح عبقرية لا مرية فيها، فعندما أراد محمود الشريف أن يعبر فى رائعته «يا حمام البر» عن صوت الحمام ومرحه الذى يعرفه كل فلاح مصرى، فإنه أعطى دوراً منفرداً (صولو) لآلة القانون فى الفواصل الموسيقية بين مقاطع الأغنية، حيث حاكى العازف لهذا الدور المنفرد على آلة القانون صوت هديل الحمام!، إن أمثال هذه الفكرة فى أعمال محمود الشريف أكثر من أن تعد أو تحصى، ولقد تعددت القوالب الموسيقية التى أفرغ فيها محمود الشريف أعماله، وبالرغم من ذلك ظل المسرح الغنائى هو حلم مشواره الطويل مع الغناء، وهو ما عبر عنه فى عشرات البرامج الغنائية الإذاعية والمسرحية التى اشتهرت بين الناس وواظب الشريف على تقديمها، ومن هذه البرامج ما تحدثت عنه صحيفة الأهرام فى الصفحة العاشرة من عددها الصادر فى يوم الاثنين الموافق ١٩٦٠/٧/٤ م، حيث أوردت الصحيفة فى تلك الصفحة خبراً عن أوبريت غنائى يدعى «ثورة بلدنا» يجرى الإعداد لتقديمه فى عيد الثورة الثامن (١٩٦٠/٧/٢٣م)، وقالت الصحيفة فى ثنايا الخبر أن خمسة ملحنين يعكفون على تلحين الصور الغنائية للأوبريت وهم: عبدالحليم على - محمود الشريف - سيد مصطفى - حسين جنيد وسيد اسماعيل، إن أحداً يتأمل أعمال محمود الشريف أو يحللها، لن يخرج من ذلك سوى بانطباع واحد عن غلبة الأصالة على كل ما أنتج من غناء وموسيقى.

لكل ذلك ولأسباب كثيرة يضيق المجال بذكرها، تعددت أشكال التكريم الذى لقيه محمود الشريف عبر مشواره مع الغناء، فمن هذه الأشكال عضويته لكثير من اللجان والهيئات المهتمة بالموسيقى، ومن ذلك عضويته فى كل من: لجنة الموسيقى بالاتحاد الاشتراكى العربى - لجنة معهد الموسيقى العربية - جمعية المؤلفين والملحنين بباريس والقاهرة، بالإضافة لانتخابه وكيلاً لنقابة الموسيقيين لسنوات طوال، ومن أشكال التكريم الذى لقيه محمود الشريف ما أهدى إليه من أوسمة وميداليات وشهادات مثل: وسام العلوم والفنون المصرى من الطبقة الأولى - وسام الاستحقاق السورى - وسام الكوكب الأردنى - ميدالية السد العالى - ميدالية الجلاء - ميدالية معركة بورسعيد - شهادات تقدير من الكلية الحربية والكلية الجوية - شهادة تقدير من الإذاعة فى الاحتفال بيوبيلها الذهبى «١٩٨٤»، وشهادة تقدير فى يوبيل التليفزيون الفضى «١٩٨٥»، وقد نال محمود الشريف جائزة الجدارة فى الفنون لعام ١٩٧٨م، بينما تأخرت عنه جائزة الدولة التقديرية - كالعهد بها - حتى جاءته فى عام ١٩٩٠ م، كانت الأمراض قد أقعدت محمود الشريف فى تلك الأيام من صيف عام ١٩٩٠م عندما أدركته الجائزة، حتى أنه لم يستطع الخروج من بيته لاستلام الجائزة التى تأخرت عنه كثيراً، فذهبت ابنته الوحيدة السيدة إكرام لتتلقى الجائزة نيابة عن الفارس الذى أقعده المرض، وفى يوم الأحد الموافق ١٩٩٠/٧/٢٩ م لقى محمود الشريف وجه ربه فى شقته الكائنة بإحدى البنايات القريبة من قصر عابدين، وهى الشقة التى استقر بها قبل سنوات طويلة ولم يستبدلها بشقة أكبر أو بعمارة يبنيها، مات محمود الشريف فى شقته المؤجرة بين ذراعى وحيدته إكرام، وليدفن بعد ذلك بمسقط رأسه: مدينة الإسكندرية وطبقاً لوصيته.

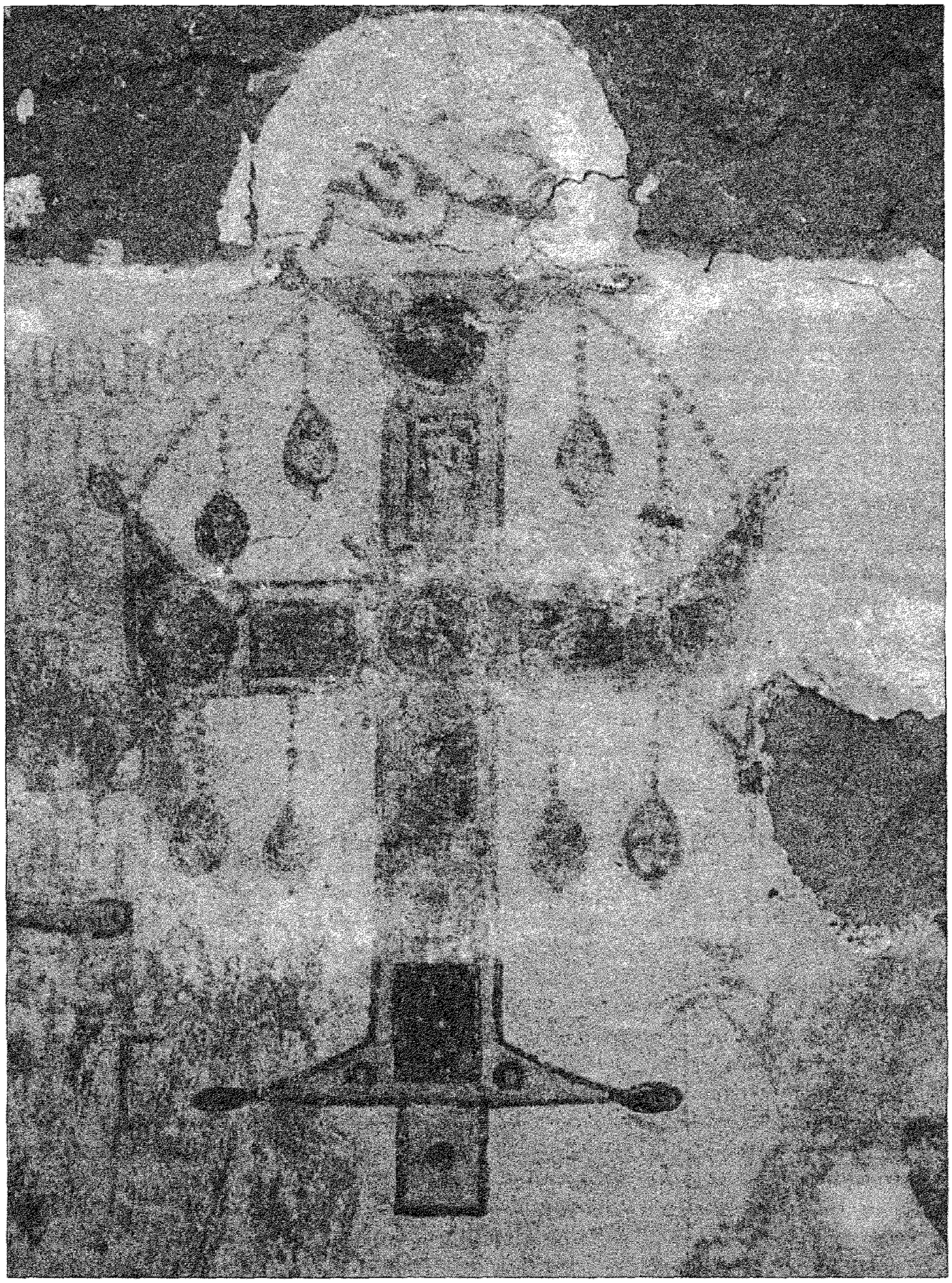
لم يجد محمود الشريف فى حياته درويشاً واحداً من أولئك الذين أحلوا السرقات الفنية لغيره أو من الذين هللوا لاستعلاء الصغار، لم يجد الرجل واحداً من هؤلاء ينصفه ويكتب عنه ولو سطراً واحداً فى حياته، ولعل السبب فى ذلك هو ما فرضه الرجل على حياته الخاصة من عزلة، بالإضافة إلى ما أثر عنه من صراحة وحدة، وإنما اندفع الجميع ليكتبوا عنه بعد رحيله ممتلئاً بالغصة من تأخر التكريم ونكران الجميع، وهى كتابات تأتى وليدة الحدث وتعبر عن انفعالات وقتية، وعندما تنقشع سحابة الحزن التى يخلفها الرحيل، يجد المرء أن شيئاً حقيقياً لم يصنع لتكريم من رحل، والمقال الحالى إن هو إلا مقتطفات من بعض فصول كتاب يجرى إعداده الآن عن محمود الشريف، كتاب نرجو أن يفى الرجل بعض حقه الذى ندين له به جميعاً. ■

صحراء الرهبنة

مينا بديع عبدالملك

كيليا ثانى أقدم تجمع رهبانى فى العالم. وقد بنيت كنائسها باستخدام الطوب الرملى. وأكثر مبانيها قدماً يعود للقرنين الرابع والخامس الميلاديين

رسم للصليب به عدد من الزخارف



تعد منطقة كيليا[*] (أو القلالى) هي ثاني أقدم تجمع رهباني فى العالم. وقد أقامها الأب آمون عام ٣٣٥ ميلاديا أي بعد عشر سنوات من تأسيسه منطقة نتريا للرهبنة. وتقع كيليا في منتصف المسافة بين مدينتي دمنهور والسادات.

كان الغرض من تأسيس منطقة كيليا توفير مكان إضافى للرهبان الذين تزايد عددهم في منطقة نتريا وضاق بهم المكان بحيث أصبح غير مناسب للصلاة والوحدة الانفرادية، بالإضافة إلى إيجاد موقع للتوقف بين نتريا وصحراء الأسقيط الموحشة (وادي النطرون حاليا، والذي يعد ثالث أقدم تجمع رهباني في العالم بعد كيليا).

هذه المنطقة التي ازدهرت منذ القرن الرابع الميلادي وحتى السابع الميلادي عانت من هجوم الزراعات العشوائية عليها والتي قضت على كثير من الآثار المتبقية فيها، وجاء ذكرها في كتابات المؤرخين والرحالة مثل: يوحنا كاسيان، روفينوس، بلاديوس، ساويرس بن المقفع مؤلف كتاب تاريخ البطاركة، وكتابات اليعقوبى في القرن التاسع الميلادي، والرحالة العربي البكري في القرن الحادي عشر الميلادي والتي ذكرها كمكان مهجور.

فى عام ١٩٣٢ قام عالم الآثار الايطالي بريشيا Bereccia برسم خريطة للمنطقة، ثم دى كوسون De Cosson عام ١٩٣٧ الذي نبه إلى أهمية منطقة «قصور الربيعات» بكيليا. لكن الموضوع لم يأخذ شكلا جديا إلا في عام ١٩٦٤ على أيدي أعضاء بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة وبعثة جامعة جنيف بسويسرا حيث اكتشفوا وحددوا المكان وقاموا بالحفائر في أكوام مختلفة من الآثار وتم ترقيم كل كوم منها، كما تم تحديد حوالي

لكل قلاية رغم بساطتها، حجرة للصلاة وأيضا لكي يمارس فيها الراهب قوانينه التي تشمل الواجبات التي ينبغي عليه أن يؤديها يوميا. وتشتمل بعض الوحدات على مبان ضخمة مثل أبراج المأوى (الحصون) والكنائس

١٥٠٠ كوم أثرى للنساك في مساحة ستة عشر كيلومترا مربعا.

قلاية لكل راهب

كان موقع كيليا - مع بداية نشأته - يغطى مساحة أكثر من مائة كيلومتر مربع، ويشتمل على خمسة مجمعات من المباني تسمى قصورا وهي: قصور الربيعات، قصور العزيلة، قصور عيسى، قصور الحجيلة، قصور العريمة. هذه المجمعات الكثيفة تفصلها أحيانا مسافة تقل عن عشرين مترا، مما يوحى للنظرة الأولى أنها مدن أو قرى أقيمت بطريقة عشوائية لم يخطط لتطورها. إلا أن حقيقتها قد تكشفت عند التنقيب في أحد هذه المجمعات الرهبانية. فقد وجد أن كل مبنى عبارة عن وحدة متكاملة قائمة بذاتها. فهي تحتوى على بئر وحديقة داخلية ومكان للصلاة وكذلك مكان للتخزين. والمباني الوحيدة ذات الطابع الاجتماعي هي بيوت الصلاة التي يتراوح عددها بين الواحد والثلاثة لكل تجمع، وتمثل جزءا مكملا للتجمع. روعي في انتشار التجمع الحفاظ على النظام الأساسي للقلاية، بالرغم من أن بعض المساكن كانت مترامية الأطراف ككهوف مظلمة تحت الأرض التي كان يأوى إليها رهبان مصر الأوائل.





أعضاء من البعثة السويسرية يعملون بالمنطقة

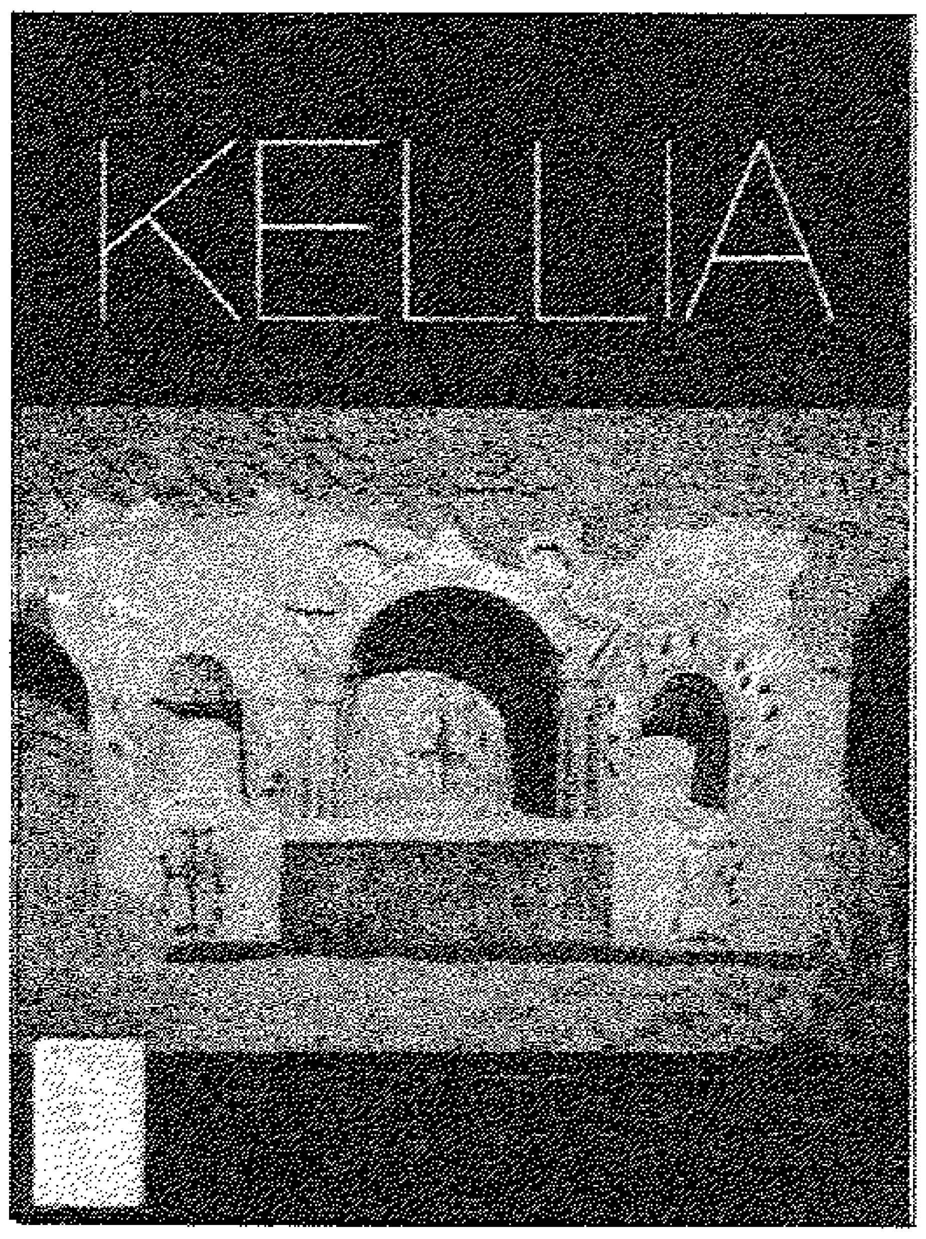
وقد بنيت قلالي وكنائس كيليا باستخدام الطوب الرملي المصنوع من الرمال المجاورة والذى يعتمد تماسكه على درجة تركيز الأملاح المعدنية الموجودة به، كما غطيت الحوائط الخارجية بطبقة من الملاط تقيها من هطول مطر الشتاء المتكرر. أما حوائط الحجرات فقد غطتها طبقة من الملاط الخشن وزينت ببعض الرسومات. واستخدمت طريقة البناء هذه أيضا في المباني الكبيرة ذات العقود نظرا لندرة الحصول في مصر على الخشب اللازم لإقامتها.

أكثر المباني قدما من القرنين الرابع والخامس طمرت تحت الرمال، وحجراتها من الحجم المتوسط تصلها بعضها ببعض مجموعة من الممرات الضيقة. ومن المعتقد أن الرهبان قد قاموا بأنفسهم ببناء القلالى الأولى. وكانت زخارفها بدائية لا تتعدى بضعة أشكال على سطح الجدران، تمثل في معظمها رسم الصليب، الذي يعد الرسم المشترك في أنحاء مباني منطقة كيليا. كانت هذه القلالى القديمة يسكنها راهب واحد فقط لديه رغبة صادقة فى حياة الوحدة. هذه القلالى قليلة العدد، وبقاياها القليلة صمدت عبر الزمن.

بحلول القرن السادس أصبح بناء التجمعات أكثر مشقة، كما أن اتساع الحجرات يدل على رغبة شاغليها فى درجة أكبر من الراحة. وعلى هذا أصبحت طرق البناء أكثر تعقيدا مما تطلب إسناد العمل إلى حرفيين حقيقيين، من معماريين ونجارين ونقاشين، وبذلك أصبح المجمع التقليدي مستطيل الشكل تحيطه جدران سميكة ترتفع عدة أمتار تعزله عن العالم الخارجي وتحميه من العواصف الرملية. وتبلغ مساحة المباني ٢٥ - ٣٥ مترا، ويحتل فناؤها الجزء الأكبر منها. وتوجد في الفناء تجهيزات متعددة كالبئر المحاطة بقنوات عديدة مصنوعة من الطوب المحروق والتي توزع الماء على الحديقة الداخلية وتمتد أحيانا إلى حديقة خارجية. وتشغل حجرة المعيشة الركن الشمالي الغربي والتي تعتبر قلب المبنى حيث تشتمل على وحدة أو أكثر تتكون كل منها من حجرات عديدة يمكن الوصول إليها عن طريق باب في الفناء. وهكذا أصبح لكل راهب في هذا المجمع قلايته الخاصة التي يمكن اللجوء إليها للاعتزال عن بقية الرهبان.

وتحيط القلالي بالكنيسة التي تعتبر أهم المباني، والتي يسمح في بعض الأحيان للزائرين بدخولها بعد أن يمر الزائر بعدد من الحواجز التي يشرف عليها كبير رهبان التجمع الرهباني - يطلق عليه اسم «ربيتة الدير» - ومنها البوابة الخارجية التي تغلق من الداخل. ومن خلال مجموعة من الأبواب يمكن أن يصل الزائر إلى الرواق المزين بالزخارف المتنوعة، ومنه ينزل إلى ممر مزود بباب ذي ضلفتين يؤدى في النهاية إلى الكنيسة، وذلك إذا كان قد سمح له أصلا بالزيارة، إذ إنه من المعتاد في خلال فترة الأصوام تغلق الأديرة أبوابها حتى يتفرغ الآباء الرهبان للعبادة وعدم الانشغال بزيارات وأحاديث الزوار وأخبار العالم المتنوعة.

لكل قلاية رغم بساطتها، حجرة للصلاة وأيضا لكي يمارس فيها الراهب قوانينه التى تشمل الواجبات التي ينبغى عليه أن يؤديها يوميا. وتشتمل بعض الوحدات على مبان ضخمة مثل أبراج المأوى (الحصون) والكنائس. ولم يظهر الحصن المربع الشكل ذو الجدران السميكة في كيليا حتى القرن السابع. وقد يرتفع الحصن إلى سبعة أو ثمانية أمتار، وملحق به كوبري متحرك مرتفع عن الأرض بحيث يمكن الوصول إليه عن طريق سلم في الفناء. ومن الواضح أن الغرض من بناء الحصون هو الالتجاء



إليها درءا للأخطار التي تمثلها هجمات بدو الصحراء بغرض السرقات.

عانت منطقة كيليا من نقص الأخشاب والطوب المحروق والملاط أو الجير وتم استخدام الطوب المحروق في تدعيم أماكن حفظ المياه وغيرها من الأماكن المعرضة للماء. وجاء على لسان أحد رهبان منطقة كيليا، وهو الأب بيمن Pimen . ذكر للأخشاب حينما قال: (لم نتعلم أن نغلق الأبواب الخشبية وإنما بالأحرى فمنا).

عالم من الفخار

استخدم الصانع في منطقة القلالى كثيرا من الأوعية الفخارية داخل الجدران. ويرجح الباحثون أن استخدام هذه الأواني ربما لتقليل الرطوبة في تلك المنطقة أي لعزل المبنى عن الخارج. وهنا تكشف الباحثة السويسرية ماري-ايزابيل كاتن Marie-Isabelle Cattin النقاب عن فخار منطقة كيليا. فقد عوض الفخار النقص الشديد في المعادن والأخشاب. فهو يمثل نحو ٩٨٪ من مجموع متاع الرهبان في ذلك التجمع، وكانت قد جرت العادة في منطقة كيليا أن يتخلص الرهبان من الفخار القديم أو المكسور في مكان مخصص لذلك مما أدى إلى تراكم أنواع من الفخار فوق بعضها كل منها يمثل عصرا أو فترة من الزمن مما يمكن العلماء من دراستها.

ومن الاستخدامات التي شاعت للسيراميك من هذا الفخار استخدامه في أرضية المطبخ بما يشبه السيراميك الحديث، كذلك تم تصنيع جميع أدوات المطبخ من هذا الفخار مثل أوعية الطهي أو أوعية ذات أغطية لحفظ الطعام، وأوعية تخزين الماء والأطباق والأقداح والمغارف، والأوعية ذات المسامية العالية لحفظ الحبوب، وبعض الأدوات الكنسية مثل قارورة زيت الميرون (أو الزيت المقدس) وعلبة البخور. كما شهدت مباني كيليا تجهيزات متقدمة من الصرف الصحي باستخدام مواسير من الفخار مكونة من قدور طويلة بدون قاع داخل بعضها البعض تسير عبر الحوائط لطرد مياه الصرف خارج المباني للتهوية وتلطيف الجو، وقد بلغ فهم قاطني منطقة كيليا لطبيعة البيئة أن استخدموا كسر الفخار فى تكسية الجزء السفلى من حوائط المباني لمقاومة عوامل التعرية وخاصة في حالة هطول الأمطار الشديدة.

كنائس المحبة

لم يتبق من كنائس منطقة كيليا إلا القليل جدا، فمن بين ١٥٠٠ مبنى في كيليا لم تتمكن البعثة السويسرية من التعرف إلا على عشرة منها فقط. وقد أقيمت الكنائس دائما داخل أسوار المجمعات القديمة، وجرت العادة على أن يقتصر استخدامها مرة واحدة في الأسبوع من ليلة السبت وحتى فجر الأحد لأداء صلوات القداس الإلهي لجميع الرهبان من قاطني منطقة كيليا. وكانت الكنائس تتميز ببساطة تخطيطها البدائي، فهي تتكون من صحن كبير ذي عقود، مقسم إلى جناحين أو ثلاثة، تمتد في اتجاه الشرق لتصل إلى الهيكل الذي يوجد على جانبيه خورسان في الناحيتين البحرية (أي الشمالية) والقبلية (أي الجنوبية).

وتتصل بالكنائس أحيانا عدة حجرات منفصلة عن بقية المجمع، ومن المرجح أنها كانت تستعمل في خدمة حاجات الكنيسة، وبالأخص في إعداد وليمة الأغابى Agapi (كلمة يونانية تعنى المحبة)، وهى الوجبة التي يشترك فيها جميع أعضاء المجمع المتواجدين في صلاة القداس الإلهي.

بازدحام المنطقة بالوافدين في النصف الثاني من القرن السابع، حدثت طفرة في البناء في معظم مناطق كيليا، فتم تجديد وتوسيع التجمعات القديمة. فبلغ اتساع الحجرات إلى المدى الذي يسمح به البناء بالطوب الرملي، وبلغ اتساع عقود صالاتها إلى أكثر من ثمانية أمتار، وغطيت جميعها بطبقة من الملاط.

وبحلول القرن الثامن الميلادي، لم يتبق من مباني كيليا سوى مبان قليلة يسكنها رهبان مسنون يقدمون خدماتهم للحجاج المسلمين المارين بهذا الطريق. وفيما بعد استخدمها البدو للاحتماء بها من تقلبات الجو إلى أن طمرتها الرمال وظلت المنطقة في صمت وسكون طوال اثنى عشر قرنا من الزمان !! حتى تم اكتشافها على أيدي أعضاء البعثتين الأثريتين السويسرية والفرنسية في عام ١٩٦٤.

مهارة الفنان القبطي

على جداريات قلالى الرهبان بمنطقة كيليا، تسجل العديد من الرسومات المتعددة منها أشكال الصليب المختلفة وأنواع من الزخارف النباتية والطيور وصور القديسين بالإضافة إلى الرموز ذات المعنى الروحي. ونظرا لافتقار منطقة كيليا في الخامات الحجرية المتميزة مثل الرخام والحجر الجيري الجيد، لجأ الفنان إلى الرسومات والزخارف لكي يعوض هذا النقص، وبدلا من نحت أعمدة حقيقية عالية التكلفة فإنه قام برسم هذه الأعمدة بحرفية عالية جدا، بالإضافة لاستخدام تقنية حسب القوالب الجصية.

كانت أكثر الأماكن بمنطقة كيليا غنية بالزخارف والرسومات هي الكنائس وقاعات الصلاة وحنية الصلاة بقلاية الراهب، فقد كان الحائط الشرقي (يطلق عليها اسم الشرقية) يحمل الكثير من رسومات العهد الجديد مثل رسم السيد المسيح يحوط به الآباء الرسل وبعض الآباء من مؤسسى منطقة كيليا مثل القديس أنطونيوس أب الرهبان (الذى حدد موقعها ووضع بها الأساس الأول وهو الصليب عندما زارها بصحبة الأب آمون عام ٣٣٥ م)، والقديس آمون (مؤسس

شهدت مباني كيليا تجهيزات متقدمة من الصرف الصحي باستخدام مواسير من الفخار مكونة من قدور طويلة بدون قاع داخل بعضها البعض تسير عبر الحوائط لطرد مياه الصرف خارج المباني للتهوية وتلطيف الجو

المنطقة الرهبانية)، والقديس مكاريوس الإسكندرى (الذي تولى رئاسة رهبان المنطقة).

استعمل الفنان أكاسيد المعادن في التلوين بعد أن أذابها في ماء الجير، مع ترطيب السطح المراد الرسم عليه بالماء، وكانت مجموعة الألوان المستخدمة هي الأخضر والأسود والأصفر وقليل من الأبيض والأزرق.

أما قاعات وحنيات الصلاة فقد ازدانت بصليب داخل الحنية تحيط به رسومات للأزهار ورسومات لأعمدة تحيط بهذه الحنيات على الجانبين، وهذه الزخارف على قدر بساطتها فإنها مريحة للعين وتشير إلى تخصيص المكان للصلاة، أما أشكال الصليب فهي كثيرة ومتنوعة ولها شكل يميزها عن بقية المناطق الرهبانية الأخرى في مصر، وخاصة أن بعض رسومات الصليب الملونة يحف بها على الجانبين طيور ملونة تظهر وكأنها تقف أمام الصليب بخشوع.

هذه الرسومات المختلفة الموجودة على حوائط مجمعات كيليا تمثل إضافة أساسية للتعرف على خصائص الفن القبطى الذائع الصيت فى المنسوجات والعمارة. فقد كشفت الرسومات والزخارف المتعددة، التي أظهرتها عمليات التنقيب، التي أجريت على أيدي أعضاء البعثتين السويسرية والفرنسية، النقاب عن أصل علم الأيقونات. أنواع هذه الرسومات تعود في الغالب إلى الاتجاه الديني حيث رسم الصليب في المقام الأول، إلا أن الدافع الفني كان يغلب المغزى الديني للعمل.

المجتمع الرهباني

كذلك حفلت جدران منطقة كيليا بكثير من النصوص القبطية وأيضا اليونانية، وهى في مجملها صلوات وتذكارات للرهبان المنتقلين مثل: (رقد في الرب أبونا الصالح بوهى Pohy في ١٥ من شهر بؤونة، وأبونا سرابيون Serapion فى اليوم الرابع من شهر برمودة، وأبونا أورى Ory فى ٢١ من شهر طوبة، وأبونا أبرآم Abraam من جبل الأسقيط فى ٢٠ من شهر هاتور). بالإضافة إلى نصوص أخرى بها صلوات وطلبات من أجل بعض العائلات، وفى الغالب تكون عائلات الرهبان أو من زوار منطقة كيليا.

والحقائق التي اكتشفت في كيليا ترتب عليها أمران، فمن ناحية قد أمدتنا بمادة موثقة لدراسة العامية القبطية لهذه المنطقة (اللهجة البحيرية) فيما قبل القرن التاسع الميلادي، ومن جانب آخر أمكن الاستفادة من التواريخ المدونة على النقوش في التأريخ لهذه المنطقة مما له بالغ الأهمية في فهم التطور التاريخي لها.

لقد كشفت أعمال التنقيب بمنطقة كيليا عن معلومات غزيرة منها العلاقات التي ربطت المجمع الرهباني في كيليا والمواقع الأخرى في الدلتا وكذلك عالم البحر المتوسط عامة، كما أمدتنا بصورة متكاملة عن مدن الصحراء التي سكنها رجال يسعون إلى التقرب من الله نابذين الحياة الدنيوية، للبعد عن الضغوط السياسية.

من خلال هذه الدراسات وجدنا أن الرهبنة المثالية قد تغيرت رويدا رويدا من خلال التطور المعماري وفن الزخرفة في المجمعات الرهبانية. فقد تطورت حياة البؤس والفقر للرواد الأوائل شيئا فشيئا وفتحت المجال إلى حياة التجمعات التقليدية دون المساس بالغرض الأساسي للرهبنة وهو الاعتزال عن العالم والتفرغ للعبادة والعمل اليدوي. وبذلك وضعوا حجر الأساس للحياة الاجتماعية والروحية التي تدين لها بالكثير حركة الرهبنة المسيحية. وهذا ما أهدته مصر للعالم كله. ■

هوامش

(*) كتالوج كيليا - منطقة الأديرة القبطية بالوجه البحري. إصدار جامعة جنيف بسويسرا عام ١٩٨٩ بمناسبة معرض الآثار القبطية لمنطقة القلالى بمتحف الفن والتاريخ في الفترة (١٢ أكتوبر ١٩٨٩ - ٧ يناير ١٩٩٠).
Ermitages Coptes en Basse-Les Kellia Egypte

كتاب الزاوية

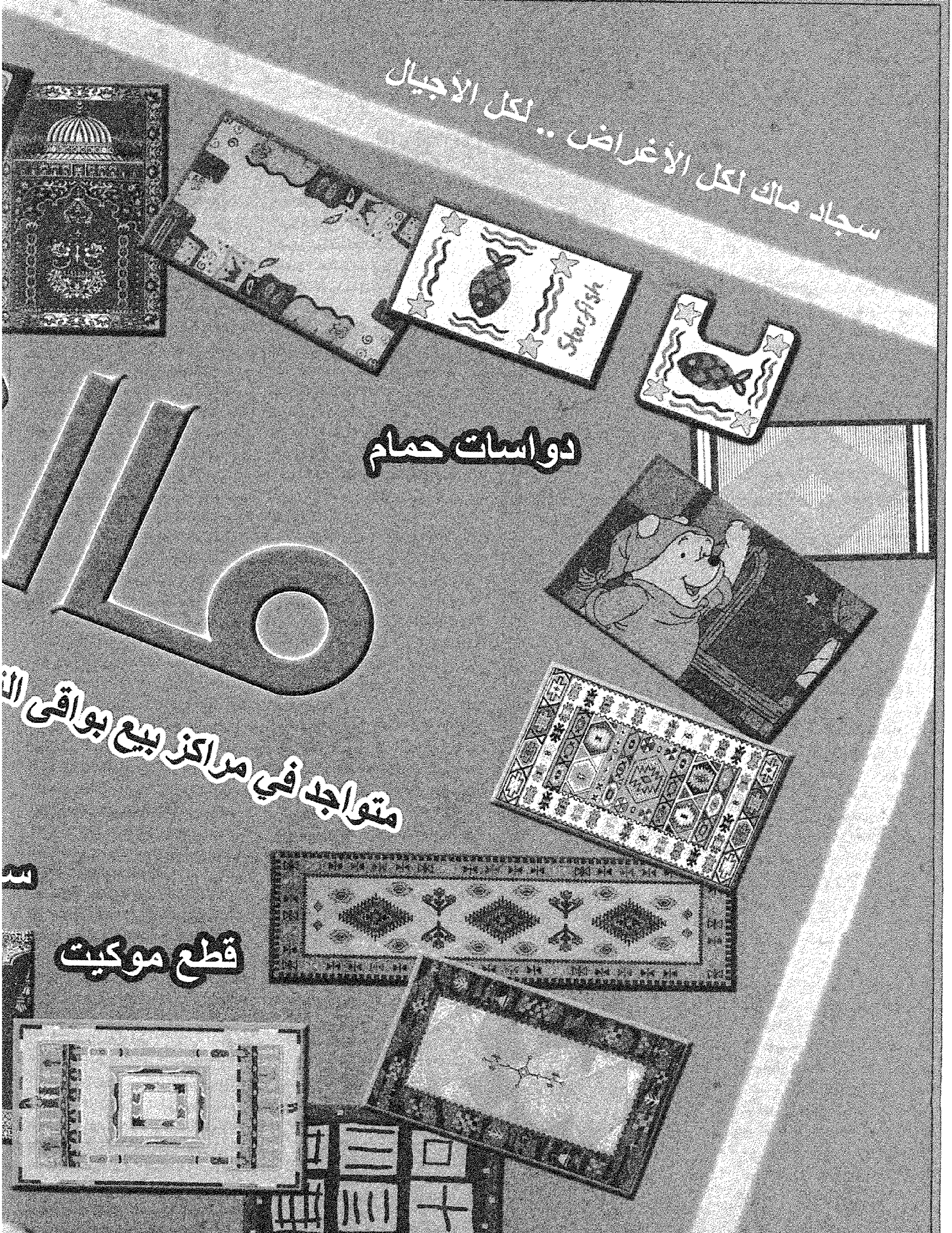
ابن العماد الأقفهسى

حائط حول النيل

وأما الحائط الممتد بالجانب الشرقى عن النيل، فذكر المسعودى: أنه لما أغرق الله فرعون ومن معه من الجنود، خشى ما بقى بأرض مصر من الذرارى والنساء والعبيد، أن يغزوهم ملوك الشام والغرب، فملكوا عليهم امرأة ذات رأى وحزم، يقال لها دلوكة. فبنت على بلاد مصر حائطًا يحيط بجميع البلدان، وجعلت عليهم المحارس والأجراس، والرجال متصلة أصواتهم بقرب بعضهم من بعض. وأثر هذا الحائط موجود إلى هذا الوقت، وهو سنة ثمانين وسبعمائة، ويعرف بحائط العجوز.

قال المسعودى: وقيل إنما بنته خوفاً على ولد لها كان كثير القنص، فخافت عليه من سباع البر والبحر، واغتيال من جاوز أرضهم من الملوك وأهل البوادى، فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها. وقيل غير ذلك.

فملكتهم ثلاثين سنة، واتخذت بمصر البرابى والصور، وأحكمت آلات السحر وغير ذلك.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت



سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com



ها نحن فى واقع الأمر نكتشف شيئا فشيئا أن دولة الإسلام قد عاملت المسيحيين وشعائرهم بقدر من التسامح، مثلهم فى ذلك مثل اليهود

ما بين نداء البابا أوربان الثانى لشن الحملة الصليبية الأولى فى الخامس والعشرين من نوفمبر١٠٩٥ وبين دعوة الرئيس جورج دبليو بوش لإطلاق ما وصفه بالـ «حملة الصليبية» الانتقامية على «الإرهاب الدولى» فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، يبدو الزمان وكأنه قد توقف. فالتناظرات والتوازيات التى يجوز رصدها بين «الحروب المقدسة» القروسطية ونزاعات الألفية الثالثة توحى بأن عقارب الساعة قد أصابها اختلال. لكن الزمان لم يتوقف، وساعة الدهر لم تفقد صوابها، بل الإنسانية هى التى تمشى القهقرى، وكأنها سرطان بحر مذعور يخطو إلى الوراء على شاطئ ملتهب الرمال متلاطم الأمواج. تلك هى الدلالة الرمزية التى يبثها الروائى والأكاديمى الإيطالى أمبرتو إكو فى عنوان كتابه الجديد: «على خطو سرطان البحر القهقار. الحروب الساخنة والشعبوية الإعلامية» (A Reculons, comme une écrevisse,Guerres chaudes et populisme médiatique). فى هذا الكتاب، جمع إكو سلسلة من المقالات والدراسات التى كان قد نشرها ما بين عامى ٢٠٠٠و٢٠٠٥، فى فترة استتبع فيها اللا نظام العالمى الجديد موجة من التوترات التى وشت بحلول ردّة فى مسيرة الحضارة الإنسانية. ولعل من أبرز تجليات ذلك السعى الحثيث إلى الوراء، التى يفرد لها الكاتب حيزاً كبيرا، هو عودة الحديث الموسع عن «موسم جديد للحروب الصليبية مع تجدد الصدام بين الإسلام والغرب»، وعودة فوران الحروب الساخنة ممثلة فى حربى العراق وأفغانستان بعد نصف قرن من المسالمة المتوترة، صنيعة الحرب الباردة.

والمعروف لقارئ أمبرتو إكو أن كتاباته تدعو إلى نبذ العنف والتعصب، وتعمد إلى النقد الموضوعى لأخلاقيات الحضارة الغربية، وتسعى - كما هو خليق بكتابات أستاذ علم السيميائيات والباحث فى دروب الفلسفة وعلم الجمال- إلى تفكيك قوالب المتناقضات الجدلية الجاهزة، القائمة على التبسيط المخل من قبيل «نحن وهم»، «الطيبون والأشرار»، «البيض والسود»... وهى معلومة بدا ذكرها واجباً فى هذا الاستهلال الذى استطال، ذلك أن النصين اللذين اجتزأناهما من الكتاب يُظهران وكأن الكاتب الذى اختطهما شخص موغل فى العنصرية، مبغض كل البغض للإسلام والمسلمين. لكن الحق هو أن إكو يسعى فى المقالين إلى تقديم نوع من المسرحة الفكرية لنظريات صمويل هنتنجتون- الرائجة وقت كتابة النصين- حول صدام الحضارات، ليبين مبلغ الضرر الذى يقع على الإنسانية جمعاء من جراء استبطان تلك النظريات وتطبيقها. فكلا المقالين مزاج خيال الروائى الحر وبصيرة المفكر المحصة، ذلك المزاج الذى يتجلى حين يتخلى الكاتب عن نسق التجريد الجاف لينطق بأفكاره من وراء قناع السخرية السوداء. فهو فى النص الأول، وتحت عنوان «الاستيلاء على القدس»، يؤدى دور مراسل صحفى يعود به الزمان ألف عام إلى الوراء، ليقدم لنا بثاً إذاعياً مباشراً من مدينة القدس عام ١٠٩٩م، مسجلاً وقائع استيلاء أجداده الصليبيين على المدينة المقدسة، وكاشفاً عن لحظة من أهم لحظات بناء الجدار العازل بين الشرق والغرب. أما النص الثانى («سيناريو حرب صليبية جديدة»)، فيجسد فيه إكو دور محامى الشيطان، الذى يؤمن بحتمية صدام الحضارات، ويتنبأ بحملة صليبية جديدة. ولكنه لا يملك سوى حث الغرب على المهادنة، إذعاناً لإملاءات عقلية برجماتية لا أخلاقية، وتحقيقاً لرؤية مادية نفعية.

ومابين وقائع ماض محقّق وترهات مستقبل معلّق، يمضى خيال كاتب المقالتين محاكياً مشية سرطان البحر القهقار، الذى أصابه ذعر وصَغار، أمام أمواج العنف المتعاظمة، على الشاطئ الغربى الذى شهد ـ وما فتئ يشهد ـ إبحار سفن فرسان الرب باتجاه ممالك جنة الشرق.

داليا توفيق سعودى

الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

رجال التحالف الصليبى راحوا يذبحون الناس بلا شفقة؛ آه يا إلهى! هناك من يضربون رؤوس الأطفال فى الحوائط حتى تتهشم...

الاستيلاء على القدس

بث مباشر[1]

١٤ يوليو، صباحا. ألو! ستوديوهاتنا، هل تسمعوننى؟ هكذا! أسمعكم جيدا OK. هنا أورشليم، وإليكم بث مباشر من جبل صهيون، نحن هنا خارج الأسوار. مع أول خيوط ضوء الفجر بدأ الهجوم. من المرتقى الذى وصلت إليه بوسعى أن أشرف على شبه المربع الذى ترسمه أضلاع المدينة المسوَّرة: إلى الشرق، تمتد ساحة الهيكل القديم، حيث تقع قبة الصخرة، وإلى الشمال الغربى، توجد بوابة هيرودس، وإلى الشمال الشرقى، خارج الأسوار، يتراءى بستان أشجار الزيتون، وفى الجنوب الغربى يقوم برج داود.. هنا، فضلا عما للأسوار من مهابة، تجدها تشرف من جهة المشرق على شفا جرف وادى الأرز. أما من جهة المغرب، فيتراءى من ورائها واد آخر. لذلك، لا تستطيع قوات التحالف الصليبى شن هجومها إلا من جهتى الجنوب الغربى والشمال.

الآن وقد أشرقت الشمس، بوسعى أن ألمح جليا الأبراج الخشبية العملاقة وآلات المنجنيق وقاذفات اللهب وهى تحاول اجتياز الخندق الذى يفصلها عن الأسوار. تذكرون جميعا إلى أى مدى مثلت آلات الهجوم مشكلة حرجة. فلقد كانت المدينة محاصرة منذ السابع من يونيو (حزيران)، فلما كان الثانى عشر منه، أصغت جيوشنا لمشورة عراف مشبوب الحماسة، أخذ يبشر بأن النصر بات وشيكا، فكانت محاولة الهجوم الأولى؛ لكنها ما لبثت أن تحولت إلى كارثة، إذ افتضح مبلغ افتقار الجيش الصليبى للعدة الملائمة لغرض تسلق الأسوار. ولقد كان القادة العسكريون على سابق علم بتلك النقيصة، لكن هذه الحرب تشهد تداخل اعتبارات متباينة. فالنبلاء والفرسان يعرفون أن الحرب قد تُدار أيضا بواسطة المهادنات والمعاهدات المبرمة مع العدو، وأنها - الحرب- منوطة بقدر من السكون والمسالمة. ولكن، فى أذيال الجيش، ثمة حشد هائل من الحجاج والفقراء المعدمين الذين غذتهم النزعات الروحية وشغفهم شوقٌ إلى النهب والتخريب. هؤلاء هم أنفسهم الذين عمدوا، أثناء مرورهم بمحاذاة نهرى الراين والدانوب، إلى إشاعة القتل والدمار فى جيتوات اليهود. إنهم صنف من البشر جد خطر، والسيطرة عليهم من الصعوبة بمكان.

أحسب أن ذلك هو السبب الرئيس لفشل هجوم الثانى عشر من حزيران. ولذلك أيضا لم يتحرك ساكن طوال الشهر المنصرم. فلقد عم خمول تام، بعد أن قام والى القدس، «افتخار الدولة»، بتسميم الآبار الخارجية (أما المدينة فتنعم بشبكة ممتازة من صهاريج المياه)، ولم يسَع الصليبيين -لاسيما أولئك المُثقلين بدروعهم المعدنية- أن يتحملوا لهيب ذلك الصيف القائظ، وما استطاعوا إلا امتتاح بعض المياه الآسنة، قد بلغوها بشق الأنفس. إذ لم تكن المياه العذبة موجودة إلا فى الجنوب، على مقربة من أسوار العدو. وطوال تلك الفترة، كان لزاما على جيوشنا إيجاد الأخشاب والأدوات اللازمة لصنع آلات الحصار. لكن ههنا، وفى أرباض المكان، بدت التلال جرداء المحاسر، لذا استوجب جلب الأخشاب الذهاب بعيدا. أما الأدوات، فلم تصل إلى ميناء يافا إلا مع انتصاف شهر حزيران، حين أقبلت سفنٌ حربيةٌ من جنوة وأربع بارجات من إنجلترا، محملة بحبال ومسامير وبراغى وكل مستلزمات النجارة الحربية. هكذا. والآن فقط، أضحى بمقدورنا شن هجوم يأزرنا فيه عتادٌ من صنوف السلاح المتطور تقنيا.

هاأنا ألمح الآن ثلاثة أبراج عملاقة، لكل منها ثلاثة طوابق، قد تحركت متجهة صوب أسوار المدينة، وامتلأت عن آخرها برجال مدججين بالسلاح، وضمت بين مزاياها قابلية إنزال جسر متحرك فوق الحوائط. لكن بقيت مشكلة الوصول أمام الأسوار، بما يعنى ضرورة اجتياز الخندق...

كم يبلغ عدد الجنود المقاتلين فى صفوفنا؟ قد تبدو لكم إجابتى غير معقولة، ولكننى حقا لم أتوصل إلى تحديد عددهم. إذ يتكون التحالف الصليبى من جحافلٍ عدة، قد قدم على رؤوسها قادةٌ عدة، جُلّهم قد انخرط فى القتال طمعا فى إصابة حظ من الحظوة والنفوذ، وهو ما قد يحملهم على اختلاق الأرقام وتزييف البيانات. ثم إن هناك حشود الحجاج. يتحدث البعض عن خمسين ألف نفس فى المحصلة. لكننى أحسب أن ذلك تقدير فيه مبالغة. فهُم على وفق أقصى تقديراتنا اثنا عشر ألفا من المشاة مع ألف وثلاثمائة من الفرسان، أما التقدير الأدنى فيورد ذكر ألف فارسٍ وخمسة آلاف راجل. أما المسلمون، فهم بضعة آلاف من العرب والسودانيين، فضلا عن سكان المدينة، المتأهبين جميعهم للقتال. ولقد واتت افتخار الدولة فكرة عبقرية، إذ أخرج من المدينة كل المسيحيين من أهلها، حتى لقد آل عبء إطعامهم إلى قواتنا، وهو بذلك الإجراء الحصيف لم يتخلص من أفواه عديمة الفائدة فحسب، وإنما هو أيضا قد أمن مكر أناس قد يقترفون - لو بقوا بالمدينة - بعضا من أعمال التخريب. ولقد أبقى افتخار الدولة على اليهود، ربما لقاء فدية عظيمة من المال، فلو أنه كان قد أخرجهم لكان حجاجنا قد مزقوهم إربا.

إن كثيرا منكم - مستمعينا- قد ترسخ لديهم الاعتقاد فى أن تلك الحملة قد شُنت من أجل إرجاع الشعائر المسيحية إلى الأراضى المقدسة، لذا ستتعجبون من أن أناسا مسيحيين كان قد استقام لهم العيش آمنين مطمئنين فى القدس، حتى أنهم قد شيدوا كنائسهم على أرضها؛ ومن جهة أخرى، تذكرون أن قوات التحالف الصليبى قد احتلت مؤخرا مدينة بيت لحم بناء على طلب الطائفة المسيحية المحلية، وهو ما يعنى بالضرورة أن ثمة طائفة مسيحية كانت تحيا هنا. وها نحن فى واقع الأمر نكتشف شيئا فشيئا أن دولة الإسلام قد عاملت المسيحيين وشعائرهم بقدر من التسامح، مثلهم فى ذلك مثل اليهود. ها نحن إذن نُحكم الطوق على مدينة يحكمها الكفار بهدف إتاحة الفرصة أمام المسيحيين لزيارتها، فتكون العاقبة الأولى لمبادرتنا أن يتعرض للطرد من تلك المدينة قاطنوها من المسيحيين. إن ذلك ليس التناقض الأوحد الذى تنجلى عنه هذه الحرب، فهى بالنسبة للبعض تحقيق لمبدأ احتكار المسيحيين للأراضى المقدسة، وللبعض الآخر هى فرصة لتحصيل المغانم، وهناك آخرون، الله وحده أعلم بهم، يرونها أشبه بمهرجان عظيم لإراقة الدم...

وفقا لمصادرى المطلعة، تثير المعركة الدائرة عند بوابة هيرودس، الواقعة جهة الشمال الغربى، قدرا أوفر من الاهتمام. لذا، سأركب بغلتى وأجتهد فى بلوغ الطرف الآخر للمدينة المحاصرة. عودة مؤقتة إلى ستوديوهاتنا. آسف لقطع الإرسال.

١٤ يوليو مساء. ألو، ستوديوهاتنا، هل تسمعوننى؟ حسنا، أنفقت بضع ساعات للوصول إلى جوار بوابة هيرودس، فقد كان لزاما على أن أمضى متحرِّفا عن الأسوار نظرا لأمطار الحجارة التى كانت تنهال فوق الرؤوس بلا هوادة. كنت أمر خلال أدخنة الحرائق. يالمشهد ألسنة النار فى جوف الليل! هو السحر والرهبة معا. فقذائف اللهب حيلة حربية بيزنطية يتقنها المسلمون، فجعلوا يرسلون الكرات الملتهبة مدرارا على أبراج الحصار الخشبية. حسنا، على الآن أن أبتعد، فلقد خرج إلينا جمع غفير من المسلمين الذين يبتغون حرق أسلحتنا.. ها هو أحد الأبراج قد طالته النار، فطفق جنودنا يقفزون من علٍ طلبا للنجاة، لكن سهام الأعداء سوّطتهم بعنف. ها هو النصف الأعلى من البرج ينهار ناشرا حوله سحابة كثيفة من الشُرر المتطايرة، لكن لحسن الحظ أن دُفن تحت الركام العسكر المسلمون الذين كانوا يتأهبون للعودة إلى داخل الأسوار، كما طالت النيران مصراعى البوابة. ولكن لماذا لا يأتى جنودنا بكل القاذفات إلى هنا؟ أحدهم أخبرنى بأن بقية الآلات قد تضررت هى الأخرى من كرات اللهب. قد أضعنا إذن معركة اليوم، وعلينا أن نمضى الليل فى إصلاح أسلحتنا. عودة إلى ستوديوهاتنا، على أن أقطع البث.

١٥ يوليو، صباحا. عفوا، لا أسمعكم

A Reculons, comme une écrevisse,Guerres chaudes et .populisme médiatique

(على خطو سرطان البحر القهقار. الحروب الساخنة والشعبوية الإعلامية)

تأليف: أمبرتو إكو

الترجمة الفرنسية: ميريام بوزاهر، ماريو فوسكو، بيار لاروش، ديان مينار، روبرتو نجرى.

باريس، جراسيه، سبتمبر ٢٠٠٦، ٤٢٢ صفحة، ٢١ يورو.

بيانات الطبعة الإيطالية:

PASSO DI GAMBERO,Guerre calde e populismo mediatico
Umberto ECO
Milan, Bompiani, 2006.

ترجمة: داليا توفيق سعودى

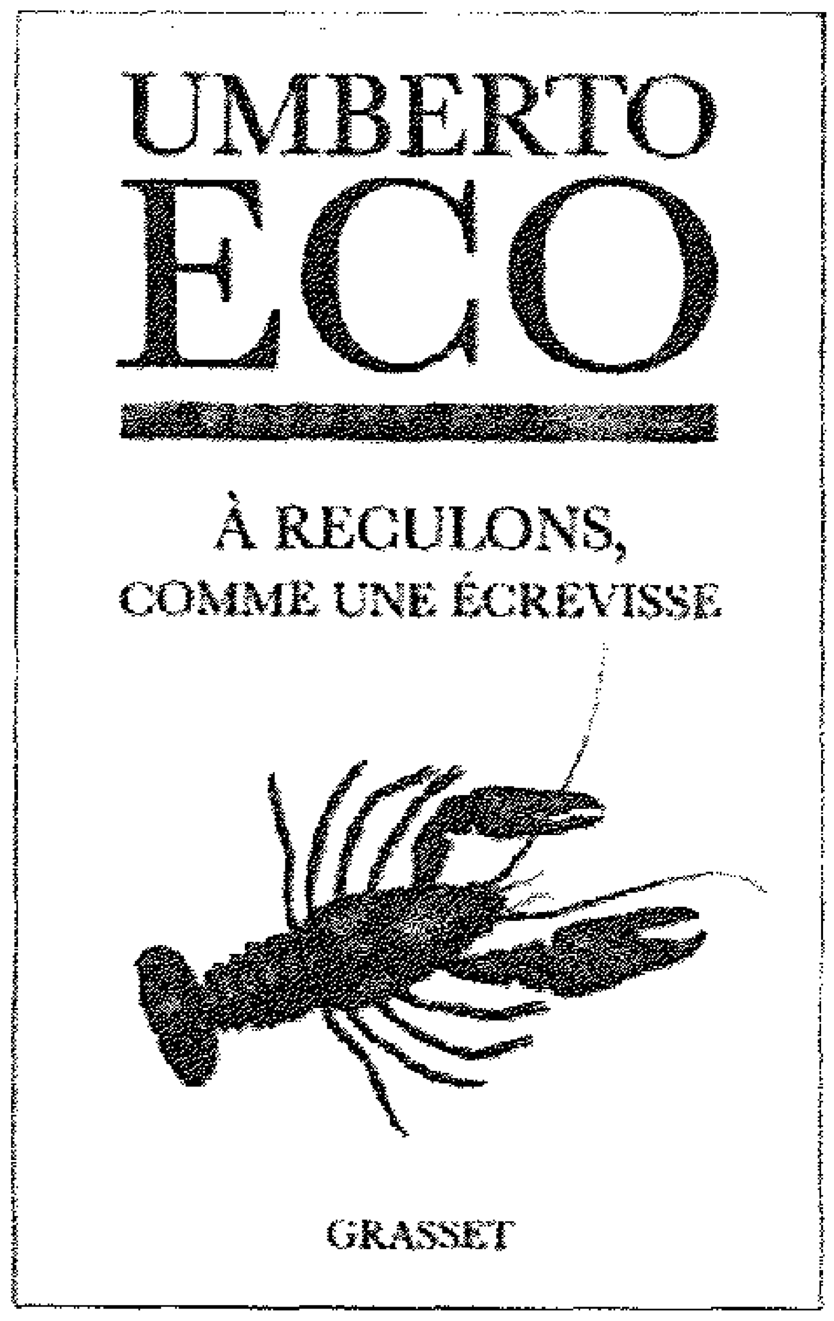
فى زمن الحملات الصليبية، لم يكن المسيحيون يحتاجون إلى الحديد العربى لصنع سيوفهم، أما اليوم، فما ننتجه يقوم على النفط، وهم يملكونه

جيدا... هكذا، أسمعكم الآن. يبدو أن جيشنا قد تمكن من ترميم جزء كبير من سلاحه. ها هو يعاود الكر، وها هى أمطار الحجارة تنهال فوق الأسوار، إذ تمكنت آلات المنجنيق التى حشدناها من اجتياز الخندق... ها هى ضرباتنا ترجف تحت وطأتها القدس بأسرها...

من موقعى هذا بوسعى أن أرى بمنتهى الوضوح جودفروا دو بويون وهو يقود الهجوم الأخير من على قمة أحد الأبراج.. أخيرا، بدأت طلائع جنود الرب فى القفز فوق الأسوار. يقولون لى هنا أن هؤلاء هم عسكر ليتولد وجيلبير دو تورنى، تبعهم بعد ذلك جودفروا والآخرون، وها هم المسلمون يتساقطون صرعى تحت ضرباتنا، ومنهم من يسقطون من فوق الأسوار لتتكسر عظامهم على الأرض. وانهارت بوابة هيرودس، كلا - عفوا- بل يبدو أنه قد تم فتحها من الداخل بأيدى الرجال الذين تسوروا الحوائط، والآن ها هم رجال قوات التحالف الصليبى يداهمون المدينة رجالا وركبانا!

علمت إن المعركة ما تزال تدور بضراوة قرب بوابة صهيون.. عفوا، إليكم آخر الأنباء، يبدو أن جنود ريمون دو صنجيل قد تمكنوا من إحداث ثغرة عند بوابة صهيون. ولقد اجتاح ريمون برج داود وأسر افتخار الدولة وحاميته، وأمنه على حياته لقاء فدية من المال، ثم ما لبث أن أرسل معه من يوصله إلى عسقلان التى ما تزال تحت إمرة السراسنة. إنه اندحار العدو! قد انتصرنا! إنها لحظة تاريخية! ويا للعجب، فالساعة الآن الثالثة بعد الظهر، وهو ما يوافق ساعة آلام المسيح!!! يا لها من مصادفة عجيبة!!! أحاول الآن الاندماج مع كتلة الجند المندفعين إلى داخل المدينة، وهو ليس بالأمر الهين، إذ أوشكت أن أقع عدة مرات تحت سنابك الخيول!.. هل تسمعوننى؟ أنا لا أسمعكم، ولكننى سأواصل الحديث...

ها أنا أيضا قد اجتزت أسوار أورشليم، ووجدتنى أتسلق جبالا لا تنتهى من جثث داكنة البشرة، رغم ما قيل عن انعدام المقاومة إثر سقوط المدينة. ووقفت أستجوب رقيبا بدا لى عائدا إلى المعسكر الصليبى، وقد غطت ملابسه الدماء، وحمل على عاتقه كميات من الخز الثمين. سألته فرد قائلا: «مقاومة؟ كلا البتة، فما إن وطئنا المدينة حتى استنفر



هؤلاء الملاعين ثيابهم وفروا، ثم لاذوا بالمسجد الأقصى لكن القائد العظيم تانكرد دو أوتفيل باغتهم قبل أن يتمكنوا من إعادة تنظيم المقاومة، فما كان منهم إلا أن استسلموا. ولقد أمر تانكرد برفع علمه فوق المسجد لكى يضعهم تحت حمايته». فسألته من أين أتت إذن كل تلك الجثث، فأجابنى: «من أين أنت أيها الرجل؟أما ترى أننا نقتحم مدينة، وأن المدينة فوق ذلك مدينة كفرة؟فما الغرابة إذن فى أن نُثخن فيهم، فنُقتّلهم أجمعين، شبابا وشيوخا، رجالا ونساء وأطفالا؟ أوليست تلك هى القاعدة؟» فعدت وسألته: «فما كان مصير أولئك الذين منحهم تانكرد حمايته؟» فأجاب الرجل بإشارة لم أفهمها ثم أضاف قائلا: «كما تعلم، للقادة أهواؤهم».

مازلت لا أفلح فى شق طريقى، وقد غشينى الآن جمع مستنفر من العرب من جميع الأعمار، راحوا يفرون فى كل اتجاه، ومن ورائهم جنودنا يحسونهم حسا... معذرة، إن صوتى يتهدج وأنا أصف لكم ما أشهده الآن، إذ أن رجال التحالف الصليبى راحوا يذبحون الناس بلا شفقة: آه يا إلهى! هناك من يضربون رؤوس الأطفال فى الحوائط حتى تتهشم... والأمر لا يقتصر على حملة السلاح من الجند، لكننى أرى أيضا عصابات الحجاج الذين راحوا يتكالبون على الجرحى.. لحظة واحدة!.. وصلتنى أنباء من المعبد اليهودى حيث تحصن كل يهود أورشليم. قد تم إضرام النار فيه، وهلكت كل الطائفة اليهودية فى الحريق. رأيت راهبا إفرنجيا مسنا يقول متباكيا: «هم يهود سفلة لا ريب، ولكن لم نقذف بهم اليوم إلى النار ونيران الجحيم كانت بانتظارهم؟ آه! لقد صار مسيحيونا وحوشا مجنونة، فهم لا ينصاعون حتى لأوامر قادتهم».

ألو! هل تسمعوننى؟ بالتأكيد، ولا ريب أنكم تسمعون طقطقة المبانى وقد باتت فريسة تأكلها النيران، قبل أن تتهاوى فى كل مكان، وهناك أيضا صرخات البشر الذين راح جنودنا يعملون فيهم السيف. يا إلهى، ما عدت أحتمل، فلنواصل حديثنا غدا... فإلى ستوديوهاتنا. سأقطع البث.

١٦ يوليو. ألو! ستوديوهاتنا؟ لم يبق لى إلا القليل لأذكره. فثمة أحيان يخبر المراسل فيها معنى الخزى وهو يحاول أن يؤدى عمله الصحفى... كان تانكرد قد تعهد بحفظ دماء المسلمين داخل المسجد، لكن جماعة أخرى ممن فلت زمامهم (وهم من الفلمنديين على الأرجح) لم يحترموا أوامره، فكان أن وقعت هناك أيضا مذبحة مروعة. ولقد ذهب بعض الفرسان إلى اتهام ريمون دو صنجيل بالخيانة، لكونه قد حفظ دماء افتخار الدولة ومن معه. لكأن مسا من الجنون قد أصاب الجميع ههنا، وراحت الدماء تغلى فى العروق. أتحدث الآن إلى ريمون داجيلار الذى أفاد قائلا: «فيما حول مسجد الصخرة، وصل الدم المسفوح إلى الركب. وقد استشاط تانكرد غضبا لما ثبت عليه من عجز فى الوفاء بكلمته، لكن الذنب ليس ذنبه. ولا أحسب أن تبقى بالقدس مسلم واحد أو يهودى على قيد الحياة». فسألته عن تقديره لعدد الضحايا ككل؟ فأشار إلى سقوط ما لا يقل عن سبعين ألف قتيل، لكننى أعتقد أنه يبالغ. فهو لا يزال واقعا تحت أثر الصدمة. وتبعا لما نمى إلى علمى من آراء، فبعد أن تم إقصاء المسيحيين من أهل المدينة، تبقى بها بضعة آلاف من العسكر وخمسون ألف مدنى. وقد سرت أخبار عن تمكن بعضهم من النجاة بأنفسهم بالتسلل عبر فلجات فى الأسوار. لذا فأنا أميل إلى القول بأن مجموع من قضوا خلال اليومين الأخيرين يقدر بأربعين ألف قتيل. ولربما جاء يوم يشاع فيه إن حصيلة القتلى كانت أقل، وإنه يتعذر عمليا أن يتم تنفيذ مقتلة بهذا الحجم فى يومين اثنين فقط. لكن الجثث قد تناثرت من حولى على مد البصر، وانتشرت رائحة العفونة تحت أشعة الشمس حتى أضحت تزكم الأنوف.

وكان أحد الرهبان ممن تحدثت إليهم هذا الصباح قد أفاد بأن هذه المجزرة تعدل فى حقيقة الأمر هزيمة. فلو أننا أردنا إقامة مملكة مسيحية على هذه الأراضى، فالأولى أن نعول على تقبل المسلمين هناك لنا، وعلى تقبلنا نحن للممالك من حولنا. أما تلك المذبحة، فلقد خلقت شرخا عميقا من الكراهية مابين مسلميهم ومسيحيينا، شرخ سيستمر لسنوات، أو ربما لقرون. إذ لن يكون استيلاؤنا اليوم على القدس بمثابة نهاية للصراع، بل هو بداية لحرب طويلة جدا...

سيناريو حرب صليبية جديدة(٢)

لنتخيل مواجهة شاملة بين العالم المسيحى والعالم الإسلامى، تتخذ صورة مجابهة صدامية على غرار ما جرى فى الماضى. ولكن، فى الماضى، كانت أوروبا محصورة داخل حدود شديدة الوضوح، فكان البحر الأبيض المتوسط يفصل بين المسيحيين والكفار، وكانت جبال البرانس تعزل ذلك الامتداد الغربى من القارة الذى كان لا يزال عربيا فى أجزاء منه. إضافة إلى ذلك، كان أن اتخذ الصدام إحدى صورتين: إما الهجوم أو الاحتواء.

ولقد تمثل الهجوم فى الحملات الصليبية، لكنا قد علمنا مآلها ومحصلتها. فالحملة الصليبية الأولى هى الوحيدة التى استتبعت فتحا حقيقيا، وحققت استقرارا للفرنجة فى الشرق الأوسط. وبعد أقل من قرن من الزمان، سقطت القدس مجددا فى أيدى المسلمين، وعلى مدار قرن ونصف القرن، وقعت سبع حملات أخرى لم تحقق أية تسوية.

أما العملية العسكرية الوحيدة التى صادفت نجاحا فلقد كانت عملية استعادة إسبانيا فيما بعد، بيد أنها لم تكن حملة تستهدف ما وراء البحار، وإنما كانت أقرب إلى نضال من أجل استعادة الوحدة القومية، نضال لم يبلغ المواجهة بين العالمين

الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

هل نقول - مثلا - لمبارك والقذافي: «هل لكما أن تستقبلا، هؤلاء الملايين الثلاثة من الأتراك الذين نسعى لإخراجهم من ألمانيا؟»

المتصارعين، بل عمل على تغيير أرض الصراع وإزاحة حدوده. أما عن الاحتواء، فلقد تمثل فى إيقاف توغل الأتراك على مشارف فيينا، وهزيمتهم فى موقعة «ليبانت»، وتشييد الأبراج على السواحل لرصد قراصنة السراسنة، وعليه ،لم يفلح الأتراك فى حيازة أوروبا. ولكن بقى الصراع واستمرت المواجهة.

ثم كان أن قام الغرب باستعمار الشرق الذى خارت قواه. ولقد توجت هذه العملية على الصعيد العسكرى بنجاح طويل الأمد، ولكن ماذا عن نتائجها التى مازلنا نعيشها إلى اليوم؟ لم يتم حل الصراع، ولم تنته المواجهة، بل تم إذكاؤها.

واليوم، إذا ما قررنا العودة إلى المواجهة الصدامية، أى اختلاف ستشهده مجريات الأمور مقارنة بنزاعات الماضى؟ فى زمن الحروب الصليبية، لم تكن قدرة المسلمين العسكرية تختلف كثيرا عن قدرة المسيحيين، فلقد كان الطرفان على السواء يمتلكان السيوف وآلات الحصار. أما اليوم، فالغرب متفوق فى تملك ناصية تكنولوجيا الحرب. صحيح أن باكستان، فى حال وقوعها تحت سيطرة الأصوليين، بوسعها استخدام السلاح الذرى، ولكنها عندئذ قد تفلح فى ضرب باريس على أقصى تقدير، وسرعان ما سينفد احتياطيها النووى. فلو أن طائرة أمريكية سقطت، لن يلبث أن يصنع الأمريكيون طائرة غيرها، لكن لو سقطت طائرة سورية، فسيصعب على السوريين استجلاب غيرها من الغرب. وهكذا، يدك الشرق باريس فيلقى الغرب بقنبلة ذرية على مكة. ويعمد الشرق إلى نشر سم «لبوتوليزم» عبر البريد فيسمم الغرب الجزيرة العربية بأكملها، بنفس السهولة التى ترش بها المبيدات الحشرية فى حقول الغرب الأوسط الشاسعة، عندئذ، حتى الإبل ستنفق. ممتاز! بل إن ذلك قد لا يستغرق زمنا طويلا، فقد لا يتطلب الأمر أكثر من عام على أقصى تقدير، بعدها سيكمل العالم بأسره التراشق باستخدام الحجارة، ولربما خسر الأعداء.

ولكن، ثمة اختلاف ما بين الحاضر والماضى. ففى زمن الحملات الصليبية، لم يكن المسيحيون يحتاجون إلى الحديد العربى لصنع سيوفهم، وكذا المسلمون ما كانوا بحاجة إلى حديد المسيحيين. أما اليوم، فما ننتجه من تكنولوجيا فائقة التقدم إنما يقوم أساسا على النفط، والنفط إنما هم الذين يملكونه، أو لنقل إنهم يملكون النصيب الأوفر منه. ولو أنهم بقوا وحدهم من دون مساعدة، لاسيما لو قمنا بقصف آبارهم، فلن يتمكنوا من استخراج النفط، ولكننا بدورنا لن نحصل عليه. عندها، سيتحتم على الغرب إعادة هيكلة كافة تقنياته بحيث يتمكن من الاستغناء عن النفط. وإذ أننا لم نتوصل بعد لتصنيع سيارة كهربائية تسير بسرعة تفوق ثمانين كيلومترا فى الساعة ولا تستلزم ليلة كاملة لإعادة شحن بطارياتها، فلا علم لى كم من الوقت سنحتاج من أجل إتمام عملية إعادة الهيكلة التقنية تلك. ويسرى ذلك بالمثل على استخدام الطاقة النووية لتحريك الطائرات والدبابات ولتشغيل محطاتنا الكهربائية- من دون الخوض فى حساسية تلك المنشآت-فكل ذلك سيستغرق وقتا طويلا.

كما سيكون من المفيد أن نعلم إن كانت الشقيقات السبع الكبرى سيوافقن على هذا التحول. ولن أندهش لو أن مؤسسات نفطية غربية قد ساقها إلحاح الرغبة فى مواصلة تحقيق الأرباح إلى إبداء استعداد لتقبل عالم متأسلم.

ولكن لنشرع فى المزيد من المقارنة. فى زمن الماضى الجميل، كان السراسنة فى جانب، يمتد ما وراء البحر، والمسيحيون فى جانب مقابل. أما اليوم،فأوروبا تعج بالمسلمين، الذين يتحدثون بألسنتنا ويتعلمون فى مدارسنا. وإن كان من بينهم اليوم من ينحازون بالفعل إلى الأصوليين، فلنتخيل مآل الحال لو وقعت مواجهة شاملة. فلسوف تكون هذه هى الحرب الأولى التى يكون فيها العدو ليس فقط بين ظهرانينا وإنما أيضا مستفيدا بغطاء الضمان الاجتماعى.

ولنلحظ أيضا أن المشكلة ذاتها ستتبدى فى العالم الإسلامى، الذى تقوم على أراضيه صناعات غربية بل يضم أيضا بؤراً مسيحية، مثلما فى إثيوبيا.

ونظرا لكون العدو شريرا بمقتضى التعريف، فلنضع فى حسباننا أن كافة مسيحيى ما وراء البحر سيصبحون فى خبر كان. فالحرب هى الحرب. وعليه، سيحكم عليهم منذ البداية بأن مصيرهم هو الموت. ولسوف نعمد، فى وقت لاحق، إلى إدراجهم جميعاً فى عداد القديسين فى احتفالية تقام فى ساحة كاتدرائية سان بيار.

ولكن ماذا عسانا أن نفعل فى المقابل داخل بلداننا؟ لو تفاقم النزاع بصورة محتدمة، وانهارت ناطحتا سحاب أخريان أو ثلاث أو حتى انهارت كاتدرائية سان بيار، عندها سنعلن ملاحقة كل مسلم على أرضنا. ولسوف يكون ذلك أشبه بمقتلة ليلة السانت بارتيليمى أو بمذبحة صلوات الستار الصقلية، فنقوم بالقبض على أى شخص طويل اللحية أو بشرته غير بيضاء، ونقتله. وسيلزم التخلص من ملايين المسلمين بهذه الطريقة، لكن العامة سيتكفلون بهذه المهمة من دون إزعاج القوات المسلحة.

وقد يعلو صوت العقل، فلا نقتل أحدا. ولكن حتى الأمريكيين المتناهين فى ليبراليتهم كانوا قد قاموا، فى بداية الحرب العالمية الثانية، بإرسال اليابانيين والإيطاليين المقيمين بينهم إلى معسكرات الاعتقال، وإن كان من بين المعتقلين من ولدوا على الأراضى الأمريكية، وإن تم ذلك فى ظروف إنسانية. إذن ومن دون الاسترسال فى التفاصيل، سنمسك بكل من يبدو من هيئتهم أنهم من المسلمين- ولو كان منهم على سبيل المثال بعض الإثيوبيين المسيحيين فلا يهم- سنمسك بهم ونودعهم فى مكان ما. ولكن أين؟ فلكى يتم بناء معسكرات اعتقال تتسع لكل أولئك الدخلاء على مجتمعاتنا الذين يتنقلون فى ربوع أوروبا، ثمة حاجة إلى مساحة، وتنظيم، ومراقبة، وتغذية، ورعاية طبية هائلة، بغض النظر عن كون مثيلة تلك المعسكرات ستكون أشبه بقنابل موقوتة.

أو من الممكن أن نأخذهم جميعا (وذلك ليس بالأمر اليسير لأنه يتطلب التقبُض عليهم كلهم دفعة واحدة)، ونشحنهم على متن أسطول من السفن لننزلهم فى مكان ما... ولكن أين؟هل نقول مثلا: «عفوا، سيادة الرئيس «القذافى»، عفوا سيادة الرئيس «مبارك» هل لكما- لو تكرمتما- أن تستقبلا فى بلديكما، هؤلاء الملايين الثلاثة من الأتراك الذين نسعى لإخراجهم من ألمانيا؟».

أو قد يكون الحل الوحيد هو ذلك الذى يلجأ إليه مهربو العمالة غير القانونية، فنلقى بهم إلى البحر. وهو حل نهائى ذو أصداء هتلرية. لتطفو ملايين الجثث على مياه المتوسط. وددت فقط لو علمتُ أية حكومة تلك التى ستقدم على مثيل هذا الفعل؛ فحتى هتلر كان يقتل عددا قليلاً فى المرة الواحدة وكان يفعل فعلاته فى الخفاء.

وإذ أننا صالحو الطوية، فالحل البديل هو أن نتركهم آمنين فى بلداننا، على أن نُسير خلف كل واحد منهم مخبرا من قوات الشرطة الخاصة لمراقبتهم. ولكن.. أين لنا أن نجد هذا الكم من المستخدمين؟ هل نختارهم من بين صفوف المهاجرين الدخلاء على مجتمعاتنا؟ ولكن ماذا لو تبين لنا بعد ذلك أن هؤلاء العملاء غير جديرين بالثقة، مثلما حدث فى الولايات المتحدة، حين كانت شركات الطيران تسعى لخفض التكاليف بالعهود بمهام التفتيش فى المطارات إلى المهاجرين الوافدين من بلدان العالم الثالث.

بطبيعة الحال، من الجائز أن تخالج كلُ تلك الأفكار رجلا مسلما ذا حكمة ورشاد، وهو قابع فى موقعه على الجانب الآخر من المتراس. فالجبهة الأصولية لن يتحقق لها بالطبع النصر الكامل على أرضها، وعليه فسنرى فى بلدانهم سلسلة من الحروب الأهلية الدامية، وهو ما سيسفر عن مذابح مروعة، كما ستثقلهم العواقب الاقتصادية الوخيمة لتلك الحروب، وسيزداد افتقارهم إلى الغذاء والدواء عما هو عليه اليوم، وسيتساقطون صرعى كما الذباب. ولكن من مقتضيات المواجهة الصدامية ألا نعبأ بمشكلاتهم هم بل بمشكلاتنا نحن.

وعودة إلى الوضع فى الغرب، فستتكون داخل معسكرنا جماعات مؤيدة للإسلاميين، لا لأسباب عقائدية وإنما اعتراضا على الحرب، وسنرى طوائف جديدة ممن يرفضون خيارات الغرب، وأشخاصا ممن ينبذون العنف ويربأون بأنفسهم عن التعاون مع حكوماتهم، وسنرى متطرفين ينهجون على غرار متطرفى حركة «واكو» (WACO)، الذين- وإن لم يكونوا أصوليين مسلمين - سيشرعون فى إشاعة الإرهاب من أجل

الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

تطهير الغرب الفاسد. وعلى طول طرقات أوروبا، ستنتشر جماعات من المصلين القانتين المستسلمين للدعة فى انتظار نهاية العالم.

لكن ينبغى ألا نحصر تفكيرنا فى تلك الفئات المهمشة من المعتوهين. فهل سيتقبل العالم فكرة الحصول على نصيب أقل من الطاقة الكهربية إضافة إلى استحالة الاستعانة حتى بلمبات الجاز؟ هل سنتقبل إصابة وسائل الاتصالات بالشلل التام، أو سنكتفى بساعة واحدة من البث التليفزيونى كل يوم، هل سنرتضى ركوب الدراجة عوضا عن السيارة، أو نطيق إغلاق دور السينما وصالات الرقص، أو نتحمل الوقوف فى الطابور أمام مطاعم «ماكدونالد» ليحصل كل منا على حصته الغذائية اليومية المكونة من شريحة صغيرة من خبز النخالة وورقة خس؟ باختصار هل سنرتضى التخلى عن اقتصاديات الرفاهية والتبذير؟ أى وقع يمكن أن يكون لهذا الحال - حال الحياة تحت وطأة اقتصاد الحرب - على رجل أفغانى أو على لاجئ فلسطينى؟ بالنسبة لمثليهما لن يتغير شىء. ولكن ماذا عنا نحن؟ أى انهيار وإحباط سنهوى إليه!

وإلى أى مدى سيشعر السود فى هارلم، والمعدمون فى برونكس، والمهاجرون المكسيكيون فى كاليفورنيا، إلى أى مدى سيشعر كل هؤلاء عندئذ بالتجانس مع الغرب!

وأخيرا، كيف ستتصرف دول أمريكا اللاتينية حيث الكثيرون - وإن لم يكونوا مسلمين - قد نمت بداخلهم مشاعر الحقد والكراهية تجاه من يسمونهم الـ «جرينجوز» (Gringos) أو سكان أمريكا الشمالية، إلى الدرجة التى تبدت بعد سقوط مبنى مركز التجارة العالمى؛ حين تهامس البعض فى تلك الدول مدعين أن الـ «جرينجوز» أنفسهم هم الذين سعوا إلى إحداث تلك الكارثة.

إجمالا، من شأن الحرب الشاملة أن تكشف عن إسلام أقل تكتلا وصلابة مما كنا نظن، ولكن الحرب الشاملة ستسفر من دون أدنى شك عن مسيحية متجزئة وعصابية، مسيحية تفتقر بصورة لافتة إلى أشخاص مؤهلين لأن يكونوا فرسان الرب الجدد، أو استشهاديى الغرب.

كان ذلك سيناريو فيلم خيال علمى لا أرجو أن أراه محققا أبدا. لكن وجب تمثله لإثبات أنه فى حال تحققه فهو لن يفضى إلى انتصار أى أحد. و بناء عليه، حتى لو عادت الحرب الجديدة (La néoguerre) إلى صورتها القديمة (La paléoguerre)[3] المتمثلة فى حرب شاملة فهى لن تسفر عن أية نتيجة، وستستمر بصورة لا نهاية لها فى سياق مؤسف يشبه إلى حد كبير سياق فيلم «كونان البربرى».

ويعنى ذلك أنه فى زمن العولمة، صارت الحرب الشاملة مستحيلة لأنها ستفضى إلى هزيمة العالم بأسره. ■

هوامش أضافتها المترجمة:

(١) نشر هذا المقال أول ما نشر فى صحيفة «لاريبوبليكا» (La Repubblica) الإيطالية فى يوليو ١٩٩٩، بمناسبة ذكرى الفية استيلاء الصليبيين على مدينة القدس، وهو يظهر فى الكتاب فى موضع الفصل الثالث من الباب الرابع الذى اختار له الكاتب عنوان «العودة إلى الحروب الصليبية» «Le retour aux croisades».

(٢) كان هذا المقال جزءا من محاضرة ألقاها إكو فى جمعية سانت اجيديو بميلانو، فى يوليو ٢٠٠٢. وهو يظهر فى الكتاب فى الفصل الأول من الباب الأول الذى اختار له الكاتب عنوان «عن الحرب والسلام وأشياء أخرى» («De la guerre, de la paix et d'autres choses»).

(٣) يطرح إكو مفهوم الحرب الجديدة (La néoguerre) فى مقابل مفهوم الحرب التقليدية القديمة (La paléoguerre)، يفصل بينهما زمنيا مفهوم الحرب الباردة، التى انتفت شروط بقائها بسقوط الإمبراطورية السوفيتية. ويضرب الكاتب المثل بحرب الخليج، وحرب كوسوفو، والحرب على أفغانستان بوصفها نماذج للحرب الجديدة. وتتلخص خصائصها - وفق إكو - فى كون تعيين العدو فيها يشوبه شىء من الإبهام. فهل العدو هو العراقيون كلهم؟ أو الصرب كلهم؟ أو الأفغان كلهم؟ فمن غير الواضح من الذى ينبغى تدميره على وجه التحديد. كما أن الحرب الجديدة ليست مجابهة صدامية بين جيشين فى مكان وزمان محددين. وفى هذا النوع من الحروب تلعب الرأسمالية العابرة للقارات دورا رئيسياً فى توجيه الطرفين المتحاربين. وعليه يخضع منطق الدول المتنازعة لإملاءات ومصالح الشركات الكبرى، وتتشعب أذرع القوى المتصارعة وتتحكم فى سير النزاع توازنات خفية. وفى الحرب الجديدة تجددت ملامح صناعة الإعلام بصورة غير مسبوقة. فلم يعد هنالك مجال للتعتيم على أخبار العدو بل صارت وسائل الإعلام تفسح المجال لعرض رأى العدو على شاشاتها. وصار تداول فيض المعلومات عبر وسائل الإعلام يلعب - وفق الكاتب - دوراً كانت تضطلع به فيما مضى أجهزة الاستخبارات العسكرية. فبحسب تعبير إكو «عمدت الحرب الجديدة إلى إضفاء طابع مؤسساتى على دور ماتا هارى بأن عممت فكرة التخابر الإعلامى مع العدو». (ص١٩). وفى الحرب الجديدة صارت فكرة التضحية بأرواح الجند فداء الوطن مرفوضة، ليس ذلك فحسب، بل صار المطلوب أيضا تقليل عدد القتلى إلى حده الأدنى فكان ابتداع ما سمى بالقنابل الذكية. صارت الحرب - كما يقول إكو - منتَجاً إعلامياً، أو هى بالأحرى - وفق تعبير بودريار الشهير - حرب لم تتم بل كانت تمثيلية بثها التلفاز.

كتاب الزاوية

ابن العماد الأقفهسى

زيادة النيل

قال المسعودى: قالت العرب فى النيل: إنه إذا زاد غاضت له البحار، أى نقصت. قال الله تعالى (وغيض الماء) أى نقص وذهب. قال تعالى: (وما تغيض الأرحام). وغاضت له العيون والآبار. وإذا غاض هو زادت هى. فزيادتها من غيضه، وغيضه من زيادتها.

قال: وقالت الهند: زيادته ونقصه بالسيول. ونحن نقول ذلك بتوالى الأنواء، وكثرة الأمطار، وركود السحاب.

وقالت الروم: لم يزد قط ولم ينقص، وإنما زيادته بريح الشمال إذا كثرت واتصلت به.

وقالت القبط: زيادته و(نقصانه) من عيون فى شاطئه، يراها من سافر ولحق بأعاليه. وقد تقدم على أبى قبيل أن نيل مصر فى زيادته يفور كله، من أوله إلى آخره.

وحكى لى من أقام بالحبشة: أن الغمام والمطر مستمر عندهم فى أيام زيادة النيل ليلاً ونهاراً فى أعلى النيل. وأن فى بعض السنين يكثر المطر جداً، وفى بعضها يقل، فيعرفون كثرة النيل بمصر وقلته بسبب ذلك.

محمـــــد المهــــــدى

■ ■ بوتين وكيلن كلاهما عاش فى غير زمانه، الأول فى القرن التاسع عشر، وكانت مهمته إحياء أطماع نابليون وحملته على مصر من موقع آخر هو الجزائر فى زمن كشفت فيه العسوبة المهمة الحضارية الفرنسية فى الشرق. والثانى عاش فى القرن العشرين وكانت مهمته تجديد الأطماع الاستعمارية فى الجزائر بامتلاك ثروة ذلك الزمان وهو البترول فى زمن كشفت فيه العسوبة التعاون بين «الشرق» الثروة مع الغفلة، و«الغرب» العلم مع اليقظة.

ايـف بـوتـيـن

«إنها تريد تفسير كل شىء والتعمق فيه وتقديره، إنها لا تقبل أى شىء غامض، ولا أى شىء لا يمكن إدراكه، وهى لا تؤمن بوجود شىء ما فى تلك المناطق التى لا تستطيع أن تضيئها بشعلتها».

كتب الشاعر الألمانى شيللر هذه العبارة فى وصف أديبة فرنسية «مدام دى ستايل» أيام الثورة الفرنسية (قامت عام ١٧٨٩) وأيام نابليون.. وصف يكاد ينطبق على فرنسا نفسها. أو نفسية إنسان الثورة الفرنسية. التراوح بين العقل والعاطفة بين فولتير وروسو. تفوق العقل على العاطفة فى الثورة. صنعوا تمثالاً للعقل وقدسوه.. والتقديس فى هذا الموقف يعنى ردة فعل باتجاه العاطفة.. عاطفة اتجهت إلى الشرق تستكمل به عدل الميزان المضطرب.

ولا يمكن أن نفسر اتجاه نابليون إلى الشرق أو عشقه له لأسباب سياسية فقط.. فكتاب - بونابرت فى مصر - يكشف عن عاطفية جامحة فى نفس نابليون، وسلوكه فى أوروبا عن حدة صارخة فى تقديس العقل.

بين العقل والعاطفة خلال هذه المرحلة ظهرت شخصيات تراوحت بين الجدة والطرافة والأهم بالنسبة لنا أنها لعبت دوراً خطيراً فى التسلل إلى شعاب حياتنا الاجتماعية والاقتصادية

أطمـــــــــاع



الكولونيل ايف بوتين.. جاسوس نابليون من الجزائر إلى الشام

والسياسية باسم التجارة أو عشق الآثار أو البحث عن منابع الحضارة.

أتحدث هنا عن وثيقة حية. عميل نابليون فى الشرق العربى اسمه «ايف بوتين» YVES BOUTIN لم يحظ الدارسون بالاهتمام، كما حظى لورنس. العرب رغم الدور الخطير الذى لعبه فى تاريخنا. أرسله نابليون فى مهمة تجسسية إلى الجزائر عام ١٨٠٨. رسم فيها المعالم التى كانت الأساس فى وضع خطة احتلالها عام ١٨٣٠. وأرسله فى مهمة تجسسية أخرى عام ١٨١٠ إلى مصر والشام. جمع العديد من المعلومات بدءاً من حياة البسطاء إلى حياة القصور إلى إقامة الحصون إلى عتاد الناس النفسى والمادى.. أرسلها فى تقارير متعاقبة إلى سيده الإمبراطور. لم يقدر له الاستفادة منها لتحقيق حلم عودته إلى الشرق. ظلت محفوظة إلى أن أثارت شهية المهندس «ديليسبس» فى نهاية القرن التاسع عشر. أيام نابليون الثالث وفتح قناة السويس عام ١٨٦٩. حين وضع مقعد الغرب الجاثم على صدر المنطقة العربية ودارت لعبة الكراسى الموسيقية حوله إلى أن انفرد الإنجليز به آنذاك.

ولد «أيف بوتين» فى أول يناير عام ١٧٧٢ فى قرية صغيرة بمنطقة اللوار، والده كان طبيباً بيطرياً متواضعاً وأمه كانت ريفية مائة بالمائة. له شقيقان يعملان بالفلاحة وثالث بحار ورابع خباز وخامس خلت حياته من أى عمل خاص سوى مساعدة أمه فى شئون المنزل.

وسط هذه الأسرة المكافحة تميز ايف بموهبة خاصة وحيوية متدفقة. شاء حظه أن يصحبه والده إلى مدرسة القرية. واظب وأحسن الإصغاء والتقط بسهولة مدهشة دروسه. وعندما انتهت مرحلته الأولية فى التعليم توالت النصائح على والده تدفعه لإكمال تعليم ابنه. أرسله إلى كلية «نانت» هناك اتسعت دائرة معرفته فشملت «جوزيف فوشيه» الذى سيقدر له الاقتراب من نابليون ويصير وزيراً للشرطة فى دولته.

أنهى «أيف» دراسته الكلاسيكية فى التاسعة عشرة ووصف فى هذه السن بأنه. صاحب روح حية، يحب خمر المسك ويعشق

فرنسية !

الرياضيات. فى هذه المرحلة اتخذ «أيف» قراره.. الانتظام فى سلك العسكرية. بدأ بدراسة تمهيدية لمدة ثمانية أشهر أهلته لدخول المدرسة العسكرية ميزيير MEZIERES عام ١٧٩٣. تخرج بعد اثنى عشر شهراً برتبة ملازم ثان وجاء فى تقرير تخرجه «مهندس جيد فى إقامة الحصون. يحسن تشييد السياجات الضخمة والصغيرة».

هذه المهارة الخاصة هى التى حددت مستقبل «أيف» سواء فى حروب أوروبا مع نابليون أو فى مهمته الخاصة التى شغلت حياته فى شرقنا الغربى من الجزائر إلى الشام.

فرنسى يتجسس على «البرابرة»

بدأ بوتين حياته العسكرية على صورة عادية، لم تخل من مهمات تدريبية فى البحث وجمع المعلومات أو التجسس. فى خريف عام ١٧٩٨ وأوائل ١٨٠٠ قام التحالف الأوروبى الثانى واندلعت الحرب ضد فرنسا فى وسط أوروبا، ظهرت مهارة «بوتين» فى القيام بمهمات عديدة لدراسة ممرات الأنهار، حدد بها بوتين مواضع نفاذ الخطر من قوات أوروبا إلى داخل فرنسا.. وجرح فى معركة مع القوات النمساوية.

فى عام ١٨٠١ كان نابليون يفكر جدياً فى إرسال حملة مشابهة لحملته السابقة على مصر عام ١٧٩٨.. يرسلها هذه المرة إلى الجزائر وتونس وطرابلس «ليبيا» كان يفكر أيضاً فى احتلال مالطة وكريت والبحر اليونانى بكامله. يحلم ببحيرة فرنسية فى البحر المتوسط. يحاصر بها الإنجليز ويغرق فيها قوات. الجزائر البحرية أو ما كانوا يسمونها بقوة البرابرة.

فى عام ١٨٠٢ عقد صلح «أميان» بين فرنسا وإنجلترا كان بمثابة هدنة مؤقتة بينما ساءت العلاقات مع قوات شمال أفريقيا البحرية. نشطت عمليات ضرب السفن الفرنسية خاصة القريبة من الساحل الأفريقى. تأكدت هدنة نابليون مع إنجلترا بعد عقد صلح آخر عام ١٨٠٧. واعتبرها نابليون فرصته المحكمة الأطراف لتحقيق حلم غزو الجزائر واحتلالها.

فى أبريل عام ١٨٠٨ كتب نابليون إلى الاميرال «ديكر» وزير البحرية والمستعمرات - «تصور قيام حملة الجزائر، أن قدماً توضع على هذه الأرض الأفريقية ستعيد الموازين مع إنجلترا.. لن أطلب منك الرد إلا بعد شهر وخلال هذه الفترة عليك بإعداد العدة اللازمة بحيث لا يكون هناك (لكن).. أو.. (إذا).. أو.. (لأن).. أرسل واحداً من مهندسيك إلى الساحل عليه أن يتجول داخل وخارج الأسوار ويعود إلينا ليكتب ملاحظاته الدقيقة حتى لا نضرب فى الوهم».

اختير العميل المطلوب من بين مائة مرشح.. وكان الكومندان «بوتين» تلقى أمر الحضور إلى طولون فى ٢ مايو ١٨٠٨ لينفذ الخطة المعدة والتى كان يجهلها إلى هذه اللحظة.

أبلغه الأميرال «جانتيوم» بأوامر الرحيل وسلمه رسالة سرية من وزير البحرية فى تفصيلات بمهمته الخاصة. على ظهر السفينة المتجهة إلى الجزائر اختفى الكومندان بوتين. فقد ارتدى «ريدنجوت» أنيقاً واعتمر قبعة لاتينية واسعة الأطراف. وأخذ يتحدث عن هوايته فى جمع الآثار. وصل إلى الشاطئ الأفريقى الجزائرى ونزل فى منزل القنصل الفرنسى «ديبوا تننفيل» بصفته قريباً له جاء إلى الجزائر باحثاً ودارساً للآثار.

إقامة - بوتين - أو مهمته السرية استمرت فى الجزائر من ٢٤ مايو إلى ١٧ يوليو ١٨٠٨. مهمة صعبة وسط توتر الجزائريين وعدم ثقتهم فى كل من يأتى من أوروبا. وخطره فى مواجهة السلطات التركية التى راقبت هذا الزائر الكثير التساؤل عن أحوال المدينة الدفاعية. وكانت قد أصدرت أوامرها بعدم تخطى الأجنبى لعتبات حددتها داخل المدينة ولأبواب معينة خارجها.

لم يمنع ذلك القنصل الفرنسى من تقديم مساعداته لبوتين فأخذ يتجول فى جرأة وبوسائل ملتوية داخل المناطق الممنوعة. ظل يزحف إلى أن وصل لمنطقة «سيدى فرج» متجاوزاً أربع مناطق ممنوع ارتيادها على الأوروبيين. وصل للشاطئ بحجة صيد السمك. سجل معالمه مستخدماً مسباراً رصاصياً لقياس عمق الأرض. أحياناً كان يختفى فى زى صياد برى يتوقف ليرسم بعض المواقع. يعود فى المساء إلى القنصلية الفرنسية ويبدأ فى كتابة تقاريره اليومية.

بوتين، كان يحسن التخفى وراء عدة أقنعة، ولكن ذلك لم يمنعه من التهور أحياناً بما يثير الشك فى رجل يعتبر عضواً فى القنصلية الفرنسية. جولاته الجريئة وصلت أخبارها إلى «الداى» حاكم الجزائر، فهدد بدفنه حياً إن لم يتوقف عن تسريه اليومى فى أزقة. سيدى فرج - ولم يرجع بوتين عن خطته فقد استمر فى تجسسه لمدة ٢٥ يوماً أخرى.

فى ١٧ يوليو ١٨٠٨ أنهى بوتين مهمته ورحل على ظهر سفينة إلى إحدى جزر البحر المتوسط فى لحظة تعرضت فيها لهجوم إنجليزى. سارع بوتين إلى التخلص من وثائقه وتقاريره وألقاها فى الماء. قبض عليه الإنجليز وظل سجيناً فى جزيرة مالطة عدة أيام استطاع بعدها الهروب مع مجموعة من المعتقلين وظل ينتقل فى عدة جزر إلى أن انتهى إلى شاطئ مدينة. أزمير. التركى.

من تركيا رحل إلى باريس. دخلها فى يوم خروج نابليون منها متوجهاً إلى إسبانيا.. فى ٢٩ أغسطس عام ١٨٠٨. عكف بوتين على بقايا أوراقه واعتمد على قوة ذاكرته فى كتابة تقرير مفصل لما شاهده أو عايشه. انتهى من تقريره وكتب على غلاف ملفه السرى «مشروع نزول واحتلال نهائى لهذه البلاد.. الجزائر».

مصير «بوتين»

تقرير بوتين السرى يثير الدهشة، لدقته فى تسجيل الأحداث والأرقام والتفاصيل رغم صياغته من الذاكرة. يحدد تحصينات مدينة الجزائر الرئيسية وضواحيها. يحدد الأماكن الصالحة لرسو السفن. القوة الحربية. للداى - فى وقت السلم ووقت الحرب. أماكن تجمع هذه القوة عند الحاجة. القوة البحرية والقوة البرية، الذخيرة والمؤن. يحدد أيضاً طرق الوصول إلى تونس ووهران وغيرهما براً وبحراً. يتحدث عن مصادر المياه - وهى مسألة مهمة فى هذه المناطق - ودرجة الحرارة والهواء والأمراض المعدية أو المحلية. يحدد أفضل الأوقات لوصول القوات الفرنسية. ولا يترك التقرير تحديد إنتاج البلاد الزراعى والحيوانى والعملة والموازين والمقاييس. خرائط وخطط ولوح دقيقة مفصلة للقوات الجزائرية من مدفعية إلى غيرها.

يذكر التقرير أن أفضل الأماكن لنزول القوات الفرنسية هى - سيدى فرج - وجاء هذا الاقتراح الأول من نوعه منذ عدة قرون دار فيها الصراع بين القوات الأوروبية وقوات شمال أفريقيا البحرية. لم يجرؤ أحد خلالها على التفكير فى القيام بهجمة برية على الجزائر. كان الصراع دائماً يدور فى البحر وينتهى لصالح البحرية الجزائرية أيام الأخوين عروج وخير الدين بربروسا.

لم يطلع نابليون على تقرير بوتين إلا بعد ثلاثة أشهر عندما عاد من إسبانيا. ورغم حماسه السابق لمهمة عميله الخاص فى أرض الجزائر، إلا أنه أهمل تقريره، فقد انشغل بقيام التحالف الأوروبى الخامس وحرب إسبانيا. حفظ التقرير فى أرشيف وزارة الحربية الفرنسية وظل نائماً هناك مدة عشرين عاماً كاملة. عندما قام بورمونت، وأركان حربه بنبش التقارير القديمة حول الشاطئ الأفريقى عام ١٨٣٠. عثروا على تقرير بوتين عميل الإمبراطور نابليون. عثروا فيه على ثروة هائلة من المعلومات التفصيلية حددت لهم بشكل أساسى السبيل لاحتلال مدينة الجزائر.

وقد شارك بوتين فى حروب نابليون الأوروبية بعد عودته ولمدة عامين.. قاتل فى ألمانيا وقام بإنشاء عدة حصون وجسور على نهر الدانوب. وفى عام ١٨٠٩ جرح فى إحدى المعارك.. بعد شفائه نقله نابليون إلى مدينة - أوستند البلجيكية الآن - لإقامة تحصينات جديدة، ثم نقل إلى باريس. هناك تجددت مهمته القديمة. حصل على رتبة كولونيل بقرار إمبراطورى فى ٢ أغسطس ١٨١٠. وصدرت له الأوامر بالرحيل إلى الشرق للقيام بمهمة تجسسية جديدة.

المهمة الجديدة للعميل الإمبراطورى

لم ينس نابليون أحلامه الاستعمارية ولكنه انشغل عنها بحروبه الأوروبية، كان موقناً بأن هذه الأحلام جزء مهم فى صراعه مع إنجلترا. كان يدرك أيضاً أهمية هذه الأحلام فى شغل الجماهير الفرنسية وإثارة حماسهم خاصة لتحويل ثروات المستعمرات إلى جيوب البرجوازية المتطلعة إلى الصعود الأرستقراطى.. وربما الإمبراطورى.

ظل نابليون مأخوذاً بالشرق. يحلم دائماً بعودته إلى مصر، يفكر بحملة جديدة على أسس مختلفة ومن مصر يدخل إلى سوريا ومنها إلى الهند لتحقيق الحلم. إذن لابد من دراسة أرض الواقع الجديد.. جمع المعلومات.. وليس هناك أفضل من بوتين للقيام بهذه المهمة.

فى نوفمبر ١٨٠١ ترك بوتين باريس يحمل أوامر وتعليمات صريحة من الإمبراطور نقلها إليه وزير الحرب الدوق. فيلتر FELTRE. تأخر بوتين فى الرحيل عن فرنسا فثار نابليون وكتب لوزيره: «لقد اعتقدت أن الضابط بوتين قد رحل إلى مصر وسوريا لتغطية مهمته السرية. لابد أن يمضى الشتاء وجزء من الصيف هنالك حتى يجمع المعلومات الواجبة التى تحدد الموقف السياسى والعسكرى فى هذه البلاد. عليك بتجاوز كل العقبات فلا تحدثنى بعد ذلك عنها».

وفى ١٥ نوفمبر ١٨١٠ كتب نابليون خطاباً إمبراطورياً من عدة نسخ موجهاً إلى قناصل فرنسا فى الشرق.

من المهم أن تحصل



هستر استنهوب حبيبة بوتين فى صيدا بملابس شامية

أطمـــــاع فرنســـــية

الحكومة الفرنسية على معلومات مؤكدة ودقيقة حول علاقاتنا التجارية، بناء على هذه المعلومات يمكن تحديد السبل التى يجب سلوكها لإعطاء دفعة تطور خاصة.. تحتاجها ظروفنا الحالية. لقد كلفت السيد بوتين بمراجعة قنصليتكم بصفته عميلاً تجارياً داخلياً.

هكذا تحول أو تخفى بوتين فى هيئة عميل تجارى وبصفة رسمية إمبراطورية حتى يقوم بمهمته الأبعد، والأكثر خطورة التجسس حول المواقع الحربية.. قلعة صلاح الدين فى القاهرة، مدينة دمياط، قلعة عكا، مدينة حلب.. الإسكندرية.. الإجابة على أسئلة حددتها له المهمة حول الأحوال المادية والمعنوية فى مصر والشام.

وصل عميل الإمبراطور إلى الإسكندرية فى نهاية مايو ١٨١٠. متخفياً فى زيه التجارى وادعائه الاهتمام بالآثار ودراسة حضارات الشرق العربى القديمة. فى القاهرة أقام فى منزل القنصل الفرنسى - دروفيتى - قنصل عجيب فى مهمته. ليس العجب فى قيامه كغيره من القناصل بالتجسس أو النهب لحساب بلده أو شخصه. ولكن العجب فى أنه دخل فى صراع صريح مع القنصل الإنجليزى لسرقة الآثار المصرية القديمة. كون كل واحد عصابة خاصة، تتلون لتنداح فى شعاب مصر المجهولة لجمع الآثار.

تشتبك العصابتان بالخناجر والعصى والرصاص. وصف قصتهما فى صورة طريفة المستشرق الفنان الفرنسى - بريس دافين - فى مذكراته، فقد عاصر طرفاً منها فى فترة متقدمة.

شخصية القنصل - دروفيتى - ناسبت تماماً شخصية بوتين. دبر له القنصل مقابلة مع محمد على وكان إلى هذا التاريخ لا يزال معترفاً بحضن الأستانة. فاوضه عميل نابليون بصفته التجارية فى صفقة قمح، ولمهارته حصل على موافقة فورية برغم خبث وذكاء محمد على. أرفق بطلبه التجارى طلباً شخصياً. تصريح يعطيه الحق فى الوصول إلى أقصى الصعيد حتى يستكمل على حد قوله معلوماته وإعجابه بالآثار المصرية القديمة.. تصريح محمد على فتح له البر والبحر وكان البحر الأحمر على وجه التحديد هو مثار قلق واهتمام الإنجليز.

روميو وجولييت فى الشرق

استثمر بوتين تصريح محمد على جيداً، صعد إلى أسوان وكتب عنها معلومات وافية، ثم خاض فى صحراء سيناء ووصل لجبل موسى. لم تكن سياحة دينية، فقد درس جيداً موقع الجبل والمناطق المحيطة. كانت محطته القادمة السويس ومنها صحراء سيوة. بقى بوتين فى مصر مدة عامين متنقلاً كيفما شاء مواظباً على إرسال تقاريره أولاً بأول إلى نابليون.

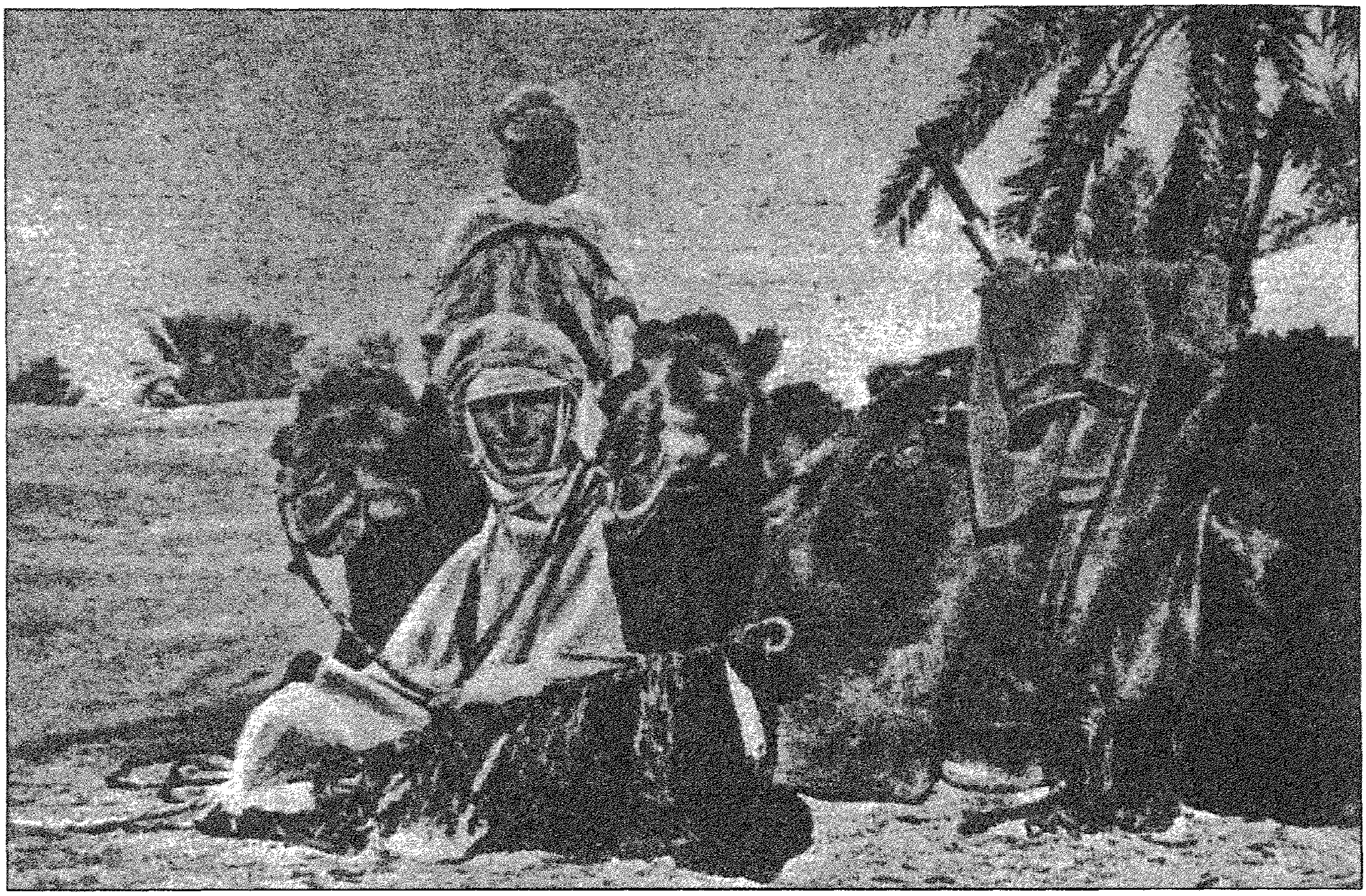
طالت مدة بوتين فى مصر ولم يستكمل مهمته فى سوريا، فقد تأخر رحيله بسبب انتشار مرض الطاعون آنذاك، ومنع السفر براً وبحراً إلى الشام وبرغم ما وصله من أخبار حول التحالف العام للدول الأوروبية ضد نابليون فى يناير عام ١٨١٤ واضطراب موقف سيده، إلا أنه أصر على استكمال مهمته.

فى ٢٨ مارس عام ١٨١٤ وصل لميناء صيدا، أقام كما هو متفق عليه فى منزل القنصل الفرنسى - تيبوت - وتخفى فى زى وصنعة الباحث عن الآثار. وكانت هذه المهمة تكلفه عادة حمل حقيبة ثقيلة من الأحجار والتماثيل دليلاً على عشقه الخاص.

فى صيدا ارتبط بشخصية عجيبة، سيدة اسمها - هيستر استنهوب - HESTER STANHOPE ابنة شقيق (وليم بت) رئيس وزراء إنجلترا الشهير الذى قاد الإنجليز إلى النصر فى حرب الصراع الاستعمارى الإنجليزى الفرنسى فى أمريكا. حرب السنوات السبع ١٧٥٦ - ١٧٦٣.. السيدة استنهوب كانت مساعدة لعمها فى بطولاته الاستعمارية وعندما توفى فجأة قررت اعتزال الحياة. تنقلت فى عدة أماكن وأخيراً استقرت نهائياً فى الشرق.. فى صيدا.

تم اللقاء الأول بين بوتين الفرنسى والسيدة استنهوب الإنجليزية عابراً فى القاهرة، أدركت بخبرتها أن بوتين لا يمكن أن يكون وسيطاً تجارياً أو هاوياً أثرياً. لكن استنتاجها الذكى لم يمنع قلبها من لقاء بوتين على طريقة روميو وجولييت. الأسر تتعارك والأبناء يعبون من كؤوس الحب.

بادرت هى بتوثيق العلاقة، فقد دعت



لورنس الجزائر.. كيلن مع رفيقه الجزائرى (بشير)

بوتين إلى مسكنها فى صيدا. أثارت دعوتها شكوكه. هل هى محاورة خبيثة بين جاسوس وسيدة سياسية؟

قرر بوتين قبول الدعوة وكانت مقدمة سريعة فما لبث أن صارت إقامة بوتين موزعة بين بيت القنصل وبيتها فى صيدا. درس بعض الباحثين علاقة بوتين الفرنسى بسيدة سياسية إنجليزية. قال البعض إنه كان تعاون الخبثاء، واستند آخرون على واحد وعشرين رسالة أرسلتها السيدة استنهوب إلى بوتين تؤكد وجود علاقة حب ساخنة بينهما.

فى أبريل ١٧١٤ قرر بوتين بعناد ترك صيدا نهائياً بعد أن عاد وباء الطاعون فى الظهور. حاولت استنهوب استبقاءه. أرسلت تطلب مقابلته رفض أرسلت من جديد تبلغه بأنها حصلت على معلومات أكيدة من ترجمان مملوكى تقول إن معركة عنيفة تدور حالياً فى فرنسا ضد نابليون.

لم يقاوم بوتين فعاد إلى مقر صديقته فى صيدا واحتفظ بهدوئه أمام أخبار سقوط إمبراطوره نابليون، أما استنهوب فكانت سعيدة بعودته وإن كانت موقنة بحتمية رحيله.

الاختفاء الغامض

رغم تأكد بوتين من انتهاء قوة نابليون، إلا أنه أصر على إتمام مهمته.. استقر فى دمشق. استمر فى جمع المعلومات، وفجأة يكتب لصديقته استنهوب - أن الظروف يا سيدتى تدعونى للرحيل إلى فارس - أجابته بكلمات مختصرة. إذا مت فإن عيوناً طيبة ستبكيك. أينما ذهبت فإن تمنياتى الطيبة تصحبك..

قبل رحيل بوتين عن الشام قرر أن يقوم برحلة انتحار. هل كان اختيارها مؤشراً لحالته النفسية بعد سقوط نابليون؟

رحل بوتين إلى جبل الأنصاريين الواقع بين طرابلس وانطاكية، منطقة شديدة الوعورة جغرافياً وبشرياً.. منطقة متمردة دائماً على الدولة العثمانية. لم يكن لوالى طرابلس أو دمشق سيطرة عليها، ولم تغامر القوات العثمانية ولا أتباعها بالدخول إليها لتحصيل الضرائب.

رحل بوتين مع خادم، كلاهما على ظهر حصان واحد. يحملان زاداً قليلاً، وكأنهما مسوقان إلى قدرهما دون تردد. مرت الأيام واختفت أخبار بوتين تماماً. ترددت شائعات حول انتحاره وقيل إنه قتل هو وخادمه. لم يترك من أثر سوى ساعته وبعض حاجياته وجدت معروضة للبيع فى محل صغير بأحد أسواق دمشق.

لم تيأس حبيبة بوتين من البحث عنه. أخذت وعداً من الباشا بأن يرسل جماعة مسلحة للبحث، ولكنه لم يجد من يجرؤ على القيام بالمهمة.. سعت بنفسها لكشف اللغز. استأجرت ثلاثة رجال وأرسلتهم للبحث واستحضار الدليل على مقتله. عاد الرجال حاملين الدليل على مقتله هو وخادمه عند قرية . البلاطة - وكان هذا هو آخر ما وصلت إليه تحريات البحث عن بوتين.

نتساءل عن هذه الشخصية العجيبة ماذا أرادت؟

الجاسوسية أم العدمية أم العناد أو بعد النظر؟

تاريخه السابق يثبت لنا شدة طموحه بما يتنافى مع الروح العدمية، وإصراره على الدخول فى أخطار خارج مهمته تضعف من احتمال طموحه. والمعلومات التى جمعها عن الجزائر ومصر والشام وخروجها بعد ذلك من أرشيف الحروب الفرنسية ودورها الرئيسى فى وضع خطة غزو الجزائر عام ١٩٣٠ تثبت بعد نظره فى خدمة الخطط الاستعمارية الفرنسية.

بوتين نتاج الثورة الفرنسية.. نتاج المثالية القومية كما صاغتها البرجوازية الفرنسية. أحلام تتراوح بين الاندفاع وراء البطولة الفردية كرمز للبطولة القومية حتى لو جاءت على حساب القوميات الأخرى.

كونراد كيلن

فى شتاء عام ١٩٤٩.. وفى أحد طرقات باريس ذات الإضاءة الضعيفة كان هناك صديقان يسيران فى هدوء.. وفجأة تقدمت سيارة مسرعة.. اندفعت إلى أحدهما. فلجأ بقفزة سريعة إلى ركن بناء قريب.. لمسته السيارة ثم تراجعت مسرعة وولت هاربة.. الرجل الذى نجا بعمره اسمه «كونراد كيلن» CONRAD KILIAN.. اقترب منه صديقه ليطمئن.. فقال كونراد:

- هل صدقت الآن؟..

كونراد لم يكن رجل نضال، أو رجل سياسة، أو عضواً فى عصابة دولية، أو له عداوات شخصية.. كونراد كان عالماً فى البترول.. وكان ذلك كافياً لمطاردته عام ١٩٤٩..

كان يعرف أنه مطارد.. لقد أمضى غالبية حياته العملية فى صحراء الجزائر، وعبر حدودها من الجنوب إلى ليبيا. وهناك بشر بالبترول فى منطقة «فزان»، بمنطق زمانه، وبمنطق مكانه، الجزائر وليبيا والخليج العربى والعالم الثالث كله فرصة لا تعوض لدول العالم الأول.. الشاطر يصل أولاً.. الشاطر يضع علمه أولاً.. وقد وصل كونراد الفرنسى إلى «فزان» قبل غيره، فكان طبيعياً أن يقضى حياته - بشعور وطنى صادق - يحث الفرنسيين لإلحاقها بملكية فرنسا قبل أن يصل إليها الإيطاليون أو الإنجليز أو هؤلاء المحدثون البارعون فى سوق الحركة والشراء.. الأمريكيون..

كونراد كيلن كان جيولوجيا اجتذبته الصحراء فدرسها وأحبها وعاش بها لسنوات طويلة.. يلبس ملابسها، ويأكل من طعامها، ويمارس عادات أهلها.. كان لورنس الجزائر. لورنس الذى ادعى حباً صادقاً للعرب، ولكنه بالتأكيد كان هائماً بالتاج البريطانى

كذلك، كان كونراد.. محبًا للصحراء، ولكن أيضًا لتلحق بالجمهورية الفرنسية سليلة الإمبراطورية النابوليونية.

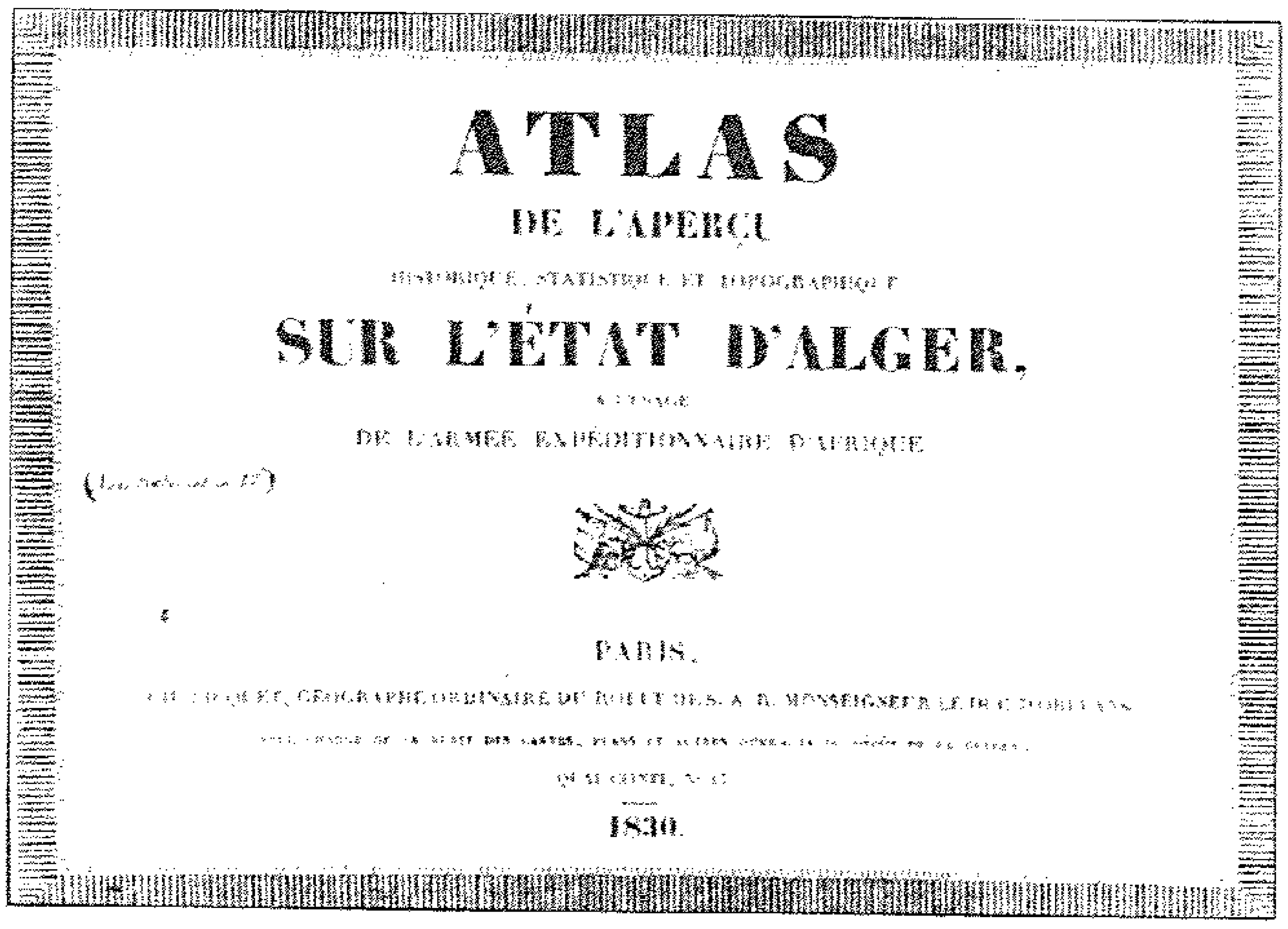
لم يكن ببراعة لورنس الذى كان يهيم كالصوفية، ويرتب أموره كرجال الأعمال.. كان يعيش فى غير زمانه فلم يعرف الدعاية، والعلاقات، وأصحاب الكلمة الأخيرة.. عاش دارسًا للصحراء متنبئًا بثروتها من خلال نسيج رومانتيكى يلتحم بأحلام نابليون فى مصر..

ظل يصرخ معلنًا نبوءته دون صدى.. ضاع صوته، ومن سمعه اعتبره مجنونًا وإن أنصفه اعتبره صاحب خيال قصصى لا يليق برجل جغرافى وجيولوجى.. لم ينصفه الفرنسيون، والتقطت أجهزة الخبرة صوته فضاعت «فزان» من فرنسا بمنطق الاستعمار فى زمان كان لا يحسب حساب ضياعها بمنطق الاحتلال والاستقلال..

وكونراد كيلن اسم ألمانى، جاءه من مسقط رأس عائلته.. الالزاس وعندما سقطت فى يد الألمان ١٨٧٠ رحلت العائلة إلى «جرينوبل».. والده كان جيولوجيًا معروفًا. ورث كونراد عنه حبه للعلوم الطبيعية، فكتب وهو فى التاسعة من عمره بحثا صغيرا فى سبعين صفحة بعنوان «الأرض والكائنات».. كتب فى صفحته الأولى: «غداً ستصبح كل القارات . ما تحت الأرض وما فوقها ـ فى خدمة الإنسان.. سيظل هنالك سر واحد.. وهو أفريقيا»..

فى سن العاشرة كان يثير دهشة أساتذته بقدرته على الحفظ والقراءة والاستنتاج.. أصدقاؤه بالمدرسة كانوا يعتبرونه صاحب مزاج خاص، وأيضًا قدرات خاصة.. يجمع بين الشراسة المتناهية، ورهافة الحس الحالم.. يخرج دون افتعال بآراء جديدة وتصرفات غير متوقعة..

حمل ذات يوم فأرًا أبيض على كتفه وكان يسيره كحيوان أليف.. عقد صداقة خاصة مع أخيه رغم اختلاف الأمزجة.. كان شغوفًا بقراءة المؤرخ القديم «هيرودوت».. جاء فى قصصه أن هنالك ثروة هائلة مطمورة فى الصحراء.. ثروة تعود لشعب يسمى «الجاراماتيين». فكان كونراد يعلق: «حينما أنهى دراستى سأذهب للبحث عن زمرد الجاراماتيين» ظل اهتمامه بالعلم ملتهبًا.. فنشر عدة مقالات.. وحينما اندلعت الحرب الأولى شارك فيها كمقاتل فى سلاح المدفعية. وانتهت الحرب وهو فى حالة صحية سيئة، فقضى فترة نقاهة تعرف فيها على الفتاة «كورين» وأعلن خطبته على أن ينتهى من مشروع زواجه بعد انتهاء دراسته..



ATLAS

DE L'APERÇU

SUR L'ÉTAT D'ALGER,

DE L'ARMÉE EXPÉDITIONNAIRE D'AFRIQUE

PARIS,

1830.

صفحة عنوان الأطلس العام الذى استهدف احتلال الجزائر ١٨٣٠



كونراد كيلن



كورين خطيبة كيلن

وفى عام ١٩٢٠ بدأ الدراسة ولكن سرعان ما ضاق بها، فأرسل أستاذه إلى والده يخبره بالأمر فى وقت وصل إلى الوالد خطاب من صديق سويسرى ثرى يعيش فى الجزائر، يحلم بالحصول على زمرد أو ثروة الجاراماتيين.

صديق والد كونراد سمع بهذه الثروة من سكان الصحراء وسمع أن شخصًا مغامرًا استطاع أن يحصل على زمرد بحجم بيضة الحمامة حينما غاص فى الصحراء.. أعد حملة يقودها خبير صحراوى يدعى «لاكروا» ولكنه يحتاج إلى خبير جيولوجى فأرسل إلى صديقه وليفرد كيلن والد كونراد يأخذ رأيه.. رشح الوالد ابنه للقيام بالمهمة رغم علمه بمدى خطورتها ومدى ارتفاع نسبة الخيال فيها.. الخيال والمخاطرة شيئان يناسبان كونراد.. رحب على الفور، ورحبت بتبعية المشاركة خطيبته..

وفى ٨ يناير عام ١٩٢٢ تحركت القافلة تقصد منطقة الأحجار فى جنوب الجزائر يقودها لاكروا.. ضخم بلحية حمراء وملامح عنيفة، ولعنات وشتائم متتابعة من فمه عندما يأمر أتباعه.. أو تجشأ شبه مستمر عندما يلوذ بالصمت.. يصحب معه فتاة يتصور أنها من ملكيته الخاصة.

بدأت الرحلة بحقد دفين لكونراد: فقد حصل من حاكم إقليم الواحات على حق ارتداء الزى العسكرى، وتابع أو مساعد من أبناء الصحراء يدعى «محمد بن حمولة».. وفى الليلة الأولى نامت فتاة لاكروا فى خيمة كونراد..

كونراد كان يبحث عن شىء آخر غير زمرد صاحب الحملة وفتاة لاكروا.. كان يدرس كل منطقة بعناية.. يجمع الأحجار ويسجل الملاحظات، وينفرد دائمًا للدراسة.. زاد هذا التصرف من حقد زميله فرفع ذات ليلة خنجره فى وجه كونراد.. استل كونراد مسدسه وسدده فى هدوء إلى رقبة لاكروا فاستكان.

وصلت القافلة إلى مرتفعات الأحجار جنوب الصحراء.. إلى ارتفاع ألفى ميل.. هنا حدد صاحب الحملة مكان الزمرد.. دخلت الجماعة إلى كهوف غامضة واستطاعت وسط الدهشة أن تلمح أحجار خضراء تلمع فى وهج الشمس.. أخيراً الزمرد.. الزمرد.. تناولها كونراد فى هدوء.. وضع بعضها على النار، سحق البعض الآخر.. إنه نوع من الامزونى الذى يقرب فى شكله من الزمرد.

لاكروا كان فى عالم آخر.. صرخ وهلل، وتمرغت صاحبته على الأحجار فى حالة عصبية من الفرح.. بعد لحظات شرح لهم كونراد الأمر.. ليست هذه الحجارة بالزمرد، ولكن من الصعب كشفها.. زمجر لاكروا، وسخطت صاحبته وقررا التخلص من كونراد.. أدرك الأمر وقرر بدوره الانفصال عنهما بمؤنته وأتباعه وجماله..

الثروة البترولية

قرار الانفصال عن القافلة كان ضربة من ضربات القدر التى وجهت كونراد جهة أخرى وقدرت عليه قدراً آخر.. قرر أن يغوص فى الصحراء ليتابع دراسة طبقات الأرض. تردد رفاقه ولكنه أصر.. حذروه من سكان المنطقة ولكنه استمر.. وقع فى يد زعيم القبائل، ولكنه استطاع أن يتخلص بظرف ولباقة. وتابع السير فاجتاز منطقة الأحجار وشارف مركز إقامة الملكة «زارا»..

الملكة «زارا» زعيمة المنطقة.. اشتهرت.. بجمالها وسطوتها.. وحينما التقيا دار بينهما ما يحكى من قصص ألف ليلة وليلة أو فيلم من أفلام النظرة، فالكلمة فالحب فالـ.. استقر كونراد عند الملكة، وارتدى زى الصحراء وتفنن فى التأنق به فبدا كأنه من سلالة بدوية أصيلة..

صوة كونراد ولورنس فى الصحراء كانت تثير خيال شباب أوروبا فى العشرينيات. دخلت المنازل، وفصول الدراسة فى المدارس، وقاعات الدرس فى الأكاديميات العسكرية.. كانت مثالاً لغزو الغربى العالم الشرقى فى مجاهله على حصان أو جمل.. مثال للسطوة.. وعند البعض مثال لرسالة إنسانية فى عالم يحتاج إلى وصلة حضارية غربية.. وعند آخرين هروب من عالم مجنون قتل الملايين فى حرب عالمية مدمرة.. نعم صار كونراد على جمله مثالاً يحتذى فى ذلك الوقت..

كتب كونراد فى مذكراته عام ١٩٢٢ لأول مرة عن نبوءته البترولية فى الصحراء «إننى أنام على مليارات من براميل النفط فى هذا النسيج الرملى بالصحراء».. وبعد تأكده بعدة أسابيع من

كشفه كان عليه الإعلان.. كان عليه ترك الصحراء فكتب يقول «من السخف العودة إلى عالم الحضارة الحديثة.. سأبحث محاولاً إيجاد طعم لحياتى الأوروبية».

وصل فرنسا وحمل والدد أبحاثه إلى المؤتمر الجيولوجى الدولى فى بروكسل.. أثارت أبحاثه الكثير من الدهشة، وأعادت النظر فى كثير من الأحكام على الصحراء جغرافياً وجيولوجياً.. ولكنهم نظروا إليه نظرة شك وربما اتهام بالتهور حول حديثه عن البترول..

حديثه عن البترول كان يأتى فى المرتبة الأولى عنده، قبل الاعتراف بعبقريته الجغرافية أو الجيولوجية أو دراسة الشعوب.. لكنه لم يجد إلا الصمت، فقرر العودة إلى الصحراء، ويقال إنه ذكر قبل رحيله عن إمكان وجود «ثلاجات» طبيعية فوق قمم جبال الأحجار.. وقد أثبتت الدراسات والصور الجوية الحديثة صحة هذا الرأى..

حاول قبل الرحيل إغراء خطيبته بالرحيل معه فقد يطول غيابه إلى ثلاث أو أربع سنوات، ولكنها رفضت.. وعندما وصل الجزائر أعد قافلته لاستئناف بحوثه فى أقصى جنوب الصحراء الجزائرية.. كان عليه أولاً المرور فى منطقة «توجرت» حيث تحكم جماعة الأولاد نائل الملكة عيوشة تتشا. ويذكر فى مذكراته أن سكان هذه المناطق كان بعضهم يستبيح الدعارة المقدسة «لا أدرى مدى صحة هذا القول».. المهم أن الملكة وقعت فى غرامه وأهدته ثروتها من المجوهرات وزاد هيامها به فارتضت أن تحيك بنفسها على رايتها الخاصة «العبيد يتولون عادة الحياكة عند هذه القبائل» رمزاً خاصاً باسمه. كتبت على رايتها «مع الشجاع دائماً كيلن».. لقد قبلت بهذا التصرف ضمناً أن تكون «أمة» له..

تحقيق الحلم

نحن الآن فى ٤ أبريل عام ١٩٢٧.. كونراد يستأنف طريقه إلى الجنوب، كان عليه أن يمر ثانية على منطقة الأحجار.. أن يعاود الذكريات مع الملكة «زارا».. رحبت به.. رجته أن يبقى.. ولكنه أصر على استئناف طريقه إلى أقصى الجنوب.. صحب معه دليلاً صحراوياً آخر فى منطقة لم يدخلها أحد من قبل..

بدأت مأساة الجماعة.. فى النهار ترتفع درجة الحرارة إلى ستين، وفى الليل تنخفض إلى صفر.. انقطعت صلتهم بمظاهر الحياة، لم يبق لهم سوى أمل العثور على آخر بئر يعرفه الدليل حتى يتلمسوا طريق العودة.. بعد ثلاثة أيام عثروا على البئر وجدوه خالياً فصاح «البشير» إنها النهاية.. أقرب خط حياة أو أقرب بئر على بعد ثمانين كيلو متراً.. أيام وأيام من السير دون ماء.. أصدر كونراد أوامره ببقر بطن أوهن الجمال وتفريغ ما اختزنه من الماء.. أفرغوا من بطن الجمل ما يقرب من ١٢ لتر ماء برائحة لا تطاق.. وحذرهم كونراد من شربه.. لقد قتل كثيرون من قبل بشربهم الماء المخزون فى بطون الجمال.. أوقد النار وترك فوقها الماء لطرد السم والرائحة.. وأخيراً شربوا وحملوا الباقى واستأنفوا الرحلة..

دخلت الجماعة إلى «فزان» منطقة جديدة لا يعرف عنها شيئاً.. الحد الفاصل بين النفوذ الفرنسى والنفوذ الإيطالى. وبعد أن سجل ملاحظاته الجغرافية والجيولوجية استأنف توغله.. فجأة عادت إليه أحلام الصبا حية أو قل متحجرة.. آثار حوافر جياد، آثار سير عربات باقية متحجرة وكأنها مرسومة على الحجارة.. ماذا حدث؟.. من سكن هذه المنطقة؟.. إن آثارها تدل على مرور ما يقرب من أربعة آلاف سنة على الأقل.. هذه الحوافر وهذه العربات لابد أنها لجماعة الجارامانتيين.. ولكن كيف تأتى الجياد وتكون الحياة وسط الصحراء؟..

من قراءة ما تركوه من رسومات حائطية داخل الكهوف وجدت صور مراع.. نعم مراع خضراء، وماء وحياة فى وسط هذا الخواء..إنها إحدى خرافات التاريخ الحى الساخر مسجلة واقعية لا تقبل الشك.. هذه أيضاً زمردة وجدها فى أحد الكهوف.. هيرودوت كان على حق فيما روى وجد كونراد أخيراً ثروته التاريخية بعد أن دون ثروته الجغرافية والجيولوجية.. واستأنف الرحلة..

وصل فى داخل «فزان» إلى منطقة نفوذ جماعة «مرزوق» الثائرين على الاستعمار الإيطالى.. وعقد معهم صداقة، وطالبه سلطانهم أن يشترك معهم فى القتال أو كما ذكر فى مذكراته أن يقود قوة من عشرة آلاف مقاتل لقتال الإيطاليين، ولكنه اعتذر لأن دولته فرنسا حذرته من قتال الإيطاليين فليس بينهما حرب.. ويقول إنهم قبلوا منطقه، فهم كبدو يحترمون كلمة «الأم» يقصد الوطن..

الخيبة والعودة

بعد غيبة ثلاث سنوات عاد كونراد إلى «الحضارة».. ولكن الحضارة نسيته، فقد أنفق على الرحلة من جيبه وصار مفلساً.. ولم يحصل على التقدير الذى كان يأمله لا أدبياً ولا مادياً. فعثر على وثيقة قديمة تركها نابليون تذكر أن علماءه الذين صحبهم معه فى حملتهم على مصر كانوا يحصلون عند نبوغهم على لقب «العاهل المكتشف» وأعجبه اللقب فصار يوقع خطاباته باسم «كونراد كيلن العاهل المكتشف»..

عاش بأحلامه وتصور بهذه الأحلام أنه يستطيع أن يستعيد خطيبته بعد أن تزوجت، وأعلن فى جدية أن زواجها سفاح، وذهب إلى زوجها يطالبه بتركها، وترك الزوج فى هدوء أمر الاختيار للزوجة الخطيبة.. خذلت كونراد كما خذلته الحضارة وقررت الاستمرار مع زوجها..

قد يكون تصرف كونراد مع خطيبته جنوناً، ولكن ما حاوله مع حكومته لم يكن جنوناً بمنطق المصلحة القومية بمفهوم استعمارى أوروبى.. كتب تقارير وتقارير يحاول بها أن يقنع حكومته بالتمسك بمنطقة «فزان» عند عقد معاهدة الحدود مع إيطاليا.. فهى مصدر ثروة بترولية هائلة من حق فرنسا، ألا يكفى كحق أن أول من وصل لهذه الحقيقة مواطن فرنسى.

اندلعت الحرب العالمية الثانية وجعلت كونراد يتمسك أكثر بضرورة البحث عن الثروة حتى يضمن لبلاده النصر والسطوة. ودخل الإنجليز والأمريكيون فى اللعبة، وحاولوا إغراءه حتى يعمل لحسابهم، ولكنه رفض واستأنف أبحاثه فى منطقة «تمانراست» معلناً أن بها قدراً هائلاً من المعادن.. وكتب فى مذكراته عام ١٩٤٤ «لقد حاولوا من قبل الرئيس روزفلت أن أعمل لحساب الولايات المتحدة حتى أضمن لها ثروة هائلة وكتب للجنرال ديجول وكان فى ذلك الوقت يتولى رئيس لجنة التحرير.. ولكن دون صدى..

استمرت محاولات كونراد فى إثارة القضية من جديد بعد الحرب العالمية الثانية وكاد بنك باريس والأراضى المنخفضة أن يعقد احتكاراً مع البنوك الأمريكية لمنطقة فزان.. ثم تقدمت كندا بمشروع آخر أكثر سخاء، وفجأة عارضه روبرت شومان وزير خارجية فرنسا فتوقف المشروع..

ضاعت آخر آمال كونراد. وجرت بعدها محاولة قتله بالسيارة عام ٤٩ فنصحه الأصدقاء بالانسحاب إلى مسقط رأسه «جرينوبل» متفرغاً لأبحاثه.. هناك عاش حياة متواضعة تعتمد على منحة قليلة، واقتصر فى يومه على الخروج فى الصباح من فندقه مرتدياً ملابس ممزقة تسترها سترة عسكرية، متوجهاً إلى المكتبة حيث يقضى يومه ويعود فى السادسة بعد الظهر..

وفى ٢٩ أبريل عام ١٩٥٠ اقتحمت الخادمة غرفته فى الصباح بعد خوفها لطول غيابه، فوجدته معلقاً من رقبته فى مصراع النافذة..

هل انتحر كونراد؟.. هل قتل؟..

البوليس وجد شرايين يده ممزقة بسكين وربما بقطعة زجاج من زجاجة عطر وجدت مهشمة وكلمة قصيرة كتبها «زهرة بانسيه لكورين - (خطيبته).. قبل كل شىء عاشت فرنسا بارك الله فى كل من أحببت»..

اندهش رجل البوليس لأول مرة يجد منتحراً بعيون مغمضة.. ولأول مرة يجد منتحراً معلقاً فى مصراع النافذة الأقصر منه بكثير.. ويقول صديق له شاهد أن كونراد قال له: إذا مت بطريقة عنيفة فاعلم أن ذلك سيكون بيد جماعة بترولية أجنبية».. وقال شاهد آخر أن كونراد قال له «سيتحدثون فى المستقبل عن انتحارى.. ولكنى لست ممن يفكر بهذه الطريقة المتطرفة.. ليست هناك حالة توصلنى إلى هذا الحد»..

كونراد عاش فى غير زمانه.. كان استعمارياً بطريقة فيكتوريا ونابليون الثالث فى زمان كان الاستعمار فيه بطريقة فورد وجنرال موتورز.. ابتلعته الاحتكارات الدولية لرفضه الثروة على طريقتها.. طريقتها عالمية وطريقته كانت قومية.

كان كونراد مهووساً بالبحث عن البترول وحاول الإنجليز والأمريكيون إغراءه لكنه ظل وفياً لبلاده فرنسا.. وعندما ضاعت أحلامه انتحر عام ١٩٥٠

الحرب على الفساد «الأفريقى»

يواكيم تشيسانو

أود فى البداية أن أعبر عن شكرى الجزيل والعميق للجنة جائزة مؤسسة مو إبراهيم على منحى أولى جوائز مو إبراهيم للإنجاز فى القيادة الأفريقية. وإنى أمتدح الدكتور مو إبراهيم لرؤيته الخاصة بتأسيس الجائزة. كما أقبل الجائزة بتواضع وبشرف كبير. فأنا أقبلها باعتبارها تبجيلاً لملايين النساء والرجال فى موزمبيق، شباباً وشيوخاً، لالتزامهم الذى لا يكل بالحرية والسلام والديمقراطية والرخاء فى بلدنا.

عندما توليت القيادة كرئيس لموزمبيق فى عام ١٩٨٦ كانت البلاد تواجه حرب زعزعة للاستقرار دمرت البلاد وشعبها. وإمعاناً فى السوء، كان للكوارث الطبيعية أثرها القاسى على البلاد. وكان هناك تفاهم مشترك بين شعبنا والقيادة على أن أهم هدف يجب بلوغه هو إنهاء الحرب. وقد ألزمنا أنفسنا بإنهاء الحرب وإقامة السلام والتحول الاقتصادى.

وفى هذا الصدد، بدأنا العمل ببرنامج لإعادة التأهيل الاقتصادى فى عام ١٩٨٧ فى مسعى لتشجيع النمو الاقتصادى وتغيير مجتمعنا. وشمل البرنامج خصخصة المشروعات المملوكة للدولة وخلق الأطر القانونية والاقتصادية الكلية الممكّنة للاستثمار الخاص، الأجنبى والمحلى.

وفى عام ١٩٨٩ كان هناك جدل على مستوى الأمة بشأن الإصلاحات الدستورية. وكانت غالبية كبيرة من الشعب الموزمبيقى ضد فتح البلاد للنظام السياسى متعدد الأحزاب. ولكن قيادة البلاد شعرت بأن الدستور الجديد ينبغى أن يُدخل الديمقراطية متعددة الأحزاب وكذلك اقتصاد السوق، وتوسيع حقوق المواطنين. وأُقر الدستور فى عام ١٩٩٠.

على هذه الخلفية، وسعنا اتصالاتنا، وتفاوضنا مع المتمردين. وبدأنا فى الوقت نفسه محادثات مع العديد من الجماعات الموزمبيقية، المقيمة داخل البلاد وخارجها. وشمل ذلك هؤلاء الذين كنا نعلم أنهم يدعمون حركة رينامو المتمردة. وكان هدفنا هو جمع الموزمبيقيين جميعاً على المسار نفسه: ذلك المسار الذى يصل بالبلاد إلى السلام والاستقرار والتنمية.

نجحت تلك الجهود فى أكتوبر من عام ١٩٩٢ عندما وقّعت اتفاقية السلام بين الحكومة ورينامو فى روما. وقد أتاحت تلك الاتفاقية الفرصة للعمل والأمل للأمة بكاملها.

ولكى يكون للسلام معنى، ولكى نستغل مكاسب السلام ذات القاعدة العريضة، فقد جرى إعادة تأهيل البنية الأساسية وتحديثها وتوسيعها، وإعادة توطين اللاجئين والنازحين، وكذلك إعادة الدمج الاقتصادى والاجتماعى للمقاتلين السابقين باعتبار تلك أموراً ذات الأولوية. كما جرى تعزيز المؤسسات الديمقراطية والمساواة بين الرجل

كلمة ألقاها الرئيس الموزمبيقى السابق فى مكتبة الإسكندرية يوم ٢٦ نوفمبر الماضى بمناسبة تسلمه جائزة «مو إبراهيم» للحكم الرشيد فى أفريقيا.

مؤشر الحكم الرشيد

فى ٢٦ نوفمبر الماضى منحت مؤسسة مو إبراهيم للحكم الرشيد فى أفريقيا جائزتها للمرة الأولى للرئيس الموزمبيقى الأسبق جواكيم تشيسانو، ونظراً لجهوده فى تحسين أحوال شعبه وتخليه عن الحكم طواعية فى سابقة نادرة من الزعماء الأفارقة.

والجائزة، وهى الأعلى قيمة فى العالم تمنحها المؤسسة التى أسسها رجل الأعمال السودانى الشهير عام ٢٠٠٦ للقادة فى جنوب القارة السمراء، بناء على اختيار لجنة تضم شخصيات رفيعة المستوى تتألف من سكرتيرعام الأمم المتحدة السابق كوفى أنان والرئيس الفنلندى السابق مارتى اهيتسارى، ومارى روبنسون رئيسة أيرلندا السابقة، وسالم أحمد سالم السكرتير العام للاتحاد الأفريقى، وعائشة ديالو المستشار الخاص لليونسكو حول أفريقيا ونوجوزو ايويلا وزير المالية النيجيرى السابق.

وقد وضعت مؤسسة مو إبراهيم للحكم الرشيد مؤشراً علمياً بتصنيف الدول الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى وهو يستهدف:

- توفير المعايير الموضوعية التى يمكن بها للمواطنين إخضاع حكوماتهم للمحاسبة.
- تشجيع مناقشة الحكم الرشيد عبر إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى والعالم.

كما يهدف المؤشر إلى تعزيز الحكم الرشيد فى إفريقيا لتحسين حياة الأفارقة فى كل مكان. وقد نُشر مؤشر إبراهيم الأول فى سبتمبر من عام ٢٠٠٧ وسوف يجرى تحديثه بشكل سنوى، ليكون بمثابة سجل للتقدم الوطنى فى إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

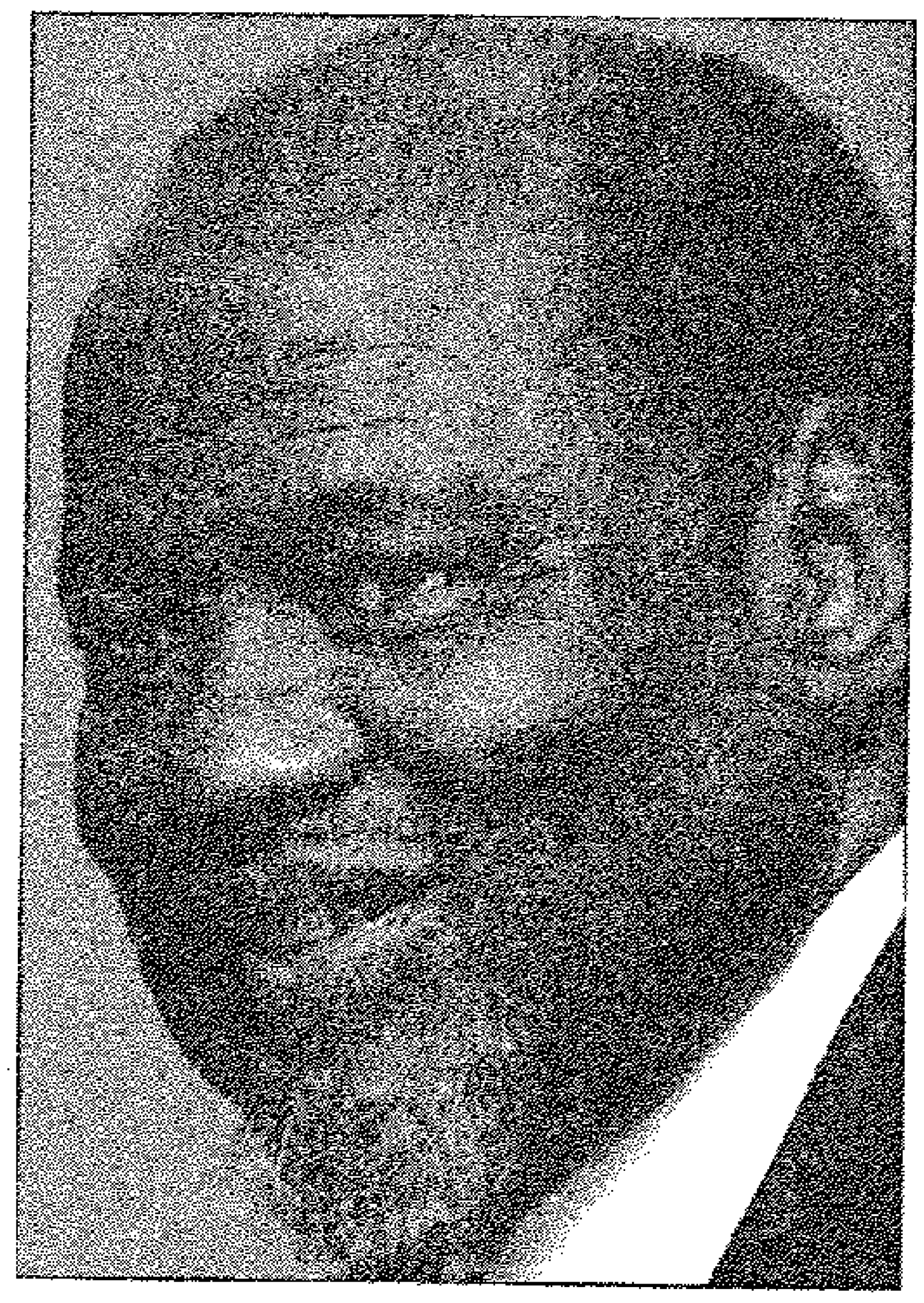
وقد أعد المؤشر بتوجيه من مدرسة كنيدى للحكم الرشيد فى جامعة هارفارد. وبقيادة البروفيسور روبرت روتبرج مدير برنامج الصراع داخل الدول وحل الصراعات، كما شارك فى الإعداد المجلس الاستشارى الذى يضم مجموعة من الباحثين والممارسين الأفارقة المميزين.

ويقيس مؤشر إبراهيم مدى توافر المصالح السياسية الأساسية التى يمكن تجميعها فى خمس فئات:

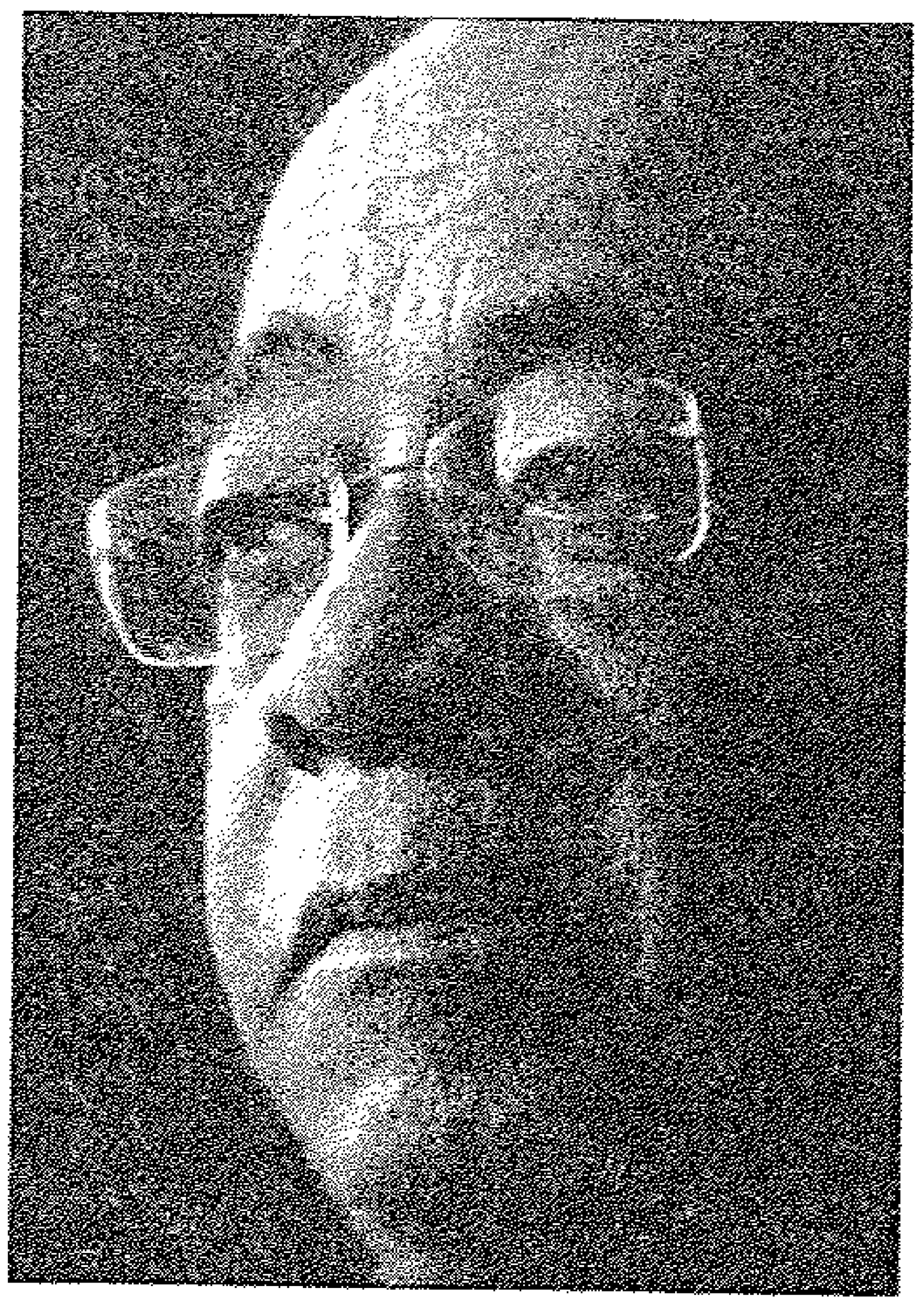
- الأمن والأمان
- حكم القانون، والشفافية والفساد
- المشاركة وحقوق الإنسان
- الفرصة الاقتصادية المستدامة
- التنمية البشرية

وبصورة عامة هناك ٥٨ قياساً منفصلاً تطبق على كل بلد لتوليد نقاط للفئات الخمس. ويولد متوسط مجموع نقاط الفئات الخمس التقدير العام للبلد، الذى يكون بمثابة الأساس للترتيب النهائى.

وقد اعتمد مؤشر ٢٠٠٧ على بيانات من عام ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ وطبقاً لهذا المؤشر، فقد جاءت موريشيوس فى المركز الأول بـ ٢,٨٦ نقطة تلتها سيشل، ثم بوتسوانا والرأس الأخضر وجنوب أفريقيا والجابون وناميبيا وغانا والسنغال وساوتومى وبرنسيت، بينما جاءت الصومال فى المركز الثامن والأربعين وهى الأخير فى المؤشر بـ ٢,٣٨ نقطة وسبقتها الكونغو الديمقراطية وتشاد والسودان وغينيا بيساو وليبيريا وأنجولا.



تشيسـانو



مـو إبراهيـم



كـوفي أنـان

والمرأة. وهو ما تم في إطار المصالحة الوطنية وبناء السلام وترسيخ الإصلاحات السياسية والاجتماعية، وأدى إلى ظهور ثقافة التسامح وسياسة الاحتواء.

بالإضافة إلى ذلك فقد أعطيت الأولوية للزراعة من أجل إنتاج المحاصيل الغذائية والنقدية بواسطة الفلاحين بغرض إنعاش الاقتصاد. وكانت نتيجة ذلك، وبالرغم من الفيضانات الشديدة في عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠١، أن زاد إجمالي الناتج المحلي بمعدل سنوي مقداره ٨,١٪ ومع أن الفقر مازال التحدي الرئيسي الذي يواجه البلاد، فإننا على ثقة من أننا نسير على طريق تحقيق معظم أهداف التنمية الألفية.

بالرغم من أن دستور موزمبيق كان يسمح لي بالترشح لفترة ثالثة في الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٤، فقد قررت ألا أرشح نفسي. وكانت نتيجة ذلك أن أعلنت قراري بعدم السعي لتولي منصب الرئيس لفترة ثالثة قبل موعد الانتخابات بثلاث سنوات. وذلك من أجل أن تعد البلاد نفسها لانتقال سلمي للسلطة.

لقد تأثر قراري إلى حد كبير بفهم أن البلاد في سلام وأن الاقتصاد ينمو باطراد. كما كانت الديمقراطية تتأصل. إلى جانب أني أدركت أن الوقت قد حان وباتت الظروف مواتية للسماح لقيادة جديدة بتولي الحكم ودفع البلاد إلى الأمام.

ويسعدني أن خلفي الرئيس أرماندو جيبوزا قد عزز مكاسب السلام وأدخل ديناميكيات جديدة خاصة بالتحول الاجتماعي والاقتصادي للبلاد. والواقع أن التقدم مازال في ازدهار في موزمبيق.

ومع أني لم أعد في الحكم، فما زلت أقدم دعمي وتأييدي للتنمية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة، من خلال مؤسسة يواكيم تشيسانو التي بدأت عملها في نوفمبر من عام ٢٠٠٥. وأعمدة المؤسسة الثلاثة هي تعزيز السلام، والتنمية الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك الثقافة.

ومازلت أشارك في الأمور المحلية والإفريقية لأني أعلم جيداً مقدار مازلنا بحاجة إلى القيام به للارتقاء ببلدنا وقارتنا. فها هو الفقر لا يزال تحدياً كبيراً. كما أنه لابد من القضاء على مرض نقص المناعة البشرية المكتسبة/ الإيدز، والملاريا، والسل. ولابد من استكمال عملية بناء الأمة في إفريقيا. ومازال السلام مراوغاً.

لابد لنا من تنمية وتأصيل ثقافة السلام في مجتمعاتنا. ولابد من تعزيز سلامة الأراضي. ولابد من تشجيع الشراكة بين العام والخاص وإعطاء دور أقوى لقطاعنا الخاص. ولابد من محاربة الفساد وتعزيز الأمانة والحكم الرشيد. ولابد من بدء واستدامة عملية الحوار الوطني والمصالحة في البلدان كافة التي خرجت من الصراع. باختصار، لابد لنا من العمل في اتجاه بناء دول تتمتع بالقدرة والكفاءة في أفريقيا.

لكي يكون للسلام معنى، ولكي نستغل مكاسب السلام ذات القاعدة العريضة، فقد جرى إعادة تأهيل البنية الأساسية وتحديثها وتوسيعها، وإعادة توطين اللاجئين والنازحين

في الختام يسعدني قبول هذه الجائزة من مؤسسة مو إبراهيم، ويشرفني أن أكون أول من يحصل على جائزة مو إبراهيم. إن هدف المؤسسة الخاص بالاعتراف والاحتفاء بالقيادات الأفريقية هدف نبيل. وإني أتطلع إلى الاستفادة من الجائزة في عمل ما يمكنني لتعزيز الحكم الرشيد في القارة التي تتغير بسرعة للأفضل. وشكراً للمؤسسة وللجنة الجائزة. ■

مراجعة

"المراجعات"



هذه المراجعات خطوة إيجابية وشجاعة، ولكنها بدائية تحتاج لاستكمال وتطوير وإنضاج كما فعلت «الجماعة الإسلامية» فى مراجعاتها فى مراحلها الأخيرة.

أبو العلا ماضى

كانت مجموعات الجهاد تؤسس لمشروعية قيامها باستخدام العنف أو «القوة» فى تغيير الأنظمة على أساس تكفير هذه الأنظمة وبالتالى استحلال قتلهم ودمائهم

نشرت عدة صحف مصرية وعربية سلسلة أجزاء من دراسة للدكتور سيد إمام عبد العزيز الشريف المعروف باسم د. فضل تحت عنوان ذى دلالة وهو المراجعات الفقهية لـ «الجهاد»، وبالطبع يقصدون حركة «الجهاد» المصرية أو بعضا من رموز جهادية، واسم هذه الوثيقة هو «ترشيد الجهاد فى مصر والعالم». والحقيقة أن هذا الموضوع بالغ الأهمية سواء على المستوى المحلى (مصر) أو العربى والدولى، وبالتالى الأمر يحتاج لنقاش طويل ومعمق سأحاول أن أساهم فيه مع كثيرين غيرى ممن لهم صلة بهذا الشأن، وقد ساهمت بجهد متواضع طوال السنوات الماضية فى رصد الظاهرة الإسلامية بكل تكويناتها ودراساتها بشكل نقدى ومحاولاً أن أكون موضوعياً، وكان من ضمن من شملتهم هذه الرؤية «الجماعة الإسلامية الجهادية» فى مصر وخاصة بعد مراجعاتهم الشاملة، التى تصلح لأن تكون الآن وبعد أكثر من ٥ سنوات من نشر أولى كتبهم الأربعة والتى نشرت تحت عنوان «سلسلة تصحيح المفاهيم» فى يناير عام ٢٠٠٢ مشروعاً متكاملاً للمراجعات، وقد كتبت كتاباً عن هذا الموضوع «جماعات العنف المصرية وتأويلاتها للإسلام» وكذلك عدة دراسات نشرت فى أماكن مختلفة وآخرها فصل فى كتاب سيصدر قريباً بإذن الله مع مجموعة من كبار العلماء والمفكرين والمهتمين بالظاهرة فى العالم العربى والإسلامى، ولذلك وجدت من الأهمية بمكان أن أشارك فى رصد هذه الظاهرة الهامة وقراءة المشروع الجديد للمراجعات الخاصة بمجموعة أو أكثر من مجموعات «الجهاد»، وسأبدأ بملاحظات عامة ومنهجية قبل الدخول فى مناقشة المراجعات ذاتها:

أولاً: أول من كتب بشكل حقيقى وعلنى وعميق فى هذه المراجعات هو الأخ والصديق الدكتور كمال حبيب فى دراسة هامة له نشرتها مجلة «المنار الجديد» فى عدد يناير ١٩٩٨ م بعنوان «الحركة الإسلامية المعاصرة» وبالطبع هذا المقال سبق نشر مراجعات «الجماعة الإسلامية» بثلاث سنوات ثم بعد ذلك كتابه الهام أيضاً «الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة».

ثانياً: يلى ذلك مراجعات «الجماعة الإسلامية» التى انتهجت العنف بالكتب الأربعة الأولى السابق الإشارة إليها ثم تكرر صدور عدد كبير منها حتى وصل عدد الكتب والكتيبات الصغيرة إلى مايقرب من ثلاثين إصداراً، ولقد لاحظت تطور ونضج الكتابة والأفكار فى الكتب الأخيرة أكثر من الكتب الأربعة الأولى.

ثالثاً: يجب التنبيه إلى المدخل الصحيح لمراجعة أحداث العنف التى تمت من قبل عدد من الجماعات والمجموعات التى مارسته وخاصة فى أوطانها وضد مواطنيها أو سلطاتها لم يكن أبداً «جهاداً» بقدر ما كان افتئاتاً على السلطة وعدواناً وبالتالى لا يجب مناقشة هذه الأفعال على أنها من باب «الجهاد» ولكنها من باب «الفتنة».

رابعاً: أنه لم يكن هناك جماعة «الجهاد» بالتعريف المستقر عن «الجماعة» بمعنى الانتشار فى معظم أنحاء القطر وتنظيم هرمى... إلخ، ولكنها كانت مجموعات صغيرة منتشرة فى مناطقها فقط وليست مرتبطة ببعضها البعض سوى بالمغذيات الفكرية شديدة التقارب والشبه وبالتالى لا يمكن القول أن شخصا من رموز هذه المجموعات زعيم أو قائد جماعة «الجهاد» ولكن زعيم وقائد مجموعة جهادية محددة.

خامساً: من بعض هذه الرموز الجهادية من حظى بتأييد يتجاوز حدود مجموعته الصغيرة ولعل منهم صاحب هذه المراجعات الأخيرة الدكتور سيد إمام أو (د. فضل)، وكتبه السابقة وخاصة «العمدة فى إعداد العدة» ١٩٨٨م، و«الجامع فى طلب العلم الشريف» ١٩٩٣م كانت شديدة الانتشار والتأثير على مجموعات جهادية متعددة سواء فى مصر أو العالم العربى ولذلك تحمل مراجعاته أهمية خاصة بالرغم من محدودية مجموعته السابقة التى انفصل عنها منذ مدة.

سادساً: بالرغم من الانتقادات التى سنوجهها أحياناً لهذه المراجعات فإن الصبر عليها لتطويرها أمر واجب، ولقد كان الأمر نفسه فى مراجعات «الجماعة الإسلامية» حيث بدأت أولى إصداراتهم ضعيفة وغير كافية، لكن مع النقد والتصويب من خارجهم استجابوا مشكورين فى الكتابات التالية وأصبحت كتبهم أكثر نضجاً وأكثر استجابة لهذا النقد والتقويم، وبالتالى يجب أن نكرر الأمر نفسه مع مراجعات «الجهاد».

سابعاً: أن ظاهرة العنف لها مستوى محلى ومستوى دولى ويساهم فيها بالإضافة للأفكار والأفهام الخاطئة للنصوص الإسلامية من كل هذه الجماعات والمجموعات أسباب محلية وأسباب خارجية معاً لكنها فى العنف المحلى تتعاظم الأسباب المحلية عن الخارجية وفى العنف الدولى تتعاظم الأسباب الخارجية عن المحلية.

ثامناً: من الأسباب المحلية التى تساهم فى تغذية ظاهرة العنف غياب الحريات السياسية بكافة أنواعها وانتهاك حقوق الإنسان وغياب العدالة واحترام القانون، والأوضاع الاقتصادية المتردية وغياب العدالة الاجتماعية... إلخ، ومن أهم الأسباب الخارجية هو سيطرة النظرة الغربية الاستعمارية على المنطقة العربية والعالم الإسلامى والكيل بمكيالين فى كل القضايا العربية والإسلامية، ودعم المشروع الصهيونى فى فلسطين، واحتلال العراق وأفغانستان والعدوان على الدول العربية المختلفة، والنظرة فقط للمصالح الغربية دون مصالح المنطقة العربية، والحفاظ على الفجوة الهائلة فى كل شىء فى العلم والتكنولوجيا والاقتصاد.. إلخ مع العالم العربى والإسلامى والعالم الثالث أو (أهل الجنوب).

تاسعاً: حين نقوّم هذه المراجعات لابد من معيار أو «مسطرة» نستعملها فى تقويم هذه المراجعات لنقول أنها كافية أو غير كافية، مناسبة أو ناقصة، صحيحة أو خاطئة.. إلخ، ولقد كتبت فى عدة دراسات لى حول هذا الموضوع حوالى ٩ مرتكزات استندت إليها جماعات العنف والتكفير وغيرها فى تأسيس أعمالها، وسوف نستعمل هذه المرتكزات التسعة بإذن الله فى تقويم المراجعات.

ولقد ثار تساؤل مشروع حول: هل كل استخدام للعنف والقوة غير مشروع؟ والإجابة تتوقف على نوع الاستخدام وليس على أصل الاستخدام، ولقد فرق العقلاء دائماً بين استخدام القوة والعنف فى الدفاع عن النفس والمال والعرض والوطن، وكل هذا مشروع شرعاً وعقلاً وكمبادئ قانونية مستقرة سواء فى التشريعات المحلية أو الدولية، وهى الفكرة التى تعرف حديثاً «بالمقاومة» تمييزاً لها عن العنف غير المشروع وغير المبرر وهو العنف الذى تستخدمه جماعات أو مجموعات مسلحة أو حتى أفراد وخاصة فى الصراع السياسى كأحد أساليب الوصول للسلطة أو التخلص من المخالفين فى الرأى، وهو المقصود بالعنف غير المشروع وغير المبرر والذى اصطلح الناس على تسميته «بالإرهاب» ولذلك النزاع دائماً حول التفريق بين «المقاومة» و«الإرهاب» وعن تعريف كل منهما.

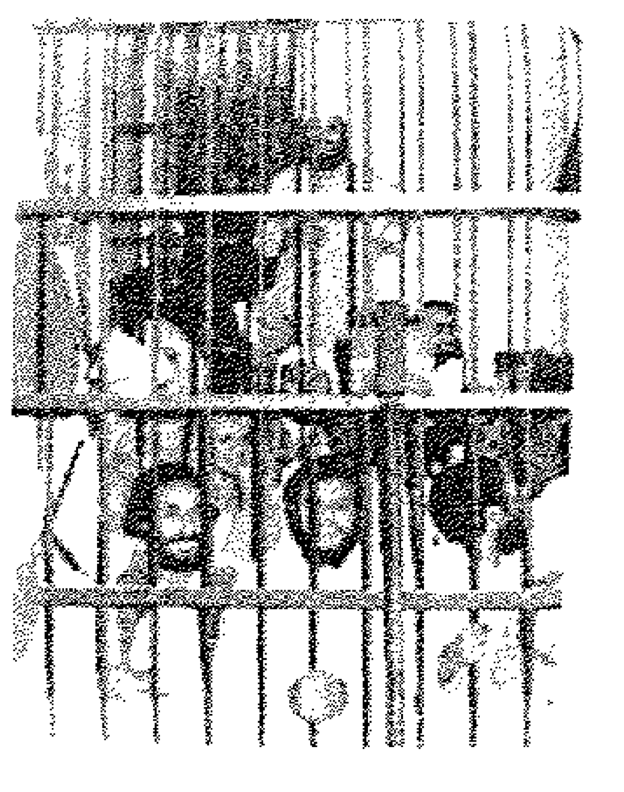
نعود إلى المرتكزات الفكرية السابقة لمجموعات العنف ومنها مجموعات الجهاد التى يعبر عن مراجعاتها الآن د. سيد إمام. لقد كانت مجموعات الجهاد تؤسس لمشروعية قيامها باستخدام العنف أو «القوة» فى تغيير الأنظمة على أساس تكفير هذه الأنظمة وبالتالى استحلال قتلهم ودمائهم ومنهم من كفر الأنظمة وكفر أعضاء هذه الحكومات والعاملين فيها من رؤساء ووزراء ونواب بالبرلمان وقضاة ورجال أحزاب... إلخ، كما فعل د. صالح سرية قائد تنظيم «الفنية العسكرية» فى رسالته «الإيمان» وكذلك فعل ذلك أى كفر الحكام محمد عبد السلام فرج فى كتابه «الفريضة الغائبة» وهو نفسه صاحب هذه المراجعات أى د. سيد إمام فى كتابه «الجامع فى طلب العلم الشريف» الذى كفر فيه أيضاً من يشارك فى مجلس الشعب (البرلمان) واعتبر أن وظيفة هذه المجالس شركية (كما جاء فى مقال د. أسامة رشدى فى تعليقه على مراجعات د. سيد إمام «بالمصرى اليوم»)، والحقيقة أننى قرأت كل الحلقات فلم أجد فيها رداً على هذا المرتكز أى تكفير الحكام ونظم الحكم، ولكن ما جاء فى هذه الحلقات كان فقط

على قضية التكفير بشكل عام وحدد فيها أنواع الكفر الأكبر الذى يخرج صاحبه من الملة والكفر الأصغر الذى لا يخرج صاحبه من الملة (الحلقة الأولى) والإشارة الثانية كانت فى الحلقة الخامسة وفرق فيها بين العلم بكفر السلطان وبين وجوب الخروج عليه ومنع الخروج فقط عند العجز أو إذا غلبت المفسدة فى الخروج ثم أضاف فى نفس الحلقة الخامسة مقولة «وسواء كان ترك الحاكم الشريعة كفراً أو كفراً دون كفر أو معصية - فإننا لا نرى أن الصدام مع السلطات الحاكمة فى بلاد المسلمين باسم الجهاد هو الخيار المناسب للسعى لتطبق الشريعة» وهو قول غير كاف لأنه لم يحسم رأيه فى المسألة، حيث أورد الرأيين فى بداية الفقرة المشار إليها، والحقيقة أن مراجعة هذا المرتكز أمر بالغ الأهمية قبل الحديث عن العجز عن مقاومة السلطات أو غلبة المفسدة فى الخروج عليه، ثم تحدث فى الحلقة التاسعة عن «ضوابط التكفير فى الشريعة» وهو أيضاً يتحدث عن تكفير الأفراد وهى قضية هامة فى فكر «جماعة التكفير والهجرة» وليس فى فكر جماعات الجهاد كلها وإن كان بعضها تأثر بهذه الأفكار، واستكمل الحديث عن ضوابط التكفير فى الحلقة العاشرة بكلام منقول ولكن أيضاً عن تكفير عامة المسلمين وليس نظم الحكم والقائمين عليها وهو أمر أتمنى أن يستوفيه د. سيد إمام فى مراجعاته فالأمر يستدعى خروج دراسات أخرى معمقة كما فعلت رموز الجماعة الإسلامية الجهادية فى مراحل لاحقة من مراجعاتهم وخاصة كتاب «الحاكمية» للدكتور ناجح إبراهيم الصادر عام ٢٠٠٤م.

والمرتكز الثانى الذى تأسست عليه أفكار مجموعات الجهاد هو:

«وجوب استعمال القوة فى تغيير أنظمة الحكم على أنه هو الجهاد الصحيح» وبالطبع كانت كل الوثائق القديمة لكل المجموعات الجهادية ومنهم المجموعة التى كان ينتمى إليها د. فضل وكذلك «الجماعة الإسلامية الجهادية» تتحدث عن تغيير الأنظمة الحاكمة بالقوة على أنه الجهاد الحقيقى والصحيح، وقد تم استدعاء كل النصوص القرآنية التى تتحدث عن الجهاد وتحض عليه وتم استخدامها لتبرير هذا الصدام والقتال مع الحكومات العربية لأنهم كفروها واستحلوا قتالها، وهذا الذى أحدث لبساً مع مفهوم الجهاد الصحيح فى الإسلام الذى هو ذروة سنامه وهو قتال المعتدين على الأنفس والأعراض والمحتلين للعباد والبلاد، وبالتالى ما وقع من هذه الجماعات والمجموعات لم يكن جهاداً ولكنه عدوان، فكيف عالج د. فضل هذا المرتكز فى حلقاته وخاصة أن فى مخيلته ما وقع من صدام مع الحكومات العربية والمسلمة وما وقع من أحداث عنف على مستوى عربى ودولى فى بلاد الغرب، فهو يتحدث عن هذه الوقائع على أنها أخطاء وقعت فى «الجهاد»، وهو أمر تكرر من قبل

مراجعة المراجعات ٢٠٠٧



الأمر يستدعى خروج دراسات أخرى معمقة كما فعلت رموز الجماعة الإسلامية الجهادية فى مراحل لاحقة من مراجعاتهم وخاصة كتاب «الحاكمية» للدكتور ناجح إبراهيم

فى بداية مراجعات «الجماعة الإسلامية الجهادية» وانتقدناه فى حينه حينما كتبوا كتيباً بعنوان «تسليط الأضواء على ما وقع فى الجهاد من أخطاء» ولكنهم استدركوا الأمر فى الكتابات اللاحقة، والأمر يتكرر بالنسبة لدكتور/ فضل عند بداية المراجعات فهو يعدد الأفكار والجرائم التى ارتكبت سواء على مستوى محلى أو مستوى دولى ويستنكرها (الحلقة الأولى) ثم يناقش الأسباب التى تمنع من الجهاد كعدم القدرة والاستضعاف وعدم القدرة على النفقة (سماها فاقد النفقة) ورفض استحلال المال الحرام بزعم الجهاد (الحلقة الثالثة) وأضاف شروط وجوب الجهاد ومنها إذن الوالدين وإذن الدائن واعتبر أن المحافظة على نفوس المسلمين من مقاصد الشريعة وربط الجهاد بالقدرة وتحقيق المصلحة (الحلقة الرابعة) ورد على من قال بجهاد المنفرد (الحلقة الحادية عشرة) وكذلك نهى عن أن يشتمل الجهاد على عدوان (نفس الحلقة) واشترط فى الجهاد التكافؤ (الحلقة الحادية عشرة) وهى كلها آراء جيدة فى فقه الجهاد الحقيقى، وبقى أن يقول بشكل صريح أن ما وقع تحت هذا العنوان «الجهاد» كان عدواناً وليس جهاداً، ويجب عليه فى المستقبل أن ينقض تأسيس فكرة استعمال القوة فى التغيير ويرد على من استخدم ما عرفت بـ «آية السيف» وهو قوله تعالى «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد» آية ٥ سورة التوبة، على أنها نسخت كل آيات الصفح والعفو كما ورد فى كتيب «الفريضة الغائبة» لمحمد عبد السلام فرج فإذا فعل د. فضل ذلك يكون قد أكمل ما بدأ من تقبيح للأفعال التى وقعت باسم الجهاد.

المرتكز الثالث الذى استندت إليه جماعات العنف فى أعمالها ومنها مجموعات الجهاد هو تفسيرهم لمفهوم «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وهو ما يعرف فى الفقه الإسلامى بالحسبة، وهو مفهوم إسلامى أصيل فالدين جزء كبير منه إما أمر بمعروف أو نهى عن منكر، فالتوحيد معروف والأمر به هو أمر بالمعروف وكذلك الشرك بالله منكر والنهى عنه نهى عن المنكر، والأخلاق الحميدة معروف والأمر بها أمر بالمعروف وكذلك الأخلاق السيئة منكر والنهى عنها نهى عن المنكر، وكل أفعال الخير معروف وكل أفعال الشر منكر وهكذا، لكن المشكلة كانت فى تفسير المجموعات التى انتهجت العنف فى درجات تغيير المنكر ومن يقوم بها، والحديث العمدة فى هذا الشأن هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلكم أضعف الإيمان».

وقد قسم العلماء التغيير بناء على هذا الحديث إلى ثلاثة مستويات (وبعد التأكد من كونه منكراً، لأنه أحياناً يظن البعض فعلاً على أنه منكر وهو أمر مختلف فى تفسيره أى لا جزم بكونه منكراً كالموسيقى مثلاً): والمستوى الأول التغيير بالقلب أو الإنكار بالقلب وهو فى قدرة كل الناس، والمستوى الثانى فى التغيير أو الإنكار باللسان وهى مسئولية من يقدر عليه من العلماء والمفكرين والمثقفين وجمعيات المجتمع المدنى، فهو فى العصر الحديث اتسع الأمر وخاصة فيما يتعلق بالشأن العام سواء السياسى أو الاقتصادى أو الثقافى... إلخ، والمستوى الثالث هو التغيير باليد أو بالقوة وهو أمر يتوقف على كل مسئول فى سلطانه كالأب مع أولاده أو القائد مع جنوده أى له سلطان معروف ومقبول أما فيما يتعلق بسلوك الأفراد بين الناس، فهذا واجب السلطان أو الحكومة ولها أن تنيب عنها من يقوم بهذا الواجب بإذنها وهو المكلف بالحسبة، أما من يتطوع من نفسه ويقوم بتغيير المنكر باليد على غير سلطانه فهو المفتئت على السلطة وهو باب كبير للشرور وقعت فيه تلك الجماعات فى ممارساتها السابقة، إذن المطلوب عند المراجعة مراجعة فكرة تغيير المنكر باليد فى خارج سلطانهم الشخصى وأخذ سلطة الدولة أو الحكومة ممن هو مكلف بشكل طبيعى أو رسمى، وهو أمر قامت به «الجماعة الإسلامية» فى مراجعاتها الأخيرة بشكل جيد، ولكن ماذا قال د. فضل فى هذه المراجعات؟ لم يرد فى كل الحلقات التى نشرت ذكر مباشر لتغيير المنكر باليد إلا فى الحلقة الرابعة يذكرها فى معرض «أن الله لم يوجب الجهاد ولا تغيير المنكر باليد على المسلمين حال ضعفهم بمكة قبل الهجرة» وقرر منع ما أسماها هذه الواجبات الشرعية فى حالة الاستضعاف أو فى حالة وقوع ضرر على المسلمين وهى إشارة غير كافية وغير واضحة، كما وردت إشارة كذلك فى الحلقة الخامسة لذات الموضوع ولكن فى موضوع: النهى عن الخروج على الحكام فى بلاد المسلمين وحينما أراد ان يستدل على أن الخروج على الحكام ليس من باب تغيير المنكر باليد وهو أمر جيد، ولكنه أباح فى نفس الوقت تغيير المنكر باليد بين الرعية فقال نصاً حين تحدث عن فهم أن تغيير المنكر باليد هو إجازة للخروج على الحكام «وهذا خطأ لأنه إذا جاز تغيير المنكر باليد عند القدرة بين الرعية فإنه لا يجوز مع السلطان...»، وإن كانت جماعات ومجموعات الجهاد لم تكن تقوم بعمليات تغيير المنكر باليد بين الناس بشكل واسع كما كانت تفعل «الجماعة الإسلامية الجهادية».

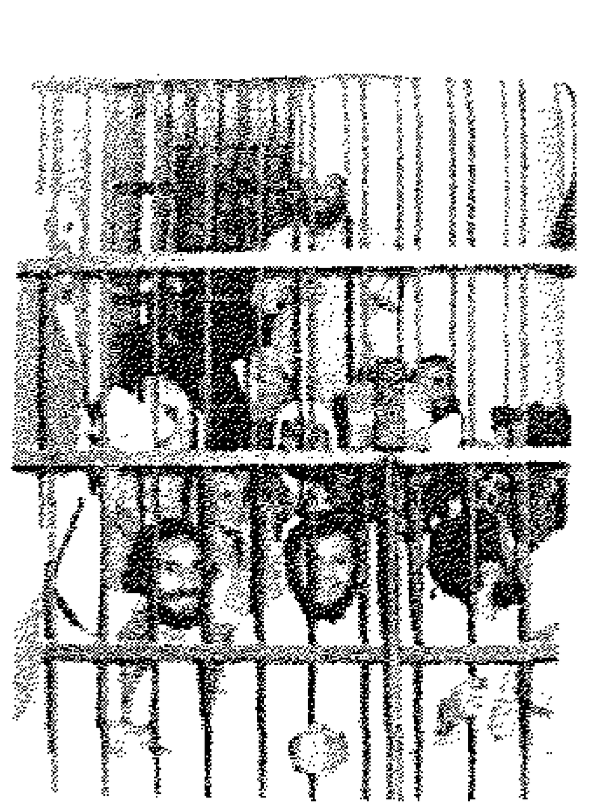
كذلك من المرتكزات الهامة فى فكر مجموعات العنف والجهاد فكرة «الحاكمية» (المرتكز الرابع)، وكذلك نموذج الدولة التى يسعون

لتطبيقها (المرتكز الخامس)، ففكرة الحاكمية أى الاحتكام لله ولحكمه توسعت فيها كل المجموعات التى استعملت هذا المصطلح بدءاً من الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى باكستان إلى الأستاذ/ سيد قطب، فجماعات القطبيين ومن سار على دربهم من مجموعات الجهاد المختلفة : فكل هؤلاء اعتبروا أن أى حكم لم يأت من كتاب الله أو تشريع كان مصدره لم يرد فى المصادر الإلهية فهو احتكام لغير الله وللطاغوت، واعتبروه كفراً يوجب مقاتلة من قام به، وخالفوا بذلك أهل العلم الصحيح الذين يرون أن هناك أحكاماً كثيرة لم يأت بها نص لا فى كتاب ولا سنة صحيحة وبالتالى متروك للناس الاجتهاد فيها بما شاءوا بشرط عدم اصطدامها بقاعدة إسلامية صحيحة، وكذلك مازال عند كثير من الجماعات الإسلامية وفى القلب منها مجموعات الجهاد أن هناك شكلا واحدا للدولة الإسلامية القديمة والحديثة هو تنصيب خليفة واحد لكل المسلمين فى العالم فى دولة واحدة تحكم بالشريعة الإسلامية وتطبق الحاكمية وفق مفهومهم الخاص، وهو أمر ليس صحيحاً عند أكثر أهل العلم من العلماء الوسطيين الذين يرون أن شكل الدولة لم يرد به نص محدد فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وأن الذى ورد هى القيم التى تحكم هذه الدولة من الشورى والعدل والمساواة...إلخ، وأن كلمة خليفة كانت اجتهاداً من المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فلقد اختاروا الصديق أبا بكر رضى الله عنه وأسموه خليفة رسول الله (أى من خلفه)، ثم اختاروا الفاروق عمر وتحيروا فى تسميته: هل يسمونه خليفة خليفة رسول الله؟ فوجدوا أن هذا الأمر سيطول كلما مات رئيس وقائد وحاكم للمسلمين فى ذلك الوقت فأسموه «أمير المؤمنين»، وبالتالى تطورت الدولة إلى أشكال عدة حديثة منها ما هو ملكى أو جمهورى أو إمارة..إلخ، فلا يوجد شكل واحد كما يعلن هؤلاء للدولة الإسلامية، والمفكرون العدول أسموا الشكلين القديم والحديث بالدولة الإسلامية فقالوا عن الدولة القديمة الدولة الإسلامية القديمة وعن الموجودة الآن الدولة الإسلامية الحديثة، ونظراً لهذين المفهومين الحاكمية وشكل الدولة عملت جماعات العنف والجهاد على ممارسة العنف لتغيير هذه الدولة لشكل الدولة الإسلامية فى مفهومهم ولتطبيق الحاكمية كما فهموها أيضاً، ولقد قامت أيضاً «الجماعة الإسلامية» فى مراجعاتها بمراجعة هذين المفهومين بشكل معقول وخاصة مفهوم الحاكمية وأصدروا كما سبق ذكره كتاب «الحاكمية» وهو أفضل من عالج فكرة الحاكمية عند تلك الجماعات، فماذا فعل د. فضل فى هذه المراجعات؟

الحقيقة أن د. فضل مازال يتحدث عن الأشكال الفقهية القديمة لتصنيف الدول والبلاد فهو يتكلم فى الحلقة السادسة عن دار الإسلام ودار الحرب، ويتحدث عن عدم القدرة على إلزام الكفار فى بلاد الإسلام بالتمييز فى المظهر ويبرر ذلك بقوله «بسبب العجز أصلاً عن إقامة الحكم الإسلامى» وهو مفهوم مبطن عن الشكل القديم للدولة الإسلامية، كما ورد كذلك فى الحلقة الأخيرة من هذه المراجعات (الحلقة الخامسة عشرة) إشارة إلى أن الخلافة قد تنقطع من الدنيا بعض الأزمنة، واستدل على ذلك بسؤال حذيفة رضى الله عنه للنبى صلى الله عليه وسلم بقوله: «فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام»، والحقيقة أن العلماء أجمعوا على وجوب تنصيب الأمير أو الحاكم لدى الجماعة وهى الأمة أو الدولة، أما اسم هذا الأمير أو الحاكم فيكون يسمى خليفة أو أمير المؤمنين أو رئيس أو ملك أو حتى أمير فقط فكلها تحقق المراد من الشريعة بتنظيم شئون الناس وجماعتهم أى دولتهم، وهو أمر يحتاج لمراجعة حقيقية من الدكتور فضل ومن معه، كما أنه لم يرد لفظ «الحاكمية» فى هذه المراجعات من قريب أو بعيد وبالتالى تظل هذه المسألة فى انتظار المراجعة.

يقوم المرتكز السادس الذى استندت إليه جماعات العنف فى تأسيس فكرها على أساس أن غير المسلمين(كالأقباط المسيحيين فى مصر) فى بلاد المسلمين نقضوا عهد الذمة الذى بموجبه فى مفهومهم يدفعون الجزية وعليه فدمهم مباح وكذلك أموالهم ولذلك استحلوا دماءهم وكذلك استحلوا أموالهم، ولقد كانت «الجماعة الإسلامية الجهادية» أكبر المجموعات التى قامت بهذا الاستحلال للدماء فى صراعها مع السلطة وكذلك استحلال الأموال ومثالها سرقة محلات الذهب الخاصة بالمسيحيين فى بعض المناطق، وكذلك مجموعة «الناجون من النار» قاموا بسرقة محلات ذهب مملوكة لمسيحيين، وحينما قامت «الجماعة الإسلامية» بمراجعاتها راجعت فكرة الاستحلال تلك وغيرتها واعتبرتهم أهل ذمة حتى لو لم يدفعوا الجزية سواء بسبب عدم مطالبة الحكام بها أو إسقاطهم عنها فى بعض العصور مثل الخديو إسماعيل، ولكنهم لم يصلوا بعد إلى مفهوم المواطنة الذى استقر عليه الفقه الحديث للعلماء والمفكرين الإسلاميين الوسطيين الذى يسوى بين المواطنين مسلمين ومسيحيين فى الحقوق والواجبات، فماذا قال د. فضل فى مراجعاته تلك بهذا الخصوص؟ لقد كان أول ذكر لهذا الموضوع فى حلقاته التى نُشرت فى الحلقة الثامنة، وجدير بالذكر فإن جماعات العنف مارست عدوانها على الأقباط المسيحيين فى مصر بسببين: السبب الأول يتعلق بالفهم الخاطئ للنصوص وتأويلها فيما يتعلق بأهل الكتاب وأهل الذمة وغيرها، والسبب الثانى: كنوع من الضغط على السلطة وإظهارها فى مظهر الضعيف

مراجعة المراجعات ٢٠٠٧



ينهى فضل عن الغدر لمن دخل بلاد الأجانب بإذنهم واعتبر أن العمليات التى تتم من هذه المجموعات فى بلاد الأجانب غدر لا يجوز شرعا

عن حماية أبناء الوطن من غير المسلمين أى هدفا سياسيا، ولذلك فى إشارة د. فضل عن هذا الموضوع فى الحلقة الثامنة أشار تحت عنوان: النهى عن قتل المدنيين فى بلاد المسلمين، وهى إشارة يمكن فهمها على أنه يقصد العدوان على المسيحيين لأنه يقول: «وقد عجز البعض عن الصدام مع هذه السلطات فلجأ إلى إزعاجها بارتكاب ما لا يحل له من قتل عامة الناس (المدنيين) لأنهم أهداف سهلة لا حراسة لهم ولا هم مسلحون»، وبالطبع لم تستهدف هذه الجماعات مدنيين مسلمين لإزعاج السلطات بل كانت تستهدف رموز الدولة وأجهزة الشرطة والمتعاونين معها من المسلمين ومن قتل من المدنيين المسلمين كان بسبب الخطأ فى الاستهداف، أما استهداف المدنيين لإزعاج السلطات فكان للأقباط المسيحيين وكذلك السياح الأجانب وهو تكلم عن السياحة والاعتداء على السياح بشكل مفصل وواضح فى أماكن عدة من هذه المراجعات وبالطبع رفضها وهو أمر جيد.

والموضع الآخر الذى ورد فيه كلام مباشر عن هذا الموضوع كان فى الحلقة العاشرة وكان بعنوان: فى معاملة أهل الكتاب المقيمين ببلاد المسلمين، فهو مازال يتردد فى اعتبارهم أهل ذمة أم أنهم مواطنون بنص الدستور فهو يقول: «وقال البعض (إن النصارى مازالوا أهل ذمة)، والقول بأنهم أهل ذمة يتعارض تماماً مع مبدأ المواطنة المعمول به فى هذه الدول، وذلك لأن المواطنة تساوى بين المواطنين سكان البلد الواحد فى الحقوق والواجبات، وهذا بخلاف عقد الذمة الذى يلزم أهل الكتاب المقيمين فى دار الإسلام بشروط تميزهم عن المسلمين وتفرق بينهم وبين المسلمين»، وهو قول غير دقيق فيما يتعلق بفهمه لأهل الذمة فى الزمن القديم فهو لم يفرق بين المسلمين وغير المسلمين ولكنه فقط استثناهم من المشاركة فى القتال إذا دفعوا ضريبة صغيرة فرضت على القادر فقط وسميت «الجزية» ومن شارك فى القتال سقطت عنهم «الجزية» وكان إعفاؤهم من المشاركة فى القتال فى ذلك الوقت لأن معظم الحروب كانت بدوافع دينية إسلامية فلم يفرض عليهم المشاركة فيها إلا من رغب فأسقط عنهم الجزية. وكانت «الجزية» كما قال الدكتور العوا «عقد» وليست «وضع» أى عقد بين طرفين يخضع لشروط العقد وبإرادة الطرفين الموافقين على العقد، فلما تغيرت الأوضاع وسقط هذا العقد اتفق أهل البلاد من مسلمين ومسيحيين على عقد جديد أسموه «الدستور» قائم على المواطنة وليس أهل الذمة، وهو يساوى كما ذكرنا فى الحقوق والواجبات بين المواطنين أياً كانت دياناتهم، وهو عقد شرعى ولا يخالف الإسلام،ومع هذا فقد انتهى د. فضل بهذا الشأن فى نفس الحلقة العاشرة

كتاب الزاوية

ابن العماد الأقفهسى

مصب النيل

قالت الحكماء: إن النيل إذا صب فى بحر الملح انتهى فيه إلى مواضع، ثم يرتفع بخاراً ويجتمع فى الجو، فتحمله الغمام والريح إلى الأماكن التى يريد الله تعالى بالمطر فيها من سائر البلاد. ولهذا تجد الأماكن القريبة من البحر أكثر مطراً من غيرها، ويشاهد الغمام قريباً من بحر الملح، عند دمياط وغيرها مما (جاور) البحر.

قالوا: وإذا وقع المطر فى البلاد اتصل بالبحر من عيون وغيرها، حتى ينتهى إلى البحر أيضاً، ثم يصير مطراً. وهذا قد أشار إليه الزمخشرى فى قوله تعالى: (والسماء ذات الرجع) والمراد بالسماء: الغمام، والرجع: المطر.

قال: سمى رجعاً على عادة العرب فى معتقدهم، أن الغمام يحمل ماء المطر من البحر، ثم يرجع إليها، فهو رجع إلى الأرض بعدما أُخذ منها مرة بعد مرة.

وذكر الواحدى: أنها إنما سميت رجعاً لأنها ترجع إلى الأرض مرة بعد أخرى. وما ذكره الحكماء وجهوه بأن (كل ما) على الأرض من خشب، وحجر، ونحاس، ورصاص، وحيوان، يصير تراباً ثم يعود خلقاً جديداً، وهكذا إلى يوم (القيامة) قالوا: والفلك دوّار.

وذكر المفسرون فى قوله سبحانه وتعالى: (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكُمُوه): أن الله تعالى يرسل الرياح فتلقح السحاب بالماء كما تلقح البقرة باللبن.

مراجعة المراجعات ٢٠٠٧

إلى «وجوب معاملتهم (أهل الكتاب المقيمين ببلاد المسلمين) بالحسنى وعدم التعرض لهم بأذى ونصح جميع المسلمين بذلك» لأسباب عددها، ونصح كذلك نصارى مصر بمعاملة المسلمين بالحسنى وأكد على أن نصارى مصر لهم وضع خاص فقد أوصى بهم الرسول صلى الله عليه وسلم وانتهى كذلك فى نفس الحلقة إلى عدم وجوب قتل كل اليهود والنصارى بالجملة الذين يسميهم البعض بالصليبيين وانتهى إلى أن القتال الصحيح هو على من اعتدى منهم فيما سمى «جهاد الدفع».

كذلك من المرتكزات التى أسست للعنف فى تلك الجماعات استخدام فتاوى قديمة فى ظروف مختلفة وإسقاطها على واقع حديث وظروف مختلفة أيضاً، مثل فتوى الإمام ابن تيمية فى قتال التتار، فيما عُرف فى كتابات محمد عبد السلام فرج فى «الفريضة الغائبة» وكذلك «الجماعة الإسلامية» ببحث «وجوب قتال الطائفة الممتنعة عن تطبيق شريعة من شرائع المسلمين».

فالدكتور فضل أفرد حلقة كاملة عن هذا الموضوع (الحلقة الثانية) فهو يشرح فيها أهمية العلم بالشرع وكذلك أنه لا يجوز لغير المؤهلين شرعياً من أفراد الجماعات الجهادية تنزيل ما فى بطون كتب السلف من أحكام مطلقة على واقعنا الحاضر، وكذلك لا يجوز الفتوى إلا للمؤهل لذلك، ويؤكد على أن الفتوى تتغير بتغير الأزمان والأحوال، ولا يجوز نقل الأحكام وفتاوى من غير المؤهلين عن طريق شبكة المعلومات الدولية (internet) لأنها جلبت صداماً فى غير موضعه وأطلقت أحكاماً على الأنفس والأموال غير صحيحة، وهى مراجعة معقولة فى هذا الجانب وإن لم تكن مفصلة تفصيلاً كبيراً كما ورد فى كتاب صدر عن «الجماعة الإسلامية» مؤخراً بعنوان «فتوى الإمام ابن تيمية عن التتار دراسة وتحليل» ولعل ذلك يحدث فى استكمال هذه المراجعات فى المستقبل بإذن الله.

بقى أن نقول أن مجموعات الجهاد التى انتشرت وتأثرت بأفكار مثل أفكار د. سيد إمام (د. فضل) كانت منتشرة فى بلاد عربية وإسلامية عديدة وفى بلاد غربية كذلك، ولهذا مارست ما عُرف «بالإرهاب الدولى»، أو ما أسموه هم «الجهاد الدولى»؛ ولذلك أفرد د. فضل مساحة كبيرة فى مراجعاته لهذا النوع من «الجهاد» وفند كل مزاعمه وهو أمر محمود (ففى الحلقة السابعة كلها يتحدث فيها عن هذا الموضوع وجزء من الحلقة الثامنة) وفيها ينهى فضل عن الغدر لمن دخل بلاد الأجانب بإذنهم واعتبر أن العمليات التى تتم من هذه المجموعات فى بلاد الأجانب غدر لا يجوز شرعاً، وأقر بخطأ الجرائم التى ارتكبها بعض المسلمين فى بلاد المهجر من تفجيرات وقتل وإتلاف الممتلكات العامة والخاصة والاحتيال للاستيلاء على الأموال والاحتيال على شركات التأمين والهروب من المساكن قبل دفع الإيجار وتسديد فواتير التليفونات وغيره بحجة أنهم كفار وقال: «نعلم أن هذا كله حرام لا يجوز شرعاً وهو غدر والغدر نفاق ومن الكبائر».

ونهى كذلك عن قتل المدنيين فى تلك البلاد وإن كان مازال يسميها «بلاد الكفار» وهى تسمية تحتاج لمراجعة أيضاً.

ويؤكد على نفس المعنى فى الحلقة الثامنة بقوله «إنه ليس من المروءة أن تنزل بقوم ولو كانوا كافرين غير معاهدين يأذنون لك فى دخول دارهم والإقامة بها ويؤمنونك على نفسك ومالك ويمنحونك فرصة العمل أو التعليم لديهم أو يمنحونك حق اللجوء السياسى مع الحياة الكريمة لديهم ونحو ذلك من أعمال المعروف ثم تغدر بهم تقتيلاً وتخريباً».

كما أفرد كما سبق أن أشرنا إلى حرمة قتل السياح الأجانب فى بلادنا بتأويل من التأويلات وهو أمر محمود أيضاً فى هذه المراجعات.

ملاحظة ختامية:

أود التأكيد على ما أشرنا إليه من أن هذه المراجعات خطوة إيجابية وشجاعة، ولكنها بدائية تحتاج لاستكمال وتطوير وإنضاج كما فعلت «الجماعة الإسلامية» فى مراجعاتها فى مراحلها الأخيرة، ولست من المشككين فى هذه المراجعات، ولكن مع الترحيب بها وتشجيع الاستمرار فيها مع نقد ما فيها من قصور ونقص حتى تستكمل لوجه الله ولصالح الوطن والبشرية كلها.

والله من وراء القصد ■

"كتب 2007"

يعرف المهتمون بالفكر والثقافة، كما يعرف الناشرون، أن الكتب الأكثر مبيعا ليست بالضرورة الأكثر أهمية أو تأثيرا؛ فكتاب بوب وودوارد State of Denial أو كتاب «ميرشيمر» الذي أقام الدنيا ولم يقعدها The Israel Lobby & US Foreign Policy لم يحتل أيهما أبدا مكانه الملائم على قائمة الكتب الأكثر مبيعا في الولايات المتحدة على رغم التأثير الذي أحدثه كل منهما. وإن كان هذا صحيحا «إلى حد ما» في دول استقرت فيها «ثقافة القراءة»، فإنه يبقى صحيحا «بالمطلق» في مجتمعات تحكمها للأسف «ثقافة الأرصفة» وشاشات التلفاز. ويتحدث البعض عن انتشار «مفهوم» لكتب التنجيم والتراث والمداواة بالأعشاب. كما يشيرون إلى المكانة التي احتلتها قنوات الفيديو كليب «العارية» والقنوات «الدينية» على حساب قنوات مثل «الجزيرة» أو «العربية».

عندما قررت «وجهات نظر» ـ كعادتها السنوية ـ أن تخصص هذه الصفحات «لأهم» الكتب التي صدرت في العام المنقضي ٢٠٠٧ وأكثرها تأثيرا لم نشأ أن نترك الأمر رهن اختيارات لنا قد لاتحيط ـ واقعيا ـ بكل ما صدر من عناوين هنا أو هناك. كما لم نطمئن إلى فكرة أن نوكل الأمر إلى من قد يلحق خياراتهم حيف مجاملة اعتدناها في وسطنا الثقافي العربي. أو على الأقل «يتهم» بتلك المجاملة.

■ وهو اتهام أيضا صار من «توابع» أي جائزة عربية أو أي اختيار. كيف تختار الصحف العريقة «الرصينة» قوائمها؟

في هذا العدد اخترنا قائمتين أحدهما للأمريكية «نيويورك تايمز» والتي أفردت ملفا كاملا لعشرة نقاد محترمين كتب فيه كل منهم عن الكتاب الذي يرى أنه الأفضل أو الذي كان الأكثر تأثيرا في عام ٢٠٠٧. والقائمة الأخرى لمجلة «لير» الفرنسية. والتي اعتمدت أسلوبا مختلفا حين شكلت لجنة من ٢٧ كاتبا ليختاروا الكتاب «الأول» في كل مجال من المجالات العشرين التي حددوها لاختياراتهم. كما نشرت المجلة أيضا أسماء الكتب التي كان لها شرف المنافسة على المراكز الأولى.

الطريف أن رئيس تحرير لير «فرانسوا بوسنيل» حكى في تقديمه للملف أجواء الحماسة التى رافقت عملية الاختيار والتي شهدت كثيرا من الخلاف وكثيرا من الضحك. قبل الاتفاق «أخيرا» على قائمة.

هل يستدعي الأمر كل هذا العناء؟!

لا أحد يعلم. ففي نهاية المطاف ومهما كان أمر القوائم. ومهما كانت القيمة الفكرية للذين سهروا على اختيارها سيبقى لكل قارئ ذوقه الخاص.. وستبقى حقيقة أنه في كل اختيار «وجهات نظر»

كل عام أنتم بخير...

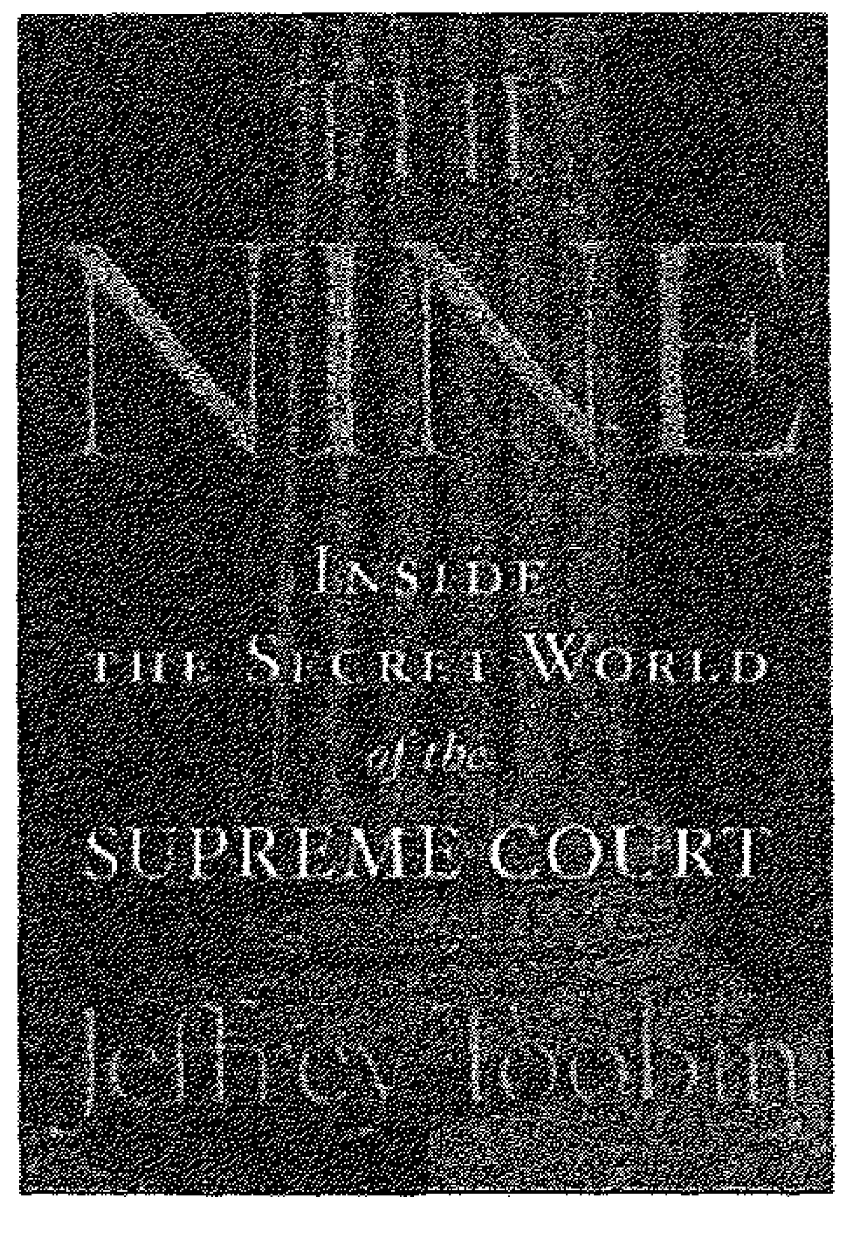
المحـــرر

التـرجمات:
من الإنجليزية: بثينة الناصرى وهالة صلاح الدين حسين
من الفرنسية: داليا سعودى

The New York Times

وجها لوجه مع قضاة المحكمة العليا

ديفيد مارجوليك



THE NINE
Inside the Secret World of the Supreme Court
(التسعة: داخل العالم السرى للمحكمة العليا)
Jeffrey Toobin
Illustrated. 369 pp. Doubleday
$27.95

▩ احتفال توديع رئيس القضاة وليام رينكويست فى المحكمة الأمريكية العليا، فى سبتمبر ٢٠٠٥، يقدم لنا نوع اللقطة التاريخية التى يعشقها المؤلفون. كان القضاة يصطفون بترتيب مناسب فى ذلك اليوم على السلم المرمرى الذى يفضى إلى المبنى. وكما حمل بعض الموظفين القانونيين السابقين (ومن بينهم خليفته المنتظر جون روبرتس)، تابوت الفقيد مارين بزملائه القدامى، يتقفى جيفرى توبن فى كتابه أثر الجنازة، متوقفا عند كل قاض، يقدمهم لنا واحدا إثر آخر.

ولكن سرد توبن يقدم لنا شيئا آخر أكثر إمتاعا وهو فرصة تخمين من من هؤلاء القضاء باح له بما أورده فى كتابه ومن لم يفعل.

هناك طبعا خرافة أن القضاة يجلسون على ذرى الأولمب صامتين صمت الأبدى. ولكن واقع الحال أن بعضهم يتكلم حين يناسبه ذلك . يتكلمون بانتقائية شديدة حسب شهرة وانتشار الصحفى أو صحيفته. وعادة يمكن للمتابع أن يخمن من الذى يثرثر. دعونا اذن. مع أخذ هذا بنظر الاعتبار - نرافق توبن صعودا على ذلك السلم المرمرى.

أولا: هناك ستيفن براير المتصف بما يسميه توبن «طبيعته العشرية السمحاء». وأكثر الاحتمال انه تكلم كثيرا. ثم هناك روث بادر غينسبرغ، يصفها توبن بأنها «هشة» و«خجولة» ولها تأثير هامشى على زملائها. احتمال. ولكن مثلها لن يتحدث إلا بالنزر القليل. كلارينس توماس، كما يقول لنا الكتاب، ازداد شيخوخة وسمنة منذ معركة تنصيبه الدموية الشهيرة. مستحيل. ديفد سوتر «يكره واشنطن» و«لايهمه ما يظنه الآخرون فيه». ربما لم يفعل. ولكنه. بسبب نزقه. قد يكون طوح بكلمة هنا وكلمة هناك. وهناك أنطونى كندى، وهو أكثر تجربة وتأثيرا من الشخص «التقليدى بل الممل» الذى كنا نحسبه فى أول ظهوره. هو على أكثر احتمال.

فى ذلك اليوم، كان أنطونين سكاليا يبدو «تائها ووحيدا»: ليس هو على الإطلاق. وهناك ساندرا داى أوكونر، التى ستعهد بمقعدها للرئيس جورج بوش الذى كانت تعتبره «متكبرا، مارقا، عاجزا، ومتطرفا» وطبعات أصابعها. أو بالأحرى طبعات صوتها. تكاد تتقافز من صفحات الكتاب: ولولاها لما كان يمكن لتوبن أن يكتب شيئا بهذا الاضطرام والتفاصيل السرية. وأخيرا هناك جون بول ستيفنز «المحترم من زملائه وإن كان مجهولا لديهم». احتمال ضعيف جدا.

لدى قراءة كتاب توبن البارع والممتع، تتأكد مؤشرات الحدس هذه. فعبر صفحات الكتاب تتناثر الاقتباسات والوقائع والحقائق والرؤى والحوارات الداخلية التى لا يمكن أن تأتى إلا من قضاة محددين. والأكثر احتمالا: أوكونر وبراير وكندى. الذين، يهيل المؤلف كلمات الإطراء، على كل منهم.

المحكمة العليا تغطى أخبارها مثل أى مؤسسة حكومية مثل البيت الأبيض أو وزارة الخارجية، عبر مؤتمرات صحفية أو تصريحات مطبوعة بدون الإشارة إلى المجريات الداخلية. فالصحفيون المنتدبون إلى المحكمة نادرا ما يجازفون بالتطرق إلى ما وراء القرارات المنطوقة. والتصريحات الصحفية. وتفسير أكوام من هذه الآراء فى وقت واحد ومحدد، أمر صعب جدا (صعوبة مقصودة غالبا). ومن يجيد إنجاز ذلك هم قلة نادرة وعادة لايملكون وقتا يضيعونه.

ولكن هذا ليس السبب الوحيد للالتزام بما توزعه أو تعلنه المحكمة من أخبارها. إذ إن نقد القضاة، وتقييم نوعية أوصواب أو نزاهة أعمالهم. مسألة خطرة: فأنت تخاطر بفقدان أية فرصة ضئيلة تملكها لانتزاع نتفة حديث من أحدهم أو فتافيت كلمات يرميها إليك بين حين وآخر. أما تفاصيل الدراما والعاطفة والمتفاهات التى يعج بها المكان. بكلمات أخرى، الطريقة التى تعمل بها المحكمة، فذلك لايخرج إلى العلن إلا بعد سنوات من الواقعة، وفى حالة واحدة هى حين ترفع عنها السرية لاطلاع الجمهور عليها.

وفى حين يتغير رؤساء مكاتب صحفنا فى بغداد ومراسلو البيت الأبيض كل بضع سنوات لسبب هو أنه مع مرور الوقت يتخندق هؤلاء المراسلون أو يتملقون أو يحترقون . ولكن لأن تغطية المحكمة مسألة عسيرة. أو لأن الجميع يحبون إبقاء الأشياء دون تغيير. لهذا فالمراسلون هناك يتمتعون بحالة أشبه بالإقطاعية. بعضهم . بسبب عملهم هناك منذ عشرات السنين . يصبحون جزءا لا يتجزأ من المحكمة، متطبعين بطباعها ومهللين لقراراتها . بل يصبح بعضهم أشباه قضاة يناقشون قرارات المحكمة بأنفسهم دون أن يتجشموا عناء رفع سماعة الهاتف.

وهذا التجمع الاحتكارى مغلق تقريبا على أصحابه وآخذ فى الانكماش.

ولهذا. يأتى، كل بضع سنوات أو ما شابه، شخص من خارج الدائرة، مقدام وذكى مثل توبن ليلقى ضوءا نحتاجه على المحكمة . إنه لا يجلس فى كشك الصحفيين فى المحكمة، ويتميز عنهم بأنه يملك استقلالية ورؤية. وهو لا يرهب المكان، ولا يميل إلى تغطيته بنبرات هامسة أو الاستطراد إلى ما لا نهاية فى وصف الستائر المخملية الحمراء أو الأرواب السوداء.

ولهذا لا ندهش أن كتاب «التسعة» يتميز بالجاذبية وسعة الاطلاع والصدق ويسر القراءة، وغالبا لايستطيع القارئ تركه جانبا. توبن راوى قصة بالفطرة، والقصص التى يسردها تأسر الألباب.

من الواضح أن أوكونور كانت أفضل مصادر توبن وأيضا . يمكن للقارئ أن يقرر إذا كان هذا صدفة. كانت بطلته: استطاعت القاضية بشكل منفرد . كما يقول . من خلال اجتهاداتها البراغماتية أن تبقى على المحكمة أقرب إلى التيار العام الأمريكى خاصة فى قضايا مثل الحرية المنتجة وإتاحة الفرص المتساوية للجميع. ولكن كان لها أخطاؤها.

بصفتها جمهورية متحمسة، فقد كانت اتخذت قرارها مبكرا فى دعوى إيقاف إعادة حساب أصوات فلوريدا (عند انتخاب بوش للمرة الأولى)، وفى قرار خمسة إلى أربعة الذى تبع ذلك كان صوتها حاسما.

ووسط عاصفة النقد، من الواضح أن أوكونور . فى محاولة لتبرير موقفها . سمحت بالكثير من الأحاديث الجانبية مع الصحفيين. توبن لا يذكر هذا، ولا يذكر القضية الأعم لعلاقات القضاة الخفية مع الصحافة.

الكتاب يحوى مقالات مكتوبة بأسلوب جميل عن كل قاض من هؤلاء القضاة التسعة، محبوكة بسرد فنى، والكتاب حافل بالجمل البليغة والشذرات البلورية والمقتطفات البديعة. ولكن هناك فراغات مهمة. توبن يصف العلاقات بين القضاة على أنها «ودية» ولكنه، لسوء الحظ لا يتوسع فى هذا كثيرا.

يكرس الكاتب الكثير من المساحة لمواضيع بالية أكل الدهر عليها وشرب. إن تصفح (التسعة) يشبه قليلا قراءة إحدى مقالات روجر أنجل فى سلسلة ظهرت حديثا بعنوان «العالم»: الكتابة بديعة ولكن اللعبة انتهت منذ فترة .

وباعتبار السرية التى تغلف المكان، فإن خيار توبن الوحيد المتبقى كان أن يتقفى أثر الصحفيين بوب وودوارد وسكوت أرمسترونج فى كتاب «الإخوة» الذى صدر قبل جيل: أن يلجأ إلى الموظفين القانونيين السابقين.

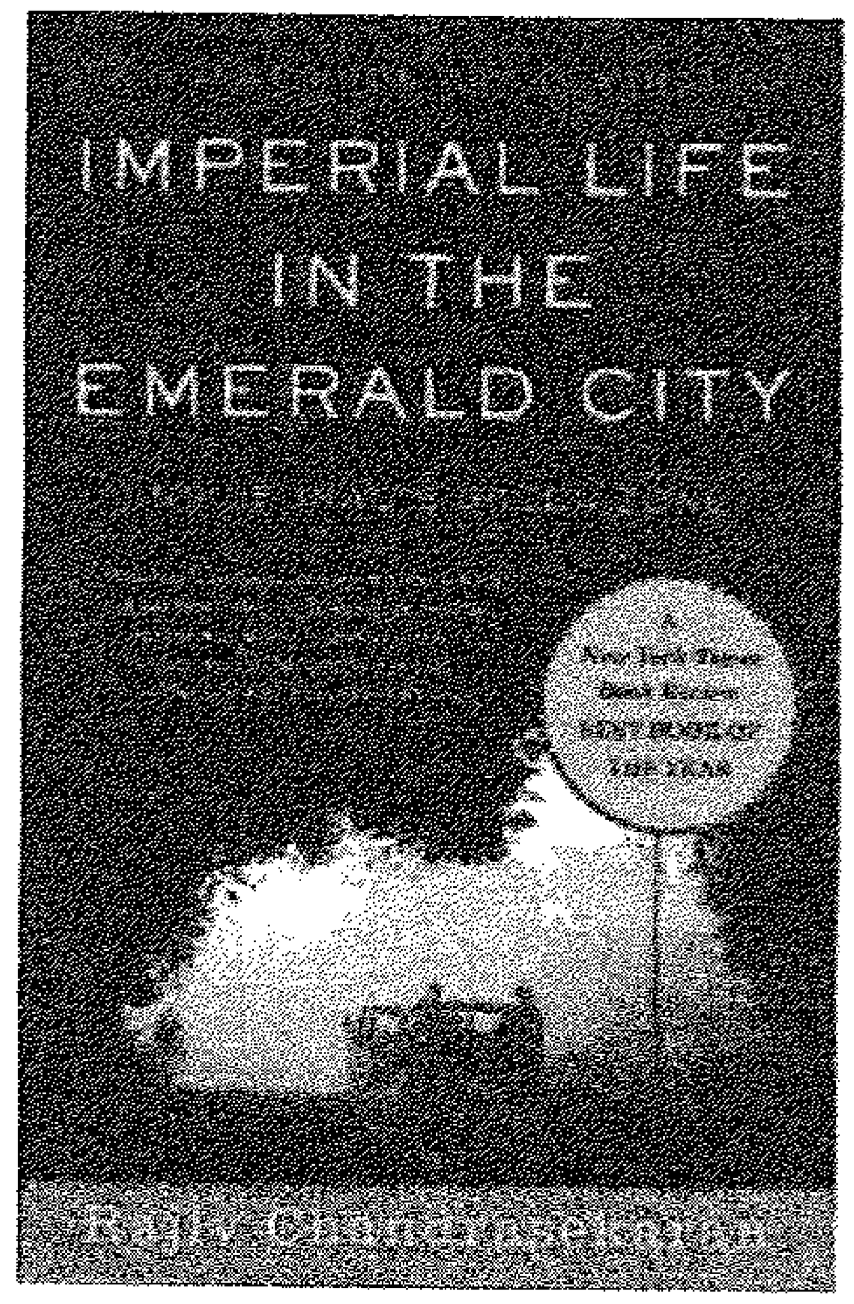
ولكنه لم يتحدث إلى الكثير منهم. ولو كان توبن قد فعل ذلك، لقدم لنا كتابا أفضل. ومع هذا ففيما يتعلق الأمر بتغطية المحكمة الأمريكية العليا كمؤسسة إنسانية حية تتنفس بدلا من تقديمها كمجموعة من الأيقونات، فإن كتاب (التسعة) هو قطعة فنية، ولكنها فن بحاجة إلى رينيسانس.

❖ رينيسانس. أبقيت على الكلمة بدلا من ترجمتها (النهضة) لأن الكاتب يتلاعب على الكلمة للإشارة إلى (عهد النهضة) فى تاريخ الفن والأدب والسياسة. المترجمة. ▩

● ديفيد مارجوليك رئيس تحرير مشارك فى مجلة فانتى فير ومؤلف كتاب «مابعد المجد: جو لويس ضد ماكس شميلنج، وعالم على الحافة» وفى وقت من الأوقات كان يغطى شئونا قانونية لصحيفة التايمز.

كيف انهار العراق؟!

مايكل جولدفارب



IMPERIAL LIFE IN THE EMERALD CITY
Inside Iraq's Green Zone
(الحياة الامبراطورية فى مدينة الزمرد داخل المنطقة الخضراء فى بغداد)
Rajiv Chandrasekaran
Alfred A. Knopf. 320pp., $25.95

بغض النظر عن نهاية الحرب، العراق ليس فيتنام. يصح هذا عسكريا وسياسيا وينطبق كذلك على التغطية الصحفية للحربين. بالنسبة لكثير من الصحفيين الذين غطوا فيتنام ومن بعد ذلك، نشروا كتبا عن الحرب، لم يكن من الممكن استيعاب تلك التجربة إلا باعتبارها كابوسا من الهلاوس، وكانوا يصفونه بأسلوب غرائبى يناسبه. واقع حرب العراق أكثر رعبا من مجرد مغامرة فاشلة، ولكن أسلوب وصف هذا الفشل المستمر كان أكثر صفاء وجدية. وكتاب راجيف تشاندراسكاران «الحياة الامبراطورية فى مدينة الزمرد: داخل المنطقة الخضراء فى بغداد» مثال جيد على ذلك.

يسرد هذا الكتاب قصة إدارة السنة الأولى للحرب، بعد عام من الغزو، حين أصبحت الولايات المتحدة - حسب القانون الدولى - القوة المحتلة والمسئولة عن إدارة البلاد. وكانت الآلية الرئيسية لتلك المهمة هى سلطة الائتلاف المؤقتة ومقرها المنطقة الخضراء: مجمع مسوَّر بجدران ضد الانفجار يقع فى نطاق القصر الرئاسى العراقى على الضفة الغربية لنهر دجلة وكان تشاندراسكاران آنذاك مدير مكتب واشنطن بوست فى بغداد، وفى كتابه، يصف مزيجا قاتلا من العنجهية وانعدام الكفاءة المهنية خلف تلك الجدران التى ساهمت، مثل نقص العدد الكافى من القوات، فى كتابة مصير العراق الدموى.

بدءا كانت سياسة التوظيف لدى سلطة الائتلاف المؤقتة مخجلة. كان الولاء لجورج بوش والحزب الجمهورى هو المعيار الأساسى للعمل فى سلطة الائتلاف المؤقتة. ومن أجل تقرير تأهلهم للوظيفة فى العراق كان الاختبار عبارة عن أسئلة للبعض حول آرائهم فى قضايا تافهة. وآخرون سئلوا لمن صوتوا فى انتخابات ٢٠٠٠. وكان منسق البيت الأبيض لدى البنتاجون جيمس أوبيرن قد طلب من أعضاء كونجرس جمهوريين ومن مفكرين محافظين ومن ناشطى الحزب ترشيح موظفين للعراق.

قبل أن تبدأ الحرب، كان فردريك ام بركل جونيور قد أسند إليه مهمة الإشراف على نظام الرعاية الصحية فى العراق. وكانت سيرته الذاتية حافلة: طبيب بشهادة ماجستير فى الصحة العامة، وشهادات بكالوريوس من جامعات هارفارد وييل ودارتموث وبيركلى. وكان يحمل نجمتى برونز للخدمة العسكرية فى البحرية إضافة إلى تجربة ميدانية مع أكراد شمال العراق بعد حرب الخليج فى ١٩٩١. بعد أسبوع من (التحرير) قيل له إنه سوف يستبدل وكما كتب تشاندراسكاران «فقد أخبره موظف كبير فى وكالة التنمية الأمريكية الدولية USAID أن البيت الأبيض يريد (أحد الموالين) فى هذه الوظيفة».

الموالى كان جيمس كى هافمان جونيور الذى رشحه حاكم ميشيغان السابق جون انجلر. وتضمنت سيرته الذاتية إدارة هيئة تبنى أطفال مسيحية وكانت تقدم الاستشارات للفتيات ضد الإجهاض. وقد قضى معظم وقته فى العراق يهيئ لخصخصة شركة الأدوية الحكومية - مع أن ذلك لم يكن أولوية قصوى طالما أن كل مستشفى تقريبا فى البلاد قد نهب تماما بعد الغزو.

فى صفحة بعد أخرى، يسرد تشاندراسكاران بالتفاصيل، مشاريع سلطة الائتلاف الأخرى التى يقوم بها شباب الجمهوريين. مثل تحديث بورصة بغداد، أو الخصخصة السريعة لكل خدمة كانت تقدمها الدولة للشعب. وبعض تلك الأفكار كان يمكن الإعجاب بها، لو كانت قد خططت لدولة فيها كهرباء وماء، دولة لا تتأرجح على حافة الفوضى.

ولكن كيف يمكن لهؤلاء الشباب أن يعرفوا كيف هو شكل حياة العراقيين العاديين طالما أنهم لا يغادرون المنطقة الخضراء أبدا؟ بدلا من ذلك فقد حولوا المكان إلى ما يشبه نزلا جامعيا. بعد يوم شاق من الحلم بمشاريع مستحيلة، كان الصبية يفعلون ما يفعله الصبية. يتجهون إلى البار باحثين عن الرفقة. ولم يكن للعراقيين وجود فى أذهانهم.

ويرأس قمة هذا العالم غير الواقعى، المندوب الأمريكى بول بريمر الثالث الذى يشار إليه فى هذا الكتاب على أنه رجل يعرف ما يريد ولا يسمح بتغيير قراراته لتلائم الواقع التعيس الذى يعيشه العراقيون خارج مصد الحواجز. وكان يمكن اعتبار هذا فصلا هزليا على طريقة جوزف هيلر، لولا مأساة موت عشرات الألوف من العراقيين وآلاف من الجنود الأمريكيين، بسبب قرارات سلطة الائتلاف المؤقتة والبنتاجون والبيت الأبيض.

فى كتاب تشاندراسكاران، تبلورت كل هذه العنجهية والعناد والرغبة فى الترقية فى عمله فى نهاية مارس ٢٠٠٤، حين قرر بريمر أن يغلق الصحيفة التى كان يصدرها رجل الدين الشيعى المتشدد مقتدى الصدر. ففى نهج صار نمطيا، اتخذ بريمر القرار بدون التفكير بما قد ينتج عنه. لم تكن لديه خطة دعم عسكرى فى حالة أن قرر الصدر القتال، وفعلا قاتل جيش المهدى دفاعا عن النفس. وفى أثناء ذلك، وقع أربعة مرتزقة أمنيين أمريكيين فى كمين وقتلوا فى الفلوجة، وعلقت جثثهم المشوهة على جسر على نهر الفرات. فجأة بعد سنة من الاحتلال، كانت الولايات المتحدة تحارب المتمردين الشيعة فى جبهة والمتمردين السنة فى جبهة أخرى. كانت هذه أول إشارة للجيش الأمريكى فى كتاب تشاندراسكاران الذى يتناول التاريخ المدنى للاحتلال فى العراق، وكان وصفه للمناوشات بين فصيل من فرقة الفرسان الأولى فى الجيش الأمريكى ومقاتلى جيش المهدى، شديد البراعة. إنها شهادة عيان تاريخية من الطراز الأول.

إذا كان هناك شىء ناقص فى الكتاب فهو المؤلف نفسه، فآراء تشاندراسكاران غائبة حتى نهاية الكتاب تقريبا.

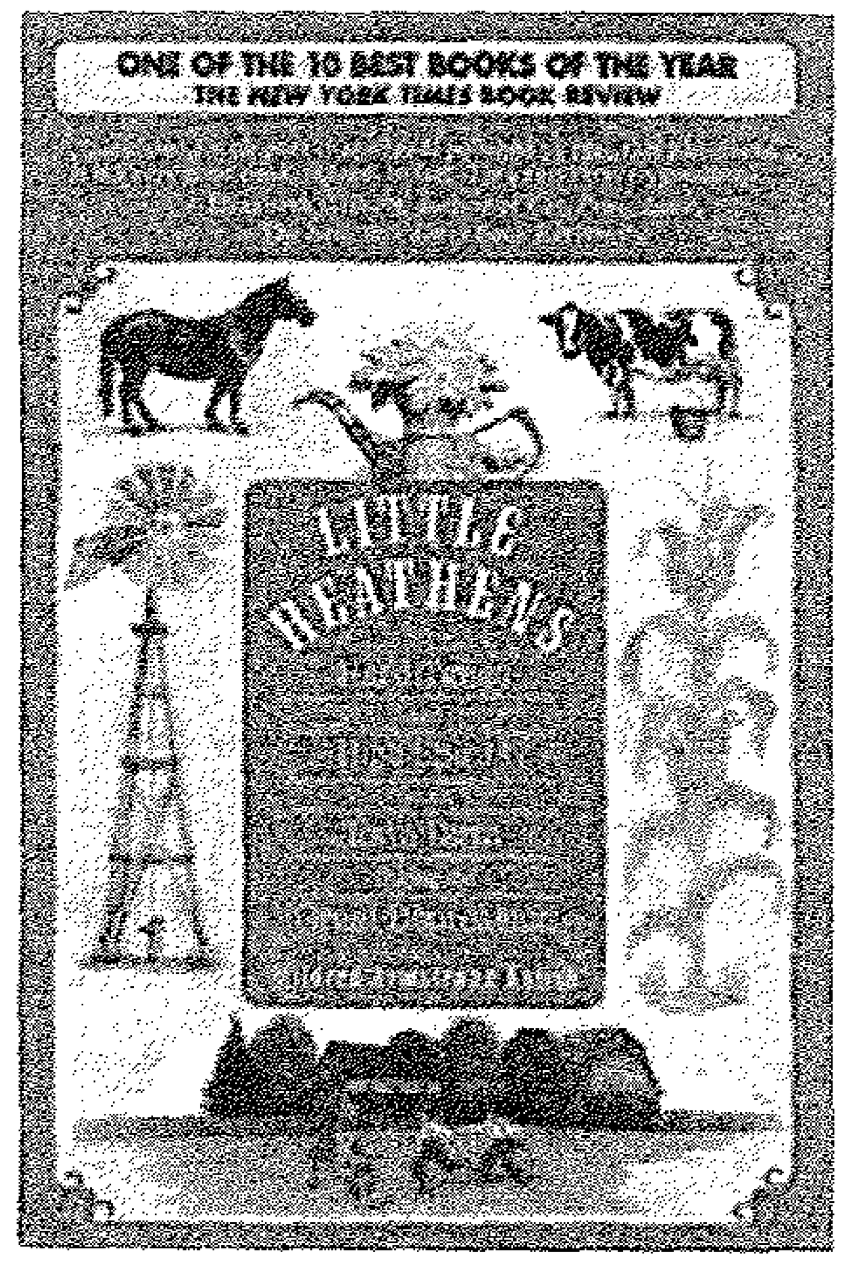
إنه يلتزم بالمضمون المهنى للصحافة: ينقل الوقائع بحيادية وموضوعية موسوسة. ولكن علينا نحن الصحفيين - وباعتبارنا مواطنين أيضا - من الذين اتيح لهم رصد أحداث تؤرخ لفترة تاريخية، واجب الشهادة المتفاعلة والدقيقة والنابعة من القلب، وليس مهمة جمع الحقائق فحسب.

الكتاب مكتوب بأسلوب واضح وغير دعائى لحسن الحظ. وينبغى أن يقرأه كل من يريد أن يفهم كيف انحدرت الأمور إلى هذا المستوى فى العراق.

● مايكل جولدفارب مؤلف كتاب «حرب أحمد، سلام أحمد: النجاة من صدام حسين والموت فى العراق الجديد».

البيت مكاننا

اليزابث جلبرت



Hard Times and High Spirits on an Iowa Farm During the Great Depression

(الوثنيون الصغار .. أوقات عصيبة وأرواح طليقة فى مزرعة أيوا خلال زمن الكساد العظيم)

Mildred Armstrong Kalish
Bantam Books. 292 pp. $22.00

حين كانت ملدريد أرمستورنج كاليش فى حوالى الخامسة من عمرها، اختفى أبوها من حياتها إلى الأبد. بتعبير آخر أكثر فجاجة، طرد أبوها. أجبر على مغادرة المدينة من قبل جد ملدريد المتشدد، وكان مزارعا، بسبب «بعض التجاوزات التى أخفيت عنا نحن الأطفال، مع أننا سمعنا همس تلميحات لافلاس وعمليات نصب وحكم بالسجن سابقا». ولا يثير الدهشة أن اسم والدها لم يذكر ثانية فى المنزل، إذا أخذنا بنظر الاعتبار الزمان والمكان. لم يكن أهل ولاية أيوا الريفيون الذين يتبعون المذهب الإصلاحى المتزمت (meth odism) خلال فترة الكساد العظيم، لينى العريكة. فى ذلك الوقت حين يفعل البعض شيئا لا يغتفر، يفقدون الغفران إلى الأبد. ولكن ما يثير الدهشة هو أن والد ملدريد المشين - بعد ذكره السريع فى الفصل الأول من مذكراتها الجميلة «الوثنيون الصغار» - لم يذكر مرة أخرى حتى نهاية الكتاب.

ويجب أن أقول إن هذا يخالف كل التقاليد الأدبية الراهنة. فليس ثمة كاتب مذكرات حديث يحترم نفسه (بضمنهم أنا) يمكن أن يغفل مثل هذه اللقطة المثيرة عن معاناة أب مطرود. فمن مثل هذه المحنة، يستطيع الواحد منا أن يحلب مجلدات من الألم (وصفقات الكتب)! ولكن كاليش - التى تنشر فى ٢٠٠٧ - مازالت تعيش قيم ١٩٣٥، حين كان الناس يتكيفون مع الأحزان بشكل مختلف. بعد أن اختفى والدها، انتقلت مع أمها وأخواتها - عاطفيا وحرفيا - للعيش مع جديها المتشددين (شخصان جامدان «لم يصلهما القرن العشرون تماما»)، ومن هنا كانت البداية الحقيقية لقصة ملدريد الشابة - فى مزرعة حيث «أصبحت عائلة من خمسة أفراد مسئولية عجوزين» شرعا فورا بعملية تشكيل شخصية الصغار.

ما يتبع بعد ذلك ليس مفاجئا. ولكنك لن تستطيع تخمينه أبدا فقد انخرط هؤلاء الصغار فى العمل الشاق. كانوا يزرعون البطاطس ويرعون الماشية ويحصدون الحقول وكانوا يضربون على أقل هفوة فى سلوكهم، عاشوا بدون رفاهيات (كهرباء، راحة، تدفئة) وبدون بادرة حنان (وتتذكر كاليش أن الطفولة كانت تعتبر نوعا من المرض. أو «بأفضل حالاتها، إعاقة، يجب تجاهلها معظم الوقت وينبغى علاجها بأسرع وقت ممكن»).

يفهم هذا جيدا كل من لديه خلفية فلاحية على الطريقة القديمة. «علمونا أنه إذا اشترينا شيئا فيجب أن يعيش إلى الأبد - أو أقرب إلى الأبد على قدر استطاعتنا». أو «حين كان يخدش أى طفل منا أو يجرح لم نكن نهرع إلى البيت ليعتنى بنا الأهل».

إذا كانت هذه هى كل معاناة الوثنيين الصغار، فهى لا شىء يذكر قياسا لما تقاسيه الكثير من العائلات فى الأوقات العصيبة. ولكن ثراء المذكرات كان فى شىء آخر: فهى حافلة بالتوهج والحيوية وشىء مدهش فاجأنى إلى درجة أن ندت عنى شهقة سرور مسموعة: ملدريد أرمستورنج كاليش عشقت طفولتها البائسة!!

صحيح أنها تحترم القيم التى خلقها الكساد العظيم فى نفوس الناس، وصحيح أنها تشعر وهى فى هذه السن المتقدمة أن عليها أن تحفظ ذكريات زمن ولى. ولكن المسألة أبعد من ذلك، فهى تكتب بشكل ساحر معبرة عن حبها الشديد لذكريات الطفولة تلك، مغرقة القارئ فى مشاعر غير متوقعة من الفرح، والولع، والدهشة، وحتى الحسد.

ولكن كيف تأتى للصبية ملدريد - وهى الخالية من الجمال والمتلئة، وفاقدة الأب، والتى قام على تنشئتها بشظف، فى مزرعة بولاية أيوا خلال فترة الكساد العظيم، أم كئيبة وجدان مثل العسكر فى شدتهما. وكانا يطلقان على أطفال ابنتهما الذين تسبب لهم والدهم بالعار، أوصافا محقرة. كيف تأتى أن يكون لها كل هذا الشغف والاعتزاز بحياتها السابقة؟ أعتقد أن السبب يكمن فى تلك السماوات المفتوحة. فقد عاشت فترة طويلة من طفولتها فى الحقول تحت «السماء الزرقاء العالية» فى ولاية أيوا. وكل ذلك الأوكسجين الأزرق وكل تلك السقوف المعقودة المحلقة فى السماء. كان ذلك مثل خمرة مسكرة. وكذلك تلك الجولات عارية القدمين على «العشب الأخضر الكثيف المدهش الذى يغطى غابات أيوا». كانت تنتشى وهى تتذكر مشهد ورائحة «باقة الزهر الوردية العملاقة» شجرة التفاح البرى التى تزهر كل ربيع. وتؤكد كاليش بأن استنشاق «العطر العذب الذى يشع بدفء الشمس وندى الحشائش من الأجساد النظيفة للمهر والعجل والحمل والكلب الصغير والقطيطة» هى إحدى أعظم «مسرات الوثنى» فى الحياة. فيما بعد من حياتها، أصبحت كاليش أستاذة، وفى حين أن أساس كتاباتها مازال إنجليزيا (مرتبا ومتماسكا) يليق بمدرسة لغة إنجليزية، ولكن إيقاعاتها الوثنية تنز من خلال كل فقرة منضبطة. كتبت تقول «كان هذا عالمنا» ولكن إحساسا يتخلق لدى المرء بأن جاريسون فى ولاية أيوا كان عالمها الحقيقى الذى خبرته برهبة الصوفى. فى الغسق الأرجوانى لحقول ذرة، فى الصباحات الباردة وهى فى طريقها إلى مهماتها الشاقة، فى مشوارها الطويل المنفلت إلى المدرسة، فى ابتذال التهام الشحم المتقطر من اللحم المقدد المقلى، والقشطة الدسمة وثمرات الكرز، كانت حياة كاليش البسيطة تثير غرائزها باستمرار إلى حد الانتشاء. ولكنها كانت أيضا تثير حواسها بطرق أخرى. ومن المشاهد المكررة المبهجة مشهد استحمامها مع شقيقتها - الملطخة بالطين من يوم شاق فى المزرعة. تدعكهما أمهما على الشرفة (بالتصبين من الرأس حتى أصابع القدم)، وبعدها تهرول الصبيتان «عاريتين مثل طير أبى زريق عبر الحديقة الأمامية المغطاة بالحشائش إلى بيت الطاحونة. وبعد أن نصل إلى هناك، كنا نملأ الدلاء بماء بارد منعش نسحبه من المضخة، وتغمر إحدانا جسد الأخرى حتى نشعر بوخز الاهتياج».

وكاليش تعرف بحكمتها أن اللغة هى صلتنا الأخيرة بالماضى، وبدلا من النواح على ما فقدته، تظل مربوطة بعالمها الفتى باستخدام لغته الجذلى، وإن بطلت.

● أحدث كتاب لأليزابث جلبرت هو مذكراتها «كل وصلٌ واعشــق» eat, pray . love

قائمة بأفضل الكتب مبيعا على موقع amazon.com

1. Harry Potter and the Deathly Hallows
(هاري بوتر والتقديس المميت)
Rowling .K.J
Arthur A. Levine Books, 2007, 784 pp., $19.24

2. A Thousand Splendid Suns
(ألف شمس ساطعة)
Khaled Hosseini
Riverhead, 2007, 384 pp., $14.27

3. The Dangerous Book for Boys
(الكتاب الخطير للفتيان)
Conn Iggulden
Collins, 2007, 288 pp., $14.97

4. Deceptively Delicious: Simple Secrets to Get Your Kids Eating Good Food
(لجعل طفلك يتناول طعاماً صحياً)
Jessica SeinfeldCollins, 2007, 208 pp., $14.97

5. God Is Not Great: How Religion Poisons Everything
(كيف يسمم الدين كل شيء)
Christopher Hitchens
Twelve Books, 2007, 307 pp., $14.99

6. Eclipse
(كسوف الشمس)
Stephenie Meyer
Little, Brown Young Readers, 2007, 640 pp., $10.44

7. The Children of Hurin
(أطفال هورين)
Tolkien .R.R.J
Houghton Mifflin, 2007, 320 pp., $15.60

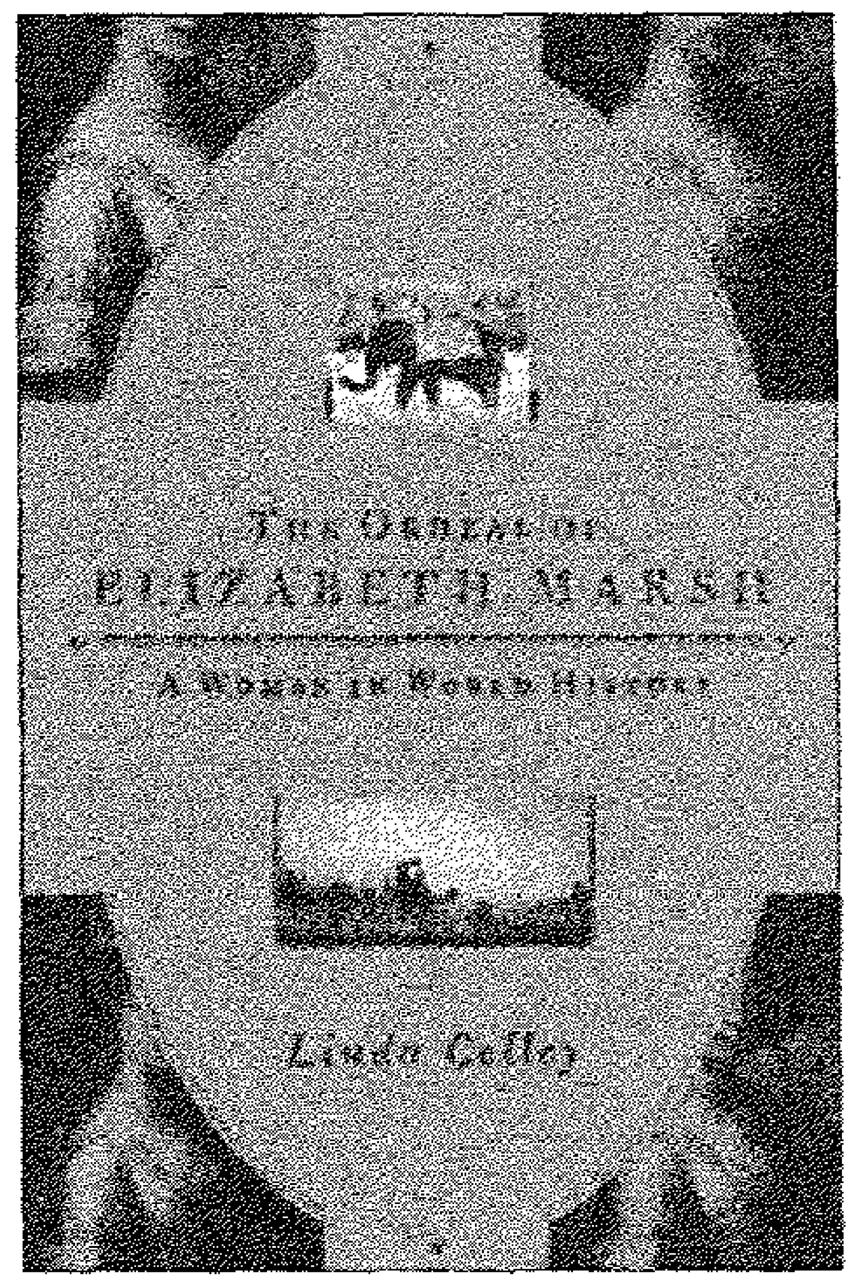
8. A Long Way Gone: Memoirs of a Boy Soldier
(مذكرات صبي جندي)
Ishmael Beah
Farrar, Straus and Giroux, $13.20

9. The 4-Hour Workweek: Escape 9-5, Live Anywhere, and Join the New Rich
(عش وانضم إلى محدثي النعمة)
Timothy Ferriss
Crown, 2007, 320 pp., $11.97

10. The Best Life Diet
(أفضل حمية في الحياة)
Bob Greene
Simon & Schuster, 2007, 304 pp.,$15.60

حياة غير عادية

ميجان مارشال



THE ORDEAL OF ELIZABETH MARSH
A Woman in World History
(محنة اليزابث مارش.. امرأة فى تاريخ العالم)
Linda Colley
Pantheon Books, 363 pp
$27.50

■ معظم كتاب السير يعملون من الداخل للخارج. اليوميات والرسائل الخاصة والحوارات (إذا أمكن) تقدم مادة لوحة شخصية تبث فيها الحياة عبر سرد الأحداث التى أثرت بالشخص موضوع البحث وتأثر بها. ويتاح للقارئ التعرف على صاحب السيرة الذى يستعرض من خلال عينيه أو عينيها تاريخ زمان ومكان محددين. وهكذا فإن كتابة السيرة مع تفضيلها للحياة الداخلية تقف على الضد من السرد التاريخى. وحسب تعبير كاتب السير المحارب القديم كنيث سلفرمان «التاريخ هو مافعله نابليون. سيرة حياته هى معنى التاريخ بالنسبة له» ولكن هل الأمر بهذه البساطة حقا؟

فى كتاب «محنة اليزابث مارش» كتبت لندا كولى سيرة تعارض كل الأفكار الشائعة حول هذا النوع من الأدب، كأن تمر حوالى ٤٠ صفحة قبل أن تقدم لنا الكاتبة كلمة واحدة عن صاحبة السيرة، وهى كاتبة رحلات مغمورة من القرن الثامن عشر، تحتفظ المكتبة البريطانية بنسخة يتيمة من كتابها المطبوع الوحيد. وحتى حين تظهر اليزابث مارش أخيرا على المسرح، تكرر كولى تذكيرنا بقلة معرفتنا حول «حياتها المنسية».

ولدت مارش فى ١٧٣٥ لأب بريطانى يعمل فى صناعة السفن وأم من جامايكا لا يمكن التأكد من هويتها ولكن اسمها يشابه اسم امرأتين تعقبتهما كولى من خلال سجلات الجزيرة، إحداهما كانت على وجه اليقين بدرجة علاقة عبدة وسيدها. هل كانت اليزابث مارش خلاسية النتاج؟ وحيث لم نر لها صورة أو وصفا جسديا: لا يمكن أن نقطع الشك باليقين. حين تركت مارش زوجها لتسافر لمدة ١٨ شهرا فى الهند الشرقية والجنوبية: هل كانت قد انفصلت عن زوجها، أم كانت مارش ببساطة تشبع شهوتها للترحال؟ ليست هناك إشارة لذلك فى يوميات الرحلة، لا رسالة إلى زوج مهجور قد تدلنا على الحقيقة. مرة أخرى لن نعرف أبدا.

ولكن بدلا من الإحباط، ملأت كولى الفراغات بالناس والأماكن التى زارتها مارش والقوى الكونية التى أثرت على قصتها. إحدى النواحى الغامضة الكثيرة فى حكاية مارش هى أن «الاتجاه المستقل الخاطئ» الذى اتبعته فى رحلة الهند الشرقية انتهى فى يوليو ١٧٧٦، فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه المستعمرات الأمريكية التابعة لبريطانيا استقلالها. وقد أدت الثورة الأمريكية التى تصورها كولى بإقناع على أنها «حرب عالمية» تقريبا إلى خسارة زوج مارش لعمله فى دكا البعيدة.

فى مقدمة الكتاب تعكس كولى الأولويات البيوغرافية الاعتيادية فتكتب «هذا الكتاب يرسم عالما فى حياة وحياة فى عالم».

«محنة اليزابث مارش» أداء باهر فى البحث التاريخى الذى يكشف ما تصفه كولى «محنة تقصى سيرة اليزابث مارش» لتسمح للقراء بإحساس المشاركين فى تتبع هذه المرأة الجوالة. تزوج والداها فى جامايكا وولدت فى بورتسموث بإنجلترا، كانت مارش كما وصفتها كولى «فى حركة دائبة معظم حياتها» لقد قضت وقتا طويلا فى نصف دزينة مدن، من لندن إلى مدراس، تتبع نزوات والديها وزوجها وأحيانا نزواتها الخاصة، مما أدى، فى كثير من الأحيان، إلى حظ عاثر وبؤس. وقد قضت ثلاثة شهور رهينة فى المغرب، وكان هذا موضوع مذكرات رحلتها لعام ١٧٦٩ والتى عنونتها «الأسيرة الأنثى» وقد قدمت كولى المعادل التاريخى لخرائط قوقل لكل موقع، مع اشتمالها على تفاصيل مثل عدد وطرز المبانى. السكان حسب الجنس والعرق والاثنية والمهنة، ولمحات عن أحداث مهمة مثل الأمراض المعدية والزلازل والحروب.

تمتاز كولى بموهبة المؤرخ الماهر فى وصف مشاهد المعارك ولكنها تفعل الشىء ذاته وبتفوق فى وصف دخول مارش تحت الحراسة المشددة إلى مراكش، بدون قبعة، راكبة على حمار، يخترق بها «مشاهد من المنائر المتناثرة المضلعة» مارة بحشود هازئة، إلى اجتماعها بسيدى محمد، السلطان البالغ من العمر أكثر من ٣٠ عاما والذى سوف يحتفظ بها رهينة «حتى توافق بريطانيا على إقامة قنصلية حقيقية فى المغرب» تروى لنا كولى أن سبب اضطراب مارش وخوفها، حتى قبل أن يضغط عليها محمد لمرتين أن تنضم إلى حريمه، كانت معرفتها لـ «مسيرة الموسيقى الخشنة» والتى مازالت شائعة فى مدن الريف الأوروبى. حيث يركب الزناة بدون قبعات وسط حشود من «القرويين الغاضبين» كوسيلة إلحاق العار العلنى. إنها واحدة من لحظات كثيرة، تنجح فيها كولى، حين تأتى بالشرق والغرب فى صورة واحدة، فى رسم «العالم» داخل حياة مارش.

هل يمكن لاليزابث مارش وهى فى نظر كولى «شخصية صعلوكية إلى حد لا يصدق» فى نفس الوقت جاهلة ومغامرة، فضولية ومتحيزة. متزعزعة اجتماعيا وأنانية. أن تحمل ثقل العالم على كتفيها؟ كان ذلك بفضل دعم مجموعة من أصدقاء وأفراد العائلة وحتى عشاقها، وقد بحثت كولى حياتهم بنفس المثابرة والاهتمام الواسع اللذين منحتهما لمارش.

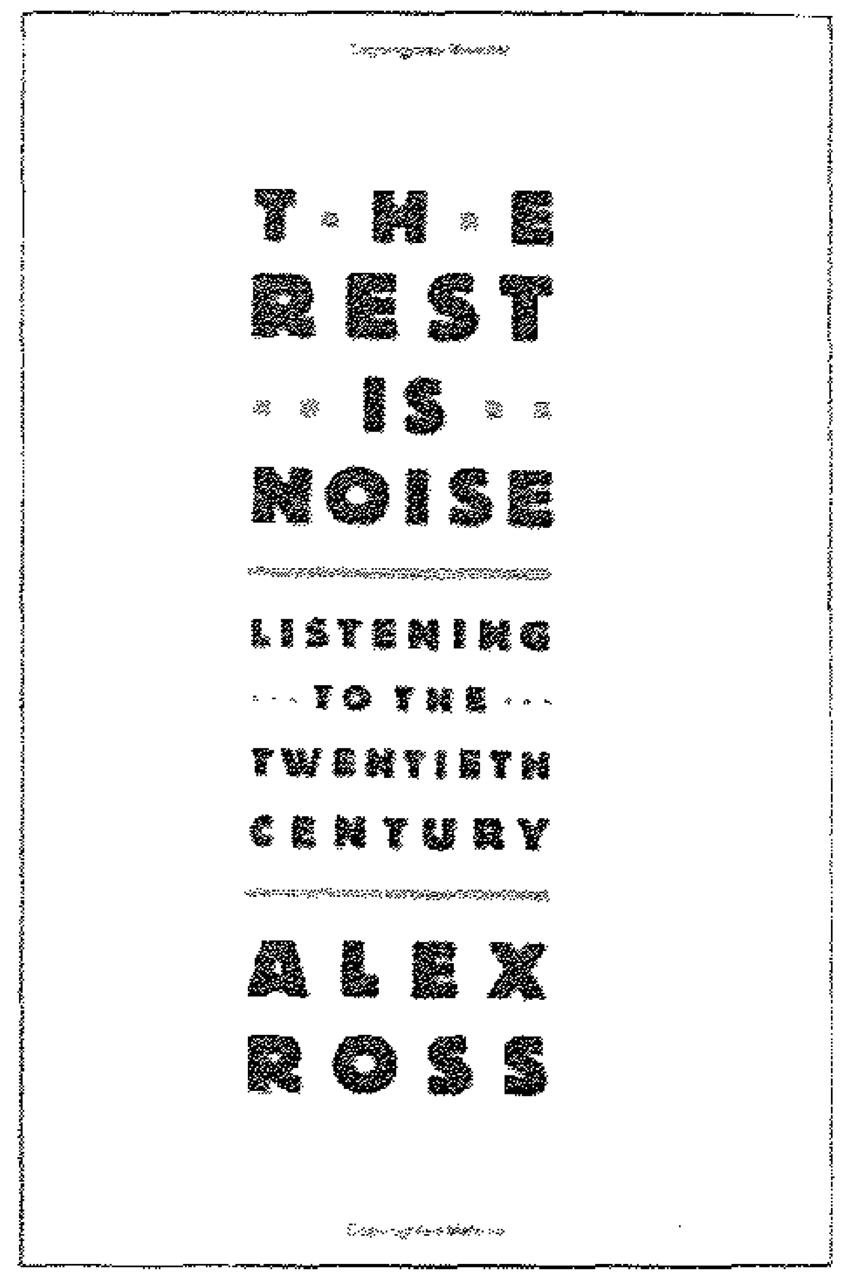
حين فقد زوج مارش عمله كوكيل للملح مع شركة الهند الشرقية فى أبريل ١٧٧٧، لم يكن لدى كولى دليل مباشر على رد فعله. ومن أجل ملء الفراغ، قامت بذكاء بإضافة تعليق مسئول كبير فى الشركة كتبه فى نفس السنة وحفظ فى (أرشيف مكتب الهند فى لندن) ويقول فيه أن أكون بدون وظيفة كاوروبى أبيض فى شبه القارة الهندية كان «محنة مأساوية. مجرد التفكير فيها يدفع الرعشة إلى جسدى.. أن ينحدر الرجل إلى هذا المستوى». إن التفكير فى قدرة كولى على وضع يدها على هذه الوثيقة تدفع بالرعشة إلى جسدى.

من أجل تعقب مارش، سعت كولى إلى قارات أكثر من التى زارتها مارش. فمذكرات مارش حول رحلتها إلى الهند الشرقية ارتحلت هى الأخرى إلى مكتبة كاليفورنيا وتتبعت كولى صلات عائلة مارش إلى إسبانيا وإيطاليا وأمريكا الوسطى والصين ونيوساوث ويلز وجاوا والفلبين. وهى تشيد بفضل الإنترنت فى تقديم شكل جديد من البحث ولكن الشبكة العنكبوتية العالمية جيدة إذا كان الباحث جيدا. مثل أفضل المؤرخين فى أى عصر، طرحت كولى أسئلة جديدة، وإجاباتها قدمت لنا عالما فى كتاب. ■

● ميجان مارشال مؤلفة كتاب «الأخوات بيبودى: ثلاث نساء أضرمن الرومانسية الأمريكية».

مسألة الموسيقى .. معزوفات القرن

جوف داير



THE REST IS NOISE
Listening to the Twentieth Century
(البقية ضوضاء: الاستماع للقرن العشرين)
Alex Ross
Farrar, Strausand giroux

هل الشيء الذي يؤهل امرءا ما لكتابة نقد - كونه نوع القارئ الذي يتوجه إليه الكتاب «خصيصا» - هو ذات الشيء الذي يجرده من أهليته للقيام بذلك؟ لا أتكلم كشخص «ضليع بالموسيقى الكلاسيكية» ولكن كممثل «لأولئك الذين يشعرون بفضول لمعرفة هذا الفردوس المفقود الغامض على أطراف الثقافة». وربما يمكن لأولئك الذين أفضل مني اطلاعا الانقضاض على اليكس روس، الناقد الموسيقى لصحيفة النيويوركر، إذا اختلطت عليه الأمور، أو أخطأ في حركة السلم الموسيقى، أو ما إلى ذلك.

«البقية ضوضاء» عمل واسع الأفق والطموح. الفكرة ليست مجرد القيام بمسح للتأليف الموسيقى الكلاسيكي في القرن العشرين ولكن لقراءة تاريخ ذلك القرن من خلال موسيقاه. نبدأ مع غوستاف ماهلر وريتشارد شتراوس «عمالقة الموسيقى النمساوية - الألمانية» في مدينة غراز، يوم ١٦ مايو ١٩٠٦ . شتراوس كان هناك لقيادة أداء أوبراه (سالومى). فإذا بها ليلة استثنائية - ليس بسبب زعيق ونشاز وولولة الموسيقى ولكن لأن الجمهور، لدهشة ماهلر، أحب كل ذلك.

قد لا تعدو تلك الليلة أن تكون «حدثا واحدا في موسم حافل. ولكن مثل ومضة برق، أضاءت عالما موسيقيا على حافة تغير مؤثر. كان الماضي والمستقبل يتصادمان، كانت ثمة قرون تمضي عبر الليل» يصور بجلاء ويحلل بعمق، واقعة تصلح أيضا نمطا للكتاب برمته. حيث يجد روس، مرارا، حدثا يعبر عن حركة أكبر. شخصا أو مشهدا تتشابك داخله الأهواء والمعاني.

من سترافنسكي إلى سبيليوس إلى شوينبرغ (الذي «تعلم الأشكال الموسيقية بالاشتراك في موسوعة وانتظار أن يصل مجلد حرف (س) قبل أن يؤلف سوناتا») كانت المقطوعات ثقيلة الوزن من الموسيقى الجديدة التي بدأت في البزوغ تؤلف بإيجاز وثقة هما نتاج انغماس ودراسة عميقين.

وعلى أية حال، بعد ١٥٠ صفحة، يبدأ المرء في التخوف من أن (البقية) قد تنحدر إلى سلسلة متصلة من اللمحات القصيرة عن الشخصيات التي اشتهرت بتأليفها ببراعة صحيفة نيويوركر. ولكن لحسن الحظ، ما إن تبدأ الأمور في الارتخاء والانحراف، حتى تهرع الشمولية بعملية إنقاذ. فحين يفحص روس مصير المؤلفين الموسيقيين تحت حكم ستالين وهتلر، يعود الكتاب مرة أخرى لمتابعة هدفه الأعمق.

وفي هذه الأثناء، في ألمانيا ما بعد فاغنر، هل نسمع شيئا ينذر بالخطر في كل هذه «السيمفونيات التيوتونية الهائلة»؟

مع إيمان روس منذ البداية أنه لم يحدث «أن عرض أي مؤلف موسيقى الانهيار الأخلاقي للفن الألماني، بشكل أكثر إيلاما من ريتشارد شتراوس» يبحث روس ببراعة شديدة في عقدة الموسيقار، وعلاقته المتناقضة غالبا مع النظام النازي.

والتركيز الأهم في هذا الكتاب يتلخص في بؤرة فكرة روس: هل تاريخ الموسيقى خاص بذاته، أم هل يمكن استخلاص تاريخ أوسع وخارج الموسيقى منه؟

يوضح لنا روس أن البدائل متضمنة ومتداخلة: «بسبب طبيعة الموسيقى الغامضة» صار من السهل «دمغها بالأيديولوجيات واستخدامها للأغراض السياسية». وباستمرار تكرار ظهور الشخصيات الرئيسية مثل موتيفات في سيمفونية فإن «البقية ضوضاء» باتت مثل توزيع موسيقى باهر. حتى إنه في بعض الأحايين، يبدو التاريخ ذاته وكأنه يميل للعزف بين يدي روس. فمن كان يتصور أن تكون النتيجة «السريالية» لصعود الفاشية، هي أن يجد الكثير من أساطين الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية أمثال شويبرغ وسترافنسكي وراحمانينوف واوتو كليمبرير (ناهيك عن مان وادورنو) - أنفسهم على عتبات بعضهم البعض في لوس أنجيلوس؟

وقد بذل شوينبرغ وسترافنسكي أقصى جهودهما لاعتصار أجور ضخمة من ستوديوهات هوليوود المتعاطفة. وبعد ذلك، أصبح تأليف موسيقى الأفلام أحد أهم الوسائل التي حافظت فيها الموسيقى الأوركسترالية على وضعها الجيد في السوق الثقافية. وفي حين أن أمريكا كانت تنتج نوعين من الموسيقيين: محللين «للموسيقى الصرفة» (وهو التعبير المفضل لدى أهل الجاز) ومؤلفي الموسيقى الشعبية الذين يمكن إطلاق صفة كلاسيكيين عليهم مثل النجتون وجرشوين وبيرنشتاين - ولكن كثيرا من أهم الأفكار الرائدة كانت تنشر عبر الجاز والذي يعتبر غالبا «الموسيقى الكلاسيكية السوداء».

هذا يعني، في سنوات ما بعد الحرب، كان على بؤرة بحث روس أن تتوسع بالضرورة إلى نطاق أكبر. وهكذا كلما اقتربنا من الزمن الحاضر، زاد ما ينبغي إضافته من كمية مادة حتى فقد الكتاب التركيز السابق الذي تحقق عند الحديث عن الموسيقى في منتصف القرن. إن تشظي المركز الموسيقى يعني تناثر القصة، مما يدفعنا بدون مقاومة إلى أطراف الثقافة. وبالتزام الكتاب بذكر الجميع يصبح الكتاب أشبه بموسوعة ترتدي قناعا سرديا. ولا أعرف إذا كان يمكن معالجة الأمر بصورة مختلفة، ولكن قوة الطرد المتولدة من مثل هذا الالتزام الشامل تفقد التركيز فاعليته.

ولكن يظل كتاب «البقية ضوضاء» إنجازا مهما. ومثلما ذكر ريلكه ذات مرة كيف تعلم الوقوف أمام لوحات فنية معينة متسلحا بقدرة على «نظر أوسع». فقد علمنا روس «استماعا أوسع».

● من بين كتب جوف داير العديدة «ولكن جميلة» وأحدث كتبه «الحركة المستمرة».

قائمة أفضل الكتب مبيعا على موقع amazon.co.uk

1. Harry Potter and the Deathly Hallows
(هاري بوتر والتقديس المميت)
Rowling .K.J
Bloomsbury; Children's edition, 2007, 608 pp., L9.99

2. Harry Potter and the Deathly Hallows
(هاري بوتر والتقديس المميت)
Rowling .K.J
Bloomsbury; Adult edition, 2007, 608 pp., L9.92

3. Nigella Express
(وجبات نايجيلا السريعة)
Nigella Lawson
Chatto and Windus, 2007, 400 pp., L12.00

4. The Secret
(السر)
Rhonda Byrne
Simon & Schuster Ltd, 2007, 160 pp., L6.91

5. Half of a Yellow Sun
(نصف شمس صفراء)
Chimamanda Ngozi Adichie
HarperPerennial, 2007, 448 pp., L3.94

6. The God Delusion
(وهم الرب)
Richard Dawkins
Black Swan, 2007, 464 pp., L4.44

7. Gordon Ramsay's Fast Food: Recipes from "The F Word"
(طعام جوردون رامزي السريع: وصفات من «كلمة إف»)
Gordon Ramsay
Quadrille Publishing Ltd, 2007, 256 pp., L7.99

8. Jamie at Home: Cook Your Way to the Good Life
(اطبخ حتى تنال الحياة الصحية)
Jamie Oliver
Michael Joseph Ltd, 2007, 408 pp., L12.50

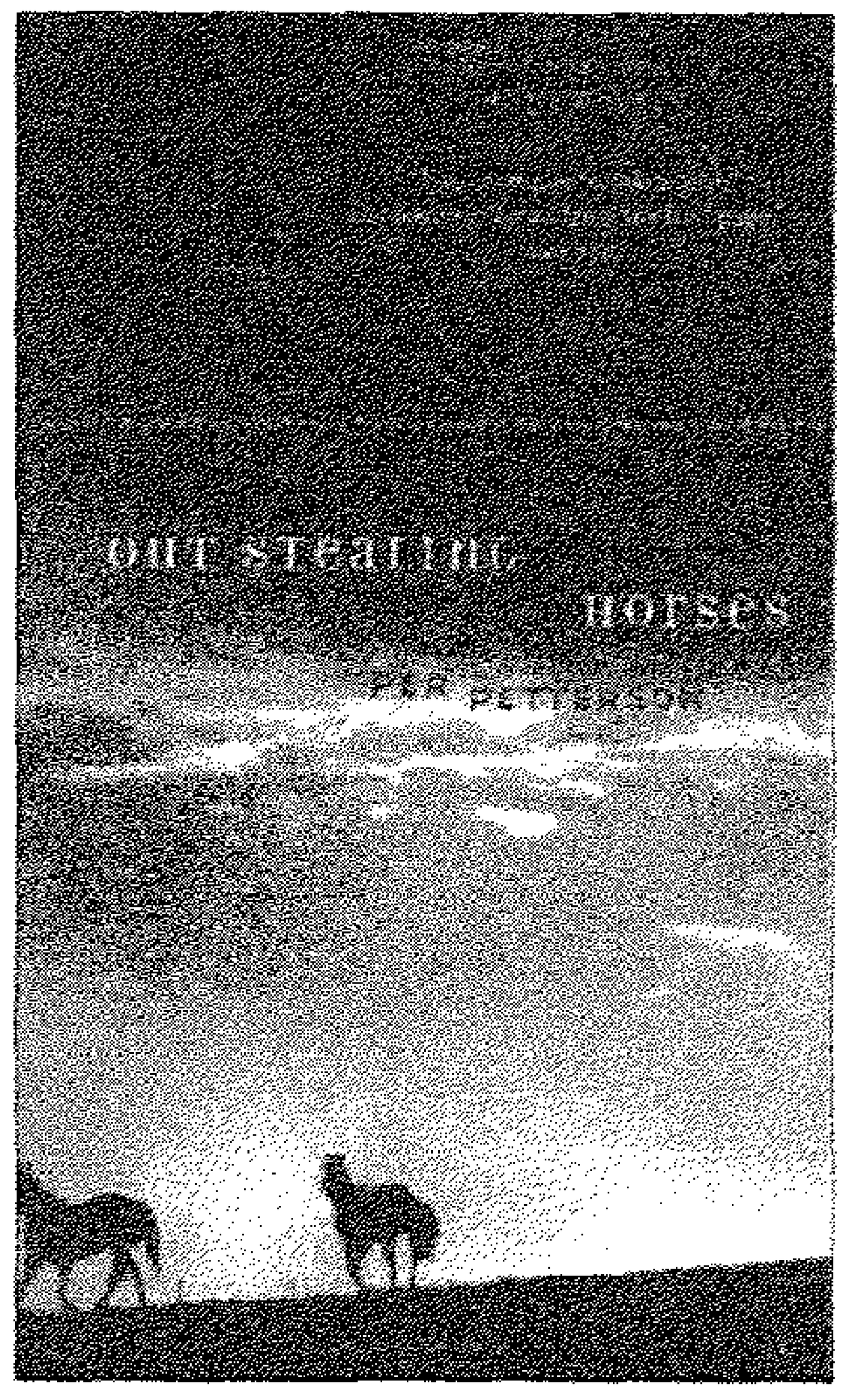
9. Suite Francaise
(الجناح الفرنسي)
Irene Nemirovsky (Author), Sandra Smith (Translator)
Vintage, 2007, 416 pp., L3.94

10. I Can Make You Thin
(أستطيع أن أجعلك نحيفا)
Paul McKenna
Bantam Press, 2007, 144 pp., L6.59

كتب
2007
قائمة نيويورك تايمز

في مكان موحش

توماس ماكجوين



OUT STEALING HORSES
(سرقة الخيول)
Per Petterson
Translated to English: Anne Born
Graywolf Press, 2006. 258 pp., $22.00

نتصور أننا قد شهدنا مثيله: تروند ساندر، مهني يعيش في أوسلو فقد زوجته وأخته مؤخراً. يأمل أن يداوي وحدته عن طريق الغرق في العزلة: بلا أية دراما. ما يود إلا أن يتقاعد ويجيء بعدة تغييرات. لا شك أن الاسكندنافيين يفرقون بين الوحدة والعزلة. بيد أن تروند يلمح إلى القارئ في أحيان ويباغته بالعامية مقترباً من أذنه في أحيان أخرى وهو ينبئه بقصة صريحة واقعية الأسلوب حتى إن القارئ لا بد أن يعيشها حتى النهاية. «لقد حالفني الحظ» يقول عن حياته فيما يعترف بأنه تاق دائماً إلى الوحدة. هل أطلقته وفاة زوجته من عقاله؟ لكنه لا ينبس سوى بـ «لقد فقدت الرغبة في الحديث مع الناس». سوف يتعلم بحق أن يتحدث بمفرده وسط قطار أفكاره حين «يتلاشى الفرق بين الكلام والصمت تلاشياً بطيئاً». يتأمل انتقاله إلى الريف فيصرح قائلاً: «لقد وضعت نفسي في موقف مستحيل». ينام نوماً مضطرباً لأن الماضي يضغط عليه في الصمت فلا يسلم من الانزعاج. تدنو بداية الألفية الثانية لكنه يتوقع ألا تعني شيئاً. وبينما تنتشر الألعاب النارية في أماكن أخرى، سوف يسكر ويستمع إلى بيلي هوليداي من التسجيل. إن تروند أشبه بالأبطال الأمريكيين: فهو لا يقترب من الشخصيات الاسكندنافية بمن فيهم شخصية كنوت هامسون Knut Hamsun «الملازم جلان» أو شخصية «هالدور لاكسنيس» Halldor Laxness «بجارتور» إلا أن جهوده تتطلب طمأنينة وهدوءاً.

وكما هو الحال مع الكثير من العجائز لما ينتهون إلى نقطة لا يدرون فيها ماذا يفعلون، يقحم تروند نفسه في خضم عدة خطط ينهض بها بنفسه غير أن طبيعتها اليومية المبتذلة لا تفلح في إخفاء ما يخالج حياته وذكرياته من غرابة. تضم إحدى ذكرياته «ضجة الجزم المتناغمة شأنها شأن فرقعة السوط» الصادرة عن القوات الألمانية إبان تقدمها باتجاه أوسلو، وهدير الطائرات الألمانية وهي تطير في تشكيلات «من البحر المفتوح ومن ألمانيا» فوق الخلجان لتقترب من أسقف المدينة. بات أخوا أمه التوأمان معروفين بالأخ الذي قتله الجستابو والآخر الذي لم يقتله الجستابو. ثمة توأم آخر قُتل صدفة بظروف مختلفة كل الاختلاف في بداية سلسلة حوادث ضيقت الخناق حول حياة تروند الراشدة بأسرها. إن هذا التأثير وألواناً أخرى من الانعكاسات لجزء من براعة السرد، سرد يتنقل زمنياً إلى الخلف وإلى الأمام بثقة إنشائية وإحكام متناسق حتى إن التتابع لا ينقطع البتة. حتى العنوان «سرقة الخيول» يخدم كإعلان على مزحة يقوم بها مراهقون وكلمة سر تدل على النشاط الخطر للمقاومة. إنها رواية قصيرة إلى حد ما لكنها تمتد زهاء نصف قرن دون أن تخلف على ما يلوح أية حادثة مهمة، إنها معجزة. لا يسعني أن أدرك كيف للمفسرين - في انفعالهم بنتائج الرواية التفكيكية المشحونة - تحليل هذه الرواية. فكما أشار دوستويفسكي Dostoyevsky، «إن معادلة «اثنان واثنان يساويان أربعة» تبدو بالنسبة لي ببساطة إهانة ليس إلا».

ثمة نوع من الثقة الدنيوية تساور سبر تروند لشئونه الراهنة. سبر جاء في أواخر حياته وامتزج بحيرة لا تقبل الراحة. يصرح تروند عن الموت القريب الوشيك بأنه «أمر لا يكترث له قط»، ونحن نصدقه وإن كان تصديقاً لا يخلو من تحفظ: فتأمله الملزم لماضيه يمكن تفسيره على أنه كشف حساب أخير». إن ذلك الجزء من حياتي حين استطعت أن أستغل الأحلام انقضى الآن. لن أحدث أي تغيير بعد الآن.» لكنه يود أن يعلم قبل كل شيء لماذا اختفى أبوه الذي عشقه والذي على ما يبدو بادله العشق - إنها ولا شك فوضى الحرب. لماذا اختفى وجعل تروند يتيماً في حين حمل أمه إلى الانجراف نحو شيء خطير لا يقف عليه حتى الآن. إن كون أبيه رسولاً للمقاومة، ينقل الوثائق ثم أجساد البشر من النرويج المحتلة، يسبغ عظيم الغموض على الهجران. إنها موجة بعيدة من موجات النازية، موجة توحي إيحاء لا فكاك منه بأن الألمان نازيون إلى الأبد. أو على ما جاهر به كونراد صحيح: إن كل البشر نازيون.

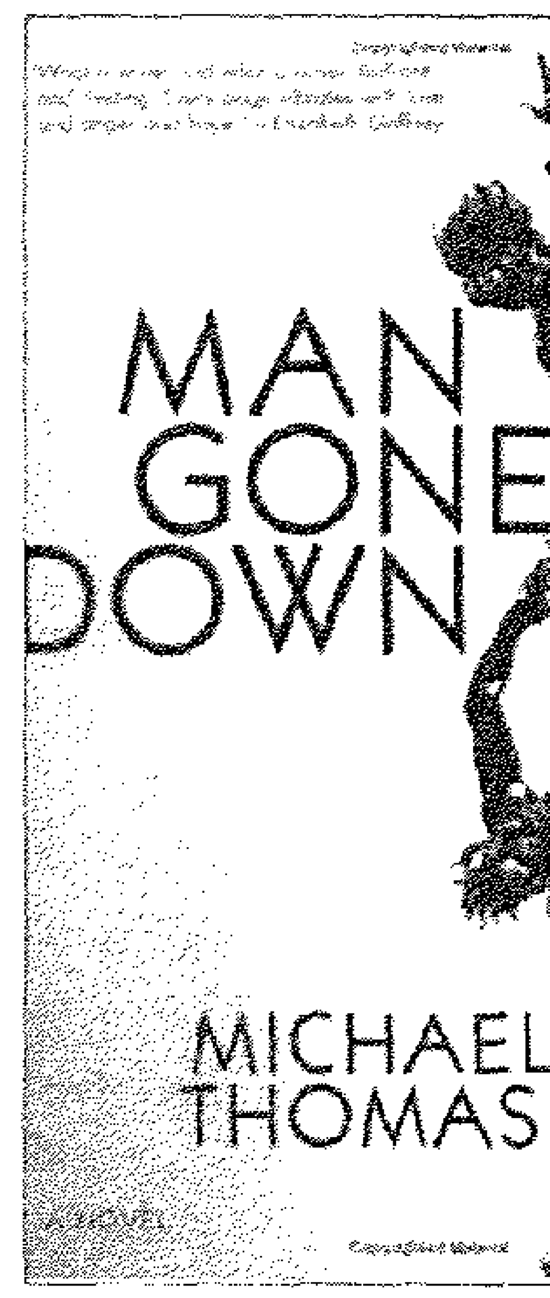
على الجانب الآخر، يقدم المؤلف في البداية «فعلة لا مبرر لها»: حكاية يستحوذ عليها الدمار. يمسك جون، صديق تروند في الصبا، عشاً مثالياً من أعشاش طائر الوصع فلا يند عنه إلا سحقه في التراب ليهشم البيض على الأرض. وبشعر أشعث وسيماء من عنف قلما يجد كبتاً وحباً للصيد لغرض واحد وحيد هو متعة القتل، يعمم جون مشكلة لم تحلها حرية يُحسد عليها وإن شابها الغموض. يتحلى جون بعينين سوداوين لا سبيل إلى سبر غوريهما ووجه أبيض كما الطباشير يستعصي عليه التعبير. يكاد وجهه وعيناه يتحولان إلى أسطورة عندما يقوم بما أتاه من تدنيس: إنه يحتل موقعاً بالقصة باعتباره مصدراً للشر المساوي للألمان في معاطفهم الطويلة: ألمان يحرسون جسر القرية بالدراجات البخارية والرشاشات. إنهما زوجان يتحديان قدرتنا على الاحتمال: ثمة لمحات ناظرة بعين العطف إلى الجنود الألمان بصفتهم شباناً بعيدين عن بيوتهم، يهرعون بغرابة إلى عمليات الاغتيال، في حين تنزع بنا فعلة جون الصغيرة بل العنيفة عنفاً لن يمحى من الذاكرة باتجاه مشهد عالمي شرير يمتنع فيه الغفران.

يشمل الشخصيات الحية والميتة قدر مساو من الجلاء: إنها أعجوبة أخرى صغيرة من أعاجيب رواية «سرقة الخيول». إن ما يداخل مكان تروند من بُعد مجرد من المشاعر يُنتج سكوناً حيوياً يسمح له بالتذكر واستيعاب ما بعث أبيه على الرحيل. وسواء جون مرتاد البحر أو أبو تروند المتيم، يتحلل الذكر الضاري بهدوء فيما تتعرى المعاناة الناتجة عن إهماله أمام القراء. إن هذا الكتاب يستمد الكثير من سوداويته من الظل الطويل للرجال حاملي الأسلحة، ظل لا يقل عن القوة الشهوانية التي تقف عائقاً أمام الترتيبات المتحضرة.

إن ذلك الكتاب القصير الرحب القوي يُذكرنا - في تناقض واضح مع الثرثرة المنمقة للرواية الأمريكية المنتفخة - بالكتابات الدقيقة لجيه. إم. كوتزي ودابليو. جي. سيبولد. كما أن صلة بيترسون بكنوت هامسون - تلك الصلة التي لا ينكرها - بينة في رواية هامسون «فيكتوريا» بل وروايته المرحة «الحالمون». غير أنه لا يوجد ما قد يوحي بأن رواية بيترسون الرائعة استغرقت في مصادرها استغراقاً حال دون أن تصبح سرداً أصيلاً يوسع من تجربة القارئ الحياتية.

تأجيل الحلم الأمريكي

كيما إل. جلوفر



MAN GONE DOWN

(الإطاحة برجل)

Michael Thomas

Grove Press, Black Cat, 2006,

431 pp., $14.00

«سمّه إشميل». عبارة من بين عدة عبارات رمزية تقدمها شخصية رواية مايكل توماس الأولى، «الإطاحة برجل»، كمفتاح لحل لغز هويته. ومع ذلك لا يهم إذا كان هذا هو اسمه الحقيقي أم لا؛ فهذا الرجل لا يتوقع أن يمكث على قيد الحياة حتى انتهاء رحلته كما هو الحال مع بطل ميلفيل Melville المتنور المفتقد لكل سمات البطولة. لطالما علم أنه ضائع تائه في هذا العالم.

إن توماس يهبه قصته ليسردها بصوت الراوي وقد سمح لبطله بما يربو على ٤٠٠ صفحة كي يحكي أحداث أربعة أيام وعمر مشحون بالاضطراب أفضى إليها. إنه رجل أسود تربى في بوسطن ويقطن في بروكلين: يكافح ليكتب فيما يعيل زوجة بيضاء أرستقراطية وثلاثة أطفال. يكاد يخسر راوي توماس كل ما يمتلكه. فهو مفلس تماماً ويقيم بصورة مؤقتة في غرفة ابن أحد أصدقائه. لا بد أن يتوصل إلى ما يزيد على ١٢٠٠٠في غضون أربعة أيام - ما يكفي من نقود لتأجير شقة ودفع مصاريف التعليم لمدرسة أطفاله الخاصة. إن «الإطاحة برجل» تروي قصة هذه المحاولة المستحيلة ومحاولات أخرى لا تقل استحالة.

على الرغم من أن الرواية تسرد في ظاهرها وقائع أربعة أيام تترع باليأس في نيويورك، فهي تمتد إلى ما وراء هذه الحدود الزمانية والمكانية. إذ يحاول الراوي استدعاء ذكريات ماضية تندمج اندماجاً لا انقطاع فيه: فهو يستحضر صدمة طفولته في ثمانينيات القرن الماضي باعتبارها «تجربة اجتماعية» وذلك حين نقلته الحافلة من المدينة إلى ضواحي بوسطن الغنية. يستخدم عندئذ البطل هذه الغزوات الماضية كنقطة انطلاق يسبر من خلالها التواريخ المهشمة لأم اعتادت الإساءة إليه وأب غائب بلا سبيل إلى عودته - إنه أشبه بـ «أذى غير مباشر ناجم عن الشتات». ومن هنالك يتقدم صوب مآسي تاريخه الحديث: إدمان للكحوليات نال من عافيته وانفجارات من العنف خلال أيامه بهارفارد وأحلام مؤجلة إن لم تكن منهارة.

إن أكبر الأسئلة المطروحة في هذه الرواية هي كيفية متابعة الحلم الأمريكي وأحلام أخرى غيرها على حين تعرقلها حقائق العرق عرقلة لا هوادة فيها. كيف للمرء أن يتغلب على لون يسري مباشرة في دماء عائلته؟ يكرر الراوي لازمة لا تبرأ من السخرية استعارها من لورين هانزبيري Lorraine Hansberry، «انظر ماذا جلب العالم الجديد». إن تأثير تلك اللازمة قد يهت ولكن ما انخرط فيه الراوي من تأملات حول ما يسمى بقضية العرق - في تأثيرها على أطفاله لا تنقصه القوة ولا العاطفة. وبعيداً عن الافتتان الأبوي المألوف بجينات الأطفال المتوارثة وملامحهم الجسدية، يقر باهتمامه المتعاظم بأصل ملامح معينة: فابنه الصغير «يشبهه تماماً، عدا أنه «أبيض».

لا شك أن توماس في نقده للمجتمع الأمريكي يتكل على رواية «الرجل الخفي» لكنه يعتمد أيضاً على أعمال إليوت Eliot في جوانب اعترف بها وأخرى لم يعترف بها. ثمة مسحة واضحة من عدمية بروفروك Prufrock: الاغتراب الحاد لروح سامية لا يلائمها انحطاط العالم الأرحب: يأس حصان أعرج مرغم على العدو في سباق لا حد لإنهاكه. يصارع قدراً قضت به جيناته بقدر ما قضت به بلده. إن راوي توماس رجل لا يفارقه الخطر على الإطلاق. تكشف نفسيته المعذبة بحدة أن ما يداخل التسليات الأمريكية كالبيسبول والجولف من براءة ظاهرية قد يتحول إلى ستائر شريرة تخفي وراءها خيبة أمل للمهمشين، وأن الطيبة قد تنقلب سماً لمن تفرض عليهم فرضاً - لدرجة أن رفض الهدايا المقدمة بيد مهملة يغدو وكأنه حفظ للذات من الهلاك. وسواء كانت الرأسمالية مفضية إلى السعادة أم لا، يصر توماس على أن الأغنياء أفضل حالاً من الفقراء - ليس لأنهم يملكون من المتاع ما يفوق الفقراء لكن لأن الحياة قد أعفتهم مما يخامر التسول والسؤال الدائم من إهانة.

يجازف توماس في اختياره لبطل يؤدي دور الراوي. إن كلمة «أنا» تنتمي بالضرورة إلى مذهب الوحدة الذاتية، وكلمة «أنا» هذه توحي بما يبدر منه من مواقف عدائية. له الحق في تكرارها، كما أن له الحق في تحمل عبء ما يبدو بلا رابط أو وازع. لكنه ينخرط أحياناً في رثاء للنفس لا تعوزه العجرفة، رثاء بوسعه أن يقلل ما ينتاب القراء من شفقة تجاه ورطته. إنه الخجلان من البهجة يسير كما المهرج على الحبل ما بين نكران ذات يتلون بالجلال وقدر من الماسوشية - فهو يرفض الطعام المجاني على الرغم من أنه يموت جوعاً. يلقى متعة ما بعدها متعة في رفض متع بسيطة. يستولي عليه فخر غاضب لأن القادرين على معاونته يكنون له كرهاً. ولهذا فإن كلمة «أنا» هذه تجعله أيضاً هشاً كل الهشاشة. إنه بطل - كاتب - في حوار متواصل مع نفسه، يقر بخوفه من الآلة في حين يغذيها. وبينما يبدي في الغالب احتقاراً للعالم العادي الذي يتجاهل قيمته، لا ينفك يضع نفسه في وضعية يصدر فيها هذا العالم الأحكام عليه - مما يعري حقارته وعجزه كأب وزوج وابن وصديق ورجل.

كان من الممكن أن تشغل رواية «الإطاحة برجل» عدد صفحات أقل. ومع ذلك فإن مدى مشروع توماس مذهل كلية والنتيجة النهائية ناجحة نجاحاً مبهراً. ينعم توماس بعين استثنائية تلتقط التفاصيل: أما شعر استطراداته الوصفية فيملأ القلوب إثارة وجموحاً. وباعتباره كاتباً أمريكياً نشأ في بوسطن ويقيم في بروكلين مع زوجته وأطفاله الثلاثة، يلوح أن توماس يعتنق بشدة شعار «اكتب ما تعرف عنه». وما يعرفه هو كيف يتم تقدير احتمالات النجاح سلفاً في أمريكا. يدرك أنه من غير المحتمل لأب أسود أن يحرز فلاحاً مع أولاده. يدرك أن الأوضاع مرتبة لكي يبقى الآخر فقيراً والفقراء في أماكنهم بلا حراك. وقبل كل شيء يدرك كيف أن القليل بمقدوره الإطاحة برجل.

قائمة أفضل الكتب مبيعاً على موقع amazon.fr

1. Harry Potter, tome 7: Harry Potter et les reliques de la mort

(هاري بوتر. الجزء السابع: هاري بوتر والتقديس المميت)

J. K. Rowling

Gallimard jeunesse, 2007, 809 pp., EUR 25,18

2. Un secret

(السر)

Philippe Grimbert

LGF, 2007, 184 pp., EUR 5,23

3. L'élégance du hérisson

(أناقة القنفذ)

Muriel Barbery

Editions Gallimard, 2007, 359 pp., EUR 19.00

4. Cahier de gribouillages pour adultes qui s'ennuient au bureau

Claire Fay

(كراسة شخابيط للكبار)

Editions du Panama, 2007, 50 pp., EUR 7,13

5. Une vie

(حياة)

Simone Veil

Stock, 2007, 395 pp., EUR 21,38

6. Miscellanees Culinaires de Mr. Schott Boris Donné (adapté); Ben Schott (Auteur)

(وصفات طعام)

ALLIA, 2007, 160 pp., EUR 14,25

7. Les Miscellanées de Mr Schott Boris Donné (Adapté), Ben Schott (Auteur)

(مهام مطبخية صغيرة للأستاذ شوت)

Allia, 2007, 158 pp., EUR 14,25

8. XIII Tome 18: La version irlandaise Jean Van Hamme (Auteur), Jean Giraud (Illustrations)

(الجزء الثامن عشر: النسخة الأيرلندية)

Dargaud, 2007, 48 pp., EUR 9,88

9. XIII Tome 19: Le dernier round Jean Van Hamme (Auteur), William Vance (Illustrations)

(الجزء التاسع عشر: الجولة الأخيرة)

Dargaud, 2007, 48 pp., EUR 9,88

10. Le Chirurgien

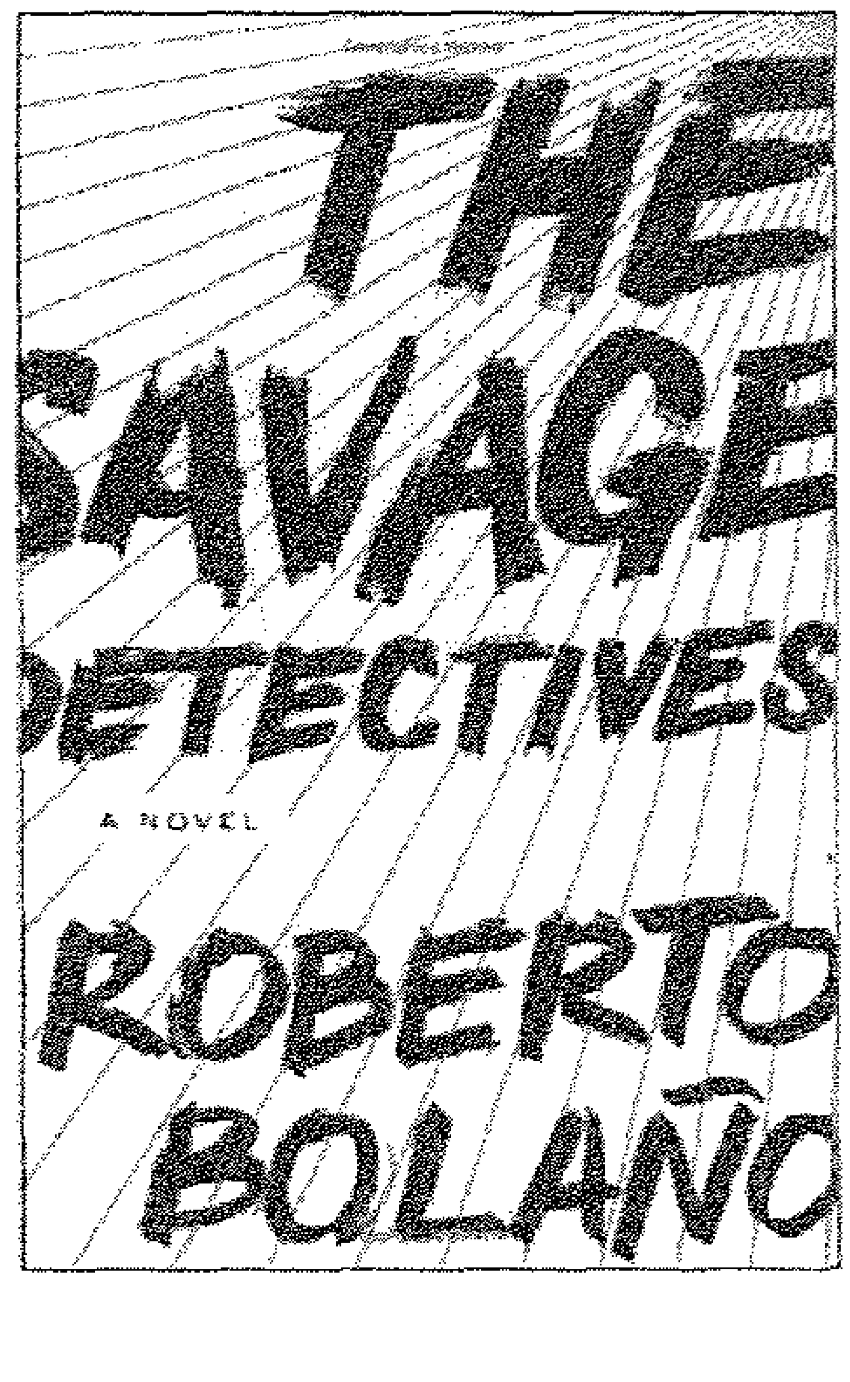
(الجراح)

Tess Gerritsen

Pocket, 2007, 470 pp., EUR 6,65

الواقعى العميق

جيمز وود



THE SAVAGE DETECTIVES
(المخبرون المتوحشون)
Roberto Bolano
Translated to English: Natasha Wimmer
Farrar, Straus & Giroux, 2006.
577 pp., $27.00

لقد انتشرت سمعة روبرتو بولانو انتشاراً سريعاً هادئاً - بين المتحدثين باللغة الإنجليزية على الأقل - خلال السنوات القليلة الماضية. وسوف تضمن رواية «المخبرون المتوحشون» أن تتناهى سمعة بولانو إلى أسماع الجميع. فحتى مؤخراً كان القراء بهذا البلد (الولايات المتحدة) يتناقلون اسم بولانو بقدر من السرية؛ أدين بإدراكى له لصديق أعارنى بكل حماسة نسخة لن أردها مطلقاً من أقصوصة بولانو الرائعة «ليلاً فى شيلى». كان هذا الشيلى الخيالى الغريب غرابة مدهشة واقعياً راسخاً وشاعراً غنائياً فى يوم ما. توفى عام ٢٠٠٣ عن عمر بلغ الخمسين، وقد تم الاعتراف به منذ عدة سنوات فى العالم المتحدث بالأسبانية كواحد من أعظم الكُتاب الحداثيين وأكثرهم تأثيراً. إن هؤلاء من غير المتحدثين بالأسبانية سوف يضطرون إلى الاعتماد على النقل الأمين للترجمة بدءاً من «ليلاً فى شيلى» (٢٠٠٣) وروايتين قصيرتين - «نجم بعيد» (٢٠٠٤) و«التعويذة» (٢٠٠٧) - ومجموعة قصصية تحت عنوان «آخر الأمسيات على الأرض»، كلها من ترجمة كريس أندروز ونشر دار نيو دايريكشنز.

الحق أن اندهاشاً لن يساورك حين تعلم أن روبرتو بولانو كتب الشعر قبل كتابة النثر. حتى فى رواية طويلة كرواية «المخبرون المتوحشون» سوف تجد أن وحدته الأثيرة هى المونولوج المتحفظ الأشبه بكتابات براونينج Browning وليس المشهد المطول. ولد بولانو فى شيلى عام ١٩٥٣ لكنه نضج فى مدينة ميكسيكو سيتى حيث انتقلت أسرته عام ١٩٦٨ . عاد إلى شيلى عام ١٩٧٣ كى يدعم الثورة الاشتراكية كما رآها هو فتم القبض عليه لفترة وجيزة فى انقلاب بينوشه. رجع إلى المكسيك حيث نشر ديوانين للشعر ثم كابد فترة طويلة من الاغتراب والترحال والمخدرات ووظائف شديدة الغرابة فى فرنسا وأسبانيا. وافته المنية ببرشلونة من جراء قصور فى الكبد: فكان كالكمان النائى وسط آلات البالالايكة (على حد قول نابوكوف Nabokov عن أحد الكتاب المنفيين). كان يعلم أن أجله قريب: فثمة المزيد من الأقاصيص فى الطريق ورواية ضخمة «٢٦٦٦» ستظهر باللغة الإنجليزية فى العام القادم. إن الأدب الذى يُترجم فى الوقت الحاضر كُتب فى فورة من الإبداع أثناء سنوات عمره الأخيرة.

نُشرت «المخبرون المتوحشون» عام ١٩٩٨ غير أن روحها تنتمى إلى مدينة ميكسيكو سيتى فى منتصف العقد الثامن من القرن العشرين حين كان بولانو شاعراً طليعياً يزخر عقله بجداول أعمال مجنونة. وكما هو الحال مع الكثير من أعماله، تلوح الرواية سيرة ذاتية مدهشة لحياته. يروى الراوى الجزء الأول منها فى صورة مذكرات كتبها خوان جارسيا ماديروا، شاعر فى السابعة عشرة يسعى إلى بلوغ غاياته الشهوانية والشعرية. سئل خوان عن الانضمام إلى جماعة أدبية أطلقت على نفسها اسم «الواقعيون». يقود الجماعة شاعران فى ريعان الشباب: أرتورو بيلانو ويوليسيز ليما، اثنان لا ينقصهما الجموح يظهران فى حكاوى أخرى من كتابات بولانو (فى «التعويذة» على سبيل المثال). تعتمد شخصية ليما على أحد أصدقاء بولانو، ألا وهو ماريو سانتياجو، فيما تستند شخصية بيلانو إلى ... بولانو.

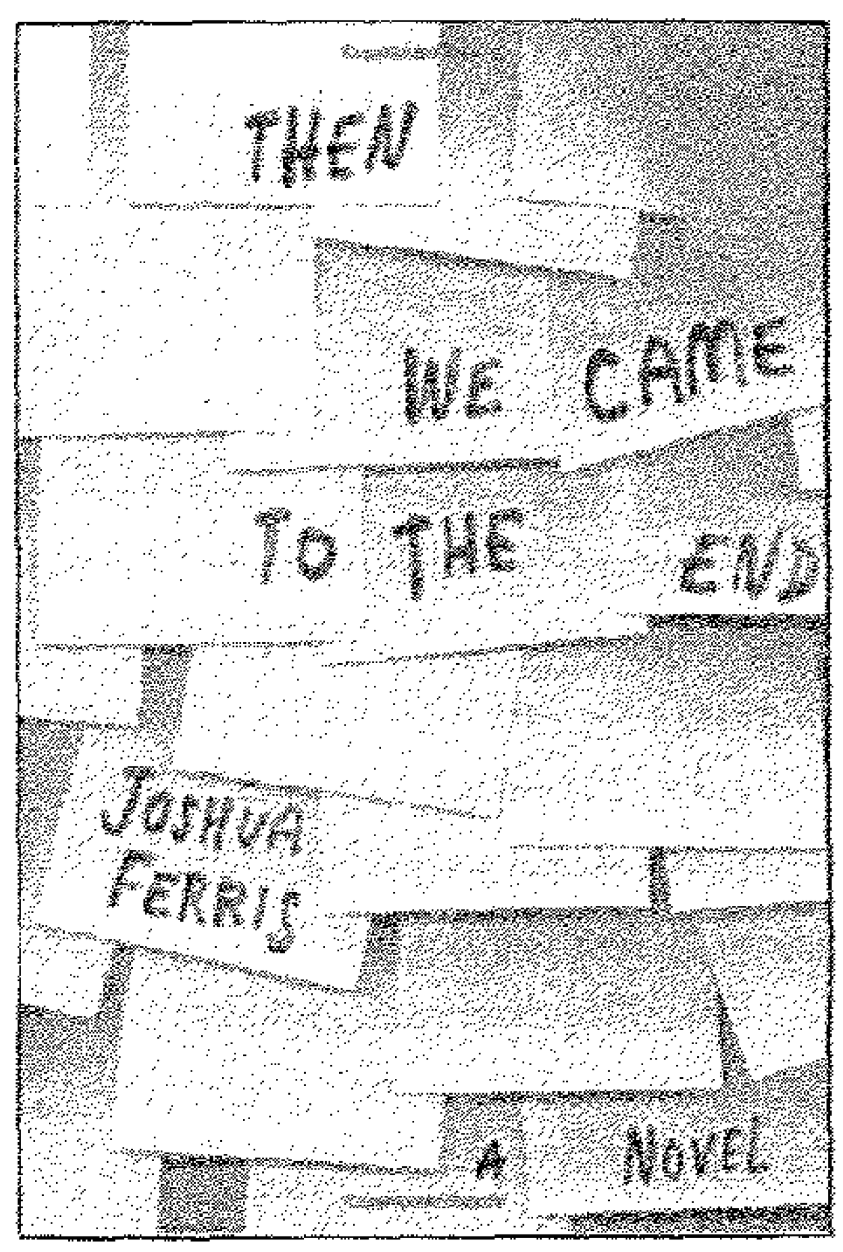
إنها رواية لا تتمحور سوى حول الشعر والشعراء، أحدهم ما هو إلا نسخة متوارية من المؤلف ذاته: كان من الممكن أن تنزلق تلك الرواية بسهولة لتصير نافذة متكلفة تطل على نرجسية لعوب ومغامرات «أدبية» تستعصى على الاحتمال!! بيد أن بولانو ينجو من الخطر ليسرع بعيداً عنه فى طرب. يستمتع القارئ أيما استمتاع بتلك الرواية (وإن تفيض فى النهاية بمشاعر الفجيعة) لأن بولانو على الرغم من كل ألاعيبه ينعم بحساسية دنيوية لا تعدم الواقعية. تتراءى أجواؤه فى خيالاتها راسخة الأقدام إلا أن نبرته مبتهجة عامية لا تغرق فى المصطلحات الأدبية على ما فى ذلك من عظيم الدهشة. وهنا نستحضر رواية أندريه جيد André Gide «المزيفون» أو بالأحرى أحد أعمال ستيندال Stendhal الذى امتهنت شخصياته مهنة الكتابة (كثيراً ما يستشهد بولانو بستيندال). إنه يضع أعيننا هناك، فى ميكسيكو سيتى، ويذكرنا بالإثارة والملل، الادعاء الأدبى والجهل، الطموح الشهوانى والقلق الملازم لكاتب شاب أو قارئ يرافق أصدقاء يتسلحون بنفس الأفكار والاهتمامات. بوسع كاتب المفكرات اليافع أن يخط أحداثاً قد تجعل القارئ - على الأقل - يجفل فى تسليم موجع. «تتولانى الكآبة طيلة النهار غير أنى أكتب وأقرأ شأنى شأن المحرك البخارى». أو: «ثم أطالع ويليام بوروز حتى بزوغ الفجر». أو: «لم يقع شىء اليوم. ولو حدث وطرأ شىء، أفضل ألا أنبس عنه بكلمة لأنى لم أفهمه». وبكل فخر وعبثية صنَّف واحد من أصدقائه - شاعر شاذ جنسياً - صنوف الأدب إلى: المستقيم جنسياً والشاذ جنسياً والثنائى الجنس: «الروايات بوجه عام مستقيمة جنسياً بينما الشعر شاذ تمام الشذوذ: أخال أن القصص القصيرة ثنائية الجنس على الرغم من أنه لم يصرح بذلك!» أعلن نفس الشاعر أن الشعر يكفيه فى الوقت الحالى «وإن من المحتوم أن أساق عاجلاً أو آجلاً إلى سوقية كتابة القصص».

نتوغل فى الرواية مسافة ١٢٠ صفحة ثم ما ندرى إلا وصيغة الكتاب تتبدل. إذ تصور ٤٠٠ صفحة تالية حوارات على لسان الراوى تضم عدداً لا حصر له من شهود ليما وبيلانو وأصدقائهما وأحبابهما ومعارفهما وأعدائهما. إنهم أناس تقاطعت حيواتهم، وإن على نحو وجيز، مع «الواقعيين» منذ عام ١٩٧٦ وحتى عام ١٩٩٦. وكأن الروائى تناول تسجيلاً وطاف به عبر أنحاء العالم، من مكسيكيو سيتى إلى سان دييجو وبرشلونة وتل أبيب. طاف وقلبه تراوده اللهفة على اكتشاف ما جرى لشاعرين شابين يرين عليهما التفاؤل وإن شاب مصيرهما الآن الهلاك. إلى أين ذهبا بعد صحراء سونورا؟ ماذا امتهنا؟ ماذا كتبا؟ ماذا حل بكل ذلك الطموح؟ يبدأ الظلام يخيم على الرواية الصفحة تلو الأخرى. جاهر محرر التقى بليما وبيلانو قبيل توجههما إلى الصحراء بأنهما «كانا حاضرين وغائبين فى نفس الوقت»، فتُقلد الرواية بأسلوب دقيق الحضور الحاد ثم الغياب القاطع.

ثمة صديق ليوليسيز ليما يفضى بأن أهمية حياتى الشاعرين لا تتصل بحال بالواقعية العميقة: «إنها ترتبط بالحياة، بما نفقده دون أن نعى وما نقدر على استرجاعه». يواصل قائلاً إن ما فقدناه يمكن استعادته. «بمقدورنا استرجاعه دون نقصان». هل نستطيع؟ تمضى عدة دقائق عقب إلقاء تلك الحكمة ثم يفارق هذا الرجل الحياة بفعل حادثة سيارة. حوت نهاية الرواية مقابلة مع أكاديمى مكسيكى باح بأن أحداً لم يعد يتذكر الواقعيين. فالكثير منهم موتى. ينهى إلينا بأن ليما يعيش فى ميكسيكو سيتى. «أما أرتورو بيلانو فلا أفقه عنه شيئاً». هكذا تختم الرواية أخيراً نبضاتها العابثة ما بعد الحداثية. إن حياة أرتورو بيلانو - ذات روبرتو بولانو الثانية - تظلل حياة بولانو (حارس ليلى وغاسل صحون، حياة فى باريس وبرشلونة... إلخ). يختفى أرتورو بيلانو من القصة كى يعاود بالتأكيد الظهور بوصفه رجلاً على استعداد لأن «يساق إلى سوقية كتابة القصص» رجلاً كتب كالمنتصر هذه الرواية الرائعة الحزينة. كأنه بالفعل حاضر وغائب فى نفس الوقت.

اكتئاب المهن المكتبية

جيمز بونيووزيك



THEN WE CAME TO THE END
(ثم بلغنا النهاية)
Joshua Ferris
Little, Brown & Company, 2006.
387 pp., $23.99

■ إنه لمؤلف شجاع من يطمر أسباب كتابة روايته فى غضون الرواية نفسها. بعد ٧٠ صفحة من رواية جوشوا فيريس الأولى - التى تدور بأحد المكاتب المهنية - نلتقى بهانك نيرى. يعمل نيرى كاتب إعلانات فيما يخط أولى رواياته التى تجرى بأحد المكاتب المهنية. أصاب فيريس فاضفى شيئاً من السخافة على مشروع نيرى الجاد. يصف نيرى كتابه بأنه «صغير الحجم غاضب اللهجة». يقترح زملاؤه بلباقة موضوعات تفوق موضوعه تشويقاً، فيرفضها. «إن قضاءنا معظم حياتنا فى العمل مسألة مثيرة لاهتمامى»، أفضى إليهم، «كتاب صغير الحجم غاضب اللهجة عن العمل»، يتفكر زملاؤه. «سوف يتمتع القراء على الشاطئ».

لكن يتضح فى النهاية أن رواية «ثم بلغنا النهاية» ليست صغيرة ولا غاضبة بل منفتحة تحفل بالمرح ولا تنقصها الفكاهة اللاذعة. تقع أحداثها فى بداية القرن الحالى عندما كان انفجار شركات الإنترنت يحصد ضحاياه فى أروقة تصطف بها أنوار الفلورسنت بشركات شيكاغو الإعلانية. يهرب العملاء هرباً وتنضب المشاريع وتتخلص الإدارة من الموارد البشرية من قائمة الاتحادات المشتركة. يأتى تسريح الموظفين على مراحل لكن بدون إنذار، وتماشياً مع التطبيق القانونى الوحشى الفاضح يرحل الموظفون بدون أية تبريرات تجاهر بأسباب تسريحهم.

وفى وسط هذه الأزمة تتلقى الوكالة مهمة خيرية من عميل يلفه الغموض، جماعة للتوعية بمرض سرطان الثدى لم يجدوا لها آثراً على الإنترنت أو أى مكان آخر. طلبت طلباً صعباً كل الصعوبة: تروم الجماعة إعلاناً سوف يحمل مكابدات مرضى سرطان الثدى على الضحك على مرضهن. (تستحيل المهمة مشحونة بالتوتر والشكوك عندما تسرى إشاعة بأن لين ميسون، مشرفة الموظفين الرئيسية متحفظة الطباع، أبتليت بسرطان الثدى.) ترتفع شكاوى الموظفين من الحملة الإعلانية وكذا سخرياتهم بيد أنهم يعملون بهمم يائسة على أمل أن يصير أحدهم هو القائم على إتمامها بسهولة ويسر. «ندت عنا جميعاً نفس الدعوة: يا رب أكون أنا».

أما عن كلمة «عنا»: فإن فيريس يكتب الرواية على لسان عدة أشخاص: إذ يشكل موظفو الوكالة المضطربون الثرثارون القلقون راوياً واحداً جمعياً. كثيراً ما جعل ذلك الأسلوب الغريب من رواية جيفرى يوجينايدس Jeffrey Eugenides «عمليات انتحار عذرية» مخدرة للحواس بعيدة عن الأذهان.

غير أن الصوت الجمعى يتماشى تماماً مع موظفى الشركات الكبرى: فهم يتدربون على العمل فى وحدات متعاونة ويشحذون تفكيرهم الجماعى فى ملايين الاجتماعات. إن تأثير ذلك الأسلوب يبث الرجفة فى القلوب عندما يبدأ تسريح العاملين وتضعف بحق سلطة الراوى الجمعى.

يدس فيريس أيضاً عدداً لا بأس به من الرواة المتفردين. وهنا يلفى القارئ أن الرواية منقولة بالأساس من خلال قصص متفرقة عشوائية - فرجال فيريس العاملين بالإعلانات لا يمسكون عن الكلام بدءاً من حديثهم عن الأعصاب والضجر حتى التدريبات المهنية - وعن طريقهم ننصرف «نحن» إلى الأصوات المفردة. ها هى كارين وو، مديرة القسم الفنى، مصدر القيل والقال بالمكتب وينبوع الذكاء الخادع. تعمل فى حملة لترويج ماركة كعك تراعى المقتضيات الصحية، لذا تردف متباهية أن الكعك لا يحتوى على مادة «حمض اللاستيف» مادة خطرة لا وجود لها على الإطلاق. («كنت أحاول أن أبدع وأبتكر» فسرت تصرفها) وها هو كريس يوب، كاتب إعلانات عجوز لا يسلم من اليأس. يتسلل إلى المكتب ليشتغل فى مشروع سرطان الثدى حتى بعد فصله من وظيفته. وجوى يوب، البديل للين ميسون. «نحن» نبغضه لما يبديه من تباعد دال على كراهيته للمجتمع. وهناك العاجزة العزباء الحامل كاثوليكية الديانة: حبيبها المتزوج يدعو الرب أن تجهض نفسها ويرنو إليها بعين الاحتقار؛ والأم الثكلى يخالجها الأسى كل يوم لمرأى إعلان عن «فتاة مفقودة» يشير إلى ابنتها: لم يمر به صاحب لوحة الإعلانات حتى يزيله عقب شهور من العثور على الفتاة الصغيرة مقتولة.

وفوق كل شىء، يتمتع فيريس بحاسة سادسة تجاه جنون الارتياب. يتلهف مهنيو المعلومات إلى المعلومات، وحينما يحرمون منها - من سيرحل، كم عددهم وما هو السبب - ينسجون نظريات وهمية ويتخذون أوثاناً لا تفتقر إلى الغرابة. إذ يكتشف الموظفون أن منسق المكتب يعرف حق المعرفة أى قطع الأثاث تنتمى إلى أى المكاتب. فيدب الخوف فى قلوبهم أن تتسبب كراسيهم فى طردهم - تلك التى التقطوها خلسة من أقران مفصولين ذوى أثاث أفضل فى سلسلة معقدة من التغييرات حتى إن أحداً لم يعد يتذكر مصادر الكراسى. يغدو هنا الكرسى رمزاً لكل ما هو مكروه فى العمل ومرغوب فيه. إنه سجن ورمز للمكانة، تذكرة بأن «مكاتبهم» ليست بحق ملكهم، ووسيلة لممارسة طغيان ثانوى، مكافأة، عرش، حافظ للحياة.

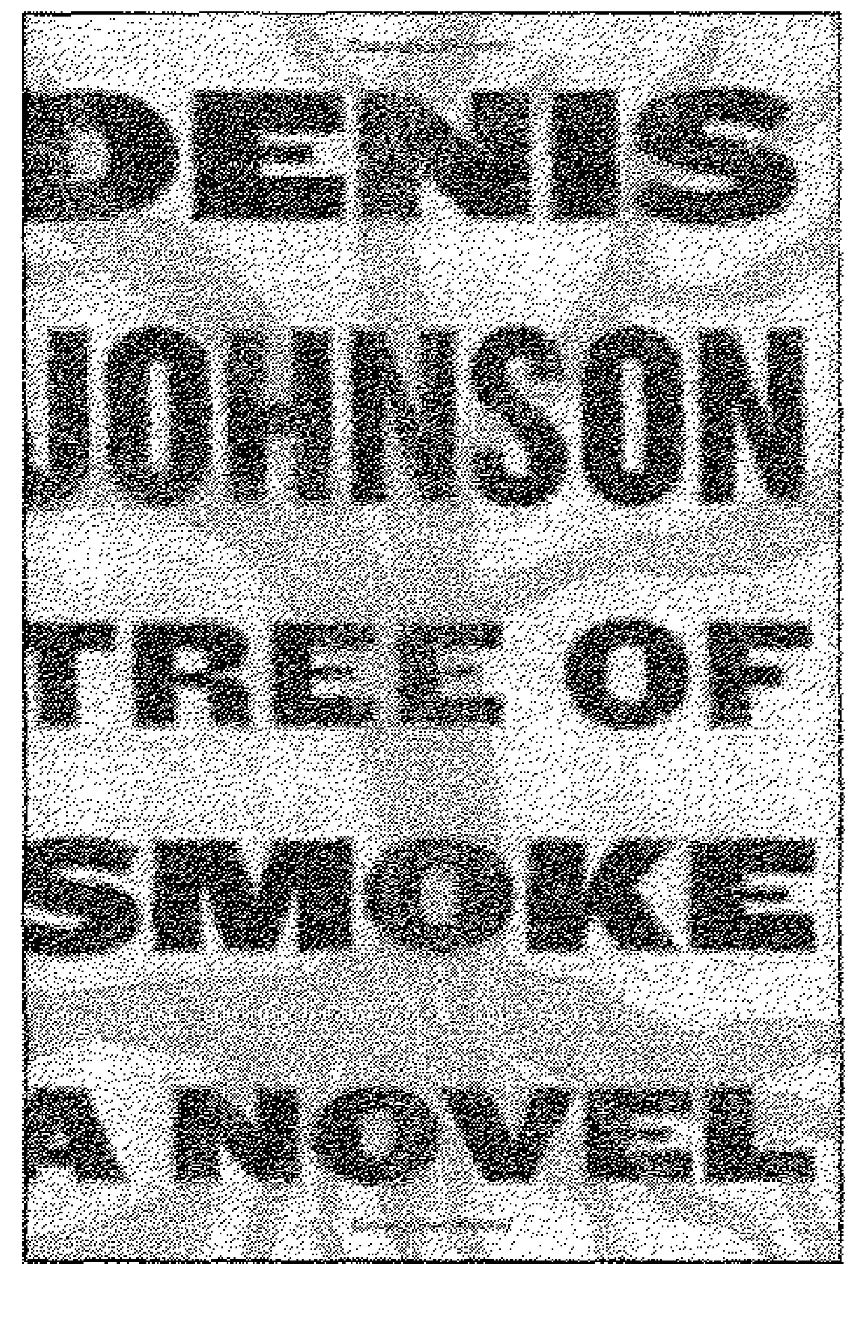
لا تحمل الخطوط الأساسية لرواية «ثم بلغنا النهاية» كثيراً من المفاجآت. فهى عذر لاختراق ما ينطوى عليه اليوم من أفراح حقيقية. أفراح تتسرب من ملاحظات فيريس التافهة: جاذبية الفوز بالكعك المجانى. حزن لا متناه يساور بيضة مقلية يأكلها أحدهم على مكتبه. وهناك فقدان ذاكرة وقائى يباعد ما بين وقت تقول به الساعة ومجموعة ساعات العمل التى نطلق عليها «حياتنا»: «لا يسعنا أغلب الوقت أن نتذكر ما وقع منذ ثلاث ساعات. إن ذاكرتنا فى ذلك المكان لا تختلف عن ذاكرة سمكة ذهبية. سمكة ذهبية تقطع رحلتها كل ليلة داخل كيس صغير شفاف من الماء ثم تعود إلى الحوض فى الصباح».

ومع ذلك لن تعثر برواية فيريس على ما تتوقعه من هجاء. فبدءاً من رواية «الرجل ذو البذلة الصوفية الرمادية» إلى الرسوم الهزلية «ديلبيرت» قام الموقف الأساسى للقصة الأمريكية عن عالم الأعمال مقام السخرية ولا سيما هدف فى مثل سهولة عالم الإعلانات. إن المهن المكتبية مؤذية لا تهدف إلا لقتل الروح. ولا مراء أن فيريس يكشف النقاب عن وجهة النظر تلك فى تصويره لتوم موتا، موظف مكتبى مطلق تنطق نفسه بالمرارة، يولع بالأسلحة وإيمرسون ويبعث عدة رسائل إلكترونية بليغة حول كيفية تعارض حياة المكتب التى تتطلب جلوساً طويلاً مع طبيعة البشر. (وهنا مجدداً، يتحلى فيريس بذكاء كاف فيطبع لومه وتقريعه المقنع على لسان شخصية يركبها جنون محفوف بالخطر).

إنها مشاعر سخيفة لا حد لسخافتها، تتعارض مع كل الحقائق البديهية المحرضة على الاستمتاع باليوم الحاضر - من مات متمنياً العمل ساعات أطول؟ تلك فكرة مفهومة لكل الأذهان، يتلقاها العقل فى صور معبرة جميلة. لكن حتى بعد متابعة المسيرة وإعادة بناء حيواتهم، يشتاق الموظفون الخارجون من شركة فيريس المجردة من الاسم إليها، إلى الكدح والحنق وساعات أمضوها مع «هذا الشخص أو ذاك الذى بث فى ملائكة السماء غضباً وإزعاجاً وإهانة». وعندما يبلغ القارئ نهاية هذا المشهد وتلك الرواية الممتعة السوداء، سوف يتمكن من التعاطف مع شخصياتها. البادى أن رواية «ثم بلغنا النهاية» سوف تغدو رواية ممتعة تليق بالشاطئ، وبخاصة لو كنت لا تزال تحتفظ بوظيفة تحصل منها على إجازة. ■

الكاشف

جيم لويس



TREE OF SMOKE
(شجرة من الدخان)
Denis Johnson
Farrar, Straus & Giroux, 2006, 614 pp., $27.00

صباح الخير، استمع إلىّ من فضلك: دينيس جونسون فنان أمريكي حقيقي، وروايته «شجرة من الدخان» كتاب بحق هائل، متعة ترين عليها الغرابة، كتاب طويل للغاية وإن تتسارع مجرياته بسرعة هائلة، فهو أشبه بركوبة ملاه لا تنفك عن الدوران. يبدأ بنبرة حزينة ليتطور إلى حزن ما بعده حزن، يدور بلا توقع في كل اتجاه ثم يتمايل بغتة ليسقط في النهاية سقطة تنزل بمعدلك اضطراباً. تجابه الرواية القارئ بدرع الروايات العظمى وعتادها: موضوع تاريخي كبير (فيتنام) ومؤسسة معرفية كما الأسطورة (الاستخبارات العسكرية) وفترة زمنية طويلة (١٩٦٣-٧٠، مع مقطع ختامي يدور في ١٩٨٣) وطول يتعذر على العقل (٦١٤ صفحة). ربما أخمدت كل هذه العوامل رغبة القارئ لو لم تكن الرواية بالفعل عظيمة ولو لم تكن «ابن يسوع» (١٩٩٢)، تلك المجموعة القصصية العجيبة الباعثة على الإدمان، هي كتاب جونسون الأخير. إن «شجرة من الدخان» لكتاب مفعم بالعاطفة بل والقدسية (أهداه مؤلفه إلى «مرة أخرى إلى ق.ع.ع»، أراهن بعمري أنه إهداء إلى «القوى العظمى»). ينبغي لهذا الكتاب أن يضمن مكانة جونسون ككاشف لهذا القرن الجديد - توقع أعلنه بثقة إنما بعزوف، وبشيء من الإحباط والفزع.

أعلنه بعزوف لأن جونسون يتراءى دوماً شخصية محيرة، هو واحد من آخر الأساتذة الهامشيين. لا ينعزل عن العالم لكنه أيضاً لا يواجهه محملاً بالغرور. لم يسبق لي قط أن قرأت له حوارا (رغم أني لم أنقب ملياً) أو أبصرت صورة له ليست على غلاف أحد كتبه. والأهم أن الكتب نفسها - ست روايات ومجموعة قصصية وأخرى مسرحية وثلاثة مجلدات ومجموعة مقالات صحفية - غالباً ما تبرز على نحو عفوي من شقوق سرية تتقاطع مع الحياة والثقافة الأمريكية: زنزانات السجون، الأحياء الرديئة، مواقف الحافلات، منازل خشبية رخيصة تقبع في الحقول وراء آخر عامود كهربائي. تطفح كتاباته بأرواح محرومة في مواقف رهيبة، رحالة سيئي الحظ في سبيلهم إلى كارثة تالية. لكن على العكس من أغلب كتب المنبوذين، نجدها أصيلة مبتكرة (يا لغرابة استخدام تلك الكلمة في هذه الأيام لكنها تنطبق عليها). ليست مبتكرة فحسب بل وجميلة كما النشوة - تسلب الألباب وتوجع القلوب: في مثل بؤس ديستوفسكي وتوقد عاطفة إدجار آلان بو ورعبه.

يشوب موقف جونسون إذن مثالية كاتب اليوم: احترام جم من زملائه وأقرانه، دعم طفيف من المؤسسات، مجموعة أتباع ضخمة خلفته مع ذلك خارج الأضواء على نحو غامض. سوف نلفي رواية «شجرة من الدخان» كتاباً لا يستهان به، لا يقل عن التحفة الأدبية: فهو نتاج كاتب استثنائي في أوج مسيرته المهنية. لكنني لا أملك إلا أن أتمنى ألا يمد الكتاب يد التغيير إلى منزلته. فلا حاجة لنا إلى المزيد من الروائيين-المؤدين أو الروائيين-الخبراء أو الروائيين-النرجسيين بيد أننا في حاجة ماسة إلى روائيين بإمكانهم الإبداع على هذا المستوى.

أما عن هذه الرواية تحديداً، فهي مغايرة لما قد تتوقعه بديهة القارئ. إذ تحكي مثلاً عن حرب فيتنام، ومن كان ليظن أننا في حاجة إلى كتاب آخر عن ذلك الإخفاق المروع؟ كما أن أحد أبطالها هو بيل هيوستون، رجل تصدر رواية جونسون الأولى «ملائكة» (١٩٨٣) وانتهى نهاية بائسة. إن قراءة تاريخه الأول في البحرية تجربة مزعجة لمن قرأ الكتاب الأول وإن كانت لا تعني شيئاً لمن لم يقرءوه.

الأغرب من ذلك أن القارئ لا يشعر بأن «شجرة من الدخان» رواية من روايات دينيس جونسون، ليس في مستهلها على الأقل. يمتلك جونسون ولعاً بالصيغ النبوئية وغالباً ما يطرح أساليبه البلاغية في إطار لا يحظى به معظم الكتّاب المعاصرين. إنه أسلوبه الطبيعي في الخطاب غير أنه أحياناً ما يتراءى منهكاً للأعصاب. تبدأ إحدى رواياته السابقة «ميت بالفعل» (١٩٩٧)، بنبرة جامحة ثم يختمها بعد ٤٣٥ صفحة في حال من التشوش. تتلون «شجرة من الدخان» بالمزيد من المكر: إذ تبدأ كأي رواية ممتازة كتبها مؤلف آخر وبحلول الوقت الذي تدرك فيه ما تتطلبه من صبر وجهد، يكون الأوان قد فات.

تبدأ مثل تلك الجمل في المرور بعجلة أمام عيني القارئ: «ليس لديها في هذا العالم سوى يديها وحبها المجنون ليسوع، يسوع الذي من جانبه لم يسمع عنها قط من قبل». يا لها من جمل! إلا أن صفحات الكتاب تتوالى. يظهر جنديان نال منهما السكر، أحدهما مبتور القدم يتكلم طويلاً بلا ثمرة ليعلن العاجز أن «الألم حل بقدمي المختفية». بعدئذ ينوح الجندي الآخر «مثله مثل كلب ينبح». تمتد السطور ككرات البلياردو فيما ترافقها لغة إنجليزية لا تنقصها الغرابة، تدور السطور وتنزلق بعد الفاصلة الأخيرة بالضبط ثم تهبط في جيوب طاولة البلياردو ليعلو صوتها المفاجئ الحاد.

لكني لم أنبئك بعد بقصة الرواية. تدور في الأساس حول رجل يدعى سكيب ساندس، مبتدئ في وكالة الاستخبارات المركزية. يبدأ الكتاب وهو شاب عام ١٩٦٥ ليقطع صفحات الكتاب تقريباً حتى النهاية لكن تُقبل إليه سنة ١٩٨٣ وهو عجوز عتيق: يبدأ عمه عملية محدودة من عملياته ثم يفارق الحياة بطريقة عبثية عبثاً لم يصدق معه الناس أنه مات بحق: وهناك الأخوان هيوستون، بيل وجيمز، اللذان يخدمان بلادهما ثم يطوفان طواف الغضب والحرية رجوعاً إلى ولاية أريزونا، إلى الفراغ والوحشة: وثمة عسكريان من فيتنام، واحد من الجنوب والآخر من الشمال، يتصرف الاثنان بمسحة من اللاعقلانية: وضابط استخبارات اسمه ستورم: يتبدى بالكتاب وكأنه آخر رجل في سباق للجري: يتم السباق عند خط النهاية ليقابل امرأة كندية تدعى كاثي. تنتمي كاثي إلى مذهب يقول بأن مجيء المسيح ثانية ونهاية العالم قريبان. وهنا تحوي كاثي القصة بأكملها وينتهي بها الأمر إلى تحمل عبء أكثرية مآسي الكتاب والحصول - كما تستحق - على مساحة من النحيب في آخر صفحاته.

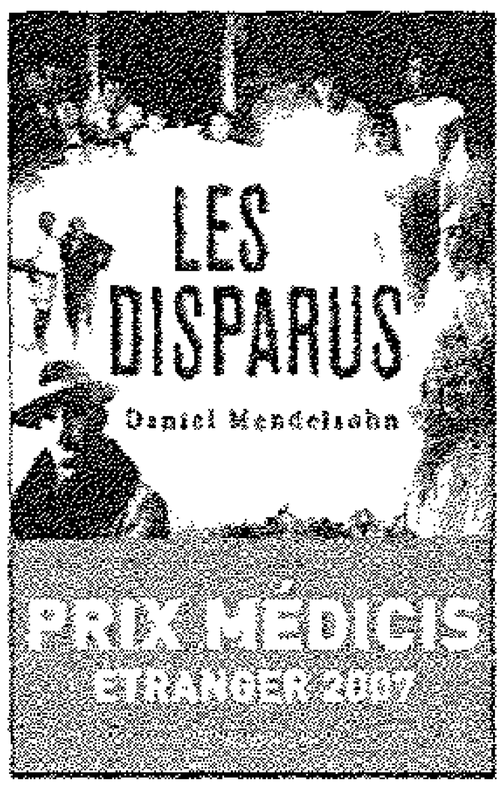
يلخص جونسون العديد من موضوعات كتبه السابقة: أمريكي ينطلق نحو العالم وعالم يلوح مبهماً عويصاً في أعين الأمريكي: الرقة كمشاعر غير متوقعة والفظاظة كعاطفة طاغية لا خلاص منها. لقد أنفقت ساعات طوالاً في قراءة «شجرة من الدخان»، وبينما اقتربت من النهاية، ألفيت نفسي متمنياً ألا تنتهي. هناك حفنة من الكتّاب يستطيعون اليوم توصيل ذلك الأسى الذي ذكرته من قبل، وأدبنا فاتر ممل من دونهم. لا يخلو كتاب من كشف ملهم غير أن الرؤى النبوئية تتعذر على الوجود. إن مشاعر الندم الضئيلة بالفصول الأخيرة شائعة كل الشيوع حتى إنها تتمنع على ملاحظة القارئ: لكن كم كتاب يسعه بالفعل توصيل معنى أن تكون ضائعاً وحيداً كما يفعل هذا الكتاب، فضلاً عن توصيل معنى أن يجدك أحدهم؟

كتب 2007

قائمة «لير»

LiRE:fr

١ ـ أفضل كتاب لهذا العام: «المفقودون»
(Les Disparus)

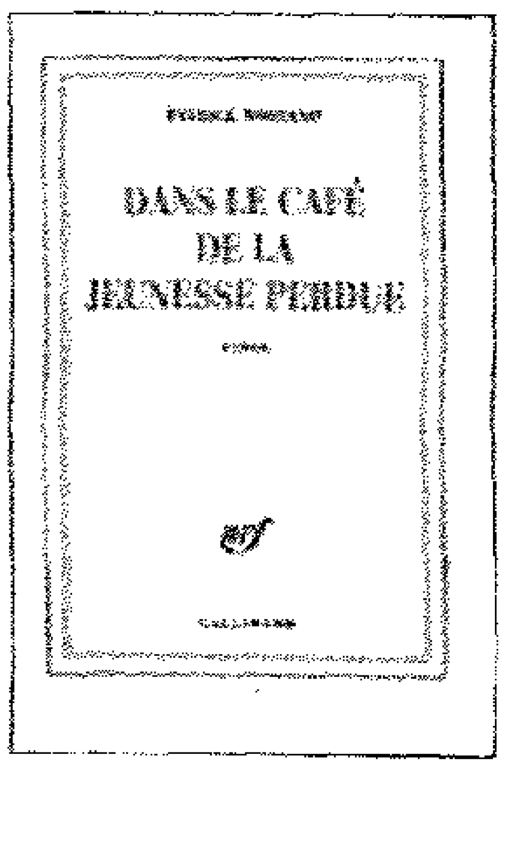


للكاتب الأمريكى دانييل مندلسون.
(Daniel Mendelsohn)
ترجمهُ من الإنجليزية إلى الفرنسية بيار جوجلييلمينا
العنوان الأصلى:
The Lost: A Search for Six of Six Million
دار نشر فلاماريون، ٦٥٠ صفحة، ٣ يورو.

تُرى أى مصير ذلك الذى آل إليه «شميال» و«إستر» وبناتهما الأربع، بعد غزو الألمان لبولندا فى سبتمبر ١٩٣٩؟ لا يعرف الكاتب من تلك القصة سوى النهاية التى تكرر ذكرها على سمعه: «قتلهم النازيون». ولكن متى وفى أية ظروف؟ وهل كانوا ضحية حملة داهمتهم أم وشاية تقصدتهم؟ وهل كان ذلك ثمرة لحالة معاداة السامية التى كانت تملأ الأجواء؟ أم ثمرة الحقد أم الجشع؟ وكيف كان رد فعل الإخوة والأخوات فى أمريكا وفى فلسطين على نداءات الاستغاثة التى أطلقها صوبهم أخوهم «شميال»؟ ومن أين أتى ذلك الشعور المبهم بالذنب الذى يملأ نفوس الأحياء، أو ذلك الندم الذى ظل يساورهم لإخفاقهم فى استنقاذ أخيهم الأكبر؟ يروى كاتب «المفقودين» حنايا وخفايا ذلك التقصى على طريقة الرسام الذى يُظهر ضربات فرشاته فرادى، من شائعة شاردة، إلى اقتفاء آثار كاذبة، إلى إساءة فهم أو تكذيب حدس و فى الوقت ذاته، ينغلق الكاتب على نفسه، فيعترف بتلك العلاقة السادية التى فرضها فى طفولته على أحد إخوته، فيزيد بفعل تلك النبرة الذاتية الصادقة من مصداقية الشهود الأحياء الذين استجوبهم (السيدة «بيجلى» بنيو يورك، وجاك جرين أو ميج جروسبارد فى سيدنى، وكلارا فريليش فى ستوكهولم). ويردف مندلسون إلى سرديته قراءة جديدة لمقاطع كبيرة من التوراة، وهو الأمر الذى يتيح له فرصة غير عادية للتأمل والتفكر فى بواعث الغيرة والقتل، وتجليات الجبن أو الشجاعة و هنا، ثمة ثلاث قناعات راسخات: أولها أنه يجدر البحث عن القصة الأخرى التى تتخفى وراءها الحكاية التى يقصها الكاتب، وثانيها أن العنف لا يتجلى فقط فى مواجهة الغريب، وإنما قد يبيته القريبُ للقريب، وأخيرا، إن أحدا لا يسعه أن يجزم بأنه كان سيختار جانب الخير أو البطولة لو عاد به الزمان.

وينتمى كتاب «المفقودين» إلى عائلة الكتب التى تترك فى النفس أثرا لا يمحى. ففى البداية، يلوح مندلسون بالليلة التى ابتلعت أولئك الستة المفقودين من على مسافة قاصية، لكن تلك المسافة تقصر شيئا فشيئا من صفحة إلى أخرى، حتى أننا كلما اقتربنا من نقطة النهاية، راحت تلك الليلة تقتحمنا وتغزونا ببرودتها وقدرتها على إصابة النظار بالدوار.فهل كان القص يعمق الانتظار؟فالنهاية أشبه ما تكون بالمواجهة. وعلى كل حال، لا تقتصر جدارة دانييل مندلسون فى هذا الكتاب على نجاحه فى حثنا على مساءلة التوراة واستدعاء إرث بروست ومكاشفة إخوتنا من البشر.

٢ ـ أفضل رواية فرنسية: «فى مقهى الصبا الضائع»
(Dans le café de la jeunesse perdue)



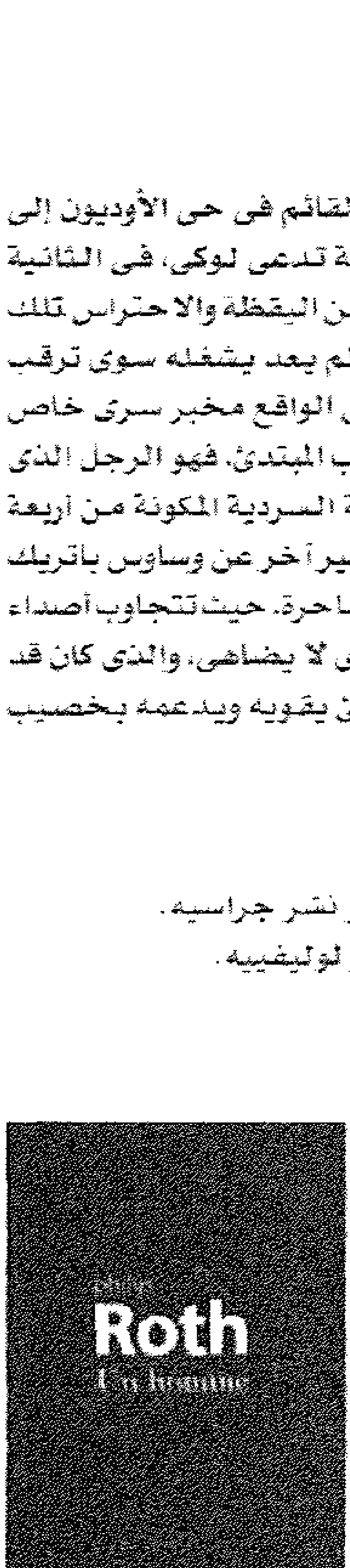
للروائى باتريك موديانو
Patrick Modiano
دار نشر جاليمار، ١٥٠ صفحة، ١٥ يورو.

يعد باتريك موديانو، الذى أتم الثانية والستين، أكبر روائى فرنسى معاصر. تلك حقيقة دامغة.كما تعد روايته الجديدة، «فى مقهى الصبا الضائع»، دليل تلك المكانة وبرهانها، حتى وإن كان الأمر يتعلق بكتاب رصين حزين، تعزف نهايته لحن أسى وكآبة.يعود بنا ذلك المقهى الباريسى القائم فى حى الأوديون إلى الستينيات من القرن الماضى ومن بين رواده. ثمة امرأة شابة تدعى لوكى، فى الثانية والعشرين من عمرها، جميلة هى، وغامضة، قد تطبعت بطبع من اليقظة والاحتراس تلك هى الفاتنة. أما المفتون، فهو طالب فى المدرسة العسكرية. لم يعد يشغله سوى ترقب مجيئها أما كيسلى، فهو ينتحل صفة ناقد فنى، بينما هو فى الواقع مخبر سرى خاص يعمل لحساب زوج لوكى الذى هجرته فجأة. وأما رولان، الكاتب المبتدئ، فهو الرجل الذى سيصبح عشيق الفاتنة الشابة. وهكذا تمضى تلك التوليفة السردية المكونة من أربعة أصوات.هذا ولا تعد رواية «فى مقهى الصبا الضائع» مجرد تعبير آخر عن وساوس باتريك موديانو وهواجسه. فهنا رواية جذابة، تدور أحداثها فى باريس ساحرة، حيث تتجاوب أصداء فكرة الفقد هنا حجر كريم جديد، يضاف إلى ذلك البناء الذى لا يضاهى، والذى كان قد بدأه موديانو عام ١٩٦٨، برواية «ميدان ليتوال»، والذى ما فتئ يقويه ويدعمه بخصيب الإلهام وعذب الأسلوب. وتلك هى شيم الكتاب الكبار.

المرشحون الآخرون لهذه الجائزة:

- رواية «مصاص دماء رويزا» للكاتب جاك شيسكس، دار نشر جراسيه.
- رواية «فى حمى لا شيء» للكاتب أوليفييه ادم، دار نشر لوليفييه.

٣ - أفضل رواية أجنبية: رجل
(Un homme)



للروائى الأمريكى فيليب رُث
Philip Roth
ترجمتها من الإنجليزية إلى الفرنسية جوزيه كامون
العنوان الأصلى للرواية:
Everyman
دار نشر جاليمار، ١٥٤ صفحة، ١٥٫٥٠ يورو.

تعد كل رواية جديدة لفيليب رُث بمثابة إنجاز حقيقى. وفى رواية «رجل» يوقع عملاق الأدب الأمريكى المهيب على واحد من أكثر كتبه قسوة ويأسا لما للموت فيه من حضور طاغ. فبطل الرواية رجل فقد كل شيء حتى اسمه. فهو ليس إلا ظل رجل، تحمل على مدار سنوات حياته ضربات الدهر، إذ تبين له منذ البداية أنه سيكون فى «خطر داهم دائم»، بسبب الأمراض العديدة التى افترست جسده وزادته وهنا يوما بعد يوم.

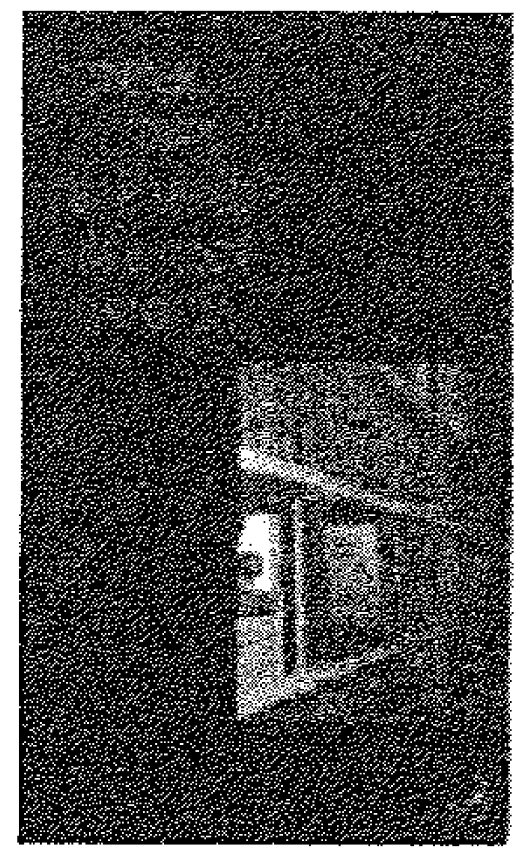
ها نحن نراه يواجه العذاب بصلابة ورباطة جأش، ويعبر حياة تعسة تخللتها ثلاث زيجات فاشلات، ليغرق من ثم فى عجز أسلمته إليه الشيخوخة. وأخيرا، سيرفض هذا الغريق الأبدى غوث الدين، إلى أن يسلم الروح على سرير بمستشفى.. هكذا، تبدو رواية «رجل» كموجز رهيب للتحلل، وهى فى ذات الوقت لحن جنائزى وتأمل شديد القسوة فى ضعف الإنسان وفى فنائه.أما أسلوب الكتابة فكأنما هو نتاج مبضع جراح، يثير النفس بما فيه من تجرد زاهد ومن تقشف مأساوى.

المرشحون الآخرون فى هذه الفئة:

- رواية «العيش فى ترصد» للإنجليزى ويليام بويد، دار نشر «سوى».
- رواية «امرأة الخامس» للأمريكى دوجلاس كنيدى، دار نشر «بلفون».

كــتــب 2007

قائمة «ليـر»



٤- أفضل اكتشاف لرواية أجنبية: «الحياة السرية لـ إى روبرت بندلتون» للروائى الأيرلندى مايكل كولينز
(La vie secrète de E Robert Pendleton)

ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية جان جيلوانو.
دار نشر كريستيان بورجوا، ٥٢٨ صفحة، ٢٦ يورو.

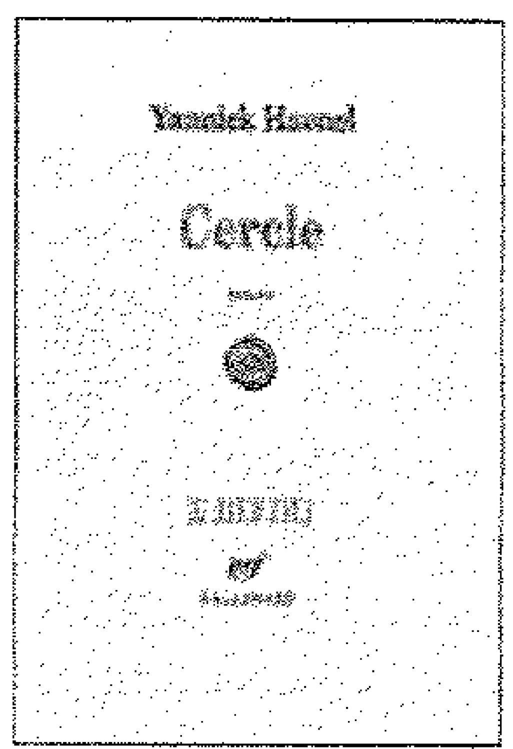
يعمل بندلتون أستاذا للكتابة الإبداعية فى جامعة متواضعة. وكان قد نشر، منذ فترة طويلة، رواية حققت نجاحا كبيرا، ولكن سرعان ما طواها النسيان، وتوارى اسم كاتبها بعد بارق لمعان. غير أنه عندما يهبط على الجامعة منافس يصيب النجاحات الأدبية الواحد تلو الآخر، تستثار حفيظة بندلتون حتى أنه يقرر الانتحار.

لكنه هنا أيضا يخفق.. ويباعث من شفقة، تقرر إحدى طالباته الجميلة آدى، أن تهتم بشئونه، فتكتشف بين أوراقه روايته القديمة. فلما يتراءى لها ما يحمله النص من مزايا أدبية، تقرر الفتاة الشابة السعى لإعادة نشر الرواية. لكنها تلحظ أن القصة، التى تسرد أحداثها جريمة قتل بشعة تتعرض لها صبية فى الثالثة عشرة من العمر، تكاد تتماثل مع تفاصيل حادثة مأساوية شهيرة..

بعد النجاح الكبير لروايتيه الرائعتين «شبكة الزمرد» و«حراس الحقيقة»، ينجح مايكل كولينز هنا فى المزج بين يوميات الدراسة الجامعية، وعناصر الرواية البوليسية، وتأمل دقائق الإبداع الأدبى.

المرشحون لهذه الفئة:

- رواية «عبور فينوس» للأمريكية شيرلى هازارد، دار نشر جاليمار.
- رواية «إلىَّ إلى الأبد» للأمريكية لورا كازيشكى، دار نشر بورجوا.



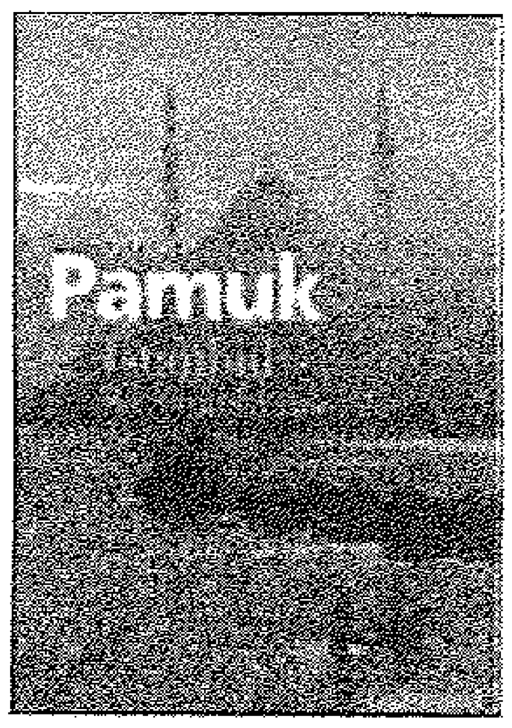
٥- أفضل اكتشاف لرواية فرنسية: مناصفة بين روايتين:
❖ رواية «دائرة»
(Cercle)
ليانيك انيل، دار نشر جاليمار، ٤٩٤ صفحة، ٢١ يورو.
❖ ورواية «نو وأنا»
(No et moi)
لدولفين دو فيجان، دار جوزيه كورتى لاتيس، ٢٨٨ صفحة، ١٤ يورو.

بأسلوبها البديع الذى تتخلله روح شاعرية فريدة، تبرز رواية «دائرة» ليانيك انيل كواحدة من أكثر الروايات الفرنسية طموحا فى هذا العام. فكل شىء ينقلب رأسا على عقب فى الساعة الثامنة وسبع دقائق بالنسبة لجان ديشل، الراوى، الذى يحسم أمره ويقرر «العودة إلى الحياة». وعلى الفور يترك البطل عمله، ويهجر حياته المعتادة، ليتجول فى باريس على غير هدى، تتدافع نحوه الوجود والتجارب. وعلى الطريق ثمة امرأة مثيرة فى انتظاره، هى الراقصة أناليفيا.. وتتواصل فصول الرواية، محمومة العواطف، متزاحمة الرغبات، وكأنها أوديسا عصرية تقدم المفتاح السحرى لتجديد الحياة، أوديسا مليئة بأسباب المتعة الأدبية والحسية.

أما رواية «نو وأنا»، فهى الرواية الرابعة لكاتبتها دولفين دو فيجان، التى تكشف فيها عن مبلغ أصالة موهبتها، بالرغم من كونها قد اختارت موضوعا صعبا، إذ تتناول علاقة الصداقة العجيبة التى تربط بين «لو» البالغة من العمر ثلاثة عشر عاما والمتمتعة بذكاء خارق والابنة لأم مصابة بالاكتئاب ولأب فاقد لزمام الأمور، وبين «نو» ذات الأعوام الثمانية عشر، التى تعيش بلا مأوى، وتبيت ليلتها على رصيف محطة أوسترليتز. لكن الكاتبة قد عثرت على النبرة المناسبة للقص، وابتعدت عن كل الكليشيهات الجاهزة فى هذا السياق. كما تعد روايتها بمثابة مرآة أمينة تعكس ملامح عصرنا، وما فيه من أكثر أصداع الحياة غورا.

المرشحون الآخرون لهذه الفئة:

- رواية «سندريلا» لإيريك رينا رد، دار نشر ستوك.



٦- أفضل سيرة ذاتية: رواية «استانبول»
(Istanbul)

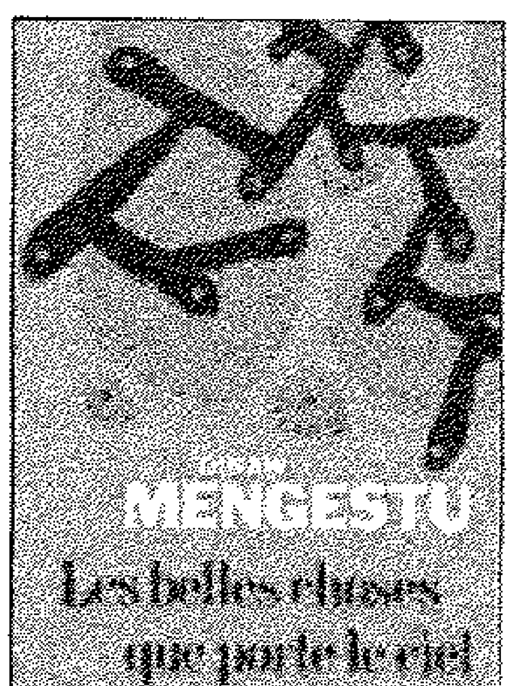
لأورهان باموق (Orhan Pamuk)
ترجمها من التركية إلى الفرنسية سافاس دوميريل وفاليرى جى أكسوا وجان فرانسوا بيروز.
دار نشر جاليمار، ٤٥٠ صفحة، ٢٢ يورو.

بقلم أديب نوبل ٢٠٠٦، الذى يقطر عذوبة ونوستالجيا، تجمع صفحات الرواية بين الرغبة فى تقديم صورة للذات والسعى إلى إسداء التكريم لاستانبول. فعلى مدار الذكريات، يعيد باموق رسم أعوامه العشرين الأولى على خلفية مدينته الحبيبة، التى ولد فيها عام ١٩٥٢ .. مدينته التى استعان بها لتكون مرآته، وملاذه، وملهمته، وهو يحكى هنا كيف استمرت تلك المدينة التى كانت فيما مضى بيزنطا القديمة فى إمداده بالمادة التى غذت كل أعماله.

كل شىء موجود هنا: انعكاسات الأضواء على قرن الذهب، ووشوشات البوسفور، وغمغمات الأصوات فى العمارة التى كبر فيها باموق، واكتشافاته فى المدرسة، ومغامراته الليلية، وقصة حبه الأول، ومشكلاته مع الدين فى ظل أسرة «علمانية ومتغربة ولا تصلى». وما بين استطراد وآخر، يحاول باموق الكشف عن روح استانبول الموغلة فى حزنها السرمدى. لكن هذا الكتاب لا يعد محض دعوة للسفر، بل هو المفتاح الأمثل للدخول إلى بيت آل باموق.

المرشحون الآخرون فى هذه الفئة:

- «عليك الرحيل مع الفجر» للنيجيرى وول سوينكا، عن دار نشر أكت سود.
- «تقشير البصل» للألمانى جونتر جراس.



٧- أفضل رواية أجنبية أولى: «الأشياء الجميلة التى تحملها السماء»
(les belles choses que porte le ciel)

للكاتب الأمريكى ديناو منجستو
(Dinaw Mengestu)
ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية آن ويك.
عن دار نشر ألبان ميشال، ٢٠٤ صفحات، ١٥,٥٠ يورو.

بعد أن أتم السادسة عشرة من عمره، وبعد أن تم إعدام والده، يهرب ستيفانوس من إثيوبيا ليستقر فى الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك، بعد أن أتم دراسة الهندسة، ينتهى به المطاف إلى افتتاح محل بقالة صغير فى حى فقير فى مجاهل واشنطن. ويخرج ستيفانوس من عزلته عندما يلتقى فى إحدى الأمسيات بصديقين قديمين من أصول أفريقية، كان قد تعرف عليهما عندما كان يشغل وظيفة عامل حقائب فى أحد الفنادق الكبرى. الصديقان هما «كن»، الكينى الذى يؤمن بـ «عظمة الحلم الأمريكى»، و«جو» الكونغولى الذى يفتقر إلى التفاؤل فى نظرته إلى المستقبل. وفى يوم من الأيام، تأتى سيدة بيضاء وابنتها الملونة للسكنى إلى جوار ستيفانوس، فتنشأ روابط من الألفة والمودة بين البقال وجارتيه. تلك هى الرواية الأولى لديناو منجستو، الروائى الأمريكى ذو الأصول الحبشية، والبالغ من العمر تسعة وعشرين عاما، الذى ينجح فى تقديم عمل مدهش بكل المقاييس، وشخصيات مرسومة بعناية فائقة. وهو إلى ذلك يبرع فى تصوير العلاقات بين مختلف الأعراق فى أمريكا المعاصرة، تصويرا لا يعرف أدوات التجميل ولا يسقط فى فخ التبسيط المجوج، وإن احتفظ بقدرته على إثارة العاطفة وتحريك الشجن، لإثارة موضوعات مثل الاندماج فى المجتمع الأمريكى وما يتضمنه من مناقشة للعلاقات الطبقية. فهل لنا أن نضيف أن منجستو روائى واعد، مازال ينتظر منه الكثير؟

المرشحون فى هذه الفئة:

- رواية «فيزياء الكوارث» لماريشا بيسل، عن دار نشر جاليمار.
- رواية «ويسكونسن» لميرى ريلندز ايليس، عن دار نشر بوشيه شاتيل.

كتب 2007

قائمة «لير»

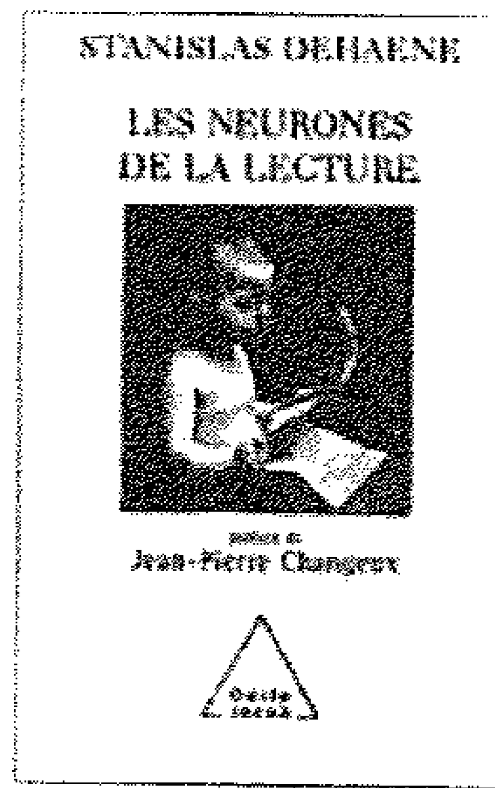
٨- علوم: الخلايا العصبية للقراءة

(Les neurones de la lecture)

للعالم الفرنسي ستانيزلاس دوين

Stanislas Dehaene

دار نشر أوديل جاكوب. ٤٧٨ صفحة. ٢٩ يورو.



ترى هل يمكن معرفة ما يحدث داخل المخ اثناء تعلم الإنسان القراءة؟ أخيرا أتاحت وسائل علم دراسة الأعصاب تلك المعجزة .وما أعجب ما تم اكتشافه حول تلك العاصفة التي تهب داخل الدماغ عندما تطالع العينان صفحة مليئة بالعبارات المصفوفة.مؤلف الكتاب أستاذ شاب في مجمع فرنسا، اختار في بحثه القيم أن يفسر كيفية دراسته لحالات الأطفال الذين يتعلمون القراءة، كما حالات المرضى العاجزين عن تعلم القراءة، وكذا حالات الأشخاص البالغين المنتمين إلى مجتمعات تفتقر إلى الكتابة . ويشرح المؤلف لنا أن المخ البشري، الذي لم يتطور منذ أزمنة الصيد والالتقاط، لم يكن مهيأ للقراءة.ولكنه قد تكيف بإعادة استخدام بعض الخلايا العصبية التي تساعد الإنسان على تحديد موقعه. ولقد اعتمد إنسان ما قبل العصر الحجري القديم على حفظ ما يتراءى له من علامات بسيطة في الطبيعة. وهي العلامات التي رمزت إليها الأبجديات فيما بعد.هذا وتتماثل آليات التعلم في جميع اللغات، وبغض النظر عن عدد الحروف، وفقا لما جاء في هذا البحث الهام الذي يفند نظريات كثيرة سابقة في هذا المجال العلمي.

المرشحون في هذه الفئة:

- كتاب «مصير الكون» لجان بيار لومينيه، دار نشر فايار.
- كتاب «كان يا ما كان أجدادنا» لريتشارد دوكنز، دار نشر روبير لافون.

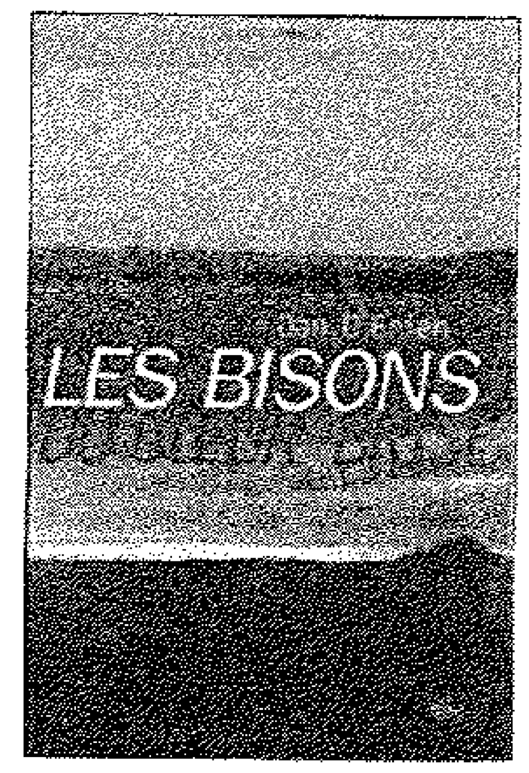
٩- جائزة الأدب «الأخضر»: رواية «ثيران القلب الكسير»

(Les bisons du Coeur brisé)

للكاتب الأمريكي دان أوبراين

Dan o'Brien

ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية لورا ديراجنسكي، دار نشر «أو ديابل فوفير»، ٣٦٦ صفحة، ٢٣ يورو.



بدأت القصة بتبادل نظرات غير عادية: على الطرف الأول كان دان أو براين، المؤلف الذي يهوى الصيد في سهول ولاية داكوتا، وعلى الطرف الآخر كان هناك ثور بري جسده يشبه جبلا من العضلات، ورأسه تحاكي في ضخامتها الغسالة الكهربائية.من تلك المواجهة، التي تشبه مواجهات ميلفيل بين الإنسان والحيوان، والتي تمثل مشهدا افتتاحيا رائعا للرواية، ينشأ في رأس الكاتب مشروع إلحاق هذا المخلوق الأسطوري بمزرعته القائمة في سهول الغرب الشاسعة. وتقدم رواية «ثيران القلب الكسير» سردا إكلينيكيا ومؤثرا في آن، يحكي فصول تلك المغامرة. ففي الصباح يتراءى لنا أوبراين في صورة أستاذ الجامعة الذي يدرس الإنشاء الإبداعي ويكتب رواياته، وبعد ذلك، نراه يجتاز مئات الكيلومترات، على صهوة جواده، قاصدا أراضي الطبيعة البكر. ويخلص كاوبوي الأدب الأمريكي في كتابه إلى أن «مستقبل العالم يكمن في الحفاظ على الجمال الوحشي». وهي رسالة أشبه ما تكون بأنشودة للطبيعة بفضاءاتها الرحبة، أنشودة لا تفسدها الغنائية الزائفة، وهو ما يجعلها تترك أثرا عميقا في نفس القارئ، كذلك الأثر الذي يخلفه الحديد الساخن على جلد ثيران الغرب البعيد.

المرشحون في هذه الفئة:

- رواية «كتاب ياك» للأمريكي ريك باس، دار نشر جاليستر.
- رواية «فعل أملاه الحب» للإنجليزي جيمس ميك، دار نشر ميتاييه.

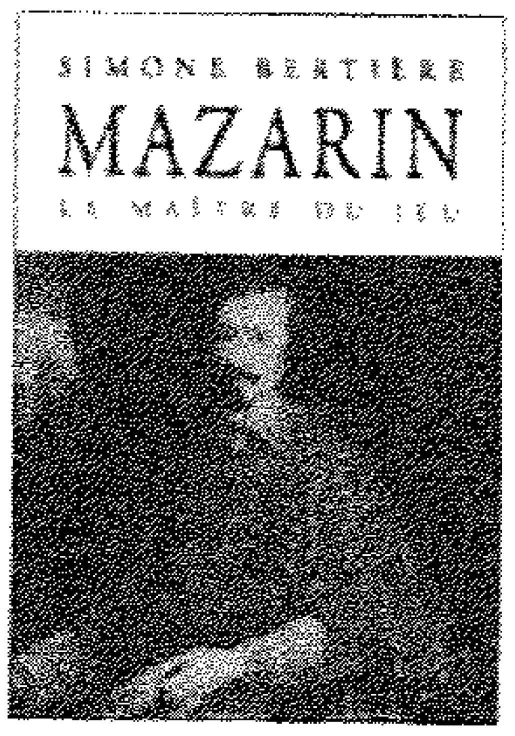
١٠- أفضل سيرة شخصية: «مازاران، سيد اللعبة»

(Mazarin, le maître du jeu)

للكاتبة الفرنسية سيمون بيرتيير

Simone Bertière

منشورات لو فالوا. ٦٩٨ صفحة. ٢٤ يورو.



تعتمد كتابة السيرة الشخصية بالأساس على مهارة التنفيذ. فالقارئ يعرف كل شيء، أو هو يتصور أنه يعرف كل شيء، عن الشخصية الشهيرة التي يتم الترجمة لها .فلكي ترتفع كتابة السيرة إلى مصاف الأعمال الإبداعية، عليها أن تمد القارئ بالجديد وبالمدهش. تلك هي المعادلة التي حققتها باقتدار سيمون بيرتيير في ترجمتها لسيرة «مازاران». كان الكاردينال الشهير قد ترك في ذاكرتنا منذ أيام الدراسة صورة صنعها له أعداؤه، صورة الرجل المراوغ، الداهية، عديم الاستقامة، وكان قد جمع ثروة طائلة. لكنه - كما يظهر من الكتاب - كان قد جمعها من خلال وسائل مشروعة في ذلك الزمان.كما يذكر لهذا السياسي الإيطالي الجذور أنه قد وضع في خدمة فرنسا طاقة هائلة من الذكاء، الذي أتاح له إنجاز أهم هدفين كان قد رسمهما الكاردينال دو ريشليو: فرض سلطان الدولة على طبقة النبلاء المتمردة من جهة، ومن الأخرى، تثبيط همة الامبراطورية الرومانية المقدسة عن المطالبة بحق الملكية العالمية. وكان مازاران، إلى ذلك، شخصية مؤثرة، يظهر قدرا عاليا من الاهتمام والتفاني في خدمة لويس الرابع عشر ووالدته، قبل تسلم الملك الصبي زمام عرش فرنسا .وبذلك يتبدى مازاران «الحقيقي» رجلا ذكيا ووفيا وعطوفا .فياله من اكتشاف مدهش!

المرشحون في هذه الفئة:

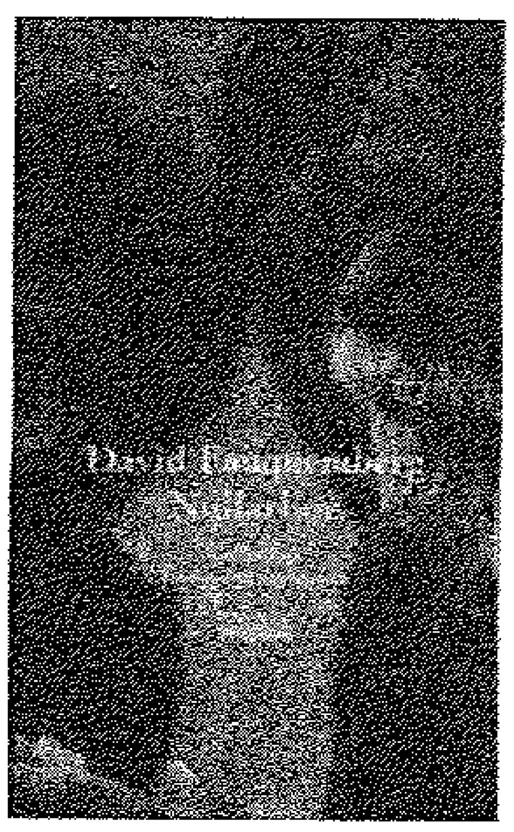
- كتاب «ايرجيه». للفرنسي فيليب جودان، دار مولنسار.

١١- أفضل كتاب في أدب الرحلات: «نولاربور» (سهل بلا أشجار)

Nullarbor

للكاتب الفرنسي ديفيد فوكمبورج

دار نشر Hoëbeke. ١٨٦ صفحة. ١٨ يورو.



هو مترجم وكاتب نشرات سياحية. مارس الملاكمة في كوبا، ومشى مع المتظاهرين في الأرجنتين، وعزف الجيتار في فرق الفلامنكو. وفي الثالثة والثلاثين من العمر، احترف ديفيد فوكمبورج الكتابة، ونال مؤخرا جائزة نيكولا بوفييه عن كتابه الأول، «نولاربور». والكتاب عبارة عن قصص مقتضب وخلاق لتنقلات الكاتب في بقاع أستراليا البرية. وتكفل واقعية الحوارات لهذه الرحلة المصورة شيئا من التوتر المستمر الذي يميز أفلام الحركة والإثارة. وفي معرض اجتياز ذلك «السهل الخالي من الأشجار» (و هو ما تعنيه كلمة «نولاربور»)، يمر الراوي بالفنادق الرخيصة ويقابل أشخاصا تحيط بهم الشكوك. ويجد هذا المواطن الفرنسي نفسه ضائعا في تلك الأرض التي يراها أكبر مما يتصور وأكثر عنفا مما يتحمل. وبعد رحلة صيد لاهثة على متن سفينة مجانين، ها هو «نابليون» الجديد الذي تقرحت ذراعاه بفعل مجاذبة شباك الصيد، يجد حسن الضيافة عند إحدى قبائل السكان الأصليين، الذين يبسطون إليه أيديهم بعهد الأخوة.ولكن الطبيعة تستعيد حقوقها ومجراها.. وتنبعث من الأرض الحمراء بخضاب الدماء هبة هواء حيوانية. وفي النهاية، تختفي كل الأصوات، عندما يغرق العالم القديم في لُجج تضحية أخيرة.

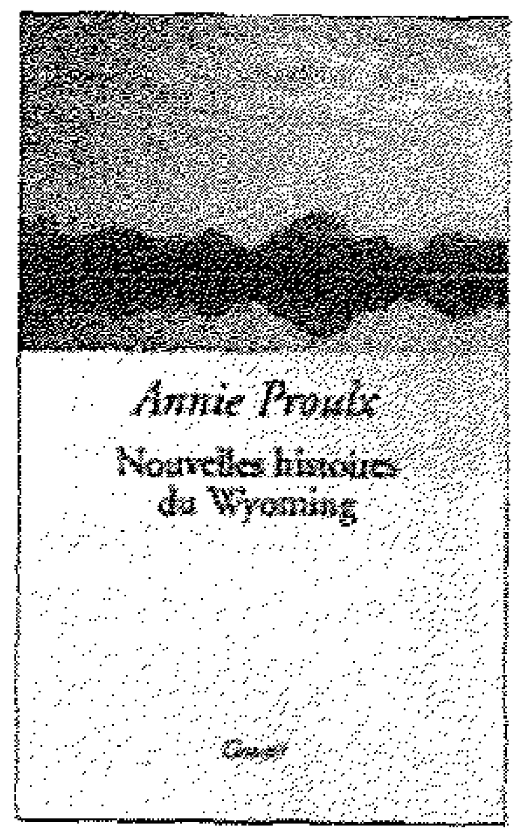
المرشحون في هذه الفئة:

- «في مدح الطاقة الشاردة»، للفرنسي سيلفان تيسون، منشورات «ليزيكواتور».
- «صحاري حارقة»، للفرنسي فيليب فري، دار جوزيه كورتي لاتيس.

كـتـب 2007

قائمة «ليـر»

١٢ - أفضل مجموعة قصصية: «قصص جديدة من الويومنج»
(Nouvelles histoires du Wyoming)



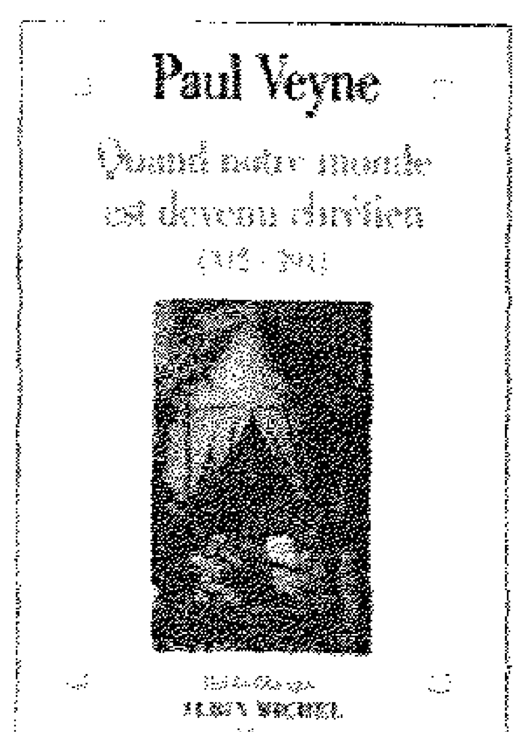
للكاتبة الأمريكية أنى برولكس
Annie Proulx
ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية اندريه زافرو
دار جراسيه، ٣١٠ صفحات، ١٧,٩٠ يورو.

أنى برولكس ليست روائية حساسة فحسب، وإنما هى أيضا قاصة ماهرة.ففى القصص الإحدى عشرة التى تتضمنها هذه المجموعة الرائعة، تقدم أنى لقطات مقربة متباينة لمنطقة «ويومنج»، التى تصفها كأرض مستقطعة من فيلم من أفلام رعاة البقر، بقمم جبالها المدببة. وقطعانها التى تفترش المدى، وبراريها الراكضة خلف الأفاق. وعلى تلك الخلفية التى تصنع من الطبيعة فردوسا حالما، تصف كاتبة رواية «جبل بروك باك» فى هذه المجموعة مخاوف البشر وحيرتهم. وهى تصور أحوال فلاحين أحاطت بهم الوحدة، وفاشلين استعبدتهم زجاجة الخمر فى أيديهم، ومهمشين مكدسين فى عرباتهم، وهنود قضهم البؤس، ومحاربين قدماء سلبتهم حرب فيتنام العقل والصواب، ومزارعين أفزعتهم رؤية غربهم الأمريكى القديم يتشوه تحت وقع أقدام الحداثة الزاحفة .هذا وبالرغم من كون غرب أنى برولكس يبدو محصنا من هبات التلوث الهاجمة، فهو فى النهاية غرب فاقد للبراءة، فهو ليس إلا حلما مكسورا. راحت الكاتبة تعبث فى أنقاضه بشىء من الحسرة الحارقة.

المرشحون فى هذه الفئة:

- مجموعة «لطشة برد». للأمريكى توم جونز، دار ألبان ميشيل.
- مجموعة «حالمة أوستاند». للفرنسى إيريك ايمانويل شميت، دار ألبان ميشيل.

١٣ - أفضل كتاب فى التاريخ: «عندما أصبح عالمنا مسيحيا (٣١٢-٣٩٤)».
Quand notre monde est devenu Chrétien)
(٣٩٤-٣١٢



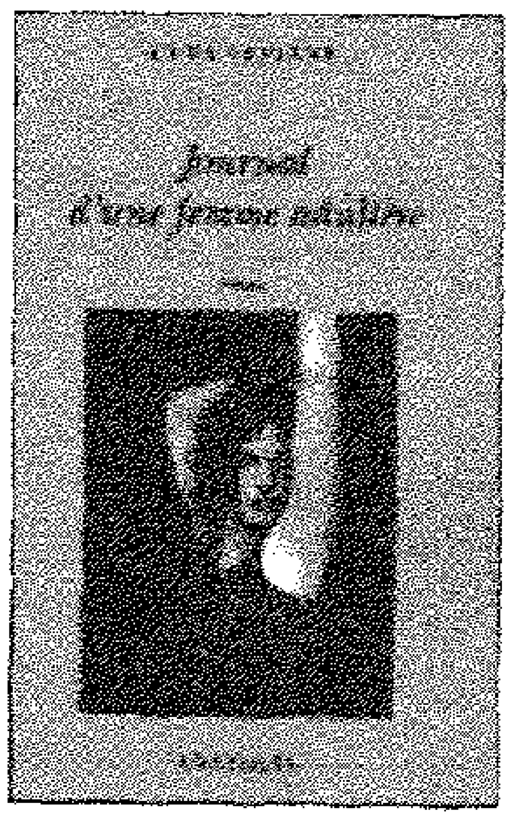
للمؤرخ الفرنسى بول ڤين.
دار نشر ألبان ميشيل، ٣٢٠ صفحة، ١٨ يورو.

إن المقولة التى تؤكد أن «أية ديانة هى فى الأصل طائفة قد اكتسحت» هى مقولة تفتقر إلى إظهار أسباب التحول العقدى. وبعد ادوارد جـ. جبون وغيره من المؤرخين، يعمد بول ڤين فى هذا الكتاب الى استجلاء الأسباب التى حولت المسيحية من عقيدة يؤمن بها قلة قليلة من البشر إلى ديانة متاحة للجميع. ومن المعروف عن الكاتب براعة التأليف وحسن العرض، ولكنه ههنا يتفوق على نفسه . فهو يبدأ بتفنيد فكرة وجود حسابات خفية وراء اعتناق الإمبراطور قسطنطين الأول للمسيحية. فهو يذكر بأنه لم يكن يصطنع الإيمان، إذ لم يحتج الأمر وقتا طويلا كى يقوم ابن أخيه الإمبراطور جوليان المرتد بتصفية حساباته مع ديانة لم تكن تجتذب فى المحصلة أكثر من ١٠٪ من تعداد سكان الامبراطورية.لكن نسبة الـ١٠٪ تلك كانت تمثل فى مجملها صفوة المجتمع. الصفوة التى خضعت وسلمت أمرها لتلك القصة الجديدة العجيبة، التى يقارن بول ڤين بين نجاحها الكاسح ونجاح الكتب الأكثر مبيعا، التى تأخذ أحداثها بالألباب. كان الأمر أشبه ما يكون بقفزة إلى رأس السلطة، ممثلة فى بياض الدولة، تلاها فيما بعد اتباع سواد العامة، استجابة لـ «فضيلة ملزمة تقضى بوجوب اتباع مسلك الجماعة». هذا وتمتاز هذه الدراسة التاريخية السوسيولوجية لبدايات الديانة المسيحية بأنها تحفل بكثير من مواطن السخرية والمفارقة، وهو ما يجعل منها مؤلفا نموذجيا فى مجالها ومتعة حقيقية للقراءة.

المرشحون فى هذه الفئة:

- كتاب «قوات الـ اس اس». لجان لوك لولو، دار نشر بيران.
- كتاب «ثمن المجد» لبيار برا ندا، دار نشر فايار.

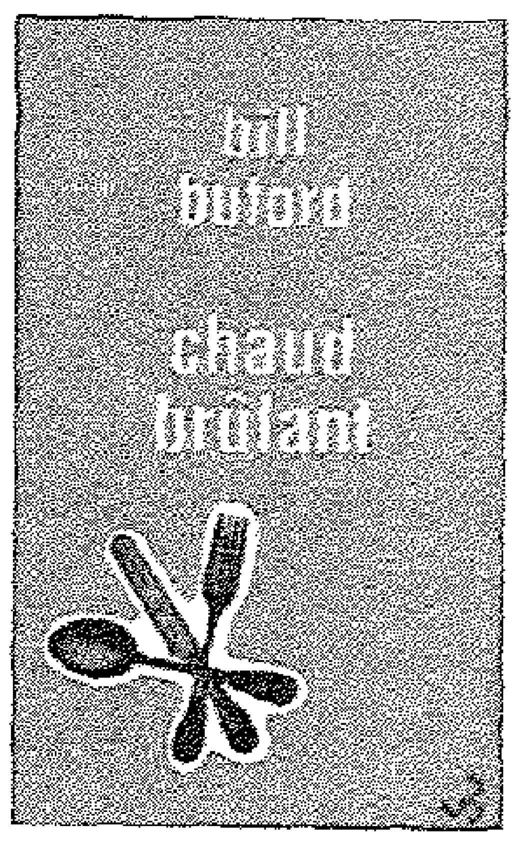
١٤ - أفضل رواية جنسية: «مذكرات امرأة زانية».
(Le journal d'une femme adultère)



للمؤلف الأمريكى كيرت ليڤاينت
ترجمتها من الإنجليزية إلى الفرنسية بياتريس ڤيارن،
دار نشر أناتوليا، ٦٨٠ صفحة، ٣٥ يورو.

بعد أن قدمت منشورات أناتوليا رواية «فى مدح النساء الناضجات» لستيفن ڤيزينكزى، ها هى تهدينا فى هذا العام رائعة أخرى من روائع الأدب الجنسى. فإن كان غلاف الرواية لا يمكن أن يمر مرور الكرام، فالرواية فى حد ذاتها تستأهل وقفة للاستكشاف، لاسيما أن مؤلفها، الأمريكى كورت ليڤاينت لم تتم ترجمة أعماله فى لغتنا الفرنسية من قبل. وتدور أحداث هذه المذكرات حول «جيدو» المصور وصديقه «تشارلى» الطبيب النفسى، اللذين تربط بينهما علاقة صداقة قديمة منذ كانا معا على مقاعد الدراسة فى المدرسة اليهودية. فما إن يتخطى كل منهما الأربعين حتى تدخل إلى حياتهما امرأة تهز تلك العلاقة وتغيرها. تلك هى «أفيفا»، عازفة الكمان التى تتخذ من جيدو عشيقا، ومن تشارلى معالجا، من دون أن تعلم أن الرجلين يعرف كل منهما الآخر.هذا ويستخدم المؤلف أدوات تشريح ذلك المثلث التقليدى بمهارة لم تعهد من قبل، فيحكى لنا القصة من وجهة نظر كل شخصية، قبل أن يختتم كتابه بمسرد ألفبائى لأهم المعانى التى جاءت فى الرواية.هذه المذكرات، التى تكاد تخلو من المجون، هى فى الواقع عمل أدبى ناجح، والاستمتاع بها غير مقصور بالطبع على محترفى الخيانة الزوجية.

١٥ - أفضل كتاب فى فن الطهى: «ساخن ملتهب»
(Chaud brûlant)



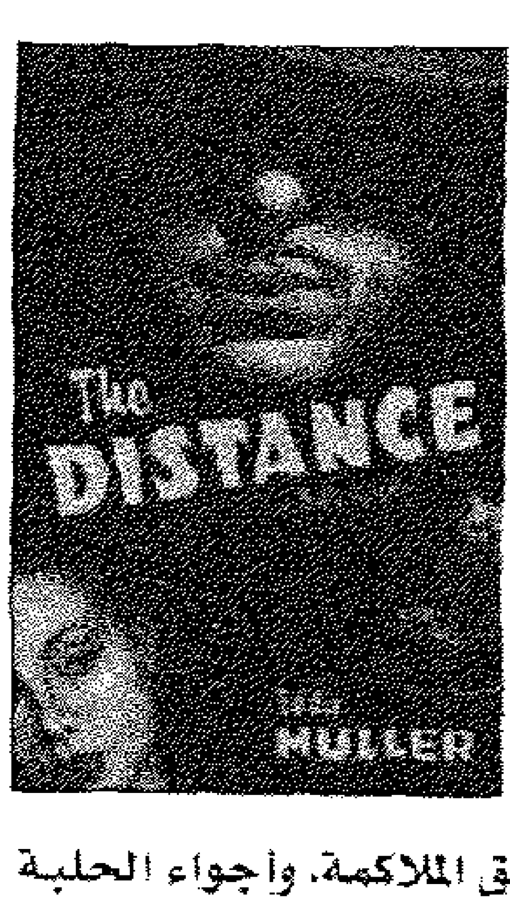
للأمريكى بيل بفورد Bill Buford
ترجمته من الإنجليزية إلى الفرنسية إيزابيل شابمان
دار نشر كريستيان بورجوا، ٥٤٢ صفحة، ٢٥ يورو.

يمثل هذا الكتاب عملا ضخما فى فن الطهى وفى الصحافة معا. فمؤلفه هو مدير التحرير السابق لمجلة «جرانتا»، الذى يعمل حاليا بين محررى مجلة «نيو يوركر» الشهيرة. وهو هنا يقدم لنا تحفة أشبه ما تكون بالمشهيات اللذيذة السريعة، حيث كل صفحة تنم عن عبقرية فى فنون المقال والتحرير والتصوير.إذ يحكى بيل بفورد على مدار الصفحات تجربته الشخصية فى دهاليز مطعم«بابو» الشهير بمانهاتن، من دون أن يخفى آية تفاصيل من مشاهداته فى كواليس هذا الصرح المطبخى الكبير. كما يجرى الكاتب حوارا مع رئيس الطهاة هناك، الشيف ماريو باتالى، فيصوره كشخصية غير نمطية، ذات شغف بالطعام وبالحياة.كما يتناول المؤلف سرد وقائع رحلته إلى إيطاليا، حيث أتقن صنع المعجنات الطازجة وتقطيع اللحوم. «ساخن ملتهب» هو بحق كتاب فريد ومفيد، وهو إلى ذلك ممتع إلى درجة التسرية، ومضحك إلى حد القهقهة.

المرشحون فى هذه الفئة:

- «خضروات مدهشة»، للأمريكية باتريشيا ويلز، دار «جوزيه كورتى لاتيس».
- «أسرار مطبخ الأخوات سكوتو»، منشورات «لوشين».

١٦ - أفضل رواية بوليسية: «مستر بوكس»
(Mister Boxe)



للكاتب الأمريكى إيدى مولر
Eddie Muller
ترجمه من الإنجليزية إلى الفرنسية باتريس كارير
دار نشر فايار، ٤٤٤ صفحة، ٢٢ يورو.
النص فى الإنجليزية بعنوان:
The Distance: A Crime Novel Introducing Billy Nichols

بيلى نيكولز محرر فى صحيفة «سان فرانسيسكو انكوايرر»، يكتب عمودا يوميا تحت عنوان «بين الحبال»، يعشق الملاكمة، وأجواء الحلبة

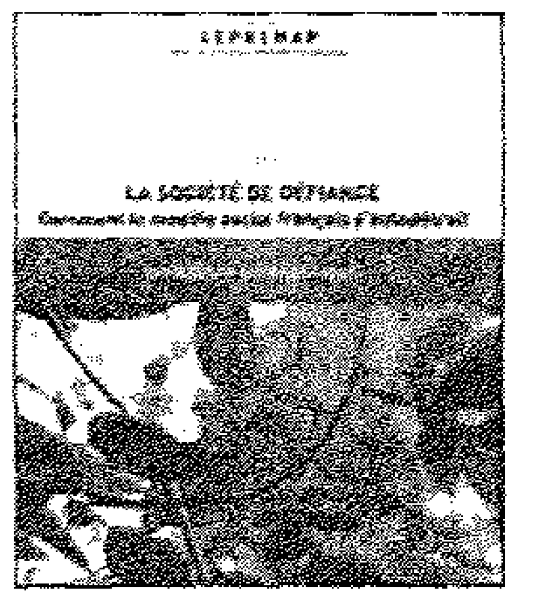
كتب 2007

قائمة «لير»

وصالات التمرين، بمثل ما يعشق أجواء مجلته وصالات التحرير.هذا هو بيلي الذي يمارس مهنة يحبها. ومرتبط بفتاة تحبه، ويخالط أصدقاء مقربين، أهمهم ذلك التعس «هاك»، الملاكم المصنف في فئة الوزن الثقيل، الذي لا يدرك مبلغ قوته. وفي ذات ليلة، يضرب هاك مدير أعماله فيرديه قتيلا. فيساعد بيلي صديقه للتخلص من الجثة، ليجد نفسه المتهم الأول في جريمة القتل. هذا ويعرف عن المؤلف أنه متخصص في كتابة أفلام الدراما السوداء في عصرها الذهبي.لذلك، حين أراد أن يكتب روايته الأولى، توجه مباشرة إلى عالمه الأثير الذي يعرفه كل المعرفة. فارتد إلى أجواء عقد الخمسينيات، وإلى سان فرانسيسكو وملاهيها الليلية الصاخبة، ورجال المافيا الذين ينفثون دخان السيجار الغليظ، ومغامرات الرجال والنساء الفاتنات. إذ تعد رواية «مستر بوكس» بمثابة تكريم لأساطير الرواية البوليسية .فكل ما فيها، من حوارات بواسطة المدافع الرشاشة، إلى احتداد لحس الوصف والتصوير، إلى عملية المونتاج المتوترة التي تحكم كل مشهد، كل شيء قد تم إنجازه بشكل واضح ومنتظم، لكي يستشعر القارئ صخب الحلبات، ويشاطر الأبطال أحلامهم المستحيلة.

المرشحون في هذه الفئة:

- «تفسير جرائم القتل»، للأمريكي جد روبنفلد، دار نشر «باناما».
- «مدينة الدراما»، للأمريكي جورج بيليكانوس، منشورات «سوي».



١٧- أفضل دراسة: «مجتمع الارتياب»

(La société de défiance)

يان ألجان وبيار كاووك

دار نشر «رو دولم»، ١٠٠ صفحة، ٥ يورو.

من أين يأتي ذلك التخاذل الذي تعيشه فرنسا؟ من بين كل المفارقات الغريبة التي طالتها، ثمة مفارقة قد فرضت ألف تفسير وتفسير، ألا وهي عجز فرنسا عن توصيف نفسها بما يتفق مع حقيقتها، مقارنة ببقية العالم. هذا التفسير يقدمه باحثان في مائة صفحة من شأنها أن تحمل الأعمى على الإبصار، والأصم على السمع والإنصات . أما المادة الأولية لهذه الدراسة فهي استطلاعات الرأي الميدانية. إذ يقوم كل من «يان ألجان»، أستاذ الاقتصاد، و«بيار كاووك»، أستاذ الهندسة، بإظهار مدى الارتياب الذي يقوض علاقة الفرنسيين ببعضهم البعض، وعلاقتهم بمؤسسات الدولة (البرلمان، القضاء، النقابات)، كما يظهر الباحثان مبلغ انهيار الإحساس بالانتماء الوطني في المجتمع.فمن بين كل عشرة فرنسيين هناك ستة لا يجدون غضاضة في إساءة استغلال خدمات الدولة ومساعداتها! وتحت غطاء كل من التجمعات النقابية وحماية الدولة، اللتين تفرزان حالة من الريبة، تكمن السمات السلبية الثلاث التي تنفرد بها الحالة الفرنسية، ألا وهي فوبيا المنافسة، والدفاع عن التكسب من ريع الموقع، والفساد.فما هو الإجراء الذي يسعه الخروج بنا من هذه الحلقة المفرغة؟

المرشحون في هذه الفئة:

- «الفحش الديمقراطي»، لريجي ديبريه، دار نشر فلاماريون.
- «أسوأ عالم على الإطلاق»، للأمريكي مايك ديفيز، دار نشر «لاديكوفرت».



١٨- أفضل كتاب في الفن: «الأتيلييه اللانهائي، ثلاثون ألف عام من الرسم»

(atelier infini, 30 000 ans de peintureL)

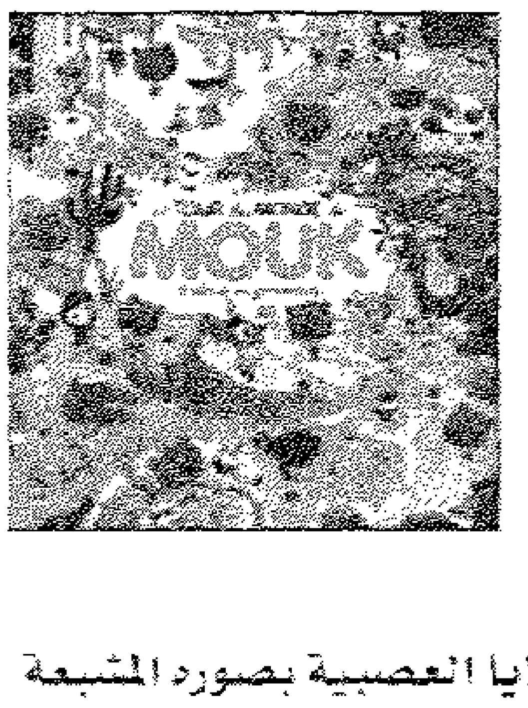
جان كريستوف بايي

دار نشر «أزان»، ٤٣٠ صفحة، ٤٩ يورو.

عادة ما تحدثنا كتب تاريخ الفن عن كثير من التاريخ وقليل من الفن، الأمر الذي يولد بداخلنا عند القراءة شعورا بالانغماس في الماضي من دون الاقتراب بالقدر الكافي من الأعمال الفنية.أما هذا الكتاب فهو مختلف تماما .فهو لا يقدم الأعمال الفنية بوصفها أدوات معرفية، وإنما يجعلنا نتأملها ونحبها. وهو ينجح في تلك المهمة بصورة رائعة. فما أجمل أن يقال لنا إن لوحة «إنزال الصليب» لروجيه ڤان در ڤيدن تشبه «رقصة انهيار غريبة وبطيئة»، وإن بورتريه الصبية للفنان بتروس كريستوس«فيه ما يذكر بوجه حصان أسطوري يبرز قرن من جبهته»، وإنه يمثل «وجها شتويا مدهشا»! وما أجمل أن يقال عن حاكمات فرانز هالز إنهن يؤلفن «شكلا تبدو فيه الفاكهة وكأنها وجوه آدمية»! أو أن يقال لنا إن تردد ماتيس بين التجريد والتصوير يعبر عن «ارتعاش الفن الحديث بأسره تحت شمس النهار على أنغام الكمان»! أجل، ما أحوجنا لأن نسمع هذا الأسلوب في الحديث عن فن التصوير! فإن لهذه المهارة في القلب وقعاً يطفر ما يشبه «دمع الفن الشجي».

المرشحون في هذه الفئة:

- «بالرسم، يا سيمون»، لآلان كريانج، منشورات «ڤاج».
- «تاريخ القبح»، لأمبرتو اكو، دار«فلاماريون».



١٩- أفضل كتاب للطفل: «موك على دراجته حول العالم»

(Le tour du monde de Mouk à vélo)

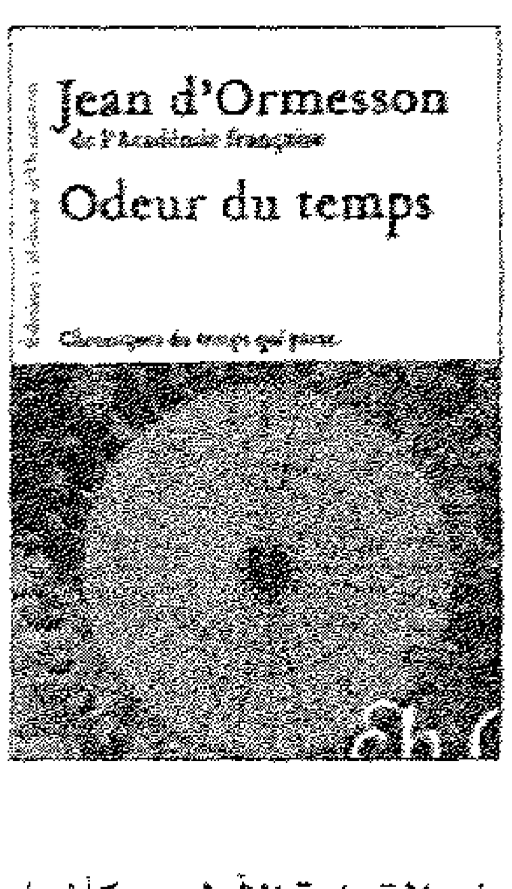
مـــــارك بـــــوتـــــاڤـــــان Mark Boutavant

ألبان ميشيل للصغار، ٢٨ صفحة، ١٤،٩٠ يورو.

بهدف حث الصغار على التعرف على تنوع الثقافات، يطلق الكاتب مارك بوتاڤان بطله، «الدب موك»، في رحلة حول العالم.والنتيجة مهرجان من الألوان المبهجة التي تقفز على الورق اللماع، مهرجان يبهر العينين وينعش الخلايا العصبية بصوره المشبعة بالشخصيات، والنباتات، والكلمات التي تجذب الطفل لاستكشافها .ففي اليونان- «ياسو» -ثمة أخطبوط يقود التاكسي العائم في بحر دافئ الزرقة، بينما راحت القطة تقرأ أشعارا لهوميروس: أما في بوركينا فاسو، فيطالعنا موك وهو يلبس الزي الوطني ويشرب عصير الفاكهة الأحمر اللذيذ، ومن حوله الغزلان ذات القرون اللؤلؤية المتشعبة والسحالي الأفريقية ذات الألوان المتغيرة. وتحت أشجار جوز الهند بمدغشقر، راحت النسانيس والقردة ترقص حول النار بأعينها الجاحظة. وفي اليابان، حيث الربيع المشمس، يظهر موك وهو يستمتع بتناول الماكي والواجاشي مع صديقه «مانيكي نكو»، القط الذي يجلب حسن الطالع.إن هذا الكتاب المصور يمكن قراءته كقصة ممتعة، أو كألبوم صور عملاق، أو كرحلة تحفل بألف اكتشاف واكتشاف، فعلى كل طفل أن يختار مطيته في هذه الرحلة المتجهة صوب المنتهى.

المرشحون الآخرون:

- «جورج وأسرار الكون»، للأمريكيين لوسي وستيفن هوكنج، منشورات بوكت.
- «العدو»، للإيطالي ديفيد كالي، رسوم سيرج بلوك، منشورات منظمة العفو الدولية.



٢٠- أفضل يوميات: «رائحة الزمن»

(odeur du tempsL)

چان دورميسون Jean D'Ormesson

منشورات ايلويز دورميسون، ٤٨٠ صفحة، ٢٣ يورو.

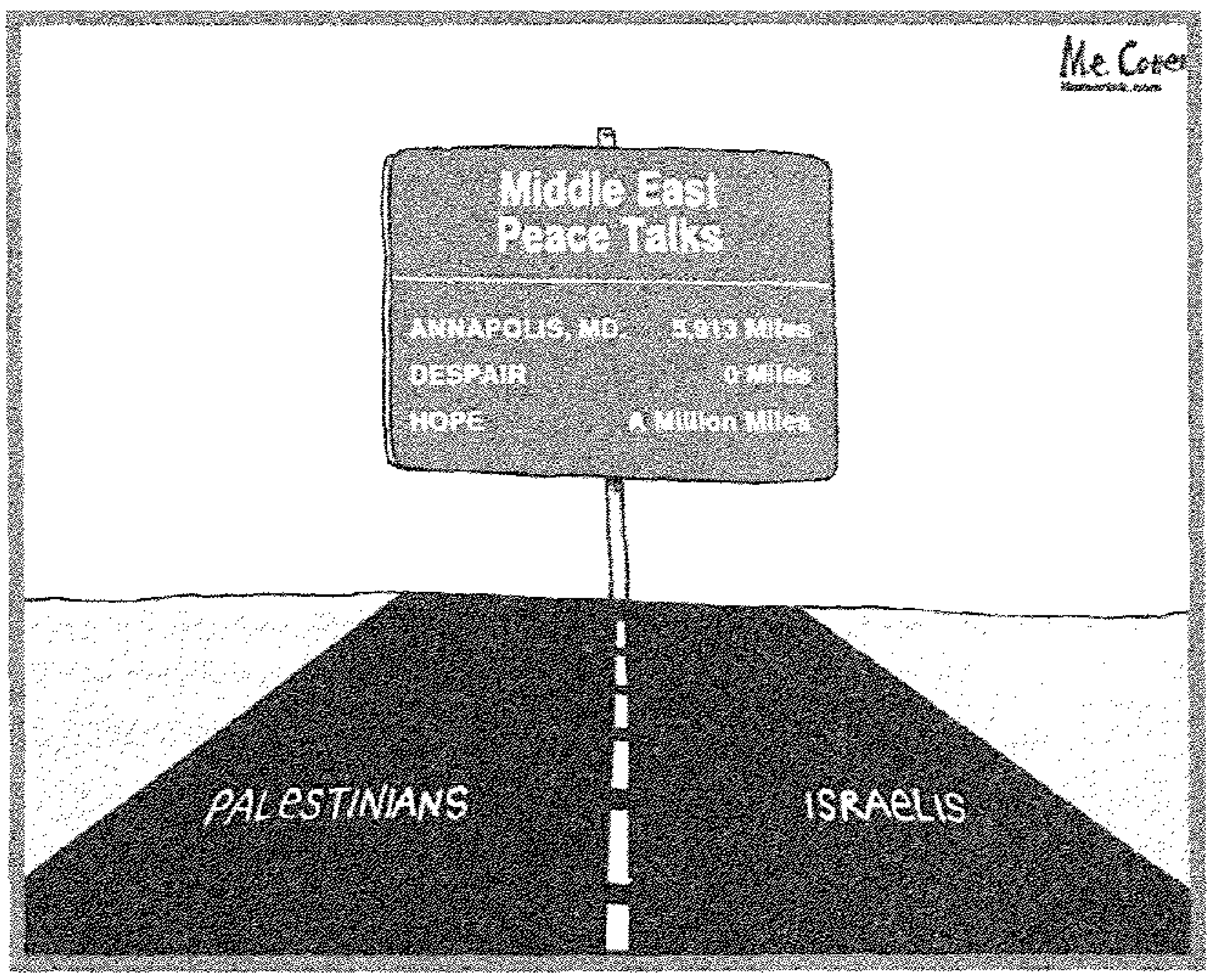
بمقتضى التعريف، ترتبط كتابة اليوميات بالآني والمستجد من الوقائع، وهو ما يجعل منها فناً يحمل في طياته أسباب فنائه، لكن هذا لا يسري حينما يكون الموقع على اليوميات الأديب الكبير چان دورميسون.وأكبر دليل على ذلك هو هذا الكتاب الجديد الذي يضم نصوصا نثرية نشرها الكاتب في كل من صحيفة «لوفيجارو» ومجلة «لو فيجارو ماجازين» . فبعد سنوات من نشرها، تحمل كلمات هذا الأكاديمي الذي لا يشبه الأكاديميين كل ما أحببناه فيها عند القراءة الأولى، وكأنها زَبَد الموهبة الذي لا يذهب هباء قط، هنا كل مكر الرجل، وكل علمه المتدفق، وطريقته الأنيقة في تصفية الحسابات من دون إسالة الدماء، (لاسيما مع برنار فرانك). وأيضا ميله إلى سرد ذكرياته وأفراحه بكثير من البهجة والخفة والحنين والطلاقة. وإن كان شاتوبريان مازال الأفضل في نظره، فثمة مكانة عنده لأراجون، ولسيوران، ولمورياك، ويورسنار. كما تحفل يوميات دورميسون بتذكر جريتا جاربو، وجون ماكنرو، والأخوات ميتفورد وفينيسيا . وما بين إبداء الإعجاب وإسداء التكريم، يقدم لنا چان دو واحدا من أكثر مؤلفاته إمتاعا ومؤانسة.

المرشحون في هذه الفئة:

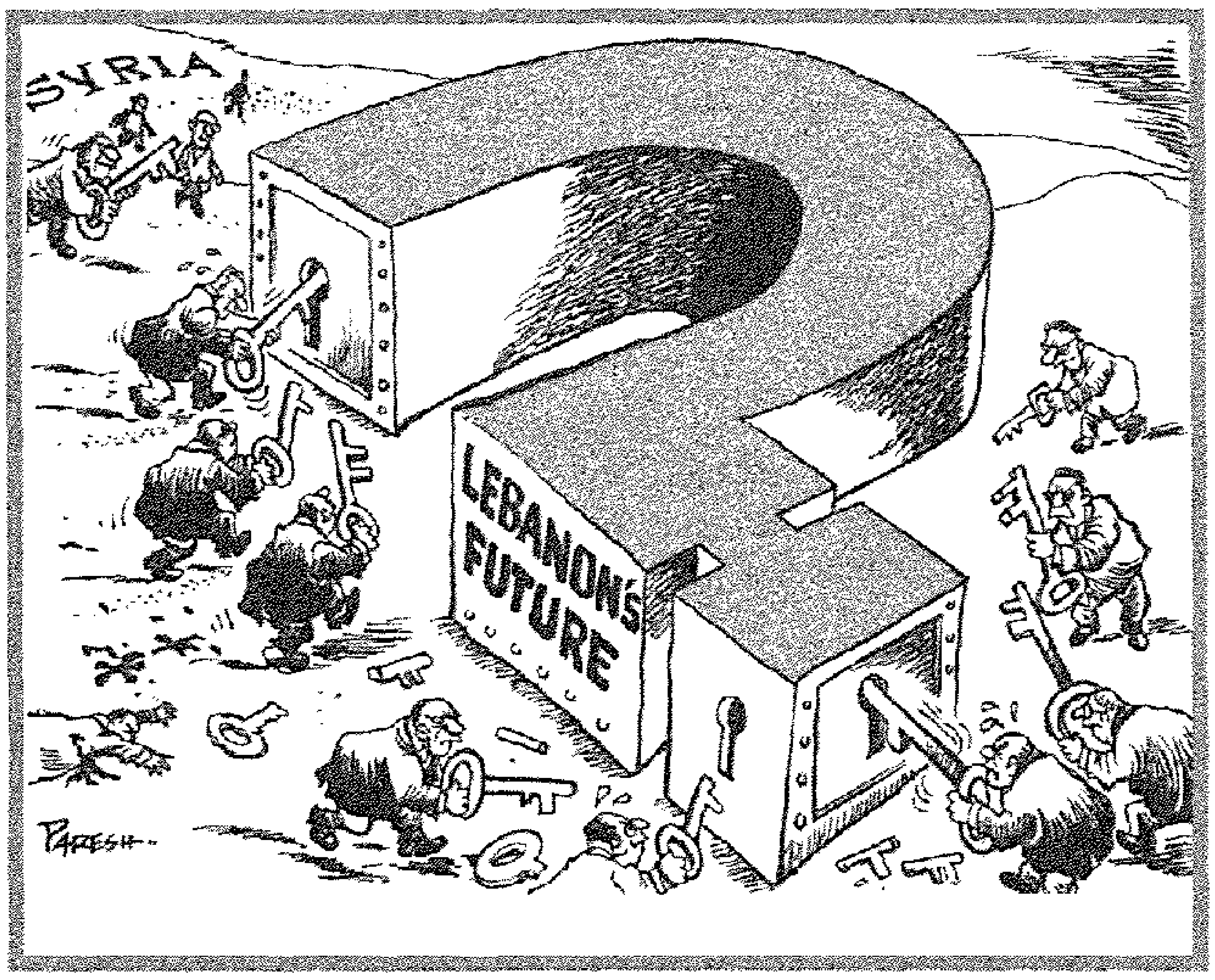
- «٥ شارع الإيطاليين»، لبرنار فرانك، جراسيه.
- «أشياء لحظية»، لروجيه جرونييه، جاليمار.

كارتون 2007

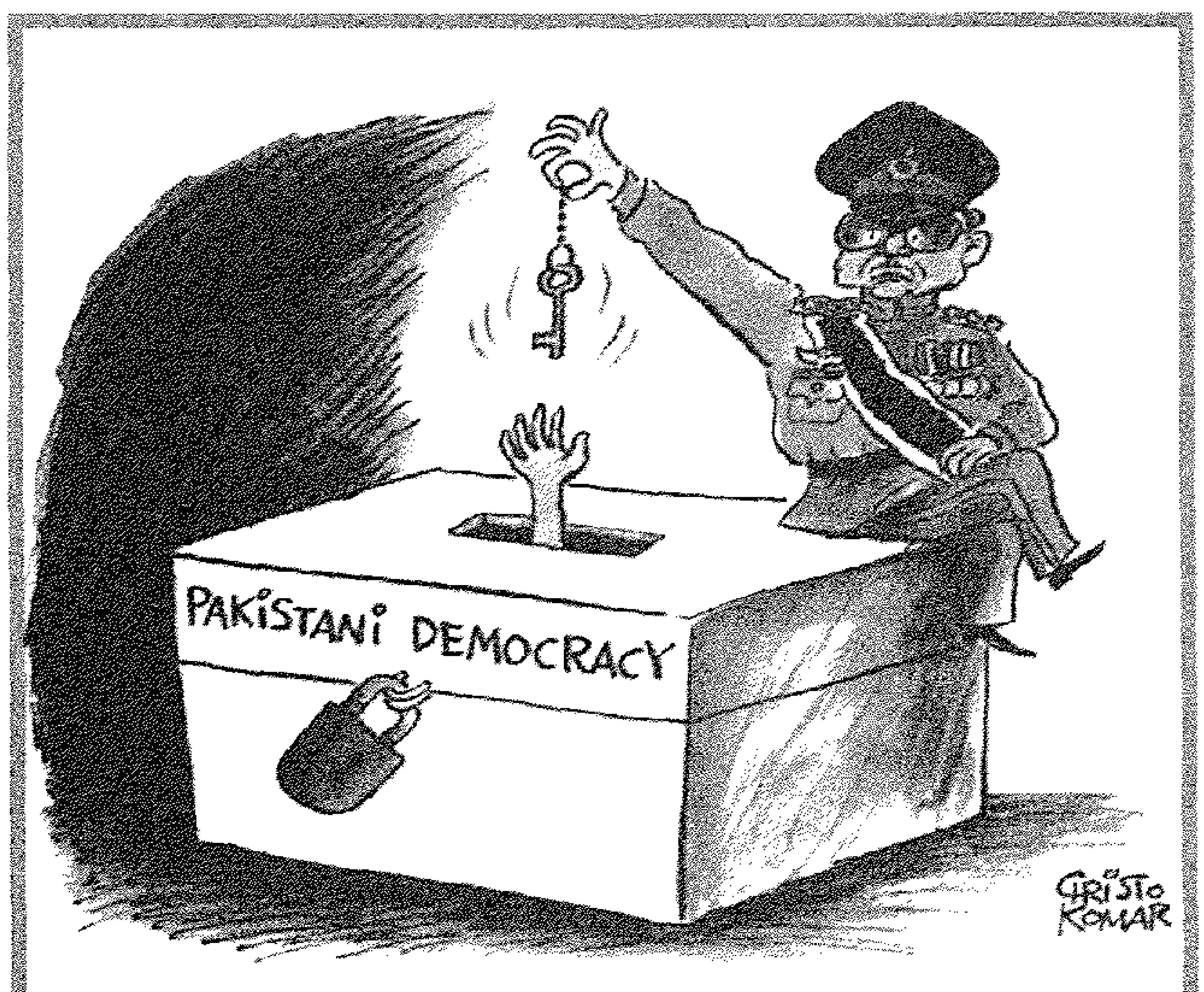
إذا كان المثل الصينى يقول إن صورة واحدة أهم من ألف كلمة، فإن رسامى الكارتون وحدهم
يستطيعون تقديم رؤية مميزة ومدهشة عن أحداث ٢٠٠٧
العاصفة والمليئة بالفوضى بأفضل مما يمكن أن تعبر عنه المقالات والتحليلات.
إنه سحر الرسم الكارتوني وقدرته على اختزال عالمنا المعقد
وأحداثه المتشابكة فى مساحة ضئيلة على الورق تستطيع أن تفتح آفاقا جديدة وتثير
تساؤلات عديدة وترسم أيضًا الابتسامة على وجه القارئ.
وجهات نظر اختارت بعضًا من أهم الرسوم الكارتونية المعبرة عن ٢٠٠٧ والتى اختارتها نخبة
عالمية مميزة من الفنانين والصحفيين والكتاب.



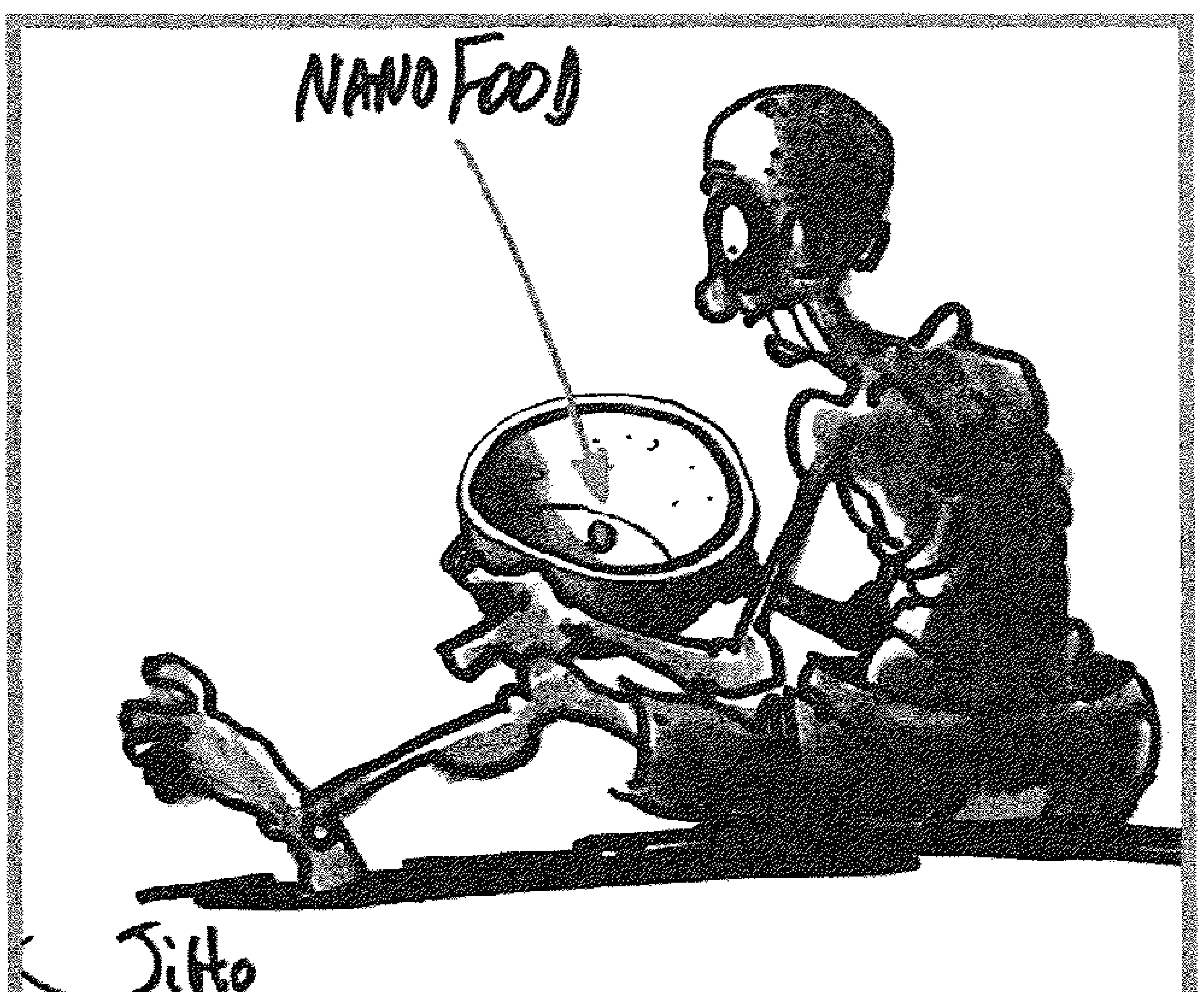
السلام في الشرق الأوسط ٢٠٠٧ . © M. e. Cohen - M.e.Cohen/HumorInk.com



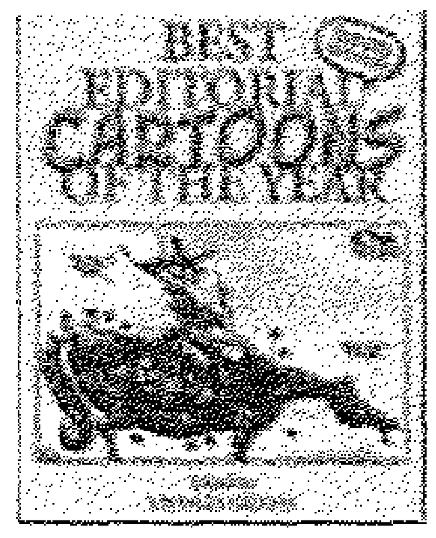
مستقبل لبنان . © Copyright 2007 Paresh Nath - National Herald, India c



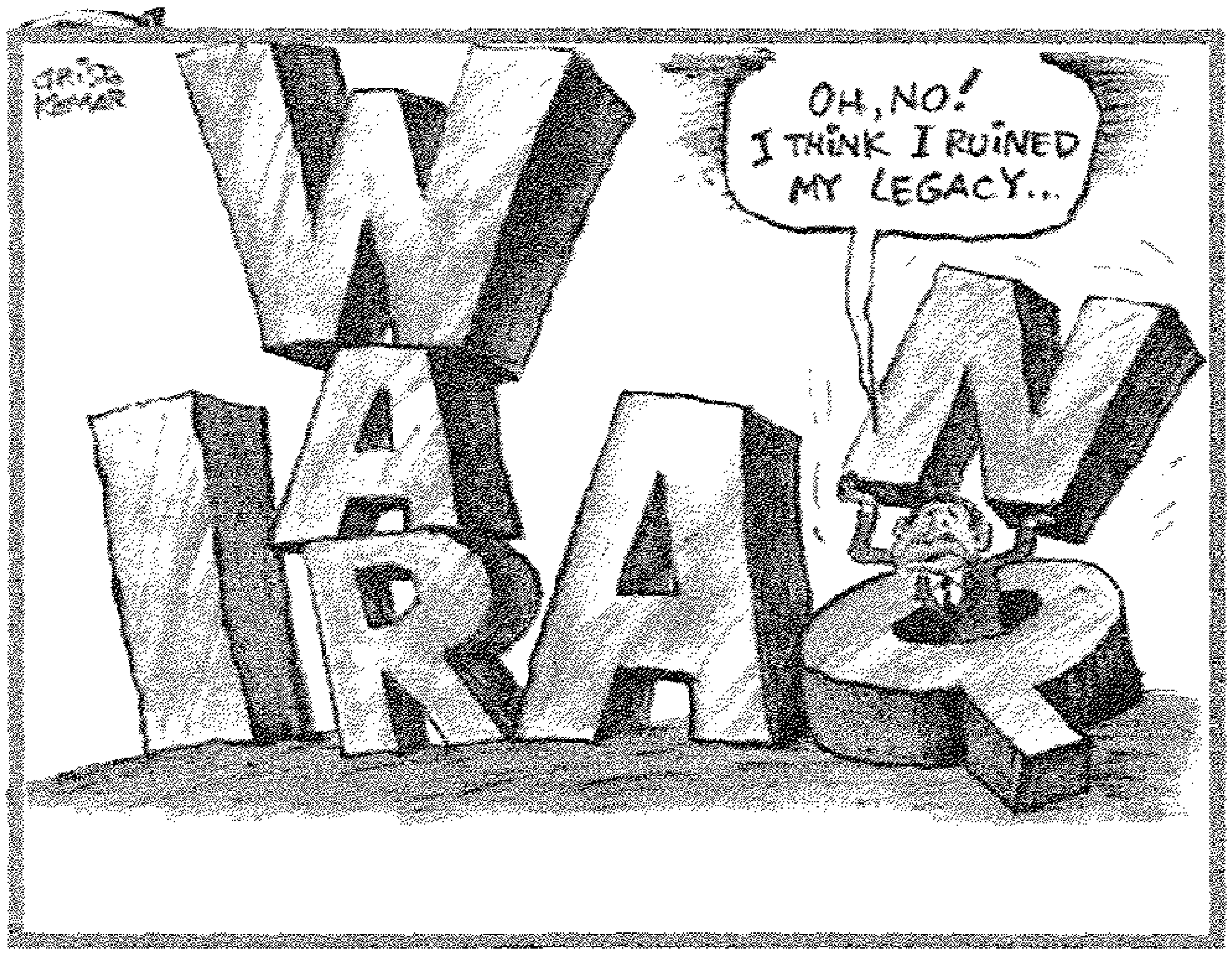
الديموقراطية على الطريقة الباكستانية . © Christo Komarnitsk - Bulgariai



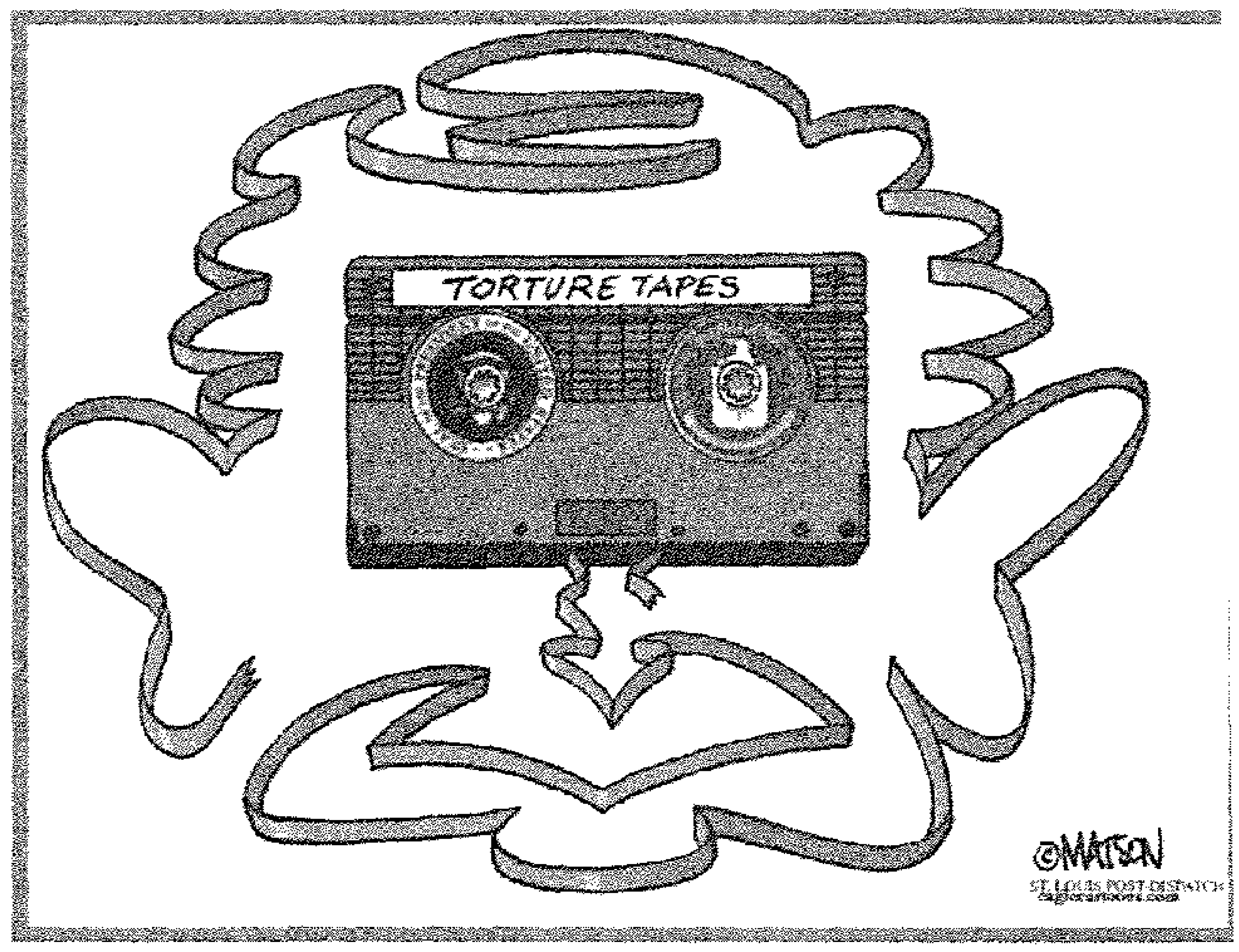
Nano-Food - © 2007 Jiho - France



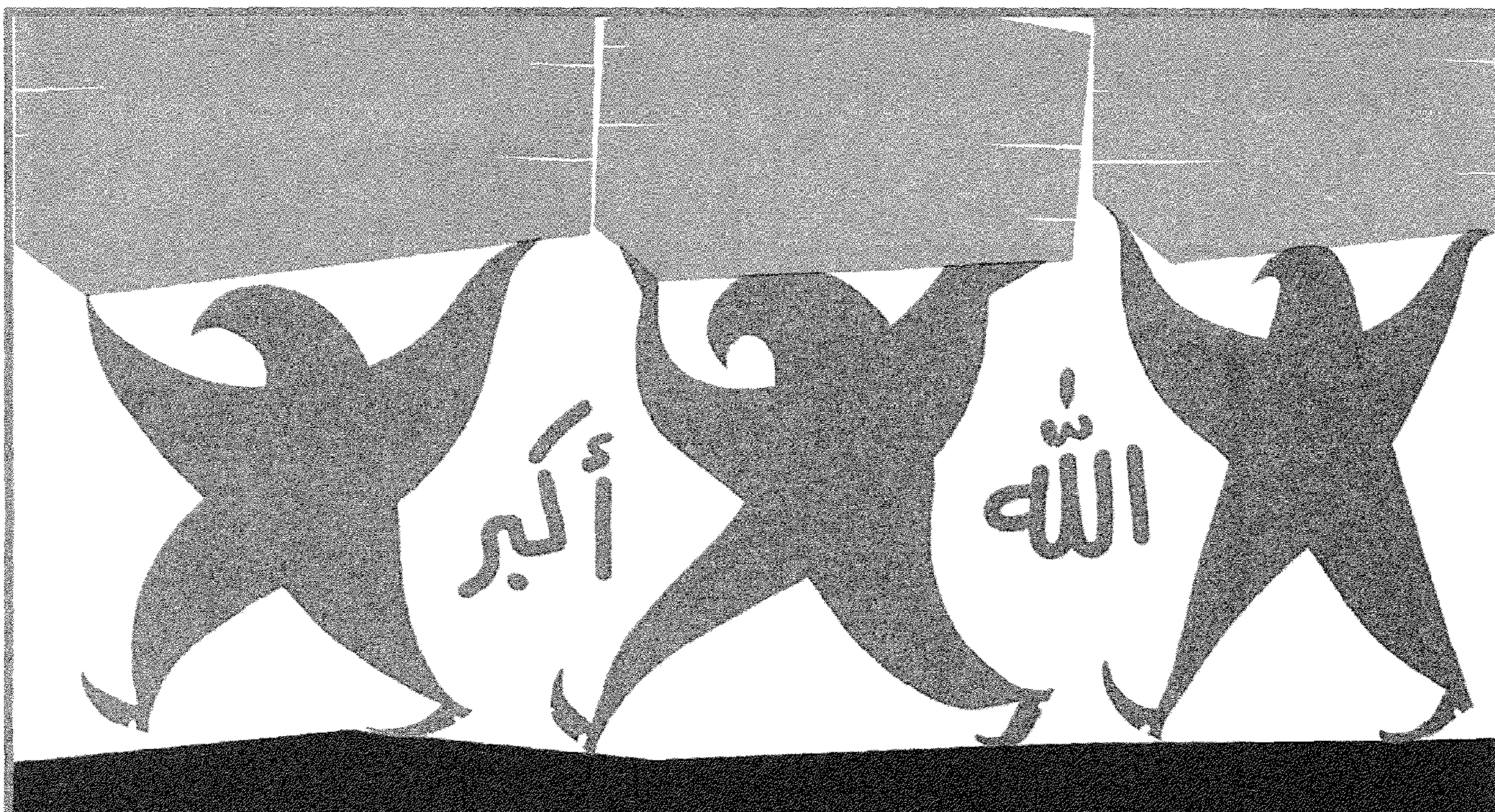




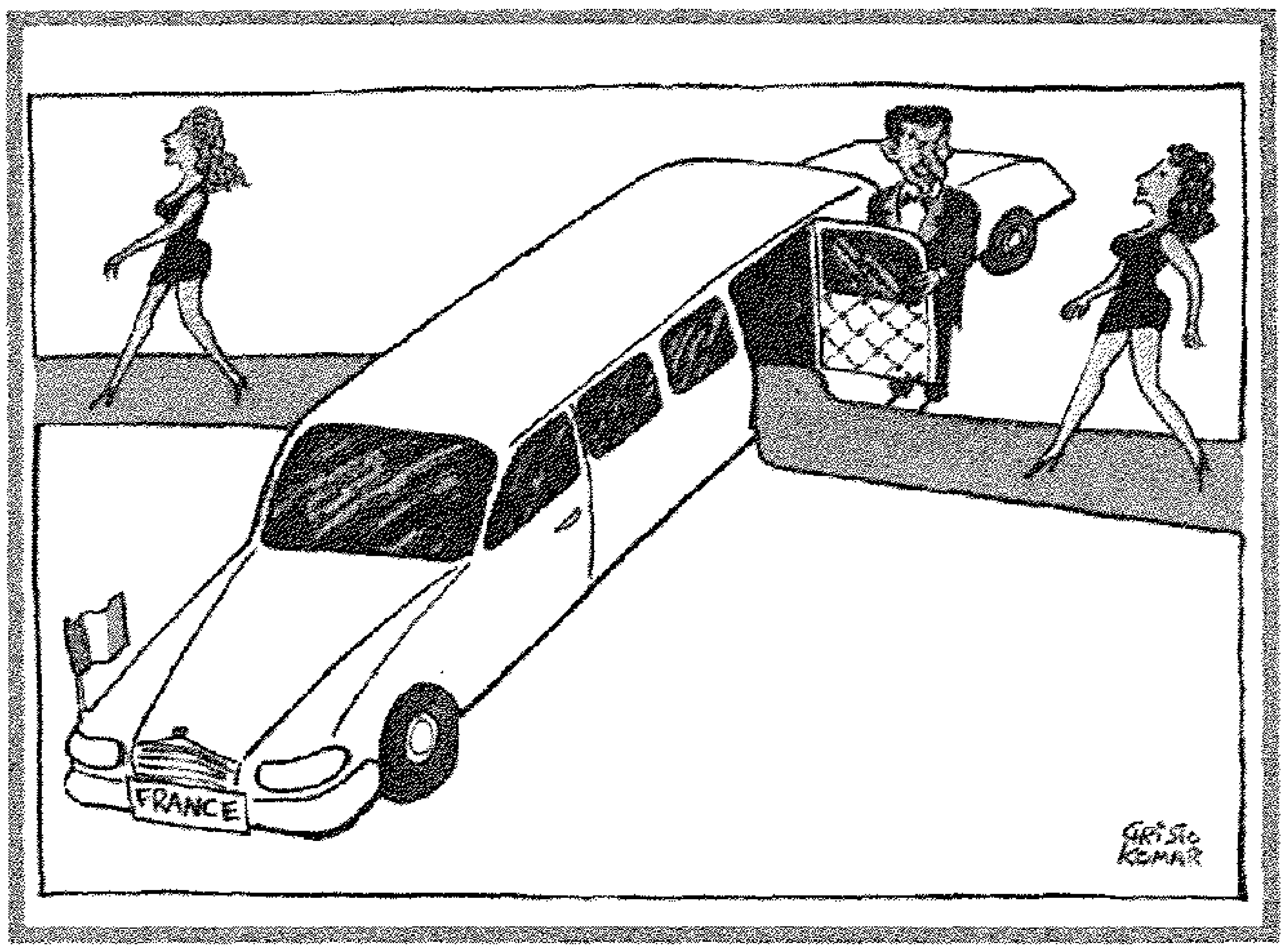
W. Legacy - © Christo Komarnitski - Bulgaria



فضيحة تدمير أشرطة التعذيب. © RJ Matson - The St. Louis Post Dispatch



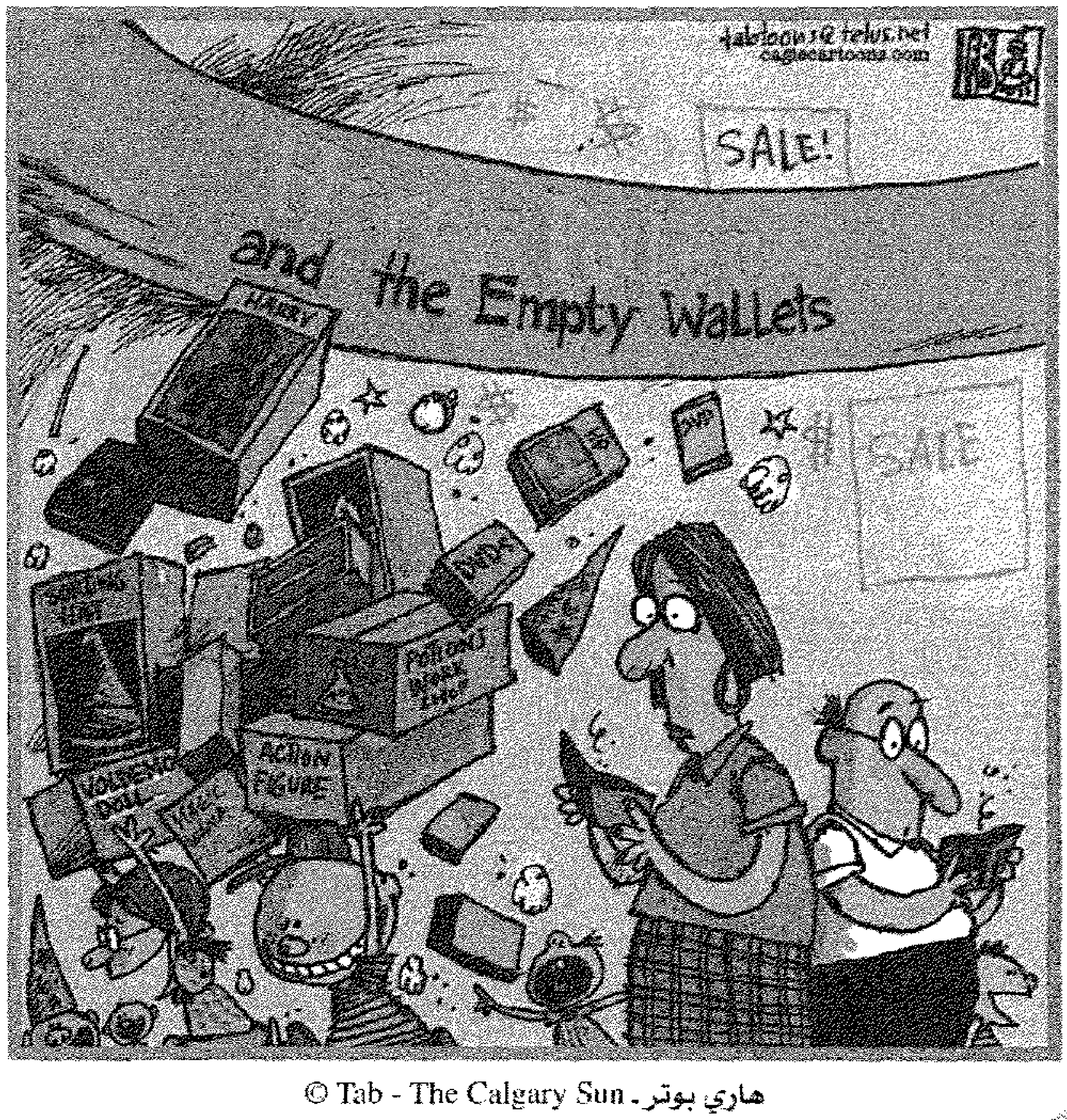
علم العراق. عماد حجاج - الأردن ©



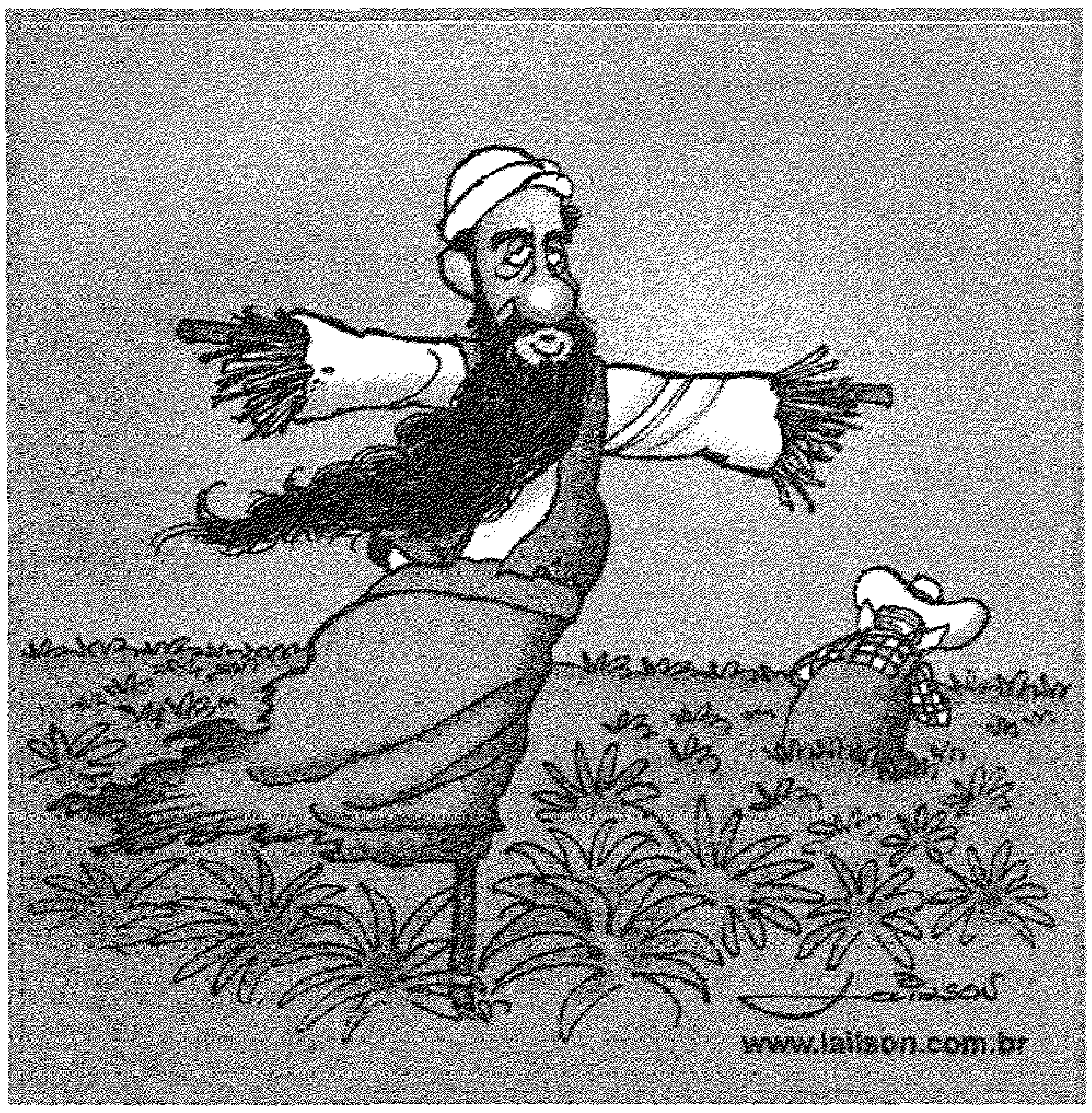
Sarkozy's limo - © Copyright 2007 Christo Komarnitski



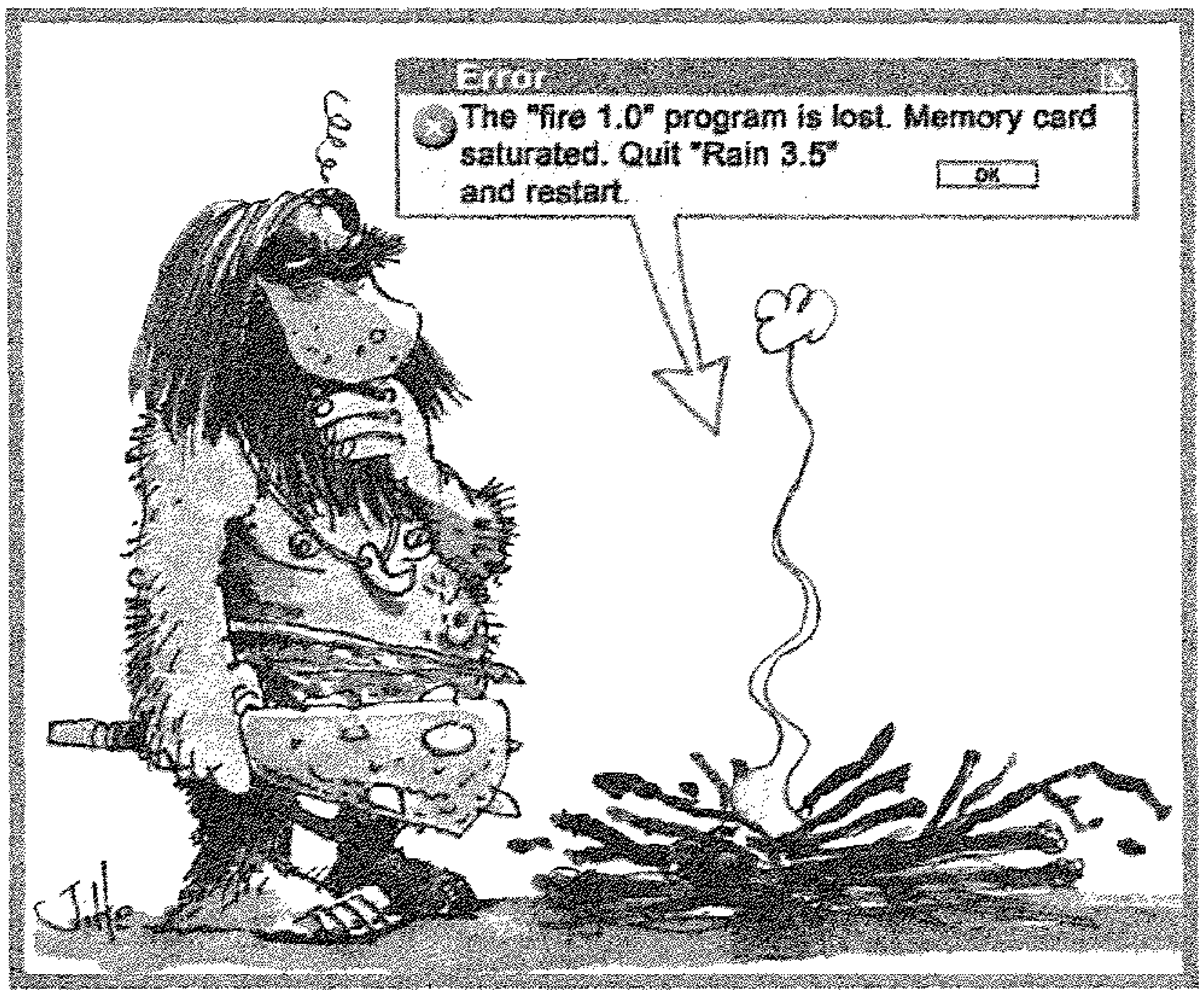
© Mike Lane - Cagle Cartoons - الصين: مراقبة «جوجل».



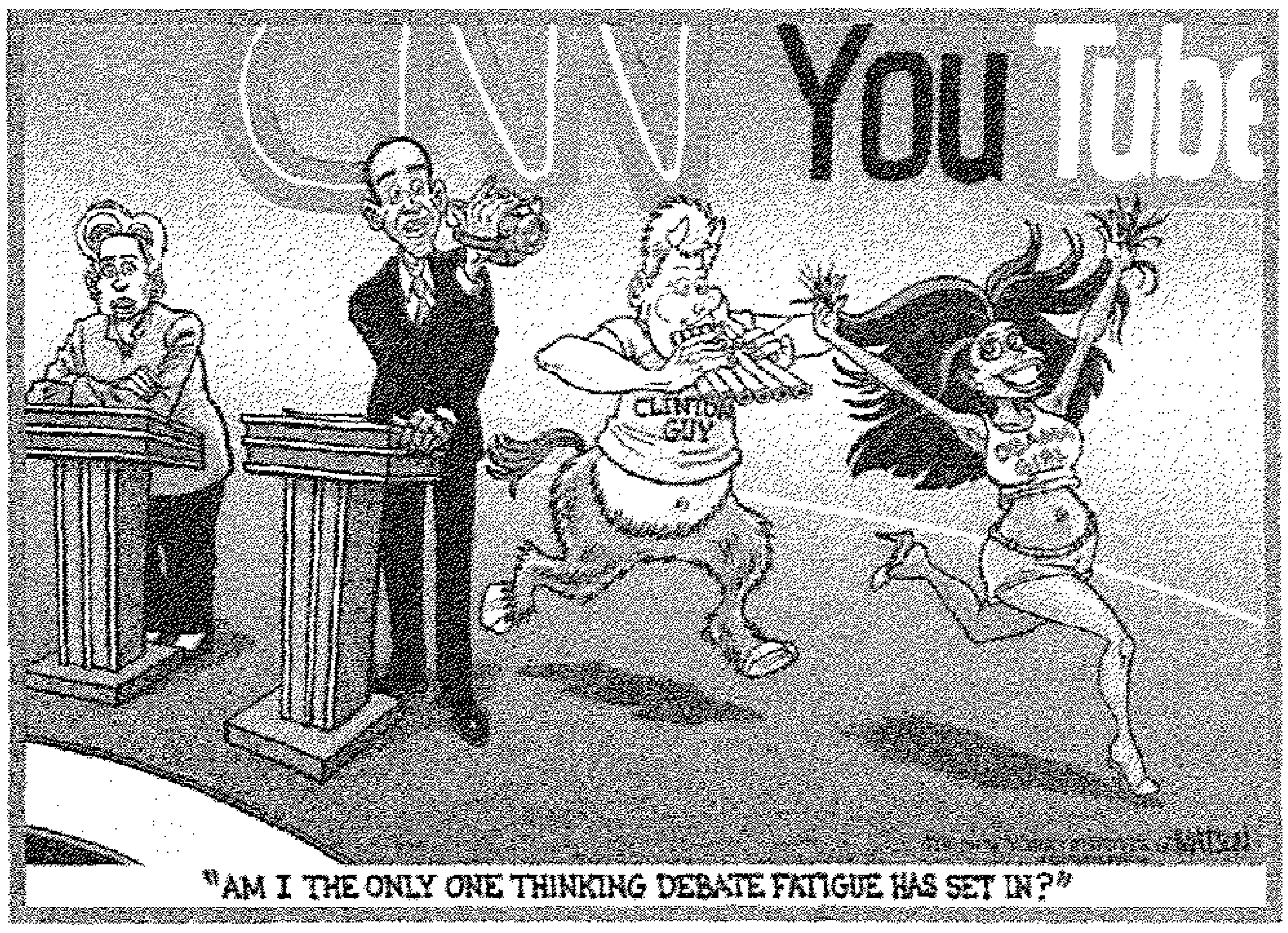
© Tab - The Calgary Sun - هاري بوتر.



© Lailson - Humor World - أسامة (خيال المآته).



Windows Vista - © 2007 Jiho - France



© RJ Matson - The New York Observer - مناظرات «يو تيوب».


أكثر الكتب مبيعًا حول العالم
بين يديك باللغة العربية
غاندي
الاقتصاد عاريا
تقدم شركة «كلمات عربية» لكل قارئ عربي في شتى أنحاء العالم نتاج الفكر الثقافي الغربي وذلك من خلال ترجمة الأعمال الفكرية والثقافية الغربية التي حازت لقب «الأكثر مبيعًا» في جميع الموضوعات مثل: الاقتصاد، والتاريخ، والخيال العلمي، وتبسيط العلوم، إلى جانب سير الأعلام...
تفضلوا بزيارتنا بمعرض القاهرة الدولي للكتاب - صالة ٣ علوي
من ٢٠٠٨/١/٢٥ حتى ٢٠٠٨/٢/٤
كلمات عربية
http://www.kalematarabia.com


ابحث...
اربح...
استمتع!
اربح موبايل NOKIA Nseries كل أسبوع
لمزيد من المعلومات... قم بزيارة YellowPages.com.eg الآن!
YellowPages.com.eg
موقع البحث الرسمي للأعمال في مصر

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 109 - February 2008

مجلة شهرية. العدد المائة وتسعة. السنة العاشرة. فبراير ٢٠٠٨. الثمن عشرة جنيهات




كتبوا...
نهضوا...
سنكتب...
سننهض...



La Boutique
Oriental Weavers
A Division of Oriental Weavers
عضو مجموعة النساجون الشرقيون
لعشاق التميز
8 EL SHAHED ZAKARIA KHALIL STREET, HELIOPOLIS, CAIRO. Tel: 22686690
30 GAMET DAWAL STREET, MOHANDESEEN, GIZA. Tel: 33459661
35 ABU EL FEDA STREET EL ZAMALAK, Giza. Tel: 37374411
ENTERSECTION OF EL NASR., LASELKI., NEW MAADI. - TEL.: 25201054
13 ABBAS EL AKKAD ST., NASR CITY. - TEL.: 22632601
RAMADA 544 EL GEISH, SEEDY BESHR, ALEXANDRIA. - TEL.: 03 - 5551703

السنة العاشرة
العدد المائة وتسعة
فبراير ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد عبد المجيد.. طالب دكتوراة ومعيد زائر بقسم الفلسفة في جامعة إموري الأمريكية.
- انطوني ديفيد.. كاتب سير ذاتية. يصدر قريبا كتابًا بعنوان: «أحزان الشباب».
- جهاد فاضل.. كاتب وناقد لبناني.
- خالد منصور.. مستشار إعلامي بالأمم المتحدة.
- ساري نسيبة.. رئيس جامعة القدس.
- شيرين أبو النجا.. أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
- عمرو حمزاوي.. كبير باحثين بمؤسسة كارنيجي للسلام. واشنطن
- محمد جبريل.. روائي مصري
- محمد رءوف حامد.. أستاذ علم الأدوية في الهيئة القومية للرقابة والبحوث الدوائية.
- محمود محيي الدين.. اقتصادي وسياسي ـ وزير الاستثمار الحالي ـ مصر.
- ناثان براون.. أستاذ بجامعة جورج واشنطن والباحث غير المتفرغ بمؤسسة كارنيجي.
- هبة الله مصطفى عبد العزيز.. مدرس بكلية السياحة والفنادق ـ جامعة الإسكندرية.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى

المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تذكرت غرف كابول الحصينة، التى لم أحتج أبداً إلى النزول إليها، عندما رأيت موقعاً للمراقبين الدوليين فى جنوب لبنان، صار أكوام حجارة فى صيف ٢٠٠٦ تحت التأثير المدمر للقنابل الإسرائيلية الضخمة

رحلة إلى كابول

خالد منصور

كنت قلقاً قليلاً قبل أن أغادر العاصمة الباكستانية، إسلام آباد، فى صباح مبكر من أحد أيام شتاء ٢٠٠٠ بادئاً أول رحلة لى إلى أفغانستان. شعور سيفسح المجال أمام دهشة مستمرة إزاء إجراءات الحماية المفرطة المحيطة بمكاتب ومقار إقامة عمال الإغاثة الأجانب. الآن لم أعد صحفياً، لم أعد مراسلاً إخبارياً حراً من تلافيف البيروقراطية. بت أعمل مع مؤسسة كبيرة تقدم المساعدات الإنسانية ويعمل بها الآلاف فى شتى أنحاء العالم.

فى أحيان كثيرة تصير حواجز الأمن فقاعة كبيرة يعيش داخلها هؤلاء العمال والموظفون الأجانب، الذين صرت أنتمى إليهم الآن. نعيش خلف أسلاك شائكة على أسوار مرتفعة ووراء بوابات يقف أمامها وبجوارها حراس يشبهون فى سلوكهم جنود الأمن المركزى الذين يقفون أمام السفارات فى القاهرة. يقفون فى بعض وجل ودهشة أو لا مبالاة وتعب وجوارهم حواجز وظيفتها أن تمنع اقتحام السيارات للمكان قبل أن يجرى تفتيشها وأحواض زهور تقف على قواعد خرسانية مكعبة تلتهم نصف الرصيف لتعيق آثار الانفجارات القريبة وزجاج مقاوم للتحطم إلى شظايا. وفى البيوت التى يقيم بها عمال الإغاثة الأجانب (دور ضيافة تابعة لمنظماتهم) وكمهرب أخير إذا اقتحم أحدهم المبنى - رغم كل هذه الاحترازات الأمنية - توجد غرف محصنة ضد الشظايا والقنابل الصغيرة تحت الأرض ينزل إليها بسلالم ولها أبواب مدعمة وبها مخزون من مياه الشرب والطعام المعلب والبطاريات الكهربائية تكفى عدة أيام لنزلاء المكان.

تذكرت غرف كابول الحصينة، التى لم أحتج أبداً إلى النزول إليها، عندما رأيت موقعاً للمراقبين الدوليين فى بلدة الخيام فى جنوب لبنان، صار أكوام حجارة فى صيف ٢٠٠٦ تحت التأثير المدمر لعديد من القنابل الإسرائيلية الضخمة التى سقطت على الموقع وأحالته وغرفه الحصينة إلى حطام. كان التعرف على جثة أو اثنتين من بقايا المراقبين الأربعة التعساء صعباً، إذ سحقتهم كتل الخرسانة التى كانت مكلفة بحماية أجسادهم.

ربما توفر هذه الحماية الفائقة (ولكن غير الكفء فى أحيان) احتياطاً ضد هجمات إرهابية أو المئات من طالبى العمل أو المتظاهرين المنفعلين إثر حادثة أو أخرى. وربما تتيح هذه الحماية إمكانية العمل فى مناخ وادع يتناقض كثيرا مع البيئة المحيطة بضجيجها وإلحاحها وفقرها وشظف عيشها. ولكن هذه الحماية أيضاً تحرمنا من أن نرى المجتمع الذى نحاول أن نساعده، معزولين عنه مضاعفة بسبب الحاجز اللغوى.

عندما وصلت إلى كابول فى شتاء ٢٠٠٠ لم يكن عديد من الأجانب قد تعرضوا بعد للخطف والقتل والارتهان فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر فى أفغانستان. كانت أكثر الذكريات طزاجة عن التهديدات الأمنية أن أجنبيا يعمل بأنشطة الإغاثة أطلق عليه النار فى عام ١٩٩٨ بعد أن أخطأ طريقه إلى داخل مظاهرة كانت تسير فى العاصمة الأفغانية احتجاجا على صواريخ أمريكية انهمرت على البلاد عقب تفجير إرهابى أطاح بسفارتى واشنطن فى نيروبى ودار السلام وقتل عشرات وجرح آلاف. مسلسل الثأر بين الحكومة الأمريكية والجهاديين (القاعدة أو غيرها) كان قد بدأ مباشرة عقب نهاية الجهاد ضد الشيوعية فى أوائل التسعينيات وعودة الجهاديين مما اعتقدوا أنه هزيمة الدب الروسى ليلتفتوا إلى «الشيطان» الأمريكى الذى كان يتجول فى الشرق الأوسط طوال عقود قبل غزو السوفييت الأبله لأفغانستان.

كانت كابول مقصد شباب أوروبا الفارين من حضارة رفضوا استهلاكيتها وميكانيكيتها فى الستينيات ورفعوا ضدها شعارات حرية فكرية وجنسية. كانت المدينة محطة قبل أخيرة فى طريق حج ينتهى فى نيودلهى. طريقٌ اندثر مع سقوط شاه إيران ودخول جيش السوفييت إلى أفغانستان فى عام ١٩٧٩. تلك الكابول، التى كانت توفر الماريجوانا والحدائق والفنادق الرخيصة لشباب السياح الغربيين والأفلام الحديثة والحياة الحرة نسبياً للباكستانيين، صارت نسياً منسياً.

ما زالت التلال المحيطة بها نفس التلال وإن اختفت أشجار وغابات تحت جنازير الدبابات والحاجة إلى وقود التدفئة.

حلقت طائرتنا الصغيرة فوق المدينة على علو شاهق عدة دورات ثم بدأت هبوطاً حلزونياً سريعاً كاحتراز أمنى ضد الصواريخ الطائشة أو المقصودة. عندها شعرت لأول مرة بدوار الجو، بيد أننى تمالكت نفسى حتى ضربت عجلات الطائرة المطاطية مدرج المطار الأسفلتى المتشقق.

نحن فى عصر الطالبان الذين أمسكوا بزمام ما تبقى من أفغانستان فى منتصف التسعينيات بعد عشرين عاما من الاضطراب السياسى والنضال والجهاد ضد السوفييت والحرب الأهلية الدموية بين الأشقاء. ونحن فى بلاد حظر تجول يبدأ فى التاسعة مساءً (معظم عمال الإغاثة يخضعون لحظر تجول يبدأ فى الثامنة مساءً). وصلنا فى الصباح وفى العصر قررت أن أذهب إلى الشارع التجارى الرئيسى والذى يدعى شارع الدجاج حيث البازار ومحال الأكلمة والسجاجيد الأفغانية والفضة التركمانية وما حولهم من مشغولات يدوية قديمة باعها أصحابها الذين دارت بهم الدنيا كثيراً أو صنعتها النساء والأطفال فى القرى أو فى خيامهم إذا كانوا من الرحل.

يجب علينا للخروج من دار الضيافة التابعة لمنظمتى أن نستقل إحدى السيارات المخصصة مع سائق أفغانى. هذا أيضا جزء من الاحتياطات الأمنية التى تشمل نصائح مشددة ضد السير كثيراً فى الشارع أو استقلال سيارات الأجرة. كنت قد طلبت سيارة من سيارات المكتب للخروج إلى شارع الدجاج مع زميل إيرانى تعرفت عليه فى الطائرة ولكن سوء تفاهم أدى إلى وقوفى مع مجتبى داخل المبنى بجوار البوابة الرئيسية نتسول الركوب مع أى سيارة رسمية. زميلة ألمانية تدعى ك. نظرت إلى بنصف اهتمام بدا مصطنعاً من مقعد القيادة وقالت أنها ذاهبة للعب التنس فى مقر إقامة منظمة فرنسية ويمكنها أن تقلنا إلى شارع «الدجاج».

- سائقو التاكسى هنا لصوص، قالت كأنها تلفظ حقيقة بديهية لا يجهلها سواى، أنا الزائر للمرة الأولى إلى عاصمة الأفغان.

- تعنين أنهم يبالغون فى محاسبة الزبائن، رددت بعفوية.

- لا. إنهم يضاعفون الأجر عدة مرات. عندما اضطررت ذات مرة لأن أستقل تاكسياً من المطار طلب منى السائق اللص أضعاف ما يتقاضاه لنفس المشوار من المحليين[1].

- ولكن يا عزيزتى ك. الفارق كله لا يعادل دولارين أو أقل على الأرجح وربما كان هذا السائق هو الفرد الوحيد الذى يعمل فى عائلة ضخمة فيها عشرون آخرون يعتمدون عليه!

واصلنا الحديث فى السيارة.

- ماذا تعنى؟ أتريد أن تبرر النصب؟ ثم إن وجود نظامين أو ثلاثة أنظمة للأسعار يفسد السوق تماماً وهذا سيكون سبباً فى عدم تطور اقتصاد السوق هنا. فى ألمانيا لدينا نظام واحد للأسعار للمواطنين وللزوار (لاحظت أنها استعملت كلمة «المواطنين» للدلالة على أبناء وطنها وليس كلمة «المحليين» التى تشير بها للأفغان).

كانت محقة، نظرياً، بيد أن النظريات فى أغلبها جافة لا تقيم الأود ولا تطعم الأطفال فى الحال بل تعد بالرخاء فى المستقبل (سواء كان هذا المستقبل فى الجنة، أو فى تمام الشيوعية أو فى «نهاية التاريخ» مكللة بنصر للرأسمالية). أو ربما امتعضت من أفكارها ببساطة لأننى «طيب» كما تقول أمى (والطيبة تستدعى فى بلدى مصر وصف البلاهة - فيقال كثيرا «طيب وأهبل»). صديق لم أعد أتجاذب معه خيوط الحديث أو الصداقة قال لى ذات مرة بعد خلاف مشابه على البقشيش لعمال فندق فى واحة فى الصحراء الكبرى أن «رهافتى» المبالغ فيها تصور لى أننى أساعد الناس، بينما هى فى الحقيقة تفسد قدرتى على النظر الموضوعى إلى حقائق الأشياء. حسناً إذن فلأقبل نفسى على علات هبلها وطيبتها وفساد قدرتها على الموضوعية ولكنى مصر على موقفى.



توقفت ل. أمام شارع «الدجاج». نزلت أنا وصديقى مجتبى من المقعد الخلفى. نظرت إلىّ عبر ضابط أمن أسترالى كان يجلس بجوارها فى المقعد الأمامى قائلة أن علينا الانتظار فى تمام السادسة مساءً فى نفس المكان كى تقلنا عائدين إلى دار الضيافة بعد أن تنتهى من لعب التنس. لم تستغرق الرحلة كلها بالسيارة التويوتا البيضاء السائرة ببطء تفرضه حفر الطرقات سوى عشر دقائق. اضطرت ل. للإبطاء قليلاً خلف سيارة نصف نقل تقل حوالى خمسة من الطالبان المسلحين فى صندوقها الخلفى. ضربتهم الدهشة ومشاعر الاستهجان بوضوح عندما تبينوا أن هناك ثلاثة رجال يجلسون فى السيارة السائرة خلفهم وامرأة تقودها. أخذوا يشيرون إلينا مبتسمين بصورة كأنها تقول: «يا أيها المخنثون، لماذا تقود سيارتكم امرأة؟» وانفعل أحدهم وهو يحث الأسترالى الجالس فى برود فى مقعده أن ينتقل إلى مقعد القيادة.

كان من المستحيل فى معظم الأوقات وفى كل زياراتى اللاحقة أن أتمكن من إجراء حوار مفيد أو عميق لأى من الطرفين مع أى من الطالبان. لم تكن هناك مساحات مشتركة بيننا فى حقيقة الأمر. شباب فى أواخر العقد الثانى وأوائل الثالث هجروا مدارسهم فى أفغانستان وباكستان فى أوائل التسعينيات وحملوا السلاح من أجل أن يفرضوا نظاماً يعتقدون أنه إسلامى خالص على بلد مسلم كانت تتناوشه من كل الجهات فصائل المجاهدين الدموية. حياة الطالبان تأكيد لرجولة ذكور الباشتون (ومعظم الطالبان من هذه القبيلة) وتمجيد للسلاح وتقديس لمفهوم ضيق جامد عن الدين وتبجيل للجهاد المسلح والعنف. وهى كلها أمور لا تعنينى.

قلت لزميلتى ل. ألا تبالى بالعودة لأننا سنقطع الرحلة القصيرة عائدين على أقدامنا. نظرت إلىّ بعينى أم قد ملت عجز صغيرها عن فهم الأوامر الواضحة. غيرت ل. وضع عصا التروس فى السيارة وانطلقت دون أن ترد علىّ.

كانت السوق مهجورة. لا كهرباء. يدل على غيابها منذ مدخل الشارع صوت وشيش مولدات كهربائية صغيرة معظمها حمراء اللون ورائحة العادم الكربونى المنبعث منها. بعض أصحاب محال السجاد ينتظرون حتى نقترب قبل أن يجذبوا حبلاً قصيراً يشغل المولد - ربما توفيرا للوقود. برؤوس محنية كنا ندخل إلى المحال الواطئة الأبواب.

رائحة قوية للمطرزات التركمانية بأحمرها القانى وأخضرها الداكن وأصفرها الزاهى وأزرقها الكحلى - مطوية فى أكوام يصل بعضها إلى السقف. ورود كبيرة فى تصميمات فرحة. صعب على أن أتخيل كيف خطر هذا الاشتعال اللونى على مخيلة النساء (وأحيانا الأطفال) الذين طرزوا أو نسجوا هذه القطع البديعة فى بلد اختفت غاباته كلها أو تكاد وضاعت الخضرة والصفرة والحمرة والزرقة تقريبا لتستحيل ألوان الواقع إلى درجات من الرمادى تنتهى بالأسود. رائحة قوية تقترب من العطن ولكنها ليست كذلك. رائحة الزمن على مطرزات وسجاجيد لم تتحرك من مكانها منذ مدة طويلة. رائحة الكساد كانت.

وبعد ساعة من التجوال بين المحال وعدة أكواب من الشاى الأخضر غير المحلى المصحوب بطبق زجاجى صغير به سكاكر ملونة يمكن أن تضعها تحت لسانك لتكسر حدة الشاى المر، صرنا السائحين الأجنبيين الوحيدين فى السوق وربما المتسوقين الوحيدين. حتى النسوة المتسربلات ببراقعهن واللاتى كدنا نصطدم بهن عندما اندفعنا ونحن نضحك من نكت تبادلناها إلى داخل محل فضيات تركمانية، كن بائعات لحليهن ولسن مشتريات لحلى جديدة.

تسمر مجتبى عند المدخل بعد أن كدنا نتلامس مع النسوة الواقفات فى الداخل واللاتى تميزن عن متسولات شوارع كابول ببراقع مكوية من خامات يبدو ارتفاع ثمنها النسبى ودقة صنعها. سحبنى من مرفقى بقوة لنترك المكان لهن.

- صدقنى نحن لا نريد أن نكون مع هاته النسوة داخل المحل إذا فاجأنا الطالبان، همس مجتبى.

انتظرنا فى الشارع قليلا نراقب المارة ويراقبوننا.

اشتريت سوارا فضيا دقيق الصنع - لكن فى بداية قبلية محببة - من أجل زوجتى. لم يكن هناك مولد كهرباء لدى هذا البائع الجاد السحنة، المعتمر طاقية مطرزة زاهية الألوان ومشقوقة من الأمام مثل معظم طاجيك كابول، لذا قام بإخراج بضاعته على مفرش تركمانى أحمر مطرز بورود كبيرة إلى الرصيف الضيق حيث جلسنا على مقعد خشبى طويل نقلب فى الحلى. معظمها مشغولات هلالية الشكل تعلق فى سلاسل على الصدر أو توضع تيجانا على الرأس، تربط أحزمة على الخصر، تلبس أساور حول المعاصم أو تعلق أقراط فى الآذان. بصيص شمس راحلة فى وقت انتصف بين العصر والمغرب انعكس قليلا على فضة الحلى المصفرة بينما كانت معظم المحال تبدأ طقسا حزينا وهى تغلق أبوابا ربما لم يمر منها متسوق واحد فى هذا اليوم. مر بعض الطالبان وعصى فى أيدى معظمهم ومدافع رشاشة مترنحة على جوانب قلة. عيونهم مكتحلة ورؤوسهم تعتمر عمامات سوداء حريرية ونظرة هادئة فى قسوتها وتصميمها تكسو وجوههم العشرينية.

سوق تعيش حالة حداد معلن غير معروف حتى متى سيستمر، سوق كئيبة وخاصة لمن اعتاد مثلى على أسواق راولبندى ودلهى والقاهرة وحتى فى نيويورك.

أسواق راولبندى فى باكستان ودلهى فى الهند تكتظ أحيانا بالناس حتى يخيل إليك أنك لن تشترى شيئا ولن تعرف أن تعود من حيث أتيت. يتكاتف الناس ويحتكون كثيراً ببعضهم البعض. شكت لى صديقة إيطالية كانت تزور راولبندى معى قبل ذهابى إلى كابول تلك المرة أن عديدين قرصوها بعنف فى مؤخرتها ذلك الصباح الذى قضيناه بالأسواق. وكان خان الخليلى ساحرا بحاراته المتفرعة وشارع المعز وجوهر القائد حتى أحالت المنطقة يد التجديد والتحديث الحديدية إلى حفائر مستمرة لسنوات لم تنته بعد (وأنا أكتب الآن فى أواخر عام ٢٠٠٧) الخان قادر دائما على دفع الهدوء إلى النفس طالما دلفت إلى شوارع جانبية وخاصة تلك غير التجارية. وفى نيويورك لا أفضل من التكاسل فى صباح أحد فى أسواق البق - ويدعونها هكذا ربما تقليلا من شأنها - حيث تباع الكتب والملابس والأدوات الكهربائية والتحف المستعملة والرخيصة.

فى كل هذه الأسواق هناك مساحة للسير، حتى لو تلاحما. ولتدخين الأرجيلة والوجبات السريعة والبطيئة وأنت محاط بسياح مندهشين ونسوة متلفعات بملاءات سوداء وشباب وبنات بخليط من الـ «تى شيرتات» الملونة والبنطلونات الجينز والرجال بقمصان مترية أو جلابيب أو شورتات، ودراجات وعربات يد صغيرة محملة ببالات الأقمشة والبضائع. زحام يصم الأذن بضجيجه ويقتحم العين مالئها باندفاعاته.

أين هذا من الصمت الحزين ولون الرماد الجاثم على شارع الدجاج فى قلب كابول.

فى طريق العودة إلى دار الضيافة كان سائق التاكسى المرح يتحدث بعربية نصف طليقة قادمة من سنوات قضاها خلف مقود آخر فى سوريا والعراق. لمح بعض عدم تصديق فى مرآته فاستدار إلىَّ وأخرج حافظته وأرانى رخصة قيادة سورية منتهية الصلاحية عليها صورته.

مشهد النساء فى شوارع كابول الحزينة أو بالأحرى اختفاؤهن القسرى منها سواء فى بيوتهن أو تحت براقعهن هو ما جعلنى مشدوهاً فى كابول يومى الأول. تسرع النساء فى خطوات قصيرة تحت «الشادور» أو «البوركا» كما تدعى بلغتى الدارى والباشتو[٢]. معظم الشادور أزرق زاه وبعضه أصفر فاقع وهناك أسود وألوان أخرى. كثيرات تجرجرن ذيولاً متربة لهذا الرداء غير الإنسانى[٣] وبعضهن تجذبن الذيول القماشية أو يتركنها لقبضات أطفالهن الحفاة وهن يتوقفن أمام السائرين طلبا للصدقة. وعندما ترغب إحداهن فى عبور الطريق تجذب القماش الذى يستر وجهها لتشد الشبكة التى تغطى عينيها لأسفل وتنظر يمنة ويسرة ثم تعبر. معظم النساء اللاتى رأيت فى شوارع كابول والقرى القريبة منها كن فى الشوارع لأنهن يشحذن أو يشترين أشياء قليلة ويسرعن فى طريقهن. كثيرات منهن كن يتوقفن عادة أمام مطاعم المشويات بالقرب من سينما بارك (التى توقفت عن عرض الأفلام من زمن طويل) فى وسط كابول أو قريبا من مقار ومكاتب منظمات دولية أجنبية عاملة فى البلاد.

خارجا من مطعم هيرات فى قلب كابول بعد وجبة دسمة من الضأن المشوى ودهنه السائل على قطع اللحم الطرية واللبن الزبادى الذى أطفأ قليلا من حدة شرائح الفلفل الحارقة والبصل النافذة، أمسكت امرأة من المتسربلات كما صرت أسميهن بمرفقى بقوة فاجأتنى. دفعها رجل عابر بعيداً عنى كأنها حيوان أليف ارتكب خطأ ما ثم عنفها بالباشتو دون أن ينظر ناحيتى إطلاقا. فتحت باب السيارة ولكن متسولة أخرى مرقت بينى وبين الباب وأنا آتخذ مقعدى مانعة إياى من إغلاقه. تمنيت كثيرا فى حياتى أن أختفى فجأة وبسرعة أو تنشق الأرض وتبتلعنى. هذه الأمنية كانت تشتد وأنا طالب صغير فى مدرسة أم المؤمنين الإبتدائية بمدينة المنصورة فى دلتا مصر عندما يفاجئنى مدرس قاس بسؤال لا أعرف الجواب له ولكن أعلم عقاب الجهل به. تمنيت مع هذه المتسولة أن أختفى فى سحابة من الدخان مثل الجنى فى القصص القديمة الساذجة. لم يكن معى أى مال ولم أستطع حتى أن أعتذر لها بلغة تعرفها أو أطلب مالاً من السائق لأنه كان قد سارع بالخروج من المكان تاركة إياها واقفة فى مكانها. وراحت مناشداتى بالتوقف ضحية سرعته وضجة محرك السيارة وعدم إصرارى بما يكفى.

بعد يومين فى كابول يشعر المرء بالتأرجح بين حيوات متباعدة فى نفس المدينة: متحركا من مكتب متطور مزود بكل أجهزة الاتصال بالأقمار الصناعية إلى مقر إقامة نظيف مجهز بتوصيلات الإنترنت وأجهزة التليفزيون بمحطات فضائية بالإنجليزية والفرنسية والعربية إلى مجمعات إيواء مفزعة لآلاف النازحين الناحلة أجسادهم من الجوع والتعب المفتقرين إلى أبسط مقومات أبسط حياة إلى مخيمات البدو الرحل فى مراع مؤقتة خارج المدينة ينسجون مطرزاتهم ويرعون جمالهم بينما يمر الطالبان فى سياراتهم ذات الدفع الرباعى وأسلحتهم البارزة من النوافذ الداكنة.

«كابول الآن رهينة»، قال لى حميد مضيف بار دار الضيافة.

وأضاف: «كنا أفضل قبل أن يسيطر الطالبان على هذه المدينة. نعم كانت هناك حرب قاسية طوال أكثر من ست سنوات. نعم كانت هناك صواريخ تنهمر يوميا من كل الاتجاهات. ولكننا كنا أحراراً».

عبرت سيارتنا ببطء مدخل دار الأيتام الكبيرة وأغلق البوابة المتهالكة فى صرير مدوى حارس عجوز. أربعة مبان يكسوها طلاء أبيض شاحب ويعيش ويدرس فيها ٤٥٠ من الأطفال. الصغار حتى السابعة يدرسون سويا، بنات وأولاد بعيونهم الواسعة وما تبقى من فضول ودهشة راح معظمها مع مرارة اليتم وحديدية نظام الدار. من يتعدون السابعة يتم فصلهم عن

أسواق راولبندى فى باكستان ودلهى فى الهند تكتظ أحيانا بالناس حتى يخيل إليك أنك لن تشترى شيئا ولن تعرف أن تعود من حيث أتيت

بعضهم البعض. فالأولاد فى فصول والبنات فى أخرى. قاعات الدرس عارية سوى من حصر بلاستيكية يتجمع عليها الأطفال فى حلقات ويعود إليهم صدى أصواتهم الرفيعة من الحوائط والأسقف العارية يكرر عليهم آيات القرآن بالعربية. يتعلمون الكتابة بأحرف طفولية مائلة على سبورات من طلاء أخضر على الحائط فى مقدمة الفصل. يجلس المدرس متربعاً على الأرض فى المقدمة بزى أفغانى تقليدى وتقبع بجواره عصا رفيعة طويلة. تفاخر مدير الدار قائلا: «ندرسهم أيضا مبادئ الحساب والعلوم الاجتماعية». مائة وعشر بنات وثلاثمائة وأربعون صبيا يقيمون فى هذه الدار الجرداء حديقتها من الخضرة والالعاب، ومن البهجة.

فى المطعم الكبير تتصاعد الأبخرة من قدور ضخمة وطهاة يقلبون عصيدة فيها بمغارف حديدية طول يدها يزيد على المتر بينما سواد السناج يلف القدور ويترك بصماته على السقف والجدران. الأطفال بعيونهم الزائغة يتوقفون عن ازدراد طعامهم عندما ندخل مع المدير ويقولون فى صوت واحد «السلام عليكم». رفض المدير أن تدخل معى زميلتى ك. غرف نوم الأطفال لأنها «كافرة» ولا يجب أن يسمح لها بلقائهم. بينما يمكن السماح لى لأنى مسلم. ابتسم المدير العشرينى كاشفا عن أسنان مفلوجة فقلت له: «ولكنى رجل وهى امرأة ونحن الآن نزور قسم الفتيات». فرد دون كثير تفكير قائلا: «المدير من حقه أن يمنع ويسمح لأى زائر يشاء الدخول إلى المبنى». ويبدو أنه تذكر حجة إضافية قوية حيث أضاف بابتسامة ماكرة: «ثم إنك أخ مسلم رغم هذه» وهو يشير بيده الى ذقنى الحليقة ثم يمسد بنفس اليد لحيته الطويلة غير المهذبة.

فى الحقيقة لم أغضب كثيراً لاجل السيدة ك. التى كان غرورها وصلفها مهيناً بين الحين والاخر لزملاء أفغان فى المكتب. يفتقر بعضهم إلى الكفاءة لا شك وآخرون يتمتعون بقدرة فائقة على التكاسل ولكن نسبة الفاشلين والكسالى بين الزملاء الأفغان لا تختلف كثيراً عن نفس النسبة بيننا نحن الأجانب الذين نتقاضى رواتب هى أضعاف ما يتقاضاه الأفغان وعشرات أضعاف راتب موظف الحكومة الأفغانى (هذا إذا تلقى مثل هؤلاء الموظفين الصابرين رواتبهم بانتظام).

داخل الغرفة التى سمح لى المدير الطالبانى بدخولها كان الفتية والفتيات زائغى النظر شاحبى الأوجه، ملطخين ببقع بنفسجية من دواء رخيص لمعالجة مرض جلدى متفش[٤] بين أطفال أفغانستان. وهتفوا جميعاً، حوالى العشرين منهم بصوتٍ واحدٍ خفيض ومرتعش: «السلام عليكم» عندما دخلنا الغرفة.



Alex Majoli-Magnum Photos

جالسين كلهم كانوا على الأرض وأيديهم الصغيرة بأظافر متسخة تغمس لقماً من الخبز فى صحون بها شراب عدس. أسرة مستشفيات تتراص بجوار الحوائط وعليها ملاءات مهترئة ولكنها نظيفة. لا كهرباء، لا مياه جارية، لا شبابيك تغلق، لا أغطية ثقيلة تقى من برد الشتاء القارس فى كابول، لا ألعاب، ... أطفال وأسرة وأغطية وجدران ومشرفون. أمر صعب ولكن الأقسى هو أن ترى أطفال كابول فى الشوارع.

عدت إلى نفس دار الأيتام بعد عامين من زيارتى الأولى (وشهور ثلاثة من تفكك قوات الطالبان فى وجه قوات التحالف تحت القيادة الأمريكية) بصحبة وفد رفيع المستوى من منظمة إغاثة. دخل ركب السيارات الضخمة إلى الفناء حيث اصطف مئات الأطفال فى ثياب ملونة ووجوه شاحبة (من أثر سوء تغذية) وانفعال زائد مع وجود كل هؤلاء الضيوف الأجانب المهمين واللطفاء والمبتسمين والمتبوعين بكاميرات يحملها رجال ونساء يتدافعون بين بعضهم البعض ومع الآخرين من أطفال وكبار ليحصلوا على أفضل زوايا التصوير وأقواها تأثيراً. بدأت مجموعة من الأطفال تغنى وراء ميكروفون محمول فى يد طفلة تقف أمامهم وتغنى بصوت أقوى منهم جميعاً، أغانى وطنية عن أرض الأجداد. وتقافز صبية فى مجموعة أخرى بينما أدى مراهقون مجموعات من حركات الكاراتيه فى استعراض من أجل الضيوف ثم انهالوا على الأرض يؤدون تمارين ضغط. عشرين مرة على الأقل. نحيفون كلهم تتقوس ظهورهم مع كل هبوط لمرافقهم نحو الأرض حتى تعتقد أن بطونهم ستلمس التراب المبتل ببعض الماء ولكن أذرعتهم الرفيعة كالعصى ترفع الأجساد النحيفة ببطء إلى أعلى مرة أخرى وهكذا. غادرت أرض الاستعراض الحزينة إلى دورة مياه سادرة فيها الروائح الكريهة ولا مياه سوى دوائر من بول عطن على الأرض.

وصلنا إلى الغرف التى كانت معدة لزيارة وفدنا رفيع المستوى. الأرض مجلوة تماما تتهادى منها رائحة مطهر قوى. فى غرفة المطعم وقف الأطفال صفاً فى جانب يحملون صحون طعامهم البلاستيكية بانتظار الحصول على وجبة الغداء. قدران كبيران ممتلئين بمعكرونة ولحم وخبز. يأكل الأطفال واقفين أمام مناضد تصل إلى أسفل صدورهم. ابتسم الزوار وربتت امرأة على رأس طفل يتيم بينما قبلت أخرى، أكثر عاطفية، طفلة يتيمة وأدلى المسئول الكبير بتصريحين إلى شبكة تليفزيونية أمريكية وعدت بأنها ستبث المقابلة مساء اليوم نفسه.

توجهت إلى الدور الثانى مع الوفد الذى اتجه يساراً فى الممر إلى غرفة وضعت بها مرطبات وفواكه للوفد. اتجهت يمينا لألقى نظرة سريعة على الغرفة التى زرتها منذ عامين تقريبا عندما رفض المدير الطالبانى أن تدخل زميلتى السيدة ك. (كانت قد غادرت أفغانستان إلى بلد آخر يحتاج إلى المساعدات). كانت الغرفة قذرة وخالية سوى من أسرة محطمة وعنكبوت ثقيل نسج بيته فى زاوية.

فى الطريق إلى مقاطعة لوجار امتدت لبضعة كيلومترات على يسارنا مقبرة للحافلات تتراص فيها هياكل عارية لمركبات لابد أنها قطعت آلاف الكيلومترات فى شوارع كابول فى شيوعية السبعينيات وعقود الملكية السابقة. تم تجريد الحافلات من كل ما يمكن نزعه ليدخل فى سوق تجارة الحديد الخردة التى راجت سنوات فى أفغانستان حتى ذابت مصانعها ومنشآتها الحديدية فى مصاهر بلدان مجاورة للتناسخ مرة أخرى ربما فى صورة أعمدة إنارة فى نيودلهى أو بنادق فى بيشاور. على اليمين مقبرة للبشر براياتها الخضر المتهرئة الأطراف الدالة على رفات شهداء. وكانوا بالآلاف.

توقفنا فى إحدى قرى المقاطعة القريبة من كابول. المنازل مهجورة وبينها حفر عميقة، هى ما تبقى من آثار ارتطام قنابل ثقيلة قال لنا بعض السكان الخارجين ببطء من منازلهم - بعد أن اطمأنوا إلينا - أنها كانت نتاج آخر الغارات السوفيتية على تلك القرية التى اعتادت إيواء عديد من المجاهدين لقربها من العاصمة. معظم السكان غادروا القرية إلى موقع قريب جديد بعد أرض المقابر وبدأوا بمساعدة منظمات اجنبية فى بناء بيوت صغيرة. إلى جوار المقابر كان هناك شاهد حرب آخر، طائرة هليكوبتر فقدت مروحتها وعجلاتها واستراحت على أربعة براميل نفط منزوعة الأبواب والأجهزة الإلكترونية. وبدا هيكل الطائرة مثل بطة قعيدة مجهدة. قال لى أحد السكان أنها كانت تخص مجاهدى قلب الدين حكمتيار زعيم الحزب الإسلامى والقائد المؤثر حتى الآن وسط الجماعات الجهادية الأفغانية. فى سنوات الجهاد الطويلة فى الثمانينيات ظل حكمتيار القائد الأثير لدى السلطات الباكستانية التى تولت سراً نقل السلاح - الممول مناصفة فى أحوال كثيرة بين الولايات المتحدة والسعودية - وتوزيعه على جماعات الجهاد السبع التى تقاسمت فيضان الأسلحة الغربية والأجساد العربية الساعية للانضواء تحت لواء جهاد صار عالمياً ضد جيش الغزاة السوفييت وعملائهم الأفغان الشيوعيين «الكفرة».

أغلب من التقيت من قادة الطالبان كانوا من الصف الثانى أو ما وراءه: قليلو الخبرة، جهلة حتى بكثير من الشئون الدينية، ضيقو الأفق، لا يهتمون البتة بقواعد البروتوكول والتهذيب ناهيك عن الأعراف القبلية الجامدة والمهمة فى مجتمع مثل أفغانستان. ذكرونى أحيانا بطلبة الستينيات فى أوروبا والذين وقفوا ضد آبائهم وضد النظم السائدة. ولكن الطلبة الأوروبيين والأمريكيين رفعوا شعارات ساذجة بعض الشىء عن الحرية والتسيير الذاتى، بينما سعى الطالبان لفرض برنامج كامل لا يقل سذاجة وإن كان يزيد خطراً عشرات المرات بسبب عنفه الدموى المتسربل بثوب دينى صارم طمعا فى نيل حظ الدنيا وثواب الآخرة فى ضربة واحدة.

قلائل من الطالبان كانوا ممن تعدوا الأربعين عندما وصلوا إلى الحكم، ومنهم دكتور ب. الذى كان يعمل فى وزارة الخارجية والذى صافح زميلتى ك. دون تردد (مقارنة بمسئولى الطالبان الآخرين الذين كانوا أحيانا يديرون وجوههم عندما تدخل امرأة أجنبية.) بعد أن وصلنا إلى مكتبه صباح ذلك اليوم المشمس الجميل إلى مبنى وزارى من الطراز السوفيتى. وبعد المصافحة الحارة والابتسامات المغدقة طلب لنا ب. شاياً ومياها معدنية. وفشلنا فى تحقيق الغرض من الاجتماع ولكننا لم نحمل له ضغينة ونحن خارجون من المبنى - لأنه كان فى الحقيقة متعاطفاً معنا ومع معضلتنا الشيطانية. كنا نحتاج إلى تعيين مزيد من النساء. فى ضوء البطالة المرتفعة بين الرجال والنساء لم يكن هناك عائق بل إنها فكرة جيدة. ولكن الطالبان فى أغلب الأوقات كانوا يحرمون عمل النساء سوى فى تدريس وطبابة النساء، وفى نفس الوقت يحرمون اللقاء بين الرجل والمرأة دون وجود محرم. كنا فى موقف غريب. لا يمكن أن يقوم رجال بعملية مسح شامل فى كابول لتحديد المحتاجين من عائلات السيدات الأرامل، إذ من شبه المستحيل اجتماعياً أن يسمح لهم بالدخول وتقصى الأوضاع فى منزل لا يوجد به رجال فى العادة. ومن حق النساء التزاور ولكن لا يمكن تعيين نساء للقيام بهذه المهمة والعمل معنا. معضلة حقيقية فى مدينة كانت بعض الإحصائيات تشير إلى وجود ٣٠٠٠٠ أرملة فيها.

قد تخدعك كابول ببساطة أهلها وكرمهم فى التعامل مع الأجانب وقد تخدعك لأنها قد تبدو بدائية ومتخلفة. ولكنها تخدعك تماماً عندما تبحث فيها عما ليس منها. عندما تبدأ فى قياسها نسبة إلى باريس أو واشنطن أو بيروت أو القاهرة. ساعتها يتبدى الخطل والخطأ كما يحدث فى عديد من الكتب الصحفية. والآن سقطت كابول تماما بالنسبة للعالم الخارجى فى غرف مرايا وسائل الإعلام التليفزيونية والإلكترونية والخطابات السياسية. قلائل هم الصحفيون والباحثون القادرون على منح كابول الوقت والجهد اللازم لعرض أوجه غير تلك الصالحة للفرجة والتسلية (وقد صار الدم والقتل والانتهاك إحدى التسليات التليفزيونية الشائهة فى عالمنا).

فى الثمانينيات كانت الموضة هى تصوير المجاهدين إما على أنهم عودة إلى العصر الذهبى لإسلام قادر وقوى أو على أنهم أحفاد الميليشيات المدافعة عن حقها فى وجه طغيان نظام قمعى مستند على إمبراطورية السوفييت الشريرة. عشرات الكتب والمقالات صار أفضل استعمال لها هو إعادة تدوير ورقها لصنع كراسات للأطفال.

يعترف روب شولتيز فى بداية كتابه أن حياته كانت تمر بمنعطف صعب عندما قرر أن يرحل ليغطى الحرب فى أفغانستان. ويمجد الكاتب[٥] المجاهدين فى الثمانينيات بلغة ووصف أسطورى كأنما يصف محاربى الفايكنج. ورغم أنه كتاب عما حدث فى الثمانينيات من مواجهات بين جماعات الجهاد والجيش السوفيتى إلا أنه لا يتحدث سوى لماماً عن هذا العدو السوفيتى أو عن الأفغان الذين قرروا العيش بل والتعاون مع النظام «العميل».

معظم النساء اللاتى
رأيت فى شوارع كابول والقرى
القريبة منها كن فى الشوارع لأنهن يشحذن
أو يشترين أشياء قليلة
ويسرعن فى طريقهن



Abbas-Magnum Photos

ويكرر ترهات لا يمكن التقاطها سوى على المقاهى أو من الأدلاء السياحيين وما شابه، مثل أن أصل اسم «أفغانستان» هو «ياغيستان» وتعنى «أرض المتمردين أو الذين لا يمكن حكمهم». حسناً، معظم المصادر الأكاديمية تعتقد أن أفغانستان مركبة من شقين: الثانى «ستان» ويعنى أرض فى اللغات الهندو أرية الأصل (ومن هنا أسماء طاجيكستان أى أرض الطاجيك وباكستان أى أرض الأطهار... إلخ.) بينما يشير الشق الأول «أفغان» إلى «الفرسان» أو «مروضى الخيول». ومنذ العصور الوسطى تماهت كلمة أفغان مع اسم قبائل الباشتون التى سرعان ما سيطرت على البلاد لتسحب اسمها عليها كلها بعد أن كانت مقسمة إلى مناطق متعددة مثل إمارة بلخ ومملكة كابول. وظهرت كلمة أفغانستان أول مرة فى كتاب لمؤرخ عربى مجهول صدر فى عام ٩٨٢ ميلادية وهو كتاب «حدود العالم من المشرق إلى المغرب».

ولا يتورع كاتب أخر[٦] مثلاً عن القول بعد أن التقى مع بعض زعماء المجاهدين الأفغان إنهم «يعانون من نفس النقص الواضح فى الموهبة الإنسانية كما هو الحال فى المجتمعات المتخلفة. وغالبا فإن زعماء مثل هذه الأمم يفتقرون إلى العلوم السياسية والموهبة الإدارية والحنكة الاقتصادية والخبرة فى إدارة الأموال وأمور الصناعة. وقد تلقى معظمهم تدريبهم كأطباء ريفيين أو مدرسى إرساليات أو موظفى بريد أو جنود عاديين... إنهم الطبقة العليا للفقراء والتى تصور على أنها الطبقة المتعلمة فى المجتمعات ما بعد الكولونيالية المتهرئة». وعندما يعبر الحدود جنوبا إلى بيشاور يقول: «خذ منهم السيارات والشاحنات التى تزدحم بها شوارع المدينة الضيقة وستكتشف أن بيشاور لم تتغير قيد أنملة منذ زمن كيبلنج[٧]».

بيد أن هناك كتبا أخرى كثيرة (انظر ملحقا فى نهاية الفصل) لا تقع فى فخ العدسات الاستشراقية التى تشوه الواقع تحت وهم التلخيص والتى تلهث فى سعيها المحموم إلى المغامرة مع المجاهدين المسلحين إلى حد قيام بعض هؤلاء الكتاب بالاشتراك الفعلى مع المجاهدين فى إطلاق النار على الشيوعيين. ولا يقتصر الاستشراق أو حب المغامرة الحمقاء على الغربيين، فمن ينسى الصحفى العربى التليفزيونى الهمام الذى زار صحراء قندهار مع وفد إعلامى قبل بداية الحرب على الطالبان فى عام ٢٠٠١: ناوله أحد جنود الطالبان سلاحه فأخذ المراسل السمين يتقافز فرحاً فى الصحراء وهو يطلق زخات بعد زخات من المدفع الرشاش فى الهواء.

بعد عامين من أول زيارة لى وصلت مرة أخرى إلى كابول التى صرت أعرفها أفضل قليلاً. كان الشهر فبراير ٢٠٠٢ وكانت القوات الغربية بقيادة أمريكية قد أطاحت بالطالبان بعد أسابيع من تفجيرات نيويورك الإرهابية التى قتلت ما يقل قليلاً عن ثلاثة آلاف شخص فى برجى مركز التجارة العالمى. الولايات المتحدة اتهمت أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة بتخطيط وتنفيذ التفجير ولم تنكر القاعدة أو بن لادن هذه التهمة.

وصلت المدينة برفقة مسئولٍ دولى كبير. فى المطار كان هناك استقبال رسمى بسيط اندفع بعدها موكب السيارات الطويل إلى مشروع تديره النساء فى حى مدقع الفقر فى المدينة. ضباط الأمن المرافقون وبعض موظفى الإغاثة وستة صحفيين وكاميرات تليفزيونية كانت كلها تفزع النساء المتسربلات ببراقعهن فى جوانب الحديقة الداخلية المتربة للبيت الصغير.

تنظر صحفية صغيرة السن ومتحمسة حولها فى عدم تصديق. تحيط بها بعض النسوة وببطء تقوم واحدة تلو الأخرى برفع البرقع عن وجوههن والقائه خلف ظهورهن. وتشير الأولى إلى رضيعها القلق على صدرها وتقول «بيبى جول» (البنت زهرة) ثم تشير بإصبعها إلى نفسها وتقول «سكينة» وتتدافع النسوة كأنما فاضت مياه على سد جاثم: وأنا «....» وأنا «.....» وتتناثر أسماؤهن فى فضاء الحديقة الجرداء سوى من ظل تفرشه أفرع شجرة عطشى. تهتف النسوة بأسمائهن واحدة بعد الأخرى والصحفية بسرعة عصبية تخربش الأحرف اللاتينية على اوراقها وبعد الزيارة تسعى للتأكد من الهجاء الصحيح من مرافق افغانى ومعنى بعض هذه الأسماء. وفى المقالة التى نشرتها بعد أسبوع ترسم صورة نساء يردن أن يعرفهن العالم!

لن تقرأ هؤلاء النسوة

مقالتها أبدا على الارجح. ولكنهن ربما في مساء لقائهن بنا حكين لأزواجهن وأطفالهن عن المرأة البيضاء الأجنبية التي كتبت أسماءهن وهن الآن يأملن أنهن قد يتلقين حصص إغاثة أكبر عوضا عن الأرغفة الخمسة اللاتي يحصلن عليها لكل عائلة يوميا. وربما تكون الزيادة في حصة الإغاثة من أجل العيد المقبل فقط وليست كل شهر. وحتى لو كان الأمر هكذا، فلا بأس.

كم من الفقراء الأفغان نطقوا أسماءهم ببطء وصبر أمام رجل أجنبي أو امرأة أجنبية: من الصحفيين إلى عمال الاغاثة، من السائحين إلى القائمين بالتعداد، ومن الخبراء الأجانب إلى المستشارين... إلخ.

قبع المسئول الكبير على الارض مقرفصا ليتحدث مع ثلاث نساء أفغانيات عبر مترجمة. سألتهن المترجمة أن يتحدثن عن شعورهن وعما يطعمن أطفالهن وكم عددهم. تحلق الصحفيون والمصورون حول المجموعة الجالسة بينما كان مدير عملية الإغاثة السيد م. واقفا بالقرب منهم رهن الإشارة لتقديم المعلومات والأرقام والإحصائيات.

أمام البيت الواقع في حي ضربت نصف منازله قنابل الحرب الأهلية كانت السيارات التويوتا اللاند كروزر السبع تسيطر على الشارع الضيق الذي يشبه وجه مريض بالجدري، نتوءات وتشوهات وحفر، بينما تتلوى مياه المجاري القليلة شبه الراكدة في خطوط متعرجة حول الإطارات الضخمة. ترفرف أعلام صغيرة على صوار معدنية قصيرة في مقدمات السيارات. يعدو رجال الأمن لإخلاء طريق خال ويتقافز صغار الموظفين حول المسئول الكبير ويعدو آخرون إلى سياراتهم وتتململ مواسير عادم للسيارات وتزعق بعضها ثم نمضي في طريقنا إلى المجمع السوفيتي.

كان المجمع السوفيتي أو بقاياه شاهدة حية على الانتصار الأفغاني على السوفييت (بكل معاني كلمة الانتصار ومنها انتصار القبلية على المدينة والريف على الحضر..) انتصار تراه في أفران الخبز الطينية المنتشرة في شرفات المباني السوفيتية الطراز التي تماثل المباني الشعبية المغروزة في أرض معظم مدن مصر منذ الستينيات مأوى لبقايا الطبقة الوسطى، أو المباني السكنية التي ما زالت قائمة في كل الجمهوريات السوفيتية السابقة تقريبا وخاصة كلما ابتعدت عن شرق أوروبا نحو القوقاز وآسيا الوسطى. مبان تشبه الصناديق ذات الفتحات التي كنا نستعملها ونحن صغار لتربية دود قز الحرير.

كان هذا المجمع في كابول سكناً لآلاف الخبراء والدبلوماسيين السوفييت وعائلاتهم في الثمانينيات ولكنه صار في التسعينيات مقرا لإيواء آلاف الفقراء الأفغان النازحين عن قراهم التي صارت ميدان حرب بين الطالبان (وكلهم من الباشتون) وزعيمهم الملا محمد عمر من ناحية والتحالف الشمالي (ومعظمه من الطاجيك) وقائده الأشهر أحمد شاه مسعود آخر وزير دفاع في آخر ما يمكن وصفه بحكومة أفغانية من ناحية أخرى. هذه الحرب الأهلية كانت الوريث المباشر للجهاد الذي ناضل فيه مخلصون ومؤمنون كثر واستغلته أجهزة مخابرات أكثر وصار آخر رقعة في الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق. أذكر ملصقات في شوارع القاهرة في السبعينيات والثمانينيات تحمل شعار «ادفع جنيهاً تنقذ مسلماً» من أجل تمويل الجهاد في أفغانستان. وتلقى الدب الروسي ضربات دامية من المجاهدين بجنيهاتهم المصرية وملايين دولاراتهم الأمريكية والسعودية وغيرها من المصادر العديدة، ولكن بعد انتصار وفرح وجيز انحلت الدولة الأفغانية إلى مكوناتها القبلية والعشائرية والعرقية والدينية الأكثر أصالة من الانتماءات المدنية والحزبية الهشة. وتغولت تجارة المخدرات وانتظمت الأنشطة الإجرامية ووزعت كل أجهزة المخابرات المعنية جواسيس في البلاد وظلت محافظ النقود الإسلامية المتشددة على اتساعها تهطل نقودا ومجاهدين.

أفران الخبز الطينية الصغيرة العائشة على الحطب والأخشاب غطت من شرفاتها ومداخل العمائر الضيقة كل الحوائط والأسقف بطبقات سوداء من السناج. وأضيفت حجارة وقوالب من الطوب غير المتناسق من أجل تصغير الأبواب والنوافذ التي كانت مصممة بطريقة قياسية لا تتناسب مع الجو البارد جدا شتاءً والحار للغاية صيفاً. وعوضا عن المصاريع الخشبية، التي لا بد أنها تحولت في شتاءات سابقة إلى وقود للأفران أو للتدفئة، وضع اللاجئون قماش خيام وبطاطين يغلقون بها الفتحات التي صارت صغيرة.

دورات المياه العامة حفر في الأرض تداريها عن العيون المتلصصة صناديق خشبية لها أبواب تتراص بجوار بعضها البعض. وفي وسط كل صندوق حفرة كبيرة للتبرز بينما يتسرب البول في مجرى محفور في الطين خارجا إلى مجرى أكبر يمر وسط العمائر المكعبة ذات الأدوار الخمسة في طريقه إلى مقلب قمامة في الطرف الآخر من المجمع (كان المقلب وفقا لأحد النازحين ملاعب أطفال فيما مضى.)

وآهٍ من الأطفال. جموع غفيرة منهم مستعدون دائما لتحويل أي شيء وكل شيء إلى مغامرة. ليباركهم الله بجهلهم ويجعله دائما مصدر سعادة لا شقاء. إنهم يجهلون أن هناك حياة أسهل بكثير وظروفاً معيشية أفضل بمراحل على هذه الأرض. لم يروا أبداً مياهاً تنزل من صنابير في المنازل، لم يعرفوا المواقد الغازية، أو فصول المدارس، لم يعرفوا الأسرة، الكتب، كوب اللبن الساخن في الصباح، فناء المدرسة، كراهية المدرسين، الواجبات الثقيلة، متعة اللعب على الأرجوحة ورهبة أول مرة تقود فيها دراجة طالما تمنيت أن يسمح لك بركوبها ... مباركين هم لأنهم لا يعرفون أن هناك عالماً آخر يمكن أن يعيشوا فيه بدلا من هذا المسلخ البشري ذي الروائح العطنة والذي يجثم بجرمه الهائل على الجسد والروح.

يتقافز الأطفال وهم يبعثرون كلماتهم الإنجليزية القليلة علينا ويتوقفون في حركات استعراضية أمام الكاميرات التي لم تعد تبهرهم كثيرا بعد أن رأوا مئات الصحفيين وراءها. المرة الوحيدة التي ناوشهم شعور من الخجل يوما أمامي كان عندما أريتهم صورهم على شاشة كاميرتي الرقمية. صمتوا لحظة ثم انفجروا ضاحكين وجروا بعيداً وأحذيتهم المطاطية المصنوعة من إطارات سيارات مستعملة تنخلع عن كواحلهم بين الحين والآخر. سيمضون عدواً، ربما إلى أمهاتهم أو أشقائهم، ليقصوا عليهم هذه الحكاية الجديدة عن شاشة كاميرا هذا الغريب الجديد. اثنان منهما لم يتركا المكان منشغلين بإشعال نار أمام ما بدا أنه كان خشبة مسرح. قال لي أحد اللاجئين إن هذا المكان كان دار سينما ومسرح. ياالهول ما جرى إذن! سقف البناية ينوء منبعجا إلى الأسفل وخشبة المسرح خالية تماماً سوى من كتابات بفحم أسود على الحائط الخلفي.

مصور فوتوغرافي آخر يواصل التقاط الكادرات بينما أنا ... أنا متعب. أجرجر أقدامي إلى السيارة وأجلس بداخلها وخلف زجاج النافذة اقترب وجه ذلك الصبي الصغير وهو يرفع قلماً تجاهي بينما تقبض يده الأخرى على كراس. فتحت النافذة وأعطيته قلمي فابتسم بامتنان واضح ومضى. كان يتبعني منذ نحو الساعة في دهاليز المكان الذي يضم أكثر من عشرة آلاف شخص، صامت على عكس الآخرين ولا يتزاحم أمام العدسة من أجل أن يدخل في الإطار الذي أصنعه رقميا لحياتهم.

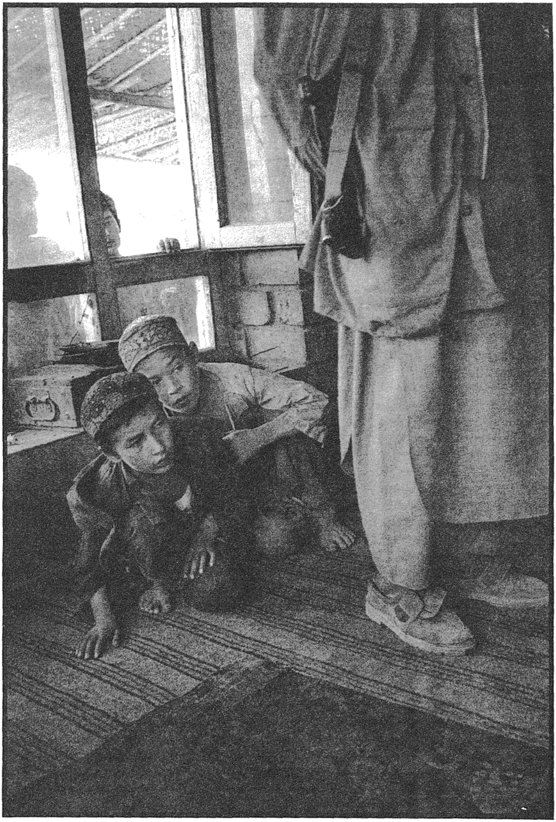
قبل أن أغادر المكان تذكرت كبير اللاجئين بكرشه المكور. لم أره هذه المرة. سألت عنه فقال لي أحدهم بعد شبه حرج إن الرجل اتهم من جانب الإدارة الجديدة بأنه كان صنيعة للطالبان. وربما كان كذلك بالفعل. ربما.

بعد أن غادرت المجمع السوفيتي دون نظرة واحدة إلى الوراء وبعد عدة شوارع طلب مني مصور يعمل مع وكالة مقرها نيويورك أن نتوقف لنصور مزيدا من الأطفال. وفي السيارة قال: كم هم رائعون وطيبون، هؤلاء الأفغان، لقد منحناهم الآن حكايةً سيروونها هذا المساء لعائلاتهم. أليس أمرا رائعا أن نهب لهم بعض السعادة؟

تناول السيد م.، مدير عمليات الإغاثة، غداءه في صمت. كان قد استمع إلى كثير من المديح وبعض النقد من المسئول الكبير الزائر. يريد المسئول أن يكون هناك توازن بين الرجال والنساء المستفيدين من المشاريع والعاملين عليها، ويجب تعيين مزيد من النساء في المكتب ويجب مساعدة النساء في أفغانستان أكثر خاصة بعد اندحار الطالبان. رد المدير قائلا: ولكننا حاولنا وعجزنا عن الحصول على نساء مؤهلات لتولي الوظائف الشاغرة لدينا. كان م. مثل معظم عمال الإغاثة الاحترافيين والمؤمنين بأهمية عملهم وإنسانيته وحياديته. يتبع ويتقن كل النظم والإجراءات المطلوبة. يحترم المسئولية أمام الجهات المانحة ويشدد على استهداف المحتاجين دون غيرهم، وماهر في إدارة عشرات من الأجانب من بلدان مختلفة في مشاريع بمئات الملايين من الدولارات. كان خبيراً في كل هذه المجالات وعلى درجة عالية من المهارة والنزاهة. يحب الأرقام ويستظهرها بسهولة ويسترجعها بسلاسة. يحب ما يصفه بالأدلة الموضوعية

كانت كابول مقصد شباب أوروبا الفارين من حضارة رفضوا استهلاكيتها وميكانيكيتها في الستينيات ورفعوا ضدها شعارات حرية فكرية وجنسية. كانت المدينة محطة قبل أخيرة في طريق حجٍ ينتهي في نيودلهي

والإثباتات والواقع المبرهن عليه علميا. لا يأنف من المبيت ليلاً في كوخ طيني في حقول قندهار ملتفا بكيس نومه وملتحفاً بالسماء دون حراسة، أو الجلوس في مجرى نهر جاف ساعات تحت قيظ الشمس يتبادل الحوار مع المزارعين الذين نكبوا بجفاف لم يترك لهم أخضر أو أي لون آخر. كان م. يسعى دائما للتعامل مع القيود السياسية والثقافية وكان يرى أن العمل الإنساني يجب أن يكون واضحاً في أهدافه ومبادئه مثل الطريق السريع بين نقطتين. ولكنه مثل عديد من المخلصين من أمثاله في هذا المجال كان مضطرا إلى اللجوء إلى طرق بديلة وجانبية عندما يكون الطريق السريع مغلقا للإصلاح أو للقتال. وما أكثر الأوقات التي تنغلق فيها الطرق السريعة في أفغانستان. ■



Alex Majoli-Magnum Photos

هوامش:

١ ـ يبدو أن عمال الإغاثة ـ خلفوا الاستيطانيين والاستعماريين القدامى ـ في بعض الممارسات ومنها الإشارة إلى سكان البلاد الاصليين ومواطنيها على أنهم «محليون» وليسوا «أهل البلاد» أو «المواطنين» (تستعمل كلمة Natives أو Locals أو Nationals بمعنى «محلي» أو «وطني» وليس Citizens بمعنى مواطنين.)

٢ ـ الداري نسخة محلية في أفغانستان من الفارسية وهي لغة عرقية الطاجيك، ثاني أكبر مجموعة لغوية عرقية في البلاد. بينما الباشتو لغة هندو آرية الأصل تتحدثها قبائل الباشتون المتسيدة في جنوب أفغانستان وعبر الحدود في شمال شرق باكستان.

٣ ـ أصف هذا الرداء بأنه غير إنساني بعد أن قمت بتجربته فعلاً، إذ قمت بارتداء هذا السجن القماشي في منزلي بضع دقائق. كنت أريد أن أشعر بنفسي بما يشعر به هؤلاء النساء وكيف يرين من خلف الشبكة التي تغطي منطقة العين وكيف يتنفسن. كدت أن أختنق من الحرارة المتزايدة بسبب النسيج الصناعي للشادور وبدا العالم مقسما لمربعات كبيرة تتناوشها ذؤابات الخيوط التي تتقاطع أمام عيني.

٤ ـ يدعى المرض بالإنجليزية Leishmaniasis وتنتقل فيه طفيليات عن طريق نوع من الذباب إلى جلد المصاب ومنه إلى مسار الدم. وتؤدي هذه الطفيليات في أقل هجماتها ضرراً إلى تشوهات جلدية قبيحة تصل في أثرها أحياناً إلى ما يشبه الجذام. وفي أسوأ الهجمات تتضرر أجهزة الجسد الداخلية ويموت المصاب إذا لم يعالج بسرعة.

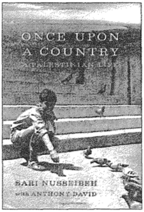
٥ ـ Rob Schultheis, "Night letters: Inside Wartime Afghanistan", Orion Books, New York, ١٩٩٢.

٦ ـ Eric S. Margolis, "War at the top of the World: The struggle for Afghanistan, Kashmir and Tibet" Routledge, New York, ١٩٩٩.

٧ ـ يشير المؤلف إلى الكاتب الإنجليزي الكولونيالي الشهير جوزيف إدوار كيبلنج (١٨٦٥-١٩٣٦) والذي ولد في مدينة بومباي بالهند ومن أشهر كتبه «كيم» وصدر ١٩٠١ ووصفه الكاتب الشهير جورج أورويل بأنه كان «نبي الإمبريالية البريطانية».

كان ياما كان

ساري نسيبة وانطوني ديفيد



كانت نسيبة، السلف الأعلى لعائلتي، مقاتلة لا يشق لها غبار، استطاعت وهي على ظهر الخيل أن تذود ببراعة وتفان عن الرسول مضحية بنفسها وفلذات كبدها

■■ في صغري، كنت، أينما ذهبت، أتعثر بآثار تاريخ عائلتي في القدس. مرة أخبرني والدي بأننا النسابية تحدرنا من سلالة طويلة من اللصوص. وشرح لي، بتعبير بين الجد والهزل، بأن كل العائلات الكبيرة ترجع في أصولها إلى شبه قطاع طرق. أظنه قال ذلك بسبب ميل العربي المعتاد إلى الافتخار بجذوره وكان أبي يعظني مراراً في طفولتي بأن على العيش في الحاضر. ورغم أني لم أستطع أن أقع على اللصوص في أصل عائلتي بالتحديد، ولكني لم أجد صعوبة في العثور على شواهد قبور منقوش عليها أسماء كانت تحلق بي، بسحر الخيال، إلى أسلافي منذ ١٣٠٠ سنة رجوعاً إلى رمال الجزيرة العربية الساخنة.

تبدأ قصة عائلتي في القدس مع إسراء (النبي) محمد. في الوقت الذي أسرى فيه الرسول، كان قد أجبر مع قلة من رفاقه على الخروج من مكة إلى المدينة. وفي ضواحي هذه المدينة الصحراوية التقى بأتباعه الأوائل: رؤساء أربع عشرة قبيلة بايعوه على الولاء له وللإسلام.

ومن دواعي الدهشة، إذا أخذنا بعين الاعتبار نظرة العالم المعاصر إلى دور المرأة في الإسلام، كان أربعة من رؤساء القبائل الأربع عشرة، من النساء. وإحداهن كانت نسيبة، من قبيلة الخزرج المقاتلة.(كانت تدعى أيضا أم عمارة المازنية الخزرجية من بني عامر الأنصارية) وبعد عودة النبي محمد من رحلة الإسراء، بدأ هو وأنصاره بضمنهم نسيبة وقبيلتها يجعلون من القدس قبلة صلاتهم.

كانت نسيبة، السلف الأعلى لعائلتي، مقاتلة لا يشق لها غبار، استطاعت وهي على ظهر الخيل أن تذود ببراعة وتفان عن الرسول مضحية بنفسها وفلذات كبدها. في إحدى المعارك فقدت ابنين وساقا ومع ذلك استمرت في القتال. وتروي الحكايات الإسلامية أن محمدا لشدة إعجابه بشجاعتها، بشرها وأولادها بالجنة.(أسلمت عند ظهور الإسلام وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم وشهدت معه غزوات أحد والحديبية وخيبر وحنين وعمرة القضاة ويوم اليمامة وبيعة الرضوان، وروت عدة أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.. شاركت في العمل العسكري في فترة صدر الإسلام حيث شاركت في معركة أحد فقاتلت حتى قيل أنها قاتلت وجرحت اثنى عشر بالسيف والنبال. فكانت تذب عن رسول الإسلام محمد ابن عبد الله بالسيف وترمي عنه بالقوس. وهي من المبشرين بالجنة - المترجمة)

حين تتصفح أكثر من ١٣٠٠ سنة من تاريخ العائلة، فلابد أن يواجهك بعض الغموض والإبهام. فالكثير مما آمنت به طفلا على أنه حقيقة لاريب فيها، كان بدون شك خليطا بريئا من الواقع والخيال. ولكن في القدس، كان ينبوع العلاقة السحرية بين الإنسان والمدينة هو بالضبط ذلك الموزاييك الجميل للحكايات المتجذرة في أعماق الحقيقة والخيال.

وإحدى حكاياتي المفضلة في طفولتي، كانت قصة دخول الخليفة عمر إلى القدس في العام الميلادي ٦٣٨ . في ذلك الوقت كان النبي محمد قد مات وكذلك خليفته الأول أبو بكر. كان عمر العادل ثاني الخلفاء، متواضعا تقيا ومتقشفا في عيشه وملبسه. كان أيضا قائدا عسكريا من طراز الإسكندر الكبير ونابوليون، وقد قاد جيوشه من نصر إلى آخر. وكان يتبعه تحت راية الإسلام، أولئك الذين كانوا حتى ذلك الوقت، قبائل من الغزاة غير المنظمين ورعاة إبل، وتحت امرته، اقتحموا أرض فارس ومصر وبيزنطية، وبمزيج من الشجاعة والتخطيط والشدة، فرضوا سطوتهم على حضارات قديمة. سقطت دمشق وبغداد والقاهرة. وكان على الشعوب والأديان المختلفة التفاهم مع هذه القوة الديناميكية التي هزت أركان العالم القديم.

في هذه الأثناء وصل عمر إلى أسوار القدس. وقد عم الهلع سكان المدينة، فقبل أقل من قرن، نهبت جيوش الفرس القدس وأحرقت معظم الكنائس والأديرة وذبحت الآلاف من أهلها. وهكذا باستدعاء هذه الذكريات في مخيلتهم، توقع الناس أسوأ مصير.

كان أكثر جزء أحبه من تلك القصة وأنا صغير، هو كيف فتح عمر المدينة. ومثل كل غلام، كنت أحب حكايات الفرسان النبلاء المدججين بالسلاح وهم يقتحمون صفوف الأعداء. ولكن فتح عمر لمدينة القدس كان مختلفا.

كان عمر يرى في القدس مكانا غير كل الأمكنة. فإلى هنا أسرى معلمه ونبيه ذلك الإسراء المعجز، وصلى مع إبراهيم وموسى والمسيح عند صخرة المرتقى. لم تكن مدينة يمكن الاستيلاء عليها بأسنة الحراب. وهكذا رفض أن يدخلها عبر السيف والدماء، أو يأمر باقتحامها، كما فتحت أكثر المدن في عصره.

أما أهل المدينة، وهم يظنون أن حياتهم في خطر، فقد صبروا على حصار دام وقتا طويلا. ولكن بعد سنتين حين أوشكت المؤن على النفاد، وأطل شبح المجاعة برأسه، أرسلوا إلى عمر يسألونه شروطه للاستسلام. ورد عليهم الخليفة وقد كان آنذاك في الشمال يخوض معارك صغيرة، طالبا بأن يلاقيه صفريانوس مطران القدس البيزنطي خارج أبواب المدينة. وفي هذه الأثناء وحسب تعليمات الخليفة عمر، تجنب جيشه المحيط بأسوار المدينة القيام بأية هجمات.

في الموعد المحدد، جاء صفريانوس

'Once Upon a Country:
A Palestinian Life'
By SARI NUSSEIBEH with
ANTHONY DAVID

ترجمة: بثينة الناصري

...وطن

متلفعا بمسوح الأساقفة المذهب، لملاقاة عمر متوقعا أن يراه فى أبهة تليق بملك منتصر، ولكنه فوجئ برجل يرتدى ملابس متواضعة يقود جملا يركبه خادمه. وكان الاثنان قد قطعا الطريق من الشمال، يتناوبان على ركوب الجمل. وقد منح هذا القائد الزاهد لأهل القدس الأمان فى أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، مما حرك مشاعر المطران فسلم عمر مفاتيح أبواب المدينة وكنيسة القيامة.

أدخل صفريانوس عمر إلى كنيسة القيامة وهى أقدس كنيسة فى العالم المسيحى ومستودع تاريخ مقدس. فقد دفن هنا آدم أبو البشر. وهنا قبر المسيح الفارغ بعد أن رفعه الله تعالى، وهناك اكتشفت هيلانة أم الملك قسطنطين الصليب الأصلى وتاج الشوك. ولقرون خلت، كانت ثمة أساطير عن قدرة هذه المواقع على الشفاء. لمسة واحدة فقط لحجر الضريح المقدس يمكن أن تشفى أمراضا قاتلة مما أغرى الناس من كل أنحاء العالم للحج إلى ذلك المكان.

وكما تقول الرواية، إنه حين حان وقت الصلاة، رفض عمر أن يصلى فى الكنيسة خوفا من أن يسجل سابقة. كان يخشى - إذا صلى فيها - أن يغرى ذلك القادة المسلمين من بعده لتحويل الكنيسة المجيدة إلى مسجد. وبدلا من ذلك اختار الخليفة موقعا خارج الكنيسة للصلاة.

سأل عمر المطران عن مكان الصخرة المقدسة وهيكل سليمان، لم يعرف المطران موقع الهيكل حيث تحول المكان الذى كان يقوم فيه الهيكل إلى مقلب زبالة. كانت هناك أكوام من عظام وفضلات بشرية وجلود حيوانية وأفظع ما يصدم المسلمين واليهود على السواء: رمم خنازير.

وتقول الحكاية الإسلامية إنه من بين الحشد القريب تقدم إلى الأمام رجل يهودى وعرض أن يساعد عمر فى العثور على موقع الهيكل والصخرة. وهكذا شق الاثنان طريقهما عبر أكوام المخلفات حتى وصلا إلى الموقع فقال اليهودى لعمر: «هنا. هذا هو المكان الذى تريد».

بدأ عمر يحفر بيديه، وما أن نظف المكان من المخلفات ومسح الصخرة المقدسة بردائه حتى أدى الصلاة.

كان من بين أصحاب عمر فى القدس شقيق نسيبة وهو عبادة بن الصامت.

وقبل مغادرة المدينة، عينه عمر أول رئيس قضاة مسلم فى القدس وسلم إليه مفاتيح كنيسة القيامة. ثم أوكل لعبادة مع خمسة من رؤساء العائلات بمهمة نظافة الصخرة المقدسة (فى صغرى كنت أحب زيارة ضريح عبادة، فى الزاوية الجنوبية للجدار الذى يحيط بالحرم المقدس).

كان أولاد عبادة هم أول النسايبة الذين ولدوا فى القدس. ومع مرور الزمن، ازدادت العائلة غنى وتملكت إقطاعيات شاسعة من الأراضى. وتختلط القرون هنا، فلمدة طويلة لم تكن عائلتنا سوى قائمة من أسماء وعناوين مرتبة بعناية: قضاة وفقهاء وشيوخ صوفية وملاك أراض.

وكانت حظوظ العائلة السياسية تعتمد دائما على الإمبراطورية التى تسيطر على القدس. ولكن سواء كانت العائلة فى صعود أو هبوط، فإنها لم تتوان يوما فى إنجاز واجباتها من تنظيف الصخرة المقدسة والحفاظ على المفاتيح.

ولكن سرعان ما تيسرت مهمة تنظيف الصخرة، فخلال بضعة عقود من الفتح الإسلامى، بدأ بناء قبة الصخرة. وكانت الخلافة الإسلامية قد انتقلت إلى دمشق فى العام الميلادى ٦٦١، وقد انطلقت فى حينها ثورة معمارية. أراد الخليفة الأموى معاوية أن يبنى مسجدا عظيما فى موقع الصخرة المقدسة ولكن على عكس المساجد الأخرى، لم يصمم على أن يواجه مكة. فباعتباره مكانا لهيكل سليمان القديم وإسراء النبى محمد لم يكن ثمة حاجة لتوجيه المسجد إلى أى قبلة أخرى. بعض الرواة يقولون إن ابن اليهودى الذى دل عمر على مكان الصخرة، كان هو المعمار الذى وضع تصميم المسجد. وباعتباره يهوديا كما يقول الرواة فقد بنى المسجد الأقصى وفى ذهنه المعبد الأصلى. وقد انتهى بناء قبة الصخرة فى ٦٩١ ميلادية.

وبما أن السيطرة على الكنيسة والضريح المقدس كانت موضع النزاع الرئيسى بين المسيحيين اللاتين والمسلمين، فإن امتلاك المفتاح كان مسألة فى غاية الأهمية الدبلوماسية. وهكذا، على مر القرون، أدت عائلتى واجباتها: كان أحد أسلافى يفتح الباب صباحا حيث يتقاطر المسيحيون داخلين، وفى الليل يغادرون ويقفل الباب من جديد حتى صباح اليوم التالى.

خلال الحملات الصليبية وحين سيطر الفرنجة على المدينة، سلم النسايبة المفتاح إليهم. والوحيدة فى العائلة التى نجت من غزو الصليبيين للقدس كانت لحسن الحظ حاملا بطفل. وقد فرت إلى شمال البلاد. بعد مرور قرن وفى عام ١١٨٧، بعد أن طرد القائد الكردى صلاح الدين الصليبيين خارج المدينة، عاد نسلها إلى القدس.

وحين استقروا فى القدس عين كبير العائلة الشيخ غانم بن على بن حسين الأنصارى الخزرجى فى منصب حكومى مهم. وخلال السنوات القليلة الأولى بعد هزيمة الصليبيين، لم يكن هناك حاجة لإغلاق باب كنيسة القيامة لأن المسيحيين لم يسمح لهم بالعودة إلى القدس. فى عام ١١٩٢، أعاد الحاكم المسلم للمدينة المفتاح إلى خط النسايبة بعد توقيع السلطان صلاح الدين والملك ريتشارد قلب الأسد اتفاقية يسمح بموجبها للحجاج المسيحيين بزيارة المدينة.

كانت تلك أيام سعد العائلة، خاصة خلال حكم المماليك فى دمشق. عاشت العائلة من خيرات أراض شاسعة أنعم بها السلطان صلاح الدين على الشيخ غانم. وهنا قد يكون السبب الذى حدا بوالدى أن يتحدث عن لصوصية النسايبة. كان الفلاحون يكدون فى الارض ويدفعون ضرائب لنا نحن أسيادهم الإقطاعيين. الذين بدورنا استخدمنا بعض تلك الأموال لصالح قبة الصخرة.

ولكن أحوال العائلة المادية تدهورت بشكل ملحوظ بعد أن طرد الأتراك المماليك فى ١٥١٧. وبعد أن قرر أحد أسلافى أن ينضم إلى أمير مملوكى فى حملة حرب عصابات يائسة ضد الحكام الجدد، انتهت بأن فقد جدى وأميره رأسيهما، كما فقدت عائلة نسيبة أراضيها وأغلب حقوقها. وكان العقار الوحيد الذى احتفظوا به «سوق الخواجات»، وهو سوق الصاغة، أحد أهم الأسواق داخل أسوار المدينة القديمة.

منذ بضع سنوات، عثر ابن عمى زكى، مؤرخ العائلة، على دليل جيد على تدهور أحوالنا. وهى وثيقة عمرها أربعمائة عام منقوشة بالذهب على جلد غزال ومدموغة بختم السلطان التركى، تعلن بأنه من ذلك التاريخ، سوف تشارك عائلة نسيبة حقوق المفتاح مع عائلة جودة. وهى عائلة محلية لها صلات أفضل مع الأتراك. وهذا ما كان. منذ نصف الألفية الماضية، كان يحمل أحد أفراد عائلة جودة المفتاح إلى أحد أفراد عائلة نسيبة فى الساعة الرابعة فجرا، والنسيبة يأخذ المفتاح إلى الكنيسة.

لا أريد أن أعطى الانطباع بأن التاريخ القديم كان يلبد فى كل ثنايا حياتنا. على العكس من ذلك. فقد أنشأنى رجل متطور الفكر يعشق الشعر العربى القديم والحديث على السواء. وكانت سعادته بحصول أخى الأكبر على درجات ممتازة فى كامبردج بقدر سعادته بدراسة أختى للرسم فى باريس. وفى حين كان أبى فخورا بمغامرات أسلافنا القدماء فى الصحراء، لكنه كان دائما ينظر إلى هنا والآن.

ابتدأت اتجاهات المعاصرة تتحرك وسط الطبقة الأرستقراطية فى القدس فى أواخر القرن التاسع عشر. كان الزمان قد تغير، وربما أهم الأسباب هو ضعف الإمبراطورية العثمانية التى كانت قد تحولت فى ذلك الوقت إلى (رجل أوروبا المريض). كما فى كل نظام استبدادى، فإن أول علامات الوهن هى التذمر السياسى فى كل ركن من أركان الإمبراطورية. كانت المجتمعات الحضرية تطالب بالحقوق والحريات التى يتمتع بها الأوروبيون. وباستلهام حركة البعث الإيطالية Risorgimento، قامت (العثمانية الفتاة) (معروفة رسميا باسم لجنة الاتحاد والترقى) بالاستيلاء على الميناء الكبير فى القسطنطينية، وطردت السلطان وأقامت إدارة جديدة. حاول (العثمانيون الجدد) إيقاظ الإمبراطورية من سباتها بالتعهد بحكم القانون وازدهار الصناعة والتقدم.

فى فلسطين، كانت الحركة من أجل حرية على الطراز الأوروبى حادة بشكل خاص لأن التأثير الأوروبى كان قد اخترق المكان

كتاب الزاوية

مصر ورسالتها

حسين مؤنس

هذا الكتاب محاولة جادة لفهم مصر وطبيعة شعبها ومقومات حضارتها ودورها فى تاريخ العالم. وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب وهو بعنوان: «مصر ورسالتها.. دراسة فى خصائص مصر ومقومات تاريخها الحضارى ورسالتها فى الوجود» عام ١٩٥٦، بمقدمة للرئيس الراحل جمال عبدالناصر قال فيها: «منذ فجر التاريخ، ومصر تشع على العالم أقباسًا من العلم والمعرفة وتحمل فى يديها القويتين مشعل النور والحضارة».. واستطرد: «إن التاريخ لم يعرف عن مصر أنها كانت أمة طامعة أو أمة مستعمرة..». وقد أصبح هذا الكتاب أصلاً أساسيًا فى كل دراسة حول مصر وتاريخها الحضارى ووصفه المؤرخ الكبير الراحل شفيق غربال بأنه حدث فاصل فى تطور الدراسات التاريخية المصرية.

ومؤلف هذا الكتاب المؤرخ والكاتب الإسلامى البارز الراحل حسين مؤنس المولود عام ١٩١١ وصاحب المؤلفات العظيمة عن «الشرق الإسلامى فى العصر الحديث» و«الإبداع الإسلامى على الطريقة المصرية» و«معالم تاريخ المغرب والأندلس» و«ثروات الإسلام» وغيرها من المؤلفات فى التاريخ الإسلامى.

حصل مؤنس على ليسانس الآداب من جامعة فؤاد الأول ودرجة الماجستير والدكتوراة من سويسرا. وقد عمل أستاذًا للتاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة القاهرة، وفى معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٦ . وتعرض «وجهات نظر» من كتاب «مصر ورسالتها» الطبعة الرابعة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٧٣ .



بالفعل. فى الوقت الذى وصل فيه جيل جدى إلى المشهد، فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان الزحف إلى فلسطين قد ابتدأ.

للمفارقة، كان التراث القديم للأرض المقدسة هو الذى جاء بمعظم التغيير. فى أوروبا، بدأ تيار رومانسى جديد يتعلق بالأرض المقدسة - يمكن أن تحسه فى رواية جورج اليوت «دانيل ديروندا» - مصحوبا بالصور وصفقات الرحلات زهيدة الكلفة من أجل إثارة الاهتمام بالمنطقة. كان من الشائع أن ترى مستكشفين إنجليز غريبى الأطوار يسافرون إلى تلك البلاد مع إنجيل محشور فى الخُرج. ومثال جيد على هذا الهوس هو الطريقة التى اكتشف بها بطل الحرب الجنرال تشارلس غوردون Charles Gordon- وهو أحد أربع شخصيات نصف مجنونة من العصر الفكتورى تناولها بنقد لاذع المؤلف ليتون ستراتشى فى كتابه (فكتوريون بارزون) الذى نشر فى ١٩١٨، ما أقسم بأغلظ الأيمان أنه قبر المسيح. (تشارلس غوردون أصر على أن موقع قبر غاردن Garden Tomb هو قبر السيد المسيح مع أن هذا الموقع يقع خارج أسوار القدس القديمة قريبا من باب دمشق، علما أن غوردون لم يكن يملك خبرة آثارية ليفتى فى ذلك - المترجمة).

كانت الحكومات والمنظمات والمغامرون منغمسين جميعا فى هذه الصرعة. فى القدس، بنى القيصر الكساندر الثانى المستعمرة الروسية لاستيعاب طوفان الحجاج الروس المتدفقين إلى المدينة. (وقد حولها الإسرائيليون فيما بعد إلى سجن). وحتى لا يتخلف عن الركب، بنى القيصر الألمانى دير بندكتين على جبل صهيون. وأقامت الكنائس البروتستانتية عشرات المدارس والمستشفيات. وعين الكاثوليك أول بطريرك لاتينى منذ أيام الصليبيين، وبنى البارون ادموند دى روتشيلد طواحين هواء لمستعمرة خاصة بالمزارعين اليهود.

وقد عزز هذا الهوس بالبناء والتبشير، بشكل غير مباشر، الحركة المطالبة بالإصلاح السياسى بين المقدسيين العرب، وبعض السبب هو أن الكثير من الإصلاحيين كانوا قد عايشوا الأفكار المعاصرة فى المدارس التى يديرها الأوروبيون.

وقد اكتشف طلاب الجامعة العربية، وفيما بعد فى كلية سانت جورج - وهى الكلية التى تخرجت منها - والتى يديرها الإنجيليون، الحركة العروبية، وهى حركة قادها المسيحيون العرب فى بيروت ودمشق وشخصيات مثل محمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى القاهرة. كان هؤلاء المثقفون وكثير منهم شعراء ومفكرون معروفون، ينتقدون العصبيات المحلية القديمة، مثل العائلة والعشيرة والطائفة باعتبارها مخلفات إقطاعية وقفت بوجه التطور العلمى والثقافى العربى.

فى فلسطين، كانت الصهيونية مصدر إلهام للحمية القومية بين اليهود. وكما رأينا فى الحكايات المتعلقة بقبة الصخرة، كان اليهود دائما جزءا حيويا من اليهودية الإسلامية. (اكتشف ابن عمى زكى، وهو يبحث فى وثائق قديمة كانت مدفونة لقرون فى معبد يهودى فى مصر، رسائل تمتدح الخليفة عمر للسماح لليهود بالعودة إلى المدينة بعد قرون حرمهم منها الرومان والمسيحيون). فى نهاية القرن التاسع عشر، كان معظم اليهود فى المدينة إما يهود متشددون من أوروبا الشرقية أو متحدثون باللغة العربية ممن كانوا قد عاشوا مع العرب قرونا كثيرة حتى باتوا جزءا من الثقافة واللغة والحياة العربية.

للحركة الصهيونية جذور مختلفة تماما. فى الوقت الذى كتب فيه تيودور هرتزل وهو يهودى هنغارى الأصل وكان صحفيا وكاتبا مسرحيا فاشلا، كتابه «الدولة اليهودية»، لم يكن قد رأى فلسطين بعينيه. بل كان يعرفها من خلال الكتب. كان يحلم بدولة مستقبلية لأولئك اليهود الذين لم يرغبوا أو لم يستطيعوا الاندماج فى المجتمعات الأوروبية. وكان مقتنعا بأنه ليس هناك من سبب لتخوف العرب «إذ ليس لدى اليهود قوة محاربة تسند ظهرهم. كما ليس من طبعهم حب القتال..». ■



«الجماعة»..

ماذا يحدث داخل حركة الإخوان؟

ناثان براون وعمرو حمزاوي

إجابات الإخوان وشروحهم بالبرنامج لم ترتب سوى عاصفة جديدة من النقاش تمحورت حول قضيتين خلافيتين، الدعوة إلى استحداث هيئة منتخبة من كبار علماء الدين واستثناء النساء والأقباط من منصبى الرئاسة ورئاسة الوزراء

■■ مع نهايات صيف ٢٠٠٧ وفى سياق حالة من الترقب لدى نخبة الحكم وحركات المعارضة فى مصر قامت جماعة الإخوان المسلمين بتوزيع المسودة الأولى لبرنامج حزبها السياسى على مجموعة من المفكرين والمحللين فاتحةً بذلك الباب على مصراعيه لنقاشات خلافية حول الأفكار الرئيسية الواردة فى البرنامج وتداعياتها المحتملة على دور الإخوان فى الساحة السياسية المصرية ومستقبل علاقتهم بالقوى الأخرى(١)

وعلى الرغم من إدراك الإخوان وهم الجماعة المحظورة الغائبة عن الشرعية للاستحالة الفعلية لأن يشكل إعلان البرنامج خطوة البدء فى تأسيس حزب فى ظل الرفض الحكومى والقيود الدستورية التى فرضت مؤخراً على الأحزاب ذات المرجعيات الدينية، يبدو أن قيادة الجماعة ارتأت أو أملت فى فوائد محتملة من إجلاء الغموض حول طبيعة حزبها إن سمح لها مستقبلاً بتأسيسه.

فى هذا السياق، تتناول هذه الدراسة بالشرح والتحليل أربع قضايا رئيسية:

(١) طبيعة ومضامين النقاشات الخلافية التى رتبتها مسودة البرنامج.

(٢) خطوط وجبهات الصراع التى فجرها البرنامج داخل جماعة الإخوان.

(٣) ماهية وتراتبية حسابات الربح المرجو والخسارة المحتملة التى دفعت الإخوان إلى إعلان البرنامج فى بيئة سياسية هى بكل تأكيد غير مواتية وتجتاحها رياح مواجهة عاتية بين نظام الحكم والجماعة.

(٤) جدلية الصراع-التوافق داخل الجماعة وتداعياتها على مستقبل دور الإخوان فى الحياة السياسية دونما تغييب لحقيقة كون الأخير يرتبط عضوياً بمواقف النظام ومساحات الحركة التى يتيحها لفصيل المعارضة الأكبر فى مصر.

أولاً: قضايا البرنامج

تثير مسودة البرنامج التى تم تداولها فى مطلع سبتمبر/أيلول ٢٠٠٧ انطباعات متناقضة حول رؤى ومواقف الإخوان السياسية. فمن جهة، يوثق البرنامج بإيجابية - وهو ينتظم فى خمسة أبواب تتناول مبادئ وتوجهات الحزب متبوعة بشكل الدولة والنظام السياسى ثم الرؤى الإخوانية حول التعليم والتنمية والسياسة الاقتصادية وأخيراً العدالة الاجتماعية والنهضة الثقافية - لمساحة من التفصيلية فى الطرح والاهتمام بالسياسات العامة غابت عن مجمل المقاربات الإخوانية المعلنة خلال السنوات القليلة الماضية، الأمر الذى أضفى دوماً مشروعية ومصداقية على أحد أهم الانتقادات الكلاسيكية الموجهة للجماعة بكونها كياناً أيديولوجياً يرفع شعارات دينية فضفاضة ولا يبحث بجدية فى إمكان تطبيقها الفعلى.

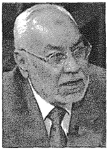
من جهة أخرى، لم يمتد التفصيل الإخوانى إلى عدد من الأمور بالغة الأهمية المرتبطة بهوية وبنية ووظيفة الحزب السياسى المراد تأسيسه. فقد اختار واضعو البرنامج عدم التطرق إلى جوهر وشكل الرابطة المستقبلية بين الجماعة والحزب وتجاهلوا بالتبعية أفكاراً نوقشت فى الآونة الأخيرة داخل دوائر الإخوان - خاصة الكتلة البرلمانية - حول أهمية تنظيم العلاقة بين المكون الدينى الدعوى والمكون السياسى بالفصل الوظيفى بين الجماعة والحزب وتركيز نشاط الأخير على المشاركة السياسية تأسياً بتجارب الإسلاميين المؤطرين حزبياً فى المغرب والأردن واليمن وغيرها. وبالتالى فإن من يطالع برنامج حزب الإخوان لن يجد به معالجة واضحة لا لطبيعة الحزب ولا لتكوينه التنظيمى، بل إن البرنامج جاء خالياً من أى نص صريح على فتح باب عضوية الحزب أمام كل المصريين مسلمين وأقباطاً وهو ما يمثل أحد الشروط الأساسية لتكوين الأحزاب السياسية وفقاً للدستور.

وبغض النظر عن مثل هذه الفجوات فى مسودة البرنامج، عمدت جماعة الإخوان إجمالاً إلى الإجابة عن جل ما طرح عليها خلال السنوات الأخيرة من تساؤلات حول رؤاها ومواقفها السياسية. بيد أن إجابات الإخوان وشروحهم بالبرنامج لم ترتب سوى عاصفة جديدة من النقاش تمحورت حول قضيتين خلافيتين، الدعوة إلى استحداث هيئة منتخبة من كبار علماء الدين واستثناء النساء والأقباط من منصبى الرئاسة ورئاسة الوزراء. هنا انقلب التفصيل إلى نقمة ذات كلفة سياسية وإعلامية باهظة ترنحت إزاءها الجماعة بداية ثم ولت جزئياً باحثة عن إمكانات الارتداد ومساحات التراجع.

الشريعة وهيئة كبار علماء الدين

ربما قدمت الإشارات الواردة بمسودة البرنامج حول الهيئة المنتخبة لعلماء الدين، وهى لا تتجاوز أسطراً قليلة تحتويها الصفحات الأولى، الدليل الأوضح على الجدلية المركبة للربح والخسارة حين تحليل مواقف جماعة الإخوان. فقد سئلت الجماعة مراراً عن أهدافها الحقيقية من وراء الدعوة إلى تطبيق الشريعة وعن الكيفية التى تعتزم بها ترجمة ذلك إلى تشريعات وسياسات على أرض الواقع ودأب قادتها على تقديم مقترحات اتسمت تارة بالغموض وتارة أخرى بالتنوع الشديد كاشفة عن خلافات داخل الجماعة. لذا ومنذ البداية حمل توجه الإخوان نحو حسم موقفهم بوضوح من قضية الشريعة ببرنامج الحزب احتمالية الخروج برسالة إيجابية للرأى العام تزيل بعضاً من مخاوفه وتحد من خلافات الجماعة الداخلية وكذلك وبكل تأكيد الإمكانية المضادة أى أن يسبب نزوع الإخوان نحو الوضوح إثارة خلافات جديدة ويعمق من مأزقهم بين متطلبات قواعدهم الشعبية التى تريد تعظيماً لمركزية تطبيق الشريعة وتطلعات الفاعلين والمهتمين بالحياة العامة إلى التزام إخوانى بمدنية الدولة والسياسة فى مصر.

ولموضوعية الطرح ينبغى القول بأن توقع تراجع تام للإخوان عن دفع قضية الشريعة إلى صدارة أولوياتهم السياسية هو ولاعتبارات متعددة بمثابة درب من دروب الخيال. فمن جهة أولى، شكل تطبيق الشريعة على الدوام أحد المكونات الجوهرية لخطاب الجماعة والوعى السياسى لقادتها على نحو رام ومازال صياغة مساحات جديدة لدور الدين (الإسلام) بالحياة العامة. ثانياً، منذ سبعينيات القرن الماضى والدعوة إلى تطبيق الشريعة تتمتع بقبول واضح لدى قطاعات واسعة من المصريين ترى بها أساس بناء نظام قانونى-قضائى أخلاقى وعادل. ثالثاً، لا شك أن القواعد الشعبية القريبة من جماعة الإخوان أو المتعاطفة معها تنتظر منها الضغط باستمرار باتجاه تطبيق الشريعة وتبنيه هدفاً لدورها السياسى. أخيراً، تمكن الشريعة الإخوان من قولبة دورهم على نحو يظهر توافقه مع روح ونصوص الدستور ويبعدهم عن صورة الجماعة الخارجة على الشرعية خاصة فى أعقاب تعديلات ربيع ٢٠٠٧ الدستورية. فكما هو معروف، تنص المادة الثانية من الدستور على أن الإسلام هو دين الدولة وأن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى


محمد مهدى عاكف


محمد حبيب


خيرت الشاطر


عبد المنعم أبو الفتوح


عصام العريان

للتشريع وتقدم بالتبعية غطاءً دستورياً للحركات والجماعات التى ترفع لواء تطبيق الشريعة وفى مقدمتها جماعة الإخوان. بيد أن قضية الشريعة، وبالمقابل، قد ولدت شعوراً لدى القوى الليبرالية واليسارية مؤداه أن الجماعة تريد فرض اختزال التراث التشريعى والقانونى الطويل للحضارة الإسلامية بتأويلات ضيقة تفرض على المصريين بصورة غير ديمقراطية. ومن ثم واجهت قيادة جماعة الإخوان حين صياغة برنامج الحزب اختياراً بين مقاربتين لا ثالث لهما: بين الالتزام بحديث العموميات عن الشريعة دونما تحديد والنص صراحةً وحصرياً على معانى ومضامين تطبيق الشريعة كما تراها الجماعة لنقل النقاش إلى مرحلة جديدة. والجلى أن مسودة برنامج الحزب قد عبرت عن غلبة المقاربة الثانية.

نعم، عمد الإخوان بوثائقهم وبياناتهم العلنية خلال السنوات الماضية إلى إحلال صياغات فضفاضة كالمرجعية الإسلامية محل تطبيق الشريعة وسعوا إلى أن يضعوا فى الواجهة المطلبية الديمقراطية أى لائحة الإصلاحات الدستورية والسياسية التى توافقت عليها المعارضة المصرية دينية وغير دينية. وحين دفع منتقدو الجماعة بضبابية حديثها عن المرجعية الإسلامية وغموض تداعياته المحتملة على النظام القانونى-القضائى، تحصن الإخوان بالمادة الثانية من الدستور وبالعديد من أحكام المحكمة الدستورية العليا التى نصت على أن ذات المادة تنفى الدستورية عن أية تشريعات تتعارض مع المبادئ القطعية للشريعة الإسلامية، قاطعين الطريق بذلك على اتهامهم بالعمل على الخروج على الدستور(٢)، بل وجاءت بعض الصياغات ببرنامج الحزب لتدلل على استمرارية هذا التوجه خاصة حين النص صراحة على حتمية احترام أحكام المحكمة الدستورية العليا والاعتراف بأهلية ممثلى الشعب المنتخبين فى تحديد القطعى من أحكام الشريعة الإسلامية. إلا أن البرنامج وبأسطر قليلة اندفع نحو المقاربة الثانية باقتراح استحداث هيئة منتخبة من علماء الدين وظيفتها تقديم الرأى الملزم للسلطة التشريعية والتنفيذية حين النظر بأمور تتعلق بالقطعى والمستقر من أحكام الشريعة والمشورة فى جل ما يتعلق بالشئون الدينية من أمور.

وحقيقة الأمر أن مقترح استحداث هيئة منتخبة لعلماء الدين كان له وقع صادم على بعض قيادات الجماعة الذين دافعوا مراراً عن حتمية الارتكان إلى دور المحكمة الدستورية العليا فى حين استقبلته قيادات أخرى بإيجابية. فالمقترح حدد آلية واضحة لضمان الالتزام بالشريعة وضعها خارج السلطة التشريعية والتنفيذية، بل وخارج سياقات المؤسسة الدينية الرسمية (مشيخة الأزهر ودار الإفتاء) المسيطر عليها حكومياً دافعاً بها نحو عموم علماء الدين وبينهم الكثيرون المتعاطفون مع الإخوان. على صعيد آخر، صدم المقترح قيادات إخوانية دعت إلى رفضه بكونه ينتصر لتأويلات اختزالية لقضية تطبيق الشريعة ولا يعبر عن إجماع إخوانى مستقر (بل لمح البعض إلى أن المقترح أقحم على مسودة البرنامج فى ظلمة الليل ودون استشارة جميع الأطر القيادية بالجماعة). أما عن التداعيات السلبية على نظرة الرأى العام للجماعة فحدث ولا حرج، فقد فتح المقترح الباب على مصراعيه لاتهام الإخوان بالسعى نحو تأسيس دولة ثيوقراطية وبالانقلاب على مبدأ مدنية الدولة والسياسة.

اللافت للنظر إذاً حين بحث قضية الشريعة ببرنامج حزب الإخوان هو الكلفة العالية لاتباع المقاربة الحصرية والصعوبات العملية التى تضعها على طريق ارتداد محتمل للعموميات. فعلى الرغم من احتمالية إسقاط الجماعة لمقترح هيئة علماء الدين بالنسخة المعدلة من البرنامج أو تفريغها من المضمون، تلك الاحتمالية التى تبدو اليوم فى سبيلها إلى التحقق، سيظل عالقاً لدى الرأى العام حقيقة أن البعض من قيادات الإخوان ما لبثت رؤيته للشريعة تتعارض بوضوح مع الجوهر الديمقراطى.

الموقف من الأقباط والمرأة وغيرهما

دفع الإخوان أيضاً ثمن نزوع برنامجهم نحو الوضوح والتحديد فى سياق ثان بالغ الأهمية، ألا وهو نزع أهلية تولى المناصب العليا فى الدولة عن غير المسلمين والنساء. هنا أسست مسودة البرنامج للتعامل الإقصائى هذا بالاستناد إلى مقولات كلاسيكية بالتراث التشريعى والقانونى الإسلامى حول شروط أهلية الحاكم وارتباطها الوثيق بواجباته الدينية وبالتبعية بانتمائه الإسلامى وبدوره العام ومن ثم بهويته الذكورية. فجاء الباب الثانى بالمسودة بحديث طويل حول الدولة والنظام السياسى والواجبات الدينية المنوطة برأس السلطة التنفيذية وفقاً لمقاصد الشريعة الإسلامية متبوعاً بنص صريح على استبعاد غير المسلم والنساء من منصبى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء.

وفى حين رأى البعض من قيادات الإخوان بهذا الموقف اتساقاً محموداً مع القطعى من أحكام الشريعة، رفضه فريق آخر شدد أعضاؤه على تناقض الإقصاء مع مبدأ المواطنة المدنية المقبول لدى جميع القوى الفاعلة بالحياة السياسية كما أشاروا إلى الكلفة الباهظة لاستعداء قطاعات واسعة من المصريين بلحظة تواجه بها الجماعة قمع رسمى منظم. هؤلاء أفاضوا فى شرح رؤيتهم معتمدين على التمييز بين المقولات الكلاسيكية وجلها صيغ وقضايا الولاية الكبرى حاضرة ومؤسسات الدول ونظمها القانونية لم تستقر وبين زمانية القرن الحادى والعشرين وبها، على الأقل بالحالة المصرية، دولة حديثة استقر دستورها وتبلورت مؤسساتها العامة على نحو يجعل من الإسقاط الميكانيكى للمقولات الكلاسيكية على الواقع المعاصر ممارسة غير مجدية بل وغير منطقية. فضلاً عن ذلك، ذهب البعض إلى أن نزع الأهلية عن الأقباط والنساء لا مردود عملياً له فى مجتمع محافظ كالمجتمع المصرى ذى أغلبية مسلمة، فاحتمالية أن ينتخب غير مسلم أو تنتخب امرأة لرئاسة الجمهورية أو لرئاسة الوزراء تكاد تكون غير قائمة.

وبالإضافة إلى كون اشتعال النقاش الخلافى بين قيادات الإخوان حول رجاحة وجدوى التعامل الإقصائى مع الأقباط والنساء قد عمق من الصراعات الداخلية التى تبلورت سريعا على خلفية مقترح هيئة علماء الدين، ربما كانت النتيجة الأهم فى هذا الصدد هى صرف أنظار الرأى العام نهائياً ودون رجعة عن الاهتمام بأغلب ما جاء بمسودة البرنامج حزب الإخوان من أفكار ورؤى وبدائل سياسات رامت صياغة نموذج متكامل لإدارة شئون الدولة والمجتمع والمواطنين. كماً وكيفاً، يفرد البرنامج مساحةً أكبر ويعطى اهتماماً أوضح للقضايا الاقتصادية والاجتماعية إذا ما قورنت بمقترح الهيئة أو بدين ونوع رئيس الجمهورية. بل غاب تماماً عن النقاش العام حول البرنامج حقيقة استمرار نزوع الجماعة نحو

ماذا يحدث داخل حركة الإخوان المسلمين؟

نموذج الدولة القوية المتدخلة فى تسيير جل شئون المجتمع دونما تدبر فعلى فى مدى ملاءمة مثل هذا الطرح للواقع الراهن المستند إلى اقتصاديات السوق أو فى تداعياته المحتملة على ملفات الإصلاح والتحول الديمقراطى، وكلاهما يرتبط فى الحالة المصرية بتحجيم الدولة ونخبتها السياسية-الأمنية والتوسيع المطرد لمساحات فعل القوى المدنية وغير الحكومية. يظهر البرنامج جماعة الإخوان بمظهر من يريد تحولاً ديمقراطياً وتعدداً للسلطات ورقابة على الأجهزة التنفيذية، وما لبث فى ذات الوقت يحلم بدولة كليانية تطال أدوارها كل قطاعات المجتمع من ضبط حركة السوق إلى توجيه الفن السينمائى والموسيقى. غابت إذاً قضية بمحورية رؤية الإخوان للدولة وغيرها العديد من الأمور والتفاصيل الهامة، ودفعت الجماعة ثمنا باهظاً تمثل فى تجاهل الرأى العام لجل ما جاء بمسودة البرنامج الحزبى واختزال النقاش حوله بانتقاد مرير لها بكونها ما لبثت قوة المعارضة التى تريد تديين السياسة وترفض مواطنة المساواة التامة بين المسلمين والأقباط وتنقلب بانتظام على وعودها الديمقراطية.

ثانياً: الصراع حول البرنامج

بجانب النقاش العام خارج دوائر الإخوان، اشتعل الصراع داخل الجماعة حول القضايا الخلافية السالفة الذكر ولجأ الفرقاء (أطراف الصراع) على نحو غير مسبوق إلى الوسائط الإعلامية أى الصحافة والقنوات الفضائية والمحلية والإنترنت لصياغة وإيصال رؤاهم المتضاربة إلى الرأى العام. بكل تأكيد لم تغب أبداً عن بورصة الشائعات السياسية المصرية أحاديث متواترة حول خلافات بين قيادات الإخوان إن داخل مكتب الإرشاد أو خارجه، بل وحول تبلور جبهات وأجنحة رجعية محافظة فى مواجهة أخرى إصلاحية وصراعات أجيال بين حرس قديم وحرس جديد تهدد بانفصام عرى التنظيم وربما انهياره. نعم لم تكن مثل هذه الأحاديث بنادرة، إلا أن واقع الجماعة التى تأسست فى ١٩٢٨ دوماً ما برهن على تماسكها التنظيمى وقدرتها العالية على مخاطبة الرأى العام بصوت واحد واحتواء التيارات المختلفة داخلها دون أن تطفو على السطح طوال العقود الماضية سوى محاولة واحدة فى النصف الثانى من التسعينيات للخروج عن جماعة الإخوان والسعى نحو تأسيس حزب سياسى مستقل عنها كان بطلها المهندس أبو العلا ماضى صاحب مبادرة حزب الوسط[3]. أما اليوم فتبدو صورة الجماعة المتماسكة ذات الصوت الواحد منافية للواقع وأمام الباحث والمتابع لحظة جد نادرة للتعرف والإمساك بخيوط وقضايا الصراع داخل الإخوان والرموز القيادية للمجموعات المتصارعة.

خلال الأسابيع الأولى التى تلت تداول مسودة البرنامج فى سبتمبر/أيلول ٢٠٠٧ طفت على السطح روايتان متناقضتان ارتبطت أولهما بالنائب الأول للمرشد العام محمد حبيب والثانية بعضو مكتب الإرشاد عبد المنعم أبو الفتوح. وفى حين دافعت الأولى عن النصوص الخلافية الواردة فى المسودة حول هيئة كبار علماء الدين ونفى أهلية الأقباط والمرأة لمنصبى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، انتقدتهم الثانية مشددة على أن مثل هذه المواقف لا تعبر عن الإجماع الإخوانى. وانحازت لكل من حبيب وأبو الفتوح قيادات فى مستويات تنظيمية مختلفة على نحو تبلور معه بالفعل وجود مجموعتين متقابلتين بروايتين متناقضتين حول الكيفية التى تمت بها صياغة المسودة وبدينامية صراع واضحة وعلنية لم يعهدها الإخوان من قبل.

فمن جهة، أكد محمد حبيب ومعه الأمين العام للجماعة الدكتور محمود عزت وعضوا مكتب الإرشاد الدكتور محمد مرسى والدكتور محمود غزلان على أن مسودة البرنامج صيغت فى إطار تشاورى وبشفافية لا غبار عليها. ووفقاً لهم بدأت عملية صياغة المسودة بتكليف المرشد العام محمد مهدى عاكف للجنة مشكلة من خبراء قانونيين وعلماء دين وسياسيين وحركيين إنجاز صياغة أولية تم عرضها على كامل مكتب الإرشاد الذى أبدى ملاحظات عليها وأعادها إلى لجنة الصياغة للتغيير والتعديل ثم أعقب ذلك مناقشة ثانية داخل مكتب الإرشاد تم بها اعتماد المسودة وإقرار توزيعها على الوحدات الإدارية للجماعة فى المحافظات المصرية - وتلك تضم فى تشكيلاتها أعضاء مجلس شورى الجماعة لإبداء الرأى كخطوة أخيرة قبل الخروج بالبرنامج إلى الرأى العام[4].

فى مقابل رواية مجموعة حبيب ومفادها هو التشديد على صياغة المسودة بصورة تشاورية داخل الجماعة، أكدت المجموعة الثانية وأهم رموزها بجانب عبد المنعم أبو الفتوح البرلمانى السابق الدكتور جمال حشمت ومسئول القسم السياسى بالجماعة الدكتور عصام العريان، على أن الطرح الوارد بالمسودة لا يعبر عن التوافق الإخوانى وأن البعض قد استأثر بعملية الصياغة ولم يأخذ فى الاعتبار تنوع الآراء داخل الجماعة. هؤلاء دفعوا بأن المحكمة الدستورية العليا هى المخولة بتقرير مدى ملاءمة التشريعات والقوانين لمادة الشريعة بالدستور وأن على الإخوان احترام نصوص الدستور التى تساوى فى الحقوق السياسية بين المسلمين والأقباط والرجال والنساء دونما استثناء لمنصبى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء. وبينما ذكر أبو الفتوح أن المسودة المتداولة هى حصيلة عمل مجموعة صغيرة من أعضاء الجماعة لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة[5]، عبر حشمت عن ذات المضمون الإقصائى حين ذهب إلى أن ما جاء بالبرنامج حول هيئة علماء الدين والأقباط والمرأة لا يعكس توافقاً داخل الجماعة وأن القواعد الإخوانية لم تر المسودة قبل تداولها: «لم تطرح (هذه القضايا الخلافية) فى المناقشات والحوارات الأولية أثناء التفكير فى إعلان برنامج للجماعة يمثل وثيقة لها، ولذلك جاءت هذه المضامين صادمة، ولا تعبر بحال من الأحوال عن رأى عموم الإخوان وقواعدها التى حرمت من رؤية البرنامج أو التعليق على ما جاء فيه، وقد أبديت اعتراضى قبل ذلك لدى الجماعة، ولم يؤخذ به»[6]. كما أضاف العريان أنه وآخرون اقترحوا أن تصمت مسودة البرنامج عن القضايا المختلف عليها داخل الجماعة إلى حين التوصل إلى رؤى توافقية عوضاً عن صياغات لا تعبر عن عموم الموقف الإخوانى[7].

توقع تراجع تام للإخوان عن دفع قضية الشريعة إلى صدارة أولوياتهم السياسية هو ولاعتبارات متعددة بمثابة ضرب من الخيال

اللافت هنا أيضاً أنه مع تجاوز الخلاف بين المعسكرين حول عملية صياغة مسودة البرنامج حدود مكتب الإرشاد على وقع انتقادات حشمت والعريان، بدأت أطراف أخرى فى التلميح عن عدم رضائها كذلك. فلمح الدكتور محمد سعد الكتاتنى، رئيس الكتلة البرلمانية للإخوان بمجلس الشعب إلى تجاهل رأى البرلمانيين حول مسودة البرنامج[8]، وتصاعدت أصوات بعض شباب الإخوان على موقع الجماعة الإلكترونى الناطق باللغة الإنجليزية وفى بعض المدونات مؤكدة على أن البرنامج لا يعبر عنهم وأن صياغته تمت على نحو غير ديمقراطى[9].

إلا أن الخلاف بين الفرقاء لم يقف عند حد الروايات والمضامين المتناقضة حول عملية صياغة البرنامج، بل تجاوزه إلى التخلى عن الحذر الإخوانى التقليدى حين ممارسة النقد الداخلى وخبرة الجماعة الطويلة فى عدم نشر غسيلها المتسخ على الملأ. صاغ رموز المجموعتين مواقفهم بالأساس فى الساحة العامة وغلب على اللغة المستخدمة طابع شديد الحدية. على سبيل المثال، أشار محمود عزت إلى أن المعترضين على ما ورد فى المسودة حول هيئة كبار علماء الدين والأقباط والمرأة لا يملكون سنداً شرعياً بينما اتهم محمود غزلان شباب الجماعة الإصلاحيين بالتأثر بالأفكار الليبرالية والبعد عن أصالة الإخوان[10]. أما جمال حشمت فاستخدم لغة قاسية حينما ربط بين استئثار البعض بصياغة البرنامج وبين جو الاستبداد العام فى مصر وما يرتبه من قتل للحالة الوسطية داخل الجماعة[11].

برزت كذلك بالإضافة إلى نقل الصراع حول البرنامج داخل جماعة الإخوان المسلمين إلى الساحة العامة آلية إضافية لإدارته تمثلت فيما يمكن تسميته «حرب الفتوى». مؤيدو ومعارضو البرنامج على حد سواء سعوا إلى استصدار فتاوى من

رجال دين تدعم مواقفهم المتعارضة حول هيئة كبار علماء الدين والأقباط والمرأة واستخدمت الفتاوى كإحدى أدوات المواجهة العلنية. كرر محمد حبيب ورفاقه أكثر من مرة أن مكتب الإرشاد لجأ إلى عدد من علماء الدين حين إنجاز المسودة وأن هؤلاء أفتوا بعدم أهلية الأقباط والنساء لرئاسة الجمهورية والوزراء باعتبارهما من أمور الولاية الكبرى المكفولة للمسلمين[١٢]، أما عبد المنعم أبو الفتوح فكان أكثر تحديداً عندما كشف في حوارات إعلامية أن الشيخ القرضاوي وأستاذ علوم الشريعة الدكتور محمد سليم العوا قد أفتيا بأن المناصب سالفة الذكر لا تندرج في سياق الولاية الكبرى وأن إقصاء الأقباط والمرأة لا مسوغ له. استند أبو الفتوح أيضاً إلى القرضاوي في التشديد على أن المحكمة الدستورية العليا هي المنوطة بضبط ملاءمة التشريعات للمادة الثانية في الدستور وبالتبعية أن الحاجة تنتفي لهيئة كبار علماء الدين[١٣].

هي إذاً صورة صراعية بامتياز تلك التي خرجت بها جماعة الإخوان إلى الرأي العام خلال الأسابيع الأولى للنقاش حول البرنامج. كذلك تعددت مستويات الصراع، من صراع في الدائرة القيادية داخل مكتب الإرشاد بين مجموعة حبيب وأبو الفتوح مروراً بمكتب الإرشاد وقيادات الجماعة القريبين من القواعد الشعبية كجمال حشمت وانتهاء بامتعاض الكتلة البرلمانية من تجاهل اقتراحاتها والخلاف بين قيادة الجماعة وشباب الإخوان ذوي التوجه الإصلاحي. نعم حاول المرشد العام محمد مهدي عاكف، والذي تجنب المشاركة في الصراع الدائر حول البرنامج بصورة لفتت الأنظار، إعادة الأمور إلى نصابها والحفاظ على حد أدنى من الالتزام التنظيمي بالإعلان عن تشكيل لجنة برئاسة محمد حبيب لمراجعة المسودة وحسم القضايا الخلافية[١٤]، إلا أن علنية الصراع داخل الجماعة وتواكبه مع سيل من انتقادات المحللين والمتابعين خارجها رتبا استمراراً للتصريحات والمواقف المتضاربة حتى منتصف أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧. خلقت مثل هذه الصورة الصراعية، وعلى الرغم من إمكانية تفسيرها على أنها دليل حيوية الجماعة وربطها بكون الانخراط في الحياة السياسية بما تطرحه من قضايا وتحديات حتماً ما يوسع من مساحة الخلافات داخل الحركات المشاركة بها، انطباعاً لدى الرأي العام باضطراب الإخوان وافتقادهم لعقل إستراتيجي راجح يمكنهم من الحديث بصوت واحد في لحظة سياسية شديدة الدقة وحول قضايا جوهرية.

يبدو إذاً أن النقاش حول مسودة برنامج الحزب لم يكشف سوى عن عمق التحديات والخلافات التي تواجهها جماعة الإخوان داخلياً وصعوبة إدارتها وانحسرت تداعياته العامة في بروز مخاوف جديدة من دور الإخوان بحياة مصر العامة والسياسية. فلماذا وضعت الجماعة ذاتها وبإرادتها بهذا الموقف ولماذا اندفعت نحو الإعلان عن البرنامج الآن؟ أو بعبارة بديلة، ما هي العوامل التي شجعت الإخوان في ظل ظروف سياسية شديدة الصعوبة على القيام بخطوة غير مسبوقة بتاريخهم والإعلان عن برنامج حزب لا وجود له اليوم وغده القريب لا ينبئ عن احتمال الترخيص له؟

ثالثاً: لماذا الآن؟

ينبغي قبل الولوج إلى الإجابة عن التساؤلات السابقة، تجدر الإشارة إلى أن النقاشات داخل جماعة الإخوان قد تواترت طوال الثمانينيات والتسعينيات حول جدوى وأهمية الحزب السياسي، بل وتبلورت بعض المبادرات المحددة الدافعة باتجاه السعي نحو تشكيل حزب يدير النشاط السياسي للإخوان كان أبرزها مبادرتي حزب الشورى عام ١٩٨٦ وحزب الإصلاح في بدايات التسعينيات وكلاهما استند إلى جهد وتنسيق جماعي بين عدد من القيادات[١٥]. غير أن أياً من هذه المبادرات لم يرتب الإعلان عن برنامج للحزب وفقد بالتبعية - وفي سياق الرفض المتوقع من جانب السلطات المصرية السماح لحزب إخواني بالحصول على ترخيص - مغزاه سريعاً. حقيق أيضاً أن مشاركة الإخوان منذ السبعينيات في انتخابات الاتحادات الطلابية والنقابات المهنية وكذلك مشاركتهم في الانتخابات التشريعية ١٩٨٤ و١٩٨٧ في ظل تحالفات مع حزبي الوفد والعمل على التوالي قد دفعت بمسألة الحزب المرة تلو الأخرى إلى الواجهة كآلية رئيسية لتنظيم مشاركة الجماعة في الحياة السياسية الرسمية[١٦]. بيد أن عوامل من شاكلة غياب التوافق بين قيادات الإخوان حول جوهر وشكل العلاقة المبتغاة بين الجماعة والحزب والخوف من العواقب المترتبة على فصل محتمل بين الدعوة والنشاط السياسي فضلاً عن التوجس من رد فعل عنيف للنظام الحاكم حالت مجتمعة دون تبلور اندفاعة حقيقية نحو محاولة تأسيس حزب سياسي.

لماذا إذاً اليوم وفي ظل لحظة مواجهة مباشرة مع النظام يقرر الإخوان الإعلان عن برنامج حزب الجماعة السياسي؟ فمنذ نجاح الجماعة وعلى الرغم من الانتهاكات الحكومية لمبدئي نزاهة الاقتراع والرقابة القضائية على اللجان الانتخابية في الاستحواذ على ما يقرب من عشرين بالمائة من مقاعد مجلس الشعب في انتخابات ٢٠٠٥ التشريعية مترجمة بذلك لوزنها الفعلي على الأرض كفصيل المعارضة الأهم في مصر، ونظام الرئيس مبارك انتقل إلى موقع المواجهة المباشرة مع الإخوان سعياً إلى تضييق مساحات الفعل المتاحة لهم باتباع استراتيجيتين مرتبطتين. تمثلت الإستراتيجية الأولى في الضغط الأمني والذي كان من أبرز إرهاصاته التوقيف المتواتر لأعضاء الجماعة وتحويل عدد من قياداتها أبرزهم النائب الثاني للمرشد العام خيرت الشاطر ورجال أعمال كبار قريبين منها إلى محاكمات عسكرية تدور رحاها حتى يومنا هذا. أما الإستراتيجية الثانية فرامت تغيير بيئة المشاركة السياسية للإخوان بفرض قيود قانونية جديدة جاءت في سياق سلة من التعديلات الدستورية مررها النظام من مجلس الشعب المصري ومن ثم في استفتاء عام في ربيع ٢٠٠٧. وأهم ما جاء بسلة التعديلات فيما يتعلق بالإخوان المسلمين هو النص على منع «مباشرة أي نشاط سياسي أو قيام أحزاب سياسية على أية مرجعية دينية أو أساس ديني» (المادة ٥ المعدلة) بصورة تحول عملاً بين الجماعة أو أي فصيل سياسي آخر يستند في رؤاه وبرامجه إلى مرجعية دينية وبين الترخيص لأحزاب سياسية معترف بها وذات وضعية قانونية. وكذلك إفساح الطريق دستورياً أمام تغيير النظام الانتخابي المعمول به في مصر من النظام الفردي إلى نظام خليط يعتمد القوائم الحزبية كإطار منظم ويترك هامشاً صغيراً للمقاعد الفردية (المادة ٦٢ المعدلة) على نحو سيحد في المستقبل من مشاركة الإخوان في الانتخابات التشريعية وهم الذين دأبوا كجماعة محظورة ليس لها وضعية قانونية على ترشيح مستقلين ينتمون لهم للمنافسة في الدوائر المختلفة[١٧].

يصبح التساؤل إذاً هو لماذا تقدم الجماعة على إعداد برنامج حزب سياسي وتخرج به إلى الرأي العام في لحظة يعلم قادتها وأعضاؤها قبل المراقبين خارجها أن الترخيص لحزب تابع لها هو بمثابة ضرب من المستحيل؟ هنا يمكن الإشارة إلى عاملين رئيسيين وعاملين فرعيين ربما حفزوا مجتمعين الإخوان على القيام بخطوتهم بالرغم من البيئة السياسية غير المواتية والقيود التي فرضتها على فعل ومساحات حركة الجماعة.

فمن جهة أولى، أخرجت المواجهة مع النظام الحاكم بعد انتخابات ٢٠٠٥ الجماعة من وضعية المبادرة إلى الفعل التي ميزتها خلال الفترة التي سبقت الانتخابات - وكان من أهم ملامحها إصدار مبادرة الإصلاح في ٢٠٠٤ والمشاركة مع بقية فصائل المعارضة المصرية والمجتمع المدني والقضاة المستقلين في رفع سقف الضغوط على النظام الحاكم لإنجاز إصلاحات ديمقراطية حقيقية - لتعيدها إلى خانة رد الفعل في ظل ضربات النظام المستمرة مرتبة بالتبعية اهتزازاً إستراتيجياً واضحاً داخلها. في هذا السياق، ربما أراد الإخوان من خلال إعداد برنامج لحزب العودة إلى دائرة الفعل وإثارة نقاشات إيجابية حوله تتجاوز

قضية الشريعة، ولدت شعوراً مؤداه أن الجماعة تريد فرض اختزال التراث التشريعي والقانوني الطويل للحضارة الإسلامية بتأويلات ضيقة تفرض على المصريين بصورة غير ديمقراطية

ماذا يحدث داخل حركة الإخوان المسلمين؟

الصورة السلبية التى فرضتها المواجهة مع النظام[18]. مثل هذا الأمر اكتسب أهمية مضاعفة فى أعقاب تلك الحادثة التى عرفت بحادثة ميليشيا الأزهر[19]، وبعد أن هاجم الرئيس مبارك الجماعة علناً بضراوة لافتة متهماً إياها بأنها «خطر على أمن مصر لأنه يتبنى نهجاً دينياً»[20].

من جهة ثانية، دأب عدد من رموز الإخوان خلال عامى الحراك السياسى فى ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ على تقديم الوعود بأن الجماعة المحظورة عازمة إما على التحول إلى حزب سياسى مدنى ذى وضعية قانونية بل وأن قيادتها تفكر ملياً فى حل الجماعة حال حصول الحزب على الرخصة القانونية أو على الأقل أن الإخوان مع التمييز الواضح للدينى. الدعوى عن السياسى - المدنى من خلال الفصل الوظيفى بين الجماعة وحزبها[21]. ولدت مثل هذه الوعود حالة مزدوجة من الترقب والأمل لدى قطاعات واسعة من الرأى العام المصرى وربما رتبت بالتبعية التزاماً إخوانياً بعدم تجاهل قضية الحزب على الرغم من عدم مواتاة الظروف السياسية لخطوة كهذه بل. وكما سنأتى على التفصيل لاحقاً، وفى ظل عدم استعداد الجماعة فكرياً وتنظيمياً له.

فضلاً عن ذلك، ثمة عاملان فرعيان ربما لعبا أيضاً دوراً إضافياً فى تحفيز الجماعة على الخروج ببرنامج الحزب إلى الرأى العام، ألا وهما الحاجة الملموسة إلى استجلاء غموض رؤية الإخوان حول بعض جوانب رؤيتهم للسياسة والمجتمع ثم المسار التطورى العام لعدد من الحركات الإسلامية المشاركة فى اللعبة السياسية السلمية فى العالم العربى. ففى حين أوضحت جماعة الإخوان المسلمين من خلال سلسلة من البيانات أهمها مبادرة الإصلاح ٢٠٠٤ والبرنامج الانتخابى لمرشحيها فى انتخابات ٢٠٠٥ التزامها بالتحول التدريجى نحو الديمقراطية فى مصر ومدنية الحياة السياسية، أبقت الجماعة على مساحة من الرمادية بل والازدواجية فى المواقف حول عدد من القضايا المركزية على نحو رتب انتقادات ومطالبات متصاعدة بإجلاء الغموض حولها[22]. وكما سبقت الإشارة، تمثل أهم هذه القضايا فى موقف الإخوان من مبدأ التساوى التام فى الحقوق السياسية بين المواطنين المصريين بغض النظر عن الدين والنوع، طبيعة الخطوات الإصلاحية المحددة التى تؤيدها الجماعة، وكذلك كيفية الترجمة الفعلية لمركزية الشريعة الإسلامية ودورها فى النظام السياسى. هنا نظر البعض من الإخوان ومن خارج صفوفهم إلى برنامج الحزب بكونه يقدم فرصة سانحة لتوضيح وتحديد المواقف وربما مقدمة لحسم صراع الإرادات داخل الجماعة بين أصحاب الرؤى المتناقضة[23].

ثم شكل المسار التطورى للإسلاميين فى بعض الدول العربية، وبه تحركت حركات كالإصلاح والتوحيد المغربية وجماعة الإخوان المسلمين الأردنية عندما أتيحت لها فرص للمشاركة فى العملية السياسية الرسمية بثقة بادية نحو فصل وظيفى بين الجماعة الدينية الدعوية وبين الكيان السياسى المدنى على نحو أخذ شكل تأسيس أحزاب متمثلةً فى العدالة والتنمية المغربى وجبهة العمل الإسلامى فى الأردن، عنصراً ضاغطاً وسياقاً للمقارنة مع وضعية الإخوان فى مصر على نحو دفع بعض القيادات داخل الجماعة إلى توظيفه للمناداة صراحةً بأهمية الفصل بين الجماعة والحزب المراد تأسيسه. ففى حوار مع أسبوعية الصحوة اليمنية القريبة من الإسلاميين فى التجمع اليمنى للإصلاح، استدعى الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح تجارب الإسلاميين خارج مصر فى معرض الحديث عن الجماعة والحزب: «هناك حوار داخل مؤسسات الجماعة حالياً حول هذه المسألة لم نحسمه بعد، ونستدعى فى هذا الحوار تجارب الحركات الإسلامية فى اليمن والأردن والمغرب والجزائر لنستفيد منها فى التخطيط لمستقبل العمل السياسى للحركة فى مصر. ففى الأخيرة مثلاً حركة مجتمع السلم حمس هى مظلة للعمل السياسى والدعوى معاً، فى المغرب المسألة مختلفة فهناك حزب العدالة إلى جانب حركة التوحيد وهما منفصلان إدارياً وتنظيمياً، فى الأردن هناك الحركة والعمل الإسلامى جناح سياسى لها.. وكذلك التجربة فى اليمن نحاول أن نستدعى جميع تلك التجارب لنستفيد منها.. إلا أن الحوار لدينا لم يحسم بعد»[24]. أما الدكتور عصام العريان، مسئول القسم السياسى بالجماعة، فأشار أيضاً إلى نفس المعنى فى معرض التعليق على الانتخابات المغربية الأخيرة: «وفى إطار سعى الحركات والأحزاب الإسلامية إلى الاندماج فى البنية السياسية للنظم العربية تأتى أهمية متابعة تجارب الحركات والأحزاب الإسلامية فى كل مكان. وإذا كانت مصر فى الماضى رائدة فى نقل التجارب إلى بقية البلدان العربية؛ فإننا اليوم فى موقع المستفيد من تجارب الآخرين»[25].

لم يعدم الإخوان إذاً العوامل الدافعة بجماعتهم نحو السير على درب حركات إسلامية أخرى أو على الأقل إظهار قدرتهم ورغبتهم فى ذلك بالعمل على مسودة برنامج الحزب والإعلان عنها. وحاولت الجماعة توظيف البرنامج بصفحاته المائة والثمانى والعشرين من القطع الكبير لصياغة نموذج متكامل لإدارة شئون مصر الداخلية والخارجية على نحو تميز فى تفصيليته عن مبادرة الإصلاح ٢٠٠٤ والبرنامج الانتخابى ٢٠٠٥ وإن اعتمد عليهما. كما دلل إقدام الإخوان على إرسال مسودة البرنامج إلى عدد من المفكرين والمحللين خارج دوائرهم على رغبتهم فى خلق حالة من النقاش والزخم حولها تعيد الجماعة إلى صدارة المشهد العام. إلا أن خسائر الإخوان أيضاً لم تكن بالضئيلة، بل هى فى واقع الأمر المقابل المباشر لما توقعوه أو راموه من مكاسب.

فمع أن العقود الطويلة من العمل السياسى كمعارضة محظورة تواجه بين الفينة والأخرى قمع نخبة الحكم قد وضعت ضغوطاً وقيوداً عديدة أمام الإخوان، استفادت الجماعة من وضعيتها بالمعارضة فى التملص مراراً من تحديد مواقفها حول قضايا السياسة والمجتمع الرئيسية وإجلاء الغموض المحيط ببعضها. فاحتمالية انتقال حركات المعارضة بالنظم السياسية السلطوية وشبه السلطوية إلى مواقع الحكم هى من المحدودية بحيث يمكن لهذه الحركات الاكتفاء بتوجيه سهام النقد للحكام والتركيز على إخفاقاتهم دونما حاجة إلى صياغة بدائل واضحة قابلة للتطبيق. بعبارة أخرى، يمكن النظر إلى مفردات كالغموض والتأرجح والعموميات والنفعية السياسية (political opportunism) بكونها المكتسبات العضوية لدور المعارضة فى النظم السلطوية وشبه السلطوية. لذا، وعلى الرغم من المكاسب التى توقعتها جماعة الإخوان من جراء الإعلان عن برنامج لحزبها يحسم خلافاتها الداخلية ويجيب على تساؤلات الرأى العام ومن ثم يسمح بالعودة إلى دائرة الفعل ويخفف من كلفة المواجهة مع نخبة الحكم، فإن الجماعة خسرت بمجرد الإعلان عن برنامج تفصيلى وبغض النظر عن مضامينه امتياز الغموض والحق فى الاكتفاء بحديث العموميات.

كذلك حملت مسودة البرنامج الإخوان كلفة إضافية تمثلت فى وضعهم بمأزق المفاضلة بين مطلبية الأعضاء والأنصار من جهة وتوقعات الرأى العام من جهة أخرى. نجح الإخوان منذ سبعينيات القرن الماضى فى المشاركة السياسية بفاعلية اعتماداً على إستراتيجية مزدوجة عبأت باستمرار قواعدهم الشعبية وجذبت قطاعات أوسع من المصريين بشعارات فضفاضة كالإسلام هو الحل دار جلها حول دور الدين فى الحياة العامة. هنا مكن حديث العموميات إن عن أولوية تطبيق الشريعة دون تحديد لآليات واضحة أو عن مركزية المرجعية الإسلامية مع ضبابية المضمون الجماعة، من التعاطى بإيجابية مع مطلبية أعضائها وأنصارها المدفوعة بحلم تطبيق الشريعة وفى ذات الوقت تهدئة المخاوف العامة من اختزال الأجندة الدينية بقضية الشريعة. وكان لافتاً خاصة خلال السنوات القليلة الماضية كيف دأبت قيادات الإخوان على توزيع الأدوار بكفاءة بين أولئك المتجهين بخطابهم العلنى إلى القواعد الشعبية كمحمد حبيب ومحمود عزت وهما تميزا بالتشديد المتواتر على قضية الشريعة

رأى البعض من قيادات الإخوان بهذا الموقف اتساقاً مع أحكام الشريعة، رفضه فريق آخر شدد أعضاؤه على تناقض الإقصاء مع مبدأ المواطنة

وبطغيان الرمزية على خطابهما العلنى. وبين الفريق الذى أنيط به الحديث مع الآخر خارج الإخوان إن بمصر أو بالغرب وركز رموزه وأهمهم عبد المنعم أبو الفتوح على انفتاح الجماعة على قضايا التحول الديمقراطى وكون وظيفة المرجعية الإسلامية إنما تتمثل فى التوجيه العام لخياراتها السياسية كما هو الأمر فى حالات الأحزاب المسيحية الديمقراطية بأوروبا الغربية. حدت مسودة البرنامج ومقاربتها التفصيلية كثيراً من جدوى الازدواجية الإخوانية وفرض اختيار ما بين البديلين المحافظ والمنفتح.

ثم فقدت الجماعة بإخراجها مسودة البرنامج إلى الساحة العامة قدرتها على إدارة النقاش حوله والتحكم بسياقاته. نعم عاد الإخوان جزئياً إلى الفعل والمبادرة، إلا أن تفصيلية البرنامج قدمت لنخبة الحكم وقوى المعارضة الأخرى زاداً جديداً لمهاجمة الجماعة. فكما سبقت الإشارة، رتب مقترح استحداث هيئة لعلماء الدين فضلاً عن إقصاء الأقباط والنساء من المناصب العليا سيلاً من الانتقادات المشروعة وزج بالإخوان إلى مواضع شديدة السلبية بالساحة العامة.

فعلى سبيل المثال، وبعد سنوات من المحاولات المضنية لصياغة صورة إيجابية عن رؤيتها للمرأة ودورها بالمجتمع استناداً إلى رمزية الأسرة وخطاب الأخلاق والقيم الدينية الأصيلة ومسحة من التوجه الحقوقى الداعى لمشاركة النساء بالحياة العامة والسياسية، وجدت الجماعة نفسها فى أعقاب الإعلان عن البرنامج فى موقع المتهم المدان برفض المساواة التامة بين المواطنين من ذكور وإناث. فقد أجبرت تفصيلية البرنامج الإخوان على التعامل مع قضية أهلية المرأة للمناصب السياسية وأخرجتهم بالتبعية من أمان خطابهم الأخلاقى الفضفاض، بل جردت الأخير من المصداقية بساحة عامة أدركت التناقض الجلى بينه وبين الجوهر الرجعى لنزع أهلية تولى منصبى الرئاسة ورئاسة الوزراء عن النساء.

أخيراً، عمقت مسودة البرنامج من الصراعات بين قيادات الجماعة ودفعت إلى السطح بتناقضات داخلية جوهرية تضع على كاهل الحركة المنهكة من مواجهتها مع نخبة الحكم المزيد من الأعباء. هنا أيضاً كان لغموض الإخوان قبل البرنامج وظيفيته الهامة، فقد سمح غياب الوثيقة الواحدة الملزمة لقيادات الجماعة بالتحرك بحرية نسبية واستقلالية ذاتية داخل عوالم الإخوان الخطابية مركزين على نقاط مختلفة تمتد من الشريعة إلى التحول الديمقراطى. ذهب إعلان المسودة بإمكانات الحرية والاستقلالية هذه وحتم على قيادات الجماعة التبنى العلنى لمواقف محددة والدفاع عنها فى مواجهة فرقاء الداخل قبل الخارج. وواقع الأمر أن الإخوان سعوا طويلاً إلى تجنب الكلفة الداخلية لحسم المواقف وكان لهم فى بعض جوانب مسارات الحركات الإسلامية العربية عبر واضحة. فعلى سبيل المثال، دخلت جبهة العمل الإسلامى بالأردن بلحظة انقسام ممتدة بين معسكرات متناقضة ارتبطت بتحديد الموقف من الانتخابات التشريعية الأخيرة هناك والاستراتيجية الأفضل للتعامل مع نظام حكم لا يثق بالإسلاميين، فى حين ما زالت الحركة الدستورية الإسلامية بالكويت تعانى من تداعيات انقسامها حول قضية الحقوق السياسية للمرأة وفى القلب منها حق التصويت بالانتخابات ويجتاح حزب العدالة والتنمية بالمغرب خاصة فى أعقاب انتخابات الخريف الماضى نقاشات عاصفة حول مستويات العلاقة بين الدينى والسياسى بدور الحزب. فحسم المعارضات لمواقفها بالنظم السلطوية وشبه السلطوية يحملها كلفة داخلية ترتبط بتصاعد الصراعات بين قادتها وتزايد احتمالية انشقاقاتها الداخلية. ولا شك أن جماعة الإخوان المسلمين قد فتحت بإعداد برنامج الحزب والإعلان عنه الباب على مصراعيه لدينامية الصراع والانشقاق ذاتها.

رابعاً: ملامح الصيغة التوافقية

هذه الكلفة الباهظة لمسودة برنامج حزب الإخوان والانحسار السريع لمكاسبه الأولية حتمت قيام الجماعة بإعادة ترتيب أوراقها والبحث (تحديداً ابتداء من النصف الثانى من أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧ أى بعد مرور ما يقرب من شهرين على تداول المسودة) عن صيغة توافقية داخل الجماعة حول القضايا الخلافية تبلورت ملامحها تدريجياً.

ترتكز ملامح التوافق الإخوانى إلى ثلاثة عناصر رئيسية. فعلى صعيد أول، يبدو أن الجماعة قد قررت تغيير الإشارات الواردة فى المسودة حول الهيئة المنتخبة لعلماء الدين باتجاه ينفى عن آرائها الطابع الإلزامى بالتشديد على أن مهمتها فقط استشارية وبصورة تربط بينها وبين مؤسسة الأزهر ولا تخولها أية صلاحيات فيما يتعلق بتقرير مدى ملاءمة التشريعات للدستور باعتبار أن هذه الوظيفة منوطة بالمحكمة الدستورية العليا. بعبارة بديلة، يعكس التوافق هنا ترجيح لموقف مجموعة عبد المنعم أبو الفتوح والعريان وحشمت على حساب موقف مجموعة حبيب وتراجعاً إخوانياً عن طرح استثار الرأى العام ودفع البعض إلى اتهام الجماعة باستلهام نموذج ولاية الفقيه الإيرانى.

فى حوار مع يومية «المصرى اليوم» المستقلة، شدد المرشد العام عاكف على هذه المعانى: «(...) نريد أن ننشئ هيئة علماء منتخبة وهى التى تنتخب شيخ الأزهر، وهى ليست إلا هيئة استشارية ومن أراد أن يستشيرها فى الحياة العامة يستشيرها ولكن القرار لمجلس الشعب وحسب الدستور لا بد أن تتفق مع الشريعة الإسلامية وإذا حدث خلاف فالمحكمة الدستورية هى التى تحكم بين المختلفين»[26]. تكررت ذات المضامين، بل وذات الصياغات، فى سلسلة من الحوارات والتصريحات أدلى بها محمد حبيب ومحمود عزت وعبد المنعم أبو الفتوح[27]. واتضح تدريجياً أن الجماعة أرادت إزاء الكلفة العالية التراجع تماماً عن مقترح إنشاء هيئة لعلماء الدين ووجدت فى الربط بينها وبين مؤسسة الأزهر مخرجاً ملائماً يحفظ ماء الوجه. وعلى الرغم من محاولات بعض قيادات الإخوان إجلاء شكل العلاقة المستقبلية بين الهيئة والأزهر والدفع بمزايا وجود هيئة منتخبة داخل الأزهر تبعده عن هيمنة السلطة التنفيذية[28]، إلا أن أغلب الظن أن الأمر لا يعدو أن يكون محاولة لتهميش الفكرة عملاً بوضعها فى سياق خطاب الجماعة التقليدى حول إصلاح الأزهر وهى التى لا تملك من أمر الأزهر شيئاً.

على صعيد ثان، تدلل تصريحات الإخوان على الاتجاه نحو الإبقاء على النصوص المستبعدة للأقباط والمرأة من رئاسة الدولة واعتبار ذلك خيار الجماعة وحزبها الفقهى. فى هذا السياق أيضاً جاءت كلمات المرشد العام واضحة ورددها آخرون: «وهناك نقطتان. المرأة والأقباط. الإخوان أخذوا فيهما قراراً وهما ليسا من عندنا.. هناك فى الشرع والدين أناس فقهاء يقولون الدولة الإسلامية لا يكون على رأسها إلا مسلم، ولا يجوز لدولة أن يكون على رأسها امرأة وهذا رأى فقهى وهناك آراء فقهية أخرى غير ذلك... ونحن كإخوان لنا اختيار ولا نلزم به غيرنا، ولكن نلزم به الإخوان المسلمين وليس كل المصريين لكى يؤمنوا به وصناديق الاقتراع هى التى تحدد»[29]. إذاً رجحت وجهة نظر مجموعة حبيب وعزت ومرسى وحسمت حرب الفتوى بانتصار التقييد الفقهى الدافع بعدم أهلية غير المسلمين والنساء للرئاسة بكونها من مناصب الولاية الكبرى على الرغم من ضراوة الانتقادات التى وجهت للجماعة من داخلها وخارجها. هنا يبدو، بجانب قناعة العديد من القيادات المؤثرة بصحة هذا الطرح، أن خشية الإخوان من المساومة على الطابع الإسلامى المميز لبرنامج حزبهم عن غيره من الأحزاب وما قد يترتب ذلك من تداعيات على مستوى القواعد الشعبية والخوف من الظهور أمام الرأى العام بمظهر الجماعة المضطربة غير واضحة الخيارات فى قضايا محورية والمستعدة للتراجع عن مواقفها المعلنة حين توجيه سهام النقد لها قد دفع إلى تبنى إقرار عدم أهلية الأقباط والنساء مع محاولة الحد من الأضرار المترتبة عليه. فاللافت للنظر أن تصريحات قيادات الإخوان الأخيرة أخرجت من جهة رئاسة الوزراء من دائرة المناصب

يظهر البرنامج جماعة الإخوان بمظهر من يريد تحولاً ديمقراطياً وتعدداً للسلطات، وما لبث فى ذات الوقت يحلم بدولة كليانية تطال أدوارها كل قطاعات المجتمع



المستبعدة. وأعادت من جهة أخرى إنتاج مفردات خطاب «لسنا ضد الأقباط والمرأة» المتداول إخوانياً كلما خلقت مواقف الجماعة شكوكاً في مدى التزامها مبدأ مواطنة الحقوق المتساوية[30].

على صعيد ثالث وفي محاولة لتغيير الصورة الصراعية للجماعة وسيل المواقف المتضاربة خلال الأسابيع الأولى للنقاش حول برنامج الحزب وكلفتهما كانت باهظة إن على مستوى القواعد الشعبية أو الرأي العام. يحاول الإخوان العودة إلى سابق عهدهم كحركة منضبطة تتحدث بلسان واحد. ولا عجب أن أقوى التصريحات في هذا الصدد قد جاءت على لسان محمد حبيب ومحمود عزت: فحبيب أكد على أنه لا توجد «معارضة نهائياً داخل مكتب الإرشاد لما انتهى إليه الرأي برفض ولاية المرأة والقبطي»[31]، في حين شدد عزت على أن الجماعة قد حسمت أمرها بشأن البرنامج ولم يعد هناك مجال للخلاف داخلها أو لتضارب التصريحات[32]. أما أبو الفتوح والعريان وغيرهما من منتقدي مسودة البرنامج فالتزموا حدود الصيغة التوافقية وعادوا إلى عموميات اللغة الإخوانية القاضية بأن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية وأن تنوع الاجتهادات والمقاربات داخل الجماعة هو دليل على حيويتها وقدرتها على الحوار وليس على انقسامها الداخلي بين صقور وحمائم ومتشددين ومعتدلين[33].

تسعى جماعة الإخوان المسلمين إذاً بصيغة توافقية تستند إلى مساومة بين مؤيدي ومعارضي مسودة البرنامج وتأخذ بالحسبان موقف الرأي العام وقلق قواعد الجماعة الشعبية إلى إنهاء الصراع داخلها بحسم القضايا الخلافية وتحجيم الأضرار التي رتبها تداول المسودة. على الرغم من ذلك سيظل التساؤل قائماً حول حدود ثبات الصيغة التوافقية ومدى اقتناع الرأي العام بوحدة الصف الإخواني بعد أن طفت إلى السطح تناقضات قادتها الجوهرية وخلافاتهم وفي ظل سرعة لتعاقب الأحداث لم يعهدها الإخوان من قبل.

لصيرورة النقاش حول مسودة برنامج حزب الإخوان ولتداعياتها على الجماعة ودورها بالحياة السياسية المصرية من الدلائل الكثير. فشلت محاولة الإخوان في توظيف البرنامج للعودة إلى مواقع المبادرة وصناعة زخم حوله يتجاوز سلبيات لحظة المواجهة مع نخبة الحكم ويهدئ من مخاوف الرأي العام بإجلاء غموض مواقفهم، بل زج البرنامج بالجماعة إلى مواقف الدفاع المستميت عن النفس في ظل خلافات داخلية بين قياداتها وترنح لعقلها الإستراتيجي وشكوك متزايدة خارجها طالت المتعاطفين معها ومع دورها المحتمل في مواجهة نخبة الحكم السلطوية. واليوم يبدو الإخوان في سياق صناعة التوافق بينهم والتعامل مع كلفة البرنامج الباهظة بمظهر القوة الباحثة عن إمكانات للارتداد ومساحات للتراجع لا لشيء سوى المواقف الرمادية التي أرادت هي التخلص منها بإعداد برنامج ذي مقاربة تفصيلية. وما لبثت حركة المعارضة الإسلامية الأهم بمصر عاجزة عن السير على دروب الإسلاميين في دول عربية أخرى فصلوا بين الديني - الدعوي والسياسي - المدني بتأسيس أحزاب وجمعيات تمارس العمل السياسي فقط وتبحث عن الإستراتيجيات الأمثل للتعامل مع بيئات ضاغطة، وإن كان الأمر هنا لا يرتبط فقط برؤى الإخوان بل يتعداها إلى موقف نخبة الحكم الرافض لدمجهم كفاعل شرعي بالحياة السياسية لا لرماديتهم بل خوفاً من قدرتهم على المنافسة. ■

> واقع الجماعة التي تأسست في ١٩٢٨ دوماً ما برهن على تماسكها التنظيمي وقدرتها العالية على مخاطبة الرأي العام بصوت واحد واحتواء التيارات المختلفة داخلها دون أن تطفو على السطح طوال العقود الماضية

هوامش:

١. خلال الأسبوع الأخير في شهر أغسطس/آب ٢٠٠٧ وزعت جماعة الإخوان المسلمين مسودة برنامج حزبها السياسي على ما يقرب من ٤٠ مفكراً ومحللاً وصحفياً بمصر وخارجها طلباً للتعليق والتعقيب (أو النصيحة كما تسمى إخوانياً). حقيقة أن أغلب من تلقوا المسودة فضلوا الكتابة عنها في مقالات صحفية منشورة أو تناولها في تحليلات علنية رتبت تبلور النقاش العام حولها ودفعت العديد من رموز الجماعة إلى الإدلاء بدلوهم بصورة اتسمت ببروز تناقضات جوهرية في المواقف الإخوانية.

٢. راجع هنا:
Clark Lombardi and Nathan J. Brown, "Do Constitutions Requiring Adherence to sharica Threaten Human Rights? How Egypt's Constitutional Court Reconciles Islamic Law with the Liberal Rule of Law," 21 American University International Law Review, p. 379-435, 2006; and Clark Lombardi and Nathan J. Brown, "The Supreme Constitutional Court of Egypt on Islamic Law, Veiling and Civil Rights: An Annotated Translation of Supreme Constitutional Court of Egypt Case No. 8 of Judicial Year 17 (May 18, 1996)," 21 21 American University International Law Review, p. 437, 2006.

٣. جدير بالذكر هنا الإشارة إلى التنازع بين مؤسس مبادرة حزب الوسط أبو العلا ماضي والمرشد العام للإخوان محمد مهدي عاكف حول بداية المبادرة. ففي حين يؤكد ماضي على أنه صاحب الفكرة وأن جوهرها هو الخروج من عباءة الإخوان بعد خلافات، يدفع عاكف إلى أنه هو الذي اقترح على ماضي فكرة تأسيس الحزب في منتصف التسعينيات عندما أودع مجلس شورى الجماعة في السجن. لمراجعة الروايتين: أبو العلا ماضي، حكايتي مع الإخوان قصة الوسط، موقع www.almesryoon.com، ٤ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٦، حوار مع محمد مهدي عاكف، أسبوعية آخر ساعة المصرية، ٢٠ يوليه/تموز ٢٠٠٥.

٤ - حوار محمد حبيب مع الموقع الناطق بالإنجليزية للجماعة إخوان ويب www.ikhwanweb.com، ١١ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧، حوار محمود عزت مع www.ikhwanonline.com، ٢٣ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧، حوار محمود غزلان مع www.ikhwanonline.com، ١ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧.

٥. حوار مع عبد المنعم أبو الفتوح، الأهرام ويكلي، ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧.

٦. حوار جمال حشمت مع موقع إسلام أون لاين www.islamonline.net، ٦ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧.

٧. نص حوار مع عصام العريان على قناة العالم الإيرانية الناطقة باللغة العربية، ٤ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧، تصريحات عصام العريان ليومية الحياة، ١٣ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧.

٨ — حوار الكتاتني مع www.ikhwanonline.com، ٨ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧.

٩ - لمتابعة بعض مدونات الإخوان: ana-ikhwan.blogspot.com، ihoudaiby.blogspot.com. راجع أيضاً: Marc Lynch, "Young Brothers in Cyberspace," Middle East Report, Winter 2007, www.merip.org/mer/mer245/lynch.html.

١٠ — حوار محمود عزت مع www.ikhwanonline.com، ٢٣ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧، حوار محمود غزلان مع www.ikhwanonline.com، ١ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧. راجع أيضاً في سياق النقاش حول مسودة البرنامج وعلى خلفية تصريحات ملتبسة لعصام العريان بشأن موقف الإخوان من إسرائيل واتفاقيات السلام المبرمة بينها وبين مصر شائعات بأن المرشد العام ومكتب الإرشاد قرر استبعاد العريان من النقاش حول البرنامج على النحو الذي دفع العريان والنائب الأول للمرشد محمد حبيب إلى تكذيب الخبر بصورة علنية:
تصريحات لعصام العريان على www.ikhwanonline.com، ٢٣ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧، تصريحات لمحمد حبيب على www.ikhwanonline.com، ٧ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧.

١١. حوار جمال حشمت مع موقع إسلام أون لاين www.islamonline.net، ٦ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧.

١٢ — تصريحات لمحمد مرسي على www.ikhwanonline.com، ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧.

١٣ - تصريحات لعبد المنعم أبو الفتوح على www.ikhwanweb.com، ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧.

١٤ - تصريحات لمحمد مهدي عاكف، يومية الحياة، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧، تصريحات عصام العريان ليومية المصري اليوم، ١٤ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧.

١٥ - تميزت مبادرتا حزب الشورى والإصلاح بمباركة قيادات الإخوان آنذاك لها، وهو الأمر الذي اختلف جذرياً عن جوهر تعاطي الجماعة مع مبادرتين لاحقتين وصمت الأولى - مبادرة حزب الأمل عام ١٩٩٥ - بالطابع الفردي ورتبت الثانية - مبادرة حزب الوسط في ١٩٩٦ - بروز حركة الانشقاق الوحيدة داخل الجماعة خلال العقود الثلاثة الماضية.

١٦. راجع هنا:
Carrie Wickham, Mobilizing Islam, New York: Columbia University Press, 2002.

١٧. راجع هنا:
Nathan J. Brown, Michele Dunne & Amr Hamzawy, Egypt's Constitutional Amendments, Washington, DC: Carnegie Endowment, March 2007.

ماذا يحدث داخل حركة الإخوان المسلمين؟

١٨ ـ حوار مع الدكتور محمود عزت، الأمين العام للإخوان، موقع نافذة مصر www.egyptwindow.net، ٦ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧ .

١٩ ـ فى ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦ تظاهر عدد من طلبة الإخوان المسلمين فى جامعة الأزهر احتجاجاً على ما اعتبروه تزويراً لإرادة الطلبة فى سياق انتخابات الاتحادات الطلابية وفى أعقاب فرض إدارة الجامعة لعقوبات إدارية على بعض زملائهم. إلا أن أولئك الطلبة تظاهروا مرتدين قناعات سوداء ذكرت البعض بمجموعات حزب الله وحركة حماس الشبابية وأدوا استعراضات شبه عسكرية نشرت الصحف المصرية الحكومية والمستقلة تغطيات واسعة لها. استغلت الأجهزة الأمنية المصرية هذه الحادثة لاتهام الإخوان بالاحتفاظ بجناح شبه عسكرى داخل الجماعة والقت القبض على عدد كبير من طلبة الأزهر (أفرج عنهم تباعاً خلال الأشهر الماضية) ومن القيادات أبرزهم النائب الثانى للمرشد العام المهندس خيرت الشاطر حولوا فيما بعد لمحاكمات عسكرية.

٢٠ ـ حوار للرئيس مبارك فى صحيفة الأسبوع، ١١ يناير/كانون الثانى ٢٠٠٧ .

٢١ ـ فى حوار له مع جريدة العربى فى ٣٠ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٦، قال عضو مكتب الإرشاد الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح رداً على سؤال حول احتمالات حل الجماعة لو حصل الإخوان على ترخيص بحزب: «هناك رأيان (داخل الجماعة): الأول يرى أن تنتقل جماعة الإخوان كما هى لتكون حزب الإخوان والرأى الثانى يرى فصل التنظيم الاجتماعى للإخوان عن التنظيم السياسى بتقنين وضعيته فى صورة جمعية تقوم بالعمل الدعوى والثقافى مع تشكيل حزب للعمل السياسى». أما النائب الأول للمرشد العام الدكتور محمد حبيب فشدد فى حوار مع جريدة الكرامة فى ١٧ يناير/كانون الثانى على أن: «كثيراً من النخب كانت توجه انتقادات للإخوان بأنهم لا يريدون تشكيل حزب سياسى، وأنهم يريدون أن يظلوا جماعة محظورة ونحن نريد أن نرسل رسالة: أننا مستعدون للتقدم بإنشاء حزب». ثم عبر فى معرض الإجابة عن سؤال حول ما إذا كان حزب الإخوان سيعد بديلاً عن الجماعة عن قربه هو للرأى الثانى الذى يرى أن الحزب ليس ببديل للجماعة بقوله أن: «هذا (الأمر) قيد البحث والدراسة، وبالتأكيد الحزب لن يكون بديلاً للجماعة». من جهته ذهب الدكتور عصام العريان مسئول القسم السياسى بالجماعة وأحد الوجوه الإعلامية البارزة فى مقالة له نشرت بتاريخ ٢٥ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٥ على موقع www.almesryoon.com وعلى موقع www.islamonline.net إلى صياغة وسطية بالقول بأن الإخوان مع «فصل العمل الدعوى عن العمل السياسى فى حال وجود مناخ يتسم بالحرية ويسمح بذلك».

٢٢ ـ راجع هنا:

Nathan J. Brown, Amr Hamzawy, and Marina S. Ottaway, "Islamist Movements and the Political Process: Exploring the Grey Zones," Carnegie Paper no. 67, Washington, DC: Carnegie Endowment, March 2006; and Amr Hamzawy, Marina S. Ottaway, and Nathan J. Brown, "What Islamists Need to Be Clear About: The Case of the Brotherhood," Carnegie Policy Outlook no. 35, Washington, DC: Carnegie Endowment, February 2007.

٢٣ ـ نص حوار مع عصام العريان على قناة الساعة المصرية، ٢٨ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧، نص حوار مع العريان على قناة دريم المصرية، ٣٠ يناير/كانون الثانى ٢٠٠٧ . أيضاً حوار مع الدكتور محمود عزت، الأمين العام للإخوان، موقع نافذة مصر www.egyptwindow.net، ٦ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧ .

٢٤ ـ حوار مع الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح، أسبوعية الصحوة اليمنية، ١ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦ .

٢٥ ـ عصام العريان، الانتخابات البرلمانية المغربية ظواهر ودلالات وخيارات، الموقع العربى للجماعة إخوان أون لاين www.ikhwanonline.com، ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧ .

جدير بالذكر أيضاً أن القراءة الإخوانية الإيجابية لخبرات الإسلاميين خارج مصر يقابلها قراءة حذرة يتردد صداها أيضاً داخل الجماعة ترى فى تجارب بعض الحركات الإسلامية المشاركة فى اللعبة السياسية الرسمية فى المحيط العربى تفريطاً غير محمود فى ثوابت التيار وأسس فعله. يمكن فى هذا الصدد مراجعة: الدكتور محمد مرسى، الإخوان المسلمون والأحزاب الإسلامية المعاصرة، موقع نافذة مصر www.egyptwindow.net، ٦ أغسطس/آب ٢٠٠٧ .

٢٦ ـ حوار مع المرشد العام محمد مهدى عاكف، المصرى اليوم، ٢٤ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧ .

٢٧ ـ حوار محمد حبيب مع الموقع الناطق بالإنجليزية للجماعة إخوان ويب www.ikhwanweb.com، ١١ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧، حوار مع محمود عزت، موقع نافذة مصر www.egyptwindow.net، ٦ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧، تصريحات لعبد المنعم أبو الفتوح على www.islamonline.net، ٧ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧ .

٢٨ ـ حوار مع محمود عزت، موقع نافذة دمياط www.domiatwindow.net، نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧ (لا يوم محدد).

٢٩ ـ حوار مع المرشد العام محمد مهدى عاكف، المصرى اليوم، ٢٤ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧ .

٣٠ ـ تصريحات لمحمد حبيب، بيومية الشرق الأوسط اللندنية، ٨ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧.

٣١ ـ تصريحات لمحمد حبيب على www.islamonline.net، ٧ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧ .

٣٢ ـ حوار مع محمود عزت، موقع نافذة دمياط www.domiatwindow.net، نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧ (لا يوم محدد).

٣٣ ـ تصريحات لعبد المنعم أبو الفتوح على www.islamonline.net، ٧ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٧، حوار مع عصام العريان على www.islamonline.net، ٢٧ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧ .

كتاب الزاوية

مصر أم الدنيا

حسين مؤنس

فى البدء كانت مصر.. قبل الزمان ولدت. وقبل التاريخ وجدت..

هنا بدأ كل شىء: الزراعة والمعمار والكتابة والورق والهندسة والقانون والنظام والحكومة..

هنا أيضًا ولد «الضمير»، واكتشف الإنسان «الروح».. من حيوان يجرى لينجو من خطر، أو ليفترس، أو ليأكل، أو ليبحث عن أنثى.. تحول إلى إنسان يفكر، ويتأمل. ويرسم. ويكتب. ويحاسب نفسه..

مع حساب النفس نشأت الآلهة لتقوم بالحساب وتنصب الميزان.. خارج دنيا الأرض نشأت دنيا السماء، وقام الدين والأخلاق.. والخير والشر..

الملائكة والشياطين ولدوا جميعًا هنا. ومن عندنا خرجوا إلى الدنيا..

وفى قلب المصرى القديم. وفى بيته وفى مدينته وحقله. فى أرضه وسمائه وجدت «معات»، رمز الضمير والإحساس الإنسانى والقانون الأخلاقى. «معات» هى ما نسميه اليوم بالمروءة. المروءة بمعنى الإنسانية والحب والخير والعدالة والفضيلة. هذه كلها اكتشفها المصرى القديم، وهو يعمل فى حقله وينظر إلى السماء الزرقاء. ويستعطف الشمس الحامية. ويعانق النبات الأخضر الطالع..

قرون تجرى فى إثر قرون. عوالم تولد ثم تموت. ومصر هنا فى مكانها. تبنى وتنشئ وتعمر وتكتب وترسم وتنشد وتصلى، وتتألق وتتوهج وتخبو، ثم تتألق وتتوهج.

النظام والإخوان

محمد سليم العوا

■■ هذا كتاب جيد عن قضية قديمة.

وقِدَمُ القضية لا يعنى خروجها من دائرة الاهتمام، بل لعله يعنى أن يؤدى إلى زيادة الاهتمام بها، وبذل الجهد تلو الجهد لكشف أسرارها والتحرى عن حقيقتها وعرض الرؤية التى يقتنع بها الباحث على الناس.

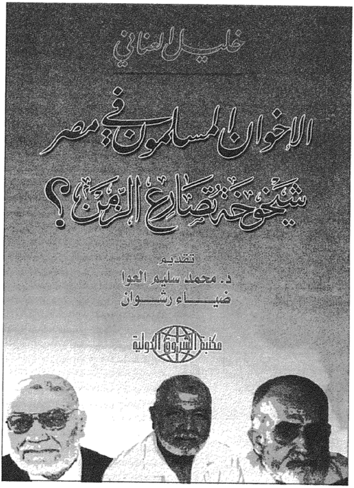
القضية القديمة التى يتناولها هذا الكتاب هى قضية: (الإخوان المسلمون) كبرى الجماعات الإسلامية فى العصر الحديث، كما أطلق عليها أحد الباحثين الجادين من قبل، وهو إطلاق أصبح مثار فخر الإخوان أنفسهم والمتعاطفين معهم بقدر ما أصبح مسوغ أعدائهم فى نشر فكرة الخوف منهم محليًا وعالميًا!!

والكتابات عن الإخوان المسلمين لم تتوقف منذ نشأة الجماعة، على يد مرشدها المؤسس الشهيد حسن البنا، عام ١٩٢٨م. وليس من المتوقع أن تتوقف، أو يتناقص عددها، أو يتضاءل الاهتمام الثقافى والسياسى بها فى أى مدى زمنى منظور.

فجماعة الإخوان المسلمين تقدم مجموعة من المقولات ذات الجاذبية الهائلة لأجيال وراء أجيال من الشباب والفتيات، وهى كلما تعرضت للتضييق عليها كلما نجحت فى جذب مزيد من المؤيدين والمتعاطفين الذين لا يلبثون أن يتحولوا إلى أعضاء عاملين فى إطار تنظيمى محكم مهما كان الرأى فى المحتوى الفكرى والثقافى والسياسى الذى يقدم لأعضاء هذا التنظيم.

والذين يقفون فى صف الحرية بوجه عام - ولو كانوا من خصوم الإخوان فكريًا وسياسيًا - يرون أن من حق هذا التنظيم أن يعمل فى علانية، وأن تتاح له فرصة المشاركة السياسية الحرة، وأن يلج أبواب المنافسة المشروعة على صناديق الانتخاب العامة والخاصة، أى فى مؤسسات المجتمع المدنى بجميع أشكالها وفى الانتخابات البرلمانية وانتخابات السلطات المحلية سواء بسواء.

والذين يخافون من الإخوان فعلاً، ويرونهم خطرًا حقيقيًا على أنظمة الحكم القائم، أو يروجون لهذه الخطورة طمعًا فى توسيع نطاق العداء لهم، وأملاً فى صرف الناس عنهم، لا يرون للإخوان المسلمين حقًا من أى نوع كان فى المشاركة فى الحياة السياسية أو الاجتماعية المنظمة، ويصفون تمسكهم بهذه المشاركة بأوصاف تملأ صفحات الصحف بحيث لا يحتاج القارئ إلى إعادتها هنا، وهى لا تؤدى إلا إلى مزيد من التأييد للإخوان المسلمين على المستويين المعنوى والمادى.



الكتابات عن الإخوان المسلمين لم تتوقف منذ نشأة الجماعة، على يد مرشدها المؤسس الشهيد حسن البنا، عام ١٩٢٨م. وليس من المتوقع أن تتوقف

سقت ما تقدم لكى أبين أهمية هذا الكتاب الجديد عن هذه القضية القديمة المستمرة. وهى أهمية لا تنبع من القضية نفسها بقدر ما تنبع من طريقة تناول المؤلف لها. فالمؤلف يستخدم فى كتابه كله مناهج التحليل الاجتماعية لفهم الظاهرة الإخوانية، وإذا كان الفصلان الأول والثانى من الكتاب يتحدثان أساسًا عن المنهج ومسوغاته فإن الفصول التالية يمارس فيها المؤلف تطبيقًا عمليًا لهذا المنهج. وهو تطبيق أدى إلى الكشف عن آليات التجنيد والاستقطاب والمبادئ التى تعتمد عليها، وعن دوائر الدعوة وتدرجها، وعن المناهج التربوية لقواعد الإخوان فى الطفولة والشباب وما بعدهما، وعن التنشئة السياسية للقواعد، وهو ينتقد انتقادًا ظاهرًا بعض المؤلفات التى يقوم عليها

مقدمة كتاب:
الإخوان المسلمون فى مصر
شيخوخة تصارع الزمن؟
خليل العنانى
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية - ٢٠٠٧

الإعداد السياسى للإخوان المسلمين ويظهر مواطن ضعفها أو قصور خطابها، وما أدى إليه ذلك من تناقض مواقف القواعد الإخوانية من عدد من القضايا السياسية، أو غموض فكرتهم عنها، أو تشوه رؤيتهم لها.. ولم يكن وصول المؤلف إلى نتائجه من خلال قراءات ومراجعات لنصوص مكتوبة عن الإخوان، وإنما كان - على نحو أساسى - من خلال لقاءات ومقابلات أجراها بنفسه مع قيادات وأفراد من جماعة الإخوان المسلمين.

ومن أهم فصول الكتاب فصله الخامس المعنون «الإخوان وقضية الديمقراطية.. الداء المزمن» وهو يستعرض فيه فهم الإخوان للديمقراطية وموقفهم من قضية إنشاء حزب سياسى، وخطاب الإخوان الفلسفى فى هذا الشأن، وتنظيمها الداخلى، وموقفها من الآخر داخل الوطن، وفكرتها عن المرجعية الدينية. ومن أصدق مقولات المؤلف ما ذكره من «أن المرجعية الدينية أمر مصيرى وأصيل فى تكوين هوية الشعوب العربية والإسلامية يصعب التخلص منه تحت أى مبرر»!!

وكاتب هذا التقديم يعجز عن فهم السبب الذى يدعو عاقلاً، يعرف طبيعة الإسلام، وحقيقة الرابطة بينه من حيث هو دين وفلسفة حياة وبين المؤمنين به، إلى محاولة التخلص من المرجعية الدينية. إننى أوافق المؤلف فى أن الجزء الأكبر من مسئولية بيان كيفية الاستخدام الأمثل لفكرة المرجعية الإسلامية يقع على عاتق الفقهاء والمجددين ورجال الدين المصلحين. ولكن تقصير هؤلاء، أو ضعف أدائهم، أو عدم انتشار ما يدعون إليه لا يجيز لأحد أن يدعو إلى التخلص من المرجعية الدينية للأمة الإسلامية. إن القول الصحيح هو أن هذه الأمة إذا تخلصت من هذه المرجعية تكون قد تخلصت من وجودها نفسه!!

ناقش المؤلف فى الفصل السادس العلاقة بين الإخوان والحكومة المصرية بعد الموقف الذى عرف باسم «حادثة الأزهر» (١٢/١٠/ ٢٠٠٦). وقد اعتبر المؤلف هذه الحادثة مفرق طريق فى العلاقة بين الإخوان والحكومة المصرية. لكنه استدرك - بحق - ليقول إن هذه الحادثة «لا تعدو أن تكون مجرد غطاء للصدام الذى وقع بين الجماعة والنظام، فقد بدا هذا الأخير طيلة عام ٢٠٠٦ وكأنه يتحين الفرصة لتصفية الحساب مع الجماعة ورغبته فى وقف حال التمدد والانتشاء التى عاشتها إثر فوزها الكبير فى انتخابات ٢٠٠٥».

ويختم المؤلف هذا الفصل بعبارة بالغة الدلالة يقول فيها: «إن أزمة النظام المصرى مع الجماعة.. كانت ستعبر عن نفسها حتماً مع أى فصيل يلقى قدراً من الشرعية المجتمعية حتى ولو لم يكن من أتباع حسن البنا»!

والفصلان السابع والثامن من الكتاب يتعرضان بصورة مباشرة للعلاقات، التى ترصدها جهات عديدة، بين الإخوان والولايات المتحدة الأمريكية. ويناقش الفصل الثامن بوجه خاص أداء الإخوان فى الانتخابات الرئاسية الذى كان استعداداً، فى وقته، للانتخابات التشريعية لعام ٢٠٠٥ التى خصص لها المؤلف فصله التاسع وأجرى فيه تحليلاً دقيقاً لأحداثها ونتائجها يصعب تجاهله فى أى دراسة للنشاط السياسى للإخوان المسلمين فى المرحلة الراهنة. ويكمل هذا التحليل، ببراعة تحسب للمؤلف، الفصل الحادى عشر المعنون «كيف فعلها الإخوان» الذى يتحدث عن الإدارة الفعلية للمعركة الانتخابية. لقد اشتملت هذه الإدارة - بحسب المؤلف - على التنسيق مع الحزب الوطنى فى بعض الدوائر!، وعلى التنسيق مع الجبهة الوطنية للتغيير فى دوائر أخرى وعلى المواجهة حيث لم يكن التنسيق ممكناً.

ولا يستقيم فهم رؤية المؤلف لمسألة نجاح الإخوان الكبير فى انتخابات ٢٠٠٥ إلا بقراءة الفصلين الثانى عشر والثالث عشر من كتابه، وبوجه خاص الوقوف على ما رصده من نتائج ودلالات الصعود السياسى للإخوان المسلمين بالنسبة للجماعة، وبالنسبة للنظام، وبالنسبة للمشهد الإصلاحى فى مصر.

وفى الكتاب دراسة ممتعة عن العلاقة بين الإخوان وقوى المعارضة منذ أوائل السبعينيات من القرن العشرين حتى الآن.

إن الرسالة النهائية التى يقدمها المؤلف هو ما احتوى عليه فصله الأخير من وصفه الإخوان «بأنها جماعة عجوز على مفترق طرق فى تاريخها النضالى. فإما القيام طوعاً بثورة إصلاحية داخلية تخلص الجماعة من عيوبها التاريخية.. وإما أن تتعرض لنوع من الانفجار الداخلى ربما يكون بداية الاندثار للطبيعة الكلاسيكية للجماعة، بما قد يمهد الأرض لبروز تيار إسلامى جديد ينعم بالجدة والحيوية».

والمؤلف يستعرض فى هذا الفصل بعض ما يراه أمراض شيخوخة تعترى جماعة الإخوان المسلمين وتقف عقبة فى طريق تطورها التاريخى. ولا يملك القارئ عندما يصل إلى هذه النتيجة من حديث المؤلف إلا أن يقارن بينها وبين تقريره فى مطلع الفصل الثانى أن «الجماعة نجحت فى تطوير خطابها السياسى بأنساقه المختلفة وأساليب عملها الميدانى، كى تتماشى مع طبيعة التحولات التى حدثت فى البيئة المصرية طيلة الفترة المذكورة» (يقصد فترة حكم الرئيس محمد حسنى مبارك)!!

كما لا يملك القارئ، لا سيما إن كان من أمثالى الذى يعنون بالعمل مع الناس وبينهم - أن يقبل الاحتمال الذى يورده المؤلف فى فصله الثانى، أيضاً، من احتياجنا إلى سبعة آلاف عام(!) لإزالة أثر الهيمنة الفرعونية الموروثة، وترسيخ أقدام فكرة الحرية فى العقل المصرى.

والواقع أن مثل هذا القول لا يُقبل إلا على سبيل الدعوة إلى عمل فعال منتج، فى مجال إحياء الوعى السياسى والثقافى، للتخلص مما تعانيه جمهرة المصريين من قبول للاستبداد وخضوع له واستكانة لطرائقه فى حكم البلاد والسيطرة على مقدرات العباد. أما أن يكون انتظار سبعة آلاف سنة دعوة جادة من المؤلف للمصريين فهو أمر لا أتصوره وأظن كثيرين لا يقدرون على احتماله. ■

كاتب هذا التقديم يعجز عن فهم السبب الذى يدعو عاقلاً، يعرف طبيعة الإسلام، وحقيقة الرابطة بينه من حيث هو دين وفلسفة حياة وبين المؤمنين به، إلى محاولة التخلص من المرجعية الدينية

توفيق الحكيم "اللبناني"!

جهاد فاضل

■■ مات الرئيس اللبناني الأسبق سليمان فرنجية ومات معه سر يتعلق «بلبنانية» الكاتب المصرى الكبير الراحل توفيق الحكيم، ووثائق هذه «اللبنانية» وأسبابها المقنعة.. فبعد وفاة توفيق الحكيم بعدة أيام، عقد الرئيس سليمان فرنجية مؤتمرًا صحفيًا كان يعقده كل أسبوع فى زغرتا ويتناول فيه قضايا سياسية مختلفة. ولكن المفاجأة فى المؤتمر الذى عقده بعد وفاة الحكيم كانت مذهلة. فقد أعلن فرنجية أن توفيق الحكيم من أصل لبنانى، وفى مدينة زغرتا بالذات (أى مدينة فرنجية نفسه) «وهذا ما يجهله بعضهم»، كما أشار.. وكان ما قاله فرنجية بالحرف الواحد: «خسر العالم العربى، وخسرنا فى لبنان، وبشكل خاص فى زغرتا، الكاتب الصحفى الكبير توفيق الحكيم، وما يجهله بعضهم عن هذا الكاتب المفكر الذى عمت شهرته العالم العربى أنه مواطن زغرتاوى.. إنى أتقدم بتعازىّ الحارة من ذوى الفقيد ومن أبنائه، أبناء وطنه الأول لبنان ووطنه الثانى مصر، ضارعًا إليه تعالى أن يتقبله بواسع رحمته»!

وقد حار الجميع فيما قاله الرئيس عن توفيق الحكيم وأخذوا يتساءلون عما توفر لديه من أدلة عن «لبنانية» الحكيم، وبخاصة عن «زغرتاويته» بالذات، إذ المعروف عن أهل زغرتا أنهم من حملة السيوف لا من حملة الأقلام.. ولم يعرف أحد يومًا أن توفيق الحكيم فى جملة «الشوام»، أو اللبنانيين الذين هاجروا إلى مصر، كما هاجر جرجى زيدان ويعقوب صروف وهذا الرعيل، أو أنه سليل أسرة لبنانية نزحت إلى بلاد الكنانة. فالمعروف، والمؤكد، أن توفيق الحكيم مصرى صميم تضرب أصوله فى ريف مصر، وكان والده قاضيًا فى المحاكم المصرية، كما كان جده من أعيان الريف. فما هى مستندات فرنجية يا تُرى حول لبنانية الحكيم وزغرتاويته؟

طرح بعض من التقى فرنجية فى تلك الفترة السؤال عليه، فكان يجيب أنه سيتحدث بالتفصيل عن هذا الأمر فيما بعد، وفى مؤتمره الصحفى الأسبوعى، ولكنه أمسك بعد ذلك عن كل قول، إلى أن توفى وأخذ سره معه.

وفى غياب أى دليل آخر على أصول الحكيم اللبنانية، تبارى كثيرون من المثقفين اللبنانيين فى الشرح والتعليق، لعلهم يهتدون إلى خلفيات السر الذى باح به فرنجية فى مؤتمره الصحفى.

ذكر بعضهم أن كلمة فرنجية لا تستند إلى أى أساس ولعلها كلمة عابرة سمعها فرنجية ولم يدقق فيها، فظن أنها حقيقية، فرددها. ومن الأدلة على صحة هذا الرأى أن فرنجية لم يكن أصلاً معنيًا بالثقافة، إذ لم يكن مثقفًا أصلاً، ومما يؤيد ذلك إشارته إلى أن الحكيم كان صحفيًا، وهو لم يكن يومًا كذلك..



وذكر آخرون أنه ربما تناهى إلى فرنجية أن نفرًا واسعًا من أدباء مصر فى بداية القرن الماضى كانوا من أصول لبنانية، وعندما سمع، أو قرأ، أن أديبًا كبيرًا فى مصر قد توفى، اسمه توفيق الحكيم، ألحقه بجرجى زيدان ويعقوب صروف ومى زيادة وفرح أنطون، عن ظن منه أن كل كاتب صحفى هو لبنانى، وذلك لكثرة الكتاب اللبنانيين المتمصرين. أو أنه أحب، ولغاية فى نفس يعقوب، أو فى نفسه، أن «يلبنن» الحكيم، فلبننه. وأكثر من ذلك لقد منحه المواطنية الزغرتاوية أيضًا، وهذا ما أراده فرنجية بالضبط. أى أنه بسبب العداء التقليدى بين أهل زغرتا وأهل بشرى، أراد أن يقول لهؤلاء الآخرين: أن زغرتا، وليست بشرى فقط، تُطلع أيضًا أدباء كبارًا..

قال هؤلاء إن أهل بشرى يتباهون على أهل زغرتا بأن بشرى قدمت فى تاريخها الحديث أديبًا كبيرًا عالميًا هو جبران خليل جبران، فماذا قدمت زغرتا غير «القبضايات»، وعلى رأسهم الرئيس سليمان فرنجية نفسه؟ وبنظر أهل بشرى، فإن الثقافة جزء من تاريخهم، فى حين أن الثقافة غريبة الدار فى زغرتا.. والرئيس فرنجية نفسه، وقبل أن يصل إلى سدة الرئاسة بفترة، شارك فى موقعة حربية فى قرية مزيارة المجاورة لزغرتا، ذهب ضحيتها عشرات القتلى والجرحى. وكانت ساحة المعركة يومها هى كنيسة مزيارة وساحة الكنيسة!

مع أن توفيق الحكيم سافر كثيرًا إلى الخارج، سواء فى شبابه أو فى كهولته وحتى فى شيخوخته، إلا أنه لم يطأ يومًا أرض لبنان

يبدو أن الرئيس فرنجية، رحمه الله، أحب أن يضع حداً لتباهى أهل بشرى بجبران، فأعلن «زغرتاوية» توفيق الحكيم

ويبدو أن الرئيس فرنجية، رحمه الله، أحب أن يضع حداً لتباهى أهل بشرى بجبران، فأعلن «زغرتاوية» توفيق الحكيم: منكم أديب كبير اسمه جبران خليل جبران، ومنا أديب كبير اسمه توفيق الحكيم.. هل تشكون بذلك؟ حققوا إذن.. ألم يغادر لبنان على مدى القرن العشرين آلاف مؤلفة إلى مصر؟ من هذه الأسر التى غادرت إلى مصر أسرة الحكيم..

على أن ما ورد فى المؤتمر الصحفى للرئيس فرنجية حول لبنانية الحكيم لم يعتمده أحد من الباحثين اللبنانيين أو غير اللبنانيين، فكل من عرف بكلمة فرنجية اعتبر أنها تتناقض تناقضاً جذرياً مع كل ما يعرفه الناس عن أصل وفصل توفيق الحكيم، فالحكيم كان من أهل القلم فقط لا غير، فى حين أن أهل زغرتا - وبلا استثناء يُذكر - من أهل السيف! وتوفيق الحكيم أديب وفنان كبير ساهم مساهمة جليلة فى نهضة المسرح فى مصر، فى حين أن أهل زغرتا لا يعرفون التمثيل أبداً.. كما لا يعرفون المزح.. فاليد سرعان ما تمتد إلى الوسط للاستعانة بمسدس، أو إلى أى مكان قريب للاستغاثة برشاش أو أية آلة حربية أخرى!

وتوفيق الحكيم، على عكس أهل زغرتا المتوقدى الذهن، الخفاف الخُطى إلى آلات الحرب، كان رجلاً قليل النشاط والحركة. وكانت قلة نشاطه وحركته داء العضال. وقد أضاع عليه هذا الداء الكثير من المتع والفرص فى الحياة والفن. يعمل ولكنه يقعد عن السعى لإنجاز العمل. ينشط إلى العمل ويكسل عن النجاح. وهو فى أغلب الأحيان قاعد هامد فى حوار دائم مع نفسه، وفى حركة دائمة داخل عقله، يفك الكون ويركبه. كل شىء فى العالم يهمه ويهزه ويحركه، ولكن جسمه لا يتحرك كثيراً. وكل هذا على عكس صفات أهل زغرتا.

بعض «الخبثاء» تساءلوا عما إذا كان فرنجية قصد فى كلمته حول زغرتاوية ولبنانية الحكيم، أنه كانت هناك صلة ما لأحد اللبنانيين المقيمين فى مصر بأسرة الحكيم، وكان الجواب، استناداً إلى ما ذكره الحكيم فى «زهرة العمر»، وفى «سجن العمر»، هو النفى الصارم. فتوفيق الحكيم كان يشبه والده إسماعيل الحكيم، القاضى فى المحاكم المصرية، شبهاً شديداً. فى كتابه «سجن العمر» يذكر الحكيم أنه عندما ولد كان والده متغيباً فى عمله فى بلدة صغيرة فى ريف مصر، بينما كانت زوجته فى مدينة الإسكندرية عند شقيقتها تنتظر لتضع طفلها، وعندما وضعته بعث زوج هذه الشقيقة إلى عديله والد الحكيم، بخطاب فى البريد يقول فيه بالحرف الواحد:

«أرسلنا إليكم اليوم تلغرافاً تبشيراً بقدوم نجلكم السعيد.. وتفصيل الخبر أنه فى الساعة العاشرة مساء شعرت السيدة حرمكم بألم يشبه الطلق، فأرادت إرسال الخادم إلى القابلة، فامتنعت بقولها: ربما لا يكون الأمر كذلك.. ولم نزل مترقبين حالها إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، حيث اشتد الألم. ولم يعد هناك شك فى اقتراب الوضع. وعندها أرسلنا الخادم. وفى الساعة الثالثة حضرت القابلة وباشرت أعمالها إلى أن كانت الرابعة أقبل «أخينا» مصحوباً بسلامة الوصول، وقد رأيته صباح اليوم فوجدته مثل أبيه، ولكن بدون شوارب»!

وعبارة «وجدته مثل أبيه»، تعنى أن توفيق الحكيم يشبه والده، وقد ظل يشبهه طيلة حياته. وكل هذا يستبعد أى سوء ظن حول سيرة الأم ونسبة الولد إلى الوالد..

ثم إن والدة توفيق الحكيم روت فيما بعد، كما يقول توفيق الحكيم، إن ابنها توفيق هبط إلى الدنيا «فى صمت، دون بكاء أو صخب أو عويل». وهذا يقطع بأن الحكيم لم يكن زغرتاوياً أو حتى لبنانياً، على الإطلاق. ذلك أن الزغرتاويين، واللبنانيين أيضاً، لا يحبون الصمت، ويفضلون عليه الصخب!

ولم تكن أسرة الحكيم بالأسرة القاهرية الطارئة على مصر، أو ذات الجذور الهشة فى قريتها، حتى يستدعى المرء هذه الجهة، أو تلك، كأصل لأسرة الحكيم، فالأسرة مصرية صميمة تضرب بجذورها فى أعماق الريف المصرى. جد توفيق الحكيم كان من قرية فى مديرية البحيرة اسمها صفط الملوك. وفيها كان يمتلك نحو ثمانين فداناً، كان اسمه هو الشيخ أحمد الحكيم وكان رجلاً متنوراً جاور فى الأزهر وزامل الشيخ محمد عبده فى مبدأ الدراسة ثم عاد إلى قريته يزرع الأرض التى ورثها عن آبائه.

يقول الحكيم فى «سجن العمر»:

ولقد أدركت جدى هذا فى أواخر حياته، فرأيت فيه شيخاً جليلاً مهيب الطلعة، يرتدى الجبة والقفطان والعمامة، ويضع على عينيه نظارة سميكة. وكانت هيئته حقاً أقرب إلى صورة الشيخ محمد عبده التى نعرفها جميعاً».

والمعروف أن زغرتا مدينة لبنانية مسيحية أو مارونية عن بكرة أبيها، وليس فيها، وحتى فى ضواحيها، مسلمون البتة، حتى يجوز الظن أن أسرة الحكيم نزحت منها فى يوم من الأيام!

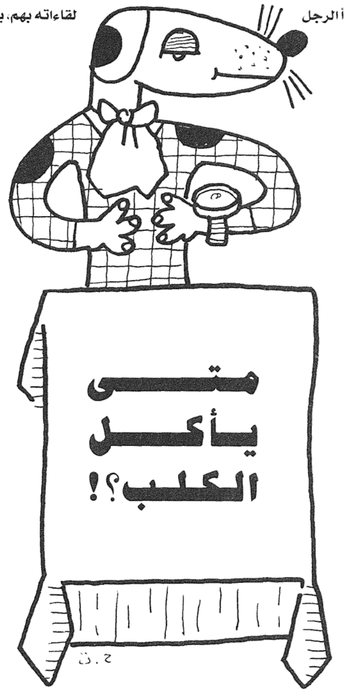
كما لا يجوز الظن أن الحكيم كان لبنانياً عن طريق والدته، فوالدته لم تكن لبنانية على الإطلاق. كانت أسرة والدته من أهل البحر، ممن أُطلق عليهم اسم «البوغازية».. أما أصل الأسرة فمن الترك أو الفرس أو الألبان. ويقول الحكيم حول هذه النقطة فى «سجن العمر»: لا أدرى بالضبط هل كان أصل أسرة والدتى من الترك أو الفرس أو الألبان. إن سحنة والدتى وجدتى وجدتى، وما لهما من عيون زرقاء تنم عن أصل غريب على كل حال. ولم أرث أنا، ولا شقيقى، هذه الزرقة ولا ما يقرب منها، لأن سحنة والدى الفلاح كانت فيما يبدو قديرة على صبغ بحر أزرق بكامله. وكان جد والدتى لأمها يُسمى «كلا يوسف»، وقيل إنه من «قولة». وجدها لأبيها كان يسمى الحاج ميلاد البسطامى، وابنه، وهو أبوها، اسمه سليمان البسطامى. وقيل إنه كانت لديه شجرة نسب تلحقه بأبى يزيد البسطامى، الصوفى المعروف».

ويضيف الحكيم: «وقد ذكرت لى والدتى أن أصلهم من فارس، ولكن أهلهم نزحوا إلى تركيا ثم وفدوا بعد ذلك إلى مصر. وكان رجال البوغاز هؤلاء يتوارثون المهنة أباً عن جد، ويحذقونها بالممارسة. وكانت لهم قواربهم البخارية التى يقودون بها السفن إلى البوغاز». والحديث كله ينفى نفياً قاطعاً عن أن يكون لأسرة الحكيم أدنى صلة بلبنان، لا عن طريق الأب ولا عن طريق الأم. فلا البسطامى من عائلات زغرتا، ولا أهل زغرتا، المدينة البعيدة عن ساحل البحر، تعاطوا يوماً مهنا بحرية، ناهيك عن أن التصوف، سواء تصوف البسطامى أو أى تصوف آخر، عرف طريقه يوماً إلى زغرتا، المدينة اللبنانية المتأهبة على الدوام لإطلاق الرصاص!

ومع أن توفيق الحكيم سافر كثيراً إلى الخارج، سواء فى شبابه أو فى كهولته وحتى فى شيخوخته، إلا أنه لم يطأ يوماً أرض لبنان، كما أنه عند حديثه عن أصول والدته، لم يضع لبنان فى عداد الأصول المفترضة لهذه الوالدة، مع أنه ذكر تركيا وفارس وألبانيا! فما الذى دعا الرئيس فرنجية إذن إلى اعتبار توفيق الحكيم من أصول لبنانية؟

ثمة افتراضات شتى كما أشرنا، لم يكن سليمان فرنجية شخصاً مثقفاً على الإطلاق، بل كان معروفاً بأنه زعيم عشائرى محلى فى منطقة زغرتا، له أنصار مستعدون على الدوام للذهاب معه إلى الحرب.. ويبدو أنه سمع أن أديباً مصرياً كبيراً بلغ من العمر عتياً، اسمه توفيق الحكيم، فظن أنه فى عداد أدباء لبنان الذين نزحوا إلى مصر، ولأنه رئيس جمهورية سابق، فقد منحه على الفور الجنسية اللبنانية ونسبه إلى مدينة زغرتا سعيداً مبتهجاً كى يفاخر به أهل بشرى وكأنه يقول لهم: «منكم جبران خليل جبران، ومنا توفيق الحكيم».. وأبلغ دليل على أن فرنجية لم يكن يعرف شيئاً ذا شأن عن توفيق الحكيم أنه حشره فى زمرة «الصحفيين» و«المفكرين»، وهو لم يكن فى الخطوط العامة لسيرته، مفكراً، كما لم يكن صحفياً البتة. وكل هذا ينهض دليلاً على أن فرنجية تسرع وأخطأ فى كل ما قاله، ولم يعد إليه بعد ذلك أبداً لأنه لم يكن لديه ما يقوله سوى التأسف والاعتذار، فآثر لسبب أو لآخر ألا يلجأ إليهما، ويطوى بالتالى الموضوع طياً نهائياً! ■

فوجئنا بأن كبار الباحثين، الذين بدأ الرجل لقاءاته بهم، يخرجون من حجرة الاجتماع واحداً



محمد رءوف حامد

حتى عام ونصف العام بعد تخرجي من كلية الصيدلة (عام ١٩٧٠) لم أكن أعرف بوجود نوع من التفكير يطلق عليه التفكير العلمى. ذلك على رغم أننى كنت منذ الصبا مغرماً بالقراءة وبممارسة أنشطة ثقافية متنوعة فى مراحل التعليم ما قبل الجامعى والجامعى. بل وكنت - أحياناً - من المتميزين جداً فى مقررات العلوم والرياضيات.

صحيح أن والدى كان يربينى على ألا أتفاعل مع الأشياء أو الأحداث دون فهم. وكان شديد الاهتمام بهذا التوجه حتى إننى صدَّرت رسالتى للدكتوراة بعبارة أشير فيها إلى فضله فى هذا الخصوص.. وصحيح أيضاً أننى كنت ألاحظ باهتمام طريقة تفكير أساتذتى فى كلية الصيدلة أثناء تفاعلاتهم معنا، سواء داخل قاعة المحاضرات أو خارجها، وكنت أحرص على أن أتعلم من ملاحظاتى عنهم فى طريقة التفكير.. وصحيح كذلك أننى كنت قد تأثرت بالقدرة العالية لأحد أساتذتى على التفكير المتسلسل الهادئ أ. د. حسين الشبينى، وكذلك بحرص أستاذ جليل المرحوم أ. د. يوسف عزالدين حمودة على دفعنا باستمرار للاهتمام بتتبع أسرار التفاعلات والإضافات الكيميائية والصيدلية من خلال التساؤل «لماذا؟»...

كما أنه من الصحيح أيضاً أننى كنت أشعر بعد تخرجى من كلية الصيدلة بتحسن فى إمكانات تفكيرى كانعكاس تراكمى لمجمل ما تلقيت من معارف فى التحليل والتركيب والتجريب أثناء الدراسة.. لكننى على رغم كل ذلك - وللأسف الشديد - لم أكن حتى ديسمبر ١٩٧١ قد تقابلت بعد بحق مع التفكير العلمى.

ماذا حدث فى ديسمبر ١٩٧١؟.. كنت باحثاً ناشئاً فى مركز بحوث ورقابة الدواء، وكان هذا المركز وقتها أشبه بخلية نحل.. زيارات الخبراء والأساتذة من خارج مصر لا تنقطع.. المحاضرات الراقية فى أحدث التطورات العلمية تتتابع يوماً بعد يوم.. بحوث جديدة باستمرار.. مناقشات وندوات ومؤتمرات.. شحنات وطرود مواد كيميائية وأجهزة (بل وحتى قردة من نوع خاص للتجارب) تأتى يومياً إلى المركز من شتى أنحاء العالم.. أهم وأغلى الكتب والدوريات العلمية تصل بمجرد صدورها. فى سياق هذا المناخ وصل لزيارتنا فى القسم الذى أعمل به (قسم الفارماكولوجى) خبير دولى مرموق هو الأستاذ ويلسون Cedric W. M. Wilson والذى كان يعمل أستاذاً ورئيساً لقسم الفارماكولوجى فى جامعة دبلن. كانت مهمة بروفيسور ويلسون تقييم القسم كأنشطة وكأفراد وذلك خلال فترة زيارته والتى استغرقت شهراً كاملاً.

كان الرجل يقوم بمهمته بجدية وعناية.. يلتقى مع كل باحث على انفراد، من أكبرهم (رئيس القسم) إلى أصغرهم (كاتب هذه السطور). كان يناقش كلا منهم فى البحث الذى يقوم به أو يزمع أن يقوم به.

كنا قبل بدء هذه الجلسات نتصور أن لقاءاتنا مع الخواجة ستكون فرصة للتعرف إليه كخواجة.. أن نمارس معه الحوار بالإنجليزية.. أن نطلعه على طموحاتنا البحثية العريضة.. أن نتبادل المجاملات والكلمات الطيبة.. وربما العناوين أيضاً، وأن نستقبل منه بعض النصائح. هكذا كان التصور العام عند كافة أعضاء القسم، أن اللقاءات المنفردة للبروفيسور معنا ستكون لقاءات مبهجة.. سارة.. نتبادل فى نهاياتها الشكر والابتسامة والتصافح.

غير أن الأمر لم يكن كذلك بالمرة. فوجئنا بأن كبار الباحثين، والذين قد بدأ الرجل لقاءاته بهم، يخرجون من حجرة الاجتماع واحداً تلو الآخر بوجوه مكفهرة.. فهذا غاضب يتفوه بكلمات غير مسموعة لكن يفهم أن به موجة استنكار أو سب، وآخر خجول.. منطو.. صامت.. وجهه إلى الأرض، تشى حالته بأن حياءه قد جرح.

الجميع يتصبب عرقاً على رغم برودة جو ديسمبر. ترى ماذا كان يجرى داخل حجرة البروفيسور؟.. كنا نحن صغار الباحثين نتساءل.. ويقدر إشفاقنا على رؤسائنا وزملائنا من الباحثين الكبار كنا نحن الصغار فى اضطراب وتخوف.. ورويداً رويداً.. بدأت المسألة تتضح. كان الأستاذ ويلسون يتفاعل مع الباحثين بجدية شديدة طبقاً لمعايير معينة فى ذهنه. كانت استفساراته تتناول كافة جوانب البحث من زوايا محددة. دقة عنوان البحث.. الهدف الرئيسى للبحث.. الأهداف الجزئية للبحث.. الأسس التى تم على أساسها اتخاذ قرار القيام بالبحث.. الوقت الذى يتوقع أن يستغرقه البحث.. كافة الطرق والملابسات الخاصة بالتنفيذ.. الآخرون الذين يشتركون فى البحث من هم وما هو الدور المحدد لكل منهم.. إلخ؟

معظم هذه الأسئلة لم تكن متوقعة عند الباحثين.. لكن أكثر ما اندهشوا له أمران، الأمر الأول: أن الرجل كان يسأل كل باحث عن مكونات طعام حيوانات تجربته، وكذلك كمياته وموعد تقديمه للحيوانات، سواء هى حيوانات صغيرة (مثل الفأر) أم كبيرة (مثل الكلب).

فى هذا الشأن حدث فى أثناء حواره مع أحد كبار الباحثين (وكان باحثاً متميزاً) أن عرف منه (البروفيسور) أن موعد تناول كلاب التجارب لطعامها هو العاشرة صباحاً. كان الوقت عندها - بالصدفة - تمام العاشرة. أراد الأستاذ أن يرى تغذية الكلاب على الطبيعة فصعد مع الباحث إلى بيت الحيوان. طبعاً الباحث لم يكن يقصد العاشرة صباحاً بالضبط.. لكن البروفيسور كان يسأل وكان الباحث يجيب، ليس أكثر. كان الباحث يعرف فى قرارة نفسه أن تناول

التفكير العلمى
محمد رءوف حامد
القاهرة: دار المعارف - ٢٠٠٧

تلو الآخر بوجوه مكفهرة.. فهذا غاضب يتفوه بكلمات غير مسموعة لكن يفهم أن به موجة استنكار أو سب. وآخر خجول.. منطو.. صامت

الكلاب لغذائها ليس له وقت محدد بدقة. حيث يمكن أن يكون في التاسعة أو العاشرة أو حتى عند منتصف اليوم أو حتى بعد ذلك. ولم يتصور الباحث أن الخواجة سيصعد إلى بيت الحيوان وينتظر ليرى الكلاب وهي تأكل في موعدها المعتاد.

لم يكن هناك أي أثر للطعام أمام الكلاب. اعتقد الأستاذ أن هناك تأخيراً عدة دقائق لأمر طارئ. الباحث حاول أن يثني الأستاذ عن الانتظار وأن يقنعه بالنزول إلى المعمل لتناول الشاي، لكن الأستاذ فضل الانتظار خمس دقائق تمر.. عشر دقائق.. نصف ساعة. الباحث يجتهد في إقناع الأستاذ بأن هناك شيئاً خطيراً لابد أن يكون قد حدث وأن الطعام سيأتي حالاً، وأنه ما عليه إلا أن يطمئن لذلك وأن يعود إلى المعمل. وبعد أن نزل الأستاذ إلى حجرته بالمعمل فوجئ الباحث بأن الأستاذ يصعد إلى بيت الحيوان كل ربع ساعة للاطمئنان على قدوم طعام الكلاب.

طبعاً الطعام الخاص بالكلاب وصل. لكن قرب الساعة الواحدة بعد الظهر وليس تمام العاشرة كما ذكر الباحث، لأن الحقيقة أنه لم يكن هناك وقتها موعد محدد بدقة متناهية تتناول فيه الكلاب طعامها ولم نكن ندرك علاقة ذلك بنتائج التجارب. تجهم وجه الخواجة وزاد غضبه وفي المقابل استغرب الباحث وحاول إقناع الأستاذ بأن هناك أسباباً كانت خارجة عن الإرادة. المفاجأة التي لم يتوقعها الباحث أنه بينما كان البروفيسور يتناقش في اليوم التالي مع باحث آخر إذ به يصعد في تمام العاشرة للاطمئنان على وصول طعام الكلاب في موعده هذه المرة. وطبعاً النتيجة كانت سلبية وكان استياؤه دون حدود.

أما الأمر الثاني الذي سبب اندهاشاً كبيراً لدى جميع الباحثين فكان سؤال الأستاذ لكل باحث عن التوقعات الممكنة بخصوص نتائج البحث الذي يقوم (أو يخطط لأن يقوم) به.

كانت وجهة نظر الباحثين - كل على حدة - أن النتائج ستأتي بعد اكتمال البحث، وعليه فلم يكن أي منهم قد قام بجهد من أجل توقعها وكتابة ما يتوقع من ذلك، بينما كان الأستاذ في المقابل غاية في الاستغراب، كيف يقوم هؤلاء الباحثون بإجراء بحوثهم دون أن تتضمن بروتوكولات هذه البحوث الدوافع المعرفية المؤدية إلى إجراء البحث، وكذلك النتائج الكيفية المتوقع الحصول عليها.

بعد أن عشنا أياماً من التوتر فوجئنا ذات صباح بالرجل يوزع بنفسه على كل واحد منا ورقة من صفحة واحدة بعنوان: Scientific Method in Pharmacology أو «المنهج العلمي في علم الأدوية».

بعدها، طلب من كل منا أن يعيد كتابة مشروعه البحثي طبقاً للطريقة Method الموضحة في الورقة، وأمهلنا يومين.

وبينما كان البعض يجتهد في التواصل مع محتوى ورقة الأستاذ والبعض الآخر يستغرب منها ولا يرى فيها ما يدفع على الاهتمام غير العادي، كنت أحس بالرضا، فقد شعرت بأنني قد حصلت على شيء كنت أبحث عنه لفترة طويلة. لقد مكنتني ورقة الأستاذ من ترتيب ذهني وتصوراتي وواجباتي بخصوص البحث. وبالفعل أعدنا جميعاً كتابة بروتوكولات (أو خطط) مشروعاتنا البحثية. وفي صباح اليوم المحدد لتسليم هذه البروتوكولات فوجئنا بالأستاذ يتصل من قاعة المحاضرات برئيس القسم ويطلب منه الحضور إلى القاعة ومعه باقي الباحثين ليقوم كل منهم بعرض بروتوكول بحثه حيث ستجرى المناقشة في حضور الجميع.

أذكر هنا أن رئيس القسم طلب من أصغر ثلاثة باحثين (وكنت أصغرهم) أن نلتزم بالبقاء في القسم، ذلك بينما دعا الزملاء الكبار للالتقاء مع الأستاذ في قاعة المحاضرات. أطعنا الأمر نحن الثلاثة، لكنا كنا قلقين. كان القلق يتراوح بين الخوف على الزملاء من نقد الأستاذ، وبين الرغبة في المشاركة، والاستياء من بقائنا في القسم وحجب هذا اللقاء عنا. وما هي إلا دقائق حتى سمعنا رنين التليفون. كان المتحدث هو رئيس القسم شخصياً والذي أخبرنا: «الأستاذ يريدكم أنتم الثلاثة معنا في قاعة المحاضرات».

وهناك، في قاعة محاضرات مركز الأبحاث والرقابة الدوائية في منطقة الهرم (ديسمبر ١٩٧١)، كانت البداية الأساسية لي في ممارسة التفكير العلمي من خلال تطبيق المنهج العلمي على مجال علم الأدوية (الفارماكولوجي). إنني لا أنسى أبداً تأسيس المنهج العلمي في ذهني من خلال مناقشات بروفيسور ولسن، كما أنني لا أنسى أبداً استغرابي من عدم تساوي الحاضرين بشأن تمكنهم من اكتساب معرفة المنهج العلمي من خلال شروح ومناقشات ولسن على رغم بساطة المنهج ووضوح المناقشات. إنني أفهم الآن أن قدرتهم على فهم وممارسة المنهج العلمي كانت مرتبطة بمدى رغبتهم هم أنفسهم في فهمه وممارسته. كانوا متباينين في اكتسابهم لمهارة استخدام المنهج العلمي بنفس تباينهم في درجة الإقبال على أعمالهم. لم يكن فهم المنهج العلمي يحتاج إلى ذكاء، كان. فقط. يحتاج إلى الالتزام بترتيب الأفكار بنظام.

وعند ذكر الالتزام مقروناً بالمنهج العلمي ترد إلى ذاكرتي فوراً حادثة طريفة وقعت لي في قاعة محاضرات السنة الأولى بكلية صيدلة جامعة الفاتح في ليبيا منذ حوالي ربع قرن. كان عميد الكلية قد طلب مني أن أقوم بتدريس مقرر خاص بالمعرفة الإنسانية يعطى لطلاب السنة الأولى. كان هذا المقرر يتناول عادة موضوع «الكتاب الأخضر»، وسعدت بموافقة العميد على اقتراحي بأن تكون محاضراتي في موضوع آخر أكثر مناسبة لي وللطلبة وهو «المنهج العلمي».

لم تكن لي معرفة بطلاب وطالبات السنة الأولى، فقد كانت مقررات علم الأدوية والتي أسهم أنا في تدريسها مقررة على الفرقة الثانية وما بعدها حتى البكالوريوس. كنت قد أمضيت عامين دراسيين في الكلية، وكنت سعيداً أن أحاضر لأصغر طلاب الكلية (الفرقة الأولى) في موضوع مهم أحبه وأحترمه وهو المنهج العلمي. استمرت المحاضرة ساعتين تتوسطهما استراحة قصيرة. وفي نهاية المحاضرة وبمجرد أن شكرت الطلبة والطالبات على حضورهم وحسن تفاعلهم مع الموضوع المطروح، وبينما لم أبرح المنصة بعد، إذ بطالبة تنهض من الصف الأول مسرعة تجاهي وتعطيني ورقة وتقول لي بحدة: من فضلك يا دكتور اقرأ المكتوب هنا.

كان تصرف هذه الفتاة (الجريئة) أمراً لا يمكن نسيانه. لقد كتبت العبارة التالية: «يا دكتور.. أنت تكلمنا عن المنهج العلمي وأنت لا تعرف المنهج العلمي ونحن لا نفهم منك أي شيء»..

البنت ظلت واقفة تتأملني بينما كنت أقرأ ما كتبته وأنا مازلت واقفاً أمام السبورة. لقد أجبتها مباشرة: أشكرك.. وأود أن تكوني على حق في رأيك أو في جزء منه، وسأكون سعيداً لو ذكرت لي تفاصيل وأمثلة لشرح هذا الرأي المهم.

الفتاة لم تتحرك من مكانها ولم ترد. تابعت حديثي لها قائلاً بجدية وبابتسامة مشجعة: بإمكانك أن تزوريني في مكتبي وتشرحي لي رأيك وبالتأكيد سأستفيد منه. ثم انصرفت خارجاً من قاعة المحاضرات.

وما هي إلا ثوان وفوجئت بالطالبة تجري ورائي منادية بينما الدموع تنهمر من عينيها:

- دكتور.. دكتور.. أرجو أن تعذرني.. أنا لم أقصد مطلقاً ما أقول.. لقد أردت أن أثبت لنفسي شيئاً لكني كنت مخطئة.
- خير.. أردت أن تثبتي ماذا؟
- يقول عنك زملائي في السنتين الثانية والثالثة إنهم قد أجروا أعمالاً بحثية معك. وإنك تمتحنهم بطرق مختلفة غير تقليدية، وإنهم يتعلمون في محاضراتك التفكير ولا يضطرون للحفظ.. لقد كنت لا آخذ بكلامهم وأرى أنهم مخدوعون لأن كل الأساتذة مثل بعض وأنت لست إلا أستاذاً مثل بقية الأساتذة.. لقد ذكرت لزميلتي هذه (وأشارت إلى طالبة ترافقها) أنني سأكشفك وأبين أنك لا تعمل بالمنهج العلمي الذي تشرحه لنا وأن المسألة مجرد كلام. لذا كتبت هذه الورقة وقدمتها لك متوقعة أنك ستتهور وستثور وتوبخني، وتنسى ترتيب أفكارك في التعامل معي. وعندها أكون قد نجحت في إثبات وجهة نظري.

كانت البنت وهي تبكي مختلفة تماماً عن الشدة والحدة اللتين ارتسمتا على وجهها أثناء تقديم الورقة لي. كنت على رغم بكائها أرى في داخلها قوة أتمنى دائماً أن أراها عند طلاب الجامعات. البنت تشك في التزام أستاذها. كإنسان. بالتوجه العلمي الذي يطرحه على طلابه ويتعامل به معهم. لقد أعطت لنفسها حقاً أن تشك في الأستاذ، وأن تصمم تجربة تختبره بها، وأن تمارس بنفسها التجربة.

الحقيقة أنني فرحت جداً بها. لقد اعتبرت أن قيامها بافتراض عدم تطابق الخطاب العلمي للأستاذ مع ممارساته العملية، ثم محاولتها لإثبات صحة هذا الفرض، ليس مجرد اجتهاد منها في ممارسة المنهج العلمي، بل. في تقديري. هو رمز لمحاولة إيجابية لقيام الطلاب بدور إيجابي في العملية التعليمية، وقد كان ذلك. في الحقيقة. من أهم ما أسعى إليه أثناء تجربتي التدريسية في الجامعة منذ أكثر من ربع قرن (١٩٧٩/٧٨ إلى ١٩٨٣/٨٢). ■

الستينيات: ذلك

محمد جبريل



لنتفق . بداية . على أنه من الصعب أن يتوافر فى مواليد فترة زمنية محددة . عشر سنوات مثلاً . توافق بيولوجى، وقناعات ثقافية وسياسية واجتماعية، بحيث نطلق عليهم تسمية الجيل. أذكر قول ميلان كونديرا: «ككاتب مبتدئ، كنت أمقت كلمة «جيل» التى تصيبنى رائحة القطيع المنبعث منها بالنفور». مع ذلك، فإن المجايلة موجودة، وهى تعنى الاستمرار والتواصل، وليس القطيعة.

ثمة شروط يجب أن تتوافر فى ما يمكن أن نطلق عليه صفة «الجيل»، ومنها الشروط البيولوجية، وتقارب المشارب الثقافية، والهموم المشتركة التى تصهر مجموعة من الأدباء فى بوتقة واحدة. من الصعب تجاوز تلك الشروط، إلا إذا نسبنا الجيل . كما أسلفنا . إلى الحدث، أو مجموعة الأحداث المهمة التى أسقطت تأثيرها على أدباء الفترة. وبتعبير آخر، فإن صفة الجيل تطلق على الحدث، أو مجموعة الأحداث، وليس على الفرد، أو مجموعة الأفراد. كانت أعوام الحرب العالمية الأولى، وما أحدثته من نتائج، مبعثاً لإحساس الكثير من الشعراء الشباب . على مستوى العالم . بالانتماء إلى أوطانهم، ومحاولة التعبير عن ذلك الانتماء فى قصائد تمجد الوطن، وتشيد بتاريخه وعظمته..

وقد ظهرت الدادية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، تعبيراً عن كفر بعض المفكرين والفنانين بالمثل الفكرية والقيم الأخلاقية السائدة، بعد أن أحدثت شروخاً عميقة فى بنية المجتمع الأوروبى. وارتكزت الدادية إلى حتمية الخلاص من الأزمات التى تعانيها مجتمعاتهم، بهدم القديم، وتنحية العقل، فى تحقيق أهدافها الفوضوية. وخرجت السوريالية من رحم الدادية، فى محاولة للانتقال من مرحلة الهدم إلى مرحلة البناء، ووضع مفاهيم جديدة لشكل العمل الفنى ومضمونه. السوريالية ليست وسيلة لتعريف المعروف، لكنها وسيلة لكشف المجهول. إنها تعنى الممكن والمتصور، ولا يشغلها الواقع. أما أشهر أعلام السوريالية فهم أندريه بريتون وبول إيلوار ولويس أراجون والفنانان التشكيليان بيكاسو وسلفادور دالى وعشرات غيرهم تحولوا . فيما بعد . إلى الإيمان بالاشتراكية، وإلى الالتزام انطلاقاً من الذاتية، وقدموا إبداعات متميزة فى مقاومة الاحتلال النازى فى

الجيـــل الأدبـــى

أعوام الحرب العالمية الثانية، جمعت بين الشكل الفنى والمضمون الثورى..

ومن أهم أدباء الحرب العالمية الثانية، أو ما بعدها، فى ألمانيا، فولفجانج بورشرت الذى ركز فى إبداعاته على صور الدمار الذى حاق بالأرض، وبالبشر، وحتى بنفسيات البشر، واريش كستنر الذى تزخر أعماله بالنقد اللاذع، والأسى. وثمة جماعة ٤٧ التى ضمت العديد من الشعراء والأدباء، ولقيت دعماً مهماً من المثقفين والناشرين، ونال جوائزها أدباء كبار مثل هنريش بول وجونتر جراس اللذين حصلا ـ فيما بعد ـ على جائزة نوبل.

ولعلنا نستطيع أن نطلق صفة الجيل الأدبى فى روسيا، على الفترة ما بين عامى ١٨٠٠ وقيام الثورة البلشفية فى ١٩٠٥ .كانت فترة مخاض هائلة، شعور جمعى بالإخفاق والمرارة، وحروب، وثورات، وظهر العديد من الأسماء المهمة مثل تولستوى وبوشكين وديستويفسكى وتشيخوف، وعشرات غيرهم. ثمة ملامح لما يمكن أن يكتسب تسمية الجيل فى الأدب الروسى: جيل روسيا القيصرية، وجيل ما بعد الثورة الشيوعية، وجيل الحرب العالمية الثانية، وجيل البروسترويكا، وجيل ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتى.

وفى ١٩٦٩ قسم الناقد المكسيكى خوسيه لويس مارتنيث أدباء أمريكا اللاتينية إلى خمسة أجيال، فى مدى زمنى أقل من خمسين عاماً، بينما قسمهم الروائى ماريو فارجاس يوسا (بيرو) إلى جيلين: جيل الرواد، وجيل الأدباء المحدثين .وثمة من ذهب إلى أن مبدعى أمريكا اللاتينية يمثلون جيلاً واحداً، يتفرع إلى عدة تيارات .أما الناقد رود ريجيث مونيجال فقد رفض فكرة المجايلة، ووضع عمليات التجديد فى محور رئيس تدور حوله مجموعة من الاتجاهات، أهمها الواقعية الاجتماعية. الواقعية النفسية . الواقعية السحرية. الواقعية البنائية (حامد أبو أحمد: تقديم رواية من قتل موليرو)

ثمة جيل ١٨٩٨ فى إسبانيا، وليس جيل العقد الأخير من القرن التاسع عشر .وقد بلغت الواقعية فى ذلك الجيل حداً فى الرواية يصعب تجاوزه. ويعد الروائى دون بيو باروخا أهم الروائيين الإسبان فى القرن العشرين من مبدعى جيل ١٨٩٨ الإسبانى. وثمة جيل ١٩٢٧ وليس جيل الثلاثينيات. وفى ١٩٣٦ بدأت الحرب الأهلية الإسبانية بين الملكيين والجمهوريين. ضمت القوى الأولى الجيش والكتائب والقوى اليمينية بعامة، وضمت القوى الثانية الاشتراكيين والانفصاليين وفصائل الألوية الدولية وأحزاب اليسار. وقد فقدت إسبانيا فى تلك الحرب عدداً كبيراً من أهم مبدعيها، سواء بالقتل أم بالنفى الاختيارى فراراً بالحياة. وكان الشاعر الأندلسى الجميل فدريكو جارثيا لوركا واحداً من الذين اغتالتهم يد الأحداث. سكت صوت طالما تغنى بالحق والخير والحرية، وإن لم يواصل صوت لوركا فى الأعوام التالية، وإلى الآن. حتى بعد أن رحل كل الساسة والعسكريين الذين شاركوا فى تلك الحرب، ظل صوت لوركا نقياً ومؤثراً .

وإذا كان عام ١٩٣٦ هو بداية جيل الحرب الأهلية الإسبانية، فإن ١٩٣٩ هو العام الذى شهد نهاية تلك الحرب، وهو ـ فى الوقت نفسه ـ العام الذى بدأت فيه أحداث الحرب العالمية الثانية، وبتعبير آخر: بداية جيل الحرب العالمية الثانية فى أوروبا والولايات المتحدة. أفرزت الحرب الأهلية الإسبانية جيلاً جديداً من الروائيين، تأثر بأحداثها، وعبر عنها، كما فعل بيكاسو فى لوحته الخالدة «جرونيكا»: «ما إن انتهت الحرب حتى بدأ عهد جديد من تاريخ الرواية، يغلب عليه هاجس خلق ثقافة خاصة، تلبى الطروحات الأيديولوجية الجديدة، ومقتلعة من جذور التقاليد السائدة» (أبواب ـ دورية ـ العدد الثلاثون)

ويعتبر عدد كبير من النقاد عام ١٩٦٢ هو العام الذى غير مجرى الرواية الإسبانية، عندما صدرت رواية «زمن الصمت» للويس مارتين سانتوس .وقد أحدثت تطوراً عميقاً فى الفنية والحبكة ولغة السرد، وأرست ما يعد ـ فى تقدير الكثيرين ـ تقاليد روائية جديدة فى تاريخ الرواية الإسبانية. وتوالت الروايات التى أحالها النقد إلى الواقعية الجدلية، ووجد فيها وسيلة لتبين الواقع التاريخى والواقع المجتمعى فى آن ..

وثمة جيل ما بعد الفرانكفوية ـ نسبة إلى الجنرال فرانكو ـ وهو جيل عاش تغييرات سياسية واجتماعية وثقافية مهمة .

ذلك كله، يجد مشابهاً له ـ بالضرورة ـ فى الأحداث المهمة التى شهدتها هذه المنطقة من العالم، ومصر ـ كما نعلم ـ فى موضع القلب منها.

جيل الستينيات

لعله يمكن تقسيم الأجيال الأدبية ـ والسياسية بالطبع ـ فى تاريخنا المعاصر، إلى:

١ ـ جيل دنشواى (أعنى الجيل الذى عاش الملابسات القاسية لتلك الحادثة، وما رافقها، وأسفر عنها، بحيث مثلت دافعاً لقيام المصريين بثورتهم فى ١٩١٩).

١ ـ جيل ثورة ١٩١٩

٢ ـ جيل ثورة ١٩٣٥ ومعاهدة ١٩٣٦

٣ ـ جيل الحرب العالمية الثانية

٤ ـ جيل حرب ١٩٤٨ (تحقق انتماء مصر العربى بصورة فعلية)

٥ ـ جيل ١٩٥٢ (الثورة، ومواجهة الإقطاع والرأسمالية والاحتكارات وسقوط الملكية وإعلان النظام الجمهورى وتأميم القناة، ومواجهة الإمبريالية الغربية وإسرائيل)

٦ ـ جيل الستينيات (المشروع القومى ونكسة ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف)

٧ ـ جيل ١٩٧٣ (حرب أكتوبر)

٨ ـ جيل الانفتاح (فى أعقاب ١٩٧٣)

٩ ـ جيل الفوارق الطبقية وذوبان الطبقة الوسطى منذ أواسط ١٩٨٥ حتى الآن ..

ظنى أن جيل الحرب العالمية الثانية، أو ما يسمى بجيل الأربعينيات ـ هو الأب الحقيقى للأجيال التالية (أذكرك بكتابى «آباء الستينيات»).

يقول شكرى عياد عن ظروف الحرب العالمية الثانية إنها أدت إلى استقطاب الفقر، واستقطاب الثراء . وقد أصبح السواد الأعظم من المثقفين المصريين فى أثناء الحرب، وفى أعقابها، يشعرون أنهم ينتمون بواقعهم إلى الطبقات الكادحة من شعبهم الفقير، لكنهم لم يستطيعوا ـ للوهلة الأولى ـ أن يصوروا أزمتهم من خلال الأزمات الطاحنة التى تعانيها الطبقات الدنيا ..

وقد شهدت السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية سعياً واضحاً إلى التغيير. وهو ما تبدى فى معظم كتابات منطلقاتها الأيديولوجية .أذكرك بكتابات خالد محمد خالد وحلمى سلام وفتحى رضوان وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ وعزيز أحمد فهمى وأحمد أبو الفتح وعبد الرحمن الشرقاوى وطه حسين، وعشرات غيرهم أدانوا سلبيات الفترة، وتطلعوا إلى التغيير. أما عن الإبداعات الروائية والقصصية والشعرية وغيرها، فإن يوسف إدريس ويوسف الشارونى وعبد الله الطوخى وبدر نشأت وإدوار الخراط وكمال نشأت وحسن فتح الباب وفاروق منيب وغيرهم ممن ينتسبون إلى ما يسمى بجيل الخمسينيات، إنما هم ـ بالفعل ـ جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية .القضايا التى تناولتها إبداعاتهم عنيت بالأحداث والمشكلات والتجارب الفنية التى عنيت بها تلك الفترة.

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو، كتب سعد مكاوى عن «المعاول العديدة التى نحتاجها لبناء مجتمع جديد على أنقاض المجتمع القديم» (المصرى ٥/١٠/ ١٩٥٢).

من هنا، يمكن القول إن عقد الستينيات مثل جيلاً كاملاً إرهاصاته فى أحداث ما قبل ١٩٥٢، وبداياته فى ثورة يوليو ١٩٥٢، وامتداد آفاقه إلى هزيمة يونيو ١٩٦٧. ثمة من وجد فى الستينيات ساحة للحكم الشمولى، والمعتقلات، وجرائم التعذيب، وفقدان الحرية .سماها صديقنا عبد

زلـــزال الهزيمـة قـوض كل ما شــيد فــى أعـوام ما قبــل ١٩٦٧. تلاشت كل الطموحات والتطلعات والتوقعات، كأنهـــا لـــم تكـــن .احتـــرق الفيــلم، فأصبــح ذكــرى

العزيز الدسوقى عقد الهزيمة اللعين. وسماها مصطفى سويف عقد الكوارث. وتسميات أخرى تتراوح بين التأييد والإدانة .لكن الذى أستطيع أن أقرره . فى ثقة . أن الفترة حركت . بديناميتها . مؤيدى النظام ومعارضيه على السواء. وكما يقول صلاح عيسى. فمنذ منتصف الخمسينيات، وحتى منتصف الستينيات، بدا وكأن حركة التحرر العربى سائرة بخطى ثابتة فى طريق الانعتاق القومى من نير الإمبريالية، بل وساد الظن أننا طرقنا أبواب الاشتراكية، وهو ما كان يعنى . فى بعض وجوهه . أن الفكر القومى والعلمانى قد أزاح الثيوقراطية إلى غير رجعة (صلاح عيسى: الكارثة التى تهددنا . مكتبة مدبولى . ٥) .

فى الستينيات، كنا نرنو إلى آفاق التحرر والاستقلال والديمقراطية والتنمية المستقلة والعدالة الاجتماعية ورفع مستوى المعيشة .وكنا . مثل غالبية بلدان العالم الثالث . نصوغ خطط وبرامج التنمية، وتصدر وثائق الخطط الخمسية. واتجه العديد من البلدان إلى التصنيع بدلاً من الاعتماد على الموارد الطبيعية وحدها كالزراعة والمعادن والبترول، وكانت أسماء زعامات العالم هى: جمال عبد الناصر، ديجول، خروشوف، جيفارا، كاسترو، لومومبا، هوشى منه، جياب، مالرو... إلخ، وتألقت السوكارنية فى أندونيسيا (سقط عام ١٩٦٤) والنكرومية فى غانا، والناصرية فى مصر، والسيكوتورية فى غينيا، والموديبوكيتية فى مالى... إلخ (جميع هؤلاء سقطوا فى أواخر الستينيات، وأوائل السبعينيات، ودانت بلادهم لعملاء الاستعمار الغربى) وتأكدت سياسة عدم الانحياز .كانت فترة ذهبية، هبت فيها . على حد تعبير إدوار الخراط . رياح التغيير العارمة على أفريقيا، حاملة معها بهجة الاستقلال، ونشوة ظهور الأمم الفتية الجديدة (مرفأ الذاكرة . كتاب العربى . ٤٣).

والملاحظ أن المواجهات الدولية لم تكن الغلبة فيها . دوماً . للأقوى .فقد دخلت القوات السوفيتية تشيكوسلوفاكيا والمجر، بينما تراجعت الولايات المتحدة عن تهديدها لكوبا، وتورطت واشنطن فى المستنقع الفيتنامى، واستقل معظم دول أفريقيا، وإن ظلت أصابع الاستعمار تتحرك من وراء الستار .وكان مقتل الزعيم الكونغولى لومومبا (فبراير ١٩٦١) ذروة الجرائم التى ارتكبت بتحريض من الاستعمار..

كان رأى هربرت ماركيوز أن الطبقة العاملة فقدت دورها فى قيادة المجتمع. بعد أن استوعبها المجتمع الصناعى فى داخله، وربطها بمصالحه، فتحولت من طليعة ثورية إلى جزء من طبقة لها مصالحها وتطلعاتها التى قد لا تكون مشروعة فى بعض الأحيان .وجد ماركيوز فى الأنتلجنسيا (فئة المثقفين) وفى مقدمتها الطلاب، بديلاً ثورياً عن الطبقة العاملة .وجد فى الطلبة ورثة شرعيين لروح الثورة فى العالم، وإن عدل عن ذلك الرأى، أو عدّل فيه . فيما بعد . فوجد فى الطلبة مظهراً من مظاهر نفى المجتمع الاستهلاكى .

عمت مظاهرات الطلبة الكثير من دول العالم، فى أوروبا والولايات المتحدة، لكل مظاهرة بواعثها وأهدافها . وتوحدت جهود حركات المعارضة الطلابية فى عدد كبير من دول العالم ضد استمرار حرب فيتنام، وتصاعدت الحركات الطلابية فى أوروبا فيما بين عامى ١٩٦٤ . ١٩٦٨ . وكان قتل تشى جيفارا، داخل بوليفيا . فى يونيو ١٩٦٧، ذروة أخرى فى النضال ضد الإمبريالية العالمية .رسمت صورة جيفارا فوق الصدور، ورفعت شعارات ضد الحرب فى فيتنام، وضد القواعد الأمريكية فى اليابان والفلبين.

ثمة شروط يجب أن تتوافر فى ما يمكن أن نطلق عليه صفة «الجيل»، ومنها الشروط البيولوجية، وتقارب المشارب الثقافية



والحق أن حرب فيتنام كانت هى الشرارة التى اندلعت بها الأحداث الطلابية فى فرنسا . ففى ١٩٦٨ كانت الغطرسة الأمريكية تتهاوى على يد الثورة الفيتنامية. وشملت الثورة بلدان أمريكا اللاتينية. وكان الشعار هو: أكثر من فيتنام واحدة. وفى فرنسا، اشترك ثلاثمائة طالب ينتمون إلى تنظيمات طلابية يسارية صغيرة، فى مظاهرات احتجاج ضد القبض على عدد كبير من أعضاء لجنة فيتنام الوطنية، واقترن ذلك . فى اليوم نفسه . بشعارات ترفض الأوضاع الداخلية فى جامعات فرنسا، وتطالب بتغييرها، وتردد . للمرة الأولى . شعار: لا نريد جامعة بورجوازية، وامتدت الشعارات . والمطالب بالتالى . لتصل إلى شنق آخر رأسمالى، وآخر بيروقراطى و«الاشتراك فى الثورة العالمية»... إلخ. ولأن المظاهرات جرت فى ١٩٦٨، فقد سمى الجيل باسم العام نفسه، فهو جيل ١٩٦٨ . جرت الأحداث فى الأسبوع الأول من مايو ١٩٦٨، وصفتها فرنسواز جيرو وزيرة الثقافة الفرنسية فيما بعد بأنها هزّت فرنسا كلها .شهدت شوارع العاصمة الفرنسية معارك عنيفة لم تشهدها منذ الحرب العالمية الثانية. وواجه ثلاثون ألف طالب داخل أسوار الحرم الجامعى حصاراً من رجال الشرطة، فأقاموا المتاريس، وألقوا الزجاجات الحارقة وقطع الحجارة. وكان الطلاب يرفعون شعارات مثل: أيتها الثورة إنى أحبك، والخطر ممنوع، وغيرها .وامتدت المظاهرات إلى الحى اللاتينى، وميدان سان جيرمان. وفى توالى الأيام، ساند العمال الطلاب، فأصيبت المدن الفرنسية بالشلل، وأعلن ديجول أنه لن يقيل رئيس وزرائه جورج بومبيدو.

وكما أشرنا، فقد كان من بواعث قيام حركة الطلاب فى فرنسا إعلان احتجاجهم على سوء الأوضاع داخل الجامعات من ناحية، وضد «التشويهات الرأسمالية» للحياة الفرنسية من ناحية ثانية، فضلاً عن غياب محاولات الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى. ويشير محمد برادة إلى أن هبة صيف ١٩٦٨ فى فرنسا، نشرت على نطاق واسع أفكار جورج باتاى وفوكو وماركيز دى صاد وجان جينيه «آلاف الشباب والطلبة والعمال تداولوا أياماً وليالى متواصلة فى موضوعات الجنس والسلطة وغائية الحياة، ولماذا الاستمرار فى القبول بعلاقة حتمية تقدس المذاهب والزعماء والأيديولوجيات على حساب الإنسان البسيط الذى يريد أن يستمتع بحياته على الأرض، وأن يصنع مصيره هنا، والآن، بعيداً عن الأناجيل والصحاف والتعاليم التى تغسل دماغه، وتشل مخيلته، لتجعل منه مجرد مسمار صغير فى ترسانة ضخمة تسحق البشر لتحقق أرباحاً وسلطة تستفيد منها قلة ليبرالية أو شيوعية أو اشتراكية أو قروسطوية متعصرنة» (مثل صيف لن يتكرر . ١٢٧). إن أسئلة مايو ١٩٦٨ . على حد تعبير برادة . كانت «توسع مفهوم الثورة، وتدعو إلى ربطه بالحياة اليومية للإنسان، رافضة التقديس والمطلق وحواجز المرئيات. لذلك لا يمكن الاكتفاء بالعقل، وهو ذات العقل الذى انحدرت منه الفاشية والنازية، مفصولاً عن الإحساس والمخيلة والجسد (المصدر السابق . ١٢٨). ويذهب ألفين كريان إلى أن ما حدث فى شتاء ١٩٦٨ فى فرنسا كان ثورة فكرية وليس ثورة شوارع. وقد أسقطت هذه الثورة النظام الأدبى القديم. وكان النقد الأدبى هو السلاح الرئيسى لهذه الثورة (موت الأدب . ٧٨).

أما فى الولايات المتحدة فقد اندلعت المظاهرات وحركات الاحتجاج بين الشباب فى الولايات المتحدة ضد الرئيس نيكسون لاستمرار الحرب الفيتنامية، وتأييداً لمنح الزنوج الحقوق المدنية، ومساواتهم بالبيض، وسقط من جامعة باركلى وحدها حوالى خمسة وسبعين طالباً. يصف جابرييل جارثيا ماركيز جيل ٦٨ فى الولايات المتحدة، بأنه الجيل الذى دخّن المارجوانا، وغنى أغنيات البيتلز من الذاكرة، وخرج إلى الشوارع متظاهراً ضد الحرب الفيتنامية، ففى ١٩٦٨ وقعت معارك فى منتهى العنف بين قوات الأمن الأمريكية وجموع المتظاهرين من الشباب فى مدينة شيكاغو، احتجاجاً على الحرب الفيتنامية .كان الشبان يحرقون بطاقات التجنيد، بينما كانت الفتيات يحرقن مشدات الصدور.

شملت المظاهرات مدن العالم فى سويسرا وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا والنمسا واليابان وهولندة وبريطانيا. قادها أنصار ماو تسى تونج وهوتشى منه وفيديل كاسترو وتشى جيفارا، والمناهضون للحرب الأمريكية فى فيتنام، والداعون إلى التطبيق الاشتراكى، وإلى حصول الشباب على الفرص التى يستحقها.

وفى الجزائر، كان غالبية القيادات الطلابية فى السجن، بعد أحداث العنف خلال أعوام ١٩٦٨ . ١٩٧١، وقد حولوا . بعد الإفراج عنهم . إلى معسكرات الجيش لأداء الخدمة العسكرية.

وبصرف النظر عن اتجاه الثورة الثقافية فى الصين إلى الإيجاب أو إلى السلب، فإنها أحدثت تغيراً كاملاً فى

الحياة الصينية. أحرق الكثير من الكتب والصور القديمة والحديثة. كما دمر ما سمى بالسلع البرجوازية، والأزياء المشابهة لأزياء الغرب، وأزيل الشعر الذى قلد أصحابه نجوم السياسة والفن الغربيين، ومزقت البنطلونات الضيقة من أسفل، ودمر كل ما يمكن نسبته إلى البدع الغربية..

وفى تقديرى أن مواقف المثقفين المصريين من الثورة، الشباب بخاصة، كانت تعبر عن اتجاهين متضادين. تنازعت الميديا، فى كل من الصين والغرب، إمكانية الوصول - بالمعلومة والصورة - إلى الرأى العام العالمى، وواجه ما أعلنته الصين من منجزات للثورة الثقافية، نقل الإعلام الغربى عمليات الاعتقال والسجن والإعدام للأصوات التى قدمت بأنها وطنية تماماً، لكنها فرضت ديكتاتورية ماو، وحزبه الشيوعى، وكتابه الأحمر.

وإذا تجاوزنا ملاحظات الاتفاق والاختلاف مع قرارات التأميم (١٩٦٢) فلا شك أنها كانت تأكيداً لملامح المشروع القومى التى بدأت تتوضح فى العديد من المجالات..

كانت عملية إنشاء السد العالى، وما صحبها من محاولات للتطوير فى المجال الصناعى، تستهدف تحويل مصر من صورتها التقليدية كمجتمع زراعى إلى مجتمع صناعى متقدم تكنولوجياً. وعرفت وسائل الإعلام - للمرة الأولى - مسميات مثل: القطاع العام، الحل الاشتراكى، التعاون، العدالة الاجتماعية، إلخ. وبلغت عملية التنمية الاقتصادية نسبة تصل إلى ٧ر٥٪ سنوياً، وهى أعلى نسبة للتنمية الاقتصادية فى العالم آنذاك. لم يكن ثمة تضخم، ولا زيادة فى الأسعار، وكانت مصر بعامة على رأس قائمة الدول الأقل أسعاراً فى العالم. وكما يقول الاقتصادى الكبير حسن عباس زكى، فقد حققت مصر - فى الستينيات - أقل عجز فى ميزان المدفوعات عبر تاريخها المعاصر كله، وكان هناك فائض فى ميزان المدفوعات فى بعض السنوات. كما تحقق أقل معدل فى الديون الخارجية، إلى حد عدم وجود ديون خارجية أحياناً.

ولاشك أن الكثير من حملة الشهادات العليا يدينون للمجانية التى قررتها الثورة، وبدأت تؤتى ثمارها فى أعوام الستينيات، وبالذات فيما يتصل بالبعثات العلمية إلى الخارج. كانت تأميمات الستينيات خطوة تالية لتمصيرات الستينيات.

واختيرت أول امرأة لمنصب الوزيرة. عينت حكمت أبو زيد وزيرة للشئون الاجتماعية فى سبتمبر ١٩٦٢.

ازدهار ثقافى

يقول جمال حمدان: «الستينيات كانت أكثر الفترات ازدهاراً للثقافة. هذه حقيقة لا مفر منها. والسبب: السياسة أولاً وأخيراً. والثقافة ألصق ما تكون بالسياسة. والستينيات كانت قمة الثقافة، والسبعينيات قاعها» (آخر ساعة ٢٠/٨/١٩٨٦)

من إصدارات الفترة سلسلة الألف كتاب، وروائع المسرح العالمى، والمكتبة الثقافية، وأعلام العرب، وتراث الإنسانية، ومجلات المجلة والكاتب والفكر المعاصر والطليعة والفنون الشعبية، وغيرها. وقد سدت بالفعل فراغاً معرفياً، وقدم الكونسير عروضه، بأسعار مخفضة كل يوم جمعة - للطلاب، وأرخ الثلاثى جاهين والطويل وعبد الحليم للثورة بأغنيات رددتها الجماهير فى امتداد الوطن العربى، وتألق شعر العامية المصرية فى إبداعات الأبنودى وحجاب وقاعود ومجدى نجيب، وأبدع صالح رضا وحامد ندا وجاذبية سرى وجمال السجينى وعمر النجدى وتحية حليم وسيد عبد الرسول وصلاح عبد الكريم وعبد القادر مختار وغيرهم، أروع إبداعات الفن التشكيلى. حتى الندوات الأدبية شكلت ظاهرة إيجابية: ندوة الأمناء، ندوة نجيب محفوظ، ندوة العقاد، نادى القصة، جمعية الأدباء، الجمعية الأدبية المصرية، وغيرها. وسعى الشباب إلى قراءة، ومشاهدة، أعمال بيكيت ويونيسكو وناظم حكمت وبريشت وايليوار. كانت أعمالاً تجريبية، ومتقدمة، وتعنى بالهم الإنسانى فى أبعاده المختلفة. وثمة كذلك مسرحيات نعمان عاشور ذات الاتجاه الواقعى الريادى، ومسرحيات ألفريد فرج التى وظفت التراث والتاريخ، ومحاولات يوسف إدريس لإيجاد مسرح مصرى يحاكى السامر، والشرقاوى وعبد الصبور فى المسرح الشعرى، ومحمود دياب بمسرحياته التى أجادت مزج الملحمة البرختية والواقع المصرى والحداثة الفنية، ومسرحيات نجيب سرور لاستلهام الموروث الشعبى فى صياغة شعرية، وحاول توفيق الحكيم التجريب فى «يا طالع الشجرة» و«رحلة قطار» و«بنك القلق» وغيرها، وبدأ نجيب محفوظ مرحلته الروائية الثالثة، واختط محمد حافظ رجب مساراً جديداً رائعاً للقصة القصيرة المصرية، وعاد يوسف إدريس إلى صورته الحقيقية فى «الفرافير» و«النداهة» و«مسحوق الهمس»، وكتب يوسف الشارونى مجموعته الفذة «الزحام».

ولأنه من المستحيل تصور أن مبدعاً قدم معطياته دون قراءة، دون أن يتابع الإبداعات السابقة، باعتبار أنها تمثل رصيداً يصعب إهماله من خبراته الفنية. فقد واجهت الواقعية الجديدة، منذ بداية الستينيات - ملاحظات سلبية نقدية عديدة، أهمها افتقارها إلى الخيال والتحليل التلقائى، وأخذت عليها استاتيكيتها، وعدم تطلعها إلى آفاق أرحب. وخضعت إبداعات شباب الجيل لتأثيرات أعمال سارتر ومحفوظ وكامى وفرجينيا وولف وادريس والشارونى وساروت وجويس وتشيكوف وغيرهم، بتعدد المدارس الفنية التى يعبرون عنها. وإن كنت أوافق على الرأى بأنه كان «للقفزات التعبيرية جذور جنينية تمتد فى أعماق الأقصوصة المصرية لسنوات بعيدة. إلا أن ما تعيشه الأقصوصة المصرية اليوم ليس مجرد استمرار عادى لهذه البذور الجنينية، لكنه فى الحقيقة تجاوز وتخط لكل ما أرهصت به هذه البذور من تغييرات، ولكل ما تنبأت به من أشكال وأساليب تعبيرية» (صبرى حافظ: جاليرى ٦٨ - أكتوبر ١٩٦٩).

أصبحت الذات هى المحور الأهم فى معظم الإبداعات. إبداعات الشباب تحديداً..

عقد الستينيات مثل جيلاً كاملاً إرهاصاته قبل ١٩٥٢، وبداياته فى ١٩٥٢، وامتداد آفاقه إلى هزيمة يونيو



أذكر مقالة ممتازة للطيفة الزيات. أجادت فيها التعبير عن المأزق الذى كان يحياه الأدب العربى منذ أواخر الستينيات. وأزعم أن المأزق كان قائماً قبل ذلك ببضعة أعوام. تقول: «منذ أواخر الستينيات والأدب العربى يوغل فى مسالك مختلفة. محاولاً الإمساك بالواقع العربى، أو هارباً من هذا الواقع. وقد غرق الأدب العربى، والقصص العربى خاصة، أحياناً فى العالم الداخلى للكاتب دون عالمه الخارجى، مسجلاً حالة الاغتراب والحصار النفسى، وعجز الفرد عن التعامل مع الحياة، وانعدام الجدوى والمعنى الذى يستشعره الفرد. وسعى الأدب حيناً، وتحت وطأة الأحداث، إلى تسجيل شهادة عن هذا الواقع عامداً إلى الدلالة المجردة، ومختزلاً الواقع الحى إلى علاقات أشبه بعلاقات الجبر، وضارباً بالمتطلبات الفنية عرض الحائط، وهو يخرج بأشكال هندسية متقنة الصنعة والحبكة والصناعة، وضاع الأدب أحياناً فى متاهات التجريب والتغريب، تكريساً لاغتراب الفنان. هذا فى حين نجح الأدب أخيراً، وعلى يد صفوة من الكتّاب، أغلبهم من الأجيال الجديدة، فى الوصول إلى نوع من الواقعية الرمزية، توحى إيحاء مكثفاً ودالاً بطبيعة الواقع العربى الذى نعيشه» (أدب ونقد - أبريل ١٩٨٤). هذا هو المعنى الذى كتبته - أو ما يقرب منه - فى رسالتى للمستعربة الألمانية الصديقة دوريس إيربينبيك. ولأنها كانت غارقة لشوشتها فى الأيديولوجية وسياسة الحزب، فقد فضلت أن تنهى صداقتنا الجميلة من طرف واحد. توقفت رسائلها فجأة. وحين بعثت رسالة تستهدف إزالة ما قد تكون ألحقته رسالتى الغبية إلى إيربينبيك بصداقتنا الجميلة، فإنها ظلت على صمتها، فاضطررت إلى التناسى. فالنسيان. حتى تذكرتها فى أخبار صحفية نشرت فى التسعينيات. بالتحديد: بعد زوال الشيوعية من ألمانيا الشرقية، وإعادة توحيدها من نصفها الغربى. وتساءلت: هل ما تزال إيربينبيك تعنى بالأدب بقدر ما يعبر عن النظريات الأدبية المستمدة من الماركسية اللينينية؟..

لكن تلك ذكريات قديمة، وسنوات مضت، فلا سبيل إلى استعادتها!

الهزيمة

فى ١٨ مايو ١٩٦٧ كان انسحاب قوات الطوارئ الدولية من الحدود المصرية الإسرائيلية، بناء على طلب عبد الناصر، وبموافقة

كتاب الزاوية

مصر صنعت المصريين

حسين مؤنس

إن الله خلق مصر وسواها على الهيئة التى هى عليها من قبل أن يدخلها أجدادنا الأولون. وهذه الأرض هى التى صنعت المصريين، أو هى التى صنعت لهم كل شىء: هذا النهر المبارك الفياض الذى لا يشبهه فى الفيض والوفرة والجمال إلا نهر أو اثنان. وهذه التربة الزكية التى تزيد على الذهب قيمة. حقيقة لا مجازًا. فإن الذهب يباع مرة واحدة، أما هذه الأرض فقد أنبتت ألوف السنين سنة بعد سنة، بل أنبتت فى بعض السنين مرتين. فاحسب قدر ذلك كله تدرك قيمة الأرض التى تسير عليها!

وهذا الموقع الجغرافى الفريد هو فى ذاته رأس مال ضخم لو وجد من يعرف كيف يستخدمه. فإننا فى أهم ملتقى طرق على هذه الأرض. والمرور بأرضنا ضرورة لا يستغنى عنها البشر، ومجرد المرور له ثمن. وحسبك أن تلقى نظرة على إيراد قناة السويس من ضريبة المرور وحدها لتكون لنفسك فكرة عن «القيمة» الحقيقية لهذا الموقع، ولتقدر خسارتنا إذ لم نحسن استغلاله فيما مضى، ولتدرك أيضًا أن حسن القيام عليه والانتفاع به ضرورة يستلزمها وجودنا، ورسالة مفروضة علينا لخير البشر أجمعين.

ومن نعم الله على المرء أن يكون لديه شىء يحتاج إليه الناس فينفع وينتفع. فإذا لم يفعل هو ذلك فعله غيره قسرًا عنه وشقى هو بالذل والحرمان، كرجل يقوم على عين ماء لا مفر للناس من أن يشربوا منها. فإذا هو قام على الماء حق القيام وأحسن الانتفاع به ويسَّر للناس وروده باع الماء بالذهب. وإذا لم يفعل اقتحم الناس عليه الموضع وشربوا. وباء هو بالخسران.

سريعة من يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة، خطوة أولى نحو هزيمة ١٩٦٧ التى أجهضت المشروع القومى، وأفرغته من محتواه تماما..

خطب عبد الناصر فى جنوده.تحدث عن نظرة الغرب إلى الشعب العربى، شبهها بنظرة المستعمرين البيض للهنود الحمر، ووصف إيدن رئيس الوزراء البريطانى آنذاك . فرط ثقة!. بأنه «خرع»، وأتاح لى اشتغالى بالصحافة أن أناقش تحليلات انتهى غالبيتها إلى أن الحرب المدمرة قد تستعيد فلسطين فى أربع وعشرين ساعة، أما الحرب التى تحرص على تقليل الخسائر، فقد تمتد إلى سبعة أيام.

ردد الناس أغنيات أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفايدة كامل ووردة وغيرهم: خلى الصقور الجارحة تنهش لحمهم.. خلى الرمال العطشى تشرب دمهم، راجعين بقوة السلاح.. راجعين بقوة الحمى.. راجعين كما رجع الصباح.. من ألف ليلة مظلمة، أحلف بسماها وترابها.. أحلف بدروبها وأبوابها.. ما تغيب الشمس العربية.. طول ما أنا عايش.. فوق الدنيا، يا بركان الغضب.. يا موحد العرب، ابنك يقول لك: يا بطل هات لى نهار... إلخ..

لكن زلزال الهزيمة قوض كل ما شيد فى أعوام ما قبل ١٩٦٧. تلاشت كل الطموحات والتطلعات والتوقعات، كأنها لم تكن. احترق الفيلم، فأصبح ذكرى. صعب علينا الرجوع بقوة السلاح، ولم يتح للصقور الجارحة أن تنهش لحم الأعداء، ولا لرمال الصحراء أن ترتوى بدمائهم.العكس هو ما حدث.تلقى المقاتل المصرى ضربة لم يتح له ردها حالاً.

غيبت الهزيمة ما كان مطروحاً من شعارات فى ضوء الواقع، وأحدثت انكساراً فى الروح المصرية، وكان أوضح دلائل ذلك الانكسار توقف تيار الإبداع لاستيعاب الدروس، والإفادة منها، وإلقاء أسئلة الدهشة والغرابة.وحل مناخ الانكسار على كل المستويات السياسية والاجتماعية، وحدث تطاحن وخيبة أمل وإحساس باللا جدوى. واتجهت التسميات إلى القتامة واليأس والتشاؤم، فهو عصر الهزيمة.والتعبير لكولن ولسن .وهو عصر الاستشهاد فى تسمية نجيب محفوظ، وهو عصر الرداءة فى تسميات أخرى. وإذا كانت صدمة الهزيمة قد أخرست العديد من الأقلام، فإن نجيب محفوظ زاد من إيقاع كتاباته.كتب الديالوج الذى يتوهم درامية المسرح، وصارحنى أنه لم يعد يشغله حتى الكتابة بلغة المقامة لأن الوصول إلى الناس هو ما يشغله !

فرضت هزيمة ١٩٦٧ واقعاً جديداً، وألقيت أسئلة حول الانتماء والكينونة والمصير، فضلاً عن محاولة رد الصفعة الغادرة.بدا التغيير ضرورة ملحة، عبرت عنها مظاهرات التاسع والعاشر من يوليو التى لم تقتصر على المناداة بعودة عبد الناصر، وإنما دعت إلى المحاسبة مظاهرات فى الإسكندرية، وفى غيرها من المدن.وقد ارتفع شعار محمل بكلمات قاسية، تعيب على عبد الناصر إعلان تنحيه بعد أن غرقت البلاد . على حد تعبير كلمات الشعار. على يديه !

كانت تقديرات الخبراء العسكريين أن مصر تحتاج إلى فترة طويلة كى تستعيد تماسكها، وحدد موشى ديان ألف عام حتى تعود العسكرية المصرية.لكن زعامة جمال عبد الناصر. كثير المجد والأخطاء على حد تعبير الجواهرى . صرفت معظم جهدها إلى إعادة البناء، ومواجهة التحدى.تكونت منظمة سينا العربية، وبدأت حرب الاستنزاف، واستؤنفت المعارك على امتداد ضفتى القناة الغربية والشرقية، واستشهد عبد المنعم رياض. وسط جنوده. فى ٩ مارس ١٩٦٩ .

وكم كان مؤثراً أن يشهد عقد الستينيات المصرى نهايته بموت جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ (رحل ديجول، رمز الإرادة الفرنسية فى العام نفسه). كنا نتابع أخبار مرضه، وسفره للعلاج فى تسخالطوبو، لكن الموت لم يكن يشغلنا، ولا تصورناه !

أحلام وانكسارات

لا أذكر من وصف جيل الستينيات بأنه جيل الأحلام العظيمة والانكسارات العظيمة.

التسمية . فى تقديرى. صحيحة تماماً.الشعب العربى يواجه اتهاماً بأنه غير مشارك، ويفتقد الإحساس بالانتماء. وقد ردت فترة الستينيات على ذلك الاتهام بصورة عملية، حين التفت حول زعامة رفعت شعارات القومية والوحدة والعدالة الاجتماعية. تبينت الجماهير أنها لم تكن مجرد شعارات جوفاء، وأن عبد الناصر يشغله . بالفعل. أن تجد شعاراته سبيلها إلى التحقيق، وامتدت شعارات «الناصرية». كما سميت مبادئ عبد الناصر . من المحيط إلى الخليج.وحتى الآن، فإن معظم الأقطار العربية بها أحزاب أو تنظيمات سياسية، جعلت من الناصرية تسمية لها. ■





الحارس .. العائلة .. أمراض السلطة!

شيرين أبو النجا

لا يختلف الأمر مع النساء وإن كان أسوأ. إن كان الرجال من حقهم حرية ظاهرية فإن النساء ليس من حقهن ذلك مطلقا

في عام ١٩٩٠ صدرت رواية «الموت عشقا» للكاتب على أبو المكارم وتبعها بالجزء الثانى وعنوانه «العاشق ينتظر». لم ينتبه أحد للروايتين ولم يقدم بعدهما الكاتب - على حد علمى - أى أعمال أخرى. كانت تلك الكتابات حين صدورها، وحتى الآن، من أهم الأعمال التى تؤرخ للمجازر التى وقعت بين السلطة وتيار الإسلام السياسى، وتؤكد «الموت عشقا» أن الأحداث تدور فى سبتمبر ١٩٨٠ . وهو تاريخ محمل بالكثير من المرتكزات التى كانت تعلن عن نهاية حقبة وبداية أخرى، بل إنه تاريخ يشكل أحد الأسس التى ترتكز عليها الحقبة الحالية من ناحية التعامل بين السلطة والفرد، سواء كان منفردا لا واعيا ولا مباليا بما يحدث أو منخرطا فى مجموع يحمل توجهًا سياسيًا. فالأمر لم يقتصر بعد ذلك على التعامل بين «الإسلاميين» والسلطة بل امتد ليشمل كل من يقع تحت طائلة هذه السلطة. لم يرد أحد أن يقرأ فى تلك الآونة - بداية التسعينيات - عما حدث فى بداية الثمانينيات، فقد كانت الذاكرة الجمعية تحاول نسيان ما حدث أملا فى طغيان أشكال الكتابة الجديدة التى انطلقت بقوة لتشغل الوسط الثقافى بالكثير من المصطلحات الجديدة الخلافية والتى أطلقها الشباب (آنذاك) حتى حصلوا (وربما يجب أن أقول حصلنا) على لافتة «جيل التسعينيات» بامتياز. ساد الاعتقاد لدينا أننا سنصنع «العالم الجديد» المتخلص من كل ترهات الماضى «العجوز»، عالم يصنع لغته ومصطلحاته، ويكتب عن الذات المنسية فى السرديات الكبرى. ربما كان أشهر تلك المصطلحات الخلافية المثيرة للجدل والداعية للاستفزاز هو مصطلح «كتابة الجسد» الذى وصلت أصداؤه إلى العالم العربى من حركة ٦٨ الفرنسية، لكن المصطلح وصل لفظا وليس مضمونا. وفى ذلك الوقت أيضا بدأت المعركة حول قصيدة النثر التى أعلنت العصيان الشعرى الكامل على كافة القواعد الشعرية، وعندها انطلقت مجلة «الجراد» (الاسم ذو دلالة). لم تكن فقط أشكال الكتابة الجديدة هى التى شغلت الكاتب الفاعل ثقافيا بل ظهرت أيضا مشكلة الترجمة، حين أغرقت شوارع القاهرة وبالتحديد منطقة وسط المدينة بشباب من الخواجات يقدمون أنفسهم كمترجمين، وعندها بدأت المعركة الساخنة التى اتخذت من اتهام الكتابة من أجل الترجمة سلاحا قويا. لم تخمد المعركة إلا بعد واقعة «البحث عن خنوم» للحسين عبد البصير بكل تبعات الرواية وكاتبها المقيم الآن بفرنسا.

فى أواخر عقد التسعينيات ظهر جيل جديد يقدم كتابات توظف الواقع كتقنية، فالفرد يبدو مهزوما («حد الغواية» لعمرو عافية) أو وحيدا («سحر أسود» لحمدى الجزار) أو مهلوسا أو فوضويا عدميا أو غارقا فى ذاته («متاهة مريم» لمنصورة عز الدين)، واللغة عامية دارجة مغتربة عن لغة أجيال تكبرها أو صعلوكية مباشرة صادمة («فاصل للدهشة» لمحمد الفخرانى). كان هذا الجيل بالتحديد هو الجيل الذى رفض كل الأشكال الثقافية والسياسية وتمرد عليها، بل أعلن احتقاره للعمل السياسى المنظم وذلك فى إعلان للتمرد على السلطة الأبوية بأشكالها. وبشكل مفارق كان هذا الجيل هو الذى شكل العمود الفقرى لحركة «كفاية» وخرج يجوب الشوارع ويهتف «باطل.. باطل» معتقدا أن كل هتاف يساهم فى تقزيم السلطة. وصدرت رواية حمدى البطران عن دار الهلال عام ٢٠٠٤ لتؤكد لهؤلاء الشباب صحة رأيهم فى السلطة «العجوز»، كانت رواية البطران «يوميات ضابط فى الأرياف» بمثابة إشارة على انهيار هيبة السلطة، وهو الانهيار الذى تم تداركه سريعا بتحويل البطران إلى التحقيق. إلا أنه فى يوم ٧ سبتمبر عام ٢٠٠٥ (قرار التمديد لفترة رئاسية خامسة) انتهت أحلام هذا الجيل فى امتلاك مقدرات ما يحدث فى الشارع والوطن، فقرر أن يمتلك واقعا افتراضيا وفضاء مفتوحا على الإنترنت الذى لا يخضع لأى سيطرة (هكذا كان الوهم الذى انتهى باعتقال المدون عبد المنعم محمود ومن بعده كريم عامر). وبذلك انطلقت المدونات التى بدأت مؤخرا تؤرق السلطة بشدة من حدة إطاحتها بكل ما يسمى «الثوابت»، وبالكشف الهائل الذى تقدمه فى شكل لغة متخلية عن قواعد اللياقة تجاه السلطة والصور الفاضحة لكل ما جاهدت تلك السلطة فى إخفائه.

فى كل تلك الآونة لم تكن الكتابة الأدبية مشغولة بتدوين ما يحدث من قمع وربما لم يكن القمع ضاغطا وملموسا حينها. فقد كان هناك النظر إلى الأمام ومحاولة استشراف آفاق جديدة حملتها رياح التعددية السطحية الزائفة. وظل الأدب يتعالى على تدوين اللحظة وتسجيلها. وذلك على الرغم من تغير الشخوص الأدبية المعتادة فظهرت كتابات تتناول ما يسمى «المهمشين» (على غرار «لصوص» حمدى أبو جليل)، وتغير اللغة المستخدمة فبدأ استخدام لغة الرسائل القصيرة المحمولة ولغة الإنترنت والسينما («أن تكون عباس العبد» لأحمد العايدى)، وتغير الرؤى المعرفية ورؤية العالم بسبب الإحباط الشديد والانفتاح الفضائى المهول وغير المسبوق، حتى تحول العالم إلى صورة سواء منفردة أو مركبة على غيرها أو غائمة

العائلة «رواية»
محمد الشارخ
القاهرة - دار ميريت - ٢٠٠٧

الحارس «رواية»
عزت القمحاوى
القاهرة - دار العين - ٢٠٠٧

أو مشوهة. فى لحظة ما أصبح لكل كاتب شفرته الخاصة ورموزه الخاصة بواقعه المباشر (محو مؤقت «لغادة الحلوانى») وازدادت الفجوة بينه وبين قارئه فكان مفهوما النجاح المدوى الذى حققته «عمارة يعقوبيان» والتى أكدت لعموم القراء التفسير الأوحد لظهور الأصولية الدينية: الفقر والقمع. كتاب يبث الطمأنينة عبر تأكيد السائد. لكن يبدو أن الأحلام التى كانت تراود ذلك الجيل حول إزاحة السلطة وحول انتهائها الفعلى تبخرت تماما حتى كاد البخار أن يخنق أصحاب الأحلام أنفسهم (ربما خنقهم؟). ولأن الفضاء ضيق للغاية والمساحة محدودة كان لابد من ايجاد صمام أمان ينفث البخار قبل وقوع الانفجار كاملا. كان لابد من طرح السؤال الأدبى حول طبيعة هذه السلطة نفسها. فمنذ أن توغل على أبو المكارم فى عقل تلك السلطة فى روايته عام ١٩٩٠ لم يطرح الأدب سؤالا عن رؤية تلك السلطة لذاتها، بل اكتفى بترميزها فى شخوص أو بإسقاطها على فترات أخرى أو بوصفها من الخارج، وكأنها أصبحت فى غياهب النسيان، وكأنها سترحل غدا، وكأنها لم تعد موجودة. لكن السلطة بكل اختزال حركة كفاية لها، وبمحاكمة الصحفيين، تراوغ وتتدبر الحيل وتلقى بضربات موجعة هنا وهناك. سلطة مازالت تعمل عقلها وإن كان بشكل عجوز لا يلائم عصر المدونات التى لم تنتشر فى مصر فقط ولكنها تعلن الآن وبقوة عن ظهور أجيال وأفكار جديدة فى العالم العربى بأكمله.

٢٠٠٧

مع حلول واستقرار ٢٠٠٧ ثم نهايته يبدو التساؤل عن السطة وطبيعتها قد أصبح من الأمور الحتمية فى المنطقة العربية بأكملها. ولم يعد السؤال مقصورا على الأجيال الجديدة بل امتد ليشغل أذهان كافة الأجيال، وذلك بفعل توحش السلطة على تنوعاتها. قد يختلف مسار السؤال ونقطة انطلاقه لكن بالتأكيد تبدو النهايات متشابهة بشكل ما. تحمل إدانات ضمنية فى الأغلب للسلطة. فمن الكويت أصدر محمد الشارخ روايته «العائلة» عن دار ميريت للنشر، تلك الدار القاهرية التى تحولت كفضاء للمعارضة. والعائلة فى حد ذاتها - بكل مترادفاتها - سلطة! العائلة فى هذه الرواية لا تقتصر على العائلة الكويتية، بل هى صورة للعائلة الممتدة فى أى مكان، هى صورة الجيتو الذى يطلب من أفراده الولاء التام لكل المعتقدات الجمعية المتوارثة. هى العائلة التى توفر الحماية لأبنائها وتتوقع منهم الطاعة كثمن للحماية، وهى التى تيسر الحياة على المستوى المادى فتستهجن الخروج على الأعراف والتقاليد، وهى التى تؤازر السلطة (الأمير) فترفض عدم توقير أبنائها لتلك السلطة، وهى التى تعرف ولا تفصح فتعذب أفرادها بالتوقع، وهى التى تراقب الأفكار فيدفع الأبناء أثمانا باهظة للتفكير والنقاش. وهى العائلة التى تتماهى مع السلطة على مدار الرواية حتى ليصبح من الصعب التفرقة بينها وبين السلطة، العائلة هى السلطة.

تحاول رواية «العائلة» تحليل الأسباب التى أوصلت الابنين أحمد وناصر إلى معتقل جوانتانامو. وهى ربما من أول الأعمال التى تحاول أن تفهم أسباب اندفاع الشباب إلى «الجهاد». وهو التحليل الذى يستدعى جسم الرواية، أى مسار حيوات عشرة أولاد وتسع بنات. هو مجتمع مغلق على أفكاره «الوسطية» التى يحرص عبد اللطيف كبير العائلة على حراستها حتى وإن اقتضى الأمر تفتيش الدواليب، مجتمع صارم لا يتصل بالعالم الخارجى إلا عبر «الصداقات» المنظمة. مجتمع قبلى يرسل رجاله لأمريكا ونساءه لمصر. فى أمريكا- بلد الحرية- يعلن فيصل الأصغر عن التزامه، ويخوض رحلة التفكير، فيشتبك فى الجامعة مع الأستاذ اليهودى حول طبيعة «المحرقة»، ويذهب إلى حفل للمثليين ويسخر منهم، ليدرك أن كل كلمة مراقبة فى أمريكا وفى وطنه، وكل يراقب لأسبابه. بعد عودته يتشدد فيصل أكثر كرد فعل على التضييق الذى يمارس عليه حتى أنه يختفى هو وابنه مباشرة بعد الخطبة النارية التى ألقاها بالمسجد. فالسلطة الممثلة فى الوزير لا تتحمل أن يواجهها فيصل بمواطن ضعفها، وعبد اللطيف كبير العائلة يؤنب فيصل لذلك. أما أحمد ورغم انفلاته الكامل فى أمريكا الا أنه يسافر إلى كوسوفو وغروزنى من أجل «الجهاد» تأثرا بالفقراء المجاهدين الذين يستمدون وجودهم. بشكل مفارق - من وجود تيار يمينى أمريكى محافظ. وينتهى الأمر بأحمد فى جوانتانامو ليلقى أشد صنوف العذاب، ومعه أخوه ناصر. وكأن مصير الثلاثة أشقاء يقف بالمرصاد لكل من يخرج عن الخط العائلى المرسوم من إرث الماضى. فالحرية الممنوحة لكل شقيق هى حرية ظاهرية زائفة، والحقيقة أن العائلة هى المبتدى والمنتهى، لا حياة لأحد خارجها.

لا يختلف الأمر مع النساء وإن كان أسوأ. إن كان الرجال من حقهم حرية ظاهرية، فإن النساء ليس من حقهن ذلك مطلقا. تتمثل قمة الرضا لدى حصة التى لم تتزوج واختارت أن تعتنى بالجميع على حد سواء، بمن فى ذلك متلقو الصدقات. هى البديلة للأم التى ترعى وتضحى وتبذل من نفسها للآخرين. وتقف على النقيض منها «هنوف» التى لم تدرس بالجامعة ووقعت فى حب شاب مصرى وتزوجته رغما عن أهلها ضاربة عرض الحائط بكل التقاليد المكبلة للتحقق النفسى الحقيقى. ويتجلى ذلك فى الخطاب الطويل الذى أرسلته لأخيها ليتركها وشأنها. لكن أخاها حاول بكل الوسائل أيضا أن يعيدها إلى «العائلة» فكان حبها لزوجها وللحياة أقوى. رفضت أعراف العائلة المكبلة فرفضتها العائلة إنسانيا دون أن يظهر ألم الفراق، عدم إظهار الألم هو جزء من تقاليد العائلة، هو بالأحرى أساس القمع، عدم الإفصاح، بالإضافة إلى فرض الانفصال الصارم عن مجريات العالم الذى يقع خارج نطاق سيطرة العائلة. كل من يخرج عن العائلة يختفى سواء فى وطنه (فيصل وابنه) أو فى جوانتانامو (أحمد وناصر) أو من فضاء العائلة (هنوف).

فى ٢٠٠٧ يعيد عزت القمحاوى طرح السؤال الموجع عن عقل هذه السلطة فى رواية «الحارس» (دار العين). كيف يجمع ضابط فى الحرس الرئاسى بين كونه قامعا ومقموعا؟ كيف تتسلل منظومة القمع والقهر بخفة داخل النفس البشرية حتى تصبح جزءا أصيلا منها؟ كيف تحافظ السلطة على موقعها حتى يتكلس جلدها ويكون طبقة عازلة عن المحيط الخارجى؟ كيف تنجح السلطة فى تحويل الضابط إلى أداة طيعة مطيعة بحيث لا يمكنه العيش مع المدنيين مرة أخرى؟ أسئلة يطرحها عزت القمحاوى فى «الحارس» عبر تتبع المسار أو بالأحرى الصعود المهنى للملازم وحيد الذى نجح بانخراطه التام فى المنظومة فى الوصول إلى منصب نائب قائد سلاح الفرسان. يسيطر على الرواية منذ البداية أجواء ضبابية غائمة سواء فيما يخص المكان أو الشخوص. وهى تقنية متعمدة تلائم المنظومة العسكرية التى لا تسمح بأى بشىء خارج السيطرة. فالمكان طوال الرواية هو المعسكر الخاص بالحرس الرئاسى الذى يقع بجوار القصر مباشرة. تدور الرواية بشكل يشبه الهمس خوفا من وصول أى كلمة غير لائقة للقصر. والهمس يصاحبه الخوف والترقب اللذان يصلان إلى حد الهيستيريا فى حماية سور المعسكر من الدخلاء لينتهى الأمر بإطلاق كم هائل من الرصاص على طائرة ورقية! فى ظل هذا التشنج الدائم تنعدم الحوارات بين أفراد المعسكر وتختفى بالتالى من الرواية. فالحوار يستلزم إقامة جسور من التواصل الإنسانى الذى يغيب عن هذه المنظومة تماما وهو ما ينعكس على الشكل الروائى. الحوار الوحيد الموجود بالرواية هو الحوار الداخلى لوحيد مع نفسه والذى يتكثف ليبدأ فى الظهور فى الأحلام التى تتحول إلى جزء من الواقع. حتى هذه الأحلام لا تأخذ شكل تحقيق رغبات مكبوتة أو استرجاع ذكريات ما، بل هى أحلام غرائبية موحشة مختلطة بأصوات حمحمة خيل سلاح الفرسان وظلمة تامة ورعب إنسانى. تساهم الأحلام فى تكثيف الإحساس بالوحدة؛ لكنها ليست تلك الوحدة الإنسانية أو الوجودية، بل هى الوحدة فى التوحش ومحاولة الصعود. الصعود الذى يبدأ بتواطؤ السلطة معه، إذ تتم ترقيته فى حادث إطلاق النار هباء الذى أدى إلى استنفار المعسكر بدون داع. ويتبع ذلك ترقية أخرى إثر نجاحه فى القضاء على فتاتين منقبتين حاولتا مهاجمة موكب الرئيس.. وهكذا. ينتهى الأمر بوحيد مثل قطعة الشطرنج التى يتم تحريكها من مكان لآخر بدون إبداء أسباب، مع التنبيه على ضرورة عدم التفكير وهو ما يتجلى فى التحذير السائد فى المعسكر بضرورة تجنب المكتبة.

تتحول الحياة فى المعسكر إلى استعداد دائم لخروج موكب الرئيس أو عودة موكب الرئيس، تتكرر المشاهد ولا يحلم وحيد إلا بنظرة امتنان من الرئيس فلا يجد سوى ستائر سوداء مسدلة على زجاج السيارة. المشهد مصمت ليس به أى شفافية تماما كالواقع الذى يسيطر على المعسكر. كل شىء يدور همسا وفى الخفاء بما فى ذلك إعدام ضباط فى الخفاء. لشدة وطأة الأوامر القامعة تتناثر من حين لآخر أسئلة تخص الوجود الفعلى للرئيس، إن كان حقيقة أم وهما. ينجح الضابط فى اجتياز تلك الاختبارات بنجاح مهول يتلاءم مع رؤيته لذاته الناجحة التى تفوقت على الآخرين بالقدرة على الطاعة والتواطؤ. يستمر الوضع على نفس الوتيرة حتى تبدأ أشياء لم تكن موجودة من قبل فى

الظهور، فقد بدأ «الشعب» يأتى بأفعال غير معتادة، أفعال تهين السلطة والرئيس، من قبيل اقتحام فرد يحمل حذاءه للموكب الرئاسى، ظهور أشخاص أيديهم مكبلة بالسلاسل علامة على الاحتجاج، نظرات غاضبة حانقة من راكبى السيارات، بالإضافة إلى انتشار العبارات البذيئة على الجدران. تؤثر هذه الظواهر على معنويات المعسكر ويبدأ الكل فى التساؤل عن حقيقة وجود الرئيس، «ماذا نحرس؟» وتكون الغلبة فى ذلك لاكتئاب عظيم.

لا تستسلم السلطة لحالة الاكتئاب والترهل ولا تحاول تغيير أسباب الاكتئاب بل تبتدع تدريبات جديدة تلهى بها الجميع عن السؤال الجوهرى، هى السلطة المراوغة التى تتعامل مع الصدمات بشكل يولد المزيد من التبلد والتكلس. ثم تظهر فكرة أخرى تساهم فى المزيد من العزل بين المعسكر والعالم الخارجى. تقرر السلطة العليا أنه لاداعى للتعامل مع الشعب الحقيقى فتأتى ببعضهم وتدريبهم على مهن وحرف مختلفة وتحولهم إلى جزء من المعسكر ليقوموا بالتلويح للرئيس وليقدموا الشروحات المعتادة فى افتتاح مصنع أو مشروع. تحل «كتائب الشعب» محل الشعب الحقيقى الذى أصبح وجوده مزعجا بدرجة ما للقيادة. وبجانبها تستقر «كتائب المحو» التى تنظف الجدران ليلا من كل عبارات الاحتجاج. مع هذا العزل تتفاقم حالة الضابط فى إحساسه بعدم القدرة على التعامل مع العالم الخارجى، عالم المدنيين الرعاع. حتى يفيق ذات يوم ليدرك أنه قد دخل مراحل الشيب والضعف. والأدهى أنه لم يعد يرى من برج الحراسة ما كان يراه وهو لايزال ملازما «الملاءات المهتزة فوق أشباح، لاعبو الورق، ومشاهدو التليفزيون، وحلقات الثرثرة، وصبى الطائرة الورقية الذى أثار ذعره وعرضه للمحنة الأولى فى خدمته. الآن لا شىء من هذا يمكن أن يرى على الأسطح ذاتها. لا شىء بالمرة سوى النفايات التى كانت هناك دائما». سواء كان ذلك عمى ناتجا عن التبلد أو كان المشهد قد تغير بالفعل، لا فرق. سيبقى الحارس دائما وحيدا ومهزوما بأوهامه وهواجسه. ومنذ بداية الرواية وحتى نهايتها هناك التناقص التدريجى الملحوظ لأى حيوات أخرى تملأ المشهد وتعمل على سد ثغراته. وبالتدريج أيضا يختفى اسم الحارس «وحيد». وتحل الرتبة محل التعريف الانسانى. تختفى كل اللمسات الإنسانية حتى أنه يستدعى الحلاق ليشعر بلمسة اليد الإنسانية التى غابت مبكرا فى الرواية منذ أن استغنى عن خطيبته «نوال». لا يبقى فى النهاية سوى القائد والنائب، القائد الذى يحاول الحفاظ على حياة نائبه ليبقى الوهم حيا. ليبقى المقموع المطيع الذى يمد السلطة بوجودها.

القامع المهزوم الذى لا تتوقف أحلامه بالحصول على القوة المطلقة وتحقيق المجد بالسيطرة التامة. فكما كان اللواء سليم فى «الموت عشقا» (١٩٩٠) يحلم بالسيطرة على العاصمة ويخطط لعملية كبيرة تخضع كل هؤلاء الرعاع لسلطته، يحلم عبد اللطيف، كبير «العائلة» (٢٠٠٧)، (ومعه الوزارة) بحساب أنفاس العائلة والتأكد من سيرها على الخط المرسوم بدقة، ويحلم الضابط وحيد فى «الحارس» (٢٠٠٧) بإنجاز مخطط أمنى تكنولوجى لتأمين موكب الرئيس. مخطط يستخدم فيه جهاز التحكم عن بعد ويحقق به نصرا ما بعده نصر. هو حلم السيطرة المطلقة وهو الحلم الذى يضفى على السلطة سلطانها. بهذه الأحلام والطموحات تتجلى الرغبة الحقيقية للسلطة - أى سلطة - فى تكميم الأفواه وإسكات الرأى المختلف، ناهيك عن المعارض. هى الرغبة فى اختزال اللغة إلى «تمام يا أفندم» و«حاضر يا أفندم» و«الله بالخير». بقدر تناقص اللغة فى الواقع الخارجى فى روايات السلطة بقدر ما يتصاعدد المونولوج الداخلى الذى يكشف مناطق الوعى واللاوعى المظلمة. وتدريجيا يتحول الحلم بالقوة إلى مرض. وهو مرض معد ينتقل من الأعلى إلى الأسفل، مرض يشبه الهوس وهوس يغازل الجنون، وفى نوبات الجنون يقع التبلد والتكلس ومن بعده..لابد من الانهيار. أيهما كان فى البدء: العائلة أم الحارس؟ وأيهما أقوى؟ أم أنهما وجهان لعملة واحدة؟ ■

"عن الاقتصاد والشعر ونهضة مصر"

محمود محيي الدين

■ منذ نحو قرن من الزمان فى نظارة المعارف العمومية (وزارة التعليم الآن) وتحديداً فى عام ١٩١٣ حدث هذا....

تقدم سكرتير المعارف العمومية بأدب وخطى سريعة إلى مكتب أحمد حشمت باشا[1] - وزير المعارف العمومية - يخطره بقدوم حافظ وخليل. رجلان فى بداية العقد الرابع من العمر، وعليهما علامات السعادة والبشر بإنجازهما المحمول فى لفافة أنيقة تليق بصاحب المعالى.

أما حافظ، فهو محمد حافظ إبراهيم فهمى المهندس - الشهير بحافظ إبراهيم - المولود فى ديروط بصعيد مصر، فى عام ١٨٧١، نشأ يتيماً بعد موت أبيه وأمه من بعده، والتحق بالمدرسة الحربية وسافر مع حملة السودان فألف فيها خلية سرية وطنية ضد الإنجليز. اكتشفها المحتل فأحيل إلى الاستيداع بعد محاكمة سريعة، ولكنه خدم فى البوليس بعد ذلك بعون من راعيه الشيخ الإمام محمد عبده، وانتهى به الأمر محررا فى جريدة الأهرام واشتهر بأشعاره الوطنية وكان شعره نجم المناسبات الكبرى ذا جرس قوى متدفق وإبداع متميز وحرارة تستنهض قوى الأمة المصرية فلقب بشاعر النيل.

أما خليل، فهو خليل عبده يوسف مطران، المولود فى نفس عام مولد شاعر النيل، فى بعلبك بلبنان، وتعلم فيها فى المدرسة البطريركية، ورحل إلى مصر ليتولى تحرير جريدة الأهرام ثم أنشأ صحفاً، كان منها الجوائب المصرية التى كانت مناصرة لمصطفى كامل باشا فى حركته الوطنية ضد المحتل، وترجم عدة كتب وألف الشعر فلقب بشاعر القطرين، وكان يشبه بالأخطل وابن الرومى فى أسلوبه الشعرى...

ولكن سبب لقاء الشاعرين الأديبين بوزير المعارف المصرية لم يكن له علاقة بالشعر، فاللفافة كانت تحوى كتاباً فى علم الاقتصاد قاما بتعريبه عن اللغة الفرنسية بتكليف من الوزير الذى وصفاه فى تقديم الكتاب المعرب بالعالم العامل.

التقاهما أحمد حشمت باشا بحفاوة وتحية سائلاً: هل انتهيتما مما بدأتماه منذ عامين؟ لقد اخترت لكما هذا الكتاب فى علم الاقتصاد لمؤلف بارع هو بول لروا بوليو Paul Leroy Beaulieu، فقد رأيت أن علم الاقتصاد من العلوم البازغة حديثة النشأة، وسوف يكون له وللمشتغلين به شأن فى الأمم الناهضة.

ويستطرد أحمد حشمت باشا:

وصاحب هذا الكتاب ذائع الصيت فى بلاده، والطبعة التى طلبت منكم ترجمتها هى الثالثة عشرة بما لا يدل على أهمية الكتاب وكاتبه فحسب، ولكن على أهمية هذا العلم الذى يدرس اليوم فى الجامعات والمعاهد الكبرى فى البلاد الأوروبية...

وهذه البلاد الجديدة المسماة أمريكا لا تنشئ اليوم جامعة أو مدرسة عليا إلا وكان فى تخصصاتها قسم يوجه إلى تعليم الاقتصاد وما ارتبط به من علوم. وقد رأيت ونحن نبنى هذه النهضة فى عصر أفندينا الخديو عباس، أطال الله عمره، أن نعلم النشء من طلبة العلم أسس هذا الحقل الجديد من العلوم.. خاصة بعدما تصفحت هذا الكتاب ووجدت فيه تعريفاً لعلم الاقتصاد بأنه «يضم بين دفتيه جميع السنن العامة التى يجرى عليها إنتاج الأرزاق وتوزيعها وتداولها واستهلاكها»[2] وأنه لا يمكننا فى يومنا هذا، ونحن فى سنة ١٩١٣، أن نكون بمنأى عن علم يدور حول أمور هى «بحقيقتها من أعقد الأمور التى تعرض فى هذه الحياة» و قد أظهر هذا الكتاب فيما أذكر ارتباطاً قوياً بين علم الاقتصاد وعلوم أخرى، فهو ذو ارتباط مما سن للفلسفة من حيث إنها علم «تستخرج به التصورات الشاملة من الوقائع الفردية».

ويسترسل أحمد حشمت باشا إعجاباً بالكتاب وموضوعه...

«ونجد علم الاقتصاد آخذاً بيد التاريخ من حيث إن التاريخ يعيد على الناس عظات الماضى ليحكموا سيرهم ويجعل للأمم التالية رشداً من عبر الأمم الخالية، كما نجد أن هذا العلم ملائماً للإحصاء... من حيث إن «الإحصاء وسيلة تحصر بها جميع الوقائع الاجتماعية وتفصل تفصيلاً يعين أهل العلم على استخلاص النتائج والقواعد». وكذلك علم الحقوق «فللاقتصاد» به روابط أوثق، فلكليهما أساس واحد هو المسئولية الذاتية المتصلة بمبدأىْ الحرية والملكية.... ولعلكما لاحظتما وأنتما تعربان هذا الكتاب أنه «لا ينعى على الاقتصاد أنه مناف لمكارم الأخلاق بدعوى اقتصاره على البحث فى إنتاج الأرزاق وحركة تداولها، ولا صحة لما قيل من أنه مذهب للأثرة، وحب الذات ... فمكارم الأخلاق، وفق هذا الكتاب، وفى تقديرى فضائل اقتصادية وأمثلة ذلك: «حب العمل والسلطان على النفس، والجلد والمثابرة والإقساط والتبصر».

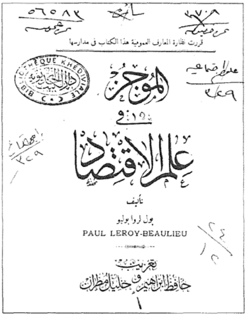
فرد حافظ إبراهيم: لعلك يا صاحب المعالى بما ذكرت، وكأنك تحفظ مقدمة هذا الكتاب عن ظهر قلب، وقد حيرنى فى هذا الكتاب، فيما احترت فيه.. لماذا أسماه صاحبه «الموجز فى علم الاقتصاد» فلقد دعا كتابه هذا بالموجز رغم ضخامته، فهو يقع فى أربعة أجزاء وكان تعريبى وخليل له فى ٧٦٤ صفحة...

فأكمل خليل مطران، وكان رقيق الطبع ودوداً: إنك لم تحسن الصنع يا صاحب المعالى باختيار الموضوع والعلم الذى نعرب له أول كتاب شامل من الفرنسية إلى العربية فحسب، ولكنك أحسنت اختيار المؤلف الذى ينقل عنه، فهو «من أئمة فنه فى بلاده، وله فى الاقتصاد تآليف جمة، ما بين مطول ومختصر». والقراء يؤثرون تصانيفه وكتبه لأنها منزهة عن الغرض، وأبعد فى المرمى، وإن لم تكن أقرب إلى التناول ... والكاتب لروا بوليو ولد فى عام ١٨٤٣ فى فرنسا، وله إسهامات كبرى، ومن أشد المعارضين للمذاهب الاشتراكية، ومن أئمة الاقتصاد السياسى. وقد تعلم فى كلية الحقوق فى باريس، ودرس بعد ذلك فى بون وبرلين فى ألمانيا. وقد اطلع على مذهب كارل ماركس أثناء دراسته فى ألمانيا وتكونت لديه أفكار معادية لفكره. وأسس عند عودته لفرنسا مع آخرين «مجموعة باريس»، وأخذ فى النشر هو ومجموعته لمؤلفات عدة وصحف يومية. وأخلص ومن معه فى التصدى لما اعتبروه تخريباً فى دولاب الاقتصاد وأسس إدارته بتدخل الحكومة فيما لا يجب أن تتدخل فيه، بما يبعدها عن أولوياتها الواجبة. ولهذا الكاتب إسهامات أخرى فى علم المالية والدولة الحديثة ووظائفها وعمل المرأة فى القرن التاسع عشر...

فتدخل أحمد حشمت باشا سائلاً: «لم تجيبا عن سؤالى.. هل انتهيتما من عملكما أم هو لقاء تخطرانى فيه بطلب مهلة لإتمامه؟».

رد حافظ إبراهيم: منذ تقدمت إلينا يا صاحب العطوفة بتعريب هذا الكتاب فأمضينا أمرك وقعدت وخليل إلى «التعريب وفى أنفسنا من أن السفر جليل.. وأن المقصد نبيل.. وأن الشرق فى حاجة إلى علم الاقتصاد.. وأن ساكنيه على ظمأ إلى الإرشاد».

وأكمل خليل مطران: وما كدنا نفتح


٥٦٥٨٢
قررت نظارة المعارف العمومية هذا الكتاب فى مدارسها

الموجز
فى
علم الاقتصاد
تأليف
بول لروا بوليو
PAUL LEROY-BEAULIEU
تعريب
حافظ ابراهيم و خليل مطران
١

نحن بصدد كتاب، طلب وزير المعارف تدريسه معرباً لطلبة العلم فى مصر، فى عهد كانت مصر ترزح فيه تحت نير احتلال مستبد غاصب. يضيق على البلاد سبل التقدم

هذا المؤلف بلغته الفرنسية حتى «راعنا ما شهدنا وبهرنا ما وجدنا فحدثتنا النفس بالنكوص».

فسأل أحمد حشمت باشا مستنكرًا: النكوص؟ وهل فى هذا الأمر وبعد هذا الوقت الذى أخذتماه نكوص؟

فأسرع حافظ بالجواب: نعم حدثتنا النفس بالنكوص لعظم شأن الأمر، «لولا هيبة الأمر والحاجة إلى الكتاب، فاستعنا الله، وشددنا منا، وعالجنا التعريب جهدنا فلم نشب أن حل الأنس فى نفوسنا محل الوحشة».

وعقب خليل مطران: صدقت يا حافظ فقد «حال العناء إلى لذة وانقلب الإحجام إلى إقدام..».

فقال أحمد حشمت باشا: إذن لقد أتممتما العمل... أليس كذلك؟

فرد المعربان الشاعران على السؤال شعرًا، فبدأ خليل مطران:

أشرت بهذا العلم تعرف أنه
حياة وتدرى أن فى جهله الردى
قبسنا به من نور هديك قبسة
فكانت لنا عونًا وكانت لنا هدى

وأكمل حافظ إبراهيم:

جلونا بها للناس آيات عصرهم
شواهد فيها قدوة لمن اقتدى
وقلنا بلاغ يحمد القوم غبّه
وما زال هاديهم إلى الخير أحمدا

وهنا تبسم أحمد حشمت باشا ابتسامة الرضا عن إتمام هذا العمل الضخم على يد أديبين شاعرين مثقفين من أنبغ أهل زمانهما، ونادى فى طلب وكيل وزارة المعارف وكلفه بتعميم قرار لنظارة المعارف العمومية بتدريس هذا الكتاب فى مدارسها، وطبعته مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر، على النحو الواضح على غلاف النسخة التى اطلعت عليها، وتحتفظها دار الكتب فى مصر[٣] وعليها خاتم دار الكتب الخديوية.

وقد يلفت نظرك ما فى مقدمة المعربين من توجيه منهما «للطلاب المتدبرين والبحثة المتبصرين يجدون بين دفتيه عناءهم، وهم باقتصارهم عليه دون المطولات إنما يقتصرون عناءهم، فكيف بهم إذا كانوا من أبناء لغتنا الشريفة وهم يقرءونه عربياً مبيناً خالصاً فى إنشائه من شوائب العجمة».

إنه احتفاء كبير باللغة العربية يظهره المعربان فى أكثر من موضع.. فهى.. اللغة الشريفة.. وياله من وصف.

ثم يتساءلان: هل لو كان المؤلف واحداً منا، وأراد أن يضع كتابه فى اللغة العربية كما وضعه فى اللغة الفرنسية حرفاً بحرف أفكان لسان اللغة العربية السمح «يبخل عليه من المادة بما يحقق أبعد آماله ويفى بأدق أغراضه؟».

ويسرعان بالإجابة «اللهم لا»!

ويبرران بذكر أنه رغم أن «العلم الاقتصادى غريب عنا، حديث بنا»، إلا أن هناك قوى الاصطلاح... واللغة العربية قادرة على استيعابه واحتوائه وابتكار الصالح ذى الدلالة من الاصطلاحات، وينصحان بألا تتبع أقوال الذين وقفوا باللغة عند حدودها المنقولة «فتمشت لغات العالم مع المدنية والعمران ووقفت لغتنا وحدها عند ذلك الحد، تنظر إلى أخواتها، وقد سبقتها وقصرت نظر الشرقى إلى الغربى».

ثم أتوقف عند هذه الجملة ذات الدلالة الكبرى لعصرنا الحالى بعد قرن من زمن كتابتها..

«لكل عصر من العصور التى تقلبت فيها الأمم أثر خالد فى لغاتها. فما من كلمة تنبت ولا من لفظة تذوى إلا وللاصطلاح يد فى حظها من الموت أو الحياة».

وقد عز على المعربين أن يمر عصرهما دون أن يتركا فى اللغة أثرا بقدرة منهما على تطويع الاصطلاح وقوته فى نسخ معانى الكلمات وإظهار مفادها.

وقد ترك لنا المعربان الشاعران، فى ملاحق هذا الكتاب، قاموساً بالمصطلحات الاقتصادية لألفاظ عرباها وأنشآها فى مواضعها الجديدة بما تجعلنا نقدر بعد مائة عام ما فعلا من أمر يشهد لهما، خاصة أن عدداً مما أوجداه مازال سارياً دون علم بصاحب أو بصاحبى الفضل فى إخراجه.. وقد تركا لنا فائدة فى أساليب التعريب، ولا أقول النقل أو الترجمة، من أنهما عندما يعرض لهما فى طريق التعريب ما لم يجدا له نصيباً من الأسماء، رحبا به واستعرضا له من الكلمات والألفاظ «ما نأنس له ونسكن إليه مقتدين بالأسلاف فى وضعهم للغة قواعد تعصم النطق وتقيم اللسان».

قد يلفت نظر الاقتصاديين المحدثين أن كتاب الموجز فى علم الاقتصاد قد جرى تقسيمه على النحو الذى نجده اليوم شائعاً فى كتب الاقتصاد المدرسية. فالقسم الأول معنى بالإنتاج محدداً عناصره بالطبيعة والعمل ورأس المال. والقسم الثانى يتناول قضية توزيع الإنتاج، ونصيب العناصر الثلاثة المساهمة فيه. وإن كان قد أضاف فى هذا الفصل عنصراً رابعاً نطلق عليه اليوم المنظم entrepreneur وقد أطلق عليه المعربان «المستحدث». تعرض هذا القسم لكيفية تحديد نصيب كل عنصر من الإنتاج لعائده. فيحصل العمال على أجر ويحصل صاحب رأس المال على فائدة ويحصل صاحب الأرض على ريع، أما المستحدث «روح الإنتاج وحامل التبعة فيه والمسئول عنه فإنه يرجع صافى الربح وعليه تقع الخسارة، وسبيله فيه إما الفخار أو العار».

أما القسم الثالث فيبحث فى موضوعات تداول المنتج، وإن كان هذا القسم من الكتاب يؤخذ عليه تشتته بين موضوعات عديدة، قد يبرره عدم التخصص إبان كتابته فهو يتعرض لأسباب التجارة وتحديد القيمة وأنواع الائتمان، وأعمال المصارف، وأنواع الشركات، وقروض الحكومة، وأنواع الحرف، ووصف للتجارة الداخلية، وللتجارة الخارجية وقواعدها وقوانينها، ونقد لمذهب الحماية التجارية ووصف للأزمات التجارية وأسبابها وسبل علاجها وفوائد الأزمات التجارية. أما القسم الرابع والأخير فيناقش ما أطلق عليه استنفاد الأرزاق، فيحلل بعض مظاهر الاستهلاك ومنافع الادخار وفضل أوقات الفراغ، ثم ينتقل إلى الكماليات، واستهلاكها، وأسباب طلب السلع الترفيهية (النفائس). ثم يختم القسم بمناقشة لقضية السكان والهجرة.

هذه البلاد الجديدة المسماة أمريكا لا تنشئ اليوم جامعة أو مدرسة عليا إلا وكان فى تخصصاتها قسم يوجه إلى تعليم الاقتصاد

ولعل قارئ هذا الكتاب اليوم سيجد فى قراءته أوجها للطرافة أو للتدبر، ومن هذه الأوجه ما أسرده عليك باختصار..

انظر مثلاً فى إرجاع الكاتب «لروا بوليو» فضل استتباب قواعد علم الاقتصاد إلى ثلاثة من الاقتصاديين الذين عاشوا فى القرن الثامن عشر وهم كيناى Quesnay وترجو Turgot وسميث Smith. والأولان فرنسيان. والثالث هو الاسكتلندى الشهير آدم سميث. وإن خص المؤلف «ترجو» بفضل ترسيخ العلم قبل سميث. فكتاب ترجو عن «التأملات فى تكوين الثروات وتوزيعها» صدر فى عام ١٧٦٦، أى قبل كتاب سميث عن «ثروة الأمم» بعشر سنوات.. ولكن السبق هنا لا يجب أن يقاس بالزمن ولكن بالمضمون والتأثير وحسن التحليل.

وعلى أية حال يدافع المؤلف عن علم الاقتصاد.. فرغم حداثة نشأته فإنه «مضارع لعلم الكيمياء فى الظهور. وهو من أجل العلوم الطبيعية».. ولم تهدأ أبداً وحتى يومنا هذا حماسة الاقتصاديين بتشبيه علمهم بالعلوم الطبيعية.. ومازالوا يستحدثون من النماذج الرياضية والقياسية والأساليب التحليلية ما يكسب الاقتصاد صبغة علوم الطبيعة المستندة إلى قوانين ونظريات محل تجريب وتطبيق.

- تأمل فى تحديد المؤلف لمبادئ ثلاثة هى المسئولية والحرية والملكية بما يعتبره الحقائق الكبرى وقارن بينها وما تناقشه اليوم عن قضية الحوكمة وارتباطها بهذه العناصر الثلاثة، سواء على مستوى إدارة الاقتصاد القومى، أو مستوى الشركات.
- وراجع انحياز المؤلف لقوانين الاقتصاد انحيازا ظاهرا ويؤكد فى أكثر من موضع أن الاقتصاد علم يتعين الاسترشاد به، ولكن يظهر فى الوقت ذاته أن الاقتصاد هو الناصح الأمين الذى يحسن اتباع مشورته إلا فى «الأحوال النادرة التى يعرض فيها من الأسباب القومية أو السياسية ما يوجب الإرجاء أو التلطيف».... فهو هنا يقدم الاقتصاد أو يؤخره من حيث الأولوية، بل يذكر أنه يباح التجاوز عن قوانينه «فى أحوال أهلية ودولية، على أنه ثابت فى كل حال، أن المخالفة لتلك القوانين داعية إلى الضرر».

ومن هنا يجدر أن نحسب ونحتسب ما قد يكون من ضرر اقتصادى، وما قد يزيد عنه من نفع سياسى ومحلى أو دولى يبرر التكلفة الاقتصادية المرتبطة بالضرر



الاقتصادى.. وعلى أن يكون الانحراف عن القانون الاقتصادى استثناء مؤقتا... ولكن يجب أن نحذر من أن الممارسة المتكررة لهذا الانحراف قد تجعل الانحراف قاعدة لا استثناء... وقد يبرره البعض بأنه لظروف المرحلة وطبيعتها المؤقتة... فتفاجأ بأن الوقت يمتد لترسخ مقولة أعتقد أنها فرنسية مفادها: أنه لا يوجد أكثر دواماً من الأمور المؤقتة! وتدبر معى ما فى الممارسة الاقتصادية فى جوانبها المختلفة ما اكتسب استمراره دهراً باعتذار فى مبدئه أنه لوقت محدود، فيكاد يزول الوقت ولا يزول هذا الاستثناء المؤقت، ولا يبالى أحد فى هذه الحالة بحساب التكلفة، فلكل عندئذ ما يشغله ويغنيه من شئون أشد.

- وفى الكتاب بعض الأفكار التى تطورت على مدار القرن الماضى عن التخصص وتقسيم العمل: ودور النقابات وأسباب الإضرابات وعن العلاقة بين الجغرافيا والمزايا النسبية للتجارة والتطور الاقتصادى المرتبط بها، وفضل الابتكار والتطوير والاختراع على الإنتاج. ويذكر الكتاب ما قد نعتبره فى شأن المستحدث من الآلات اليوم من النوادر...

- فهاهم بعض الصيادين والبحارة يحطمون أول مركب سيره البخار لظنهم أنه سيسبب لهم البطالة.

- وهدد السوقة بالقتل للمخترع «جاكار» الذى أنتج منوالاً ميكانيكيا، وحرق مجلس «حكماء» ليون كرسى هذا المخترع الذى كان عضواً فى مجلسهم.

- وعارضت الملكة إليصابات (إليزابيث الأولى) إقامة محايك للجوارب.

- وحظرت مدينة دنزج الألمانية استعمال الأنوال المنتجة لأوشحة المرأة، وأغرق السوقة منتجها.

- وعارض الرئيس المكسيكى سنتانا مد خط السكك الحديدية لمصلحة أصحاب البغال..

- فذهب المؤلف يعدد فى مزايا الآلات وفضلها على البشرية «فأى مصير كان مصيرنا لو لم تورثنا الأجيال هذه المخترعات التى لا تقاوم»...

- ويقوم الكاتب بمحاولة لتبديد «الأوهام القائمة حول نمو الإنتاج» فيعدد مزايا الإنتاج ذى الحجم الكبير وعيوبه، كذلك الأمر بشأن مزايا الإنتاج ذى الحجم الصغير ونقائصه. وإن كان يحذر من خطورة الظن أن النجاح فى أيهما ليس له حد، فلكل عوامل نجاح وتطور إلى حين، حتى تنتهى دورته ويستنفد قدرته على الاستمرار، «فالفلاح الإنسانى هو فى حقيقته أقل من ظاهره»... ولعلك ترى الناس فى يومنا هذا يدركون هذه الحقيقة إبان شهودهم للأزمات الاقتصادية، ولكن سرعان ما ينسونها بعد نهايتها، فتأتى بعدها أزمة أخرى لتذكرهم بسابقاتها فيشرع الناس فى تحليل أسباب الأزمات وما هو مشترك فى مسبباتها، ويندهشون ذات اندهاشهم السابق، بأن العنصر المشترك بين الأزمات الاقتصادية أنها كلها تزول بعد حين، ولكن يضار منها عادة ويدفع ثمنها من لم يكن سبباً فى حدوثها أو طرفا فى نسج خيوطها.

ويستعرض الكتاب بعض الملامح للأزمات الاقتصادية فى عصره وعهد السابقين عليه ويبدو أن الفكر المسيطر وقتها هو ما يتعلق من أن أزمات التجارة التى أرجعها بعض معاصريه إلى الإفراط فى الإنتاج، ويتصدى لهم الكاتب بتفنيد الحجج، التى يحوم من خلالها حول مفهوم وآليات الدورات الاقتصادية بمفهومنا المعاصر، وأنواع الخلل الذى قد يصيب الاقتصاد من هيكلى أو موسمى أو نظامى على نحو ما تطور علمنا به خلال كتابات القرن العشرين، بعدما تطورت سبل التحليل التى تبناها علم الاقتصاد خاصة بعد الكساد الكبير فى العقد الثانى والثالث من القرن الفائت، ولكن فى وقت كتابة هذا المؤلف لم يكن فى وسع صاحبه إلا أن يقول: «ليس فى الأدوية ما تستأصل به شأفة الأزمات الاقتصادية»...

والمطلع اليوم على أداء سياسات المالية العامة والسياسات النقدية والتجارية وما يخص من إجراءات قطاع التمويل وسعر الصرف والائتمان أن هناك من السبل ما يحتوى الأزمات الاقتصادية إذا ما اكتشفت بوادرها مبكرا وجرى التنسيق بين صانعى هذه السياسات على قدر من الكفاءة سواء محلياً أو دوليا... وكما يشهد التاريخ المعاصر بحدوث أزمات اقتصادية سرد منها وحللها الاقتصادى «كندلبرجر» فى كتابه المشهور والمنشور فى عام ١٩٧٨ تحت عنوان «جنون وهلع وانهيار»، يشهد التاريخ أيضاً بأن أزمات أخرى قد تم تداركها قبل وقوعها أو احتواؤها قبل استشرائها، أشار إلى بعض منها جرينسبان فى مذكراته المنشورة فى عام ٢٠٠٧، تحت عنوان «زمن الاضطرابات».

يذكر المؤلف حقيقة قد تكون التجربة والخبرة، لا التحليل والاستنتاج، قد أفادته فى ذكرها عن أثر الأزمات الاقتصادية بما قد تحققه من نتائج نافعة بعد مرور الجائحة، حيث ينظر الناس فى تقويم ما اعوج من نظامهم... ويتخيرون طرائق أصلح من الطرائق الأولى للعمل وهذا ما نلاحظه فعلا من متابعة الأزمات سواء تجارية أو مالية، ولكن ما ندركه أيضا هو نزوع الناس إلى العود إلى سيرتهم الأولى بعد حين... وهو ما يوجب يقظة أجهزة الرقابة والإشراف على الأسواق ودفع قدراتها بما يجعلها قادرة على استنفاد أهل السوق من أنفسهم، خاصة إذا تفشت فى الأسواق عوامل القصور عن العمل بكفاءة. إما بعدم اكتمال الأركان أو معاناتها من أوجه الخلل أو لتدنى هيكل المعلومات، أو لعدم ترسخ قواعد العمل بنظام كفء تسوده المنافسة وتحكمه أعراف أهل التجارة والصناعة التى قد تضمر بقاءها لردح من الزمن فى ماء آسن من أساليب التدخل المشوه.

وهو ما عانت منه اقتصادات ادعت أنها تعمل وفقا لنظام للتخطيط وتهيمن على مجريات أمور الدولة، فلا هى خططت ودبرت، ولا هى تركت أمور الناس الاقتصادية تسير وفقا لقواعد تسنها التشريعات وتنظمها مؤسسات الرقابة الحصيفة، فتحمى بها الحقوق وتنظم من خلالها الأسواق وتطور من أداء الاقتصاد بما يكفى للناس حاجاتهم.

ترك لنا المعربان الشاعران، فى ملاحق هذا الكتاب، قاموساً بالمصطلحات الاقتصادية لألفاظ عرباها وأنشآها فى مواضعها الجديدة بما تجعلنا نقدر بعد مائة عام ما فعلا من أمر يشهد لهما

وعند الانتهاء من الاطلاع على هذا الكتاب سيتبين لطالب علم الاقتصاد أن كثيراً مما نتداوله اليوم يصح فيه ما أطلقه عليه كتاب العدد المئوى من «مجلة الاقتصاد»، الصادرة عن الجمعية الملكية الاقتصادية فى انجلترا، إنها «أفكار قديمة فى أوعية جديدة»، فما كان يشغل صاحب علم الاقتصاد منذ مائة عام.. هو ما يشغل طلابه والمشتغلين به اليوم... معضلات قديمة بأساليب تحليل جديدة واستعانة بمستحدثات من علوم أخرى تعين على الفهم والتحليل والاستقراء والاستنباط وبعض من التنبؤ.

ولعلك ستسأل كما تساءلت عند الاطلاع على الكتاب المعرب عن حال اللغة وحال تدريس الاقتصاد بها بعد نحو مائة عام من صدور هذا الكتاب، فلا أحسبنى مطلعاً بيسر على كتاب يدرس فى يومنا هذا يقدمه معربه بشيم التواضع رغم جلل العمل الذى قام به، فيكتب كما كتب حافظ ومطران: «جئنا فى تعريبنا هذا بما وسع الجهد وإن كان ضعيفا ويسر العلم وإن كان طفيفاً، ولسنا نقول إننا أتينا بجماع الحكمة، ولا نحن ممن يدعى العصمة ولكنها خطوة خطوناها، على قدر، وأمنية تركنا بقية تحقيقها لمن تولاها بعدنا وقدر».

هذا عن اللغة وحالها.. وأدعى أن جمهرة من التلاميذ فى المراحل النهائية من التعليم المدرسى وطلبة التعليم العالى سيجدون عنتا شديداً فى قراءة هذا الكتاب. أما عن الاقتصاد وتدريسه فنحن بصدد كتاب، طلب وزير المعارف تدريسه معرباً لطلبة العلم فى مصر، فى عهد كانت مصر ترزح فيه تحت نير احتلال مستبد غاصب، يضيق على البلاد سبل التقدم، ومع ذلك لم يتوان رواد النهضة والاستقلال وقتها أن ينشئوا جيلاً يضارع أبناؤه فى تعلمهم وأسس تكوينهم، لمن أتيحت له الفرصة منهم، أقرانهم فى أوروبا، وبلغة مصرهم العربية.

إن ما نعمت به مصر من نهضة تجاوزت بها سائر أقطار الأمة العربية وبلدان القارة الأفريقية يرجع إلى جذور غرست فى حب التعلم، بإعادة إحياء واحد من فروض الدين ومقومات الدنيا على يد طائفة من المتأدبة والمتنورة انطلقوا فى دعوتهم للنهضة على قدرهم منذ القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وهذا ما جعل لمصر الحديثة قدراً فريداً ما زال يعيش الجيل الحالى على ريعه وقبس من فيضه.

ولا يرجع الفضل فيه لأهله من رواد النهضة من مصريين عاشوا فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إلا

فى مناسبات يغلب عليها سمت التأبين، لا استنفار الهمم واستنهاض العزائم ومادمنا فى كنف شاعر النيل فلنستمع إليه مؤنبا ومحذراً وساخراً وناعياً ثم موجهاً إلى سبيل التقدم فى آن واحد وفى أبيات معدودة دافعة إلى النهضة والتقدم.
فيقول:

قَعدتْ شُعوبُ الشَرقِ عَن
كَسْبِ المَحامِدِ والمَفاخِرِ
فَونَتْ وفى شَرعِ التَنا
حُرِ مَن ونى لا شَكَّ خاسِرِ

ويستنفر الجهد زاجراً فيقول:

تَمشى الشُعوبُ لقَصدِها
قُدُماً وشَعبُ النيلِ آخِرِ

ولا يرى القصور إلا فى أنفسنا:

كَم فى الكِنانةِ مِن فَتى
نَدبٍ وكَم فى الشامِ قادِر
لَكِنَّهُم لَم يُرزَقوا
رأياً ولَم يَردوا المَخاطِر

ويسخر من عبث الشباب:

هَذا يَطيرُ مَعَ الخَيا
لِ وذاكَ يَرتَجِلُ النَوادِر

ثم يوجه إلى سبيل النجاح بالتوجيه إلى الكفاح والكدح والمثابرة:

جَهِلوا الحَياةَ وما الحَيا
ةُ لِغَيرِ كَدّاحٍ مُغامِر
يَجتابُ أَجوازَ القِفا
رِ ويَمتَطى مَتنَ الزَواخِر

ثم يوجه كلامه للشباب ولأولى الأمر بقوله وكأنه يحدثنا اليوم لائماً المسوفين والمرجئين للأعمال والمثبطين للهمم:

ما هَدَّ عَزمَ القادِري
نَ بِمِصرَ إلا قَولُ باكِر
كَم ذا نُحيلُ عَلى غَدٍ
وغَدٌ مَصيرُ اليَومِ صائِر

والنتيجة المحتومة لهذا النهج التعيس ينذرنا منها:

خَوَتِ الدِيارُ فَلا اختِرا
عَ ولا اقتِصادَ ولا ذَخائِر

ثم يرجع داعيا إلى الأخذ بأسباب التقدم والانطلاق وبثقة فى المستقبل...

دَع ما يُجَشِّمُها الجُمو
دُ وما يَجُرُّ مِنَ الجَرائِر
فى الاقتِصادِ حَياتُنا
وبَقاؤُنا رَغمَ المُكابِر
تَربو بِهِ فينا المَصا
نِعُ والمَزارِعُ والمَتاجِر

هذا هو شاعر النيل، أحد المعربين «للموجز فى علم الاقتصاد»، حكمته سارية بالفائدة مسرى النيل وخيره لأهله لا ينقطع ولو بعد مائة عام مما يكتب شعراً أو نثراً أو تعريباً..

لقد كان حافظ ومعه مطران من جيل من رواد النهضة المصرية والعربية، استعمل ما يجيده من ألوان الفنون السائدة وقتها من أدب وشعر ونثر وإلقاء وخطابة لاستنهاض العزائم وبث روح الأمل، فى وقت كانت ملمات الاستعمار واستبداده ومشكلات الفقر والمرض جاثمة على الصدور ومهيمنة على عقول العموم من الناس، فكان رواد النهضة وأرباب الفنون والآداب حملة شعلة الأمل التى قادت شعوبها من بعد للتحرر وبعض شرائحها وقطاعاتها للتطور. والظاهر فى يومنا هذا أن بعضاً من المتميزين من أصحاب العلوم التى يظهر عليها الجفاف والحدة فى أساليب التحليل واستخلاص النتائج ومنها علم الاقتصاد وعلم التمويل، أمسوا يتسلحون بالأدب بل وبالشعر ليوضحوا مقاصدهم ويبينوا مراميهم التى تحويها إسهاماتهم العلمية، وتشير الشواهد أن من تبنى هذا النهج يكثر من المطلعين على علمه والمستفيدين من رأيه «فالعلم طريقة قبل أن يكون حقيقة»، كما كان يقول عالم الاقتصاد المصرى الدكتور سعيد النجار.

وفى النهاية تبقى مقولة كينز الشهيرة فى كتابه الصادر عام ١٩٣٦ عن «النظرية العامة للتشغيل وسعر الفائدة والنقود» ومفادها «أن أفكار الاقتصاديين وفلاسفة السياسة، سواء كانت صحيحة أم خاطئة، تظل أكثر عمقا وقوة مما هو مفهوم منها، وأن ما يحكم العالم هو القليل من شىء آخر غير هذه الأفكار». ■

الهوامش

(١) يذكر د. محمد الجوادى فى كتابه «أقطاب الليبرالية»، أن أحمد حشمت باشا المولود فى كفر مصيلحة فى المنوفية (١٨٥٨ - ١٩٢٦)، واحد من أهم وزراء التعليم فى مصر، وقد تعلم فى قريته، ودرس الحقوق فى فرنسا، وتدرج فى مناصب القضاء، ثم أصبح مديراً (محافظًا) لثلاث مديريات وهى: جرجا . سوهاج الآن . أسيوط والدقهلية، ثم أصبح وزيراً للمالية، فوزيراً للأوقاف، ثم وزيراً للخارجية، وذلك فى عدة حكومات توالت فى الحكم مع بعض الانقطاع من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩٢٤، وكان نائباً لرئيس لجنة وضع دستور ١٩٢٣، وكان من أصدقاء الشيخ محمد عبده، وقد أدخل تدريس الكثير من العلوم الحديثة فى مناهج وزارة المعارف، ومنها الاقتصاد والصحة والتدبير المنزلى، وكان نشيطًا فى إحياء الترجمة، وقد أتم ما بدأه الزعيم سعد زغلول من تعميم التدريس باللغة العربية.

(٢) ما بين علامتى التنصيص فى هذا المقال مستقى ومقتبس بتصرف من تمهيد الكتاب وبعض فصوله فى النسخة العربية الصادرة فى عام ١٩١٣.

(٣) يتقدم الكاتب بالشكر للسيد الدكتور/ محمد صابر عرب. رئيس مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية لإتاحته لنسخة من هذا الكتاب للاطلاع.

كتاب الزاوية

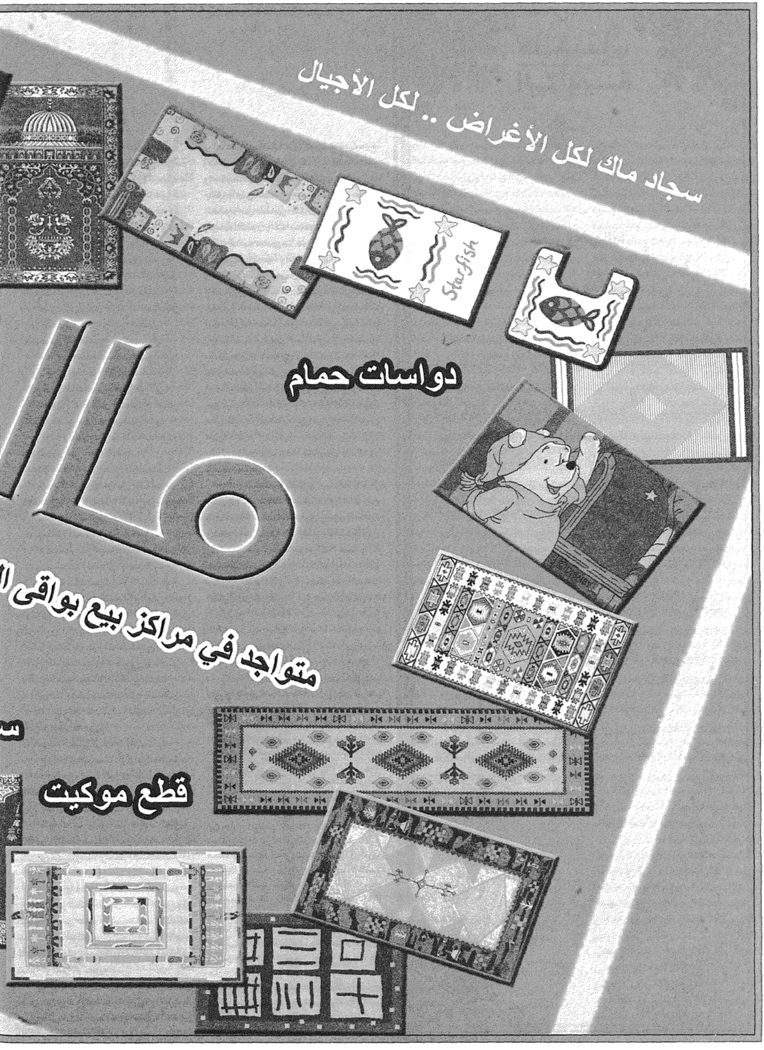
مصر وأفريقيا

حسين مؤنس

وُلدت مصر أفريقية. ومازالت تشعر بأفريقيتها وبالتزاماتها حيال تلك القارة على مدار التاريخ. ولقد اجتذبها البحر الأبيض وأدخلها فى نطاقه الحضارى. وشغلتها آسيا واحتوتها فى نطاقها قرونًا طويلة. ولكن شعب مصر كان - ولايزال - يشعر بأفريقيته حريصًا عليها فخورًا به. ولايزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصدر قوتها وحصنها الذى تركن إليه. وما من شىء تراه قائمًا فى مصر اليوم إلا ولأهل الصعيد فيه الأثر البعيد. فهؤلاء الرجال الأشداء هم الذين حفروا قنوات مصر كلها. وأقاموا بسواعدهم معظم ما ترى من المبانى والمنشآت. وهم قدموا - ومازالوا يقدمون - لهذا البلد أجيالاً من خيرة رجاله الذين قادوا أموره ووجهوا سياسته ورفعوا رأسه فى كل ميدان.

وهذا الفخر بالصعيد وأهله هو فى ذاته فخر بالعنصر الأفريقى فى تكويننا. وهو الدليل الناطق على اتصال شعورنا بأفريقيتنا. ولقد سخر الناس من أحد الخديويين، حينما قال إن مصر قطعة من أوروبا. لأن ذلك الزعم يحرمهم من موضع اعتزاز عميق فى نفوسهم. هو الانتساب إلى تلك القارة المظلومة: أفريقيا.

ولقد فرضت الظروف على مصر أن تكون صاحبة النصيب الأكبر فى جهاد النهوض بشركائها فى هذه القارة. ولقد قامت بواجبها نحو الوطن الأفريقى على طول التاريخ. قامت به من تلقاء نفسها وبفطرتها التى برأها الله عليها.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت


سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com

هل هى حقا قاطرة التنمية

السياحة

تتنافس دول العالم المتقدم منها والنامى على تبنى القطاع السياحى كقطاع «تنموى». وتشير إحصائيات منظمة السياحة العالمية إلى أن القطاع السياحى بالنسبة لـ ٤٩ من دول العالم الأقل نموا هو ثانى القطاعات من حيث الأهمية الاقتصادية بعد النفط. ويساهم القطاع السياحى بحوالى ١٠٪ من إجمالى الناتج المحلى الإجمالى العالمى وفقا لتصريحات المجلس العالمى للسياحة والسفر.

بدأ القطاع السياحى فى الخمسينيات من القرن الماضى كقطاع مميز أتى بالترفيه والراحة والاستجمام بعد سنوات الحروب الطويلة. وتناقضت للكولونيالية والمنفذ لمفاهيم العولمة الأحادية والاتجاه من شمال إلى جنوب ومن غرب إلى شرق.

التحيز للذات السياحية

إن القطاع السياحى أصبح لا مناص منه على خارطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وكمكون أساسى فى برامج الإصلاح الاقتصادى لدول العالم خاصة النامى منها. وقد حرصت الحكومات على إنشاء وزارات خاصة بهذا القطاع والتعامل معه على أنه «قاطرة للتنمية» (على حد قول الحكومة المصرية). وهذا تحتضن ثقافات وحضارات ومتاحف، إلا أن ما يخفى على الكثيرين أن السياحة الثقافية، أى السياح الذين يرغبون فى مشاهدة تلك المعالم بصفة خاصة، لا يزيدون، وفقا لإحصائيات منظمة السياحة العالمية، على ١٠٪ من إجمالى حركة السياحة العالمية. فى حين يتحرك مئات الملايين من السياح بحثا عن الشمس والرمل والبحر والجنس أو ما يعرف بالـ Sun, Sand, Sea and Sex. 4Ss.

من ثم يمكن اعتبار الغالبية العظمى من السياح نموذجا لمظهر آخر من مظاهر التحيز وهى حالة من التحيز للذة المطلقة وللاستهلاك. فتبدلت كينونة من شأنه العمل على إيجاد دوافع اقتصادية لتشييد البنية التحتية التى تخدم المواطن والسائح على حد سواء، الأمر الذى يساهم بصورة مباشرة فى تحقيق التنمية الإقليمية وخلق مراكز عمرانية جديدة ومتكاملة تساعد على استقرار المجتمعات من خلال توفير فرص عمل وتقليل عملية نزوح المجتمعات للمدن التى تعد من أهم أسباب الفقر فى العالم. إن القطاع السياحى من القطاعات الخدمية التى مازالت تعتمد بصورة كبيرة على العنصر البشرى وبالتالى فهذا القطاع يتميز أكثر من غيره بقدرته على توفير فرص العمل. وتدل إحصائيات المجلس العالمى للسفر بنيته الفوقية من فنادق ومنتجعات ومرافق ترفيهية مع قطاعات الزراعة والتعدين والصناعة، فتبنته الدول الغربية وعلى رأسها إسبانيا وأطلقوا عليه «صناعة بلا دخان». وأشاد هؤلاء الساسة والاقتصاديون بهذه الصناعة التى تولد فرصا لا محدودة للعمل وقدرة «فريدة» على تحريك السلام بين الشعوب والقضاء على الفقر، هذا على الصعيد الاجتماعى. وعلى الصعيد الاقتصادى نُظر للسياحة على أنها السبيل لتنويع مصادر الدخل وإيجاد فرص العمل ودعم ميزان المدفوعات. وأضحى هذا القطاع منذ ذلك العام أحد القطاعات الاقتصادية التى حققت نموا مطردا منذعام ١٩٥٠ فيما عدا عام ٢٠٠١ نتيجة لأحداث الحادى عشر من سبتمبر.

فى عام ٢٠٠٦ تنقل حول العالم أكثر من ٨٤٣ مليون سائح أنفقوا قرابة ٧٣٥ بليون دولار أمريكى (وفقا لإحصائيات منظمة السياحة العالمية)، يتنقل ٧٥٪ من هؤلاء السياح داخل حدود المنطقة الجغرافية الواحدة فيما يعرف بحركة السياحة الإقليمية. وباقى النفقات السياحية تسير على خط سير الحركات الاستعمارية من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق «بحثا عن المعنى والقيمة والفردوس المفقود فى المناطق التى تتسم بالأصالة». فتأتى ألمانيا وبريطانيا على رأس الدول التى تصدر السياح إلى المناطق التى تسجل حاليا أعلى معدلات للنمو وهى أفريقيا والشرق الأوسط وآسيا والباسيفيك. ولذا فإن المدقق فى القطاع السياحى لا يمكن إلا أن يلحظ ثمة تشابهًا بين السياحة من جهة والكولونيالية والعولمة من جهة أخرى، وكأن السياحة هى الوجه الآخر الاهتمام الكبير بقطاع كالقطاع السياحى عادة ما يكون على حساب قطاعات اقتصادية أخرى. والقطاع السياحى على الرغم من مزاياه العديدة يعتبر قطاعا هشا شديد التقلب، ليس فقط بسبب أحداث عالمية جسيمة كارتفاع أسعار الوقود والإرهاب ولكنه يتأثر بتغيرات أذواق السياح والعلاقات التى تربط شركات السياحة بعضها ببعض. وربما يكون السبب فى الإقبال الشديد على السياحة هو ما يوفره القطاع السياحى من واجهات خرسانية مزينة بالماء والخضرة وبمرافق تعطى مؤشرا قد يفسر من قبل المعنيين على أنه شكل من أشكال النمو والتطور. إن القطاع السياحى قد يبدو وكأنه بمثابة مفاعل للنمو يعجل ببعض المظاهر التى ترتبط بالنمو، ولكنه فى واقع الأمر لا يمثل تنمية إقليمية اجتماعية واقتصادية حقيقية. ومما لاشك فيه أن المزايا الاقتصادية للقطاع السياحى وعلى رأسها قدرة القطاع على توليد فرص العمل لايمكن التشكيك فيها، إلا أن التحيز المفرط من قبل الحكومات لهذا القطاع أضحى بالفعل ظاهرة تسترعى التوقف.

إن نجاح المقاصد السياحية فى القطاع السياحى يرتبط ارتباطا وثيقا بقدرتها على كسب أعداد كبيرة من السياح من الدول المصدرة للسياح، ولكنه تنافس من خلال منتج متشابه. فعلى الرغم من أن الدول تفتخر بكونها السفر والترحال من كونها حركة تهدف إلى اكتشاف الآخر إلى كونها وسيلة لإمتاع الذات خارج أى إطار أخلاقى أو ثقافى أو حضارى، ولو على حساب الآخر.

مما تتقدم نرى أن القطاع السياحى بشركائه المختلفين من حكومات تتبنى القطاع السياحى بقصد التنمية وتنحاز له على حساب قطاعات أخرى، بل على حساب نسيج المجتمع وعلى حساب منظومات قيمية. ولذا فإن انحياز الحكومات للقطاع السياحى هو حالة من حالات التحيز ضد الذات يطبقها فى الواقع العملى المستثمرون وشركات متعددة الجنسيات. وعلى الجانب الآخر من منظومة السياحة نجد حالة متفاقمة من التحيز لإمتاع الذات يتبناها السائح وتيسرها له الحكومات وقطاع السياحة ككل.

التحيز ضد الذات المحلية

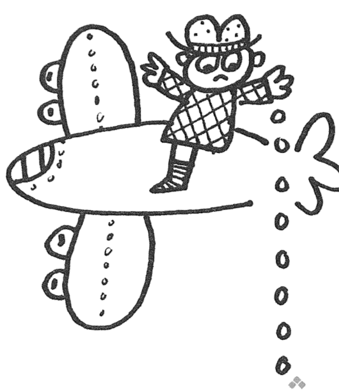
إن القطاع السياحى كقطاع يمكن أن يساهم بشكل ملحوظ فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية، أمر لا يمكن التقليل من شأنه وذلك إذا نظرنا إلى الأطروحات التى تناولت دور السياحة فى التنمية من حيث إنها تساهم فى القضاء على الفقر وتحقيق استقرار المجتمعات. فمعظم مواقع الجذب السياحى توجد فى مناطق غير حضرية، واختيار مثل تلك المواقع لمشروعات التنمية السياحية والسياحة على أن قرابة ٧٪ من الأيدى العاملة فى العالم تعمل فى القطاع السياحى، هذا بالإضافة إلى أن كل فرصة عمل مباشرة فى القطاع السياحى توفر حوالى ٣ فرص عمل فى قطاعات أخرى تدعم هذا القطاع مثل النقل والتشييد والترفيه وصناعات الأغذية والمشروبات وغيرها. ومن ناحية أخرى تجد دول العالم النامية فى القطاع السياحى فرصة لا تضاهى من ناحية التنافس فى مجال التجارة الدولية خاصة ومع تضاؤل قدراتها على التنافس فى المنتجات الصناعية. وتشير إحصائيات منظمة السياحة العالمية لعام ٢٠٠٦ إلى أن السياحة تمثل الآن أكثر من ٣٥٪ من إجمالى الصادرات الخدمية لدول العالم النامية.

على هذا فإن المبررات الاقتصادية لتبنى هذا القطاع جلية ولا يمكن إنكارها. ولكن الأمر الذى يستوجب التوقف عنده هو الدور الحقيقى الذى يلعبه هذا القطاع فى تحقيق التنمية الاجتماعية التى ينشدها المجتمع المستهدف من عملية التنمية والرواج الاقتصادى فى المقام الأول. ولعل أحداث العنف الموجه للقطاع السياحى فى عدد كبير من الدول النامية التى تبنت هذا القطاع تدعونا لتأمل دور القطاع السياحى فى التنمية. إن تمسك الحكومات، ومنها مصر على سبيل المثال، بالقطاع السياحى كقطاع أساسى يقطر التنمية، كما يتصور البعض، وتغافلها الشديد عن النظر فى آثار هذا القطاع وفى تحليل ظاهرة العنف الموجه للسياحة هو مثال واضح لحالة التحيز ضد الذات المحلية.

إن حالات التحيز الحكومى للسياح

هبة الله مصطفى عبد العزيز

و..البشـــــــــــر!!



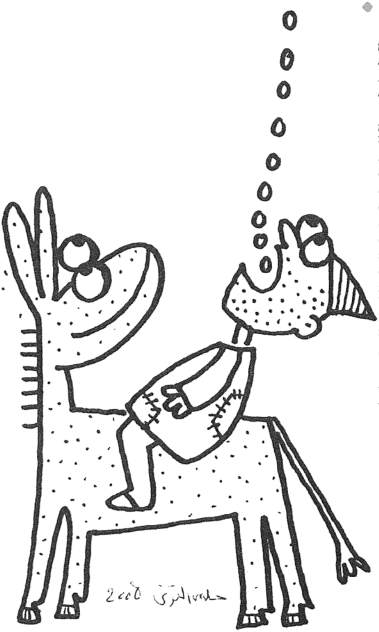
وللقطاع السياحى بدأت منذ فترة طويلة حتى على مستوى المفاهيم، فأصبح المصطلح «سياحى» مرادفا للتميز. فعبارات مثل «القطار السياحى» و«الخبز السياحى» تعنى فى واقع الأمر «القطار المتميز» و«الخبز المتميز» (وهناك بطبيعة الحال «الأسعار السياحية» والتى تعنى «الأسعار المتميزة» بمعنى «المرتفعة»، وهى الأسعار التى تستبعد عامة الشعب). ولعل أحد تجليات حالة التحيز ضد الذات بدا واضحاً عندما أغلقت الجهات الأمنية فى مصر الشارع المقابل للمتحف المصرى فى فترة سابقة بزعم توفير الأمن والحماية للسياح. وكان على المصريين عبور ميدان التحرير من خلال مسيرة طويلة. ويلاحظ أن التحيز للقطاع السياحى على حساب الذات المحلية يعنى أن احتمال أن يكون المواطن المصرى هو نفسه زائرا للمتحف المصرى على سبيل المثال، احتمال غير وارد.

إن جاذبية القطاع السياحى كقطاع تنموى، لحكومات الدول النامية، مقارنة بغيره من القطاعات الأخرى، تتمثل فى كون بنيته التحتية الأساسية متوفرة بصورة تلقائية من شواطئ وآثار وصحارى وحيوانات وطيور، ومن ثم فإن حجم الاستثمار الحكومى المطلوب محدود إلى حد ما. فمستثمرو القطاع الخاص يقبلون حاليا على الاستثمار فى القطاع السياحى، والحكومات المختلفة تتبارى فى تقديم حزم استثمارية مغرية للقطاع الخاص، منها تقديم أسعار رمزية لاستئجار أو بيع الأراضى السياحية وغيرها من الإعفاءات الضريبية والجمركية. ونلاحظ أن معظم حزم حوافز الاستثمار السياحى لا ترتبط بأى قيود اجتماعية مثل ظاهرة تهجير المجتمعات على سبيل المثال. وتشير المنظمات غير الحكومية إلى أن القطاع السياحى هو القطاع الثالث المسئول عن التهجير بعد قطاعى المياه والمواصلات. إلا أن وجه الاختلاف بين هذين القطاعين والقطاع السياحى هو أن القطاع السياحى يستبدل مجتمعات مستقرة تعمل فى نشاط اقتصادى معين سواء كان رعياً أو زراعة أو صيداً بمجتمع آخر أغنى اقتصادياً منخرط فى قطاع اقتصادى آخر هو السياحة. فمشروعات القطاع العقارى المختلفة والموجودة فى مختلف المقاصد السياحية غالبا ما تؤسس على حساب مجتمعات أخرى. وهذه حالة أخرى من حالات التحيز ضد قطاعات اقتصادية أخرى ضد الذات المحلية.

ويلاحظ عدم وجود أى قيود على المشروعات السياحية من ناحية اختيار المواقع والتعامل مع القرى السكنية التى تصادف وجودها فى مواقع المشروع. كما تسعى الحكومات فى سبيل تخفيض حجم الإنفاق الحكومى إلى تشجيع المستثمرين على توفير البنية التحتية لمشروعاتهم مثل رصف الطرق وتوفير المياه والكهرباء. ومن ثم فإن استفادة المجتمعات الموجودة بالقرب من هذه المشروعات، إن تمكنت من الاحتفاظ بمواقعها الأصلية ولم يتم تهجير سكانها، محدودة حيث إن المستثمر الذى يتولى عملية إمدادات طرق وتوفير مياه عادة ما يلتزم بحدود المشروع ولا يجد دافعا لتوفير البنى التحتية لتلك القرى. ويعتبر القطاع السياحى الآن ضمن ثالث قطاع مسئول عن تهجير السكان الأصليين بعد مشروعات المياه والمواصلات. وفى الماضى كانت عمليات التهجير تتم لإتاحة المجال لمشروعات بنية تحتية إلا أن عمليات التهجير تتم الآن لاستبدال مجتمعات مستقرة منتجة بمجتمعات ترانزيت تطفو على سطح المجتمعات. فيستبدل العمران بالعمارات والعقارات. ومثل هذا التوجه من قبل الدول التى تسعى إلى أن تجعل من نفسها مقاصد سياحية وهو توجه ينطوى على أشكال عدة من التحيز فكيف يمكن أن يكون الهدف هو تنمية المجتمع فى حين أن نتاج مثل هذا التوجه هو إلحاق ضرر واضح بمثل هذه المجتمعات. ولعل حالة جزيرة الأورصة التى يتعرض سكانها للتهجير الآن هى مثال واضح على ذلك.

وبدلا من كون السياحة أداة للتنمية نجد أنها فى كثير من الأحيان تضحى وسيلة لتعميق الفجوة الآخذة فى الاتساع بين الأثرياء والفقراء، وأصبحت هناك حالة ترصد من أجل إبقاء تلك الفجوة وكأنها أحد مكونات الجذب السياحى التى يبحث عنها السائح من جانب، وتسعى الحكومات سواء بقصد أو بغير قصد لتوفيرها من جانب آخر. فنجد أن هناك حالة لمتحفة المجتمعات (أى تحويلها إلى متاحف) وتسليع ثقافتها.

إن نمط التنمية الشريطى (أى على الشريط الساحلى) من المظاهر التى تسترعى الانتباه، فالتنمية الشريطية التى حدثت فى



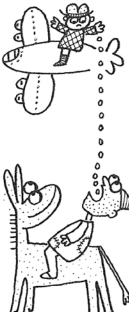
سيناء وفى الساحل الشمالى وعلى ساحل إسبانيا وغيرها كان من شأنها عزل السياحة كقطاع عن المجتمع المحيط بها وخصخصة الكثير من الشواطئ وتغيير البنية الاقتصادية للكثير من المجتمعات التى كانت تعتمد على الصيد مثلا كنشاط رئيس. ونتاج مثل هذا التوجه التنموى فى جنوب سيناء واضح، فبدلا من أن تأتى السياحة كنشاط اقتصادى ينتمى إلى النظام الرأسمالى بما يفترض أنه مرادفات لهذا النظام من حرية تملك وتحرير للمرأة وغيرها، نجد، على سبيل المثال، أن أوضاع المرأة البدوية بعد دخول القطاع السياحى قد تدهورت، فالتنمية الشاطئية بكتلها الخرسانية هى فى واقع الأمر «جيتوات» يصعب على المرأة اختراقها، فى الوقت الذى كانت فى يوم من الأيام تضطلع بالمهام الاقتصادية فى إطار النظام البدوى، وبالتالى انفصلت المرأة تماما عن جوهر النشاط الاقتصادى وانعزلت داخل «البر» الذى أضحى بمثابة عالم آخر بعيد اجتماعيا وثقافيا عن عالم «الشط».

ومظاهر تحيز المنظومة السياحية ضد الخلفية الطبيعية (اللاندسكيب) أمر جدير بالتحليل، إذ يلاحظ أن المخططات العامة للمنتجعات السياحية فى الدول النامية والمتقدمة، على حد سواء، تتشابه إلى حد أنه من الصعب التعرف على موقع أى من هذه المنتجعات على الخريطة. إن التحولات التى حدثت فى فلسفة الترحال تحولات مست الجوهر والمفهوم. وأصبح من الواجب على الدول التى تريد أن تجعل من القطاع السياحى قطاعا أساسيا فى نشاطها الاقتصادى، وتريد أن تجذب أعدادا أكبر من السياح، أن تقوم بعملية معقدة لإعادة تشكيل منتجعهم السياحى (بينتهم الثقافية والاجتماعية) بما يتناسب مع متطلبات السائح. وبما أن أكثر من ٨٥٪ من السياح يأتون من أوروبا الشمالية والغربية بهدف البحث عن الاسترخاء والترفيه ومتطلباتهم متشابهة بدرجة كبيرة، فقد أدى هذا إلى تشابه المنتج - حمامات سباحة - ملاعب جولف - شواطئ - موانئ لليخوت. وفى دراسة أجرتها منظمة اعتبارات سياحية غير الحكومية إن الكتيبات السياحية التى تصدرها الشركات السياحية تستخدم نفس الصور للدلالة عن منتجعات سياحية فى بلدان مختلفة. وبالتالى فالسفر والترحال كاد أن يكون الآن عديم الصلة بالمكان.

والتحيز للاندسكيب الذى تتطلبه تلك المقاصد، تلبية لرغبة السياح، من مياه وخضرة، وعلى الرغم من التكلفة المالية والبيئية الباهظة بصفة خاصة فى الدول الصحراوية إنما هو تأكيد لمفهوم التحيز ضد الذات. فارتباط السياحة بالخضرة والابتعاد تماما عن اللاندسكيب الصحراوى والتمسك بمكونات ثقافة الآخر، أمر واضح فى تصميم وبناء المجمعات السياحية المختلفة.

وعلاقة القطاع السياحى بالمياه فى الكثير من الدول أدت إلى مشاكل عديدة للسكان المحليين من حيث كميات المياه المتوفرة لهم. فاستخدام المياه الجوفية بكثرة يؤدى إلى اختلال كمياتها وإلى زيادة نسبة الملوحة فيها وتلوثها بسبب النشع الذى ينتج عن محطات تجميع النفايات. وتشير تقارير منظمة الغذاء والزراعة التابعة للأمم المتحدة إلى أن استهلاك السائح فى أحد الفنادق الفاخرة يصل يوميا إلى قرابة ٢٧٢٠ لترا من المياه فى حين أن متوسط استهلاك الفرد فى الدول النامية يصل تقريبا إلى ١٥ لترا من المياه يوميا. وأشارت نفس المنظمة إلى أن ١٥٠ ألف لتر من المياه تكفى لزراعة هكتار من الأرز عالى الجودة لمدة ثلاث سنوات، وتكفى كذلك للوفاء بمتطلبات أسرة ريفية خلال نفس الفترة، كما تكفى لإمداد ١٠٠ سائح فى أحد الفنادق الفاخرة لمدة ٥٥ يوما. فالاستخدام الشخصى للسائح يوميا يزيد بأكثر من الثلث من استخدام المواطن المحلى فى أى مقصد سياحى. يشير تقرير منظمة الأمم المتحدة للبيئة بأن مساحة ملاعب الجولف، التى تتراوح ما بين ٥٠ إلى ١٥٠ هكتارا، يتطلب ريها حوالى مليون متر مكعب من المياه (نفس كمية المياه التى تستهلكها مدينة يصل تعدادها ١٢٠٠٠ مواطن).

القطاع السياحى يبدو وكأنه بمثابة مفاعل للنمو لكنه فى واقع الأمر لا يمثل تنمية حقيقية



إن الأمثلة على تلك الحالات من التحيز ضد الذات والتحيز للقطاع السياحى عديدة، فمن جانب نجد أن صعيد مصر الذى يسكنه ٣٧٪ من السكان، يعيش أكثر من ٦٥٪ منهم تحت خط الفقر على الرغم من كون صعيد مصر يضم أخصب تربة فى مصر، وعلى الرغم من أنه أنشئت فيه أكبر المصانع لتعظيم الاستفادة من القطاع الزراعى، وعلى الرغم من أنه يضم أهم عناصر الجذب للقطاع السياحى. ومن جانب آخر نجد أن مدينة شرم الشيخ التى لا تمتلك مكونات المدينة سواء من ناحية تواجد مجتمع مدنى أو مظاهر للعمران، يتم التعامل معها الآن وكأنها مقر للحكم، فتقام فيها الصلوات وتستقبل فيها الوفود. كل هذا ما هو إلا دليل على وجود حالة من التحيز لما يوفره القطاع السياحى من بنية ولاندسكيب اجتماعى وعمرانى يعتبر هو المفضل من قبل أولى الأمر. والتبرير الذى يساق أحيانا هو أن توفير الأمن أسهل فى مدينة مثل شرم الشيخ. ولكن هذا التناقض الاجتماعى والجيوبولوتيكى إنما هو استمرار لمفردات حالة التحيز ضد الذات المحلية التى تنتهجها الحكومة.

الحج العلمانى

يعيش قطاع السياحة الجماهيرية حالة دائمة من التحيز للذة والاستهلاك كسبيله الوحيد للتوصل إلى معنى الحياة، بل وإعادة اكتشاف الذات وصياغتها. ولذا يتحدث جماهير السياح عن تغيير حياتهم بعد الإجازة، ولذا يمكن أن تعتبر السياحة بمثابة حالة من الحج العلمانى.

فبعد انحسار دور الدين فى الغرب وتخلى الكثيرين عن القيام بالحج كإحدى الشعائر الدينية التى تفصل ما بين المقدس والمدنس كأحد الطقوس الحياتية الفاصلة فى الحياة أو كما يعرف فى الأنثروبولجى بـ Rite de Passage، حلت السياحة محل الحج فى حياة الكثيرين. فالمصطلحات الرئيسية المستخدمة فى عالم السياحة تشبه تلك المستخدمة فى الحج. وخذ على سبيل المثال مصطلح الإجازةHolidays فترجمتها الحرفية هى «الأيام المقدسة» لأن الذهاب للحج كان هو المبرر الوحيد للقيام بالإجازة. والمصطلح الآخر المستخدم أيضا «الترويح» Re-creation الذى يعنى حرفيا «إعادة الخلق»، أى إعادة خلق الذات.

وارتباط حركة السفر والسياحة فى شكلها الحالى بالمقدس وبالسفر إلى المركز Center فى محاولة لإعادة الخلق تشبه إلى حد كبير ظاهرة الحج. ومفردات تلك الظواهر تكاد تكون متشابهة من ناحية التجرد من الثياب الدنيوية إلى حد ما وتواجد المياه ومرحلة Liminality اللاحدودية حيث تسقط الحدود ويتصرف الفرد وفقا لنسق قيمى وقتى ومحدود. إن أوضح مثال على هذا هو تصرف مرتادى شواطئ العراة على سبيل المثال، حيث يضحى النمط القيمى المنظم لتصرفات تلك المجموعات يملى عليهم أن يكونوا عراة على الشاطئ، ويصبح ارتداء الملابس العادية أو حتى لباس البحر أمراً غير مقبول تماما. وحدود هذا المكان تكاد تكون حدوداً وهمية تفصل الشاطئ عن الرصيف المجاور له. ونلاحظ كيف يرتدى المرتاد لأماكن العراة ملابسه كاملة ليشترى قطعة من الآيس كريم يفصله عنها أمتار معدودة إلا أنها خارج إطار هذا الحد. فهو حين يخرج من حدود مكانه المقدس، فهو يخلع ملابس الإحرام (عريه) ويرتدى ملابسه العادية، وترتبط فكرة الحدود والمركز والمقدس مع ظواهر عدة تحيط بنا مثل الموالد على سبيل المثال.

إن الأصل فى الترحال هو السفر والتنقل من أجل التعرف على ثقافات الآخر، من أجل اكتشاف أماكن وثقافات تعمل على إثراء الفرد. ويرتبط تاريخ حركة السفر والسياحة بما يعرف بالرحلة الكبرى - الـGrand Tour والتى بدأت فى القرن السادس عشر وكانت عبارة عن رحلة يقوم بها ارستقراطيو أوروبا من المفكرين والشباب، وخاصة من بريطانيا، إلى إيطاليا واليونان للتعرف على الثقافات والفنون وللحصول على العلم. وكان مرتادو الرحلة الكبرى هم أول من أطلق عليهم مصطلح «سائح». وكما كان السفر من أجل الحج من أهم مبررات حركة السفر خلال تلك الفترة.

فى الوقت الحالى نجد أن دوافع السفر أصبحت ذاتية وكلها مرتبطة بفكرة الهروب من الحدود سواء كانت تلك الحدود حدوداً طبيعية أو حدوداً أخلاقية واجتماعية - وليس لها أى علاقة بالمجتمع المضيف أو بدولة المقصد. فآليات اختيار المقصد السياحى التى

غالبا ما تتم من خلال الكتيبات السياحية التى تصدرها شركات السياحة المنظمة للرحلات والتى تنطوى على صور تعبر عن وجود السائح فى المكان وفى أوضاع معينة تعطى انطباعا عن حالات نفسية معينة معظمها مرتبط بالاسترخاء أو بالعلاقات الجنسية والعاطفية وغيرها. وإذا ما تأملنا نوعية الصور المتضمنة سواء فى تلك الكتيبات أو على الإنترنت لا تضم أى إشارة إلى السكان المحليين (إلا باعتبارهم جرسونات أو راقصات أو «شيئا» فلكلوريا تعاد صياغته وتعليبه حتى يصبح مصدرا لمتعة السائح ولذته).

ولقد تجلت حالة التحيز للذات السياحية فى تحول جموع السياح فى حد ذاتهم إلى أحد أشكال المجتمعات المؤقتة، فقد لاحظ الأهالى المحليون فى مدينة دهب أن السياح يرتدون أشكالا معينة من الأساور والقلادات المصنوعة من الخيوط والتى يقوم السياح بشرائها من كل مقصد سياحى يزورونه. فبدأت فتيات القرية يغزلن مثل تلك الأساور ويبعنها للسياح فى شكل تذكارات سياحية Souvenirs تمثل مبيعاتها المصدر الرئيس لدخل الأسرة فى مدينة دهب. ومن ثم نجد أن التذكارات السياحية التى كان من المفروض أن تعبر عن المكان والثقافة التى يزورها السائح تصبح تذكارات ترمز إلى تلك الحالة من الثقافة المؤقتة التى يبتدعها ويعيشها السائح أثناء ترحاله.

ومن أهم مظاهر التحيز للذات السياحية على حساب الذات المحلية ارتباط القطاع السياحى بالاستغلال الجنسى للأطفال. فقد ذكر تقرير صدر مؤخرا عن منظمة اليونيسف (ديسمبر ٢٠٠٦) أن هناك أكثر من ١٥٠٠ طفل على السواحل الكينية متورطون فى علاقات جنسية بصورة يومية مع السياح، كما أن هناك أكثر من ١٥٠٠٠ فتاة متورطة أيضا بشكل روتينى فى سياحة الجنس. هذا ويشير التقرير إلى أن هؤلاء الأطفال يضطرون إلى إقامة علاقات جنسية مع العاملين فى الفنادق حتى يسمحوا لهم بالدخول إلى الفنادق لمزاولة «عملهم». ونجد أن جنسيات مثل الألمان والإيطاليين والسويسريين يسعون بشكل حثيث لإقامة علاقات جنسية مع أطفال أو مع فتيات تحت السن القانونية، وهذا فضلا عن الكينيين أنفسهم. والمثير للغرابة أن حوالى ٧٥٪ ممن تضمنتهم الدراسة لم يسجلوا أى اعتراض على فكرة انخراط الأطفال فى الجنس. ولا تقتصر مثل تلك الحالات على كينيا ولكن تعانى منطقة جنوب شرق آسيا مثل سريلانكا وتايلاند من نفس تلك الظواهر. ومازالت منظمات مثل إيكبات ECPAT التى تناهض هذا الاستغلال تسعى لكى تتم محاكمة السياح المتورطين فى عمليات الاستغلال الجنسى عند العودة إلى بلدانهم. ولعل هذا استطراد لمفهوم الحدود حيث يرتبط النسق القيمى بالحيز الذى تحده مثل تلك الحدود - فما هو مقبول على الشاطئ لا يقبل فى الداخل، وما هو غير مقبول فى الوطن يعتبر مقبولا فى المقصد السياحى. وتبرير مثل هذه الأوضاع إنما هو تأكيد لفكرة التحيز للذات وللذة وللاستهلاك. فاللذة التى يشعر بها بعض السياح من جراء الاستغلال الجنسى للأطفال مشروعة لأنها نفعية وتتم وفقا لقوانين استهلاكية، شخص لديه سلعة وآخر لديه مادة يمكن توظيفها لشراء هذه السلعة فى حالة غياب أى قوانين منظمة لعملية التبادل التجارى هذه.

ولا تقتصر عملية التسلع على العلاقات الجنسية، فهناك أيضا شيوع ظاهرة التسلع الثقافى. ففى القطاع السياحى كل شىء للبيع من ابتسامة النادل (بغض النظر عن أصالتها) إلى بعض قطع من حائط سور برلين التى يشتريها السياح الآن ليزينوا بها غرف المعيشة. وتجارب الموت والزفاف والميلاد كلها يمكن أن يعاد تمثيلها فى المكان والموعد المناسب للمجموعات السياحية.

هناك أشكال مختلفة من التحيز التى تلعب بوضوح فى محيط القطاع السياحى، تحيز من جانب السياح للذة والاستهلاك تفقد معه المجتمعات ثقافتها وتعرض كل شىء للبيع. وتحيز من جانب الحكومات للقطاع الذى يضفى صبغة الحداثة على المدن والقرى وتعمل على استبدال القرى بمشاكلها المختلفة ومجتمعاتها بقرى سياحية ومجتمعات أخرى مؤقتة تنبهر بالفجوة الثقافية والحضارية، وتلتقط الصور للفلاحة التى تسير أميالاً من أجل جرة مياه.

ولكن لا ينبغى أن يفهم من هذا الطرح أن القطاع السياحى لا يقدم شيئا للمجتمعات التى يعمل من خلالها، فعلى المستوى البرجماتى ما يوفره هذا القطاع من فرص عمل بحكم كونه يعتمد على الأيدى العاملة بصورة أكبر من أى قطاع آخر، يعتبر مساهمة فعالة فى تحسين مستوى معيشة الأفراد وفى المساهمة بصورة إيجابية فى التعامل مع بعض المشاكل المزمنة فى اقتصاديات الدول النامية. ولكن يجب أن ندرك حسابات المكسب والخسارة، وهل ما تجنيه دولة ما من قطاع السياحة يفوق ما تخسره بسببه؟ ■

كتاب الزاوية

مصر والبحر الأبيض

حسين مؤنس

خطر ببالى أن هذا السؤال قد يثير فى ذهن القارئ سؤالاً أساسيًا فى دراستنا هذه: أنحن من الشرق أم من الغرب؟

إن المفهوم الشائع أننا من الشرق، بل إننا درجنا فى السنوات الأخيرة على أن نعتبر ذلك جزءًا من كياننا الذى يقرر مصائرنا، ورسمنا جانبًا كبيرًا من سياستنا على ذلك الأساس، واعتبرنا أنفسنا ممثلين للشرق، فإذا قيل: الشرق، صغت آذاننا وقلوبنا.

والواقع أن ذلك الوضع فى الشرق ليس «طبيعيًا» بالدرجة التى نتصور. ولم يكن هو وضعنا دائمًا على مدار التاريخ.

وحضارتنا ـ إلى ما قبل الفتح العربى ـ لم تكن شرقية، واتجاهنا ـ من مطالع العصر الحديث ـ ليس اتجاهًا شرقيًا خالصًا.

ونحب الآن أن نمضى مع حضارة مصر الأصيلة، حضارتها قبل الرومان واليونان، لنرى أين تضعها هذه الحضارة، وإلى أى الجانبين تميل بها. إذا أنت تأملت آثار مصر القديمة لاحظت أنها تبعد فى روحها ودلالتها عن المتعارف عليه من طبائع الشرق القديم المعروف.

فإن مجتمع الشرق قام على أساس إبعاد المرأة عن الحياة العامة، واعتبارها جزءًا من البيت لا جزءًا من الحياة، وقام على أساس السماح للرجل بالاستكثار من النساء كما يستكثر الناس من المتاع. وفى مصر القديمة لم يفعل هذا إلا كبار الأغنياء، وهم يفعلونه فى كل مكان وزمان.



بين الإسلام والنسبية

سؤال الإنسانية!

أحمد عبد المجيد

■■ يمكن فهم مقولات عدد كبير من باكورة مفكرى الحداثة وعلى رأسهم سبينوزا وتوماس هوبز. فكل من سبينوزا فى Theological Political Treatise وهوبز فى Leviathan تحدثا عن أهمية تقليص الدين فى المجال الخاص بكل فرد وعدم تعميمه فى الحياة العامة لسبب رئيسى ألا وهو أن الإيمان بالدين أياً كان يستند فى الأصل إلى الإيمان بمعجزة متجاوزة للتاريخ. ومن ثم فلا يستطيع الدين أن يؤسس لنظرية معرفية وميتافيزيقية يمكن على أساسها قيام نظرية لحل إشكالية المعنى سواءً فى إطار العلوم الاجتماعية أو الطبيعية. إذاً فالإشكال الأساسى الذى تواجهه الحداثة مع الدين ينبع من ارتباطه بلحظة محددة تتدخل فيها معجزة متجاوزة (transcendent) للتاريخ، والتاريخ - حسب تصور كاتب هذا المقال وغيره من الباحثين- الواقع الكامن (immanent) للإنسان ببعديه الزمانى والمكان، فالمعجزة المتجاوزة للتاريخ تُحدث نوعاً من الاضطراب فى نسق هذا الواقع الكامن. بناء على هذا الاضطراب (أو الخرق لكمون الواقع التاريخى) يؤمن الناس بالوحى أو بكلمة الله كما أنزلت فى اللحظة التاريخية التى حدث فيها هذا الاضطراب نتيجة لتأثرهم بهذه المعجزة. وعلى هذا لا يمكن أن يؤسس هذا الإيمان لتصور شامل عن الحياة فى المجال العام، كما لا يمكن أن يؤسس لنظرية معرفية تنبنى عليها نظرية متكاملة فى المعنى والدلالة. إذاً فإشكالية الحداثة مع الدين كإطار مرجعى تكمن فى بعدين: أولهما البعد التاريخى وثانيهما البعد المتصل بإشكالية المعنى والدلالة أى البعد الهرمنوطيقى أو التأويلى.

فى ضوء ما تقدم سيحاول هذا المقال أن يوضح ثلاثة عناصر: أولاً: أن البعد الانثربولوجى أو سؤال ما هو الإنسان، ومن ثم ماهية إنسانية هذا الإنسان هو المفتاح الأساسى لحل هذه الإشكالية. ثانياً: أن سؤال الإنسانية مرتبط فى الإطار الدينى بسؤال النبوة وماهيتها ارتباطاً جذرياً. ثالثاً: أن طبيعة الإسلام كدين ومعجزته اللغوية المتمثلة فى القرآن وطبيعة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، إذا، فهمت على مستوى عميق، قادرة على تجاوز الإشكالية التى سبق الإشارة إليها.

الوجود الإنسانى أو بشكل أدق إنسانية الإنسان دائماً تتجلى فى مساحة الربط بين الجانب السببى الحتمى من العالم والمتمثل فى الطبيعة وقوانينها السببية من جهة. ومن جهة أخرى قدرة العقل والفكر الإنسانى على تجاوز هذه الحتمية

البعد الانثربولوجى فى المعرفة والوجود فى تاريخ الفلسفة

بغض النظر عن موقع ومركز الإنسان فى أية فلسفة قديمة كانت أو حديثة فإن فهم وتصور الإنسانية دائماً ما يلعب الدور الأساسى فى تكوين المناظير المختلفة لهذا النظام الفلسفى فى مختلف القضايا الأساسية التى يتعامل معها. لنأخذ الفلسفة الأرسطية كمثال. أى قارئ مدقق لكتاب اللام (لامدا) فى الميتافيزيقا لأرسطو - والذى كان ابن رشد على حق فى اعتباره نهاية وخلاصة إلهيات أرسطو فى تعليقاته على كتاب اللام فى شروحه الكبرى على ما بعد الطبيعة - يلاحظ على الفور أن وصف أرسطو لله بأنه المحرك غير المتحرك، وبأنه عقل ومعقول فى ذات الوقت، إنما جاء لأن هذه هى أفضل صورة يمكن تخيلها عن الذات المطلقة لأنها أقصى ما يمكن تخيله، بالنسبة لأرسطو، عن ماهية المطلق بناء على تصوره عن ماهية أرفع وأنبل الموجودات ألا وهو الإنسان. وبالرغم من اختلاف التصور عن الإنسان والإنسانية من خلال التحول من سؤال الماهية فى الفلسفة الأرسطية والاسكولاستسية إلى سؤال الذات ودورها فى التجربة مع بداية الفلسفة الحديثة عند ديكارت، إلا أن سؤال الذات-ومن ثم سؤال الإنسانية-ظل هو السؤال المحورى فى هذه المشاريع الفلسفية بشكل عام. وعلى هذا فقد لاحظ هوسرل فى (أزمة العلوم الأوروبية Crisis of the European Sciences) أن إشكالية الذاتية (subjectivity) هى لب مشكلة الحداثة، وعلى هذا فقد قال فى مقدمة الكتاب أن إشكالية العلوم الأوروبية الحديثة هى فى حقيقة الأمر إشكالية الإنسانية الأوروبية.

فى ضوء هذه المركزية لسؤال الإنسانية يمكننا أن نعود إلى إشكالية السؤال الدينى ببعديه التاريخى والهرمنوطيقى. يمكن القول أن سؤال الذاتية هو السؤال المركزى للحداثة منذ ظهور ديكارت حتى الآن. وعلى هذا فإن الإشكالية التاريخية والهرمنوطيقية للدين تتصلان اتصالاً أساسياً ومحورياً بتصور الإنسانية والذاتية فى الحداثة. وعلى هذا أيضاً فإن التوصل لحل أزمة المشروع الحداثى مع الدين يكمن فى حل إشكالية تصوره عن الإنسانية.

إن التصورات الفلسفية المختلفة عن مفهوم الإنسانية، وإن كانت قد تباينت تبايناً كبيراً عبر تاريخ الفلسفة، إلا أن هناك إشكالية تكاد تكون ثابتة وتلقى بظلالها متى وحيثما أثير سؤال الإنسانية. لهذا فلنرجع معاً إلى أحد أهم وأكثر الحوارات الأفلاطونية أهميةً والذى كان له تأثير واسع على الثقافة العربية والفلسفة الإسلامية فى العصر الوسيط: حوار الطيماوس (Timaeus). فى هذا الحوار يطرح أفلاطون نظريته الشهيرة شديدة التركيب فى حدوث العالم. يقسم أفلاطون خلق العالم إلى طورين: خلق العالم كما اقتضته الضرورة وخلق العالم كما اقتضاه العقل. فى هذا السياق وبدون الخوض فى التفاصيل المركبة لعملية الخلق كما تصورها أفلاطون فإن ما يعنينى هو المقابلة بين صورة الخلق ونظام الكون كما يتجلى من خلال كل من الضرورة الطبيعية ومبدأ السببية الذى بدونه ينهار بناء النظرية المعرفية للعلم من جهة، ومن جهة أخرى العالم كما يدركه ويتعامل معه العقل من خلال أفكاره المتجاوزة لهذه الضروريات والحتميات كفكرته عن الواحد والكثير والإرادة والتخيير والتصيير... إلخ.

اللافت للانتباه أن أفلاطون قد اختار لظهور الوجود الإنسانى موقعاً وسيطاً بين هاتين الصورتين، أو إن شئت جانبين من طبيعة العالم. وإذا كان حكيم الأفلاطونية المحدثة العظيم برقلس قد أكد فى تعليقه الكبير على الطيماوس أن ما يعنى أفلاطون فى هذا الحوار ليس هو خلق العالم على المستوى الفيزيقى وإنما ما يعنيه هو طبيعة هذا العالم كما يتجلى للفكر الإنسانى فإن هذا يقودنا إلى الإشكالية التى أكدت أنها قديمة قدم الفكر الفلسفى فيما يتعلق بسؤال الإنسانية. إن الوجود الإنسانى أو بشكل أدق إنسانية الإنسان دائماً تتجلى فى مساحة الربط بين الجانب السببى الحتمى من العالم والمتمثل فى الطبيعة وقوانينها السببية من جهة، ومن جهة أخرى قدرة العقل والفكر الإنسانى على تجاوز هذه الحتمية من خلال أفكاره عن الحرية، الإرادة الحرة، الواحد والكثير، الإله المطلق... إلخ.

وبالرغم من تباعد الأفكار وتباينها من العصر الكلاسيكى الإغريقى وحتى العصر الحديث فإن القارئ المدقق لتاريخ الفلسفة الحديثة يلاحظ أن هذه الإشكالية ظلت بشكل أو بآخر تسيطر على أغلب النظم والبناءات الفلسفية التى حاولت التعامل مع قضية الإنسانية إما فى إطار سؤال الماهية والجوهر (كما اعتادت الفلسفة الوسطية أن تفعل) وإما فى إطار إشكالية الذاتية التى طغت على مشروع الحداثة منذ ظهور الكوجيتو (cogito) الديكارتى مروراً بالتجريبية الإنجليزية ثم المثالية الألمانية وأخيراً التحول الذى حدث فى الفلسفة الغربية مع نيتشه والذى تبعه ظهور الفينومينولوجيا مع هوسرل وتحولها نحو الهرمنوطيقا الوجودية مع هيديجر.

ولكن قبل الانتقال إلى هذه الإشكالية فى الحداثة سأحاول أن أوضح ماذا أقصد بالضبط بأن الوجود الإنسانى يقع دائماً فى المساحة ما بين حتمية القوانين الطبيعية ومجال الأفكار العقلية الحرة. إذا أخذنا بتعريف هيديجر فى بداية عمله الأهم الوجود والزمن أن الإنسان بطبيعته كائن تأويلى وأنه يتعامل مع الأشياء والعالم من حوله دائماً فى إطار تأويلى، فإننا نلاحظ أن الإشكالية التى دائماً واجهت الفكر الإنسانى هى إدراكه أنه الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يفرق بين حتميات الطبيعة من جهة وإطارها السببى وأفكاره المتجاوزة لهذه الحتمية والضرورة الفيزيقية من جهة أخرى. من ثم فإن الوجود الإنسانى إذا كان تأويلياً كما قال هيديجر فإنه كذلك فى إطار ربطه بين هذين العالمين أو الجانبين من حقيقة العالم. الإنسان إذاً هو الموجود الوحيد الذى يربط بين هذين الجانبين من طبيعة العالم، وطبيعة الإنسان ذاته تعكس هاتين الطبيعتين. فبينما يدرك كل منا أن الجانب الجسدى المادى فى وجوده يتأثر بحتميات الطبيعة وقوانينها السببية، فإن فى الوقت ذاته يلاحظ أن عنده أفكاراً عن إرادته الحرة وعن خالق أو كائن مطلق الكمال يتجاوز هذا العالم الفيزيقى - كما لاحظ كل من ديكارت وكانط. إذاً فمن بداية التفكير الفلسفى ظل سؤال الإنسانية مرتبطاً بثنائية الضرورة والعقل (العقل من خلال تعريف كانط وأفلاطون له باعتباره الملكة الإنسانية والمجال الذى تتولد فيه أفكار متجاوزة للحتميات السببية التى تحكم العالم الطبيعى).

على خلفية هذه المقدمة الموجزة نستطيع أن نمضى قدماً إلى بعض الملاحظات عن تبلور تلك الإشكالية وصياغاتها المختلفة منذ ظهور الحداثة، والتى أؤرخ لظهورها بظهور الذاتية عند ديكارت. هذا العرض بالطبع لن يخلو من احتمالية الاختزال، ولكن العذر الوحيد هو تحقيق الهدف الأهم وهو توضيح الفكرة.

لنبدأ مع ديكارت وأهم أعماله على الإطلاق: تأملات فى الفلسفة الأولى. لاحظ ديكارت فى «التأمل السادس» أن هناك هوة سحيقة بين تصوره عن ماهية الذات بأنها ذات عاقلة مفكرة وبين الجسد. فبينما لا يستطيع أحد أن ينكر اتصال الذات العاقلة بالجسد، يبدو كل منهما وكأنه جزيرة منفصلة. فالجسد باعتباره موجوداً فيزيقياً يتأثر بقوانين المادة ومن ثم يخضع لحتميات الطبيعة. أما العقل بأفكاره عن الإرادة والكمال يتجاوز هذا الإطار الطبيعى الحتمى. من هنا نستنتج أن إشكالية الربط بين عالم الضرورة وعالم العقل بأفكاره المتجاوزة كانت هى بالتحديد أحد أهم إشكاليات قضية الذاتية، ومن ثم قضية ماهية الإنسان فى عقلانية ديكارت. تأرجح الفكر الفلسفى بعد ديكارت ومع ظهور هوبز وسبينوزا نحو النقيض الآخر فغرق كل منهما فى شكلين مختلفين من الحلولية المادية[1]. نفس الإشكال ظهر مع المثالية الألمانية خاصة مع هيجل والذى سقط فى حلولية ذاتية عقلانية[2] إذن فإشكال العلاقة بين عالم العقل بأفكاره المتجاوزة وعالم الضرورة الطبيعية أدى دائماً إلى الانزلاق نحو الحلولية إما فى إطار التمركز حول المادة أو الموضوع أو التمركز حول الذات العاقلة المتجاوزة. ومن ثم وبدلاً من حل الإشكال يتم تجنيبه أو طمسه واختزال الحقيقة فى جانب من

جوانبه أياً كان الإطار الفكرى الذى يتم من خلاله هذا الاختزال.

التقليد الوحيد من وجهة نظرى فى الفكر الغربى الذى حاول التعامل مع إشكالية الثنائية الكونية فى إطار حله لسؤال الإنسانية هو المذهب الترانسندنتالى والذى أسس له إيمانويل كانط وفى رأيى الشخصى أكمل عليه وأضاف إليه بعده لوجوده كل من هوسرل وهيديجر فى المرحلة الأولى من حياته قبل تحوله فى عام ١٩٣٦ .

لنقف لوهلة مع كانط والفلسفة الترانسندنتالية. يفرق كانط بين مجالين مختلفين: المجال الترانسندنتالى (Transcendental) والذى تختص به ملكة الفهم (Verstand-Understanding) والمجال الترانسندنت (Transcendent) والذى يختص به العقل (Vernunft-Reason). المجال الأول يتعلق بشروط التجربة بالنسبة لأى كائن عاقل فى الإطار النظرى(٣) من هذه الشروط على سبيل المثال لا الحصر مفهوم السببية فكل كائن عاقل يفهم ويبنى العلاقات بين الظواهر المختلفة المعطاة له من خلال البعد الزمانى والمكانى بناء على مفهوم السببية. ومن ثم هذه المفاهيم هى مفاهيم بنيوية يتم فى إطارها ومن خلال التجربة الموضوعية فقط وليس قبل التجربة بناء العلاقات بين الظواهر المختلفة من خلال العلاقة المتبادلة بين الذات والموضوع. أما المجال الثانى فهو المجال المتجاوز للتجربة الموضوعية والنظرية ويشمل كل المفاهيم والأفكار التى لا يمكن اختبارها أو تأصيلها فى إطار التجربة الكامنة فى هذا العالم (أى تجربة كل ما هو محدود فى إطار الزمان والمكان) مثل فكرة الذات الإلهية المطلقة والإرادة...إلخ. وعلى هذا فقد جاء أول كتابين فى الثلاثية الفلسفية لكانط: نقد العقل الخالص ونقد العقل العملى للتعامل مع هذين المجالين. فالأول يتعامل مع شروط المعرفة النظرية لأى كائن عاقل فى إطار التجربة الموضوعية ومن ثم فهو يؤسس لأصول النظرية المعرفية العلمية فيما يختص بكل الظواهر الكامنة فى العالم والتى لا يمكن تصورها إلا من خلال بعدى الزمان والمكان. أما الثانى فهو يتعامل مع مفاهيم العقل وبالتحديد مفهوم الحكم الذاتى للإرادة، الله، الحرية، والتى تمثل بالنسبة لكانط حجر الزاوية بالنسبة لسؤال الأخلاق لأى كائن عاقل فى إطار تعامله مع أى كائن عاقل آخر مثله.

لكن كانط أدرك أن هذين العالمين واللذين مثلا بالنسبة له ثوابت فى تصور العالم بالنسبة لأى كائن عاقل لا يكفيان لفهم فعلية الوجود الإنسانى كما يحدث ويتحقق فى الحياة اليومية. من ثم كتب كانط ثالث وأهم أعماله بشهادة كل من رائد المثالية الألمانية فيشته وتلميذ كانط الأنجب راينهالد: نقد الحكم.

فى مقدمة هذا العمل يعترف كانط بأن المجال الترانسندنتالى النظرى الذى يحوى المفاهيم البنيوية التى من خلالها يمكن للذات أن تتفاعل مع الكون المحيط بها كمجموع ما تستقبله من ظواهر حسية يتم تركيبها فى إطار البعد الزمانى والمكانى ومجال العقل المتجاوز الذى يؤسس للأخلاق الإنسانية يبدوان وكأنهما جزيرتان منفصلتان. وهكذا جاءت فكرة الحكم عند كانط الذى يقول فى مقدمة نقد الحكم أن فعلية الوجود الإنسانى تتحقق فى الحكم، أى لحظة تحديد المعنى. ومفتاح نظرية المعنى التى يمكن استنباطها من خلال قراءة تحليل كانط للحكم، هو مفهوم كانط عن دور الخيال (بالرغم من أن كثيرين من دارسى كانط وقعوا فى خطأ عدم التمييز بين دور الخيال عند كانط فى نقد العقل الخالص ودوره فى نقد الحكم فإن عدداً من الدراسات بدأت فى تغيير هذا التصور الاختزالى). ودور الخيال فى نقد العقل الخالص، كما هو فى أرسطو، دور تجميعى (synthetic): بمعنى أن دور الخيال يتمحور حول تجميع وتركيب ما تستقبله الحواس من ظواهر لعرضها من خلال بعدى الزمان والمكان. أما دور الخيال فى نقد الحكم (كما لاحظ عدد من الدارسين منهم رودلف ماكرييل فى Imagination and interpretation in Kant: the Hermeneutical import of the Critique of Judgment) فهو دور هرمنوطيقى. ملخص هذا الدور كما يلى:يستطيع الخيال من خلال الوجهة العامة التى تحددها أفكار العقل المتجاوزة والتى هى من صميم التجاوز الداخلى (inner transcendence)(٤) لأى كائن عاقل، وخاصة فكرة الله ككائن مطلق أن يفسر هذه المعانى التى تؤسس لقواعد الفعل الأخلاقى فى كل ما يتم التعامل معه من ظواهر فيزيقية تخضع لقوانين الطبيعة الحتمية دون أن يطغى جانب على الأخر. وهكذا يأتى الخيال عند كانط لينقذ الإنسانية من اختزالها فى إطار الحتمية الطبيعية المادية أو إطار الحلولية العقلية مثل ما فعل هيجل.



فالوجود الإنسانى يتحقق فى قدرتنا على إيجاد المعنى، وهذا المعنى لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال دور الخيال فى الربط بين فكرة الألوهية وتفسيرها فى حتميات الطبيعة. إلا أن هذه الفكرة فى حد ذاتها بحاجة إلى إيضاحات كثيرة: فكيف تحدث لحظة تكوين المعنى هذه؟ وإذا كان هذا هو أساس إنسانية الإنسان (كما قال كانط) ومن ثم فهو أساس الحس العام (sensus communis) وبالتالى فهو الذى يضع أساس الاتصال فى إطار الاجتماع البشرى إلى أى مدى يرتبط هذا بسؤال التاريخ وإلى أى مدى يمكن أن يقدم الرد على هذه الأسئلة امتداداً وتطويراً لفلسفة كانط يتجاوز فكرة هبرماس عن الترانسندنتالية البرجماتية-التى يعتبرها البعض أهم تطوير لفلسفة كانط الأخلاقية بالرغم مما تعانيه من ثغرات يعترف بها هبرماس نفسه؟ فى هذا الإطار يمكن أن نتحول إلى هيديجر فى الوجود والزمن وكانط وإشكالية الميتافيزيقا لنجد بعض الخيوط التى يمكن أن تحل هذه الأسئلة. سنجد أن فكرة هيديجر عن محدودية الوجود الإنسانى والتى أكد فى مقدمة كتابه كانط وإشكالية الميتافيزيقا أنها تؤسس للتجاوز الداخلى فى الوجود الإنسانى ومن ثم تؤسس لوجود الميتافيزيقا فى حياة الإنسان يمكن أن تؤخذ كأساس لإعطاء تأصيل وجودى لرؤية كانط عن تحقق إنسانية الإنسان فى فضاء تكوين المعنى.

وهكذا فإذا كان المشروع الترانسندنتالى لكانط هو المخرج من أزمة الإنسانية الحداثية والسبيل لتجنب الوقوع فى الحلولية المادية أو العقلية فإن هذا يعنى أن المخرج من أزمة الإنسانية فى الحداثة هو استرجاع أو بمعنى آخر إعادة استكشاف التجاوز الداخلى للذات بالتحديد فيما يختص بفكرة الألوهية والتى لا يمكن أن يتحقق بدونها المعنى ومن ثم الوجود الإنسانى ذاته-كما وصفناه. وهكذا فإن حل إشكالية الإنسانية للحداثة هو بشكل أو بآخر بحث عن أنثربولوجيا فلسفية جديدة تستطيع أن تؤسس لنظرية جديدة فى المعنى تستوعب دور التجاوز الداخلى للذات وتأصله فى الفكرة الجامعة عن الذات الإلهية ككائن متجاوز مطلق القدرة والخيرية وفى ذات الوقت تستطيع أن تفسر كيف يمكن أن تتجلى لحظة تكوين المعنى هذه فى أشكال مختلفة ولكن بنفس الأصالة فى السياقات التاريخية المختلفة.

عند هذا الحد يمكن التحول إلى سؤال الإنسانية وعلاقتها بمفهوم الالوهية فى الإسلام. فى هذا الجزء سأحاول أن أوضح كيف أن فكرة الألوهية فى الإسلام دون أى فكرة مشابهة فى أى دين آخر يمكن أن تمثل حلاً لأزمة مفهوم الإنسانية والوجود الإنسانى كما أظهر تحليلنا لفكرة الإنسانية فى تاريخ

معجزة الإسلام إذاً ليست فقط فى القرآن ولكن فى طبيعة هذا النص وعلاقاتها بمحمد الإنسان العادى. وهكذا يمكن أن يفهم المعنى الأعمق لمعجزة القرآن اللغوية ومعنى السنة فى الإسلام

الفلسفة وكما حاولنا أن نقرأ حلاً لها من خلال دمج الفلسفة الأنثربولوجية لكانط وهيديجر.

النبوة والإنسانية فى الفكر الدينى

بدون الرجوع لأى نظرية بعينها عن فكرة النبوة سأحاول أن أقدم تصوراً بسيطاً عن دلالة معنى النبوة وارتباطه بمفهوم الوجود الإنسانى كما تم طرحه فيما تقدم بشكل موجز وبسيط. النبوة باختصار يمكن تعريفها بأنها تقاطع المتجاوز المطلق مع الجمالى الكامن تاريخياً (أقصد بالجمالى أو الاستاطيقى كل ما يفهم فى إطار الزمان والمكان). فالنبوة هى لحظة تلاقى مفهوم الله الكائن المنزه عن حدود الزمان والمكان من جهة ومن جهة أخرى الواقع التاريخى الذى هو مجموع الحياة الإنسانية بما تحويه من سياقات ومفاهيم يخضع أغلبها لقوانين المادة والطبيعة والآخر لسياقات وظروف الاجتماع البشرى.

وهكذا تأتى النبوة كتمثل لمعنى تقاطع كلمة الله باعتبارها المطلق المتجاوز للتاريخ مع الكمون التاريخى: وتجلى هذا التقاطع هو تفسير معنى كلمة الله فى الواقع أو الكمون التاريخى ببعديه الزمانى والمكانى. ولكن أليس هذا عين ما كنا نقول عن إشكالية الإنسان من حيث إن الإنسان يدرك أنه الكائن الذى لا يخضع تماماً لحتميات الطبيعة ولا يتجاوزها تماماً أيضاً؟ إذن فالنبوة بشكل أو بآخر هى تجلى معنى الإنسانية فى كمالها، فهى اللحظة التى يتحول فيها مفهوم الألوهية من فكرة فى إطار التجاوز الداخلى للإنسان إلى تجاوز حقيقى للكمون التاريخى فى شكل الوحى الإلهى. وهكذا ولكى نربط حديثنا عن النبوة بملاحظاتنا السابقة عن إنسانية الإنسان يمكن أن نقول أن كل لحظة نبوة كلحظة إنسانية كاملة فى الأساس إنما هى فى جوهرها تجل لمعنى كلمة الله المتجاوزة للتاريخ فى هذه اللحظة التاريخية المحددة.

لكننا إذا نظرنا إلى الأديان الثلاثة وتراثهم بشكل عام نجد أن معنى كلمة الله فى حياة كل نبى ارتبط فى تأكيده معجزة متجاوزة للتاريخ. السؤال هو ما علاقة هذه المعجزة بما قلناه عن معنى النبوة بصفتها تمثيلاً لحقيقة الوجود الإنسانى؟ لنأخذ اليهودية على سبيل المثال. سنجد أن معنى كلمة الله تجلت فى معجزة موسى المادية المتمثلة فى عصاه، وعلى هذا فقد جاءت أغلب الفلسفات اليهودية متمركزة حول المادة والموضوع فى محاولتها فى استكشاف لوجوس (أو منطق) معنى الكون وكيفية تفسيره. على سبيل المثال نجد أن سبينوزا قال إن الطبيعة هى الله، وإذا قرأت ماركس تجد الجدل المادى. أما ليفيناس فى إعادة صياغته لفلسفة الأخلاق فقد نادى بأولوية الآخر بل قد تجاوز ذلك إلى الكلام على أن المستقبل والموضوع فى حد ذاته ومن ثم كل ما هو مغاير للذات له الأولوية. على النقيض من هذا نجد أن المسيحية كما لاحظ كانط فى كتاباته الدينية تميل إلى الذات. السبب فى تصورى هو أيضاً ارتباط لحظة تجلى كلمة الله المسيحية فى المسيح ذاته. ومن ثم ارتبط لوجوس التأويل فى الإطار المسيحى بالذات إلى حد أن تحل الحقيقة والإله فى الذات كما يتجلى هذا بوضوح شديد فى جدلية الوعى عند هيجل. فإذا كانت النبوة هى تمثيل للإنسانية تتحول فكرة الألوهية النابعة من التجاوز الداخلى عند الإنسان إلى واقع من خلال الوحى. إذاً فهذا التمثيل مرتبط بتجلى معنى كلمة الله فى الواقع التاريخى المرتبط بلحظة النبوة هذه. وعلى هذا فقد ارتبط مفهوم التأويل ونظرية المعنى فى كل من المسيحية واليهودية بلحظة تاريخية معينة وهى اللحظة التى جاءت فيها المعجزة المتجاوزة للتاريخ لتكمل معنى الإنسانية فى هذه اللحظة من النبوة.

فى مقابل هذا سنجد أن الإسلام يختلف جذرياً إذ لم ترتبط معجزته بلحظة تاريخية معينة ففى أكثر من موضع يؤكد القرآن الكريم أن بشرية محمد بشرية عادية وأنه بشر مثل كل البشر. معجزته هى القرآن. والقرآن هو كلمة الله. ولكن كلمة الله موجودة فى أى دين من الأديان: فكل دين ارتبط بنص موحى. معجزة الإسلام إذاً ليست فقط فى القرآن ولكن فى طبيعة هذا النص وعلاقاتها بمحمد الإنسان العادى. وهكذا يمكن أن يفهم المعنى الأعمق لمعجزة القرآن اللغوية ومعنى السنة فى الإسلام (بمعنى أنها علاقة بين اللغة بمعناها الأعمق كمساحة تكون المعنى من جهة والوجود الإنسانى العادى من جهة أخرى: تلك العلاقة الأساسية بين اللغة والوجود التى لاحظها الكثير من بينهم هيديجر). اختلاف معجزة الإسلام عن معجزة كل من المسيحية واليهودية إذ أنها كانت معجزة غير متجاوزة للتاريخ: فتجلى معنى كلمة الله فى التاريخ لم يتطلب أى خرق لقوانين الطبيعة وإنما تجل فى قدرة محمد الإنسان العادى على تحقيق هذا المعنى فى حياته. وعلى هذا لم يرتبط لوجوس التفسير فى الإسلام بلحظة تاريخية معينة أو شعب معين أو سلطة لاهوتية محددة. على العكس إذا كان هذا الطرح سليماً فإن جوهر تأكيد القرآن على أن الإسلام خاتم الرسالات ومن ثم فهو متجاوز للتاريخ، ينبع من حقيقة أن معجزة الإسلام هى فى الأصل معجزة تاريخية ومن ثم يمكن تكرارها: بمعنى آخر إن معنى كلمة الله والقرآن مرتبط ارتباطاً وثيقاً بإدراك الإنسان لإنسانيته بمعناها الكامل وهذا هو سر اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم: فمعجزته أنه تمكن من تحقيق إنسانيته بشكل كامل فى إطار عادى وبدون الحاجة إلى أى معجزة متجاوزة لهذه الإنسانية. وعلى هذا كان النص فى حد ذاته كافياً ليتجلى معنى كلمة الله لكل إنسان يقرأه إذا أدرك أبعاد إنسانيته ومعنى وجوده بالشكل الذى أشرنا إليه من قبل. فى ضوء هذا يمكن أن نربط بين عدد من الخيوط فى الفكر والتراث الإسلامى. لنبدأ وبايجاز شديد بالتراث الأشعرى. عند الأشعرى ذاته وكل من الجوينى والغزالى. فالقارئ المدقق للإبانة على أصول الديانة وتهافت الفلاسفة للغزالى يلاحظ أن الاثنين لا يعارضان السببية بشكل مطلق وإنما لأنها فى تطبيقها على الذات الإلهية تؤدى إلى الانزلاق فى الحلولية العقلية أو المادية (كما وقع فيها بعض المعتزلة). وعلى هذا فمن رأيى أن أهم موروثات التراث الأشعرى هو تحديد العقل من خلال التجربة. وهذا يتضح أيضاً فى فكر الغزالى فى تصوره للبعد الإنسانى والذاتى فى التجربة (يظهر ذلك بوضوح فى تحليله للبعد الزمانى والمكانى فى تهافت الفلاسفة). فإذا أخذنا هذه النزعة فى تحديد العلاقة بين المتجاوز والكامن ومن خلال ذلك اكتشاف الذات فى التراث الأشعرى ودمجنا ذلك مع البعد الوجودى والتأويلى للذات الإنسانى عند ابن سينا (كما لاحظ هنرى كوربان) فإننا يمكن أن نصل إلى صورة ليست ببعيدة عن رؤية الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى عن مفهوم الإنسانية الذى عبر عنه بمفهوم الحقيقة المحمدية فى أهم أعماله على الإطلاق فى نظرى: فصوص الحكم.



وبما أن المقام لا يتسع لعرض وتقييم مشروع ابن عربى الإنسانى الضخم سأعرض لبعض اللمحات من «الفص الآدمى» وأحللها لأوضح كيف توصل إلى ذات التصور عن الإنسانية الذى ننادى به. بدأ ابن عربى فصوص الحكم بالحديث القدسى: «كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف فخلقت الخلق». لكن ما الدافع الذى يجعل إلهاً صفته أنه الكامل المطلق فى خيريته وقدرته أن يريد أن يعرف من قبل موجود مغاير لذاته؟ ولكن ابن عربى، وهو القارئ المتعمق لفكر أفلاطون وأفلوطين، يقول أن ما أراد أن يعرف ليس ذات الله على مستوى فهمها كعين ثابتة أو جوهر وماهية عقلية - فتلك كما أشرنا منذ قليل منزهة عن الحاجة لمعرفة أى من مخلوقاتها. وإنما ما أراد أن يعرف هو معانى أسماء الله. ولكن أسماء الله بالنسبة لابن عربى هى التى تجعل

جوهر تأكيد القرآن على أن الإسلام خاتم الرسالات ومن ثم فهو متجاوز للتاريخ، ينبع من حقيقة أن معجزة الإسلام هى فى الأصل معجزة تاريخية ومن ثم يمكن تكرارها

كتـــاب الزاويـــة

الفخر بالماضى

حسين مؤنس

نحن إذا ذهبنا نقول إن العالم لم يستحدث بعدنا شيئًا، وأن الطائرة أشار إلى فكرتها ابن فلان، والقاطرة ذكرها أبوعلان، والنظرية الذرية نجدها بحروفها عند الفلانى، لم يلبث الناس أن يتخذوا من ذلك المذهب منا مادة فكاهة. وخير من ذلك أن نصل بالأمور إلى مداها المعقول، وندعها هى تدعو لنفسها بنفسها.

ومن مخاطر الدعوات أن يلجأ أصحابها إلى ما يلجأ إليه محدث النعمة الذى يملك القليل، فلا يكف عن الحديث عنه، فيركبه الناس بالسخرية، أو المفتون بأبيه أو جده، فلايزال يتحدث عنه حتى يسأم الناس حديثه، أو الشكاك فى أصالة نفسه، فلا يزال يلتمس لنفسه الأحساب ينمقها ويزوقها، على مثال شجرات الأنساب التى كانت تباع وتشترى. أما صاحب النسب الصريح فقلما يتحدث عنه، وهو إذا ذكره لم يحاول إنكار ما عسى أن يؤخذ على بعض أجداده، ثقة منه فى نفسه وفيهم.

ونحن لا يصدقنا أحد إذا قلنا إن أحدًا لم يضف إلى ما وصل إليه أجدادنا شيئًا، لأن الناس كلهم يرون أن البشر أضافوا بعدنا كثيرًا، وها نحن نأخذ عنهم العلم ومذاهب الفكر، ثم إن الناس يرون أن الذين أتوا من بعدنا لم يفسدوا شيئًا من نواحى حضارتنا الماضية، وإنما هى بلغت الحد الذى قدر لها أن تبلغه، ثم كلت قواها، شأنها فى ذلك شأن غيرها من حضارات البشر، وتلك سنة البشر مع العمران منذ بدء الخليقة، فلا يقلل من شأننا أننا وقفنا عند حد بعينه، وليس لغيرنا أن يفخر علينا بأنه سار من حيث وقفنا.

الوجود موجوداً فلا وجود بدون الأسماء ومن ثمّ فمعانى الأسماء هى معانى الوجود. هنا يقول ابن عربى أن مرآة الخلق التى تتجلى فيها معانى أسماء الله ظلت غير مصقولة حتى خلق آدم. معنى هذا أيضاً وهو ما لم يعلق عليه أى من شراح ابن عربى أن إنسانية الإنسان والتى تجعل الإنسان هو بما هو متصلاً اتصالا جوهرياً بفضاء المعنى أو بشكل أدق بفضاء معنى الوجود. ولكن ما السبيل لتجلى هذا المعنى؟ إنها أعلى ملكة للإنسان بالنسبة لابن عربى والتى بها يتحقق الإنسان الكامل فى نظريته وهى ملكة الخيال. وملكة الخيال هذه إنما تؤدى دورها بربط عالم الشهود أو العالم الكامن بعالم المثال أو عالم الأفكار المتجاوز لكمون الزمان والمكان. وبذلك يتحقق لكل إنسان على قدر اجتهاده كمال إنسانيته وبذلك أيضاً يقترب من الحقيقة المحمدية.

يمكن لنا أن نعيد فهم الحقيقة المحمدية فى ضوء هذا التحليل ونعبر عنها بالتعبير الكانطى أنها شروط تجلى الوجود الإنسانى فى الحياة العادية باعتباره أنه الكائن الموصل بين ما هو متجاوز من أفكار مطلقة وما هو كامن فى التاريخ ومرتبط بحدود الزمان والمكان. وعلى هذا أيضاً يمكن أن نفسر فصوص الحكم على أنه كتاب فى جدلية (أو تدافع) الوجود الإنسانى التى حاول فيها كل نبى أن يحقق إنسانيته ومن ثم يصل إلى الحقيقة المحمدية ولكنه حقق جزءاً منها ثم جاءت معجزة متجاوزة للتاريخ لتكمل هذه الإنسانية فيتجلى معنى كلمة الله فى الكمون التاريخى من خلالها. فى هذا الإطار أيضاً يمكن أن نفهم السبب وراء تكرار ابن عربى لحديث «كنت نبياً وآدم بين الطين والماء». ففى إطار الفهم الجديد الذى ننادى به للحقيقة المحمدية يمكن فهم هذا الحديث بأنه يشير إلى محمد بصفته مثالاً لتحقيق الإنسان لإنسانيته فى أكمل صورة فى الإطار العادى اليومى. من ثم فإن وصف ابن عربى فى آخر الفصوص لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه الفرد لا يعنى التفرد فقط وإنما يعنى فى الأساس أنه لم يكن إلا محمد الفرد العادى الذى يمكن التفاعل مع معجزته الإنسانية فى كل لحظة تاريخية جديدة من خلال فهم حقائق الوجود الإنسانى الثابتة التى لا تتغير. وعلى هذا فإن المعجزة المحمدية يمكن تكرارها فى التاريخ باستكشاف كيفية تحقيق هذه المفردات الأساسية للوجود الإنسانى فى كل لحظة تاريخية جديدة. وهذا فى رأيى هو المعنى الأعمق لنظرية تجديد الدين فى الإسلام. كيف يقوم الخيال بهذا الدور، وكيف يتعامل مع سؤال التاريخية، وكيف يمكن لهذا التصور أن يؤسس لأنثربولوجيا فلسفية جديدة ونظرية جديدة أيضاً للمعنى والتأويل بشكل عام؟ أيضاً إلى أى مدى يمكن أن يتجنب هذا الطرح خطر الوقوع فى إشكالية الماهية بمعناها الكلاسيكى ويتعامل أيضاً مع متغيرات الأنساق التاريخية المختلفة؟ كل هذه الأسئلة يمكن أن يجيب عنها البحث الفلسفى الجاد.

أخيراً وليس آخراً يجب الأخذ فى الاعتبار أن المقصد من وراء هذا المشروع ليس هدفاً توفيقياً بين الحداثة والإسلام إنما هى محاولة فلسفية لحل إشكالية الإنسانية بجمع روافد فكرية من كل من التراث الإسلامى والغربى باعتبارهما فى الأساس نابعين من حقيقة إنسانية واحدة. فى ذات الوقت يساهم هذا الحل فى استرجاع دور تصور الذات الإلهية فى تحقيق إنسانية الإنسان من خلال قراءة فلسفية محكمة للإسلام ومفهومه المتفرد عن الإنسانية.

...تتهاوت أسطورة الإنسان الرومانتيكى وصاح نبى العدم الألمانى نيتشه: مات الإله... فرد شيخ مرسية الأندلس العجوز متهكماً: من مات هو الإنسان الإله، فأيان يولد الإنسان الإنسان...أفهمت أخا الإسلام... ربما... لعل! ■

هـــــوامـــــش:

١ ـ يقصد بالحلولية المادية اختزال الحقيقة بكل جوانبها فى إطار المادة أو الموضوع بشكل عام

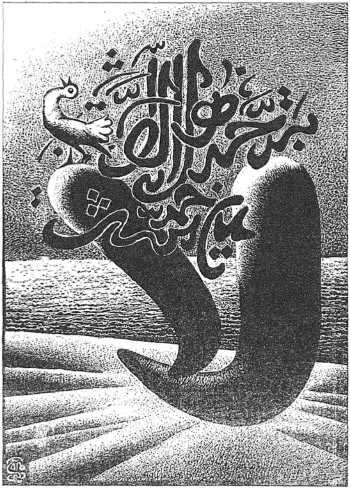
٢ ـ يقصد بالحلولية الذاتية اختزال الحقيقة فى الذات وبالتحديد فى العقل باعتباره جوهر الذات

٣ ـ يقصد بشروط المعرفة فى الإطار النظرى: الشروط التى تحدد معرفة الذات العاقلة بأى موضوع يتم استقباله كظاهرة من خلال بعدى الزمان والمكان. ومن ثمّ فإن المجال الترنسندنتالى مختص بكل ما هو كامن فى التجربة وغير متجاوز لها.

٤ ـ يقصد بالتجاوز الداخلى نزعة العقل ـ فى إطار تعريفه السابق ـ لتجاوز كمون التجربة ببعديها الزمانى والمكانى من خلال أفكاره عن الألوهية وغيرها من المطلقات التى لا تخضع لشروط وحتميات التجربة الكامنة.

العربيـــة لغـــة النهضـــة

أحمد بن محمد الضبيب



عندما نتحدث عن اللغة العربية بوصفها عاملاً مهمًا من عوامل النهضة عند العرب المعاصرين، فإننا لا ننطلق من موقف عاطفي، ولا من انحياز ثقافي نحو هذه اللغة العربية، ولا من نظرة تبجيلية ترتكز على استذكار ماضي هذه اللغة وما حققته من نقل لمعطيات النهضة والتقدم في العالم القديم، أو سرد لإمكاناتها الذاتية وخصائصها المعرفية التي تميزها عن غيرها من لغات العالم، فقد كتب في ذلك الكثير وليس من همنا هنا أن نعيد ما قيل في ذلك.

إننا ننظر إلى اللغة - في هذا المقام - بوصفها أداة عملية يمكن الاستفادة منها نفعيًا (براجماتيًا) لتحقيق نهضة عربية في المجتمع العربي.

إن التنبه إلى أن الثقافة في الدرجة الأولى - لا السياسة ولا الاقتصاد - هي العربة المحركة التي يمكن أن تقود إلى التقدم أمر لم يدركه - للأسف - كثير من المخططين والمنفذين الذين يمسكون بزمام الأمور في البلاد العربية.

وليس معنى ما نقوله الآن أن يترك أولئك المخططون أمور السياسة والاقتصاد وينصرفوا إلى الثقافة وحسب، ولكننا نريد القول إنهم أصلاً لم يضعوا الثقافة في حسبانهم لا على مستوى بلدانهم ولا على مستوى الأمة عند التخطيط والتنفيذ. ويدلك على ذلك أن الخطط الثقافية لا تأخذ ما تستحقه من العناية والاهتمام عند الإعداد سواء على مستوى الأقطار أو على مستوى الأمة، وإن صادفت شيئًا من الحماس عند التخطيط فإنها لا تلبث أن يسقط الأخذ بكثير من مفرداتها عند التنفيذ.

وعندما نتكلم عن الثقافة، فإننا نتكلم بطبيعة الأمر عن مكوناتها الرئيسة التي تشكل الهوية، وتصنع الشخصية المستقلة للأمة، وتضع الأهداف الكبرى لها، وترسخ الوعي لدى الفرد بوصفه مكونًا من مكونات المجتمع الكبير، وتشيع أكبر قدر ممكن من أسباب التماسك والتمازج بين أفرادها، وتحقيق أكبر قدر ممكن من الوحدة في الرؤية والهدف، وتساعد على حشد الطاقات، وتسهيل الصلات، وإقامة العلاقات التي من شأنها تقدم الأمة ورقيها.

ولا شك أن اللغة هي حجر الزاوية الذي تقوم عليه الثقافة. ومن هنا فإن اللغة العربية على الرغم مما صادفها في مسيرتها التاريخية من عقبات، فإنها استطاعت أن تحافظ على دورها في تماسك الثقافة العربية الواحدة، بل تماسك الهوية العربية، على الرغم من الفتن والانقسامات السياسية التي عانى منها العرب ومازالوا يعانون.

لقد تأبت العربية على القطرية، وعلى الإقليمية، وعلى الطائفية والعنصرية والعرقية، لتجعل من العرب أمة واحدة عبر التاريخ العربي، ولتجعل التراث العربي والإبداع العربي في أي قطر عربي إبداعًا لكل العرب، لا لقطر معين، فكما كان امرؤ القيس وزهير وحسان وجرير والفرزدق والأخطل والمتنبي وغيرهم من رموزنا الإبداعية شعراء لكل العرب من المحيط إلى الخليج، فكذلك أصبح أحمد شوقي وإيليا أبوماضي وعمر أبو ريشة وأبوالقاسم الشابي وغيرهم من رموز الإبداع الفصيح العربي المعاصر، ملكًا للعرب كلهم، يقرءون إبداعاتهم ويدرسونها ويعتزون بها دون نظر إلى الموقع الجغرافي أو الانتماء المحلي.

والأمر نفسه ينسحب على عظماء التاريخ الذين وصلتنا أخبارهم من خلال التراث فأبطالنا التاريخيون هم أبطال لكل العرب على امتداد العالم العربي، لا أحد يحتكر انتماءهم إليه، ولم تفلح الحدود المصطنعة في تحجيم هؤلاء الأبطال، وحصرهم في محيط البيئة الجغرافية التي نشأوا فيها، بل هم أبطال العرب جميعًا في جميع أقطارهم، وما ذلك إلا لأن الفصحى هي لغة الثقافة، وتراثها هو تراث العرب في كل مكان.

كتبت الصحف[1] أن بعض المثقفين والأساتذة الإنجليز نادوا بإعادة كتابة أعمال شكسبير باللغة الإنجليزية المعاصرة، لأن لغته القديمة أصبحت من البعد عن اللغة المعاصرة بحيث أصبحت مستغلقة، وغير متناسبة مع القارئ الحديث، فإذا تم ذلك فمعناه أن شكسبير المبدع في اللغة الإنجليزية قد قضي عليه، وحلت محله ترجمة جديدة لأعماله، لا تمت للإبداع اللغوي الشكسبيري بأي صلة. إنها ترجمة شأنها شأن الأعمال المترجمة من لغات أخرى، تعتمد على مهارة المترجم، ومقدار عمق معرفته بروح النص الذي يترجمه، ولكنها لا تقف بديلاً عن النص الأصلي بأي حال من الأحوال.

إن شكسبير لا يفصله عن عصرنا إلا ٤٠٠ سنة

اللغة هي حجر الزاوية الذي تقوم عليه الثقافة. ومن هنا فإن اللغة العربية على الرغم مما صادفها من عقبات، فإنها استطاعت أن تحافظ على دورها في تماسك الثقافة العربية الواحدة

محاضرة ألقيت في ندوة «مجلة العربي ولغتها العربية: نصف قرن من المعرفة والاستنارة» من ١٤ يناير - ١٦ يناير ٢٠٠٨

ومع ذلك فقد أصبح غريبًا بين قومه، أما نحن فيفصلنا عن شعرائنا الجاهليين ما يقارب ١٥٠٠ سنة ومع ذلك فإن طلابنا في مدارس التعليم العام يقرأون شعر أولئك الشعراء القدماء ويفهمونه ويتغلبون على مشكلاته اللغوية بأيسر جهد. وهذا كله لاستمرار الفصحى حية في مدارسنا وعلى شفاهنا، بفضل القرآن الكريم، والتواصل مع التراث.

أمام الفصحى تتهاوى الحدود الجغرافية والتاريخية، لينطلق العربي في فضاء واسع من الزمان والمكان يبدع أينما كان، ويكون في إبداعه رافدًا للنهر العربي الإبداعي الكبير.

وأمام الفصحى تتأكد الوحدة الثقافية الحقيقية لهذه الأمة منذ أقدم العصور وحتى الآن، وهي لذلك أهم من الوحدة السياسية، التي فقدها العرب فعليًا منذ سقوط بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ.

وقد أدرك دعاة الإقليمية والفرقة قوة الفصحى ومدى سطوتها في هذا المجال، فقد رأى سلامة موسى أن الفصحى تبعثر الوطنية المصرية، وتجعلها شائعة في القومية العربية، فالمتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطال بغداد.. فنظره متجه أبدًا إلى الشرق وثقافته كلها عربية شرقية(٢).

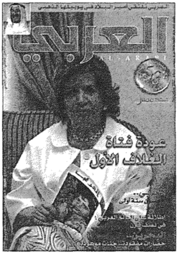
ولذلك، فإننا - وعلى الرغم من كثير من مآسينا الحضارية - أمة محظوظة لأننا نملك هذه اللغة العظيمة التي يجتمع عليها العرب ماضيًا وحاضرًا، وإن أحسنوا صيانتها والحفاظ عليها فإنهم لا شك بالغون ما يأملون.

فإذا كانت الثقافة هي حصن الهوية الراسخ، وكانت الفصحى هي روح هذه الهوية ونبراسها، فإن أي وحدة منشودة للعرب - من أي نوع - لن تتم كما ينبغي إلا إذا قويت لغة هذه الوحدة، وأصبحت فاعلة في صياغة المشروع النهضوي العربي على أسس جديدة، تختلف عن الأسس التي ألفناها في المشروعات السابقة. ولا يتم ذلك إلا بالاعتراف باللغة على أنها وسيلة فاعلة من وسائل النهضة العربية، واستثمار طاقة اللغة العربية الدافعة في هذا المجال، وذلك أمر طالما تجاهلناه في تجاربنا السابقة.

لقد كان من المؤمل أن تسير النهضة العربية بالخطى المعروفة والمألوفة في النهضات الأخرى في العالم، والواقع أن النهضة العربية في بداياتها الأولى في القرن التاسع عشر - والتي كانت مصر محضنها الأول - قد سارت سيرًا طبيعيًا، وذلك بالاطلاع المباشر على ما لدى الأوروبيين، ونقله إلى اللغة العربية فبعثت البعثات، وفتحت مدرسة الألسن لتخريج المترجمين، ونقلت أعداد من المؤلفات في الطب والعلوم والإنسانيات إلى اللغة العربية، بلغت في وقت قصير نحو ألف كتاب أو رسالة في مختلف العلوم والفنون(٣)، كما فعل العرب إبان نهضتهم الأولى في العصر العباسي، وكما فعل الأوروبيون عندما تتلمذوا على الحضارة الإسلامية، وكما فعل كثير من دول الشرق والغرب.

لكن ما لبث هذا التوجه الرشيد نحو التقدم أن انتكس بموت محمد علي، ثم أفاق قليلاً في عهد الخديو إسماعيل، الذي كان يطمح إلى أن تكون مصر قطعة من أوروبا، غير أنه انتكس مرة أخرى باستيلاء الإنجليز على مصر سنة ١٨٨٢م، ومحاولاتهم المتكررة وأد اللغة العربية فقام الإنجليز في مصر بنجلزة التعليم منذ الصفوف الابتدائية الأولى وقد شرع فيها المستر دنلوب سنة ١٨٩٠م وأسند وظائف التدريس إلى المعلمين الإنجليز، وأصبحت الإنجليزية لغة التعليم والوظيفة الحكومية والسوق، وأثار الإنجليز وأتباعهم الغبار في وجه الفصحى متهمينها بشتى التهم، ناصرين عليها العامية واللغة الإنجليزية، وبالطبع شمل التعليم باللغة الإنجليزية المدارس العالية التي أنشئت في ذلك الوقت، ومنها مدرسة الحقوق، التي انتقدها المؤلف الإنجليزي ثيودور روثشتين آنئذ في كتابه المعنون بالإنجليزية Egypt Ruin «تدمير مصر» والمترجم إلى العربية سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م بعنوان «المسألة المصرية ١٨٧٥ - ١٩١٠» يقول روثشتين: «ولغة التعليم المقررة في هذه المدرسة وغيرها من المدارس العالية ليست العربية ولكن الإنجليزية ثم الفرنسية إلى حد ما، وهم يجيبون على ذلك التفضيل بأن اللغة العربية ليست لغة علمية، وبأنه لا يوجد بها كتب مدرسية وافية بالغرض، وأنه من الصعب الحصول على أساتذة يعرفون اللغة العربية. هذا الطعن أو ما يتعلق منه على الأقل بطبيعة اللغة والكتب المدرسية سخيف للغاية أمام ذلك التاريخ المجيد، تاريخ الحضارة والعلوم العربية في العصور الوسطى، وبفضل دأب الوطنيين وأصدقائهم في هذه البلاد يسعى الآن في إعادة جعل اللغة العربية في بعض المدارس لغة التعليم»(٤).

والغريب أن المستعمرين الأوائل لمصر - وهي قلب الأمة العربية - كان هدفهم الأساسي تحطيم الفصحى في نفوس العرب، أما عندما يأتي الحديث عن العامية فإنهم سرعان ما ينسون الحجج التي أدلوا بها في عدم قدرة اللغة العربية على مواجهة علوم العصر، بل إنهم يفضلون العامية - على الرغم من فقرها الواضح - على اللغة الإنجليزية فينقضون حججهم بأنفسهم ويقرون بأن التقدم لا ينال من خلال اللغة الأجنبية.



في سنة ١٨٩٣م ألقى وليام ويلكوكس - وهو مهندس ري إنجليزي اشتهر بمحاربته للفصحى في مصر - ألقى محاضرة بعنوان «لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن»؟ أرجع فيها السبب في ذلك إلى تمسك المصريين بالفصحى، ويهمنا في هذه المحاضرة كلمات قالها المحاضر يعترف فيها بقصور اللغة الإنجليزية عن أن تدفع إلى التقدم أو الاختراع. يقول ويلكوكس: «ربما يقول أحدكم حيث لم يوجد لسان حي أكتب به فأكتب بلسان أجنبي كالإنجليزي، فأقول له: لا تغرر بنفسك في بحر شديد الأهوال كثير الأمواج من غير نتيجة فإنه لا يمكن للغة الإنجليزية أن تكفي في تحرير كتب توصل إلى قوة الاختراع»(٥) ونحن يكفينا من كلام ويلكوكس إقراره أن اللغة الأم هي الوسيلة الصحيحة لنقل المعطيات الحضارية، وأن اللغة الأجنبية لا تستطيع القيام بهذه المهمة، ونختلف معه بالطبع في أن تكون العامية هي الوسيلة المناسبة لذلك، وهو أمر نستغربه إذ هو غير موجود في أي أمة من الأمم حتى في إنجلترا نفسها إذ لا يتصور أن تكون لهجة الشارع في مدن بريطانيا وسيلة لتدوين العلوم والمعارف ونقلها، وهناك فروق واضحة بين لغة الكتابة في الإنجليزية ولغة الحديث.

هذه الحقيقة - أعني حقيقة ضرورة التعليم بمختلف مراحله باللغة الأم - التي مازلنا نتجاهلها والتي كانت سببًا في تردينا العلمي والتقني مازال يجهر بها العلماء الشرفاء من الأجانب الذين يزورون جامعاتنا العربية، لكن أصواتهم سرعان ما تضيع في صخب الدعاية للغة الأجنبية وتصويرها الكاذب بأنها لغة المن والسلوى للعرب.

وعلى الرغم من أن الإنجليز لم ينجحوا في صبغ أبناء الشعب بصبغتهم الإنجليزية إلا أنهم وضعوا أسسًا للابتعاد عن العربية في المجالات العلمية، فلم يعد إتقان العربية شرطًا أساسيًا للدارس، ولم تعد حركة الترجمة ضرورة تتحمل الدولة أعباءها، ولم تعد الكتب المترجمة كتبًا واجبة التدريس في المدارس العليا والجامعات، وإنما نشأت طبقة من أساتذة الجامعات، تجهل لغتها القومية جهلاً واضحًا، وتحتج بعدم التدريس بها بحجج واهية، وتكتفي بتدريس المواد العلمية والطبية بلغة أجنبية ركيكة يتلقاها طلاب ضعفاء في هذه اللغة، وأصبح العلم بعد ذلك محصورًا بين جدران الجامعة غير متاح للجميع.

هذه تجربتنا مع اللغة بوصفها وسيلة مهمة لنقل العلوم والتقنية إلى الإنسان العربي، من أجل أن يشارك مشاركة فعالة في صياغة بعض مفردات الحضارة المعاصرة. فهل آن الأوان لتقويم هذه التجربة والحكم على معطياتها؟

نعم إن العقل والمنطق يفرضان علينا ذلك. بل إن نتائج هذه التجربة الطويلة - التي امتدت إلى أكثر من مائة عام - تشي بالفشل الذريع الذي منينا به في مجالات العلوم والتقنية، فلم تخرج لنا هذه الأعوام الطويلة من التعليم في المعاهد والكليات العلمية، ولا تلك البعوث الكثيرة من الطلاب والمتخصصين ما كنا نأمله من توطين العلم، والمشاركة في بناء الحضارة الحديثة، وخلق البيئة العلمية الصحيحة، التي تفتحت وأثمرت في بلدان هي أقل منا ثراء معرفيًا وإمكانات مادية وبشرية، لا لشيء إلا لأن تلك البلدان اتخذت الطريق السوية لنقل علوم العصر، وأشاعتها في مجتمعاتها بين كافة طبقات المجتمع، فشجعت بذلك الإبداع والاختراع وجعلت العلم حقًا للجميع، أما نحن فقد حصرناه بين أسوار عالية وجعلنا لغته بعيدة عن الناس، وفرضنا على من يطلب العلم أن يدرسه ويعبر عنه بلغة غريبة عن ثقافته، بعيدة عن نفسيته وبيئته وتصوراته، وأعلينا من شأن الشهادات دون اهتمام حقيقي بالمضمون، واتخذنا المصلحة الفردية أساسًا ولم نلتفت للمصلحة العامة التي تجلب الخير للجميع. وبذلك حصرنا أنفسنا في دائرة ضيقة هي دائرة الاستهلاك والتقليد وأبعدناها عن الدائرة الواسعة دائرة توطين العلم والتقنية والإبداع والابتكار فيهما.

لقد حان الوقت لأن نغير استراتيجيتنا في هذا المجال بعد أن ثبت فشل هذه الطريقة على مدى أكثر من قرن من الزمان، وأن نعمل كما يعمل المخلصون لبلدانهم في جميع أنحاء العالم، بتركيز تعليم اللغة الأم بين أبنائها، وترسيخ احترامها في نفوسهم، والاعتماد على ثرائنا اللغوي المتعدد في إغناء حياتنا المعاصرة بفنون العلوم والمعارف، عن طريق الترجمة والتعليم

بهذه اللغة، كى تنشأ هذه العلوم نشأة عربية وتتوطن بيننا وتشيع فينا فنسهم فيها بالقدر الذى يرفعنا إلى مصاف الأمم المنتجة، بدل الاعتماد على النمط الاستهلاكى السائد بيننا، والذى عززته لسوء الحظ معرفتنا باللغة الأجنبية، فأصبحنا سماسرة للغرب فى تجارته وصناعاته وفنونه وأفكاره. وربطتنا هذه اللغة الأجنبية بعجلته، ندور معها حيث تدور بعيون معصوبة، وعقول مغلولة، غاية مبتغاها التقليد الأعمى دون النظر إلى مصلحة وطنية أو غاية سامية.

لقد حان الوقت لمراجعة مواقفنا اللغوية وسياساتنا التربوية والثقافية إن كنا نريد أن ندخل عصرًا جديدًا يسلمنا إلى التقدم والنهوض. إننا فى حاجة إلى مشروع نهضوى جديد قابل للتطبيق، وذى منظور يستشرف مستقبلنا بكثير من الدقة والحذر. هذا المشروع النهضوى ليس بالضرورة أن يكون سياسيًا. وإن كانت السياسة قاسمًا مشتركًا فيه - ولكنه مشروع ثقافى واقتصادى بالدرجة الأولى. إن العالم كما نرى يتوزع إلى كيانات اقتصادية فاعلة ومتفاعلة، والعرب بما حباهم الله من الإمكانات الجغرافية والبشرية والاقتصادية قابلون لإنشاء تكتل اقتصادى كبير، يحقق لهم الرخاء والازدهار. لكن علينا أن نعلم أن وحدة الثقافة ووحدة اللغة بشكل خاص عنصران مهمان لتكوين هذا التكتل، وبدونهما سوف يعانى هذا التكتل من الشلل أو التعويق، الذى عانت منه أمم أخرى. إن مرتكز هذا التكتل يقوم على التواصل، وكلما كان التواصل بين أجزاء هذا التكتل سلسًا ميسرًا كانت النتائج أكثر ثمارًا وأبعد أثرًا، ولعل أداة التواصل الأولى - إلى جانب أدوات أخرى - هى اللغة فكلما كانت موحدة ومنضبطة وشائعة بين أبناء هذا التكتل كان التواصل أكثر نجاحًا.

يشير جلنر فى كتابه: «الأمم والوطنية» إلى أن الانسجام اللغوى فى المجتمع الاقتصادى من أهم عوامل نجاحه ويرى أن «الإنتاج الصناعى يتطلب أساليب موحدة ومنظمة كما يحتاج إلى سكان متحركين ومتجانسين وعلى درجة عالية من التعليم، وهذه المتطلبات تعنى استعمال لغة واحدة موحدة، عن طريقها يمكن أن يتواصل جميع أعضاء المجتمع الذين يشاركون فى العملية الاقتصادية»(٦).

إن معنى هذا أن تكون لدينا لغة موحدة ومنضبطة فى التعليم، فيتلقى أبناؤها - فى أقطار العروبة المختلفة - لغتهم الفصحى بالقدر الذى يجعلهم قادرين على التعبير والتواصل بها مع غيرهم من أبناء المجتمع العربى. ويقتضى هذا أيضًا أن ينقل العلم إليهم بلغتهم الأم حتى يتعمقوه فى دواخلهم، ويقتضى هذا أيضًا أن يصار إلى توحيد مصطلحات هذا العلم بقدر الإمكان، وأن تصدر التعليمات والتشريعات بلغة واحدة تستعمل فى سائر الأعمال الإدارية والمالية، وتشيع بين أبناء هذا التكتل الاقتصادى.

هذه اللغة لن تكون غير الفصحى التى يجمع عليها العرب جميعًا والتى تملك رصيدًا تراكميًا عبر العصور من الثراء المعرفى واللغوى.

ويرتبط بالاقتصاد ارتباطًا مباشرًا دخول العرب عصر الثورة المعلوماتية ومقدار إسهامهم فى مجال المعلومات الذى يعد فتحًا جديدًا من فتوحات العصر، ولا سبيل إلى امتلاك مفردات هذا المجال أو الانتفاع بها أو المشاركة فى الإنتاج فيها إلا بتوفيرها للمواطن العربى فى جميع أنحاء البلاد العربية بلغته العربية، ولن ينتفع العرب أو يبدعوا فى هذا المجال إلا بلغتهم العربية. فمن المستحيل أن تعلم اللغة الأجنبية لكل المواطنين لما يتطلبه ذلك من الانسلاخ عن لغتهم الأم فى مجال ينتظر منه أن يسيطر على سائر نواحى الحياة فى العالم. فإذا كنا نتكلم عن حكومات إلكترونية، يعمل بها ملايين الموظفين، وتتعامل معها ملايين أخرى، فمن العبث أن نحول هؤلاء إلى متحدثين وكاتبين باللغة الأجنبية، ومعروف ما يقتضيه ذلك من الجهد الإضافى فى التعليم والتدريب. هذا إلى جانب أن اللغة الأجنبية ستحول - كما حالت فى القرن المنصرم - دون دخول العرب إلى ساحة الابتكار فى هذا المجال، لكونها لا تؤسس لبيئة علمية وطنية، وإنما تكون فى الغالب امتدادًا لبيئة أجنبية تتفاعل معها وتصب فى صالحها.

أما إذا نقلت العلوم والمعارف إلى العربية فإن البيئة المحلية قادرة على أن تقوم فيها وعليها كثير من الأنشطة العلمية والصناعية والتقنية، وتكون بذلك بيئة علمية واقتصادية لها مشكلاتها الخاصة التى تسهم فى حلها، وتقوم عليها صناعات وبرامج ذات طابع متخصص، مما يسهم فى تقدم الأمة، واستغلال مواردها البشرية والمادية بدلاً من انتظار الآخرين، الذين يهدفون دائمًا إلى جعل هذه الأمة تابعة مستهلكة لما ينتجون.

لقد كان التعدد اللغوى من أهم العقبات التى واجهت الاتحاد الأوروبى بوصفه تكتلاً اقتصاديًا، خاصة أن دستور الاتحاد ينص على احترام لغة كل عضو رسمى فيه باعتبارها تعبر عن ثقافته وهويته الخاصة. وقد اعترف الاتحاد رسميًا حتى الآن بثلاث وعشرين لغة. ويكفيك دليلاً على ذلك أن ترى اسم البرلمان الأوروبى مكتوبًا على مقره فى بروكسل بكل اللغات الرسمية لشعوب الاتحاد.

إن هذا التنوع فى اللغات والاعتراف بها رسميًا، جعل من الواجب أن تنشط الترجمة بينها، وأن تكون النصوص الرسمية الصادرة عن الاتحاد بمؤسساته وبرلمانه معدة بهذه اللغات، ووفق معلومات نشرتها هيئة الإذاعة البريطانية BBC على موقعها الشبكى سنة ٢٠٠٤ بقلم إنكس روكسبره يقدر عدد المترجمين فى المفوضية الأوروبية بـ ١٣٠٠ مترجم، يترجمون مليون ونصف مليون ورقة سنويًا إلى ١١ لغة. وهذا قبل توسيع الاتحاد الأوروبى ليشمل ٢٥ دولة، ومن المتوقع أن يتضاعف عدد المترجمين لذلك. ووفقًا لهذه المعلومات سترتفع تكلفة الترجمة فى الاتحاد الأوروبى إلى أكثر من ٨٠٠ مليون يورو، وهو ما يوازى ٢ يورو لكل مواطن، وقد يرتفع إلى أكثر من ذلك، أما السيد عادل الفقير فيرى فى بحث أحدث نشر على الشبكة (الإنترنت) أن تكلفة الترجمة فى الاتحاد الأوروبى تقدر بمليار ونصف المليار يورو تصرف على خدمات واسعة فى مجال الترجمة والترجمة الفورية. وقد جهز مبنى الاتحاد الأوروبى بحيث يحتوى على عدد كبير من مقصورات الترجمة، وفى سنة ٢٠٠٤ كان عددها ٢٧ مقصورة تستخدم للترجمة البينية بين هذه اللغات أو عبر لغات وسيطة، بل أوجب ذلك الاهتمام بتعليم أكبر عدد من هذه اللغات للمواطنين، وذلك من أجل زيادة التواصل بين شعوب هذا الاتحاد، ولأجل ذلك أعلن يوم ٢٦ سبتمبر من كل عام يومًا للغات فى الاتحاد الأوروبى، ترويجًا لتعلم أكبر عدد ممكن من لغات الاتحاد. وإذا عرفنا أن لغة التواصل العالمية وهى الإنجليزية لا تحظى إلا بـ ٣٨٪ من المعرفة بين المواطنين فى دول الاتحاد أدركنا كم من الجهد والمال لابد أن يبذل من أجل قيام هذا التكتل السياسى والاقتصادى بمهامه المطلوبة.

لقد أصبح من الواضح أن أى تكتل اقتصادى ناجح يحتاج إلى وسيلة اتصال واضحة ومنضبطة وشائعة الاستعمال على نطاق واسع، وذلك حتى يتمكن من الإنتاج والتسويق بشكل أوفر وأسرع. ولا يخفى ما فى التعدد اللغوى من تكاليف كبيرة، تنعكس سلبًا على مستهلك المنتوج الصناعى. وهذا ما يشغل بال المخططين فى الاتحاد الأوروبى، الذى تتعدد لغاته، ولكل لغة فيه الحق نفسه فى الاستعمال. وقد رأينا كم يتكلف الاتحاد من تكاليف باهظة من أجل القيام بواجب الترجمة بين لغات هذا التكتل. بل إنه على الرغم من ذلك كله فإن خطوات الترجمة فيه ينالها الكثير من التعثر والالتباس والصعوبة، وبخاصة عند النقل من لغات قليلة المتكلمين كالمالطية والسلوفينية. فالترجمة أحيانًا تتم مباشرة بين لغتين، ولكنها فى أحيان كثيرة تتم عبر لغة وسيطة، وغالبًا ما يؤدى التأخر الزمنى فى نقل الكلام المنطوق إلى ضياع الفرصة على أحد الجانبين فى الرد والمناقشة، وهم يضربون لذلك مثلاً بوصف رئيس الوزراء الإيطالى سيلفيو برلسكونى أحد أعضاء البرلمان الأوروبى من الألمان بأنه يشبه حارسًا فى معسكر اعتقال نازى. فقد استغرق الأمر عدة ثوان قبل أن يعرف العضو الألمانى أن إهانة وجهت إليه.

وحدة الثقافة عبر الفصحى ميزة حباها الله لهذه الأمة، ومن الخطأ التفريط بها، وهى وسيلتنا إلى الوحدة الاقتصادية التى تجمع ٢١ دولة تحت جناح واحد، إلى جانب الوحدة الثقافية الفريدة، التى يراد لها أن تتفتت الآن بدعوى التعدد الثقافى. فإذا أريد لهذه الأمة أن تنهض فلا سبيل لذلك إلا من خلال بوابة هذه اللغة، التى ينبغى أن يستفاد منها قبل أن يفوت الأوان، كما فعلت أمم الشرق والغرب، تلك التى بنت برامجها النهضوية الناجعة من خلال الاعتماد على اللغة الأم فحققت بذلك النجاح والفلاح.

وهذا بالطبع لا يعنى عدم العمل على إتقان لغات أجنبية أصبحت ضرورية فى هذا العصر. لكن فرق بين تعلم هذه اللغات للمعرفة والعلم، وبين إحلالها محل اللغة الأم فى التعليم، والاقتصاد، ومناحى الحياة العامة. فلتكن اللغة العربية أداتنا التى تقود إلى النهضة الحقيقية. ولتكن اللغة الأجنبية أداتنا التى تقود إلى التحديث لا إلى التغريب. ■

الهوامش:

(١) انظر جريدة الوطن السعودية ع ٧٢٨. ٢٠ رجب ١٤٢٣ هـ/ ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٢، ص١٧ .

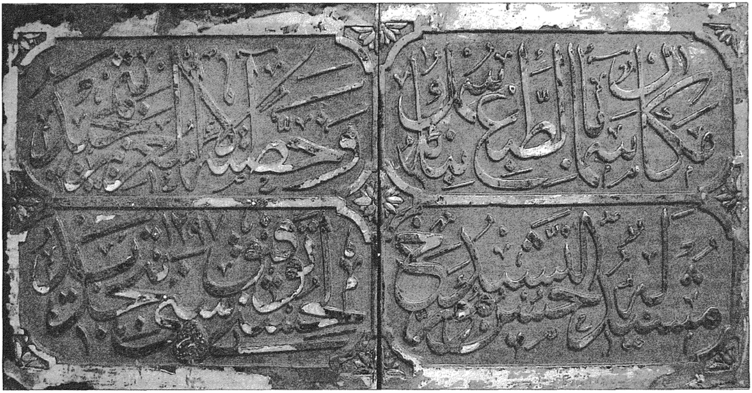
(٢) عمر الدسوقى، فى الأدب الحديث ٢/٤٣ .

(٣) نفسه، ١/١٠٥ .

(٤) روثشتين، ثيودور، المسألة المصرية، ترجمة عبدالحميد العبادى ومحمد بدران، القاهرة: مطبعة الاعتماد سنة (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م، ص ٢٩٨ - ٢٩٩).

(٥) نقلاً عن د. نفوسة سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر، ط. الإسكندرية، دار نشر الثقافة سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م، ص ٣٦ .

(٦) نقلاً عن فلوريا كولماس، اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، الكويت، عالم المعرفة (شعبان ١٤٢١هـ/ نوفمبر ٢٠٠٠م).



"أوراق من بولاق"

"للطباعة تاريخ"

■ كانت الباخرة «العدالة» تمخر عباب البحر فى هذا اليوم البعيد من القرن الثامن عشر. فى أحد أركان السفينة الحربية التابعة للحملة الفرنسية، كان مواطن «مدنى» فرنسى ليس له علاقة بالحملة يجلس مترقباً وفى صحبته «مطبعته الخاصة». كان اسمه الذى لم يحفظه التاريخ جوزيف إيمانويل مارك أوريل.

ولد هذا الناشر فى فالنس Valence فى سنة ١٧٧٥م، وهو ابن بيير مارك أوريل أحد أولئك الذين احترفوا مهنة الطباعة والنشر فى تلك المدينة، وكانت تربطه ببونابرت صداقة وطيدة مصدرها تردد بونابرت على مكتبته أثناء إقامته بفالنس بين سنتى ١٧٨٥ و١٧٨٦م.

فى عام ١٧٩٤م التحق مارك أوريل بمطبعة الجيش البحرى فى البحر الأبيض المتوسط، حيث استهوته الحملة الفرنسية على مصر، فمضى معها ناشراً لها، حيث اتخذ لقب «طابع الحملة» وبقى معروفاً بهذا اللقب حتى عودته إلى فالنس، وكان من عادته أن يطبع اسمه واسم مطبعته على كل ما ينشره من أوامر ونداءات وصحف.

أسس فى القاهرة أول مطبعة فى مصر بينما لم يكن له أى نشاط يُذكر فى مدينة الإسكندرية، ذلك أن مطبعته كانت فى صناديقها معدة للسير مع الحملة فى طريقها إلى العاصمة، وقد نقلها صاحبها مع الجيش عن طريق الصحراء، فلما استقر الفرنسيون فى القاهرة بدأ مارك أوريل عمله بأن نشر أمراً رسمياً فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٩٨م، بينما بقيت المطبعة الرسمية فى الإسكندرية، وأخذت مطبعة مارك تطبع أوامر بونابرت ومنشوراته باللغة الفرنسية، بينما كانت الأوامر ترسل إلى الإسكندرية لتطبع باللغة العربية، إذ إن مطبعة أوريل لم تكن بها حروف عربية على الإطلاق، وبجانب طبعه أوامر بونابرت ومنشوراته كان يقوم بنشر جريدتى Le Courrier de l'Egypte البريد المصرى وLa Décade Egyptienne العشرية المصرية، وتعتبر هذه المطبعة المستقلة عن الحملة أول مطبعة شهدتها مدينة القاهرة، إذ كان الأهالى يجهلون هذه الصناعة جهلاً تاماً، رأى نابليون بونابرت أن مجهود مارك أوريل قاصر عن أن يحقق أغراضه فى طبع الصحيفتين على نحو يرضيه أو يرضى علماء الحملة الفرنسية، لذلك أرسل فى طلب المطبعة التى يشرف عليها مارسيل فى الإسكندرية. وعندما استقرت المطبعة الأهلية فى القاهرة رأى مارك أوريل أنه سيبقى معطلاً عن العمل، فعرض على الحكومة أن يبيعها آلات مطبعته، فوافق نابليون على ذلك.

وابتداء من ١٤ يناير سنة ١٧٩٩م أصبحت المطبعة الأهلية فى القاهرة هى المطبعة الوحيدة فى خدمة الحملة الفرنسية، وقد أصدر بونابرت أمراً

يتضح مدى الرقابة الصارمة والشديدة التى فرضها نابليون على المطبعة، بحيث لا تصدر عنها مطبوعات بغير علم القيادة العامة

وعاء المعرفة
من الحجر إلى النشر الفورى
إشراف وتقديم: إسماعيل سراج الدين
المحرر: خالد عزب
مساعدا المحرر: أحمد منصور وسوزان عابد
الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٧



بتنظيم وتعيين المسئولين عن سياسة المطبوعات فيها، وكان هذا الأمر في ٢٥ نيفوز سنة ٧ الموافق الرابع عشر من شهر يناير سنة ١٧٩٩م، ويتضح لنا من خلال هذا الأمر مدى الرقابة الصارمة والشديدة التى فرضها نابليون على المطبعة، بحيث لا تصدر عنها مطبوعات بغير علم القيادة العامة، أو تذيع ما من شأنه أن يمس النظام أو يُسىء إلى الرأى العام الفرنسى أو المصرى، لذلك كان هذا النظام الشديد أشبه ما يكون بما نعرفه اليوم بـ «نظام الرقابة على المطبوعات أو الرقيب». أما عن مكان المطبعة بالقاهرة، فقد كانت دائمًا ملازمة لمعسكرات الجيش، وعندما ثارت القاهرة فى أكتوبر سنة ١٧٩٨م نُقلت المطبعة إلى الجيزة، ولكنها عادت إلى القاهرة بعد أن أخمدت الثورة ونقلت إلى القلعة فى النهاية لأنها كانت إحدى معسكرات الجيش الفرنسى.

نشرت المطابع الفرنسية فى مصر، وهى المطبعة الشرقية الفرنسية فى الإسكندرية، ومطبعة مارك أوريل، والمطبعة الأهلية فى القاهرة مجموعة من المطبوعات أثناء الاحتلال، منها:

١ - الحروف الهجائية العربية والتركية والفارسية التى تستعملها المطبعة الشرقية الفرنسية، تأليف: حنا يوسف مارسيل حجم صغير فى ١٦ صفحة طبع فى الإسكندرية فى سنة ٦ جمهورية. الثمن: على ورق عادى ١٦ ميدان، وعلى ورق ممتاز ٢٤ ميدان.

٢ - تمارين فى المطالعة العربية (مختارات من القرآن) يستعملها أولئك الذين يدرسون اللغة العربية، تأليف: يوحنا يوسف مارسيل، حجم صغير فى ١٢ صفحة طبع فى الإسكندرية فى سنة ٦ جمهورية. الثمن: على ورق عادى ١٢ ميدان، وعلى ورق ممتاز ٢٠ ميدان.

٣ - Le Courrier de l'Egypte «البريد المصرى» جريدة سياسية طبعها مارك أوريل تظهر كل خمسة أيام فى القاهرة من مطبعة المواطن مارك أوريل بالنسبة للأعداد الثلاثين الأولى طبعت بعد ذلك فى المطبعة الأهلية ظهر منها مائة وستة عشر عدداً وظهر العدد الأول فى ١٢ فركتيدور سنة ٦ الموافق الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧٩٨م، وظهر العدد الأخير فى ٢٠ بريريال سنة ٩ وكان العدد منها فى أربع صفحات. الثمن المحدد ستة ميدان.

٤ - بيان الأحداث التى حدثت فى أوروبا أثناء الأشهر الأربعة الأولى.

٥ - La Décade Egyptienne «العشرية المصرية» صحيفة للآداب والاقتصاد السياسى. ظهر المجلد الأول فى القاهرة صادراً عن المطبعة الأهلية سنة ٧ من عهد الجمهورية الفرنسية. وهذه الصحيفة معدة للظهور كل عشرة أيام، وكانت صحيفة أدبية محضة لا يقبل فيها أى خبر أو أى جدل سياسى، ولكن يرحب على صفحاتها بكل شىء يتصل بمجال العلوم أو الفنون أو التجارة من حيث صلاتها العامة والخاصة أو التشريع المدنى والجنائى أو المنظمات المعنوية أو الدينية. وكل عدد من هذه الصحيفة مكون من أربع ورقات صغيرة وتبلغ قيمة الاشتراك تسعة جنيهات.

٦ - «التقويم السنوى للجمهورية الفرنسية محسوباً بالنسبة للقاهرة فى السنة الثامنة من العهد الفرنسى» ظهر فى القاهرة من المطبعة الأهلية فى ١٠ نيفوز سنة ٨ الموافق الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر سنة ١٧٩٩م، وهذا التقويم وُضع مشابهاً لتقويم باريس وضعته لجنة خاصة من المجمع المصرى.

نشأة المطبعة

بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر فى سنة ١٨٠١م، عمت الفوضى البلاد، حيث ظهر على المسرح السياسى ثلاث قوى تتنازع السلطة فيما بينها، فالأتراك من جهة يريدون إعادة البلاد إلى قبضتهم بعد أن انفلت عقدها فى ظل وجود المستعمر الفرنسى، والمماليك يسعون إلى استعادة سيادتهم التى فقدوها بدخول الفرنسيين، ووقف الشعب المصرى بين هاتين القوتين يريد استرداد بلاده من يد المغتصبين. واستطاع محمد على فى نهاية المطاف أن يصعد إلى سدة الحكم بعد صراع دام أربع سنوات، حيث استطاع أن يوطد أركان حكمه بتأييد من الشعب.

وبدأ يفكر فى بناء بلد

سعى محمد على لإدخال الطباعة إلى مصر منذ ١٨١٥، حينما عزم على إنشاء جيش يُحكم به سلطته على البلاد

قوى سواء من الناحية السياسية أو من الناحية العسكرية، وفى الوقت ذاته يعتمد على اقتصاد قوى وخلفية حضارية تمكنه من الحفاظ على إنجازاته، فبدأ بإنشاء المؤسسات على النمط الأوروبى الحديث. من بين المشروعات التى احتاج إليها فى مسيرته التنموية إنشاء مطبعة تنشر كل ما يراه مناسباً لاستقرار دولته.

بدأ محمد على يفكر فى إدخال الطباعة إلى مصر منذ عام ١٨١٥م، حينما بدأ يفكر فى إنشاء جيش نظامى يُحكم به سلطته على البلاد. إذ كان لابد لهذا الجيش من كتب يتعلم فيها أصول الحرب والخطط الحربية، وأنواع الأسلحة المختلفة. فما كان من محمد على إلا أن أصدر أوامره بإنشاء مطبعة بولاق فى عام ١٨٢٠م لطباعة ما يلزم من كتب قوانين وتعليمات.

لقد اختلفت الآراء والروايات التى صيغت حول الأسباب التى أدت إلى إنشاء مطبعة بولاق. فجورجى زيدان يقول: «إن محمد على سمع فى مصر عن مطبعة الحملة الفرنسية ورأى بعض آثارها فجدد تلك الآثار وأحياها فيما عُرف باسم «مطبعة بولاق»، بينما يقول رينو «إنه أراد أن يقلد مطبعة القسطنطينية التى أنشئت قبل ذلك بقرن من الزمان فأنشأ مطبعة فى بولاق ليحاكى تلك المطبعة»، فى حين يقول بيرون: «إن الباشا لما أنشأ المدارس المتعددة وجد الحاجة إلى مطبعة تنشر ما يحتاج إليه التلاميذ والطلاب من الكتب المدرسية فأنشأ مطبعة فى بولاق، هذا بينما كان لجيز رأى مختلف حيث يقول: «إن محمد على كان متأثراً بالتقدم المادى فى أوروبا فرأى أن تقدم الأحوال فى مصر لا يأتى إلا عن طريق الشعلة التى نشرت أضواء العلوم والمعارف فى أوروبا وهذه الشعلة ليست شيئاً سوى فن الطباعة، كما يرى أن السبب فى إنشاء المطبعة كان الرغبة فى طبع الكتب الشرقية القديمة التى عبث بها تقادم العهد، فأضاع الزمان معظمها وكاد يأتى على ما بقى مخطوطاً منها، ويعزو أيضاً إنشاء المطبعة إلى أن محمد على لما أسس مشروعاته الإدارية والتجارية كان من الضرورى أن يوجد بجانب هذه المصالح والمعامل مطبعة تطبع ما يلزم لها من السجلات.

ويرى أبوالفتوح رضوان أن أصحاب الرأى القائل بأن محمد على أنشأ مطبعته على أنقاض مطبعة بونابرت قد رجعوا بذلك إلى المقدمات بدلاً من النتائج، فالأدلة التاريخية كلها تثبت أن إحياء هذه الأنقاض لم يحدث وأن المطبعة المصرية نشأت مستقلة تماماً عن كل اتصال بالماضى، فالشرط الحادى عشر من معاهدة جلاء الفرنسيين عن مصر ينص على أن «جميع حكام السياسة وأرباب الحرف والصنائع وجميع الأشخاص المتعلقة بالفرنساوية يحصل عليهم سوية ما يحصل للعساكر الحربية وأن حكام السياسة وأرباب العلوم والصنائع يصحبون ويأخذون معهم الأوراق والكتب ليس التى تخصهم فقط، بل كل ما يرونه نافعاً لهم».

فهذا النص صريح فى أن للفرنسيين، وعلى وجه الخصوص أرباب العلوم والصنائع منهم الحق فى أن يأخذوا معهم كل ما يريدون سواء أكان مما أحضروه معهم من فرنسا أم مما نهبوه من نفائس مصر. ويؤيد هذا أن كتاب «نحو اللغة العربية العامية» وهو آخر مطبوعات الفرنسيين فى مصر بدئ فى طباعته بالمطبعة الأهلية بالقلعة، ثم أخلى الفرنسيون القاهرة فاستؤنف طبعه فى نفس المطبعة بالإسكندرية، ولكنه لم يتم طبعه أيضاً فوقف الطبع عند الصفحة ١٦٨ من الكتاب بجلاء الفرنسيين عن الإسكندرية.

من الثابت إذن أن الفرنسيين أخذوا مطبعتهم إلى الإسكندرية بعد الجلاء عن القاهرة، فهل نقلها محمد على من الإسكندرية إلى القاهرة بعد عشرين سنة وجددها؟ أما الرأى القائل بأن محمد على أنشأ مطبعته محاكاة لمطبعة القسطنطينية التى أنشئت قبل ذلك بقرن وأثمرت ثمرة طيبة فى ميدان العلم والأدب فيقول أبوالفتوح رضوان: «إن محمد على قبل مجيئه إلى مصر لم يكن عمله يتصل بالحركة العلمية والأدبية فى القسطنطينية، فقد كانت حياته فى ألبانيا حياة تاجر همه فى البيع والشراء، وكان أمياً فلم تكن معه وسائل الاتصال بالحياة العلمية والأدبية بدار الخلافة». فهذا الرأى على حد تعبيره لا يفسر إنشاء المطبعة إذ لابد من غرض يدفع الوالى إلى محاكاة مطبعة القسطنطينية: أما التقليد فى ذاته فلا يمكن أن يكون سبباً منطقياً ذلك أن التقليد لا يمكن أن يستمر، فصاحب هذا الرأى هو رينو الذى كان من المشتغلين بتاريخ مطبعة القسطنطينية، مما سهل عليه الاعتقاد بأن المطبعة المصرية لم تكن إلا تقليداً لتلك المطبعة ولا سيما أن مصر كانت ولاية تركية آنذاك.

أما عن رأى الدكتور بيرون الذى كان ناظراً لمدرسة الطب المصرية، والذى يرى أن المطبعة أنشئت فى أول الأمر لسد حاجة المدارس من الكتب ولطبع الكتب المدرسية، خاصة أن المطبعة قد نشرت الكثير من مؤلفاته ومترجماته، كما كانت تنشر كل ما تحتاجه مدرسته من الكتب وكل ما يؤلف أو يترجم أساتذتها من المؤلفات، فيرى أبوالفتوح رضوان أن هذا الرأى يجانبه الصواب، ويظهر هذا بمقارنة بسيطة بين تواريخ إنشاء أولى المدارس وبين تاريخ إنشاء المطبعة. إن أولى المدارس التى أنشأها محمد على كانت مدرسة الموسيقى العسكرية وكان تأسيسها فى سنة ١٨٢٤م، ولم تكن هذه المدرسة فى حاجة إلى كتب تطبع أو مطبعة تنشأ من أجلها، ومع ذلك فقد كان تأسيسها بعد تأسيس مطبعة بولاق بأربع سنوات، ثم أنشئت المدرسة التجهيزية الحربية فى قصر العينى سنة ١٨٢٥م أى بعد إنشاء المطبعة بخمس سنوات، ولم تنشأ مدرسة الطب التى عرفها الدكتور بيرون إلا فى عام ١٨٢٧م أى بعد إنشاء المطبعة بسبع سنوات فإنشاء المطبعة إذن أسبق من إنشاء المدارس.

صاحب المنح والمطبعة

اختلف كثير من المؤرخين حول تاريخ إنشاء مطبعة بولاق، لكن مصدرنا الأساسى فى هذا التاريخ هو اللوحة التذكارية التى علقت على باب المطبعة وقت إنشائها، وهى عبارة عن قطعة من الرخام طولها ١١٠ سنتيمترات وعرضها ٥٥ سنتيمتراً، وقد نقشت بحيث برزت عليها الأبيات الشعرية التالية باللغة التركية:

حالا خديو مصر محمد على وزير
أول نامدار دولت صاحب المنح
آثار بيحسابنه ضد أيلدى دخى
يا بدر دى أشبو مطبعة بى بويله يرفرح
هاتف سعيدة سويلدى تاريخ تامتى
دار الطباعة در بندكى مصدرى أصح

وترجمتها: «إن خديو مصر الحالى محمد على، فخر الدين والدولة وصاحب المنح العظيمة قد زادت مآثره الجليلة التى لا تعد بإنشاء دار الطباعة العامرة وظهرت للجميع بشكلها البهيج البديع، وقد قال الشاعر سعيد إن دار الطباعة هى مصدر الفن الصحيح».

وفيها تاريخ لهذا الإنشاء، ولم نعثر على وثيقة أخرى تقوم مقامها. نُقش على هذه اللوحة الرخامية ثلاثة أبيات من الشعر، ويتضمن الشطر الأخير منها بحساب الجُمل تاريخاً نقش صراحة فى أسفلها، هذا التاريخ هو سنة ١٢٣٥هـ وهذا يثبت أن المطبعة قد أنشئت فى تلك السنة. ويوافق أول المحرم من سنة ١٢٣٥هـ بالتاريخ الميلادى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨١٩م، ويوافق آخر ذى الحجة منها ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٢٠م، وعلى ذلك يمكننا أن نتخذ أواخر سنة ١٨١٩م من ٢٠ أكتوبر والجزء الأول من سنة ١٨٢٠م إلى ٢٧ سبتمبر على أنها الفترة التى فيها إما بدأت أو انتهت إقامة البناء الذى كانت فيه مطبعة بولاق.

على أن فكرة المطبعة لم تولد فى هذا التاريخ، بل إنها سابقة له بكثير، فقد أوفد نيقولا المسابكى فى بعثة إلى إيطاليا ليتعلم فن الطباعة فى سنة ١٨١٥م فإلى هذا التاريخ يرجع التفكير فى إنشاء مطبعة بولاق.

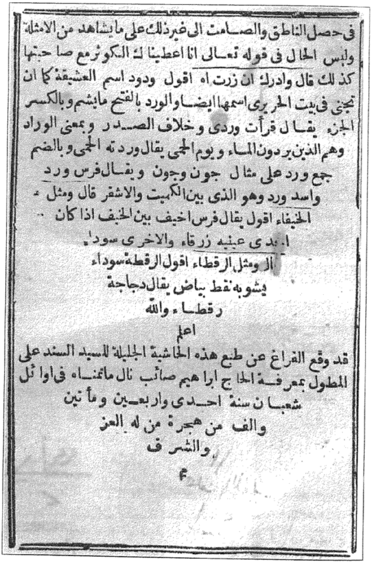
أما عن تاريخ أول إصدارات المطبعة، فمن الثابت مما تحت أيدينا من الوثائق أن أول كتاب أصدرته مطبعة بولاق هو قاموس للغتين العربية والإيطالية من وضع الراهب روفائيل. ولهذا القاموس صفحة للعنوان ذكر فى أسفلها أن تمام طبعه كان فى سنة ١٢٣٨هـ. وله صفحة للعنوان باللغة الإيطالية ذكر فى أسفلها أن تمام طبعه كان فى سنة ١٨٢٢م ويستفاد من هذا أن أول إصدارات بولاق تم طبعه فى سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٢م، والسنتان لا تتداخلان إلا فى المدة من ١٨ سبتمبر إلى آخر ديسمبر من سنة ١٨٢٢م، وعلى ذلك يكون الكتاب قد صدر فى أثناء هذه المدة التى تبلغ ثلاثة أشهر ونصف تقريباً.

وقد ذكر أول اسم للمطبعة فى اللوحة التذكارية لإنشائها، حيث ورد ذكر اسمها «دار الطباعة» كما ورد فى البيت الثالث من هذه اللوحة.

هاتف سعيدة سويلدى تاريخ تامتى
دار الطباعة در بندكى مصدرى أصح

ثم نجد فى أول مطبوعاتها، وهو القاموس العربى الإيطالى أن اسمها فى الجزء العربى من القاموس «مطبعة صاحب السعادة» إذ كتب فى أسفل أولى صفحات هذا الجزء: «تم الطبع فى بولاق بمطبعة صاحب السعادة»، واسمها فى

أول كتاب أصدرته مطبعة بولاق هو قاموس للغتين العربية والإيطالية من وضع الراهب روفائيل


في حصل الناطق والصامت الى غيرذلك على مايشاهد من الامثلة
ولبس الحال في قوله تعالى انا اعطيناك الكوثر مع صاحبتها
كذلك قال وادرك ان زرت اه اقول وودود اسم العشيقة كما ان
نجلي في بيت الحريري اسمها ايضا والورد بالفتح مايشم وبالكسر
الجزء يقال قرأت وردي وخلاف الصدر وبمعنى الوراد
وهم الذين يردون الماء ويوم الحمى يقال وردته الحمى وبالضم
جمع ورد على مثال جون وجون ويقال فرس ورد
واسد ورد وهو الذي بين الكميت والاشقر قال ومثل
الخيفاء اقول يقال فرس اخيف بين الخيف اذا كان
احدى عينيه زرقاء والاخرى سوداء
ومثل الرقطاء اقول الرقطة سوداء
يشوبه نقط بياض يقال دجاجة
رقطاء والله
اعلم
قد وقع الفراغ عن طبع هذه الحاشية الجليلة للسيد السند على
المطول بمعرفة الحاج ابراهيم صائب نال مانمناه في اوائل
شعبان سنة احدى واربعين ومأتين
والف من هجرة من له العز
والشرف

كتاب «حواشى السيد على المطول» الصفحة الأخيرة. وقد طبع الكتاب على نفقة أحد الملتزمين، وطبع فى تاريخ مبكر من عمر مطبعة بولاق سنة ١٢٤١هـ - ١٨٢٦م



كتاب «ألف ليلة وليلة» طبع عام ١٢٧٩م. يعتبر من الإصدارات المهمة لمطبعة بولاق، مرة أخرى تغير اسم المطبعة ليصبح «مطبعة عبدالرحمن رشدى ببولاق»، وذلك بعد أن وهبها الوالى محمد سعيد باشا إلى عبدالرحمن رشدى. وجدير بالذكر أن عبدالرحمن رشدى أعاد ترتيب أوضاع المطبعة، وأصدر مجموعة كبيرة من الكتب المهمة. نلاحظ أيضاً الزخرفة والتزيين لصفحة الغلاف الداخلى للكتاب

الجزء الإيطالى هو «المطبعة الأميرية»، إذ كُتب فى أسفل صفحته الأولى بالخط الكبير كلمة «Bolacco» ثم تحتها بالخط الصغير «Dalla Stamperia Reale» لا يهمنا فى هذا المقام سوى أن الاسم الثابت هو «بولاق»، ففى الجزء العربى وردت بولاق قبل اسم المطبعة، وفى الجزء الإيطالى نجد كلمة «Bolacco» بالخط الكبير فى سطر مستقل فكأن اسم «بولاق» ارتبط بالمطبعة من أول الأمر، ثم نجد أسماء للمطبعة تشبه هذين الاسمين، فبعض السياح كان يسميها «المطبعة الأميرية» Imprimerie Royale كما جاء فى مقالة نشرت بالمجلة البريطانية فى سنة ١٨٢٥م.

لكن نجد أن اسمها فى الأوراق الرسمية هو «مطبعة بولاق» حيث إننا نجد الأمرين الصادرين بشأن ضم مخزن التجارة القديم إلى المطبعة وبناء رصيف لوقايتها من فيضان النيل وردت باسم «مطبعة بولاق» فيمكننا إذن أن نرى أن اسم المطبعة الرسمى هو «مطبعة بولاق» وأن ما تُسمى به من غير ذلك تكون عادة أسماء واردة فى كتابات غير رسمية، فقد تكون أحياناً على شكل خبر أو إعلان فى الوقائع المصرية، وقد تكون أحياناً أخرى على شكل تأريخ لانتهاء طبع كتاب فى آخره وفى مقدمته وفى هذه الأحوال غير الرسمية يختلف اسم المطبعة باختلاف تفنن الكاتب فى التعبير، إلا أننا نجد ذكراً فى كل الأحوال لبولاق، ثم يضاف إليها عدة أوصاف تختلف باختلاف تفنن الكاتب فى التعبير مثال ذلك «دار الطباعة العامرة الكائنة ببولاق مصر المحروسة القاهرة» كما ورد فى أحد أعداد الوقائع أو «مطبعة صاحب السعادة ببولاق» كما جاء فى آخر كتاب «مراح الأرواح» أو كما كتب فى أول عدد من الوقائع المصرية «مطبعة صاحب الفتوحات السنية ببولاق مصر المحمية» أو «مطبعة صاحب السعادة الأبدية والهمة العلية الصفية التى أنشأها ببولاق مصر المحمية صانها الله من الآفات والبلية»، كما جاء فى ختام قانون نامة السفرية الجديدة إلى غير ذلك من ضروب التفنن فى التعبير التى يقصد بها تسمية المطبعة وتعظيم مؤسسها والدعاء لها وله.

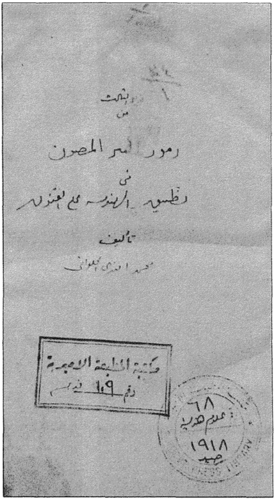
نشأت مطبعة بولاق نشأة بسيطة ولم يتوقع المشرفون عليها ما يستلزم وضع لائحة لتنظيم العمل بها

وعلى ذلك فإن اسمها الرسمى التاريخى هو «مطبعة بولاق».

فى ١٨ يولية ١٨٦١م أدار نوحى أفندى المطبعة لحسابه الخاص عندما قرر سعيد باشا غلقها لتعرضه لأزمة مالية. وفى عام ١٨٦٢م أهداها سعيد باشا إلى عبدالرحمن رشدى فتغير اسمها إلى «مطبعة عبدالرحمن رشدى ببولاق»، ثم عاد اسمها وتغير إلى «المطبعة السنية ببولاق» أو «مطبعة بولاق السنية»، وذلك فى عهد الخديو إسماعيل، حيث ظلت المطبعة بعيدة عن قبضة الحكومة المصرية.

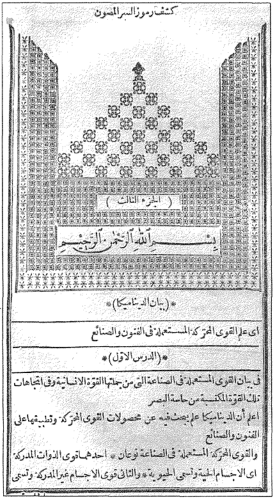
فى عهد الخديو توفيق تغير اسمها للمرة الثالثة ليصبح «مطبعة بولاق الأميرية»، ثم فى عام ١٩٠٣م تغير إلى «المطبعة الأميرية ببولاق»، وفى عام ١٩٠٥ أصبح اسمها «المطبعة الأميرية بالقاهرة». وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م اهتمت حكومة الثورة بضرورة الاهتمام بالمطبعة الأميرية.

ففى عهد الرئيس جمال عبدالناصر أنشئت وزارة الصناعة فى عام ١٩٥٦م، وصدر قرار رئيس الجمهورية بإنشاء هيئة عامة للمطابع تلحق بوزارة الصناعة يطلق عليها «الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية»، وتكون لها شخصية اعتبارية، وتختص بإدارة المطبعة الأميرية والمطابع التابعة لها، وجميع المطابع الحكومية الأخرى التى تضم لها بقرار من رئيس الجمهورية.



رموز السر المصون فى تطبيق الهندسة على الفنون

تأليف



كشف رموز السر المصون

(الجزء الثالث)

بسم الله الرحمن الرحيم

(بيان الديناميكا)

اى علم القوى المحركة المستعملة فى الفنون والصنائع

(الدرس الاول)

فى بيان القوى المستعملة فى الصناعة التى من جملتها القوة الانسانية وفى اتجاهات تلك القوة المكتسبة من حاسة البصر

اعلم أن الديناميكا علم يبحث فيه عن محصولات القوى المحركة وتطبيقها على الفنون والصنائع

والقوى المحركة المستعملة فى الصناعة نوعان ۞ احدهما قوى الذوات المدركة اى الاجسام الحية وتسمى الحيوية ۞ والثانى قوى الاجسام غير المدركة وتسمى

كتاب «رموز السر المصون فى تطبيق الهندسة على الفنون» من تأليف محمد الحلوانى، طبعة عام ١٢٦٨هـ / ١٨٥١م. كان تنوع موضوعات الإصدارات السمة المميزة لنشاط المطبعة. الغلاف الخارجى.

سياسة العمل بالمطبعة

لم يكن لمطبعة بولاق أى لائحة أو قانون وقت إنشائها لأن اللوائح والقوانين وما يجرى مجراها لا تكون وليدة الحاجة، وقد نشأت مطبعة بولاق نشأة بسيطة ولم يتوقع المشرفون عليها ما يستلزم وضع لائحة أو قانون لتنظيم العمل بها. لكن سرعان ما تعقدت أحوال المطبعة، ودعت إلى سن القوانين الخاصة بها، وتحديد سياسة للطبع بها ووضع نظام للرقابة على مطبوعاتها.

ارتبط إصدار هذا القانون بحادثة معينة كما جاء فى مذكرات بروكى: «كان من بين مدرسى مدرسة الفنون ببولاق مدرس إيطالى اسمه «بيلتى» وكان قد نظم قصيدة طويلة سماها «ديانة الشرقيين» طعن فيها كثيرًا فى الدين الإسلامى، وأظهر له وكان فى الكتاب ما يغرى بالإلحاد وما ينتقص من احترام علماء الدين. وقد اتفق بيلتى سرًا مع نيقولا المسابكى ناظر مطبعة بولاق على طبعها بالمطبعة ووافق المسابكى وتعهد له بذلك مع علمه بمنافاة ذلك للتقاليد واحترام الدين، فقد شجعه عليه عدم وجود قانون لمراقبة المطبوعات. قال الراوى: وكان «سولت» قنصل إنجلترا فى مصر وقتئذ عدوًا للناظم الإيطالى فرأى فى هذا العمل مناسبة للإيقاع به فنقل إلى الباشا خبر ذلك الكتاب وكشف له عن طبعه بالمطبعة الإسلامية وأظهره على خطره، وإلحاد معانيه وفحش ألفاظه بدرجة يستحيل معها أن توافق أى سلطة أوروبية - فضلاً عن سلطة إسلامية - على طبعه. قال: «فأمر الباشا بمخطوط الكتاب فألقى به فى النار، وغضب الباشا على المسابكى غضبًا شديدًا وكاد أن ينزل به عقابًا يتناسب مع حجم جرمه ولولا توسط عثمان أفندى نور الدين لأنزل به أذى كبيرًا» لذلك أصدر محمد على باشا أمرًا بتاريخ ١٣ يولية سنة ١٨٢٣م/ ٤ ذو القعدة سنة ١٢٣٨هـ يحرم على كل الأوروبيين طبع أى كتاب فى مطبعة بولاق إلا إذا استصدر مؤلفه أو ناشره إذنًا خاصًا من الباشا بطبعه. وفرض عقابًا شديدًا على كل من يخالف هذا الأمر. ذلك هو القانون الأول للرقابة على المطبوعات فى مصر والمناسبة التى أدت إليه.

جدير بالذكر أن محمد على كان شديد العناية والحرص على أختام الأسرة المالكة، والتى كانت تستخدم فى مهر الوثائق الرسمية؛ لذا كانت لديه خزانة حديدية تستخدم فى حفظ أختام الأسرة المالكة الخاصة بالمطبعة، وكذلك الأقلام والمتاريس الخاصة بماكينات السبك، كما كان يوجد بهذه الخزانة المفتاح الخاص بها وعليه حرف «م» الذى يرمز إلى محمد على باشا.

وإذا كان هذا القانون هو أول قانون للرقابة على المطبوعات فى مصر فهو أيضًا آخر قانون من نوعه فى عهد محمد على باشا، فقد صدر فى تاريخ مبكر جدًا من حياة المطبعة وظل معمولاً به طول عهد محمد على باشا ولم يصل من بعده أى قانون آخر، وذلك لأن الحاجة لم تستدع ذلك، فقد نفذ القانون ببساطة فى مطبعة بولاق وروعى أيضًا وعمل به فى المطابع الحكومية الأخرى التى أنشئت فى عهد محمد على كما يجىء

أمر الباشا بمخطوط الكتاب فألقى به في النار، وغضب على المسابكي غضباً شديداً

في فصل متأخر ولم يصدر قانون آخر من هذا النوع إلا عندما أنشئت المطابع الخاصة بالأفراد في عهد سعيد باشا، مما أدى إلى إصدار ثاني قوانين الرقابة على المطبوعات في مصر في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٧٥هـ - أول يناير سنة ١٨٥٩م وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

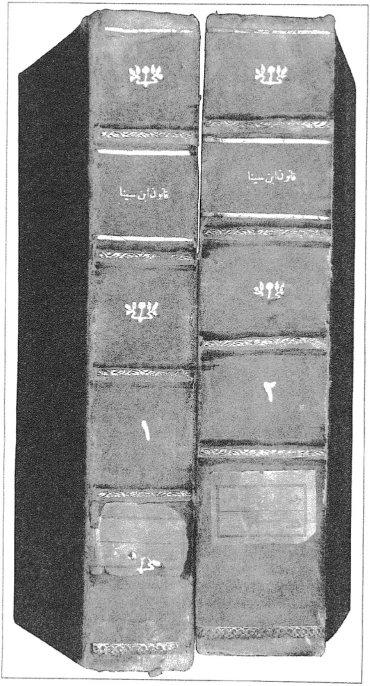
والأصل في مطبعة بولاق أنها كانت مطبعة حكومية أنشئت خصيصاً لطبع ما يحتاجه الجيش من التعليمات والقوانين وكتب الفن الحربي، تطبع على نفقة الحكومة ثم توزع على من كانوا في حاجة إليها؛ فالأصل في الطبع بالمطبعة إذن أنه كان على نفقة الحكومة والأصل في مطبوعاتها كانت حكومية.

ولكننا نجد في بعض المصادر ما يثبت أنه كان في المطبعة نوع آخر من الطبع كان يتم على نفقة أشخاص من الأهالي ممن لهم اهتمام بطبع الكتب والتجارة فيها وكان هؤلاء يسمون: «الملتزمون» ورد في باب الإعلانات من أحد أعداد الوقائع المصرية الإعلان التالي:

«إن بعض كتب الملتزمين الجاري طبعها في دار الطباعة العامرة الكائنة ببولاق مصر القاهرة قد تم في هذه الأيام وبقيت بعض الملازم خالية فمن أراد طبع كتب على ذمته بثمن هين في مدة فعليه بالذهاب إلى نحو المطبعة المذكورة».

ونحن لا نعرف متى ولا كيف ابتدأ الطبع في المطبعة لحساب الملتزمين، كذلك لا نعرف أول ملتزم طبع كتاباً على نفقته بالمطبعة، ولا المناسبة التي أوجدت ذلك النوع الجديد من الطبع، وأقدم نص عندنا ورد فيه ذكر لطبع كتاب على نفقة شخص يرجع تاريخه إلى سنة ١٨٣٩م وهو خطاب الدكتور «بيرون» ناظر مدرسة الطب المصرية أرسله إلى المسيو «جول مل» جاء فيه: «سبق أن راسلتك في مشروع طبع كتاب «أخبار الشعراء الجاهليين» وقد عزمت الآن على طبع هذه الأخبار التي وردت عن أولئك الشعراء في كتاب الأغاني هنا في بولاق.. وربما طبعت فيها أيضاً قاموس الفيروزابادي».

وفي كلتا الحالتين يتضح أن نظام طبع الكتب الخاصة بالجيش في مطبعة بولاق هو أن يصدر الباشا أولاً أمراً بالترجمة والطبع أو بالطبع فقط، وقد يكون صدور هذا الأمر بناء على رغبة خاصة منه في طبع كتاب أو قانون، أو قد يكون بناء على طلب من ديوان الجهادية يرد عليه الباشا بإصدار أمر طباعة



كتاب «قانون ابن سينا» هو فيلسوف وفيزيائي عربي - فارسي عاش في القرون الوسطى ودوّن مخطوطات عديدة أشهرها: «القانون في الطب». وهو موسوعة جامعة لخلاصة علم الطب عند الإغريق والرومان، من أشهر أعماله التي خلّدت ذكره على مر العصور. كتاب «القانون في الطب» وهو موسوعة منهجية اعتمدت في معظمها على خلاصة الفيزياء الطبية الإغريقية في عصر الإمبراطورية الرومانية إضافة إلى الأعمال العربية.

الكتاب. وفي أغلب الأحيان ينص الأمر على عدد النسخ اللازمة منه وبعد صدور أمر الباشا بالطبع يصبح واجباً على المطبعة أن تقوم بذلك في أقصر مدة ممكنة وتقدم النسخ المطلوبة من الكتاب.

أما الكتب الخاصة بالمدارس فإن كانت خاصة بالمدارس العامة والأولية: فيصدر أمر الباشا مباشرة إلى وكيل الجهادية أو رئيس ديوان المدارس بطبع الكتاب مع تحديد عدد النسخ التي تطبع. وبصدور هذا الأمر تطبع النسخ المطلوبة من الكتاب في المطبعة.

أما إذا كان الكتاب خاصاً بمدرسة من المدارس الخصوصية كمدرسة الطب البشري أو مدرسة الطب البيطري أو إحدى المدارس الحربية، اتبع في طبع الكتاب نظام آخر، وذلك لأن هذا النوع من الكتب لا يحسن تقديره رجال الحكومة، وإنما يحسنه أساتذة المدارس فهم أعرف بما يلائم التلاميذ، وما يحتوي كل كتاب من القدر الكافي من المعلومات، وعلى ذلك كان النظام المتبع يرجع إلى أساتذة كل مدرسة من المدارس لاقتراح ترجمة كتاب وطبعه، ثم يعرض على ناظر المدرسة الذي يعرضه بدوره على لجنة من أساتذة المدرسة تنظر فيه فإن ظهرت فائدته قررت ترجمته وطبعه.

وكما يحدد الأمر بطبع كتاب عدد النسخ التي تطبع منه فإنه يحدد كذلك نوع الطبع إن كان على مطبعة الحروف أو على مطبعة الحجر. ولما كان أغلب الطبع على مطبعة الحروف، فقد أهمل ذكره في الأوامر، وإنما هذا يتضح في أوامر طبع كتاب على مطبعة الحجر فقد كان يشار إليه كما حدث في طبع مقامات في فن الموسيقى. وبعد الانتهاء من طباعة النسخة الأولى من الكتاب يتم تسليم نسخة منه إلى مصدر أمر الطباعة كبروفة ليتم مراجعتها.

وهناك نوع آخر مما كان يطبع على نفقة الحكومة وهو القوانين وما يشبهها وكان يصدر بها أيضاً أمر من الباشا إلى من بيده رئاسة المطبعة، من ذلك أمر من محمد علي باشا إلى وكيل الجهادية موجزه:

يطبع مقدار وافر من قانون الاستبدليات «المستشفيات» التي تمت ترجمته بعد تنقيحه وموافقته لأصول الحكومة.

وكان لابد للملتزم الذي يريد أن يطبع كتاباً أن يستصدر أمراً من الباشا بطبع كتابه في

كان لابد للملتزم الذى يريد أن يطبع كتابًا أن يستصدر أمرًا من الباشا بطبع كتابه فى مطبعة بولاق

مطبعة بولاق، وهذا هو أساس طبع الكتب على نفقة الملتزمين فى المطبعة، فلم يكن يمكن بحال أن يطبع كتاب لملتزم فى المطبعة من غير صدور هذا الأمر.

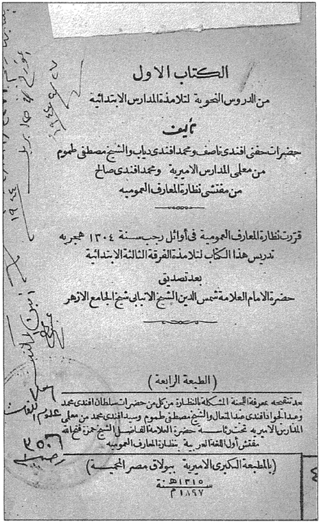
فالمرحلة الأولى لطبع الكتب على نفقة الملتزمين هى صدور أمر من الباشا كشرط أساسى أولى لطبع أى كتاب على نفقة ملتزم بمطبعة بولاق، وليس ذلك إلا تنفيذًا لقانون ١٣ يولية سنة ١٨٢٣م الخاص بمراقبة المطبوعات وعرض الكتاب المراد طبعه وصدور أمر بطبعه معناه فحص الكتاب وتطبيق سياسة المطبعة عليه وظهور موافقته للدين وعدم مساسه بسياسة الحكومة. فإذا ظهرت براءة الكتاب مما يمس الدين والأخلاق وسياسة الدولة صدر أمر الوالى بطبعه.

المحاسبة بين الملتزمين والمطبعة

تأتى بعد ذلك المرحلة الثانية وهى تقدير نفقات الطبع، وأثمان المواد، أو بعبارة أخرى كيف يتم الحساب بين الملتزمين والمطبعة وما هو النظام المتبع إلى أن يخرج الكتاب من المطبعة؟

يذكر أبوالفتوح رضوان نقلا عن بيرون أن الملتزم بعد أن يستصدر أمرًا من الوالى بطبع كتاب بالمطبعة يقدمه إلى ديوان المدارس، ويقدم معه طلبًا يبين فيه الشكل الذى يريد أن يصدر فيه الكتاب، وصفات الطبع التى يجب أن يظهر الكتاب بها. فعلى سبيل المثال يبين حجم الكتاب إن كان يريده من الحجم المعتاد أى ثمانى بوصات أو صغيراً أربع بوصات، كما يبين عدد السطور التى تكون فى الصفحة الواحدة وهذا العدد يجب أن يكون مزدوجًا دائمًا، ويبين أيضًا نوع الحروف التى يريد أن يكتب الكتاب بها وهى عادة الحروف النسخية للمتن والحروف الفارسية للعناوين، اللهم إلا إذا كان الكتاب فارسيًا مثل «كلستان» فإنه يطبع كله متنًا وعناوين بالحروف الفارسية. فيذكر ما يوافقه من ذلك، ثم يحدد فى الطلب أيضًا عدد النسخ التى يريد أن يطبعها من الكتاب.

وعندما يتفق على هذه الاقتراحات الأولية ويستقر الرأى عليها بين الملتزم والمطبعة عن طريق الديوان تطبع صفحة من الكتاب، وذلك لتقدير ما تسعه الصفحة من مادة الكتاب من جهة، ومن جهة أخرى لإثبات نوع الورق وكيفية



الكتاب الاول

من الدروس النحوية لتلامذة المدارس الابتدائية

تأليف

حضرات حفنى افندى ناصف ومحمد افندى دياب والشيخ مصطفى طموم

من معلمى المدارس الاميرية ومحمد افندى صالح

من مفتشى نظارة المعارف العموميه

قررت نظارة المعارف العمومية فى أوائل رجب سنة ١٣٠٤ هجريه

تدريس هذا الكتاب لتلامذة الفرقة الثالثة الابتدائية

بعد تصديق

حضرة الامام العلامة شمس الدين الشيخ الانبابى شيخ الجامع الازهر

(الطبعة الرابعة)

بعد تنقيحه بمعرفة اللجنة المشكلة بالنظارة من كل من حضرات سلطان افندى محمد وعبد الجواد افندى عبد المتعال والشيخ مصطفى طموم وسيد افندى محمد من معلمى المدارس الاميريه تحت رئاسة حضرة العلامة الفاضل الشيخ حمزة فتح الله مفتش أول اللغة العربية بنظارة المعارف العموميه

(بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحميه)

سنة ١٣١٥ هـ

١٨٩٧ م

كتاب «الكتاب الأول من الدروس النحوية لتلامذة المدارس الابتدائية» لمؤلفه حفنى ناصف. طبع بالمطبعة فى عام ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٧م. وتم شراء هذا الكتاب لحساب مكتبة المطبعة الأميرية فى عام ١٩٤٤م بمبلغ ٢٠٠ مليم طبقًا لتقدير دار الكتب المصرية، على حسب ما ورد بهامش الكتاب.

الطبع التى سيجرى العمل عليها فى طبع الكتاب، وبواسطة هذه الصفحة يقدر عدد صفحات الكتاب على وجه التقريب.

أما حساب نفقات الطبع التى ستتقاضاها المطبعة من الملتزم فيتم بحساب ثمن الورق الذى سيستعمل فى طبع الكتاب، وهذا ممكن بعد أن يُقدر عدد صفحاته تقديرًا تقريبيًا كما سبق القول، وكذلك يقدر ثمن ما يستهلك من المداد فى طبعه، ثم تحدد مدة الانتهاء من طبع الكتاب ويكون تحديدها عادة بالنسبة لحجمه، فمدة الطبع دائمًا ما تتناسب مع حجم الكتاب، وعلى هذه الأسس كلها يجرى تقدير النفقات فتحسب مرتبات موظفى المطبعة الذين سيشتغلون فى طبع الكتاب فى المدة المقدرة لطبعه، ويضاف إلى مجموع هذه المرتبات ما سبق تقديره من المواد المستهلكة كالورق والمداد، ثم يضاف إلى مجموع هذا كله رسوم طباعة الكتاب التى يدفعها الملتزم للديوان.

فعلى سبيل المثال لو أن كتابًا قدر أن طبعه يستغرق مدة ثلاثة شهور، فإن الديوان يحسب مجموع مرتبات موظفى المطبعة الذى سيعملون فى طبعه مدة ثلاثة أشهر، فيحسب مرتب ناظر المطبعة فى هذه المدة ومرتبات المصححين والمحررين والصفافين والطباعين وعمال النقل ومرتبات كل من سيشترك فى طبع الكتاب كل ذلك لمدة ثلاثة شهور، ثم يضاف إلى مجموع كل هذه المرتبات ما سبق تقديره من ثمن الورق والمداد وغيرها من المواد المستهلكة ومجموع هذا كله هو النفقات التى سيدفعها الديوان إلى أن يخرج الكتاب من المطبعة (أى أن الديوان لم يكسب شيئًا إلى هذا الحد) قال:

«فإذا بلغت هذه النفقات كلها ١٢٠٠٠ قرش فإن الديوان يضيف إليها نسبة معينة هى قيمة ربح الحكومة وعلى ذلك تصبح النفقات الكلية ١٨٠٠٠ قرش وهو ما يدفعه الملتزم نظير طبع الكتاب؛ وقال: ثم إذا ما تبين بعد طبع الكتاب أنه استهلك فيه مواد أكثر مما سبق تقديره بأن زاد عدد صفحاته عما قدر فى أول الاتفاق وزاد تبعًا لذلك ثمن الورق والمداد عما كان مقدرًا فإن هذه الزيادة تضاف إلى تلك النفقات، وإذا استغرق طبع الكتاب مدة أزيد مما كان مقدرًا له أضيف إلى النفقات أيضًا مرتبات الموظفين والعمال الذين عملوا فيه فى تلك المدة الزائدة وعلى هذا كان من صالح الملتزم أن يطبع الكتاب فى أقصر مدة حتى لا تكثر مرتبات الموظفين فيما سيدفعه من النفقات».

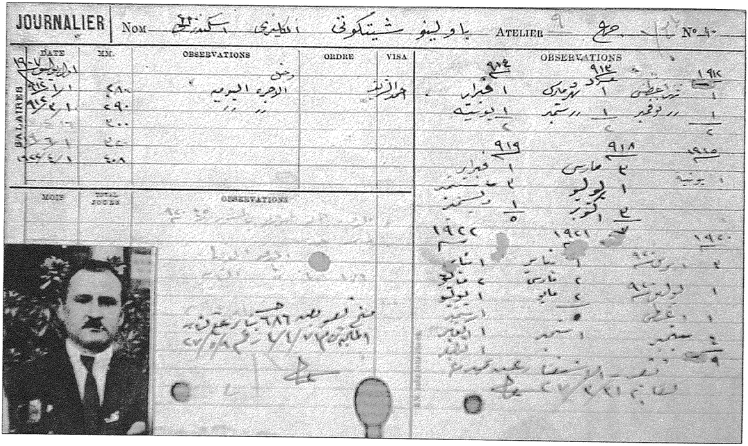
كما ذكر أبوالفتوح رضوان أن هناك أنواعًا أخرى من النفقات كانت تضاف إلى حساب الملتزم مثلما يستهلك من الحروف وأصناف المعادن الأخرى فى أثناء عملية الطبع.

ففى خطاب من الديوان إلى المطبعة ردًا على استفهام عما يتبع فى شأن عجز ظهر فى حروف القاعدة الجديدة بعد طبع كتابين يقول الديوان:

«والحال عن الأحرف القديمة التى ظهرت من تشغيل الكتابين المذكورين من القاعدة الجديدة مع العجز يجرى توزيعهم على الكتابين المذكورين حكم ما توضح بشرحكم الأول».

فالحروف التى تلفت والعجز الذى ظهر فيها أضيف ثمنها على الملتزم أو الملتزمين الذين طبع الكتابان لحسابهم، وعلى ذلك فكل عجز أو تلف يظهر فى حروف الطبع أو رقائق النحاس أو غير ذلك مما يستخدم فى طبع الكتب يضاف إلى حساب الملتزمين الذين يتم طبع هذه الكتب لحسابهم.

أدى اتساع طبقة الأفندية إلى ظهور بصماتها واضحة على مجال الطباعة والنشر، وكذلك الصحافة



بطاقة لأحد العاملين الأجانب بالمطبعة.. لاحظ الأرقام والأجور!!

فإن كان التلف والعجز خاصين بمدة طبع الكتب الخاصة بمجموعة من الكتب لعدد من الملتزمين جعل ثمن العجز والتلف «روكيه» أى مشاعاً بين الجميع وقسم بالتساوى عليهم.

فالحساب بين الملتزم والمطبعة إذن يتكون من ثمن المواد التى دخلت فى تشغيل كتابه من ورق ومداد وورق مقوى للتجليد، ثم من مرتبات الموظفين الذين اشتركوا فى عملية طبع الكتاب من ناظر المطبعة إلى جماعى الحروف والطباعين والمصححين والمجلدين، إلى الكتاب وعمال المخازن إلى الحمالين وبواب المطبعة، ثم من ثمن ما يستهلك أو يتلف أو ينقص من حروف الطبع والسبائك المعدنية وغيرها، ويضاف إلى جميع ما تقدم نسبة من جميع النفقات نظير ربح المطبعة وهى تتفاوت بين ٥٠٪ كما قرر بيرون و١٠٪ كما ورد فى الوثائق.

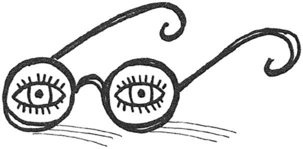
بدأت الطباعة بالعناية بالكتب الدراسية فى العلوم العسكرية والطبيعية، خاصة فى الطب والرياضيات جنباً إلى جنب مع كتب العلوم الإنسانية، خاصة تلك الأعمال التى عمد رفاعة الطهطاوى إلى ترجمتها، ويلاحظ أن ترجمة هذا النوع من المؤلفات قد نشط خلال الأربعينيات بعد أن تقلص الجيش المصرى، وتبرز أهمية هذه الترجمات فى أنها فتحت أكثر من باب فى اتجاه تكوين المثقف الجديد فى مصر ثقافة مدنية معاصرة.

غير أن الدور الذى قام به المثقفون «الأفندية» فى عملية التطوير والتحديث لم يسر على النحو المطلوب، ذلك أن غالبية أبناء هذه الطبقة قد شهدوا لوناً من الحبس أو الكبت بين أسوار خدمة الجيش، حيث انصرفت اهتماماتهم إلى العلوم العسكرية والطبية أو الطبيعية، بالإضافة إلى أن قاعدة الأفندية لم تكن قد اتسعت بالرغم من إنشاء وزارة للمعارف، وإرسال البعثات.

لكن عصر الخديو إسماعيل شهد اتساعاً فى قاعدة هذه الطبقة، وأصبحت هذه الطبقة تمثل ركيزة أساسية فى صناعة وتحديث المجتمع المصرى، فإلى جانب اضمحلال طبقة المشايخ والعلماء نمت هذه الطبقة بالتعليم الحديث، واكتسبت مكانة اجتماعية بمنح رجالها الإقطاعيات والامتيازات وتغلغلت فى دواوين الدولة وأجهزتها الإدارية التى وفرتها نظم وقوانين محمد على. فلقد توسعت الحكومة فى إنشاء المدارس بكافة أنواعها: الابتدائية، الثانوية، ومن أمثلة هذه المدارس: مدرسة المهندسخانة التى أنشئت عام ١٨٦٦ م بالعباسية، ومدرسة الحقوق التى أنشئت فى عام ١٨٦٨م، وكان اسمها مدرسة «الإدارة والألسن»، ومدرسة دار العلوم التى أسست فى عام ١٨٧٢م، وكان الغرض منها تخريج أساتذة للغة العربية، بالإضافة إلى مدارس الطب والولادة، والمدارس الصناعية، مدرسة (الفنون والصنائع ١٨٦٨م، ومدرسة التلغراف ١٨٦٨م، وفرقة النقاشين ١٨٦٩م، وفرقة عمليات المرور ١٨٧٠م) وكذلك المدارس الخصوصية (مدرسة المساحة والمحاسبة ١٨٦٨م، مدرسة اللسان المصرى القديم (اللغة المصرية القديمة) ١٨٦٩م.

أدى اتساع قاعدة طبقة الأفندية إلى ظهور بصماتها واضحة جلية على مجال الطباعة والنشر، وكذلك الصحافة، فمع ازدياد عدد المدارس التى أنشئت فى عهد الخديو إسماعيل، ازداد عدد المثقفين، مما أدى إلى التوسع الهائل فى كمية الكتب المطبوعة سواء من قبل الحكومة، أو من قبل الملتزمين. ■

كتاب قرأته 2007



ليس هذا استفتاء حول الأفضل، خصوصا أن العام الجديد يدخل شهره الثانى وقد مضى أوان الاستفتاءات من هذا النوع، لكن معرض القاهرة الدولى للكتاب فى دورته الأربعين قد يكون مناسبة لـ«جردة حساب» نجريها حول ما قرأنا فى عام مضى.

فى العدد الماضى قدمنا الأفضل من وجهتى نظر أمريكية وفرنسية، عبر ترجمة قائمة «نيويورك تايمز» ومجلة «لير»، وقد اختارت كل منهما طريقة وجدت أنها الأنسب للوصول إلى نتائج مقبولة، أو معبرة نسبيا عن سوق الكتاب، نيويورك تايمز أفسحت مجالا أمام عدد من النقاد الثقات لاختيارات مفتوحة حول الكتاب الأفضل، «لير» الفرنسية وضعت قائمة بمجالات حددتها وألزمت بها من انتدبتهم للاختيار، وكان بين مجالات الاختيار مثلا أحسن رواية جنسية وأحسن رواية بوليسية.

ما نقدمه هنا يمكن اعتباره استطلاعا يقدم فيه مثقفون ومتابعون للشأن الثقافى رؤاهم وانحيازاتهم، بعضهم - كما سنرى - حدثنا عن عشرة كتب، فيما آثر آخرون أن يتناولوا كتابا واحدا، الدكتور جلال أمين ، من جانبه اختار أن يحدثنا عن شىء مختلف: مقالات يومية لكاتبة يقدرها.

ونشير أخيراً إلى أننا وضعنا أسماء من طلبنا منهم اختيار قراءاتهم فى ٢٠٠٧ أبجديًا تقديراً منا لهم جميعًا وعرفانًا بالفضل.

الغـــزالـى



الأبرز ٢٠٠٧

● «عصر الثورة: أوروبا ١٧٨٩ - ١٨٤٨» - إريك هوبسباوم (منشورات المنظمة العربية للترجمة).

● فى انتظار صدور الترجمة العربية لثلاثية إريك هوبسباوم، التى باتت شهيرة الآن، حول تاريخ العصور الحديثة، يمكن قراءة هذه الترجمة للجزء الأول من الثلاثية، والصادرة عن «المنظمة العربية للترجمة» فى عنوان «عصر الثورة»، بوصفها أحد الأعمال الكبيرة الرائدة فى مجال التاريخ السياسى والاجتماعى لأزماننا هذه. الجزءان الآخران هما «عصر رأس المال» و«عصر الإمبراطورية».

● «ابن خلدون: البحر الأبيض المتوسط فى القرن الرابع عشر» (منشورات مكتبة الإسكندرية)

● لعل هذا الكتاب الصادر فى العربية عن منشورات مكتبة الإسكندرية، العمل الأفضل والأشمل الصادر عن صاحب «المقدمة» لمناسبة الاحتفالات الثقافية العالمية بذكراه. ذلك أنه فى مجموع دراساته قدم نظرة شاملة ليس إلى عمل ابن خلدون فقط، بل إلى زمنه وإلى المحيط الجغرافى العام الذى شمل اهتماماته: البحر الأبيض المتوسط. عمل مميز حتى وإن كانت المساهمات العربية فيه تبقى قارئ لغة الضاد على ظمئه.

● «ذكريات وأشواق»: لنجيب الريحانى (منشورات مهرجان القاهرة).

● لن يكون من المبالغة القول إن صدور هذا الكتاب، الذى كان غائباً منذ عقود، شكل واحداً من الأحداث الأساسية خلال انعقاد دورة ٢٠٠٧ لمهرجان القاهرة السينمائى الدولى. إذ مهما كان من شأن الكتب والدراسات التى سبق نشرها عن نجيب الريحانى، يظل مميزاً فى هذا الكتاب أنه يقدم لنا رائد الكوميديا العربية، وبقلمه، إنساناً من لحم ودم وعواطف، كما يرسم صورة شاملة لعصر ذهبى من الفن لم يكن للحدود الجغرافية مكان فيه.

● «لعنة القصر» لغسان شربل (منشورات رياض الريس).

● هذا الكتاب الذى صدر جامعاً حوارات أجريت قبل سنوات عدة، ونشرت فى صحيفة «الحياة» ومجلة «الوسط»، لرئيس تحرير «الحياة»، يمكن اعتباره واحدة من أفضل وأوضح المحاولات لفهم ما يحدث فى لبنان، الآن بالتحديد. ذلك أننا لسنا هنا أمام حوارات عادية أجريت، سؤالاً وجواباً، مع أربعة من أبرز صانعى السياسة فى لبنان الحديث، بل أمام سبر لأغوار أفكارهم وسبر لأغوار الوضع اللبنانى الراهن. هو فى اختصار درس فى الصحافة السياسية، كما فى الكتابة الشيقة التى لديها حقاً ما تقوله.

● «بيروت مدينة العالم - الجزء الثالث» لربيع جابر (دار الآداب).

● بهذا الجزء الثالث والأخير الذى صدر هذا العام، يكون الكاتب الروائى اللبنانى ربيع جابر قد أكمل ثلاثيته حول مدينة بيروت و«تاريخها» خلال القرنين الأخيرين. بيد أن على كلمة «تاريخ» ألا تخدعنا هنا. ذلك أن العمل روائى يتعامل مع شخصيات تتدفق حياتها على الصفحات أمامنا، وتقطع الأزمنة جيئة وذهاباً. مع هذا الجزء الثالث، لا شك فى أن كثيراً من القراء سيعودون إلى قراءة الجزءين الأولين لعمل يقطع الأنفاس ويقدم بيروت وأهلها كما لم يقدموا من قبل فى أى عمل روائى آخر.

● «فى قلب العاصفة» لجورج تينت (دار الكتاب العربى).

● حتى وإن كانت مذكرات السياسيين عاجزة دائماً عن أن تحمل الحقائق كلها، فإنها تُقرأ على الأقل بين السطور وربما لحجم المسكوت عنه فيها، أكثر مما لحجم ما تحمله. من هذا الصنف هذا الكتاب الهام الذى كتبه الرئيس الأسبق لـ «سى إن إن»، حول السنوات التى أمضاها فى هذه المؤسسة التى ـ فى الوقت نفسه ترصد ما يحدث فى العالم ـ تصنع أيضاً جزءاً كبيراً مما يحدث. ومن هنا أهمية فصول فى هذا الكتاب تتحدث عن «الحرب على الإرهاب» وإعصار ٩/١١ . وحرب أفغانستان وحرب العراق، إذ تروى لنا «من الداخل».

● «أثر الفراشة» لمحمود درويش (دار رياض الريس).

● نعرف منذ زمن بعيد أن هناك شاعرين عربيين حيين فقط، يشكل صدور كتاب لواحد منهما حدثاً ثقافياً يعيشه العالم العربى والقراء العرب كإضافة جديدة إلى الإبداع العربى. وهذان الشاعران هما محمود درويش وأدونيس. ومن هنا، طبعاً، الاحتفال بهذا الكتاب الجديد لمحمود درويش حتى وإن كان قد ضم ما سبق أن قرأوه من قبل فى صحف ومجلات وسمعوه فى بعض المناسبات.

● «قصر فى الغابة» لنورمان ميلر.

● كان الكثر يعرفون أنه مريض منذ زمن. ومع هذا حين أعلن خريف ٢٠٠٧ عن رحيل الكاتب الأمريكى نورمان ميلر، بوغت كثر بهذا الرحيل. ذلك أن «فتى الأدب الأمريكى المشاكس» هذا، كان من الحضور والصخب بحيث من الصعب تصوّر الحياة الأدبية الأمريكية - وربما العالمية أيضاً - من دونه. وهو إذ كان أصدر قبل وفاته بفترة قصيرة روايته «الأخيرة» هذه، كان من الطبيعى أن تُقرأ الرواية وتترجم إلى لغات عدة... ثم أن تعتبر وصية له، خصوصاً أن ميلر يدنو هذه المرة من موضوع وشخصية لطالما أرّقاه: ولادة الشر وأدولف هتلر.

● «وداعاً أيتها الاشتراكية» حوارات مع طونى نيغرى.

● واضح أن كل شىء هنا فى العنوان... وفى اسم المحاور. إذ حين يرضى منظّر الإرهاب اليسارى السابق فى إيطاليا ونزيل السجون الفرنسية والإيطالية حيث أمضى سنوات أثارت ضجيجاً، بأن يودّع الاشتراكية على هذا النحو، يصبح من الضرورى إعادة النظر فى عدد لا بأس به من المسلمات الفكرية. نيغرى، ومنذ إطلاق سراحه قبل سنوات، يعتبر من كبار فلاسفة نهاية القرن ٢٠ وبداية القرن ٢١ . لكنه هنا يحاول أن يقول، ليس فقط لماذا فشل المثل الأعلى الاشتراكى... بل كذلك... لماذا لن تقوم له قائمة بعد الآن.

● «فى غرفة الكتابة» لبول أوستر.

● منذ عقود طويلة وكتب الأمريكى بول أوستر تحظى بنجاح كبير، حتى وإن كان هذا النجاح لم يجعل منه، حتى اليوم، كاتباً شعبياً أو جماهيرياً. فأوستر، منذ «الثلاثية النيويوركية» وحتى اليوم، يصر على قيم فى الكتابة، تجعل أدبه خاصاً وأدباً ذا مفاتيح. وإذا كان بعض هذه المفاتيح قد بدا مغلقاً على فئة من قرائه، فإن «روايته» الجديدة هذه تأتى لتوفيرها... من هنا اعتبرت هذه «الرواية» رواية الروايات فى مسيرة بول أوستر. ■

العريس

الأكثر مبيعا

مكتبات الشروق

كتب عربية

١ - **شيكاجو** - علاء الأسواني (دار الشروق)
٢ - **تاكسى: حواديت المشاوير**. خالد الخميسى (دار الشروق)
٣ - **ماذا علمتنى الحياة؟ سيرة ذاتية**. جلال أمين (دار الشروق)
٤ - **أولاد حارتنا** - نجيب محفوظ (دار الشروق)
٥ - **رباعيات الخيام** - أحمد رامى (دار الشروق)
٦ - **ماذا حدث للمصريين**. جلال أمين (دار الشروق)
٧ - **سنوات مع الملك فاروق** - د. حسين حسنى (دار الشروق)
٨ - **شكلها باظت** - عمر طاهر (أطلس)
٩ - **فاروق الأول وعرش مصر: بزوغ واعد.. وأفول حزين (١٩٢٠ - ١٩٦٥)**. الدكتورة لطيفة سالم (دار الشروق)
١٠ - **ستون عاما من الصراع فى الشرق الأوسط: شهادات للتاريخ** - الدكتور بطرس بطرس غالى (دار الشروق)

كتب إنجليزية

1. **The Yacoubian Building**- Alaa Al Aswany (AUC Press)
2. **Cairo: The Practical Maps**
3. **Witch**
4. **Let's Explore**
5. **Harry Potter and the Deathly Hallows (Book 7)** J.K. Rowling - Arthur A. Levine Books
6. **Egyptian Arabic Phrasebook** - (AUC Press)
7. **Egyptian Palaces and Villas** - Shirley Johnston and Sherif Sonbol (AUC Press)
8. **Khul-Khaal: Five Egyptian Women Tell Their Stories** - Nayra Atiya (AUC Press)
9. **The Alchemist**- Paulo Coelho - (HarperCollins)
10. **Goodnight My Cairo** - Mandy and Helmi El Touni (SunFlower Books)

فيرجين ميجا ستورز

١ - **شيكاجو** - علاء الأسوانى (دار الشروق)
٢ - **تاكسى** - خالد الخميسى (دار الشروق)
٣ - **عمارة يعقوبيان**. علاء الأسوانى (مدبولى)
٤ - **Zahir** Paulo Coelho (Harper Perennial)
٥ - **بنات الرياض**. رجاء الصانع (رياض الريس)
٦ - **Harry Potter and the Deathly Hallows (Book 7)** J. K. Rowling - (Arthur A. Levine Books)
٧ - **Angels and Demons:** Dan Brown (Pocket Star)
٨ - **أولاد حارتنا**. نجيب محفوظ (دار الشروق)
٩ - **Men are From Mars, Women Are From Venus** John Gray (Harper Collins)
١٠ - **The Alchemist** Paulo Coelho (Harper Perennial)

موقع النيل والفرات

١. **التحول. النهوض التاريخى لشركة نيسان**، كارلوس غصن (الدار العربية للعلوم . ناشرون)
٢ - **حكومة الظل**. منذر القبانى (الدار العربية للعلوم . ناشرون)
٣ - **شيكاجو**. علاء الأسوانى (دار الشروق)
٤ - **عبث**. إبراهيم محمد النملة (دار الساقى للطباعة والنشر)
٥ - **الدود**. علوان السهيمى (دار الفارابى)
٦ - **اختلاس** . هانى نقشبندى (دار الساقى للطباعة والنشر)
٧ - **بلاهات مبتكرة**. ريم اللواتى (المؤسسة العربية للدراسات والنشر)
٨ - **المطاوعة**. مبارك على الدعيلج (رياض الريس للكتب والنشر)
٩ - **حب فى السعودية**. ابراهيم بادى (دار الآداب)
١٠ - **الآخرون**. صبا الحرز (دار الساقى للطباعة والنشر)

مكتبة الديوان

كتب عربية

١ - **تاكسى**. خالد الخميسى (دار الشروق)
٢ - **شكلها باظت** . عمر طاهر (أطلس)
٣ - **شيكاجو** - علاء الأسوانى (دار الشروق)
٤ - **ماذا حدث للمصريين**. جلال أمين (دار الشروق)
٥ - **مقتل الرجل الكبير**. ابراهيم عيسى (ميريت)
٦ - **ماذا علمتنى الحياة؟** . جلال أمين (دار الشروق)
٧ - **نسف الأدمغة** . خيرى شلبى (دار الشروق)
٨ - **كابتن مصر**. عمر طاهر (أطلس)
٩ - **التلصص** - صنع الله إبراهيم (المستقبل العربى)
١٠ - **قرية ظالمة**. محمد كامل حسين (دار الشروق)

كتب إنجليزية

1. **The Secret** Rhonda Byrne (Atria)
2. **The 7 Habits of Highly Effective People** Stephen Covey
3. **Yacoubian Building** Alaa Al Aswany (AUC press)
4. **A Thousand Splendid Suns** Khaled Hosseini (Riverhead)
5. **The Great War for Civilization** Robert Fisk (Harper Perennial)
6. **Love in the Time of Cholera** Gabriel Garcia Marquez (Vintage)
7. **The Kite Runner** Khaled Hosseini (Riverhead)
8. **The Witch of Portobello** PauloCoelho (Harper Perennial)
9. **The Alchemist** Paulo Coelho (Harper Perennial)
10. **Men are from Mars Women are from Venus** John Gray (HarperCollins)

كتب خان

كتب عربية

١ - **شكلها باظت**. عمر طاهر (أطلس)
٢ - **شيكاجو** - علاء الأسوانى (دار الشروق)
٣ - **تاكسى**. خالد الخميسى (دار الشروق)
٤ - **عمارة يعقوبيان**. علاء الأسوانى (مدبولى)
٥ - **ماذا علمتنى الحياة** . جلال أمين (دار الشروق)
٦ - **ماذا حدث للمصريين**. جلال أمين (دار الشروق)
٧ - **كابتن مصر**. عمر طاهر (أطلس)
٨ - **ساحر الصحراء** . باوكو كويلهو (دار الهلال)
٩ - **أولاد حارتنا** . نجيب محفوظ (دار الشروق)
١٠ - **التلصص** - صنع الله إبراهيم (المستقبل العربى)

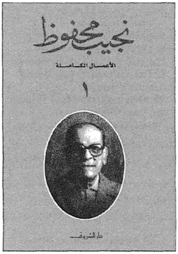
كتب إنجليزية

1. **Yacoubian Building** Alaa Al Aswany (AUC press)
2. **The Secret** Rhonda Byrne (Atria)
3. **The Kite Runner** Khaled Hosseini (Riverhead)
4. **A Thousand Splendid Suns** Khaled Hosseini (Riverhead)
5. **The Alchemist** (Paulo Coelho)
6. **Men are from Mars Women are from Venus** John Gray (HarperCollins)
7. **Harry Potter and the Deathly Hallows (Book 7)** J. K. Rowling (Arthur A. Levine Books)
8. **Perfume** - Patrick Süskinl (Vintage)
9. **Who moved my cheese**- Spencer Johnson (Vermillion)
10. **Blink**- Malcoum Gladwell (Black Bay)

العبيكان

١ - **لاتحزن**. عائض القرنى
٢ - **أسعد إمرأة فى العالم** - عائض القرنى
٣ - **ابتسم**. عائض القرنى
٤ - **سعوديون فى أمريكا** - تركى الدخيل
٥ - **موسوعة جابر لطب الاعشاب** - جابر القحطانى
٦ - **انتحار حمار**. مجموعة قصصية - حسن مفتى
٧ - **خواطر شاب**. أحمد الشقيرى
٨ - **أعظم سجين فى التاريخ**. عائض القرنى
٩ - **أطلس تاريخ الانبياء**. سامى المغلوث
١٠ - **الأطلس التاريخى** - لسيرة الرسول ﷺ . سامى المغلوث

أعمال نجيب محفوظ الكاملة



الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧

من المؤكد أن كل قارئ جدى للعربية، وكل قارئ محب للرواية، يملك فى مكتبته المنزلية نسخًا لعدد لا بأس به من روايات نجيب محفوظ. فالطبعات متوافرة، أصيلة أو مزيفة، معظمها صدر فى القاهرة، لكن بعضها صدر فى عواصم عربية أخرى. بعض البعض يحمل الأغلفة الشهيرة ذات اللوحات الرائعة الموقعة من الفنان جمال قطب، أما البعض الآخر فربما حمل أغلفة مفتعلة أخرى. هناك، فى شىء من الاختصار، فوضى ما فى حضور نجيب محفوظ وأدبه الكبير، فى المكتبات المنزلية أو حتى المدرسية. وهناك فى المقابل طبعة قديمة تضم أعمالاً كاملة لمحفوظ، ثمة سجال طويل حول ما إذا كانت، أو لم تكن، شرعية. مهما كان من أمرها، كانت تفى بالغرض.. على الأقل بالنسبة إلى الذين اكتشفوا منذ البداية أن ثمة طريقة خاصة لقراءة نجيب محفوظ، هى غير الطريقة «العشوائية» التى يقرأ بها هذا الأدب عادة، تبعًا لصدور الروايات ـ والقصص ـ أو تبعًا لإمكان الحصول عليها فى الأسواق.

ذلك أن ثمة، بالفعل، طريقة محددة ـ إنما غير متوافرة دائمًا، وتبدو أحيانًا لطالبى المتعة فقط فى أدب عميد الرواية العربية، غير ضرورية تمامًا. وهذه الطريقة هى الإجابة المنطقية التى تنطرح أمام من يجد نفسه ـ من بين مدمنى نجيب محفوظ ـ أمام سؤال بديهى: ماذا يمكننا أن نفعل بأدب نجيب محفوظ بعد أن نفرغ من قراءة «حلقاته» مرة ومرات؟ الإجابة هنا هى: نقرأه من جديد، ولكن ليس على شكل حلقات ولا على وتيرة تاريخ صدور الروايات والقصص.. بل بالطريقة التى قد نكتشف يومًا أن محفوظ نفسه، بعبقريته الفذة ومكره الرائع، أوصى بها إلينا.

للمخرج السينمائى الفرنسى الكبير جان ـ لوك غودار (الذى هو أيضًا كاتب كبير وماكر أكبر، حتى وإن كان كثر ينسون هذا فى بعض الأحيان) عبارة رائعة تقول: «بالتأكيد ثمة لكل فيلم بداية ووسط ونهاية.. ولكن ليس من الضرورى أن ترد فى الفيلم على مثل هذا الترتيب». والحقيقة أن ثمة عملاً ـ بين أعمال أخرى ـ لنجيب محفوظ، يكاد يترجم هذه العبارة تمامًا، حتى وإن كنا نعرف أن كثيرًا من النقاد والدارسين ـ والقراء أيضًا ـ يعتبرونه عملاً ثانويًا. هذا العمل هو «حديث الصباح والمساء» حيث يضع أستاذنا الكبير الراحل «قاموسًا» لعشرات الشخصيات مرتبًا بحسب أبجدية أسمائها بصرف النظر عن تاريخ وفاتها، أو تواريخ الولادات الممتدة نحو قرنين من الزمن. و«الغريب» أن أول اسم فى «القاموس» هو «إبراهيم» فيما الاسم الأخير هو «يزيد»، مع أن يزيد هو الجد الأكبر للسلالة التى يتناولها «القاموس» بينما إبراهيم هو الوليد الأحدث.

للوهلة الأولى تبدو الشخصيات منتمية، روائيًا، إلى هذا العمل بالتحديد، وتبدو كما لو أن محفوظ رتبها هنا كى يصوغ من خلال تحليله لها، رواية كبيرة ـ تتناول تاريخ مصر خلال ٢٠٠ سنة ـ. غير أننا سرعان ما نكتشف، بعد أن تمر هذه الفكرة فى خاطرنا للوهلة الأولى، أن ما رسمه محفوظ هنا إنما هو لعبة ماكرة: رسم سمات كل رواياته السابقة وشخصياتها، ولم يرسم شخصيات رواية لاحقة. ومن لا يرى هذا الرأى، حسبه الآن أن يشتغل على كل أدب نجيب محفوظ وقد صار، أمام ناظريه فى هذه الطبعة الشاملة الأنيقة والسهلة الاستعمال التى صدرت بدايات هذا العام (٢٠٠٧) عن دار الشروق.

فإذا وضع المرء هذه الطبعة أمامه، وجال ذهنه خصوصًا فى «حديث الصباح والمساء»، ثم انعطف على أعمال أخرى «ثانوية» لمحفوظ، مثل «المرايا» و«حكايات حارتنا»، سيدرك من فوره ما الذى نعنيه حين نتحدث عن «قراءة أخرى» نحب هنا أن نسميها «محفوظية» لأدب محفوظ. وهى قراءة لا تحمل «البداية» و«الوسط» و«النهاية» على مثل هذا الترتيب المنطقى، بل تحملها تبعًا للترتيب المحفوظى. وهو ترتيب ماكر، شديد الذكاء، يقول أول ما يقول لنا: كم كان هذا الأديب الكبير، حين يكتب، يفكر فينا، نحن معشر قرائه. وكم كان يهندس من أجلنا. وكم كان يعرف أن ما ينتجه إنما هو مشروع متكامل، له مفاتيح شديدة الوضوح إنما تعمى على من لا يحدق بحذق.. أى يقرأ بذكاء. فهنا، لا بد من أن نذكر مرة أخرى، بأن كاتبًا شديد الذكاء والدهاء، كنجيب محفوظ، لم يكن ليفوته فى كل لحظة وهو يكتب، أنه إنما يكتب، أولاً وأخيرًا، لقارئ شديد الذكاء. طبعًا لا نعنى بهذا أن الملايين الذين يقرأون محفوظ، هم من هذا النمط. ومحفوظ نفسه لم يكن يومًا يحلم بهذا. وربما يكمن سره الأكبر هنا فى أنه إذا كان ينتمى إلى زمن محدد، فلا شك فى أنه ينتمى أكثر ما ينتمى إلى الزمن الفاطمى، المبنى أيديولوجيا على الظاهر والباطن. وآية ذلك أن أدب محفوظ كله مبنى على الظاهر والباطن.

غير أن هذه الحقيقة لا تلوح إلا لمن يقرأ محفوظ بذكاء.. ولمن يقرأه أيضًا كله كمتن أدبى واحد. وهنا إذ نقول «متنًا أدبيًا» نعنى كذلك متنًا فكريًا فلسفيًا وأيديولوجيًا ودينيًا واحدًا.

وهذه القراءة هى التى تؤمنها اليوم هذه الطبعة لأعمال نجيب محفوظ. فمن خلالها، باعتبارها ـ أيضًا ـ متنًا هندسيًا واحدًا، يمكننا بشىء من الشغف والصبر، أن نجد كاتبًا يحكى لنا، ليس تاريخ مصر، بل «التاريخ الجوانى» لمصر. وليس تاريخ الأديان، بل التاريخ الإنسانى للأديان. وليس تاريخ السلالات والأفكار والمواقف، كما خيِّل إلينا دائمًا، بل التاريخ الذهنى. أى غير المرتب زمنيًا. لكل هذا. من هنا، إن قرأنا نجيب محفوظ فى هذه الكلية المتنية على ضوء جوانى سيكولوجى ـ يلتقى فيه محفوظ مع جوانية عثمان أمين، كما مع البعد الإنسانى فى تحليلية فرويد، على ضوء وفديته الليبرالية وتأثره بتقدمية محمد عبده. يصبح أمامنا نوع من الكشف عن حقيقة المشروع المحفوظى. هذا المشروع الذى سيبدو لنا، إذاك، متكاملاً لا يمكن زيادته ولا نقصانه. ولعل فى هذا الكشف ما يجيب على أسئلة كثيرًا ما حيرتنا.. وهى أسئلة كثيرة قد تتراوح بين: «لماذا رفض محفوظ دائمًا أن يكتب سيناريو لقصة أو رواية من أعماله لتتحول إلى السينما؟» و«ماذا حل بالفكر الفلسفى الذى كان محفوظ يعبر عنه أول عهده بالكتابة؟».. و«من أين كان محفوظ يستقى كل تلك المعلومات التى ملأ بها رواياته، عن أشخاص حقيقيين لم يلتقهم أبدًا وعن بلدان لم يزرها أبدًا؟».. هذا النوع من الأسئلة كثيرًا ما خامر أذهان الفئة المتقدمة من قراء محفوظ، هذا كيلا نتوقف عند أسئلة أكثر ارتباطًا بالزمان وبالمكان فى أدب محفوظ.. وفى يقيننا أن الأجوبة، ما كان يمكن أن تتوافر إن نحن بقينا نقرأ محفوظ، كتابًا كتابًا وصفحة صفحة.. إذ إن حالنا هنا هى حال من يزور الأهرام وينظر إليه حجرًا حجرًا، فلا يطلع بأى نتيجة.. قبل أن يدرك أن الأهرام كل شامل تكمن أهميته فى كليته هذه.

وهذا ما يدركه اليوم قارئ محفوظ، إن قرأه من خلال هذا المتن الشامل الجديد، الذى أقل ما يمكن أن يقال عنه إنه أعاد محفوظ الحقيقى إلى محفوظ... وأعادنا إليهما.

إبراهيم العريس

أيــام محمد على

أيام محمد على: التمايز الاجتماعى
وتوزيع فرص الحياة
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة،
٢٠٠٧) ٣١٢ ص
محمد حاكم



من الكتب التى قرأتها هذا العام وتركت فى نفسى أثراً هذا الكتاب: أيام محمد على.

يتناول الكتاب - وهو نص أطروحة الماجستير للصديق الراحل الباحث الاجتماعى محمد حاكم - المجتمع المصرى فى عصر محمد على من زوايا جد مختلفة عن الأنماط السائدة فى كثير من الكتابات التاريخية عن هذا العصر، سواء بين المؤرخين العرب أو المستشرقين والأجانب.

قضى محمد حاكم جزءاً ليس بالهين من حياته القصيرة داخل دهاليز دار الوثائق المصرية مما سمح له باستكشاف أنواع مختلفة من المصادر والوثائق وتجريب قراءات مغايرة لها. هو فى هذا الكتاب، أيام محمد على: التمايز الاجتماعى وتوزيع فرص الحياة، يركز على شرائح المجتمع المصرى كثيرا ما تهمل عند الحديث عن «أيام محمد على». فالفلاحون، رغم كونهم الجزء الأكبر من المجتمع المصرى فى بدايات القرن التاسع عشر وبالرغم من أهميتهم المحورية فى مشروع التحديث، فإنهم نادرًا ما يكونون محور الدراسات التاريخية، لأسباب أيديولوجية ومصدرية متعددة.

كذلك كتب الكثير من المؤرخين عن عصر محمد على كونه عصر تطوير وبداية مصر الحديثة، كثيراً بأساليب تعميمية لا تنتبه للتفاوت الواضح بين الطبقات والشرائح المختلفة فى المجتمع الريفى خاصة أو طرق تكوين هذه الشرائح وإعادة تشكيلها فى الأصل والأساليب التى خبرت بها هذا التحديث. يدرس الكتاب المجتمع المصرى من خلال علاقة الريف بالمدينة ووسائل سيطرة واستحواذ المدينة على وسائل الإنتاج وقوة العمل الريفية والطبيعة الصراعية لظاهرة الاستحواذ على الناتج الفائض بين القرية والمدينة من ناحية وداخل كل منهما من ناحية أخرى من خلال تتبع أربع قرى هى أخطاب وكمشيش فى الوجه البحرى والحمام والبلايزة فى الوجه القبلى.

كما يركز على قراءة بعض الوثائق التاريخية (مثل مكلفات الأطيان وتواريع المساحة) قراءة متأنية (غير بريئة) ليستنبط أنواعًا مختلفة من علاقات الناس بالأرض. فبينما ركز العديد من المؤرخين الحداثيين على فكرة نشأة الملكية الخاصة للأرض الزراعية وما استتبعه ذلك من التركيز على نمو طبقة كبار الملاك وتنامى دورها الاجتماعى والسياسى على مر القرن، ينتبه محمد حاكم إلى أنواع أخرى من الحيازة الزراعية، مثل الحيازة الأثرية، والتى استمرت وتغيرت حتى فى ظل إنشاء الدولة المركزية الحديثة. فيشير إلى المصطلحات المختلفة التى تستخدمها الوثائق والتى تفرق، مثلا، بين الحائز الأثرى والمزارع؛ فأثر شخص ما قد يكون موضوع زراعته أو موضوع زراعة آخرين والحيازة والزراعة علاقتان مختلفتان مع الأرض حتى وإن اجتمعتا فى شخص واحد وهما مختلفتان عن الملكية التى قد تكون للدولة أو لشخص آخر. وينتبه محمد حاكم هنا إلى (إعادة) تشكيل التمايز الاجتماعى فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، والآليات التى تم عن طريقها تشكيل قوى اجتماعية واقتصادية جديدة لها فرص أكثر فى الحياة على حساب قوى أخرى. فمثلا: نشأة وتطور الملكية الخاصة فى الأراضى الزراعية لصالح ملاك مدنيين غائبين أدى فى حالات كثيرة إلى نزع الحيازة الأثرية عن حائزين ريفيين ذوى حقوق فى الأرض وتحويلهم إلى معدمين. كما أعطى نظاما الجفالك والعُهد فرصة لكثير من مشايخ القرى للحصول على أراض زراعية مقابل دفع أموال المتأخرات عن قراهم مما أعطاهم سيطرة كاملة على المزارعين ورفع من معدل استغلالهم لهؤلاء الحائزين السابقين للارض.

تميز تعامل محمد حاكم مع نصوص الوثائق الرسمية بقدر عال من التعقد والتعمق. فهو يركز هنا كما فى مناقشات كثيرة على مر الأعوام - على فكرة وعملية إنتاج النص، حيث يبنى على أفكار فلسفية لالتوسير وفوكو والتى تتعامل مع الخطاب بوصفه منتجا فى حد ذاته. وحاول حاكم تطبيق هذه النظريات على دراسة الوثائق المصرية، فتخطى فى نظرته للمصادر كونها مصدرا لحقيقة ما أو كونها بيانات خام. وحاول من خلال دراسة نصوص الوثائق استنباط علاقات القوة والمؤسسات التى أنتجت هذه المصادر فى المقام الأول والحقائق التى تصنعها (بدلا من أن تعكسها) هذه الوثائق. لذا فإن دراسته لوثائق مكلفات الأموال مثلا، والغرض منها تسهيل عملية جباية الأموال/الضرائب، تبين أن هذه الدفاتر تركز على المزارع، وتسهل التعامل معه أكثر من الحائز الأثرى على عكس دفاتر أخرى هى تواريع المساحة والتى تنحاز إلى الحائز الأثرى. هذه القراءة تساعد على فك الالتباس ما بين مفاهيم (وبالتالى، علاقات) مثل الملكية والحيازة والزراعة. كما ينتبه الباحث إلى أن التجانس الذى توحيه الوثائق هو نتاج طبيعة هذه الوثائق والهدف من تحريرها وليس بالضرورة انعكاسا لواقع معايش. بمعنى أن الوثائق (والتى يهدف معظمها بشكل أو آخر إلى ضمان وصول الأموال إلى الدولة المدينية) وإن تشير إلى أفراد كونهم شيوخًا أو مزارعين/فلاحين، توحى بأن كل من ليس شيخًا هو فلاح وكأن كل الفلاحين سواسية بصرف النظر عن تفاوت حيازاتهم الزراعية، وهو ما تنفيه القراءة غير الانتقائية والأعمق للوثائق.

من أهم فصول الكتاب - فى رأيى المتواضع - الفصل الرابع الذى يتناول المقاومة كمدخل لدراسة السلطة. أى أنه يدرس الاستحواذ المدينى على القرية من خلال علاقات السلطة التى تجمع بينهما ومن خلال تعريف موسع لمفهوم السلطة يشمل شبكة العلاقات الاجتماعية. من خلال التركيز على ثلاثة مجالات للمقاومة: التأخر فى دفع المقررات المالية، التسحب والعصيان، يوضح الوسائل التى قامت بها القرى وناسها بمقاومة سلطة المدينة. وهو بذلك يستنطق الذين عادة لا صوت لهم فى التاريخ ويفعل ذلك عن طريق تحليل ما تشكو ومن تشكو منه السلطة من خلال تتبع الأوامر العليا الخاصة بمواجهة هذه المقاومة. وتوضح دراسته كيف ولماذا تنامت ظواهر مثل التسحب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، بعيداً عن المقولات التبسيطية عن قهر الفلاح وتحمله للظلم. وتوضح الأسباب والآليات التى تمت بها عمليات المقاومة والأدوار المختلفة لمختلف فئات أهل القرى بما فى ذلك صغار الفلاحين الحائزين والفلاحين المعدمين ومشايخ القرى. فقد أدت محاولات الدولة المدينية زيادة حصتها من الناتج الريفى ليس فقط إلى العمل على زيادة الإنتاج بل أيضا إلى زيادة نسبتها من هذا الناتج مقابل نسبة الريف، مما دفع مشايخ القرى إلى محاولة الحفاظ على أوضاعهم المتميزة داخل القرى عن طريق تحميل صغار الحائزين مزيدا من العبء مما أدى بدوره إلى تسحب بعض صغار الفلاحين من قرى إلى أخرى، مما ترك أراضى بدون زراعة وبالتالى زاد من حجم المتأخرات بينما استفادت قرى أخرى، ومشايخها، بالعمالة الوافدة. فى بعض الاحيان حققت بعض التمردات والعصيانات الفلاحية بعضا من أهدافها وفى أحيان اضطرت السلطة إلى تأمين الهاربين والتنازل عن المتأخرات لضمان عودة الفارين إلى قراهم. وفى أحيان أدت ظاهرة التسحب إلى تعاون بين المشايخ وجهاز الدولة للقضاء على الظاهرة وفى أحيان أخرى إلى مقاومة المشايخ لجهاز الدولة اعتمادا على شبكة علاقاتهم الاجتماعية والأسرية. وهذه العملية المتفاوتة من قرية إلى أخرى أدت إلى تمايز بين القرى مما أضعف مصالح شيوخ القرى وأضعف من قدراتهم التنظيمية



الجماعية فى مقاومة ومواجهة السلطة.

ويذهب الباحث إلى أن عمليات العصيان المتكررة كانت فى حد ذاتها مناسبة لتأكيد سلطة الدولة من خلال عمليات القمع الوحشية أى أن المقاومة نفسها لعبت دوراً فى انتشار السلطة وزيادة فاعليتها (أى إنتاجها). ولكن الدورة لا تقف عند هذا الحد، إذ إن السلطة المتزايدة المتنامية هى أيضا كانت تغذى أنواعا جديدة من المقاومة مثل الهروب من القرى تماما واللجوء إلى العربان أو الجبال فى الصعيد وبالتالى مزيد من عدم خدمة الارض. كذلك يبتعد الكاتب عن قراءة المتأخرات الضريبية فقط كتعبير عن «تعسف سلطوى» أو «ثورة صامتة» ويحللها كمجال لممارسة السلطة من قبل كل الأطراف، مجال له أهداف وخطط استراتيجية. هذه القراءة تفكك صورة سلطة الدولة المهيمنة.

تعمل هذه الدراسة على تعقيد الفكرة العامة عن تطور الدولة المركزية الحديثة فى القرن التاسع عشر بالتركيز على أنماط وآليات حدوث التمايز الاجتماعى داخل القرى المصرية وعلى العلاقات الصراعية وموازين القوى المتغيرة والمتحولة بحيث يتضح كم كانت معقدة عملية تفعيل المركزية هذه وكيف أنها لم تتم على حسب خطة الحكومة تماما أو ببساطة. كما تبين الدراسة تنامى حدة التمايز الاجتماعى على مدار القرن (بالرغم من كونه واقعا تاريخيا حتى قبل عصر محمد على). وربما تكون قراءات مثل هذه لبداية عملية التحديث فى مصر مُلحّة فى اللحظة الراهنة المفصلية التى تمر فيها البلاد بتغييرات اجتماعية واقتصادية (وبالضرورة سياسية) لا تقل فى مجمل تأثيرها أو ضراوتها عن تغييرات القرن التاسع عشر.

بالرغم من غزارة أفكار محمد حاكم وتنوع مجالات اهتماماته، فإنه كان قليل النشر لما يكتب، ربما لأنه كان يطمح دائما أن يصقل أفكاره بصورة أفضل أو لإيمان منه فى إمكانية فعل الأفضل فى المستقبل. ولكن يظل هذا الكتاب - رغم كونه نصًا أكاديميًا موجهًا إلى قارئ متخصص بالأساس، ورغم كونه قد كتب نسبيًا فى بدايات حياة كاتبه الأكاديمية - مصدرًا جيدًا للالهام ومعينًا أخيرًا على التذكر.

أمينة البندارى

سر نجلاء بدير

عندما عرفت أن نجلاء بدير ستكتب عموداً يوميًا فى جريدة «الدستور»، التى بدأت تصدر من جديد منذ ثمانية شهور، فرحت لأنى أتذكر جيداً كم كنت معجبًا بمقالاتها التى كانت تنشرها فى الإصدار الأول للدستور (منذ نحو عشر سنوات)، وأعادت نشرها فى كتاب جميل للغاية (الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩) بعنوان: «البكاء بين يدى السيدة نفيسة».

كنت أعرف صعوبة الاحتفاظ بمستوى عال للكتابة، إذا كان المطلوب عموداً يوميًا، كما صادفت هذه الصعوبة شخصيًا عندما بدأت أكتب عموداً يوميًا لنفس الجريدة خلال العام الماضى، وسرعان ما توقفت لشعورى بثقل العبء عندما لا يكون هناك مجال لتأجيل الكتابة بسبب التعب، أو بسبب عدم اختمار الفكرة فى الذهن، أو عدم التأكد من أن الفكرة تستحق الكتابة عنها أصلاً، ولهذا سرعان ما توقفت عن الكتابة اليومية، ولكن استمرت نجلاء بدير.

دهشت باحتفاظها بمستوى عال للكتابة يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، نعم، كانت تنقطع بضعة أيام قليلة مع وعد باستئناف الكتابة أو بدون وعد، ثم تعود فتكتب بنفس المستوى العالى، وكأن لا شىء يمكن أن يجعلها تقول كلاماً لا يؤثر فى نفس القارئ.

واظبت إذن على قراءة عمودها اليومى فى الدستور، وتعودت الاستمتاع به والتأثر به، ولم أعد أدهش عندما أقرا لها عموداً جميلاً يوماً بعد يوم، ولكن حلت محل الدهشة حيرة فى محاولة اكتشاف سبب (أو أسباب) تفرد ما تكتبه نجلاء بدير عما يكتبه الآخرون.

فلما طلبت منى مجلة «وجهات نظر» أن أكتب عن كتاب أعتبره من أفضل ما نشر فى سنة ٢٠٠٧، قلت لنفسى:

«ولماذا أكتب عن كتاب وليس عن عمود يومى أعتبره من أفضل ما نشر فى هذه السنة؟ ولماذا لا أنتهز الفرصة لأحاول اكتشاف سر نجلاء بدير، أى أسباب تفرد هذا العمود اليومى عن غيره؟».

إنى أعرف أن الأدب أشكال وألوان، بل والأدب الرفيع أيضاً أشكال وألوان، وليس من السهل (بل ربما من المستحيل) أن يحدد المرء شروطه وقواعده (إن كان هناك أصلاً مثل هذه الشروط والقواعد).

إنى أستطيع أن أجزم لنفسى وللآخرين بأن هذا العمل أو ذاك من الأدب الرفيع، ولكنى لا أحتفظ فى رأسى بقائمة من الشروط التى يجب أن تتوفر فى هذا العمل الأدبى قبل قراءته، بحيث أتتبع مدى انطباقها أثناء القراءة. إنى أعجب بالعمل أو لا أعجب به، ثم أحاول اكتشاف أسباب هذا الإعجاب أو عدمه، فما هى هذه الأسباب فيما يتعلق بما تكتبه نجلاء بدير؟

خطرت بذهنى أولاً فضيلة «الصدق»، وهى صادقة دائماً بلا شك، ولا جدال فى أن الصدق شرط ضرورى فى جودة العمل الأدبى، ولكنه ليس شرطًا كافيًا بكل تأكيد. الكذب والادعاء والتظاهر والعاطفية المصطنعة (التى يسهل اكتشاف اصطناعها من ثنايا الكلام)، كل هذا يفسد العمل الأدبى بلا شك، بل وقد يفقد العمل وصف «الأدبى» أصلاً. ولكن البحث العلمى صادق أيضاً، وكاتب المقال قد يكون صادقاً كل الصدق، وقد يترك أثراً طيباً جداً فى النفس بسبب هذا الصدق، دون أن يكون المقال عملاً أدبياً (من هذا النوع الممتاز من المقالات مثلاً مقالات الأستاذ سلامة أحمد سلامة والعمود اليومى فى الأهرام الذى كان يكتبه أحمد بهاء الدين). أما عمود نجلاء بدير فليس فقط صادقاً، بل هو أيضاً عمل أدبى.

هل من شروط العمل الأدبى أن يكون بالسليقة حكاءً ماهراً، يعرف كيف ينقل لنا المعنى فى شكل قصة، ولو كان الكلام يبدو للوهلة الأولى وكأنه مجرد مقال؟

الحكاء الماهر يبدأ بجملة أو جملتين وكأنه يرمى شبكة صيد، لابد له من اصطيادك من أول رمية وإلا فقدك إلى الأبد. ثم يتابع الحكى بعد هذا بجمل قصيرة وبسيطة (إذ إن الجمل الطويلة والمعقدة شبيهة بالثقوب الواسعة فى شبكة الصيد من الممكن جداً أن يهرب القارئ من خلالها).

ويجب ألا ينجرف الحكاء الماهر من سياق إلى سياق، أو من قصة إلى أخرى، دون أن يكون مطمئناً إلى أن القارئ سيصبر عليه أثناء هذا الانجراف، حتى يعود من جديد إلى المسار الأصلى لقصته الأساسية.

ولكن كل هذا ضرورى فقط لمنع فرار القارئ، وليس كافياً لكسب رضاه، إنما يكون كسب الرضا بأشياء أخرى أساسية: أهمية الموضوع، وتعاطف الكاتب مع شخصياته (أو بعضها على الأقل)، وإنسانيته، وخفة ظله، وثقب بصره، وأن يكون للحكاية كلها مغزى لا يتضح تماماً إلا مع نهاية القصة أو قرب نهايتها. إذ لو اتضح المغزى تماماً قبل انتهاء القصة فقد يفسح هذا أيضاً مجالاً للهرب.

كل هذا موجود فى عمود نجلاء بدير، ولكنى لاحظت أيضاً بضعة أشياء أخرى. كان العنوان الثابت للعمود هو «خلق الله»، وقد أعجبنى هذا العنوان من البداية، فقد وجدته يعبر عن روح ما تكتبه باستمرار: «المهم فى هذا الرجل أو ذاك، هذه المرأة أو تلك، هذا الصبى أو غيره، أنهم كلهم من خلق الله، أى من بنى آدم، لهم نفس الحاجات، ويشعرون فى الأساس بنفس المشاعر».

وقد كان العنوان الثابت لمقالاتها السابقة فى الإصدار الأول لجريدة الدستور «بشر»، وهو عنوان ينطوى على نفس المعنى.

لفتت نظرى أيضاً اللغة التى تستخدمها، إنها تستخدم العامية بكثرة، بل وفى بعض أعمدة تكاد العامية تكون هى الغالبة. وعلى الرغم من شعورى بالاستياء لانتشار هذا الاتجاه فى الصحف المصرية فى السنوات الأخيرة (وفى جريدة الدستور على الأخص)، وخوفى الشديد من الخطر الذى يهدد اللغة العربية بسبب ذلك، فقد لاحظت أنى لم أشعر بهذا الاستياء قط وأنا أقرأ أعمدة نجلاء بدير (كما أنى لا أشعر باستياء قط عندما أقرأ مقالات أحمد فؤاد نجم لاستخدامه العامية، ولا أشعاره بالطبع). كنت أشعر دائماً وأنا أقرأ لها

بحجم الخسارة التى كانت ستحدث قطعاً لو لم تستخدم العامية فى هذا السياق بالذات. وسأضرب مثالاً لتوضيح ما أعنيه.

فى عمود احتفظت به وكتبت عليه «بديع»، ويعود تاريخه إلى ١٣ يوليو ٢٠٠٧، وعنوانه مكتوب بالعامية «بنتكلم»، تحكى نجلاء بدير حواراً دار بينها وبين شاب فقير، وبدأته بأن وجهت إليه هذا السؤال: «بتحلم بإيه؟» وسأنقل للقارئ الفقرة الأولى من هذا العمود ليحكم بنفسه على ملاءمة العامية أو عدم ملاءمتها:

- «بحلم إنى أطلع طيار!

- وتفتكر ممكن حلمك يتحقق؟

- يتهيأ لى لأ.

- ليه لأ؟

- لأنى خلصت دبلوم صنايع، وباشتغل فى قهوة عند المحطة فى أسيوط، ويوميتى هى اللى فاتحة البيت، لأن أبويا خلاص عجز ومش قادر يشتغل.

- تفتكر ممكن حد من إخواتك يطلع طيار؟

- لأ.. يتهيأ لى برضه لأ.

- ليه؟

- لأن محمود الصغير فى سانة ابتدائى، من يوم ما جاله إسهال وراح المستشفى العام وهو عايز يطلع دكتور.. وسيد مش فالح فى مدارس أصلاً. هو سمعه تقيل وبيروح المدرسة ويرجع ما سمعش حاجة..».

ويستمر الحوار إلى أن ينتهى العمود بأن يقول الشاب:

«أنا عمرى ما قلت لحد إن نفسى أطلع طيار، أصلاً عمر ماحد سألنى السؤال ده. هو أنت ليه يا أبلة بتسألى؟».

فتجيبه نجلاء بدير:

«أهو.. بنتكلم يعنى..».

ومن هنا جاء عنوان العمود «بنتكلم». سألت نفسى عن أى كلمة أو عبارة بالعربية الفصحى يمكن أن تؤدى نفس المعنى وتثير نفس الشعور الذى تثيره عبارة: «بنتكلم يعنى..» كفاتحة للعمود، فلم أجد. ■

جـــلال أمــين

عن المسألة القبطية والشريعة والصحوة الإسلامية

المسألة القبطية والشريعة والصحوة الإسلامية

القاهرة: دار سفير الدولية للنشر، ٢٠٠٧

أبو العلا ماضى



هو كتاب عن «المسألة القبطية.. والشريعة والصحوة الإسلامية» للمهندس «أبو العلا ماضى». وأرجو أن يقرأه الأقباط من المصريين بروح التفهم والحوار، وأن يتبينوا من هو الكاتب وما هو موقفه.

المؤلف من جيل الإسلاميين الذين شاركوا فى تشييد الحركات الإسلامية بتوجهاتها المتباينة والمتنوعة فى مصر منذ السبعينيات، وهو ممن يجمعون بين الحركية السياسية والمواقف الفكرية والجهود الثقافية، وهو قائم على حزب الوسط مطالب مع زملائه به بترخيص رسمى له منذ اثنتى عشرة سنة، ويعملون من خلال المرجعية الدينية الإسلامية لاستيعاب الموقف الوطنى العام.

وهو من هذا الفريق من الإسلاميين الناشطين الذين أقاموا فكرهم السياسى وصاغوه بمرجعية إسلامية تكون محتضنة لمبدأ المواطنة وما تقرره من مساواة ومشاركة كاملة فى الحقوق والواجبات العامة بين المواطنين وإن اختلفت أديانهم، وحرصوا على أن تنبسط حركتهم السياسية لتستوعب هذا التعدد من ذوى الأديان من المواطنين.

وقد جهد هذا التيار من ذوى الفكرية الإسلامية، سواء فى المجال الفكرى الثقافى العام، أو فى المجال الحركى السياسى، جهد فى أن تتفاعل أفكاره ومواقفه وحركيته داخل الفكرية الإسلامية ووسطها لتكون ذات أثر وفاعلية، وليستقر هذا التوجه داخل التيار الفكرى الإسلامى العام، مصوغاً من مبادئ الفكرية الإسلامية وبمرجعيتها التشريعية وبمناهج توليد الأحكام التفصيلية عنها، ثم ليتأكد كل ذلك بالحركية الإسلامية من بعد، وكان ذلك مما يضمن التحقق الأمثل فى مجال الفكر السياسى، لقيام الجماعة الوطنية فى مصر بالمساواة والمشاركة فى إطار المرجعية الإسلامية.

ولكن فى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه العملية، على مدى العقود الثلاثة الماضية، بدأت عملية أخرى مضادة، تتمثل فى دعوة للانعزال بين القبط تحت سيطرة الكنيسة، وقاد هذه الحركة غبطة الأنبا شنودة منذ تولى البطريركية فى أوائل السبعينيات، واستغلت فى ذلك كل ظروف الاستضعاف المصرى تجاه السياسة الأمريكية وكل أوضاع الوهن الذى أصاب العزيمة الرسمية المصرية منذ الثمانينيات، كما استغلت فيها حركة هجرة القبط من مصر إلى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا، وتكون مراكز ثقل للكنيسة فى هذه المهاجر وظهور عنصر أجنبى آت من الولايات المتحدة، ظهوره فى التكوين العضوى للكنيسة المصرية ذات العراقة السابقة فى استقلاليتها. استغل كل ذلك لتعميق العزلة القبطية عن الجماعة الوطنية فى مصر.

أنا لا أتكلم عما قد يكون للأقباط من مشاكل تتعلق بتمام المساواة والمشاركة فى حقوق المواطنة، فهى مشاكل لا نتجادل فيها، وإنما نتحقق من وجودها بقصد إزالتها وتذليلها. على أن تكون المساواة والمشاركة هى الهدف وهى المبتغى الذى يفضى بالضرورة إلى ما نبغيه من اندماج سياسى وطنى. إنما أتكلم عن مسألة أخرى، وهى أن المتصدرين للعمل العام من القبط الآن، أعادوا صياغة الموقف القبطى العام، وتحولوا به من هدف المساواة والمشاركة مع مواطنيهم المسلمين، إلى هدف تقليل «الإسلام» فى المجتمع أو إقصائه كاملاً إن أمكن. وصيغت المسألة القبطية اليوم على أيدى هؤلاء الانعزاليين من رجال الكنيسة ورجال المهجر، صيغت على أساس اختلاف الدينين، وعلى أساس المطالب الدينية وليس مطالب المواطنين فى تساوى الفرص، وصيغت صياغة ثقافة دينية تؤدى إلى الفرز والتجنيب وليس إلى المزج والدمج.

نتكلم عن المواطنة المؤكدة للمساواة، فيتكلمون عن المواطنة المستبعدة للدين الإسلامى، ونتكلم عن الحقوق الاجتماعية المتساوية فيتكلمون عن الكنائس ونقصها عدداً ومساحة بغير بيان التناسب مع عدد السكان، نتكلم عن الوطن وهمومه ومشاكله فيتكلمون عن القبط وهمومهم ومشاكلهم، أى نتكلم عما يجمع فيتكلمون عما يفرق، والغلو يرد من موقف الكنيسة ومما ينتجه تابعون لها من كتب وأشرطة وتصريحات، ثم لا تجد صوتاً جهيراً ولا خفيضاً ينتقد هذا المسلك ويصنع بين الأقباط ما صنعه رجال التجديد المسلمون بين المسلمين، من السعى النشيط لنشر التوجه الجامع، لا نجد صوتاً قبطياً جهيراً ولا خفيضاً، وإن وجدناه هامساً أحياناً ومتردداً تتسمعه الآذان الفاحصة وهذا الصوت الهامس يزداد تردداً وهبوطاً.

فى هذا الظرف يظهر كتاب «أبو العلا ماضى» ليرهص بردود الفعل التى يملكها ذوو الفكر الإسلامى دفاعاً عن مرجعيتهم ذات الغلبة العددية المحسومة وطابعها الثقافى اللازم، وليدافعوا أيضاً عن الجماعة الوطنية وحق أفرادها كلهم فى الفرص المتساوية للحقوق والواجبات حقاً يصدر عن وطنيتهم وتسنده مرجعيتهم الثقافية.

إن المتصدرين للتعبير عن الموقف القبطى الآن، صاروا ذوى اتجاه واحد تقريباً، اتجاه يعمل على أن يكون ثمة موقف قبطى

خالص، وأن يكون موقفًا وحيدًا، تدعمه الكنيسة القبطية بحركتها وسياستها القابضة المسيطرة على الشأن القبطى كله، وعلى أسلوبها فى استبعاد ذوى الاتجاه المخالف لها من الأقباط، ويدعمه ويزيده غلواً موقف المتصدرين لهذا الشأن من أقباط المهجر.

إن الكنيسة وإن صارت مؤسسة سياسية بما تتبعه من مواقف، وتعمل على عزل القبط عن المجتمع، فهى فى ذلك تكسب من دنيا القبط على حسابهم، لأن رجال الكنيسة لا يمتزجون امتزاج حياة بالمجتمع المصرى فى عمومه ولا يعايشون ناسه، إنما هم رجال دين محترفون بشأنهم الدينى ومتفرغون له، ولا يمتزجون بجماهير الشعب المصرى من غير القبط فى معايشهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم ولا يكادون يتبادلون الحوار الثقافى مع غير رعيتهم ولا يتجادلون مع غير ذوى عقيدتهم، ومن ثم فهم مع فضلهم بين ذويهم تنقصهم خبرة المعايشة وتنقصهم تجارب الحياة الدنيا فيما يمارسه الآخرون مسلمين ومسيحيين.

ولذلك فقد تكلفوا أموراً ليسوا هم ذويها، وكذلك الشأن بالنسبة لرجال المهجر، فهم تابعون للكنيسة القبطية دينًا ومذهبًا، إلا أنهم بطول عيشهم بالخارج ومراكزهم القانونية والاقتصادية هناك لم يعودوا ممن يستطيعون معايشة أوضاع المواطن المصرى القبطى القائم فى مصر بناسه وأولاده وأقاربه وعمله، ومعنى ذلك أن الشأن القبطى وإن تميز وانعزل وصار شأنًا سياسيًا اجتماعيًا معزولاً عن باقى المصريين وعاملاً فى مواجهتهم، فقد صار شأنًا اختير له أبعد من يصلحون لإدارته لصالح جماهير القبط على المدى الطويل.

نحن مضطرون لاستخدام كلمتى «أغلبية» و«أقلية» ما دمنا نتكلم عن المسلمين والمسيحيين فى مصر من كونهم ذوى دين محدد، ونحن مضطرون للإشارة إلى الأحجام النسبية، إن هذا الأمر لا يشكل أثراً يذكر بالنسبة لحقوق المساواة والمشاركة، ولكنه يشكل أثراً لا يمكن إغفاله بالنسبة للطابع الثقافى العام والتكون الفكرى العام للمجتمع، لأن الثقافة أمر شائع يستحيل حصره، وأن أدواته وأساليب انتشاره وإشاعته تختلف اختلافًا جذريًا فى تناسبها وتلاؤمها فى الأحجام البشرية المختلفة، ولذلك فإن القول بالمساواة فى الشأن الثقافى ومدى شيوعه هو أمر يتعين أن يراعى بالنسبة له الأحجام النسبية لدى الثقافات المختلفة فيما يختلفون فيه.

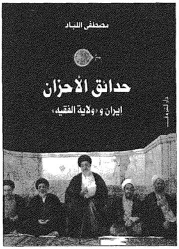
وأن الحل الأساسى هو أن تكون المساواة والمشاركة هما أساسا الاندماج والعيش المشترك بين المتباينين دينًا، إنهما أساس الاندماج الاجتماعى بين عناصر الجماعة الوطنية وبالاندماج وبالتخلل الاجتماعى تسهل أمور وتنحل مشاكل، ذلك أن المعايشة تولد الألفة وبها ينشأ الضمير «نحن» وبالعزلة تولد الغربة وتقوم الوحشة وقد تفضى إلى النفرة.

لكننا عندما نعرض للشأن الثقافى العام وللمرجعية العامة للجماعة الوطنية فى عمومها والطابع العام للمجتمع، فإن الأوزان والأحجام النسبية للجماعة البشرية ستفرض موجباتها، شئنا أم لم نشأ. وهذا واقع حتى ذووه لا يملكون إنكاره. وهذا القول لا يرد من فكر شخصى منى ولا من غيرى ولا من قول أن الفقه الإسلامى يفرضه، وإنما هو ما يفضى إليه الفهم الصحيح للفكر الوضعى العلمانى الذى وفد إلينا من الغرب ومن أوروبا، لأن النظام القانونى الوضعى يعتمد فكرة «النظام العام» باعتبارها محدداً قانونياً يحكم إرادات الأفراد والهيئات ويبطل من تصرفاتهم ما يتعارض معها، ومفهوم «النظام العام» فى الفقه الوضعى الآخذ من الغرب هو مجموع القيم والمبادئ السائدة فى المجتمع وهو يترك تحديدها لكل شعب أو جماعة لتستخرج هذه القيم والمبادئ من ثقافتها وأعرافها وعاداتها المتبعة، وهى بالضرورة مما تراعى فى شأنه الأوزان النسبية لمكونات الجماعة الوطنية.

هذا ما يعن لنا مناقشته والتفكر فيه عند قراءة كتاب «أبو العلا ماضى» وهو عن موضوع صار من شواغل هذه الأيام. ■

طارق البشرى

من قراءاتي في عام ٢٠٠٧



أعرف مسبقاً أنى ربما لن أكون دقيقاً فى اختيار عشرة كتب من جملة ما قرأته خلال عام ٢٠٠٧ . ولكنى سأغامر فأذكر عناوين عشرة كتب قرأتها وصدرت فى العام السابع من القرن الحادى والعشرين، ما عدا كتابين منها صدرا فى عام ٢٠٠٦ ولم أقع عليهما إلا أخيراً. ويأتى فى مقدمة هذه الكتب، حسب المعيار الذاتى والموضوعى فى آن واحد، كتاب الباحث السياسى مصطفى اللبّاد بعنوان (حدائق الأحزان: إيران و«ولاية الفقيه») فى طبعته الأولى الصادرة عن دار الشروق فى عام ٢٠٠٦ . وهو نمط فريد فى تحليل الشخصية الإيرانية والبحث عن الجذور الأولى والأصول المذهبية والخلفيات السياسية للنظام الإيرانى، من خلال رؤية سياسية شفافة تنفذ إلى عمق الظاهرة، وتربط الأسباب بالمسببات، وتكشف عن جوانب غير معلومة وزوايا غير مطروقة فى وسائل الإعلام، من التحول الكبير الذى عرفته إيران منذ السنة الأخيرة من سبعينيات القرن الماضى.

أما الكتاب الثانى (الدين والسياسة: تأصيل وردُّ شبهات) لفقيه العصر علاّمة (بالشدة وعلاّمة بلا شدة) الأمة الدكتور يوسف القرضاوى، الصادرة طبعته الأولى عن دار الشروق عام ٢٠٠٧، فهو فى حدّ ذاته تأصيلٌ للمنهج القويم السمح المعتدل الذى عرف به المؤلف فى جميع مؤلفاته، منذ أن ظهر كتابه الأول الرائد فى بابه (الحلال والحرام فى الإسلام) الذى أذكر أنى أعدت قراءته أربع مرات فى فترات مختلفة خلال العقود الأربعة الأخيرة، ولا أزال أتطلع إلى إتاحة الفرصة لأعيد قراءته للمرة الخامسة. فى كتاب (الدين والسياسة) رؤية العالم المسلم المستنير بنور الهدى القرآنى، إلى أهم قضايا العصر التى يختلط فيها الحابل بالنابل، والتى تثير كثيراً من الجدل بين أطراف متعددة. وقد قال الشيخ القرضاوى فى كتابه هذا الكلمة الفصل، وأظهر الحقائق ودحض الأباطيل، بأسلوبه السمح الرصين، وبمنطقه الجاد القويم.

والكتاب الثالث للمفكر الباحث المحقق الثقة الذى أصبح اليوم حجة فى الدراسات الإسلامية ومرجعاً فى قضايا الفكر العربى الإسلامى، الدكتور محمد عمارة الذى يحمل عنواناً مثيراً ناطقاً بمضمونه: (الفاتيكان والإسلام: أهى حماقة .. أم عداء له تاريخ؟) الذى صدرت طبعته الأولى عام ٢٠٠٧ عن مكتبة الشروق الدولية. وقد وددت لو أن هذا الكتاب صدر فى الوقت نفسه فى أربع طبعات بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية، لأنه بيان حقيقة صريح، وكشف حساب دقيق، وردٌ علمى شاف ومقنع على الدعاوى التى أثارها الحبر الأعظم بابا الفاتيكان، فى المحاضرة المثيرة للجدل التى ألقاها فى آخر عام ٢٠٠٦ فى إحدى الجامعات الألمانية.

وقرأت الجزء التاسع من كتاب (فى البناء الحضارى للعالم الإسلامى) لمؤلفه الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجرى، الذى صدر عام ٢٠٠٧ ضمن منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. وكنت قد قرأت الأجزاء الثمانية عند صدورها فى حينها. وهذا الكتاب هو فى الواقع موسوعة جامعة تتناول قضايا فكرية وثقافية وسياسية على جانب كبير من الأهمية، بأسلوب رصين ومنهج علمى ومن خلال رؤية ثقافية حضارية ترقى بصاحبها إلى مصاف المفكرين الاستراتيجيين المتخصصين فى قضايا الفكر والحضارة وحوار الثقافات وتحالف الحضارات وصناعة المستقبل.

وكانت مفاجأتى كبيرة بحصولى على نسخة من كتاب جديد للسياسى الإيرانى وزير الخارجية الأسبق ومستشار العلاقات الدولية لمرشد الثورة فى إيران، الدكتور على أكبر ولايتى. يحمل هذا الكتاب عنواناً لافتاً للانتباه مثيراً للفضول: (موسوعة الإسلام وإيران: ديناميكية الثقافة وحيوية الحضارة)، وقد صدر عام ٢٠٠٦ عن دار الهادى فى بيروت، ويقع فى أربعة أجزاء من مجلدين. وقد وجدت هذا الكتاب بمثابة

الرسم البيانى التاريخى للثقافة والحضارة الإسلامية. ومصدر المفاجأة بالنسبة لى، أن المؤلف طبيب بروفيسور وأستاذ بكلية الطب، ورجل دولة تقلد منصب وزير الخارجية فى مرحلة حرجة من تاريخ المنطقة، وهو اليوم يشغل موقعاً متقدماً فى هرم السلطة قريباً من رأس الدولة القائد على خمينئى. وأشهد أنى فتنت بهذا الكتاب لدسامة مادته ولغزارة معلوماته، ولعمق المنهج الذى تناول به المؤلف المباحث التى تطرق إليها.

ومن بين الكتب العشرة كتابان عن بطل حرب التحرير فى شمال المغرب (منطقة الريف) محمد بن عبد الكريم الخطابى: الأول للصحافية المغربية زكية داود بعنوان: (عبد الكريم: ملحمة الذهب والدم) الصادر فى الأصل باللغة الفرنسية: Abdelkrim : une épopée d'or et de sang -وصدر عن وزارة الثقافة المغربية عام ٢٠٠٧ بترجمة محمد الشركى. أما الكتاب الثانى فهو للباحث الجامعى على الإدريسى، بعنوان: (عبد الكريم الخطابى: التاريخ المعاصر) الصادر عن منشورات تفرازن اريف (عنوان دار النشر بالأمازيغية). والكتابان معاً يضيفان إلى مكتبة محمد عبد الكريم الخطابى، معلومات جديدة، خاصة كتاب على الإدريسى الذى يحتوى على فصل كامل حول الحياة العائلية والاجتماعية التى عاشها الزعيم المغربى فى منفاه فى جزيرة La Réunion بالمحيط الهندى لمدة إحدى وعشرين سنة (١٩٢٦-١٩٤٧).

أما الكتاب الثامن فهو للباحث الأكاديمى العميد السابق لكلية الآداب بتطوان الدكتور محمد الكتانى، بعنوان: (ثقافة الحوار فى الإسلام: من التأسيس إلى التأصيل) الصادر عن منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية المغربية عام ٢٠٠٧. وهذا الكتاب فتحٌ جديدٌ فى الدراسات الإسلامية التى تعنى بقضايا الحوار بين الثقافات والحضارات والتعايش بين الشعوب، تتجلى فيه عقلية الباحث الجادّ الذى يتعامل مع الموضوعات التى يبحثها بمنطق العالم، فيبدع ويمتع ويفيد ويجلى الحقائق.

ومن أهم ما قرأته فى عام ٢٠٠٧ واستمتعت به غاية الاستمتاع، المجلد الأول من كتاب (العلوم والثقافة فى العالم الإسلامى) للبروفيسور الألمانى المسلم من أصل تركى فؤاد سزكين عضو أكاديمية المملكة المغربية، ومدير معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية التابع لجامعة فرانكفورت بألمانيا. وقد صدرت الطبعة العربية لهذا الكتاب عن اللغة الألمانية فى فرانكفورت عام ٢٠٠٧، بقلم مازن عماوى، ويقع فى نحو أربعمائة صفحة. وهو كتاب مرجعى مفيد للغاية، وذو قيمة علمية نادرة بين الكتب التى تصدر باللغة العربية حول هذا الموضوع.

وقرأت رواية (شيكاجو) لعلاء الأسوانى، التى صحبتها معى فى رحلة عمل من الدار البيضاء إلى باكو عاصمة أذربيجان، عن طريق استانبول فى الربيع الماضى. وختمت قراءة الرواية فى إحدى الليالى الجميلة الهادئة فى باكو، فى طبعتها الرابعة الصادرة فى شهر فبراير عام ٢٠٠٧.

ولذلك كنت سعيداً بأن أعيش مع علاء الأسوانى فى الطائرة من الدار البيضاء إلى استانبول، ثم أقضى ساعات التوقف فى المطار فى صحبته، ثم أكمل القراءة فى الطائرة من استانبول إلى باكو، وأختمها فى الفندق. وهذه الرواية مثيرة إلى أبعد الحدود. ولأن الكاتب قد برئ من لوثة (الإبداع الإيديولوجى)، فقد تفوق وتألق وأجاد وأحسن وأتقن، فأمتع وأطرب وأنعش النفس المتعطشة إلى الفن الجميل.

أما الرواية الثانية ضمن الكتب العشرة، فهى للروائى (والأستاذ الجامعى) المغربى سالم حمِيش (بكسر الحاء وتشديد الميم) بعنوان: (هذا الأندلسى) الصادرة عن دار الآداب ببيروت عام ٢٠٠٧. تدور الرواية حول مسيرة الفيلسوف الصوفى غريب الأطوار المثير للجدل ابن سبعين، يقدمها الكاتب فى قالب روائى تتوفر فيه شروط الإثارة والتشويق. وهو عمل روائى رائق ورائع ورفيع المستوى، يوازى العملَ الروائى الذى صدر للكاتب من قبل عن ابن خلدون بعنوان (العلامة)، وهى الرواية التى نالت جائزة نجيب محفوظ عن الجامعة الأمريكية فى القاهرة. وأعترف أنى أفاجأ كلما قرأت لسالم حمِيش رواية، بهذا التدفق الإبداعى، وبهذا التألق الفنى، وبهذا التبحر فى المصادر التاريخية لاستجلاء معالم الشخصية الكبيرة التى يختارها لعمله الأدبى. والحق أنى أقدر فى سالم حميش تفوقه وسطوع نجمه فى دنيا الأدب والفكر والعمل الأكاديمى، فهو أستاذ بآداب الرباط، وباحث فى الثقافة والفكر.

ولما كان الكتابان اللذان قرأتهما عن محمد بن عبد الكريم الخطابى يُعدان فى الواقع كتاباً واحداً، فيمكن اعتبار هذه المجموعة عشرة كتب وليست أحد عشر كتاباً. ■

عبد القادر الإدريسى

إسرائيل فى أمريكا

اللوبى والسياسة الخارجية الأمريكية
تأليف: جون ميرشايمر وستيفن وولت



مؤلفا هذا الكتاب من أهم أساتذة علم السياسة فى الولايات المتحدة، أولهما جون ميرشايمر فى قسم العلوم السياسية، جامعة شيكاغو، والثانى ستيفن وولت، أستاذ فى كلية جون ف كندى للعلوم السياسية فى جامعة هارفارد. وهذا الكتاب المكون من ٣٥٥ صفحة دراسة علمية جافة، تعززه ١٠٦ صفحات تحتوى على ألف إشارة مرجعية. ورغم أنهما يؤكدان دعمهما لوجود إسرائيل، إلا أنهما بأسلوب موضوعى خالٍ من الرحمة، يقومان بتحليل اللوبى الصهيونى، ويكشفان النقاب عن مصادر تمويله وعن علاقاته بقادة البيت الأبيض، ومجلسى الكونجرس، ورؤساء الحزبين الكبيرين وبعض الإعلاميين البارزين.

والمؤلفان لا يقولان إن اللوبى ليس شرعيا، بل على العكس، إنهما يبينان أن المئات مثل هذا اللوبى تلعب دورا حيويا فى العملية السياسية الديموقراطية الأمريكية، بل ويشير إلى أنه له دور إيجابى يحقق قدراً من التوازن بين المصالح المختلفة. ولكن اللوبى الصهيونى يتخطى أى معيار فبإمكانه إسكات أى انتقاد لإسرائيل فى الكونجرس وفى وسائل الإعلام، أن يؤدى إلى القضاء على كل من تسول له نفسه خرق التابو، أن يمنع أى نشاط يتعارض وإرادة حكومة إسرائيل. كما يبيّن المؤلفان، كيف يمنع اللوبى أى ضغط على إسرائيل بهدف إحلال السلام مع الفلسطينيين، كيف يدفع الولايات المتحدة إلى اجتياح العراق، وكيف يدفعهما الآن إلى خوض حرب ضد سوريا وإيران، وكيف دعم حكومة إسرائيل فى حرب لبنان الثانية ومنع وقف إطلاق النار حين لم يرغب فى ذلك.

ومؤلفا الكتاب يتسمان بالشجاعة، كما أن جهدهما العلمى ومنتجهما الصارم يستحقان عليه الشكر. ومع هذا أجد نفسى مختلفاً معهما تماماً. وأذهب إلى أن كثيراً من المنادين بمقولة قوة اللوبى الصهيونى وأنه يعمل لمصلحة إسرائيل وضد المصلحة الأمريكية، يستندون إلى مجموعة من المقدمات المنطقية المعقولة التى تكاد تكون بديهية، من وجهة نظرهم. فهم يقولون إننا إذا حكّمنا العقل ودرسنا الواقع بشكل موضوعى وبدون تحيز لتوصلنا إلى أنه ليس من صالح الولايات المتحدة الأمريكية أن تدخل فى معركة مع الشعب العربى، بل من صالحها أن تتعاون معه فى كل المجالات الممكنة، لأن مثل هذا التعاون سيؤدى إلى استقرار المنطقة العربية وسيعود على الولايات المتحدة بالفائدة.

ولكن الولايات المتحدة، مع هذا لا تسلك حسب هذه المعايير المعقولة البديهية، فهى تتمادى فى تأييد إسرائيل وتقف وراءها بكل قوة وتستجلب على نفسها عداء العرب. مثل هذا الوضع شاذ وغير عقلانى لا يمكن تفسيره إلا بافتراض وجود قوة خارجية، ذات مقدرة ضخمة، قادرة على أن تضغط على الولايات المتحدة بحيث تتصرف، لا بحسب ما تمليه عليها مصالحها الموضوعية، وإنما حسبما تمليه عليها

مصالح هذه القوة، أى المصالح اليهودية والصهيونية والإسرائيلية التى يمثلها اللوبى اليهودى والصهيونى.

ولكن مفهوم «المصلحة الاستراتيجية» ليس مفهوماً بسيطاً أو عقلانياً. فسلوك دولة عظمى مثل الولايات المتحدة ليس مسألة تتم حسب قواعد رشيدة بسيطة، وإنما هو نتيجة عملية مركبة تدخل فيها عناصر كثيرة بعضها مادى والبعض الآخر ثقافى ومعنوى. وأعتقد أن الغرب منذ بداية القرن التاسع عشر ينظر للعالم بأسره باعتباره مادة استعمالية يوظفها القوى لحسابه، وفى هذا الإطار يرى المنطقة العربية باعتبارها مصدراً هائلاً للمواد الخام (الرخيصة) ومجالاً خصباً للاستثمارات الهائلة (التى تعود عليه وحده بالربح) وسوقاً عظيمة لسلعه (التى ينتجها ويصرفها فيزداد هو ثراءً)، أو قاعدة استراتيجية شديدة الخطورة والأهمية (بالنسبة لأمنه هو) إن لم يتحكم فيها قامت قوى معادية (مثل الاتحاد السوفيتى فى الماضى) باستخدامها ضده، وهو يرى أن من مصلحته تحقيق هذه الرؤية.

والمفهوم الصهيونى لعالمنا العربى يتفق تمام الاتفاق مع المفهوم الغربى، فالصهاينة يشيرون إلى فلسطين باعتبارها «أرضاً بلا شعب»، وإلى الضفة الغربية باعتبارها «يهودا والسامرة»، وهى مصطلحات تلغى التاريخ العربى تماماً. وهم يشيرون إلى الشرق الأوسط على أنه «المنطقة» وهو اصطلاح يشبه فى كثير من الوجوه اصطلاح «الفراغ»، فكلاهما يؤكد فكرة أن عالمنا العربى مكان بلا زمان، وجغرافيا بلا تاريخ، أو مساحة تسكنها شعوب عديدة متفرقة متناثرة، ومادة استعمالية يوظفها القوى لحسابه. والصهيونية فى نهاية الأمر وليدة التراث الفكرى الاستعمارى الغربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وهى أداته فى المنطقة.

ومما دعم هذا التعريف للمصلحة وهذا الإدراك له الانتصارات العسكرية الصهيونية المستمرة على العرب وتعاظم الهيمنة الأمريكية على العالم العربى مع تزايد دعمها لإسرائيل وتأييدها للبطش الصهيونى، وهذا هو السر الحقيقى للنجاح الصهيونى فى الغرب، فهو لا يعود إلى سيطرة اليهود على الإعلام، أو لباقة المتحدثين الصهاينة، أو إلى مقدرتهم العالية على الإقناع والإتيان بالحجج والبراهين، أو إلى ثراء اليهود وسيطرتهم المزعومة على التجارة والصناعة، وإنما يعود إلى أن صهيون الجديدة جزء من التشكيل الاستعمارى الغربى، وإلى أنه لا يمكن الحديث عن مصالح يهودية وصهيونية مقابل مصالح غربية، وإلى أن الإعلام واللوبى الصهيونيين يمثلان أداة الغرب الرخيصة: دولة وظيفية عميلة للولايات المتحدة تؤدى كل ما يوكل إليها من مهام بنجاح وتنصاع تماماً للأوامر، ولا توجد سوى مناطق اختلاف صغيرة بينها وبين الولايات المتحدة.

إن علاقة الولايات المتحدة بالدولة الصهيونية تصل إلى ذروتها عندما تتفق المصلحة الأمريكية والمصلحة الإسرائيلية، ولكن عندما يحدث تعارض بين مصلحة البلدين فيمكن لأمريكا بالتأكيد أن توجه لإسرائيل صفعة مؤلمة ورنانة، وهذا ما حدث حين تصرفت إسرائيل بشكل مستقل فى علاقتها بالصين.

فمنذ خمسة أعوام تعاقدت إسرائيل مع الصين أن تورد لها طائرات الفالكون التى تحمل أجهزة رادار للإنذار المبكر، فاعترضت الولايات المتحدة لأنها حسب تصورها ستخل بتوازن القوى بين الصين وجيرانها، وطلبت من إسرائيل إلغاء الصفقة، وقد خضعت اسرائيل بالطبع للأمر أو التوجيه أو لفت النظر الأمريكى! ولكن عادت المشكلة مرة أخرى عام ٢٠٠٦، والتى تثير وبحدة قضية المصلحة ومن هو الآمر ومن هو التابع. فقد عقدت إسرائيل صفقة جديدة مع الصين تقوم إسرائيل بموجبها بإعادة تجهيز ورفع كفاءة upgrade طائرات «هاربى» Harpi وهى طائرات هجومية بلا طيار مزودة بأجهزة رادار متطورة تبحث عن رادارات العدو وبعد التأكد من موقعها ومن أنها رادارات معادية من خلال مقارنة الإشارات التى تصل منها من خلال الاستعانة بقاعدة معلومات محمولة، تقوم بتدمير هذه الرادارات برأس صاروخى مرسل من الأرض. وإعادة التجهيز ورفع كفاءة الأداء كان يعنى أن الهاربى سيكون بمقدورها أن تتعرف على رادارات العدو وتهاجمها حتى لو كانت مغلقة (حتى لايمكن اكتشافها) (ابراهام رابينوفيتش: جريدة الأسترالى ٢٧ يونيه ٢٠٠٥).

وقد بيعت الهاربى إلى الصين عام ١٩٩٤ بدون علم الولايات المتحدة، واكتشفت المخابرات العسكرية الأمريكية الأمر بالصدفة حين لاحظت أن القوات الصينية تستخدم الهاربى فى مناورة عسكرية بالقرب من تايوان، وهو الموقع المحتمل لمواجهة بين الصين والولايات المتحدة، إن قررت الصين أن تتحرك ضد تايوان، التى تعتبرها الصين جزءاً منها.

وقد قررت الولايات المتحدة هذه المرة أن تلقن الدولة الصهيونية درساً تبين لها فيها من هو الكل ومن هو الجزء، ومن هو الحاكم ومن هو التابع، فطلبت من اسرائيل أن تصادر طائرات الهاربى التى وصلتها من الصين، وأن تحيل إلى الاستيداع فى وزارة الدفاع أولئك الذين «تورطوا» فى عقد هذه الصفقة وهم عاموس يارون المدير العام للوزارة، ويحئيل حوريب، نائبه، وكوتى مور، مسئول المشتريات فى الوزارة، ومُنع الثلاثة من دخول الولايات المتحدة. وقد دارت مفاوضات بين الطرفين الأمريكى والإسرائيلى رفع من خلالها الإسرائيليون العلم الأبيض ووافقوا على جمع الطلبات الأمريكية (نداء القدس ٢٧ يوليه ٢٠٠٥) بما فى ذلك ضرورة أن تقدم إسرائيل اعتذاراً موقعاً من قبل وزير الحرب آنذاك، شاؤول موفاز (الذى ألغيت زيارته لواشنطن).

وقد فرضت الولايات المتحدة عقوبات أخرى على إسرائيل مثل أن الولايات المتحدة ستشرف على مبيعات الأسلحة التى تقوم بها إسرائيل لأى دولة أجنبية، كما منعت إسرائيل من المشاركة فى المشاريع الخاصة بتطوير الأسلحة المتطورة مثل مشروع Joint F23 Strike Fighter، والذى يقدر لها أن تُنتج فى ٢٠١٢ (ميجان جولدن فى الموقع الإلكترونى لجريدة سن ١٩ يونيه ٢٠٠٦).

كما أوقفت الولايات المتحدة تصدير نظم عسكرية حيوية للمعارك الأرضية إلى إسرائيل. وتطال العقوبات كل الصناعات الأمنية الإسرائيلية وليس فقط المصانع التى قامت بإجراء صفقات مختلفة مع الصين. وترفض الولايات المتحدة رفع هذه العقوبات عن إسرائيل حتى تثبت الأخيرة أنها قد زادت من المراقبة على التصدير الأمنى، وضمن ذلك سن قانون فى الكنيست خلال مدة أقصاها ١٨ شهراً.

وقد وصف مسئول أمنى إسرائيلى هذه الطلبات بأنها غير مسبوقة ومذلة، لأنه «بهذه الطريقة لا يمكن لصناعة الأسلحة فى إسرائيل أن تستمر. لا يوجد بلد فى العالم يسمح لدولة أخرى أن تعرف كل التفاصيل عن أسلحتها» (جيروساليم نيوز ورلد ٢٠ يونيه ٢٠٠٥).

حينما قررت الولايات المتحدة عام ١٩٧٤ أن تغتال الليندى رئيس جمهورية تشيلى، المنتخب ديموقراطياً، وأحلت محله الجزار بينوشيه، لم يكن هناك لوبى شيلى يدفعها لذلك، فاغتيال الليندى هو جزء من الاستراتيجية الأمريكية الإمبريالية المهيمنة على أمريكا الجنوبية.

ولو فسرنا التدخل الأمريكى فى العراق وجنوب السودان والصومال على أساس اللوبى الصهيونى.

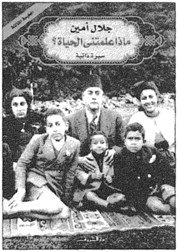
فهل يمكن أن نفسر التدخل الأمريكى فى أفغانستان والجمهوريات الإسلامية المحاذية لبحر قزوين والبحر الأسود والعداء للصين على أساس لوبيات مختلفة، أم على أساس الاستراتيجية الأمريكية النابعة من إدراك النخبة الحاكمة لمصالحها.

هذا لا يعنى أن اللوبى ليس له أى تأثير على القرار السياسى الأمريكى، فمما لا شك فيه أنه يلعب دوراً هاماً فى صياغة هذا القرار، ولكنه يستمد فعاليته وسطوته لا من قوته الذاتية، وإنما بمقدار خدمته للمصالح الأمريكية فى المنطقة. إسرائيل هى الأداة والوسيلة، وليست الغاية ولا المحرك.

والله أعلم. ■

عبدالوهاب المسيرى

كتب مفيدة.. وممتعة أيضا



بعض الكتب المفيدة قد لا تكون ممتعة، وقد يمتعك ما لا يفيد، أما إذا حقق الكتاب المتعة والفائدة معًا، فإن مؤلفه يكون توصلَ للصياغة الصحيحة.

بهذا المنطق رُحت أفتش فى ذاكرة العام عن أفضل الكتب التى أفادتنى وأمتعتنى. وعلى الفور قفز إلى ذهنى كتاب الدكتور جلال أمين «ماذا علمتنى الحياة» (دار الشروق)، وهو سيرة ذاتية للمفكر الكبير يمكن اعتبارها «علامة» فى مجالها، ولا تضاهيها فى أدبياتنا المعاصرة سوى سيرة الدكتور لويس عوض التى صدرت فى عنوان «أوراق العمر»، لجهة الصراحة التى انطوت عليها السيرتان، وإن تميزت سيرة جلال أمين برأيى بأسلوب أكثر سلاسة وتشويقًا، فضلاً عن كم هائل من الأسرار والاكتشافات، منها مثلاً أن أحمد أمين - والد المؤلف - لم يكن حريصًا على أداء الشعائر كما يليق بمفكر وباحث مدقق فى التاريخ الإسلامى، إذ يُعلمنا المؤلف أنه لم ير أباه يصلى، واحتج بالمرض فلم يصم، وفى الكتاب تفاصيل كثيرة عن أحمد أمين الزوج، الذى برغم استنارته وحرصه على أن يستكمل أبناؤه - بمن فيهم البنتان - تعليمهم فى الخارج، فقد كان صارمًا لا يعبأ كثيرًا بمشاعر زوجة شاركته الحياة بحلوها ومرها، حتى إنها بقيت حتى وفاتها، تطوى جوانحها على حب قديم لم يمت حتى بموت صاحبه.

يحدثنا صاحب السيرة عن تجارب عاشها. فى مصر والكويت، وارتحالاته السياسية بين حزب البعث حين كان طالبًا، إلى الماركسية فى ستينيات القرن، ثم ميله إلى التأثر بمفكرين إسلاميين وجد فيما يطرحونه تناسقًا مع أفكاره المناهضة للإمبريالية والعولمة فى صيغتها الأمريكية، وآراء صريحة يبديها فى السياسة المصرية وزعاماتها، وبشكل ما، فإن سيرة جلال أمين لا تقدم فحسب صورة لصاحبها وللعائلة. وإنما صورة للوطن والمنطقة منذ أواسط الثلاثينيات وحتى اليوم.

سيرة ممتعة أخرى يكتبها صلاح عيسى عن الشاعر أحمد فؤاد نجم تحت عنوان «شاعر تكدير الأمن العام» (دار الشروق) من خلال ملفات القضايا التى اتهم فيها «الفاجومى»، والذى كان ضيفًا دائمًا على معتقلات وسجون العهدين الناصرى والساداتى، وإلى جانب ما يكشفه صلاح عيسى عن أسباب الاعتقال ودوافعه، والقصائد التى أودت بصاحبها للمهالك، والمناخ الذى نما فيه هذا الثنائى الفنى الفذ إمام/ نجم وتأثيره فى المحيط العربى كله، فإن نصوص التحقيقات القضائية التى يوردها المؤلف، تشير إلى رؤية الشاعر لدوره، واستعداده الدائم لدفع الثمن - وقد دفعه - للقيام بهذا الدور.

فى الإطار ذاته - السيرة - يأتى كتاب الروائى محمود الوردانى عن منظمة «حدتو»، أشهر المنظمات الشيوعية (دار الهلال)، والتى تأسست فى ١٩٤٧، والحقيقة أن الوردانى فى سعيه للتأريخ لحدتو، عرض لملفات اليسار المصرى فى عمومه، متنقلاً بين العديد من هذه المنظمات مثل أسكرا، والحزب الشيوعى، والخبز والحرية، الثقافة والفراغ، وغيرها من المنظمات العلنية والسرية، كما استعرض دور الأجانب واليهود فى نشأة هذه المنظمات، ودورها فى الكفاح المسلح قبيل ثورة يوليو ١٩٥٢، ووقوفها إلى جانب حركة الضباط وانقلاب الأخيرين عليهم خصوصًا بعد إعدام خميس والبقرى فى ٧ سبتمبر ١٩٥٣، ويعرض لأشكال من صنوف الاضطهاد والتعذيب لاقاها الشيوعيون فى العهد الناصرى.

«تاكسى» خالد الخميسى (دار الشروق) يرسم صورة واقعية للمجتمع المصرى من خلال سائقى التاكسى وزبائنهم، متتاليات قصصية مسرحها التاكسى وفضاؤها الشارع المصرى على اتساعه، والواقع بتحولاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التى يعبر عنها سائقو التاكسى بذكاء وسرعة بديهة حقيقية، بشكل ما، فإن هذا الكتاب تشريح للمجتمع لا يقدم وصفة جاهزة، لكنه يضع أيادينا على مواطن الجرح، بسخرية ونبل ودهاء.

بطريقة مغايرة يأتى كتاب صادر عن مركز البحوث الاجتماعية والجنائية فى عنوان «عشش الشرابية.. دراسة لنوعية الحياة فى منطقة عشوائية»، واللافت أن السينما اقتحمت عالم العشوائيات الذى يقدر عدد من يعيش فيه من المصريين بأكثر من ١٥ مليون نسمة، وربما كان فيلم خالد يوسف الأخير «حين ميسرة» هو الأكثر اقتحامًا لهذا العالم المحكوم بقوانينه الخاصة، والذى تحرك العائشين فيه نوازع الضرورة والحاجة والبقاء، وهذه الدراسة التى شارك فيها ثمانية من الباحثين، أجروا حوارات مطولة مع من يقطنون هذه المنطقة، تكشف لنا كثيرًا مما نجهل عن العشوائيات: نشأتها، نمط السكن، أولويات الإنفاق، مستويات الدخول، العلاقات الاجتماعية، النساء، رؤية هؤلاء السكان لبعض القضايا المجتمعية. أما المقترح الذى تقدمه الدراسة بعد كل هذا الجهد العلمى لتحسين أحوال العائشين فى عشش الشرابية وشبيهاتها، فهو ببساطة: الإزالة.

لأسباب مهنية، انشغلت بالأزمة اللبنانية التى فرضت نفسها على الساحة الإقليمية والدولية هذا العام، وبين كتب عديدة قرأتها فى الموضوع، بعضها صدر فى سنوات سابقة، فإن ثلاثة كتب صدرت هذا العام حققت الشرط الذى تحدثت عنه فى البداية وهو المتعة والفائدة، والكتب الثلاثة هى: «ذاكرة الاستخبارات» للكاتب الصحفى غسان شربل رئيس تحرير «الحياة» الدولية (دار رياض الريس)، وكتاب الناشط اليسارى اللبنانى حسام عيتانى «هويات كثيرة وحيرة واحدة» (دار الساقى)، وكتاب الأكاديمى المغربى عبدالإله بلقزيز «حزب الله من التحرير إلى الردع» (مركز دراسات الوحدة العربية).

أما الأول فيعرض لرؤى أربعة من القادة الأمنيين ورؤساء أجهزة المخابرات فى لبنان منذ أواسط الستينيات وحتى اغتيال رفيق الحريرى فى فبراير ٢٠٠٥، وهم «جونى عبده» الذى كان على رأس مديرية المخابرات فى الجيش اللبنانى فى عهد إلياس سركيس (٧٦ - ١٩٨٢) و«جابى لحود» الذى عمل مع الرئيسين شارل حلو وفؤاد شهاب، ومحمود مطر صاحب القصة الشهيرة التى حاول فيها السوفييت خطف طائرة ميراج فرنسية تابعة للجيش اللبنانى. إلا أنه نجح فى تضليلهم، وجميل السيد الذى تولى الأمن العام اللبنانى فى أعقاب تولى العماد إميل لحود رئاسة الجمهورية ١٩٩٨، وميزة الشهادات التى يقدمها هؤلاء الأربعة الذين عزف بعضهم عن الكلام لفترة طويلة. أن أصحابها كانوا فى المطبخ. فى الدائرة الضيقة لعملية صنع القرار، وأنهم كانوا شهودًا وفاعلين أيضًا فى منعطفات مهمة فى حياة لبنان كالحرب الأهلية والاجتياح الإسرائيلى وتنامى المقاومة والموقف من الوجود السورى. فضلاً عن عمليات الاغتيال المتعددة التى كان آخرها اغتيال الرئيس رفيق الحريرى.

أما كتاب حسام عيتانى فيشرح من خلال سيرة شبه ذاتية، كيف تفتت الهوية إلى هويات، وكيف وضعت بذور الفتنة بين أبناء العائلة الواحدة على خلفية الانتماءات الأيديولوجية والأطماع الشخصية، وكيف قادت هذه الصراعات إلى زيادة البؤس والفقر فى لبنان، الذى غمر الطبقة الوسطى أولاً، لكنه سرعان ما طال بقية شرائح المجتمع اللبنانى.

ويتابع الكتاب الثالث قصة صعود «حزب الله»، والأدوار الاجتماعية التى لعبها فى فترات القلق التى عاشها اللبنانيون طوال الحرب الأهلية، ثم حمله لواء الدفاع عن لبنان والعروبة فى السنوات الأخيرة.

ثمة كتابان متميزان فى مجال الدراسات التاريخية قرأتهما هذا العام، الأول هو كتاب محمد حاكم «أيام محمد على» (المجلس الأعلى للثقافة) وفيه يركز الباحث على التمايز الطبقى والاجتماعى وحالة المدينة والقرية فى زمن الوالى، أى أنه يعطى الجانب الاجتماعى قدرًا أكبر من الاهتمام، وهو أمر بذل فيه

الباحث جهداً كبيراً لندرة الدراسات التى تناولت هذا الجانب من ناحية، وغياب الوثائق الخاصة بالحيازات وكيفية توزيع الثروة وفرص الحياة بين الريف والحضر من ناحية ثانية.

والكتاب الثانى عن «شتات اليهود المصريين» (دار الشروق) وقد أزعج مؤلفه «جوئل بنيين» دعاة القومية العربية، الذين اتهموه جنباً إلى جنب الصهاينة بتشويه اليهود المصريين الذين اضطروا إلى الرحيل عن مصر فى أعقاب حرب فلسطين ١٩٤٨، وقد كان المؤلف نفسه صهيونياً، إلا أنه هجر الصهيونية وأعلن معاداته لها وركز جهوده فى الدفاع عن الفئات العمالية.

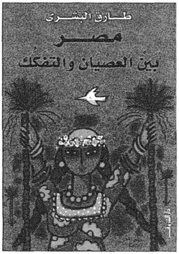
وإلى هذه الطبيعة الإشكالية من الكتب ينتمى كتاب عالم الاجتماع الدكتور أحمد زايد «صور من الخطاب الدينى المعاصر» (دار العين) وفيه يتعرض بالنقد للخطاب الدينى الإسلامى والقبطى معاً، ويكشف عورات هذا الخطاب وعدم قدرته - فى معظمه - على التعاطى مع مستجدات فرضتها أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وإزاحة الاتحاد السوفيتى والانتصار الكاسح للرأسمالية والمعسكر الغربى، والمؤلف يعتمد على نصوص هذا الخطاب ذاته فيفندها ويخضعها للتحليل العلمى والاجتماعى.

فى الرواية، ربما كانت «شيكاجو» علاء الأسوانى (دار الشروق) هى الأوفر حظاً من حيث التوزيع والذيوع، برغم صدور روايات أخرى مصرية وعربية فى نفس العام منها مثلاً العمل الأخير لعميد الرواية العربية الراحل نجيب محفوظ «أحلام فترة النقاهة»، و«شيكاجو» رواية جميلة وشيقة لا ريب، إلا أننى كنت شديد الفرح حين قرأت «واحة الغروب» للأديب الكبير المقل بهاء طاهر والتى صدرت لها طبعة أولى عن «دار الهلال» وطبعتان عن «دار الشروق»، ففيها يتكئ صاحب «قالت ضحى» و«بالأمس حلمت بك» و«نقطة النور» و«أنا الملك جئت» و«خالتى صفية والدير» على التاريخ، متخذاً من نهايات القرن التاسع عشر وزمن الثورة العرابية، ومن صحراء الواحات مجالاً لأسئلة مؤرقة عن العلاقة بين الشرق والغرب، عن معنى الوطن والانتماء، عن الخيانة والبطولة، وهى الأسئلة التى تتناثر فى الأعمال السابقة للروائى الكبير كلها.

عماد الغزالى

«خريطة طريق» لفهم ما جرى فى مصر

مصر بين العصيان والتفكك
القاهرة: دار الشروق - ٢٠٠٧
طارق البشرى



هذا كتاب نادر فى عمق تناوله لأزمة الواقع المصرى، يوفر لقارئه مفاتيح قراءة ذلك الواقع ويبصره بخيارات الخروج من الأزمة.

وإذا كان عنوانه: «مصر بين العصيان والتفكك» يكاد يعطى انطباعاً بأن التفكك هو المشكلة والعصيان هو الحل، فإن اختزال موضوع الكتاب على ذلك النحو يظلمه إلى حد كبير. ذلك أن مؤلفه المستشار طارق البشرى وهو يرسم خريطة الواقع حرص على أن يلح طول الوقت على أن مشكلة المجتمع المصرى الأولى تكمن فى تغييب الحريات العامة فيه، ولا يرى أملاً فى أى تعديل دستورى أو أى إصلاح مهما كان نبل غايته، مادام المجتمع على هشاشته وضعفه وقلة حيلته، معتبراً أن اختزال الإصلاح السياسى فى التعديل الدستورى وحده يضلل الرأى العام ويخدعه.

من ثم فمن يريد الإصلاح حقاً ينبغى أن يسعى أولاً إلى رفع وصاية السلطة على المجتمع، وأن يفتح الأبواب لتعددية سياسية حقيقية تعبر عن توجهات وتمايزات الجماعة الوطنية.

وهو إذ يتحدث عن أزمة الواقع فإنه سلط الضوء على مسألتين مهمتين هما: شخصنة السلطة وتفكيك جهازها الإدارى.

والمقصود بالشخصنة، التى هى نظام نادر فى التاريخ، ليس الحكم المطلق «الاستبدادى» لأنه فى كل أنواع الحكومات التى من ذلك القبيل يشعر الحاكم فيها أنه ينتمى إلى تكوين اجتماعى محدد له وجوده المستقل عن الدولة، قبيلة أو جماعة دينية أو حزب أو تشكيل نقابى.. ولكن فى الحالة التى نحن بصددها لا ينتمى القائم على الدولة المتشخصنة إلى أى من تلك التكوينات، فى حين يسيطر بذاته على مفاتيح السلطة، بحيث تصبح آلة الحكم تحت إمرته، ولا تقيده إلا الإمكانيات المادية للدولة وأجهزتها فى الحركة والنفوذ، وهو يدير الدولة من خلال المحيطين به، حيث ينصب أفرادها على مختلف المواقع لأطول فترة ممكنة، مما يؤدى أيضاً إلى شخصنة تلك الدوائر، «بحيث تحل العلاقات الشخصية فى نهاية المطاف محل علاقات العمل الموضوعية.

ولا يقوم فى خارج إطار أجهزة الحكم ما يكون ذا تأثير عليه، ولا تقوم آلية ما للتبادل والتأثير معه وهو خارج إطار السلطة والوظائف الرسمية».

الشخصنة كما يصورها المؤلف تصنع نظاماً منغلقاً، لا ينفتح على خارج ذاته، ولا تتوفر له أية آلية للتعديل أو التجديد. وهو ما يمثل حالة من حالات الاستبقاء بأى ثمن، وهى تحول الحكم إلى ما يشبه الملكية الخاصة، وتجعل من المنصب أو الهيئة التى يتولاها الأعوان شأناً خاصاً لدى السلطان. وأخطر ما يهدد الدولة المتشخصنة بالزوال هو الحركة، لأنها تستدعى تعديلات وتستدعى خبرات وعناصر جديدة من خارج الدائرة المحكمة، الأمر الذى يكشف العجز والوهن، لذلك فإن الدولة المتشخصنة ما خيرت قط بين بديلين، أحدهما هو الجمود والثبات، إلا وانحازت إلى ذلك الجمود، الذى يبقى على كل شىء كما هو.

لا يختلف البشرى مع القائلين بهشاشة القوى السياسية والاجتماعية فى مصر وانعدام فاعليتها، الأمر الذى يجعلها غير قادرة أن تحقق مطلباً تدعو إليه أو أن تحرس هدفاً تسعى إليه، لكنه يلفت الانتباه إلى ما أصاب جهاز الدولة ذاتها من ضعف وخور، من جراء التغييرات السلبية التى طرأت عليه فى العقدين الأخيرين، وأدت إلى تفكيكه وإفقاده استقلاله وحيويته، مما أثر سلباً على قدرته على الإنجاز، وهو يدعو إلى «ضم الاهتمام بذلك الجهاز ورجاله إلى صميم اهتماماتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية».

الفكرة الأساسية التى يتحدث عنها المؤلف فى هذا الصدد تتمثل فى سعى السلطة إلى إعادة النظر فى مختلف القوانين الحاكمة لأجهزة الإدارة، بحيث يصبح مصير استمرار الموظف فى موقعه، مدنياً كان أم عسكرياً مرتبطاً برضا رؤسائه، وليس مرتبطاً بنظام قانونى مستقر، ولا بخبرته ومدى كفاءته فى العمل، وهو ما يتحقق على النحو التالى: يظل الموظف فى موقعه محمياً بالقانون عند حد معين، إلى أن يبلغ نصف عمره الوظيفى، وبعد ذلك تتوقف مسيرته وتنقطع عنه الحماية القانونية، وتخضع علاقته بالجهاز الذى يعمل به لعملية التجديد السنوية. وهذا التجديد تتحكم فيه إرادة الجهات الأعلى، ورضا هذه الإرادة يصبح هو العنصر الحاسم فى استمرار الموظف فى عمله من عدمه. ولأن الموظف يدرك ذلك فإنه يحرص فى أغلب الأحوال على استجلاب ذلك الرضا بمختلف السبل. وبهذه الطريقة فإن علاقة الوزراء بمختلف القيادات فى وزارته أو فى القطاع العام لا تصبح علاقة عمل، ولكنها تتحول إلى علاقة تبعية، الأمر الذى يصب فى وعاء «الشخصنة» فى نهاية المطاف.

يعقب المستشار البشرى على هذه الحالة بقوله: إن القيادات التى تستمر فى مواقعها استناداً إلى نظام التجديد أو التأقيت تفقد الشعور بالاستقرار



والأمن. «وفقدان الأمن يفقد الاستقلال، وهو يقضى تماماً على علاقات الندية، ويقضى على إمكان النظر والتقدير الذاتى، كما يقضى تماماً على القدرة على النظر الموضوعى للأمور».

إذ حين يجد الشخص أن مصيره الوظيفى معلق فى يد شخص واحد يجلس على قمة الجهاز يكون دائماً فى حالة خوف وإكراه، حيث يشعر بأن ثمة فوهة لبندقية موجهة إلى رأسه على الدوام.

الشخصنة بطبيعتها تضيق من نطاق الأفراد الممسكين بزمام الأمور، وتجعلهم أشد ما يكونون حرصاً على إحكام القبضة والدفاع عن الثبات، مستخدمين فى ذلك آلة السلطة الأمنية، ولذلك يكون القمع هو رد الفعل الفورى لمواجهة أى دعوة إلى التغيير، وهذا ما ينبغى أن يتوقعه ويتحسب له دعاة التغيير.

وعليهم فى هذه الحالة أن يستقبلوا عنف الدولة دون أى رد فعل عنيف، لأن الأجهزة حين تستخدم العنف فإنما تمتثل للتعليمات الصادرة لها، وتؤدى وظيفتها فى حفظ الأمن ومنع الاضطرابات، وهو ينصح دعاة التغيير بأن يعوا هذه الحقيقة، ويحثهم على ضبط النفس، لأنه لا توجد فى الحقيقة ولا ينبغى أن توجد خصومة شعبية مع أجهزة الدولة ولا على العاملين فيها. من ثم يتعين على أصحاب الحركة الشعبية أن يحتملوا عنف السلطة دون رد عليه، وأن يتشبثوا بحركتهم السلمية غير العنيفة، مهما كانت التكلفة، لأن تلك التكلفة هى النفقة التى تؤدى لله والوطن من أجل الخروج من الطريق المسدود، الذى يظهر أنه لا سبيل للخروج منه إلا بالحركة.

النصيحة الأخرى التى يوجهها البشرى هى أن الفعل السلمى المنتج يتطلب حركة جامعة وشاملة كأوسع ما تكون، وبقدر سعتها وشمولها بقدر ما تكون منتجة، لذلك فإنه ألح فى الدعوة إلى تجاوز الشتات بين دعاة التغيير، قائلاً: إن نموذج الدولة المشخصنة لا يظل مستمراً وقوياً إلا بقدر ما يكون الناس متفرقين. ■

فهمى هويدى

التهديد الحداثى.. للبشرية

دراسات معرفية فى الحداثة الغربية
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ٤١٨ ص.
عبد الوهاب المسيرى



هذا الكتاب هو أحد الأعمال الرئيسة للدكتور عبد الوهاب المسيرى، ويمثل حصيلة ناضجة ومركزة لأكثر من ربع قرن من الدراسة والتأمل والتنظير وتطوير النماذج المعرفية التحليلية باتجاه تفسير وتفكيك الظاهرة الغربية بشكل عام، وتجربتها الحضارية ومضمونها الحداثى بشكل خاص.

يدرس الكتاب الحضارة الغربية الحديثة، والنموذج المعرفى الكامن وراء بعض نظرياتها ومنتجاتها الحضارية. وتعود بعض هذه الدراسات إلى عقود مضت، لكن المؤلف أعاد كتابتها وفقاً لرؤية تحليلية متكاملة بعد أن تشكلت وتبلورت. كما اهتم برصد وتفكيك النظرية المعرفية الغربية، خاصة فى تجسدها الإمبريالى ضمن المشروع الأوروبى الاستعمارى الحديث.

إحدى الإشكاليات التى يستبطنها الكتاب على امتداد فصوله وموضوعاته، وهى إشكالية محورية فى العلوم الإنسانية والاجتماعية على أى حال، أى علاقة الذات بالموضوع: وتتبدى أكثر من خلال علاقة الأفكار بالواقع، والشكل بالمضمون، والكل بالجزء، والخاص بالعام. وقد نالت هذه الإشكالية اهتماماً خاصاً فى ملحق الكتاب الذى يضم دراسات توضيحية لهذه الإشكالية وكيفية تجاوزها، وأخرى تهتم بالنماذج المركبة وضرورة استخدامها فى دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية.

يعتبر الدكتور المسيرى أن التهديد الحقيقى للاجتماع البشرى يكمن فى الحتمية التاريخية الآلية التى تطرح تصورات آلية بسيطة عن علاقة المادة بالفكر، كعلاقة أدوات الإنتاج بالأفكار أو حتمية التطور التاريخى. فقد حولت هذه التصورات مسار التاريخ الغربى إلى سيناريو عالمى حتمى، يتمتع بشرعية علمية موضوعية: كأنه قوانين طبيعية كالجاذبية أو الطفو.

يدور الفصل الأول حول «الحداثة المنفصلة عن القيمة وتفكيك الإنسان»؛ وهو يتناول بعض أهم المفاهيم المحورية فى الحضارة الغربية الحديثة، كمفهوم «الإنسان الطبيعى» وفكرة «الاستنارة». فى هذا السياق، يدرس المسيرى الحداثة والحلولية والإنسان الطبيعى المادى. وهنا يميز بين الواحدية (الاختزالية) وبين توحيد «الإله» خالق الإنسان والطبيعة والتاريخ، لكنه إله مفارق لا يحل فى مخلوقاته ولا يتحد معها؛ ما يعنى أن هناك ثنائيات أساسية، كثنائية الخالق والمخلوق، وثنائية الإنسان والطبيعة، وثنائية الغيب والشهادة، وغيرها. وهذا يترك للمخلوق حيزه كإنسان (ليس بإله وليس جزءاً من الطبيعة)؛ فهو كائن مستخلف ومكلف ومسئول، له حقوقه وحريته وعليه واجباته أيضاً.

تتعرض هذه الرؤية لسمات الإنسان الطبيعى المادى: فهو إنسان بلا حدود يتمتع بالسمات الأساسية للطبيعة (المادة): مكتف بذاته، وهى مرجعيته ومعياريته، لا حدود أو قيود (اجتماعية أو تاريخية أو جمالية) عليه، فهو سوبرمان حقيقى. يعيش فى الزمان الطبيعى الحر لا الزمان التاريخى الإنسانى، حيث تحكم القيم والأعراف.

يتعرض الفصل الثانى للنموذج المعرفى والحضارى الغربى الحديث فى محاولة لتجريد النموذج المعرفى والحضارى الغربى وتحديد بعض سماته الأساسية. يرى المسيرى أن الرؤية المعرفية الغربية ذات طبيعة إمبريالية كامنة فى نظرتها للإنسان والطبيعة والمقدس. فهى تميل إلى نزع القداسة عن الإنسان، بل تدعو إلى غزوه وتسخيره وإخضاعه دون اعتبار لأى معايير أخلاقية، باستثناء القوة. وتتبنى هذه الرؤية المعرفية علمانية لا تفصل المؤسسة الدينية عن الدولة كما هو شائع، بل تعزل القيم المطلقة (المعرفية والأخلاقية) عن الحياة. وفى هذا السياق، تتماهى الرؤية المعرفية العلمانية مع الرؤية المعرفية الإمبريالية، بحيث تصبح الإمبريالية نقلاً للمنظومة المعرفية والأخلاقية العلمانية من الغرب إلى العالم.

ظهرت الرؤية المعرفية الإمبريالية نتيجة لمجموعة متضافرة من العوامل التاريخية والفكرية. فمنذ عصر النهضة هيمنت الفلسفات العلمانية المادية على العقل الغربى. فأعلن الإنسان الغربى موت الإله أو تنحيته عن عمليات المعرفة والأخلاق. وأصبحت الطبيعة مجرد مادة استعمالية خاضعة لقوانين الحركة والاستغلال، والإنسان ذاته جزءاً من الطبيعة ومادة استعمالية متحركة، بدون أى تكريم إلهى أو مكانة خاصة. ترسخ ذلك مع هيمنة الفلسفات العقلية النفعية فى القرن الثامن عشر.

ترافق مع ذلك ترذيل الأخلاق باعتبارها قيماً غيبية غير مادية أو كمية. وأصبحت المنفعة أو اللذة هى الأخلاق. وغاية الحياة البحث عنهما وتعظيم الإنتاج والمكاسب، وهى أهداف مادية كمية قياسية لا علاقة لها بالغيب. وغدت الأخلاق حالة نسبية غير مطلقة، وترد لجذورها المادية. وهكذا تراجعت العقيدة الدينية، وانحسر الإيمان بالمطلقات المعرفية والأخلاقية باتجاه «أخلاق» على أساس قوانين علمية وحسابات رياضية.

يضم الفصل الثالث، ماكس فيبر والحداثة، ثلاث دراسات فى فكر عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر والهدف منها توضيح منهجه فى دراسة الظواهر الحضارية الحديثة: فهو يستخدم النماذج المركبة متعددة الأبعاد ليفسر ظواهر مثل الرأسمالية والعلمانية، فيبين علاقتهما بحركة وأفكار الإصلاح الدينى والحلولية. وقد حاول المؤلف قدر استطاعته أن يتبنى نفس منهج النظر، رغم أنه قد وصل إلى نتائج أخرى مغايرة.

لعبت صداقة المؤلف الفكرية مع المؤرخ الأمريكى كافن رايلى، وحوارهما المتصل منذ ثلاثة عقود ونيف، دوراً فى بلورة رؤية المسيرى للحضارة الغربية، وهى موضوع الفصل الرابع.

فقد عالج رايلى فى كتابه

الهام الذائع «الغرب والعالم» بعض قضايا الحداثة، كعلاقة العلم بالأخلاق وانفصاله عن القيمة وظهور الشمولية والنزعة الاستهلاكية، ما يسميه «أخلاق الصيرورة». اكتشف رايلى أن التراث الدينى التوحيدى يؤدى إلى انفصال الإنسان عن الطبيعة، على عكس ديانات الشرق الطوطمية وديانات الشرق الأقصى الحلولية.

الفصل الخامس، النموذج الحضارى الحديث والحياة اليومية، هو محاولة لدراسة بعض تبديات النموذج الحضارى الغربى على مجمل حياة الإنسان العامة والخاصة، فى الشرق والغرب. يتناول هذا الفصل موضوعات كوهم الديمقراطية، والعنصرية الغربية فى عصر التحديث (عنصرية التفاوت) وعصر ما بعد الحداثة (عنصرية التسوية). كما يتعرض للماركسية والاستعمار والعنصرية، الصهيونية والنازية والحداثة المنفصلة عن القيمة، وهيمنة الأخيرة على الحياة اليومية، حضارة الهمبرجر والإنسان، وأخيرًا الثقافة الشعبية فى مصر والانفصال عن القيمة.

والحقيقة أن هناك بعض التكرار، الذى يعود إلى استخدام النموذج كأداة تحليلية تختلف عن طريقة السرد الخطى العادى، حيث تتوالى المعلومات وتتجاور المفردات المعرفية والتعليقات، على نحو مستقيم متصل. أما التحليل من خلال النموذج فهو دورانى، حيث إن الباحث المستخدم للنموذج المركب كأداة تحليلية يبدأ بالنظر فى تفاصيل النص وجزئياته، ليجرد منها نموذجًا تحليليًا تفسيريًا. ثم يعود إلى النص محاولاً تفسيره بمجمله فى ضوء النموذج المستخلص.

يعتبر هذا الكتاب أحد مؤلفات المسيرى الرئيسة، فهو يقدم بشكل واف جزءًا كبيرًا من منظومته المعرفية والذى قد يشكل ثلث اجتهاده الفكرى فى العقود الأربعة الماضية، ونرى ملامحه وتطبيقاته فى أعمال متعددة حول الحداثة والظاهرة الغربية بشكل عام، بل وتفسر جزءًا ملموسًا من الظاهرة الصهيونية. ويمكن مقارنة هذا العمل بكتابه المفصلى: «الأيديولوجية الصهيونية.. دراسة حالة فى علم الاجتماع المعرفى»، الصادر أوائل الثمانينيات (١٩٨١-١٩٨٢)، عن سلسلة عالم المعرفة بالكويت، من حيث ريادته وقيمته الفكرية.

مازن النجار

ظواهر جديدة وأمير للسخرية



أعتقد أن العام المنقضى (٢٠٠٧) كان عاما لتدشين عدة ظواهر جديدة فى حقل الكتابة الواسع، وأستند فى هذا الزعم على نتاجات قراءتها، وهى ليست كل ماقرأته فهناك أعمال عالية لكتاب كبار أضافت لمسارهم القوى والمتميز، لكننى أحب أن أتوقف أمام ما أتصور أنه يشكل «ظواهر» تؤسس لمسارات مختلفة أوجديدة. ففى مطلع ذلك العام قرأت رواية شيكاجو لعلاء الأسوانى وتاكسى لخالد الخميسى، وهما كتابان حظيا بقدرة غير مسبوقة على اختراق حواجز المقروئية المحدودة، فسجلا عددا من الطبعات المتوالية لم يحدث منذ سنوات بعيدة، وهذا يدق جرس تنبيه مهم لمن ألقى السمع وهو شهيد، حيث بات جليا أن مناخ جمهور القراءة قد تغير، ولابد من الوقوف بموضوعية وتقدير أمام هذه الظاهرة التى أراها إيجابية تماما، لأنها أضافت إلى خريطة القراءة عشرات وربما مئات آلاف القراء الجدد، وفيما يتعذر عليَ تصنيف كتاب «تاكسى» الذى أعجبت به، فإننى أضع «شيكاجو» فى موقع خاص، كرواية تؤسس. مع عمارة يعقوبيان. لتلبية مطلبين فى آن، أولهما: القدرة على النفاذ لجمهور عريض من القراء عبر أدوات اللغة البسيطة وناجحة الأداء والتشويق بتقنيات القطع السينمائى المتوازى والتعقب سريع الإيقاع. وثانيهما: الإطاحة الجريئة، عبر شخصيات حية ومقنعة، بخطوط حمراء ومحرمات سياسية واجتماعية طالما أثقلت الإبداع. باختصار، علاء الأسوانى ظاهرة حقيقية جدا فى زمانها ومكانها، ولن يتوقف تأثيره عند حدود المقروئية الواسعة، بل سيمتد ليؤثر فى المنتج الأدبى الآن وفى السنوات القادمة، سواء اتفقنا أو اختلفنا معه. وقريبا من هذا الإطار قرأت عدة روايات جديدة ناجحة منها «فاصل للدهشة» لمحمد الفخرانى، و«تغريدة البجعة» لمكاوى سعيد، ولعل أخطر مافى هاتين الروايتين، هو مغامرة الدخول فى مناطق مجهولة برغم اشتعالها فى أحشائنا الاجتماعية والإنسانية، العشوائيات عند الفخرانى، وأطفال الشوارع وهامش وسط البلد عند مكاوى، وهى كشوف جغرافية أدبية مرعبة، وهذا دور جديد تماما للرواية كوثيقة اجتماعية لعله غير مسبوق. أما الكتاب، والكاتب، الظاهرة فى عام ٢٠٠٧، فهو «قلمين» بلال فضل، فبرغم قراءتى الإدمانية لكتابات بلال، ومتابعتها بشغف، فإننى اقتنيت الكتاب، وأهديه لمن أحب. برغم سوء توزيعه وصعوبة الحصول عليه. فهذا الكتاب الذى يجمع مقالات الكاتب السابق نشرها، لا يتوقف عطاؤه عند حدود نقد المثالب السياسية والاجتماعية فى حياتنا هذه، لكنه يمتد إلى أفق نادر فى سماء الكتابة، هو أفق السخرية العالية والراقية والموهوبة، بل عارمة الموهبة، ولو كان أمامى أن أختار كاتبا واحدا ليكون كاتب العام، لاخترت بلال فضل بكل اطمئنان وفرح. فبلال كاتب ساخر من نوع نادر، وأزعم أنه الوريث الأكثر استحقاقا لإمارة الكتابة الساخرة التى شيدها ساخرون عظام أمثال عمنا محمود السعدني، وأمير الكتابة الساخرة الجديد يتميز بعدة سمات إنسانية وإبداعية أعتقد أنها لم تتوافر مجتمعة لغيره، فثمة ثقافة عريضة ولغة مقتدرة ووعى بالعمق التراثى والإبداع الإنسانى المعاصر فى الوقت نفسه، ثم إن هذا النبيل الموهوب الجميل وهو يطلق سخرياته الذكية المضيئة الملونة، والمبهجة كألعاب نارية فى سماء ليل حالك من القطيفة، لا يعبأ بالحسابات «المؤالسة» لأن ذكاءه الروحى يدير ذكاء عقله اللامع. ولأننى أعتقد أن سطوع نجم كاتب ساخر فى مصرنا الساخرة هو بمثابة ميلاد شاعر عظيم فى القبيلة العربية، فإننى أراه بوضوح: الأمير الشاب للكتابة المصرية الساخرة.

محمد المخزنجى

هذا النوع من الكتب..

كتاب «مصر بين العصيان والتفكك» لمؤلفه المستشار طارق البشرى، كتاب يلامس الواقع، ينبه إلى المخاطر، ويدعو إلى مواجهة جادة للمستقبل، رغم صفحات الكتاب القليلة التى لا تتجاوز المائة وسبع عشرة صفحة، إلا أنه بالغ الأهمية، يسد نقصًا فادحًا فى المكتبة العربية..

إنه كتاب مميز.. فأكثر الكتب فائدة هى التى تتناول قضايا قائمة وليست تلك التى تميل إلى التجريد أو تلك التى تتحدث عن الماضى. وربما كانت مهمة كتابة هذا النوع من الكتب مهمة الجامعات ومراكز البحث. ولكن كثيرًا ما يجنح البعض للكتابة عن الماضى، أو يقدمون شكل وقضايا المجتمعات الأجنبية التى درسوا فيها.

علمًا بأن مؤلفات المفكرين هى المرآة التى تعكس مصاعب الواقع فى مده وجزره، وترسم صورة للعصر الذى نعيشه، وعادة ما يقترن التدهور الثقافى بانحطاط الأحوال الاجتماعية.

فنادرة تلك الكتب التى تعالج مشاكل قائمة، وقضايا مباشرة، وترسم للقارئ طريق استرداد العافية وأسلوب علاج القصور.. وقليلة أيضًا تلك الكتب التى تبعث روح الإصلاح، والتى حظيت فى مراحل مختلفة بالاهتمام والبحث والدراسة.

وظهرت يومًا مجموعة مهمة من الكتب والدراسات خلال وعقب الحرب العالمية الثانية.. ولعل من أبرزها ما رواه د. إبراهيم بيومى مدكور فى كتابه «مع الأيام»، وكيف كان إصلاح الأداة الحكومية، أحد أهم اهتمامات الكتاب، وعندما أسس فى الأربعينيات مع مريت غالى ومحمد زكى عبدالقادر «جماعة النهضة»، وهى الجماعة التى عملت على رسم سبل الإصلاح، وسعت للنهوض بالشعور الوطنى..

وكانت مرحلة الصحوة السابقة لما بعدها..

ويعد كتاب مريت غالى «سياسة الغد» والذى يتضمن برنامجًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، من أبرز الكتب التى صدرت فى النصف الأول من القرن



العشرين. حتى لقد اعتبرته مجلة الشرق الأوسط الأمريكية، من أفضل الدراسات الاجتماعية فى العالم..

وبعدها نشر ذات المؤلف عام ١٩٤٥ كتاباً آخر مع مدكور تحت عنوان: «الأداة الحكومية». ولا يقل أهمية فى ذات الفترة من كتاب د. طه حسين «مستقبل الثقافة فى مصر»، ولا يفوتنا أن نلاحظ سيطرة المستقبل على تلك الكتابات، وشن هذا الكتاب حملة شعواء على التعليم الأجنبى، ودعا إلى مراقبة الدولة للمدارس الأجنبية، حتى تحافظ على مقدار من التعليم الأجنبى، ودعا إلى اكتساب أسباب القوة فى ميدان العلم والثقافة. وحذر من أن نقصر بعد الاستقلال. فنهمل مرافقنا فنتأخر ونتراجع. وطالب الدولة بتكوين العقل المصرى تكويناً يلائم الحاجة الوطنية فى تثبيت الديمقراطية والحفاظ على الاستقلال، فيجب أن يتعلم الشعب إلى أقصى حدود التعليم، فهذه هى الوسيلة الوحيدة لكى يعرف الشعب مواضع الظلم، ويحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويستأثرون بثروات عمله وجده.. لقد كثرت أيامها هذه النوعية من الكتب، ومن الكتب التى لا ننسى فى هذا السياق، كتاب د. عباس عمار عن «المدخل الشرقى لمصر» الذى ينبغى إعادة نشره والذى يذكر القارئ بالأهمية القصوى لشبه جزيرة سيناء..

إن تناول رفع مستوى كفاءة الإدارة، لا يلتفت إليه أحد بالقدر الكافى، رغم أهميته البالغة من أجل النهوض الوطنى، وخاصة فى رفع كفاءة الجانب التنظيمى والمؤسسى، والاهتمام بتحويل الأفكار المجردة إلى واقع، والعمل على إعطاء التفاصيل الأولوية والأهمية التى تستحقها.. وهو ما قدمه الكاتب.. فهناك مطلب غائب من البرامج السياسية، لم يهتم به سياسى أو مفكر أو حزب، ولم يعطه أحد ما يستحقه من اهتمام، إنه إعادة بناء جهاز الدولة، والاهتمام بما دخل عليه من تغيرات، ولم يبحث أحد نتائج ومغزى التغييرات التى وقعت، ولم يناقش أحد التغييرات التى سوف تحدث..

ولا يجوز الكلام عن التنمية دون تطوير الأداة الحكومية، وقيام إدارة رشيدة.. ولم يشغل بال أحد.. كيف يمكن أن نتعامل مع جهاز الدولة بما يصلح من شأنه. وها هو المستشار طارق البشرى يهتم ببرامج الإصلاح الإدارى، ويقدم دراسة حول إلى أى حد حققت هذه البرامج أهدافها، وقد خبر هذا الموضوع من خلال عمله نحو أربعة وأربعين عاماً فى مجلس الدولة. اقترب خلالها بخبرته من مشاكل وهموم الإدارة المصرية. وتناول الموضوع ببصيرة نافذة، وقدم عصارة تجربته فى هذا الكتاب وما سبقه من كتب وكأنها سلسلة يكمل بعضها بعضاً.. يتناول الهيكل الإدارى والنظام القانونى الذى يحكم هذه المؤسسات، وجمع بين القانون والشأن الفكرى والسياسى..

وظهر تمكنه واهتمامه من خلال كتاباته، كتاب «الحركة السياسية فى مصر»، و«سعد زغلول مفاوضاً»، و«المسلمون والأقباط»، وظهرت خلالها جميعاً قدرته التحليلية العالية، وثقافته الواسعة، ويبدو أحياناً وكأنه يحارب بقلمه وحده..

وتأتى أهمية كتبه فى أنها لا تجنح إلى الأفكار المجردة بعيداً عن أرض الواقع، بل هى جزء مما عايشه وخبره، ويظهر أيضاً مقدار النزاهة الفكرية والشجاعة الأدبية.. ويرى أن المطلب الغائب فى الإصلاح، هو إزاحة عوامل الإكراه عن جهاز الدولة، بعد أن أصبح رجال الإدارة مثل حبات العقد المنفرط، لا يجمعهم جامع، ولا يحدد مسارهم طريق مرسوم، صاروا مثل عازفين بغير قائد ينظم حركتهم، ولا ضابط إيقاع ينسق بين نغماتهم، وهذا ما خلص إليه.

وسبق وتناول الكاتب فى مؤلفه «الديمقراطية ونظام يوليو»، هيكل النظام القانونى الذى أقامته ٢٣ يوليو، والذى أصبح مثل الهرم المقلوب، الذى يقف على رأسه وليس على قاعدته..

ويظهر واضحاً التناقض الواضح بين الشكل التنظيمى وبين مضامينه السياسية والاجتماعية، وبين أن أهم انتكاسات ثورة يوليو، هو ما يتعلق بالأسلوب التنظيمى الذى أقيمت على أساسه هياكل النظام ومؤسساته، وقامت السلطة الفردية فى الستينيات على أساس التفكك الذى سمى فيما بعد «مراكز القوى».. والذى تمكن حزب النظام من تصفيته بمجرد وفاة رئيس الجمهورية صاحب تلك السياسات، والذى أفضى تنظيميا إلى التفكك، وانتصر سلفه الرئيس السادات فى معركته ضد كل أجهزة الدولة فى يومين اثنين.. وكما بدأنا - بالقرار الفردى - من أجل تحقيق مشروع سياسى واجتماعى طموح، اتخذت كل قرارات التراجع بالقرار الفردى أيضاً!!

ويضع الكاتب يده على نقطة موجعة، إننا نبدأ القرن الحادى والعشرين من ذات الموقع الذى بدأنا به القرن العشرين!

نعم.. لمقاومة توحش البيروقراطية، ولا لتفكيك البيروقراطية.. تفكيك الهيكل المؤسسى وإضعاف الشخصية الاعتبارية! .. فما كان للمصريين والجيش المصرى أن يخوض معركته الباسلة فى أكتوبر ١٩٧٣ بغير أن يكون مرتكزاً على قاعدة اقتصادية إنتاجية.

وجاء التشكيل الهرمى المقلوب والهيمنة تضغط الإدارة وتشل الفاعلية وتكتم الصوت بعد ذلك..

لقد تجاوزنا النظم الأوروبية، وقفزنا إلى النظام الأمريكى، وأخذنا بعضه وتركنا البعض الآخر.. على أن التغيير لابد أن يكون حزمة واحدة، لا ينفع أن نأخذ جانباً ونترك جانباً آخر..

ويطالب المستشار طارق البشرى بعودة الوكيل الدائم. فعلى أجهزة الإدارة أن تكون متميزة ومفضلة عن جهاز رسم السياسات، المتمثل فى الوزراء ومجلسهم، ويجب أن يقابل المرونة والقابلية للتعديل والتغيير التى يكفلها تغيير الوزارات، ويوازيها استمرار واستقرار العمل التنفيذى لاتصاله باستمرارية الدولة ذاتها ومشروعاتها بعيدة المدى، فلا تتضارب ولا تخرج عن أهدافها. عندما يتوفر لها قدر من الاستقلال يحفظ لها إمكان مراعاة الأوضاع العملية..

وها هو البناء الإدارى يتصدع. بصدور القانون رقم ٥ لسنة ١٩٩١، الذى جعل الوظائف القيادية بالتعيين عن طريق المسابقة من داخل النسق الوظيفى للهيئة أو من خارجها!، ويكون التعيين لمدة محددة ثلاث سنوات، وكثيراً ما يختزل القرار المدة لسنتين أو سنة واحدة.. والمسابقة تعنى إسقاط حق الكفء والأقدم من رجال الإدارة فى توليها.. وأهدر هذا القانون حقوق هذه الفئة من التكنوقراط ذوى الخبرات، وأهدر أيضاً عنصر الأمن والاطمئنان الذى كانوا يعتمدون عليه فى تقديم خبراتهم وإدارة الشئون الفنية للمشروعات التى يقدمون عليها..

فلم يعد فى إمكانهم الإفصاح عن رأيهم، أو حماية مؤسساتها من المخاطر التى تتعرض لها. فعلاقتهم بمن فوقهم من وزراء تغيرت وتحولت إلى علاقة تبعية، يستمد حقه من مشيئة ورضا وزيره! ويظل تطبيق هذا القانون سلاحاً فى أيدى الوزراء فى مواجهة قادة وزاراتهم الذين يفوقونهم - فى الأغلب - خبرة وعلماً.. وإحدى نتائج هذا القانون، أنه مع الوزير الجديد، يتغير القادة، ويأتى الوزير برجاله، وأحكم القانون قبضة الوزير على رجاله، ويمكن له أن يضرب بعرض الحائط كل تراكم الخبرة السابق فى الوزارة. وينفذ سياساته بلا مناقشة أو حوار مع خبراء وزارته!

وتم هذا الأمر أيضاً فى القطاع العام. بل وكافة المجالات الأخرى.. وصدر القانون رقم ٢٠٣ لسنة ١٩٩١، لكى يؤدى دوره فى تفكيك القطاع العام. وجعل الوحدات الإنتاجية فى شكل شركات مساهمة مملوكة لشركات مساهمة قابضة، وإن أبقت قياداته الجمعية العمومية فمدته ثلاث سنوات، ولا يلبث أن يعاد التعيين من جديد!

وصار فرد واحد هو الوزير رئيس الجمعيات العامة لكل الشركات، وهو الذى يعين أعضاء الجمعيات العامة للشركات القابضة مع رئيس الوزراء.. ولم تعد هناك أى ضمانات وظيفية، ويترك أى واحد منهم وظيفته بكلمة واحدة تصدر من فم الوزير.. وبذلك أصبحت هذه الشركات أكثر تبعية لا للسلطة المركزية بل لوزير واحد أدى إلى تشريد الكفاءات وذوى الخبرة، وكان أحد أسباب ما تشهده شركات القطاع العام من انهيار.. واتجهت هذه السياسة الإدارية والتنظيمية إلى تحويل جميع العاملين فى الدولة المصرية، إلى أتباع يعملون لدى الوزير أو رب العمل سنة فسنة، مع إمكان الفصل والتسريح.

وهذا الذى أصبح وجوده معلقاً فى يد رجل واحد، يكون دائماً فى حالة إكراه، يكون أشبه بمن توجه فوهة البندقية إلى رأسه على الدوام.. ولم يقتصر هذا الأسلوب التنظيمى والإدارى على القيادات العليا، ولكنه يمتد فى القانون الجديد الذى يجرى إعداده إلى كل العاملين.. ويعد وزير الدولة للتنمية الإدارية د. أحمد درويش، مشروع تطوير الأداء الحكومى، وتغيير قانون الوظيفة العامة حتى تتحول كل الوظائف الحكومية إلى وظائف مؤقتة!

وينادى الكاتب بضرورة تنحية السلطة القابضة التى تتوزع على الجهات الإدارية المختلفة.. فهذا البلد بملايينه من البشر وبزراعاته وصناعاته واقتصاده وخبراته العلمية والفنية والثقافية، ونظم إدارته الحديثة، وأجهزته الإدارية والأمنية والسياسية وبمؤسساته وهيئاته وجامعاته ومدارسه.. هذا البلد بهذا التعدد والتنوع، وهذا الشمول، لا يمكن أن يظل مثل الهرم المقلوب.

مصطفى نبيل

كـــــــتـب فـرنـسـيـة



La Femme Fatale

(صاحبة الفتنة)

Raphaëlle BACQUÉ, Ariane CHEMIN
Paris, Albin Michel, 2007, 229pp, 18 euros.

ثمة فخ يخفيه عنوان هذا الكتاب عن عيني المترجم المتسرع. فلقد بادر كل من نقل عنوان هذا الكتاب في الصحف العربية إلى ترجمة la femme fatale بـ «المرأة الفاتنة»، وهي ترجمة تقف دون ما يوحي به العنوان الفرنسي من ازدواجية دلالية. فالفتنة المرادة هنا ليست من النوع الذي يستهدف الأبصار والقلوب فحسب بقدر ما هي من ذلك النوع الذي يشتت وحدة الصفوف، ويزعزع قوة الأحزاب، ويستجلب الهزائم الساحقة. فالعنوان يحمل تورية بلاغية لا تتجلى معانيها إلا بالقراءة المتأنية لصفحات كتاب حقق أعلى المبيعات لدى صدوره في فرنسا عقب الإعلان عن نتيجة الانتخابات الرئاسية (٣٥٠ ألف نسخة). فالمائتان وثلاثون صفحة التي استغرقتها كاتبتا هذا المؤلف المثير في سرد خفايا الحملة الانتخابية الخاصة بسيجولان رويال، مرشحة الحزب الاشتراكي الفرنسي، كانت بإجماع الأقلام هي الأفضل من بين سيل الكتب والمؤلفات التي استتبعتها الانتخابات الفرنسية.

مأساة شبه إغريقية تلك التي ترويها رافاييل باكيه وأريان شومان، الصحفيتان بجريدة «لوموند»، في هذا الكتاب. مأساة تتوافر فيها كل العناصر الدرامية: من بطلة فاتنة تتنازعها قوة العاطفة وجموح الطموح، إلى رفيق يسدد ثمن الخيانة من استقراره العملي والأسري، وجوقة من السياسيين المخضرمين، تدفع بهم البطلة إلى مقبرة «الأفيال»، ومعبد عريق ينهار فوق الرؤوس حين تختلط حسابات المتحاربين بحسرات المتحابين...

تدخل الكاتبتان إلى عالم سيجولان رويال بمهنية عالية، فتصفان مزاياها وعيوبها، وتشرحان أساليبها وتكتيكاتها، وتعرفان القارئ بالمحيطين بها وبأهل ثقتها، ولكن الأهم هو ما تعمد إليه الكاتبتان من استجلاء لملامح العلاقة غير المسبوقة في تاريخ السياسة الفرنسية، ما بين رويال ورفيقها ووالد أبنائها الأربعة، فرانسوا أولاند، الأمين العام للحزب الاشتراكي، الذي سلبته رويال حلماً كان يراوده منذ سنوات طوال، حين تخطته وترشحت للرئاسة بدلا منه.

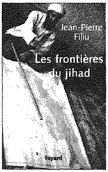
وتذهب الكاتبتان إلى أن «الأخطاء» التي تراكمت فوق العلاقة وكذا «الخطايا» التي ارتكبها أولاند، كانت وراء قرار سيجولان السياسي في الاندفاع بكل ثقلها للترشح في انتخابات الرئاسة، وسحب البساط من تحت قدمي رفيقها، بل وتهديده بمنعه من رؤية أبنائهما لو أنه دعم ترشيح ليونال جوسبان. وفي الوقت نفسه سحقت سيجولان آمال دومينيك ستراوس كان ولوران فابيوس، وتحدت كل أعراف الحياة السياسية لتنقذ فرصها في الفوز، حتى أحدثت انقساما لا مرد له في معسكرها، ما بين الحرس القديم والحرس الجديد، وأصابت حزبها بضربة قاتلة (fatale).

ومع ذلك، ينبغي ألا يظن القارئ أن كتاب «صاحبة الفتنة» كتاب قائم على نشر الفضائح أو التشهير. فالصحفيتان لا تتطرقان إلى تفاصيل العلاقة الخاصة إلا بالقدر اللازم لشرح أبعاد المسالك العامة، والخصوصيات الشخصية لم يرد ذكرها إلا في معرض تحليل بواعث القرارات السياسية. كما أن جل الكتاب لا يتوقف عند وصف تلك المغامرة السايكودرامية، بل يقدم تحليلا سياسيا فائق البراعة لكواليس الحملة الانتخابية لسيجولان رويال التي انتهت بإحرازها ٤٧٪ من الأصوات. فالكتاب يظهر مرشحة دائمة العودة إلى استطلاعات الرأي، دائمة الاتصال بخبراء الرأي العام، وعلماء النفس والاجتماع، وخبراء السيميائية، مرشحة تتحرى بصفة يومية تطلعات الشارع وتتقصى آمال الفرنسيين، حتى إن البعض صار يعدها بمثابة رائدة لديمقراطية الرأي المستندة إلى آراء العلم ووسائل التكنولوجيا.

لكن تلك الطاقة المتدفقة قد أهدرت يوم انقسم الحزب الاشتراكي على نفسه، لينهار البناء الذي كان قد شيده فرانسوا ميتران، وينتصب محله ثعبان ضخم، شبيه بأفعى «الهيدرا» ذات الرؤوس المتشعبة، التي ظهرت في أساطير الإغريق. لكن «هيدرا» الحزب الاشتراكي لم يكن لها سوى رأسان: رأس المرشحة الفاتنة ورأس الرفيق الحانق..

ووسط أصوات الفحيح، واستعداد كل رأس للفتك بالرأس الآخر، فوق أنقاض اليسار الفرنسي المتناثرة، كان ثمة رجل يطالع المشهد في سعادة غامرة، قبل أن يتحسس إكليل الغار على رأسه، وينطلق بموكبه تحت قوس النصر، متجها صوب قصر الإليزيه، جامعا في حكومته كل من تبقى من رجال اليسار المحترمين...

■



Les frontières du jihad

(حدود الجهاد)

Jean-Pierre FILIU
Paris, Fayard, 366pp, 20 euros

نادرا ما تفلح صورة الغلاف في توصيل فحوى الكتاب. لكن حين يمتلك المصور عينا ممحصة، تجيد اقتناص اللحظة الكاشفة، وتحسن استخلاص الجوهر الخفي، تغني الفوتوغرافيا عن آلاف الكلمات. وهو ما تحقق في غلاف كتاب «حدود الجهاد» للكاتب جان بيار فيليو، المؤرخ والمستعرب الفرنسي الذي عمل في منظمات إغاثية في لبنان وأفغانستان، والذي يعمل حاليا أستاذا بمعهد الدراسات السياسية بباريس. إذ تتصدر واجهة الكتاب لقطة لـ «بن لادن» وقد جلس أمام خريطة لأفغانستان وراح يشير بعصاه إلى منطقة البانشير، تلك التي كان يسيطر عليها عدوه اللدود أحمد شاه مسعود، قائد المجاهدين الأفغان في ملحمة التحرر من الاحتلال السوفيتي، الذي تمت تصفيته قبيل وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ .

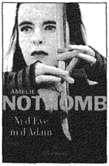
فوفقا لمؤلف الكتاب، وتبعا لما استقر في ذهنه عن الجهاد، مصطلحا وتعريفا، ثمة نوعان من الجهاد يتقاتلان على الساحة العالمية بلا رحمة أو هوادة: أولهما «جهاد» عالمي الملامح، دموي الصبغة، تدميري النزعات، قد نشأ وترعرع في رحم العولمة؛ وثانيهما جهاد تقليدي إقليمي، يتحرك بدافع من المقاومة الوطنية والتحرر، ويضرب بجذوره في عمق التاريخ الإسلامي .

وللوقوف على أبعاد هذا التنازع بين التيارين، يبدأ جان بيار فيليو بتحديد ركائز الجهاد في الإسلام، فيوضح أن الجهاد بواسطة السلاح ما هو إلا شعبة فرعية من أصل أكثر شمولية ورحابة، مبينا أن الجهاد الأكبر في الإسلام هو مجاهدة كل مسلم لنفسه بغية تقويمها. كما يعرض الكاتب لمحات من تاريخ المجاهدين الأوائل في نشر الدين، حتى عصر الدولة العثمانية، مردفا إلى ذلك أخبار جهاد المقاومة، الذي بدأ إبان الغزو الصليبي للبلاد الإسلامية، وتواصل مع تنامي حركات التحرر من الاستعمار الأجنبي في العصر الحديث، تحت قيادة شخصيات ذات ثقل روحاني تصوفي، مثل الأمير عبد القادر في الجزائر، والإمام شامل في بلاد القوقاز.

ويشرح فيليو كيف تسعى منظمة القاعدة منذ أكثر من عشر سنوات لاحتلال إقليم يكون مركزا لمشروعها التخريبي. وهو ما حملها على الارتحال من بلد إلى آخر لاستقطاب مقاتلي الحركات الجهادية الوطنية، واستيعابهم داخل صفوفها: فمن الاستيلاء على السلطة في أفغانستان بالتحالف مع جند «طالبان»، إلى الفشل في الأردن ومقتل الزرقاوي، إلى الاختناق في السعودية، إلى أن وجدت «القاعدة» مستقرها ومرتعها في العراق، بتسهيل من الاحتلال الأمريكي. وهو ما حفز حركات المقاومة الوطنية في بلاد الرافدين للعمل - باسم الجهاد الحق - على التصدي لمشروع تحويل العراق إلى «جهادستان» الرهيبة، المنغرسة دعائمها في أرضية الحرب المذهبية، المنغمسة في بحار من دماء العراقيين، سنة وشيعة، في عالم «فقد اتزانه» تحت ضغوط القطب الأمريكي الأوحد.

هكذا يهجر المؤلف التصنيف الشائع، ما بين إسلام معتدل وإسلام أصولي، ليستعيض عنه بتحليل لحدود هذا النزاع الجوهري الذي يشهده مفهوم الجهاد بتجلياته المعاصرة.

■



Ni d'Eve ni d'Adam

(لا من حواء ولا من آدم)

Amélie NOTHOMB
Paris, Albin Michel, 244pp., 17 euros.

في اللغة الفرنسية، حين يقول المتكلم إنه لا يعرف فلانا «لا من حواء ولا من آدم»، فهو يعني بذلك تمام جهله بذلك الشخص. ها هي فكرة الجهل بالآخر متضمنة منذ البداية في عنوان الرواية السادسة عشرة للكاتبة البلجيكية الشهيرة والغزيرة أميلي نوتومب، التي تعود لقرائها برواية جديدة في فصل الصيف من كل عام، بانتظام عجيب، منذ عام ١٩٩٢ .

الجهل بالآخر مستقر إذن ومتضمن منذ العنوان، وآدم وحواء كلاهما جاهل ومجهول،

فى علاقة تربط بين الشرق والغرب وتفصل بينهما فى آن. ففى روايتها الجديدة، تعود أميلى نوتومب إلى طوكيو، مسقط رأسها، لتروى لنا قصة حبها الأول مع شاب يابانى من أسرة ثرية. ومنذ الجملة الأولى، تبدو حتمية التواصل لنفى حالة من الجهل المتبادل. إذ تقول أميلى، البطلة الراوية: «بدت لى الطريقة المثلى لتعلم اليابانية هى أن أقوم بتعليم الفرنسية...».

ومع انتفاء الجهل وبدء حالة المعرفة يولد الحب. ومع حصص اللغة الفرنسية الأولى، تكتشف أميلى عالما واسعا فى بلاد الشمس المشرقة، من خلال طالبها اليابانى «رنرى». وفى إطار من الكوميديا الرومانسية الخفيفة، تقطف لنا الراوية من كل بستان زهرة، فتقدم وصفا فكها للعادات والموروثات الثقافية اليابانية، وتضىء النص بإحالات أدبية ولغوية لا تخلو من طرافة، وتصحب قارئها فى رحلة مدهشة إلى أعالى جبل «فوجى»، وتجرى تحليلا ذكيا لنظام التعليم الصارم فى اليابان، وتقدم وجه الحزن الصامت المطل على الإنسانية من عيون أهل هيروشيما. وترسم بالطبع طوال الوقت حالة التباين السافر بين شاب يابانى يعانى من حالة عشق يخالطه انبهار، بفعل من أفكار مسبقة، وفتاة بلجيكية تكره القيود، وتقرر فى النهاية الهرب من علاقة تبدو لها وكأنها انتحار بسيف ساموراى..

ولقد ربطت بعض الأقلام بين هذه الرواية، الحاصلة على جائزة «فلور٢٠٠٧»، ورواية «العاشق» لمارجريت دوراس، الحاصلة على جائزة جونكور ١٩٨١، لكون البطل فى الحالتين شاب آسيوى. لكن - بغض النظر عن تباين القيمة والوزن بين الكاتبتين - تظل بطلة نوتومب الأخف ظلا والأكثر تعقلا من بين البطلتين، وتبقى قصة الحب بين أميلى ورنرى قصة حب عذرى غير مكتملة، وكأن دأب الشرق والغرب ألا يتلاقيا. وكأنما أصداء أبيات روديارد كيلنج تتجاوب فى الخلفية، لتضبط إيقاع علاقة أزلية، من دون أدنى تدخل فعلى «لا من حواء ولا من آدم»...

■



La question religieuse au XXIe siècle

(المسألة الدينية فى القرن الحادى والعشرين)

Georges CORM

Paris, La Decouverte, 207pp, 9euros.

منذ نهايات القرن العشرين، ثمة اعتقاد راسخ فى أن السياسة العالمية تشهد «عودة» كاسحة للشأن الدينى، الذى صار يعد بمثابة المفتاح الرئيس لفهم العالم. ذاك هو الاعتقاد الذى يناقشه، فى هذا الكتاب الهام، المؤرخ والأكاديمى وعالم الاقتصاد الفرنسى جورج كورم. فهو يعمد إلى تحليل البواعث الفلسفية والسياسية الكامنة وراء تمثل العالم بواسطة تلك الطريقة، المنحدرة من الفكر ما بعد الحداثى المناهض للثورة، الذى يغذى على وجه الخصوص عمل المحافظين الجدد الأمريكيين.

ولا يعزو الكاتب اجتياح الدين للساحة السياسية إلى عودة الروح إلى الهويات الدينية التى كان قد محاها عصر التنوير. ففى هذا المؤلف، يواصل جورج كورم تحليلات حنا أرنت، إذ يعمد إلى توصيف أزمة الشرعية التى تعانى منها الديمقراطيات العتيقة، التى أنهكتها تبعات العولمة الاقتصادية. وهى، بحسب الكاتب، ذات الأزمة التى طالت أيضاً تفسيرات الديانات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، والتى أسهمت فى إفراز حركات التطرف الدينى.

هكذا، يخلص الكاتب إلى أن جذور تيارات العنف المعاصرة لا تكمن فى أحداث مثل الثورة الفرنسية أو فى الإرهاب الدامى الذى استتبعته، بقدر ما تعود إلى عهد محاكم التفتيش وإلى قرن طويل من الحروب «الدينية» فى أوروبا. فما نشهده اليوم، وفق الكاتب، لا يصح إذن وصفه بأنه «عودة الدين» بقدر ما هو «عودة لاستغلال الدين» لخدمة مصالح اقتصادية وسياسية بعيدة كل البعد عن شرائع السماء أو رسالات الرسل.

■



Histoire de la laideur

(تاريخ القبح)

Umberto ECO

Paris, Flammarion, 453pp, 39 euros.

تحتفى حركة النشر الفرنسية بالترجمة احتفاء غير عادى. فالفرنسيون حريصون على أن تنطق المعرفة بحروف فرنسية. وحين يكون الكاتب بأهمية الأديب والمفكر الإيطالى أمبرتو إكو، تكاد الترجمة الفرنسية تتزامن مع صدور الكتاب فى لغته الأصلية.

فى كتابه الجديد، «تاريخ القبح»، يكمل إكو الرحلة التى كان قد بدأها عام ٢٠٠٤، بكتاب «تاريخ الجمال»، مواصلا استكشاف نزعة الامتثالية(le conformisme)، المتقيدة بالأعراف المقررة سلفا فى مباحث القبح أو الجمال. وعلى امتداد فصول هذا السفر القيم، يعرض الكاتب لتجليات القبح المادية والروحية والفكرية عبر العصور، من خلال إبداعات الشعراء والفلاسفة والروائيين.

ويبين إكو أنه فى الوقت الذى استطاع فيه النحات الإغريقى «بوليكليتس» أن يبدع تمثاله الشهير الذى سماه «المعيار»، والذى يجسد النسب المثلى للجمال البشرى منذ القرن الرابع قبل الميلاد، فإن القبح يظل مفهوماً متغيراً ومتنوعاً عبر العصور، يصعب تحديده بقياسات أو التنظير له بنسب.

ففى العصور الوسطى، كانت الشيخوخة رمزا للقبح الأنثوى، حتى أن العامة كانوا يعزون لنظرة المرأة العجوز قدرات مهلكة، تقتل الوليد فى مهده. وفى عصر النهضة، ظهرت الفكرة التى ترهن فضيلة المرأة بقبح شكلها، إذ كتب القديس الإيطالى سان روكو أن المرأة الدميمة «عنوان الأمانة، ودواء للرذيلة، وفرصة للتحلى بالشفقة والتمرس على الصبر، لكون الدميمات وحدهن اللاتى لا يثرن رغبة ولا يحركن شجونا». بينما على العكس، تمت إدانة الجميلات، وألصق بالجمال تهمة الغواية. أما فى عصر «الباروك»، كما يوضح إكو، فلم يعد من المستغرب امتداح الصفات المعيبة فى شكل المرأة، بل راحت تلك العيوب تجد من يرى فيها مصدر جاذبية. وهو خلط كانت قد لوحت به ساحرات ماكبث، حين قلن إن «القبيحَ جميلٌ، والجميلَ قبيحٌ»...

وبعيدا عن المرأة يستجلى أمبرتو إكو معانى القبح فى كل ما تشى به مظاهر الحياة من تشوه وتضارب واختلال وتنافر وجبن وشر وسوقية وإجرام وتعسف واشمئزاز وتدن وفساد وانحراف وفحش وبذاءة وخزى وقرف وقذارة وشناعة وبشاعة وخسة وسفالة، إلى آخر تنويعات القبح التى تتجلى فى حياتنا اليومية...

ويخلص إكو إلى أن تاريخ الجمال ما كان ليفهم بمعزل عن تاريخ القبح، لأن «الكون قد خلق فى حالة وحدة متكاملة، حيث الظلال تسهم فى إبراز توهج الأضواء، وحيث يمكن لما يقال عنه إنه قبيح فى حد ذاته أن يصبح جميلا فى إطار النظام العام. الجميل هو النظام فى اكتماله وفى تناغم عناصره. وللقبح فى المحصلة دور فى الحفاظ على توازن هذا النظام».

■



Alabama Song

(أغنية ألاباما)

Gilles LEROY

Paris, Mercure de France, 189pp., 15 euros.

فى عام ٢٠٠٦، تم منح جائزة جونكور الأدبية، لكاتب أمريكى يكتب بالفرنسية؛ وفى ٢٠٠٧، منحت الجائزة لرواية فرنسية تدور أحداثها بالكامل فى عمق الجنوب الأمريكى. فى الظاهر، ثمة تطبيع فرنسى أمريكى وليد، ينشر حمائم السلام فى السياسة كما فى الأدب، لكن الأرجح هو أن رياح العولمة لم يعد يستعصى عليها دك أشد الحصون الثقافية صلابة فى الماضى، وها هى باريس تتأمرك...

تدور أحداث رواية «أغنية الاباما» فى مدينة مونتجومرى عام ١٩١٨، ويحكى فيها الكاتب الفرنسى جيل لوروا قصة حياة الروائى الأمريكى «سكوت فيتزجيرالد» وزوجته «زيلدا ساير» اللذين كانا ملء السمع والبصر فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضى. وتبدأ الأحداث عندما تلتقى «زيلدا»، جميلة جميلات الجنوب، بالضابط الشاب «سكوت» ويتزوجان. يحترف سكوت الكتابة بعد نجاح روايته الأولى نجاحا عظيما. وسرعان ما يصبح هو وزوجته فاكهة الأمسيات والحفلات فى نيو يورك. لكن الزوجين النجمين لا يزالان بعد طفلين غضين يحبوان فى حياة اجتماعية لا ترحم، وسرعان ما تحترق أجنحتهما بوهج الشهرة وأضواء النجومية...

ويسرد لوروا أحداث روايته على لسان زيلدا، فيبدو وكأنه يقدم لنا مذكراتها التى لم تكتبها قط، مازجا تفاصيل الحقيقة بالخيال، لينطق عن بطلته بأدق دقائق أفراحها وأتراحها، واصفا حالها فى زنزانة زوج استغلها أسوأ استغلال بعد أن سرق أحلامها واستعملها كمادة مستباحة لرواياته، حتى أوصلها إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث قضت نحبها فى حريق.

«أغنية الاباما» لحن ملىء بالدموع، ولكن على الطريقة الفرنسية الأمريكية المشتركة، حيث الجنة تفتح أبوابها على الجحيم، والفراشات تحترق بنيران أهوائها ...

■



La rêveuse d'ostende

(حالة أوستاند)

Eric-Emmanuel Shmitt

Paris, Albin Michel, 310 pp., 19 euros.

البعض ينشد النسيان والبعض الآخر يحيا بالتذكر.. لنسيان علاقة عاطفية فاشلة، يلجأ كاتب فرنسى للاستجمام فى مدينة أوستاند الهادئة، تلك المدينة البلجيكية النائمة بين أحضان بحر الشمال. وهناك يفاجأ البطل بشخصية غامضة هى صاحبة المنزل الطاعنة فى السن، التى تروى له أدق تفاصيل ماضيها العجيب، حيث العاطفة المشبوبة تختلط بغرائب التجارب ونوادر المفارقات. فهل تكون تلك السيدة العجوز مجرد صانعة أكاذيب ماهرة أم أنها حقا كانت فى شبابها امرأة فريدة؟ هل روايتها محض خيال أججته الوحدة وأطلق العنان له إدبار العمر بعنفوانه وإقبال الموت بهذيانه؟ أم أنها كانت حقيقة وقعت فى أيام غابرة، تأبى الذاكرة التخلى عنها، أو الإعراض عما خلفته فى النفس من تشبث يائس بالحياة؟ هذا هو التساؤل الذى يظل معلقا حتى آخر صفحة من صفحات قصة «حالة أوستاند» التى تتخذ منها المجموعة القصصية الجديدة لإيريك إيمانويل شميت عنوانها وواجهتها الفكرية.

هذا وكان القارئ العربى قد تعرف على كتابات الأديب والمسرحى والفيلسوف الفرنسى إيريك إيمانويل شميت من خلال رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن»، التى تحولت إلى فيلم سينمائى شهير من بطولة النجم عمر الشريف، والتى صدرت ترجمتها عن دار الشروق بتوقيع محمد سلماوى. هذه المرة يطل شميت عبر نافذة القصة القصيرة، من خلال مجموعة تضم خمس قصص هى: «حالة أوستاند»، و«الجريمة الكاملة»، و«الشفاء»، و«القراءات الخاطئة»، و«المرأة التى حملت باقة الزهور»، وهى المجموعة التى وزعت حوالى مائتى ألف نسخة، فى مواصلة لسلسلة من النجاحات التى يشهدها قلم هذا الكاتب الفرنسى الكبير الذى ترجمت أعماله فى أربعين لغة.

وما بين القصص الخمس، ثمة خيط رفيع يمتد كرابط خفى، يردد نغمة الحب تارة، وتارة أخرى نغمة الموت، فى نصوص تكشف عن حس سردى فائق، يجيد اللعب بأعصاب المتلقى، ويوحى بأن الحلم إنما هو المادة الأولية لنسيج الأيام، سواء كانت أحلام عجوز أوستاند حقيقة، أو كانت محض سراب .

■



Tempête sous un crâne. L'Amérique en guerre

(عاصفة فى دماغ. أمريكا فى حرب)

Marc FUMAROLI

Paris, éditions de Fallois, 310pp, 20 euros.

تواجه استراتيجية صقور المحافظين الجدد الأمريكيين فشلاً ذريعا فى الشرق الأوسط. فبعد ثلاثين عاما من انقضاء حرب فيتنام، ها هى الولايات المتحدة مضطرة للنظر فى إمكانية سحب قواتها من العراق، وهو الأمر الذى سيكون بالنسبة للإمبراطورية الأمريكية أكثر إذلالا مما كان عليه سقوط سايجون فى ١٩٧٥ . فكيف وصلت أمريكا إلى هذا الدرك الأسفل؟ هذا هو التساؤل الذى يثير «عاصفة فى دماغ» كل من توجه إليهم سيباستيان فومارولى بالسؤال لإنجاز هذه الوثيقة الهامة، التى تقدم للقارئ الفرنسى صورة حية للنقاشات الراهنة فى محيط صناعة القرار فى واشنطن، بشأن الخيارات السياسية لإدارة الرئيس بوش فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر.

خمس عشرة شخصية أو يزيد يدلون بشهاداتهم للمؤلف، منهم أساتذة جامعيون وكتاب صحفيون ودبلوماسيون ومستشارون بالبيت الأبيض وبحاثة فى مراكز الفكر الاستراتيجى، من أبرزهم صامويل هانتنجتون، وجيريمى رابكين، وآن مارى سلوتر، وبيل كريستول، وروبرت دوجاريك، وجون مرسهايمر، وستانلى هوفمان، والإنجليزى تونى جود، وغيرهم.

يغوص فومارولى بأسئلته النافذة فى أدمغة تلك الصفوة المصطفاة من عقول أمريكا، التى تدعمها الجامعات والمؤسسات لكى تجود بفكرها على كتلتى الحياة السياسية المتنافستين من الديمقراطيين والجمهوريين، ولكى تؤلف الرأى العام حول هذين الحزبين، من خلال ما تخطه أقلام تلك الصفوة من كتب ومقالات ومحاضرات مدفوعة الأجر، ومستجلبة لأسباب التقريب والتمييز.

«السياسة الكبرى هى تلك التى تقتات على القدرات الإبداعية المتواصلة، وهى التى تعيد تعيين أهدافها بصورة مستمرة»، عبارة لهنرى كيسنجر يستشهد بها فومارولى فى مقدمة الكتاب، ممهدا لحالة التفحص القلق التى تعيشها عقول الصفوة لحال السياسة الأمريكية الراهنة، والتى لا تكف عن إعادة رسم الصورة المثلى لتمكين أمريكا من الاستفادة من قوتها، لاسيما فى ضوء «النكسة» التى تعيشها قواتها فى العراق.

على أن فضيلة هذا الكتاب الأولى هى تلك النظرة التى يوجهها فومارولى، الصحفى الفرنسى الشاب، على العالم القديم من موقعه فى الولايات المتحدة، بغية توصيف العلاقة التى تربط اليوم - عبر الأطلسى - بين أمريكا بوش وبين الاتحاد الأوروبى. لكن النتائج التى يعود بها قد تخيب رجاء مواطنيه. ففى واشنطن، كما فى نيو يورك وفى بوسطن، وسواء أكان محدثوه ينتمون إلى مدرسة المحافظين الجدد، أو كانوا ممن ينتمون إلى المدرسة الواقعية، فجميعهم متفقون على أن أوروبا قد فشلت فى تخطى قومياتها لخلق أوروبا فيدرالية موحدة، أو كما أسماها الكاتب «ولايات متحدة أوروبية». أوروبا هذه، الراكنة إلى ضعفها، هى التى - فى رأى مفكرى أمريكا - تناشد باللجوء إلى التفاوض، وتستعين بمنظمة الأمم المتحدة، ولسبل التسوية السلمية، لا عن قناعة فعلية بهذا الخيار الاستراتيجى، ولكن لكون القارة العجوز تفتقر إلى أدوات صناعة الحرب..

ومن خلال الوجوه التى يبرزها الكاتب ببراعة فى نافذة عرضه الفكرية، ينبعث إحساس عام بما تحمله أمريكا اليوم من استهانة بالشأن الأوروبى. وهى استهانة مشوبة بمخاوف وهواجس تتزاحم فيها صور نهاية القارة العتيقة أوروبا، التى أصابها العقم الديموجرافى، وراحت أفواج المهاجرين المسلمين تغرقها من كل حدب وصوب، إذ شدد محدثو فومارولى غير ذات مرة على الخطر القاتل الذى يمثله الإسلام على حضارة القارة الأوروبية، و«تهاونها فى مواجهته» تحت دعاوى الالتزام بقيمة التنوع الثقافى...

الكتاب - وإن كان محبطا للقارئ الأوروبى - فهو مفيد للقارئ العربى، لاسيما وهو يحمل إدانة لسياسة جورج بوش فى العراق. إذ يختتم المؤلف كتابه بشهادة روبرت دوجاريك، السياسى الشاب الذى لم تتغير كلماته منذ ٢٠٠٣ فى التنديد بالحرب على العراق، إذ يقول إن «العراق هى اللحظة التى كشفت عن الفشل الفكرى والأخلاقى للنخبة الأمريكية».. تلك شجاعة أدبية افتقر إليها الكثيرون ممن حاورهم سيباستيان فومارولى فى كتابه.

■



Israël, Palestine. Vérités sur un conflit

(إسرائيل، فلسطين. حقائق حول نزاع)

Alain GRESH

Paris, Fayard, 266 pp, 19 euros.

عشية مؤتمر «أنابوليس»، أصدرت دار نشر «فايار» طبعة ثانية من كتاب «إسرائيل، فلسطين. حقائق حول نزاع»، للصحفى «آلان جريش»، المحرر الشهير بصحيفة «لوموند ديبلوماتيك» الفرنسية، والكاتب المتخصص فى شئون الشرق الأوسط. ورغم أن تلك الخطوة قد تبدو وكأنها نتاج انتهازية ربحية، فلقد كانت فى واقع الأمر خطوة واجبة تستحق التحية والتقدير.

إذ يعد هذا الكتاب بمثابة أداة تعريف مُثلى بأبعاد النزاع العربى الإسرائيلى فى مختلف فصوله وحلقاته، أداة تستهدف شباب القراء الفرنسيين، ممن تجتهد وسائل الإعلام فى تضليلهم لخدمة أهداف سياسية واقتصادية معروفة. فى هذا الكتاب، يفسر آلان جريش الأسباب التى أدت إلى تبدد آمال السلام التى ولدت عقب المصافحة التاريخية الشهيرة بين عرفات ورابين فى أوسلو عام ١٩٩٣ . ويوضح الجذور الدفينة للصراع الفلسطينى الإسرائيلى، ويستجلى أسباب العنف العاصف بمنطقة الشرق الأوسط منذ أكثر من ستين عاما، منذ نشأة الحركة الصهيونية وحتى اليوم، ويشرح بكامل تفاصيلها مأساة اللاجئين الفلسطينيين، وكفاحهم من أجل إقرار حق العودة.

الكتاب، المزود بمسرد تاريخى ثرى وبمجموعة خرائط توضيحية قيمة، يضيف فى طبعته الثانية فصلا كاملا حول تطورات أزمة السلطة الفلسطينية منذ فوز حماس فى انتخابات ٢٠٠٦ واستغلال إسرائيل لهذه الأزمة ؛ ويشرح باستفاضة أسباب فشل مساعى السلام فى المؤتمرات المتلاحقة، لاسيما دور «المجتمع الدولى» والدول «الراعية» للسلام فى إجهاض عملية السلام. إذ يبين جريش كيف دأبت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى على انتهاج مسلك موحد عند لعب دور الحكم، يقضى بممارسة أعنت الضغوط على الفلسطينيين، بوصفهم الطرف الأضعف، لحملهم على تقديم المزيد والمزيد من التنازلات، مشيرا إلى أن «اتفاقيات أوسلو التى كان من المقرر أن تفضى إلى الحرية وإلى السلام قد أصبحت بالنسبة للفلسطينيين مصدرا للإهانة المتكررة ولمزيد من الانكسار، من دون أن تضمن تلك الاتفاقيات للإسرائيليين الأمن المنشود».

الكاتب - الذى ولد ونشأ فى مصر - ينطلق مع ذلك فى مهمته مسترشدا ببوصلة المنطق الإنسانى المتسامى، الذى يعمد إلى إخضاع الوقائع إلى منظار التحليل الموضوعى قدر المستطاع، مع السعى إلى الربط بينها لاستخدامها فى بناء نماذج أكثر تفسيرية.

■

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 110 - March 2008

مجلة شهرية - العدد المائة وعشرة - السنة العاشرة - مارس ٢٠٠٨ - الثمن عشرة جنيهات



فى معرض حلمى التونى : **العين تطرب قبل الأذن أحيانا**

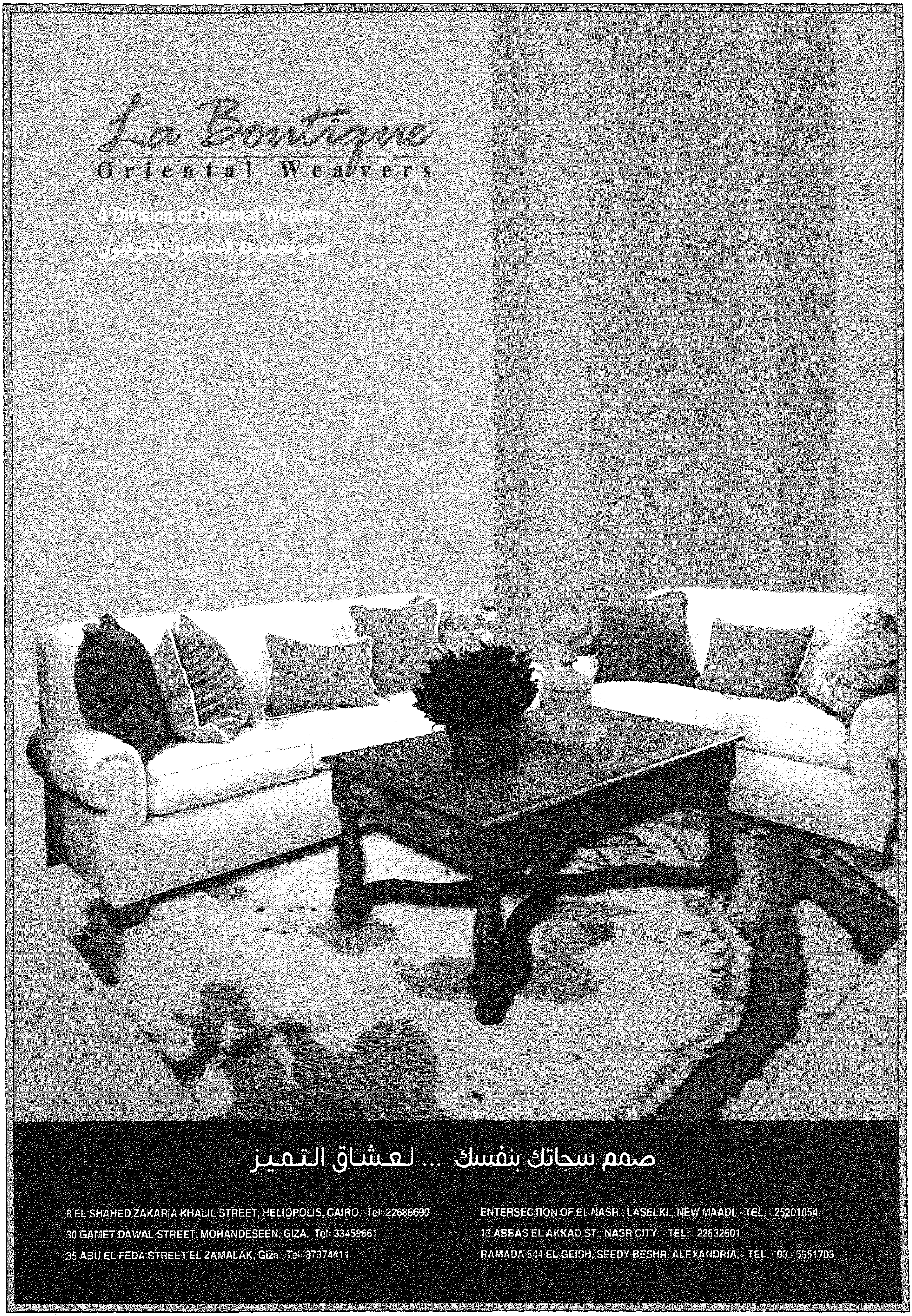
فيصل درّاج يكشف : **تحولات الرواية العربية**

الكتاب الأخير ليونان لبيب رزق : **العيب فى ذات أفندينا**

القاهرة ٢٠٥٠ .. ردود وتعليقات : رشدى سعيد / أحمد الحفناوى / جليلة القاضى



أحدث إصدارات
دار الشروق
حياة زوجية رائعة في ٧ خطوات سهلة
د. رضوان شابسيغ
محمد عبد الوهاب
رحلتي
الأوراق الخاصة جداً
فاروق جويدة
من يكتب تاريخ ثورة يوليو؟
عايزه أتجوز
غادة عبد العال
أرز باللبن لشخصين
أما هذه.. فرقصتي أنا
تاريخ يهود النيل
الرقابة والتعتيم في الإعلام الأمريكي
يونان لبيب رزق
العيب في ذات أفنديـنا
جمال مقار
كتاب الوعاء
عاصم الدسوقي
كبار ملاك الأراضي الزراعية
س. هـ. ليدر
أبناء الفراعنة المحدثون
جلال أمين
شخصيات لها تاريخ
يوسف القرضاوي
هانس كونج
الإسلام
رمز الأمل
وسط البلد: ١ ميدان طلعت حرب ت: ٢٣٩٣٠٦٤٣ - ٢٣٩١٢٤٨٠
مصر الجديدة: ١٥ شارع بغداد - الكوربة ت: ٢٤١٧١٩٤٥ - ٢٤١٧١٩٤٤
الإسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ ٠١٠١٦٣٣٦٨٥
مدينة نصر: سيتي ستارز مول ت: ٢٤٨٠٢٥٤٤ - ٠١٦٥٥٤٨٧٢٩
الجيزة: فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة ت: ٣٥٧٣٥٠٣٥ - ٣٥٦٨٦١٨٧
الإدارة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر ت: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com email: dar@shorouk.com


La Boutique
Oriental Weavers
A Division of Oriental Weavers
عضو مجموعة النساجون الشرقيون
صمم سجاتك بنفسك ... لعشاق التميز
8 EL SHAHED ZAKARIA KHALIL STREET, HELIOPOLIS, CAIRO. Tel: 22686690
30 GAMET DAWAL STREET, MOHANDESEEN, GIZA. Tel: 33459661
35 ABU EL FEDA STREET EL ZAMALAK, Giza. Tel: 37374411
ENTERSECTION OF EL NASR., LASELKI., NEW MAADI - TEL. : 25201054
13 ABBAS EL AKKAD ST., NASR CITY - TEL. : 22632601
RAMADA 544 EL GEISH, SEEDY BESHR, ALEXANDRIA - TEL. : 03 - 5551703

السنة العاشرة
العدد المائة وعشرة
مارس ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد الحفناوى.. أستاذ تاريخ الحضارة المتفرغ بجامعة الأزهر.
- اليستير هورن.. مؤرخ بريطانى.
- جليلة القاضى.. مديرة أبحاث بالمعهد الفرنسى للأبحاث من أجل التنمية.
- جهاد فاضل .. كاتب وناقد لبنانى.
- رشدى سعيد.. أستاذ جيولوجيا مصرى مقيم فى الولايات المتحدة.
- عبد السلام المسدّى.. أستاذ اللسانيات بالجامعة التونسية ووزير سابق.
- عز الدين نجيب.. ناقد وفنان تشكيلى.
- فايز سارة.. كاتب سورى.
- فيصل درّاج.. ناقد أدبى أردنى.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- ماكس رودنبيك.. مراسل مجلة الإيكونومست Economist فى الشرق الأوسط، ومقره فى القاهرة.
- محمد السماك .. كاتب لبنانى.
- يونان لبيب رزق.. أستاذ التاريخ بجامعة عين شمس راحل.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى

لوحة الغلاف للفنان حلمى التونى من معرض موسيقى شرقية

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب : ٢٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٢٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

إذا تركنا جانبا احتمال ضربة «استباقية»، فقد كلفت العقوبات الاقتصادية الدولية إيران الكثير، بهروب الاستثمار الأجنبى المطلوب بشدة، مع الرفع الحاد لتكاليف التعاملات التجارية الإيرانية

ماكس رودنبيك

أمريكى فى إيران..!!

■ لا يختلف مطار الإمام الخمينى الدولى فى طهران عن أى مطار حديث كبير، إلا فى البوسترات المعلقة فى ممراته الطويلة والتى تعلن - بدلا عن طلاء الشفاه والعطور - أن هذا العام هو عام الوحدة الوطنية والتضامن الإسلامى. ومع ذلك، لا يمضى وقت طويل، قبل أن يواجه أى حامل جواز أمريكى اختلافات أعمق.

ضباط الهجرة مهذبون، محرجون قليلا، حين يتذكرون أن عليك أن تخضع لبصمات الأصابع. ويرسخ سريعا، تبادل نمر بمحطة رسوم الطريق، ثم نتجه إلى الشرق، عبر مخرج، أمامنا ترتفع أربعة أبراج عالية مغمورة بالضياء. المنائر! هذا هو ضريح آية الله الخمينى، الذى حرّم فى ظل حكمه، موسيقى البوب.

فى نهاية الأسبوع ذاك، عبرت طهران مرة أخرى لزيارة الضريح، حاسبا أننى سوف أراه فى يوم خال من زحمة المرور، لأن المرور فى بقية أيام الأسبوع لايطاق فى هذه المدينة التى تضم ستة عشر مليون نسمة تقريبا. ولكن فى اليوم الذى أعزم فيه على الزيارة، كانت الحكومة قد هكذا. وحواجز البناء تغلق معظم المجمع ولا تسمح إلا بالوصول إلى غرفة وحيدة، مضاءة بمصابيح النيون، حيث تسند الدعامات الحديدية سقفاً أشبه بهنجر. وهناك سياج من الألومنيوم يحيط بمكان دفن الإمام. والأرضية داخل السياج، تمتلئ بنقود ورقية صغيرة. وقد قيل لى إنها النذور التى تحققت للسائلين. ولا تملك إلا أن تفكر بأن عدم اكتمال بناء هذا النصب العظيم للثورة، قد يكون مقصوداً. فهذا الحشد الحاضر سوف يبدو قليلاً جداً، إذا تناثر فى كافة لإشعال جمر الحماسة الثورية. الضجر ليس منبعه الإعجاب الكاسح بالثقافة الغربية. فالإيرانيون يعتزون باختلافهم. إنهم يفضلون بشكل واضح، طعامهم وموسيقاهم وأشعارهم، ناهيك عن ديانتهم. وليس بالضرورة أن المزاج القاتم سببه الغضب من قهر النساء أو المعارضة أو الأقليات. وفى حين أن ممارسات النظام من حظر كتب معينة أو رمى الناشطين فى السجون، قد ازدادت ضراوة تحت حكم أحمدى نجاد، ولكن مع هذا فإن مستوى الخوف يظل أقل مما كان

هزات الكتف اللامبالية، نوعا من التواطؤ. علينا جميعا، بعضنا من مسافرين أمريكان متعبين وضباطا إيرانيين ضجرين، أن نقوم بطقوس مرهقة أملتها دبلوماسية المعاملة بالمثل. ولكن الأمريكيين نادرون هنا. دستة من رحلات، تصل وتغادر، قبل أن يعثروا على الاستمارات المناسبة لحالتك، مع الدباسة لإرفاقها مع بعضها، وقلم لملئها، ومفتاح غرفة قد توجد فيها الختامة، وهكذا. وحين تنتهى المهمة اللزجة، يقدم لك أحد الضباط أوراق كلينكس لمسح اللطخات البنفسجية الداكنة.

فى الخارج، تعكس أول دفقة من ضوء النهار ظلال الجبال البعيدة. نتتبع العلامات المؤدية إلى طهران وليس قم أو أصفهان النائية، ونخرج إلى طريق الخليج الفارسى السريع ذى الحارات الست. يولج سائق التاكسى شريط كاسيت فى المسجل، ويدندن مع الموسيقى التى يحبها، كما يقول. الفرقة هى Dire Straits. وبينما تستدعى إيقاعاتها الزاعقة القوية ذكريات طرق سريعة عريضة أخرى، يدرك المرء فجأة أن هذه الأغنية «سلاطين رقصة السوينج Sultans of Swing» ترجع فى تاريخها إلى عام ١٩٧٨ حين كانت الثورة الإسلامية تقترب من ذروتها.

قررت الاحتفال باستشهاد ستين جنديا من الحرب الإيرانية العراقية ١٩٨٠-١٩٨٨، والذين تم التعرف على جثثهم مؤخرا. (هذه فائدة مرعبة من فوائد الغزو الأمريكى للعراق: لقد أقامت العصابات فى البصرة، حيث كان القتال على أشده حينئذ هناك، تجارة مزدهرة من بيع بقايا مفترضة للجنود الإيرانيين). وقد أدى الاحتفال فى وسط المدينة والذى حضره الرئيس محمود أحمدى نجاد بنفسه، وحمولة شاحنات من الباسيج الذين يرتدون القمصان السود، وهم المحاربون المتطوعون، أدى إلى أزمة مرورية طاحنة.

أخيرا استطعنا الوصول إلى ضريح الخمينى. وتقوم قبته ومنائره المبنية من الكونكريت المسلح، خلف ساحة لوقوف السيارات فى طرف من مقبرة (بهشت الزهرة) مدفون فيها حوالى ٣٠٠ ألف شهيد مما يسمى رسميا «حرب فرضها العراق». هناك لوحة عملاقة فى مدخل المقبرة تصور الوجه الوسيم لبطل شاب ملتح، تحيطه هالة من زهور التيوليب الأرجوانية، مع بعض الدم على جبينه وشفتيه اللتين تليقان بالأمير النائم (فى الأسطورة المعروفة - المترجمة).

ولكن الجو هنا احتفالى وليس كئيبا، والعائلات جاءت وكأنها فى نزهة خلوية، تفرش طعامها وشرابها على الحشائش، ومجموعات من الأصدقاء يثرثرون وهم يمرون من خلال بوابات منفصلة للرجال والنساء تفضى إلى الضريح. بعد عشرين سنة تقريبا من موت قائد الثورة، ولما يكتمل بناء الضريح ويبدو أنه سيظل أرجاء المجمع الشاسع، لو كان البناء قد اكتمل.

لم يكن هناك الكثير الذى يمكن رؤيته فى الواقع ولكن أثناء استدارتى للعودة، تقدم منى شاب بابتسامة على وجهه وقدم نفسه على أنه مهندس يعمل لدى شركة أوروبية فى إيران. والسبب الوحيد الذى جاء به إلى هنا، كما أوضح لى بسرعة، هو إرضاء حماته، التى تزور الضريح قادمة من محافظة بعيدة. وقال إنه ولد فى عام الثورة وإن والده قتل فى الحرب مع العراق. ولكنه يعتقد أن «مسألة الاستشهاد» طبخة محروقة. ويعتقد أن الحكومة الراهنة لن تستمر طويلا، لأن الكثير من الناس مثله، والذين رفضوا التصويت فى انتخابات ٢٠٠٥، سيفعلون الشىء ذاته فى الانتخابات البرلمانية فى مارس القادم، أو الرئاسية فى ٢٠٠٩ على الأقل، إذا لم يهاجم جورج بوش إيران وفى تلك الحالة سوف يتسبب فى رد فعل شعبى. يقول المهندس إن تعليقات الرئيس أحمدى نجاد حول الهولوكوست وإسرائيل كانت «غبية». ولا يشك فى أن البلاد سوف تتغير، مهما حاول الأصوليون عرقلة ذلك. ولكنها سوف تتغير تدريجيا وسلميا «لقد جربنا الثورة ولا أحد يريد واحدة أخرى».

كلما تجولت فى هذه البلاد شديدة الكبرياء والتى تماثل المكسيك فى المساحة، يفاجأ المرء من سأم مماثل من السياسة، ممزوجا برفض جهود الدولة فى الثمانينيات. وإلى جانب فرض الزى المرهق وبعض قوانين التمييز، فإن النساء فى إيران أكثر حرية من نظرائهن فى الدول المجاورة. فالنساء المحجبات يعملن ويقدن السيارات ويمارسن رياضة العدو فى المتنزهات العامة ويرشحن فى المناصب العامة. والأقليات أفضل بشكل عام، متمتعين بحرية العبادة وحقوق اللغة وحصص فى البرلمان (مع استثناء ملحوظ للبهائيين وهم فرع حديث من المذهب الشيعى يعتبره الملالى هرطقة). وعلى عكس أشقائهم المتمردين عبر الحدود فى تركيا، فإن الأكراد الإيرانيين لا يشعرون فى الأغلب بالحاجة إلى التمرد. ومازال المعارضون السياسيون من الأنواع الأخرى يتعرضون إلى العقاب ولكنهم فى خطر أقل مما يحدث فى السعودية، على سبيل المثال، أو سوريا. فالإيرانيون، على الأقل، يستطيعون الانتخاب، ويدركون أن أصواتهم ستحدث فرقا.

كما لايمكن إرجاع الضجر إلى اقتصاد مهزوز، فحسب. حقا إن الأسعار وبالأخص الإيجارات ترتفع بسرعة مؤلمة لاسيما لمحدودى الدخل. والفساد على أوجه، والهوة بين الغنى والفقير ليست أقل مما كانت أيام الشاه، ورجال الأعمال يشتكون مر الشكوى من عدم كفاءة وخطأ سياسات إدارة أحمدى نجاد. ولكن مستويات المعيشة والخدمات العامة فى السنوات الأخيرة، آخذة فى التحسن بثبات، وإن كان بطيئا. والعقوبات الاقتصادية ليس لها تأثير محسوس حتى الآن. الحياة صعبة للكثير ولكنها

بترتيب مع:
NewYork Review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى



تبدو محترمة مقارنة بالمعايير فى المنطقة.

ولكن يبدو أن هناك عنصراً واحداً يسبغ الكآبة على قطاع كبير من الجمهور الإيرانى. وهذا هو الرغبة فى الهروب من جيتو ذهنى يدفعهم إلى رؤية الأعداء فى كل مكان، وللإبقاء على أفكار منافقة للطهارة والنقاء، والصبر على توجيهات وتشديدات الوعاظ والشرطة والمحتسبين المتلفعين بالشادور. إنه نزوع مقموع للحرية الشخصية أكثر منه للتغيير السياسى.

ومع ذلك فإن أحمدى نجاد يستمر فى اجتذاب أنصار أساسيين، يتكونون من أناس مثل مراقبى فرض القانون، الشباب الذين يترصدون فى المتنزهات لاصطياد عشاق غير محتشمين، والحموات الريفيات اللاتى يحببن أساليبه الشعبية، ورجال دين معممين يحلمون بمجتمع خال من العيوب يحاكى فى مثاليته الزخرفة المتداخلة فى جدران المساجد، وعناصر الثورة الاسلامية الذين يشاركون الرئيس فى كراهيته للمتحررين وفنونهم المتفسخة. وإذا جردت خطب أحمدى نجاد من لمساتها الدينية، فإن خطابه ينتهى إلى مجرد استعارات لفظية عادية، مثل توبيخ الصفوة فى المدينة «أولئك المولولون الذين يجلسون فى شقق فاخرة فى شمال طهران» وممتدحا الفلاحين والعمال الشرفاء واعداً إياهم بنصيب أكبر. وكما يصدر عن زعماء العالم الثالث الثوريين، فهو يهاجم الإمبرياليين الأجانب، متهما إياهم بمحاولة إبقاء دول مثل إيران ضعيفة ومتخلفة تكنولوجيا.

وبدرجة أكبر مما صادف الديماغوغيين الآخرين مثل هيوجو شافيز رئيس فنزويلا، فإن سلوك أولئك الأعداء الأجانب، زاد من تأثير مثل هذا الكلام. لقد تحمل الإيرانيون طويلا الخطاب حول الشيطان الأكبر، وسمعوا أصوات المشاركين فى التظاهرات الصغيرة التى تحشدها أجهزة حكومية يرددون «الموت لأمريكا» ولكن إلى جانب ما تعلموه فى المدرسة من الأشياء الشريرة التى قامت بها أمريكا مثل دعم الشاه والعراق خلال «الحرب التى فرضها العراق»، فإن ما يعرفه معظم الإيرانيين فعلا عن أمريكا قبل غزوها أفغانستان والعراق، هو أفلام فيديو البوب تعرض على شاشات الفضائيات فى لوس أنجيلوس. الإيرانيون سمعوا أشياء شريرة عن إسرائيل أيضاً، ولكن فى معظم الحالات،

أمريكى فى إيران



كان الإيرانيون يعتقدون أن الدولة اليهودية الصغيرة بعيدة جداً عن إيران وهى ليست مشكلتهم.

ولكن الحرب الأمريكية على (الإرهاب) جاءت بأساطيل الكفار فجأة إلى أبوابهم. ويتفاخر المسئولون الأمريكان بأن «الرجال الحقيقيين يذهبون إلى طهران» وحين أخرج الرئيس بوش من جعبة سحره «محور الشر» وإيران فى مركزه، ورفض مبادرة إيرانية عام ٢٠٠٣ لفتح حوار استراتيجى. وحين شرع المسئولون الأمريكان فى الحديث علانية حول قصف البلاد، وتمويل مجهود سرى للإطاحة بالقادة الإيرانيين، وعن الحاجة إلى حشد العالم لفرض عقوبات. فجأة، بدا وكأن أمريكا تمثل دور شرير الشاشة الدولى فى سيناريو كتبه الخمينى منذ زمن طويل. وخيم خطر إسرائيل قريبا، أيضا، بعد أن سوت طائراتها الحربية مواقع فى قلب مواطن الشيعة الموالية لإيران فى صيف ٢٠٠٦. وبدأ قادتها فى النقاش حول ضربة استباقية على المرافق النووية الإيرانية.

فى إيران، استفزت، حتى أشد نقاد الحكومة، الفكرة القائلة بأن البلاد لا تحتاج إلى الطاقة الذرية، طالما لديها هذه المصادر الهايدروكربونية الضخمة. ويكرر المواطنون العاديون الخط الرسمى القائل بأن الحصول على التكنولوجيا النووية هو حق وطنى، وأن البرنامج يتفق مع القانون الدولى، وأنه، على أية حال، سلمى فى كل مراحله. ويتساءل كثيرون: حتى لو صنعت إيران قنبلة، فأين هى المشكلة؟ هل إيران أقل استقراراً أو أكثر خطورة من جارتها باكستان؟ هل تحاربت مع جيرانها أكثر مما فعلت إسرائيل المسلحة نوويا؟

هناك بعض الحقيقة فى هذه الآراء، ولكنها أيضاً تعكس نجاح الرئيس أحمدى نجاد فى وضع القضية النووية فى إطار صراع ملحمى للانتصار على القوى الشريرة واستعادة مكانة إيران الجديرة بها بين الأمم. ونتيجة لذلك، ليس هناك، أى نقاش فى إيران حول تكاليف البرنامج، أو جدوى تطوير قدرة على مستوى صناعى لتخصيب الوقود النووى، إذا لم تكن هناك مرافق نووية فاعلة قادرة على استخدامه.

إن ما يتجادلون بشدة حوله، فى كواليس السلطة، كما قيل لى، هو كيفية التعامل الأفضل مع المعارضة الدولية لمشروع إيران النووى. وتنقسم الآراء بين المعسكرات السياسية الثلاثة فى البلاد. الإصلاحيون الذين ازدهرت قضيتهم خلال حكم الرئيس محمد خاتمى ١٩٩٧ - ٢٠٠٥ وهؤلاء يعتقدون أن إيران لن تخسر إذا أحنت رأسها لمطالب مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة من أجل إيقاف التخصيب النووى، مؤقتا على الأقل. أما البراغماتيون المحافظون أمثال أولئك الذين تحلقوا حول رئيس سابق آخر هو على أكبر هاشمى رافسنجانى، يدعون إلى مزج الشدة بالمرونة، والتفاوض مع الأمم الأخرى لتأمين أهداف إيران وتقليل الأضرار المحتملة من عقوبات اقتصادية وغيرها.

ومن جانبهم يرى أصوليو أحمدى نجاد، بأن على إيران أن تخوض العاصفة دون أن تنحنى، وهم يحاولون زيادة تأثيرهم فى قضايا أخرى مثل الضغط على الأمريكان للانسحاب من العراق. وفى رأيهم أن الضغط الدولى على إيران لن يساعد إلا فى اصطفاف الرأى المحلى خلف الرئيس. إضافة إلى أن الغرب المعادى سوف يقابل كل تنازل بالمطالبة بالمزيد.

فى واشنطن، أوائل ديسمبر، أطاح الإفراج عن تقييم استخباراتى معدل جذريا، حول طموحات إيران النووية، بهذا النقاش. وكما هو متوقع، أعلن معسكر أحمدى نجاد انتصاراً، مؤكدا أن تغير نغمة أمريكا يعكس اعترافا بأن إيران بلغت من القوة مما يصعب اللعب معها. ولكن الحقيقة أن الإفراج كان عن قرار مفترض اتخذ عام ٢٠٠٣ من قبل الإدارة الإيرانية الإصلاحية السابقة، لإيقاف الخطط السابقة لإنتاج أسلحة نووية، وقد أدى ذلك القرار إلى إنقاذها من التهديد بالعقاب الأمريكى. علاوة على ذلك، بافتراض دقة التقييم الاستخباراتى الجديد، كان سيبدو أنه بالتغطية على انقطاع برنامج الأسلحة، فإن إدارة أحمدى نجاد قد قادت إيران إلى مياه عميقة الخطر. وإذا تركنا جانبا احتمال ضربة «استباقية»، فقد كلفت العقوبات الاقتصادية الدولية إيران الكثير، بهروب الاستثمار الأجنبى المطلوب بشدة، مع الرفع الحاد لتكاليف التعاملات التجارية الإيرانية.

بطبيعة الحال، يقول المسئولون الإيرانيون إنه لم يكن هناك أبداً برنامج أسلحة، ولكن من الصعب تصور أى غرض آخر لمشروع نووى طموح يؤكد على تخصيب الوقود. كما يوحى أيضا، اتهام العديد من المفاوضين النوويين الإيرانيين بالتجسس والخيانة، كما فعل مؤخرا الرئيس أحمدى نجاد، بأن هناك فى الأمر سراً كبيراً يخشى عليه من التسرب. إضافة إلى المنطق. فإذا نظرت إلى موقع إيران الاستراتيجى حين بدأت البرنامج خلال الثمانينيات، فى وسط حرب طاحنة مع العراق، الذى استخدم غازات ضد الجنود الإيرانيين، فإن الحصول على قنبلة ذرية قد يبدو معقولا كما فعلت أمريكا بعد ايو جيما Iwo Jima (*) (فى الواقع أن الجيشين، العراقى والإيرانى، استخدما ضد بعضهما الغازات التى تعرقل حركة الجنود وهى مما تستخدمها جيوش العالم فى الحروب، وكان على الكاتب أن يأتى بأمثلة أكثر منطقا، كأن يجعل من سعى الباكستان للحصول على قنبلة ذرية، وسعى العراق للحصول على مفاعل نووى ـ قصفته إسرائيل فيما بعد ـ وهما جارتان لإيران، حافزا أكثر احتمالا ـ المترجمة).

وبغض النظر عن المسألة، تظل الحقيقة وهى أن التقييم الاستخباراتى القومى المنقح يعكس فرصة ممتازة لفتح صفحة جديدة فى العلاقات الإيرانية الأمريكية. وكما أظهر الدعم الإيرانى للإطاحة بنظام طالبان فى أفغانستان، وكما أوضح تأثيرها على الشيعة العراقيين، فهناك الكثير مما يمكن أن يكسبه البلدان من تعاون أكبر.

لم ينتج عن ربع قرن من العداوة بين الولايات المتحدة وإيران، سوى المشاكل لكل منهما يبدو أن الرئيس أحمدى نجاد يدرك ذلك، ففى تعليق له مؤخراً، وصف التقييم الاستخباراتى القومى بأنه إيجابى، وأضاف «إذا اتخذوا خطوة واحدة أو اثنتين إلى الأمام، فإن الوضع (بين إيران وأمريكا) سوف يكون مختلفا إلى درجة كبيرة».

فى منتصف ديسمبر، أعلنت روسيا أنها قد أرسلت شحنة أولية من الوقود النووى إلى المفاعل الإيرانى الذى سيكون تحت رقابة الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وقد وافق بوش فيما بعد على ذلك. ولكن للأسف، لايبدو واضحا، حتى الآن، ما إذا كانت إدارة بوش مستعدة للسعى إلى مفاوضات مباشرة مع طهران. وقد حذر وزير الدفاع روبرت غيتس، وهو يتحدث مؤخراً أمام جمهور مستريب فى دولة البحرين الخليجية، من أن إيران مازالت خطراً مهلكاً. «أينما اتجهت، ترى أن السياسة الإيرانية هى بذر القلاقل والفوضى، بغض النظر عن القيمة الاستراتيجية أو هدر دماء الأبرياء». هناك الكثير من الأسباب التى تجعلك تكره النظام الإيرانى، خاصة تحت إدارته الحالية، ولكن مثل هذا الخطاب النارى يبدو أن القصد منه إغلاق انفراج ممكن، أكثر منه انتهاز فرصته. ■

كلما تجولت فى هذه البلاد شديدة الكبرياء والتى تماثل المكسيك فى المساحة، يفاجأ المرء بسأم مماثل من السياسة، ممزوجا برفض جهود الدولة لإشعال جمر الحماسة الثورية

هوامش:

(*) ايو جيما Iwo Jima أكبر جزر اليابان وقد كانت مسرحا لمعارك طاحنة فى الحرب العالمية الثانية. (الكاتب هنا أيضا يعزو ـ خطأ ـ أن امتلاك أمريكا للقنابل الذرية كان بسبب معركة فى الحرب العالمية الثانية، وفى الواقع أن أمريكا كانت تملك القنبلة ـ فهى لا تصنع بين يوم وليلة ـ وقد أسقطت كما نعلم على اليابان فى هذه الحرب قنبلتين دمرتا مدينتى هيروشيما وناجازاكى من أجل انتزاع الاستسلام من اليابان ـ المترجمة).



لتتمتع بمزايا أكثر
EGYPTAIR AIR LINES
IOSA OPERATOR
مصر للطيران تطير يومياً إلى أكبر مطارات باريس
شارل ديجول بدلاً من مطار أورلى
اعتباراً من ٣٠ مارس ٢٠٠٨
وبهذه المناسبة سعر خاص جداً
١٥٩٥ جنيه بخلاف الرسوم و الضرائب
مصر للطيران
EGYPTAIR
تمتع برحلتك
مع مصر للطيران

القاهرة ٢٠٥٠

تشكر «وجهات نظر» الذين استجابوا لدعوتها إلى حوار معمق حول مشروع القاهرة ٢٠٥٠ الذى طرحه وزير الإسكان المهندس أحمد المغربى على صفحات المجلة عدد أغسطس الماضى.
وهنا نبدأ فى نشر المشاركات بمقالات لثلاثة من المعنيين والمتخصصين فى الموضوع والذين ينتمون إلى أجيال ومدارس فكرية وأكاديمية مختلفة.

المحـــرر

القاهرة.. لماذا؟

رشـــدى ســـعيد

■■ نشرت مجلة «وجهات نظر» فى عددها الصادر فى أغسطس ٢٠٠٧ دعوة للحوار حول موضوع القاهرة ٢٠٥٠ دعت فيه المهتمين والمتخصصين لإبداء آرائهم فى شكل مدينة القاهرة كما يجب أن يروه فى هذا العام - وأعقبت المجلة دعوتها بنشر ترجمة لمحاضرة كان قد ألقاها حول هذا الموضوع السيد أحمد المغربى وزير الإسكان المصرى أمام غرفة التجارة الأمريكية بالقاهرة - وقد ظننت أن المجلة بنشرها هذه المحاضرة قد بدأت الحوار من حيث ينبغى له أن يبدأ، فلدى وزير الإسكان من المعلومات والبيانات والخطط والدراسات الكثير مما قامت بها أجهزة وزارته، بل والعديد من الخبراء الأجانب والمصريين الذين استعانت بهم وزارته منذ بدء التفكير فى التخطيط المستقبلى لمدينة القاهرة على طول السنوات الستين الماضية. وكان فى تصورى أن تحتوى



المحاضرة على طرح لرؤية السيد الوزير لمستقبل المدينة كما استخلصها من هذا الكم الهائل من البيانات والمعلومات والخطط التى قامت بها وزارته عبر السنين. فمثل هذا الطرح سيكون بمثابة القاعدة التى يمكن أن يدور حولها الحوار المجدى الذى يمكن أن يوصلنا إلى تصور سليم وعملى.

وقد جاءت محاضرة الوزير عامة، إذ استعرضت مشاكل القاهرة دون أن تطرح لها حلاً ودون أن تعطى القارئ أى تصور معين عن شكل القاهرة كما يجب أن يراها، وإن كانت المحاضرة قد حملت الكثير من الإيحاءات عما يدبره لها السيد الوزير من خطط إن صحت قراءتى لهذه الإيحاءات فإنى أعتقد أن تنفيذها سيزيد من مشاكل القاهرة وسيتركها فى حال أسوأ مما هى عليه اليوم. القارئ لمحاضرة السيد الوزير سوف يلاحظ أنه على

غير اهتمام كبير بالحفاظ على الأرض الزراعية. فهو غير راض عن قانون تجريم البناء عليها لما جاء به من «آثار أولية ولاحقة». كما أنه محبذ لاستخدام الأرض المطلة على نهر النيل والجزر المنتشرة فيه لبناء ضواح جديدة للإسكان الفاخر.

الحفاظ على الأرض الزراعية هو فى رأيى من أهم واجبات الحكومة الرشيدة، ليس فقط بسبب أهمية هذه الأرض كمصدر للغذاء وللعمالة، بل وكرئة للمدينة تنقى هواءها وكمتنفس لسكانها للنزهة والترويح. وإذا كان لنا أن نتصور شكل قاهرة المستقبل كما نحب أن نراها، فعلينا أن نتصورها فى صورة مدن مستقلة تتناثر على طول المساحة الصحراوية التى تمتد من السويس والإسماعيلية إلى غرب القاهرة تتخللها وتفصلها المناطق الزراعية الخضراء ويربطها خط أو خطان للمترو السريع المقام فوق الأرض فى معظمه.

والقارئ لمحاضرة السيد الوزير لابد أن يلاحظ أن قضية المناطق العشوائية التى تحيط بالقاهرة، بل وإسكان الفقراء على وجه العموم هى من القضايا الخارجة عن نطاق اهتماماته. فليس فى المحاضرة ذكر للطريقة التى سيستطيع بها الفقير أو متوسط الدخل إيجاد مسكن آدمى وكريم يعيش فيه وهل سيكون ذلك عن طريق الدعم أو عن طريق إيجاد طرق بديلة للبناء تفتح الطريق أمام الفقراء للسكن غير العشوائى - وعلى العكس من ذلك، ففى المحاضرة ما يوحى بأن السيد الوزير مهتم بإسكان النخبة - ولا شك أن القرارات التى اتخذها ببيع الأراضى الصحراوية المحيطة بمدينة القاهرة لشركات المقاولات لبناء مجمعات سكنية فاخرة محاطة بالأسوار ما يؤكد هذا الاتجاه. وإذا استمرت الوزارة فى تنفيذ خطتها هذه وشغل الأراضى المحيطة بالقاهرة بالإسكان الفاخر سيكون من الصعب الكلام عن أى مستقبل لمدينة القاهرة وستتحقق نبوءتى التى كنت قد كتبتها فى مقال لى صدر بمجلة الهلال (يونيه ١٩٩٦) عن «حتمية انشطار المجتمع المصرى إلى شطرين، فى طرف منه نخبة قليلة العدد واسعة الثراء - وفى طرفه الآخر كتلة الشعب المصرى التى ستتهمش تماماً ويعيش الجزء الأكبر منها على الفتات. وفى عشرينيات القرن القادم (أى الواحد والعشرين) ستكون الأجيال الجديدة من أبناء كلا الشطرين قد شبت وتثبتت قواعدها وزاد انفصالها عن بعضها البعض واختلفت طموحات وطريقة عيش ولغة كل منهما، وستعيش النخبة فى أحياء جديدة خارج المدن محاطة بأسوار وذات حرس خاص. وسترسل أبناءها إلى مدارس وجامعات خاصة وسترفه عن نفسها فى أماكن بعينها. وستترك النخبة لعامة الناس المدارس والجامعات الحالية والتى لا مناص سيكون مصيرها مزيداً من الانحدار.

ولى أمل كبير فى أن ينظر السيد الوزير إلى هذه النبوءة وأن يعمل كل الجهد لكى يجعلها لا تتحقق..

وفى نهاية هذه المداخلة أريد أن ألفت النظر إلى الدراسة الشاملة والبديعة التى حررها الأستاذ الدكتور أبوزيد راجح ضمن دراسات منتدى العالم الثالث والتى نشرتها المكتبة الأكاديمية سنة ٢٠٠٨ فى مجلدين تحت عنوان: «العمران المصرى: رصد التطورات فى عمران أرض مصر فى أواخر القرن العشرين واستطلاعات مسارات المستقبل حتى عام ٢٠٢٠م. ■

أصبحت القاهرة تضم ما يقرب من ربع سكان الجمهورية وهذا ما لم نشهده فى تاريخ العواصم العالمية

القاهرة مدينة مغلقة!!

أحمد الحفناوى

■ القاهرة تعانى منذ فترة طويلة من مشكلات تصدمنا مظاهرها فى كل يوم. إن لم يكن فى كل ساعة - وليس فى ذلك أدنى مبالغة.

لقد أصبحت منذ أواخر الخمسينيات - كامل العدد - ومنذ هذا التاريخ وبالرغم مما تعانيه من كثافة سكانية مخيفة إلا أن الهجرة لم تنقطع إليها من الأقاليم بوجه عام، ومن أبناء الوادى «الصعيد» بوجه خاص، وهذا ما جعلها تعيش وكأنها لا يحكمها قانون!!

لقد أصبحت غابة من البشر وأصبح النظام فيها شاذاً والفوضى هى الأساس، كما أن الشوارع أصبحت بشعة لا تليق بشعب يضرب بجذوره فى عمق التاريخ، ناهيك عن المرور والزحام والاختناق.

إن مملكة التسول - التى يديرها سارقو الأطفال والناضورجية قسمت القاهرة إلى قطاعات:

١ - قطاع الأماكن السياحية والفنادق الفاخرة ويقف أمامها من المتسولين: النسوة وحملة الأطفال الرضع.

٢ - قطاع الشوارع التجارية ويقف فيها من المتسولين الرجال ذوو العاهات الحقيقية والمزيفة، يتحولون فى كثير من الأحايين إلى «نشالين».

إلى آخر ما يمكن أن تراه فى جدول محترفى التسول. ومكمن الخطر أن بعض أحيائها أصبحت وكأنها تحت رحمة محترفى البلطجة الذين أدخلوا فى قواميس العنف والجريمة أنماطاً جديدة لم تشهدها مصر قبلا من الزمان وهذا ما يضفى عليها طابعاً أكثر حدة وتعقيداً.

هذا هو بعض الحال الذى آلت إليه القاهرة التى هى عاصمة مصر والواجهة الحضارية لها ومقر السياسة والإدارة والحكم فيها وهو حال يقض مضاجع المخلصين من أبناء هذا الوطن وعشاقه ويمثل لهم هاجساً مرعباً ومخيفاً. ذلك لأن سلامة القاهرة ومظهر القاهرة وأمن القاهرة وحرمة القاهرة التى هى قلب العالم العربى يجب أن تكون محلاً للاهتمام.

لقد أنفقت الدولة منذ السبعينيات وحتى اليوم

←

القاهرة ٢٠٥٠

الملايين والملايين التى أصبحت عبئاً علينا من الدين الخارجى أحياناً ومن الدين الداخلى أحياناً أخرى على إنشاء الكبارى العلوية والأنفاق السفلية والجراجات المتعددة الطوابق وزادت من المركبات العامة للمواصلات وكذلك شجعت القطاع الخاص على الدخول فى مجال النقل الداخلى إلى جانب قيامها بالمشروع المعجزة مترو الأنفاق وأنشأت العديد من المدن السكنية الجديدة وزادت من رقع مساحات الضواحى المشهورة، كل ذلك أملاً فى حل المشكلة ولكنها لم تحل!!

بل قل إنها تفاقمت وزادت تعقيداً، فقد أصبحت القاهرة تضم ما يقرب من ربع سكان الجمهورية وهذا ما لم نشهده فى تاريخ العواصم العالمية أن تشمل عاصمة الدولة وحدها ربع عدد سكانها!! فلماذا حدث هذا يا ترى؟

يذكر التاريخ أن مشكلات القاهرة بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، تلك الحرب التى تبعها رخاء غير مسبوق كان من أكبر العوامل التى شجعت المئات ثم الألوف من أصحاب الأملاك والإيرادات من أنحاء مصر وبخاصة من الصعيد على الهجرة إليها.

هاجر هؤلاء إلى القاهرة بعد أن قاطعوا بلادهم مقاطعة تامة أو تكاد معتمدين فى أكثر الأحايين على إيرادهم من أراضيهم بعد أن أقاموا عليها وكلاء عنهم أو جعلوا استغلالها بالإيجار لغيرهم، ثم أصبحوا لا صلة لهم بها إلا تحصيل الإيجار والإيراد فى مواعيد محددة من السنة لقضاء باقى العام فى أحضان القاهرة، لا عمل لهم إلا إنفاق هذا الإيراد الذى حصلوا عليه نتيجة جهد غيرهم والذى ينقص فى أكثر الأحايين عن ثلاثة أرباع إيرادهم الصحيح. وفى بعض الأحيان عن نصف هذا الإيراد لو أنهم كانوا يقومون بأنفسهم على استغلال ثرواتهم وأقاموا لذلك بين أعمالهم وعمالهم. ولقد أثارت هذه الهجرة إلى القاهرة - وقتها - دهشة كثيرين مما جعلهم يتساءلون عن السبب الذى يدفع هؤلاء المهاجرين إلى التضحية بحظ غير قليل من إيرادهم ليبقوا فى جو ليس كجو بلادهم فى ملاءمته للصحة وفى إراحته للأعصاب وفى شعور صاحبه بما لا يشعر به المقيم فى القاهرة من جمال الطبيعة.

ولعل هذا كان من وراء ابتداع بعض فنانينا فى الأربعينيات وبدايات الخمسينيات لشخصية عمدة الصعيد التى كان يؤديها الفنان محمد التابعى كبير الرحيمية قبلى وولده «السيد بدير» المهاجران إلى القاهرة لينفقا دخلهما على ملاهى ومراقص العاصمة.

ومهما يكن لبعض هؤلاء المهاجرين من أعذار دفعتهم إلى الهجرة إلى القاهرة واضطرتهم للإقامة بها، فإن كثيرين ممن هاجروا لم يكن لهم عذر إلا فيما فى القاهرة من جاذبية ترجع إلى ما فيها من أسباب الدعة للأكثرين. وترجع إلى ما فيها من أسباب الاستفادة العلمية والفنية للأقلين. على أن الهجرة لم تقتصر فى هذا الوقت على القادرين من أصحاب المال، ولكنها تعدتهم إلى عناصر أخرى كان أفرادها يطمحون أول الأمر أن يجدوا عملاً فى القاهرة أقل جهداً ومشقة من عمل «الزراعة»، وفى نفس الوقت أكثر غناء وأجراً، وهذا الدافع نشأ فى أغلب الأمر عند بدء صناعات جديدة أنشأتها الدولة



والأفراد فى شمال القاهرة (شبرا) وكانت تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة ولم تجد أول قيامها كثيراً من الأيدى سريعة التدريب التى تستطيع أن تضطلع بأعباء العمل فيها، فاضطرت إلى أن تؤجر هذه العمالة المهاجرة أجراً حسناً شجع الكثيرين من عمال الزراعة على الهجرة إلى القاهرة للعمل فى هذه المصانع بأجور تزيد كثيراً عما كانوا يحصلون عليه فى بلادهم، ولكن الأجور لم تلبث أن انخفضت بعدما كثرت الأيدى الصالحة للقيام بشئون هذه الصناعات، ولكن الهجرة تزايدت إذ ما لبثت الدولة أن أنشأت صناعات أخرى فى جنوب القاهرة «حلوان» وملحقاتها. وتكررت الظروف التى أحاطت بإنشاء الصناعات فى شمال القاهرة «شبرا» من حاجة هذه الصناعات للأيدى العاملة التى شجعت على هجرة الكثيرين من أبناء مصر إلى القاهرة!!

ومن الغريب أن الكثير من هذه المصانع تقوم بصناعات ملوثة للبيئة لا يصح أن تكون فى المدن.. فضلاً عن أن تكون فى شمالها!!

وهكذا أحيطت القاهرة بمصانع فى شمالها وفى جنوبها وأصبحت مصدراً مخيفاً للتلوث البيئى كما استقبلت آلاف المهاجرين من أنحاء البلاد للعمل فيها وبالتالى للإقامة بها. وللمقارنة فقط أود ذكر التالى:

حدث فى أواخر الأربعينيات من القرن الماضى أن عرض بنك مصر إنشاء مصنع للغزل والنسيج بمدينة المنصورة - والتى كانت وقتها بحق عروس النيل - وبعرض الموضوع على أعضاء المجلس البلدى للمنصورة آنذاك رفضوه بالإجماع، لأن صناعة «الغزل» ملوثة للبيئة، فأقام البنك ذلك المصنع فى «المحلة الكبرى» وكان سبباً مباشراً فى إنشاء أول مستشفى للأمراض الصدرية فى الوجه البحرى بالمحلة الكبرى.

أحيطت العاصمة بمصانع فى شمالها وفى جنوبها وأصبحت مصدراً مخيفاً للتلوث البيئى كما استقبلت آلاف المهاجرين من أنحاء البلاد للعمل فيها وبالتالى للإقامة بها

وهكذا وجدت «المنصورة» وقتها من يحميها من تداعيات الصناعات الملوثة للبيئة، ولكن «القاهرة والمحلة» لم يجدا ذلك والفضل فى هذا يرجع إلى «المجلس البلدى» اليقظ الذى كانت كل النقابات المهنية تحرص على ترشيح أفضل عناصرها لعضويته، أما اليوم فمجالسنا الشعبية وتشكيلاتها تدعو للرثاء. على أن الأمور لم تشأ للمنصورة أن تستمر عروس النيل.

فقد حدثت نكسة ٦٧ وأصبحت مدينة السويس فى مرمى النيران وكان لابد من نقل مصنع الأسمدة الكيماوية منها وحرصاً على استمرار الإنتاج نقلوه إلى مدينة طلخا التى يصب هواؤها على مدينة المنصورة وصناعة الأسمدة صناعة ملوثة للبيئة فتحولت مدينة المنصورة نتيجة لهذا التلوث من «عروس النيل» التى تبدو دائماً مقبلة على الحياة إلى «عجوز النيل» التى تبدو وكأنها مشرفة على الموت، مع أنه كان من الأنسب للمسئولين وقتها أن ينقلوا هذا المصنع إلى منطقة «قلابشو» أو «زيان»!! فيا ليتنا نعود إلى نظام مجالس البلديات وطريقة تشكيلاتها من أكفأ عناصر النقابات المهنية.

نعود إلى موضوع «القاهرة»، ونتيجة للمعارك السياسية التى خاضتها مصر فى الخمسينيات لم تستطع أن تحقق فى مجال التنمية القدر الذى يمكنها من حل المشكلات المتراكمة فى المجال الاقتصادى فبدأت نذر البطالة تطل على المجتمع وزادت الهجرة إلى القاهرة وأصبح أفرادها يقبلون أية أعمال وأية أجور، مما أدى إلى أن كثيرين تكونت منهم عناصر الجريمة نظراً لأن الأعمال التى يقومون بها لا تعود عليهم إلا بالقليل مما أعوزهم ودفعهم إلى هذا السلوك.

ولعلنا نذكر أن أحد وزراء الداخلية وكان واحداً من رجال الثورة أدرك وقتها خطورة استمرار الهجرة إلى القاهرة، فحاول إعادة كل من ليس له عمل فيها إلى بلده، ولكنه لم يستطع الاستمرار

فى ذلك نظراً للهجوم الشديد الذى تعرض له وقتها من قبل أصحاب المصالح الذاتية وتفاقمت مشكلات القاهرة.

وما لبثت أن ظهرت «العشوائيات» فى داخلها وعلى مشارفها حتى أصبحت - وبلا أدنى مبالغة - بمثابة قنابل موقوتة قابلة للاشتعال فى أى وقت فى ظروف اقتصادية صعبة بما يهدد استقرارها. وهكذا أصبحت «القاهرة» اليوم مدينة العذاب.

هذا ويأتى سؤال: إذا كان ذلك كذلك.. فما الحل؟

إن الحل لا يمكن أن يتحقق بقرار واحد كما أنه لن يتحقق بعدد من القرارات فى اتجاه واحد، وإنما يتحقق الحل بعدد من القرارات الجريئة والسريعة أيضاً فى عدد من الاتجاهات، ولابد لهذه القرارات من مرجعية سياسية وهى تتمثل فى:

١ - إعلان القاهرة من الآن مدينة مغلقة على من فيها من أهلها والذين لهم أعمال دائمة وحقيقية فيها.

٢ - نقل كل المصالح والهيئات التابعة لكافة الوزارات والتى لها صلة بالجماهير إلى باقى المحافظات وتفعيل اللامركزية وشعار الحكومة الإلكترونية فى إدارة هذه المصالح، بحيث لا يبقى فى القاهرة إلا الوزارات وباقى القطاعات التى يصعب نقلها منها.

٣ - أن تنتقل العديد من كليات جامعتى عين شمس وحلوان وغيرها من المعاهد العليا خارج القاهرة وخصوصاً الكليات والمعاهد النظرية.

٤ - أن تكون محطة الجيزة للسكك الحديدية - بعد توسيعها - نهاية وصول القطارات القادمة من الصعيد على أن تبقى محطة القاهرة بتاريخها نهاية للقطارات القادمة من الوجه البحرى فقط.

٥ - العودة لتنفيذ قرارات وزير الداخلية الأسبق الذى سبق وأشرنا إليه من إعادة كل من ليس له عمل حقيقى ومنتج فى القاهرة إلى بلده الذى أتى منه.

٦ - أن تتحمل محافظات مصر كلها عبء عودة هؤلاء وأن يوكل إليها استيعابهم فى أعمال منتجة.

٧ - أن تتوزع خريطة الاستثمارات على كل المحافظات كل حسب أعبائه البشرية وأن تعطى لمحافظات الصعيد أولوية فى ذلك لأن تفريغ هذه المحافظات إلى جانب المحافظات الحدودية أمر له تداعياته على الأمن القومى المصرى على المدى القريب والبعيد. وأعتقد أننى لست فى حاجة إلى توضيح هذه الجزئية، فكل المهتمين بالأمن القومى لمصر يدركون ذلك جيداً.

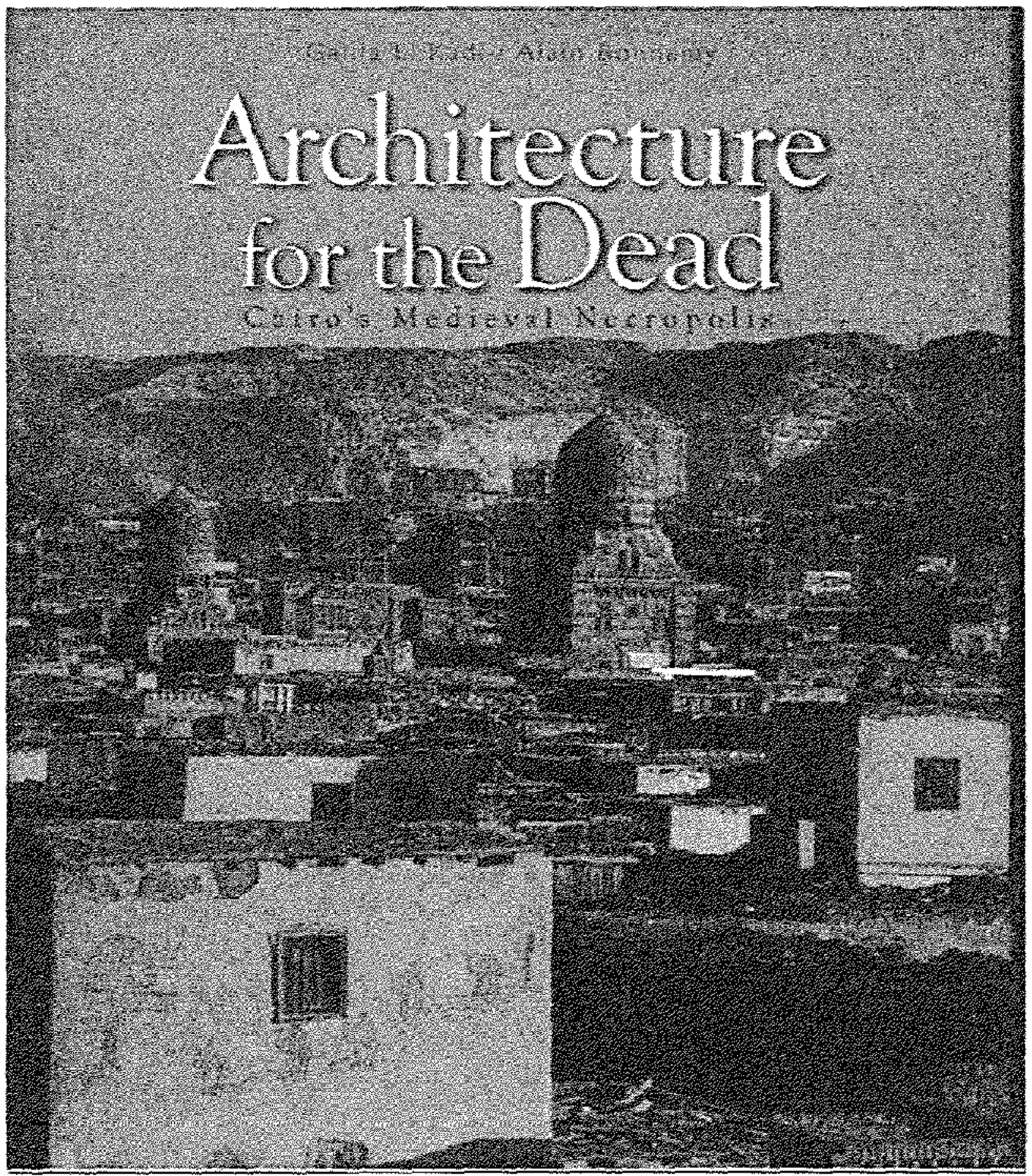
٨ - أن تعود القاهرة بأبعادها الجغرافية إلى ما كانت عليه قبل أن تعرف بالقاهرة الكبرى، بحيث لا تشمل إلا قاهرة الفاطميين التاريخية وقاهرة إسماعيل التى تصل إلى الزمالك ومصر الجديدة أو قاهرة البارون إمبان ومدينة نصر.. حتى تتمكن الدولة من تجديد البنية الأساسية للقاهرة.

٩ - أن يعاد النظر فى فلسفة الإسكان التعاونى القائمة حالياً، بحيث لا تقل شقة الإسكان التى يمكن أن ينقل إليها سكان العشوائيات وسكان القبور عن ٧٥ متراً بدلاً من ٦٠ متراً المطبق حالياً لأنه ثبت بالممارسة أن الشقق ٦٠ متراً لا يستمر ساكنها بها أكثر من عام واحد. إذ فى العام التالى إذا جاءه «طفل» فإنه إما أن يبحث عن سكن جديد أوسع أو يلجأ إلى ضم البلكونات إلى شقته، كما يعمد إلى استغلال السطوح أسوأ استغلال وتبدو المساكن - ومن أسف وكما نراها على الطبيعة حالياً - وكأنها «علب من صفيح»!!

١٠ - أن تتوقف الدولة عن إنشاء المدن الجديدة القريبة من القاهرة، لأن ذلك سيصب فى اتجاه جعل القاهرة مصدر جذب للناس ونفاجأ بأن بها ثلث سكان مصر أو نصفهم على الأقل، وهذا ما لا يتفق مع سعينا لاستقرارها وهدوئها.

١١ - أن نعترف بأن ما أنفقناه - منذ السبعينيات - على الكبارى العلوية والأنفاق السفلية والمدن الجديدة قرب القاهرة كان كافياً لإنشاء مجتمعات عمرانية متكاملة (مصانع ومشاريع وإسكان لعمالها) فى عدد من محافظات الصعيد (أكرر ثانية محافظات الصعيد والمحافظات الحدودية). تستوعب البطالة والبطالة المقنعة فيها وتحول بينها وبين الهجرة إلى القاهرة.

لقد عرفت القاهرة - تاريخياً - بمدينة الألف مئذنة، ولكنها الآن - ومن أسف - أصبحت مدينة الألف مشكلة!! ■

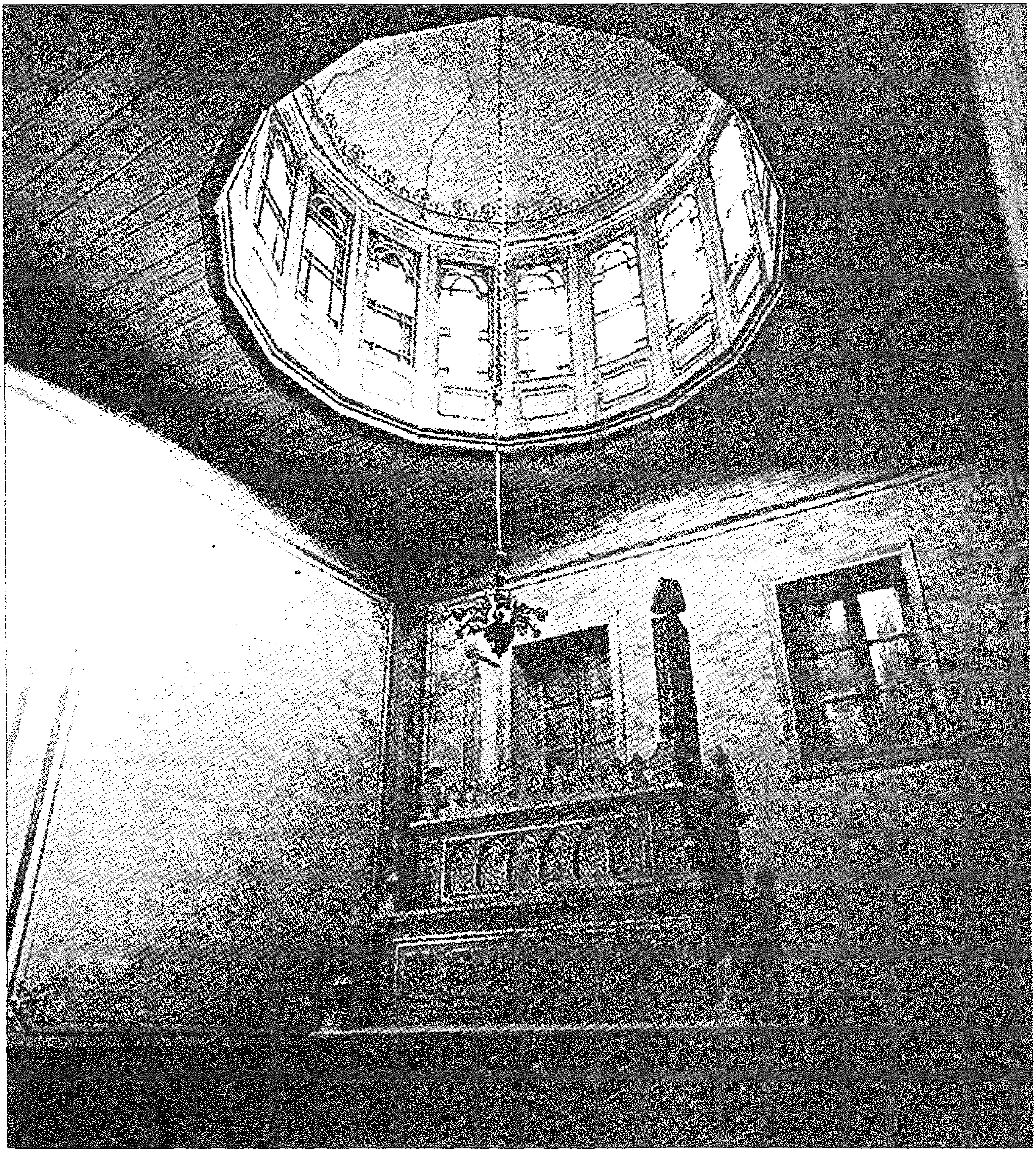


جبانات القاهرة في بورصة العقارات!

■ بادرت مجلة «وجهات نظر» بدعوة المهتمين والمتخصصين فى مجال العمران إلى إثراء الحوار حول مستقبل القاهرة عام ٢٠٥٠ وطرحت اثنى عشر سؤالاً تمثل كلها تحديات كبرى بالنسبة لمستقبل العاصمة. من بينها كيفية التعامل مع المقابر الموجودة فى قلب الكتلة العمرانية وهى القضية التى سوف أتناولها فى هذا المقال.

فى عام ١٩٨٩ أى منذ حوالى عقدين، صرح المهندس حسب الله الكفراوى وكان وزير الإسكان فى ذلك الوقت، فى حديث أجراه لجريدة الأهرام بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٨٩ بضرورة نقل مقابر العاصمة قائلاً: إنها أصبحت تحتل مكاناً شاسعاً فى قلب الكتلة العمرانية ووصف هذا العمل بأنه «عمل حضارى تباركه السماء ويباركه المنطق». وفى الواقع فإن فكرة نقل مقابر العاصمة خارج النطاق العمرانى كانت - ومازالت - تراود المسئولين، غير أن مثل هذا التوجه لا يستند على أية معطيات موضوعية أو علمية أو أسباب ذات صلة بالمصلحة العامة يمكنها أن تبرره، كما تعكس التصريحات بشأنه جهلاً فادحاً بما تمثله مناطق الجبانات[1] فى مدينة القاهرة، جهلاً بالجغرافيا، كموقع وموضع، بالتاريخ، بالعمران والعمارة، بالقيم التراثية والرمزية التى تحملها هذه الـ Necropolis (مدينة الموتى) الشاسعة والتى تعتبر وبحق «وادى ملوك وملكات»

Architecture for the Dead
Cairo's Medieval Necropolis
(عمارة الموتى)
Galila El Kadi & Alain Bonnamy
The American University in Cairo
Press, 2007



فكرة نقل مقابر العاصمة خارج النطاق العمرانى كانت ـ ومازالت ـ تراود المسئولين. غير أن مثل هذا التوجه لا يستند على أية معطيات موضوعية أو علمية أو أسباب ذات صلة بالمصلحة العامة يمكنها أن تبررد

المصريين المعاصرين، فهل يخطر على بال أحد إزالة أو نقل جبانة طيبة؟

وجبانات القاهرة هى هذا المتصل الجنائزى الذى يمتد بطول ١٢ كم من الشمال للجنوب بموازاة القاهرة التاريخية شرقًا تحت سفح المقطم ويحتل مساحة ألف هكتار[٢] ويتكون من مجموعتين رئيسيتين:

ـ تقع الأولى جنوب وجنوب شرق المدينة وتعد أضخم تجمع من المقابر وتضم من الجنوب إلى الشمال جبانات البساتين والتونسى والإمام الليثى وسيدى أبوالوفا وسيدى الشاطبى والإمام الشافعى وعمر بن الفارض والمماليك والسيدة نفيسة. ويحدها من الشرق تلال المقطم ومن الجنوب منطقة البساتين الصناعية، ومن الشمال القلعة وجامع ابن طولون.

أما المجموعة الثانية فتقع فى الشمال الشرقى وتبدأ عند سفح القلعة وتضم من الجنوب إلى الشمال الشرقى جبانات باب الوزير والمجاورين والقرافة الشرقية للمسلمين وقايتباى والغفير ويحد هذه المجموعة من الشرق طريق الأوتوستراد ومنشأة ناصر على تلال المقطم، ومن الغرب طريق صلاح سالم، ومن الشمال الشرقى مدينة البعوث، ويفصلها من الغرب عن القاهرة التاريخية منطقة بها منشآت عسكرية منخفضة الكثافة.



مدخل مدفن عائلة عبود باشا

لا يقع هذان التجمعان إذن داخل نطاق الكتلة العمرانية، فلا تحوطهم المساكن من كل جانب، بل مازالا على تخوم العمران، على عكس جبانتى باب النصر وزين العابدين واللتين تقعان بالفعل داخل النطاق العمرانى وأحواشهما فى حالة متردية، بالإضافة إلى تحول جبانة زين العابدين بشكل شبه تام إلى منطقة للإسكان الفقير. فإذا كان المقصود هو إزالة هاتين الجبانتين، فهذا يمكن أن يكون مفهومًا إلى حد ما، حيث صدر قرار عام ١٩٣٦ بتحويل جبانة باب النصر (٣٣ هكتارًا) إلى حديقة عامة ومنع الدفن بها، إلا أنه يتحتم قبل التفكير فى إزالة هذه الجبانة القيام بدراسة ميدانية لتحديد حالة الأحواش والحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه، نظرًا لتميز باب النصر بمقابر من نمط خاص يطلق عليها مقاصير، مشيدة من الخشب ولها فتحات بتكوينات غاية فى التنوع تُغطى بخشب الخرط وهى تعتبر بالتالى من النماذج المعمارية الفريدة فى العمارة الجنائزية ولا مثيل لها فى أقطار العالم العربى والإسلامى على حد السواء.

إن تاريخ إنشاء جبانات القاهرة يرجع إلى القرن السابع الميلادى أى أنها أنشئت مع أول عاصمة عربية لمصر، الفسطاط. وعلى مدى أربعة عشر قرنًا توسعت تلك الجبانة التى أطلق عليها القرافة[٣] ثم استحدثت جبانات أخرى بعد ذلك، حيث أضاف كل عصر من العصور اللاحقة جبانة جديدة حتى أصبح لمدينة القاهرة هذا المتصل الجنائزى الضخم. وقد كانت هذه الجبانات فى كل العصور السابقة محل اعتناء الحكام، فشيدوا بها المساجد والخوانق والمدارس والأربطة وألحقوا بها المدافن وأيضًا الجواسق والقصور والمتنزهات، وما أن انتهى القرن العاشر الميلادى إلا وكانت بها مجموعة من المنشآت الدينية التى لم تجتمع فى صعيد واحد مثلما اجتمعت هنا. وقد قام بزيارتها العديد من الرحالة الأجانب والعرب منذ العصور الوسطى وأشادوا بحسن بنائها وعظمة آثارها وشبهها الرحالة ابن جبير بمتحف للآثار وبإحدى عجائب الدنيا. وذكر ابن جبير أنه بات بالقرافة ووصفها بأنها «إحدى عجائب الدنيا، بما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم وأهل البيت رضوان الله عليهم والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات والأنباء الغريبة.

كما زار مصر الرحالة ابن سعيد المغربى فى أواخر العصر الأيوبى وترك لنا وصفًا جميلاً للقرافة، فقد ذكر أنه بات ليالى كثيرة بالقرافة التى تقع شرق الفسطاط وأن بها منازل لأعيان الفسطاط والقاهرة وقبورًا عليها مبان معتنى بها وفيها القبة العظيمة العالية المزخرفة التى فيها قبر الإمام الشافعى رحمة الله عليه وبها مسجد جامع وترب كثيرة عليها أوقاف للقراء ومدرسة كبيرة للشافعية.

وقد وصفها كل من العمرى والقلقشندى بأنها «تربة عظمى أو عظيمة» وأضاف القلقشندى على ذلك فذكر أن الناس بنوا بها «الأبنية الرائعة والمناظر البهيجة والقصور البديعة يسرح الناظر فى أرجائها ويبتهج الخاطر برؤيتها وبها الجوامع والمساجد والزوايا والربط والخوانق وهى فى الحقيقة مدينة عظيمة إلا أنها قليلة الساكن».

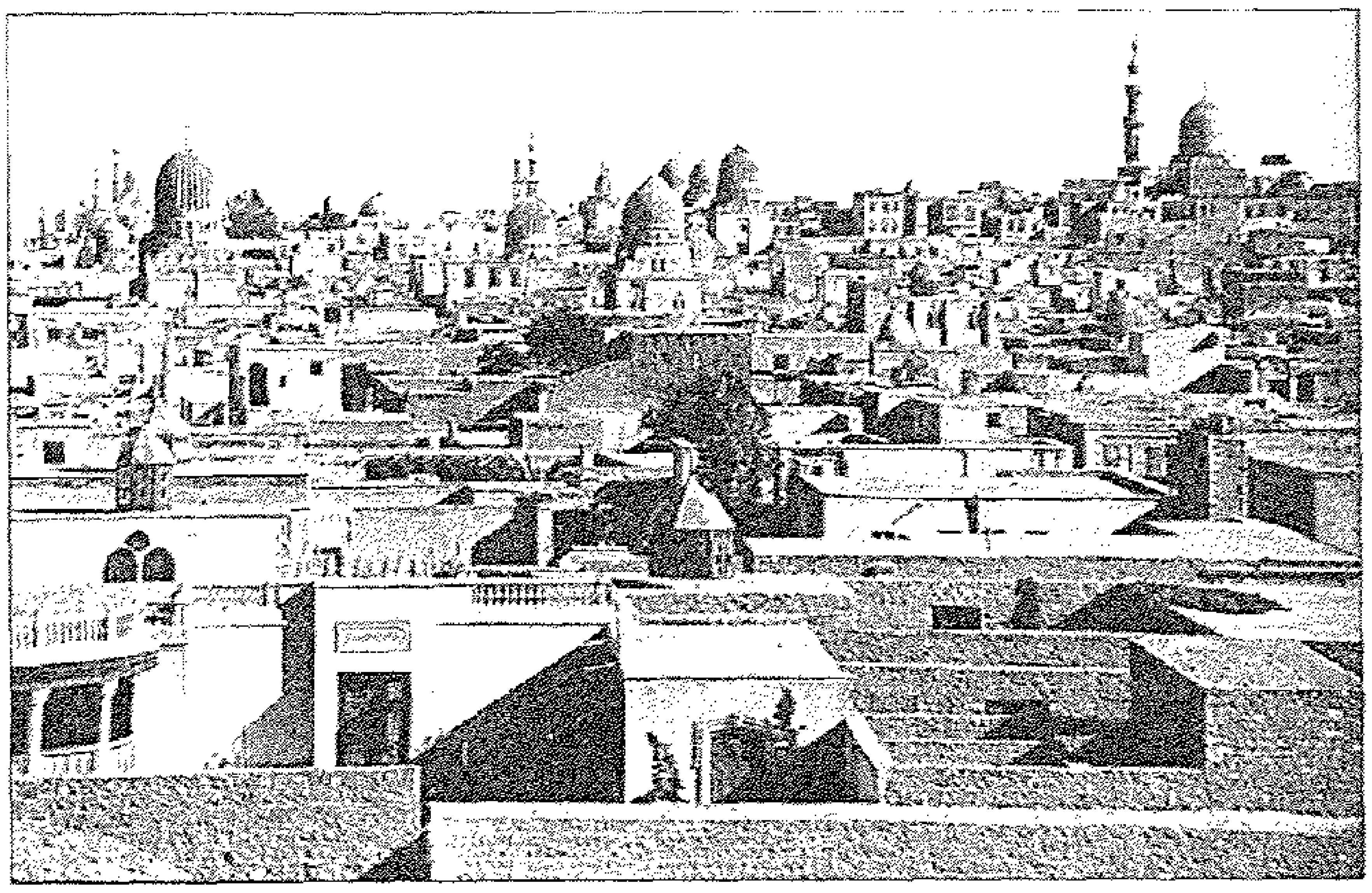
وتضم جبانات القاهرة اليوم ٧٨ أثرًا مسجلة على قائمة الآثار من ضمن ٥٣٧ أثرًا إسلاميًا، ١٥٪ ترجع إلى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية، بالإضافة إلى العديد من المواقع التى دفن فيها الصحابة وكبار المتصوفة فى الإسلام أمثال ابن عطاء الله وذو النون ورفاق الحلاج (القرافة الجنوبية) والعلامة ابن خلدون والمؤرخ المقريزى (قرافة باب النصر) على سبيل المثال لا الحصر. وتشمل هذه الآثار العديد من الأنماط المعمارية فنجد المجموعات الجنازية Complexes Funéraires المتعددة الوظائف لسلاطين المماليك كمجموعات قايتباى وبرقوق وإينال وقرقماس بالقرافة الشرقية وأهمها على الإطلاق مجموعة قايتباى التى كانت تعتبر مدينة صغيرة مسورة تضم جامعًا وسبيلاً وكتابًا وضريحًا تعلوه قبة بديعة ومدرسة ومقعد ورواق وربع وحوض للدواب مازال معظمها قائمًا إلى يومنا هذا. وتعتبر مجموعة قايتباى من أروع ما أنتجته العمارة الإسلامية ليس فى مصر فحسب، ولكن فى العالم الإسلامى برمته. كما نجد أيضًا أضرحة لأئمة لهم

مكانة كبيرة عند المسلمين كالإمام الشافعى والليثى وسيدى عقبة بن عامر وسيدى الشاطبى (القرافة الجنوبية) وكذلك لآل البيت السيدات رقية (١١١٣) وسكينة ونفيسة وعائشة (١١٢٠) التى تتتابع فى شارع درب الوداع سابقًا (الخليفة حاليًا) وهو امتداد جهة الجنوب لشارع المعز. وقد أطلق عليه المؤرخون الشارع الأعظم وكان يصل فى الماضى حتى جامع عمرو فى الجنوب الغربى. ويضم هذا الشارع بجانب أضرحة آل البيت، ضريح تاسع السلاطين المماليك الأشرف خليل (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣) وأشهر ملكات مصر شجرة الدر (١٢٥٠).

تضم القرافة أيضًا خوانق للمتصوفة مثل خانقاه ومدرسة زين الدين يوسف شيخ الطريقة الكاملية ومدافن مستقلة على هيئة قباب لأمراء المماليك تتتابع فى تناغم جميل فى القرافة الشرقية وقام برسمها فى الماضى كبار الفنانين الأجانب أمثال prisse d'Avenne ومدافن أسر البرجوازية والأرستقراطية ويطلق عليها أحواش وتشبه القصور نظرًا لاحتوائها على عدة مبان تطل على حوش سماوى وتحتل مساحات تصل إلى عدة مئات من الأمتار المربعة كما أنها مشيدة غالبًا بالحجر والطوب. وقام بوضع بعض من تصميماتها كبار المعماريين المصريين أمثال مصطفى باشا فهمى وحسن فتحى.

ويقابل هذا التنوع فى الأنماط المعمارية تنوع وثراء فى أنماط النسيج والأشكال المعمارية يكتشفها المتجول فى تلك المنطقة منذ الوهلة الأولى. ويمكننا هنا أن نتحدث عن تخطيط حضرى دون أن يمثل ذلك نوعًا من الاستعارة أو الكناية. فمساحات الأحواش تتراوح ما بين بضعة أمتار مربعة وعشرات منها بل ومئات. أما النسيج الحضرى فهو يتنوع ما بين المتعامد المخطط والمنظم والعضوى العشوائى الحر. هذان النمطان يتجاوران فى أماكن محددة وربما تداخلا. وينشأ عن هذا التداخل العديد من أنماط النسيج الأخرى.

كذلك أفرز تنوع أحجام قطع الأراضى ثراء معماريا كبيرا وهذا أمر طبيعى، فقطع الأراضى ومساحاتها تحدد أشكال البناء والوضع يختلف كلية بين قطعة أرض ذات عشرة أمتار مربعة ومائة متر مربع. وبالتالى فالمدفن يمكن أن يكون مجرد حجر مزدان بشاهدين أو ضريحًا هائلاً ذا قبة فى وسط حديقة خضراء ويشبه الجامع أو فيللا ذات أبنية متعددة أو كشك خشبى صغير له فتحات مثل القماش المفرغ.



منظر عام لجبانات القاهرة

وعند محاولتنا لتحليل تلك العمارة نجدها تبدأ منذ أكثر من ألف عام.. إلا أن هناك العديد من المؤشرات المختلفة تظهر بشكل جلى فى وسائل البناء والتفاصيل المعمارية، ولكن تلك العمارة تعبر فى المقام الأول عن الرغبة فى الإفصاح عن الهوية الاجتماعية من خلال المقبرة. وتشير إلى الأهمية الثقافية لدار الخلود فى المجتمع المصرى. ومازالت مدينة الموتى فى القاهرة تثير دهشة وإعجاب السائحين الأجانب وتعتبر من المزارات المهمة فى الدلائل السياحية مثلها مثل القلعة وقاهرة المعز. إلا أنها تواجه عدة تحديات ومخاطر. أولها يتمثل فى زحف الإسكان العشوائى داخل حيزها الجغرافى فى صورة تجمعات سكنية حول المجموعات الجنائزية الضخمة لقايتباى وبرقوق فى القرافة الشرقية، وحول الإمام الشافعى والتونسى فى القرافة الجنوبية، وهذه التجمعات مناطق سكنية متكاملة بأنشطتها الحرفية وخدماتها. هذا بالإضافة إلى منطقة الخارطة القديمة شمال القرافة الجنوبية وعرب اليسار شمال القرافة الشرقية وبعض الجيوب المتناثرة. وبجانب هذا النمط هناك سكنى الأحواش. وبالتالى فقد أصبح هناك تداخل شديد فى بعض مناطق الجبانات بين أماكن ذات وظائف مختلفة.

ويقدر عدد سكان الجبانات بحوالى ٢٠٠٫٠٠٠ ساكن بينهم ٥٠٫٠٠٠ فى الأحواش. المشكلة الأخرى تتمثل فى ارتفاع منسوب المياه الجوفية واختلاطه بالصرف الصحى، مما أدى إلى تدهور البنى الأساسية والفوقية للعديد من المقابر ذات الأهمية المعمارية الفائقة مثل مجموعة السلحدار (١٨٥٨) وحوش توفيق والبرنسيسات (١٨٧٩ ـ ١٨٩٢).

وبدلاً من التفكير والإعداد لنقل السكان وعلاج مشكلة المياه الجوفية التى تهدد جبانة المصريين المحدثين تطرح الإزالة كأسلوب وحيد للتعامل مع مشكلة المكان. فهل كان يجب إزالة أهرامات الجيزة وأبو الهول لزحف قرية نزلة السمان تجاههم وارتفاع منسوب المياه الجوفية؟ هل تم تقدير كم ستتكلف إزالة أكثر من ٢٥٠٫٠٠٠ حوش ومدفن من الحجر والطوب. بعضها لا يتعدى عمره ٣٥ عامًا (جنوب جبانة عمر بن الفارض وقرافة البساتين وجزء من التونسى؟ إن مسلسل هذه الخطة غير المدروسة قد بدأ منذ عام ١٩٩٧ عندما طرح مشروع القاهرة التاريخية الذى أسقط من حسابه تمامًا منطقة الجبانات وجبل المقطم. بينما كان المخطط الذى طرحته منظمة الأغاخان واليونسكو عام ١٩٨٠ يتضمن الحفاظ على جبانة القاهرة ويحدد مناطق للحفاظ داخلها، وهى تلك التى تضم الآثار المسجلة. كما قمنا بوضع مخطط هيكلى نهاية الثمانينيات حددنا فيه المناطق التى يجب إزالتها والمناطق التى يجب الحفاظ عليها واقترحنا إنشاء حديقة جنائزية فى قرافة باب النصر والقيام بتشجير منطقة الجبانات لتصبح حديقة جنائزية كبيرة ومتحفًا مفتوحًا يعرف الأجيال الحالية والقادمة بتاريخ أعلامهم وآثار أجدادهم الفريدة. وقد وضعنا الدراسة التى قمنا بها تحت تصرف وزير الإسكان حسب الله الكفراوى آنذاك ـ وأدرجتها المجموعة التى كانت تشرف على وضع المخطط العام للقاهرة الكبرى داخله ـ ثم أصدرنا كتابًا باللغة الفرنسية ـ تمت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية يظهر الكنوز المعمارية التى تحتويها جبانات القاهرة. فما هى الحجج التى يسوقها من يريدون إزالة جبانات المسلمين الأوائل والمعاصرين؟ وما هو الهدف من الإزالة؟ وما هو الاستعمال المستقبلى للأراضى التى سوف يتم إخلاؤها من الأحواش والآثار الإسلامية؟ هل ستطرح للبيع لشركات الإنماء العقارى العملاقة من أجل تشييد المزيد من المساكن الموجهة للصفوة؟ ألم يكتفوا بكل ما تم تشييده من تجمعات فى الصحارى وعلى طول الطرق السريعة فى الشرق والغرب؟ إن محاولة بناء برج تجارى إدارى تحت سفح القلعة التى وقف ضدها الحريصون على تراث الأمة المعمارى والعمرانى وأيدتهم فى موقفهم منظمة اليونسكو حتى تم التراجع عن إكمال المبنى الذى كان البناء قد ارتفع به عدة أدوار على سطح الأرض، ما هى إلا جزء من مخطط يهدف إلى إحلال مركز مالى وتجارى حديث على غرار مراكز دبى ودول الخليج لجذب جزء من الاستثمارات التى تستحوذ عليها تلك «المدن الدول». وهو حلم يداعب مخيلة واضعى تصور القاهرة ٢٠٥٠، إلا أنهم نسوا أن مصر ليست دبى وأن لها تاريخًا ضاربًا فى القدم ترك بصماته المادية على المكان وتلك البصمات هى التى تضفى عليه العديد من القيم وتعطى له معنى وتؤكد تفرده وتجتذب الآخرين وتثير إعجابهم وتقديرهم. هل نزيل الآثار الإسلامية وأحواش الأعيان والحكام أمثال أسرة محمد على وأحمد عرابى وعمر مكرم وجزء لا يستهان به من الوجوه السياسية المرموقة التى تعتز بها الأمة من أجل محاكاة دول مستجدة تفتقد تراكمات الزمان فى المكان؟

إن أى تصور لقاهرة ٢٠٥٠ يجب أن يأخذ فى اعتباره أهمية مناطق الجبانات ويتعامل معها كمناطق تراثية وكجزء من ذاكرة المدينة والقطر المصرى برمته ويحافظ عليها وينميها ويجعلها متنزهًا هائلاً تحت سفح جبل المقطم فى مقابل حديقة الأزهر، ولكن على منسوب أدنى. تعالوا نتخيل أنه خلال الأربعين عامًا التى تفصلنا عن عام ٢٠٥٠، قد تم نقل سكان الجزر السكانية العشوائية التى تحوط المجموعات

جبانات القاهرة هى هذا المتصل الجنائزى الذى يمتد بطول ١٢ كم من الشمال للجنوب بموازاة القاهرة التاريخية شرقًا تحت سفح المقطم ويحتل مساحة ألف هكتار

الجنائزية على دفعات، وكذلك سكان الأحواش إلى مساكن صحية فى المدن الجديدة وأزيلت مساكنهم القديمة وتحولت الفراغات التى تم إخلاؤها إلى ساحات مفتوحة أو حدائق. فأظهرت روعة الآثار التى لم يعد يحجبها شىء ثم تبنت وزارة البيئة والجمعيات المتخصصة مشروعًا لتشجير المحاور الرئيسية للجبانات بأشجار الأكاليبتوس التى لها خاصية عالية فى امتصاص المياه، ثم سنت قوانين تجبر أصحاب الأحواش على ترميمها. تعالوا نتخيل المنظر الذى سوف تكون عليه هذه الجبانة الفريدة عند النظر إليها من حديقة الأزهر أو من قمة جبل المقطم. ثم تعالوا نتخيل السيناريو البديل، أى إزالة الجبانات بالكامل، وبناء وتحويل هذا السهل الذى قيل قديماً إن له «تأثيراً فردوسياً» لأن جسم الميت يحتفظ فيه لفترة طويلة، الذى يضم رفات الأجداد على مدى عشرة قرون إلى أبراج سكنية أو تجارية من الزجاج الفيميه والحديد لا تحمل أى طابع مميز لا قيمة لها ولا تساهم فى حل مشكلة الإسكان فى قاهرة متخمة بمساكنها الخالية[4]. فهل هذا ما يريدون أن يورثوه للأجيال المقبلة؟

إن الحفاظ على مناطق الجبانات فى القاهرة هو عمل حضارى سبقتنا إليه العديد من الدول الأوروبية التى حولت مناطق المقابر التاريخية إلى حدائق ومزارات مثال مقابل مونمارتر Montmartre وبارلاشيز Pére la Chaise فى باريس. وهما داخل الكتلة العمرانية وتعتبران من مناطق النزهة والترفيه وقد تم تنسيقهما كحدائق جنائزية بديعة يتردد عليها فى عطلة نهاية الأسبوع مئات من الباريسيين والسياح الأجانب، مما جعلها مناطق للاستمتاع والتأمل وإثراء المعارف والتبادل الثقافى بين الشعوب وككل الأماكن التراثية، كمصدر للدخل السياحى.

إن الكتاب الذى صدر مؤخراً عن الجامعة الأمريكية عن «عمارة الموتى. نيكروبوليس العصور الوسطى للقاهرة» يظهر عظمة وروعة وتفرد وتنوع وثراء العمارة الجنائزية فى جبانة القاهرة. ويمثل دعوة إلى إعادة النظر فى خطة الإزالة التى يطرحها مخطط القاهرة ٢٠٥٠.

المقابر

باحب المقابر، واموت فى التُّرَب.
هناك، زى حى الفَناى فى الهدوء الجميل.
هناك زى شط البحور، فى النسيم العليل،
هناك العجب.
هناك تمشى تسمع لرجلك دبيب
عالى يرضى الغرور،
هناك كله راقد، مفيش غيرك انت اللى واقف فخور،
وأما الزهور،
هناك بالمقاطف على الأرض،
يا مسورقة يا بتحتضر،
تجيب أدوات العطور،
وتصنعها عطر اسمه مثلاً: عبير العِبَر!
تبيعه، وتكسب دهب.
وتدهس على العضم، وتقول كلام فلسفة.
وتملا كتب.
ده غير الثواب اللى تقدر كمان تكسبه،
من الفاتحة ع الميتين.
فمنها عبادة، ومنها استفادة، ومنها أدب،
لهذا السبب،
بأحب المقابر .. لكين،
بعقلى الرزين،
بأحب البيوت، واللى فيهم، زيادة!

صلاح جاهين

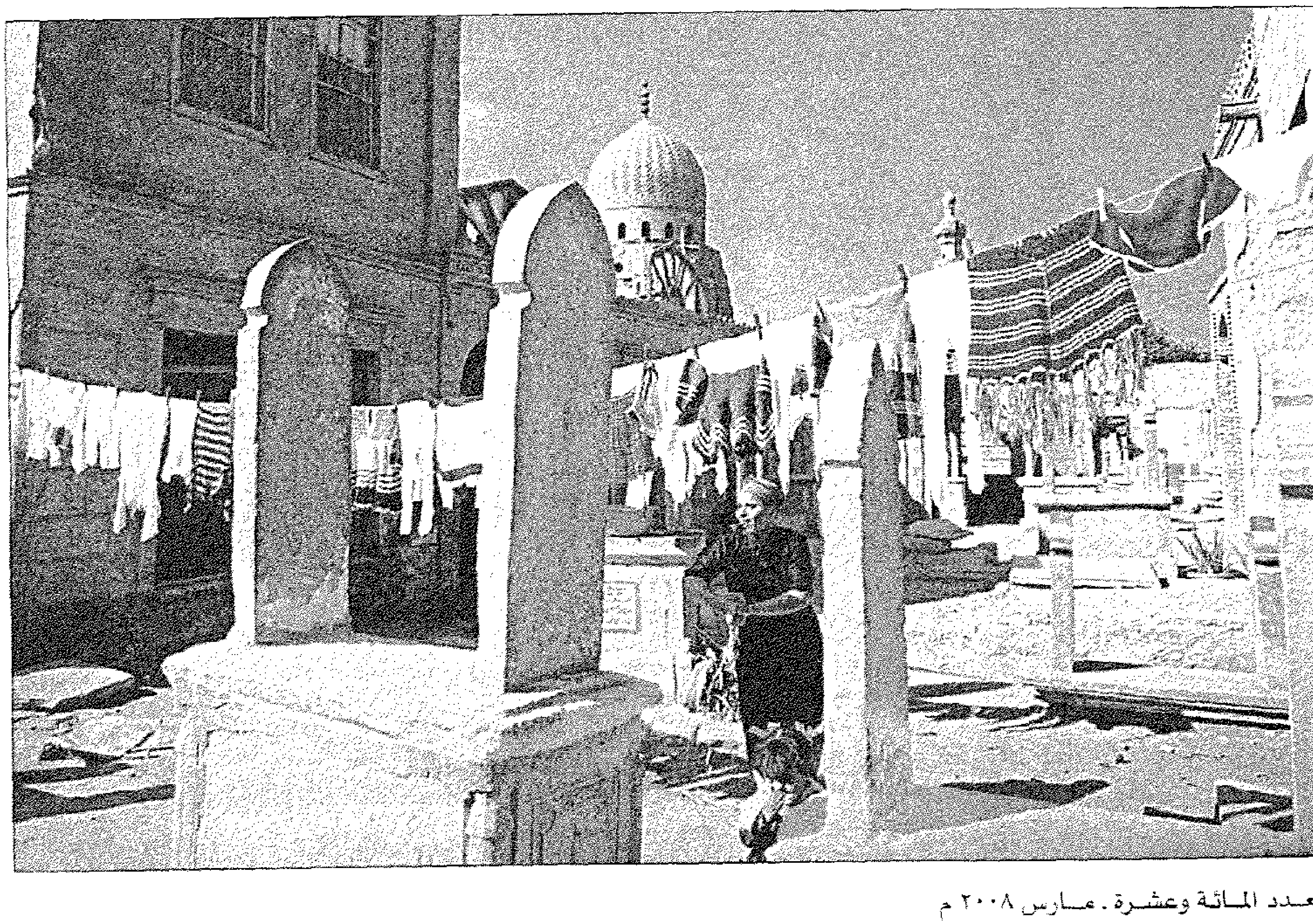
هوامش:

(١) الجبانة تعنى الصحراء.
(٢) الهكتار ١٠٠٠٠ متر٢
(٣) يكاد يتفق جميع المؤرخين وأصحاب المعاجم اللغوية والباحثون على أن القرافة عرفت بهذا الاسم نسبة إلى بنو قرافة وهم بطن من بطون قبيلة المعافر اليمنية التى شهدت فتح مصر وأنهم نزلوا بهذه الخطة بالفسطاط من مصر فسميت بهم مقبرة مصر القرافة.
(٤) تضم القاهرة الكبرى طبقًا لآخر تعداد للسكان والإسكان لعام ١٩٩٦، نصف مليون مسكن خال من ضمن ثلاثة ملايين لحضر وريف القطر المصرى.

المصادر والمراجع:

١ - ياقوت الحموى: (شهاب الدين أبى عبدالله) ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م. معجم البلدان - المجلد ٧. الطبعة الأولى ١٩٠٦م. ص ٤٣ - ٤٤ .
٢ - ابن جبير: الرحلة. ص ٤٩ .
٣ - ابن سعيد المغربى: المغرب فى حلى المغرب. ص ١٠ .
٤ - العمرى (شهاب الدين أحمد يحيى بن فضل الله) ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م. مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد (المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة) ١٩٨٥م، ص ٢٢.
٥ - المقريزى: (السلوك فى معرفة دول الملوك) القاهرة - بولاق، ١٩٣٢م.
٦ - (باب النصر الجبانة الخشبية) - جليلة القاضى - آلان بونامى، المعهد الفرنسى للأبحاث من أجل التنمية، مايو ١٩٩٠م.
٧ - Galila El Kadi et Alain Bonnamy - "Le Cété des Morts, Le Caire Institut de Recherche pour Le Développement, Ma 2001.
٨ - Architecture for the Dead. Cairo's Medieval Necropolis. Galila El Kadi - Alan Bonnamy. American University in Cairo Press. Cairo September 2007

المقابر سكن من لا سكن له



«العين تطرب قبل الأذن» أحيانا

عز الدين نجيب

لايزال حلمى التونى يمتلك أحلامه، ويحمل حنينه إلى لحظات السعادة والبهجة - التى كانت - حين كان الزمان يفيض بالإنسانية والدهشة.. إنه يستحضر - بين معرض وآخر - صوراً وملامح من تلك اللحظات، ثم ينفخ فيها من روحه حتى تكبر، فيستولد منها فى كل معرض عالمًا بأكمله.

هكذا فعل فى كثير من معارضه السابقة، باستدعائه لذكريات الطفولة والصبا، ولحظات الفرح والأعراس والقصص والحكايات الشعبية، وصور الفوارس والعذارى والطيور والزهور، وأيقونات الطقوس ورموز الوشم، ورسوم السير الشعبية ونقوش الفنان الفطرى فوق الجدران وتصاوير المشاهير فى الزمن الجميل.. إنه لم يتوقف عن استدعاء ذلك كله واستلهامه فوق خلفية تمتد بامتداد الحضارة على نهر النيل، بإيماءات دالة على الشخصية المصرية بتجلياتها المختلفة. لكنه فى كل ذلك لا يلتصق بأرض الواقع حتى يبدو فنانًا واقعيًا أو فطريًا، ولا يطير بعيداً عنه محلقًا فى أجواء الرومانسية فيفقد مصداقية الانتماء إلى هذه الأرض، إنما استطاع أن يصنع للوحاته أجنحة خفية تجعلها «تبدو» محلقة فى أجواء الخيال فيما تنغرس أقدامها فى الأرض، وتجعلها فى ذات الوقت حافلة بدهشة الأطفال ونقاء الفطريين، رغم أنها تقوم على مفردات مألوفة ومعتادة استمدت من شتات الواقع والذاكرة.. وبين هذا وذاك يقود فطرة الطفولة داخل «حلمى» وعى مثقف يعصمه من الوقوع فى وهم زائف بجمال الواقع وهو مليء بالقبح، أو - بالأحرى - إنه يصنع واقعًا افتراضيًا يحلم بأن يكون!

فى معرضه الجديد بقاعة بيكاسو بالزمالك - أواخر يناير الماضى - اتخذ «التونى» من الموسيقى الشرقية عنوانًا جامعًا للوحاته الزيتية، ما يوحى - حتى قبل مشاهدتها - بشيئين، الأول: هو الطرب الذى يرتبط عادة بالزمن الماضى، والثانى: هو صور المنمنمات العربية والفارسية التى حفلت بالعازفين وبجلسات الأنس خلال عصور الأمويين والعباسيين والفاطميين، والتى كان الفنانون من أمثال سعد المصرى فى القاهرة ويحيى الواسطى فى بغداد وبهزاد فى إيران، يرسمونها على أطباق الخزف أو على صفحات المخطوطات للقصص والمقامات، حيث تعج هذه اللوحات بمشاهد الأمراء والندماء وهم يتبادلون كؤوس الراح، وأمامهم تعزف العازفات وترقص الراقصات.. وقد صدق توقعى بالنسبة للجانب الأول وهو الطرب، إذ إنك بمجرد دخولك القاعة تجد نفسك محاطًا بجو من الموسيقى البصرية ذات التقاسيم الشرقية والإيقاع المنتظم..

فتيات متربعات(١) على الأرض يعزفن على العود بنفس جلسة جداتهن فى تصاوير العصر الأموى والعباسى، أو جالسات فوق كراسى أسدلت عليها فساتينهن(٢) المنقوشة بأزهى الألوان حتى اختفت قوائمها، أو يقفن حاضنات لآلة الكمان. فى حنان ممزوج بالشجن - بين الخد والكتف، أو آلة العود حتى تتوحد مع نبض قلوبهن، ويأتى انتظام التقاسيم الإيقاعية من تصفيف عناصر اللوحات على وتيرة واحدة بشكل متماثل وئيد الحركة شديد الوقع بالخط الصريح واللون الساطع والوحدات الزخرفية المتكررة كدقات الطبول ودندنات العود ورتابة صوت الكمان.



١ - «الجارية العازفة»

أما الجانب الثانى فيختلف عن لوحات المنمنمات القديمة فى اقتصار كل لوحة لـ «حلمى» على عنصر بشرى واحد هو العازفة، بعيداً عن فرقة التخت وعن الراقصات والأمراء والندماء، ونرى عازفاته الصغيرات وقد ارتدين فساتين عصرنا الراهن بأذرع وصدور مكشوفة أو نصف مكشوفة أو مكسوة(٥)، وهن جميعًا فى وضع مواجه لنا، أشبه بالدمى أو الصور التذكارية القديمة، باستثناء فتاة واحدة أو اثنتين رسمتا فى وضع جانبى أو من خلال لفتة أو إيماءة.

ورغم هذه الحالة التطريبية المبهجة، فثمة ما يدهشك فى وجوه العازفات، البيضاء كالشمع، الخالية من التعبير كالأقنعة، المفتوحة العيون على اتساعها مزججة بالكحل الكثيف، معشوشبة بالحزن العميق، فتذكرك بأقنعة الفيوم الأثرية فوق مومياوات الأميرات وعامة الشعب على السواء وهى تحملق نحو الأبدية، مثلها مثل تماثيل ملوك وملكات عصر الأسرات قبل آلاف السنين، فى جلساتهم الثابتة الوقورة وأيديهم وأذرعهم تتقاطع فوق صدورهم كأنهم يكتمون الأسرار المقدسة(٦).. عازفات «التونى» - إذن - أقرب إلى عازفات المعبد المصرى القديم، منهن إلى عازفات قصور الخلفاء الأمويين والعباسيين.. هل تفضح العيون إذن ما فى صدر مبدعها، فيما يريد أن يأخذنا إلى حالة من البهجة والطرب؟.. أم أن الحزن قد تلبس الفرح فى زماننا حتى بات الفصل بينهما مستحيلاً؟.. أم أنها طبيعة المصرى الذى ما إن تواتيه لحظة فرح حتى يدعو الله راجيًا أن يكون خيراً؟!

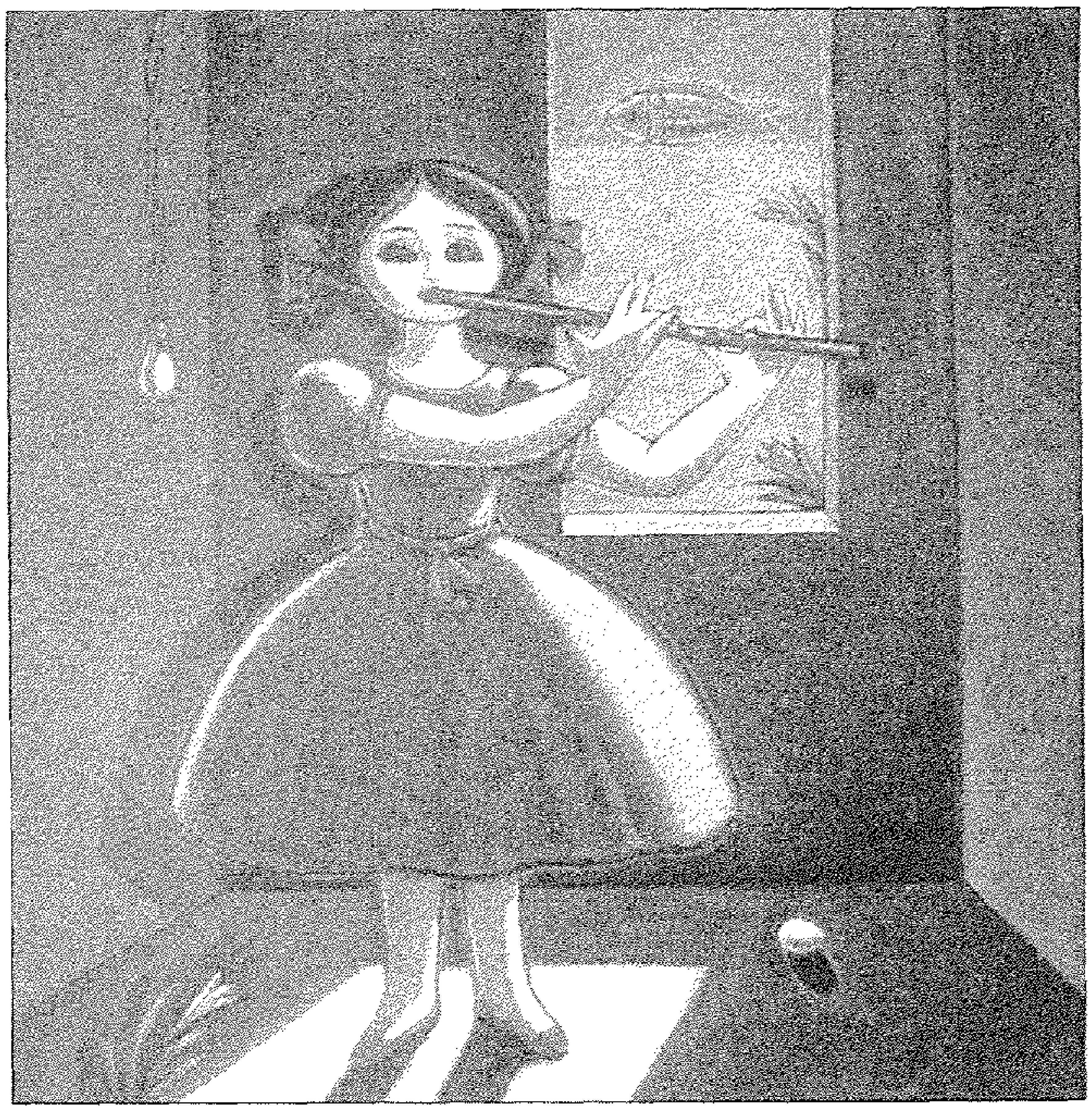
غير أن المشاعر والنوايا تظل ملكًا لصاحبها وحده، وبقدر بقائها فى منطقة الأسرار



٢ ـ عـــازفة ملوكيـــة

يزداد العمل الفنى ثراء بتعدد الانطباعات والتأويلات والأسئلة لدى المتلقين له، لكن يبقى من حقهم وحق الناقد أن يكتشفوا أسرار الفن فيها إن استعصت عليهم أسرار النفس.

إلى جانب الأوضاع الثابتة للأشخاص، والإيقاع الناعم لحركتهم، تمثل الألوان أدوار البطولة فى جميع اللوحات، صانعة حوارات بصرية أخاذة، يتصدرها حوار الأحمر والأخضر اللذين لا تكاد تخلو منهما لوحة واحدة(٧)، ثم حوار الأزرق والأسود، وما بين هذه الألوان من درجات بينية.. إن الأحمر يمثل للأخضر نقيضه وعشيقه فى آن واحد، فمن الساخن والبارد فيهما تأتى حميمية العناق والانسجام، وبتجاورهما يزداد كل منهما توهجا وإشعاعا، كذلك الحال بين الأزرق والأسود، مع ما يميز بين اللونين السابقين من تأثير على النفس، فإن التحامهما يولد شحنة درامية مكتومة، ويعمق حالة الحزن والشجن بقدر ما يحملنا إلى ما فوق الواقع.. إلى حالة تشبه العبادة والقداسة ربما.. ولنأخذ ـ كمثال ـ تلك اللوحة الفذة (الثنائية من لوحتين) لعازفتين(٦) تبدوان كتوءمتين لتطابق الملامح بينهما، بنفس العيون العميقة المعتمة والحواجب المقرونة، ونفس لون الفستان الأسود الذى انطبعت عليه نجوم كبيرة الحجم كثيفة الزرقة، ونفس تسريحة الشعر الغريبة ذات الكتلتين الطائرتين على الجانبين، وكل كتلة منهما على شكل ثمرة الباذنجان، لكنهما تجلسان فى وضعين متعاكسين مع انعطاف كل وجه إلى داخل اللوحة، وقد احتضنت إحداهما آلة العود واحتضنت الثانية آلة الكمان، وتماوجت خطوط التكوين فى إيقاع هامس يعادل صوت الموسيقى المتخيل من حركات العزف وإيقاع الخطوط والألوان، وتؤكد هذا الإيقاع تلك البقع البيضاء الناصعة لوجهى الفتاتين (أو لقناعيهما الشمعيين) وأياديهما الأربع فوق الآلتين بأصابعهما الرفيعة المدببة التى تنتهى أناملها بأظافر مطلية باللون الأحمر، ما يمثل فى مجمله حركة متماوجة فوق السطح القاتم.. إننا لو أغمضنا أعيننا وقللنا كمية الضوء الساقط على اللوحة إلى أقصى حد ممكن، سوف نرى بقع الوجوه والأيدى البيضاء مثل المسرح الأسود أو مشاهد «البانتومايم»، حيث ترقص الأجزاء الظاهرة فى الظلام من أجسام الممثلين رقصة تعبيرية، لكننا بعد إعادة فتح عيوننا نجد أنفسنا وقد أخذنا بعيداً ـ بفعل هذا الأزرق المكتوم المغموس فى الأسود الفاحم ـ نحو حالة من الترتيل الطقسى أو الدعاء الذى تتردد أصداؤه فى خلفية الفتاتين على شكل تموجات للون الطينى بدرجاته الخافتة.



٥ ـ «طفلة وناي»

أما اللوحات التى تنفرد فيها العازفة على مسطح اللوحة.. جالسة أو واقفة.. فإن الفنان يؤكد فيها حالة السكون «الماضوية» بإدخالها داخل برواز عريض من الألوان والزخارف من داخل البرواز الخارجى، وتلك حيلة معروفة فى التصوير المعاصر، لتباعد بين الصورة والواقع وتنقلها إلى واقع مواز، بل قد تنقلها إلى ما يشبه صور الأشخاص فى ورق اللعب «الكوتشينة»، وكأنه يوهمنا بأننا إزاء لعبة بصرية ولسنا إزاء حقيقة واقعة، ويؤكد ذلك تسطيح الشكل ليصبح ذا بعدين اثنين بدون البعد الثالث (العمق)، الذى يستعيض الفنان عنه بزخارف كثيفة من الأزهار والأوراق داخل المستطيل فى خلفية الشخص، وهى تذكرنا بزخارف السجاد وبلوحات المنمنمات العربية فى ذات الوقت(١).

لكنه، إذ يعتمد فى عملية التسطيح للأشكال على الخطوط والألوان والمساحات، فإنه يحاول التخفيف من الصرامة والجمود فى حركة تلك الأشكال وكسر حدة خطوطها. وذلك يجعلها ترشح بظلال خفيفة من اللون الأزرق السماوى أو الوردى، تبدو كأصداء للخط أو للمساحة الصماء، وتضفى نوعا من التجسيم الخفيف للمشخصات، يذكرنا بالتصوير المصرى القديم أو بالنحت الجدارى البارز والغائر فى المعابد آنذاك، غير أن الفنان يستخدم الظلال فى أحيان أخرى لغرض مختلف وهو خلق زوائد تكميلية للأشكال المادية المجسمة فى اللوحة، مثل قيامه بمد ظلال لأرجل الكراسى تحت أقدام الفتيات، أو بجعل هذه الظلال امتداداً لأقدامهن حتى نهاية الضلع الأسفل من اللوحة(٢)، (٣)، (٤)، (٥)، فيثير بذلك نوعا من الذبذبة البصرية المخادعة للنظر، بغرض المفارقة للواقع نحو واقع افتراضى، وهى لعبة اشتهر بها «التونى» خلال معارضه السابقة.

ولم يكن ذلك وحده هو ما استدعاه من تلك المعارض، فثمة عناصر أخرى ترتحل معه كظله من معرض إلى آخر، وكأنها لزمات أسلوبية يستمتع بها لذاتها، بغض النظر عن الموضوع الذى تصوره اللوحات، مثل أوانى الزهور والفاكهة والورود البلدية والفساتين المزركشة والخلفيات المشجرة والطيور بأنواعها والأسماك أيضاً، وهناك ـ إلى جانب كل ذلك ـ الأوضاع الثابتة للأشخاص بأسلوب الصور التذكارية القديمة، وهو لفرط عشقه لتلك العناصر يضعها بشكل تلقائى فى خلفيات الأشخاص بأحجام صغيرة أو متناهية الصغر كالتمائم، مثل لوحة «عازفة الكونترباس»(٨) وهى تقف مرتدية فستانا أسود وشعرها يطير كالوشاح إلى جانب واحد بفعل الحركة الانفعالية للعزف، وعلى خلفية اللوحة ذات اللون الوردى الدافئ سمكة ذات ظل متشعب، تقف فوقها راقصة باليه على قدم واحدة وهى ذات حجم صغير جداً، وشعرها يطير خلفها، وفى الناحية المقابلة من الأرض ـ قرب قدمى العازفة ـ نرى بيضة صغيرة ذات ظل ممتد، فيما نرى أعلى يمين اللوحة طائرا صغيرا يندفع نحو ذراع العازفة.

إن مثل هذه المفارقات الإيهامية بواقع افتراضى تتكرر فى عدد كبير من لوحات المعرض، وتتراوح المفارقات بين الإيهام التمثيلى بالحركة، وبين التصاعد بالإيهام إلى حد السريالية.. من النوع الأول نختار لوحة «حلم العزف»(٩)، التى تصور فتاة ترتدى فستانا من القطيفة السوداء بنقوش لا تكاد ترى، وهو يكشف من الجزء الأعلى من جسمها أكثر مما يغطى، صانعا شكلين هرميين على مساحة الصدر، وتطير كتلتا شعرها على الجانبين بتأثيرات من خطوط شبكية فوقهما. أما المدهش فهو اتخاذها وضع العزف على الكمان دون أن يكون هناك كمان!.. وهنا تتأكد لعبة الإيهام بالعزف، أو خلق حالة افتراضية للعزف والعيش فيها، ولمزيد من تأكيد اللعبة يتلاعب الفنان بأبصارنا على سطح اللوحة القاتمة، بأن أضاف فى أسفلها شكل آنية للفاكهة بلون أبيض مثل لون جسم الفتاة المرمرى، وقد اختفى خلفه نصف شكل الآنية، وهنا يتحرك البصر صعوداً وهبوطا بين وجه الفتاة وحركة ذراعيها التى تكون مثلثات عدة بزوايا حادة، وبين نصف الآنية، فى علاقة تبادلية يؤطرها برواز أسود من داخل البرواز الخارجى للوحة.

ومن هذا النوع من

استطاع التونى أن يصنع للوحاته أجنحة خفية تجعلها محلقة فى الخيال فيما ينغرس أقدامها فى الأرض



٣ ـ «الأم العازفة»



٤ ـ «العروس العازفة»



٩ ـ «حلم العزف»



٧ ـ «أحمر وأخضر وكمان»



٦ - «الشـــقيقتان»



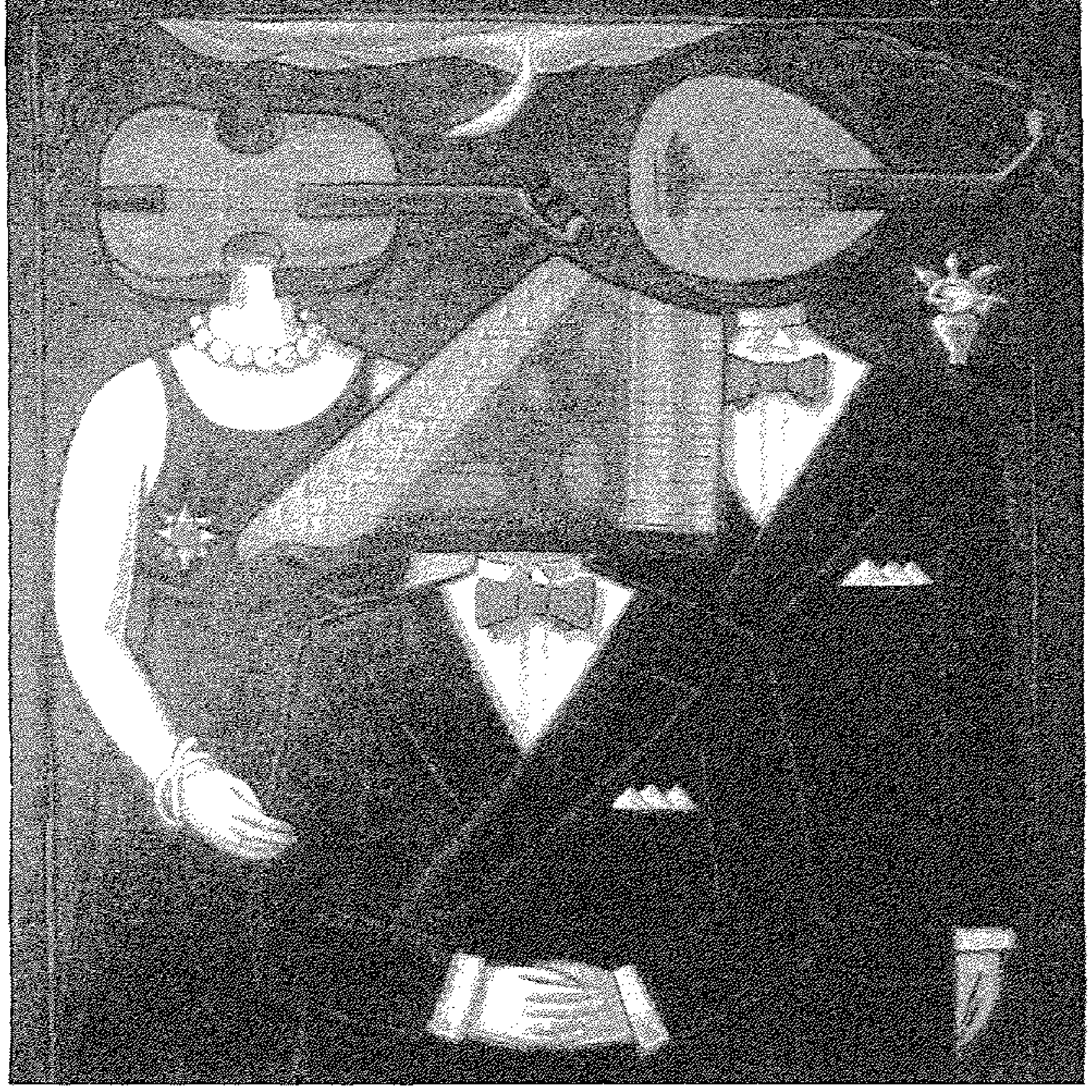
من معرض «موسيقى شرقية» 2008 زيت على قماش ١٠٠سم × ١٧٠سم

المفارقات أيضًا نختار لوحة «العازفة فوق الجاموسة».. والمفارقة تبدأ بالتضاد بين الرداء الأبيض الناصع للفتاة ذات الحجم الصغير جداً بالنسبة للجاموسة وإن كانت ناضجة الأنوثة. وبين لون الجاموسة القاتم وهو يجمع بين الأسود والأزرق، لكن المفارقة الأكبر هى جلوس الفتاة باطمئنان وهى تعزف على الكمان بمنتهى الاستغراق فوق ظهر الجاموسة، التى نراها تنعطف برأسها مستديرة جهة الفتاة إلى أقصى حد تسمح به مرونة جسمها، وكأنها تستجيب وتتفاعل مع الأنغام، وبالقرب من ضرعها الممتلئ باللبن نرى بين أظلافها بضع بيضات ناصعة البياض فوق أديم الأرض الداكن. وفى أعلى يمين اللوحة ثلاث نخلات تتدلى منها سباطات البلح الأحمر، وفى مقابلها - على الجانب الأيسر - نرى طائر أبوقردان الأبيض يحلق خارجًا من «الكادر».

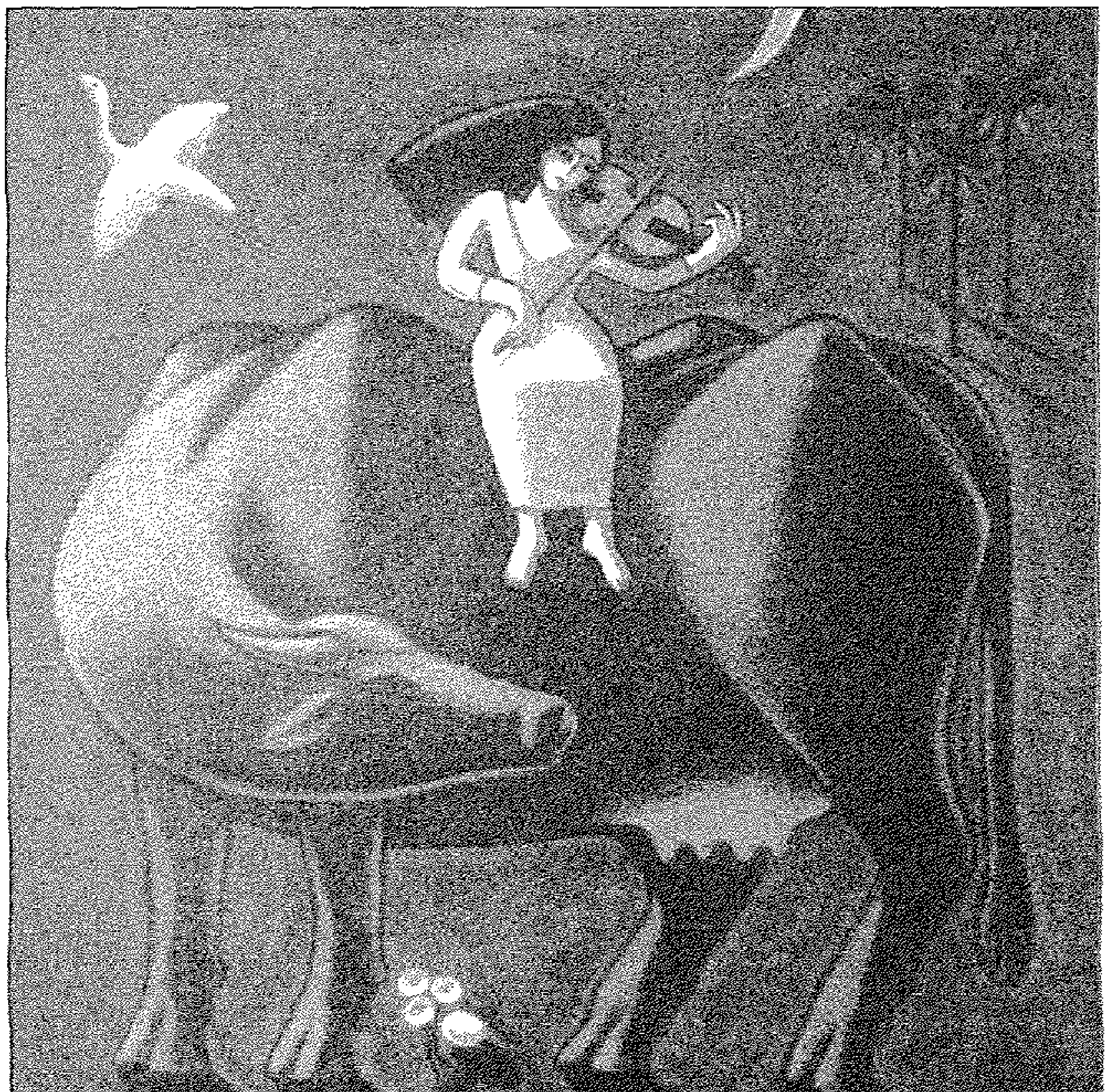
أهى حالة من التغنى بالخصوبة والعطاء والخير من خلال هذه الرموز التى يصعب أن تجتمع على أرض الواقع؟.. أم هى حالة من الغزل الرقيق للسريالية؟.. إلا أننى أرى أن لوحته تلك أقرب إلى ما يسمى «بالفن البرىء» الذى كان رائده الفنان الفرنسى هنرى روسو، إذ نجد فى لوحاته فتيات يعزفن للوحوش المفترسة، مع فارق مهم لدى «التونى».. هو مصاحبة عازفته لحيوان طيب معطاء.

لكن ميله على استحياء نحو السريالية يتجلى - على غير استحياء - فى لوحة يمكن تصنيفها ضمن عالم السريالية بامتياز، وهى بعنوان «التخت الشرقى» (١١).. وفيها نجد رجلين وسيدة بملابس السهرة الرسمية السوداء فوق خلفية أقرب إلى السواد أيضاً، وبدلاً من الرؤوس جعل الفنان مكان رأس السيدة آلة كمان، ومكان رأس أحد الرجلين فى الخلف آلة عود، أما الآخر - فى المقدمة - فاحتلت مكان رأسه آلة القانون، وبقيت تفاصيل جسم السيدة الأبيض وقميصى الرجلين وأيديهما ومناديل الجيب على شكل الأهرامات الثلاثة بيضاء ناصعة، تقابلها مثلثات روابط العنق الحمراء على شكل «ببيون» وهى تتوسط المثلثين الأبيضين للجزءين الظاهرين من القميصين، وفوق كتف الرجل الأيمن، وهو أقرب إلى «مانيكان» خشبى، يقف تمثال صغير لعازفة مجنحة على العود، يقابله شكل دبوس صدر السيدة.

إنها لوحة غرائبية بالنسبة لعالم حلمى التونى، لكنها تجربة تنم عن هاجس مشروع للبحث، نحو تجاوز العقلانية حتى لو اتخذت إهاب العزف الموسيقى، ولعلها تأتى فى سياق حالة اللاعقلانية التى نعيشها، وقد صارت الأعمال السريالية بالنسبة لها أشكالاً معقولة!!



١١ - «التخت الشرقى»



١٠ - «الجاموسة وعازف الكمان»



٨ - «عازفة الكونترباس»



عالم بات روبرتسون!

محمد السماك

إذا كان أكثر من نصف الإسرائيليين قد وافقوا على الانسحاب من قطاع غزة، فإن كل المسيحانيين الصهاينة في الولايات المتحدة كانوا ضد هذا الانسحاب

على الرغم من أن ظاهرة الإرهاب ترافق حياة الإنسان منذ نشأته الأولى (قابيل وهابيل) فإنها لم تتبلور كعامل من العوامل المؤثرة في صناعة القرار السياسي إلا في عام ١٧٩٣ عندما وظفها بعض فلاسفة الثورة الفرنسية أمثال روبسبير وسان جيست وكوتون وغيرهم على نطاق واسع. فقد عُرفت الفترة من مارس ١٧٩٣ حتى يوليو ١٧٩٤ بعهد الإرهاب أو عهد الرهبة. وتمّ خلالها قطع رؤوس ٤٠ ألف شخص بالمقصلة واعتقل ٣٠٠ ألف شخص آخر. يومها كان عدد سكان فرنسا لا يزيد على ٢٧ مليون نسمة.

منذ ذلك الوقت لم تغب هذه الظاهرة عن أي فترة من فترات المسيرة التاريخية المعاصرة للإنسان. ورغم أن ممارستها تكاد تصبح تقليداً من تقاليد العمل السياسي، إلا أن ربط الإرهاب بالدين يسبق ولادة هذه الظاهرة ويعود إلى المفاهيم المتعلقة بالحروب المقدسة وشرعيتها: متى وكيف.

المداخلة التي سوف أقدمها لا تتناول هذه المفاهيم، أي متى تكون الحرب مبررة وجهادية، ومتى تكون غير مبررة وإرهابية. ولكنها تتعلق تحديداً بالأسس الدينية التي تعتمدها حركة المسيحانية الصهيونية في الولايات المتحدة للقيام ولتبرير القيام بأعمال إرهابية على نطاق جماعي واسع.

عندما أصيب الجنرال اريال شارون بنزيف في المخ ودخل الغيبوبة في مستشفى هداسا في القدس، أصدر القس بات روبرتسون «الحكم الإلهي» عليه.

والحكم يقول: «إن الله يعاقب شارون بسبب الجريمة التي اقترفها بالانسحاب من قطاع غزة».

لم يدعُ بات روبرتسون ربه ليخفف عن شارون معاناة المرض، أو أن ينقذ حياته. ولكنه اعتبر إصابة شارون عقاباً إلهياً، واعتبر بالتالي معاناته تشفياً ودرساً لكل من تسوّل له نفسه الانسحاب من «الأرض التي اختارها الله لنفسه وللشعب الذي أحبه».

روبرتسون ليس مجرد قس أمريكي عادي. إنه من أقطاب الحركة المسيحانية الصهيونية في الولايات المتحدة. وتؤمن هذه الحركة بأن من حقها بل ومن واجبها العمل على تحقيق الإرادة الإلهية بالعودة الثانية للمسيح. وأن من مقتضيات هذه العودة قيام «صهيون» على كامل الأرض التي وعد الله بها بني إسرائيل، وبناء الهيكل حيث يقوم الآن المسجد الأقصى ليكون مرة ثانية المنطلق للمسيحية الإنجيلية التي سوف تسود العالم كله. وفي اعتقاد هذه الحركة أيضاً أن كل الناس سوف يذوبون في النيران التي تصهر الحديد في معركة مصيرية ونهائية يطلقون عليها معركة «هرمجيدون» (نسبة إلى سهل ماجيدو الواقع بين القدس وعسقلان). أما الذين يؤمنون بالمسيح العائد فإنهم يولدون ثانية بالإيمان.

وتضم هذه الحركة حسب ادعاءاتها حوالي ٧٠ مليون أمريكي. إلا أن التقديرات التي تعترف بها الكنائس الإنجيلية الأخرى التي لا تشاركها هذا الاعتقاد تخفض العدد إلى حوالي ٤٠ مليوناً.

وتدير هذه الحركة سلسلة من محطات التلفزة والإذاعة والصحف والمجلات، كما تدير عدداً من الجامعات والمستشفيات المنتشرة في طول الولايات المتحدة وعرضها.

أما روبرتسون نفسه (وهو مؤلف كتاب الألفية الجديدة The New Millenium الذي يتنبأ فيه بأن هذه الألفية سوف تشهد معركة هرمجيدون النووية المدمرة ومن ثم العودة الثانية للمسيح) سبق له أن ترشح لمنصب رئيس الولايات المتحدة في عام ١٩٨٠ ثم انسحب لمصلحة الرئيس رونالد ريجان الذي كان يشاطره الإيمان بتعاليم الحركة المسيحانية الصهيونية.

وعمل روبرتسون مستشاراً للرئيس ريجان في الشئون الدينية حتى إن ريجان كان يقول: «أتمنى أن يكرمني الله بالضغط على الزر النووي حتى تقع هرمجيدون وحتى يكون لي شرف المساهمة بعودة المسيح».

ومن هذه التعاليم التي تقول بها هذه الحركة أيضاً وجوب «تحرير وتطهير» أرض الله من العرب مسلمين كانوا أو مسيحيين، وتهويدها، ليس حباً باليهود، ولا إيماناً باليهودية، ولكن تنفيذاً للشروط اللازمة للعودة المنتظرة. ذلك أن هذه العودة تعني حتماً فناء كل اليهود باستثناء ١١٤ ألفاً منهم فقط ينجون من الهلاك بتحولهم إلى المسيحية واتباعهم المسيح العائد. أما الآخرون من اليهود الذين يتمسكون باليهودية، فيذوبون مع المسلمين ومع سواهم من الذين ينكرون المسيح الثاني في نيران هرمجيدون!!

وانطلاقاً من هذه العقيدة تعتبر الحركة المسيحانية الصهيونية العرب المسلمين والعرب المسيحيين الكاثوليك والأرثوذكس والإنجيليين من غير المولودين ثانية والسريان والأشوريين، أعداء يجب القضاء عليهم وتطهير أرض المسيح العائد منهم. وانطلاقاً من هذه العقيدة أيضاً، تعتبر الحركة الإسرائيليين الذين يتقاعسون عن تنفيذ مهمة تطهير الأرض من غير اليهود مجرمين يجب التخلص منهم أيضاً.

وإذا كان أكثر من نصف الإسرائيليين وافقوا على الانسحاب من قطاع غزة، فإن كل المسيحانيين الصهاينة في الولايات المتحدة كانوا ضد هذا الانسحاب. فالإسرائيليون الذين أيدوا شارون في حينه اعتبروا الانسحاب

روبرتسون ليس مجرد قس أمريكي عادي. إنه من أقطاب الحركة المسيحانية الصهيونية في الولايات المتحدة. وتؤمن هذه الحركة بأن من حقها بل ومن واجبها العمل على تحقيق الإرادة الإلهية بالعودة الثانية للمسيح

خطوة نحو التسوية السلمية. أما المسيحانيون الصهاينة في الولايات المتحدة فقد عارضوا الانسحاب على أساس اعتباره تراجعاً عن مهمة إلهية، وبالتالي تعطيلاً لشروط العودة وتأخيراً لها.

من أجل ذلك قال روبرتسون إن ما أصاب الجنرال شارون كان عقاباً إلهياً.

والقس روبرتسون نفسه وصف اغتيال رابين الذي وافق على اتفاق أوسلو مع الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات بأنه -أي الاغتيال- «عمل من أعمال الله، وأنه حكم إلهي نفذ فيه لخيانته شعبه. إن هذه الأرض هي أرض الله، وأن لله كلمات قوية تجاه من يقسم أرضه. لقد استحق رابين غضب الله عندما بدأ يقسم أرض الله».

وفي الأول من كانون الثاني - يناير ٢٠٠٢ حذر روبرتسون في برنامجه التليفزيوني «نادي السبعمائة CLUB ٧٠٠» من تدخل الولايات المتحدة في النبوءات الدينية وانتزاع القدس من اليهود وإعطائها إلى ياسر عرفات.. «فإذا استرجعت الولايات المتحدة القدس الشرقية وجعلتها عاصمة لدولة فلسطينية، فإن معنى ذلك أننا نسعى وراء غضب الله».

طبعاً، ليس بات روبرتسون هو القس الوحيد الذي جاهر بإصدار هذا الحكم. إن جميع قساوسة الحركة المسيحانية الأمريكية يشاركونه هذا الإيمان وهذا الحكم. فالقس جيري فولويل مثلاً، الذي توفي في شهر آيار الماضي ٢٠٠٧، (هو غير اليهودي الوحيد الذي منحه رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق مناحيم بيجن وسام جابوتنسكي تقديراً لخدماته لإسرائيل)، سأل رئيس الحكومة نتنياهو أثناء مفاوضات واي ريفر في واشنطن: «هل صحيح أنكم وافقتم على الانسحاب من أراض فلسطينية مقابل التسوية؟».. فرد نتنياهو: «انسحاب شكلي وتجميلي فقط، وليس انسحاباً أساسياً». فقال له فولويل: «لا يجوز الانسحاب حتى من إنش واحد»!.

وهذا يعني أن ما قد تراه إسرائيل «ضرورياً» بموجب مقتضيات اللعبة السياسية، تراه الحركة المسيحانية الصهيونية «محرماً» بموجب مقتضيات «الوعد الإلهي».

في ضوء ذلك كان تفسير وتبرير اغتيال رئيس الحكومة إسحق رابين.

كذلك فإن القس كلارنس واغنر Clarence Wagner وهو من أقطاب هذه الحركة يقول: «علينا أن نشجع الآخرين على فهم الخطط الإلهية وليس الخطط التي هي من صنع الإنسان في الأمم المتحدة أو حتى في الولايات المتحدة، أو الاتحاد الأوروبي، أو في أوسلو أو في واي ريفر... إلخ.. إن الله بعيد عن أي مخطط يعرض مدينة القدس للصراع بما في ذلك منطقة جبل الهيكل وجبل الزيتون وهو أبعد ما يكون عن إعطائها للعالم الإسلامي. إن المسيح لن يعود إلى مدينة إسلامية تدعى القدس، ولكنه سيعود إلى مدينة يهودية موحدة تدعى «جيروزالم».

إن هذه المواقف تفسر وتبرر أيضاً سلسلة العمليات التي تستهدف المسجد الأقصى في القدس منذ محاولة إحراقه في عام ١٩٦٩ (أتى الحريق على ١٥٠٠ متر مربع من الحرم). ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المجرم الذي أقدم على إحراق المسجد في ذلك الوقت لم يكن يهودياً، ولكنه كان واحداً من أعضاء الحركة المسيحانية الصهيونية في أستراليا يدعى ستانلي غولدفوت.

لقد زينت هذه الحركة للرئيس الأمريكي جورج بوش سوء عمله عندما قرر غزو العراق. إذ اعتبرت ضرب العراق كما قال قساوستها أنفسهم «انتقاماً إلهياً لليهود من السبي» الذي تعرضوا له على يد نبوخذ نصر في عام ٥٨٦ قبل الميلاد.

كتب الرئيس السابق للقساوسة التوراتيين في الولايات المتحدة (س.س. كريب) في عام ١٩٧٧ يقول: «في هذه المعركة النهائية فإن المسيح الملك سوف يسحق كلياً ملايين العسكريين المتألقين الذين يقودهم الديكتاتور المعادي للمسيح)».

والمؤلف التوراتي هال ليندسي يفسر تاريخ الشرق الأوسط والعالم كله في كتابه «The Great Late Planet Earth» (الذي بيعت منه أكثر من ٥٠ مليون نسخة منذ صدوره في منتصف السبعينيات من القرن الماضي): «إن دولة إسرائيل هي الخط التاريخي لمعظم أحداث الحاضر والمستقبل».

ويقول ليندسي أيضاً في كتابه: «قبل أن يصبح اليهود أمة لم يكشف عن شيء. أما الآن وقد حدث ذلك فقد بدأ العد العكسي لحدوث المؤشرات التي تتعلق بجميع أنواع النبوءات. واستناداً إلى النبوءات فإن العالم كله سوف يتمركز على الشرق الأوسط وخاصة على إسرائيل في الأيام الأخيرة للزمن. إن كل الأمم سوف تضطرب وسوف تصبح متورطة بما يجري هناك. إن باستطاعتنا الآن أن نرى أن ذلك يتطور في هذا الوقت وأنه يأخذ مكانه الصحيح في مجرى النبوءات تماماً كما تأخذ الأحداث اليومية مواقعها في الصحف اليومية».

وفي كتاب آخر له عنوانه «العالم الجديد القادم» يقول ليندسي: «فكروا في ما لا يقل عن ٢٠٠ مليون جندي من الشرق مع ملايين أخرى من قوات الغرب يقودها أعداء المسيح من الإمبراطورية الرومانية المستحدثة (أوروبا الغربية)».

«إن عيسى المسيح سوف يضرب أولاً أولئك الذين دنسوا مدينته القدس. ثم يضرب الجيوش المحتشدة في سهل مجيدو أو هرمجيدون. فلا غرابة أن يرتفع الدم إلى مستوى ألجمة الخيل مسافة ٢٠٠ ميل من القدس.. وهذا الوادي سوف يملأ بالأدوات الحربية والحيوانات وجثث الرجال والدماء».

ويكتب ليندسي كذلك: «إن الأمر يبدو وكأنه لا يصدق! إن العقل البشري لا يستطيع أن يستوعب مثل هذه اللاإنسانية من الإنسان للإنسان. ومع ذلك فإن الله يمكن طبيعة الإنسان من تحقيق ذاتها في ذلك اليوم».

ويضيف ليندسي في كتابه: «عندما تصل الحرب الكبرى إلى هذا المستوى، بحيث يكون كل شخص تقريباً قد قتل، تحين ساعة اللحظة العظيمة. فينقذ المسيح الإنسانية من الاندثار الكامل. وفي هذه الساعة سيتحول اليهود الذين ينجون من الذبح إلى المسيحية».

ويحسم ليندسي هذا السيناريو لنهاية التاريخ بقوله: «سيبقى فقط ١٤٤ ألف يهودي على قيد الحياة بعد معركة هرمجيدون.. وسينحني كل واحد منهم، الرجل والمرأة والطفل أمام المسيح».

وينقل قسيس توراتي آخر هو جيري فولويل عن إصحاح زكريا ١١/١٢ و١٦/١٦ وعن إصحاح إسحاق ٣٥/٣٦ و٣٥: «إن ساحة معركة هرمجيدون سوف تمتد من سهل مجيدو في الشمال إلى ايدوم في الجنوب، مسافة حوالي ٢٠٠ ميل. وتصل إلى البحر الأبيض المتوسط في الغرب وإلى تلال موهاب في الشرق، مسافة ١٠٠ ميل تقريباً. إن سهول جزريل والنقطة المركزية للمنطقة كلها ستكون مدينة القدس. استناداً إلى زكريا ١٤ الآية ١ و٢».

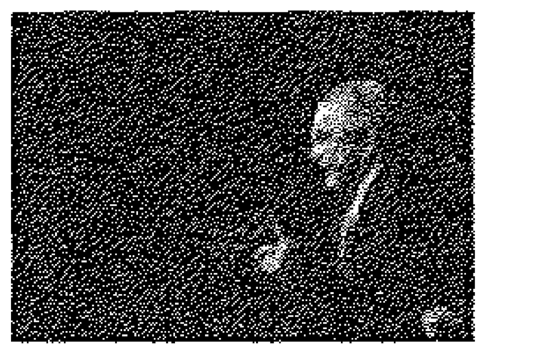
«وستتجمع في هذه المنطقة الملايين المتعددة من الرجال بحيث يصل عددهم إلى ٤٠٠ مليون بدون أي شك (؟) من أجل حدوث المأساة النهائية للإنسانية».

وجاء في الإصحاح ١٤/٣: «إن الملوك في جيوشهم سيأتون من الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب. وبشكل درامي مثير سيكون هذا الوادي وادي القرار حول مصير الإنسانية. لماذا ستدور المعارك هنا؟ ولماذا يقود أعداء المسيح جيوشهم في العالم ضد المسيح الإله؟».

ويجيب على هذه التساؤلات بقوله: «أولاً لأنهم يكرهون سيادة الله، فالمعركة كانت دائماً الشيطان ضد المسيح. تلك هي المسألة. ثانياً لأن هذه الأمم سوف تأتي بسبب تضليل الشيطان. ثالثاً بسبب كراهية الأمم «للإله» عيسى المسيح. شيء ما سيحدث خلال هذه المعركة، سيجف نهر الفرات (إصحاح ١٢/ ١٦ وسيتم تدمير القدس) في هذه الأثناء، يتابع فولويل استناداً إلى إصحاح يوحنا: «إن كل صقور السماء سوف تنهش من لحوم الملوك ومن لحوم كل الرجال الأحرار منهم والعبيد، الكبار والصغار».

ويستنتج فولويل «إن يوحنا رأى وحشاً في منامه ورأى ملوك العالم بجيوشهم مجتمعين لشن حرب ضد الإله المسيح الذي يبدو في رؤيا يوحنا رجلاً يمتطي حصاناً أبيض. وفيما تقترب هرمجيدون من نهايتها، وملايين الأموات على الأرض فإن الإله المسيح سيضرب الوحش والنبي الكذاب (المعادي للمسيح) ويلقي بهما في بحيرة من نار تغلي فيها الحجارة. وسيذبح المسيح كل أعدائه الآخرين الذين ينجون من هرمجيدون».

الإيمان بهذه النظرية الهرمجيدونية ليس وقفاً



عـــالـــم بـات روبــرتـــســـون!

> عـــام ١٦٠٠ بـــدأت الحـــركة البروتستانتية دعوة اليهود إلى العودة إلى فلسطين لإقامة مملكة الله كما أن اوليفر كرمويل فى انطلاقتــه الأولى دعـــا إلى تهـــويد فلسطين تمهيداً لعودة المسيح

على حفنة من رجال الدين الإنجيليين الأصوليين الذين يسيئون إلى الكنائس الإنجيلية العديدة فى العالم العربى وفى العالم ويتمتعون بنفوذ واسع النطاق فى الولايات المتحدة خاصة، والذين ينشرون كنائسهم فى أنحاء عديدة أخرى فى العالم وخاصة فى أمريكا اللاتينية وآسيا. إن من معتنقى هذه النظرية شخصيات سياسية وعسكرية ودبلوماسية وأكاديمية كبيرة أيضاً. وكان من أبرزها الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان. فهو يقول «إن جميع النبوءات التى يجب أن تتحقق قبل هرمجيدون قد مرت، ففى الفصل ٣٨ من حزقيال أن الله سيأخذ أولاد إسرائيل من بين الوثنيين حيث سيكونون مشتتين ويعودون جميعهم مرة ثانية إلى الأرض الموعودة. لقد تحقق ذلك أخيراً بعد ألفى سنة. ولأول مرة يبدو كل شىء فى مكانه بانتظار معركة هرمجيدون والعودة الثانية للمسيح».

ففى عام ١٩٨٥ أجرى المعهد المسيحى فى واشنطن (وهو معهد متخصص فى الدراسات الدينية عن الإسلام والمسيحية واليهودية) دراسة بقيادة القس أندرو لانغ حول الرئيس ريجان ونظرية هرمجيدون. وقالت الدراسة: «إن إمكانية إيمان رئيس الولايات المتحدة بأن الله قضى بنشوب حرب نووية من شأنه أن يرسم علامات استفهام مثيرة: هل يؤمن بجدوى مباحثات التسلح رئيس يعتنق هذا النظام الدينى؟ وخلال أى أزمة نووية هل سيكون متروياً وعاقلاً؟ أو أنه سيكون متهافتاً للضغط على الزر، وهو يشعر فى قرارة نفسه أنه يساعد الله فى مخططاته التوراتية المقررة مسبقاً لنهاية الزمن؟».

لقد ساعد لانغ فى إعداد هذه الدراسة عن ريجان وهرمجيدون لارى جونز وهو كاتب فى صحيفة نيويورك تايمز ومتخرج من جامعة كولومبيا. ويقول لانغ إن المؤمن بنظرية هرمجيدون هو أصولى يقرأ الكتاب المقدس كما يقرأ قاموساً ليتنبأ بالمستقبل.

تولى ريجان قبل أن يصل إلى البيت الأبيض مرتين منصب حاكم ولاية كاليفورنيا، وهى الولاية الأمريكية التى تكثر فيها الحركات الدينية المتطرفة من نوع حركة «بوابة السماء» التى ارتكب أتباعها جريمة الانتحار الجماعى. ومن هذه الحركات أيضاً الكنيسة العلمية Scientology التى أصبحت من أكبر الكنائس فى أمريكا. وكنيسة المسيح الدولية التى تأسست فى عام ١٩٧٩ فى لوس أنجيلوس بقيادة الأسقف كيب ماك كين. وفى إحصاء أمريكى أن ثمة ٢٠٠٠ حركة دينية من هذا النوع فى الولايات المتحدة تحتمى بالمادة الأولى من الدستور الذى يضمن الحريات الدينية ويحجب حتى عن العائلة حق التدخل لمنع أبنائها من الانضمام إلى أى حركة دينية يختارونها.

ولقد وصلت هذه الحركات إلى آسيا وخاصة إلى كوريا الجنوبية كما وصلت إلى أوروبا، وبلغ عددها فى بريطانيا وحدها ١٦٠٠ مجموعة. وكان من مظاهرها مأساة معبد الشمس فى عام ١٩٩٤ حيث انتحر ٥٤ شخصاً فى وقت واحد فى كل من سويسرا وكندا. ومأساة غرونوبل فى فرنسا حيث انتحر ١٦ فرنسيا من أتباع هذه الحركة. ولذلك وقفت ألمانيا ضد «الكنيسة العلمية» رغم أنها تمكنت من استقطاب أكثر من ٣٠ ألف شخص حتى الآن. ووقفت بريطانيا ضد «الكنيسة الموحدة» التى استقطبت ٢٥٠٠ مؤمن بها وشكلت فرنسا فريقاً من ٦٥٠٠ شخص يعملون فى ١٣٠٠ مركز لتوعية الشباب على مخاطر هذه الحركات الدينية. بل إن هذه الحركة وصلت إلى روسيا أخيراً حيث نقلت وكالات الأنباء اعتصام مجموعة فى كهف بانتظار نهاية الزمن، مهددة بنسف الكهف إذا ما حاولت قوى الأمن إخراجهم.

إن المسافة بين حرية الاعتقاد وحماية أمن المجتمع بدأت تضيق. والمسافة بين الحرية الدينية والحقوق الإنسانية بدأت تتقلص بعد سنوات من الانفلات والتفلت. وتكشف هذه الحركات الدينية أن الولايات المتحدة فى الدرجة الأولى تمثل الينبوع الأساسى للحركات الأصولية الدينية بما تتسم به من تطرف وعنف وإلغاء للآخر.

إن قادة اليمين الدينى المتطرف فى الولايات المتحدة، أمثال فولويل وهول لندسى وبات روبرتسون وغيرهم، يعتقدون أن الكتاب المقدس يتنبأ بالعودة الحتمية الثانية للمسيح بعد مرحلة من الحرب النووية العالمية أو الكوارث الطبيعية والانهيار الاقتصادى والفوضى الاجتماعية.

«إنهم يعتقدون أن هذه الأحداث يجب أن تقع قبل العودة الثانية، كما يعتقدون أنها مسجلة بوضوح فى الكتاب المقدس. وقبل السنوات الأخيرة من عمر الزمن، فإن المسيحيين المخلصين سوف يُرفعون بأجسادهم ويجتمعون بالمسيح فى السماء. ومن هناك، من فوق يراقبون بسلام الحرب النووية والمشاكل الاقتصادية. وفى نهاية المحنة سيعود هؤلاء المسيحيون المولودون ثانية مع المسيح المنتصر عسكرياً ليحكم الكرة الأرضية كلها لمدة ألف سنة يسمونها الألفية، وينتهى بذلك الزمن وتبدأ مرحلة ما بعد الزمن، مرحلة يوم الدينونة».

فى الأساس كانت الكاثوليكية تتمسك بنظرية القديس أوغسطين بأن ما ورد فى الكتاب المقدس بشأن مملكة الله قائم فى السماء وليس على الأرض. وبالتالى فإن القدس وصهيون ليسا مكانين محددين على الأرض لسكن اليهود ولكنهما مكانان سماويان مفتوحان أمام كل المؤمنين بالله. بعد حركة الإصلاح الدينى وضعت تفسيرات أخرى تقول بالواقع الأرضى لمملكة الله، وبوعد الله المقدس لليهود وبوكالتهم عن الله فى إقامة مملكته. وبالعودة الثانية للمسيح وشروطها وبالألفية وحتميتها.

وهكذا ومنذ منتصف عام ١٦٠٠ بدأت الحركة البروتستانتية دعوة اليهود إلى مغادرة أوروبا والعودة إلى فلسطين لإقامة مملكة الله كما أن اوليفر كرمويل راعى الكومنولث البريطانى فى انطلاقته الأولى دعا إلى تهويد فلسطين تمهيداً لعودة المسيح.

وفى عام ١٦٥٥ نُشر كتاب للقس البروتستانتى الألمانى بول فليجن هوفر قال فيه إن اليهود سوف يتحولون إلى المسيحية بمجرد الظهور الثانى للمسيح لأنهم سوف يعتبرونه واحداً منهم. وأن من مستلزمات هذا الظهور الثانى عودة اليهود إلى البلد الذى منحهم الله إياه عبر إبراهيم وإسحق ويعقوب.

وهكذا تكونت الأدبيات الدينية التى تجعل من اليهود مؤتمنين على الخطة الإلهية التى يتحدد بمقتضاها مصير البشر جميعهم، والتى تجعل من إقامة دولتهم صهيون المدخل الوحيد الذى لا بد منه للعودة الثانية للمسيح، وهى العودة التى تحسم مصير صراع الإيمان والكفر والتى تنتهى بانتصار المسيح عسكرياً ودموياً وسيادته على العالم.

من خلال هذه الأدبيات أصبح الإيمان بمساعدة اليهود فى إقامة دولة فى فلسطين نوعاً من العبادة التى تعبر عن المشاركة الإنسانية فى تحقيق الإرادة الإلهية. حتى إن اللورد انطونى اشلى كوبر الإصلاحى الإنجليزى الشهير قال فى عام ١٨٣٩ «إن اليهود رغم أنهم غلاظ القلب وغارقون فى المعصية وينكرون اللاهوت فإنهم ضروريون بالنسبة للأمل المسيحى فى الخلاص». والرغبة فى الخلاص المسيحى كانت الحافز الدينى وراء قيام الحركة الصهيونية المسيحية بمعنى مساعدة اليهود على إقامة دولة لهم فى فلسطين بالذات. وحتى لا يتعرض الضمير المسيحى البروتستانتى إلى أى عذاب، رفع اللورد كوبر الشعار الذى تبناه من بعده كل الصهاينة

المسيحيين وهو أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

تولى الترجمة العملية الأولى لهذا الشعار اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت (وكان عمّ اللورد كوبر) وذلك من خلال إنشاء قنصلية بريطانية فى القدس فى عام ١٨٣٩ وتعيين وليم يونغ أحد المؤمنين بالصهيونية - المسيحية نائبًا عامًا للقنصل، وقد حددت مهمة يونغ برعاية مصالح اليهود وحمايتهم وتسهيل إقامتهم وتشجيع عودتهم.

فى ذلك الوقت كان عدد اليهود فى فلسطين كلها والتى كانت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية يبلغ حسب وثائق القنصلية البريطانية نفسها ٩٦٩٠ شخصًا فقط. كان للقنصلية البريطانية حق حماية اليهود الأجانب فى فلسطين بموجب اتفاق إذعان فرض على السلطنة العثمانية. إلا أن الحماية البريطانية شملت اليهود العثمانيين أيضًا. أدى هذا الأمر لأول مرة فى التاريخ الحديث إلى اعتبار كل اليهود أمة واحدة مهما اختلفت اثنياتهم وجنسياتهم.

وفى عام ١٨٤١ كتب هنرى تشرشل (ضابط الأركان البريطانية فى الشرق الأوسط) إلى موسى مونتغيور، رئيس مجلس الممثلين اليهود فى لندن: «لا أستطيع أن أخفى عليك رغبتى الجامحة فى أن أرى شعبك يحقق مرة أخرى وجوده كشعب. إننى أعتقد أنه يمكن تحقيق الهدف بدقة، ولكن لا بد من توافر أمرين لا غنى عنهما. أولاً: إن على اليهود أنفسهم أن يتحملوا الأمر على الصعيد العالمى وبالإجماع، ثانيًا إن على القوى الأوروبية أن تساعدهم». ويعكس هذا الموقف مدى تقدم الفكر الصهيونى للمسيحية الإنجيلية على اليهودية. حتى إن العديد من قادة اليهود فى ذلك الوقت كانوا ينظرون إلى عمليات تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين على أنها مقصودة فى حد ذاتها لإخراجهم من أوروبا تحت غطاء دينى.

فى عام ١٨٤٥ اقترح ادوارد بتفورد من مكتب المستعمرات فى لندن «إقامة دولة يهودية فى فلسطين تكون تحت حماية بريطانيا العظمى، على أن ترفع الوصاية عنها بمجرد أن يصبح اليهود قادرين على الاعتناء بأنفسهم». وقال: «إن دولة يهودية ستضعنا فى مركز القيادة فى الشرق بحيث نتمكن من مراقبة عملية التوسع والسيطرة على أعدائنا والتصدى لهم عند الحاجة».

وهكذا بدأ استخدام مخطط توطين اليهود فى فلسطين ينتقل إلى الميدان السياسى من غير أن يخرج من تحت المظلة الدينية. وهذا التلازم لا يزال مستمرًا حتى اليوم.

فى السادس من فبراير - شباط ١٩٨٥، ألقى بنجامين نتنياهو، وكان وقتها سفير إسرائيل لدى الامم المتحدة، خطابًا فى الجمعية العامة للمنظمة الدولية قال فيه: «إن كتابات المسيحيين الصهيونيين من الإنجليز والأمريكان، أثرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين مثل لويد جورج وآرثر بلفور وودرو ويلسون، فى مطلع هذا القرن. إن حلم اللقاء العظيم أضاء شعلة خيال هؤلاء الرجال، الذين لعبوا دورًا رئيسًا فى إرساء القواعد السياسية الدولية لإحياء الدولة اليهودية».

إلا أن صناعة النبوءة الدينية، أو صناعة تفسيرها لا تقتصر على إقامة صهيون. فللسيناريو تتمة. فالمسيح لا يعود لمجرد قيام صهيون على جزء من الأرض الموعودة. لا بد من أن تقوم على كل هذه الأرض. من أجل ذلك لا بد من تطهير الأرض من غير اليهود. ومن هنا فإن اللجوء إلى الإرهاب يصبح مشروعًا وضروريًا لأنه يتعلق بتحقيق إرادة إلهية. أى أن عمليات التهجير والتقتيل، حتى إذا وصلت إلى مستوى المجازر والإبادة الجماعية، فإنها مشروعة، بل وحتمية لأنها تتم تحت المظلة الإلهية وتحقيقًا للإرادة الإلهية وتمهيدًا للوصول الى الهدف الإلهى، وهو العودة الثانية للمسيح.

بين المسيح رمز التضحية والفداء والخلاص الذى تؤمن به المسيحية والذى يدعو إلى محبة حتى العدو، والمسيح الهرمجيدونى المقاتل الذى لا يعود إلا فوق أشلاء الملايين المنصهرة فى أتون من النار.. مسافة غير قابلة للقياس. ولا حتى للمقارنة. إنها المسافة بين ثقافة الراهب المتبتل الزاهد المعتكف.. وثقافة القاتل الإرهابى المتربص شرًا بالبراءة وبالمحبة. وهى مقارنة بين الإيثار والاثرة. ثم إنها تجسيد للقدرة على تشويه صورة الله وإرادته وعلى تدمير إنسانية الإنسان. ■

كتاب الزاوية

أشعار صينية

مختارات من شعر آى تشينغ

بعكس صادراتها من السلع بمختلف أنواعها وباستثناء أمور السياسة، تبدو الصين مجتمعًا مجهولاً بالنسبة للعالم العربى رغم أن الحديث النبوى الشريف يدعو إلى طلب العلم ولو فى الصين.. وتنطبق مقولة الجهل بالعالم الصينى أول ما تنطبق على الأدب والفن والحياة الاجتماعية فى هذه الدولة التى تخطو بثبات نحو التقدم والازدهار.

ولذلك يبدو نشر المجلس الأعلى للثقافة فى مصر مختارات من شعر الشاعر الصينى الراحل آى تشينغ خطوة صائبة تجاه التعرف على الفضاء الشعرى والأدبى فى الصين. وقد صدر ديوان مختارات من شعر آى تشينغ عام ١٩٧٩ وقد بيعت منه عشرات الآلاف من النسخ.

ولد آى تشينغ عام ١٩١٠ لأسرة إقطاعية. والتحق عام ١٩٢٨ بأكاديمية الفنون الجميلة. ثم سافر فى العام التالى إلى باريس لمواصلة دراسة الرسم والفن ونشر باكورة أعماله فى العاصمة الفرنسية. وعاد إلى بلاده لينضم إلى اتحاد الكتاب اليساريين عام ١٩٣٢، وتعد قصائده مرآة صادقة لشاعر ارتبط به الحزن والألم. نظرًا للمرارات التى تعرضت لها الصين سواء بسبب غزو اليابان لها أو للمشاكل الهائلة التى مرت بها. وظل تشينغ شاعرًا ملتزمًا يصدر الديوان تلو الآخر معبرًا عن مسيرة الصين فى القرن العشرين، إلى أن وافته المنية عام ١٩٩٦. وقد جرت ترجمة المختارات من اللغة الإنجليزية ومراجعتها على الأصل فى اللغة الصينية. وشارك فى ذلك أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى وعبدالعزيز أحمد. وصدرت الترجمة عام ٢٠٠٢..

لم تعد المسادة هى الجبل
التاريخى قرب البحر الميت فقط،
بل هو جبل متنقل نحمله فوق ظهورنا
أينما ذهبنا

الكاتب الإسرائيلى أ. ب. يهوشوع

إسرائيل
أكاديميا الإحياء التوراتى!

مازن النجار

قبل عشر سنوات، أصدرت دار روتليدج دراسة للبروفسور كيث وايتلام، أستاذ ورئيس قسم الدراسات الدينية بجامعة سترلينغ البريطانية، بعنوان «اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطينى»(*). قدم وايتلام مسحا شاملا ونقدا غير مسبوق لمدارس البحث العلمى الغربية فى دراسات العهد القديم، خاصة الألمانية والأمريكية. أتاح هذا السفر القيم للباحثين تتبع مختلف الاتجاهات والفرضيات النائمة فى ذلك الحقل، ودورها فى المشروع الامبريالى، وتحيزاتها الكامنة والصريحة ورؤيتها المتمحورة حول الذات لتاريخ وثقافة واجتماع الآخر.

كانت قضية تفسير نشوء شعب ومملكة بنى إسرائيل، والتطورات التاريخية المرتبطة بها، قد شغلت اهتمام العلماء الغربيين فى مجال دراسات العهد القديم، منذ أواخر القرن التاسع عشر، ابتداء من يوليوس فلهاوزن، رائد مدرسة نقد نصوص العهد القديم، وحتى فون راد. استخدم هؤلاء العلماء نماذج حديثة أو معاصرة لهم فى تفسير ظواهر العهد القديم وتاريخ إسرائيل التوراتية.

اهتمت اتجاهات البحث العلمى عند الأوروبيين، قبل قيام الدولة العبرية (١٩٤٨) وبعده، بالبحث عن جذور الدولة القومية فى تاريخ العهد القديم. وسيطر السعى وراء تلك الجذور القديمة على البحث التاريخى والأثرى فى فلسطين والشرق الأدنى. يلفت كيث وايتلام إلى الجهود الكبيرة التى بذلتها الدول القومية الحديثة فى سعيها لفهم (أو تكوين) ماضيها. فالروايات الرسمية لأمة من الأمم تؤكد مظاهر معينة فى الهوية القومية، كما تنكر أصوات روايات بديلة.

لكن ينبغى ألا يغيب عن الأذهان أن الأبحاث والدراسات العلمية حول تاريخ إسرائيل قد تشكلت فى ذات سياق تشكيل وتعزيز سلطة الدولة القومية الأوروبية، وانتقل ذلك إلى الشرق الأدنى. وبعد انطلاق حركة القوميات (الأوروبية) فى القرن الثامن عشر وانتصارها على غيرها من الحركات، أصبحت هى القوة السياسية المهيمنة على القرنين التاليين. فالدولة القومية بأنظمتها ومؤسساتها وشخصياتها قد ألقت بظلالها على دراسات العهد القديم (الحديثة) منذ بدايتها.

دراسات العهد القديم فى السياق القومى الأوروبى

ترجع جذور فكرة التأريخ ذاتها، التى دعمت حركة التأريخ التوراتى، إلى



الزعيم الألمانى فون بسمارك فى كفاحه لتوحيد ألمانيا. وكان للبحث عن جذور الدولة القومية وتعزيز قوتها، بما فى ذلك أعمال رجالها العظماء، أهمية مركزية فى القرن التاسع عشر وحتى الوقت الراهن من خلال أعمال علماء العهد القديم الكلاسيكية، مثل الت وأولبرايت ونوت وبرايت.

ويرى أحدهم، م. نوت، تواصلا بين الماضى والحاضر يربط إسرائيل المعاصرة ببحثه عن التاريخ القديم لإسرائيل التوراتية. ورغم ادعائه أن من غير المناسب توسيع دائرة البحث بشكل يصل الماضى بالراهن، لكنه لا يقر بأن قيام الدولة القومية الحديثة هو ما شكل كثيرا من فرضيات البحث التاريخى فى هذا المجال. بيد أن الافتراض السائد بوجود صلة مباشرة بين إسرائيل القديمة ودولة إسرائيل الراهنة، كما يتمثل بتصوراته حول عودة هذا الشعب إلى «وطنه» فى «أرض إسرائيل القديمة»، هو ما يحدد سلفا نتيجة البحث. بل إن الاهتمام الكبير بالبحث عن جذور «إسرائيل القديمة» لإضفاء الشرعية على الدولة الحديثة، يسيطر على الخطاب التاريخى لدراسات العهد القديم، ويحجب البحث عن تاريخ المنطقة.

وربما ليس من الصدفة أن ينصب اهتمام دراسات العهد القديم فى مرحلة صعود القوميات والدولة القومية فى أوروبا على الأحداث التوراتية فى الفترة الانتقالية بين أواخر العصر البرونزى المتأخر وأوائل العصر الحديدى المبكر، والتى يغلب على الظن أنها فترة ظهور مملكة داود وسليمان، بدون إيلاء اهتمام مماثل لتاريخ الآباء (البطاركة) إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط؛ لأن هذه المرحلة القبلية البسيطة أو البدائية لا تصلح لإعادة نسجها أو بنائها فى سياق نموذج الدولة القومية الذى هو المثال المهيمن على تصورات وخطاب دراسات العهد القديم الغربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

من ناحية أخرى، توضح أبحاث أخرى أن دراسات العهد القديم الأمريكية والألمانية قد تأثرت بالسياق السياسى الذى نشأت فيه، ففرضت نماذجها الخاصة بقوة على فهمها للماضى. وقد ارتكز المنظور القومى فى كتابة تاريخ إسرائيل القديمة على محاولة مماثلة سابقة فى كتابة التاريخ القديم لليونان وروما، واتخذها نموذجا. وقد ولدت دراسة تلك العصور القديمة زخما ذاتى المصداقية. وعلى مدى القرن الذى تأسست فيه دراسات العهد القديم (١٨٧٠-١٩٧١)، اتخذت دراسات العهد القديم مسارا معينا، كان فلهاوزن أبرز

مثال عليه. فالسياق التاريخي لأعمال فلهاوزن له دلالات هامة وليست رمزية. فسيرته ونشاطه العلمي ابتداء بحصوله على الدكتوراة سنة ١٨٧٠، وتزامنت مع فترة تأسيس بسمارك الدولة الألمانية، وتوفي في ١٩١٨، السنة التي تأسست فيها الجمهورية الألمانية. وسياق حركة التأريخ، فيما يتعلق بمفهوم الدولة في القرن التاسع عشر، قد حدد مسار الأبحاث الخاصة بتاريخ إسرائيل القديمة منذ بداية نشوء هذه الدراسات. وقد قوى الاعتقاد بأن الدولة القومية هي تعبير عن أسمى درجات الثقافة المتقدمة من الإحساس بضرورة تطوير فكرة الدولة الإسرائيلية الحديثة. تضافرت هذه العوامل مجتمعة بشكل مركب لتشكيل خطاب دراسات إسرائيل القديمة والسيطرة عليه.

يهيمن على كتابة التاريخ الإسرائيلي نموذج الكيان القومي الموحد الذي يبحث عن مساحة قومية من الأرض، ويكافح لأجل الإبقاء على هويته القومية وعلى الأرض، من خلال الأزمات التاريخية. فمفهوم الماضي يعكس تماما فهم الحاضر. والحركة الصهيونية، التي نشأت في القرن التاسع عشر بعد صعود حركة القوميات الأوروبية، قد ادعت باستمرار أن «رسالتها التاريخية» هي العودة إلى أرض خالية وصحار قاحلة، تنتظر وصول التكنولوجيا الأوروبية لتصبح صالحة للسكن والازدهار. يتجلى هذا النموذج التاريخي لدى تأويل معطيات الدراسات الأركيولوجية التي تناولت «الاستيطان الإسرائيلي» بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي، وهو تأويل يفترض (مسبقا) وحدة إسرائيل وهوية خاصة بها في تلك الفترة، مما يعني في المحصلة وجود دولة قومية ناشئة بالمرتفعات الفلسطينية. وهكذا، سيطر مفهوما القومية والإثنية بقوة على دراسات العهد القديم، كما حددا مسار العديد من الكتب الجامعية حول تاريخ إسرائيل القديم. لذلك، ينبغي أن تفهم اهتمامات دراسات العهد القديم -من حيث طبيعة أبحاثها التاريخية- ضمن السياق السياسي والثقافي الأوسع. كما يجب وضع خطاب دراسات العهد القديم ضمن الخطاب الاستشراقي الأشمل.

في ضوء تراكم الدراسات والمناهج النقدية والتحليلية لنصوص ومصادر العهد القديم، يخلص وايتلام إلى أن إحدى النتائج الأساسية للبحث التاريخي هي إيذانه بموت «التاريخ التوراتي»، الذي يستبدل به تدريجيا الاعتراف بالتاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته. وذلك فهم جديد لتاريخ المنطقة يزداد ابتعادا وانفصالا عن الدراسات التوراتية، كما أنه مفهوم موضوعي لتاريخ ذي قاعدة عريضة، يهتم بالاقتصاد والديمغرافية والاستيطان والأديان والأيديولوجيات الخاصة بفلسطين عموما.

إسرائيل القديمة وفلسطين المعاصرة

يوضح تاريخ الجدل، في دراسات العهد القديم، حول نشوء إسرائيل القديمة في فلسطين بشكل جلي أن خطاب الدراسات التوراتية قد شكلته الصراعات السياسية المعاصرة المتعلقة بقضية فلسطين ومستقبلها. فالجدل حول جذور ونشوء إسرائيل القديمة يصور عموما كنقاش حول ثلاثة نماذج أو فرضيات أساسية، وهو نقاش يرفض الاعتراف بتورطه في السياسة المعاصرة. تتيح بعض المراجعات المسحية المعاصرة مسحا عاما وتحليلا نقديا للنماذج الرئيسة، فيما يتعلق بفرضياتها المنهجية، وطريقة توظيفها للمعلومات واستنتاجاتها العامة. لكنها أخفقت في إدراك أن عمليات «بناء» إسرائيل القديمة، التي تبدو مختلفة ظاهريا، قد عكست الأحداث الجارية في فلسطين وقت صياغة تلك الأبحاث. ورغم تظاهر خطاب الدراسات التوراتية بالاختلاف حول جذور أو نشوء إسرائيل القديمة، فإنه في الواقع استخدم اللغة المعاصرة في الصراع حول فلسطين، بل كثيرا ما تبناها.

وقد أدى النقد المتواصل لتلك النظريات والنماذج على مدى العقدين الأخيرين إلى تصدع المظهر الأكاديمي للنقاش، وأظهر المعتقدات الدينية والآراء السياسية التي شكلت مختلف نظريات إعادة بناء الماضي. والحقيقة أن الصراع حول الماضي يستبطن صراعا آخر حول الهيمنة على الحاضر. بيد أن الخطابات ما بعد الحداثية قد كشفت عن الطبيعة الذاتية للمشروع الأكاديمي، وعرت دور مختلف مناهج البحث الأكاديمي في المشروع الاستعماري. وأدى ذلك إلى وعي بأن البحث عن إسرائيل القديمة ليس مجرد إعادة بناء موضوعية للماضي، لكنه متعلق بموضوع بالغ الأهمية يتصل بالهوية وميزان القوى المعاصرة.

وإذ تبدو فرضيات الدراسات التوراتية الألمانية والأمريكية، في ظاهرها، مناقشات حول طبيعة نشوء إسرائيل وجذورها التاريخية؛ لكنها ليست نقاشا بين ادعاءات متنافسة حول فهم التاريخ الماضي، بل هو نقاش



يهيمن على كتابة التاريخ الإسرائيلي نموذج الكيان القومي الموحد الذي يبحث عن مساحة قومية من الأرض، ويكافح لأجل الإبقاء على هويته القومية

حول الهوية التي تمكن إسرائيل من المطالبة بهذا الماضي. فمختلف طرق اختلاق إسرائيل التي تفترضها النماذج التفسيرية الثلاثة تطالب جميعها بالزمان والمكان الفلسطينيين. إنه دائما تاريخ إسرائيل. ليس هناك إذن صراع حقيقي داخل خطاب الدراسات التوراتية لأنه لا يعترف لفلسطين والفلسطينيين بأي حق في ذلك الماضي.

النقد الذي صدر منذ عقدين، وقوض النماذج الرئيسة لتاريخ إسرائيل القديم بين عصر البرونز المتأخر وعصر الحديد المبكر، ركز على أمور منها: أن تلك النماذج لم تستوعب المعلومات الأثرية المتراكمة حول المنطقة؛ وأنها اعتمدت بالأساس على الروايات التوراتية في فهم وتفسير المكتشفات الأثرية والمعطيات الأخرى لدى بناء تصوراتها حول نشوء إسرائيل؛ وأنها تجاهلت إعادة بناء الماضي الفلسطيني. وتبين هذه الأمور مدى تورط هذه النماذج التفسيرية السابقة في الصراع المعاصر حول فلسطين.

وبعرض النماذج التفسيرية الثلاثة لنشوء إسرائيل القديمة، سيتبين تأثير الصراع المعاصر على فلسطين وتورطها فيه، وتأثير مسار المشروع الصهيوني الاستيطاني الإحلالي في فلسطين، منذ بدايات القرن الماضي، على صياغة ورؤية هذه النماذج.

النموذج الأول:
التسلل أو الهجرة «السلمية»

أبرز منظري هذا النموذج هو الألماني ألبريخت آلت، وقد صاغه بداية في دراسة نشرت عام ١٩٢٥ بعنوان «حيازة الإسرائيليين للأرض في فلسطين». بلورت هذه الدراسة ما أصبح يعرف بنموذج التسلل أو الاختراق أو الهجرة لفهم جذور إسرائيل، وهو ما تم وصفه عموما بأنه تسلل «سلمي» أو هجرة الإسرائيليين «السلمية» إلى فلسطين. غلبت هذه الفرضية على مناهج وأعمال الباحثين الألمان، مثل نوت وويبرت إضافة إلى آلت. وكانت بالغة التأثير في خطاب الدراسات التوراتية لأكثر من سبعة عقود بعد صياغتها الكلاسيكية على يد آلت. حاولت هذه الفرضية إعادة بناء الماضي، واختلاق إسرائيل، يعكس تصورات متعلقة بتاريخ فلسطين الحديث منذ عشرينيات القرن الماضي، وهي بالتحديد فترة انطلاق الهجرة الصهيونية إليها.

ينطلق آلت في تفسيره لطبيعة استيطان

الإسرائيليين فى فلسطين أواخر العصر البرونزى من أن التغيير الاجتماعى فى الماضى كان بالضرورة نتيجة قيام جماعات عرقية مختلفة، حلت محل الثقافة المحلية، بغزو المنطقة أو الهجرة إليها. أى أن فلسطين لم تكن لتشهد أى تغيير إلا بتأثير خارجى، مما يعنى إنكار المؤثرات الداخلية فى تاريخ المنطقة. فالمجتمعات الفلسطينية المحلية - بنظر آلت- كانت عاجزة عن إقامة تنظيم سياسى أكثر تطورا وكفاءة من المنظومات البدائية المحلية، وأن العامل الخارجى كان ضرورة. ورغم أنه لا مبرر علميا واضحا لافتراض آلت أن نمو الوعى القومى لا يمكن أن ينشأ محليا، وإنما ينبغى تفسيره بأنه أمر مستورد، فقد شاع هذا الافتراض فى خطاب الدراسات التوراتية، وتوافق أيضا مع الفرضيات المترافقة مع الأحداث التى وقعت فى فلسطين فى زمن تأليف آلت لدراسته، وهى سنوات الانتداب البريطانى المبكرة فى فلسطين. فبالنسبة لآلت ومعاصريه من الغربيين، خاصة السياسيين الانكليز، لم يكن بمقدور فلسطين تطوير أشكال سياسية جديدة. وبالنسبة لهؤلاء السياسيين، يجسد هذا الزعم دوافعهم وممارساتهم الاستعمارية، فقد كانوا يسيطرون على فلسطين وغيرها بصك الانتداب الصادر عن عصبة الأمم، والذى أقام من دول الاستعمار أوصياء لتأهيل الشعوب غير المؤهلة لبناء نظامها السياسى، ومساعدتها على الارتقاء بمؤسساتها إلى مستوى الدولة.

بيد أن آلت يقول صراحة أنه لا يمكن أن يكون الدافع وراء إعادة التنظيم السياسى لفلسطين قد جاء من الداخل. وهو توجه ملحوظ لدى آلت فى إصدار أحكام مطلقة فى تفسير إخفاق وعجز سكان فلسطين المحليين على ابتكار نظم سياسية جديدة، وأنه كان ينبغى على تلك النظم المستجدة أن تأتى من الخارج. وقد ردد صدى هذه المقولات حول سكان فلسطين القديمة المؤرخون والأنثروبولوجيون الإسرائيليون المعاصرون الذين كثيرا ما ينظرون إلى المجتمع الفلسطينى فى الثلاثينيات الماضية كمجتمع قبلى مفكك داخليا وعاجز عن تنظيم نفسه، وبالتالى فهو مجتمع لم يبلور شخصية قومية أو وعيا قوميا أو انتماء وطنيا يعلو فوق الخصوصيات والانتماءات الضيقة. وهذا يأتى فى سياق تبرير إنكار حقوق الفلسطينيين فى تقرير المصير والاستقلال الوطنى والدولة القومية.

كذلك، ينبغى الانتباه إلى أن أعمال آلبريخت آلت قد أنجزت خلال إحدى

جذور إسرائيل



ألا يذكر هذا النموذج التفسيرى لجذور إسرائيل القديمة بكثير من الاعتذاريات أو الديباجات أو الأساطير الصهيونية المؤسسة لإسرائيل المعاصرة أو المستمرة معها؟

أهم الفترات الحاسمة فى التاريخ الفلسطينى المعاصر؛ وهى فترة تصاعد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين فى العقود المبكرة من القرن الماضى، وما ترافق معها من تطلعات ومشروعات صهيونية «استيطانية» لإقامة وطن قومى لها هناك، مما بدل جذريا من التكوين الاجتماعى والسياسى والديمغرافى للبلاد. لقد كان الخط العام لنظرية آلت فى تفسير نشوء وجذور إسرائيل القديمة، هى دراسة حركة جماعات بشرية ذات شأن وتفوق على السكان المحليين (الأصليين)، تبحث عن وطن قومى لها، وينبغى أن تفهم فى سياق تلك التطورات غير العادية فى فلسطين فى وقت قيام آلت بأبحاثه، وهى تطورات من المستبعد جدا أن لا يكون على وعى بها.

وعلى خطى آلت، أعاد نوت ووبيرت إنتاج وتوكيد نموذج التسلل أو الهجرة، وتبنيا ذات الافتراضات. يفترض نوت أن من الطبيعى أن تكون روايات العهد القديم صائبة بدون أدنى شك فى اعتبار أن القبائل لم تكن أصيلة فى فلسطين، بل دخلتها واتخذت لها موطئ قدم فى تلك «البرارى والسهول المقفرة» فى وقت محدد من الزمان، وأصبحت إسرائيل حقيقة نهائية ودائمة فى فلسطين. كما يعتقد نوت أن هذه القبائل قد جلبت معها تراثا هاما من خارج فلسطين، مما أسهم فى تشكيل عقيدة ووعى إسرائيل الذاتى أثناء تطورها فى فلسطين. وكرر نوت استنتاجات آلت بأن هذه القبائل كانت شبه بدوية وتمر بعملية تحضر طويلة، وأن العملية كلها تحدث فى البداية بطرق «سلمية» دون لجوء إلى القوة. وسيتكرر التركيز على «سلمية» طرق مصادرة الأرض. يستبطن هذا النموذج الزعم بأن تسلل إسرائيل إلى فلسطين لم يكن عملا من أعمال السلب، بل كان استيلاء على أرض خالية من السكان أو مناطق فى فلسطين «غير مأهولة». ويستدرك ويبرت أن حالة الصراع بين دول المدينة الكنعانية وإسرائيل لم تحدث إلا لدى بدء المرحلة الثانية من «التوسع» الإقليمى الإسرائيلى.

ألا يذكر هذا النموذج التفسيرى لجذور تاريخ إسرائيل القديمة بكثير من الاعتذاريات أو الديباجات أو الأساطير الصهيونية المؤسسة لإسرائيل المعاصرة أو المستمرة معها، ابتداء من أسطورة وحدة الشعب اليهودى أو الجماعات اليهودية فى العالم واشتراكها معا فى قومية يهودية واحدة؛ وأسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض؛ وأسطورة رسالة الحضارة الأوروبية الراقية التى أحضرها المهاجرون الصهاينة إلى الشرق المتخلف حضاريا؛ وأسطورة تفوق المهاجرين الصهاينة والكيان الاستيطانى على المجتمعات والكيانات المحلية والإقليمية؛ وأسطورة الاستيلاء «السلمى» على الأرض الفلسطينية بدون عنف أو عدوان؛ وأخيرا أسطورة ضرورة «التوسع» الإقليمى للوصول إلى حدود آمنة - غير محددة - لأجل استدامة عملية التوسع.

النموذج الثانى: غزو فلسطين

هذا النموذج من إنتاج المدرسة الأمريكية لدراسات العهد القديم فى جامعة جونز هوبكنز ببلتيمور، بقيادة وليم فوكسويل أولبرايت. وقد قدمت رواية بديلة لقيام إسرائيل القديمة فى فلسطين؛ اعتبرها خطاب الدراسات التوراتية نقيضا لنموذج آلت ونوت التى افترضت التسلل أو الهجرة «السلمية». وبينما استعانت رواية آلت ونوت بسفر «القضاة» وأجزاء من سفر «يشوع»، ركز أولبرايت اهتمامه بشكل أوسع على المكتشفات الأثرية المتاحة آنذاك لإثبات قيام حملة عسكرية، قضت افتراضا على المجتمعات السكانية والتجمعات المدنية الفلسطينية. لعب «اختلاق» أولبرايت لإسرائيل القديمة دورا بالغا فى دراسات العهد القديم بالقرن الماضى. وروج لهذه الأفكار عدد من خريجى مدرسة أولبرايت الذين تقلدوا مواقع أكاديمية هامة بالولايات المتحدة. اللافت فى رواية أولبرايت حول إسرائيل القديمة أنها تعكس مفاهيم عصرية لتطورات حدثت فى فلسطين متزامنة مع إنجاز أولبرايت لأبحاثه. وتكونت كثير من آرائه خلال عقدى الثلاثينيات والأربعينيات اللذين شهدا تطور مشروع الاستيطان اليهودى فى فلسطين، وبلغ ذروته بقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ بعد أول وأطول حرب عربية صهيونية.

يعتبر أولبرايت أن «تاريخ الديانة الإسرائيلية واليهودية من النبى موسى حتى يسوع، تبدو وكأنها تقف على ذروة «التطور» البيولوجى، تماما مثل تطور الجنس البشرى العاقل، وتعكس التطورات الأخيرة تلكؤا ثقافيا لألفى عام، ومن المؤكد أنه تلكؤ صغير بالنسبة لمئات آلاف السنين واجه فيها الإنسان صعوبات كبرى فى ارتقاء مرتفعات وعرة من «التطور» الإنسانى الشاق والطويل». يرى أولبرايت أن العقيدة اليهودية والإسرائيلية ذاتها كانت ذروة «التطور» الإنسانى ومنجزات «الأمم المتحضرة»، وأن المجتمع الغربى كان يعود إلى جذوره

أثناء إجراء أولبرايت لأبحاثه. وكان يقول «إن الدارس «المتعاطف» مع التاريخ الشامل للإنسان لا يمكن إلا أن تكون له إجابة واحدة: هناك بالفعل ذكاء وإرادة عبر عنهما التاريخ والطبيعة، لأن التاريخ والطبيعة هما شيء واحد». وبالنسبة له، تاريخ إسرائيل ليس فقط ملكا لعلم اللاهوت، بل إن التاريخ بكليته هو لاهوت.

اعتمد أولبرايت في روايته لتاريخ إسرائيل على إحاطته بمكتشفات زمانه الأثرية في فلسطين، وقراءته لتراث وتقاليد العهد القديم. فاعتبر أن هناك ارتباطا مباشرا بين تدمير التجمعات المدنية الفلسطينية بنهاية العصر البرونزي المتأخر (١٢٥٠-١٠٥٠ ق.م) وقيام مستوطنات أكثر فقرا، (تميزت بتغير ثقافتها المادية، من أعمال فخارية أو عمرانية مختلفة مثلا)، وبين أحداث سفر يشوع حول الغزو الإسرائيلي لفلسطين واحتلالها. وحدد قيام قرى إسرائيل في مرتفعات فلسطين أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي، ورفض أن يكون ذلك هجرة سلمية، بل تغييرا مفاجئا وعنيفا للأوضاع نتيجة عوامل خارجية، ما أدى إلى تدمير التجمعات المدنية الحضرية في فلسطين. واستنتج أن العبريين اندمجوا بسرعة هائلة مع أشقائهم الإسرائيليين، حتى أن الكتابات التوراتية تشير بالكاد إلى أي اختلاف بينهم.. لقد تمت السيطرة الإسرائيلية على الكنعانيين، إما عن طريق المعاهدات أو الغزو أو الاندماج التدريجي.

ألا ينطبق وصف أولبرايت أيضا على تجربة المستوطنين البيض (الأوروبيين) في أمريكا الشمالية، حيث اندمجوا في كيان أو مشروع بشري استيطاني موحد، وتمكنوا بالغزو والمعاهدات والصهر القسري من تدمير مجتمعات الهنود الحمر والاستيلاء على بلادهم والسيطرة عليهم؟ بل ألا يستدعي ذلك أيضا التفوق الديمغرافي الذي رافق تدفق المهاجرين الصهيونيين إلى فلسطين، واندماج اليهود المحليين، بينما تمت السيطرة على السكان المحليين (عرب فلسطين) بواسطة «الغزو أو الاندماج التدريجي أو المعاهدات»، وآخرها اتفاقية معابر قطاع غزة إلى مصر، بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، التي جعلت غزة سجنا كبيرا، والسفر منها وإليها جحيما حقيقيا؟

وفي تبريره لسلب الأرض من سكان فلسطين والإبادة التي تعرضوا لها، يقول: «... هذا التقليد السامي (صفة استخدمت لصرف النظر عن الإسرائيليين أو اليهود) لم يكن أسوأ، من وجهة نظر إنسانية، من المذابح المتبادلة بين البروتستانت والكاثوليك في القرن السابع عشر... أو إبادة الأتراك للأرمن وإبادة الروس للقرغيز في الحرب العالمية الأولى،... ونحن الأمريكيين.. قمنا، بقصد أو بدون قصد، بإبادة آلاف السكان الأصليين في كل بقعة من أمتنا العظيمة، ووضعنا البقية في معسكرات اعتقال.. يبدو أن من الضروري في أحيان كثيرة اختفاء شعب ذي مستوى متدن لحد بعيد، ليحل محله شعب ذو صفات متفوقة، حيث يتحتم الوصول إلى مرحلة لا يمكن فيها للاندماج العرقي أن يستمر دون كارثة. وعندما تحدث هذه العملية، كما يجري الآن بأستراليا، لا يمكن للدوافع الإنسانية فعل الكثير، علما بأن كل عمل همجي وكل ظلم سوف ينعكس بالتأكيد على المعتدي. من حسن حظ ديانة التوحيد ومستقبل بقائها أن الإسرائيليين الذين غزوا فلسطين كانوا أقواما همجية اتسمت بطاقة بدائية وإرادة بقاء لا تلين، حيث إن الهلاك الناجم عن هذا الغزو للكنعانيين منع الاندماج الكامل لشعبين شقيقين، كان سينتج عنه حتما انحطاط القيم اليهودية إلى درجة يستحيل إصلاحها».

يعبر هذا التبرير بشكل مذهل عن عنصرية سافرة وداروينية صراعية صريحة. لكن الأهم أن هذه الآراء لم تلق أي نقد من الباحثين لدى تقييمهم لأعمال أولبرايت. يلاحظ أيضا أن وصف أولبرايت للكنعانيين بأنهم حسيون لا أخلاقيون يتطابق مع وصف المستشرقين للآخر، باعتباره نقيضا للإنسان الغربي العقلاني المثقف، مما يؤدي إلى الحط من إنسانية الشعوب المحلية وقبول مبدأ إبادتها، كما حدث لسكان أمريكا الأصليين. يستبطن هذا الادعاء مقولة عنصرية أخرى حول «عبء الرجل الأبيض»، وتفترض أن الاستعمار يساهم في تطوير الشعوب البدائية. ومن هنا خطورة أفكار أولبرايت اللاهوتية ونظرية أن الديانة اليهودية أنقذت «أخلاقها التوحيدية الراقية» بإبادة السكان المحليين.

يعتقد أولبرايت أن الصراع المتواصل بين الإسرائيليين والشعوب المحيطة أدى حتما -ولو ببطء- إلى وحدة الإسرائيليين القومية. لكنه لا يرى أن شعوبا أخرى قد تأثرت بنفس العوامل وعلى نحو مماثل، لتصل إلى مرحلة الوحدة القومية: بل ينفي ضمنا قدرتهم على ذلك، في انتقائية لا مبرر لها. لكن ذلك ضروري لسبب آخر. فإسرائيل -كمنبع الحضارة الغربية- تمثل كل ما هو عقلاني، بينما تمثل كنعان سكان فلسطين الأصليين. أي «الآخر اللاعقلاني»، الذي يجب استبداله في عملية التطور التي لا ترحم، والمقدرة إلهيا. وأضفت الافتراضات التطورية اللاهوتية المهيمنة على أعمال أولبرايت تأثيرا بالغا في خطاب دراسات العهد القديم. وتتجلى في قوله «تجري معالجتنا لهذا الموضوع في خطين متوازيين: الأول، هو المنحنى التصاعدي للتطور الإنساني، وهو منحنى يصعد تارة ويهبط أخرى، ويجري أحيانا في دورات ويتأرجح أحيانا أخرى، لكنه يتعافى ويستمر في الصعود: والخط الثاني، هو تطور نماذج أو أشكال تاريخية فردية لكل منها حياته العضوية الخاصة، التي تصعد لتصل إلى القمة ثم تنحدر. وهذه الصورة تبرر بشكل عام وجود أكثر العقائد الدينية إيمانا بإله واحد يوجه حياة الإنسان».



يعتبر أولبرايت أن «تاريخ اليهودية» من النبي موسى حتى يسوع، تبدو وكأنها تقف على ذروة «التطور» البيولوجي، مثل تطور الجنس البشري العاقل

في ضوء فلسفة أولبرايت للتاريخ المبنية على فكرة التقدم التطوري للكائنات، والمتماهية مع الداروينية الاجتماعية، يصبح طبيعيا أن «تحل إسرائيل محل شعوب فلسطين البدائية». وتقدم فلسفته نموذجا صراعيا، وتبريرا لاهوتيا مذهلا لنفي الآخر وإبادة شعب كامل، فيرى أنه «لا يمكننا الارتقاء روحيا إلا من خلال الكوارث والمعاناة، بعد التخلص من العقد النفسية، وذلك عن طريق «التطهر»: هذا التنفيس والتطهر العميق يرافق التحولات الرئيسة. وكل فترات المعاناة الذهنية والمادية التي يتم فيها القضاء على القديم قبل ولادة الجديد، تثمر نتائج اجتماعية مختلفة وبصيرة روحانية أعمق».

النموذج الثالث:

الصراع داخل فلسطين

صاغ هذا النموذج جورج مندنهول، أحد طلاب أولبرايت بجامعة جونزهوبكنز، في محاولة لتقديم تفسير بديل لجذور إسرائيل. وقد تحدى كثيرا من مسلمات نظرية ألت ونوت، ونظرية اولبرايت، وهم الذين اختلقوا إسرائيل القديمة على صورة إسرائيل المعاصرة، وهدم هذه المسلمات النظرية من أساسها. وقد نشر مندنهول نظريته في دراسة بعنوان «الغزو العبري لفلسطين» عام ١٩٦٢، واعتبرت في السبعينيات والثمانينيات أنها الدراسة التي هزت خطاب دراسات العهد القديم فيما يخص جذور إسرائيل التاريخية.

لأنها دحضت نظـريتي الهجـرة والغزو.

لكن نظريات مندنهول ذاتها كانت مرتبطة بأفكار أولبرايت الأساسية؛ وبالتالي لم تغادر خطاب دراسات العهد القديم، من حيث هدفه باتجاه البحث عن إسرائيل القديمة باعتبارها منبع الحضارة الغربية، مما يساهم في إسكات التاريخ الفلسطيني، رغم أن جانبا مهما من أعماله يضفي شرعية على التاريخ الفلسطيني ويمنحه صوتا. كما يدرك مندنهول أن النظريات السابقة حول إسرائيل قد اختلقتها على صورة الدولة القومية في أوروبا، وأسقطت أفكارا حديثة على العالم القديم. فمفهوم القومية، كمفهوم العنصرية، لم يكن له وجود عمليا في التاريخ القديم.

يلفت مندنهول إلى أنه لم يكن هناك إدراك كاف للتعصب الاجتماعي والسياسي الذي اتسم به الباحثون المشتغلون بإعادة بناء تاريخ إسرائيل القديم. واهتم بالكشف عن الفرضيات الصريحة والكامنة لنموذجي الهجرة والغزو. ورأى أنه لم يكن هناك غزو لفلسطين بأعداد هامة في بداية نظام قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة، ولا ترحيلا جذريا للسكان. بل كان الأمر استبدالا ضروريا للحكام المحليين التابعين للملوك باسم الملوك. وإجمالا، لم يكن هناك أي غزو حقيقي لفلسطين، بل يمكن تسمية ما حدث، من وجهة نظر المؤرخ العلماني، ثورة فلاحين ضد شبكة مترابطة من دول المدينة الكنعانية.

وقد افترض مندنهول العامل الخارجي كمجموعة صغيرة دورها تحفيز جمهور الفلاحين الفلسطينيين المقهورين والمحتكرين. وبرأيه، كانت السمة الأساسية لهذه «الثورة التوراتية»، كما دعاها، هي الثورة الدينية وليست الثورة الفلاحية المحلية. ثم بدا له أن تحديد فرضية نشوء إسرائيل بـ«ثورة فلاحية» لم يحالفه التوفيق، بل كان تحديدا مضللا؛ لأن «الثورة الفلاحية» لم تكن إلا وجها ثانويا أو عرضيا من «الثورة التوراتية». ورغم تشكيكه بفكرة أن جذور إسرائيل بفلسطين كانت هجرة خارجية لشعب وافد، مما يعطي الثقافة المحلية وتاريخها مساحة غير مسبوقة؛ إلا أن توكيده على مركزية الدين الجديد



ليس غريبـــا أن يلفت بعض الباحثين اليهود اليساريين إلى أن الفرضيات حول نظرية الثـورة الفلاحيـة لبدايـات إسـرائيل كان لها قوة بلاغية واضحة

الوافد من الخارج قد أحبط فرصة الخروج على النظريات السائدة لتاريخ المنطقة، إضافة إلى تركيزه على فساد الثقافة المحلية بأكثر مما فعل أستاذه أولبرايت.

تأكيد مندنهول على خصوصية إسرائيل القائمة على عقيدة كانت هي أساس الحضارة الغربية، يتيح له تبني ودعم الافتراض الشائع بوجود انفصال بين إسرائيل وثقافة فلسطين المحلية؛ كما أنه يعكس الافتراض الشائع بوجود استمرارية متصلة بين إسرائيل القديمة والعالم الغربي الحديث، باعتبارهما مجتمعين قائمين على فكرة التوحيد، بخلاف الشرق الأدنى القديم الذي كان يؤمن بتعدد الآلهة. ولأن مندنهول يرى ثقافة سكان فلسطين الأصليين لاأخلاقية وفاسدة، فهم ببساطة لا حق لهم في الأرض وفقا لهذا المفهوم، بينما يرى احتلال إسرائيل لفلسطين تأكيدا للهداية الإلهية لإسرائيل. ثم يتناول فروقا أخرى بين إسرائيل وكنعان تتردد في الخطاب المعاصر بهدف إضفاء الشرعية على إسرائيل المعاصرة مقابل فشل سكان فلسطين الأصليين، فيقول: «الاهتمام بالمحافظة على السلام في مساحة واسعة من الأرض كان من القضايا الهامة لدى العقيدة الإسرائيلية المبكرة، وهو ما كان متباينا مع كنعان في فترة العصر البرونزي المتأخر». إذن، إسرائيل وحدها كان بإمكانها المحافظة على السلام في هذه المنطقة الواسعة لأن النظام المحلي كان يمثل استغلال نخب المدن للفلاحين. لذلك، فالمجتمع الكنعاني (الفلسطيني) لم يكن بمقدوره تنظيم اجتماعي متحضر.

تركيز مندنهول العرضي وغير الموفق، كما يقول، على الثورة الفلاحية ألقى ظلالا من الغموض على التمييز الجذري الذي أقامه بين إسرائيل والثقافة المحلية. ولكنه كتلميذ لأولبرايت، يعبر مندنهول تعبيرا صريحا عن فرضيات كامنة في خطاب دراسات العهد القديم تتعلق بالاختلاق الأكاديمي لإسرائيل القديمة. من ذلك، تمييز مندنهول الجذري بين العقيدة الإسرائيلية والأنظمة الاجتماعية السياسية الفاسدة التي حكمت سكان فلسطين الأصليين، والذي يعكس تصوير إسرائيل المعاصرة باعتبارها تطورا جديدا وجذريا في المنطقة. فجذور إسرائيل تعود للحضارة الأوروبية والديمقراطية، بحيث استطاعت استغلال هذه الأرض التي أهملها سكانها المحليون الكسالى والمنقسمون على أنفسهم زمنا طويلا. هل يذكر هذا التمثيل مرة أخرى باعتذاريات الاستيطان الصهيوني حول تخلف المنطقة ورسالة التقدم الأوروبي التي يحملها المشروع الصهيوني؟

من ناحية أخرى، يتحدث مندنهول عن أسس المجتمع الديني المسمى «إسرائيل»، باعتباره طوباويا قائما على علاقات أخلاقية بين أفراده. أي أن اختلاق مندنهول لإسرائيل القديمة يضاهي تطلعات المهاجرين الصهاينة الأوائل لإنشاء مجتمع جديد وعادل. أما الثورة التوراتية، التي هي حجر الزاوية للحضارة الغربية، فهي التي تحل محل النظام الوثني الفاسق. والحركة الدينية التي تحقق ذلك التغيير، جاءت من الخارج بواسطة مجموعة صغيرة من الإسرائيليين الفارين من فرعون مصر. ألا يستدعي ذلك صورة المهاجرين اليهود الناجين من الهولوكوست النازي والقادمين إلى فلسطين لإقامة مجتمع «جديد وآمن ومتقدم»؟ وكذلك صورة موجة الهجرة الصهيونية الثانية (١٩٠٤-١٩١٤) التي جاءت بعشرات آلاف المهاجرين الروس المنتمين إلى الحركة الاشتراكية والذين أنشأوا المزارع الجماعية (الكيبوتسيم)، وبلوروا نموذج رواد الاستيطان الزراعي (الحالوتسيم)؟

لذلك، ليس غريبا أن يلفت بعض الباحثين اليهود اليساريين في الدراسات التوراتية إلى أن فرضيات مندنهول حول نظرية الثورة الفلاحية لبدايات إسرائيل كان لها قوة بلاغية واضحة في الستينيات والسبعينيات الماضية التي شهدت انتصار حركات التحرر الوطني في العالم الثالث وصعود اليسار. بيد أن هؤلاء الباحثين الذين دأبوا على تسييس إعادة بناء الماضي، لم يبذلوا أي جهد للربط بين هذه النظرية وبين أكثر حركات التحرر الوطني وضوحا، أي كفاح الفلسطينيين ضد الاحتلال الإسرائيلي. وتبقى المسألة خرساء لأن خطاب الدراسات التوراتية المهيمن قد أسكت تماما وبإحكام أي فكرة لوجود تاريخ فلسطيني أو تعبير عن تقرير المصير.

خـــلاصـــــة

نشأ خطاب دراسات العهد القديم (الحديثة) فى سياق صعود القوميات الأوروبية، حيث كانت الدولة القومية الحديثة، خاصة فى ألمانيا، تبحث عن جذورها البنيوية والحضارية فى ثنايا العهد القديم، وتلقى بظلالها على خطابه ودراساته الحديثة. وتشكلت الأبحاث والدراسات العلمية حول تاريخ إسرائيل فى سياق تشكيل وتعزيز سلطة الدولة القومية الأوروبية. وقصد الاهتمام الكبير بالبحث عن جذور «إسرائيل القديمة» إلى إضفاء الشرعية على الدولة الحديثة. فسيطر ذلك على الخطاب التاريخى لدراسات العهد القديم، وحجب البحث عن تاريخ المنطقة.

كانت الحاجة إلى البحث عن إسرائيل القديمة، باعتبارها الجذر الرئيس للحضارة الغربية، هى قوة دفع دراسات العهد القديم: وازدادت هذه الحاجة نظرا لمطالب اللاهوت الغربى فى بحثه عن جذور خصوصيته فى المجتمع الذى أنتج التوراة العبرية، وقد تعزز ذلك التوجه مع قيام إسرائيل المعاصرة، فأدى لنشوء أبحاث أكاديمية إسرائيلية تبحث، فى الماضى البعيد، عن هوية وشرعية دولتها القومية.

تعكس هذه النماذج الثلاثة أيديولوجيات مؤلفيها ومواقفهم السياسية ومواقعهم من المشروع الصهيونى فى فلسطين المعاصرة، وتعكس مراحل تطوره المختلفة التى تزامنت مع صياغة كل نموذج. فنموذج التسلل والهجرة السلمية قد صاغه آلت فى العشرينيات من القرن الماضى، عندما كانت الهجرات الصهيونية المبكرة تترى باتجاه فلسطين، وتركز على حيازة الأرض بطرق غير عسكرية، وتنشئ المستعمرات الزراعية والمشروعات الصناعية والمؤسسات التعليمية والاجتماعية والنقابية التى ستشكل البنية التحتية للمجتمع اليهودى فى فلسطين، وكانت الوكالة اليهودية هى الأداة الرئيسية للمشروع الصهيونى. أما نموذج الغزو، فقد تمت صياغته أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات عندما كانت الامبرياليات الأوروبية تسيطر على معظم أرجاء المعمورة، ومع بداية تشكيل المنظمات اليهودية العسكرية وشبه العسكرية، وتم تشكيل الفيلق اليهودى الذى خاض الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء، وأصبح لاحقا نواة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية. أما نموذج الصراع الاجتماعى داخل فلسطين فقد تزامن مع صعود أفكار اليسار والصراع الطبقى والتغيير الثورى عالميا وسيطرة اليسار الصهيونى والاقتصاد الاشتراكى على نظام الحكم فى إسرائيل منذ قيامها.

يلاحظ أن جميع النماذج التى عرضتها هذه المقاربة قد صاغت تفسيراتها لجذور إسرائيل القديمة فى ضوء مفاهيم ونماذج تفسيرية حديثة. وقد أضفى خطاب دراسات العهد القديم هالة من الموضوعية على مقولاته ونظرياته، بينما تلعب عوامل أخرى لا واعية وغير موضوعية دورا حاسما فى إعادة بناء الماضى المتخيل لإسرائيل القديمة. وقد طغت الأحداث المعاصرة والصراع على فلسطين بوضوح على خطاب وتأويلات هذه الدراسات. ورغم التقييم والدراسات النقدية التى سددت ضربات قوية أطاحت بكثير من فرضيات ونظريات واستنباطات هذا الخطاب المتحيز، استمرت بعض فرضياته وتصوراته الرئيسة الكامنة والتى كانت أساس اختلاق إسرائيل القديمة فى فترة الانتقال بين العصر البرونزى المتأخر والعصر الحديدى المبكر. قد يكون بنيان هذه النماذج قد انهار، لكن ما يتم بناؤه فى مكانها كثيرا ما يعتمد الأسس الكامنة ذاتها. ■

(*) Whitelam, Keith. The Invention of Ancient Israel, The Silencing of Palestinian History. London & New York: Routledge, 1996.

وصدرت له ترجمتان عربيتان، إحداهما بعنوان «اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطينى» عن سلسلة عالم المعرفة بالكويت، رقم ٢٤٩، سبتمبر/أيلول، ١٩٩٩، ترجمة د. سحر الهنيدى، مراجعة د. فؤاد زكريا؛ وصدرت الأخرى بعنوان «تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطينى» عن قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٠، ترجمة ممدوح عدوان، مراجعة د. زياد منى.

كتاب الزاوية

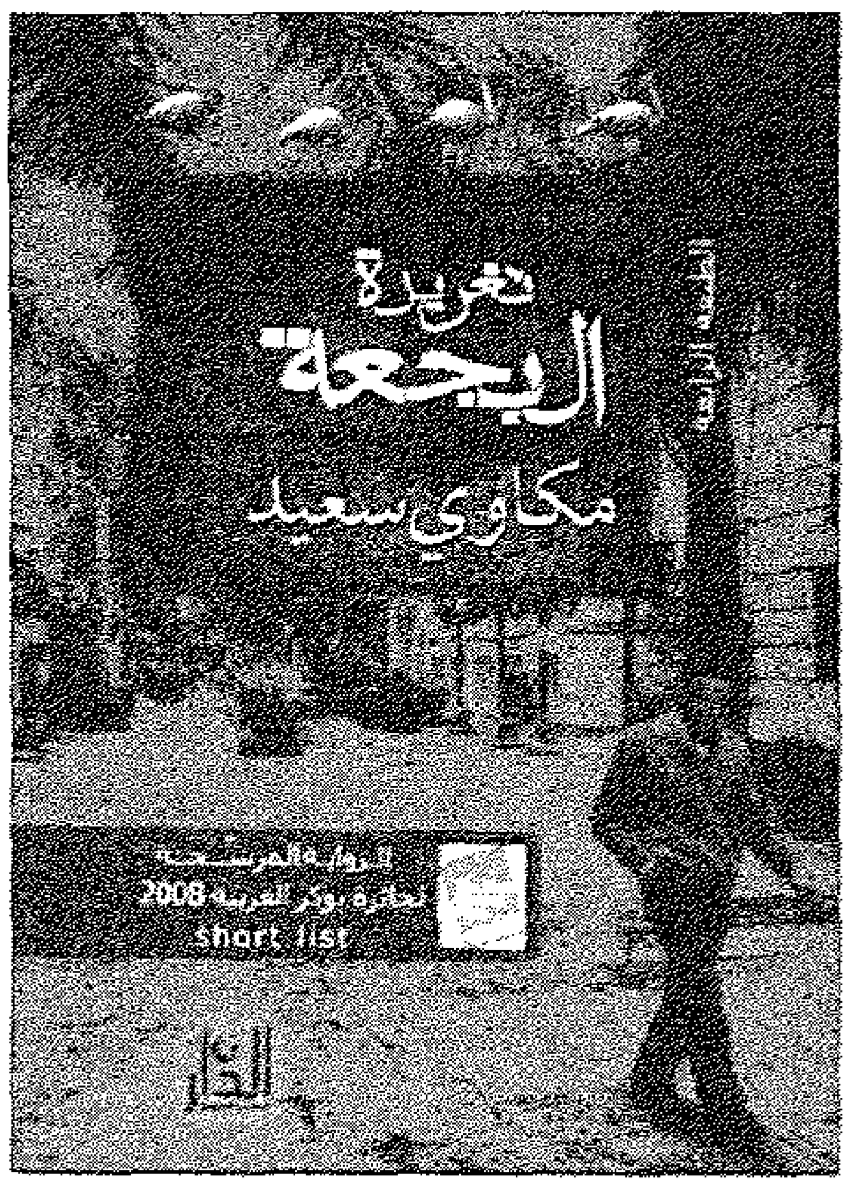
الثلج يسقط فوق الصين

أشعار صينية

الثلج يسقط فوق الصين
والبرد يحاصرها
الريح
مثل نواح امرأة عجوز
تلاحق من الخلف
تنشب مخالبها الثلجية
تنتزع ملابس السائرين
بكلمات كقدم الأرض
وتذمر لا ينتهى
تأتى من الغابات
فى عربات خيل
وأنتم هناك يا مزارعى الصين
يا من ترتدون قبعات الفراء
وتواجهون العواصف الثلجية
ما هو قدركم؟
سوف أخبركم
(فأنا أيضًا سليل مزارعين)
فمن وجوهكم المجعدة التى حفرها الألم
ألمس سنوات وسنوات من عناء الرجال
الذين سكبوا أعمارهم فوق المروج
ورغم ذلك
فأنا لستُ أسعد حالاً منكم

تحـــولات الـــروايـــة







توزع التفاؤل، بعد منتصف الخمسينيات، على رواية الواقعية الاشتراكية، ورواية المقاومة الفلسطينية التى اعتقد كتابها، أن ما تقترحه الكلمات يحققه الواقع

فيصـــــل دراج

تحقق قراءة تاريخ الرواية العربية، منذ ميلادها الأول فى مطلع القرن الماضى، إلى اليوم وظيفتين: وظيفة تقويمية ترصد تطور الرواية فى تطور أشكالها الفنية ووظيفة معرفية محددة، يتمازج فيها المتخيل الروائى بالوثيقة التاريخية، منتهية إلى تأريخ موضوعى، يقصر عنه المؤرخون الرسميون. فقد حملت الرواية، فى ميلادها الأول، طموحاً واسعاً متفائلاً هو طموح الشعب العربى إلى مستقبل مشرق، تظلله المعرفة ويتمتع بالرقى والارتقاء. لكن هذا الطموح تزلزلت مواقعه غير مرة، إلى أن انتهى ذكرى بعيدة، يتأملها البعض بأسى عاجز، ولا يتذكر البعض منها إلا قليل القليل، مضيفاً إلى التذكر الناقص أحكاماً بائسة. وواقع الأمر أن الإخفاق العربى المتوالد، منذ قيام الكيان الصهيونى حتى اليوم، أعطى الرواية العربية جملة ولادات متلاحقة: فقد أعادت الرواية تنظيم علاقاتها بعد صعود الدولة البوليسية، التى راقبت الروائى والرواية، وأنجزت نقداً ذاتياً بعد هزيمة ١٩٦٧، مواجهة الهزيمة بأشكال روائية جديدة، ودخلت منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضى إلى طور جديد، حاول المواءمة بين التحولات الاجتماعية العاصفة والأشكال الكتابية. أرخت الرواية للواقع العربى فى القرن العشرين بشكلين: شكل واضح بسيط قوامه «المواضيع» المباشرة، وشكل أكثر رهافة وتعقيداً عنوانه تجدد الأشكال الفنية.

١ ـ طور أول: رواية التفاؤل وانتظار الاستقلال:

تزامن ظهور الرواية العربية مع ظهور المثقف العربى الحديث، فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، الذى رفض واقعه المتخلف وتطلع إلى مستقبل تبنيه قيم ومعايير ثقافية ـ سياسية جديدة. ولعل الزهد بالقديم واعتناق نقيضه، هو ما جعل من «الغرب المتقدم» مرجعاً قابلاً للمحاكاة، أو موضوعاً مستفزاً يفضح تخلف المجتمع العربى ويحض على إصلاحه. أفضى هذا التصور إلى صراع بين ما عرف بـ «القدماء» و«المجددين»، ودفع أنصار التجديد إلى الترجمة والتأليف والدعوة إلى أشكال كتابية جديدة. وإذا كان المنظور التجديدى قد وضع أمام القارئ جنساً أدبياً غير تقليدى، يدعى بالرواية، فقد وضع فى الرواية الوليدة تصوراً للحاضر والمستقبل، يأتلف مع طموحات المجددين وغاياتهم. توزع مفهوم التقدم على الرواية وعلى المثقفين الداعين إليها، كما لو كانت الرواية سجلاً تربوياً، يشهد على مثقف ذاهب إلى مستقبل ينتظره، ويشهد على «يقين تقدمى»، يساوى بين المستقبل ورغبة المثقفين.

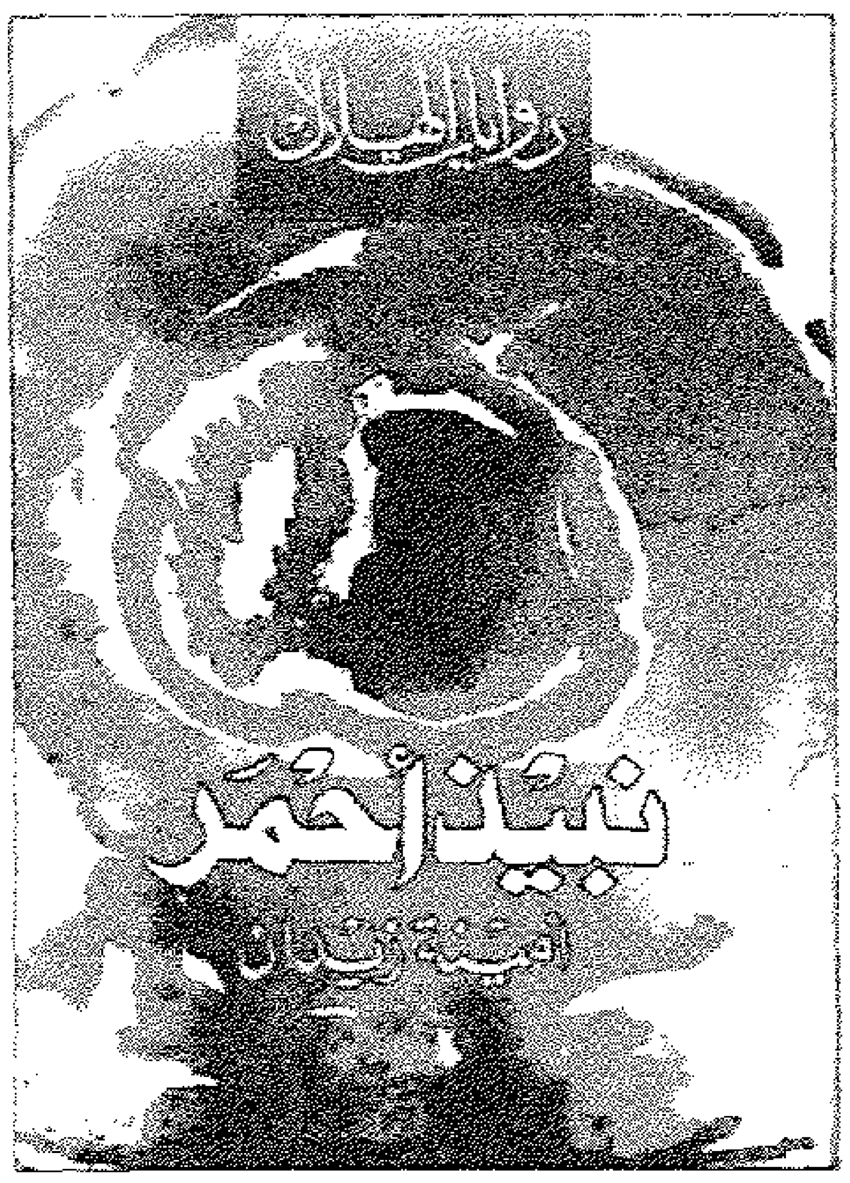
أنجز محمد حسين هيكل، فى روايته «زينب»، أغراضاً ثلاثة: أعطى الرواية العربية ولادة رسمية، بعد تجارب كتابية متعثرة ـ باستثناء «حديث عيسى بن هشام» للمويلحى ـ هى مزيج من الإنشاء البسيط والحكايات الوعظية، وأوكل إلى الرواية وظيفة نقدية اجتماعية تشجب القديم وتبشر بالجديد، وأعلن أيضاً عن جيل من المثقفين يدعو إلى الرواية والمسرحية والمجتمع المدنى والحياة الديمقراطية ونقد الماضى والانفتاح على ثقافة «الآخر» الأوروبى. اعتنق هذا الجيل دعوة هيكل، مازجاً بين الأدب والسياسة، وممارساً الأدب والسياسة معاً بمنظور نقدى لا يعوزه التفاؤل. كتب الرواية اللبنانى أمين الريحانى والفلسطينى نجيب نصار، وعثرت لدى المصريين على أقلام كثيرة: توفيق الحكيم وطه حسين وعبدالقادر المازنى وصولاً إلى العقاد، الذى أعلى من مقام الشعر وهون من شأن الرواية.

أغلق توفيق الحكيم روايته «عودة الروح» بنهاية متفائلة، تعد بمستقبل مجيد يستعيد روح ماض بعيد مؤكداً، إلى تخوم الإسهاب، أن مصر تكبو وتقف سريعاً، وتغفو سهواً وترجع إلى يقظة متجددة. استمد الحكيم تفاؤله من إيمان بروح مصر، ومن سياق تاريخ كان يوزع التفاؤل على الجهات جميعاً، مطمئناً إلى تحرر وطنى وشيك وإلى «روح العصر»، التى تمدها «فلسفة التقدم» بما تشاء من الثقة والأمل. ولعل الإيمان بمستقبل هو الذى نصب النهاية المتفائلة عنصراً ثابتاً من عناصر الرواية العربية. فقد ختم اللبنانى توفيق يوسف عواد روايته «الرغيف» ـ ١٩٣٩ ـ بما أغلق به الحكيم روايته، وسيعود مواطنه سهيل إدريس، بعد أكثر من عقد من الزمن، إلى النهاية المنتظرة، فى روايته «الحى اللاتينى». وسيبشره عبد الرحمن الشرقاوى فى «الأرض» بشىء قريب، وصولاً إلى الجزائرى اللامع محمد ديب فى ثلاثيته «الدار الكبيرة». بدا الماضى المتخلف، فى هذه الروايات وغيرها، صفحة منطوية، تعقبها صفحة حافلة بالضياء، يحتشد فيها الاستقلال الوطنى والتحرر الاجتماعى ووعد بـ «عروبة جديدة»، تبرهن أن «الجوهر العربى» مغاير لـ «العنصر التركى» ومختلف عنه.

توزع التفاؤل والنهايات المتفائلة، بعد منتصف خمسينيات القرن الماضى، على طرفين: رواية الواقعية الاشتراكية، التى دافع عنها الماركسيون، ورواية المقاومة الفلسطينية التى اعتقد كتابها، بإخلاص كبير، أن ما تقترحه الكلمات يحققه الواقع، دون زيادة أو نقصان. وربما تكون رواية حنا مينة «الشراع والعاصفة»، التى تناجت لاحقاً فى روايات كثيرة صورة لـ «الأدب الجديد»، المؤمن بإرادة الإنسان المتحرر وبقدرته على ترويض الأمواج العاتية. وإذا كان فى هذه الرواية ما يفصح عن إيمانية قابلة للمساءلة، فقد كان فيها ما يعلى من شأن الإنسان، ويرى







فيه كيانًا فاعلاً قادرًا على بناء المجتمع الذى يريد.

ربطت الواقعية بين الإنسان النوعى، بلغة معينة، أو «البطل الإيجابى»، بلغة أخرى. وبين مجتمع اشتراكى ينقل الإنسان، بشكل نهائى، من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية، حيث لا موقع إلاّ للخير والمساواة والجمال. ولعلّ هذا التصور هو الذى أقنع الجزائرى الطاهر وطّار أن يُنزل بالإقطاع، فى روايته «الزلزال»، هزيمة نهائية، وأعطى «القوى الثورية» اليمنية انتصاراً حاسماً فى رواية يحيى يخلف «نجران تحت الصفر».

أنجز الفلسطينيون «بطلاً إيجابياً» على طريقتهم، يجمع بين الحق والإرادة والبندقية، ويعود إلى أرضه السليبة منتصراً. خلق جبرا إبراهيم جبرا، وهو الروائى الفلسطينى الأكثر ثقافة والأغزر كتابة، «بطلاً مطلقاً» لا يعوزه من صفات الانتصار شىء: بطلاً أقرب إلى الحلم، مستقبله ماضيه الجميل وماضيه مستقبله المشرق. واطمأن غسان كنفانى إلى جمالية الإرادة، التى تأمر الفلسطينى الحقيقى بالذهاب إلى معركة منتصرة، يفرضها شرف الإنسان وهوان المنفى الذى لا يطاق. انتصر الفلسطينيون فى رواياتهم، إلى أن جاء زمن شائك أخبرهم أنّ الواقع يغاير الأحلام، وأنّ المثقفين يعرفون جماليات الكتابة، ولا يعرفون عمّا خارج الكتابة شيئًا كثيرًا.

توازعت رواية التقدّم، كما رواية التحرر، بطلاً واعداً بأشكال مختلفة. عثر توفيق الحكيم والشرقاوى ومحمد ديب على صيغة «الصبى الواعد»، الذى يعلن نقاؤه عن زمن جديد، وارتكن الواقعيون إلى «البطل الإيجابى»، الذى يخوض «صراعاً طبقياً» يلبّى مشيئة التاريخ وينصرها، وارتاح الفلسطينيون إلى «البطل الثورى»، الذى يعد بحكاية سعيدة النهاية. تعيّن البطل، فى صوره المختلفة، موضوعاً وإشارة: الصبى هو الفرد الذى تدور الحكاية حوله، وهو المستقبل والانتصار والتحرر القريب. أما «البطل الإيجابى» فهو صورة عن ذاته المنتصرة وصورة لإرادة جماعية لا تقل انتصاراً، يتحدث باسمه وينطق باسم الذين يمثّلهم. انطوى البطل الفلسطينى، الذى لا تخذله البندقية، على صفات البطلين السابقين مضيفاً إليهما «بطولة الأرض»، التى تمدّ البطل بـ «قوة خفية»، كما اعتقد جبرا.

ترجمت الروايات، فى صورها المختلفة، «حكاية التقدم» القائمة على عنصرين: بطل نوعى يسرد صفاته ويسرد معها المصاعب التى تبرهن عن بطولته، وانتقال نوعى من زمن إلى آخر يبرهن عن هزيمة الماضى وانتصار المستقبل المضىء على غيره. حكاية واضحة شفافة ترتكن إلى زمن يتقدّم لا يعرف الرجوع، يلازمه إنسان نافذ البصيرة يصل إلى ما يريد. يصل صبى توفيق الحكيم إلى مظاهرة حاشدة أقرب إلى النشيد المقدّس، تخبر أنّ فى روح مصر ما يحرر مصر، وتصبح المرأة البدوية فى «دعاء الكروان» لطه حسين سيدة متقفة تأخذ أمور حياتها بالحزم والشدة، وينبذ بطل سهيل إدريس فى «الحى اللاتينى» غواية «الغرب المتفسّخ» ويعود إلى «أمته العربية» فتى جديداً، ويقف بطل رواية «الزلزال» سعيداً فوق أطلال «القوى الرجعية»، ويتصدّى بطل حنا مينة، وهو أقرب إلى البطل الشعبى ـ الوطنى، للعواصف جميعاً، ويصل مع شعبه إلى مرفأ أمين.

مهما يكن المآل العربى فإنّه من السخف كل السخف أن يرى القارئ اليوم إلى «رواية التقدّم» باستخفاف ساخر أو بغطرسة مترهلة، ذلك أنّها انطوت على عناصر إيجابية كثيرة: أسّست، أولاً، جنساً كتابياً عربياً جديداً عنوانه: الرواية، وعبّرت عن سياق تاريخى أقنع العرب بأنّ «الاستقلال الوطنى» طريقهم الوحيد إلى الازدهار والارتقاء، وجسّدت نزوعاً فكرياً مسيطراً صائباً، لأنّ «التقدّم» هو بديل التخلّف، وأنّ المتخلّف لا مستقبل له إن اعتصم بتخلّفه والتحق بماضٍ قريب. ولهذا لا تُقرأ «رواية التقدم» بمقولتى: الانتصار والهزيمة بل بمقولتى الصواب والخطأ. رواية اقترحها مثقفون اقترحوا الحداثة الاجتماعية سبيلاً لارتقاء أوطانهم، قبل أن تأتى «دول مستقلة» تعتقل الأوطان والمثقفين وتقوّض، باجتهاد محسوب، كل ما يسمح بالحداثة ويجعل منها حقيقة اجتماعية.

٢ ـ طور ثان: من رواية التقدّم إلى رواية السجن:

على هامش التصورات الروائية جميعاً، المبشرة بفجر جديد، وقف روائى عميق البصيرة أقرب إلى التشاؤم يدعى: نجيب محفوظ، اشتق الرواية من «اغتراب الإنسان»، الذى أسّس لصعود الرواية فى الأزمنة الحديثة، ومن رؤية ذاتية رسولية المضمون، تتطير من «السلطة المصرية»، وتنظر إلى سلطات الأزمنة البشرية كلها بحذر كبير. ساوى فى روايته الأولى «عبث الأقدار» بين السلطة والقتل، وندد بعبث السلطة المستبدة فى روايته الثانية «رادوبيس»، وابتدأ مرحلته «ما بعد ـ الفرعونية» برواية تندد بالسلطة عنوانها: «القاهرة الجديدة». ومع أنّه همّش موضوع السلطة فى سياق وطنى ـ تحررى يوحى بـ «العدالة». فقد قادته خيبته اللاحقة إلى عمل هجائى غير مسبوق عنوانه: «أولاد حارتنا»، الذى رأى فى السلطة، فى الأزمنة كلها، شراً أصيلاً متأبداً، لا سبيل إلى إصلاحه وتبديله.

شكّلت رواية محفوظ: «اللص والكلاب» فى مطلع الستينيات الماضية، مرجعاً لرواية عربية جديدة، لا تعتنق التفاؤل ولا تؤمن به، بل تتمحور حول «فرد مغترب»، يتطيّر من سلطة تواجه عدالة الكلام بعنف مادى غير مسبوق. انتهى زمن الصبى النقى وانقضى زمن «الجماعات الثائرة»، وبدا المستقبل سؤالاً حائراً. لم يكن الفرد المغترب، روائياً، إلاّ تعبيراً عن سلطة باهظة وضعت داخلها كل شىء، وحولت ما خارجها إلى أشياء أو ما يشبه الأشياء. ولعلّ هذا الاغتراب الذى يحوّل الوجود إلى منفى، هو الذى وسّع مساحة «المونولوج الداخلى»، أو الحوار مع الذات، بعد أن غدا الحوار مع الآخرين فعلاً مغامراً غير مأمون العواقب. رفع صنع الله إبراهيم، فى روايته «تلك الرائحة»، صورة الفرد المغترب إلى حدودها العليا، حيث المغترب لا يقرب من الكلام إلاّ ما كان ضرورياً، تاركاً كلامه العذب المسرح لروح مقفلة على أسرارها لا يراها أحد. وسيحاول هذا المغترب، بعد أن اقترب من التقوّض، أن يأكل نفسه فى رواية «اللجنة» تعبيراً عن وجود كابوسى يزهق الأرواح ويتلف البداهات.

إذا كان محفوظ قد وضع «سعيد مهران» فى قاهرة الستينيات، وأطلق لسانه بأسئلة حائرة شاكية، وهو يحاذر موتاً وشيكاً، فقد حمل جمال الغيطانى، فى رائعته «الزينى بركات» بطله الحائر الشاكى إلى القرن السادس عشر، منددّاً بـ «البصاصين» ومعطياً سؤال الاغتراب فسحة تاريخية واسعة، تمدّ بوضوح موجع واسع الأرجاء. وسيدفع الغيطانى بعد قليل، بسؤاله إلى مجال أكثر قتاماً فى عمله «أولاد حارة الزعفرانى»، حيث «العنّة» المنتشرة إشارة إلى مجتمع يسير متلكئاً إلى الموت. ولعلّ من المفيد لقرّاء تطوّر القول الروائى أن يقارنوا بين «الخصاء الاجتماعى» فى عمل الغيطانى والإنسان الذى يأكل نفسه فى رواية إبراهيم، ذلك أنّ فى

شكّلت رواية محفوظ: «اللص والكلاب» فى مطلع الستينيات الماضية، مرجعًا لرواية عربية جديدة، لا تعتنق التفاؤل ولا تؤمن به، بل تتمحور حول «فرد مغترب»، يتطيّر من سلطة تواجه عدالة الكلام بعنف مادى غير مسبوق

العملين ما ينتهى إلى نتيجة واحدة أخذ الفرد المحاصر بوجوده الضيق أبعادًا جديدة فى عمل غالب هلسا «الخماسين»، حيث السلطة غبار خانق، والمغترب مهزوز الرجولة والقمر البارد صوت عاجز كالأصوات الأخرى والألوان شاحبة والرمل يكتسح داخل البيوت وخارجها.

حمل عبد الرحمن منيف موضوع «الفرد المغترب» إلى «شرق المتوسط»، وهو عنوان روايته الشهيرة، مساويًا بين السجن الصغير والسجن المجتمعى الكبير، وبين السجناء والأنقاض البشرية. وإذا كان بطل صنع الله إبراهيم، فى «اللجنة»، قد أكل نفسه، فإن بطل منيف أكلته السلطة، وأرسلت شظاياه إلى «الغرب»، كى يعالج ما لا تمكن معالجته. أعاد منيف رسم الإنسان المغترب، بصورة مدهشة، فى روايته «حين تركنا الجسر»، مشتقًا ملامحه من شتاء قارس وأرض موحلة ورحلة خائبة، يودع فيها المتمرد تمرده ويندرج مع جماعات بشرية فقدت أرواحها. فى نهاية السبعينيات الراحلة كتب العراقى الراحل غائب طعمة فرمان، وهو فى منفاه، عملاً حزينًا فى جماله عنوانه: «آلام السيد معروف»، عن إنسان يقرأ موته فى معدة مريضة وشمس غارية وغرفة موحشة وجهاز بيروقراطى مميت. كان فرمان قد وضع شيئًا من الأمل فى روايته «خمسة أصوات»، حين رأى فيضانًا يكتسح «الظالمين»، دون أن يدرى أنّ «الظالمين الجدد» يكتسحون المجتمع كلّه. شىء قريب مما كتبه اللبنانى الياس خورى فى روايته «الوجوه البيضاء»، وفى أعمال متميزة لاحقة، رصدت تلك المسافة الحارقة بين الرغبة والخيبة.

يستطيع القارئ، فى حدود السلطة والفرد المغترب، أن يعطف رواية على أخرى مشيرًا إلى مساحة شاسعة من السجون والجلادين والمقابر المنتظرة. لكنّه إن وعى ما قرأه يعود بالروايات جميعًا إلى رواية. أصل هى: اللص والكلاب. ينطبق على رواية محفوظ فى علاقاتها بالرواية العربية الجديدة، ربما، ما ينطبق على «معطف» غوغول فى علاقاتها بالرواية الروسية، التى رأى النقاد الروس فيها «رحمًا» لرواية واسعة لاحقة. تحمل الإشارة إلى رواية محفوظ دلالتين: دلالة أولى صادرة عن انصراف الرواية العربية، قبل هزيمة حزيران وبعدها، إلى موضوع السلطة، من حيث هو موضوع مسيطر، يصدم الكتابة الروائية الحالمة أبدًا بمجتمع ديمقراطى، يحكمه الحوار ويعترف بحقوق الكلام. ودلالة ثانية أقصت «التبشير السعيد» ووطّدت معنى الكتابة الروائية: كما يجب أن تكون، التى ترصد مسار إنسان يتطلع إلى غاية ويصل إلى موقع لم يتوقعه ولم يرغب به.

بدأت «دولة الاستقلال الوطنى» من مجتمع ممتلئ بطموحه، وانتهت بعد قمع ثابت وثبات قامع إلى مجتمع مقوّض. دخلت الرواية، بعد عقود من الخيبة المتوالدة، فى طور جديد، يسائل انهدام المجتمع والسلطة، ويضيف إلى الاغتراب السياسى اغترابًا وجوديًا، يتاخم الرثاء والرثاء الذاتى معًا. مثّلت هذه الرواية، فى نماذجها الواعية، شهادة مزدوجة، تنفتح على الخارج وتقرأ الخيبة الشاملة، وتنفتح على الذات الكاتبة محدثة عن اغتراب المثقفين، الذين حلموا بمجتمع حديث يحوّل الرواية إلى ظاهرة اجتماعية، على مستوى الكتابة والقراءة معًا. وآية ذلك رواية رضوى عاشور «أطياف»، التى وزّعت الشخصية الساردة إلى شخصيات متعددة، تعبيرًا عن غياب اليقين، مستأنفة أشجان غائب طعمة فرمان فى: «آلام السيد معروف». بل إنّ الساردة وسعت شجن السؤال متوسلة مكانًا واسعًا يمتد من القاهرة إلى مخيم صبرا وشاتيلا، وزمنًا ممتدًا من زمن حفر قناة السويس إلى تفكّك المشروع الوطنى الفلسطينى. أعاد الروائى والناقد محمد برادة، على طريقته، صياغة أسئلة المثقف الوطنى المهزوم فى عمل لافت عنوانه: «مثل صيف لم يتكرر»، جاعلاً من سيرته الذاتية مرآة واسعة لسيرة صعود الحلم القومى وانهياره. قرأ الروائى الزمن التاريخى بالزمن الذاتى، مازجًا بين كتابة تقريرية وأسلوب ذاتى شديد الذاتية، معالجًا زمنًا روحيًا شديد المراوغة، لا يمكن القبض عليه تمامًا. جمع بهاء طاهر الأشجان جميعًا فى روايته «الحب فى المنفى»، التى قادت الحالم إلى احتضاره، ودفعت بالاحتضار إلى الموت المنتظر. وسيعيد الروائى، بعد سنوات من القلق والتأمل صياغة أسئلته فى عمل يقترب من الندرة هو: «واحة الغروب»، الذى عاين مسار المثقف التنويرى منذ زمن بداياته المعوقة إلى زمن هزيمته الكاسحة.

٣ ـ طور ثالث: رواية تبحث عن شكلها:

لم تصطدم «رواية التقدّم» بما يعوّق كتابتها، لأنّها اطمأنت إلى زمن تصاعدى يهزم العوائق واحدا بعد آخر ويقف، فى النهاية، سعيدًا رافعًا راية الانتصار. كان فى داخل الزمن المرتقى صعدًا، أو خارجه، «البطل الرومانسى»، الذى يتصدر المكان، ويحوّل ما عداه إلى مرايا تعكس جماله وتفوقه وقدرته على اقتراح الأحلام وتحقيقها. استبدلت رواية الاغتراب، التى تكاثرت بعد «اللص والكلاب»، بالبطل الرومانسى فردًا مهزومًا محوطًا بمرايا مغايرة، تترجم اغترابه بأشكال متعددة. وعلى الرغم من السجن وآهات الإنسان المعطوب، لم تفقد «رواية الاغتراب» الأمل، فقد كان المجتمع لا يزال قادرًا على الوقوف.

بعد توطّد هزيمة حزيران ـ ١٩٦٧ ـ وانشغال السلطات المهزومة بهزيمة شعوبها، تغيّر المشهد الاجتماعى ـ الأخلاقى، وانفتح على واقع أقرب إلى الكابوس. وصل المجتمع العربى إلى نقيض ما توقّع الوصول إليه، واستولد الروائى بطلاً منقطعًا كليًا عن صبى الحكيم وفتى الشرقاوى و«فارس» حنا مينة، الذى يلامس بأصابعه النجوم. تميّز المشهد الاجتماعى، الممتد من احتلال الجيش الإسرائيلى لبيروت ـ ١٩٨٢ ـ إلى تدمير العراق، بأمرين أساسيين: تحول المجتمع إلى كتلة سديمية يصعب شرحها، وانغلاق معنى المستقبل الذى هو ضرورة لـ «التخييل الروائى». وبسبب ذلك ألغى الروائى العربى فكرة المستقبل، وعمل على بناء شخصية روائية جديدة. تحيل على حاضر لفظ أنفاسه، وعلى مستقبل مات قبل موته.

سردت الرواية سديمية الواقع العربى اتكاء على شخصية ـ مجاز، تأخذ عناصرها الأولية من الواقع المعيش، وتنفذ إلى قراره وتأوّله وترفضه. عبر المجاز الجديد عن كائن مشوّه أجوف، مشلول، معطّل ومعطِّل، أو عن كيان فارغ ومفرّغ، يشهد على مجتمع فقد وعيه. لجأ يوسف أبو رية، فى «تل الهوى»، إلى مجاز: المولود المسخ، الذى يكثّف واقعًا انزاح عن البداهات وسقط فى لاعقلانية مغلقة. استأنف الروائى مجازه فى «ليلة عرس»، مبينًا أنّ المسخ تكاثر إلى مجتمع من المسوخ، وأنّ الإنسان السوى مطارد ولا مكان له. وصاغ محمود الوردانى، الروائى المجتهد الدؤوب، «روح العصر» بمجاز «الرأس المقطوع»، فى روايته «أوان القطاف»، معلقًا الرأس المقطوع فى فضاء زمنى واسع الأرجاء. وأضاف الغيطانى إلى المتخيل الروائى المحسوب متخيلاً إضافيًا فى «حكاية الخبيئة»، مشيرًا إلى واقع يحتمل كل أنواع العبث واللامعقول. أضاءت هذه الروايات، بشكل مبدع، العلاقة بين التحولات الاجتماعية والأشكال الفنية، مصيّرة الشكل إلى مضمون والمضمون إلى شكل، ومبرهنة أنّ الشكل الروائى العربى، الممتد من بداية الستينيات إلى بدايات الثمانينيات، قد استنفد أغراضه.

أخذ المجاز مكانًا مسيطرًا فى عملين روائيين لبنانيين متميزين أولهما: «أهل الهوى» لهدى بركات، الذى محوَر قوله حول شخصية العاشق ـ المجنون، الذى ندد بمجتمع عشق الكراهية واعتبر الإنسان العاشق مجنونًا خطرًا، يُقصى إلى موقع لا يرتاده «فرسان الكراهية». وثانى العملين هو: «دنيا» لعلوية صبح، الذى يواجه العنف المادى بسيولة الكلام وقتام الكوابيس بديمقراطية الأحلام، ويجابه «المشلول المستبد» بجماليات نقيضه، التى تنقض الحكاية المستبدة المكتفية بذاتها بمتواليات حكائية متنوعة، تفصح عن سلطة الحياة المغايرة كليًا لحياة السلطة. ربما يكون مجاز «المشلول المستبد»، الذى صاغته الروائية برهافة نادرة، هو التعبير الأدق عن عالم عربى، يسوسه أموات يقتاتون بالأحياء. عارض السورى خالد خيفة، فى روايته «مديح الكراهية» ثقافة الموت المأخوذة بتجانس لا روح فيه، بتنوّع حكائى يدافع عن خصب الحياة، منتهيًا إلى تفاؤل مضمر، تحسنه العقول المضيئة، يرى فى الجسد الحى طاقة متمردة قادرة على ترويض صاحبها. ترك الروائى «الوعظ الأيديولوجى» القديم جانبًا، ونفذ إلى وجوه الحياة الخبيئة، التى تنتج ظاهرة وتخلق ما هو نقيض لها. وصل فى عمله إلى خلق روائى يقترب من الريادة، متوسلاً بنية حكاية متعددة المستويات.

رد الروائى العربى أيضًا على عالم مشبع بالقبح والعطن بلغة صقيلة متقنة، كما لو كان النثر فى ذاته أداة لتوصيل المعنى وتصورًا للعالم فى آن. استأنف هذا التصور تقليدًا دعا إليه إدوار الخراط، ومنحه أبعادًا جديدة. يظهر النثر الروائى المغسول من شوائبه فى عمل عزة القمحاوى: «غرفة ترى النيل»، التى تسرد بشجن مختنق احتضار زمن نظيف ليس له أنصار كثيرون فى هذا الزمان، موحية بأنّ اللغة الجميلة شكل من أشكال المقاومة. ويظهر النثر الصقيل فى عمل الأردنى إلياس فركوح «أرض اليمبوس»، الذى يوحد بين الرواية



والسيرة الذاتية، ويقرأ بطل إدوار الخراط بوقائع تاريخية متعددة، موسعاً ومعلقاً معناه عليه. إضافة إلى هذين العملين هناك عمل المصرى ياسر عبد الحافظ: «بمناسبة الحياة»، الذى يعطى درساً فى اقتصاد الكلام الدال. ينتقل المجاز، لدى ياسر، إلى حقل اللغة مستأنساً، فى زمن مختلف، بلغة الصمت التى جاء بها صنع الله إبراهيم ذات مرة. تمكن الإشارة، فى هذا المجال، إلى رواية: «أول النهار» للمصرى سعد القرش، الذى أعاد إنتاج ثلاثية محفوظ، بشكل خلاق، متمثلاً معنى استمرارية الحياة، متصرفاً بالمكان والزمان. لا تقصد هذه الإشارة المقارنة بين عملين روائيين، فهذا كلام لا يحمل الكثير من المعنى، بل تقصد التدليل على التزام الرواية بالدفاع عن القيم، داخل الكتابة وخارجها. فقد تطلع صنع الله إبراهيم، فى روايته «شرف»، بحنين كسير إلى حقبة ناصرية منقضية، بينما آثر سعد القرش حواراً مشرقاً مع نجيب محفوظ، يبرهن أن «أولاد محفوظ» لا يزالون على قيد الحياة.

المجاز الروائى الذى يكشف الواقع ويؤوله، واللغة التى تجمع بين التوصيل والتأويل والمقاومة.. أضافت الرواية العربية الجديدة إلى هذين العنصرين عنصراً ثالثاً، يليق بزمن يقمط القذارة بلباس حرير، عنوانه: السخرية السوداء، أو الكتابة الهجائية، التى يهمش فيها الشكل المضمون، كما لو كان الشكل فى ذاته هو المضمون الأكبر، عبث السورى فواز حداد بواقع عابث فى عمله المتميز «مشهد عابر»، ساخراً من المسافة الشاسعة بين المواضيع وأسمائها، إذ القاضى يشبه القاضى ولا يكونه، وإذ المحامى يمسح لقبه ويكون شيئاً آخر، وإذ الطفولة البريئة زمن لقيط تخالطه الدعارة. رفع اليمنى وجدى الأهدل، فى روايته «فيلسوف الكرانتينا» السخرية السوداء إلى مقامها الأعلى مذكراً، من بعيد، بأدب الكوابيس الذى اقترحه أورويل وألدس هكسلى وسويفت فى رحلات جوليفر. اقترح الروائى اليمنى منظوره شاهداً على واقع مغاير كل المغايرة، فلا مخابر تخترع البشر ولا موقع لسلطة تقنية تحول البشر إلى أقنعة متناظرة.. ضحك أسود يتطلع إلى الضحك السوى، أو ضحك مقهور أملته رقابة أقرب إلى «البلاء»، أدمنت النفاق وإعدام الحقيقة. على جهة أخرى، لها خصوصيتها المكانية والأسلوبية صاغ إبراهيم عبد المجيد عملاً روائياً لافتاً جديراً بالتأمل عنوانه: «عتبات البهجة»، التى هى «عتبات الكآبة»، ساخراً من الزمن وأحواله، ومن تغيرات الجسد والروح، ومسائلاً طفولة ما هى بالطفولة، وينظر بحزن عميق إلى بديل اجتماعى لا وجود له. صاغ عبد المجيد مسائل الحياة، الأكثر تعقيداً وشجناً، بوضوح شفيف، لا يحسنه إلاّ المبدعون الحقيقيون. تصدر جمالية «عتبات البهجة» عن سخرية واسعة مضمرة، تطفو على السطح بمقدار محسوب، وترتد ثانية إلى أعماق محتجبة مراوغة. «عتبات البهجة» ثناء على جماليات الحياة البسيطة، فى زمن همش الرصين والأسئلة المترصنة. تقيم هذه الجماليات علاقة بين رواية عبد المجيد ورواية «مواقيت التعرى» لهدرا جرجس زخارى، التى كشفت عن الجمال فى زوايا إنسانية خبيئة، كاشفة عن مفارقات الحياة، وناشرة منظوراً شفيفاً لا تعوزه الرهافة أبداً.

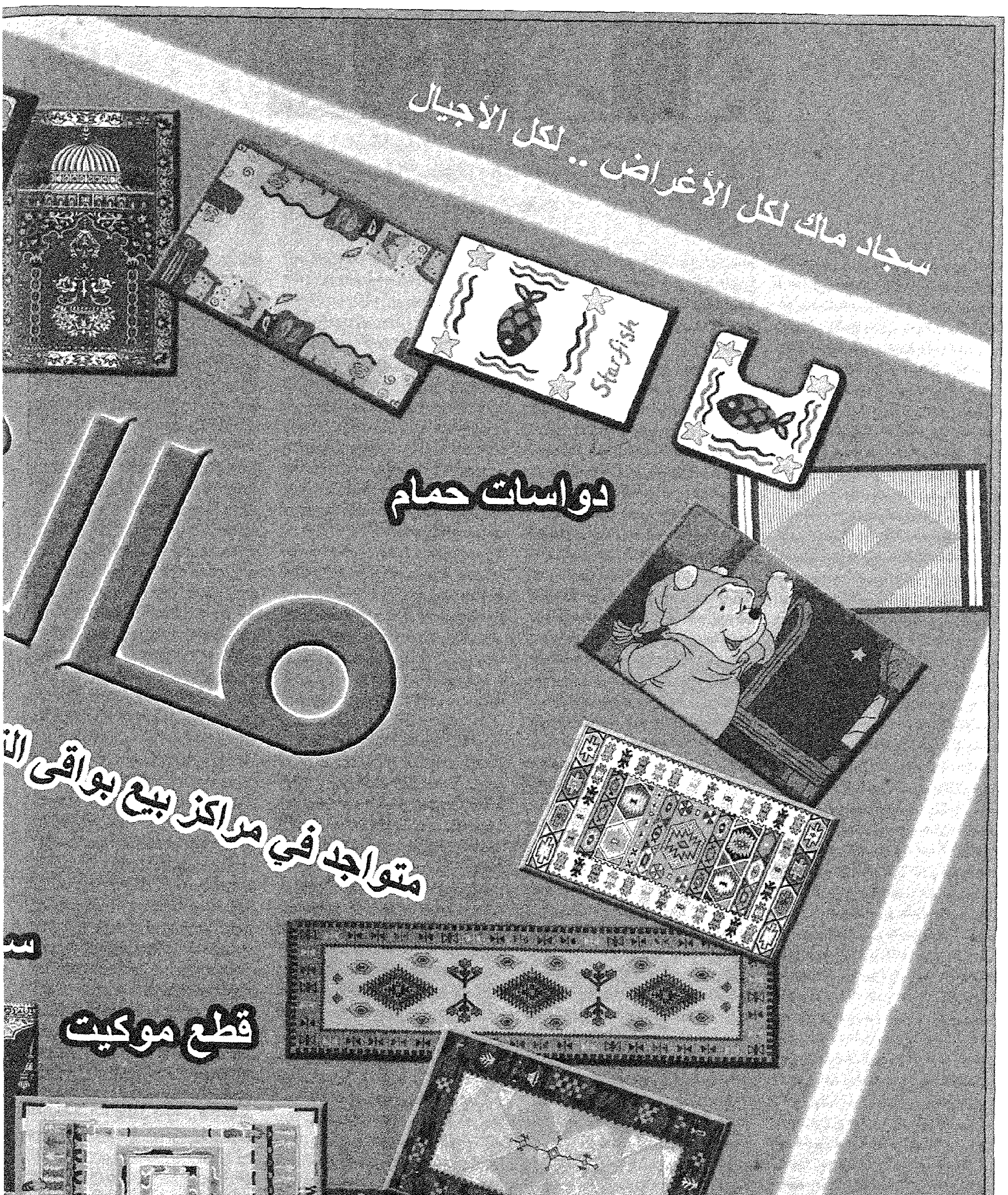
استأنفت «الرواية العربية الجديدة» تقنية السيرة الذاتية، وأمدتها بأبعاد جديدة. كان الراحل غالب هلسا، وغيره من جيل الستينيات، وقد مزج بين الرواية والسيرة الذاتية مؤكداً، غالباً، الكراهية المتبادلة بين المثقف والسلطة يقود موضوع السخرية، المؤسس على مبدأ المفارقة، إلى رواية محمد البساطى «جوع» التى عبثت، باقتصاد لغوى غير مألوف، بوجود عابث لا يعرف المنطق ولا يعترف به. وسعت الرواية، فى العقود الأخيرة، مساحة السيرة الذاتية وهمشت التداعى السلطوى، ناظرة إلى تداع اجتماعى أكثر قتاماً. تظهر، فى هذه الحدود، رواية مكاوى سعيد «تغريدة البجعة»، حيث السيرة الذاتية موقع تتقاطع فيه سير ذاتية متعددة، جاءت من مكان واضح الإضاءة وانتهت إلى لا مكان. فكل سيرة ذاتية تضاء بغيرها وتستضىء بها، قبل أن تسقط السيرتان فى الخراب، وكل سيرة ذاتية تضاء بنثار اجتماعى بائس، حالها حال الكتاب الذى أعطب صفحاته غبار شديد القذارة. تتساقط السير، تباعاً، من قارب هش مثقوب. وتظل السيرة الأخيرة السائرة إلى الموت. رثى جمال الغيطانى فى «شطح المدينة» زمناً مضى ورثى مكاوى سعيد ما تبقى من بشر الزمن المنقضى، معلناً تربع زمن قبيح على أطلال زمن كان يعد بالجمال. وعلى الرغم من اختلاف البنية الروائية، أخذت أمينة زيدان، فى «نبيذ أحمر» بتقنية قريبة، ذاهبة إلى جذور عطب كان مستتراً، تكشف بعد سقوط مدو لا يمكن حجبه. خلقت الروائية تصورها من مقولات فكرية مباشرة - أفكار اليسار - وسخرية مريرة، وخلقتها، أولاً، بلغة متوترة نافرة يخالطها الهذيان. حدثت بدورها عن موت الجمال وازدهار القبح. وإذا كان مكاوى سعيد قد أفصح عن منظوره فى استهلال فاجع عناصره البرد والليل الموحش والأرواح الجافة، فقد استهلت زيدان عملها بإشارة إلى أب مبتور الساق، لا تسعف «القلب الدافئ» على السير طويلاً. ربما كان فى ركون الرواية إلى شكل السيرة الذاتية دفاع عن ذات مفردة مغتربة تواجه مجموعاً بشرياً لا شكل له، ذلك أن الذات شكل، بينما المجموع ركام لا شكل له، يرفض الأشكال والذوات المستقلة معاً.

كان الروائى العربى، فى زمن مضى يضع ذاته «داخل السرد»، مقنعاً ذاته بصحة قوله، ومحاولاً أن يقول للآخرين بأنه يقول بالحقيقة. فعل هذا غسان كنفانى فى «رجال فى الشمس»، وفعله أيضاً حليم بركات فى عمل رؤيوى لامع هو «ستة أيام». ابتعد بعض الروائيين، بعد أن أدركه اليأس، عن مركز الرواية وعن هامشها أيضاً، مؤثراً تصويراً طبيعياً، إن صح القول، يعطى الأشياء كما هى، دون زيادة أو نقصان مقترباً، ربما، مما يمكن أن يدعى بـ «الواقعية القذرة»، التى تحاول القبض على واقع طافح بالقذارة. مهد حمدى أبو جليل لهذا المنظور، ورفعه محمد الفخرانى إلى مرتبة جديدة فى عمله «فاصل... للدهشة»، حيث البشر شظايا تستعصى على الشكل والتشكيل، وحيث للبشر، الذين أوجل دفنهم، لغة وبيوت وهموم على صورتهم. لن تكون حكاية الشظايا البشرية إلا شظايا حكائية أو صوراً متجاورة متراصفة، تتكاثر وتتوالد ولا تعثر على ملامحها. أراد الفخرانى أن يترجم تداعى الواقع، بشكل روائى متداع، يصرح بالتجريب الروائى الشجاع، قبل أن يصرح بشىء آخر. لا غرابة أن يفقد البشر ملامحهم، ذلك أن الملامح الواضحة تعبير عن ارتقاء، وأن لا يكون لهم أسلوب لغوى، لأن الأسلوب الواضح والشخصية الفعلية لا ينفصلان. ربما يشكل موضوع «غياب ملامح الشخصيات الروائية» مدخلاً واسعاً للزمن الاجتماعى، الذى ارتد بعيداً إلى زمن المجتمعات المغلقة، التى لم تكن تعرف معنى الفرد والحوار بين الأفراد.

كل شىء يموت، أو يتطلع إلى الموت: بطل القمحاوى فى «غرفة ترى النيل»، إن لم تخطئ الذاكرة العنوان، وبطل سعد مكاوى فى «تغريدة البجعة» وحاملة القول فى «دنيا» علوية صبح، والإنسان الجميل فى «نبيذ أحمر»... أنهى بهاء طاهر عمله الكبير «واحة الغروب» بانتحار «إنسان تنويرى»، عانت نفسه خراب الفرد والمجموع، فأشعل النار بـ «الأصل» القديم، وطالب ببدء جديد متحرر من جميع «الأصول». انتهى زمن اليقين، وإن كانت آثار «اليقين اللاعقلانى المتعدد الأطياف» قائمة فى مجتمعات عربية تشبه الأنقاض، أو فى أنقاض بشرية تشبه المجتمعات.

تتعامل الرواية العربية مع واقعها متمسكة بمنطق المفارقة، تصف الموات وتقتفى آثاره، وتبرهن أن الكتابة وتوليد الأشكال فعل مقاوم يدافع عن الحياة. تنقض الرواية مدينة ظالمة مؤثثة بالكوابيس وترنو، بثبات مجيد، إلى مدينة فاضلة، قائمة، فى مكان ما. ■

على الرغم من اختلاف البنية الروائية، أخذت أمينة زيدان، فى «نبيذ أحمر» بتقنية قريبة، ذاهبة إلى جذور عطب كان مستتراً، تكشف بعد سقوط مدوٍ لا يمكن حجبه


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

جهاد فاضل

■■ للبنان مكانة خاصة فى سيرة الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب الذاتية والفنية. فقد زار لبنان لأول مرة وهو فى العاشرة من عمره من ضمن عمله فى فرقة نجيب الريحانى. وأكثر ما لفت نظره فى تلك الزيارة المبكرة، كما يروى فى ذكرياته، رقصة الدبكة اللبنانية والأغانى الشعبية التى تصاحبها. ولكن الذى جعل عبدالوهاب يزور لبنان فيما بعد، ويعتاد لاحقًا على زيارته، كلما سنحت له الفرص، كان أمير الشعراء أحمد شوقى. وإذا صح أن عبدالوهاب بات عضواً فى شلة شوقى، أو ملازماً له، وهو فى حدود السابعة عشرة من عمره، فمعنى هذا أن زيارته الثانية للبنان تمت وهو دون العشرين، وبصحبة شوقى بلا شك.

وقد دأب شوقى بعد ذلك على اصطحاب عبدالوهاب معه إلى لبنان فى فصل الصيف عادة. وكثيراً ما أحيا عبدالوهاب حفلات غناء فى ربوعه.

فنحن نعلم، على سبيل المثال، أن عبد الوهاب تردد مرة فى إحياء حفلة غنائية كان سيقيمها فى مدينة عالية عندما قرأ فى إحدى الصحف المصرية نعى والده الشيخ عبدالوهاب الشعرانى. قرأ عبدالوهاب الخبر قبل ساعات من موعد الحفلة وقرر فى البداية الاعتذار عن الغناء. ولكن شوقى، ومعه الدكتور طه حسين الذى كان يصطاف فى عالية أيضًا، أقنعاه بالغناء على أساس أن الغناء ليس فرحًا فقط، وإنما هو شجن وألم أحيانًا. فاستسلم عبدالوهاب لمشيئتهما وغنى بشجن وألم..

ويستمر عبدالوهاب فى زيارة لبنان بعد رحيل شوقى، وتقوى روابطه الذاتية والفنية به، ولدرجة القول إن البحث فى سيرته الفنية العامة يظل ناقصًا إن أهمل الباحث الفصل اللبنانى فى هذه السيرة. فإلى لبنان تردد كثيراً فى صباه، وفى كهولته، وفى شيخوخته. وظل لبنان فى ذاكرته مرادفًا للجمال والفن والأدب. وفى لبنان أحب عبدالوهاب سيدة لبنانية حبًا شغله سنوات وكاد يتزوج من هذه السيدة لولا ظروف قاهرة. وقد ظل هذا الجرح العاطفى اللبنانى ينزف سنوات فى قلبه، ولم يختم نهائيًا، كما ذكر مراراً فى مجالس خاصة. وفى لبنان يلتقى عبدالوهاب بفيروز ويلحن لها أغانى جميلة منها قصيدة «سكن الليل» لجبران خليل جبران، وقصيدة «مر بى يا واعداً وعداً» لسعيد عقل. وفى لبنان يلتقى بالشاعر الكبير الأخطل الصغير، ويقيم معه نوعًا من «شراكة فنية» لها مكانة خاصة فى تراثه. ولو أن الأخطل الصغير استجاب لدعوة عبدالوهاب له

"بين الأخطل الصغير



ما غناه عبدالوهاب للأخطل الصغير، على ضآلته، يفسح له مكانة كريمة في سيرة الموسيقار الكبير

إلى مصر سعياً لمزيد من التعاون المشترك بينهما، لكان أثر الأخطل في سيرة عبدالوهاب لا يقل خطورة عن أثر شوقي. ولكن، لسبب ما، لم يلبِّ الأخطل دعوة عبدالوهاب الملحة لزيارة القاهرة والإقامة فيها ولو إلى حين ضيفاً عليه. كما لم يلبِّ أيضاً دعوة حارة أخرى لنظم قصيدة خاصة حدد له عبدالوهاب موضوعها، أو مواصفاتها، على وجه التحديد، من أجل أن يغنيها في فيلم له، متعاوناً فيه مع أنور وجدي.

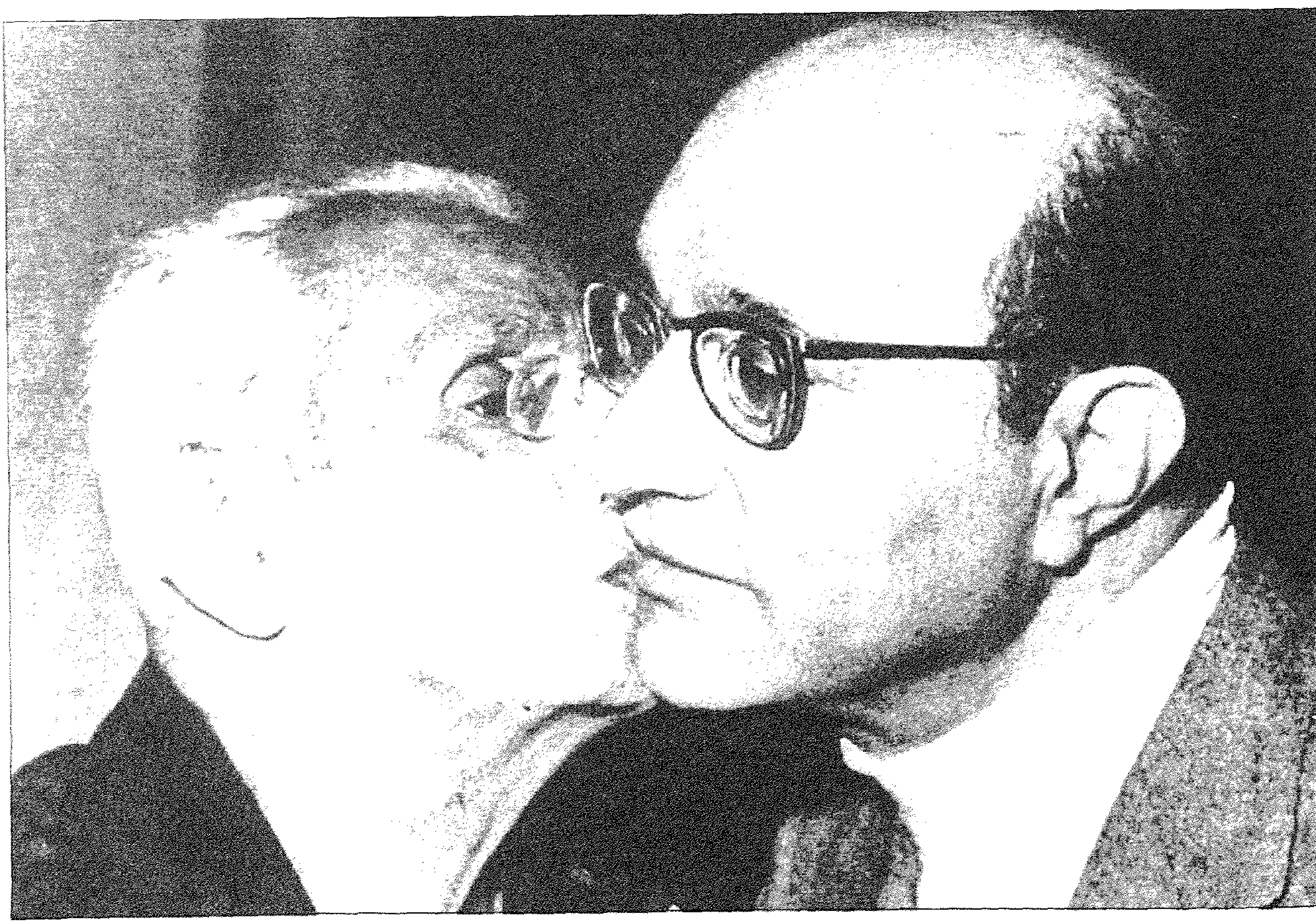
على أن ما غناه عبدالوهاب للأخطل الصغير، على ضآلته، (خمس قصائد إحداها في مدح الملك فاروق وهي شبه مجهولة) يفسح للأخطل مكانة كريمة في سيرة عبدالوهاب.

وكان عبدالوهاب سعيداً بالصلة التي ربطته بالأخطل، شخصياً وفنياً على السواء. فقد كان يعتبر الأخطل من أجود شعراء الغزل. وكان الأخطل مرتبطاً في ذهن عبدالوهاب بالكلمة الأدبية الأنيقة. وكان يقول إنه لم يبذل جهداً يُذكر في تلحين القصائد التي غناها له، لأن هذه القصائد كانت ملحنة بطبيعتها. ولعل سحابة واحدة في العتب شابت علاقتهما تتعلق بقصيدة «اسقنيها بأبي انت وأمي» التي أعجبت عبدالوهاب كثيراً وطلب من الأخطل أن يغنيها. إلا أن ظرفاً ما جعل الأخطل يهبها لأسمهان. وكان عبدالوهاب ينسب ذلك إلى سحر المرأة وتأثيرها في قلوب الشعراء..

بداية معرفة عبدالوهاب بالأخطل الصغير تثير بعض الإشكالات. أو لنقل إنها بداية ملتبسة إذا اعتمدنا رواية عبدالوهاب لها، كما هي واردة في حواره مع سعد الدين وهبة. في حين أن رواية الأخطل لهذه البداية، وهي واردة في حديث للأخطل مع مجلة الحوادث اللبنانية (عدد ٥٠٠ تاريخ ١٠ حزيران ١٩٦٦)، تبدو طبيعية أكثر، وواقعية. تعرف عبدالوهاب على الأخطل في بيت الرئيس اللبناني شارل دباس في مدينة عالية عندما أقام دباس مأدبة على شرف أمير الشعراء شوقي. أما عبدالوهاب، وكان ذلك في أواخر حياته، وكثيراً ما كانت ذاكرته تخونه، فقد روى حول هذا اللقاء رواية غريبة لا يمكن اعتماد الكثير مما ورد فيها، للأسباب التي سنشير إليها.

قال عبدالوهاب لسعدالدين وهبة، باللهجة العامية المصرية: أنا عرفت بشارة الخوري في منزل رئيس جمهورية الشام وكان اسمه محمد علي العبد وكان عامل

وعبد الوهاب»



شراكة فنية قامت بين عبدالوهاب والأخطل الصغير أثمرت خمس أغنيات

حفلة لشوقى زى المعتاد يعنى ماهياش حاجة غريبة. ناس كتير جداً ووقت البوفيه وقفنا. كل واحد يقف فى حتته، أنا بعدت عن شوقى لأن شوقى متلفين عليه الحكام والجماعة الكبار وبتاع وأنا واقف فى حتة. فواحد من بيت العضمة قاللى: أنا محمود العضمة. قلت أهلاً وسهلاً يا فندم. قاللى:

إيه رأيك فى البيتين دول يا فلان، قلت له أفندم، قاللى:

الهوى والشباب والأمل المنشود
توحى فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المنشود
ضاعت جميعها من يديا
يشرب الكأس ذو الحجى ويبقى
لغد فى قرارة الكأس شيا
لم يكن لى غد. فأفرغت كأسى
ثم حطمتها على شفتيا

أنا يعنى أعجبت قوى بالأبيات وقلت له دى أبيات جميلة جداً بتاعة مين. قاللى بتاعة الراجل اللى واقف جنبنا. مين؟ قال لى: الأخطل الصغير، قلت له: ومين الأخطل الصغير ده، قاللى بشارة الخورى. قلت له طيب يا فندم رحت مسلم عليه أهلاً أستاذ بشارة أنا سعيد جداً بحضرتك وأرجو أنك أنت يعنى ما تقدرش تكمل لى الأبيات دى بيتين تلاتة أربعة كمان عشان نقدر نسجلها، قاللى آه بكل ممنونية. قلت له طبعاً وانت قاعد فين بتشتغل فين. قاللى قاعد فى بيروت. فين؟ كان له جريدة بيطلعها اسمها البيرق أو البرق، حاجة زى كده. وعرفته وتعرفت به بقى من يومها وبقينا على اتصال والحاجة الغريبة بأن أنا سجلتها وأنا بعيد عنه يعنى مش قريب منه. يعنى بعتها لى فى جواب كنت فى برلين بسجل أغانى الوردة البيضاء لأن ما كناش بنسجل ولو أن أنا عملت الوردة البيضاء فى باريس لكن التسجيل كان فى برلين لأنهم كانوا مشهورين أنهم بيسجلوا كويس.

● غنيت حاجة تانية لبشارة الخورى؟

- آه أمال وبعت لى فى نفس الجواب اللى بعتهولى وبعته على الأستاذ. بيضا . اللى هو كان شريكى كان صاحب شركة بيضافون واللى عملنا أنا وهوه الفيلم بعت لى معاه برضه فى نفس الجواب جفنه علم الغزل فالاتنين دول لحنتهم فى برلين وغنيت واحدة على فرقة وغنيت التانية بالعود وهى الهوى والشباب.

هذا ما قاله عبدالوهاب لسعد الدين وهبة حرفياً. قال إنه تعرف على بشارة الخورى، أو الأخطل الصغير، فى منزل رئيس جمهورية الشام محمد على العبد خلال حفل أقامه هذا الرئيس على شرف شوقى، وأن أحد المدعوين إلى الحفل، واسمه محمود العضمة لفت نظره إلى وجود شاعر اسمه بشارة الخورى فى الحفل، وهذا الشاعر صاحب قصيدة غزلية عظيمة هى التالية:

الهوى والشباب والأمل المنشود
توحى فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المنشود
ضاعت جميعها من يديا
يشرب الكأس ذو الحجى ويبقى
لغد فى قرارة الكأس شيا
لم يكن لى غدٌ فأفرغت كأسى
ثم حطمتها على شفتيا

قال عبدالوهاب هذا الكلام لسعد الدين وهبة فى أواخر حياته، أى بعد أن تجاوز الثمانين من عمره. اختلطت لديه الذكريات، وخانته قبل كل شىء ذاكرته. جرى هذا الحفل الذى حضره عبدالوهاب تكريماً لشوقى فى النصف الأول من العشرينيات من القرن الماضى. وروى عبدالوهاب ما بقى من ذاكرته عنه بعد مضى أكثر من ستين عاماً على حصوله. فمن الطبيعى أن يخطئ فى سرد وقائعه. ولكنه أخطأ خطأ فاحشاً عندما ذكر أنه حصل فى «الشام»، لا فى مدينة عالية، وفى منزل رئيس جمهورية الشام محمد على العبد. لا فى منزل رئيس جمهورية لبنان شارل دباس. ليس فى تاريخ سوريا الحديث، وفى حقبة الانتداب الفرنسى بالذات، رئيس جمهورية اسمه محمد على العبد. ولأن «الشام» فى الذهن المصرى تشمل لبنان أيضاً، فلربما اعتبر لبنان شاماً، أو بحكم الشام. ولكن إذا أمكن اعتماد هذا التفسير، فكيف يمكننا اعتماد محمد على العبد رئيساً للجمهورية، ثمة إذن «لخبطة» فى السرد، وخيانة من الذاكرة، مبعثها مرور الزمن، والسرد السريع للأحداث.

إن من يقرأ حوار سعد الدين وهبة مع محمد عبدالوهاب، سيلاحظ وجود شطحات كثيرة من هذا القبيل. ولكن هذه الشطحة تفوق أية شطحة أخرى، وتعزز رأى الكثيرين فى كون هذا الحوار مليئاً بثغرات كثيرة. أجرى عبدالوهاب هذا الحوار على عجل، ولم يعد إليه بعد ذلك لمراجعته.

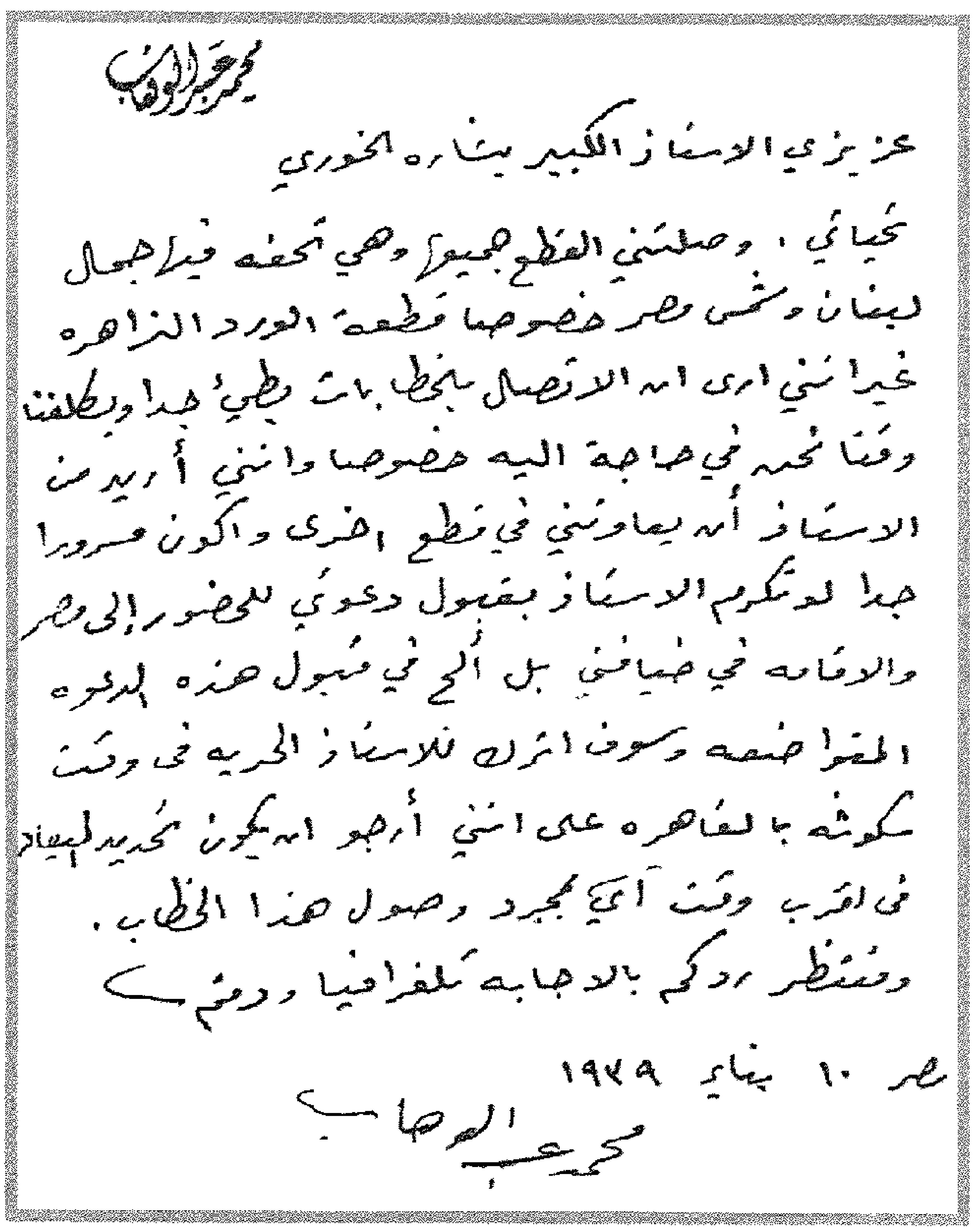
على أن الأخطل روى هذا اللقاء الأول له مع شوقى، وضمنّا مع عبدالوهاب، فى حوار له مع مجلة «الحوادث» كما أشرنا.

قال إن لقاءه الأول بشوقى كان فى مدينة عالية، وفى بيت رئيس الجمهورية شارل دباس، حيث يتعرف الأخطل على عبدالوهاب، وحيث يقول شوقى لعبدالوهاب: إن الأخطل شاعر مبدع وعليه أن يلتفت إلى شعره.

من الأدلة على أن عبدالوهاب قد خانته ذاكرته فى الكثير مما رواه لسعد الدين وهبة، أنه ذكر أن قصيدة «يا شراعاً وراء دجلة يجرى»، هى للأخطل الصغير، فى حين أنها لشوقى، ولكن سعدالدين وهبة يلفت نظره إلى ذلك، فيتراجع.

المهم أن شراكة فنية قامت بين عبدالوهاب والأخطل الصغير أثمرت خمس أغنيات عرف بعضها، أو أكثرها، نجاحاً مذهلاً، وأنه استقر فى ذهن عبدالوهاب أن الأخطل الصغير شاعر غزل من الدرجة الأولى وأن عليه أن ينتفع بشعره أيما انتفاع. وقد بلغ من إعجابه به أنه دعاه للحضور إلى مصر والإقامة فى ضيافته، وألح عليه فى قبول هذه الدعوة على النحو الوارد فى رسالته إليه، والتى كتبها عبدالوهاب بنفسه:

عزيزى الأستاذ الكبير بشارة الخورى. تحياتى. وصلتنى القطع جميعها، وهى تحفة فيها جمال لبنان وشمس مصر، خصوصاً قطعة الورد الزاهرة. غير أننى أرى أن الاتصال بالخطابات بطىء جداً، ويكلفنا وقتاً نحن فى حاجة إليه، خصوصاً أننى أريد من الأستاذ أن يعاوننى فى قطع أخرى.


محمد عبدالوهاب
عزيزي الاستاذ الكبير بشاره الخوري
تحياتي . وصلتني القطع جميعا وهي تحفه فيها جمال لبنان وشمس مصر خصوصا قطعة الورد الزاهره
غير انني ارى ان الاتصال بالخطابات بطيء جدا ويكلفنا وقتا نحن في حاجة اليه خصوصا وانني اريد من الاستاذ ان يعاونني في قطع اخرى واكون مسرورا جدا لو تكرم الاستاذ بقبول دعوتي للحضور الى مصر والاقامه في ضيافتي بل ألح في قبول هذه الدعوه المتواضعه وسوف اترك للاستاذ الحريه في وقت سكونه بالقاهره على انني أرجو ان يكون تحديد الميعاد في اقرب وقت ممكن بمجرد وصول هذا الخطاب .
ومنتظر ردكم بالاجابة تلغرافيا ودمتم
مصر ١٠ يناير ١٩٢٩
محمد عبدالوهاب

قصيدة «جفنه علم الغزل» هي من شعر الغزل الذي برع فيه الأخطل



الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب.. صداقة وطيدة مع الأخطل الصغير، غنى له: جفنه علم الغزل، يا ورد مين يشتريك، الصبا والجمال، الهوى والشباب، وفي الصورة حفل عشاء يجمع العملاقين

وأكون مسروراً جداً لو تكرم الأستاذ بقبول دعوتي للحضور إلى مصر، والإقامة في ضيافتي، بل ألح في قبول هذه الدعوة المتواضعة. وسوف أترك للأستاذ الحرية في وقت مكوثه بالقاهرة، على أنني أرجو أن يكون تحديد الميعاد في أقرب وقت، أي بمجرد وصول هذا الخطاب. وننتظر ردكم بالإجابة تلغرافياً ودمتم. مصر في ١٠ يناير ١٩٣٩ . محمد عبدالوهاب.

لا ندري الآن ما إذا كان الأخطل قد رد، أم لم يرد، على دعوة عبدالوهاب. قد يكون اعتذر عن عدم قدرته على تلبيتها لأكثر من سبب. لعل الأخطل فهم من رسالة عبدالوهاب أن المطرب الكبير يريد أن يوصيه على «قصائده» لمناسبات معينة، تتصل بفيلم من الأفلام أو بغير فيلم، وأن الأخطل وجد أنه غير صالح لنظم قصائد موصى عليها وغير منبثقة انبثاقاً طبيعياً عن ذاته. الشاعر عادة ينظم ما يفيض به خاطره، ولا ينظم حالات نفسية أو وجدانية يوصيه عليها آخرون. ولعل الأخطل أنف من أداء هكذا مهمة، ووجد أن بعض شعراء مصر، كأحمد رامي على سبيل المثال، يمكنهم أن يؤدوا هذه المهمة أفضل منه. ناهيك عن أن الأخطل كان شاعراً مقلا نسبياً، كما كان نظم الشعر، بالنسبة إليه، نوعاً من عذاب حقيقي. لذلك فضل عدم ولوج هذه التجربة المرة، والبقاء في لبنان بعيداً عن مثل هكذا مهمات شعرية وجد أنه لا يستطيع القيام بها، أو أنها لا تليق به.

وقد يكون موقف الأخطل، بحسب التفسير الذي أعطيناه له، سليماً من الناحية الشعرية، أو الأخلاقية المحضة. شاعر لا يريد أن ينظم القصائد بأجر، وعلى مقاس هذه العاطفة، أو هذه الحالة، وسواها.

ولكن الأخطل، بنظر آخرين، فوت فرصة ذهبية كان عليه اقتناصها بلا تردد، لمصلحة شعره وذيوع شهرته. فعبدالوهاب كان مطرباً عظيماً يومها. كان مطرب الملوك ومطرب الشعوب. وقد ارتبط اسم هذا المطرب بشاعر كبير كان يجله الأخطل أيما إجلال، ويعرف علو منزلته في عالم الشعر، هو أمير الشعراء شوقي الذي قال له في حفل شارل دباس في عالية: «كنت سترثيني». قال له شوقي ذلك بعد تعرضه لحادث سير وهو في طريقه إلى بيت الرئيس، ووصوله إلى هذا البيت أصفر الوجه متعباً، جراء هذا الحادث. وعندما رثى الأخطل شوقي بعد ذلك في حفل تأبينه في القاهرة بقصيدة مطلعها:

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره
فسدرة المنتهى أدنى منابره

ذكر هذه الواقعة في بعض أبيات القصيدة:

شوقي! أتذكر إذ عالية موعدنا
نمنا ومانام دهر عن مقادره

وانت تحت يد الأسى ورأفته
وبين كل ضعيف القلب خائره

ولابتسامتك الصفراء رجفتها
كالنجم خلف رقيق من ستائره

ونحن حولك عُكاف على صنم
في الجاهلية ماضي البطش قاهره

سألتنيه رثاء خُذه من كبدي
لا يؤخذ الشيء إلا من مصادره

لقد كان يتعين على الأخطل، بنظر هؤلاء، أن

بين الأخطل الصغير وعبدالوهاب

يحذو حذو شوقي في الاهتمام بعبدالوهاب، وتزويده بالتالي بقطع من شعره يغنيها. فعل ذلك شوقي، وعاد عليه هذا الذي فعله بالخير الوفير. إن عبدالوهاب هو الذي نقل شوقي من الدواوين إلى حياة الناس. كانت قصائد شوقي قبل عبدالوهاب مبثوثة في أعماله المطبوعة التي لا يقرأها إلا قلة قليلة من المثقفين، فجعلها عبدالوهاب شائعة على كل شفة ولسان. وقد كان جديراً بالأخطل، وهو شاعر نواسي مثل شوقي، أن يسير على درب شوقي في رعاية هذا المغني العظيم المهتم بشعر الغزل، وفي التعاون المستمر معه، بعد رحيل شوقي، خاصة أن شوقي وجه الاثنين إلى هذا التعاون. ثمة خطأ تاريخي ارتكبه الأخطل قد يكون من أسبابه نشوب الحرب العالمية الثانية، وهي الفترة التي دعا فيها عبدالوهاب إلى قيام هذا التعاون وتنظيمه. وقد يكون من هذه الأسباب تنائي الديار، وصعوبة الاتصال السريع بين الشاعر اللبناني والفنان المصري. وقد يكون في عداد هذه الأسباب أن الأخطل الصغير كان نوعاً من شجرة لبنانية أصيلة يمكن أن تصاب بالسقم إذا انتقلت من تربة إلى تربة. والمعروف أن الأخطل كان موزعاً على مطارح وأمكنة لهو وسمر لبنانية، وعلى حلقات منادمة. فهل خشي من الشعور بالوحدة في القاهرة، ومن خيانة قرينه له فيما لو أوصاه عبدالوهاب على قصيدة، وخانه عندها شيطان شعره؟

ليس فيما وصلنا من وثائق سيرة الأخطل ما يجيب عن مثل هذه التساؤلات. ولكن الأخطل، وحتى الحصول على أجوبة شافية بخصوصها، ارتكب بنظر الكثيرين، خطأ كبيراً لا يُغتفر. كان عبدالوهاب مطرباً في القمة، وكان باستطاعته أن يأخذ الأخطل معه إلى هذه القمة وإلى أي مكان. كان باستطاعة الأخطل أن يتملص من «قصائد التوصية»، وأن يزود عبدالوهاب بقصائده العظيمة الأخرى، وأن تنشأ بينه وبين عبدالوهاب علاقة فنية تاريخية أقوى مما حصل عملياً بينهما، علاقة يحل فيها الأخطل في فن عبدالوهاب مكانة شوقي في هذا الفن. ولكن الأخطل، فيما يبدو، لم يعرف أن ينتفع من هذه الفرصة التي سنحت، وضاعت!

كانت الكلمة عشق محمد عبدالوهاب الثاني بعد الموسيقى. وعلى الرغم من كل القصائد العامية التي غناها، فقد كانت عينه على الدوام على القصائد المكتوبة بالفصحى. ولا شك أن هذا الاهتمام بقصائد الفصحى مرده صداقة أمير الشعراء شوقي، وبث شوقي بذرة الثقافة الرفيعة في وجدان هذا المطرب الذي لم ينل في صباه حظاً يُذكر من التعليم، ولكنه أمسى مع الوقت شخصية فنية وثقافية أيضاً. ونلمس مدى اهتمامه بشعر الفصحى من أغانيه التي غناها من هذا الشعر، وفي تنبؤه بأن هذا الشعر وحده سيكون شعر الغناء في المستقبل. وهو تنبؤ لم يصح مع الأسف.

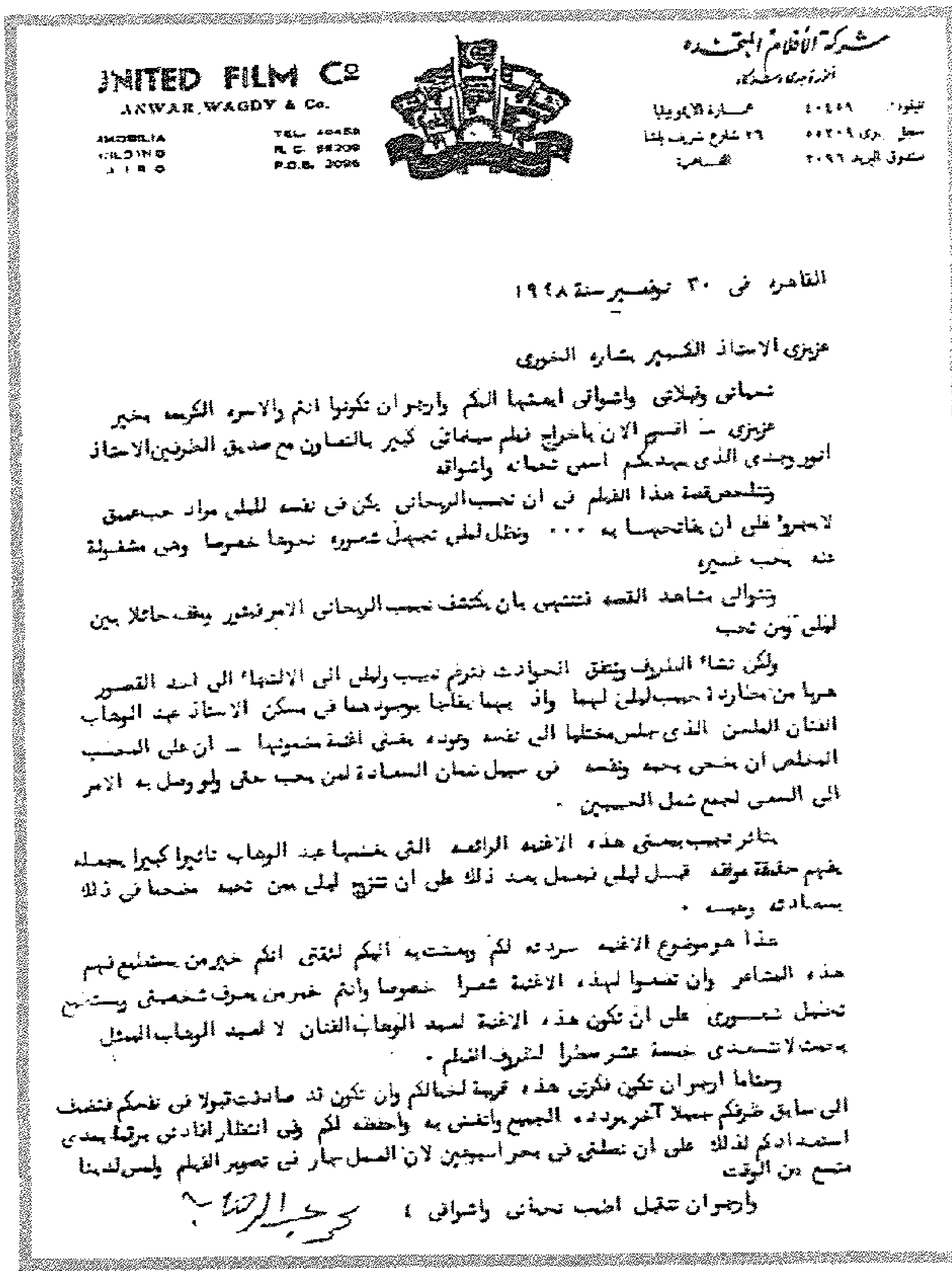
ومن قرأ حوارات، أو ذكريات محمد عبدالوهاب، المبثوثة في مصادر مختلفة، يجده يتوقف ملياً عند شعر الأخطل الصغير، وارتباط هذا الشعر عنده بأمرين: الأول هو الغزل. فشعر الأخطل مرادف عنده لشعر الحب والعشق. والواقع أن معظم ما غناه عبدالوهاب من شعر الأخطل، ماعدا القصيدة التي يمدح فيها الأخطل الملك فاروق، هو شعر غزل بالغ الحرارة، مشحون بالمشاعر الدافئة. أما الأمر الثاني فهو أن هذا الشعر مرتبط في ذهنه بالكلمة الأدبية الأنيقة، وذات المقام الرفيع في أدب الضاد وشعرها.

وعلى ضآلة ما غناه عبدالوهاب للأخطل، وبعضه لحنه وسجله على عجل في برلين، فإن له مكانة كريمة في تاريخ عبدالوهاب الفني والغنائي. لقد اجتمع في هذا الغناء النص الجميل النبيل، واللحن البسيط القوي معاً، والصوت العظيم الذي كان في تلك الفترة في أوجه. ومتى اجتمعت هذه العناصر الثلاثة في أغنية، شقت هذه الأغنية طريقها بيسر نحو النجاح والبقاء.

أول قصيدة غناها محمد عبدالوهاب للأخطل الصغير هي قصيدة قليلة الأبيات أعجب بها عبدالوهاب أيما إعجاب وطلب من صاحبها فيما بعد أن يزيد في عدد أبياتها كي تؤلف أسطوانة كاملة، وكي لا يضطر إلى ترداد بعض أبياتها كثيراً لتؤلف مثل هذه الأسطوانة. وهذه هي أبيات القصيدة بعد إضافات الأخطل، ومع الإشارة إلى أن عبدالوهاب لم يغن البيتين الأخيرين منها:

الهوى والشباب والأمل المنشود
توحي فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المنشود
ضاعت جميعها من يديا
يشرب الكأس ذو الحجى ويبقى
لغد في قرارة الكأس شيا
لم يكن لي غدٌ فأفرغت كأسي
ثم حطمتها على شفتيا
أيها الخافق المعذب يا قلبي
نزحت الدموع من مقلتيا
أفحتم علي إرسال دمعي
كلما لاح بارق في محيا
يا حبيبي لأجل عينيك ما ألقى
وما أول الوشاة عليا
أنا العاشق الوحيد لتلقى
تبعات الهوى على كتفيا
اسقني من لماك أشهى من الخمر
ونم ساعة على راحتيا
أنا ماضٍ غداً مع الفجر فاسكب
نغمات الحنان في أذنيا..

أما القصيدة الثانية التي غناها عبدالوهاب للأخطل، فهي «الصبا والجمال»، وهي قصيدة غزلية دافئة ادعت أكثر من سيدة لبنانية أن الأخطل قالها فيها. وعندما كانت إحدى هؤلاء السيدات تسأل الأخطل عما إذا كانت هي التي ألهمته هذه القصيدة، فقد كان يجيب: «بتليقلك كثير.. أكيد كانت من وحيك».. وقد كرر الأخطل مثل هذا القول لعشرات السيدات الجميلات اللواتي سألنه عمن ألهمه هذه القصيدة. على أن الواقع الذي رواه الأخطل الصغير مرة، وهمساً بالطبع، هو أن هذه القصيدة كانت من وحي انتخاب الآنسة (يومها) جميلة حداد (زوجة الدكتور سعد الله الخليل فيما بعد) ملكة جمال لبنان، ذات ليلة في أوتيل القاصوف في الشوير. كان الأخطل الصغير من بين من حضر تلك الليلة، وبعد إعلان النتائج كان الأخطل يسجل على ورقة في جيبه نواة هذه القصيدة التي اكتملت في اليوم التالي:


شركة الأفلام المتحدة
UNITED FILM Co
ANWAR WAGDY & Co.

القاهرة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٨

عزيزي الاستاذ الكبير بشاره الخوري

تحياتي وقبلاتي واشواقي ابعثها لكم وارجو ان تكونوا انتم والاسره الكريمه بخير

عزيزي ـ اقوم الان باخراج فلم سينمائي كبير بالتعاون مع صديق الطرفين الاستاذ انور وجدي الذي يهديكم اسمى تحياته واشواقه

وتتلخص قصة هذا الفلم في ان نجيب الريحاني يكن في نفسه لليلى مراد حب عميق لايجرؤ على ان يفاتحها به ... وتظل ليلى تجهل شعوره نحوها خصوصا وهي مشغولة عنه بحب غيره

وتتوالى مشاهد القصه فتنتهي بان يكتشف نجيب الريحاني الامر فيقف حائلا بين ليلى ومن تحب

ولكن تشاء الظروف وتتفق الحوادث فترغم نجيب وليلى الى الالتجاء الى احد القصور هربا من مطاردة حبيب ليلى لهما واذ بهما يفاجأ بوجودهما في مسكن الاستاذ عبد الوهاب الفنان الملهم الذي يجلس مختليا الى نفسه وعوده يغني اغنية مضمونها ـ ان على المحب المخلص ان يضحي بحبه ونفسه في سبيل ضمان السعادة لمن يحب حتى ولو وصل به الامر الى السعي لجمع شمل الحبيبين .

تتأثر نجيب بمعنى هذه الاغنيه الرائعه التي يغنيها عبد الوهاب تأثيرا كبيرا يجعله يفهم حقيقة موقفه فيسأل ليلى فيعمل بعد ذلك على ان تتزوج ليلى ممن تحبه مضحيا في ذلك بسعادته وحبه .

هذا هو موضوع الاغنيه سردته لكم وبعثت به اليكم لثقتي انكم خير من يستطيع فهم هذه المشاعر وان تضعوا لهذه الاغنية شعرا خصوصا وانتم خير من يعرف شخصيتي ويستطيع تحليل شعوري على ان تكون هذه الاغنية لعبد الوهاب الفنان لا لعبد الوهاب الممثل بحيث لا تتعدى خمسة عشر سطرا لظروف الفلم .

وختاما ارجو ان تكون فكرتي هذه قريبة لخيالكم وان تكون قد صادفت قبولا في نفسكم فتضيف الى سابق فضلكم جميلا آخر يردده الجميع واغني به واحفظه لكم وفي انتظار افادتي برقيا بمدى استعدادكم لذلك على ان نلتقي في بحر اسبوعين لان العمل جار في تصوير الفلم ولم يبق لدينا متسع من الوقت

وارجو ان تتقبل اطيب تحياتي واشواقي ،

الصبا والجمال ملك يديك
أى تاج أعز من تاجيك
نصب الحسن عرشه فسألنا
من تراها له، فدل عليك
فاسكبى روحك الحنون عليه
كانسكاب السماء فى عينيك
كلما نافس الصبا بجمال
عبقرى السنا، نماه إليك
ما تغنى الهزار إلا ليلقى
زفرات الغرام فى أذنيك
سكر الروض سكرة صرعته
عند مجرى العبير من نهديك
قتل الورد نفسه حسداً منك
وألقى دماه فى وجنتيك
والفراشات ملت الزهر لما
حدثتها الأنسام عن شفتيك
رفعوا منك للجمال إلهًا
وانحنوا سجدا على قدميك!

البيت الأخير فى القصيدة لحقه تعديل أجراه الأخطل بعد طلب من عبدالوهاب. «رفعوا منك للجمال إلهًا». مسألة فوق قدرة عبدالوهاب على تحمل مسئوليتها فى مجتمع تقليدى محافظ. أرسل عبدالوهاب إلى الأخطل الرسالة التالية التى يشرح فيها الوضع:

عزيزى الأستاذ الكبير..

تحياتى، وصلتنى جميع القطع وأشكرك كل الشكر وقد أعجبت بقطعة (الصبا والجمال) وابتدأت فعلاً فى تلحينها غير أننى أرى أن تغير البيت الأخير (رفعوا منك للجمال إلهًا - فسجدنا له...) ضماناً لموافقة وزارة الداخلية المصرية على القطعة لأن إدارة المطبوعات هنا تحت تأثير الهيئة الدينية ولا يمكن أن توافق على أى شىء به كلمة إله أو سجدنا ويكون هذا لغير الله. وأما القطعتان الثانيتان فللآن لم أكون فيهما رأيًا قاطعًا وسأرسل لك برأيى فيهما، ويجدر بى أن أقول بأنه يهمنى أن تكون قصيدة (الصبا والجمال) لم تعطها لأحد سواى، كما أرجو ألا تعطيها حتى يكون لها الرونق المطلوب ودمتم..

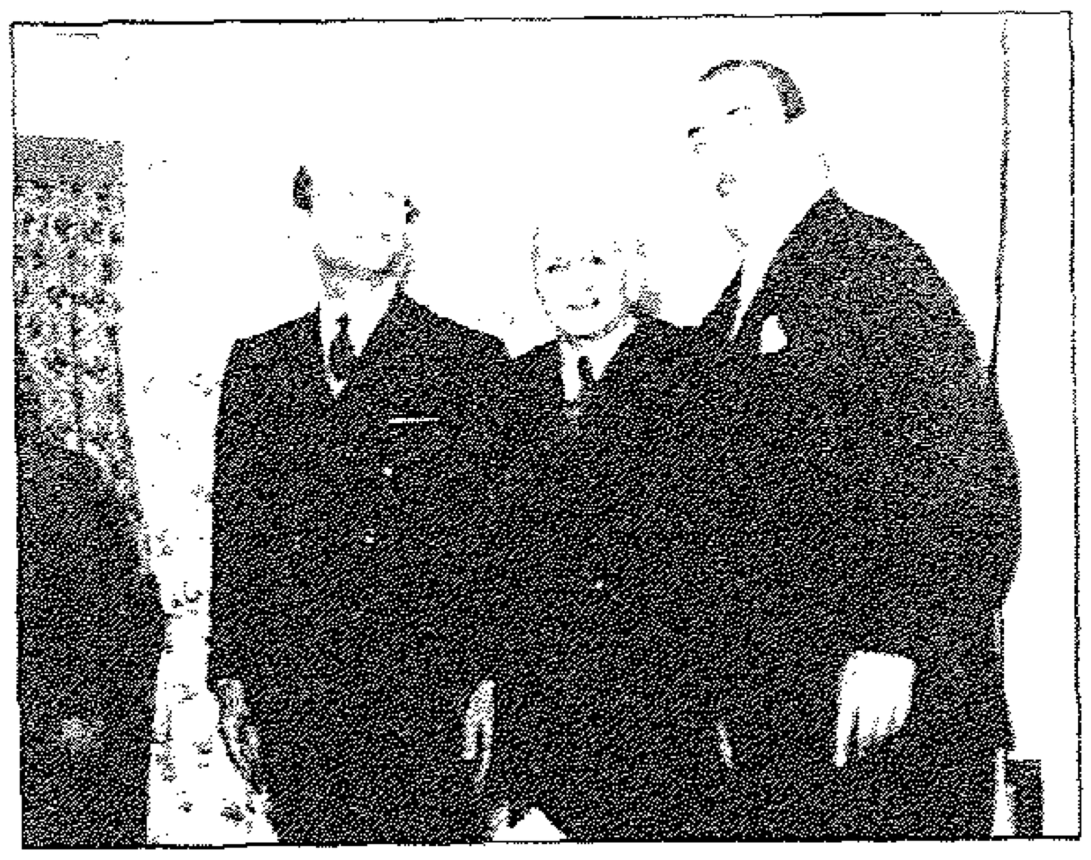
١٩٣٨م

محمد عبدالوهاب

فى هذه الرسالة نلمس مدى اهتمام عبدالوهاب بهذه القطعة، وطلبه من الأخطل ألا يعطيها لأحد سواه «حتى يكون لها الرونق المطلوب»، أى أن هذه القصيدة إذا غناها عبدالوهاب، فرونقها أكيد، فى حين أنها إذا عرفت طريقها إلى سواه، فقد لا يكون لها الرونق المطلوب! والواقع أن عبدالوهاب استخدم آلة البيانو فى هذه الأغنية استخداماً عبقريًا فعلاً، وكأن هذه الآلة أُعدت لها.

وليس فى رسالة عبدالوهاب أية إشارة إلى عنوان القطعتين الأخريين اللتين قال إن الأخطل بعث بهما إليه.

أما قصيدة الأخطل الثالثة التى غناها عبدالوهاب فكانت «جفنه علم الغزل» وقد غناها عبدالوهاب فى فيلم «الوردة البيضاء» الذى اضطلع بدور البطولة فيه سنة ١٩٣٤، أى بعد سنة من رحيل شوقى. وفى ذكرياته يقول عبدالوهاب إنه شارك شخصياً فى العزف لأن فرقته الموسيقية كانت فى مصر فى حين أنه سجل الأغنية فى برلين، وقرر إدخالها فى الفيلم. كما روى عبدالوهاب طرائف عن استعانته ببعض التقنيين الألمان لمساعدته فى أداء ما يسمى بـ «الشخشيخة».. شخشيخة ولكن ألمانى، كما يقول: «جبت الراجل اللى هو بيضرب الشخشيخة دى، أو الماراكازا. ولقيت صعوبة عشان يفهم بالألمانى أنا عاوز إيه»..



الأخطل الصغير مع الموسيقار محمد عبدالوهاب واللواء عبدالحميد غالب السفير المصرى الأسبق فى بيروت

وقصيدة «جفنه علم الغزل» هى من شعر الغزل الذى برع فيه الأخطل، والذى يعبر تماماً عن أجوائه النواسية التى اشتهر بها شعره كما اشتهرت بها سيرته الشخصية:

جفنه علّم الغزل
ومن العلم ما قتل
فحرقنا نفوسنا
فى جحيم من القبلْ
ونشرنا ولم نزل
حلم الحب والشبابْ
حلم الزهر والندى
حلم اللهو والشرابْ
هاتها فى يد الرضى
جرعة تبعث الجنونْ
كيف يشكو من الظما
من له هذه العيونْ
يا حبيبى، أكلما
ضمنا للهوى مكانْ
أشعلوا النار حولنا
فغدونا لها دخانْ
قُل لمن لام فى الهوى
هكذا الحسنُ قد أمرْ
إن عشقنا فعذرنا
أن فى وجهنا نظرْ!

ونترك لعبد الوهاب أن يحدثنا عن أغنية «يا ورد مين يشتريك» التى بعضها عامى، وبعضها الآخر فصيح:

• يا ورد مين يشتريك دى حاجة غريبة إن إحنا كنا فاهمين إن إحنا يعنى فتحنا عكا والظاهر إن إحنا مافتحناش عكا ولا حاجة، لأننى جيت قلت له يا أستاذ بشارة ما تيجى نعمل حاجة جديدة. قال زى إيه؟ قلت له يعنى شوف شوقى كان بيقول مثلاً يعنى فى الليل لما خلى إلا من الباكى والدوح على النوح. الدوح كلمة عربية يعنى ما تستعملش.. للصارخ برضه ده كان يدخل كلمات عربية فى أسلوبه الدارج. فلما نيجى إحنا نعمل حاجة يعنى بقى إيه عربية. قال لى طيب ما نعملها عربية خالص ودارجة خالص. قلت له يبقى عال ويبقى فتح جديد فدى يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك اللى فيها شقت جيوب الغزل وانبح صوت القبل على الشفاه التى تشرب من مهجتى.

يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك

وأغلب الكوبليهات تجد فيها عربية فصيحة وجنبها عامية. قلنا على أساس إنه يعنى إنه إيه يمشى قام ما مشيش ولا حاجة فضل بس فى الأغنية بتاعت يا ورد مين يشتريك يعنى لا أنا عدتها ولا هو عادها ولا حد تانى عادها.

أما الأغنية الخامسة التى تعاون فيها الأخطل وعبدالوهاب فقد طواها النسيان تماماً تقريباً. إنها قصيدة كتبها الأخطل فى الملك فاروق، وغناها عبدالوهاب على العود، ولم تذع حتى فى الراديو. ولم يأتِ على ذكرها فيما بعد لا المطرب ولا الشاعر.

وقد كان طبيعياً أن يطويها النسيان طياً نهائياً بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢ وسقوط الملكية فى مصر، وإهمالها من قبل الدارسين.

وتبدأ القصيدة بالبيت التالى:

أُنزلتْ آيةُ الهدى فى جبينك
فإذا الشرق كله طور سينك

ويبدو أن مثل هذه المبالغة من الأخطل فى المطلع، وفيه يضع الملك فاروق فى مصاف الأنبياء الذين تنزل عليهم الآيات، قد أجهز على القصيدة قبل أن تولد، أو عشية ولادتها.. وعلى ضوء ذلك، قد لا يكون عبدالوهاب على خطأ عندما طلب من الأخطل أن يزور مصر وأن ينزل ضيفاً عليه فيها.. فكتابة الشعر عن قرب، غير كتابته عن بعد. ولو أن الأخطل أسمع عبدالوهاب هذه القصيدة شخصياً، لربما غير فيها وبدل، وبالتالى أبصرت النور كأية قصيدة أخرى. فعلى الرغم من أن «التوصية» على القصائد مسبقاً، تتضمن قدراً من الإحراج للشاعر، وحتى اعتداء على كرامته وكرامة الشعر فى آن، فإن فى هذه «التوصية» واقعية ما من شأنها أن تسهل مرور القصيدة. والمغنون فى نهاية المطاف أدرى بما يصلح للغناء، وبما لا يصلح له، مهما وجه إليهم اللائمون من لوم وتوبيخ وملاحظات!

وتظل صفحة الأخطل الصغير ومحمد عبدالوهاب إحدى أجمل صفحات سيرتهما الفنية والذاتية على حد سواء. ▩

حرب أكتوبر
وجهة نظر غربية.. و«شخصية»

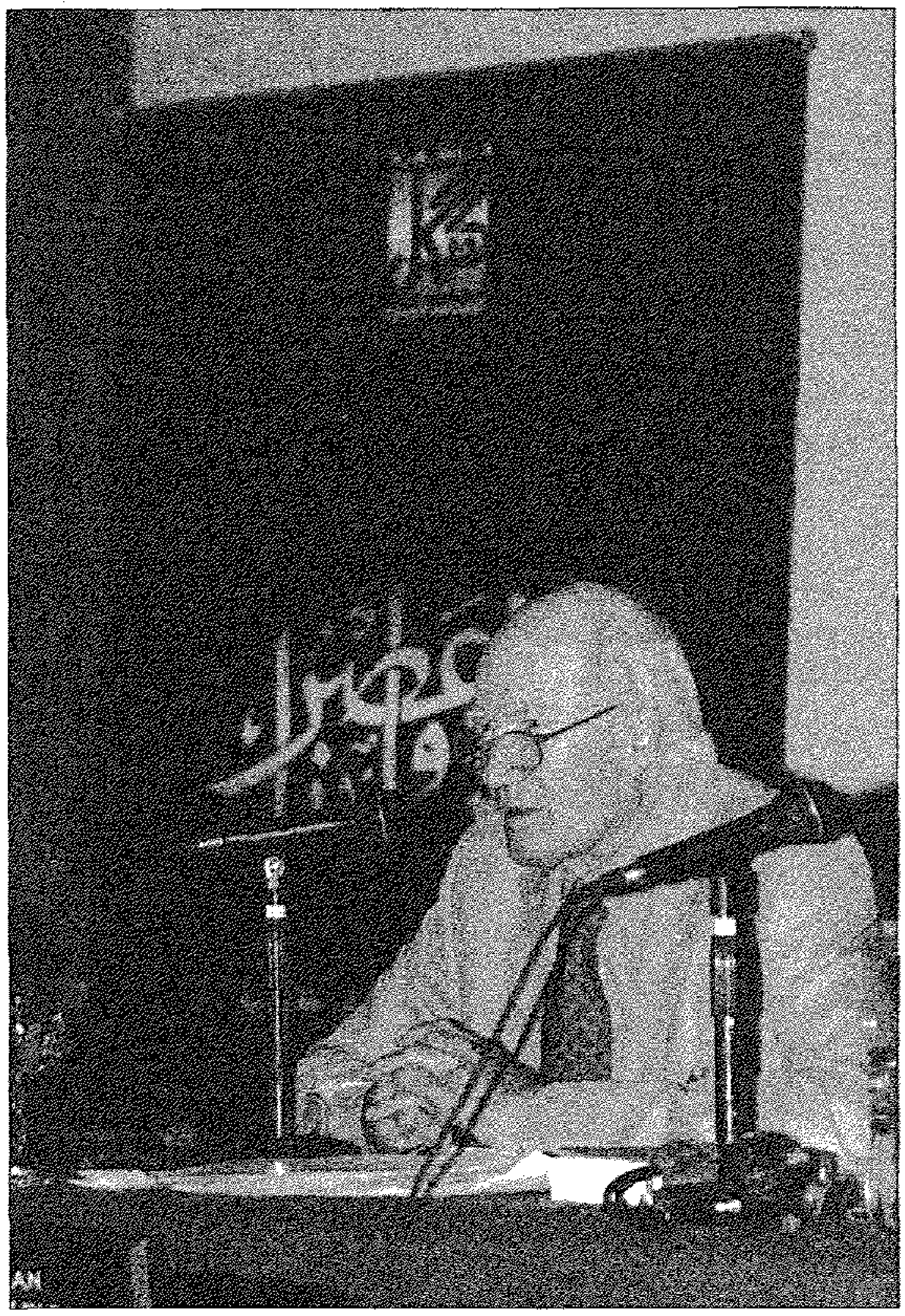
أليستير هورن

■■ يشرفنى ويسعدنى بأن أكون هنا هذه الليلة ولكن مما يؤسفنى أن الأستاذ هيكل ليس معنا. فوجوده كان سيضيف حرارة وحيوية للمناقشة ولا أظن أننا كنا سنختلف كثيرا معه. هناك الكثير من المواضيع الجديدة التى كنت أود الحديث عنها. ولكن إذا سمحتم لى أريد أن أبدى سعادتى وحماسى فيما رأيته وسمعته فى اليومين السابقين من الصحفيين الشباب والقريبين من سن الشباب وهم جميعا هنا معنا فى هذه الغرفة. إننى مندهش من مدى أسئلتهم وتركيزهم فى هذا الموضوع. فى الواقع لا أظن أننى أستطيع أن أحظى بنفس هذه التجربة الآن فى وطنى حيث أعتقد أن مستوى الصحافة هناك عال جداً. إنى أهنئهم على ذلك.

فى الواقع أنا متوتر جداً بخصوص هذه المحاضرة التى كانت فكرة الأستاذ هيكل. كنت أود أن تكون مجموعة نقاش مصغرة، ولكنى وجدت نفسى هنا فى أرض المعركة! ولهذ أظن أنه يجب على أن أقدم بعض التفسيرات قبل أن أبدأ. أولاً إننى سأقدم وجهة نظر غربية وشخصية لحرب أكتوبر وإدارة الأزمة حينها والتى سببت الكثير من البلبلة أنتم أدرى بها منى. ثانياً: إن الكتاب الذى أكتبه عن كيسنجر، هو كتاب غير مرتبط به تماما لدرجة أنه وعد بتسليمى شهادة رسمية محررة يتعهد فيها بأنه لن يتدخل ولن يقرأ الكتاب حتى يتم نشره. وهذا شىء مريح ومشجع وبمعرفتى بكيسنجر فهذا ليس بالغريب منه. كما أحب أن أضيف أننى لم أنته من كتابته بعد.

ثالثاً: أريد أن أقدم لنفسى عذرا مقبولا وذلك من المعروف أن الأرشيف الخاص بكيسنجر وصل وزنه إلى ثلاثة وثلاثين طناً من الأوراق. أغلب رجال الدولة يقيسون أرشيفهم بالأمتار ولكن أرشيفه يقاس بالأطنان! وهو بلا شك أكثر رجال السياسة فى العالم الذين

محاضرة ألقاها المؤرخ البريطانى أليستير هورن يوم الأحد ١٧ فبراير الماضى بالقاعة الشرقية بالمبنى الرئيسى للجامعة الأمريكية بالقاهرة بدعوة من مؤسسة هيكل للصحافة العربية.



تمت الكتابة عنهم وتسجيل نشاطهم. وهذا مما لا شك فيه وخصوصاً بما قام به فى مأساة حرب السادس من أكتوبر. فى ذلك الوقت كانت فضيحة ووترجيت فى واشنطن، ولابد أنكم تتذكرون الحديث الذى جرى عن أشرطة التسجيل التى تتحدث عما قام به نيكسون وما لم يقم به. أما كيسنجر فإنه يمتلك شرائطه. شخصيا لا أعتقد أن أى رجل دولة آخر وخصوصاً فى الغرب فى أيامنا هذه يمكن أن يحتفظ بمثل هذه الشرائط التسجيلية بما فيها من مخاطر واضحة.

هناك أيضا عدد كبير جداً من المجلدات الخاصة بمذكراته تستحق القراءة. وأخيراً ضمن المصادر العديدة التى استخدمها ما يسمى التليكوم، وهى محادثات مسجلة كان قد أجراها مع العديد من الأشخاص. والمثير للاهتمام فى هذه التسجيلات ليس بالضرورة بما يقال ولكن بنبرة الصوت التى يتحدث بها. مثلا لو قارنا نبرة الصوت فى المحادثات بين جولدا مائير وكيسنجر، بالرغم من مناداتها له «بالأمير الساحر» وهو باستخدامه لكلمة الدلع «ملكة جمال إسرائيل»، الذى لم يكن سعيدا بذلك! بنبرة الصوت فى المحادثات الودية بينه وبين الرئيس السادات أو مع سفير الاتحاد السوفيتى فى واشنطن الذى كان صديقا شخصيا حميما له نستطيع أن نفهم الفرق.

على النقيض من ذلك، كان السفير البريطانى يمر بوقت عصيب مع الأمريكان. لا أعتقد أن العلاقات الخاصة كان يمكن أن تكون بنفس البرود الذى كان بين تيد هيث رئيس الوزراء البريطانى ونيكسون، وهذا يبدو فى المحادثات المسجلة بوضوح. وبالمقارنة كانت محادثات كيسنجر مع السفير البريطانى فى واشنطن تختلف كثيراً عن المحادثات الودية والدافئة جداً مع سفير الاتحاد السوفيتى بالرغم من أن الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت كان العدو رقم واحد لأمريكا. هذا عاملاً هاماً.

ولنبدأ بإعطائكم خلفية عامة، أنه من الصعب على الشعوب التى تعيش خارج الغرب أن تستوعب الأهمية القصوى فى سياسة أى دولة هو الخوف فى ذلك الوقت من الحرب الباردة ومن الاتحاد السوفيتى الذى انهار الآن وبالتالى أصبح من السهل على الشعوب نسيان ذلك الخوف. ولكن ذلك الخوف فى ذلك الوقت كان حقيقياً.

وفى ذلك الوقت أيضا بالنسبة لأمريكا؛ كانت لاتزال الحرب البشعة فى فيتنام قائمة، وكان كيسنجر قد وقع على اتفاقية السلام منذ فترة وجيزة مع فيتنام الشمالية التى بدأت تنتهكها بانتظام منذ شهر أكتوبر. وفى أكتوبر

فى أبريل ١٩٧٣ ذهب صحفى أمريكى ـ بلجيكى لامع اسمه أرنولد بولجراف إلى أمريكا وكان مقربا من السادات وكانت معه تفاصيل خطة مصرية للهجوم على سيناء. وكان ذلك جزءاً من خطة السادات

أيضًا كانت قضية ووترجيت لاتزال متأججة وبدأت تؤثر على الرئيس نيكسون وتحد من قدراته خوفًا من تقديمه للمحاكمة. وكما نذكر كان نيكسون أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية الذى يستقيل من منصبه خوفًا من المحاكمة.

مرت على نيكسون أوقات أثناء الأيام الحرجة لحرب أكتوبر لم يكن فيها قادرًا على التفكير السليم وكان كيسنجر هو المسئول الفعلى عن السياسة الغربية والسياسة العالمية. كان نيكسون رجلاً ذكيًا جدًا ولكنه كان مليئًا بالعيوب. وكان نيكسون مناهضًا للسامية ومن المثير للعجب أنه عين وزيرًا للخارجية يهوديًا ولد فى ألمانيا من أبوين يهوديين. ولم يكن ذلك بالسهل لكليهما. وكان نيكسون يعتبر أن يهود أمريكا قد أعطوه المبرر لأن يكون أشد على إسرائيل من أى رئيس أمريكى آخر كما كتب فى مذكراته لأنهم لم يصوتوا له وبالتالى فهو ليس مدينا لهم بشىء. وبالتالى نظريا كان يستطيع أن يتبنى خطًا أكثر تشددًا مع إسرائيل دون أن يخاف من هجوم اللوبى الصهيونى القوى فى الولايات المتحدة.

ولنعود مرة أخرى للحرب، كانت خطة السادات من وجهة نظرى واحدة من أذكى الخطط الحربية فى التاريخ لأنها بنيت على خطة خداع بارعة، وكما قال الفيلسوف الصينى صون صو منذ قرون طويلة «إن فن الحرب هو الخديعة». ومن المدهش أنه بالرغم من جميع عيون المخابرات المركزية على الصحراء الشرقية استطاع السادات أن يبدأ هجومه مباغتًا المخابرات الإسرائيلية والمخابرات المركزية الأمريكية وكل الجواسيس المنثورة فى السماء.

علق مرة بسمارك أن الأجيال التى تقوم بالإنجازات المدهشة يتبعها أجيال تقضى على هذه الإنجازات المدهشة. وفى الحقيقة هذه المقولة تنطبق على الموقف الذى ساد الفترة التى سبقت أكتوبر ١٩٧٣، حيث قامت إسرائيل بعد نجاحها الباهر فى حرب الأيام الستة فى ١٩٦٧ بالاسترخاء معتمدة على انتصاراتها بفرض أنه ليس هناك ما يدعو للخوف من أن تشكل الدول العربية مجتمعة تهديدا حقيقيا على أمنها. فالمشكلة أن الإسرائيليين كانوا ينظرون إلى السادات ومعهم المخابرات الغربية بعيونهم وليس بعيون السادات نفسه، ولم يتخيلوا أن هدف السادات يمكن أن يكون مجرد حرب محدودة مثل حروب القرن الثامن عشر وليس كالحروب المريرة التى عاشها القرن العشرون.

وبحلول عام ١٩٧٣ لم يكن الجو السائد فى إسرائيل قد تغير كثيرا منذ ١٩٦٧، وكان ذلك عاملاً مكيفًا لسياسة الولايات المتحدة. لن تتحرك الولايات المتحدة إلا إذا شعرت أن إسرائيل قد شعرت بالتهديد. ولكن كانت واشنطن فى ذلك الوقت مشغولة جدًا بما كان يجرى من أحداث فى أنحاء أخرى من العالم، ليس فقط قضية ووترجيت وفيتنام ولكن كانت هناك المحاولات الجارية لتحقيق سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتى وعلاقتها الجديدة مع الصين. جميع هذه القضايا كانت مهمة.

فى يناير ١٩٦٩ كان نيكسون وهو شخصية مميزة يستطيع أن يرى أشياء كثيرة لم يكن كيسنجر قادرا عليها. حذر نيكسون فى عام١٩٦٩ بأن انفجارًا قريبًا سيحدث فى الشرق الأوسط، ولكن للأسف لم يتم فعل شىء يوقف هذا الانفجار بسبب عدد من الأحداث التى شغلت الساسة الغربيين. وفى عام ١٩٧٠ قام وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكى بمحاولة عمل مجموعة اتفاقيات جديدة بين الدول العربية وإسرائيل ولكنها فشلت بسبب رفض الجانبين. أنا كبريطانى أجد العمل السياسى الأمريكى يجرى بطريقة غريبة حيث تجد نظام الخطين المتوازنين: نجد وزارة الخارجية تقوم بعملها حسب خطتها، ثم نجد مجلس الأمن القومى ينفذ خطة أخرى خاصة به. ولكل جهة هدف خاص بها، وكان ذلك فى رأيى سيئًا جدًا أثناء سنوات نيكسون - كيسنجر.

كان هناك عدم ثقة فى وزارة الخارجية من قبل الجهتين، وبالتالى ترك كيسنجر القيام بما يريد وكان فى ذلك الوقت رئيسا لمجلس الأمن القومى، ثم أصبح بعد ذلك وزيرًا للخارجية أى قبل اندلاع الحرب بأسبوعين، وبالتالى احتفظ بالموقعين الهامين.

فى عام ١٩٧٢ حدث شىء هام جدًا: فقد قام السادات بطرد ٢٥٠٠٠ من الخبراء الروس المتواجدين فى مصر. وكان يجب على كثيرين أن يلاحظوا ذلك ويفكروا لماذا حدث؟ وما هو المغزى من ذلك؟ كان الشعور السائد فى الولايات المتحدة عامة أن ذلك مؤشر جيد بأن يطرد السوفييت من الشرق الأوسط. وفى أوائل عام ١٩٧٣ ذهب حافظ إسماعيل إلى الولايات المتحدة وحاول مرتين العمل على الخط الخاص بكيسنجر بتحذير واشنطن من أن المشاكل بدأت تتحرك. لكن كيسنجر لم يشعر بأى خطر ملح وذلك بسبب المشاكل العديدة التى كانت تدور فى رأسه.

وفى أبريل ١٩٧٣ ذهب صحفى أمريكى - بلجيكى لامع اسمه أرنولد بولجراف إلى أمريكا وكان مقربا من السادات وكانت معه تفاصيل خطة مصرية للهجوم على سيناء. وكان ذلك جزءًا من خطة السادات، لأنه أفصح لبولجراف عن نواياه ولكن فى نفس الوقت استطاع أن يضلله ويضلل أيضًا الغرب عن التاريخ الحقيقى للهجوم. ولم يحدث شىء فى أبريل، واعتبر ما حدث هو مجرد مناورات وتهديدات. وغضبت إسرائيل لأن ذلك كلفها عدة ملايين من الدولارات لتحشد جنودها على كافة الجبهات. وعندما انتهى الذعر فى أبريل، كان الرأى أنه إذا حدث ذلك مرة أخرى، فلن تكون إلا محاولة للتخويف فقط لا غير، ولا يجوز أن تؤخذ بعين الاعتبار. وكان هذا هو الموقف قبل بداية شهر أكتوبر. وجاء تحذير آخر لواشنطن من قبل الروس عندما قام برجينيف، السكرتير العام للحزب الشيوعى، بزيارة رسمية لأمريكا فى يونيو ١٩٧٣ وهناك أعطى نيكسون تحذيرًا واضحًا بأنه سيكون هناك انفجار فى الشرق الأوسط.

تم تعيين كيسنجر وزيرًا للخارجية فى ٢٢ سبتمبر، وكان ذلك قبل بدء حرب أكتوبر بأسبوعين. ويمكننا أن نتخيل كم كانت أفكاره مشوشة فى ذلك الوقت. وفى تمام الساعة السادسة من صباح السادس من أكتوبر، كان كيسنجر نائمًا فى نيويورك فى فندق الوالدورف أستوريا بعد أن أعد الكلمة التى سيلقيها فى الأمم المتحدة عن السلام. أيقظه أحد معاونيه ليخبره أنه يبدو أن سوريا ومصر على وشك الهجوم على إسرائيل. وسأله كيسنجر إذا كان واثقًا مما يقول. رد عليه سيسكو أحد مستشاريه قائلاً: إنه غير واثق وربما يكون كيسنجر قادرًا على فهم الموقف.

وبالطبع أصبح ذلك اليوم مليئًا بالنشاطات المكثفة، وكان كيسنجر يحب مثل تلك النشاطات. ولكن ما كان يثير الدهشة أكثر هو أن أول مكالمة قام بها كيسنجر لم تكن للرئيس أو إسرائيل أو مصر، بل كانت لسفير الاتحاد السوفيتى أنطلونى دوبرينين وكانت هناك كما سبق وأفصحت، علاقة صداقة ظريفة بينهما. ويبدو أن السفير السوفيتى كان نائمًا عندما طلبه كيسنجر وبالتالى لم يكن يستوعب ما كان يقوله كيسنجر، فكان يردد نفس السؤال لعدة مرات وهنا رد كيسنجر قائلا: «لو ستستمر بهذه الطريقة ستندلع الحرب قبل أن تفهم رسالتى. فى ذلك اليوم اتصل كيسنجر بدوبرينين خمس مرات وعلى ما أظن لم تكن أولوياته للحرب التى سوف تقوم فى الشرق الأوسط ولكن للأمن النووى للقوتين العظميين.

وبمرور الوقت فى ذلك اليوم أصبح واضحًا لكيسنجر أن إسرائيل لم تكن المعتدية وفاجأه ذلك كثيرًا، لأن إسرائيل هى التى بدأت الحرب فى ٦٧. وبعد أن تحدث مع دوبرينين اتصل بالسفير الإسرائيلى دينتز فى واشنطن الذى أكد لكيسنجر أن إسرائيل حقيقة لم تكن هى المعتدية هذه المرة ولكن الذى هاجمها هم المصريون والسوريون.

ولم يتحدث كيسنجر مع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نيكسون إلا فى منتصف النهار حيث كان مختبئًا فى فلوريدا بعيدًا عن كل العواصف فى واشنطن وفضيحة ووترجيت. ولكنه قال شيئا واحدا يبين قدرته على رؤية الأشياء لكيسنجر بألا يأخذ جانب أحد الأطراف لأنه لا أحد يعلم من يبدأ الهجوم هناك.

ثم بدأ كيسنجر فى مفاوضات لوقف إطلاق النار داخل الأمم المتحدة. وكان من الصعب أن يجعل مجلس الأمن يوافق على ذلك. كانت الأطراف عديدة، إنك تتعامل ليس فقط مع الدول العربية وإسرائيل، ولكن كان هناك البريطانيون والفرنسيون وجميع أعضاء مجلس الأمن ولم يكن الجميع متوافقًا مع موقف وطلبات الولايات المتحدة. كانت المشكلة معقدة جدا ولم تكن أمريكا والاتحاد السوفيتى يريدان تطبيق وقف إطلاق النار لأنه قد يحرج زبائنهم من الدول: مصر بالنسبة للسوفييت وإسرائيل للأمريكان. وبالتالى مر يومان دون الوصول إلى قرار مع كل جانب يناضل من أجل موقف مشرف.

وفى مساء ٦ أكتوبر اتصل كيسنجر بالسفير البريطانى لورد كرومر، وأوصل له رسالة هادئة يحذر فيها السفير البريطانى من أخذ موقف مخالف للولايات المتحدة فى هذه القضية بالذات، معبرًا أن ذلك فى مصلحة الجميع بما فيهم أوروبا الغربية. محذرًا بألا يخرج عن خط أمريكا. مضيفًا بأنهم جميعا فى حاجة لسياسة مشتركة.

فيما بعد حذر كيسنجر دوبرينين لأنه لم يكن متأكدًا تمامًا فى ذلك الوقت أن السفير السوفيتى ليس متورطًا فى عمل مزعج أو مؤذ، حذره قائلاً: إن مباحثاتنا بخصوص الوفاق الدولى معرضة للخطر، لا تجعل مشاكل الشرق الأوسط تفسد كل شىء. وفى نهاية ذلك اليوم، كان من الواضح لكيسنجر أن سياسته للوفاق الدولى قد انهارت بسبب حرب انشغل بها أحيانًا ولكنه لم يتوقعها.

وفى اليوم التالى، السابع من أكتوبر، بدأت أمريكا فى استلام توسلات ملحة من جولدا مائير فى إسرائيل قائلة: إن

قادة الجيش قد أخبروها أن الأمور تسير بشكل أسوأ بكثير مما كان متوقعا. عند استلام هذه المعلومات طلب من هيج أن يخبر نيكسون بأن إسرائيل قد خسرت ٦٠ قتيلاً و١١٠ جرحى حتى الآن. وأضاف كيسنجر أنك يجب أن تضرب هذا الرقم بمائة حتى تحصل على الرقم الذي يوازي المصابين في أمريكا. إذا خسرنا ٦٠٠٠ قتيل و١٥٠٠٠ جريح في يوم واحد لن يكون ذلك بسيطا.

ماذا كان يدور في ذلك الوقت في أرض المعركة؟ كان السوريون قد قاموا بهجوم كثيف على مرتفعات الجولان حتى وصلوا إلى نقطة دفاعية خطيرة للإسرائيليين. وبدا للإسرائيليين أن التهديد الرئيسي قادم من هناك. وكانت مصر قد عبرت قناة السويس بفاعلية شديدة باستخدام خراطيم مياه تم استيرادها من ألمانيا لإزالة الدفاعات الإسرائيلية واستطاعوا بالفعل أن يهدموا ويحتلوا رقعة كبيرة من خط بارليف الإسرائيلي الذي كان يشكل خط الدفاع الإسرائيلي لسيناء.

كانت الحراسة الإسرائيلية في ذلك الوقت خفيفة جداً. وهنا أعود لمقولة بسمارك بأن ما تنجزه أجيال تأتي بعدها أجيال تضيعه. وعلق السادات بعد الحرب بأن إسرائيل كانت تهزأ من نشاطنا الإنشائي قائلة: إن المصريين كانوا دائما يحبون بناء الأهرامات وفي الواقع إن الأهرامات التي شيدناها على خط قناة السويس كانت مؤثرة للغاية.

لنعد للسوفييت، ماذا كانوا يفعلون في ذلك الوقت؟ لدينا موقف معقد في موسكو. إن ميزة أن تكون قد عشت في زمن الحرب الباردة يمكننا الآن أن نكون فكرة عما كان يدور في الجانب الآخر. إن أغلب ما نشر عن تلك الفترة كان من وجهة نظر السوفييت، ونجد أنه كان هناك ارتباك شديد في المكتب السياسي السوفيتي. لم تكن تلك الأيام مثل أيام ستالين أو خوروشوف. كما لم يكن بريجنيف رجلا عجوزا مخرفا. ولكنه كان كبيراً واعياً استطاع أن يأخذ وقته في التفكير للوصول إلى قرار. وكان باقي أعضاء المكتب السياسي مترددين في إبداء رأيهم حتى يعرفوا أي طريق سيسلك بريجنيف؟ أين سيقفز هذا الدب؟ لقد أذهلتهم المفاجأة ولم يكونوا قادرين على التصرف السريع تماماً مثل الأمريكان الذين أذهلهم الهجوم المصري. لقد أخذوا وقتهم حتى استردوا توازنهم.

كما سبق وقلت، كان يوم ٧ أكتوبر يوم التأجيل في الأمم المتحدة وبالتالي لم يصدر أي قرار بخصوص وقف إطلاق النار. ولكن لم يكن الحال هكذا في صفوف المسئولين الإسرائيليين في تل أبيب. كانت هناك حالة ذعر كبيرة لدرجة أنهم بدأوا الحديث عن استخدام السلاح النووي الإسرائيلي بالرغم من نفي كيسنجر وقوله إنه لم يعلم بذلك بتاتاً. كان كيسنجر طوال ذلك الوقت مقتنعاً تماماً بأن إسرائيل في النهاية سوف تكسب الحرب، واستمر في رأيه هذا طوال وقت الحرب. ولكنه تأثر مثل الجميع في واشنطن بالخسائر الإسرائيلية وأحداث اليوم الأول. كما كان عليه أن يفعل شيئاً بخصوص المكالمات الملحة من إسرائيل لإمدادهم بالأسلحة.

طوال ذلك الوقت كان كيسنجر كما هو متوقع تحت ضغط عنيف من اللوبي الصهيوني ومن الشيوخ الصهاينة في الكونجرس في واشنطن. ومما أثار الدهشة، يقول كيسنجر يوم ٧ أكتوبر إننا يجب أن نكون في جانب الإسرائيليين لكي يقبلوا أن يفقدوا شيئا بعد الحرب. ويستمر قائلا: لذلك يجب أن نمدهم بالمعدات لأنه متأكد تماماً بأنه لو لعب الأمريكان دورا قاسيا ستكون هذه المرة الأخيرة لإذعان الإسرائيليين للأمريكان، لأننا لو لكمناهم على أسنانهم لن يكون لديهم شيء يمكن أن يخشوه في المستقبل. الذي يتحدث هنا هو أستاذ الدبلوماسية في إدارة الأزمات. هو يفكر مرة أخرى في اللعبة الكبيرة التي يلعبها الأمريكان والسوفييت. وبدأ الضغط الإسرائيلي يتزايد بشدة وأخيرا أرسلت أمريكا الأسلحة المطلوبة بعد أن أيقنت أن السوفييت قد أعادوا تسليح سوريا بالذات ثم بعد ذلك مصر، بإرسال ٣٠ طائرة يوميا مليئة بالأسلحة والذخائر، وتزايدت الشحنات من الولايات المتحدة. كانت في ذلك الوقت منافسة خطيرة: من سيرسل أسلحة أكثر لمن؟

وفجأة حدث تغيير مهم في الموقف! (لهذا أنا أسف لعدم وجود الأستاذ هيكل معنا اليوم). يوم ٧ أو ٨ أكتوبر استلم كيسنجر عن طريق قنواته الخلفية، (حافظ إسماعيل)، رسالة مفاجئة من السادات حيث لم تكن هناك في ذلك الوقت علاقات دبلوماسية بين الولايات المتحدة ومصر. طلب السادات دعوة الولايات المتحدة لتكون المسئولة عن عملية السلام. ويصف كيسنجر هذا الطلب بأنه خارق للعادة، وذلك لأنهم كانوا في الأمم المتحدة على وشك أن يناشدوا السادات بسحب قواته من المناطق التي احتلها الجيش المصري.

ويعترف كيسنجر في مذكراته بأنه لم يأخذ السادات على محمل الجد في ذلك الوقت، لأنه كان قد هدد في العديد من الأوقات بشن الحرب ولم يفعل. وهنا يأتي كيسنجر بتقييم للموقف قائلا: «في تقديري سوف يعبر السادات قناة السويس، ثم يبقى هناك ولا أظن أنه سوف يخترق أي مناطق أخرى». وهنا

كنت مهتما جدا لمعرفة إذا كانت هذه المعلومة موجودة في الرسائل المتبادلة التي كنتم تتحدثون عنها مع هيكل. بالتأكيد لم أجد أي شيء إضافي في أرشيف كيسنجر.

في يوم ٨ أكتوبر، كان نيكسون في إحدى لحظاته الشفافة، فقد قال لكيسنجر أنه لا يجب أن ننسى ونترك هذا الموضوع معلقاً لمدة أربع سنوات أخرى ونكون في خلاف مع العالم العربي. لن نفعل ذلك مرة أخرى. ويستمر قائلا: ولكن على الجانب الآخر إذا كسبت إسرائيل الحرب كما فعلت في ٦٧ لا يجب أن نترك الحال يستمر كما هو في الوضع الراهن. لن نفعل ذلك مرة أخرى. إذن فهو كان يفكر في اتفاقية أشمل وأوسع بكثير بعد وقف إطلاق النار. كما تنبأ أيضا قائلاً: إننا مازلنا في ٨ أكتوبر وأن الإسرائيليين سوف يوقفون المصريين ويقطعون الجسر الذي يربط المصريين.

ولكن إسرائيل بقيت في الحالة الحرجة والصعبة طوال ٩ و١٠ أكتوبر، واستمرت في الإلحاح في طلب مؤن وأسلحة أكثر من الولايات المتحدة. وكان طوال ذلك الوقت يقوم السفير الإسرائيلي دينتز بكل حماس ونشاط بإثارة أعضاء الكونجرس الأمريكي الذي ولاؤه الأكبر للوبي الصهيوني. لدرجة أن كيسنجر في أحد الأوقات أثناء حديثه مع عضو كونجرس فقد أعصابه على دينتز قائلا: «إذا كنت ستستمر بالضغط عليّ هكذا لن أستمع إليك بعد اليوم وسوف أعمل على وقف إرسال الأسلحة إلى إسرائيل». وكان ذلك تهديدا خطيرا.

وفي نهاية يوم ١٠ أكتوبر بدأ كيسنجر يرى إمكانية ضوء جديد بالرغم من أن كل ما كان يدور كان سيئا لإسرائيل، وأكرر ما قال: «هناك الآن فرصة لبدء عملية سلام بإقناع الدول العربية بأن الاتحاد السوفيتي يمكنه أن يثير حربا ولكنه لن يستطيع أن يحقق تقدما دبلوماسيا. لذلك لا غنى عن الدبلوماسية الأمريكية. إن التقدم الدبلوماسي يحتاج إلى نجاح عسكري، ولكن ليس بالشكل الذي يوحد العرب ضد أمريكا». كان في الواقع يفكر تماما مثل السادات في نصر من نوع انتصارات القرن الثامن عشر التي يمكن أن يفهمها المؤرخ متيرنخ، وليست حرباً مثل حروب القرن العشرين.

بحلول ١٣ أكتوبر فجأة تغيرت الأمور في ميدان الحرب، تماما كما خبرناه نحن في العالم الغربي أثناء الحرب العالمية الثانية. فجأة وفي وقت قصير جدا بدأت تتحرك الأمور بسرعة شديدة على حدود الشرق الأوسط. وبعد أسبوع من اندلاع حرب أكتوبر، وفي ١٤ أكتوبر شنت إسرائيل هجمة مضادة رائعة بقيادة شخص يسمى اريل شارون

هورن في سطور

السير أليستير هورن من بين أشهر المؤرخين الغربيين المعاصرين، له نحو عشرين مؤلفًا تعنى أكثرها بتاريخ الحروب بما في ذلك حروب المقاومة والتحرير الوطني.

ومن بين أهم مؤلفاته كتابه عن حرب التحرير الجزائرية، والذي يعد من أهم المراجع التاريخية في موضوعه، وقد اكتسب مؤخرًا صيتًا واسعًا بين عامة الناس بسبب تصريح للرئيس الأمريكي جورج بوش (غير المعروف بسعة اطلاعه) أعرب فيه عن إعجابه الشديد بكتاب هورن، تلاه بدعوة السير أليستير للقائه في البيت الأبيض.

كما أن هورن حاليًا بصدد إعداد كتاب عن سيرة حياة وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر.

وقد ولد السير أليستير هورن في لندن عام ١٩٢٥ وأدى دراسته الجامعية في جامعة كمبريدج، ثم تطوع في سلاح الطيران أثناء الحرب العالمية الثانية، لينهي خدمته العسكرية في أواخر الأربعينيات برتبة نقيب ملحق بالإم آي فايف في الشرق الأوسط. في أوائل الخمسينيات عمل مراسلاً لجريدة الديلي التلجراف، ثم تفرغ تمامًا للكتابة التاريخية منذ عام ١٩٥٥.

من بين كتاباته أيضًا ثلاثية مهمة عن النزاع الفرنسي الألماني الممتد من الحصار الألماني لباريس عام ١٨٧٠ - ١٨٧١ مرورًا بالحرب العالمية الأولى وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وله أيضًا مؤلف شهير عن فرنسا في عصر بونابرت وآخر عن سيرة حياة المارشال منتجومري.

الذى اكتشف فجأة أن هناك ثغرة مفتوحة بين الجيشين الثانى والثالث المصرى على قناة السويس. لم يستطع أن يقنع رؤساءه بمتابعة هذا الموضوع إلا بعد وقت طويل. كان الإسرائيليون يدرسون بحرص شديد نجاح تلك العملية وفى نفس الوقت كانوا متخوفين من شارون لما يعرف عنه بأنه جنرال عنيد وخطير.

على أية حال تم تنفيذ الهجوم وبحلول ١٥ أكتوبر يلاحظ كيسنجر كيف استطاع الإسرائيليون سحب الجنود المصريين خارج نطاق نظامهم الدفاعى، متمكنين بذلك من تحطيم أكثر من ٣٠٠ دبابة سوفيتية وتغيير وإعاقة الهجوم على قناة السويس. أحد عناصر خطة السادات للقضاء على التفوق الهائل للطيران الإسرائيلى الذى ظهر فى حرب الأيام الستة كان باستخدام قواعد صواريخ سام التى زودهم بها الاتحاد السوفيتى. وكان ذلك فعالا للغاية فى الأيام الأولى للحرب. لقد استطاعوا أن يسقطوا أعدادا كبيرة من الطائرات الإسرائيلية. ولكن كلما استمرت الحرب كانت القوات المصرية فيما يبدو تتحرك تدريجيا بعيدا عن هذا الغطاء الواقى. وسرعان ما أصبحت أجواء الجيش المصرى غير محمية بقواعد الصواريخ وكان هذا أحد العوامل التى غيرت بطريقة خطيرة مجرى الأحداث فى الحرب فى ١٤ و١٥ أكتوبر.

وفجأة ظهرت مبادرة سوفيتية لوقف إطلاق النار لأنهم بدأوا يدركون أن زبائنهم من الدول سوريا ومصر، كما كانوا يطلقون عليهم، لم يعودوا المتفوقين. فبدأ الضغط على أمريكا يتزايد لكى تفعل شيئا. زار كوسيجين، الرجل الثانى بعد بريجنيف فى الكرملين، مصر ليقابل السادات. وفيما يبدو لم تكن الزيارة فعالة لأنه لم يصدر عنها أى قرارات، ولكن فى اليوم التالى ١٨ أكتوبر، استلم كيسنجر رسالة عاجلة تطلب منه السفر إلى موسكو ليتفاوض مباشرة مع الكرملين بخصوص وقف إطلاق النار. وسافر كيسنجر فعلا.

لم يكن كيسنجر متأكدا من مدى خداع السوفييت للأمريكان وإلى أى مدى هم متورطون. ولكنه طار إلى موسكو. ويقول كيسنجر أنه فى نهاية يوم ١٩ أكتوبر كنا قد حققنا أهدافنا المبدئية، لقد خلقنا ظروفاً ليبدأ فيها العمل الدبلوماسى كما دافعنا عن أمن أصدقائنا ومنعنا انتصار السلاح السوفيتى وأيضا حافظنا على علاقاتنا مع الدول العربية المهمة والذى سيكون لديهم دور هام ورئيسى فى العمل الدبلوماسى فى مرحلة ما بعد الحرب. ولقد استطعنا أن نحقق كل هذا فى أحلك الظروف التى كانت تمر بها أمريكا مثقلة بأزمة العصر.

كانت زيارة كيسنجر لموسكو ناجحة. لقد اتفق السوفييت والأمريكان على بنود وقف إطلاق النار التى سوف يمررونها فى الأمم المتحدة. ولكن عندما عاد كيسنجر يوم ٢٣ أكتوبر أصابته الدهشة عند استلامه رسالة تهديد من بريجنيف موجهة مباشرة للرئيس نيكسون كما يبدو بناء على ضغط شديد من الرئيس السادات الذى كان يحث الاتحاد السوفيتى بالتدخل المباشر فى الحرب فى الشرق الأوسط. وكان ذلك بالنسبة للأمريكان وفى هذا التوقيت بالذات الطامة الكبرى. كان ذلك مرعبا ومخيفا للغاية وكان فيما يبدو أن السوفييت ربما قد أرسلوا عددا من جنودهم إلى الشرق الأوسط. وكان ذلك هو آخر ما يمكن قبوله.

عليك أن تتذكر ماذا كان يدور فى واشنطن فى ذلك الوقت وهو تأثير قضية ووترجيت التى شلت وأوهنت حركة نكسون كما وضعت الكثير من الضغط غير المطلوب فى ذلك الوقت على كيسنجر نفسه. وكان يوم ٢٤ أكتوبر هو يوم الأزمة الحقيقية. وعندما أقول أزمة أعنى أنه كان يوما لا يضاهيه إلا يوم أزمة الصواريخ الكوبية عام١٩٦٢، وحدثت تلك الأزمة فى ذات الوقت من العام الذى حدثت فيها أزمة الصواريخ تلك. وكان فى مساء ذلك اليوم اجتماع مجلس الأمن الوطنى، وهو المكان الذى سوف يتخذ القرارات فى داخل البيت الأبيض. ومن الأشياء المثيرة فى ذلك اليوم كان دور نيكسون. لم يكن نيكسون فى الاجتماع بمعنى الكلمة. لقد كان تحت تأثير هائل للكحول الذى كان قد تناوله فى ذلك اليوم. لم يكن نيكسون يحتمل تناول الكحوليات وكان يومها قد تناول كأسا أو أكثر لتخفيف الضغط عليه بسبب قضية ووترجيت، ولم يكن واعيا فى تلك الليلة ولم يكن حديثه ذا معنى. وبالتالى تم أخذ القرار باسمه ولكن دون توقيعه لكى ترفع حالة التأهب الأمنى وهو ما يبدو مخيفا للأمريكان ولكنها فى الواقع لا تعنى الشىء الكثير. كل ما هناك أنك تضع البحرية والطيران فى حالة تأهب قصوى. ولكن قصد بذلك إرهاب الاتحاد السوفيتى بإرسال رسالة أننا جادون، ولن نسمح للسوفييت بالتدخل فى الشرق الأوسط. وتم ذلك بسرعة خاطفة فى منتصف الليل مما كان له الأثر البالغ وتراجع السوفييت ليتم رفع حالة التأهب تلك قبل أن يستيقظ أحد فى الولايات المتحدة الأمريكية. فى الحقيقة لقد تم كل ذلك فى غضون ساعات ولكنها أرعبت المكتب السياسى فى الكرملين. وعلمنا فيما بعد أن بعضاً من المارشالات السوفييت قد أشهروا سيوفهم ورفضوا قبول مثل هذه التصرفات الأمريكية وقالوا يجب أن نقابل التهديد بالتهديد. ولكن بريجنيف لعب دورا هادئا ورفض الفكرة قائلاً: لا يجب أن يستفزنا عدم المسئولية الأمريكية.

كانت هذه فترة خطيرة جداً. فترة سوف ينتقدها المؤرخون وذلك لأن الأمريكان قد يكونون قد بالغوا فى ردود أفعالهم ولكن كان رد الفعل السوفيتى بالفعل مبالغاً به عندما هدد واشنطن. ولكن أعتقد أن عدم استعداد بريجنيف المضى فى تهديده هو مؤشر بأن دبلوماسية كيسنجر بالنسبة لفكرة الوفاق الدولى مع السوفييت قد عملت بفاعلية وأنه إذا كانت الحرب قد اشتعلت أثناء حكم خروشوف لكان الأمر خطيراً جداً. ولكن تلك الأيام كانت تختلف كثيرا وأن الكل قد شعر بقيمة سياسة الوفاق هذه.

بعد ذلك بدأت حدة الحرب فى الشرق الأوسط تنخفض. لقد تم الاتفاق على وقف إطلاق النار فى الأمم المتحدة. وكان هناك نقد مرير للإسرائيليين من الأمريكان لخرقهم وقف إطلاق النار وهجومهم على القوات المصرية المحاصرة لدرجة أنهم فى فترة ما كانوا على استعداد لإرسال وحداتهم المحمولة جوا ليتعاملوا مع الإسرائيليين لمنعهم من تحطيم الجيش المصرى. أعلم أن هذه نقطة جدلية فى مصر وهى أن الجيش المصرى كان قادرا على الخروج وحده. ولكن كل ما نعلمه هو أن تم تنفيذ وقف إطلاق النار وذلك تحت ضغط شديد من أمريكا على إسرائيل. وقد قال كيسنجر لجولدا مائير إننا لن نسمح لكم بإذلال المصريين بالسماح لكم بالقضاء على جيشهم.

وأخيرا أريد أن أقول شيئا عن تلك القصة المعقدة القريبة جدا من قلوب المصريين. أنا أتحدث عن العلاقة المتميزة التى بدأت فى نهاية حرب أكتوبر بين الرئيس السادات وكيسنجر. قام السادات بدعوة كيسنجر لزيارة مصر فى أوائل شهر نوفمبر وهو اجتماع انتقده الكثيرون كما تعلمون وذلك لأنهم يعتقدون أن كيسنجر قد خدع السادات. ولكنى غير متأكد من ذلك بتاتا. ولكن ما أنا متأكد منه جاء بوضوح شديد فى كتاب كيسنجر. هناك بعض الفقرات المؤثرة جدا جاءت فى مذكراته الطويلة جدا وهو يصف السادات الذى لم يكن معجبا به ثم تطور هذا الشعور لديه حتى وصل إلى درجة مذهلة، بدون أى مبالغة، من العاطفة لم يكن هناك ما يماثلها بعلاقته مع جولدا مائير أو الإسرائيليين.

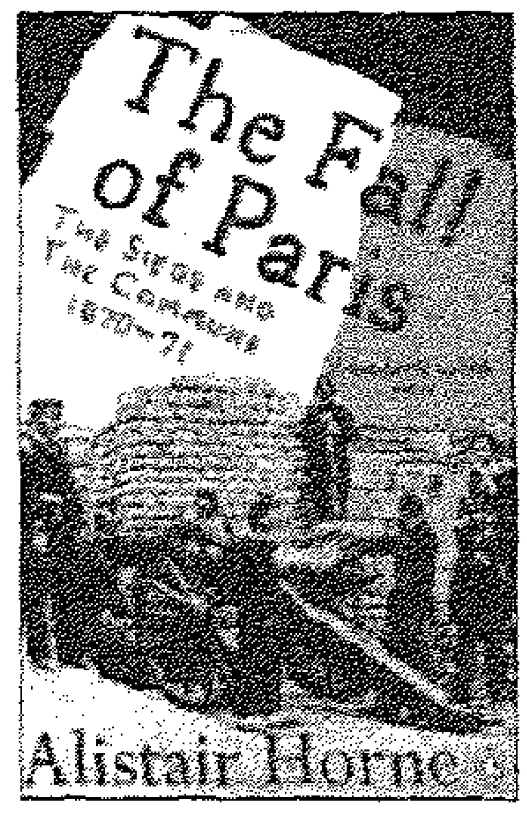
عندما حضر كيسنجر إلى القاهرة فى نوفمبر ١٩٧٣ يقول «فورا شعرت بأننى أمام رجل مميز. لم يكن السادات مهتما بالتفاصيل التى يتمسك بها عادة الزعماء المعتدلون ليشعروا أنهم يسيطرون على الأحداث. شعرت بأن السادات يمثل أفضل فرصة لتجاوز الاتجاهات المتجمدة المعروفة فى الشرق الأوسط منذ إنشاء دولة إسرائيل. لقد أذهلنى لأنه لم يناقش أو يساوم. فى الحقيقة كان يقوم بعمل فى منتهى الشجاعة». ويستمر كيسنجر فى مناقشة خطة النقاط الست التى أعدها مع السادات لتحرير الجيش المصرى المحاصر. ومرة أخرى يقول كانت لدى السادات أفكار أكثر بكثير من الشخصيات المعاصرة له. المستقبل وحده سيثبت إذا كان قد بدأ حركة تاريخية لا رجعة عنها، أم كان مثل هذا الفرعون أخناتون الذى كان يحلم بالتوحيد وهو فى وسط كل هذه الآلهة. ألف سنة قبل أن يتقبل العالم هذه الفكرة. بطريقة أو بأخرى سوف تكون قضية السلام هى هرمه.

ومن المثير اليوم أننى سألت وأنا فى وسط الصحفيين هنا كم منهم يشعر أن اتفاقية كيسنجر ـ السادات لها ما يبررها وإذا كانت اتفاقية جيدة أم سيئة. وأصابتنى الدهشة من الإجابات لأننى كنت أظن مما سمعته فى الأيام القليلة الماضية أن الإجابة ستكون ساحقة ولكنها لم تكن كذلك. كانت الإجابات متساوية. ها نحن هنا بعد مرور ٣٥ عاما على اتفاقية السادات وكيسنجر. لقد مرت خمسة أو ستة أعوام على اتفاقية كامب دافيد قبل أن تعود سيناء إلى مصر. ولكن ٣٥ عاما من السلام فى زمننا هذا تعتبر فترة طويلة. وفى نظر العالم الغربى فإنها تمثل الفترة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى مرحلة رونالد ريجان.

أنا مهتم جدا بسماع رأى الحاضرين فى هذه الغرفة إذا كانت هذه الاتفاقية جيدة أم سيئة. كما نقول فى كتب التاريخ الإنجليزية. هل كان الوفاق بين السادات وكيسنجر شيئاً جيداً؟ أم أدى إلى عزل مصر عن العالم العربى؟ لقد سمعت مؤيدين للرأيين. فى الأسبوع الماضى عندما كنت فى إجازة سألنى دكتور شاب مصرى، «أرجوك أن تخبرنى، من انتصر فى حرب أكتوبر؟ لم أكن قد ولدت بعد ولكنى غير متأكد». أجبته بأننى أظن أن السادات انتصر ولكن ليس المهم من ينتصر فى الحرب، المهم انتصار السلام.

أنا سعيد جداً فى زيارتى هذه. لقد استفدت كثيراً فى الأيام الماضية وأنا أستمع للناس. ومازلت أتطلع لمعرفة آراء الأستاذ محمد حسنين هيكل عند عودته فى صحة جيدة. ■

أليستير هورن
Alistair Horne



The Fall of Paris: The Siege and the Commune 1870-71

(سقوط باريس: الحصار والحكومة الاشتراكية ١٨٧٠-١٨٧١)

Penguin, 2007, 480 pp., $10.88

يتوجب على أى شخص يرغب فى استيعاب الحرب الأهلية التى لا تزال تستثير روح فرنسا أن يقرأ هذا الكتاب الكلاسيكى. كانت فرنسا عام ١٨٧٠ بمثابة قلب أوروبا، ينبوع الثقافة والموضة والإبداع. انقضت عشرة أشهر ثم انهارت فرنسا من جراء حصار بروسى طويل الأمد بعد أن لجأ مواطنوها الجياع إلى أكل الكلاب والقطط والفئران. ومن ثم أرغمت فرنسا على قبول شروط استسلام بالغة الإهانة أملاها المستشار الحديدى بسمارك. لاح سقوط فرنسا فى أعين الكثيرين بوصفه سقوطاً للحضارة ذاتها. إن تأريخ أليستير هورن لحصار باريس وعواقبه لعمل دال على الألمعية، عمل يعالج التاريخ العسكرى والاجتماعى بمسحة الروايات العظيمة ومذاقها.

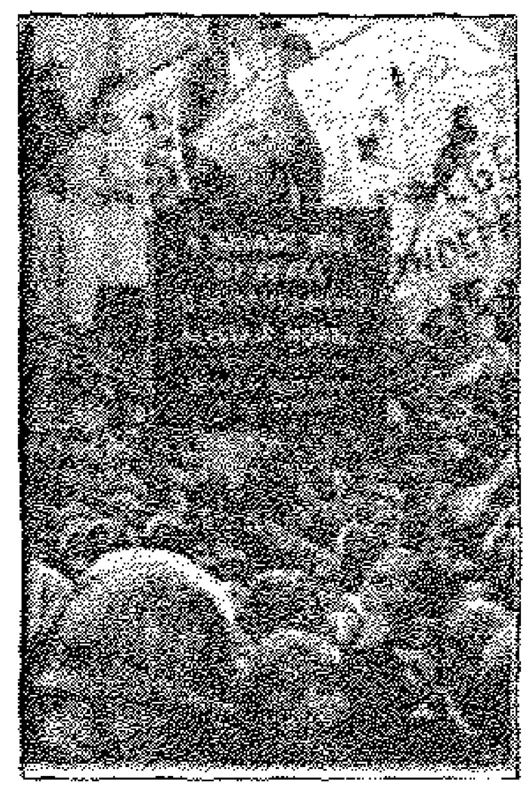


To Lose a Battle: France 1940

(خسارة معركة: فرنسا ١٩٤٠)

Penguin, 2007, 736 pp., $12.24

إن السير اليستير هورن واحد من أعظم مؤرخى بريطانيا. ألف العديد من الكتب عن تاريخ فرنسا، ومن بينها هذا الكتاب. فى غضون ستة أسابيع من عام ١٩٤٠ دمر هجوم هتلر الخاطف خط ماجينو المهيب وسرعان ما دك الجيش الفرنسى بأسره. ومع هذا الكتاب سوف يجد القارئ أنه لم يسبق لأى مؤرخ أن كتب تأريخاً أكثر دقة وإثارة لتلك الكارثة. تنساب فصول الكتاب بسرعة سينمائية من المعركة إلى البرلمان الألمانى، الرايخستاج، إلى قصر الإليزيه. إن كتاب خسارة معركة يتجاوز حدود التاريخ العسكرى التقليدى ليستحيل إلى لوحة تبرز الروح القومية الفرنسية فى أحلك لياليها.

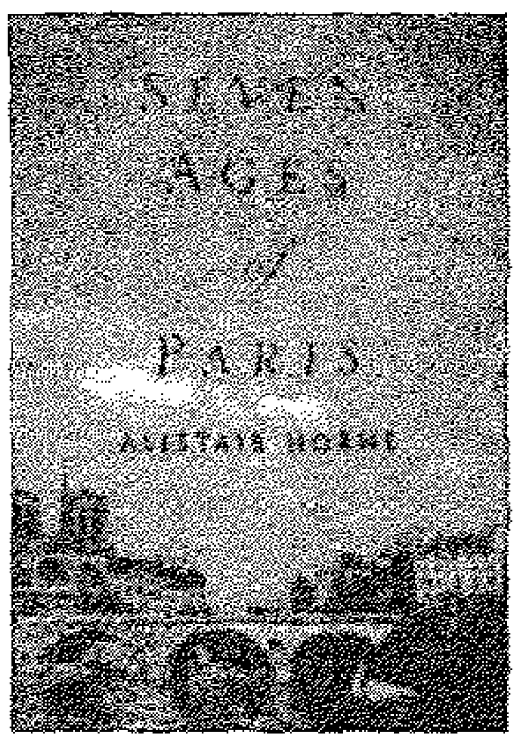


١٩٥٤-١٩٦٢ Savage War of Peace: Algeria A

(حرب ضارية للسلام: الجزائر ١٩٥٤-١٩٦٢)

NYRB Classics, 2006, 624 pp., $13.57

تواصلت حرب الجزائر من عام ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢. قوضت ست حكومات فرنسية وأدت إلى انهيار الجمهورية الرابعة وعودة دى جول إلى السلطة وكادت تحدث حرباً أهلية على الأراضى الفرنسية. مات خلال الصراع ما يربو على مليون شهيد جزائرى ونُفى عدد مماثل من المستوطنين الأوروبيين. وغير هذا وذاك وصم الحرب اتحاد مشين بين رعب ثورى وعذاب مشحون بالقمع. لقد انصرم زهاء نصف قرن منذ أن وضعت تلك الحرب الضارية أوزارها باستقلال الجزائر. ومع ذلك، كما يناقش أليستير هورن فى مقدمته الجديدة لكتابه التاريخى الكلاسيكى، لا تنفك آثارها محسوسة ليس فى الجزائر وفرنسا فحسب بل فى العالم أجمع. الحق أن حرب الجزائر تتراءى الآن وكأنها بروفة كاملة الملامح للصراع غير المتبلور الذى زلزل البلقان فى العقد العاشر من القرن العشرين والذى يخرب الآن الشرق الأوسط، من بيروت إلى بغداد. يجسد كتاب «حرب ضارية للسلام» قصة لا تعدم الدقة لحرب الجزائر، كتاب يبث الحياة فى ذلك النزاع البشع المعقد بلمحات من ذكاء وثقة وزخم لا ينقطع. إنها صراعات تكتسب من خلالها قضايا الدين والقومية والإمبريالية والإرهاب حدة جديدة مهلكة. لا غنى عن هذا الكتاب فى تلك الأوقات العنيفة التى نعيش فيها علاوة على أنه معلم باق لفن المؤرخ البريطانى.



Seven Ages of Paris

(سبعة عصور من باريس)

Alfred A. Knopf, 2002, 480 pp., $11.56

لندن مذكر، نيويورك غامضة جنسياً، يكتب هورن قائلاً: لكن «هل هناك أى إنسان عاقل يشك فى أن باريس امرأة بالأساس؟» هكذا يقدم المؤرخ الشهير تأريخه لمدينة النور، إذ يورد «مقالات متصلة تتضمن سير حيوات وسبعة عصور من الحياة المثيرة الطويلة لامرأة جذابة جميلة إنما أيضاً مضطربة مزعجة وأحياناً عنيفة». تبدأ عصور هورن السبعة فى القرن الثالث عشر حين جعل الملك فيليب أوجست باريس المركز الإدارى والثقافى لفرنسا. العصر الثانى هو عصر البروتستانتى هنرى القادم من نافار (الملقب بعدها بالملك هنرى IV) الذى تحول إلى الكاثوليكية بعد إخفاقه فى حصار المدينة لأن باريس «تستحق قداساً» وراح «يتخلص من الأحياء المكتظة الممثلة للعصور الوسطى... لتحل محلها أخرى أنيقة كلاسيكية الملامح مرتبة الأركان». أما العصر الثالث فكان عصر الملك لويس XIV، وقد شكلت فترة من الازدهار الثقافى الهائل وإن أزاح «ملك الشمس» مقعد الحكومة من تحت قدمى باريس إلى فرساى. لقد أسبغ نابليون على باريس استقرار ما بعد الثورة وعظمتها وطفق يبنى نظاماً حديثاً للصرف الصحى. وتحت حكم نابليون III والبارون هاوسمان، خلال عصر المدينة الخامس، تمت إعادة تشييد المدينة بيد أن الفترة انتهت بإراقة الدماء. انتقل العصر السادس بالمدينة من «العهد الجميل» إلى بدايات الحرب العالمية الثانية. أما العصر الأخير فغطى فترة الاحتلال وصولاً حتى عام ١٩٦٩. إن هورن يضفى على هذا السرد الألمعى الممتع نفس العاطفة المدينية التى أسبغها بيتر أكرويد على سيرته عن لندن. لا شك أن هذا الكتاب سوف يبعث البهجة فى قلوب الفرانكفونيين فى كل مكان.



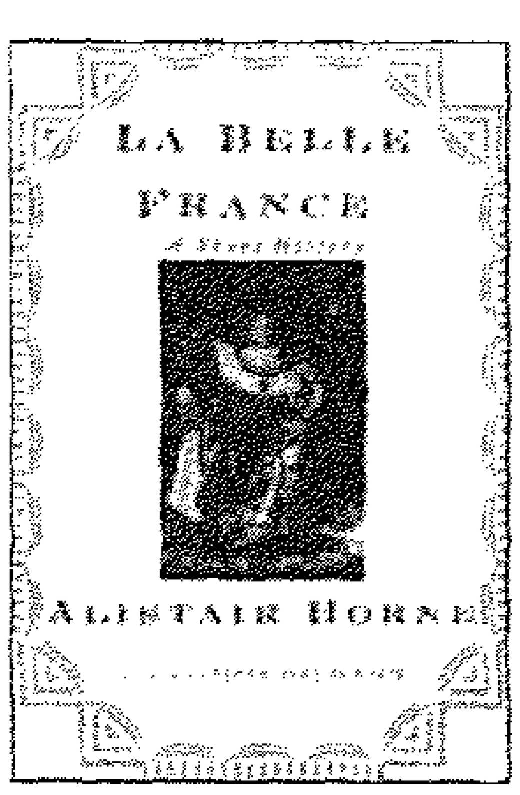
The Price of Glory: Verdun 1916

(ثمن المجد: فيردان ١٩١٦)

Penguin, 1994, 388 pp., $3.75

إن هذا الكتاب ليس مجرد تأريخ لحقائق معركة من المعارك. إنه دراسة لا تفتقر إلى العمق أو التعاطف فى وصفها لرجال حاربوا فى فيردان. كما أنه يثبت أن فيردان هى المفتاح لاستيعاب الحرب العالمية الأولى - مفتاح لعقول من شنوها والتقاليد المقيدة لهم والعالم الذى خلقهم. لا توجد حملة عسكرية - عدا معركة سوم - تلخص «مطحنة» الجبهة الغربية بالحرب العالمية الأولى مثل فيردان. فقد وقع نحو ١٢٥٠٠٠٠ ما بين قتيل وجريح من الجانبين الفرنسى والألمانى خلال عشرة شهور تقريباً فى سبيل قطعة أرض «أكبر قليلاً من المتنزهات الملكية اللندنية».

إن القارئ يتبين بجلاء ما يشتمل عليه هذا الكتاب من بحث مضن وتفاصيل بينة. يبدأ كل فصل بعبارة مقتبسة توحى بفكرته العامة، والعديد منها باللغتين الفرنسية أو الألمانية. لم تخل المكتبات من هذا الكتاب منذ ثلاثين عاماً، وهذه النسخة الكاملة تحوى مقدمة جديدة وصوراً إضافية. وعلى الرغم من مضى زهاء أربعين عاماً على هذا السرد، فهو على الأرجح أفضل ما كتبته الأقلام الإنجليزية بخصوص هذه المعركة.



La Belle France: A Short History

(فرنسا الجميلة: تاريخ موجز)

Knopf, 2004, 512 pp., $30.00

لو أن هذا العمل «الموازى» للكتاب المبهج سبعة عصور من باريس يمثل «ذروة أربعة عقود من الغرام مع فرنسا»، فالعلاقة بين المؤلف والعشيقة لا تشى بأية علامة على الانحسار. فهورن يلاحق قصة حبيبته من السلالة الميروفنجية فى القرن السادس حتى مسيرة فرانسوا ميتران و«علاقاته الخطرة» (تلك السياسية والخاصة). يغوص المؤلف بكل عشق فى خضم من الحكايات واللقطات

التاريخية والنوادر الشخصية غير أن نزاعات المحبين تعاود الظهور فى صورة أحكام جافة لا تعوزها التسلية واغتيالات بين الحين والآخر لبعض الشخصيات. يلهم فاليرى جيسكار ديستان وجين-بول سارتر بعض مفردات لغة انتقاها المؤلف بعناية: «لو أن ثمة فيلسوفاً مذنباً بالخطيئة التى اتهم بها الآخرون سقراط، ألا وهى إفساد الشباب. فلا بد أنه سارتر». فاحت من سارتر – على حد قول هورن – رائحة أشبه بالماعز، صفة اشترك فيها حسبما يبدو مع هنرى IV الذى يكن له المؤلف إعجاباً لكونه سياسياً محنكاً. إن هورن يناقش تاريخ فرنسا الحديثة مناقشة شخصية ويشيد برموزها فى كل مناسبة مما يجعل هذا الكتاب واجب القراءة لكل عشاق فرنسا. وبينما يتراءى تناوله للعصور الوسطى وبداية العصر الحديث سريع النبرة سطحى التناول، سوف يجد القارئ النصف الثانى من الكتاب مفعما بالتأمل والعمق. إن ما يلى ذلك من سرد مثير لمعضلات المقاومة والتعاون مع المحتل تحت الاحتلال النازى والتطهير الانتقامى يمثل قمة التاريخ العاطفى.



How Far From Austerlitz? Napoleon 1805-1815

(كم تبعد عن أوسترليتز؟ نابليون ١٨٠٥-١٨١٥)

St. Martin's Griffin, 1998, 416 pp., $3.75

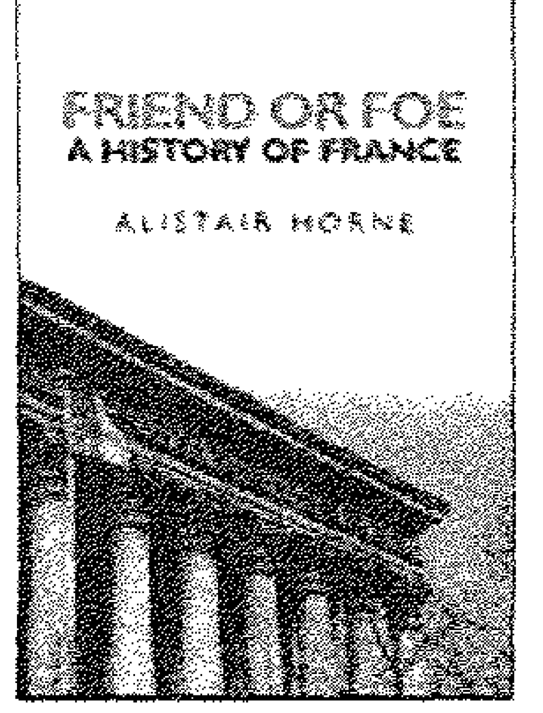
يغطى المؤرخ العسكرى الضليع أليستير هورن فى كتابه «كم تبعد عن أوسترليتز؟» العقد المحورى من مسيرة نابليون. إذ يتعاطى مع نابليون – بدءاً من انتصاراته فى مدينتى أولم وأوسترليتز وانتهاء بهزيمته فى ووترلو – باعتباره واحداً من أبطال التراجيديا اليونانية، مترع بشعور بالكبر سوف يفضى فى النهاية إلى انهياره المباغت. فهو يعلن على سبيل المثال أنه بمجرد بدء الغزو، قلما يتوقف. فالغزو الأول يتطلب من المنتصر غزواً ثانياً لحماية أرباح الأول وهكذا. وعليه سرعان ما تقل الموارد المادية والبشرية وتسقط الإمبراطورية. هذا هو ما جرى بالضبط لنابليون، وهورن ينهى حكايته إلى القارئ ببراعة منقطعة النظير. بالإضافة إلى ذلك يرسم مقارنات مثيرة بين الإمبراطور الفرنسى والألمانى هتلر: كبحت القوة البحرية البريطانية غزوات الاثنين داخل إطار القارة الأوروبية. وشن الاثنان غزواً مشئوماً على روسيا، وأبتلى الاثنان بعطش مميت للغزو.

إن هذا المجلد يجسد ما يبرع فيه هورن كل البراعة: كتابة تاريخ شعبى إنما مثقف، تاريخ حافل بالحيوية والمتعة، غنى بالنوادر... بقلم واثق وبصيرة تلتقط أدق التفاصيل، وهكذا يصطحب قراءه إلى صورة متكاملة الأبعاد، نسخة أدبية من عرض قد تشاهده فى ووترلو حيث حارب نابليون حربه الأخيرة. يكتب هورن بنبرة واضحة نابضة بالحياة دون أن يغوص على الإطلاق فى التفاصيل التقنية. إن كتاب كم تبعد عن أوسترليتز؟ يمثل ما ينبغى أن يكون عليه التاريخ الشعبى: آسر ينور القارئ خير تنوير، سريع الإيقاع لكنه جاد النبرة.

Friend or Foe

(صديق أم عدو)

Weidenfeld & Nicholson, 2004, 256 pp., $25.86



فى الذكرى المئوية لتوقيع التحالف الودى بين فرنسا وبريطانيا، تظهر دراسة جديدة عن تاريخ فرنسا بقلم مؤرخ بريطانيا الأول. فى فترة أصبحت فيها الأقدار الفرنسية-البريطانية أكثر تشابكاً من ذى قبل وذلك بسبب اليورو وتطور الاتحاد الأوروبى والنفق الواصل بين الدولتين – على الرغم من اختلاف البلدين فى العديد من الجوانب الأخرى مثل شئون الهجرة وحرب الخليج. يستكمل هورن فى كتاب صديق أم عدو ما بدأه فى كتاب «سبعة عصور من باريس»، «كتابه الأبرز على الإطلاق»، حسبما أعلن موريس درون. «لقد قبض هورن بصورة مثالية على سلسلة متصلة أشبه بالأمواج من قدر فرنسا، سلسلة ترتحل بلا انقطاع من القمم إلى الأغوار». وهكذا يصبح ما يرويه من تاريخ «ذا خصوصية وخطة محددة، إذ يتحول إلى تفسير شخصى لتاريخ فرنسا متأرجحاً بين المرتفعات والأعماق؛ سوف يلفى القارئ دوائر من سعى مضلل إلى «المجد» تتبعها فى الغالب كارثة من جراء الكبرياء ثم تتحقق المعجزة: شفاء سريع وانتصار ثقافى فرنسى».

إن هورن يسلط الضوء فى كتابه على مجموعة من الكوارث والمآسى والشخصيات. يعمل فكره فى حالة «العلاقة الخاصة» بين فرنسا وبريطانيا عبر القرون. وسوف يتمعن فى خاتمة الكتاب فى القضية التالية: هل التحالف أم التنافس – إن لم تكن العداوة – هى الوضعية الطبيعية بين فرنسا وبريطانيا؟

كتاب الزاوية

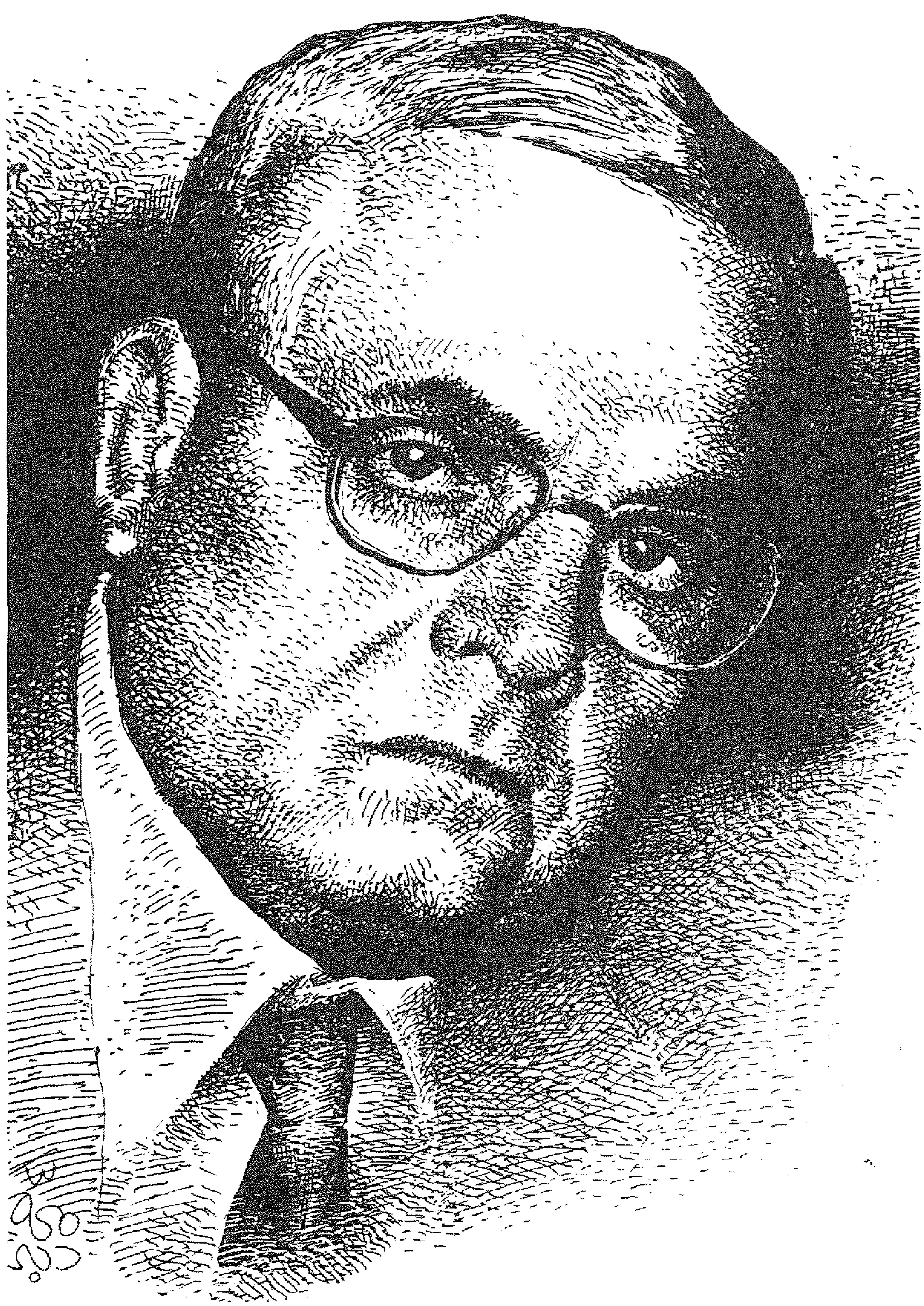
أغنية الشمس

أشعار صينية

نعـــم!
الشمس أكثر جمالاً من كل شىء
من العذارى الجميلات
من بتلات الأزهار لحظة تشربها الندى
من الثلج الأبيض
من البحار الزرقاء
الشمس جرم سماوى ذهبى أحمر
جرم رائع
جرم متفتح
هويتمان
ألهمته الشمس
وبرؤيته التى فى اتساع البحر
صاغ أشعاراً
فان جوخ
ألهمته الشمس
وبفرشاة نارية
غمسها فى ألوان مشتعلة
رسم مزارعين يحرثون الأرض
رسم زهور «عباد الشمس»
أيتها الشمس
أنت الأعلى

تم إلغاء الملكية عام ١٩٥٣ . وبالتالى سقط النص من الدستور القاضى بالعيب فى الذات الملكية. غير أن ذلك كان صحيحا فقط من الناحية النظرية. أما من الناحية العملية فلم يكن مسموحا بالعيب فى ذات رأس الدولة

العيب فى ذات



«العيب فى ذات الحاكم» من القضايا التى ظلت تفرض نفسها على التاريخ المصرى فى العلاقة بين رأس الدولة، كيفما كان مسماه: ملك، سلطان، أو رئيس جمهورية، وبين المصريين فى مؤسساتهم، سواء كانت النيابية أو الصحفية، أو حتى على مستوى الأفراد. وعلى الرغم من ذلك، فقد تعرض لها الحقوقيون أكثر مما تعرض لها المشتغلون بالكتابة التاريخية، مع أنها كانت مرهونة دائما بالظرف التاريخى.

صحيح أنه قد حدثت اجتهادات من بعض المؤرخين الشبان مثل العمل الذى وضعه الدكتور سيد عشماوى تحت عنوان «العيب فى الذات الملكية - انهيار هيبة حكم الفرد المطلق (الخديو - السلطان - الملك) ١٨٨٢ - ١٩٥٢»، وصحيح أن صاحب هذا العمل قد حشده بالمعلومات المفيدة.. كل هذا صحيح، إلا أننا رأينا إعادة الظاهرة إلى ما قبل، وعلى وجه التحديد، بعد إنشاء مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦، فظهور المؤسسة التشريعية يعنى وجود أكثر من رأى، التى يمكن أن يتناقض أحدها مع رأى صاحب «الذات الخديوية»، وهو ما لم يتأخر كثيرا فجرى على عهد خلفه، الخديو توفيق، سواء فى مظاهرة عابدين الشهيرة فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ أو فى جلسة مجلس النواب التى تعالت فيها الأصوات التى تنتقد تصرفات الخديو والتى وصلت إلى المطالبة بخلعه.

ثم إن نفس الفترة شهدت ظاهرة «الصحافة الأهلية»، وكانت بذلك طرفا ثالثا فى المعادلة، فإن ما عمد إليه بعضها من انتقادات تصرفات الخديوى إسماعيل، مما عرض جريدة مثل الأهرام للإغلاق. ولم يكن قد مضى على صدورها شهور قليلة، ناهيك عن

العيب فى ذات أفندينا
دراسة تاريخية موثقة من ١٨٨٦ حتى اليوم
القاهرة : دار الشروق ٢٠٠٨

"الكتاب الأخير"

يونان لبيب رزق

أفنديـنا!!



الصحافة الصادرة فى فترة الثورة العرابية التى كانت تهاجم توفيق عيانا بيانا.

ثم إننا رأينا الامتداد بالظاهرة إلى ما بعد، صحيح أنه قد تم إلغاء الملكية عام ١٩٥٣، وبالتالى سقط النص من الدستور القاضى بالعيب فى الذات الملكية، غير أن ذلك كان صحيحا فقط من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فلم يكن مسموحا بالعيب فى ذات رأس الدولة، حتى لو كان بلقب رئيس الجمهورية، ويتمتع بصلاحيات سياسية تسمح بضرورة نقدها، ومن ثم رأينا أن نتابع الظاهرة على عهد كل من الرئيسين عبد الناصر والسادات، بل وزدنا على ذلك فوصلنا إلى عهد الرئيس مبارك، على الرغم مما فى الكتابة عنه مذاق سياسى.

وتبدو صحة هذه المقولة إذا لاحظنا أن الرئيس السادات لم يتردد عندما تزايدت صيحات الاحتجاج ضد سياساته فى إصدار قانون مطاط يتيح له ملاحقة من يعيبون فيه عام ١٩٨٠ باسم «قانون حماية القيم من العيب».

باختصار فإننا نرى عمل الدكتور سيد العشماوى خطوة بين الكتابة فى هذا الموضوع من الوجهة القانونية والكتابة فيه من وجهة تاريخية، الأمر الذى يؤكده كثرة اعتماده على الكتابات القانونية، بينما نعتبر عملنا هذا نقلة كاملة للكتابة التاريخية، ضاربين عرض الحائط بكثير من القواعد والنصوص القانونية التى اعتمدت عليها هذه الكتابات.

ولعل ذلك ما دعانا إلى توثيق الدراسة على نحو لا يتيح لأصحاب المنهج القانونى فى دراسة ظاهرة العيب فى الحاكم التشكيك فى «الدراسة التاريخية»، فلم نترك حقيقة إلا ووثقناها، حتى أن القسم الوثائقى قد غلب فى حجمه على الدراسة نفسها.

وقائع محاكمة أحمد حلمى

الجريمة: التطاول على مسند الخديوية المصرية.

رئيس المحكمة: عزتلو على بك ماهر.

وكيل النيابة: عزتلو محمد زكى بك ـ السن ٢٣ سنة.

السيرة الذاتية: تعلمت فى مدرسة سيدنا الحسين ثم استخدمت كاتبا فى مركز دمنهور وبعد ذلك أديت امتحانا بنظارة المالية ولما قبلت فى الامتحان عينت فى مأمورية سيوة وما زلت بها إلى أن استقلت منها ثم رجعت كاتبا بدمنهور. وبعد ذلك استخدمت بالمساحة ولما أنشئ اللواء كنت أكتب فيه مستترا. ولما اتفقت مع مصطفى باشا كامل أخذت إجازة واشتغلت به ومكثت بالعمل حتى انتهت الإجازة فاستقلت ولبثت محررا فى اللواء إلى أن استقلت بعد وفاته وأصدرت جريدة القطر المصرى.

من مذكرة النيابة: إن الصحافة قد تكون وبالا على الأمة إذا لم تؤد وظيفتها على الوجه الصحيح فتصبح شرا عليها يجب ملافاة أضراره، ومن الأسف أن بعض الجرائد بمصر اخترقت سياج القانون وأساءت لحرية الصحافة فأخذت تنشر كل ما يعن لها صحيحا كان أو غير صحيح، حسنا كان أو قبيحا. وربما خفف من جرمها حسن قصدها بأن كان عملها صادرا عن حسن نية، ولكن الأمر فى بعضها ليس كذلك إذ تكتب ما تتخيل أنه يروج بضاعتها أو تنشر ما تدفعها إليه المصلحة الشخصية أيا كانت تاركة المصلحة العامة وراء ظهرها.

ومن الجرائد التى تعدت حدود الأدب والواجبات الصحفية جريدة القطر المصرى المرفوع على صاحبها الدعوى اليوم.

مركز الجناب العالى: من المعلوم أن الخديو المعظم هو الحاكم الشرعى للبلاد فيجب أن يكون مقامه فوق كل مقام واحترام شخصه الكريم فوق كل احترام. وقد قيل من دلائل الرقى فى مقام احترام صغيرهم لكبيرهم فكيف بولى الأمر الأكبر ومقام الأمير أو الملك يمنعه من الرد على ما يفترى عليه. فليس من الشهامة ولا من الأدب أن يكون ذلك سببا فى التشهير بهذا المقام السامى لأن الفرد وإن رأى شيئا يفترى عليه به ينبرى للرد والدفاع عن نفسه خلافا للملك أو الأمير.

وقائع الدعوى: تضمن عدد القطر المصرى الصادر فى ٨ يناير سنة ١٩٠٩ تحت عنوان «مصر للمصريين» مقالة نقلتها عن إحدى الجرائد العربية التى تطبع فى الأستانة صدرتها بمقدمة توهم بها أن الغرض من نقلها هو الرد عليها فى أعدادها المستقبلة (ثم لخص المقالة).

وحيث إن ما جاء فى هذه المقالة موجها إلى الحضرة الخديوية أو مشارا به إليها يقع تحت أحكام المادة ١٥٦ عقوبات التى نصها.

«كل من عاب فى ذات ولى الأمر بإحدى الطرق المذكورة يعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز ثمانية عشر شهرا أو بغرامة لا تتجاوز مائة جنيه مصرى».

وحيث من جهة أخرى إن الغرض من هذه المقالة تسوئة أعمال العائلة الخديوية وإظهار عدم صلاحيتها لتولى ملك الديار المصرية والطعن عليها وعلى حقوقها ودعوة الناس إلى خلع طاعتها والخروج عليها وهذا الأمر يعاقب بالمادة ١٥٠ عقوبات التى نصها:

«كل من تطاول على مسند الخديوية المصرية أو طعن فى نظام حقوق الوراثة فيها أو طعن فى حقوق الحضرة الخديوية وسطوتها، سواء كان ذلك بإحدى الطرق المتقدم ذكرها أو بواسطة إشهار رسم أو نقش أو تصوير أو رمز أو إباعة فى أى محل يعاقب بالحبس مدة لا تزيد عن سنتين أو بغرامة لا تتجاوز مائة جنيه مصرى».

شروط المادة ١٥٦: يشترط توفر ثلاثة شروط:

أولا: يلزم أن يكون هناك طعن والطعن تعريفه عام يدخل فيه القذف والسب وكل ما يهيج العواطف فهو أهم من القذف والسب ومجرد الاطلاع على المقالة السابقة الذكر يرى أن المقصود فى كثير من مواضعها هو الجناب العالى وأن الألفاظ التى استعملت هى من أخشن ألفاظ السباب والطعن.

ثانيا: أن يكون موجها لذات ولى الأمر. ومن يريد أن يدحض تهمة لا يكون رده بما ذكره عن كتاب عجائب الآثار للجبرتى المعروفة عداوته للعائلة المحمدية العلوية.

ثالثا: أن يكون بإحدى طرق النشر. والنقل فى مثل هذه الدعوى عن جريدة لا تطبع فى الديار المصرية ومعروفة من أفراد قلائل فالنقل عنها بنص المطاعن وحرفيتها فى جريدة القطر المصرى يكاد يكون فى الحقيقة نشرا أصليا جديدا لاختلاف الوسط.

دفاع

أحمد لطفى السيد

التهمة الأولى: الطعن على مسند الخديوية.

١ - يرجع التشريع المصرى فى هذا (المادة ١٥٠ عقوبات) إلى التشريع الفرنسى فى عهد الملكية أى أن الشارع المصرى الذى سن قانونه سنة ١٨٨٣ لم يشأ الأخذ بالقوانين الحديثة. فقد أخذ الشارع المصرى نصا من قانون ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ ونصها:

«كل من تطاول بإحدى الطرق المبينة من قانون ١٧ مايو سنة ١٨١٩ على منصب الملك أو نظام الوراثة فى العرش الملكى أو فى الحقوق التى نالها الملك من الأمة الفرنساوية أو فى سطوته الدستورية أو فى انتهاك حرمة شخص الملك يعاقب.

٢ - المراجع لنسخة القانون المصرى الفرنساوية يجد عبارة Khedivst تدل صراحة على أن غرض الشارع بمسند الخديوية لم يكن شخصا معينا وإنما أراد به ذلك الشىء الذى جعل به روحا وأساسا للحكومة المصرية فأراد حمايته فى شكله ونظامه من تطاول الأفراد - ولذلك يكون الغرض بالتطاول على مسند الخديوية هو كل ما من شأنه الطعن على شكل الحكومة الخديوية بتغيير شكلها وأساسها كطلب أن تكون جمهورية أو ملوكية أو إمبراطورية.

٣ - إذا تقرر ذلك ننظر إلى المقالة المطعون فيها فلا نجد فيها شيئا يتعلق بتغيير نظام الحكومة الحالية من خديوية إلى ملوكية أو جمهورية. وإذا لم توافق النيابة على ما قلنا فعليها أن ترشدنا للموضع الذى تشتبه فيه ونحن مستعدون للجواب.

التهمة الثانية: طعن فى حقوق الحضرة الفخيمة الخديوية.

١ - يوجد فى هذا الموضوع خلاف بين القانون الفرنساوى والقانون المصرى. ولا نشك فى أن المراد بتلك الحقوق ما ورد فى الفرمان الصادر لإسماعيل باشا فى ٨ يونيو ١٨٧٣ وهى:

أ - إدارة مصر من الوجهة المدنية المالية.

ب - سن القوانين واللوائح الداخلية

جـ - عمل وتجديد المعاهدات مع الدول الأجنبية ما دامت خاصة بالتجارة أو الجمارك أو العلاقات بالأجانب فى مصر

د - التصرف فى الأمور المالية الخاصة بالبلاد وعقد الديون باسم الحكومة المصرية.

هـ - زيادة أو تقليص عدد الجيش الشاهانى بالديار المصرية.

و - منح بعض الرتب والنياشين.

ز - ضرب النقود باسم السلطان.

هذا كله من حقوق الوراثة التى لا نبحث فيها الآن.

٢ - إذا تقرر ما قدمناه يجب أن نبحث فى مقالة العدل عما إذا كان يوجد فيها طعن فى الحقوق التى قدمنا بيانها.

إذا تصفحنا هذه المقالة فلا نجد فيها شيئا يؤخذ منه أن الكاتب ينكر على الحضرة الفخيمة الخديوية حقا من هذه الحقوق أو يناقش فى شىء من ذلك.

٣ - على أننا إذا فرضنا المستحيل وقلنا أن هذه المقالة تشتمل طعنا على الحقوق المذكورة أو واحدا منها فهل ذلك يكفى لتطبيق المادة (١٥٠).

كلا - وذلك لأن المادة المذكورة جاءت عبارتها هكذا (أو الطعن على حقوق الحضرة الفخيمة الخديوية وسطوتها) ولا تقول أو سطوتها. وهذا يستفاد منه بلا جدال أنه لوجوب تطبيق هذه الفقرة يجب أن يقترن الطعن فى الحقوق بالطعن على سطوة الحضرة الخديوية. ومعنى الطعن على السطوة الخديوية هو الطعن على القوة والصولة الخديوية التى يخضع لها كل فرد من الأفراد فكل ما من شأنه تقليل هذه القوة أو الحط من قدرتها وصولتها أو عدم الاكتراث بها يعتبر طعنا على سطوة الحضرة الفخيمة الخديوية.

ولا شك أننا إذا تصفحنا مقالة العدل لا نجد بها شيئا يستفاد منه أن الكاتب لا يعبأ بقوة الخديوية المصرية وصولتها. على أن النيابة العمومية متفقة معنا فى ذلك لأنها لم ترفع دعواها فى هذا الموضوع إلا باعتبار أن المتهم تعدى على الحضرة الفخيمة الخديوية دون التعرض لسطوتها.

فسواء كان فى المقالة طعن فى الحقوق أو لم يكن، وسواء كان هذا الطعن مقترنا بالطعن على سطوة الخديوية أو لا فإن ما تتهمنا به النيابة العمومية لا يدخل تحت أحكام المادة(١٥٠) لقصر التهمة على الطعن فى الحقوق دون السطوة. ومن ثم يكون المتهم بريئا مما نسب إليه وأرادت النيابة معاقبته عليه بمنطوق المادة ١٥٠ المذكورة.

التهمة الثالثة: عاب فى حق ذات ولى الأمر وذلك بنشره مقالة تحت عنوان (مصر للمصريين) بنقلها عن جريدة العدل التركية.

إن مقالة العدل لا تشتمل على «العيب فى حق ذات ولى الأمر» المعاقب عليه بالمادة (١٥٦ عقوبات).

ولا نتناقش هنا مع النيابة فى عبارات المقالة وفيما إذا كان يستفاد منها العيب فى حق ذات ولى الأمر لأننا لا نعلق أهمية على هذه المناقشة بل ننظر إلى شىء واحد نعتبره جوهريا فى هذا الموضوع ألا وهو (من هو ولى الأمر) الذى أراده الشارع المصرى فى المادة ١٥٦ عقوبات.

لمعرفة المراد من عبارة (ولى الأمر) يجب أن نرجع لنص المادة ١٥٦ المذكورة فى نسخة القانون المصرى الفرنساوى فإننا نجد أنه يعبر عنها بلفظ Souverain وهذا معناه صاحب السلطة المطلقة والسيادة الكلية الذى تستمد منه كل قوة.

إن النيابة العمومية تريد أن تقول لنا أن المراد بعبارة (ولى الأمر) هو شخص أميرنا المحبوب. ونحن نخالفها فى هذا الرأى ونقول إن الشارع المصرى لم يرد بهذه العبارة سوى جلالة السلطان الأعظم. وذلك للأسباب الآتية:

١ - إن الحقوق التى لسمو الخديو فى مصر لا تنطبق على ولاية الأمر بمعناها القانونى وذلك لأن هذه الحقوق من سلطة أخرى هى سلطة السلطان الأعظم وتعتبر الحضرة الفخيمة الخديوية نائبا عنه بالديار المصرية. أما كون هذه السلطة مستمدة من السلطان فهذا لا نزاع فيه لأن الأصل فيها هو الفرمانات الشاهانية التى خولت للخديوية حق الحكم بالديار المصرية. كما أنه لا يمكن هنا القول بأن حق الحكم للعائلة الخديوية أصبح حقا مكتسبا بتقرير حقوق الوراثة لها فى العرش الخديوى ومن ثم يعتبر كل خديو (ولى الأمر).

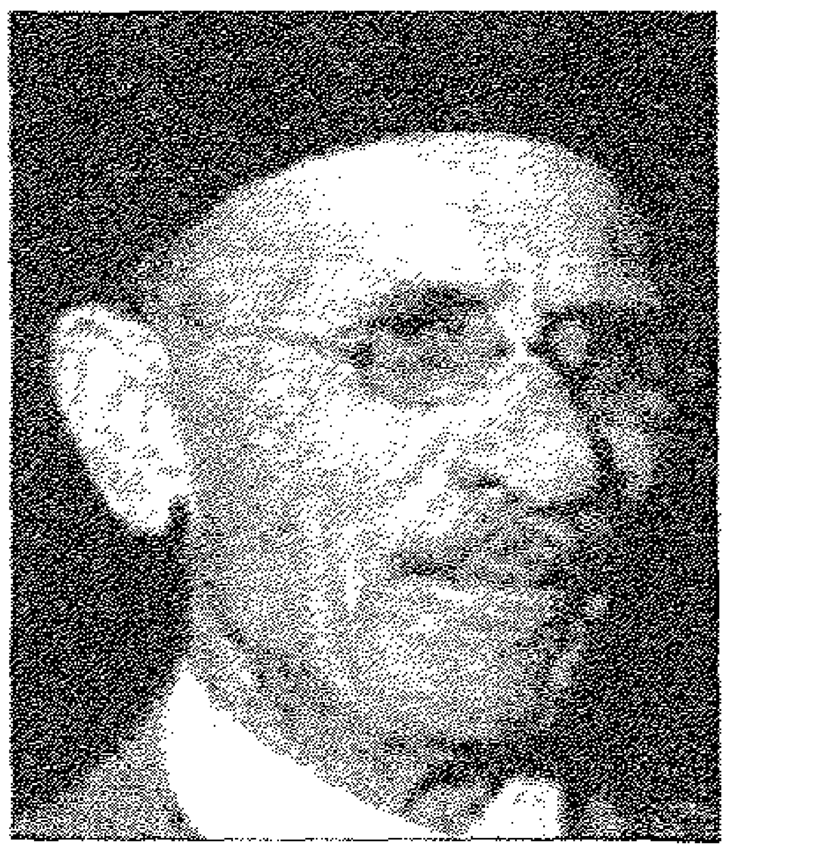
لأن هذا الاعتراض مدفوع بأن كل خديو لا يمكنه أن يقوم بالحكم فى الديار المصرية إلا بعد صدور الفرمان إليه الذى يعتبر بمثابة عقد توكيل له فى القيام بهذه المأمورية السامية.

٢ - يؤيد ذلك ما ورد فى ملحق معاهدة لوندرة الصادر فى ٣٠ مايو ١٨٤١ والذى يعتبر أساسا لحقوق العائلة الخديوية فى حكم الدولة المصرية من أنه إذا خالف المرحوم محمد على باشا الخديو الأول أو أحد أعقابه الشروط التى وضعت لحكم الوراثة فيجوز خلعه.

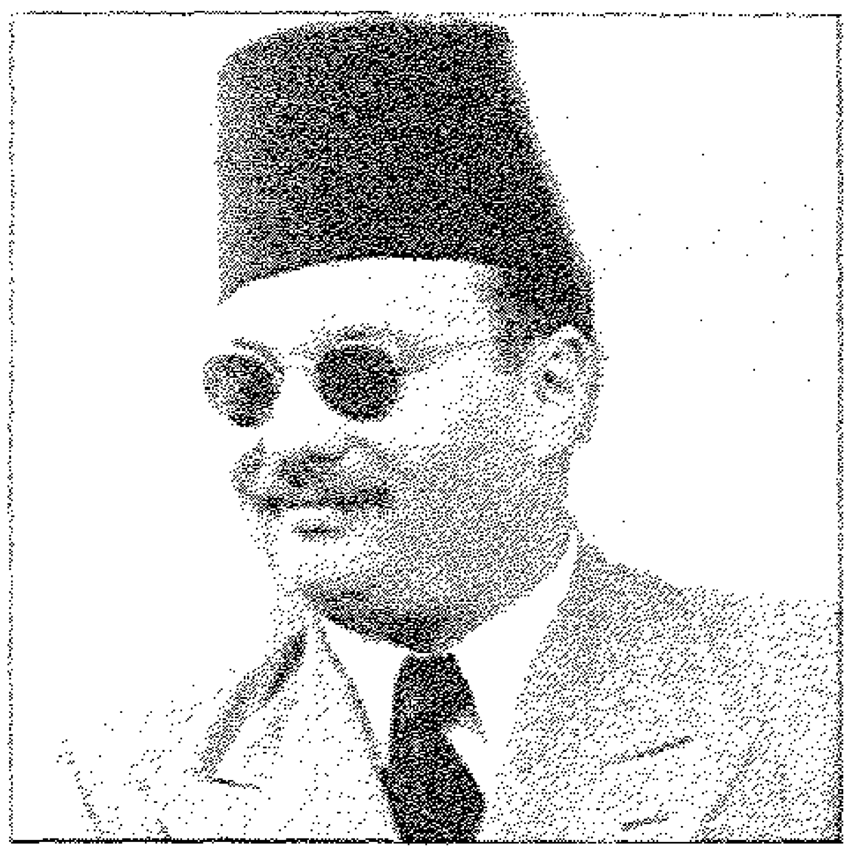
وبمقتضى نص هذه المعاهدة قد خلع الخديو الأسبق إسماعيل باشا فى ٦ رجب سنة ١٢٩٦. فإذا كان لجلالة السلطان هذا الحق، أى حق مراقبة التوكيل الصادر منه فى إدارة الشئون المصرية وعند مخالفتها يمكنه أن يسترد هذه السلطة ويعطيها للغير فلا يمكن أن يقال بأن صاحب السيادة والسلطة الكلية فى الديار المصرية سواء.



علي ماهر



أحمد لطفي السيد



فاروق

العقاد والذات الملكية

عريضة الاتهام

■ باسم صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر - محكمة جنايات مصر - المشكلة علنا تحت رياسة حضرة صاحب السعادة عبد العظيم راشد باشا وحضور حضرات صاحبي العزة مصطفى حنفي بك ويس أحمد بك المستشارين بمحكمة الاستئناف الأهلية ومحمود منصور بك رئيس النيابة العامة ومحمد أحمد السيد أفندي كاتب المحكمة.

أصدر الحكم الآتي:

في قضية النيابة العمومية نمرة ٤٢ سايرة ما يدين سنة ١٩٣٠ المقيدة بالجدول الكلي بنمرة ٩٩١ سنة ١٩٣٠ ضد.

١ - محمد فهمي الخضري أفندي عمره ٣٨ سنة وصناعته صاحب جريدة «المؤيد الجديد» وسكنه شارع الدواوين.

٢ - عباس محمود العقاد أفندي عمره ٤٢ سنة وصناعته عضو مجلس النواب وسكنه بمصر الجديدة.

وحضر للدفاع عن المتهم الأول حضرة وهيب دوس بك المحامي وعن المتهم الثاني حضرتا مكرم عبيد بك ومحمود سليمان غنام أفندي المحاميان بعد سماع الإحالة وطلبات النيابة العمومية وأقوال المتهمين وشهادة من حيث إن النيابة العمومية اتهمت المتهمين المذكورين بأنهما:

الأول: في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ بمدينة القاهرة وبلاد المملكة المصرية وبصفته مديرا لجريدة «المؤيد الجديد» عاب علنا في حق الذات الملكية بأن نشر مقالات في الجريدة المذكورة بالأعداد: ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٣٣، ٣٦ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت عناوين: «الوزارة البريطانية والأزمة المصرية الحاضرة» و«الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعذيبها» و«رأي في الأزمة الحاضرة» و«الرجعيون والإنجليز المحليون» و«سيعدل الدستور ولكن كيف؟» و«الرجعية هي العدو الأكبر في الأزمة الدستورية الحاضرة» بالتعاقب تحوي عبارات العيب المذكورة.

والثاني: بصفته شريكا للمتهم الأول في الجريمة آنفة الذكر بأن اتفق معه على ارتكابها وساعده مع علمه بها في الأعمال المسهلة والمتممة لها بأن أنشأ المقالات الواردة في الأعداد رقم ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٣٣، ٣٦ من الجريدة المتقدم ذكرها وسلمها إليه لنشرها.

وقد وقعت الجريمة فعلا بناء على ذلك الاتفاق والمساعدة وطلبت النيابة من حضرة قاضي الإحالة إحالتهما على محكمة الجنايات لمحاكمة الأول بالمادتين ١٤٨ و ١٥٦ من قانون العقوبات ومحاكمة الثاني بالمواد ١٤٨ و ١٥٦ و٤٠ فقرة ثانية وثالثة و ٤١ من القانون المذكور.

وحيث إن حضرة قاضي الإحالة قرر بتاريخ ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣٠ إحالة المتهمين المذكورين على هذه المحكمة لمحاكمتهما بالمواد سالفة الذكر.

وحيث إنه بجلسات ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ سمعت المحكمة هذه القضية على الوجه المشروح تفصيلا في محضر الجلسة.

ومن حيث إن المحكمة قد اطلعت على المقالات موضوع الاتهام في هذه الدعوى وترى أن تقف في ذكر الوقائع والأدلة عند الحد الذي يقتضيه القانون ويراه كافيا للفصل في التهمة المطروحة أمامها وأن تجتنب الإفاضة في ذلك لما يترتب على هذه الإفاضة من إعادة نشر صحيفة مخالفة لما يجب من الولاء العام نحو صاحب الجلالة الملك.

ومن حيث إنه يتبين من أقوال المتهمين بالتحقيقات وبالجلسة أن الأول منهما هو المدير المسؤول لجريدة «المؤيد» التي نشرت بها المقالات المرفوعة بسببها هذه الدعوى وأنه يطلع على ما ينشر بالجريدة في أغلب الأحيان ويشرف على تحريرها وأن الثاني هو منشئ المقالات المذكورة وهو الذي قدمها للنشر.

ومن حيث إنه تبين للمحكمة من الاطلاع على المقالات سالفة الذكر أنه بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠ أصدر العدد نمرة ١٩٥ في جريدة «المؤيد الجديد» وبه مقال تحت عنوان «الوزارة تعبث بالمصريين وهي آلة في يد المستعمرين» بإمضاء أبو قصادة تحدث فيها إلى القراء عن تلك الأزمة ونسبها لتدخل الإنجليز لإحداث الانقلاب الحاضر في مصر فكان هذا المقال فاتحة مساجلة اشترك فيها عباس أفندي محمود العقاد بعدة مقالات نشر أولها بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد ٢١ تحت عنوان «الوزارة البريطانية والأزمة الحاضرة» قال فيها:

«إنه لمناسبة المقال الذي نشره الكاتب الكبير «أبو قصادة» في مؤيد أمس وهو المقال المشار إليه آنفا أعيد نشر فقرات من حديث في هذا الموضوع جرى بيني وبين مراسل الأحرار «السورية» منذ أكثر من شهر لأن هذه الفقرات تتضمن وجهة نظر شائعة في تصوير الحالة على ما هي عليه وكل ما يتضمن وجهة نظر كهذه خليق أن يعرف تفصيله في هذه البلاد فقلت لحضرة المراسل ردا على سؤاله «اعتقادي أن هذه الأزمة هي أزمة الرجعية قبل كل شيء، والرجعيون أعداء الدستور كانوا يتهيأون من زمن بعيد لإلغاء الحياة النيابية أو لإبقائها ناقصة مشلولة تمكنهم من الحكم كما كان الطغاة المستبدون يحكمون في القرون الوسطى» ثم قال بعد ذلك: «وكانوا يتوهمون أنهم قادرون على تأليف وزارة وفدية تتقدم إلى البرلمان فتشطره شطرين، فإن نالت الأكثرية بقيت على تأييدهم، أي تأييد الرجعيين وأصبح هؤلاء الرجعيون هم حكام البلاد المستبدين وراء ستار من الدستور، وإن نالت الأقلية تقدم مرشحون آخرون، وهذا هو القضاء المبرم على الدستور، لأن كثرة الأحزاب في المجلس النيابي تنزع السلطة من المجلس وتضعها في أيدي الرجعيين» وقال فيها أيضًا «ولو تم هذا التدبير لاستغنوا به عن مسخ الدستور، ولكنه لم يتم فهم يلجأون إلى الخطة الأخرى التي يحاولون تنفيذها اليوم».

ثم قال ردا على سؤال المراسل الذي ذكر فيه أنه لا يعتقد براءة الإنجليز في هذه المؤامرة: أؤكد أنه ليس للإنجليز ضلع في المؤامرة ولكنها بعد ظهورها كانت فرصة للوصول إلى مطالبهم.

وقال «هذه خلاصة رأيي في حقيقة الأزمة منذ البداية وكلما مضى يوم بعد يوم زادتني الحوادث اقتناعا به، وأدلة محسوسة على صحته» ثم قال: «إن الانجليز لم ينشئوا الأزمة لأن الأزمة نشأت قبل المفاوضة بل نشأت لإحباط المفاوضة والوصول من وراء ذلك إلى إلغاء الدستور» ثم قال: «فلا يسعني أن اعتقد أن كل هذا تدبير من الوزارة البريطانية وأن الوفاق تام بين هذه الوزارة والرجعية: هناك اختلاف ولا شك بين هاتين الجهتين».

وفي اليوم التالي أي في ١٠ سبتمبر عقب على المقال الأول بمقال آخر نشر في العدد رقم ٢٢ تحت عنوان «الاستقلال لحرية مصر وسعادتها لا لاستعباد مصر وتعذيبها» قال فيه: «أتستطيع الرجعية أن تظن ظنا أم تتوهم وهما أنها هي التي طلبت ذلك - يشير إلى الاستقلال - فكان، أو أنها كانت تطلبه على أي وجه من الوجوه فيكون؟ اتستطيع أن تذكر لنا كلمة واحدة قالتها في سبيل ذلك أو تدبيرا واحدا دبرته أو نية واحدة أظهرتها بأي نوع من أنواع الظهور؟ لا: إن الرجعية لا تستطيع أن تظن ذلك ظنا أو تتوهمه توهما. ولا تستطيع إلا أن تعرف ما يعرفه كل إنسان ولا يخفى على إنسان» في يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٠ ظهر في ميدان المساجلة مجهول أمضى مقالا بحرف «ص» نشر في العدد رقم ٢٥ تحت عنوان «رأي في الأزمة الحاضرة» ذهب كاتبه إلى ما رآه عباس أفندي العقاد من حيث الأزمة المنوه عنها فقال: أولا: إن الأزمة أزمة الرجعية. وعلل ذلك بقوله: «ولا تستغرب من الرجعيين في مصر الجرأة على تدبيرها لأنهم لم يطمئنوا قط إلى حكم الأمة».

ثم قال: «أما دكتاتورية محمد باشا محمود فقد اعتمدت حقيقة كل الاعتماد على

تأييد اللورد لويد ولكن اللورد لويد لم يكن يستطيع وحده إجراء الانقلاب لولا أن ساعدته الرجعية بكل ما تملك من دسيسة وسلطان فلما عملت وزارة العمال على تبديل الحال فى مصر سعت الرجعية فى إنجلترا ليكون هذا التبديل فى صالحها، فيحل استبدادها محل استبداد محمد محمود باشا، فلما لم يفلح فى هذا المسعى وعادت الحياة الدستورية، أرادت من وزارة النحاس باشا أن يكون آلة الاعتداء على حقوق الأمة ولكن الوزارة النحاسية لم تكن لتقبل هذا فاستقالت حكيمة كريمة. وهنا لم يكن للرجعية بد من إحداث الانقلاب الحالى إلى أن قال: وأبلغ من كل ما تقدم أن بوادر الأزمة ظهرت قبل المفاوضات فلم تستطع الحكومة النحاسية أن تتفق على تعيين الشيوخ وكبار الموظفين، واضطرت إلى تأجيل النظر فى ذلك إلى ما بعد عودة الوفد الرسمى، وأن الرجعيين كانوا يعملون لإحباط المفاوضة، فلا يعقل أن تكون الحكومة البريطانية قد اشتركت معهم فى هذا التدبير».

وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٢٦ من جريدة المؤيد تحت عنوان: «الرجعيون والإنجليز المحليون» استهله بقوله «فى الخطاب المفصل الذى أرسله إلينا صديقنا (ص) بيان واف للرأى القائل بأن الأزمة الحاضرة فى مصر هى أزمة الرجعية قبل غيرها، وأن الإنجليز لم يخلقوا الأزمة وإنما حاولوا ويحاولون أن يستفيدوا منها بعد خلقها وهذا الرأى هو رأينا الذى لا تزيدنا الحوادث إلا اقتناعا به ووثوقا منه. ولا يدعونا إلى تقريره وتوكيده إلا أن يعرف المصريون الحالة على حقيقتها، ويعلموا أصول الدسيسة من أين تنجم وإلى أى غاية تسعى، فإنها - أى الرجعية - فى سبيل الاستعداد لمسخ الدستور: تحتضن الأذناب الذين لا يستحقون فى شريعة الوطنية والإنسانية والأخلاق إلا النبذ والإهمال والتحقير، فتجنى بذلك على ضمير الأمة جناية شديدة الفتك بعيدة القرار».

وبتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٠ بالعدد رقم ٣٣ و ٣٤ ورقم ٣٦ نشر عباس أفندى العقاد مقالين: الأول منهما تحت عنوان «سيعدل الدستور ولكن كيف» والآخر تحت عنوان «الرجعية هى العدو الأكبر فى الأزمة الدستورية الحاضرة» نحا فيهما منحى المقالات السابقة.

ومن حيث إنه بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ قضت محكمة النقض والإبرام المصرية أن العيب فى الذات الملكية قد يكون بطريق التعريض كما يكون تصريحا وأن للمحاكم أن تبحث موضوع المقال المطروح أمامها لاستظهار ما قد يكون فيه من الأمور المعاقب عليها، وأن ذلك يقتضى الذهاب فى تأويل معانيه لتعيين من يكون قد أريد بالمطاعن وعملا بهذا المبدأ بحثت المحكمة المذكورة القضية التى كانت تنظرها وجاء فى حكمها: إنه يتبين أن المقال يشمل العبارات المبينة فى تقرير الاتهام، وهى فى مدلولها تسند العيب إلى الذات الملكية التى تعينت من مرامى ألفاظه وعباراته، إلى حد يصعب صرفه إلى غير حضرة صاحب الجلالة، ولا عبرة إلى استناد محكمة الجنايات إلى ماضى المتهم تدليلا على حسن نيته، إن مجرد نشر عبارات مع العلم بمضمونها تقطع بسوء النية.

ومن حيث إنه مما تقدم يكون لهذه المحكمة الحق فى إنزال العقاب بالمتهمين متى ثبت لديها أن المقالات موضوع المحاكمة تشمل عيبا فى حق الذات الملكية سواء كان هذا العيب قد أسند إليها تصريحا أو تلميحا، وكما أن لها الحق أن تستنتج ذلك من مدلول العبارات ومرامى الألفاظ الواردة بالمقالات ولا يمنعها إذن من مؤاخذة المتهمين كون العيب لم يكن مسندا لحضرة صاحب الجلالة الملك تصريحا، وذلك بخلاف ما ذهب إليه الدفاع عن المتهم الثانى من قوله: أن العيب المعاقب عليه بالمادة ١٥٦ من قانون العقوبات المطلوب تطبيقها إنما يجب أن يكون إسناده مباشرة وصراحة للذات الملكية، فأما قوله «صراحة» فقد تبين مما تقدم أن التفسير الصحيح للمادة ١٥٦ هو ما ذهبت إليه محكمة النقض والإبرام بأن العيب لا يجب أن يكون موجها مباشرة لأنه موجه إلى الوزارة الحالية فهذا هو الموضوع المطلوب من المحكمة الفصل فيه.

دفاع

مكرم عبيد

يا حضرات المستشارين:

لقد سمعتم مرافعة النيابة وتبينتم ما فيها من جهد - بل واجتهاد - فى التدليل والتخريج والتأويل، ولو أنكم تفضلتم فألقيتم نظرة واحدة إلى خارج المحكمة حيث القوات تتوزع وتتجمع، وأخرى إلى قفص الاتهام فى ذاته لاقتنعتم بأن القضية المعروضة على حضراتكم إن هى إلا مأساة ينفطر لها القلب، أكثر منها قضية ينسجم لها البيان.

ذلك هو الوضع الصحيح للقضية، فهى مأساة أمة تمثلت فى مأساة فرد، ولكن النيابة رأت أن تتملص من الجوهر إلى المظهر فرسمت لنا من تهمة باطلة صورة هى أشبه الصور بالحق، وإن لم تكن من الحق فى شىء، وفى ذلك خطر هو كل الخطر، فإن أخطر الباطل وأشده تضليلا ليس ما بينه وبين الحق هوة سحيقة، بل هو الذى يفصله من الحق طلاء خارجى أو قشرة رقيقة، لذلك أرى واجبا لزاما على أن أعرض للمحكمة الصورة الحقيقية لهذه القضية، مجردة من كل طلاء، عارية من كل رياء، وأن أبرز ما خفى من عواملها وما ظهر، إذ بغير ذلك لا يتسنى لى أن أقوم بمهمة الدفاع فيها.

والواقع أن هذه القضية التى تدور فى الظاهر بين النيابة والأستاذ العقاد هى فى الحقيقة بين الرجعية والدستور، أو هى بالأحرى بين مبدأى التأخر والتقدم، أيا كان الشكل الذى قد يتخذه كل من هذين المبدأين أو الاسم الذى يتسمى به فى مختلف الأزمنة والظروف، وما العقاد إلا خصم للرجعية عنيد، انهال عليها بضربات قتالة رأت ألا قبل لها بها فاعتزمت أن تنكل به قبل أن ينكل بها، ولما لم تقو على مجابهته وجها لوجه فرت إلى السدة الملكية تتعلق بركابها وتتمسح بأعتابها ولم تستح أن تتخذ منها ستارا لعيوبها فأسندت العيب للذات الملكية والعيب كل العيب فيها.

ولكن: ما هى الرجعية التى عناها العقاد؟؟ هى كل فكرة أو هيئة أو شخص مسئول عن العبث بالدستور، الذى استماتت العقاد فى الدفاع عنه يقضى بأن الملك غير مسئول وأن ذاته مصونة فلا يمكن أن ينصرف لفظ الرجعية إلى الذات الملكية لا موضوعا ولا قانونا.

يا حضرات المستشارين:

لو أن هذه القضية هى الوحيدة من نوعها لجاز أن يكون تصويرنا لها وتعليلنا لأسبابها محل ريبة وتشكك ولكن الدليل لا يعوزنا على أن الرجعية فى صراعها الدائم مع خصومها طالما لجأت إلى مثل هذا السلاح المعيب وهو التحكك بالعرش وشخص الجالس عليه، من غير أن يكون للعرش أى شأن من قريب أو بعيد فى الخصومة، وإليكم بعض الأمثلة على ما ذكرناه، وهى أمثلة رائعة لا يأتيها الباطل من أى ناحية من نواحيها:

منذ أمد بعيد ينيف على الألف وتسعمائة سنة، ظهر بين الناس رجل من رجال الله الأطهار وهو كلمة الله وروح منه، ولكنه كان بين الخلق متواضعا فقيرا لا يكاد يكون لجسمه غطاء ولا مأوى، حتى أنه كان يقول عن نفسه: «أن لطيور السماء أوكارها وليس لابن الإنسان مأوى» وكانت رسالته إلى الناس أن اعبدوا الله عبادة الروح والحق، وانبذوا من الدين تقاليد الرجعيين من رجاله، إذ هى ليست من الدين فى شىء.

خصومة دينية كما ترون ولكن الرجعيين من رجال الدين لم يجدوا سبيلا للانتقام من خصمهم إلا أن ينصبوا له شراكا ليتهموه بعدم الولاء لقيصر صاحب العرش، ورغم قوله صراحة: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فإنهم شكوه إلى الحاكم الرومانى مدعين أنه طعن على قيصر، ولو أن لخصومه لسان النيابة المصرية لقالوا بالأمس ما تقوله هى اليوم «إنه عاب فى الذات الملكية».

ألا ترون يا حضرات المستشارين كيف تلجأ الرجعية - حتى فى المسائل الدينية البحتة التى لا شأن لها بالملك ولا بالملوك إلى الانتقام بالملكية؟ وهل لا ترون بأن الرجعية هى اليوم والأمس وإلى الأبد واحدة فى تفكيرها وفى تدبيرها.



العقــــاد



مكـرم عبيــد

ساقوا المسيح عيسى إلى المحاكمة فأخذت الحاكم الروماني روعة من رنة صوته وجلال صمته، ولما تبينت له براءته من كل عيب أسقط في يده، ولم يدر ما عساه يفعل، ولعله أحس في النفس حسرة، أو خشي من الضمير ثورة فأمر بإحضار إناء من الماء وغسل يديه أمام الجميع ثم صاح قائلا «إني بريء من دم هذا البار» ولكن واأسفاه فإنه رغم مسئوليته وإعلان حياده التام: سلم المتهم البريء إلى خصومه من الرجعيين - وكان اسمهم وقتئذ الفريسيين وأمر جنده من الرومان أن يرقبوا التنفيذ، فأحاطوا به مهددين مستهزئين.

يا حضرات المستشارين:

لم يكد يمضي على هذا الحادث الجليل بضع مئات من الأعوام حتى ارتفع من صحراء العرب صوت عذب ينذر الكافرين فتهلع النفوس لدويه، ويبشر المؤمنين فتتفتح القلوب لوحيه. بدأ الرسول الأمين بتبليغ رسالته إلى بني قومه فدعاهم إلى عبادة ربه، وتحطيم أصنامهم وما كان لقومه وقد عرفوا فيه الأمانة والقناعة والوداعة أن يسندوا إليه مطمعا خفيا، أو يظنوا أنه كان يبغي من متاع الدنيا شيئا، وهو الذي كان يدعو باسم ربه إلى الآجلة دون العاجلة.. ولكن زعماء الجاهلية الأولى - والجاهلية هي الرجعية - اتهموه بالطعن على حكمتهم، والطموح إلى سلطانهم، وتمادى بهم الوهم إلى حد أن عمه أبا طالب فاتحه في ذلك ولوح له بالحكم والسلطان على أن يتنازل عن رسالته فما كان من النبي الكريم إلا أن قال له: «يا عم! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

إذن: يستخلص من هذين المثلين الرهيبين اللذين هما محل إيمان وإجماع أن الرجعية لا تتورع حتى في المسائل الدينية في التحكك بنظام الملك أو بشخص ولي الأمر، وذلك تحقيقا للنكاية لهم وإمعانا في الانتقام منهم. فكيف الأمر في قضية كقضيتنا هذه تتصل مباشرة بالشئون السياسية والنظم الحكومية؟ هل من عجب إذا كانت الرجعية السياسية أو الحكومية تنقم على الأستاذ العقاد دفاعه الباسل عن المبادئ والنظم الدستورية فترميه بتهمة العيب في الذات الملكية.

أما رواية أكبر رأس في الدولة التي دستها النيابة في مرافعتها أمام قاضي الإحالة بأن قالت «ولكن المقالات قد حوت أكثر مما يظن وأبلغ في الإجرام، وهو المساس بأكبر رأس في الدولة تلك العبارة التي إذا قيلت لا يمكن أن تنصرف لأي شخص سوى جلالة الملك» فليسمح لي حضرة رئيس النيابة بأن دسه لهذه العبارة في مرافعته إنما هو استغلال غير نزيه من جهة وغير مبني على أي أساس من الحق أو الواقع من جهة أخرى.

فبفرض أن العبارة قيلت في مجلس النواب بالشكل الذي قيلت به فليس للنيابة قانونا أن تستعملها ضده كدليل أو بأي طريقة من الطرق، إذ ليس لها أن تحاكمه عليها طبقا لنص الدستور. هذا فضلا عن أن العبارة كما روتها النيابة ليست صحيحة وإني أتلو عليكم ما جاء في كوكب الشرق من مقال للعقاد في هذا الصدد ونشره الكوكب ١٩ يونيو ١٩٣٠.

«إن البلاد مستعدة لأن تسحق كل رأس يخون الدستور هكذا نقول اليوم وهكذا نقول غدا وهكذا يقول القانون والدستور، فإن مصر دولة ملكية دستورية تعد خيانة الدستور فيها جريمة لا تغتفر، وتعد حماية الدستور لها فريضة لا تنسى، وواجبا أقسم الجميع عليه يمين الطاعة والولاء».

وهذا صريح في أن العقاد لم يشر بتلك العبارة إلى جلالة الملك، بل كل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الدستور، وقد سبق أن ذكرنا أن شخص الملك غير مسئول عن مثل هذا الاعتداء، إذ المسئولية تقع على عاتق الوزراء. ■

عريضة المعارضة للملك فاروق في ١٦ أكتوبر ١٩٥٠

■ يا صاحب الجلالة

إن البلاد لتذكر لكم أياما سعيدة كنتم فيها الراعي الصالح والرشيد، وكانت تحف بكم أمة تلاقت عند عرشكم آمالها، والتفت حول شخصكم قلوبها، فما واتتها فرصة إلا دلت فيها على عميق الولاء والوفاء، وما العهد ببعيد بحادث القصاصين، وقد أنقذكم الله من مخاطره وهو أرحم الراحمين.

واليوم تجتاز البلاد مرحلة قد تكون من أدق مراحل تاريخها الحديث، ومن أسف أنها كلما اتجهت إلى العرش في محنتها، حيل بينه وبينها لا لسبب إلا لأن الأقدار قد أفسحت مكانا في الحاشية الملكية لأشخاص لا يستحقون النصح وأساءوا التصرف، بل إن منهم من حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشكوك والشبهات هي الآن مدار التحقيق الجنائي الخاص بأسلحة جيشنا الباسل، حتى ساد الاعتقاد بين الناس أن يد العدالة ستقصر حتما عن تناولهم بحكم مراكزهم. كما ساد الاعتقاد من قبل أن الحكم لم يعد للدستور، وأن النظام النيابي قد أضحى حبرا على ورق منذ عصفت العواصف بمجلس الشيوخ فصدرت مراسيم يونيه سنة ١٩٥٠ التي قضت على حرية الرأي فيه وزيفت تكوين مجلسنا الأعلى، كما زيفت الانتخابات الأخيرة من قبل تكوين مجلس نوابنا.

ومن المحزن أنه ترددت على الألسن والأقلام داخل البلاد وخارجها أنباء هذه المساوئ وغيرها من الشائعات الذائعات، التي لا تتفق مع كرامة البلاد، حتى أصبحت سمعة الحكم المصري مضغة في الأفواه، وأمست صحافة العالم تصورنا في صورة شعب مهين، يسام الضيم فيسكت عليه، بل ولا يتنبه إليه، ويساق كما تساق الأنعام، والله يعلم أن الصدور منطوية على غضب تغلي مراجله، وما يمسكها إلا بقية من أمل يعتصم به الصابرون.

يا صاحب الجلالة

لقد كان حقا على حكومتكم أن تصارحكم بهذه الحقائق، ولكنها درجت في أكثر من مناسبة على التخلص من مسئوليتها الوزارية بدعوى «التوجيهات الملكية» وهو ما يخالف روح الدستور، وصدق الشعور، ولو أنها فطنت لأدركت أن الملك الدستوري يملك ولا يحكم، كما أنها توهمت أن في رضاء الحاشية ضمانا لبقائها في الحكم، وسترا لما افتضح من تصرفاتها، وما انغمست فيه من سيئاتها وهي لا تزال أشد حرصا على البقاء في الحكم وعلى مغانمه منها على نزاهته - ولهذا لم نر بدا من أن ننهض بهذا الواجب فنصارحكم بتلك الحقائق ابتغاء وجه الله والوطن، لا ابتغاء حكم ولا سلطان، وبرا بالقسم الذي أديناه أن نكون مخلصين للوطن والملك والدستور وقوانين البلاد، وما الإخلاص لهذه الشعائر السامية إلا إخلاص الأحرار الذي يوجب علينا التقدم بالنصيحة كلما اقتضاها الحال.

يا صاحب الجلالة

إن احتمال الشعب مهما يطل فهو لا بد منته إلى حد. وإننا لنخشى أن تقوم في البلاد فتنة لا تصيبن الذين ظلموا وحدهم، بل تتعرض فيها البلاد إلى إفلاس مالي وسياسي وخلقي، فتنتشر فيها المذاهب الهدامة، بعد أن مهدت لها آفة استغلال الحكم أسوأ تمهيد.

لهذا كله، نرجو مخلصين أن تصحح الأوضاع الدستورية تصحيحا شاملا، وعاجلا، فترد الأمور إلى نصابها، وتعالج المساوئ التي تعانيها مصر على أساس وطيد من احترام الدستور، وطهارة الحكم، وسيادة القانون، بعد استبعاد من أساءوا إلى البلاد وسمعتها، ومن غضوا من قدر مصر وهيبتها، وفشلوا فشلا سحيقا في استكمال حريتها ووحدتها ونهضتها، حتى بلغ بهم الفشل أن زلزلوا قواعد حكمها وأمنها وأهدروا فوق أهدار اقتصادها القومي، فاستفحل الغلاء إلى حد لم يسبق له مثيل، وحرموا الفقير قوته اليومي.

ولا ريب أنه ما من سبيل إلى اطمئنان أية أمة لحاضرها ومستقبلها إلا إذا اطمأنت لاستقامة حكمها، فيسير الحاكمون جميعا في طريق الأمانة على اختلاف صورها، متقين الله في وطنهم، ومتقين الوطن في سرهم وعلنهم.

والله تجلت قدرته هو الكفيل بأن يكلأ الوطن برعايته، فيسير شعب الوادي قدما إلى غايته.

١٦ أكتوبر ١٩٥٠. ■

الإمضـــاءات

إبراهيم عبدالهادي، محمد حسين هيكل، مكرم عبيد، محمد حافظ رمضان، عبد السلام الشاذلي، طه السباعي، مصطفى مرعي، عبد الرحمن الرافعي، إبراهيم دسوقي أباظة، أحمد عبد الغفار، علي عبد الرازق، رشوان محفوظ، حامد محمود، نجيب إسكندر، زكي ميخائيل بشارة، السيد سليم.

لغة السياسة و سياسة اللغة

عبد السلام المسدى

▒▒ اللغة سلطة فى ذاتها، والسياسة هى السلطة بذاتها ولذاتها. فأما اللغة فالإنسان يفعل بها الفعل على الناس، وكثيرا ما لا يكون واعياً بسلطتها ولا بخطرها. وأما السياسة فأصحابها لا يتصورون أنفسهم إلا وهم يفعلون الأفعال بالناس على الناس، وبعضهم يمارس اللغة وهو واع بقوتها إذ تشد آزر سلطته، وبعضهم لا يعى أن وزن سلطانه بوزن سلطة اللغة. وفى مسافة ما بين هؤلاء وأولئك، تزدهر الحياة أو يخبو وهجها.

السياسة هى السلطة الحاضرة، واللغة هى السلطة الغائبة، والذين يصوغون الأحلام الإنسانية يرون أن العالم كان يمكن أن يكون أسعد لو أن السياسة قلصت من حضورها فى وعى أصحابها، وأن اللغة قلصت من غيابها عن جمهور الناس المحكومين بالسياسة.

منذ صباح التاريخ، يوم بدأ الإنسان يدون لمن بعده مآثره، كانت اللغة أداة أساسية من أدوات السياسة، لم تكن أهميتها تقل عن أهمية المال وأهمية الاحتماء بالعصبية، غير أن وزن اللغة فى استواء أمر السياسة قد تطور بتطور آليات الإنسان فى تواصله مع الإنسان، ثم تضخم عندما أصبحت المعلومة ملكاً مشاعاً بين الحكام والمحكومين.

إن ذاك التطور الذى آل إلى انتصاب اللغة سلطة داخل سلطة السياسة قد مر بمحطات كبرى، هى تلك المنعرجات التى آلت بالمعلومة إلى الملك المطلق المشاع: المحطة الأولى نشأة الصحافة، والثانية ظهور البث الإذاعى، والثالثة ظهور البث التلفزى والرابعة استحداث الإنترنت.. إنها كالمراحل الجنينية التى استوى فيها سلطان اللغة، وتم فيها الاعتراف لها بسلطانها، ومنذئذ سيكون من الغباء أن نعزل سلطة السياسة عن سلطة اللغة، وسيكون وجيهاً أن يسأل السائل وهو ينخرط فى ميثاق قراءة الهم الإنسانى: أيهما أكثر اقترافاً للإثم، سياسى يزهد فى اللغة، أم لغوى يستهجن السياسة؟ وقد يبحر السؤال بصاحبه بعيداً: أيهما أحق بالكشف: لغوى يحترف تسويغ السياسة، أم سياسى يتجنى على اللغة؟

إن اللغة فى الوجود أداة مطلقة، وهى فى السياسة قيمة مقيدة، ولكنها فى الإعلام وظيفة متحكمة. وتجرى العادة بأن الناس يهتمون بالحدث السياسى دون أن ينتبهوا ملياً للصياغة التى نحكى بها تفاصيل الحدث، وبذلك تراهم يطابقون بين الحدث السياسى والخبر السياسى، فهم ينزلون الأول منزلة المدلول والثانى منزلة الدال، فلا يخطر بالذهن لديهم أن يسعوا إلى تشقيق هذا عن هذا. لكأن رسالة الإبلاغ واحدة لا تصدر إلا عن أداء واحد، أو كأنما الخبر هو الخبر مهما تنوعت صيغه أو تلونت تجلياته، ومن وراء ذلك كأن الإخبار عن الحدث السياسى فعل فى مطلق البراءة، بحيث لا تنحشر فيه مقاصد صانعه حين يصنعه.

عند بداية الوعى بوزن اللغة فى صناعة الفعل السياسى، ينتابك سؤال ثمّ يغازلك بتقلباته كأنه ألوان من الطيف تتموج على صفيحة من المعدن المصقول والشمس بازغة عليه: أيهما أشد إغراء وأكثر إمتاعا: أن نبحث فى السياسة من خلال اللغة، أم أن نبحث فى اللغة من خلال السياسة؟ أو قل: أيهما أوقع فى النفس وأيهما أجدر بإجلاء الحقائق فى زمن دفن الحقائق: أن نعيد اكتشاف الحيثيات التى تصنع سلطة السياسة، أم نعيد اكتشاف اللغة كى نقرّ لها بالسلطة التى كانت محتجبة عنا؟

حين يصدق منا العزم على الانخراط فى مغامرة الكشف الجديد ستتبدل أمامنا أشياء كثيرة، وستتغير شيئاً فشيئاً مقاييسنا فى إرسال الأحكام الجاهزة على السياسة وعلى اللغة. والرحلة إلى مدارات الوعى الجديد لها جواز سفر وحيد: هو أن نمسك أنفاسنا كى لا نتعجل الحكم القاطع، وأن نجعل مرامنا الذى نتغياه إعادة ترتيب بيتنا الإدراكى، ولن يسلبنا ذلك شيئاً من إرادتنا فى اتخاذ الموقف الملائم تجاه الأحداث حسب ميولنا أو حسب سلم القيم الذى نرتضيه، ولكن البحث فى علاقة السياسة بسلطة اللغة يريدنا على أن نفصل فصلاً واعياً بين فهم أسرار العلاقة القائمة بين الإنسان ومراداته من الكلام، وفهم حيثيات الفعل السياسى قبل تزكيته أو إدانته.

ليس مألوفاً عندنا أن نبحث فى الآليات المحركة للغة فى مجال السياسة؛ لأننا لم نتشبع بعد بنواميس استراتيجيات الخطاب عامة وبقوانين استراتيجيات الخطاب السياسى تخصيصاً. فقد يدفعنا الحدث السياسى إلى الوقوف برهة على اللغة، وقد نستشهد ونحن نبحث فى اللغة بقولة جاءت على لسان أحد السياسيين، ولكننا لم نعهد اتخاذ التقاطع بين الظاهرتين مجالاً للبحث والاستكشاف. كل ذلك غير متواتر، ولكن الأقل تواتراً عندنا هو أن يكون لأحدنا موقفه المعلن من السياسة وأحداثها، وأن يكون له سجله المحفوظ فى ذاكرة الجمهور بكل مكونات الخطاب النضالى الملتزم بقضايا الأمة ومرجعيات هويتها، ثم يقدم على تعاطى الشأن السياسى، من حيث هو حدث ومن حيث هو لغة، بمنهج موضوعى يرمى من ورائه إلى إماطة اللثام عن المسكوت عنه: كى يتسنى الكشف عن النواميس الخفية المتحكمة فى آليات التفكير عند الإنسان.

إن البحث فى السياسة بتجرد منهجى، لاسيما عن طريق فنون تحليل الأقوال، يقتضى مصادرة مبدئية هى الحياد الفكرى الضامن للتشخيص العلمى، ولكن الموضوعية فى البحث اللغوى والدلالى لا تلغى وقوف الباحث على درجات السلم القيمى، بل كثيراً ما يكون الانتماء الأخلاقى والالتزام بمواثيق الحق الإنسانى والانخراط فى معايير العدل المطلق، هى التى تحفز الباحث على أن يرى فى علاقة اللغة بالسياسة ما لا يراه غيره. ذلك أن الشائع بين الناس هو أن السياسى يهتم باللغة اهتماماً عارضاً، واللغوى يتابع القضايا السياسية بوصفه كائناً اجتماعياً أكثر مما هو ذو خصوصية معرفية.

نحن نرى إذاً كيف تعددت دوائر النظر كلما حاولنا إلقاء النور على الجسور الواصلة بين السياسة واللغة، وتتشعب أدوات الرصد والتحليل كلما خفيت علينا السلطة التى يكتسبها الخطاب، ومردّ هذا الخفاء أن مفهوم السلطة يستحوذ عليه الحدث السياسى، فلا يخطر على بال الجمهور فى الشائع من الأحوال أن يقيم اقتراناً بين اللغة وهى إبلاغ، واللغة وهى صانعة للفعل السياسى ومحققة لحيثيات إنتاجه، أما أن تتحول اللغة أحياناً فتمسى هى جوهر الحدث السياسى فى ذاته ولذاته، فهذا مما لا يستوعبه الوعى العام إلا إذا انبرى الدارس اللغوى يبصّره به.

بعد لحظة الوعى الأولى بسلطة اللغة فى مجال السياسة يكفينا أن نقف عند الكلام السياسى على أنه نصّ يحكى صدى عالم كامل من المعانى، ويكفينا أن نستلّ من السياق كل عبارة صنعت دهشتنا فى برهة، ثم غمرها سيل الأخبار وغطاها تعاقب الأحداث. سنرى بأنفسنا عجباً، وسنعيد اكتشاف التوالج المذهل بين كل الدوائر المرسومة أمامنا كالأطياف المتموجة.

إن لكل لغة من لغات البشر قوانين تنتظمها وتشد أوصالها بحبل متين لا تراه العيون المجردة، كالأسلاك المعدنية التى تتخلل الإسمنت المسلح، وتصبح تلك القوانين أعرافا يتخاطب بها أفراد المجموعة المنتسبون إليها بشكل أصلى أو بشكل طارئ، وداخل تلك القوانين العامة قوانين أقل منها عموماً، تجعل للكلام الأدبى ترتيباته الخاصة، وللكلام القانونى حيثياته، وللكلام العلمى قواعده أيضاً، وتجعل للكلام السياسى ضوابطه وقوانينه بحسب تصور المتكلم للمعايير الشائعة بين أهل ذاك الحقل الشاسع الفسيح، الذى لا يخرج من تحت سقفه كائن مهما كان. فمن جهل تلك الضوابط والقوانين تحدث فى السياسة وهو غافل عن أسرار لغة السياسة حتى ولو كان ماسكاً بزمام القرار، ومتربعا على كرسى المناصب، فيأتى خطابه السياسى كخطاب الهواة فى لعبة السياسة، ومَن علم تلك الضوابط والقوانين وخبرها تحدث فى السياسة وهو واع بأسرار لغتها، ماسك بأزمّتها، حتى ولو لم يكن يوماً متبوئاً لمنصب القرار، فيكون إذا تحدث فى السياسة قادراً على أداء الخطاب، صانعا لأنموذج الاحتراف.



صفحات من:
السياسة وسلطة اللغة
د. عبد السلام المسدّى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ـ ٢٠٠٧

لا يقوم أمر السياسة ولا يهون موردها إلا إذا آزرها المال وعضدها السلاح، وتلك حقيقة قديمة غدت من بدائه العقول. أما الآن فقوة المال وقوة الأعتاد فى حاجة إلى سلاح الخطاب، وجزء من مأساة الجماعة أن اللغة كلما ظن أهلها أنها فصيحة بنفسها، بليغة بذاتها، ازدادوا زهداً فى علم صناعة الخطاب وفى علم تفكيك الخطاب، فيزداد بعدئذ ابتعادهم على الركب فى ملحمة التسابق الكونى على كسب معركة الخطاب.

هل وراء الحدث السياسى الواحد حقيقة تاريخية واحدة تتسلط عليها رؤى متعددة، أم أن الرؤية السياسية للحدث الواحد تنم عن حقائق متعددة؟ ثم إلى أى مدى تساهم اللغة فى صناعة التخييل حتى نرى الحقيقة متعددة حينما تكون حقيقة واحدة، أو نتأول الرؤى المتعددة على أنها ستائر لا تثوى وراءها إلا حقيقة واحدة؟

عندما غزا العراق الكويت فى (٢/٨/ ١٩٩٠) اجتمع فى القاهرة وزراء الخارجية العرب مساء ذلك اليوم، إذ صادف أن كانوا يشاركون فى اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامى، وصدر عنهم ما صدر، ثمّ تعيّن أن تلتئم فى القاهرة قمة عربية، فانعقدت بعد أسبوع واحد، وكان كل شىء قد تم «توظيفه» عربيا ودوليا، وحين وفد القادة إلى القاهرة كان الحرج قد بلغ ذروته أمام ذاك الوضع الاستثنائى الرهيب، فأغلب القادة أدركوا أن اللجوء إلى قوة عربية أو قوة إسلامية لتحرير الكويت. بدل القوة الدولية. لن ينفع كثيراً، بل قد يكرس أمرا واقعا، ولكن الانضمام إلى تلك القوة الدولية كان خياراً موجعا لن تتقبله الشعوب العربية باطمئنان كامل. فى تلك اللحظة التى مثلت قمة التمزق أمام أصعب المعادلات: إما أن يكرّس الاحتلال أو يقبل التحالف، طلع الرئيس السورى يومئذ (حافظ الأسد) بقولة يروى الأمين العام للجامعة العربية ساعتها (الشاذلى القليبى) فى كتابه: (الشرق والغرب ص ٨١-٨٢) أنها أسعدت الجميع فتبنوها، وكانت لهم كحبل النجاة الذى يخرجهم من مأزق الحرج. لقد قال: (إن القوات السورية ستأتى لا لضرب العراق وإنما لحماية المملكة العربية السعودية).

هنا يقف الباحث الذى همه أن يرصد أفق العلاقة بين الحدث السياسى فى ذاته والحدث اللغوى من حيث هو أحد التجليات الممكنة، فالأمين العام لجامعة الدول العربية يقول متحدثًا عن (حافظ الأسد) (إنه وجد الصيغة الملائمة التى يمكن أن تصون الشرف) فنحن أمام (صيغة) عثر عليها واحد من القادة العرب ولم يعثر عليها الآخرون فتلقفوها وسعدوا بها. إن المسألة. على بساطتها الظاهرة. متعددة الأبعاد بالغة التركيب، إنه القول السياسى قبالة الفعل السياسى، كأنهما حقيقتان اثنتان، كل واحدة مستقلة بذاتها ومستقلة بأثرها، بل كأنهما تتأسسان على انفصام جوهرى.

إن اللغة هنا تشتغل خارج دائرة الوقائع السياسية المتعينة: فلا أحد بلغه أن المملكة السعودية قد استنجدت بأى قوة عربية لحماية أراضيها، ثمّ إن اعتزام الجيش العراقى الامتداد فى غزوه إلى الأراضى السعودية افتراض روّجه الأمريكان وقدموه على وجه اليقين، زاعمين أن ما لديهم من صور الأقمار الصناعية يؤيد طرحهم، ولكننا نعلم يقينًا أن (حافظ الأسد) كان يريد الولاء لدول الخليج أكثر مما كان يسعى إلى التقرب من الولايات المتحدة. وبعد هذا وذاك كيف نغفل عن طاقة اللغة فى صنع التغييب، فالقادة العرب اجتمعوا فى قمة القاهرة لغرض محدد لا هو ضرب العراق، ولا هو حماية السعودية، وإنما هو تحرير الكويت، فهذا هو العنصر الجوهرى الذى غاب عن قولة (حافظ الأسد) التى ابتهج بها كل الذين انضموا إلى التحالف الدولى.

لك إذاً أن تتساءل: كيف يسير الكون؟ وهل التاريخ تحكمه الوقائع أم تحكمه الأفكار التى يصوغها الإنسان باللغة عن الوقائع؟ هو سؤال طرحه (هيجل) من قبل ولكنه خلص منه إلى الموازنة بين جدل التاريخ وجدل الفكر، ولم يكن من همه أن يبحث فى اللغة من حيث هى لغة، ولا فى اللغة إذ تؤثر تأثيراً إجرائياً فاعلاً فى صنع الحدث أو فى تغيير مجرى الوقائع. إننا هنا لا نضرب المثل السياسى فى نية إرسال حكم معيارى يمتدح القولة السياسية لأنها حمَت ماء الوجه وصانت الشرف على حد عبارة الأمين العام لجامعة الدول العربية، ولا فى نية إرسال حكم يَستهجن تلك القولة لأنها انبنت على التسويغ عبر صيغة تخايل جزءاً من حقيقة الواقع فى ضرب من تناظر المرايا إذا تقابلت أو تعاكست. إننا لا نصنع سلّماً معيارياً لسببين اثنين، أولهما أن مرمانا الجوهرى هو إثبات أن اللغة. فى لحظة ما. تصبح هى بحدّ ذاتها سلطة، أما الثانى فهو أدعى للاعتبار وأعرق فى غيابات التأمل الفكرى المحض: فمن له أن يجزم بأن الحقيقة هى فى هذا الشق من التأوّل دون ذاك؟ إن الحقيقة كينونة مغمورة غائبة ولا تحضر إلا إذا استدعاها الفكر، فترجيح هذا الوجه على ذاك هو شىء يصنعه الاستدعاء ويسمه الصوت المنادى لأنه ليس معطى محايثاً للحقيقة ولا هو معطى يتكشف طوعا أو طبعا.

إن القول السياسى لا يذعن إلى آليات القيمة إلا إذا كان إخباراً عن حقيقة عينيّة تنضوى تحت فحوص الإثبات، عندئذ فقط ينصاع علناً إلى الحكم إذ يدخل تحت طائلة الصدق أو الكذب: كالإخبار عن عدد الجيوش، أو عن عدد القتلى، أو عن حجم المبادلات التجارية، أو عن قيمة الصفقات وأرقام الصادرات والواردات. أما القول السياسى الذى يتصل بالتقدير الظنى أو بالتفويض الاعتبارى فهو مستظل بسحابة النسبية المطلقة. القول الأول هو قول عن حقيقة الواقع المعيش، والقول الثانى هو قول عن تقديرنا نحن لذلك الواقع المعيش. فى الأول تقف وظيفة اللغة عند حدود وصف الواقع كما هو فتقدم لنا عنه صورة فوتوغرافية، وفى القول الثانى ترسم اللغة لوحة نحاول نحن من خلالها أن نستشف صورة الواقع. ليس لواحد فى الدنيا. كائنًا من كان. أن يجزم على وجه اليقين القاطع بأن (حافظ الأسد) لم يكن صادقا حين أرسل قولته التى أسلفنا، بل لا أحد بوسعه أن يقطع بأن القادة الذين تلقفوها لم يستشعروا بأن (حافظ الأسد) قد أحسن التعبير عن قناعاتهم الحميمة، مثلما يحصل للإنسان عندما يترجم له الشاعر المبدع والفنان الماهر عن خلجاته الذاتية، فيحس بأن المبدعين أفصح منه لسانًا فى تعبيرهم عن نفسه.

ولكن الأقوال السياسية تتفاوت من حيث توافرت على القرائن الشاهدة على صدقها أو الشاهدة على مجانبتها الحقيقة والأمر كله معلق على مدى اقتران القول بالطاقة الإخبارية. ولكنه معلق أيضا بحيثيات المكان. ففى علم الإبلاغ يقول اللسانيون إن قولك (وصل القطار فى أوانه) لا يمثل خبراً، بينما قولك (إن القطار قد وصل بعد أوانه) يمثل خبراً. غير أن هذا الأنموذج من الأمثلة ينطبق على ما هو مألوف فى المجتمعات الصناعية المتطورة، ومما لا شك فيه أن المعادلة ستنقلب لو تحدثنا عن مواقيت القطارات فى جل بلدان العالم المتنامى. فقولنا فيه (إن القطار قد وصل المحطة فى التوقيت المحدد له) سيكون هو الخبر فعلا: لأنه هو الاستثناء وتخلفه عن موقته هو المتواتر.

هل وراء الحدث السياسى الواحد حقيقة تاريخية واحدة تتسلط عليها رؤى متعددة، أم أن الرؤية السياسية للحدث الواحد تنم عن حقائق متعددة؟

السياسة واللغة قرينتان متلازمتان، حيثما رأيت الواحد بدا لك الآخر. فإن لم يتكشف لك بوجهه فاعلم أنه ثاو وراء قرينه. وليس من قول فى السياسة إلا خلفه فعل سياسى لأن القائمين على أمور العباد لا ينشدون أشعارا وهم يسوسون، ولا يطمحون إلى صنع الجمال وهم يحكمون. وما من فعل سياسى إلا وهو ينتج بالضرورة خطابا. فإما هو خطاب الحاكم فهو ساعتئذ امتداح وزهو وتبرير، وإما هو خطاب المحكوم فهو تظلم وارتياد إلى الأفضل. كان الفعل فى السياسة هو الذى يجر اللغة إليه جرا، فهى أبد الدهر محكومة به، ولكن الوضع قد تغير، وتوشك الأدوار أن تنقلب فيه أحيانا. والسبب أن سياسة أمور الناس داخل الأوطان قد كانت هى الأصل وهى المبتدأ، وتأتى بعدها سياسة الروابط بين الوطن وسائر الأوطان فى الأرض المعمورة، ثم حصل الانقلاب على مدار العقود، فأصبحت سياسة الوطن محكومة بشبكة العلاقات المعقدة القائمة بينه وبين سائر الأوطان.

إن الوقوف على الجسر الواصل بين الفعل السياسى والقول اللغوى الذى انبثق منه قد يمثل لحظة ممتعة لكل من يستهويهم سرد الأخبار أو يغويهم إنعاش ذاكرة الأحداث، ولكنه سيمثل لحظة غنية لمن يستدرجهم كشف الأسباب التى تقبع خلف الوقائع التاريخية، ولمن يسعدهم إماطة اللثام عما سكتت عنه وكالات الأنباء أو غيّبته نشرات الأخبار أو خاتلته افتتاحية الصحف. تفكيك الخطاب عدسة مجهرية عالية الجودة تحضنا أن نستطلع كيف تجرى مسلسلات السياسة، وكيف يحيك أهل الشأن والقرار نسيج الأحداث. قد نكون ممن يحملون هموم السياسة، ويعشقون استكشاف الباطن من خلال الظاهر، ويسلّمون بأن المصرح به فى عالم السياسة شىء نزير إذا ما قيس بالمخفى منها سواء ما انحجب بنفسه أم ما غيّبه الحاجبون، وقد نكون من الذين أرّقهم إلقاء السؤال حتى تملكهم الهوس: فأصبحوا مولعين بإسقاط الأقنعة التى يصطنعها الإعلام فى عصر الخطاب الكونى الموغل فى المكر والمباهى بالدهاء، أو ربما نكون شغوفين بفك الشفرة التى بها يلعب صناع القرار الدولى بعقول الأفراد والجماعات: فى كل تلك الاحتمالات سيكون ملاذنا الوحيد هو اللجوء إلى علم تفكيك الخطاب، فهو الكاشف لما توارى من أسرار.

فى (٦/٦/١٩٨٢) اجتاحت جيوش إسرائيل لبنان، وكان (أرييل شارون) يومئذ هو مهندس عملية الاجتياح. كانت إسرائيل تتعقب خطى القيادات الفلسطينية: لأنها

عرفت أن الشرعية التاريخية لا تغتصب اغتصاباً، فراحت تحاول النيل من شرعية المؤسسة الفلسطينية الرمزية. ثم استبدت بالجنوب اللبنانى واصطنعت هناك جيشاً حليفاً، فانبثقت منظومة المقاومة، وكانت من أشد المنظومات وأعتاها. لم يفلح تفوق السلاح الجوى فى خضد شوكتها، وكان مكشوفاً للعالم كافة أن الجيش الإسرائيلى وحلفاءه يتكبدون خسارات غير مقدرة، حتى انتهى بهم الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع وإخلاء الجنوب اللبنانى (٢٤/٥/٢٠٠٠). عندئذ برز توظيف اللغة عبر الية المخاتلة اللفظية بما يروغ على دلالات الحقيقة. كان الخطاب الإسرائيلى. السياسى والإعلامى. ومن ورائه خطاب الكتل الضاغطة فى العالم الغربى يعلن أن إسرائيل قد قررت الانسحاب من جنوب لبنان، ورددت كثير من أجهزة الإعلام العربية عبارة (الانسحاب) بمختلف صيغها الاشتقاقية: الاسمية منها والفعلية. وبدا ذلك كالانخراط اللاواعى فى لعبة اللغة، أو كالوقوع الأعشى فى فخ آليات الخطاب المخاتل. فانبرى القائمون على أمر المقاومة والذين حملوا لواء تحرير الجنوب طيلة عقدين يصححون اللغة باللغة: أن الإسرائيليين لم يخرجوا وإنما أطردوا، وأن ما اصطلحوا عليه بانسحاب إنما هو الهروب.

اللغة ذات كينونة سياسية، لكل سلطة فيها سلطة مضادة، وكثيراً ما يتكتم المنهزم عن هزيمته العسكرية فيطلق على عملية سحب جيوشه عبارة إعادة الانتشار. ولكن مطاطية اللغة تقف عند اشتدادها الأقصى قبل أن يتمزق الحبل الموتور، فموسوعات التوثيق السياسى. على إيغالها فى الانحياز تحت كتل الضغط. كانت محمولة على الإقرار: (اجتاز آخر الجنود الإسرائيليين الحدود اللبنانية فارين قبل الموعد الذى أعلنوا عنه بخمسة أسابيع، وهكذا خرجوا من المستنقع الذى صنعوه لأنفسهم فى ذاك الذى سموه بالشريط الأمنى فى جنوب لبنان) على حد ما جاء فى (كرونيك ٢٠٠٠ - ص ٤٦) ولا أحد بوسعه أن يفترض أى ذرة من تعاطف تلك الموسوعة مع العرب وقضاياهم.

ليست المسألة شكلية، وليست تمريناً لغوياً بصيغ تعبيرية متنوعة. إنها ترتد إلى جوهر الفعل السياسى. فهل مغادرة الغزاة جنوب لبنان إنجاز إسرائيلى أم إنجاز عربى؟ وهل هو. بالتالى. انسحاب أم طرد وإرغام؟ القضية فى علاقة الفعل السياسى بالفعل اللغوى تعود إلى أن الكلام لا يحمل فقط رسالة دلالية، وإنما هو يتسم بالموقع الذى يتخذه صانع الكلام من تلك الدلالة التى يتضمنها الخطاب. فكأن القول يدل بدلالتين: الأولى هى معانيه كما لو أنها قيلت مطلقة دون قائلها، والثانية هى تلك المعانى من حيث ركبها قائلها ضرباً مخصوصاً من التركيب. لنقل متوسلين برقائق المعرفة الحديثة: إن اللغة تدل بما

اللغــــة السيــاســة و سيـاســة اللـغــــة

السياسة واللغة قرينتان متلازمتان، حيثما رأيت الواحد بدا لك الآخر، فإن لم يتكشف لك بوجهه فاعلم أنه ثاو وراء قرينه، وليس من قول فى السياسة إلا خلفه فعل سياسى

هى كلام وتدل بما هى علامات وقرائن وإشارات، لا يجلوها إلا الميثاق التواصلى بين متكلم ومتكلم إليه.

فى الأسابيع الأواخر من العام ٢٠٠٣ تكاثرت ظاهرة فى صفوف العساكر الإسرائيليين كانت فيما سبق تبرز بين الفينة والأخرى بشكل فردى منعزل، هى أن بعضهم تمرد على الأوامر ورفض المشاركة فى حملات المداهمة والاقتحام التى تخلع فيها أبواب أبناء الأرض الفلسطينية وتدك ديارهم دكاً. فأما الإعلام الغربى فنقل الخبر فى حذر واقتصاد. وأما الإعلام العربى ففى مجمله تلقف الخبر بصوره وابتهج وهلل، إلا أن إحدى فضائياته. وهى المنار. قفزت إلى الوجه المضاد وكادت تستنكر الترحاب العربى، وقدمت الرؤية الأخرى: أن هؤلاء العساكر ما هم إلا جزء من منظومة قمعية استعمارية تريد الاستيطان بأرخص الأثمان، وأن موقفهم شاهد على جبنهم وعلى بسالة المقاومة الفلسطينية.

وتتساءل وأنت فى الجوهر الأكمل من التزامك المطلق بالقضية: أى التأويلين أكشف للحقيقة؟ أما منبع سؤالك فهو ذاك المنعرج الدقيق الذى تقف فيه اللغة أسيرة بين فوهة الحدث كما هو، وفك الحدث كما يريد الإنسان أن يتصوره، وكما يريد أن يحمل الآخرين على تصوره. ولا شك أن الحدث قد هز مواقع السياسيين القائمين على خيار العنف حتى الإبادة، لذلك أتاحوا للعساكر الرافضين أن ينظموا . على غير ما جرت به العادة. مظاهرة يوم (١٦/١/٢٠٠٤): ليعلنوا فيها شعارهم وهو (شجاعة الرفض) ويردوا بذلك على تهمة الجبن والانخذال.. إننا هنا أمام آلية البدائل التى تتيح تأول اللغة بحرية، ولكنها لا تتيح أى حرية لتغيير الحدث. فمأزق الفعل السياسى يقابله انفراج واسع فى زاوية الفعل اللغوى. لذلك يلجأ الفكر إلى سلطة اللغة عسى أن تعيد التوازن بين الفعلين. (فجاك شيراك) حين كان يعارض الخيار الأمريكى وقد اشتعلت الحرب على العراق، رفع شعاراً يريد به أن يعود الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة وكان نصه (قوة المنطق لا منطق القوة).

إن هذا الوصف هو الأصدق على ما يصنعه الكيان الإسرائيلى، منذ اغتصب الحق حتى غدا ذلك منه عرفاً متكرراً، وطبيعى أن يرسل خاطره اللغوى ينتج من الصور ما حلا له. فهو يعرض فى كل منعرج حاسم الحل المنقوص الذى يؤدى قبوله إلى تكريس قاعدة التنازل على الحق، ثم يشيع بأن العرب قد فوتوا على أنفسهم فرصة ينعتها بالتاريخية، وهكذا يأتى القول المسبوك ليجسم سلطة اللغة على الأذهان. فقد قال آبا إيبان قولا غدا كالشاهد على أقلام المغتصبين وعلى أقلام المغرورين بأقوال المغتصبين. قال (إن الفلسطينيين لم تفتهم فرصة أبدا لتفويت الفرص) وهو ما عادت إليه الأقلام تردده بعد اندحار مشروع جنيف فى خواتم عام ٢٠٠٣ (مجلة سطور، ع٨٧ ص٤).

مضى زمن كان وجيهاً فيه الجدل بين قائلين بأن اللغة إن هى إلا أداة للتفكير ثم أداة للتعبير، وقائلين بأنها هى التفكير من حيث إنها العقل إذ يفكر.. مضى ذلك الزمن لأن نظرة ولو عجلى فى مسيرة الفكر الإنسانى، منذ تجددت فلسفاته الحديثة ومنذ تعاقبت الرؤى التفسيرية أو التأويلية لعلاقة الإنسان بالكون الخارجى، تطلعنا على سلك خفى لاحم مداره التسليم بأنه لا شىء يدرك إلا باللغة، ولا شىء يدرك إلا من خلال اللغة، إذاً: لا شىء يدرك خارج سلطة اللغة. ولكن الجديد الأجد هو أن تصريف المسألة بهذا الصوغ لم يعد أحد يحمله على أنه من فقاقيع نرجسية العلم اللغوى، ونكاد نجزم. بعد طول استبصار وامتداد الأناة. أن السبب الذى من أجله وبفضله زالت عن العلم اللغوى تهمة التسلط وجريرة الاستحواذ هو استسلام حقلين عملاقين لسلطتها: حقل العلوم الحاسوبية وحقل العلوم السياسية، رغم أن هذا التسليم قد تم إذعاناً للاعتراف بسلطان الآلة اللغوية. ولكن العاقل لا يمكنه أن يقر لموضوع العلم بالسلطة ثم ينكر على علم الموضوع سلطته. فالجميع على يقين اليوم بقوة سلاح اللغة، بل بجبروت توظيف الإنسان لها، وعلى يقين بتحكمها المطلق فى التواصل والمعرفة. وليس بوسع الجميع إلا التسليم. ولو على وجه المصادرة. بسلطة العلم اللغوى لأن موضوعه اللغة.

إن البلاغة الجديدة تعلن لك عن نفسها فى اللحظة التى تعلن فيها أنت عن التسليم بانحسار سلطة المصرح به مقابل تضخم سلطة المسكوت عنه. وإن أبواب الإدراك الجديد لآليات السياسة الجديدة تتفتح لك واسعة فسيحة: حتى تتقن مهارة القراءة الجديدة فتعرف كيف يتم تسريب القناعات، وحقن الولاءات، وتهيئة النفوس باختراق أسوارها شيئاً فشيئاً. إن اللغة بصورها الشعرية الفاتنة لهى ألين المطايا لإنجاز الامتلاء فى غياهب اللاشعور، وهذا هو فاتحة الوعى الجديد بدلالة عديد العبارات التى يحملها الناس محمل الكلام الأيديولوجى الخاوى من المقاصد المتعينة، بينما تقوم فى حقيقتها مقام المصطلحات المدققة المضبوطة: التوجيه النفسى، والتحكم الإدراكى، والغزو الذهنى.. إنها حقائق وليست من الأوهام فى شىء. ذلك شىء نزير من ملحمة فائضة، هو قطرة تبللنا عند الوعى بها والحال أن أنهاراً منها تغمرنا صباح مساء فلا نشعر بابتلال لأننا غافلون عنها.

كيف يتم إنتاج الخطاب السياسى وكيف يتم استقباله؟

هو سؤال يرتد إلى مسألة المدارك الذهنية واختلاف مستويات التعامل معها. إن الظاهرة الإدراكية ملازمة للكلام التداولى فى كثير من لحظات استعمال الإنسان للغة، وهى ملازمة أكثر للكلام الأدبى لأنه خصيصة من خصائص شعرية اللغة. لكن الذى بدا لنا، ثم ما ارتسخ حتى غدا قناعة حميمة على طول التردد واطراد الحيرة هو أن خير ما يجسم هذا البعد الإدراكى بين أبعاد الظاهرة اللغوية. أيا كان نمط اللسان الذى تتشخص به. إنما هو القول السياسى. فى الأغلبية الغالبة من الأحيان عندما نكون حيال القول السياسى ولاسيما فى لحظة مباشرته الأولى أو فى لحظة إنشائه والإصداح به، نبحث عن المعنى فنكتشف أنه لا يوجد فى البناء النحوى للكلام، ولا فى دلالة الألفاظ المعجمية، ولا يوجد فى السياق التركيبى بين الجمل السابقة والجمل اللاحقة، ولا هو موجود فى المقام التداولى باعتبار الروابط العالقة بين المتكلم والسامعين، ولكنه يوجد خارج الحدث اللغوى التواصلى تماما. وسنقول. بشكل مبدئى وعام. إنه يوجد مبثوثاً بين شاشة الأحداث الجارية وخزانة الوقائع الماضية، فهو مزروع على أرض الذاكرة السياسية المتحركة، إنه يثوى بين

حقيقة تاريخية مضت وحقيقة تريد أن تنشأ.

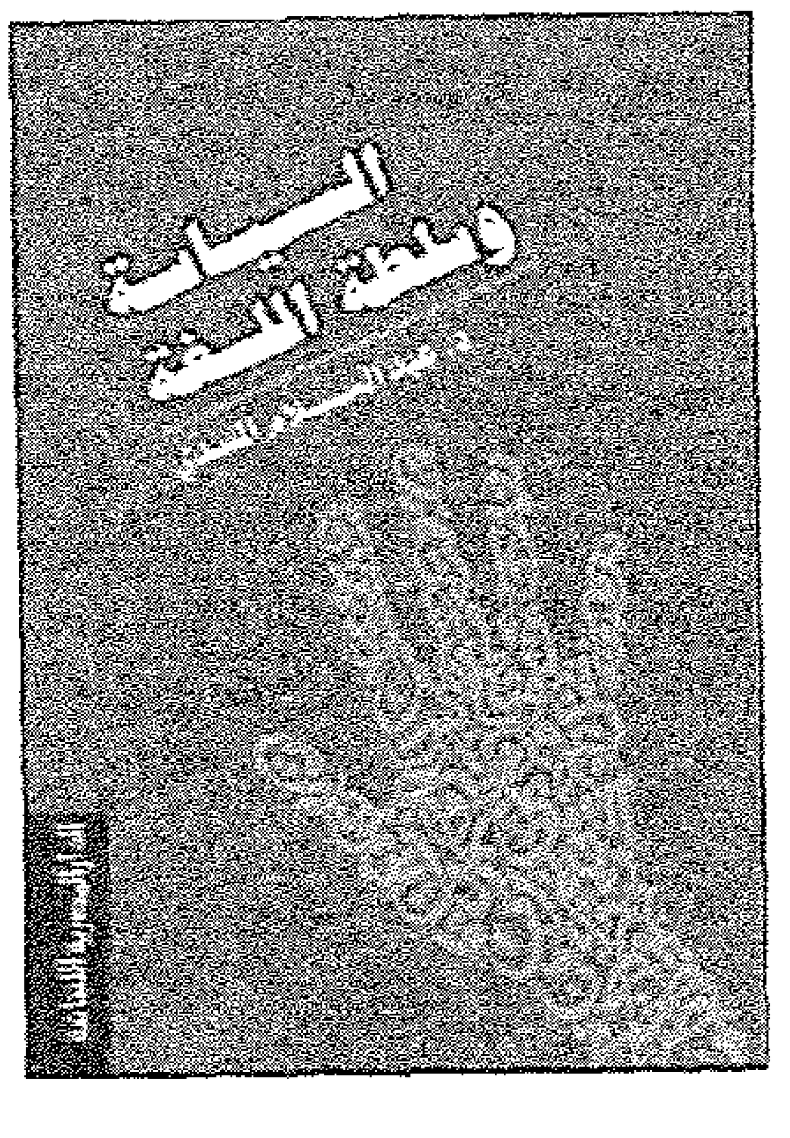
ليلة (١٩٩٩/١٢/١) اجتمع فى مدينة سياتول الأمريكية رؤساء ١٣٧ بلداً، فيما سمى بقمة المنظمة العالمية للتجارة، التى بعثت فى لقاء وزراء التجارة من ١٢٠ دولة فى مراكش فى (١٩٩٤/٤/١٥)، وبدأت تشتغل فعلياً فى أول عام ١٩٩٥ فخلفت ما كان يعرف بالجات التى هى الاتفاقية العامة على التعريفات الجمركية والتجارة، والتى يعود تأسيسها إلى عام ١٩٤٧، وتعود بداية اشتغالها إلى أول عام ١٩٤٨. وكانت اتفاقيات الجات كالنسى المنسى منذ ذلك العهد إلى أن تم تبنيها من طرف ١١٧ دولة فى جنيف بتاريخ (١٩٩٣/١٢/١٥)، والعالم كله قد بدأ يترسم حركاته على إيقاع النظام العالمى الجديد كما بلوره الرئيس (بيل كلينتون) على مدى الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩٢، عند حملته الانتخابية قبل أن يدخل البيت الأبيض.

فى سياتول، كانت النخوة بالغة بالأمريكيين ذروتها، وكانوا يستعدون لاحتفاء عظيم يكرس على مدى الأيام الأولى فى آخر شهر من ١٩٩٩ تفوقهم فى صنع القرار وانفرادهم فى الإمساك بعنان الشأن الدولى، وكان الزهو كثيفاً لأن قائمة الدول المترشحة للالتحاق بالمنظمة العالمية للتجارة قد بلغت يومها ٣١ دولة، ولأن المنظمة قد سبق لها أن عقدت قمتين مرتا بسلام تام، الأولى فى سنغافورة (١٩٩٦/١٢/٩) والثانية فى جنيف (١٩٩٨/٥/١٨).. وكانت المفاجأة التى لم تقرأ لها الإدارة الأمريكية أى حساب ولم تحدس بها أجهزة الاستخبار من حولها: الانتفاضة الشاملة التى طوق فيها خمسون ألف متظاهر مدينة سياتول ومقر لقاء القمة، وعمت الفوضى فى ذلك اليوم عواصم أخرى ولاسيما لندن حيث أعلنت حالة الطوارئ فعلياً فى سياتول.

فى لحظة الغضب الجماهيرى تلك، خرج (بيل كلينتون) ليقول للمتظاهرين قولة مختصرة. قال لهم (قد فهمتكم)، ومن ثم عمدت أجهزة الإعلام. ولاسيما الفرنسية منها. أن تكرر فى نشرات أخبارها، على مدى الأيام، تلك الجملة بإيقاعها عندما يترجمها المترجمون إلى لغة وكالاتهم.. إنها جملة من أبسط ما يفوه به أى متكلم فى الدنيا عند أى لحظة من لحظات التداول (قد فهمتكم) ولكنها هنا قول سياسى، فاه به رجل سياسى، فى لحظة هى من أعسر ما يعرفه العمل السياسى ولذلك فهى قول يشف عن ساعة امتحان عويص، لاسيما أن كل العالم مشرئب بأعناقه إلى ذلك الحدث، وإلى الأسلوب الذى سيتوسل به القطب المنفرد لمعالجة الصدمة القصوى.

إذا أخذنا هذا القول على ظاهره فقد لا يعنى شيئاً مهماً لأنه لا يعدو أن يكون كلاماً صادراً عن قائد ارتبك فجأة، فأفلت من قبضته زمام أمره ففاه بما قد يسترضى جميع الغاضبين، وهذا نهاية ما يفيدنا به القول مهما قلبناه على وجوهه التركيبية النحوية، والدلالية المعجمية، والسياقية النصية، والمقامية التداولية. أما إذا أردنا البحث عن المعنى فى ذلك البعد الإدراكى، والذى هو كامن فى مستوى ما فوق السياق، أو هو ثاو فيما وراء المقام، فسنعثر عليه ضمن حيثيات قرائنية أخرى هى تلك التى منها يتكون العرف السياسى، وبها يتم تأثيث معمار الذاكرة السياسية الجماعية. وما لم ننتبه إلى تلك الواجهة الخلفية أو لم يكن لنا التهيؤ الثقافى لاستيعابها. فسنظل خارج دائرة المعنى من حيث هو سياج المقاصد، وسيظل الفهم ملتبساً باللافهم التباساً فظيعاً، وفظاعته وافدة من أن كلا الطرفين على يقين قاطع بأنه هو الفاهم، وأطرف ما فى شاهدنا هذا الذى نسوقه أنه دائر على مسألة الفهم (قد فهمتكم).

من المفيد أن نعرج هنا على خصيصة جزئية، تتصل بهذه الكلمة الواردة على صيغة الفعل: فهم، يفهم. إنه فعل يتعدى فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية إلى مفعول متنوع يمكن أن يكون موضوعاً للإدراك المجرد، ويمكن أن يكون ذاتاً آدمية، فتقول فهمت الشخص، وعلى هذا الباب جاءت القولة (قد فهمتكم) أما فى العربية الفصيحة فلم يرد فى الاستعمال الأثيل أن هذا الفعل يتعلق بالذوات، إذ لم يكن وارداً أن يقال فهمت فلاناً، وإنما الفصيح: فهمت الشىء، وفهمت عن فلان، وأفهمت فلاناً وفهمته الأمر. من جديد ينبرى السؤال حاداً ملحاحاً: كيف يتدفق الإدراك فى مسافة ما بين اللغة والسياسة؟ بل كيف يختبئ المعنى خارج اللحظة التى قيل فيها. ففى يوم من الأيام، كانت الثورة الجزائرية فى أوجها بعد مضى أربع سنوات على اندلاعها فى (١٩٥٤/١١/١). وكان الفرنسيون متعلقين جميعاً بوهمهم، وهو أن الجزائر قطعة من وطنهم الفرنسى، وكان التصدع قد طال مؤسسات الدولة حتى تعطلت، وكان العسكريون فى الجزائر يستنجدون بالوطن الأم ويستغيثون (بشارل دى غول) أن ينقذهم وأن ينقذ (الجزائر الفرنسية) حسب ندائهم، وكان جل الفرنسيين يهيمون بالرجل المنقذ. وفى يوم (١٩٥٨/٥/١٣) اندلعت ثورة كبرى بين صفوف الفرنسيين فى الجزائر وحرب التحرير فى أوج انتصارها. رتب (دى غول) بيته سريعاً، وسافر إلى الجزائر يوم (١٩٥٨/٦/٤) وخرج إلى كل الجموع وأطلق خطابه الذى هو. فى قناعة الجميع. موجه إلى الفرنسيين المستنجدين به بين مدنيين وعسكريين. ورفع (دى غول) من أعلى المبنى المهيأ له كالمنصة يده اليمنى وفتح ما بين الإبهام والوسطى مجسماً الحرف اللاتينى الذى هو الحرف الأول من كلمة الانتصار، والذى غدا رمزاً فى كل لحظات النضال وفى كل ساعات المواجهة، وقال قولته الشهيرة (قد فهمتكم) فغدت مثلاً منقوشاً على دفاتر السياسة الكونية. صفق له الجميع وكان العسكريون أول



ليست المسألة شكلية، وليست تمريناً لغوياً بصيغ تعبيرية متنوعة. إنها ترتد إلى جوهر الفعل السياسى. فهل مغادرة الغزاة جنوب لبنان إنجاز إسرائيلى أم إنجاز عربى؟

المبتهجين. ثم عاد وسيطر على الموقف وهيأ محادثات إيفيون وحصلت الجزائر على استقلالها فى (١٩٦٢/٧/٣) فما معنى: قد فهمتكم؟

كلمات القول واضحة وتركيبه النحوى من أبسط التراكيب، فهل يكمن المعنى فى سياق النص؟ أبداً. وها هو السياق: (لقد فهمتكم، إنى على علم بما قد جرى هنا، وإنى أتبين ما كنتم تنوون فعله. وأرى أن الطريق الذى فتحتموه فى الجزائر هو طريق التجديد والإخاء).
فهل يكمن المعنى فى العلاقة التداولية بين المتكلم وسامعيه؟ قطعاً لا. فما كان (دى غول) عازماً على إنجازه مناقض لما كان السامعون ينتظرونه ويشرئبون إليه. فهل تناقض صاحب القول فوعد ثم أخلف وعده؟ أيضاً لا، فكلامه كما أوردناه بسياقه لم يتضمن أى التزام بمقاصد الفرنسيين من عسكريين ومدنيين.

إن المعنى واقع خارج حدود القول، وخارج حدود الزمن الذى قيل فيه، إنه كامن فى الزمن القادم، أى فى اللحظة التى ستحل بعد أربع سنوات. وحين خاطب (بيل كلينتون) جموع الثائرين على العولمة وعلى رمزها الاقتصادى الأكبر: المنظمة العالمية للتجارة، فقال لهم: قد فهمتكم، كان متعيناً ألا يؤخذ القول على معتاد التداولى المألوف وإنما يؤخذ على دلالته فوق المقامية. والدليل أن (بيل كلينتون) بعد أن أرسل جملته تلك خاطب جموع المشاركين فى القمة وقال: «إن دخول هؤلاء الغاضبين خارج القاعة إلينا سيعمق الحوار، وسيعين على اقتناع الناس بجدوى سياسة المنظمة العالمية للتجارة». فردد بذلك القالب الديغولى المنقوش فى الذاكرة الإنسانية، وكان يعنى أنه سيفعل مع المحتجين المتظاهرين ما فعله (دى غول) مع العسكريين الفرنسيين فى الجزائر.

قولة (دى غول) أصبحت إذاً تجرى مجرى الأمثال، بل غدت مرجعاً يضمنه أحفاد الديغولية فى كلامهم بنخوة تكاد تتكشف من وراء الخطاب. (فجاك شيراك)، عندما حقق انتصاره الباهر فى تجديد فترته الرئاسية بعد أن هزم (لوبان) الذى أزاح فى الجولة الأولى (جوسبان)، صرح مساء (٢٠٠٢/٥/٥) فقال: (لقد أصغيت إلى الفرنسيات والفرنسيين وفهمت ما أرادوا أن يقولوه لى) وكان فوز (شيراك) قد تحقق بنسبة ٨٢ بالمائة.

وعندما قالها (دى غول)، كان المعنى مرجأً إلى الزمن القادم، ولما قال (كلينتون) للمتظاهرين فى سياتول ضد العولمة (قد فهمتكم) كان المعنى ساكناً فى الذى مضى من الوقائع، ولكن كلا المعنيين واقع فى خزانة الذاكرة التاريخية المجسمة للبعد الرابع من أبعاد الكلام. إن عملية التلقى اللغوى لئن احتاجت دوماً إلى وعى ذهنى مصحوب بوعى نفسى وإلى تيقظ فكرى يساعد على جمع القرائن وتثبيت الحيثيات فإن السمة الإدراكية. تلك التى تحتاج إلى إعداد وإلى تجهيز أدوات الفهم بجلب عناصر المعنى من خارج نص القول. تتفاوت كثافتها بين الكلام التداولى والكلام الأدبى والكلام السياسى، بل إنها فى كثير من الأحيان تكون عنصراً حافزاً يجعل للغة وقعاً آخر على السامع ما كان لها أن تحققه لولا تلك الشحنة الإدراكية.

وتظل الدلالة السياسية للخطاب اللغوى مرصودة بالأحداث كما هى وكما كانت ثم كما ستكون. فقد كان للمنظمة العالمية للتجارة موعد فى مؤتمرها الرابع جرى فى الدوحة فى (٢٠٠١/١١/١٠) وتجدد الموعد مع الثائرين الرافضين، ثم كان لها موعد فى مؤتمرها الخامس إذ انعقد فى كانكون بالمكسيك فازداد لهيب الاعتراض اشتعالاً، وظلت قولة (قد فهمتكم) استفراغاً جاء على لسان (بيل كلينتون) بعد أن جاءت على لسان صاحبها (شارل دى غول) إنجازاً من إنجازات السياسة.

لقد تحولت عبارة (دى

لغة السياسة و سياسة اللغة

إننا هنا أمام آلية البدائل التى تتيح تأول اللغة بحرية، ولكنها لا تتيح أى حرية لتغيير الحدث. فمأزق الفعل السياسى يقابله انفراج واسع فى زاوية الفعل اللغوى

غول) إلى «لازمة» سياسية يلجأ إليها الخطاب كلما اشتد به الحرج، ولكنها غدت طيعة للاستعمال المضلل وقد يستنجد بها السياسى للتعتيم على ارتباك الموقف لديه. فحين نشر تقرير اللجنة المحايدة المكلفة بالتحقيق فى حيثيات شن الولايات المتحدة الحرب على العراق، كانت الخلاصة صريحة، ومدارها أن وكالة الاستخبارات المركزية هى التى تسببت فى الأخطاء التقديرية التى جعلت الإدارة الأمريكية تجزم بوجود أسلحة التدمير. عندئذ أدلى نائب رئيس الوكالة فى (٢٠٠٤/٧/٩) بتصريح ختمه قائلا: (بإيجاز أقول لكم: لقد فهمنا) وبديهى أن أكبر علماء شرح النصوص سيعجز عن تفسير دلالة تلك العبارة، ولا أحد يجازف بتحديد المعنى المراد على وجه اليقين القاطع.

إن الذى يعنينا . نحن هنا . هو استكشاف هذا التناسل السلالى الذى ولدته عبارة الرئيس الفرنسى .فكل شىء فى اللغة يتكرر، ولا شىء من الوقائع بمستعاد. لقد كان (دى غول) فصيحا يرتجل فن الخطاب، وكان الفرنسيون يعشقون انصهار بلاغته فى صميم الفعل السياسى: لأنه كان الرمز الإنسانى الأعظم فى تشييد صرح المقاومة: مقاومة الغازى الدخيل. ولما قضى يوم (١١/٩/ ١٩٧٠) خاطب الرئيس الفرنسى يومئذ (جورج بومبيدو) شعبه فقال: (أيتها الفرنسيات، أيها الفرنسيون، إن فرنسا قد أصبحت أرملة، (شارل دى غول) قد مات). ولم يكن بين الفرنسيين رجل أقدر على صوغ البيان من (بومبيدو) الحامل لشهادة التبريز والمتخصص فى علم النحو. مع مشهد البلاغة السياسية، نحن بحضرة نص مغاير لطبيعة النصوص كما كنا نعهدها، نحن بحضرة ما قد نسميه (النص . الومضة) إذ هو بمثابة اللوحة الخاطفة المستقلة بنفسها، هو (النص . اللقطة) عماده الصورة الفنية الآسرة التى تعبر بنا من حقل المجاز الغنائى؛ حيث يصفق المستمع لفصاحة الخطيب المصقع، أو يرسل آهاته، أو يطلق زفرات فى قالب تكبيرات وتهليلات، إلى حقل الاستيعاب الذهنى والتركيز الإدراكى.إن الصناعة اللغوية هى أس من أسس المعمار الذى تتشيد عليه استراتيجية الخطاب السياسى، ويعلو به صرح الفعل الإجرائى، لأنها الجسر الذى تتهيأ عليه آليات التخييل.

إنه النص اللماح ذو الومضة النافذة عبر الصورة التشبيهية الرشيقة. ولك أن تبحر فى الكشف عن المخفيات الدلالية، ثم تتساءل: أين مكمنها؟ وكيف صارت عند أهل الذكر يقينية، والحال أنها عند النظر اللغوى البسيط افتراضية تماماً؟ وما الذى تضيفه الصورة إذا ما قيست إلى الكلام الذى يخلو من الصورة؟ ثم منذ متى تتعطل أداة التواصل باللغة امتثالاً لحيثيات المرجع الواقع خارج سياق اللغة؟ إن السؤال فى غاية البداهة، وفى غاية الغرابة معاً: كيف تنتج اللغة؟ ولكن السؤال ينحل إلى الصيغة الأخرى:

كيف ينتج الإنسان اللغة؟ وهذه الصيغة هى نفسها تتضمن شقين اثنين: كيف ينتج الإنسان اللغة حين يتكلمها وكيف ينتجها حين يتلقاها فيفهمها؟ وبما أن اللغة ليست إلا وسيلة لإيصال شىء يقال له المعانى، أو الأفكار، أو الدلالات، فإن كل الأسئلة السياسية تجتمع فى صيغة واحدة دقيقة: كيف يدرك الإنسان المعنى؟ وهل المعنى السياسى وديعة نأخذها كما نأخذ أى معنى مجسم ملقى أمامنا؟ أم هو وديعة جاهزة، ولكنها مخفية نبحث عنها . قليلاً أو كثيراً . كى نعثر عليها ثم نلتقطها من مخبئها؟ أم شىء نساهم نحن فى صنعه وفى إنتاجه فيتحتم فى كل الأحوال أن نتساءل: أين يكمن المعنى؟

إذا أمعنا فى رحلة الاستكشاف كى نحاصر أنموذج العلاقة القائمة بين الفعل اللغوى والفعل السياسى وقفنا على حالات قصوى، تنفصم فيها مطاطية الإدراك بحكم تشظى معايير التأويل. إن اللغة ساعتئذ تمسى آلة لإنتاج اللامعنى، ثم إنها . تحت وطأة السلطة السياسية . تتفكك إلى دلالات سريالية خالصة، فينتج الحدث الموغل فى انتهاك الأعراف. فيما مضى كان الأديب ينزل فى موسكو ضيفاً على اتحاد الكتاب، وكان يوضع على ذمته مرافق يقوم بوظيفة الإرشاد السياحى فضلا عن الملازمة المتعينة. وجرت العادة أن يأخذ المرافق ضيوفه إلى أحد المعالم العجيبة، هو صرح مشيد فى تركيبة معمارية غريبة جمع بين طراز تقليدى موروث عن القرون الماضية وطراز معاصر كان سائداً بعد انطلاق الثورة البلشفية.

يقف المرافق بضيوفه أمام الصرح المعمارى شارحاً هذه التركيبة التى يغمرها الانشاز أمام أعين السذج والفطنين على حد سواء، فيقول: لقد تقرر بناء هذا المعلم فى عهد (ستالين)، ورفع إليه الخبراء نماذج معمارية عديدة كى يختار واحداً منها، ثم أعاد مجموع النماذج إلى المسؤولين عن تنفيذ القرار، فإذا بأحد الملفات قد كتب عليه (ستالين): (نعم) وإذا بملف آخر قد خط عليه عبارة: (هذا) وحار القوم فى أمرهم، وأدركوا أن ستالين أعجب بأحد النماذج حين تصفحه، فزكاه، ثم أعجب بأنموذج آخر حين وصل إليه وقلبه، فزكاه، وآثره على الأول، ولكنه نسى أن يلغى من السالف إشارة التزكية، ولم تكن لديهم قرينة تثبت أيهما السابق وأيهما اللاحق، وليس لأحد يؤمئذ . كائنا من كان . أن يراجع (ستالين) أو يستفسره فيما خط بيده، فالمصير واحد مطلق، فقرر القوم أن يشيدوا المعمار مزجاً بين الأنموذجين على تباين طرازيهما.

هى ذى عطالة اللغة فى تصادمهما مع مقتضيات السياق وحيثيات إنتاج الدلالة. ولنعد إلى السؤال: أين مكمن المعنى؟ وكيف يتم إنتاجه؟ وما محددات خصائصه؟ فالالتباس فى الدلالة حافز على استفتاء القرائن لدفعه، والقرائن إن لم يهبها لنا سياق التركيب فإن مقام التداول هو الذى ينجدنا بها. ولكن سلطة السياسة حين تستبد بالمقام تلغى كل وجود شرعى لعملية التواصل إفهاماً وتفهماً. وعند انتفاء التواصل تنخرم ميكانيزمات الإدراك. فليست اللغة هى المقموعة تحت سلطات السياسة، لأن لفظة (نعم) ولفظة (هذا) مصونتان بسلامة دلالتيهما، ولكن المقموع هو الفعل اللغوى؛ إذ تتعطل وظيفته الإخبارية الإيصالية. على الوجه المقابل يحدث أن يتعطل الموقف السياسى فتنبثق اللغة ناسجة خطابها فى ضرب من الخيال كأنه الخيال الشعرى، فعلاقة الفعل اللغوى بالفعل السياسى . إذا ما توسلنا بثنائية البلاغيين . هى علاقة خبر وليست علاقة إنشاء، ولكن الإحساس بالعجز حيال استبداد السياسة بسلطة الحق كما تراه يفضى إلى تعطل آلة الإبلاغ وإلى انخرام عقد التواصل.

(وليام بلوم) موظف سابق فى الإدارة الأمريكية، عندما شاعت عبارة الدول الخارجة عن القانون، التى اختصرت بعد ذلك فى عبارة الدول المارقة، أصدر كتابه الذى يحمل العبارة نفسها ليتحدث عن سياسة الولايات المتحدة بالذات على مدى عقود متوالية منذ الحرب العالمية الثانية.

وفى نهاية توطئة الكتاب قال كلاماً اختاره الناشر ليحلى به الوجه الخلفى من الغلاف، قال: (لو كنت رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، لأنهيت فى بضعة أيام الهجومات الإرهابية عليها بشكل حاسم: أبدأ بتقديم اعتذاراتى إلى الملايين من الذين ذهبوا ضحايا الإمبريالية الأمريكية، وإلى كل الأرامل، وإلى الأيتام، وإلى الذين عذبوا؛ والذين آل بهم الأمر إلى التعاسة. ثم أعلن على مشارق الأرض ومغاربها بأن التدخلات الأمريكية فى العالم قد ولت نهائياً، وأعلم إسرائيل بأنها لم تعد الولاية الواحدة والخمسين من الولايات المتحدة وإنما هى ابتداء من ذلك اليوم بلد أجنبى بكل ما تحمله العبارة من غرابة. وبعد ذلك أقلص الميزانية العسكرية بنسبة ٩٠٪ كى أخصص الفائض من ذلك إلى جبر أضرار الضحايا، وسيكون فى ذلك ما يكفى وزيادة. ذلك ما سأصنعه فى الأيام الثلاثة الأولى، أما فى اليوم الرابع فأعلم أنى سأقتل).

كلمة (لو) التى استهل بها (وليام بلوم) كلامه هى . فى أعراف اللغويين النحاة. أداة شرط يسمونها (حرف امتناع لامتناع)، ويعنون بذلك أنها تعلق الجواب على الشرط، والجواب ممتنع لامتناع الشرط، بمعنى أنها تقول شيئاً مستحيلاً لأنه مشروط بشىء مستحيل. وصاحب القول يعرف كل هذا، ولكنه يستنجد بهذا الخطاب الافتراضى لأن اليأس قد تملكه من فرط إصرار السياسة على دوس الأخلاق، ولأنه أيضاً قد اقتنع بأن القرار الأمريكى أصبح رهينة بيد كتل الضغط التى أنشأتها صناعة الأسلحة.

إن اللغة هى نواة المركزية الجديدة للكون، وللظواهر التى فى الكون، ولإدراك الوجود المتعين فى الكون، ولتفسير علاقة الإنسان بالوجود فى الكون. إنها مركز «الفعل» الذى يتحول فيه الإنسان من واقع الإدراك والتأمل إلى ساحة تغيير ما يتأمل فيه. ولكن اللغة هى أيضاً مركز الفعل السياسى، وإن السياسة هى تتويج للفعل اللغوى قبل الإنجاز وبعده. ولكن هل يعد كل فعل لغوى الفعل السياسى الفاعل؟ وهل يعد مرمى السؤال اللغة المطلقة أم الكلام المتعين؟ وهل القول على عموم دلالته بحيث يشمل كل مستويات الأداء أم أنه على الخصوص، يتحدد بتحويل القول السياسى إلى فن قولى؟

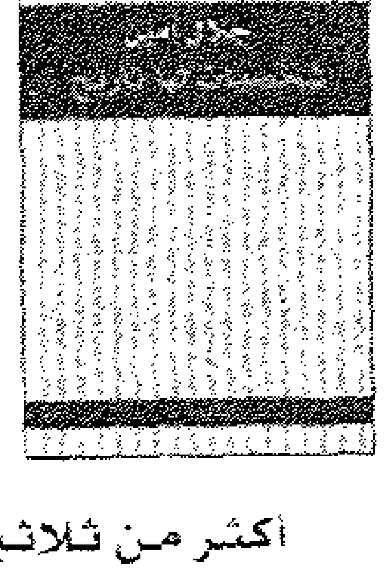
ها نحن وجهاً لوجه . وفى اللحظة الواحدة . بحضرة ضيفين وافدين كأنهما بالأصل متعاجمان: فن السياسة وفن الكلام، هما: القول السياسى والقول الإبداعى.. بل هما: صورة الفعل السياسى وصورة الفعل الأدبى.ولم لا يكونان فى مختبر الصناعة المعرفية والاحتراف اللسانى علم السياسة وعلم الكلام. فإن صح أن يكونا كذلك، فليكونا علم السياسة من خلال علم الكلام وعلم الكلام من خلال علم السياسة. ■

"تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية. وتشكر الناشرين والكتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات."

شخصيات لها تاريخ

جلال أمين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٢١٥صفحة



أكثر من ثلاثين شخصية تتعدد اهتماماتها وميادين عطائها، وتتفاوت مشاعر المؤلف تجاهها من الحب الشديد والاحترام والتقدير، إلى الازدراء والرفض الإنسانى والأخلاقى. هناك بالطبع من حظى بأقصى درجات التبجيل والتقدير والاعتراف بالدور، فى حياة المؤلف والناس، مثلاً: أحمد بهاء الدين، فتحى رضوان، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، جمال حمدان، عصمت سيف الدولة، جورج أورويل، وحين يقيم عهود الجمهورية الثلاثة فى مصر وقادتها، يبدو انحيازه الذى لا يخفيه إلى جمال عبدالناصر برغم مؤاخذاته المؤكدة على نظام حكمه والذى عبر عنه فى أكثر من موضع، بعكس الرئيس السادات الذى يدين جلال أمين سياساته، خصوصاً على الصعيد الاقتصادى والتوجهات الاجتماعية، ويبرهن على ذلك بموقفه مما أشيع عن فساد شقيقه «عصمت» الذى أكده القضاء، حيث انطلق الأخ ينهب ويضرب بسهمه فى اتجاهات عدة، دون أن يجد ذلك صدى لدى الرئيس السادات سوى أن ما يقال عن أخيه ليس سوى حقد وحسد. وتحت عنوان الرئيس مبارك والديمقراطية، يتحدث المؤلف عن لقاء الرئيس بالمثقفين فى معرض الكتاب، هذا اللقاء السنوى الذى يفترض أن يجرى فيه حواراً مفتوحاً بين الطرفين، لكن منظم الدورة، رئيس هيئة الكتاب حين قرأ بين من يطلبون السؤال اسم المؤلف تجاهله، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى حضر فيها لقاءً من هذا النوع، وهو موقف يدلك - برأى المؤلف - على معنى ديمقراطية مبارك وحدودها.

وسينال عثمان أحمد عثمان، المقاول الذى بدأ مسيرة صعوده فى عهد عبدالناصر، وواصل تألقه فى عهد السادات بعضاً من سهام المؤلف، فقد كان فهمه لمعانى الوطنية والانتماء والإيمان والعمل والإخلاص والثروة، أقرب إلى فهم السادات منه إلى عبدالناصر، وقد كان الأخير يفهم هذه المعانى فى أبعادها وأطرها الاجتماعية، أما السادات فقد فهمها بمنطق فردى، بما تضيف إليه شخصياً وما تحققه له من منفعة ذاتية.

وحظى لطفى الخولى بقدر من سخط الكاتب بسبب مسلكه الانتهازى الذى أهدر طاقاته الإبداعية جلها.. «نعم لقد كان لطفى الخولى بدون شك رجلاً ذكياً وجريئاً، ولكنه للأسف استخدم ذكاءه وجرأته فى مواقف كثيرة من مواقفه، بما يتعارض مع مصلحة أمته».

وبالقدر نفسه من النقد يواجه المؤلف تصرفات الدكتور أحمد زويل السياسية وتصريحاته من نوع: العلم لا وطن له، لا سياسة فى العلم ولا علم فى السياسة.

ويكتب المؤلف فصلين رائعين عن ليلى مراد وتحية كاريوكا، أما الأولى فقد اعتزلت الدنيا والفن ولم يكن عمرها بعد قد تجاوز السابعة والثلاثين. وبحسب المؤلف، فقد «تركتنا أربعين عاماً نظن أن الوقت لا يمر» حتى ماتت فاكتشفنا أن أعمارنا قفزت أربعين عاماً فى يوم واحد، أما تحية كاريوكا فهى سيرة ومسيرة مصر لمدة ثمانين عاماً. يقول جلال أمين فى ختام مقاله عن تحية كاريوكا: لا أعتقد أنه كان من الممكن ولا من المتصور، أن تتجه تحية كاريوكا إلى التحجب والتدين الشديد فى الثلاثينيات أو الأربعينيات، بالضبط كما أن مصر لم يكن من الممكن أن ترتدى الحجاب فى الثلاثينيات أو الأربعينيات.

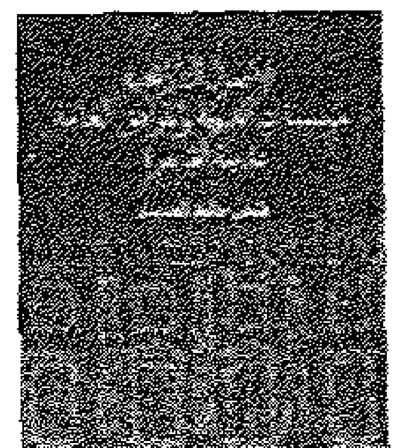
كان هذا متصوراً فقط فى الثمانينيات والتسعينيات، فيما يتعلق بمصر وتحية كاريوكا على السواء.

■

الأصول التاريخية لمؤسسات الدولة والمرافق العامة

فتحى حافظ الحديدى

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٧، ١٣٥صفحة



يتناول الكتاب تاريخ مؤسسات الدولة والمرافق العامة فى العاصمة المصرية، هو مبحث نادر لم يتطرق إليه كثيرون من قبل، ويكشف المؤلف عديداً من الطرائف فى تتبعه لتاريخ مؤسسات الدولة، منها أن بعضاً من وزارات الدولة فى بداياتها كانت تشغل مكاناً يعادل حالياً قسماً أو إدارة بالمفهوم الحالى، فقد كانت سراى مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز فى عصر الخديو توفيق تشمل وزارة المعارف العمومية، وزارة الأشغال العمومية، وزارة الأوقاف، دار الكتب، المدرسة الخديوية وغيرها، وحين أنشئت وزارة المواصلات ظلت لأكثر من عام فى جناح بفندق سميراميس بايجار يومى. وبدأت أول كلية تجارة تتبع جامعة القاهرة فى حجرة واحدة شغلتها الفرقة الأولى، زادت إلى حجرة ثانية فى السنة التالية. كما أن رئاسة مجلس الوزراء كان مقرها فى ضيافة وزارة كانت تختلف باختلاف رئيس مجلس الوزراء من ١٨٧٨ وحتى يناير ١٩٢٢ حينما استقلت بمقر خاص بها.

والملاحظ أن الوزارات كانت تنتقل إلى مدينة الإسكندرية فى الفترة من مايو إلى سبتمبر من كل عام لتكون بجوار الخديو ثم السلطان ثم الملك. واستمر ذلك من ١٨٩٤ حتى يوليو ١٩٥٢. ويشير المؤلف إلى أن النظارات كانت تقضى أشهر الصيف فى سراى رأس التين، ومنذ صيف ١٩٠٩، أصبح مقر النظارات فى سراى زيزينيا بحى سان ستيفانو، وفى السنوات السابقة مباشرة على ١٩٥٢، كان مقر الوزارات قصر بولكلى، الذى شهد مقابلة حاسمة بين عدد من ضباط يوليو ١٩٥٢ والملك، حيث وجهوا إليه إنذاراً حاسماً بأن يغادر مصر قبل الظهر.

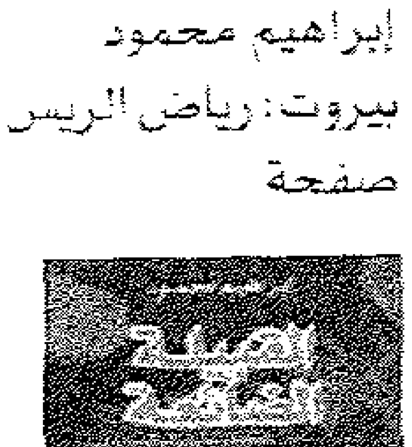
تاريخ عشرات المؤسسات الحكومية والأهلية، تعليمية وصحافية وتجارية ومالية وسياسية واقتصادية ورياضية وفنية وصناعية، يتابعها المؤلف من موقع إلى آخر داخل القطر المصرى.

■

القبيلة الضائعة

إبراهيم محمود

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ٣١١ صفحة



الأكراد هم ضحايا تقسيم جغرافى وظلم تاريخى مديد، فقد وجدوا أنفسهم فى دوائر صراع لا قبل لهم بها، مطاردين ومنبوذين، فى تركيا كما فى العراق وإيران وسوريا، هم فعلاً كما يشير العنوان «قبيلة ضائعة»، والمؤلف - كردى الأصل - يعيش خلف صورة الكردى فى الأدبيات العربية وعنها بدءاً من النسب وانتهاء بالأوضاع التى وجد الأكراد أنفسهم عليها، وهكذا يحدثنا عن الكردى فى نسبه العربى والفارسى والتوراتى، ثم فى سياقه التاريخى الشعرى، وكذلك عن الإسلام الكردى ودورهم السياسى والعروبى، ويضيف المؤلف من تناولوا وضع الكرد فى تصنيفات ثلاثة:

أولهم: أولئك الذين تشددوا فى ممارسة نقد الكرد بوصفهم مقلقى الأمن العربى وأكثر المساهمين فى بلبلة الأوضاع العربية وإضعاف الصف العربى، وباعتبارهم غرباء عن الجغرافيا العربية والوعى العربى التاريخى.

وثانيهم: أولئك المعتدلون فى طروحاتهم وأفكارهم وطريقة التعامل مع الوجود الكردى فى المنطقة، إذ يعتبرونهم طيفاً من الأطياف، أو طرفاً من أطراف المشكلة العربية وليس سبباً لها.

ثم هناك من يسعون فى أروقة السلطة، خصوصاً فى سوريا إلى تجييش الوعى الشعبى المبتذل، ومعاضدة السلطة الراغبة فى قمع الأكراد لأسباب خاصة، ويقدم المؤلف أسماء عديدة لأصحاب كل تيار ممن يتناولون الشأن الكردى بالكتابة والتعليق.

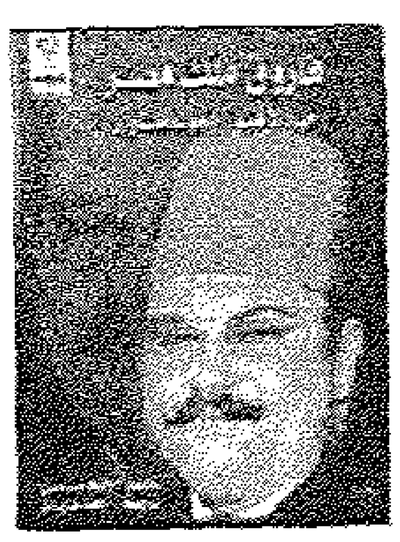
■

فاروق ملك مصر
حياة لاهية وموت مأساوى

وليم ستادين

ترجمة: أحمد هريدى

القاهرة: دار التحرير للنشر، ٢٠٠٧، ٣٨٢صفحة



ولد فاروق فى ١٩٢٠، وتوج ملكاً على مصر فى ١٩٣٦، وفى عام ١٩٥٢ أجبر على التنازل عن العرش، وفى ١٩٦٥ مات، وبرغم حياته السريعة تلك فإن صحف التابلويد الأجنبية حفلت بقدر هائل من حملات التشويه التى قادتها ضده، فهو زير نساء، مقامر، مبذر، مصاب بهوس السرقة، وحين أراد المؤلف أن يبحث فى حقائق الملك الذى أفل نجمه، لم يجد مذكرات أو وثائق يمكن الاطمئنان إليها بثقة، فبدأ بحثه عمن صاحبوا الملك من الحسناوات والرفاق فى تيهه الأوروبى، ويبدأ بعلاقته بمغنية الأوبرا الإيطالية «إرما كابيسى»، والتى كانت علاقته بها سبباً فى طلب زوجته ناريمان الطلاق، وقد كانت إرما صغيرة جداً، كابنة من بناته، لكن ما أغدقه عليها فاروق من هدايا ومجوهرات جعلها تقبل أن تبقى معه، بل وتصحبه فى رحلات طويلة عبر أوروبا، دون أن يتخلى الملك عن محظياته الأخريات وعن السهر يومياً فى الملاهى الليلية ولعب القمار حتى الساعات الأولى من الصباح.

ذيل المقريزى فى تخطيط القاهرة



ذيل المقريزى
للأديب الفاضل عبدالحميد بك نافع
تحقيق دكتور خالد عزب ومحمد السيد حمدى
صدر عن الدار العربية للكتاب ١٧×٢٤

يعد كتاب ذيل خطط المقريزى للأديب الفاضل عبد الحميد بك نافع، تحقيق دكتور خالد عزب ومحمد السيد حمدى، والصادر عن الدار العربية للكتاب، إضافة جديدة لسلسلة كتب الخطط المصرية التى تتناول تخطيط مدينة القاهرة وتطورها عبر عصور مختلفة أو خلال فترة زمنية محددة.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى عدة فصول، يدور الفصل الأول حول القاهرة وأجناس أهاليها ودياناتهم، ويدور الفصل الثانى حول ما بالقاهرة من «الأثمان» والشوارع والدروب والحارات والعطف، ويدور الفصل الثالث حول ما بأثمان القاهرة المعزية من الجوامع والمساجد والزوايا والتكايا والمشاهد والأضرحة والأسبلة والمكاتب، ويدور الفصل الرابع حول ذكر مدارس واسبتاليات وفابريقات القاهرة وإقليمها، ويدور الفصل الخامس حول ذكر الفابريقات المعبر عنها بالورش، ويدور الفصل السادس حول ذكر دور القاهرة العظيمة المسماة بالسرايات والقصور والكوشك وما بالضواحى من ذلك، ويدور الفصل السابع حول ذكر متنزهات القاهرة المسماة بالجناين والبرك والغيطان.

ولعل مؤرخى الخطط لم يأتوا تقريبا بجديد بعد المقريزى، فعلى سبيل المثال جاء كتاب ابن أبى سرور البكرى والمعروف بـ «قطف الأزهار فى الخطط والآثار» ملخصا لخطط المقريزى مع إضافات يسيرة جدت بعد المقريزى. ومن هنا تبرز أهمية كتاب «ذيل المقريزى» لعبد الحميد بك نافع، فهو يستكمل ما جاء به كل من المقريزى وابن أبى سرور البكرى، وما أورده جومار فى كتابه «وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل» والذى نقله عن الفرنسية وقدم له وعلق عليه د.أيمن فؤاد سيد، وقبل أن يضع على باشا مبارك خططه، لذا فقد جاءت كتابات المؤلف مركزة على فترة النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى، أو ما يصطلح على تسميتها بـ «عصر النهضة فى مصر» تلك النهضة التى قادها محمد على باشا وبلغت ذروتها فى عهد الخديو إسماعيل، وكان لها أكبر الأثر فى نقل مصر من دولة تتخبط فى ظلمات الحكم العثمانى بما فرضه عليها من انغلاق وتخلف إلى دولة تتطلع بفخر إلى الرقى والتحضر والأخذ بأسباب التقدم الحديث. وهى النهضة التى انعكس أثرها على مدينة القاهرة فتطورت خططها وأحياؤها، وازدانت شوارعها بالعمائر الفخمة من مدارس واسبتاليات وورش وفابريقات وسرايات وحدائق، أفاض المؤلف فى وصفها وذكر مآثرها. كما أن القسم الأول من الكتاب يقدم إضافة جديدة فى ذكر ما احتوت عليه خزائن الكتب بالمساجد من الكتب والمجلدات، كما احتوى الكتاب على إشارة واضحة إلى قيام محمد على باشا بإنشاء كتبخانة بحى الحسين (قبل كتبخانة على باشا مبارك).

ولعل ما أورده المؤلف من إضافات تقودنا حتما إلى إعادة تأريخ بعض المنشآت، على نحو قصر عابدين والذى كان الرأى السائد حوله أن بناءه بدأ بعد أن تولى الخديو إسماعيل حكم مصر، لكن ما كشف عنه هذا الكتاب يشير إلى أن بناءه بدأ فى عهد سعيد باشا، ومع وفاة أحمد باشا رفعت وريث العرش، وصعود إسماعيل عوضا عنه، تغيرت خطط إسماعيل ونظرته إلى هذا القصر، والذى أعاد هدمه وبناءه مع توليه حكم مصر.

وقد اعتمد مؤلف الكتاب بشكل واضح على كتابات المؤرخ الكبير تقى الدين أحمد بن على المقريزى وخاصة كتاب «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» المعروف بـ «الخطط المقريزية»، وذلك عند الحديث عن آثار الأقدمين، والشيخ حسن بن حسين المعروف بابن الطولونى الحنفى صاحب كتاب النزهة السنية فى أخبار الخلفا والملوك المصرية، ومؤلفات الإمام عبد الرحمن السيوطى ومنها كتابه المعروف بـ «كوكب الروضة فى تاريخ النيل وجزيرة الروضة»، ومؤلفات الإمام عبد الوهاب الشعرانى، وكتاب «قطف الأزهار من الخطط والآثار» لابن أبى سرور البكرى، وأحد مؤلفات المؤرخ أبى عمر الكندى عند الإشارة لمقياس النيل، كما اعتمد المؤلف على بعض الروايات السمعية من بعض من لهم دراية بعلم التاريخ وخاصة عند نسبته القصر العينى إلى المؤرخ بدر الدين العينى، يضاف إلى ذلك ما أورده الكاتب من أشعار لشعراء مثل ابن الصايغ وابن خطير والقاضى عبد الخالق ابن عون الأخميمى وجمال الدين على بن ظافر الحداد والشيخ حسن العطار والشيخ رفاعة الطهطاوى والسيد أحمد البقلى، مما يدل على سعة علم المؤلف وحبه للشعر وتنظيمه إياه، فقد وردت فى الكتاب بعض الأبيات الشعرية المنسوبة للمؤلف.

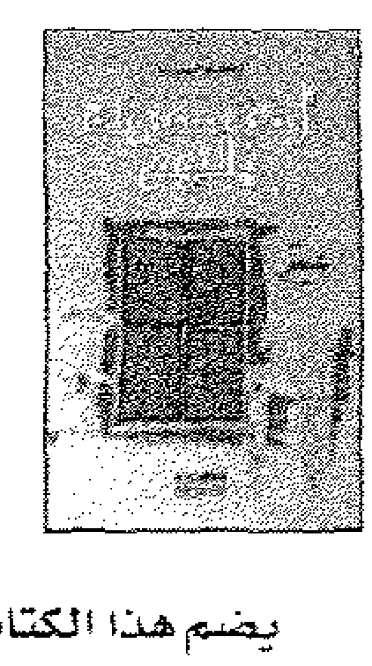
وقد قام المحققان بالتحقيق فيما ورد فى الكتاب من معلومات وخاصة أسماء الشخصيات وأسماء الشوارع والمنشآت القائمة أو ما اندثر منها وما ورد من معلومات أكدتها الأبحاث العلمية الحديثة وأوردها المؤلف.

يحدثنا المؤلف أيضا عن عشرات العلاقات النسائية الأخرى التى أقامها فاروق، خصوصا بعدما فترت العلاقة بينه وبين الملكة فريدة، وبين من أحبته اليهودية أرين التى اختار لها اسما إسلاميا ومعلما ليدرس لها القرآن، وتؤكد إرين أن علاقتها بفاروق ظلت بريئة دوما، ويشير إلى أن سبب رغبة فاروق إقامة علاقة مع يهودية هو تشبهه بوالده الملك فؤاد الذى أقام علاقة مع رئيسة الجالية اليهودية فى مصر «سواريز»، وقد أخبره أبوه، أن النساء اليهوديات هن الأفضل، وإرين هى التى قالت إن فاروق مريض بداء السرقة، وقد تدخل كريم ثابت، السكرتير الصحفى لفاروق الموالى للأمريكيين فهو الذى قطع ما بينها وبين فاروق حين أتى إليه بسكرتيرة إنجليزية حسناء ضبطتها فى فراشه.

أحب فاروق أيضا الأديبة الإنجليزية الفاتنة باربارا سكيلتون، وفى كثير من هذه العلاقات تلوح دائما إشاعات عن ضغوط مخابراتية من جهات عديدة، ثمة قصص أخرى جمعها المؤلف لا يمكن التحقق من صدقها عن موت فاروق بالسم على يد المخابرات المصرية، أو أن الملك عبدالعزيز دعا فاروق إلى السعودية وتعهد بإعادته إلى العرش خلال ستة أشهر، وعشرات الحكايات الأخرى التى وردت فى كتب سابقة عن الملك، فضلا عن النهايات المؤلمة لأفراد العائلة.

أرض معزولة بالنوم

نائم السيد
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧،
٧٣صفحة

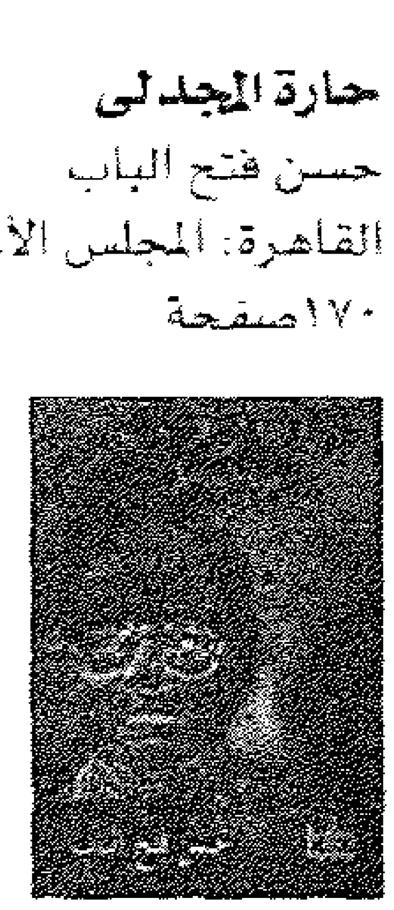


يضم هذا الكتاب نحو ٥٠ مقطوعة من قصيدة النثر لمؤلف صدرت له من قبل مجموعتان هما: «برتقالة مقشرة من الداخل» و«العين الأخيرة».. من أجواء الكتاب:

يسقط من الشرفة إلى القبر المجاور، هذه المرة أيضا لم يمت بكابوس. يستيقظ حارا كالمطارات. نافورة الماء تنحت فى صعودها تماثيل سريعة. المأساة بلا أهل. يدق بأسنانه على الأبواب. يعتقد هكذا: أصابع النخلة وذراعها الطويلة. منذ فقد حاجبيه فى معركة، باتت عيناه مكشوفتين أكثر للسماء للمهزومين الذين يتعرفون إلى الأرض.

حارة المجدلى

حسن فتح الباب
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧،
١٧٠صفحة

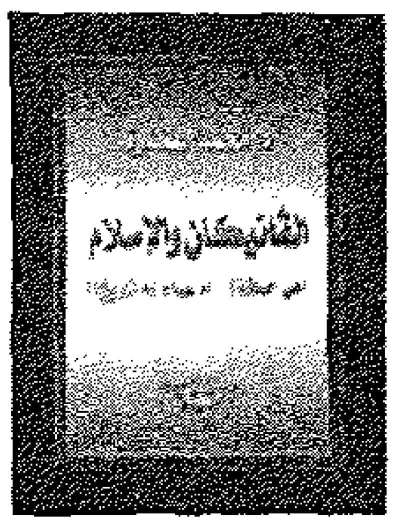


حارة المجدلى هى إحدى الحارات الشعبية المجهولة فى حى شبرا، وهى التى نشأ بها المؤلف، ويعتبرها المنبع الذى تنبثق منه وترتد إليه كل واقعة فى هذه السيرة التى صاغها صاحبها شعرا، نزوعا إلى موهبته وطريقته الأثيرة فى التعبير عن نفسه، لتكمل ما كتبه حول سيرته من قبل فى كتابه «أسمى الوجوه بأسمائها» والذى يتضمن سيرة حياة المؤلف منذ انخراطه فى سلك الشرطة ومعاناته فى الوظيفة، وقد كان النثر هو الغالب فى هذا العمل. أما فى هذا الكتاب فيقدم سيرته من خلال قصائد شعرية، أكثر من ثلاثين قصيدة. من أجواء السيرة الشعرية:

فى شرفة البيت الصغير الفقير
صنعت قلال باسمات الثغور
مشعشعات الماء بالنعناع
وكلما هب نسيم الشمال
رفت على قلوبنا الأحلام.

الفاتيكان والإسلام

محمد عمارة
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧،
١٤٣صفحة



يأتى هذا الكتاب ردا على الافتراءات التى نطق بها بابا الفاتيكان فى إحدى محاضراته، واصفا الإيمان الإسلامى بأنه وثنى أعمى، والقرآن الكريم بأنه تعليمات أوامر اللئام، والرسول الكريم بأنه لم يأت إلا بكل ما هو سيئ وشرير، وبرأى المؤلف فإن هذه الافتراءات ليست مجرد سقطات فكرية، وإنما جزء من العداء الغربى التاريخى للإسلام، والذى يحشد فيه الغرب الاستعمارى مؤسساته الدينية والسياسية والإعلامية لتشويه صورة الإسلام والإعلان عن حرب صليبية جديدة، لأن الإسلام هو الذى حرر الشرق من القهر الحضارى الرومانى الذى دام عشرة قرون، مارست فيه الفاتيكان أبشع

صور الاضطهاد الدينى ضد النصرانية الشرقية. وقد حررت الفتوحات الإسلامية الشرق، لذلك بدأ عداء الغرب للإسلام واستمر حتى اليوم فى محاولة لاختطاف الشرق من الإسلام، عبر الحروب الصليبية وغزو نابليون بونابرت لمصر ثم الاستعمار الغربى فى صوره الحديثة.

ويشير المؤلف إلى التحالف بين الكنيسة الكاثوليكية الغربية مع المشروع الإمبريالى الغربى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم استخدام أمريكا سلاح الدين بضراوة ووضوح فى أعقاب الانتصار الحاسم للمعسكر الرأسمالى على المعسكر الاشتراكى والقضاء على الشيوعية وتفتيت دول الكتلة الشرقية. وقد نجحت الإمبريالية الأمريكية - بحسب المؤلف - فى ضم الكنيسة الكاثوليكية فى الحرب ضد الشيوعية والاتحاد السوفيتى. وكان دور البابا يوحنا بولس الثانى مشهورًا فى هذا الإطار، كما نجحت فى توظيف الإسلام لتحقيق مصالحها. كما جرى فى حلف بغداد ١٩٥٥ ثم الجهاد فى أفغانستان ضد السوفييت.

وأعلنت الإمبريالية الأمريكية بوضوح فى أعقاب سقوط الشيوعية فى العقد الأخير من القرن العشرين أنها اتخذت الإسلام عدوًا بدلاً من العدو الشيوعى، فحل الخطر الأخضر محل الخطر الأحمر.

وإلى جانب نص المحاضرة كما ألقاها «بنديكت»، يستعين المؤلف بما كتبه مستشرقون ومثقفون غربيون حول عظمة الرسالة المحمدية وتأكيدها أن القرآن ليس نتاج عبقرية بشرية وإنما هو وحى من عند الله، فضلاً عن كتابات أخرى تؤكد حذف عديد من النصوص فى العهد القديم، والاختلافات الواضحة بين النسخ المتاحة من الكتاب المقدس والتى يتداولها الناس.

■

الغريبة

مليكة أوفقير

بيروت: التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ٢٤٦ صفحة



حكت مليكة تجربتها الأسطورية وأسرتها فى سجون ملك المغرب السابق الحسن الثانى فى كتابها «السجينة»، عشرون عاماً أمضوها خلف الجدران المصمتة على خلفية انقلاب فاشل ضد الملك، شارك فيه الأب، الجنرال محمد أوفقير رجل المغرب القوى، الذى كان وزيرًا للدفاع ورئيسًا لأركان الجيش وقت الانقلاب «١٩٧٢»، أعدم أوفقير واقتيدت أسرته بكاملها إلى أحد السجون الرهيبة بالصحراء المغربية حيث بقوا فيها لمدة عشرين عاماً حتى استطاعوا الهرب بحيلة أسطورية، حفروا نفقًا فى جدار السجن بالملاعق المعدنية وأغطية علب الصفيح، وحين اكتشف أمرهم كانت قضيتهم قد تحولت إلى قضية دولية تتناولها وسائل الإعلام العالمية بدهشة واستنكار، ليبقوا سنوات خمساً فى أحد القصور رهن التحفظ، وبعدها كان قرار الرحيل إلى فرنسا.

فى هذا الكتاب تستكمل مليكة ما بدأته فى السجينة، فتحكى عن عالم جديد بدأت التعرف عليه بعد أن بلغت الأربعين، هى التى دخلت السجن وقد جاوزت بالكاد الثامنة عشرة، كان عليها أن تعيد اكتشاف العالم، وأن تصوغ علاقات جديدة معه. شبابها الذى أهدر وأنوثتها التى تغلفها مشاعر ضبابية. تتبدى هنا فى سردها لعلاقات عاطفية سعت إليها مدفوعة بشحنات مكبوتة من الرغبة والخوف المتوقع من عذراء جاوزت الأربعين، دون أن تمارس الحب مرة واحدة، وحين التقت زوجها «إيريك» كان عليه أن يتحمل توتراتها وسوء فهمها وخشيتها كنتيجة منطقية لسنوات السجن الطوال. وقد نجح إيريك كما تشير مليكة فى أكثر من موضع بالكتاب، فى أن يهدئ من مخاوفها ويقودها تدريجيًا إلى الطبيعة والاتساق مع العالم من حولها.

مخاوف مليكة حاصرتها منذ البداية، ودمغت علاقتها بالآخرين من حولها خصوصاً فى الشهور الأولى لحياتها فى باريس، وكان عليها أن تعيد اكتشاف ذاتها وأن تحافظ على قدر أكبر من العدوانية لتواجه به تجاهل الآخرين وربما صداميتهم غير المبررة - من وجهة نظرها - تجاهها، ولم يكن سوى الحب طوق نجاة للخروج من هذه الحلقة الجهنمية، واكتشاف فضاءات الحرية فى باريس دون خوف.

تحكى مليكة أيضاً عن محنتها حيث تأكدت من عقمها، لن تصبح أما أبداً، وهو ما دفعها إلى تبنى طفل يعيش معها إلى اليوم بوصفه ابنها، برغم أنها منذ البداية جعلت من نفسها أماً لنوال، ابنة شقيقتها الصغرى المصابة بالصرع، والتى لم يكن بوسعها أن ترعى ابنتها.

ثمة تجارب أخرى تحكى عنها مليكة تتبدى فيها رؤيتها لبلادها اليوم، خصوصاً مع الصعود المتنامى للاتجاهات الأصولية فى المغرب كما فى أكثر من بلد عربى، باختصار هذه هى حياة «السجينة» بعد الانعتاق، فهل حلقت حقًا فى فضاءات الحرية، أم كبلتها قيود سجن أكبر.

■

العلاقات المصرية الأمريكية

محمد عبدالوهاب سيد أحمد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٦٥ صفحة



ما هى حقيقة العلاقة التى جمعت بين ضباط ثورة يوليو ١٩٥٢ وأمريكا؟

فى الإجابة عن السؤال، جنح البعض إلى اعتبار ثورة يوليو أمريكية (هكذا)، طعناً فى الضباط الصغار وفى نظام يوليو كله، ووصف الثورة بأنها أمريكية إنما كان يعنى أن الأمريكان ساهموا بدرجة ما فى إنجاحها، بالضغط على أطراف دولية أخرى وربما بالتخطيط أيضاً.

الحقيقة المؤكدة أن ثمة اتصالات جرت بين بعض الضباط الأحرار ومسئولين فى السفارة الأمريكية، خصوصاً بعدما سرت شائعة مفادها أن القوات البريطانية تستعد للزحف نحو القاهرة للقضاء على الثورة، وكانت طمأنة الأمريكان وكسب ودهم أو على الأقل تحييدهم هدفًا أساسيًا لضمان نجاح الحركة. ومن جهتهم فقد فعل الأمريكان كل ما بوسعهم لضمان نجاح الضباط فى انقلابهم ومنع البريطانيين من اتخاذ أية إجراءات مضادة. وقد حرص الضباط من جانبهم على التأكيد للأمريكان، أن انقلابهم لا صلة له بالعناصر الشيوعية أو الإخوان المسلمين، وأنهم حريصون على معاداة الشيوعية، بل والتعاون مع الأمريكان لمواجهة الزحف الشيوعى فى المنطقة، وقد بالغ النظام الجديد فى تأكيد عدائه هذا، حين ضرب بشدة أحداث الشغب التى أثارها عمال كفر الدوار فى أغسطس ١٩٥٢م. وأعدم فيها العاملين خميس والبقرى، برغم أن مظاهرات العمال كانت ضد إدارة الشركة وليست ضد الثورة وأهدافها.

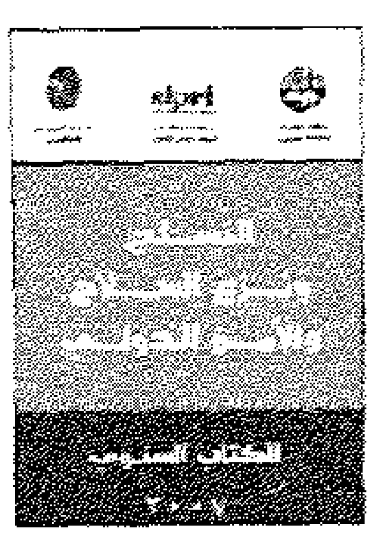
بدا إذن أن ثمة مصالح مشتركة بين الطرفين: يكسب الضباط الأمريكان فيضمنون نجاح حركتهم، ويساند الأمريكان الضباط فيجعلون منهم رأس حربة فى مواجهة النفوذ السوفيتى، ولكى تحقق أمريكا أهدافها، أيدت حل الأحزاب، خصوصاً أن الوفد جاهر مرات عديدة بعدائه للنفوذ الأمريكى فى المنطقة، وكان من مصلحة أمريكا أن تتعامل مع حفنة من الضباط، بدلاً من التعامل مع حزب له أغلبية كاسحة وقدرة على تعبئة الجماهير ضد أهدافها الإمبريالية فى المنطقة، وقد قدمت أمريكا أسلحة بنحو مليون دولار للنظام الجديد لتدعيم مركزه ضد القوى المناهضة له، خصوصاً أنه كان هناك تأكيد مستمر من الضباط أنهم ليست لديهم النية لمحاربة إسرائيل، وأن هذه الأسلحة ستتوجه لتدعيم النظام فى الداخل. وبحسب المؤلف فإنه خلال العامين الأوليين من حكم النظام العسكرى، وصل التعاون والتنسيق بين الأمريكيين والمصريين لمناهضة الشيوعية إلى ذروته. وحتى حين اتخذ النظام الجديد خطواته الخاصة بتحديد الملكيات الزراعية، فقد أيده الأمريكان بل استعجلوا اتخاذ الخطوة رغبة منهم فى تصفية النظام القديم وزيادة شعبية النظام الجديد بين الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى.

لكن شهر العسل بين الجانبين لم يستمر طويلاً، إذ بدت أهداف الأمريكان متناقضة، فهم يريدون من النظام الجديد أن يناوئ الشيوعية ويصفى النظام القديم، ويسعون فى الوقت نفسه إلى «حشره» ضمن ملف دفاع مشترك عن منطقة الشرق الأوسط، إضافة إلى الرضوخ لمشروع سلام مع إسرائيل بشروط الأخيرة، وكانت هذه نقطة فاصلة بين الطرفين.

■

التسلح ونزع السلاح والأمن الدولى

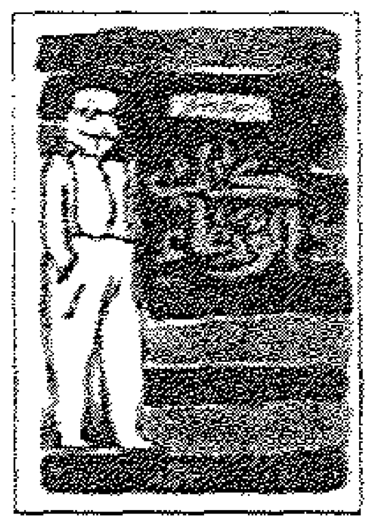
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ١٠٨٦ صفحة



يحلل الكتاب التطورات فى سنة ٢٠٠٦ فى كل من مجالات الأمن والصراعات، والإنفاق العسكرى والأسلحة، وحظر الانتشار والحد من الأسلحة ونزع السلاح. وهو يحوى بين دفتيه قضايا مميزة يذكر منها: الصراعات المسلحة الرئيسية، والعنف الجماعى الذى يتجاوز التعريف المعتاد للصراع المسلح، وحفظ السلام، والمسألة الديمقراطية لأجهزة الاستخبارات، والطاقة والأمن، والإنفاق العسكرى فى العالم، وإنتاج الأسلحة، وعمليات نقل الأسلحة على المستوى العالمى، والتوجه إلى إبرام معاهدة بشأن تجارة الأسلحة، وخفض المخاطر الأمنية بالحد من حيازة مواد مدنية واستخدامها، وقرار مجلس الأمن رقم ١٥٤٠ وحظر انتشار الأسلحة النووية من طريق تشريع دولى، والتفجيرات النووية ١٩٤٥ - ٢٠٠٦، والمواد الانشطارية المخزونة والمنتجة وكيفية التخلص منها، والتطورات فى مضمار الأسلحة الكيميائية والبيولوجية وسبل الحد منها، ووضع ضوابط لعمليات النقل الدولية ذات الصلة بالأمن.

■

الوداع من الأول إلى الرابع



كتاب الودعاء
جمال مقار
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٧
٣٠٣ صفحات

هذه سيرة الودعاء.. من وديع الأول إلى وديع الرابع.. يحكيها وديع الثالث فى قسمين.. الأول منها يمهد للتالى الذى هو بحث فى الجذور وبذور التكوين الأولى.

نتعرف فى القسم الأول على وديع الثانى.. موظف بائس ينتمى إلى الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى.. يعانى تاريخيا من السرحان والتحليق فى آفاق ماورائية تجعله مفتقدا للتواصل مع الآخرين فى أحيان كثيرة.. وهو ما يجعلهم يتصورونه أبله.. فيما يوقن هو أنه عبقرى.. ينظر دائما أبعد وأعمق مما يذهب إليه الآخرون.. وهو أمر لاتراه زوجته سلوى أو «سلوتى» كما يحلو له أن يناديها.. وقد تأكد بنفسه من تقييمها له حين وقع على كراسة مذكراتها التى دونت فيها بعضا من إخفاقاته العديدة.. والتى كان ينزلق إليها بحماس منقطع النظير.. ومنها قصته مع تربية الأرانب ورحلة الاستجمام المجانية التى أوهمه بها نصابون محترفون.

ونعرف من كلام الراوى - وديع الثالث - كيف أن ما جمع بينه وبين زوجته كان هو التنافر الشديد.. قطبان متضادان.. يرى هو نصف الكوب ممتلئا وتراه هى فارغا.. لكن تنافرهما هو الذى قرب بينهما إلى حد الوله.. وأثمر زواجهما «زهرة» و«وديع الرابع».

يبدأ وديع الثالث بحثه عما يحقق أحلامه وينقله من فئته البائسة (موظف) إلى فئة أعلى.. ولأنه يهوى الأمس.. قرر أن يعمل فى جريدة تهتم بالتاريخ والمذكرات والذكريات.. يكتب عن الأشياء القديمة والأحداث الكبرى التى وقعت فى أزمنة بعيدة.. كما لو كان مراسل الجريدة من مواقع أحداثها.. وتقفز فى ذهنه فكرة عبقرية.. البحث عن جذوره هو التى لم يكن يعلم عنها شيئا.. فيرحل إلى عزبة نخلة بالصعيد.. الموطن الأول للودعاء.. الذى أقاموا فيه حين أجبروا على ترك أرضهم بسبب انفلاتات وديع الأول.. وهو أيضا المكان الذى شهد فناءهم عن بكرة أبيهم - فيما عدا أبيه طبعا - حين حصدتهم الكوليرا قبل خمسين أو ستين عاما، كما أخبره شاعر الربابة العجوز «خريش حنيش عبد الله نخلة».. الوحيد الذى بقى من هذا السلسال اللعين.. والذى حفظ على تقاسيم ربابته الرحلة المقدسة للودعاء بنهاياتها الحزينة الفاجعة.. والتى تقلب فيها وديع الأول بين أحوال شتى.. فهو المتمرد الفالت الهارب.. ثم هو الحائر التائب الخائب الصامت.

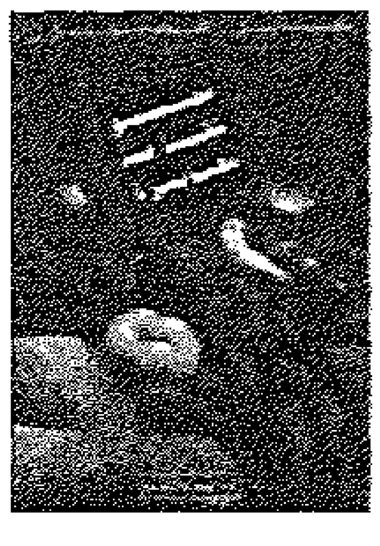
وسنتعرف من خلال مايرويه خريش حنيش على «خوصة» سيدة الودعاء.. ثم «حنينة» الفلاحة النشطة الولود التى تزوجها وديع الأول عقب وفاة زوجته الأولى «هنية».. ثم «نمرة» زوجته الثالثة التى كان مجيئها إيذانا بانحطاط امبراطورية وديع الأول وغياب شمس الحياة عنه وعن بيته.. وستكون «نمرة» سببا فى تفكك أوصال العائلة.. فقد قيد «وديع الثانى» إلى الجهادية.. وانتهى الأمر بإخوته وديعة وبشرى ونجيب فى دار عمهم رياض.. حتى داهمت الكوليرا الجميع فلم ينج سوى وديع الثانى.. الذى يروى لنا وديع الثالث بعضا من سيرته العطرة فى الجيش المصرى.. منذ التحاقه به جنديا مميزا ترقى استثنائيا لذكائه وطاعته وانضباطه.. وحتى هروبه من «طوكر» فى السودان بمساعدة جندى مصرى آخر يدعى «كرم».. وكان وديع الثانى قد ألقى به فى السجن ظلما لرفضه إساءة من ضابط إنجليزى.

وحين ينتهى شاعر الربابة العجوز خريش حنيش من سرد حكاية الودعاء.. يكون قد اقترب من نهايته هو.. فيغسلونه ويدفنونه بالنخيلة حسب وصيته.. ويعود «وديع الثالث» إلى القاهرة.. حاملا لـ «سلوته» كنزا صغيرا منحه إياه حنيش هو تحويشة عمره.. وللأستاذ «ناظم كاظم» رئيس التحرير سبقا صحفيا جديدا هو حكاية الودعاء.

جمال مقار الذى صدرت له من قبل خمس روايات ومجموعتان قصصيتان.. نفس روائى طازج.. يمزج الأسطورى بالتاريخى بالمتخيل فى براعة قادرة.. وبلا ادعاء.. يجذبك إلى عالم حقيقى وغرائبى معا.. ولديه حس ساخر محبب.. وانشغال بالهم العام يودعه ببساطة بين السطور.

عمـــاد الغـــزالى

نحو ثقافة مغايرة
جابر عصفور
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧،
٤٤٥ صفحة



يضم الكتاب مقالات نشرها المؤلف فى صحف مصرية وعربية تنظمها أربعة أقسام: ملاحظات تحليلية، مقدمات ومراجعات، مؤتمرات وملتقيات، إضاءات أدبية.

ويوقن المؤلف أننا بحاجة إلى ثقافة مغايرة، ثقافة بديلة عن تلك التى تشيع الإقصاء ورفض الآخر والظلامية، إيمانا منه بدور الثقافة فى المجتمع، واتساقًا مع ما أثبتته تجارب أمم عديدة من أنه لا تنمية صناعية أو اقتصادية ما لم تسندها ثقافة تدعمها وتدفع بها إلى الأمام.

ويلاحظ المؤلف أن رغبة الفكر العربى فى تأمل متغيرات ثقافته العربية لا تنبثق على نحو تلقائى أو عشوائى، وإنما تنبثق مقترنة بمثير خارجى ودوافع عديدة، تتجلى فى كثرة المتغيرات المتلاحقة والتأثيرات الجذرية الناتجة عنها، الفاعلة فى أدوات الثقافة وعلاقتها. وهو ما يعنى أن السؤال عن التغيير هو الوجه الآخر للسؤال عن المستقبل، كلاهما تجسيد لآلية دفاعية وتعبير عنها، وكلاهما محاولة لاستباق اللحظة الحاضرة فى قسوتها الحدية قبل أن تفر فى زحمة الأزمنة المتداخلة أو المتضادة، ويشير الدكتور عصفور إلى أن تاريخنا الثقافى كله شاهد على ذلك، ابتداءً من اللحظة التى دقت فيها مدافع نابليون حصون الإسكندرية، وانتهاء باللحظة التى لانزال نعيش رعبها منذ أن هطلت صواريخ توما كروز على الدفاعات العراقية.

وكانت المحصلة فى كثير من الشواهد، أن صيغت تمثيلات المشروع الجديد للنهوض على أساس من اتباع النموذج الليبرالى الأوروبى والدخول معه فى علاقة التلميذ النجيب بالأستاذ النابغة الوحيد، ولم يمنع هذا المشروع الجديد من صياغة حلم للاستقلال عن الأصل المتقدم، لكن فى موازاته وبأدوات إنتاجه المعرفية وعلاقاته الثقافية التى تتأسس على مبدأ المركزية وهى العلاقات التى سرعان ما أنتجت الثنائية المتعارضة بين قلب الشرق الفنان وعقل الغرب العالم.

وفى إطار هذا التحليل يشير المؤلف إلى تجارب عدد كبير من الرواد المصريين والعرب، فضلاً عن جهود عدد من المشايخ المستنيرين لإقامة دولة مدنية من أمثال رفاعة الطهطاوى والأفغانى والكواكبى ومحمد عبده وعلى عبدالرازق.

القاعدة وأخواتها
كميل الطويل
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٧، ٤١٢صفحة



لم يعد العالم بعد حرب أمريكا على الإرهاب فى أعقاب سبتمبر ٢٠٠١، كما كان قبلها، لكن الملاحظة اللافتة أنه بعد ٦ سنوات من حرب أمريكا على الإرهاب، وبرغم ما حققه الأمريكان من انتصارات هنا وهناك، فإن تحقيق نصر حاسم على ما تدعوه أمريكا بالإرهاب مازال فكرة بعيدة تماماً. فقد أعادت حركة طالبان استعادة أنفاسها، وفرضت سيطرتها على مناطق واسعة فى جنوب البلاد وجنوبها الشرقى، وفى العراق غرس الأمريكيون فى مستنقع لا يعرفون كيف يمكنهم الخروج منه، يستنزف طاقاتهم ويشوه صورتهم إلى حد الإذلال.

أما تنظيم القاعدة، المستهدف الأول من حرب أمريكا على الإرهاب، فيبدو اليوم المستفيد الأول من غرق الأمريكيين فى أوحال أفغانستان والعراق، حيث نجحت إلى حد كبير فى امتصاص الضربات التى تلقتها وأعادت تنظيم صفوفها فى مراكز انتشارها، وتحولت القاعدة إلى «قواعد»: القاعدة الأم فى أفغانستان وباكستان، وقاعدة فى بلاد الرافدين، وقاعدة فى جزيرة العرب، وفى أوروبا والمغرب، وربما ظهرت قاعدات أخرى فى الشام أو بلاد حوض النيل.

كانت أمريكا تحارب قاعدة واحدة، الآن تحارب قواعد، تناثرت شظايا القاعدة فى أنحاء الكرة الأرضية، وصارت الحرب بينها وبين أمريكا وحلفائها عالمية، وقد ساهم غباء الإدارة الأمريكية وعنجهيتها فى تحويل حربها ضد الإرهاب كما وصفته فى البداية إلى حرب ضد الإسلام والمسلمين، كما حاول تنظيم القاعدة أن يوحى منذ البداية، وهوما أسهم فى ضخ دماء جديدة فى تنظيم القاعدة الأصلى بزعامة أسامة بن لادن.

وهذا الكتاب يحكى قصة التحول فى فكر الجهاديين، وبحسب المؤلف فلم يكن ممكنًا أن يروى تاريخ القاعدة بمعزل عن تاريخ أخواتها من جماعات الجهاد الأخرى التى نشأ غالبيتها فى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات القرن الماضى، ولأن أخوات القاعدة كُثر، فإن الكتاب يكتفى بتناول جماعة الجهاد فى مصر، والجماعة

الإسلامية المسلحة فى الجزائر، والجماعة الإسلامية المقاتلة فى ليبيا، وكل منها نشأ فى بيئة الأفغان العرب، أى فى خضم الحرب فى أفغانستان ضد الوجود السوفيتى، كما أنها جميعاً مارست «الجهاد» المسلح ضد أنظمة الحكم فى بلادها بهدف إسقاطها.

■

تيارات الفكر الإسلامى

محمد عمارة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٤٠٥صفحات



طبعة جديدة من كتاب تزداد الحاجة إليه اليوم أكثر من أى وقت آخر، فى واقع عربى وإسلامى يزداد فرقة وتفتتاً بفعل ضربات خارجية متواصلة ومعاول هدم داخلية متواطنة أو غير مدركة لمصالحها فى أحسن الظروف.

يعرض المؤلف للجذور التاريخية لنشأة هذه التيارات الفكرية وأثرها فى واقع الأمة الإسلامية على كافة الأصعدة، وخصوصاً الصعيدين السياسى والثقافى، وهى: الشيعة، الخوارج، المرجئة، الزيدية، السلفية، الأشعرية، المعتزلة، المهدية، السنوسية، الجامعة الإسلامية، الوهابية.

وبرأى المؤلف فإن أبرز مدارس التغطية وأكثرها أصالة وتأثيراً هى تلك التى أخذت تبنى الحاضر وتتصور المستقبل امتداداً متطوراً لأكثر الصفحات إشراقًا وتقدماً وعقلانية فى تراثنا الحضارى العريق، بينما ظلت مدارس التقليد والنقل والتغريب هوامش، لعبت دور المنير والمنبه والحافز، لكنها لم تحصل على شرف الانتماء إلى الكيان العقلى الذى يمثل القسمات الأصلية والمميزة لأمتنا وحضارتنا عن غيرها من الأمم والحضارات.

ويميز المؤلف بين عديد من التصورات حول كيفية تحقيق النهضة وإنقاذ الأمة من كبوتها، إذ يرى البعض أن السلف الصالح لأمتنا هم سلف عصورها المظلمة، يوم تراجعت عن الخلق والإضافة والإبداع اكتفاءً بتقديس النصوص، وأغلقت باب الاجتهاد، ومن ثم يدعو هذا البعض إلى صب الحاضر والمستقبل فى قوالب الماضى التى صنعها هذا السلف، ظناً منه أن هذه القوالب هى الدين الثابت الحاكم المنزل من عند الله. ويرى بعض آخر أن عزة الأمة وازدهارها الحضارى لن يتحقق إلا بإبداع عقلانيتها، واتخاذها موقفا وسطًا، هو العدل الذى يرفض التطرف وينأى عن المغالاة والانحراف.

فعقلانية الأمة لم ترفض الوحى ولم تتنكر للنص المأثور كما كانت عقلانية اليونان، كما أنها لم تتعبد فى النص المأثور، إنما وازنت بين العقل والنقل، ووقفت بين الحكمة والشريعة، ولجأت إلى التأويل عندما لاح التعارض بين ظواهر النصوص وبراهين العقول.

وقد رفضت عروبة الأمة الشعوبية التى أنكرت على العرب دورهم الرائد فى الدولة وفى الدين، كما رفضت عصبية العرب الجاهلية التى أرادت تأسيس العروبة على العرق والجنس والاستعلاء، ولم ينحرف بها مذهبها فى طبيعة السلطة نحو الكهانة التى تجعل الدين والدولة أمراً واحداً، ولا نحو العلمانية التى تفصل وتقطع ما بين الدين والدولة من صلات.

بهذه الرؤية يدعونا المؤلف إلى قراءة تيارات الفكر الإسلامى كما عددها وتبين أثرها.

■

قراصنة أمريكا الجنوبية

طارق على

بيروت: شركة المطبوعات للنشر، ٢٠٠٧، ٣٦٠ صفحة



ثمة ما يجمع بين هذه المنطقة من العالم «أمريكا الجنوبية» و«منطقتنا منطقة الشرق الأوسط»، نسبة الفقر المرتفعة، الإحساس الواقعى بالتبعية وبالتغلغل الأمريكى الذى يستهدف نهب الثروة وابتزاز الشعوب، وربما لهذا السبب، نشعر هنا بالفخر حين يجابه كاسترو الأمريكان، ويتحداهم شافيز فى خطب علنية، ويعلن دى لاسيلفا حرصه على استقرار واستقلال قرار بلاده، بل وتهب رياح الأمل فتنعش طموحات ذوى الاتجاهات اليسارية فى بلادنا الذين أحبطوا حين ولىّ اليسار وتفتتت المنظومة الشيوعية على الأرض وفى كتابات المنظرين.

وهذا الكتاب يتحدث عن حالة الغليان التى تسود هذه المنطقة من العالم وتقترب بها فى لحظات كثيرة من حافة الخطر والمواجهة، ويتناول معاناة شعوبها التى يعيش معظمها تحت خطر الفقر، فيما ثرواتها تنهب من قبل أمريكا وقادة فاسدين متواطئين مع هذا المشروع للسيطرة على العالم.

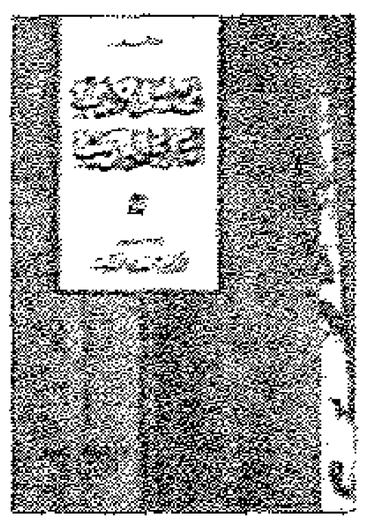
يضم الكتاب ستة فصول: عصر التعمية، الأبخرة الإمبريالية، الشرس والحمير الماكرة، بوليفيا من جديد، ملاحظات من مفكرة هافانا، حيوات سيمون بوليفار، إضافة إلى عدة ملاحق تتضمن خطباً وكلمات فى مناسبات مختلفة لزعماء هذه المنطقة.

■

قاموس الأدب العربى الحديث

حمدى السكوت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٤٠٠ صفحة



يقدم هذا الكتاب معلومات فى شكل مقالات مختصرة عن المبدعين والمفكرين العرب فى العصر الحديث، من موريتانيا إلى عمان، منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى عام ٢٠٠٦، بالإضافة إلى مداخل للكتب المهمة والمجلات الثقافية والأدبية الفاعلة، والجمعيات والمدارس الأدبية التى كان لها دور فى تطوير بعض الفنون الأدبية، والمكتبات ذات الأهمية والتاريخ فى الوطن العربى، وكذلك المجالس والصالونات الأدبية والمقاهى الثقافية.

والكتاب يضم ما يقرب من ألف مدخل تدور حول: المبدعين العرب فى مجالات الشعر والرواية والمسرح والقصة، الأحياء منهم والراحلين، ومن يكتبون بالعربية أو بالفرنسية أو بالإنجليزية، النقاد العرب الحاليين والراحلين، إضافة إلى مفكرين قدموا إسهامات مهمة فى مسيرة الثقافة العربية الحديثة من أمثال الطهطاوى والأفغانى ومحمد عبده والكواكبى وقاسم أمين وبشر فارس وفرح أنطون ولطفى السيد وهدى شعراوى وصفية زغلول ونبوية موسى وسيزا نبراوى ودرية شفيق وغيرهم.

وأيضاً تحدث عن كبار العلماء والفنانين والمهتمين بالفكر الفلسفى والصحفيين الراحلين من أمثال: على مصطفى مشرفة ومحمد كامل حسين وأحمد مستجير ومحمود مختار وحسن فتحى ومصطفى عبدالرازق وعبدالرحمن بدوى وزكى نجيب محمود ومحمد التابعى وفكرى أباظة ومصطفى وعلى أمين وأحمد بهاء الدين وغيرهم.

فضلاً عن كبار المسرحيين والسينمائيين والموسيقيين مثل يوسف وهبى ونجيب الريحانى وزكى طليمات وسيد درويش وبديع خيرى وأمينة رزق وأم كلثوم.

وخصصت باقى المداخل للكتب المهمة مثل «تخليص الإبريز» للطهطاوى، و«الخطط التوفيقية» لعلى مبارك، و«تحرير المرأة» لقاسم أمين، و«الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبدالرازق، و«الاستشراق» لإدوارد سعيد، والعشرات من دواوين الشعر والروايات والمسرحيات ومجموعات القصص وغيرها.

■

رحــــــلتى

تقديم: فاروق جويدة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٩٥صفحة



أودع الموسيقار الراحل محمد عبدالوهاب هذه الأوراق لدى زوجته السيدة نهلة القدسى، وأوصاها أن تسلمها بعد رحيله للشاعر الكبير فاروق جويدة، الذى كان قريباً من الموسيقار الكبير طيلة ربع قرن حتى وفاته.

وما تضمنته هذه الأوراق ليس ذكريات بالمعنى المتعارف عليه، هى شذرات ورؤى وآراء وملاحظات فى موضوعات عديدة، تولى فاروق جويدة تصنيفها وتبويبها لتقدم لنا فى مجملها صورة عن رحلة عبدالوهاب: مع الفن، مع الناس، مع المرأة والحب، مع السياسة، مع الحياة، وهى تحتوى على آراء شديدة الجرأة لم تكن معهودة فى الموسيقار الراحل، الذى عرف عنه أنه كان مجاملاً لأبعد الحدود، لكنه هنا يبدى آراءً فى زملائه وتلاميذه من الموسيقيين، وربما يكون مفاجئاً لكثير من القراء، هذا التقدير الكبير الذى يحمله عبدالوهاب للسنباطى، برغم ما أشيع عن احتدام حدة التنافس بينهما، وكذلك تقديره الكامل لإبداع الموسيقار سيد مكاوى، إذ يعتقد عبدالوهاب أن ما أبدعه الشيخ سيد هو ما سيبقى من كل الملحنين، وسنلاحظ كذلك أنه لم يحمل كثيراً من التقدير لإبداع بليغ حمدى الذى رأى فيه تاجراً فى الفن وإن لم يكن تاجراً فى الحياة، بعكس كمال الطويل الذى رأى أنه تاجر فى الحياة وليس تاجراً فى الفن، أما الموجى فهو عقلية رياضية منظمة، وهو ما تبدى فى كثير من ألحانه، ولعبدالوهاب آراء كذلك فى عديد من مطربى هذا الزمن، وكذلك سياسييه وكُتَّابه وصحفييه وشعرائه، يبديها بلا مواربة، فضلاً عن كم من المأثورات التى ابتدعها والتى تكشف عن غرامه بالكلمة الحلوة المهذبة.

■

مشروع حوار



فـــــايـــز ســـارة

■ كثيراً ما جرى تأكيد، أن المشروع الثقافى فى العالم العربى هو مشروع الدولة، واستند التأكيد إلى نوعين من التجارب، كان الأول منها تجربة البلدان التى اختطت تجارب شمولية، حيث أناطت بنفسها كل المسئوليات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهى تجربة قاربت فيها تجارب الأنظمة الشمولية التى كانت تحكم البلدان الشيوعية كما فى الاتحاد السوفيتى السابق والصين الشعبية وما بينهما من ألمانيا الديمقراطية ويوغوسلافيا وألبانيا وفيتنام ومنغوليا، وكان النموذج العربى المقارب حاضراً فى مصر وسوريا والعراق والجزائر واليمن الجنوبى وغيرها من بلدان. أحدثت هيئات ومؤسسات ثقافية وإدارية مهمتها رسم وتنفيذ سياسة نشر وطباعة وتوزيع وتداول الكتب والمواد الثقافية بما فيها الكتب الفكرية والعلمية، والتى فى إطارها مضت تجارب كثيرة كان منها تجربة وزارة الثقافة السورية وخاصة مديرية التأليف والنشر، التى انصب اهتمامها فى نشر وترجمة وطباعة وتوزيع الكتب بموضوعاتها المختلفة.

والنوع الثانى من تجارب الدولة للمشروع الثقافى العربى، كرسته تجربة قلة من الدول العربية النفطية، التى تقدمت - ولو من موقع مختلف للتجربة السابقة - للقيام بعبء مشروع ثقافى عام متعدد المجالات فى ميدان التأليف والطباعة والنشر والترجمة، وكانت المعالم الأكثر وضوحاً فى التجربة الكويتية، التى مثلتها تجربة المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بإنجازاته الثقافية المتنوعة والمميزة، وهى تجربة سعت بلدان عربية نفطية أخرى إلى محاكاتها مثل قطر والبحرين وعمان وسط مستويات أقل من نجاحات التجربة الكويتية.

وبغض النظر عن اختلاف التجربتين فى تولى الدولة مسئولية المشروع الثقافى العربى، فقد راوح المشروع فى كل الحالات فى الحدود المعرفية والثقافية، أكثر مما ذهب فى الاتجاهات الفكرية والسياسية، التى قد لا تتوافق أو أنها تتعارض مع فلسفة النظام السياسى إلا فى حالات محدودة ونادرة، كما فى حال قيام وزارة الثقافة السورية بنشر عدد من أمهات الكتب الماركسية فى سبعينيات وثمانينيات القرن الماضى تحت تأثير عوامل معينة، لكن أغلب منشوراتها ذهبت فى اتجاهات معرفية وثقافية، كما فى مشروع المدن السورية وفى سلاسل الروايات والقصص والكتب الاقتصادية. وقريباً من هذا الاتجاه جاءت تجربة ناتج النشر للمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب فى الكويت من سلسلة عالم المعرفة إلى سلسلة المسرح.

وإذا كان ثمة بلدان عربية، خرجت بتجاربها فى المشروع الثقافى العربى عن النموذجين السابقين فى قيام الدول بأعباء ذلك المشروع، فإن هذا الخروج، كان جزئياً، وغالباً ما استند إلى عجز الدولة المالى وربما السياسى فى ملء الفضاء الذى يوجبه المشروع الثقافى، مما فرض مستويات من التدخل تقوم به الدولة وأجهزتها فى رسم حدود المشروع الثقافى وتحديد مساراته ومحتوياته، ومحاولة أخذ حيز فى بعض هوامشه سواء من باب إثبات الموجودية، أو بهدف رسم توجيهات أو رسائل ثقافية للمشتغلين فى المشروع الثقافى من مؤسسات وأفراد للالتزام بها أو السير فى ركابها.

ربما كان لبنان، هو البلد العربى الوحيد الذى امتلك لأسباب متعددة فرصة الحضور المحدود للدولة فى المشروع الثقافى، تاركاً هذا المشروع ولا سيما فى ميدان التأليف والطباعة والنشر والتوزيع فى يد القطاع الخاص بمؤسساته وأفراده، وكان التفرد اللبنانى الثانى فى موضوع المشروع الثقافى هو غياب الرقابة المسبقة بشكل كامل، وهو أمر قائم فى أغلب البلدان العربية، والأقل فيها هو ما يجعل الفضاء صاحب القرار فى حظر التداول، وفى المجال الأخير، فإن لبنان صاحب الموقع الأفضل فى التعاطى مع تداول المنتج الثقافى ولاسيما مع الكتاب، وقد جعلت الخصائص اللبنانية، لبنان بلد الكتاب العربى الأول بلا منافس فى التأليف والترجمة والنشر والتداول.

لقد تركت التجربة اللبنانية أمام دور النشر الكثيرة والمختلفة فرص رسم وتنفيذ مشروعاتها فى ميدان النشر، وقد ظهر كثير من هذه المشروعات، لكن الغلبة فيها كانت للمشروعات الثقافية والمعرفية والعلمية المتقاربة مع حدود المشروع العربى العام على نحو ما هو عليه مشروعات دار رياض الريس ودار الساقى ودار العلم للملايين، وقلة قليلة من تلك المشروعات تجاوز تلك المشاريع للذهاب نحو مشروع فكرى سياسى له أهمية راهنة على نحو ما ذهبت دار الفكر بدمشق توأم وشريكة دار الفكر المعاصر ببيروت فى مشروعها القائم «حوارات لقرن جديد».

ولا يستمد مشروع دار الفكر أهميته من محتواه الفكرى والسياسى المتفرد فقط، بل من حيثيات طبيعته الأخرى، التى يؤشر إليها اسمه «حوارات لقرن جديد». إذ هو مشروع حوار بين متخصصين من باحثين وعلماء وكتاب، وهو بالمعنى المحدد المشروع الأول من نوعه فى العالم العربى، وقد ولدت هذه الأسبقية على قاعدة الحاجة لا على قاعدة التجريب، الأمر الذى تؤكده محتويات المشروع، سواء من ناحية الموضوعات المطروحة، أو من ناحية الأسماء المشاركة، أو من الطريقة التى اتبعت فى التعامل مع موضوعات المشروع، والأهم فى ميزات المشروع سخونة وراهنية موضوعاته، التى لا شك أن أغلبها يندرج فى أول اهتمامات الرأى العام العربى والإسلامى وجزء كبير من الرأى العام فى العالم.

لقد فتح إطلاق المشروع فى العام ١٩٩٨ الباب للتفكير فى مختلف الموضوعات التى تهم القارئ والمواطن فى مختلف البلدان العربية، وهكذا صارت كل الموضوعات الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على أجندة المشروع، وقد تكرس هذا التنوع فى المنتج الذى صدر عن المشروع وقد تجاوز حتى الآن الأربعين كتاباً من مختلف الاختصاصات، كان منها فى الفكر والسياسة «إشكاليات الخطاب العربى المعاصر»، و«مستقبل الحوار الإسلامى - المسيحى»، و«الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل»، و«مستقبل الحركات الإسلامية»، وفى الاقتصاد صدرت مؤلفات «الخصخصة آفاقها وأبعادها»، و«الاقتصاد الإسلامى: علم أم وهم»، و«الربا والفائدة دراسة اقتصادية مقارنة»، وفى موضوعات المجتمع «المجتمع الأهلى ودوره فى بناء الديمقراطية»، و«أزمة الأقليات فى الوطن العربى»، و«حقوق الإنسان فى الوطن العربى»، وفى الموضوعات الثقافية «المسألة الثقافية فى العالم العربى - الإسلامى»، و«مستقبل

حوارات لقرن جديد
«سلسلة»
دار الفكر - دمشق، ٩٨ - ٢٠٠٧

ربما كان لبنان، هو البلد العربى الوحيد الذى امتلك لأسباب متعددة فرصة الحضور المحدود للدولة فى المشروع الثقافى، تاركًا هذا المشروع ولا سيما فى ميدان التأليف والطباعة والنشر والتوزيع فى يد القطاع الخاص بمؤسساته وأفراده

العلاقة بين المثقف والسلطة»، و«جذور أزمة المثقف فى الوطن العربى». وفى الموضوعات الإسلامية «تجديد الفقه الإسلامى»، و«إشكالية تجديد أصول الفقه الإسلامى»، و«الاجتهاد: النص، الواقع، المصلحة»، و«الإسلام والعصر»، وفى قضايا المرأة: «المرأة والدين والأخلاق»، و«المرأة والجندر».

لقد تضمن المشروع كثيرًا من الموضوعات سواء فى العناوين الأساسية أو تفاصيلها، وهو أمر سوف يستمر فى الإصدارات التى لا تزال تتوالى فى إطار المشروع، وقريبًا من هذا التطور فى الموضوعات، يجرى مسار المفكرين والباحثين والكتاب المشاركين فى المشروع، وقد بلغ عددهم العشرات من أهم الأسماء العربية، بينهم رضوان السيد، وبرهان غليون، ولؤى صافى، وخليل أحمد خليل، ومحمد وقيدى، وعبدالوهاب المسيرى، وطيب تيزينى، وميلاد حنا، وسعيد يقطين، وفيصل دراج، وأحميدة النيفر، ونوال السعداوى، وشيرين شكرى.

ويتوزع هؤلاء على مختلف التخصصات العلمية والمعرفية، وهم ينتمون إلى مشارب فكرية وسياسية مختلفة، كذلك الأمر بالنسبة إلى انتماءاتهم إلى ديانات وطوائف متعددة، وإلى بلدان مختلفة بينها بلدان عربية وأخرى إسلامية، وقد انضم إلى المشاركين رجال دين مسيحيون من غير العرب، جاء فى طليعتهم الإيطالى الأب موريس بورمانس الذى شارك أحميدة النيفر فى حوارية مستقبل الحوار الإسلامى ـ المسيحى.

إن تميز المشروع يتجاوز موضوعاته والمشاركين فيه إلى طريقة العمل فيه، وهى طريقة محدثة، إذا نظرنا إليها فى عمومية المشروع لا فى خصوصية موضوع واحد من موضوعاته، ففى آليات عمل كل حوارية، يجرى تحديد الموضوع عبر اتصالات أولية مع مجموعة من المختصين، قبل أن يتم اختيار بعضهم للمشاركة، ثم يكلفون كتابة البحث المحدد، ويجرى تبادل الأبحاث بعد إنجازها، لكتابة تعليقات متبادلة على البحث الأول، والتبسيط فى شرح طريقة العمل يتجاوز كثيرًا من العقبات والمشاكل، التى تعترض إنجاز كل واحدة من الحواريات.

قائمة الإصدارات

الإسلام والعصر: تحديات وآفاق. تأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطى ود. طيب تيزينى (١٩٩٨).

الديمقراطية بين العلمانية والإسلام. تأليف: د. عبدالرازق عيد ود. محمد عبدالجبار (١٩٩٩).

الخصخصة: آفاقها وأبعادها، تأليف: د. رياض الأبرش ود. نبيل مرزوق (١٩٩٩).

ما العولمة؟، تأليف: د. حسن حنفى، ود. صادق العظم (١٩٩٩).

ثقافة العولمة وعولمة الثقافة. تأليف: د. برهان غليون ود. سمير أمين (١٩٩٩)

تجديد الفقه الإسلامى. تأليف: د. وهبة الزحيلى ود. جمال الدين عطية (٢٠٠٠).

الاجتهاد: النص ـ الواقع ـ المصلحة. تأليف: د. أحمد الريسونى وأ. محمد جمال باروت (٢٠٠٠).

الاقتصاد الإسلامى: علم أم وهم؟. تأليف: د. غسان محمود إبراهيم ود. منذر القحف (٢٠٠٠).

الإيمان والتقدم العلمى، تأليف: د. هانى رزق ود. خالص جلبى (٢٠٠٠).

العلمانية تحت المجهر. تأليف: د. عبدالوهاب المسيرى ود. عزيز العظمة (٢٠٠٠).

المرأة والدين والأخلاق، تأليف: د. نوال السعداوى ود. هبة رءوف عزت (٢٠٠٠).

أزمة الفكر السياسى العربى، تأليف: د. رضوان السيد ود. عبدالإله بلقزيز (٢٠٠٠).

المسألة الثقافية فى العالم العربى الإسلامى، تأليف: د. رضوان السيد ود. أحمد برقاوى (٢٠٠١).

الإسلام والغرب: الحاضر والمستقبل. تأليف: زكى ميلاد وتركى الربيعو (٢٠٠١).

الربا والفائدة: دراسة اقتصادية مقارنة، تأليف: د. رفيق المصرى ود. رياض الأبرش (٢٠٠١).

إشكاليات الخطاب العربى المعاصر، تأليف: د. كمال عبداللطيف ود. نصر محمد عارف (٢٠٠١).

آفاق فلسفة عربية معاصرة، تأليف: د. أبويعرب المرزوقى ود. الطيب التيزينى (٢٠٠١).

نحن والآخر، تأليف: د. غرايغوار منصور مرشو وأ. سيد الحسينى (٢٠٠١).

آفاق الإبداع ومرجعيته فى عصر المعلوماتية، تأليف: د. حسام الخطيب ود. رمضان بسطاويسى (٢٠٠١).

مستقبل العلاقة بين المثقف والسلطة. تأليف: د. خليل أحمد خليل ود. محمد على الكبسى (٢٠٠١).

مستقبل إسرائيل، تأليف: د. السيد ولد أباه وأ. منير شفيق (٢٠٠١).

لماذا أخفقت النهضة العربية، تأليف: د. محمد وقيدى ود. احميدة النيفر (٢٠٠٢).

التحليل النفسى: ماضيه ومستقبله، تأليف: د. حسين عبدالقادر ود. محمد أحمد النابلسى (٢٠٠٢).

جذور أزمة المثقف فى الوطن العربى. تأليف: د. أحمد موصللى ود. لؤى صافى (٢٠٠٢).

المرأة والجندر. تأليف: د. أميمة أبوبكر ود. شيرين شكرى (٢٠٠٢).

الإرهاب الدولى والنظام العالمى الراهن. تأليف: د. أمل يازجى ود. محمد عزيز شكرى (٢٠٠٢).

أزمة الأقليات فى الوطن العربى. تأليف: د. حيدر إبراهيم ود. ميلاد حنا (٢٠٠٢).

حقوق الإنسان فى الوطن العربى. تأليف: د. أحمد الرشيدى ود. عدنان السيد حسين (٢٠٠٢).

النظر والعمل والمأزق الحضارى. تأليف: د. حسن حنفى ود. أبويعرب المرزوقى (٢٠٠٣).

المجتمع الأهلى ودوره فى بناء الديمقراطية، تأليف: أ. عبدالغفار شكر ود. محمد مورو (٢٠٠٣).

الحداثة وما بعد الحداثة. تأليف: د. عبدالوهاب المسيرى ود. فتحى التريكى (٢٠٠٣).

آفاق نقد عربى معاصر. تأليف: د. سعيد يقطين ود. فيصل دراج (٢٠٠٣).

المجتمع المدنى وأبعاده الفكرية، تأليف: د. الحبيب الجنحانى ود. سيف الدين إسماعيل (٢٠٠٣).

النظام السياسى فى الإسلام، تأليف: د. برهان غليون ود. محمد سليم العوا (٢٠٠٣).

نقد ثقافى أم نقد أدبى، تأليف: د. عبدالله الغذامى ود. عبدالنبى اصطيف (٢٠٠٤).

خطاب الحداثة. تأليف: د. جمال شحيد ود. وليد قصاب (٢٠٠٥).

مستقبل الحركات الإسلامية بعد ١١ أيلول، تأليف: د. رفعت السيد أحمد ود. عمر الشوبكى (٢٠٠٥).

مستقبل الحوار الإسلامى ـ المسيحى، تأليف: د. احميدة النيفر والأب موريس بورمانس (٢٠٠٥).

عوائق التحول الديمقراطى فى الوطن العربى، تأليف: د. سعيد بسعيد العلوى ود. سيد ولد أباه (٢٠٠٦).

إشكالية تجديد أصول الفقه. تأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطى ود. أبو يعرب المرزوقى (٢٠٠٦).

آفاق علم الاجتماع عربى معاصر، تأليف: د. عبدالقادر عرابى ود. أبو بكر باقادر (٢٠٠٦).

أزمة التعليم الدينى فى العالم الإسلامى، تأليف: د. خالد الصمدى ود. عبدالرحمن حللى (٢٠٠٧).

الأسطورة والسياسة. تأليف: د. فاضل الربيعى وتركى على الربيعو (٢٠٠٧).

مستقبل الإسلام، تأليف: د. عبدالمجيد الشرفى ود. مراد هوفمان (٢٠٠٧).

وإضافة إلى ما سبق، فإن سخونة وراهنية موضوعات المشروع هى بين أهم ميزاته، ففى الوقت الحاضر، هنالك عدد من القضايا التى تشغل بال العالم، ويتوقف على تطورها مصير المنطقة العربية والإسلامية ومصير العالم كله. ومن ذلك موضوع الإرهاب، والعلاقات بين الدول والشعوب والثقافات، ومستقبل إسرائيل والصراع معها، ومستقبل الحركات الإسلامية، والعولمة، وكلها موضوعات فى صلب اهتمامات الدوائر الدبلوماسية ومراكز البحث والدراسات فى العالم، وهى موضع اهتمام الحكومات والجماعات السياسية وأوساط الرأى العام، كما أن ثمة موضوعات لها أهمية خاصة على الصعيد العربى ـ الإسلامى ومنها موضوعات حقوق الإنسان، والأقليات والمجتمع المدنى والمجتمع الأهلى، والتحول الديمقراطى، والعلمانية والنظام السياسى فى الإسلام، وموضوعات أخرى يثار حولها كثير من الأسئلة فى العالمين العربى والإسلامى.

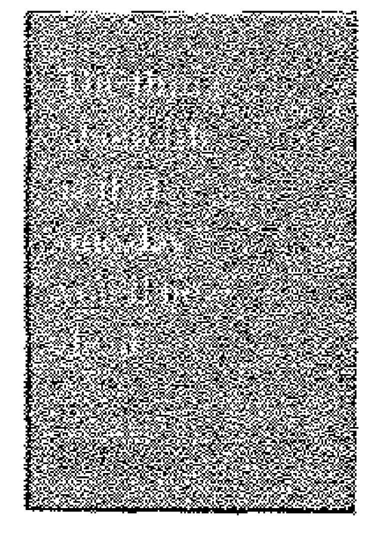
وميزة موضوعات المشروع، أنها تطرح وجهات نظر وتحليلات مختلفة بالاستناد إلى معطيات ووقائع معرفية وعملية، ثم تدخل وجهات النظر تلك فى عملية حوار، يكمل فيها المختصون وجهات نظرهم، ويجاوزها للرد على وجهات النظر المقابلة فى موضوع الحوارية، وإذا أخذنا بعين الاعتبار اختلاف تجارب المشاركين وتنوع معارفهم وخبراتهم، فإن محتوى الحوارية، يفترض أوسع تغطية معرفية وتحليلية، يعقبها سجال بين المتشاركين، الأمر الذى يفترض وصول الموضوع إلى مستوى أعلى من معالجة القضية المطروحة.

إن التفاصيل المحيطة بالمشروع الذى تتوالى حلقات إنجازاته متجاوزة الأربعين كتابًا، تكشف عن عمق فكرته وريادتها فى إطار العمل الثقافى العربى، وهى فكرة تطلبت جهودًا متواصلة فى الإعداد والمتابعة على خطوط متعددة ومتشابكة، كما احتاج المشروع إلى تمويل ضخم، سعت دار الفكر بكل طاقتها وقدراتها المادية والبشرية إلى استمرار المشروع وإنجاحه، وقد عكست هذه الإرادة والقدرة روح الرغبة فى فتح ذهن القراء ومساعدة الجمهور فى التعرف على القضايا المطروحة والتفاعل معها من بوابة المعرفة والإدراك لما يجرى حولنا من أحداث وتطورات. ■

The Thing About Life Is That One Day You'll Be Dead

جوهر الحياة هو أنك ستموت يوما

by David Shields
Knopf, . 2008, 256 pp., $14.37



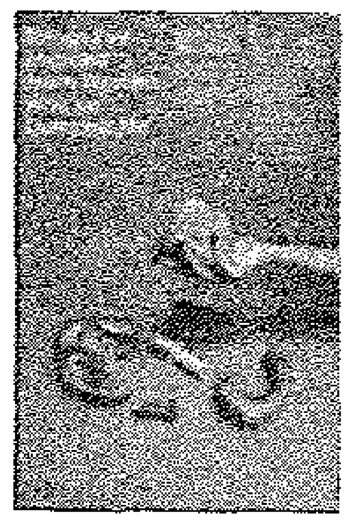
«تبلغ السبعين فيتضاعف خطر وفاتك كل ثمانية أعوام» ويحلول العقد التاسع من العمر، «لا تفوح منك أية رائحة مميزة... فأنت في سبيلك إلى الاختفاء.» «يقارب حجم مخ الإنسان البالغ من العمر ٩٠ عاماً مخ طفل في الثالثة من عمره.» وهكذا وهكذا! قد يصيب وصف ديفيد شيلدز للاضمحلال وضعف الشيخوخة القارئ الحساس تجاه سنه بالارتباك إلا أن كتاب جوهر الحياة هو أنك ستموت يوماً يتمكن من تجاوز العواطف الجياشة بمزج التاريخ الشخصي بمعلومات بيولوجية لا لبس فيها حول كل مرحلة من مراحل الحياة ليخلق بذلك «سيرة ذاتية للجسد» تسعى إلى الإحاطة بمغزى الموت وكذا الحياة. تتداخل معلومات شيلدز الصريحة - والمنذرة بالسوء في الغالب - في تجربته الشخصية كأب في الواحد والخمسين مصاب بألم متنام في الظهر. يقابل شيلدز ميوله الكئيبة بمشهد متحد لوالده ذي السابعة والتسعين، رجل خاض معركة ملحة طويلة الأمد مع أمراض الزمن. (لو حدث وصدقه القارئ، سوف يجد حياته العاطفية في سن السبعين مذهلة بحق.)

إن شيلدز يتطلع إلى قوس الحياة الإنسانية بغية التصالح مع فكرة الفناء وقد رتب كتابه في أربع مراحل: الطفولة؛ المراهقة والنضوج؛ الكهولة والعجز؛ الموت. وبه يورد فصولاً قصيرة موجزة نظمها في نوادر شخصية (تصور العديد منها زوجته وابنته المراهقة) وحقائق علمية تهم القارئ. يمتزج هذا الكتاب بملحوظات الكثير من الفلاسفة من سيسرو وسوفيكليس إلى لورين باكال وودي آلان (لا رغبة لي في تحقيق الخلود من خلال أعمالي. أريد أن أحقق الخلود من خلال «عدم الموت») سوف يجد القارئ هذا الكتاب مدهشاً: فهو عناق للحالة الإنسانية يشدد على الحياة عندما تصير إخفاقات وزلات لا مفر منها «مثيرة» و«محررة» وليست نذراً قاسية بالنهاية.

Things I've Learned From Women Who've Dumped Me

أشياء تعلمتها من النساء اللاتي هجرنني

by Ben Karlin
Grand Central Publishing, 2008, 240 pp., $14.39



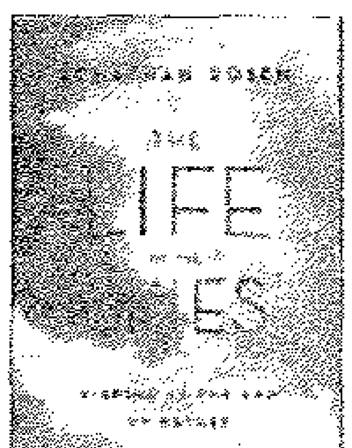
كانت مجلة نيو يورك تعلم جيداً عما تتحدث عنه حينما صرحت، «لو كنت قد ضحكت خلال العشرة أعوام الماضية، فبن كارلين هو المسئول.» كارلين محرر سابق بجريدة ذي أونيون ومنتج منفذ سابق في كل من برنامجي ذا ديلي شو ويز جون ستيوارت وذا كولبير ريبورت: شارك أيضاً في تأليف كتاب أمريكا (الكتاب): دليل المواطن إلى الكسل الديمقراطي. أما آخر مشاريعه فهو تجميع ٢١٢ صفحة تحوي دروساً نافذة مغرقة في الفكاهة عن الحياة ضمن كتاب يحمل أفضل عنوان في عام ٢٠٠٨. وقد استقى تلك الدروس من سلسلة من الكتاب والكوميديين المشهورين.

تستهل أم بن الكتاب بجملة «أظن أن ابني لقطة» لكن واصل القراءة لكي تستمتع بمساهمات قصيرة من نيك هورنباي وبروس جيي فريدمان وأندي ريكتر («الفتيات لا تتقربن من الصبية ذوي المؤخرات السمينة») وستيفين كولبير («القلب مخاطرة خانقة») وجيسون ناش («لا تدخل مسابقة كاريوكي بالقرب من كلية سميث؛ فسوف تخسرها أمام السحاقيات») ودان سافيدج («أنا رجل شاذ») وديفيد ريس («انقلب قبل أن تتورط عاطفياً»). ينقسم الكتاب إلى فصول موجزة تشتمل على حقائق وشهادات واكتشافات عن نساء هربن أو للأسف لم تتسن للرجال الفرصة لمواعدتهن أبداً. تزود بعض المقالات بالنصائح مثل خطة مريرة وضعها بوب أودينكيرك ويتحدث فيها عن السنة التاسعة، إذ يشرح لماذا تصبح السنة التاسعة سنة مثالية كي يدرك المرء أنه ينخرط في علاقة فاشلة. وعلى الجانب الآخر يؤكد كارلين أن الرجال يشتركون في شيء واحد، ألا وهو افتقارهم إلى القدرة على الفهم وتمسكهم بمعلومات مضللة عن النساء. وهكذا يزخر الكتاب برؤى عن طريقة عمل عقل الرجل الحديث. سوف يلقى القراء من الجنسين هذه المقتطفات مثيرة للاهتمام بغض النظر عن حالتهم الاجتماعية.

The Life of the Skies

حياة السماوات

by Jonathan Rosen
Farrar, Straus and Giroux, 2008, 336 pp., $14.40



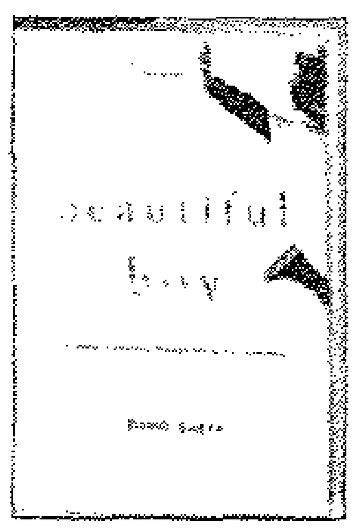
يتأمل روزين - روائي ومدير تحرير مجلة نيكستبوك - في هذا الكتاب البليغ في حقيقة أن التكنولوجيا تمكننا من الحفاظ على الحياة البرية وفي نفس الوقت تساهم في زوالها. فهو يصرح في نبرات توحي بالتفجع أنه عند اكتشافه عادة مراقبة الطيور لم يلبث أن يدرك أن الطبيعة باتت شيئاً مضمحلاً على حد قول روبرت فروست في قصيدته «الطائر الفران.» يجيل ناظريه في كل اتجاه - من مستنقعات لويزيانا إلى الصحراء الإسرائيلية - فترتطم عيناه بالمفارقات: إننا نحاول الحفاظ على الطبيعة وفي نفس الوقت ندمرها. يفضي روزين بأن السيارات والقطارات والطائرات مكنتنا من العثور على طيور أمريكا بيد أن هذه الاختراعات تسببت في تعريضها للأخطار. يقول روزين إن الطيور تجيبنا بالغناء بل تصيح في وجوهنا رداً على ما نفعله بها، وهو يعترف بأن هذا هو السر في اكتسابه عادة مراقبة الطيور. فالعديد من الطيور في سبيلها الآن إلى الانقراض إلى الأبد.

يثب فكر روزين الشامل برشاقة من قضايا الطبيعة إلى التاريخ والشعر، وثمة تأملات رقيقة موشاة بالتعليقات اللاذعة («تجميع الطيور» كلمتان تشيران في الحقيقة إلى «قتلها»). لا يعدم كتاب حياة السماوات من جمال، جمال ينبع من كونه مرثاة للحالة الإنسانية في وقت صارت فيه البرية حالة من الماضي. إنه ليس مجرد كتاب عن الطيور، فهو سبر عميق قد لا يتوقعه القارئ لحياة الطيور من خلال عدسة التاريخ والأدب والفقدان. عملية حب لعالم منقرض لا يزال مع ذلك مغرياً. وهكذا يفتن الكتاب القارئ من أول صفحة: فروزين يكتب ببصيرة وذكاء وعاطفة مذهلة، والقصة التي يرويها هنا من أفضل أنواع الملاحم الطبيعية، رحلة في العراء تنتهي بتمجيد الجمال والمغامرة الموجودين فينا جميعاً.

Beautiful Boy: A Father's Journey Through His Son's Meth Addiction

صبي جميل: رحلة أب عبر إدمان ابنه على الميثامفيتامين

by David Sheff
Houghton Mifflin, 2008, 336 pp., $14.40



يحكي شيف تجربة تترع بالألم في مقالة كتبها ذات يوم في نيو يورك تايمز. حول شيف تلك المقالة إلى كتاب يؤرخ لسقوط ابنه السريع في دائرة الإدمان وتأثير هذا الإدمان عليه وعلى أسرته. يبدأ نيك، مراهق ألمعي ذكي، في تجربة مواد تغير كيمياء المزاج والدماغ وهو في السابعة عشرة. وخلال أشهر يتحول الاستخدام إلى إساءة استخدام ثم تتحول إساءة الاستخدام إلى إدمان. وبحلول الوقت الذي علم فيه شيف بإدمان ابنه، كان نيك غارقاً حتى أذنيه في الميثامفيتامين، منشط قوي فعال. وفي حين يصارع ابنه للتخلص من الإدمان، تنخرط زوجته الثانية وطفلاه الصغيران في الدراما اليائسة. ينتقل شيف - بوصفه أباً لمدمن - من مرحلة الإنكار إلى التقبل ثم المقاومة. كان المؤلف بالفعل صحفياً ذا مكانة محترمة حين بدأت هذه القصة المؤلمة في التكشف، وقد خدمه هوسه بالتفاصيل على المستوى الشخصي والمهني: إذ يتضمن الكتاب حقائق سليمة يمكن الاعتماد عليها حول مادة الميثامفيتامين وما تنزله من فوضى بحيوات الأفراد والعائلات والمجتمعات المدينية منها والريفية.

إن رحلة شيف طويلة تفيض بالعذاب لكنه لا يعفي نفسه أو الآخرين من التدقيق المهني الصارم: فهو لم يجد من يعفيه من آلام - وأفراح - مشاهدة حبيب يكافح الإدمان ثم يتغلب عليه. وهنا يصور الكتاب تصويراً لا مداراة فيه مشاعر الخيانة والأسى وما يلح على أهل المدمن من أسئلة مخيفة. يواجه

الكثيرون الإدمان بقسم الكتمان غير أن ديفيد شيف يعري جروحاً شخصية كي يؤكد على أنه مرض ولا بد أن يعالجه المجتمع على هذا النحو. والأهم من هذا وذاك أن رحلته تزود من يجدون أنفسهم في نفس هذا الموقف بسلعة قد لا يفقدونها قط: الأمل. إن الشفاء الحقيقي يخلق - وبمقدوره أن يصير - جائزة في حد ذاته: بين يدي القارئ كتاب أمين معين يأتيه في وقت ملائم من تفشي وباء الميثامفيتامين.

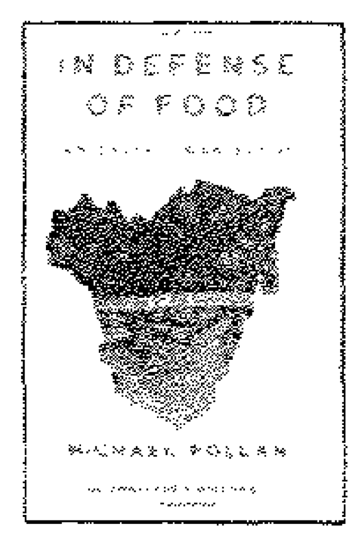
■

In Defense of Food: An Eater's Manifesto

دفاعاً عن الطعام: بيان رجل أكول

by Michael Pollan

Penguin Press HC, , 2008,
256 pp., $13.17



يتعقب بولان في بحثه المقنع معضلة أكل اللحوم والنباتات خطاً مباشراً بين تصنيع مخزون الطعام وتفسخ البيئة. أما كتابه الجديد فيستكمل ما انتهى عنده الكتاب السابق. يحلل كتاب دفاعاً عن الطعام السؤال التالي: ما هو المفيد أكله صحياً؟ الطعام هو الشيء الوحيد الذي يكره الأمريكيون أن يحبوه وقد اتضح أنه الشيء الوحيد الذي يحبون كراهيته. لقد حل ما يجب تناوله محل ما نود تناوله، وعند هذه النقطة من الجوع والتردد يتوقف بولان ليطرح سؤالاً لا يستهان به: أين الطعام في طعامنا؟ وعليه يرد بولان بإجابات واضحة كل الوضوح ليعاوننا نحن أكلة اللحوم والنباتات على اجتياز ألغام التغذية، ألغام أصبحت تجسد ثقافتنا عن الطعام. إن هذا الكتاب بيان قوي الحجة دقيق البحث أنيق اللغة يختصر المسافات ليصل إلى مبدأ عام بسيط بساطة مضللة: «تناول الطعام بلا إفراط لكن أكثر من النباتات».

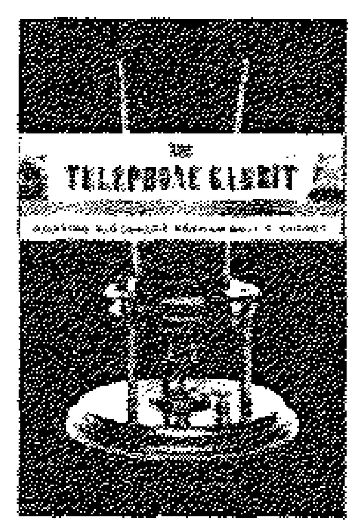
إلا أن بولان يقول شارحاً إن «الطعام» في دولة تحركها ماكينة تسويق تقدر باثنين وثلاثين مليار دولار كلمة محملة بالأرباح يتعامل معها الناس تعاملهم مع الكأس المقدس! يتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء، يدحض القسم الأول منه سلطة متنمري الحمية الغذائية ليشير إلى التقاء المصالح بين صناع الطعام المعالَج ووكالات الإعلان وعلماء التغذية - عصبة سرية أفضت نصائحها الغذائية إلى انشغال غير صحي بالمرة بالتغذية والحمية والأكل الصحي. يحلل القسم الثاني الحمية الغربية ليشكك في - ضمن العديد من المقدسات الأخرى - أن الدهون تفضي إلى الأمراض المزمنة. يتمتع بولان ككاتب بحدة ذهن رائعة. وهو لا يخطب في العامة: الحق أنه نادراً ما يخطب مفضلاً أن يترك الحقائق تتحدث عن نفسها.

■

The Telephone Gambit: Chasing Alexander Graham Bell's Secret

مناورة الهاتف: مطاردة سر ألكسندر جرام بيل

by Seth Shulman
Norton, 2008, pp256 .W .W
$16,47



هل ينال صاحب الحق دائماً الفضل في اختراع عظيم؟ مَن هو المسئول عن اختراع المصباح الكهربائي؟ توماس اديسون أم الإنجليزي جوزيف سوان؟ هل ابتكر آل جور أم عبقري آخر الإنترنت؟ هل استولى ألكسندر جرام بيل من إلايشا جراي على فكرة أساسية تكمن وراء اختراع الهاتف؟ لقد ألهبت مثل تلك الأسئلة الجدل بين مؤرخي التكنولوجيا والمدافعين عن العبقري المهمَل.

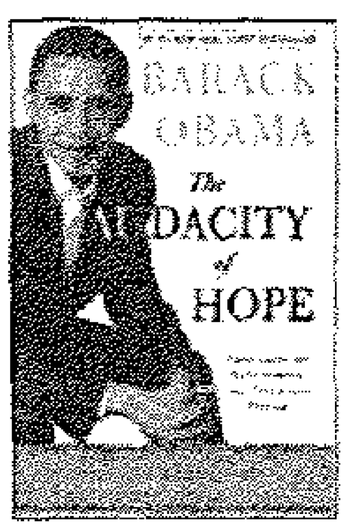
يتفحص شولمان عن كثب السباق لابتكار أول هاتف ليكشف النقاب عن مفاجآت محتملة في كتابه مناورة الهاتف. فعلى الرغم من أن التاريخ العلمي قد اعترف بألكسندر جرام بيل باعتباره مخترع الهاتف (مع أن منافسه المخترع إلايشا جراي طالب باللقب ذاته في نفس اليوم الذي قدم فيه بيل طلباً للحصول على براءة الاختراع)، يزود شولمان القارئ بدليل محير يشكك في أن كفة الميزان قد مالت عن عمد لصالح ألجزاندر. لم يتعمد صحفي العلوم شولمان معالجة مناظرة بيل-جراي إلا أنه وقع على اكتشاف جعل التحدي لا يقاوم. فبينما كان يقرأ مفكرة كتبها بيل في عامي ١٨٧٥-٧٦، مفكرة أتاحتها مكتبة الكونجرس على الإنترنت في صورة رقمية، لاحظ شولمان قفزة إلهام غريبة بعد ثغرة تتكون من ١٢ يوماً في المداخل، ثغرة تزامنت مع رحلة فجائية إلى واشنطون العاصمة. فهل تورط المخترع المبجل في سرقة بحث جراي؟ أم أن هذه الاتهامات مجرد مشاعر ضغينة خلفتها معركة قضائية محمومة؟ معركة مشحونة بالجدل والمؤامرة والحيل جعلت شولمان يحيك دراما خليقة برواية شفرة دافنشي عن واحد من أبرز اختراعات العصر الحديث.

■

The Audacity of Hope: Thoughts on Reclaiming the American Dream

جرأة الأمل: أفكار حول استعادة الحلم الأمريكي

by Barack Obama
Three Rivers Press, 2007,
384 pp., $8.22



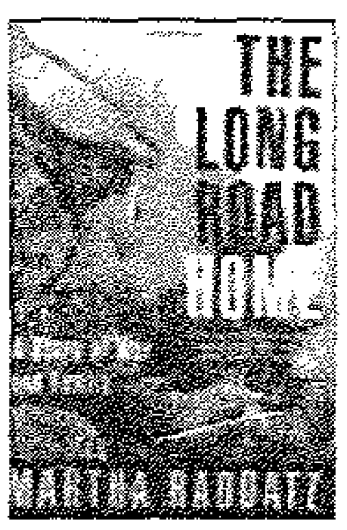
يلقي سيناتور إلينوي الديمقراطي الضوء على معضلات السياسة السائدة بمنتهى البراعة في هذا البيان جهوري النبرة. ينتقد أوباما (مؤلف كتاب أحلام من أبي) بقسوة الحركة الحزبية المنشقة (وبخاصة في الجانب الجمهوري) ليدعو إلى سياسة مركزية تعتمد على القيم الأمريكية العريضة. ينتهج منهجاً ليبرالياً لا ينقصه الحرص وهو في ذلك نموذج له: إذ تخالجه الشكوك في الحكومة الكبيرة وخفض الجمهوريين للضرائب لصلحة الأغنياء وخصخصة الضمان الاجتماعي؛ يقف موقف المؤيد لناصري حق المرأة في الإجهاض لكنه يكن احتراماً لمؤيدي الاحتفاظ بالجنين؛ يدعم الدين لكنه لا يؤيد فرضه على الآخرين وهكذا تقترب سياسته من سياسة هيلاري كلينتون عدا كونها فاترة. ومن خلال الكتاب يتعرف القارئ على سياسته التي ترتكز على اعتماد رصيد للضرائب موجه للفقراء ومجموعة من البرامج المحدودة التي تتعاطى مع كل شيء بدءاً من إعادة تدريب العمالة إلى حمل المراهقات وبرنامج للرعاية الصحية لا يختلف عن اقتراحات هيلاري كلينتون. أما فيما يخص العراق، فهو يؤيد انسحابا مستقبليا يتم على مراحل. قد تبدو مواقفه متناقضة أحياناً: إذ يدعم التجارة الحرة وفي نفس الوقت يستنكر آثارها على العمال الأمريكيين. يأمل باراك في نهاية الكتاب في توجيه المزيد من الدعم للتعليم والعلم وتجديد الطاقة ليخرج الاقتصاد من عثرة العولمة. إن أوباما يكتب ببصيرة نافذة مصحوبة بملاحظات مباشرة عن السياسة والتنازلات المفروضة على السياسيين من قبل جامعي الاعتمادات المالية ووسائل الإعلام.

■

The Long Road Home: A Story of War and Family

الطريق الطويل حتى البيت: قصة عن الحرب والعائلة

by Martha Raddatz
Putnam Adult, 2007, 320 pp.,
$16.47



استفحلت المقاومة العنيفة في ٤ إبريل ٢٠٠٤ بعد غزو العراق حين واجه الجنود الأمريكيون هجوماً واسعاً في مدينة الصدر أودى بأرواح ثمانية جنود وجرح أكثر من سبعين جندياً. راداتز مراسلة مشهورة بمحطة إيه بي سي نيوز فازت من قبل بجائزة إيمي. من الواضح أنها تهدف بسردها لمجريات المعركة إلى مضاهاة رواية مارك باودين في كتابه سقوط الصقر الأسود وقد نجحت في إبراز الفرق بكفاءة. تقدم بالكتاب بضع مقابلات موسعة مع ضباط من ذوي الرتب العالية بسلاح الفرسان الأول وعدة جنود يتمركزون في الشوارع ليسردوا رواية جلية لإحدى الحوادث. أعدت القوات الأمريكية العدة لمهمة «في منتهى السهولة» غير أنها وجدت نفسها في حمام من الدماء على حين ارتطمت جهود إنقاذ الجنود بمقاومة أشد من ميليشيا المهدي التي لم تتردد في استخدام الأطفال الصغار كمهاجمين في الخطوط الأولى. عجت المعركة باللحظات البطولية كتطوع كيسي شيهان لحل محل رجل آخر بفريق الإنقاذ مما نتج عنه وفاته. لمست راداتز رد فعل أمه سيندي شيهان، ناشطة مناهضة للحرب، لكنها ليست إلا واحدة من عائلات عديدة تقبع في الجبهة الداخلية من الحرب. إن سرد راداتز المثير يتحاشى السياسة مركزاً كل التركيز على الجنود وتضحياتهم في معركة لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

■

روايات عربية باللغة الإنجليزية



Wolves of the Crescent Moon

ذئاب الهلال

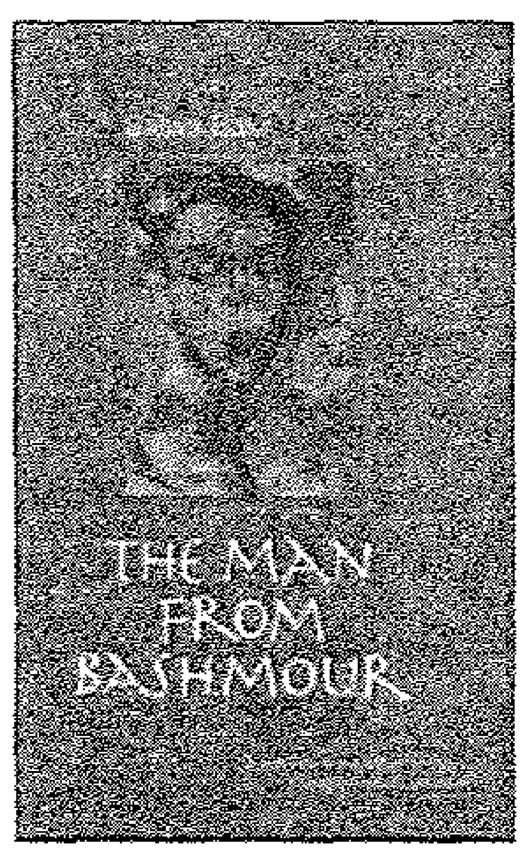
by Yousef Al-Mohaimeed (Author), Anthony Calderbank (Translator)

يوسف المحيميد

ترجمة: أنثوني كالدربانك

Penguin, , 2007, 192 pp., $11.90

ذئاب الهلال رواية استفزازية سريعة الإيقاع منعت الدولة السعودية تداولها داخل أراضيها. تؤكد رواية يوسف المحيميد الأولى على ما نقلته جريدة ذا واشنطون بوست عن مؤلفها المكلل بالجوائز: «إن يوسف المحيميد يناقش واحدة من أكثر القضايا المثيرة للجدل في العالم العربي... بأسلوب غني قد يستثير جابرييل جارسيا ماركيز». يعثر رجل داخل محطة حافلة في مدينة الرياض على ملف يحوي تقارير رسمية حول طفل هجرته أسرته. وبينما يجمع أجزاء حياة الطفل الممزقة، تبزغ صورة أكبر تشتمل على ثلاثة دخلاء - بدوي ويتيم وخصي - يربطهم القدر معاً وهم يحاولون الأخذ بأسباب الحياة داخل مدينة مفترسة. تتكشف الرواية تكشفاً حاداً كثيفاً كحلم مثل الحمى وذلك في غضون ليلة واحدة فتطالع ذئاب الهلال القارئ بقوة لا تعدم الدهشة وتبعات أخلاقية هائلة عن مجتمع تقليدي أيما تقليدية يواجه عالما حديثا.



The Man from Bashmour

البشموري

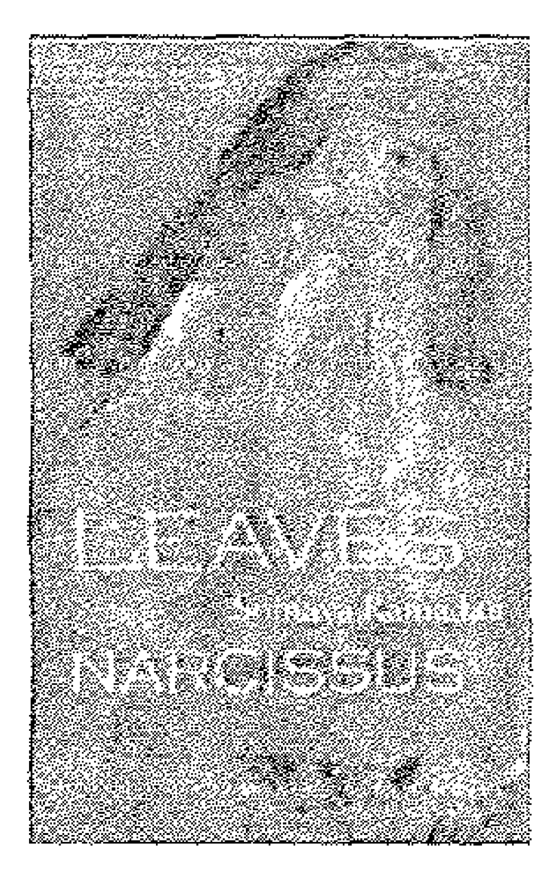
by Salwa Bakr (Author), Nancy Roberts (Translator)

سلوى بكر

ترجمة: نانسي روبرتس

American University in Cairo Press, 2007, 296 pp., $17.90

مصر خلال القرن التاسع بعد الميلاد: طبقة حاكمة عربية مسلمة تحكم بلداً مؤلفاً من مسيحيين يتحدث أغلبهم اللغة القبطية. فرض ولاة الخليفة ضريبة باهظة على الأرض فاشتعلت ثورة بين الفلاحين. تم إرسال بدير - قيم كنيسة السيدة العذراء في قصر الشمع بمصر العتيقة - إلى الأراضي الموحلة في دلتا النيل بوصفه مرافقاً لمبعوث عينته الكنيسة. مبعوث مهمته إقناع المتمردين بوضع أسلحتهم جانباً. لكنه لا يلبث أن يقع في شرك دوامة أحداث وهموم تبدل مسيرة حياته بلا سبيل إلى تغييرها، إذ تضعه على سبيل لم يكن ليتوقعه أبداً. إن ما يحل به من أحداث وما يخطر بباله من بصائر يفضي إلى تحول شخصي تدريجي إنما عنيد تتفتح فيه عيناه على الخطوط الرئيسية - العملية والروحية والوجودية - الرابطة بين المسلمين والأقباط، ليبزغ عندئذ مبعوث من نوع جديد. لقد رحب النقاد برواية البشموري باعتبارها معالجة غير مسبوقة لجوانب مهملة من تاريخ العصور الوسطى. إنها سبر للشخصية المصرية في الماضي والحاضر، إذ تقدم للقارئ لمحات من الفكر المصري فيما يتعلق بكل جوانب الحياة: بدءاً من الحب والفلسفة والدين وصولاً إلى الحياة والموت.



Leaves of Narcissus

أوراق النرجس

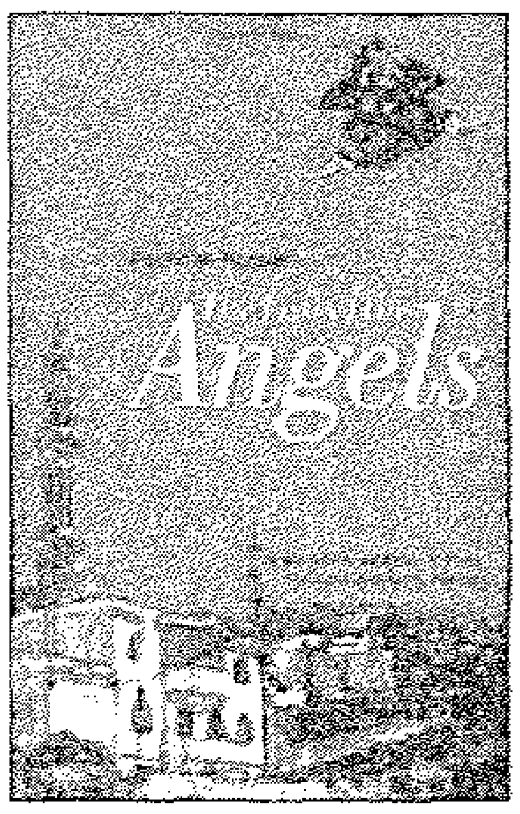
by Somaya Ramadan (Author), Marilyn Booth (Translator)

سمية رمضان

ترجمة: مارلين بوث

American University in Cairo Press, 2007, 112 pp., $14.95

تتمحور رواية أوراق النرجس حول الوطن والتشرد، حول الاغتراب الجسدي والنفسي. تدور حول كيمي، بطلة رقيقة المشاعر تعاني صدعاً في شخصيتها لعجزها عن التفريق بين ألمها وألم الآخرين. وبالنسبة لكيمي، لا تقتصر المسألة ببساطة على جدلية «أكون أو لا أكون»، بل «كيفية الحياة في ظروف مفككة مليئة بالتناقضات». إن أوراق النرجس - شأن الروايات العربية الأولى التي ناقشت التقاء الشرق بالغرب بأقلام كُتاب ذكور مثل توفيق الحكيم وطه حسين والطيب صالح - تحكي حكاية طالبة شابة عربية تقصد الغرب بحثاً عن التعليم. بيد أن الشخصية المحورية هنا أنثى شابة ووجهتها أيرلندا، جزء من الغرب وفي نفس الوقت ضحية لخراب الاستعمار مما يضفي غموضاً على التصوير المعتاد لثنائية الشرق والغرب. إن سمية رمضان تصور في هذه الرواية الساحرة براعة فنية نادرة في استحضار الأفكار الأدبية ومشابكتها - من العامة إلى المتعلمين، من الشعبي إلى الأسطوري، من المصري إلى الأيرلندي - وتطرح الأسئلة بدلاً من الأجوبة، أسئلة تجعلنا نتطلع إلى أنفسنا في المرآة.



The Last Of The Angels

آخر الملائكة

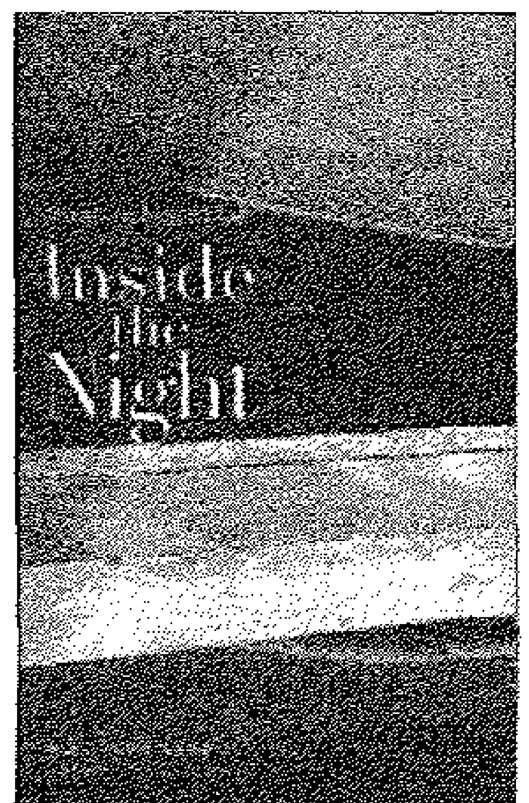
by Fadhil al-Azzawi (Author), William M. Hutchins (Translator)

فاضل العزاوي

ترجمة: وليام هاتشينز

American University in Cairo Press, 2007, 320 pp., $17.90

تجري أحداث رواية آخر الملائكة في مدينة كركوك بشمال العراق خلال العقد السادس من القرن العشرين. يروي فاضل العزاوي حكاية تبعث على ضحكات يختلسها القارئ اختلاساً، حكاية ثلاثة أشخاص مختلفين كل الاختلاف يقطنون في حي واحد صغير. يتحول حميد نايلون خلال إضراب عمالي بشركة النفط العراقية التي يهيمن عليها البريطانيون إلى مسئول نقابي ثم ثوري مثله مثل بطله ماو تسي تونغ. يسافر أخو زوجته خضر موسى - راعي غنم - إلى الاتحاد السوفيتي للعثور على إخوة له لم يرهم منذ زمن ثم يعود أدراجه إلى بلده في منطاد ليستقبله الناس بمنتهى الحفاوة. وفي تلك الأثناء يكتشف صبي شاب يدعى برهان عبد الله صندوقاً قديماً يقبع في علية منزل أسرته، صندوق يسمح له بالتحدث مع الملائكة. وهنا يجد القارئ الرواية - بالتتابع - حافلة بالسخرية، مصورة لحياة المتشردين، حاملة لطبيعة أشبه بالرؤيا، وهكذا تستدعي جو كركوك الزاخر بالألوان، بمزيج من التركمان والأكراد والعرب واليهود والمسيحيين الأشوريين. إن العزاوي يرسم للمدينة لوحة بانورامية محبة لا يعوزها الحزن خلال السنوات الأخيرة من الحكم الملكي في العراق، كما يسرد روايته بدعابة متهكمة تليق بمارك توين وفروق طفيفة إنما ساحرة تشبه في أسلوبها كتابات جارسيا ماركيز. وعندما يلحق الواقع المظلم لتاريخ العراق الحديث بأحداث الرواية، نقف على عمق حميد نايلون وخضر موسى وبرهان عبد الله وتعقيداتهم لتصير رواية العزاوي الكوميدية حكاية مؤثرة تجسد عملية نضج البشر في عالم تحف به الأخطار.



Inside the Night

داخل الليل

by Ibrahim Nasrallah (Author), Bakr R. Abbas (Translator)

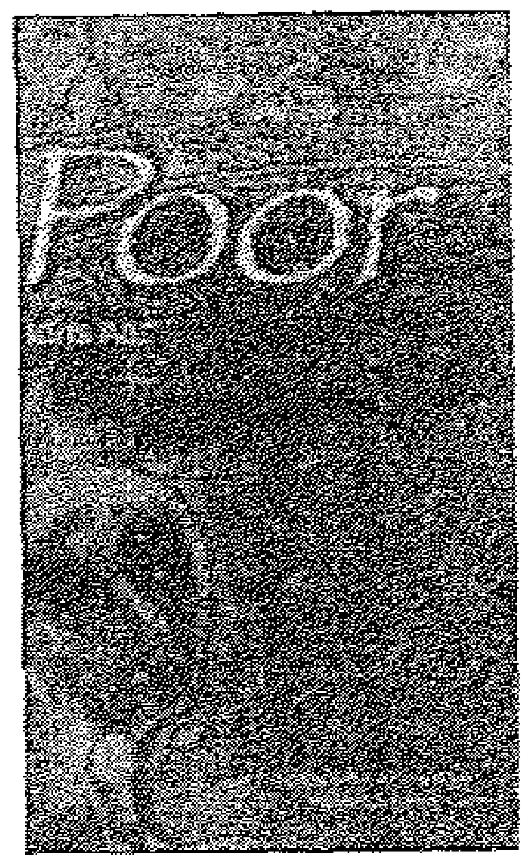
إبراهيم نصر الله

ترجمة: بكر آر. عباس

American University in Cairo Press, 2007, 176 pp., $14.78

«لم أستطع أن أصدق أن البشر بإمكانهم النسيان بمثل هذه السهولة»... لا تفتقد رواية داخل الليل رؤى عن الحب والحياة، الجنس والموت، الطفولة والقمع. تتواصل معاً لحظات مشرقة لذكريات يائسة إنما مترابطة لتشكل جسد هذه الرواية، جسداً ممزقاً لكنه بمبعد عن الكسر. تبدأ الرواية بمشهد ينم عن الرحيل، راويان يطوفان بلا اسمين ذهاباً وإياباً عبر الزمن. ينعطفان من شقاوة الطفولة إلى

مذبحة بمعسكر اعتقال فلسطيني: من الحب الأول الملتهب إلى هجرة ضرورية من أجل العمل في دولة عربية بترولية: من أوهام المراهقة المفعمة بالحيوية إلى حقيقة الحياة الكئيبة في إحدى الدول العربية. يشارك الراويان اختياراتهما ومآسيهما ولحظاتهما النادرة بل الممتعة مع أم وأب وعجوز يهودية متزوجة بفلسطيني وطفل هجرته عائلته ليعيش وحده في كوخ، طفل تنشر براءته جواً مغلفاً بالرعب. ومع تلك الغابة من الحكاوي المتداخلة، تنحت رواية إبراهيم نصر الله تاريخ شعب عبر نصف قرن في شظايا شعرية اللغة متعددة الحواس غنية العواطف. إن ما يخامر رواية داخل الليل من حرية تكبح نفسها بنفسها لتطور منعش في جسد الأدب الفلسطيني والإنساني.



Poor

تحت خط الفقر

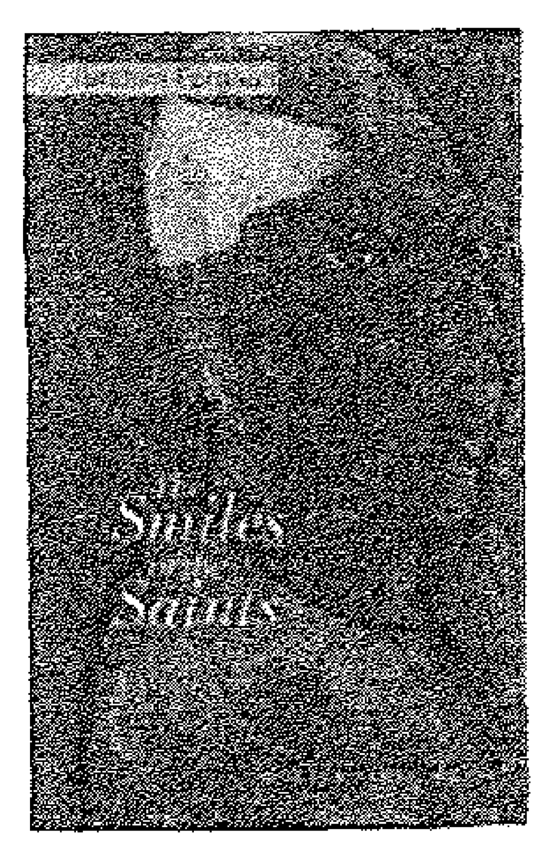
by Idris Ali (Author), Elliot Colla (Translator)

إدريس علي

ترجمة: إليوت كولا

American University in Cairo Press, 2007, 160 pp., $14.78

تطالعك رواية إدريس علي الاعترافية بكلمات تحث البطل على أن يتحلى بالقوة، ألا يتردد: سوف يواجه مخرجاً لا سبيل إلى العودة منه، فهذا هو يومه الأخير.
يتحدث الراوي النوبي بتلك الكلمات في أحد آصال أغسطس بوسط القاهرة. لقد قرر للتو أن ينهي حياته إلى الأبد. وفي حالة من الهذيان والعطش، يهيم على وجهه وهو يصب جام غضبه على كل شيء أياً كان: على إحباطه الجنسي وشعوره بالعجز في مواجهة ظلم لا ينقطع. يسعى إلى القضاء على حياته الفاشلة في النيل: نهر ظل شريان الحياة لبلده منذ ألف سنة، نهر يُغرق الآن - مع تشييد السد العالي - أرض النوبة ليدفع بأبنائها المطرودين إلى الغربة شمالاً وجنوباً. كان الراوي واحداً من هؤلاء الأبناء منذ سنوات عديدة مضت. هرب من الفيضان والمجاعة ليبلغ القاهرة عارياً من مليم واحد أو حذاء، في وقت رآها فيه مشتعلة بالنيران بعد أن أطاح «رجال الدبابات» بالنظام القديم. إن تحت خط الفقر قصة حياة تترع بإملاق طاحن وحرمان جسدي وجوع عاطفي. هي أيضاً قصة عن فرص مهدرة وآمال قايضها الأبطال بلا شيء - حياة تعاش في فقر ما بعده فقر.



The Smiles of the Saints

ابتسامات القديسين

by Ibrahim Farghali (Author), Andy Smart (Translator), Nadia Fouda-Smart (Translator)

إبراهيم فرغلي

ترجمة: آندي سمارت ونادية فؤاد-سمارت

American University in Cairo Press, 2007, 112 pp., $14.00

«عدت لتصفية حسابي...»

تحكي أصوات مجموعة من الأصدقاء المقربين رواية ابتسامات القديسين لتمتد معهم جيلاً من الزمان. قصة ملحمية كثفها المؤلف لتصير رواية قصيرة زاخرة بالتعقيدات. قدمت حنين ذات العشرين عاماً إلى مصر للتو بعد غياب خمسة عشر عاماً قضت أغلبها في مدرسة داخلية بباريس لتنقطع بذلك كل صلاتها بعائلتها عدا زيارات متفرقة من والدها، رامي. استدعتها توأم أبيها لتعطيها ظرفاً يحوي مذكراته، مذكرات تخلو من جزئها الأخير. تقرأ حنين رواية رامي عن علاقات غرامية مشبوبة العاطفة ومغامرات روحية لا تخلو من عذاب في فترة الشباب لتبدأ حنين في فك لغز عائلة بالكاد تعهدها.

حنين نتاج زواج مسلم بمسيحية، وهي نفسها مغرمة برجل يهودي، وعليه تفكر في إضافة بعد ديني آخر إلى أسرتها. إلا أن أحدهم يرصد الأحداث عن كثب، شخصية من الماضي كانت في يوم من الأيام مرتبطة ارتباطاً شديداً بعائلة حنين. من هذه الشخصية بالضبط؟ وكيف تؤثر عليها عودة حنين؟ يسرد إبراهيم فرغلي روايته في جو عام من الغموض لتفيض بذلك بملحوظات رنانة عن تعقيدات العلاقات البشرية المتشابكة.



Black Magic

سحر أسود

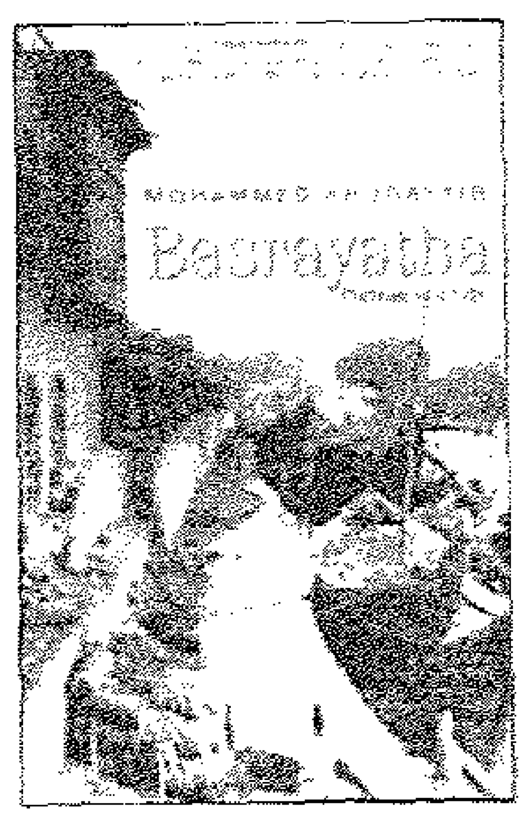
by Hamdy el-Gazzar (Author), Humphrey Davies (Translator)

حمدي الجزار

ترجمة: همفري ديفيز

American University in Cairo Press, 2007, 160 pp., $12.89

تولت النشوة ناصر في سن الرابعة عشرة عندما أهداه أبوه كاميرا تصوير ليجد فيها الوسيلة لأسر الجمال وفي نفس الوقت إثبات ذاته. كان يعمل بمبنى الإذاعة والتليفزيون حين قابل فاتن، امرأة مستقلة أكبر منه سناً: فرت في الماضي من زيجة خانقة، وهي الآن واثقة من الحصول على ما ترغب فيه من الحياة. تبدأ بينهما علاقة غرامية لا تلبث أن تجذب ناصر إلى زوبعة متوهجة من الهوس الشهواني العاطفي. وفي عالم يطفح بسطحية ومادية وعنف وهستيريا جنسية تلتقطها عدسة كاميرا لا تعرف الصفح، تصير حياة ناصر سجناً. يدفعه الحنين إلى الهرب والخوف من الوحدة إلى علاقة توقعه في شركها وإن تخلفه بلا التزام. يكمن حل هذا المزيج المتقلب في مواجهة عنيفة بين النفور والرغبة. فازت رواية سحر أسود بجائزة مؤسسة ساويرس في الأدب المصري عام ٢٠٠٦.



Basrayatha: Portrait of a City

بصرياثا: صورة مدينة

by Mohammed Khudayyir (Author), William M. Hutchins (Translator)

محمد خضير

ترجمة: ويليام هاتشينز

American University in Cairo Press, 2007, 160 pp., $14.21

تحتفي رواية محمد خضير بصرياثا بمسقط رأسه، البصرة، الكائنة على نهر شط العرب جنوب العراق. وبالضبط كما يختلف قاطنو المدينة عن الدخلاء من معرفتهم بشوارعها وقصصها، كذلك يفرق خضير بين مدينة البصرة الحقيقية وبصرياثا، مدينة متخيلة خلقها عبر القصص والتجارب والفلكلور والتبصر، لتغدو الرواية بذلك مذكرات ورواية مصورة عن رحلة وخطاب غرامي وتأمل. تستدعي بصرياثا صوراً لمدينة تبددت منذ زمن. إذ يسرد خضير في تفاصيل تنطق بالحب اكتشافه لمدينته وهو طفل صغير: يصف مآدب أقامها العامة في الماضي، الحمامات العامة، متع عطلة المسلمين، أسواق السلع الرخيصة بالمدينة ومرتاديها، أفلام هوليوود المعروضة في السينما المحلية، الحياة اليومية خلال الحرب الإيرانية العراقية، قنوات البصرة وأنهارها. وفوق كل شيء يلقي الكتاب الضوء على دور الراوي في خلق المدن التي نسكن فيها - كما فعل خضير نفسه مع بصرياثا. تستحضر بصرياثا الحداثة الأدبية لمؤلفين من أمثال كالفينو وبورخيس وتتلون بالشوق إلى مدينة اختفت الآن من الخريطة. إنها تكريم لا تنقصه البراعة لقوة الذاكرة والخيال.



Morning and Evening Talk

حديث الصباح والمساء

by Naguib Mahfouz (Author), Christina Phillips (Translator)

نجيب محفوظ

كريستينا فيليبس

American University in Cairo Press, 2007, 192 pp., $13.57

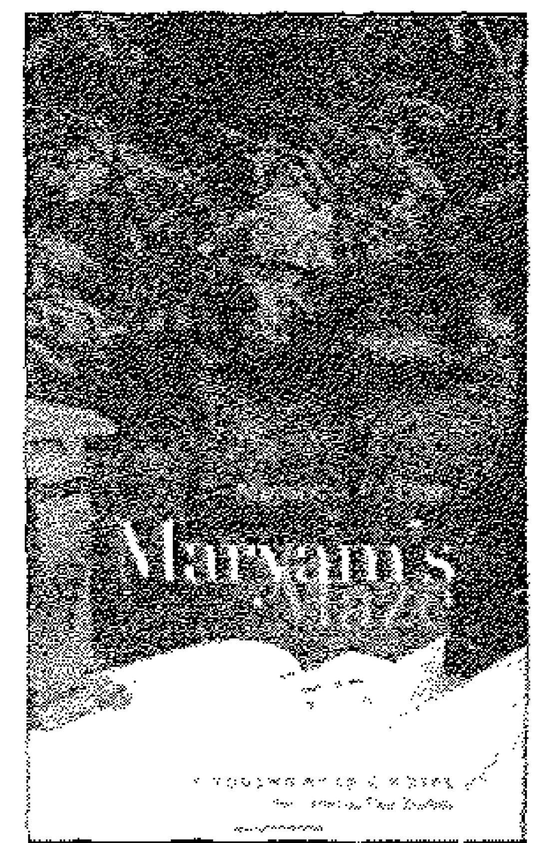
إن رواية حديث الصباح والمساء حكاية ملحمية عن الحياة المصرية تمتد عبر خمسة أجيال. تقع رواية أديب نوبل نجيب محفوظ في القاهرة متتبعة أقدار ثلاث عائلات منذ قدوم نابليون في نهاية القرن الثامن عشر إلى العقد التاسع من القرن

العشرين. يلجأ محفوظ إلى اسكتشات موجزة تصور الشخصيات بترتيب أبجدي. وعليه تنتج هذه الأداة الأدبية التجريبية نوعاً من القاموس السيري، قاموس يتداخل فيه الأفراد لرسم لوحة جلية للحياة في القاهرة من وجهات نظر متباينة.

تتضمن الشخصيات ممثلين عن كل الطبقات الاجتماعية وكل ضروب البشر، وبينما تتكشف القصة الطويلة المعقدة، تبزغ صورة جلية لمجتمع في حالة تحول وما يليه من ثوران. إنها قصة عن التغيير والاستمرارية، عن موت أسلوب حياة تقليدي، عن الطريق إلى الاستقلال وما بعده، قصة تراها أعين المواطنين المصريين.

يعتبر النقاد تأريخ نجيب محفوظ الأخير للقاهرة مرثاة لعصر ماض وتكريم للروح المصرية. هو أيضاً واحد من أكثر الإسهامات التي حملت تجديداً على مستوى التكنيك إلى الرواية العربية.

Maryam's Maze



متاهة مريم

by Mansoura Ez-Eldin (Author), Paul Starkey (Translator)

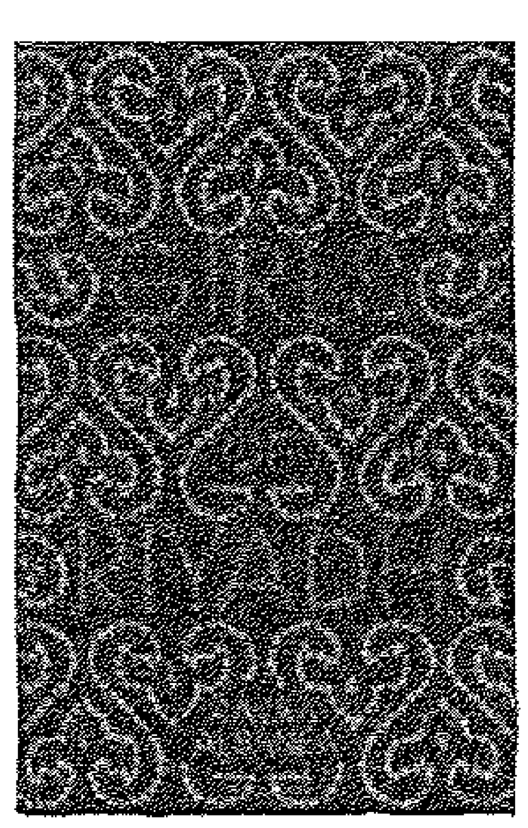
منصورة عز الدين

ترجمة: بول ستاركي

American University in Cairo Press, 2007, 144 pp., $14.00

شابة تدعى مريم: تستيقظ من حلم مزعج يحيق به العنف لتلفى نفسها في فراش بشقة غريبة في القاهرة بدلاً من حجرتها بمبنى الطلبة حيث أدركها النوم. ومع هذا المشهد الغاص بالغموض، تستهل منصورة عز الدين حبكة مخيفة عن امرأة تنقطع بها الأسباب عن عالمها فتكافح لإعادة تشييد تلك الروابط الواهية. تجد نفسها بمفردها في المدينة، لا تعثر على وسيلة للاتصال بزميلتها في الغرفة أو بصديقها، صحفي يبدو وكأنه لم يخلف أثراً يدل على وجوده. فهاتفه خارج نطاق الخدمة ورئيسه في العمل لا يعلم عنه شيئاً، بل إن اسمه قد تلاشى من جرائد قديمة احتفظت بها في السابق. ومن القاهرة يستحضر السرد جانباً من أحداث ماضية جرت بفيلا عائلة مريم الغنية في الريف حيث كمن الأسى والجنون بين شقوق طفولتها. إن محاولات مريم اليائسة لاستعادة عالم مألوف سكنته ذات يوم يكشف النقاب عن حكاية مخيفة خليقة بحكايات إدجار آلان بو أو بولانيك. ومع تلك القصة الرمزية ذات النهاية المذهلة، سوف يجد القارئ متاهة مريم رواية خيالية بقلم واحدة من أكثر كاتبات الجيل الحالي المصريين موهبة.

Girls of Riyadh



فتيات الرياض

by Rajaa Alsanea

رجاء الصانع

ترجمة: رجاء الصانع ومارلين بوث

Penguin Press HC, 2007, 304 pp., $16.47

تنتمي أربع صديقات مقربات إلى عائلات سعودية من الطبقة الموسرة. يلتحقن بالجامعة وكلية الطب في الرياض وشيكاغو وسان فرانسسكو. تتحدث الصديقات مع أصدقائهن في غرف الدردشة وهواتفهن المحمولة. لكن حتى مع كل هذه التكنولوجيا الحديثة، لا يسعهن الهروب من التقاليد القاهرة الراسخة بعد عودتهن إلى الرياض. يتخلى خطيب سديم عنها بعد أن يمارس معها الجنس. قمرة يطلقها زوجها بعد اكتشافها أنه على علاقة غرامية بأخرى. يعبد ميشيل وفيصل كل منهما الآخر لكنه يهجرها بناء على أوامر أسرته. تلقي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القبض على حبيبين في قهوة غير أن أغلب العائلات ليست في حاجة إلى معاونة رسمية للتدخل في حيوات نسائها. نُشرت عام ٢٠٠٥ إلا أن السعودية منعت هذه الرواية الأولى لكاتبتها رجاء الصانع فور صدورها بسبب محتواها الملتهب المثير للجدل بينما انتشرت نسخها في السوق السوداء انتشاراً واسعاً.

تدرس رجاء الصانع البالغة من العمر ٢٥ عاماً في شيكاغو لكنها تخطط للعودة إلى السعودية. ومن داخل المجتمع السعودي تسرد روايتها، حبكة تكتمل بتناقضات وحالات خيانة تضع تعريفاً للحياة اليومية. إن تلك الدراما الشبيهة بالمسلسل الأمريكي «الجنس والمدينة» سريعة الإيقاع ساخرة النبرة مؤلمة للإحساس. صوت جريء جديد ينسج حكاية ساحرة لفتيات يحاولن اجتياز القنوات الضيقة بين الحب والرغبة وتحقيق الذات والتقاليد الإسلامية. وهكذا تعري الصانع المحن الاجتماعية والرومانسية والجنسية للمرأة داخل المجتمع السعودي. لا تنفك الجدة الجريئة لرواية بنات الرياض تخلق عاصفة في كل أنحاء العالم العربي لتنتشر الإثارة إلى ما وراء الشرق الأوسط.

Chaos of the Senses



فوضى الحواس

by Ahlam Mosteghanemi (Author), Humphrey Davies (Translator)

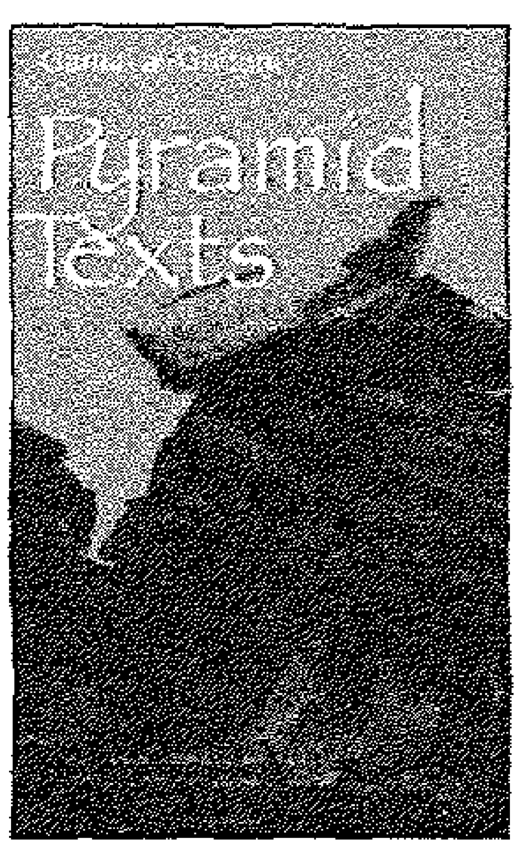
أحلام مستغانمي

ترجمة: همفري ديفيز

American University in Cairo Press, 2007, 240 pp., $15.56

تستكمل رواية أحلام مستغانمي في روايتها الثانية ما انتهت عنده الرواية الأولى ذاكرة الجسد. تحكي رواية فوضى الحواس قصة حب تقع في الجزائر المسحوقة الجريحة بالعقد العاشر من القرن العشرين. تصحب مستغانمي القارئ عبر شوارع الشك والتشويق، عبر أفراح علاقة غرامية محرمة وأتراحها، عبر قصة تتداخل في قصة أخرى. تتورط كاتبة في زواج عاطل من الحب برجل مهم، وبلا قصد من جانبها تكتب ما سيقع بالفعل في النهاية. تبدأ الكتابة بعد فترة طويلة من التوقف: تخط قصة رجل يلفه الغموض يغازل مبتغاه بكلمات لا تخلو من تضليل. تتتبع الكاتبة في يأس طريق شخصيتها الخيالية فتجد أن الرجل الغامض موجود بالفعل وهو من قادها إلى بابه وإلى حياته. يفضي تطور مفاجئ إلى آخر مباغت فيما يظل السؤال: مَن الذي كتب القدر على الكاتبة أن تلقاه وتقع في غرامه؟ الفنان الغامض أم الصحفي المشنوم. إن هذه المغامرة الشعرية تغيظ القارئ بحقائق أشبه بالخيالات وخيالات أشبه بالحقائق. وتخلق خلفية من الفوضى السياسية شعوراً ينذر بالشر والخوف لحبيبين لا حول لهما ولا قوة. لكن أين الحقيقة وأين الخيال؟

Pyramid Texts



متون الأهرام

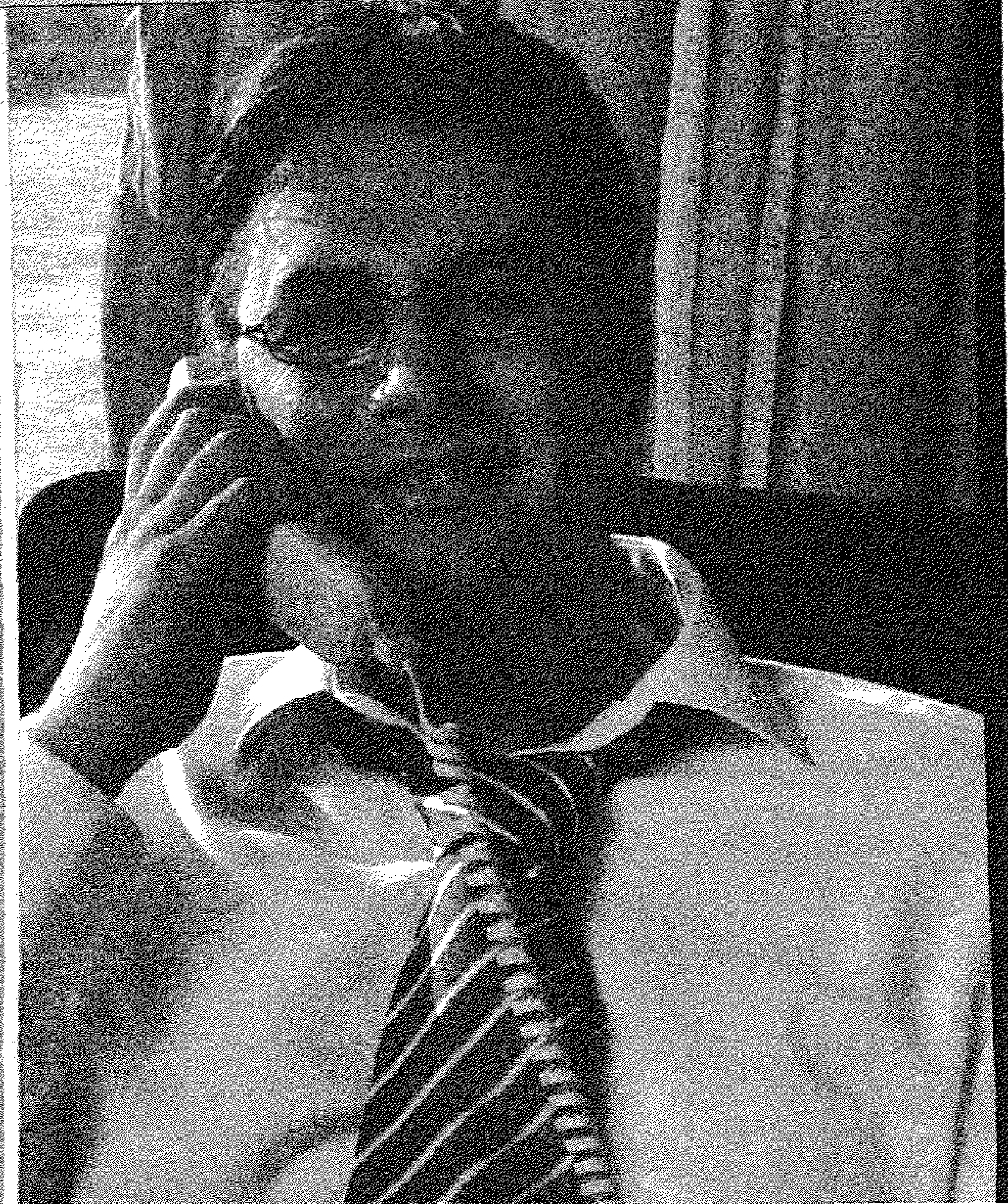
by Gamal al-Ghitani (Author), Humphrey Davies (Translator)

جمال الغيطاني

ترجمة: همفري ديفيز

American University in Cairo Press, 2007, 112 pp., $14.00

تحوي متون الأهرام حكايات صوفية زاخرة بالرموز عن الحالة الإنسانية. رواية يقدمها الغيطاني في أسلوب غني بتأملات قاتمة خليقة ببورخيس وأفكار محتقنة سوداء خليقة بأرثر سي. كلارك. تشغل متون الأهرام العقل وتخير الخيال. تظهر الرواية في سلسلة من الفصول تتناقص في النهاية لتصل إلى لا شيء - كل فصل أقصر مما سبقه في تكنيك يماثل موضوعات الكتاب. وفيها يستدعي المؤلف الهوس الذي اجتذب الإنسان عبر العصور إلى الآثار القديمة الغامضة. ومن بين آخرين في سلسلة من الشخصيات الغريبة، يقضي رجل مغربي يسعى إلى المعرفة سنوات في تأمل الأهرام على أمل أن يفهم ذات يوم ما يلوح على أجنابها من كتابة غامضة. ينتظر آخر بكل صبر لحظة الخلود. آخر مشهور بصعوده وهبوطه المتكرر يُقدم على تسلق أخير يبهر الأبصار في حين يؤدي أبو الهول رقصته السماوية. تفضي الرواية بنا إلى عالم من الممرات اللانهائية ورياح عجيبة تند عنها التنهيدات، عالم قد تضيء مساحاته الضيقة المعتمة ومضات من النشوة، ومضات تؤدي إلى تجليات متلألئة وإبادة سريعة.



تعاقد على ٢ خط تليفون تجاري

كفاءة أعمالك .. مسئوليتنا

و احصل مجاناً على . . .

- ADSL بسرعة 1 ميجا لمدة ٣ شهور
- و حدة Router
- جهاز فاكس متعدد الاستخدامات

- العرض ساري في الفترة من ٢٠٠٨/٢/٢٤ الي ٢٠٠٨/٥/٣١
- او اتصل برقم ١١١ بسعر المكالمة العادية

شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا ..

المصرية للاتصالات
Telecom Egypt

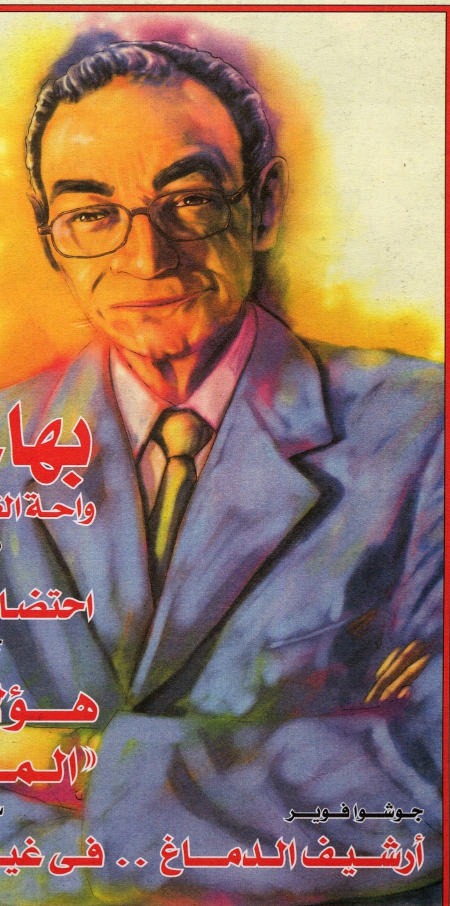
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد المائة وأحد عشر . السنة العاشرة . أبريل ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 111 - April 2008







رجاء وأودنيس

جدل العروبة والشعوبية !

حلمى القاعود

بهاء طاهر

واحة الغروب ووطأة التاريخ

منى أنيس

احتضار الفكر العربى !

جهاد فاضل

هؤلاء الأقباط "المصريون"

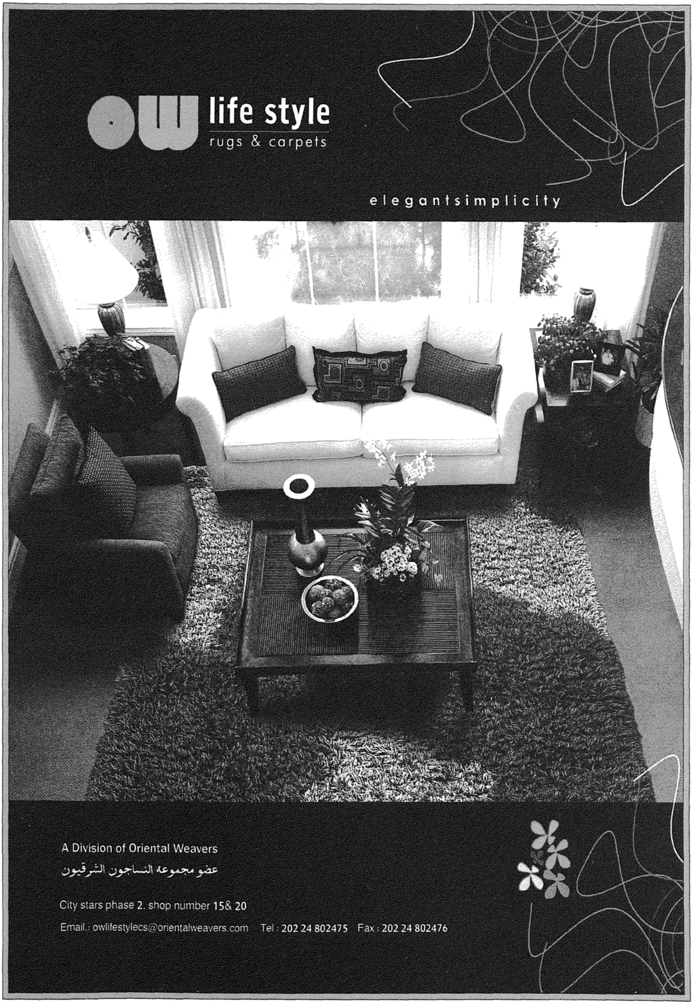
س . هـ . ليدر

جوشوا فوير

أرشيف الدماغ .. فى غياهب الذاكرة !



أحدث إصدارات
دار الشروق
فاروق جويدة
من يكتب تاريخ ثورة يوليو؟
القضية والشهادات
محمد عبد الوهاب
رحلتي
الأوراق الخاصة جداً
فاروق جويدة
حياة زوجية رائعة
في ٧ خطوات سهلة
د. رضوان شابسيغ
تاريخ يهود النيل
جاك حاسون
يوسف درويش
أما هذه.. فرقصتي أنا
أرز باللبن لشخصين
رحاب بسام
عايزه أتجوز
غادة عبد العال
عاصم الدسوقي
كبار ملاك الأراضي الزراعية
ودورهم في المجتمع المصري ١٩١٤-١٩٥٢
جمال مقار
كتاب الوَدَاعة
يونان لبيب رزق
العيب في ذات أفندينا
الرقابة والتعتيم في الإعلام الأمريكي
هانس كونج
القيم الأخلاقية المشتركة للأديان
الإسلام
رمز الأمل
جمال الغيطاني
دفاتر التدوين - الدفتر السادس
رن
جلال أمين
شخصيات لها تاريخ
س. هـ. ليدر
أبناء الفراعنة المحدثون
دراسة لأخلاق أقباط مصر وعاداتهم
وسط البلد: ١ ميدان طلعت حرب ت: ٢٣٩٣٠٦٤٣ - ٢٣٩١٢٤٨٠
مصر الجديدة: ١٥ شارع بغداد - الكوربة ت: ٢٤١٧١٩٤٥ - ٢٤١٧١٩٤٤
الإسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ ٠١٠١٦٣٣٦٨٥
مدينة نصر: سيتي ستارز مول ت: ٢٤٨٠٢٥٤٤ - ٠١٦٥٥٤٨٧٢٩
الجيزة: فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة ت: ٣٥٧٣٥٠٣٥ - ٣٥٦٨٦١٨٧
الإدارة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر ت: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com email: dar@shorouk.com


life style
rugs & carpets
elegantsimplicity
A Division of Oriental Weavers
عضو مجموعة النساجون الشرقيون
City stars phase 2, shop number 15& 20
Email.: owlifestylecs@orientalweavers.com Tel : 202 24 802475 Fax : 202 24 802476

السنة العاشرة
العدد المائة وأحد عشر
أبريل ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أبو زيد راجح.. رئيس الهيئة العامة لبحوث الإسكان والبناء والتخطيط العمراني سابقًا.
- أبو يعرب المرزوقي.. كلية العلوم الإنسانية جامعة تونس الأولى.
- ثروت عكاشة.. وزير الثقافة الأسبق.
- جهاد فاضل.. كاتب وناقد لبناني.
- جوشوا فوير.. صحفي متخصص في المجالات العلمية
- حسين عبد الله.. خبير اقتصاديات البترول والطاقة.
- حلمي محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- السيد أمين شلبي.. سفير مصري سابق - الرئيس التنفيذي للمجلس المصري للشئون الخارجية.
- س. هـ. ليدر.. كاتب بريطاني عاش في مصر بداية القرن العشرين.
- فكري أندراوس.. كاتب مصري مقيم بالولايات المتحدة.
- محمد يوسف عدس.. باحث في التاريخ والشئون السياسية مقيم في إنجلترا.
- منى أنيس.. صحفية مصرية.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصري.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي - محمود عبده
Alen Lauzan Falcon - Angel Boligan

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة



الإسلام.. «اليابانى»!!

وليـــــد محمـود عبد النـاصـر

«جمعية مسلمى اليابان» تقول إن هناك مائة ألف مسلم فى اليابان، عشرة آلاف منهم من المسلمين اليابانيين والتسعون ألفا الآخرين من الأجانب الوافدين إلى اليابان من دول إسلامية مثل باكستان واندونيسيا وغيرهما

تأتى أهمية أى كتاب عادة إما من موضوعه أو من مؤلفه. والكتاب الذى نعرض له اليوم يجمع الدلالتين معاً، ولكننا سنبدأ هنا بتناول أهمية الموضوع. فللإسلام فى اليابان قصص عديدة، بعضها يتصل بالمقيمين المسلمين فى اليابان من غير اليابانيين ودخول الإسلام على أيديهم، وبعضها الآخر يرتبط بتحول بعض اليابانيين إلى اعتناق الإسلام، سواء تم ذلك خلال وجودهم فى بلادهم أو عبر سفرهم إلى بلدان إسلامية واعتناقهم الإسلام بها.

وقد بدأ البناء فى مسجد بمدينة «كوبى» فى عام ١٩٢٨ من تبرعات المسلمين، وشارك فى دفع التبرعات قنصل مصر فى «كوبى» فى ذلك الوقت المغفور له الدكتور محمود فوزى والذى شغل بعد ذلك عدداً من المناصب البارزة كان آخرها منصب نائب رئيس الجمهورية مروراً بمنصبى وزير الخارجية ثم رئيس مجلس الوزراء، وقد انتهى بناء المسجد عام ١٩٣٥ . ثم تأسست جمعية مسلمى اليابان، أحد أكبر التنظيمات الممثلة لليابانيين المسلمين، على يد الرعيل الأول من المسلمين اليابانيين وتولى رئاستها مؤسسها صادق إيمايزومى فى الفترة من ١٩٥٢ -١٩٦٠ ثم تولى رئاستها عمر ميتا (مترجم معانى القرآن الكريم إلى اليابانية) من ١٩٦٠-١٩٦٢، ومن ثم تعاقب على رئاستها ثمانية من اليابانيين المسلمين حتى مطلع عام ٢٠٠٨.

وقد شهدت المرحلة التكوينية فى العقد الأول التركيز على بناء الإطار المؤسسى للجمعية وإطار الدعوة إلى الدين الإسلامى وجذب أعداد متزايدة من اليابانيين لاعتناق الإسلام، خاصة عبر توسيع الدعوة لتشمل مختلف المحافظات اليابانية، حيث تم لاحقاً على سبيل المثال إقامة جمعية مماثلة فى مدينة «كيوتو» عام ١٩٥٤ . وفى فترة تالية لعبت جماعة التبليغ والدعوة الباكستانية دوراً فى نشر الإسلام فى اليابان عبر إرسال وفود سنوية دعوية لليابان لمدة أربع سنوات متتالية، ومن ثم سافر عشرة مسلمين يابانيين للدراسة فى باكستان. بالمقابل، بدأ توجه اليابانيين المسلمين للدراسة بالأزهر الشريف بدءاً من عام ١٩٥٧، ونشرت ترجمة القرآن باللغة اليابانية لأول مرة فى العام نفسه. وبدأ مسلمو اليابان فى تقديم الإسلام بدورهم إلى مواطنيهم من خلال عدد من المحاضرات وإمامة الصلاة فى عدد من المحافظات، وكذلك عبر الصحف حيث أصدروا عام ١٩٥٩ جريدة «الإسلام». وفى ذات العام افتتحت جامعة «تاكشوكو» اليابانية قسماً للغة العربية ودراسات الشرق الأوسط. وفى عام ١٩٦٠ بلغ عدد المنتمين لجمعية مسلمى اليابان ١١٢ فرداً، وفى العام ذاته بدأ نشاط المسلمات اليابانيات من خلال تنظيم محاضرات مقصورة عليهن. وتزامن ذلك مع بدء نشاط جمعية مسلمى اليابان بهدف توفير مقبرة إسلامية يدفن فيها المسلمون بدلاً من حرق الجثامين كما هو معمول به فى اليابان بشكل عام.

وتم خلال الفترة ما بين عامى ١٩٦٠ و١٩٦٢ العمل على ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية للعمل على نشر الإسلام، بالإضافة إلى سعى جمعية مسلمى اليابان إلى توثيق الصلات مع جماعة التبليغ والدعوة فى باكستان، وإيجاد رابطة للطلبة المسلمين فى اليابان، كما بدأت المباحثات مع رابطة العالم الإسلامى بمكة حول إقامة مقبرة إسلامية فى اليابان، وفى عام ١٩٦٢ تمت أول حالة دفن إسلامية لمسلمة يابانية (أمينة سايتو) فى مدينة شيوياما بعد محادثات للجمعية مع الطائفة البوذية المسئولة عن المقبرة فى تلك المدينة وتفهم هذه الطائفة لمقتضيات الدفن لدى المسلمين، وذهب دارس يابانى للدراسة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وخلال زيارة رئيس وزراء ماليزيا إلى اليابان عام ١٩٦٤ أعلن عن قيامه بدعوة سبعة طلاب مسلمين يابانيين للدراسة فى ماليزيا. وشهدت المرحلة ذاتها ارسال ثمانية يابانيين دفعة واحدة للدراسة بالأزهر الشريف وهو الأمر الذى كرس إيجاد جيل من مسلمى اليابان المرتبطين بمصر دينيا وثقافيا، وأعقب ذلك لاحقاً سفر ستة طلاب يابانيين للأزهر الشريف عام ١٩٦٥. كما شارك مصريون فى ندوات نظمتها جمعية مسلمى اليابان، كما ساعدت مصر مسلمى اليابان فى جهودهم لشراء قطعة أرض لبناء مقبرة إسلامية فى مدينة «إنزان» التى تقع على بعد مائة كيلومتر من طوكيو. كذلك أشرف المصرى/ حسن السمنى على مسجد طوكيو لمدة ستة عشر عاماً متواصلة وحتى عودته إلى مصر عام ١٩٧٨ . وقد نظمت جمعية مسلمى اليابان حفل تأبين لشيخ الأزهر الراحل محمود شلتوت لدى وفاة فضيلته. وفى عام ١٩٦٧ مولت المملكة العربية السعودية لجنة لترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية. وفى عام ١٩٦٨ تم تجديد مسجد طوكيو بمساعدة من الحكومة الكويتية. وفى العام نفسه اعترفت السلطات المسئولة بالحكومة اليابانية عن الشئون الدينية وتسجيل الجماعات والطوائف الدينية باليابان لأول مرة بجمعية مسلمى اليابان وبالإسلام كأحد الأديان المتواجدة فى اليابان، وفى عام ١٩٦٩ أنهى السيد/ عمر ميتا ترجمته لمعانى القرآن الكريم باللغة اليابانية وبدأ فى تدريس اللغة العربية فى الجمعية بغرض إعداد كوادر لترجمة الكتب الشرعية، ثم توجه عدد من أعضاء الجمعية لدراسة الإسلام فى جامعات المدينة المنورة بالمملكة السعودية والأزهر الشريف بمصر ولاهور بباكستان وبرلين بألمانيا. وسافر عمر ميتا إلى مكة فى عام ١٩٧٠ للحصول على إذن رابطة العالم الإسلامى لطبع ترجمة معانى القرآن الكريم باللغة اليابانية، وشارك أحد أعضاء الجمعية فى مؤتمر الدعوة الإسلامية بليبيا فى العام نفسه.

وفى عام ١٩٧٢ تم نشر ٥٠٠٠ نسخة من ترجمة عمر ميتا لمعانى القرآن الكريم، إلا أنه بعد ذلك بسنة واحدة ارتأت رابطة العالم الإسلامى جمع نسخ تلك الترجمة لتصحيح بعض أخطاء الترجمة وتمت إعادة الطبع فى نفس العام وتم إيفاد بعثة إلى السعودية لهذا الغرض، وفى عام ١٩٧٤ وجهت الجمعية دعوة إلى عدد من الشركات اليابانية لتشارك فى عضويتها كمؤسسات تقدم الدعم المادى للجمعية، فاستجابت أربع شركات عاملة فى مجال التنقيب عن البترول بالشرق الأوسط. استمرت جمعية مسلمى اليابان بعد ذلك فى مراجعة وتصحيح ترجمة معانى القرآن الكريم معتمدة على ترجمة الأزهر الشريف، إضافة إلى تقوية العلاقات بينها وبين رابطة العالم الإسلامى بالسعودية، خاصة بعد أن ضعف تمثيلها للإسلام فى اليابان بعد إنشاء المركز الإسلامى عام ١٩٦٦ وضم العديد من المسلمين المقيمين من غير اليابانيين. كما أنشأ فى عام ١٩٧٤ أحد المسلمين اليابانيين وهو السيد شوقى نيكى «مجموعة الإسلام اليابانية» وأرسل أربعة مسلمين يابانيين للدراسة فى ليبيا. وانضمت جمعية مسلمى اليابان رسميا إلى رابطة العالم الإسلامى عام ١٩٧٥ وقامت بإيفاد عدد من الدارسين إلى جامعتى أم القرى والأزهر الشريف فى نفس العام. وأنشأت عام ١٩٧٦ - بالتعاون مع المركز الإسلامى - تجمعاً للجمعيات الإسلامية فى اليابان للتنسيق فيما بينها.

وخلال الفترة ما بين عام ١٩٧٧ و٢٠٠٣ قامت جمعية مسلمى اليابان بمواصلة إدارة شئون المقبرة الإسلامية وتوسيعها، كما بدأت وتوسعت فى علاقات مع العراق. كذلك زار رئيس ومسئولو رابطة العالم الإسلامى اليابان، وكذلك زارها فى تلك الفترة الدكتور يوسف القرضاوى عميد كلية الشريعة بجامعة قطر وقدم ثلاث منح لطلاب يابانيين للدراسة بالجامعة. وفى عام ١٩٨٢ أقيم مؤتمر للحوار بين المسلمين والطوائف المسيحية اليابانية (كاثوليك وبروتستانت) بحضور ٧٨ مسيحياً و٢٩ مسلماً كلهم من اليابانيين. كذلك تم إنشاء مصلى داخل المقر الجديد لجمعية مسلمى اليابان بطوكيو، وتمت طباعة وتوزيع ٥٠٠ مصحف مترجم إلى اللغة اليابانية، وشهد عام ١٩٨٣ وفاة السيد/ عمر ميتا من جهة وإنشاء المعهد العربى الإسلامى التابع لجامعة محمد بن سعود السعودية فى طوكيو من جهة أخرى. كما أقيمت أول صلاة موسعة للعيد فى قاعة أحد الفنادق بطوكيو بحضور ٥٠٠ فرد عام ١٩٨٥، ونشر فى العام ذاته كتاب السيد/ أبو بكر موريموتو بعنوان «مدخل إلى الإسلام»، وسافر السيد/ حسن ناكاتا (أحد أنشط المسلمين اليابانيين فى مجال التعريف بالإسلام) عام ١٩٨٦ إلى مصر للدراسة وارتفع عدد المشاركين فى صلاة عيد الفطر عام ١٩٨٧ إلى ثلاثة آلاف فرد، وتمت مراجعة إقامة جنازات المسلمين اليابانيين لتتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية فى هذا الشأن عام ١٩٨٨، وفى عام ١٩٩٠ توجه ممثلان عن مسلمى اليابان هما عبد الكريم سايتو والزبير سوزوكى لمقابلة الرئيس التركى حينذاك تورجوت أوزال بهدف تجديد بناء مسجد طوكيو، بالإضافة إلى إعادة طبع مجلة «الإسلام» وتنشيط حوار الأديان.

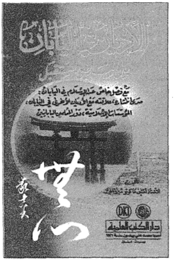
بدأت جمعية مسلمى

الأديان فى اليابان بين الماضى والمستقبل
أمين ماكوتو ميزوتانى
دار الكتب العلمية فى بيروت، ٢٠٠٧م.
عدد الصفحات ٢٠٨ صفحات مع ٢٠ صورة تقدم الطقوس اليابانية

الإسلام «اليابانى»!!

اليابان مرحلة جديدة عام ٢٠٠٣ عبر تولى السيد أمين توكوماسو لرئاسة الجمعية، وهو أحد اليابانيين الذين درسوا بالأزهر الشريف ويركز خلال هذه المرحلة على تقوية علاقات الجمعية مع سفارات الدول الإسلامية فى طوكيو، وبناء مسجد ومركز إسلامى.

ونستطيع القول بقدر من الثقة أن جمعية مسلمى اليابان ركزت دائمًا على إبراز الحاجة إلى كوادر مسلمة يابانية للتصدى لقيادة الجهد الدعوى الإسلامى فى اليابان بشكل أفضل من المسلمين من غير اليابانيين، واستشهدت الجمعية فى ذلك بالآية الكريمة: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم». إلا أن هذا المسعى يواجه عوائق فى اليابان.



وننتقل الآن إلى المؤلف. فالأستاذ أمين ميزوتانى مستشرق ومستعرب يابانى من طراز خاص. فبخلاف غالبية المستشرقين اليابانيين الحاليين، فإنه لا ينطلق من أرضية التأثر بالغرب لدى صياغة مواقفه تجاه العالم الإسلامى، بل على النقيض من ذلك يتحدث بوصفه يابانيا مسلماً، حيث اعتنق الإسلام طواعية فى القاهرة بعد أن أجاد التحدث باللغة العربية عام ١٩٨٨ بعد دراسة وبحث طويل فى الدين الإسلامى وعنه، وبعدها استقال من عمله بوزارة الخارجية اليابانية ثم تفرغ للكتابة والترجمة والتدريس والبحث بالمعهد العربى الإسلامى بطوكيو. وعن خلفيته الدراسية نقول أنه حاصل على الليسانس فى التاريخ من جامعة كيوتو فى اليابان عام ١٩٧١، ثم درس التاريخ كطالب مستمع فى كلية الآداب فى جامعة القاهرة عامى ١٩٧٣ و١٩٧٤ حيث بدأ يهتم بدراسة أعمال الكاتب المصرى الإسلامى أحمد أمين، كما اهتم بدراسة الخط العربى خلال عمله بجدة حيث وجد أن تطوره منذ عصر النبوة وحتى الآن عكس التطور الحضارى للفكر العربى والإسلامى بأسره بالإضافة إلى ما فى الخط العربى من قيم جمالية عالية، ثم حصل على درجة الماجستير فى دراسة منطقة الشرق الأوسط من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٩٢، وبدأ الإعداد للدكتوراه أما عن خلفيته المهنية، فقد عمل مستشاراً وقنصلاً عاماً فى سفارات اليابان فى عدة بلدان منها مصر والمملكة العربية السعودية ولبنان وبريطانيا والولايات المتحدة وبعثة اليابان لدى الأمم المتحدة فى نيويورك. وخلال عمله فى السفارة اليابانية بالقاهرة كان له دور فى الإشراف على بناء المركز الثقافى (الأوبرا) الذى تم بمساعدة اليابان مع التزام بفن العمارة الإسلامية أما فيما يتعلق بخلفيته الأكاديمية والبحثية، فقد كان الأستاذ أمين ميزوتانى محاضراً زائراً حول الثقافة الإسلامية فى كليات الآداب بعدد من الجامعات اليابانية منها جامعتا طوكيو وكيوتو. كما أنه نشر العديد من المقالات البحثية عن المفكر المصرى والإسلامى الراحل أحمد أمين، كما ترجم إلى اللغة اليابانية كتاب «حياتى» للراحل أحمد أمين. وقد نشر كتابًا كاملاً عن أفكار الأستاذ الراحل أحمد أمين باللغة الإنجليزية، وفسر اهتمامه بالأستاذ أحمد أمين بأنه لم يكن عبقريا متفردا ولكن مثقف يمكن النظر إلى عقله كمرآة تنعكس عليها قضايا الدين والعقيدة والتراث، وبذلك يمكن فهم كيف تنعكس هذه المسائل على عقلية المواطن العادى، فدراسة أحمد أمين كانت بالنسبة له مفيدة لأنه ليس شديد الارتفاع عن المستوى الفكرى للمواطن العادى، ولكن أحمد أمين كان لديه اطلاع واسع وموقف أخلاقى. وقد أعد أمين ميزوتانى رسالة الدكتوراة للمناقشة أمام جامعة لندن حول لأعمال الأدبية والسياسية للأستاذ أحمد أمين. كما ألف الأستاذ أمين ميزوتانى كتب «المساجد حول العالم»، و«الجامع فى الحج»، و«تاريخ الكعبة المشرفة وآثارها»، و«الجنة فى الإسلام»، وذلك باللغة اليابانية، وقد نشرت جريدة «الأمة» التى تصدر فى اليابان وتعنى بالشئون الإسلامية خبرًا حول إلقاء أمين ميزوتانى لأول خطبة باللغة اليابانية يوم الوقوف بعرفة فى موسم حج عام ١٤٢٧هـ وذلك أمام وفد الحجاج من اليابان حيث تناولت الخطبة أهمية الحج كأحد أركان الإسلام، وأهمية الوقوف بعرفة كركن أساسى من شعائر الحج، مستشهداً فى ذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة. ويظل يخطب ويكتب حول موضوع الدين عامة ودين الإسلام خاصة مثل كتابه الذى نعرض له اليوم: «الأديان فى اليابان بين الماضى والمستقبل» الصادر من بيروت.

إن هذا الكتاب يبحث فى صورة موجزة الأوضاع الراهنة للأديان فى اليابان حول ثلاثة محاور رئيسية وهى أولا سبب تاريخى لما يسميه الكاتب بـ «الفراغ العقائدى» فى حالة المجتمع اليابانى وثانيا صعوبات خاصة باعتناق الدين الإسلامى فى اليابان وثالثا حالة انجذاب للأديان نلمسها بصفة خاصة بين الشباب كما نلاحظ من نشوء الطوائف الجديدة المتعلقة بالأديان التقليدية.

وأيضا يقدم الكتاب الذى بين أيدينا معلومات متوافرة عن الأديان التقليدية اليابانية كى يعرف القارئ العربى المزيد عن الخلفية الضرورية لفهم الموضوع بصورة واضحة متوازنة.

يبدأ الكتاب بمدخل تمهيدى عن الديانات اليابانية التقليدية والإسلام، يتناول فيه المؤلف ما يلى:

(١) يقدم الكاتب إحصائيات عن عدد معتنقى الديانات المختلفة باليابان، وذلك على النحو التالى:

يصل تعداد السكان فى اليابان إلى حوالى مائة وسبعة وعشرين مليون نسمة. أما أعداد معتنقى الديانات المختلفة فيصل إلى ضعف هذا العدد وهو حوالى مائتين وعشرين مليون فرد[1]، وهذه الإحصائيات التى تبدو غير معقولة للوهلة الأولى سببها أن أكثر من نصف اليابانيين يقولون: البوذية والشنتاوية كلتهما ديانتهم. أما بالنسبة للمسيحية، فعدد معتنقيها يبلغ حوالى مليون شخص، علمًا بأن من تخرجوا من اليابانيين فى مدارس مسيحية (بجميع مراحلها من رياض الأطفال وحتى الجامعة) يبلغ عددهم عشرة ملايين شخص، أى أن هناك ١٠ ٪ تقريبا من اليابانيين درس فى مدرسة مسيحية فى إحدى مراحل الدراسة، وكذلك هناك ١٠٪ من هؤلاء اعتنق المسيحية.

وبعيدا عن الإحصائيات السابقة هناك العديد من الديانات الأخرى تصنف تحت اسم «الديانات الجديدة»، ويبلغ عدد تلك الجماعات حوالى أربعين ألف مجموعة (أو ديانة) بين الكبيرة والصغيرة، معظم تلك الديانات خرجت من تحت عباءة البوذية أو الشنتاوية. فكل مجموعة من تلك المجموعات أخذت جزءاً صغيرا من تعاليم البوذية أو الشنتاوية وعدت هذا الجزء من أهم تعاليم تلك الديانة وهو ما يجب أن يكون ركيزة للدين والتعاليم وأقامت على هذا الأساس دينا جديدا تدعو إليه، وهناك منها المجموعات الكبيرة التى يبلغ عدد معتنقى تعاليمها من مليون إلى عشرة ملايين شخص، ومنها مجموعات امتد نشاطها إلى خارج اليابان.

وفى إحصائيات الحكومة اليابانية يصنف الإسلام تحت اسم تلك «الديانات الجديدة»، ولم يصدر رقم لعدد معتنقيه بالإحصاء، ولكن «جمعية مسلمى اليابان» تقول إن هناك مائة ألف مسلم فى اليابان، عشرة آلاف منهم من المسلمين اليابانيين والتسعين ألفا الآخرين من الأجانب الوافدين إلى اليابان من دول إسلامية مثل باكستان وإندونيسيا وغيرهما.

(٢) علاقة الإسلام مع الديانات اليابانية

حتى هذه اللحظة تسير الأمور على ما يرام بين الإسلام والأديان الأخرى فى اليابان. وفى الأيام الأخيرة يقام حوار بين مؤسسات دينية مختلفة تحت قيادة «المؤتمر العالمى من أجل الأديان والسلام (WCRP)»، وهى منظمة غير حكومية تتمتع بوضع استشارى لدى المجلس الاقتصادى والاجتماعى التابع للأمم المتحدة، وتشارك فيها مؤسسات بوذية وشينتاوية ومسيحية وإسلامية وغيرها من الديانات الأخرى ويمتد نشاط المجموعات الشبابية والمجموعات النسائية لمنظمة (WCRP) إلى جميع أنحاء اليابان.

وبغض النظر عن التعاون بين الديانات المختلفة على الساحة الدولية، ففى اليابان تعاون وتسامح ملحوظ بين الديانات المختلفة ومن بينها الإسلام. ويتحدث الكتاب الذى بين أيدينا عن ذلك فى الفقرات التالية ولكن نستطيع أن نقول إن السبب فى ذلك أن الدين بشكل عام فقد ثقله فى المجتمع اليابانى بعد الحرب العالمية الثانية.

ومثال آخر على سلاسة العلاقة بين الإسلام والديانات الأخرى فى اليابان، أن ما ينشر من كتب فى اليابان للتعريف بالدين بوجه عام نادرًا ما لا يحتوى على الإسلام، فمنذ ثلاثين عاما مضت لا نجد كتابا دينيا لا يتطرق إلى الإسلام مما يوحى بوجود تغير ملحوظ فى الأوضاع هنا، وهذا بالطبع وضع لم يكن ليوجد

سوى من خلال توافر علاقة سلسة بين الإسلام والديانات الأخرى

وبشكل عام، فإن الحديث عن الدين دون التطرق إلى الإسلام فى اليابان أصبح شيئا نادرا مما يعنى أن الإسلام له طابع وثقل خاص فى اليابان، ويمثل ذلك دليلاً إضافيا على الدور الهام للإسلام فى عالم الأديان. ومن هذا المنطلق نشرت فى اليابان مؤخرا مناظرة ثلاثية بين ممثل عن البوذية وآخر عن المسيحية وثالث عن الإسلام، وأن يلقى الدين الإسلامى كل هذا الاهتمام فى اليابان بالرغم من قلة عدد معتنقيه بها يعد معاملة خاصة من نوعها، حيث إن هناك العديد من الديانات الأخرى التى تصنف تحت اسم «الديانات الجديدة» لها معتنقون عددهم أكثر بكثير من عدد المسلمين.

ولم يكن السبب فى هذه المعاملة الخاصة بسبب انتشار تعاليم الدين الإسلامى فى اليابان، ولكنه كان لوعى اليابان بتأثير الإسلام فى الأحداث العالمية فى الحاضر والمستقبل. ونستطيع القول بأن الازدياد المتسارع فى عدد معتنقى الإسلام على الصعيد العالمى سوف يؤثر تأثيرا كبيرا ومباشرا حتى فى اليابان.

وإذا ما نظرنا إلى علاقة الإسلام بالمجتمع فى اليابان فلن نجد احتكاكا ملحوظا يستوقف النظر(٢). ونسمع أحيانًا قليلة للغاية أن هناك بعض المشاكل، وأن هناك من المسلمين من يغضب إذا ما عامله اليابانيون معاملة خاصة، أو من يشكو من أن أولاده يتعرضون لمضايقات من أطفال يابانيين ولكن تبقى هذه حالات نادرة ومعزولة وغير معروفة التفاصيل، وبالتالى غير واضح إلى أى مدى كان الانتماء للدين الإسلامى سبب هذه المشكلات. كذلك فهناك بعض الحذر الذى يلتزمه اليابانيون فى معاملتهم مع الأجانب من المسلمين بسبب حوادث الإرهاب التى تقع فى العالم وخاصة عند التقدم للحصول على عمل أو استئجار منزل وما إلى غير ذلك. ولكننا لا نرى فى اليابان أحداثا مثل تلك التى تقع فى أوروبا أو أمريكا الشمالية بين المسلمين وتلك المجتمعات مثل حظر ارتداء الفتيات للحجاب فى المدارس أو أحداث الشغب التى يقوم بها بعض المسلمين ردا على ما يعتبرونه تفرقة عنصرية تمارس ضدهم. وحتى فى الأحداث التى نتجت عما نُشر فى الصحف الدانمركية من رسوم كاريكاتورية مسيئة للرسول محمد عليه الصلاة والسلام، فإن رد الفعل فى اليابان لم يتعد مظاهرة سلمية نظمها مسلمون أجانب مقيمون فى اليابان أمام سفارة الدانمرك فى اليابان.

ويعرض الكتاب لحصيلة مائة عام من الإسلام فى اليابان، وذلك على النحو التالى:

أ. بناء المسجد

فى عام ١٩٠٥ تم بناء أول مسجد للمسلمين فى اليابان وكان فى مدينة «إيزومى أووتسو» بالقرب من أوساكا. فقد اصطحب الجيش اليابانى عددا كبيرا من الأسرى من مسلمى وسط آسيا فى حرب اليابان وروسيا التى دارت عام ١٩٠٥، وهؤلاء الأسرى قاموا ببناء مسجد وكذلك أسسوا منطقة لمقابرهم. وبعد ذلك قام تاجر هندى مسلم ببناء مسجد آخر فى «كوبى» عام ١٩٣٥، وفى عام ١٩٣٨ تم بناء مسجد فى طوكيو بدعم من الحكومة التركية، وهو لايزال قائماً حتى الآن.

وفى الوقت الحالى إذا حصرنا عدد المساجد فى اليابان، فسنجد فى جميع أنحاء البلاد من أربعين إلى خمسين مسجداً بما فيها «المصليات» (أماكن صغيرة للصلاة)، يتركز أكثر من نصفها فى طوكيو وضواحيها ثم يأتى بعدها من حيث العدد «أوساكا» ثم «ناجويا»، أما الباقى فينتشر فى جميع أنحاء البلاد من «هوكايدو» فى الشمال إلى «أوكيناوا» فى الجنوب.

وكانت المساجد فى اليابان فى مجملها نتاج جهد شاق لمن قاموا ببنائها، وتخطط «جمعية مسلمى اليابان» لبناء مسجد كبير بيد اليابانيين أنفسهم. ولكن الخطوات العملية لهذا المشروع لم تحدد بعد. وطبقًا للتقاليد اليابانية فى بساطة البناء والتصميم والمنظر الداخلى فليس من المتوقع أن يكون مثل هذا المسجد فائق الزخارف مثلاً، فالمهم بالنسبة لهم هو بناء المسجد فى حد ذاته.

بدأ البناء فى مسجد بمدينة «كوبى» عام ١٩٢٨ من تبرعات المسلمين، وشارك فى التبرعات قنصل مصر فى «كوبى» فى ذلك الوقت الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية ونائب رئيس الجمهورية فيما بعد

ب. الحج

فى عام ١٩٠٩ كان السيد «ياماأوكا كووتارو» أول الحجاج اليابانيين كما ورد فى السجلات. فى بادئ الأمر كان مكلفا من الجيش اليابانى بجمع المعلومات من اليابانيين ولكن الأمر انتهى به إلى أن يتحول إلى الإسلام ويستمر على دينه الجديد إلى أن وافته المنية. لم تكن سجلات الحج التى تركها منسقة بشكل صحيح، ولكنها تعطى انطباعا لمن يقرأها بحماسه الزائد وشجاعته إذ لم يسبقه أحد من اليابانيين للحج فكان أول وآخر من ذهب للحج راكبا الجمل من أهل اليابان.

وجاء بعده السيد «تاناكا إيبيه»، وكان قد ذهب للحج مع مسلم من الصين عام ١٩٢٤، ثم ذهب للمرة الثانية عام ١٩٣٣ وقد ترك لنا سجلات رحلات الحج التى قام بها. كانت إقامته فى الصين لفترة طويلة وكان على معرفة كبيرة بالبوذية والشينتاوية والكنفوشيوسية وكذلك التاوية، وبعد عودته إلى اليابان قام بأنشطة عديدة ليس من أجل الإسلام فقط بل من أجل تحقيق تسامح فيما بين مختلف الديانات فى اليابان.

وجاء بعد ذلك السيد «سوزوكى تسويوشى» والمجموعة التى ذهبت معه، فقد أدوا فريضة الحج ثلاث مرات فى الأعوام ١٩٣٥ و٣٧ و٣٨، وترك لنا سجلات وتقارير عن رحلات الحج بعنوان: (مذكرات الحج)، وقد ترجمت إلى اللغة العربية(٣).

وقد بلغ عدد الحجاج من اليابانيين حتى قبيل الحرب العالمية الثانية عشرين شخصا تقريبا بمن فى ذلك هؤلاء الذين سبق ذكرهم. وزادت الأعداد تدريجيا بعد الحرب حتى أصبح عدد من يؤدى الفريضة فى السنوات الأخيرة يبلغ أربعين شخصا فى كل عام. أصبحت الطائرة هى وسيلة الانتقال وذهب العناء الذى كان يواجهه الأوائل. ولكن مذكرات الحج لم تعد تنشر كما كان يفعل الرواد، ربما كان ذلك لازدياد عدد الحجاج، وإن كان هناك الكثيرون الذين يودون الاطلاع على تفاصيل هذه الرحلة الجليلة.

ج. ترجمة «معانى القرآن والتفسير»:

صدرت الترجمة اليابانية الأولى لمعانى القرآن باليابانية فى عام ١٩٢٠ ثم فى الثلاثينيات والخمسينيات. وكانت الترجمة المباشرة الأولى من اللغة العربية عام ١٩٥٧ وقدمها السيد «إيزوتسو توشيهيكو». وفى عام ١٩٧٠ قام اثنان من علماء اللغة العربية بتجربة جديدة للترجمة.

وكأول محاولة ليابانى مسلم كانت ترجمة السيد «عمر ميتا» عام ١٩٧٢ (الطبعة الثانية عام ١٩٨٢). أمضى السيد عمر سنوات طويلة فى مكة مستغرقا فى تحقيق مهمته وتوفى بعد أن انتهى من نشر عمله مباشرة. وقد ترك هذا العمل الكبير، وأدخلت بعد ذلك «جمعية مسلمى اليابان» تعديلات وتحسينات متواصلة على هذه الترجمة، حتى أصبح هذا الكتاب هو الترجمة الأكثر تداولا للقرآن فى اليابان.

أما بالنسبة لتفسير القرآن فلم تكن هناك الترجمة المناسبة، ولكن مؤخرا صدر عن «جمعية اليابان - السعودية» ترجمة (تفسير الجلالين) للسيدة «ناكاتا كاأورى» والتى استغرق العمل فيها من عام ٢٠٠٢ وحتى عام ٢٠٠٦ وهو كتاب كبير مكون من ثلاثة أجزاء، ولكن الحجم الكبير يعوق تيسير التداول، لذا تدرس «جمعية مسلمى اليابان» إمكانية إصدار كتب تفسير صغيرة الحجم.

د. الأحاديث النبوية وسيرة النبى محمد عليه الصلاة والسلام:

أما بالنسبة للأحاديث النبوية فقد صدرت عن «جمعية مسلمى اليابان» ترجمة لـ (صحيح مسلم) فى ثلاثة أجزاء عام ١٩٨٧. وغير ذلك صدر مختارات من الأحاديث النبوية مثل (الأربعون حديثا) ثم (المائتا حديث)، وهناك مشروع لإصدار (المائة حديث)، فإصدار هذه المجموعات من الأحاديث بشكل سهل الاستخدام ومنتقى يسهل على المسلم اليابانى استيعابها والعمل بها.

أما سيرة النبى عليه الصلاة والسلام فمنذ القرن التاسع عشر وحتى الآن صدر ما يقرب من ١٥ كتاباً، معظمها ترجمات من لغات أوربية يبدو واضحا فيها روح الاستشراق. ولكن فى عام ١٩٩٣ صدرت أول ترجمة عن اللغة العربية لكتاب من كتب السيرة من جمعية «مسلمى اليابان». وكانت الترجمة كاملة لكتاب (سيرة النبى) للسيد «حسن السباعى».

إن التساؤل الذى يظل يشغل المسلمين عن اليابانيين هو: ما هو اعتقاد اليابانيين عن الهدف من الحياة؟ وما هو اعتقادهم عن ما بعد الموت؟ كيف يتصورون خلق الكون؟ وفى الفترة الأخيرة كانت هناك أخبار أكثر عما قبل تنشر عن حوادث قتل وانتحار فى اليابان. فطرح التساؤل: هل هذا يعنى وجود خلل نفسى ما لدى اليابانيين؟ وفى ضوء ما يشاع أحيانًا من أن كل ما

يشغل اليابانيين هو السعى وراء المال، طرح البعض سؤال: هل اليابانيون بدون عقيدة؟ إلى آخر ذلك من التساؤلات.

ويتناول الكاتب فى هذا السياق بصراحة التساؤل فى العالم الإسلامى عما إذا كانت اليابان تعتبر «بلاد كفار» أو «دار حرب»؟

وربما يأخذ البعض هذا السؤال على إنه إهانة، ولكن الكاتب يعتبر أن بعض المسلمين يطرحونه، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. فهو سؤال هام يراودهم ولا يستطيعون تجنبه، وحول هذه النقطة يستعين الكاتب بما قاله المؤرخ والمفكر المصرى الإسلامى الراحل الأستاذ «أحمد أمين» منذ حوالى نصف قرن وهو:

«وحسبنا دليلاً على ذلك أن أمة اليابان وهى وثنية الدين لما حذت حذو أوروبا وأمريكا فى نهضتهما فأيدت علماء الطبيعة والكيمياء وعلمتهم التعليم الحديث وشجعتهم على الاختراع والابتكار ساروا سيرهم ووصلوا إلى ما وصلت إليه أوروبا وأمريكا وحاربوا روسيا وانتصروا عليها ثم حاربوا أوروبا وأمريكا وانتصروا عليهم أولا وإن انهزموا أخيرا. ولم تمنعهم وثنيتهم أولا من النهوض والتقدم وكان تقدمهم فى وسائل النهضة الأخرى مغطيا على انحطاطهم الدينى. فكيف لو صلح دينهم وسمت روحانيتهم؟» (٤).



نحن بالطبع لا نستطيع أن نمر مرور الكرام بمثل هذا الرأى، حيث إنه صادر عن مفكر بارز، وتضمن نقداً ضمنيا الذى وجهه الكاتب للديانات اليابانية. وهكذا نرى أنه أحياناً ينظر بعض العرب والمسلمين لليابان على أنها بلد بدون ديانة حقيقية، بل إن هذه النظرة موجودة بين بعض المثقفين وترجع إلى فترة زمنية بعيدة.

المتغيرات المختلفة فى التاريخ اليابانى:

ويوجه الأستاذ أمين ميزوتانى رسالة للرد على هذا الفهم لدى بعض العرب والمسلمين لليابان، ويستعين فى رده بتاريخ اليابان الطويل فى محاولة لتقديم صورة كاملة وواضحة للرد. ويرى أن هناك صعوبات تواجه الديانات عموماً فى المجتمع اليابانى من منظور تاريخى ولا يواجهها الإسلام وحده. وتحدث المؤلف بداية عن عصر حكم أسرة «إيدو» - وهو عصر جاء فى القرن التاسع عشر ويصنف فى التاريخ اليابانى باعتباره مهداً لعصر «ميجى»، وشهد قرب نهايته بواكير انفتاح على العالم الخارجى بما فى ذلك إرسال بعثات إلى أوروبا، خاصة بريطانيا وإلى مصر فى عامى ١٨٦٢ و١٨٦٤ للتعرف على أوجه تقدم هذه البلدان فى المجالات المختلفة وما حققته من نهضة فى ميادين الرى والتعليم والإدارة وغير ذلك. ففى عصر أسرة «إيدو» كانت البوذية هى الديانة التى تتبناها السلطة رسميا، بينما كانت المعابد تقوم بتسجيل معتنقى الديانة وتعنى بإدارة الأمور الخاصة بالأحوال الشخصية مثل إصدار أختام السفر والرحلات، وتسجيل عقود الزواج وشهادات الميلاد، أى كانت موكلة بالأعمال التى يقوم بها مكتب السجل المدنى فى هذه الأيام. وكذلك كانت المعابد تقوم ببعض أعمال الأجهزة الأمنية حاليا من المد بمعلومات وما إلى ذلك.

وبينما نعمت المعابد فى هذا العصر باستقرار وأمن أكثر من العصور السابقة، كما أنها اتصفت بالمرونة فلم تكن تطالب معتنقى الديانة بالتمسك والالتزام الحرفيين بتعاليم الديانة وبالتالى اتهمها بعض المؤمنين بالتراخى، فإنها بالمقابل كانت توصف بانتشار الفساد.

وعلى الجانب الآخر، شهد عصر حكم أسرة «إيدو» حركات كانت تظهر من وقت إلى آخر تدعو إلى إصلاح دينى داخل إطار الديانة البوذية. ومن أبرز هذه الحركات كانت حركة يسمى أصحابها أنفسهم بـ «أجداد الإصلاح»، لكن لم تحقق هذه الحركة نجاحاً يذكر لترسيخ جذورها. ولكن ذلك لم يعن أن شعلة العقيدة قد انطفأت تماماً، فهناك سجلات تاريخية عديدة عن تلك الحقبة تشير إلى أفراد من أسر ملتزمة دينيا من عامة الشعب أطلق عليهم تسمية «الصالحين»، ولكنها كانت جهوداً فردية لم تنتشر حتى تصبح ظاهرة اجتماعية أو تياراً دينيا أو عقائديا عريضاً.

واستمر هذا العصر ما يقرب من ثلاثمائة عام، فلم يسقط إلا مع سقوط حكم أسرة «إيدو»، وكانت البوذية كدين يقود اليابان جنباً إلى جنب مع السلطة التقليدية.

ثم يتعرض الكاتب لما حدث بعد ذلك من ظهور حكم أسرة «ميجى» الجديدة التى اهتمت بفكر الوحدة من أجل بناء دولة حديثة. وفى سبيل هذا الهدف كان للدين دور كبير كما أدرك السيد «إيتو هيروفومى» ومن اشتركوا معه فى إعداد دستور «ميجى». وهنا أصبحت الشينتاوية هى ديانة الدولة، حيث أصبحت المصدر الذى يدعم أيديولوجية النظام الإمبراطورى. كما أدى هذا التغيير العقائدى المفاجئ إلى الشينتاوية إلى ظهور حركات مناهضة للبوذية تدعو إلى البعد عن البوذية وقامت بتحطيم المعابد لمحو أثرها، وانتشرت هذه الحركات فى جميع أنحاء البلاد. وللإنصاف فقد استمرت بعض التحركات للإصلاح الدينى التى قام بها بعض من شباب الرهبان البوذيين، منها نشاطات الخدمات الاجتماعية وترجمة كتاب الديانة البوذية إلى اللغة اليابانية، بالإضافة إلى الاشتراك فى اجتماعات دولية لتفعيل التبادل مع أتباع الديانات العالمية، وكذلك إجراء الأبحاث والدراسات عن أصل البوذية فى الهند وتاريخها وتطورها. وبعد توصل تلك الأبحاث إلى نتائج علمية ونتيجة التفاعل المتناغم مع الاتجاهات البحثية العالمية الجديدة أمكن إضفاء أضواء جديدة على الشكل الأصلى للبوذية.

ويعود المؤلف للحديث عن هيمنة الديانة الشينتاوية على الدولة فى اليابان باعتبارها الديانة الرسمية للدولة ويعتبر أن نهاية هذه الحقبة جاءت عبر هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية. وتسببت هذه التجربة التاريخية المريرة - برأى الكاتب - فى أن يفقد غالبية اليابانيين ثقتهم فى العقيدة الدينية، بل وانتشار مشاعر الكراهية لها لدى البعض. ويشير الكاتب إلى مقولة كان يسمعها فى شبابه انتشرت وتوغلت بين صفوف اليابانيين تعبر عن السخط الذى شعر به كثيرون تجاه الديانات الموجودة، وكانت تقول «لقد فعلنا الكثير من أجل البوذية والشينتاوية ولكنهما لم يمدا لنا يد المساعدة». وكانت تلك المقولة - بحسب رأى المؤلف - تعبر عن مشاعر ساذجة ترفض تكلف العناء ومواجهة التجارب المريرة التى يتعين على المؤمن بالعقيدة تحملها.

ولذلك حرص الدستور اليابانى الجديد الذى صيغ عقب الحرب العالمية الثانية وفى ظل الاحتلال الأمريكى على الفصل بين الدين والسياسة بشكل واضح وقاطع، وعلى نزع الطابع الدينى عن كافة المؤسسات والمصالح الحكومية والرسمية، ولم يلق ذلك التوجه الجديد معارضة تذكر من المجتمع اليابانى وبمرور الوقت ترسخت جذوره فى المجتمع أكثر وأكثر. وفى ظل هذا الانتقال الفكرى لم تتوقف رغبة غالبية المواطنين عند مجرد الفصل بين الدين والسياسة، بل يعتبر الأستاذ أمين ميزوتانى أن رغبتهم تلك امتدت إلى السعى لنزع الطابع الدينى عن كافة مناحى الواقع المعاش. فبعد هذا التغيير الفكرى الذى شهدته فترة ما بعد الهزيمة، عبر إدخال الديمقراطية الليبرالية والفصل بين الدين والسياسة، تطور التحول ليشمل تطلع مشاعر قطاعات واسعة من الشعب اليابانى إلى القضاء على كل أثر للدين فى الحياة اليومية.

وفى ظل هذه الظروف جاءت فترات كانت غالبية المجتمع تنظر فيها إلى من يتمسكون بالدين بشكل سلبى. كما ترددت أقاويل، خاصة فى بدايات تلك المرحلة، مفادها أن القوات الأمريكية التى كانت تحتل اليابان حينذاك كان لديها خطة لاستغلال هذا الموقف تجاه الديانات اليابانية التقليدية لجعل اليابان دولة مسيحية. وبغض النظر عن صحة هذه المقولة من عدمها أو إلى أى درجة كانت القوة المحتلة جادة فى هذه الخطة، فالنتيجة برأى المؤلف كانت واضحة وهى عدم تحقق هذا الهدف - فى حالة افتراض وجوده أصلاً - وهو ما يراه أمراً طبيعياً، ففى ظل مشاعر بالرغبة فى القضاء على كل وأى أثر دينى، لم تكن المسيحية لتحظى وحدها باستثناء من هذه المشاعر.

«الدين باليابان بين جبلين»:

يستخدم المؤلف هذا التعبير ليشرح للقارئ العربى طبيعة ما يعتبره الوضع الحالى للعقيدة الدينية باليابان والذى يصفه كما لو أن شيئاً قد سقط فى أعماق واد محصور بين جبلين، ويدعو إلى عدم الحكم على مجريات الأمور بنظرة إلى التاريخ المعاصر الذى لا يشكل سوى جانب واحد من تاريخ اليابان. ويشير الكاتب إلى أن عامل السقوط فى ذلك «الوادى» كان هو السبب الذى أدى إلى استمرار فترة من الصعوبات التى واجهت عملية انتشار العقيدة الدينية باليابان، بحيث إن هذا لم يكن حال الدين الإسلامى فقط.

وإلى جانب الظروف التى سردها

المؤلف وعرضنا لها فيما تقدم، فإن مهمة التغلب على دوامة الحروب لمواصلة الحياة كانت من العوامل التى ساعدت على تشكيل الوضع الحالى للأديان فى اليابان، وكذلك كانت مهمة إعادة بناء الاقتصاد. كما أنه حدث تلازم زمنى بين تطورين: تزعزع الثقة فى العقيدة وتنمية الاقتصاد. ومن هنا جاء وصف «الوحش الاقتصادى» الذى أطلق على اليابان فى فترة ما، ولم يعبأ عدد كبير من اليابانيين بأن يطلق هذا المصطلح على بلادهم بل ولم ينفوا هذه الصفة عن أنفسهم، مما عكس أن قطاعاً كبيراً من اليابانيين غابت عنهم - ولو لفترة - احتياجاتهم الروحية الإنسانية.

ولكن إلى أى درجة وحتى متى يمكن أن تتغير «الفطرة» لدى بعض البشر؟ ويجيب المؤلف أن هناك ثوابت لا تتبدل، مثل حقيقة أن الإنسان يولد كفرد ثم يرحل إلى العالم الآخر كفرد بعد حين، ومثل أن الإنسان فى نهاية الأمر ضعيف ولكنه بالرغم من ضعفه يتصارع مع الآخرين من أجل البقاء حتى وإن بقى وحيداً فى معركته تلك. وهناك أيضاً حقيقة أن قلب الإنسان سوف يظل يسعى وراء الحق والعدل والاستقرار والسلام الذى تدعمه عزيمة لا تتزحزح لأن هذه هى الطبيعة الإنسانية. وإلى هذه الطبيعة الإنسانية أيضاً ترجع «عودة ظاهرة التدين» التى تشهدها اليابان هذه الأيام، كما أننا نستطيع القول أنها أحد العوامل التى ساعدت على زيادة الاهتمام بالأديان عموماً، وبالإسلام خصوصاً فى اليابان مؤخرا.

صعوبات خاصة تواجه اليابانيين فى طريق فهمهم للإسلام:

يرى المؤلف أن عدد الذين ينظرون إلى الإسلام نظرة جادة ويودون أن يتعرفوا على صورته الحقيقية يتزايد فى اليابان، ولكن غالبية هؤلاء لا يستطيعون فهم الإسلام والشعور بالتجانس مع فلسفته وتعاليمه رغم كل الجهود التى يبذلونها. ويشير المؤلف إلى وجود العديد من الصعوبات والعقبات التى تقف فى طريق من يحاول فهم الإسلام فهما صحيحاً فى اليابان. ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى أنه حتى هؤلاء الذين يهتمون بالتعرف على الإسلام ينقصهم الدافع الداخلى لمحاولة فهم محورية فكرة الإيمان فى الإسلام، كما أن الكتب التى تقدم الإسلام لليابانيين وتركز على روح الإسلام وجوهر رسالته تكاد تكون غير موجودة. ويعتبر الأستاذ أمين ميزوتانى أن روح الإسلام هى الصفاء مع النفس، أو ما يمكن وصفه بـ «السلام». وفى اللغة اليابانية كلمة (nagoyakasa) هى أدق الكلمات التى تعبر عن روح الإسلام فهى تعنى «الصفاء مع النفس والعيش فى سلم وتآلف ووفاق مع الآخر»، وهذه هى الصفات التى يجب أن يكون عليها الإنسان المسلم، دائماً بحسب المؤلف، وهو ما نتفق معه بشأنه.

(١) صعوبات التغطية الإعلامية للإسلام والمسلمين:

إن أكبر العقبات التى توجد مناخاً سيئاً حول الدعوة إلى الإسلام فى اليابان هى الأخبار اليومية فى الصحافة ووسائل الإعلام، والتى تقود الناس إلى الحيرة والدهشة والاستغراب على أفضل الأحوال، فهى لا تتحدث عن الإسلام إلا باستخدام مصطلحات مثل «متطرفين» أو «أصوليين» أو «إرهابيين» وما إلى ذلك.

وللحق، فإنه لا توجد فى اليابان نية مبيتة لتصوير الإسلام فى صورة مروعة بتغيير الحقائق مثل تلك التى توجد فى بعض الدوائر فى أوروبا وأمريكا. ولكن بالرغم من ذلك، فإن نقل التغطية الإعلامية عن وسائل الإعلام الغربية يوجد تأثيراً من الإعلام الموجه من الغرب فى تناول قضايا الإسلام والشرق الأوسط على الرأى العام اليابانى يوجهه فى اتجاهات معينة قد تكون بعيدة عن الحقيقة.

(٢) الخلط بين الدين والعلم:

والعقبة الثانية التى يشير إليها الكاتب هى عقبة يرى أنه من الصعب أن يلحظها أحد، ويعنى بها فهم الإسلام على أنه علم. إذا ما نظرنا إلى هذا الفهم على أنه يصور الإسلام مجالاً للبحث والدراسة. ويعتبر المؤلف أن هذا قد يكون جيداً على المدى القصير، ولكنه يضل عن الرسالة الأساسية للإسلام كدين وعقيدة إيمانية.

ويساوى الكاتب بين الوضع فى اليابان ومثيله فى دول الغرب، حيث يزداد الاهتمام بالعلوم المتعلقة بالإسلام كموضوعات بحث ودراسة فى علم الفلسفة وعلم الديانات المقارن والتشريع وما إلى ذلك، كما يوجد اهتمامات من النواحى الأنثروبولوجية والاجتماعية لدراسة ظواهر مثل الصوفية والأصولية. كما يتم استخدام مناهج بحث تستخدم نتائج نظريات علم النفس لتحليل تعاليم الإسلام من منظور الإدراك، بل إن هناك أيضاً محاولات للتحليل باستخدام علم الأعصاب عبر إجراء أبحاث علمية طبية فى فرع المخ والأعصاب لكشف النقاب عما يعتبره البعض البعد الفسيولوجى للإيمان بعقيدة، أى أن الإسلام يتعرض لتحليل وتشريح من كافة فروع العلم الحديث، ولكن دون أن نجد فرعا يهتم بالإسلام كروحانيات وعقيدة أى ينظر إليه ويعالجه بعيداً عن العلوم المادية المحسوسة.

ويرى الأستاذ أمين ميزوتانى أن هذه العقبة لا يعانى منها الإسلام وحده، فعندما ننظر إلى التاريخ نجد عبارة من القرن الثانى عشر تركها مؤسس أحد أكبر المذاهب البوذية يقول فيها «يتحدث الكثير من العلماء والحكماء ويتناولون الهدى بالتحليل العلمى، بينما المفروض أن نستغرق فى التراتيل وليس بالظاهر كأهل العلم والمنطق». وهكذا يخلص المؤلف أنه من قديم الأزل شرقا وغربا يوجد اتفاق على أن الإيمان ليس علما أو موضعاً لعلم، وبالمقابل يعتبر ما يسميه «تقديس العلم وتبجيله» مرضاً أصاب اليابانيين منذ انشغلوا فقط بالعلوم الحديثة ومناهج دراستها.

ويعود المؤلف هنا من جديد للتحدث عن «الوسيط الغربى» فى تعريف المجتمع اليابانى الحديث بالإسلام، ويبنى حديثه على افتراض يسلم هو بصحته مسبقاً وهو أن نظرة الإجحاف المبيت من الغرب للإسلام حقيقة يصعب تجاهلها، وهى نظرة مستمرة لدى الغرب منذ الحروب الصليبية، وربما قبل ذلك. كما أنه فى العصر الحديث فإن أهم علماء الإسلاميات الغربيين من اليهود حتى وإن تلفعوا بعباءات المنطق والدليل العلمى. ويخلص المؤلف أنه بالتالى فإن علم الإسلاميات الذى ورد إلى اليابان من الغرب فى التاريخ الحديث والمعاصر، وإن لم يفصح عن عدائه للإسلام، فهو على الأقل يتعامل معه على أنه موضوع للبحث الحيادى والتشريح.

عام ١٩٦٨ تم تجديد مسجد طوكيو بمساعدة من الحكومة الكويتية، وفى العام نفسه اعترفت السلطات المسئولة لأول مرة بجمعية مسلمى اليابان وبالإسلام كأحد الأديان المتواجدة فى اليابان

فعلى سبيل المثال، ركز بعض علماء الإسلاميات فى الغرب على الشريعة فى الإسلام،(٤) فى حين يدفع المؤلف أن جوهر رسالة الإسلام هو المشاعر الصافية المؤمنة والإيمان الخالص من القلب.

ويرى الكاتب أن اليابان كانت تعانى من عبء مضاعف فى هذا الصدد شكله كل من الموقف الذى فرض عليها بأن تبدأ دراسة العلوم باستيرادها من الخارج من جهة، وكذلك الموقف الذى فرض عليها التأثر بالموقف الغربى من الإسلام من جهة أخرى.

(٣) أكبر العقبات: انصراف الناس عن الاهتمام بالروح والعقائد:

وأخيراً يتحدث الكاتب فى هذا الجزء عن أكبر العقبات التى تواجه فهم المجتمع اليابانى لحقيقة الإسلام بحسب رأيه، وهى عدم وجود ما يشرح طبيعة الإحساس بالإيمان أو شعور القلب العامر بالإيمان.

ويرجع المؤلف ذلك إلى الاستبعاد الطوعى الإرادى من جانب غالبية اليابانيين لكل ما له علاقة بالدين على مدار الستين عاماً الأخيرة، وبتعبير آخر، أصبح عالم الروح بكل سحره وجاذبيته بعيدا إلى حد كبير عن غالبية اليابانيين فرادى وجماعات.

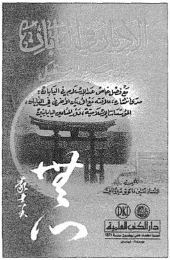
ويعود المؤلف ليؤكد على أن التعامل مع الإسلام من منطلق أنه علم ومادة بحث لا يؤدى إلى فهم روح الإسلام، ويشدد على أن الإيمان يعتمد على العامل النفسى الإلهامى والروحانى، ولذلك يرى أن الكثير من الديانات تعتبر الفنون التشكيلية والموسيقى وسائل مساعدة تؤدى للإيمان.

ويخلص الأستاذ أمين ميزوتانى إلى أن سبب تعثر اليابانيين فى فهم حقيقة الإسلام لم يكن العادات والطقوس التى لم يألفوها بل كان لأنهم لم يتعرفوا على روح الإسلام وجوهر رسالته.

ويطرح الكاتب السؤال ويحاول الإجابة عنه. والسؤال هو: ما هو هذا العالم الروحانى الذى يستشعره من يؤمن بالإسلام؟ وما الذى يشعر به من يعمر قلبه بالإسلام؟

وفى معرض محاولة الرد يذكر الكاتب أن الإجابة الموجزة تكمن فى كلمة واحدة وهى: «الصفاء»، الذى هو - بحسب رأيه - روح الإسلام، ويعتبره بعيداً كل البعد عن العنف والقهر، بل هو القلب العامر بالحب والشكر المتواصل. هو أمر لا يستطيع الإنسان التوصل إلى معرفته من مئات النظريات أو الوثائق أو السجلات، بل يستطيع المرء

الإسلام .. الياباني !!



أن يستشعره في مشهد إنسان يصلي في خشوع، وربما في الطبيعة بكل ما فيها حيث يقودنا التأمل في الطبيعة إلى أن نشعر بنعمة الحياة ونتمنى الخير لكل من حولنا. ومن أجل المحافظة على قلب بكل هذا الصفاء، يؤمن الكاتب بأن هناك شعلة من الإيمان لا تنطفئ تظل موقدة في قلب المؤمن. ويخلص المؤلف إلى أن «الاهتمام بالإيمان» هو أهم ما يفتقده تعريف الإسلام في اليابان، وهو ما يحاول أن يركز عليه في بقية كتابه.

أ. تساؤلات اليابانيين: يتناول الكاتب ما يعتبره التساؤلات الرئيسية لليابانيين بشأن الإسلام ويحاول الرد عليها، وذلك على النحو التالي:

١. جوهر العقيدة

فيما يتعلق بهذا الموضوع يذكر المؤلف أن الإسلام دين توحيد، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل يستطيع اليابانيون استيعاب هذه النقطة المحورية المتصلة بوحدانية الإله؟

«التوحيد»:

ويتساءل الكاتب: كم يابانيا يستطيع أن يقتنع بفكر التوحيد هذا دون أن يناقشه ويجادله؟ ويرد بأن اليابانيين لن يتقبلوا هذا الفكر بسهولة، أو على أفضل الأحوال سوف يتساءلون: «وما الفارق بين هذا الفكر وما تقوله البوذية من أن كل شيء عدم، أي لا وجود مطلقا». وبناء على ذلك يخلص المؤلف إلى أنه لا أمل في تحريك قلوب اليابانيين باتجاه القبول بالإسلام إذا ما تم البدء بالحديث عن أسس الإيمان الخمسة في الإسلام (وهي الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر)، وذلك نظرا لأن الشعب الياباني له خلفية ثقافية مختلفة، ولا تناسبه مناهج الدعوة المعهودة في المجتمعات الإسلامية.

«روح الإيمان»:

يسرد المؤلف تعريفا تقليديا للمسلم وهو أن المسلم هو كل من يسلم الروح والجسد إلى الخالق، حيث ينسى كل ما حوله وإرادته الخاصة ويترك كل مجريات الكون ليدعو ربه ويطيع ما أمر به الله واثقا في رحمته وقدرته.

ويتساءل: لماذا يتوكل المؤمن على الله في كل شيء؟ ويحاول الإجابة بالقول بأن السبب في ذلك يرجع إلى أن المسلم يرى في الله القدرة والرحمة والعدل، حيث يشعر بكل كيانه: بقلبه وعقله، باجتماع الحق والخير والجمال في الله سبحانه وتعالى، وهو بذلك يشعر بقيمة وجوده في الحياة ويصبح مقتنعا بأن من شأن هذا الإيمان أن يضمن له الأمن والفوز يوم البعث، فغالبية المسلمين ـ طبقا لهذا التعريف ـ لا يعبأون كثيرا بالدنيا ـ أو هكذا المفترض ـ قدر ما تشغلهم الآخرة.

ويذكر الكاتب في هذا المقام بعض الحركات التي يقوم بها المسلم مثل أن يرفع يديه داعيا راغبا رحمة الله ورعايته ثم يمسح وجهه بكفيه وكأنه تلقاها من ربه وشعر بها، وكذلك الارتياح والسعادة التي ترتسم على وجه المؤمن العابد بعد أن يفعل ذلك، كما يشير إلى مشهد المسلم وهو يذكر اسم الله عز وجل وهو يرفع عينيه إلى السماء بنظرات سابحة وكأنه يرى شخصا ما عن بعد.

«أسماء الله الحسنى»:

يقول المؤلف في كتابه أن الله واحد، وأسماءه الحسنى تسعة وتسعون اسما، وهي أسماء تصف قدرة الله وعظمته. وهو يرى أن أسماء الله الحسنى ليست محدودة بتسعة وتسعين اسما فقط، ولكن هذا العدد مثال على صفات وقدرات لا حدود لها. ويعتبر أن هذه الأسماء جميعها لها واقع السحر على المؤمنين، ولكن في بعض الأحيان يتساءل البعض أي أسماء أكثر سحرا وتأثيرا؟ ففي بعض الأحيان يقولون إنها الأسماء التي تعبر عن القوة، وأحيانا أخرى يقولون إنها الأسماء التي تعبر عن الرحمة والحب، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وجود الله في أذهانهم دائما يرونه: قويا حينا ورحيما حينا آخر.

ويشبه المؤلف ذلك بمقولة تذكر في الديانة البوذية «نرى بوذا في شمس المغيب»، ويجذب الاهتمام إلى التشابه بين القلوب المؤمنة بين أتباع مختلف الديانات، وهي التي تحاول أن تتخيل خالقها وإلهها في عدة صور ومواقف.

وجود الله

يواصل الأستاذ أمين ميزوتاني طرحه، حيث يذكر أنه حتى وإن أدرك اليابانيون أن جوهر العقيدة يكمن في قيام الإنسان بطاعة وعبادة الله وما يجلبه ذلك من صفاء النفس وشعور بالسعادة، فإن الكثيرين منهم سوف يتساءلون قائلين: «هل حقا الله موجود؟». ويقر المؤلف بأن من يسأل مثل هذا السؤال لن يكون مؤمنا، ولكن هذا لا يمنع غالبية اليابانيين من غير المؤمنين من طرح هذا السؤال، وذلك كرد فعل طبيعي وإنساني. ولكن إذا لم يبد المؤمنون بالإسلام اهتماما ولو بسيطا بالإجابة عن أسئلة هؤلاء فلن يستطيعوا مساعدتهم على إدراك روح الإيمان التي سبق وتحدثنا عن تناول المؤلف لها. ولذلك يخصص المؤلف جزءا من كتابه للحديث عن حقيقة وجود الله.

ويورد المؤلف مقولة البعض بـ «أن الله موجود لمن يؤمن به». ولكن هذه الإجابة تبدو له وكأنها مجرد تكرار للكلمات لكنها لم تأت بجواب، وبالتالي يحاول أن يجتهد لتقديم إجابته هو، والتي تتلخص في أن اختلاف الأمور في عالم الواقع تبدو للمؤمنين دليلا قاطعا لا مجال للشك فيه على وجود الله. فعلى سبيل المثال، بعد سماع موسيقى جميلة، أو مشاهدة فن تشكيلي راق يشعر الإنسان بسعادة وارتياح وهذه تجربة قد مر بها الكثيرون. وبعد ذلك ولفترة ما يشعر الإنسان بأن كل ما يسمعه ويراه قد أصبح جميلا. إذا، يتساءل المؤلف، لماذا لا نجد من يسأل عما إذا كان الجمال موجودا أم لا، والإجابة لديه هي أن هذا ناتج عما لمس الإنسان حقيقة وجوده بتجربة ملموسة فلم يوجد داع للاستفسار عن وجود الجمال من عدمه.

وينطلق المؤلف للتحليق في سماء تأملاته عن جوهر الإسلام فيذكر أن من أسلم قلبه لله وحافظ على تعاليم الإسلام فقد وضع خطا فاصلا بين قبل الإسلام وبعده، وهو عندئذ يجد الأدلة والبراهين على وجود الله حوله، ومع كل دليل وبرهان يشعر بحلاوة الإيمان ويزداد إيمانه صلابة.

ويضرب الكاتب مثالا على ذلك بالصدقة، ففي بادئ الأمر يؤديها المؤمن كمساعدة لشخص فقير يحتاج إليها، ثم ترتقي مشاعره إلى أن يدرك أن هذا واجب فرضه الله عز وجل عليه ويجب أن يؤديه، وعندما يصل إلى هذه المرحلة - بحسب المؤلف - يكون قد وصل إلى المعنى الحقيقي للإيمان، وهو يمثل قيم التسامي والترفع، ويكون هذا بالنسبة له مصدر الغبطة المؤسسة على الحقيقة الأبدية، ألا وهي النعمة والفوز العظيم أو كما ذكر المؤلف من قبل باللغة اليابانية «nagoyakasa». فالإيمان بوجود الله هو أساس العقيدة في الإسلام، ويرى الكاتب أننا لا نصل إليه بالأدلة والمنطق بل يسعى الإنسان إليه ويطلبه بقلبه.

الدافع وراء البحث عن الله عز وجل:

يطرح المؤلف تساؤلا يراود اليابانيين وهو: ما الذي دفع العرب إلى البحث عن إله والتوكل عليه؟ ونوجز هنا رد المؤلف عبر ثلاث نقاط على النحو التالي:

النقطة الأولى: أن لدى المسلمين قناعة بأن الإسلام هو أفضل الديانات بالنسبة للإنسان وكذلك قناعة بأن الأمة الإسلامية أفضل أمة شهدتها البشرية. وهذه القناعة تحمل بدورها دلالة ضمنية وهي أن الدين الإسلامي والأمة الإسلامية كان يجب أن ينظروا إلى الديانات والأمم الأخرى كمنافسين للإسلام والمسلمين.

وفي العصور الأولى، كان الإسلام محاطا بديانات الشرك القبلية المتعددة في شبه الجزيرة العربية بالإضافة إلى اليهودية والمسيحية، ولذلك كانت هناك مشكلة اختيار ديانة للاعتناق، ولكن لم يكن هناك مجال للبقاء دون عقيدة. ويرى المؤلف أن هذا المناخ الديني ظل مستمرا حتى الوقت المعاصر، ويضرب مثالا على ذلك بأنه مع انهيار الاتحاد السوفيتي وحركة الإحياء الديني التي تبعته في الجمهوريات السوفيتية السابقة، شهدنا انقساما بين من يختارون المسيحية الشرقية أو الإسلام. وفي أفريقيا يعتبر الكاتب أن هناك توترا بين الشمال المسلم والجنوب المسيحي. وهنا لا يبدو الكاتب ملما بالتفصيل أو الدقة اللازمة بالأوضاع الدينية لأفريقيا، حيث إن عدد أتباع الديانات الأفريقية الأصلية يفوق المسيحيين في عدد من دول القارة، كما أن الإسلام موجود أيضا في العديد من دول جنوب وغرب وشرق ووسط القارة وغير مقصور على الشمال.

النقطة الثانية: يذكر المؤلف أن من فهم مضمون الدين وتمكن منه يمكن تصنيفه كأحد الموهوبين بموهبة ما، وهذه الموهبة تتطلب حسا راقيا من الإدراك البديهي والإلهام. وإذا كان المناخ الديني مساعدا فهذا يساعد على زيادة ثقل هبة الإلهام والارتقاء بها. وكذلك فإن احتياج الإنسان إلى ما يدعمه روحيا يساعد أيضا على الرقي بموهبة الإلهام وإدراك الأمور بالحس البديهي. ويقرر المؤلف أنه مر شخصيا بالعديد من المواقف التي أكدت له رقي هذه الموهبة بشكل ملحوظ لدى العرب على وجه الخصوص.

ويعطي المؤلف أمثلة على ذلك: فعندما

بنظر المرء إلى المسلم وهو يرفع يديه داعيا ربه تحت الشمس الحارقة وهو لا يعبأ بحرارتها الشديدة، يشعر المرء بطاقة وتركيز لا حدود لهما. ويقارن المؤلف هذا الوضع بمثيله لدى اليابانيين فيخلص إلى أنه يشعر بأن مثل هذا التركيز ومثل هذه الطاقات موجودة لدى اليابانيين أيضًا ولكنها موجهة لأشياء أخرى غير التعبد.

النقطة الثالثة: يقول المؤلف أن العلاقة فى الإسلام بين العبد وربه تتصف بالمثالية، ويشير إلى عبارة الفيلسوف الغربى «نيتشيه» التى تقول «لقد ماتت الآلهة»، كما يشير إلى نظرية الرقى عند «تشارلز داروين» ويعتبرهما وجهين لعملة واحدة، وهى التعبير عن الشعور برفض الإله بسبب تجاوزات الكنيسة الكثيرة والطويلة. أما المسيحية المعاصرة فركزت على الأخلاق، أى علاقة الإنسان بالإنسان، وليس على العلاقة بين الله والعبد المؤمن. أما بخصوص البوذية، فيقول المؤلف أنها ركزت على أهمية أن تكون هناك علاقة قريبة وودودة من «الإله» مما ساعد على تراخى ملكة الإلهام وأدت إلى إثقال القلب المؤمن عندما أقرت طقوسا للتقرب من الإله. وكذلك أفرزت نفس الأثر عندما قالت بأن جلسة «الزن (طريقة التدريب البوذى بالجلوس والتأمل)» هى نفسها جلسة الإله. كما أقرت بأن صفات الألوهية موجودة فى جميع البشر، وأن الفرد يستطيع أن يكون ربانيا بمجرد قراءة التراتيل، وأن كل من يموت يصبح إلهًا.

وعلى الجانب الآخر، ففى الإسلام لم يكن هناك تاريخ لنقد أو رفض للإله، ولم تكن هناك طقوس شكلية للتقرب من الله. وهناك أيضا توازن شديد بين الرهبة والرحمة فى العلاقة بين العبد وربه. فعندما يتجه العبد إلى ربه يظل محافظًا على علاقة تسودها الرهبة من الله والثقة فى رحمته.

ويعترف المؤلف أنه بينما يصف علاقة العبد بربه فى الإسلام على أنها علاقة سوية مقارنة بالمسيحية والبوذية، فإن هذا لا يعنى أن المسلم يفكر فى وصف أو تقييم لهذه العلاقة، بل ولا يجد داعيا على الإطلاق للتفكير فى تقييم هذه العلاقة. فالمسلم لا يفكر سوى فى تلبية الله وطاعته وهذا هو كل ما يشغله.

حماسة الإيمان لدى معتنقى الدين الإسلامى

ويتطرق المؤلف هنا إلى نقطة هامة، وهى أن الإنسان يحتاج إلى صبر ومثابرة وشغف بالإيمان وقوة تحمل للمحافظة على هذه الحالة من الصفاء والنقاء التى تحدث عنها فيما سبق، ولكنه يقر مرة أخرى بأنه من الصعب على اليابانيين تفهم شغف المؤمن بإيمانه بسهولة.

ويعود المؤلف هنا مرة أخرى إلى النقطة التى بدأ منها، وهى صعوبة بدء التحدث مع اليابانيين عن الإسلام بنظرية التوحيد. وهذا يرجع - وبحسب رأيه - إلى أنها إحدى نظريات الألوهية فى علم الديانات ومن الصعب على عامة الناس استيعابها. ولكن هناك سببًا آخر يسرده المؤلف ويعتبره الأكثر أهمية، ويتمثل فى كيفية تعريف الإله فى «نظرية التوحيد»، حيث لكى تتضح معالم الصورة كاملة يجب مراعاة وجود الشعور والحماسة للإيمان لدى المسلمين، حيث يشبه المؤلف هذه الحماسة بجريان متدفق لحمم بركانية، ويرى أن هذه الحماسة الدينية هى بمثابة قوة دافعة تجرى فى قلوب المسلمين جميعًا بشكل مشترك وهو أمر لا يحتاج للجدال أو النقاش، وقد يكون هذا الشعور الدينى هو السبب فى وجود حاجة طبيعية بالنسبة لهم للتطرق إلى البحث والجدل فى التوحيد. أما بالنسبة لليابانيين، فإن المؤلف يخلص إلى القول بأنهم إذا لم يقوموا بإعادة النظر فى كيفية فهم وإدراك هذا الشعور الدينى الذى يتملك قلوب المسلمين، وأيضا إذا لم يستطيعوا الشعور بهذه القوة الإيمانية الدافعة الثابتة لدى المسلمين، تصبح عندئذ نظرة اليابانيين قاصرة تفتقد الشمولية تجاه فهم الدين الإسلامى، ومن هنا يعتبر المؤلف أن نظرية التوحيد ليست إلا جانبًا واحدًا من صورة أشمل.

ويتناول المؤلف فريضة الحج، حيث يذكر أنه فى كل عام يجتمع أكثر من مليونى حاج من جميع بقاع الأرض يرتدون الملابس البيضاء ويتكاتفون فى صلاتهم وقد وصف هذا المشهد العظيم كثير من الحجاج اليابانيين فى سجلات دونوها، يصفون فيها تساوى جميع البشر فى هذا الموقف العظيم، وهو تساوى يدعمه صفاء القلب ونقاؤه، وعظمة هذا المشهد التى تذوب له القلوب ويمثل قوة هائلة تعكس طاقة الإيمان فى الإسلام.

ويعود المؤلف للمقارنة بين الإسلام والبوذية فيشير إلى كلمة «متدين» فى اللغة العربية وهى تستخدم فى الحديث عن هؤلاء الذين لا يحيدون عن طريق الإيمان، ويقارن بينها وبين كلمة «ميوكونين (الصالحين)» فى اللغة اليابانية التى كانت تستخدم فى عصر حكم أسرة «إيدو» للإشارة إلى الذين لا ينحرفون عن طريق البوذية، وكان الذين ينتمون لهذا التصنيف من المؤمنين يتميزون بقوة إرادة شديدة فى تعبدهم.

وفى ختام كتابه، يعود المؤلف لتأكيد قناعته بأن الشغف بالإيمان وقوة الإرادة هما العاملان الأساسيان اللذان يرتكز عليهما الإيمان، وهما المجالان اللذان أغفلتهما - بحسب رأيه - العلوم العديدة التى تدرس الإسلام فى اليابان وغيرها من البلدان غير الإسلامية، وهما من مفاتيح الفهم الصحيح للإسلام فى اليابان خاصة، وإذا ما تم إغفالهما، يكون قد تحقق المثل الشعبى اليابانى الذى يقول «صنع إلهًا ولم يضع فيه روحًا». فبدون محاولة شرح هذين المجالين، يرى المؤلف أنه لن تجدى الدراسة المضنية للإسلام فى الوصول إلى شىء. ويشير المؤلف إلى أن ما يقترب من ستين دولة أصبحت أعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى، أى ما يقترب بدوره من ثلث دول العالم، كما أن المسلمين يشكلون أكثر من ٢٠٪ من نسبة سكان العالم. ولكن إذا ما أخذنا فى الاعتبار الازدياد الكبير فى عدد المسلمين وتناقص عدد معتنقى الديانات الأخرى، يخلص المؤلف إلى أن الإسلام سيصبح فى القريب أكبر الديانات فى العالم تليه المسيحية (وهى حاليا تمثل ٢٧٪ من سكان العالم)، ويعتبر المؤلف أن منبع هذه الطاقة الجبارة التى مكنت الإسلام من الانتشار لم تكن الدراسات التى قامت بها كليات العلوم الدينية أو الفلسفية أو غيرها من العلوم ولكنها كانت بسبب الإيمان الذى يملأ قلب كل مسلم وبالتالى يصنع فى مجموعه قوة الأمة الإسلامية.

وهكذا نرى خصوصية منهج المؤلف فى معالجة موضوعه. فأصول الديانة البوذية للكاتب تؤثر فيه بشكل لا إرادى وتجتمع مع تأثر واضح بالمنهج الحدسى. والذى ينطلق من أرضية المطلقات والجوانب الروحية المجردة. والتركيز على المعنوى والشعورى بعيدًا عن المحسوس. ومن هنا يبرز المؤلف مفاهيم تقترب بها معنا فى بعض أجزاء الكتاب من الصوفية.

اصطحب الجيش اليابانى عددًا كبيرًا من الأسرى من مسلمى وسط آسيا فى حرب اليابان وروسيا التى دارت عام ١٩٠٥، وهؤلاء الأسرى قاموا ببناء مسجد وكذلك أسسوا منطقة لمقابرهم

كما نرى فى بعض أجزاء الكتاب نقدًا للديانة البوذية وأساليب ممارستها من جانب أتباعها من اليابانيين، وهو أمر ليس بالغريب على كل من يتحول من دين إلى دين آخر بشكل عام، وذلك حيث إنه ما كان ليترك دينه الأصلى فى المقام الأول إلا لو كان ليس مجرد مقتنع بالدين الجديد وإنما لديه من الاعتراضات والتحفظات على دينه الأصلى ما يحمله على تركه، وهو قرار عادة ما يكون شديد الصعوبة لدى معظم البشر.

ونرى فى الكتاب تعظيمًا للذاتى على الموضوعى، وهو ما يتسق مع الملاحظتين السابقتين، كما أنه يقف فى نفس مربع الفكرة الأساسية فى التفسير الغالب للعقائد الدينية بشكل عام، ألا وهى غلبة مفهوم المسئولية الفردية والمساءلة والمحاسبة للفرد فى إطار الإيمان وما يترتب عليه.

وفى الكتاب طرح إيجابى يتعلق بأهمية إدراك أن الدعوة لأى دين - أو حتى عقيدة دينية - يجب أن تراعى خصوصية المكان والزمان الذى تتم الدعوة فى إطاره وما يتصل بذلك من سياق تاريخى وتطور ثقافى واجتماعى، بل ما قد يرتبط بذلك من أوضاع اقتصادية وسياسية، بحيث يكون على الدعوة التكيف مع هذا الواقع حتى تحقق نجاحها وانتشارها والتأقلم مع المعطيات المتوافرة فى البيئة المحيطة، وموازنة ذلك مع ضرورات الاحتفاظ بالحد الأدنى من القيم الخاصة بهذه العقيدة والتى تحفظ لها هويتها وتماسك منظومتها. ■

الـهـوامـش

١ - (الدورية السنوية للأديان) صادر من مصلحة الثقافة بوزارة التعليم اليابانية عام ٢٠٠٤، صفحة ٣٠- ٣١ .

٢ - مقال بعنوان «الإسلام فى اليابان» مجلة «نيوزويك الطبعة اليابانية» ٢٥ فبراير عام ٢٠٠٤ (من صفحة ١٦ إلى ٢٣). كتاب (مجتمع المسلمين فى اليابان) للكاتبة «ساكوراى كيكو» عام ٢٠٠٣ (تشيكوما شوبو للنشر).

٣ - (اليابانى فى مكة) دارة الملك عبد العزيز، الرياض عام ١٩٩٩ .

٤ - كتاب (يوم الإسلام) دار النهضة، القاهرة فى ١٩٥٢، صفحة ١٣٨ . يستخدم الكاتب لفظ «الوثنية» الذى يعنى «دون عقيدة» وكذلك تحمل معنى «أصحاب الديانات الأخرى (غير السماوية)».

٥ - (الحضارة الإسلامية) جيب هاميلتون، كينوكونيا ١٩٦٧، صفحة ١١٨ .



هيمنة عولمية واشتباك حضارات وما زالت اليابان يابانية!

فكـرى أنـدراوس

كيف تعلمت اليابان من الغرب؟ وكيف اختلفت فى طريقها للتقدم الحديث عن الغرب؟ لم يكن انفتاح اليابان «سداح مداح وكل شىء مباح» كما قال أحمد بهاء الدين ـ رحمه الله ـ فى وصف الانفتاح المصرى

■■ اليابان بلد دمرها طموح حكومتها الاستعمارى فى منتصف القرن الماضى. قتل خلال تلك المغامرة اليابانية حوالى ثلاثة ملايين يابانى ما بين مدنيين وعسكريين وانتهت بالتدمير التام وبقنبلتى هيروشيما وناجازاكى سنة ١٩٤٥ . استسلمت اليابان للحكم العسكرى الأمريكى الذى استمر حتى سنة ١٩٥٢ وما زالت هناك قاعدة عسكرية أمريكية كبيرة فى أوكاناوا. كيف نهضت اليابان بعد هذا الدمار الشامل فى فترة وجيزة لتصبح ثالث قوة اقتصادية فى العالم؟ إنها الآن ثانى قوة اقتصادية فى العالم.

بدأ الصراع اليابانى مع الغرب فى القرن التاسع عشر كما حدث فى مصر. كان الصراع فى أساسه صراعًا حضاريًا (وهنا لا أقصد صراع الحضارات من وجهة نظر صمويل هنتجتون، بل اقصد الصراع بين دولة متقدمة تكنولوجيا وأخرى غير متقدمة أو ليست على نفس المستوى. فمثلا الصراع بين العرب وإسرائيل هو صراع حضارى فى أساسه كما ذكر المستشار محمد سعيد العشماوى، دار المعارف سنة ١٩٩٧). استوعبت اليابان حقيقة ذلك الصراع. تعلمت منه وتخطته دون أن تفقد ثقافتها المميزة ومازلنا نتعثر.

كانت مصر فى عهد محمد على أول دولة غير أوروبية تسعى للتحديث، لقد سبقت مصر اليابان فى محاولة التحديث بقرابة نصف قرن. كانت مصر فى قلب العالم وذات موقع متميز ومحل أطماع عديدة، بينما كانت اليابان على أطراف العالم ولم تكن فى أهمية مصر. ولكننا أيضًا لم نستوعب الصراع الحضارى كما استوعبته اليابان، إننا نستوعب فقط قشور الحضارة الغربية دون التعمق فى أسبابها الحقيقية وهى الديمقراطية، احترام الإنسان، التعليم الجيد المبنى على تنمية القدرة على التفكير بدلاً من التلقين، وأيضا الفصل بين سياسة الدولة والدين أو بالأحرى سلطة بعض رجال الدين وتفسيرهم المحدود للدين. إننا متيمون بالغرب... نحب منتجاته ونعجب به، ولكن فى نفس الوقت نكرهه لأنه يذكرنا بضعفنا ونقف أمامه عاجزين رغم ما لدينا من تاريخ عريق ومن قوة ضعفت وتوارت وإن كانت مازالت كامنة.

فى هذا المقال سأستعرض تاريخ اليابان منذ بداية صراعها الحضارى مع الغرب، بل ومع أمريكا على الأخص. كانت هناك مرحلتان بارزتان لذلك الصراع، الأولى كانت فى منتصف القرن التاسع عشر والتى انتهت بانتهاء نظام الإقطاع اليابانى وبداية التحديث. والثانية كانت خلال الحرب العالمية الثانية والتى بدأتها اليابان كدولة استعمارية على نطاق الغرب، بل ونافسته وتوسعت أكثر من إمكانياتها، مما أدى إلى هزيمتها هزيمة ساحقة خلال الحرب العالمية الثانية.

كيف تعلمت اليابان من الغرب؟ وكيف اختلفت فى طريقها للتقدم الحديث عن الغرب؟ لم يكن انفتاح اليابان «سداح مداح وكل شىء مباح» كما قال أحمد بهاء الدين ـ رحمه الله ـ فى وصف الانفتاح المصرى. لقد رفضت اليابان الكثير من نظم أمريكا الاقتصادية ، تلك النظم التى تفرضها أمريكا على كل الدول التابعة ـ ومنطقتنا من ضمنها. إن النظام الرأسمالى اليابانى يعطينا نموذجًا أفضل من نظيره الغربى. فبالإضافة إلى النجاح الاقتصادى فاليابان كانت شديدة الحرص على ثقافتها، ولو لم تكن اليابان قد حافظت على ثقافتها لكانت قد وقعت فى هاوية التبعية الحضارية والاقتصادية وسأتحدث عن ذلك.

إن اليابان بلد جميل، وأهله لهم طابع متميز فى الجمال وتذوقه. ولكن مع هذا الإحساس بالجمال والقدرة على تذوقه، فاليابان يبدو للبعض أنه بلد به قدر كبير من العنف، يخشاه جيرانه ولا يثقون به كثيراً. هل حقيقة أن اليابان به قدر كبير من العنف؟ سأتعرض لبعض تلك الأسباب فى هذا المقال.

إن خصوصية اليابان بل خصوصية أى دولة قد لا تجعل خبرتها أو ثقافتها صالحة للنقل والاستعارة. ولكن وراء اليابان درسًا لو استوعبناه قد يفيدنا فى تحديد بعض مفاهيمنا الاقتصادية والثقافية. هناك دول كثيرة تدرس النموذج اليابانى وتتعلم منه. إن بعض كتابات الأفغانى بها إشارة لليابان بوصفها نموذجًا للنهضة الشرقية. لقد ترجم د. نصر أبو زيد كتاب عن الساموراى وهم فرسان ونبلاء اليابان (البوشيدو، دار سعاد الصباح سنة ١٩٩٣) . اشتمل هذا الكتاب على مقدمة طويلة (٥٩ صفحة) وعميقة وشيقة، قارن فيها د. أبو زيد بين ثقافتنا وثقافة اليابان وكيف يمكننا أن نستفيد من تجربة اليابان التى حققت تقدمها مع احتفاظها بجذورها الثقافية.

كان النظام السائد فى اليابان حتى أواخر القرن السادس عشر نظاماً يحكمه عدد كبير من الإقطاعيين، كان هناك أكثر

رغم اتصالها المحدود بكل من الصين وكوريا والهند، فإنها كانت دولة تكاد تكون مغلقة على ذاتها. فى أواخـر القرن السـادس عشـر ابتدأ بعض المبشـرين الكاثـوليك من إسبانيا والبرتغال يغزون اليابان كمرافقين للتجار

من مائة مقاطعة وكانت الحروب دائمة بين المقاطعات، القوى يلتهم الضعيف. كانت اليابان ممزقة وكان الفلاحون دائمى الثورة لتحملهم تكاليف تلك الحروب. كل إقطاعى كان تحت سيطرته بعض من المحاربين الأشداء يسمى ساموراى (نفس الكلمة مفرد وجمع). كان الساموراى يتعلم فنون الحرب منذ الصغر ولا ينام إلا وسيفه بجواره ولا يخرج من بيته إلا وسيفه معه. كانوا على درجة عالية من الشجاعة والجرأة والحزم والتحكم فى أجسامهم ومصائرهم، أعطاهم كل ذلك قوة ذاتية كبيرة. كان الساموراى يدين بالولاء التام لرؤسائه، ولو طلب منه رئيسه، بل لو حتى شعر أنه خذل رئيسه لانتحر دون أى تردد وكانت لذلك طقوس معينة وتسمى هاراكيرى (Harakiri) كانت حياتهم وموتهم بشرف.

فى بداية القرن السابع عشر سيطر على اليابان أحد الإقطاعيين ويسمى لياسو توكوجاوا (Leyasu Tokugawa) . وإن كان لياسو قد سيطر على اليابان بذكائه وبقوته العسكرية، إلا أن حفيده ليميتسو (Lemituse) يعود له الفضل فى استقرار اليابان وأصبح الحاكم الفعلى وإن سمى الحاكم العسكرى والذى يسمى فى اليابانية شوجان (Shogun) أضعف ليميتسو توكوجاوا باقى حكام المقاطعات وأصبح نفوذهم لا يتعدى مقاطعاتهم وإن كانوا أغلب الوقت فى العاصمة تحت نظر ومراقبة الشوجان وأعوانه. ضعفت طائفة الساموراى واستخدم بعضهم كموظفين فى الحكومة واتجه بعض المقتدرين منهم لدراسة الأدب وكتابة الشعر والاهتمام بالفن. استمر حكم عائلة توكوجاوا حتى منتصف القرن التاسع عشر.

اليابان رغم اتصالها المحدود بكل من الصين وكوريا والهند، إلا أنها كانت دولة تكاد تكون مغلقة على ذاتها. فى أواخرالقرن السادس عشر ابتدأ بعض المبشرين الكاثوليك من إسبانيا والبرتغال يغزون اليابان كمرافقين للتجار، وكانوا بجوار الإنجيل يحملون معهم البنادق. كانت هذه أول مرة يرى اليابانيون البنادق وقد أعجبوا بها. كان هذا أول احتكاك يابانى بالغرب. استبدل بعض الإقطاعيين البنادق باعتناقهم المسيحية هم وأتباعهم ـ ولو شكلا. تغلغل المبشرون فى اليابان وفى القرن السابع عشر تحول حوالى ٣٠٠٠٠٠ يابانى للمسيحية الكاثوليكية. لكن ذلك لم يستمر طويلا حيث إن الشوجان لم يثقوا فى المبشرين لما سببوه من متاعب وقلقلة للنظام. بعد أن استقر الأمر لعائلة توكوجاوا طرد المبشرون والأجانب وعوقب المسيحيون وقتل الكثيرون ممن رفضوا إنكار مسيحيتهم أو التحول عنها.

كان اليابانيون يرون الغربيين وكأنهم همج، فملابسهم كانت غريبة وغير أنيقة، طباعهم غير مهذبة، لا يستحمون إلا نادرا، ويستخدمون أياديهم فى طعامهم، وكان اليابانيون على عكس ذلك تماما. أصبح وجود الأوروبيين مقصورا على التجارة ومحصورا فى جزيرة صغيرة بجوار ناجازاكى يربطها بالأرض جسر عليه حرس.

ابتدات الثورة الصناعية فى الغرب تؤتى ثمارها فازدادت قوة تلك الدول وازدادت شراهتها فى الثراء على حساب الدول الأخرى. ازدادت المستعمرات والاستغلال الأوروبى لفتح الأسواق ولاستيراد المواد الخام. كان مصدر الطاقة فى ذلك الزمان هو الفحم واستخدام زيت الحوت لتشحيم الآلات. استنفدت أمريكا حيتان المحيط الأطلنطى واتجهت للمحيط الهادى بعد استيلائها على ولاية كاليفورنيا من المكسيك عام ١٨٤٨ . زادت شراهة الاستعمار الأمريكى والذى أصبح ينافس الاستعمار الإنجليزى.

فى عام ١٨٥٣ ذهبت أربع بواخر حربية أمريكية بقيادة ماثيو بيرى إلى اليابان وطالبت بفتح اليابان للتجارة، وإلا فعلى اليابان أن تتحمل العواقب. كانت البواخر الحربية الأمريكية لا قبل لليابانيين بمواجهتها، كان طلب الأمريكان هو الفحم لتمويل المراكب وحق التجارة واستخدام الموانئ. كان ذلك بداية الصراع الحضارى مع أمريكا أو الحضارة الغربية عامة. لم يكن أمام اليابانيين سوى الموافقة على مطالب الأمريكان وامتدت تلك الموافقة لتشمل دولا أوروبية أخرى والتى عرفت باتفاقية إدو (Edo) سيطر الغرب على موانئ اليابان وحددت الضرائب على الوارد والصادر بالإضافة إلى استخدام القضاء المختلط كما حدث فى مستعمرات أخرى.

كانت السنوات التالية فى اليابان مليئة بالاضطرابات الاقتصادية والسياسية وشملت المظاهرات العديد من البلاد. كان هناك شعور بالذل وكراهية للأجانب الغربيين. كانت نتيجة تلك التطورات السريعة التى لم يستطع الحاكم العسكرى الصمود أمامها، أن انهارت دولة التوكوجاوا واضمحلت قوة الساموراى أمام الأسلحة الغربية الحديثة. تحت تأثير مجموعة صغيرة من المتمردين من مثقفى الساموراى تنازلت عائلة توكوجاوا عن منصب الشوجان وأعادت القوة للإمبراطور ميجى سنة ١٨٦٧ أى بعد ١٤ سنة من دخول البواخر الأمريكية مياه اليابان وبداية الصراع الحضارى مع الغرب.

كان إمبراطور اليابان حتى ذلك الوقت مجرد رمز وكانت مهمته رئاسة الاحتفالات الدينية كالكاهن الأكبر. ديانة اليابان الرئيسية هى «الشنتو» وهى عبارة عن عبادة لقوى الطبيعة فى صورها المختلفة، وقد امتزجت ديانة الشنتو بالبوذية وكذلك الكونفوشيوسية الواردتان إليها من الهند والصين. أهم آلهة الشنتو الإله الشمس والتى تعتبرها الأساطير اليابانية الأم الأولى لإمبراطور اليابان منذ القرن السابع قبل الميلاد وحتى الآن. ولذلك فهناك تقديس لشخص الإمبراطور. إن الدين فى الصين واليابان وبعض دول جنوب شرق آسيا هو طريقة وفلسفة حياة مع اختلاطها ببعض تعاليم الأسلاف. الدين فى اليابان ليس دينا شعائريا أو دين الحدود والمحرمات والمحللات كما فى أديان التوحيد، بل لا توجد كلمة واحدة يمكن ترجمتها إلى كلمة الدين كما نفهمه.

كانت ثورة المتمردين الذين وضعوا الإمبراطور ميجى على رأس الدولة، ثورة من داخل النظام وكانت تتحسس طريقها. أقنع الحكام الجدد بعض الإقطاعيين بالتنازل عن أراضيهم للإمبراطور مع إعطائهم وظائف مهمة حتى لا يعملوا ضد النظام. وشجعوا هؤلاء الحكام الجدد أن يمنحوا الوظائف المهمة لموظفين أكفاء بصرف النظر عن مكانتهم فى المجتمع. أصبحت البيروقراطية اليابانية متميزة فى الأداء والعلم وحتى الآن. اكتسبت الحكومة تأييدا شعبيا كبيرا. شكلت حكومة على النظم الأوروبية يرأسها رئيس وزراء سنة ١٨٨٥، ثم كان دستور سنة ١٨٨٩ يشابه فى بعض مواده دساتير الغرب وإن كان قد اعتبر هبة من الإمبراطور. لم يشترك فى الانتخابات سوى قلة قليلة وهى التى كانت تدفع الضرائب. لم يكن تحديث اليابان بالأمر الهين، فقد كان هناك صراع بين أنصار العزلة الذين رفضوا كل ما هو غربى وأنصار التحديث انتصر فيها الأخيرون وحققوا تقدم اليابان فى فترة وجيزة.

اهتمت اليابان بالتعليم وأرسلت البعثات للخارج وأحضرت الخبراء من حوالى ٢٠ دولة حتى لا تقع تحت تأثير أحدها. يعتقد البعض أن اليابانيين اهتموا بدراسة محاولة تحديث مصر خلال عصر محمد على وعصر إسماعيل، حيث إن مصر سبقت محاولة اليابان بسنين عديدة. وقد توقفت البعثة اليابانية بمصر قبل ذهابها لفرنسا عام ١٨٦٢ . لم تكن التجربة المصرية بعيدة عن أذهان المفكرين اليابانيين. لم تشجع اليابان الاستثمار الأجنبى لأنه غالبا ما يكون مصحوبا بنفوذ أجنبى وهو ما تجنبه أيضا محمد على.

بدأت الحكومة اليابانية بعض الصناعات والمشاريع العامة، بعضها لم يحالفه النجاح. ولكن كانت نتيجة هذا القطاع العام أنه أوجد فئة من الفنيين والإداريين لم تكن موجودة من قبل على نطاق يسمح بتقدم سريع. شجع وجود هذه الفئة فيما بعد القطاع الخاص الذى بدأ ينمو ويترعرع فى رعاية الدولة ويخضع لقوانينها وسيطرتها خلاف ما يحدث فى الغرب. بدأت الدولة فى أواخر القرن التاسع عشر تمول بعض الصناعات الثقيلة مثل صناعة الحديد والبواخر وبعض الصناعات الأخرى المهمة والتى كانت أساسا لتقدمها. ترك للقطاع الخاص حرية العمل ولكن فى إطار ما تراه الدولة صالحا لخططها، ولم تقع أسيرة بعض رجال الأعمال المستغلين.

كان الاقتصاد اليابانى سعيد الحظ خلال فترة الحرب العالمية الأولى حين عرقلت الحرب اتصال أوروبا بآسيا ووجهت الاقتصاد الأوروبى للحرب. فى تلك الفترة زادت صادرات اليابان الصناعية حوالى خمسة أضعاف. بدأت عجلة التقدم تسير وبسرعة وأصبح لليابان جيش قوى ومنضبط ومتأثر بثقافة الساموراى: النصر أو الموت. تحسن الاقتصاد كثيرا واحتاجت اليابان لفتح الأسواق ولاستيراد المواد الخام، حيث إنها فقيرة فى مواردها الطبيعية وإن كانت غنية فى مواردها البشرية. إضافة إلى كفاءة وأمانة واجتهاد الإنسان اليابانى.

بدأ النفوذ الاقتصادى



اليابانى يزداد فى كوريا والصين. استولت اليابان على بعض الجزر القريبة ثم على فورموزا (تايوان) سنة ١٨٩٥ . انضمت اليابان لنادى المستعمرين الغربيين. طالبت باحتلال الفيليبين، إلا أن الأمريكيين رفضوا ذلك، وأقنعوها باحتلال كوريا وقد تم ذلك سنة ١٩١٠، اما الفيليبين فكانت من نصيب الأمريكيين. حين اصطدمت مصالح اليابان وروسيا فى منشوريا دمرت اليابان الأسطول الروسى فى بورت ارثر سنة ١٩٠٤ . ثم احتلت اليابان منشوريا. كانت اليابان حليفة مع الغرب ضد ألمانيا فى الحرب الأولى وقد كوفئت على ذلك فى مؤتمر فرساى بمنحها مستعمرات ألمانيا فى جنوب شرق آسيا.

بدأ النفوذ اليابانى يزداد فى كل من كوريا والصين. ما بين ١٩٢٠- ١٩٣٠ قرر القادة اليابانيون التوسع فى السياسة الاستعمارية تحت حجة دواعى الأمن وحماية المصالح، ونحوا الديمقراطية جانباً حتى فى نطاقها الضيق. استوردت اليابان العمالة من كوريا فيما يشبه السخرة ومازالت لليوم بقايا جاليات كورية فى اليابان. ازدادت شراهة اليابان وقامت بغزو الصين سنة ١٩٣٧ واحتلت أجزاء كبيرة منها ومن ضمنها بكين العاصمة السياسية وشانجهاى العاصمة الاقتصادية، وكذلك شمال الصين حيث مناجم الفحم والحديد. كانت الصين فى ذلك الوقت تخوض حرباً أهلية بين الشيوعيين بقيادة ماوتسى تونج وحكومة كومنتانج (Kuomintang) بقيادة شاى كاى شيك.

باحتلال الصين ابتدأت اليابان تقلص النفوذ الأمريكى والغربى فى جنوب شرق آسيا. كانت الدول الأوروبية مشغولة بما يحدث فى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية وخاصة الأطماع الألمانية والإيطالية المنافسة لإنجلترا وفرنسا. قررت الحكومة الأمريكية أن تفرض حصاراً دولياً لمنع وصول البترول لليابان، وقررت أيضا مد الصين بالأسلحة لمقاومة اليابانيين. بدون البترول لن تستطيع اليابان الاحتفاظ بقوتها العسكرية أو الاقتصادية. لم يكن لدى اليابان لرفع الحصار إلا أن تنسحب من الصين كما طلب الأمريكيون أو أن تهاجم المستعمرات الغربية فى جنوب شرق آسيا للحصول على البترول وعلى أمل أن تجرى مفاوضاتها من مركز قوى. سارت اليابان فى الطريقين معاً. أجرت اليابان محادثات لانسحاب جزئى من الصين. وفى نفس الوقت جهزت خططاً عسكرية جريئة للغاية لفرض سيطرتها التامة على أغلب جنوب شرق آسيا. لم تنجح المفاوضات مع أمريكا، وفى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ وجهت اليابان ضربة مفاجئة وقاتلة للأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى فى بيرل هاربر فى جزر هاواى قتل فيها أكثر من ٣٠٠٠ أمريكى. دخلت اليابان الحرب فى جانب دول المحور. بعد شهور قليلة استولت اليابان على الفلبين وانسحب الأمريكان منها ونقل جنرال ماكارثر القائد الأمريكى مقر قيادته لأستراليا. استولت اليابان أيضا على إندونيسيا، ماليزيا، وسنجابور وانسحبت الدول الأوروبية من أغلب مستعمراتها. كان نصراً سريعاً ومذهلاً ولكنه لم يدم طويلاً ولم يكن ذلك ممكناً.

كان جنوب شرق آسيا بأكمله قبل الغزو اليابانى تحت النفوذ أو الاستعمار الغربى. وقد استغلت اليابان ذلك ورفعت شعار «آسيا للآسيويين» ولكنها استبدلت بالاستعمار الغربى استعماراً يابانياً كان بشعاً أحياناً. بالإضافة إلى السخرة واستخدام نساء المستعمرات - خصوصاً من كوريا - للترفيه الجنسى عن العسكر، كان القتل بلا هوادة ولا رحمة حتى إن لم يقتض الأمر ذلك. يقدر الصينيون أن اليابانيين قتلوا فى مدينة نانجنج (Nanjing) وحدها فى عام ١٩٣٧ حوالى ثلاثمائة ألف صينى وإن كان تقدير اليابانيين ألفين فقط. ولكنه كان حمام دم بأى المقاييس. حاليا يجتمع ٢٠ مؤرخاً من كل من الصين واليابان لكتابة تاريخ تلك الفترة وسوف يصدر تقريرهم فى يوليو القادم. كان هناك أيضا ٣٦٠٠٠ معتقل إنجليزى وأمريكى ماتوا فى الأسر اليابانى (حسب المصادر الغربية).

كان الاستعمار اليابانى استعماراً عنيفاً شأنه شأن أغلب الاستعمارات، قد يكون أكثر قليلاً ليس إلا. من المسئول عن عنف الاستعمار اليابانى؟ هل الشعب اليابانى أم الحكومة الدكتاتورية التى سيطرت على أمور اليابان فى غياب الديمقراطية؟ لقد كان التدريس العسكرى مادة إجبارية فى مناهج الدراسة اليابانية وكان مصحوباً بتمويل معنوى هائل للحرب. إن الشعوب تقع ضحية سياسة ونزوات الحكومات السيئة خصوصاً فى غياب الديمقراطية والتعليم المستنير. بعد الهزيمة كان هناك حوار واسع حول الهزيمة وأسبابها ولكن اليابان لم تتعامل بالقدر الكافى من المسئولية إزاء ما سببته من بلاء للدول التى احتلتها. كانت اليابان من ناحية مشغولة بمشاكلها بعد الحرب وكانت حقا مشاكل عويصة فحاولت أن تنسى أو تتناسى ما سببته للغير. ومن ناحية أخرى لو اعترفت اليابان بما سببته من بلاء فربما يقاضيها الآخرون بطلب تعويضات هائلة (هذا لم يحدث إلا فى حالة يهود ألمانيا خلال حكم النازى حتى بعد مرور أكثر من نصف قرن على المحرقة). إن الاعتراف بأخطاء الماضى أمر قد يثير الآلام ويحتاج لشجاعة أخلاقية غالباً ما تكون مفقودة لدى القادة السياسيين.

إنك الآن لو زرت اليابان أو تعرفت على شعبها فلن تجد أى أثر للعنف، بل العكس تماماً، شعب فى غاية الرقى والجدية والدقة والأمانة فى العمل والإنتاج والقدرة على تذوق جمال يندر أن نراه فى أى مكان آخر فى العالم؛ سواء فى الفن المعمارى، أو الأدب، أو المسرح والسينما، أو الرسم والنحت وصناعة الفخار، فى الحدائق الرائعة، فى تصميم الأزياء، فى الفنون الرياضية، أو حتى فى الطعام الصحى وطريقة تقديمه. إن يابان اليوم الناجحة تحظى بكثير من الاحترام والتقدير وإن كان مازال عالقاً بها بعض ذكريات الحرب.

خلال الحرب العالمية الثانية، كان من المستحيل أن يستمر الاستعمار الألمانى أو اليابانى لمدة طويلة. فى ٧ مايو سنة ١٩٤٥ استسلمت ألمانيا لقوات الحلفاء. أما فى اليابان ففى يومى ٦و٩ أغسطس من نفس العام ألقت أمريكا بقنبلتيها الذريتين على هيروشيما وناجازاكى على التوالى. حاولت العسكرية اليابانية الاستمرار فى الحرب إلا أن ذلك أصبح مستحيلا. حاول الإمبراطور الاستسلام على شرط الاحتفاظ بالكيان الإمبراطورى، إلا أن الأمريكيين رفضوا ذلك وقرروا أن يترك هذا الأمر للحلفاء وللشعب اليابانى ليقرروه. فى ١٤ أغسطس أعلنت اليابان الاستسلام غير المشروط، وفى ٢ سبتمبر على متن البارجة الأمريكية ميسورى فى خليج طوكيو وقعت وثيقة الاستسلام غير المشروط.

هناك سؤال ما زال محل نقاش بل وأسف الكثيرين: هل كانت القنابل الذرية ضد اليابان ضرورية وخصوصاً القنبلة الثانية؟ هل كان من الممكن استخدام قنبلة ذرية فى ألمانيا؟ لقد قرر روزفلت وتشرشل عام ١٩٤٤ . كانت الحرب على وشك الانتهاء. أن تستمر أبحاث القنابل الذرية وأن تجرب فى اليابان. لم تعلن أمريكا عن وجود قنابل ذرية ولم تعلن أنها قد تستخدم القنبلة الثانية إن لم تستسلم اليابان. لقد أرادت أمريكا أن تجرب أسلحة الدمار الشامل «وما زالت» وأن ترسل رسالة قوية للاتحاد السوفيتى فى بداية الحرب الباردة بين المعسكرين. ولكن لماذا تجرب القنابل الذرية فى اليابان؟ لقد كانت ومازالت العنصرية تتحكم فى الجنس البشرى، لقد وضعت أمريكا كثيراً من اليابانيين الأمريكيين خلال الحرب فى معسكرات لتجنب عدم انحيازهم لليابان، ولم يحدث مثل ذلك مع الألمان الأمريكيين. هناك جذور أمريكية لكراهية ولسوء معاملة الصينيين واليابانيين أو من اعتبروهم «جنساً أصفر». عام ١٩٢٢ منعت المحكمة الدستورية العليا منح الجنسية الأمريكية للجنس الأصفر، وأيضا لم يسمح لهم بملكية الأرض أو بتأجيرها لمدة طويلة، بل ومنع دخولهم إلى أمريكا.

كان اليابانيون يرون الغربيين وكأنهم همج، فملابسهم كانت غريبة وغير أنيقة، طباعهم غير مهذبة، لا يستحمون إلا نادراً، ويستخدمون أياديهم فى طعامهم، وكان اليابانيون على عكس ذلك تماماً



لقد أثار كل ذلك غضب قادة اليابان فى ذلك الوقت. بعد الحرب العالمية الثانية تغيرت تلك الأوضاع. اعتذرت أمريكا عن ذلك التصرف العنصرى خلال حكومة كلينتون، بعد حوالى نصف قرن من الزمان.

لم تدمر أمريكا الإدارة اليابانية وإن كانت قد حاكمت مجرمى الحرب والمسئولين عنها فى محكمة دولية شكلت فى أكتوبر ١٩٤٥، اشترك فى تلك المحكمة ٢٧٧ محامياً وباحثاً من الحلفاء و٢٣٢ من اليابان. حوكم فقط ٢٥، من ضمنهم رئيس الوزراء توجو هايديكى. استغرقت تلك المحاكمات ٨١٨ جلسة خلال مدة تقرب من الخمس سنوات. صدر الحكم بالإعدام على سبعة أشخاص فقط وسجن ١٨ آخرون لمدد مختلفة ووجهت لهم جميعا تهم بارتكاب جرائم ضد السلام. (قارن بين تلك المحاكمات ومهزلة محاكمة صدام حسين). لم يحاكم الإمبراطور هيروهوتو رغم أنه كان شريكاً فى اتخاذ القرارات المهمة. قرر الجنرال ماكارثر المحافظة عليه حرصاً على الكيان اليابانى، وإن كان قد قرر خلال مناقشات الدستور ألا يكون للامبراطور قوة اتخاذ القرارات، بل أن يصبح مجرد رمز.

حتى قبل نهاية الحرب العالمية كانت الحرب الباردة بين روسيا والغرب قد بدأت. كان لليابان موقع استراتيجى لقربها من روسيا وكذلك الصين - التى كانت فى طريقها للشيوعية. لذلك كانت الإدارة الأمريكية العسكرية جادة فى مساعدة وتحديث اليابان، وكان لدى قوات الاحتلال خبراء متخصصون فى الاقتصاد والقانون والإصلاح السياسى والدستور والحقوق المدنية والتعليم وشئون العمال. كان بعض هؤلاء من أساتذة الجامعات المتخصصين فى شئون اليابان. هكذا كانت الحكومة العسكرية الأمريكية مؤهلة للنجاح فى مهمتها وفى أن تصبح اليابان حليفة فى الحرب الباردة. لقد أدار جنرال ماكارثر الحكومة العسكرية بكفاءة يشهد بها اليابانيون أنفسهم (مرة أخرى قارن بين ذلك وما حدث فى العراق - كان لدى الأمريكان خبراء وأكاديميون فى شئون العراق، ولكن يبدو أن الحكومة الأمريكية كانت إما فى منتهى الجهل للاستفادة بخبراتهم، أو أن النية كانت مبيتة لتدمير العراق!!).

كان من أهم الإصلاحات الدستور الجديد، والذى كان فى الواقع صياغة أمريكية عليها غشاء يابانى، حتى إن البعض أطلق عليه «دستور ماكارثر». كان دستورا ليبراليًا أوروبيًا يكفل الحقوق المدنية والسياسية وحرية الإعلام ويفصل ما بين الدين والدولة. الحقيقة أن الدين فى اليابان عبارة عن مجموعة من القواعد للسلوك الأخلاقى: المدارس اليابانية يمنع فيها تدريس الديانات وتنص المادة العشرون من الدستور أنه لا ينبغى أن تحصل أى هيئة دينية على امتيازات أو مساعدات مادية من الدولة كما هو الحال فى دساتير الغرب. اليابان دولة علمانية متدينة ومتعددة الأديان، المواليد الجدد يحتفل بهم فى معابد الشنتو، بينما الوفاة والذكرى السنوية تتم فى المعابد البوذية. هناك الآن حوالى ٤٠٠ دين مسجل رسمياً فى وزارة التعليم وإن كان أغلبها مشتقاً من ديانة الشنتو ومن البوذية.

هناك عاملان آخران مهمان فى دستور اليابان بالإضافة لعامل الدين، الأول هو زوال سلطة الإمبراطور مع بقائه كرمز، والثانى (المادة التاسعة فى الدستور) أن تظل اليابان منزوعة السلاح - وإن كان ذلك قد عدل ليسمح بإنشاء قوات أمن للدفاع فقط. بعد استقلال اليابان عام ١٩٥١ ضمنت الأمم المتحدة حدود اليابان فى معاهدة السلام فى سان فرانسسكو. لقد حاولت أمريكا فيما بعد أن تحث اليابان لإنشاء جيش قوى لمساندتها فى حرب كوريا والآن فى حرب العراق إلا أن المعارضة اليابانية كانت - ولا تزال رافضة. تساهم اليابان ببعض قواتها المسلحة ليس فى الحرب ولكن فى نطاق الخدمات. اليابان بلد متعدد الأحزاب وإن كان أهمها الحزب الليبرالى الديمقراطى، الحزب الديمقراطى، حزب الأحرار، الحزب الشيوعى، الحزب الاشتراكى الديمقراطى، الحزب الأخضر، وأحزاب أخرى صغيرة وغالبا ما يحكم اليابان ائتلاف وزارى.

أنهت أمريكا احتلالها لليابان عام ١٩٥٢ مع بقاء قاعدة كبيرة فى اوكوناوا. بعد حوالى ٢٠ سنة فقط أصبحت اليابان ثالث قوة اقتصادية فى العالم بعد أمريكا وروسيا وأصبح حجم اقتصادها أكبر من اقتصاديات كل من إنجلترا، فرنسا وألمانيا. لم يكن معدل النمو الاقتصادى له مثيل من قبل، الأمر الذى دعا مجلة الإيكونوميست أن تصفه بالمعجزة. كيف حدث ذلك وكيف اختلفت رأسمالية اليابان عن رأسمالية الغرب؟ كانت جذور التقدم الصناعى فى اليابان هى الصناعات الثقيلة وصناعة الكيماويات والتى دمرتها الحرب ولكن بقيت الخبرة الفنية. نالت اليابان بعضاً من القروض وخصوصاً من أمريكا وكان الاقتصاد اليابانى سعيد الحظ بحرب كوريا التى بدأت خلال سنة ١٩٥٠ وحتى سنة ١٩٥٤. دخلت أمريكا الحرب فى صف حكومة الجنوب. أصبحت الحرب الكورية سوقاً كبيرة للصناعة اليابانية ولتمويل القوات الأمريكية. ابتدأت الحياة تدب من جديد فى الاقتصاد اليابانى الذى ابتدأ يتحسن كثيراً، لقد كان انفجاراً اقتصادياً. أصبحت اليابان حليفاً اقتصادياً وفنياً لأمريكا فى حربها حيث إنها كانت على دراية جيدة بكوريا.

كان للحكومة اليابانية دور مهم فى توجيه الصناعة دون إلزام أو فرض بل تفهم قادة الصناعة والمال موقف الحكومة وساندوها. لقد وفرت الدولة حمايتها للصناعات المحلية من المنافسة الخارجية، كانت الدولة توفر العملة الصعبة والإعفاءات الضريبية والقروض ذات الفائدة البسيطة طويلة المدى لصناعات تعتمد على التكنولوجيا الحديثة. بعض الشركات التى لم تستطع الحصول على قروض من الحكومة حصلت عليها من بنوك أجنبية ولم تعترض الحكومة. كانت رأسمالية تقودها الدولة التى تمثل الشعب بأجمعه ولا يقودها رجال المال والصناعة كما يحدث فى أمريكا. كان حجم الاقتصاد اليابانى سنة ١٩٥١ حوالى ٤٪ من الاقتصاد الأمريكى ولكنه أصبح ٤٠٪ سنة ١٩٨٠، أما الآن فحجم الاقتصاد اليابانى يعد ثانى اقتصاد فى العالم بعد الاقتصاد الأمريكى. استمر الاقتصاد اليابانى فى التقدم وأصبحت اليابان رائدة فى صناعات عديدة أهمها صناعة السيارات والإلكترونيات التى غزت العالم أجمع.

ما زالت هناك مشاكل بين اليابان وأمريكا فيما يتعلق بالقاعدة الأمريكية فى اوكوناوا والتى احتفظت بها أمريكا منذ احتلال اليابان سنة ١٩٤٥ وحتى الآن. اشترك العسكريون الأمريكان فى اوكاناوا فى ٢٠٢٤ حادثاً أو جريمة من ضمنها حوادث اغتصاب، الأمر الذى يسىء لكثير من اليابانيين ويذكرهم بالاحتلال (مرجع رقم ٤). أمريكا لها ٨٦٠ قاعدة وتسهيلات عسكرية فى أنحاء عديدة فى العالم (مرجع رقم ٤ ص ١٣٧ والمصدر من وزارة الدفاع الأمريكية). يدعونا هذا للتساؤل هل ستخرج أمريكا من العراق دون أن تترك وراءها قواعد عسكرية كبيرة لحماية مصالحها الاستعمارية؟

كان النجاح الاقتصادى اليابانى على مستوى شعبى وليس لقلة تتمتع بغنى فاحش - مصدر تساؤل الكثيرين.. ليس فقط عن سبب التقدم، بل أيضا عن اختلاف النظام اليابانى الرأسمالى عن نظيره الغربى وخصوصاً الأمريكى؟ قد يكون أحد أسباب هذا الخلاف هو الاختلاف الثقافى والدينى.

إن المسيحية الغربية فى أغلبها بروتستانتية ابتدأت فى القرن السادس عشر وتحض على العمل الجاد والإخلاص والأمانة وقد ساعد ذلك ومهد للثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر. أنتجت الثورة الصناعية جيلاً من الأغنياء لم ير العالم له مثيلاً من قبل. أحد تعاليم المسيحية يقول: «إن دخول غنى إلى

الديـن فى اليـابان ليس دينـاً شـعائرياً أو ديـن الحـدود والمحـرمات والمحللات كما فى أديان التوحيد، بل لا توجد كلمـة واحـدة يمكـن ترجمتهـا إلى كلمـة الديـن كما نفهمه



الجنة أصعب من دخول جمل من ثقب الإبرة». كيف أفتت بعض المذاهب المسيحية أن يكون الإنسان متدينًا وتقيًا وفى نفس الوقت يتمتع بثراء قد يكون فاحشًا؟ ماكس فيبر (Max Weber) أصدر سنة ١٩٠٤ كتابًا عن الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية. يتحدث هذا الكتاب عن مذهب مشتق من البروتستانتية يسمى الكالفينيزية (Calvenism) نسبة إلى كالفن الذى ظهر فى القرن السادس عشر. انتشر هذا المذهب فى بعض بلاد أوروبا ومنها لأمريكا، أحد تفسيرات هذا المذهب يدعى أن مصير الإنسان محدد منذ القدم. هذا المبدأ له جذور فى أوروبا المسيحية فى القرون الوسطى. بهذا المذهب يكون مصير الإنسان للخلاص محدداً حتى قبل أن يولد. وإذا كان الأمر كذلك فلا يوجد تناقض بين الثراء (الفاحش) وخلاص الإنسان أو دخول الجنة!! بل يعتقد البعض أن توفيق الإنسان وحتى النجاح المادى يدل على رضاء من عند الله. يعتقد البعض أن هذا المذهب والثورة الصناعية بالإضافة لجشع الإنسان قد هيأ الظروف لما نراه فى الغرب وخصوصًا فى أمريكا من ثراء يصعب تصديقه مع وجود الفقر جنبًا إلى جنب، وفى نفس الوقت قد يضفى على هؤلاء الأغنياء ورع وتقوى المسيحية التى تتناقض فى أساسها مع الأغنياء.

أما رأسمالية اليابان فهى رأسمالية متأثرة بالكونفوشيوسية المنسوبة إلى كونفوشيوس الذى عاش فى الصين فى القرن الخامس قبل الميلاد (وهو نفس وقت ظهور بوذا فى الهند وسقراط فى اليونان). انتقلت الكونفوشيوسية من الصين لكوريا. وفيتنام ثم لليابان فى القرن السادس. إن الكونفوشيوسية هى دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع تعتمد على الفضيلة والعمل والشهامة أو كما عرفها واضعها الأول هى «حب الإنسان». هذا الحب موجود فى الإنسان كبذرة. بالتعليم الرشيد الذى يبدأ فى المنزل من الممكن أن تنمى هذه الفضائل. الإنسان الذى يعيش بالفضيلة لا يعيش على حساب أو إيذاء الآخرين. لقد تطورت الكونفوشيوسية وأصبحت علماً يدرس وامتزجت ببعض تعاليم بوذا السامية. لقد تأثر النظام الاقتصادى فى اليابان ببعض تعاليم الكونفوشيوسية وأهمها:

١- الإنسان الذى يعيش بالفضيلة لا يعيش على حساب الآخرين أو بإيذائهم.

٢- الطاعة المبنية على الحب والثقة، حيث إن الكونفوشيوسية تعتمد على الصفوة المستنيرة التى تعمل لصالح الجماعة. إن رأسمالية اليابان رأسمالية مهذبة تقودها الدولة لصالح الشعب، بل قد يغالى البعض فيقول: «إن اليابان هى دولة العائلة». هذا يختلف أساساً عن النظام الأمريكى الذى يتحكم فيه رجال المال والصناعة.

إن الإنسان اليابانى يعمل فى جهة عمل واحدة منذ بداية حياته العملية وحتى يتقاعد، له ولاء لجهة عمله وجهة العمل ولاؤها للعاملين ونادراً ما يغير العامل جهة عمله. من النادر أن يفصل أى عامل إلا فى ظروف غير مألوفة مثل السرقة أو الإهمال وهذا نادر الحدوث فى اليابان. بالإضافة إلى أن العمالة مضمونة ولمدى الحياة فإن علاقة العمال بالإدارة علاقة قوية ومتفاهمة ولا تتأثر كثيراً بتذبذب أسعار البورصة، فالعاملون بالشركة لهم وزن مهم فى قرارات الشركة إنهم رأس المال الحقيقى للشركة، النموذج اليابانى يؤدى إلى الاستقرار والرضا وكفاءة الإنتاج. أما فى أمريكا فلا يوجد أى وفاء بين العامل وجهة العمل ولا يوجد أمان لأى وظيفة، رئيس الشركة قد يفصل مئات بل ألوفاً من العاملين، بينما ينال هو مكافآت فلكية. هذا نموذج لا يؤدى إلى الاستقرار والإنتاج. فى أمريكا أيضًا من المفضل أن يغير الموظف الأمريكى مكان عمله عدة مرات حتى يتقدم فى مهنته ويزيد دخله. فمثلا اياكوكا الرئيس السابق لشركة السيارات (كرايزلر) عمل أيضاً فى شركة (فورد) وفى شركة (جنرال موتورز) وجميعها شركات متنافسة. من وجهة النظر اليابانية إنسان مثل اياكوكا لا يجب أن يوثق به.

أما من حيث دخل رؤساء الشركات بالنسبة لدخل العاملين فهذا الفرق شاسع فى أمريكا أما فى اليابان فتلك الفروق متواضعة. شركة وول مارت (Wal-Mart) الأمريكية يحصل رئيسها على ٩٠٠ ضعف متوسط ما يحصل عليه العاملون بشركته. عائلة وول مارت تقدر إيراداتها بحوالى ٩٠ بليون دولار أو ما يحصل عليه ٤٠٪ من فقراء الأمريكيين، أى حوالى ١٢٠ مليون أمريكى (مرجع رقم ٥ ص ٢٢). متوسط دخل رؤساء ٥٠٠ شركة أمريكية حوالى ١٠ ملايين دولار سنويا (BusinessWeek ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٦)، بينما متوسط دخل رؤساء ٥٩٩ شركة يابانية حوالى ٢٥٠٠٠٠ دولار، (مرجع رقم ٦). أغنى ١٪ من اليابانيين يحصلون على ٦,٥٪ من الدخل اليابانى (مرجع رقم٧)، بينما يحصل أغنى ١٪ من الأمريكان على حوالى ٣٥٪ من الدخل الأمريكى (مرجع رقم٨). وحتى إذا نظرنا إلى بعض الدول الغربية نجد أن ما يحصل عليه رؤساء الشركات الأمريكية هو تقريبا ضعف ما يحصل عليه الكنديون، ثلاثة أضعاف ما يحصل عليه البريطانيون، وأربعة أضعاف ما يحصل عليه الألمان. فى عام ١٩٧٠ كان متوسط نصيب رؤساء الشركات الأمريكية بالنسبة لمتوسط نصيب العاملين بالشركة هو ٢٥ ضعفًا، فى عام ١٩٨٠ أصبح ٤٢ ضعفًا. لقد قفز هذا الرقم الآن إلى ٣٧٥ ضعفًا. هذا بينما متوسط الدخل الحقيقى للمواطن الأمريكى كان يتناقص فى الثلاثين سنة الماضية.

رأسمالية اليابان هى رأسمالية متأثرة بالكونفوشيوسية المنسوبة إلى كونفوشيوس الذى عاش فى الصين فى القرن الخامس قبل الميلاد (وهو نفس وقت ظهور بوذا فى الهند وسقراط فى اليونان)

ربما كان لفشل النظام الاشتراكى فى دول شرق أوروبا أن توحشت الرأسمالية الغربية وخصوصا الأمريكية وأصبح لها مشاكل كثيرة وتحتاج لإعادة تقييم. إن الإنتاجية الأمريكية تضعف بينما يزداد غنى قلة تسيطر على المال والسياسة والإعلام، أما الرأسمالية اليابانية فمازالت مزدهرة رغم المصاعب التى تواجهها فى عالم سريع التغير وخصوصا على ضوء المنافسة الآتية من دول جنوب شرق آسيا وخصوصا من الصين والهند. من الواضح أن رسوخ التكوين الحضارى، الجذور الأخلاقية، الارتباط بفكرة الانتماء.. كلها عوامل ساهمت فى تفوق النموذج اليابانى على الغربى (أو على الأقل منافسته له).

هل سيؤثر النظام اليابانى على النظام الغربى أم أن النظام الغربى سوف يفسد النظام اليابانى؟ لا أعتقد أن الأخير سوف يحدث حتى وإن كانت الشركات اليابانية مرتبطة بالسوق العالمية وبالبورصة بل وحديثا أصبح رئيس شركة سونى اليابانية بريطانى الجنسية وهو هاوارد سترنجر. والسؤال الذى يهمنا هو أى نظام رأسمالى يسود منطقتنا العربية؟ أعتقد أن نظامنا أقرب بكثير للنظام الأمريكى!! ■

المراجع

(1) Modern History of Japan from A Tokugawa Times to the Present, Andrew Gordon, Oxford University Press, ٢٠٠٣.
(2) The Allied Occupation of Japan, Takemae Eiji, Continum, New York , London, 2003.
(3) Embracing Defeat, John W. Dower, W.W. Norton & Company, The New Press, 1999.
(4) Nemesis, The last days of the American Republic, Chalmers Johnson, Metropolitan Books, Henry Holt and Company, New York, 2006.
(5) The New York Review of Books, volume LIV, November 19, 2007.
(6) CEO Compensation and Firm Performance in Japan, Tako Kato and Katsuyuki Kupo, Journal of Japanese and International Economics, Elsevier, 2006.
(7) The Evolution of Income Concentration in Japan, 1885-2002, Chiaki Moriguchi and Emmanuel, Review of Economics and Statistics, Harvard University Press, 2007.
(8) Who Rules America? Power, Politics, and Social Changes, G. William Domhoff, McGraw-Hill, 2005.

احتضار الفكر العربى !!!

■■ قال لى مستعرب فرنسى محب للعرب ومطلع اطلاعًا جيدًا على ثقافتهم، ومشهور بدفاعه عنهم فى منابر بلاده الأكاديمية والإعلامية، إن العرب غائبون غيابًا تامًا عن حركة الفكر العالمى، غير مؤثرين فيها، أو مضيفين إليها، أو حتى مطلعين عليها الاطلاع الكافى.

وأضاف ساخرًا أو شبه ساخر: إذا كنتم تظنون أن ترجمة روايات نجيب محفوظ وسواه من الروائيين العرب إلى بعض اللغات الأجنبية أو ترجمة أشعار لأدونيس ومحمود درويش قد ضمن لأدبكم العالمية، فأنتم مخطئون.. فالعالمية لا تُضمن بمثل هذه الترجمات، وإنما بمساهمات جدية تدخل فى صلب الثقافة العالمية، وتتحول مع الوقت إلى إضافات حقيقية.

وقدم هذا المستعرب أمثلة عديدة على صحة ما يقول. قال لنأخذ الماركسية فى القرن العشرين وقد كانت لها جلبة واسعة عندكم لدرجة أن الشيوعيين استولوا على السلطة فى بلد عربى، وكادوا يستولون على السلطة فى سواه من بلادكم. فهل إذا اطلع المرء على تاريخ الفكر الماركسى فى القرن العشرين يلمح فكرة ماركسية ذات شأن لمفكر ماركسى عربى؟ لقد صدر ما لا يحصى من الكتب والنشرات الماركسية فى بلادكم على مدى أكثر من خمسين أو ستين عامًا، فهل بقى كتاب ماركسى عربى واحد أضاف شيئًا إلى الماركسية العالمية؟ وقبل كل شىء: هل يعثر المرء على ترجمة واحدة دقيقة «للبيان الشيوعى» نفسه؟ وهل تداول مثقف واحد فى العالم كتابًا أو نظرية ذُكر أنها لمفكر ماركسى عربى؟

وانتقل هذا المستعرب بعد ذلك إلى أنماط أخرى من الفكر ليؤكد لا على انعدام الأثر العربى فى الفكر العالمى، بل على ضحالة ما قدمه المفكرون العرب فى كتبهم التى كتبوها بالعربية. قال: إن المتفلسفة العرب الذين حاولوا تقديم فلسفات خاصة بهم، مثل عبدالرحمن بدوى فى كتابه «الزمان الوجودى»، وعثمان أمين فى كتابه «الجوانية»، ومحمد عزيز الحبابى فيما كتبه عن «الغدية» أو عن «الشخصانية»، وتوفيق الحكيم فى «التعادلية». لم يقدموا سوى محاولات بائسة لم تصمد واحدة منها مع الزمن، ولم يتجاوز التداول بها سوق المكتبات العربية التقليدية. كما أن هذه المحاولات العربية للتفلسف كانت فى الواقع عالة على الفكر العالمى ومستندة إليه، أو مأخوذة منه أحيانًا كثيرة أخذًا حرفيا أو شبه حرفى. «فالزمان الوجودى» عند عبدالرحمن بدوى، هو الزمان الوجودى للفيلسوف الألمانى هايدغر، مضافة إليه «أزمنة وجودية» أخرى لفلاسفة أوروبيين.. وللتدليل على عدم أصالة بدوى الفلسفية أنه ترك بعدما أنجز كتابه هذا (الذى كان عبارة عن أطروحته لنيل الدكتوراه من جامعة فؤاد الأول) كل تفلسف لينصرف إلى الأبحاث والدراسات. وما هكذا يكون الفلاسفة عادة. أما محاولات زملائه الآخرين، سواء فى «الغدية» أو «الشخصانية» و«الجوانية» و«التعادلية»، فما هى سوى أشتات غير مؤتلفات لا يشار إليها الآن إلا فى دراسة أكاديمية فى هذا البلد العربى أو ذاك، ولم تتسرب أبدًا إلى السوق الثقافية العالمية.

وتساءل هذا المستعرب عما بقى من «الوجودية العربية» التى كان الدكتور سهيل إدريس صاحب «الآداب» وكيلها فى بيروت، وفلان وكيلاً لها فى القاهرة، وما الذى يمكن ذكره فى دراسة رصينة عن خصائص الوجودية العربية، هذا إذا صح أن هناك وجودية عربية.

فالواقع أنه لم تكن هناك وجودية عربية، وإنما كان هناك انبهار بضجة ثقافية أو بهيصة ثقافية فى باريس وصلتنا بعض أصدائها فشاركنا فيها متطفلين لا نملك سوى إعجاب ساذج يسىء إلينا أكثر مما يحسن، بل يسىء ولا يحسن أبدًا. فالكتب الوجودية التى ترجمتها وأصدرتها «دار الآداب» وسواها من دور النشر العربية قد طواها الزمن ولا يذكرها أحد اليوم.

وأخذ هذا المستعرب يتحدث بعد ذلك عن النظريات البنيوية والألسنية السائدة فى الساحة الثقافية العربية منذ أكثر من ربع قرن، وعن إبداعات أو إضافات الباحثين العرب إليها، قال: إن نقاداً وباحثين كثيرين فى العالم تبنوا هذه النظريات وأضافوا إليها، فهل بينهم ناقد أو باحث عربى واحد؟ لقد اندفع نقادكم للتعامل مع «صندوق» النقد الدولى، ومقره باريس هذه المرة، فهل أودعوا فى هذا الصندوق إضافة عربية واحدة، أم كانوا على الدوام من المدينين؟

وتجرأتُ فقلتُ لهذا المستعرب: ولكنك تنسى ما أضافه إيهاب حسن المصرى الأصل، وإدوارد سعيد الفلسطينى الأصل.. فهذان الناقدان أو الباحثان لهما - على ما نسمع - إضافات جليلة فى هذا المضمار، وهما كما تعرف عربيان!

وبسرعة البرق أجابنى هذا المستعرب: أية صلة لإيهاب حسن أو لإدوارد سعيد بثقافتكم؟ إذا كان إدوارد سعيد يتحدث العربية



هل هناك كتاب ماركسى عربى أضاف شيئاً إلى الماركسية؟ وهل هناك ترجمة دقيقة للبيان الشيوعى؟ وهل تداول مثقف فى العالم نظرية ذُكر أنها لماركسى عربى؟

الدارجة. فلم يكن يعرف العربية إلا معرفة بسيطة. ولكنه على التأكيد ابن الثقافة الغربية: ابن جامعة هارفارد، وابن جامعة كاليفورنيا بنيويورك، وابن الحضارة الغربية أولاً وأخيراً.

وهذا ما يمكن قوله عن إيهاب حسن المصرى الأصل، ولكن الأكاديمى الأمريكى المدين للثقافة الغربية فى كل شىء. إن إيهاب حسن أمريكى كأى أمريكى آخر. وإدوارد سعيد مثله. ولولا لحظة تاريخية معينة فيها اكتشف إدوارد سعيد أصوله الفلسطينية، واستجاب لنداء فلسطين الكامن فى أعماقه، لربما كان مثل زميله الروسى الأصل نعوم تشومسكى الذى مهما اعترض على سياسات أمريكا فى الخارج، إلا أنه يبقى الابن الشقى للحضارة الأمريكية.

وعاد هذا المستعرب ليقول إن أحداً لا يحتج على طلب رواد نهضتكم العلم فى الخارج، ولكن أين وثائق نهضتكم، وأين قممها الكبرى، وأين إشعاع حضارتكم فى العالم؟ هل يمكن لكتب طه حسين - على سبيل المثال - إذا تُرجمت إلى الأجنبية، أن تلقى اهتماماً يذكر بها فى العالم؟ وحتى كتابه «الأيام» الذى يمكن مع الكثير من التعسف اعتباره سيرته الذاتية، هل يمكن أن يقرأه قارئ غربى من الدفة إلى الدفة، أم أنه سيكف عن قراءته بعد صفحة أو صفحتين، نظراً للتكلف الأسلوبى للكاتب ولكونه ليس سيرة ذاتية بالمعنى المعروف للكلمة؟

وما الذى بقى من نظريات العقاد فى «العبقريات» وغير «العبقريات»؟

طبعاً أنا أستثنى - والكلام للمستعرب الفرنسى - أدب توفيق الحكيم فى بعض ما كتب مثل «عودة الروح»، و«عصفور من الشرق»، و«زهرة العمر»، و«سجن العمر». فلهذا الأدب نكهته وريادته وإبداعه، ونقله إلى الأجنبية لا ينقص قيمته، فهو نموذج لتفاعل الشرق والغرب، ونموذج لدفء العاطفة والمشاعر الإنسانية الصادقة. ولكن أى أثر لتوفيق الحكيم اليوم فى حركة الفكر العالمى؟

ولا أثر للعرب فى العلوم والتكنولوجيا العالمية المعاصرة. وأحمد زويل ونوبل الكيمياء مسألة ينطبق عليها ما انطبق على إيهاب حسن وإدوارد سعيد، فلولا المعامل والمختبرات ومراكز الأبحاث الأمريكية لما كان أحد سمع بأحمد زويل، ولما كان أحمد زويل، فى الأعم الأغلب، سوى مدرس كيمياء فى كلية العلوم بجامعة عين شمس، أو جامعة الزقازيق.

وحتى الشعر - قال هذا المستعرب - لم تقدموا منه للعالم النماذج الشعرية العربية السوية الخالدة، بل أعدتم إليه - أى إلى هذا العالم - البضاعة التى أخذتموها منه. فبدلاً من أن تقدموا من أشعار العرب القديمة والحديثة باقات حية خالدة قابلة لأن تلفت نظر المثقفين فى العالم، وتؤثر فيهم، ألححتم على قصيدة النثر، وعلى أشعار وصفتموها بالحداثية، ولا حداثة فيها. لقد ظننتم أن الحداثة تسلم «بالنثرية»، أو «بالتفعيلة»، وتنعدم بالشعرية العربية التقليدية، فى حين أن الحداثة ليست مجرد شكل، أو أنها تسلم بالشكل وحده.

وفى خضم ما لا يقل عن نصف قرن من نضال عاثر فى سبيل إرساء شعر عربى يتصف بالحداثة، فقد الشعر العربى ألَقَهُ وأريجه كواحد من أعظم تراثات الشعر فى العالم. وفى خضم كل ذلك، فقد الشعر العربى أبرز خاصية من خصائصه، وهو أن يتضمن معنى». فى تعريفاتكم القديمة المشهورة للشعر «أن الشعر هو الكلام الذى يدل على معنى». وهذا التعريف مازال صالحاً إلى اليوم، وسيظل صالحاً على الدوام. فلا عشوائية ولا فوضى ولا تجريد فى الشعر. وإذا صح الغموض فى الشعر، وهو صحيح طبعاً، فلا يصح الإبهام المطلق.

على أن ما لم يقله هذا المستعرب، يمكن سماعه هنا أو هناك، من نُخَب عربية مثقفة تراقب حركة الفكر العربى المعاصر، ولا تجد فى سوق النشر العربى أية أدلة على ولادة جديدة لهذا الفكر، أو على أن هذا الفكر يتمتع بالصحة والعافية.

فقد ذكر لى أحد كبار الناشرين اللبنانيين أن نخبة من أدباء بيروت قد التقت فى مكتبه، وتداولت أمر ما يصدر من كتب جديدة فى العواصم العربية. قال هذا الناشر إن البحث دار حول سؤال مركزى يتصل بأهم ما صدر من كتب فى العالم العربى خلال الأشهر الأخيرة. أى بتلك الكتب التى إذا قرأها المثقف شعر بأنه كان فقيراً فاغتنى، أو بأنه كان حائراً فزالت حيرته، وتغير مجرى عقله أو فكره. وعندما ساد الصمت فى المجلس، بدأ الحديث عن بعض الكتب الأجنبية التى تُرجمت مؤخراً إلى العربية، والتى لا علاقة لها بالإبداع العربى من قريب أو بعيد. فهى كتب أجنبية لا كتب عربية. وينبغى بالطبع تشجيع النقل إلى العربية. ولكن هل لدينا نقل سليم، أو ترجمات دقيقة إلى العربية؟ وما هو عدد الكتب التى تُنقل إلى العربية بتلك الأمانة التى تتطلبها عملية الترجمة؟

قد يقول قائل: إن كفاءة الكاتب العربى يمكن أن تُلتَمس اليوم أكثر ما تُلتمَس فى السرد والقص، أى فى القصة والرواية. أنجز العرب فى هذا الفن ما تعذر عليهم إنجازه فى ميادين أخرى، ولكن ما يؤخَذ على هذا القول أنه لم يمتحن عمليا بما فيه الكفاية، أى بقيمة ما صدر من روايات وقصص على ضوء دراسات جادة، موضوعية فعلاً، ومحصنة ضد الفساد. فأية قيمة لدراسة حول



لم تكن هناك وجودية عربية، وإنما كان هناك انبهار بضجة أو بهيصة ثقافية فى باريس وصلتنا بعض أصدائها فشاركنا فيها متطفلين

رواية لروائى عربى ماركسى، على سبيل المثال، كتبها ناقد ماركسى انبرى لنصرة «رفيق» له، مدفوعاً بنخوة أخوة السلاح الأيديولوجى؟ وكيف أثق فى أهمية رواية ثانية استناداً إلى نقد مارسه عليها صديق حميم لمؤلفها؟ وبالتالى، ما هو حجم النقد العادل، أو العلمى، الذى يصدر سنويا لا حول القصة والرواية وحدها، بل حول حقول وفنون أدبية وفكرية أخرى؟ وما هى كفاءة هؤلاء النقاد الذين يكتبون؟ وما هى حظوظهم فى الاتصال الحقيقى بمظان الفكر والثقافة والمناهج والأساليب فى بلدان الحضارة؟

لقد نهضت الثقافة العربية فى القرن العشرين على أكتاف رواد ومنورين كبار درس أكثرهم فى الغرب، ثم عادوا إلى بلدانهم ليقوموا بعملية التلقيح والتفاعل المطلوبة. وكان قسم كبير من هؤلاء الرواد والمنورين أعضاء فى بعثات علمية كانت ترسلهم الجامعات أو وزارات المعارف أو الحكومات العربية للدراسة فى باريس أو لندن أو مدريد أو روما أو سواها، بعدها كانوا يلتحقون بالجامعات العربية أو بمنابر الأدب والفكر والثقافة، ويمارسون تأثيرهم فى الأجيال الجديدة. من هؤلاء كان طه حسين ومحمد مندور وعبدالقادر القط ولويس عوض وعشرات من مثل هؤلاء المعلمين الخالدين، ولكن هذا الجسر بيننا وبين العالم الخارجى انقطع تقريباً. ومن يذهب، ومن يعود، لا يتمتع - لسبب ما - بالكفاءة التى كانت تتمتع بها الأجيال السابقة، بل إن من هؤلاء من يعود دون أن يملك اللغة الأجنبية على النحو المطلوب. وعندما يستقر فى جامعته الوطنية، يكتشف هو، أو يكتشف من يتابع مسيرته الأكاديمية، أنه لا يستطيع الإبحار أيضاً فى لغته الوطنية وفى تراثها الماضى والحاضر..

شىء ما من عدم الجدية والرصانة والمتانة يحوم فى أفق جامعاتنا كما فى أفق منابرنا الثقافية. وشىء ما فى انعدام البوصلة يجعل التواصل بيننا وبين العالم الخارجى صعباً، بل متعذراً مع الوقت.

إن العالم الخارجى لا يفهم - على سبيل المثال - لماذا يضيع أكثر وقت مثقفينا فى مطاردة الماضى، وفى البحث عن مقولاته البائدة التى عفى عليها الزمن ولا صلة تصلها بزماننا الراهن، ومحاولة التأسيس عليها، أو التنويع عليها، فى الوقت الذى يرحل فيه هذا العالم نحو آفاق جديدة.

لم يكن ادوارد سعيد يعرف العربية إلا معرفة بسيطة وكان بالتأكيد ابن الثقافة الغربية

ويسجل كل يوم من الفتوح، وفى كل مجال من مجالات العلم والفكر والفن، ما لم يحلم به إنس أو جن.

الماضى يلهم طبعاً ولا يمكن الاستغناء عنه أبداً، ولكن المشكلة هى فى تحوله إلى معتقل، نعتقل فيه أنفسنا، ولا نتمكن من الخروج من أسره فيما بعد.

إن جولة يمكن أن نقوم بها على أى معرض من معارض الكتب العربية السنوية، كفيلة بأن تعزز لدينا فكرة المعتقل هذه، إن ما لا يقل عن سبعين بالمائة من الكتب المعروضة تتصل بطريقة من الطرق بالتراث، أو بالماضى. وهى كتب لا تُحسن عرض هذا الماضى، ولا تنقده، ولا تقدم إليه فائدة ما. وكثيراً ما حملت الجوانب السلبية فى هذا الماضى لا الجوانب الإيجابية. وكثيراً ما صال العقل الخرافى وجال فى هذه الكتب، وافتقد العقل العلمى. فليس ابن رشد، أو ابن خلدون، على سبيل المثال، هو من نعود إليه فى ماضينا، وإنما «أبناء» آخرون للرجعية والتخلف والخرافة.

وكأن الوضع برمته كان بحاجة إلى أن يعلن وفاة المريض أكثر مما كان بحاجة إلى من يقدم أدلة إضافية على أنه لم يفارق هذه الدنيا بعد، فسيان فارق المريض الذى هو فى حالة نزاع، أو فى حالة صراع مع الموت، هذه الدنيا، أو لم يفارقها بعد، فلا ينبغى أن يعقد أمل كبير على الشفاء. وقد شخص الفقه الإسلامى أحسن تشخيص حالة المريض فى مرض الموت عندما قال إن هذا المرض سينتهى حتماً بموت صاحبه، وأنه لا يجوز أن يكثر الجدل حول حالة المريض هذا، بقدر ما ينبغى أن ينصب البحث على ترتيبات الدفن وتوزيع التركة..

ولكن المشكلة تنشأ عندما يتصور بعضنا أن الورم هو شحم لا مؤشر على مرض، فيتعامل بالتالى مع هذا الورم على أنه دليل صحة وعافية. فإذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص، ومن النظرى إلى العملى، قلنا إن ما ذكره المفكر التونسى هشام جعيط مرة فى إحدى الدوريات العربية حول وضع الفكر العربى المعاصر، لم يفاجئ الكثيرين. ذلك أنه فى إطار ما ينشر من دراسات وأبحاث أكاديمية، يعتبر هذا الجانب أحد أضعف جوانب الحركة الثقافية العربية المعاصرة. فى حين أنه كان ينبغى أن يكون من أكثرها نجاحاً وحيوية لا لشىء إلا لأنه يفترض فى الباحث الأكاديمى أن يكون مستكملاً لعدة البحث، مثقفاً ثقافة عميقة، مهتماً بالمصادر والمراجع والمناهج. ولكن الاطلاع على ما يكتبه هذا الباحث فى أكثر الأحيان كفيل بأن يقنعنا بأن أبحاث هذا الباحث، بالنسبة إلى الأبحاث الجادة، لا تختلف عن قصائد النثر بالنسبة لقمم الشعر العربى!

ذكر هشام جعيط أن الوضع العام فى الدولة العربية وفى المجتمع العربى لا يشجع إطلاقاً على المعرفة والبحث والتفكير. وقال جعيط: «وأذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فأقول إنه لا وجود لمثقف عربى باستثناء قلة قليلة جداً. كما لا وجود لمفكرين، وذلك لأن هم هؤلاء هو ادعاء التفكير فيما هو سياسى، وليس بصفة نظرية، بل بشكل آنى يتخذ موقفاً دفاعيا. وهذا ليس فكراً. فلا يمكن أن يوجد فكر فى بلدان متخلفة اقتصاديا، وفى ظل أوهام سياسية كالقومية والعروبة، أو أمور أخرى تندرج ضمن ما هو أيديولوجى دون أن تؤسس لفكر. ومن ناحية أخرى، لا ننسى غياب الحريات. فكيف يمكن أن يشع فكر معين فى مجتمعات تسيطر الحكومات فيها على وسائل الإعلام بغباوة شديدة»؟



وعندما سئل هشام جعيط عما إذا كانت رؤيته السوداوية هذه تنسحب على تجارب معروفة كتجارب الطيب تيزينى وعبدالله العروى ومحمد جابر الأنصارى ومحمد عابد الجابرى، كان أكثر صراحة عندما أجاب: «أولاً هذه التجارب قليلة جداً بالنسبة إلى عالم عربى ينتمى إليه ٢٨٠ مليون نسمة. أغلب هذه التجارب ليست أصيلة لأنها تأخذ عن الأوروبيين مناهجهم: فواحد ينهل من فوكو، والآخر من ديريدا.. وبالتالى فهم لا يمتلكون فكراً أصيلاً حقيقيا. وإذا صح أن كثيراً من هؤلاء له صدى فى العالم العربى، فذلك ليس لأنهم يستحقون هذا الصدى، بل لأن العالم العربى منحط إلى درجة أن لهؤلاء صدى. طبعاً باستثناء شخص واحد هو عبدالله العروى»!

لا يوجد فكر فى بلدان متخلفة إقتصاديا، وفى ظل أوهام سياسية كالتى يذكرها هشام جعيط. وفى اعتقادنا أنه لا يوجد فكر فى ظل سيادة فكر خرافى يشرح الماضى، وينوع عليه، ولا يجرؤ على نقده. وقد علمتنا تجارب النهضات عند الشعوب المتقدمة أن نقد الماضى، بكل صوره وأشكاله، مقدمة لابد منها لتحقيق نهضة جديدة مرجوة. وكيف يتم نقد الماضى، لا بسبب شرطة الدولة وأجهزتها القمعية الأخرى وحسب، بل أيضاً بسبب رقيب آخر أشد قسوة وهمجية هو ما يمكن تسميته «بالرقيب العام» أو «بالنظام العام» السائد فى المجتمع والذى يحول دون المساس بكل ما هو ثابت أو مستقر فى فكر الجماعة. فهل يمكن فى ظل سطوة الماضى وسلطانه أن ينمو فكر حر وأن تزدهر حركة فكرية تعمل للتغيير؟

لم يكن هشام جعيط فى حالة جنون عندما أصدر مثل هذه الأحكام الجريئة القاطعة، بدليل أنه استثنى المفكر المغربى عبدالله العروى، فعبد الله العروى هو بين قلة قليلة من المفكرين العرب ينعقد إجماع على أصالتهم ورصانتهم. أما الآخرون فيفتقرون إلى هذا الإجماع رغم أنهم من كبار الباحثين. فالدكتور محمد عابد الجابرى أصدر فى ربع القرن الماضى عدداً وافراً من الدراسات التى تناولت تراثنا الفكرى والمعرفى القديم، وأغنته فى آن. ولكن عدداً من الباحثين، منهم جورج طرابيشى، نقد الجابرى ومشروعه معتبراً أنه نزل بالبحث إلى أضعف درجاته عندما أجرى مسحاً شاملاً لفكرنا القديم مصدراً حوله الكثير من «الفتاوى» التى لم تصمد مع الوقت.

ولم يكن الطيب تيزينى أفضل حالاً من الجابرى، فقد بدأ ولديه مشروع طموح لدراسة الماضى الفكرى العربى على ضوء المنهج المادى التاريخى الذى جلبه معه من ألمانيا الشرقية، زمن الشيوعية، حيث درس، ثم تراجع تيزينى لاحقاً عن الخطوط العامة لمشروعه هذا، موجهاً إليه، قبل أن يوجه إليه الآخرون، ملاحظات قاتلة.

وعلى الرغم من سلامة بوصلة محمد جابر الأنصارى، كمفكر حديث ومستنير، فإن بعض نظرياته الأساسية، بنظر الكثيرين، تعوزها المتانة والتماسك.

وقد يكون فى بعض الذى قاله الدكتور هشام جعيط ظلم بحق هؤلاء الأساتذة الأعلام، وقد لا يكون. المهم أن يتوفر نقد، لا يحابى ولا يجامل، يراجع نتاجهم مراجعة علمية نزيهة. ذلك أن أكثر ما جنى على مجمل النتاج الفكرى العربى المعاصر والحديث هو مناخ «التصفيق الحاد»، أو «العداء المسبق أو المطلق». وقد آن الأوان للخروج من «أخلاقيات القرية» إلى عالم المدينة والحاضرة الحديثة.

لقد سعدتُ قبل سنوات قليلة بولادة دار نشر عربية تُعنى بالأبحاث والدراسات، وحرصت على الاطلاع على الأبحاث الاجتماعية والتاريخية التى أصدرتها هذه الدار والتى وضعها أساتذة جامعيون متخصصون. ولكننى فى كل مرة كنت أقرأ بحثاً من أبحاثها، كنتُ أصاب بالخيبة. فالباحثون كأنهم مبتدئون أو متمرنون، فهم لا يجيدون إعمال المناهج، ولا يجيدون لغتهم العربية. ويتبين بجلاء أن معرفتهم بالعربية أفضل بما لا يقاس من معرفتهم باللغة الأجنبية. وكثيراً ما كنت أحمد الله على أن هؤلاء الباحثين قد تمكنوا من إنجاز أبحاثهم أو كتبهم، نظراً لقلة محصولهم من البحث والتأليف. وعندما يكون الباحثون الأكاديميون الجدد على هذه الصورة، فيعنى ذلك أن النهضة الفكرية والأدبية المرجوة، علينا أن نبحث عنها فى عصر طه حسين وعباس محمود العقاد وأحمد أمين لا فى عصرنا الراهن ولا فى المستقبل. ■

رجـــاء وأدونيـــس

حلمى محمد القاعود

■ عقب رحيل «رجاء النقاش» (١٩٣٤ - ٢٠٠٨م)، استعاد بعض الكتاب خبر الخصومة الفكرية بينه وبين الشاعر السورى المعروف «أدونيس» (واسمه الأصلى على أحمد سعيد أسبر)، وذلك للكشف عن نبل «رجاء» وتسامحه حين كان مديراً لمجلة «المصور»، وكلف «أحمد أبوكف» لإجراء حوار مع «أدونيس» وحين تردد الأخير فى الموافقة على إجراء الحوار، خشية أن يكون طلب الحوار بدافع من المحرر، قد يحجبه رجاء عن النشر، أقسم أبوكف لأدونيس أن «رجاء» هو الذى وجهه لإجراء الحوار.

وبدا أن كثيراً من القراء، وخاصة من الأجيال الجديدة، لا يعلمون شيئاً عن هذه الخصومة، وهى على كل حال، ليست خصومة شخصية تخص الرجلين أو واحداً منهما، ولكنها خصومة فى سياق عام وقومى، يتعلق بالأمة كلها، وقد استثمر «رجاء» ما أثير فى مجلة «الرسالة» - الإصدار الثانى - عام ١٩٦٤، وراح بحسه الصحفى والفكرى يناقش قضية «الشعوبية» فى صراعها مع العروبة، وكأن من أثاروا المسألة آنئذ، كانوا يستشعرون ما حدث للأمة بعدئذ من متاعب وآلام مازالت قائمة حتى اليوم.

ويأتى سياق القضية فى إطار وعى «رجاء النقاش» بالقضايا العامة، منذ شبابه الباكر، وارتباطه بأستاذه الناقد الراحل «محمد مندور» (١٩٠٨ - ١٩٦٥)، فقد تأثر به إلى حد أن سجل عنه رسالة ماجستير فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، وقد اطلعت على السجل بنفسى حين ذهبت إلى هناك كى أسجل رسالتى للماجستير فى دار العلوم، وأحصل من آداب القاهرة على شهادة تفيد بأن أحداً فيها لم يسجل موضوعى من قبل.

المفارقة أن «رجاء النقاش»، لم يكمل رسالته عن مندور، فقد شغلته الصحافة تماماً عن العمل فيها، وأظن أنه لولا كتابته فى الصحف والمجلات، ما ظهر له كتاب، حيث جاء معظمها تجميعاً لمقالاته التى كانت تفرضها طبيعة الإصدار الصحفى، وارتباطه بأوقات محددة.

كان رجاء مشغولاً بالأدب منذ بداياته، فتعرف على الحياة الأدبية، ووعى تياراتها ونشاطاتها، ولعل أبرز نشاطاته بعد أن عمل فى «روز اليوسف» عام ١٩٥٩، كان تحريره لركن الأدب أو أخبار الأدب الذى كان يظهر أسبوعيا فى جريدة «الأخبار»، عقب أن تخلى عنه «أنيس منصور»، وكان يشارك بتناول الكتب فى بعض المجلات الأخرى، ثم كان عمله رئيساً لتحرير «الهلال» فى الفترة من ١٩٦٩ إلى ١٩٧١، فرصة نادرة لشاب مثله فى الثلاثينيات، كى يقود هذه المجلة العريقة، ويستوعب على صفحاتها إنتاج معظم الأدباء والتيارات الأدبية الموجودة فى الساحة، ويثير من القضايا الثقافية ما يشد القراء والأدباء إلى المتابعة والمشاركة، وقد كرر تجربة «الهلال» فى مجلة «الإذاعة والتليفزيون» حيث تحولت من مجلة تعنى بأخبار الفن وأهله بالدرجة الأولى إلى مجلة ثقافية عامة تستقطب الأدباء والمفكرين فى مصر وخارجها، وتقدم ما يمكن وصفه بالثقافة الثقيلة.

لقد كان الأدب والفكر الجاد، هاجسه فى كل موقع حل به صحفيا أو أدبيا، فقد أسس جريدة «الراية» أواخر السبعينيات فى قطر، وجعل الأدب والثقافة جزءاً أساسيا من مادتها، وتفرغ بعد «الراية» لتحويل مجلة «الدوحة» إلى الأدب والثقافة واستكتاب كبار الكتاب فى العالم العربى، فحققت وجوداً ملموساً فى الشارع الثقافى - إن صح التعبير - وظلت «الدوحة» تشد الوجدان العربى، حتى توقفت مع مجلة «الأمة» وكانتا تصدران عن حكومة قطر، فى عام ١٩٨٦، وعاد بعدها رجاء النقاش إلى مصر ليتولى مناصب مهمة فى تحرير صحف دار الهلال، حتى صار كاتباً متفرغاً فى جريدة «الأهرام» يطالع القراء بمقال أسبوعى يتناول قضية أدبية أو عامة، وظل يكتب فى «الأهرام» حتى رحيله.

وكانت ميزة «رجاء النقاش» أنه قرأ الثقافة التراثية إلى جانب الثقافة الوافدة، وتأثر بأعلام العصر فى مصر والعالم العربى، وتابع الحركة الأدبية فى أركان البلاد العربية الأربعة، وعرف كثيراً

بحسه الصحفى والفكرى ناقش رجاء قضية الشعوبية فى صراعها مع العروبة ودور أدونيس فى ذلك



رجـــاء

جدلية "العروبة" و"الشعوبية"

من الكتاب الرواد وكتاب جيله، ومن جاء بعدهم، وكانت لديه قابلية التعرف على الآخرين، وإقامة العلاقات الإنسانية مع المخالفين فكريا وثقافيا، والتعبير عن وجهة نظره فى أسلوب راق، بعيد عن الترخص والابتذال والإساءة.. ولعل معركته مع «العقاد» الجبار، على صفحات الأخبار، مع شدتها وضراوتها، كانت نموذجًا لذلك، فلم يسف أو يهبط، ولكنه وهو الشاب المتيم بأستاذه محمد مندور - المختلف مع العقاد سلفًا - كان حريصًا على الاعتراف بقيمة العقاد وتاريخه الفكرى، وخرج من المعركة، وخرج معه الناس، بفوائد ملموسة، لعلها شجعته فيما بعد على إصدار كتابه عن العقاد بين اليمين واليسار.

ثمة ميزة مهمة لدى «رجاء النقاش» وهى وضوح أفكاره، وبساطة أسلوبه التى اكتسبها من العمل الصحفى، وقد كان ذلك مسوغًا كى يتقبل القراء ما يريد قوله حول الأعمال الأدبية والفكرية، التى يتناولها، بعيدًا عن التقعر والركاكة والضعف والغموض، مما نطالعه لدى عديد من النقاد، الذين يفترض فيهم أن يضيئوا النصوص، ويحكموا عليها، فإذا بهم يطفئونها ويعتمون عليها مع أنهم كانوا يسعون لتقريظها والإشادة بها.

لم تتح لى الفرصة للتفاعل مع «رجاء النقاش»، فقد قابلته مرة واحدة، لعلها فى أوائل السبعينيات بغرفة «فكرى أباظة» المستطيلة أقصى الطبقة الثانية من «دار الهلال». ولسوء الحظ كان مكتبه يومها فى هذه الغرفة التاريخية مكتظًا بأصدقائه وأصحابه، ووجدتنى - وأنا الفلاح البسيط الذى ينفر من الزحام والضجيج - أستأذن لفرصة أخرى لم تأت أبدًا، ولكن الرجل كان يتابع ما أكتب - على تواضعه - ويهتم به بصورة ما..

ومن العجيب أننى كنت أتناول بعض ما يتناوله دون أن أدرى به، وخاصة فى مرحلة التجنيد الإجبارى التى طالت بالنسبة إلى عقب الهزيمة فى عام ١٩٦٧ حتى الانتصار فى حرب رمضان، حيث ودعت الجيش فى مايو ١٩٧٤، باستثناء فترات احتياط قصيرة. فى مرحلة التجنيد هذه، كتبت فى مجلة «سنابل» التى أصدرها «عقيل مظهر» سكرتير عام محافظة كفر الشيخ، وكان يرأس تحريرها «محمد عفيفى مطر» الشاعر المعروف، عن «الطيب صالح» و«عبدالوهاب الأسوانى» وتناولت الرواية الأولى لكل منهما «موسم الهجرة إلى الشمال» و«سلمى الأسوانية»، وفى الوقت ذاته كنت أعد كتابى عن شعراء الأرض المحتلة، الذى فزت به فى جائزة «يوم الأرض» التى نظمها المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية (المجلس الأعلى للثقافة الآن) عام ١٩٧٤، وكنت قد نشرت بعض فصوله فى مجلة «البيان» الكويتية وأنا مجند.

وفى كل الأحوال، فإن ما جعل «رجاء النقاش» أكثر حضورًا فى الواقع الأدبى إلى جانب علاقاته ومواهبه، هو قراءته الدائمة، واطلاعه المستمر على ما يظهر من إنتاج أدبى، من خلال حس قومى عال، موال للعروبة ومعطياتها، على العكس من بعض أقرانه، الذين شطحت بهم انتماءاتهم - وخاصة اليسار المتطرف - إلى آفاق بعيدة وغريبة.. أما ولاؤه للعروبة، فقد كان حافزه لمواجهة «أدونيس» والتصدى لمضمون شعره دون أن ينكر موهبته الفنية، ويعود بعد ربع قرن تقريبًا، ليجدد المواجهة، ويستدعى المآخذ التى يأخذها على «أدونيس» وفكره واتجاهه.

كان الحس المهنى (الصحفى) لدى «رجاء النقاش» عاليا، وكان تقديمه للموضوعات التى ينشرها يجذب القراء دون أن يقع فى شرك الإثارة أو المبالغة، ولهذا كان تعامله مع موضوع «أدونيس» حافلاً بالمهنية، والذكاء، خاصة أنه تناول الأمر فى حينه بصحيفة «أخبار اليوم» عام ١٩٦٤، ونشر مقالاته مجموعة ضمن كتاب له بعنوان «أدب وعروبة وحرية»، صدر بدون تاريخ فى العام التالى تقريبًا.

وقد طرح موضوع «أدونيس وآخرين» على صفحات مجلة «الرسالة» تحت عنوان «شعراء الرفض»، ولم يكن المقصود رفض النظام السياسى أو الاقتصادى أو احتلال فلسطين وجنوب اليمن مثلاً،

يجادل رجاء بأن العرب حصيلة امتزاج عميق التقت فيه حضارات ذابت وانصهرت لتتكون منها الحضارة العربية



أدونيس

من اللافت أن رجاء لم يمت، إلا بعد مشاهدة كيانات انفصالية يمولها الغرب علنًا!

ولكنه كان رفضًا للعروبة، وكل ما ترمز إليه، واستدعاء لفكر شعوبي قديم، يقوم على التمايز العنصري والحضاري، وقد وظف «أدونيس» بصورة خاصة، شعره للتعبير عن رؤيته الشعوبية، والزراية بالفكرة العربية والانتماء العربي.. تنبه إلى المسألة كتّاب «الرسالة» آنئذ، في الأعداد التي ظهرت في صيف ١٩٤٦ وما بعده، وكان الشاعر «عبده بدوي» أول من لاحظ اهتمام «أدونيس» بالشاعر القديم «مهيار الديلمي»، وهو من أصل فارسي، وظهرت لديه نزعة عنصرية يفاخر بها من خلال الفرس وتميزهم على العرب وغيرهم، لذا سمى «أدونيس» نفسه أو ديوانه باسم «مهيار الدمشقي»، ليكون قناعه أو لسانه الذي ينطق به تعبيرًا عما في نفسه، وعما يأمله، ومنه التذكر التالي شعرًا حيث ينهال على وطنه:

- تزيني بالرمل والذئاب
يا امرأة الريح الدمشقية
- كلنا في بلادي نصلي، كلنا نمسح الأحذية
- يا امرأة الآلام والصوان
يا أخت قاسيون
- يا وطنا مصمغًا مكسور
يسير مشلول الخطى قربي
- هربت مدينتنا
والرفض لؤلؤة مكسرة
ترسو بقاياها على سفني
والرفض حطاب يعيش على
وجهي - يلملمني ويشعلني
والرفض أبعاد تشتتني
فأرى دمي وأرى وراء دمي
- إنهم أسلموا لحمهم للصخور..

ويرصد «عبده بدوي» ما يكتبه «أدونيس» استنجادًا ببعض الشعراء الشعوبيين من أمثال «أبي نواس» و«بشار»، ورثاءً للأيام الحاضرة (الستينيات والوحدة العربية)، حيث يراها تغص بعربات النفي، وبالتاريخ العربي المضمخ بمسك العوانس والأرامل والعائدات من الحج، ويرى سورية صارت امرأة محمومة وجسرًا للملذات يعبره (الفراعنة!) وتصفق لهم حشود الرمل (يقصد العرب المتحمسين للوحدة)، ويقول: «حيث يبدأ الفراعنة يأكل الناس بعضهم بعضًا وتنتهي الكلمة، وحيث يبدأ الفراعنة أحمل كتبي وأمضي.. أترك ورائي أصدقائي قضبان الحديد والسجون. وأترك بلادي لأولئك الرواقيين المجانين، ودائمًا يا عصر الذهاب في بلادي» ثم يكتب رسالة البيع للعروبة قائلاً: «لفيل أعمى كتبنا رسالة البيع.. رجل يتبرك بخف الوالي، رجل يسقط شقين مقطوعًا بالصراط، رجل يمشي بساقين خيطين.. رجل يرسم وجهه بحليب ناقته، رجل يعرف أمه في ولائم الملك، رجل يرقد مع زوجته تحت عباءة الأمير في حرير التسري والرعب..» (الرمل) يمحو مناراتنا، والشمس تهترئ في تجاعيد أيدينا. آه يا بلادي يا جلد الحرباء.. هوذا سيدك يا خادمة، هاتي له قهوة عدن، هيئي سريره.. وأين أنت يا رعد.. يا رسول الطوفان..؟».

لقد احتفظ «مهيار الديلمي» بنار المجوسية الفارسية في صدره وبكراهيته للعرب، ورفع «مهيار الدمشقي» راية رفضه لكل ما هو عربي، وكل ما هو حتمي وضروري في حياتنا المعاصرة، كما يقول عبده بدوي، ومن خلال «النار المضرمة» من أول عهد الخوارج والتي أكلت قلب مهيار القديم ومهيار الجديد.. تسير العروبة دون أن تقتص من كل منهما، بل إنها تبتسم في وجهيهما الحاقدين، ولا تصادر حتى متعة «لعبهما بالنار المشبوهة»، فالتاريخ الأدبي هو الكفيل بالحساب، وإظهار الدوافع، وإسقاط الأقنعة..



ويعالج «رجاء النقاش» المسألة بالاقتراب من التاريخ أكثر من الشعر، فيستعيد تاريخ القوميين السوريين الذين انتسب إليهم «أدونيس» سياسيا، للتعبير عن طائفته. ويشير «النقاش» إلى أن الاستعمار لعب على وتر الأقليات والطوائف، ليشن حربًا ضارية يسميها «حرب إبادة أدبية وفكرية ضد الأدب العربي والفكر العربي..»، ولذا يرى النقاش أن حركة القوميين السوريين لم تكن سياسية فقط، بل كانت منذ البداية حركة واسعة تهدف إلى السيطرة على العقول بأوسع صورة ممكنة. وقد قدر لهذه الحركة أن تبدأ على يد زعيم مندفع، يملك قدرًا كبيرًا من الذكاء والكراهية المتأصلة للقومية العربية والوحدة العربية، ذلك هو «أنطون سعادة».

كانت أهداف «أنطون سعادة» تتركز في ثلاث نقاط، تعمل حركته على تحقيقها، وهي:

١ - خلق «الفردوس المفقود» الذي يحبه ويعشقه القوميون - السوريون، ويعملون على إعادته وتحقيقه في الواقع وهو «سورية الكبرى» التي عدها امتدادًا للحضارة الفينيقية التي ظهرت في سورية، ثم في شمال أفريقيا قبل الميلاد بثلاثمائة سنة تقريبًا. وسورية الكبرى في نظر «سعادة» تعني إعادة مجد الفينيقيين وحضارتهم، وبعث العظمة الفينيقية والسيادة الفينيقية على البحر المتوسط. إذًا سورية الكبرى أو «فينيقيا» الجديدة، هي الفردوس المفقود، وهي الحلم الضائع، وهي الأمل بالنسبة للقوميين السوريين.

٢ - خلق رمز تاريخي للحركة يتمثل في القائد الفينيقي السوري القديم «هانيبال» الذي ولد في شمال أفريقيا ومات في سورية، بعد أن دخل في حروب طويلة مع الرومان في الفترة بين ٢٦٤ و٢٠٢ ق. م، وقد وصلت جيوشه إلى أبواب روما، واستولت على كل شمال إيطاليا.. وإن كانت الحرب انتهت بسحق «هانيبال» وهزيمته.

٣ - إحياء أساطير قديمة تساعد الحركة وترمز إليها وتدل على لونها وشخصيتها الخاصة، وقد بعث أساطير بابلية وآشورية، ودعا إلى استخدامها في الأدب القومي السوري، وفي مقدمتها: تموز، وعشتار، وأدونيس، وكل منها يرمز إلى جانب في الحياة، وكان سعادة يهدف من وراء هذه الأساطير إلى تقديم أدب خاص يميز القوميين السوريين.

وقد اختار سعادة لأدونيس اسم الأسطورة التي تقول إنه ثمرة لعلاقة آثمة بين الملك القديم «ثياس» وابنته «ميرها»، وقد تحولت «ميرها» عقابًا لها على خطيئتها إلى شجرة، خرج من جوفها «أدونيس»، رمزًا للحياة الجديدة الخالية من الإثم والرذيلة..

ويرى «رجاء النقاش» أن هذه الأفكار هي نفسها التي يقوم عليها أدب القوميين السوريين الذين يتركزون في لبنان، ويحاولون أن يجعلوا من الأدب خادمًا لـ «الخيانة السياسية» التي يمارسونها ضد العرب والوطن العربي.. وأدبهم في جوهره يقوم على الحنين إلى الفردوس المفقود والجنة الضائعة «فينيقيا»، وهو أدب مليء بالدموع، والتشاؤم والحزن، والفوضى، لأنهم يعيشون في «الأرض الخراب»!

ويجتهد «رجاء» في دحض فكرة القوميين السوريين، على أساس أن العرب حصيلة امتزاج حضاري عميق التقت فيه حضارات قديمة كانت موجودة في المنطقة، ثم ذابت وانصهرت ليتكون منها ما يسمى بالحضارة العربية، وانتهى هذا الانصهار الذي جرى للفينيقيين والفراعنة والبابليين والآشوريين والعرب القدماء إلى خلق شعب عربي «واحد» تحكمه صفات أساسية مشتركة. ولو اتجهت الشعوب المعاصرة إلى وضعها منذ ألفي سنة، لما أصبح هناك شعب واحد من شعوب العالم المعاصر مستحقًا للبقاء إلى اليوم.

ولكن القوميين السوريين يمجدون الحضارة الفينيقية التي انبثقت من سورية، ثم يرفضون الاعتراف بالحضارة العربية وقيمة الحضارة العربية.

والتاريخ يقول: إن العرب الأمويين الذين خرجوا من سورية بالذات، هم الذين أقاموا في شمال أفريقيا وإسبانيا حضارة تفوق حضارة الفينيقيين الروحية والمادية.. (يقصد الحضارة الإسلامية).

ويقف «رجاء النقاش» من الأساطير القديمة موقفًا متسامحًا شريطة ألا تستخدم لدعم أفكار شعوبية تقف في وجه الفكرة العربية، وأي عربي مخلص لعروبته لا يجد ما يجرحه، في استخدام الأساطير «الفرعونية» مثل إيزيس وأوزيريس، فذلك حق للعرب قبل أن يكون

رجاء يقرر بأن خلافه مع أدونيس لا يمنعه من القول بأنه شاعر موهوب

حقًا لغيرهم، والبابليون والآشوريون عاشوا فى العراق، والعراق جزء من صميم الوطن العربى اليوم(؟)، والفراعنة عاشوا فى مصر، ومصر من صميم الوطن العربى اليوم.

ويستخدم القوميون السوريون المغالطات المقصودة التى تهدف إلى خلق فكرة مغرية يمكن لصغار النفوس وصغار العقول أن يلتفوا حولها بحماسة وقوة لتخريج عناصر تحارب الفكرة العربية من داخل الوطن العربى، وتبعث الأقليات الفكرية والدينية العنصرية الأخرى فى الوطن العربى (الفرعونية فى مصر، الكردية فى العراق، البربرية فى المغرب، قبائل الجنوب فى السودان): لتضعف الوطن العربى وتمزقه.. ومن اللافت أن «رجاء النقاش» لم يمت، إلا بعد مشاهدة كيانات انفصالية على أرض الواقع، تملك قوة عسكرية وسياسية واقتصادية، ويمولها الغرب الاستعمارى علنًا، ويدافع عنها!

«أمير شعراء القوميين السوريين»

هكذا يسمى «رجاء النقاش» الشاعر أدونيس. ويشير إلى هروبه من سورية، واستقراره فى لبنان، بعد فترات قضاها فى باريس، ليكون مديرًا لمجلة «شعر» التى كانت تمولها المنظمة العالمية لحرية الثقافة، وهى منظمة أثير حولها كثير من اللغط، بسبب دور المخابرات الأمريكية المركزية فى إنشائها، وقيامها بإصدار بعض المجلات المعادية للثقافة العربية، ومنها مجلة «حوار» التى كانت تدفع مكافآت طائلة، وانصرف عنها كثير من الكتاب بعد انكشاف علاقتها المريبة بالمخابرات الأمريكية المركزية، كما رفض «يوسف إدريس» جائزتها الممنوحة له، وقد عوضه عنها فى حينه الرئيس عبدالناصر، بمثل قيمتها، وحقق له الرفض شهرة عريضة.

لم يكن «أدونيس» قد أصدر مجلته المعروفة «مواقف» بعد، فقد أصدرها عقب الهزيمة لتتبنى موقفًا معاديا للإسلام والعروبة والتاريخ العربى جميعًا، وكانت ملتقى القوميين السوريين، واليساريين على اختلاف توجهاتهم.. ولكن «رجاء» يشير إلى أول قصيدة لأدونيس نشرت فى مجلة «الرسالة الجديدة» التى صدرت فى الخمسينيات من القرن الماضى، وكان يرأس تحريرها «يوسف السباعى»، ويشيد «رجاء» بهذه القصيدة لأنها تكشف عن «شاعر موهوب له طعم ولون وشخصية خاصة»، ثم يشير إلى أنه تتبع إنتاجه، فوجد أن الاتهام الموجه إليه بأنه قومى سورى صحيح، لأنه شاعر القوميين السوريين الكبير، وقد قربه «أنطون سعادة» زعيم الحركة القومية السورية، بعد أن وجده شابًا ذكيا وشاعرًا موهوبًا. لأن سعادة كان يعلم تمام العلم أن الفن عمومًا، والشعر خصوصًا من أهم أسلحة الدعاية السياسية، وأنه سند كبير لنشر أية فكرة من الأفكار. وكان شعر أدونيس تطبيقًا لآراء سعادة وأفكاره.

ومع ذلك، فإن رجاء النقاش يقرر بأن خلافه الكامل مع أدونيس القومى السورى لا يمنعه من القول بأنه من الناحية الفنية شاعر موهوب، ولكنه للأسف اختار أن يسير فى طريق مسدود،



يؤدى به إلى كراهية بلاده والتآمر عليها. طريق كل أحزانه زائفة، وكل أفراحه وأحلامه زائفة أيضًا.

بيد أن رجاء لم يشر إلى الهاجس الطائفى لدى أدونيس، وهو الهاجس الذى يفسر شعره، وكل مواقفه تقريبًا، فأدونيس، ينتسب إلى الطائفة العلوية، واسمها الصحيح أو الأصلى هو «النصيرية»، ويصنفها البعض من القدامى، ضمن غلاة الشيعة، وقد ادعى مؤسس الطائفة النبوة والرسالة، ويدعى أبوشعيب محمد بن نصير البصرى النميرى (ت ٢٧٠هـ)، وعاصر ثلاثة من أئمة الشيعة (١٠-١٢)، وقد أقامت فرنسا دولة للعلويين عام ١٩٢٠، واستمرت إلى عام ١٩٣٦م، ويعيش معظم أفراد الطائفة فى منطقة جبال النصيريين باللاذقية، وانتشروا مؤخرًا فى المدن السورية المجاورة، ويوجد عدد كبير منهم فى تركيا، غربى الأناضول خاصة، ويعرفون باسم «التختجية والحطابين والبكتاشية»، وهناك أعداد منهم فى لبنان وفلسطين وألبانيا وفارس وتركستان.. وأفكار الطائفة فيها كثير من الغلو، واستحلال المحرمات، وصلاتهم مختلفة عن صلاة المسلمين. ويستمدون عقائدهم من الوثنيات القديمة والفلاسفة المجوس والأفلاطونية الحديثة التى نقلوا عنها نظرية الفيض النورانى على الأشياء.

والكلام حول الطائفة يطول، لا يتسع له المجال، ولكن انتماء «أدونيس» إليها كان هو الهاجس. كما سبقت الإشارة. الذى يحكم فكره وتصوراته، وقد تلاقى مع «أنطون سعادة» . غير المسلم . حول فكرة القوميين السوريين لتمثل له مجالاً رحبًا يعبر فيه بطريقة غير مباشرة عن هاجسه الطائفى. وهذا الهاجس له صلة أو علاقة بمواقف الطائفة فى فترة الحروب الصليبية الأولى، وفترة الاستعمار الحديث وإقامة فرنسا دولة علوية لأفرادها. وهذه المواقف للطائفة النصيرية أو العلوية جاءت فى سياق المواجهة مع الأعداء، حيث عُدَّت خذلانًا للأمة، وهروبًا من الميدان، مما حدا بابن تيمية إلى محاربتهم فى عهد الصليبيين وكتابة رسالتين عنهم. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مواقف الطائفة المتخاذلة انعكست على الشعور الشعبى فى بلاد الشام، وترسبت مع التاريخ، مما ترتبت عليه آثار سلبية فى العلاقة الاجتماعية بين الطائفة العلوية وبقية المجتمع..

«أدونيس» يتحرك بهذا الميراث التاريخى فيعظم «قرطاجة» أو قرطاجنة، ويشيد بدورها التاريخى الذى صنعه الفينيقيون:

(أحلم أن شفتى جمرة
أخالها قرطاجة العصور
كل حجر شرارة
والطفل فيها حطب ـ ذبيحة المصير).

ويحلم أدونيس بعودة «فينيقيا» عودة سعيدة. ولكن الواقع يشعره بالحزن الذى يدفعه إلى الندب والعويل:

(فينيق إذ يحضنك اللهيب
أى قلم تمسكه؟
وحينما يغمرك الرماد، أى عالم تحسه؟..
وما هو الثوب الذى تريده ـ اللون الذى تحبه؟).

الحنين إلى فينيقيا، والرغبة فى إعادتها إلى الحياة وبعثها وإنقاذها من الموت.. تلك هى الثورة التى يحلم بها أدونيس.. وقد أدرك الاستعمار قيمة هذه الفكرة فوقف وراءها وساندها، وهى فى حقيقتها كما يقول «النقاش» جزء من «الثورة المضادة» للعروبة، والتشكيك فى سلامتها.. ولعل هذا كان دافعًا إلى قيام الحزب القومى السورى بعمليات إرهابية فى سورية ولبنان، من بينها الاغتيال والنسف والحرق. وهو ما أدى إلى إعدام زعيم الحزب «أنطون سعادة» فى لبنان.

لقد وصفه «النقاش» بأنه ـ أى سعادة ـ قائد عصابات حقيقية كانت تهدد أمن الناس، وتقوم بدور قطاع الطرق. ويضيف: إنه كان ظامئًا للزعامة ومجنونًا بها، وأوصله هذا الجنون إلى أن يجعل الإيمان به شخصيا مبدأ من المبادئ الأساسية فى دستور الحزب، وأصبح الاحتفال بعيد ميلاده فى فروع الحزب، مثل الاحتفال بميلاد الأنبياء. ومن أجل هذا يبكى عليه «أدونيس» بوصفه شهيدًا كبيرًا، ويا له من شهيد مغامر ليس فيه شىء مما يوحى بالشعر الحقيقى الأصيل!

لقد استمر أدونيس فى انزلاقه ـ كما يقول النقاش ـ حتى وصل آخر الأمر إلى الحقد على العرب ومصر وكراهيتها بعنف لأنها أصبحت ـ يومئذ ـ مركزًا للثورة العربية، واقتربت كثيرًا من تحقيق الوحدة العربية، بعد أن كان الأمر مجرد احتمال بعيد المنال، وهو فى شعره لا يكف عن ترديد النغمة القائلة بأن المصريين فراعنة. ويقول فى بعض نثرياته:

(بلادى امرأة من الحمى، جسر من الملذات، يعبره الفراعنة، وتصفق لهم حشود الرمل. يقصد العرب).

ولا يفتأ يردد هذا المعنى فى كل مناسبة بصورة أو أخرى.

ويرى «النقاش» أن القوميين السوريين وقعوا فى أزمة كبيرة حين وقعوا فى تناقض كبير بين ما يريدونه، وما يعلنونه. ويلخص أدونيس الأزمة فى البيتين التاليين:

«أيها الشاعر الكبير إنى أرفضك»!!.. كانت هذه صيحة رجاء فى وجه أدونيس

(يا شمعة المستقبل البعيدة
ما لى أخاف الطرق القصيرة)

والبيتان تصوير بارع لنفسية الشاعر ونفسية الأدباء الذين ينتمون إلى اتجاه القوميين السوريين، إن عقدتهم الكبرى هى أنهم يكرهون الطرق القصيرة الواضحة إلى الحقيقة، ويبحثون عن الطرق الملتوية المنحرفة، فقد أصبحت لذتهم الكبرى هى المغامرة، هى لذة الاختفاء عند المجرم القاتل الذى يطارده القانون.

وأدونيس يستخدم أسطورة «الفينيق» ليؤكد بها معنيين، هما:

أولاً: الموت والاحتراق، فقد مات فينيق واحترق.

ثانيا: البعث والتجدد، فقد بعث فينيق وتجدد، وهو يقف طويلاً عند المعنى الأول فيملأ قصيدته بالعويل والدموع، ويدعو أخيرا إلى التجدد والبعث من رماد الحريق، حيث تعود الحضارة الفينيقية إلى سورية، وهى فكرة سياسية، غير فكرة الحياة والتجدد التى تشير إليها الأسطورة.

فينيق تلك لحظة انبعاثك الجديد.
صار شبه الرماد، صار شررا ولهيبا كواكبا.
والربيع دب فى الجذور، فى الثرى.
أزاح رمل أمسنا العجوز والثلاثة:
الركام والفراغ والدجى).

وقد تبع «أدونيس» فى أفكاره الشعوبية عدد من الأدباء، منهم زوجه «خالدة سعيد»، وصديقه «أنسى الحاج»، والأديب «سعيد تقى الدين» الذى كان يبشر بمستقبل كبير فى الأدب، ولكن انضمامه إلى القوميين السوريين، جعله يتحول إلى مخلوق آخر، يترك الأدب، ويحصن بيته بالمدافع، متوهما أنه مهدد بالقتل، ووقف على حافة الجنون، حتى مات على طريق القوميين السوريين فى الأدب.

ويرى «النقاش» أن هناك بعض المخدوعين الذين انساقوا وراء أدونيس وأفكاره، ولم يدركوا غاياته الحقيقية، وهى الحقد على العرب ومصر، والوحدة العربية.

«أيها الشاعر الكبير إنى أرفضك»!!
كانت هذه هى الصيحة التى أطلقها رجاء النقاش بعد ربع قرن تقريبا فى وجه «أدونيس» عندما زار مصر عام ١٩٨٨، واستقبل بحفاوة كبيرة من أجهزتها الثقافية ومؤسساتها الفكرية، ويقول «رجاء»: إنه لم يشأ أن يفسد «العرس» الذى أقامته مصر للشاعر «أدونيس» فى كل مكان. ويرى أن الطبيعة العربية المصرية فى معاملة الضيوف شىء ثمين يجب الحرص عليه وعدم التفريط فيه، خاصة إذا كان هؤلاء الضيوف عربا، لكنه مع ذلك لا يحب أن تقترن رحابة الصدر وسماحة النفس وكرم الضيافة بأى نقص فى المعرفة بحقيقة الأمور، وهو ما يمكن أن ينتهى إلى شىء من الغفلة وقلة الإدراك.



ويعيد «رجاء» التأكيد على إيمانه الشديد بموهبة أدونيس الفنية والفكرية، وتقديره لها وإعجابه بها، ولكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع أن يتجاهل مواقف أدونيس المبدئية وآراءه المختلفة، وإخفاءه لتاريخه الذى مازال يؤثر عليه، وسوء ظنه بالقضايا الأساسية التى تهم مصر والوطن العربى كله.

ويكشف «رجاء النقاش» فى موضوعه عن تناقض أدونيس وتصرفاته الصغيرة حيال الدعوة المصرية التى وجهت إليه للمشاركة فى معرض القاهرة الدولى للكتاب، حيث رفضها متعللاً باتفاقية «كامب ديفيد» التى وقعتها مصر مع العدو الصهيونى عام ١٩٧٨، والغريب أن أدونيس حضر على نفقته بعد معرض الكتاب بخمسة شهور، ليكون فى ضيافة أحد أصدقائه، ويدلى بأحاديث عديدة لمجموعة من الصحف والمجلات المصرية..

ويصف «رجاء» هذا الموقف بأنه «رخيص وتمثيلية ضعيفة مهلهلة ونفاق لا يليق بشاعر كبير».. ثم يناقش موضوع «كامب ديفيد» ويراه مرتبطا بموقف الأمة العربية التى مازالت ترفض قبول التطبيع، وتملك الموقف الحاسم فى هذا الأمر. ويستعيد «رجاء» موجزا لتاريخ أدونيس وانتمائه للحزب القومى السورى، ويشير إلى إخفائه أول دواوينه (قالت الأرض ـ ١٩٥٤) الذى أهداه إلى أنطون سعادة، رئيس الحزب، بعد أن ضمنه قصيدة طويلة فى رثائه بعد إعدامه عام ٩٤٩١، توحد بينه وبين الوطن:

(قيل: كون بينى فقلت: بلاد
جمعت كلها فكانت: سعادة).

ثم يشير «رجاء» إلى محاربة أدونيس للوحدة المصرية السورية، وإصداره لكتابه «الثابت والمتحول» الذى يطعن فى الثقافة العربية حيث يتهمها بأنها لم تعرف التجديد والتطور والنهضة إلا على يد أصحاب المذاهب الباطنية(٤) أما أصحاب «المذهب السنى» الإسلامى بفروعه المختلفة فهم الذين كانوا ومازالوا يمثلون الجمود فى الفكر والثقافة والفن، حيث يقول بالنص: «إن التحول، أو التجديد أو الثورة فى الثقافة العربية قد ارتبطت فى الدور الحاسم منها بظهور نظرية «الإمامة» عند بعض الفرق الإسلامية الباطنية». ويقدم «رجاء» نماذج من المجددين لا تنتمى إلى الباطنية من أمثال أبى تمام والمعرى وابن الرومى وابن خلدون، لدحض ما يقوله أدونيس، فهؤلاء وغيرهم ممن ينتسبون إلى الخط العام فى الثقافة العربية، ويشير «رجاء» إلى الفوضى الفكرية التى يريد أدونيس أن ينشرها فى ثقافتنا المعاصرة، وتمتد إلى أمور لا يجوز الاقتراب منها بغير معرفة واسعة دقيقة، وميزان فكرى شديد الحساسية والأمانة. وها هى بعض النماذج التى جاءت فى الجزء الأول من كتاب «الثابت والمتحول»، يقول فيها أدونيس:

١ ـ «لم يغير الإسلام طبيعة النظرة إلى المرأة كما كانت فى الجاهلية، أو طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة واكتفى بأن نظم هذه العلاقة وجعل لها قانونا، وجعلها تتم وفقا لطقوس معينة، فالحب فى الإسلام بقى كما كان فى الجاهلية حسيا، ولذلك من الأفضل الاقتصار على استخدام لفظة الجنس دون الحب، فالحب فى الإسلام جنس فى الدرجة الأولى» ص.٢٢٦

٢ ـ «الإنسان مجزأ فى الإسلام إلى جسد وروح وعقل، ومن هنا يصعب فهم وحدته، وفهم الوحدة بعامة» ص ٢٢٧.

٣ ـ «العربى المسلم لا تهمه المرأة بل تهمه النساء، وهو لا يهمه أن يحبهن، بل يهمه أن يمتلكهن» ص ٢٢٧.

٤ ـ «القرآن يعتبر النفس كتلة من الغرائز والأهواء، وهو يضع لها قانونا يسمو بها ويصعدها، ولهذا أبقى عليها كما كانت فى الجاهلية، لم يحاربها ولم يقتلها، وإنما هذبها وصفاها، فليست هناك حبيبة فى القرآن، بل زوجة، وليس فيه حب بل جنس، وصورة المرأة فيه هى صورة الزوجة، والزواج متعة جسدية من جهة، وإنجاب من جهة، ومن هنا تقترن صورة الزوجة بصورة الأم» ص ٢٢٧.

٥ ـ «ينسجم الحب القرآنى مع الحب اليونانى الوثنى، ويمكن أن نصف الحب القرآنى بأنه امتلاك جسدى من أجل القضاء على الشهوة التى هى رمز للشيطان، فالمهم هو إشباع الشهوة، وتسهيل هذا الإشباع» ص ٢٢٨.

٦ ـ «الحب فى القرآن قرار أو علاقة يقررها الرجل وعلى المرأة أن تخضع، فليست الغاية الحب، بل التيه الجنسى، وهذا مما فصل الحب عن العمل واللغة» ص ٢٢٧.

ويمتلئ الكتاب بكثير من هذه الأخطاء العلمية الفاحشة، وينطوى فى داخله على دعوة صريحة إلى التمزق والطائفية ومحاربة وحدة العرب شعبا، ووحدة المسلمين دينا، مع الدعوة إلى الإعلاء من شأن المذاهب الباطنية بوصفها مصدرا للقوة الفكرية والتجديد والأسس الصحيحة للعلاقات الإنسانية المفقودة تماما عند الأغلبية العربية والمسلمة فى نظر أدونيس.

ويتهم رجاء الكتاب وما جاء فيه بالخطأ والدجل من الناحية العلمية، وتفسير النصوص بنية سيئة وضمير شديد الالتواء. وللدين رب يحميه، ثم علماء أصلاء يستطيعون الدفاع عنه بالعقل والحجة والبرهان. ويؤكد «رجاء» فى نهاية موضوعه صيحته التى جعلها عنوانا له: «أيها الشاعر الكبير إنى أرفضك»!.

هناك من يتبنى «أدونيس» ويرسخ أقدامه، ويجعل له نفوذاً كبيراً فى الساحة الأدبية الثقافية

وإذا كان هناك من تبنى الحزب القومى السورى، وغذاه، وأمده بمقومات الحياة، فكان طبيعيا أن يكون هناك من يتبنى «أدونيس» ويرسخ أقدامه، ويجعل له نفوذاً كبيراً فى الساحة الأدبية الثقافية لدرجة جعلت «رجاء النقاش» يعلن أن يواجه رجلاً يملك أسلحة كثيرة وغزيرة ومتنوعة وسهلة الاستعمال بإشارة منه، وأنه يملك محاربة «رجاء» والوقوف ضده فى الصحف والمجلات والمؤسسات الثقافية التى له صلة بها وتأثير عليها، ولكن هذا لا قيمة له عند «رجاء»، فيكفيه أن يجد فى مصر ورقًا يكتب عليه، وقلماً يكتب به، وصحيفة ينشر فيها آراءه بحرية واستقلال.

وعندما يعلن «أدونيس» عداءه لمصر، ويسجل ذلك فى أدبه وكتاباته الفكرية، ويسمى المصريين «غربان أفريقيا الجائعة» محذراً منهم، ومن دورهم العربى، فهنا ينبغى التصدى له، ليس من أجل مصر وحدها، ولكن من أجل الأمة العربية كلها، والتاريخ القديم والتاريخ الحديث يؤكدان ارتباط مصر بأمتها فى السراء والضراء؛ والحوادث خير شاهد على ذلك.

إن «أدونيس» يصر على أن «السنة» تضطهد «الشيعة»، وأنه يتعرض للهجوم لأنه شيعى علوى، وهذا تزوير وضلال ومحاولة غير بريئة لمواصلة العمل الذى احترفه، منذ أن احتضنه ورباه زعيم القوميين السوريين الأول: أنطون سعادة، الذى اختار له اسم «أدونيس»، ـــــ ومنذ أن أصدر كتابه «الثابت والمتحول» الذى نال به الدكتوراة من الجامعة اليسوعية فى لبنان، فى نقد الإسلام والفكر الإسلامى! وهى جامعة لا يطمئن إليها المسيحيون الشرفاء الذين يعرفون علاقاتها التاريخية ببعض أجهزة المخابرات الأوروبية، ودورها فى تخريج العناصر البشرية التى تساعد على تطبيق الأفكار المعادية للعروبة والفكر الإسلامى الصحيح، وإبعاد لبنان عن محيطه العربى.

ولو كان «أدونيس» قد التزم فى رسالته بالأصول العلمية الموضوعية الصحيحة، لقلنا إنه عقل حر يجتهد، وإن أخطأ فله أجر وله قيمته وكرامته. أما الواقع فإن «أدونيس» فى كتابه «الثابت والمتحول» قد لجأ إلى أساليب غير أمينة، وغير علمية لتشويه الفكر الإسلامى.

ويؤكد «رجاء النقاش»، أنه ليس من هواة المعارك والحروب، وليس أقرب إلى قلبه من حياة السلام والهدوء، ولكنه فى الوقت نفسه لا يطيق صبراً على هؤلاء الذين يشعلون نار الفتنة فى الأرض العربية، ويقدموننا جميعًا ضحايا على مذابح الأعداء، ويريدون بالغرور وسوء النية، ووفرة الإمكانات والمساعدات التى يملكونها أن يضعوا أحذيتهم فوق رءوسنا، دون أن يعلموا أننا نستطيع أن نقف فى وجوههم. لا نريد بهم شراً، ولكن نريد أن نبعد شرورهم عنا، ولا أدرى ماذا يبقى لنا إذا استسلمنا لهؤلاء الذين يعملون على تمزيق الوطن إلى أوطان عديدة متصارعة؟

كان «رجاء» يأمل أن يصدر كتابًا



يعمل فيه منذ فترة تحت عنوان «جناية أدونيس على الثقافة العربية»، ولكنه لم يجد وقتًا ليتمه، فقد شغلته الصحافة وقضايا أخرى، بيد أنه أصدر كتاباً مهماً اسمه «الانعزاليون فى مصر»، ردّ فيه على نفر من الكتاب المصريين الكبار، الذين رأوا أن مصر ينبغى أن تعيش لنفسها وشعبها دون أن تلقى بالاً إلى ما وراء الحدود، وأن تعلن الحياد مثل «سويسرا» حتى تنعم بالرخاء والسلام.. ويأتى هذا الكتاب استكمالاً لفكرته التى عارض من خلالها «أدونيس» والشعوبيين فى العالم العربى، فقد كان «رجاء» يؤمن أن الوحدة العربية الحقيقية هى الطريق الحقيقى لبناء الأمة العربية ونهضتها واستقلالها.

وفى كل الأحوال، يبدو أن الأحداث كانت فى صف «أدونيس»، وعلى عكس ما تمنى «رجاء النقاش»، فقد أثمرت جهود التمزيق والتفتيت، ونشأت كيانات جديدة لها صفة الأمر الواقع داخل الأوطان العربية، وبدلاً من توحيد الأوطان العربية، صارت هذه الأوطان نفسها عرضة للضياع، بحكم النزعات العرقية والطائفية والمذهبية، وما يجرى فى السودان والعراق ولبنان والمغرب وغيرها خير شاهد..

أما على المستوى الذاتى بالنسبة لأدونيس، فقد حقق هو، والأدباء الذين ينتسبون إلى طائفته كثيراً من القوة والنفوذ، فقد صار لهم حواريون على امتداد العالم العربى، يؤمنون بما يقوله كأنه وحى، ويسيرون على خطاه فى الكتابة الشعرية والنثرية، ويرددون آراءه ومصطلحاته من المحيط إلى الخليج، بل إن قيادات بعض الدول العربية صارت تتفاخر باستضافته، ومنحه جوائزها واهتماماتها به، فضلاً عن ضيافاتها له، وأضحت الإشارة إلى «أدونيس» من قريب أو بعيد، بالمراجعة أو التصحيح نوعًا من التجديف وكسر التابو والخروج على النص الذى يستحق فاعله العقاب الأدبى!

لقد كان «أدونيس» الأقدر على مخاطبة نقاط الضعف، لدى العديد من النخب والشباب، واستطاع أن يستثمرها جيداً بذكائه الحاد، وتمكن فى نهاية الأمر من فرض إرادته فى الواقع الثقافى تحت مسميات براقة خادعة مضللة، ومن منا لا يوافق مثلاً على مصطلحات مثل: الرفض والثورة والحداثة؟ إنها مصطلحات تجذب كل قلم يسعى إلى الإصلاح والتقدم، ولكن أى رفض وأية ثورة وأية حداثة؟.. لقد كانت هذه المصطلحات كلها تصب فى خانة رفض العروبة والثورة على الدين، والحداثة بالمعنى الأوروبى الذى يعنى القطيعة مع الماضى بكل ما فيه ومن فيه، وقد تجلت معطيات ومقولات «أدونيس» بصورة أكثر وضوحًا فى مجلته «مواقف» التى صدرت عام ١٩٦٨، عقب الهزيمة السوداء.

ويوم عاب «رجاء النقاش» على «أدونيس» رفضه لزيارة القاهرة عام ١٩٨٨ بدعوة من الحكومة المصرية، أو وزارة الثقافة فيها، ثم حضوره إليها بعد خمسة شهور على حسابه الخاص، متعللاً بموقفه من اتفاقية «كامب ديفيد»، لم يكن يعلم أنه سيغير موقفه من هذه الاتفاقية بزاوية مقدارها ١٨٠ درجة، ويصير من كبار أنصار الاستسلام للعدو، ويشارك فى اجتماعات دولية (برشلونة مثلاً)، لوضع صيغ محتملة لما يسمى بالسلام بين العرب والغزاة.. وقيل إنه كان مدفوعاً برغبته فى الحصول على جائزة «نوبل» فى الأدب، حيث يتردد اسمه كل عام فى الصحافة العربية ضمن المرشحين لها، ولكنه حتى هذه اللحظة لم يظفر بها.. وإن كان من المؤكد أن ما يكتبه أسبوعيا أو دوريا يقف فى صف الغزاة الذين يحتلون فلسطين، فهو مثلاً يرفض عمليات المقاومة، ويراها أعمالاً وحشية بربرية، ويرى أننا نظلم الغزاة حين نضعهم جميعاً فى سلة واحدة، ويطالب أن نفتش فى أعمالهم عن الكتابات الإنسانية، وأن ننظر إليهم بموضوعية، فلا نعاديهم، ولا نبتعد عنهم!

هل كان «رجاء النقاش» يغرد خارج السرب حين وقف ضد أدونيس بوصفه ممثلاً لاتجاه معاد للأمة وفكرها وأدبها، فضلاً عن دينها؟

وهل تعنى هزيمة الأمة وانتصار «أدونيس» أن العرب لن ينهضوا من جديد؟

من المؤكد أن الدنيا لا تدوم على حال، ورحم الله رجاء النقاش. ■

مـــــــــراجـــــــــع:

- رجاء النقاش، أدب وعروبة وحرية، سلسلة كتب ثقافية، المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر، القاهرة.
- رجاء النقاش، ثلاثون عاماً من الشعر والشعراء، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٢.
- رجاء النقاش، الانعزاليون فى مصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٤١٠هـ = ١٩٨١م.
- الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، الرياض، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م.
- مجلة الرسالة، الإصدار الثانى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥.
- الصحف اليومية والدوريات الأسبوعية والشهرية، فبراير ومارس ٢٠٠٨.

"عطــــــــــــــالــة"

■■ من منا لا يعجب من عجز الناطقين باسم المجتمع المدني بمعناه الحديث عجزهم عن إخراج الجماهير من لامبالاتها العجيبة بانتهاك أبسط حقوق الإنسان رغم قرنين من النهضة؟ ومن منا لا يعجب نفس الإعجاب أو أكثر من قدرة الناطقين باسم المجتمع المدني التقليدي على حصر تحريك الجماهير في ما يلهيها عن حقوقها الفعلية رغم قرنين من الصحوة؟ ألا يدعونا ذلك إلى الحيرة أمام الأمرين خاصة إذا ربطناهما بالحل الفعلي الذي لجأت إليه النخبتان. الحل الذي أفسد بطبيعته وبما يترتب عليه كل إمكانية لتحقيق الإصلاح بالفعل المدني تحقيقا سليما: فالحرب الأهلية بين التحديثيين المنحازين للمافيات الحاكمة وحماتهم والتأصيليين المنحازين للمافيات المعارضة ونفس الحماة وثمرتها استعانة الأولين بالقوى الأجنبية واستعانة الأخيرين بالجماهير لا يمكن أن تنميا فاعلية المجتمع المدني إلا في وهم أصحاب هذا الحل السائد حاليا.

ذلك أن مثل هذا الحل يؤول إلى القضاء المبرم على كل إمكانية لجعل التنافس القيمي الذي هو جوهر كل حيوية عمرانية يجري بصورة صحية وسلمية لتكون تعبيرا عن المجتمع المدني تعبيره الأساسي وأداة تحققه المبدع. فالاستعانة بالأجنبي لن يقوي قوى التحديث ولا قوى التأصيل بل هو سيسمها بسمة الخيانة خاصة والقوى الأجنبية لا يقتصر إفسادها للقيم الحديثة أو الأصيلة على استعمالها الخفي أداة لأجندتها بل هي مضطرة بمقتضى الظرف الخاص في علاقتها بنا إلى اللعب بالمكشوف الذي يحول كل النخب التحديثية والتأصيلية إلى عملاء لفرط ما تتميز به الأجندة من أهداف مباشرة تجعل القيم الحديثة والأصيلة تتحول إلى معاول تخريب لقيم الأمة المطابقة للقيم الكونية وليست مساعدة على تطورها الذاتي. وتزييف الوعي باللجوء إلى الماضي في ما يلهي عن المهمات التنويرية للقيم الدينية يؤدي حتما إلى ما نراه من غرق في قشور الهوية والغيبوبة عن شروط تنميتها وتطويرها تحقيقا للتطابق بين قيم حقوق الإنسان العاقل وقيم واجبات الإنسان المؤمن.

وحتى لا يعد كلامي هذا تحليقا في سماء النظريات التي تعتبر من الترف الفكري في مثل هذه الندوات فإني سأحاول فهم علل هذه العطالة أو علل تعويق المجتمع المدني. عللهما التي نستشفها من عمل مجتمعنا المدني ودور الناطقين باسمه بنوعيهما الحديث والتقليدي. ونحن نفترض أن هذه العلل لا تخلو من أن تعود إلى: ١- مقومات المجتمع المدني نفسه ٢- أو إلى الظرف المحدد لكيفية عمل الناطقين باسم هذه المقومات ولنطلق عليها اسم النخب القيادية لفعاليات المجتمع المدني.

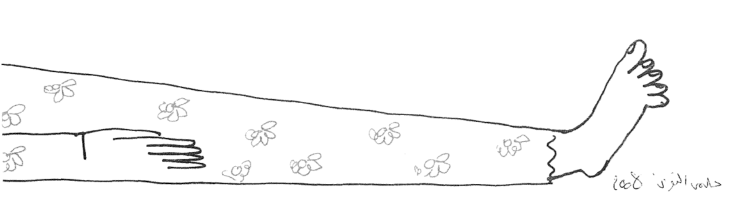
قد تتهم هذه المحاولة بعيب مهني ينسب إلى صاحبها الميل إلى الإغراق في النظر الفلسفي المجرد. لكن المحاولة تعتمد بقصد على النظر الفلسفي لتخليص فكرنا من التلهف على العمل المباشر العمل الخالي من فهم الشروط التي توفقه إلى العلاج القويم فيبقى في ما يسميه أرسطو بتعجب العامي الأول جهلا بطبائع الأمور المقابل تمام المقابلة لتعجب العالم المدرك للحقائق. وسيكون هذا النهج قاعدتنا على الأقل في المسألة الأولى لان مفهوم المجتمع المدني ينتسب إلى تاريخ التصورات الأساسية في فكر الإنسان العملي من حيث الموضوع ولأن تعريفه ينتسب إلى تاريخ المناهج المنطقية الأساسية في فكر الإنسان النظري من حيث العلاج. فمسألة تحديد مفهوم المجتمع المدني من مسائل الفلسفة العملية موضوعا ومن مسائل الفلسفة النظرية منهجا بدءا بأفلاطون وأرسطو وختما بهيجل وماركس ومرورا بالفارابي وابن خلدون مرورا تجاوز الأولين بنقدهما وأعد لنقد الثانيين بما تضمنه مما كان لا بد أن يغفلاه من أبعاد الثورة الكونية الإسلامية. ومن ثم فالفارابي وابن خلدون يعدان دليلينا في هذه المحاولة.

يمكن أن نحدد الظرف الذي تبرز بمقتضاه نخب المجتمع المدني العربي خاصة والإسلامي عامة بخطين متعامدين يحددان أربع خانات ممثلة لأصناف الفصام الذي أصاب نخب الأمة الناطقة باسم التعبير عن رهانات التنافس في العمران البشري.

فالخط الأول منهما يقسم النخب العربية (ومثلها كل النخب الإسلامية من غير العرب) عموديا إلى نحلتين لا تتعايشان إلا بمفهوم الحرب الدينية إيجابا من منظور إحداهما وسلبا من منظور الأخرى. ذلك أن العلمانيين هم أيضا فكرهم ديني بالسلب تماما مثل الدينيين الذين يمكن اعتبار فكرهم فلسفيا بالسلب. فما يثبته أحدهما لما يدعي الاستناد إليه يكتفي الثاني بنفيه فيكون كلاهما قابلا للتعريف بسلب الثاني. ومن ثم فكلاهما يتناسى أن الفكر البشري لا يمكن أن يخلو من البعدين الديني والفلسفي ليس فحسب بالمعنى الهيجلي للعلاقة التي تجعلهما متحدين بالمضمون ومختلفين بالشكل بل بمعنى أكثر عمقا. فالشكل الفلسفي لم يبق جدليا كما يدعي هيجل بل بات أصحابه يفضلون الشكل التأويلي والمضمون الديني لم يبق عقائد ذات صيغة عاطفية كما يدعي هيجل بل بات أهله يفضلون المضمون ذا النسق العقلي كما هو شأن كل الثيولوجيات. وبذلك فهما قد اتحدا شكلا ومضمونا ولم يبق مختلفا إلا الأسلوب.

أما الخط الثاني فيشق كلتا النحلتين أفقيا في العمق. فكلتاهما تنقسم بحسب تصور مقومات الفعل التاريخي حصرا إياها في بعدها المتعين في أعراض حصوله الأول أو فتحها على الممكن اللامتناهي في الحيز الفاصل بين الحاصل والمثال الأعلى من الوجود الفعلي. لذلك كان الأصلانيون صنفين: أحدهما يتصور أحد تعينات الإسلام أو ما تحقق منه في الماضي الإسلامي التعين الوحيد الممكن والثاني يراه قابلا لأن يتخذ أشكالا جديدة بحسب التدرج في الوصل بين مثله العليا وتاريخ تعيناتها. وينقسم العلمانيون مثلهم إلى صنفين: أحدهما يتصور أحد تعينات التحديث أو ما تحقق منه في قرون الغرب الأخيرة، التعين الوحيد الممكن والثاني يراه قابلا لأن يتخذ أشكالا أخرى بحسب التجارب اللامتناهية في المستقبل. والغالب على الساحة حاليا هو الصنف الأول من كلا الفريقين: وهما مصدر الحرب الأهلية العربية والحرب الأهلية الإسلامية.

أما الصنف الثاني منهما فهو لا يزال جنينيا في كلا فرعيه. والمفروض أن يكون فرعاه متحدين على الأقل بمقتضى الانفتاح على المستقبل مشروعا وعلى الماضي تأويلا. لكن المحدد الفعلي للحظتنا التاريخية لا يزال متمثلا في الصنفين الغالبين اللذين يعتبران



النخبة!

التاريخ محاكاة لأمر حاصل في ماضينا البعيد أو في ماضي الغرب القريب، وليس إبداعا لأمر لا يقبل التحديد النهائي مسبقا. فأصبح عمل التاريخ مستحيلا في مستوى التصور الرمزي ناهيك عن مستوى التحقيق الفعلي بما أصبح المثال ماضيا حاصلا والممثول تكرارا له وليس إبداعا لتصورة الرمزي أولا ولتحقيقه الفعلي ثانيا مع ما بين التصور الرمزي والتحقيق الفعلي من جدل متواصل جيئة وذهابا من أحدهما إلى الآخر، حتى يتطابق بعدا الحضارة الرمزي والمادي. وبذلك فإن النخب العربية من كل مجالات التقويم الخمسة تبرز على أرضية الشعب بوصفه منبع الجميع وأصل التقويم والتنخيب فتنقسم بحسب الخطين المتعامدين إلى الأحزاب الخمسة التالية بحسبان المجموعة مع أقسامها حتى وإن لم تكن من رتبتها:

حزب المحافظين الديني: تكرار أعراض التجربة الماضية من التاريخ الإسلامي.

حزب التحرريين الديني: المشاركة في فتح آفاق جديدة للفكر الديني..

حزب المحافظين العلماني: تكرار أعراض تجربة التحديث الغربية.

حزب التحرريين العلماني: المشاركة في فتح آفاق جديدة للفكر الفلسفي.

أما الحزب الخامس فهو حزب الأغلبية الصامتة التي تنبع منها النخب.

فكل الأحزاب السابقة تنسل من الحزب الخامس أو القسم التام من التصنيف بمجرد أن ينتقل البعض من الصمت إلى التعبير عن أحد أنواع القيم وما يتصل بها من تعارض المصالح بين المتنافسين عليها. لذلك كان الحزب الصامت الحزب الشامل الذي يغازله الجميع لاستمداد شرعية دعواه منه، أعني الرأي العام الذي له وجهان داخلي وخارجي مع تعاكس في تغليب الاستناد إلى الخارجي أو إلى الداخلي منه من حيث الإيجاب أو السلب. فالحزبان الدينيان يستندان إلى الرأي العام الداخلي إيجابا وإلى الرأي العام الخارجي سلبا. والحزبان العلمانيان يعكسان فيكون سندهما الموجب الرأي العام الخارجي وسندهما السالب الرأي العام الداخلي. وتلك هي آلية التنجيم (= اعتبره أو جعله نجما وللمعنى صلة بالمعنى الأصلي أعني الدجل التنبوئي عند المنجمين). فجعل أي مبدع أو مفكر نجما يكون إيجابا بمدح منتوجه أو سلبا بذمه. وهو عند النخب الدينية أهلي في المدح وأجنبي في الذم، أي إن من يمدحه المسلمون ومن يذمه الغرب من النخب الدينية يصبح نجما عند المنتسبين إلى الحزب الديني. والعكس بالنسبة إلى النخب العلمانية: يصبح العلماني نجما بمجرد أن يذمه المسلمون أو يمدحه الغربيون أو بحصول الأمرين.

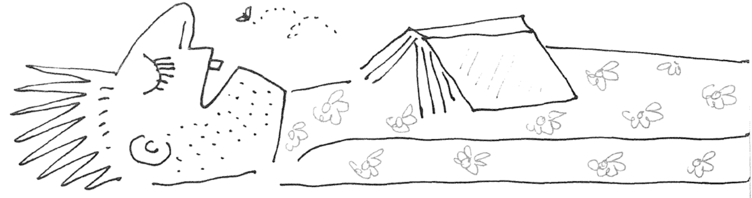
إن الفصام الثاني الذي يشق كلا الفريقين الأصلاني والعلماني هو الفصام الأصلي. إنه الفصام الذي يعنينا في محاولتنا فهم عقم المجتمع المدني العربي الحالي لكونه يفسر الفصام الفرعي الذي يقابل بين الأصلاني والعلماني فيغوص إلى أعماق آليات التنخيب المستلب الغالب على اللحظة العربية الحالية. فالعلماني يصبح نجما أولا وقبل كل شيء بفضل موقف المسلمين السلبي منه ممثلين بالنجوم الأصلانية والأصلاني يصبح نجما أولا وقبل كل شيء بفضل موقف غير المسلمين منه ممثلين بالنجوم العلمانية. لذلك فهما نخبتان متضامنتان جدا في هذه اللعبة التنجيمية التي برعوا فيها بالدجل على الرأيين العامين الأهلي والأجنبي. فصارت هذه اللعبة جوهر الأزمة الحضارية التي يعيشها المسلمون والعرب منذ قرنين: نخب زائفة تدعي ما ليس لها وخاصة منذ ذهاب الأجيال الأولى التي كانت محاولاتها واعدة والتي قتلها طاغوت الثورات المزعومة قومية الثورات التي وزعت السلطات بين النحل المذمومة والشلل الخدومة بشعار الطبقات المحرومة وبهار الشعوب المظلومة.

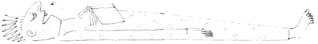
إن النوع الأول من الفصام هو النوع الأيسر على الفهم. فنحن نراه بالعين المجردة. ويمكن أن نعتبره الوجه الظاهر من أزمة الأمة الإسلامية كلها، أزمتها التي يعد النوع الثاني من الفصام عرضها الأهم. وقد تعين هذا العرض أتم تعين في النخب العربية لما لمقومي الثقافة العربية (الدين واللسان بمقتضى نصي الدين الإسلامي) من منزلة في تاريخ الأمة الإسلامية. وطبعا فهذه المنزلة يمكن أن تتبخر إذا لم نتداركها فنستفيد من الصحوة لاسترداد منزلتها الأصلية. فالنخب العربية تستمد منزلتها الكونية من دور العروبة في الإسلام ودور الإسلام في العالم. ولذلك فالعروبة. ولله الحمد . لا تزال هي مصدر أهم الرموز والمقومات الإسلامية في كل دار الإسلام. والشعب العربي. بخلاف كل ما يزعم في الإسلام غير العربي سواء كان في آسيا أو في جنوب شرقي آسيا . لا يزال الأكبر عددا والأغنى ثروة والأعرق تراثا والأقرب إلى الحداثة الغربية من كل الشعوب الإسلامية. لكن هذه النخب العربية التي جعلها الفصام العميق الذي نحاول توصيفه قبل الكشف عن دائه ووصف علاجه مترددة بين الأصولية الدينية والأصولية العلمانية انفصمت في العمق بحسب النوع الثاني الذي هو الفصام الأكثر تأثيرا على دور النخب لكونه يصيبها بالعقم الإبداعي في كل مجالات التقويم البشري.

في مجال القيم الذوقية: فكل الفنون العربية صارت نسخا مضحكة من الإبداع الغربي رغم أن من تأثر بآدابنا من ذوي الثقافة الإسبانية مثلا باتوا نماذج على الأقل في الرسم وأساليب القص.

في مجال القيم الرزقية: وكل الاقتصاديات العربية توابع هزيلة رغم أن الإمكانيات العربية كان يمكن أن تجعل الوطن قطبا عالميا لو وجهت الثروات السائلة التي تشجع العطالة والفساد إلى استثمارات منتجة تقضي على الجهالة والكساد. إذا كانت أغنى الأقطار العربية يمكن أن تفلس بين عشية وضحاها لأن رئيسا أمريكيا مهووسا يمكن أن يجمد رصيدها فهل نحتاج إلى دليل آخر؟

في مجال القيم النظرية: وكل الجامعات ومعاهد البحوث العربية لا تعدو أن تكون أضحوكات العصر، ما ورثناه منها عن الماضي التليد بالتقليد أو ما حاكته محاولات التجديد بالتوريد. ويكفي دليلا أهم تطبيقات العلوم في حكم كل إنسان سوي حتى الأمي: الطب. فإذا كانت الكليات الطبية عاجزة عن حماية أسرار الدول العربية التي باتت صحة قادتها مرهونة بالمصحات الأجنبية بعد





قرنين كاملين من التحديث فهل نحتاج إلى دليل آخر ؟

في مجال القيم العملية : وكل المؤسسات السياسية العربية لا تعدو أن تكون مهازل الدهر: إذا كانت أكثر الدول العربية شروعا في العلمنة، أعني الدول التي حكمتها الأحزاب القومية قد تبين من أكبرها أنه قد عاد بشعبه إلى العشائرية والقبلية المتقدمة حتى على الإسلام فهل تبقى حاجة لدليل؟

وفي مجال القيم الوجودية : وكل الفكر الديني والفلسفي العربي الحالي لا يحرك أي عمق من أعماق النفس البشرية الحائرة أمام أسرار الوجود لفرط تحوله إلى مضغ أيديولوجي ثقيل عششت فيه طحالب الفكر الكليل لخلو أصحابه من عميق الحدس وصحيح الدليل.

أمثلة من انحراف آلية انتخاب النخب

إذا كنا قد أحجمنا عن ضرب مثال من الحالة الأولى (القيم الذوقية) ومن الحالة الأخيرة (القيم الوجودية) لتعيين القصد في المجالين الأول والثاني، فالعلة هي كون فصام النخب فيهما بالذات بيانه هو مطلوب المحاولة بالقصد الأول لوضوح الضحالة التي آل إليها دور هذين النوعين من النخب في مسائل المجتمع المدني والرأي العام. ففيهما بالذات تعينت أزمة النخب العربية التي من المفروض أن تكون المحرك الفعلي للفعالية العميقة في العمران البشري، قصدت فعالية التحقق الوجودي والتلذذ به. فهي عرض المرض الذي ينخر المجالات الثلاثة الأخرى: الرزقي والعملي والمعرفي. ذلك أن هذه المجالات توابع المجال الأول (الذوقي) تبعية المدفوع للدافع. وهي كذلك توابع المجال الأخير تبعية القيمة المؤسَّسة للقيمة المؤسِّسة (الوجودي).

ولن تتبين هذه العلاقة المضاعفة إلا بعد أن نكشف ما في الفكر المسيطر على هذين الميدانين من دجل وعجل أفقد الثقافة العربية أكبر ثرواتها إفقادا يعد ما حصل من نكبات في المجالات الثلاثة الأخرى (نكبات القيم الرزقية والقيم النظرية والقيم العملية) لعب أطفال بالقياس إلى ما حل بالقيم الذوقية والقيم الوجودية. ذلك أن المعادلة التي تحكم تراتب النخب بفرعيه السوي وغير السوي هي عينها المعادلة التي تحكم تراتب القيم في كل الحضارات وفي كل مراحل التاريخ. وهذا أحد القوانين الكلية التي نبحث عنها في كل محاولاتنا لمواصلة جهد ابن خلدون في فهم الثورة المحمدية بتغيير نظرية المعرفة والوجود الموروثة عن اليونان وبمحاولة تأسيس علوم الإنسان بصورة تدعم الثورة الميتافيزيقية الناتجة عن هذا التغيير.

ففي الترتيب العقيم تكون القيم الذوقية (المجال الأول) لعبة في يد نخب القيم الرزقية (المجال الثاني) خاصة وتكون نخب القيم الوجودية (المجال الخامس) لعبة في يد نخب القيم العملية خاصة (المجال الرابع) بسبب فشل نخب القيم النظرية (المجال الأوسط) في إبداع المؤسسات العلمية والمؤسسات العملية لبناء الوجود الرمزي والفعلي للعمران بالمنظومتين التربوية والسياسية (مقوما صورة العمران أو الدولة) بناءً يصور مقومي مادته أعني الإبداع الذوقي والإبداع الرزقي (مقوما مادة العمران أو المجتمع المدني). أما الترتيب السوي فهو في الوضعية المقابلة أعني في وضعية إبداع المؤسسات التي تحول دون هذين الاستتباعين. وقد اعتبر ابن خلدون النقلة من الترتيب السوي إلى الترتيب غير السوي بداية هرم الدولة وانحطاطها.

ورغم ما أشرنا إليه من غياب المنظور الموجب للماضي والمستقبل ومن ترتيب غير سوي للقيم، غيابين كلاهما يقتضي ضرورة عدم وجود نخب مبدعة ومؤثرة حقا، فإن لنا مع ذلك من النجوم الذوقية والرزقية والنظرية والعملية والوجودية ما لا يكاد يحصيه عد! فما السر يا ترى وكيف نفهم هذه المفارقة التي لا يكاد المرء يجد لها تفسيرا ؟ لذلك فقد اعتبرنا التعريف بمصدر تحديد النجومية في البلاد العربية منطلقا لتحديد بدايات الجواب عن هذا السؤال المحير. ويقتضي ذلك أن نميز بين وضعيتين جزئيتين كلتاهما مضاعفة بحسب المقابلة بين الظاهر والباطن ثم وضعية ذات صيغة جامعة:

١و٢- الوضعية في البلاد التي يكون فيها النفوذ الحقيقي للقوة المباشرة في الظاهر أو في الباطن (أي القوة العسكرية والبوليسية وهي الوضعية الغالبة في البلدان المتخلفة).

٣و٤- والوضعية التي يكون فيها النفوذ الحقيقي للقوة غير المباشرة في الظاهر أو في الباطن (أي القوة الاقتصادية والتقنية وهي الوضعية الغالبة في البلدان المتقدمة)

٥- والوضعية ذات الصيغة الجامعة أعني منطق النخب في العالم كله بسبب خضوع الوضعية الأولى للوضعية الثانية التي يستخدم فيها أصحاب القوة غير المباشرة الجميع:

١و٢- ظاهر وضعية البلدان المتخلفة وباطنها.

٣و٤- ظاهر وضعية البلدان المتقدمة وباطنها.

٥-الوضعية الصيغة الجامعة.

فقد ذكرنا أن النخب الذوقية أصبحت تابعة للنخب الرزقية. لكن ذلك ليس كذلك لأن المنتَج الفني قد صار بضاعة سوقية (بمعنى الكلمة) فحسب بل لأن منتج العمل الفني أصبح مضطرا لبيع نفسه. فهو قد صار يعيش على غذاء صناعي يحقق له القطيعة مع الإدراك العادي للجمال ويضطره إلى تعويضها بتجارب إدراكية لا تحصل من دون مؤثرات كيماوية ثمنها تخلي المدمن عن حريته بالتدريج: أهمها الخمر والمخدرات والجنس والمآدب الباهظة. وطبعا فليس كلامي في هذا الأمر من باب إخضاع القيم الذوقية للقيم الخلقية. فعندما يكون المبدع الذوقي قادرا على ذلك بحيث يكون غنيا عن التنازل عن القيم الفنية ثمنا لإرضاء من يوفر له أدوات اللذة فلن يكون عندي مانع أصلا لاستمتاع الفنان بهذه المتع.

فكيف يستطيع السائلون وأبناء السبيل الحصول على مشروباتهم ومأكولاتهم في أفخر الفنادق إذا لم يدفعوا من حريتهم للأحزاب التي أفسدت من كان يمكن أن يصبح مبدعا ففرضت عليه منزلة الكدائين ؟ وفي الحالتين- سواء كان من الأثرياء أو من الكدائين- فإن محفزات الإبداع المزعوم التي لا يحيا المبدع الموهوم من دونها دليل قريحة تعمل بالمنبهات كعجوز العضلات أو بالدفع الوارد كالمحرك البارد. فكيف يكون ما انحط إلى منزلة البضاعة الكاسدة ثمرة لتجربة فنية صادقة؟ إن مثل هذه التجارب حتى إذا صدقت، فإنها لا تكون حقيقية إلا في حصولها الأول ومرة واحدة. أما إذا تكررت إدمانا فإنها لن تضيف للتجربة الشعورية إلا ثرثرة شعارية فيكون صاحبها بلسان أفلاطون كالأجرب يستمتع بحك بشرته الجرباء وليس مبدعا يرتفع بوجدانه إلى السماء.

وذكرنا كذلك أن النخب الوجودية (أي القيمين على الفكر الديني والفلسفي) أصبحت خاضعة للنخب العملية (من بيدهم السلطان السياسي) ليس فحسب لأن منتَج العمل الوجودي صار بضاعة سوقية (بمعنى الكلمة) بل لأن منتِج العمل الوجودي أصبح مضطرا لبيع نفسه لأنه صار يعيش على سلطان صناعي يحقق له القطيعة مع الإدراك العادي للجلال ليعوضه بتجارب إدراكية لا تحصل من دون مؤثرات دعائية باهظة الثمن: أهمها علامات الجاه والشهرة ومغالطة الجماهير الغارقة بالرموز المنافقة. وطبعا فليس كلامي في الأمر من باب إخضاع التجربة الوجودية للقيم الخلقية. فعندما يكون المبدع الوجودي غنيا عن التنازل عن القيم الوجودية ثمنا لإرضاء من يوفر له أدوات الشهرة هذه، فلن يكون عندي مانع أصلا لاستمتاع الفيلسوف أو رجل الدين بهذه المتع التي هي من جنس حكاك الأجرب. لكن كل سلطان رمزي ليس غنيا عن الاستناد إلى السلطان المادي ليس سلطانا أصلا فضلا عن أن يكون رمزيا. لذلك فبمجرد أن يفقد المثقفون متكأهم تراهم أذل الخلق وأكثرهم تذمرا بعد أن كانوا أشد الناس كبرا وأمشاهم تبخترا.

والمعلوم أن النخب الرزقية (المستحوذة على الاقتصاد) والنخب العملية (المستحوذة على السلطة السياسية)

أكثر الدول العربية شروعا في العلمنة، أعني الدول التي حكمتها الأحزاب القومية قد تبين من أكبرها أنه قد عاد بشعبه إلى العشائرية والقبلية المتقدمة حتى على الإسلام



الداخلية متداخلتان ومتناجبتان. فكلتاهما تابعة للأخرى مع غلبة تبعية الأولى للثانية في الظاهر خلال بداية العهود التي تحتاج إلى القوة المباشرة (قوة السلاح) وغلبة تبعية الثانية للأولى في الباطن خلال غايتها التي تحتاج إلى القوة غير المباشرة (قوة المال). ففي بداية العهد تكون القيم الرزقية تابعة للقيم العملية في الظاهر لأن برجوازيتنا إن صحت التسمية والنسبة وصلت إلى الثروة عن طريق السلطة بخلاف البرجوازية الغربية التي وصلت إلى السلطة عن طريق الثروة. والأمر كذلك لغياب الدور المؤثر للملطفات القوتين. فالملطف المدني (المجتمع المدني من حيث هو مصدر القيم: دور التنظيمات غير السياسية لحماية الحقوق المادية والمعنوية مثل النقابات والجمعيات) والملطف السياسي (والمجتمع السياسي من حيث هو مصدر الشرعية: دور الأحزاب أو العشائر أو الطوائف بحسب المجتمعات) كلاهما شبه معدوم. وفي غاية العهد تكون القيم العملية تابعة للقيم الرزقية في الباطن عندما يصبح للملطفات دور مهم وبعد أن تكون النخب السياسية قد استحوذت على الثروة الوطنية فتسعى للحفاظ على راهن الوضع (الستاتيكو) بلعبة دولة القانون والديموقراطية شرط النأي عن سؤال من انتقل من مد اليد للسؤال إلى ملء الجيب بالمال من غير مواريث أو أعمال.

وبذلك فالنخب الذوقية تكون في البداية تابعة بصورة غير مباشرة للنخب العملية بتوسط النخب الوجودية التي تعلل سلوكها والنخب الوجودية تكون تابعة بصورة غير مباشرة للنخب الرزقية بتوسط النخب الذوقية التي تعارض النخب الوجودية. ثم ينعكس الأمر في الغاية. لكن التداخل المحدد لتبعية القيم بعضها للبعض لا يقتصر على علاقات نخب الداخل بعضها بالبعض. لذلك فالمعادلة تحتاج إلى تدقيق التحليل. ففي البلدان المتقدمة التي تستتبع البلاد المتخلفة تكون القوة غير المباشرة هي الأساس مباشرة بشراء النخب السياسية وبصورة غير مباشرة بتوجيه الرأي العام تحكما في الآلية الديموقراطية بشراء النخب الذوقية والنخب الوجودية المتواطئتين معها من خلال إضفاء المشروعية على سلوكها. لذلك فينبغي أن نعكس في وضعية البلاد المتقدمة. إذ تكون النخب العملية هنا تابعة للنخب الرزقية مباشرة أو بتوسط دور النخب الذوقية والنخب الوجودية التي تعيش على ما ترميه لها من فتات لتؤثرا في الرأي العام وتسيطرا من ثم على المجتمع المدني في بعده الرمزي.

أما السيطرة على البعد المادي من المجتمع المدني فهي جزء من سلطان النخب الرزقية سواء كانت من أصحاب رأس المال ونوابهم أو من أصحاب القوة العاملة ونوابهم أو من النخب المتكلمة باسم هؤلاء أو أولئك من طحالب المثقفين والإعلاميين. ومن ثم فنخبنا تستمد نجوميتها من سلسلة نفوذية معقدة ومركبة يمكن وصفها على النحو التالي. فهي لا تستمد دورها من كونها مبدعة لما تتحدث باسمه فتسمى بالنسبة إليه. وليس ذلك لضآلة الإبداع فحسب بل لأن الإبداع لم يصبح مصدرا لمنزلة فاعلة في المجتمع فتمكن صاحبها من أن يكون ذا تأثير رمزي يحرك وذلك بسبب ما حل بالذائقة العامة من تبليد لعل أهم أسبابه النسخ المسيخة من الإبداع الحقيقي في الغرب وخاصة نسخ الأدب المسرح أو المسينم. ما تزال الذائقة العربية محكومة بالمفارقة التالية. فالنخب القديمة المؤثرة فقدت تأثيرها لزوال التأثير الرمزي الذي يعد أساس الدور الذي يؤديه فقهاء الشرع والمتصوفة ومتكلمو اللاهوت وشعراء البلاط. والنخب البديلة لم تصبح بعد مؤثرة لعدم شروع التأثير الرمزي للدور الذي يمكن أن يؤديه فقهاء الوضع والفنانون ومتكلمو الناسوت وشعراء المخاط. لذلك فإنه يمكن لإعلامي كذوب أو لمغنية طروب أو لراقصة لعوب أن يكونوا أكبر تأثيرا من كلا الصنفين. صنف النخب التي دورها فات أو صنف بدائلها التي تزعم أن دورها آت.

وإذن فليس من المصادفة أن احتاجت النخب التي تدعي أداء دور المثقف إلى الاتكاء على سلطان براني يكون سلطان النخب الرزقية أو النخب العملية الأهليتين أو الأجنبيتين. وذلك هو مفهوم الجاه بمعناه الخلدوني. بل إن النخب الذوقية والنخب الرزقية والنخب النظرية والنخب العملية والنخب الوجودية نخب يحددها ذوق ورزق ونظر وعمل. ووجود خمستها سلبي مصدرها لاستنادها إما إلى الماضي الأهلي المعارض لما بدأ ينبت من الماضي الغربي في مجتمعاتنا أو إلى الماضي الغربي المعارض لما بدأ يستعاد من الماضي الأهلي.

ومن ثم فالرأي العام المحدد تحديدا إيجابيا ليس هو الرأي العام الأهلي ولا حتى الرأي العام الغربي مصدر القيم في وطنه. بل هو المافيات الغربية التي تقاسم المافيات المحلية ثمرات الاستعمار الباطن (وهو استعمار بالنخب التي نوبها الاستعمار في إدارة مستعمراته السابقة) الذي ولى الاستعمار الظاهر. ولعل الشكل الظاهر من الاستعمار سيعود من جديد لأن أمريكا بدأت تخشى من التدخلات الخفية للقوى المنافسة. لم يعد التسيير عن بعد يكفي لانفتاح لعب القوى المحلية قريبا انفتاحه على الأقطاب الأربعة في ما تعتبره مجالاتها الحيوية من منطلق الاستعداد للعماليق الأربعة التالية: الصين وتوابعها والهند وتوابعها وروسيا وتوابعها وأوروبا وتوابعها. ولم يبق للرأي العام الأهلي إلا التحديد السلبي فضلا عن امتناع الوصول للرأي العام الغربي المبدع حقا للقيم في بلده.

ويكون هذا التحديد السلبي إما برفض ما بدأ ينبت من الماضي الغربي في مجتمعاتنا (قيم الحداثة وهي ماض لأن الحاضر الغربي محكوم بقيم أخرى فضلا عن كون الحاضر لا يحاكى لعدم استقراره وعدم تحدد خطوط قواه) رفضا يتأسس على تجميد قيم الدين في الشكل الذي حصل لها في ماضي المسلمين أو برفض ما بدأ يستعاد من الماضي العربي فيها (قيم الأصالة لأن القيم التي تحكم الحاضر مجهولة ومن ثم فتأثيرها مغيب فلا نعلم على وجه التحديد طبيعة القيم المؤثرة في حياتنا الخلقية لغلبة التكاذب الجمعي والنفاق في كل مجالات القيم الخمسة)

ليس من المصادفة أن
احتاجت النخب التى تدعى
أداء دور المثقف إلى الاتكاء على سلطان برانى
يكون سلطان النخب الرزقية
أو النخب العملية

رفضا يتأسس على تجميد قيم العقل في شكل التحقق الذي حصل لها في ماضي الغرب. ومعنى ذلك أن كلا الموقفين يجمد واقعا قد حصل (صورة عن الماضي الأهلي أو الأجنبي) فيحوله إلى مثال أعلى قاتلا بذلك الحاضر وحائلا دون أي تحقيق لمستقبل حر يتحدد عادة بالعلاقة بين واقع حي ومثال أعلى لم يتحقق سابقا حتى يكون الوصل بين الواقع الحي والمثال المطلق مغامرة وجودية فعلية وليس محاكاة لأعراض مجردة من تصورات ميتة لواقعين كلاهما شبع موتا.

قدمنا في هذه المحاولة أمثلة آليات تكون النخب ومنطق علاقتها بالرأي العام المحلي والدولي، أعني جوهر فعلها المدني. وكانت الأمثلة ذات بعدين تصوري وتاريخي يبينان التعامد بين خط الفصام العمودي (بين الأصولية الدينية والأصولية العلمانية) وخط الفصام الأفقي (بين العمل على علم بطبيعة الفعل التاريخي والتخبط للجهل بها). ولا أظن أحدا يناقش في ما زعمناه توصيفا لنخب المجالات القيمية الخمسة بحسب التحديد النظري والتمثيل التطبيقي. ويكفي أن نذكر بأن نخب القيم الرزقية (نخب الاقتصاد) ونخب القيم العملية (نخب السياسة) أمرهما بين للعيان ومن ثم فهو غني عن التمثيل. لا أحد يشكك في تبعيتهما أو في كونهما يستمدان النجومية سلبا (من لا ترضى عنه نخب مجاله في الغرب) أو إيجابا (من ترضى عنه نخب مجاله في الغرب) من القوى الاستعمارية. لا أحد يمكن أن يزعم أن رجال الأعمال في الوطن العربي يمثلون نخبة ذات إبداع قيمي في المجال الاقتصادي: ويكفي دليل واحد لبيان شرطي نفي كل إبداع في الحالتين.

فلو كانت نخب الرزق نخبا ذات قوة غير مباشرة مستقلة عن أصحاب القوة المباشرة (المافيات الحاكمة) لكانوا أول الساعين للتوحيد العربي على الأقل ليكون لهم قاعدة كافية لخوض صراع الحيتان في السوق العالمية في أي مادة للأعمال. لكنهم في الحقيقة إما ظل لأصحاب القوة المباشرة أو هم هم. فالفصل المحقق لشروط تقابل المصالح بين النخبتين لم يحصل بعد حصولا كافيا يمكن من العمل المستقل. لو كانوا نخبا ذات أفق يتجاوز الأعمال الحقيرة لكانت عيونهم بصيرة ولما بقيت أيديهم قصيرة! لو كانوا حقا نخبا مبدعة لأصبحت القوة

المباشرة تابعة لهم بدل أن يكونوا هم تابعين لها ومن ثم لخلقوا قوى سياسية تحقق الوحدة كما حصل في أمريكا سابقا وكما نراه يحصل في أوروبا حاليا وكما هو منطق كل الوحدات في التاريخ الإنساني. ولا نستثني من هذا المنطق الوحدات التي حققتها العقيدة الدينية. فالدين عندما يكون دينا صادقا وليس مجرد نفاق كما هو شأن الأديان المحرفة ومنها إسلامنا الرسمي، عندها يكون سعيا لإرث الأرض ومن ثم فلعامل القوة غير المباشرة دور الدافع الأساسي في تحقيق الوجود السياسي والحضاري للأديان. ولعل أهم مضامين الرسالة القرآنية في قصص الأنبياء بيان هذه الحقيقة التي لا جدال فيها: لا معنى للآخرة من دون مطيتها التي هي الدنيا إرثا لها وحماية من الفساد في الأرض ومن ظلم المستضعفين.

ولو كانت نخب العمل نخبا ذات قوة ذاتية وليست تابعة للمافيات الاستعمارية التي تستتبعهم للنخب الرزقية في بلادها (على الأقل بجعلها في خدمة الصفقات التي هي نهب مشترك ومنظم لثروات بلادنا) لكانوا أول الباحثين عن شروط استقلال القرار السياسي أعني الحجم الفعلي للإرادة، تماما كما فعلت نخب أوروبا التي تنازلت عن العقيدة القومية رغم وجود القوميات وجودا فعليا (تعدد اللغات والثقافات الأوروبية أكثر من عشرين لغة) في حين أن نخبنا السياسية هي أكثر النخب الساعية إلى خلق قوميات من عدم بإحياء ماض متقدم على الإسلام لم يعد إلا سلعة سياحية وبالنفخ في بقايا الاستعمار إلى حد تقسيم الوطن إلى جهات مناظرة لمناطق الاستعمار السابقة والتبعية اللاحقة.

ولتكن مسكة الختام الكلام على النخبة التي أنتسب إليها وأزعم الدراية بها أكثر من درايتي بالنخب الأخرى: النخبة النظرية التي ينبغي أن تكون قدر المستطاع محايدة في علاجها للمسائل حتى نتمكن من معرفة الأدواء وطلب الدواء. والداء في هذه الحالة هو عطالة فعالية المجتمع المدني في الحضارة العربية الإسلامية. لكن أعضاء هذه النخبة يتصورون أنفسهم باحثين أو علماء أو أساتذة جامعيين لمجرد كونهم لهم هذا الموقع في أشباه الجامعات وأشباه الدول التي تحكم أقطار الوطن رغم غياب الشروط الدنيا لهذه المهام الأساسية في العمران البشري. فأكثر هؤلاء تزعما للتنوير أكثرهم نفيا لشروط القيام الحضاري والتاريخي للأمم عامة وللأمة العربية خاصة ومن ثم لكل معنى يمكن أن ينسب إليه مشروع التنوير: تجاوز الحدود القومية بل والثقافية إلى الكونية المتوالية في الزمان والمتساوقة في المكان بخلاف ما يسعى إليه أشباه مفكرينا ممن يريدون العودة إلى قوميات شبعت موتا لمجرد أن ذلك يمدهم بمقفاز النجومية. إنهم يريدون أن يحققوا تحديثا فوقيا بحسب أيديولوجيات لم يستوعبوا لوازمها ومن ثم فهي غير مفهومة لهم لمجرد جهلهم بشروط تحقيقها في الواقع التاريخي الفعلي بحيث إن كل ما حصلوه من علم جعلوه وصفات معيارية للتحويل بديلا من التأويل بحسب الزعم الماركسي.

وفي حين يكون البحث العلمي عادة عملية صياغة متصلة التعديل لنماذج رمزية هدفها تحليل الموجود وتحقيق المنشود تجد المزعوم علماء في جامعاتنا ومعاهد البحث أكثر طوباوية من أكثر الناس جهلا بشرطي العمل على علم. فالعمل على علم يقتضي أن يعلم المرء الواقع الموجود وأن يخترع الطرائق والجسور الواصلة بينه وبين المثال المنشود بشرط أن يكون سلوكه من البداية منطلقا إلى الغاية. سلوكا مرتب المراحل ومصحوبا بالرؤية السابقة استعدادا للإنجاز وبالرؤية المصاحبة تجويدا له وبالرؤية اللاحقة نقدا تجاوزيا للتطوير حتى يتطابق النظر والعمل تطابقا، مهمة التقدم العلمي تضييق المسافة بين وجهيه.

أما أن يكون الواقع مجهولا تمام الجهل وأن يكون المنشود مجرد محاكاة لأمر هو بدوره معلوما علما سطحيا فهذا ليس عملا على علم لخلوه من شروط العلم النظري الممتحن والرؤية العملية المراقبة. لذلك فالأولى له أن يعتبر عين الفساد في الأرض. وما أوصى به ابن خلدون من ضرورة استبعاد المتصدرين للتنظير الذين هم من هذا النوع يبقى حسب رأيي أكبر حكمة قالها هذا العملاق الذي لخص في جملة واحدة عاهة المنظرين المقدمين على العمل السياسي من غير تجربة ولا علم حقيقيين. فيكون إدلاؤهم بدلوهم في الحياة أضغاث أحلام تقضي على الحقائق بالأوهام وذلك هو عين السقام الذي نعتبر نخبنا الجامعية التي لا تميز بين ترديد الشعارات والكلام دون خبرة ومعاناة للاجتهاد المبدع لتصورات الموجود وتوقعات المنشود أعني لما لا يمكن للحضارات أن تقوم من دونه. ■

كتاب الزاوية

الكاتب المصرى

طه حسين

فى افتتاحية العدد الأول من مجلة «الكاتب المصرى» قال محررها طه حسين: ولكل أدب حى مقومان أساسيان، يكفل أحدهما له الثبات والاستقرار، ويكفل ثانيهما له النمو والتطور والارتقاء.

فهذه المجلة ستحرص أشد الحرص على العناية بهذين المقومين للأدب العربى، فتعنى بقديم هذا الأدب، تدرس تاريخه وتكشف أسراره وتحيى آثاره. وتعنى بالأدب الحديث الذى ينتجه الممتازون من كتاب الشرق العربى تذيعه وتدرسه وتنقده وتشجعه وتجعله غذاء لعقول العرب وقلوبهم وأذواقهم، وتهيئه لعقول غير العرب من أبناء الأمم الأخرى المتحضرة، بحيث يمكن أن ينتقل إلى اللغات الأوروبية المختلفة.

وستأخذ هذه المجلة نفسها بقانونين لن تحيد عنهما مهما تكن الظروف. أحدهما الشدة على نفسها وعلى كتابها وقرائها فيما تنشر وما تنقل من الفصول. فلن تقدم إلى قرائها إلا هذا الأدب الذى ينفق صاحبه فى إنتاجه الجهد العنيف والوقت الطويل.

القانون الثانى هو الحرية الواسعة الكاملة السمحة فيما تنشر وفيما تختار من آثار القدماء والمحدثين ومن آثار الشرقيين والغربيين، لا تنظر فى ذلك إلا إلى الفن الخالص وإلى قيم الثقافة العليا وما يحقق التعارف والتواصل بين الذين يمثلون هذه الثقافة من رجال الأدب والعلم والفن.

لقد رأس طه حسين تحرير مجلة «الكاتب المصرى» منذ صدورها فى أكتوبر ١٩٤٥ عن دار الكاتب المصرى للطباعة والنشر. وطوال صدورها فترة استمرت ثلاث سنوات حدد خلالها مفهوم الصحافة الأدبية فى محورين يستقطبان كل أبحاثها هما: العرض والنقد، عرض الفكرة الجديدة أو الكتاب أو الأثر القديم. ومن خلال هذا الاحتكاك بين العرض والنقد يرسم طه حسين مفهومه للصحيفة الأدبية أو الفكرية العامة، لإغناء الفكر العربى وتأصيله من خلال التعريف والتصحيح والتقويم فى النطاق الفكرى أو الخلقى على السواء.

وقد أعادت مكتبة الأسرة نشر مجلدات «الكاتب المصرى» عام ٢٠٠٣ بدراسة ومقدمة للدكتور عبدالعزيز شرف. واختارت «وجهات نظر» مقتطفات من المجلد الثامن.

هل ارتفع سعر النفط (؟!!)

138 $

حسين عبد الله

■■ تعالى الصياح فى العالم الصناعى الغربى وهو يرى السعر الاسمى Nominal price للنفط الأمريكى يتخطى حد الـ ١٠٥ دولارات للبرميل، بينما لم يتجاوز متوسط سعر برميل من سلة أوبك ORB، وهى مجموعة من النفوط ذات مواصفات فنية أدنى من النفط الأمريكى ٩٠ دولارًا على امتداد الربع الأول من العام الحالى ٢٠٠٨. وسوف نبين فى هذه الدراسة الموجزة أن السعر الاسمى لنفط أوبك يمكن أن يصل الآن إلى ١٣٨ دولارا دون أن تلام عليه الدول المصدرة للنفط، لأنه حقها المشروع فى ضوء المبادئ التى تحدد العلاقة بين السعر الاسمى والسعر الحقيقى Price in real terms.

هذه هى الأسعار الاسمية التى يتركز الاهتمام حولها فيما يثار من حوار بالنسبة لأسعار النفط، بينما الأجدى أن يدور النقاش حول السعر الحقيقى، أى السعر بدولارات ثابتة القيمة بعد استبعاد ما طرأ عليه من عوامل التضخم النقدى والتغير فى سعر صرف الدولار الذى يتخذ أساسا لتسعير النفط، وأيضا بعد إضافة ما يستحقه النفط من علاوة خاصة اعترفت بها الصناعة وتضمنتها اتفاقيات دولية أبرمت بين الدول المصدرة للنفط وبين شركات النفط العالمية فى مستهل السبعينيات من القرن الماضى كما سنوضح فيما بعد.

وكان ربع القرن السابق على حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد شهد صورة من صور التباين بين السعر الاسمى والسعر الحقيقى، إذ كان نصيب الدول المصدرة للنفط فى الشرق الأوسط من عائداته يتحدد قبل عام ١٩٥٠ بعائد مقطوع يدفع كإتاوة ويتراوح بين ١٠ و٣٠ سنتًا لكل برميل. فلما قبلت الشركات - تحت الضغوط المتزايدة - مبدأ مناصفة الأرباح، وصار سعر النفط الخام يتخذ أساسًا لحساب تلك الأرباح منذ ١٩٥٠، اتجهت الشركات بحكم سيطرتها المطلقة على الإنتاج والتصدير والتسعير إلى تخفيض ذلك السعر خدمة لاقتصادات الدول الصناعية الغربية المستوردة للنفط ومساندة لها فى إعادة التعمير بعد الحرب العالمية الثانية. وفى ظل تلك السياسة انخفض سعر النفط العربى الخفيف من ١٨,٢ دولار للبرميل عام ١٩٤٧ إلى ١,٨٠ دولار عام ١٩٦٠ حيث بقى ثابتًا عند ذلك المستوى حتى مطلع السبعينيات من القرن الماضى.

وقد أفلحت أوبك خلال عقد الستينيات من القرن الماضى فى تثبيت أسعار النفط من حيث قيمتها الاسمية، إلا أنها لم تفلح فى وقف تدهور الأسعار من حيث قيمتها الحقيقية. فإنفاق حصيلة الصادرات النفطية على استيراد السلع والخدمات من الدول الصناعية الغربية كانت أقرب ما تكون إلى تبادل سلعى Barter trade ومن ثم اتجه معدل التبادل الدولى بين الجانبين Terms of trade لصالح الدول الصناعية نتيجة لانخفاض سعر النفط من ناحية، والارتفاع المطرد فى أسعار تلك السلع والخدمات من ناحية أخرى. وتوضيحا لذلك فقد ارتفع الرقم القياسى لأسعار الناتج القومى الإجمالى GNP لمجموعة الدول الصناعية الغربية من ١٠٠ إلى ٢٦٠ خلال الفترة ١٩٤٧ - ١٩٧٠. وباستخدام المخفض المشتق من هذا الرقم القياسى GNP deflator يتضح أن سعر النفط الذى انخفض فى صورته الاسمية من ١٨,٢ دولار للبرميل إلى ١,٨٠ دولار خلال الفترة المذكورة قد انخفض أيضًا فى صورته الحقيقية إلى ٧٠ سنتًا للبرميل مقومة بدولارات عام ١٩٤٧ وذلك نتيجة لاتجاه معدل التبادل الدولى لصالح الدول الصناعية. بل إن نصيب الدول المصدرة للنفط لم يكن يزيد على ٥٠٪ من ذلك السعر بعد طرح التكلفة وفقًا لاتفاقية مناصفة الأرباح، وبذلك لم يكن هذا النصيب حتى أوائل السبعينيات يتجاوز ٣٠ سنتًا للبرميل مقومة بدولارات عام ١٩٤٧ وهى نفس القيمة التى كانت تلك الدول تتقاضاها كحد أقصى فى ظل نظام العائد المقطوع قبل إدخال مبدأ مناصفة الأرباح.

ومع تدنى السعر الاسمى والحقيقى للنفط على هذا النحو، ارتفع تدفق النفط العربى الرخيص لكى يغذى الصناعات الغربية المتحولة من الفحم إلى النفط من نحو مليون برميل يوميا عام ١٩٥٠ إلى ١٥ مليون ب/ى عام ١٩٧٠ ثم إلى ذروة عند ٢٢,٥ مليون ب/ى فى منتصف السبعينيات.

حرب أكتوبر تصحح الغبن

باستثناء فترة قصيرة فى مستهل السبعينيات تحسنت خلالها عائدات النفط تحسنًا طفيفًا بإبرام اتفاقيات طهران وجنيف الأولى وجنيف الثانية مما سيلى ذكرها فيما بعد، فإن التصحيح الحقيقى للغبن الذى كان يلحق بنصيب الدول المصدرة للنفط لم يتحقق إلا بفضل العبور المصرى لقناة السويس فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. فالسعر الاسمى للنفط لم يكن يتجاوز قبيل الحرب ٣ دولارات للبرميل، كما لم يكن نصيب الدول المصدرة للنفط يتجاوز دولارين.

وفى محاولة لتحسين الوضع عقد اجتماع وزارى استثنائى لدول أوبك فى فيينا يوم ١٥ سبتمبر ١٩٧٣ حيث تقرر أن تتفاوض الدول بصورة فردية أو جماعية مع الشركات لرفع الأسعار، وتحدد لبدء المفاوضات بين مجموعة دول الخليج والشركات فى فيينا يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣. وكانت المعارك على الجبهة المصرية مع إسرائيل قد سبقت هذا الموعد بيومين، ومع ذلك التقى مندوبو الطرفين فى الموعد المحدد حيث عرض ممثلو الشركات رفع السعر من ٣ دولارات إلى ٣,٢٥ دولار للبرميل، أى بزيادة ٢٥ سنتًا.

وكانت نتائج المعارك على الجبهة المصرية قد أخذت تؤكد أن الجانب العربى سوف يفلح فى استرداد كرامته. ومع ما هو معروف من ارتباط أسعار النفط بالسيادة الوطنية وحرية الإرادة، اشتدت عزيمة المفاوضين العرب، ومعهم إيران، فرفضوا مقترح الشركات فى فيينا. وأدركت الشركات حقيقة ما يجرى فى ساحة القتال، وهو ما أصاب العالم بالذهول، فعادت تعرض رفع السعر إلى ٤٥,٣ دولار للبرميل. إلا أن فريق الخليج - الذى عزز الانتصار المصرى على أرض المعارك موقفه التفاوضى - رفض مرة أخرى اقتراح الشركات. عندئذ قام مفاوضو الشركات بالتشاور مع مجالس إداراتهم فجاءهم الرد بان الشركات لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من ذلك بدون التشاور مع حكومات الدول المستهلكة للنفط وهى أساسًا المجموعة الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة.

وبعد أن توقفت المفاوضات يومين استطلعت الشركات خلالهما آراء عدد من الحكومات الرئيسية المستهلكة للنفط ومنظمة OECD، فيما إذا كان يجب عليهم تحسين الأسعار إلى الحد الذى يجعلها مقبولة من دول أوبك، جاء رد الحكومات سلبيا وبالإجماع تقريبا. عندئذ طلب ممثلو الشركات فى فيينا من دول أوبك يوم ١٢ أكتوبر تأجيل المفاوضات لمدة أسبوعين لإجراء مشاورات أخرى مع الحكومات المستهلكة للنفط. وكان الانتصار المصرى فى المعارك قد تأكد، فرفض وزراء الخليج الاقتراح وتوقفت المفاوضات.

وفى يوم ١٥ أكتوبر خرجت طائرة مصرية تحمل وفدًا نفطيا مصريا برئاسة وزير البترول المصرى، ثم توقفت فى الرياض لكى يصعد إليها وفد نفطى سعودى، واتجهت بعد ذلك إلى الكويت حيث شهد فندق شيراتون بها أخطر القرارات التى نقلت السيادة كاملة على صناعة النفط إلى أصحابها الشرعيين.

بدأ الاجتماع يوم ١٦ أكتوبر بمشاركة وزراء النفط فى دول الخليج أعضاء أوبك، وهى السعودية والكويت والعراق والإمارات وقطر بالإضافة إلى إيران، حيث تقرر، من جانب واحد ولأول مرة فى تاريخ صناعة النفط، زيادة سعر النفط من ٣ دولارات إلى ١٢,٥ دولار للبرميل. ولم تشارك مصر علنًا فى هذا الاجتماع لأنها لم تكن عضوًا فى منظمة

التصحيح الحقيقى للغبن الذى كان يلحق بنصيب الدول المصدرة للنفط لم يتحقق إلا بفضل العبور المصري لقناة السويس فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. فالسعر الاسمى للنفط لم يكن يتجاوز قبيل الحرب ٣ دولارات للبرميل

أخذت الأسعار فى التآكل تدريجيا خلال النصف الأول من الثمانينيات ثم انهارت فى عام ١٩٨٦ إلى ١٣,٥ دولار اسميا وإلى ٥,٥ دولار فى صورتها الحقيقية

أوبك. وكان القرار صادرا باسم المنظمة. ولكن مصر كانت تتحمل المسئولية الكاملة عن القرار بحكم انتصارها فى المعارك التى استردت الكرامة العربية. والتى استهانت بها الدول المستهلكة للنفط.

فى اليوم التالى (١٧ أكتوبر) عقد اجتماع لوزراء الدول العشر الأعضاء فى منظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط (اوابك) وكانت مصر عضوا بها. ولأن الاجتماع كان يتسم بالصفة السياسية فقد اجتمعت الوفود تحت عنوان «مؤتمر وزراء النفط العرب» بدلا من الاجتماع العادى لمجلس وزراء المنظمة. وقد تقرر فى ذلك الاجتماع خفض إنتاج النفط فوراً بنسبة ٥٪ شهريا، ثم تقرر بعدها بأيام أن يكون الحد الأدنى للخفض ٢٥٪ مع الاستمرار فى الخفض الشهرى بنسبة ٥٪. وكان الخفض يستهدف فى الأساس مساندة السعر الذى ارتفع بقرار منفرد من المنتجين فى ظل الانتصار المصرى الذى حرر الإرادة العربية.

وكان مما شجع على رفع نسبة الخفض الابتدائى إلى ٢٥٪ أن نيكسون رئيس الولايات المتحدة أعلن يوم ٢٠ أكتوبر عن صفقة مساعدة عسكرية مقدارها ٢,٢ مليار دولار لإعادة تسليح إسرائيل، ومن ثم أعلنت المقاطعة النفطية لكل من الولايات المتحدة وهولندا التى تبنت موقفاً معاديا أثناء اجتماع السفراء العرب فى لاهاى، وأضيفت البرتغال إلى الدول المقاطعة لسماحها باستخدام مطاراتها فى إمداد إسرائيل بالمعدات العسكرية. غير أن المقاطعة النفطية العربية لم تلبث أن أخذت فى التراخى وتلاشت إلى حد كبير فى نهاية مارس ١٩٧٤ عندما تم رفعها بالنسبة للولايات المتحدة .

وهكذا تأكد منتجو النفط، بفضل الانتصار المصرى فى حرب أكتوبر، أنهم لن يعاملوا على أنهم جزء ثانوى فى الاقتصاد الدولى الذى تسيطر عليه المجموعة الصناعية الغربية وشركاتها النفطية الكبرى. كذلك تأكدت هذه الثقة بالنفس بعد أن قبلت الشركات صاغرة زيادة الأسعار التى تقررت فى اجتماع ١٦ أكتوبر وساندتها قرارات المقاطعة بتقليص المعروض دون بدائل فى أسواق النفط. وكانت هذه هى المرة الأولى التى ينجح فيها أى تجمع لمنتجى المواد الأولية فى العالم الثالث فى السيطرة على مواردهم الطبيعية بمثل تلك الصورة الحاسمة. ولما طلبت الشركات عقد جلسة فى فيينا فى أواخر نوفمبر ١٩٧٣ مع ممثلى الدول المصدرة للنفط من أجل «استيضاح» السياسة السعرية الجديدة، أصرت منظمة أوبك على ألا تكون الجلسة بأى حال جلسة مفاوضات، وأنه مهما يكن هيكل الأسعار فى المستقبل، فإنه سيتحدد بقرارات منفردة من المنظمة . وليس من أية جهة أخرى.

وتأكيدا لهذا الموقف اجتمع وزراء الخليج أعضاء أوبك فى طهران يومى ٢٢ - ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣ حيث تقرر رفع سعر النفط مرة ثانية إلى ١١,٦٥ دولار للبرميل ساريا من أول يناير ١٩٧٤، أى بزيادة السعر إلى أربعة أمثال ما كان عليه قبيل نشوب المعارك، كما تجاوزت الزيادة الصافية (٨,٦٥ دولار) عشرين مثل ما عرضته الشركات (٤٥ سنتا) أثناء التفاوض معها فى فيينا بينما المعارك تدور على الجبهة المصرية.

توالت بعد ذلك القرارات النابعة من السيادة الوطنية التى استردتها الدول النفطية تحت مظلة انتصارات أكتوبر. فقد كانت اتفاقية المشاركة التى أبرمت مع الشركات عام ١٩٧٢ تتيح للدول النفطية حق تملك ٢٥٪ من مرفق إنتاج النفط الخام على أن ترتفع تلك النسبة إلى ٥١٪ بعد عشر سنوات أى فى عام ١٩٨٢ . ولكن بدلاً من انتظار السنوات العشر، استطاعت دول الخليج أن ترفع نسبة المشاركة فى مستهل ١٩٧٤ إلى ٦٠٪ وبذلك صارت لها اليد العليا فى إدارة الشركة. وتلى ذلك - كما هو معروف - سلسلة من القرارات والإجراءات التى انتهت بالتملك الكامل لكافة المنشآت النفطية القائمة على أرض الدول النفطية.

وهكذا جاءت المحصلة النهائية لتداعيات حرب أكتوبر ممثلة فى إعادة هيكلة صناعة النفط بحيث انتقلت السيطرة الكاملة على مقدرات إنتاج النفط وتصديره إلى أصحابه الشرعيين، وارتفعت بذلك إيرادات تصدير النفط فى



الدول العربية المصدرة للنفط من نحو ١٤ مليار دولار عام ١٩٧٢ إلى نحو ٧٥ مليار دولار عام ١٩٧٤ ثم تصاعدت لتبلغ ٩١ مليار دولار عام ١٩٧٧ قبل أن تقفز إلى ١٤٦ ملياراً عام ١٩٧٩ وإلى ٢١٣ ملياراً عام ١٩٨٠ إثر قيام الثورة الإيرانية.

كم السعر الآن؟

دامت السيطرة العربية فى مجال النفط عبر النصف الثانى من سبعينيات القرن الماضى، ثم تعززت تلك السيطرة بالثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ فارتفع السعر الاسمى إلى ذروته عند ٣٢ دولاراً عام ١٩٨١ وإن كان لم يتجاوز فى صورته الحقيقية نحو ١٥,٥٥ دولار، معبراً عنها بدولارات ١٩٧٣ .

ومع الوهن الذى أصاب التضامن العربى وانعكس على ما تتمتع به الدول النفطية من السيطرة على أسعار النفط، ثم نجاح الدول الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة فى وضع خطط وبرامج لاستعادة سيطرتها على تسعير النفط، أخذت الأسعار فى التآكل تدريجيا خلال النصف الأول من الثمانينيات ثم انهارت فى عام ١٩٨٦ إلى ١٣,٥ دولار اسميا وإلى ٥,٥ دولار فى صورتها الحقيقية.

وقد استمرت الأسعار الحقيقية تراوح حول هذا المعدل، وإن تراوحت اسميا حول ١٨ دولارا، حتى مطلع ٢٠٠٤ عندما تكشف عجز الاستثمارات النفطية عن توسيع القدرة الإنتاجية بحيث تواجه الزيادة غير المسبوقة فى الطلب العالمى على النفط. وقد اقترن بذلك الاختلال فى آليات السوق العالمية للنفط احتلال الولايات المتحدة للعراق وما ارتبط به من توترات جيوسياسية فى منطقة الخليج التى تضم ثلثى احتياطيات العالم من النفط، ومن ثم استمرت قفزات السعر الاسمى من ٢٨ دولاراً عام ٢٠٠٣ إلى ٣٦ دولاراً عام ٢٠٠٤ وإلى ٥٠ دولاراً عام ٢٠٠٥ وإلى ٦١ دولاراً عام ٢٠٠٦ و٦٩ دولاراً عام ٢٠٠٧، ثم ٩٠ دولاراً خلال الفترة من يناير ٢٠٠٨ للآن.

وهنا يثور السؤال: ما هو السعر الحقيقى للنفط وما هو السعر الاسمى الذى يعبر عنه فى الوقت الحاضر؟

فى تقديرنا أن السعر الحقيقى للنفط يمكن أن يتحدد فى ضوء ثلاثة مبادئ سبق إقرارها فى اتفاقات نفطية دولية، وهى بإيجاز:

(١) أقرت اتفاقية طهران التى أبرمت بين أوبك وشركات النفط العالمية فى مستهل ١٩٧١ مبدأ ارتفاع سعر النفط بمعدل ٢,٥٪ سنويا لمواجهة التضخم،

(٢) كما أقرت الاتفاقية المذكورة مبدأ زيادة مقدارها ٥ سنتات سنويا كعلاوة خاصة باعتبار النفط ثروة ناضبة يتسارع نضوبها بازدياد الطلب عليها مما يجعلها تستحق هذه العلاوة التى تستمد جذورها من القانون الأمريكى الذى كان يمنح شركات النفط إعفاء ضرائبيا عرف باسم «مسموحات النضوب» Depletion Allowance لتشجيعها على الاستكشاف وإحلال احتياطيات جديدة محل ما ينضب منها. أما فى حالة الدول المصدرة للنفط فان تلك العلاوة الخاصة تستمد شرعيتها من الزيادة المطردة فى الطلب العالمى على النفط والذى يؤدى إلى النضوب المتسارع لاحتياطياته ومن ثم ينبغى تعويض الدول المصدرة للنفط، وأغلبها دول نامية تعيش على استهلاك موردها الرئيسى وهو النفط الذى لا يتجدد مهما طال الزمن. وكانت السنتات الخمس فى اتفاقية طهران تعادل ٢,٥٪ من سعر النفط الذى كان يتراوح حينذاك حول دولارين للبرميل.

ومع أن اتفاقية طهران لم تعد سارية إلا أن مبدأى الزيادة السنوية لمواجهة التضخم والتعويض عن تسارع النضوب نتيجة للزيادة المطردة فى الطلب العالمى على النفط مازالا يصلحان أساساً لتدرج السعر حفاظا على قيمته الحقيقية.

(٣) كذلك أقرت اتفاقية جنيف الأولى التى أبرمت مع الشركات عام ١٩٧١ مبدأ تصحيح سعر النفط تبعاً لما يطرأ على قيمة الدولار ـ الذى يستخدم لتسعير النفط ـ من تغيرات فى مواجهة عدد من العملات الرئيسية. وبمقتضاها زيدت الأسعار بنحو ٨,٥٪ اعتباراً من ٢٠ يناير ١٩٧٢ عقب صدور قرار تعويم الدولار فى ١٥ أغسطس ١٩٧١ وما تبعه من تخفيض قيمته رسميا فى ١٧ ديسمبر ١٩٧١ . فلما خفضت قيمة الدولار للمرة الثانية فى ١٢ فبراير ١٩٧٣ أبرمت اتفاقية جنيف الثانية فى يونيو ١٩٧٣ حيث زيدت بمقتضاها الأسعار بنحو ١١,٩٪ مع تصحيحها شهريا تبعاً لتقلب العملات.

هذه هى المبادئ الثلاثة التى ينبغى اعتمادها لتقدير معدل الزيادة السنوية لتدرج السعر الاسمى للنفط حفاظا على قيمته الحقيقية وتعويضاً عن نضوبه السريع.

وقد قامت أوبك بتقدير أثر عاملين من هذه العوامل الثلاثة، وهما عامل التضخم وعامل انخفاض سعر الدولار المستخدم فى تسعير النفط، ومن ثم انتهى هذا التقدير إلى أن السعر الاسمى الذى بلغ فى عام ٢٠٠٥ نحو ٥٠,٦٤ دولار لم يتجاوز بعد استبعاد أثر التضخم وانخفاض قيمة الدولار ١٠,٤١ دولار معبرا عنها بدولار ١٩٧٣ الذى صححت خلاله الأسعار بفضل انتصار أكتوبر وارتفعت إلى ١١,٦٥ دولار. كذلك بلغ السعر الاسمى عام ٢٠٠٦ نحو ٦١,٠٨ دولار بينما لم يتجاوز السعر الحقيقى بعد استبعاد أثر التضخم وانخفاض قيمة الدولار ١٢,٢٢ دولار معبراً عنها بدولار ١٩٧٣ .

ومما تقدم يتضح أن السعر الحقيقى للنفط باستبعاد عاملى التضخم وانخفاض قيمة الدولار لم يعد يتجاوز خمس السعر الاسمى (٢٠٪ من السعر الاسمى).

غير أن تقديرات أوبك فاتها أن تدخل أثر المبدأ الثالث الذى أقرته اتفاقية طهران وهو زيادة السعر بمعدل ٢,٥٪ سنويا فى المتوسط للتعويض عن النضوب المتسارع استجابة لمطالب مستهلكى النفط، وخاصة الدول الصناعية الغربية التى لم يتردد قادتها، وفى مقدمتهم الرئيس بوش، فى المطالبة علنًا بأن تقوم أوبك بزيادة إنتاجها تخفيفاً لحدة ارتفاع السعر. وهكذا يتركز اهتمام مستهلكو النفط حول المطالبة بخفض الأسعار الاسمية التى تتضخم كالبالون بدلاً من التركيز على الأسعار الحقيقية التى تقلصت إلى خمس الأسعار الاسمية بتفعيل عاملين فقط من العوامل الثلاثة التى تحكم تقديرها. وهنا تبدو منطقية المبدأ الثالث وهو التعويض عن النضوب المتسارع الذى سبق إقراره فى مستهل السبعينيات، وصار الآن أجدر بالتطبيق فى ضوء الظروف الراهنة، والتى تنذر بأن العالم مقبل على فترة تشح فيها الإمدادات النفطية ويختل التوازن بين محدودية تلك الإمدادات والزيادة المطردة المتسارعة فى الطلب العالمى على النفط.

وللتوصل إلى تقدير السعر الحقيقى للنفط بإعمال المبدأ الثالث، نبدأ بتصعيد السعر الأساسى الذى صححت به أسعار النفط فى ظل انتصار أكتوبر وهو ١١,٦٥ دولار بمعدل ٢,٥٪ سنويا فى المتوسط عبر ٣٥ عاماً (١٩٧٣ ـ ٢٠٠٨). بذلك كان ينبغى أن يبلغ السعر الحقيقى فى الوقت الحاضر نحو ٢٧,٦٥ دولار للبرميل، معبراً عنه بدولارات ١٩٧٣ ومتدرجاً فى الارتفاع بالمعدل المذكور. وإذ لا يتجاوز السعر الحقيقى خمس السعر الاسمى كما أوضحنا، فإن السعر الاسمى الذى كان ينبغى أن يصل إليه سعر النفط فى عام ٢٠٠٨ لا يقل عن ١٣٨ دولاراً للبرميل من سلة أوبك، ويمكن أن يتجاوز هذا المستوى بالنسبة للنفط الأمريكى الذى يتمتع بمواصفات فنية تتفوق على متوسط نفوط أوبك.

فى ضوء هذا التفسير المنطقى لتدرج سعر النفط، والذى يتمشى مع القفزات التى شهدتها عبر السنوات الـ ٣٥ الماضية أسعار السلع والخدمات التى تستوردها دول أوبك من الدول الصناعية الغربية، ينبغى أن تقنع تلك الدول بما بلغته أسعار النفط والتى تآكلت من حيث قيمتها الحقيقية منذ انهيارها فى عام ١٩٨٦ . كذلك ينبغى أن تراجع تلك الدول إسرافها فى استهلاك مصادر الطاقة الحفرية وأهمها النفط والذى من شأنه تكثيف الاحتباس الحرارى الذى يهدد البشرية بمخاطر جسيمة. وكمثال على عدم الاكتراث بغير مصالحها فإن دولة كالولايات المتحدة والتى تعتبر مسئولة عن ربع الاحتباس الحرارى عالميا مازالت تصر على عدم الانضمام لبروتوكول كيوتو الذى يستهدف تحجيم المبتعثات الملوثة للغلاف الجوى وتخفيف حدة الاحتباس الحرارى حماية البشرية.

ولا يفوتنا أخيراً أن نشير إلى أن السعر الذى يجأر بالشكوى منه المستهلك النهائى فى الدول الصناعية المستوردة للنفط كان ومازال يتضمن ضرائب تصل إلى أكثر من ٧٠٪ تقتنصها خزائن تلك الدول، وكان الأجدر بها إذا رغبت فى التخفيف عن مواطنيها أن تعيد النظر فى تلك الضرائب بالتخفيف وهو ما تستطيع خزائنها أن تتحمله دون صعوبة.

السعر الذى يجأر بالشكوى منه المستهلك النهائى فى الدول الصناعية المستوردة للنفط كان ومازال يتضمن ضرائب تصل إلى أكثر من ٧٠٪ تقتنصها خزائن تلك الدول

وطــأة التــاريخ غيـر المحتمــلة..

مـــــــنى أنيــــــس

■■ «واحة الغروب»، أحدث روايات بهاء طاهر التى فازت بالجائزة الدولية للرواية العربية فى أول دورة لها الشهر الماضى، عمل روائى كبير لكاتب كبير. فهذا الكاتب الذى قد يخدع القارئ للوهلة الأولى فيظن من فرط سلاسة أعماله الأدبية أنها اندفعت تلقائيا من قلمه دون جهد أو عناء يذكر، هو واحد من أكثر كتاب العربية المعاصرين وعيا بما يكتب وتأملا للكيفية التى يكتب بها، وواحد من أشدهم صبرا على دروب الكتابة الفنية الوعرة. بل إن النظرة السريعة على أعماله القصصية تكشف على الفور أننا أمام كاتب شديد التدقيق فيما يكتب، لا يتعجل النشر قبل أن يطمئن تماما إلى اكتمال عمله على كافة المستويات.

أنتج بهاء طاهر على مدى ما يقرب من أربعة عقود، هى عمر مسيرته الإبداعية، أربع مجموعات قصص قصيرة وست روايات، يفصل بين كل عمل وآخر أربع سنوات فى المتوسط، باستثناء الفترة القصيرة ما بين أعوام ١٩٨٣ و١٩٨٥ التى شهدت نشر روايتين ومجموعتى قصص قصيرة، ومع ذلك فإن هذه الأعمال الأربعة جاءت بعد فترة توقف طويلة دامت ١١ عاماً لم ينشر خلالها بهاء طاهر شيئاً. وواحة الغروب، التى أتم الكاتب كتابتها أواخر عام ٢٠٠٦، هى الرواية السادسة له بعد «شرق النخيل» ١٩٨٣، «قالت ضحى» ١٩٨٥، «خالتى صفية والدير» ١٩٩١، «الحب فى المنفى» ١٩٩٥ و«نقطة النور» ٢٠٠١.

ورحلة بهاء طاهر مع الكتابة القصصية، والتى بدأت منذ أوائل الستينيات من القرن الماضى، رحلة تستحق التأمل. ولعل أول ما يلفت الانتباه فى هذه الرحلة المثيرة هو فترة التوقف الطويلة التى امتدت مابين تاريخ نشر مجموعته الأولى «الخطوبة» عام ١٩٧٢ وتاريخ نشر روايته الأولى «شرق النخيل» على حلقات فى مجلة صباح الخير عام ١٩٨٣. بل إن اللافت أكثر فى هذا الأمر هو التحول المثير من كاتب قصة قصيرة طليعى ينشر أعماله فى مجلات أدبية متخصصة ومحدودة الانتشار، إلى روائى يختار نشر روايته مسلسلة فى الصحافة الشعبية. وأظن أن هذا التوجه الجديد لم يكن محض مصادفة، وإنما كان اختيارا واعيا جاء بعد طول تدبر لأهمية التواصل مع جمهور أوسع من القراء، بل قد أغامر بالقول إن بهاء طاهر باختياره مجلة صباح الخير ربما كان يسعى للوصول إلى جمهور له نفس خصائص الجمهور الذى أقبل على روايات إحسان عبد القدوس فى الستينيات من القرن الماضى - فى نفس مجلة إحسان عبد القدوس.

ولعلنى أتوقف هنا لاعترف بأننى أدمنت قراءة قصص وروايات إحسان عبد القدوس فى منتصف الستينيات، وبأننى بعد أن تعرفت على أعمال أدبية أخرى أكثر تعقيدا وأقل شعبية من قصصه أصبحت أخجل من الجهر بهذه الحقيقة أمام أصدقائى المثقفين، حتى وقعت فى منتصف السبعينيات أثناء التحضير لأطروحة ماجستير فى سوسيولجيا الأدب على نص للمفكر الإيطالى انطونيو جرامشى يتحدث فيه عن التعسف الشديد فى التقليل من شأن القيمة الأدبية للأعمال واسعة الانتشار لمجرد أن الجمهور العريض يقبل عليها، وينبه لأهمية دراسة ظاهرة الروايات المسلسلة.

ولا أستطيع أن أجزم على وجه الدقة إن كان بهاء طاهر قد توصل لقناعة مماثلة لقناعة انطونيو جرامشى خلال السنوات الطويلة ما بين ظهور مجموعة «الخطوبة» وكتابة رواية «شرق النخيل». ولكننى ألمح همًا مشابها وراء اتجاهه للرواية والأسلوب الذى اختاره لروايته الأولى. ولعله من اللافت للانتباه هنا أن بهاء طاهر كاتب القصة القصيرة شديدة الكثافة والتقشف، عندما اتجه لكتابة الرواية اختط لنفسه مسارا جديدا يبتعد عن عالم قصصه القصيرة المألوف والمفتوح على احتمالات لا نهاية لها.

ففى قصة «الخطوبة» مثلا، التى نشرها بهاء طاهر أول مرة فى مجلة صباح الخير عام ١٩٦٨، لا شىء ذا بال يجرى على مستوى الحدث، فنحن أمام بطل نموذجى من أبطال قصص الستينيات (بطل ضد) فى طريقه إلى منزل زميلته فى العمل بعد أن اتفق معها على التقدم لخطبتها:

«كنت قد اعتنيت بكل شىء......
أخذنى صديق مجرب إلى حلاق مشهور قص شعرى وصفف ودلك ذقنى وتقاضى جنيها... وبعد ذلك اشترينا ربطة عنق حمراء غالية وأزرارا فضية للقميص. وفى النهاية عندما وقفت أمام المرآة أصبحت وكأنى شخص غريب(...) تعجب البواب من هيئتى وسألنى وهو يضحك إن كنت ذاهبا لأخطب، فقلت له إن عندى موعدا مهما فى البنك وبغير سببٍ أعطيته خمسة قروش فنظر إلىّ باستغراب. قلت له أن يدعو لى لأنى أنتظر ترقية، فشكرنى ورفع يديه إلى السماء، وتمتم، وارتبكت، وخرجت من الباب بخطوات مسرعة ولسعنى الهواء فى وجهى فعرفت أن درجة حرارتى مرتفعة. وبينما كنت فى التاكسى بدأ قلبى يدق بشدة، وتأكدت أن كل الكلمات التى أعددتها قد ضاعت وأننى لن أعرف أن أقول شيئا لأبيها بعد عبارة مساء الخير. وبدأ العرق».

وعندما يصل بطل القصة إلى شقة أهل الحبيبة ويلتقى بالأب يتصاعد التوتر تدريجيا على المستوى اللفظى، حيث يجد بطلنا نفسه وسط محاكمة عبثية يقيمها الأب له تنتهى باتهامه بأنه تورط فى علاقة آثمة بزوجة خاله عندما كان يقيم مع ذلك الخال أثناء دراسته الجامعية. وكلما حاول البطل الدفاع عن نفسه، كلما ازدادت حدة الحوار وأوغل الأب-المحقق فى أسئلته الجارحة والمهينة على نحو يذكرنا بمسرحيات العبث، بل وبمسرحيات هارولد بنتر على وجه الخصوص حيث يحل التوتر المتصاعد على مستوى اللغة محل الحدث الذى يكاد يغيب.

ولعل هذا الاستشهاد الطويل بقصة «الخطوبة» يفيد فى إيضاح ما قصدت عندما قلت إن بهاء طاهر ربما توصل فى الأعوام الطويلة التى تفصل ما بين تاريخ نشر قصص مجموعة «الخطوبة» التسع وتاريخ كتابة رواية «شرق النخيل» إلى قناعة ما بأهمية تعديل مسار عمله الإبداعى. فبهاء طاهر الذى تبنى الصوت الخافت فى قصص الستينيات وأوائل السبعينيات، وما يتبع ذلك من تغييب الحدث السياسى المباشر الغاطس كجبل الجليد تحت الماء، عندما عاد إلى الكتابة فى الثمانينيات عاد برواية سياسية بامتياز.

فشرق النخيل رواية عالية الصوت تدور أحداثها فى أوائل السبعينيات إبان ثورة الطلبة فى مصر، تحكى عن مظاهراتهم واعتصامهم فى ميدان التحرير، وعن مناصرتهم للثورة الفلسطينية ومطالبتهم بحرب التحرير الشعبية، وتقيم مقابلة مباشرة بين اغتصاب فلسطين واغتصاب قطعة أرض فى الصعيد تقع شرق النخيل، وتدعو لعدم الاستسلام للمغتصب حتى وإن أدى ذلك للموت:

«يقولون أنه عندما أقترب منهم مد العوضى له ورقة وقال لعمك وقع هذه الورقة فلا يعود بيننا وبينك شىء. لكن عمك مشى كأنه لم يسمع فصوبوا البنادق(...) وعندما مد عمك يده ليبعد (ابنه) حسين ظنوه سيخرج مسدسه من جيبه فانطلق الرصاص وانكفأ الابن يحضن الأب والأب يحضن الابن والدم يجرى مع الدم. رجع دم الابن إلى أبيه ورجعا معا لتراب الأرض متوضئين طاهرين».

ترى ما الذى حدا ببهاء طاهر إلى اتخاذ هذا القرار باستئناف الكتابة بأسلوب مغاير لأسلوبه القديم؟ أظن أن التغير العميق فى المناخ السياسى بعد موت جمال عبد الناصر ووصول أنور السادات إلى سدة الحكم وانقلابه على الكثير من التوجهات السياسية والاجتماعية للحقبة الناصرية، وبالذات فيما يتعلق بالقضية الوطنية، كان له دخل كبير فى هذا الأمر، خاصة أن بهاء طاهر وجد نفسه فى منتصف السبعينيات مبعدا عن وظيفته فى الإذاعة المصرية التى التحق بها عام ١٩٥٧، الأمر الذى دفع به إلى مغادرة مصر والعمل بالخارج فترة امتدت قرابة العشرين عاما، امضى بهاء طاهر خمسة عشر عاماً منها فى سويسرا.

وأظن أن هذه الإقامة الطويلة فى أوروبا قد أكسبت بهاء طاهر حساسية شديدة الخصوصية والحدة لما يوحد البشر وما يفرقهم، وللعواقب الإنسانية والثقافية الوخيمة لهيمنة الغرب المتقدم صناعيا، ولآليات القهر والخضوع المصاحبة لعملية الاستعمار- القديم منه والجديد - الأمر الذى دفع ببعض النقاد إلى إدراجه ضمن كتاب مدرسة ما بعد الكولونيالية. ولكن، وبغض النظر عن التصنيفات النقدية، فإن بهاء طاهر أحد الروائيين العرب القلائل الذين استطاعوا معالجة موضوعة الخراب

واحة بهاء طاهر

بهاء طاهر واحد من أكثر كتاب العربية المعاصرين وعيا بما يكتب وتأملا للكيفية التى يكتب بها



الروحى الناتج عن علاقات الهيمنة والتبعية تلك بتقنية فنية عالية وشفافية أسلوبية تكاد ترقى فى بعض الأحيان إلى مرتبة الحدس الصوفى.

وقد تناول بهاء طاهر هذه العلاقة الإشكالية بين غرب يظن أن تفوقه العلمى والاقتصادى يعنى أيضا تفوقا حضاريا وإنسانيا، وشرق يتعثر فى محاولاته للفكاك من هذه الرؤية المهيمنة، فى العديد من أعماله بدءا برائعته «بالأمس حلمت بك» (١٩٨٣). ففى هذه القصة القصيرة-الطويلة الفاتنة نلتقى برجل شرقى طردته مدينته الصاخبة للغربة فى مدينة من مدن الشمال تخلو من الدفء أو الإثارة، يجد نفسه فجأة محط اهتمام فتاة تنتمى لهذه المدينة وتخلو حياتها هى الأخرى من الإثارة، فتستعيض عن هذا الأمر بأوهام ميتافيزيقية حول القدرات الخارقة لذلك الرجل الشرقى وتتبعه لها فى المنام. وتنتهى القصة بنهاية فاجعة تلقى ضوءا كاشفا على الآثار الكارثية لسوء الفهم العميق بين ثقافات الشرق والغرب، وتؤكد فى نفس الآن على الحالة الإنسانية العامة التى توحد البشر التعساء دون تمييز فى العرق أو اللون.

وهذه العلاقة الإشكالية بين الغرب المستعمر (بكسر الميم) والشرق المستعمر (بفتح الميم) هى فى القلب من رواية بهاء طاهر الأخيرة «واحة الغروب»، حيث تدور أحداث الرواية فى أواخر عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وبعد بضع سنوات من الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢. ومحمود عبد الظاهر بطل واحة الغروب إنسان مهزوم على كافة المستويات العامة والخاصة، رأى بعينيه هزيمة العرابيين الذين تحمس لنضالهم من أجل أن تكون مصر للمصريين، حيث كان يعمل ضابط شرطة فى الإسكندرية عندما دكت البوارج البريطانية المدينة، ولكنه وبعد انتصار الإنجليز ومحاكمتهم لقادة الثورة آثر السلامة، فتنكر لثوار الأمس المهزومين.

وعلى الرغم من نكرانه هذا إلا أن الحكام الجدد يتشككون فى ولائه فيبعدونه إلى واحة سيوة - واحة الغروب - حيث الأمن

الإقامة الطويلة في أوروبا أكسبت بهاء حساسية شديدة لما يوحد البشر وما يفرقهم

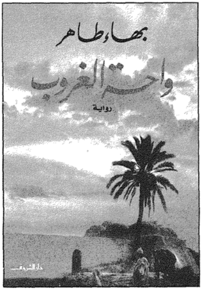
غير مستتب. وحيث يرفض أهل الواحة دفع الضرائب للدولة ويواجهون بالسلاح رجال الأمن القادمين من العاصمة المركزية البعيدة جدا عنهم وعن قيمهم البدوية. ويصطحب محمود عبد الظاهر معه إلى الواحة زوجته الأيرلندية كاثرين، المتخصصة فى الحضارات القديمة، والتى تعرف عليها وتزوجها عندما جاءت فى زيارة لمصر بعد وفاة زوجها الأول. وكاثرين التى ألحت على محمود ليصطحبها معه، مقتنعة بأنها ستعثر فى الواحة على قبر الإسكندر الأكبر الذى توج هناك ملكا على مصر والها.

وتتوزع فصول «واحة الغروب» الثمانية عشر على أصوات خمسة، محمود وكاثرين واثنين من أهل الواحة والإسكندر الأكبر شخصيا، الذى يستعير بهاء طاهر صوته بعد موته ليناقش قضية الوجود والخلود. ويعتمد بهاء طاهر فى هذه الرواية على مجاز الرحلة التى ترصد الأزمة الروحية لإنسان مهزوم، ليطرح جملة من القضايا الإنسانية وأسئلة الوجود الكبرى: الحياة والموت والخلود، إن كان ثمة خلود بعد الموت. وهذا العمل شديد التميز ليس فيه شىء صغير أو تافه، فكل شىء فيه - الفكرة والصنعة والأسلوب - جد كبير. إنه، وكما جاء فى تقرير لجنة تحكيم الجائزة الدولية للرواية العربية، «عمل روائى نوعى بالمعنى الجمالى والقيمى فى آن».

وفى حديث مع بهاء طاهر بعد صدور «واحة الغروب» طلبت منه أن يلخص لى فى عبارة موجزة الهم الأساسى وراء روايته، فأجابنى على الفور: «معنى الوجود - إن كان ثمة معنى». ولكن هذا الهم الوجودى الحاضر فى أغلب أعماله له تجليات مختلفة فى كل عمل، وفى «واحة الغروب» اختار بهاء طاهر للمرة الأولى جنس الرواية التاريخية ليتناول من خلاله كينونة الوجود فى ظل الهزيمة.

يقول بهاء طاهر أثناء الحديث معه، إنه وإن كان معنى الوجود هو الهم الرئيسى لروايته، إلا أن اختياره لجنس الرواية التاريخية كان اختيارا سياسيا بامتياز. فبهاء طاهر ليس واحدا من أولئك الكتاب الذين يصرون على انعدام العلاقة بين الفن والسياسة.

وهو يقول: «أردت أن أتناول فى «واحة الغروب» موضوعة الهيمنة الإمبريالية، فقد صدمنى وأوجعنى الاحتلال الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣، فبعد سنوات من هيمنة الاستعمار الجديد على مقدرات المنطقة ها نحن نعود مرة أخرى إلى الاستعمار القديم، الأمر الذى جعلنى أفتش فى تاريخ مصر تحت الاحتلال البريطانى. كنت أظن عندما انتهيت من كتابة «الحب فى المنفى» أننى قد فرغت من شهادتى حول السياسة فى عالمنا العربى المعاصر، غير أنى اكتشفت بعد احتلال العراق أن هناك حاجة إلى شهادة أخرى، فجاء هذا العمل الذى هو، بجانب أشياء أخرى، شهادتى على الواقع السياسى العربى التعس وإن كنت قد لجأت للتاريخ هذه المرة».



وعلى الرغم من أن «واحة الغروب» هى الرواية التاريخية الأولى لكاتبها، إلا أن التاريخ بشكل عام، والتاريخ المصرى القديم بشكل خاص، هو فى القلب من العديد من أعمال بهاء طاهر، الذى تخرج من قسم التاريخ بجامعة القاهرة عام ١٩٥٦. فأسطورة حورس وايزيس وأوزوريس، مثلا، تتجلى فى أكثر من عمل من أعماله الروائية والقصصية القصيرة، ولكن أبرز تجل لتلك الأسطورة يجىء فى رواية «قالت ضحى» حيث تتقمص بطلة الرواية «ضحى» شخصية إيزيس:

«قالت ايسيت (إيزيس) تعال. قالت ضحى تعال... مدت ذراعيها معا إلىّ ووجهها الجميل يشرق وقالت: تعال. فذهبت وركعت أمامها، كانت تميل علىّ وتحتضننى وأنا أدفن رأسى فى صدرها الناعم المبتل بعرق خفيف وعطر، مسحت بيدها على شعرى وقبلت رأسى طويلا ثم قالت بصوت خافت: لا تبتئس... سأجمع أشلاءك من جديد وستكتمل. فقلت هامسا دون أن أتحرك من مكانى: لا يا ايسيت... لست اوسير (اوزوريس) ولكن أشلائى فى صدرى. (...) كنا نتعانق وكنا فوق جزيرة. كان الموج يغلى فى السديم. وضرب صقر بجناحيه».

أسأل بهاء طاهر: ألا تجد فى «واحة الغروب» تحولا عميقا عما تحفل به أعمالك السابقة من تمجيد للتاريخ المصرى القديم، حيث تنتهى الرواية بنسف محمود عبد الظاهر لمعبد مصرى قديم مكرس لعبادة آمون رع، بعد أن ضاق ذرعا بانشغال زوجته الغربية المهووس بفك رموز النقوش القديمة على جدران المعبد ونسيانها لأى اعتبار آخر وتسببها فى مصائب عديدة؟

يقول هو: «هذه رؤيتك أنت. أنا لا أنظر إلى الأمر على هذا النحو. ذلك أن ما أردت التعبير عنه بمشهد نسف المعبد الأخير هو الضيق الشديد من وطأة هذا الماضى عندما يتحول إلى عقبة أمام الحاضر، فنظل نجتر حديثا عن عظمته بدلا من مواجهة تحديات الحاضر. وستجدين فى هذه الرواية أكثر من موقف حول تراث ذلك الماضى القديم. فهناك موقف «مليكة» ابنة الواحة التى تستلهم من هذا التراث فنا جميلا، وهناك موقف «وصفى» المتعاون مع الاحتلال الذى يستخدم هذا التاريخ كذريعة لبقاء المحتل وللقول بتفاهة المصريين المعاصرين مقارنة بالأجداد. ولكن «مليكة» انهزمت فى الرواية وماتت وبقى «وصفى». ونسف المعبد هنا عمل موجه بالأساس لمنطقه، الذى هو أيضا منطق المحتل الغربى».

وأخيرا أسأل بهاء طاهر عن رؤيته للهوة الواسعة التى تفصل الثقافة الشرقية عن الثقافة الغربية، وما إذا كان التركيز على النتائج الوخيمة لسوء الفهم المستمر يعكس إيمانا شخصيا بصعوبة إجراء حوار مُجد بين الثقافتين؟

يسارع بالنفى قائلا: «كلا بالمرة. أنا لا أنظر للأمور نظرة عنصرية، إن اهتمامى الأساسى هو بالبشر، بغض النظر عن أصولهم العرقية. غير أنى مهتم كذلك ببنى الهيمنة والإخضاع، ولا يهم هنا إذا كان البطل أسود أو أبيض، بل إن الشىء الجوهرى هو الطريقة التى يخضع بها بعض البشر غيرهم من البشر».

أقول مازحة: إننى لا أفهم لماذا تنتهى العلاقة بين الرجل الشرقى والمرأة الغربية فى «بالأمس حلمت بك» و«واحة الغروب» نهاية مفجعة، بينما هو نفسه يتمتع بحياة زوجية ناجحة مع سيدة غربية، هى ستيفكا أناستاسوفا التى أهدى إليها بهاء طاهر «واحة الغروب»، والجالسة معنا أثناء هذا الحوار؟

يضحك بهاء طاهر ويقول: «فى العمل الأول تنتحر المرأة الغربية، ولكن الرجل الشرقى هو الذى يقتل نفسه فى العمل الأخير. أليس هذا نوعا من التعادل؟».

وعودة لرواية «واحة الغروب»، هذه رواية اعتنى فيها بهاء طاهر بكل شىء، من تقنية البناء الروائى، حتى المهارة الفنية للنثر، ومرورا بالتدقيق البحثى للفترة التاريخية. هى رواية عذبة كنبع صاف لكاتب أخذ بناصية اللغة، فانصاعت له بحب، وهى أيضا رواية تتجمع فيها العديد من الخيوط التى نسجها بهاء طاهر فى بعض أجمل أعماله السابقة، وكأن واحة الغروب قامت بتكثيف كل «الكون (كون بهاء الخاص) حتى أصبح كرة لعب تتدحرج فى اتجاه السؤال المضنى» كما يقول الشاعر الكبير ت. س. إليوت فى قصيدة «أغنية العاشق ألفرد بروفروك» - وهى القصيدة التى يرددها بهاء طاهر ويحفظها عن ظهر قلب.

تحية لبهاء طاهر الصديق المبدع، وتهنئة له من الأعماق على فوزه بالجائزة الدولية للرواية العربية. ■

أخـلاق الكاتب وتقنيـات الكتــابة

"كلما رأيت بهاء طاهر ، أو قرأت له ، تستدعي ذاكرتي نقاشا دار في موسكو عن بوشكين، وكان مدار النقاش : هل الفنان إنسان طيب أم شرير؟ سؤال تعلق بحقيقة شاعر روسيا الكبير، وملابسات المبارزة التي أنهت حياته. وأتذكر أن خلاصة النقاش كانت الإجابة بأن الفنان هو إنسان طيب قطعا، وأن بوشكين . على وجه التحديد . كان طيبا وخيّرا ، وهو لم يكن فتى لعوبا يغري النساء ، بل كانت النساء هن اللائي يتهافتن عليه ، ويوقعن به ، وفي مبارزته الأخيرة القاتلة ، كانت المؤامرة عنصرا حاكما وفخا منصوبا من البلاط القيصري الذي أرقته شاعرية بوشكين المهيمنة ، والمحرضة ضد القيصرية وسخائمها ولو من بعيد ، من طرف الاستعارة الشعرية ، ومن أفق الجمال الموقّع.

لماذا أتذكر ذلك في حضرة بهاء طاهر . شخصا وكتابة ؟

ربما لأن بهاء طاهر حالة إبداع عربية واضحة يمكن أن تثير النقاش ذاته ، لكن على غير مواصفات بوشكين ، فليس لبهاء طاهر . فيما أُرجّح . علاقة بالسيوف أو المبارزات أو مايجُرّ إلى كيد النساء أو بغض الرجال. بهاء طاهر حالة أخلاقية جوهرها الود مع الحياة السوية والناس الأسوياء، وهو بهذه العذوبة يمكن أن يثير القضية ذاتها ، من زاوية مختلفة تخص الأداء الفني ، على اعتبار أن الفنان . في الانطباع السائد والمُروّج له . لابد أن يكون مجنونا وجنيا حتى نصدق أنه يسوق عفاريت الإبداع ويجعلها طوع بنانه . هذا الجنون . الفني . وروح الجن البشري الفنان ، هي مسألة أكيدة داخل أي مبدع ، والمفارقة أن هذا الجنون وهذا الجني هما قطعا من جنود الخير والجمال ، ولا أشك لحظة في أن أي فنان حقيقي هو إنسان منتمٍ إلى الخير والطيبة ، بل أعمق ألوان الخير والطيبة. لكن هناك فنانين شديدي طيبة القلب وخيرين إلى أبعد حد يضطرون لارتداء أقنعة الشر حتى يردعوا عنهم شرور العالم ، وهذه حالة ، أما الحالة الموازية لها، فهي حالة بهاء طاهر، الذي قادته سويته العالية للتعامل مع العالم بود ، دون أي تنازلات عما يعتقد أنه الحق ، لكن يبدو . فيما أعتقد . أنه من الفنانين الذين يؤمنون بأن كون الإنسان فنانا لايرتب له أي حقوق استثنائية على الآخرين . فهل يعكس هذا الموقف الأخلاقي نفسه في الكتابة؟

أظن نعم ، فهذه الوداعة في معانقة العالم ، وهي تروض جني وجنون الإبداع، تخلق معادلا يؤاخي مابين تقنيات الكتابة وأخلاق الكاتب، وإنني لأتذكر مشاهد جنونية في رواية بهاء طاهر الأخيرة . واحة الغروب . منها على سبيل المثال: مشهد العاصفة الرملية التي صارعت الوجود صراعا كاد يدفن البشر ودوابهم أحياء ويهدد الحياة ذاتها بالقيامة، جنون فني وهاج بلا ريب ، لكن بهاء طاهر ، عالي السوية ، الوديع والعذب، لم يجعل هذا المشهد محرقة عفاريتية أو مجازا مغلقا يستعصي على الناس ، بل نثره بجلاء بصري مؤثّر وموصّل . الشيء نفسه الذي يتجلى في لغة السرد عنده، بساطة سلسة برغم علوها وصحتها الموفورة، وانسياب موسيقي حنون وهادئ . إنه الود الإنساني الذي تتسم به أخلاق بهاء طاهر، وهو الود ذاته الذي يكتنف الكتابة. ويطوع جنها وجنونها بسحر الصفاء الأخلاقي وطيبة الروح الفنان ، فيمنحنا عذوبة بلا حدود.

محمد المخزنجي

كتــاب الزاويــة

على قبر بيتهوفن

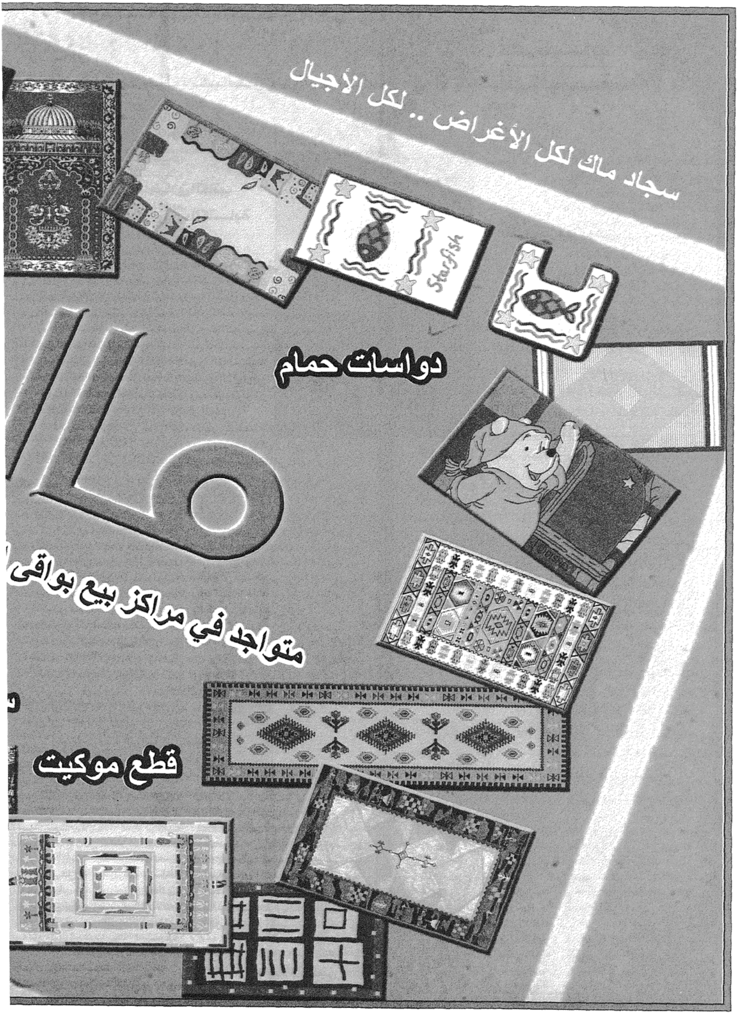
الكاتب المصرى

«خفف الوطء، ما أظن إلا أنك تطرق أرضًا مقدسة. صاح! طال بك النوى، وطوح بك الطواف حتى جاء بك أخيرًا إلى الأرض التى تضم رفات لودفيج فون بيتهوفن».

بمثل هذه الكلمات، أو فى الحالة الشعورية التى تعبر عنها هذه الجمل، اجتزت باب المدافن المركزية بالحى الحادى عشر (زمرنج) من أحياء فيينا، ذات يوم من صيف ١٩٢٩ باحثًا عن قبر بيتهوفن. وإنى لأسير يمنة أو يسرة، وأتقدم إلى الأمام أو أعود أدراجى مسترشدًا بالكتاب الدليل فى يدى، مجتازًا معابر «رحبة السلام». «أظنك عرفت طريقك أيها الطارق، فهذه المقبرة الفخمة، مرفوعة على عمد من مرمر هى ولا شك..» كلا. هذا قبر باشمهندس ما لبلدية فيينا. ثم هنا قبر أسرة شيخ البقالين. أو هو وزير الدولة ذو الحول والطول؟ وهنا.. فا.. يجنبا.. وم الجهايمرات.. مستشار ملكى». أدور بين المدافن أطالع الأسماء فوق الأضرحة الكبرى، أسماء أولئك المجهولين العظماء، عاشوا بين سمع الناس وبصرهم لمحض مراكزهم فى الدولة أو فى التجارة والمال، ثم هم يختفون فى التراب، فى تراب التاريخ، مهما بالغوا فى تزجيج حواجب رموشهم وتزويق صدورها وأعجازها. السلام عليكم يا أهل القبور! وعلى ذكراكم العفاء أيها الحمقى، يا أهل الغرور. عشرات الآلاف منكم ومن أشباهكم يساوون أنملة شادى الإنسانية الأكبر، ومعتصر خمر الآلهة. لودفيج فون بيتهوفن.

حسين فوزى

فبراير ١٩٤٨

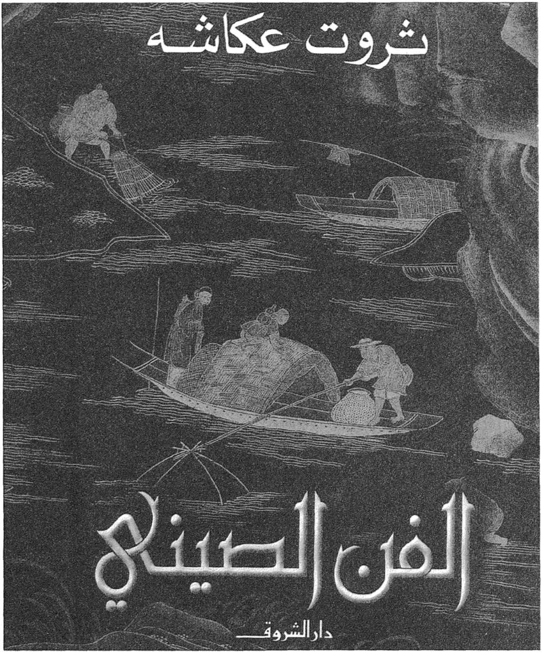

سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت


سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
التصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

فلسفة التصوير الصينى

ثـــــروت عـكـاشــــه

«التصوير الصيني» هو فى جوهره
قصائد صامتة تشيد بالطبيعة والإنسان إلى جانب كونه عنصرًا مثيرًا
للذكريات ومؤججًا للعواطف



■■ يرى أهل الصين أن فن التصوير الصينى هو أرقى أنواع التعبير الفنى وأكثرها عمقًا وأصالة وإن لم يلتزموا فيه بمبادئ التصوير وفق قواعد المنظور، على حين يراه غيرهم من الشعوب فنًا غامضًا خاليًا من تلك المبادئ، فضلاً عن عدم تقيده بالأسس المتعارف عليها لنظرية الإشراق والعتمة «كياروسكورو» التى تُكسب الأجسام ثقلها وكثافتها، وتغاضيه عن تسجيل الأثر اللحظى الذى تخلفه الشمس على عناصر الطبيعة فى رحلتها نهارًا وعن تفاصيل الموضوع المصور الدقيقة المتكررة، وإن حرص مع ذلك على أن يربط المشهد بجوهر الموضوع من خلال الأداء المباشر للمسات فرشاته الحاذقة.

و«التصوير الصيني» هو فى جوهره قصائد صامتة تشيد بالطبيعة والإنسان إلى جانب كونه عنصرًا مثيرًا للذكريات ومؤججًا للعواطف الجياشة بدفئه وبلاغته وبساطته المنقطعة النظير، فإذا هو يتفرد بين جميع الحضارات بنكهته المثيرة لسائر المشاعر الجوانية الغامضة المطموسة بالواقع المادى الذى نعانى منه بلا هوادة.

ومما لا جدال فيه أن اللوحة المصورة الجيدة هى التى تعكس الحوار الحميم الذى يدور بين الفنان وبين الطبيعة فى أثناء معايشته لها. وليس ثمة لوحة صينية، أيًا كان مصدرها، تمثل الواقع الطوبوغرافى أو الجيولوجى أو الجغرافى تسجيلاً حرفيًا أو سطحيًا مثلما تفعل الكاميرا المصورة، وإنما هو جماع أحاسيس الفنان وانفعالاته فى أثناء ترحاله عبر مفاتن الطبيعة غير المحدودة. كما أنه ليس هناك أى لبس فى أن الصور الذاتية الصينية التى نُطلق عليها مجازًا كلمة «بورتريه» لا تُحاكى شكل صاحبها أو هيئته محاكاة تامة، وإنما هى تمثل جوهر شخصيته. وإن من يطالب بمشابه الشكل المصور فى اللوحات الصينية يغيب عنه الهدف المقصود، تبدو وكأنها صور عامة لا خاصة. وبدلاً من أن تكون تسجيلاً لشخصية بعينها، يؤثر الفنان الصينى إضفاء لمسة مثالية على الصورة الذاتية، فنراه حين يصور حكيمًا كونفوشيوسيًا على سبيل المثال يمثله وقد كست صورته ملامح مختلفة عن قسمات وجهه الفعلية، تقوم دليلاً على تفرده عن سائر

من كتاب:
فنون الشرق الأقصى
الفن الصينى
ثروت عكاشه
القاهرة: دار الشروق. الطبعة الأولى ٢٠٠٦

أولى الفنان الصينى تصوير المناظر الخلوية اهتماما كبيرا، فليس هناك من يضارعه في رؤيته الثاقبة للآفاق البعيدة وامتداد الزمان عبر تكرار الفصول وفى ولعه بتحليل هذا الموضوع الرحيب

البشر بسمات مثالية أو روحانية. وعندما يصور كائنات أدنى من الإنسان مرتبة ينحو دائماً إلى إيضاح مراحل تطورها ونموها على نحو ما يفعل عند تصويره قصبات البامبو أو أغصان الأزهار التى يمثلها وهى تنمو وتتصاعد من أسفل إلى أعلى، على العكس من تصويره للإنسان الذى يلتزم بنقل جوهره فحسب. وإذا أقدم على تصوير «بوذا» عُنى بأن يوحى شكله بالألوهية والقداسة وما يخالج سريرته من رحمة وتعاطف.

لقد أولى الفنان الصينى تصوير المناظر الخلوية اهتماماً كبيراً، فليس هناك من يضارعه فى رؤيته الثاقبة للآفاق البعيدة وامتداد الزمان عبر تكرار الفصول وفى ولعه بتحليل هذا الموضوع الرحيب. ومن المؤسف أن فن التصوير الصينى لم يحظ بالتقدير خارج بلاد الصين واليابان إلا أخيرا عندما ازداد الإقبال عليه خلال القرن العشرين، فإذا المتاحف العالمية تحرص على اقتناء أجمل ما تقع عليه العين من التصاوير الصينية.

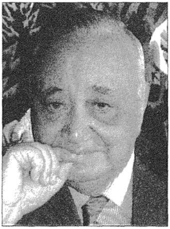
بداية عناية الغرب بالتصوير الصينى

والسؤال المثير للحيرة حقًا هو: لماذا لم يظفر فن التصوير الصينى الرائع باهتمام الغرب سواء فى أوروبا أو أمريكا إلا أخيراً، باستثناء ما قدمه الأديب الفنان آندريه مالرو فى مطلع القرن الماضى بإيجاز وإلمام واع فى كتابه الخالد «المتحف الخيالى»، حيث عرض لأمرين: أولهما واقعى، وهو أن مستنسخات التصوير الصينى الملونة المتقنة الطباعة غير متيسرة إلا فى أضيق الحدود وبأعداد جد ضئيلة، كما أن مجموعات التصوير الصينى الأصيلة ذات الأهمية كانت إلى وقت جد قريب محجوبة ومن العسير الوصول إليها، ثم إن تلك الموجودة بمتاحف الغرب غير كافية للإلمام الدقيق بهذا الفن العريق والتعرف على جوهره. والأمر الثانى تاريخى، وهو تأثير موجة استخدام النتاج الفنى اليابانى فى مدرسة التصوير الانطباعية. وهو ما أطلق عليه فى نهاية القرن التاسع عشر «الأخذ بالطابع اليابانى» - الذى أسفر عن اضمحلال هيبة التصوير الصينى. أما الأمر الأول فلم يعد قائماً بعد ما طرأ على فن الطباعة من تقدم مذهل وما توافر بين أيدينا من مستنسخات عالية الجودة، وأما ظاهرة «الأخذ بالطابع اليابانى» فقد تلاشى أثرها بعد أن أدرك الغربيون مدى الغبن الذى لحق بسمعة التصوير الصينى بعد أن حرروا أنفسهم من الدعاية اليابانية المغرضة حوله.

ومن اللافت للنظر أيضاً أن الأوروبيين لم يلتفتوا إلى روعة الفنون الصينية إلا خلال القرن الثامن عشر، فاندفعوا يحاكون الزخارف الصينية فيما عرف بنزعة «الشينوازرى»، وهى كلمة فرنسية قُصد بها الفن الذى ابتدعه الأوروبيون يحاكون به الصيغ الفنية الصينية والذى ازدهر منذ عام ١٧٥٠، وساعد على ذلك انتعاش التجارة بين أوروبا والشرق الأقصى، وما كان يحمله الوافدون من الصين من نماذج اللك والبورسلين والمنسوجات واللوحات والسواتر المصورة إلى غير ذلك. وكان أكثر ما شاع من هذا الفن الأوروبى - الذى يحاكى الصيغ الزخرفية الصينية - إلى أن غدا هذا الفن جزءاً لا يتجزأ من زخارف طراز «الروكوكو» خلال القرن الثامن عشر (انظر كتاب «فنون عصر النهضة والروكوكو» لصاحب هذه الدراسة)، كما ازدادت عناية الفنانين ومؤرخى الفن الغربيين بكل ما هو صينى وبخاصة فن التصوير، وكلما تزايدت البحوث والدراسات اشتد ولع الغرب بالفنون الصينية.

علاقة الشرق الإسلامى بالفن الصينى

ومن قديم الزمن كانت ثمة علاقة تربط الفنون الصينية بفنون الشرق الإسلامى، فقد اعتادت السفن الصينية منذ القرن السابع فى عهد أسرة «طانغ» أن ترسو فى ميناء سيراف (بلدة قديمة فى إيران على الشاطئ الشرقى من خليج مرطبان - أى الخليج العربى - خربتها الزلازل عام ١٧٩) لتتبادل التجارة وتمارس المقايضة مع البصرة وعمان وثغور أخرى، ثم ما لبثت السفن العربية أن زادت هى أيضاً من زياراتها للصين، فغدت الأدوات الفنية الصينية المستوردة إلى الأقطار الإسلامية نماذج يحتذونها ويحاكونها. وما من شك أن ثمة تأثيراً عميقاً خلفه التصوير الصينى على كبار رواد الفن الإسلامى من أهل فارس حتى جرت العادة فى الأدب الفارسى أن يكون معيار تقدير المستوى الفنى للتصوير هو مقارنته بنظيره الصينى، وحتى وصف «الثعالبى» المؤرخ والأديب اللغوى (القرن ١١) دقة المصور الصينى وأمانته بقوله: «إنه يستطيع أن يصور الإنسان وكأنه يتنفس، ولا يكفيه هذا بل يذهب إلى تمثيله وهو



ثروت عكاشة

يضحك، بل وهو يؤدى مختلف أنواع الضحك الممكنة». ويدل مثل هذا القول في الاشادة بمقدرة الفنانين الصينيين وإطراء أعمالهم على أنه إما أن يكون قد تعرف بذاته على منجزاتهم، وإما أن أحد العارفين بها قد نقلها إليه. ولا أدل على أهمية العلاقات بين الصين وفارس فى أوائل القرن الخامس عشر - فيما يتعلق بفن التصوير - من أن «شاه رخ» - الابن الرابع لـ «تيمور لنك» (١٣٧٧ - ١٤٤٧) الذى تولى السلطنة عام ١٤٠٥ واجتاح إيران وآسيا الصغرى واشتهر بسخائه على العلماء والشعراء والفنانين. قد أوفد فناناً مصوراً هو غياث الدين بين مبعوثيه من السفراء إلى إمبراطور الصين وعهد إليه بتسجيل ما يراه مثيراً للاهتمام خلال رحلته. وامتد هذا الاهتمام بالتصوير الصينى إلى الموضوعات التى تناولها الأدب، مما أسفر عن تأثيره الدائب فى التصوير الفارسى، ثم فى التصوير المغولى بالهند الذى كان يقفو أثره. وهكذا كان التصوير الصينى أحد الروافد التى استقى منها التصوير الإسلامى إلى جوار غيره من الروافد.

لمسة الفرشاة الصينية

ولا يتقيد المصور الصينى بقواعد المنظور الأوروبى المتعارف عليه القاضية بتمثيل الأشياء ذات الأبعاد الثلاثة على سطح ذى بُعدين فتبدو وكأنها نافذة إلى العمق، بل يلتزم برؤيته هو الخاصة بالنسبة للمنظور القائمة على ترتيب عناصر لوحته بحيث يكون أقربها فى أدنى اللوحة وأبعدها فى أعلاها. وبينما يصور الفنان الأوروبى موضوعه مصحوباً بالضوء الساقط عليه والظل المترتب عنه. يُعنى الفنان الصينى بتصوير خصائص موضوعه الكاشفة لجوهره.

ومنذ قرون ثلاثة استهل المصور الشهير «طاو - تشي» رسالته النظرية عن فن التصوير الصينى بقوله: «إن لمسة الفرشاة هى مصدر الوجود كله. فلقد كانت بداية الخلق.. لمسة فرشاة». والحقيقة أن لمسة الفرشاة كانت البداية والنهاية معاً. وسيظل الخط المصور بالفرشاة حقيقة أساسية ثابتة فى تاريخ التصوير الصينى. وإذا كان فن التصوير الأوروبى قد بدأ خطياً، فإنه ما لبث أن تخلى عن هذه السمة عندما انصرف المصورون عن الاهتمام بالخطوط الحاضنة إلى تبيان ما تحوطه هذه الخطوط، موجهين عنايتهم إلى التعبير عن جملة أمور مثل الضوء والظل «كيارو سكورو»، وسلاسة الحواف الحاضنة للأشكال لفصل بعضها عن البعض الأخر أو لحجبها أو لطمسها تهويناً من شأن الخط. بالإضافة إلى التعبير عن الكتلة وعن القيم اللمسية. وثمة أبعاد وملامح أخرى نفسية ووجدانية وشعورية تنبثق من مكونات الكون المادية ليس لها أسلوب محدد للإفصاح عنها، وإنما هى آثار أصابع الفنان العازف على الوتر بالغ الحساسية التى تُسفر عن الطرب اللمسى - إذا جاز لى هذا التعبير. أما المصور الصينى فقد اتجه وجهة أخرى مغايرة للمصور الأوروبي، متحاشياً محاكاة الألوان والتعبير عن القيم اللمسية للمسطحات وتجسيد الكتل بحذافيرها، مؤثراً تحميل الفرشاة عبء التعبير بالخط، لأنه لا يصور الأجسام طبق الأصل - كما أسلفت - بل يصور جوهرها بحسبان هذا الأسلوب هو أرقى وسائل الوصف والتعبير، مستهلاً لوحته بما هو داكن ومنتهياً بما هو مشرق، على العكس من تقنية التصوير الأوروبى والتصوير بالألوان المائية. فإذا كل البدع الأسلوبية التى حاولت القضاء على ما تحمله لمسات الفرشاة الصينية من صدق، فضلاً عن محاولات استبدال التصوير الخطى بالتعبير عن الأشكال، تبوء بالفشل لأنها نكوص معيب عن تقاليد التصوير الصينى الراسخة.

العلامات المحددة لرؤية المصور الصينى

وبقدر ما يكتنف تاريخ التصوير الصينى من غموض نتيجة ما اندثر منه أو أتت عليه

ينفرد الخط الصينى المصور بإيقاعه الخاص، كما يكشف عن مشاعر الفنان الصينى ومزاجه بل وارتعاشات أعصابه

الحروب أو بفعل كوارث الطبيعة، يشوب مصداقية ما حفظه لنا الزمن من هذه التصاوير المغالاة فى استنساخه، على الرغم من نصائح الحكيم الفنان «شى - هو» التى لا تفتأ تردد أهمية استنساخ صور الأساتذة القدامى. ومن هنا يتبين لنا أنه حتى إذا مهرت أروع الصور القديمة بتوقيعات أساطين المصورين الخالدين، فقد لا يعنى هذا سوى أن الصورة قد أنجزت وفقاً للأسلوب الذى أرساه الفنان صاحب التوقيع.

وقد درج الفنانون الصينيون على تصوير لوحاتهم داخل المراسم، إذ لم يعتد المصور الصينى النقل المباشر عن الطبيعة، بل اكتفى برسم جملة من العجالات التخطيطية والدراسات المتنوعة يستعين بها عند تصوير ما يجول بذهنه حين يعود إلى مرسمه ليبدع لوحته النهائية - التى تكون عادة من الذاكرة - بسرعة ملحوظة يتجلى معها جمال التصوير والتلوين وروعة التناغم بين الخطوط والألوان. ويؤدى الفنان الصينى مهمته الجليلة جالساً القرفصاء مضموم الساقين ومتكئاً على إحدى كفيه فوق أرضية صلبة، الأمر الذى يُتيح له التحرك بيسر فوق اللوحة المصورة فى جميع الاتجاهات.

وبالرغم من أن المصور الصينى لم يعتمد فى تصويره على «المنظور الخطى»، إلا أنه وفق إلى نقل الإحساس بالمسافات، وهو ما يتضح فى تصويره للمشاهد البعيدة أكثر ما تكون ضآلة متجاهلاً التفاصيل، كما نجح فى تمثيل الفراغ بالتقريب بين الأشكال المصورة فى أمامية اللوحة والمباعدة بين تلك التى فى خلفيتها، فيتراءى للمشاهد أنه يطل على المشهد من عل. وبينما كان الشكل الإنسانى فى الفن الأوروبى هو أرقى الأشكال تعبيراً، كانت البوذية - المؤمنة بالروحانية، وأهمية «الخلاص» من أسر العالم المادى، وبأن الحياة الدنيوية عابرة لا غناء فيها، وبأن الجسد عبء ثقيل على الروح - لا تَعُدّ الشكل الإنسانى تعبيراً صادقاً وتُعنى بالجوهر دون العرض، ومن هنا تغلغل أثرها وتجلى فى تشكيل القيم الجمالية الصينية.

وينفرد الخط الصينى المصور بإيقاعه الخاص، كما يكشف عن مشاعر الفنان الصينى ومزاجه بل وارتعاشات أعصابه، ولهذا كان لكل خط شخصيته المميزة لأن أى خط رسمته يد مصور قدير يحمل ملامح شخصيته الذاتية مثلما يحمل الإنسان الملامح الدالة عن سنى عمره. وبالرغم من أن الخط المرسوم بالمسطرة يُعد أدق خط فى الوجود، إلا أن الدقة ليست دائماً تعبيراً عن الحيوية، ومن هنا كان الخط التلقائى هو التعبير الصادق عن ارتجافات الخط فوق السطح المصور.

ويقتضى فن التصوير الصينى مهارة وحذقاً بلا حدود فى استخدام الفرشاة، لا فى رسم الخطوط وحدها، بل وفى تحديد الكتل متفاوتة الأحجام مهما دقت فى أى منظر خلوى أو فى أى مشهد يضم الطير والحيوان، حيث تتوحد الكتل مع الخطوط بفطنة وذكاء وحذق وبراعة سواء تعبيراً عن الديمومة والاستمرارية أو عن الحدة والحيوية. كذلك تؤدى كثافة الخطوط أو رقتها أو صرامتها أو طراوتها دوراً مهماً فى إضفاء الرخامة على أنغام الصورة وإيقاعاتها.

تقنية التذهيب المُرسل

وقد نشأت منذ عهد أسرة طانغ تقنية استخدام رقائق الذهب (أو الفضة) المجزأة إلى شرائح رقيقة للغاية ذات أشكال هندسية كالمربعات أو المستطيلات كان يجرى تثبيتها باللك السائل كوسيلة إضافية لإثراء أسطح اللوحات المصورة والسواتر الحاجبة بل والمنحوتات الخشبية، أو لكى تشغل فراغات التكوين الفنى التى تتخلل تصميمات السحب والغيوم والوديان وضفاف الأنهار وما شابهها، ويُطلق على هذه التقنية اسم «التذهيب - أو التفضيض - المرسل».

أدوات المصور الصينى

وتتشكل «الفرشاة» (الفرجون) الصينية المتخذة من أعواد البامبو فى أحجام وأنواع لا حصر لها، تتوقف صلابتها أو لدونتها على نوع شعر الحيوان المستخدم. ويمكن لأضخم الفرش حجماً أن يستدق شعرها إلى أنحف درجة يمكن أن تصل إليه فرشاة، مما يتيح لها دقة بالغة فى الرسم، كما تتراوح درجات كثافة شعيرات الفرشاة ثخانة ونحافة لكى تُلبى مقاصد الفنان فى لمساته وتُحقق الشكل الذى ينشده. وقد أسفرت هذه الفرش عن خلق علاقة شديدة الخصوصية بين الفنان وما يعكف على تصويره. فالفرشاة - التى كانت تستخدم بالمثل فى الكتابة المحسنة - ليست لها صلابة القلم: فهى مدببة من طرفها، سميكة عند اتصالها بساقها، الأمر الذى يتيح للفنان التوصل إلى أدق الخطوط عندما يلمس سطح الورق بطرف فرشاته المدبب، كما يستطيع التدرج بالخط من الدقة المتناهية إلى أقصى درجات الثخانة التى يشكلها طرف الفرشاة حين يضغط عليه بأنامله. ومن هنا كانت أبسط حركة ضاغطة بالأنامل كفيلة بتنوع ملحوظ فى لمسة الفرشاة، وهو ما يقتضى من الفنان مهارة فائقة فى استخدام يده بحيث يتحرك معصمه بمرونة وحرية تامة، مما يبرهن على أن الإلهام الذى يتوثب فى ذهن الفنان الصينى ينساب بلا قيود من خلال أعصابه وشرايينه مثل التيار الكهربائى ليسجل ما يعن له من خواطر فوق صفحة الورق أو الحرير أو الجدران، ومن هنا شكلت المهارة فى استخدام الفرشاة عنصراً مهماً فى التصوير الصينى. والفرشاة الصينية مرنة مدببة سرعان ما تستعيد شكلها الأولى فور ارتفاعها عن سطح اللوحة المصورة، وإذا كانت الفرشاة المستخدمة فى التصوير هى نفسها المستخدمة فى الكتابة الخطية المحسنة مع فارق بسيط، فإن هذا الدور المزدوج الذى تؤديه الفرشاة يدل على العلاقة الوثيقة التى كانت تربط منذ عهد سحيق بين فن التصوير والكتابة الخطية المحسنة على نحو ما أسلفت.

وثمة أنواع مختلفة من شعر الفرشاة يتيح لكل فرشاة التعبير عن أشياء محددة، فبينما لا ينثنى شعر الذئاب مع حركة الفرشاة، يحتفظ شعر الأغنام بسيولة المداد فترة ممتدة، كما تُعد شعيرات فراء حيوان السمور الأسود الناعم شديد الاستقامة من أفضل الأنواع المستخدمة فى التصوير الصينى، إلى غير ذلك من مختلف أنواع شعر الحيوانات كالماعز والأرانب التى تثبت كلها فى مقابض من أعواد البامبو، وما أكثر ما كان مقبض الفرشاة يُزين عند انتقائه بالشعر بحلية من اليشب الثمين أو يطلى باللك. وعلى هذا النحو يكون لكل نوع من أنواع الفرشاة دور معين تؤديه على

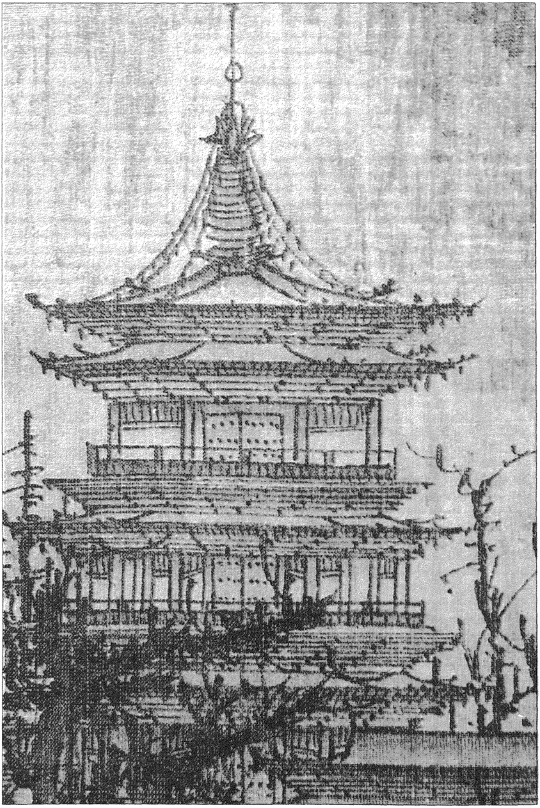
عودة وِن تشى إلى مسقط رأسها - فنان مجهول - مضم صور أسرة سونغ الشهيرة



صور الفنان الصينى الصخور والجداول بوصفها تعبيراً مرئيا نابضًا بالحياة. وعسير أن نجد فى أى من الفنون الصينية عملاً يعنى فيه الفنان بالشكل وحده دون أن ينطوى على مضمون

نحو ما تؤدى كل آلة من الآلات الموسيقية دورها فى أثناء عزف الأوركسترا السيمفونى. وهكذا يجرى تحديد الأشكال فى التصوير الصينى بواسطة الخطوط دون التفات إلى الضوء وظله. كما تتحقق شخصية أى خط مرسوم من خلال تنويع سُمكه وحدته أو تراخيه وحجم الفراغ المحيط به إلى غير ذلك من وسائل الصنعة الفنية. وعادة ما ينتهى الطرف العلوى لعود فرشاة الرسم الصينية بعلاقة (ما يُعلق به الشىء) من الخيط المجدول لتعليقها بعد الاستخدام فوق الحائط، وذلك للتخلص من الرواسب المتخلفة وللحفاظ على القوام الأصلى للشعر.

و«المداد» (الحبر) هو أكثر مواد التصوير شيوعًا نظرًا للتنوع الهائل فى تدرجاته الدقيقة التى يصل إليها الفنان من خلال تحكمه فى مقدار ما يُضيفه إلى المداد من ماء، وفى استخدامه الحاذق لأسلوب التصوير المباشر بالفرشاة. ويُعد المداد الصينى عادة من السناج الناتج عن حرق الفول السودانى أو شجر الصنوبر الذى يترسب على جدران المداخن المركبة فوق قمائن الحرق بعد خلطه بالصمغ، ثم يُشكل فى هيئة أعواد أو قوالب من عجينة المداد شديد الصلابة. وكان الأباطرة والملوك يتبادلون هذه العيدان باعتبارها هدايا يضمنونها أحيانًا حبات اللؤلؤ! والمداد الصينى كثيف داكن إذا لم يخفف، ويغدو شفافًا عند مزجه بالماء، فيسفر عن العديد من الظلال والأطياف والإضاءة المتدرجة إذا استخدمت لمسات الفرشاة الغامقة والفاتحة بحذق ومهارة للإيهام بالفراغ وما يحتويه. وما أكثر ما تُستخدم هذه التقنية فى تصوير الجبال والغابات المغمورة بالسحب أو بالضباب وبراعم الزهور المشبعة بالندى أو البلل. ويعتقد المصورون الصينيون أن المداد يسفر - برغم لونه الأسود - عن طائفة من الدرجات، ويطلقون على تقنية اللوحات المصورة بالمداد الأحادى اللون اسم «الغَمر» أو «التكثيف والتخفيف»، حيث تبدأ الخطوط بالأسود الداكن وتنتهى بالرمادى الشفيف أو العكس. والمقصود بتقنية الغمر هو تغشية مساحات من اللوحة بدرجات من المداد الأسود، وذلك بغمرها بلمسات فرشاة من صوف الغنم المشط مشبعة



معبد فوق الجبل ذات يوم صاف - الفنان لى - تشنغ

يرجع تاريخ فن التصوير الصيني إلى ما ينوف على خمسة آلاف عام. وهو فن يتميز بسمات قومية تنفرد بها الصين نتيجة التأثير المتبادل بين التصوير الصيني من ناحية، والفلسفة الصينية

بالمداد والماء، سعياً من الفنان للوصول إلى درجات المداد التي ينشدها في لوحته. وأهم خواص المداد الصيني شدة سواده وقابليته للذوبان في الماء لرسم الدرجات الشفافة. وثمة ميزة أخرى لهذا المداد هي أنه لا يتأثر بالماء بعد أن يجف فوق سطح اللوحة.

وكما أن للفرشاة مواصفات خاصة بحيث يحقق كل نوع منها غرضاً معيناً، كذلك الأمر مع الورق المستخدم في الرسم، فله هو الآخر مواصفاته التي تنحصر في رقة الورقة أو سمكها، وكذلك في درجة تشربها للماء. وقد استخدم المصور الصيني الورق والحرير للتصوير عليهما بالألوان المائية والمداد، حتى إذا فرغ من رسم لوحته سارع إلى وقايتها وصونها والحفاظ عليها بلصقها على ورق سميك وتغطية سطحها بغشاء من الحرير الشفاف. وبينما جرت العادة باستخدام الورق في لوحات التصوير بالمداد الأحادي اللون، استخدم الحرير في التكوينات الفنية متعددة الألوان، وهي التقنية التي يطلقون عليها اسم «كومبي»، على أن ذلك لم يكن قاعدة ملزمة للفنان، إذ كان له مطلق الحرية في اختيار ما يشاء لتصوير لوحته.

موضوعات التصوير الصيني

وكان للعلاقات الإنسانية دوماً شأن عظيم في التصوير الصيني حتى شاع ظهور الأفراد مجتمعين معاً سواء في حلقات الدرس أو مواقف الوداع الحار أو لقاءات كبار الموظفين (الماندارين) الذين كانوا يطوفون بأنحاء البلاد طولاً وعرضاً. ويكاد الفن الصيني يخلو من موضوعات الحروب والعنف والموت والعرى وضحايا الحروب والثورات، كما تجنب مشاهد الغرام إذ يندر أن نشاهد صور العشاق ضمن منظر طبيعي. ويؤثر الفنان المعني بتصوير الأشكال الآدمية في الغالب الأعم تصوير الشيوخ الحكماء مستغرقين في التأمل مجتمعين حول قنينة خمر، كما صور الفنان الصيني الصخور والجداول بوصفها تعبيراً مرئياً نابضاً بالحياة عن قوى الكون الخافية. وعسير أن نجد في أي من الفنون الصينية عملاً يعنى فيه الفنان بالشكل وحده دون أن ينطوي على مضمون، فلا يسيغ الصينيون عملاً يبدو الشكل فيه جميلاً في حين يخلو الموضوع المصور من فكر مضيء ينير الوجدان. ومن هنا كان التصوير الصيني في حقيقة الأمر فناً رمزياً، لأن كل ما هو مرسوم يعكس مظهراً من المظاهر الكلية التي يدركها الفنان بالفطرة، كما احتشد الفن الصيني بالرموز ذات الدلالة، ويأتي على عكس هذه الرموز قصبات البامبو التي تُشير إلى حكمة الفلاسفة لجمعها بين الصلابة والمرونة ولقابليتها للتكيف والتشكل، وهكذا الإنسان السوي قادر على الانحناء أمام وطأة المحنة دون التخلي عن مبادئه ومُثُله. وأعواد البامبو هي الرمز الذي بلغ من شدة إيمان المصورين الصينيين به أن أحدهم ما كان ليشرع في رسمها حتى يفقد إحساسه بذاته، بل وبالبشر كافة، وكأنما قد تقمصته روح البامبو.

وكما يرمز اليشب العصي على التلف إلى الطهارة والنقاء، يرمز التنين إلى ما يضمره الإمبراطور من خير، وطائر الكركي إلى طول العمر، والبط المتآلف أزواجاً إلى وفاء الأزواج. وشاع بين الرموز المستقاة من النبات زهرة «الأوركيديه» السحلبية الجميلة التي تتضوع بالأريج الفواح رمزاً للنقاء والطهارة، و«زهرة البرقوق» التي تونع حتى في أثناء تساقط نُدف الثلج رامزة للثبات والاستقرار، على حين ترمز «شجرة الصنوبر» ذات العقل العتيقة لحكمة الشيخوخة الرصينة. وكما اختار الصينيون من بين النباتات أشجار الصنوبر والبرقوق والخوخ والمشمش، اختاروا من بين الطيور اللقلق والبط والكُركي والإوز ومالك الحزين والتدرج (الدراج) والغرنوق وصوروها إما متطامنة على فروع الشجر أو محلقة في الفضاء بشاعرية اجتذبت مصوري الفرس الذين حاكوها في منمنماتهم فأضفت عليها رقة ورهافة وحيوية، وهكذا رأينا في الكثير من المنمنمات الفارسية البط محلقاً أو طافياً فوق مياه تموج سطحها في أنصاف دوائر متداخلة على غرار الضفائر تتخللها ألسنة الزبد أحياناً فتزيدها جمالاً وفق سنن رسوم الغَضار الصيني ذي اللونين الأزرق والأبيض (انظر كتاب «التصوير الإسلامي الفارسي والتركي» لصاحب هذه الدراسة).

ملامح التصوير الصيني

يرجع تاريخ فن التصوير الصيني إلى ما ينوف على خمسة آلاف عام. وهو فن يتميز بسمات قومية تنفرد بها الصين نتيجة التأثير المتبادل بين التصوير الصيني من ناحية، والفلسفة الصينية والأدب إلى غير ذلك من الفنون كالكتابة الخطية المحسنة والعمارة والحرف التقليدية من ناحية أخرى. وعلى حين عد المصور «كو كاي تشي» أحد مصوري القرن الرابع العظام، «الشكل» وسيلة التعبير عن الروح، عدا «شي-يه» مصور القرن الخامس «الحيوية» أهم عناصر فن التصوير. وهو ما يكشف عن أن المصورين الصينيين قد أدركوا منذ زمن مبكر أهمية الغوص فيما وراء الطبيعة بدلاً من محاكاتها، وكذا ضرورة التزام الفنان حين ينوي تصوير الإنسان بنقل جوهر شخصيته قبل نقل ملامحه، وأن يقف حين يصور الحيوان أو النبات بادئ ذي بدء على سماته الذاتية الخاصة التي ينفرد بها، فضلاً عن الملاحظة الدقيقة لموضوعه المصور من حيث تركيبه وخصائصه ومراحل نموه قبل أن يشرع في رسم ما ترسب في ذهنه من خواصه الطبيعية وبعد أن يكون قد استوعب موضوعه استيعاباً تاماً. فإذا صور شجرة صورها حسبما تنبت وتنمو، أي من أسفل إلى أعلى لا العكس، لأن كل ما في الوجود لابد له بداية ونهاية. لذلك قضى أولئك الفنانون المنظرون العظام بضرورة أن يوحي المنظر الخلوي إلى المشاهد بمناخ جمالي يستطيع من خلاله الإحساس بما يطرأ على الطبيعة من تقلبات موسمية، وهو ما لا يتحقق إلا بالمتابعة الروحية والوجدانية لعناصر الكون لحظة بلحظة لإثراء الموضوع قيد التصوير. ومن هنا بات لزاماً على المصور الفطن ألا يقتصر على ملاحظة موضوعه المصور فحسب، بل لا غنى له عن إدراك كُنهه والغوص في أعماق سريرته، لكأن هذا الفنان يتمثل مقولة «أنطوان ده سانت ركسوبري» أديب القرن العشرين الشامخ: «لا يحسن المرء الرؤية إلا بقلبه، فالجوهر خفي عن الأنظار».

وثمة فارق بين الرؤية والرأي، فبينما رؤية العقل حسابية رياضية علمية تتسم بالجفاف، فإن رؤية البصر هي أسيرة تفاوت قدرة شبكية العين على التحديد أو الوصف الكامل للشكل، ومن هنا قد تؤدي مخادعة البصر دوراً يطيح بمعاني الأشياء. لكن ثمة رؤية ثالثة هي رؤية الفؤاد، فما كذب الفؤاد قط ما رأى، ومن هنا كانت الرؤية المعنوية هي بيت القصيد وهي الهدف من الرحلة الطويلة عبر الأشكال والأحجام والأجسام، فكم من مراتب للاستيعاب الواعي ينبغي على عُشاق الجمال خوضها قبل أن يلجوا ساحة التذوق الفني. وفي هذا الصدد يروى عن «جينغ هاو» أحد مصوري المناظر الخلوية خلال القرن العاشر أنه كان لا يفتأ يُردد أنه لم يبلغ إدراك روح شجرة الصنوبر إلا بعد أن رسمها عشرة آلاف مرة! وقد يكون في تلك المقولة نصيب من المبالغة، ولكن المعنى المستخلص هو أهمية مثابرة المصور على دراسة كل ما يحيط بموضوعه المصور مادياً ومعنوياً حتى يستطيع تسنم مقام البراعة.

وقد برزت من بين فئة الأدباء المثقفين «اللتراتي» خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر أعداد ضخمة من المصورين الذين تألقت أسماؤهم في مجال التصوير، كما شكل المصورون البارزون من بين هذه الطبقة خلال القرن الثالث عشر العمود الفقري لفن التصوير الصيني. ويبلغ من فرط عنايتهم بالتعبير عن السجايا الذاتية للأفراد أن عدوا التشابه والمحاكاة أمراً غير ملزم، مؤثرين توجيه الاهتمام إلى ما هو أبعد من المحاكاة السطحية. ومن هنا كان سعيهم الدءوب لتحقيق ما يعرف بنظرية «التطابق والتوافق دون التشابه»، والمقصود بها التعبير عن الخصائص المميزة للموضوع المصور من خلال التواشج بين مشاعر الفنان وعواطفه وحالاته المزاجية. ولم يقتصروا على تضمين لوحاتهم قصائد الشعر المدونة بالكتابة الخطية المحسنة فحسب، بل نراهم قد مزجوا بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، مع الحرص على تأكيد أهمية الصورة الذهنية المترسخة في مخيلة الفنان، حتى ذهب «ون. طونغ» مصور أعواد البامبو خلال القرن الحادي عشر إلى أنه لا معدى أمام الفنان من تخيل الصورة النهائية لأعواد البامبو التي يرسمها قبل أن يتناول فرشاته. فما إن يفرغ المصور الصيني من تصور موضوعه ذهنياً ووجدانياً ومن تمثُّل كيفية صياغة تكوينه الفني حتى ينطلق إلى التعبير عن أفكاره بأسلوب واضح بعيد الغور، فلا يعلي من شأن أي شيء سوى ما يراه ذا أهمية وما يحس به بشعوره الصادق، تاركاً في خلفية اللوحة مساحات قد تأخذ بدورها أشكالاً وأحجاماً متنوعة لتشكل أنماطاً بذاتها تُعين على الإبانة عن كُنه الموضوع المصور وتزيد المشاهد بفسحة رحيبة يستطيع معها التجوال بخياله في رحلة بصرية عاطفية وجدانية بلا حدود.

ومن هنا لا يجوز أن نعد مصور المناظر الخلوية الصيني محاكياً للطبيعة، لأنه من ناحية لا يتطلع إليها من نقطة محددة بذاتها، ومن ناحية أخرى لأنه يتحرر من كل القيود التي يفرضها الزمان والمكان. وهو لا يُشكل تكوينه الفني إلا بمفهومه الذاتي المضمر وبحسه المرهف لكينونة الطبيعة، فيخال نفسه محلقاً في أرجاء الفضاء قادراً على رؤية كل ما هو ناء بعيد وما هو دان قريب. وفي مثل هذه الحالة - سواء بدا الموضوع المصور مكبراً نظراً لقربه أو مطموساً مغبشاً نظراً لبعده - يشعر المصور والمشاهد معاً أنهما يحلقان على هواهما خلال الفضاء.

ويفسر «شن تشيو» - أحد نقاد الفن خلال القرن الحادي عشر - التطور المستمر الذي لحق بالمنظور في التصوير الصيني

بأنه ثمرة التأمل الفلسفى الذى يستشف «الضآلة من خلال الضخامة»، بمعنى رؤية تفاصيل المشهد من زاوية كونية. فلقد تجاوز الفنان الصينى المنظور الزمنى حتى احتوى الزمن بأسره فى وعاء واحد لا فرق فيه بين الماضى والحاضر، وما عاد الوقت يُقاس عنده بالجزئيات لأنه يتطلع إلى «الكل» من خلال «الجزء»، وإلى «الجزء» من خلال «الكل» لكونهما فى نظره نسيجا واحدا. مثال ذلك لوحة مصورة تجمع بين أزهار متنوعة من مختلف فصول السنة متجاوزة حدود الزمن. وبالمثل يمكن الغوص فى عالم الطبيعة الرائع من خلال التطلع إلى لوحة مصورة لزهرة فريدة واحدة أو لطائر فريد وحيد أو لسمة مميزة أو حتى لحشرة ضئيلة، إذ بوسع المصور الصينى الضليع أن يضمن ثنايا زهرة واحدة قوى الكون المحركة كافة. وعلى النهج نفسه يمكننا - على الضد من الرؤية السابقة - أن نستشف «الضخامة» من خلال «الضآلة»، والضخامة فى هذا المقام لا تعنى بالحجم بقدر عنايتها بالقيمة والمضمون. وما من شك فى أن صورا من هذا الطراز قد تبدو لنا مخالفة لقواعد المنظور العلمية، كما قد تتراءى لنا خادعة أو مجافية لعقلانية المنظور ومصداقيته. غير أن مملكة الفن والجمال الرحيبة لها هى أيضا عقلانيتها الخاصة، كما أن لها مصداقيتها النابعة من انفساح الخيال وصدق الإحساس وتنوع الانفعال. ومن هنا آمن الفنان الصينى بأن العقلانية التى ينشدها هى «عقلانية لا معقولة» إذا جاز هذا التعبير، وأن المصداقية المنشودة هى التعبير الحر عما يخالج الحس.

لقد آمن المجتمع الصينى الذى كان مجتمعا زراعيا أصيلا بحاجة الإنسان إلى إدراك كنه الطبيعة من حوله ومعايشتها والتآلف معها، لأن عالم الطبيعة هو المظهر المرئى الدال على قدرة الخالق المتمثلة فى تنوع الخليقة وتكاثرها. وعلى مر الأيام ارتقى الفن الصينى من صنع أوانى القرابين لاسترضاء قوى السماء فى العصور الغابرة إلى التعبير عما يخالج الإنسان من إحساس بهذه القوى من خلال تصوير المناظر الطبيعية وأعواد البامبو والأزهار والطيور، وهو ما يسمى بـ «المفهوم الميتافيزيقى» للتصوير الصينى. من هنا كان التصوير الصينى فى نظر أهل الصين ضربا من التصوف والاقتراب من الحقيقة الكلية. وكانت للفن - بصفة خاصة فى العصور المبكرة - وظائف اجتماعية وأخلاقية شتى. وتذكر المصادر الأدبية القديمة كيف انحصرت موضوعات التصاوير الجدارية بالقصور فى شخصيات الأخيار من الأباطرة والوزراء والحكماء والقادة، وكذا خصومهم من الأشرار كى تتخذ عظة للأحياء. وعلى غرار هذا النهج الخلقى نفسه لم تعن الصور الذاتية بملامح الأشخاص بقدر ما عُنيت بتسجيل جوهرهم وما يؤدونه من مآثر لخدمة المجتمع، وهو ما يطلق عليه «المفهوم الكونفوشيوسى الأخلاقى» للتصوير الصينى.

وهكذا كان الفن الدينى فى عمومه أمرا يأباه الذوق الصينى، فلم تكن العقائد السائدة مصدر إلهام للأعمال الفنية العظمى إلا نادرا. وحسب الفنان الالتزام بثوابت العقيدة دون أن يحيد عنها أو يتجاوزها. وكادت سيادة العقلانية التى يتجلى أثرها فى التنفيذ المحكم المتقن أن تحول الفنان إلى شخصية شبه مقدسة تسبر غور أقصى أسرار الأرض والسماء وتُلقى الضوء على ما تعجز الشمس والقمر عن إنارته، ولا غرو فهدفه المنشود هو بلوغ المثل الجمالى الأعلى الذى حدده الفنان هزيا هه بـ «الروحانية والحيوية والإيقاع». وتفسر الأساطير الصينية هذه المقولة بأنه بوسع الفنان الموهوب تحقيق المعجزات لأنه القادر على أن يبسط آلاف الكيلومترات فوق سنتيمترين مربعين من الرقعة التى يرسم فوقها، مثلما يستطيع أن يجسد التنانين التى يرسمها وكأنها تنطلق من جوف الجدران المصورة عليها. ■

"في أرشيف الدماغ تتمهل حيواتنا أو تختفي"

■■ ثمة امرأة (٤١ عاماً)، مساعدة إدارية من كاليفورنيا معروفة في الكتابات الطبية باسم «إيه جيه» تتذكر تقريباً كل يوم من حياتها منذ سن الحادية عشرة. ثمة رجل، (٨٥ عاماً)، تقني معمل متقاعد يدعى «إي بي» لا يتذكر سوى أحدث أفكاره. عليها تنعم بأفضل ذاكرة في العالم، عليه يمتلك أسوأها.

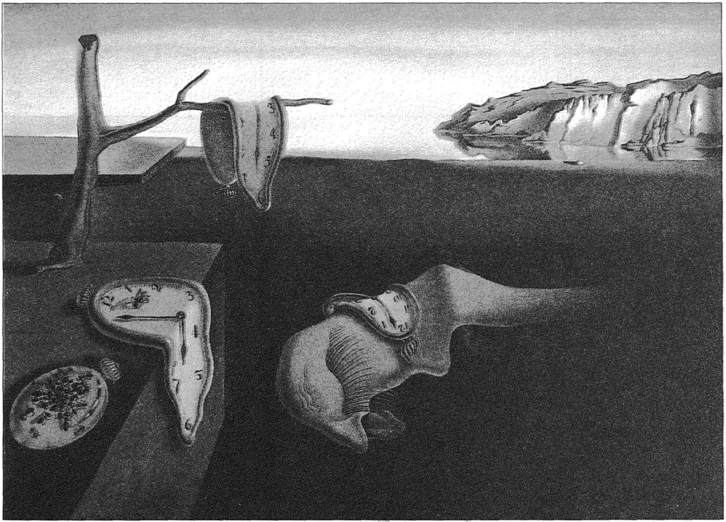
«تتدفق ذاكرتي كمشاهد فيلم - بلا انقطاع أو تحكم»، تجاهر إيه جيه. تتذكر أن في الساعة ١٢:٣٤ مساء، يوم الأحد، ٣ أغسطس من عام ١٩٨٦، اتصل بها شاب أضمرت له إعجاباً. تتذكر ما جرى بمسلسل «ميرفي براون» يوم ١٢ ديسمبر ١٩٨٨، تتذكر أنها تناولت الغداء مع أبيها بفندق بيفرلي هيلز في ٢٨ مارس ١٩٩٢، تتذكر الأحداث العالمية ورحلاتها إلى متجر البقال، تتذكر حالات الجو وعواطفها. إن دماغها يضم حرفياً كل يوم، وليس من السهل إرباك ذاكرتها.

ثمة حفنة من الأشخاص عبر السنين تمتعوا بذاكرة جيدة على نحو استثنائي. يقال إن كيم بيك، ٥٦عاماً، العالم الذي ألهم فيلم رجل المطر، حفظ نحو ١٢٠٠٠ كتاب (يقرأ الصفحة في ٨ إلى ١٠ ثوان.) وهناك «إس»، صحفي روسي درسه ألكسندر لوريا Alexander Luria، المتخصص في علم النفس العصبي، لمدة ثلاثة عقود. بمقدور إس أن يستحضر سلاسل طويلة للغاية من كلمات وأرقام ومقاطع عاطلة من المعنى بعد سنوات من سماعها. إلا أن إيه جيه فريدة من نوعها. فذاكرتها الاستثنائية لا تلتقط الحقائق أو الأرقام بل أحداث حياتها. الحق أن ما تحتفظ به ذاكرتها الحديدية من تفاصيل سيرتها غير مسبوق أو مفهوم حتى إن جيمز ماكجو وإليزابيث باركر ولاري كاهيل، علماء الأعصاب في جامعة كاليفورنيا بمدينة إرفاين الذين ظلوا يدرسون حالتها خلال السبعة أعوام السابقة، اضطروا إلى صياغة مصطلح طبي جديد يصور حالتها: Hyperthymestic Syndrome.

يبلغ طول إي بي ست أقدام وبوصتين (٩,١ متر)، بشعر أشيب مفروق فرقاً مثالياً وأذنين طويلتين للغاية. ذو شخصية جذابة وودودة دمثة. كثيراً ما ترتفع ضحكاته. يتراءى في البداية مثل أي جد لطيف الشمائل عادي المسلك. لكن منذ خمس عشرة سنة مضت أصاب فيروس الهربس البسيط دماغه منتزعاً قلب الدماغ كما التفاحة. وبحلول الوقت الذي بلغ فيه الفيروس مساره، اختفت قطعتان في حجم الجوزتين من مادة الدماغ في الفصين الصدغيين الوسطيين، ومعهما راحت أغلب ذاكرة إي بي.

غياهب الذاكرة!!

لوحة الذاكرة للفنان سلفادور دالي



أصاب الفيروس هدفه بدقة غريبة. فالفصان الصدغيان الوسطيان - هناك فص على كل جانب من الدماغ - يشتملان على بنية تشبه القوس تسمى قرن آمون وعدة مناطق مجاورة تؤدى معاً عملاً سحرياً، ألا وهو تحويل مداركنا الحسية إلى ذكريات طويلة الأمد. لا يتم تخزين الذكريات فى قرن آمون بالفعل - فهى تلبث فى مكان آخر، فى طبقات الدماغ الخارجية المتموجة بالقشرة المخية الجديدة - إلا أن منطقة قرن آمون هى الجزء الذى يجعلها ثابتة. تدمر قرن آمون فى دماغ إى بى، وبدونه لا يختلف عن كاميرا فيديو بشريط مغناطيسى معطوب. فهو يبصر الموجودات دون أن يسجلها.

ألمّ بإى بى نوعان من فقدان الذاكرة - النسيان اللاحق، أى أنه لا يستطيع أن يشكل ذكريات جديدة، والنسيان السابق، أى أنه لا يستطيع أن يستحضر الذكريات القديمة أيضاً، على الأقل منذ عام ١٩٦٠ . أما طفولته وخدمته فى الأسطول التجارى خلال الحرب العالمية الثانية، فكلها ذكريات جلية تمام الجلاء. لكن على حد علمه، لا يزال ثمن جالون الغاز أقل من دولار والهبوط على القمر لم يحدث قط.

إن إيه جيه وإى بى يقفان على طرفى النقيض من نطاق الذاكرة الإنسانية. وحالتاهما تتفوقان على أى مسح إشعاعى للدماغ فى كشف مدى تأثير الذاكرة على هوية الفرد. وعلى الرغم من أن بقية البشر يقبعون فى مكان ما بين هذين القطبين من تذكر كل شىء وتذكر لا شىء، لاقينا جميعاً وعداً طفيفاً بذاكرة إيه جيه ونزل بنا الفزع من مصير إى بى. إن ذلك اللحم المتجعد المتوازن فى أعلى العمود الفقرى يستطيع أن يحتفظ طيلة الحياة بأكثر التفاصيل تفاهة عن تجارب الطفولة لكنه غالباً ما يعجز حتى عن التشبث برقم هاتف فى منتهى الأهمية لمدة دقيقتين لا غير. هكذا نجد الذاكرة غريبة كل الغرابة.

ما هى الذاكرة؟ أفضل ما يمكن لعلماء الأعصاب القول به فى الوقت الحالى هو التالى: الذاكرة هى نموذج مخزون من الوصلات القائمة بين الخلايا العصبية فى الدماغ. ثمة نحو مائة مليار من تلك الخلايا العصبية، بوسع كل واحدة منها أن تخلق من حوالى

ترجمة: هالة صلاح الدين

٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ وصلة عصبية مع الخلايا الأخرى، أى إجمالاً من حوالى خمسمائة تريليون إلى ألف تريليون مشبك عصبى فى دماغ البالغ العادى. وعند المقارنة نجد أنه لا يوجد سوى ٣٢ تريليون بايت من المعلومات فى المجموعة المطبوعة لمكتبة الكونجرس بأسرها. كل شعور نتذكره، كل فكرة تطرأ ببالنا تبدل الوصلات بين تلك الشبكة الضخمة. يمكن للمشابك العصبية أن تقوى أو تضعف أو تتكون من جديد. فمادتنا الفيزيائية لا تكف عن التغيير. الحق أنها تتغير على الدوام فى كل لحظة حتى أثناء النوم.

قابلت إى بى فى نهار ربيعى دافئ ببيته، منزل مشرق من طابق واحد يقع فى ضواحى سان دييجو. قدت السيارة إلى هناك بصحبة لارى سكواير Larry Squire، عالم أعصاب وباحث فى الذاكرة فى جامعة كاليفورنيا بمدينة سان دييجو ومركز سان دييجو الطبى للمحاربين القدامى وجين فراسينو Jen Frascino، منسقة البحث بمعمل سكواير التى تزور إى بى بانتظام كى تدير اختباراته المعرفية. وعلى الرغم من أن فراسينو قصدت بيت إى بى ٢٠٠ مرة، دائماً ما يحييها وكأنها غريبة.

تجلس فراسينو أمام إى بى إلى مائدة حجرة الطعام لتوجه إليه سلسلة أسئلة تقيس سلامة بديهته. تسأله عن القارة التى تقع فيها البرازيل وعدد الأسابيع فى السنة ودرجة غليان الماء. تريد أن تبرهن على ما أثبتته بالفعل اختبارات الذكاء: إى بى ليس غبياً. يجيب بكل صبر على الأسئلة - إجابات صحيحة كلها. يرد عليها فيما تتملكه دهشة أتخيل أن تراودنى لو أن غريباً دلف إلى منزلى وجلس إلى مائدتى ليسألنى بجدية ما بعدها جدية إذا ما كنت أعرف درجة غليان الماء.

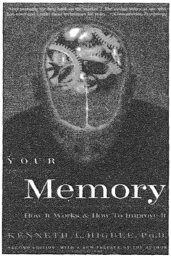
«ماذا تفعل لو وجدتَ ظرفاً مغلقاً فى الشارع، عليه عنوان وطابع بريدى؟» تمتحنه فراسينو.

«أضعه فى صندوق البريد. وهل أفعل غير هذا؟» تند عنه ضحكة خافتة ويرمينى بنظرة جانبية عليمة كالقائل، «هل يظننى هؤلاء الناس عبيطاً؟» لكنه يستشعر أن الموقف يتطلب قدراً من التهذب فيتحول إلى فراسينو مردفاً: «لكنك توجهين سؤالاً مشوقاً، مشوقاً بالفعل». لا علم لديه أنه سمع نفس السؤال عدة مرات من قبل.

«لماذا نطهو الطعام؟»

«لأنه نيئ». تحمل كلمة «نيئ» صوته واضحاً وقد حل عدم التصديق محل الدهشة.

«لماذا نَدرس التاريخ؟»



منذ ابتلاء إي بي بالمرض، لم تتجاوز مساحة معيشته ما يبصره أمام عينيه فعالمه الاجتماعي لا يتخطى الموجودين في الحجرة. يعيش حياته محاطاً بالظلمة تحت ضوء هزيل

«حسناً، ندرس التاريخ حتى نعرف ما حصل فى الماضى».

«لكن لماذا نريد أن نعرف ما حصل فى الماضى؟».

«بصراحة لأنها مسألة مثيرة للاهتمام ليس إلا».

يرتدى إى بى سواراً معدنياً طبياً حول معصمه الأيسر. ومع أن ما يدعوه إلى ارتدائه واضح للعيان، سألته على أية حال. يدير معصمه ليقرأ بلهجة تنم عن اللامبالاة.

«ممم. مكتوب عليها «فقدان ذاكرة»».

لا يتذكر إى بى أنه يعانى مشكلة فى الذاكرة. فهى مشكلة يكتشفها كل دقيقة من جديد. ونظراً لأنه ينسى أنه دائماً ما ينسى، تبدو له كل فكرة ضائعة وكأنها زلة طارئة - مصدر إزعاج طفيف فقط لا غير - كما يحدث معك ومعى.

ومنذ ابتلاء إى بى بالمرض، لم تتجاوز مساحة معيشته ما يبصره أمام عينيه. فعالمه الاجتماعى لا يتخطى الموجودين فى الحجرة. يعيش حياته محاطاً بالظلمة تحت ضوء هزيل.

يستيقظ إى بى فى الأصباح المعتادة ليتناول الإفطار ثم يعود إلى فراشه للاستماع إلى المذياع. لكن مع رجوعه إلى الفراش، لا يتضح له دوماً إذا ما كان قد تناول الإفطار أم أنه صحا للتو. غالباً ما يفطر مرة ثانية ثم يرجع إلى الفراش كى يستمع إلى المزيد من برامج المذياع. وفى بعض الأصباح يتناول الإفطار ثلاث مرات. يشاهد التليفزيون. مسلسلات تبث فيه الدهشة من الثانية إلى الثانية، وإن حدث وكانت العروض واضحة البداية والذروة والنهاية قد يشعر بوجود مشكلة. يفضل قناة التاريخ أو أى شىء له علاقة بالحرب العالمية الثانية. يتمشى فى الحى، فى العادة عدة مرات قبل وجبة الغداء، وأحياناً لمدة ثلاثة أرباع ساعة. يجلس فى الفناء. يقرأ الجريدة، لا بد أنه يشعر كما لو كان خارجاً من آلة الزمن. بوش من؟ العراق ماذا؟ كمبيوتر متى؟ وحين يبلغ إى بى نهاية العنوان، ينسى فى الغالب بدايته. ولا يند عنه فى أكثرية الوقت . بعد قراءة الأرصاد الجوية. سوى الرسم بذهن نصف واع على ورق الجريدة، راسماً الشوارب أو ملعقته على الصور. وعندما تقع عيناه على أسعار البيوت فى قسم العقارات، يعلن على الدوام عن صدمته.

لقد سقط إى بى خارج إطار الزمن كلية بدون ذاكرة. خلا عقله من تيار الوعى، وما حاز سوى قطيرات تتبخر على الفور. ولو نزعتَ الساعة من معصمه - أو على نحو أقسى، غيرتَ الوقت - سوف يضيع تماماً. لقد وقع فى فخ سجن الحاضر الأبدى، بين ماض لا يستطيع أن يستدعيه ومستقبل لا يستطيع أن يتأمله. وهو بذلك يعيش حياة لا حراك فيها، منزهة تماماً عن القلق. «إنه سعيد طوال الوقت. فى منتهى السعادة. أظن لأن حياته خالية من التوتر»، تقول ابنته كارول التى تقيم بالقرب منه.

«ما عمرك الآن؟» يسأله سكواير.

«دعنى أركز، ٥٩ أو ٦٠ . ذاكرتى ليست مثالية إلى هذه الدرجة. إنها جيدة للغاية لكن أحياناً ما يسألنى الناس أسئلة لا أفهمها. أنا متأكد أنك تواجه مثلها بين الحين والآخر».

«بالطبع»، يرد سكواير بنبرة تشى بالطيبة على الرغم من أن ذاكرة إى بى تعطلت زهاء ربع قرن.

إن غالبية ما يحيط به العلم عن الذاكرة جاء من دماغ تالف يشبه دماغ إى بى إلى حد كبير. إنه دماغ رجل يبلغ من العمر ٨١ سنة معروف باسم «إتش إم»، رجل فاقد للذاكرة يعيش فى دار للمسنين بولاية



غيـاهب الذاكـرة

كونيتيكت. كابد إتش إم خلال طفولته مرض الصرع الذى بدأ بعد حادثة دراجة فى سن التاسعة. وحينما بلغ سن ٢٧، كان يفقد الوعى عشر مرات فى الأسبوع دون أن يقوى على القيام بأى شىء. حسب جراح أعصاب يدعى ويليام سكوفيل William Scoville أن بإمكانه مداواة صرع إتش إم بإجراء جراحة تجريبية تستأصل جزءاً من الدماغ اشتبه فى أنه المسبب للمشكلة.

وفى عام ١٩٥٣ بينما كان إتش إم يرقد واعياً على طاولة العمليات وقد تخدرت فروة رأسه، ثقب سكوفيل ثقبين فوق عينى المريض بالضبط. رفع الجراح مقدمة دماغ إتش إم بملعقة حديدية صغيرة بينما راحت مصاصة معدنية تمتص أغلب قرن آمون ومعه ما يحيط به من فصين صدغيين وسطيين. قلل الجراح من عدد نوبات إتش إم لكن سرعان ما اتضح أنه سلبه أيضاً ذاكرته.

وفى غضون ما تلا من خمسة عقود، تعرض إتش إم لعدد لا حصر له من التجارب ليصير أكثر المرضى دراسة فى تاريخ علم الدماغ. ومع الوضع فى الاعتبار ما أفضت إليه جراحة سكوفيل من نتيجة مروعة، افترض الجميع أن إتش إم سوف يغدو حالة فريدة استثنائية.

حطم إى بى ذلك الافتراض. فما فعله سكوفيل مع إتش إم باستخدام مصاصة معدنية فعلته الطبيعة بفيروس الهربس البسيط. وعند وضع صور الرنين المغناطيسى للدماغين جنباً إلى جنب، يتشابه الدماغان تشابهاً غريباً وإن كان ما لحق بدماغ إى بى من دمار كان أكثر شمولاً. حتى لو لم تكن على دراية بشكل الدماغ الطبيعى، سوف تجد الثقبين المتسعين المتماثلين يحدقان إليك شأنهما شأن العينين.

وكما هو الحال مع إى بى، استطاع إتش إم أن يحتفظ بالذكريات بما يكفى فقط للتفكير فيها لكن بمجرد أن ينصرف دماغه إلى شىء آخر، يعجز كلية عن استعادتها. وفى إحدى التجارب الشهيرة، سألت بريندا ميلنر Brenda Milner - عالمة نفس كندية - إتش إم أن يتذكر العدد ٥٨٤ لأطول وقت ممكن. ولكى يحتفظ بالعدد على طرف لسانه، استعمل نظاماً معقداً باح به إلى ميلنر: «المسألة سهلة. ما عليك إلا تذكر رقم ٨. حاصل جمع ٥ و٨ و٤ هو ١٧، تتذكرين ٨ وتطرحينها من ١٧، فيتبقى لك رقم ٩، وبتقسيم ٩، يصبح لديك ٥ و٤، وها هو العدد: ٥٨٤، سهلة».

سلط تركيزه على هذه العملية المعقدة لعدة دقائق. لكن حالما تشتت ذهنه، تبدد العدد من عقله. بل إنه لم يسعه أن يستحضر أن أحدهم وجه إليه سؤالاً. ومع أن العلماء كانوا يقفون على الفرق بين الذاكرة طويلة الأمد وتلك قصيرة الأمد منذ أواخر القرن التاسع عشر، فهم يمتلكون الآن دليلاً متمثلاً فى دماغ إتش إم على أن كل نوع منهما يحدث فى أجزاء مختلفة من الدماغ، وأن بدون منطقة قرن آمون لا يستطيع إتش إم أن يحول الذاكرة قصيرة المدى إلى أخرى طويلة المدى.

كما تعلم الباحثون نوعاً آخر من التذكر عن طريق دراسة إتش إم. فعلى الرغم أنه لا يستطيع أن يحدد ما تناوله فى وجبة الإفطار أو يصرح باسم رئيس البلاد الحالى، ثمة أشياء بإمكانه تذكرها. إذ اكتشفت ميلنر أن بمقدوره تعلم مهام معقدة بدون أن يعى حتى ذلك. بينت إحدى الدراسات أن إتش إم يستطيع أن يتعلم كيفية رسم نجمة من خمسة رؤوس على قطعة ورق وهو ينظر إلى انعكاسها فى المرآة. وفى كل مرة تكلف ميلنر إتش إم بالمهمة، يدعى أنه لم يقم بها قط. ومع ذلك يتحسن دماغه كل يوم فى توجيه يده للحركة بصورة عكسية. فعلى الرغم من فقدانه للذاكرة، كان يتذكر.

ورغم الاختلافات حول عدد أنظمة الذاكرة بالتحديد، يقسم العلماء الذكريات بوجه عام إلى نوعين: الذاكرة التقريرية والذاكرة غير التقريرية (أحياناً ما يشار إليهما بالذاكرة الصريحة والذاكرة الضمنية). تحوى الذاكرة التقريرية أشياء تعلم أنك تتذكرها مثل لون سيارتك أو ما جرى فى أصيل اليوم الفائت. فقد إى بى وإتش إم القدرة على تكوين ذكريات تقريرية جديدة. أما الذكريات غير التقريرية فهى أشياء تعرفها بدون التفكير فيها بعقل واع مثل كيفية ركوب الدراجة أو كيفية رسم شكل أثناء التطلع إليه فى المرآة. لا تعتمد تلك الذكريات غير الواعية على منطقة قرن آمون لتعزيزها وتخزينها. إذ تقع فى مناطق مختلفة تماماً من الدماغ. فتعلم قيادة السيارات يحدث فى قاعدة الدماغ بالمخيخ، والتعلم الإدراكى فى القشرة المخية الجديدة، وتعلم العادات فى منتصف الدماغ. وكما أوضحت حالتا إى بى وإتش إم بكل وضوح، يمكن أن يتلف جانب من الدماغ ويظل الباقى منه عاملاً كالمعتاد.

إن ما نلجأ إليه فى الغالب من استعارات لوصف الذاكرة - الصورة، التسجيل، المرآة، القرص الصلب - توحى كلها بدقة ميكانيكية وكأن الدماغ ناسخ لا تشوبه شائبة لتجاربنا. وقد اعتقد العلماء لأمد طويلة أن أدمغتنا تؤدى وظائفها مثلها مثل تسجيل مثالى، وأن حياة طويلة من الذكريات محفوظة بعيداً فى مكان ما فى العلية المخية، ولو استعصى على أحدهم العثور عليها فذلك مرجعه عدم قدرته على الدخول إليها وليس لاختفائها.

وقد ظن أحد جراحى الأعصاب الكنديين ويدعى وايلدر بينفيلد Wilder Penfield أنه أثبت تلك النظرية خلال العقد الخامس من القرن العشرين بعد أن استخدم مجسات كهربائية لتنبيه أدمغة مرضى الصرع وهم يرقدون واعين على طاولة العمليات. كان بينفيلد يحاول أن يحدد مصدر الصرع غير أنه اكتشف أن المرضى يبدءون فى وصف تجارب جلية عندما يلامس المجس مناطق معينة من الفص الصدغى. وعند معاودة لمس نفس الموضع، غالباً ما يستثير نفس النتيجة. وعليه اعتقد بينفيلد أن الدماغ يسجل كل شىء يمنحه المرء أى درجة من الانتباه الواعى، وأن هذا التسجيل دائم.

إن ما نلجأ إليه في الغالب من استعارات لوصف الذاكرة ـ الصورة، التسجيل، المرآة، القرص الصلب ـ توحي كلها بدقة ميكانيكية وكأن الدماغ ناسخ لا تشوبه شائبة لتجاربنا

يتفق أكثرية العلماء فى الوقت الحاضر أن ما استفزه بينفيلد من ذكريات غريبة أقرب إلى الأوهام والهلوسة منها إلى الذكريات بيد أن الظهور المباغت لأحداث منسية من ماضى المرء تجربة يألفها الجميع ولا شك. ومع ذلك، يقوم الدماغ بمهمة التسجيل بصورة رديئة هزيلة. فالبادى أن المآسى والإهانات تنطبع انطباعاً حاداً فى الذاكرة، وفى الغالب بدقة لا تحتمل. أما تلك الذكريات التى نظن أننا فى حاجة إليها بالفعل - كاسم أحد المعارف أو ميعاد المقابلة أو مكان مفاتيح السيارة - فتتبخر على الدوام.

حاول مايكل أندرسون Michael Anderson، باحث فى الذاكرة بجامعة أوريجون فى مدينة يوجين، أن يحسب تكلفة كل هذا التبخر. ووفقاً لعقد من دراسة «مذكرات النسيان» التى كتبها طلبة إحدى الجامعات (الوقت المستغرق فى العثور على مفاتيح السيارة مثلاً)، يقدر أندرسون أن الناس يهدرون أكثر من شهر كل عام من أجل التعويض عما نسوه من أشياء.

تتذكر إيه جيه كيف اكتشفت للمرة الأولى أن ذاكرتها ليست كذاكرة الآخرين. كانت فى الصف السابع، تذاكر دروسها استعداداً للامتحانات النهائية. «لم أكن سعيدة؛ فقد أضمرت كراهية للمدرسة»، قالت. كانت أمها تعاونها فى القيام بالواجبات المنزلية حين شرد ذهنها بعيداً. «طفقت أفكر فى السنة الفائتة، لما كنت فى الصف السادس، أفكر فى حبى لهذه السنة. ثم جعلت أكتشف أنى أتذكر تاريخاً بعينه وما كنت أفعله منذ سنة خلت». فى البداية لم تُحمل الموقف أكثر مما يحتمل. لكن بعد مضى عدة أسابيع كانت تلعب مع إحدى الصديقات، فاستحضرت أنها قضت أيضاً نفس اليوم من السنة الماضية مع نفس الصديقة.

«لكل سنة إحساس مختلف، ولكل وقت من السنة إحساس مختلف. إن ربيع ١٩٨١ يختلف كل الاختلاف عن شتاء ١٩٨١»، تقول: التواريخ بالنسبة لإيه جيه ككعكة مادلين الصغيرة التى حملت عقل مارسيل بروست على الرجوع زمنياً فى روايته تذكر الأشياء الماضية. إن مجرد ذكر التواريخ يستحث ذكرياتها لا إرادياً. «تعلم أن رائحة الأشياء تثير الذكريات القديمة، أما ذاكرتى فأعمق وأقوى من ذلك عشرة أضعاف».

اعتاد أخى أن يقول، «آه، إنها «رجل المطر»» «وكنت أجيبه قائلة: «لا، لست رجل المطر». لكنى كنت أتدبر فى قرارة نفسى، «ماذا لو كنت بحق... هل أنا مثله؟ هل



غيـــــاهب الـذاكـــــرة

ثمة علة بى؟» فكرت إيه جيه فى لحظة من اللحظات أن تقيم متجراً على المشى الخشبى القريب لتقف فيه لاعبة دور الروزنامة البشرية. سوف يدفع الناس خمسة دولارات كى يحاولوا تحدى ذاكرتها فيما يخص التواريخ. لكنها عدلت عن الفكرة. «لا أريد أن أتحول إلى بهلوان».

سوف يلوح وكأن امتلاك ذاكرة كذاكرة إيه جيه سيجعل الحياة مختلفة اختلافاً نوعياً، سيجعلها أفضل. إن ثقافتنا لا تنفك تغمرنا بمعلومات جديدة غير أننا لا نأسر أو نفهرس سوى القليل منها بهدف استرجاعها لاحقاً. ماذا يعنى أن نمتلك كل هذه المعلومات الضائعة فى متناول أيدينا؟ هل ستجعلنا أشد إقناعاً أو أشد ثقة؟ هل ستجعلنا، بمعنى ما، أذكى؟ ومع الأخذ فى الاعتبار أن التجربة هى مجموع ذكرياتنا والحكمة هى مجموع تجاربنا، لن تعنى الذاكرة الأفضل الإلمام بالمزيد عن العالم فقط، بل أيضاً المزيد عن نفس المرء. كم عدد الأفكار القيمة التى ذهبت بلا تأمل وعدد الروابط التى راحت بلا تثبت من جراء عيوب ذاكرتنا؟

إن ما تجسده إيه جيه من حلم، ألا وهو كمال الذاكرة، يراودنا منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل عندما اخترع الشاعر اليونانى سيمونيديز السيبيوسى تكنيكاً معروفاً باسم «فن الذاكرة».

كان سيمونيديز الناجى الوحيد من انهيار فاجع لسقف إحدى صالات المآدب فى إقليم ثيساليا. وحسبما روى شيشرون، الذى وصف الحادثة بعد أربعة قرون من وقوعها، كانت الجثث مشوهة بلا سبيل إلى التعرف عليها. غير أن عقل سيمونيديز استطاع أن يشيح بعينيه عن الفوضى ليبصر كل ضيف جالساً فى مقعده حول المائدة. لقد وقع على الاكتشاف المذهل المعروف باسم «منهج المكان» لو وسعك أن تحول أياً كان ما تحاول تذكره إلى صور عقلية جلية ثم تنظمها فى مساحة معمارية تخيلية تُعرف باسم «قصر الذاكرة»، يمكن أن تصبح الذكريات عملياً مستعصية على المحو.

يقال إن بيتر من مدينة رافينا، وهو قاض إيطالى معروف ومؤلف كتاب شهير عن الذاكرة فى القرن الخامس عشر، استخدم منهج المكان فى حفظ الإنجيل وجميع المبادئ القانونية و٢٠٠ خطبة من خطب شيشرون و١٠٠٠ بيت من شعر أوفيد. اعتاد فى وقت فراغه أن يعيد قراءة الكتب المخزونة فى قصور ذاكرته. «حينما غادرتُ بلدى لأقصد مدن إيطاليا كسائح، يسعنى بحق القول إنى أحمل كل ما أمتلكه»، أشار.

من العسير علينا أن نتخيل الحياة فى ثقافة ما قبل الكتب المطبوعة أو ما قبل حمل الأقلام الحبر أو الورق لتدوين الملحوظات. «فى عالم يضم كتباً قليلة تقبع فى المقام الأول بالمكتبات العامة، لا بد أن يتذكر المرء ما تعلمه لأنه لا يستطيع على الإطلاق أن يعتمد على حرية الوصول المستمر إلى مواد معينة»، تكتب مارى كاروسرز Mary Carruthers. مؤلفة كتاب الذاكرة، وهو دراسة عن دور تقنيات الذاكرة فى ثقافة العصور الوسطى. لقد ساور الناس فى العصور السحيقة والوسطى إحساس بالخشية من الذاكرة وصوروا أعظم عباقرتهم باعتبارهم أصحاب ذاكرة ممتازة. فلاهوتى القرن الثالث عشر توماس أكويناس، مثلاً، مشهور بتأليف كتاب الشامل فى اللاهوت فى عقله بالكامل وإملائه من الذاكرة. باستطاعة الفيلسوف الرومانى سينيكا الأكبر تكرار ٢٠٠٠ اسم بنفس ما لديه من ترتيب. ثمة رجل رومانى اسمه سيمبليشيس بإمكانه أن يتلو قصائد فيرجل بالعكس وكأنه يحفظها عن ظهر قلب. لقد عد الناس أيامها الذاكرة القوية واحدة من أعظم الفضائل نظراً لأنها أدمجت فى النفوس عالماً من المعرفة الخارجية. الحق أن ثمة قاسماً مشتركاً فى حيوات القديسين، ألا وهو الذاكرة الاستثنائية.

وبعد اكتشاف سيمونيديز انتظم فن الذاكرة فى مجموعة واسعة من القواعد والتعليمات على أيدى أشخاص مثل شيشرون وكوينتليان وضمن أبحاث لا عد لها ولا حصر عن الذاكرة أجراها الباحثون خلال العصور الوسطى. وعندها لم يتعلم الطلبة ما ينبغى أن يتذكروه فقط بل وتقنيات تذكره. الواقع أن هناك ثقافات عديدة تتضمن تعاليم طويلة لتدريب الذاكرة. فقد انتقل التلمود اليهودى، ومعه فن الاستذكار - تقنيات لحفظ الذكريات - شفهياً لمدة قرون. لا يزال حفظ القرآن يعتبر إنجازاً سامياً بين المسلمين الورعين. كما يسرد حكاة غرب أفريقيا التقليديون والشعراء السلافيون ملاحم هائلة من الذاكرة بالكامل.

إلا أن الكثير منا قد خضعوا لتحولات عميقة خلال الألف سنة المنصرمة. إذ استبدلنا بالتدريج ذاكرتنا الداخلية بما يشير إليه علماء النفس بالذاكرة الخارجية، وهى بنية فائقة ضخمة من دعائم تكنولوجية اخترعناها كيلا نضطر إلى تخزين المعلومات فى أدمغتنا. وبمقدورك أن تقول إننا تحولنا من تذكر كل شىء إلى تذكر أقل القليل. فلدينا صور لتسجيل تجاربنا وروزنامة لتتبع جداولنا وكتب (والآن الإنترنت) لتخزين مجموع معارفنا ومفكرات لتدوين ملحوظاتنا السريعة. ما هى إذن الآثار المحتملة لهذه المصادر الخارجية للذاكرة علينا وعلى مجتمعنا؟ وهل فقدنا شيئاً؟

ولكى تكمل إيه جيه الذكريات داخل عقلها، تخزن أيضاً مجموعة نفسية من الذكريات الخارجية. فبالإضافة إلى مذكرات مفصلة احتفظت بها منذ طفولتها، تحوز مكتبة بها ما يقرب من ألف شريط فيديو نسخته من التلفزيون وصندوقاً يحفل بتسجيلات المذياع و«مكتبة أبحاث» تتكون من ٥٠ مفكرة تزخر بحقائق وجدتها على الإنترنت وتتعلق بأحداث موجودة فى ذاكرتها. «المسألة هى أنى أريد أن أحتفظ بكل شىء»، قالت: لقد أصبحت صيانة ماضى إيه جيه الدافع الأول المحرك لحياتها. «حين أجفف شعرى فى الصباح، أتأمل فى تاريخ اليوم أياً كان. ولكى ينقضى الوقت، يمر عقلى سريعاً على ذلك اليوم خلال العشرين سنة الأخيرة مثلاً».

في عالم كان يضم كتباً قليلة تقبع في المقام الأول بالمكتبات العامة، لا بد أن يتذكر المرء ما تعلمه لأنه لا يستطيع على الإطلاق أن يعتمد على حرية الوصول المستمر إلى مواد معينة

تتتبع إيه جيه أصول ذاكرتها غير المعتادة إلى انتقال الأسرة من نيو جيرسى إلى كاليفورنيا عندما كانت فى الثامنة من عمرها. تميزت الحياة فى نيو جيرسى بالراحة والألفة فى حين بدت كاليفورنيا أجنبية غريبة. كانت تلك أول مرة تستوعب فيها أن الكبر فى السن والانتقال من مكان لآخر يعنى بالضرورة النسيان والهجران. «ولأنى أكن عظيم الكراهية للتغيير، تراءى بعدئذ وكأنى أردت أن أتشبث بكل شىء. لأنى أعلم فى النهاية أن يد التغيير سوف تطول كل شىء»، باحت.

يعتقد كيه. أنديرس إريكسون K. Anders Ericsson، أستاذ علم النفس بجامعة فلوريدا الحكومية، أن إيه جيه قد لا تختلف فى الأساس عن بقيتنا إلى هذه الدرجة. بعد الإعلان المبدئى عن حالة إيه جيه بجريدة نيوروكيس، صرح إريكسون أننا فى حاجة إلى تفسير هوس إيه جيه الاستثنائى بماضيها وليس تفسير ذاكرة فطرية استثنائية غير مسبوقة. دائماً ما يتذكر الناس أشياء يظنون فى أهميتها. فمتعصبو البيسبول ينعمون بمعرفة موسوعية عن الإحصاءات، وأساتذة الشطرنج كثيراً ما يستدعون تحركات مخادعة جرت منذ سنوات، والممثلون غالباً ما يستدعون نصوصاً بعد فترة طويلة من أدائها. لكل فرد ذاكرة لشىء ما. ويعتقد إريكسون أنه لو اهتم أحدهم بالتمسك بالماضى اهتمام إيه جيه به، سوف يغدو حفظ حياة المرء فى متناول يديه.

أنبأتُ إيه جيه بنظرية إريكسون فسادتها آيات انزعاج واضح. «أريد أن أتصل به لأصرخ فى وجهه. لو أنى قد قضيت كل هذا الوقت فى حفظ حياتى، فلا بد أنى شخصية مملة أيما ملل»، تعلن: «أنا لا أحفظ حياتى. أنا أعرفها، وهذا هو كل ما فى الأمر».

إن تذكر كل شىء يسبب الجنون لإيه جيه ويجلب لها الوحدة. «أتذكر الأحداث الجيدة مما يبث فى الارتياح. لكنى أستدعى أيضاً السيئ منها - وكل اختيار سيئ»، تقول. «الحق أنى لا أتهاون مع نفسى. هناك كل تلك المنعطفات فى الطريق، لحظات يجب أن تتخذ فيها قراراً، ثم أجد نفسى بعد مرور عشر سنوات لا أزال أوبخ نفسى عليها. لا أسامح نفسى على الكثير من الأفعال. إن ذاكرتك هى حاميك ويخالجنى شعور بأن ذاكرتى



غيـــاهـب الـذاكـــــرة

لم تقم بحمايتي. ليتني أصير إنساناً بسيطاً لمدة خمس دقائق، ليت عقلي يخلو من كل تلك التفاصيل. لقد أطلق أكثرية الناس على ما لدى «الهبة» لكني أسميه «عبئاً».

إن الهدف الأساسي من الجهاز العصبي - من أعضاء الحواس التي تمد الخلايا العصبية الغزيرة بالمعلومات بغرض ترجمتها - هو تطوير شعور بما يجرى في الحاضر وما سيطرأ في المستقبل حتى تبدر منا أفضل ردود أفعال ممكنة. تلعب أدمغتنا دوراً أساسياً كآلات تنبؤ، ولكي تقوم بمهمتها يتوجب عليها أن تنظم فوضى الذكريات المحتملة. لسنا في حاجة إلى تذكر معظم التفاصيل التي تنفذ إلى أدمغتنا بقدر ما نحن في حاجة إلى التفكير فيها.

لقد طور دانيال شاكتر Daniel Schacter، عالم النفس بجامعة هارفارد، تصنيفاً للنسيان حتى يفهرس ما يسميه بالخطايا السبعة للذاكرة. خطيئة التشتت: العازف «يو-يو ما» ينسى كماناً يقدر بـ ٥,٢ مليون دولار في المقعد الخلفي للتاكسي. معاناة ساحة القتال لا تنفك تطارد محارب حرب فيتنام ليعاني خطيئة الاستمرار. السياسي الذي ينسى كلمة تباطأت على طرف لسانه خلال حملته الانتخابية يكابد خطيئة الاعتراض. يقول شاكتر إنه على الرغم من رمينا إخفاقات الذاكرة باللعنات يومياً تقريباً، فذلك مرجعه جهلنا بفائدتها. الحقيقة هي أن كل خطيئة ما هي إلا الوجه الآخر لإحدى الفضائل، «ثمن ندفعه مقابل عمليات ووظائف تخدم ذاكرتنا من جوانب عديدة». ثمة أسباب نشوئية وجيهة تتسبب في إخفاق ذكرياتنا بتلك الطريقة. لو أننا اختزنا على الفور كل ما رنونا إليه وشممناه وسمعناه وفكرنا فيه في قاعدة البيانات الهائلة المسماة بذاكرة الأمد الطويل، سوف نغرق في بحر من معلومات لا قيمة لها.

يصف خورخي لويس بورخيس في قصته القصيرة «فيونس المتذكر» رجلاً أعجزه عدم القدرة على النسيان. فهو يتذكر كل تفاصيل حياته دون أن يسعه التفرقة بين التافه منها والمهم. لا يستطيع أن يحدد أولوياته أو يطلق الأحكام العامة. إنه «عاجز حرفياً عن تكوين الأفكار العامة النظرية». يختم بورخيس قصته ليقول: عل النسيان وليس التذكر هو جوهر ما يجعلنا بشراً. «أن تفكر، يكتب بورخيس، «هو أن تنسى». أن تهرم هو أن تنسى أيضاً. ثمة نحو خمسة ملايين أمريكي مصابون بمرض الزهايمر فيما يعاني المزيد من إعاقة إدراكية معتدلة أو درجات أقل من فقدان الذاكرة. ففي إحدى الدراسات الموسعة عندما سئل الأشخاص في العقد التاسع من العمر تذكر قائمة من ١٥ كلمة قرأها أحدهم منذ عشرين دقيقة استحضروا أقل من ٦٠٪ بينما استطاع الأشخاص في العقد الثالث تذكر ما يقرب من ٩٠٪.

ليس من المدهش إذن أن الناس تفتش منذ أمد بعيد على كيماويات قد توقف ذلك المد من النسيان. وطبقاً للفرنسيسكاني برناردو دو لافينهيتا، «تتكون الذاكرة الصناعية من نوعين: يتألف النوع الأول من الأدوية والكمادات». ولا ريب أن النوع الثاني هو فن الذاكرة الذي عده لافينهيتا أكثر أماناً وفاعلية (نظراً لأن أدوية الذاكرة لها آثار جانبية سيئة مثل «تجفيف الدماغ»). اليوم تباع عشبة الجنكة كمكمل غذائي بدون وصفة طبية أو تضاف إلى عصائر الفاكهة والمشروبات الغازية «الذكية»، حتى بدون دليل قاطع على تنشيطها للذاكرة - أو تجفيف الدماغ.

وفي غضون العقود الفائتة مدت شركات الدواء عملية التنقيب إلى آفاق جديدة. فمع تسلحهم باستيعاب أوسع لأسس الذاكرة الجزيئية، يسعون الآن إلى خلق أدوية جديدة توسع من قدرة الدماغ على التذكر. ففي خلال السنوات الأخيرة تشكلت ثلاث شركات على الأقل بإعلان صريح عن نيتها تطوير أدوية للذاكرة. وتحاول واحدة من هذه الشركات، كورتيكس فارماسوتيكال، تطوير طائفة من الجزيئات المعروفة باسم الأمباكينات «Ampakines»، التي تسهل من انتقال الجلوتاميت كناقل عصبي. إن الجلوتاميت إحدى المواد الكيميائية التنبيهية الأولية التي تنتقل عبر المشابك العصبية بين الخلايا العصبية. ومن خلال توسيع تأثيرها، ترجو كورتيكس أن تحسن قدرة الدماغ الضمنية على تشكيل الذكريات واسترجاعها. حين أعطى الباحثون الأمباكين لفئران في منتصف العمر، استطاع أن يعكس كلية التراجع المتعلق بالتقدم في السن في الآلية الخلوية للذاكرة.

لن تلبث أدوية مثل الأمباكينات أن تصل إلى الأسواق؛ وعندئذ قد تحمل تأثيراً مهولاً على المجتمع. وعلى الرغم من أن شركات الأدوية تفتش عن العلاج لدرء شر الزهايمر ومحاربة تراجع القوى الذهنية، يبدو من المحتوم أن تنتهي تلك الحبوب إلى أيدي طلبة يذاكرون دروسهم في اللحظات الأخيرة وربما العديد ممن يريدون فقط تحسين وظائف أدمغتهم. ثمة بالفعل منبهات نفسية مصممة لعلاج اضطراب قصور الانتباه وفرط الحركة مثل الأديرال والريتالين ويستخدمها واحد من كل طالب في بعض الكليات «كمعينات على الاستذكار» في محاولة لزيادة تركيزهم وتحسين ذكرياتهم.

تطرح كل هذه الظروف قضايا أخلاقية محيرة. هل نختار العيش في مجتمع يحوى أناساً ذوي ذاكرة أفضل بكثير؟ لكن ما معنى أن ينال المرء ذاكرة أفضل؟ هل معناه أن يستحضر المرء الأحداث كما وقعت بالضبط، أحداثاً عارية من مراجعات ومبالغات تقوم بها أدمغتنا بصورة طبيعية؟ هل معناه الفوز بذاكرة تنسى الصدمات؟ هل معناه نيل ذاكرة تتذكر ما نود تذكره فقط لا غير؟ هل معناه أن نتحول إلى إيه جيه؟

أردت أن أعاين ذاكرة إي بي غير التقريرية المجردة من الوعي على الطبيعة، لذا طلبت منه أن يتمشى معي في أرجاء الحي. فقال، «لا، لا أريد». لذا انتظرت ثم طلبت منه بعد دقيقتين فوافق هذه المرة. مرقنا من الباب الأمامي لتلفنا شمس الأصيل المرتفعة ثم انعطفنا يميناً. سألت إي بي عن سبب عدم اتجاهنا يساراً.

«أفضل فقط ألا أسلك ذلك الطريق. هذا هو الطريق الذي أمشي فيه. لا أعلم السبب»، أنهى إلي.

لو سألته أن يرسم خريطة لطريق يقطعه ثلاث مرات على الأقل يومياً، لن يتمكن من رسمه قط. بل إنه لا يعلم عنوانه أو اتجاه المحيط (وهو أمر بعيد الاحتمال لشخص من سان دييجو). لكن بعد سنوات عديدة من قطع نفس التمشية، حفرت الرحلة نفسها في لا وعيه. تدعه زوجته بيفرلي يخرج بمفرده الآن رغم أنه سوف يتوه تماماً مع أي انعطافة خاطئة. أحياناً ما يرجع من مسيرته بأشياء التقطها في الطريق: كومة من الأحجار المستديرة، جرو، محفظة أحدهم. لا يسعه أبداً تفسير وصولها إلى حوزته.

«يحبه الجيران حباً جماً؛ فهو يتقدم إليهم ويبدأ في تجاذب أطراف الحديث معهم»، تتفوه بيفرلي. وعلى الرغم من ظنه أنه يقابلهم للمرة الأولى، علمته العادة أنهم أشخاص مريحون، وقد وجد مشاعر الراحة سبباً وجيهاً للتوقف وإلقاء التحية.

نعبر الشارع فألفي نفسي بمفردي مع إي بي للمرة الأولى. لا يعلم من أنا أو ماذا أفعل بجواره وإن خالجه على ما يبدو شعور بأني بصحبته لسبب وجيه. لقد ابتلي بكابوس وجودي مطلق، أصيب بعمى عن الحقيقة التي يعيش فيها. تملكني باعث على أن أساعده على الهرب، على الأقل للحظة. أردت أن أمسك بذراعه وأهزه. «أنت مصاب باضطراب نادر في الذاكرة»، رغبت في أن أصيح به. «آخر خمسين سنة ضائعة من حياتك وخلال أقل من دقيقة سوف تنسى أن هذه المحادثة قد حدثت». أتخيل ما سيحيق به من رعب صرف، الوضوح الخاطف، الفراغ المذهل الذي سوف ينفتح أمام عينيه ثم ينغلق بنفس السرعة. ثم السيارة المارة أو الطائر المغرد الذي سوف يعيده بسرعة إلى فقاعة النسيان.

نستدير لنعود أدراجنا إلى شارع لا يتذكر اسمه، نجتاز جيراناً لا يتعرف عليهم وهم يلوحون بأياديهم، باتجاه بيت لا يعرف عنه شيئاً. وقفت أمام المنزل سيارة ذات نوافذ ملونة بلون خفيف. نستدير لنتطلع إلى انعكاس صورتينا فأسأل إي بي عما يراه.

«رجل عجوز»، يلفظ. «ذلك كل شيء». ■

ليس من المدهش إذن أن الناس تفتش منذ أمد بعيد عن كيماويات قد توقف ذلك المد من النسيان

هـــؤلاء الأقبــاط "المصريون"

س. هـ. ليـــــــــــدر

■■ أشعر بسحر لا يُقاوم للقرية المصرية. وقد أُتيحت لى الإقامة فى العديد من القرى والعزب البعيدة، وكلما زاد عدد من رأيتهم من الفلاحين ازداد تقديرى لسحر أدبهم البسيط، وكرم ضيافتهم غير المفتعل، وذلك النوع من السماحة المحلية، حتى بين عامة الناس، الذى يشع فى كل مناحى الحياة على قدر من البدائية تبدو وكأنها تعود إلى الأيام الأولى التالية لخروج الإنسان من الجنة كى يأكل من عَرَق جبينه طوال أيام حياته.

فى السنوات القليلة الماضية بدلت زيادة الثروة لدى طبقات أصحاب الأطيان تلك الحياة البدائية فى بعض القرى، ومع عودة الكثير من الأراضى إلى أيدى من كانت قد صودرت منهم عند اعتلاء الحكام الطغاة العرش، وآخرهم من حملوا لقب الخديو، وأعلنوا أنفسهم أصحاب البلاد كلها. والكثير من تلك الثروة فى أيدى الأقباط، الذين انتعشت أحوالهم بشكل كبير فى ظل أمان الحكم البريطانى.

لدى عدد قليل من الأقباط الأثرياء رغبة صادقة فى زيادة أملاكهم وتحسينها، وحكم المناطق الخاضعة لهم بطريقة تمكنهم من اكتساب تقدير الكثيرين من التابعين لهم وحبهم.

وليس هناك ما يمكن أن يؤدى إلى مصلحة مصر الدائمة على نحو مؤكد مثل الحماس للزراعة الماهرة التى يبديها هؤلاء. فهم يشجعون دراسة الزراعة العلمية التى تزيد بواسطتها إنتاجية بلدهم زيادة ضخمة؛ وعن طريق إدخال كل نوع من الآلات الحديثة، يسرعون فى الوقت نفسه فى جعل

أبناء الفراعنة المحدثون
دراسة لأخلاق أقباط مصر وعاداتهم
س. هـ. ليدر
ترجمة: أحمد محمود
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٨



أراضيهم الشاسعة، التى ما زالت تعتمد حتى الآن على فيضان النيل فى زراعة محصول واحد، تعمل بكامل قدرتها الزراعية، إذ يجعلها الرى الاصطناعى الآن تغل سلسلة من المحاصيل طوال العام.

فى الدلتا، وخاصةً من خلال أنظمة تسوية التربة الكبيرة، يستصلح أصحاب الأطيان هؤلاء مساحات ضخمة من الصحراء الخالصة والأراضى الملحية، ويجعلونها تبتسم تحت القمح المتمايل الذى ينبت حيثما كانت السيطرة فى يوم من الأيام للبحر، أو كانت الصحراء الحارة ترفض أن تنبت ورقة خضراء واحدة.

الوجه البحرى هبة النيل، بالمعنى الحقيقى تماماً للكلمة. فقد كان هناك وقت كانت الدلتا فيه خليجاً من خلجان البحر المتوسط. وقبل أن تملؤها رواسب النيل، كانت أمواج البحر ترتطم بصخور جبل المقطم الشهير الجيرية وراء القاهرة.

بالإضافة إلى المساحات الكبيرة من الأراضى التى جرى استصلاحها، ما زال فى الدلتا مليون ونصف المليون فدان بور فى انتظار تخليصها من الملح الذى تخللها وجعلها عاقراً لفترات طويلة. وتدل التجارب على أنه من الممكن زراعتها، وحينذاك لن تُزرع أرزاً فحسب، بل كذلك قطناً.

بصورة عامة، وطبقاً لاستنتاجات الجيولوجيين، قد يُقال: إن النهر الجبار منذ بدء العصر الحديث جعل من نفسه خادماً كريماً للبشر بعدم توقفه عن مهمة إبعاد البحر المتوسط برواسبه الغنية؛ ففى العصور القديمة زاد حجم الهبة مع زيادة عدد السكان الذين ينعمون بها؛ وها هو التاريخ يعيد نفسه فى العصر الحالى.

كان ما قام به الإنسان لاستكمال دور النهر دوراً مهماً باستمرار. وقد يكون هناك شك فيما إذا كانت المهارة المستخدمة اليوم تتجاوز كثيراً مهارة المصريين الأوائل الذين كرسوا جهودهم لتطوير هبة النهر المقدس الغالية، وهناك الكثير من الأدلة على أنهم فهموا علم الرى، مثلما فهموا علم البناء بالخشب والطوب والحجر.

لا يحتاج الأمر إلا إلى نظرة سريعة على أرقام الزيادة المدهشة فى عدد سكان مصر. فى ظل ظروفها الحالية من العدل والأمان. كى يبين مقدار ضرورة عمل الناس، كذلك الذى تحدثت عنه، لدعم الحياة البشرية، ولو باستكمال أنشطة الحكومة، عن طريق استصلاح الأراضى بواسطة أنظمة الرى والصرف الضخمة.

لا يدرك أحد أنه بينما كان عدد سكان مصر منذ حوالى سبعين سنة ما يقرب من مليونين، فهو حالياً حوالى عشرة ملايين، وأن الجزء الأكبر من تلك الزيادة تم تحت الحكم البريطانى الذى تعود بدايته إلى عام ١٨٨٢.

لم يعد عمل السخرة



الروائح هنا ليست نسائم الريف الإنجليزى التى يصعب تحديدها، ولكنها تحتضننا بشكل كامل ودافئ. فقد تحولت الأرض إلى فردوس من العطور الرقيقة

يحكم على عشرات الآلاف من الرجال بالعبودية التى ثبت أنها طريق سريع للموت. وإنه تفكير غريب أن يُنشئ الخديو من أجل سيدة رفيعة الشأن ما زالت على قيد الحياة طريقًا، من القاهرة إلى الأهرام. بسرعة وحشية أدت إلى التضحية بآلاف الأرواح خلال أسبوعين أو ثلاثة.

هناك أعمال كثيرة فى مصر جرى الحصول عليها بمثل هذا الثمن من الألم والدم البشريين. ففى زمن السخرة، وهو قريب نسبيًا، كانت القرى تردد صدى صرخات الأمهات اللائى أصابهن الجنود لاختطاف أبنائهن من بين أيديهن، إما للسخرة أو للجهادية. فقد كانت تلك الأمهات المسكينات يعرفن جيدًا أن فرص رؤية أحبائهن مرة أخرى وقد عادوا من أى من الخدمتين أقل من ضعيفة.

فى عهد اللورد كرومر انتهت السخرة، واليوم لا تسبب الخدمة فى الجيش أية ولولة؛ فالأم والزوجة الشابة تتطلعان إلى رؤية الشاب مرة أخرى، قويًا ومعافى، وقد اكتسب خبرة من الأسفار، ولديه الكثير من الأشياء التى يرويها، بل وفى جيبه القليل من المال.

بعد أن تلقينا دعوة من إقطاعى قبطى لزيارة أملاكه، أصبحنا طبقًا للعادة الشرقية فى مسئولية مضيفنا، منذ خروجنا من سكننا فى القاهرة إلى اللحظة التى يعيدنا فيها إلى العتبة ذاتها. وأعرف أنه لا ينبغى لى إهانة المضيف المصرى بعرض دفع أجرة سفرى بالسكة الحديد، وليس هناك ما أواسى نفسى به فى الخضوع لمثل هذه العادة غير الإنجليزية إلا بالوعد الذى قطعه هو على نفسه لى بأن يزورنى فى بيتى بإنجلترا، حيث سيكون من اللائق أن أبدى له قدرًا مساويًا من التقدير والاهتمام.

عندما وصلنا إلى المحطة الريفية استقبلنا العديد من الخدم بتشكيلة غريبة من الجمال والبغال والحمير لتركبها مجموعتنا للذهاب إلى القرية النائية، وكانت السلامات والتحيات بيننا وبين الأشخاص الذين تجمعوا لاستقبالنا مفعمة بالمجاملة الودية على كل الجوانب، وكنا جميعًا ندعو ببركات السلام، مع التمنيات بيوم مشرق وسعيد لبعضنا البعض.

كان صباحًا رائعًا فى شهر يناير، حيث شتتت الشمس برد الليل (إذ كان قد خرج للتو من صقيع حقيقى) وشبورة الصباح الباكر البيضاء.

بعد الكثير من التأخير، وهو أمر معروفة به مصر عند من هم على علم بعاداتها التى تنم عن عدم الاكتراث، بدأ موكبنا المسير، وبعد أن غادرنا المدينة الصغيرة أصبحنا بعد وقت قصير نسير فى صف واحد طويل على جسر الترعة، وهو تقريبًا النوع الوحيد من الطرق المعروف فى الريف.

كم كان الأمر كله مثيرًا، الهواء الجاف الذى تدفئه الشمس، والسماء الزرقاء، والألوان الحية وقد مست ذلك كله لمعة ذهبية خفيفة غريبة عن أرض النيل. والحقول خضراء بما فيها من برسيم وفول يملأ الهواء بتلك الرائحة اللذيذة التى تتحدث برقة إلى الرجل الإنجليزى عن أيام الصيف الدافئة الأولى فى الوطن.

الروائح هنا ليست نسائم الريف الإنجليزى التى يصعب تحديدها، ولكنها تحتضننا بشكل كامل ودافئ. فقد تحولت الأرض إلى فردوس من العطور الرقيقة. إننا نأخذ نفسًا عميقًا؛ فالهواء ليس لذيذًا فحسب، بل هو زاخر بالقوى المنعشة المانحة للصحة، مع إيحاءات بالشباب الدائم الذى يتضاءل فيه الحذر ويصبح الإنسان حرًا لا يقيده شىء.

حياة الطيور بجوار المياه ساحرة. فطائر الرفراف، الذى لا يعرف روعة ألوانه ولمعانه من لم يره وهو يتحرك بسرعة من مكان لمكان فى ضوء الشمس، لا يبدى أدنى أثر من الخوف من الإنسان. وقد رأيت عشرين طائرًا من هذه الطيور تطير مسرعة حول إحدى الترع. وفى مصر لا يحدث قط أن يزعج الأولاد، صغارًا أو كبارًا، مباهج الطيور.

يطير كذلك البوم الصغير من على الضفاف ويحط عليها، ناسيًا على ما يبدو عادات الليل الخاصة بنوعه؛ أو إذا اختار النوم، فإننا نمر عليه وهو قابع فوق الغصون العارية لبعض الأشجار، حيث يعشش أزواجًا.

القُبَّرة موجودة هنا، ولها أغنية قصيرة خاصة بها، بينما الطيور كلها تقريبًا صامتة؛ وهناك كذلك أبو فصادة كثير الحركة. والهدهد الجميل أليف كحمام ميدان سان ماركو «بفينيسيا»، بينما تطير بقع صغيرة ذات ألوان حية هنا وهناك كأنها زهور متحركة.

أحد ملامح الطبيعة المصرية هو موكب الأهالى بجوار المجارى المائية، الرجال بجلابيبهم القطنية الزرقاء، والنساء ملفوفات بلون أسود مغبر، وهو الموكب الذى لا تبدو له نهاية منذ طلوع الشمس حتى مغيبها.

لأننا راكبون، فالعرف يقضى بأن نلقى نحن السلام على من يسيرون، ونتلقى فى المقابل التحيات والابتسامات من المارة.

نبتعد بعد قليل عن الترعة ونسير فى طرق وسط الحقول صنعها ما لا يحصى من الأقدام التى مرت عليها.

هناك سوق تُقام اليوم، فى أقرب بلدة؛ وعندما اقتربنا منها قابلتنا أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال، يقودون جميعًا الحيوانات، جمالاً وأبقارًا وحميرًا وماعز وخرافًا، وفى بعض الأحيان كانت الحملان الصغيرة محمولة فوق أكتاف الراعى، أو فى حضنه، بالمعنى الحرفى للكلمة.

على الجانب كان هناك عدد من الشباب فى طريقهم إلى السوق توقفوا ليلعبوا ألعاب الكلمات التى يجدون متعة فيها وتدفعهم إلى نوبات خافتة من المرح.

هناك كذلك مجموعة من تلاميذ المدارس خرجوا من دروسهم الصباحية يلعبون لعبة قديمة جدًا تشبه الروندرز. كان أحد الصغار قد تجرد من ملابسه كلها، وقد سخر منه رفاقه لأن إفرنجيًا شاهده عريانًا. أما هو فقد رد عليهم بسرعة قائلاً: «سوف يظن أننى عفريت النهار». وهو عفريت مألوف فى وادى النيل.

فى أحد الحقول كان فلاح يقود أحد المحاريث البدائية الذى يجره ثور، بينما يغنى أغنية قديمة جدًا بصوت رتيب لطيف عن الأرض، عرفت كلماتها فيما بعد من عامل آخر فى الحقول. وهذه ترجمة بتصرف شديد لها:

الشمس دافئة،
ومياه الفيضان تجرى؛
والبذور التى بذرتها فى أمان.
سوف تُحصد عما قريب،
وسوف تقفز الحملان الصغيرة،
وسوف يُحمل الحصاد إلى البيت.
سوف ينمو البطيخ فى الرمل الرطب،
وسوف يتدلى الخيار الأخضر من الغصن،
والعنب والخوخ والرمان،
سوف يبهج الأيام عندما ينخفض الماء.

تخلق الأصوات الصادرة من الحقول التى تضيئها الشمس فى مصر انطباعًا بالسعادة الطبيعية تختلف عن تلك التى فى أى بلد آخر. هل هى خوار الماشية الراضية فى هذا الوقت من السنة الذى ينمو فيه البرسيم، أم ضحكات وصيحات الأطفال الراقصين الذين يرعونها، أم زقزقة الطيور، التى تعطى للنشيد العظيم نغمته الخاصة؟! لا أدرى، ولكن يبدو أن الإنسان يستمع هنا إلى أغنية شديدة القِدَم خاصة بالحياة الفتية المائجة فى الجنة الأولى قبل أن تغيب الشمس فى يوم من الأيام.

يرون فى مصر أن من حق كل حيوان الحصول على وجبة من البرسيم، الذى له اسم معناه «طعم الربيع». وينادى عليه الرجل الذى يبيعه فى شوارع القاهرة لتأكله الخيل والحمير التى تؤجر هناك. فالحوذية يطعمون به دوابهم كلما أتيح لهم ذلك، وقمامة البرسيم الخضراء أمر تتميز به المدينة الشرقية ويتذكره زوارها جميعًا. ويخبرنا مضيفنا أن خيل المدينة تُرسل جميعها بالقطار إلى الريف كل عام من أجل «طعم الربيع»؛ والواقع أننا أحضرنا معنا هذه المرة اثنين أو ثلاثة من الحيوانات.

لا يمكنك بالطبع أن تطلق عددًا من الحيوانات فى حقل البرسيم لتقتات.

فى زمن السخرة، وهو قريب نسبيًا، كانت القرى تردد صدى صرخات الأمهات اللائى أصابهن الجنود لاختطاف أبنائهن من بين أيديهن، إما للسخرة أو للجهادية



فكل حيوان، سواء أكان عنزة أم جاموسة، يُقيد على حافة الحقل، حيث يختلف طول القيد باختلاف كمية البرسيم المسموح له بأكلها فى وقت معين.

مر موكبنا خلال قريتين أو ثلاث قرى، حيث اضطررنا للمرور صفًا واحدًا فى الممرات الضيقة. بُنيت الأكواخ بالطوب اللبن المصنوع بطمى جاءوا به من ضفاف النيل، ولها أسطح مستوية غالبًا ما تغطيها أعواد الذرة الشامى التى تُستخدم وقودًا.

الأكواخ بلا نوافذ؛ ولكن بما أن الأشياء جميعها التى تحب الشمس موجودة خارجها، فإن المرء يرى حياة القرية كلها تمضى فى المساحات الصغيرة المفتوحة.

هنا بعض النسوة يخضضن اللبن للحصول على الزبد، حيث يدفع اللبن من جانب إلى آخر داخل قربة من جلد الماعز معلقة فى سيبية من البامبو ومجموعة من النساء والفتيات جالسات حولهن لمناقشة العملية بالطبع.

وهناك أم تجلس فى الشمس وقد استند ظهرها إلى جدار كوخها ترضع صغيرها. وتخرج نساء أخريات من النهر حاملات البلاليص فوق رءوسهن. والنساء جميعًا ملفوفات بالرداء المصرى الأسود غير المناسب إلى حد كبير لأن الطرقات جميعها ترابية؛ وعندما نظهر يغطين وجوههن إلى أن يمر الرجال من جماعتنا.

من غير اللائق إلى أقصى حد أن يخاطب الرجال النساء، ولكن زوجتى كانت فى الغالب فى آخر الركب كى يمكنها التمتع بتحيتهن. وكن أمامها يسقطن الأغطية تمامًا عن وجوههن، ويبتسمن وهن يلقين كل أنواع التحيات والتمنيات الطيبة. ألن تتوقف وتشرب من لبنهن؟! أيمكن أن يقدمن لها طعامًا؟! ولأنه سبقت لها زيارة الجزائر، فقد تعرفت على نوع من التحية يستخدمه العرب بصورة عامة هناك، ولكن لا يستعمله فى مصر سوى «النساء» صباح الخير.

سوف يُدهش السائح العادى الذى يزور مصر حين يعلم أن كلمة «بقشيش» لا تُسمع أبدًا خارج المنطقة الأثرية، مهما كان فقر الناس. فالواقع أنهم حريصون فى كل مكان على ألا يأخذوا، بل على أن يعطوا أفضل ما لديهم من أشياء متواضعة للزائر، الذى هو ضيف الكل طبقًا للتقاليد القديمة.

بما أنه وقت الظهيرة، فالمعتاد فى مثل هذه الساعة أن تكون هناك مجموعة من الرجال الذين عادوا من الحقول ويستريحون فى «خضرة» القرية. ويبدو أن كون الأرض ليست خضراء، بل رمادية متربة، ليس له أثر على أنشطة ذلك السرب الكبير من الإوز جميل المنظر الذى يرعى عليها فكان لذلك نتيجة طيبة.

ويجد الفلاح متعة فى الحديث، شأنه فى ذلك شأن فئات الرجال كافة فى الشرق، وتسمح أشد قواعد الأدب صرامة للرجال كافة بأن يتجمعوا حيثما يجرى الحديث.

ومن الطبيعى أن تنتشر أخبار اليوم شفاهةً. ولن يكون أى رجل حظى بميزة معرفة القراءة والكتابة من الفظاظة بحيث يحرم الأغلبية العظمى من جيرانه، الذين لا يعرفون القراءة، من الاستفادة من هبته التى يُحسد عليها. ويتوقف عابر السبيل باستمرار ويجلس بهدوء بالقرب من جماعة الرجال الذين يتحدثون، ولا يتبرم أحد من وجوده أبدًا أو يستاء.

قواعد الأدب الشرقية، وهى فى الغالب قديمة قدم الزمان، مفهومة فهمًا جيدًا بحيث نادرًا ما يكون هناك شىء غير لائق فى مثل هذه التجمعات غير المتعمدة. فالتربية الطيبة التى تمنع الرجل من أن يخاطب على نحو مباشر رجلاً له حق معترف به من الاحترام الأكبر، تفرض كذلك على الرجل ذى المكانة الأفضل المعاملة الرقيقة لرفيقه الأدنى منه مكانة. فليس من المقبول استغلال المكانة الرفيعة من حيث التعليم أو الثروة على نحو لا يليق؛ وهناك إجماع على استهجان صخب الصوت وفظاظة السلوك بالنسبة للرجال كافة، ولهذا السبب ليس هناك من يصفر بفمه فى الشرق.

تأدب مصر أعمق بكثير من أى نوع من مراعاة الرسميات. وقد قرأت عن راهب قبطى عجوز كان يتبع قواعد غاية فى الصرامة فى مأكله، غير أنه كان يأكل فى وجود الضيوف على نحو يخالف تلك القواعد حين يرى أن ذلك يرضيهم.

والأدب الذى على هذا النحو هو ما يوفر كل الراحة والاطمئنان فى الوقت الحالى للزائر الأجنبى الموجود فى مجتمع غريب عنه، الأمر الذى يخلق المتعة الاجتماعية. وبهذه الطريقة فالتعدى على الآداب أمر مستحيل، ذلك أنه مهما يكن ما فعله الزائر بغض النظر عن تعارضه مع عادة البلد فهو مغتفر دون أية إشارة. وإذا قدّم أى اعتذار فهو يُقابل بابتسامة رقيقة وكلمات من قبيل «نحن نعرف أن ما فعلته هو من باب الأدب فى بلدكم». المرة الوحيدة التى عرفت فيها أن زائرًا إنجليزيًا تسبب فى إساءة بالغة حين أصرت سيدة بعد حضورها قداسًا قبطيًا على شراء الصنوج التى استعملت فيه لتكون تذكارًا. ومن حسن الحظ أن الأدب الذى سمح للسيدة بأن تتصرف بالطريقة التى تصرفت بها كوفئ بتدخل رجل أدرك طبيعة الجرح الذى أحدثته دون قصد، واستعيدت ممتلكات الكنيسة.

الفلاح كائن فضولى، كحال كل من يحب الثرثرة دائمًا. مرات ومرات كان الخدم يتساءلون بصوت منخفض وبإيجاز طوال الرحلة عمن يكونون هؤلاء الأغراب! لماذا يزورون جزءًا من البلاد لا يذهب إليه السياح أبدًا؛ وكم من الوقت سيمكثون؛ وأهم شىء، هل للسيد أية علاقة بالحكومة؟

تنطلق الأخبار فى كل الاتجاهات بتلك الوسائل السحرية المعروفة فى الشرق فحسب. وكما فى الأزمنة التوراتية، أرسل كل من المراقب الواقف على سطح الدار والحارس الذى فى الحقول القائم على تله الترابى الإشارات.

وأخيرًا ها نحن نرى على البعد، عبر الحقول الزمردية، القرية التى سنقيم فيها. إنها مثل القرى جميعًا، حشد بديع من الأكواخ الطينية بنى على أرض ارتفعت قليلاً عما حولها اتقاءً لفيضان النيل. وتبرز فيها مئذنة المسجد الرشيقة، والدار البيضاء الكبيرة، أو القصر، الذى نحن ذاهبون إليه. والقباب الصغيرة التى تميز الكنيسة القبطية. وفى أى بلد آخر كانت القاذورات المحيطة بالقرية ستصبح أمرًا لا يمكن احتماله. فإحدى عجائب مصر أن الشمس تُصلح كل شىء.

فى حوليات مصر القديمة بالهيروغليفية، كثيرًا ما يرد ذكر الدور المميزة عن المساكن العادية بلقب «الدار البيضاء». وكانت خزانة الفرعون تسمى «الدار البيضاء المزدوجة». والشىء نفسه قائم الآن. فالعدد الأكبر من مبانى الحكومة المصرية طُلى بالجير الأبيض ويمكن للمسافر تمييزها عن بعد. ومسكن كل مصرى ذى مكانة فى البلد طُليت جدرانه باللون الأبيض. والآن، وبما أنه ليس هناك ما يدعو إلى إخفاء الكنائس القبطية، فهى تُطلى باللون الأبيض كما فى الماضى. وحتى تلك الكنائس الصغيرة التى يؤمها الكثير من الأقباط الذين اجتذبتهم البعثة التبشيرية الأمريكية إلى المذهب المشيخانى تبرز ببياضها الناصع بين مساكن الناس بلونها الطينى الكالح.

عندما وصلنا إلى الدار قوبلنا بأدب يبعث على السرور من مضيفنا الذى قدمنا إلى ناظر أملاكه، وإلى خدمه المهمين الآخرين، الذين كرسوا جميعًا جهدهم منذ تلك اللحظة لراحتنا والاحتفاء بنا.

من اللافت للانتباه أن نجد أن هذه الدار رغم أن تاريخ بنائها يعود فقط إلى الأيام الأولى للاحتلال البريطانى الذى وفر الأمن والكثير من الثروة التى قامت عليها أملاك صاحبها، فمخططها يتطابق تطابقًا شديدًا مع مخطط المساكن المصرية القديمة التى على القدر نفسه من الأهمية.

فالطوب اللبن الذى ورد ذكره فى سفر الخروج هو المادة التى بُنيت بها، والفناء الداخلى محاط بغُرف تُستخدم لاستقبال الضيوف، وكمندرة، ولإقامة أهل الدار وكمخازن، وكل ذلك يشبه إلى حد كبير ما كان فى تلك الأيام.



**الفلاح كائن فضولى،
كحال كل من يحب الثرثرة دائماً.
مرات ومرات كان الخدم يتساءلون بصوت منخفض
وبإيجاز طوال الرحلة عمن
يكونون هؤلاء الأغراب!**

يؤدى هذا الفناء إلى الورش، ومكاتب الدائرة، وغرف نوم الخدم، والمطابخ، ومخازن الكراكيب، بل واسطبلات تلك الحيوانات التى تستخدمها الأسرة باستمرار. وينزل الضيف من على دابته فى الفناء. والخدم الذين يسرعون لمساعدته على قدر كبير من الأدب، وهم يلقون عليه التحيات المعبرة التى يقتضيها العُرف.

وتشبه أبواب الفناء المنطوية ذات المزاليج الخشبية إلى حد كبير أبواب العصور القديمة. وكذلك أبراج الحمام القمعية المرتفعة القائمة على جانبى المدخل. وجرى تقوية الأبواب بصفائح حديدية قد تذكرنا بالطريقة التى كانت تُجلَّد بها أبواب معابد الفرعون بالذهب أو البرونز. حيث كان الأعداء الأجانب يسرقونها دون احترام للآلهة.

أبراج الحمام ذات أهمية كبيرة. فالحمام مكوِّن على قدر كبير من الأهمية من مكونات الطعام فى أنحاء البلاد كافة. ولا شك فى أن أصل الأبراج، الذى يعود إلى أزمنة بعيدة، هو معرفة أن الحمام فى هذا المناخ الحار يحب الاختفاء كى ينام خلال جزء من النهار فى أى جره أو بلاص بارد يجده. وتُبنى هذه الأبراج القمعية بالطين وقد لُصقت فيها الجرار القديمة. ولا يفكر أحد فى شراء الحمام فى مصر؛ فتوفير هذه الملاذات الباردة يكفى باستمرار لاجتذاب العدد الذى يمكن إعالته بهذه الطريقة. ولا يزعج أحد الأبراج، حتى وإن كان ذلك لتنظيفها، اللهم إلا إذا كان الغرض هو استخراج «الزبل» ذى القيمة الكبيرة. إلا أن ما يميز الحمام هو أنه لا يظهر عليه أى أثر للتراب والأوساخ الموجودة فى محيطه. وعندما يخرج الحمام قرب الغروب ويحلق حول المكان، ويلحق ضوء الشمس الذهبى، يبدو أن هذا المشهد هو الذى أوحى بذلك البيت الشاعرى من المزامير «إذا اضطجعتم بين الحظائر فأجنحة حمامة مغشاة بفضة وريشها بصفرة الذهب».

أبدى المصرى القديم ذوقاً عظيماً فى الزخرفة الداخلية لداره، فقد استُخدمت الزخارف التطبيقية على نحو كبير، وكانت الجدران كلها تحمل الزخارف والرسومات، وكان الأثاث مزخرفاً. وتخلو الدار الريفية الحديثة، كتلك التى نزورها، فى العادة من الزخارف الجدارية من أى نوع، حيث تُركت الجدران بالملاط الخشن. أما الأثاث فقليل جداً وبشع، أما أغطية الأرائك، وهى فى بعض الأحيان من قماش جيد، والسجاد والأكلمة فهى بصورة عامة ذات قيمة كبيرة. إلا أن النقطة المهمة بالنسبة لمن يعتقدون أن الأقباط ينحدرون مباشرة من نسل شعب الفراعنة هى أن يروا كيف أنه مع عودة الرفاهية ينمو حب غير عادى لزخرفة الدور على نحو معقد. وأعرف العديد من الدور القبطية التى أُنفق عليها قدر كبير من المال فى زخرفة الغرف الرئيسية كلها. والواقع أن المهارة والذوق القديمين هما الأمران المفتقدان فى تلك المحاولات المكلفة لتزيين البيت. ومن المأمول أنه نتيجة للرعاية التى توليها الحكومة لتعليم الحرف اليدوية فى المدارس الفنية الممتازة سوف يتضح أن المواهب القديمة كامنة فحسب ولم تضع تماماً.

من جانب الفلاحين، فإن المحاولات الوحيدة فى أى نوع من الزخرفة هى تلك الرسومات البدائية الموجودة حول مداخل الأكواخ لبيان أن أحد السكان أدى الحج. فإذا كان هذا الرجل مسلماً فإن رحلته إلى مكة تمنحه لقب «حاج»، ويستعد أصدقاؤه لعودته المباركة برسم صور بشعة للجمال والقطارات والسفن المفترض أنه سافر بها على جدار داره حول المدخل.

ولكن لا بد أن نتذكر أن رحلات الحج المقدسة فى الشرق لا تقتصر على المسلمين. فعلى الأقباط كذلك أن يسعوا لزيارة القدس، وإلى الاستحمام فى نهر الأردن. وفى مصر يتبع كل منهما دون أن يدرى عادة من عادات القدماء؛ ذلك أن الحج إلى أحد المعابد كان فرضاً واجباً ومغامرة مقدسة؛ وكان يُصوَّر كذلك على المنازل.

حين كان الضيوف يأتون فى الماضى كان يقدم لهم قدح صغير من الخمر وباقة صغيرة من الزهور. والآن هناك فنجان القهوة الذى لا بد منه والسيجارة. والقبطى الحديث جداً الذى اكتسب خبرة من الأسفار هو الذى يتخلى عن هذه العادة الشائعة بين المسلمين والمسيحيين على السواء، ويأمر بإحضار قارورة الويسكى والسيفون.

ينبغى أن يغار الأقباط من اتباع عادة شرب القهوة، حيث يشير التراث إلى أن فضل اكتشافها يعود إلى راهب قبطى؛ فقد قادته تجاربه للعثور على شىء يمكنه من البقاء مستيقظاً من أجل صلواته الطويلة بالليل إلى تقرير أن حبوب البن هى ما يبحث عنه على وجه الدقة.

ليس من الأدب تقديم فنجان ممتلئ لآخره بالقهوة، ونادراً ما رأيت فنجاناً ثانياً يقدَّم؛ وقيل لى إن عرض فنجان ثالث يفهم على أنه إهانة متعمدة. «الثالث للسيف» كما يُقال.

مضيفنا من الطراز القديم، ولذلك ارتشفنا قهوتنا على الجانب المشمس من الفناء، حيث وضعت المقاعد وبثت السجاجيد من أجلنا، بينما الحياة فى المعقل الإقطاعى تستمر حولنا لا يقطعها شىء.

توجد وسط الفناء شجرة جميز نشرت فروعها التى تقف عليها أعداد من الطيور التى تزقزق. جلست فى ظلها مجموعة أو اثنتان من أطفال الخدم الذين يحملقون فى الضيوف ويتبادلون التعليقات التى تبعث على الضحك بخصوصنا. وقد أضفت ملابسهم ذات الألوان الزاهية نبرة مرحة على المشهد. البعض منهم زنوج، وهم أولاد البوابين الجالسين فى صمت عند البوابة فى نوبة حراسة، حيث بيوتهم فى الغرف المفردة الصغيرة على جانبى المدخل. ولا تعنى الخدمة فى مصر العزوبة بحال من الأحوال؛ ومغزى كلمة «الأعباء الثقيلة» المشئومة غير معروفة لدى أىٍّ من السيد أو الخادم. إنه ذلك النوع من الحياة الذى نقرأ عنه فى الصفحات الأولى من الكتاب المقدس، حيث توجد إشارات كثيرة إلى أطفال الخدم «ابن أمتك».

كان الشرقيون القدماء ينظرون إلى العزوبة بكراهية شديدة، باعتبار أن عدم وجود ذرية بلاء رهيب. ومع أن الرهبانية الدينية كانت النمو المبكر للكنيسة القبطية، فهى لم تؤثر على آراء الناس بشأن هذا الأمر. كما يكره الشرقى الرجل الأجرد.

تشبه مكانة مضيفنا مكانة اللورد الإقطاعى ويلجأ الناس إليه للحصول على العون والحماية، ويقدمون له الاحترام والتبجيل، كما كان يفعل الأقنان فى الماضى. وليس لدى البواب الذى يحرس البوابة الكثير مما يقوم به، ذلك أن دخول البوابة مباح من الناحية العملية، ليس بالنسبة لمن يتظاهرون بالعمل فحسب، بل كذلك بالنسبة لأى شخص يرغب فى أن يغذى عينيه بعظمة سيده الإقطاعى، أو مجرد رغبته فى التمتع بشرب الماء من القلة أو الزير الذى تظله الشجرة، والاستراحة فى وضع القرفصاء فوق إحدى الحصر الموجودة على الأرض؛ أو يخلع نعليه إذا أراد الجلوس على أحد المقاعد الخشبية المتوفرة، حيث تكون الساقان باستمرار تقريباً مرفوعتين على المقعد والذراعان ملتفتين حولهما. وهكذا كان يجلس قدماء المصريين، كما تبين الآثار.

وهناك شكل من أشكال الجثو نهى عنه الإسلام والمسيحية على السواء. فنشاهد على الآثار القديمة رجالاً جثوا على ركبة واحدة، وخاصة فى وجود الأكابر؛ ولكن منذ أيام الرسول وهناك اعتقاد عام بأنه من الخطأ أن يسجد إنسان لغير الله وحده.

وقد رأيت رجلاً فى ضائقة يطلب معروفاً من الباشا وقد أخذ التراب من أرض الفناء وضمه على شفتيه علامة على الاحترام والتبجيل؛ ولكن الرجل نفسه لا يمكن أن يركع لأحد، ولو للخديو نفسه.

الفناء هو ملتقى الكل. الرجال والنساء والأطفال. فى الناحية ممن لديهم وقت فراغ طوال النهار. ويمضى الرجال المسنون الذين لم يعودوا يعملون الساعات الطوال هنا كل يوم، مستمتعين بمنظر الأنشطة فى المكان، مسبحين بمسابحهم إذا كانوا مسلمين؛ ومتمتمين بصلواتهم «أبانا الذى» و«كيرياليسون» إذا كانوا أقباطاً، وكذلك بالمسبحة؛ حيث

فى قلب القاهرة زرت أقباطًا من الطبقات كافة. من مضيفى القروى الثرى، ومن المهنيين الشباب، إلى الكهنة والشمامسة فى الكنيسة، دون أن أرى قط أثرًا لزوجات العائلات وبناتها



يتبادلون الحديث عن ذكريات الأيام الخوالى حين كانت الحياة أقسى مما هى عليه الآن، ويحمل ظهر كل رجل من طبقتهم آثار سوط الطاغية.

الخفراء بنبابيتهم الطويلة موجودون هنا لتقديم تقريرهم؛ والصبية الحمارون محبو المرح ينتظرون الأوامر وفى أيديهم سياطهم.

بصورة عامة هناك مجموعة من الشباب والعجائز على الأرض يلعبون ألعابًا بسيطة بالحجارة كان القدماء يلعبونها. وإذا ظننا أنها ألعاب صبيانية، فقد نستنتج أن هؤلاء الناس البسطاء جميعهم أطفال.

يخيم باستمرار سكون ووقار يختص بهما الشرقيون. ويجب ألا يظن أحد أن هؤلاء الناس حزانى، لكونهم غير صاخبين. فهناك إشراق يحيط بهم لا يقل بهجة لكونه مكبوتًا. وتقديرهم للفكاهة والمرح لا خلاف عليه. وهم يقدرون كثيرًا أى رجل يمكنه «تقديم إجابة طيبة»، أو يتفوق فى التقليد، أو لديه أى لمسة من سرعة البديهة أو الفكاهة.

ولأن مرح الفلاح المصرى لا يعتمد بحال من الأحوال على أية درجة من درجات السُكْر، فهو ليس صاخبًا؛ إنك تسمع الضحكة المرحة، وإن ندر أن تكون عالية جدًا؛ ولكن القهقهة والضحكات الرنانة والصياح الصادر عن العامة المجتمعين فى المشارب بالبلاد الغربية لا تسمعها هنا أبدًا. فهم يعلمون الشرقى منذ حداثة شبابه أن كل شكل من أشكال الإفصاح عن المشاعر قلة أدب ولا بد من استهجانه.

لا يعيش المصرى، مهما كانت ثروته وتحت أية ظروف، فى الدور الأرضى من أى منزل أو فندق، سواء فى المدينة أو الريف؛ فهو يظن أن النوم فى هذا المكان على نحو خاص يضر الصحة ضررًا بليغًا. ولذلك توجد غرف الاستقبال التى يأخذوننا إليها الآن فى الطابق الأول.

توجد هناك الأرائك الشرقية المغطاة بألوان زاهية وقد رُصَّت حول الغرفة، وغُطِّيت الأرضية بالسجاد الجميل والغالى. وهناك الكثير من النوافذ، وهى غالبًا فى حاجة إلى إصلاح؛ فالبعض منها لا يغلق، أو أن زجاجه مشروخ أو محطم. وهذا مثال على أن المصرى يمكن أن يصنع ثوبًا رائعًا، ولكنه لا يخيط الزر الأخير. من حسن الحظ أنه يحب الهواء النقى فى غرفه. وبعد أن يلف نفسه فى المساء حين يجلس فى الداخل، فإنه يستنشق «الهواء البحرى الذى يرد الروح» بنفس البهجة التى كان يستنشقه بها أسلافه الأوائل الذين كانوا يستخدمون التعبير نفسه فى وصف الرياح الشمالية. وفى سفر أيوب «ومن الشمال البرد».

تقتصر كراهية العرب للريح، وهو الأمر الذى يشاركهم فيه الرسول نفسه، على الخماسين، وهى رياح حارة محملة بالرمال تأتى من الصحراء، وهى بالفعل أمر يخشاه الناس عندما يقترب موسمها.

هناك جناحان كبيران من الغرف بطول المبنى كله؛ كل غرفة من الغرف بها باب يؤدى إلى الأخرى. ولذلك فلكى تذهب إلى الغرفة التى فى آخر الجناح، لا بد لك من المرور فيه كله، وهو ترتيب كان معتادًا فى مصر منذ أقدم العصور. أحد الجناحين مفتوح للضيوف، والآخر هو «الحرملك»، أو «المكان المعزول»، وهى الكلمة التى جرى تشويهها على نحو شرير فى الغرب. فالحرملك فى هذه الحالة مجرد جناح من الدار تعيش فيه الأسرة؛ وهو مخصص للزوجة والأطفال ولا يمكن لأى ذكر خارج درجة معينة من القرابة زيارته.

كثيرًا ما يسألون عمّا إذا كان الأقباط يتبعون العادات ذاتها التى يتبعها المسلمون فيما يتعلق باعتزال النساء وحجابهن أم لا؟ وهذا السؤال يحتاج إلى إجابة متأنية؛ لأن عددًا معينًا من المسيحيين المصريين المتعلمين والمستنيرين قد تخلوا منذ الاحتلال البريطانى عن العادات القديمة التى كان الأقباط يتبعونها حتى ذلك العهد كالمسلمين سواء بسواء.

فقد هجرت سيدات أسيوط القبطيات الثريات، على سبيل المثال، الحجاب بالمرة ويتنقلن بحرية كما لو كن فى إنجلترا، لولا ذلك القدر الضئيل من التنازل الذى يفرضه كون رؤيتهن فى الأماكن العامة فى بلد الاحتجاب فيه هو القاعدة أمرًا يثير التعليق عليهن.

فى الفيوم كذلك تجمع عدد قليل من السيدات من الطبقتين العليا والوسطى معًا لتحسين أوضاعهن على الطريقة الغربية. وفى القاهرة والإسكندرية هناك عائلات لا تعرف فى الحياة المنزلية شيئًا عن الاحتجاب أو الغرف المعزولة. فالأصدقاء من الجنسين يُدعَون إلى مائدة الغداء والعشاء، وأصبحت حرية الاختلاط التامة هى القاعدة.

لقد قابلت بهذه الطريقة عددًا من السيدات القبطيات شديدات الذكاء. وهن فى الغالب جميلات ويتمتعن بسحر رقيق وليد الحياة الخفية التى خرجن منها للتو، يدعمه اعتزاز بالنفس رباه فيهن التعليم الممتاز على أيدى مربيات أجنبيات من فرنسا وإنجلترا. وهن يتحدثن لغتنا بطلاقة، ويعرجن بطلاقة سهلة إلى الكلام الذى يستخدمنه فى رحلات التسوق التى يقمن بها سنويًا فى باريس، حيث يشترين ملابسهن كلها. الواقع أن فصاحة لغتهن العربية الأم لا تصل فى فصاحتها إلى فصاحة تلك اللغات المكتسبة.

صديقة قبطية لزوجتى على قدر كبير من الأدب والثقافة والجاذبية لا تكتب بفضل تخرجها من «جيترون» النثر الإنجليزى فحسب، بل تكتب النظم الإنجليزى الذى يجد فيه خيالها الشرقى تعبيرًا ثريًا.

ولكن كما أنه من المثير أن نجد مثل هذا التقدم، فلا بد من الاعتراف كذلك بأنه مقصور على طبقة صغيرة جدًا. فما زال من الواجب وصف الاحتجاب الصارم والحجاب المُحكَم بأنه القاعدة القبطية؛ وأنه ليس كذلك بين أبناء الريف والجهلة فحسب. فهناك شباب مصممون، رغم التعليم فى مراكز العلم الأوروبية وربما لهذا السبب، على أن العادات الشرقية، فيما يخصهم، سوف يُحافَظ عليها. وأعرف أكثر من قبطى شاب من خريجى الجامعات الإنجليزية عادوا إلى مصر مصممين على إبقاء زوجاتهم الشابات على قدر كبير من الحجاب والاحتجاب.

بالنسبة للأكثرية من الناس، أغنياء وفقراء، نادرًا ما يكون هناك شك فى هذا الأمر. ففى قلب القاهرة زرت أقباطًا من الطبقات كافة. من مضيفى القروى الثرى، ومن المهنيين الشباب، إلى الكهنة والشمامسة فى الكنيسة، دون أن أرى قط أثرًا لزوجات العائلات وبناتها. وكما هو الحال فى الأسر المسلمة، فإنهم يأخذون زوجتى بمفردها إلى الحرملك، ومن خلالها سمعت عن الحياة المثيرة التى تجرى خلف تلك الأبواب المحمية.

يجب ألا نفترض أن النساء باحتجابهن يصبحن طيورًا محبوسة داخل أقفاص تضرب بأجنحتها قضبان سجنها الذهبية. فقد كُتِب من الكلام الفارغ عن الحرملك أكثر مما كُتِب عن أى من تفاصيل الحياة الشرقية الأخرى، وهو الأمر الذى أبدع فيه الكُتَّاب الغربيون أيما إبداع فى الاستنتاجات الزائفة، والداعرة فى كثير من الأحيان، التى يغطون بها ما ينقصهم من معرفة دقيقة.

أحد الافتراءات التى يقبلها الناس بأسهل ما يمكن فى البلاد الغربية أن ارتداء الحجاب واحتجاب الحريم من اختراع النبى (محمد)، وقد حافظ عليه أتباعه رقيقو الحال، وأن المسيحيين فى مصر اضطروا لتبنى العادات الضارة من غزاتهم العرب.

الأحرى هو أنه لا بد من إرجاع وضع النساء هذا إلى مصر القديمة وإلى عصور العهد القديم، كما تشير هذه الأشياء. فالمرأة السورية كما صورها رينان كانت تمامًا كالمرأة فى مصر القديمة، تنأى بنفسها عن الأنشطة العامة والاهتمامات الاجتماعية الخاصة ببعلها، وكانت راضية برعاية رفاهيته عن بُعد، واستقباله برقة حين يزورها، والحصول على متعتها بألف طريقة نسائية، وقد أحاط بها أطفالها المحبوبون؛ واستقبال صديقاتها ورد زيارتهن، ومناقشة أمر الملابس التى سوف

يرتدينها. والأخبار الأسرية كافة، بتفاصيل دقيقة، كما تفعل النساء جميعًا.

سيدات الحرملك فى مثل هذه الدار التى نزورها لسن عاطلات، كما يُفترض بصورة عامة. فرعاية أسرهن تشغلهن إلى حد كبير؛ ومهارتهن فى تفاصيل معينة تتعلق بالطهو أمر يجدن فيه متعة. وهن جديرات بأسلافهن القديمات فى اتقان ما لا يحصى من الفطائر التى يصنعنها فى المآدب الكبيرة التى يستمتع بها بعولتهن وأصدقاؤهم.

بالنسبة لمسألة الزى، هناك فحص مطول وجاد للأقمشة الغالية وللمجوهرات التى يرسلها تجار المدينة للاطلاع عليها. والأقمشة الحريرية والساتان التى يخترنها تكون ذات ألوان زاهية أو لامعة أو متقزحة اللون، مع أنسجة من الذهب والفضة. وبالنسبة للمجوهرات، لا تجد بلداً الصانع الماهر للمعادن النفيسة والأحجار الكريمة على هذا القدر من الأهمية التى عليها هذا الصانع هنا؛ وإذا عرفت أين تبحث عنها سوف تجد فى القاهرة جواهر أندر وأجمل ترصيعا مما فى باريس. ويستمر الصائغ المفضل فى العمل حتى من أجل السيدات ذوات الثروة المتواضعة؛ ذلك أنهن إذا لم يكن يضفن إلى ممتلكاتهن شيئًا، فإنهن يعدن تشكيل التاج الثمين، أو القلادة الثقيلة، أو الأساور، لكى يجددن سرورهن بما لديهن من ماس ولؤلؤ وياقوت وزمرد، وهى الأحجار الكريمة المفضلة.

وعندما لا تكون السيدة من هذه الطبقة مشغولة بتلك الأمور، يكون إطار التطريز فى يديها، حيث تحقق نتائج تتسم بالمهارة والجمال. وجمع الكثير من العطور الشرقية التى تستخدمها هى وبناتها أحد أنشطتها الصغرى؛ وهى حَكَمٌ جيد، وبما أن زوجها يستخدم كذلك عطراً مفضلاً، قد يكون الياسمين، فهى تختار هذا العطر له. وهى تستخدم الحنة لتخضيب أظافر قدميها ويديها لتضيف إلى جمالها جمالاً، إلى جانب استخدامها بسخاء أكثر فى الطقوس. وتستخدم (الأنتيمون) فى جعل عينيها تبدوان طويلتين.

إذا كانت السيدة المصرية تحظى بحب زوجها، فإنها لا تطلب أكثر من ذلك كى تشعر بالسعادة التامة؛ والواقع أنه إذا فكّر فى إزالة الحدود التى تجعل منها سجينة فإنها ستظن أنه لم يعد يحبها ويهتم بها، ويبدو لها العالم بأسره ولأنه ينهار ويتحطم.

الكثير جداً من الزيجات على قدر كبير من السعادة؛ وإذا ما ظهرت الإشارة القديمة إلى أن النساء مجرد لُعَب يلهو بها الرجال، فإنى أقول: إنى أعرف أعداداً كبيرة من النساء الماهرات اللائى يحترم أزواجهن ذكاءهن وشخصياتهن. والحرملك هو الملاذ المفضل فى كل الأوقات لدى الزوج والأبناء الذين لا يتخذون بحال من الأحوال أية خطوة مهمة فى حياتهم بدون الحصول على الاستشارة الحكيمة من السيدة التى تتسم بالكياسة صاحبة السيادة فى هذا المكان. تلك السيدة التى تظل وقد تقدمت فى العمر محتفظة بالتوقير والاحترام من الرجال كافة الذين لهم حق الدخول فى منطقة نفوذها.

عندما وصلنا إلى الفناء كنا متأكدين تماماً أن وراء شيش نوافذ غرف النساء الكثير من العيون الفضولية التى تراقبنا، وأن الألسنة الثرثارة تناقش بحدة كل تفصيلة من تفاصيل مظهرنا وتفاصيل أمتعة سفرنا.

كنت متأكداً من أن السيدات قد سررن من البهجة التى أبديناها فى تحياتنا للأطفال الذين نزلوا لينضموا إلى أبيهم فى الترحيب بنا، ذلك أننا تعلمنا منذ زمن بعيد ما يكفى من التراث الشرقى بحيث نعرف كيف نستخدم الفطنة والحصافة فى أن ننقل للآباء الفخورين إعجابنا بذريتهم الجميلة بحيث لا نثير فيهم كل تلك المخاوف من عين الحسود الرهيبة التى لم تخف قيد أنملة بمرور الزمن. والاعتقاد فى «عين الحسود» قديم جداً وموجود فى كل مكان، وهو فى بلاد كثيرة الآن بالقدر الذى كان عليه فى عصور ما قبل التاريخ. ونحن نقول حين نحيى الأطفال «ما شاء الله»؛ «الحمد لله!»، «ربنا يحميهم لك!»، «ما شاء الله! ربنا يطول فى عمرهم ويبارك فيهم!» ونجعل الآباء يعرفون أننا كذلك لدينا الكثير من الأطفال، على نفس ما عليه هؤلاء تقريبًا من جمال، ذلك أنه بهذه الطريقة فحسب سوف يسرهم إعجابنا.

وقد رأيت بنفسى أطفالاً، وأولاداً بصفة خاصة، لأشخاص أغنياء يُتركون يجرون ويلعبون شعثًا قذرين اتقاء لعين الحسود. ومع ذلك فإن هذه العادة آخذة فى الانقراض، خاصةً فى المدن، حيث يرتدى الأطفال فى الغالب هذه الأيام الملابس الجميلة وترعاهم مربيات ومعلمات فرنسيات وإنجليزيات. ■

.. لماذا هذا الكتاب؟

■■ ربما يسأل سائل عما دعانى إلى ترجمة كتاب ألفه رجل إنجليزى عن الأقباط فى أوائل القرن العشرين. الإجابة ببساطة هى أن تلك فترة مهمة من تاريخ مصر انعكس ما جرى فيها على ما أعقبها من فترات. كما أنه عندما كان المؤلف س.هـ. ليدر يتحدث عن الأقباط، لم يكن ذلك بمعزل عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى مصر إبان تلك الفترة. وذلك فى المقام الأول لأن الأقباط مصريون ويسرى عليهم ما يسرى على سائر طوائف الشعب المصرى، رغم ما لهم من خصوصية دينية.

الواقع أننى أود أن أبرز فى مقدمتى السريعة هذه تناول الكتاب لثلاث نقاط مهمة: هى علاقة الأقباط بأبناء وطنهم المسلمين، وعلاقة الأقباط بالحكام المسلمين، وعلاقة الأقباط بسلطات الاحتلال البريطانى.

ففى معرض حديثه عن الدكتور فانوس، الذى يصفه بأنه «ذلك الرجل المثقف وربما يكون أعظم خطيب حى فى مصر»، يقول المؤلف: إنه هو الذى أعلن أمام حشد كبير من أبناء بلده المسيحيين فى أسيوط أن الأقباط والمسلمين «قُسِّموا بالفعل، ومع ذلك فالواقع أنهم شعب واحد وموحَّد، والاختلاف الوحيد هو اختلاف العقيدة. ومن وجهة النظر هذه ليس من الإنصاف النظر إليهم على أنهم عنصران مميزان. فمهما كانت تسميتهم، فالمسلمون والأقباط أحفاد شعب مصر الذى عاش قبل سبعة آلاف سنة».

والواقع أنه فى تلك الفترة، وما قبلها، وما بعدها بقليل، لم تكن هناك تلك الحساسية الملحوظة حاليًا بين المسلمين والمسيحيين. ويقول ليدر إن الولع بالقديسين فى مصر أمر يشترك فيه الأقباط والمسلمون، حيث يبجل كل طرف منهم قديسى وأولياء الطرف الآخر قدر تقديسه لأوليائه وقديسيه. ويروى أنه عند مرور سيدة إنجليزية، هى الليدى داف، فى قرية بيا بمديرية بنى سويف أثناء زيارتها الأولى لمصر، ذهبت إلى الكنيسة القبطية ووجدت عامل بناء يقوم ببعض الترميمات. قال لها الرجل بكل فخر إنه مسلم مؤمن من القاهرة زاره القديس المدفون فى كنيسة بيا لثلاث ليال متوالية وأمره أن يترك عمله ويذهب إلى القرية البعيدة لترميم كنيسته. وحكى عامل البناء كيف أطاع الأمر، وكيف عرض أن يعمل بدون أجر إذا أحضر الأقباط مواد البناء. وقد تحدث بفخر واضح باعتباره شخصًا تلقى أمرًا سماويًا. وأكد الأقباط جميعًا القصة، حيث أسعدتهم تلك المعجزة. ويصف ليدر هذه القصة بأنها «تلقى فيضًا من النور على الطابع المتعصب الذى يُنسب عادةً للمسلمين والأقباط بحيث لا يصدق أحد بحال من الأحوال أن هذا البنّاء، المعروف بأنه مشغول باستمرار بالعمل، يتلقى هذا الأمر ويطيعه بتلك البساطة. بينما كان الكاهن يحاول الحصول على بنّاء ولو من بين الأقباط ولم يفلح فى ذلك».

ومن القصص التى يرويها ليدر عن علاقة المصريين المسلمين والمصريين المسيحيين، تلك القصة التى تتحدث عن المُدَرِّسة الإنجليزية التى كانت تعمل بالقاهرة وتذهب إلى الأقباط فى القرى «حاملة ضياء الكتاب المقدس إلى الفقراء والجهلة». وبينما كانت تلك المُدرِّسة جالسة فى يوم من الأيام فى قرية سكانها جميعًا من المسلمين، جاءها اثنان من البدو فى الصحراء المجاورة، كانت تقرأ لهما الكتاب المقدس من قبل، بصديق لهما قائلين إنه جاء لكى «يسمع كتابك». كان الرجل قبطيًّا يعيش هو وعائلته فقط وسط المسلمين فى قرية نائية، وكان البدو يمرون خلالها. وكانوا قد حكوا له عن قراءة ميس واتلى، وتمنيا أن يستمتع بهذه القراءة باعتباره قبطيًا. مثلما يجدان هما متعة فى سماع قرآنهما. سُحر الرجل بسماعه الكتاب المقدس بلغة يمكنه فهمها. واعترف بشعوره بالخجل من نفسه بسبب جهله التام بالكتاب المقدس.

يخصص ليدر فصلاً من الكتاب عن الأنبا أبرام أسقف الفيوم الذى اشتهر بزهده وقدرته على علاج الأمراض. وكانت تتوافد عليه أعداد كبيرة من الناس كل يوم التماسًا لشفاء البدن أو النفس. ويتعجب ليدر لأنه بين تلك الحشود التى كانت تلجأ يوميًا إلى رجل الدين المسيحى هذا للحصول على مباركته الشخصية، كان عدد المسلمين يتساوى مع المسيحيين. ذلك أنه «لا اختلاف فى الإيمان المتلهف على قدرته على مساعدتهم فى كل أحزانهم ومشاكلهم. وهى الحقيقة التى تجعل الذين تعلموا النظر إلى التعصب على أنه السمة الأولى من سمات أتباع محمد يغيِّرون رأيهم. وعندما يُسأل كل هؤلاء الناس البسطاء عما لديهم من أسباب للظن بأن بإمكانهم الحصول على خير من أسقف مسيحى، يقولون إنه رجل طيب، وإن الرجال الطيبين جميعًا مقبولون من الله؛ فالأسقف يصلى لله كما يصلون. وهو تلميذ لـ «سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام»».

وهناك حدث مهم يذكره الكتاب ويدل على وحدة مشاعر الشعب المصرى بعنصريه. فعندما عاد البابا كيرلس الخامس من منفاه فى دير البراموس، شهدت القاهرة ترحيبًا شعبيًا حماسيًا قوبل به البطريرك عند عودته. «فقد ملأت الجماهير شوارع المدينة، وأزال بحر الحماس الضخم كل فكرة ما عدا فكرة الابتهاج الشديد بعودته، حيث احتفلت الجماهير المسلمة بهذا الحدث الكبير جنبًا إلى جنب مع الأقباط؛ وبكى الناس من الفرح وغنوا مادحين المنفيَّ، كأن إلهًا قد أُعيد إليهم، وكان الأعداء التقليديون لقرون يتعانقون مهنئين بعضهم بعضاً».

كما يورد الكتاب شهادة قالها اللورد كرومر عندما انتهت مدة خدمته فى مصر، أوضح فيها رؤيته للمسلمين والمسيحيين. فقد أشار كرومر فى كتابه «مصر المعاصرة» إلى أن الفرق الوحيد بين القبطى والمسلم هو أن الأول مصرى يتعبد فى الكنيسة والثانى مصرى يتعبد فى المسجد.

ويؤكد المؤلف أن المسلمين والمسيحيين كانوا باستمرار شركاء فيما تتعرض له مصر

من محن. ففى الأزمنة القديمة «كانت الأمة كلها تصلى للرب كى يعيد ملء النيل بالماء، صائحين فى نفس واحد «كيرياليسون» بينما يصيح المسلمون «الله أكبر» وهم يرغبون بشدة فى الإلحاح على الله العظيم بالسؤال». وعندما استولت الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس فى عام ١٠٩٩منع الصليبيون أبناء الكنيسة القبطية من دخول المدينة المقدسة، وبذلك لم يكونوا يفرقون كثيرًا بين المسلمين المصريين الذين هزموهم فى عسقلان، والمسيحيين الشرقيين أبناء دينهم. وعندما غزا الصليبيون مصر فى عام ١٢٠٤، ذبحوا السكان دون تفريق بين مسيحى ومسلم.

ورغم كون المؤلف إنجليزيًا، فهو ينتقد الكُتّاب الإنجليز «لأنهم سجلوا كل ما قيل لهم على نحو غير نقدى». وهو يرى كذلك أن هؤلاء الكُتّاب فى واقع الأمر هم مَن ألحق أكبر ضرر بالأقباط، كما يتهمهم بأنهم مَن «يُبقى إلى الأبد على كراهية المسلمين بتركيز الاهتمام على الماضى، بينما يتملقون الأقباط بأن ينسبوا إليهم فضائل ليست لهم. فرغم أكثر النوايا ودًا التى يبديها هؤلاء الكُتّاب تجاه الأقباط، فإنهم لم يفشلوا فى مساعدة القضية القبطية فحسب، بل أعاقوها». كما يرى أن تاريخ الصدع الذى بين القبطى والمسلم، الذى ازداد اتساعًا بذلك، يعود إلى فترة الاحتلال البريطانى فحسب؛ فالطائفتان ليست بينهما عداوة فطرية أو متأصلة، وهو ما أثبته التاريخ مرارًا وتكرارًا. ولم يحصل القبطى من الإنجليز على شىء من خلال الصدع، بل إن ما ادعاه من المعاملة الخاصة أدى إلى حد ما إلى إنكار العدالة المجردة. إذ لم يكن تأكيد الذات يعجب الحاكم الإنجليزى؛ فعندما كان يقوم على أية أفضلية «لإخواننا المسيحيين» يصبح بغيضًا؛ وكان الموظف الإنجليزى فى سعيه لبيان أنه برىء من أى تحيز، كان يفخر بأنه يبعد نفسه كثيرًا جدًا عن نقطة الحياد الأساسية».

ويورد ليدر كلامًا للبروفيسور سايس يؤكد ما كان عليه الحال قبل الاحتلال البريطانى. فهو يقول: «عندما عرفت مصر لأول مرة، فى أيام ما قبل الاحتلال، لم يكن هناك وجود للعداء الدينى بين الأقباط والمسلمين؛ فقد كانوا جميعًا على السواء، مصريين».

ويعقّب ليدر على ذلك بقوله: «لقد رأيت بنفسى كنائس قبطية بناها المسلمون، ومسجدًا بناه صاحب أطيان قبطى قبل الاحتلال بعام أو عامين. وفى المدارس العلمانية القبطية، التى بنيت على نفقة أهل الخير فى أنحاء مختلفة من البلاد، لم يحدث قط أننى لم أجد بها تلاميذ مسلمين؛ ولا يفكر أحد فى استبعاد الأطفال الأقباط من المدارس المشابهة التى بناها مسلمون، وخاصةً فى المناطق الريفية».

يشير ليدر إلى أن الشواهد التاريخية تؤكد أن الأقباط كانوا «يرقَّون إلى أرفع المناصب وأكثرها مسئولية فى الدولة، وكانوا يترقبون باستمرار قيادة الجيش ومنصب الحاكم. لم يكن محمد على (السياسى والجندى العظيم، ومؤسس الأسرة الحاكمة الحالية) ليقبل الحكم بعدم أهلية أى رجل تثبت مقدرته فى خدمة الدولة الخاصة، سواء أكان قبطيًا أم يهوديًا؛ فلم يكن فى عهده أى دليل على الاستياء الدينى الذى يُقال حاليًا إنه قد ينشأ فى ظل التعيينات التى قام بها هو وخليفته». كما يقول إنه «فى عهدى سعيد وإسماعيل، ظل الأقباط يشغلون مناصب مشابهة، مما جعل القاعدة هى تعيين قبطى فى منصب النائب العام فى كل مديرية. وهو منصب له قدر كبير من السلطة. حيث كان الرجال الذين يشغلونه يتولون منصب القضاء فى أوقات معينة». كما يقول: «وفى عهد إسماعيل (الذى كان يؤكد باستمرار أن «المصريين جميعًا سواء») خدم الأقباط الدولة فى كثير من المناصب العليا. والحقيقة الأكثر لفتًا للنظر هى أن نظارة الجهادية تولاها قبطى لأول مرة (كان محمد على أول من أزال الموانع التى تحول دون خدمة الأقباط فى الجيش) وكانت لعيَّاد بك حنا السلطة الكاملة».

ولكن بعد مجىء الاحتلال الإنجليزى وخلال أقل من ربع قرن من سيطرة البريطانيين على البلاد، «اختفى رؤساء المصالح الأقباط كلهم تقريبًا. فقد كانوا ممثلين تمثيلاً تامًا على منصات القضاء، ولكن شيئًا فشيئًا وصل العدد إلى صفر؛ وكذلك الحال بالنسبة لمصالح الدولة الأخرى، حيث استمرت عملية عزلهم وإغلاق الباب فى وجه التعيينات الجديدة».

كانت تلك لقطات من الكتاب اقتضى منى الظرف التاريخى الذى نعيشه أن أبرزها، كى ألفت نظر القارئ إليها، وأدعوه إلى سماع صوت يأتينا عبر عشرة عقود تقريبًا يوضح لنا بعض الحقائق التى ربما تكون قد خفيت على البعض، وكان من مصلحة البعض الآخر إخفاؤها لغرض ما فى نفسه، لا يقصد من ورائه خيرًا بطبيعة الحال.

وأترك القارئ يطالع بنفسه تلك الصفحات التى تتحدث عن الأقباط فى كل نواحى حياتهم، حيث تتناول حياتهم الدنيوية بأفراحها وأتراحها وعلاقاتها الاجتماعية، وحياتهم الدينية بمعتقداتها وطقوسها وتجلياتها الروحية. إنه كتاب كانت المكتبة العربية بحاجة إليه. ومما يدعو للعجب أننى رأيت إشارات عديدة إليه فى الأدبيات القبطية وتلك التى تتناول تاريخ الأقباط الحديث وتاريخ الكنيسة القبطية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومع ذلك فهذه هى الترجمة العربية الأولى له. ومن المصادفة أن الشىء نفسه حدث مع كتاب وينيفريد بلاكمان Fellahin of Upper Egypt الذى صدر فى عام ١٩٢٦ وكان معروفًا بين دارسى علم الاجتماع والفولكلور والأنثروبولوجيا، وكانت ترجمتى له فى عام ١٩٩٤ بعنوان «الناس فى صعيد مصر» هى الأولى منذ صدور الكتاب بالإنجليزية. ■

أحمد محمود (المترجم)

كتاب الزاوية

رحيل أنطون الجميل

الكاتب المصرى

كان خطيبًا فادحًا، ذلك الذى ألم بالأدب العربى والسياسة الشرقية والصحافة المصرية، حين توفى المغفور له أنطون الجميل باشا، رئيس تحرير «الأهرام» فى الثالث عشر من شهر يناير(١٩٤٨).

وقد كانت وفاته فجاءة غير منتظرة: إذ كان الفقيد عشية اليوم الذى توفى فيه كأحسن ما يكون الإنسان صحة، وكأقوى ما يكون قوة، وأكمل ما يكون نشاطًا.

فقد شهد جلسة المؤتمر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية، وعمل فى «الأهرام» كما تعود أن يعمل إلى أن قارب الليل ثلثيه، وعاد إلى داره فإذا الموت ينتظره فيها.

وكان أنطون باشا الجميل أديبًا مترف الأدب رفيع الفن صافى الذوق مرهف الطبع.

ظهر ذلك فى شبابه حين أصدر مجلة «الزهور» واتصل ذلك فى حياته كلها، فكان أروى الناس لبيت جيد وأحفظهم لفصل رائع كما كان أرقهم منطقًا وأعذبهم حديثًا.

وقد عمل فى مناصب الدولة، فكان نموذجًا للموظف المتقن لعمله فى أمانة وحذق وفطنة، ثم ترك مناصب الحكومة وتولى رياسة تحرير «الأهرام» فكان مثالاً للصحفى البارع الفطن والسياسى الماهر اللبق نفذ بـ«الأهرام» فى رشاقة أى رشاقة من أشد المواقف السياسية فى مصر والشرق دقة وحرجًا. وعين فى مجلس الشيوخ، فكان برلمانيا ماهرًا لبقًا موفقًا بين المختصمين مؤلفًا بين المختلفين. وعين فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية، فكان ابتسامة متصلة فى جوه الذى يأخذه الجد من جميع أقطاره.

(فبراير ١٩٤٨)

عــــــــودة  إلـــــــى

■■ قدر لى أن أعيش قضية كوسوفا وهى تتخلق جنينًا فى رحم الأيام، وأعنى بالتحديد بداية التسعينيات. لم تكن هى الجهة التى قصدت فى بادئ الأمر حيث كانت وجهتى فى البحث مأساة البوسنة، ولكن البوسنة أسلمتنى إلى طريق كوسوفا. «فالموضوعان متصلان»، وقد تحققت أنه لكى تفهم ما حدث فى البوسنة لابد من أن تدخل إليها من باب كوسوفا. ذلك لأن مهندس المأساتين واحد هو الزعيم الصربى الراحل سلوبودان ميلوسيفتش، وأصل الداء واحد أيضًا وهو انطلاق القومية الصربية من مرقدها بعد وفاة تيتو، وهى نزعة عنصرية مدمرة ترفض التعايش مع الآخرين وتستبيح استئصالهم وإبادتهم.

كان الزعيم اليوغسلافى جوزيف بروز تيتو يعلم هذه الحقيقة ويدرك خطرها على الوحدة اليوغسلافية وعلى نسيجها الفسيفسائى، لذلك كان حريصا على كبحها فلما مات انبعثت القومية الصربية على يد مجموعة من السياسيين والكتاب المتطرفين، انعكست فى مذكرة أصدرتها الأكاديمية الصربية للعلوم والآداب ترسم الطريق نحو إقامة صربيا الكبرى، وبدأت تتردد فى الصحافة الشعبية الصفراء ثم انتقلت بعد ذلك إلى الصحافة الرصينة التى تغير خطابها الاشتراكى الجاد إلى أسلوب غوغائى هابط.. فى هذه الأثناء كان ميلوسيفتش يعمل فى صمت من خلال أعوانه على تكبيل الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى بسلسلة من القوانين والقرارات حتى أحكم قبضته عليها وطرد جميع الصحفيين والقياديين أصحاب الرأى والمواقف الجادة، وطغى على أجهزة الإعلام جيش من المنافقين والأبواق المؤيدة لسياسة ميلوسيفتش. ولأول مرة فى تاريخ يوغسلافيا استخدم ميلوسيفتش وسائل الإعلام والغوغاء المستأجرين للتشهير بخصومه السياسيين تمهيدًا لإزاحتهم من طريقه واحدًا بعد الآخر، ولم يسلم من هذا المصير «إيفان ستامبوليتش» أستاذ ميلوسيفتش وولى نعمته.

تزييف التاريخ والحرب:

من عادة الصرب، على مر العصور، أنهم إذا لم تسعفهم الحقائق التاريخية المؤيدة لموقفهم يلجأون إلى الأساطير والملاحم الشعبية التى أصبح لها فى عقولهم قداسة تفوق قداسة الأديان، هذه الأساطير لها نفوذ سحرى عندهم حتى أصبحت طلسمًا فى أعماق هويتهم القومية لا يجرؤ أحد على مناقشتها أو الشك فيها، تمامًا مثل قداسة الهولوكوست التى أصبح من يناقشها اليوم يعتبر مجدفًا، ويقدم للمحاكمة كما حدث لرجاء جارودى.

وإذا كان تزييف التاريخ بهذا المعنى أمرًا مفهومًا وشائعًا فى كتابات الصرب التاريخية، فإن عبارة «تزييف حرب» قد لا تكون بهذا الوضوح. وأنا أستعير هنا المعنى الذى قصده «مارك تومسون» فى كتابه الذى يحمل هذا العنوان: «تزييف حرب: وسائل الإعلام فى صربيا وكرواتيا والبوسنة».. وهو يعنى بهذه العبارة استخدام وسائل الإعلام لخلق عدو وهمى غير حقيقى متمثل فى شعب أو فئة من الناس، وشحن عقول فئة أخرى أو شعب آخر بمشاعر الخوف والكراهية والرغبة فى الانتقام من هذا العدو، والوسيلة إلى ذلك تكون عادة بحشد الأكاذيب واختلاق وقائع وافتعال مواقف، مع التعتيم الكامل على كل ما يتصل بالفئة العدو من حقائق وأخبار والحيلولة بينها وبين الإعلام لعرض قضيتها على الوجه الصحيح.

وبمعنى آخر يهدف التزييف هنا إلى خلق حالة حرب فى العقول تمهيدًا لشن حرب حقيقية على الأرض. وكان تزييف التاريخ وتزييف الحرب وراء المسلسل المأساوى الذى شاهدناه فى كوسوفا كما كان وراء المأساة الدموية فى البوسنة.

وفى هذا تبدو تجليات العبقرية الصربية التى لا يضارعها فى هذا المجال سوى العبقرية الصهيونية. فإن التشابه بينهما لا يمكن أن تخطئه عين الخبير.. من أبرز الأساطير الصربية وأهمها على الإطلاق أسطورة «معركة كوسوفا التاريخية»، وأسطورة «الخروج الكبير»، وقد عالجتهما بالتفصيل فى كتابين أحدهما عن البوسنة والآخر عن كوسوفا، كما تناولتهما فى مقالين سبق نشرهما سنة ١٩٩٩ لذلك لا أجد عندى رغبة فى تكرار الكلام عن هذه الأساطير برغم اعتقادى أن الذى لا يستوعبها يصعب عليه فهم الكثير من الأحداث التى جرت، والمزاعم الصربية التى لا حدود لها، ويصعب بصفة خاصة أن يفهم طبيعة القومية الصربية فى تطرفها وميلها إلى تزييف الواقع وإلى معالجة مشكلاتها مع الأغيار بوحشية منقطعة النظير، تصل إلى حد قتل الجار البرىء والتمثيل بالجثث ودفن الأحياء فى مقابر جماعية.. وقتل الأطفال وحرق المنازل وتدمير القرى والمدن.. والمعالم الأثرية والثقافية النادرة كما حدث فى البوسنة وكما حدث فى كوسوفا.

دعـايـات صـربـيـة

ألمحت فيما سبق إلى التحول الفكرى والسياسى الذى حدث بعد رحيل تيتو نتيجة لانبعاث القومية الصربية التى أزاحت فى طريقها تراث تيتو وأغرقت سيرته فى الأوحال، ثم تحولت إلى الإسلام والمسلمين فى يوغسلافيا تكيل لهما تهم الأصولية والخيانة وتنسب إليهما مؤامرات وهمية ضد الصرب.. وكنموذج لهذا الاتجاه أشير إلى خمسة عناصر رئيسة هى خلاصة مقال نشرته مجلة دوجا فى عددها رقم ٩ بتاريخ ٢٢ كانون الأول - ديسمبر ١٩٨٩، على هيئة لقاء صحفى مع «ميروليوب إيفتيتش» وهو أستاذ مساعد بكلية السياسة فى جامعة بلجراد ومؤلف كتاب بعنوان «الجهاد الإسلامى كحرب»:

١- أن هناك إحياء إسلاميا أصوليا قد انطلق فى يوغسلافيا..

٢- أن هذا الإحياء الإسلامى قد جاء نتيجة العلاقات التى أقامها تيتو مع الدول العربية والإسلامية فى إطار التوجه السياسى لتيتو نحو الحياد الإيجابى وعدم الانحياز، وهكذا يتحول بعض الهجوم الصربى إلى تيتو نفسه، وتجريم سياساته والسخرية بصداقته لعبد الناصر وللعرب.. وهم أقوام متخلفون ورجعيون..

٣- أن العرب والمسلمين لديهم استراتيجية للسيطرة على العالم لإقامة دولة إسلامية عالمية موحدة، وأنهم لكى يحققوا الهدف يحاولون إحياء الإسلام فى يوغسلافيا..

٤- أن الإسلام بطبيعته يحث على إبادة الآخرين المخالفين له فى العقيدة.. (ومن ثم يصبح تصور سيطرة المسلمين فى يوغسلافيا هاجسًا مرعبًا)..

٥- أن المسلمين فى يوغسلافيا باعتناقهم الإسلام قد خانوا جنسهم وتاريخهم.. وهذا أخطر الاتهامات، حيث أصبح المسلمون بمقتضاه مسئولين عن أخطاء أجدادهم الذين اعتنقوا الإسلام منذ أربعمائة أو خمسمائة عام مضت.

كانت الحملات الإعلامية التى أطلقها الصرب فى الثمانينيات تحمل شعارًا أطلق عليه «الثورة الثقافية الصربية»، وكان الهدف من هذه الثورة هو استثارة شعب تقوقع فى سلبيته وقد تمكنت منه الكراهية والنفور للسياسات المخادعة وللساسة المخاتلين، ومن ثم جاء وصف «ميلوسيفتش» لهذه الحملات بأنها ليست من السياسة فى شىء، فإن ما نناقشه اليوم، على حد قوله، «إنما هو مسألة أرض الآباء والأجداد».. ويعلق على هذه الحملات صحفى صربى مستقل هو «ميلوس فاسيتش» حيث يقول «لو حدث مثل هذا فى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، فقامت عصابات الكوكلوكس كلان بالاستيلاء على جميع محطات الراديو والتلفاز فإن اندلاع حرب أهلية فى الولايات المتحدة يصبح واقعًا لا محالة فى غضون خمسة أعوام»، ولذلك فإنه من السذاجة بمكان أن يقال إن حرب البوسنة أو حرب كوسوفا من بعدها انطلقتا تلقائيا بسبب الأحقاد التاريخية الدفينة بين شعوب يوغسلافيا، أو أن محاولات الانفصال والاستقلال كان وراءها قوى أوروبية أو أمريكية كما يردد الصرب ويتابعهم فيه كتّاب سذج عندنا، يتحدثون بما لا يفقهون ولا

الهجمـــــة الصـــــربيـــة
علـى البوســـنة وما حـــدث فيهـــا
من انتـهـاكـات إنســانيـة مروعـة وجـرائـم حـرب
سجلتها لجنـــة دوليـــة اســتغرقت
تحقيقـــاتها عـــامين

محمـــد يوســـف عـــدس

كـــوســـوفـــا!!



يعقلون، وإنما كان باعثها ومشعل نارها هو التلاعب الإعلامى بالتاريخ والتلاعب بعقول الجماهير وإغراقهم فى طوفان من الأكاذيب لتخويفهم من أخطار قادمة من عدو وهمى هو جيرانهم المسلمون الأبرياء.

وقد سجلت الهجمة الصربية على البوسنة وما حدث فيها من انتهاكات إنسانية مروعة وجرائم حرب لجنة دولية استغرقت تحقيقاتها عامين، ورفعها الأمين العام للأمم المتحدة إلى مجلس الأمن بخطاب مؤرخ فى ٢٧ أيار- مايو ١٩٩٤ استجابة لقرار مجلس الأمن رقم ٧٨٠ لسنة ١٩٩٢ .

استمعت لجنة الخبراء فى هذه التحقيقات إلى خمسة وستين ألف شهادة من الضحايا وشهود العيان، وجمعت مئات من وثائق الإدانة وتسجيلات فيديو بلغت ثلاثمائة ساعة، هذه الوثيقة تعتبر أخطر وثيقة إدانة فى تاريخ الأمم المتحدة. وكان رئيس اللجنة هو «شريف بسيونى» أستاذ القانون بجامعة «دى بول» فى شيكاغو، له أكثر من ٢٣ كتابًا فى القانون الدولى وحقوق الإنسان.

ولعل من أهم ما جاء فى تقرير الخبراء أنه أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الجرائم الوحشية التى ارتكبها الصرب فى البوسنة لم تكن كما زعم قادتهم مجرد انتهاكات فردية قام بها أفراد منحرفون أو غير منضبطين، وإنما كانت جرائم مخططة بتدبير سابق وضعها خبراء وتم تنفيذها بأسلوب منظم، وطبقت فى جهات مختلفة بطريقة نمطية ثابتة، وكان التنسيق بين المجموعات التى شاركت فى تنفيذها على أعلى مستوى.. واستطاع المحققون أن يتتبعوا مصادر التوجيه والأوامر إلى أعلى مستويات فى القيادات السياسية والعسكرية الصربية.

وبعد عامين من تقديم هذه الوثيقة إلى مجلس الأمن وإلى محكمة جرائم الحرب اليوغسلافية فى لاهاى التقت الصحفية «سيسليا جابيزون» من شبكة الإعلام الدولية (WMN) فى ٢٤/٦/١٩٩٩ شريف بسيونى لتسأله عن مدى فاعلية هذه الوثيقة فقال: «لقد تقدمنا إلى محكمة جرائم الحرب بأسماء رادفان كراجيتش زعيم صرب البوسنة وقائد قواته الجنرال راتكو ملاديتش. ولم يتم القبض عليهما حتى الآن». ويمضى شريف بسيونى فيقول: «هناك قائمة أخرى تشتمل على أسماء رؤساء دول ووزراء فى حكومتى صربيا وكرواتيا وأسماء جنرالات كبار فى الجيش ومديرى معسكرات الاعتقال، هؤلاء جميعًا لابد من تقديمهم إلى العدالة لأن السلام فى يوغسلافيا لن يسود إلا بتحقيق العدالة».

وفى آخر سؤال وجهته الصحفية إليه قالت: «أى الأفكار ترسب عندك أكثر من غيره عن حرب البوسنة؟» فقال: «من هذه الحرب تعلمت درسًا شاهدت فيه نظم الضبط الاجتماعى تنهار على أيدى أشرار المجتمع، فعندما يتمكن السفاحون وقطاع الطرق من امتلاك السلطة المطلقة فى أى مكان، وخصوصاً إذا كانت تسيطر على عقولهم عقيدة قومية عنصرية فإن كل شىء يصبح ممكنًا».. وهؤلاء هم الذين صنعوا جرائم حرب البوسنة على أوسع نطاق، استهانت بجرائمهم الدول الغربية وفرضت على البوسنة تسوية ظالمة كافأت فيها المعتدين بتمكينهم من نصف أرض البوسنة التى استولوا عليها بقوة السلاح، ثم تغافلت عن تقديمهم إلى العدالة فاستمرأوا جريمتهم، وعادوا مرة أخرى يكررونها فى كوسوفا واثقين أنهم سيفلتون من العقاب كما أفلتوا من قبل.

«حرب التحرير»

لم يكن الغزو الذى قام به الصرب على كوسوفا سنة ١٩١٢ .. حرب تحرير كما زعموا، وإنما حرب إبادة اتخذت شكل مذابح مروعة قتل فيها عشرات الألوف من المدنيين: المسلمين والكاثوليك على السواء، وعلى رغم الحظر الإعلامى الذى فرضته القوات الصربية استطاعت الكنيسة الكاثوليكية فى كوسوفا تسريب أخبار إلى صحيفة الديلى تلغراف البريطانية عن مذابح وقعت فى مدينة فريزاى، حيث دعا الجنرال الصربى جميع الرجال إلى العودة إلى منازلهم فى سلام وعندما استقروا فيها أحاطت بهم القوات الصربية ثم أخرجتهم واحداً واحداً وأطلقت النار عليهم أمام أعين ذويهم، فقتلوا بذلك أربعمائة رجل.

أما أبشع هذه المذابح فقد جاء على لسان رئيس أساقفة كاثوليك «سكوبيا».. فى تقرير موجه إلى البابا بتاريخ ٢٤ كانون الثانى- يناير سنة ١٩١٣ قال فيه: «لم يبق فى مدينة فريزاى من المسلمين الألبان فوق سن الخامسة عشرة سوى ثلاثة أشخاص، أما فى جيلان فقد ذبح جميع سكانها فلم يبق منهم أحد.. وأصبحت جياكوفا خالية من سكانها وبدت مدينة بريزرن بعد انحسار الصرب عنها كأنها مدينة الأموات.. وعمت الفوضى فى المدينة وجرت أعمال السطو والاغتصاب على أوسع نطاق، فقد استباح الصرب كل شىء فى المدينة: حياة الناس وأموالهم وأعراض نسائهم، ولم يكن الأمر مباحاً فحسب ولكن كانت تشجع عليه القيادات الصربية وتأمر به جنودها علنًا..

ومع كل هذه الجرائم المروعة أجبر القائد العسكرى «بوجو بانكوفيتش» من بقى من أعيان المدينة ومسدسه مصوب إلى رؤوسهم أن يبعثوا ببرقية شكر إلى بيتر ملك الصرب فى بلجراد على تحريرهم من العثمانيين».

وفى سنة ١٩١٤ شكلت مؤسسة كارنيجى الأمريكية لجنة تحقيق فى كوسوفا أكدت فى تقريرها أنه قد تبين لها بالأدلة وجود سياسة مخططة يتم تنفيذها فى كوسوفا، وأنها شاهدت منازل بل قرى بأكملها قد تحولت إلى رماد بسبب إشعال الحرائق فيها على نطاق واسع، وأن أعداداً هائلة من المدنيين الأبرياء تعرضوا لمجازر وحشية.. وأن هذه الوسائل استخدمت ولا تزال تستخدم بواسطة القوات الصربية وقوات الجبل الأسود بهدف تغيير المعادلة السكانية والخصائص الإثنية فى المناطق التى يسود فيها الوجود الألبانى.

لم يقتصر الأمر على المجازر والإبادة الجماعية بل شمل أيضًا عمليات إرهابية لإجبار المسلمين والكاثوليك الألبان على اعتناق الأرثوذكسية، وكان السبب المباشر لهذه العمليات الإجرامية هو تغيير إحصاءات السكان بحيث يبدو الصرب على أنهم هم الأغلبية السكانية فى كوسوفا، وبالتالى تعزيز الجهود الدبلوماسية فى مؤتمر لندن لتأييد حق الصرب المزعوم فى أراضى كوسوفا.

البرنامج الاستيطانى فى عهد يوغسلافيا الملكية:

كان الاحتلال الاستيطانى للصرب فى كوسوفا ظاهرة مركبة استهدفت تحقيق مجموعة من الأهداف:

أولاً: تغيير التركيبة السكانية لصالح الأقلية الصربية بحيث يتحول الألبان إلى أقلية ضعيفة فقيرة مضطهدة حتى تصبح حياتهم فى وطنهم مستحيلة فيلجأون إلى الهجرة من كوسوفا.

ثانيا: محاولة إيقاف ظاهرة تدفق المهاجرين الشباب من صربيا والجبل الأسود إلى أمريكا الشمالية وذلك بإغرائهم بتملك أراض فى كوسوفا والبقاء مع ذويهم.

ثالثًا: معاقبة قادة وأعضاء حركة الألبان الثورية «كاتشاك» التى قاومت الغزو الصربى لبلادهم ببسالة نادرة لبضعة عقود.

رابعًا: تدعيم السياسة الأمنية للصرب فى كوسوفا باستزراع مستوطنات صربية فى مواقع استراتيجية على طول الطرق الرئيسية للمواصلات بحيث يسهل تحصينها وحمايتها ووصول النجدات العسكرية إليها عند اللزوم (على غرار المستوطنات الصهيونية فى فلسطين تمامًا...)

لم تسم صربيا برنامجها الاستيطانى هذا باسمه الحقيقى وإنما أطلقت عليه وصف «إصلاح زراعى لوضع عثمانى بائد»... بدأ برنامج الاستيطان الصربى فى كوسوفا قبل الحرب العالمية الأولى بقانون يسمى «قانون استعمار الأرض المحررة» فى فبراير ١٩١٤.. وفى فبراير سنة ١٩١٩ صدر قانون جديد تحت اسم «الإصلاح الزراعى»، أعلن تفتيت الملكيات الكبيرة التى كانت فى حوزة الألبان، وأمم أراضى الغابات، وخصص مساحات شاسعة تمنح للجنود الصرب وأعضاء الميليشيات الإرهابية التابعة لمنظمة «شيتنك».. ثم صدر قانون آخر سنة ١٩٢٠ يحدد الأراضى التى يمكن توزيعها على المستوطنين الصرب على النحو الآتى:

١- الأراضى الخالية التى تخضع لملكية الدولة..

٢- الأراضى المملوكة للجمعيات والمؤسسات الأهلية..

٣- الأراضى غير المزروعة أو التى هجرها أصحابها، وكان أصحابها من القيادات الوطنية الألبانية فى المنفى خارج كوسوفا.

٤- الأراضى التى تمت مصادرتها بمقتضى قانون الاستيطان فى فبراير ١٩١٩.

وفى سنة ١٩٣٥ بدأت تظهر موجة جديدة من المصادرات للأراضى الباقية فى حوزة الألبان على أساس قاعدة جديدة وهى أن أى أرض لا يملك الفلاح وثيقة يوغسلافية بملكيتها تصبح ملكًا للدولة.. ومعنى هذا إسقاط شرعية ملكية الأراضى التى يحمل أصحابها وثائق عثمانية.

ونتيجة لهذه القوانين الجديدة التى بدأ تنفيذها سنة ١٩٣٨ جردت السلطات الصربية ألبان كوسوفا فى ٢٣ قرية فى وادى «درينتشا» من أرضهم، وأصبح ٦٠٤٦ أسرة ألبانية مسلمة من الفقراء المعوزين بضربة صربية واحدة.

فما الذى يمكن أن نستخلصه من كل ما سبق؟

أولاً: إن الوصف الذى جاء على لسان شهود العيان من الصحفيين وورد فى تقارير قادة الكنيسة الكاثوليكية إلى البابا وفى تحقيقات مؤسسة كارنيجى فى كوسوفا على أثر الغزو الصربى سنة ١٩١٢، يعكس سيناريو الجرائم الصربية المروعة.. هذا السيناريو القديم تكرر أمامنا مرة أخرى على أرض كوسوفا.. قامت فيه القوات الصربية بعمليات التطهير العرقى والطرد الجماعى للألبان.

ثانيا: إن الاحتلال الاستيطانى كان ولا يزال هو العلاقة الوحيدة المؤكدة بين صربيا وكوسوفا، وهى علاقة تنهار أمامها كل المزاعم الصربية التى تدعى أن كوسوفا جزء من دولة واحدة هى صربيا، وأن الألبان مجرد مواطنين عاديين

متساوين في الحقوق مع المواطنين الصرب. هذه المزاعم كلها مجرد خرافات لا يمكن أن تنطلي على أحد له عيون ينظر بها وعقل يفكر به..

ولكي نتبين حقيقة استمرارية العلاقة الاستعمارية للصرب بكوسوفا سننظر فيما يلي إلى بعض التفاصيل في برنامج ميلوسيفتش الاستيطاني الذي صدر في سنتي ١٩٩٠و١٩٩١، وهو أمر لا يمكن إخفاؤه أو إنكاره لأنه منشور في الصحف والوثائق غير السرية.

استيطان ميلوسيفتش:

كانت بداية هذا البرنامج إلغاء دستور يوغسلافيا الفيدرالي لسنة ١٩٧٤ الذي ضمن لكوسوفا حكمًا ذاتيا موسعًا في إطار الاتحاد اليوغسلافي (وليس في إطار صربيا).. لذلك ألغى ميلوسفيتش هذا الدستور ثم أتبعه بمجموعة من الإجراءات التعسفية نفذتها الشرطة الخاصة والقوات المسلحة كان من نتيجتها إلغاء حكومة كوسوفا وإلغاء دستورها وبرلمانها ونظامها القضائي الخاص وشرطتها المستقلة. ثم تلا ذلك سنة ١٩٩٠ صدور سلسلة من القوانين والإجراءات الصربية استهدفت تدمير البنية الأساسية للشعب الألباني وتعزيز سيطرة الأقلية الصربية عليه.. من هذه الإجراءات:

١- إنشاء مجالس محلية في كوسوفا مقتصرة على المناطق التي تسود فيها الأقلية الصربية، وممنوع على الألبان ترشيح أنفسهم فيها. (لاحظ أن الصرب من سكان كوسوفا لا يزيد عددهم على مائتي ألف وأن تعداد الألبان أكثر من مليونين...!)

٢- تركيز جميع الاستثمارات في المناطق الصربية فقط.

٣- بناء منازل جديدة للصرب تشجيعًا لمن هاجر منهم على العودة إلى كوسوفا وجذب صرب آخرين للإقامة فيها..

٤- إقامة مراكز لتحديد النسل مقتصرة على المناطق التي يسود فيها الألبان المسلمون (لتقليص عددهم)..

٥- إلغاء شرعية امتلاك الألبان لأي عقارات أو أراض سبق لهم شراؤها من الصرب..

٦- من حق أي صربي يرغب في الإقامة في كوسوفا أن يمتلك خمسة هكتارات من الأراضي بالمجان..

فلما اندلعت المظاهرات الألبانية احتجاجًا على هذه الإجراءات التعسفية نزلت الدبابات الصربية إلى الشوارع وأعلنت الأحكام العسكرية، وأصدرت السلطات الصربية سلسلة أخرى من القرارات الاستعمارية المتعسفة في ٢٦ يونية ١٩٩١ .. أطلقت عليها الحكومة الصربية «إجراءات مؤقتة» ولكنها استمرت لسنوات لاحقة:

- منع صدور الصحف المنشورة باللغة الألبانية.
- إلغاء المدارس الألبانية والمناهج الألبانية وإغلاق جامعة بريشتينا وتشريد طلابها وأعضاء هيئة التدريس فيها.
- إغلاق أكاديمية العلوم والآداب الكوسوفية.
- إغلاق محطة التلفاز والإذاعة الألبانية.
- طرد جميع المدرسين العاملين في المدارس الألبانية.
- طرد الموظفين المسلمين من القطاع العام للدولة.
- طرد ثمانين ألف عامل ألباني من وظائفهم في المصانع.
- طرد جميع الأطباء والعاملين الألبان في الخدمات الصحية.
- إلغاء التحصين الدوري لأطفال المسلمين.. مما تسبب في رفع نسبة الوفيات بينهم من أمراض بسيطة مثل الحصبة.

وهكذا بفرمان استعماري واحد أحال ميلوسيفتش شعبًا بأكمله إلى الاستيداع ليلحق بجيش العاطلين والمتسولين في وطنهم الذي ترتع فيه وتنعم بخيراته أقلية صربية مدللة تحرسها دبابات الجيش الصربي.. ولكي تكتمل الدائرة الجهنمية أغلقت السلطات مؤسسة الأم تريزا الخيرية التي كانت تطعم ٢٥ ألف جائع ألباني...

وفي أثناء تنفيذ هذه الإجراءات ارتكبت السلطات الصربية أبشع الجرائم ضد الأفراد لمجرد الاشتباه في المقاومة، وتحفل سجلات منظمة العفو الدولية بتقارير مفصلة عن أنواع الجرائم التي شملت قتل أطفال المدارس.. وضرب مدير أكاديمية العلوم والآداب الكوسوفية (الألباني) حتى تحطمت عظام فكه وأنفه، وأغمي عليه، ثم ألقي به في عرض الطريق ينزف دمًا...

ألبان وعثمانيون

لقد غزت صربيا أراضي كوسوفا في العصور الوسطى واحتلتها لمدة قرنين، ولكنها كانت خاضعة قبل ذلك للبلغار لمدة قرنين، وكانت قبل البلغار ضمن أراضي الإمبراطورية البيزنطية لعدة قرون. وبعد الصرب جاء العثمانيون فحكموا الجميع وأصبحت كوسوفا جزءًا من أراضي الدولة العثمانية، وحدث خلال القرنين الأولين. على الأقل. امتزاج رائع بين الألبان والعثمانيين فقد أسلم ألبان كوسوفا وأصبحوا من أقوى المدافعين عن الدولة العثمانية وكان منهم الوزراء العظام والمستشارون المقربون من السلطان، والولاة الذين لم يحكموا بلادهم فقط ولكنهم حكموا أيضًا بلادًا أخرى في الدولة العثمانية، ومحمد على باشا رأس الأسرة الملكية التي حكمت مصر حتى قيام الثورة مثال على ذلك.. فإذا كانت صربيا ترتب على تاريخها الاستبدادي في حكم كوسوفا خلال العصور الوسطى حقوقًا تاريخية وروحية مقدسة فإن البلغار يقولون الشيء نفسه، والأتراك أحق من الجميع لأنهم احتووا كوسوفا لمدة تقرب من خمسة قرون استمرت حتى بداية القرن العشرين. ولذلك فإن إغلاق صفحة القرون الوسطى نهائيا أولى من الجدال بالباطل والتمحك بكنيسة مقدسة هنا أو هناك أو ملك دفن في بلدة كذا، فالسلطان مراد مدفون في أرض كوسوفا وأصبح جزءًا من تراب هذه البلاد.

ونحن لا نسمع في هذا الزمن حكاية الحقوق التاريخية المقدسة إلا من جهتين: من الصرب ومن الصهيونية، وقد عقدتُ مقارنة بالفعل في مقدمة كتابي عن كوسوفا ردًا على تصريح صحفي أدلى به ميلوسيفتش نفسه عندما صرح بأن كوسوفا بالنسبة للصرب مقدسة مثل القدس بالنسبة لإسرائيل.. لننس إذن صفحة القرون الوسطى وننظر في علاقة الصرب بكوسوفا في العصر الحديث:

أصبحت كوسوفا مستعمرة صربية بعد غزوها سنة ١٩١٢ وخضعت بقوة السلاح لا برغبة أهلها ولا بمشورتهم لصربيا، وبعد ثلاثة أعوام فقط طرد النمساويون والبلغار الصرب من كوسوفا ثم عادوا إليها على أكتاف الحلفاء الأوروبيين المنتصرين في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ ..واستمرت كوسوفا تابعة ليوغسلافيا الملكية إحدى وعشرين سنة أخرى حتى قيام الحرب العالمية الثانية عندما احتلها الألمان وطردوا منها الصرب مرة أخرى حتى نهاية الحرب سنة ١٩٤٥ .

فلما قامت يوغسلافيا الجمهورية الشيوعية أصبحت كوسوفا جزءًا من هذه الدولة الفيدرالية الجديدة، وقد علمنا أنها حصلت على نوع من الحكم الذاتي يتساوى عمليا بوضع الوحدات الجمهورية الأخرى.. وخلاصة التحليل أن كوسوفا تبعت صربيا كارهة لمدة ٣٣ سنة وتبعت يوغسلافيا «تيتو» لمدة ٤٥ سنة، وحتى لو تجاهلنا اختلاف وضعها السياسي في عهد تيتو وأضفناه إلى حساب صربيا لوجدنا أن مجموع هذه السنوات كلها لا يزيد على ٧٨ سنة.. ويجب أن نتوقف كثيرًا عند هذه النقطة لأن هذه المدة لا تزيد كثيرًا على الفترة التي خضعت فيها مصر للاحتلال البريطاني.. والاحتلال الفرنسي كان أطول من ذلك بكثير في الجزائر.. وقد زعمت فرنسا بالفعل أن الجزائر جزء لا يتجزأ من دولة فرنسا، ولكن هذا الزعم لم يغير حقيقة أن الجزائر كانت مستعمرة فرنسية، ولم يمنع من استقلال الجزائر وإنهاء الاحتلال الفرنسي فيها.

كوسوفا في الإعلام الغربي:

حول قضية كوسوفا قدر لي أن أساهم في عدد من الندوات وحلقات النقاش لاحظت فيها أن كثيرًا من الناس يصعب عليهم أن يفهموا حقيقة أن شعب كوسوفا الذي يطلق عليه اسم الألبان هو ألباني حقًا، ولكنه ليس متحدرًا ولا مجلوبًا من الدولة المجاورة التي اسمها.. ألبانيا والتي يرجع تاريخ إنشائها إلى قرار من مؤتمر لندن صدر سنة ١٩١٣، وكانت المناسبة هي عملية تقسيم أملاك الدولة العثمانية في أوروبا.

وهكذا ضمت ألبانيا جزءًا من الألبان الذين تصادف وجودهم في هذه المنطقة من البلقان، ولكن بقي ألبان كوسوفا ومقدونيا نهبًا موزعًا على دول أخرى، ولست أدري ما هي الصعوبة العقلية في فهم حقيقة بسيطة كهذه؟

لقد وُجد الألبان في قلب هذه المنطقة واستقروا فيها قبل أن يأتي العثمانيون وقبل أن تطأ أرض البلقان أقدام الصرب السلافيين بقرون عديدة؟

إننا نقول عرب فلسطين وعرب مصر وعرب المغرب، ولا نقول عن هؤلاء إنهم المتحدرون من أصل عربي، فلماذا لا نقول ألبان كوسوفا دون «تحدر»؟ فهذه صياغة صربية دعائية تبنتها أجهزة الإعلام الغربية ونقلتها أجهزة الإعلام العربية لأنها لا تملك وسائل للبحث والتدقيق وليس لدينا مراكز للدراسات البلقانية ولا حتى كتاب واحد جيد يحتوي على دراسة جادة يشرح هذه الألغاز. وإنما أصبنا ببعض كتاب استسهلوا ما تلقيه إليهم وزارة الإعلام الصربية مترجمًا في بعض الأحيان باللغة العربية فرددوه كالببغاوات وهم لا يعلمون أنهم يخوضون في بحر من الأكاذيب.

وجد في بلغراد مركز للدعاية الصربية مخصص للوطن العربي يسمى «مكتب الصحافة العربي في بلغراد» يصدر نشرة تحت عنوان: «نشرة العالم العربي ويوغسلافيا اليوم» يديره عربي فصيح تستشيره الإذاعات والفضائيات العربية ويطالعك بصوته وصورته في كل برنامج إخباري مدافعًا عن الأكاذيب الصربية بصفاقة لا نظير لها. والناس يستمعون كارهين لأنهم لا يملكون وسيلة للمراجعة



ولا سابق معرفة بجذور القضية، ولا بأصولها التاريخية أو القانونية.

لم يستطع أحد أن يخدعنا بأن الجزائر جزء من فرنسا لأننا كنا نعرف تاريخ الجزائر العربية وتاريخ احتلال الفرنسيين لها، ولم يستطع أحد أن يخدعنا عندما ادعى أن فلسطين هى أرض إسرائيلية، ولم يخدعنا عندما زعم أنها لأرض بلا شعب، ولا عندما ادعى بأن له حقوقًا تاريخية مقدسة فى أرض فلسطين.. لأن الأجيال التى شهدت الاحتلال الاستيطانى لفلسطين لا تزال حية ترزق ولا يزال الفلسطينيون الذين طردوا من وطنهم ولا يسمح لهم بالعودة إليه يعيشون بين ظهرانينا، أما عندما قيل لنا إن كوسوفا جزء من صربيا أوشكنا أن نصدق هذه الأكذوبة لأننا نجهل أصل القضية وجذورها التاريخية.

وشاعت فى إعلامنا أفكار خاطئة عبرت عنها مصطلحات وعبارات خاطئة. وعندما اشتعلت الحرب فى كوسوفا تدخل شمال الأطلسى (الناتو) بالقصف الجوى على صربيا، وشاعت على الأقلام وفى التصريحات السياسية إشكالية السيادة الوطنية وعدم شرعية التدخل العسكرى للناتو، وانتهز الصرب هذه الهستيريا فربطوا بين قصف الناتو لهم بالقصف الجوى على العراق وليبيا والسودان لإثارة الرعب فى البلدان العربية، فارتفعت صيحات التحذير من التمادى فى البلطجة الأمريكية التى قد تطول دولنا فى المستقبل القريب أو البعيد.

وكثرت تصريحات المعلقين والمحللين الاستراتيجيين حول الناتو حتى غرقت القضية فى معارك أكاديمية، وبدلاً من أن نتوقف لحظة لنذرف دمعة على الشعب المطرود من أرضه تعاطفنا مع المعتدى ونسينا جرائمه الجارية فى كوسوفا وجرائمه السابقة فى البوسنة والهرسك، وذرفنا الدموع على يوغسلافيا ميلوسيفتش آخر حصن للاشتراكية فى أوروبا، ووريثة تيتو العظيم بطل الحياد الإيجابى وصديق عبد الناصر، وصدقنا خرافة أن أمريكا تتدخل لأن بينها وبين يوغسلافيا ثأرًا مبيتًا.. وأنها تريد تفكيك يوغسلافيا، بينما كانت أمريكا متعاطفة مع يوغسلافيا وكانت ضد تفكيكها من البداية، ومن أراد أن يفهم هذه النقطة بالذات عليه أن يقرأ كتاب السفير الأمريكى الأسبق فى بلجراد «وارين زيمرمان»: جذور الكارثة، ليعرف بالتفصيل الموثق الموقف الأمريكى الحقيقى فى ذلك الوقت...

والحقيقة التى لا تحتاج إلى ذكاء كبير لفهمها وإنما لمجرد أعين ترى وتبصر أنه لا يوجد فى يوغسلافيا المزعومة اشتراكية ولا قلعة حصينة لها فى بلغراد، ولا توجد حتى يوغسلافيا حقيقية اللهم إلا بالاسم فقط..

وأن ما هو موجود على الساحة هو صربيا الكبرى التى كانت تضم على مضض وكراهية من الشعوب كيانًا صغيرًا لا يزيد سكانه على نصف مليون يسمى جمهورية الجبل الأسود، وإقليم بالحجم نفسه تقريبًا اسمه فويفودينا، ثم كوسوفا التى علمنا من أمر مصيبتها ما علمنا. أما يوغسلافيا تيتو فقد اندثرت، وأصبح تراث تيتو تدوسه أقدام القوميين الصرب العنصريين فى بلغراد، ويلعنون أيامه. لابد أن أضيف هنا حقيقة يجهلها أو يتجاهلها كتابنا عندما يخوضون فى تاريخ يوغسلافيا المعاصر.. وهى أن الجبل الأسود انسحبت من الاتحاد اليوغسلافى المزعوم وآثرت أن تنفصل عن بلجراد رغم أن ٤٥٪ من سكانها صرب سلافيون أرثوذكس.. ليسوا مسلمين كما هو الشأن فى كوسوفا.. لم يلتفت إلى هذا أحد ولم يعلق على هذا «الاستقلال» ولم يسمه «الاستقلال الزائف» ولا أثاروا حوله وحول دوافعه الشكوك كما فعلوا مع استقلال كوسوفا.. استسلمت صربيا ولم تغضب ولم تهدد.. فلماذا تتشنج وتثير الدنيا من حولها.. وتتوعد بالويل والثبور؟ ويتابعها كتابنا المتنورون جدًا فى هذا الغضب ويرددون مزاعمها بلا خجل عن حكاية الحقوق التاريخية وأرض الأجداد ومهد الصرب الأرثوذكس.. لماذا؟

لكى تعرف السر حقا.. اعلم أن أرض كوسوفا تضم فى جوفها ثروات معدنية كبيرة لا غناء عنها فى الصناعة.. وعلى الأخص الصناعة العسكرية: فيها أكبر مصادر الرصاص والزنك فى أوروبا، وكانت تنتج نصف منجنيز يوغسلافيا.. وكل نيكل يوغسلافيا.. بحيث اعتبرت ثالث أكبر دولة منتجة لهذا المعدن.. وإلى جانب ذلك هناك مناجم بها كميات هائلة من البوكاسيت والحديد والنحاس..

هذه الثروة الطبيعية جعلت كوسوفا هدفًا لغزو الجيوش الأجنبية منذ العصر الرومانى إلى العصر الحديث.. وقد حرص هتلر أثناء احتلاله ليوغسلافيا فى الحرب العالمية الثانية أن يضع شرق كوسوفا تحت سيطرة قواته العسكرية.. وكانت القطارات الألمانية تنقل يوميا خمسمائة طن من معدنى الرصاص والزنك من مناجم كوسوفا إلى مصانع ألمانيا الحربية...

هذا إذن هو السبب الحقيقى لأن تعض صربيا عليها بالنواجذ وتثير الضجيج حول استقلالها.. وتنفق ملايين الدولارات على أجهزة دعاياتها وعلى أبواقها فى مصر وفى البلاد العربية.. وتشترى ضمائر الكتاب الصغار والكبار فى كل مكان.. وكل أسباب أخرى مدعاة إنما هى من قبيل المفتريات والحكايات الأسطورية تغطى بها على أهدافها الحقيقية... ■

كتاب الزاوية

تربية سلامة موسى

الكاتب المصرى

هذا الكتاب هو ترجمة حياة الكاتب المصرى والباحث الاجتماعى الأستاذ سلامة موسى بقلم نفسه. وترجمة الحياة التى يكتبها الكاتب لنفسه، فن غير مألوف كثيرًا بين الكتابات فى الأدب العربى الحديث وإن كان الأدب العربى القديم يحتوى على درر قليلة منه. ولكنه فن مألوف وواسع الانتشار فى الآداب الغربية؛ فهو فى بعض الأحيان يبلغ فى يد الكاتب مبلغ القصص، وفى بعض الأحيان يكون صورة للحياة الاجتماعية فى عصره، وفى بعض الأحيان يكون حديثًا معادًا يتلهى به القراء. وهو فى كل هذه الأحوال يكون عبرة وموعظة.

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا يجمع مزايا الأنواع جميعها. ففيه القصص، وفيه صورة لحياة العصر الذى نشأ فيه الأديب، وفيه من الحديث ما يتلهى به القارئ. ولئن أراد الأستاذ سلامة موسى أن يقصره على تربيته، كما قد يفهم من عنوانه، فإنه لم يوفق فى حصر الموضوع، ونستطيع أن نقول إنه لم يوفق فى اختيار العنوان: فإن الكتاب أشمل وأكبر من أن يكون وصفًا لتربية الأستاذ سلامة موسى وحدها، ولا يزال منفردًا به فى كتبه الأخيرة.

فما هو طابع سلامة موسى فى آرائه؟ طابعه فى رأيى ـ وقد أكون مخطئًا ـ أنه يسبق الفكر الشرقى إلى الآراء الأوروبية. فهو قد نادى فى كتبه بآراء اجتماعية جديدة، حين كانت الأمة المصرية لا تلتفت ولا تهتم إلا للأدب القديم، وشىء من الأدب الحديث البعيد عن الإصلاحات الاجتماعية.

(مارس ١٩٤٨)

تعقيبـــــــات

محاضـــرة أليســـــتير هـــــورن

«اشتعلت حرب أكتوبر بينما كانت واشنطن وموسكو تحاولان نقل علاقتهما من حالة المواجهة إلى التفاوض»

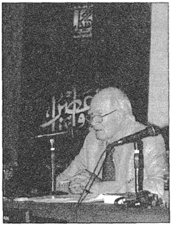
الروس وحرب أكتوبر

السيد أمين شلبى

■ كان الموضوع الأساسى فى محاضرة السير أليستير هورن التى ألقاها فى الجامعة الأمريكية بدعوة من مؤسسة هيكل للصحافة العربية، وأعادت «وجهات نظر» نشرها فى عدد مارس ٢٠٠٨، هو دور وزير الخارجية الأمريكية الأسبق هنرى كيسنجر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وليس غريباً أن يركز السير هورن على هذا الدور فهو من الأدوار التى حولت مجرى الصراع فى الشرق الأوسط، وكانت بداية ترسيخ الدور والدبلوماسية الأمريكية فى المنطقة. وعندما يؤرخ لدبلوماسية هنرى كيسنجر وأساليبه فى السياسة الخارجية الأمريكية، فإن دوره فى صراع الشرق الأوسط وتوجيهه للأحداث فى أعقاب حرب أكتوبر، تقف فى المقدمة، إلى جانب أدواره الدبلوماسية الأخرى التى صنعت مكانته الدولية مثل إنهاء الحرب فى فيتنام، والانفتاح على الصين، وأهم من هذا إعادة ترتيب العلاقات مع الاتحاد السوفيتى. لذلك استمعت وأعدت قراءة محاضرة السير أليستير هورن فى سياق أشمل وهو العلاقات السوفيتية الأمريكية، وعملية الوفاق التى شرع فيها نيكسون، وقدم هنرى كيسنجر أساسها الفلسفى والدبلوماسى.

وكما نعلم فإن حرب أكتوبر قد اشتعلت والقوتان تعيدان بناء علاقاتهما من أجل نقلها من حالة المواجهة إلى مرحلة التفاوض والتعاون وهى العملية التى عرفت بسياسة الوفاق، فى هذا السياق سبق اشتعال حرب أكتوبر مؤتمران للقمة الأمريكية السوفيتية، قمة موسكو فى يوليو ١٩٧٢ وقمة واشنطن فى أغسطس ١٩٧٣، وهما القمتان اللتان صدر عنهما العديد من الاتفاقيات وبشكل خاص اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية (SALT I) ثم اتفاق إعلان المبادئ (Declaration of Principles) وهو الإعلان الذى كان مقصوداً به أن تهتدى به القوتان فى التعامل مع الأزمات الإقليمية والدولية بشكل لا يؤدى إلى مواجهة بينهما. وأذكر أنه خلال عملى فى سفارة مصر فى موسكو خلال اشتعال حرب أكتوبر أن السفير السويدى فى موسكو جورانج يارنج قد طلب فى اليوم الثانى لاشتعال الحرب مقابلة السفير المصرى آنذاك فى موسكو يحيى عبد القادر ونبهه إلى أن كلا من واشنطن وموسكو سوف يلجآن إلى استخدام إعلان المبادئ لإدارة هذه الحرب وهو ما تحقق حين زار هنرى كيسنجر موسكو يوم ٢٠ أكتوبر بناء على دعوة من برجينيف، وفى هذه الزيارة تم الاتفاق على الأسس والمبادئ التى صدر على أساسها قرار مجلس الأمن ٣٣٨ فى ٢٢ أكتوبر الذى دعا إلى الوقف العاجل لإطلاق النار وتنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وهو ما لم تلتزم به إسرائيل وأدى إلى تحركات عسكرية سوفيتية فسرها وزير الدفاع الأمريكى سلزنجر بـ:

- مضاعفة حجم الأسطول السوفيتى فى البحر المتوسط.
- إعلان حالة التأهب لقوات الإنزال السوفيتية.
- إعداد طائرات نقل القوات.



هـــورن



كيســـنجر

وهو التطور الذى أدى إلى قرار أمريكى برفع حالة التأهب الاستراتيجى وقد رد الاتحاد السوفيتى على هذا الإعلان ببيان شديد اللهجة بقوله: «إن هذه الخطوة من جانب الولايات المتحدة لا تخدم بأى حال الوفاق الدولى وأنها قد اتخذت بشكل واضح لإخافة الاتحاد السوفيتى، ولكن هؤلاء الذين وراء هذه الخطوة يجب أن يقال لهم إنهم اختاروا العنوان الخاطئ».

ويبدو أن السبب الرئيسى لإعلان حالة التأهب الأمريكى كان «دبلوماسيا» لذلك وبعد اتصالات أمريكية سوفيتية وتحرك فى مجلس الأمن قضى بعدم مشاركة دول مجلس الأمن الدائمين فى قوات حفظ سلام، رفعت الولايات المتحدة حالة التأهب بشكل جزئى، وهكذا وكما عبر الرئيس الأمريكى نيكسون تلاشت «أصعب أزمة واجهت البلدين منذ الصواريخ الكوبية».

وقد أثار الدور السوفيتى فى حرب أكتوبر جدلا واسعا فى الولايات المتحدة حول دلالات وتأثير الحرب على بناء الوفاق الأمريكى السوفيتى ومستقبله، فقد انتقد البعض السلوك السوفيتى واعتبره خرقاً لإعلان المبادئ، وفى مقابل هذا رد القادة السوفييت بأنهم بالعكس عملوا وفقاً لهذه المبادئ حين حذروا قبل الحرب من الموقف الخطير والمتفجر فى الشرق الأوسط، بل وذهبوا إلى التحذير أنه ما لم تنسحب إسرائيل من الأراضى العربية فإن حرباً جديدة فى الشرق الأوسط قد لا يمكن تجنبها.

ويتساءل المؤرخون حول ما إذا كانت هذه الإشارات تعتبر تحذيراً؟ ويأخذون على الاتحاد السوفيتى بأنه لم يكن محدداً وأن البيانات السوفيتية تلك بمزاوجتها التأكيدات بالحالة المتغيرة فى الشرق الأوسط بمطالبة إسرائيل بالانسحاب ودعوة الأمم المتحدة للقيام بعمل ما فإن الاتحاد السوفيتى لم يكن يحذر الولايات المتحدة بشكل أكيد أكثر من محاولة إقناعها بالضغط على إسرائيل من أجل التسوية وباعتبار استعداد الولايات المتحدة لاستبعاد احتمال هجوم عربى على إسرائيل فإنه لم يكن مدهشاً أن تتجاهل هذه التحذيرات أو أن تأخذها مأخذ الجد. وقد أجاب كيسنجر على سؤال حول ما إذا كان السوفييت يعلمون مقدماً بالنوايا العربية فى الهجوم وأنهم على هذا كان عليهم تحذير الولايات المتحدة وقال «إنه من المبكر جدا إصدار حكم نهائى حول كل هذه المسائل، فإذا كان الاتحاد السوفيتى قد شجع هذا الهجوم وهو الأمر الذى ليس لدينا الآن أى شهادة عليه، فإن هذا يجب أن يؤخذ من جانبنا كمسألة خطيرة جداً، ما إذا كان الاتحاد السوفيتى قد علم عن هذا الهجوم من خلال مخابراته الخاصة أو بطريقة أخرى ولم يخبرنا فهذه مسألة أخرى، وفى عالم تحكمه المثاليات فإن المرء يمكن أن يتوقع مشاورات وثيقة ولكن باعتبار اهتزاز الوضع فى الشرق الأوسط فإنه سيكون من المسئولية الثقيلة إعلان معلومات حصل عليها».

أما عن المبدأ الذى التزم به الطرفان فى معاهدة منع الحرب النووية التى صدرت عن قمة واشنطن من ضرورة تفادى خلق الظروف التى قد تؤدى إلى زيادة التوتر الدولى ومن ثم تفاقم علاقاتهم الدولية فإنه فى تقدير

المحللين الأمريكيين أن الاتحاد السوفيتى بإمداده العرب بالأسلحة الضرورية قد جعل الحرب أمرا ممكنا وان المعدات التى زود السوفييت العرب بها قد مكنتهم من التغلب على التفوق النوعى الإسرائيلى، كما أن كمية المعدات بدت مؤكدة للعرب القدرة على الصمود للخسائر الثقيلة بل وحتى التفوق على الدفاعات الاستراتيجية أو كسب حرب استنزاف، كما يؤكدون أنه كان من الواضح أن مصر وسوريا لم تكونا لتحصلان على أهدافهما بالوسائل العسكرية بدون مساعدة متماسكة ومستمرة وعلى نطاق واسع والتى ذهبت أبعد من مستوى إمدادات ١٩٧٠ - ١٩٧٢ بحيث احتوت على أنواع جديدة من الأسلحة لم تكن تزود بها القوات العربية من قبل.

والواقع أن هناك عددا من الكتابات والبيانات السوفيتية وبعض التصريحات المصرية التى يمكن لأصحاب هذا الرأى الاستناد إليها. فقد كتب «ميرسكى» الباحث فى شئون الشرق الأوسط فى معهد العلاقات الدولية والاقتصادية فى موسكو يقول «.. إنه قد أصبح واضحا أن القوات المصرية والسورية مزودة بأنواع من الأسلحة لا تملكها إسرائيل، وكما أشارت الصحافة الأجنبية فإن أغلب الطائرات التى فقدتها إسرائيل قد أصيبت بصواريخ ذات تصميم جديد والتى وقفت إزاءها الفانتوم والسكاى هوك عاجزة بينما حطمت الصواريخ المضادة للدبابات مئات الدبابات الإسرائيلية». وفى الاتجاه أيضا يشار إلى أن البيانات السوفيتية حول أساليب حل الصراع فى الشرق الأوسط بدأت تشير إلى اتجاه جديد، فبعد أن كان واضحا التركيز على ضرورة تحقيق حل بالوسائل السلمية بدأت البيانات السوفيتية وبالتحديد بعد زيارة حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى المصرى لموسكو فى فبراير سنة ١٩٧٣ تتجه إلى الإشارة إلى حق العرب فى استخدام كافة الوسائل لتحرير أراضيهم، فقد ذكر البيان الذى صدر عن الزيارة «أن الدول العربية لها الحق فى استخدام أى أشكال من النضال لتحرير أراضيها» وفى أبريل سنة ١٩٧٣ أجاب رئيس الوزراء السوفيتى كوسيجين عن سؤال عما إذا كان الاتحاد السوفيتى قد استأنف تزويد مصر بالأسلحة بقوله: «إننا نعتقد أن لمصر الحق فى امتلاك جيش قوى من أجل الدفاع عن نفسها ضد العدوان وتحرير أراضيها».

فى نفس الوقت وفى نطاق الجدل الأمريكى حول السلوك السوفيتى خلال حرب أكتوبر ثمة عدد من الأمريكيين لا يعتقدون أن الاتحاد السوفيتى قد تصرف بشكل يمثل ابتعادا عن مبادئ الوفاق ويقدمون فى هذا الحجج الآتية:

١. أن هناك مبالغة فى تقدير قدرة

آثار الدور السوفيتى فى حرب أكتوبر جدلا واسعا فى الولايات المتحدة حول دلالات وتأثير الحرب على بناء الوفاق الأمريكى السوفيتى ومستقبله

القوتين على الضغط على حلفائهما ففى حالة إسرائيل وبسبب التأييد الذى تتمتع به فى الولايات المتحدة فإنها قد قاومت بنجاح أن توكل مسئولية أمنها القومى للولايات المتحدة وأثبتت أنها محصنة نسبيا ضد الضغوط من جانب واشنطن ونفس الموقف ينطبق على علاقة الاتحاد السوفيتى فى مصر.

٢. أن القادة السوفييت قد التزموا بشكل أساسى بالمبادئ التى وقعوها فى موسكو وواشنطن بما فيها التحذير المستمر للولايات المتحدة من احتمال اشتعال الحرب فى الشرق الأوسط، وهو الأمر الذى تجاهلته الولايات المتحدة، كما قد تطلع الاتحاد السوفيتى بحق وبأمل فى تغيير سياسة الولايات المتحدة بشكل يمكن أن يجعل من التسوية عن طريق المفاوضات مقبولة من العرب.

٣. أن الاتحاد السوفيتى ربما قد تحقق من التكاليف العالية التى ستصيب الموارد السوفيتية وربما مكانتها إذا ما أيد محاولة أخرى لحل عسكرى للصراع العربى الإسرائيلى وهى المحاولة التى قد يصعب أن تحقق نتائج حاسمة.

٤. وبعبارات أخرى، فيما يعتقد أصحاب هذا الرأى، فإن حرب الشرق الأوسط كانت انحرافا تناقض مع المصالح السوفيتية وأولويات السياسة السوفيتية الناتجة عن عدم الاستقرار العميق فى المنطقة.

٥. على أنه بوجه عام وعلى الرغم من أن الضغوط التى عرضت لها حرب أكتوبر علاقات القوتين كانت قاسية إلا أنه فى النهاية فإن هذه العلاقة قد صمدت لهذه الضغوط وخرجت منها شبه سليمة.

وأكثر من هذا وبغض النظر عن النقد الذى ثار فى الولايات المتحدة حول سلوك الاتحاد السوفيتى خلال الأزمة وبأنه فضل مصالحه وارتباطاته على الوفاق، فإن الإدارتين فى كلا البلدين قد اعتبرتا أن المحصلة النهائية لهذه الأزمة كانت فى صالح الوفاق، ففى حديث إلى مؤتمر صحفى تحدث الرئيس الأمريكى نيكسون حول هذه النقطة فقال: «كحقيقة فإنه يمكن أن أقول إنه بدون وفاق فإنه كان من الممكن أن نواجه صراعا كبيرا فى الشرق الأوسط ولكننا تفاديناه بالوفاق». وفى موسكو تحدث برجنيف وهو يخاطب مؤتمر قوى السلام الذى انعقد فى ٢٧ أكتوبر ١٩٧٣ بشكل إيجابى عن العلاقات السوفيتية الأمريكية وزيادة على ذلك فإنه فى هذا الخطاب تطلع للزيارة المقبلة لرئيس الولايات المتحدة إلى موسكو «كما هو معروف فإن رئيس الولايات المتحدة ينتظر أن يقوم بزيارة للاتحاد السوفيتى عام ١٩٧٤ وإننا نود أن تتميز هذه الزيارة بخطوات كبيرة جديدة على طريق تقدم علاقات السلام بين دولتينا وتحسين الموقف الدولى» وحين تحققت هذه الزيارة بالفعل قال بريجنيف إن العلاقات السوفيتية الأمريكية قد خلقت ظروفا لقدر ما من التقدم نحو تسوية سلمية فى الشرق الأوسط.

كما احتوى تعليق سوفيتى أكثر بقوله: يستطيع المرء أن يقول بشكل له ما يبرره أنه إذا كان انفجار أكتوبر فى الشرق الأوسط قد حدث فى موقف من التوتر الدولى والانقسام بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فإن نزاع الشرق الأوسط ربما كان قد أصبح أكثر خطورة بل واتخذ نطاقا يهدد السلام العالمى. وكما صرح بريجنيف فى نوفمبر سنة ١٩٧٣ أن المرء يمكن أن يقول بشكل أكيد إنه فى مثل هذه الحالة وبدون الوفاق فإن المبادرة المشتركة من جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى التى أدت إلى قرارات مجلس الأمن حول الشرق الأوسط وقدمت فرصة لوقف إطلاق النار ربما لم تكن ممكنة».

وهكذا يمكننا القول من خلال هذا العرض لأدوار القوتين خلال حرب أكتوبر أن علاقاتهما قد أخذت شكلين علاقة الخصوم، وهو ما بدا فى تزويد كل منهما لحلفائه وأصدقائه فى الحرب بكميات كبيرة من السلاح. وقد كاد هذا الشكل من العلاقة أن يوصلهما إلى حافة المواجهة. أما الشكل الثانى فهو الذى تصرفوا فيه كشركاء Partners واسترشدوا فيه بمبادئ وقواعد العلاقات التى التزموا بها منذ وقت قريب قبل الأزمة ثم قبل هذا فى الواقع بمنطق علاقاتهم الاستراتيجية الذى يفرض عليهما تفادى احتمالات مواجهة عسكرية يمكن أن تأخذ الطابع النووى. زيارة كيسنجر علاقة الشركاء تلك اجتمعت القوتان مع بعضهما البعض - زيارة كيسنجر لموسكو فى ٢٠ أكتوبر - واجتمع كل منهما مع أصدقائه من أطراف الصراع المباشرين - زيارة كوسيجين للقاهرة فى ١٦ أكتوبر وبزيارة كيسنجر لتل أبيب عقب زيارته لموسكو مباشرة. وهى الاتصالات التى نتج عنها قرارات مجلس الأمن التى أدت إلى وقف إطلاق النار. على أنه فى خلال هذه المرحلة التى اتجهت فيها القوتان إلى التعاون لدرء الأخطار البعيدة اللازمة برز العنصر المحلى فى الصراع. وعلى غير إرادة القوتين فى الواقع. لا للتأثير السلبى على اتجاه التعاون هذا فحسب بل إلى إثارة عناصر فى الموقف تحول هذا التعاون إلى إمكانية المواجهة والصدام. ذلك أن التطور الذى أدى إلى إعلان الولايات المتحدة حالة التأهب العسكرى كان أساسا نتيجة للموقف الذى خلقته حليفتها إسرائيل فى عدم الانصياع لقرار مجلس الأمن - الذى تبنته الولايات المتحدة - بوقف إطلاق النار. ومن هذه الواقعة تنشأ حقيقة دور أطراف النزاع المحليين فى علاقات القوتين الأعظم وإرادة هذه الأطراف النسبية التى يصعب ضمان السيطرة المطلقة عليها من جانب القوتين.

المعنى الحقيقى لحرب أكتوبر بالنسبة لعلاقات القوتين هو أنها أوضحت بالتجربة العملية حدود الوفاق الحقيقية، فهو لم يلغ عنصر الخصومة وصراع المصالح بين القوتين وأنه رغم ما يقدمه من إطار جديد، ربما كان أكثر أمانا للمنافسة بينهما، إلا أنه لم يحول هذه المنافسة إلى تعاون شامل، وقد أشار ريتشارد نيكسون فى مذكراته وهو يتعرض لتجربة القوتين فى حرب أكتوبر إلى حدود الوفاق تلك بقوله: «... كان فشل الوفاق إنما دليل على الحدود الضيقة له وهى حدود كنت أدركها تمام الإدراك»...

وهكذا فإن إدارة الولايات المتحدة لحرب أكتوبر وتطوراتها، والتى تركها نيكسون لوزير خارجيته هنرى كيسنجر. كانت تجرى فى السياق الأشمل لعلاقات القوتين الأعظم آنذاك، ولم يكن غريبا أن يقول السير اليستير هورن إن أول اتصال أجراه كيسنجر بعد أن علم باشتعال الحرب كان مع السفير السوفيتى فى واشنطن اناتولى دوبرينين، وتنبيهه أن الوفاق لا يمكن أن يصمد أمام التصرفات غير المسئولة فى مناطق العالم بما فيها الشرق الأوسط. ■

القاهرة ٢٠٥٠



التنمية المبتورة

أبوزيد راجح

"تشكر «وجهات نظر» الذين استجابوا لدعوتها إلى حوار معمق حول مشروع القاهرة ٢٠٥٠ الذي طرحه وزير الإسكان المهندس أحمد المغربي على صفحات المجلة عدد أغسطس الماضي.

وهنا نوالي نشر المشاركات بمقال لأحد المتخصصين في مجال بحوث الإسكان والبناء والتخطيط العمراني ومساهمة من قارئ مهتم بالقضية."

المحرر

يمكن أن توصف تجارب التنمية التى تحققت على أرض مصر خلال الحقبة الحالية بأنها فى مجموعها تنمية متناثرة ومتعثرة بل يمكن أن توصف أيضا بأنها تنمية مبتورة.

وللدلالة على ذلك يكفى ذكر الظواهر الآتية والتى تمثل السمات الأساسية للتنمية فى مصر:

أولا: القفز المكانى المستمر لمشروعات التنمية

غالبا ما ينتقل الاهتمام العام للدولة بمشروعات التنمية جغرافيا من مكان لآخر قبل أن يستكمل المكان الأول مقوماته التنموية الكافية ليصير قادرا على النمو الذاتى دون ما حاجة إلى دعم إضافى منها. أو بتعبير آخر فإنه كثيرا ما تنصرف الدولة عن الاهتمام بتنمية إقليم معين وهو لا يزال فى مراحل التنمية الأولى ولم يبلغ بعد ما قد يسمى «بسن الرشد التنموى» وتوقف الصرف عليه وتتجه نحو تنمية إقليم آخر دون ما سبب واضح.

ففى خلال الثمانينيات كان الاهتمام العام منصبا على تنمية إقليم سيناء. وكان لهذا الاهتمام ما يبرره، فالأسباب الأمنية معروفة ولا داعى لذكرها. ولكن الأسباب الموضوعية كثيرة ومتنوعة. منها أن هذا الإقليم غنى بإمكاناته التنموية المتنوعة والتى بها يمكن أن تتحقق فيه تنمية شاملة متكاملة. كما أن العائد من الاستثمارات فى مشروعات تنمية هذا الإقليم ليس عائدا بعيد المدى بل هو فى حقيقة الأمر عائد سريع قصير المدى. كما أن النواة البشرية أو ما يسمى بالقاعدة السكانية والتى تبدأ التنمية بها متوافرة به بدرجة كافية.

وما أن بدأنا نلمس الثمار الأولى لتنمية هذا الإقليم الواقع فى الركن الشمالى الشرقى للبلاد حتى انصرف الاهتمام عنه - بعد تنفيذ ٢٧٪ فقط من الخطة الاستثمارية لتنميته. واتجه الاهتمام نحو إقليم آخر يقع فى الاتجاه المضاد تماماً فى الركن الجنوبى الغربى لمصر فى توشكى وشرق العوينات، ويكاد يختلف عن الإقليم الأول فى كل شىء. فليست به قاعدة بشرية مستقرة يمكن أن تبدأ التنمية بها. كما أنه فى تنميته أحادى النشاط وهو النشاط الزراعى وليس متعدد الأنشطة مثل إقليم سيناء، ويحتاج إلى استثمارات ضخمة والعائد منها ليس قريب المدى.

وهذا التحول شبه المفاجئ ليس له ما يبرره وكان يجب أن ينتظر بعض الوقت حتى يستكمل إقليم سيناء مقوماته التنموية الأساسية. ويجب الإشارة إلى أن إدارة التنمية فى سيناء فى ذلك الوقت كانت إدارة واعية ومستنيرة. فقد أشركت معها أهالى سيناء فى كل مراحل التنمية تخطيطا وتنفيذا. وكان ذلك هو السبب الرئيسى وراء النجاح الكبير الذى تحقق على أرض سيناء. والانصراف عن تنمية سيناء شمل أيضا - وهذا ما يدعو للأسف - الانصراف عن تجربة رائدة وفريدة فى إدارة التنمية كان من الواجب أن تكون نموذجا يحتذى فى كل مناطق التنمية الأخرى.

وعندما ظهرت بعض الصعاب التى تواجه مشروع توشكى بدأ الحديث يتجه نحو محور تنموى جديد وهو المحور الذى يقترحه فاروق الباز فى الصحراء الغربية والممتد طوليا بمحاذاة الحيز الحالى من الشمال إلى الجنوب. ويعطى هذا المشروع الآن نفس البريق الذى أعطى لمشروع توشكى من قبل.

ثانيا: ضياع دم التنمية العمرانية بين القبائل:

ونسوق للدلالة على ذلك الأمثلة التالية:

اشتد الصراع فى يوم ما بين وزارة السياحة ووزارة التعمير والإسكان عن أيهما أحق بتنمية سواحل مصر. وقد تم تقسيم السواحل بينهما بالتساوى إرضاءً للطرفين المتنازعين، فأعطى ساحل البحر الأحمر لوزارة السياحة وأعطى ساحل البحر الأبيض لوزارة التعمير والإسكان. ورضى كل منهما بنصيبه من الغنيمة، فأقامت وزارة السياحة ما هى متخصصة فيه وتجيد صناعته وهو إقامة سلسلة شبه متصلة من القرى السياحية بطول البحر الأحمر. كما أقامت وزارة التعمير ما هى متخصصة فيه وتجيد صناعته وهو إقامة سلسلة متصلة من المدن السكنية بطول البحر الأبيض.

ولذا فقد جاءت تنمية كل من الساحلين تنمية قاصرة ومبتورة، فساحل البحر الأحمر برمته أصبح أحادى النشاط المتمثل فى السياحة وهو نشاط بطبيعته غير مستقر وغير آمن. وتنقص المشروعات السياحية القائمة به البعد العمرانى القادر على الجذب السكانى والاستقرار البشرى الدائم.

أما ساحل البحر الأبيض فقد تحول إلى سلسلة من المدن السكنية للإقامة المؤقتة وينقص المشروعات التى تمت به البعد السياحى تماما. ويعتبر هذا الساحل الفريد من أكثر مناطق العالم امكانات للسياحة العالمية لمدة لا تقل عن ثمانية أشهر فى العام. وهكذا ضاع على مصر مصدر هام من مصادر الدخل القومى كان يمكن أن يضخ فى اقتصادها الوطنى دما جديدا بصفة مستمرة.

صار لدينا فى البحر الأحمر سياحة بلا إسكان وفى البحر الأبيض إسكان بلا سياحة. ولو تعاونت الوزارتان لتنمية الساحلين لتغير وضعهما تماما ولاختلفت صورة التنمية فيهما عما هى عليه الآن

وباختصار صار لدينا فى البحر الأحمر سياحة بلا إسكان وفى البحر الأبيض إسكان بلا سياحة. ولو تعاونت الوزارتان لتنمية الساحلين لتغير وضعهما تماما ولاختلفت صورة التنمية فيهما عما هى عليه الآن.

والمثال الثانى هو ميناء دمياط، فقد اشتد الصراع أيضا بين وزارة النقل والمواصلات ووزارة التعمير والإسكان حول من هو أحق بإقامة الموانى فى مصر. ولسبب ما كسبت وزارة التعمير الجولة الأولى بإنشاء الميناء بكل ما يلزمه من أرصفة ومخازن وخدمات، رغم أن مسئولية إقامة مثل هذه المشروعات تقع بداهة على كاهل وزارة النقل والمواصلات وليس على وزارة التعمير والإسكان. ولكن الميناء ظل غير مستخدم لسنوات عدة، ذلك لأنه لم تكن هناك شبكة طرق رئيسية تربطه بباقى مدن وأقاليم مصر حتى يمكن نقل البضائع منه وإليه. ولم تقم وزارة النقل بإنشاء شبكة الطرق الإقليمية هذه فى الوقت المناسب ربما ردا على ما أصابها من هزيمة فى الجولة الأولى من المبارزة. وقامت هذه الوزارة بإنشاء هذه الشبكة من الطرق فقط عندما تدخل رئيس الدولة وطالب بتنفيذها حتى يمكن الاستفادة من الميناء بعد أن ظل ميناء أشباح لسنوات طويلة.

أما المثال الثالث فهو يتعلق بمدينة السادات والتى يطلق عليها عادة مدينة الأشباح. فقد تم الاتفاق عند تخطيط المدينة فى مراحلها الأولى أن ينشأ بها مجمع كبير للحديد والصلب والصناعات المكملة له ليكون القاعدة الاقتصادية الصلبة التى ستقوم عليها المدينة. وبناءً على ذلك أقيمت المدينة بمساكنها وخدماتها ومرافقها استعدادا لاستقبال هذا المجمع الكبير. ولكن فى اللحظة الأخيرة غيرت وزارة الصناعة رأيها وآثرت أن تقيم هذا المجمع الصناعى على شاطئ البحر الأبيض فى منطقة الدخيلة بمنطقة العجمى بالإسكندرية. وأقامت ما يلزمه من مدينة سكنية ومرافق وخدمات فى مناطق مجاورة لها وتركت مدينة السادات بمساكنها ومرافقها وخدماتها «تنعى من بناها». ونحن نعلم أن شواطئ البحار تستخدم فى أغراض معروفة ليس بينها قطعا إقامة الصناعات الثقيلة عليها. ولو أقيم هذا المجمع فى الموقع الذى خصص له أصلا لكانت مدينة السادات اليوم «مدينة عامرة» وليست «مدينة أشباح» كما يحب البعض أن يسميها. أما الأسباب التى دعت وزارة الصناعة إلى إقامة هذا المجمع بالدخيلة فى منطقة العجمى وليس بمدينة السادات كما كان مخططا له، فلم تكن فى حقيقة الأمر أسبابا موضوعية بل تكاد أن تكون أسبابا شخصية. ويعبر هذا التحول عن التنافر الذى يسود أحيانا علاقات الوزارات والوزراء بعضهم ببعض.

والمثال الرابع يتمثل فى أن مصر أقامت خلال الثلاثين سنة الماضية ١٨ مدينة جديدة على ثلاثة أجيال متعاقبة، منها مدن مستقلة ومدن تابعة ومدن توائم للمدن القائمة. وحسب مخططاتها الأصلية فإنه كان يجب أن تستوعب هذه المدن فى الوقت الحالى أكثر من ٦ ملايين نسمة. ولكن مجموع عدد سكانها حاليا لا يتجاوز ٥,١ مليون نسمة، وذلك حسب بيانات وزارة الإسكان. (وهناك من يشكك فى صحة هذا الرقم - وأنا أحدهم - ذلك لأنه يعتمد على عدد المشتركين فى عدادات الكهرباء وليس على حصر حقيقى للسكان المقيمين فعلا فى هذه المدن). ويرجع عدم نجاح المدن الجديدة فى جذب السكان لأسباب عدة معروفة لا داعى لذكرها. ولكن من أهم هذه الأسباب هو عدم توافر الخدمات الاجتماعية الضرورية للحياة الحضرية بدرجة كافية وعلى الأخص المستشفيات بتخصصاتها والمدارس بأنواعها. وتقع مسئولية توافر هذه المنشآت دستوريا على الوزارات المختصة بها، ولكن هذه الوزارات امتنعت عن إقامتها فلم تجد وزارة الإسكان بداً من بناء بعضها حتى تتيح لسكان المدن الجديدة جزءاً ولو يسيراً من هذه الخدمات الأساسية. وبعد الانتهاء من إنشائها دعت وزارة الإسكان الوزارات المعنية باستلام المنشآت التى تتبعها والقيام بتشغيلها. ولكن هذه الوزارات امتنعت عن الاستلام والتشغيل كما امتنعت من قبل عن الإنشاء والتشييد. ونظرا لأن تشغيل وإدارة مثل هذه المنشآت يخرج تماما عن نطاق قدرات وزارة الإسكان فقد ظل العديد من هذه المستشفيات والمدارس خاويا على عروشه لسنوات طويلة.

وفقدت المدن والمجتمعات الجديدة - وما زالت - عنصرا هاما من عناصر الجذب السكانى إليها وهو توافر الخدمات الاجتماعية: الطبية والتعليمية والثقافية وغيرها حتى فى حدها الأدنى اللازم للمقيمين فيها. ويرجع ذلك أساسا كما سبق توضيحه إلى عدم مشاركة وزارات الدولة الخدمية والإنتاجية فى عمران وتعمير المدن الجديدة مع وزارة الإسكان، وتركت العبء كله على عاتق هذه الوزارة، حتى ناءت به وأصبحت عاجزة عن القيام به. وتعثرت تبعا لذلك تنمية هذه المدن رغم ما صرف عليها من مبالغ طائلة تعد بمئات البلايين من الجنيهات.

هذه أمثلة أربعة عن فقدان التعاون بين الوزارات المسئولة عن التنمية، وكأن لا منها تعمل فى دولة مختلفة خاصة بها ولا تعمل جميعها فى دولة واحدة اسمها مصر.

ثالثا: أرض مصر «سداح مداح»:

مرت حيازة أرض مصر خارج الوادى والدلتا بالمراحل التالية:

المرحلة الأولى:

فى عام ١٩٨١ صدر القانون رقم ١٤٣ لسنة ١٩٨١ بشأن الأراضى الصحراوية والذى بموجبه يتم الآتى:

- تقوم وزارة الدفاع بتحديد المناطق ذات الأهمية العسكرية واستغلالها والتصرف فيها للأغراض العسكرية

- بعد أن تقوم وزارة الدفاع بتحديد المناطق العسكرية تقوم الوزارة المسئولة عن استصلاح الأراضى بتحديد المناطق اللازمة لمشروعات استصلاح الأراضى وتقوم بالتصرف فيها واستغلالها بعد أخذ رأى وزارة الدفاع.

- تقوم هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة باستغلال والتصرف فى المواقع غير الواقعة فى المناطق العسكرية أو فى مواقع الاستصلاح بالتنسيق مع وزارة الدفاع.

وبذلك أعطيت الأولوية فى استغلال الأراضى الصحراوية لوزارة الدفاع تليها وزارة استصلاح الأراضى ثم تأتى فى المرتبة الثالثة هيئة المجتمعات العمرانية. ولكن فى واقع الأمر أعطيت لوزارة الدفاع هيمنة شبه كاملة على أراضى مصر كلها خارج الوادى والدلتا.

المرحلة الثانية:

فى عام ١٩٩١ صدر القانون رقم ٧ لسنة ١٩٩١، وقد نص هذا القانون على إجراءات مختلفة لتحديد استخدامات الأراضى الصحراوية. فلم يعد يتم هذا التحديد بصورة منفردة تقوم به كل وزارة على حدة كما كان الحال حسب القانون السابق بل يتم بموجب قرارات جمهورية بعد موافقة مجلس الوزراء وبناء على عرض الوزير المختص. ولكن بقيت أولويات الترتيب فى تحديد استخدامات الأراضى كما كانت عليه فى القانون السابق. إذ أعطيت الأولوية الأولى للأغراض العسكرية ثم يتم بعد ذلك تحديد مناطق استصلاح الأراضى ومناطق إقامة المجتمعات الجديدة والمناطق السياحية بعد أخذ رأى وزارة الدفاع. أى أن وزارة الدفاع بقيت لها الوصاية على أرض مصر بموجب هذا القانون كما كان عليه الحال بموجب القانون السابق.

المرحلة الثالثة:

فى هذه المرحلة صدرت ثلاثة قرارات جمهورية متتالية كالآتى:

- القرار رقم ١٥٢ لسنة ٢٠٠١: بموجب هذا القرار تم تحديد المناطق الاستراتيجية ذات الأهمية العسكرية من الأراضى الصحراوية.

- القرار رقم ١٥٣ لسنة ٢٠٠١: بموجب هذا القرار تم إنشاء مركز وطنى لتخطيط وتحديد استخدامات الأراضى يتبع لمجلس الوزراء ويتولى بالتنسيق مع الوزارات المختلفة حصر أراضى الدولة وإعداد التخطيط العام لاستخداماتها. ثم تصدر قرارات جمهورية بتخصيصها للوزارات بعد موافقة مجلس الوزراء على هذا التخصيص. أى أن هذا المركز يمثل الجهاز الفنى التخطيطى الذى يتولى تحديد استخدامات الأراضى للأنشطة المختلفة.

- القرار رقم ١٥٤ لسنة ٢٠٠١: بموجب هذا القرار تم تخصيص المساحات الموضحة الحدود والمعالم على الخريطة المرفقة بالقرار لاستخدامات أراضى الدولة حتى عام ٢٠١٧ فى الأغراض والأنشطة الزراعية والصناعية والتعدينية والعمرانية وخدمات النقل والكهرباء والطاقة. وقد أعدت هذه الخريطة وزارة الإسكان والمرافق والتنمية العمرانية.

والتناقض واضح بين

ما يجرى باسم التنمية فى حقيقة الأمر هو تنفيذ مجموعة من المشروعات غير المتسقة وغير المترابطة، فكل مشروع منها يتم التفكير فيه ودراسته وتنفيذه على حدة منفصلا عن غيره وكأنه كيان قائم بذاته

القرارات الجمهورية السابق ذكرها.
فبصدور القرار رقم ١٥٤ لسنة ٢٠٠١ لم تعد هناك حاجة لإنشاء جهاز لتحديد استخدامات الأراضى، فقد تم تحديد استخداماتها بالفعل بموجب هذا القرار. أو بمعنى آخر فإنه بصدور هذا القرار الأخير أصبح القرار رقم ١٥٣ لسنة ٢٠٠١ السابق له والخاص بإنشاء المركز الوطنى لتخطيط وتحديد استخدامات الأراضى غير ذى موضوع. ولكن من الملاحظ أن المركز الوطنى قائم بالفعل حتى الآن ويقوم بتحديد استخدامات أراض سبق تحديد استخداماتها بموجب قرار جمهورى لاحق لقرار إنشائه.

وفى هذا الشأن يجب ملاحظة ما يلى:

١- أنه فى مجال تخصيص الأراضى أعطيت الأغراض العسكرية أولوية مطلقة على الأنشطة والأغراض التنموية. كما أن وزارة الدفاع أعطيت هيمنة كاملة على جميع أراضى مصر خارج الوادى والدلتا.

٢- عندما ترك للوزارات تحديد مواقع ما تحتاجه من أراض لتحقيق أهدافها فإنها بالغت كثيرا فى تحديد مساحة هذه الأراضى ووضعت يدها على مواقع أكبر مساحة مما تحتاجه فعلا.

٣- إن بعض هذه الجهات سعت إلى تحويل استخدام بعض الأراضى المخصصة لها إلى تحقيق منافع خاصة للعاملين فيها مثل إنشاء مدن سكنية أو مدن ساحلية لهم ولعائلاتهم أو بيعها بالمزاد العلنى وإيداع حصيلة هذا البيع فى صناديق خدمات خاصة بهؤلاء العاملين.

٤- تعدد الجهات المنوط بها تحديد استخدامات الأراضى كما هو موضح فى القرارات الجمهورية الخاصة بهذا الشأن. ومثل هذا التعدد يمثل تداخلاً وتضارباً فى المسئوليات بين هذه الجهات، وسوف ينتهى الأمر حتما إلى عدم تحديد استخدامات أراضى مصر حسب تخطيط قومى سليم ويستمر الأمر - كما هو عليه الآن - أشبه بتناطح بين جهات مختلفة أيهما يحظى بنصيب الأسد من أرض مصر.

تصرف الدولة فى أراضيها:

تسعى الدولة إلى تحويل أراضى مصر خارج الوادى والدلتا من ملكية عامة إلى ملكية خاصة وهى فى سبيل ذلك تسلك مسلكين متناقضين.

أولهما: بيع الأراضى للأفراد والشركات الخاصة إما بسعر مسبق أو أن يتم البيع بالمزاد العلنى.

فإذا ما تم البيع بسعر مسبق فغالبا ما يكون هذا السعر حوالى ٢٠٠ جنيه للمتر المربع. ولكن سرعان ما يصل السعر السوقى للمتر بعد سنوات قليلة إلى ٢٠٠٠ جنيه أى عشرة أمثال سعره الأصلى.

أما إذا بيعت الأرض بالمزاد العلنى فغالبا ما يصل سعر البيع إلى ما يزيد على ٤٠٠٠ جنيه للمتر الواحد أى ما يزيد كثيرا عن سعر السوق السائد للأراضى. وبعد إتمام المزاد مباشرة ترتفع أسعار الأراضى بصفة مفاجئة لكى تلحق بالسعر الجديد.

وهكذا فى كلتا الحالتين تصير الأرض سلعة قائمة بذاتها يفوق معدل الزيادة فى أسعارها المعدل العام للزيادة فى أسعار السلع الأخرى بدرجة كبيرة. وبذا تصير مجالا للمضاربة ووسيلة للتربح السريع.

وثانيهما: إتاحة مساحات شاسعة من الأراضى لرجال الأعمال تعد بملايين الأمتار أو بآلاف الأفدنة بسعر منخفض أو بسعر رمزى. فقد بيعت أراض فى ساحل البحر الأحمر بقروش قليلة للمتر وبيعت أراض بسيناء بسعر جنيه ونصف للمتر وبيعت أراض بمدينة ٦ أكتوبر بخمسة عشر جنيها للمتر كما بيعت أراض واسعة بطريق مصر - إسكندرية الصحراوى بأسعار زهيدة. وفى ذلك ما يشبه منح هذه المساحات الشاسعة من الأراضى بدون مقابل حقيقى لرجال الأعمال المقربين ولغيرهم من المستثمرين. وهذا مثل ما حدث تماماً للأراضى المصرية عندما أقطع ولاة مصر فى منتصف القرن التاسع عشر الأبعاديات والشفالك والوسايا والعزب لعملائهم وعمالهم وأتباعهم.

إن الأرض وما تحتويه تمثل رأس مال الدولة الدائم وهى ليست ملكا لجيل واحد بل ملك للأجيال كلها. ولذا فيجب أن تبقى ملكا للمجتمع وتتاح للأفراد والشركات بحق الانتفاع لمدد معينة طالت أو قصرت بدلاً من أن تترك نهباً للوزارات من ناحية وللأفراد والشركات الخاصة من ناحية أخرى.

رابعا: ضياع المسئولية:

جاء فى قرار إنشاء المركز الوطنى لتخطيط استخدامات أراضى الدولة وهو القرار رقم ١٥٣ لسنة ٢٠٠١ السابق الإشارة إليه أن يقوم هذا المركز بالآتى:

- حصر وتقويم أراضى الدولة خارج الزمام وإعداد التخطيط العام لتنميتها واستخدامها.
- إعداد الخرائط التفصيلية لتخطيط استخدامات أراضى الدولة من واقع خريطة التخطيط العام.
- الاشتراك فى اختيار وتحديد المواقع اللازمة للمشروعات الرئيسية للدولة (طرق - سكة حديد - مناطق صناعية وغيرها).

أى أن هذا الجهاز سيتولى إعداد التخطيط الشامل والذى بموجبه سيتم تحديد استخدامات الأراضى للأغراض الزراعية والصناعية والسياحية والعمرانية، كما سيتولى الجهاز إعداد المخططات القطاعية والمخططات التفصيلية لهذا المخطط الشامل.

وقد قامت من جانبها وزارة الإسكان والمرافق والتنمية العمرانية ممثلة فى الهيئة العامة للتخطيط العمرانى بإعداد الدراسات والتخطيطات الإقليمية لمعظم أقاليم مصر وذلك بموجب القانون رقم ٣ لسنة ١٩٨٢ الخاص بإنشاء هذه الهيئة والذى تنص مادته الأولى على ما يلى:

«وتكون الهيئة العامة للتخطيط العمرانى جهاز الدولة المسئول عن رسم السياسة العامة للتخطيط العمرانى وإعداد خطط وبرامج التنمية العمرانية على مستوى الجمهورية».

ولكن كل هذه المخططات التى أعدتها الهيئة العامة للتخطيط العمرانى لأقاليم مصر معطلة ولم توضع موضع التنفيذ وذلك لأن الوزارات - سواء أكانت وزارات إنتاج أو وزارات خدمات - غير ملزمة بتنفيذ كل أو بعض ما جاء بمخططات وزارة الإسكان. إذ إن هذه المخططات لم يتم إعدادها بمشاركة فعالة من هذه الوزارات بل قامت بها وزارة الإسكان منفردة. فضلا عن أن أغلب وزارات الإنتاج والخدمات لديها خططها القومية لتنفيذ برامجها، ولكن هذه الخطط هى خطط قطاعية مثل خطة النقل والمواصلات وخطة الطاقة وخطة الصناعة وخطة السياحة. وقد أعدت كل خطة منها بمعزل عن الخطط الأخرى دون تنسيق فيما بينها.

وقبل ذلك قامت وزارة التخطيط بتقسيم المسطح الجغرافى المصرى بحيزه المعمور الحالى وبصحراواته وسواحله إلى سبعة أقاليم تخطيطية وذلك بموجب القرار الجمهورى رقم ٤٧٥ لسنة ١٩٧٧، وقد نصت المادة الثانية من هذا القرار على ما يلى:

«تنشأ بكل إقليم لجنة عليا للتخطيط الإقليمى تشكل من محافظى المحافظات التى يتكون منها الإقليم».

كما نصت المادة الثالثة على ما يلى:

«تنشأ بكل إقليم هيئة للتخطيط الإقليمى تابعة لوزارة التخطيط تختص بالقيام بالبحوث والدراسات اللازمة لتحديد إمكانات موارد الإقليم الطبيعية والبشرية ووسائل تطويرها واستخدامها الاستخدام الأمثل وكذلك إعداد التخطيط الإقليمى للإقليم».

وبعد مرور ثلاثين عاما على صدور هذا القرار والذى بموجبه أصبحت وزارة التخطيط هى المسئولة عن إعداد التخطيط القومى والإقليمى لمصر لم تقم الوزارة بتنفيذ شىء يذكر مما جاء فيه حتى الآن.

مما سبق يتضح وجود تداخل شديد فى الاختصاصات بين الأجهزة الموكل إليها إعداد التخطيط القومى والإقليمى خصوصا بين وزارة التخطيط من ناحية ووزارة الإسكان والمرافق والمجتمعات العمرانية من ناحية ثانية والمركز الوطنى لتحديد استخدامات الأراضى التابع لمجلس الوزراء من ناحية ثالثة. وقد جاء هذا التداخل والتضارب كنتيجة حتمية للتداخلات بين نصوص القوانين والقرارات الجمهورية المختصة بالعملية التخطيطية. وباختصار فإن التخطيط القومى والإقليمى تقوم به ثلاث جهات منفصلة تعمل كل منها بموجب قانون أو قرار جمهورى خاص بها. كما تعمل كل جهة على حدة دون تنسيق أو تعاون مع الجهات الأخرى. والنتيجة الحتمية لهذا التشابك فى الاختصاصات أن مصر حتى الآن ليس لها تخطيط إقليمى قومى تتم التنمية على هداه.

الأحادية والانفرادية والتشابكية

إن تعثر التنمية فى مصر هذا التعثر غير المقبول يرجع إلى أسباب ثلاثة: الأحادية والانفرادية والتشابكية. أحادية المشروع وانفرادية صانع القرار والتشابكية فى المسئوليات والاختصاصات.

أولها: أحادية المشروع

إن ما يجرى باسم التنمية فى حقيقة الأمر هو تنفيذ مجموعة من المشروعات غير المتسقة وغير المترابطة. فكل مشروع منها يتم التفكير فيه ودراسته وتنفيذه على حدة منفصلا عن غيره وكأنه كيان قائم بذاته.

إن ما يجب التفكير فيه هو خطة استراتيجية للتنمية القومية الشاملة ثم تأتى «المشروعات» لكى تحققها فى مراحل متتالية. أى أن كل مشروع منها غير منفصل عما يسبقه وعما يتبعه من مشروعات فالكل يجب أن يقع فى منظومة تخطيطية واحدة متكاملة.

ولا أظن أن الدول التى يضرب بها المثل فى النجاح التنموى الاقتصادى والاجتماعى كانت تفكر فى «إقامة مشروعات» بقدر ما كانت تفكر فى التنمية الشاملة بكل أطيافها كتوجه قومى عام.

وإذا كان التوجه العام يركز على مشروع أحادى فغالبا ما يجرى تنفيذه فى إطار «سياسى» وليس فى إطار «تنموى». ويكون تنفيذ هذا المشروع عادة مرتبطا إما بفرد أو بطبيعة مرحلة ما. ويستمد المشروع بقاءه من بقاء الفرد أو من بقاء المرحلة وينتهى عادة بانتهائها.

وثانيها: انفرادية صانع القرار



كثيرا ما شاهدنا انفراد مسئول ما باتخاذ قرار مصيرى مهم فى التنمية العمرانية دون أن يستند فى اتخاذ هذا القرار إلى دراسات علمية يقوم بها المتخصصون فى مجال العمران، بل يستند إلى رؤى شخصية ذاتية تتسم عادة بقصر النظر وتهدف أساسا لتحقيق مصالح شريحة اجتماعية واحدة ومحددة على حساب شرائح المجتمع الأخرى. توضيحا لذلك نسوق المثال التالى: جاء فى استراتيجية تخطيط القاهرة الكبرى التى أعدها خبراء مصريون وفرنسيون فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين إنشاء عشرة تجمعات سكنية خارج القاهرة بهدف وقف امتداد العشوائيات بها وأيضا نقل بعض الأنشطة من داخل القاهرة إلى خارجها وخلخلة الكثافة السكانية بأحياء المدينة العالية الكثافة. ولكن تم اتخاذ قرار مفاجئ فى التسعينيات بتغيير الهدف من إنشاء التجمعات العشرة وتجميع بعضها فى شرق القاهرة فى تجمع كبير أطلق عليه «القاهرة الجديدة» بمساحة قدرها ٤٥٠٠٠ فدان (يمكن أن تسع ٥,٤ مليون نسمة). وخصص هذا التجمع الضخم للإسكان الفاخر وفوق المتوسط، وصرف النظر عن نقل الأنشطة الصناعية والإدارية من داخل القاهرة إلى خارجها وخلخلة الكثافة السكانية بها ووقف الامتدادات العشوائية المنتشرة حولها من كل جانب وبقيت مشاكل المدينة كما هى بل ازدادت سوءا.

كما صدر قرار وزارى آخر بزيادة الحيز العمرانى لمدينة ٦ أكتوبر غرب القاهرة لتسع أيضا ٥,٤ مليون نسمة. وقد اتخذت هذه القرارات رغم اعتراض مجموع المخططين العمرانيين ومجموع المعماريين. وسوف تؤدى هذه القرارات إلى مزيد من التركيز السكانى الشديد فى إقليم القاهرة عكس ما ينادى به المخططون من ضرورة وقف النمو السكانى بالمراكز الحضرية الكبرى وتوجيه الاهتمام بعمران المدن الصغيرة والمدن المتوسطة فى الحيز الحالى وبعمران محاور التنمية الواعدة فى الحيز الجديد بهدف إعادة التوزيع السكانى على المسطح الجغرافى المصرى بصورة متوازنة. وتبلغ الانفرادية المطلقة والتوغل فى الذاتية لمتخذ القرار فى أنه يرفض تماما التعاون مع غيره وعدم الاستماع إلى رأى قد يخالف رأيه.

وثالثها: التشابكية فى المسئوليات والتخصصات

اتضح مما سبق مدى التشابك بل التضارب فى التشريعات الخاصة بإدارة العمران وعلى الأخص فى مجال تخصيص الأراضى وإعداد التخطيط القومى الشامل للتنمية. ونتيجة لهذا التضارب والتداخل فى المسئوليات، وتكليف أكثر من وزارة بأداء نفس العمل بنص القوانين والقرارات الجمهورية كان لابد أن يحدث ما تعانى منه مصر حاليا وهو التضارب فى الإدارة والتنفيذ. ويحسم الأمر فى النهاية لصالح من له النفوذ الأكبر والغلبة فى صراع القوى بصرف النظر عن مدى أهليته للقيام بهذا العمل.

ولما كانت التنمية العمرانية - شأنها شأن مجالات التنمية الأخرى - لا تتم إلا بتعاون مشترك فعال بين جميع الأطراف ذات الصلة بهذه التنمية فإن التشتت الحالى فى القوانين والقرارات الجمهورية وفى الإدارة لن يؤدى إلى تنمية حقيقية بل يؤدى فى النهاية إلى تنمية متناثرة ومبعثرة ومبتورة وفى أغلب الأحيان غير مجدية.

ويمكن إيجاز ما سبق فى أن التنمية الحقيقية المستدامة تستلزم الأخذ بالتفكير «التنموى الشامل» وليس التفكير «المشروعاتى الأحادى» مهما كان حجم المشروع ومهما كان بريقه. كما تستلزم الأخذ بالتفكير الجماعى أو تفكير الفريق وليس التفكير الانفرادى الذاتى. وتستلزم أيضا تحديد المسئوليات والاختصاصات تحديداً واضحا لكل طرف من الأطراف المشتركة فى العملية التنموية مركزيا وإقليميا ومحليا. وجمع استراتيجية وسياسة وخطط التنمية بكل أبعادها وعلى كل مستوياتها فى منظومة واحدة.

السؤال الحائر

فى عام ١٩٧٧ وأثناء انعقاد مؤتمر دولى خاص بالقاهرة ومشاكلها وقفت إحدى المشتركات وسألت سؤالا محددا وهو «أريد أن أعرف من هو متخذ القرار فى شئون القاهرة؟» وقد وجهت سؤالها هذا بعد أن صار واضحا أن هناك عدة جهات تتقاسم فيما بينها الشأن القاهرى. وفى لقاء خاص عقب هذه الجلسة مع اللواء سعد مأمون محافظ القاهرة وقتئذ أخبرنى أنه منذ أن طرح هذا السؤال وهو فى حيرة شديدة من أمره. ثم تساءل بدوره «إننى كمحافظ لست متخذ القرار فى أمور القاهرة. إذن فمن المسئول عن اتخذ مثل هذا القرار؟».

أظن أن هذا السؤال ظل حائرا منذ أن طرح وحتى الآن وأظن أنه سيبقى حائرا طالما بقينا على ما نحن عليه: أن نضع الانفرادية فوق الجماعية، وأن يقف اهتمام أغلبنا على حدود الذات دون أن يمتد إلى حدود الوطن، وأن يقتصر وعينا الزمنى على الحاضر بمشاكله وليس على المستقبل بآفاقه الواسعة. ■

رأى

ازدادت مشاكل القاهرة عاصمة مصر المحروسة عن حد القبول والتحمل سواء بالنسبة للمواطنين أو بالنسبة للمسئولين عن إدارتها أو المترددين عليها. وكلما ازدادت هذه المشاكل شراسة كان لها أثر سلبى شديد، سواء على حالة المواطنين العصبية والنفسية أو الصحية لأسباب معروفة أو على حالة المدينة الاقتصادية والإدارية. وفى الآونة الأخيرة كثر الحديث عن الحلول التى تكفل للسكان معيشة هادئة وانتقالاً مريحًا وللإدارة سلاسة ونجاحًا وللمترددين عليها حسن الخدمة والترحاب المطلوبين.

ولقد كان الحزب الوطنى مبادرًا إلى تقديمه تصورًا عن ماذا ستكون عليه القاهرة عام ٢٠٥٠ لو ظل الأمر على ما هو عليه والبدائل المقترحة لما نصبو لأن تكون القاهرة عليه فى هذا التاريخ، وهو اتجاه محمود، ففى كافة دول العالم يفكر المخططون لبلادهم للخمسين عامًا القادمة ويصوغون البدائل المختلفة التى تؤدى إلى رخاء ورفاهية مواطنيهم.

ومبادرة القاهرة ٢٠٥٠ سترسم للدولة خطوات تحويل القاهرة من عاصمة إدارية إلى عاصمة إما ثقافية أو سياحية أو ترفيهية حسبما تصل إليه الدراسات وهو ما سيؤدى إلى إنشاء خطط توجيه للأنشطة الجديدة المعتمدة لتسير كافة الخطط القطاعية نحو نفس الهدف الذى تم الاستقرار عليه.

ويتكامل مع هذه الخطط ما تقدمت به الحكومة من خطة لنقل العاصمة الإدارية لمصر لمدينة جديدة يتم إنشاؤها لهذا الغرض وبهذا يتم تفريغ القاهرة من العديد من المنشآت أو تغيير نشاطها بما يتلاءم مع الدور الجديد الذى ستلعبه القاهرة وستجذب الاستثمارات الأجنبية والعربية سواء للأنشطة الجديدة فى القاهرة أو لإنشاء العاصمة الجديدة بما سيكون متاحًا لها من فرص استثمارية كبرى.

ولا يخفى على أحد أن هذين المشروعين على اختلاف بينهما سيحققان الآلاف من فرص العمل سواء فى القاهرة أو فى إنشاء المدينة الجديدة أو فى ربط هذه العاصمة الجديدة بباقى مدن الجمهورية وكل هذه المشروعات مشروعات كثيفة العمالة بما يستوعب العديد من الشباب الباحث عن عمل كما يستتبع ذلك إنشاء المعاهد لتأهيل هؤلاء الشباب للحصول على فرص العمل هذه.

وسيكون أكثر فائدة من كافة النواحى أن نختار موقع العاصمة الجديدة فى منطقة يحددها الخبراء فى صعيد مصر بعيدًا عن الوادى الضيق لما سيكون له من تبعات تنمية وتطوير المناطق المحيطة، وهى أشد ما تكون احتياجًا لذلك. وكذلك ربط العاصمة الجديدة بباقى مدن الجمهورية وبما سيترتب عليه من توفير الآلاف من فرص العمل وكم هائل من الفرص الاستثمارية فى كافة المجالات.

وكما نعلم جميعًا فإن الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى وتدفق مقاتليها من ميادين القتال بدون عمل اتخذت نفس هذا المنهج لاستيعابهم فى إنشاء شبكة الطرق القومية والتى كانت السبب الأول فى ربط الولايات المتحدة بعضها ببعض مما أتاح للاقتصاد الأمريكى هذه النهضة الشاملة خلال القرن الماضى وتبوؤها مقعد الاقتصاد الأكبر فى هذا العالم.

لذا فإننا نخشى أن يكون مصير كلا المشروعين هو الحفظ فى الأدراج كما جرى لمشروعات كثيرة سابقة.

مهندس عادل لطفى

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

أرز باللبن لشخصين - عايزة أتجوز - أما هذه فرقصتى أنا

مدونات الشروق

رحاب بسام - غادة عبدالعال - غادة محمود

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨







كانت مفاجأة كاملة، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين تحمسوا لإصدار هذه المدونات، أن تحظى بهذا الإقبال الجماهيرى والتشجيع النقدى بصورة فاقت كل توقع، كانت مؤشرات البيع فى معرض القاهرة الدولى للكتاب، تشير إلى نفاد الكميات التى تم طرحها، وضرورة إعادة الطبع لتلبية حاجات القراء الذين أقبلوا على شراء «عايزة أتجوز» و«أرز باللبن لشخصين» و«أما هذه فرقصتى أنا»، على الرغم من أن مؤلفاتها الثلاث لسن معروفات، وهذه هى تجاربهن الأولى فى عالم النشر الورقى، فإذا بمبيعاتهن تتجاوز أرقام مبيعات كتاب ذوى تجربة وخبرة معتبرة.

غادة عبدالعال صيدلانية من المحلة الكبرى، اختارت أن تشرك أكبر عدد ممكن من الأصدقاء فى تجاربها مع العرسان، أنشأت مدونة لها على شبكة الإنترنت وأطلقت صيحتها على هذا النحو «عايزة أتجوز»، وهو أمر يبدو غريباً خصوصاً بالنسبة لفتاة جامعية تنتمى إلى أسرة محافظة، لكنها فعلتها، عرضت تجاربها مع العرسان بطريقة لا تخلو من سخرية جميلة، وبين السطور صورة لفارس أحلامها الذى لم يظهر حتى الآن، فإذا بالمدونة تحقق شهرة كبيرة، بل ويعتبرها كثيرون أفضل مدونة عربية، والحكايات التى تسردها غادة ربما واجهتها فتيات كثيرات، لكنها تعاملت معها بشجاعة ومرح وهو ما يتبدى فى تعريفها لذاتها فى ختام الكتاب.. «تقدس الحياة الزوجية وتشارك فى الأثاث». أما رحاب بسام صاحبة «أرز باللبن لشخصين»، فهى متخرجة فى قسم اللغة الإنجليزية فى جامعة عين شمس، عملت فى مجالات البحوث والتسويق وكتابة الإعلانات والترجمة، وقد بدأت مدونتها «حواديت» عام ٢٠٠٤، وهى لم تكتب من قبل بالعربية، وهذه المدونة هى أولى محاولاتها للكتابة باللغة العربية، ومدونة رحاب يمكن اعتبارها قصصاً قصيرة تتميز بسخرية بديعة وإبحار محبب فى الطفولة، بعوالمها السحرية، كما لا تخلو من تجارب حب وصداقة ورؤى بسيطة، لكنها شديدة الحكمة للأجواء المحيطة بها، وتميزها شقاوة من نوع خاص، وأسلوب أدبى يشى بكاتبة قصة مميزة على الطريق.

مدونة غادة محمود صاحبة «أما هذه فرقصتى أنا»، تحمل اسم «مع نفسى» وكتابتها أيضاً أقرب للقصص القصيرة المبشرة منها للكتابة بغرض البوح والفضفضة، وإن كانت لا تخلو أيضاً من بساطة وتلقائية، وما يميزها عن زميلتيها أنها متزوجة وستصبح أماً قريباً، وتشى كتابتها بأن ثمة مشروعاً إبداعياً لديها، ربما يثمر رواية فى القريب.

■

اللغة العربية والوحدة الوطنية فى لبنان

محمد على موسى

بيروت: دار السلام، ٢٠٠٧، ٢٢١ صفحة



يرى المؤلف أن ثمة رابطاً أكيداً بين وحدة لبنان وإعلاء شأن اللغة العربية، وهو يستند إلى مواد الدستور اللبنانى التى تؤكد على أن لبنان وطن عربى الهوى والانتماء، وهو ما يعنى أن تكون اللغة العربية هى الوعاء المعبر عن هذا الانتماء، ويرى أن تقدم الطائفة على الوطن فى لبنان جعلت اللبنانيين يجهدون أنفسهم لإعداد أبنائهم أفراداً متميزين فى طوائفهم ويهملون بناء الوطن، ولا صيانة للأوطان إلا بصيانة الأجساد وحفظها.. «الثوب المستعار لا يدفئ، وثوب الوطن هو اللغة، وثوب لبنان هو اللغة العربية».

ويعيب المؤلف فى فصول كتابه على كثيرين من مدعى الحداثة والمرتبطين بالثقافة الغربية، إهمالهم بل وسخريتهم من اللغة العربية التى يعتبرونها نقيضاً للمعارف والعلوم الحديثة، ويرى أنها من أهم أسس التوحيد الوطنى فى لبنان، وأن القول بعجز اللغة العربية عن استيعاب العلوم هو قول خاطئ، والترويج له يفتت وحدة لبنان ويقسمه شيعاً متنافرة، ويقدم نماذج لصحة اعتقاده، يبرهن فيها على أن قضية اللغة العربية كانت هى الشغل الشاغل لكثيرين سبقوه من رواد النهضة فى لبنان وفى الشام كله.

■

كتاب المـــــدن

عبدالعزيز المقالح

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٧، ١٨٣صفحة



مدن الأرض مثل النساء/ ومثل البحيرات/ غاضبة/ صلفات/ وأخرى/ كما الضوء فى همسه/ ناعمات/ هنا مدن فى عراء الجنون/ هنا مدن فى صفاء السكون/ وخلف المدى مدن/ لا تثير اشتهاء الكلام/ ولا ترتقى فى كتاب الهوى/ لتكون إذا جئتها وردة/ أو قصيدة.

بهذا المفتتح يقدم المؤلف كتابه، قصائده وذكرياته عن نحو عشرين مدينة عربية وأجنبية: القاهرة، مكة، أثينا، روما، لندن، مراكش، بيروت، باريس، دمشق، برلين، الإسكندرية، بغداد وغيرها.

بعض هذه المدن زارها عدة مرات، ومدن أخرى، مثل بغداد.. زارها مرة وحيدة. وكثير مما عبر عنه المؤلف شعراً أو نثراً، لا يمثل فى حقيقته واقع الحال فى المدن التى زارها تمثيلاً دقيقاً، لأنه فى الحقيقة يستدعى التاريخ، ويستلهم من رائحة الكتب ما يجمل أحياناً مدنه التى يرى، وخصوصاً حين يتعلق الأمر بالمدن العربية.. فالقاهرة هى الأزهر والأهرامات ومراكب الشمس وطه حسين وصوت عبدالناصر، يقول المقالح: القاهرة لا تقارن بسواها، سيدة مكتملة، شديدة التهذيب، مستعدة لتعطى قلبها، لا لأبنائها وحسب بل لكل عابر سبيل، فى القاهرة، أنت لست وحدك، فقد توحدت مع نفسك ومع الآخر، وتوحدت مع الماضى والحاضر، وتوحدت مع الناس، كل الناس.

وينثر فوق صدرها هذه اللآلئ شعراً:

هنا القاهرة/ وهنا مصر/ أحتاج حبراً/ بمقدار ماء المحيط/ لأكتب أفراحها، ومواريث أحزانها، فهنا يرقد السادة المتعبون/ وقد فرغوا من بناء الظلال/ على صدر آخر أهرامها/ سوف يدخل الأهل/ والغرباء/ فلا ينفد الخبز يا سيدى/ عن موائدها.

وعن أثينا يقول: من هنا/ اندلع اللهب السرمدى/ وفى هذه الجزر استوت الشمس/ والشعر/ والفلسفات.

ويقول عن روما: دلفت إليها/ وفى العين جوع/ وفى القلب أسئلة/ كان تاريخها يتوكأ واحدة/ من دعائمها/ وهو يجلس بالقرب منى/ ومن شغفى بالزمن الأثير.

وعن دمشق: نمت ثم حلمت/ بأن دمشق/ التى حملت راية الله/ والضاد فى البدء/ عادت لتحمل راية أمتها.

وعن بغداد: هنا مر صوت الرشيد/ وسارت مواكبه نحو مكة عاماً/ ونحو الفتوحات عاماً/ وفى هذه الدرب/ صلت ملائكة الله/ تندب عرش الخلافة.

عشرون قصيدة وحكاية، لعشرين مدينة، تمثل لوحات جدارية فى العشق والترحال.

■

حيرة العائد

محمود درويش

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ١٦١صفحة



مجموعة من الدراسات نشرت فى دوريات عربية وأجنبية، وكلمات ألقيت فى مناسبات مختلفة، يكتب عن الخروج من تونس وعن جامعة بيرزيت وعن مدرسة كفر ياسين التى درس فيها فى الجليل وعن تحرير الجنوب، كما يكتب فى ذكرى عدد من أصدقائه المبدعين: توفيق زياد وإميل حبيبى وإبراهيم أبولغد وفدوى طوقان وممدوح عدوان وياسر عرفات ومحمد الماغوط وسمير قصير وجوزيف سماحة.

يتساءل درويش فى ورقة ألقاها بمناسبة ندوة أقيمت فى تونس لتكريمه: هل مازال الشعر ضروريا؟ ويجيب: أعرف كيف أموت وأولد فى سياق قصيدة لا تبحث وهى تكتب عن هدف سوى شعريتها التى لا تستطيع أن تتحرر من ضغط تاريخها إلا فى تجدد تاريخيتها من خلال الاندماج فيها لا الاغتراب عنها.

ويقول فى مناسبة منحه الدكتوراة الفخرية من جامعة لوفان البلجيكية: صحيح أن التحولات الاجتماعية المتسارعة وهيمنة وسائل الإعلام، وانتهاك اللغة بتحويلها إلى لغة استهلاكية، قد أسهمت فى تراجع الإصغاء إلى الشعر، ولكن الصحيح أيضاً هو أن الشاعر قد أسهم فى هذه الظاهرة منذ أصبح مفتوناً إما بعزلته المعقدة وإما بجماهيريته البسيطة. فى الحالة الأولى جعل الغموض صورة لـ «أنا» لا تحتوى على غيرها ولا تذهب من الذات

إلى العالم. وفى الحالة الثانية جعل الوضوح رسالة نهائية تقتل المتعة التى نبحث عنها فى الشعر، وتترك القارئ عاطلاً عن العمل. هنالك إذاً، ما هو أسوأ من الغموض المعتم، هو الوضوح التعليمى الذى يحرم القارئ من المشاركة فى عملية الإبداع، وإعطاء حياة ثانية للقصيدة.

يطرح محمود درويش أسئلة عديدة ويثير إشكالات نقدية وسياسية وثقافية كبرى، حتى وهو يرثى صديقاً أو ينثر فى وداع مبدع، وهذه هى القيمة الحقيقية التى تقدمها لنا هذه الكتابات النثرية التى لا تقل أهمية عن كتاباته الشعرية.

■

تاريخ ضائع

مايكل هاميلتون مورجان

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٨، ٣٠٠ صفحة



تناهض الفكرة التى يقوم عليها هذا الكتاب، الفكرة البائسة التى نادى بها صمويل هنتنجتون فى كتابه ذائع الصيت عن صدام الحضارات، هنا محاولة للتأكيد على تكامل الحضارات وتلاقحها، وعبره يحاول المؤلف أن يعيد الاعتبار للحضارة الإسلامية وتراث المسلمين الذين يمثلون برأيه، الجذور العميقة لحضارة أوروبا، ومن ثم تظهر أسماء مثل ابن سينا وابن الهيثم والخوارزمى والغزالى والطوسى وغيرهم، بوصفهم آباء لنظرائهم فى حضارة الغرب، نيوتن وكوبر نيكس وجاليليو وسواهم، وهو فى سعيه هذا يستعرض تاريخ الدولة والحضارة الإسلامية منذ دولة الرسول عليه الصلاة والسلام، مروراً بالخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، والدويلات الإسلامية التى قامت فى مشارق الأرض ومغاربها، وكان لها بالغ الأثر فى الحضارة الإنسانية، وهو يستهل معظم فصوله بترحال ما فى مدينة من المدن الإسلامية التى عاش بها أحد العلماء، منتبهاً إلى أن طراز المدينة المعمارى وأجواء الحكم فيها تمثل خلفية المشهد الذى عاش فيه العالم أو المخترع العربى، وهو يقدم تصوراً مهماً فى الختام للأسباب التى قادت إلى هذه النهضة ذات الطابع التنويرى فى تلك الحقب السالفة، وبرأيه فإن القيادة الإسلامية المستنيرة للإمبراطورية الأولى كانت سبباً فى ظهور العصور الذهبية العديدة، وهذه الرؤية للقيادة بالرغم من صعوبات عديدة، استطاعت لمدة ثمانية قرون إلهام مناخ من الاختراع المتميز والثورة الفكرية الفريدة، والتى تمثلت فى المكتبات والجامعات النموذجية وروح العدالة والمساواة الاجتماعية وتقبل الآخر المختلف مذهبيا وعقائديا، وهى المبادئ الكبرى التى ساعدت فى تشكيل رؤية مستقبلية للقيادة الحديثة فى أوروبا فيما بعد.

ليس هذا عملاً جديداً على كل حال، فكثيرون من علماء الغرب ومن المستشرقين قاموا به من قبل، وربما على نحو أفضل، وربما يكون توقيت نشر الكتاب فى ظروف تشتد فيها الحملة على الإسلام والمسلمين، وانتماء مؤلفه إلى مؤسسة «أسس جديدة للسلام» الهادفة إلى تعزيز السلام بين الحضارات، هو ما يمنح الكتاب أهمية فى تلك الفترة.

■

كيرياليسون

هانى عبدالمريد

القاهرة: الدار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ١٢٠ صفحة



تضعك الصفحات الأولى من الرواية فى مواجهة الحالة، شاب ضائع يسكن فى حى الزرايب بمنشية ناصر، إحدى العشوائيات بعاصمة المعز التى تضم أكثر من ٧٠ منطقة عشوائية، أبوه الشيخ تيسير أحد هؤلاء الذين يتشبثون بخرافات ظناً منهم أنها من صلب الدين، أو لأن هذا التمسح بالدين يجلب عليهم منافع شتى، ثمة صدام واضح بين الابن وأبيه، فحين غاب الابن فى عزلة اختيارية وزع الأب ورقة بأوصاف هذا الذى خرج ولم يعد، كتلك التى تصف المرضى النفسيين أو المتخلفين عقليا، الابن الذى تخرج فى الجامعة نهشته البطالة، قبل أخيراً أن يعمل حارساً لعمارة بها عديد من الشقق المفروشة التى تمارس فيها الدعارة، قرر أن يدخل فى اللعبة وأن يجارى الجو ليعيش، صار يحصل «رسم مرور» من الفتيات اللائى يصعدن إلى هذه الشقق، بالابتزاز حيناً وبالرضا حيناً آخر. سنكتشف بعد قليل، أن الشيخ تيسير فلاتى لا يتورع عن فعل الفاحشة، فرض حمايته على أبو عامر وبناته بدعوى أنه شهم، لكنه تناوب مضاجعة البنات فى غرفة المخزن.

تتداخل الشخوص والأحداث بعد ذلك بطريقة تغيب معها ملامح السرد الذى يتشظى هنا وهناك، ذكريات عن فترة التجنيد، أخرى عن علاقات بنات فرز القمامة وخصوصاً جوليا وشربات، ثم قفزة أخرى يحكى فيها الراوى عن بدايات شعوره برجولته واللحظات العصيبة والأخرى السعيدة التى صادفها، وأصدقاء المدرسة الإعدادية الذين كانت معاناتهم من صنف معاناته.

فصل آخر عن الخال، الذى كان يحب القراءة ويكتب الشعر ويرتاد المسارح، لكنه صار بعد فترة مجرد مواطن يلهث خلف لقمة العيش، ومن خلال الخال سنعرف شيئاً عن يحيى، الشاب الطيب الذى دهسته الدنيا والحاجة فتحول إلى «قواد»، وعن «العفشى» الذى فر من الزرايب إلى فرنسا، وعن سلوى الإخصائية الاجتماعية التى صارت متاحة أكثر من ذى قبل، وينتهى به الحال فى عزلته داخل غرفته المظلمة وقد استعد للصلب متمثلاً حالة المسيح عليه السلام الذى افتدى بعذاباته المضنية البشر أجمعين، ظل يردد بلا توقف: كيرياليسون.

■

حياة زوجية رائعة

رضوان شابسيغ

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ١٤٠صفحة



مؤلف الكتاب يعمل أستاذاً للمسالك البولية بجامعة كولومبيا بنيويورك، وخلال ستة عشر عاماً من ممارسة المهنة، شهد آلاف الحالات التى يشكو أصحابها من فتور العلاقات الجنسية أو شعورهم بالقصور الجنسى لأسباب مختلفة، وكانت النتيجة المؤكدة التى انتهى إليها هى أن الطريقة الوحيدة لعلاج تدنى الرغبة الجنسية والأداء هى فى تحسين الصحة العامة للرجال والنساء على السواء، وأن العلاقة بين القصور الجنسى والتقدم فى العمر ليست حتمية، واقترح المؤلف ٧ خطوات لمساعدة الرجال على تحسين حياتهم الجنسية، والخطوة الأولى هى تخطى الموانع التى تحول بينك وبين الاعتراف بقصور الوظيفة الجنسية، وهى فى معظمها راجعة إلى الخجل أو الخوف من الصدمة عند العرض على طبيب، إذ إن ملايين الرجال يعانون فى صمت، لكن المشكلة لن تحل من تلقاء نفسها، وعليهم الاعتراف بها لتحقيق ما ينشدونه من متعة.

الخطوة الثانية هى وضع أسلوب صحى للحياة، يتضمن الإقلاع عن التدخين والكحوليات وإنقاص الوزن واتباع نظام غذائى سليم وممارسة الرياضة بشكل منتظم وتقليل الضغط العصبى وإدارة الوقت بطريقة تمنحك فرصة للاستمتاع بالحياة.

الخطوة الثالثة أن تدع الجسم كله يشارك فى تحسين صحتك الجنسية، ويعنى ذلك إجراء فحوصات شاملة لكيفية أداء أجهزة الجسم كلها، القلب والجهاز الهضمى والجهاز العصبى والأوعية الدموية، فسلامة أداء الأجهزة لوظائفها يضمن سلامة الأداء الجنسى وأى قصور فى أى منها يؤثر بالضرورة على الوظيفة الجنسية.

الخطوة الرابعة تتعلق بالسلامة النفسية، ولعل عبارة «المخ هو أكثر الأعضاء جنسية» ليست مجازية، «فالجنس العظيم» ـ بتعبير المؤلف ـ يتطلب كلا من الجسم والعقل.. حيث تتحقق المتعة الناتجة عن التوقع والإحساس وتلبية الرغبة(...) والثوران الذى يحدث فى مخك فى لحظة الذروة هو ما يصل بك إلى القمة». من المهم إذن أن تسيطر على قلقك، وأن تقلل من مساحات اكتئابك، وأن تصر على الاستمتاع بإجازات قصيرة، وأن تقلل من الأحمال التى تفرضها على نفسك فى كثير من الأحيان دون مقتضى.

الخطوة الخامسة يضعها المؤلف تحت عنوان «لابد للتانجو من راقصين»، وهو عنوان يشير إلى أن الجنس ليس نشاطاً منفرداً إذ يلزمه بالضرورة شريك، وبقدر تفاعل الشريكين وحسن أدائهما، يكون الاستمتاع، وفى هذه الخطوة يقدم المؤلف نصائح عديدة لتحقيق جماع مثالى.

أما الخطوة السادسة فهى علاجية، وتعنى بتقديم وصفات طبية لعلاج القصور فى أداء الوظيفة الجنسية، مثل سرعة القذف وضعف الانتصاب وفتور الرغبة والانتصاب المستمر واحتباس القذف وغيرها.

والخطوة الأخيرة هى وصفة لوضع الخطوات السابقة كلها موضع التنفيذ، والحقيقة التى يؤكد عليها المؤلف فى الختام هى أن بإمكان الغالبية من البشر تحسين حياتهم الجنسية دون تدخل طبى.

■

مقالات غاضبة

جابر عصفور

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٨، ٣٣٨ صفحة



دون شك، فإن ما يغضب فى واقعنا العربى أكثر كثيراً مما يبعث على البهجة، عنف وتطرف وتغييب مقصود للعقل والحرية، وحضور ضاغط للخرافة والاستبداد والقمع. وأول صيحة غضب تواجهك، تلك التى يطلقها المؤلف فى مواجهة المشهد الثقافى العربى الذى يراه مأزوماً، ويعانى تناقضاً فاضحاً بين ظاهره وباطنه، إذ فى وقت تنتشر فيه الجامعات وتشيد الأكاديميات، يتراجع مستوى التعليم ويتدهور البحث العلمى، وفى وقت ينفق فيه ببذخ على الفضائيات، تزيد مساحة المسكوت عنه وتغيب تماماً الجرأة

فى نقد الذات وكشف عيوبها. وفيما يتصايح الحكام والمسئولون بشعارات الديمقراطية والتعددية، يمارسون أقصى درجات قهر الشعوب وتكميم أفواه المعارضين. والأمر كذلك ينسحب على المثقفين الذين لا يكفون عن إعلان تقديسهم للاختلاف فى الرأى والحوار مع الآخر، أيا كان هذا الآخر، فى وقت يضجرون من مخالفيهم وينعتونهم بأبشع النعوت، بل ويحرضون على تصفيتهم معنويا وجسديا بزعم أنهم خونة وخارجون على الملة.

صيحة غضب أخرى يطلقها المؤلف لغياب العلم من حياتنا، مستعيداً مقولة العالم الباكستانى محمد عبدالسلام الحائز على جائزة نوبل فى الطبيعة، والتى يؤكد فيها أنه: «ما من حضارة على الأرض ضعف فيها العلم كما ضعف فى أرض الإسلام». ويبحث عصفور فيما وراء المقولة، لينتهى إلى أن ضعف العلم كان نتيجة منطقية لغياب الحرية عن عالمنا الإسلامى أو تغييبها عمداً، خصوصاً مع تقلص المشروع الليبرالى فى مصر عقب قيام ثورة يوليو ٥٢، فمع غياب الحرية خضعت الثقافة العربية لشروط الدولة التسلطية، وانتعشت الأصولية الدينية، فشاعت الخرافة والغيبة وتقلصت مساحة الاجتهاد وحوصر العلم والعلماء، واختنق الإبداع والمبدعون.

صيحات غضب متتالية عن غياب ثقافة حقوق الإنسان، وتراجع حرية الفكر والتعبير، واتساع دوائر المنع والمصادرة فى مجالات الفنون والآداب على وجه الخصوص، والانحدار الهائل والمستمر فى مجالات التعليم والبحث العلمى، التناحر الذى لا يتوقف بين المثقفين على عطايا ومنح صغيرة هنا أو هناك. فإذا لم تكن هذه كلها مما يغضب كاتباً، فما الذى يغضبه؟

■

كيف تقرأ المصرية القديمة؟

مارك كولد - بيل منيلى

ترجمة: خالد داود

القاهرة: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٨، ١٧٦ صفحة



يقدم الكتاب دليلاً عمليا لكيفية تعلم الهيروغليفية من خلال نصوص حقيقية موجودة فى المتحف البريطانى، وخصوصاً النصوص الجنائزية الخاصة بالموظفين المصريين، إضافة إلى المناظر المرسومة على توابيت المقابر، وكذلك قائمة الملوك الشهيرة بقائمة أبيدوس التى ترجع إلى عصر الملك رمسيس الثانى.

والكتاب مكون من ثمانية فصول يصحب فيها القارئ لتعلم الهيروغليفية خطوة بخطوة، بادئا بالعلامات ذات الصوت الواحد، والتى تعبر كل علامة هيروغليفية فيها عن صوت كما فى الأبجديات الحديثة، وينبه المؤلف هنا إلى أن محاولة نطق الكلمات المصرية القديمة كما كانت بالضبط لن يكون أمراً مفيداً أو عمليا، خصوصاً أن حروف الحركة لم تكن تكتب فى اللغة الهيروغليفية، والأجدى أن يستطيع الشخص قراءة الترجمة الصوتية ويقوم بنطق الكلمات بالكامل بدلاً من قراءتها علامة بعلامة.

وفى الفصل الثانى يقدم المؤلف نماذج عديدة للعلامات ثنائية وثلاثية الصوت، بمعنى أن علامة واحدة قد تعنى حرفين أو ثلاثة، إضافة إلى العلامات التى لها معنى وصوت فى أن معاً، أى هى علامات تصويرية، وفى هذا الفصل يورد المؤلف عديداً من الأسماء والألقاب الملكية وكيفية تعبير المصرى القديم عن صيغ الجمع، وكيفية تسجيل التاريخ خصوصاً فى الحوادث الكبرى، ويخصص الفصل الثالث لبعض الكتابات والهجاءات المتميزة، وأسلوب المصرى القديم فى الكتابة المختصرة، والكتابة بغرض التبجيل، وكيفية تعبيره عن الصفات والألقاب وصيغ القرابين.

ويركز الفصل الرابع على كيفية وصف الأفعال التى تعبر عن فعل ما أو حدث أو حالة، وفى الفصلين الخامس والسادس تعريف بزمن الماضى، بالتركيز على النقوش والنصوص التى يحكى المتوفى ويصف فيها حياته الوظيفية، وكذلك الضمائر وكيفية استخدامها فى اللغة المصرية القديمة، ويتميز الفصل السادس بتقديم نصوص تعنى بالوصف السردى أكثر من أى شىء آخر. وتداخل الأزمنة فى هذا السرد.

وفى الفصل السابع تركيز على الصفات والنعوت التى تصحب صاحب اللوحة كشخص عاش حياة أخلاقية أو قام بإنجازات عظيمة، وكيفية استخدام اسم الفاعل واسم المفعول، وفى الفصل الثامن عدد وافر من صيغ النداء إلى الأحياء كما استخدمها المتوفى مناجيا أجيال المستقبل لتحافظ على شعائره الجنائزية.

■

نواقيس الإنذار المبكر

محمود عبدالفضيل

القاهرة: دار العين، ٢٠٠٨، ١١٣ صفحة



يضم الكتاب دراسات نشرها المؤلف فى مناسبات مختلفة، وهى فى مجملها تمثل كما تشير العناوين أجراس إنذار وتحذير من سوء التخطيط وسوء الإدارة وضآلة الإنجاز، فى الاقتصاد كما فى السياسة والشئون العامة.

يحذر المؤلف مثلاً من ترك الفساد يعشش فى المواقع المختلفة، فإذا ما انتبهنا وبدأنا ملاحقة المفسدين وتجريمهم، تكون ملايين الجنيهات قد نهبت أو أهدرت ولم يعد فى الإمكان استردادها. يحذر أيضاً من سيادة روح جديدة فى حياتنا الجامعية، لا تهتم كثيراً بالتعمق والابتكار، وإنما بالتلخيص والتلقين دون إضافات علمية جادة، وإعلاء قيمة المال والمنصب بين صفوف أساتذة الجامعة، وغياب ما كان يعرف بالعشيرة العلمية الناهضة فى الأربعينيات والخمسينيات والستينيات. ويرى أن الاختبار الحقيقى لمستقبل التطور الديمقراطى فى مصر يقاس بثلاثة معايير: مدى استقلال الجامعة وإعادة الاعتبار لدورها فى مجال البحث والتعليم، مدى استقلال القضاء وعدم التدخل فى شئونه، مدى نزاهة الانتخابات البرلمانية لإحداث نوع من التوازن يخرج البلاد من دوامة الإحباط واحتكار السلطة.

يحذر المؤلف كذلك من الإهدار الحادث فى مجال الموارد البشرية، فإعادة بناء رصيد رأس المال البشرى بالنسبة لنا «قضية حياة أو موت»، فلا خير فى نخبة تكنوقراطية معولمة لا ترتبط بمشروع نهضة داخلية، ولا خير فى كوادر ذات وعى وانتماء وطنى ليس لديها عدة معرفية وتكوين علمى يسمح لها بإدارة عملية التنمية، يحذر أيضاً من عدم التوازن فى العلاقات الإنتاجية، بإعطاء حوافز للمستثمرين دون إعطاء حوافز مماثلة للعمال، وهو ما يؤدى إلى زيادة التوتر بين الإدارة التى تمثل رأس المال من ناحية، والسواعد الإنتاجية من ناحية ثانية، وهو ما نشهد نماذجه فى الإضرابات والمظاهرات العمالية الأخيرة.

ويدق ناقوس الخطر باستمرار الخلل فى تقديم الخدمات ومد المرافق، والتمييز بين مناطق يسكنها الأثرياء وأخرى يقيم فيها محدودو الدخل والفقراء، فهذا الخلل فى رأيه يضرب فكرة المواطنة فى الصميم، ويقسم المجتمع إلى شرائح عليا وشرائح دنيا، وينذر بحريق واحتقان اجتماعى لا يعرف أحد مداه.

وهناك تحذير مستمر من شيوع ثقافة الشطارة والفهلوة وسد الذرائع، بديلاً عن ثقافة الاجتهاد والعمل والإتقان، وهذا النوع من الثقافة مسئول لا ريب عن كوارث عدة شهدتها مصر خلال السنوات الأخيرة، بينها كارثة العبارة وكوارث القطارات المتتالية والانهيارات فى العمارات وحوادث الطرق وغيرها.

هذه بعض نواقيس الخطر، تجدى - ربما - لو أسمعت حيا.

■

العيب فى ذات أفندينا

يونان لبيب رزق

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٨، ٢٣٤ صفحة



أفندينا هو حاكم مصر، خديو، سلطان، ملك، أيا كان لقبه.

وبرغم أن مصر عرفت المجالس النيابية باكراً (١٨٦٦)، وكان الهدف أن تتم مناقشة المسائل العامة وتوجيه الانتقادات لأداء الحكومة، وكذلك انتقاد الحاكم، فإن ذلك لم يتم، من ناحية لأن أعضاء هذه المجالس كان يتم اختيارهم وفق مواصفات خاصة، كما أن مكانة الحاكم كانت مصونة لا يجوز المساس بها. وقد عبر عن ذلك أحد النواب بقوله: إذا كان أحدنا لا يستطيع أن يجاوب المدير فى أى أمر يصدره إلينا سوى بقوله حاضر.. على عينى وراسى، فهل يمكن أن نجسر على مقاومة أفندينا الذى يملك أعناقنا وحق التصرف فى أعمارنا، ويستطيع فى أى وقت أن يخسف الأرض تحت أقدامنا.

لكن أحمد حلمى فعلها، فكان أول من انتقد «أفندينا»، وأحمد حلمى شاب عمل مع الزعيم مصطفى كامل فى جريدة الحزب الوطنى «اللواء»، فلما مات الزعيم أسس جريدة «القطر المصرى» الأسبوعية فى ١٩٠٨، ونشر فيها فى يناير ١٩٠٩ مقالات من جريدة العدل التركية التى تصدر فى اسطمبول بالعربية تحت عنوان «مصر للمصريين» وحملت هجوماً شديداً على الأسرة العلوية، وبرغم التحذيرات التى وجهت إليه ومحاولة استمالته من قبل أفراد مقربين من الخديو عباس حلمى منهم أمير الشعراء أحمد شوقى فإنه لم يرعو واستمر فى هجومه، فصدر الحكم ضده فى ٢٣ أبريل ١٩٠٩ بالسجن بتهمة العيب فى ذات أفندينا لمدة عشرة شهور، فما الذى فعله أحمد حلمى عقب خروجه من السجن، كتب مقالات هذه عناوينها: «صلاح الرعية بصلاح ملوكها»، و«فلتسقط حكومة الفرد»، فما كان من الحكومة إلا أن أصدرت قراراً بعد استئذان المندوب السامى بإغلاق جريدة «القطر المصرى» فى ٨ يناير ١٩١٠.

وحين صدر دستور ١٩٢٣ صار للعيب فى الذات الملكية قانونه الخاص، وكان الدكتور محمود عزمى هو أول من مثل أمام المحكمة بمقتضاه، حين كتب فى السياسة ١٩٢٧ جريدة الأحرار الدستوريين مناديا بإعمال مواد الدستور التى تنص على أن الملك يملك ولا يحكم، وانتقد تدخلات الملك فى شئون الحكم قائلاً: يجب وضع حد لهذه التدخلات وإلا كان الدستور مجرد حبر على ورق. وقد حُكم على عزمى بالسجن ستة أشهر ثم تم تخفيف الحكم فى النقض إلى الغرامة

عشرين جنيهاً، وبعدها بسنوات ثلاث، كانت كبرى قضايا العيب فى ذات أفندينا، حين قال العقاد داخل مجلس النواب اعتراضاً على خرق الملك فؤاد للدستور: ليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلد فى سبيل صيانة الدستور وحمايته.

وبرغم محاولات العقاد التراجع عما قاله، وبرغم بلاغة محاميه مكرم عبيد باشا، فإن المحكمة قضت بحبسه تسعة أشهر حبساً بسيطاً بتهمة العيب فى ذات أفندينا.

إلى جانب وقائع العيب فى ذات أفندينا، يضم الكتاب ملاحق عن وقائع المحاكمات ودفاع المتهمين والبنود القانونية التى حوكموا بموجبها.

اليهود فى عقل هؤلاء

عبدالوهاب المسيرى

القاهرة: دار العين، ٢٠٠٨ ، ١٤٣ صفحة



مثّل اليهود إشكالية أساسية لأوروبا، خصوصاً فى العصور الوسطى، وقد صدر لنا الغرب هذه المشكلة فى صورة الدولة الصهيونية التى تم غرسها فى المنطقة بقوة السلاح. يفند المؤلف الأسباب التى قادت إلى بروز المشكلة على هذا النحو من الفصل الأول، ثم يبدأ فى الفصول التالية عرضاً لتصورات بعض الأدباء من اليهود عن اليهود واليهودية، ثم تصورات الصهاينة عنهم، وفى الفصلين الأخيرين يتناول اليهود فى عقل جمال حمدان ثم فى عقل روجيه جارودى.

بين هؤلاء مثلاً «هاينريش هاينى» وهو أحد أشهر الشعراء الرومانسيين الألمان، وهو بدا معاديا لليهودية حتى إنه كان يعتبرها أحد أمراض ثلاثة شريرة إلى جانب الفقر والألم، واعتبرها معادية للإنسانية، إلا أنه حين أقعده المرض بدأ يحن لليهودية كجزء من حنينه الدينى العام، وأما فرانز كافكا، فهناك من اعتبره صهيونيا حتى النخاع، وهناك من رآه معاديا للصهيونية، أما المؤلف فينتهى إلى أن عمق أثر كافكا فى الحضارة الغربية يبين مدى تجذره فى التشكيل الحضارى الغربى، ومن ناحية ثانية، يشير إلى هامشية خصوصيته اليهودية.

أما الأدباء اليهود الصهاينة، فيختار منهم المؤلف يهودا جوردون، وهو شاعر من لتوانيا كتب بالعبرية واعتبر مهيجاً اجتماعيا من الدرجة الأولى، وميخا بيريشفسكى وهو كاتب روسى رومانتيكى توفى فى ١٩٢١، وجوزيف بيريز وهو روسى أيضاً كان يعبر عن وجهة النظر الاستيطانية بكل شراستها. وفى دراسته عن جمال حمدان التى تحتل القسم الأكبر من الكتاب، يركز المؤلف بشكل أساسى على الكتيب الذى ألفه حمدان تحت عنوان «اليهود من ناحية الأنثروبولوجيا»، وبعد شرح مطول لمنهجية حمدان فى التفكير والكتابة، يشير المؤلف إلى ثلاثية حمدان: إن موقع مصر مهدد أبداً وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل، ومن ثم فإن المبدأ الاستراتيجى الأول للأمن المصرى هو: دافع عن سيناء تدافع عن القناة تدافع عن مصر جميعاً، ولا ضمان بالتالى إلا بذهاب العدو. ثم ثلاثية أخرى تشير إلى إسرائيل باعتبارها أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية فى العالم الثالث، حيث يضع معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية: مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث، مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى، مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين/ إسرائيل. وأما روجيه جارودى، فقد حطم عدداً من الأساطير المغلقة التى تستند إليها الصهيونية وهى أسطورة الوعد، أسطورة الشعب المختار والنقاء العرقى، وهو ما استلزم إقدام الصهاينة على إبادة الفلسطينيين.

أوجاع متوحشة

ماهر مهران

القاهرة: دار اكتب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ٩٩ صفحة



ديوان جديد فى شعر العامية الذى يشهد انتعاشة كبيرة فى السنوات الأخيرة. ينتمى صاحبه إلى صعيد مصر، وتنتمى قصائده إلى أوجاع جيل يعانى وحدة واغتراباً وعدم تحقق. يضم الديوان، وهو الخامس بعد «هفهفات النخيل» و«عزيزة» و«أغانى أشجار السنط» و«الخدامة»، عدداً من القصائد القصيرة وخمس قصائد طويلة. نقرأ فى الديوان: نضحك/ ونلعب/ وناكل الحياة دى أكل/ وقبل الفجر ما يشقشق/ نرجع كل ليلة/ بهزيمة شكل!

ونقرأ أيضاً:

النمل/ الماشى ورا البلياتشو/ تقولشى عيل ماسك ديل أبوه/ لو/ جرب مرة يخطى شمال/ لو/ جرب مرة يخطى يمين/ لو جرب مرة/ أكيد راح يوصل/ ومؤكد خالص مش هايتوه.

الإصلاح السياسى من أين يبدأ؟

عاطف الغمرى

القاهرة: نهضة مصر ٢٠٠٨، ٣٠٩ صفحات



تعددت الكتابات حول الإصلاح وتعددت الرؤى حوله. ويرى كثير من الكتاب - ومنهم المؤلف - أن الإصلاح السياسى هو أصل كل إصلاح، وهو القاطرة التى ستقود قطار الإصلاح فى اتجاهاته المتعددة، اقتصادى واجتماعى وإدارى.. إلخ، والديمقراطية هى وقود القاطرة، من دونها لا يمكن للقطار أن يتقدم خطوة واحدة، وسيبقى دوما يراوح مكانه.

يخصص المؤلف الفصل الأول للخلاف حول معنى الدولة الوطنية ودلالاتها، ويلاحظ أن ثمة فجوة بين نظرة الدولة ونظرة الناس لمفهوم الوطنية ومصالح الأمن القومى، وهى فجوة لم تكن موجودة أبدا فى دول أوروبا التى نجحت فى تحقيق تقدمها الاقتصادى والحفاظ فى الوقت نفسه على أمنها القومى، أما فى بلداننا العربية فإن أمن النظام حل محل أمن الدولة. واتسعت الفجوة بين الرأى العام والنظام السياسى، وظهرت تصورات عديدة تتحدث عن نهاية نظرية الدولة الوطنية.

ارتبط بهذه الفجوة غياب قسرى لفكرة التعددية، وأهمية الاختلاف فى الرأى، وهما شرطان أساسيان لوجود الديمقراطية التى يرى المؤلف أن لها معالم ثلاثة هى التعددية وتداول السلطة وحرية التعبير. ويشير إلى أن إضعاف نسيج الدولة الوطنية بزعزعة فكرة المواطنة داخلها، يؤثر بالضرورة على الدولة القومية، ويؤكد على الدور المهم للهوية الثقافية فى الحفاظ على السيادة الوطنية.

ويتساءل المؤلف فى الفصل الثانى عن أسباب توقف موجات التغيير فى مصر قبل بلوغ غاياتها، ويجيب بعد استعراضه لعديد من هذه الموجات فى التاريخ المصرى المعاصر، بأن هذه الموجات لا تجرى وفقا لإيقاع عصرها، عصر ثورة المعلومات والاتصالات الهائلة، والذى تحكمه مقاييس زمنية تختلف كليا عن تلك التى حكمت العالم فى عصر الثورة الصناعية، فما كان يحتاج عشرين عاما لحدوثه آنذاك صار يتحتم حدوثه فى عامين فقط، كما يؤكد على نقطة بالغة الأهمية التفتت إليها القوى الدافعة للتغيير فى الغرب ولم تعطه قوى التغيير المحلية والإقليمية ما يستأهله من أهمية، وهى وضع عناصر القوة الذاتية للفرد تعليميا ونفسيا وجسمانيا وصحيا فى ترتيب أكبر مما كان عليه فى فترة سابقة كانت للقوة العسكرية فيها أهمية قصوى، وأخيرا أهمية إزالة فجوة الثقة بين المواطن والدولة عبر آليات أكثر شفافية ومشاركة أكثر فاعلية، وهو ما ينقلنا مباشرة إلى ما يناقشه المؤلف فى الفصلين الثالث والرابع، واللذين يتناول فيهما التجربة الحزبية المصرية ومثالبها خصوصا مع غياب حزب سياسى قوى منافس للحزب الحاكم، وابتعاد الأحزاب عن قواعدها الشعبية لأسباب مختلفة والانخفاض الفاضح فى نسب المشاركة فى الانتخابات البرلمانية وهو ما يعكس استفتاء شعبيا على جدية العملية الحزبية برمتها ومدى شعور المواطنين بجدواها.

لحظات ضعف

خيرى رمضان

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨



لفترة طويلة كان بريد الجمعة فى صحيفة الأهرام منصة يلتف حولها القراء فى مصر والدول العربية، واستطاع الكاتب الراحل عبد الوهاب مطاوع، بما له من حس إنسانى رفيع وثقافة موسوعية، أن يحشد جماهير القراء حول قضايا عامة وخاصة، وأن يشاركهم لحظات ضعفهم وانكسارهم، وأن يسدى لهم النصيحة بحكمة ومحبة حقيقية، وقد صار القراء فيما بعد يتشاركون فى البحث عن حلول لمشاكل بعضهم البعض، كمجموعة أصدقاء تجمعهم هموم واحدة ورغبات حقيقية فى تحدى الصعاب.

وقد حمل المؤلف - خيرى رمضان - عبء تحرير هذا الباب المهم عقب وفاة مطاوع، واستطاع أن يحتفظ بقرائه، وأن يزيد الأواصر بينهم، وأن يقتحم بجرأة عديداً من القضايا الشائكة التى تدخل فى باب المسكوت عنه، مثل تلك الموضوعات المتعلقة بالخيانة الزوجية أو عقوق الأبناء أو النفور بين الزوجين أو الشقاء بين المحبين وغيرها، واختار المؤلف بين مئات القصص الإنسانية التى تصله أسبوعيا عددا يشير إلى لحظات ضعف أصحابه، ليس بهدف كشف سترهم بطبيعة الحال، وإنما لأن إلقاء الضوء على لحظات الضعف تلك، يتيح تجارب بالغة الثراء أمام القراء، ويؤكد - اعتماداً على أقصى قدر من الصراحة والمكاشفة - أننا جميعا بشر نخطئ ونصيب، وأن اعتراف بعضنا بخطئه وكشفه للحظات ضعفه، هو أول الطريق نحو تصويب هذا الخطأ، واستعادة النفس لقوتها وقدرتها على مواجهة الواقع بكل تحولاته.

Where Does the Money Go?

أين تذهب النقود

Scott Bittle, Jean Johnson

Collins, 2008, 336PP, 16.95$



الاقتصاد الأمريكي يعاني من العديد من المخاطر في الفترة الحالية مواجها لشبح الانهيار، مما دفع مرشحي الرئاسة الأمريكية إلى التركيز على القضايا الاقتصادية بصورة كبيرة طمعا في أصوات الناخبين. هذا الكتاب يقدم لك دليلا لفهم القرارات الحكومية الخاصة بالموازنة العامة التي تخرج من جيبك، فالديون الفيدرالية تؤثر وسوف يستمر تأثيرها على مدخراتك ومدخرات تقاعدك وعقاراتك. وحتى رعايتك الصحية ومصاريف أطفالك.

الكتاب يقدم للأمريكيين المعلومات التي يحتاجونها ولديهم الحق في معرفتها، حول ميزانية الدولة والديون الفيدرالية التي وصلت الى ما يقرب من تسعة تريليونات دولار ولا تزال تنمو، فمن الخمس والثلاثين سنة الأخيرة، تعدت مصاريف الدولة على البرامج والخدمات أكثر مما تجمعه من مال الضرائب. وهذا ما فشلت جميع الحكومات السابقة في السيطرة عليه. هذا الكتاب قالت عنه النيويورك تايمز «إذا كنت ستشتري كتابا واحدا فقط أثناء الانتخابات الرئاسية ليكن هذا الكتاب».

▪

The Breakthrough Imperative

حتمية الاختراق

Mark Gottfredson , Steve Schaubert

Collins, 2008, 384PP, 26.95$



كل مدير لمؤسسة اليوم، ليضع قدميه على طريقة ليصبح مديرا تنفيذيا CEO، يتوقع منه أن يحقق نتائج مبهرة وجيدة بأسرع مما يكون، وإلا وجد نفسه في قطار الباحثين عن عمل. ولهذا فالمديرون اليوم سواء بالشركات أو المؤسسات يداهمهم الوقت دائما، لذا فهم ليس لديهم وقت للوقوع في الأخطاء أو للعودة إلى الوراء ليفعلوا ما كان من المفترض أن يفعلوه.

ولكن على الرغم من كثافة الضغوط عليهم، والأطر الزمنية القصيرة، استطاع العديد من المدراء والمدراء التنفيذيين تحقيق نتائج مبهرة واستثنائية وفي وقت قصير جدا، وهذا الكتاب يوضح كيفية حدوث هذا، عن طريق إجراء مقابلات مع أكثر من أربعين مديرا تنفيذيا سواء العاملين بالقطاعات الصناعية أو بالقطاعات غير الهادفة للربح. كما يساهم المؤلفان بخبرتهما الشخصية التي تمتد لأكثر من خمسة وعشرين عاما في مجال الاستشارات الإدارية، ليصلوا في النهاية إلى أربعة مبادئ بسيطة ولكنها قوية بشكل ملحوظ (التكاليف والأسعار دائما تنخفض - المركز التنافسي يحدد الاختيارات المتاحة - الزبائن والأرباح لا تظل ثابتة - البساطة تحصل على نتائج).

فقط، فهم أي مدير لتلك المبادئ كفيل بمساعدته على تحقيق نتائج رائعة، وتحدد طريقه في تحقيق أهدافه الاستراتيجية.

▪

Why Women Should Rule the World

لماذا يجب أن تحكم المرأة العالم؟

Dee Dee Myers

Harper, 2008, 288PP, 24.95$



ماذا سيحدث لو حكمت النساء العالم؟ تقول الكاتبة، السكرتيرة الصحفية السابقة للبيت الأبيض، «دي دي مايرز» إن كل شيء في العالم سيتغير، فالسياسة ستصبح أكثر جماعية، والأعمال ستصبح أكثر إنتاجية، وستكون المجتمعات أكثر صحة، وبالتالي سيكون العالم مكانا أفضل، ليس بسبب أن المرأة مثل الرجل وإنما بسبب أنهما مختلفان.

«دي دي مايرز» تتحدى الجميع بأن المستقبل أنثوي، فهي ترى أن النساء في المستقبل القريب سيشغلن العديد من المناصب السياسية والقيادية ويصبحن أفضل العلماء والأكاديميين. وهي تعتمد في هذا على تجربتها الشخصية في العمل بإدارة «كلينتون» كمحللة سياسية، ومعلقة على وسائل الإعلام، ومستشارة لشبكة NBC الأمريكية، فمن خلال خبرتها، توضح «مايرز» نقاط قوة النساء التي يتجاهلها الجميع، فهي متصلة جيدة، ومستمعة ممتازة، والأفضل في تشكيل الآراء.

الكتاب يقدم قراءة في قدرات النساء الشخصية، ويقدم خارطة طريق للنساء للنجاح في أعمالهن والمشاركة في الحياة العامة.

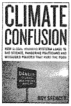
▪

Climate Confusion

ارتباك المناخ

Roy Spencer

Encounter Books, 2008, 150PP, 21.95$



العديد يشعر الآن أن هناك كارثة بيئية في الطريق، قد تبتلع العالم وتدمر الحضارات، نتيجة للاختلال البيئي الذي سيؤثر في كل شيء، الكتاب يتحدث عن ظاهرة الانبعاث الحراري، عارضا لكل الآراء حولها، بدءا من الحقيقة المزعجة التي أطلقها «أل جور»، إلى التشكك حول آثار انبعاث ثاني أكسيد الكربون.

الكتاب يحذر وبشدة من آثار ظاهرة الاحتباس الحراري وتغير المناخ العالمي، موضحا لآثاره المختلفة على الأرض والمناخ والإنسان والحضارات.

▪

Change of Heart

تغير القلب

Jodi Picoult

Atria, 2008, 464PP, 26.95$



الرواية الأكثر مبيعا في الولايات المتحدة، للروائية المبدعة «جوودي بيكولت» التي تقدم فيها المعنى الحقيقي لأن يكون عند الفرد قلب.

النجار «شاي بورن» يمضي عامه الحادي عشر خلف الأسوار تنفيذا لعقوبة حكم بها عليه بعد قتله لطفلة صغيرة وأبيها الشرطي، وأخت الفتاة بالخارج تحتاج إلى عملية نقل قلب، والقاتل يريد التبرع بقلبه لها. وتتوالى الأحداث.

يكمن جمال الرواية في مدى تعقيد الشخصيات فالكاهن الذي يعمل كمستشار لشاي، كان أحد المحلفين الذين حكموا عليه، وممثلة اتحاد الحريات المدنية التي تتابعه، تحاول التوازن بين حياتها العملية ونجاحها بفشلها في إقامة علاقة سوية مع والدتها، وتعقيد شخصية القاتل وعلاقاته داخل السجن مع زملائه المسجونين الآخرين والسجانين.

▪

Liberal Fascism

الفاشية الليبرالية

Jonah Goldberg

Doubleday, 2008, 496PP, 27.95$



في هذا الكتاب المثير، المعد جيدا، يقدم الكاتب «جونا جولدبيرغ» قراءة في مفهوم الليبرالية الحديثة ويربطها بفاشية أوائل القرن العشرين، مدعيا أن الفاشية كانت دوما ظاهرة يسارية، دارسا ورابطا التداخل بين مفهوم الفاشية وبعض الممارسات الحالية للحركات البيئية وهوليوود والحزب الديموقراطي والحركات اليسارية بطريقة ساخرة وتثير الدهشة.

يعرض جولدبيرغ ملامح من تاريخ الليبرالية رابطا إياها بالحركات الفاشية القديمة، عارضا لبعض الممارسات الأمريكية التي يراها قريبة من الفاشية.

▪

Retribution

الجزاء

Max Hastings

Knopf, 2008, 656PP, 35.00$



بحلول صيف ١٩٤٤ كان واضحا أن هزيمة اليابان أمر لا مناص منه، ولكن الطريق إلى انتصار الحلفاء لم يتضح بعد، فالحرب تدور على الساحة بأرجاء أسيا، اشتباكات بحرية وجوية ضخمة، والقتال يحتدم في الغابات، والوحشية غير المبررة من كل جانب، في أكثر الحروب دموية عرفها التاريخ.

هاستنجز يحكي قصة الحرب الأسيوية، مستعرضا للحرب ضد اليابان في شرق آسيا، عارضا لحملات مارك أرثر في الفلبين، والمارينز في ايوا جاما واوكيناوا، والهجوم السوفيتي في منشوريا،

ومحللا لعمليات صنع القرار التى سبقت قرار اطلاق القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكى.

هاستنجز يسرد قصة الزمان والمكان، مقدما تصورا لشخصيات كان لها التأثير الأكبر فى الحرب، مثل ماك آرثر وروزفلت وتشرشل وستالين وماو ومونتباتن وتشان كاى شيك فورا كما يقدم صورا للجنود العاديين الذين نزفوا الكثير من دمائهم فى تلك الحرب.

■

FairTax

الضرائب العادلة

Neal Boortz , John Linder

Harper Paperbacks, 2008, 272PP, 14.95$



بعد كتابهما الأول الضرائب العادلة الأكثر مبيعا فى الولايات المتحدة، والذى ساعد على تحريك القوى الشعبية على الثورة على النظام الضريبى الأمريكى الذى يمتص الدخل ومطالبتهم بإصلاح النظام الاقتصادى، يأتى هذا الكتاب للرد على الانتقادات التى واجهها الكتاب الأول، والتطرق إلى أفكار جديدة لم يتطرق لها الكتاب الأول الذى كان يعرض خطة شاملة لتطوير نظام الضرائب الأمريكى.

كتاب الضرائب العادلة يقدم لك الوسيلة المثلى للحفاظ على أموالك بعيدا عن نظام الضرائب غير العادل.

■

Why Good People Do Bad Things

لماذا يفعل أشخاص جيدون أفعالا سيئة

Debbie Ford

HarperOne, 2008, 256PP, 24.95$



الكتاب قراءة فى الأسباب التى تقف وراء فعل الأشخاص الجيدين لأفعال سيئة، فالصحف والأخبار تمتلئ بأخبار هؤلاء الأشخاص الذين ذهبوا فى ضلال وفعلوا ما لم يكن ليفعلوه أبدا.

تلك القصص الدرامية أصبحت هاجسا قوميا، فأنت لا تستطيع أن تحصى كم أفعال التخريب الذاتى التى تحدث فى مجتمعاتنا، وفى دائرة معارفنا، وعلى الرغم من كل النوايا الحسنة فإن هناك أفرادا يفعلون أشياء لا يعرفون جديا لماذا فعلوها.

الكاتبة ترشد القارئ إلى معرفة ما بداخله من قوى تجبرنا على العيش بقيمنا، وإعطاء الحب وتلقيه، والانخراط فى المجتمع، وبالمثل القوى التى تخرب جهود الإنسان وتجذبه للخلف دافعة إياه إلى فعل أشياء سيئة.

■

The Digital Photography Book

التصوير الرقمى

Scott Kelby

Peachpit Press, 2008, 240PP, 25.00$



بعد كتابه الأول عن التصوير الرقمى، يأتى «سكوت كيلبى» بهذا الكتاب ليضيف فيه العديد من الأشياء الجديدة التى لم يتطرق إليها من قبل، مثل تقديمه لنصائح حول كيفية استخدام الفلاش الضوئى، والتصوير عن قرب، وتصوير الرحلات، وتصوير الأشخاص، كما يقدم بعض النصائح لجعل الصور تبدو أكثر احترافية، كما يستعرض «كيلبى» كيفية بناء أستوديو تصوير من الصفر وبدون أى تكلفة تذكر.

الكتاب مقدم بطريقة بسيطة جدا، فعلى حد قول مؤلفه «فى هذا الكتاب أشرح لك كما لو كنا بالخارج نصور سويا، فأنا أقتسم خبرتى مع صديق لى».

الكتاب مرجع جيد لأى هاو للتصوير الرقمى، يستطيع من خلاله التحول إلى محترف.

■

Nineteen Minutes: A novel

تسع عشرة دقيقة

Jodi Picoult

Atria, 2008, 464PP, 26.95$



الكاتبة الروائية «جودى بيكولت» صاحبة الأعمال الرائجة (مراقب أختى والدائرة العاشرة)، تأتى برواية جديدة ترتبط فى بعض الشخصيات مع رواياتها القديمة.

بلدة صغيرة باستراليا، تعيش حياة هادئة، لا تعرف الجريمة ولا تعتاد العنف، فى تسع عشرة دقيقة فقط، كان هناك عشرة قتلى، وتسعة عشر جريحا، نتيجة لإطلاق نار عشوائى على مدرسة ثانوية بها، لتهتز البلدة الصغيرة نتيجة لهذا العمل الوحشى.

الجانى «بيتر» هو مجرد طالب من طلاب المدرسة، يقبض عليه المحقق القادم من روايات «بيكولت» السابقة «باتريك دوشارم»، ليقدمه للمحاكمة، وليتقدم المحامى «جوردون مكافى» للدفاع عنه.

«أليكس كورنير» القاضية، تحاول المحافظة على موضوعيتها، فى مواجهة شهادة ابنتها صديقة «بيتر» منذ الطفولة، والتى تعمد عدم إيذائها بينما كانت وسط الحشد، وإن كان قد قتل صديقها.

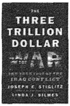
■

The Three Trillion Dollar War

حرب الثلاثة تريليونات دولار

Joseph E. Stiglitz , Linda J. Bilmes

W. W. Norton, 2008, 192PP, 22.95$



الاقتصادى الحائز على جائزة نوبل للإقتصاد لعام ٢٠٠١ «جوزيف ستيجليز» واستاذة المالية العامة «ليندا بيلمز» يقدمان فى هذا الكتاب حسابات التكلفة الحقيقية لحرب العراق، التى تعدت ما كان مقررا لها بكثير، فمع بدء الحرب أعلن البيت الأبيض أن ميزانية تلك الحرب ستتراوح حول مبلغ خمسين بليون دولار، ولكنها وصلت حتى الآن إلى ما يقرب من ثلاثة تريليون من الدولارات، طبقا لحسابات الكاتبين.

الكاتبان يلقيان الضوء على المصاريف الخفية على دافع الضرائب الأمريكى مثل مصاريف تحرك القوات العسكرية، أو مصاريف العناية الصحية بالجرحى، ومعاش أهل آلاف القتلى، والعديد من بنود المصاريف المختلفة الأخرى التى يدفعها دافع الضرائب الأمريكى، والتى كان استثمارها فى نمو الاقتصاد الأمريكى أفضل له بكثير.

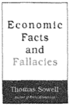
■

Economic Facts and Fallacies

حقائق ومغالطات اقتصادية

Thomas Sowell

Basic Books, 2008, 262PP, 26.00$



هناك العديد من الأفكار الشائعة حول الاقتصاد لدى الأفراد العاديين، ومعظم تلك الأفكار ما هى إلا مغالطات قام بنشرها السياسيون ووسائل الإعلام المختلفة، بعض تلك المغالطات مثل الفوارق فى الدخل بين الذكور والإناث، والمشاكل الحضرية، وأيضا بعض المغالطات الاقتصادية عن الأعراق، واقتصاد دول العالم الثالث.

الكاتب يستعرض تلك المغالطات بصورة مبسطة تصل إلى عقل القارئ العادى بكل سهولة، مفسرا وجود تلك المغالطات إلى استخدامها كسلاح سياسى يمنح لناشريها الاحتفاظ بالسلطة.

■

How Doctors Think

كيف يفكر الأطباء

Jerome Groopman

Mariner Books, 2008, 336PP, 15.95$



لماذا يخطئ بعض الأطباء أحيانا، ولماذا يصيب البعض، وكيف تتدخل أحيانا شخصية الطبيب الخاصة بشكل لا يدركه فى تشخيص الأمراض، فى هذا الكتاب طبيب مخضرم يكتب عن طريقة الأطباء فى تشخيص الأمراض وإعطاء العلاج والإرشادات.

هل للمريض دور فى صحة تشخيص الطبيب لمرضه، وكيف يمكن للمريض أن يصف أعراض مرضه بأدق طريقة ممكنة.

العديد من القصص الحقيقية، والتجارب الغنية، ومحاولة لتحليل شخصية الطبيب، كتاب مفيد لكل من الأطباء والمرضى على حد سواء.

■

The Rest is Noise: Listening to the Twentieth Century

الباقى ضوضاء: الاستماع الى القرن العشرين

Alex Ross

Fourth Estate: 624pp, $19.80, 2008



ترتبط الموسيقى الكلاسيكية الغربية فى ذهن اغلب الناس بالعصور القديمة وعلى أقصى تقدير بمنتصف القرن العشرين وتحديدا مع المؤلف الموسيقى الشهير أيجور ستارفينسكى. إلا أن التأليف الموسيقى الكلاسيكى أستمر بعد تلك الفترة ومما قد يدهش البعض انه مستمر حتى الآن. يقدم الناقد الموسيقى الأمريكى ألكس روس دراسة مميزة عن اهم المؤلفين الموسيقيين التجريبيين. ويركز فى كتابه على المؤلفين الذين استهدفوا اكبر عدد من المستمعين. ولا يقصر روس كتابه على الأعمال الموسيقية ولكنه يركز أيضا على الحياة الشخصية للمؤلفين والسياق السياسى والتاريخى للمؤلفات فيتحدث فى الكتاب عن دور الحكومات المختلفة فى تشجيع التأليف الموسيقى او محاربته مما يجعل كتابه عملا شاملا عن السياق العام الذى ظهرت فيه المؤلفات الكلاسيكية الأحدث. ويستطيع روس بمهارة أن يشرح التطور والتجديد فى الموسيقى حتى للقارئ غير المتخصص بأستخدام لغة بسيطة وتشبيهات موحية كما انه يوضح سبب انحسار شعبية الأعمال الكلاسيكية الحديثة بتجريبيتها الشديدة وبأنها موجهة بالأكثر لدارس الموسيقى أو على الأقل من يملك القدرة على قراءة النوتة الموسيقية لكى يرى التراكيب الحسابية الكامنة فى الموسيقى.

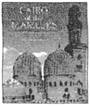
■

Cairo of the Mamluks

قاهرة المماليك

Doris Behrens-Abouseif

I. B. Tauris, 2008, 400PP, 75.00$



العصر المملوكى كان له تأثير عظيم فى القاهرة، و هذا الكتاب يستعرض آثار ما يقرب من ثلاثة قرون هى فترة حكم المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧)، الكتاب يستعرض ستين من المعالم الرئيسية فى القاهرة التى بنيت فى خلال تلك الفترة. الكتاب يعتبر مرجعا لطلاب الفن والعمارة، حيث يحتوى على العديد من الصور والتخطيطات الملونة.

■

Great Hatred, Little Rooms: Making Peace in Northern Irland

كراهية كبيرة، حجرات صغيرة: صناعة السلام فى أيرلندا الشمالية

Jonathan Powell

The Bodley Head Ltd: 352pp, £12, 2008



تعتبر المفاوضات والمحاولات التى قامت بها حكومة تونى بلير للتوصل الى اتفاق سلام فى ايرلندا الشمالية من اهم منجزات السياسة البريطانية. لقد كانت تلك المفاوضات صعبة بشكل خاص وكان من المتوقع بأستمرار ان تتسبب الحساسيات القديمة فى أنفجار الوضع فى أى لحظة حتى بعد بدء المفاوضات حتى على مستوى البرلمانات ومرور المفاوضات بسلاسة دليل على اصرار ومثابرة العاملين عليها. كان جوناثان باول هو المفاوض الرئيسى باسم الحكومة البريطانية وهو لذلك مؤهل بشكل خاص لكتابة سرد للأحداث التى ادت الى نهاية العنف الممتد لسنوات فى ايرلندا الشمالية. ويعتبر الكتاب لهذا السبب وثيقة تاريخية مع الأخذ فى الاعتبار انه وكما هو الحال فى أغلب المجالات فإن الكتاب يقدم بالضرورة وجهة نظر واحدة وهى وجهة نظر بريطانية أى القوة المحتلة وبالتالى تتساوى اهميته مع ضرورة الحذر من تبنى وجهة نظره وحدها.

■

The other Boleyn Girl

فتاة بولين الأخرى

Philipps Gregory

HaprerCollins Publishers: 544pp, £5.19, 2002



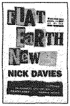
يعلم العديد من القراء المهتمين بالتاريخ الكثير عن أن بولين إحدى زوجات الملك هنرى الثامن والتى أعدمها فيما بعد ولكن القليل يعلم ان شقيقتها الكبرى مارى كانت عشيقة الملك قبل ان يتعرف على شقيقتها الأشهر وانها كانت اماً لأبنائه غير الشرعيين. تسرد الكاتبة فيليبا جريجورى حكايات الأختين فى واحدة من رواياتها الرومانسية التى تبنى احداثها على وقائع تاريخية. تحكى الرواية عن استغلال العائلة الطموحة لابنتيها كوسائل للترقى فى البلاط الملكى. تحقق العلاقة التى تبدأ بين الملك ومارى بولين الرفاهية لعائلتها فعلا ولكن عندما يبدى الملك اهتماما بأختها فإن عليها إن تمتثل لإرادة العائلة وتفسح المجال لأختها التى من المقرر ان تمنح الملك ولى عرشه. تصوغ الكاتبة القصة بتشويق وترسم صورة للأختين تظهران فيها كشخصيات شريرة ومتآمرة فتعوض القارئ عن معرفته المسبقة بمصير بولين ولا تستطيع هذه المعلومة الأساسية ان تفسد متعة الرواية على القارئ. ويبدو ان الكاتبة قامت ببحث مفصل حول جميع جوانب هذه الفترة فقدمت صورة غنية للحياة اليومية داخل القصر الملكى ولكنها ابقت الأحداث التاريخية التى تجرى خارج القصر كمجرد معلومات عابرة تشكل خلفية للقصة.

■

Flat Earth News: An Award-winning Reporter Exposes Falsehood, Distortion and Propaganda in the Global Media

أخبار الأرض المستوية: صحفى حاصل على جوائز يكشف المغالطات والتشويش والدعاية فى الإعلام العالمى

Nick Davies: Chatto and Windus, 416pp, £10.69, 2008



بدأت قصة هذا الكتاب بخبر نشر فى جميع الجرائد الإنجليزية المحافظة منها والفضائحية عن محاولة اطفال شنق زميل لهم بتعليقه من رقبته فى شجرة ولكن الطفل نجح فى إفلات رقبته من الحبل. أثار هذا الخبر فضول الكاتب وهو صحفى ايضا لأن من الصعب جدا إن لم يكن من المستحيل على شخص يتم شنقه أن يفلت نفسه. بعد طول بحث اكتشف ان الطفل ربط إلى شجرة ولم يشنق وبرغم علم جميع المحيطين بالحدث بالأمر الا أن الخبر نشر بتفاصيل خاطئة جدا. اتضح للكاتب ان الأخبار التى يتم التأكد من تفاصيلها فى الجرائد البريطانية لا تتعدى عشرين بالمائة من إجمالى ما ينشر فى جميع انواع الجرائد. ولا يقتصر ما تفحصه المؤلف على هذا النوع من الأخبار الشعبية ولكنه يناقش استخدام شركات العلاقات العامة للجرائد فى تسويق مفاهيم او منتجات معينة عبر الأخبار كما يخص جريدة الجارديان التى يعمل بها بنقد لاذع خاصة فيما يتعلق بالأخبار والتحليلات التى سبقت غزو العراق. ورغم النقد الكبير للكتاب الا انه حتى اشرس ناقديه وصفوه بأنه يحوى الكثير من الحقائق ويلفت النظر لوضع مؤسف قائم بالفعل.

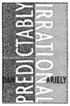
■

Predictably Irrational: The Hidden Forces That Shape Our Decisions

غير منطقى كما هو متوقع

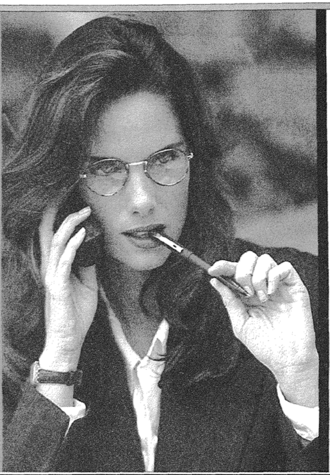
Dan Ariely

HaprerCollins Publishers: 304pp, £10.19, 2008



يناقش هذا الكتاب كما هو واضح من العنوان الكيفية التى يعمل بها العقل البشرى فى تحديد التفكير والتصرف. وهو ليس كتابا متخصصا اذ انه يندرج تحت قائمة العلم النفس الشعبى. أى الكتب التى تخاطب القارئ العادى. يتحدث الكتاب ان أمورا عديدة تساعد على فهم النفس والآخرين، عن طريق معلومات مختصرة وملحوظات تبدو بديهية مثل ان الحدس عادة صحيح. ينقسم الكتاب الى فصول ويتضمن كل فصل تجارب بسيطة تختبر او تفحص أحد جوانب اتخاذ القرار ذهنيا. على سبيل المثال يختبر احد الفصول الكيفية التى تؤثر فيها توقعاتنا على الطريقة التى نختبر بها الأشياء وكيف ان التنوع الشديد فى الاختيارات ليس بالأمر الجيد بالضرورة. تتكون الاختبارات من أسئلة تم توجيهها لمجموعتين او أكثر من الطلبة ولكن الكتاب لا يوضح فى كل الأحوال الطريقة التى تم بها اختيار العينات لتفادى عدم الحياد. كما انه لا يعطى ارقاما فى جميع الحالات وانما يستخدم تقديرات من نوع «اكثر من» أو أغلب العينة».

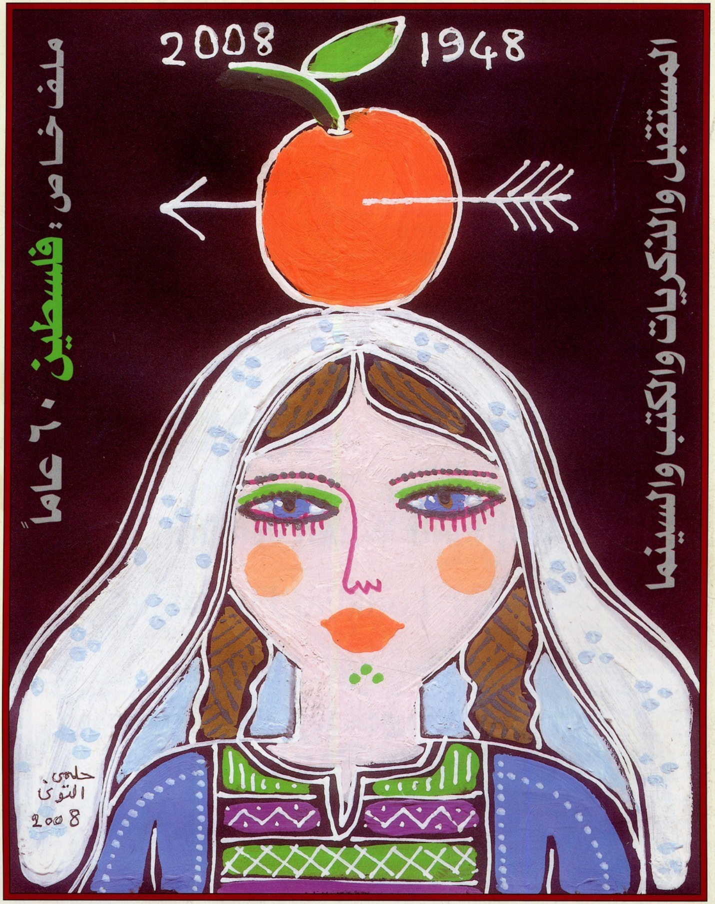
■



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 112 - May 2008

مجلة شهرية . العدد المائة واثنا عشر . السنة العاشرة . مايو ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات





أحدث إصدارات
دار الشروق
فاروق جويدة
من يكتب تاريخ ثورة يوليو؟
القضية والشهادات
قاموس الأدب العربي الحديث
محمد عبد الوهاب
رحلتي
الأوراق الخاصة جداً
إعداد وتقديم
فاروق جويدة
حياة زوجية رائعة
في ٧ خطوات سهلة
د. رضوان شابسيغ
تاريخ يهود النيل
تحرير
جاك حاسون
ترجمة
يوسف درويش
أما هذه.. فرقصتي أنا
غادة محمد محمود
أرز باللبن لشخصين
رحاب بسام
عايزه أتجوز
غادة عبد العال
عاصم الدسوقي
كبار ملاك الأراضي الزراعية
ودورهم في المجتمع المصري ١٩١٤-١٩٥٢
جمال مقار
كتاب الوداع
رواية
يونان لبيب رزق
العيب في ذات أفندينا
الرقابة والتعتيم في الإعلام الأمريكي
أهم ٢٥ قصة إخبارية خضعت للرقابة
هانس كونج
القيم الأخلاقية المشتركة للأديان
الإسلام
رمز الأمل
جمال الغيطاني
دفاتر التدوين الدفتر السادس
رن
جلال أمين
شخصيات لها تاريخ
س. هـ. ليدر
أبناء الفراعنة المحدثون
دراسة لأخلاق أقباط مصر وعاداتهم
وسط البلد: ١ ميدان طلعت حرب ت: ٢٣٩٣٠٦٤٣ - ٢٣٩١٢٤٨٠
مصر الجديدة: ١٥ شارع بغداد - الكوربة ت: ٢٤١٧١٩٤٥ - ٢٤١٧١٩٤٤
الإسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ ٠١٠١٦٣٣٦٨٥
مدينة نصر: سيتي ستارز مول ت: ٢٤٨٠٢٥٤٤ - ٠١٦٥٥٤٨٧٢٩
الجيزة: فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة ت: ٣٥٧٣٥٠٣٥ - ٣٥٦٨٦١٨٧
الإدارة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر ت: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com email: dar@shorouk.com

السنة العاشرة

العدد المائة واثنا عشر

مايو ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج

أحمد الزيادى

الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:

الشركة المصرية

للنشر

العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير

سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير

أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى

حلمى التونى

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إبراهيم العريس.. كاتب لبنانى.
- أفيشاى مارجاليت.. أستاذ الفلسفة بالجامعة العبرية.
- حسام تمام.. باحث مصرى.
- سامى كمال الدين.. صحفى مصرى.
- عزت إبراهيم.. صحفى.
- عزة عزت.. مدرس الصحافة بجامعة القاهرة.
- عزمى بشارة.. كاتب عربى.
- فوزى القاوقجى.. ضابط سورى راحل، قاد جيش الإنقاذ فى حرب فلسطين ١٩٤٨.
- فيصل دراج.. ناقد أدبى أردنى.
- قدرى حفنى.. أستاذ علم النفس بمعهد الدراسات العليا للطفولة - جامعة عين شمس.
- محمد المهدى... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.

رسوم العدد للفنان

محمد حجى

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)

البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.

إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر

هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.

Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

إسرائيل إلى أين؟!!

■■ بات تراكم الأحداث باتجاه واحد فى السنوات الأخيرة يدل على تغير كيفى فى حال القضية الفلسطينية إقليميا. ولم يعد بوسع المحلل والمراقب المسيس تجاهل التشابه بين السياق «العربى- الإسرائيلى» الحالى وحال الدول الصليبية فى عصرها فى المنطقة العربية.

فقد رفضت إسرائيل السلام العادل مع الشعوب العربية والشعب الفلسطينى، ونقصد ذاك الممكن والمتمثل بالعيش المشترك فى «دولة وحدة» ديمقراطية لجميع مواطنيها العرب واليهود، بحيث تشكل جزءاً من المنطقة العربية، أو ذاك الحل الآخر الممكن والمتمثل فى تسوية فى «حل الدولتين» مع ضمان حق العودة للاجئين الفلسطينيين. وقد اختارت إسرائيل نموذجا ثالثا حتى بعد أن تبنى العرب حلولا ومبادرات سلمية طرحت رسميا على إسرائيل.

هى اختارت نموذج الدولة الصليبية. ولا تتناقض التسويات والمعاهدات وحتى التعاون الأمنى فى علاقاتها الحالية مع أنظمة عربية مع هذا النموذج. فالدول الصليبية الأربع لم تعش بالفروسية والحصون وحدها، وما كان بإمكانها ذلك أصلا.

لقد نجحت الدولة الصليبية طيلة ١٩٠ عاماً، بواسطة الجمع بين الحصون والقلاع والتسويات والمعاهدات مع أمراء وسلاطين ومماليك، وفى الرهان على خلافاتهم فى تحالفات مع بعضهم ضد بعضهم الآخر.

ولكن هذه التسويات لم تتحول إلى سلام ولم تقبل شعوب المنطقة بالدولة الصليبية. فاستمرت هذه نبتة غريبة ثقافيا وحضاريا وسياسيا. وفى النهاية أصبح امتحان الزعامة العربية الإسلامية فى تقديم نماذج لمحاربتها وهزيمتها.

لقد انتهت الدولة الصليبية رغم مزجها بين التسويات وحملات القتل والإبادة، وحتى فى غياب شعب فلسطينى.

وليس هنالك حاجة للتذكير أن تعبير «الصليبية» نفسه هو تعبير أوروبى متأخر (وليس عربياً أو إسلامياً)، يعود إلى مؤرخى القرن السابع عشر فى فرنسا. أما العرب فقد أسموهم الإفرنج أو الفرنجة. والتعبير لا يعنى المسيحية (بالتأكيد ليس الشرقية، ولا حتى الغربية) ولا يتطابق معها.

ويبحث هذا المقال فى الخيارات التى رفضتها إسرائيل والخيار الذى انتهت إليه، خيار الدولة الصليبية. ونقصد بها الدولة الاستيطانية الغريبة عن محيطها التى قامت بالعدوان، وتعيش بالسيف والتسويات والهدنات المؤقتة وباستغلال الخلافات فى محيطها، ولكنها لا تكتسب شرعية فى محيطها عبر الزمن.

عموما لم تُطرَح قضيةٌ كولونيالية، قضية شعب تحت الاحتلال إلا كقضية تحرر من الاحتلال وإزالة الاستعمار. ولكن فى فلسطين طرحت التصورات للتسوية حتى اليوم كمشاريع حلول

انتهت الدولة الصليبية
رغم مزجها بين التسويات وحملات القتل والإبادة،
وحتى فى غياب شعب فلسطينى

لمعضلة أو قضية شائكة هى قضية فلسطين.

وفى التعامل مع الحالة الاستعمارية فى فلسطين كأنها قضية شائكة أو معضلة، وفى التعامل مع «قضية فلسطين» كأنها معضلة يكمن تخصيص يهدف إلى تمييزها عن باقى قضايا التحرر الوطنى... وذلك بخلطها مع النزاعات الحدودية والتمايز الدينى والحضارى والمسألة اليهودية. هذا التعقيد المصطنع هو الذى أقصى فلسطين عن عملية إزالة الاستعمار. ولكنه يتحول أيضا إلى المانع أمام «حل دائم»، وهذا التعقيد الذى يستخدم لمنع الحلول يقود فى النهاية إلى التمسك عربيا برفض شرعية إسرائيل وإلى نموذج الصراع المستديم.

انطلقت ثقافة مرحلة النضال ضد الاستعمار من أنه من واجب الشعوب الواقعة تحت الاحتلال أن تقاوم الاحتلال، ويبقى على الدولة الاستعمارية أن تستنتج من مقاومة الاحتلال ما تستنتج من حلول لقضية عدم تمكنها من السيطرة، وعدم تمكنها من تحمل كلفة الاحتلال.

ولم يكن التفكير بتحرير فلسطين كبلد عربى ممكنا إلا فى سياق معادلة: استعمار مقابل حركة قومية عربية. فُهِمَ التحرير كمهمة الشعب الفلسطينى والشعوب العربية التى افترض أن تقاوم احتلالاً أجنبياً لجزء من الوطن العربى.

لم تكن المعركة من هذا المنظور منفصلة عن الشعوب العربية. بل كانت جزءاً من القضايا العربية، وكانت رمزياً هى القضية العربية لأنها كشفت فى ذاتها باقى القضايا القومية... مثل التجزئة والتبعية، والهيمنة الخارجية، وقطع التواصل العربى، وشرعية الأنظمة. ومارس العرب (أو لم يمارسوا حين لم يمارسوا) تضامنا مع الفلسطينيين على المستوى الإنسانى. أما على المستوى السياسى فلم يكن الحديث ممكنا عن تضامن، إذ إن المعركة واحدة.

ليست المعركة ضد الصهيونية وإسرائيل قضية الفلسطينيين وحدهم بحيث يتضامن معهم العرب سياسيًا. فهى إما معركة عربية، أو هى «نزاع فلسطينى إسرائيلى». لا توجد قضية فلسطينية خارج السياق العربى. ولن يلبث أن يتحول ما يسمى «النزاع الفلسطينى الإسرائيلى» إلى صراع حدودى بين كيانين يخضع لموازين القوى بينهما فى غياب العرب.

بعد عام ١٩٦٧، أى بعد الهزيمة التى منى بها التيار القومى وهو على سدة الحكم فى دول عربية مواجهة، وصلت إلى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية فئات سياسية اجتماعية اتجهت عبر تشديدها على الكيانية الوطنية نحو التحول إلى نظام عربى، أو إلى أحد الأنظمة العربية. ومع الردة التى حصلت بعد الحرب على مستوى الأنظمة خاصة فى مصر، التقت هذه الرغبة خلال فترة قصيرة مع رغبة جزء من النظام العربى الرسمى. فمثلا النظام المصرى الذى ولّدت مرحلته القومية صيغة منظمة التحرير اتجه نحو قطع الصلة مع العرب فيما يتعلق بالصراع مع إسرائيل، وقرر أن يذهب فى طريقه التسووى الذى حتمته سياسته فى حينه. فقد كان السلام المنفرد مع إسرائيل جزءاً من رزمة تضمنت تغيير بنية الاقتصاد، وشملت أيضا خيار التحالف مع الولايات المتحدة إقليميا.

وفى حالة مصر يبدأ قطع الصلة السياسية مع العرب بفك الارتباط مع قضية فلسطين. ما بدأ كموقف وطنى على شكل دعم مصرى لمنظمة التحرير «ممثلا شرعيا ووحيدا» ضد الأردن فى قرارات قمة الرباط، ثم تحول لدعم «استقلالية القرار الفلسطينى» ضد سوريا... كان فى الواقع موافقا للسياسة الجديدة بقطع صلة مصر مع «الصراع العربى الإسرائيلى» لينتهى إلى اعتبار القضية الفلسطينية قضية الفلسطينيين. وكما قلنا يستخدم بعض العرب مؤخرا حتى مقولة أسوأ: «الصراع...» أو «النزاع الفلسطينى الإسرائيلى».

ونجد مثالا حيا لهذا السلوك الفلسطينى فى إصرار ياسر عرفات - رحمه الله - على فصل الوفد الفلسطينى المفاوض فى واشنطن عن الأردنى؟ فماذا كانت النتيجة؟ سلام أردنى إسرائيلى ناجز ومنفصل، وعملية سلام مرتبكة متخبطة لا يحكمها مبدأ بين إسرائيل وقيادة منظمة التحرير مازالت مستمرة بعد عقد ونصف على السلام الأردنى الإسرائيلى.

هذه خلفية اعتبار النظام الرسمى العربى محاصرة الفلسطينيين، والقصف الإسرائيلى الوحشى على مجتمع مسجون فى غزة، قضية الفلسطينيين. وقد انقسم النظام

العربى بين متضامن معهم ولائم لهم يحملهم المسئولية لأنهم يعرضون أنفسهم لغضب إسرائيل. وقد وصلت الحاجة لتأسيس وترويج موقف غير شعبى كهذا شعبيا درجة تأليب المشاعر الوطنية المصرية ليس مع فلسطين وضد إسرائيل، كما هى فى سجيتها، بل ضد «غزوة فلسطينية».

ترك القضية للفلسطينيين هو نتاج لقاء بين نوعين من المواقف والتصورات: أولا، مصالح أنظمة عربية أخرجت نفسها ودولها من تعريف العرب كذات سياسية فاعلة ذات أمن قومى ومصالح ومواقف مشتركة من جهة، وثانيا، مع نضال قيادة حركة التحرر الفلسطينى لكى تصبح نظاما عربيا هى أيضا من جهة أخرى.

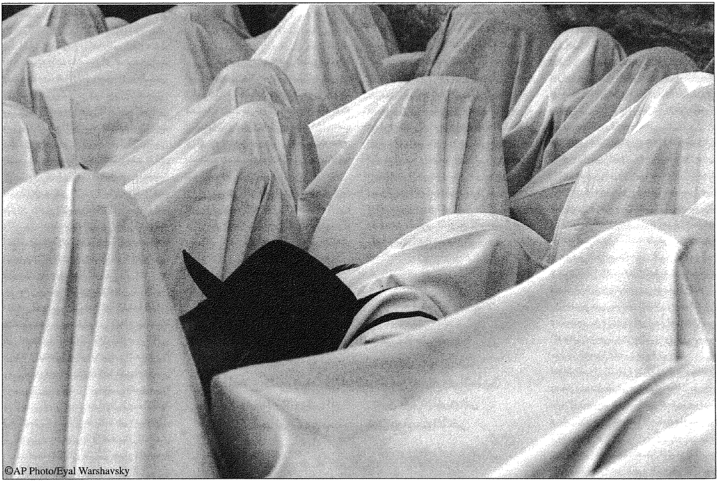
ترحب الدول العربية بالسلطة الفلسطينية تحت عنوان (م ت ف) كنظام عربى لأنه يلبى حاجة الأنظمة بأن تترك «القضية» للسلطة والمنظمة تحت عناوين شتى من نوع «وحدانية التمثيل» و«استقلالية القرار» وغيرها. تتحول فلسطين من قضية بلد عربى محتل، إلى نزاع فلسطينى إسرائيلى على حدود دولة فلسطينية افتراضية، ومن «القضية الفلسطينية»، إلى قضية الفلسطينيين، ثم إلى قضية الفلسطينيين القاطنين فى الضفة وغزة دون غيرهم، ومن حلقة ضرورية من حلقات التحرر والوحدة العربية إلى مسألة كيان سياسى آخر، ومن صراع مع الصهيونية وما تمثله فى هذه المنطقة إلى نزاع حدودى.

وتتحول المقاومة من التحرر إلى البحث عن حلول لقضية فلسطين. ويتحول البحث عن حل إلى تفاوض بين محتل وواقع تحت الاحتلال، قبل أن يقتنع المحتل بموضوع التفاوض الوحيد الممكن فى مثل هذه الحالة وهو: كيفية إزالة الاحتلال. ويتحول التفاوض إلى «عملية سياسية جارية» تفصَّل فيها «حلول» و«مخارج» بموجب موازين القوى السائدة فى ظل ابتزاز تتعرض له النخبة السياسية للشعب الواقع تحت الاحتلال لدفع ثمن بقائها قيادة مقبولة على الساحة الدولية و«المجتمع الدولى».

فى ظل هذا النموذج نشأ التعويل العربى على مستوى الخطاب السياسى والإعلامى على مصطلحات مثل «الشرعية الدولية» و«المجتمع الدولى». وهى عوالم افتراضية بديلة لعالم حقيقى تم التخلى عنه وهو معركة التحرر العربى والفلسطينى ضد إسرائيل والصهيونية والمجتمع العربى.

المجتمع الدولى هو مجتمع افتراضى. وهو تعبير يُعَدّ خصيصا ويُفصَّل للغة المناشدة. ولا يعنى فى الممارسة الفعلية شيئا سوى موازين القوى القائمة لصالح الولايات المتحدة الأميركية.

خيار الدولتين كحل ناجم عن تفاوض، أو يفترض أن تتوصل إليه المفاوضات، هو نتاج هذا السياق، سياق البحث عن «حلول لمعضلة». ولكن سخرية التاريخ أن نفس السياق الذى أوصل النظام الرسمى العربى ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى التنازل والاقتناع بفكرة «حل الدولتين» الذى يعرِض ممارسة حق العودة للخطر بحكم تعريفه، هو نفس سياق القبول العربى بموازين القوى حَكَما، والرهان الحصرى على الاستراتيجية الأمريكية. وهذا ما مكّن إسرائيل من تفريغ الحل من مضمونه



©AP Photo/Eyal Warshavsky



برفضها الانسحاب من القدس المحتلة، ورفض الانسحاب إلى حدود عام ١٩٦٧، والإصرار على الاحتفاظ بكتل استيطانية فى الضفة الغربية.

و«حل الدولتين» الذى أفرغته إسرائيل من المضمون هو الحل الوحيد الذى يمكن أن ينتج عن مفاوضات فى هذه الظروف، فلا يبدو أن «حل» الدولة الواحدة يمكن أن ينتج برضا «الطرفين» أو يتمخض عن مفاوضات بينهما فى هذه المرحلة.

رفض «حل الدولتين» هو رفض لحل كان يمكن أن يشكل أساسا لتعايش فى المنطقة العربية، مع أنه لا يجسد عدلا، ولكنه يتضمن الحد الأدنى من الإجماع العربى إذا تضمن استعادة القدس وعودة إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧ واعترافا بحق العودة.

ولكن إسرائيل كما قلنا رفضت هذا الخيار. رفضت خيار الدولتين بشكله ومركباته التى كان يمكن أن تقبل عربيا، وسياسات إسرائيل تجعله غير ممكن التحقيق فى المستقبل. فما هو الخيار الآخر؟

لقد تم تقزيم التفاوض على «حل الدولتين» وتفريغه من أى مضمون. إذ فقدت حركة التحرر الوطنى الفلسطينى مصادر قوة حركة التحرر، بما فيها التعويل على المجتمع العربى بدل «المجتمع الدولى». ففقدتها، وتخلت عنها دون أن تصبح دولة، وقبل أن تضمن السيادة. وأصبح كيان السلطة الذى أقامته مرتبطا كليا بالتفاوض وبحسن النية الأمريكى الإسرائيلى، وبمواقف الرأى العام الإسرائيلى وغير ذلك. وتحوّل التفاوض على الدولة الفلسطينية إلى عملية ابتزاز، يتم فيها تقديم تنازلات ومقايضتها بقضايا متعلقة بالحقوق الثابتة.

ومن رحم اعتبار التفاوض بديلا عن المقاومة، وليس نتيجة لها تنشأ قيادة فلسطينية جديدة. وهى قيادة محتواة فى العملية السياسية التفاوضية إلى درجة ارتباطها وجوديا بهذه العملية. وإسرائيل تعرف ذلك، كما نعرفه. وهى تستبدل التفاوض السياسى الجوهرى بمكرمات ومبادرات حسن نية إسرائيلية تحتاجها هذه القيادة فى مقابل محاصرة ومحاربة واغتيال القوى الفلسطينية التى تتبنى خيار المقاومة وترفض التخلى عنه.

هكذا يصبح ما كان مفروغا منه تحت الاحتلال ذاته مثل الكهرباء والماء وحرية التنقل والعمل والغذاء والدواء موضوعا للتفاوض والمساومة... ويغدو إنجازا فى وجه القوى التى «تستفز» أو «تغضب إسرائيل» بنهجها و«تعرض نفسها ومجتمعها لحصار» بعدم تخليها عن خيار المقاومة، فهذا الخيار يمنع عنها هذه «الإنجازات» العظيمة (التى كانت قائمة فى ظل الاحتلال).

فى مرحلة التحرر الوطنى كان الطرف الفلسطينى الذى يطرح نفسه كوسيط مع الاحتلال لأن الاحتلال يوفر بواسطته تصاريح السفر والعمل والكهرباء والوقود وغيرها، كان يُعتبَر عميلا، وكانت هذه الاستراتيجية تعتبر محاولة لخلق قيادة بديلة لمنظمة التحرير الفلسطينية، التى اعتبرت قيادة وطنية لأنها لا تقبل بالخدمات فى ظل الاحتلال حلا، بل تصر على التخلص من الاحتلال ذاته.

فى مرحلة التفاوض على الدولة أصبحت هذه أدوات إسرائيلية-فلسطينية للضغط وللتمييز بين قيادة معتدلة تستحق أن تدعم بواسطة هذه الخدمات، وقيادات أخرى متطرفة يجب أن تدفع الثمن شعبيا بالضغط على المجتمع الفلسطينى ليتخلى عنها لأنها تتمسك بخيار المقاومة.

ولكن فى الوقت الذى يجرى فيه تفريغ برنامج الدولة الفلسطينية كجزء من «حل الدولتين» من أى مضمون، لا يبدو أن التيار الفلسطينى المقاوم، الذى يتشكل بغالبيته حاليا من قوى تتبنى أيديولوجية دينية، متمثلة بحركتى حماس والجهاد، يميل إلى طرح ديمقراطى بديل يتضمن خيارا للإسرائيليين مثل «حل الدولة الواحدة».

لم يطرح خيار الدولة الواحدة لكافة المواطنين العرب واليهود بشكل فعلى وحقيقى فى تاريخ الصراع. فقد نظر العرب بحق إلى الصهيونية كحركة استعمارية وإلى الصهاينة من غير المقيمين أصلا فى فلسطين كمستعمرين يحركهم هدفُ إقامةِ دولة فى بلد يقيم فيه شعب آخر. لم يكن وعد بلفور سرا، وقد كانت مشاريع الصهيونية بإقامة دولة يهودية فى فلسطين معروفة معلنة تخفى على الجهلة فقط.

ولأن الصهيونية كانت وما زالت تعنى فى الممارسة العمل على جلب عدد غير محدود من «القادمين» المستوطنين إلى فلسطين، فلم تكن حدود المواطنة واضحة المعالم. والمواطنة المتساوية هى أساس وجوهر فكرة العيش فى دولة واحدة دون هيمنة صهيونية. وهى أيضا الرسالة العربية المطلوب أن تقدم شيئا للمجتمع اليهودى لإبعاده عن فكرة الدولة اليهودية، وأقصد شرعنة الوجود فى فلسطين بواسطة المواطنة. هذه رسالة عيش مشترك، وهى نقيضة للإبادة أو الطرد أو «رمى اليهود فى البحر» (التى تتغنى بها وتخترعها إلى حد بعيد الدعاية الصهيونية فى حين رمت إسرائيل الفلسطينيين فى البحر والصحراء). و لكن بدا أن كل تحديد يقوم به العرب لتاريخ لا يعتبر بعده المهاجرون مقيمين شرعيين من أجل توضيح حدود المواطنة هو تحديد غير واقعى ومثير للسخرية والتسخيف.

ومن الناحية الأخرى، وهى الأهم، أصرت الحركة الصهيونية على إطار الدولة اليهودية فى فلسطين كحل للمسألة اليهودية. هذا هو مبرر وجود الصهيونية التاريخى بنظر ذاتها. وقد كانت الدولة اليهودية موضوع وعنوان الصراع الذى خاضته حتى داخل المجتمعات اليهودية فى الشتات، ناهيك عن الدول العظمى، وتحصيل وعد بلفور، وناهيك بمشروع الاستيطان نفسه. وهو مشروع قام على أنقاض عرب فلسطين، ولم يهدف إلى الحياة مع العرب فى كيان سياسى واحد.

هذا صحيح من الناحية التاريخية، ما عدا فى استثناء قصير واحد هو طرح «هشومير هتشعير» فكرة الدولة الثنائية القومية فى الثلاثينيات، ولكن هذا الطرح جاء فى خضم نشاطها الاستيطانى فى تناقض مع السكان الأصليين.

من السخف الاعتقاد أن الصهيونية، وأى تيار من تياراتها، وإسرائيل أو أى مركب من مركباتها الحزبية السياسية أو حتى الاجتماعية الرئيسية، يمكن أن يقبل الآن بـ«الدولة الواحدة» الديمقراطية كإطار لحل.

ليس هذا النموذج حلا تفاوضيا فى إطار موازين القوى الحالية وبالمعنى الذى يفهم فى أيامنا هذه من كلمة «حل». وعندما طرح لفترة قصيرة من قبل حركة فتح مثلا فى السبعينيات اعتبر إسرائيليا على أنه رديف لعبارة «إزالة إسرائيل». كما طرحت فكرة الدولة الواحدة من قبل (م ت ف) كبرنامج «الدولة الديمقراطية العلمانية» بحيث تضمن المساواة الكاملة بالحقوق بين سكان البلاد: مسلمين ومسيحيين ويهود. أى أنها تعاملت مع الديانات تحييدا، وذلك دون أن تعين طابعا قوميا للدولة. ولكن لم تطرح أدوات تحول الفكرة إلى برنامج سياسى بعمل يهودى عربى مشترك مثلا، بل من خلال تحرير فلسطين كبلد عربى. وعلى كل حال لم تدم الفكرة طويلا فى التداول.

وقد اختلف هذا البرنامج الديمقراطى عن فكرة الدولة الثنائية

نجحت الدولة الصليبية طيلة ١٩٠ عاما، بواسطة الجمع بين الحصون والقلاع والتسويات والمعاهدات مع أمراء وسلاطين ومماليك، وفى الرهان على خلافاتهم فى تحالفات مع بعضهم ضد بعضهم الآخر



القومية. وهى فكرة تطرح حاليا من قبل مثقفين عرب ويهود. وقد طرحت بداية من قبل يسار الحركة الصهيونية «هشومير هتسعير» فى ثلاثينات القرن الماضى ولفترة قصيرة فقط. وتتضمن الفكرة الثنائية القومية اعترافا بوجود جماعتين قوميتين فى فلسطين، تشكل كل منهما كيانا داخل دولة واحدة. وتلبى بالتالى فكرة الوطن القومى، أو الوطن لكل قومية من القوميتين فى نفس الدولة، فى إطار دولة واحدة تعترف بقوميتين. طبعا أسقطت «هشومير هتسعير» هذا الطرح سريعا ولم تتابعه. فقد رفض فلسطينيا وصهيونيا... وبقيت شذرات منه تطرح من قبل أساتذة فى الجامعة العبرية ومثقفين يهود بارزين ولكن معدودين قبل النكبة فى إطار حركة «بريت شالوم».

يسلم نموذج «الثنائية القومية» بوجود قوميتين واحدة أصيلة وأخرى متشكلة، ولكنها فى الحالتين أقرب إلى واقع فلسطين من جنوب أفريقيا. ففى جنوب أفريقيا الجديدة التى يعاد بناؤها بعد انهيار النظام العنصرى جرى تجاهل فكرة القوميات (التى اعتبرت غير متشكلة كفكرة سياسية) لصالح فكرة تعدد الثقافات واللغات والديانات والإثنيات فى إطار أمة المواطنة الواحدة. أى أن عملية بناء الأمة الجنوب أفريقية الواحدة (وخلافا للأمة الفرنسية مثلا) لا تتجاهل الإثنيات والقبائل واللغات والجماعات والثقافات. وهى تعترف بها فى إطارها. فى جنوب أفريقيا إذًا ليس المطروح نموذجا متعدد القوميات، بل متعدد اللغات والثقافات والإثنيات.

ومع أن «الحل الثنائى القومية» أقرب إلى واقع فلسطين لأنه يتعامل مع قوميات متشكلة فعلا خلافا لنماذج أخرى مهاجرة (الولايات المتحدة، أستراليا، نيوزيلندا) تبنى فيها الأمة على أساس المواطنة وحدها دون ذكر القومية، فإنه ليس أكثر واقعية من الناحية السياسية فى موازين القوى الحالية فى فلسطين.

إضافة إلى ذلك ففى جنوب أفريقيا تبنت حركة التحرر الوطنى متمثلة بالمؤتمر الوطنى الأفريقى هذا الخيار: خيار التحرر عبر المواطنة المتساوية فى إطار الدولة متعددة الثقافات. ولكن حركة التحرر الوطنى الفلسطينى تاريخيا اتجهت نحو فكرة الدولة الوطنية فى نهاية السبعينيات.

وهكذا وُجِّهَت الانتفاضة الأولى والثانية فى الضفة الغربية وقطاع غزة باتجاه انفصالى وليس توحيدى مع بقية فلسطين. ولا توجد قوى فلسطينية سياسية حزبية جدية تتبناه، أو تطرح استراتيجية نضالية سعيا إليه، ناهيك عن أنه ليس خيارا تفاوضيا مع إسرائيل، فى حين تتبنى النخبة السياسية الفلسطينية طريق التفاوض حصريا.

وقد انقسمت الخارطة السياسة الفلسطينية والقوى المنظمة الفاعلة فلسطينيا بين قوى تدفع جميعا باتجاه الدولة، الدولة الوطنية فلسطينية، وتختلف على أمور أخرى. وحقيقة تبنى هذا الخيار مؤخرا من قبل مثقفين فلسطينيين ديمقراطيين لا يغير من جديته وجدية مناقشته، بل يؤكد ضرورة ذلك.

ونحن نعتقد أنه لا توجد عوائق كبرى أيديولوجية أو بنيوية فلسطينية ضد مثل هذا الحل كما أن مصلحة الشعب الفلسطينى بطرح برنامج ديمقراطى يضمن حق العودة ولا يفرط بالحقوق ويعطى إجابة للمواطن اليهودى تجد لها إجابة معقولة لها فى تبنى مثل هذا الحل. وإذا تم تبنيه فلسطينيا فلن يكون هنالك عائق عربى جدى.

المشكلة أن إسرائيل لم تقبل بهذا الموقف أبدا. ولم تنشأ قوى إسرائيلية تطرحه أو تتحزب له. وهذا هو العائق الرئيسى أمام تبنيه من قبل نخب سياسية فلسطينية ترى بالتفاوض خيارها الوحيد. أما القوى الفلسطينية المقاومة فتبدو شعاراتها واستراتيجيتها النضالية مخالفة تماما لمفهوم وروح الدولة الواحدة وفكرة المواطنة الديمقراطية فى دولة علمانية.

ومن الواضح أنه ليس من جدوى فى انتظار فئات اجتماعية إسرائيلية كبرى لتنضم لمثل هذا الطرح. لأن الفئات الاجتماعية الكبرى لا تتنازل عن امتيازات عن طيب خاطر. إن «حل الدولة الواحدة» هو تنازل عن امتيازات اليهود، وذلك بدرجة أكبر فى حالة الدولة الديمقراطية العلمانية القائمة على المواطنة، وبدرجة أقل فى حالة الدولة الديمقراطية العلمانية القائمة على الاعتراف بقوميتين على شكل اتحاد فيدرالى.

لا يبدو فى الأفق القريب تيار سياسى اجتماعى إسرائيلى يدفع بهذا الاتجاه فى تناقض مع فكرة الدولة اليهودية. وأقصى ما نسمعه من اليسار الصهيونى هو فصل الضفة والقطاع عن إسرائيل فى دولة، ورفض حق العودة فى كافة الحالات.

المشكلة أن من تبنى خيار «حل الدولة الواحدة» مؤخرا تبناه نتيجة لقناعة بفشل «حل الدولتين» على أساس حدود الرابع من حزيران، وليس نتيجة لتبين فرص نجاح «حل الدولة الواحدة»، وأيضا لأنه بات واضحا أن حل الدولتين لا يستوعب تطبيق حق العودة... لا يفرز فشلُ «حلِّ الدولتين» بحد بذاته مقومات نجاح حل «الدولة الواحدة».

لا يمكن استنتاج «حل الدولة الواحدة» فوريا من فشل «حل الدولتين». وإذا قبلنا الحديث بلغة الحلول فإن «حل الدولة الواحدة» برأينا أيضا هو الحل الأفضل والأكثر استيعابا لمركبات الحقوق الفلسطينية ويتضمن رسالة ديمقراطية للمجتمع الإسرائيلى.

على كل حال أهم أسباب عدم نجاح هذا النموذج المطروح حاليا هو رفض إسرائيل مجرد التفكير بالفكرة، وغياب أية قوة جدية إسرائيلية قادرة على طرح الموضوع بجدية على جدول أعمال الرأى العام اللهم إلا بهدف تخويف الرأى العام الإسرائيلى من الاحتفاظ بالسيطرة الكاملة على الفلسطينيين. تطرح فكرة الدولة الواحدة فى إسرائيل حتى الآن سلبيا، أى للتخويف بها، ولإقناع المجتمع بضرورة التخلى عن مساحات مكتظة بالسكان الفلسطينيين مثل قطاع غزة.

والمشكلة أن إسرائيل باتت تجأ إلى خيار «حل الدولتين» خشية من تطور هكذا واقع يدفع باتجاه «الدولة الواحدة».

وما تقدمه إسرائيل حاليا كـ «رؤية بوش» أو كـ «رؤية شارون» هو ليس خيار «حل الدولتين» فعلا بل هو إثبات لفشل هذا الحل. ومع ذلك فإن النخبة السياسية الفلسطينية المتولدة عن «عملية السلام»، ومعها أنظمة عربية تريد أن «تتخلص» من هذا الهم تساعد إسرائيل فى تخريجات وصناعة خطاب لكى يبدو ما يطرح وكأنه دولة فلسطينية فى إطار «حل الدولتين»... وذلك بآليات مثل «تبادل أراضٍ»، بدون القدس، «الاعتراف بحق العودة دون ممارسته»، وبكيان دون سيادة كاملة يسمى دولة وغيرها من التخريجات والتسميات التى لا ينضب لها معين.

ولكن أليست هذه التسوية سلاما حتى لو لم يكن عادلا؟ حول هذا الموضوع فى الحلقة القادمة.

قد تؤدى المفاوضات المتعثرة بين السلطة الفلسطينية (تحت عنوان م ت ف) وحكومة إسرائيل إلى اتفاق تقوم على أساسه دولة فلسطينية. وربما تجرى بينهما حاليا مفاوضات سرية مكثفة موازية غير متأثرة بردود فعل الساسة

يجرى تمرير التسوية دون أى تأثير على نفور الشارع العربى من عملية التسوية والسلام وعدم إيمانه برغبة إسرائيل بالسلام العادل، ورفضه للامتيازات التى تحظى بها دوليا



اليمينيين فى إسرائيل أو بما يجرى فى الشارع العربى. ولا بد أن أبحاث هذه المفاوضات أكثر عمقا مما يظهر فى الإعلام.

ويعتقد صناع القرار فى أمريكا وإسرائيل أنه ذلك سوف يبدو إنجازا كافيا لتحقيق السلام فى المنطقة، بعد أن يتم التوصل إلى اتفاق على شروط قيام هذه الدولة التى لا تصل حدودها إلى حدود ١٩٦٧ ولا تشمل القدس الشرقية عاصمة وتُسقط حقّ العودة. لقد جهدت إسرائيل والإدارة الأمريكية لتحويل مطلب الدولة الفلسطينية إلى رزمة تختزل وتصفى كل الحقوق الوطنية للفلسطينيين.

ويجدر هنا التفكير بمعنى رفض ياسر عرفات مثل هذا العرض فى كامب ديفيد. فهو يحمل دلالات ليس لجهة تمسكه بالثوابت بالضرورة، بل لجهة فهمه لعدم مشروعية الحل عربيا وفلسطينيا. فهو الذى ربط مصيره الشخصى والسياسى بالمفاوضات وذلك: بعد حرب الكويت، وبعد انحسار (م ت ف) كجهاز فى تونس إثر الخروج من بيروت، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وبعد وصول الانتفاضة إلى طريق مسدود. وهو لم يقبل هذا العرض بعد أن بات رهينة الحبس الإسرائيلى فى المقاطعة، ودفع ثمن رفضه، وبدا أن تشييع النظام الرسمى العربى وجزء كبير من القيادة التى أحاطت به شمل أيضا تنفس الصعداء للتخلص منه كعائق أمام عجلات نفس العملية التى بدأها والتى عادت تدور بعد وفاته.

وقد لا يتم التوصل إلى تسوية. ولكن يجب عدم استبعاد إمكانية التوصل لورقة مبادئ حول الحل الدائم بروح ما رفضه عرفات، بحيث تصلح برنامجا انتخابيا عند أولمرت وموضوعا للاستفتاء عند محمود عباس.

وإذا لم يتم التوصل إلى تسوية يبدو لى أن النتائج على الساحة العربية والفلسطينية سوف تكون واضحة من ناحية تقوية المحور الرافض للتسوية والمعوِّل على استمرار المقاومة، رغم أن البعض سوف يواصل «عملية السلام» لسنين طويلة. ولكن إذا تم التوصل إلى تسوية من هذا النوع فإنه لا يعنى أن الصراع قد وجد نهايته المحتومة. فهذه التسوية ليست «حل الدولتين» الذى يحظى ببعض الشرعية، رغم أنها ترضى قيادات عربية. فهذه تتذرع بقبول ما تقبل به القيادة الفلسطينية لأنها ترغب بالتخلص من عبء قضية فلسطين.

إن الكيان الناجم عن المفاوضات والذى يُعرض وكأنه «حل الدولتين» لا يحظى بشرعية عربية على مستوى الشعوب والرأى العام والمجتمع العربى كتسوية للحساب المفتوح وكتعويض عن الظلم اللاحق بالشعب الفلسطينى.

قد يقال إن هذا كلام عام. ولكن الحقيقة أنه يترك قضايا ملموسة خارج الحل مثل قضية اللاجئين. وهى الأصل، وذات الوزن النوعى والمعنوى الكبير، وتتضمن معاناة فعلية لملايين البشر. كل ما تعرضه هذه التسوية على اللاجئين هو تغيير اسمهم من لاجئين إلى رعايا سفارات فى الخارج، أو مغتربين. كما أن إسرائيل لن تبقى بعد هذا الحل ساكنة فى القدس، بل سوف تنكأ الجراح يوميا بالتهويد المستمر للقدس وأراضيها ومقدساتها.

وسوف تتكثف يهودية إسرائيل وتزداد تزمتا وصلفا فى العلاقة مع العرب المواطنين فيها والذين سوف يخيَّرون بعد مثل هذه التسوية بين الولاء الكامل لإسرائيل إلى درجة الخدمة العسكرية وبين الحقوق المنقوصة قانونيا. أما من يصر على هويته القومية والوطنية من العرب فى إسرائيل فقد وجدت هذه من وجهة النظر الإسرائيلية تعبيرا كافيا عنها فى هذا الكيان الفلسطينى.

وفوق كل هذا سوف يبقى التناقض قائما بين تطوير الدولة العربية وتحديثها وتحديث جيشها، وبين إسرائيل كدولة مغتربة عن محيطها على خشيتها ورعبها من أى تطور فيه. وسوف يبقى تناقض إسرائيل مع الديمقراطية عربيا لأنها تخشى الأكثرية ورأيها العام وتقلباته.

إذا كان هنالك سؤال عن المشروعية فإن الشعب الفلسطينى هو القادر أن يمنح المشروعية للتسوية إقليميا. ولكن التسوية المطروحة تتم من خلال تحالف مع طرف فلسطينى ضد أطراف أخرى، أحدها ربح الانتخابات المحلية عندما خاضها. أما فى الشتات الفلسطينى فهذا النوع من التسوية، بحكم تعريفه كإقصاء لقضية اللاجئين، لا يحظى بمشروعية. هذه التسوية ليست فقط غير شرعية فلسطينيا، بل إنها أكثر من ذلك سبب احتراب داخلى. وحتى إنضاجها قبل أن يتم التوصل إليها يجرى عبر تجويع وقصف جزء من الشعب الفلسطينى واستنزافه إلى درجة لا يقوى فيها على الرفض. هذه ليست مؤشرات على شرعية.

وإقليميا يجرى تمرير هذا النوع من التسوية من خلال هيمنة أمريكية وصراع محاور إقليمى، وسوف يحوِّل أحد المحاور عدم عدالة التسوية إلى راية فى معاركه.

يجرى تمرير التسوية دون أى تأثير على نفور الشارع العربى من عملية التسوية والسلام وعدم إيمانه برغبة إسرائيل بالسلام العادل، ورفضه للامتيازات التى تحظى بها دوليا.

وإن صحت أم لم تصح افتراضات الشارع العربى، يحمل العرب مسئولية جزءاً كبيراً مما هم فيه لهذه الحالة التى أنتجت هذه التسوية، وللتحالف الأمريكى مع إسرائيل، ولازدواجية المعايير دوليا. لا التسوية ولا العملية التى قادت إليها شرعية بنظرهم. ولا شك أن حالة الاستباحة الإسرائيلية للشعب الفلسطينى لثنيه عن خيار المقاومة وقبول الشروط الإسرائيلية قد روَّت بذور النقمة وأججت مشاعر الغبن والميل لإلصاق تهم العمالة لإسرائيل وأمريكا بالضالعين فى التسوية.

إن تمت التسوية أم لم تتم، سوف يجرى كل هذا فى ظل رفض عربى لقبول إسرائيل، جزئيا على المستوى الرسمى وكليا على مستوى الرأى العام العربى

صحيح أن العربى مغلوب على أمره فى ظل الأنظمة ولكنه لا ينظر برضى إلى مشهد استمرار التآمر من أطراف عربية مع إسرائيل ضد نتائج انتخابات فلسطينية، وهو لا ينظر بعين الرضا إلى استمرار التفاوض مع إسرائيل وهى تحاصر وتقصف وتقتل المدنيين فى وسط العالم العربى، وهو لا يقبل موقف «الاستيطان عقبة فى طريق السلام» ولا يعتبره أكثر من رفع للعتب من أجل الاستمرار بالتفاوض رغم الاستيطان، واستهانة بالرأى العام العربى من قبل دول عربية قادرة على فعل أكثر من ذلك بكثير.

من هنا فإنه بعد رفض إسرائيل ما تعتبره أوساط عربية وفلسطينية واسعة حلولا شرعية، فإن التوصل أو عدم التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل خارج إطار الحلول العادلة لا يعنى إلا تبنى إسرائيل نموذج الصراع المستديم، الذى يستمر رغم التسويات والتحالفات.

فى الواقع سوف يستمر الصراع بعد هذا النوع من التسوية. فهى تمثل خيارا عرفته المنطقة العربية فى الماضى، هو نموذج الدول الصليبية. لقد رفضت إسرائيل خيار «حل الدولة» وخيار «حل الدولتين». وإن نجحت أو لم تنجح فى فرض تسوية كالتى يجرى التفاوض عليها سرا وعلنا، فهى اختارت بالمنظور التاريخى العيش فى صراع مستديم دون شرعية من محيطها.

ونحن لن نذكر أوجه الشبه ولن نقوم بمقارنة بين سياق الصراع الحالى المعاصر وسياق الحملات الصليبية فليس هذا هو المقصود. وطبعا السياق التاريخى مختلف تماما. يمكننا أن نذكر أن التسويات كثرت فى ظل الدولة الصليبية مع محيطها، بما فى ذلك تحالفات مع أمراء ضد آخرين فى مصر وبلاد الشام، ولن يكون صعبا أن



فلسطين: ٦٠ عامًا

نجد أمثلة شبيهة راهنة. ويمكننا أن نذكر حتى حرق كنيسة القيامة أيام جنون الحاكم بأمر الله، فى باب تقديم الذرائع للحملات، ولن يكون ذكر زعامات غير متزنة شبيهة معاصرة متعسرا. ولو ذكرنا دور الإمارات الشمالية فى تسهيل العبور وفتح الطريق أمام جيش الصليبيين من أنطاكية وحتى القدس، ولو ذكرنا تسخير الدين فى التعبئة والتجييش وحتى فى الفهم الذاتى لمنظمى الحملات ومقاوميها... حتى لو قمنا بكل هذا ووجدنا الأمثلة المقابلة فى عصرنا، فسوف نجد دائما من يجيب بحق أن النظام الدولى الحالى يختلف عن تلك الإمارات العربية والصليبية، وثبات واستقرار الدولة الحديثة العربية واليهودية يختلف جذريا، ودور الدين اختلف، وعلاقة إسرائيل مع الغرب أوثق وأسرع وأكثر كثافة من علاقة الدولة الصليبية التى لم يصل خبر سقوط القدس بيد الصليبيين منها إلى البابا إلا بعد وفاته، مع أنها سقطت قبل وفاته بعشرة أيام...

كما يمكن لإحباط أية مقارنة الإشارة إلى الفجوة التكنولوجية والعلمية بين إسرائيل والعرب. وهى فجوة لم تكن قائمة بين الدول الصليبية الأربع ومحيطها الإسلامى العربى والتركى والفارسى.

ويمكن الرد على الرد بالقول أن من يراجع تلك الفترة يدرك أيضا أن العرب ليسوا نفس العرب من حيث الوعى الوطنى والقومى والهموم المشتركة وفهمهم للاستعمار وللقضية الوطنية. ولذلك لسنا من السذاجة لإجراء مقارنات.

ما يهمنا من هذا النموذج هو: دولة غريبة عن المنطقة أُنشئَت حملات عسكرية استيطانية، ثم استقرت دون أن تندمج بالسكان بل من خلال بناء القلاع الحصينة والاعتماد على الفروسية، والرهان على وجود تنافر وصراع بين الكيانات السياسية القائمة على النفوذ أو على المصالح أو غيره. (ولا يهمنى هنا ما يعتبره البعض هو الجوهر أى التجييش الدينى والتجييش المضاد إلا كدليل على الغربة).

وهذا يعنى أنه فى غياب حل شرعى اختارت إسرائيل أن تبقى قلعة حصينة خلف جدار حديدى، تعيش على قوة الردع من جهة، وعلى الخلافات العربية العربية من جهة أخرى... وتتضمن هذه الخلافات تسويات إسرائيلية عربية طبعا، فطريق الصراع المستديم الذى اختارته الدولة الصليبية كان مرصوفا بالتسويات.

هذا ظرف مستديم. ويصح حتى الآن أنه خيار عميق الجذور فى الرأى العام الإسرائيلى، وأنه يستند إلى عناصر قوة راهنة توفرها علاقة مشوهة وغير صحية مع الولايات المتحدة ليس لها مثيل بين الدول. ولا يبدو فى الأفق قبول إسرائيلى لأحد الحلين: «حل الدولة الواحدة»، أو «حل الدولتين». ويفترض أن يتوقع الشعب الفلسطينى والشعوب العربية وضعا لا يمكن فيه تحقيق الحقوق، ومع ذلك لا يجوز التنازل عنها، ويتوجب فيه رفض التسويات غير العادلة، ولكن إلى جانب رفض التسويات وإغلاق باب التسوية غير العادلة، يجب أن يطرح برنامج ديمقراطى ثابت للحل لليهود والعرب فى إطار تصور للمنطقة العربية كلها. وهذا يعنى الحياة والتطور والمحافظة على سبل العيش فلسطينيا ومقاومة الحقائق الإسرائيلية الجاهزة على الأرض. وهى مقاومة تنجز مكاسب جزئية وهامة، وتمنع تحول الحالة الكولونيالية إلى حالة طبيعية. ولكن التراكم على المدى البعيد هو فى التحدى الإقليمى العربى ومن ضمنه الفلسطينى لإسرائيل، وتحديث الدول والمجتمعات والاقتصاديات العربية، واستكمال عوامل الصمود والبناء بما فيها مهام التنمية والديموقراطية وقوة الردع.

إن تمت التسوية أم لم تتم، سوف يجرى كل هذا فى ظل رفض عربى لقبول إسرائيل، جزئيا على المستوى الرسمى وكليا على مستوى الرأى العام العربى.

هذا صراع طويل يجب أن يدار بالإيقاع الصحيح. وليس الزمن فيه لصالح إسرائيل بل لصالح من يحسن استغلاله. هذا هو أحد أهم المغازى من الستين عاماً الفائتة. ■

كتاب الزاوية

محمود درويش

يوميات الحزن العادى

هذه مقتطفات من عمل مبكر للشاعر الفلسطينى الكبير محمود درويش الذى أصبح علامة على القضية الفلسطينية. نشر درويش للمرة الأولى هذا العمل بعنوان: «يوميات الحزن العادى» عام ١٩٧٣، وصدر عن مركز الأبحاث الفلسطينى، ثم صدرت الطبعة الرابعة «جديدة ومنقحة» من العمل عن دار رياض الريس للكتب والنشر - بيروت - عام ٢٠٠٧.

• • •

أوقفتنى جندية صغيرة، وسألتنى عن قنبلتى وصلاتى.

قلتُ للجندية الصغيرة: أنا لا أحارب، ولا أصلى.

قالت الجندية الصغيرة: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

قلت: لأعبر بين القنبلة والصلاة.

على ذراعى اليمنى آثار حرب.

وعلى ذراعى اليسرى آثار رب.

لكننى لا أحارب ولا أصلى.

قالت الجندية: وماذا تكون؟

قلت: ورقة يانصيب بين القنبلة والصلاة.

قالت: ماذا تفعل لو ربحت؟

قلت: أشترى لونًا لعينى حبيبتى.

حسبتنى الجندية شاعرًا، فأخلت سبيلى.

وتساءلت: لماذا جئت إلى القدس الآن؟

الأمل

■■ «أنا إسرائيلى أقطن القدس. لدى قصة أريد أن أقصها عليكم ولكنها لم تنته بعد». بهذه الكلمات بدأ دافيد شولمان كتابه القوى والبارز الأمل الأسود، وهو يوميات أربع سنوات قضاها فى النشاط السياسى فى إسرائيل والأراضى الفلسطينية. والكتاب تسجيل للانهماك العميق للكاتب فى مؤسسة تطوعية مكونة من فلسطينيين إسرائيليين ويهود إسرائيليين تدعى «تعايش»، وهى كلمة عربية تعنى «العيش معا» أو «حياة مشتركة». تأسست المجموعة فى أكتوبر ٢٠٠٠ فور بدء الانتفاضة الفلسطينية الثانية.

ويقول شولمان إن الكتاب يهدف إلى التعريف ببعض ما تقوم به حركة السلام الإسرائيلية على خلفية تجربة فردية محدودة جدا.... أريد أن أمدكم ببعض المعانى (المشاعر) التى نشعر بها ونحن جزء من هذا الصراع ولماذا نقوم بهذا الدور.

الصراع مع من؟ ويشرح شولمان قائلا:

إن إسرائيل مثلها مثل أى مجتمع يوجد بها عناصر أمراض اجتماعية عنيفة. ولكن ما هو غير طبيعى بالنسبة للأربعين عاما الماضية فى إسرائيل هو أن أفرادا مخربية عديدة قد وجدت فى نظام المستوطنات ملاذا مهيئا بشرعية أيديولوجية. هنا فى أماكن مثل شافات ماعون، إيتامار، طاباوش والخليل لديهم الحرية المطلقة لترويع الشعب الفلسطينى المقيم؛ يهاجمون ويطلقون النار، يصيبون وأحيانا يقتلون. كل هذا باسم قدسية الأرض المزعومة وحق اليهود المقصور عليهم لهذه الأرض.

يتحدث شولمان عن «الأربعين عاما الماضية». لقد مر أربعون عاما على النصر الإسرائيلى فى عام ١٩٦٧ والذى أدى إلى وقوع الضفة الغربية تحت الاحتلال. وكان شولمان قد هاجر إلى إسرائيل فى نفس العام من الولايات الأمريكية المتحدة، بمجرد تخرجه من المدرسة الثانوية هناك. وأثناء خدمته فى الجيش الإسرائيلى تم تدريبه ليكون مسعفا طبيا، وكان ذلك مصدر قوة له

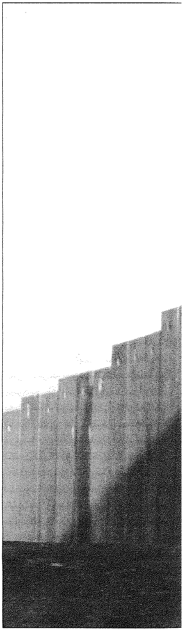


الأسود

أفيشاي مارجاليت

فيما بعد أثناء عمله بالضفة الغربية. وكان الطلب على مهاراته الإسعافية وكذلك على حقيبته الطبية التى كان يحملها دائما معه، متساويا بين الرفقاء الإسرائيليين والفلاحين الفلسطينيين المصابين من قبل المستوطنين أو الجنود أو الشرطة.

دخل شولمان الجامعة العبرية فى القدس وهناك تعلم بالإضافة إلى عدة لغات، اللغة العربية التى أتقنها جيدا. وكان هذا أيضا عاملا مساعدا ومفيدا عند التعامل مع الفلسطينيين الذين



كان يحاول هو ورفاقه مساعدتهم. وبرز شولمان كعالم قدير فى الشعر التأميلى والتيلوجى والسنسكريتى، وفى اللغويات الدرافيدية، الموسيقى الكاماتية والإسلام التاميلى. كانت اهتماماته اللغوية والثقافية مركزة أساسا على الهند الجنوبية. وفى عام ١٩٨٧ عندما كان فى السابعة والثلاثين من عمره، حاز على زمالة ماك أرثر. لقد قام بنشر العديد من الشعر الهندى المترجم. إن لغة شولمان فى يومياته لغة منعشة وغير ملوثة بالكليشيهات المكررة التى تستخدم فى وصف الصراع بين اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين العرب. ويعتبر شولمان بتكوينه ومهنته عالما وليس سياسيا. وإذا استعنا بكلمات أودين عن بيتس، نستطيع القول بأن إسرائيل المجنونة قد آذته ودفعته للسياسة.

ويمكننا التساؤل عن نوع تلك السياسة. إن دراسة شولمان للهند وثقافتها تنم عن أن سياسته - إذا كان هناك مصطلح لذلك - مأخوذة من غاندى. لقد كتب قائلا، «نحن نتبع العرف التقليدى للعصيان المدنى على خطى غاندى، ثورو ومارتن لوثر كينج». هذا ينقلنا لسؤال أكبر: هل كان ذلك أفضل لطرفى الصراع لو تم تنفيذ النضال الفلسطينى بروح غاندى للمقاومة السلبية؟ يمكننا أن نناقش هذا الموضوع من منطلق أخلاقى، ولكننا أيضا يمكن أن نناقشه على أساس عملى وتكتيكى.

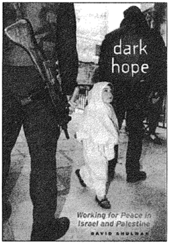
إن ذلك ليس بالجديد. فى بداية الانتفاضة الأولى، فى عام ١٩٨٨ قامت إسرائيل بطرد مبارك عوض طبيب علم نفس الأطفال الفلسطينى الأمريكى الذى دافع وطالب بتكتيكات غاندى فى مقاومة الاحتلال. ووعت فى الحال

Dark Hope: Working for Peace in Israel and Palestine
(الأمل الأسود: العمل من أجل السلام فى إسرائيل وفلسطين)
by: David Shulman
University of Chicago Press,
226pp., $22.00

بترتيب مع:
New York Review of Books

ترجمة: ميسون شعث

الحكومة الإسرائيلية بأن الممارسات السلمية من الممكن لها إحراج إسرائيل وصممت على إيقافه. فى الحقيقة، لم يكن هناك أى سبب للخوف خاصة أن عوض لم يكن له نفوذ قوى بين الفلسطينيين. وسألت يوما صديقاً فلسطينياً: لماذا فى رأيه فشل عوض فى إقناع الفلسطينيين فى شرعية (صحة) الممارسات السلمية، وكان جوابه مقنعاً للغاية: الفلسطينيون ينظرون إلى النضال السلمى على أنه ليس من «أعمال الرجولة» إنهم يميلون



الأكثر أهمية من أن نتساءل: كيف يؤثر العنف الفلسطينى على الرأى العام الإسرائيلى؟ هو السؤال: كيف يؤثر هذا العنف على القادة الإسرائيليين؟

لشعار «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة».

منذ الانتفاضة الثانية، أصبح الفيلسوف الفلسطينى سارى نسيبة المؤيد الرئيسى للممارسات السلمية الغاندية فى صفوف الفلسطينيين على أساس الشقين الأخلاقى والعملى. إن نسيبة رافض لفكرة أنه لا أمل للممارسات السلمية بالنسبة للفلسطينيين بسبب الثقافة الذكورية. إنه يؤمن بأن النضال السلمى -فى شكل المظاهرات والاحتجاجات الأخرى- كان يمارس كثيرا من قبل الفلسطينيين أثناء الحكم العثمانى لفلسطين، وبعد ذلك ضد البريطانيين والمستوطنات اليهودية فى فلسطين قبل قيام الدولة الإسرائيلية.

هل الإسرائيليون أكثر استعدادا فى تقديم تنازلات للفلسطينيين عندما يكونون عنيفين أم عندما يكونون سلميين؟

يبدو أن لدينا ردا على هذا السؤال من مصدر مثير للدهشة. عندما جاء أريل شارون إلى الحكم، كلف المحلل السياسى كالمان جاير أن يقود استطلاعاً خاصاً له. سأل جاير الإسرائيليين فيما لو كانوا على استعداد أن يتقبلوا حلا للصراع يتطلب منهم أن يتخلوا عن ٩٤ بالمائة من الأراضى للفلسطينيين فى مقابل السلام بالإضافة إلى تبادل ٢ بالمائة من باقى الأرض فى عملية مقايضة. سوف يوطن اللاجئين الفلسطينيين بين فلسطين والقدس الشرقية. (هذه المصطلحات هى قريبة جدا من اقتراحات كلينتون فى ديسمبر ٢٠٠١).

استطاع رافيف دروكر، وهو صحفى فى التليفزيون الإسرائيلى، الوصول إلى استطلاعات شارون التى لم ينشرها أبدا. وهى تظهر أن فى مارس ٢٠٠٢ حيث كانت تشتعل الانتفاضة الثانية، ٧٠ بالمائة من الإجابات كانت تبين الاستعداد بقبول هذه التسوية: ولكن عندما أعاد الاستطلاع للمرة الثانية فى مايو ٢٠٠٥، وكانت فترة هادئة، (قبل الانسحاب من غزة مباشرة) ٤٤ بالمائة فقط كانوا على استعداد بقبول نفس التسوية.

هل هذه النتائج تشير إلى أن الإسرائيليين لا يفهمون سوى لغة القوة، وهل يجب أن ينظر إليهم كحجة حاسمة ضد

ما نوع هذا الإنسان الذى يسمم قطيعًا بأكمله ومن خلال تلك الجريمة يقتل مجتمعا من الناس يعيشون من وراء هذا القطيع؟

المقاومة السلمية؟ لا أظن ذلك! لكى نقيم استراتيجية سلمية لا يجب أن نقارن مرحلة مليئة بالعنف بمرحلة أخرى لا تحدث فيها أى هجمات عنيفة. يجب أن نقارن، إذا كان ذلك ممكنا، مرحلة مقاومة عنيفة بمرحلة مقاومة سلمية نشيطة. ولكن الأكثر أهمية من أن نتساءل كيف يؤثر العنف الفلسطينى على الرأى العام الإسرائيلى هو السؤال كيف يؤثر هذا العنف على القادة الإسرائيليين؛ وانطباعى هو - وهولا يزيد على كونه انطباعًا - لن نجد أى قائد بارز سواء كان من يسار الوسط أو يمين الوسط مستعدا لتقديم مثل هذه التنازلات الهامة للفلسطينيين أثناء فترات العنف هذه حتى لا ينظر إليه كشخصية ضعيفة. (شارون وهو الاستثناء، استطاع أن ينسحب من غزة محتفظا بشعبيته). والسؤال الحقيقى الذى فى رأيى يبقى سؤالا مفتوحا، هو كيف يؤثر العنف الفلسطينى على سياسات إسرائيل فى اتجاه تسوية سلمية. إن تأثير العنف الفلسطينى على السياسة الحربية لإسرائيل واضح. أثناء الانتفاضة الثانية أثار العنف الفلسطينى ردًا حربيًا عنيفًا من الجانب الإسرائيلى، نتج عنه تدمير المجتمع الفلسطينى فى الضفة الغربية.

بالنسبة للقضية الأخلاقية للصراع العنيف، يستشهد شولمان بموردخاى كريمنيتزر وهو أستاذ قانون فى الجامعة العبرية ونعتبره نحن الاثنين قوة أخلاقية فى إسرائيل:

حتى لو رضيت بقراءة الفلسطينيين لما حدث فى كامب ديفيد وافترضت أن المقترحات الإسرائيلية غير كافية، ولكنه من المستحيل القبول بالعنف الذى تبناه الفلسطينيون كسلاح وهم مازالوا يواجهون الشريك الإسرائيلى الذى يريد الوصول إلى حل. ماذا يريد الفلسطينيون ليس واضحا. بألا نكون هناك (أى لا يجب أن نحيا أبدا) فى الأراضى أو نحن لا يجب أن نكون. من حقهم أن ينهوا الاحتلال ولكن ليس بأى ثمن. لكن هنا الحق الإسرائيلى يستخدم العنف الفلسطينى لمصلحته. لذلك وفى أسوأ الأحوال قد نجد أنفسنا فى موقف متناقض ومدمر للنفس وهو الخدمة فى جيش مصمم على الأفعال غير الشرعية.

ينادى شولمان بالطريق الغاندية على أساس أخلاقى وربما أيضا على أساس عملى، والكثير من نشاطاته كان سينال رضاء المهاتما غاندى. ولكن فى رأيى أنه كان يحاول أن يفعل شيئا يمكن رؤيته كجزء من الصراع السلمى للتخفيف من أعباء الاحتلال. شولمان هو شاهد أخلاقى - ويقوم بمجهود ليراقب ويروى المعاناة الناجمة عن تصرفات شريرة. قد يخاطر بنفسه وهو يقوم بذلك ولكنه يفعل ذلك من أجل هدف أخلاقى؛ وهو فضح الشر الذى يقوم به نظام يحاول أن يغطى على أفعاله غير الأخلاقية. هو شاهد أخلاقى يعمل مع شعور من الأمل: يوجد أو سوف يوجد مجتمع أخلاقى شهادته تعنى له الكثير.

هناك تضارب لدى شولمان بالنسبة لهذه الآمال. إن العنوان الأصلى العبرى لكتابه ليس الأمل الأسود ولكن الأمل المر. مدح القديس بولس أبراهام، المؤمن الأعظم على أنه «وهو ضد الأمل يؤمن بالأمل». أعجبت الكاتبة الروسية نادزدا (أمل باللغة الروسية) ماندلستام بوصف القديس بولس وأطلقت على كتابها الأول الذى يدور حول الاضطهاد فى روسيا أثناء حكم ستالين عنوان أمل ضد أمل، ولكن عنوان كتابها الثانى الأمل المهجور ليس مأخوذا من القديس بولس ولكن كتاب دانتى الجحيم. ولكن وصف شولمان يبدو لى وكأنه يتأرجح بين الاثنين: بين أن نأمل ضد الأمل وبين الأمل والأمل المهجور.

يبدأ شولمان بقصة غير شخصية تصف ما حدث فى الثانى من أبريل عام ٢٠٠٥ بالقرب من مستوطنة جنوب تلال الخليل حيث يعيش الفلسطينيون فى كهوف ويرعون أغنامهم:

بدأ ذلك منذ أسبوعين عندما لاحظ الفلسطينيون من قرية طوانية مستوطنا - شبه أكيد من شيفات مأون أكثر المستوطنات قسوة فى المنطقة - يسير متعمدا فى حقولهم فى الصباح الباكر. وبعد فترة قصيرة مرضت الأغنام ومات أول خروف. بعد ذلك وجد الرعاة السم منثورا على الجبال؛ عبارة عن كرات من الشعير زرقاء وخضراء صغيرة مغلفة بطبقة من سم فئران قاتل من عائلة الفلوروأسيتيت.. وكان الهدف واضحا: قتل قطيع الأغنام والماعز، الجزء الأساسى فى اقتصاد ساكنى الكهوف فى هذه الأرض الجافة لإجبارهم على الخروج من الأرض.

بعد زيارة المستوطنة العربية كتب شولمان:

بعد نصف ساعة بدأت أتساءل: إذا كنا قد جئنا بدون فائدة. وأخذت أمعن النظر فى الأرض الصخرية، فى الزهور البرية بنفسجية اللون، فى الأشواك وفى الروث الطرى للغنم. مازال لا وجود للسم. ثم ظهرت المفاجأة: بعد انحناءة كبيرة ووجهى يكاد يلمس التربة رأيت اثنتين.. لا ثلاثًا - من حبوب الشعير الزرقاء/خضراء المسمومة.

بعد خمس دقائق استخرجت جودى (رفيقته) ذهبا - مخبأ كبير ممتلئ بهم ... وكان الفن الحقيقى فى لعبة البحث عن الكنز الغريبة هذه هو اقتفاء أثر الخطوات المختفية لواضع السم؛ كوم من الحبوب يجب، حسب النظرية، أن يقودك إلى آخر، وهذا ما حدث بالفعل.

ثم لاحظ شولمان أن طوال الوقت كان هناك على التل المقابل، مباشرة تحت المستوطنة أحد هؤلاء المستوطنين ممسكا ببندقيته يراقبنا ويتقدم.. كلما تحركنا؛ وكان مرتديا الأسود، له حضور ينذر بسوء، دارث فادر إسرائيلى. إلى أعلى كان هناك أيضا مجموعة من عربات الجيب الحربية تقف فى مكانها. ربما هذه المرة، على الأقل، سيمنعون المستوطنين من الهجوم علينا.

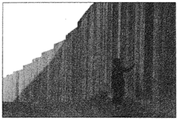
نادرا ما يبدى شولمان ملاحظات عامة: إنه يقترب من المحدد والملموس ويبتعد عن الرمز. ولكن ليس هذه المرة، وها هو تفسيره:

إننى دائما أكره الرموز. إنها أرخص وأكثر أعمال العقل كذبا وخداعا، وهى بعيدة جدا عن أى شىء حقيقى. ولكن اليوم، وأنا أنخل التربة الرطبة، بنية اللون تحت أعين المستوطنين لم أستطع أن أقاوم الشعور بأن شيئا ما رمزى بدرجة فظيعة. (المستوطنون) يدعون أن لديهم شعورًا خاصًا لهذه الأرض، ولكنهم يتعاملون معها باحتقار. إنهم غالبا ما يهتمون بالأرض كشىء يغتصب، ينهب ويسلب من أصحابها الشرعيين بواسطة قوة وحشية. إن تلك الصورة الطبيعية الخلابة الساحرة ملك ساكنى الكهوف.

هذه القضية ليست مجرد مسألة ظلم، بالرغم من أن الظلم الفظيع يصرخ دون أى شك فى كل مكان. وهى أيضا ليست موضوع جنون بالرغم من أن المستوطنين هنا معتوهون بحق. إنها جريمة مروعة وخطيرة بكل معنى الكلمة: إنها جريمة ضد الأرض التى يسميها المستوطنون بعفوية شديدة بالمقدسة، إنها جريمة ضد الحياة نفسها. من هو الإنسان أو الفرد الذى يسمم غزالاً بريًا عن عمد. ما هو نوع هذا الإنسان الذى يسمم قطيعًا بأكمله ومن خلال تلك الجريمة يقتل مجتمعا من الناس يعيشون من وراء هذا القطيع؟

قصة شولمان تحتاج إلى خلفية قد نجدها فى تقارير لجنة حقوق الإنسان

ينادى شولمان باعتماد الغاندية على أساس أخلاقى وربما أيضا على أساس عملى، والكثير من نشاطاته كان سينال رضاء المهاتما غاندى



المستوطنون مدعومون بما يسمى «الآلة المعقدة» وهو اصطلاح يعنى الجيش والشرطة والسلطات المدنية التى تدير الضفة الغربية

الإسرائيلية بيتسيلم فى شهر يوليو ٢٠٠٥ . وحدث أن عساف شارون، وهو أحد طلابى وحاليا قد تخرج من جامعة ستانفورد، قد شارك فى العديد من النشاطات التى يصفها شولمان. وقد ذكر فى هذا الكتاب مثل باقى «الرفاق» باسمه الأول فقط. عساف الذى درس فى شبابه فى يشيفع بالقرب من الخليل كان مراقبا لاذعا ويختلف عن شولمان كونه على معرفة حميمة بالمستوطنين بمن فيهم الأجيال الأصغر عمرا.

ويخبرنا عساف أن أكثر من ألف فلسطينى يقطنون فى جنوب الضفة الغربية جنوب شرق يطة، البلدة الرئيسية فى تلك المنطقة، على مساحة ٧٥٠٠ دونم. بعض سكان الكهوف يقطنون هذه المنطقة فقط أثناء مواسم الزراعة والحصاد، وبعضهم يعيش هناك طوال العام. المياه فى تلك المنطقة شحيحة ويعتمد سكان الجبال على الخزانات المحلية بدرجة كبيرة.

فى عام ١٩٧٠، أعلنت إسرائيل أن جزءاً من منطقة يطة هو «منطقة حربية مغلقة». وفى عام ١٩٨٠، أقامت إسرائيل بالقرب من هذه المنطقة المغلقة أربع مستوطنات يقطن فيها الآن نحو ألفى مستوطن. وما بين ١٩٩٦ و٢٠٠١ أقام هؤلاء المستوطنون أربعة مخافر إضافية - وهى مخيمات صغيرة مسلحة، قيل إنها ضرورية لحماية المستوطنات الأكبر. كما تمت إقامة مخفر خامس، ماعون فارم، داخل المنطقة التى قالت قوات الاحتلال أنه غير مسموح ببناء مستوطنات فيها، وبالتالى أخلى الجيش الإسرائيلى منطقة ماعون فارم من المستوطنين لبضعة أشهر، ولكنهم سرعان ما عادوا. وقبل أن يتم ذلك، كان قد قام الجيش أيضا بطرد سكان الكهوف الفلسطينيين بالقوة من المنطقة المغلقة، بعد أن حطم آبارهم وسد كهوفهم وصادر ممتلكاتهم البسيطة المكونة من البطاطين والطعام. وقد برر الجيش الطرد من الأرض بحجة أنها «احتياج عسكرى ضرورى»، تحديدا الحاجة إلى منطقة للتدريب سوف يستخدم فيها الأسلحة الحية، وبالتالى سيتعرض كل من يقطن هناك إلى الخطر. ولكن مستوطنين ماعون فارم عادوا إلى المنطقة المغلقة دون اعتراض من السلطات الإسرائيلية ودون أى ذكر للأسلحة الحية التى ستكون خطرا عليهم.

لأول وهلة، قد تبدو قصة سكان الكهوف فى الوقت الحالى قضية صغيرة نسبيا لو قارناها مثلا بما يقوله لنا شولمان عن الجدار الفاصل الذى أثر بطريقة كارثية على حياة الفلسطينيين فى المناطق الأكثر ازدحاما بالناس فى الضفة الغربية أو فى القدس حيث تنكشف الدراما الرئيسية للصراع. تلال جنوب الخليل، حيث مسرح التسمم، منطقة قليلة السكان وبعيدة عن الأحداث الرئيسية. ولكن ما يحدث فى تلال جنوب الخليل يظهر بشكل صارخ وقاس سوء الاحتلال. قد تكون بعض أعمال المستوطنين الإسرائيليين غامضة أخلاقيا، ولكن ما رآه شولمان على تلال جنوب الخليل يدفعه لاستعمال كلمة «الشر» بسخاء:

إن ما نقاتله فى تلال جنوب الخليل هو شر آدمى خالص ونقى، ومحض جنون. لا شىء غير الحقد الذى يقود هذه العملية لانتزاع بضعة آلاف من سكان الكهوف مع أطفالهم وغنمهم من أرضهم. لم يؤذوا أحداً ولم يشكلوا أبدا تهديدا للأمن. لقد عاشوا حياة هادئة فقيرة إلى حد ما حتى جاء هؤلاء المستوطنون، ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك سلام. كانوا معذبين، مرعوبين وغير مصدقين مثلى تماما.

ويبين شولمان أن المستوطنين مدعومون بما يسمى «الآلة المعقدة» وهو اصطلاح يستخدمه لوصف المؤسسات الحكومية الإسرائيلية المتعددة، بما فيها الجيش والشرطة والسلطات المدنية التى تدير الضفة الغربية. ولكن العلاقات بين هذه المؤسسات معقدة لدرجة أصبح غير واضح من المسئول عن أى سياسة أو عمل. هاجاى عالون وهو مسئول إسرائيلى تم تعيينه من قبل وزير الدفاع الأسبق ليكون مسئولا عن «النسيج الاجتماعى» فى الأراضى، صرح أن الجيش لا يلتزم بأوامر وزير الدفاع. وبالإشارة إلى منطقة تلال الخليل تحديدا قال عالون إن الجيش يقوم «على خدمة» المستوطنين. وقال إن الجيش ينفذ «سياسة التمييز العنصرى» بخلق حقائق على الأرض ليصبح انسحاب المستوطنين من الضفة الغربية مستحيلا.

إن كتاب شولمان لا يحلل كيف تعمل آلة الاحتلال المعقدة، ولا يقوم بتحليل حتى لما يقوم به المستوطنون فى حياتهم اليومية. إنه يصف فى الدرجة الأولى المصادمات التى تحدث وجها لوجه بين نشطاء حقوق الإنسان مثله وبين المستوطنين والجنود والشرطة. ولكنه يبين أن كل مستوطنى منطقة تلال جنوب الخليل تقريبا من الأشخاص المتدينين. إن معظم الزعماء المعترف بهم ينتمون لجوش أمونيم أو يعكسون أفكارها: هم متدينون، وطنيون لأقصى حد ومثاليون. هم ليسوا فقط أناساً يبحثون عن ضواح مناسبة يتنقلون منها إلى المدن الإسرائيلية. لقد ولدوا وشبوا فى إسرائيل ومازالوا متمسكين بالمجتمع الإسرائيلى.

وعلى العكس، إن أعضاء الجيل الثانى من المستوطنين- كل من هو عمره أقل من ٣٥ عاما . لقد ولدوا وشبوا فى المجتمعات المغلقة فى الأراضى. لقد صعقوا باتفاقية أوسلو لعام ١٩٩٢، خشية من خيانة قادة إسرائيل لهم وإجبارهم للعودة إلى ما سمى بالخط الأخضر لما قبل ١٩٦٧ . والتجربة الأخرى اللاحقة كانت اغتيال اسحق رابين عام ١٩٩٥ من قبل شاب متطرف كانت له صلات اجتماعية وأيديولوجية مع المستوطنين. وشعر الكثير من المستوطنين بأنهم قد اتهموا جميعا ظلما بمقتل رابين. ومن تجربتى الخاصة وجدت بين الجيل الثانى من المستوطنين مزيجا مميتًا من الاتجاهات: القناعة بأن لديهم الحق فى السيطرة على الفلسطينيين والشعور بأنهم هم الضحايا. إنهم يشاركون آباءهم فى جنون العظمة التاريخية، ويرون أنفسهم بدرجة كبيرة أناسا صالحين مثل الرواد الذين أسىء فهمهم لدى تقديمهم رؤية المخلص المنتظر. ولكنهم لم يستخلصوا العبر من التأثير المتمدن للتعاليم العبرية كما فعل آباؤهم.

باختصار، يبين شولمان أن جيلا وحشيا قد ولد فى المناطق، جيل أعضاؤه أكثر جسارة من آبائهم وأكثر استعدادا لتحدى القوانين وقادرون بشدة على التعامل مع الفلسطينيين دون أدنى اعتبار لأى قانون. إنه جيل مشبع بعدائية شديدة تجاه العرب، إنه جيل ذوعصبية قبلية شرسة.

ويصف شولمان مقابلاته مع المستوطنين الشباب المتعصبين الذين سخروا منه:

فى هذه اللحظة كان المستوطنون فوقنا، جميعا فى العشرينيات من العمر مرتدين الطاقية المزركشة على رؤوسهم بخصلات شعرهم الملتوية وبنادقهم. «صرخوا فى وجوهنا قائلين: يجب أن تخجلوا من أنفسكم. أى صنف من اليهود أنتم؟ ضعيفا وغاضبا صرخت ردا عليهم: أنا يهودى ولهذا أنا هنا».

لا يبدو أن هناك أى أمل بأن يتفهم هؤلاء الشباب ما يحاول شولمان أن يفعله. فى يوم مبلل وملىء بالوحل من أيام يناير الباردة، كان شولمان وأصدقاؤه فى طريقهم لإحضار بطاطين لساكنى الكهوف. حاول المستوطنون منعهم. «وصاح أحد الرجال قائلا: إننا نعمل مع بن لادن... وصمموا على عدم وصول البطاطين إلى سكان الكهوف».

إن ما قاله الرجل بأننا مع بن لادن لم يكن يبدى ملاحظة سياسية مثلما يمكن أن نتوقع من ديك تشينى، ولكنه كان يعبر عن وجهة نظر قبلية متعصبة. بالنسبة لهؤلاء الناس وخصوصا الشباب منهم، يعتبر إمداد سكان الكهوف بالبطاطين مساعدة وراحة لعدو مميت لقبيلتهم - لناس يعملون مع بن لادن.

إن معظم ما كتب عن المستوطنين الذين تحثهم أيديولوجيتهم كان يخص الجيل المؤسس. كانوا يعبرون عن أنفسهم بوضوح أكثر وأصدروا نصوصا من الممكن الاستشهاد بها. ولكن أصبح الجيل الأكبر الذى ما زال فى المستوطنات غير مهم بالنسبة للواقع اليومى فى الأراضى المحتلة. وبعد إجلاء المستوطنات من غزة عام ٢٠٠٥، واتهام الجيل الأصغر من المستوطنين جيل المستوطنين القدامى وكذلك الإسرائيليين عامة بالجبن، فقد قادة المستوطنات الكبار قبضتهم.

إن إسرائيل بالنسبة لجيل المستوطنين الشباب

جلبت الانتفاضة الثانية معها تغييرا راديكاليا لدى العديد من نشطاء السلام الذين أصبحوا متشككين فى إمكانية تحقيق السلام

حقيقة بعيدة المنال ووجود يجب مواجهته عندما لا يسير فى طريقهم. إن جيل الشباب من المستوطنين المتواجدين على تلال جنوب الخليل هم نموذج قوى ودال على ما هو عليه الجيل الثانى من المستوطنين. لقد نجحوا فى الواقع فى جعل آبائهم متطرفين (راديكاليين) مستعدين الآن لمواجهة الجيش والشرطة بطريقة لم يكونوا ليجرؤوا أن يقوموا بأعمال مثلها من قبل لأسباب عقائدية. إن سبب الخيال الجامح لجيل الشباب هو «التوراة»، جزء منه يعود للأفلام السينمائية الخاصة بغرب أمريكا: فأنت تراهم يمتطون الجياد وهم فى لباس «توراتى». يستقون إلهامهم من شخصيات ساحرة تشبه سيرجيو ليونى مثل يهوشافات تور ودوف دريبن مؤسس ماعون فارم. وقد قتل دريبن الذى استمر فى تهديد سكان الكهوف الفلسطينيين المجاورين دون انقطاع. وتم الإفراج عن القروى الذى اتهم بقتله لعدم كفاية الأدلة بعد أن قضى أربع سنوات فى السجن. وقد اعتبر معجبو دوف دريبن مقتله رخصة للتهور والجموح. وعلى تلال جنوب الخليل مكان الآن يحمل اسمًا مناسبًا وهو «مزرعة الشيطان». صاحب هذه المزرعة يدعى ياكوف تاليا، وكان من الأفريكان فى جنوب أفريقيا واعتنق اليهودية فى نهاية حكم التمييز العنصرى هناك. ياكوف تاليا يمثل أيضا الشخصية المتهورة، الساحرة والقاسية التى تجذب العديد من الشباب المتدين. يقضى هؤلاء الشباب وقتا طويلا فى مزرعته لمساعدته فى الاستيلاء على أرض أكثر فأكثر.

جلبت الانتفاضة الثانية معها فى بداية ٢٠٠٠ تغييرا راديكاليا ليس فقط فى المستوطنين الشباب ولكن فى العديد من نشطاء السلام الشباب الذين أصبحوا متشككين بشدة من أى مخطط وهمى كبير للوصول إلى السلام. أراد نشطاء السلام الشباب عمل شىء ملموس حتى لو كان ذلك هدفا محدودا، لَيس لأن ذلك سيكون له تأثير قوى، ولكن لأن ذلك هو الشىء السليم الذى يتعين عمله. ومن خبرتى الخاصة أعلم أنهم كانوا يعرفون الفلسطينيين فى الضفة الغربية أكثر من النشطاء من جيلى، الذين كانوا يؤيدون «عملية السلام».

كان لهم أبطالهم أيضا ومن ضمنهم عزرا ناوى، وهو سباك من أصل يهودى عراقى من القدس، وكان سكان الكهوف معجبين جدا به. لقد نظم لأبنائهم معسكرًا صيفيًا وأخذهم لأول مرة فى حياتهم إلى حمام السباحة فى أريحا. وكان دائما يتعرض لصياح ساخر وبغيض من قبل المستوطنين. إن شخصية عزرا الدافئة والخفيفة الظل كانت واضحة تماما لكل من عرفه وكل من شاهد الفيلم التسجيلى عن حياته. والآن وهو فى الخمسين من عمره، هو يمثل رغبة النشطاء الإسرائيليين الشباب لعمل شىء ملموس حتى لو كان هذا يعنى العمل محليا مع تجنب التورط فى مقترحات للسلام على نطاق واسع.

يستخدم شولمان شعارًا لكتابه مكونًا من جملة قالها ناشط لحقوق الإنسان بريطانى - أسترالى اسمه جيمس مودسلى: «الجحيم هو أن يدرك الإنسان أنه لم يساعد عندما كان قادرا على المساعدة». وهو لا يشعر براحة مع خطط طموحة للسلام، ولقد أوضح وجهة نظره عندما قابل منذ عدة سنوات ماضية فى القدس بعض أعضاء السلام الآن لمناصرة سارى نسيبة رئيس جامعة القدس فى أبو ديس، بالقرب من القدس، فى احتجاجه ضد الجدار الفاصل الذى كان يبنى عبر ملعب كرة القدم فى حرم جامعة القدس. سأل شولمان نفسه إذا كان بناء الجدار عبر ملعب كرة القدم يستحق عناء الاحتجاج. كتب قائلا «إن فقدان بضعة دونمات من أرض الجامعة شىء تافه» بالنسبة للأعمال الأخرى التى دمرت حياة الفلسطينيين. ولكنه قرر: «نعم، إنه يستحق. إن كل نصر صغير بحسب». إن نسيبه ومؤيديه «هم زملاؤنا وأصدقاؤنا. لا نستطيع أن نقف موقف المتفرج». فى الواقع حقق المؤيدون نصرا صغيرا فى جامعة القدس. تمت إزالة الجدار من ملاعب الجامعة بعد أن استطاع نسيبه إقناع بعض الإسرائيليين بمناشدة كونداليزا رايس التى طلبت بدورها من الحكومة الإسرائيلية وقف بناء الجدار. عائدا من القدس بصحبة المحتجين من منظمة السلام الآن قال شولمان:

سرح عقلى بعيدا عن المحنة البسيطة نسبيا التى يشعر بها زملائى وأصدقائى فى جامعة القدس.. بعيدا عن المناقشات السياسية المحتدة فى السيارة. هناك كلام عن مبادرة جديدة، لقد تم التوقيع على وثيقة من قبل شخصيات عامة من الجانبين تحدد أساساً لتسوية متفقًا عليها للصراع - مبادرة جنيف ... كنت أستمع بدون حماس وانتباهى يحلق بعيدا.

كنت واحدا من هؤلاء الذين كانوا فى السيارة، كم تبادلنا الحديث عن خطط سلام ممكنة والعمل على إيجاد حل سياسى من خلال سياسات حزبية، عن الحصول على أصوات الناخبين، عن تشكيل تحالفات وعن تقديم تنازلات فى الطريق. الآن ما يناقش هو مشروع جديد عظيم: مؤتمر لدول الشرق الأوسط ودول أخرى يعقد فى نوفمبر فى أنابوليس بولاية مريلاند. والأمل فى أن يوافق رئيس الوزراء أيهود أولمرت والرئيس الفلسطينى أبو مازن على مبادئ لتسوية الصراع. ولكن أبو مازن بناء على التقارير يريد الاتفاق أن يكون محددا ولكن أولمرت يريده مبهمًا، والسؤال هو هل سيستطيعون الوصول إلى تسوية؟ سوف يناقش المؤتمر القضايا الجوهرية بين الطرفين: القدس، اللاجئين والأراضى. الرجلان فى حاجة ماسة إلى اتفاق حتى يظهروا للعالم أنهم مازالوا مناسبين سياسيا. الكثير يؤمن بأنه لابد لأى صفقة من أن تنهار حتى لو تم التوقيع عليها: الزعيمان ضعيفان سياسيا لدرجة أنه لا يهم ماذا اتفقوا عليه. على العموم مازال الوقت مبكرا لإلغاء إمكانية ظهور شىء مفيد من مؤتمر كهذا. ولنر الموضوع ببساطة، يجب على اليهود والعرب أن يتعاملوا مع ثلاث حالات: الحرب، السلام و«عملية السلام». وهى عملية لا تقود إلى السلام، ولكنها تؤدى إلى مرحلة متوسطة من اللاسلم واللاحرب. ولكى ننظر إلى المفاوضات بين أولمرت وأبو مازن بطريقة واقعية، نرى أنهم يستطيعون القيام بخطوة تنقل الموقف من مرحلة العداء المعلن (الحرب) إلى مرحلة متوسطة هى «عملية السلام».

ومن ناحية أخرى، تعطينا يوميات شولمان إحساسا حادا بالفجوة بين مخططات السلام فى مرحلة «عملية السلام» وبين الواقع الرهيب القاسى على الأرض. إن الواقع لا يشكل بالاتفاقات ولكن فى الأساس يشكل بالأعمال العنيفة لآلة إسرائيل المعقدة.

إن الواقع لا يشكل بالاتفاقات ولكن فى الأساس يشكل بالأعمال العنيفة لآلة إسرائيل المعقدة

تعطينا اليوميات لمحة فقط من بعض أعمال الآلة المعقدة، ولكنى أومن بأن استيعاب وفهم ما يحدث فى تلال جنوب الخليل، وهى جزء صغير جدا من الصراع، يمكن أن يحررنا من الاعتقاد الخاطئ عن طريقة عمل الآلة المعقدة. هناك عدد قليل نسبيا

من المستوطنين حول الخليل وعدد أقل كثيرا فى المخافر التى تم بناؤها هناك. ولا ينتظر أن يزيد عددهم بطريقة متعاظمة. مع ذلك، فالآلة الإسرائيلية الرسمية لها تأثيرها المتصلب. فهى تسيطر على الأرض وتتخلص من الفلسطينيين الذين يعيشون عليها بأن تجعل حياتهم جحيما لا يحتمل. لا تعتمد الآلة المعقدة على عدد المستوطنين، ولكن كانت تعتمد أكثر على كيفية تصميم وبناء الطرق المؤدية إلى المستوطنات والمخافر وعلى طريقة حمايتها من قبل القوات الإسرائيلية.

فى الواقع إن أغلب المخافر فى الضفة الغربية لا تزيد على كونها قرى صغيرة جدا، ولكن هذا أيضا غير مهم لأن الطرق المؤدية إليهم هى طرق حسب البيانات الرسمية يجب أن تكون تحت الحماية الدائمة، وذلك للتأكد من توفير الحماية للسكان حتى لو كانوا أسرة أو أسرتين. وكلما قل عدد المستوطنين كلما أصبحوا أكثر عرضة للخطر وبالتالى يجب تكثيف الحماية عليهم. ولحماية أى طريق يعنى منع الفلسطينيين من الاقتراب من جانبيه وبالتالى تقوم السلطات الإسرائيلية بتنظيم حركتهم بإقامة حواجز على الطرق المسموح لهم باستخدامها. هناك ٥٣٩ حاجزًا للحركة فى الضفة الغربية، منهم ٨٦ حاجز تفتيش.

هكذا تستخدم الطرق لتقطيع الضفة الغربية لعدم السماح للعرب بالحركة ولتحبيسهم فى أراضيهم. وبالإضافة إلى ذلك، يحاط كل مخفر وكل مستوطنة بمنطقة أمان تسمى «منطقة أمنية خاصة». وكما نرى أن التوسع فى السيطرة على الضفة الغربية لا يحددها عدد المستوطنين ولكن يحددها مدى منطقة الحماية التى يستثنى منها الفلسطينيون.

إليك كيف يعمل هذا النظام. أولا يتم بناء المستوطنة مع تخصيص منطقة لها لتطويرها فى المستقبل وكذلك يخصص لها منطقة واسعة للحماية. ثم يتم إنشاء مراكز للقمر الصناعى على التلال فى أطراف المستوطنة. هذه المراكز توسع المنطقة التى يجب حمايتها وخاصة الطرق التى تؤدى إلى هذه المراكز. إن المعلقين الذين يؤكدون تنامى أعداد المستوطنين فى الضفة الغربية يتجاهلون تعقيد هذه الآلة. إن زيادة عدد السكان لا يمثل عاملا أساسيا. فى الواقع إن الزيادة الكبيرة فى عدد السكان فى السنوات الأخيرة جاءت فى أربع مدن تقليدية جدا وهى غير بعيدة عن الخط الخضر. إن عدد السكان فى هذه المدن الأربع يصل تقريبا إلى ثلث عدد المستوطنين فى الضفة الغربية. ومن الواضح أن ما هو أهم من زيادة عدد المستوطنين هو زيادة عدد المراكز والمخافر وطرقهم المتشابكة.

تستمر الآلة المعقدة فى العمل دون كلل. لا يهم أبدا من هو الحزب الحاكم. حكومات الوسط والعمل تؤمن بأن هناك الكثير من المشاحنات السياسية والعسكرية لتفكيك المستوطنات واحدة تلو الأخرى، ويقولون إنه سيتم التعامل مع هذه المستوطنات يوما ما بالجملة. مثلما تعامل شارون بمستوطنات غزة الذى تم إخلاؤها فى وقت واحد. أما حكومات الليكود فى المقابل فهى ترفض تماما إزالة المستوطنات لأى سبب. وتشترك جميع حكومات إسرائيل فى رؤيتهم بأنه يجب على الجيش حماية المستوطنين. سواء كانوا مفوضين أو غير مفوضين. وبالتالى تعمل الآلة المعقدة دائما بغض النظر عمن يحكم، مستفيدة من هذا الرأى المشترك.

لا يمكن لأى فلسطينى أن يؤمن فى مخطط عظيم لتسوية نهائية طالما ظلت حياتهم مهانة بهذا الشكل. ولقد أعلنت حماس انطلاقا من مبادئها عن رفضها لأى مخطط واسع المدى لتسوية سلمية مع إسرائيل؛ ولكن القضية التى يجب أن نواجهها هى عدم الثقة التامة فى أى مخطط واسع النطاق من جانب فلسطينيين لا ينتمون إلى حماس ويريدون العيش فى سلام. ولتضييق الهوة بين المخططات الكبيرة والواقع على الأرض، يجب أن نوقف هذه الآلة المعقدة. يجب أن نحسن الحياة اليومية بجدية إذا أردنا أن يثق أحد فى هذه المخططات العظيمة. ولكى نقتنع أن هذا سوف يحدث، فذلك يتطلب قدرًا كبيرًا من الإيمان. أيمان من النوع الذى يجعل رجلا مثل دافيد شولمان مستمرا فى محاولاته فى مساعدة الفلسطينيين بينما هو لا يثق فى المخططات العظيمة.■

كتاب الزاوية

غزة لن تقول نعم للغزاة

محمود درويش

من جمال غزة، أن أصواتنا لا تصل إلينا، لا شىء يشغلها. لا شىء يدير قبضتها عن وجه العدو. لا شكل الحكم فى الدولة الفلسطينية التى سننشئها على الجانب الشرقى من القمر، أو على الجانب الغربى من المريخ حين يتم اكتشافه، ولا طريقة توزيع المقاعد فى المجلس الوطنى. لا شىء يشغلها. إنها منكبة على الرفض.. الجوع والرفض. العطش والرفض. التشرد والرفض. التعذيب والرفض. الحصار والرفض. والموت والرفض.

قد ينتصر الأعداء على غزة (قد ينتصر البحر الهائج على جزيرة صغيرة).

قد يقطعون كل أشجارها.

قد يكسرون عظامها..

قد يزرعون الدبابات فى أحشاء أطفالها ونسائها. وقد يرمونها فى البحر أو الرمل أو الدم.

ولكنها:

لن تكرر الأكاذيب.

ولن تقول للغزاة: نعم.

وستستمر فى الانفجار.

لا هو موت، ولا هو انتحار. ولكنه أسلوب غزة فى إعلان جدارتها بالحياة.

الوعد الرابع!!

■■ مشهد من شرفة فندق بمدينة القدس:

بعد عناء يوم طويل من التفاوض الصعب يتبادل ارون ديفيد ميللر المزاح مع زميله جمال هلال مسترجعا تاريخ القدس فيقول ساخرا «لابد أن القائد صلاح الدين الأيوبى والملك ريتشارد يتقلبان ويضحكان ملء شدقيهما فى قبريهما اليوم وهما يريان محاولاتنا للتوصل إلى حل سلمى للقدس، المدينة التى أريقت من أجلها دماء كثيرة جدا».

على خلاف الشهادات والمذكرات التى ألفها سياسيون أمريكيون بعد خروجهم من مناصبهم فى السنوات الأخيرة، يخرج الباحث ارون ديفيد ميللر عن المألوف من الكتابات الأمريكية فيما يخص الصراع العربى-الإسرائيلى ليقدم صورة مناقضة للإخفاق الأمريكى فى تحقيق التسوية يصل من خلالها إلى تحليل أخير أن الولايات المتحدة قد منحت إسرائيل مهلة مفتوحة وفشلت فى دفعها إلى الوفاء بالتزاماتها والقبول بخيارات صعبة تليق بالتسوية ونهاية الصراع. ففى تعليق للراديو الوطنى الأمريكى على كتاب أرون ديفيد ميللر قال الراديو إن ميللر كان شاهدا على «الطيب والشرس والقبيح» فى السياسات الأمريكية حيال الصراع العربى الإسرائيلى فى مدى زمنى يقارب نصف سنوات الصراع وشهادته اليوم مصارحة كاملة عن فقدان الرؤية الذى أصاب السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط لعقود. شغل ميللر مناصب استشارية بالقرب من ستة من وزراء الخارجية الأمريكيين منذ عام ١٩٧٨ وحتى عام ٢٠٠٣. فى مجمل شهادة ميللر أن الأمن القومى الأمريكى يحتاج إلى البحث عن مصالحه الحقيقية اليوم فى الشرق الأوسط التى تاهت فى دروب اللين والتدليل للصديق الإستراتيجى - إسرائيل - الذى لم تمارس الولايات المتحدة ضده «القسوة» التى تليق بعلاقة يخشى فيها طرف على مصالح طرف آخر أو بمعنى آخر علاقة الحب التى يقسو فيها المحب أحيانا لحماية الطرف الشارد.

THE MUCH TOO PROMISED LAND
America's Elusive Search for Arab-Israeli Peace
(الأرض الأكثر وعدا
البحث الأمريكى المراوغ عن سلام عربى - إسرائيلى)
Aaron David Miller
Bantam. 407 pages. $26.00



كلينتون وعرفات ورابين.. أحلام بسلام لم يتحقق

يعلى ميللر فى مؤلفه من دور أربع شخصيات هى هنرى كيسنجر وجيمس بيكر وزيرا الخارجية السابقان والرئيس جيمى كارتر والرئيس الـ٤١ جورج بوش الأب حيث يرى أن كيسنجر نجح فى دبلوماسية فك الارتباط بين مصر وإسرائيل فى عام ١٩٧٣ رغم ما صادفه من عراقيل كبرى، وجيمى كارتر عن جهوده فى كامب ديفيد، فيما قدم بيكر وبوش الأب نموذجا فى إعدادهما المتقن لمؤتمر مدريد للسلام فى أواخر عام ١٩٩١ . ويرتكن ميللر فى تحليل نجاحات الأربعة السابقين فى إحراز تقدم يحسب لهم إلى أربعة عوامل- تمثل حدودا فاصلة بين الصيغ الناجحة والأطروحات الفاشلة فى مقاربات حل الصراع التى كانت سمة الأعوام الستة عشر الماضية. فى المقابل، يرى ميللر أن بيل كلينتون فشل- رغم صدق النوايا- نتيجة افتقاره الشدة والإصرار المطلوبين لأى اتفاق سلام وهو ما تكرر فيما بعد فى سنوات حكم جورج دبليو بوش. وبالنظر إلى ما بذله كلينتون من جهد فى كامب ديفيد عام ١٩٩٩ ضاع الجهد هباء منثورا نتيجة تبنى كثير من المسئولين فى إدارته لمواقف إسرائيل ووقوفهم فى خانة «محامى إسرائيل» دون أن يدركوا أن المصلحة الخاصة التى تربط بين الولايات المتحدة وإسرائيل يمكن أن تستثمر فى الاتجاه الصحيح وليس لممارسة التعنت ضد طرف لحساب آخر.

يحدد ميللر الخبير المفاوض أربعة عوامل وراء النجاحات التى وصل إليها كيسنجر وكارتر وبيكر وبوش الأب والتى غابت فى عهدى الرئيسين بيل كلينتون وجورج دبليو بوش:

- ممارسة قدر من الشدة الحاسمة مع مختلف أطراف الصراع عندما يكون الأمر فى حاجة إلى حسم عند مفترق طرق.
- السعى وراء كسب مصداقية من طرفى التفاوض حتى فى الأوقات التى كانت المفاوضات تمر بأزمة ثقة بين أطرافها.
- المثابرة على إنجاز هدف واحد محدد سلفا باعتباره هدفا وطنيا خالصا يخدم المصلحة الأمريكية.
- الجدية التامة فى التعامل مع عنصر الزمن وتحديد أطر زمنية واضحة لإنجاز الهدف المحدد سلفا.

جميع تلك العوامل السابقة غابت عن عملية صناعة السلام فى مرحلة ما بعد مدريد التى يصفها السيد ميللر بأنها شهدت تحول العلاقة بين الولايات المتحدة من علاقة «خاصة» إلى علاقة «استثنائية» تفوق المصلحة الوطنية للولايات المتحدة وفقا لتعبير ميللر نفسه. ووصف الجنرال أنتونى زينى القائد السابق للمنطقة المركزية الأمريكية شهادة ميللر بأنها أكثر الأعمال شمولا ودقة فيما يختص بالصراع الفلسطينى- الإسرائيلى وجهود الولايات المتحدة للتوسط فى العملية الشائكة، فيما أشار السناتور جورج ميتشل شهادة ميللر الحية بأنها رؤية عميقة وصريحة تجعل من الصعب على القارئ ترك القصص المثيرة دون أن يفرغ منها. يكفى ان ميللر كان هو «ضابط السيطرة» -وفقا لما ورد فى كتابه- المختص بمرافقة ومتابعة الرئيس ياسر عرفات فى أعقاب عملية أوسلو. ولم يعتمد ميللر على الروايات التى عاصرها ولكنه أجرى أكثر من ١٦٠ مقابلة مع جميع من شاركوا فى محادثات السلام فى الأعوام الثلاثين الماضية.

يقول ميللر إن تلك هى قصتى الذاتية مع ربع قرن من السعى وراء السلام. رحلة محلل ومؤرخ ودبلوماسى ومفاوض مليئة بالإحباطات لكنها رحلة ممتعة لأنه ليست هناك سعادة تفوق زهو الدبلوماسى أو المفاوض الذى يشعر بقيمة التجربة ودوره فى صنع التاريخ خاصة لو كان تاريخا استثنائيا حيث الارتباط بالدفاع عن قضية دون الانخراط فى خبرة فعلية تمسها ربما يكون أمرا محفوفا بالمخاطر لمن يبدون رأيهم فى تلك القضايا الصعبة. يشير ميللر إلى البعد الشخصى، الذى يصل إلى الانكشاف الكامل، عما جال فى خاطره وقلبه خلال انخراطه فى المفاوضات بين العرب وإسرائيل فى ثلاثين عاما ويقول- فى قصة لم يذكرها فى الكتاب ولكن فى تعليقات لاحقة- إن لحظة التعرى الكبرى أمام وضع المفاوض الأمريكى تبدت على نحو جلى فى يوم من أيام نوفمبر عام ١٩٩٦ عندما كان الوفدان الفلسطينى برئاسة محمود عباس ومحمد دحلان والإسرائيلى برئاسة وزير الدفاع إسحق مردخاى فى جلسة تفاوض حول مدينة الخليل بمنزل مارتن أنديك مساعد وزير الخارجية الأسبق والسفير الأمريكى السابق لدى إسرائيل حيث طلب ميللر من أنديك. فى وسط الاجتماع. وقف الحوارات لمدة عشر دقائق لأنه يريد أن ينضم اليه اليهود الموجودون لأداء صلاة خاصة «كادش» ليغفر الله لأمه التى ماتت بالسرطان قبل وقت قصير- وهو ما اعتاد أن يفعله يوميا عند منتصف الليل رغم عدم تدينه ولكن من منطلق الإيمان المزروع فى داخله وهى صلاة لا تستقيم إلا بحضور عشرة أشخاص لها حسب التعاليم اليهودية- وعندما بدأ المجتمعون فى الصلاة الخاصة لم يكن هناك سوى عباس ودحلان وحدهما يترقبان فى وقار ما يحدث. وتبدت أمام ميللر حقيقة فى تلك الليلة أن من الصعب تجاهل ما قد شعر به الفلسطينيون فى المنزل من جراء وحدة الأمريكيين المفاوضين والإسرائيليين المفاوضين على غرض واحد- فهم مجرد عشرة من اليهود. وقد تركت الحادثة فى نفسه أثرا وملمحا عميقا رغم كل ما مر به فى السابق من مواقف.

ويمضى المفاوض المخضرم ليقدم وصفا جديدا للعلاقة بين الولايات المتحدة

عـــزت إبـراهـيـــم

أمريكا لا تملك رفاهية ترك ساحة التفاوض بين العرب وإسرائيل دون تدخل منها

وإسرائيل، فيقول إن إسرائيل قد حصلت على أربعة وعود فى أرض فلسطين، الأول الوعد التوراتى والثانى من قبل بريطانيا والثالث من الأمم المتحدة بقرار التقسيم والوعد الرابع من أمريكا، وهو محور الكتاب وعنوانه، حيث يذكر أن الحال وصلت إلى خلاصة مفادها «لا يمكنك أن تكون ناجحا فى السياسة الأمريكية اليوم ما لم تكن تحمل توجهات إيجابية إزاء إسرائيل». لكن ميللر يؤكد أن الولايات المتحدة مازالت قادرة على صياغة لغة وسياسة جديدة لدورها الوسيط بين الفلسطينيين وإسرائيل ليس من موقع الحياد، ولكن من نفس الموقف الراهن الذى يشدد على العلاقة الخاصة بين واشنطن وتل أبيب وذلك باستغلال العلاقة الخاصة فى الضغط، الذى يصل إلى القسوة، لدفع إسرائيل إلى مسارات جديدة. القسوة لابد أن يصحبها شيئان أساسيان هما التطمينات الكافية والتعاطف الملموس اللازم لإقناع الأطراف بالتسوية. ويرى ميللر أن شيمون بيريز قدم نصيحة أو درسا إلى أنتونى زينى فى بدايات مهمته فى الشرق الأوسط مفادها أنه سيقابل ثلاثة صنوف من البشر، عربا وإسرائيليين، وهم: الصالحون (ذوو النزعة الأخلاقية)، وهواة المجادلات، وحلالو المشكلات. ويقول إن بيريز كان مصيبا فى تحليله لكن رأيه الشخصى أن الشخصية المفاوضة من الطرفين تحمل فى داخلها السمات الثلاث السابقة حيث هناك المتحمسون بشدة لقضاياهم ثم ينقلب الحماس إلى تشدد يؤدى إلى التشتت عن الهدف إلا أنهم يخرجون أحيانا بحلول عملية مناسبة وهو السيناريو الذى تكرر مع معظم الشخصيات التى صادفها ميللر فى واقع المفاوضات من السادات إلى عرفات والملك حسين ومن مناحم بيجن إلى شيمون بيريز وإيهود باراك وغيرهم ممن صاغوا صفحات من تاريخ المنطقة والصراع.

الفصل الثالث من الفصول الممتعة لأنها تكشف عن العلاقة بين الدبلوماسية الأمريكية فى الصراع العربى-الإسرائيلى وبين السياسات الداخلية فى الولايات المتحدة ورغم كل ما سبق أن تناول تلك الزاوية فى المقاربات التى طالت دور اللوبى الإسرائيلى وجماعات المصالح الأخرى إلا أن ميللر يكشف جوانب خافية مثل رفض الرئيس بيل كلينتون مقابلته للتحدث بشأن محتوى هذا الكتاب لغضبه من مقال للمؤلف بعنوان «محامى إسرائيل» بجريدة واشنطن بوست فى مايو ٢٠٠٥ كشف فيه عن المؤيدين لإسرائيل- على طول الخط- ومضارهم على المصالح الأمريكية وهو تجسيد لما يسميه البرفيسور ستيفن سبيجل من جامعة كاليفورنيا فى لوس أنجلوس الذى سمى العلاقة بين إسرائيل واليهود والسياسة الداخلية بـ «الصراع العربى-الإسرائيلى الآخر». ويقول إن غرضه من المقال، الذى وضعه فى خانة خصوم إسرائيل، هو تبيان أنه من الضرورى أن يراعى «الوسطاء» مصالح الطرفين للتوصل إلى اتفاقيات وأن أمريكا واقعة تحت تأثير إسرائيل بشكل غير عادى. فعن تأثير السياسة الداخلية على العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل دارت حوارات مطولة بين المؤلف وسياسيين بارزين فى واشنطن لكن أطرف وأعمق ما قيل بشأن إنكار المنظمات اليهودية لتلك الصلة ما قاله أنتونى ليك مستشار الأمن القومى فى عهد كلينتون الذى وصف العلاقة بأنها مثل «الجنس فى العهد الفيكتورى، لا أحد يتحدث عنه لكنه فى مخيلة كل واحد»، وبعبارة إبراهام فوكسمان مدير رابطة مكافحة التشهير عن المجتمع اليهودى الأمريكى «يريد أن يمارس السلطة، لكننا لا نحب أن يتحدث الناس فى هذا الأمر». هنا، تبرز فوارق فى النقاش حول دور كبرى جماعات الضغط الموالية لإسرائيل فى الولايات المتحدة وهى لجنة الشئون العامة الأمريكية-الإسرائيلية «إيباك» حيث يقول فريق أن نفوذها يقتصر على تقوية العلاقات بين البلدين ولا ينسحب نفوذها القوى على إدارة الدبلوماسية الأمريكية حيال الصراع العربى- الإسرائيلى حيث تثور ثائرة تلك الجماعات عندما تظهر أى إدارة أمريكية التزاما بالتسوية السلمية وعندما يشتد ضعف الإدارة تتحول العلاقة الخاصة إلى علاقة استثنائية تضر بالمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط. وهناك عامل آخر فى النزوع نحو توطيد العلاقة الاستثنائية وهو أن المجتمع الأمريكى يميل إلى تصديق ما يتردد أن إسرائيل مجتمع ديمقراطى يماثل المبادئ والمثل العليا التى قامت عليها الدولة الأمريكية وبتعبير شيمون بيريز «إنها القيم المشتركة التى تجمعنا وليس الأعداء المشتركين». لكن الكاتب يؤكد أن «إيباك» قوية لكنها تخسر فى أحيان كثيرة دفاعها المستميت عن المصالح الإسرائيلية مثلما حدث مع صفقة الأسلحة السعودية فى عامى ١٩٧٨ و١٩٨١ حيث لا يكترث الكونجرس بالضغوط الهائلة التى تمارسها المنظمة من خلال رجالها فى الكابيتول هيل عندما يصطدم ذلك بالمصالح المباشرة للأمريكيين لكن النفوذ واضح عندما يتصل الأمر بالمساعدات المقدمة لإسرائيل والبيانات المؤيدة للسياسات الإسرائيلية. كما يتطرق ميللر فى سلاسة واضحة إلى تأثير التنظيمات المسيحية المؤيدة لإسرائيل والصورة الذهنية الراسخة عن العرب والمسلمين فى الرأى العام الأمريكى الذين هم مرادف للتطرف والمغالاة والكراهية للغرب وكيف تتجمع كل تلك الخيوط لنسج صورة أقوى من أن يهزمها العرب الذين هم أعداء أنفسهم أيضا. ويصل الكاتب إلى خلاصة أن السياسات الداخلية للجماعات المناصرة لإسرائيل تتوارى عندما يكون هناك إصرار على الإنجاز من قبل الرؤساء الأمريكيين مثلما حدث مع نيكسون وكيسنجر وبوش وبيكر. أنها الإستراتيجية الواضحة- على حد تعبير كيسنجر فى مقابلات الكتاب- التى أوصلت أمريكا إلى لعب دور فعال فى التسوية السلمية فى فترات بعينها.

يطرح ميللر فى الفصل الأخير تساؤلات عن مدى إمكانية الوصول إلى سلام بين العرب وإسرائيل تحت تأثير أوهام الفرصة الأخيرة التى تذكر عادة كلما سعت واشنطن إلى تحريك عملية السلام، وهو ما بدا واضحا فى التحرك الأخير الذى قام به الرئيس جورج دبليو بوش بعقد مؤتمر «أنابوليس» فى أواخر عام ٢٠٠٧ والذى وصفته وسائل الإعلام بمؤتمر الفرصة الأخيرة، لكن حقيقة الأمر هو نوع من خداع البصر الذى تمرس الأمريكيون عليه منذ أن انشغلت الولايات المتحدة بالتقريب بين الجانبين. وبقدر من التشكك يحاول الإجابة عن تلك التساؤلات ويرى إمكانية حقيقية فى سلام نهائى لكنه يرى أن التاريخ التليد للأماكن المقدسة يقف حجر عثرة أمام دور أمريكى حقيقى فى التسوية. فمن يجرؤ على تقسيم القدس الشريف التى حملت كل نبوءات الأديان السماوية بين جدرانها وشوارعها ويقول أن القدس لا يمكن للأمريكيين أن يتعاملوا معها على أنها شطيرة من اللحم أو فطيرة يمكن تقسيمها بيسر. إنها حرب ليس مع الحاضر وحده ولكنها حرب ضد التاريخ أيضا مثلما قال الكاتب وليام فولكنر «الماضى لم يمت، إنه ليس حتى ماض». إن الصراعات يقودها الميراث التاريخى والذاكرة والهوية والخوف الوجودى من التدمير وهى المشكلات التى لا يمكن أن تحل على نحو سريع أو لا يمكن أن تحل على الإطلاق. كما أن هذه الصراعات لا تحل بمجرد وجود قوى عظمى إذ إن النوايا الصادقة- من تجارب التفاوض- غير كافية. وبالقطع لا توجد قوى خارقة للطبيعة أو ما فوق الطبيعة تعوق التقدم نحو السلام. ربما يحمل الماضى- لا الحاضر- دروسا فى أمل التوصل إلى تسويات عادلة فى المستقبل، فمن كان يتخيل فى عام ١٩٦٧ أن يأتى يوم تجلس فيه مصر والأردن مع إسرائيل لتوقيع اتفاقيات سلام شامل وهو ما يمكن أن يتحقق فى المستقبل بين إسرائيل وسوريا ولبنان لو وجدت إرادة وقيادات سياسية قادرة على اتخاذ قرارات صعبة فى الجانبين العربى والإسرائيلى، وهما العاملان اللذان يعوقان التقدم فى المسارات المختلفة اليوم. إن أمريكا لا تملك رفاهية ترك ساحة التفاوض بين العرب وإسرائيل أو الإقلاع عن صناعة السلام فى الشرق الأوسط، كما أنها لا تملك الحق فى التحلل من التزاماتها التى قطعتها على نفسها أو حتى التمهل فى النظر إلى المستقبل بالنظر إلى اتساع دوائر العنف أو استمرار الوقوع فى أسر الماضى. ويقر المفاوض الأمريكى الكبير أن الخبراء فى الصراع العربى الإسرائيلى قد وقعوا لفترات طويلة فى شرك أن استمرار الاهتمام بالدبلوماسية الرامية إلى حل الصراع العربى-الإسرائيلى هو الطلقة السحرية التى ستحمى المصالح الأمريكية لكن مسار العقد الأول من القرن الواحد والعشرين يثبت أن الوصفات السحرية لا تجدى نفعا فى العالمين العربى والإسلامى اللذين يموجان بالتناقضات والتفاوتات الطبقية بين الأثرياء والمعوزين وتغيب عنه الديمقراطية الحقيقية التى تضمن مشاركة شعبية فى اختيار الحكام بينما هناك المتطرفون الذين يناصبون السياسات الأمريكية العداء ويهددون مصالحها لعقود قادمة حيث التقصير فى حل الصراع الفلسطينى- الإسرائيلى لن يجنب أمريكا الصدمات البترولية أو الهجمات الإرهابية أو خطر ظهور أنظمة راديكالية تمتلك أسلحة نووية. فى المقابل، الصراع العربى-الإسرائيلى أكثر أهمية اليوم للمصالح الوطنية ولأمن الولايات المتحدة من أى وقت مضى منذ أواخر الأربعينيات حيث بدا الأمن القومى الأمريكى أكثر ارتباطا بالأوضاع فى الشرق الإسلامى والعربى وفى القلب منه الوضع فى الأرض المقدسة. فى هذا الوضع، الولايات المتحدة أكثر عرضة للمخاطر من أى وقت مضى، فلم تعد أفكار وطموحات وقلاقل الشعوب التى تبعد آلاف الأميال من الأراضى الأمريكية يخص هؤلاء الغرباء وحدهم. وجميع القراءات الخاصة بوجود الراديكاليين واستمرار الأنظمة السلطوية والضعيفة تجعل الولايات المتحدة تقع اليوم فى فخ حقيقى يهدد بهجمات جديدة على غرار هجمات سبتمبر. ■

يوميات عربية
(1936 - 1948)



القاوقجي على حصانه

فـــــــــــوزي الـقـــاوقـجـــــي

■ ■ كانت خطة انسحاب الجيش البريطاني من فلسطين، تقوم على دعامتين، الواحدة سياسية والأخرى عسكرية، ومن البديهي أن تكون الدعامة العسكرية في ترتيب النقل، كنقل المستودعات والأثقال «الورشات» ومؤسسات الجيش المختلفة، ثم الوحدات، وأخيراً الآليات مع المصفحات، بطرق معروفة في النظام العسكري. وكان من الطبيعي أن يستخدموا في انسحابهم هذا مختلف الطرق بما فيها الخطوط الحديدية. وقد تم هذا الانسحاب بشكل عادي ولكننا لاحظنا أنه كان يرافق الخطة العسكرية في الانسحاب، خطة سياسية مرسومة، وهي انسحاب الوحدات البريطانية الموكول إليها المحافظة على الأمن والنظام في المدن، بطريقة فجائية، يتبعها حالاً هجوم فاحتلال. وقد كان من نتيجة هذه الخطة، سقوط أكثر المدن العربية التي كان يرمي اليهود إلى احتلالها قبل غيرها. وهنا تبدو الدعامة السياسية. فقد حدث في حيفا مثلاً، قبيل انسحاب الجيش البريطاني، أن السلطات البريطانية أخذت تضيق على العرب بحجة الرغبة في سيادة الأمن والنظام، إلى أن يتم انسحاب الجيش المسئول عنهما. وتسهل من جهة أخرى لليهود حرية الحركات بأوسع معانيها. كانت قوات من الجيش البريطاني بحكم مهمتها في المحافظة على الأمن والنظام، تسيطر على الطرقات والمنافذ، التي تصل حيفا بما يجاورها من قرى عربية، ومستعمرات يهودية، فكانت هذه القوات البريطانية تحول دون اتصال عرب القرى بحيفا، لنصرة إخوانهم العرب فيها، بينما تسهل لليهود الاتصال المتبادل بينهم، في المدينة وفي المستعمرات المجاورة لها، وكان هذا التصرف سبباً رئيسياً ظاهراً من أسباب سقوط حيفا. وشبيه بموقفهم هذا موقفهم في يافا. فبعد أن تمكنا من إدخال فوج «أجنادين» إلى يافا، وهي في أحرج ساعاتها وتعدل الموقف في مصلحة العرب، عمد البريطانيون إلى فرض هدنة محلية بين العرب واليهود، فاستغل اليهود هذه الفرصة لإعادة تنظيم وحداتهم، وتدعيم قوتهم، حتى إذا ما تم لهم ذلك، انسحب الجيش البريطاني فجأة وسقطت يافا.

وكان نشاط اليهود يزداد باستمرار في الشمال - منطقة الجليل - وفي الجنوب - منطقة القدس - خصوصاً في ناحية بعض القرى المجاورة للمستعمرات اليهودية، فيبعث هذا أصواتاً مستنجدة وصوتاً من الشام، من القيادة العامة تطلب تلبية الاستنجاد. وهي نفسها تعلم حقيقة الحال التي نحن فيها، من قلة عدد وعتاد، وتعلم أن هذا المستنجد هو ربيبها، هي أوجدته وربطته بها مباشرة، وأخذت على عاتقها عبء تسليحه وتوجيهه، وأنه خارج عن منطقة قيادتي، التي حددتها، ويفصل بيني وبينه مستعمرات يهودية كثيرة، كما تعلم أنها من جهتها، لا تلبي لي طلباً من طلباتي للسلاح والعتاد. وصوت رابع أو خامس مبعثه قيادة قواتنا في الشمال، ينصب في أذني كالرصاص ببرقيات هذه نماذج عنها:

من آمر الفوج الرئيس أديب الشيشكلي بتاريخ ١٩٤٨/٣/١٤

كارثة الحسينية التي أزالها اليهود من الوجود هي أولى نتائج عدم إرسال التقويات رغم طلباتي المتكررة، أتنصل من كل مسئولية.

آمر الفوج
الإمضاء: أديب

١٩٤٨/٣/١٨ من وكيل آمر الفوج في منطقة الشمال الملازم الأول الاتاسي

ساءت حالة المجاهدين المعنوية لعدم تلبية دمشق الطلبات المتتالية بشأن النجدات والأسلحة من كساء وغذاء. التذمر عام يخشى انحلال الفوج.

وكيل آمر الفوج
الإمضاء: الاتاسي

كانت هذه الأصوات تسبب لي قلقاً شديداً، لا أرى له علاجاً، إلا في أن أخوض بنفسي معركة ما. وفي ١٩ آذار ١٩٤٨ تلقيت تقريراً يقول إنه منذ يومين، شوهد في مستعمرة «عفولة» تجمعات يهودية كبيرة آتية من مستعمرات المرج، ومستعمرات منطقة بيسان. فشغلني هذا الأمر عن كل ما سواه، وأنذرت المقدم صفا وطلبت منه تقوية حامية زرعين ونورس، وزيادة عدد الدوريات الليلية في تلك المنطقة وتهيئة قوة احتياطية، يكون في استطاعتها الدخول في المعركة فوراً. وكنت أتوقع أن تكون المعركة قوية، لم أعلم من وطأة «زرعين» على اليهود، ورغبتهم في القضاء عليها، لأنها كانت سداً حديدياً بينهم وبين جنين ومنطقة المثلث العربي كله، الذي كانت زرعين مدخله من الشمال. وفي الساعة الثانية والعشرين بينما كانت إحدى دورياتنا متجهة نحو «نورس» إذا نيران تنصب عليهم فجأة من مكان يقع إلى الجنوب من هذه القرية، ففضحت هذه العملية خطة اليهود، وكشف لنا عن غرضهم من الهجوم الذي يدبرونه. إذ إن وجودهم في ذلك المكان، لا يمكن أن يفسر إلا أنهم يرمون إلى الفصل بين جنين ومنطقتها، وبين زرعين، للقضاء على حاميات جيش الإنقاذ في زرعين ونورس وصندلة. وفي الدقيقة التي انصبت فيها النيران على دوريتنا، انفجرت أسلحة اليهود من الشمال على مواقعنا في زرعين، ومن الشرق على مواقع نورس، ومن الغرب على مواقع صندلة. وقد لحظنا من غزارة رصاص الرشاشات وقنابل الهاون، أن القوات اليهودية المشتركة في الهجوم، لابد أن تكون كبيرة العدد وافرة المعدات. وامتدت المعركة إلى مراكزنا كافة، وإطلاق النار يشتد ساعة فساعة، وبدأنا نسمع أصوات انفجارات هائلة على الطرق التي تصل هذه الحاميات بعضها بالبعض الآخر، وتربطها مجتمعة، بجنين. فخيل إلينا أن الجسور على هذه الطرق قد نسفت كلها. وأخذت الساعات تمر، وحدة المعركة لا تنخفض، وقد تمكن اليهود من هذا كله وقوتنا الاحتياطية لم تتحرك من مواقعها، وكنا ننتظر بزوغ الفجر، لكي نقوم في ضوئه، بهجوم معاكس على أخطر نقطة تبدو لنا في صفوف العدو، وكان كلما ازداد تقدم العدو نحو الحاميات، ازدادت الحاميات استبسالاً في الدفاع. وعند الفجر بلغ اليهود في زرعين، المراكز الأمامية التي اضطرت إلى الارتداد، حتى خطوط دفاعها الرئيسية. فأصدرت الأمر للاحتياطي المتمركز في قرية المزار، بالهجوم على القوة اليهودية المهاجمة حاميتنا في نورس، ولسرية أخرى بالهجوم على قرية صندلة، التي أصبح القتال في داخلها. فاندفعت هذه المفارز تساندها مدفعيتنا، وتحميها مدافع الهاون بحماسة شديدة، ظهر مفعولها في اليهود منذ الطلقات الأولى، ودب شيء من التضعضع في صفوفهم، أدى إلى هبوط حدة القتال. وما أزفت الساعة السابعة والدقيقة الثلاثون، حتى وصلت سريتنا المهاجمة

قـائد جيـش الإنقـــاذ

فوزي القاوقجي (١٨٩٠ - ١٩٧٧): ضابط سوري، ولد في طرابلس (في لبنان اليوم). درس في المدرسة الحربية في الأستانة (اسطنبول)، وتخرج ضابطاً في سلاح الخيالة العثماني عام ١٩١٢، عمل في الموصل (العراق)، وشارك في المعارك ضد الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى في العراق ١٩١٤ وفلسطين ١٩١٦، لكن النقطة البارزة في حياته كانت توليه قيادة جيش الإنقاذ في فلسطين عام ١٩٤٧.

ساعد الملك عبدالعزيز آل سعود في تشكيل الجيش السعودي عام ١٩٢٨، ثم انضم إلى الملك فيصل في العراق في عام ١٩٣٢ ثم قام بتشكيل قوات متطوعة عربية توجه بها إلى فلسطين عام ١٩٣٦.

تميز القاوقجي بشجاعته النادرة وعروبته التي دفعته لخوض المعارك ضد الاستعمار الأوروبي في مجمل المناطق العربية، ففي فلسطين شارك في ثورة ١٩٣٦ وفي العراق ساهم في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١.

قاد القاوقجي عدداً من المعارك ضد الإسرائيليين، أهمها معركة المالكية مع القوات السورية واللبنانية في حزيران (يونيو) ١٩٤٨. قدم استقالته بعد اتفاقيات هدنة ١٩٤٩ بين العرب وإسرائيل. وعاش في دمشق ثم في بيروت بقية حياته إلى وفاته عام ١٩٧٧. ■

اعداد د. خيرية قاسمية

إلى داخل صندلة، وأخذت اليهود من الوراء. وانقلب هجومهم إلى دفاع ضعيف، فهزيمة تعمها الفوضى، تاركين كثيراً من الأسلحة الخفيفة والثقيلة في ساحة المعركة، وسريتنا تطاردهم منهزمين باتجاه زرعين - العفولة. وكانت حامية زرعين ثابتة تقاتل اليهود من مسافة قريبة، وهم لا يلقون سبيلاً للتقدم نحو خطوطنا، ولا مخرجاً ينهزمون منه للإفلات من نيراننا. أما نورس فقد وصلت إليها سرية الهجوم الأولى، واليهود فيها بين نارين. وأخذت هذه السرية مع حامية نورس، تطاردهم منهزمين نحو الطريق العام عفولة - بيسان. فأوقعت هزيمتهم في صندلة ونورس قواتهم في زرعين، في خطر التطويق المباشر. وفي تمام الساعة العاشرة، ظهر على طريق بيسان - عفولة رتل من المصفحات والدبابات البريطانية أنذر قائدها الفريقين بالكف عن القتال، وإلا اضطر إلى التدخل في المعركة. وكان واضحاً أن اليهود استنجدوا بالبريطانيين لإنقاذ قواتهم من المصير الذي كان مقرراً لها.

ومن الفضول القول إن كفة اليهود، لو كانت هي الراجحة في القتال، لما تدخل الجيش البريطاني الذي كان هذا شأنه دائماً في كل معركة بيننا وبين اليهود. على أن جنودنا لم يكفوا عن إطلاق النار، حتى تقدم بعض الدبابات البريطانية وأخذ يصب قنابله عليهم فأصيب جنديان من سرية سعدون في زرعين، توفي أحدهما فيما بعد متأثراً من جراحه. وكان من المفروض أن نتجنب الاصطدام بالبريطانيين، خشية أن يكون في اصطدامنا بهم، مصلحة لليهود. وحوالي الساعة الواحدة توقف إطلاق النار. وانسحب اليهود تحت حماية الدبابات البريطانية التي مكنتهم من سحب كثير من قتلاهم وجرحاهم، تاركين كثيراً من معداتهم في ساحة المعركة، على أن عدد القتلى الذين لم يتمكنوا من نقلهم لم يقل عن المائة والعشرين. ولعل أحسن وصف لهذه المعركة هو ما وصفه بها مراسلو الصحف الأمريكية والإنجليزية الذين جاءوا يطلبون الاطلاع على تفاصيلها، فأرسلت معهم اثنين من ضباطنا إلى ساحة المعركة، وبعد أن جالوا فيها، عادوا يقولون: إنهم لا يعرفون معركة في الحرب العالمية لا تتجاوز منطقتها منطقة هذه المعركة مساحة، شوهد فيها من الدماء والأشلاء وظروف الرصاص الفارغة ما شاهدوه في هذه البقعة. على أننا كنا في المعارك التي نختار نحن أن نخوضها، أو تلك التي نحمل على خوضها، أخشى ما نخشاه فيها، أن يفرغ عتادنا قبل أن نفرغ من المعركة.

المعارك في منطقة عارة

وتلقيت من جديد معلومات تثبت أن هناك تحشدات يهودية كبيرة في منطقة عارة، مما دعاني إلى توقع خوض معركة جديدة قد تكون أشد من معركة زرعين، وأنا لا أستطيع أن أنسى أننا قبل أن نخوض معركة زرعين، ببضعة أيام، كنا في حالة حرجة جداً من ناحية العتاد، مما اضطرني إلى إرسال البرقية التالية إلى القيادة العامة:

١٦/٤/١٩٤٨ رقم ٢٥١:

المعارك الجارية في منطقتنا هي مع النخبة الممتازة والقوة الأساسية في جيش الهاجانا، منها معارك اختيارية نستطيع تجنبها ومنها ما نرغم على خوضه، فإذا كان لا يوجد عتاد عندكم ولا يمكن تأمين عتاد فبأي وسيلة تطلبون الدفاع والصمود في القتال؟ الجامعة قررت الحرب وهي ملزمة بتأمين وسائل الحرب.

الإمضاء: فوزي

ومع ذلك لم ترسل إلينا القيادة العامة عتاداً، ولا أخباراً عن العتاد. ولكن أخبار التحشدات اليهودية، كانت ترد علينا كل يوم، وأخذنا كالعادة، نعد ما يلزم من الترتيبات، ونجمع ما يمكن جمعه بالتقتير من جبهات مختلفة ونسوقه إلى منطقة عارة. وقبل أن تتم ترتيباتنا الترقيعية هذه، فاجأنا اليهود ليلة ٢٤ - ٢٥ نيسان بهجوم مزدوج قامت به قوات كثيفة من مجموعة المستعمرات الواقعة شمالي شرقي الخضيرة، باتجاه قرية عارة، وكفر قاع - عارة، يدعمهم عدد كبير من المدافع الرشاشة ومدافع الهاون، فاكتسحوا كل ما كان لنا من مراكز أمامية غربي طريق اللجون - وادي عارة. وتمركز الهجوم على عارة، حيث كانت سرية من سرايانا لا تزال تدافع باستماتة. فاضطررت إلى أن أقذف بحرس مقر القيادة إلى عرعرة، حيث تجمع لدينا سرايا ثلاث، للصمود في وجه العدو، وقبول المعركة نهائياً في هذه المنطقة. وفي فجر ٢٥ نيسان اضطرت السرية التي كانت تدافع عن عارة، إلى التخلي عنها، والتراجع إلى عرعرة، فتدفقت قوات العدو واستولت على طريق اللجون - وادي عارة، واجتازته نحو الشرق باتجاه عارة نفسها. وحوالي الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين، بدأ الاشتباك الحقيقي في هذه المنطقة، واشتركت فيه قواتنا كافة. كان هجوم العدو يزداد حدة ساعة بعد ساعة. كان العدو يرمي من هجومه هذا، إلى فصل منطقة اللجون بأسرها، عن جنين، وبالتالي النفوذ عن طريق «يعبد» إلى «عرابة»، فيعزل بذلك منطقة جنين كلها شمالاً، عن نابلس ومنطقتها جنوباً. وبذلك يكون قد حقق غرضه الذي فشل في تحقيقه في معارك زرعين. وفي الدقيقة التي كانت المعركة في أوج شدتها، وطلبات العتاد ترد علي بإلحاح من خطوط النار، كنت أبحث عن طريقة أنهي بها المعركة بأسرع ما يمكن دون مبالاة بما يلزم من الضحايا إذا اقتضى الأمر. فإنقاذ جنين ومنطقتها، شيء يستحق التضحية. لذلك لم يبق أمامي إلا أن أجازف، وأزحف بكل ما لدي من قوات في اللجون إلى أم الفحم، وأستنفر أكبر عدد ممكن من المسلحين المحليين في منطقة أم الفحم وأقذف بهم في هجوم مضاد، إلى ساحة المعركة على الجناح الأيسر اليهودي المكشوف، وأسرع بإرسال مصفحتين مع فصيل مدفعية كان في المقر إلى الميدان. وحوالي الساعة الثانية عشرة كانت هذه القوة، قد أخذت مراكزها في أم الفحم، وأخذ شيء من الضعف يبدو على قواتنا في خط النار، لقرب نفاد العتاد. ولكنها مع ذلك صامدة بالرغم من كثرة ما كان يقع فيها من إصابات. وفي هذه اللحظة انطلقت قوة أم الفحم في هجومها المضاد نحو قرية «معاوية»، وما هي إلا دقائق حتى اجتازت الطريق نحو الغرب، والتفت حول عارة، فأصبحت وراء الجناح اليهودي الأيسر تماماً، وأخذت تصب نيران رشاشاتها ومدافعها الهاون، على هذا الجناح. وفتحت مدفعيتنا الرابضة في جوار أم الفحم أفواهها، تصب قنابلها على صفوف اليهود بشدة وإحكام، فتزعزعت القوات اليهودية، وأخذت بالارتداد نحو الغرب. واندفع جنودنا يطاردون قوات العدو الذي انقلب تراجعه إلى هزيمة، ولم أستطع إيقاف جنودنا قبل وصولهم إلى أبواب المستعمرة التي بدأ منها هجوم اليهود. وفي فترة المساء، قبيل نزول الظلام أمرت الجنود بالعودة إلى مراكزهم التي كانوا قد تخلوا عنها، وبدأت فترة من الراحة يرافقها شيء من التحصن.

كان الشبه بين هذه المعركة وبين معركة زرعين كبيراً من حيث قوة الهجوم وأهدافه ونهايته. ولم ينقص المسرح، إلا ظهور الدبابات البريطانية التي كانت بعيدة هذه المرة عن ساحة المعركة.



المعارك على جبهة طولكرم

كان لتسلمي قيادة الجبهة الوسطى، وإرسال فوجين إلي من دمشق، وبدء تنظيم قواتنا في تلك الجبهة، تأثير كبير على خطط اليهود، المتعلقة بفتح طريق باب الواد - القدس، خصوصاً بعد أن أمرت القيادة العامة، السيد حسن سلامة، ومن معه من قوات المسلحين المحليين، بالانضواء تحت قيادة جيش الإنقاذ. وحينما بدأنا تنظيم قوات هذه المنطقة التي كان قد استفحل فيها أمر الفوضى، ولكننا تغلبنا عليها، وجعلنا من المنطقة صفاً واحداً تقريباً. فشعر اليهود بالأمر، وأوجسوا خيفة لما قد يشكل هذا من خطر على خططهم في باب الواد والقدس، حاسبين أننا سحبنا جزءاً كبيراً من قواتنا في المثلث العربي، وأتينا بها إلى هذه المنطقة فوجهوا اهتمامهم إلى جبهتنا في المثلث وحاولوا هذه المرة مهاجمة جبهة طولكرم، ليرغمونا على إعادة ما تصوروا

أننا أتينا به من قوة إلى تلك الجبهة فيتسنى لهم تنفيذ خططهم فى الجنوب، أى منطقة باب الواد ـ القدس. وجبهة طولكرم هذه، تمتد شمالاً من خربة ميسر حتى جنوب رأس العين، باتجاه اللد، كانت بإمرة الرئيس مدلول عباس. وهى بجملتها أراض سهلية تتخللها بيارات ومزارع عربية ويهودية كثيرة. وكانت مسرحاً لمناوشات ومعارك مستمرة، بسبب تداخل المزارع والبيارات العربية اليهودية، بعضها بالبعض الآخر، وكثرة ما يقتضيه مثل هذا الوضع، من اختلاط ومن تشارك دوريات، مما كان عاملاً من عوامل إسالة الدماء بشكل غير منقطع تقريباً، طوال مدة وجودنا هناك. وهذه الجبهة تقع بإزاء أشد المستعمرات كثافة. وفى ٢٦ نيسان ١٩٤٨ وردت على أخبار تحشدات كبيرة فى المستعمرات القائمة غربى قلقيلية، وفى شمالى غربى قاقون. فأنذرت آمر الجبهة فى الحال. وطلبت منه أن يتخذ الترتيبات اللازمة ضد هجوم محتمل على قلقيلية وقاقون. وفى ليلة ٢٦ ـ ٢٧ نيسان حوالى الساعة الثالثة والعشرين انفجر هجوم قوى باتجاه قاقون، ثبتت الحامية الصغيرة بوجهه مدافعة عن القرية ببسالة نادرة. وطلب آمر الجبهة نجدة للاستمرار فى الثبات. ولكننى فضلت أن أتريث قليلاً. ونحن فى بداية معركة مجهول تطورها ومصيرها، بالنظر للوضع الذى كنت فيه، الذى لا يسمح لى بإرسال جندى واحد أو طلقة واحدة، للنجدة، قبل أن تنكشف المعركة عن الحاجة القصوى إليها. وكنت مصمماً من جهة أخرى، أن أعالج الموقف بما لدى من قوات ضئيلة، دون أن أسحب قوة ما، من الجبهة الوسطى، التى كنت أخشى عليها خللاً يصيبها إذا أنا فعلت. وأعددت مفرزة للنجدة من سرية الشراكسة فى نابلس، وسرية عارة ويعبد. وزودتها بأربع مصفحات ومدفعين، فتكون جاهزة للاشتراك فى المعركة عند الضرورة القصوى. وفى خلال هذا، كان اليهود يتقدمون نحو قاقون، إلى أن تمكنوا من دخولها بعد منتصف ليل ٢٦ ـ ٢٧ نيسان. وراح اليهود يتقدمون من قاقون شرقاً نحو الطريق العام بين طولكرم وباقة. وعندئذ، أرسلت قسماً من النجدة التى كنت أعددتها إلى الرئيس مدلول، الذى تمكن بمساعدتها وفريق من المسلحين المحليين، أن يقوم بهجوم مضاد، فيسترد قاقون ويهزم اليهود إلى خطوطهم الأساسية ويغنم منهم كثيراً من السلاح والتجهيزات. ما أن طلعت شمس ٢٧ نيسان حتى استعدنا كل ما كنا خسرناه، رغم المصاعب الشديدة التى اعترضت قواتنا فى تلك الأراضى المتحولة إلى شبه بحيرة من مياه ووحل. وكان القتال على مسافة قريبة لا يزيد مداها على مدى مرمى

القنابل اليدوية، التى استعملت فى المعركة بدلاً من الحراب وكانت العامل الحاسم فيها. وما كادت معركة قاقون هذه تنتهى، حتى بدأ هجوم يهودى أشد باتجاه الطيرة وقلقيلية جنوباً، ثم تركز تدريجياً على الطيرة. فانكشفت لى أغراض الهجوم وخطورته، فأرسلت فوراً البقية من النجدة التى كنت أعددتها لجبهة طولكرم، ودارت معركة حامية بذل اليهود فيها أكبر مجهود، للاستيلاء على الطيرة. على أن حامية هذه القرية ثبتت ثباتاً عجيباً، حتى وصل الرئيس مدلول ومعه بقية النجدة. وكانت ترافق هذا الهجوم على الطيرة مصفحات يهودية كثيرة، عرفنا بينها مصفحات إنجليزية، فوصلت مصفحاتنا فى اللحظة المنشودة تماماً، وكان جنودنا بمساندة المدفعية وحماية المصفحات، يستبسلون فى القتال، إلى أن تعطل من مصفحات العدو قسم كبير، واستولى

مدفعية جيش الإنقاذ

تقصف تل أبيب

كان طبيعياً أن تنسحب الكتيبة الأردنية المعسكرة فى العفولة، بعد انسحاب الجيش البريطانى، وتصبح مطلقة التصرف. وقد اتخذت هذه الكتيبة لها معسكرين: نابلس ورام الله. ورحت أتصور أن هذه الكتيبة الأردنية ستكون قوة احتياطية فعالة لجبهتنا فى طولكرم ورام الله. ولكن سرعان ما ذوت هذه الآمال، بعد اتصالى بقواد الكتيبة، ومعرفتى منهم، إنهم لا يستطيعون أن يقوموا بأى عمل أو حركة على الإطلاق.. قبل دخول الجيوش العربية النظامية.. على أن هذه الكتيبة، ما كادت تستقر فى معسكراتها، حتى عمد ضباطها إلى

من الفضول القول إن كفة اليهود، لو كانت هى الراجحة فى القتال، لما تدخل الجيـــــش البريطـــــانى

جنودنا على مصفحة يهودية استعملوها فى المعركة نفسها لمقاتلة العدو. وحوالى الساعة الرابعة بعد الظهر، كانت القوات اليهودية على طول الجبهة فى حالة هزيمة تامة، وطاردهم جنودنا حتى مستعمرة كفرهس. وهناك دارت بين الفريقين معركة استولى فيها جنودنا على المستعمرة. ثم أبرق لى الرئيس مدلول أن اليهود قاموا بهجوم جديد على قرية كفرسابا العربية بالقرب من قلقيلية. فطلبت منه أن يتخلى حالاً عن كفرهس، ويتجه بقواته إلى كفرسابا حيث انتقل ثقل الهجوم. فترك مفرزة من قواته أمام مستعمرة كفرهس لمناوشة أية قوة يهودية، قد تأتى لنجدة المستعمرة واتجه إلى قرية كفرسابا حيث أنهى المعركة فيها بدحر اليهود وتكبيدهم خسائر كثيرة. على أن اغتباطى بهذا الانتصار لم يكن ليخفف من قلقى، فقد كنت ألمس نفاد العتاد فى كل خط من خطوط القتال، وأنا أتوقع أن نحمل على خوض معارك قبل أن يصل لنا من العتاد الذى «وعدونا به» كثير أو قليل. وكان سخاء اليهود بالعتاد وما يبدو من زيادة التنظيم فى صفوفهم يزيدان فى قلقى، على أن انتصارات جيش الإنقاذ المتتالية بالرغم من قلة العتاد، كانت تجعل معنويات جنودنا فى ارتفاع مستمر.

الاتصال باللجان القومية ووجوه المناطق. وبدأت مآدب وحفلات تقام لهؤلاء الضباط. فتدخلت فى الأمر، على اعتبار أن الظروف القائمة، كانت تفرض الامتناع عن مثل هذه المظاهر، عدا أننى كنت أخشى أن تتسبب هذه المظاهرات فى تهديم أو تصديع ما كنا بنيناه، من وحدة فى الصفوف نسبية.

وتسلمت برقية من القيادة العامة، تسند إلى قيادة الجبهة الوسطى، وأنها قررت إرسال فوجين من المشاة، هما فى طريقهما إلى فلسطين، ولكن بدون مدفعية ولا مصفحات. وتلت هذه البرقية، برقية أخرى تقول بضرورة إرسال فوج من هذين الفوجين إلى القدس، نظراً لخطورة الحالة فيها، وتجنباً لسقوطها بين أيدى اليهود. وكانت الحالة فى يافا التى طوقها اليهود وانقطع الاتصال بها، لا تقل خطورة عنها فى القدس. كما كانت الحالة فى بيسان وصفد وطبريا وحيفا سيئة جداً. وأمام هذا الوضع الخطر العام، فكرت فى أن أباحث القيادة العامة فى الأمر، فاستدعتنى إلى الشام، فور وصولى قابلت اللواء إسماعيل صفوة. وبسطت له الموقف بتفصيل ووضوح. فأجابنى متأثراً، ما العمل وهذه إمكانياتنا كلها.. اصبر قليلاً، فستدخل

الجيوش العربية النظامية قريباً، وينقلب الموقف رأساً على عقب.. وبينما كنت ألح عليه فى تدبير ما يمكن من عتاد، مهما يكن من أمر، إذا ببرقية ترد تقول إن يافا على وشك السقوط، إذا لم تنجدها القيادة العامة، فمد إلى يده بالبرقية، وقال: انجد يافا يا فوزى، إن ضياع يافا كارثة. قلت: انجدنى بالعتاد، وسترى أننى أنقذ يافا. فانجدنى وعداً ولم ينجدنى عتاداً.. وأنا الذى كنت أعرف أن حالة يافا، لا ينفع فيها الوعد، قررت بينى وبين نفسى أن أنجد يافا عملياً، وليحدث ما يحدث. وكانت الحال فى غير يافا أيضاً، فى فلسطين كلها، عدا المنطقة التى يشغلها جيش الإنقاذ، سيئة، وصرخات الاستغاثة توجه إلينا من كل ناحية، وأوامر وتعليمات ترد علينا من الشام القيادة العامة، ومن مصر، الجامعة العربية. ومن بيروت، تحثنا على النجدة. وقد تلقيت بتاريخ ٣٠ نيسان الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين، ليلاً، من اللجنة العسكرية التى تمثل جامعة الدول العربية من دمشق الرسالة الآتية أثبتها بنصها:

أخى فوزى بك:

تبين من نتيجة المخابرات الهاتفية مع القدس بين قائد الحامية وحلمى باشا ودولتى رياض بك الصلح وجميل مردم بك بأن وضع القدس سيئ جداً وتحتاج إلى النجدة وخاصة المدفعية. وقد أمرنى (يعنى رياض الصلح وجميل مردم) بأن أكتب إليكم وأبلغكم رجاءهما بلزوم نجدتهما، وقد أرسلنا إليكم أربع برقيات منذ الساعة الرابعة حتى الآن، لذلك أرجو أن تبذلوا جهدكم بإرسال هذه النجدة مع تأكدنا بأنكم خير من ينجد فى الأوقات الحرجة، وختاماً أرجوكم الموفقية.

المخلص

العقيد محمود الهندى

ومثل هذه الرسالة، رسائل وبرقيات كثيرة، كانت ترد على من مراجع مسؤولة مختلفة. وهذه نموذج من تلك الرسائل وهى من القائد العام نفسه، وبخط يده، يظهر أنها نتيجة ضغط الجامعة العربية عليه:

٢ أيار ١٩٤٨

موقف حامية القدس أصبح فى منتهى الحراجة. الحامية تكبدت خسائر فادحة، وهبط موجودها إلى عدد ضئيل. وتخرب قسم كبير من أسلحتها. بعد أيام ستحتشد قوات نظامية وتشرع بحركاتها، وعليه لا مانع أبداً من استخدام بعض قواتكم فى سبيل المحافظة والدفاع عن القدس ويافا، وبصورة خاصة مدينة القدس. وبوجه إجمالى القيام بما يسمح به موقفكم

لتخفيف الضغط عن الحامية والاحتفاظ بمدينة القدس مهما كلفكم الأمر، ولو أدى ذلك إلى إخلاء بعض المواقع الثانوية.

الإمضاء: القائد العام لجيش الإنقاذ «صفوة»

أمام هذا الضغط من القيادة العامة، ومن اللجنة العسكرية التى تمثل جامعة الدول العربية، هذه المراجع التى أشرفت هى نفسها على إعداد جيش الإنقاذ، والتى تعلم ضآلة عدده ومعداته، والتى كانت تصم آذانها عن طلبه السلاح والعتاد، كلما احتاج إلى ذلك، وهو لم تنقطع حاجته إلى ذلك أبداً، وهذه المراجع كلها، وخصوصاً القيادة العامة واللجنة العسكرية، تعلم علم اليقين أن جيش الإنقاذ لم يتجاوز عدده يوماً، ثلاثة آلاف مقاتل، وأن معداته لم تتجاوز عشرة بالمائة، كما ينبغى لجيش يشغل جبهة واسعة كجبهته، بالنسبة لعدده. ومهما يكن من أمر، فقد اضطررت، إلى سحب مفارز من قواتنا المتمركزة فى المنطقة وتوزيعها على منطقة القدس واللد والرملة وسلمة والعباسية وبيسان، مما استنفد كثيراً من قواتنا الأساسية والاحتياطية أيضاً، كما كانت المعارك تستنفد عتادنا أو القسم الأكبر منه. وكنت أعتمد فى تلبية هذه الصرخات قاعدة «الأهم فالمهم».

وبالرغم من هذا كله، يجب أن ينجد يافا التى كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة. فكرت كثيراً وأنا عائد من الشام إلى فلسطين. وأبرقت إلى مقر القيادة فى جبع، لتشكيل رتل مرتب من بطارية مدفعية وأربع مصفحات، ومن سريتين، بقيادة العقيد مهدى صالح، يقوم بفتح الطريق بين اللد والرملة، وبين يافا، لتمكين فوج أجنادين من الدخول بكامله إلى يافا. وأصدرت أوامر مشددة إلى آمر فوج أجنادين بتسلم قيادة الحامية فيها للسيطرة على الموقف وإعادة تنظيم القوات المحلية المقاتلة، والثبات فى الدفاع مهما يكلف الأمر، إلى أن تدخل الجيوش العربية النظامية. وفى خلال أربع وعشرين ساعة تألف هذا الرتل، وما إن وصلت إلى مقر القيادة إلا وكان مستعداً لمغادرة منطقة المثلث، والزحف أمام فوجى أجنادين على يافا. وفى فجر ٢٩ نيسان انطلق الرتل نحو المدينة العربية، فتصدت له فى طريقه قوات يهودية استطلاعية، ولكنها لم تثبت فى وجهه، وانهزمت متفرقة فى المستعمرات اليهودية واستمر الرتل فى تقدمه بسرعة إلى أن وصل إلى مستعمرة «مكوى إسرائيل» المتحكمة بطريق يافا، ونشبت بينه وبيننا معركة حامية، قصفت فيها مدفعيتنا أبراج المستعمرة، فانهزم سكانها، وتابع الرتل تقدمه، ملتزماً جانبى الطريق العام. متخذاً تدابير العودة إلى قاعدته، ولكنه توقف وهو بعد على مسافة أربعة كيلو مترات تقريباً عن تل أبيب، واستدارت بطارية المدفعية. وكان لايزال لديها ستون قنبلة. نحو تل أبيب فصبتها عليها بسرعة وبراعة، وكانت مفاجأة، المرة الأولى والأخيرة التى فيها ضربت مدفعية عربية مدينة تل أبيب.. ولم يتيسر لجيش من الجيوش العربية النظامية التى دخلت فلسطين فيما بعد ومعها مدفعية ثقيلة وبعيدة المدى، أن تصل إلى مكان تستطيع منه أن تقذف بمدفعيتها الثقيلة والبعيدة المدى تل أبيب. وقد كان لهذا القصف عدا تأثيره المعنوى الكبير، تأثير مادى تجلى فيما تركته القنابل. كانت الأحياء اليهودية فى القدس تنصب عليها قذائف مدفعية جيش الإنقاذ، فتحدث فيها كثيراً من الحرائق والتهشيم، وكان لهذه العملية تأثير كبير فى رفع معنويات الفلسطينيين كافة، وهكذا كان يحدث دائماً فى الأونة الأخيرة أى قبيل دخول الجيوش العربية النظامية. فكان كل فلسطينى لا يشعر بالطمأنينة إلا إذا وجد فى مدينته أو قريته قوة من جيش الإنقاذ، مع المدفعية. وكان معنى ذلك إما قوة من جيش الإنقاذ معها مدفعية فى كل مدينة وكل قرية، وإما نزوح عن كل مدينة وكل قرية.

أسرار الجيوش العربية فى أيدى اليهود

كانت الأخبار التى ترد علينا، من عواصم البلدان العربية، ومن نواحى فلسطين على اختلاف المصادر، تؤكد وصول نجدات وأسلحة وذخائر إلى اليهود، من أنحاء أوروبا. وكنت أتوقع دائماً نشوب معارك كبيرة نرغم على خوضها فى مراكز متعددة من جبهاتنا، خاصة فى منطقة القدس، التى كانت حالة اليهود فيها بدأت تنحط معنوياً ومادياً إلى حد بعيد، وكنت قد رأيت أن إلحاحى الشديد فى طلب النجدات والعتاد، لا يأتى بأية نتيجة. فألححت على القائد العام إسماعيل صفوة، والمفتش العام العميد الركن طه الهاشمى، أن يزورا جبهة القتال ليتبينا بنفسيهما حقيقة الواقع.. فأرسلا لهذا الغرض المقدم شوكت شقير عضو اللجنة العسكرية العاملة باسم جامعة الدول العربية، فبينت له خطورة وقلة عدد الجنود والعتاد بالنسبة لاتساع الجبهة. وحالة الجنود المادية المتصلة بالملابس والإعاشة، عدا ما أصابهم من الضنك بالنسبة للمعارك المستمرة التى كادت تنهك قواهم، لأنه لم يتح لهم وقت من الراحة خلال عدة أشهر، لعدم وجود قوات احتياطية. وطلبت إليه أن يزور نواحى الجبهة كلها، ويدرس الوضع بنفسه. وجاءنى المقدم شقير بعد تفتيشه الجبهة مبهوتاً، وبادرنى بقوله: إن جبهتكم كلها فى خطر شديد وليس هناك جيش نظامى يجرؤ على أن يشغل مثل هذه الجبهة إذا كان يريد أن يحافظ عليها فعلاً. فقلت له لقد أصبح من واجبك إذن أن تنقل بأمانة ما رأيته إلى القيادة العامة والمفتشية العامة، فقد يبعث تقريرك فيهما الشعور بالمسئولية لإنقاذ الموقف، قبل أن تحل بهذا الجيش كارثة تضيعه، وتسبب ضياع أجزاء من فلسطين لن يستطيع بعدها أى جيش أن يستردها.



كنا فى جيش الإنقاذ نعتمد بعض ترتيبات خاصة للاستيلاء على مصفحات بريطانية من هنا وهناك، والجدير بالذكر أن جيش الإنقاذ دخل فلسطين وهو لا يملك أية مصفحة، حتى إن سيارات النقل التى خصصت لنقلياته كانت قليلة لدرجة أن المفتشية العامة أرفقتها بعدد من البغال لتكون واسطة النقل الأساسية.. وقد تمكنت مفرزة من مفارزنا المعدة لمثل هذا الأمر، من الاستيلاء على مصفحتين بريطانيتين تحرسان سيارة للركاب فى إحدى الطرقات العامة - وكان ذلك قبل وصول المقدم شقير إلى الجبهة بقليل - فإذا بنا نجد فى سيارة الركاب هذه أكداساً من الأوراق، بينها تقارير من الوكالة اليهودية إلى وزارة المستعمرات البريطانية ومن قيادة الهاجانا إلى الوكالة اليهودية ومراسلات مختلفة بين الصليب الأحمر الدولى، وهيئات متعددة من اليهود، فسلمت هذه الأوراق إلى المكتب السياسى لجيش الإنقاذ. وكان فيه من يقوم بالترجمة من العربية إلى الإنجليزية والعبرية والفرنسية ومن هذه إلى العربية. فإذا به يجد بين هذه الأوراق نسخة من تقرير مقدم من القائد العام اللواء إسماعيل صفوة، إلى اللجنة العسكرية للجامعة العربية مكتوب باللغة الفرنسية ومرسل من مصر إلى بن جوريون، عن طريق القدس. ويتألف هذا التقرير من أربع عشرة صفحة، فيها وصف شامل للحالة العسكرية فى فلسطين، ولحالة الجيوش النظامية العربية من مختلف نواحيها. وبكلمة مختصرة يشتمل على كل عورات الدول العربية. فبعد أن أتممت أحاديثى عن الجبهة مع المقدم شقير الذى تحقق من صحتها بنفسه، سألته: هل قدمتم تقريراً عن الوضع العسكرى فى فلسطين، وعن حالة الجيوش العربية النظامية، إلى اللجنة العسكرية؟ قال: نعم. قلت: هل كان التقرير مؤلفاً من أربع عشرة صفحة، وفيه كذا وكذا.. وذكرت له شيئاً مما فى التقرير؟ فأجابنى مبهوتاً: نعم. كيف عرفت بهذا؟ ولم يعرف به بشر غير اللواء صفوة وأنا. قلت: بلى عرف به غيركما، عرف به اليهود أنفسهم وهذه نسخة منه.

تعدد الرؤوس

فصلت فيما سبق كيفية دخول فوج أجنادين إلى يافا وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة. وقد كان لدخوله أثر شديد فى

ارتفاع معنويات المدينة ولكنه كان آنيًا. وكنت أترقب أن يتمكن الفوج من فرض سيطرته على قوات الحامية فى يافا، وأن يعيد تنظيمها بشكل يجعل منها قوة تستطيع الصمود فى الدفاع إلى حين وأنا أعلم أن فى يافا كميات من السلاح والعتاد، تساعد على استمرار الدفاع إلى مدة قصيرة وهذا لم يتيسر للفوج أن يفعله، لما كان يسود المدينة من فوضى وتضارب فى المسئوليات والصلاحيات. وقد كانت اللجنة العسكرية فى الشام، عينت المقدم عادل نجم الدين آمرًا لحامية يافا المرتبطة بها رأسًا. وكان إلى جانب جنود هذه الحامية، سرية يمانية شديدة البأس، لعبت دورًا مهمًا فى ميادين القتال، حتى النهاية، ومفرزة يوغوسلافية متخصصة بالهندسة وأعمال التدمير.

وكانت الحالة فى يافا كما يلى:

أولاً: سوء إدارة وتصرفات كيفية من المقدم عادل نجم الدين. ثانيًا: بلبلة فى الصفوف سببتها اللجنة القومية فى يافا التى كانت تأبى تأمين احتياجاتها من شرقى الأردن. ثالثًا: فكرة الانقياد إلى تعليمات الهيئة العربية العليا. وزاد فى الفوضى، رفض حسن سلامة التعاون مع المقدم عادل، إلا إذا رضى هذا الأخير التقيد بأوامره. وكنت أرفقت آمر فوج أجنادين بعد الاتفاق مع القيادة العامة فى دمشق، بأمر يقضى بانسحاب المقدم عادل نجم الدين، وعودته بمفرده إلى دمشق، على أن يتسلم آمر فوج أجنادين قيادة الحامية. وعندما اشتدت الحالة خطورة فى يافا، غادرها حسن سلامة إلى منطقة اللد والرملة. وأنهم لا يطمئنون فى حال، إلى وجوده فيما بينهم، فأرسلت آمر فوج حطين إلى اللد والرملة للتنظيم والسيطرة على الموقف. وبقيت مفرزتان من جيش الإنقاذ فى المدينتين لحمايتهما إلى أن وصل الجيش العربى الأردنى فانسحبتا إلى جبهة طولكرم.

إن حالة يافا كما وصفتها، حالت بين آمر فوج أجنادين وبين فرض سيطرته والقيام بما كان يرجوه من تنظيم، وبقيت الفوضى مستحكمة، تزداد كلما ازداد الضغط اليهودى شدة. وقد تلقيت من آمر فوج أجنادين بعد وصوله إلى يافا البرقية التالية:

٤٨/٥/٢ الساعة ١٢،٤٥

عادل غادر المدينة مع العراقيين واليوغسلافيين بحرًا، المدينة ستكون مقفرة من السكان بعد اليوم. مقدرة المدينة على تموين ما تبقى من الحامية ضعيفة. أنذر البريطانيون اليوم بوجوب إيقاف الرمى من الطرفين حتى نصف الشهر الحالى. فى حال عدم الامتثال سيطلق الجيش البريطانى النار.

آمر فوج أجنادين

الإمضاء

كانت المدة التى فرضها البريطانيون للهدنة، وتقيد بها العرب دون اليهود، تسهل لهؤلاء التغلغل فى يافا، مما أدى إلى انهيار العرب ونزوحهم.

ومثل حالة العرب هذه فى يافا، كانت حالة اليهود تمامًا فى القدس، خاصة بعد أن دخلتها قوة جديدة من جيش الإنقاذ، مع مدافع هاون من عيار ٧،٥، بالإضافة إلى فوج القادسية الذى كنت أرسلته إليها من قبل. وأخذت القوات اليهودية تستميت فى القتال، لكى تتمكن من دخول القدس وإنقاذ اليهود فيها مما كانوا يعانون من الشدة والجوع والعطش. وكاد نشاطهم هذا يؤدى إلى سقوط القدس بين ٤ - ٥ آيار. فصممت عندئذ أن أعمل حتى المستحيل لأحول دون تحقيق رغبة اليهود. وقررت أن أقوم بعملية هجوم على القدس من الداخل، بواسطة حاميتها ومن الخارج بقوى

التـزام الـعـرب بالـهـدنـة دون الـيـهـود سـهـل الـتـغـلـغـل فـى يـافـا، مـمـا أدى إلى انهيـــــار الـعـــرب

جيش الإنقاذ المتمركزة فى نقاط مختلفة من الجبهة، لتحطيم المحاولات اليهودية، مهما يكن من كثرة الضحايا التى يمكن أن يتطلبها مثل هذا الهجوم. وأبرقت إلى آمر حامية القدس الرئيس فاضل عبدالله، أن يجمع ما يمكن جمعه من قوة يدعمها بكل ما عنده من مدافع هاون ورشاش ويهاجم فى صباح ٥ آيار «القطمون» و«الشيخ جراح» بينما نقوم نحن بكل ما نستطيع حشده من قوى ومدفعية بهجوم من الخارج. ورحت طيلة الليل أجمع مدفعية جيش الإنقاذ من بعض نواحى الجبهة كالنبى صموئيل وبيت سوريك وغيرهما، وأحشدها فى المواضع اللازمة. وفى صباح ٥ آيار، بدأ الهجوم وفقًا للخطة التى كنت قررتها، وبشكل لم تكن القدس شهدته بعد. فكانت مفاجأة تركت مفعولاً كبيرًا جدًا تمكنا معه من استرداد الأحياء التى كان فقدها العرب من قبل. وتحطيم المحاولة اليهودية فى القدس. وفى صباح السادس من آيار جاءنى الكولونيل البريطانى نلسون إلى رام الله، ينذرنى بلهجة شديدة أن لا أعود إلى مثل ذلك قائلاً: إنه الإنذار الأخير، واصفًا قصفنا القدس بمدفعيتنا أنه عمل غير إنسانى.. وأنه مخالف لشروط الحرب.. وأن الجيش البريطانى مستعد للتدخل بالسلاح إذا نحن عدنا إلى قصف القدس مرة أخرى. فأجبته ما دام عدوان اليهود على القدس مستمرًا، فسنستمر نحن فى قصف الأماكن اليهودية فى القدس لا يمنعنا من ذلك مانع. قال الكولونيل: إننى أقول هذا لمصلحتكم. وإن هدنة ربما تعقد بين العرب واليهود. فقلت حينما يقبل العرب بهدنة. ويطبقها اليهود عمليًا نراعى نحن هذه الهدنة. على أننى أؤكد لك أن هدنة فى يافا فرضتموها أنتم لم يقع مثلها هنا. وأنبأت دمشق بالأمر. وقد كان اليهود فعلا بين أمرين، إما أن يقنعوا العرب بقبول هدنة بأية طريقة من الطرق، ليتنفسوا قليلاً فى القدس، وإما أن يحشدوا قواتهم كلها - وهذه مغامرة - ليقوموا بحملة تنقذهم، وأخذت مفاوضات بشأن الهدنة تدور فى القدس

وانتهت هذه المفاوضات باجتماع عقد فى أريحا حضره عن العرب عبدالرحمن عزام والقائد العام اللواء صفوة، كما حضره سفير بريطانيا، بحثوا فيه نهائيًا موضوع الهدنة فى القدس. وكان اليهود فى حاجة شديدة جدًا إلى هدنة كهذه، فقد كانت القضية بالنسبة إليهم قضية حياة أو موت. كانت هذه المفاوضات تدور دون أن يؤخذ فيها رأيى أو أن أحاط بها علمًا، وكان أمين الجامعة واللواء إسماعيل صفوة يتوهمان أن الهدنة فى مصلحتنا. وربما كان ذلك لجهلهما كل شىء عن حقيقة موقف اليهود يومذاك فى تلك المنطقة. ومرت مدة ولم نتلق شيئًا من المدد، وكنت قد أصبحت متأكدًا من أن ما كان يهول به اليهود علينا، بواسطة بعض ضباط الاستخبارات البريطانيين، كان صحيحًا. لما لمسته من ازدياد قوة اليهود فى العدد والمعدات المختلفة فى مجرى المعارك. فعمدت إلى إرسال برقية إلى القيادة العامة جاء فيها:

٤٨/٥/٧ رقم ٢٧ص

حذرتكم قبل اليوم وبينت إمكانية المفاجآت. أعلمكم بأننى سأدافع بما لدى من قوات قليلة منهوكة ناقصة الأسلحة والعتاد والتدريب والضباط. كما تبين للمقدم شقير نفسه. سأبذل كل ما فى وسعى لصد قوات العدو والحيلولة دون تحقيق أهدافه. أخشى أن تتمكن هذه القوات من الوصول إلى أهدافها على أجسادنا.

الإمضاء: فوزى

ووردت علينا فى هذه الأثناء أخبار متتالية عن تحشدات يهودية قوية على طول الجبهة من مختلف المصادر الموثوقة أيدتها استطلاعات قواتنا التى شاهدت نشاط العدو وتنقلاته. فقد أصبح اليهود المحصورون فى القدس كما بينت سابقًا بين أمرين، إما الاستسلام خوف الموت، وإما حملة عامة مغامرة تقوم بعمليات واسعة قوية لفتح طريق باب الواد - القدس. وأخذت التحشدات تظهر على جبهة اللجون - عارة، وجبهة طولكرم - الطيرة، وفى منطقة باب الواد القدس والغرض من هذا كله كان واضحًا جدًا، إرغامنا على تجميد قواتنا فى المثلث، وعلى سحب بعض قواتنا من الجبهة الوسطى، ليقوموا من ناحيتهم بهجومهم المقرر لفتح طريق باب الواد - القدس، وبينما نحن فى عمان على آمر اللواء صدقى الجندى فى رام الله. فأرسلت إلى القيادة العامة فى الشام البرقية التالية:

٤٨/٥/٧ الساعة ٩ ليلاً

اطلعت على برقية مكتومة «سرية» إلى آمر اللواء صدقى الجندى بتاريخ ٣/ ٤٨/٥ رقم ٥٩ ترسم خطة انسحاب الوحدات الأردنية كافة من فلسطين بين ٦ و ١٤ آيار، بحيث يكون آخر جندى أردنى قد غادر أرض فلسطين عن طريق جسر اللنبى إلى الثكنات فى شرق الأردن. قد انتهى انسحاب اللواء الشمالى من حيفا. إن انسحاب الجيش العربى الأردنى من فلسطين يسبب ذعرًا وهجرة عامة نحو الشرق، إذ إن وجوده، والأمل فى دخول غيره بين ١٠ - ١٥ الجارى هو الطمأنينة الوحيدة للأهلين. نحن هذه الساعة أمام نشاط كبير من تحشدات واسعة كاملة التجهيزات والأسلحة شمالى جنين، وهناك تحشدات غربى طولكرم قلقيلية. منطقة اللد والرملة، ومستعمرات ضواحى القدس الغربية. أرجو حضوركم بالذات إلى أريحا أو عمان غدًا للمذاكرة معكم. أنتظر الجواب هذه الليلة.

الإمضاء: فوزى

إلى هذا صارت الحالة فى فلسطين. وأصبح من البديهى أن نسد الفراغ الذى تركه الجيش العربى بانسحابه بقسم من جنودنا. فى هذه الغمرة شرع اليهود بهجومهم المنتظر. ■

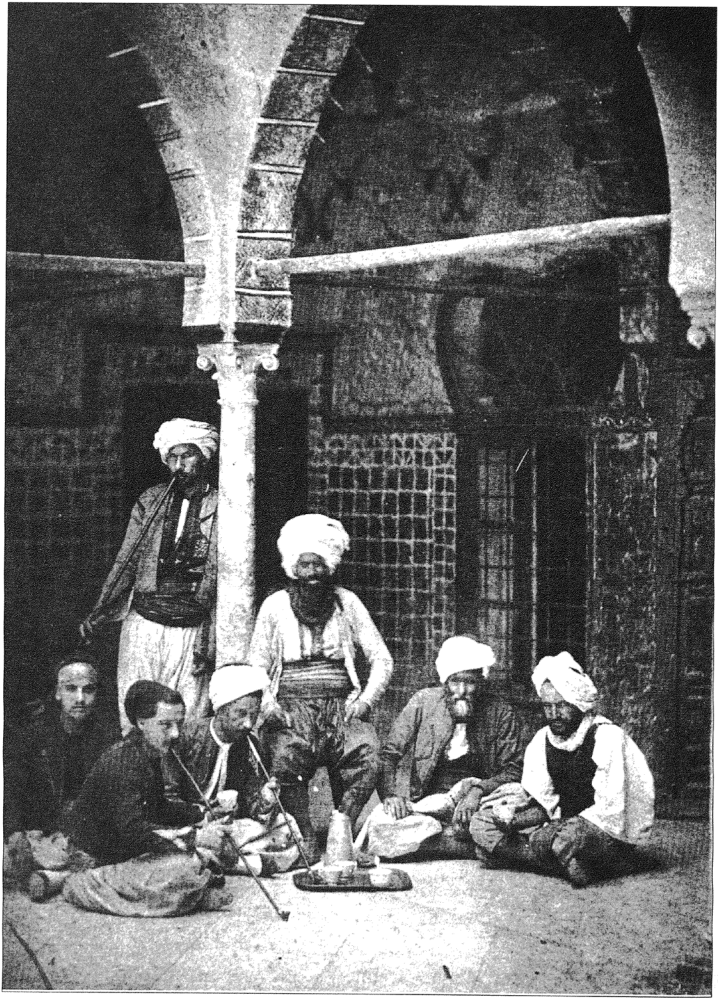
«فلسطين التي كانت!»

«الكبار سيموتون .. والصغار سينسون».. هكذا قال بن جوريون بعد النكبة.
ماذا كان حال تلك الأرض وهؤلاء الناس قبل حملة التطهير العرقي التي بلغت ذروتها في السنة الفاصلة ١٩٤٨؟
ربما تبقى المشاهد محفورة في ذاكرة أجيال تأكلها السنون. ولكن ماذا يبقى لأجيال قادمة؟ لن تبقى من ذكريات مشاهد «كانت هنا» مفعمة بالحياة إلا تلك التي تصادف أن سجلتها ريشة فنان أو عدسة مصور.
هنا بعض منها اخترناها من المجموعة المحفوظة في «أرشيف مكتبة الكونجرس» ومن تلك التي يعمل على جمعها - كجهد غير ربحي يستهدف التوثيق - موقع «فلسطين في الذاكرة» www.palestineremembered.com

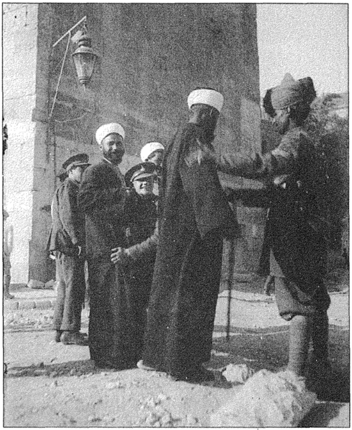
مقهى بالقدس عام ١٨٥٨

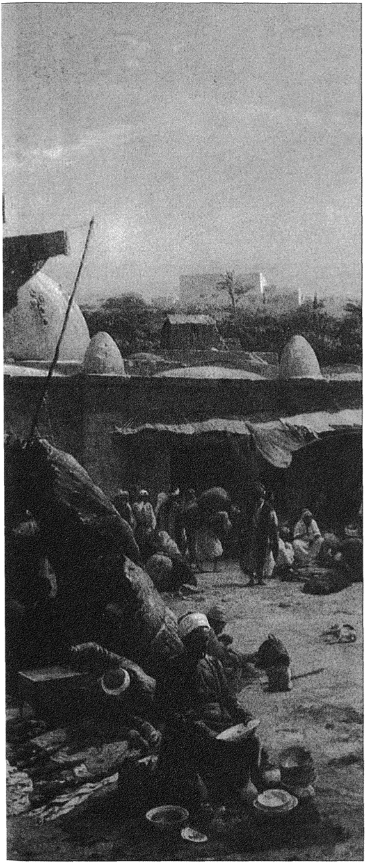
طالبات مدرسة الفريندز في رام الله ١٩٣٧





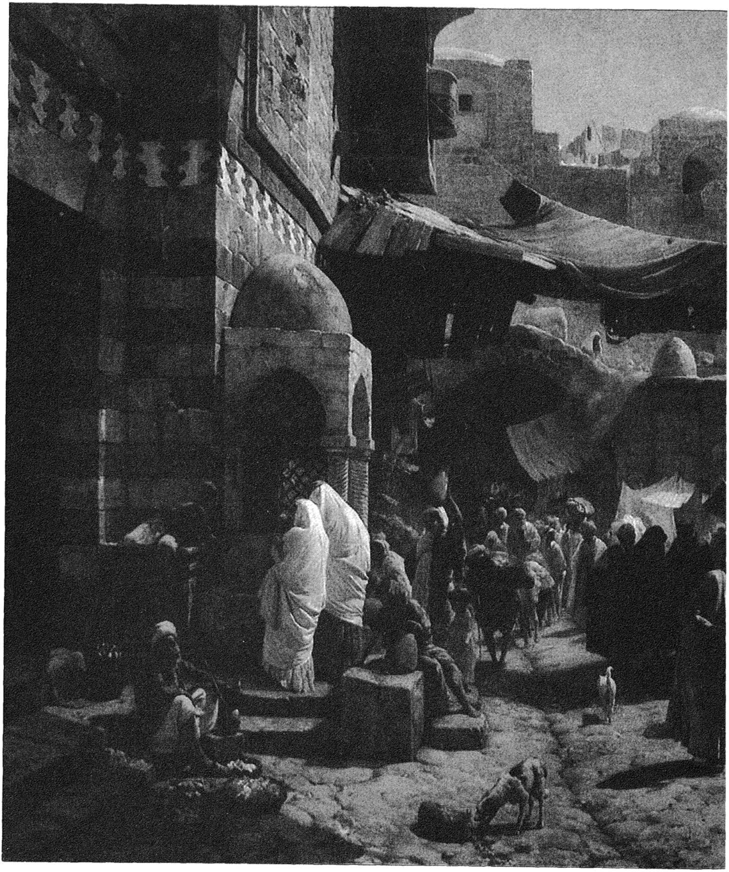
الشرطة الاستعمارية البريطانية تقوم بتفتيش زعماء دينيين ومدنيين فلسطينيين عام ١٩٢٠
الصورة السفلى من اليسار إلى اليمين وزير الدفاع اللبنانى أرسلان ورئيس الوزراء السورى جميل مردم وشخص غير معروف ثم الملك عبدالله ملك شرق الأردن ورئيس الوزراء اللبنانى رياض الصلح فى اجتماع بعمان «الأردن» قبل أربعة أيام من اندلاع حرب ١٩٤٨.



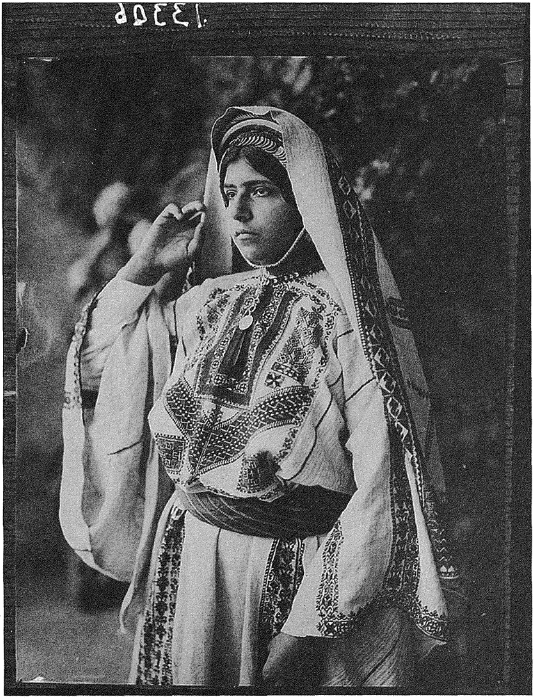




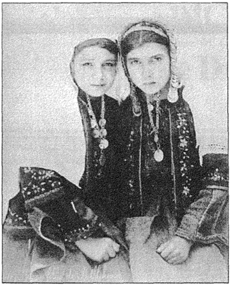
البلدة العربية يافا سنة ١٨٧٧ والتى أخذت مكانها سنة ١٩٤٨ المدينة الإسرائيلية تل أبيب. الرسم للفنان الألمانى جوستاف بريشيد يصور سوق البلدة العربية القديمة



فتاة من رام الله بالزى التقليدى









فلاح من رام الله يغزل الصوف
والصورة الأخرى لفتيات من بيت لحم بالزى التقليدى عام ١٩١٨

عائلة من الفلاحين الفلسطينيين من رام الله عام ١٩٠٠



مشـــــــــــــــوار المـــــــــوت

يـــــولـــــيـــــو ١٩٤٨



من مشاهد "الخروج" الفلسطيني

" The Death March From Lydda "



" شهادات إسرائيلية وبريطانية "

" دخل الجنود الإسرائيليون اللد فى ١١ يوليو ١٩٤٨. كان يعيش فى اللد ١٩ ألف فلسطينى إضافة إلى حوالى ٤٠ ألف لاجئ من يافا ومن القرى المجاورة.
وقد تم إعدام الفلسطينيين المأسورين فى جامع دهمش. وأجبر الناس على مغادرة المدينة، حاملين بعض ممتلكاتهم. وقد قتل من تأخر فى تسليم النفيس والغالى للجنود الإسرائيليين.
كان ذلك خلال صيف قائظ. وصلت درجة الحرارة فيه إلى ٤٠ مئوية. وكان اللاجئون يعانون من شحة الماء. ولم يصلوا إلى رام الله إلا بعد ثلاثة أيام، بعد أن قضى منهم ٣٥٠ على الأقل، بسبب العطش والتعب.
يظل الطرد من اللد ومن مدينة الرملة القريبة، جرحًا عميقًا فى الذاكرة الفلسطينية الجمعية. وهذا بسبب أعداد الذين طردوا والذين قتلوا وأهوال مسيرة الموت. ولكن هذا ليس الهول الوحيد للنكبة الفلسطينية إبان تأسيس دولة إسرائيل. فقد طرد حوالى ٧٥٠ ألف فلسطينى من دولة إسرائيل الجديدة. والكثير ممن استطاع أن يظل فى «إسرائيل» أصبح «لاجئًا داخليًا» مع مصادرة ممتلكاته ومنزله ومصالحه وأرضه. وقد أخليت ٤١٨ قرية فلسطينية من سكانها تمامًا. وهذه شهادات إسرائيلية وبريطانية عما حدث. "

تطهير عرقى

" فى ١٢ يوليو ١٩٤٨، صدرت الأوامر للجنود الإسرائيليين الذين يقاتلون الفيلق العربى و المقاتلين غير النظاميين المحليين فى مدينتى اللد والرملة، جنوب تل أبيب، بإخلاء المدينتين من سكانهما العرب. وعلى مدى يومين، طرد ما بين ٥٠ ألفاً و٦٠ ألفاً من السكان من منازلهم. وقد أجبر الكثير منهم على السير شرقا نحو خطوط الفيلق العربى. وحمل الآخرون على شاحنات وحافلات. وقد سد عشرات الآلاف من اللاجئين الدروب، وهم يرمون بين حين وآخر، بعض ممتلكاتهم التى أخذوها معهم وما عادوا يستطيعون حملها فى مسيرتهم الطويلة.

عمليات الطرد التى أجريت تحت إمرة اللفتنانت كولونيل (حينذاك) إسحاق رابين، كانت جزءا من التطهير العرقى الذى خلص إسرائيل من أغلبية سكانها العرب فى لحظة الميلاد تلك. وقبلها فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، كان القادة الصهاينة قد أجمعوا فيما بينهم على ضرورة «الإحلال transfer». كانوا قد أيقنوا أنه من الضرورى شراء أو طرد السكان العرب من المناطق المقررة لإقامة الدولة اليهودية، من أجل فسح المجال للمهاجرين اليهود وأيضا للتخلص من العرب الذين يعارضون، وبعنف عادة، إقامة مثل هذه الدولة.

.. وبهذه الطريقة أو تلك، تم تحقيق الإحلال، فقد ترك ٧٠٠ ألف فلسطينى البلاد ومنذ ذلك الحين ولدت مشكلة اللاجئين التى لم تستطع إسرائيل - منذ نشوئها وحتى الآن - الخلاص منها.

.. لو لم يطرد السكان العرب المحاربون الذين يعيشون فى المناطق المخصصة للدولة اليهودية، لما قامت دولة يهودية، أو كانت ستولد دولة عرجاء ديمجرافيا وسياسيا، فلا يمكنها البقاء طويلا. كانت مسألة قبيحة. ولكن التاريخ هو هذا.

لم يكن قرار إسرائيل فريداً من نوعه، ولا كان بالضرورة غير أخلاقى.. لأنه لو لم يغادر معظم الفلسطينيين البلاد لما وجدت إسرائيل اليوم.

المؤرخ الإسرائيلى بينى موريس
لوس أنجيليس تايمز.
٢٦ يناير ٢٠٠٤.

الشهادات كاملة على موقع:
www.leicester- holyland. org.uk

ترجمة: بثينة الناصرى

كتاب الزاوية

عبدالناصر الرمز

محمود درويش

لقد سقط عبدالناصر. الرمز والصوت والأمل. خبر صغير فى حجم الموت. ثلاثة شبان من الناصرة توقفت قلوبهم وماتوا. قرى الصعيد والأقاليم تزحف إلى القاهرة لتعيد عبدالناصر إلى الوقوف.

كيف يكون الرمز فى حجم الوطن؟ لأن بقاء الرمز يبعث الأمل باستعادة الوطن. يوم كان جمال عبدالناصر يقول: «أيها الإخوة المواطنون» ويبدأ... كان كل شىء يتوقف عن الحركة. كان الجائع يشبع، والغريب يعود.

وكانت فلسطين تقف على أقدامها تأهبًا للتحرير. يوم كان جمال عبدالناصر يقول: «أيها الإخوة المواطنون» ويبدأ، كان سكان الأرض المحتلة يعتقلون أنفسهم، من أصغر طفل إلى أكبر شيخ، قرب أجهزة الراديو.

وكثيرًا ما كانوا يندفعون إلى الجهاز الذى يحمل صوت عبدالناصر ويقبلونه فى نشوة وطنية وإنسانية لا توصف.

والآن يذهب؟ صار التعلق بالوطن والتحرير مرتبطًا بعودة عبدالناصر.

وحين عاد، أحس العرب بأنهم حققوا انتصارًا، وخلصوا الأمل من براثن الهزيمة.



يجب طردهم فورًا

فى ١٢ يوليو ١٩٤٨، احتلت القوات الصهيونية اللد وفرضت حظر تجول. فى الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا، أصاب الذعر سكان اللد الذين أقفلوا الأبواب على أنفسهم، لسماعهم اندلاع أصوات إطلاقات نارية فى الخارج. هرع بعضهم إلى الشوارع، فأصابتهم النيران الإسرائيلية.. وفى الارتباك الذى تلا ذلك، قتل بالرصاص الكثير من المحتجزين العزل فى أماكن الاحتجاز فى وسط المدينة - فى الجامع والكنيسة. فى الساعة الواحدة والنصف ظهرًا، من يوم ١٢ يوليو، قبل أن يتوقف إطلاق النار تمامًا، أصدر مقر عملية دانى، الأمر الآتى إلى لواء يفتاح: «يجب طرد سكان اللد فورًا بدون اعتبار للسن».

بينى موريس فى:
The Middle East Journal
vol. 40, No. 1, Winter 1986.

الموت على الطريق

يجمع الإسرائيليون الذين شهدوا أحداث الخروج، تحت حرارة شمس يوليو، على أنه كان صفحة معاناة شديدة للاجئين خاصة أولئك الذين طردوا من اللد.. غوتمان (عالم الآثار الإسرائيلى وعضو كيبوتز ناعان، وهو جزء من البالماخ (هى القوة المقاتلة النظامية من الهاجاناه، الجيش غير الرسمى خلال الانتداب البريطانى فى فلسطين. تأسست فى ١٥ مايو ١٩٤١ وخلال حرب ١٩٤٨ كانت قد أصبحت ثلاثة ألوية بوحدات مساعدة جوية وبحرية واستخباراتية - المترجمة) بضمنها الكتيبة الثالثة التى دخلت اللد)، يصف رحلة لاجئى اللد «حشد هائل من اللاجئين يسيرون واحدا إثر آخر. النساء يسرن محملات بالأغراض والأكياس فوق رؤوسهن. الأمهات يسحبن أطفالهن وراءهن.. بين حين وآخر، تسمع طلقات تحذير تحثهم على المسير».
أحد الجنود الإسرائيليين (ربما من الكتيبة الثالثة) من كيبوتز عين حارود (عين جالوت)، سجل بعد عدة أسابيع من الواقعة، انطباعات حية عن العطش والجوع الذى عانى منه اللاجئون على الطرقات، وكيف «تاه الأطفال» وكيف سقط طفل فى بئر وغرق، دون أن يأبه له الآخرون الذين كانوا يتصارعون على الحصول على الماء. وقد وصف جندى آخر المخلفات التى تركتها طوابير السائرين الذين يجرون أقدامهم على الأرض (بدءًا من) «أدوات المطبخ والأثاث وانتهاء بجثث الرجال والنساء والأطفال، متناثرة على طول الطريق». وقد مات بعض اللاجئين من الإرهاق والجفاف والمرض - على طول الطريق شرقًا من اللد والرملة، قبل الوصول إلى استراحة مؤقتة قرب رام الله.

بينى موريس
فى كتاب «ولادة مشكلة اللاجئ الفلسطينى فى ١٩٤٧-١٩٤٩»
The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949.
cambridge Middle East Library

١٧٦ جثة فى المسجد

فى ١٠ يوليو ١٩٤٨ عين ديفيد بن جوريون، ايجال آلون قائدا للهجوم واسحاق رابين الشخص الثانى فى القيادة. أمر آلون بقصف اللد من الجو، وكانت أول مدينة تقصف بهذه الطريقة. تبع ذلك هجوم مباشر على مركز المدينة، مما تسبب فى مغادرة كل متطوعى (الفيلق العربى) المتبقين: البعض هرب من مواقعه فى وقت مبكر عند وصول أنباء بورود تعليمات إلى وحدات الفيلق الأردنى المتمركزة قرب المدينة، من رئيسها البريطانى جلوب باشا بالانسحاب.

وبما أن اللد والرملة كانتا ضمن حدود الدولة العربية المقررة، فقد افترض السكان والمدافعون عنها أن الفيلق سوف يقاوم الاحتلال الإسرائيلى بالقوة. ولكن حين هرب المتطوعون وجنود الفيلق العربى، احتمى رجال اللد المسلحون ببنادق قديمة فى جامع دهمش فى مركز المدينة. بعد عدة ساعات من القتال استسلموا، ولكنهم قتلوا جميعا داخل المسجد من قبل القوات الإسرائيلية. وقد أحصت المصادر الفلسطينية بأن عدد ضحايا مجزرة الجامع والشوارع المجاورة، حيث استمرت القوات الإسرائيلية فى ارتكاب مجازر أخرى، كان ٤٢٦ من النساء والأطفال (وجدت ١٧٦ جثة فى الجامع). وفى اليوم التالى، ١٤ يوليو، اقتحم الجنود اليهود المنازل واحداً بعد آخر وأخرجوا السكان خارجها، ثم اقتادوا حوالى ٥٠ ألفاً منهم خارج المدينة باتجاه الضفة الغربية (أكثر من نصفهم كانوا لاجئين من قرى مجاورة).

المؤرخ الإسرائيلى إيلان بابيه
فى كتاب «التطهير العرقى فى فلسطين»
The Ethnic Cleansing of Palestine
(Oneworld Publications)

كم عدد الأطفال القتلى؟

تذكر جندية شابة من البالماخ أن جنديا «سار فى شوارع اللد بمكبرات صوت واعداً الجميع بأن من يدخل جامعا معينا سيكون آمنا، وهكذا دخل مئات من العرب جامع دهمش حاسبين بأنه لن يحدث لهم شىء، إذا جلسوا ساكنين وأيديهم فوق رؤوسهم. ولكن «حدث شىء ما». وانتقاما من هجوم بقنبلة يدوية بعد الاستسلام قتلت عدة جنود إسرائيليين، قُتل بالبنادق الآلية أكثر من ثمانين أسيراً عربياً... وقد أوقعت مجزرة جامع دهمش الرعب فى قلوب أهالى اللد.

مايكل بالومبو فى كتاب «النكبة الفلسطينية»
The Palestinian Catastrophe: The 1948 Expulsion of a People from Their Homeland

اقتحموا المنازل

حالما احتل العدو المدينتين (اللد والرملة) حتى بدأ الجنود تفتيش المنازل، منزلاً منزلاً، وتم اعتقال كل الرجال فى سن التجنيد ونقلوا إلى معسكرات احتجاز. ثم سارت سيارات إسرائيلية بمكبرات صوت عبر الشوارع، تذيع أوامر للسكان المتبقين بالمغادرة خلال نصف ساعة. يكفى القول إن الجنود اقتحموا المنازل وانتهكوا بوقاحة وخشونة حرمة النساء من أجل إجبارهم على إخلاء المدينة.

قام على أثر ذلك حوالى ثلاثين ألفاً من السكان معظمهم من النساء والأطفال باختطاف ما يمكن حمله من ممتلكاتهم، والهرب من منازلهم باتجاه الحقول المكشوفة. أما القوات الإسرائيلية فإنها لم تعتقل الرجال فى سن التجنيد فقط، بل حجزوا كل وسائط النقل. لن يعرف أحد أبداً عدد الأطفال الذين قضوا نحبهم فى هذا الطريق.

لا يمكن إنكار أن اليهود فى أوروبا تعرضوا لأشد أنواع التعذيب، ولكن لا ذنب لعرب فلسطين فى ذلك. وكنا نأمل ممن عرف معاناة مثل تلك التى عاشها اليهود، أن يقسم ألا يذيق الآخرين شيئاً مما جرى له. حاول الفيلق العربى أن يقاتل الجيش الإسرائيلى بدون أن يؤذى المدنيين. ولكن من يأبه هذه الأيام لمثل هذه المعايير.

الجنرال البريطانى جون جلوب، قائد الفيلق العربى الأردنى فى كتاب «جندى مع العرب»
A Soldier with the Arabs, Harper, 1957

كتـــاب الـزاويـــة

بيوت مسروقة

محمود درويش

تريد أن تستأجر شقة؟

تقرأ أبواب الإعلانات فى الجرائد. وتقفز إلى التليفون: سيدتى.. قرأت إعلانًا عن شقتك، هل لى أن أراها؟

تصل إليك ضحكتها وسعادتها فتمتلئ بالأمل: الشقة ممتازة يا سيدى، على الكرمل. تعال واحجزها فورًا.

تنسى أن تدفع ثمن المكالمة التليفونية، وتسرع إليها. تعجب بك السيدة، وتتفق معها على شروط الدفع وميعاد تسليم المفتاح. وحين تجلس لتوقع على العقد تنزل الصاعقة على رأس السيدة: ماذا عربى؟ عفوًا يا سيد... اتصل غدًا!

تتكرر القصة عدة أسابيع. وفى كل مرة تعود خائبًا تقرأ شرفات المنازل، وتسأل عن أصحابها الغائبين فى رياح الهجرة والمنافى. كم من بيت بناه صاحبه ولم يسكنه. إن أصحاب هذه المنازل مازالوا يحتفظون بمفاتيحها فى جيوبهم وقلوبهم فى انتظار العودة. العودة إلى أين؟ لو عاد أحدهم إلى منزله فهل يسمح له باستعمال مفاتحه؟ أو هل بوسعه أن يستأجر غرفة واحدة فى بيته. ويقولون لك: «إن الصهيونية لم ترتكب إثمًا. كل ما فى الأمر أنها أحضرت شعبًا بلا وطن إلى وطن بلا شعب».

وتسألهم عمن بنى هذه البيوت. عندها ينصرفون عنك وينجبون مزيدًا من الأطفال فى بيوت مسروقة.

من حكاية الأمل إلى رواية الفجيعة

فيصل دراج

تتعامل «الرواية غير الفلسطينية» مع مقولات الاغتراب والخيبة وضياع اليقين، وتدور رواية المنفى الفلسطيني حول النصر واليقين وعودة الحق الأكيدة. والفرق بين الروايتين هو : الأمل، الذي يقنع صاحبه بأنّ المنفى عارض، وبأنّ المستقبل استئناف للماضي السعيد.

■ ما معنى الرواية كما تعارف عليه بعض المنظرين؟ وما هو هذا المعنى إن قبلنا بنجيب محفوظ مرجعاً؟ لا وجود لجواب قطعي، دون أن يمحو ذلك معنى جاءت به الأزمنة الحديثة، يستعيض عن اليقين بنسبية المعرفة ويحوّل الإنسان إلى علاقة تصوغها علاقات أخرى.

يسقط المرض في رواية محفوظ «خان الخليلي» على شاب مليء بالحياة ويقوده إلى الموت. وتخطئ الرصاصات القاتلة إنساناً آثماً في «اللص والكلاب» وتصيب إنساناً بريئاً. وتصرع الجماعة المنتشية في «ثرثرة فوق النيل» فلاحة بريئة. أقام محفوظ رواياته على مبدأ : اللامتوقع، الذي يجرّ الإنسان جراً إلى وضع لم يهجس به، أوعلى مبدأ صدفة لها شكل القانون، تحرم الإنسان من خياره وترمي به إلى خيار مخالف مؤثث بالكوابيس. أعلنت الصدفة عن وجود إنساني هش، يعطّل رغبات الإنسان ويسخر من تطلعاته.

السؤال الآن هو : ما ضرورة التذكير برواية نجيب محفوظ في دراسة موضوعها الرواية الفلسطينية؟ الجواب المنتظر قائم في الفرق بين روائي يعشق القاهرة ويعيش مطمئناً فيها، وروائي آخر كان يعيش في القدس وهجّر بالقوة منها. يكتب الأول روايته في شرط عادي، ويصوغ الثاني روايته في شرط شاذ، يرمي عليه بالتهديد والغربة. كأن على الفلسطيني أن يسجل رواية المنفى، في انتظار زمن سوي، يتيح له كتابة «رواية عادية»، مثل الآخرين. تتضمن رواية الخروج من الوطن رواية عن العودة إليه، لأنّ الحديث عن صعوبة المنفى حديث عن نعمة الوطن. ولذلك لا يكتب الإنسان المنفي عن هشاشة الوجود، بل عن الإنسان المقاتل من أجل العودة إلى وطنه، ولا يتأمل الإنسان الذي تنتظره خيبة في آخر الطريق، إنما يخلق رواية الفلسطيني المتفائل الذي ينتظره الانتصار.

تتعامل «الرواية غير الفلسطينية» مع مقولات الاغتراب والخيبة وضياع اليقين، وتدور رواية المنفى الفلسطيني حول النصر واليقين وعودة الحق الأكيدة. والفرق بين الروايتين هو : الأمل، الذي يقنع صاحبه بأنّ المنفى عارض، وبأنّ المستقبل استئناف للماضي السعيد. تعوّض رواية الأمل بؤس الحاضر بنعيم المستقبل مقرّرة، دائماً، نهاية سعيدة. ولعل النهاية السعيدة التي انتهت إليها الروايات الفلسطينية، في فترة صعود الكفاح المسلّح، هي التي جعلت منها رواية واحدة، تبرهن عن انتصار الأمل بأشكال مختلفة.

١ . جبرا إبراهيم جبرا : المنفى وأسطورة الفلسطيني الكامل:

جعل جبرا (١٩٢٠ - ١٩٩٤) من الفلسطيني المنتصر موضوع رواياته الأساسية الثلاث: صيادون في شارع ضيّق، السفينة، البحث عن وليد مسعود. أنجز الروائي أعماله مطمئناً إلى «اختصارين» : اختصر فلسطين إلى مثقف مفرد، استقرّت فلسطين في كيانه ونطقت بلسانه، واختصر المفرد الفلسطيني إلى إنسان كامل مشبع بالفضيلة. اشتق جبرا وطنه المفقود، الذي اختصره إلى مثقف نوعي، من علم الجمال وعلم الأخلاق، قائلاً بوطن ثماره من ذهب، يعرف الخير ولا يعرف غيره.

يولد بطل جبرا، منذ اللحظة الأولى، كاملاً، لا يتبدل ولا يتطور، وهو مسكون القدس مفتون بها، فهي مدينة من الذهب والفضة والزمرد والبنفسج، كما يقال في «صيادون في شارع ضيّق»، وهي مدينة الغموض الخصيب المليء بالأسرار، كما جاء في مستهل «البحث عن وليد مسعود». يصدر كمال البطل الفلسطيني عن كمال مدينته المقدّسة التي تضعه مع البشر وخارجهم: فهو معهم بقوله وفعله، وهو خارجهم بحكمته التي لا يشاركه فيها أحد، وبثقافته الواسعة القريبة من الندرة.

تتحدث «صيادون في شارع ضيّق» عن فلسطيني جاء إلى بغداد بعد سقوط فلسطين: متعلّم فقير، يفوق الآخرين ثقافة وذكاء ووسامة. تؤمّن له صفاته الذاتية نجاحاً أكيداً، وتبرهن أنّ بينه وبين الآخرين مسافة واسعة، يعرف أكثر مما يعرفون، ويرى ما لا يستطيعون رؤيته، ويقول بقيم حضارية حديثة، لا يعرفون عنها شيئاً كثيراً. وبسبب ذلك يغيّر الآخرين ولا يتغيّر، يظل حيث كان، فليس لدى البلدة العراقية ما تعلّمه لفلسطيني لا ينقصه شيء. يأتي «البطل» ويرجع كما جاء، تاركاً وراءه مدينة تصحو، علّمها الغريب أشياء غريبة عنها. لا تشهد رحلة البطل بين القدس وبغداد على غربته، أو منفاه، بل على انتصاره، لأنّ الإنسان الكامل يحوّل المنافي إلى أوطان جديدة.

تكشف ثقافة البطل الفلسطيني عن اختلافه، وهي وجه من وجوه كماله وإعلان عنه. ثقافة حديثة فيها مكان للرسم والنحت والموسيقى والفلسفة، وفيها انفتاح على ثقافة «الآخر الأوروبي» وإعجاب بها. فلا مجتمع يرجى إصلاحه من دون ثقافة تقترح الإصلاح وأدواته.

آمن جبرا مبكراً، منذ أن كتب روايته الأولى «صراخ في ليل طويل» - ١٩٤٦، بفكرتين أساسيتين: تعيين الثقافة الحديثة أداة لإيقاظ المجتمع الفلسطيني وتحريره، وتقول الثانية بدور رسولي للفلسطينيين في العالم العربي، ينقذ العرب من تخلّفهم، فلم تهزم الصهيونية فلسطين، إنما هزمت «الحداثة الأوروبية» مجتمعاً فلسطينياً متخلّفاً. أوكل جبرا، بهذا المعنى، إلى المثقف الفلسطيني دوراً مزدوجاً : تحرير مجتمعه من قيم بالية، وإيقاظ المجتمع العربي من سبات موروث.

يقود مفهوم الثقافة، كما أخبر عنه الروائي، إلى ثنائية : النخبة والعوام، حيث المثقف الذي يعرف يعلّم البقية التي لا تعرف. والفرق بين الطرفين هو

مــــــن الحكــــــــى



حســين البرغوثى



جبرا إبراهيم جبرا



غسان كنفانى

الفرق بين الماضى والمستقبل، وبين المعلوم والمجهول، ذلك أنّ الاقتراب من المجهول يثير فى العوام الخوف والرهبة. يرمى الفرق بين المثقف والعوام مثقف جبرا فى اغتراب لا تسهل معالجته، فهو يعرف ما لا يعرفه غيره، ويرى إصلاح الوعى العامى أمراً بالغ الشقاء. لهذا يراهن المثقف على المستقبل، وعلى قلّة يعلّمها وتحاكيه فى القيم والأحلام. يصل جبرا، إن شاء أم أبى، إلى : المثقف الرسولى، أو المثقف القائد، أو المثقف ـ النبى، الذى ينفتح على الآخرين ويغترب عنهم: ينفتح عليهم ليميّز لهم بين الخطأ والصواب، ويغترب عنهم لأنهم لا يعون من كلامه إلا القليل. يظهر اغتراب المثقف الفلسطينى، الذى يروّض المنفى ولا يروّض البشر إلا بقدر، فى رواية: «صيادون فى شارع ضيّق»، التى تسجّل حوارا طويلاً بين عقل مستنير وأرواح فجّة متكلّسة كالحة. يمثّل الحوار أداة فنيّة.

تخبر عن تصوّر العالم لدى شخصيات مختلفة، وتكشف عن نفاذ البصيرة الفلسطينية والعماء الذى يلف غيرها. تلعب الشخصيات الروائية، فى هذه الحدود، دوراً مزدوجاً: فهى تمثّل ذواتاً مستقلة ذات ملامح محدّدة، وهى مرايا صقيلة تعكس تميّز المثقف الفلسطينى وسيطرته على ذاته واختلافه عن غيره. بل إنّ الشخصيات، بالمعنى الدقيق، مرايا دائرية، إن صح القول، يتوسطها مركز فلسطينى، محاط بشظايا بشرية، لا تطاوله ذكاء وثقافة ووسامة.

أعاد جبرا فى روايته « البحث عن وليد مسعود» إنتاج أسطورة الإنسان الكامل، ورفعها إلى مستوى غير مسبوق، منتهياً إلى: البطل المطلق، الذى هو ترجمة روائية لمقولات علم الجمال وعلم اللاهوت. فإذا كان البطل فى «صيادون فى شارع ضيّق» ينتسب إلى المقدّس قائلاً بـ «قدس، لا نظير لها»، فإنّ «وليد مسعود» هو المقدّس بعينه، تحتضن ذاته أسراراً غامضة، وتحمل فى ذاتها أسرار السيد المسيح، الذى مشى فوق تراب فلسطين ذات مرّة. يأخذ «وليد» فى الرواية الصفات التالية : «هذا الغريب القادم من وديان مجهولة/أقل الناس أنانية وأكثرهم عشقاً/ التراب يتحوّل إلى ذهب بين يديه/لكلامه سهولة الهذيان، كانوا يتصورونه داهية من دهاة المال/ جذور الحقيقة فى جبال ووديان تغذيه سراً/ كان يريد لهذا المجتمع أن يحقق ذاته عن طريق العقل والحرية والإبداع/كان مدفوعاً بنزعة الإبداع الغامضة/ يكتب بحرارة اللاهوت/خيّل إلىّ أنّ المطر نفسه كان من تدبيره/أمس رأيته عائداً من دار وليد وكأنّه عائد من زيارة ولى أو بطل أسطورى/ كأنّه وهج حديد مصهور فى بوتقة ذكاء ونفاذ بصيرة واتزان/رجل عبر الماء ولم يغرق/ عبر النار ولم يحترق...»[1]

الغريب، المجهول، المعجز، الغامض، المبدع، الولىّ، البطل، الولى الأسطورى، هو ما لا يُعرف، وما لا تدركه العقول. إنسان ما هو بالإنسان، يفعل ما يرغب ويأتى فعله كاملاً... إنّه جملة من التناقضات المتصالحة، التى تتيح له أن يكون داهية من دهاة المال وظلاً غريباً لوديان سرية، وتسمح له أن يأتلف مع النار وأن يكتب بأسلوب له حرارة اللاهوت.

خلق الروائى بطلاً لا تناقض فيه، دون أن يدرك أنّ بطله المفترض يحتمل أمرين: إمّا أن يكون ميّتاً، فالموت هو الذى يحرّر الكائن من نقائضه، أو أن يكون مخلوقاً لا علاقة له بالبشر، فهو ملاك أو روح تجاور الآلهة. والواضح البسيط أن «وليد مسعود» لا وجود له، ولا إمكانية لوجوده، فهو أقرب إلى السماء التى يرى فيها العاجز المحروم ما يشاء من المعجزات والقوى الخيّرة. إنّه البطل ـ الحلم، الذى يتوق إليه إنسان أرهقته الكوابيس، بطل يتلاشى فى ساعة اليقظة، تاركاً الكابوس الصهيونى ثقيلاً كما كان، وكما سيكون.

أعطى جبرا فى «البحث عن وليد مسعود» بطلاً تحمل صفاته الذاتية ضمان انتصاره. تأتى الصفات من الثقافة ويجىء الضمان من الأرض الفلسطينية المقدّسة. قاده البحث عن ضمان الانتصار إلى الجمع بين بطولة الثقافة وبطولة المقدّس، أى بطولة الفرد وبطولة أرضه، منتهياً إلى الكامل المقدّس، كما لو كان فى فلسطين ما يضمن انتصارها. والواضح هو القول بـ «بداهة الانتصار»، ذلك أنّ المقدّس يهزم المدنّس، وأنّ وديان فلسطين ترعى الفلسطينى وتدرأ عنه الخطر، قريباً كان من أرضه أو بعيداً عنها. لا غرابة أن يسبغ الروائى على بطله صفات الغموض والغرابة والإبداع والإعجاز، التى تحيل على فلسطينى لا ينفصل عن أرضه ولا تنفصل أرضه عنه، فبينهما وحدة وتواصل لا ينقطع. فهو يذهب إليها حين يشاء، وهى تأتى إليه حين تريد. شىء قريب من الأفكار المتصوّفة، التى ترى الله فى الإنسان وترى الإنسان فى الله، فالفلسطينى هو أرضه، والأرض هى الإنسان الفلسطينى، فلا هو يغادرها ولا هى تغادره.

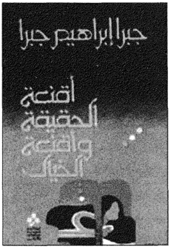
خلق جبرا، بطلاً تحريضياً، يحدث عن إمكانيات فلسطين، وعن بطولة غامضة قادرة على استعادتها. أنتج، فى النهاية بطلاً مسكوناً بالمفارقة، يدعو إلى القتال وينهى عنه فى آن : يدعو إليه مؤكداً وحدة الفلسطينى وأرضه، فمعنى الفلسطينى من معنى القدس التى ينتسب إليها، وينهى عنه، حين يخلق بطلاً منتصراً بذاته، ينوب قتاله عن قتال الفلسطينيين جميعاً. يفقد البطل التحريضى وظيفته قبل أن يقوم بها، بسبب بطل مطلق ينصر ذاته وغيره. ينقلب التحريض إلى تعويض، بقدر ما تنقلب المعركة إلى انتصار، قبل الذهاب إليها. يعبّر البطل الموغل فى كماله عن حلم العودة إلى أرض تبدوعودتها أمراً شاقاً.

طرحت رواية جبرا سؤالاً صحيحاً يقول: ما هو شكل البطل الفلسطينى القادر على

خلق جبرا، بطلاً تحريضياً، يحدث عن إمكانيات فلسطين، وعن بطولة غامضة قادرة على استعادتها

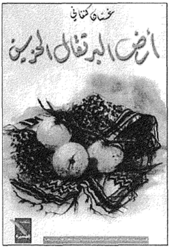
مواجهة التخلف العربي والعدوان الإسرائيلي؟ وصل السؤال إلى بطولة الثقافة مقترحاً جواباً صحيحاً، قبل أن يربكه المنفى ويمزج الكمال بالثقافة والثقافة بالمقدس. فالكمال، كما المقدس، وهما فكرتان دينيتان، تعطلان الزمن، وتحاصران الحركة والفعل. بل إنّ الكمال، الذى يمازجه المقدس، يساوى بين الكلمة و الشىء وبين الحلم والواقع، أو يساوى، باللغة الفلسفية، بين الإمكانية المجردة والإمكانية الفعلية. والمنتظر، فى الحالات جميعاً، زمن ذهنى قادم، تتحرك الرغبات فيه طليقة ولا تصطدم بما يكدرها. ولهذا ينهى بطل «صيادون فى شارع ضيق» عمله فى بغداد ويعود إلى أهله مطمئناً، ممتلئاً أملاً وتفاؤلاً. ويعود الفلسطينى فى «السفينة» إلى أرضه، ليزرع الأرض ويستمع إلى الموسيقا، مبتعداً عن التائهين الهاربين من أوطانهم. لا شىء فى النهاية لا تصرح به البداية، مادام الفلسطينى يحمل فى ذاته ضمان انتصاره، ولا شىء فى البداية لا يعد بالنهاية السعيدة. أما «وليد مسعود» فيدخل إلى فلسطين ويخرج منها حين يشاء، محصناً بأسرار غامضة. إنّه «الغريب القادم من وديان مجهولة»، تقول الرواية. و«الغريب الفلسطينى» غريب عن البشر العاديين لا عن أرضه، لأنّ «الوديان المجهولة» التى جاء منها تمده بأجنحة لا يراها أحد.

انشغل جبرا إبراهيم جبرا بسؤال الانتصار على العدو الصهيونى، فى شرط عربى متخلف لا يعد إلاّ بالهزيمة. دفعه سؤاله إلى الانتقال من شروط الانتصار المادية إلى معادلات رغبية، تعبر عن عزلة اللاجئ الفلسطينى المؤسية وعن ضرورة انتصار. انتقل فى سؤاله من المشخص إلى المجرد، ومن الواقع إلى الحلم، ومن السياسة إلى الإيمان. أخبر مساره عن أسى المهزوم، وعن أمل ضرورى ينتظر المعجزة. أعاده إيمانه الحزين إلى فلسطين، محاولاً أن يبرهن أنّ فلسطين تنصر فلسطين، دون حاجة إلى عون خارجى. عثر فى مجاز «الصخر» عما أراد، مساوياً بين الصخر وماهية فلسطين. يقول وديع عساف بطل رواية «السفينة»: «لقد جعلنا من «الصخر» سراً نتقاسمه فيما بيننا. قلنا إنّ الصخر يرمز إلى القدس: شكلها شكل الصخر، تضاريسها تضاريس الصخر.



والصخر على حافة كل طريق فى المدينة. أينما ذهبنا رأينا أناساً يكسرون الصخر لرصف الطريق، أو للبناء. مقالع الصخر حول المدينة. فلسطين صخرة تبنى عليها الحضارات، لأنّها صلدة، عميقة الجذور، تتصل بمركز الأرض. والذين يصمدون كالصخر يبنون القدس، يبنون فلسطين كلها. والمسيح من اختاروا من الناس ليكون خليفة له؟ سمعان الصخرة، والعرب، ما الذى ابتنوه ليكون من أجمل ما ابتنى الإنسان من عمارة؟ قبة الصخرة. وهؤلاء المزارعون فى المنحدر؟ فى الليلة المقمرة ترى رؤوسهم وأكتافهم ناتئة من حفرها، وإذ هى صخر! وبركة السلطان ما الذى نهواه فيها؟ الصخر الذى يحيط به الماء.... فَلْنَتَغَزَّل بالصخر..»[2]

يَتَغزّل بطل جبرا بما يود جبرا أن يتغزل به، لأنّ فى الصخر ما يخلق فلسطين المرغوبة وما يخلق البطل الذى تشتهيه فلسطين. فالصخرة، لغة، هى الحجر العظيم الصلب، والصاخر، لغة، هو صوت الحديد بعضه على بعض، وجاء فى الحديث النبوى: «الصخرة من الجنة». وفلسطين المخلوقة من الصخر جزء من الجنة، أو جنة أخرى، أرض إلهية، لا يستطيع الشر حيالها شيئاً. و«ابن الصخرة»، أى الفلسطينى، مخلوق مبارك على صورة أرضه، لا تحتّه الأيام، قوى ومخلص كـ «سمعان الصخرة»، الذى انتدبه المسيح خليفة له. عثر جبرا على إجابات أسئلته فى «الجنة»، التى هى مبتدأ الأحلام ومنتهاها.



٢ - غسان كنفانى وانبثاق الفلسطينى المقاتل:

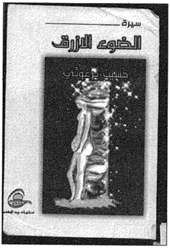
وحّد جبرا بين البطل، الحلم وحلم تحرير فلسطين. احتفظ غسان كنفانى (١٩٣٦ - ١٩٧٢) بالحلم وعهد بتحرير فلسطين إلى بطل مختلف، تخلقه التجربة اليومية القاسية، التى تعلّم اللاجئ الفرق بين الذل والكرامة، وأن الاصطدام المباشر مع العدو سبيل وحيد لاستعادة الكرامة المفقودة. اعتبر كنفانى أنّ الخروج من الوطن عار، وأنّ المخيّم صورة عن العار وتجسيد له، وأنّ الإنسان الحقيقى هو الذى يختار ويقرر ويرفض ما فرض عليه، وينتصر. حكاية واضحة محددة عناصرها: الخروج المهين من الوطن إلى المخيّم، التمرد على الذات وشروط المنفى البائسة، والكفاح المسلّح الذى يمحو عار الخروج بعودة مظفّرة.

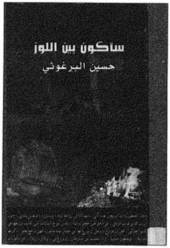
أقام كنفانى مشروعه الروائى، باستثناء روايته «رجال فى الشمس»، على أفكار قاطعة: التمرّد الضرورى الذى يكشف عن إمكانيات الفلسطينى المرئية واللامرئية، دور الكتابة التحريضية التى تنقل الإنسان المهزوم من الاستسلام إلى التمرد، الفاعلية الحقيقية للكتابة التى تميّز بين الموجود وواجب الوجود، والقادرة على نقل «واجب الوجود» من حيّز الأفكار إلى حيّز الواقع.

صاغ غسان أفكاره الروائية، التى قطع تطوّرها موت مبكر، مشدوداً إلى ثلاثة عناصر: عنصر أخلاقى يفصل بين الإنسان الزائف الذى يرضى بعاره والإنسان الحقيقى الذى يدافع عن كرامته حتّى الموت، وعنصر كتابى يعتقد أنّ الكلمات الصادقة قادرة على التحوّل إلى حقائق مادية، وعنصر ثالث يأتى من جهة العدو الذى وحّد بين المشروع السياسى والمشروع الكتابى، وبرهن أنّ الطليعة الأدبية مقدّمة للطليعة السياسية. اعتقد غسان، وهو يقرأ «الأدب الصهيونى»، بقوة الكلمات، صهيونية كانت أو معادية لها، وبدور الكلمة الصهيونية التحريضية فى نجاح المشروع الصهيونى فوق أرض فلسطين. يقول فى كتابه « فى الأدب الصهيونى»: «وسيقوم هذا الأدب، بدأب لا مثيل له، بمهمة مزدوجة: من ناحية المشاركة فى تعبئة اليهود عبر العمل على خلق جو عالمى للعطف على قضيتهم، ومن ناحية أخرى طمس كل ما من شأنه عرقلة «المشروع الصهيونى» ... والذى لا شك فيه أن ثيودور هرتزل كان أول من أعلن هذا الاتجاه بصراحة فى مطلع القرن العشرين، حين نشر روايته «الأرض الجديدة القديمة»، هذه الرواية التى استبقت، عند هرتزل نفسه، الصهيونية السياسية، وكانت حافزاً لقلب هرتزل «الفنان» إلى هرتزل «السياسى»...»[3]

تقول سطور غسان بأمرين: تحوّل الفنان، عبر الكتابة، إلى قائد سياسى، كما لو كانت الكتابة فعلاً خالقاً، تعيد خلق الفنان وما خارجه أيضاً، ودور الكتابة فى تحويل الأرض القديمة إلى أرض جديدة. يتعيّن الأدب، فى هذا المنظور، مرجعاً للسياسة، ويتعيّن «الأدب السياسى» مدخلاً لنقل «الأرض» من وضع إلى آخر. دفع هذا التصوّر، الذى يطرح أسئلة كثيرة، كنفانى إلى العمل السياسى، لا بمعنى التحزّب فقط، بل بمعنى ممارسة دور تنظيمى قيادى، ودفعه، فى الوقت ذاته، إلى كتابة رواية تجعل من الأرض المغتصبة أرضاً مستعادة. وما روايته: «ما تبقّى لكم» إلاّ نموذجاً لـ «الكتابة الخالقة»، التى تحوّل الأرض القديمة إلى أرض جديدة، بلغة صهيونية، وتحوّل الأرض المغتصبة إلى أرض محررة، بلغة فلسطينية.

استولد غسان بطله من عالم الضرورة، فعلى الفلسطينى أن يكون ما يجب أن يكون، وإلا كان إنساناً بائساً جديراً بالاحتقار





تسرد رواية «ما تبقَّى لكم» أحوال عائلة فلسطينية لجأت من يافا إلى غزة، حاملة معها عاراً مزدوجاً: عار الهرب من الوطن، وعار الحياة فى مخيم يفتقر إلى شروط الحياة. أضاف غسان إلى مأساة العائلة من حيث هى مأساة عامة، مأساة خاصة صادرة عن أوضاع ومصائر أفرادها: غياب الأب الذى قُتل دفاعاً عن أرضه، غياب الأم التى تاهت وانفصلت عن أبنائها، خالة عجوز ينتظرها موت وشيك، وأخت شبه «عانس» عبث بها فلسطينى «نتن» بلغة الرواية، عميل للعدو الصهيونى، وأخ صبى فى السادسة عشرة من عمره، يحنّ إلى أمه ويمقت أختاً اقترنت بخائن متعاون مع الصهاينة... تنتظر كل شخصية علاجاً، يعيدها من دائرة اللامعنى إلى دائرة تتسم بالصواب والانسجام. فالأب الشهيد ينتظر من ينتقم له، والأم الغائبة تتوقع من يعثر عليها، والأخت مخنوقة بخيار بائس لا يمكن القبول به، والأخ الصغير ممزّق لا يستطيع علاج ما يجب علاجه، وفلسطينى ينتظر مَن يعاقبه، وعدو صهيونى هو سبب هذه الأوضاع جميعاً. جملة من الأوضاع المتناقضة، يوزعها الروائى على جملة من الثنائيات الحادة: الأرض/المخيم، الوطنية/ الخيانة، الدنس/الطهارة، العجز/القوة، العار/ الشرف، الاستسلام التمرّد،...

تطرح الرواية، فى علاقاتها المختلفة، قضيتين أساسيتين: علاقة الإنسان بأرضه وعلاقة أرضه به، فخارج الوطن منفتح على جهنم، ووحدة العائلة الضرورية، لأنّ وراء العائلة المفككة جهنم أخرى. كل شىء خارج وضعه السوى، يتطلع إلى إنسان منقذ يعطيه خلقاً جديداً لا شواذ فيه. وشروط العائلة، كما ترسمها الرواية، لا تتضمن السوى ولا تعد به. يظهر فى هذه اللحظة دور الفنان - السياسى، ليسرد، حكائياً، ضرورة ظهور الإنسان السوى، الذى يعالج شذوذ وضع الأرض والعائلة معاً. اشتق جبرا بطله من الصخر المقدّس الذى لامسه المسيح، واستولد غسان بطله من عالم الضرورة، فعلى الفلسطينى أن يكون ما يجب أن يكون، وإلا كان إنساناً بائساً جديراً بالاحتقار.

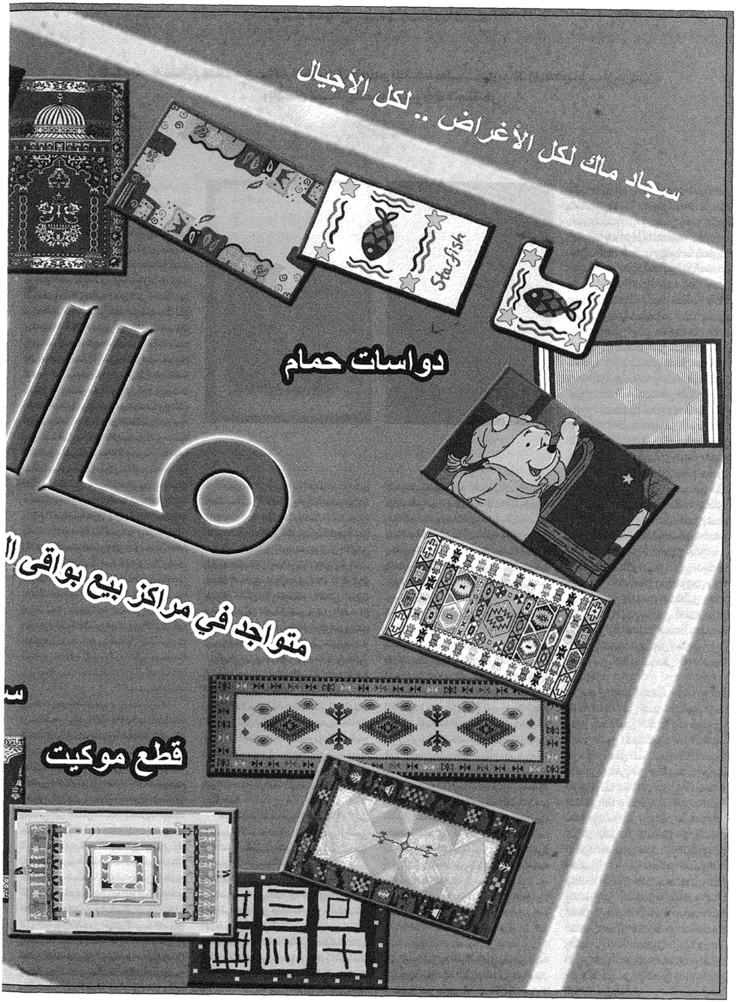
حين اشتق جبرا إبراهيم جبرا قوّة «الفلسطينى الأعزل» من صخر بلاده، كان يترجم، على طريقته، معجزة الانبثاق الذاتى، الذى يساوى بين الفلسطينى وأرضه، وبين الأرض الفلسطينية والمعجزة الإلهية. أخذ غسان كنفانى، بدوره، بمعجزة الانبثاق الذاتى، مستبدلاً بالصخر المقدّس الموروث قوّة إنسانية، تنبثق من داخل الإنسان حين يختار التمرّد ويدفن الرضوخ إلى غير رجعة. اعتقد غسان، فى مسرحيته «الباب»، التى ترفض كل ما هو خارج الإرادة الإنسانية، أنّ الإنسان الذى فاته أن يختار ميلاده قادر أن يختار موته، دون تدخّل قوّة خارجية. إنّ أسطورة الانبثاق الذاتى، التى يؤمن بها السياسى - الفنان، هى التى تعيد صياغة الصبى، كى يصبح مقاتلاً نموذجياً، يصرع الجندى الإسرائيلى فى الصحراء ويدفع أخته، فى اللحظة عينها، إلى قتل زوج «نتن» لا يليق بها.

لا يلتفت كنفانى، كما جبرا، إلى السببية الاجتماعية، التى تؤمّن الخنوع أو التمرّد مقترباً، وهو المثقف الثورى، من التصورات الدينية التقليدية، التى تدعو إلى أهداف كبيرة ولا ترى إلى الشروط الاجتماعية الموافقة لها. يقوم التصور الروائى، والحال هذه، بأمرين: تهميش الموجود وتأكيد واجب الوجود، الذى يستبدل بإمكانيات الواقع رغبات الكاتب والقارئ اللاجئ معاً، ويقدم نموذجاً حكائياً تربوياً، على القارئ أن يحاكيه، وأن ينقله من حيّز الكتابة إلى حيّز الواقع. وواقع الأمر أنّ الأديب الفلسطينى يحاكى الفنان الصهيونى، متعلّم منه ويقلّده ويحاول أن يحاربه بسلاحه. فمثلما أنّ الأدب الصهيونى يصيّر الأرض القديمة أرضاً جديدة، فعلى الأدب الفلسطينى أن يحوّل الفلسطينى اللاجئ إلى فلسطينى جديد مقاتل.

يحقق النموذج الكتابى، الذى قدّمه كنفانى، التطهّر الذاتى، فالكفاح المسلّح يغسل العار، والسكين التى تقتل الفلسطينى الخائن تعيد إلى المرأة المخدوعة شرفها المهدور. غير أنّ التطهّر الذاتى، وهو تتويج لأسطورة الانبثاق الذاتى، لا يتحقق إلا بـ «إنسان الكتابة»، أو بالإنسان كما تريده الكتابة، الذى هو شكل من أشكال «السوبرمان». صاغ جبرا، فى «البحث عن وليد مسعود» «سوبرمان» فلسطينياً، يشبه الولى، والبطل الأسطورى، واخترع غسان صبياً، معجزة، يهزم عدوه ويجمع العائلة المشتّتة من جديد. تصف الرواية تحوّلات الصبى - المعجزة فتقول: «طوال ستة عشر عاماً لفوا فوقه خيطان الصوف حتّى تحوّل إلى كرة. وهو الآن يفكّها تاركاً نفسه يتدحرج فى الليل».

توزّع الرواية حركة الصبى على ثلاث مراحل: مرحلة القيود التى تختزل الصبى إلى كرة يحركها الآخرون ولا تتحرك بذاتها، ومرحلة كسر القيود التى تجلب حركة طليقة، ومرحلة الفعل الحر الذى يفضى إلى الانتصار. يخلق التمرّد، الذى شاءته الرغبة الكتابية، الصبى من جديد: «كان صغيراً وشجاعاً بصورة لا تصدّق، وقد ظل ينظر بعينيه الحادتين إلى كل الرجال نظرة الند»، وبدا جسده الفتى تحت ثيابه متيناً ومتحفزاً كجسد قط برى»... صفات تجعله يقول: «سأتزوج حين أجمع العائلة من جديد فى بيت أفضل من هذا الجحر القمىء»... لا يعطى غسان، ظاهرياً، بطله المرغوب دفعة واحدة، كما يفعل جبرا، ذلك أنه يشتقه من الفعل المتمرّد الموزّع منطقياً على ثلاث مراحل: الاستسلام، المساءلة وبدايات الرفض، اليقظة المنتصرة. لكن منطلق الرغبة، أو حلم العودة، الذى يهمّش الواقع المعيش، يمحو الفرق بين البطلين مادام المطلوب، فى الحالين، بطلاً نموذجياً يقاتل العدو الصهيونى وينتصر عليه. تساوى «الشجاعة التى لا تصدّق»، التى ينسبها غسان إلى صبيه المتمرّد، «صلابة الصخر المقدّس»، التى هى صفة بطل جبرا. يلغى البطل المنتصر الفرق بين الحاضر والمستقبل، فالحاضر زمن مريض يعلن المستقبل عن شفائه، والمستقبل حاضر متمرّد على ماض مريض. تفصل الرغبة الحاضر والمستقبل فصلاً كاملاً عن الماضى محدثة، بشكل آخر، عن زمن ينبثق من ذاته، يشهد على حكاية سعيدة النهاية.

يقول الصبى المتمرّد: «سأتزوج حين أجمع العائلة من جديد» مساوياً، دون أن يقول بذلك، بين القائم وما سيجىء. تلغى «سين المستقبل»، فى الكتابة الرغبية، معنى المستقبل، لأنّ النموذج الكتابى التحريضى يبدأ وينتهى بواجب الوجود، بما يجب أن يزول وبما يجب أن يتحقق. لذا تبدأ الرواية باقتراب الليل: «صار بوسعه الآن أن ينظر مباشرة إلى قرص الشمس معلّقاً على سطح الأفق»، وتنتهى مع تراجع الليل وطلوع الشمس. الليل هو الاختبار الصعب الذى يكابده الصبى الفلسطينى، الذى يتدحرج فى الصحراء، ومطلع النهار إعلان عن نتيجة الاختبار: «وأضاء شعاع الشمس الضيّق المتسرّب من النافذة خطاً رفيعاً من الدم...» تقول الرواية إنّ الدم المراق فى مطلع الصباح هو دم الفلسطينى الخائن ودم الجندى الإسرائيلى معاً. ■


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى ال
قطع موكيت

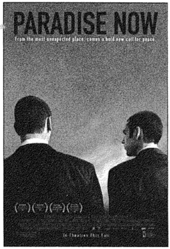

سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
دير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
دة صلى
www.maccarpet.com

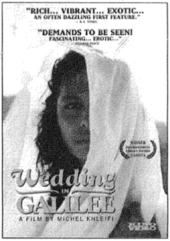
السينما الفلسطينية

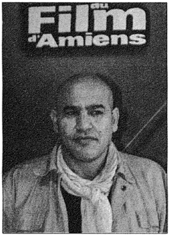
من «عرس الجليل» إلى «يد إلهية»

إبراهيم العريس









كانت أهمية «عرس الجليل»، تكمن في قوته التعبيرية وفي خروجه عن المألوف الفلسطيني. في ولوجه السينما. فن السينما، من الباب الواسع. ما عنى، تحديداً، أنه أوصل السينما الفلسطينية إلى نقطة اللاعودة

■■ حدث ذلك في دورة سنة ٢٠٠٢ لمهرجان «كان» السينمائي الدولي. وفي حفل الختام تحديداً. يومها كانت كل التوقعات تشير إلى أن فيلم «يد إلهية» لإيليا سليمان سيكون واحداً من الأفلام التي ستفوز بإحدى جوائز المهرجان. منذ عرض الفيلم قبل ذلك بأيام قال كثر إنه قد يفوز بالسعفة الذهبية. ولكن بعد ذلك راحت التوقعات تتدافع هبوطاً، ليس لأن ما عرض بعده في المسابقة الرسمية كان أفضل، بل لأن تساؤلاً ثار بسرعة حول ما إذا كان حقاً في إمكان مهرجان السينما الأول في العالم، والذي تتخابط فيه المصالح والحسابات، أن يعطي جائزته الكبرى لفيلم من فلسطين... أي من اللامكان؟ بالتدريج طغت هذه الفكرة وباتت الأمنية مقتصرة على مجرد فوز ولو صغير، يضع اسم فلسطين في أجواء احتفال يحضره ألوف السينمائيين والصحافيين والنجوم، ويتابع أحداثه عشرات الملايين من على شاشات التلفزة. والحقيقة أن هذه الأمنية تحققت وبأكثر مما توقعنا. ذلك أن الجائزة التي أعطيت لـ «يد إلهية» كانت ثاني أكبر جائزة في المهرجان، ليشكل ذلك رابع فوز كبير يحققه سينمائي عربي في «كان»، بعد السعفة الذهبية التي نالها «وقائع سنوات الجمر» (١٩٧٥) لمحمد الأخضر حامينا، وجائزة لجنة التحكيم الخاصة التي ذهبت سنة ١٩٩١ إلى اللبناني (الراحل بعد ذلك) مارون بغدادي، ثم خاصة جائزة الخمسينية الكبرى التي نالها يوسف شاهين سنة ١٩٩٧.

في حسابات «كان»، كان انتصار إيليا سليمان عن «يد إلهية» كبيراً. أما في حسابات السينما الفلسطينية فكان استثنائياً. فالحقيقة أنه كان يقال في الماضي أن من بين كل السينمائيين المتوجهين إلى مهرجان ما للمشاركة في مسابقة سينمائية معينة، كان الفلسطينيون الوحيدين الذين لا يتعين عليهم الشعور بأي قلق فهم سينالون جائزة بأي حال من الأحوال. لا سيما في تلك المهرجانات الكثيرة التي كانت ذات سمات نضالية وتتعاطف، بشكل طبيعي، مع القضية الفلسطينية بحيث يكون معيار الفوز سياسياً، لا فنياً إبداعياً.

ونعرف طبعاً أن جزءاً كبيراً من «أمجاد» السينما الفلسطينية بني على هذا النحو. ونعرف كذلك أن هذا لم يفد السينما الفلسطينية كثيراً، وإن كان أفاد سينمائيين كثراً تحركوا باسم فلسطين وحققوا المكاسب. ولكن سنة ٢٠٠٢، كانت أمور كثيرة تبدلت، وخصوصاً إذ راحت الأمور تتعلق بمهرجانات لا تلقي بالاً كثيراً للقضايا السياسية، حتى وإن شابتها في أحيان عديدة حسابات سياسية. لكنها، في «كان» لم تكن من النمط الذي يمكن لفلسطين أو سينماها أن يستفيدا منها. ومن هنا كان واضحاً أن إيليا سليمان حين تبارى بـ «يد إلهية» كان يتقدم من منطلق إبداعي، لا من منطلق نضالي. ومن هنا، أيضاً، نظرتنا إلى تلك اللحظة على أنها لحظة تاريخية. كانت بالأحرى، لحظة ولادة جديدة لسينما فلسطينية لا بأس من القول هنا إنها عرفت ولادات كثيرة قبل ذلك... ولادات حقيقية وولادات مستعارة حسب النظرة. لكن المهم في ذلك كله هو أن هذه السينما ولدت يومذاك من جديد، مع فوز «يد إلهية» في ذلك المهرجان العالمي، أشر إلى الفارق الأساس بين الولادات. وحتى ولو أنها لم تكن الولادة الحقيقية الأولى.

مهما يكن فإن هذه الولادة الحقيقية ليست بعيدة زمنياً، أو جغرافياً عن ولادة «كان»، حتى وإن كنا نعرف أن للسينما الفلسطينية تاريخاً طويلاً، يعود إلى ما قبل النكبة... إلى سنوات ولادة أول رغبة، في القدس، في تحريك الكاميرا لتصوير فيلم ما. بعد ذلك سارت تعرجات السينما الفلسطينية بشكل قد يبدو كلاسيكياً، وفي ترابط مع تعرجات القضية الفلسطينية نفسها: شرائط تسجيلية، سينمائيون في المنفى، رغبات تكبتها الجغرافيا والسياسة. ثم، تماماً كما أن الغرب بشكل عام حملوا أنفسهم «عبء» القضية الفلسطينية ورغبوا في حلها، أو الزحف باسمها، أو باستغلالها أو بتحويلها مشجباً (ودائماً حسب وجهة النظر)، حمل السينمائيون العرب «هم» السينما الفلسطينية بأشكال مختلفة، منها ما يرتبط بالنوايا الحسنة ومنها ما يرتبط بالرغبات التجارية. لكن النتيجة كانت أنه، كما تأخر إمساك الفلسطينيين أنفسهم، سواء أكانوا من الداخل أو من الخارج، بقضيتهم، تأخر إمساك المبدعين الفلسطينيين بسينماهم. من أجل فلسطين وباسمها حققت أفلام كثيرة. ثم لاحقاً حين قبض الفلسطينيون على قضيتهم، مع ظهور حركة فتح والتنظيمات اليسارية، ثم إمساك هؤلاء بمقدرات العمل الفلسطيني وتحديداً منظمة التحرير الفلسطينية، صار ثمة وجود لسينمائيين فلسطينيين وإن تواجدوا إلى جانب سينمائيين أجانب وعرب، أتوا ليعبروا دائماً عن وقوفهم السينمائي إلى جانب فلسطين. وعلى هذا النحو ولدت سينما فلسطينية، نضالية وغالباً أيديولوجية كانت مجرد عمل رديف للعمل العسكري والسياسي الفلسطيني. وعلى رغم كل الاختراقات التي حققتها هذه السينما، وصولاً إلى تبني كبار النقاد والسينمائيين في العالم لها، في زحمة سنوات النضال اليساري والتقدمي على صعيد العالم كله، كان كثر يشعرون أن السينما الفلسطينية لا تزال في حاجة إلى أن تولد... ولو من جديد. صحيح أن مخرجين عربيين كبيرين هما توفيق صالح (من مصر) وبرهان علوية (من لبنان) سوف يؤمنان هذه الولادة، عند بداية سبعينيات القرن العشرين، لكنها هنا أيضاً ستكون ولادة مستعارة، حتى وإن كان «المخدوعون» لتوفيق صالح، عن رواية لغسان كنفاني، و«كفر قاسم» لبرهان علوية عن رواية لعاصم الجندي. وحتى لو كان الفيلمان فلسطينيي الموضوع والأجواء. وفي الحقيقة أمن هذان الفيلمان المميزان - واللذان يعتبران دائماً من بين أفضل الأفلام العربية في تاريخ الفن السابع - مرحلة انتقال من سينما متقشفة سياسية أيديولوجية قطعت هي، مع الأعمال التجارية الروائية العربية التي تحدثت عن «مواضيع لها علاقة بفلسطين» (سواء أحققت في مصر مثل «فتاة من فلسطين» و«أرض السلام»، أو في لبنان مثل «كلنا فدائيون» أو «الفلسطيني الثائر» وما شابههما، أو في سورية...)، إلى السينما الفلسطينية الحقيقية التي كان عرض «يد إلهية» تتويجاً لها. فالولادة مع توفيق صالح وبرهان علوية كانت مستعارة تحديداً، على ضوء الولادة التالية التي كان لا بد لها أن تظهر ذات يوم. واللافت حقاً هو أن هذه الولادة التالية، إذا كانت قد قطعت مع كل التاريخ الذي مثلته السينما النضالية الثورية (من سينما غودار إلى مصطفى أبو علي، ومن غالب شعث إلى قاسم حول وجان شمعون...)، فإنها لم تبد - منذ بداياتها على الأقل - على قطيعة مع تجربتي توفيق صالح وبرهان علوية الانتقاليتين. غير أن هذه مسألة قد تحتاج إلى دراسة خاصة. أما هنا فإن همنا الأساس يظل منصباً على تلك اللحظة التي كانت في عرفنا، لحظة ولادة سبقت حفل اختتام مهرجان «كان» الذي توج «يد إلهية» ومعها اسم فلسطين في ملكوت السينما العالمية وليس في ملكوت النضال السياسي الأيديولوجي على الصعيد العالمي.

الاسم الواضح

تلك اللحظة حملت، في الحقيقة اسماً هو «عرس الجليل» ذلك الفيلم الفلسطيني الذي، في وراثة شبه مباشرة من «كفر قاسم» برهان علوية، سجل لحظة القطيعة الكبرى التي كانت السينما الفلسطينية تنتظرها لتعيش حياتها الجديدة. كان لـ «عرس الجليل» مهمة حققها بقوة: إعادة اختراع السينما الفلسطينية. وفي يقيننا أن تلك اللحظة كانت القابلة القانونية التي أولدت ربع قرن تالياً من تاريخ هذه السينما واضعة أفلامها البارزة في واجهة الأحداث السينمائية في العالم. والواقع إننا اليوم، إذ نستعرض تاريخ عقدين من الزمن (من ١٩٨٧ تاريخ ظهور «عرس الجليل»، وحتى اليوم) والنجاحات الأكيدة التي حققتها أفلام المخرجين الفلسطينيين خلالهما، سوف يدهشنا، وإذ أتى معظم هذه الأفلام كالبداية، كيف ان «القضية» برمتها لم تعرف قبل ذلك كيف تنتج فيلمها الكبير. حتى لحظة ظهور ميشال خليفي، مخرج «عرس الجليل». وتبدو قيمة



ولدت سينما فلسطينية، نضالية وغالباً أيديولوجية كانت مجرد عمل رديف للعمل العسكري والسياسي الفلسطيني

هذا السؤال مضاعفة إن نحن تذكرنا أن ميشال خليفي إنما أتى من الداخل. من فلسطين التي بقيت داخل فلسطين، أي من بين من يسمون في إسرائيل: عرب ١٩٤٨. أتى ميشال خليفي في لحظة كان قد بدأ يبدو معها أن القضية ذوت وكادت تختفي خلف المجازر والمساومات، المتبادلة المهمات، أتى ليصنع، ليس فقط الفيلم الفلسطيني الكبير، بل بدايات السينما الفلسطينية الحقيقية.

كانت أهمية «عرس الجليل»، تكمن في قوته التعبيرية وفي خروجه عن المألوف الفلسطيني. في ولوجه السينما. فن السينما، من الباب الواسع. ما عنى، تحديداً، انه أوصل السينما الفلسطينية إلى نقطة اللاعودة. بعده صار من المحتم على كل فيلم فلسطيني أن يفاجئ وأن يدهش. أن يخرج من الزمن الفلسطيني التقليدي والغائم ليدخل زمن العالم. للوهلة الأولى بدى فيلم «عرس الجليل» سوداوي النهاية... ولكن بعد إمعان، بدا أقل سوداوية. بدا هذا إذ وضح أن خليفي حاول ألا يقدم فيلماً «بطولياً» كما جرت العادة. حاول فقط أن يقدم رؤية من الداخل لشعب الداخل. لقضية الداخل.

وهذا ما جعلنا - يومها - نحس أننا نواجه أول فيلم روائي فلسطيني حقيقي، بالمعنى العلمي للكلمة. ومن هنا، لأن «عرس الجليل» تجاوز أحياناً ما كنا نخاله من المسلمات، انتابنا أمامه شعور بالغيظ والألم... لا سيما أمام التباسات فيه بدت جارحة، لنا نحن الذين كنا لا نزال نحمل يقينيات أوهامنا. كان جارحاً «عرس الجليل» لأنه وضع إصبعه على الجرح وأتى «خنجراً يمزق جسد التاريخ المريح» - حسب عنوان مقالتنا عنه، في حينه -.

كان «عرس الجليل» صدمة وباباً فتح على مصراعيه. وبين لحظة وأخرى صار اسم ميشال خليفي معروفاً على نطاق واسع. وهو على أية حال لم يكن مجهولاً. إذ انه كان برز قبل «عرس الجليل» بفيلم تسجيلي مميز هو «الذاكرة الخصبة» الذي أعاد موضعة القضية الفلسطينية برمتها في ارتباطها بالأرض والإنسان، وليس بالشعارات والسلاح. وبعد «عرس الجليل» كان على ميشال خليفي أن يتابع مسيرته، حتى وإن كان من الصعب القول إنه عرف، في أعماله التالية كيف يتجاوز قوة وحضور «الذاكرة الخصبة» و«عرس الجليل». بل يمكن القول إن «عرس الجليل» كان نقطة الضعف الأساسية في الأفلام - القليلة نسبياً على أية حال - التي حققها ميشال خليفي بعد ذلك، من «نشيد الحجارة» إلى «حكاية الجواهر الثلاث»، من دون أن ندنو هنا من فيلمه البلجيكي الصرف «أمر العمل اليومي».

ذلك أننا لو شاهدنا هذه الأفلام الأخيرة قبل «عرس الجليل» كان من شأننا أن نعتبرها - كما هي اية حال - أفلاماً مؤسسة لتلك السينما الفلسطينية «الجديدة» والتي سوف يواصل صنعها مخرجون - معظمهم من الداخل الفلسطيني وتحديداً من مدينة الناصرة - من طينة إيليا سليمان وهاني أبو أسعد وعلى نصار أيضاً. ولكن كذلك ابن المخيمات والجرح الفلسطيني المباشر رشيد مشهراوي، ثم المخرج الشاب الذي كان فيلمه الأول مثيراً للسجال، توفيق أبو وائل، صاحب «عطش». والحقيقة ان هذه الأسماء، إضافة إلى أسماء أخرى، ولكن غالباً في مجال السينما التسجيلية (نورما مرقص وليانا بدر وعلياء اراصقلي وصبحي الزبيدي وصولاً إلى عشرات الأسماء التي برزت خلال السنوات الخمس الأخيرة في مجال الفيلم القصير غالباً...) هذه الأسماء تشكل المتن الأساس لهذه السينما. ومع هذا تبقى لميشال خليفي قيمة الريادة ويبقى «عرس الجليل» الفيلم الفلسطيني الأول في هذا المجال. غير أن أهميته لا تتوقف هنا، بل - خصوصاً - في كونه انتزع الشعلة من «مخدوعي» توفيق صالح و«كفر قاسم» برهان علوية، ليؤشر، مرة وإلى الأبد، إلى أن العدو - الذي كان المتهم الوحيد في كل ما حقق من أفلام «فلسطينية» قبل ذلك - ليس هو الوحيد المسؤول عما آل إليه المصير الفلسطيني. العدو كان واحداً من أسباب عديدة منها تخلفنا العام وثرثرتنا وعجز جيل دائم لا يزال يتحكم بنا، حتى من قبره ومن أغوار تردده. كان هذا هو الموضوع الرئيس في «عرس الجليل»، وهو موضوع وصل إلى «عطش» الذي، في مقابل واقعية ميشال خليفي المريرة، حمل أسطورية ما، جعلها توفيق أبو وائل حاملة الدلالة الرمزية لطغيان الأب في فيلمه، وصولاً إلى «فضيحة» علاقته بابنته - العلاقة التي حملت بعداً كنائياً، مقابل علاقة الأب (المختار) في «عرس الجليل» بابنه، التي أتت واقعية حتى في «مزيتها ذات المغزى الاخصائي. من خصا يخصو..

للميدالية وجه آخر

مع هذه السينما، إذاً، بدا واضحاً الجانب الآخر من الميدالية، وبدا المسكوت عنه طويلاً، يقال بأصوات عالية، - هنا بصور «عالية» - ولكن في لغة سينمائية لم تأت على أية حال من العدم، إذ نعرف أن ميشال خليفي، مثلاً، خريج مدرسة بروكسل، التي خرجت عدداً لا بأس به من سينمائيي الطليعة العرب، خلال ربع القرن الأخير، من محمود بن محمود إلى برهان علوية، ومن مفيدة التلاتلي إلى نوري بوزيد.

رشيد مشهراوي لم يأت من هذه المدرسة، ولا حتى أتى من الداخل الفلسطيني. ومن هنا تبدو سينماه أكثر عفوية ثم أكثر ارتباطاً بجرح القضية كما تلوح من منظور ابن المخيم. ولعل هذا الواقع الاجتماعي، هو الذي حتم على مشهراوي أن يصعد سينماه بالتدريج، من الأسلوب العفوي الحرفي في أفلام قصيرة تكاد تبدو مباشرة في تعبيرها عن القضية، وصولاً إلى سينما أكثر تركيبية. ومع هذا ربما يصح القول إن حال مشهراوي مماثلة لحال خليفي: كلاهما يمكن النظر إلى عمله الطويل الأول على أنه أحسن أعماله (الروائية على الأقل، طالما أن خليفي سيعود ويحقق مع الإسرائيلي المنشق إيغال سيفان فيلم «الطريق ١٨١» التسجيلي، الذي سيخترق تابوهات كثيرة، لن نتحدث عنها أو عنه هنا طالما أنه فيلم صنع أصلاً للتلفزة ونكتفي بالقول إنه فيلم سبر، انطلاقاً من وجهتي نظر تمثل كل منهما جانباً من الصراع ومن خط الطريق الفاصلة بين عرب فلسطين ويهود إسرائيل، تبعاً لخط تقسيم١٩٤٧..، كيف يعيش ويفكر الجانبان بعد خمسين عاماً على التقسيم وأكثر). إذ، حتى وإن كان مشهراوي قد حقق نحو نصف دزينة من الأفلام بعد روائيه الطويل الأول «حتى إشعار آخر»، فإن هذا يبقى، فنياً وتعبيرياً وحتى سياسياً، أفضل أعماله وواحداً من أفضل الأفلام التي حققتها السينما الفلسطينية الجديدة في تاريخها القصير حتى الآن.

لقد أتى «حتى إشعار آخر» بعد سنوات قليلة من المفاجأة التي شكلها «عرس الجليل»، إشراقة مدهشة. أتى يومها ليتحدث عن غزة، في وقت كان فيه الناس جميعاً يتحدثون عن غزة. لكن غزة رشيد مشهراوي لم تكن تشبه غزة الآخرين. تلك كانت سياسية. أما غزة المشهراوي فأتت بالأحرى، شبيهة به وبعرين، فتاة الفيلم الآتية من داخل الداخل، والتي ترسخت منذ ذلك الحين بطلة دائمة لأفلام مشهراوي ولحياته. إذاً، غزة في «حتى إشعار آخر» تبدو مدينة إنسانية لا تقتات من الشعارات، بل تظهر وكأنها تعيش بعيداً من التاريخ المهزوم والمأزوم والمزدحم. إنها هنا في هذا الفيلم «حتى إشعار آخر» مدينة تعيش آخر لحظات الاحتلال وأهلها يتعايشون بهدوء وتوتر متتاليين مع تلك اللحظات في وحدة مكانية وزمانية، وعبر أسلوب بريختي. عبر تصوير شريحة من الحياة اليومية تنهل من ثورنتون وايلدر كما من بريخت على أي حال، أعاد رشيد مشهراوي في «حتى إشعار آخر» اختراع سينما فلسطينية معينة، سينما تقول العاصفة في قلب الهدوء، وتنهل موضوعها من أفئدة البشر وتصرفاتهم الصغيرة ومن خصوصية المكان، وفي اعتقادنا أن هذه الخصوصية هي العنصر الأساسي للفيلم، إذ هنا حاول رشيد مشهراوي أن يستملك تلك الجغرافيا «الجيتوية» التي كانت لفترة من الزمن طويلة، حكراً على يهود المدن المعادية، فإذا كانت زوجة الرحالة، ريتشارد بورتون تصف لنا كيف تسللت وزوجها في مدينة الخليل في القرن الفائت إلى داخل «جيتو» يهودي حيث ينفتح باب صغير على عالم بأسره، وترتبط البيوت والشرف والغرف والأسطح ببعضها البعض مما شكل ذلك «العالم على حدة» الذي صهر وحدة اليهود وتصميمهم، فإن عالم «حتى إشعار آخر» يستعيد الصورة لحسابه، وهو إذ يلغي علاقة العائلة أسيرة بيتها بالعالم الخارجي الخاضع لسيطرة الإسرائيليين، عن طريق مدخل البيت الرئيسي، يخلق عالماً موازياً، ساحراً، أليفاً عبر النوافذ المنفتحة على بيوت الجيران، على الأفق الفلسطيني الفسيح، حيث تعج الحياة كلها هناك. وفي اعتقادنا أن هذا البعد

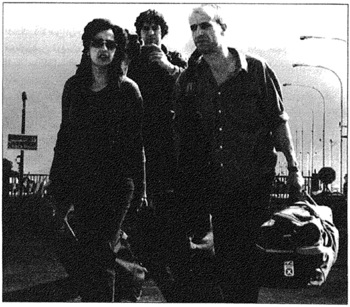
المكانى كان هو هنا، بعد «عرس الجليل» وحتى بعد «كفر قاسم»، العنصر الأساس فى سينما فلسطينية باتت تخترع كل مرة من جديد. والحقيقة أن فى هذه النقطة تنتمى سينما مشهراوى إلى سينما خليفى وأن المقارنة تتوقف هنا. وهذا ما أكدته ثلاثة أفلام تالية حققها مشهراوى هى: «حيفا» و«تذكرة إلى القدس» وأخيراً «الانتظار». فى الأول حيفا هو اسم الشخصية المحورية فى الفيلم (لعب الدور بتألق محمد بكرى فنان الداخل الذى بعدما أدى أدواراً مهمة فى السينما العالمية وحتى الإسرائيلية المنشقة. وبعدما ساهم فى أدوار رئيسة فى السينما الفلسطينية الجديدة تحول مخرجاً تسجيلياً ليحقق عبر «جنين... جنين» عملاً أقلق الإسرائيليين ودفعهم إلى محاربته محلياً وخارجياً). وهو إذ يكنّى باسم المدينة التى يبدو أنه جاء أصلاً منها، يعيش فى مخيم جباليا نصف مجنون/ نصف فيلسوف. لقد وفق مشهراوى (ومعه بكرى) فى رسم هذه الشخصية الرمزية، لكن استخدامها فى سياق الفيلم لم يروِ ظمأ الذين كانوا لفرط إعجابهم بـ «حتى إشعار آخر»، ينتظرون من مشهراوى تجاوزاً ما لذلك الفيلم. المؤسى أن تالى مشهراوى وهو «تذكرة إلى القدس»، على رغم فكرته الجميلة وتجديده فى مجال العلاقة مع رؤية القضية الفلسطينية - يرى إليها من خلال نشاط وجهود عارض أفلام سينمائية يدور من مدينة إلى مدينة تحت الحصار، كى يعرض أفلاماً سينمائية لشعب يبدو متعطشاً لذلك - لم يروِ ذلك الظمأ. لقد كان من شأن هذه الفكرة أن تنتج عملاً رائعاً، لكن شيئاً ما، بلادة ما، أسقطت الفيلم فى فخ لغة خطية وضيعت على مشهراوى فكرته وهو نفس ما سيحصل مع فيلمه التالى «انتظار» الذى يدور بدوره من حول فكرة لافتة (محاولة تجميع فريق عمل فلسطينى آتٍ من ديار شتات عديدة، تتوقف به السبل والقمع الإسرائيلى والبلادة العربية، عند الحدود لينتظر إلى ما لا نهاية). غير أن المشكلة كمنت هنا أيضاً فى أن السيناريو وجمود مشهراوى عند لغة سينمائية كانت قد باتت فى حاجة إلى تجديد كبير، نسفا فكرة هذا الفنان من أساسها، وضيعاها فى ثنايا همومه السياسية المباشرة.

ما بعد الحداثة

هذا الافتقار إلى التعاطى مع تجديد فى اللغة السينمائية لا ينطبق على إيليا سليمان، ابن مدينة الناصرة، الذى عاش روحاً من شبابه فى الولايات المتحدة حيث درس السينما، إخراجاً وتمثيلاً، وعايش انتفاضة السينما الأميركية المستقلة. فمنذ فيلمه القصير الأول الذى وصل إلى المتفرجين، وكان جزءاً من فيلم جماعى عربى حول «حرب الخليج» أنتجه الراحل أحمد بهاء الدين عطية، بدا واضحاً أن سليمان، حتى وإن كان ينتمى فكرياً وسياسياً إلى واقعه العربى الفلسطينى - ولكن انطلاقاً من نظرة حادة فى نقدها، سوف يُكتشف لاحقاً وبالتدريج أنها النظرة الأكثر صواباً -، فإنه ينتمى إلى ما هو جديد فى السينما الطليعية العالمية. بكل بساطة يمكننا أن نقول إن سينماه، كما عبر عنها حتى الآن فى أعماله - القليلة نسبياً خلال ما يقرب من عقدين من الزمن -، هى سينما ما بعد الحداثة. فأفلام مثل «سجل اختفاء» ثم «يد إلهية» مروراً بـ «سيبر فلسطين»، وصولاً إلى مشروع يعمل عليه حالياً ليحاول فيه أن يقدم خمسين عاماً من تاريخ فلسطين من خلال حكاية والديه، هذه الأفلام خرجت منذ زمن بعيد من شرنقة اللغة المحلية، حتى وإن ظل موضوعها محلياً - فلسطينياً بامتياز. فى هذا الإطار يمكن القول إن سليمان يبدو نسيج وحده فى مجال تجديد السينما الفلسطينية، لغة وشكلاً. ولئن كان هذا واضحاً من خلال فيلمه القصير الذى أشرنا إليه وعنوانه «مقدمة لنهايات جدال»، فإنه ترسخ أكثر فى تجربته فى «سجل اختفاء» ذلك الفيلم (الروائى؟) الطويل الذى، حين عرض للمرة الأولى عربياً فى مهرجان قرطاج التونسى، أثار سجالات، ليس على فنيته، بل لأن «الجمهور اكتشف» أن الفيلم نال دعماً مالياً من صندوق حكومى إسرائيلى. يومها وأمام الصخب كان رد سليمان بسيطاً: «أنا جعلتنى الظروف والهزائم العربية مواطناً إسرائيلياً. وأنا وأهلى ندفع الضرائب منذ نصف قرن تقريباً. لم نسمعكم تحتجون على ذلك. لكننى حين استعدت أموالى من الحكومة الإسرائيلية لأحقق فيلماً عن فلسطين أجدكم غاضبين». كثر فهموا يومها جدلية هذا الموقف. واستعادوا مع الفيلم علاقة كان الموقف الأيديولوجى شوهها وأخفاها.

ومنذ ذاك بات «سجل اختفاء» يعتبر، إلى جانب «عرس الجليل» و«حتى إشعار آخر»، وفى انتظار «يد إلهية» لسليمان نفسه، ثم «الجنة الآن» لهانى أبو أسعد، مساهمة السينما الفلسطينية الروائية فى تجديد دم السينما العربية وشبابها. تماماً كما سوف تعتبر أفلام مى مصرى، «الفلسطينية» منها على الأقل، تجديداً وترسيخاً لمدرسة متقدمة فى السينما التسجيلية العربية، كما سوف نرى.

عندما عرض «سجل اختفاء» للمرة الأولى، وقع إلى حد ما ضحية فكر أيديولوجى مسبق، لكنه وقع أيضاً ضحية جدته ولغته السينمائية المستقلة التى بدا واضحاً أنها لا تنتمى إلى أى سائد فى السينمات العربية، بل إلى المحاولات التجريبية التى تعلن دون مواربة ارتباطها بتيار مجدد لسينما المؤلف. وكذلك بأسلاف لهذا التيار من اليابانى أوزو، إلى الإيطالى أنطونيونى والألمانى فندرز والأميركى جارموش. ونحن لئن كنا نذكر هذه الأسماء هنا فليس الأمر مصادفة، لأن الإحالة إلى سينما هؤلاء واضحة فى «سجل اختفاء» بل تكاد تكون عنصراً أساسياً من عناصره. ومن هنا بسبب إغراق الفيلم فى مرجعيته السينمائية، ولكن كذلك فى مرجعيته الموسيقية والأدائية وفى ارتباطه بالسينما كما كان يمكن تصورها فى سنوات التسعين، لم تكن قراءته سهلة. ومنذ الآن لا بد أن نقول إن فيلماً تجديدياً إلى هذا الحد كان يتطلب قراءة تجديدية من الواضح أنها لا تتوافر، حتى الآن، لدى ما يمكن أن نطلق عليهم اسم الجمهور العريض.



ولكن ما هو «سجل اختفاء»؟ هو قبل أى شىء آخر يوميات كتبها بالكاميرا مخرج فلسطينى (إيليا سليمان) يعود إلى فلسطين ليرصد ما تغير فيها بعد السلام أملاً فى أن يحقق فيلماً عنها، لكن زمن الفيلم ينتهى من دون أن يتمكن إيليا سليمان من تحقق فيلمه. ومن هنا أتى الفيلم فيلماً عن الفيلم، أو بالأحرى عن اللافيلم. ولذلك إذا اعتبرنا أن هذا العمل يتميز بوحدته العضوية التامة، حيث يمثل كل عنصر فيه جزءاً منه، ويرتبط فيه الشكل بالمضمون ارتباطاً لا فكاك فيه، لا يعود عنوان الفيلم نفسه ترفاً، بل جزءاً أساسياً من لعبته، وإن كان فعل الاختفاء يظل غامضاً: أهو اختفاء الفيلم المطلوب تحقيقه، أم اختفاء فلسطين، أم اختفاء الإسرائيليين؟ عن أى اختفاء يتحدث العنوان وبالتالى الفيلم كله؟

الجواب مفتوح. فإيليا سليمان فى هذا الفيلم لا يتوخى العثور على إجابات وبالطبع لا يتوخى الوصول إلى أى يقين. إنه يضع العلامات ينشرها فى فيلمه على شكل صور وأغنيات ولقاءات وتصرفات وأحداث غامضة وشخصيات تتأرجح بين الطبيعة والكاريكاتورية وأماكن... خاصة، ولحظات تعد ثم لا توصل إلى أى مكان. وذلك لسبب بسيط وهو أن المخرج العائد إلى عكا والناصرة ليرصد حال الناس بعد سلام أوسلو، لم يرصد أى تغيير: الملل، السكوت اليومى، الفراغ المحيط والمحبط، الأخلاق بغثها وسمينها، العلاقات الاجتماعية شبه المفقودة لدى شريحة من الفلسطينيين (حاملى الهوية الإسرائيلية من فلسطينيى احتلال ١٩٤٨). ولربما كان التغير الوحيد، الذى لم يرصده الفيلم بأكمله، وإن كان أبقاه مكبوتاً مضمراً، هو أن الناس فقدت حتى الذاكرة، حتى الحلم. وكأن السؤال الذى طرحه أنطوان شماس (صاحب رواية «عربسك») غداة إعلان ياسر






«الجنة... الآن» اختار أن يطرق الموضوع مباشرة، من هو الانتحارى؟ كيف يصبح قنبلة متحركة، جاعلاً من جسده، سيارة «مفخخة»؟

عرفات قبل سنوات عن قيام الدولة الفلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل وفحواه: «أى هوية لنا، نحن عرب إسرائيل، فى صباح اليوم التالى؟»، كأن هذا السؤال انتقل فجأة من حيز النظرية، إلى حيز الفعل ففاجأ أصحاب العلاقة وأسكتهم.

فى اختصار، كان واضحاً أن «سجل اختفاء» أتى لا يشبه أى سينما فلسطينية أو عربية من قبله. ولقد تساءل كثر يومها، من الذين أحبوا الفيلم وأغواهم أسلوب سليمان، عما إذا كان سيكون فى إمكانه تجاوزه؟ بعد أعوام قليلة جاء الرد إيجاباً وبالتحديد فى «يد إلهية»، هذا الفيلم الذى كرس إيليا سليمان سينمائياً ما بعد حداثياً بامتياز وفتح له الآفاق. وأيضاً من خلال «حكاية» ذات علاقة مباشرة بهمه الأساس: القضية الفلسطينية وما يدور من حولها. وهذه المرة أيضاً وأيضاً من خلال لعبه الدور الرئيس - والصامت تقريباً - دور العاشق المتأرجح بين مدينته والقدس والسلام والحواجز الإسرائيلية وياسر عرفات.

من جديد نجدنا هنا أمام فيلم لا يمكن وصفه كتابة. فهو - وحتى أكثر من «سجل اختفاء» - يبدو سينمائياً خالصاً، جوهره سياسى، إنما مرجعيته سينمائية للبعد البصرى فيها الدور الأساس، حيث من الواضح أن إيليا سليمان يغرف من كل ذلك التراث السينمائى الممتد من السينما الصامتة (باستر كيتون) إلى أفلام النينجا اليابانية. كل هذا حاضر فى هذا الفيلم كما لو أنه يريد أن يقول: ترى أوليس فى إمكاننا أن ندخل فلسطين زمن العالم، من خلال إدخالها زمن سينما العالم؟

هذا الهم نفسه يكاد يكون هم هانى أبو أسعد، الذى هو بدوره ابن الداخل ومدينة الناصرة تحديداً. هانى الذى درس السينما حيث يعيش الآن معظم وقته، فى هولندا، بدأ أول الأمر منتجاً لأفلام سينمائيين فلسطينيين آخرين ومنهم رشيد مشهراوى، قبل أن يتحول إلى الإخراج - أفلاماً قصيرة أول الأمر ثم روائية طويلة بعد ذلك -. وحال هانى أبو أسعد مع سينماه، تشبه كثيراً حال زملائه: سينما ولدت قوية وجابهت الواقع الفلسطينى فى شكل غير تقليدى. وسينما عثرت على تمويلها ونجاحها فى الخارج، ولم تنل أى دعم حتى الآن من أية جهة عربية.

فى رصيد هانى أبو أسعد حتى اليوم فيلمان روائيان طويلان، فرض أولهما حضوره فى مهرجان «كان»، فيما تألق الثانى فى مهرجان برلين. الأول هو «عرس رنا» والثانى «الجنة الآن». من ناحية اللغة السينمائية تنطبع سينما أبو أسعد، وعلى الأقل من خلال هذين الفيلمين، بالكلاسيكية نفسها التى تطبع سينما ميشال خليفى. وهى كلاسيكية معاصرة لكنها بعيدة عن التجريبية. بالنسبة إلى أبو أسعد، الموضوع هو المهم. ولقد تمكن فى الحقيقة من أن يقدم فى الفيلمين موضوعين قويين، جددا فى موضوعات السينما الفلسطينية، قدر تجديد إيليا سليمان فى لغة هذه السينما.

وإذا كان هانى أبو أسعد حاول أن يقدم حكاية مقدسية، تكاد تكون تقليدية إنما فى أفق سجالى اجتماعى جديد فى «عرس رنا»، من خلال الصبية رنا التى تريد أن تتزوج من حبيبها الممثل الذى لا يرضى عنه أبوها، فتجابه فى سبيل حبها، غضب الأب ولكن أيضاً بلادة الحبيب وسلبيته، قبل أن يجابه الجميع، القمع الإسرائيلى والحواجز المتتالية التى تقطع شرايين ما تبقى من فلسطين (وهو موضوع يتكرر كثيراً فى السينما الفلسطينية)، فإنه - أى أبو أسعد - فى «الجنة الآن»، وصل إلى موضوع أكثر جراة بكثير. فهذا الفيلم أتى، ولكن على طريقته الخاصة ليضاف إلى سجل سينما فلسطينية، شابة وحيوية ومتميزة فنياً أيضاً، راحت تفرض حضورها بقوة على مهرجانات السينما فى العالم الأوروبى على الأقل وتنتج تحفاً صغيرة تحمل حيناً توقيع ميشال خليفى وحيناً إيليا سليمان أو رشيد مشهراوى أو مى مصرى أو توفيق أبو وائل. بيد أن الصورة هذه المرة تختلف لأن «الجنة... الآن» نفسه فيلم مختلف. مختلف فى موضوعه الجديد، والراهن الخارق، مختلف فى ديناميكية لغته السينمائية، ومختلف فى قدرة مخرجه على إدارة ممثليه بحرفية مدهشة، مختلف حتى بترجمة ردود الفعل التى يجتذبها. فهنا تحت دائرة التعاطف المسبق يجد المتفرج نفسه أمام عمل يجمع الدراما بالتشويق، السياسة بالكوميديا، الواقع بالتأمل الفكرى. وكل هذا من حول موضوع يمس جوهر ما يثير اهتمام العالم أجمع: «موضوع الإرهاب» كما يطلق عليه فى الغرب. فـ «الجنة... الآن» اختار أن يطرق هذا الموضوع، مباشرة ومن أوسع أبوابه، من هو الانتحارى؟ كيف يصبح قنبلة متحركة، جاعلاً من جسده، سيارة «مفخخة»؟ لماذا يصبح انتحارياً، وليس من ناحية الدافع السياسى والدينى فقط؟ كيف يجند؟ هل هو إنسان من لحم ودم أم أنه مجرد ماكينة قتل؟ ثم ما هى مشاعره الخاصة إذ يقدم على ما يقدم عليه؟

هذه الأسئلة التى من الواضح أن قلة من الناس تطرحها أو تتجرأ على طرحها، جعل منها هانى أبو أسعد، مركز الصدارة فى فيلم، كان عليه فى نهاية الأمر أن يسير على حبل مشدود. إذ أن كل ما يمس هذا الموضع يبدو - قبلياً - من المحظورات أو المسكوت عنه. والمشى على الحبل المشدود، هو النتيجة المنطقية لرغبة قول ما لم يكن يقال. حيث إن الإنسان، فى الانتحارى، يختفى عادة بين أثيرية نظرة تطهره تماماً فى أعين مؤيديه، وبين شيطنة هى نصيبه لدى ضحاياه أو أعدائه. ومن الواضح أن هانى أبو أسعد، اختار ألا تكون نظرته لا هذه ولا تلك. اشتغل على التفاصيل الصغيرة. بنى حبكة درامية ذات خط تشويقى. وأتى بممثلين متميزين ليقدم فيلماً يمكن، فى قشرته الأولى التعامل معه على أنه فيلم مغامرات ذو مواقف تقترب أحياناً من الكوميديا اللطيفة، وتغوص غالباً فى لغة أدنى إلى الوثائقية.

وهذا الأمر الأخير ليس جديداً على هانى أبو أسعد، إذ نعرف كيف أنه فى فيلمه السابق والأول «عرس رنا» قدم من خلال بحث رنا عن خطيبها، تفاصيل الحياة اليومية فى القدس. هذه المرة تنتقل كاميرا أبو أسعد إلى نابلس... وبدل رنا لدينا خالد وسعيد، شابان فلسطينيان أصبحا فجأة متعطلين من العمل. وها هو أستاذ المدرسة الموقر وهو أحد قادة تنظيم إسلامى يمارس النضال من طريق تجنيد الانتحاريين وإرسالهم إلى المدن الإسرائيلية، ها هو يختارهما للقيام بعملية انتحارية مزدوجة فى تل أبيب. حماسة الشابين تبدو كبيرة أول الأمر... ولكن سرعان ما تبدأ الشكوك تساور أحدهما فيما يبقى الآخر على حماسته، قبل أن تحدث نكبة فى الاندفاع لاحقاً. المهم الآن أن الشابين يتلقيان كل ضروب التمهيد والإعداد النفسى واللوجستى والدينى متقبلين، بتفاوت فى المشاعر، فكرة أن الساعات الأربع والعشرين المقبلة هى آخر ما سيعيشان.

الخائن والبطل

يرصد الفيلم، إذاً، تلك الساعات، حيث مطلوب منهما ألا يخبرا أحداً بالطبع، ولا حتى عائلتيهما بما هما مقبلان عليه. وهما خاضعان طوال تلك الساعات الحادة إلى رقابة صارمة. وإذ يحين وقت التوجه إلى تل أبيب، حيث سيكون فى انتظارهما متواطئ يعمل بالأجرة مع التنظيم - وهو اليهودى الوحيد فى الفيلم - تُركّب القنابل على جسدى سعيد وخالد وقد أقفلت فى شكل معقد يجعل من المستحيل على أى كان فكها. لا يفكها إلا الذى ركبها... ما يجعل مفعولها حتمياً... على الأقل بالنسبة إلى الانتحاريين. وفى اللحظة المخطط لها من جانب زعيم التنظيم، ومن بعد مشاهد طقوس مرعبة حقاً تنتهى بمشهد رمزى يتناول فيه الشابان طعام العشاء، مع ١٢ من أفراد التنظيم (العشاء الأخير للسيد المسيح ليس بعيداً هنا)... ينطلقان ويعبران حاجز الشريط الفاصل بين الضفة الغربية وإسرائيل. ولكنهما ما إن يعبرا أمتاراً قليلة متنكرين فى ثياب عرس للتمويه وقد حلقا ذقنيهما، حتى يجدا نفسيهما فى مواجهة دورية إسرائيلية، فيهربان ليفترقا منذ تلك اللحظة كل فى طريق. وإذ يعود خالد إلى الخلية، يصبح زعيم التنظيم بالسؤال عما إذا لم يكن سعيد هو الخائن الذى جعل الدورية الإسرائيلية تصل.

ومنذ تلك اللحظة يتخذ الفيلم

خطوطاً عدة أبدع هاني أبو أسعد في التقاطها والسير بها حتى نهاية الفيلم المفتوحة: خط السجال مع الفتاة الفلسطينية - المغربية التربية سهى، حول جدوى هذا كله. خط البحث عن سعيد. خط التبدل الذي يحصل لدى خالد واكتشافه برودة الزعامات في التعامل مع المناضلين وصولاً إلى اتهام هؤلاء سعيداً بالخيانة لأن أباه أصلاً كان «متعاوناً». وخط محاولات سعيد إكمال مهمته، ليس عن اقتناع تام وإنما عن يأس، وربما لدوافع عميقة لديه، هو الذي كانت نظراته منذ اختير للمهمة تقول كل ذلك التمزق الذي يعيشه المواطن العربي العادي البسيط تجاه ذلك النوع من العمليات وجدواها...

في اختصار «الجنة... الآن» ثاني أعمال هاني أبو أسعد فيلم كبير وجاد... فيلم يجمع المهارة التقنية بالصواب السياسي... من دون أن يزعم إيجاد الأجوبة لكل الأسئلة المطروحة. وهاني أبو أسعد يؤكد على هذا ويقول إنه يكفيه طرح الأسئلة التي لا يريد أحد أن يطرحها حقاً... الأسئلة التي آن الأوان لكي تطرح من دون أفكار مسبقة وذاتية مفرطة... لأن هذين سيقطعان الحبل المشدود إرباً في نهاية الأمر.

وإذا كنا حتى الآن قد تناولنا السينما الروائية الفلسطينية أو بعض علاماتها البارزة، على الأقل، فإن الوقت قد حان حتى نختم مع سينما قد تكون تسجيلية، لكنها من الخصوصية بحيث يسهل ضمها إلى الروائية كما سنرى. وهذه السينما هي سينما مي مصري التي تحمل «الفيلموغرافيا» الخاصة بها، منذ أواخر سنوات الثمانين من القرن الماضي وحتى اليوم، أربعة أفلام حققتها وحدها كمخرجة، بعدما حققت مجموعة أفلام أخرى شراكة مع زوجها المخرج اللبناني جان شمعون. ومن بين الأفلام الأربعة واحد يتحدث عن - ومع - السيدة حنان عشراوي، يمكن الآن وضعه جانباً، طالما أن الأفلام الثلاثة المتبقية تبدو، إلى حد كبير، مترابطة في ما بينها لتشكل ما يشبه الثلاثية. ويزيد من حدة هذا الترابط أن المحور الذي تدور من حوله هذه الأفلام - ولو في قراءتها الأولى - هو الأطفال: أطفال فلسطين من الذين يعيش بعضهم في نابلس والبعض الآخر في مخيمي الدهيشة في فلسطين وشاتيلا في لبنان. والأخير بين أفلام هذه «الثلاثية» هو «أحلام المنفى» الذي تأخرت مي كثيراً قبل أن تحقق من بعده فيلمها التالي الذي أتى سياسياً ولكن لبنانياً، ما يجعلنا ميالين إلى وضعه خارج السياق الذي يهمنا هنا.

الأفلام التي نتحدث عنها هنا، وهي «أطفال جبل النار» و«أطفال شاتيلا» وأخيراً «أحلام المنفى»، تنتمي من الناحية الشكلية إلى «السينما التسجيلية»، حتى وإن كانت مي المصري نفسها ترفض هذه التسمية لأنها لا ترى أنها مخرجة تحمل كاميرا «تسجل» بها واقعاً ما. وهذا صحيح، بالطبع، ذلك أن أفلام مي المصري لا تنتمي قطعاً إلى ذلك النوع السينمائي الذي يهمه أن يصور الواقع، حتى وإن كانت النتيجة التي يراها المتفرج في نهاية الأمر على الشاشة، ولمدة ساعة عرض الفيلم، صورة لواقع ما. فكاميرا مي المصري ومواضيعها واشتغالها على هذه المواضيع هي أكثر مراوغة وذكاء من أن تكتفي برصد واقع معين. وليست المسألة، حتى، مسألة توليف كما يحدث في أفلام تصور عشرات الساعات، لتنجز في نهاية الأمر في غرفة أمام طاولة التوليف عبر اختيار اللقطات الأكثر ملاءمة لـ «قول خطاب ما». ذلك أن سينما مي المصري، في جوهرها، لا تسعى إلى قول خطاب معين. إنها، وبشيء من الاختصار، سينما تعيد ترتيب الواقع - وإلى حد ما كما تفعل السينما الروائية، ولكن هنا مع «ممثلين» تطلب منهم المخرجة أن يلعبوا أدوارهم الحقيقية في الحياة. أما غاية مي المصري من تصوير هذا «الواقع وقد أعيد ترتيبه»، فلا تبدو واضحة تماماً للوهلة الأولى. بل لعل المخرجة نفسها، حين تدخل بكاميراها عالماً أو موضوعاً ما، لا تكون على علم مسبق بما تريده من ذلك العالم. إنها تكتشف. تسبر أغوار الأشخاص، من دون أن تتوقف طويلاً لتحليل الأحداث. «الأحداث تحدث من تلقائها» تقول مي المصري، مضيفة: «وقد يمكن أن أقول إنني محظوظة، إذ في مرات عدة وفيما كنت أصور وأبحث وأدهش أمام عالم أتسلل إليه، تسلل المنتمي لا تسلل المتلصص، كانت الأحداث سرعان ما تتصاعد من أحداث صغيرة إلى أحداث كبيرة. كان حظي أن تكون كاميراي هناك لتصور ما لم أكن أتوقعه، ما كان ولا يزال يضفي على فيلمي أبعاداً تخرج به عن إطاره المعد له أصلاً».

من يصور من؟

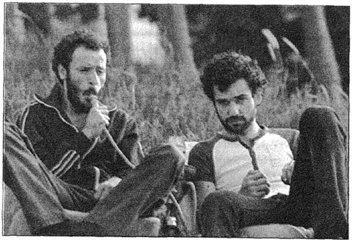
وكنموذج لهذا نتوقف عند فيلمين من أفلام الثلاثية: «أطفال جبل النار» و«أحلام المنفى». الأول كان يجب أن يتخذ شكل «يوميات» تكتبها مي المصري بالكاميرا، في وصف زيارة تقوم بها لمدينتها الأصلية نابلس. كانت زيارتها الأولى للمدينة وأهلها بعد غياب ١٧ سنة، وكان في ودها - وفريق العمل المرافق لها - أن يصوروا الحياة في المدينة. ولكن فجأة تدافعت الأحداث: الانتفاضة الأولى، سقوط الشهداء، امتلاء الأزقة بأطفال يقاومون. وجنازة جار استشهد. وهكذا، من غرفتها في المنزل العائلي، من نافذة سيارة، في مطبخ بيت عادي، وسط أطفال يلعبون لعبة الموت والنضال، تحول فيلم مي المصري من فيلم عن لقاء امرأة بمدينتها بعد غياب، إلى فيلم عن فيلم يحقق عن المدينة. صارت السينما هي الموضوع: صنع السينما وسط استحالة صنع السينما. ومن هنا صارت الكاميرا الشخصية المحورية في الفيلم: صارت المصوِّر بقدر ما هي المصوَّر؟

الفيلم الآخر هو «أحلام المنفى»: مي المصري، خلال عملها على «أطفال شاتيلا» الفيلم السابق على هذا الأخير، كانت تعرفت إلى مجموعة من الصغار والمراهقين، ورصدت نوعاً من التواصل بين فتيات من المخيم، ومواطنات لهن في مخيم الدهيشة الفلسطيني، عبر الانترنت. في البداية توجهت مي المصري بالكاميرا، لتصور ذلك التواصل، لكن الذي حدث هو أن الإسرائيليين كانوا انسحبوا أثناء ذلك من جنوب لبنان، ما فتح المجال أمام لقاء، عبر «حدود الخوف» بين الصغار الذين لا يعرفون بعضهم بعضاً إلا عبر الانترنت وعبر الأحلام والآمال والمآسي المشتركة. وإذ رتبت مي المصري لقاء بين أطفال المخيمين عند الحدود اللبنانية - الفلسطينية، تبدل فيلمها تماماً، اتخذ حياته الخاصة، بالقدر الذي حدث فيه تبدل جذري في علاقة الصغار والمراهقين، من الجانبين ببعضهم بعضاً. ومن جديد صارت «السينما» هي الموضوع هنا: السينما في قدرتها على إعادة تشكيل الواقع انطلاقاً من عناصره الطبيعية، وليس من طريق عناصر تخييلية مقحمة عليه. ولكن هل يمكن القول هنا، حقاً، إنه يمكن الحديث عن حدود تفصل بين الواقعي والتخييلي؟ هذا ما يمكن العثور على جواب عنه في الفيلم الثالث (الثاني زمنياً) «أطفال شاتيلا»، إذ هنا تصبح اللعبة أكثر وضوحاً: لعبة الكاميرا والتصوير هي العنصر الأبرز والمحرك. والكاميرا جزء من المشهد العام.

أفلا يقترح علينا هذا كله أن ما نراه في «ثلاثية» مي المصري هذه، هو سينما عن السينما؟ سينما تستهدي - ولو بشكل عفوي - بما كان قاله الألماني/ الفرنسي جان - ماري شتروب يوماً من أنه، بدلاً من أن يحقق فيلماً عن هاملت، يفضل أن يحقق فيلماً عن الممثل الفلاني وهو يلعب دور هاملت؟

أدوار فلسطينية

إن ما نشاهده على شاشة أفلام مي المصري، إنما هو أطفال فلسطينيون يلعبون أدوار أطفال فلسطينيين: أدوارهم الحقيقية في الحياة. لكنهم هنا، وتلك هي نقاط القوة الأساسية في هذه السينما «الحقيقية»، يعرفون أن المطلوب منهم أن يجابهوا الكاميرا، كممثلين يشاركون في لعبة مرايا لا بداية لها ولا نهاية. لعبة مرايا تقودها وتخوضها عين مخرجة ذكية، قد لا يصح أن نقول إنها تعرف مسبقاً ماذا تريد، ولكن يصح القول إنها تعرف كيف توظف ما قد يفاجأ غيرها بحدوثه أمام كاميراها. ومن هنا، يمكن أن نفهم مي المصري حين تقول إنها لا «تسجل» مجريات الواقع هنا، ذلك أن








تجاه الكاميرا وتجاه الشخصيات وتجاه القضية نفسها، لا تشعر مى المصرى، عادة، بأى حيادية. إنها «شاهد متورط» إن عجزت عن أن تكون كلياً جـزءاً ممـا تصـوره

الواقع كما تصوره ليس الحياة نفسها، بل حياة أخرى مستقاة من الحياة لكنها تتجاوزها. فمثلاً حين تقول منى، طفلة مخيم شاتيلا، فى «أحلام المنفى» عند بداية الفيلم إنها تفضل أن تكون عصفوراً يطير على أن تكون فراشة توضع داخل كتاب لتزينه، تعرف منى - وتكتشف مى المصرى بالتالى - أن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يقال هكذا فى حياة كل يوم: يمكنه أن يقال أمام كاميرا، أو فى رسالة، أو فى قصيدة شعر. وحين يجلس فادى (طفل «جبار النار» الرائع) ليتحدث عن «الشباب المقاتلين» قائلاً فى النهاية وهو يبتسم بسحر وملعنة «سنقاتل» - مادا حرف القاف إلى ما لا نهاية -، يعرف فادى وتعرف مى أن هناك كاميرا تصور. إن هناك سينما تصنع للتو. سينما تحاول أن تنقل من الواقع شاعريته الاستثنائية.

سينما تشبه مفهوم جويس لـ «العمل قيد التحقيق»، وشاعرية الواقع، وسينما تصور أناساً يلعبون السينما: تلك هى العناصر الثلاثة الأساسية التى يمكن رصدها فى السينما التى حققتها مى المصرى، منفردة، حتى الآن. ومع هذا، ليست هذه السينما سينما عشوائية مغلقة على موضوعها الفنى.

إنها، بعد كل شىء، سينما تقول قضية. وقضية سينما مى المصرى المحورية هى فلسطين: فلسطين كوطن لا يزال قيد التكون، وهوية يجب على الصورة أن تحفظها من الاندثار. وهذان العنصران يؤمنهما، هنا، تتالى أحداث كل فيلم من الأفلام. ودائماً خلال زمن التصوير والكاميرا المندهشة - بمراوغة لذيذة - أمام ما يحدث. فمثلاً، تطلب منى - ابنة شاتيلا فى «أحلام المنفى» - من منار - ابنة مخيم الدهيشة، ورفيقتها بالانترنت من بعد - أن تصف لها، بعد زيارة قرية آبائها الأصلية شمال الضفة الغربية. فتزور منار القرية لتجدها خراباً، لكنها ترسل إلى منى حفنة من ترابها. وهذا التراب، يصبح لدى منى كناية عن فلسطين. وربما البديل المنطقى الوحيد للوحل القاتل الذى كانت كاميرا مى المصرى رصدته فى أزقة مخيم شاتيلا، وسط مستنقعات تصورها حين تبدى منى - ورفاقها - بهدوء رغبتها فى أن تعيش البحر وفضاءه. وهذا كله يحدث أمامنا هنا. وتبدو الكاميرا وكأنها تكتشفه لحظة اكتشاف شخصيات الفيلم له. ومرة أخرى حين يأخذ الجد حفيدته ليزور القرية التى كانت مسقط رأسه ويكتشفا بيته الحقيقى الأصلى وما تبقى منه. هنا، الكاميرا موجودة أيضاً تسجل لحظة الاكتشاف.

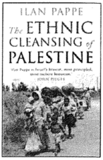
لعبة المرايا

إن مثل هذه المشاهد واللحظات هى ما يخلق ذلك التداخل بين الأفلام والمواقف، ويعطى أجزاء الثلاثية وحدتها الجانبية. أما الوحدة الأساسية فيؤمنها حضور مى المصرى كمخرجة للأفلام. ولكن هل هى هنا مخرجة وحسب؟ من الصعب تصور هذا. ذلك أن المخرجة هنا - وهذا سبب إضافى يبتعد بنا عن عالم التسجيلى - شخصية أساسية فى الأفلام. ليس فقط لأنها تحضر وراء الكاميرا دائماً وأحياناً أمامها «كمايسترو» يقود تسجيل ما يحدث، حتى وإن كان غير قادر على قيادة الأحداث نفسها، بل أيضاً لأن الأساس هنا، وفى كل لحظة، هو لعبة المرايا التى تقودها. فالحدود بين المصوِّر والمصوَّر تنعدم هنا، تماماً كانعدام الحدود بين المتخيل والواقعى، وبين فلسطين ولبنان. والمدهش فى هذا كله أن هذا التوحد بين العناصر والشخصيات يهيمن تماماً إذ ان كل شىء يبدو وكأنه آت من البداهة ليلتحم فى بوتقة واحدة: العنصر الوحيد الدخيل فى الموضوع هو الجندى الإسرائيلى (فى «جبل النار») فهو يبدو بعيداً، دخيلاً، غريباً... وأحياناً مثيراً للشفقة. لا يعرف ماذا يفعل هنا. وبالكاد يعرف لماذا عليه أن يَقتل أو يُقتل. المهم هنا، أن كاميرا مى المصرى تصوره عرضاً، من دون أن تبدو أنها تفعل ذلك: إنه الواقع الوحيد غير المشتغل عليه. ووجهه الوحيد الذى لا يبدو أنه يريد أن يقول شيئاً. فى المقابل واضح أن أطفال المخيمات، إذ عرفوا أنهم أمام كاميرا تصورهم، أرادوا أن يقولوا أشياء كثيرة: وليس فقط الحرب والمعاناة (كما يحدث دائماً فى الأفلام الفلسطينية الروائية!). إنهم يتحدثون عن الحب والزواج، عن الجمال وعن السينما. يضحكون ويسخرون وكأنهم فى برامج حوارات تلفزيونية... لكنهم، ولأن التجربة علمتهم كيف يمثلون جيداً، ولأن عفويتهم كشفت لهم أنهم هنا فى خضم لعبة مرايا، يفرضها عليهم حضور المخرجة وفريقها بكاميراته وآلاته، يعرفون كيف يزينون كلامهم. فالعرى هنا غير مكن، لفظاً وتعبيراً عن العواطف. ولنتذكر كيف أن منى، حين بكت مرتين فى «أطفال المنفى» - مرة إذ تذكرت موت أبيها، ومرة إذ راحت تقرأ رسالة وصلتها بغتة من رفيقتها سمر التى سافرت من دون إخطار إلى لندن كاسرة الحياة والصداقة - أبعدت وجهها عن الكاميرا تماماً. ذلك أن لها صورة لا ينبغى أن تكشف أى ميلودراما فى عواطفها. ولأن كاميرا مى المصرى، غير تلصصية، حتى حين تدخل الحميميات، احترمت هذه الكاميرا رغبة منى فى البكاء خفية، مركزة مرة أخرى على جانب حاذق وحقيقى من لعبة المرايا - ومى المصرى ستقول لاحقاً انه فى الوقت الذى كانت فيه مستسلمة لدموعها خفية عن الكاميرا «كنا جميعاً نبكى وراء الكاميرا» - ألم توصل مى المصرى لعبة المرايا هنا إلى أقصى حدودها؟

تجاه الكاميرا وتجاه الشخصيات وتجاه القضية نفسها، لا تشعر مى المصرى، عادة، بأى حيادية. إنها «شاهد متورط»، إن عجزت عن أن تكون كلياً جزءاً مما تصوره. ولعلها تجد تعويضاً عن هذا العجز فى تلك العلاقة التى تقيمها مع شخصياتها، بعد إنجاز الفيلم وعرضه فهناء وفادى (فى «جبل النار») وطفلا «أطفال شاتيلا» الرئيسيان، ومنى ومنار وسمر وعيسى والآخرون (فى «أحلام المنفى») صاروا جزءاً من حياتها، تهتم بهم وتؤمن لهم، إن أمكن، مواصلة دراستهم وحياتهم. وهى اليوم قلقة، مثلاً، على مستقبل فادى الذى كان فى الرابعة حين صورته فى «جبل النار» وصار الآن شاباً «إنه فى كندا يحاول متابعة دراسته، تقول مى، ولكنه يبدو متعثراً. الذنب ليس ذنبه. إن مصيره يشبه مصير المئات من أطفال الانتفاضة الأولى». وهناء التى كانت طفلة، تعرف كيف تثرثر كالكبار وتعرض أفكارها فى الفيلم نفسه، هى الآن فتاة بالغة ناضجة «وربما تمثل معى دوراً أساسياً فى أى فيلم روائى مقبل قد أحققه» تقول مى المصرى، ثم تتذكر الجد الذى صورته يكتشف بيته المهجور فى «أحلام المنفى» لتخبرنا كيف أنه قضى برصاص الجنود الإسرائيليين بعد إنجاز الفيلم... وتنتقل من الحديث عنه إلى الحديث عن منار ومنى اللتين أصبحتا صديقتيها. منار بتكوينها الفكرى المفهومى ولهجتها الفخمة حين تتكلم، ومنى بعفويتها وعاطفتها المشبوبة. «إنهم يصنعونى بقدر ما أصورهم وأحولهم نجوماً من نوع خاص» تقول مى المصرى الآن، بلهجة من لم يعد يعرف أين هى الحدود بين حياته وحياة شخصيات أفلامه. بلهجة من يتساءل بصورة دائمة: من منا يصنعه الآخر؟ ولكن هل حقاً يتسع وقت مى المصرى، بعد، لصنع أى شىء؟

حين التقينا بها فى طريق العودة من باريس، كانت الرحلة الباريسية الأخيرة فى سلسلة سفرات قطعت خلالها أكثر من خمسين ألف كيلومتر، ذهاباً وإياباً بين القارة الأميركية ولندن واليابان... ودائماً مرافقة لعرض أفلامها - لا سيما «أحلام المنفى» - محملة بالجوائز والذكريات ومدهوشة أمام تعاطف العالم كله مع أطفال فلسطين كما تصورهم ومتهاتفة مع الأطفال تتابع آخر أخبارهم حائرة أمام مهرجان يطلب منها أن تترأس لجنة تحكيمية، متسائلة عن مشروعها المقبل وموافقة على أن الوقت قد حان لكى تقدم أخيراً فيلمها الروائى الأول، وهى تحدق فى البعيد وكأنها تسأل نفسها: هل سيمكن فيلمى الروائى الأول إذا حققته، أن يكون حقاً روائياً أكثر مما حققت حتى الآن؟

اليوم تحمل مى مصرى، كما حال كل السينمائيين الفلسطينيين مشروعاً روائياً كبيراً، يبدو أن ثمة اتجاهاً لإنتاجه مع القاهرة. وهى فى انتظار ذلك، تواصل جولاتها المعتادة ولكن هذه المرة، مع فيلمها اللبنانى، «يوميات بيروت» وكأنها فى هذا تحاول أن توجد معادلاً ما لكل تلك الجهود اللبنانية الماضية التى كرست وقتها وطاقاتها لصنع سينما فلسطينية فى الماضى. ■



The Ethnic Cleansing of Palestine

التطهير العرقى لفلسطين

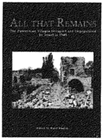
by Ilan Pappe
Oneworld Publications, 2006, 320 pp., $10.17

إيلان بابيه مؤرخ إسرائيلى شهير ومحاضر بجامعة حيفا. يورد فى كتاب التطهير العرقى لفلسطين تقريراً مذهلاً عن تهجير الإسرائيليين للفلسطينيين من أراضيهم فى عام ١٩٤٨. يستشهد بكلمات ديفيد بن جوريون - قائد الحركة الصهيونية من منتصف العقد الثالث من القرن العشرين حتى السابع منه - الذى صرح بما يلى فى مذكراته المنشورة عام ١٩٣٨: «أؤيد الترحيل الجبرى؛ ولا أجد أى شىء غير أخلاقى فيه». مما يناقض الادعاء الصهيونى العلنى بأن إسرائيل كانت تصادر أرضاً بلا شعب.

يتوخى بابيه منتهى الصراحة فى كتابه؛ فهو يتهم إسرائيل بالتطهير العرقى وارتكاب جرائم ضد الإنسانية بدءاً من حرب ١٩٤٨ الرامية إلى الاستقلال ووصولاً إلى الوقت الحاضر. يركز بالأساس على «الخطة دى» (تسمى داليت بالعبرية) المتبلورة فى ١٠ مارس ١٩٤٨ لينهى إلى القارئ أن التطهير العرقى لم يكن وليداً لظروف الحرب بل هدفاً متعمداً من أهداف القتال انتهجته الوحدات العسكرية الإسرائيلية بقيادة بن جوريون. وهنا يطلق بابيه على بن جوريون اسم «مهندس التطهير العرقى». لقد حاول بابيه البرهنة على أن الطرد القسرى لـ ٨٠٠٠٠٠ فلسطينى فى عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩ كان جزءاً من خطة صهيونية طويلة الأمد لصناعة دولة يهودية نقية العرق فى أطر حججه بتعريفات دولية معترف بها للتطهير العرقى ويتتبع سرداً مفصلاً كل التفصيل للتورط العسكرى الإسرائيلى فى تدمير مئات القرى وإخلائها من سكانها وطرد مئات الآلاف من السكان العرب.

إن هذا المجلد مورد سياسى سهل المنال يزود القارئ بسبل مهمة تنتهى إلى الأحداث التاريخية لصراع اليوم إلا أن نتائجه لن يسهل على الجميع تحملها: إذ يثبت بابيه أن التطهير العرقى للفلسطينيين يتواصل حتى اليوم ويدعو إلى عودة غير مشروطة لكل اللاجئين الفلسطينيين ووضع حد للاحتلال الإسرائيلى. لا مراء أن رواية بابيه سوف تثير غضب الكثير من القراء الإسرائيليين؛ لكن الأهم هو أنها سوف تشعل المناقشات بينهم.

■



All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948

كى لا ننسى: قرى فلسطين التى احتلتها إسرائيل وأخلتها من سكانها عام ١٩٤٨

by Walid Khalidi
Institute for Palestine Studies, 1992, 636 pp., $49.00

ولد وليد الخالدى فى القدس وتخرج من جامعتى لندن وأكسفورد. يعتبر مؤرخاً بارزاً وحجة معترفاً بها فى الشئون الفلسطينية. يعمل زميلاً باحثاً فى مركز هارفارد لدراسات الشرق الأوسط. وقد ألف هنا مرجعاً جديراً بالاعتماد عليه، كتاباً يصور بالتفصيل أكثر من ٤٠٠ قرية فلسطينية دُمرت أو أخليت من سكانها خلال حرب ١٩٤٨. يكرس الخالدى أغلبية النص للقرى نفسها: إذ يشمل كل باب معلومات إحصائية عن إحدى القرى وعدة أجزاء روائية عنها. يستخدم أبحاثاً ميدانية أجراها السكان السابقون والمرشدون كى يعين بدقة الموقع الصحيح لكل قرية وأسماء المستعمرات الإسرائيلية القائمة على أطلالها وأراضيها. كما يلجأ إلى تشكيلة واسعة من المصادر العربية والغربية حتى يلخص تاريخ القرى قبل ١٩٤٨ ويؤلف المعلومات حول طبوغرافيتها ومعمارها ومؤسساتها وحالة مواقع القرى أثناء إجراء البحث (١٩٩٠-١٩٩١) ونشاطاتها الاقتصادية والعمليات العسكرية الإسرائيلية المؤدية إلى سقوطها عام ١٩٤٨. تركز الروايات الإسرائيلية والعربية على العمليات العسكرية المؤدية إلى غزو القرى. تشتمل الأبواب أيضاً على وصف لوضعية الموقع الحالية بما فيها مستوطنات شيدتها إسرائيل على أراضى القرى المصادرة بعد عام ١٩٤٨. سوف يجد القراء عدة مئات من الصور (ثمة صور تجسد ما تبقى من مبانى القرى مصاحبة لكل باب) وعدد من الخرائط المفصلة المفيدة وخمسة ملاحق، كلها تعزز نصاً أعده ما يربو على ثلاثين مشتركاً فى غضون نحو ست سنوات. بين يدى القارئ بحث علمى لا غنى عنه لكل المؤرخين المهتمين بتاريخ فلسطين. «إنه جهد هام وإنجاز ضخم»، على حد قول روجر أوين الأستاذ بجامعة أكسفورد.

■



Expulsion of the Palestinians: The Concept of "Transfer" in Zionist Political Thought, 1882-1948

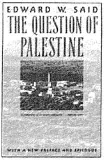
طرد الفلسطينيين: مفهوم «الترحيل» فى الفكر السياسى الصهيونى، ١٨٨٢-١٩٤٨

by Nur Masalha
Institute for Palestine Studies, 1992, 236 pp., $11.95

يعج تاريخ تكون الدول بحالات تبادل السكان والطرد و«التطهير العرقى» والترحيل الإجبارى. وقد توخى قادة الحركة الصهيونية الصراحة، كما تعرض تلك الدراسة الدقيقة، فى اعتقادهم بأن إنشاء دولة يهودية بفلسطين لن يتاح سوى بإقناع السكان العرب المقيمين بالمغادرة. وتمحور الجدل حول الترحيل، عند حدوثه، حول عمليته وما قد يُحدثه من أثر على علاقة الدولة الإسرائيلية بالدول الأخرى. وفى ضوء عملية تبادل السكان بين تركيا واليونان عقب الحرب العالمية الأولى، شكك قلة من زعماء الحركة الصهيونية فى أخلاقية الترحيل. وبدلاً من ذلك رنوا إليه باعتباره حلاً عملياً لمشكلة جلية بين شعبين يعيشان على أرض واحدة فيما تراءت مبررات هذا الجدل - البالغة ذروتها حين أوصت لجنة بيل بالتقسيم عام ١٩٣٧ - ذات أساس وطيد. يتعاطى مصالحة فى خاتمة موجزة مع القضية الخلافية المتعلقة بأصول أزمة اللاجئين الفلسطينيين فى عام ١٩٤٨ ليتبين صلة واضحة بين التأييد طويل الأجل للترحيل وهروب اللاجئين. وسواء قبل القارئ ذلك الاستنتاج أو رفضه، البين أن النقاش المطول حول مزايا الترحيل السابق على عام ١٩٤٨ أقنع العديد من الصهيونيين بأن اللاجئين الفلسطينيين لا يجب السماح لهم بالعودة أياً كانت دواعى رحيلهم.

إن كتاب مصالحة يتكل بالكامل على مواد أرشيفية إسرائيلية ظهرت مؤخراً إلى النور لتبرهن تفاصيله المحكمة بما لا يدع مجالاً للشك أن «الترحيل» - كلمة بديلة تخفف من وطأة كلمة «الطرد» - كان من البداية جزءاً لا يتجزأ من الصهيونية. إنه كتاب مبهر بلغ القراء فى الوقت المناسب ليشعل بينهم الجدل، لا لأن ما توصل إليه من نتائج قابل للتفنيد - فالمصادر لا تخلف فى نفس القارئ ريباً فى الحقائق - بل لأن الكتاب يعرى تفصيلياً فكرة المكيدة الصهيونية والوسائل التى تحققت بها.

■



The Question of Palestine

قضية فلسطين

by Edward W. Said
Vintage, 1992, 320 pp., $10.85

تبدو كلمات إدوارد سعيد وكأنها صادرة من قومى فلسطينى وتبدو كتاباته وكأنها صادرة من أستاذ فى الأدب الإنجليزى، والحق أنه كلاهما. إن كتاب قضية فلسطين دفاع بليغ اللغة عن الشعب الفلسطينى وحقهم فى تقرير المصير. ولو حدث وأفرط سعيد فى سرد الدلائل المبرهنة على حجته وفى رسم إسرائيل والصهيونية بلا أية ملامح إيجابية، ربما يعود ذلك إلى قوة

اعتقاده بأن العالم الغربي استغل الشعب الفلسطيني وأهمله ونبذه. إن سعيد يخوض في هذا الكتاب مناقشة تثبت حق الفلسطينيين في الحصول على الأرض المسماة بـ «فلسطين». فقد هيمن العرب على فلسطين منذ القرن السابع. إذ يبرز إحصاء ١٩٢٢ مثلاً أن ٧٨٪ من السكان من العرب. لكن بعد تأسيس الأمم المتحدة لدولة إسرائيل عام ١٩٤٨، تشتت هؤلاء العرب، بالقوة الجبرية في الغالب. المفارقة هنا هي أن نفس العام شهد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي ينص على أن للكل الحق في العودة إلى بلده. بيد أن حق الفلسطينيين قد قوبل بالتجاهل أو الرفض، فلم يجر حتى استفتاء عام لتمثيل وجهة نظرهم.

وبالرغم من مرور ما يزيد على عقد من الزمان، لا يزال الكتاب يقدم سرداً أساسياً لا غنى عنه لقضية فلسطين. إن حجة سعيد قوية المنطق. يكتب بلسان منطقي وبصيرة نافذة. وإذا لم يتفق معه القارئ في آخر الأمر، فهو ولا شك سيتدبر طويلاً في عباراته. يضم تفسير سعيد الجدلي المتنور لصراع الشرق الأوسط الآن مقدمة جديدة وخاتمة تعقب على أحدث التطورات بدءاً من الانتفاضة إلى حرب الخليج ثم محادثات السلام التاريخية بمدريد.



Palestine and the Arab-Israeli Conflict: A History with Documents

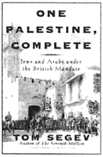
فلسطين والصراع العربي-الإسرائيلي: تاريخ بالوثائق

by Charles D. Smith
Bedford/St. Martin's, 2006, 624 pp., $46.76

يزود هذا الكتاب القارئ بتاريخ مختصر لأصول الصراع العربي- الإسرائيلي وتطوره كما يتعاطى بنفس المنهج مع الفترة السابقة على تأسيس إسرائيل عام ١٩٤٨، أي المجتمع العربي في القرن التاسع عشر وأصول الصهيونية وتأثيرها على الفلسطينيين العرب قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها. يسهب الجزء الأول من الكتاب في تأمل دور الإمبريالية البريطانية والفرنسية في هذه التطورات. أما الثاني منه فيبحث في الصراع العربي-الإسرائيلي في ضوء الحرب الباردة وبزوغ الحركة القومية الفلسطينية التي بلغت ذروتها في الاتفاق الإسرائيلي-الفلسطيني عام ١٩٩٣. وهنا يولي تشارلز سميث السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط اهتماماً موسعاً. يغطي الكتاب أيضاً مواضيع رئيسية تتراوح بين الحركات القومية المتنافسة المتصارعة، العربية الفلسطينية والصهيونية/الإسرائيلية؛ والدول المتنازعة، العربية والإسرائيلية؛ ودور القوى الخارجية في التأثير على التطورات في المنطقة.

يعتقد تشارلز سميث، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة أريزونا، أن الوقوف على خلفية الصراع التاريخية سوف يسهم في استيعابه الاستيعاب الأمثل. ومن أجل هذا الغرض، يقدم نصه نظرة عامة على تاريخ فلسطين المبكر ثم يكرس فصولاً للمجتمع العثماني وجذور الصهيونية والحرب العالمية الأولى وتسوية السلام التالية والانتداب البريطاني والحرب العالمية الثانية وإنشاء دولة إسرائيل. أما الباقي من الكتاب فيسرد تفصيلياً ما أعقب ذلك من صراع بين العرب وإسرائيل.

لقد حتمت التغييرات الهائلة بالشرق الأوسط في العقد العاشر من القرن العشرين نشر ذلك الكتاب المنقح، كتاب يمد القارئ بتاريخ متوازن لكل من الأهداف الإسرائيلية والعربية. إذ يتجنب كتاب فلسطين والصراع العربي-الإسرائيلي: تاريخ بالوثائق بوجه عام ما يستثيره هذا النزاع من عواطف مغرقة وذلك بما يطرحه من تحليل لا يعوزه الإنصاف، تحليل مثالي للطلبة الدارسين وكذا القارئ العادي. تلحق بكل فصل مجموعة من الصور والوثائق الأصلية، وقد تحدث الكتاب ليحوى اتفاق أوسلو الثاني عام ١٩٩٥ ومحادثات عام ٢٠٠٠.



One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate

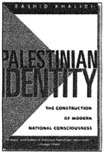
فلسطين واحدة، كاملة: اليهود والعرب تحت الانتداب البريطاني

by Tom Segev
Metropolitan Books, 2000, 612 pp., $22.73

تعود المناقشات - فضلاً عن سفك الدماء - الدائرة حول الأمة اليهودية والإسلامية وحقوق الأرض إلى قرون مضت، ومهما حسنت نوايا عملية السلام القائمة، سوف تتواصل على الأرجح لقرون قادمة. يؤمن الطرفان عن تعصب بأن لديهما حقاً تاريخياً غير قابل للتبديل في إقامة دولة على الأرض المعنية كما يتطلع الاثنان إلى القدس بوصفها مدينة مقدسة. وكما يليق بالمحرومين، سوف نجد الفلسطينيين أكثر انفتاحاً على خوض المفاوضات وإبرام تسوية فيما يظل الإسرائيليون على تصلبهم، فهم لا يعيدون سوى أشد المناطق القاحلة عدوانية فضلاً عن الأنقاض ليس إلا. ففي معركة بين الرصاص وصندوق الاقتراع، يفوز الرصاص بسهولة ما بعدها سهولة.

يعد توم سيجيف واحداً من أبرز مؤرخي إسرائيل وصحفييها - واحداً من قلة تحاول جاهدة الحفاظ على موضوعية كتاباتها - لذا فإن أي كتاب جديد له يستحق دائماً الانتظار. يعرض كتاب فلسطين واحدة، كاملة وصفاً مستفيضاً لفلسطين تحت الحكم البريطاني من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٤٨، تلك الفترة الحرجة في تاريخ المنطقة الحديث التي أفضت إلى تأسيس الدولة الإسرائيلية. يبدأ سيجيف كتابه بسرد حذر للتضارب المعروف الذي شاب تعامل بريطانيا مع كل من اليهود والعرب - إذ وعدت على ما يبدو الاثنين بالفوز بأرض فلسطين بعد منحها الاستقلال - ثم تابع حديثه ليحيك قضية مقنعة تقول بأن بريطانيا اعتبرت فلسطين ملكية إمبريالية عاطفية لذا رجت أن ينحل الموقف لمصلحة الجميع بلا استثناء.

يحيد سيجيف عن السياق التاريخي ليشدد على أن أياً كان ما قاله البريطانيون للفلسطينيين، فقد كانت أفعالهم مناصرة بكل عند للصهيونية من البداية. وقد حدث ذلك، على حد قوله، من جراء الاعتقاد الخاطئ المعادي للسامية بأن اليهود يتحكمون في عالم الأعمال ويديرون عجلة التاريخ بدلاً من اعتراف حقيقي بعدالة قضيتهم.



Palestinian Identity

الهوية الفلسطينية

by Rashid Khalidi
Columbia University Press, 1997, 304 pp., $81.00

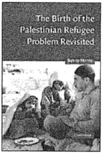
يُدرس رشيد الخالدي التاريخ بمركز الدراسات الدولية بجامعة شيكاغو ويديره، وقد كان عضواً في اللجنة الفلسطينية لمفاوضات السلام بالشرق الأوسط. يقدم المؤرخ الفلسطيني الشهير خالدي أكثر البراهين مصداقية باللغة الإنجليزية حتى الوقت الراهن على قيام مناطق فلسطينية غير متبلورة ذات شرائح سكانية متماثلة قبل بزوغ الصهيونية السياسية. يرمي المؤلف بالأساس إلى ترسيخ أصول الوعي القومي الفلسطيني، وهي مهمة يقوم بها على خير وجه رغم ما يند عنه من عداء جلي لإسرائيل والحركة الصهيونية. لقد تعززت أبحاث الخالدي بتعامله مع مكتبة الأسرة في القدس ليضع تحت دائرة الضوء الكثير من الوثائق للمرة الأولى. يتبدى منهجه التاريخي رائداً، إذ يتضمن تغطية لجوانب خفية من المجتمع الفلسطيني انخرطت في تطور الوجدان القومي. إن هذا الكتاب علاوة على كتاب محمد مصلح أصول القومية الفلسطينية واجبان القراءة لكل الدارسين المتخصصين وعامة القراء على حد سواء.

يركز الخالدي في هذا الكتاب بالكامل تقريباً على الفترة الممتدة من نهاية الحكم العثماني وبداية الانتداب البريطاني. يعتقد الخالدي أن القومية الفلسطينية ظهرت على السطح قبل سنوات عديدة مما يظنه الكثيرون - قبل

الحرب العالمية الأولى – حين باع ملاك الأراضى المتغيبون فى بيروت أراضى الفلسطينيين إلى جمعية الاستعمار اليهودية. لكن بينما يتشابك تاريخ الفلسطينيين الحديث بتاريخ الصهيونية تشابكاً لا فكاك منه، يركز الخالدى بنفس القدر على مقومات أخرى للهوية الفلسطينية الحديثة المشتملة على «مشاعر وطنية وولاء محلى والحركة العربية وأحاسيس دينية ومستويات أرقى من التعليم والثقافة». ويقيم الدليل على أن تأثير حركة الحداثة طويل الأمد وانهيار الإمبراطورية العثمانية والظهور الأوروبى المصاحب لفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى وما لحق به من خيانة كل من البريطانيين والفرنسيين لوعودهم ساهمت كلها فى الحركة القومية الفلسطينية بقدر إسهام وعد بلفور عام ١٩١٧ والهجرة الصهيونية. العيب الوحيد هنا هو انطلاق الخالدى السريع عبر آخر ٧٠ سنة من تطور الهوية الفلسطينية. لكنه حتى هنا يقدم تحليلاً آسراً لسبب تحول القومية الفلسطينية إلى «الاحتجاب» بعد الحرب العربية الإسرائيلية الأولى وحتى إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٦٤ .

بين يدى القارئ دراسة معقدة عميقة عمقاً مبهراً، ترافقها وثائق أهل للثقة تبرز الجوانب الأساسية من تطور القومية الفلسطينية. مَن يتوقع تاريخاً شاملاً للحركة الفلسطينية الحديثة أو هجوماً عنيفاً على الصهيونية وإسرائيل ينبغى أن ينصرف إلى كتاب آخر.

■



The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited

ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين

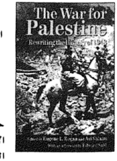
by Benny Morris

Cambridge University Press, 2003, 664 pp., $42.80

يعمل بينى موريس أستاذاً فى التاريخ بقسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة بن جوريون. هو متحدث صريح عن الصراع العربى-الإسرائيلى وواحد من أوائل مؤرخى إسرائيل التعديليين. يفضح كتابه «ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين» حقيقة أن ٧٠٠٠٠٠ فلسطينى باتوا لاجئين خلال الحرب العربية الإسرائيلية فى عام ١٩٤٨ . وعلى حين يظل تركيز تلك الطبعة على الحرب والتهجير الجماعى، تمعن مواد أرشيفية جديدة النظر فيما وقع فى القدس ويافا وحيفا، وكيف أدت هذه الأحداث إلى انهيار فلسطين المدينية. يكشف الكتاب النقاب عن معارك وممارسات وحشية ساهمت فى تفكك المجتمعات الريفية، وهنا سوف يلفى القارئ السرد مريعاً. لقد وصل عدد اللاجئين الآن إلى أربعة ملايين ولا تنفك قضيتهم عقبة رئيسية أمام تحقيق السلام فى المنطقة.

إنه كتاب ذو قوة استثنائية ونزاهة غير معهودة ألفه دارس وصحفى إسرائيلى. يروى فيه تلك الحكاية العظيمة عن الهروب والغزو ويرويها كما لم يروها أحد من قبل: بلغة دقيقة وإيجاز أدبى وتفاصيل مرعبة وأمانة بالغة. وهكذا يلبث الكتاب عملاً رائداً يناقش إجلاء الفلسطينيين عن أراضيهم ما بين ١٩٤٧ و١٩٤٩ . يتدفق بمنتهى السلاسة ليحكى قصة اقتلاع شعب من جذوره حتى وإن غاب عنه صوت المقتلَعين.

■



The War for Palestine: Rewriting the History of 1948

الحرب من أجل فلسطين: إعادة كتابة تاريخ ١٩٤٨

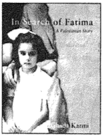
by Eugene L. Rogan and Avi Shlaim

Cambridge University Press, 2001, 310 pp., $6.23

لقد انصرم ما يربو على نصف قرن منذ نهاية حرب فلسطين عام ١٩٤٨، تلك الحرب التى يسميها الإسرائيليون «حرب الاستقلال» ويشير إليها الفلسطينيون بـ «الكارثة». وقد تمحورت حولها فى السنوات الأخيرة مناقشات عامة لا تخلو من انفعال وكتابات متعددة. وهنا يفند الرواية الإسرائيلية الرسمية لولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين جمع من الدارسين الإسرائيليين يسمون بـ «المؤرخين الجدد» أو «التعديليين»، إذ جمع روجان وشلايم، دارسان بارزان للشرق الأوسط الحديث فى جامعة أكسفورد، فى هذا المجلد المنقح آراء مؤرخين تعديليين قياديين من إسرائيل بالإضافة إلى دارسين عرب وغربيين ليفسروا المعزى التاريخى المعاصر لحرب ١٩٤٨ من وجهات نظر متباينة. وعلاوة على المحررين نفسيهما، يضم المساهمون فى هذا المجلد واسع المعرفة رشيد خالدى وبينى موريس وتشارلز تريب وجوشوا لانديس وليلى بارسونز وإدوارد سعيد وفواز جرجس. وقد أجمعوا عموماً على أن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين لم تنتج عن الهروب الإرادى للفلسطينيين بل من سياسات محددة انتهجتها السلطات الصهيونية فى غضون تأسيس دولة إسرائيل. وهنا ينجح كتاب الحرب من أجل فلسطين فى تجميع عدة مؤرخين من خلفيات مختلفة لتتبدى قدرتهم على التواصل ودحض الأساطير التاريخية. والكتاب يبرز بذلك تفانياً فى البحث التجريبى وإصراراً على استخلاص النتائج المستقلة.

وهكذا ينجم عن تلك الآراء كتاب غنى فى مواده الحديثة وأفكاره النافذة مما يعزز بقوة وعينا للجذور التاريخية للصراع العربى-الإسرائيلى. إنه كتاب لا بد أن تحويه المكتبات العامة والأكاديمية بما يستفزه من نقاش وجدل. دليل يحث القارئ على التوغل فى الطوبوغرافيا السياسية والعسكرية لحرب ١٩٤٨ فيؤسس معايير صارمة جديدة للدارسين التاليين.

■



In Search of Fatima: A Palestinian Story

البحث عن فاطمة: قصة فلسطينية

by Ghada Karmi

Verso, 2004, 451 pp., $12.21

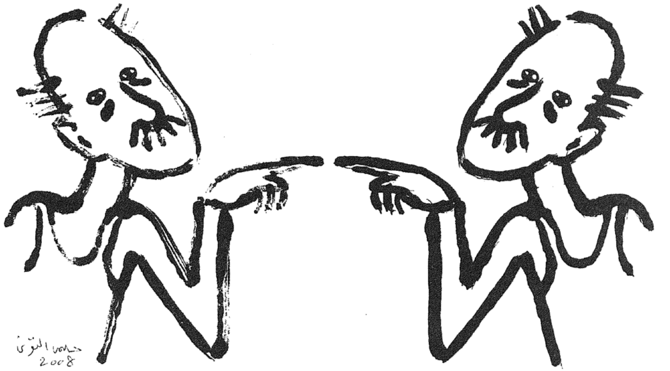
تسرد غادة الكرمى حكاية سعيها إلى الإحاطة بهويتها الثقافية بعد مغادرة أسرتها الهشة تعسة الحظ، للقدس متجهة إلى بريطانيا خلال تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ . تكمن المفارقة فى استقرار أسرتها فى أحد أحياء لندن اليهودية؛ وسرعان ما بدأت الكرمى البالغة من العمر تسعة أعوام فى الاندماج مع محيطها – إذ صارت قارئة نهمة للأدب الإنجليزى وصادقت جيرانها اليهود – على الرغم من إصرار أمها على عادات المطبخ الفلسطينى التقليدى وأعراف مقابلة الشبان والقوانين العائلية. وخلال ما تلا من عقدين، دفعت أحداث الشرق الأوسط سلوك جيرانها غير العرب إلى العدائية وتزايد غضب أصدقائها اليهود الموالين لإسرائيل؛ وبعد أعمال العنف التى لجأ إليها الفلسطينيون فى العقد الثامن من القرن العشرين، أبى بعض المعارف التحدث إليها. ما لبثت الكرمى أن صارت ناشطة متحمسة مؤيدة للفلسطينيين ثم طفقت تمارس مهنة الطب فى عام ١٩٧٧ بمعسكر لاجئين فلسطينى بجنوب لبنان لتكتشف أن تربيتها الغربية وعاداتها جعلتها فى وضعية أسوأ من وضعيتها فى إنجلترا.

تكتب الكرمى بقلم جذاب لتنسج ذكرياتها الشخصية تاريخ فلسطين السياسى والاجتماعى فتسبغ على معضلات المهاجر الأزلية نكهة خاصة. وعلى الرغم أن روايتها خرجت فى النهاية أحادية الجانب فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلى-الفلسطينى، قد تروق نبرة الكتاب المباشرة القراء ذوى العقول السياسية، أولئك الباحثين عن أفكار متبصرة عن تجربة النفى الفلسطينى. سوف يجد القارئ فى الكتاب انعكاساً لتجارب تتراوح بين الغربة والخسارة والحنين ليتحدث بلسان ملايين الأشخاص حول العالم ممن تعلقت حيواتهم إلى الأبد بين القديم والجديد.

إن البحث عن فاطمة سيرة ذاتية مهمة مكتوبة بنبرة جميلة الإيقاع بقلم امرأة ذكية حساسة ليملأ فراغاً فى دراسات الصهيونية ويحيى بكفاءة منقطعة النظير مشاعر الخوف والتردد والحيرة التى تخالج الفلسطينيين. ها هى قصة من قصص الإبعاد والشتات منسوجة بلهجة بسيطة إنما ثاقبة حادة. إنه سرد حميم لخلاف مستعص على الحل من وجهة نظر امرأة، على غير العادة.

■

نحن المسنون



قدري حفني

■■ من أنا؟

اكتشفت وأنا أقترب من السبعين أنني أحمل هويتين: هويتي المهنية كمتخصص في علم النفس وهي الهوية التي رافقتني في كتاباتي طيلة نصف قرن؛ وهويتي كواحد من «فئة المسنين»؛ واكتشفت أنه قد جرت العادة في مثل ذلك السياق أن يستخدم الكاتب ضمير الغائب، فيشير مثلا إلى خصائص الفصاميين، أو سمات الأطفال إلى آخره؛ غير أني لو استخدمت ضمير الغائب في حديثي عن المسنين فسوف أكون واحدا من اثنين: إما مدعيا لحياد غير حقيقي بزعم أنني أتناول ظاهرة لست جزءا منها؛ أو منتحلا صفة الشباب الذي ودعته منذ سنين؛ ولذلك فقد فضلت أن يكون حديثي صادقا أن يكون بصفة المتكلم. ودفعني ذلك الإحساس إلى الخروج عن النمط المألوف الذي ألتزمه عادة في كتاباتي العلمية من حيث البدء بطرح التساؤلات ثم عرض الدراسات السابقة ثم استخلاص الفروض واختبارها ميدانيا والانتهاء إلى النتائج والتوصيات؛ حيث إنني جزء من المادة الميدانية التي ينبغي أن تشملها دراسة متخصصة عن المسنين ومن ثم فإنني بشكل أو بآخر أقوم بإطلالة من الداخل محاولا ألا أتخلى بطبيعة الحال عن تخصصي العلمي، محاولا ما وسعني الجهد ألا أكون ذاتيا فأدافع بحق وبغير حق عن جماعتي من المسنين.

وعادت بي مشكلة الصراع بين الحديث بضمير الغائب والحديث بضمير المتكلم إلى خبرة لي وقعت منذ سنوات بعيدة حين استغرقني فضول التعرف على الجذور التاريخية للعلم الذي تخصصت فيه: علم النفس؛ وقادتني تلك المحاولة إلى نقد للمسار الذي اتخذه هذا العلم وكشف للانتماءات السياسية والفكرية لرواده، وكتبت ما انتهيت إليه مما لا مجال لعرضه في سياق اهتمامنا بقضية المسنين؛ غير أن واحدا من كبار أساتذتنا فاجأني حين قرأ ما كتبت بملاحظة بالغة الأهمية، إذ قال لي «أراك تتحدث عن علماء النفس بضمير الغائب كما لو كنت لست منا. ترى هل هي محاولة منك للتبرؤ من تخصصك؟»، وأثنيت على فطنة أستاذي الجليل الذي كشف لي ما لم أكن واعيا به حين كتبت ما كتبت، والذي كان استخدامي لضمير الغائب يكشف وبحق محاولة للتملص من تاريخ أعترض عليه[1]. استعدت هذه الخبرة القديمة ثم شرعت في كتابة هذه السطور.

أكسير الحياة

كما أن للبشرية علوماً أنجزتها ومازالت تعمل على إثرائها، فإنها قد عرفت عبر تاريخها الطويل الكثير من الأحلام التي كانت تجسد أحيانا شوق الإنسان إلى المعرفة بالكون، واستباقاً بالأماني إلى منجزات العلم الطبيعي؛ كما كانت تجسد في أحيان أخرى شوق الإنسان إلى العدل الاجتماعي، واستباقا بالزمان إلى منجزات العلوم الإنسانية. ويعد تاريخ الفكر الإنساني بما يحويه من أساطير وحكايات، وبما يتضمنه من تصورات لمدن فاضلة، معينا لاينضب لمن يرغب في التنقيب عن تلك الأحلام والرؤى التي تحقق منها ما تحقق، وبقي منها مابقي محتفظاً بقدرته على حفز البشر إلى تحقيقه، وتحطم منها ما تحطم على صخور الواقع العلمي، فاقدا قدرته على الحفز، قانعاً بدوره كحلم مستحيل ترويه الجدات العجائز لأطفالهن عند النوم، أو تسجله صفحات قصص الخيال العلمي، ويطمئن إليه أولئك المشتاقون إلى المعرفة أو إلى العدل الاجتماعي ممن تقعد بهم إمكانياتهم أو عزائمهم عن جهد محاولة الإنجاز، ويحول طموحهم وتطلعهم دون اقتناعهم باستحالة المستحيل فيلبثون في أماكنهم، مطمئنين لأحلامهم كأشد مايكون الاطمئنان، سعداء برؤاهم كأشد ما تكون السعادة.

وقد نجد غير هؤلاء وهؤلاء من البشر من لايكفون عن محاولة بلوغ ذلك المستحيل، فيفشلون مرة ومرة، وتتعدد مرات فشلهم، وهم لا يستطيعون تخليا عن حلمهم بعد أن اطمأنوا إليه، ورغم كل ما يشير إلى استحالته بل وإلى عدم جدوى تحقيقه أيضاً، نجدهم ورغم كل شيء يمضون في محاولاتهم، دون أن يفقدوا الأمل في وقوع المعجزة، وتحقق المستحيل.

ويعنينا من تلك الأحلام والرؤى حلم عرفه الإنسان واستحال عليه أن يحققه ورغم ذلك فقد ظل دوما يداعب خياله. ومن حين إلى آخر يقدم على محاولة تحقيقه آملاً في وقوع المعجزة وتحقق المستحيل ويتمثل ذلك الحلم في محاولة الجمع في الفرد الواحد بين مزايا الشباب والشيوخ جميعاً، أو بالتحديد في محاولة أن يلبس الشيخ لباس الشباب انفعالا وعاطفة وقدرة مع احتفاظه بعقل الشيوخ وحكمتهم.

واتخذت تلك الصورة أشكالاً عديدة تطالعنا على مستوى الأمنيات والأساطير والحكايات الشعبية التي تدور عن أكسير

أصبحت الشيخوخة حاليا تكاد تشكل تخصصا علميا قائما بذاته يتناول النواحى الثقافية والاقتصادية ودراسات الوعى والتغيرات الاجتماعية والديموجرافية، وكذلك النواحى الفيزيولوجية

للحياة الطريق إليه شاق، وطويل وملىء بالصعاب. ومن استطاع تحمل مشاق الطريق، وبلغ الغاية، ورشف من ذلك الأكسير لم تعرف الشيخوخة إليه سبيلا، وحصل على شباب دائم، والقصص كثيرة تجل عن الحصر. ولعل ما نشهده الآن من شغف العديد منا نحن المسنين، بتتبع بل وترقب ما يمكن أن يقدمه العلم فى هذا الصدد من عقاقير وأدوية تعيد لنا شيئا من شباب وكفاءة قدراتنا العقلية والجسمية، أو على الأقل تقلل من سرعة التدهور الحتمى لتلك القدرات؛ يمثل أشكالاً جديدة لنفس الصورة وإن كانت على مستوى محاولة الإنجاز.

إننا قد نشهد بالفعل فى حياتنا اليومية طفلا يمشى قبل أقرانه، أو يتمكن من نطق الكلمات قبلهم، أو يسبقهم فى الإمساك بالقلم أو فى التحكم فى عادات النظافة أو ما إلى ذلك. كل ذلك قد نشهده دون أن يثير دهشة المتخصصين من بيننا. ولكن لكل شىء حده ومقداره الذى إذا تجاوزه أثار تساؤل المتخصصين ودهشة غير المتخصصين أيضاً. ولنتصور مثلا طفلاً فى الثانية من عمره يستطيع نظم الشعر مثلاً، أو طفلا فى الخامسة من عمره يستطيع حل المعادلات الرياضية، عند ذلك الحد تنبعث الدهشة ويثار التساؤل إذ نصبح حيال ماقد يسميه العامة «الطفل المعجزة».

والأمر بالمثل فيما يتعلق بالنضج الانفعالى؛ فلكل مرحلة من مراحل النمو خصائصها الانفعالية التى تميزها عن سواها، والانتقال من مرحلة إلى مرحلة فى هذا المجال يحكمه ما يحكم النمو عامة من قوانين وقواعد. قد يكون النضج العقلى المبكر أمراً مرغوباً اجتماعياً وأخلاقياً، أما فيمايتعلق بالموقف من النضج الانفعالى المبكر، فإن الأمر لايبدو على ذلك القدر من التقبل الاجتماعى والأخلاقى. ولنتصور معا طفلا لا يلعب ولا يثرثر، لا يتقافز ولا يندفع. ينفعل بما لا يجاوز سبب الانفعال، فيضحك إذا ما ضحك بمقدار، ويحزن إذا ما حزن بمقدار، ويبكى إذا ما بكى بمقدار، ويتحدث أحاديثنا نحن المسنين، وينفعل لمثل ما ننفعل به وبقدر انفعالاتنا. قد يدهشنا مثل هذا الطفل، ولكنها دهشة إشفاق وليست بحال دهشة انبهار.

خلاصة القول أنه إذا ما كان ثمة خير فى النضج العقلى إذا ما جاوز حده، فليس ثمة خير كثير فى نضج انفعالى يجاوز تلك الحدود. إننا لانصبح فى تلك الحالة الأخيرة حيال استباق لمراحل النمو، بقدر ما نصبح حيال إجهاض لمرحلة أو أكثر من مراحل ذلك النمو.

متى أصبحت مسنا

لقد شدت ظاهرة النمو النفسى اهتمام المشتغلين بعلوم الإنسان منذ زمن بعيد، وكانت مجالا لعديد من دراسات علماء النفس ولقد تطورت هذه الدراسات جميعاً حتى أصبحت علما مستقلا يبحث فى سيكولوجية النمو بجميع مظاهره وفى جميع مراحله، واتصلت هذه المظاهر جميعاً وتداخلت مع بعضها البعض فى اتساق منطقى علمى تجريبى، وبذلك نشأ علم النمو النفسى. وهذا يعنى أن الخواص المختلفة لظاهرة النمو النفسى أصبحت واضحة الحدود والمعالم، وتمايزت فى خصائصها وفى أطوارها، واستقامت كميدان مستقل من ميادين علم النفس الحديث.

والنمو النفسى وفقاً للتعريف العلمى المحدد هو سلسلة متتابعة متماسكة من تغيرات تهدف إلى غاية واحدة، هى اكتمال النضج ومدى استمراره وبدء انحداره، فالنمو بهذا المعنى لا يحدث فجأة ولايحدث بشكل عشوائى، بل يتطور بانتظام خطوة إثر خطوة، وتخضع أطوار النمو لتتابع منتظم، وتأتلف مظاهره فى سلم متعاقب الدرجات لاتتقدم فيه خطوة عن أخرى. فالطفل يقعد ثم يحبو ثم يقف ثم يمشى، ويصرخ صرخة الميلاد قبل أن يناغى، ويناغى قبل أن يتكلم، ويجيد رسم المنحنيات قبل أن يجيد رسم الخطوط المستقيمة، ولكن النمو لا يمضى هكذا بلا نهاية؛ فلكل شىء نهاية، فلا يلبث هذا المنحنى الصاعد للنمو فى الهبوط رويدا رويدا لنردد عبارات مثل: «للسن أحكامه» و«يبدو أننى قد أصبحت عجوزا» و«يا الله حسن الختام» وربما تلتقط آذاننا عبارات من نمط «بسم الله ما شاء الله لا يبدو عليك السن» أو «الشباب شباب القلب» إلى آخر تلك العبارات التى لا تقال إلا لأمثالنا من المسنين لتؤكد لهم حقيقة كونهم مسنين ولتحاول فى نفس الوقت طمأنتنا ولو بشكل مبالغ فيه.

ويبقى سؤال بالغ الأهمية من الناحية النفسية: متى يكتشف المسن أنه أصبح مسنا؟ وترجع أهمية هذا السؤال إلى حقيقة أن الوعى بالدور الاجتماعى يعد الشرط الأساسى للتوافق الاجتماعى؛ ومن ثم فإن اختلال هذا الوعى يكون مصدرا لخلل ذلك التوافق ولما يترتب عليه من آثار نفسية واجتماعية بالغة الخطورة. الطفل يكتسب وعيه بدوره الاجتماعى طفلا فمراهقا من خلال الأسرة التى تقوم على تلقينه: «إنك ما زلت صغيرا فلا ينبغى لك أن تفعل كذا وكذا» أو «لا ينبغى لك أن تتصرف هكذا فقد كبرت ولم تعد طفلا»؛ ولكن ماذا عنا نحن المسنين؟ كيف نكتشف أن ثمة دورا جديدا له مواصفاته، وتوقعاته من قبل الآخرين، مطلوبا منا أن نقوم به؟ أعود إلى ذاكرتى محاولا البحث عن إجابة لهذا السؤال من خلال خبرتى الشخصية:

❖ أذكر يوما ركبت فيه مواصلة عامة مزدحمة، المقاعد كلها مشغولة وهناك عديد من الواقفين، وكنت آنذاك قريب العهد بالوقوف لأدعو مسنا للجلوس مكانى؛ وإذا بشاب من الجلوس يقف ويدعونى للجلوس مرددا «اتفضل يا حاج». لقد تغيرت الأحوال فأصبح الشباب يقفون لى لأجلس؛ كما اختفت الألقاب التى كان ينادينى بها من لا يعرفنى مثل «يا أخ» أو «يا أستاذ» كما اختفى من قبلها ذلك النداء القديم «يا ابنى» الذى أصبح إهانة إذا ما ناديت به مسنا باعتبارك تسخر منه؛ وأصبحت أنادى بالحاج وهو نداء يطلق فى مصر على المسنين عامة بصرف النظر عن أدائهم فريضة الحج، ماداموا لا يظهرون ما يدل على أنهم غير مسلمين.

❖ كنت فى الولايات المتحدة فى زيارة علاجية، وحين دخلت مطعما خلال فترة النقاهة لأتناول وجبة سريعة فوجئت بأن قائمة الحساب تتضمن خصما لم أطلبه بطبيعة الحال وتذكرت على الفور أننى أصبحت «مواطنا ذا مكانة خاصة» Senior citizen وحين داعبت النادل متسائلا: لماذا لم يسألنى عن وثيقة تثبت استحقاقى لذلك الخصم، نظر إلى ملامحى وشعرى الأبيض مبتسما مرددا ما معناه أن الأمر لا يحتاج إلى دليل.

إننى بشكل أو بآخر أقوم بإطلالة من الداخل محاولا ألا أتخلى بطبيعة الحال عن تخصصى العلمى، محاولا ما وسعنى الجهد ألا أكون ذاتيا فأدافع بحق وبغير حق عن جماعتى من المسنين

❖ لم تكن بداية تشكيل وعيى بدورى الجديد مقصورة بشكل مطلق على تلك الرسائل التى يبعث بها المحيطون بى، بل ثمة رسالة أو لنقل خطابا رسميا مهيبا يحمل العديد من الأختام والتوقيعات يتلقاه أمثالى من المسنين العاملين فى وظائف الدولة. أعنى خطاب انتهاء الخدمة أو بلوغ السن القانونية للإحالة للتقاعد أو المعاش. ورغم أن ذلك التاريخ تاريخ محدد منذ تسجيل واقعة الميلاد؛ ومن ثم فإنه معروف ومتوقع يقينا للجميع وأولهم صاحبه؛ فإنه يكون أشبه بالخبرة الصادمة المؤلمة لدى العديد منا نحن المسنين إذا ما قرأناه باعتباره يقول: «لقد انتهى دورك ولم نعد فى حاجة إليك»؛ وقد لا تخلو تلك القراءة من حقيقة؛ فمثل تلك الخطابات «الرسمية» تحرص ربما من باب الوقار أن تكتب بصيغة شديدة الجفاف خالية من أية «شوائب» إنسانية انفعالية حتى ولو كانت مجرد كلمات. لقد تلقيت ذلك الخطاب الجاف ولكنى لم أحس حياله بصدمة أو أسى. ربما لأننى أعددت نفسى لتلقيه، وربما أيضا لأننى أعمل فى الجامعة حيث لم يتغير شىء متعلق بالعمل سوى بتركى المناصب الإدارية التى كنت بحكم تكوينى الشخصى أضيق بها كثيرا، غير أن العامل الأهم فى ظنى أننى كنت محاطا بمجموعة من الأبناء/الأساتذة الذين أحاطونى قبل وبعد الإحالة للمعاش وما زالوا يحيطوننى بما لا أستطيع التعبير عنه من مشاعر المودة والعرفان. كانت مشاعرى ببلوغ سن التقاعد مشاعر إيجابية دافئة. ولعل خبرتى الشخصية تلك تتفق مع ما أشارت إليه العديد من الدراسات من أنه رغم الطابع السلبى العام لخبرات الإحالة للمعاش بالنسبة للمسن؛ فقد أشارت دراسة هايسليب وبانيك[٢] مثلا إلى أن بلوغ سن التقاعد قد تكون له آثار إيجابية إلى جانب آثاره السلبية.

حسنا لقد أصبحت مسنا إذن. وتوالت الخبرات تؤكد لى ملامح الدور الجديد: أننى قد دخلت فى زمرة المسنين، ولحسن الحظ فقد كانت كلها رسائل إيجابية تعبر عن ميزات التقدم فى العمر وتترك لى استنتاج المثالب والتعامل معها.

صورة المرآة والعلم

وبالإضافة لهذه الواقعة الرسمية المعلنة ذات التوقيت الحاسم، فثمة وقائع ربما تكون أكثر أهمية لكنها تعلن عن نفسها رويدا رويدا من خلال نظرتنا لأنفسنا فى المرآة، إذ نكتشف -



نحن المسنون

ربما بعد أن لاحظ الآخرون- أن ملامحنا أخذة فى التغير. لعل بدايتها تلك الشعيرات البيضاء التى تتسلل إلى الشعر لمحو سواده القديم وتلك التجاعيد التى تغزو الجلد شيئا فشيئا. وتصاحب تلك المظاهر الخارجية ذلك الوهن الذى يصيبنا ونحن نمضى نحو الشيخوخة. ولا يقتصر ذلك على الجسد بل يشمل النفس أيضا. وإن كان جانب كبير من جذور ومظاهر ومسار ذلك الوهن وكذلك سبل التعامل معه . ولا أقول الوقاية منه - يقع فى دائرة اهتمام الأطباء بمختلف تخصصاتهم فى الأمراض الجسمية والنفسية.

لقد أصبحت الشيخوخة حاليا تكاد تشكل تخصصا علميا قائما بذاته يتناول النواحى الثقافية والاقتصادية ودراسات الوعى والتغيرات الاجتماعية والديموجرافية، وكذلك النواحى الفيزيولوجية، حيث تشير الدراسات إلى أن الشيخوخة تتميز بقابلية متناقصة للاستجابة للضغوطات، واضطراب فى الاتزان الحيوى Homeostasis، وزيادة خطورة التعرض للأمراض؛ بالإضافة إلى تغيرات فسيولوجية تؤثر على القوة العضلية والقدرة على التحمل وتضعف العظام؛ وتتأثر أنسجة المفاصل خاصة فى السيدات، ويتأثر الجهاز التنفسى، كما تتأثر وظائف القلب والأوعية الدموية مما يضعف القدرة على تحمل المجهود البدنى، ونتيجة لهذه التغيرات تقل قدرة المسن على أداء العمل العضلى كلما تقدم عمره ولا سيما فى أداء الأعمال قصيرة الأمد التى تتطلب مجهوداً فائقاً لمدة قصيرة وكذلك الأعمال التى تتطلب جهداً متوسطاً لمدة طويلة؛ وكذلك تتأثر الوظائف الحسية مثل التغيرات التى تصيب العينين والسمع كما أن هناك العديد من المتغيرات التى تصيب الجهاز العصبى وتؤثر على القدرة على أداء العمل وسرعة التعامل مع المعلومات الواردة إليه.

كانت تلك مجرد لمحة عامة غير متخصصة للتيار العام السائد لدى أهل التخصص فى العلوم الطبيعية وعلى رأسها العلوم الطبية فيما يتعلق بنا نحن المسنين، ولم يكن بد من النظر إلى رؤية رفاق المهنة من علماء النفس.

منذ ما يقرب مما يزيد على الثمانين عاما أشار عالم النفس الشهير ج. ستانلى هول فى كتابه «الشيخوخة: النصف الأخير من الحياة» إلى أن الحكم الصائب على الناس والأشياء والمسببات وعلى الحياة بعامة، لا يمكن توافره إلا من خلال تراكم سنوات العمر. إنها الحكمة الحقيقية التى لا يكتسبها البشر إلا من خلال ذلك التراكم العمرى[٣].

وفى مقابل ذلك التقييم الإيجابى للشيخوخة نجد أن عالم النفس المصرى الراحل فؤاد البهى السيد وهو بصدد رصده للمظاهر الانفعالية لمرحلة الشيخوخة وهى- فى رأيه- تبدأ منذ سن الستين يشير إلى أن الشيوخ «يميلون للمديح والإطراء... وقد يؤدى بهم القلق إلى الكآبة.. وما أكثر شكوك الشيوخ وريبتهم فى الآخرين... ثم يحدد ما يميز مرحلة الشيخوخة انفعالياً عن بقية المراحل فى نقاط ثمان ليس فيها ما هو إيجابى[٤]:

١ - يحلو للشيوخ أحياناً أن يقفوا من البيئة المحيطة بهم موقفا سلبيا لاينفعلون لها أو معها، وكأنهم بهذا يعبرون عن شعورهم بالهوة السحيقة التى تفصلهم عن الأجيال الأخرى التى تضطرب بها الحياة من حولهم.

٢ - ولذا كثيراً ما تتصف انفعالاتهم بالخمول وبلادة الحس.

٣ - وقد يرجع هذا الشعور الغريب بالسلبية والبلادة إلى عدم إدراك الشيخ للمسئولية التى تواجه من يحيطون به، فهو يمضى فى حياته، ومشاكل الناس حوله تدفعهم إلى ألوان مختلفة من الكفاح المرير، وهو لايشعر نحوهم ولا نحو مشاكلهم بأية مسئولية تتطلب منه استجابة انفعالية محددة.

٤ - ولذلك يقل حماسهم لما يحيط بهم من مشكلات انفعالية يضطرب فيها الآخرون.

٥ - وهم عندما ينفعلون، كثيراً ما يخطئون إدراك الموقف المحيط بهم. وتجىء انفعالاتهم شاذة لا تتناسب ومقومات الموقف الذى أثار فى نفوسهم ذلك الانفعال.

٦ - ويغلب على انفعالهم لون غريب من التعصب الذى لايقوم فى جوهره على أى أساس، فهم يتعصبون لجيلهم ولآرائهم، ولعواطفهم، ولكل ما يمت إليهم بصلة قريبة.

٧ - وعندما لا يتقبل الآخرون ذلك التعصب بروح المشاركة والولاء فإنهم يحسون فى أعماقهم بأنهم مضطهدون.

٨ - ويؤدى بهم الشعور بالاضطهاد إلى الإحساس العميق بالفشل. وقد يتخذون سلوكا معاديا فيجابهون الاضطهاد الذى يقع عليهم باضطهاد الآخرين.

أما ستيوارت- هاميلتون (١٩٩٤) فى كتابه المعنون سيكولوجية الشيخوخة[٥] فإنه يمثل اتجاها علميا لا يرى فينا فئة واحدة تتطابق خصائص أفرادها، كما أنه لا يغفل بطبيعة الحال ما يجمع بيننا من صفات مختلفة، فيقرر أن ثمة تفرقة ضرورية بين «الشيخوخة العامة» universal aging، أى تلك التغيرات التى تحدث للبشر جميعا مع تقدمهم فى العمر؛ وما أطلق عليه «الشيخوخة الاحتمالية»، ويعنى بها تلك التغيرات التى قد تحدث لبعض الأفراد دون غيرهم مع التقدم فى العمر؛ كما ينبغى التفرقة بين مجرد التقدم فى السن و«الشيخوخة الاجتماعية» social aging، أى توقعات المجتمع لسلوك المرء كلما تقدم به العمر، و«الشيخوخة البيولوجية» biological aging، أى حالة الكائن الفيزيقية حين يتقدم به العمر.

هل نحن نسيج واحد مختلف؟

لقد تلقيت فى دروسى الأولى مقررا شيقا عن الفروق الفردية وما زلت أذكر تلك العبارة التى كانت تلخص ذلك المقرر خير تلخيص: إذا طلب منك المقارنة بين الرجل والمرأة فلتكن إجابتك: عن أى رجل وأية امرأة تتحدث؟. ومنذ ذلك الزمن البعيد أجد فى نفسى توجسا شديدا من الإسراف فى استخدام التعميمات فى مجال وصف الجماعات وما يترتب عليها من محاولة صهر الأفراد فى فئات نمطية. وإن كان ذلك لا ينفى بحال حقيقة أن ثمة قدرًا من التشابه يجمع بين البشر جميعا، وأن ثمة قدراً أيضا من التشابه يجمع بين أفراد أية جماعة أو فئة من البشر؛ دون أن ينفى كل ذلك حقيقة أنه لا يوجد فرد تتطابق خصائصه تماما مع آخر مهما تشابها. وأننا كلما اقتربنا من الخواص الفيزيقية التشريحية الأساسية ازدادت درجة تشابه البشر؛ وكلما اتجهنا صوب ما هو اجتماعى نفسى ازداد تمايزهم كجماعات وكأفراد.

إننا نختلف حقا عن الجيل الأصغر منا. للأصغر سنا ماض أقصر ومستقبل أطول؛ فى حين أن ماضينا طويل ممتد ومستقبلنا أقصر كثيرا؛ فضلا عن أننا ننتمى لمرحلة يمكن أن يطلق عليها «مرحلة الفقدان»: يشغلنا افتقاد الزوج/ الزوجة، ورحيل الأصدقاء، فضلا عن انتهاء العلاقة بالعمل، وافتقاد صحة الشباب التى ولت.

لعل أهم خواصنا نحن المسنين أنه كلما تقدم بنا العمر قلت أمامنا فرص المفاضلة بين خيارات مستقبلية. لقد حسمنا وحسم الواقع خياراتنا المهنية والاجتماعية. لم يعد أمامنا إمكانية المفاضلة والاختيار بين التخصصات المهنية أو الاجتماعية؛ أما خياراتنا الفكرية فتستحق نظرة متأملة. إن تغيير المرء لقناعاته الفكرية أمر وارد سواء كان ذلك التغيير شاملا أو جزئيا، وسواء كان عودة لقناعات قديمة أو لحاقا بأطروحات جديدة؛ ويظل لذلك التغيير الفكرى أيا كان، ثمن اجتماعى لا بد أن يدفعه من يقدم عليه، وتزداد فداحة الثمن المطلوب كلما كان صاحبه منا نحن المسنين. سوف يرحب به من قدم إلى ساحتهم الفكرية ولكنه سوف يحتل ذيل قائمتهم باعتباره وافدا جديدا عليهم وربما صدموه بعبارة من نوع «أين كنت حين كنا»، ويتمثل الثمن الاجتماعى الأكبر فى موقف الجماعة الفكرية القديمة التى هجرها والتى تآلف معها فكرا ومعايشة. وتتفاوت قدراتنا نحن المسنين فى تحمل سداد هذا الثمن الاجتماعى الذى ربما يسدده الشباب بيسر أكبر. ولعل ذلك هو ما جعل التراث السيكولوجى يفيض بالحديث عما نتميز به من «جمود» و«تصلب فكرى».

لعل أهم خواصنا نحن المسنين
أنه كلما تقدم بنا العمر قلت أمامنا
فرص المفاضلة بين خيارات مستقبلية. لقد
حسمنا وحسم الواقع خياراتنا
المهنية والاجتماعية

ثمة فجوة طبيعية بين الرغبة والقدرة. وقد تلعب تلك الفجوة دورا إيجابيا فى حفز الشباب على الإنجاز؛ ومع تناقص قدراتنا نحن المسنين، تتسع لدينا تلك الفجوة بين الرغبة والقدرة، لتصبح أشبه بما نجده عند الأطفال. مع فارق جوهرى؛ هو أننا ندرك عقليا أنه ليس من سبيل لتجاوز هذه الفجوة وأن علينا التأقلم والتوافق معها وتعديل سلوكنا وفقا لذلك بشكل أو بآخر؛ وهو الأمر الذى تتفاوت قدراتنا فى إنجازه.

نختلف عن الشباب أيضا فى إحساسنا باقتراب النهاية. صحيح أن الموت نهاية كل حى. وأن الموت هو الحقيقة اليقينية الوحيدة التى لا يختلف حولها أحد؛ ولكننا



نحن المسنون

كلما تقدم بنا العمر ازداد إحساسنا باقترابها أو اقترابنا منها؛ وتتفاوت تعبيراتنا وردود أفعالنا حيال تلك الحقيقة: البعض منا يميل إلى تجاهلها والاندفاع فى شراهة لمحاولة كسر تلك الفجوة الموضوعية التى أشرنا إليها بين القدرة والرغبة محاولا التخفى من الموت بارتداء ثوب شبابى زائف بما يطلق عليه البعض تعبير «المراهقة المتأخرة»، وقد يفضل البعض منا وقد خلا عالمه من الأصدقاء والأقران أن يتجمد مكتئبا عازفا عن الحياة منتظرا الموت بل مستعجلا قدومه، وقد يجد البعض منا - ممن أوتى حكمة- سبيلا واقعيا متوازنا بين هذا وذاك للاستمرار فى الحياة متقبلا حقيقة أنه قد أصبح مسنا، محاولا قدر ما وسعه الجهد استبدال الخبرة والفكر بالقوة والفعل.

ورغم كل ما يجمعنا، ورغم أننا بالتعبير الفنى نمثل فئة عمرية هى «فئة المسنين»، فإننا لا نمثل حالة نفسية نمطية واحدة. إننا مثل أية مجموعة بشرية؛ لكل منا حالته الخاصة التى تتشكل وفقا لتفاصيل تاريخه من تعليم وتربية وعمل وزواج وأمراض وإصابات وأفراح وأتراح ومكاسب وخسائر وآمال وإحباطات ونجاحات وإخفاقات، ولطبيعة البيئة الاجتماعية المحيطة به، فضلا عن بنائه النفسى الخاص، وقدرته على التكيف أو الصراع ؛ وكذلك كيفية استقباله هو لهذه المرحلة وكمية ونوع المفتقدات فيها مثل فقدان العمل أو الزوج أو ابتعاد الأولاد أو عدم الأمان المادى ثم نظرة المجتمع والبيئة العائلية للمسن نفسه، ثم قيمة الدور الذى يلعبه المسن وأهمية هذا الدور لنفسه وللآخرين وبقدر الإيجابية أو السلبية فى هذه العلاقة بين المسن والمجتمع بقدر ما تكون عليه الحالة النفسية.

و قد قام ماك فادن McFadden (٢٠٠٥) فى بحث له بعنوان علم الشيخوخة وسيكولوجية الدين[٦] بدراسة مثيرة للاهتمام إذ قارن بين مجموعات ثلاث من المسنين تدرجت أعمارهم بين الأصغر سنا (من ٦٥-٧٤ عاما) ثم (٧٥-٨٤ عاما) ثم الأكبر (٨٥ عاما فأكثر) فلاحظ أن الفروق العمرية لا ترتبط تماما مع ما هو معروف من تدهور الوظائف نتيجة للشيخوخة حيث قد نجد فردين مسنين فى نفس العمر ولكنهما يختلفان تماما من حيث قدراتهما الذهنية والفيزيقية. غير أن كبار السن بشكل عام أقرب إلى المحافظة فى حين أن الشباب أكثر اندفاعا نحو التغيير السياسى والاجتماعى. وقد أشارت نتائج دراسات ماك فادن إلى ارتباط ذلك بتزايد ميل المسنين إلى الاعتماد على الدين فى مواجهتهم لضغوط الحياة.

لسنا أقلية: نحن قادمون

كان عام ١٩٩٩ هو عاما وفقا لقرار الأمم المتحدة التى اعتبرته العام العالمى للأكبر سنا تحت شعار «نحو عالم لكل الأعمار» ووفقا للبيان الصادر بهذا الشأن فإن حياة الأفراد وكذلك البيئة الاجتماعية تتأثر بالتغيرات الديموجرافية، فلقد أضيف إلى متوسط أعمار البشر عشرون عاما خلال النصف الثانى من القرن العشرين، ونظرا لسرعة وحداثة ذلك التغير فإن المجتمع لم يكن مهيئا لاستيعاب هؤلاء القادمين «الجدد».

لقد تغير بنيان الأسرة بحيث كاد يغيب ذلك التصور الهرمى التقليدى الذى تحتل قاعدته كثرة من الشباب ولا يوجد على قمته سوى قلة من المسنين. لقد انقلب شكل الهرم فأصبح من المألوف أن تتشكل الأسرة من طفل أو طفلين، وأب وأم، وأربعة جدود، وربما بعض آباء لأولئك الجدود. أى أنه يمكن للأسرة فى عالم اليوم أن تضم أكثر من جيلين منا نحن المسنين الذين تتجاوز أعمارنا ٦٠ عاما. ووفقا لبيانات الأمم المتحدة أن العالم يدخل فى ألفية نصبح فيها نحن المسنين ثلث البشر خاصة فى الدول الأكثر تقدما، وأن حوالى ١٠٪ من المسنين تتجاوز أعمارهم الثمانين وأن تلك النسبة سوف تصل إلى ٢٥٪ عام ٢٠٥٠، وأن غالبية هؤلاء سيكونون من النساء اللاتى يشكلن ٥٥٪ ممن تتجاوز أعمارهم ٦٠ عاما و٦٥٪ ممن تتجاوز أعمارهم ٨٠ عاما، وأن الغالبية ستكون من أبناء القرى.

وتشير بيانات منظمة الصحة العالمية أيضا إلى أنه منذ عام ٢٠٠٠ وحتى عالم ٢٠٥٠ سيزيد عدد من تبلغ أعمارهم ٦٠ عاماً فأكثر من سكان العالم أكثر من ثلاثة أمثال، أى من ٦٠٠ مليون نسمة إلى مليارى نسمة. وأن معظم هذه الزيادة ستكون فى البلدان النامية، حيث سيرتفع عدد المسنين من ٤٠٠ مليون نسمة فى عام ٢٠٠٠ إلى ١.٧ مليار نسمة بحلول عام ٢٠٥٠.

وقد صاحب تزايد نسبتنا العددية، وتطور أساليب الرعاية والوقاية الصحية؛ أن أصبحت لياقتنا الصحية فى الفترة الممتدة بعد التقاعد أفضل مما كانت عليه، وفى ضوء التغيرات التى طرأت على طبيعة سوق العمل بحكم التطورات التكنولوجية فقد تراجعت الاحتياجات إلى الأعمال التى تتطلب جهدا بدنيا لا يقدر عليه إلا الشباب، وتزايدت الاحتياجات إلى الأعمال الذهنية والمكتبية؛ ومن ثم فلم نعد نحن المسنين نمثل بالضرورة عبئا اقتصاديا على الأجيال الشابة كما كان الحال فى الماضى، ولم يعد غريبا فى عالم اليوم أن نقوم نحن المسنين الجدات والجدود بتقديم الدعم الاقتصادى لأبنائنا الآباء ولأبنائهم الأحفاد.

ولعل تلك الحقيقة تذكرنا بما قالت به سيمون دى بوفوار فى كتابها الصادر عام ١٩٧٠ والمعنون «التقدم فى العمر» أن مكانة المسنين ليست حقا لهم بقدر ما هى منحة يتفضل بها عليهم المجتمع باعتبارهم أقلية غير منتجة، ومن ثم فإن مصائرهم معلقة على إرادة أبناء المجتمع النشطاء المنتجين الذين يمثلون غالبية المجتمع[٧].

لقد تغير المجتمع عما كانت تصفه سيمون دى بوفوار، فالعديد منا أصبح يسهم إسهاما فعالا فى العملية الإنتاجية، وتؤكد بيانات الأمم المتحدة أن تحول نظرة المجتمع إلى المسنين لكى تصبح أكثر إيجابية وتطورا إنما هى نتاج لجهود المسنين أنفسهم من خلال تزايدهم عددا وتأثيرا ووعيهم الاجتماعى بذلك.

ولكننا نبالغ كثيرا إذا ما عممنا تلك الصورة المتفائلة، فلكل شىء نهاية، ومهما طالت الحياة فالموت يقين وكل نفس ذائقته، وكثيرا ما لا تتحقق أمنيتنا بحسن الختام، بمعنى أن نمضى فى هدوء دون أن يقعدنا المرض والعجز، وتعوزنا الحاجة، وتتدهور قدرتنا على التواصل فضلا عن العناية بأنفسنا، ونصبح عبئا ثقيلا على من حولنا من الأحبة وعندها تتزايد حاجتنا لما مازلنا نفتقده كثيرا فى العديد من بلداننا العربية حيث ما زال الكثير منا يعانون من التجاهل والتهميش والعوز المادى، ويصبحون الأكثر حاجة لبرامج الرعاية الصحية والتأمين الاجتماعى، وحيث مازلنا نجد مقاومة من أنفسنا وممن حولنا لفكرة دور رعاية المسنين التى كثيرا ما ننظر إليها باعتبارها دليلاً على نكران الأسرة للجميل وتخليها عن كبارها، وهى نقيصة ينفر منها أحباؤنا بطبيعة الحال رغم عجزهم الموضوعى عن رعايتنا رعاية كاملة، ونقاومها نحن منكرين أن عجز هؤلاء الأحبة عن تقديم ما نطمح إليه ونستحقه من رعاية لا يقوم دليلا على ضيقهم بنا، ولا يرجع لتشاغلهم عنا بقدر ما يرجع لانشغالهم بأعمالهم وبتفاصيل حياتهم اليومية، وأنهم فى الغالب قد لا يضنون علينا بعوائد عملهم لسداد تكاليف دور رعايتنا.

خلاصة القول إن الشيخوخة لا تعنى بالضرورة الاكتئاب والتحسر على الشباب الذى ولى. ثمة شيخوخة سعيدة. صحيح قد نردد مع الشعراء كلماتهم: ليت الشباب يعود يوما فأريه ما فعل المشيب، أو ننفى عنا عار الشيب فنردد مع الشاعر: عيرتنى بالشيب وهو وقار ليتها عيرت بما هو عار. ولكن يظل ذلك مثارا للفكاهة وباعثا على الابتسام. ■

ثمة فجوة طبيعية بين الرغبة والقدرة. ومع تناقص قدراتنا نحن المسنين، تتسع لدينا تلك الفجوة لتصبح أشبه بما نجده عند الأطفال

(❖) انظر:

«راى فى نشأة علم النفس»، الفكر المعاصر، القاهرة، العدد ٢٦، أبريل ١٩٧٠

«نظرة مادية إلى نشأة علم النفس»، الفكر المعاصر، القاهرة، العدد ٦٤، يونيو ١٩٧٠

«علم النفس بين الطبقية والموضوعية»، الفكر المعاصر، القاهرة، العدد ٦٨، أكتوبر ١٩٧٠

«موقف ثورى فى علم النفس الأمريكى: فيتنام»، الطليعة، القاهرة، يناير ١٩٧٢

«الأصول الطبقية لعلم النفس المعاصر: الأزمة الراهنة وجذورها»، دراسات عربية، بيروت، نوفمبر ١٩٧٥

«فونت... فيلسوفاً، وسياسياً، وعالماً»، مجلة علم النفس، القاهرة، العدد الأول، يناير ١٩٨٧

(٢) Hayslip, B., & Panek, P.E. Adult Development and Aging. New York: Harper/Collins,1994

(٣) G. Stanley Hall, Senescence: The Last Half of Life, D. Appleton & Company. New York. 1922. P ٣٦٦.

(٤) فؤاد البهى السيد. الاسس النفسية للنمو: من الطفولة إلى الشيخوخة، دار الفكر العربى، القاهرة: ١٩٦٨

(٥) Stuart-Hamilton, I. (1994). The Psychology of Aging. London: Jessica Kingsley

(٦) McFadden, S. (2005). Gerontology and the Psychology of Religion. In R. Paloutzian & C. Park (eds.) Handbook of the Psychology of Religion and Spirituality. New York: Guilford

(٧) Simone de Beauvoir, The Coming of Age, p 85.

كان البنا على ثقة كاملة بقدرة الصوفية على قيادة الجماهير إذا ما خرجت من عزلتها وتفاعلت مع مؤسسات الأمة

البُعد الغائب!



الإخوان والصوفية

حسام تمام

■■ تقارب هذه الورقة قضية العلاقة بين الحركة الإسلامية والتصوف تاريخيا، وتمثل بحالة الشيخ حسن البنا ومشروعه فى بناء جماعة الإخوان المسلمين، كما ترصد كيف تراجع الحضور الصوفى لحساب الرافد السلفى، وتطرح فى الأخير التساؤل حول إمكانيات استعادة الحركات الإسلامية للمكون الصوفى التربوى الذى كان عاصما لها من تغول السياسة وتحكم منطقها وأخلاقها.

نشأ الشيخ حسن البنا نشأة صوفية خالصة، فتأثر منذ طفولته بدروس شيوخ الصوفية التى كانت تعقد فى المسجد الصغير ببلدته المحمودية (بمحافظة البحيرة بدلتا مصر) بين المغرب والعشاء، واجتذبته مبكرا «حلقة الذكر بأصواتها المنسقة ونشيدها الجميل وروحانيتها الفياضة، وسماحة هؤلاء الذاكرين من شيوخ فضلاء وشباب صالحين، وتواضعهم لهؤلاء الصبية الصغار الذين اقتحموا عليهم مجلسهم ليشاركوهم ذكر الله تبارك وتعالى» كما يروى فى مذكراته: مذكرات الدعوة والداعية. وانتمى حسن فى مطلع شبابه للطريقة الحصافية الشاذلية وواظب على الوظيفة الزروقية وهى الوظيفة التى زكاها والده الشيخ عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتى صاحب كتاب الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى، والذى كتب عنها أيضا رسالة خاصة أسماها (تنوير الأفئدة الزكية بأدلة أذكار الزروقية) أكد فيها موافقتها للكتاب والسنة.

أخذ الشاب حسن البنا العهد على شيخ الطريقة الحصافية الشيخ عبد الوهاب الحصافى وظيفة ووردا، وشارك فى الطريقة أورادا ووظيفة واحتفالات، وتطورت علاقته بها فانتقل من محب إلى تابع مبايع، وظل مؤمنا بأن لا حرج فى اتباع الوظائف والأوراد لكنه وضع شروطا لسلامتها أجملها فى ثلاثة: البعد عن الأعجمية، والبعد عن الفلسفية والبعد عن الشطحات.

ورغم أن الشيخ حسن البنا حسم بوضوح انتماءه للصوفية ولكنه ظل يأخذ على المتصوفة أمرين لخصهما فى: المبالغة فى الصمت والجوع والسهر والعزلة رغم أن لها أصولا فى الدين، وكذا خلط التصوف بالمواجيد والفلسفة.

ورغم ذلك فقد أقر للتصوف بالفضل فى نشر الإسلام فى بلدان وجهات كانت نائية عنه خاصة فى أفريقيا وآسيا، كما أقر بفضل التصوف فى ناحية التربية والسلوك لما له من «الأثر القوى فى النفوس والقلوب ولكلام الصوفية فى هذا الباب من صولة ليست لكلام غيرهم».

لقد تكونت لدى الشيخ حسن البنا قناعة أكيدة بأهمية التصوف؛ فليس أفضل من الصوفى لتقوم عليه نهضة الأمة، إذ الصوفى عنده «متخفف يجب عليه أن يقطع علائقه بكل ما سوى الله، وأن يجاهد فى هذه السبيل ما أمكنه من ذلك» ولكنه ظل قادرا على وضع يديه على ما رأى أنه مواطن خلل وضعف تحول دون قيام التصوف بما يمكن أن يعول عليه فى نهضة الأمة من عثرتها.

لقد كان الشيخ البنا على ثقة كاملة بقدرة الصوفية على قيادة الجماهير إذا ما خرجت من عزلتها وتفاعلت مع مؤسسات الأمة خاصة مؤسسة الأزهر الشريف بقوتها العلمية والجماعات الإسلامية العملية، ومن ثم فهو سعى إلى أن يكمل ما بدأه مصلحو الصوفية من أمثال الشيخ توفيق البكرى والشيخ عبد الله عفيفى من إصلاح التصوف منهجيا لتأهيله لقيادة الأمة.

ويبدو أن حسن البنا عانى فى بداية

حياته الدعوية ترددا حول أي الطرق يسلك في طريقه إلى الله؛ وكان يقارن بين طريقين «أولهما التصوف الصادق الذي يتلخص في الإخلاص والعمل وصرف القلوب عن الاشتغال بالخلق خيرهم وشرهم وهو أقرب وأسلم، وثانيهما طريق التعليم والإرشاد، الذي يجامع الأول في الإخلاص والعمل، ويفارقه في الاختلاط بالناس، ودرس أحوالهم وغشيان مجامعهم ووصف العلاج الناجع لعللهم. وهذا أشرف عند الله وأعظم».

وتكشف نقاشاته المطولة مع شيوخ الصوفية الذين عرفهم مثل الشيخ عبد الوهاب الدندراوي والشيخ حسن عبد الله المسلمي والشيخ عبود الشاذلي والسيد محمد الحافظ التيجاني؛ أنه كانت لديه ميول حركية مبكرة لكن من دون رفض للتصوف أو خروج عليه، بل رفض لأسلوب الطرقية أو نشر الدعوة على أنها طريق خاص، وكان يرد على الشيخ عبد الرحمن سعد أحد خلفاء شيخه الحصافي لما كان يناقشه في جدوى أسلوب الطريقة: «إنني لا أريد الدخول في خصومة مع أبناء الطرق الأخرى، وأنني لا أريد أن تكون محصورة في نفر من المسلمين، ولا في ناحية من نواحي الإصلاح الإسلامي، ولكني حاولت جاهداً أن تكون دعوة عامة قوامها العلم والتربية والجهاد، وهي أركان الدعوة الإسلامية الجامعة، ومن أراد بعد ذلك تربية خاصة فهو وما يختار لنفسه».

وحين بدأ العمل تردد الشيخ حسن البنا كما يبدو في سيرته الذاتية كثيرا بين التصوف والتنظيم الحركي، وكان إيمانه بأهمية التصوف وفاعليته مع رفض أسلوب الطرقية المغلق سببا فيما انتهى إليه من نموذج جديد للعمل الإسلامي هو ما يمكن أن نسميه بالصوفية الحركية العسكرية.

لقد بدأ الشاب حسن البنا بتأسيس جمعية إصلاحية (جمعية الحصافية الخيرية) وانتخب سكرتيرا لها ولم يزل طالبا لم يغادر بلدته بعد، ثم ما إن استقر في مدينة الاسماعيلية للعمل مدرسا بها حتى أسس جمعية الإخوان المسلمين الخيرية التي بدأت على غرار الجمعيات الصوفية قبل أن تتطور سريعا لتظهر فيها الروح الحركية الجديدة.

حين أسس البنا جمعيته الجديدة كان يتجاوز التكوين الطرقي المغلق على أبناء الطريقة ليؤسس لتنظيمه الحركي الأكثر انفتاحا على الأمة ولكن دون أن يغادر روح التصوف، لقد تحول حسن البنا إلى الدعوة العامة بدلا عن الدعوة الطرقية، وحدد قوام دعوته بـ: العلم والتنظيم والرقابة

لقد صاغ حسن البنا جماعته لتكون جماعة إسلامية شاملة فهي «دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية» ولكنه كان واعيا أن نظامها كجماعة يقوم على قوامين أساسيين هما الصوفية والعسكرية، وقد قال هذا نصا في رسالة التعاليم حين أراد وصف أهم جوانب دعوة الإخوان: «ونظام الدعوة في هذا الطور صوفي بحت من الناحية الروحية وعسكري بحت من الناحية العملية».

حين أسس حسن البنا الجماعة الإسلامية الأولى في العصر الحديث كان يؤسس لما يمكن أن يسمى بالحركية الصوفية العسكرية، وهي حركية استحضر فيها روح التصوف ولكن من دون أطره الطرقية المغلقة، ويمكن القول أن البنا في بنائه لجماعته استفاد من التصوف على ثلاثة مستويات: البناء التنظيمي، التأطير الثقافي، والتكوين التربوي العملي.



١ - البناء التنظيمي:

لقد أسس الشيخ حسن البنا جماعة شمولية جاءت مزيجا يجمع ما بين شكل التنظيمات السياسية الفاشية والشيوعية التي كانت قد انتشرت في تلك الفترة (الربع الثاني من القرن العشرين) وبين الفضاء الصوفي الذي نشأ في ظله، ويظهر الأثر الصوفي واضحا لا تخطئه العين في عدد من المكونات التنظيمية في جماعته.

فهناك «الأسرة» التي هي أصغر وحدة تنظيمية تتأسس منها الجماعة، وهي يمكن أن ينظر إليها كتطوير لـ «الخلية» الشيوعية ولكن باتجاه صوفي، فقد اختار البنا اسم «الأسرة» بدلا من الخلية تعبيرا عن أنماط العلاقات التي تقوم أو ينبغي أن تكون بين أفرادها، هي تحيل بالضرورة إلى معاني التكافل والتراحم والارتباط الوثيق الذي يماثل رابطة الدم في حين تحيل «الخلية» إلى نمط من علاقات الإنتاج المنضبطة ولكن دونما إشارة إلى الجانب العاطفي والإنساني.

إن وحدة الأسرة في البناء التنظيمي لجماعة الإخوان صارت تحيل إلى نمط من العلاقات التنظيمية ولكن في إطار روحاني وفي ظل افتراض علاقات إنسانية خاصة تكاد تقترب مما بين إخوة الدم، فهي تطوير للإطار الشيوعي «الخلية» في انضباطه وفاعليته ولكن من بعد بثه مضمونا وروحا صوفية يفتقدها.

يرتبط أعضاء الأسرة الواحدة برباط صوفي تربوي محض قبل أن يكون رباطا سياسيا تنظيميا، فهناك الأوراد اليومية الجماعية (مثل الوظيفة الكبرى والوظيفة الصغرى) والأذكار (مثل أذكار الصباح والمساء) وحفظ القرآن الكريم وفق مقررات ثابتة ومتصاعدة، وزيارة القبور وقيام الليل وعيادة المرضى وجلسات التفكر.. وكثير من الممارسات والطقوس التي هي إما ذات جذر صوفي أو متأثرة بروح التصوف فلا تخلو من لمحاته.

ثم هناك «الكتيبة» وهي لقاء تنظيمي شهري يجمع عددا من الأسر دون أن يفترض تدريبا أو عملا عسكريا بالضرورة، وهي كما تبدو مقتبسة من فضاء العسكرية الذي لم يكن غريبا عن التنظيمات السياسية التي تأسست وقتها والتي كان لها أذرع أو أجنحة عسكرية في غالبيتها خاصة إذا استحضرنا ظرفية الاحتلال الانجليزي للبلاد وأجواء ما بين الحربين العالميتين.

ورغم ظلالها العسكرية فقد أعطى حسن البنا لـ «الكتيبة» حمولة معنوية مختلفة ولم يدخلها في آليات بناء تنظيمه إلا بعدما أعطاها بعدا صوفيا واضحا فصار الصيام جزءا منها حيث يكون اجتماع أعضاء التنظيم على إفطار متواضع بل وبالغ التقشف، وتكون هناك صلاة قيام الليل لفترات طويلة، أو السير مع الذكر عدة كيلو مترات، أو صعود الجبال في الليالي القمرية للجمع ما بين مشقة التدريب البدني وسنة التفكر والتدبر في خلق الله.

وهنا يجب أن نتوقف أمام حقيقة أن البنا أعطى للمضمون الصوفي في تنظيمه بعدا جهاديا أو استعاده من جديد بعدما غاب في الممارسات الطرقية التي تغلب عليها الطقوسية.

لقد جاءت «الكتيبة» في بعض تجلياتها تطويرا للحضرة العامة المعروفة عند المتصوفة، ولكن بعدما انتقلت من الممارسات الطقوسية إلى الممارسات الجهادية التعبدية.

ومن بيئة التصوف اقتبس الشيخ حسن البنا أيضا لقب «المرشد» وهو اللقب الذي اختاره لنفسه واتبعه فيه كل أسلافه، وهو لقب ينتمي للفضاء الصوفي بامتياز والذي عرف ما يسمى بـ «المرشد الكامل» على نحو ما يؤكد الأستاذ سعيد حوى.

لقد فضل البنا أن يبتعد بتنظيمه وجماعته عن الألقاب التي يمتلئ بها فضاء التنظيمات السياسية الأخرى (الرئيس والمدير والزعيم..) وآثر أن يلجأ للفضاء الصوفي تمييزا لجماعته وإبعادا لها عن الدلالات والظلال السلبية لمثل هذه التسميات التي تحيل إلى حالة سياسية صرفة غير ما أراده.

وقد كان للقب المرشد أهمية قصوى أيضا في قدرته على بسط سيطرته على أعضاء التنظيم الذين صارت علاقاتهم به تجمع بين الانضباط التنظيمي من جهة والخضوع لسلطته الروحية من جهة أخرى ومن ثم فلم تشهد الجماعة صراعات سياسية على هذا المنصب كالتي وجدت في التنظيمات السياسية الأخرى، وما يمكن أن يكون وقع فيها ساهمت الدلالة الروحية للقب في الحد من آثاره وحصره في حدود ضيقة.

وفي تحديده لمراتب العضوية في جماعته وتعيينه لمعاييرها استفاد حسن البنا مما ألفه وتعرف عليه في طبيعة العضوية ودرجاتها في الطرق الصوفية، فالبنا الذي بدأ في الطريقة الحصافية محبا ثم أصبح تابعا مبايعا استفاد من هذه التراتبية فقسم مراتب العضوية في جماعته على غرار ما وجده في الطرق الصوفية فصارت تبدأ من الأخ المحب فالمتعاطف فالمبتدئ فالمنتسب فالعامل فالمجاهد، كما اعتمد البنا في جزء كبير من آليات ومبررات الصعود داخل التنظيم على نفس المعايير التي يعرفها الفضاء الصوفي والتي تتدرج حسب درجة الالتزام بواجبات الجانب الروحي من أداء الصلاة وقيام الليل والإكثار من صيام النوافل..وغير ذلك.

٢ ـ التأطير الثقافى:

استحضر حسن البنا خلفيته الصوفية وما تفتحت عليه عيناه من تراث التصوف وأدبياته وهو يبنى جماعته التى نشأت كحركة تغيير ثقافى ومجتمعى قبل أن تكون حركة سياسية.

تجلى ذلك فى الوزن الكبير الذى احتله التصوف فى المقررات الثقافية للجماعة، فقد أدخل فيها مبكرا عيون كتب التصوف مثل شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى، ورسالة المسترشدين للحارث المحاسبى، والمواهب اللدنية للقسطلانى، والأنوار المحمدية للنبهانى، والرسالة القشيرية، وإحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسى..ولكنه حرص على التزام ما يتناسب مع التنظيمات العامة وتجنب ما تختص به الطرقية أو يقتصر على مريديها فقط.

كما عمد حسن البنا إلى تراث التصوف للاستفادة منه فى صياغة زاد روحى لحركته الوليدة كان يمتاح فيه من بحر التصوف المفتوح دون التعريج على طرقه الوعرة؛ حيث وضع للحركة رسائل بالمأثورات والأوراد (الوظيفة الكبرى والوظيفة الصغرى)، كما كانت له رسالة صوفية (مناجاة) لم يقدر لها الانتشار ولكنها تكشف عن متصوف كبير له فى علوم التصوف ومسالكه قدم راسخة..وقد تحرى البنا فى هذا الزاد ألا يخرج على السنة والمأثور سواء فى الأدعية أو الأوراد.

٣ ـ التكوين التربوى والعملى:

استدعى حسن البنا خبرة الطرق الصوفية ووظفها كأبلغ ما تكون فى التكوين العملى والتربوى لجماعته. فقد اهتم بالأحفال الصوفية مثل المولد النبوى وعمل على توظيفها فى عمل التنظيم فحرص على الاحتفال بالمولد النبوى، ويروى الحاج عباس السيسى من الرعيل الأول الذى حضر فترة التأسيس فيقول فى كتابه فى قافلة الإخوان المسلمين: «دعا الإخوان المسلمون بالإسكندرية إلى الاحتفال بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم فى حفل يحضره فضيلة المرشد العام حسن البنا بمسجد نبى الله دانيال... وبدأ الأستاذ المرشد حسن البنا محاضرته، ثم دخل فى موضوع الذكرى، فقال: نحيى ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن حق الناس جميعاً مسلمين وغير مسلمين أن يحتفلوا بهذه الذكرى المباركة، فرسولنا عليه الصلاة والسلام لم يأت للمسلمين فقط».

كما يروى الأستاذ محمود عبد الحليم أحد أعضاء الهيئة التأسيسية للإخوان شيئا قريبا من هذا فيقول فى كتابه الإخوان المسلمون- أحداث صنعت التاريخ: «كنا نذهب جميعا كل ليلة إلى مسجد السيدة زينب فنؤدى صلاة العشاء، ثم نخرج من المسجد، ونصطف صفوفاً، يتقدمنا الأستاذ المرشد حسن البنا، ينشد نشيداً من أناشيد المولد النبوى، ونحن نردده من بعده بصوت جهورى جماعى يلفت النظر».

كما سعى حسن البنا إلى أن تكون الأذكار والأوراد وسيلة لجمع التنظيم، بل وجعل الاجتماع اليومى على الذكر جزءا من أدب الأخ المسلم، وهو لهذا الغرض وضع للتنظيم مجموعة الأوراد اليومية الخاصة التى يجتمع عليها وهى ورد الوظيفة الكبرى الذى اختصره فى الوظيفة الصغرى ليلتزم به الأخ المسلم فى حال عدم تمكنه من إتمام الأول.

وحرص البنا على الاستفادة من



التراث الصوفى فى ضبط بنية تنظيمه والارتقاء بها روحيا فوضع له ورد المحاسبة فى اليوم والليلة ليكون أداة تضبط مدى التزام الفرد بواجباته سواء فى العبادات أو الدعوة، كما لجأ إلى الترقية الروحية بممارسات وطرائق صوفية، فقد كان كتاب «التوهم» للحارث المحاسبى من المقررات التربوية الأساسية فى الجماعة واستمر حينا من الدهر يدرس فى الأسر ويطبق فى الليالى التعبدية فى لقاءات الكتائب وهو كتاب صاغ الأحاديث وما تدل عليه الآيات من مواقف يوم القيامة بأسلوب يجعل القلب يحضر وكأنه يشاهد هذه الوقائع عيانا فتحدث المعايشة ويحدث التأثر.

أسس الشيخ حسن البنا جماعته الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ كجمعية خيرية على غرار الجمعيات الخيرية ذات التوجه الصوفى المعروفة وقتها، ولكن ما إن مرت عشر سنوات حتى بدت الغلبة للجانب السياسى منها وساعدها على ذلك الطبيعة الحركية التى أعطتها دينامية كبيرة أكبر مما تحتمله الجمعيات الخيرية ذات النفع العام، كما كان الظرف التاريخى سببا جوهريا فى تحولها الكبير نحو العمل السياسى إذ لم يكن من السهل الاحتفاظ بها مجرد جمعية خيرية فى ظروف الاحتلال العسكرى وسعى المصريين لنيل الاستقلال. وحين حضرت السياسة بشكلها التنافسى المباشر القريب إلى الحزبية كان ذلك إيذانا بغياب التصوف ببعده الروحى والتربوى.

لقد كان الحضور السياسى الكثيف خاصة بعدما تحول إلى عمل عسكرى يمارسه النظام الخاص سببا فى تراجع الحضور الصوفى داخل الجماعة إلا من ممارسات صوفية انقطعت عن أصلها وصارت أقرب إلى تمهيد للفعل السياسى مثل الأحفال والمناسبات الدينية.

لقد كان تراجع التصوف متواكبا مع تغول السياسى وغلبته على الدعوى والتربوى فى جماعة الإخوان، وهو ما أدركه الشيخ حسن البنا فكان يبدى أسفه بعد أن انتهى مشروعه السياسى بالصدام مع السلطة وحل الجماعة وكان يردد قبيل اغتياله ووفق ما رواه عنه الشيخ محمد الغزالى: لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لعدت إلى أيام المأثورات..فى إشارة منه إلى البعد الصوفى الروحى الذى كان حاضرا فى بدايات الجماعة.

لكن على كل حال لم يترك القدر للبنا فرصة ليستقبل من أمره ما فات وليعيد الجماعة إلى مهمتها الأساس: التربية والدعوة، فقد اغتيل بعد أسابيع قليلة من قرار حل جماعته ١٢ فبراير ١٩٤٩، وتعمقت أزمة السياسة بعدما فقدت السفينة ربانها، ثم استفحلت لما دخلت الجماعة فى صراع وجود مع ضباط ثورة يوليو راح ضحيته عشرات الآلاف فى السجون والمعتقلات والمنافى لتضع الأزمة بذور العنف ويخرج جزء من تيار المدرسة الإخوانية الوسطية ويؤسس لتيار العنف والتكفير الذى وضعت بذرته فى السجون والمعتقلات لتثمر بعد خروجها جماعة التكفير والهجرة والجماعات المسلحة.

كانت هذه التطورات مما ساهم فى تآكل الحضور الصوفى داخل جماعة الإخوان كما كان هناك تطور آخر لا يقل تأثيرا وهو المد السلفى الوهابى(تمييزا عن سلفية حسن البنا التى هى امتداد لرشيد رضا) الذى اجتاح جماعة الإخوان منذ بدأت حقبة المنافى فحاصر المكون الصوفى فيها.

لقد مرت الجماعة بحالة من التحول للسلفية الوهابية منذ أوائل الخمسينيات وتعززت مع اشتداد الحملة الناصرية على الجماعة وفرار عدد من كبار قادتها واستقرارهم بدول الخليج وخاصة المملكة العربية السعودية محضن التيار السلفى الوهابى، ثم تأكدت تماما فى حقبة السبعينيات التى شهدت أقوى انطلاقة للتيار الوهابى دعمها بعد انكسار المشروع القومى الناصرى بعد هزيمة يونيو حزيران ١٩٦٧ ثم موت جمال عبد الناصر ١٩٧٠، ثم الطفرة البترولية وارتفاع أسعار النفط عقب انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ التى استفادت منها دول الخليج وكانت مما ساعد الدعوة الوهابية على مد نفوذها الدينى فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى ومنها مصر.

وفى هذه الحقبة أيضا ظهرت الجماعات الإسلامية فى الجامعات المصرية والتى كانت فى معظمها لها رافد سلفى قوى، ثم لما نجح الإخوان فى ضم القطاع الأكبر منها كانت السلفية تثبت أقدامها وتملأ فراغ المنظومة الإخوانية التى لم تعد صوفية.

لقد جرى تحول كبير فى المنظومة الإخوانية على مدار نصف قرن نقلها من الإطار الصوفى الذى يعطى أولوية للجانب الروحى إلى الإطار السلفى الوهابى الذى يغلب الاهتمام بالنقاء العقائدى وما يفرضه ذلك من حجاج وصدام مع التيارات والأفكار والممارسات التى لا يراها متفقة مع الكتاب والسنة.

كما تراجعت مساحة التربية والدعوة لحساب العمل السياسى الذى توسعت فيه الجماعة بشكل جعلها أقرب إلى جماعة سياسية ذات مرجعية إسلامية منها إلى جماعة إسلامية دعوية لها اهتمام ما بالسياسة.

وفى كل الأحوال تعيش الجماعة حالة تحولات كبيرة كما تشهد نقاشات واسعة حول مستقبلها، ويكاد يكون القاسم المشترك فيها هو وزن الجانب الروحى وموقعه فى مستقبل جماعة الإخوان: هل بالإمكان استعادته؟ وفى أى صورة يمكن أن تكون الاستعادة بعدما ضربت السلفية بجذور راسخة فى الجماعة؟. ■

محمد المهدي

دراما الأطراف العربية!!

عاد الحديث مجدداً عن أطراف العالم العربى المتآكلة. عاد الحديث عن جزر «أبو موسى» و«طنب الكبرى» و«طنب الصغرى» فى مشرق العالم العربى. وعن سبتة ومليلة فى مغرب العالم العربى. ومازال الحديث متواريا عن شمال العالم العربى فى الإسكندرونة.

هنا نذكر فقط بأطراف العالم العربى وما تمثله من حالة درامية فى الوجدان الشعبى.

إذا سألت شاباً عراقيا مسلماً عن الصراع العراقى ـ الإيرانى الذى دار فى ثمانينيات القرن الماضى.. مع من تقف.. مع إيران المسلمة أو مع العراق العربى؟ فسيبادر إلى القول: طبعاً مع العراق العربى.. ولكن إذا افترضنا أن العراق هو المعتدى كما حدث فى الكويت وأعدنا السؤال على الشاب.. مع من تقف؟ فأعتقد أنه سيحار، وحيرته تشبه الموقف الدرامى الذى وقفه «هاملت» بين مشاعر الأمومة ورابطة الدم، وبين إحساسه بمنطقية الارتباط بمشاعر عقيدة الحق.

هذه الحيرة الدرامية، حيرة تاريخية أولاً، وحيرة نظام حكم ثانيا. تاريخية نتيجة للانتقال من مرحلة التفكير بمنطق الدولة الإسلامية إلى منطق القومية. وسياسية نتيجة للوقوع فى براثن الانتساب لنوع الحكم الحاكم والانتماء إليه بصورة شبه قبلية ولأسباب عديدة. هذا يعنى العودة إلى السؤال المطروح دائماً، والذى لم يجد إجابة شافية إلى الآن عند الشيوخ، فما بالك بالشباب: هل هناك تعارض بين الإسلام والقومية؟

والسؤال الثانى: ما هو البديل لعدم الانتساب لمنطق الدولة الرسمى.. ومن يختار هذا البديل؟

حينما أخذ الشرق بمنطق القومية تحولت فارس إلى إيران «شيعية» وجاورت العراق العربى. وتحولت الدولة العثمانية أو انكمشت إلى تركيا «سنية» وجاورت سوريا العربية. وتحولت بقية البلاد العربية إلى المنطق القومى.

وفى أقصى المغرب العربى جاورت حدود القومية العربية دولة إسبانيا المسيحية «كاثوليكية» القائمة أيضاً على الإطار القومى.. فماذا حدث؟



عربستان

نتأمل هذه الأطراف الثلاثة من العالم العربى على سبيل المثال ونرى النتيجة. عربستان كان يحكمها قبل أن تستولى عليها إيران الشيخ (خزعل). كان حكمه يتسم بالديكتاتورية، وهى صفة احتفظت للمنطقة بشخصيتها العربية، ولكنها قطعت الصلة الطبيعية بين الحاكم والمحكوم. فاستغل (رضا خان) رضا شاه الموقف واجتاح الإقليم عام ١٩٢٥ قائلاً: «إن هدفى الوحيد فى تحمل المشاق والمتاعب واجتياز هذه المسافات البعيدة هو الاستجابة لطلب مواطنينا ورعايانا الذين استنجدوا لتخليصهم من الظلم والإرهاق والتعديات».

قبض على الشيخ خزعل وأرسل إلى طهران ومات عام ١٩٣٦ وكتب (جاز جاك بيربى) فى كتابه «الخليج العربى» يقول: «مات الشيخ خزعل فى طهران محاطاً بكل مظاهر الشرف، محروماً فى الوقت نفسه من حقوقه كأمير مستقل، أما أراضيه فقد ضمت إلى الإمبراطورية الفارسية، واضطرت الشركة الإنجليزية الفارسية إلى التعامل بعد ذلك مع حكومة طهران».

الإمبراطورية الفارسية تعنى النزعة القومية المتطرفة من الشاه والتى ظلت تداعب خيال الشاهات. إمبراطورية تعادى بشكل صريح الاتجاه القومى العربى المجاور أو فى رأيها المنافس بادرت إلى تحويل ما وقع فى يدها من العربية إلى الفارسية. (المحمرة) صارت خرمشهر، وعربستان صارت خوزستان. وأرسل علماء الدين وسادات عربستان إلى علماء النجف فى العراق عام ١٩٢٥ يقولون: «إن علماء وسادات عربستان يشكون أحوالهم، من ضغط أمراء الدولة الإيرانية الذى كاد يقضى على العرب، فاضطرهم إلى الهجرة عن الأوطان مشتتين. وقد هتكت منهم كل حرمة.. وأخذت الأموال منهم بلا حق. فلا مانع يمنعهم ولا قانون يدفعهم، والباقون يستغيثون طالبين المساعدة الإسلامية».

وفى عام ١٩٢٧ امتدت الأحلام الفارسية إلى البحرين فكتب رضا خان وصيته لابنه يقول: «لقد حررت الشاطئ الشرقى للخليج من العرب، وعليك أن تحرر الشاطئ الغربى».

اتجاهات رضا خان كانت تتفق ومصالح الإنجليز، وحينما انقلب عليهم انقلبوا عليه. واستخدمت إيران المنطق الإنجليزى لتبرير التوسع «منطق تحميل الآخرين المسئولية». قال سفير إيران فى القاهرة للأمين المساعد للجامعة العربية عام ١٩٧١ بعد دخول إيران جزيرة أبى موسى و«طنب» الكبرى و«طنب» الصغرى: (عندما قرر الإنجليز الانسحاب من

الانفراد بالسلطة وعدم شرعية الحاكم أديا إلى قيادة الفكرة القومية بطريقة عنصرية توسعية.
يسعى صاحب السلطة إلى نسبتها لعصره وليس - على أضعف الإيمان -
اســـــتغلالهـــا لتنميـــــة تعـــود لشــعبه

الخليج، كانوا يعملون معنا وضدنا، ويلعبون على حبال متعددة.. لقد خلقوا لنا مشكلات مع البحرين وتنازلنا وقبلنا الاستفتاء، ثم استقلت قطر واعترفنا بها. والحقيقة أننا لم نحتل الخليج، بل هم الذين احتلوه، أما بقية الجزر فيعلمون أنها جزر إيرانية ويعلمون أنها لنا. لقد كانوا يحتالون علينا ويحتالون عليكم.. ولو قالوا منذ الأيام الأولى إنها جزر إيرانية، لكان لنا حديث آخر. ولو قالوا إنها عربية لتغير الموقف).

قديماً صوروا الصراع بأنه صراع مذهبي بين السنة والشيعة، فكانت هناك تجربة معاهدة (ارضروم) الثانية التي عقدت عام ١٨٤٧ بين الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على العراق وبين الدولة الفارسية. أعطت المعاهدة منطقة السليمانية للدولة العثمانية، وعربستان للفرس، على أساس سيادة المذهب السني في الأولى والشيعي في الثانية، مع التغافل عن مظاهر الظلم الواقع في المنطقتين: الظلم الفارسي في عربستان والتركي في السليمانية، ظلم أوجد ترابطاً قوياً بين المنطقتين العربيتين. ترابط قومي يسعى للتحرر في مقابل ترابط قومي يسعى إلى التوسع.. وفشلت المعاهدة في حل المشكلة.

واتضح الموقف بوضوح في الربع الأول من القرن العشرين. وقصة عربستان تؤكد أن الاهتمام بالمنطق القومي التوسعي كان أهم من المنطق الإسلامي أو الشرعي لدى الجار المسلم (إيران).

الإســـكـنـــدرونـــة

ونتأمل المثال الثاني من أطراف العالم العربي.. الإسكندرونة في شمال سوريا مع الحرب العالمية الأولى خلعت عمائم وطرابيش الإمبراطورية العثمانية، وأغلق الباب العالي، وسرح السناجق، وأعلن «أتاتورك» قيام تركيا الحديثة صاحبة اللغة التركية، والحرف اللاتيني، وعلمانية الاتجاه، وغربية الحضارة تركيا الديكتاتورية التي تخلت قسراً عن ممتلكاتها واستعانت على ابتلاع الواقع بالمنطق القومي، قومية ليس بقدرتها مد الأذرع بالطريقة العثمانية فاكتفت بمقاتلة اليونان في أوروبا والبحث عن البقايا على الحدود العربية لابتلاعه. وجدت فرصتها في لواء «الإسكندرونة». كانت تعلم أن غالبية سكانه من العرب. عند قيام الانتداب الفرنسي على سوريا بعد الحرب الأولى ذكرت إحصائياته أن غالبية السكان (٦٣ بالمائة) يتحدثون العربية في اللواء وأن الكثيرين يتحدثون اللغتين.

ونتيجة للتقارب الفرنسي التركي، وبهدف تفتيت سوريا سعى الفرنسيون بطريقة الإنجليز في فلسطين إلى تهيئة الوسائل لخلع اللواء عن سوريا. عقدت معاهدة عام ١٩٢١ باسم وزير الخارجية الفرنسي (فرانكلين بويون) ونصت على منح لواء الإسكندرونة نظاماً إدارياً خاصاً، والمقصود هو عدم إخضاعه لحكومة مركزية قد تنشأ في دمشق. وتعهدت فرنسا بحرية الأتراك في المحافظة على كيانهم الثقافي والاعتراف باللغة التركية كلغة رسمية».

وكما حدث أيضاً في القضية الفلسطينية عندما انذر انسحاب الإنجليز بقرب الانفجار، حدث عام ١٩٣٦ أن عقدت معاهدة انتهاء الانتداب الفرنسي ومهدت لوحدة سوريا وأنذرت بقرب الانفجار. خشيت تركيا أن تشمل هذه الوحدة الإسكندرونة، فخرجت تصريحات تنبئ بالتطرف القومي.. قال وزير خارجية تركيا في عصبة الأمم عام ١٩٣٦ (أن أساس الجدل بشأن لواء الإسكندرونة وموقعه الجغرافي المعروف هو مسألة شرف وكرامة لأن الأفكار العامة التركية لا تتحمل أن ترى إخوانها القاطنين باللواء تحت الحكم العربي) ثم يأخذه حماسه أكثر صراحة فيقول «الترك في لواء الإسكندرونة يستندون على دولة قوية في الشرق الأوسط، هي الدولة الحربية التي بناها أتاتورك»، ثم يؤكد رئيس الجمهورية (عصمت انينو) نفس المعنى في خطب أخرى.

اتفقت تركيا مع فرنسا على ألا تثار القضية من الناحية القانونية، والاكتفاء بطرحها سياسياً، طرحها سياسياً يحيلها تلقائياً لعصبة الأمم وهناك يمكن التلاعب بعيداً عن سوريا التي لم تكن عضواً في العصبة. في عام ١٩٣٧ قدم المشروع الذي يخدم الأهداف التركية.. إنشاء وحدة إدارية تتمتع باستقلال داخلي تام وتشترك هذه الوحدة مع سوريا في الشئون الخارجية والعملة فحسب، وتكون اللغة التركية هي اللغة الرسمية، ويتولى مجلس العصبة اختيار المندوب الفرنسي في اللواء، وتكليف لجنة لدراسة الوضع.

جاءت اللجنة وأعدت طبخة انتخابات المجلس التشريعي بإشراف قوات تركية وفرنسية.. جرت مظاهرات واضطرابات واحتجاجات في حلب ودمشق واللاذقية. في ٤ يوليو ١٩٣٨ صدر البيان المشترك بين فرنسا وتركيا يؤكد النتيجة المنتظرة. جاء فيه (أن تركيا تعترف كما جاء في معاهدة أنقرة المعقودة في أول أكتوبر ١٩٢١ بأن سنجق الإسكندرونة مستقل وليس ملحقاً بها ويسعى الطرفان إلى تطبيق نظام سنجق إسكندرونة والقانون الأساسي الصادر بتاريخ ١٩ مايو ١٩٣٧ من قبل عصبة الأمم ويقومان بتنفيذ مواده. وفي أثناء هذه التطبيقات يؤمنان تفوق العنصر التركي في السنجق). وضمنوا للعنصر التركي التفوق العددي، فحصل في الانتخابات على ٢٢ مقعداً من ٤٠. وتكونت سلطة تنفيذية من وزراء أتراك وطرد الموظفون العرب وحرم استخدام العربية. أعلن المجلس الخطوة قبل النهائية.. تحويل اللواء إلى جمهورية (هاتاي) أي بالاسم التركي للمنطقة. وجاءت الخطوة النهائية وهي تنازل فرنسا النهائي عن المنطقة لتركيا للتقارب بينهما قبيل الحرب العالمية الثانية. فقدت حلب ميناءها الطبيعي، وفقدت البلاد أنطاكية التجارية.

قصة الإسكندرونة تعيد تأكيد اهتمام الجار المسلم بالمنطق القومي التوسعي أكثر من المنطق الإسلامي أو الشرعي.

مـلـيـلــة وسـبـتــة

ونتأمل المثال الثالث من أطراف العالم العربي: المغرب العربي وصراعه مع الجار الإسباني الكاثوليكي. قبلت فرنسا في مطلع القرن العشرين اشتراك إسبانيا في السيطرة على المغرب العربي. قبلت وصول إسبانيا إلى الشمال الأفريقي أو منطقة (الريف) في مقابل تواجدها في الجنوب. قبولها لإسبانيا ليس لسواد عيونها، ولكن تدعيماً لموقفها أي موقف فرنسا أمام ألمانيا، وكذلك لاتفاقها الودي مع إنجلترا في مصر ومع إيطاليا في ليبيا.

وجدت فرنسا طريقها في الجنوب المغربي بمعونة الطبقة المتوسطة والرأسمالية الوطنية، أما في الشمال (الريف) فقد احتدت العصبية القبلية في مواجهة الغزو الإسباني. الغزو الإسباني كان عصبياً أيضاً تحمل في داخله إلى جوار الحقد الاستعماري الرغبة في جذب الانتباه داخل إسبانيا وخارجها إلى قوة المعسكر بعدما لحقتهم من هزائم عديدة. نمت في داخلهم الفاشية أو القومية المتطرفة المعتدية. وتصوروا أن طموحاتهم ستتحقق بسهولة في منطقة مفككة مجاورة لا تحتاج إلى مغامرة بحرية أو برية أو منافسة من دولة استعمارية كبيرة.

تقدم الإسبان من قواعدهم في «مليلة» في الشرق و«سبتة» بالقرب من مضيق جبل طارق، و«العرائش» جنوب طنجة. وبدأت المقاومة المغربية القبلية تدفع بعقيدتها الراسخة التطرف القومي العنيد. ألقى الإسبان القبض على المناضل المغربي عبدالكريم الخطابي، ولكنه هرب وبدأ ينظم المقاومة بصورة أوسع. حوصر الإسبان وحاول الجنرال «سلفستر» الإسباني أن يخلص قواته، ولكنه اضطر إلى الانسحاب فكانت موقعة «أنوال» عام ١٩٢١. هزم الإسبان هزيمة ساحقة، كانت أول هزيمة لجيش أوروبي في القرن العشرين.

استمرت الهزائم تتوالى على القوات الإسبانية إلى عام ١٩٢٤ وبلغت الخسائر في الستة أشهر الأخيرة من هذا العام ٢١٠٠٠ جندي ازدادت شراسة الفاشية الإسبانية في مدريد، فضربت الطائرات القرى المغربية وعذبت الأهالي. وقال الماريشال (ليبوتي) إن العالم الإسلامي بأجمعه يرقب الحرب الدائرة في منطقة الحماية الإسبانية بكل اهتمام.. وأن الثورة المعلنة هناك تهدد نفوذ كل الدول الأوروبية ذات المصالح الاستعمارية في البلاد الإسلامية. تهدد فرنسا في شمال أفريقيا بأكملها وتهدد كذلك بريطانيا في البلاد الإسلامية.

تعاون الإسبان والفرنسيون ووجهوا ضربات مضاعفة لقوات عبدالكريم الخطابي فاضطر في يوم ٢٥ مايو ١٩٢٦ إلى التسليم، وقابلته القوة الفرنسية بإجلال قائد كريم يسلم سيفه ثم نفوه إلى جزيرة ريونيون.

ظل المغرب في صراع بين قوتين: الإسبان في الشمال والفرنسيين في الجنوب. ودفعه صلف وادعاءات الجارة الإسبانية بنزعتها القومية المتطرفة انتقاماً من الوجود العربي بإسبانيا، وبساحة الاستعمار الفرنسي في الاستغلال المباشر لثروته دون سند ولو مزيف.. دفع هذان العاملان المغرب إلى تبين هويته القومية العربية فكان خطاب الملك محمد الخامس في طنجة في عام ١٩٤٧ الذي أعلن فيه أن بلاده

عربية، ومن الطبيعى أن تتجه أنظارها إلى بقية إخوانها العرب.

قصة أطماع إسبانيا الكاثوليكية فى أراضى الجارة المغربية العربية المسلمة تعيد تأكيدها فى الطرف الثالث من العالم العربى.. كيف كان الاهتمام بالمنطق القومى التوسعى والانتقامى (مع فارق اختلاف العقيدة بين الجارتين) أهم من المنطق الشرعى.

تساوت الدولة الكاثوليكية (فرنسا وإسبانيا) مع الدولة البروتستانتية.. (إنجلترا) مع الدولة الإسلامية (شعبًا) فى منطق التوسع، فهل كان الفكر القومى هو السبب؟

السبب ببساطة ومباشرة، التطرف القومى وما يستتبعه من ديكتاتورية. من يتخذ القرار وما يستتبع ذلك من عدم شرعية الحاكم.. تركيا دولة شعبها مسلم وفى فترة ابتلاعها اللواء كانت علمانية الاتجاه ديكتاتورية الحاكم. وإيران دولة شعبها مسلم ولكنها زمن الشاه كانت غربية الوجه ديكتاتورية الحاكم.

الانفراد بالسلطة وعدم شرعية الحاكم أديا إلى قيادة الفكرة القومية بطريقة عنصرية توسعية. يسعى صاحب السلطة إلى نسبتها لعصره وليس ـ على أضعف الإيمان ـ استغلالها لتنمية تعود لشعبه، وغياب الشرعية تلغى بالتبعية غياب الرقابة أو المحاسبة الشعبية بطريقة صحيحة دون شكلية أو تزوير. بالتالى بدت الدول الغربية الاستعمارية التى حصلت على الشرعية من شعوبها بدرجات متفاوتة ـ إنجلترا أو فرنسا أو إسبانيا ـ أى الدول التى شاركت فى ابتلاع بعض أطراف العالم العربى قبل رحيل الاستعمار.. بدت هذه الدول أكثر اتساقًا مع منطقها الاستعمارى.. لقد حصلت على الشرعية الشعبية للتوسع والغزو والحصول على ثروات الغير لصالح الشعب الغازى. ولكن الدول المجاورة للعالم العربى أى الدول التى شاركت شعوبه الشعوب العربية فى مسيرتها التاريخية وهمومها وتعتبر متوازية معه فى درجة تطوره ـ بدت هذه الدول كأنظمة سياسية بعيدًا عن الاتساق مع نفسها، وذلك لغياب الشرعية، لم تستفت هذه الشعوب حول هذا التوسع ولو استفتت بحرية لتغيرت النتيجة. لو استفتت وزورت النتائج فإن العائد المادى لهذا التوسع لن يعود لمصلحة هذه الشعوب، ولكن لمصلحة الحاكم المطلق وجماعته.

الشعب فى عالم والحاكم فى عالم. الإيرانى والتركى مسلمان يشتركان مع الجيران فى العقيدة ولكنهما يقاتلان الجار لأسباب قومية متطرفة. من هنا بدا الموقف الدرامى.

لم يعط الشعب لحاكمه شرعية تعطيه الحق فى التوسع. وإذا توسع فإنه توسع لا يعود عليه بنفع، ومع ذلك يجد نفسه مسوقا إلى قتال جاره فى العقيدة إما قسرًا أو دون تساؤل، أو خداعه بنعرة قومية متطرفة من وسائل إعلام الحاكم، أو بتبعية قبلية تحت أسماء عديدة.

لو توفرت شرعية الحكم عند الطرفين المتجاورين لأحسن قيادة الفكر القومى دون تطرف ولظهر حسن الجوار الشعبى الوثيق وليس الرسمى مع من ترتبط معه بعقيدة. وحسن الجوار المقنن مع من تختلف معه فى العقيدة. وما حدث فى إيران من التخلص من نظام قديم متعفن على نظام جديد ثورى لم يغير من وضع الانفراد بالسلطة شىء، وبالتالى غابت الشرعية الشعبية المقننة وليست العصبية أو العفوية الخادعة وما يتبعهما من مآس على الشعوب وعلى الشعوب فقط.

وهذه الصورة ممكن أن تتكرر على جبهة تبدو هادئة الآن بصورة مؤقتة بين سوريا وتركيا حول الإسكندرونة ـ ولماذا نبتعد ـ إنه درس يجب أن نتأمل أبعاده بطريقة ميكروسكوبية بين الحدود العربية نفسها، لم نسلم من آفة الجيران، ولكن للأسف فيما بيننا، فكثيرًا ما يشتعل القتال على الحدود ويدخل الجندى العربى مقاتلاً لأخيه العربى، إما بالصدفة التجنيدية أو بالقسر أو بالخداع أو التبعية. ويقع الشاب المدنى فى الحيرة الدرامية حينما يواجه السؤال التالى: هل هناك تعارض بين عروبتى ويمنيتى أو مغربيتى أو جزائريتى أو سوريتى أو مصريتى.. إلخ؟

حيرة درامية أشد هولاً من حيرة «هاملت»، إنها حيرة «أوديب» الذى أنجب أطفالاً من أمه ولا يدرى ما يفعل بهم.. أيقتلهم حتى يمحو العار، أو يتركهم بعاطفة الأبوة أو يسمل عينيه ويسيح فى البلاد كما فعل أوديب. أقول لهاملت.. وأقول أكثر لأوديب: لا تسمل عينيك، افتحهما جيدًا وتأمل هذا القول.. شرعية الحكم تزيل التعارض البادى أمامك بين الإسلام والقومية.

غياب الشرعية أو انفرادية الحكم فى الدول المجاورة حولها من إسلامية (فى الواقع الشعبى) إلى ابتلاعية فى (الواقع القيادى). وهو داء يهددنا من الداخل أيضًا ويجعلنا نأكل أطرافنا بأنفسنا فى أحيان كثيرة ولعلنا نستفيد. ■

كتاب الزاوية

الفرح.. عندما يخون!

محمود درويش

علّموك أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية. من أين يأتيك فجأة!

تغزوك الأيام بذكريات لا تشبهك. كنت خارجًا، للتو، من الخامس عشر من مايو (ذكرى النكبة). وكنت عاجزًا عن الالتصاق بالأشياء التى ابتعدت عن مسام جلدك. وقد مات جدك الذى أوصاك بمراقبة الرابية المطلة على مصادر موته. أخوك يحب الخطابة، فوقف على الأطلال ووعد الجنازة القادمة بأنها ستكون أكثر حظًا من الأولى. لم تبلغ الثلاثين، ولكن محاذاة الموت تعطيك الحكمة. ومن الحكمة ألا تبدو عاطفيًا فى حضرة الآخرين.

تنتهى مدة الحزن المحددة فى تصريح سفر. تنسل من الجنازة الثانية وتعد أهلك بالعودة لزيارتهم فى جنازة قادمة. فهذه هى المناسبة الوحيدة للحصول على إذن بالحركة. ما أشد العلاقة بين الموت والحركة. وكنت خارجًا، للتو، من ذكرى الخامس عشر من مايو. كنت مسرعًا إلى البيت لا لتسبق الشمس الغاربة، وإنما لتهرب من الأضواء المتفجرة فى الشوارع فى عيد مصرعك التاسع عشر.

ماذا قالوا لك فى المرة الأخيرة؟

خياليون.. خياليون أيها العرب.

عاش السعدنى تجربة مريرة فى الصحافة وتعرض لأشياء لم تكن فى حسبانه على الإطلاق

سامى كمال الدين

السعدنى...

من الفقر المدقع والحياة البائسة والأزمات الطاحنة وتجاوز منحنى الخوف وعدم انتظار المجهول. أيا كان هذا المجهول ـ تخرج كتابات الساخرالكبير محمود السعدنى الذى يقضى شيخوخة نبيلة فى بيته بضاحية الهرم، والذى أصر على استعارة أصابع البسطاء ليكتب بها وآمن أن الأديب الذى يضع نفسه فى برج عاجى ويعزل نفسه عن بسطاء الناس يتحول إلى كاتب نخبوى، أما الأديب الحقيقى فهو الذى شرب عصير الحياة وجالس البسطاء وحمل همومهم ومشاكلهم وأفراحهم وأتراحهم وبسطها على الأوراق.. ومن هنا أقبلت الجماهير العربية على كتبه لأنها تتحدث عنهم بصدق ودون مواربة وبراءة دون حدود لها خاصة فى كتابه «مذكرات الولد الشقى» ـ «الطفولة والصحافة والسجن والمنفى» ـ «وترحالاته» ـ «الموكوس فى بلاد الفلوس» و«بلاد تشيل وبلاد تحط»، و«السعلوكى فى بلاد الأفريقى» و«رحلات ابن عطوطة» و«مسافر على الرصيف» الذى جاء بمثابة ترحالات مع النفس وأصدقاء التكوين والغريب حضور المرأة والجنس فى كتابات السعدنى - وهذا الأمر غريب على أديب عربى، وعلى جيل ينتمى إليه محمود السعدنى، جيل من الكتاب العرب الذين يرون فى الكتابة عن تجاربهم مع المرأة فى مذكراتهم «عيبًا كبيرًا» فتجدهم يكتبون عن فقرهم وبؤسهم وأمراضهم وأولادهم، ولكنهم يتوقفون عند الحديث عن المرأة وعواطفهم وتجاربهم معها وكأنهم يفضلونها واقعية وطبيعية أفضل منها ورقية..!!

حتى إن شاعرًا كبيرًا مثل نزار قبانى وصفه البعض بأنه شاعر المرأة، حين قرر كتابة مذكراته - «قصتى مع الشعر» - لم يزد على «خمس ضربن على جهازى العصبى».

واحدة أهدته تذكارًا ليضعه فى سيارته، وأخرى مسحت له عرق جبينه وهو يقود سيارته..!!

لقد جاءت كتابات محمود السعدنى مبهرة وعريضة وكاشفة دون خجل لتكشف عن مبدع حقيقى ترك الحياة تقلبه كيفما شاءت، لكنه كان يتعلم منها تجارب لا حصر لها.

عاش السعدنى تجربة مريرة فى بلاط صاحبة الجلالة ولاقى الويل والهوان وتعرض لأشياء لم تكن فى حسبانه على الإطلاق، وقد قدم أكثر من مرة لالتحاقه ببلاطها. فمنذ عام ١٩٤٦ قرر الخروج خلف صديقه الرسام طوغان الذى كان قد سبقه إلى العمل فى الصحافة.. وكان السعدنى يعتقد أن الصحافة سلطة حقيقية وأن لها صولجان.. وأنها حفلات ورحلات ونجم صحفى شهير يكتب وهو جالس على كرسى أنيق فى الشانزليزيه، ونساء رائعات الجمال كما هيفاء وهبى يمررن خلفه طالبات لرضاه، وزعماء يستيقظون فى أسرتهم المخملية هلعًا وقوفًا من قلمه.. وأن هناك وزارات تسقط بسبب مقالات «الصحفى»، وعدل يقوم وظلم ينحدر إلى أسفل سافلين، وقد يسجن الصحفى لأنه عظيم، ويخرج ليكتب للناس هول ما قاساه فى السجون.. والذى ولد هذه الصورة فى ذهن السعدنى مقالات محمد التابعى وأحمد الصاوى محمد وفرج جبران.. ولكن التشرد كان من نصيب الولد الشقى بسبب المجلات والصحف التى ذهب ليعمل فيها مثل الخميس والكوكب والشهاب المضىء ووجد بؤساء يعيشون بين جدران هذه الصحف، ولم تكن الصحف مثل اليوم فى مكان راق وعمارة بها أسانسير وروف ومكاتب ولاب توب، فمثلا يقول السعدنى عن جريدة السحاب التى عمل بها، فى دكان بيت كان يوما ما اسطبلاً لحمير أحد المماليك البحرية، ومن هذا الاسطبل بدأنا أول عمل صحفى. كانت المجلة اسمها السحاب، وكان صاحبها كامل بريقع يرحمه الله عامل طباعة، استطاع فى أيام سطوة البوليس السياسى استخراج رخصة صحفية باسمه، ولم يكن للصحيفة موعد محدد للصدور، وكانت معروضة دائما للإيجار كأنها شقة مفروشة. وكان يستقبل زوار مصر من البلاد العربية لينشر لهم صورًا على طول الصفحة، «ونبذة» عن تاريخ بلادهم وفصولاً عن كفاحهم.. وكان يسترزق من هذا العمل بما يكفيه. وكان هؤلاء الضيوف من التفاهة وقلة القيمة لدرجة أنهم كانوا يشعرون حقا بالسعادة لأن صحف مصر قد التفتت إليهم.. واستأجرنا مجلة السحاب من كامل بريقع، وأصدرنا منها عدة أعداد رافعين عليها شعار: «مجلة الشباب والطلبة والجيل الجديد» وأخذنا كارنيهات من المجلة بتوقيع كامل بريقع..

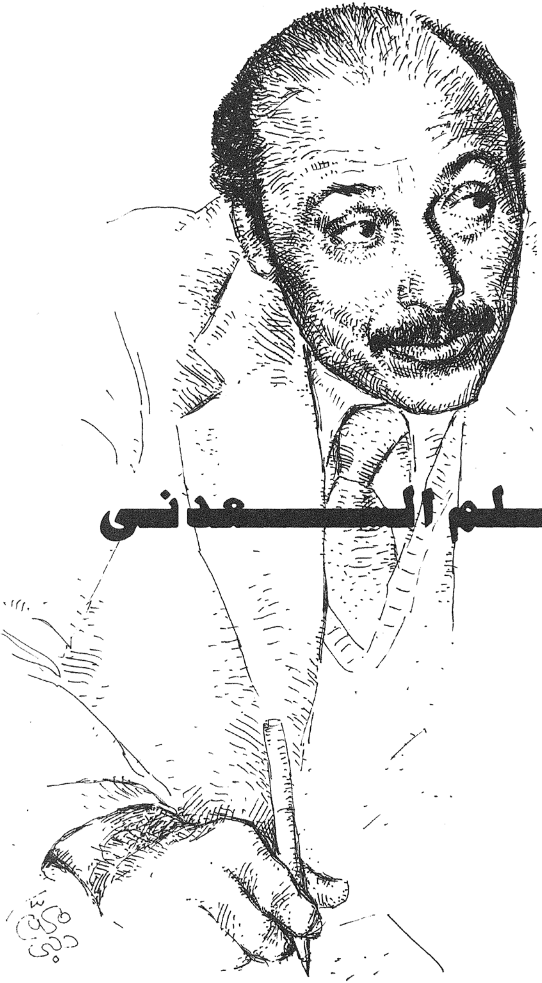
ولقد كان كامل بريقع نموذجًا لمئات وألوف من الناس كان يزخر بهم العصر. كان شديد الجهل وشديد الذكاء.. وكان كثير المشاكل مع عائلته الكبيرة فى بيته بالقلعة!..

ورغم أنه كان يكسب كل يوم خمسة جنيهات، إلا أنه كان ينفق كل يوم أربعة جنيهات على المزاج. فقد كان مدمن حشيش، وكان يدخن باستمرار ويستحلب الأفيون كل لحظة ويحتسى فناجيل القهوة بلا حساب وكان يبدو كأنه يرغب فى أن يغيب عن الوعى إلى ماشاء الله.. وكان فهمه السياسى ينحصر فى الخلاف بين على ماهر والسراى.. وفى التعديل الوزارى القادم.. لا ليسير فى ركابه كما تظن!! ولكن لسبب تافه للغاية.. فقد كان كامل بريقع يحصل على إعلانات حكومية للصحيفة بخمسين جنيها كل شهر. وكان هذا المبلغ هو مورده الثابت. ولذلك كان دائماً شديد الحرص عند كل تعديل وزارى على أن يعرف من هو مدير المطبوعات الجديد، فإذا كان رجلاً سبق له التعامل معه، بدا شديد السعادة والرضا. وإذا كان شخصاً لا يعرفه، عاش فى هم شديد وقلق بالغ، حتى يقرر الرجل استمرار صرف مقطوعيته من الإعلانات الحكومية، وعندئذ يعود سيرته الأولى، إلى دكان الصحافة يلف سجاير الحشيش ويستحلب قطع الأفيون، ويحتسى فناجيل القهوة بلا حساب!

وتكشف هذه التجربة نوعية من الصحفيين كانوا يتواجدون فى وجود عمالقة أمثال التابعى والصاوى ومصطفى وعلى أمين.. وقد وضع موهبة السعدنى فى مكانها الحقيقى حين تعرف إلى مأمون الشناوى فى مجلة «كلمة ونص» وكانت مجلة ساخرة، واستقبله مأمون بعدم مبالاة، ولم يرحب به، وقال له: «عاوز تكتب»؟ ولما أجبت بالإيجاب تساءل فى تحكم: وبتعرف تكتب؟ ولما أجبته بنعم، أشار على مكتب أمامه وقال اقعد كده ورينى.. ورغم ارتباكى الشديد وخوفى من الفشل فى أول امتحان حقيقى أواجهه.. فقد كتبت عدة أوراق بسرعة.. وعندما ألقى عليها نظرة قال وهو يتفحصنى: انت اسمك إيه؟ وهتفت على الفور: محمود السعدنى، فسألنى وهو يشعل لنفسه سيجارة: السعدنى ولا السمونى؟ قلت: السعدنى، قال آه، أنت عارف السعدان يعنى إيه؟ ولما أجبته بالنفى، قال السعدان يعنى قرد.. والسعدانى يعنى القرداتى هاهاها!! وهممت بالجرى من أمام مأمون الشناوى، وفكرت أيضاً فى أن ألعن جدوده وأنصرف، ولكنى لم أستطع التصرف وظللت واقفًا كتمثال لا أتكلم ولا أتحرك حتى هتف مأمون الشناوى: طيب أبقى فوت علينا تانى!».

فى العدد التالى من «كلمة ونص» وجد السعدنى ما كتبه منشورًا.. وكان يومًا من أسعد أيام حياته، وتصادق مع مأمون الشناوى وتعلم منه الكثير، وأصبح محررًا براتب شهرى ستة جنيهات، وبعد أن أغلقت أبوابها عمل فى مجلة «مسامرات الجيب» والتى تعرف من خلالها على محمد عودة «كان عالمًا بحق، ومثقفًا على نحو رفيع، وطيبا يمسح - رغم بؤسه وضياعه - على جراح الآخرين.

«وكان قد هجر وظيفته الدائمة والمرتب المستقر إلى الصحافة، ولكنه فوجئ بعد شهور بأن المهنة التى اختارها هى مهنة صياعة وضياعة وعدم استقرار.. ولكن نفسه الفنانة وهى نفس أمارة بالسوء، كانت تلح عليه أن يبقى حيث هو، وأن يمضى فى طريقه وسط الأشواك والصخور. ومن هذا الرجل تعلمت الكثير فى حياتى. وأغلب الكتب التى قرأتها تلك الأيام سرقتها من عنده!! وكان هو أول من زرع الثقة فى نفسى، وأول من جعلنى أتشبث بأسنانى بمهنة الصحافة رغم طول ووعورة



الطريق! ولقد قدر لهذا الرجل أن يشق طريقه بعد ذلك بنجاح، وأن يتغلب على كل العقبات والصعاب، وأن يلمع ليصبح أحد نجوم الصحافة وكتابها الكبار. وكان الدور الذى لعبه فى حياتى هامًا وجوهريًا وخطيرًا، وكانت علاقتى به بداية مرحلة جديدة.. وما أكثر المراحل التى خضت فيها خلال رحلتى القصيرة العريضة فى الحياة..» وكان محمد عودة هو أول من دفع السعدنى للاتجاه إلى الكتابة الساخرة، حيث قال إن أسلوبك ساخر ولو استخدمته بمهارة سيكون لك شأن.

وفى هذه المرحلة لابد أن ينتبه السعدنى لوجود النساء فى الحياة بطبيعة السن وناموس الحياة، وكما ذكرنا أن السعدنى امتلك جرأة فريدة فى الكتابة عن النساء اللواتى مررن فى حياته، وهى «فريدة» لأنها ليست عادة للكتاب العرب، وكانت أول فتاة عرفها

بقلم السعدنى

تعمل خادمة كما ذكر فى الجزء الأول من مذكراته وتقول له «بوسنى يا حودة» لكن التجربة الأولى بالمعنى الحرفى والانحرافى ذكرها السعدنى فى الجزء الثانى من مذكراته حيث وجد وأصدقاؤه امرأة فى كازينو انتهت قصته معها بفضيحة حيث يروى.

«... وبعد قليل خرجنا مع الست، خارج الكازينو فى طريقنا إلى المنزل. ولم يكن لدينا منزل كما لم يكن هناك منزل لدى أحد من الشلة التى تعقبنا. ورحنا نفكر أنا وغزالى فى مكان نقصد إليه. ولم نعد فى النهاية إلا إلى بيت طالب أزهرى اسمه الصيرفى كان يسكن وحده فى الجيزة فى شقة فى بيت له مظهر البيوت الأنيقة، رغم أنه فى الداخل لم يكن يحتوى إلا على سرير شديد القذارة ومشنة عيش كانت دائمًا فارغة، وثلاثة كراسى كلها محطمة كأنها متخلفة من خناقة بين بعض الفتوات العتاة!

وكان الصيرفى نفسه شديد الغرابة، مظهره يدعو إلى الإضحاك، كان قصيرًا ومشوهًا ويتكلم بالفصحى وبصوت عال كأنه يخطب على الدوام. وكان سعديًا متحمسًا وهى ظاهرة شاذة تأملتها كثيرًا، ولكن لم أستطع تفسيرها على

الإطلاق، فلقد كان هناك وزراء سعديون، ونواب سعديون، وشيوخ سعديون، ولكن أبداً لم يكن هناك شبان سعديون.

كان الشباب موزعًا تلك الأيام بين الوفد ومصر الفتاة والشيوعيين والإخوان. وكان الصيرفى هو الشاب السعدى الوحيد الذى قابلته فى حياتى وكنت دائم العراك معه، شديد السخرية به، هازئًا من معتقداته، متهماً إياه بالرشوة إذ لا يعقل أن يكون الإنسان سعدياً بضميره، خصوصاً إذا كان شاباً، ولابد أن يكون لهذا الموقف الغريب ثمن مدفوع!

وأعتقد الآن أن موقف الصيرفى كان مدفوع الأجر، وأنه كان أجراً زهيداً لأنه كان دائم الشكوى من الإفلاس، وكان يبدو دائماً شديد الإرهاق والشحوب.

ولقد استقبلنا الصيرفى بفرح شديد، وعندما وقع بصره على المرأة التى معنا لمعت عيناه ببريق غريب، واستقبلته المرأة بفتور وباحتقار شديد، فقد كان يرتدى جلباباً مخططاً وحافى القدمين، وكانت فانلته تبرز من فتحة جلبابه وكان فيها من الثقوب أكثر مما فيها من القماش.

واعتقدت المرأة أنه خادم فى المنزل وعاملته طول السهرة على هذا الأساس. ولم تلبث شلة الأصدقاء أن اقتحمت علينا المنزل، وكعادة الفقراء أردنا أن نزيف الواقع المر وأن نخدع أنفسنا، وأن نضفى على الجو مسحة من الشاعرية والخيال، واكتتبنا جميعا لنحصل على زجاجة رخيصة من الكونياك الردىء، ومن جهاز الراديو العتيق الذى تعشش فيه الصراصير رحنا نستمع إلى موسيقى حالمة، وصعد غزالى على أكتاف أحدنا ولف حول لمبة النور قطعة من الورق الأحمر، ورحنا نسهر فرحين فى هذا الجو الهزيل. جو كلما تذكرته الآن اقشعر بدنى من هول ما كنا فيه. جو تجتمع فيه امرأة صايعة قبيحة وعشرة شبان ورجل رزين وزجاجة خمر رخيصة وراديو كان لا يواصل الغناء إلا بخبطة يد قوية تهز أجهزته العتيقة التى تود أن ترتاح من هذا الشقاء اللعين!

المهم أن السهرة اكتملت، وعندما جاء الصباح كان علينا أنا وغزالى أن نواجه الموقف الصعب، ولم يكن معنا سوى ستين قرشاً هى كل ما مع الشلة من نقود. خمسون قرشاً دفعها الرجل الرزين وعشرة قروش هى كل ثروة الآخرين!

كانت المرأة تقف أمام المرآة تسوى شعرها وتغنى بصوت مسلوخ أغنية شائعة، وكان الصيرفى يقف فى الصالة محموما عيناه مصوبتان نحونا كأنهما فوهة بندقية مستعدة للإطلاق والسبب أن المرأة الصايعة رفضت بشدة أن يختلى بها الصيرفى وكان هذا تصرفًا طبيعيًا من جانب المرأة. فهكذا الفقراء دائما يريدون فى أى مناسبة أن يؤكدوا لأنفسهم أن هناك من هم أفقر منهم، وهكذا الحقراء أيضا يريدون أن يثبتوا لأنفسهم أن هناك من هم أحقر منهم.

وكانت تلك الليلة هى فرصة الست الصايعة، ولقد أصرت على موقفها وظلت متمسكة برأيها لا تتزحزح، ورغم التوسلات والشفاعات فإنها رفضت بشدة وبدا عليها فى لحظة أنها مسألة مبدئية، وأنها على استعداد لتواجه الموت فى سبيل المبدأ العظيم!

ولما ضاعت كل المحاولات عبثًا، قررنا تجاهل الأمر تماماً، اتفقنا على ضرب الصيرفى لو اعترض طريقنا أو حاول أن يقوم بحركة انتقام من أى نوع.

وكانت المرأة الصايعة قد انتهت من زينتها عندما أقبلت بيننا تتقصع كأنها ممثلة سينما.. وبدت تلك اللحظة بشعة مزوقة. ووقفت أمامنا فجأة ومدت يدها تطلب النقود، همس غزالى فى أذنها أن الحساب سيتم فى الخارج وليس أمام الصيرفى الغاضب المتحفز المطعون فى كبريائه ولكن الست أصرت بشدة لن تتزحزح خطوة إلا بعد أن تحصل على النقود.

ومد غزالى يده بالمبلغ الموجود، ولكنها شهقت وتقصعت وألقت بالمبلغ على الأرض وطلبت عشرة جنيهات لا تنقص مليما وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور!

وضحكت أنا وغزالى، فلم نكن فى هذه اللحظة قد رأينا عشرة جنيهات كاملة، وكان اليوم آخر شهر ولو أننا فتشنا الجيزة كلها فلم نكن لنعثر على عشرة جنيهات. ولقد كنا متعبين للغاية بعد أحداث تلك الليلة الحافلة.. ولم نكن قادرين على النقاش كما أننا لم نكن مستعدين لمواجهة امرأة متنمرة وفى بيت رجل أكثر تنمرا! ولذلك - وبدون اتفاق - فتحنا الباب فجأة بعد أن جمعنا النقود المبعثرة على الأرض وانطلقنا هاربين إلى الشارع. ولكنا لم نكد نبتعد كثيرا حتى توقفنا فى عرض الطريق نستمع الى الصراخ الذى انبعث داخل المنزل، ولم يكن الذى سمعناه هو صراخ المرأة. ولكن صراخ الصيرفى!

هذه إذن هى نهاية الصيرفى فى هذا اليوم المشئوم! ليلة معذبة بالنسبة له وصبح أغبر! ولكن الصراخ لم يلبث أن تلاشى ثم هدأ كل شىء. وتوقعنا أن تخرج المرأة ولكنها لم تفعل، وطال غيابها جلسنا على قهوة الحريرى القريبة وطلبنا إفطارا وشربنا الشاى واشترينا علبة سجائر كاملة، وجلسنا ندخن فى هدوء.. كأننا نستقبل يوماً جديداً من أيام الحياة فى ثقة زائدة.

وفى الظهر خرجت المرأة الصايعة ومعها الصيرفى، ووقف معها على محطة الترام ركبت، ولما انطلق بها الترام رفع يده يلوح لها كأنه صديق يودع صديقته العزيزة وهى تبدأ رحلة ميمونة إلى باريس.

أغرب شىء أن الست الصايعة لم تنقطع عن الجلوس فى كازينو شهريار، ولكنها كانت كلما رآتنى أنا وغزالى أشاحت عنا بوجهها. رغم أن الرجل الرزين أستاذ الجامعة قد تنازل عن كبريائه وتجاهل مركزه الاجتماعى وقضى معها ليلة بأكملها فى الكازينو يعتذر لها. ثم اختفت الست من حياتنا ومن الكازينو بعد ذلك.. ثم علمنا أنها تزوجت! وممن؟... من أستاذ الجامعة الرزين نفسه!... ودنيا عجيبة وواقع... ولكن أغرب من الخيال!

لذلك كان عرض الرجل الطيب بالزواج موضع دهشتى! فهو أعلم الناس بظروفى كما أنه يعلم تماما أنه ليس فى حياتى امرأة! وعندما سألته عن سبب هذا العرض قال على الفور، انت محتاج إلى امرأة إلى جوارك، موهبتك ينقصها التنظيم، لو أنك حصلت على كفايتك من النوم وكفايتك من الطعام لاستطعت أن تنتج شيئا أعظم، إنك مادة خام طيبة وفى حاجة إلى من ينميك!

وقصة أخرى للسعدنى حين ذهب مع زميل له كان السعدنى يكتب له المقالات وتوقع باسم زميله هذا، ورغم أنه لم يكن يجب على السعدنى أن يفعل مثل هذه الفعلة لكن قسوة الزمن وآه من قسوة الزمن، التى جعلتنى ذات مرة أسأل نجيب محفوظ لماذا قسوت على محجوب عبد الدايم كل هذه القسوة فى رواية «القاهرة ٣٠» فقال لى: ليس أقسى من الزمن والحياة التى كان يعيشها»..

وذهب السعدنى مع الأستاذ علوى زميله إلى حيث يسكن حيث يقول: وكان يسكن فى حى طولون فى حارة ضيقة تقع على دحديرة خلف المسجد، وكان البيت قديماً تفوح منه روائح عطنة، وتتزاحم البيوت فى الحارة وتتشابك ويتداخل بعضها فى بعض، حتى إنى كنت أسمع الجيران يتكلمون فى البيت الرابع، وعندما أصبحنا داخل الشقة انشغل علوى بإعداد طعام الغداء، وبعد أن انتهينا من الطعام نهض ليعد لنا الشاى، ثم فتح الباب وراح ينادى بصوت مزعج، وسرعان ما لبى نداءه صوت نسائى فيه بحة ولسعة نفذت إلى عظامى. ولم تلبث صاحبة الصوت أن اقتحمت علينا الشقة فى جراة، وقد ارتدت قميص نوم رخيصاً وأرسلت شعرها الأسود الناعم خلف عنقها وعلى كتفيها وكانت جميلة رغم فقرها وجسمها يكاد يبرز من القميص الرخيص الذى ترتديه، وصدرها بارز بشكل مثير، حتى خيل إلىّ أنه يبرز بعوامل صناعية، وعندما صافحتها فى أدب غضضت بصرى خجلاً، ولكن علوى مد يده وعبث فى صدرها أمامى وقال وهو يضحك:

«بذمتك مش سعاد تنفع فى السينما»، ولما أمنت على كلامه، سألتنى فى لهفة: «صحيح والنبى».

ثم جلست تحكى لعلوى ما حدث لها بالأمس وكان علوى قد أرسلها بتوصية خاصة إلى مخرج صديقه لتعمل كومبارس فى فيلم من الأفلام. ولقد اشتغلت طول الليل مقابل جنيه، وستذهب مرة أخرى مساء الغد، وستعمل معهم لمدة أسبوع وستلهف عشرة جنيهات كاملة. وقالت لعلوى بعد أن انتهت من قصتها وهى تضربه بيدها على رأسه: اكتب عنى بقى وأشار علوى نحوى وقال: ده اللى هيكتب عنك، صحيح هوه صغير كده لكن ده رئيسى فى الشغل.

ونظرت البنت نحوى نظرة فاحصة أربكتنى، وقالت وهى تتقصع: رئيسك.. مش معقول، انت عاوز تهرب منى.. وقال علوى وهو يقسم بكل المقدسات. زى ما بقولك كده. احكى له على قصة حياتك وهو هيكتبها، وهيطلع صورتك فى المجلة.

ونهض علوى وارتدى ملابسه، ثم استأذن فى الانصراف وخرج دون وداع، واكتشفت أننى أصبحت وحيداً مع البنت المستوية فى شقة علوى، وأحسست بأننى ارتعشت كلى.. وضربت معى فى لخمة فلم أعرف كيف أتصرف معها، وفجأة، نهضت، ومددت يدى أصافحها وأستأذن، ولكن البنت المجرية شهقت وتقصعت، وضربت صدرها بيدها وقالت: ايه يا دلعدى، قرفت منا والا ايه؟ عامل بيه؟ دانت اللى يدور عليك يلاقى الست أمك كانت غسالة. كانت البنت مجرية وشجاعة وتتمتع بشخصية قوية أجبرتنى فى النهاية على

كان كامل بريقع نموذجًا لمئات وألوف من الناس كان يزخر بهم العصر.
كان شديد الجهل وشديد الذكاء.. وكان كثير المشاكل
مع عائلته الكبيرة فى بيته بالقلعة!..

الجلوس فى ركن الحجرة كاليتيم البائس أعتذر لها بكلمات لا معنى لها. ولم أكن فى الحقيقة أقصد إهانتها ولكنى كنت أنجو بنفسى من مواجهة موقف لم أواجهه من قبل.

وجلست البنت بعد أن هدأت ثورتها تحكى لى قصة حياتها وجلست أنا أمامها أتصنع الاهتمام الزائد كمن سيكتب هذه القصة يومًا ما واكتشفت وهى تحكى أنها لا تحكى شيئا من الواقع، ولكنها تفبرك قصة صحفية سينمائية تصلح للشاشة وفى نفس المستوى الذى شاهدته البنت فى أفلام تلك الأيام. وقالت إنها أحبت شابًا طيارًا يسكن فى حارتها! مع أننى أستطيع أن أقسم بأغلظ الأيمان أن أحدا من سكان حارتهم لم ير الطيارة فى حياته وأن ركوبها بالنسبة لأى واحد منهم حلم لا يتحقق إلا بلقاء الجن أو العثور على خاتم سليمان! المهم أن البنت وقعت فى غرام الولد الطيار والولد الطيار وقع فى غرام البنت وأنهما كانا يقضيان أغلب الوقت فى حديقة الأورمان، وأحيانا فى حديقة الأندلس، ثم وعدها بالزواج ثم سلبها أعز ما تملك، ثم يا فرحة ما تمت خدها الغراب وطار، وطار الواد الطيار ولم يعد، سقطت به الطائرة واحترقت، واحترق أملها الكبير مع الحطام!

ومن لحظتها أقسمت ألا تتزوج. وألا تحب، فقد مات الذى كانت تحبه، وهى لذلك تقتحم ميدان العمل، ولذلك أيضًا اختارت السينما لكى تتمكن يوما من إنتاج قصة حياتها على الشاشة! واقترحت فى نهاية القصة أن أكتبها تحت عنوان: «حب من غير أمل»!..

قلت لها إنها قصة عظيمة، وأنها ستحقق نجاحًا لا حد له، وأرباحا طائلة ليس لها نظير! وقضيت لحظات سعيدة طيبة مع البنت ثم جلست أنتظر علوى وحيدًا فى الشقة، ولما يئست من حضوره انصرفت تاركًا له ورقة بأننى سألقاه فى صباح الغد، ولقد استولت على الدهشة عندما التقيت بعلوى فى اليوم التالى ولكنه لم يفاتحنى فى شىء مما حدث بالأمس! ولكنه قدم لى موضوعًا لأعيد صياغته من جديد ثم استأذن فى الانصراف لأنه على موعد هام فى حزب النهضة.. وكان حزب النهضة حزبًا نسائيًا تديره امرأة قبيحة شمطاء.. وكانت تتخذ من شقة فى شارع دوبريه مقرًا للحزب، وكانت هذه الشقة ملتقى بنات الذوات ورجال السلك السياسى والمشتغلين بالصحافة والأدب والفن وكنت قد ترددت على هذا الحزب عدة مرات مع الرجل الطيب، وتعرفت هناك على بنت اسمها تهانى كان أبوها تاجرًا كبيرًا فى وكالة البلح.. وكانت يتيمة وحزينة وشاردة على الدوام.. ولقد دعوتها ذات مرة على الغداء وجلست معها على شاطئ النهر، وخيل إلىّ أنها متيمة وأنها واقعة فى حب العبد لله.. فضممتها إلى صدرى وطبعت على فمها قبلة. ولكن البنت التى ظننتها متيمة وواقعة فى حبى، بكت فجأة وعبثًا حاولت أن أسكتها دون جدوى وعندما قمت معها لتوصيلها إلى المنزل غادرت التاكسى دون أن تنظر فى وجهى. ولم أرها بعد ذلك أبداً، ولم تعد تتردد على حزب نهضة مصر بعد ذلك.. وفى هذا الحزب تعرفت على بنت قبيحة عجفاء مشوهة كانت طالبة فى إحدى الكليات، وقد ظلت طالبة لمدة عشرة أعوام وقد وقع فى حبها اثنان من أصدقائى وكان أحدهما خياليًا إلى حد بعيد، وكان الآخر عكسه تمامًا. ولذلك فاز الرجل الآخر بالبنت المشوهة، وأثرت هذه الحادثة على قلب الرجل الحالم، ولعلها لا تزال تؤثر فيه حتى الآن. ولقد عرفت البنت العجفاء أكثر شبان مصر وأكثر رجالها. وألقت بنفسها فى أحضان أجيال متعاقبة. ولذلك ستجد فى دفتر قلبها توقيعات بعض الشيوخ وبعض الرجال وبعض الشبان وبعض الصبيان أيضًا. ولقد كنت أعجب كيف استطاعت بنت شكلها مثل شكلى وجسمها فى حجم جسم ولد صايع يتسكع فى ميدان الجيزة، كيف استطاعت مثل هذه البنت أن تحصل على كل هؤلاء المعجبين!؟

ولقد ناضلت طويلاً داخل هذا الحزب حتى وقعت ذات مرة فى امرأة مناضلة من مناضلات الحزب، كانت فى الأربعين من عمرها ولكنها كانت تبدو أصغر سنا، وكانت جميلة حقًا وخفيفة الدم إلى درجة تجعل من يراها مرة لا يستطيع أن ينساها أبدا.

وكانت متزوجة أكثر من مرة ولكن عندما عرفتها كانت وحيدة، وكانت قد هجرت زوجها الأخير منذ شهر واحد وحكمة الله أن جميع أزواجها كانوا من العجائز الأثرياء ولقد خرجت من كل صفقة زواج بربح مادى كبير، فأصبحت هى الأخرى من كبار الأثرياء. وكان لها نفوذ كبير فى دوائر الحزب، فقد كانت تمده بالمساعدات المادية.. وكانت تقيم الولائم لعضواته، وهى ولائم كانت تجمع بين الترف والكرم. وكانت هذه الحفلات



فى العدد التالى من «كلمة ونص» وجد السعدنى ما كتبه منشورًا.. وكان يومًا من أسعد أيام حياته، وتصادق مع مأمون الشناوى وتعلم منه الكثير، وأصبح محررًا براتب شهرى ستة جنيهات

السياسية المهمة فرصة للتعارف بين الجنسين!. وذات حفلة كنت أتوسط حلقة وكانت السيدة صاحبة البيت تجلس فى ركن قريب، عندما أصدرت فتوى خلاصتها أن المرأة تفقد سحرها بعد سن الخامسة والعشرين، وكان رأيًا فجًا من شاب صغير عديم التجربة والخبرة، ولكن المرأة الثرية المجربة أخذت المسألة مأخذ الجد فاقتربت منى وزجرتنى بنظرة حادة ثم تجاهلتنى بقية السهرة وقررت أنا أن أختفى من دار الحزب، ومن حفلات السيدة الثرية ولكنها التقت بى مصادفة بعد شهر، وسألتنى عن سر غيابى وأعطتنى رقم تليفونها وعندما اتصلت بها دعتنى إلى منزلها، وسألتها فى سذاجة. هو فيه حفلة النهاردة؟

وأجابت هى بالإيجاب ووعدتها بتلبية الدعوة. وحلقت شعرى الذى كان يغطى قفاى كالخنافس. ولمعت الحذاء مرتين وحرصت على أن أقترض ربطة عنق ملائمة. وتوجهت إلى الحفلة وفى نيتى أن أقع على صيد ثمين يعوضنى جفاف الأيام التى مضت منى!

ولما اكتشفت أنه لا حفلة هناك ولا يحزنون حتى بعد أن دخلت المنزل، وجلست وحيدًا فى حجرة الصالون أنتظر قدوم الست المضيفة وعندما حضرت غندورة كالعهد بها، رائعة الجمال كأنها تمثال فى متحف.. سألتها عن سر تأخر الضيوف فقالت ببساطة: مفيش ضيوف غيرك الليلة...

وشعرت عندئذ أنى على أبواب مغامرة لذيذة، وأنى مقبل على القيام بدور لم يسبق لى القيام به من قبل!

وجلست أمامى تصب خمرًا فى كأس وهى فى ثوب شفاف يكشف على مفاتنها وراحت تتحدث حديثًا فياضًا فى السياسة والأدب والعلم وسرعان ما طردت الخاطر السيئ الذى راودنى وشعرت فى الحديث بطلاقة ورحت أرغى كأننى بالع راديو فى أشياء شتى. ولكنها فجأة ضحكت وجذبتنى من شعرى نحوها وانحنت وقبلتنى وقالت وهى تضحك.

- دمك خفيف يا مضروب.

وانتهزت الفرصة كأى ساذج وجذبتها نحوى أنا الآخر، ورحنا نتبادل القبلات والعناق! ولما كنت وقتئذ فى العشرين وهى فى الأربعين فقد كنت أصدق منها فى التعبير عما يجيش فى صدرى، وكانت هى أقدر منى على قيادة نفسها بحكمة وحنكة ومعلمة ليس لها نظير.

وعندما هممت بها ردتنى فى

لطف.. ثم ردتنى فى عنف. وانكسفت كما بنت بكر فاجأها شاب عابث على الطريق.. واعتذرت لها عن سوء سلوكى وقلة أدبى وفساد ظنى. وقبلت اعتذارى على الفور ثم فتحت حديثاً آخر غاية الجد، ودخلت أنا الأخر فى موجة الجد التى شملتها ولكنها بعد قليل ضحكت ضحكة أشعلتنى ثم مدت يدها وقرصتنى ومددت يدى أنا الأخر وبادلتها القرص، ثم احتضنتها بشدة وقبلتها كالمجنون، ثم هممت بها، ولكنها مرة أخرى ردتنى فى لطف، ثم ردتنى فى عنف، ثم انتابنى بشدة خجل على مسلكى المتوحش.. واعتذرت لها مرة أخرى وجلست مكسوفاً كتلميذ راسب عدة أعوام فى مادة واحدة! وقبلت السيدة الكريمة اعتذارى ثم راحت تصب لى كأساً آخر، ومع الكأس راحت تتحدث فى السياسة.

وتكرر المشهد بعد ذلك أكثر من مرة، تبدأ هى بالمناغشة ثم أبادلها ثم أندفع أكثر ثم أقفز محاولاً الوصول إلى آخر الشوط.. ثم تنهرنى بشدة وتنهانى بعنف ثم أجلس مكسوفاً وأعتذر.. حتى الفجر كنت اعتذرت عشرين مرة، وأدركت أننى لعبة الست الكريمة تلك الليلة، وأنها ترد على رأيى بأسلوب عملى لكى أتعلم الأدب فى الحديث فى المستقبل. كان الفجر على الأبواب عندما غادرت الفيللا سكران حزيناً شديد الهم، مكسوف أكاد أطلب من الأرض أن تنشق لتبتلعنى وتخفينى بعيداً عن الأنظار! ولقد ظللت أعواماً طويلة بعد ذلك أغض من بصرى كلما واجهتها فى أى مكان، ثم تحاشيت لقاءها بعد ذلك، ولم ينقذنى منها إلا اختفاؤها هى نفسها من الحياة العامة. ولكن الدرس الذى علمتنى إياه كان رهيباً وقاسياً على نفسى، ولقد أثر فى نفسى إلى حد أننى جبنت عدة سنوات عن أن أخطو الخطوة الأولى مع أى امرأة. وفقدت الثقة بنفسى إلى حد أننى كنت أخشى مغازلة أى امرأة ولو كانت خدامة خشية أن ترفضنى بشدة، ولم تسمح المرأة الخبيثة نفسى بالنسبة لها فقط، بل إننى كنت أخشى النظر فى عين أى سيدة فى حزب النهضة فقد كنت أعتقد أنها قصت قصتى لكل من تعرفهم! وعدت إلى دار الهلال مهموماً وقلقاً أريد أن أهرب من الدار ومن القاهرة كلها، وخطر لى أن أغادر مصر كلها على ظهر مركب وفعلا رحلت أسأل كل من ألقاه على أسلوب العمل فى المراكب! وهل أصلح أنا للعمل فى المراكب وخصوصاً أننى معتل الصحة؟ وهل يوجد على ظهر المراكب عمل خفيف لائق؟ ثم تخليت عن هذه الفكرة عندما استطعت أن أمسح من ذاكرتى أحداث تلك الليلة الغريبة. ولكن علوى لم يقطع صلته بحزب النهضة كما كان على علاقات وثيقة ومتينة بكافة الأحزاب النسائية فى مصر وكانت هذه الأحزاب هى المنجم الخصب الذى يحصل منه علوى على المواد الخام لسهرات الشاليه الذى يقع فوق الربوة عند الهرم.. وكانت سيدات السياسة المصريات يشعرن حقا بالسعادة لأنهن سيقضين السهر مع بعض.

وقصص أخرى عن النساء فى حياة السعدنى حيث يروى: وفى تلك الليلة الأخيرة أيضاً حدث للعبد لله حادث غريب للغاية، فكان يسكن فى الحجرة المجاورة لحجرتنا فى اللوكاندة رجل فى حوالى الستين من عمره، يرتدى جلباباً وبالطو أصفر وطربوشاً ويضع تحت الطربوش منديلاً محلاوياً عريضاً، ويمسك بيده مظلة. وكانت معه زوجته وهى فى السادسة والثلاثين من عمرها، شابة مليحة ممتلئة عفية، جمالها متوحش، نظراتها وحركاتها كأنها لبؤة تبحث لها عن أسد جامد وقوى وخطير.. وكان صديقى علوى الذى كانت تجذبه رائحة النساء من على بعد ألف ميل قد لضم معها فى كلام ليس له مدلول!

وجلست أنا ليلتها مستمعاً، وكنت لم أزل صبياً فى الثانية والعشرين من العمر. وقد لفت نظرى ليلتها أن المرأة العفية كانت تختلس النظر نحوى بين الحين والحين، وكان لواقع نظراتها تأثير عجيب على نفسى فقد كانت عيناها واسعتين عميقتين سوداوين ولامعتين كأنهما من الزفت المغلى! المهم أننى كنت فى الليلة الأخيرة التقيت بالمرأة فى بهو الفندق المتواضع وكان الزوج فى الخارج وكان من عادته أن يخرج كل صباح ليعود فى المساء، ويظل يسعى حتى تنقطع أنفاسه ويسقط مغمى عليه من شدة السعال! وتفاهمنا بسرعة أخذت تشكو وتضج بالشكوى مع التهاب فى الأعصاب، وراحت تحكى للعبد لله وهى تبكى كيف أرهقها المرض إلى حد أن الزوج اصطحبها معه إلى المنصورة لتشم الهواء وتسرى عن نفسها قليلاً، ولكنه جاء بها إلى البندر وتركها فى اللوكاندة وانشغل عنها بأصدقائه فى المنصورة. وفرحت الست لهذا الوضع وسرحت هى على كيفها، وكانت ليلة ليلاء انتهت بزغرودة طويلة من الست المشتاقة إلى ذكر يروى عطشها الشديد إلى الحنان والحب والمتعة! وأدركت سر انشغال زوجها عنها

ويكشف السعدنى فى أوراقه معاصرته لما حدث يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢فبعد أن سمع البيان الأول الذى ألقاه أنور السادات بصوته صار كالمجنون، وخلع فردة حذائه وقبلها بشدة من السعادة بل أصبح مندوباً لمجلته فى القيادة العامة!!

وهكذا أصبحت مندوباً للمجلة فى القيادة العامة، فقد استقبل أصحاب المجلات الرجعية الحركة الجديدة بقليل من الترحيب وكثير من الحذر. وأرسلوا أقل المحررين شأناً ليتفاهموا مع حركة الضباط.. ولما كان هذا الوصف.. أقل المحررين شأناً.. ينطبق على العبد لله، فقد أصبحت واحداً من طقم مندوبى القيادة! ولما كانت مجلة النداء ليست فى حاجة إلى أخبار، ولما كنت أنا الآخر لا أهتم بهذا اللون من العمل الصحفى على الإطلاق.. فقد اكتفيت بالجلوس على باب القيادة أتفرج على الزوار والمترددين على مقر السلطة الجديدة ولم يكن جهلى بما يجرى فى داخل القيادة أقل من عدم اهتمامى بهذا العمل الجديد.. فلقد كان محمد نجيب يبدو فى الصورة على أنه زعيم الثورة، بينما كان الشفاه تهمس بأسماء أخرى وتؤكد أن أصحاب هذه الأسماء هم الحقيقيون للثورة.. ولكن أنا شخصياً كنت قد وصلت إلى قرار فى هذا الشأن وهو أن أنور السادات هو زعيم الثورة، هو الذى أذاع البيان وهو الذى رأيته بعينى رأسى فى كازينو شهريار يلعن سنسفيل جدود العهد البائد!

ويوم خروج الملك فاروق من مصر خلعت قناع الوقار الذى أرتديه أحياناً كصحفى ووقفت أرقص عشرة بلدى فى ميدان عابدين وسط الجموع الحاشدة بينما كانت الدبابات تحيط بالقصر الملكى من كل ناحية. ولأول مرة أشعر أننى لا أخشى الدبابة. لقد كان منظرها دائماً يبث الرعب فى نفسى، حتى يوم قيام الثورة شعرت بنفس الخوف وأنا أتجول فى شارع قصر النيل لأن الراديو كان حذر من التجمهر فى الشوارع. وعندما نسينا هذا الإنذار فى غمرة الفرحة وقفنا أكثر من عشرين شاباً تحت عمارة الايموبيليا نتكلم بصوت عال للغاية، اقتربت منا عربة مصفحة وأمرنا الضابط بالانصراف.. وانصرفنا فى سكون حتى انصرفت العربة المصفحة، ثم عدنا إلى التجمهر من جديد وفى نفس المكان. ولكن عسكرى الدورية الطيب اقترب منا وفى لهجة ناصحة «يللا يا أفندى انت وهو ممنوع الجمهورية»!

كانت الثورة فرصة للعبد لله لكى يشرع قلمه من جديد ليكشف كل شىء دار فى السويس خلال معركة القناة. وعندما تعرضت لرجل هناك اسمه سيد السايس وهو ثرى أمثل بدأ حياته سائساً فى جراج ثم انتهى صاحب جراج ودار سينما ومتعهداً للجيش البريطانى.. وفى حرب التحرير عام ١٩٥١ اشترك فى المعركة ووضع جميع سياراته فى خدمة الفدائيين، وكانت السيارات تدخل المدينة كل يوم تحمل شحنات الأسلحة المهربة، هكذا كان سيد السايس يزعم، غير أن الحقيقة كانت عكس ذلك، فقد كانت سيارات سيد السايس لا تحمل فى الواقع إلا شحنات الحشيش! وفوجئت فى العدد التالى لنشر الموضوع بخبر صغير فى الصفحة الأولى «فصل محمود أفندى السعدنى من وظيفته من المجلة» هكذا تحولت بخبر من سطرين إلى افندى مفصول من وظيفتى بالمجلة! وعلمت بعد ذلك أن سيد السايس حضر من السويس ودفع ألف جنيه مقابل نشر إعلان وبشرط فصلى من المجلة.

وما كان أسهل الفصل فى تلك الأيام. وبينما كان يلمع على سطح الحياة الصحفية عدة أفراد من الكتاب كان يعانى المئات من المخبرين والمحررين الصغار القلق والعذاب والطرد إلى الشارع وبلا مكافأة على الإطلاق. حتى مرتب الشهر الذى اشتغلته لم أقبضه!

وهكذا عدت والثورة لم يمر عليها سوى شهر واحد إلى الشارع عاطلاً مفلساً ولكن بأمل جديد.. إن الأمور لن تلبث طويلاً حتى تعود إلى الوضع الطبيعى الذى ينبغى أن تكون عليه! ولم لا ؟ وأنا من جيل الثورة.. هؤلاء الكتاب الكبار تعفنوا تماماً وتورطوا فى النظام الملكى حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من النظام الصحفى الكبير الذى كان كل مجده فى الحياة أنه يرافق جلالة الملك فى رحلاته للخارج، والذى تلوك الألسنة سيرته على أنه كان يوما ما عشيقاً لجلالة الملكة الأم! والصحفى الكبير الآخر الذى كان يجلس على مائدة الملك ليضحكه حتى يستلقى الملك على قفاه.. والصحفى الكبير الثالث الذى أراد الملك أن يمزح معه فدفعه إلى حوض السباحة وهو فى كامل ملابسه.. ثم خرج من حمام السباحة يشكر جلالة الملك(!) على هذه اللفتة الكريمة التى خص بها صاحبة الجلالة الصحافة دون سواها من الهيئات. هؤلاء السادة أصبحوا جميعا

بهوات وباشوات وبعضهم يحمل نيشان محمد على! لابد أن الثورة ستنحيهم عن الطريق لتفسح لجيل العبد لله طريقه فى الصحافة. والأقلام التى سبحت فى بحر النفاق لجلالة الهلفوت الذى يتربع على العرش لابد ستتوارى الآن خزياً عن أعين الشعب!

ولكن.. ما أغرب الحياة. نفس الأقلام هبت تقاتل من مواقع الثورة وكأنها هى التى صنعت كل شىء وراحت هذه الأقلام تكتب بشراهة عن مجون الملك وجنون الملك، والملك على الشاطئ الآخر من البحر الأبيض المتوسط.

وقد تتلمذ على يد التابعى الأستاذ والمعلم الأول العديد من الأقلام البارزة التى صارت نجوماً فى بلاط صاحبة الجلالة، بل وتاريخاً مثل محمد حسنين هيكل ومصطفى وعلى أمين وأنيس منصور وغيرهم، لكن للسعدنى رأياً مختلفاً حيث يروى قصة محاولته لقاء التابعى التى منيت بالفشل الذريع:

«وخرجت أجرى من القيادة وقلبى يدق بسرعة وبدنى كله يرتعش أنا ابن الجيل الذى كان يحلم بهذا اليوم.. يوم ٢٣ يوليو والذى ساهم بجهد متواضع فيه، والذى كان ينتظر أن ينفتح أمامه الطريق لكى يمضى على طريق الثورة إلى حيث تلتقى إرادتها وإرادته، أنا الذى تحولت إلى عاطل ومفلس ومطرود أيضاً من داخل القيادة، لأننى فعلاً بلا عمل، ووجودى هنا مريب».

وعند الباب فوجئت بعربية سوداء كبيرة تقف، وينزل منها الأستاذ الكبير محمد التابعى، فقد كان على موعد مع محمد نجيب وأنا كنت أعرف محمد التابعى معرفة جيدة، رغم أننا لم نلتق إلا مرة واحدة ولعدة دقائق لا تزيد.

فلقد كنت مدمناً على قراءة مقالاته. وأعترف أننى تعلمت منه الكثير. وأنه الوحيد من بين كتاب الصحف الذى بهرنى بشدة وخلب لبى وجعلنى أتتبعه كالمجنون! يا له من أسلوب رشيق وأنيق ولاذع كان يكتب به التابعى تلك الأيام. وعندما رأيته أول مرة فى عام ١٩٤٨ حين جاء يزور معرض طوغان، صافحته بحب وهممت أن أقبل يده. هذه اليد التى تكتب مثل هذا الكلام بمثل هذا الأسلوب لابد أن تكون يداً من نوع آخر مختلف. وعندما طلبت منه أن أراه دعانى لزيارته فى أى وقت أشاء! وصدقت أنا وقبلت الدعوة وذهبت بعد ذلك بأيام إلى بيته فى الزمالك، وصعدت السلالم وثباً فقد رفض البواب أن أصعد فى الأسانسير بحجة أنه معطل!

وعندما وصلت إلى باب الشقة كنت قد نزفت آخر أنفاسى وطرقت الباب بخوف وبأدب شديد. وخرج لى عملاق أسمر من الداخل وسألته عن الأستاذ فقال: موجود.. مين أنت؟ وقلت على الفور وبزهو شديد للغاية: محمود السعدنى.. ونطقتها كأننى أقول نابليون بونابرت أو الجنرال ديجول أو المستر تشرشل! وغاب الرجل دقيقة وعاد ليقول: الاستاذ مش موجود وأغلق الباب ونزلت مجروحاً أكاد أبكى وأنا أزحف على السلم ثم توقفت فجأة وأخرجت قلماً وانتزعت ورقة من جيبى، وكتبت عليها بالحرف الواحد: «تابعى» إن لى قلماً كقلمك ولكنه أروع وأرفع، وعندما يحين الوقت المناسب سأنشر على الناس قصة الذين يسكنون الزمالك ويكتبون عن الناس فى زينهم وحوش بردق.. وصعدت السلالم من جديد وهممت بطرق الباب لأعطى الورقة للخادم.. ولكنى لم أفعل.. خشيت أن يضربنى الرجل العملاق ويسلمنى للبوليس فنزلت من جديد أزحف على السلم والورقة فى جيبى. ولعنت نفسى لأننى صدقت الأستاذ وزرته وها هو التابعى أمامى بلحمه ودمه على باب القيادة وأنا أيضا على بابها. ولكن ما أبعد الفارق. رجل الحراسة الذى طردنى جاء مسرعاً وضرب تعظيم سلام للتابعى. بينما رحت أنا أزحف فى شارع الجيش لا أدرى. ■

عـــــزة عــــــزت

العقلية المصرية.. محاولة للفهم!!

■ يؤرقني منذ سنوات سؤال أظنه قد ورد على أذهان الكثيرين مثلي، وهو: ما سبب تأخرنا عن غيرنا من الدول التي بدأت رحلة النمو معنا.. أو حتى بعدنا بسنوات؟ وسبقتنا بكثير، ونحن مازلنا نراوح في مكاننا.. ولا أقول نتخلف عن الركب، ترى هل يرجع السبب إلى السمات الشخصية والنفسية للمصريين.. أم للعقلية المصرية ونمط تفكيرها بالذات؟

هذا ولما كنت قد رصدت في كتب سابقة صدرت لي سمات الشخصية المصرية من خلال الأمثال الشعبية، ثم تتبعت ملامح التحول فيها منذ منتصف السبعينيات من خلال لغة الشارع السائدة، والتي تعكس ما يقتنع به الناس ويمارسون على ضوئه سلوكيات غير مسئولة.. فأجدني أعترف أنه قد أعيتني إمكانية الربط بين هذه السمات وما آل إليه الحال من تدهور وتدنٍ في كل مناحي الحياة المصرية، فتبادر لذهني أن السبب قد يكمن في تمسك المصريين بكم هائل من المعتقدات الشعبية البالية يتصرفون على قدر ما تشير عليهم به.. لكنني لاحظت أن معظم الدول التي سابقتنا فسبقتنا لديها أيضا كم هائل من الموروثات الخرافية والمعتقدات الشعبية البالية التي قد تصل إلى حد الخزعبلات.. ولم يحل ذلك دون تقدمها وسبقها لنا.. إذن هذا ليس السبب الوحيد والمباشر الذي من أجله مازلنا نراوح في مكاننا.. إذا لم نكن نتخلف بالفعل!!

قد يقول البعض إن القهر والفقر والعنت وشتى صنوف الاضطرار التي عانى ومازال يعاني منها المصري هي ما تجعله يركب الصعب فيزيد مثلا من فهلوته، ويزيد من النفاق والموالسة متطوعاً غير مضطر.. رغم أنها من أشد آفاته الاجتماعية التي تحول ولا شك دون تقدمه.. وحتى لو سلمنا جدلا بأن المصري عبر عصور غابرة ــ كان فيها مستعبداً ــ كان مضطراً لمثل هذه الآفات، فما الذي يدفعه الآن لممارسة مثل هذه السلوكيات السلبية وغيرها؟ وما الذي يُخيفه أو يُرهبه؟ فيجعله مثلا يلغي التفكير العلمي من حياته، ولا يحاول أن يُطبقه على قضاياه الحياتية، ولا تحاول حتى الصفوة المثقفة من المصريين أن تُطبق على هذه القضايا نظام بحوث العمليات، فتفتت المشاكل إلى جزئيات، وتبحث في العوامل المؤثرة فيها؛ لتصل إلى الأسباب المادية المؤدية إليها؛ كي تستطيع أن توجهها.. بل نجد هذه الصفوة تلجأ أيضاً كغيرها من العامة والجهلاء للتمسك بكل صنوف المعتقدات البالية؛ كحل تراه أسهل من إعمال العقل والتخطيط العلمي الذي قد يتطلب جهدا جماعيا، لا يتوافر في المجتمع المصري على أي مستوى!!

هذا وحتى لو استطاعت هذه النخبة من المفكرين أن تضم صفوفها وأن تعمل معاً.. وهذا في تصوري يبدو أمراً غاية في الصعوبة.. لكنه ليس مستحيلا على أي حال؛ لأن هذه النخبة يوجد بينها أزمة حقيقية، تعكس عدم نضج يتمثل في «الفردية».. أقول: حتى لو اجتمع نفر من هؤلاء النخبة لدراسة أي ظاهرة، سنجدهم في الأغلب الأعم ينجرفون كل في اتجاه؛ لإثبات ذاته وعلمه وإعلاء تخصصه، ومحاولة المزايدة على وطنية الآخرين ومدى إخلاصهم، أو قد ينجرفون جماعة إلى إهدار الوقت في تحديد المصطلحات الإجرائية ووضع التعريفات، وينقضي زمن طويل في التقعيد والتنظير في عالم متسارع لن ينتظرنا طويلا؛ ولذا كان إدراكنا بحق أنه لن يحدث تقدم فعلي ما لم تحل النخبة أزمتها، وأن تنضج وتخرج عن آفة الفردية، وتُفعّل العقل الجمعي، فإذا ما حدث ذلك.. آنئذ فقط يمكن أن نأمل في تغير الحال.

وقبل أن نبدأ في تفنيد المعتقدات التي كنت أتصورها السبب الوحيد أو الأهم فيما نعانيه من تخلف لابد أن نعرف في البداية الأسباب التي تجعل المصريين يتمسكون بكم هائل من الخرافات المعوقة لمسيرة تقدمهم، والتي يتصورون أنها يمكن أن تحميهم من شيء ما غامض يهدد حياتهم، أو تستجلب لهم شيئا ما قد يجعلها أفضل؛ لذا يجب أن نعرف أولا مم يخاف المصري العادي في حياته اليومية؟ الأمر الذي يُلجئه إلى اعتناق هذه الأفكار الراسخة التي لم يستطع عبر قرون التخلي عنها.. لا بل وحتى من يتصورون من صفوة المصريين أنهم نحوا هذه المعتقدات بعيداً عن أذهانهم، لا يلبثون أن يكتشفوا أنها مازالت كامنة في نفوسهم ومتغلغلة في وجدانهم، وأنهم بشكل أو بآخر مازالوا مؤمنين بها، وأنها مازالت تُسيّر حياتهم وسلوكهم!!

ولنبدأ بتحديد عدة أمور تتمحور حولها المعتقدات الشعبية التي تُسيّر عقلية الإنسان المصري، ومصدرها تحديدا، وهي: إما تخوفه أو تحسبه من أمور بعينها، أو رغبته في استجلاب أمور تحقق له بعض الإشباعات النفسية والاجتماعية؛ وذلك كي نستطيع استجلاء أسباب تمسكه بهذه المعتقدات البالية، والاعتماد عليها في تفسير الكثير من مظاهر وصروف الحياة المحيطة به، ثم ممارسة سلوكيات معينة بناء على مثل هذه المعتقدات، تبعده عن أي تفكير علمي، أو تفسير منطقي عقلي لما يدور حوله.

تحليل المعتقد الشعبي

لقد توصلت لهذه العناصر المؤثرة في العقلية المصرية بعد تحليل كم هائل من المعتقدات الشعبية التي يتوارثها المصريون، ويؤمنون بها كغالبية عظمى، ويبنون على أساسها سلوكياتهم، ونظرتهم للأمور، ومعاملاتهم مع بعضهم البعض، ومع كل ما يجابههم من مشاكل وقضايا.. ولكن لابد قبل الاستطراد في تفنيد الأمر من وضع تعريف إجرائي دقيق لمعنى «المعتقد الشعبي»، فالمعروف أن كلمة المعتقد أو الاعتقاد تنسحب غالباً على المعتقدات الدينية، التي قد تنطوي على قيم اجتماعية.. في حين أن القيم الاجتماعية ليس بالضرورة أن يكون لها أساس ديني، بمعنى أن القيمة قد يكون لها أساس ديني أو مستمد من المعتقد الديني، وقد تكون اجتماعية محضة ومستمدة بالأساس من العرف السائد، ومتوارثة منذ الأزل من حضارات لا دينية، أو لا تعتنق ديناً سماوياً من الأديان السماوية الثلاثة المتعارف عليها.. لكننا لا نستطيع أن ننكر أن لها ثباتها ورسوخها الذي قد يفوق أحياناً تمسك الناس بالمعتقدات الدينية نفسها.

أولا: مم يخاف المصري؟

- من السلطة بكل أشكالها.
- ومن الحسد والعين.. رغم أن أحواله في مجملها لا يُحسد عليها!
- ومن النكد والكدر والحزن.. رغم أنها تملأ حياته!
- ومن العراك أو الشجار، وهو يمارسه يوميا في كل مكان!
- ومن الفقر والعوز والدَّين.. رغم غرقه فيها حتى أذنيه!
- ومن فقد الأبناء، وموت الأعزاء.. رغم أنها إرادة الله وهو المؤمن المتدين!!
- ومن العقم أو «قطع الخلف»؛ لأنه يهدد رغبته في الامتداد والخلود.
- ومن انقطاع لبن الرضاع؛ أيضا لأنه يهدد ذريته التي هي امتداده في الدنيا.
- ومن الشعور بالحرمانية، لأنه كان حريصا عبر تاريخه على أن يعيش من حلال.
- ومن البوار والعنوسة؛ لأنهما يحولان دون امتداده، وإشباع حاجته.
- ومن يوم الحساب، أو «حساب الآخرة»؛ لأنه كان دوما يخشى الله ولا يريد إغضابه.
- ومن الفأل السيئ غير المبني على منطق عقلي؛ متمثلا في رؤية بعض الطيور، كشكل من أشكال التشاؤم!
- ومن الشر «المستخبي» متمثلا في الحوادث الطارئة؛ كخوف طبيعي من المرض والموت وكل ما يكدر ويفاجئ.
- ومن غيبيات مثل: العفاريت والجن.. أو التلبس، ويغالي في ذلك بشكل مرضي!
- ومن المرض بوجه عام



خاصة الأمراض الخطيرة والمذلة اجتماعيا (كالجنون، والقراع، والعقم).

- ومن الظلم أو التهمة الزور.. رغم أنهما أكثر ما تعرض له عبر تاريخه التليد.

ثانيا: مم يتحسَّب المصرى؟

- من السفر، والفراق والغربة.. وذلك لانتمائه الشديد لأرضه عبر العصور.. وإن تغير الآن نوعا ما.

- ومن أن تُلاك سيرته.. (السمعة السيئة).. وإن تخلى الآن إلى حد كبير عن هذا التحسب الحميد!!

- ومن خلف البنات.. كميراث تاريخى لاضطهاد الإناث.

- ومن الضيف الثقيل، أو ضيف الغفلة.. لما يكلفه من عناء معنوى ومادى.

ثالثا: وماذا يستجلب المصرى بمعتقداته الشعبية؟

- المحبة ودرء العداوة.
- الوفاق فى الزواج.
- الخير والبركة.
- التفاؤل.
- البشر والفرح.
- الستر والكساء.
- الجمال.

رابعا: وكيف يمارس هذه المعتقدات تطبيقيا؟

- بقراءة الطالع (فتح المندل، وقراءة الكف، والفنجان، واستحضار العفاريت والأرواح).
- وباللجوء لتفسير الأحلام، وتعبير الرؤى.
- وبالالتزام بما تقوله الأبراج.
- وبمتابعة كل ما يثير لديه التفاؤل أو التطير.. حتى لو كان بلا معنى.
- وبإخفاء كل خير تجنباً للحسد، وببعض الممارسات الخاصة التى يتصور أن لها جدواها فى هذا الصدد.
- وبعمل الأحجبة من المصحف.
- وبالبخور والرقية.
- وباتباع كل ما تشير به الموروثات الشعبية.. حتى لو دخل فى إطار الخزعبلات، (مثل تخريم عروسة ورق، واستخدام الفسوخة والشبة، ووضع دبوس فى المقشة، والإيمان بدعوة مَن فى ضائقة كالوالدة أثناء المخاض،... إلخ).
- وبالربط بين الموروثات الشعبية والدين، والأخطر عدم قبول مناقشة أى فكرة عقليا فى ضوء ما يشير به العلم.



حتى لو سلَّمنا جدلا بأن المصرى عبر عصور غابرة - كان فيها مستعبدا - كان مضطراً لمثل هذه الآفات، فما الذى يدفعه الآن لممارسة مثل هذه السلوكيات السلبية وغيرها؟ وما الذى يُخيفه أو يرهبه؟

نمط التدين والمعتقد الشعبى

وفى هذا الصدد يقول دكتور «إبراهيم شعلان» الباحث فى الدراسات الشعبية: «إن الاعتقاد الشعبى عنصر مسيطر وحاكم فى مصر.. فحتى نحن من نعد أنفسنا من العلميين والباحثين الذين يطبقون المناهج والنظريات العلمية كغيرنا من الباحثين الغربيين، نجد أن المناخ العام الذى ولدنا جميعاً فيه وتربينا عليه يؤثر فينا، ولا نستطيع الخروج منه؛ وكأن هذا المناخ من المعتقدات سياط تلهب ظهورنا؛ فالباحث العلمى المصرى وراءه خلفيات راسخة متغلغلة فى نفسه، ولها أثرها العميق عليه وباتساع جغرافى يمتد من أسوان إلى الإسكندرية، وأهم هذه المعتقدات ما يتعلق بالدين، الذى يُعد عنصراً حاكما فينا.. حتى من قبل اعتناق المصريين أيا من الديانات السماوية المعروفة».

وأكاد أتفق معه تماماً فيما ذهب إليه بخصوص الدين؛ فقد خلصت فى دراسة سابقة عن «الشخصية المصرية فى الأمثال الشعبية» إلى أن من أهم سمات شخصية المصرى أنه «متدين»، كما أشرت فى دراسة أخرى عن «لغة الشارع والتحولات فى الشخصية المصرية» إلى أن المد الدينى المتنامى منذ مطلع السبعينيات من القرن الماضى قد عمَّق هذا الاتجاه، ونسب إلى الدين الكثير من المعتقدات الشعبية وربط بينهما، الأمر الذى يمكن تفسيره على ضوء ما قيل فى بعض المراجع الأجنبية التى تناولت أسباب التخلف فى منطقة الشرق الأوسط بوجه عام، ومحاولاتها لربط ذلك «بطبيعة التديُّن» فى هذه المنطقة، أياً كان الدين الذى يعتنقه الناس، ومناقشة ما جاء فى هذه المراجع من آراء تُرجع أسباب التخلف إلى التديُّن.. فى حين أراه يرتبط أكثر بالتشدد أو «التطرف فى التديُّن».. الذى لم يكن فى يوم ما من خصائص التديُّن المصرى الوسطى المعتدل.. قبل أن يتأثر بالمذهب الوهابى الذى أتى إلى مصر مع المصريين العائدين من شبه الجزيرة العربية محمَّلين بأموال النفط، وبهذا النمط من الفكر المتشدد.

ولابد من الإشارة إلى أن الكثير من الدراسات العربية أيضاً تناولت العقلية العربية، وناقشت فكرة أن الأديان كان لها علاقة ما بحراك البشر، وبما أصاب العقل العربى من تراجع فى هذا الزمن الكسيح، وكيف ينصب اهتمام الناس بوجه عام على التافه من الأمور.. وحتى فيما يتعلق بالدين نجدهم أشبه بمن يتساءلون عن البقرة؟ وما لونها؟ ليُصعِّبوا الحياة على أنفسهم، ويُعسِّروا الأمور، فيتوهم من يراهم أنهم قد فرغوا من تحقيق كل ما أمرتهم به الأديان من معاملات، ونظافة وإتقان، وحسن أداء للعمل، وطلب للعلم من المهد إلى اللحد.. ولو فى الصين، وهى أوامر دينية لو التزموا بها لكانت كفيلة بأن تحقق لهم التطور المنشود، واللحاق بغيرهم من الأمم فى مجالات التقدم المختلفة.

مجابهة الأزمات بنظرية جحا

لعل نمط «التفكير غير العلمى» للمصريين هو أهم العوامل المؤدية إلى افتقاد المصريين للقدرة على التنبؤ بما هو قادم، والالتفات والتنبُّه لما قد يباغتهم من أحداث تكشف لهم أنهم لم يتهيأوا بحال لمواجهتها أو التصدى لها.. فحتى لو أدركوها فهم فقط يتخوفون منها، ويتحسبون لها بمعتقدات غيبية، بالاستعاذة والحوقلة والدعاء لله لدرء المخاطر (شر المستخبى)، وبالتواكل وليس التوكل مع الأخذ بالأسباب.. كل ذلك دون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث عن حلول سريعة، من شأنها تجنيبهم حدوث أى من الملمات؛ والتخطيط لهذه المجابهة بشكل علمى وعملى فى مواجهة الأزمات؛ ذلك أن العقلية المصرية بوجه عام ليس لديها «الاستنارة القادرة على تعميق الفكر»، وإفساح الوقت للمخيلة أن تتوقع ما سيحدث تفصيلا؛ وفقاً لعدة سيناريوهات محتملة؛ كى تبادر عندما ترى كثبانا رملية متحركة أن تتجنبها قبل أن تغرق فيها، فالمصريون غالباً ما يتبعون «نظرية جحا» عندما لم يكترث للنار مادامت لم تطل بيته شخصياً، غير مدرك أنها مادامت طالت جاره فستطال داره حتماً.. ما لم يهم ليشارك فى إطفائها، وينطبق ذلك على الصفوة من المصريين.. ليس بمعنى الصفوة المثقفة وحسب.. ولكن حتى الصفوة الحاكمة التى يُفترض فيها الدهاء السياسى، والحنكة التى تستلزم التدبير المحكم.. وأقرب مثال على ذلك.. ولو زمنيا - وقوفها حيال إسقاط بغداد كإحدى أهم العواصم العربية موقف المتفرج.. مادام الأمر بعيدا عن رأسها، غير مقدرة لأنها أكلت بالفعل يوم أكل الثور الأبيض!!

وكلنا يعرف أن المصريين لا يُستنفَرون إلا فى أوقات الأزمات والشدائد.. لكنهم لم يتعودوا المشاركة بصفة دائمة، وقبل المشاركة كثيراً ما نجدهم غير مدركين فى الأصل أنهم بالفعل فى شدة حقيقية، أو أن الشدائد قادمة لا محالة.. فإدراكهم غالباً ما يتأخر كثيراً عن تقدير فداحة ما هو قادم عليهم.. أو ما هم مقدمون عليه.. حتى وهو على مرمى البصر.. بل وأحياناً وهو شبه ملموس ومحسوس لهم.. وإلا ما فشلت كل محاولات التوعية الإرشادية لإقناعهم مثلا بجدوى تنظيم النسل، ومخاطر زيادته.. رغم أنها بادية للعيان!! وملامح هذه الخطورة قد أصبحوا يعانون منها بالفعل؛ متمثلة فيما أحدثه الزحام فى الحياة المصرية من صعوبات ومعوقات فى فصول الدراسة، وفى الشوارع وفى المرور، وفى التزاحم فى المستشفيات والمحال، وفى كل مناحى الحياة.. حتى التى يُقصد بها الاستمتاع أو الترويح!!.. ناهيك عما أحدثته الزيادة السكانية من آثار مباشرة وقاسية على الأسرة المصرية فى أبسط حقوقها المعيشية المتعلقة بالقوت اليومى، أو الكساء أو الحق فى التعليم.. ومع ذلك لا يأبهون بما تحمله لهم الأيام من مزيد من المصاعب!!

لا بل هناك آفة أخرى لعلها ترتبط بعدم إدراك المصريين لمخاطر كثيرة تحيط بهم وتحاصرهم، ويتصدون لها بقدر كبير من التهاون و«الاتكالية».. ليس لما يتصفون به من تدين يصل أحياناً إلى حد الدروشة.. ولكن لأنهم أصلا شعب من أهم سماته الصبر و«الرضا بالقليل»، وبما هو يكفى بالكاد لسد الرمق أو حد البقاء؛ ذلك أن «طموح غالبيتهم أصبح شبه مقتول».. أو مقضياً عليه.. خاصة على المستوى الفردى، وخاصة بين الفئات الدنيا التى ترضى بالفتات والعيش بالكاد على حافة الفقر.. فلا يسعى أفرادها إلى تغيير واقعهم بكد وعمل وعلم.. وإنما يكتفى بعض الطامحين منهم بمجرد الحلم والعشم فى تحقيقه من قِبل ضربة حظ فى كثير من الأحوال، أو من قِبل العناية الإلهية التى تهب بغير حساب لمن تشاء فى أحوال أخرى.

وقد انسحب عدم الطموح الآن حتى على المتعلمين الذين أصبحوا يدركون - بما لا يدع مجالاً للشك لديهم - أنهم لم يتلقوا التعليم الذى يُمكنهم من المنافسة مع غيرهم على نفس المستوى والقدر، فأين نحن كمثال من الأوروبيين الذين يطمحون إلى العيش فى رفاهية؟ بل وأين نحن من الأمريكيين الذين يسعون من أجل تعميق الرفاهية، لتصير حياتهم هى الأفضل على مستوى العالم كله، فلا يكتفون بما فى أيديهم وما يملكون على المستوى الفردى أو على مستوى الدولة.. بل يبحثون بأساليب علمية مستحدثة عن مصادر أخرى للثروة، بين الصخور والطفلة ومياه البحر، ويبحثون عن أساليب تأمين الطاقة ولو أدى ذلك إلى التخطيط والتنفيذ لغزو العديد من الدول واحتلالها.. لا بل ويسعون للبحث عن هذه الثروات والطاقات على سطح القمر؛ متسلحين بالعلم وبالتكنولوجيا التطبيقية؛ كى يُفيد هذا العلم المجتمع، بينما نحن حتى الآن فى أول الطريق.. بل لعلنا لم نضع أقدامنا عليه بعد.. غير مدركين للتسارع واللهاث والصراع الدائر من حولنا لتحقيق حياة أفضل.. حتى ولو كان ذلك على حسابنا، وعلى حساب تقاعسنا عن التقدم.. ولو ببطء.

ومازلت أرى أن العقل المصرى أو العقلية المصرية تحتاج إلى المزيد من الفهم، وفى تصورى أن المعتقدات الشعبية المصرية مازالت تلعب دوراً لا يُستهان به فى تشكيل العقلية المصرية، وتحول كثيراً بينها وبين إمكانية «التفكير العلمى والمنهجى»، الذى يمكن أن يقودها حتماً إلى التطور نحو الأفضل؛ لتبارى غيرها من الأمم.. ولا أقصد هنا بالطبع الأمم المحسوبة على القوى العظمى.. ولكن الدول النامية المحيطة بنا، والتى بدأت معنا مرحلة النمو، وتخطتنا بمراحل شاسعة، والتى نجد أنفسنا دائماً نقارن بيننا وبينها.

تصورات الإصلاح

قد يتساءل البعض: وما هو طريق الخلاص الممكن، أو الذى يمكن أن يساهم فيه كل فرد، كى تبدأ رحلة الألف ميل نحو التقدم، وليكن ذلك بتعريف الناس بأول خطوة فقط، إلى أن يتم التخطيط لخطوات تالية.. إذا قُدِّر لهذه الأمة أن تعود لوضع خطط واستراتيجيات ممتدة؛ بهدف النهوض بنمط الحياة والبشر، وفى ذلك يقول دكتور إسماعيل سراج الدين إن: «التطور لا يتم إلا بتطوير البشر، وبالتعليم، والعلم والبحث العلمى، والعمل الدءوب، والانضباط، وبالتخلى عن المنطق الموروث بأن الحكومة يمكن أن تحل لنا كل المشاكل.. فالنمو بالناس.. وليس بالمال والاقتصاد.. ولكن بتطوير الذهنية».



الباحث العلمى المصرى وراءه خلفيات راسخة متغلغلة فى نفسه، ولها أثرها عليه بعمق وباتساع جغرافى يمتد من أسوان إلى الإسكندرية، وأهم هذه المعتقدات ما يتعلق بالدين، الذى يُعد عنصراً حاكما فينا

وبالطبع أتفق معه تماما فى كل ما ذهب إليه، وأرى أيضا أن الإصلاح لن يأتى بقرار علوى.. ولكن يمكن أن يأتى من الإصلاح الذاتى؛ بأن يبدأ كل منا بنفسه، وبمن حوله فى إطار حملات إعلامية للتوعية فى كل منحى، وبأشكال متعددة ومبتكرة مباشرة وغير مباشرة، ومن محصلة النجاحات الفردية المبنية على الجدية والعلمية، يمكن أن يحدث تطور ملحوظ فى القوى البشرية، وفى نمط الحياة.. ولكن يظل هناك دور مهم للدولة؛ أن تنسق بين هذه النجاحات الفردية وتوجهها وتحتفى بها؛ لتستمر فى العطاء، وكى يتمثل بها آخرون.. كما يتمثلون أنفسهم فى أبطال الكرة الذين تحتفى بهم الدولة، والأهم كى نعود إلى تحديد الأدوار وتوزيعها بين الأفراد والدولة، وحتى يتم عزف لحن متناغم لا نشاز فيه، وحتى لا يستنكف الناجحون من المصريين من انتسابهم لمجتمع متخلف لا يقدر قيمة العلم والعمل الجاد، فينسلخون منه بالتقوقع والدروشة، أو بالهروب والهجرة، أو بالسخط المدمر على كل شىء.. وكلنا يعرف نتائج تولد السخط بين أفراد أمة، وكيف تكون فى أحيان كثيرة نتائج غير محسوبة، وعواقبها وخيمة على الجميع.

هذا وفى إطار تصورات الصفوة المثقفة لمحاولات الإصلاح يخلص الدكتور محمد رءوف حامد فى العديد من كتبه عن «إدارة العولمة» و«القفز فوق العولمة» إلى ضرورة الأخذ بخصوصية أن المصريين يحبون أن يتعلموا، ثم اختيار الرؤية المناسبة لنوعية التعليم المناسب لهم ولمطامح اللحاق بركب العالم المتقدم، فالشعب المصرى لابد أن يتعلم؛ كى يحدث مزيداً من الإبداع، ومصر فى نظره تتميز بخصوصية يمكن أن تساعدها كمنقذ لها من براثن التخلف عن ركب الحضارة والمدنية، خاصة مع اتساع رؤية الشباب المصرى الآن فى ظل عصر العولمة.

وقد تدعونا مثل هذه الأقوال وغيرها مما يصدر عن الصفوة المثقفة من المصريين إلى قدر من التفاؤل حول إمكانية النهوض بهذه الأمة، ومحاولة تغيير واقعها إلى الأفضل.. ليس بتفاؤل البلهاء.. ولكن بتفاؤل محسوب بدقة إذا ما عقدنا العزم على اللحاق بركب التقدم، والتخطيط العلمى لتحقيق هذا الهدف. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الرقابة والتعتيم فى الإعلام الأمريكى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨ ، ٣١١صفحة



ثمة تصور شائع تروج له أجهزة الإعلام والدعاية الأمريكية عن شفافية الإعلام الأمريكى وحريته المطلقة وديمقراطيته فى التعامل مع كل القضايا مهما كانت حساسيتها. هذا الكتاب يكشف كذب هذه الادعاءات من خلال أهم ٢٥ قصة إخبارية تجاهلتها الصحافة الأمريكية أو تعاملت معها بقدر معتبر من التجاهل المتعمد، كما يشير هذا التقرير (مشروع مراقب ٢٠٠٧) إلى الكيفية التى يتم بها إعطاء أولويات لقصص إخبارية أقل أهمية من نوع زواج إنجلينا جولى وبراديبت أو العروس الهاربة أو جولات بريتنى سبيرز الغنائية، فيما يتم إخفاء القصص الأكثر أهمية مثل التعذيب الممنهج فى معتقلات جوانتانامو وسحق الفلسطينيين بواسطة الآلة العسكرية الإسرائيلية أو المخالفات الجسيمة التى يرتكبها جماعة المحافظين الجدد المحيطين بالرئيس بوش لتحقيق مصالح خاصة، ضاربين عرض الحائط بقواعد القانون الدولى، وحتى بالقرارات التى يصدرها الكونجرس والتى مهدوا هم بأنفسهم لصدورها، مثل الدور الذى لعبه نائب الرئيس بوش ديك تشينى من خلال شركة «هاليبرتون» التى عمل مديرًا تنفيذيًا لها فى بيع تكنولوجيا نووية لإيران جعلتها قريبة جدًا من إمكانية صنع قنبلة نووية، برغم قرارات الكونجرس بحظر التعامل التجارى مع إيران وليبيا والعراق باعتبارهم «محور الشر»، ويشير التقرير إلى المكاسب الكبيرة التى حققها تشينى من هذه العملية، والتى تجاوزت ٣٠٠٠٪.

قصة من هذا النوع لا يجدها القارئ الأمريكى فى إعلامه المقروء أو المسموع أو المرئى، وإذا ظهرت فبطريقة مشوشة ولفترة محدودة ودون إلقاء اللوم مباشرة على نائب الرئيس.

قضايا أخرى عديدة، مثل المبيدات المستخدمة فى الزراعة والتى تؤدى إلى الإصابة بالعديد من الأمراض، أو تبوير عشرات الآلاف من الأراضى الصالحة للزراعة فى أمريكا الوسطى والجنوبية وتهجير السكان العائشين حولها لاستخراج الذهب أو الاستيلاء على مصادر للمياه العذبة، أو حرق الغابات للاستيلاء على أخشاب الماهوجنى التى تحتاجها المصانع، أو الاستمرار فى زيادة نسبة الكربون والملوثات فى الجو ومخالفة كافة الشروط البيئية بما يهدد الكون كله بالفناء.

هذه القضايا المهمة كلها لا تجد لها صدى مناسبًا فى الإعلام الأمريكى، وتستحوذ قصص «أخبار الوجبات السريعة» كما يسميها التقرير على الاهتمام الأكبر، فإعلام أمريكا تحركه الشركات الكبرى من وراء ستار.

■

مائتا عام على الحملة الفرنسية

تحرير: ناصر أحمد إبراهيم

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨، ٧٠٦ صفحات



الشىء اللافت فى هذا الكتاب، أن نحو ٦٠٪ من الباحثين المشاركين فيه (١٢ باحثًا من ٢٠ باحثًا) هم من المتخصصين فى اللغة والأدب الفرنسى، وربما تكشف عناوين البحوث سر هذه الغلبة لأساتذة اللغة: دراسة لغوية لسبعة منشورات صادرة باللغتين الفرنسية والعربية، قراءة نقدية لترجمة كاردان لحوليات الجبرتى ونيقولا الترك حول الحملة الفرنسية، لوحات الدولة الحديثة فى كتاب وصف مصر، دراسة تحليلية لمناهج مادة التاريخ فى المرحلة الإعدادية (مصر)، نموذج الكتب المدرسية فى المرحلة الابتدائية (فرنسا)، صورة نابليون من الدعاية إلى الأسطورة.. وهكذا.

وترد أبحاث الكتاب بشكل عام على فكرة روجت لها بحوث فرنسية نشرت فى مناسبة الاحتفال بمرور مائتى عام على الحملة الفرنسية عام ١٩٩٨، وركزت فى معظمها على الدور الحضارى للحملة التى نقلت الحضارة الغربية إلى الشرق الإسلامى المتخلف، أما بحوث الكتاب فهى على النقيض تعيد تقييم هذا الحدث المهم ووضع ما ترتب عليه من آثار سياسية وثقافية على مصر والمشرق العربى فى حجمها الصحيح، حيث أبرزت الصفة الاستعمارية للحملة ضمن سياق أشمل هو المشروع الاستعمارى الأوروبى، كما بينت البحوث ما لقيته الحملة من مقاومة فى مختلف أنحاء مصر، وكذلك مغزى النظم الإدارية التى أدخلتها الحملة مثل الدواوين، والتى استهدفت استقطاب النخبة لدعم سياساته، كما أشارت إلى الدلالة السياسية للحملة التى أظهرت عجز السلطة العثمانية عن حماية التراب الوطنى من العدوان الأجنبى، وإحساس المصريين بضرورة مشاركتهم فى الحكم.

وتشير دراسات الكتاب إلى إشكالية على جانب كبير من الأهمية، هى أن ما كتب عن الحملة الفرنسية فى مصر خلال القرن الماضى، استند أساسًا إلى المراجع التاريخية المحلية الفقيرة، وإلى الكتابات التى أنتجها فرنسيون وتحمل بالضرورة وجهة نظر فرنسية، وهى المسئولة عن شيوع فكرة الدور التنويرى والحضارى للحملة ليس على مصر فحسب، وإنما على الشرق الإسلامى كله.

■

أشهر المفتين من الصحابة والتابعين

متولى الجرجاوى

القاهرة: دار الملتقى للنشر، ٢٠٠٨



تضم هذه السلسلة ستة أجزاء عن الأشهر فى المسائل الدينية: أشهر من شرعوا، أشهر من مارسوا الإفتاء، أشهر القضاة، أشهر رواة الحديث، أشهر من دونوا الحديث، أشهر الخطباء.

وفى موضوع الإفتاء مثلاً، فإنها تقتحم مجالاً تجرأ كثيرون عليه بعلم وبغير علم، لهاثًا خلف إغراءات الفضائيات ومتطلباتها لمزيد من الإثارة والاجتراء واقتحام أكثر المسائل إشكالية وغموضًا وربما لا جدوى، ومن ثم شاع الحديث عن إرضاع الكبير والقبلة الحلال وتقديم القدم اليمنى على اليسرى عند دخول الحمام وغيرها من الموضوعات التى تبعد المسلمين عن واقعهم المتدنى وتلهيهم عن مناقشة القضايا الحقيقية.

ويقدم المؤلف تعريفًا للفتوى وشروطها وما يجب توافره فيمن يتصدى للإفتاء، والمصادر التى يستقى منها من يتصدى للفتوى فتاواه، ثم يعرض لأسباب الاختلاف فى الفتوى. ثم يعرض للمسيرة الشخصية والعلمية للفقهاء وأئمة المذاهب الأربعة: أبو حنيفة ومالك وابن حنبل والشافعى، كما يعرض للمذاهب الشيعية وشيوع التعصبات المذهبية، قبل أن يتناول أشهر من تصدوا للإفتاء بادئًا بالأشهر من بين المهاجرين ومنهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب. ومن الأنصار معاذ ابن جبل وزيد بن ثابت وأبى بن كعب، وتتوالى الأسماء: السيدة عائشة رضى الله عنها، عبدالله بن عمر، أبو هريرة، عروة ابن الزبير، الإمام زين العابدين وغيرهم، ثم يعرض لأشهر المفتين من أهل مكة والكوفة والمدينة والبصرة واليمن، وكذلك أشهر المفتين من أهل الشام، عارضًا لسيرتهم العلمية ومن تتلمذوا على أياديهم وأشهر الموضوعات التى تصدوا لها.

■

الخوف والمتاهة

نبيل عبدالفتاح

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٨ ، ٥١٧صفحة



يبدو عالم ما بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وكأنه انبثاق لافح لحياة إنسانية مغايرة فوق الكوكب الأرضى، كل شىء مختلف، العلاقات الدولية، المصالح الاقتصادية، مفاهيم الأمن القومى، مفاهيم التعاون والجوار، احتياجات الردع ومخاوف الاحتواء ودلالات الدولة القومية والهوية الوطنية.. إلخ.

هذا الكتاب يسبح فى هذا العالم، مع التركيز على الحالة المصرية التى تتنازعها رؤى العولمة والديمقراطية والإسلام السياسى، ومن ثم يتولد عنف من نوع خاص، ليس جنائيًا ولا سياسيًا ولا خارجًا من أصلاب التفاعلات الاجتماعية والسياسية والوظيفية، إنما من رحم نصوص ذات طبيعة مقدسة، عنف مقدس، تمارسه الجماعات فى مواجهة بعضها البعض لحسم خلافاتها ولتحقيق مآربها، وتمارسه دول كبرى لإخضاع أعدائها من الجماعات والأفراد والنظم.

ثمانية عشر فصلاً موضوعها هو الصراع على روح مصر والمصريين بين الدولة والمتأسلمين والمؤسسات الدينية الرسمية والجماعات الإسلامية الراديكالية والتيارات المعولمة داخل مصر وخارجها.

ـ الرابط الأساسى بين عشرات الدراسات والمقالات التى يضمها الكتاب هو فكرة الخوف والكراهية المعولمة، التى اجتاحت العالم بعد الحادى عشر من سبتمبر، إذ تراكمت مشاعر من الخوف المتبادل بين أبناء الأديان والثقافات، المسيحية واليهودية من جهة، والإسلامية

من جهة ثانية، وهو ما دعا إلى استدعاء الصور والمدركات السلبية عن الإسلام والمسلمين، وابتعثت من جديد ذكرى الحروب الصليبية ومفاهيم الجهاد وأهل الذمة ودار السلام ودار الحرب، واختلفت الرؤى ـ اتساقًا مع هذه النظرة غير الموضوعية ـ حول حروب التحرير من أجل نيل الاستقلال واستعادة الحقوق المشروعة كما هو الحال في فلسطين والعراق، فصار المطالبون بها من وجهة نظر غربية إرهابيين وقتلة. الإرهاب المعولم ليس هو السبب الوحيد لإشاعة الخوف حول العالم، هناك السياسات الاقتصادية غير العادلة، والخصخصة بصيغتها العشوائية في عديد من دول العالم الثالث والتي وسعت الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وبالتطبيق على الحالة المصرية فإن أسبابًا عديدة للخوف والشعور بعدم الأمان في المستقبل تبدو جلية، إذ تشيع حالة الجمود السياسي وغياب فكرة تداول السلطة والمشاركة أجواء قاتمة بين الجموع، تضاف إلى اتساع مساحات الفقر والفقراء وترهل الإدارة وتنامي الفساد ومحاولات سلب روح المصريين بين سندان السلطة ومطرقة جماعات الإسلام السياسي.

■

نظرات في العلاقات الدولية

السيد أمين شلبي

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٨ ، ٢٨٤صفحة



أربعة محاور أساسية يضمها الكتاب: قضايا الشرق الأوسط، قضايا أمريكية، قضايا دولية، قضايا مصرية، وجميعها يشتبك مع موضوعات آنية أو كانت كذلك حين الكتابة عنها مثل الأزمة النووية الإيرانية، حرب لبنان، الحرب على العراق، صراعات الشرق الأوسط، أمريكا والصين، استراتيجية الأمن القومي الأمريكي، قمة الناتو، مصادر الإرهاب الدولي، مستقبل الأمم المتحدة، تحديات السياسة الخارجية المصرية، العلاقات المصرية الأمريكية.. وهكذا.

والمؤلف دبلوماسي مصري عمل في عديد من عواصم العالم شرقًا وغربيًا: براج، بلجراد، موسكو، لاجوس، واشنطن، النرويج، ومديرًا لإدارة التخطيط السياسي في وزارة الخارجية المصرية في الفترة من ١٩٩٤ ـ ١٩٩٦.

في شأن الشرق الأوسط مثلاً يتساءل المؤلف عن حدود الارتباط بين قضايا الشرق الأوسط على اتساعه، ويشير إلى الطبيعة التبادلية بين قضايا المنطقة وصراعاتها بحيث يصعب تناول قضية بمعزل عن الأخرى، وتبدو فيها مشكلات الشرق الأوسط حزمة واحدة من المعضلات ترتكن إحداها على الأخرى، وهو بهذا يرد على ما ذهب إليه الباحث الأمريكي روبرت ساتلوف المدير التنفيذي لمعهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى، والذي لا يرى ترابطًا بين قضايا المنطقة، وينصح إدارة بوش بأن تحل كل مشكلة منها على حدة، فيما يرى المؤلف أن العمل بهذه النصيحة لا يخدم الهدف الأوسع لتحقيق استقرار في المنطقة.

وفي الشأن الأمريكي يشير إلى الجدل الدائر بين مدرستين في الولايات المتحدة الأمريكية، تدعو إحداهما إلى احتواء الصين وتنظر إليها كمنافس محتمل، فيما تدعو الثانية إلى تغليب إمكانيات التعاون على احتمالات التنافس، ويتساءل عن الاتجاه الذي ستسلكه الصين، ويجيب بأنها ستختار التعاون بما لا يتعارض مع اختياراتها وقضاياها الحيوية، وهو ما يفسر دبلوماسيتها الناعمة في التعامل مع العديد من القضايا، خصوصًا تلك التي تتماس فيها مع الولايات المتحدة.

ويطرح المؤلف في الشأن المصري سؤالاً صعبًا: هل تراجع دور السياسة الخارجية المصرية؟ وبعد استعراض سريع للبيئة الإقليمية والدولية منذ العهد الناصري حتى اليوم، ينتهي إلى القول بأن القائلين بتراجع الدور المصري يتجاهلون التطورات الهائلة التي حدثت في بنية النظام الدولي خلال العشرين عامًا الماضية، فضلاً عن التطورات في البيئة الإقليمية، وهو ما يتطلب صياغة دور مصري يرتكز أساسًا على التعبئة والتنسيق مع الأدوار الدولية والقوى الإقليمية، ويؤكد على احتياج السياسة الخارجية المصرية إلى شيء من الخيال والإبداع، كي لا تبقى خطواتها مجرد ردود أفعال لما يجري حولها.

■

الحركات الاجتماعية الجديدة

فريد زهران

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٨ ، ٦٥ صفحة



تثير الإضرابات والاعتصامات والمطالبات الفئوية والنقابية عالية الصوت في مصر مؤخرًا تساؤلات مشروعة عن الحركات الاجتماعية الجديدة، وهل هناك فعلاً حركات اجتماعية جديدة في مصر، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون وهمًا، وهل تتشابه هذه الحركات ـ في حالة وجودها ـ مع نظائرها في أوروبا وأمريكا اللاتينية، وهل قدمت هذه الحركات جديدًا للحياة السياسية المصرية؟

هذه الأسئلة هي ما يبحث المؤلف عن إجابات لها، وهو يبدأ باستعراض تاريخي للمصطلح، فيشير إلى أن مصطلح الحركات الاجتماعية الجديدة بدأ في أوروبا عقب حركة الشباب والطلبة في عام ٦٨، وبعدها انتقلت الظاهرة إلى بلدان العالم الثالث، وقد طرحت هذه الحركة مطالب جديدة لم يستطع أحد أن يصنفها ضمن اليسار أو اليمين، وبرغم أن أصحابها بقوا في معظمهم بعيدين عن تلك التيارات، إلا أن انخراطهم في السياسة زادت وطأته من مواقع مستقلة.

ويلاحظ المؤلف أن هذه الحركات في مجتمعات مثل أمريكا اللاتينية مثلاً عبرت عن نفسها خارج الأطر النقابية والمهنية التي يفترض أن تضمها، وهو يرى أنها تتبنى مطالب اجتماعية اقتصادية تندرج في مجموعتين، الأولى تتبنى مطالب اقتصادية أو مهنية لفئات اجتماعية جديدة، بعضها لم يعرف طريقه إلى التنظيم النقابي أو الاجتماعي من قبل، والثانية تتبنى مطالب اقتصادية ومهنية لمجموعات سكانية لا تندرج ضمن إطار فئة اجتماعية واحدة من حيث التقسيم الاجتماعي للعمل.

ويلاحظ المؤلف أن الحركات الاجتماعية في مصر تتميز بمرونة وحماس وسرعة في اتخاذ القرار، فضلاً عن أنها حركات غير أيديولوجية، كما يلاحظ أن معظم هذه الحركات عمل في المجال السياسي، والقليل منها عمل في المجال الاقتصادي الاجتماعي، ولم تظهر حركات اجتماعية واعدة في صفوف المهمشين برغم اتساع دوائر هذه الفئات في مصر. ويؤكد المؤلف على أن هذه الحركات الاجتماعية الجديدة حملت عبء قيادة دعوات الإصلاح والتغيير، ويرى أن انتعاش هذه الحركات سيؤدي إلى انتعاش الأحزاب، كما أن الأحزاب يمكنها أن تستوعب في إطارها الأوسع هذه الحركات.

■

من أوراق العمر

صباح قباني

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٧ ، ٢٧٣ صفحة



كان والد الإعلامي الأديب صباح قباني أحد الذين لحقوا بأبي خليل القباني (الجد) مؤسس المسرح الغنائي العربي في الشام ومصر، وكانت مصر آنذاك واحة من الليبرالية، تفتح ذراعيها لكل موهبة عربية فنية أو أدبية، لكن الأب الذي كان عمره آنذاك خمسة عشر عامًا، كان متيمًا بالإسكندرية وبصناعة الحلويات والملبس والشيكولاتة، تعلمها في الإسكندرية، وحين عاد إلى دمشق أسس مصنعًا للحلويات التي اشتهرت بها الإسكندرية، معمل الحلوى في دمشق يحتل الفصل الأول من الكتاب، بعده وتحت عنوان «بيتنا» يتحدث المؤلف عن هذا البيت العتيق في حي مئذنة الشحم في دمشق القديمة، أبوابه وشرفاته وشجيراته ثم قاطنيه، وخصوصًا الأم أم معتز، كما عرفت بين الأقارب والجيران، ثم زوار هذا البيت من الأناس العاديين، ثم أيضًا من السياسيين الكبار والأدباء النابهين، ويحكي المؤلف نتفًا من نضال الأب السياسي على مدى ربع قرن، ثم دوره بعد حصول سورية على الاستقلال في ١٩٤٦، ثم فصلاً آخر عن المدرسة حتى الحصول على البكالوريا الثانية قسم الفلسفة عام ١٩٤٦، وولعه بالفنون في عمومها، وتسجيله لدراسة الطب ثم الحقوق وانشغاله بالفنون والآداب من خلال الجمعية السورية للفنون بدمشق، ثم عمله هاويًا في الإذاعة ثم محترفًا بعد ذلك، وسفره إلى باريس للحصول على الدكتوراة من السوربون، ثم عودته للعمل في الإذاعة والتليفزيون السوري والذي يعد هو رائدًا من رواده، وكان مديرًا له في العام ١٩٦٠، أي منذ بدايات البث، ثم عمله في السلك الدبلوماسي في النصف الثاني من القرن العشرين، متنقلاً بين نيويورك وواشنطن وعواصم عربية وأجنبية عديدة.

محطات عديدة تتعرف خلالها على صاحب السيرة الرائد الإعلامي والأديب والدبلوماسي الذي شهدت مسيرته انعطافات مهمة في الواقع العربي.

■

صناعة الكتاب في سورية

محمد كامل الخطيب

دمشق: منشورات ٢١ ـ ١١٤صفحة



بعض الأرقام في السطور الأولى من الكتاب تصيبك بدهشة وصدمة حقيقية، منها مثلاً أن مبيعات دور النشر الفرنسية في عام ٢٠٠٤ بلغت مليارين ونصف المليار يورو، وأن عدد النسخ المباعة بلغ ٤٥٥ مليون نسخة، كما بلغ عدد العناوين المنشورة ٦١ ألف عنوان.

طبعًا لا يمكن الحصول على بيانات إحصائية دقيقة عن سوق القراءة في أي بلد عربي، ولكن المؤكد أن سوق القراءة في

كتـــاب الــزاويــة

القدس الجنة

محمود درويش

دخلتها مختبئًا بالشجاعة، خائفًا من الشجاعة.

حدث مرة واحدة فى حياتى أن رأيت التاريخ مدججًا بكل هذه الأسلحة وأغصان الزيتون الشرسة. لم يحدث أن تحول إنسان إلى صخرة ولم يحدث أيضًا أن تحولت صخرة إلى جندى.

حدث ذلك فى القدس. وكنت أنا الصخرة والإنسان والجندى.

ومنذ الآن.. منذ هذه اللحظة صارت الجنة أقرب. سأستبدل القدس بالجنة، لأنها ليست جميلة وذليلة إلى هذا الحد. ولأنها وعد لم يظهر خيانته.

من علمنى هذا الصمت؟ ومن علم القدس مرافقة هذا المساء الذى لا ينتهى؟

من علمنى كل هذه الشجاعة؟ ومن علم القدس كل هذه السخرية؟

لا. ليس الوطن انتماء الظل إلى الشجرة، ولا انتماء النصل إلى الغمد، كلا ليس الوطن علاقة قربى ودم. ليس الوطن دينًا، ولا إلهًا.

الوطن هو هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب الذى يفترسك فى القدس.

ومن هنا، تصبح الجنة أقرب.

كل البلاد العربية لا تبلغ مبيعات الكتب فيه عدة عشرات من الآلاف. وأن مبيعاته - بالتأكيد - لا تقارن بمبيعات سوق النشر الفرنسى، على الرغم من أن سوق القراءة العربى يضم نحو ٣٠٠ مليون نسمة، أى ستة أضعاف السوق الفرنسية.

وبالتركيز على سورية، يشير المؤلف إلى أن عدد سكانها يبلغون ١٨ مليون نسمة، أغلبهم من القادرين على القراءة، ويشير المؤلف إلى اعتماد الكاتب والقارئ السوريين على دور النشر المصرية واللبنانية، مع العلم أن هناك كتبًا تنشر فى دمشق وحلب منذ منتصف القرن التاسع عشر، إذ نشر فى دمشق فى الفترة من ١٨٥٦ - ١٩١٥ حوالى ١٨٤ كتابًا، ونشر فى حلب فى الفترة ذاتها نحو ٥٥ كتابًا، ويذكر بأنه فى العام ١٧٢٧ صدرت فتوى بإباحة الطباعة فى الممالك العثمانية التى كانت سورية جزءًا منها، وكانت قبل ذلك محظورة، وكانت أغلب الكتب المنشورة فى تلك الفترة دينية أو تجارية، ويشير إلى الجماعة التى تألفت ١٩٣٤ تحت مسمى المكتب القومى للدعاية والنشر، والتى نشرت عددًا كبيرًا من الكتب آنذاك.

ثم بدأت محاولات تكوين دور النشر فى سورية فى ثلاثينيات القرن العشرين. ويشير المؤلف إلى نحو أربع دور نشر مهمة تحمل الآن أعباء صناعة الكتاب فى سورية، ويقول إن عدد دور النشر المسجلة رسميًا حوالى ٤٠٠ دار، لكن أغلبها محدود النشاط، وتطبع دار النشر السورية فى حدود ١٠٠٠ نسخة من الكتاب فى مطابع يتم استئجارها، وهناك مكتبات متخصصة فى إعادة طبع الكتب الدينية والتراثية الإسلامية ومنها دار قتيبة ودار القلم ومكتبة الفارابى وابن كثير.

ويعانى وضع الكتاب فى سورية كما فى كل البلاد العربية أزمة حادة تتعلق بارتفاع التكاليف فى مواجهة ضعف القوة الشرائية للجمهور العربى، وفيما يخص سورية، فالدولة هى الناشر الأكبر للكتاب، وقطاع النشر فى أغلبه دينى وتراثى، كما أن شبكة التوزيع محدودة للغاية، وأغلب دور النشر هى فى حقيقتها مكتبات لبيع الكتب تحولت إلى دور نشر.

■

فى ضوء القمر

محمد الجوادى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ٣٢٦صفحة



يقدم هذا الكتاب قراءة فى مذكرات عدد من رجال العمل الوطنى الفدائى السرى، وقد كان هذا النوع من العمل هو الذى أقض مضاجع المحتل الإنجليزى وجعل وجودهم فى مصر عبئًا باهظ التكلفة.

ويؤرخ المؤلف لبدايات هذا النوع من التنظيمات باغتيال رئيس الوزراء بطرس غالى فى فبراير ١٩١٠، وكان آخر أعماله هو اغتيال السيرلى ستاك سردار الجيش الإنجليزى فى نوفمبر ١٩٢١، وخلال خمسة عشر عامًا، هى عمر هذا التنظيم السرى، نجح هذا التنظيم فى تحقيق إنجازات كبرى.

يقرأ المؤلف تاريخ هذا التنظيم من خلال مذكرات ثلاثة من أبطاله: عبدالعزيز على وعبدالفتاح عنايت وأحمد رمضان زيان، ويعد المؤلف كتابه هذا بداية أو كتابًا أول قد يتلوه آخر عن مذكرات رجال العمل الوطنى السرى المنتمين إلى الوفد المصرى، إذ يلاحظ أن هناك تداخلاً كبيرًا بين كثير من الأحداث التى تناولها الفدائيون الثلاثة المنتمون إلى الحزب الوطنى، وإن كان هناك اختلافات فى الرؤية بين الطرفين، وإن لم يغير ذلك من الحقائق الكبرى المتعلقة بجوهر النشاط الفدائى والعمل السرى.

ويتبع المؤلف طريقة جديدة ولافتة فى عرضه للمذكرات، فهو يعرض تلخيصًا للأبواب الثلاثة التى يتحدث فى كل واحد منها عن واحد من هؤلاء الأبطال. وهو يسمى عبدالعزيز على مثلاً الثائر الصامت، والملخص الذى يقدمه المؤلف يشبه الملاحظات التى يسجلها القارئ على هوامش كتاب يعجبه، نقرأ مثلاً عبارات متجاورة من هذا النوع: يجيد تحليل العوامل التى أدت إلى تفوقه الدراسى وفى ممارسة الحياتين العامة والسياسية فيما بعد، يتحدث عن فضل أستاذه أحمد عبدالوهاب فى إلحاقه بالعمل فى بنك مصر، يحدثنا عن استقالته من البنك بسبب تخوف طلعت حرب غير المباشر من نشاطه الفدائى ومحاولة حمايته وحماية البنك من متابعة البوليس، لا نراه متيمًا بالحديث عن إنجازاته كوزير أو كمدير أو كموظف صغير، إنما هو رجل مجد مجيد يبذل كل جهده من أجل النجاح والتفوق وحسب، يتحدث عن بعض العوامل المبكرة التى كانت سببًا فى نمو عقيدة الحزب الوطنى فى نفسه، يشير بكل وضوح إلى علاقة هذه التنظيمات السرية الفدائية بالحزب الوطنى، يروى لنا كيف أخذ مسئولو جمعية التضامن الأخوى البيعة منه، فنرى إرهاصًا شديد الشبه ببيعة الإخوان المسلمين التى اشتهر أمرها بعد ذلك، وهى البيعة التى دلتنا على أنها كانت تشى ببعض الظلال الماسونية فى فكر العمل السرى.

بهذه الطريقة يمكن أن نقرأ الملخصات، وننتقل منها إلى الأبواب الثلاثة إن شئت أو تكتفى بها.

■

على باشا ابراهيم

تحرير: خالد عزب وسوزان عابد
الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٨،
٣٠٢ صفحة (٣ أعمدة)



رائد النهضة الطبية فى مصر الحديثة. ولد الدكتور على باشا ابراهيم فى الإسكندرية فى ١٠ أكتوبر من عام ١٨٨٠، كان والده ابراهيم عطا فلاحا من إحدى قرى مدينة مطوبس التى تتبع محافظة كفر الشيخ حاليا وكانت آنذاك تتبع محافظة الغربية، أما الأم فهى البطل الحقيقى فى مسيرة هذه الشخصية الفذة، اسمها مبروكة خفاجى، فلاحة من مطوبس، طلّقها زوجها ابراهيم بعد شهور قليلة من الزواج فرحلت إلى الإسكندرية وهناك وضعت ابنها على.

اضطرت الأم تحت ضغط الحاجة لأن تعمل «قابلة»، وكان هاجسها المؤرق هو كيف توفر لابنها فرصة التعليم كى يتجنب ما لاقته هى وتلاقيه فى حياتها، وكان الطفل الصغير موضع اعجاب مدرسيه بمدرسة رأس التين الابتدائية وحصد جوائز عديدة فى سنى حياته المبكرة وهو ما طمأن الأم على حسن اختيارها.

كان ترتيب «على» الأول على مدرسته فى الشهادة الابتدائية التى حصل عليها عام ١٨٩٢، وأراد الأب حينذاك أن يضمه إلى حضانته فراوغت الأم خشية أن يتوقف مسار ابنها التعليمى عند هذا الحد، خصوصا أن الحصول على الشهادة الابتدائية فى ذلك الوقت كان يضمن لصاحبها وظيفة محترمة.

منحت الأم ابنها كل ماليديها من نقود، وهربته عبر أسطح الجيران قاصدا أسرة السمالوطى بالإسكندرية وهى إحدى الأسر الكبيرة التى كانت لها فروع فى القاهرة، وفى فجر اليوم التالى كان «على» يقصد محطة القطار إلى القاهرة حيث تولته هناك أسرة السمالوطى بالرعاية، فالتحق بالقسم الداخلى فى المدرسة الخديوية بدرب الجماميز ليستكمل دراسته الثانوية وينال شهادة البكالوريا بتفوق فى عام ١٨٩٧ ويلتحق بمدرسة الطب بالقصر العينى ويتخرج منها عام ١٩٠١، وكان طالب الطب يتلقى آنذاك ثلاثة جنيهات شهريا تشجيعا له على مواصلة الدراسة، وعرفانا من «على» بفضل والدته، اعتاد أن يرسل الجنيهات الثلاثة إليها، أما هو فقد كان يتعيش بما يحصله من قراءته للقرآن على المقابر فى أيام الجمع.

أظهر على ابراهيم نبوغا واضحا أثناء الدراسة، ولم يكن يكتفى بالمناهج الدراسية فأقبل على قراءة المجلات العلمية الطبية المتخصصة وكان بعضها باللغة الإنجليزية.

بعد التخرج جاءت الخطوة الأولى فى الحياة العملية مخيبة لآماله، إذ افتتح بالتعاون مع صديقه الدكتور عبد المجيد محمود عيادة فى إحدى المناطق الشعبية لكنهما اضطرا إلى إغلاقها بعد شهور قلائل لأن الإقبال آنذاك كان على الأطباء الأجانب فقط، بعدها اتجه على ابراهيم للعمل فى مصلحة الصحة، وتصادف أن وقعت حادثتان كشفتا عن نبوغه اللافت فى مجال تشخيص الأمراض، إذ ظهر وباء جديد فى قرية بوشا بالقرب من مدينة أسيوط احتار فى وصفه الأطباء وانتدب على ابراهيم إلى هناك، حيث شخّص المرض باعتباره كوليرا آسيوية.

تعددت بعد ذلك إنجازات على إبراهيم الطبية، وكانت أولى العمليات الجراحية التى أجراها عملية استئصال كلية، وهى عملية كبيرة فى ذلك الوقت إذا وضعنا فى الاعتبار تخلف التجهيزات الطبية التى تحتاجها عملية من هذا النوع، ثم أجرى عملية تفتيت حصوة فى المثانة دون جراحة كبيرة وكان ذلك أيضا أسلوبا غير معتاد فى مثل هذا النوع من العمليات، وانطلقت شهرة على إبراهيم فى القطر المصرى وانتقل هو من نجاح إلى آخر، إلا أن الخطوة الكبرى فى مسيرته كانت نجاحه فى علاج السلطان حسين كامل من مرض عضال ألمّ به وفشل فى علاجه الأطباء الأجانب فأشار مستشارو السلطان عليه بالطبيب المصرى على إبراهيم الذى أجرى له عملية جراحية ناجحة أنعم بعدها السلطان عليه بلقب جراح استشارى الحضرة العلية السلطانية.

انتخب بعد ذلك على إبراهيم لعضوية مجلس النواب، واختير عميدا لكلية الطب عام ١٩٢٩ وكان أول عميد مصرى لها، وفى عهده تطورت المستشفى تطورا كبيرا واتسعت مساحته وأقسامه، وزادت البعثات العلمية الموفدة منه إلى الخارج، وفتح الباب لدراسة الفتيات للطب، وفى وزارة حسن صبرى (يونيو ١٩٤٠) عيّن على إبراهيم وزيرا للصحة، وحين خرج من الوزارة عيّن مديرا لجامعة فؤاد الأول فى سبتمبر ١٩٤١، وتعددت أياديه البيضاء على الطب فى مصر والعالم العربى، فأسس نقابة الأطباء والجمعية الطبية المصرية وأسهم فى تأسيس جامعة الإسكندرية ومستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية وجمعيات أخرى لتنمية الريف وإنقاذ الطفولة المشردة.

هذه نظرة طائر على مسيرة واحد من رجالات مصر الكبار فى بدايات القرن الماضى، يضمها مجلد فخم وتشتمل أيضا على صور نادرة ووثائق تنشر للمرة الأولى، يكشف بعضها عن أن صاحبها لم يكن فحسب رائدا فى مجاله، إنما كان علما فى الآثار والفنون الإسلامية.

كتـــاب الـزاويـــة

تريد أن تزور أمك فى العيد؟

محمود درويش

من شهور طويلة لم تزر أمك وأباك وإخوتك فى قرية لا تبعد عنك أكثر من ساعة. تجتهد فى اختيار الكلمات التى تتضمنها رسالتك إلى البوليس هذه المرة. تكتب: «أتمنى أن تأخذوا بعين الاعتبار المشاعر الإنسانية الخالصة التى آمل ألا تروا فيها، هذه المرة، تصادمًا مع حرصكم الشديد على صيانة متطلبات أمن الدولة ومقتضيات الدفاع عن سلامة الجمهور. وأرجو بموافقتكم المنشودة على إصدار تصريح لزيارة أهلى فى العيد، أن تبرهنوا على أن أمن الدولة ليس نقيضًا للحد الأدنى من فهم مشاعر الناس».

يغادر أصدقاؤك المدينة، وتبقى وحدك. تشرب القهوة وحدك وتحزن وحدك. كل العائلات يلتئم شملها غدًا، وليس من حقك أن تقتحم بيت أحد. وتبقى وحدك.

الحل فى البحر. فى الصباح الباكر تذهب إلى الشاطئ وحدك وتطفئ نارك فى الماء الأزرق. تأخذك الموجة ولا تعيدك. عليك أن تعود وحدك. تتمدد على الرمل الساخن فى الشمس والهواء والوحدة. لماذا تبذر الشمس نفسها إلى هذا الحد. ولماذا ينكسر الموج؟ الشمس كثيرة والرمال كثيرة والماء كثير. ويتكلمون حولك بلغة تفهمها فتشتد حزنًا ووحدة واغترابًا، تنتابك رغبة فى وصف البحر لصديقتك، ولكنك وحدك. بمناسبة. وبدون مناسبة يشتمون شعبك ويستمتعون بآثار شعبك. حتى وهم يسبحون وهم يمزحون وهم يتبادلون القبل يشتمون شعبك. أليس بوسع البحر أن يمنحهم لحظة صفاء وحب، فينسونك قليلاً؟

أزمة رجالة

إيهاب عبد السلام
القاهرة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية
٢٠٠٨ ، ١٢٠ صفحة



مظاهر عديدة للأزمة يعددها المؤلف منذ البداية بأسلوب ساخر ويرى أن وجودها دليل مؤكد على وجود أزمة رجالة: المقاهى كاملة العدد من الصبح والصحرا فاضية ومنسوب النيل عال، رئيس مجلس الشعب يدخل الجلسة فيجد عدد الوزراء أكثر من عدد النواب، طوابير النساء على الأفران وفى المصالح الحكومية تكاد تتساوى أو تفوق طوابير الرجال، النساء يبكين ليس بسبب مرض أو موت، الشباب لابس انسيال وسلسلة وكمان بيحط روج، كبار السن والمعاقون يركبون الأتوبيس المليان ولايقوم لهم أحد من الشباب بينما تقوم فتاة ليقعدوا مكانها، عربات المترو المخصصة للسيدات مملوءة عن آخرها، النساء يقفن فى الشوارع يبعن كشرى وترمس وبطاطا وذرة وأحيانا محشى وأى حاجة، عيال الشوارع ماليين الشوارع ويتزايدون باستمرار، الغش فى المدارس عينى عينك وأحيانا جماعى على مرأى ومسمع من هيئة التعليم المحترمة، ضباط الأمن متهمون بالبلطجة وزعزعة الأمن وإرهاب الناس، والمدرسون متهمون بابتزاز التلاميذ وأمناء المخازن غير أمناء على المخازن، لما يبقى الزوج نايم والهانم بتشترى الخضار ودايرة من الفجرية على التجار يبقى فيه أزمة رجالة... إلخ.

بعد أن يعدد أسباب الأزمة يبدأ المؤلف فى التفصيل بالطريقة الساخرة ذاتها كاشفا عن منابع الأزمة فى التعليم والأدب والإعلام والعلم والعلماء والنكت والمجتمع، ويقدم مايسميه كبسولة رجولة من أربعة عشر بندا متنقلا فيها بين أقوال السلف الصالح والمأثور الشعبى والشعراء القدامى، وللخروج من الأزمة يطالب بتدريس مادة الرجولة فى المدارس، وتخصيص جائزة باسم الرجل المثالى على غرار المرأة المثالية.

الصورة والجسد

محمد حسام الدين إسماعيل
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية
٢٠٠٨ ، ٢٥٤ صفحة



يُعنى هذا الكتاب بمسألة العلاقة بين الصورة والجسد وأيديولوجية وسائل الإعلام. فالصورة، كما يرى المؤلف، ما هى إلا تفاعل بين فكر وجسد ووسيط إعلامى، وبالتالى فهو يحلل وينقد هذه الصورة ويعالج كيفية تكونها.

ويحفل الكتاب بأسئلة وإشكاليات مهمة: من أبرزها: هل ثمة علاقة بين «صور» الأجساد النازفة ألماً، على الفضائيات الإخبارية فى فلسطين والعراق، و«صور» الأجساد شبه العارية على الفضائيات الترفيهية؟ ثم مَنْ يملك انتاج هذه الصور؟ ولأىّ هدف؟ ولماذا يزدهر إعلام القنوات الدينية والغيبيات على الشاشات متزامناً مع صعود ثقافة «الصورة» وتداعى ثقافة «الكلمات»؟ ولماذا هجرت «الصورة» واقعنا العربى إلى واقع مغترب عنا؟ وإذا كانت الصورة تصنع الأحلام، والأحلام تحكم السلوكيات، فأى مستقبل ينتظره العلم جملة، وعالمنا العربى خاصة؟

لقد استدعى ذلك كله دراسة تحليلية، موضوعية، ومعالجة انتقادية، جعلت من هذا الكتاب لبنة أساسية فى صرح الدراسات الإعلامية والنقدية.

تصويب خطأ فى عدد أبريل ٢٠٠٨

نأسف لوقوع خطأ فى مقال الدكتور حسين عبدالله «هل ارتفع سعر النفط؟» إذ انعكست أرقام الكسر العشرى لتحل محل الرقم الصحيح والصحيح محل الكسر العشرى. ومن أمثلة ذلك انهيار الأسعار عام ١٩٨٦ إلى ٥.١٣ دولار وصحة الرقم ١٣.٥ دولار. وانخفاض السعر خلال الفترة ١٩٤٧-١٩٦٠ من ٢.١٨ دولار إلى ٨٠.١ دولار وصحته من ١٨.٢ إلى ١.٨٠ دولار. وعرض الشركات رفع السعر إلى ٤٥.٣ دولار وصحته ٣.٤٥ دولار. وتقرر رفع السعر يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٧٣ إلى ٦٥.١١ دولار وصحته ١١.٦٥ دولار وهكذا بالنسبة لجميع الأرقام المكونة من رقم صحيح وكسر عشرى.

المدينة المحرمة.. «الهامة» تثأر لنفسها



«طاردته المدينة المحرمة فى صحوه ومنامه، صارت البدء والمنتهى».

إن إشكالية الوطن هى إحدى الإشكاليات التى يحرص الروائى محمد جبريل على مناقشتها فى إبداعه الروائى والقصصى، نتذكر الشاطئ الآخر، زمان الوصل، صيد العصارى، قلعة الجبل، وغيرها.

الإشكالية هنا تأخذ شكلاً أعمق من مجرد العودة، والحنين للوطن. إنها إشكالية وجودية كونية.

هذه هى النواة السردية الأم التى تدور حولها رواية جبريل «المدينة المحرمة» التى صدرت أخيرا عن دار مجدلاوى فى عمان.

السرد هنا لا يعنى بتحديد ملامح مكانية ولا زمانية. إنها المطلق. الذى يبين عن ملامحه مع التقدم فى قراءة العمل الإبداعى، فتبين الملامح عن ذاتها، وتتحدد الدلالات والحافز وراء هذه الأمنية التى يفصح عنها السارد فى غير موضع واحد.

المدينة المحرمة، تطلق التساؤلات، من قبيل ما هى وأين تقع، لماذا لم يعين الروائى اسم مدينته وما المغزى من ذلك؟ إذا حاولنا الإجابة عن هذه الأسئلة لاحقتنا كلمة «محرمة»، لماذا هى كذلك؟ لذا فالبطل يتمنى الحصول على الكلمة السحرية، الكلمة المفتاح التى تعينه على إنجاز ما ينتظره من مهام وأعمال شاقة، وما سيلقاه من عقبات ومصاعب ومخلوقات شريرة لا يعرفها، ولا التقى بها من قبل.

هكذا تعبِّر الرواية عن كونها رحلة إلى المجهول، إنها رحلة تذكرنا برحلات الأبطال الملحميين فى أساطيرنا.

قال الأب: أنجبتك لتحمل هم العودة؟ هكذا يكون مولد البطل، إنه منذور للعودة للوطن، وأخذ الحق المسلوب.

أجاد الروائى تصوير الرحلة. وهى رحلة نحو المجهول الذى صار معلوماً، رحلة تكتنفها المخاطر والأهوال، المنحدرات الصخرية، البرودة المتصاعدة، الحرارة اللاهبة، الطيور آكلة لحوم البشر التى يربيها السلطان، الجبال الصخرية الوعرة، اختراق الطرق الرملية والترابية، الذئاب والثعالب والأفاعى، صار العالم الموحش الضريبة التى لابد أن يقدمها البطل كى يصل إلى معشوقته «المدينة المحرمة».

لم يعد يخشى الأطياف تتابع قدومها وانصرافها، تحليقها فى سماء الغابة، تقافزها بين الأشجار، جلوسها على ضفاف الجداول والقنوات «هاهى العوالم تتداخل وتتقارب، فالمدينة فى المخيلة والروح تهيم للوصول إليها، وهاهى الأطياف ترحب وتبارك رحلته، يسأل فتجيبه، يستوضح ما قد يكون غامضاً. يستشرف الخطوات التالية.

اتخذت الرحلة أبعاداً جديدة، تعرف الفتى على ما حدث لتلك القبائل الرافضة للسلطان، وعلى هؤلاء الموالين له، إن المعرفة بالتاريخ والتراث هى أول ما أنجزه الفتى فى تلك الرحلة، تعرف إلى السلطان من روايات أبيه له، لكنه أدرك كيف يتعرف هو ذاته على مدينته المحرمة، أدرك أن السلطان تسلح بالقوة والبطش ودعوة القبائل من مختلف الأصقاع، ليستولى على القرى والمدن المجاورة، أعلن للجميع أنه قادر على بسط نفوذه وعدهم بأنهار اللبن والعسل والثمار المختلفة الألوان والأشجار الفينانة، والأطيار الصادحة، والجوارى المغنيات الراقصات.

نحن أمام مدينة متعينة محددة، مدينة نهبها العدو بدعوى وجود تاريخى اعتمد على الأساطير، وأضاف إلى ذلك وجهاً حضارياً وديمقراطياً يفتقده جيرانه من القبائل الأخرى!

«جعل السلطان همه أن تتحول القبيلة من الرعى إلى الزراعة، تذوى صور البداوة وصيد الغزلان والأسماك والطيور وسكنى الخيام» هكذا يغوص الروائى فى التاريخ والأساطير ليلتقط ملامح وسمات هذا العدو المحتل لمدينته المحرمة، إذن هى مدينة محرمة على أهلها الأصليين. إن المزج بين التاريخى والدينى والأسطورى هى الفكرة الأساسية التى يعتمد عليها الفكر الصهيونى لقيام مدينته، وفى الوقت ذاته إغفال الحق التاريخى لصاحب الأرض الموجود والعائش فوق أرضه من مئات السنين أمر يجعلنا نناقش فكرة شرعية المواطنة وفكرة الدفاع عن الوطن السليب، هى فكرة لا تنفصم عن الوجود الإنسانى. عبر ستة عشر فصلاً روائياً يصور جبريل رحلة هذا المناضل الذى لم يفقد إنسانيته، فهو يحب ويتعلق بمن أحبته، تلك الفتاة التى تشكل هى الأخرى وجهاً آخر للدفاع عن البشر، عن وجود عشيرتها وناسها، لكنها تفقد حياتها دفاعاً عما تؤمن به.

هذه الرواية التى تتحدث عما نطلق عليه «نكبة فلسطين» تأتى فى الوقت الذى يحتفل فيه الغرب بذكرى قيام دولة إسرائيل، متغافلاً مأساة شعب شرد من أرضه، لكن إصراره على المقاومة لابد أن يتيح له حق العودة لمن شردوا، وحق المواطنة الحقيقية العربية لمن يكتوون بعسف الاحتلال.

د. زينب العسال

